قصة الحضارة



المجلد الأول

ويل ديورانت

قصة الحضارة

1- نشأة الحضارة

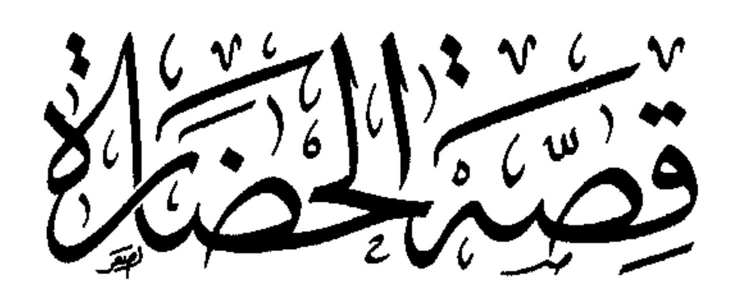
2- الشرق الأدني

3- الهند و جيرانها

4- الشرق الأقصي (الصين)

5- الشرق الأقصي (اليابان)

ويل ديورانت



ول وايريل ديورانت

نشأة الحضارة

تقديم
الدكتور محيي الدين صابر

ترجمة
الدكتور زكي نجيب محمود

الجزء الأول من المجلد الأول





بيروت



تونس

نشأة الحضارة

« أحب أن أعلم الخطوات التي سارها
الإنسان في طريقه من الهمجية إلى المدنية »

ڤولتير(١)

الباب الاول

عوامل الحضارة (*)

تعريف – العوامل الجيولوجية – والجغرافية – والاقتصادية – والجنسية – والنفسية – أسباب انحلال الحضارات

الحضارة نظام اجتماعى يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافى ، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة : الموارد الاقتصادية ، والنظم السياسية ، والتقاليد الخلقية ، ومتابعة العلوم والفنون ؛ وهى تبدأ حيث ينتهى الاضطراب والقلق ، لأنه إذا ما أمِنَ الإنسان من الخوف ، تحررت فى نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء ، وبعدئذ لا تنفكّ الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضىّ فى طريقه إلى فهم الحياة وإزهارها .

والحضارة مشروطة بطائفة من عوامل هى التى تستحث خطاها أو تعوق مسراها ، وأولها العوامل الجيولوجية ، ذلك أن الحضارة مرحلة تتوسط عصرين من جليد ، فتيار الجليد قد يعاود الأرض فى أى وقت فيغمرها من جديد ، بحيث يطمس منشئات الإنسان بركام من ثلوج وأحجار ، ويحصر الحياة فى نطاق ضيق من سطح هـــذه الأرض ؛ وشيطان الزلازل الذى نبنى حواضرنا فى غفوته ، ربما تحرك حركة خفيفة بكتفيه فابتلعنا فى جوفه غير آبه .

وثانيها العوامل الجغرافية ، فحرارة الأقطار الاستوائية وما يجتاح تلك الأقطار من طفيليات لا تقع تحت الحصر ، لا تهيئ للمدنية أسبابها ، فما يسود تلك الأقطار من خمول وأمراض ، وما تُعرف به من نضوج مبكّر وانحلال

(*) سيجد القارئ فى نهاية هذا الكتاب بياناً بالمراجع التى تشير إليها الأرقام التى يصادفها أثناء القراءة فى أعالى الكلمات .

وسنستخدم فى هذا الكتاب كلمتى « مدنية » و « حضارة » بمعنى واحد . (المعرب)

مبكّر ، من شأنه أن يصرف الجهود عن كماليات الحياة التى هى قوام المدنية ، ويستنفدها جميعاً فى إشباع الجوع وعملية التناسل ، بحيث لا تَذَرُ للإنسان شيئاً من الجهد ينفقه فى ميدان الفنون وجمال التفكير ؛ والمطر كذلك عامل ضرورى إذ الماء وسيلة الحياة ، بل قد يكون أهم للحياة من ضوء الشمس ، ولما كانت السماء متقلبة الأهواء لغير سبب مفهوم فقد بالجفاف على أقطار ازدهرت يوماً بالسلطان والعمران ، مثل لينوى وبابل ؛ أو قد تسرع الخطى نحو القوة والثراء ، بمدائن هى — فيما يبدو للعين — بعيدة عن الطريق الرئيسىّ للنقل والاتصال ، مثل المدن فى بريطانيا العظمى أو خليج بيوچيت(*) Puget Sound وإذا كانت تربة الإقليم تجود بالطعام أو المعادن ، وإذا كانت أنهاره تهيئ له طريقاً هينة للتبادل مع غيره ، وإذا كان شاطئه مليئاً بالمواضع التى تصلح مرافئ طبيعية لأسطوله التجارى ، ثم إذا كانت الأمة فوق هذا كله تقع على الطريق الرئيسية للتجارة العالمية ، كما كانت حال أثينا وقرطاجنة وفلورنسة والبندقية — إذن فالعوامل الجغرافية على الرغم من أنها يستحيل أن تخلق المدنية خلقا ، إلا أنها تستطيع أن تبتسم فى وجهها ، وتهيئ سبيل ازدهارها .

والعوامل الاقتصادية أهم من ذلك ، فقد يكون لشعب مؤسسات اجتماعية منظمة ، وتشريع خلقى رفيع ، بل قد تزدهر فيه صغريات الفنون ، كما هى الحال مع الهنود الأمريكيين ، ومع ذلك فإنه إن ظلّ فى مرحلة الصَّيْد البدائية ، واعتمد فى وجوده على ما عسى أن يصادفه من قنائص ، فإنه يستحيل أن يتحول من الهمجية إلى المدنية تحولا تاماً ؛ قد تكون قبيلة البدو — كبدو بلاد العرب — على درجة نادرة من الفتوة والذكاء ، وقد تبدى من ألوان الخُلق أسماها كالشجاعة والكرم والشمم ، لكن ذكاءها بغير الحد الأدنى من الثقافة الذى لابد منه ، وبغير اطّراد موارد القوت ، ستنفقه فى مخاطر الصيد ومقتضيات

(*) خليج غربى الويالات المتحدة . (المعرب)

التجارة ، بحيث لا يبقى لها منه شيء لوشى المدنية وهُدَّابها ولطائفها وملحقاتها وفنونها وترفها ؛ وأول صورة تتبدّت فيها الثقافة هى الزراعة ، إذ الإنسان لا يجد لتمدنه فراغاً ومبرراً إلا إذا استقر فى مكان يفلح تربته ويخزن فيه الزاد ليوم قد لا يجد فيه مورداً لطعامه ؛ فى هذه الدائرة الضيقة من الطمأنينة — وأعنى بها مورداً محققاً من ماء وطعام — ترى الإنسان يبنى لنفسه الدُّور والمعابد والمدارس ، ويخترع الآلات التى تعينه على الإنتاج ويستأنس الكلب والحمار والخنزير ، ثم يسيطر على نفسه آخر الأمر ، فيتعلم كيف يعمل فى نظام واطّراد ، ويحتفظ بحياته أمداً أطول ويزداد قدرة على نقل تراث الإنسانية من علم وأخلاق نقلا أميناً .

إن الثقافة لترتبط بالزراعة(*) كما ترتبط المَدَنيَّة بالمَدينَة ؛ إن المدنيّة فى وجه من وجوهها هى رقة المعاملة(**) ، ورقة المعاملة هى ذلك الضرب من السلوك المهذب الذى هو فى رأى أهل المدن — وهم الذين صاغوا كلمة المدنية — من خصائص المدينة وحدها(†) ، ذلك لأنه تتجمع فى المدينة — حقا أو باطلا — ما ينتجه الريف من ثراء ومن نوابغ العقول ؛ وكذلك يعمل الاختراع وتعمل الصناعة على مضاعفة وسائل الراحة والترف والفراغ ؛ وفى المدينة يتلاقى التجار حيث يتبادلون السلع والأفكار ؛ وها هنا حيث تتلاقى طرق التجارة فتتلاقح العقول ، يُرْهف الذكاء وتُستثار فيه قوته على الخَلْق والإبداع ، وكذلك فى المدينة يُستغنَى عن فئة من الناس فلا يُطلب إليهم صناعة الأشياء المادية ، فتراهم يتوفرون على إنتاج العلم والفلسفة والأدب والفن ؛ نعم إن المدنية تبدأ فى كوخ الفلاح ، لكنها لا تزدهر إلا فى المدن .

(*) يشير المؤلف هنا إلى الارتباط اللفظى بين الكلمتين فى الإنجليزية وهما Agriculture & Culture

(**) هنا كذلك بيان لعلاقة لفظية بين كلمتى Civilisation ومعناها مدنية ، وكلمة Civility ، ومعناها رقة المعاملة . (المعرب)

(†) كلمة مدنية حديثة الاستعمال نسبيا ، فعلى الرغم مما اقترحه « بوزول » على « جونسن » لإدخالها فى قاموسه سنة ١٧٧٢ ، فقد رفض « جونسن » أن يدخلها ، وآثر عليها الكلمة التى معناها « رقة المعاملة » Civility .

وليست تتوقف المدنية على جنس دون جنس ، فقد تظهر فى هذه القارة أو تلك ، وقد تنشأ عن هذا اللون من البشرة أو ذاك ؛ قد تنهض مدنيّة فى پكين أو دلهى ، فى ممفيس أو بابل ، فى راڤنا(†) أو لندن ، فى پيرو أو يوقطان . فليس هو الجنس العظيم الذى يصنع المدنيّة بل المدنية العظيمة هى التى تخلق الشعب ، لأن الظروف الجغرافية والاقتصادية تخلق ثقافته ، والثقافة تخلق النمط الذى يصاغ عليه . ليست المدنيّة البريطانية وليدة الرجل الإنجليزى ولكنه هو صنيعتها ، فإذا ما رأيته يحملها معه أينما ذهب ويرتدى حُلّة العشاء وهو فى « تمبكتو » ؛ فليس معنى ذلك أنه يخلق مدنيته هناك خلقاً جديداً ، بل معناه أنه يبيّن حتى فى الأصقاع النائية مدى سلطانها على نفسه . فلو تهيأت لجنس بشرى آخر نفس الظروف المادية ، ألفيت النتائج نفسها تتولد عنها ، وها هى ذى اليابان فى القرن العشرين تعيد تاريخ إنجلترا فى القرن التاسع عشر ، وإذنْ فالمدنية لا ترتبط بالجنس إلا بمعنى واحد ، وهو أنها تجىء عادة بعد مرحلة يتم فيها التزاوج البطىء بين شتى العناصر ، ذلك التزاوج الذى ينتهى تدريجياً إلى تكوين شعب متجانس نسبيا(*) .

وما هذه العوامل المادية والبيولوجية إلا شروط لازمة لنشأة المدنية ، لكن تلك العوامل نفسها لا تكوّن مدنيّة ولا تنشئها من عدم ، إذ لابد أن يضاف إليها العوامل النفسية الدقيقة ، فلا بد أن يسود الناسَ نظامٌ سياسى مهما يبلغ ذلك النظام من الضعف حداً يدنو به من الفوضى ، كما كانت الحال فى فلورنسة وروما أيام النهضة . ثم لا بد للناس أن يشعروا شيئاً فشيئاً أنه لا حاجة بهم إلى توقع الموت أو الضريبة عند كل منعطف فى طريق حياتهم ، ولا مندوحة كذلك

(†) مدينة على الساحل فى الشمال الشرقى من إيطاليا . (المعرب)

(*) قد يؤثر الدم — لا الجنس — فى المدنية بمعنى أن الأمة قد يعوقها أو يدفعها إلى الأمام كونها تنشأ عن عناصر من الناس أدنى أو أعلى من سواها ، وإنما تكون تلك العناصر أدنى أو أعلى من الوجهة البيولوجية (لا الجنسية) .

عن وحدة لغوية إلى حد ما لتكون بين الناس وسيلة لتبادل الأفكار . ثم لا مندوحة أيضاً عن قانون خلقى يربط بينهم عن طريق الكنيسة أو الأسرة أو المدرسة أو غيرها ، حتى تكون هناك فى لعبة الحياة قاعدة يرعاها اللاعبون ويعترف بها حتى الخارجون عليها ، وبهذا يطّرد سلوك الناس بعض الشيء وينتظم ، ويتخذ له هدفاً وحافزاً . وربما كان من الضرورى كذلك أن يكون بين الناس بعض الاتفاق فى العقائد الرئيسية وبعض الإيمان بما هو كائن وراء الطبيعة أو بما هو بمثابة المثل الأعلى المنشود ، لأن ذلك يرفع الأخلاق من مرحلة توازن فيها بين نفع العمل وضرره إلى مرحلة الإخلاص للعمل ذاته ، وهو كذلك يجعل حياتنا أشرف وأخصب على الرغم من قصر أمدها قبل أن يخطفها الموت . وأخيراً لابد من تربية — وأعنى بها وسيلة تُتَّخذ — مهما تكن بدائية — لكى تنتقل الثقافة على مرّ الأجيال ، فلابد أن نورّث الناشئة تراث القبيلة وروحها ، فنورّثهم نفعها ومعارفها وأخلاقها وتقاليدها وعلومها وفنونها ، سواء كان ذلك التوريث عن طريق التقليد أو التعليم أو التلقين ، وسواء فى ذلك أن يكون المربّى هو الأب أو الأم أو المعلّم أو القسّيس ، لأن هذا التراث إن هو إلا الأداة الأساسية التى تحوّل هؤلاء النشء من مرحلة الحيوان إلى طور الإنسان .

ولو انعدمت هذه العوامل — بل ربما لو انعدم واحد منها — لجاز للمدنية أن يتقوّض أساسها . فانقلابٌ جيولوجى خطير ، أو تغيُّرٌ مناخىٌ شديد ، أو وباء يفلت من الناس زمامه كالوباء الذى قضى على نصف سكان الإمبراطورية الرومانية فى عهد « الأناطنة » (جمع أنطونى) ، و « الموت الأسود »(*) الذى جاء عاملا على زوال العهد الإقطاعى ، أو زوال الخصوبة من الأرض ، أو فساد الزراعة بسبب طغيان الحواضر على الريف ، بحيث ينتهى الأمر إلى اعتماد الناس فى أقواتهم على ما يرد إليهم متقطعاً من بلاد

(*) وباء تفشى فى أوروبا فى القرن الرابع عشر . (المعرب)

أخرى ، أو استنفاد الموارد الطبيعية فى الوقود أو المواد الخامة ، أو تغيُّرٌ فى طرق التجارة تغيراً يُبْعِد أمة من الأمم عن الطريق الرئيسية لتجارة العالم ، أو انحلالٌ عقلى أو خلقى ينشأ عن الحياة فى الحواضر بما فيها من منهكات ومثيرات واتصالات ، أو ينشأ عن تهدم القواعد التقليدية التى كان النظام الاجتماعى يقوم على أساسها ثم العجز عن إحلال غيرها مكانها أو انهيارُ قوة الأصلاب بسبب اضطراب الحياة الجنسية أو بسبب ما يسود الناسَ من فلسفة أبيقورية متشائمة أو فلسفة تحفزهم على ازدراء الكفاح ، أو ضعفُ الزعامة بسبب عقم يصيب الأكفاء وبسبب القلة النسبية فى أفراد الأسرات التى كان فى مقدورها أن تورِّث الخَلْفَ تراث الجماعة الفكرى كاملا غير منقوص ، أو تركزٌ للثروة تركزاً محزناً ينتهى بالناس إلى حرب الطبقات والثورات الهدامة والإفلاس المالى . هذه هى بعض الوسائل التى قد تؤدى إلى فناء المدنيَّة ، إذ المدنية ليست شيئاً مجبولا فى فطرة الإنسان ، كلا ولا هى شىء يستعصى على الفناء ؛ إنما هى شىء لا بد أن يكتسبه كل جيل من الأجيال اكتساباً جديداً ، فإذا ما حدث اضطراب خطير فى عواملها الاقتصادية أو فى طرائق انتقالها من جيل إلى جيل فقد يكون عاملا على فنائها . إن الإنسان ليختلف عن الحيوان فى شىء واحد ، وهو التربية ، ونقصد بها الوسيلة التى تنتقل بها المدنية من جيل إلى جيل :

والمدنيات المختلفة هى بمثابة الأجيال للنفس الإنسانية ، فكما ترتبط الأجيال المتعاقبة بعضها ببعض بفضل قيام الأسرة بتربية أبنائها ثم بفضل الكتابة التى تنقل تراث الآباء للأبناء ، فكذلك الطباعة والتجارة وغيرهما من ألوف الوسائل التى تربط الصلات بين الناس ، قد تعمل على ربط الأواصر بين المدنيات وبذلك تصون للثقافات المقبلة كل ماله قيمة من عناصر مدنيتنا ، فلنجمع تراثنا قبـــل أن يلحق بنا الموت ، لنُسَلِّمَهُ إلى أبنائنا .

الباب الثانى

العناصر الاقتصادية فى الحضارة (*)

« الهمجى » هو أيضاً متمدن بمعنى هام من معانى المدنية ، لأنه يُعنى بنقل تراث القبيلة إلى أبنائه – وما تراث القبيلة إلا مجموعة الأنظمة والعادات الاقتصادية والسياسية والعقلية والخلقية ، التى هذبتها أثناء جهادها فى سبيل الاحتفاظ بحياتها على هذه الأرض والاستمتاع بتلك الحياة ، ومن المستحيل فى هذا الصدد أن نلتزم حدود العلم ، لأننا حين نطلق على غيرنا من الناس اسم « الهمج » أو « المتوحشين » فقد لا نعبر بمثل هذه الألفاظ عن حقيقة موضوعية قائمة ، بل نعبر بها عن حبنا العارم لأنفسنا لا أكثر ؛ وعن انقباض نفوسنا وانكماشها إذا ما ألقينا أنفسنا إزاء ضروب من السلوك تختلف عما ألفناه ؛ فلا شك أننا نبخس من قيمة هاتيك الشعوب الساذجة التى تستطيع أن تعلّمنا كثيراً جداً من الجود وحسن الخلق ؛ فلو أننا أحصينا أسس المدنيّة ومقوماتها لوجدنا أن الأمم العُريانة قد أنشأتها أو أدركتها جميعاً إلا شيئاً واحداً ، ولم تترك لنا شيئاً نضيفه سوى تهذيب تلك الأسس والمقومات لو استثنينا فن الكتابة ، ومن يدرى فلعلهم كذلك كانوا يوماً متحضرين ثم نفضوا عن أنفسهم تلك الحضارة لما لمسوه فيها من شقاء للنفس ؛ وعلى ذلك فينبغى أن نكون على حذر حين

(*) على الرغم من الاتجاه الحديث الذى يخالف رأينا مخالفة شديدة(1) فسنستخدم كلمة « مدنية » أو « حضارة » فى هذا الكتاب لتدل على النظام الاجتماعى والتشريع الخلقى والنشاط الثقافى ؛ وسنستخدم كلمة « ثقافة » لتدل إما على ما يمارسه الناس فعلا من ألوان السلوك وأنواع الفنون وإما على مجموع ما لدى الشعب من أنظمة اجتماعية وعادات وفنون ، وسيدل السياق على أى المعنيين هو المقصود ؛ فإذا ما كانت الإشارة فى الحديث إلى المجتمعات البدائية أو جماعات ما قبل التاريخ فإن المعنى لكلمة « ثقافة » هو المقصود .

تستعمل ألفاظا مثل « همجى » و « متوحش » فى إشارتنا إلى « أسلافنا الذين يعاصروننا اليوم » ؛ ولقد آثرنا أن نستعمل كلمة « بدائى » لندل على كل القبائل التى لا تتخذ الحيطة ، أو لا تكاد تتخذها ، بحيث تدّخر القوت للأيام العجاف ، والتى لا تستخدم الكتابة أو لا تكاد تستخدمها ؛ وفى مقابل ذلك ، سنطلق لفظ التمدن على الأقوام التى فى وسعها أنْ تكتب ، وأن تدّخر فى أيام يسرها لأيام عسرها .

الفصل الأول

من الصيد إلى الحرث

ما للشعوب البدائية من قصر النظر – بداية الحيلة – الصيد والسماكة – الرعى – استئناس الحيوان – الزراعة – القوت – الطهى – أكل اللحوم البشرية

« إن نظام الوجبات الثلاث فى كل يوم نظام اجتماعى غاية فى الرق ، أما الأقوام الهمجية فهى إما أن تتخم نفسها دفعة واحدة أو تمسك عن الطعام »(٢) وإنك لترى أكثر القبائل توحشاً بين الهنود الأمريكيين يحكمون على من يدخر طعاماً لغده بضعف المراس وانعدام الذوق(٣) ، وكذلك ترى أهل استراليا الأصليين لايستطيعون العمل كائنا ما كان ما دام جزاء العمل لايجيئهم فور أدائه ؛ وكل فرد من قبائل « الهوتنتوت » Hettentot هو بمثابة السيد الذى يعيش عيش الفراغ ، والحياة عند قبيلة « البوشمن » Bushmen فى أفريقيا « إما وليمة وإما مجاعة »(٤). وإن فى قصر النظر هذا لحكمة صامتة ، كما هى الحال فى كثير من أساليب الحياة عند « الهمج » ، ذلك أن الإنسان إذا ما بدأ يفكر فى غده فقد خرج بذلك من جنة عدن إلى وادى الهموم ، وحلّت به صُفْرة الغمّ ، وهاهنا يشتد فيه الجشع ، ونبدأ المِلْكية ، ويزول عنه البِشْر المتهلل الذى يعرفه الإنسان الأول « الخلىّ من كل تفكير » ؛ إن الزنجى الأمريكى يمثل اليوم هذه المرحلة من مراحل الانتقال ، فقد سأل « پيرى » أحد أدلاّئه من الإسكيمو قائلا « فيم تفكر ؟ » فكان جوابه : « ليس لدىّ ما يدعو إلى التفكير لأن لدىّ مقداراً كافيا من اللحم » فكون الإنسان لايفكر إلا إذا اضطر إلى ذلك ، قد يكون جِمَّاع الحكمة ، وقد يكون لهذا الرأى سند قوىّ يدعمه .

ومع ذلك فتلك الحياة التى خلت من الهموم ، كانت لها صعابها ؛ والأحياء

التى استطاعت أن تجتاز تلك المرحلة فى تطورها ، استفادت بذلك ميزة كبرى تساعدها فى تنازع البقاء ؛ فالكلب الذى اختزن تحت الثرى عظمة فاضت عن شهيته ، وإنها لشهية الكلاب ، والسنجاب الذى ادّخر البندق لوجبة أخرى فى يوم مقبل ، والنحل الذى ملأ خليته بالعسل ، والنمل الذى خزن زاده أكداساً اتقاء يوم مطير — هذه جميعاً كانت أول منشئ للمدنية ، فقد كانت هى وأضرابها من المخلوقات الراقية أول من علّم أجدادنا فن ادخار ما نستغنى عنه اليوم إلى الغد . أو اتخاذ الأهبة للشتاء فى أيام الصيف الخصيبة بخيراتها .

فيالها من مهارة تلك التى استخرج بها أولئك الأجداد من البر والبحر طعاما كان بمثابة الأساس لمجتمعاتهم الساذجة ! لقد كانوا ينتزعون بأيديهم المجردة انتزاعا ما يستطيعون أكله مما يبديه سطح الأرض من أشياء ، وكنت تراهم يقلدون أو يستخدمون مخالب الحيوان وأنيابه ، ويصنعون لأنفسهم آلات من العاج والعظم والصخر ، وينسجون الشبّاك والمصائد والفخاخ من خيوط الحلفاء والليف ، ويصطنعون من الوسائل عدداً لا يحصى لاصطياد فريستهم من يابس أو ماء ؛ لقد كان لأهل پولينزيا شباكٌ طولها ألف ذراع لا يستطيع استخدامها إلا مائة رجل مجتمعين ، وبمثل هذا تطورت وسائل ادخار القوت جنبا إلى جنب مع النظم السياسية ، وكان اتحاد الناس فى تحصيلهم للقوت مما أعان على قيام الدولة ، انظر إلى السمّاك من قبيلة « ثِلِنْجِتْ » Thlingit إذ كان يضع على رأسه غطاء يشبه رأس عجل البحر ، ثم يخفى نفسه بين الصخور ويصرخ بمثل صوت ذلك الضرب من الحيتان ، فتأتيه عجول البحر ، فيطعنها بسنان رمحه ، لا يجد فى ذلك ما يؤنبه عليه ضميره ، لأنه يتم على أوضاع يرضاها القتال فى صورته البدائية ، وكان من عادة كثير من القبائل أن يُلقى سمّاكوها مادة مخدرة فى مجرى الماء ليهون عليهم استجلاب السمك بعد تخديره ؛ فأهل تاهيتى — مثلا — كانوا يلقون فى الماء سائلا مسكرا يصنعونه من صنف معين من البندق أو ضرب معروف

لديهم من النبات ، فتسكر الأسماك وتطفو على السطح مخمورة لا تحذر الخطر ، فيمسك منها السَّمَّاك ما أراد ؛ والاستراليون الوطنيون يسبحون تحت سطح الماء ، ويتنفسون خلال قصبات من الغاب ، فيتاح لهم أن يجذبوا البطَّ السابح من سوقه إلى جوف الماء ، ويظلون ممسكين به هناك في رفق حتى تسكن فيه حركة الحياة ؛ وأبناء قبيلة « تاراهيومارا » كانوا يمسكون الطير بأن يلقوا لباب البندق على ألياف قوية ويربطوه بتلك الألياف التي يغرسونها إلى نصفها في التراب ، فيقتات الطير من اللباب ، ثم يقتات « التاراهيوماريون » من الطير(٥) .

إن الصيد عند كثرتنا الغالبة اليوم ضرب من اللهو ، نستمد فيه اللذة — فيما أظن — من بعض الذكريات الغامضة الراسخة في دمائنا والتي تعيد لنا تلك الأيام القديمة حيث كان الصيد عند الصائد والمصيد كليهما أمراً تتعلق به الحياة أو الموت ، ذلك لأن الصيد لم يكن سبيلا إلى طلب القوت وكفى ، بل كان كذلك حرباً يراد بها الطمأنينة والسيادة ، حرباً لو قَرَنْتَ إليها كل ما عرفه التاريخ المدوَّن من حروب ، ألفيت هذه الحروب بالقياس إليها بمثابة اللغَط اليسير . وما يزال الإنسان في الغابة يقاتل في سبيل الحياة ، لأنه على الرغم من أن الحيوان هناك لا يكاد يهاجمه مختاراً إلا إذا اضطره إلى ذلك الجوع الشديد أو الخوف من الوقوع فريسة لا يجد لنفسه مهرباً يلوذ به ، فليس في الغابة قوت يكفي الجميع ، وأحياناً لا يظفر بطعامه إلا المقاتل أو الذي يستخدم لنفسه حيواناً مقاتلا ، وها هي ذي متاحفنا تعرض أمام أبصارنا بقايا تلك الحرب التي نشبت بين الإنسان وسائر الأنواع الحيوانية ، إذ تعرض أمامنا المُدَى والهراوات والرماح والقسيّ وحبال الصيد والأفخاخ والمصائد والسهام والمقاليع التي استطاع بها الإنسان الأول أن يفرض سيادته على الأرض ، ويمهد السبيل أمام خَلَفٍ لا يعترف بالجميل ، ليحيا حياة آمنة من كل حيوان إلا الإنسان . وحتى في يومنا هذا ، بعد كل ما نشب من حروب تستبعد العاجز عن الحياة لتبقي على القادر ، انظر كم من صنوف

الكائنات الحية ما يزال على وجه الأرض يسعى ! لقد يحدث أحياناً إذا مامشى الإنسان خلال الغابة متريضاً ، أن تأخذه الدهشة العميقة لكثرة ما سمع هنالك من لغات ، ولكثرة ما يرى من أنواع الحشرات والزواحف وآكلة اللحوم والطير . إن الإنسان ليحس عندئذ أنه متطفل قد أقحم نفسه إقحاماً على هذا المشهد بما فيه من زحمة الأحياء ، وأنه مخوف يخشاه الحيوان جميعاً ويمقته الحيوان جميعاً مقتاً لا ينتهي . ومن يدرى فلعل يوماً يُقبل على الدنيا فإذا هذه الصنوف من ذوات الأربع في دمدمة أصواتها ، وهذه الحشرات التي كأنما هي اليوم تستدر عليها عطف الإنسان ، وهذه الجراثيم الضئيلة التي تنوّه بما عساها أن تصنعه ، لعل يوماً يقبل على الدنيا فإذا هذه الصنوف جميعاً تلتهم الإنسان التهاماً بكل ما صنعتْهُ يداه وأنشأتْ ، فتنقذ الكوكب الأرضى من هذا الحيوان ذى الساقين الذى لا يفتأ يجول ناهباً سالباً ، وهذه الأسلحة العجيبة المصطنعة ، وهذه الأقدام التي تجوس في غير حذر !

لم يكن الصَّيْدُ والسماكة مرحلتين من مراحل التطور الاقتصادى ، بل كانا وجهين من أوجه النشاط التي كتب لها أن تظل باقية في أعلى صور المجتمع المتحضر . لقد كانا ذات يوم مركز الحياة ، وهما الآن بمثابة أساسَيْها الخبيئين ، إذ يكمن وراء أولئك الصيادين الأشدّاء كل ما لنا من أدب وفلسفة وفن وشعائر عبادة ، فكأنما نؤدّى اليوم صَيْدنا بوساطة غيرنا نُنيبُه عنا ، إذ تعوزنا جرأة القلب التي نقتل بها طرائدنا علَناً في الفضاء المكشوف ؛ لكن ذكريات الصيد القديم ما تزال تعاودنا حينما نغتبط بمطاردتنا للضعيف أو للذى يلوذ منا بالفرار ، بل إنها تعاودنا في ألعاب أطفالنا — حتى الكلمة التي نطلقها اليوم على اللعب هي نفسها التي تدل على الصيد(*) وإذن فآخر ما نصل إليه في تحليل المدنية هو أنها قائمة على تهيئة الإنسان لطعامه فإن رأيت فخامة الفن في الكاتدرائية

(*) لفظة Game بالإنجليزية تعنى الصيد وتعنى الملاعب أيضاً . (المعرب)

أو مبنى الكابيتول ، وإن شهدت متحفاً للفن أو حفلة موسيقية ، وإن صادفت مكتبة أو جامعة ، فاعلم أن هذه كلها واجهة البناء التي تخفي وراءها أشلاء القتال .

ولم يكن الإنسان مبتكراً حين اصطنع الصيد وسيلة لعيشه ، ولو حصر الإنسان جهده في نطاق الصيد لما كان أكثر من حيوان آكل للحم يضاف إلى قائمة أكلة الحيوان ، وإنما بدأت إنسانيته حين تطورت حياته من مرحلة الصيد التي يسودها القلق ، إلى مرحلة أكثر اطمئناناً وأوثق اتصالا واطّراداً ، وأعني بها حياة الرعي ، التي اقتضت ميزات عظيمة الخطر ، إذ اقتضت استئناس الحيوان وتربية الماشية واستعمال اللبن . إننا لا نعرف كيف بدأ استئناس الحيوان ولا متى بدأ — فربما كان ذلك حين أبقى الصائدون على صغار الحيوان القتيل في حلبة الصيد ، حين لم يروا لهاتيك الصغار حَوْلاً ولا قوّة ، فساقوها إلى مقرّ سكناهم ليتخذها أطفالهم لُعباً يلهون بها[٦] ، ولقد لبث الإنسان يأكل الحيوان الذي يمسك به على هذا النحو ، ولكن بعد إمهاله فترة من الزمن ، وأخذ يستخدمه أداة للنقل لكنه مع ذلك كاد أن يسلكه في مجتمعه الإنساني كأنما هو منهم ، فهو زميل ، وهو شريك في العمل والإقامة ؛ ثم تلا ذلك أن أدرك الإنسان معجزة التناسل بين صنوف حيوانه ، فأخضعها لإشرافه ، استطاع بعدئذ من ذكر وأنثى يمسك بهما أن ينشئ لنفسه قطيعاً كاملا ، كذلك خفّف عن النساء حمل الرضاعة فترة طويلة ، بأن استعملن لأطفالهن ابن الحيوان بعد سن معيّنة ، وبهذا قلّت نسبة الوفيات في الأطفال وظفر الإنسان بمورد جديد مضمون من موارد الطعام ؛ أدى ذلك كله إلى تكاثر الناس وازدادت الحياة ثباتاً واطّراداً ، وأصبحت سيادة هذا الكائن المحْدَث الوجِل ، أعني الإنسان ، أصبحت سيادته على الأرض أكثر اطمئناناً .

وكانت المرأة أثناء ذلك في طريقها إلى أكبر كشف اقتصادي بين تلك الكشوف جميعاً ، وهو معرفة ما يمكن لتربة الأرض أن تخرجه من طيبات ؛ فبينا

كان الرجل فى صيده كانت هى تنكث الأرض حول الخيمة أو الكوخ لتلتقط كل ما عساها أن تصادفه فوق الأرض من مأكول ؛ فنى استراليا كان العرف القائم هو أنه إذا ما غاب الزوج فى رحلات صيده ، أخذت الزوجة تحفر الأرض بحثاً عن جذور تؤكل ، وتقطف الثمار والبندق من الشجر ، وتجمع العسل والفُطْر والحبّ والغلال التى تنبتها الطبيعة(٧) ؛ ولا تزال بعض القبائل فى استراليا حتى يومنا هذا تحصد الغلال التى تنبت بالطبيعة دون أن تحاول دَرْسَ الحبوب وبذرها ؛ ولبث هنود وادى نهر ساكرامنتو عند هذه المرحلة لا يجاوزونها أبداً(٨) وهكذا لن يتاح لنا إلى آخر الدهر أن نعلم متى أدرك الإنسان لأول مرة وظيفة الحبوب بحيث يتحول من جمعها إلى بَذْرها فى الأرض ، فهذه البدايات هى أسرار التاريخ التى سنظل نضرب حولها بمجرد الإيمان والحَدْس ، لكننا يستحيل أن نعلم عنها علم اليقين ، فيجوز أنه حين أخذ الإنسان فى جمع الحبوب النابتة بطبيعتها ، كانت تسـقط منها حَبّات وهو فى طريقه من مكان النبات إلى حيث يقيم فنبَّهته أخيراً إلى السر العظيم الكامن فى نمو النبات ، فألقى الناسُ من قبيلة « جوانج » البذور فى الأرض وتركوها تشق لنفسها طريقها إلى الفضاء ، وأما أهالى « بورنيو » فكانوا يضعون الحبّ فى حفرات يحفرونها بعصاة مدببة إذ هم سائرون عَبْرَ الحقول(٩) ، فكانت هذه العصاة أو « الحافرة » أبسط ما عرفه الإنسان من أدوات زراعة الأرض ، وقد كان الرحّالة فى مدغشقر منذ خمسين عاماً يرون النساء وقد امتشقن هذه العصىّ المدببة ، ووقفن فى صف كأنهن الجنود ، ثم تصدر لهن إشارة البدء فيأخذن فى حفر الأرض بعصيّهن ، وقَلْب التربة ووضع البذور ثم تسوية التربة بأقدامهن من جديد ، وبعدئذ يمضين إلى خطٍّ آخر من خطوط الحقل(١٠) ، والمرحلة التى تلت ذلك فى تقدم الفلاحة وأدواتها مرحلة استُعملت فيها الفأس فى الحرث ، وذلك بأن ركّب الإنسان عظمة فى طرف العصاة الحافرة ، وربط فيها قطعة أخرى مستعرضة لتكون صالحة

لضغطها بالقدم ، فلما وصل « كونكيوستادورس » إلى المكسيك وجد الأزانقة لا يعرفون غير الفأس أداة لحرث الأرض حتى إذا ما استؤنس الحيوان وطُرقت المعادن أمكن استعمال أدوات أثقل ، فكبرت الفأس حتى أصبحت محراثاً يضرب فى الأرض أعمق مما كانت تضرب الفأس ، فانكشفت بذلك خصوبة الأرض الدفينة ، بحيث تغيرت سيرة الإنسان تغيراً كاملا ، فزرع أنواعاً من النبات كانت تستعصى عليه من قبل ، واستنبت أنواعاً أخرى ، وأصلح الأنواع التى كان يزرعها قبل ذلك .

وأخيراً تعلم الإنسان عن الطبيعة فن التحوط للمستقبل ، وفضيلة التبصر فى العواقب(*) كما تعلم فكرة الزمن ؛ فلما لاحظ الإنسان الطيور النقّارة تخزن البندق فى الشجر ولاحظ النحل تخزن العسل فى الخلايا ، أدرك — وربما جاء إدراكه هذا بعد ألوف من سنين قضاها فى همجية لا تعرف للحيطة معنى — أدرك فكرة اختزان الطعام للمستقبل ، وكشف عن بعض السبل التى تمكنه من حفظ اللحم ، بتدخينها وبتمليحها وبتبريدها ؛ وخير من ذلك فى سبيل التقدم ما بناه لنفسه من أهراء للغلال تحفظها من المطر والرطوبة والحشرات واللصوص ، فكان يحتفظ فى تلك الأهراء بطعام يأكله فى أشهر السنة العجاف ؛ وهكذا تبين على مر الأيام أن الزراعة يمكن أن تكون مورداً للقوت أجود نوعا وأثبت اطّراداً من الصيد ، فلما أن تحقق الإنسان من هذا ، خطا إلى الأمام إحدى الخطوات الثلاث التى نقلته من الحيوانية إلى المدنيّة — وتلك الخطوات هى الكلام والزراعة والكتابة .

ولا يجوز لك أن تتصور الإنسان وقد قفز من الصيد إلى حرث الأرض بوثبة واحدة ، فكثير من القبائل — مثل الهنود الأمريكيين — جملوا فى مرحلة

(*) تلاحظ العلاقة اللغوية بين الألفاظ الثلاثة التى معناها على التعاقب « حيطة المستقبل » و « تدبير » و « تبصر » وهى بالإنجليزية Prudence و Providence و Provision

الانتقال لا يتحولون عنها ، فلبث الصيد مهنة الرجال والحرث مهنة النساء ؛ لا بل لا يكفي أن تقول عن هذا التحول إنه تم بخطوات متدرجة ، إنما ينبغي أن تضيف إلى ذلك أنه لم يكمل حتى تمامه ، ولك أن تقول إن الإنسان بحرثه للأرض إنما أضاف طريقة جديدة لاختزان الطعام إلى جانب الطريقة القديمة ، ثم ظل طوال عصور التاريخ يغلب عليه أن يؤثر لنفسه طعام المرحلة الأولى على طعام المرحلة الثانية ، ويمكننا أن نصوّر لأنفسنا الإنسان الأول إذ هو يُجرى التجارب على ألوف الأصناف التي تخرجها له الأرض من جوفها ، حتى لقد عانى في سبيل ذلك ما عانى من ضيق ألمّ بجوفه ، لعله واجد أى صنف من هاتيك المنتجات يمكن أكله بحيث يكون مأمون العواقب ، ثم أخذ يجرى التجارب تلو التجارب في مزج هذه الصنوف بالفاكهة والتمر وباللحم والسمك اللذين اعتادهما من قبل ؛ لكنه خلال تلك التجارب كلها لم ينفك مشوقا لأكل غنائم الصيد ؛ وإنك لترى الشعوب البدائية محبة للحم في طعامها إلى حد الافتراس ، حتى وإن كانت طعامهم الرئيسى في الواقع هو الغلال والخُضَر واللبن(١١) فإذا ما صادفهم حيوان ميّت لم يَطُلْ أمد موته ، فالأرجح أن يهجموا عليه في نهم فظيع ، وكثيرا ما يستغنون في ذلك عن عملية الطهى حتى لا يضيعوا من وقتهم شيئاً ، فيأكلوا فريستهم نيئة ، مسرعين في ذلك ما أسعفتهم أسنانهم القوية في تمزيقها والتهامها ، وسرعان ما تنظر فإذا الباقى أمامهم كومة من عظام ؛ وإننـــا نسمع عن قبائل بأسرها تمرح في طعامها أسبوعا كاملا على حوت يلقيه البحر على الشاطئ(١٢) ؛ وعلى الرغم من معرفة الفويجيين للطهى فإنهم يفضّلون اللحم نيئا ، وإذا أمسكوا بسمكة قتلوها بعضّها خلف خياشيمها ، ثم أكلوها من رأسها إلى ذيلها ، لا يقومون إزاءها بشىء من الإعداد إطلاقا(١٣) : إن الشك في اطّراد موارد الطعام جعل هذه الشعوب الفطرية تأكل كل ما يصادفها بمعنى الكلمة الحرفى تقريبا ؛ يأكلون السمك وقنافذ البحر والضفادع البحرية والبرية والفئران

كبيرها وصغيرها والعناكب والديدان والعقارب والعُثّة والحشرات والجراد والأساريع والضبّ والثعابين بأنواعها والكلاب والخيل وجذور النبات والقمل واليرقات وبعض الزواحف والطير — ليس بين هذه الأنواع نوع إلا وكان فى مكان ما لوناً من ألوان الطعام اللذيذ المشتهى عند الأقوام البدائية[١٤] ؛ وبين القبائل فريق متهَرّ فى صيد النمل ، وبينها فريق آخر يجفف الحشرات فى الشمس ويخزنها لتُؤكل فى وليمة ، وقوم آخرون يلتقطون القمل بعضهم من رءوس بعض ويأكلونه مستمتعين بما يأكلون ، وإذا ما تجمع من القمل عدد كبير أقبلوا عليه يلتهمونه وهم يصيحون صيحات الفرح باعتباره عدواً للإنسان[١٥] ؛ إن قائمة الطعام عند القبائل الدنيا لا تكاد تختلف فى شيء عنها عند القردة العليا[١٦] وجاء الكشف عن النار فحدد هذا النّهم الذى لا يفرّق بين طعام وطعام ، وتعاونت النار والزراعة على تحرير الإنسان من اعتماده على الصيد ؛ فطهْيُ الطعام أذاب للإنسان مادتى « السليلوز » والنشاء الموجودتين فى آلاف الأصناف من النبات فتجعلانها غير قابلة للهضم إذا ما تُركت فجّة على حالتها ، وأخذ الإنسان يزداد اعتماده على الغلال والخضر ويجعل منها غذاءه الرئيسى ؛ ولو أن الطهى بتليينه لمواد الطعام الصُّلْبة ، قلّل من الحاجة إلى المضغ ، فبدأ فساد الأسنان الذى هو من وصمات المدنية .

ثم أضاف الإنسان إلى صنوف الطعام التى أسلفنا ذكرها صنفاً آخر كان ألذها وأشهاها — وهو زميله الإنسان ، ذلك أن أكل اللحوم البشرية كان يوماً شائعاً بين الناس جميعاً ، فقد وجدناه فى كل القبائل البدائية تقريباً ، كما وجدناه بين الشعوب المتأخرة تاريخاً مثل سكان إيرلندة وإيبريا وجماعة البِكْت ، بل بين أهل الدانماركه فى القرن الحادى عشر[١٧] ؛ كان اللحم البشرى من لوازم العيش بين قبائل كثيرة ولم يكن الناس يعرفون الجنائز ؛ بل قد كان الأحياء فى الكنغو الأعلى يُباعون ويُشْترون رجالا ونساء وأطفالا ، كانوا يباعون ويُشترون

علنا على اعتبار أنهم من مواد الطعام[١٨] ، وأما فى جزيرة بريطانيا الجديدة فقد كان اللحم البشرى يباع فى دكاكين كما يبيع القصابون اللحم الحيوانى اليوم ؛ وكذلك فى بعض جزر سليمان كانوا يسمنون من يقع فى أيديهم من الضحايا البشرية — وخصوصاً النساء — ليولموا بلحومهم الولائم كأنهم الخنازير[١٩] ؛ وكان الفويجيون ينزلون النساء منزلة أعلى من الكلاب لأن « الكلاب كان مذاقها رديئاً » كما كانوا يقولون ؛ ولما مرَّ « پيير لوتى » بجزيرة تاهيتى ، أخذ رئيس كهل من رؤساء البولينزيين يشرح له طعامه فقال : « إن مذاق الرجل الأبيض إذا ما أُحْسِنَ شواؤه كمذاق الموز الناضج » ، أما الفيجيون فلم يعجبهم لحم البيض زاعمين أنه زائد فى ملحه عما ينبغى ، وقوىّ الألياف ، فالبحّار الأوربى إذا ما وقع لهم كاد فى رأيهم ألا يصلح للطعام ، وعندهم أن الرجل من پولينزيا ألذ طعماً[٢٠] .

فما أصل هذه العادة ؟ ليس هنالك ما يثبت قطعاً أنها نشأت — كما ظن الناس من قبل — بسبب قلة فى أنواع الطعام الأخرى ، ولو كان ذلك كذلك إذن فقد بقى التلذذ بمذاق اللحم البشرى بعد زوال القحط فى مواد الطعام الأخرى ، لأن العادة قد تكونت وأصبحت مما يستميل الآكل[٢١] وها هى ذى الطبيعة ، أَرْسِلْ فيها البصر تَرَ الدم البشرىّ طعاماً شهياً لا يُقدم عليه اللاعق فى جزع قط ، حتى النباتيون البدائيون كانوا سرعان ما يعتادونه بشغف عظيم ؛ ولطالما شرب أهل القبائل دم الإنسان ، مع أنهم يكونون فى غير هذا الظرف رقيقى القلوب كرام النفوس — يشربونه تارة باعتباره دواء ، وطوراً باعتباره شعيرة دينية أو وفاء بعهد ، ويشربونه عادة على عقيدة منهم أنه سيضيف إلى الشارب القوة الحيوية التى كانت للمأكول[٢٢] . ولم يكن أحد ليشعر بشىء من الخجل فى إيثاره للحم البشرى ، والظاهر أن البدائيين لم يكونوا يفرقون فى حكمهم الأخلاقى بين أكل الإنسان وأكل الحيوان ، بل إنه لمدعاة للفخار فى ميلانيزيا أن يدعو

الرئيس أصدقاءه إلى أكلة يُقدَّم فيها إنسان مشوى ، وفى ذلك قال رئيس برازيلى فيلسوف : « ما دمتُ قد قتلتُ عدوّى ، فلا شك أنه من الخير أن آكله بدل أن أتركه فيضيع خسارةً لا يفيد منها أحـــد . . . ليس أسوأ الحالات أن يؤكل الإنسان ، لكن أسوأها أن يموت ، فإذا ما قُتِلتُ فسواء لدىَّ أأكلنى عدو القبيلة أم تركنى ؛ على أنى لا أجد بين صنوف الصيد جميعاً ما هو ألذ مذاقا من طعم الإنسان . والحق أنكم أيها البيض قد بلغتم الغاية فى حسن المذاق »(٢٣)

ومما لا يب فيه أن هذه العادة قد كان لها حسنات اجتماعية معينة ؛ فقد سبقت إلى الوجود الخطّة التى اقترحها « سْوِفْت » فى شأن الانتفاع بالأطفال الزائدين عن الحاجـــة ، ثم أفسحت أمام الكهول مجالا وهو أن يموتوا موتا فيه نفع للآخرين ؛ أضف إلى ذلك وجهة النظر التى لاترى فى الجنائز إلا إسرافاً لا تدعو إليه ضرورة ؛ ولقد كان من رأى « مونْتينْى » أن تعذيب الإنسان حتى يُسلم الروح تحت قناع من الورع والتقوى — كما كانت الحال فى عصره — أفظع وحشية من طهيه وأكله بعد موته ؛ إنه لواجب علينا أن يحترم كل منا أوهام الآخر .

الفصل الثاني

أسس الصناعة

النار — الآلات البدائية — النسج وصناعة الخزف — البناء والنقل — التجارة وشئون المال

لئن بدأت إنسانية الإنسان بالكلام ، وبدأت المدنيّة بالزراعة ، فقد بدأت الصناعة بالنار التى لم يخترعها الإنسان اختراعاً ، بل الأرجح أن قد صنعت له الطبيعة هذه الأعجوبة باحتكاك أوراق الشجر أو غصونه ، أو بلمعة من البرق أو باندماج شاءته المصادفة لبعض المواد الكيماوية ، ولم يكن لدى الإنسان فى ذلك إلا الذكاء الذى يقلد به الطبيعة ويزيدها كمالا ؛ ولما أدرك الإنسان أعجوبة النار استخدمها على ألف صورة ، أولها فيما نظن أن اتخذ منها شعلة يقهر بها عدوّه المخيف ، ألا وهو الظلام ، ثم استعملها بعد ذلك للتدفئة ، وبذلك استطاع أن يتحرك مُبْعِداً عن مناطقه الاستوائية إلى مناطق أقل منها إرهاقاً للقُوى ، وبهذا الانتقال أخذ شيئاً فشيئاً يعمر الكوكب الأرضىّ فيجعله مسكناً للإنسان ، ثم بعد ذلك أخذ يستعمل النار فى المعادن فيلينها ويطرقها ويمزجها فى هيئة أشد صلابة وأكثر مرونة مما وجدها عليه أول ما وجدها ؛ لقد بلغت النار فى أعين البدائيين من الغرابة ومن النفع حداً جعلها لديه إحدى المعجزات التى تستحق أن تُتَّخذ إلـهاً وتُعبد ، ولذلك أقام لها ما لا يحصى عدده من الحفلات التعبُّدية ، وجعل منها مركزاً لحياته وبيته ؛ وكان كلما انتقل من مكان إلى مكان ، حملها معه معنيًّا بها ، لا يرضى لها قط أن تخمد ؛ بل إن الرومان أنفسهم أعدموا العذراء الطاهرة عقاباً لها على إهمالها الذى كان من شأنه أن تنطفئ النار المقدسة .

على أن الإنسان ، إذ هو لم يزل فى مراحل الصيد والرعى والزراعة ، ما انفك

مخترعاً ، فكان الإنسان البدائى يشحذ زناد عقله لعله يجيب لنفسه إجابات عملية عما تثيره الحياة الاقتصادية فى وجهه من مسائل ؛ فقد كان الإنسان بادئ ذى بدء راضياً — فى ظاهر الأمر — بما تقدمه له الطبيعة — كان راضياً بثمار الأرض طعاماً ، وبجلود الحيوان وفرائه لباساً ، وبالكهوف فى سفوح التلال مأوى ، ثم تلا ذلك ، فيما نظن (فمعظم التاريخ ظن ، وبقيته من إملاء الهوى) أن أخذ فى تقليد آلات الحيوان وصناعته ؛ فلقد رأى القرود وهو يقذف بالحجارة وثمار الفاكهة على أعدائه ، أو يكسر الجوز والمحار بالحجر ، ثم رأى كلاب الماء تبنى لنفسها السدود والطيور تهيئ الأعشاش والعرائش ، والشمبانزى تقيم بيوتاً شبيهة جداً بما يقيم الإنسان من أكواخ ؛ فحسدها على ما لها من قوة فى مخالبها وأسنانها وأنيابها وقرونها ، وعلى صلابة جلودها ، فأخذ من فوره يعد لنفسه آلات وأسلحة على غرار ما للحيوان منها ، بل تفوقها ، فالإنسان — كما قال فرانكلن — حيوان صانع للآلات[٢٤] لكن هذه الميزة أيضاً — كسائر ما نضفيه على الإنسان من ميزات نزهى بها ونفخر — إن هى إلا تفوّق على الحيوان فى الدرجة وحدها لا فى النوع .

وكان النبات الذى يحيط بالإنسان البدائى مصدراً لكثير من الآلات ، فمن الخيزران صنع الإنسان السهام والمدى والإبرَ والقوارير ؛ ومن فروع الشجر صنع الملاقط والماسك ؛ ومن لحاء الشجر وأليافه صنع الحبال والثياب فى صنوف شتى ؛ وفوق هذا كله صنع الإنسان لنفسه العصا ؛ ألا ما أبسطها اختراعاً لكنها من كثرة النفع بحيث لبث الإنسان ينظر إليها رمزاً للقوة والسلطان ، من العصا السحرية عند عرائس الجن وعكازة الراعى إلى عصا موسى أو هارون ، والعصا العاجية التى كان يمسك بها القنصل أيام دولة الرومان ، والقضيب الذى يلوّح به المتنبئون بالغيب ثم الصولجان يمسك به القاضى أو الملك ؛ ولقد انقلبت العصا فى الزراعة فأساً ، أما فى الحروب فقد أصبحت حربة أو سهماً أو رمحاً أو سيفاً

أو سُنْكِيًّا(٢٥) . وكذلك استغلّ الإنسان المعادن وصاغ الصخر أسلحة وأدوات هي اليوم تحفة المعارض ، فصنع منها المطرقة والسندان والوعاء يغلي فيه الماء ، والسكين ، ورأس الرمح ، والمنشار ، والصفائح ، والحوابر ، والروافع ، والفئوس ، والمثاقب ؛ وكذلك من دنيا الحيوان صنع أدواته ، فصنع المغارف ، والملاعق ، والأواني والأطباق ، والأقداح ، والمواسي ، والمشابك ، صنع هذا كله من قواقع الشاطئ ، كما صنع غير ذلك من الأدوات الغليظة والدقيقة من قرون الحيوان وأنيابه وأسنانه وعظامه وشعره وجلده ؛ وكان لمعظم هذه الأدوات المصنوعة مقابض من خشب شُدَّت إليها بطرق تدل على مهارة صانعيها ، فقد كانوا يربطون هاتيك المقابض بضفائر من الألياف أو الحبال أو عصب الحيوان ، وأحياناً كانوا يلصقونها بغراء مصنوع من مزيج عجيب من الدماء ؛ إن مهارة الإنسان البدائي توازي على الأرجح — بل ربما تفوق — مهارة الإنسان المتوسط في عصرنا الحديث ، فلئن كنا نختلف عن هؤلاء الأولين ، فما ذاك إلا بفضل ما تجمّع لدينا من معارف وأدوات ومواد ، ولا يُعزى الفرق بيننا وبينهم إلى تفوّق فكريّ امتازت به طبائعنا من دونهم ؛ الحق أن أبناء الطبيعة أولئك يغتبطون أيما غبطة كلما سيطروا على موقف اعترضهم ، سيطرة أعملوا فيها أذهانهم المبدعة ؛ فبين وسائل اللهو المحبَّبة إلى الاسكيمو أن يذهبوا إلى أماكن وعرة مهجورة ، ثم يتسابقون هناك في ابتكار الوسائل التي يواجهون بها ضرورات الحياة التي ليس لديهم ما يستعينون عليها به من أدوات(٢٦) .

وتبدّت مهارة الإنسان البدائي في فن النسيج على صورة جديرة منه بالفخر ، وهاهنا أيضاً اهتدى الإنسان بالحيوان في طريق السير ، فنسيج العنكبوت وعش الطائر ، وتشابك الألياف والأوراق وتقاطعها في النسيج الطبيعي الذي تراه في الغابة ، كل ذلك أقام للإنسان نموذجاً بارزاً يحتذيه ، وإنه لنموذج بلغ من الوضوح حداً يجعلنا نرجح أن قد كان النسج من أول الفنون التي اصطنعها الجنس البشري ،

فنسج اللحاء والأوراق والألياف والحشائش ليصنع منها ثياباً وبُسُطا وأغطية لجدرانه ، ولقد أتقن صنعها فى بعض المواضع بحيث لا تجد من صناعة اليوم ما يفوقها بكل ما للصناعة اليوم من مُعينات وآلات ؛ فنساء « ألزشيا » قد ينفقن عاماً كاملا فى نسج ثوب واحد ؛ والهنود فى أمريكا الشمالية يصنعون البطاطين والأردية فيزخرفونها بالهُدّاب ويوشّونها بالشعر وخيوط القصب المصبوغة بناصع الألوان التى استقطروها من التوت ، حتى لقد قال عنها « الأب ثيودى » Father Théodut : « إنها من النصوع بحيث لا أظن أن ألواننا تدنو منها »(٢٧) ؛ فقد بدأ الفن حيث انتهت الطبيعة ؛ فهذه هى عظام الطيور والأسماك ، وهذه هى قصبات الخيزران الدقيقة ، قد تناولها الإنسان بالصقل حتى جعل منها إبراً ، ثم هذه أعصاب الحيوان قد شُدّت خيوطاً بلغت من الرقة حداً تنفذ به من سَمّ الخياط مهما بلغ هذا من دقته وضيقه ؛ وكذلك جعل الإنسان من اللحاء فراشاً وقماشاً ، وجفف جلود الحيوان ليصنع منها رداء وحذاء ، وضفر الألياف نسيجاً قوياً ، ونسج الغصون اللينة والألياف الملوّنة سلالا أجمل مما ينتجه العصر الحديث فى هذا الباب(٢٨)

وصناعة الخزف قريبة الشبه بصناعة السلال ، بل ربما كانت مأخوذة عنها ، فهم يصنعون العجينة على إطار من أغصان الصفصاف المجدولة حتى لا تحترق هذه الأغصان ، وبذلك يتصلّب الطين غلافاً لا يقبل الاشتعال ، ويحتفظ بهيئته بعد أن يزال عنه إطار الصفصاف(٢٩)، ربما كان هذا أول مرحلة من مراحل طريق أخذ يتطور حتى بلغ القمة فى الصناعة الخزفية المثلى المعروفة باسم « البورسلان » أو ربما جففت أشعة الشمس قطعاً من الطين ألقيت فيها ؛ فكان ذلك منها للإنسان إلى فن الخزف ؛ فما عليه بعد ذلك إلا أن يخطو خطوة واحدة ، وهى أن يستبدل بالشمس ناراً ، ثم يَصنع لنفسه من تربة الأرض آنية مختلفة الصور يستخدمها فى شتى جوانب العيش — يستخدمها للطهى ، وللخزن ،

والنقل ، وأخيراً يستخدمها للأبهة والزينة ، والزخارف التي كان يطبعها بأظفاره أو بآلاته على الطينة وهي بعدُ عجينة طرية ، كانت إحدى صور الفن في أول نشأته ، وربما كانت كذلك في إحدى مصادر الكتابة الأولى .

ومن الطين الذي جففته الشمس صنعت القبائل البدائية الآجرّ وأقامت الدُّور ، ثم سكنت فيما يصح أن نسميه بيوتا من خزف ، لكن هذه البيوت الخزفية لم تكن أول صورة من صور البناء ، التي أخذت تتطور في رقيها من الكوخ الطينيّ الذي سكنه « الهمجي » إلى أن بلغت أحجار البناء الراقية في مباني نينوى وبابل ؛ ولقد تسلسل هذا التطور حلقة بعد حلقة يتماسك بعضها ببعض بحيث تؤدي الواحدة إلى التي تليها ؛ فبعض الشعوب البدائية — مثل الفيداويين في جزيرة سيلان — لم يكن لهم دُور للسكنى ، واكتفوا بالأرض وطاء ، والسماء غطاء ؛ وبعضها — مثل أهل تسمانيا — أوَوْا إلى جذوع الشجر الخاوية ؛ وبعضها — مثل سكان جنوبي ويلز الجديدة — اتخذوا الكهوف مسكناً ؛ وبعضها — مثل البوشمن — كانوا يتقون الريح بحواجز يقيمونها هنا وهناك من أغصان الشجر ، وأحيانا نادرة كانوا يغرزون في الأرض أحجاراً ثم يغطونها بالطحلب وفروع الشجر ؛ ومن هذه الحواجز التي أقيمت لاتقاء الريح ، خرجت الأكواخ حين أضيفت إلى الحواجز جوانب عند أطرافها ، وإنك لترى الكوخ في كل مراحل تطوره ماثلا بين سكان استراليا الأصليين ، تراه من بدايته حيث كان يقام صغيراً من الغصون والأعشاب والتراب ، ولا يسع إلا شخصين أو ثلاثة ، إلى الأكواخ الكبيرة التي تؤوي ثلاثين شخصاً أو يزيد .

وأما البدوي ، صائداً كان أو راعياً ، فقد آثر لنفسه خيمة في مستطاعه حلها معه أينما انتهى به طِرادُه لصيّده ؛ لكن الطبقات العليا من القبائل الفطرية ، مثل الهنود الأمريكيين ، استخدمت الخشب في بنائها ؛ وكذلك كانت قبيلة «إراكوا» تبني من الحطب الذي لا يزال مغطى بقشوره ، أبنيه فسيحة طولها خمسمائة قدم ،

وتؤوى عدداً كبيراً من الأسر ؛ وأخيراً ترى أهل « أوقيانوسيا » يشيدون دُوراً حقيقية من ألواح الخشب التى اتقن قَطْعها وبهذه الدُّور وصل التطور فى المساكن الخشبية أكمل مراتبه(٣٠) .

لم يبق أمام الإنسان البدائى إلا ثلاث خطوات فى طريق التطور لتتم له ضرورات المدنيّة الاقتصادية كلها : آلات النقل ، وعمليات التجارة ، ووسائل التبادل ، إنك إذا أبصرت بالحمّال يحمل المتاع من طيارة حديثة لينزله على الأرض ، فقد رأيت صورة النقل فى أول مراحله وفى آخر مراحله معا ؛ فلا شك أن قد كان الرجل فى بداية الأمر يحمل أثقال نفسه بنفسه ، اللهم إلا إذا تزوج (فتكون الزوجة حاملة أثقاله) بل إن الإنسان إلى يومنا هذا ، فى آسيا الجنوبية والشرقية ، تراة فى الأعم الأغلب عربة وحمارا وكل شىء ؛ ثم اخترع الإنسان الحبال والروافع وبكَرات الجرّ ؛ سيطر على الحيوان واستخدمه ناقلا لأحماله ؛ ثم صنع أول ما شهد التاريخُ من جرّارات حين جعل ماشيته تجر على الأرض غصونا طويلة وضع عليها متاعه(*) ؛ ثم وضع جذوعا من الشجر تحت الجرارة كأنها عجلات ؛ ثم قطع الجذوع شرائح مستعرضة وابتكر بذلك أعظم اختراع آلى ، وهو العجلة ، لأنه وضع العجلات تحت الجرارة وصنع بذلك عربة ؛ ومن جذوع الشجر كذلك صنع الأطواف بربط الجذوع بعضها ببعض ، كما صنع الزوارق بحفر الجذوع وتفريغ أجوافها ، ولما تم له ذلك أصبحت مجارى الماء أيسر طرق النقل ؛ وأما على اليابس فقد شق لنفسه الطريق بادئ ذى بدء عبر المروج والتلال التى لم يكن فيها طريق ؛ ثم عبّد لنفسه سِكّة ثم رصف آخر الأمر طريقاً ، ودرس النجوم وأخذ بعدئذ يسير بقوافله عبر الجبال والصحراوات مهتديا إلى طريقه بالنظر إلى السماء ؛ وطفق الإنسان يسبح بزورقه دافعا إياه بالمجداف والشراع حتى عبر البحر فى شجاعة من جزيرة إلى جزيرة ، وأخيراً قطع

(*) الهنود الأمريكيون قد اكتفوا بهذه المرحلة ولم يستخدموا العجلات .

المحيطات لينشر ثقافته المتواضعة من قارة إلى قارة ؛ ففى هذا الصدد أيضاً حُلَّتْ المشكلات الرئيسية قبل أن يبدأ التاريخ المدوَّن .

ولما كانت الكفايات البشرية والموارد الطبيعية موزَّعة على الأرض فى غير مساواة ، فقد ترى شعبا من الشعوب قادراً بفضل ما تطور لديه من استعدادات خاصة ، أو بفضل قُرْبه من المواد المطلوبة ، تراه قادراً على إنتاج أشياء معينة لا يكلفه إنتاجها ما يكلف جيرانه ؛ فيمضى فى صنع هذه الأشياء حتى يصنع منها أكثر من حاجته ، وعندئذ يقدِّم فائض إنتاجه لجيرانه فى مقابل ما ينتجونه هم ، وهـذا التبادل هو أصل التجارة ؛ فهنود شِبْشا فى كولومبيا كانوا يصدرون صخور الملح التى تكثر فى بلادهم ، ويستوردون مقابل ذلك الغلال التى يستحيل استنباتها فى أرضهم القاحلة ؛ وبعض القرى التى يسكنها الهنود الأمريكيون كاد أن يتخصص فى صناعة رءوس الرماح ، بينما يتخصص بعض القرى فى غانة الجديدة فى صنع الأوانى الخزفية ؛ كذلك فى أفريقيا ترى من هذه القبائل ما يجعل الحدادة صناعته ، ومنها ما يجعل صناعته الزوارق أو الرماح ؛ ومثل هذا التخصيص فى القبائل أو القرى كثيراً ما أكسبها اسم صناعتها ، (فيطلق عليها الحدَّاد ، أو السَّمَّاك أو الخزَّاف ...) ، ثم انتقلت هذه الأسماء مع الزمن إلى الاسر التى اختصت نفسها بهذه الصناعة أو تلك (٣٠) ؛ والتجارة بفائض الإنتاج كانت فى أول أمرها تبادلا بالهدايا ، بل إنك لترى فى أيامنا هذه التى تحسب كل شىء بالأرقام أنه قد تكون الهدية (حتى ولو كانت دعوة على طعام) مقدِّمة لصفقة تجارية أو خاتمة لها ؛ ومما يَسَّرَ التبادل الحروبُ والسرقات والجزية والغرامات والتعويض ، فكل هذه وسائل عملت على انتقال السلع من مكان إلى مكان ، إذ لم يكن للإنسان مندوحة عن ذلك ؛ ثم أخذ نظام للتبادل ينشأ رويدا رويدا ، فأقيمت مراكز التجارة والأسواق والمتاجر — أقيمت أول الأمر آناً بعد آن فى غير نظام ، ثم أقيمت على فترات معلومة ، ثم أصبحت دائمة — وفى هذه الأماكن جعَلَ مَنْ يملك

سلعة فائضة عن حاجته يعرضها مقابل سلعة هو بحاجة إليها[٣١] .

لبثت التجارة أمداً طويلا وهى لا تزيد عن هذا التبادل ، ومضت قرون قبل أن تخترع وسيلة متداولة ذات قيمة فتعمل على سرعة الحركة التجارية ؛ فقد كان الرجل من قبيلة « دياك » يجوز له أن يظل جائلا فى أنحاء السوق ممسكا بيده كرة من شمع العسل ، وباحثاً عن زبون فى مستطاعه أن يقبلها منه مقابل شىء يمكن أن يكون أنفع له[٣٢] ؛ وأول وسائل التبادل كانت سلعاً يطلبها كل إنسان ويقبلها كل بائع ثمناً لبضاعته : كالبلح والملح والجلود والفراء والحلىّ والآلات والأسلحة ؛ وفى مثل هذا التبادل كانت المدْيتان تساويان زوجا من الجوارب ، والثلاثة معاً تساوى بطانية ، والأربعة كلها تساوى بندقية ، والخمسة جميعاً تساوى جواداً ؛ كذلك كان أيِّلان صغيران يساويان مُهْراً ، وثمانية أمْهُرٍ تساوى زوجة[٣٣] ؛ إنك لا تكاد تجد شيئاً لم يستعمله الناس استعمالهم للنقود هنا أو هناك ، وفى هذا الزمن أو ذاك : الفول وشصّ السمك والقواقع واللؤلؤ والخرز وجوز الهند والحبوب والشاى والفلفل ، وأخيراً الأغنام والخنازير والأبقار والعبيد ؛ وكانت الماشية معياراً مناسباً لقياس القيمة ووسيلة للتبادل بين الصائدين والرعاة ، فهى تربح بالتّربية وهى سهلة الحمل لأنها تنقل نفسها ؛ فتجد الناس والأشياء حتى عهد هومر يقوّمون بالماشية : فدرع « ديوميديز » قيمتها تسعة رءوس من الماشية ، وعبدٌ ماهر يساوى أربعة ؛ واللفظتان اللتان استعملهما الرومان للماشية وللمال متشابهتان ، فللأولى استعملوا لفظة Pecus وللثانية Pecunia ؛ وكذلك طبعوا صورة ثور على نقودهم القديمة ؛ بل إن الكلمة التى تستعملها اللغة الإنجليزية لرأس المال وهى Capital ترتد فى تاريخها عن طريق اللغة الفرنسية إلى الكلمة اللاتينية Capitale ومعناها مِلْك ، وهذه الكلمة بدورها مشتقة من Caput التى تعنى « رأس » والمقصود رأس من الماشية ، فلما أن استنجمت المعادن أخذت تحل شيئاً فشيئاً محل سائر الأشياء فى استعمالها معياراً للقيمة ، مثال ذلك النحاس والبرونز والحديد ، وأخيراً الذهب

والفضة لأنهما يمثلان قيمة كبيرة فى حيز صغير ووزن قليل ، فأصبحا وسيلة التعامل للإنسان كافة ، وهذا الانتقال من السلع المعيارية فى التبادل إلى العملة المعدنية لم يتم على أيدى البدائيين فى أرجح الظن ، إنما هى خطوة خطاها الناس إبان التاريخ المدون ، فاخترعوا العملة وابتكروا الدين ، وهكذا زادوا ثروة الإنسان ورخاءه حين يسروا تبادل فيض ما ينتجون[٣٤] .

الفصل الثالث

التنظيم الاقتصادى

الشيوعية البدائية – أسباب زوالها –
أصول الملكية الخاصة – الرق – الطبقات

كانت التجارة أعظم مثير للعالم البدائى ، لأنه لم يكن هناك مِلْك ، وبالتالى لم يكن هناك من نظم الحكم إلا قليل ، قبل أن تدخل فى حياة الناس وتجرّ وراءها ذيولها من أموال وأرباح ، ففى المراحل الأولى من التطور الاقتصادى كانت الملكية محصورة – فى الأعم الأغلب – فى حدود الأشياء التى يستخدمها المالك لشخصه ، وكان معنى الملكية هذا من القوة بحيث لازمت الأشياء المملوكة مالكها ، فغالباً ما دفنت معه فى قبره (وانطبق هذا على الزوجة نفسها) ، وأما الأشياء التى لا تتعلق بشخص المالك ، فلم تكن الملكية مفهومة بالنسبة إليها مثل هذا الفهم القوى ، فلا يكفى أن تقول إن فكرة الملكية ليست فطرية فى الإنسان ، إنما يجب أن تضيف إلى ذلك أنها فى مثل هذه الأشياء البعيدة عن شخصية المالك ، كانت من الضعف فى أذهان الناس بحيث تحتاج إلى تقوية مستمرة وتلقين مستمر .

فتكاد تجد الأرض فى كل الشعوب البدائية ملكا للمجتمع بأسره ، فالهنود فى أمريكا الشمالية ، وأهالى بيرو ، وقبائل الهنود التى على تل تشيتاجونج ، وأهل بورنيو ، وسكان الجزر فى البحر الجنوبى ، مثل هؤلاء – فيما نرجح – كانوا يملكون الأرض جماعة ويحرثونها جماعة ويقتسمون الثمار جماعة ، وفى ذلك قال هنود أوماها : « إن الأرض كالماء والهواء لا يمكن أن تباع » ، وكذلك لم يكن بيع الأرض معروفا فى ساموا قبل قدوم الرجل الأبيض ، ولقد وجد الأستاذ رِفرز

شيوعية الأرض لا تزال قائمة فى ماليزيا وپولينزيا ، ويمكنك أن تلحظها اليوم قائمة فى داخل ليبريا [٣٥] ؛

وأما شيوعية القوت فقد كانت أقل من ذلك انتشاراً ، فمن المألوف عند « الهمج » أن من يملك طعاما يقتسمه مع من لا يملك منه شيئاً ؛ كما كان من المألوف كذلك للمسافرين إذا ما أرادوا طعاما أن يقفوا عند أى دار يشاءون فى طريقهم ، بل كان من المألوف أن تستعين الجماعات التى ينزل بها القحط بجيرانها[٣٦] ، وكان إذا ما جلس إنسان فى الغابة ليأكل وجبته ، توقع منه الناس أن يصيح لمن أراد أن يشاطره الطعام قبل أن يبدأ هو فى تناوله ، وبغير ذلك لا يكون الصواب فى جانبه[٣٧] ؛ فلما قص « تيرنر » على رجل من « ساموا » قصة فقير فى لندن ، سأله « الهمجى » فى دهشة : « وكيف هذا ؟ أليس هناك طعام ؟ أليس له أصدقاء ؟ أليس فى المكان بيت للسكنى ؟ أين إذن نشأ هذا الفقير ؟ أليس لأصدقائه منازل »[٣٨] ؟ والجائع من الهنود ما عليه إلا أن يسأل فيجاب سؤاله بالعطاء ، فمهما يكن مورد الطعام ضئيلا عند المعطى ، فإنه لابد أن يعطى منه هذا السائل ما دام محتاجا ؛ « فيستحيل أن تجد إنسانا يعوزه القوت مادامت الغلال موجودة فى مكان بالمدينة »[٣٩] ؛ وكانت العادة عند الهوتنتوت أن يقتسم من يملك أكثر من سواه هذه الزيادة حتى يتساوى الجميع ؛ وقد لاحظ الرحالة البيض أثناء رحلاتهم فى أفريقيا قبل أن تدخلها المدنية ، لاحظوا أن « الرجل الأسود » إذا ما قدمت له هدية من طعام أو غيره من الأشياء ذوات القيمة ، فإنه يقسمها بين ذويه فورا ؛ وإذا ما أعطى المسافر بدلة لأحد هؤلاء السود ، فسرعان ما يرى الموهوب يلبس من الهبة جزءا كالقبعة مثلا ، ثم يرى صديقا له يلبس السراويل وصديقا آخر يرتدى السترة ، وكذلك الإسكيمو لا يرون للصائد حقا شخصيا فى امتلاك صيده ، بل يلزم توزيعه على أهل القرية جميعاً ، وكانت الآلات والمخزون من الطعام ملكا مشاعا بين الجميع وقد وصف « كابتن كارڤر » Captain Carver

هنود أمريكا الشمالية فقال « إنهم لايعرفون من فوارق الملكية شيئا سوى الأدوات المنزلية ... وهم أسخياء بعضهم لبعض غاية السخاء ، وإذا ما فاض عند أحدهم فيض ونقص عند الآخر ما يحتاج إليه ، فلابد أن يسد الأول بفيضه نقص زميله » وكذلك كتب مبشّر ديني يقول : « إن ما يثير الدهشة العميقة أن تراهم يعاملون بعضهم بعضاً برقة ومجاملة قلّ أن تراهما عند أكثر الأمم تحضُّراً ؛ وذلك بغير شك يرجع إلى أن لفظى « ملكى » و « ملكك » اللتين قال عنهما القديس كريسوستم Chrysostom إنهما تخمدان فى قلوبنا شعلة الإحسان وتشعلان نار الجشع ، لايعرفهما هؤلاء الهمج » ويقول شاهد آخر : « لقد رأيتهم يقتسمون الصيد إذا كان لديهم ما يُقْتَسَم ، لكنى لا أذكر مثلا واحداً لتنازعهم أو لتوجيههم النقد لطريقة التقسيم كأن يقولوا إنه غير عادل أو غير ذلك من أوجه الاعتراض؛ إن الواحد منهم ليؤثر أن يرقد على معدته الخاوية ، على أن يُتَّهم بأنه أبى أن يعين المحتاج ... إنهم يعدون أنفسهم أبناء أسرة واحدة كبيرة »[٤٠] .

لماذا اختفت الشيوعية البدائية حين نهض الإنسان إلى ما نطلق عليه فى شيء من التحيز اسم المدنية ؟ يعتقد « سَمْنر » Sumner أنها دلت على أنها ليست بيولوجية فى اتجاهها لأنها عقبة فى سبيل تنازع البقاء ، وأنها لم تحفز الناس بما يكفى لتشجيعهم على الاختراع والنشاط والاقتصاد ، وأن عدم مكافأتها للأقدر وعقابها لمن هو أقل قدرة سوّى بين الكفايات تسوية تعاند النمو وتعارض التنافس الناجح مع سائر الجماعات[٤١] ، وكتب « لوسكيل » Loskiel عن بعض القبائل الهندية فى الشمال الشرقى يقول : « إنهم من الكسل بحيث لا يزرعون شيئاً بأنفسهم ، بل يعتمدون كل الاعتماد على احتمال أن غيرهم لن يرفض أن يقاسموه فى إنتاجه ؛ ولما كان النشيط لا يتمتع من ثمار الأرض بأكثر مما يتمتع الخامل ، فإن إنتاجهم يقل عاما بعد عام »[٤٢] ؛ ومن رأى داروين أن المساواة التامة بين الفويجيين تقضى على كل أمل فى تحضرهم[٤٣] أو ربما قال الفويجيون فى ذلك إن المدنية

إذا ما أتتهم فإنها ستقضى على المساواة القائمة بينهم ؛ نعم إن الشيوعية طمأنت هؤلاء الذين خلصوا بحياتهم من حوادث الفقر والجهل وما يترتب عليهما من مرض فى المجتمع البدائى ، لكنها لم تنتشلهم من ذلك الفقر انتشالا ، وأما الفردية فقد جاءت بالثراء ، لكنها كذلك جرّت معها القلق والرق ، نعم إن الفردية حركت فى الممتازين من الرجال قواهم الكامنة ، لكنها كذلك نفخت نار التنافس فى الحياة فأشعلتها ، وجعلت الناس يحسون الفقر إحساساً مريراً ، مع أن هذا الفقر لم يكن ليؤذى أحداً حين استوى فيه الجميع(*) .

(*) ربما كان من الأسباب التى تميل بالشيوعية إلى الظهور فى بداية المدنية أنها تزدهر ازدهاراً سريعاً فى أوقات القحط التى يندمج فيها الفرد فى جماعته مدفوعا بعامل الخطر المشترك الذى يتهدد الجميع بالموت جوعا ؛ أما إذا كثرت الخيرات وزال الخطر ، فإن التماسك الاجتماعى بين الأفراد تقل شدته ، بمقدار ما تزداد الفردية ، فكأنما تنتهى الشيوعية حين يبدأ الترف ؛ وإذا ما ازدادت حياة المجتمع تعقداً ، وأخذ تقسيم العمل بين الناس يقسمهم فى أعمال مختلفة وصناعات مختلفة ، يصبح من المتعذر — وتزداد الصعوبة شيئاً فشيئاً — أن تكون كل هاتيك الخدمات التى يقوم بها الأفراد على قدم المساواة من حيث قيمتها للمجتمع ؛ وإذن فلا مناص من أن الفريق الذى مكنته زيادة قدرته عن الآخرين من القيام بالأعمال التى هى أكثر أهمية ، سيأخذ من الثروة التى تنتجها الجماعة أكثر مما يقضى به التعادل فى التقسيم ؛ فكل مدنية نامية إن هى إلا متهد تتكاثر فيه وجوه التفاوت بين الناس ، إذ تتحد الفوارق الطبيعية الكائنة بين جهود الأفراد مع الفوارق الناشئة فى الفرص السانحة ، فتنتجان فوارق أخرى صناعية فى الثروة والقوة ؛ فإذا لم يكن هنالك قوانين ، أو إذا لم يكن هناك طاغية ، يعمل على كبح هذه الفوارق الصناعية ، فإنها تصل آخر الأمر إلى درجة الانفجار ، حين لا يجد الفقراء فى أيديهم ما يخافون من ضياعه إذا ما أعلنوا العصيان فتهب الثورة بفوضاها التى تسوى بين الناس من جديد فى فقر شامل .

ومن هنا نرى حلم الشيوعية كامناً فى كل مجتمع حديث ، لأنه ذكرى انحدرت للناس من حياة آبائهم الأولين حيث الحياة أبسط من حياتنا وأقرب إلى المساواة ؛ فإذا ما وجد الناس أنفسهم فى تفاوت يفرق بينهم وفى حالة من القلق على أرزاقهم ، بحيث لم يعودوا يحتملون هذا القلق وذلك التفاوت ، فإنهم يرحبون بالعودة إلى الماضى الذى يفيضون عليه من خيالهم مجالا بأن يذكروا ما كان فيه من مساواة وينسوا ما كان يسوء من فقر ؛ لهذا كله ترى الأرض يعاد تقسيمها حيناً بعد حين بانتظام سواء بحكم التشريع أو بمناهضته ، سواء أتم هذا التقسيم الجديد بفضل « الجراكى » فى روما أو اليعقوبيين فى فرنسا أو الشيوعيين فى الروسيا ؛ وكذلك ترى الثروة يعاد تقسيمها حيناً بعد حين بانتظام ، سواء أتم ذلك بمصادرة الأملاك مصادرة بالقوة ، أم بفرض الضرائب على الدخول والتركات بحيث تؤدى إلى المصادرة فى نهاية الأمر ؛ وبعدئذ يبدأ السباق فى سبيل ...

تستطيع الشيوعية أن تعيش فى سهولة أكثر فى مجتمعات دائمة الانتقال ، لا يزول عنها الخطر والعوز ؛ فالصائدون والرعاة ليس بهم حاجة إلى مِلْك يحتفظون به ، لكن لما أصبحت الزراعة صورة الحياة المستقرة ، لم يلبث الناس أن تبينوا أن العناية بالأرض تبلغ أقصاها من حيث غزارة الثمر إذا ما عاد جزاء تلك العناية إلى الأسرة التى قامت بها ؛ فنتج عن ذلك بحكم الانتخاب الطبيعى الكائن بين النظم الاجتماعية والأفكار ، كما هو كائن بين الأفراد والجماعات ينتج أن الانتقال من الصيد إلى الزراعة استتبع تحولا من المِلْكية القَبَلِيَّة إلى مِلْكيّة الأسرة ؛ وبذلك أصبحت أكثر الوحدات الاجتماعية اقتصاداً فى نفقات الإنتاج ، هى كذلك وحدة المِلْكية ؛ فلما أن أخذت الأسرة شيئاً فشيئاً تتخذ الصورة الأبوية التى تُركِّز السلطة كلها فى أكبر الذكور سنا ، أخذت المِلْكية كذلك يزداد تركزها شيئاً فشيئاً فى أيدى أفراد ، ثم نشأ التوريث لشخص معين عن شخص معين ؛ ولما كان كثيراً ما يحدث لفرد مغامر أن يغادر مرفأ الأسرة الآمن ، ليضرب بمغامراته خارج الحدود التى وقف عندها ذووه ، ثم ينتهى به العمل المتصل الشاق أن يستولى على قطعة أرض من الغابة أو الحَرْج أو المستنقع ؛ فإنه يحرص عليها حرصاً شديداً لا يسمح لغيره بانتزاعها لأنها مِلْكه الخاص ، حتى لتضطر الجماعة فى النهاية أن تعترف بحقه فيها ، وبهذا نشأ ضرب آخر من ضروب المِلْكية الفردية[43 ا] ومثل هذا الاستيلاء على الأراضى أخذ يزداد اتساعاً حين ازداد السكان واستُنفِدَت قوة الأرض القديمة ، حتى وصل الأمر فى المجتمعات

= الثروة والمتاع والقوة من جديد ، ويتشكل الناس بحكم قدراتهم المختلفة فى هيئة الهرم مرة أخرى فهما يكن من أمر القوانين الموضوعة ، فلا بد للأقدر من الناس أن يظفروا بالتربة الأخصب بوجه من الوجوه ، وأن يحتلوا المكانة الأعلى ويأخذوا نصيب الأسد ؛ وسرعان ما تبيح لهم قوتهم أن يسيطروا على الدولة وأن يعيدوا سن القوانين أو يعيدوا شرحها بحيث تتفق وهواهم ، فيأتى يوم يشتد فيه التفاوت بين الناس كما كان قبل ؛ فالتاريخ الاقتصادى كله — فى هذا الصدد — إن هو إلا نبضات قلب الكائن الاجتماعى ؛ هو انقباض لهذا القلب الكبير ثم انبساط ، يتمثلان فى تركز الثروة تركزا طبيعيا ثم انفجار الثروة انفجارا طبيعيا كذلك .

الأكثر تعقداً من سواها ، إلى أن باتت المِلْكيـــة الفردية هي النظام السائد ، ثم جاء اختراع المال فساعد هذه العوامل بتيسيره لجمع الثروة ونقلها وتحويلها ؛ واتخذتْ حقوق القبيلة القديمه وتقاليدها صورة المِلْكية بمعناها الدقيق ، وأما المالك عندئذ فهو أهل القرية جماعةً أو الملك ، ثم خضعت المِلْكية لإعادة التوزيع حيناً بعد حين ؛ ومضى هذا العصر الذي جعل أمر المِلْكية يتذبذب فيه على هذا النحو من طرف إلى طرف ، بين النظام القديم والنظام الجديد ، وبعدئذ استقرت المِلْكية الفردية الخاصة استقراراً لا شُبْهة فيه ، وأصبحت هي النظام الاقتصادي الأساسيّ الذي أخذت به المجتمعات في العصور التي دوَّن أخبارَها التاريخ .

لكن بينا كانت الزراعة تُنْشئ المدنيَّة إنشاءً ، فإنها إلى جانب انتهائها إلى نظام المِلْكية ، انتهت كذلك إلى نظام الرق الذي لم يكن معروفاً في الجماعات التي كانت تقيم حياتها على الصيد الخالص . لأن زوجة الصائد وأبناءه كانوا يقومون بالأعمال الدَّنيَّة ، وكان فيهم الكفاية لذلك ، وأما الرجال فقد كانت تتعاقب في حياتهم مرحلة تضطرب بنشاط الصيد أو القتال يتلوها مرحلة من فتور الاسترخاء والدَّعة بعد الإجهاد والعناء ؛ ولعل ما تنطبع به الشعوب البدائية من كسل قد بدأ — فيما نظن — من هذه العادة ، عادة الاستجمام البطيء بعد عناء القتال والصيد ؛ ولو أنها لم تكن عندئذ كسلا بمقدار ما كانت راحة واستجماماً ؛ فلكي تحوِّل هذا النشاط المتقطع إلى عمل مطّرد ، لا بد لك من شيئين : العناية بالأرض عناية تتكرر كل يوم ، وتنظيم العمل .

وأما تنظيم العمل فيظل مُنْحَلَّ العُرى لَدُنِّيَّ النشاط ما دام الناس يعملون لأنفسهم ؛ لكنهم إذا كانوا يعملون لغيرهم فإن تنظيم العمل لا بد أن يعتمد في النهاية على القوة والإرغام ؛ وذلك أن نشأة الزراعة وحدوث التفاوت بين الناس انتهيا إلى استخدام الضعفاء اجتماعيا بواسطة الأقوياء اجتماعيا ، ولم يتنبَّه الظافر في القتال قبل ذلك إلى أن الأسير الذي ينفعه هو الأسير الحيّ ، وبذلك قلّت

المجازر وقلّ أكل الناس بعضهم لحوم بعض ، كلما زاد نظام الرق اتساعاً[٤٤] وإذن فقد تقدم الإنسان من حيث الأخلاق تقدماً عظيما حين أقلع عن قتل زميله الإنسان أو أكله ، واكتفى من أعدائه باسترقاقهم ؛ وإنك لترى تطوراً كهذا يتمّ اليوم على نطاق واسع ، إذا أقلعت الأمم الظافرة عن الفتك بالعدو المغلوب ، واكتفت باسترقاقه عن طريق التعويض الذى تقتضيه إياه ؛ ولما استقر نظام الرق على أسسه وبرهن على نفعه ، أخذ يزداد نطاقه بأن أضيف إلى الرقيق طوائف أخرى غير الأسرى ، فأضيف إليهم المَدِينون الذين لا يُوَفّون الدَّيْن ، والمجرمون الذين يعاودون الإجرام ، هذا إلى إغارات تُشَنّ عمداً لاجتلاب الرقيق ؛ وهكذا كانت الحرب بادئ الأمر عاملا على نشأة الرق ، ثم أصبح الرق عاملا على شنّ الحروب .

ولعل نظام الرق حين امتدّت به القرون قد أكسب الجنس البشرى تقاليده وعاداته من حيث العمل ، فلن تجد بيننا أحداً يقدم على عمل شاق عسير إذا كان فى مقدوره أن يتخلص منه بغير أن يتعرض لشىء من العقاب البدنى أو الاقتصادى ، وإذن فقد بات الرق جزءاً من النظام الذى استعد به الإنسان للقيام بالصناعة ، هذا فضلا عن أنه عمل على تقدم المدنيّة بطريق غير مباشر ، بأن زاد من الثروة فخَلَق الفراغ لفئة قليلة من الناس ، ولما مَضَت قرون على هذا النظام ، جعل الناسُ ينظرون إليه كأنه نظام فطرىّ لا غنى عنه ، بهذا قال أرسطو وكذلك بارك القديس بولس هذا النظام الاجتماعى الذى لابد أن يكون قد بدا لعينيه فى عصره نظاماً قضى به الله .

هكذا أخذت الزراعة وأخذ نظام الرق ، كما أخذ تقسيم العمل وما يقتضيه من اختلاف بين الناس ، أخذ كل هذا يستبدل شيئاً فشيئاً بالمساواة التى كانت قائمة فى الجماعة الطبيعية تفاوتاً وانقساماً إلى طبقات « فى الجماعة البدائية لا ترى — على وجه العموم — فارقاً بين حرّ وعبد ، ولا تجد فيها رقا ولا طبقات ، ثم

لاتدرك من الفوارق بين الرئيس وتابعيه إلا قدراً ضئيلا »[٤٥] . وبالتدريج ازدادت الآلات والصناعات تعقداً ، فعمل ذلك على إخضاع الضعيف العاجز إلى مشيئة القوىّ الماهر ، وكان كلما ظهر اختراع جديد ، أصبح سلاحاً جديداً فى أيدى الأقوياء ، فزاد من سلطانهم على الضعفاء واستغلالهم لهم(*) ثم عمل نظام التوريث على اتساع الهوة بأن أضاف إلى الامتياز فى الفُرَص السانحة امتيازاً فى الأملاك ، فقَسَّمَت المجتمعات التى كانت يوما متجانسة إلى عدد لا يحصيه النظر من طبقات وأوساط ؛ وأحَسَّ الأغنياء والفقراء بغناهم أو فقرهم إحساساً يؤدى إلى التشاحن ، وأخذت حرب الطبقات تسرى خلال عصور التاريخ كأنها خيط أحمر ، فاقتضى هذا النزاع بين الطبقات قيام الدولة التى لم يَعُد عن قيامها محيص لتنظيم تلك الطبقات ولحماية الأملاك ولشنّ الحروب ولتنظيم السلام .

(*) وكذلك فى عصرنا أدى سيل الاختراعات الذى نسميه بالثورة الصناعية إلى توسيع التفاوت الطبيعى بين الناس .

الباب الثالث

العناصر السياسية فى الحضارة

الفصل الأول

أصول الحكومة

الغريزة الاجتماعية — الفوضى البدائية — القبيلة والعشيرة — الملك — الحربّ

ليس الإنسان حيواناً سياسيا عن رضى وطواعية ، فالرجل من الناس لا يتحد مع زملائه مدفوعاً برغبته بقدر ما يتحد معهم بحكم العادة والتقليد والظروف القاهرة ؛ فهو لا يحب المجتمع بقدر ما يخشى العزلة ، ولذلك تراه يتحد مع غيره من الناس لأن اعتزاله يعرضه للخطر ، ولأن ثمة أشياء كثيرة يمكن أن يَجوُد أداؤها بالتعاون أكثر مما يَجوُد بالانفراد ، وعلى ذلك فالرجل من الناس وحشىّ فى صميمه يتصدى للعالم كله تصدى العدوّ لأعدائه بكل ما يتطلب ذلك من بطولة ؛ فلو قد جرَت الأمور على ما يشتهى الإنسان المتوسط لكان الأرجح ألا تقوم للدولة قائمة ؛ بل إنك لتراه فى يومنا هذا يمقت الدولة مقتاً ، ولا يفرّق بين الموت وجباية الضرائب ؛ ويتحرّق شوقاً لحكومة لا تحكم من أموره إلا أقلها ؛ ولو رأيته يطالب بزيادة فى القوانين فما ذاك إلا لأنه يعتقد أن جاره لا بد له من تلك القوانين أما هو إذا ما تُرك لهواه ، فينزع إلى الفوضى التى لا يضبطها تفكير فلسفى ، ويظن أن القوانين — فيما يختص بحالته — زائدة لا حاجة إليها .

ولو نظرت إلى أبسط المجتمعات تكويناً لأوشكت ألا ترى فيها حكومة على أية صورة من الصور ، فالصائدون البدائيون لا يميلون إلى قبول التقنين إلا حين

يتضمون إلى جماعة الصيد ويستعدون لدوْر النشاط ؛ أما فى غير هذا فترى قبيلة البوشمن تعيش عادة فى أُسْرات معتزل بعضها عن بعض ؛ وكذلك أقزام أفريقيا وأهل استراليا الفطريين لا يقبلون التنظيم السياسى إلا موقتاً ، حتى إذا ما فرغت مهمته انتشروا من جديد فى أُسْرات كل منها قائم بذاته ؛ وليس لأهل تسمانيا رؤساء ولا قوانين ولا حكومة دائمة ، والفيديون من سكان سيلان انقسموا جماعات على أساس الروابط العائلية ، لكن لم يكن عليهم حكومة ، والكوبيون فى سومطره « يعيشون بغير سلطان » وتحكم كل أسرة نفسها ؛ وقلما تجد الفويجيين فى جماعات تزيد عن اثنى عشر ؛ وكذلك التنْجهوْن يجتمعون اجتماعات متفرقة لا تزيد الجماعة منها عن عشر خيمات أو ما يقرب من ذلك ، ولا يزيد « الحشد » من الاستراليين عن ستين شخصاً إلا فى القليل النادر[١] ، ولا تلتئم هـــذه الجماعة ولا تتعاون إلا لأغراض خاصة مثل الصيد ، دون أن تتحد فى نظام سياسىّ دائم .

كانت القبيلة أول صورة للنظام الاجتماعى الدائم ــ ونقصد بالقبيلة جماعة من أسْرات ترتبط بأواصر القربى ، وتشغل بقعة من الأرض على سبيل الشيوع ولها طوطم مشترك وتحكمها حكومة بعينها وفق قوانين معينة ؛ فإذا ما اتحدت عدة قبائل تحت رئيس واحد تكونت بذلك العشيرة ؛ فالعشيرة هى الخطوة الثانية نحو تكوين الدولة ؛ لكن التطور فى هذه السبيل كان بطيئاً إذ كان كثير من الجماعات بغير رؤساء[٢] وجماعات أخرى كثيرة لم تقبل نظام الرئاسة ــ فيما نظن ــ إلا فى وقت الحرب[٣] فالديمقراطية ليست من مزايا عصرنا التى يُزْهى بها على العصور السوالف ، لأنها تظهر على خير وجوهها فى كثير من الجماعات البدائية حيث لا تكون الحكومة القائمة عليها سوى ما يشير به رؤساء الأُسَر فى العشيرة ــ ولم يُسْمح قط بقيام السلطة جزافاً[٤] فالهنود من قبـــائل « إراكوا » و« دلاوير » لم يعترفوا بشىء من القوانين أو الضوابط خارج نطاق النظام

الطبيعى الذى تقضى به الأسرة أو العشيرة ؛ ولم يتمتع رؤساؤهم إلا بسلطة متواضعة فى مقدور شيوخ العشيرة أن ينسخوها فى أى وقت شاءوا ؛ وكان يقوم على هنود « أوماها » « مجلس السبعة » الذى يظل أعضاؤه يتشاورون فى الأمر حتى يصلوا إلى إجماع فى الرأى ؛ فإذا أضفت إلى هذا جمعية الأراكوا المشهورة ، التى تم فيها الاتفاق بين قبائل كثيرة ، فارتبطت القبائل بما اتفقت عليه من عهود فى حفظ السلام ، لم تجد هوة سحيقة تفصل بين هؤلاء « الهمج » وبين الدول الحديثة التى تتعهد بنشر السلام فى جمعية الأمم تعهداً قد يتخلّون به .

لكنها الحروب هى التى تخلق الرئيس وتخلق الملك وتخلق الدولة ؛ كما أن هؤلاء جميعاً هم الذين يعودون فيخلقون الحروب ؛ فنى « ساموا » كانت للرئيس سلطة إبان الحرب ، أما فى غير ذلك فلم يكن يأبه له الناس كثيراً ؛ وقبيلة « دياك » لم تكن تعرف من الحكومة إلا ما لرأس الأسرة على أسرته من سلطان ، فإن نشب القتال كانوا يختارون أشجع مقاتليهم فيولونه القيادة ويطيعونه طاعة عمياء ، حتى إذا ما فرغوا من قتالهم ، نزعوه وأرجعوه إلى عمله السابق بمعنى هذه العبارة الحرفى(٥) ؛ وأما فى فترات السلم فقد كان أكثر السلطة والنفوذ للكاهن أو رئيس السَّحَرة ؛ فلما تطور نظام الحكم ، وأصبحت الملكية هى الصورة المألوفة لدى أغلب القبائل ، اشتقت الملكية وظائفها من وظائف هؤلاء ، وجمَعت تلك الوظائف كلها فى يدها : وظائف المقاتل والشيخ الوالد والكاهن ؛ وإنك لترى الجماعات تحكمها قوتان : تحكمها الكلمة فى وقت السلم ، ويحكمها السيف إبان الشدائد ؛ وإذن فالقوة لا تستعمل إلا حينما يفشل الإرشاد بالقول ؛ ولقد سار القانون والعقائد الأسطورية جنباً إلى جنب خلال العصور ، يتعاونان معاً على حكم البشر ، أو يتعاقبان الواحد بعد الآخر ، ولم تجرؤ دولة من الدول حتى يومنا هذا أن تفصل بينهما ، ومن يدرى لعلهما يعودان فيتحدان غداً .

ولكن كيف انتهت الحرب إلى قيام الدولة ؟ لم يكن ذلك لأن الإنسان ميال بفطرته للحروب ، فبعض الشعوب المتأخرة غاية فى حب السلام ، ولم يستطع الأسكيمو أن يفهموا لماذا يطارد الأوربيون بعضهم بعضاً كأنهم الحيتان — مع أنهم يدينون جميعاً بعقيدة مسالمة واحدة — ولماذا يسرق بعضهم أرض بعض ، ولذا قالوا فى تمجيد أرضهم : « ألا ما أجمل أن يكون غطاؤنا ثلجا وجليداً ! ما أجمل أن يكون الذهب والفضة اللذين إن كانا كامنيْن فى صخورنا — الذهب والفضة اللذين يتكالب عليها المسيحيون تكالبا جشعا — فإنهما يكونونان تحت غطاء كثيف من الثلج بحيث لا يستطيعون الوصول إليهما ! إن عقم أرضنا عن الإثمار مؤدٍّ إلى سعادتنا ومنقذنا من اعتداء المعتدين »[٦] ومع ذلك فحياة البدائيين قد تخللتها حروب لا تنقطع ؛ فالصائدون كانوا يقاتلون من أجل المصائد التى لم تزل عامرة بصيدها ، كما كان الرعاة يقاتلون فى سبيل المراعى الجديد من أجل قطعانهم ، والزارعون يقاتلون ليستولوا على التربة العذراء ؛ وكل هؤلاء وأولئك كانوا يقاتلون حينا بعد حين ليثأروا لقتل ، أو لينشّئوا ناشئتهم على الصلابة والنظام ، أو ليجددوا الحياة الرتيبة المملولة ، أو ليظفروا بغنيمة يسلبونها أو أسيرة يخطفونها ، وقليلا ما حارب هؤلاء وأولئك من أجل الدين ؛ نعم لقد كان بينهم أنظمة وعادات تحدد القتل ، كما هى الحال بيننا — فعينوا ساعات بعينها أو أياما أو أسابيع أو أشهراً لا يجوز للهمجى الكريم النفس أن يقتل أحداً خلالها ؛ كذلك حددوا بعض القواعد لا يجوز عصيانها ، وبعض الطرق لا ينبغى أن يُعتدى عليها ، وبعض الأسواق والمستشفيات لا ينشب فيها قتال ؛ ومن هذا القبيل أن عملت « جمعية الأراكوا » على قيام « السلم الأعظم » مدى ثلاثمائة عام[٧] ، لكن الحرب مع هذا كله كانت هى الأداة المختارة للانتخاب الطبيعى بين الأمم والجماعات البدائية .

ولم يكن للنتائج المترتبة على الحروب نهاية تقف عندها فقد كانت عاملا

لا يرحم فى اقتلاع الشعوب الضعيفة والقضاء عليها ، ورفعت مستوى الإنسان من حيث الشجاعة والعنف والقسوة والذكاء والمهارة ؛ وحفزت الإنسان على الاختراع ، وأدّت إلى صنع آلات أصبحت فيما بعد أدوات نافعة ، وإلى اصطناع فنون للحرب سرعان ما انقلبت فنونا للسلم ؛ (فكم من السكك الحديدية اليوم تبدأ على أنها جزء من خطة القتال ، ثم تنتهى وسيلة من وسائل التجارة !) وفوق هذا كله عملت الحرب على انحلال الشيوعية والفوضى اللذين سادا الجماعات البدائية وأدخلت فى الحياة نظاما وقانونا ، وأدت إلى استرقاق الأسرى وإخضاع الطبقات وقيام الحكومات ؛ فالدولة أمّها الملكية وأبوها القتال .

الفصل الثاني

الدولة

باعتبارها تنظيما للقوة — المجتمع القروي — الأركان النفسية للدولة

يقول نيتشه : « إن جماعة من الوحوش الكواسر شقراء البشرة » جماعة من الغزاة السادة ، بكل ما لها من أنظمة حربية وقوة منظّمة ، تنقضُّ بمخالبها المخيفة على طائفة كبيرة من الناس ، ربما فاقتها من حيث العدد إلى حد بعيد ، لكنها لم تتخذ بعــد نظاما يحدد أوضاعها ... ذلك هو أصل الدولة »[٨] ، ويقول « لِستَرْ وورد » Lester Ward : « تبدأ الدولة — باعتبارها مختلفة عن النظام القَبَلي — بأن يغزو جنس من الناس جنساً آخر »[٩] ؛ ويقول « أو پنهيمر » Oppenheimer : « إنك لترى أينما وجّهت البصر قبيلة مقاتلة تعتدي على حدود قبيلة أخرى أقل منها استعداداً للقتال ، ثم تستقر في أرضها مكوِّنَةً جماعة الأشراف فيها ، ومؤسِّسَةً لها الدولة »[١٠] ؛ ويقول « راتسنهوفر » Tatzenhofer « العنف هو الأداة التي خَلَقَتْ الدولة »[١١] ويقول « جَمْپلوڤتش » Gumplawicz إن الدولة نتيجة الغزو ، هي قيام الظافرين طبقةً حاكمةً على المهزومين[١٢]. ويقول « سَمْنَرْ » Sumner « إن الدولة نتيجة القوة وهي تظل قائمة بسند من القوة »[١٣] .

وهذا الإخضاع العنيف إنما يقع عادة على جماعة زراعية مستقرة ، من قبيلة من الصائدين والرعاة[١٤] لأن الزراعة تعلّم الناس الأساليب المسالمة ، وتروضهم على حياة رتيبة لا يختلف يومها عن أمسها ، وتنهكهم بيوم طويل من عمل مجهد ؛ مثل هؤلاء الناس يجمعون ثروة ، لكنهم ينسون فنون الحرب ومشاعرها ؛ أما الصائد وأما الراعي ، وقد ألفا الخطر ومَهَرا في القتل ، فإنهما ينظران إلى الحرب

كأنها ضرب آخر من مطاردة الصيد ، لاتكاد تزيد عن المطاردة فى خطرها ؛ فإذا نضب معين الغابات ولم يَعُدْ يمدهم بما يشتهون من صيد ، أو إذا ما قلَّتْ قطعانهم بسبب اضمحلال المراعى : فإن رجال الصيد والرعى عندئذ ينظرون بعين الحسد إلى حقول القرية بما تحوى من ثمار ، وسرعان ما ينتحلون تبريراً للهجوم شأنهم فى ذلك شأن المحدثين فى استسهال هذا الانتحال ؛ ثم يغزون فيغلبون فيسترقون فيحكمون(*) الدولة مرحلة متأخرة فى سلم التطور لم تكد تظهر قبل عهد التاريخ المدوَّن ، لأن قيام الدولة يقتضى تغيراً فى مبدأ التنظيم الاجتماعى من أساسه فيكون المبدأ هو أن يكون الحكم لمن يسيطر بدل أن يكون لذوى القربى كما كانت القاعدة السائدة فى المجتمعات البدائية ، وإنما يكون نظام السيطرة فى أنجح حالاته إذا ما ربط عدة جماعات طبيعية مختلفة ، بعضها ببعض برباط يفيدها من نظام وتجارة ؛ وحتى وهو فى هذه الحالة تراه لا يدوم طويلا إلا فى القليل النادر ، اللهم إلا إن كان التقدم فى الاختراع قد زاد من قوة القوىّ بأن وضع فى يديه أدوات وأسلحة تمكنه من كبت الثورة إذا اشتعلت ؛ وفى حالة السيطرة الدائمة ترى مبدأ التسلط يميل إلى إخفاء نفسه حتى ليكاد يدسُّ نفسه فى ثنايا اللاشعور ؛ فلما ثار الفرنسيون سنة ١٧٨٩ أوشكوا ألا يتبيَّنوا — حتى ذكَّرهم بالحقيقة كاميل ديمولان Camille Desmolins — أن طبقة الأشراف كانت تحكمهم منذ ألف عام جاءتهم من ألمانيا وأخضعتهم لسلطانها بالقوة ؛ حقا إن الزمن ليخلع على كل شىء مسحة من قدسية ، حتى أخبث السرقات فمن أن يبدو فى أيدى أحفاد اللص الذى سرق ، مِلْكاً مقدسا لا يجوز عليه

(*) هذا القانون ينطبق على الجماعة الأولى وحدها ، لأنه حين تتعقد ظروف الحياة الاجتماعية ، يتدخل فى الأمر عوامل أخرى هى التى تحدد الموقف : كازدياد الثروة وجودة السلاح والتفوق فى الذكاء ، فمصر لم يغزها الهكسوس والأثيوبيون والعرب والأتراك فحسب وكلهم من البدو — بل غزتها كذلك مدنيات مستقرة من أشور وفارس واليونان وروما وانجلترا — ولو أن هذه الأمم لم تغزها إلى حين انقلبت سائدة بدوية على نطاق الاستعمار الواسع .

اعتداء ؛ إن كل دولة تبدأ بالقهر لكن سرعان ما تصبح عادات الطاعة هي مضمون الضمير ثم سرعان ما يهتز كل مواطن بشعور الولاء للعلَم .

والمواطن في ذلك على صواب ، فمهما تكن بداية الدولة فسرعان ما تصبح دعامة لا غنى عنها للنظام ، لأنه إذا ما ربطت التجارة طائفة من القبائل والعشائر ، نشأت بين الناس علاقات لا تعتمد على القرابة بل تعتمد على ما بين الناس من اتصال ، وإذن فلابد لمثل هذه العلاقة من أساس للتنظيم يُصْطنع لها اصطناعا ، ونستطيع أن نسوق مجتمع القرية مثلا لذلك : فالقرية هي التي حلت محل القبيلة والعشيرة وأصبحت هي صورة التنظيم الاجتماعي المحلي ؛ فأقامت لنفسها حكومة بسيطة تكاد تكون ديمقراطية ، حكومة قوامها مناطق صغيرة يجتمع عنها رؤساء الأُسر ؛ لكن مجرد وجود هذه الجماعات وكثرة عددها ، استلزم تدخل قوة خارجية تنظم ما بينها من علاقات ، وتنسجها جزءاً من شبكة اقتصادية أوسع ، والدولة هي التي سدَّت هذه الحاجة مهما يكن فيها مما يخيف ويُفزع أول أمرها ؛ إنها لم تَعُدْ قوة منظِّمة وكفى ، بل أصبحت كذلك أداة توائم بين مصالح مئات الجماعات المتضاربة التي منها يتألف المجتمع في صورته المركبة ، ولما تم للدولة ذلك مدَّت حبائلها من سلطان وقانون وأخذت توسِّع نطاقها شيئا فشيئا ؛ وعلى الرغم من أنها صيَّرت الحرب الخارجية أكثر تخريبا مما كانت قبل تكوينها ، إلا أنها استطاعت أن توسِّع السلام الداخلي وتثبت أركانه ؛ وتلك أن تعرِّف الدولة بأنها سلام في الداخل استعداداً للحرب في الخارج ؛ ولم يلبث الناس أن يتبينوا أن دفع الضرائب للدولة خير لهم من التقاتل بعضهم مع بعض ، خير لهم أن يدفعوا الجزية للص واحد عظيم من أن يدفعوا الرشوة للجميع ، وإذا أردت أن تعلم ماذا عسى أن يقع في مثل هذا المجتمع إذا خلا من الحاكم لفترة من الزمن ؛ فانظر ماذا تصنع جماعة « الباجَنْدا » التي اضطر كل رجل فيها حين مات الملك أن يسلِّح نفسه ؛

لأن الخارجين على القانون أنشبوا أظفار الفوضى والقتل والنهب في أرجاء البلاد جميعاً[١٥] ؛ وقد صدق « سبنسر » حين قال : « إنه بغير حكم أوتوقراطى كان يستحيل على تطور المجتمع أن يبدأ مراحله »[١٦] .

على أن الدولة التى تعتمد على القوة وحدها سرعان ما يتقوض بناؤها ، لأن الناس وإن يكونوا بطبعهم أغراراً ، فهم كذلك بطبعهم ذوو عناد ؛ والقوة مثل الضرائب تبلغ أكثر نجاح لها إذا ما كانت خفية غير مباشرة ؛ ومن هنا لجأت الدولة — لكى تبقى على نفسها — إلى أدوات كثيرة تستخدمها وتصطنعها فى بث تعاليمها — كالأسرة والكنيسة والمدرسة — حتى تبذر فى نفس المواطن عادة الولاء للوطن والفخر به ؛ ولقد أغناها هذا التنشيء عن مئات من رجال الشرطة ، وهيَّأ الرأى العام للتماسك فى طاعة وانصياع ، فمثل هذا التماسك لا بد منه فى حالة الحرب ؛ وفوق هذا كله فإن الأقلية الحاكمة حاولت أن تحولَ سيادتها التى فرضتها على الناس فرضاً بقوتها إلى مجموعة من القوانين من شأنها أن تُبَلْوِر سلطانها من جهة ، وأن تقدم للناس ما يرحبون به من أمْن ونظام من جهة أخرى وهى تعترف بحقوق « الرعية »(*) اعترافاً تستميلها به إلى قبول القانون ومناصرة الدولة .

(*) الكلمة بالإنجليزية Subject وفيها معنى الخضوع ، ولذلك كتب المؤلف هامشا يقول : لاحظ كيف تكشف هذه الكلمة عن أصل الدولة . (المعرب)

الفصل الثالث

القانون

انعدام القانون — القانون والعادة — الثأر — الغرامات
المحاكم — المحنة — المبارزة — العقاب الحرية البدائية

يأتى القانون مصاحباً للملْكية والزواج والحكومة ؛ فأحط المجتمعات تُدبِّر أمرها بغير قانون ؛ يقول « ألفرد رسل ولاس » : « لقد عشت مع جماعات الهمج فى أمريكا الجنوبية وفى الشرق ، ولم أجد بينهم قانون ولامحاكم سوى الرأى العام الذى يعبر عنه أهل القرية تعبيراً حراً ، فكل إنسان يحترم حقوق زملائه احتراماً دقيقاً ، فالاعتداء على هذه الحقوق يندر وقوعه أو يستحيل ، إن الناس جميعاً فى مثل هذه الجماعة متساوون تقريباً »(١٧) ؛ وكذلك كتب « هرمان ملفيل » Herman Melville شيئاً كهذا عن أهل جزيرة ماركساس Marqusas فقال : « أثناء وجودى بين قبيلة « التايبى » Typees لم يُقَدَّم أحد قط للمحاكمة بتهمة الاعتداء على غيره من الناس ؛ وسار كل شىء فى الوادى سيراً هادئاً متسقاً على صورة لا تجد لها مثيلا فى الجماعات المسيحية مهما انتقيت منها خيرها وأصفاها وأتقاها ؛ وإن فى هذا القول منى لجرأة أستبيحها لأنه قول الصدق »(١٨) ؛ ولقد أقامت حكومة الروسيا القديمة دوراً للمحاكم فى جزر ألوشيا لكنها لم تصنع شيئاً قط مدى خمسين عاماً ، ويقول « برنْتُنْ » Printon : « كانت الجرائم والاعتداءات فى قبيلة إراكوا من القلة فى ظل نظامهم الاجتماعى بحيث تكاد لا تجد ما يبرر أن تقول إن لهم قانوناً للعقوبات »(١٩) ، هذه هى الظروف المثالية أو ربما كانت صورتها المثالية من خلقنا نحن — التى يتمنى الفوضويون عودتها

لكن هذه الصورة يجب أن تعدّل بعض التعديل ، فالجماعات الفطرية تتمتع بحرية نسبية من قيود القانون ، أولا لأنها محكومة بعادات هي فى صرامتها وفى استحالة الخروج عليها كأى قانون ، وثانيا لأن جرائم العنف فى أول الأمر تعتبر مسائل خاصة يُقضى فيها بالثأر الشخصى الذى تُسفح فيه الدماء .

إن التقاليد لتكوّن أساساً ثابتاً مكينا تراه مستقرا تحت الظواهر الاجتماعية كلها ، فهى بمثابة الصخرة الراسخة فى أسفل البناء ، وقوامها ألوان الفكر وضروب الفعل التى خلع عليها مرُّ الزمان هالة من تقديس ، وهى تُمِدُّ المجتمع بشىء من الثبات والنظام إذا ما انتفى القانون أو تغير أو اضطرب ، فالتقاليد فيما تعطيه للجماعة من استقرار تشبه الوراثة والغرائز فيما تعطيانه من استقرار للنوع البشرى ، كما تشبه العادات بالقياس إلى الفرد الواحد ، والتقاليد هى الاطّراد المكرور الذى يحفظ للناس عقولهم فى رءوسهم لأنه إذا لم تكن لدى الإنسان هذه القنوات التى ينزلق فيها التفكير والعمل انزلاقا لاشعوريا يسيرا ، لاضطر العقل أن يتردد إزاء كل شىء وسرعان ما يلوذ بالجنون مهرباً ، والغرائز والعادات والتقاليد والأوضاع الاجتماعية كلها تتحدد وفق قانون اقتصادى يستغنى بالقليل عن الكثير ، لأن العمل الآلىّ هو أنسب طريقة يستجيب بها الإنسان للمثير الخارجى إذا تكرر ، أو للموقف المعين إذا تجدد حدوثه ؛ أما التفكير الأصيل والتجديد فى السلوك فهو اضطراب فى مجرى الاطّراد ، ولا يستطيعه الإنسان إلا فى الحالات التى يريد فيها أن يغيِّر من سلوكه المألوف بحيث يلائم الموقف الذى يحيط به ، أو فى الحالات التى يأمل فيها أن يكافأ على تجديده وتفكيره كسباً موفوراً .

فإذا أضيف إلى هذا الأساس الطبيعى وهو التقاليد ، تأمين يأتيه من السماء عن طريق الدين ، وأصبحت تقاليد آبائنا هى كذلك ما تريده لنا الآلهة من سلوك ، عندئذ تصبح التقاليد أقوى من القانون ، ويبعد الإنسان عن حريته البدائية بعداً جوهرياً ؛ إنك إذا جاوزت حدود القانون فقد كسبت إعجاب نصف

الناس الذين يحسدون فى أعماق نفوسهم كل من يستطيع أن يتغلب بذكائه على هذا العدو القديم ؛ أما إذا جاوزت حدود التقاليد فأنت قمين أن تصطدم بمقت الجميع لأن التقاليد تنشأ من الناس أنفسهم ، بينما يفرض عليهم القانون فرضاً من أعلى ؛ القانون عادة مرسوم قضى به السلطان ، أما التقاليد فهى الانتخاب الطبيعى لألوان السلوك التى ثبتت صلاحيتها فى خبرة المجتمع ، والقانون يأخذ فى حلوله محل التقاليد حين تحل الدولة محل الأسرة والقبيلة والعشيرة والمجتمع القروى ، وكلها أنظمة طبيعية ؛ ثم يتم حلول القانون محل التقاليد حين تظهر الكتابة ، وتتدرج القوانين فى انتقالها من تشريع يهبط إلى الخلف عن طريق ذاكرات الشيوخ والكهنة ، إلى نظام تشريعى صريح مكتوب على ألواح ، لكن حلول القانون محل التقاليد لم يكمل فى يوم من الأيام ؛ وستظل التقاليد حتى النهاية هى القوة الكامنة من وراء القانون حين يقرر الإنسان أى نوع من السلوك ينبغى أن يسلك ، وحين يحكم على أنوع السلوك بالخير والشر ؛ ستظل التقاليد حتى النهاية هى القوة الكامنة وراء العرش ؛ « هى الحكم الأخير الذى يقضى فى حياة الإنسان » .

وأول المراحل فى تطور القانون أخذ الإنسان لنفسه بالثأر فيقول الرجل من البدائيين : « إن الثأر ثأرى وسأردّ عن نفسى ما لَحِقَ بى » ، وكل فرد من القبائل الهندية التى تسكن « كالفورنيا السفلى » هو لنفسه الشرطىُّ وهو الذى يقيم لنفسه ميزان العدل بما تسعفه قوّته من الثأر ؛ ففى مجتمعات بدائية كثيرة إذا حدث لشخص « ا » أن اغتال شخصاً آخر هو « ب » كانت النتيجة أن يُقتل « ا » على يد ابن « ب » أو صديقه . ولنرمز له بالحرف « حـ » ، ثم يُقتل هذا الابن أو الصديق على يد شخص رابع هو « د » يكون ابن « ا » أو صديقه وهكذا حتى تنتهى أحرف الهجاء ، وإنك لترى أمثلة للثأر فى أنقى العائلات الأمريكية دماً فى يومنا هذا ، ولقد امتد الثأر ما امتد القانون نفسه فى عصور

التاريخ ، وهو يظهر فى « القِصَاص » المذكور فى القانون الرومانى ؛ والقصاص يلعب دوراً كبيراً فى تشريع حمورابى ، وتراه فى أمر « موسى » بأن تكون « العين بالعين والسن بالسن » وهو ما يزال كامناً وراء الكثرة الغالبة من العقوبات القضائية حتى اليوم .

والخطوة الثانية نحو القانون والمدنية من حيث التصرف إزاء الجريمة ، هى الأخذ بالتعويض بدل الثأر ، فكثيراً جدا ما استعمل الرئيس سلطته أو نفوذه لكى يحافظ على حُسن العلاقات بين أفراد جماعته — ليحمل الأسرة الراغبة فى الأخذ بالثأر على أن تستبدل بالدم المطلوب ذهباً أو متاعاً ؛ ثم ما هو إلا أن نشأت « تَعْرِيفة » قانونية ، تحدّد كم من المال ينبغى أن يدفع ثمناً للعين وكم للسن وكم للذراع وكم للحياة ، وقد توسع حمورابى فى تشريعه على هذا الأساس ؛ وقد كان أهل الحبشة غاية فى الدقة فى العقوبة بالقصاص بحيث إذا سقط صبى من أعلى الشجرة على زميله وقتله ، فإن القاضى يحكم بأن ترسِلَ الأم الثكلى ابناً آخر من أبنائها ليسقط من أعلى الشجرة على عنق الصبى الذى اقترف الذنب أول مرة[٢١] ، والعقوبات التى تُقَدَّر فى حالة التعويض . قد تختلف باختلاف جنس المعتدى والمعتدى عليه ، وعمره ومنزلته ، فالفيجيون — مثلاً — يعتبرون السرقة الطفيفة يأتيها إنسان من سواد الناس ، أشنع إجراماً من القتل يقترفه الرئيس[٢٢] وهذا ما حدث طوال تاريخ القانون ، ففداحة الجريمة كانت دائما تقل بعلو منزلة المجرم[*] ولما كانت هذه الغرامات أو التعويضات التى تدفع اجتناباً للثأر ، تتطلب تقديراً للجريمة وللتعويض بحيث يتلاءمان ، اتخذت خطوة ثالثة نحو القانون ، وهى قيام المحاكم ، حيث كان الرؤساء أو الكهنة أو الشيوخ يجلسون مجلس القضاة ليقضوا فيما ينشب بين الناس من خلاف ، ولم تكن هذه المحاكم

(*) يجوز لنا أن نستثنى من ذلك البراهما الذين اقتضاهم تشريع مانو أن يتحملوا عقوبة أعظم مما تنزل بأفراد الطبقات الدنيا على نفس الجريمة لكن هذا القانون لم يؤخذ به فعلا .

دائما مجالس تقضى كما يقضى القضاة ، بل كثيراً ما كانت مجالس لإصلاح ذات البَين ، فكانت تصل بالمتخاصمَيْن إلى حل يرضيهما معاً بصورة ودّية(*)، ولبث الالتجاء إلى المحاكم اختياريا لدى كثير من الشعوب مَدَى قرون طوال ، وكان المعتدى عليه إذا لم يُرْضه الحكم الصادر فى شأنه ، يباح له أن يأخذ ثأره بيده(٢٢) .

وفى حالات كثيرة كان البتُّ فى أمر الخصومات يتم فى صورة عراك يجرى على مرأى من الناس بين المتخاصمين ، وكان هذا العراك يختلف فى مدى إراقته للدماء ، من مباراة فى الملاكمة لا يترتب عليها شيء من الأذى — كما هى الحال بين الأسكيمو الحكماء — إلى مبارزة تنتهى بالموت ؛ وكثيراً ما لجأ البدائيون إلى اصطناع المحنة فى فضّ مشكلاتهم ، غير أنهم لم يقيموها على أساس النظرية التى سادت فى القرون الوسطى بأن الله سيكشف عن المجرم عن طريق المحنة بقدر ما أقاموها على أساس من أمل بأن المحنة مهما بلغت من بُعدها عن العدل ، ستختم نزاعا قد تضطرب له القبيلة أجيالا عدة إذا لم يُلجأ فى فضّه إلى المحنة ؛ ومن أمثلة ذلك أن المتَّهِمَ والمتَّهَمَ كليهما يطلب إليهما أن يختار كل منهما صحفة طعام من بين صحفتين إحداهما مسمومة ، وقد ينتهى هذا الاختيار بأن يأخذ الصحفة المسمومة من هو برىء (والعادة ألا يكون أثر السم مما يستحيل الخلاص منه) لكن الخصومة تنتهى بهذا ، ما دام الفريقان يعتقدان فى غير إرغام بعدالة مبدأ المحنة ؛ وقد كانت العادة عند بعض القبائل أن المذنب إذا اعترف بذنبه مدّ ساقه للمعتدَى عليه ليطعنها برمحه ؛ أو يُطْلب الى المتَّهَم أن يصمد للرماح يقذفه بها متَّهِموه ، فإذا أخطأته الرماح جميعاً ، أعلنت براءته ، أما إذا أصابه ولو رمح واحد ، حُكم بإدانته وفُضّ الخلاف(٢٣)

وهكذا هبط مبدأ المحنة خلال العصور ، بادئا من تلك الصور البدائية إلى

(*) بعض المدن الحديثة جدا تحاول اليوم أن تحيى هذا النظام القديم الذى يوفر الوقت .

قوانين موسى وحمورابي ثم إلى العصور الوسطى ؛ والمبارزة ضرب من ضروب المحنة ، وقد ظن المؤرخون أنها قد انقضى عهدها ، لكنها فى طريقها إلى العودة من جديد فى أيامنا هذه ، وهكذا ترى الفارق بين الإنسان البدائى والإنسان الحديث ضيقاً صغيراً فى بعض جوانب الحيـــاة ، وإن تاريخ المدنية لقصير .

ورابع الخطوات التى خطاها القانون فى تطوره، هى أن تعهد الرئيس أو تعهدت الدولة أن يحول دون الاعتداء وأن يُنزل العقاب بالمعتدى ؛ وليس بين فضّ النزاع وإنزال العقاب بالمعتدين وبين محاولة اتقاء وقوع النزاع إلا خطوة واحدة ؛ وبهذا لم يَعُدْ الرئيس قاضيا وكفى ، بل أصبح إلى جانب ذلك مشرعا يسنّ القوانين ، وأضيفت إلى مجموعة القوانين العامة الشائعة بين الناس ، والتى استمدوها من تقاليدهم مجموعة أخرى من « القوانين الوضعية » التى مصدرها مراسيم الحكومية ؛ فى الحالة الأولى تصعد القوانين من أسفل ، وفى الحالة الثانية تهبط على الناس من أعلى ؛ وفى كلتا الحالين ترى القوانين مصطبغة بمسحة السلف الغابر ، وتشمّ فيها رائحة الأخذ بالثأر الذى جاءت تلك القوانين بديلا له ؛ لقد كان العقاب فى الجماعات البدائية قاسياً[٢٤] لأن تلك الجماعات لم تكن آمنة على حياتها ، ولذلك ترى صرامة العقاب تقلّ كلما ازداد النظام الاجتماعى قرارا .

وتستطيع القول بصفة عامة إن « حقوق » الفرد فى المجتمع الفطرى أقل منها فى حالة المدنية ؛ فأينما وجّهت النظر وجدت الإنسان يولد مكبّلا بالأغلال : أغلال الوراثة والبيئة والتقاليد والقانون ، والفرد فى الجماعة البدائية يتحرك فى شبكة من القوانين التى تبلغ بصرامتها وتفصيلاتها حدا يجاوز المعقول ، فألف تحريم يحدد سلوكه وألف إرهاب يشل إرادته ؛ إن أهل زيلنده الجديدة كانوا فيما يبـــدو للعين يعيشون بغير قانون ، لكنهم فى حقيقة أمرهم كانت التقاليد تتحكم فى كل مظهر من مظاهر حياتهم ؛ كذلك أهل البنغال تسيرهم التقاليد التى لا قِبَل لهم بتغييرها أو معارضتها ، فتحدد لهم طريقة الجلوس والقيام والوقوف والمشى والأكل والشرب

والنوم ؛ فالفرد أوشك ألا يكون فى عرفهم كائناً مستقلا بذاته فى البيئة الفطرية ، ولم يكن يتمتع بالوجود الحق إلا الأسرة وإلا القبيلة والعشيرة والمجتمع القروى ، فهذه الهيئات هى التى تملك الأرض أو تباشر السلطان ، ولم يصبح للفرد وجود واقعى متميز من وجود مجموعته إلا بعد أن ظهرت الملكية الخاصة التى هيأت له سلطانا اقتصاديا ، وبعد أن ظهرت الدولة التى اعترفت له بوجود قانونى وحقوق محددة(٢٥) ؛ إن الحقوق لا تأتينا من الطبيعة ، لأن الطبيعة لا تعرف من الحقوق إلا الدهاء والقوة ؛ إنما الحقوق مزايا منحتها الجماعة للأفراد على اعتبار أنها تؤدى إلى الخير العام ؛ ولذا فالحرية ترفٌ اقتضاه اطمئنان الحياة ، والفرد الحر ثمرةٌ أنتجتها المدنيّة ، وعلامةٌ تُميّزُها .

الفصل الرابع

الأسرة

وظيفتها فى المدنية — موازنة القبيلة والأسرة — نمو العناية الأبوية — عدم أهمية الوالد — انفصال الجنسين — حق الأمومة — منزلة المرأة — وظائفها — أعمالها الاقتصادية — الأسرة الأبوية — إخضاع المرأة

لما كانت الحاجات الأساسية للإنسان هى الجوع والحب ، كانت الوظائف الرئيسية للتنظيم الاجتماعى هى تهيئة الموارد الاقتصادية ودوام البقاء من الوجهة البيولوجية ؛ فاتصال النسل فى سلسلة من الأبناء حيوى كاتصال الطعام ؛ لهذا ترى المجتمع يضيف دائماً إلى الأنظمة الاجتماعية التى من شأنها أن تهيئ الراحة المادية والنظام السياسى ، أنظمةً أخرى من شأنها أن تديم بقاء الإنسان فى نسله ؛ ولقد لبثت القبيلة — حتى قيام الدولة قُرْب بداية المدنيّة التاريخية بحيث أصبحت للنظام الاجتماعى مركزاً رئيسياً دائماً — لبثت القبيلة حتى ذلك العهد تتولى هذه المهمة الدقيقة ، مهمة تنظيم العلاقة بين الجنسين وبين الأجيال المتعاقبة ؛ بل إنه حتّى بعد قيام الدولة ، ظلت مقاليد حكومة الإنسان مستقرة فى تلك الجماعة التى هى أعمق الأنظمة التاريخية جذوراً — وهى الأسرة ، إنه لبعيد الاحتمال أن يكون الإنسان الأول قد عاش فى أسرات متفرقة ، حتى فى مرحلة الصيد ؛ لأن ضعف الإنسان فى أعضائه الفسيولوجية التى يدافع بها عن نفسه ، كان قمينا أن يجعل منه فريسة للكواسر التى لم تزل تجوس فى مناكب الأرض ؛ فالعادة فى الطبيعة أنه إذا ما كان الكائن العضوى ضعيف الإعداد للدفاع عن نفسه وهو فرد ، لجأ إلى الاعتصام بأفراد من نوعه ، لتعيش الأفراد جماعة تستعين بالتعاون على البقاء فى عالم تمتلئ جنباته بالأنياب والمخالب والجلود التى يستحيل ثقبها ، وأغلب الظن أن

قد كانت هذه هي حالة الإنسان أول أمره ، فأنقذ نفسه بالتماسك في جماعة الصيد أولا فالقبيلة ثانياً ؛ فلما حلت العلاقات الاقتصادية والسيادة السياسية محل القُرْبى كمبدأ للتنظيم الاجتماعي ، فقدت القبيلة مكانتها التي كانت تجعل منها قِوام المجتمع ؛ وحل محلها في أسفل البناء الأسرة ، كما حلت الدولة محلها في قمته ، وعندئذ تولت الحكومة مشكلة استتباب النظام ، بينما أخذت الأسرة على نفسها أن تعيد تنظيم الصناعة وأن تعمل على بقاء الجنس .

ليس من طبيعة الحيوانات الدنيا أن تعنى بنسلها ، لذلك كانت إناثها تقذف بيضها في كميات كبيرة ، فيعيش بعضها وينمو ، بينما كثرتها الغالبة تَلْتَهِم أو يصيبها الفساد ؛ إن معظم السمك يبيض مليون بيضة في العام ؛ وليس بين السمك إلا أنواع قليلة تبدى شيئاً من العطف على صغارها ، ونرى في خمسين بيضة تبيضها الواحدة منها في العام عدداً يكفي أغراضها ؛ والطيور أكثر من السمك عناية بالصغار ، فيفقس الطائر كل عام من خمس بيضات إلى اثنتي عشرة كل عام ؛ وأما الحيوانات الثديية التي تدل باسمها على عنايتها بأبنائها ، فهي تسود الأرض بنسل لا يزيد عن ثلاثة أبناء في المتوسط لكل أنثى في العام الواحد(٢٦) ؛ إن القاعدة العامة في عالم الحيوان كله هي أن خصوبة النسل وفناءه يقلاّن معاً كلما ازدادت عناية الأبوين بالصغار ؛ والقاعدة العامة في عالم الإنسان من أول نشأته هي أن متوسط المواليد ومتوسط الوفيات يهبطان معاً كلما ازدادت المدنيّة صعوداً ؛ إن عناية الأسرة بأبنائها إذا ما حسُنت ، مكّنَتْ النشء من مدة أطول يقيمونها تحت جناح الأسرة فيكمل تدريبهم ونموهم إلى درجة أكبر ، قبل أن يُقْذف بهم ليعتمدوا على أنفسهم ، وكذلك قلّة المواليد تصرف المجهود البشري إلى أوجه أخرى من النشاط بدل استنفاده كله في عملية النسل .

ولما كان يُعْهد إلى الأم بأداء معظم ما تقتضيه العناية بالأبناء من خدمات ، فقد كان تنظيم الأسرة في أول أمرها (ما استطعنا أن ننفذ بأبصارنا خلال ضباب

التاريخ) قائماً على أساس أن منزلة الرجل فى الأسرة كانت تافهة وعارضة، بينما مهمة الأم فيها أساسية لا تعلوها مهمة أخرى ؛ والدور الفسيولوچى الذى يقوم به الذكر فى التناسل ، لا يكاد يستوقف النظر فى بعض القبائل الموجودة اليوم ، وربما كان الأمر كذلك فى الجماعات البشرية الأولى ، شأن الرجل من الإنسان فى ذلك شأن الذكر من صنوف الحيوان التى تناديها الطبيعة للتناسل فيطلب العشير عشيره ويتكاثر النسل دون أن يؤرق وَعْيَهم أن يحللوا هذه العملية إلى أسباب ونتائج ؛ فسكان جزائر « تروبْرِياند » Trobriand لا يعزون حمل النساء إلى الاتصال بين الجنسين بل يعللونه بدخول شبح فى جوف المرأة ، وإن هذا الشبح ليدخل جوفها عادة إذ هى تستحم ؛ فتقول الفتاة فى ذلك « لقد عَضّنى سمكة » ويقول مالينوفسكى Malinowski : وسألتُ من يكون والد طفلٍ وُلِدَ سفاحاً ، أجابونى كلهم بجواب واحد : إنه طفل بغير والد لأن الفتاة لم تتزوج ؛ فلما سألتُ فى تعبير أصرح : من ذا اتصل بالمرأة اتصالا فسيولوجيا فأنْسَلَت ، لم يفهموا سؤالى . . . ولو أجابوا كان الجواب : إنه الشبح هو الذى وهبها طفلها » ؛ وكان لسكان تلك الجزيرة عقيدة غريبة وهى أن الشبح أسرع إلى دخوله امرأة أسلمتْ نفسها لكثير من الرجال فى غير تحفظ ؛ ومع ذلك فإذا ما أراد النساء أن يجتنبن الحمل ، آثرن ألا يستحممن فى البحر إذا علا مَدُّه ، على أن يمتنعن عن اتصالهن بالرجال[٢٧] وإنها لعقيدة ممتعة لابد أن قد أراحت الناس من عناء كبير كلما أعقب استسلام المرأة للرجل نتيجةٌ تسبب شيئاً من الحيرة ، وما كان ألذها عقيدة لو أنها انتُحلتْ للأزواج كما انتُحلت لعلماء الأجناس البشرية .

وأما أهل مالنيزيا فقد عرفوا أن الحمل نتيجة الاتصال بين الجنسين ، لكن الفتيات اللائى لم يتزوجن يُصِرِرْن على أن حملهن قد سبَّبه لمن لون من الطعام أكلنه[٢٨] وحتى بعد أن أدركوا وظيفة الذكر فى التناسل ، كانت العلاقات الجنسية

من الاضطراب بحيث لم يكن يسيراً عليهم أن يحددوا لكل طفل أباه ؛ ونتيجة ذلك هي أن المرأة البدائية الأولى قلّما كانت تعنى بالبحث عمن يكون والد طفلها ؛ إن الطفل طفلها هي ، وهي لا تنتمى الى زوج بل الى أبيها — أو أخيها — وإلى القبيلة ، لأنها إنما تعيش مع هؤلاء ، وهؤلاء هم كل الأقارب الذكور الذين يعرفهم الطفل(٢٩) على أنهم ذوو قرباه ، لهذا كانت روابط العاطفة بين الأخ وأخته أقوى منها بين الزوج وزوجته ، وفى كثير من الحالات كان الزوج يقيم مع أسرة أمه وقبيلتها ، لا يرى زوجته إلا زائراً متستراً ، وحتى فى المدنيّة القديمة كان الأخ أعزّ عند المرأة من زوجها ، فزوجة « انتافرنيز » أنقذت أخاها لا زوجها من غضبة « دارا » كذلك « انتجونا » ضحت بنفسها من أجل أخيها لا من أجل زوجها(٣٠) « فالفكرة القائلة بأن زوجة الرجل هي أقرب إنسان فى الدنيا إلى قلبه ، فكرة حديثة نسبيا ، ثم هي فكرة لا تراها إلا فى جزء صغير نسبيا من أجزاء الجنس البشرى »(٣١) .

إن العلاقة بين الوالد والأبناء فى المجتمع البدائى هى من الضعف بحيث يعيش الجنسان منفصلين فى عدد كبير من القبائل ؛ ففى استراليا وغيانة البريطانية الجديدة ، وفى إفريقيا وميكرونيزنا ، وفى أسام وبورما ، وبين الألوشيين والإسكيمو والساموديين ، وهنا وهناك من أرجاء الأرض ، قد ترى إلى اليوم قبائل لا تجد فيها للحياة العائلية أثراً فالرجال يعيشون معتزلين النساء ، ولا يزورونهن إلا لماما ، حتى الطعام ترى كلا من الفريقين يأكل بعيداً عن الآخر ؛ وفى شمالى بابوا لا يجوز للرجل أن يُرى مجتمعاً بامرأة أمام الناس حتى وإن كانت تلك المرأة أم أبنائه ؛ والحياة العائلية ليست معروفة فى « تاهيتى » على الإطلاق ، ومن انفصال الجنسين على هذا النحو تنشأ العلاقات السرية — عادة الاتصال بين الرجال والرجال — التى تراها فى كل الأجناس البدائية ، وهى متهرّب يلوذ به الرجال فى

كثير من الحالات فراراً من المرأة[٣٢] ؛ وهذه العلاقات السرية لها شبيه فى حياتنا الحاضرة وإن اختلفت فى وجهها فهذه وليدة تلك .

إذن فأبسط صور العائلة هى الأم وأبناؤها تعيش بهم فى كنف أمهم أو أخيها فى القبيلة ؛ وهذا النظام نتيجة طبيعية للأسرة عند الحيوان ، التى تتكون من الأم وصغارها ، وهو كذلك نتيجة طبيعية للجهل البيولوجى الذى يتصف به الإنسان البدائى ؛ وكان لهذا النظام العائلى بديل آخر فى العهد الأول ، وهو « الزواج الذى يضيف الزوج إلى أسرة زوجته » ، إذ يقضى هذا النظام أن يهجر الزوج قبيلته ليعيش مع قبيلة زوجته وأسرتها ويعمل من أجلها أو معها فى خدمة والديها ؛ فالأنساب فى هذه الحالة يُقتَفَى أثرها فى جانب الإناث ، والتوريث يكون عن طريق الأم ؛ حتى حق العرش أحياناً كان يهبط إلى الوارث عن طريق الأم لا عن طريق الزوج[٣٣] ؛ على أن هذا الحق الذى للأمومة ليس معناه سيطرة المرأة على الرجل[٣٤] ؛ لأنه حتى إن ورَّثتْ الأم أبناءها فليس لها على مِلْكها هذا الذى تُورِّثه إلا قليل من السلطان ؛ وكل ما فى الأمر أن الأم كانت وسيلة تَعَقُّب الأنساب ، لأنه لولا ذلك لأدّى إهمالُ الناس عندئذ فى العلاقات الجنسية وإباحيتُهم إلى انبهام معالم القُرْبى[٣٥] ، نعم إن للمرأة نفوذاً فى أى نظام اجتماعى كائناً ما كان ولو إلى حد محدود ، هو نتيجة طبيعية لخطر مكانتها فى المنزل ، ولأهمية وظيفتها فى التصرف فى الطعام ولاحتياج الرجل إليها وقدرتها على رفضه ؛ ولقد شهد التاريخ أحياناً حاكمات من النساء بين بعض قبائل أفريقيا الجنوبية ، ولم يكن فى مستطاع الرئيس فى جزر « پليو » أن ينجز شيئاً هاماً إلا إذا استشار مجلساً من عجائز النساء ، وكان للنساء فى قبيلة « إراكوا » حق يعادل حق الرجال فى إبداء الرأى وفى التصويت إذا اجتمع مجلس القبيلة[٣٦] ؛ وكان للنساء بين هنود سنكا قوة عظيمة قد تبلغ بهن حق اختيار الرئيس ، هذا كله صحيح ، لكنها حالات نادرة لا تقع إلا قليلا ، أما فى أكثر الحالات فمنزلة المرأة فى

المجتمعات البدائية كانت منزلة الخاضع التي تدنو من الرق ؛ فعجزها الذي يعاودها مع الحَيْض ، وعدم تدريبها على حمل السلاح ، واستنفاد قواها من الوجهة البيولوجية بسبب الحمل والرضاعة وتربية الأطفال ، كل ذلك عاقها في حربها مع الرجال ، وقضى عليها أن تنزل منزلة دنيا في كل الجماعات إلا أدناها وأرقاها ؛ ولم يستتبع تقدم المدنيَّة بالضرورة أن ترفع مكانة المرأة ، ففي اليونان أيام پركليز كتب عليها أن تكون مكانتها أقل من مكانتها بين هنود أمريكا الشمالية ؛ إن مكانة المرأة ترتفع أو تهبط تبعاً لاختلاف أهمية الرجل في القتال ، أكثر منها تبعاً لازدياد ثقافة الرجال وتقدم أخلاقهم .

كانت المرأة في مرحلة الصيد تكاد تؤدي الأعمال كلها ما عدا عملية الصيد نفسها ؛ وأما الرجل فكان يسترخي مستريحاً معظم العام في شيء من الزهو بنفسه ، لقاء ما عرَّض نفسه لمصاعب الطِّراد وأخطاره ، كانت المرأة تلد الأطفال بكثرة وتربيهم وتحفظ الكوخ أو الدار في حالة جيدة ، وتجمع الطعام من الغابات والحقول وتطهى وتنظف وتصنع الثياب والأحذية[٣٧] ؛ فإذا انتقلت القبيلة من مكان لم يكن الرجل ليحمل سوى أسلحته لأنه كان مضطرا أن يكون على أهبة الاستعداد لملاقاة العدو إذا هجم ، وإذن فقد كان على النساء أن يحملن كل ما بقي من متاع ، والنساء من قبيلة « البوشمن » كن يُستخدمن خادمات وحاملات للأثقال ، فإذا تبيَّن أنهن أضعف من أن يسايرن الركب في رحلته ، تُركْنَ في الطريق[٣٨] ، ويروى أن سكان نهر مَرِي الأدنى حين رأوا قطيعاً من الثيران ظنوا أنها زوجات الرجال البيض[٣٩] ، وإن ما تراه بين الرجال والنساء اليوم من تفاوت في قوة البدن لم يكد يكون له وجود فيما مضى ، وهو الآن نتيجة البيئة وحدها أكثر منه أصيلا في طبيعة المرأة والرجل : كانت المرأة إذ ذاك — لو استثنيت ما يقعدها أحياناً من عوامل بيولوجية — مساوية للرجل تقريباً في طول قامته ، وفي القدرة على الاحتمال وفي سعة الحيلة والشجاعة ؛

ولم تكن بعد قد أصبحت مجرد زينة وتحفة ، أو مجرد ملعبة جنسية ، بل كانت حيوانا قوى البنية قادراً على أداء العمل الشاق مدى ساعات طويلة ، بل كانت لها القدرة — إذا دعت الضرورة — على المقاتلة حتى الموت في سبيل أبنائها وعشيرتها ؛ قال رئيس من رؤساء قبيلة « تيشيوا » Chippewas « خلق النساء للعمل ، فالواحدة منهن فى وسعها أن تجر من الأثقال أو تحمل منها ما لا يستطيعه إلا رجلان ، وهن كذلك يقمن لنا الخيام ويصنعن الملابس ويصلحنها ويدفئننا فى الليل . . . إنه ليستحيل علينا أن نرحل بغيرهن ، فهن يعملن كل شىء ولا يكلفن إلا قليلا ؛ لأنهن ما دمن يقمن بالطهى دائماً ، فإنهن يقتنعن فى السنين العجاف بلعق أصابعهن »[٤٠]

إن معظم التقدم الذى أصاب الحياة الاقتصادية فى المجتمع البدائى كان يعزى للمرأة أكثر مما يعزى للرجل ؛ فبينما ظل الرجل قرونا مستمسكا بأساليبه القديمة من صيد ورعى ، كانت هى تطور الزراعة على مقربة من محال السكنى ، وتباشر تلك الفنون المنزلية التى أصبحت فيما بعد أهم ما يعرف الإنسان من صناعات ؛ ومن « شجرة الصوف » — كما كان الإغريق يسمون نبات القطن — جعلت المرأة تغزل الخيط وتنسج الثياب القطنية[٤١] ؛ وهى التى — على أرجح الظن — تقدمت بفنون الحياكة والنسج وصناعة السلال والخزف وأشغال الخشب والبناء ، بل هى التى قامت بالتجارة فى حالات كثيرة[٤٢] ؛ والمرأة هى التى طورت الدار ، واستطاعت بالتدريج أن تضيف الرجل إلى قائمة ما استأنسته من حيوان ، ودربته على أوضاع المجتمع وضروراته التى هى من المدنية أساسها النفسى وملاطها الذى يمسك أجزاء البناء ؛ لكن لما تقدمت الزراعة وزاد طرحها ، أخذ الجنس الأقوى يستولى على زمامها شيئاً فشيئاً[٤٣] ؛ وكذلك وجد الرجل فى ازدياد تربية الماشية مصدراً جديداً للقوة والثروة والاستقرار ؛ حتى الزراعة التى لا بد أن تكون قد بدت لعمالقة العصر القديم الأشداء عملا بارداً ، أقبل عليها الرجل آخر الأمر بعد

أن كان يضرب جوّالا فى مناكب الأرض ، وبذلك انتزع الرجال من أيدى النساء زعامتهن الاقتصادية التى توفرت لهن حينا من الدهر بسبب الزراعة ؛ وكانت المرأة قد استأنست بعض الحيوان ؛ فجاء الرجل واستخدم هذا الحيوان نفسه فى الزراعة ، وبذلك تمكن من أن يحل محلها فى الإشراف على زراعة الأرض ؛ هذا إلى أن استبدال المحراث بالمِعزَقة قد تطلب شيئاً من القوة البدنية ، وبذلك مكّن للرجل أن يؤكد سيطرته على المرأة ؛ أضف إلى ذلك أن ازدياد ما يملكه الإنسان مما يمكن تحويله من مالك إلى مالك ، كالماشية ومنتجات الأرض ، أدى إلى إخضاع المرأة للرجل إخضاعا جنسيا ، لأن الرجل طالبها بالإخلاص له إخلاصاً يبرر له أن يورِّث ثروته المتجمعة إلى أبناء تزعم له المرأة أنهم أبناؤه ؛ وهكذا نفَّذ الرجل بالتدريج خطته ، واعتُرف للأبوة فى الأسرة ، وبدأت الملكية تهبط فى التوريث عن طريق الرجل ، واندحر حق الأمومة أمام حق الأبوة ، وأصبحت الأسرة الأبوية — أى التى يكون أكبر الرجال سنا على رأسها — هى الوحدة الاقتصادية والشرعية والسياسية والخلقية فى المجتمع ؛ وانقلب الآلهة وقد كانوا قبلُ نساء فى أغلبهم ، انقلبوا رجالا ذوى لحًى هم للناس بمثابة الآباء ، يحيط بهم من النساء « حريم » كالذى كان يحلم به ذوو الطموح من الرجال فى عزلتهم .

كان هذا الانتقال إلى الأسرة الأبوية — الأسرة التى يحكمها الوالد — ضربة قاضية على منزلة المرأة ؛ فقد باتت هى وأبناؤها ، فى أوجه الحياة الهامة جميعا ، مِلْكا لأبيها أو لأخيها الأكبر ، ثم مِلْكا لزوجها ، إنها اشتُريت فى الزواج كما كان العبد يشرى فى الأسواق سواء بسواء ؛ وهبطت ميراثا كما يهبط سائر المِلْك عند وفاة الزوج ، وفى بعض البلاد (مثل غانه الجديدة ، وهبر ديز الجديدة ، وجزر سليمان ، وفيجى ، والهند وغيرها) كانت تشنق وتدفن مع زوجها الميت ، أو كان يطلب إليها أن تنتحر ، لكى تقوم على خدمته فى الحياة الآخرة[٤٤] وأصبح

للوالد الحق فى أن يعامل زوجاته وبناته كما يشاء ويهوى إلى حد كبير جدا ؛ فيهبن ، ويبيعهن ، ويُعيرهن ، لا يحدّه فى استعمال حقه هذا إلا الظروف الاجتماعية التى تفسح المجال لآباء غيره فى استعمال حقوق مثل حقه ، وبينما احتفظ الرجل بحقه فى الاتصال الجنسى خارج داره ، طولبت المرأة — فى ظل الأنظمة الأبوية — وبالعفة التامة قبل الزواج ، وبالإخلاص التام بعد الزواج ، وهكذا نشأ لكل جنس معيار خاص يُحكم به على عمله .

إن خضوع المرأة بصفة عامة ، وقد كان موجودا فى مرحلة الصيد ، ثم ظل موجودا — فى صورة أخف — خلال الفترة التى ساد فيها حق الأمومة فى الأسرة ازداد الآن صراحة وغلظة ؛ ففى الروسيا القديمة ، كان الوالد عند زواج ابنته يضربها ضربا رقيقا بسوط ، ثم يعطى السوط للزوج (٤٥) ليدل بذلك على أن ضربها قد نيطت به منذ اليوم يدٌ لا يزال الشباب يجرى فى عروقها ، وحتى الهنود الأمريكيون الذين ظل حق الأمومة سائدا فيهم لم يرتفع عنهم قط ، كانوا يعاملون نساءهم معاملة خشنة ويكلفونهن بأقذر الأعمال ، وغالبا ما ينادونهن بلفظ الكلاب(٤٦) وحياة المرأة فى كل مكان على وجه الأرض كانت تقوَّم بثمن أرخص من ثمن الرجل ، وإذا ولدَ الأمهات بنات ، فلا تقام الأفراح التى تقام عند ولادة البنين حتى أن الأمهات أحيانا ليقتلن بناتهن الوليدات ليخلصنهن من الشقاء ؛ والزوجات فى فيجى يشتريهن الرجال كما يشاءون ، وغالبا مايكون الثمن المدفوع بندقية(٤٧)، وفى بعض القبائل لا ينام الرجل وزوجته فى مكان واحد خشية أن يُضْعِفَ نَفَسُ المرأة من قوة الرجل ، بل إن أهل فيجى لا يرون من المناسب أن ينام الرجل فى بيته كل ليلة ، وفى كالدونيا الجديدة تنام المرأة فى حظيرة بينما ينام الرجل فى الدار ، وفى فيجى كذلك يسمح للكلاب بالدخول فى بعض المعابد ، أما النساء فحرام عليهن دخول المعابد إطلاقا(٤٨) وهذا الإقصاء للمرأة عن المجتمعات الدينية موجود فى الإسلام حتى يومنا هذا ، نعم إن المرأة

بغير شك قد تمتعت فى كل العصور بهذا الضرب من السيادة الذى ينشأ عن استمرار الحديث ، وقد تفلح المرأة فى إخجال الرجل أو إرباكه أو هزيمته أحيانا(٤٩) لكن الرجل مع ذلك هو السيد والمرأة هى الخادمة ، فكان الرجل من قبيلة « الكفير » يشترى النساء كما يشترى الرقيق ، وإنما يشتريهن ليكنَّ له ضمان الحياة حتى مماته ، لأنه إذا حاز عدداً من الزوجات كافيا ، فسيظل ما بقى له فى الحياة من سنين مستريحا من عناء العمل ، وعليهن العمل كله ، ويَعْتَبِرُ بعض القبائل فى الهند القديمة نساء الأسرة جزءاً من الأملاك التى تورث جنبا إلى جنب مع الحيوان الداجن(٥٠) ؛ حتى الوصية الأخيرة من وصايا « موسى » لم توضح الفرق فى هذا الصدد توضيحا ظاهرا ، وفى بلاد الزنوج الإفريقية كلها ، لا يكاد النساء يختلفن عن الرقيق إلا فى كونهن مصدراً للمتعة الجنسية إلى جانب النفع الاقتصادى ؛ ولقد كان الزواج فى بدايته صورة من صور القوانين التى تضبط الملكية ، وجزءاً من التنظيم الاجتماعى الذى يدبِّر أمر العبيد(٥١) .

الباب الرابع

العناصر الخلقية فى المدنية

لما كان المجتمع يستحيل قيامه بغير نظام ، والنظام لايكون بغير قانون ، قلنا أن نعممها قاعدةً من قواعد سير التاريخ ، بأن قوة التقاليد تتناسب تناسباً عكسياً مع كثرة القوانين ، كما أن قوة الغريزة تتناسب تناسباً عكسيا مع كثرة الأفكار ، وبعض القواعد لا بد منه حتى يعايش الناس بعضهم بعضاً ، وقد تختلف هذه القواعد فى الجماعات المختلفة ، لكنها ينبغى أن تكون فى جوهرها واحدة فى الجماعة الواحدة ؛ وقد تكون هذه القواعد مواضعات اتفق عليها الناس أو تقاليد أو أخلاقا أو قوانين ؛ فأما المواضعات فهى صور من السلوك وَجَدَ الناس أنها نافعة لحياتهم ، والتقاليد مواضعات قبلتها الأجيال المتعاقبة ؛ والأخلاق هى التقاليد التى ترى الجماعة ألا غنى عنها لسعادتهم وتقدمهم بعد أن تعلمت، من الانتخاب الطبيعى الذى يُبقى على الصالح ويزيل الفاسد خلال ما يصادفه الناس من تجارب يُجرونها فى الحياة فيخطئون هنا وهناك ، هذه التقاليد الحيوية أو الأخلاق فى الجماعات البدائية التى لا تعرف قانونا مكتوبا تنظم كل جانب من جوانب الحياة الإنسانية ؛ وتكسب النظام الاجتماعى اطّراداً وثباتاً ؛ وهذه التقاليد إذا ما انقضى عليها الزمن وخلع عليها سحره شيئاً فشيئاً ، فإنها بطول تكرارها تصبح للفرد طبيعة ثانية ؛ إن جاوز حدودها شعر بالخوف أو القلق أو العار — وذلك هو أصل الضمير أو الحس الأخلاقى الذى اختاره دارون ليكون أظهر فاصل يفرّق بين الحيوان والإنسان[1] والضمير فى مراحل تطوره العليا يصبح وعيا اجتماعيا — أى شعور الفرد بأنه ينتمى إلى جماعة معينة وأنه مَدين لها بشىء من الولاء والاحترام ؛ وما الأخلاق سوى تعاون الجزء مع الكل ، ثم تعادل كل جماعة مع كلٍّ أعظم فالمدنية ، بطبيعة الحال كانت تستحيل بغير أخلاق ؛

الفصل الأول

الزواج

معنى الزواج – أصوله البيولوجية – الشيوعية الجنسية زواج التجربة – زواج الجماعة – زواج الفرد – تعدد الزوجات – قيمته فى تحسين النسل – الزواج من غير العشيرة – الزواج مقابل الخدمة – وبالأسر – وبالشراء – الحب البدائى – وظيفة الزواج الاقتصادية

أول مهمة تؤديها التقاليد التى هى قوام التشريع الخلقى بجماعة من الجماعات ، هى أن تنظم العلاقة بين الجنسين لأنها مصدر دائم للنزاع والاعتداء وإمكان التدهور ؛ والصورة الأساسية لهذا التنظيم الجنسى هى الزواج الذى يمكن تعريفه بأنه اتحاد العشيرين للعناية بالنسل ؛ وهو تنظيم يختلف ويتغير من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان حتى لقد اجتاز خلال تاريخه كلّ صورة ممكنة وكلّ تجربة ممكنة ، من العناية التى كان يبديها البدائيون بالنسل دون أن يكون بين العشيرين اتحاد فى المعيشة ، إلى ما نراه فى عصرنا الحديث من اتحاد العشيرين فى المعيشة بغير نسل يعنيان به .

كان الزواج من ابتكار أجدادنا من الحيوان ؛ فبعض الطيور فيما يظهر يعيش معيشة الأزواج التى تنسل فى رباط بين الزوجين لا يعرف الطلاق ، وبين الغورلا والأورانجوتان يدوم اتصال الوالدين حتى نهاية فصل الإنسال ، ولاتصالها هذا علامات كثيرة تشبه فيه بنى الإنسان ، وكل محاولة تحاولها الأنثى فى اتصالها بذكر آخر ، يعاقبها عليها عشيرها عقابا صارما[٢] . ويقول « دى كرسپنى » De Crespigny عن الأورانج فى بورنيو « إنها تعيش فى أُسَر : الذكر والأنثى وصغيرهما » يقرر الدكتور سافدج Dr. Savage عن الغورلا « إنه من المألوف

أن ترى الوالدين جالسين تحت شجرة يتسليان بالفاكهة يأكلانها وبالسّمر يَتسَمَّران به ، بينما يأخذ أبناؤهما فى القفز حولهما والوثب من غصن إلى غصن فى مرح وزثاط »[٣] وإذن فالزواج أعمق فى التاريخ من بنى الإنسان .

والمجتمعات التى تخلو من الزواج نادرة ، لكن الباحث الخبيث يستطيع أن يجد منها عددا يكفيه ليصور به مرحلة انتقال من الفوضى الجنسية التى تسود الحيوان الأدنى إلى صنوف الزواج التى أخذ بها الإنسان البدائى ؛ ففى « فوتونا » Futuna و « هواى » معظم الناس لم يتزوجوا إطلاقاً[٤] ، وأهل « لوبو » Lubu تعاشروا فى إباحية وبغير اختيار أو تحديد ، ولم يكن فى رءوسهم فكرة الزواج ، وكذلك بعض القبائل فى بورنيو كانت تعيش حياتها الجنسية بغير أن يكون الزواج هو الرباط الذى يربط الزوجين ، ولذلك كانت العلاقة بين العشيرين أسهل انحلالا مما نراه بين الطيور ، ولدى بعض شعوب الروسيا البدائية « كان الرجال يستعملون النساء بغير تمييز ، بحيث لم يكن لامرأة زوجٌ معلومٌ » .

ولقد وصف الواصفون أقزام أفريقيا بأنهم لا يصطنعون أنظمة الزواج فى حياتهم ، بل تراهم « يشبعون غرائزهم الحيوانية إشباعاً كاملا بغير ضابط[٥] » ؛ لكن هذا « التأميم للنساء » الذى يقابل الشيوعية البدائية فى الأرض والطعام ، زال فى مرحلة مبكرة بحيث لم يعد من آثاره اليوم إلا قليل ، ومع ذلك فقد لبثت بعض ذكرياته عالقة فى الأذهان فى صور مختلفة : فى شعور كثير من الشعوب الفطرية بأن وحدانية الزوجة — التى يعرّفونها بأنها احتكار رجل واحد لامرأة — ينافى الطبيعة ويجافى الأخلاق[٦] ، وفى الأعياد التى نقيمها على فترات معلومة ونتحلل فيها من القيود الجنسية موقتاً (ولا يزال هذا الشعور موجوداً بصورة ضعيفة فى بعض أعيادنا) ، وفى مطالبة المرأة بأن تُسلم نفسها لأى رجل يطلبها قبل أن يُسْمح لها بالزواج[*] — كما هى الحال فى « معبد مايلتّا » Mylitta فى بابل — ،

(*) راجع ذلك فى الجزء الخاص ببابل فى أجزاء هذا الكتاب .

وفى عادة إعارة الزوجة ، وهى عادة ضرورية بالنسبة إلى كثير من أخلاق الكرم كما يعرفها البدائيون ؛ وفى حق الليلة الأولى ، وهو حق كان يتمتع به الشريف فى أوائل العهد الإقطاعى فى اوروبا ، وربما كان الشريف فى ذلك يمثل حقوق القبيلة القديمة ، وذلك الحق هو أنه يجوز للشريف أن يَفُضَّ بكارة العروس قبل أن يؤذن للعريس بمباشرة الزواج(٦ ا) .

ثم حلت بالتدريج محل هذه العلاقات التى لم تعرف التحديد ألوان من اتحاد الرجل والمرأة كانت بمثابة التجريب ، فعند قبيلة « أورانج ساكاى » Orang Sakai فى ملقا ، كانت المرأة تعاشر كل رجل من رجال القبيلة حينا ، حتى إذا ما أتممّت الدورة بدأت من جديد(٧) ، وبين قبيلة « ياكوت » Yakuts فى سيبريا ، وقبيلة « بوتوكودو » Botocudos فى جنوب أمريقيا ، والطبقات الدنيا فى التبت ، وكثير غير هذه من الشعوب ، كان الزواج تجريبياً خالصا بمعنى أن كلاً من الزوجين له الحق فى فضّ العلاقة إذا شاء وبغير أن يبدى لذلك سببا أو يطالب بالسبب ؛ وعند قبيلة « بوشمن » « يكفى أقل خلاف بين الزوجين لانحلال الزوجية ، ولا يلبث الزوجان أن يجد كل منهما زوجا آخر » ، وعند قبيلة « داماترا » Damatras فيما يروى « سير فرانسز جولتُن Sir Francis Galton — « يتبدل الزوج مرة كل أسبوع تقريبا ، وقلّما استطعتُ أن أعرف إلا بعد استقصاء وبحث — مَنْ ذا كان زوجا موقتا لهذه السيدة أو تلك فى وقت معين » وكذلك فى قبيلة « بايلا » ينتقل النساء من رجل إلى رجل ويَتْرُكْنَ زوجا لينتقلن إلى زوج آخر بمحض اختيارهن ؛ والفتيات اللائى كدْنَ لا يجاوزن العشرين ، تجد للواحدة منهن فى كثير من الحالات أربعة أزواج أو خمسة كلهم أحياء »(٨) وكلمة الزواج فى هوای معناها فى الأصل « تجربة »(٩) ، وقد كان الزواج فى تاهيتى منذ قرن حراً من القيود وينحلّ لغير سبب ما دام الزوجان لم يُنْسِلا ، أما إن أنجبا طفلا فلهما أن يقتلاه دون أن يقع عليهما لوم من المجتمع ،

أو هما يقومان على تربيته وبذلك يبدءان حياة دائمة الصلات ، بحيث يتعهد الرجل للمرأة أن يعولها فى مقابل رعايتها للطفل ، التى أخذتها الآن على عاتقها[١٠] .

وكتب « ماركوپولو » عن قبيلة فى آسيا الوسطى ، كانت تسكن إقليم پين Peyn (وهى تعرف الآن باسم كيريا Keriya) فى القرن الثالث عشر ، يقول : « إذا سافر رجل متزوج بحيث يَبْعُدُ عن بلده ليغيب فى رحلته عشرين يوماً ، فلزوجته الحق — إذا شاءت — أن تتزوج من رجل آخر ؛ والمبدأ صحيح كذلك بالنسبة للرجال ، فيتزوجون حيث أقاموا »[١١] وهكذا ترى الأساليب الجديدة التى أدخلناها فى زواجنا وأخلاقنا حديثاً قديمة فى أصلها ؛

يقول « ليتُرْنُو » Letourneau عن الزواج : « لقد جُرِّبت كل صورة من صور الزواج ، مما يتفق مع طول بقاء المجتمعات الهمجية والوحشية ، ولا يزال بعضها اليوم قائماً لدى أجناس مختلفة ، دون أن يطوف بأذهان أهلها أية فكرة من الأفكار الخلقية التى تسود أوروبا عادة »[١٢] ، فهناك تجارب أجريت فى العلاقة بين الزوجين إلى جانب التجارب التى أجريت لاختبار مدة الزواج ؛ ففى حالات قليلة نرى « زواجاً جَمَاعياً » بمعنى أن تتزوج طائفة من رجال ينتمون إلى جماعة من طائفة من النساء تنتمين إلى جماعة أخرى ، بحيث يكون الزواج جَمْعِياً بين الطائفتين[١٣] ؛ وفى التبت مثلا كانت العادة أن تتزوج طائفة من الأشقاء طائفة من الشقيقات ، بحيث تقوم الشيوعية الجنسية بين الطائفتين ، لكل رجل أن يعاشر كل امرأة[١٤] ؛ ولقد روى قيصر عادة شبيهة بهذه فى بريطانيا القديمة[١٥] وكان من بقاياها عادة الزواج بزوجة الأخ بعد موته ، وقد شاعت عند اليهود الأقدمين وغيرهم من الشعوب القديمة[١٦] ، وضاق لها صدر « اونان » ضيقاً شديداً .

فما الذى حدا بالناس أن يستبدلوا بالحالة البدائية التى كان الزواج فيها أقرب شىء إلى الفوضى ، زواجاً فردياً ؟

إنه مما لا شك فيه أن الشهوة الجسدية ليست هى التى دفعت الناس إلى نظام الزواج ، لأنك لا تجد فى الكثرة الغالبة من الشعوب الفطرية إلا قليلا — ذلك إن وجدت شيئا على الإطلاق — من القيود المفروضة على العلاقات الجنسية قبل الزواج ؛ ولأن الزواج بكل ما يسببه من مضايقات نفسية وبكل ما فيه من قيود ، يستحيل عليـــه أن ينافس الشيوعية الجنسية فى إشباعها للميول الجنسية عند الإنسان ؛ كلا وليس نظام الزواج الفردىّ بمهيِّئٍ فى بدايته جوًّا لتربية الأطفال يبدو بالبداهة أنه خير لتربيتهم من عناية الأم وأسرتها وعشيرتها ؛ إذن فلابد أن يكون الدافع إلى الزواج وتطوره عوامل اقتصادية قوية الأثر ، وأرجح الظن (وهنا ينبغى أن نتذكر مرة أخرى أننا لا نعرف من بدايات الأشياء إلا قليلا) أن هذه العوامل التى دفعت إلى نظام الزواج كانت مرتبطة بنشأة نظام الملكية .

جاء الزواج الفردىّ نتيجة لرغبة الرجل فى أن يسترقّ لنفسه رقيقاً بثمن رخيص ، ونتيجة أيضاً لرغبته عن توريث مِلْكه لأبناء غيره من الرجال ؛ وظهر من صور الزواج صورة تبيح للعشير أن يتعدد عشراؤه ، فاتخذت صورةَ تعدد الأزواج للزوجة الواحدة — كما هى الحال فى قبيلة « تودا » Todas وبعض قبائل التبت[١٧] ، وإنما تظهر هذه العادة حيثما زاد عدد الرجال على عـــدد النساء زيادة كبيرة[١٨] ، لكنها عادةٌ سرعان ما تَنْتَفِى على يد الرجل القوىّ الغلاّب ، ولم نعد نفهم من نظام تعدد العشراء للعشير الواحد إلا إحدى صورتيه . ألا وهى تعدد الزوجات للزوج الواحد ؛ ولقد ظن رجال الدين فى العصور الوسطى أن تعدد الزوجات للزوج الواحد نظام ابتكره محمد ابتكاراً لم يُسبَق إليه ، لكنه فى الواقع نظام سابق للإسلام بأعوام طوال ، لأنه النظام الذى ساء العالم البدائى[١٩] وهنالك من الأسباب عِدّةٌ عملت كلها على تعميم هذا النظام ونشره . أولها أن حياة الرجال فى المجتمع الأوّل كانت أشد عنفاً وأكثر تعرضاً للخطر بسبب اضطلاعهم بالصيد والقتال ، ولذا زاد الموت فى الرجال عليه فى النساء ، واطّراد

الزيادة فى عدد النساء يضع أمام المرأة اختياراً بين حالتين : فإما تعدد الزوجات للرجل الواحد ، وإما عزوبة عقيمة ليس عنها محيص لبعض النساء ، لكن مثل هذه العزوبة للمرأة لا تَنْظر إليها بعين الرضى شعوبٌ تريد نسبة عالية من الولادة تقابل بها نسبة عالية فى الوفاة ، ولذا ترى أمثال تلك الشعوب تزدرى المرأة العانس والمرأة العقيم ، وثانى هذه الأسباب أن الرجال يميلون إلى التنوّع ، فالأمر كما عبّر عنه زنوج أنجولا أنهم : « لم يكن فى وسعهم أن يأكلوا دائما طعاما واحداً » ، كذلك يحب الرجال أن تكون عشيراتهم فى سن الشباب ، والنساء يكتهلن بسرعة فى المجتمعات البدائية ، بل إن النساء أنفسهن كنّ أحيانا يُحبّذْن تعدد الزوجات ، حتى يباعِدْنَ بين فترات الولادة دون أن يُنقِصْنَ عند الرجل شهوته وحبه للنسل ، وأحيانا ترى الزوجة الأولى ، وقد أنهظها عبء العمل ، تشجع زوجها على الزواج من امرأة ثانية حتى تقاسمها مشقة العمل ، وتنسل للأسرة أطفالا يزيدون من إنتاجها وثرائها[٢٠] ، فالأبناء عند هؤلاء الناس كسب اقتصادى ، والرجال بمثابة من ينتفع بالزوجة انتفاعه برأس المال ، يستولدها الأبناء الذين يقابلون الربح فى رأس المال ؛ فنى الأسرة الأبوية ، لا تكون الزوجة وأبناؤها إلا بمنزلة العبيد لرأس الأسرة وهو الرجل ، وكلما ازداد الرجل زوجات ازداد مالا ؛ وقد كان الفقير يتزوج من زوجة واحدة ، لكنه كان ينظر إلى ذلك نظرته إلى وصمة العار . وينتظر اليوم الذى يعلو فيه إلى المنزلة العالية التى ينزلها صاحب الزوجات الكثيرة فى أعين الناس[٢١]

ولا شك أن تعدد الزوجات لاءم حاجة المجتمع البدائى فى ذلك الصدد أتم ملاءمة ، لأن النساء فيه يزدن عدداً على الرجال ؛ وقد كان لتعدد الزوجات فضل فى تحسين النسل أعظم من فضل الزواج من واحدة الذى نأخذ به اليوم ، لأنه بينما ترى أقدر الرجال وأحكمهم فى العصر الحديث هم الذين يتأخر بهم الزواج عن سواهم ، وهم الذين لا ينسلون إلا أقل عدد من الأبناء ، ترى العكس فى ظل تعدد

الزوجات ، الذى يتيح لأقدر الرجال أن يظفروا — على الأرجح — بخير النساء ، أن ينسلوا أكثر الأبناء ، ولهذا استطاع تعدد الزوجات أن يطول بقاؤه بين الشعوب الفطرية كلها تقريباً ، بل بين معظم جماعات الإنسان المتحضر ، ولم يبدأ فى الزوال فى بلاد الشرق إلا فى عصرنا الحاضر ؛ لأنه قد تآمرت على زواله بعض العوامل ؛ فحياة الزراعة المستقرة حَدَّتْ من عنف الحياة التى كان يحياها الرجال وقلَّلَتْ من أخطارها ، فتقارب الجنسان عدداً ؛ وفى هذه الحالة أصبح تعدد الزوجات المكشوف ، حتى فى الجماعات البدائية ، ميزة تتمتع بها الأقلية الغنية وحدها[٢٢] أما سواد الناس فلا يجاوزون الزوجة الواحدة ؛ ثم يخففون وطأة ذلك على نفوسهم بالزنا ، بينما ترى أقلية أخرى آثرت العزوبة راضية أو كارهة ، فعادلت بهذا الامتناع ما يستولى عليه الأغنياء من زوجات كثيرات ، وكان عدد الجنسين كلما اقترب من التعادل زادت الغيرة فى الرجل على زوجته ، والحرص فى الزوجة على زوجها ؛ لأنه لما كان العدد قريباً من التساوى فى الجنسين تعذر على أقوياء الرجال أن يعدِّدوا زوجاتهم ، لأنهم فى مثل هذه الحالة لا يجدون كثرة من الزوجات إلا إذا اغتصبوا زوجات الآخرين أو مَنْ سيكنَّ زوجات للآخرين ، وإلا إذا أساءوا (فى بعض الحالات) إلى زوجاتهم ؛ نقول إنه فى مثل هذه الحالة يتعذر تعدد الزوجات بحيث لا يستطيعه إلا أوسع الرجال حيلة ، هذا إلى أنه لما ازداد تراكم الثروة فى أيدى بعض الرجال ، وكره هؤلاء أن يبعثروا ثروتهم هذه فى توريث عدد كبير من الأبناء لا يصيب الواحد منهم إلا قدر ضئيل ، آثر هؤلاء أن يُفرِّقوا بين الزوجات « فزوجة رئيسية » ومحظيات ، حتى لا يقتسم الإرثَ إلا أبناء الزوجة الرئيسية ، ولبث الزواج على هذه الحالة فى آسيا حتى عصرنا الذى عاصرْناه بجيلنا ، ثم أصبحت الزوجة الرئيسية بالتدريج هى الزوجة الواحدة ، وأما المحظيات فقد تعرضْنَ لإحدى حالتين ، فإما بقين خليلات وراء الستار ، وإما عُدِل عنهن إطلاقاً ، وذلك فضلا عن أثر المسيحية حين دخلت

عاملا جديداً ؛ فجعلت نظام الزوجة الواحدة فى أوربا — بدل تعدد الزوجات — هو النظام الذى يرتضيه القانون ، وهو الصورة التى تظهر فيها العلاقة الجنسية ؛ لكن نظام الزوجة الواحدة — شأنه شأن الكتابة ونظام الدولة — نظام صناعى نشأ والمدنية فى وسطى مراحلها ، وليس هو بالنظام الطبيعى الذى يتصل بالمدنية فى أصول نشأتها .

ومهما يكن أمر الصورة التى يتخذها الزواج فقد كان إجباراً بين الشعوب البدائية كلها تقريباً ، ولم يكن للرجل الأعزب منزلة فى المجتمع ، أوعُدّ مساوياً لنصف رجل فحسب(٢٣) . كذلك كان إجباراً على الرجل أن يتزوج من غير عشيرته . ولسنا ندرى إن كانت هذه العادة قد نشأت لأن العقل البدائى داخله الشك فيما يترتب على زواج الأقارب من سوء النتائج أو لأن التصاهر بين الجماعات أوجد تحالفاً سياسياً مفيداً بينها ، أو زاد هذا التحالف قوة إن كان موجوداً بالفعل ، وبهذا زاد التنظيمَ الاجتماعىَّ تقدماً وقللَ من أخطار الحروب ؛ أو لأن انتزاع زوجة من قبيلة أخرى قد أصبح معدوداً بين الناس من علامات الرجولة التى اكتمل نضوجها ؛ أو لأن نشأة الصبى بين قريباته يقلّل من قيمتهن فى عينه ، وبُعْدَ القريبات عنه يزيد فى سحرهن ؛ وعلى كل حال فقد كان هذا التحديد فى اختيار الزوجة عامًّا شاملا لكل الجماعات الأولى تقريباً ؛ وعلى الرغم من أن الفراعنة والبطالسة والإنكا قد وُفِّقوا إلى تحطيمه بأن أقبلوا على زواج الأخ بأخته ، إلا أنه ظل قائماً بين الرومان كما يعترف به القانون الحديث ، وهذا التقليد لا يزال له أثره فى سلوكنا — عن شعور أو لا شعور — حتى يومنا هذا .

فكيف كان يتاح للرجل أن يظفر بزوجته من قبيلة أخرى ؟ لما كانت الأسرة التى ترأسها الأم هى النظام السائد ، كان يُطلب إلى الزوج فى كثير من الحالات أن يعيش مع عشيرة المرأة التى أراد زواجها ؛ فلما تطور نظام الأسرة الأبوية ، سُمِح للخطيب أن يأخذ عروسه معه إلى عشيرته ، على شرط أن يقيم

فترة معلومة قبل ذلك فى خدمة أبيها ، فمثلا خدم يعقوبُ لابانَ فى سبيل زواجه من « ليحة » و « راشيل »[٣٤] لكن الخطيب كان أحياناً يقتضب الأمر باصطناعه للقوة الصريحة الغاشمة ؛ وكان من حسنات الرجل ومميزاته أن يأخذ زوجته من أهلها قسْراً ، فذلك يجعل منها امَة رخيصة من جهة ، كما يستولدها عبيداً من جهة أخرى ، وهى إذا ما ولدت له هؤلاء الأطفال العبيد ، ازدادت بعبوديتها له صلةً وربطا ؛ ومثل هذا الزواج الذى يتم بطريق الاغتصاب ، لم يكن القاعدة الشاملة ، لكنه كان يقع فى العالم البدائى حيناً بعد حين ، فالنساء عند هنود أمريكا الشمالية جزء من أسلاب الحرب ، ولقد كان هذا السَّبْى للنساء من الشيوع بحيث ترى الأزواج وزوجاتهم فى بعض القبائل يتكلمون لغات مختلفة ، فلايفهم الزوج لغة زوجته ولا الزوجة لغة زوجها ؛ ولبث السلاف فى الروسيا والصرب يأخذون بزواج الاغتصاب أحياناً حتى القرن الماضى[*][٢٥] ؛ ولا تزال آثار هذه العادة قائمة فى قيام العريس بدور المغتصب لعروسه فى بعض احتفالات الزواج[٢٧] ؛ وعلى كل حال فقد كانت نتيجة طبيعية لما كان بين القبائل من حروب كادت لا تنقطع ، كما كانت بداية طبيعية للحرب الناشبة بين الجنسين التى لاتسكن بالمهادنة إلا فترات قصيرة ، ولا تنام فتنتها إلا نوماً قلقاً بغير أحلام .

فلما زادت الثروة بات أيسر على الخطيب أن يدفع لوالد العروس هدية ثمينة — أو مبلغاً من المال — ثمناً لابنته ، من أن يخدم عشيرةً غير أهله للحصول عليها ، أو يخاطر بما عسى أن يترتب على اغتصابها من قتال وإراقة للدماء ؛ ونتيجة ذلك أن أصبح الزواج بالشراء تحت إشراف الوالديْن ، هو القاعدة

(*) يظن بريفو Briffault أن الزواج بالاغتصاب كان مرحلة انتقال من نظام الأسرة التى تسودها الأمّ إلى النظام الأبوى فى الأسرة . ذلك أن الرجل لما رفض العيش مع عشيرة زوجته اضطرها إلى العيش بين أهله(٢٦) ، ويرى « ليبر » Lippert أن الزواج من امرأة غريبة عن الأسرة كان بديلا سلمياً لزواج الاغتصاب(٢٦A) كما تطورت السرقة بالتدريج إلى تجارة.

السائدة فى المجتمعات الأولى[٢٨] وحدثت خلال ذلك حلقات وسطى تم فيها الانتقال ؛ فأهل ماليزيا كانوا يسلبون زوجاتهم سلباً ، لكنهم كانوا يعودون بعدئذ فيجعلون هذه السرقة مشروعة بأن يدفعوا لأسرة الزوجة مبلغاً من المال ؛ كذلك عند بعض أهالى غانة الجديدة كان الرجل يخطف الفتاة ، وبينما هما فى مخبئهما ، يرسل أصدقاءه ليساوموا أباها فى ثمنها[٢٩] ؛ وإنه لمما ينير طريق التفكير أمامنا أن نذكر كيف يتسهل التغلب بالمال على مقاومة لوضع من الأوضاع الخلقية ؛ فيروى عن أم من قبيلة « ماورى » Maori أنها أخذت تبكى بصوت عال ، وتستنزل أمر اللعنات على الشاب الذى اختطف ابنتها ، حتى جاءها هذا الشاب بهدية هى غطاء من الصوف ، فقالت : « هذا كل ما أردته ، أردت أن أظفر بهذا الغطاء الصوفى فجعلت أصيح بالبكاء »[٣٠] ، لكن ثمن العروس كان يزيد عادة على غطاء من الصوف ، فثمنها عند الهوتنتوت ثور أو بقرة ، وعند قبيلة « كرو » Croo ثلاثة أبقار وشاة ، وعند « الكفير » يتراوح ثمنها من ست أبقار إلى ثلاثين ، حسب المنزلة التى تنزلها أسرة الفتاة فى المجتمع ، وبين « التوجو » Togos ثمنها ستة عشر ريالاً تدفع نقداً ، وستة ريالات تدفع عيناً[٣١]

والزواج بالشراء يسود أصقاع أفريقيا جميعاً ، وهو النظام المألوف فى الصين واليابان . وكان شائعاً فى الهند القديمة وعند اليهود القدماء ، وفى أمريكا الوسطى قبل عهد كولمبس ، وفى بيرو ، بل لا تزال أمثلة منه فى أوربا اليوم[٣٢] وهو تطور طبيعى لنظام الأسرة الأبوية ، لأن الوالد يملك ابنته ، وفى وسعه أن يتصرف فيها بما يراه مناسباً لا يحدد حقه فى هذا إلا حدود ضئيلة ؛ ويعبر عن هذا هنود أورنوكو بقولهم إن الخطيب يجب عليه أن يدفع للوالد ثمن تربيته لفتاة سينتفع بها هو[٣٣] ويحدث أحياناً أن تعرض الفتاة فى معرض للعرائس أمام جماعة من الرجال قد يكون منهم لها خطيب ؛ وكذلك من عادة أهل الصومال أن يزينوا

العروس أفخر الزينة ، ويعرضوها على ظهر جواد أو ماشيةً على قدميها ، فى جوٍّ يفوح بالعطور لعلها تستثير الخُطّاب فيدفعوا فيها ثمناً أغلى(٣٤) وليس لدينا مدوَّنٌ واحد يدل على أن امرأة عارضت فى زواجها بالشراء ، بل الأمر على نقيض ذلك ، كان النساء يفاخرن بما يدفع لهن ثمناً ، ويحتقرن المرأة التى تسلم نفسها فى الزواج بغير ثمن(٣٥) لأنهن يعتقدن أن الزواج الذى يعقد الحُبُّ أواصره بغير ثمن مدفوع ، يكون فيه الزوج الشرير كاسباً كسْباً عظيما لم يدفع لقاءه شيئاً(٣٦) ومن جهة أخرى كان من المألوف أن يردَّ والد العروس ما دفعه العريس هديةً أخذت تزداد قيمتها على مرّ الأيام حتى قاربت ما يدفعه العريس(٣٧) ؛ ثم أخذ الآباء الأغنياء يتوسعون تدريجاً فى هذه الهدايا ، لكى ييسّروا لبناتهم الزواج ، حتى ظهر نظام المهر تدفعه العروس لخطيبها ، وهكذا حلَّ شراءُ والد العروس لزوج ابنته محل شراء الخطيب لزوجته ، أو قل إن الشراءين يسيران جنباً إلى جنب(٣٨) .

فى شتى هذه الصور والصنوف التى يتخذها الزواج ، لاتكاد تقع فيها على أثر من الحب والعاطفة ؛ نعم قد تجد حالات قليلة من زواج الحب بين قبيلة البابوا فى غينا الجديدة ، وكذلك قد تجد بعض حالات الحب فى غيرها من الشعوب البدائية (والحُب هنا معناه إخلاص متبادل لا منفعة متبادلة) لكن هذه الحالات النادرة التى تصادفها لاشأن لها بالزواج ؛ ففى أيام البساطة الأولى كان الرجال يتزوجون ليشتروا عملا رخيصاً ويكسبوا أبوة مُرْبِحة ويضمنوا وجبات منتظمة من الطعام ، يقول « لانْدرَ » Lander : « يحتفل أهل « ياريبا » Yariba بالزواج دون أن يثير ذلك فى نفوسهم أقل اهتمام ، فتفكير الرجل فى حيازة زوجة لا يزيد على تفكيره فى قطع سنبلة من القمح ، لأن الحُب أمر ليس له وجود(٣٩) لأنه لما كانت العلاقة الجنسية أمراً مباحاً قبل الزواج ، فإن عاطفة الرجل لا تجد من السدود ما يختزنها ، وقلما يكون لها أثر فى اختيار الزوجة ؛ وللسبب نفسه ، أعنى تلاحق الشهوة وتنفيذها بغير فاصل من زمن ، ليس لديهم ما يبرّر

أن يجلس الشاب مفكراً فى طوية نفسه ، فى عاطفته التى احتبست فى صدره والتى من أجل احتباسها أخذت تُزَيِّن له الحبيب المُشْتَهَى ، مما يؤدى عادة إلى الحب العاطفى عند الشباب ؛ إن مثل هذا الحب وظهوره مرهون بالمدنيَّة التى أقامت الأخلاقَ سدوداً أمام الشهوة ، هــذا إلى أن الثروة وازديادها قد مكَّنَتْ بعض الرجال أن ينفقوا ، وبعض النساء أن يصنعن ، ما يقتضيه الحُب العاطفى من علامات الترف والرقة ؛ فالبدائيون أفقر من أن يعرفوا عاطفة الحب ، ولذلك قلّما تجد فى أغانيهم شعراً يدور حول الحب ؛ ولما ترجم المبشرون المسيحيون الكِتَاب المقــدّس إلى لغة قبيلة « أَلْجُونْكِونْ » Algonquins لم يجدوا كلمة فى لغتهم تعبر عن « الحب » ؛ ويصف الواصفون قبيلة الهوتنتوت بأنهم « باردون فى الزواج ولا يأبه أحد من الزوجين بالآخر » وكذلك فى ساحل الذهب « لا يظهر بين الزوج وزوجته من علائم الحب شىء حتى ولا مظاهره الخارجية » وقل هذا كذلك فى أهل أستراليا البدائيين ؛ يقول « كايبه » Caillié إذ هو يتحدث عن زنجى من السنغال : « سألت بابا لماذا لا يمرح أحياناً مع زوجاته ، فقال إنه لو فعل لتعذر عليه بعدئذ أن يملك زمامهن » ؛ ولما سئل رجل من أهل استراليا الوطنيين لماذا أراد أن يتزوج ، فأجاب صادقاً بأنه إنما أراد الزوجة لتهيئ له الطعام والشراب والحطب ، ولتحمل له المتاع أثناء الرحيل[٤٠] والتقبيل الذى لا يستغنى عنه الأمريكيون فيما يظهر ، لا تعرفه الشعوب البدائية ، أو هم يعرفونه معرفة الشىء المزْدَرَى[٤١] .

وعلى وجه التعميم ، نقول إن « الهمجى » يزاول أموره الجنسية بروح فلسفية ، لا يكاد يزيد عن الحيوان فيما يساوره من قلق ميتافيزيقى أو دينى ، إنه لا يفكر فى الأمر بينه وبين نفسه ، كلا ولا يطير بعاطفته فى سمائه ، بل الجنس عنده أمر طبيعى كالطعام سواء بسواء ، ولا يحاول قط أن يُزَيِّن لنفسه الدوافع ، فليس فى الزواج عنده شىء من التقديس ، وقلّما يسرف فى الاحتفال به ، بل هو

فى رأيه عملية تجارية صريحة ، ولا يخطر بباله أبداً أنهما يخجله أن يُخضع عاطفته للاعتبارات العملية فى اختياره لزوجته ، بل العكس هو أوْلى عنده بإثارة الخجل ، ولو استباح لنفسه من الغرور ما نستبيحه نحن لأنفسنا ، لتسألنا عما يبرر التقليد الذى جرينا عليه وهو أن نربط رجلا بامرأة إلى آخر الحياة تقريباً ، لا لشىء سوى أن الرغبة الجنسية قد ربطت بينهما ببرقها الخاطف لحة واحدة من الزمن ، فالزواج عند الرجل البدائى لا يُنْظر إليه على أساس التنظيم الجنسى ، بل على أنه تعاون اقتصادى ولذلك كان يريد من المرأة ، بل المرأة تريد من نفسها أن تكون نافعة نشيطة أكثر منها رشيقة جميلة (ولو أنه يقدر هــذه الصفات فيها) ، إذ لا بد أن تكون له كسباً اقتصادياً ، لا خسارة لا كسب من ورائها ، وإلا لما فكر « الهمجى » الواقعىّ فى الزواج إطلاقا ، الزواج عنده شركة تدرُّ ربحا ، لا ضرب من ضروب الدعارة الخاصة ، إنه طريقة تجعل الرجل والمرأة إذا ما تعاونا فى العمل ، أنجح فى الحياة منهما لو عمل كلى منهما مستقلا عن زميله ؛ فحينما وَجَدْتَ فى تاريخ المدنية مرحلة لا تكون فيها المرأة كسْباً فى زواجها للرجل ، فاعلم أن الزواج قد انهار بناؤه ، وأحياناً تنهار المدنيّة بانهياره .

الفصل الثانى

أخلاق الجنس

العلاقات قبل الزواج — الدعارة — العفة — البكارة — المعيار المزدوج — الخفر — نسبيه الأخلاق — الدور الذى يلعبه الخفر من الوجهة البيولوجية — الزنا — الطلاق — الإجهاض — وأد الأطفال — الطفولة — الفرد

إن أهم مهمة تقوم بها الأخلاق هى دائماً تنظيم العلاقة الجنسية ؛ لأن الغريزة التناسلية تخلق مشكلات قبل الزواج وبعد الزواج وإبّان الزواج ، وهى تهدد فى كل لحظة بإحداث الاضطراب فى النظام الاجتماعى لإلحاحها وشدتّها وازدرائها للقانون وانحرافاتها عن جادّة الطبيعة ؛ وأولى مشكلاتها تقع قبل الزواج ، أتكون العلاقات الجنسية عندئذ مقيدة أم طليقة ؟ وليست الحياة الجنسية بالطليقة من كل قيد حتى فى عالم الحيوان ؛ فرفضُ الأنثى للذكر ، إلا فى فترات التهيج ، يحصر الحياة الجنسية عند الحيوان فى دائرة أضيق جدا من مثيلتها عند الإنسان ذى الشهوة العارمة ، فالإنسان يختلف عن الحيوان — كما يقول بومارشيه — Beaumarchias فى أنه يأكل بغير جوع ، ويشرب بغير ظمأ ، ويتصل بالجنس الآخر فى كل فصول السنة ؛ وإنك لتجد بين الشعوب البدائية ما يشبه قيود الحيوان أو ما يضادها ، فى تحريم الاتصال بالنساء فى أيام حيضهن ، ولو استثنيت هذا القيد العام وجدت الاتصال الجنسى قبل الزواج طليقاً إلى حد كبير فى الجماعات البدائية الأولى ؛ فعند هنود أمريكا الشمالية ، يتصل الشبان بالشابات اتصالا حراً دون أن يكون ذلك عائقاً للزواج ، وكذلك عند قبيلة پاپوا فى غينا الجديدة تبدأ الحياة الجنسية فى سن مبكرة جداً والقاعدة قبل الزواج هى الشيوعية الجنسية[٤٣] وكذلك توجد مثل هذه الحرية قبل الزواج فى قبيلة «السويوت» Soyots فى سيبريا ،

و « إيجوروت » Igorots في الفلبين ، وأهالي بورما العليا ، والكفير والبوشمن في أفريقيا ، وقبائل نيجريا ويوغندا وجورجيا الجديدة وجزائر مرى وجزائر أندمان وتاهيتي وبولينزيا وآسام وغيرها[٤٤] ؛

في مثل هذه الظروف لا يُنْتظر أن نجد عُهْراً كثيراً في المجتمع البدائي ، فهذه المهنة التي هي « أقدم المهن » حديثة نسبياً لأنها لم تنشأ إلا مع المدنية مع ظهور الملْكية واختفاء الحرية الجنسية قبل الزواج ؛ نعم لقد نجد هنا وهناك فتيات يبعن أنفسهن حيناً ليجمعن مهورهن أو ليحصّلن مبلغاً يقدمنه إلى المعابد ، لكن ذلك لايحدث إلا إذا كان التشريع الخلقي في الإقليم يوافق عليه باعتباره تضحية تعبدية لمساعدة أبوين مقتصدين أو لإشباع آلهة جائعة[٤٥]

وأما العفة فهي الأخرى مرحلة جاءت متأخرة في سير التقدم ، فالذي كانت تخشاه العذراء البدائية لم يكن فقدان بكارتها ، بل أن يشيع عنها أنها عقيم[٤٦] ، فالمرأة إذا ما حملت قبل زواجها كان ذلك في معظم الحالات معيناً لها على الزواج أكثر منه عائقاً لها في هذا السبيل ، لأن ذلك الحمل يقضي على كل شك في عقمها ، ويبشر بأطفال يكسبون لوالدهم المال ، بل إن الجماعات البدائية التي قامت قبل ظهور الملْكية ، كانت تنظر إلى بكارة الفتاة نظرة ازدراء لأن معناها عدم إقبال الرجال عليها ؛ حتى كان العريس من قبيلة « كامشادال » Kamchadal إذا ما وجد عروسه بكراً ثارت ثورته و « طفق يسبّ أمها سبّاً صريحاً لهذه الطريقة المهملة التي قدمت بها ابنتها إليه »[٤٧] ، وفي حالات كثيرة كانت البكارة حائلا دون الزواج ، لأنها تلقي على الزوج عبئاً ثقيلا على النفس ، وهو أن يخالف أمر التحريم الذي يقضي عليه بألا يريق دم أحد من أعضاء قبيلته ، فكان يحدث أحيانا أن تُسْلم البنات أنفسهن لغريب عن القبيلة ليزيل عنهن هذا العائق الذي يحول بينهن وبين الزواج ، ففي التبت تبحث الأمهات في جدّ عن رجال يفضون بكارة بناتهن ، وفي « مَلَبار » ترى الفتيات أنفسهن يرجون

المارّة فى الطريق أن يؤدوا لهنّ هذه المكرمة « لأنهن ما دمن أبكاراً فهن لا يستطعن الزواج » ، وعند بعض القبائل تضطر العروس أن تُسلّم نفسها لأضياف العرس قبل دخولها إلى زوجها ، وعند بعضها يستأجر العريس رجلاً ليفضّ له بكارة عروسه ، وقبائل أخرى فى الفليبين يقوم موظف خاص يتقاضى راتبا ضخما تكون مهمته أن يؤدى هذا العمل نيابة عمن اعتزموا الزواج(٤٨) من الرجال .

فما الذى غيّر النظر إلى البكارة بحيث جعلها فضيلة بعد أن كانت خطيئة ؟ فجعلها بذلك عنصراً من عناصر التشريعات الخلقية فى كل المدنيات العالية ؟ لا شك أنها الملكية ، حين قام بين الناس بنظامها ، هى التى أدت إلى هذا التحول ؛ فالعفة الجنسية بالنسبة إلى البنات قبل الزواج جاءت امتداداً للشعور بالملك الذى أحسه الرجل إزاء زوجته بعد أن أصبحت الأسرة أبوية يرأسها الزوج ؛ وازدادت قيمة البكارة لأن العروس فى ظل نظام الزواج كانت تشترى بثمن أغلى إن كانت بكراً من ثمن أختها التى ضعفت إرادتها ، إذ البكر يُبشّر ماضيها بالأمانة الزوجية التى أصبحت عندئذ ذات قيمة كبرى فى أعين الرجال الذين كان يؤرقهم الهمّ خشية أن يورّثوا أملاكهم إلى أبناء السفاح(٤٩) .

وأما الرجال فلم يَدُرْ فى خواطرهم قط أن يقيدوا أنفسهم بمثل هذا القيد ، ولست تجد جماعة فى التاريخ كله قد أصرّتْ على عفة الذكر قبل الزواج ، بل لست تجد فى أية لغة من اللغات كلمة معناها الرجل البكر(٥٠) .

بهذا قضى على البنات وحدهن أن يعانين الخوف على بكارتهن ، فأثر فيهن هذا الوضع على صور شتى ؛ فقبيلة « توارج » تعاقب البنت أو الأخت التى حادتْ عن الجادّة بالموت ، وزنوج النوبة والحبشة والصومال وغيرها يضعون على أعضاء التناسل للبنات حلقات أو أقفالا تمنع أداء العملية الجنسية ، ولا يزال شىء كهذا قائما إلى يومنا هذا فى بورما وسيلان(٥١) ؛ كذلك نشأت ضروب من عزل

البنات عزلاً لا يتيح لهن أن يُغْرين الرجال أو يجيئهن الإغراء من الرجال ؛ والآباء الأغنياء فى بريطانيا الجديدة يحجزون بناتهم خلال الخمس السنوات الخطرة فى أكواخ يقيمون عليها حارسات من العجائز الفضليات ، فلا يسمح للبنات بالخروج أبداً ثم لا يؤذن لأحد برؤيتهن إلا الأقارب(٥٢) ؛ وليس بين هذه التصرفات كلها ، وبين « البُرْدة » التى تلبسها المسلمات والهندوس إلا خطوة واحدة ، وإن هذه الحقيقة لتذكرنا مرة أخرى بقُرْب المسافة بين « المدنية » و « الهمجية » .

وجاء الخَفَر مصاحباً للبكارة ولسيطرة الوالد على أسرته ؛ فهنالك قبائل إلى يومنا هذا لا يأخذها الحياء من ترك أجسادها عارية(٥٢ ا) ، لا بل إن بعضها ليخجله لبس الثياب ؛ ولقد اهتزت جنبات أفريقيا كلها بالضحك حين التمس « لفنجستون » من مُضيفيه السود أن يضعوا على أجسادهم بعض الثياب قبل قدوم زوجته ؛ وكانت « ملكة بالوندا » Balonda عارية من قمة رأسها إلى إخمص قدمها حين عقدت مجلسها من أجل « لفنجستون »(٥٣) ، وبين القبائل أقلية صغيرة تباشر العلاقة الجنسية علنا دون أن يداخلها أثر من الخجل(٥٤) ؛ وكان أول ظهور الحياء عند المرأة حينما أحست أنها محرَّمة أيام حيضها ؛ وكذلك حين قام نظام الزواج بالشراء ، وأصبحت بكارة البنت تدر الربح على أبيها ، فولّدَ عزل الفتاة وإرغامها على البكارة شعوراً عندها بضرورة احتفاظها بعفتها ؛ أضف إلى ذلك أن الحياء عند الزوجة فى ظل نظام الزواج بالشراء ، هو شعورها بتبعة مالية إزاء زوجها بأن تمتنع عن أية علاقة جنسية خارجية ليس من شأنها أن تعود عليه بشىء من الربح ؛ وها هنا ظهرت الملابس ، إن لم تكن الدوافع إلى التزين وإلى الوقاية قد أنشأتها بالفعل قبل ذلك ؛ ففى قبائل كثيرة لا تلبس المرأة ثياباً إلا بعد زواجها(٥٥) علامة على حيازة زوجها لها حيازة تامة ، وحائلا يحول دون سائر الرجال أن تأخذهم شهامة الرجولة ؛ فالرجل البدائى لا يوافق على الرأى الذى

ذهب إليه مؤلف « جزيرة البطريق » من أن الثياب تشجع على الدعارة ؛ وعلى كل حال فليست العفة متصلة بالثياب صلة ضرورية ، فيحدثنا الرحّالة فى أفريقيا أن الأخلاق هناك تتناسب فى تقدمها تناسباً عكسياً مع كمية الثياب[٥٦] فواضح أن ما يستحيي من فعله الناس إنما يعتمد على أساس التحريم الاجتماعى والتقاليد التى تسود جماعتهم ، فإلى عهد قريب كانت المرأة الصينية يخجلها أن تعرّى عن قدمها ، والعربية يخجلها أن تكشف عن وجهها ، والمرأة من قبيلة « تاورج » يخجلها أن تبدى فمها ، على حين أن النساء فى مصر القديمة ، وفى الهند فى القرن التاسع عشر ، وفى « بالى » فى القرن العشرين (حتى أتاهن السائحون الشهوانيون) لم يخجلهن أبداً أن يكشفن عن أثدائهن .

لكن لا ينبغى أن ننتهى من ذلك إلى نتيجة هى أن الأخلاق ليست بذات قيمة لأنها تختلف من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان ، وأنه من الحكمة أن نقيم الدليل على سعة علمنا بالتاريخ بأن نطرح من فورنا التقاليد الأخلاقية فى مجتمعنا ، فالعلم القليل بالأجناس البشرية يُعرِّض للخطر ؛ نعم إنه من الحق فى الأساس — كما قال أناتول فرانس فى سخرية — « إن الأخلاق هى مجموعة أهواء المجتمع »[٥٧] ؛ وكما قال « أناقارسيس » Anacharsis اليونانى ، إنه إذا ما جمعنا كل التقاليد التى تقدسها جماعة ما ، ثم حذفنا منها كل التقاليد التى تمجها جماعة أخرى ، ما بقى لنا منها شىء ؛ لكن ذلك لا يدل على تفاهة الأخلاق فى قيمتها ، إنما يدل على أن النظام الاجتماعى قد احتفظ بكيانه بطرائق شتى ؛ ولا يقلل اختلاف الطرق هذا من ضرورة النظام الاجتماعى ، فلابد من قواعد يرعاها الناس فى اجتماعهم بعضهم ببعض ، كأنما الاجتماع لعبة لا مندوحة للاعبين عن مراعاة قواعدها إن أرادوا المضىّ فى اللعب ، لا بد للناس أن يعلموا كيف يتصرف زملاؤهم فى ظروف الحياة الجارية ؛ ومن هنا كان إجماع الناس فى المجتمع الواحد على اصطناع أخلاق معينة فى سلوكهم لا يقل أهمية من مضمون هذه

الأخلاق نفسها ؛ فإذا تصدينا لتقاليد جماعتنا وأخلاقها بالتنكر والخروج عليها ، حين نستكشف فى صدر شبابنا أن تلك التقاليد والأخلاق نسبية ، فإنما نكشف بذلك عن يفاعة عقولنا ؛ ولو أمهلنا أنفسنا عقداً آخر من عقود العمر ، تكشّف لنا بعدئذ أن التشريع الخلقى الذى ارتضته الجماعة — وهو يلخص خبرة الأجيال المتعاقبة — فيه من الحكمة أكثر مما يمكن لأستاذ أن يشرحه لطلابه فى سلسلة محاضراته فى الجامعة ؛ فسنتبين عاجلا أو آجلا ما يثير فى صدورنا القلق ، وهو أنه حتى هذا الذى لم نستطع فهمه قد يكون صوابا ؛ فالأنظمة والمواضعات والتقاليد والقوانين التى هى قوام المجتمع المتعدد الجوانب ، إنما هى من صنع مئات الأجيال وبلايين العقول ، ولا يجوز لعقل واحد أن يتوقع لنفسه فهمها فى مدى الحياة القصير ، دع عنك مدى عشرين عاماً ؛ فيحق لنا إذن أن نختم بقولنا إن الأخلاق نسبية لكنها ضرورة لا غنى عنها .

فلما كانت التقاليد القديمة الأساسية تمثل الانتخاب الطبيعى فى طرائق حياة المجتمع بعد قرون قضاها الإنسان فى محاولة وخطأ ، فلابد لنا أن نرجح بعض الفائدة الاجتماعية ، أو بعض القيمة فى مساعدة الجنس على البقاء ، فى البكارة والحياء على الرغم من أنهما نسبيان ، وأنهما مرتبطان بنظام الزواج بالشراء ، ومن أنهما سبب فى الأمراض العصبية ؛ فالحياء أو الخَفَر كان بمثابة الكمين فى ميدان القتال تلوذ به الفتاة إذا ما تقدم إلى خطبتها الخاطبون ، لتختار من بينهم أصلحهم ، اختياراً قائماً على روية ، أو لتضطر خاطبها أن يهذب من خصاله قبل أن يظفر بها ؛ على أن السدود التى أقامها خَفَر النساء فى وجوه شهوات الرجال ، هى نفسها التى ولّدت عواطف الحب الشعرى الذى رفع قيمتها فى عينيه ؛ واصطناع النظام الذى يهتم بالبكارة قد أدى إلى زوال السهولة واليسر الفطرى الذى كانت تتم به الحياة الجنسية البدائية ، لكنه من ناحية أخرى ، بحيلولته دون التطور الجنسىّ فى سن مبكرة ، والأمومة قبل أوانها ، قد ضيّق الفجوة بين النضج الاقتصادى والنضج

الجنسي — ولو أن هذه الفجوة تميل إلى الاتساع السريع كلما تقدمت المدنية — وربما أعان نظام البكارة بهذا الذى ينشأ عنه من تأجيل للحياة الجنسية ، ربما أعان على تقوية الفرد جسما وعقلا ، وعلى إطالة أمد المراهقة والتدريب ، وبهذا ينتهى إلى رفع مستوى الجنس البشرى .

لما تطورت الملكية ، تدرج الزنا فأصبح من الكبائر بعد أن كان معدوداً من الصغائر ؛ فنصف الشعوب البدائية التى نعرفها لا تعلق على الزنا أهمية كبرى(٥٨) وعلى ذلك فنشأة الملكية لم تؤدِّ فقط إلى مطالبة المرأة بالوفاء التام لزوجها ، لكنها كذلك ولّدت فى الرجل شعوراً بالملكية إزاء زوجته ، حتى حين يعيرها لضيفه ، فهو إنما يفعل ذلك لأنها ملكه جسداً وروحاً ؛ ثم كمل هذا الاتجاه فى تصور المرأة حين ألزموها أن تهبط إلى قبر زوجها مع سائر أدواته ؛ وعُدّ الزنا فى الأسرة الأبوية مساويا للسرقة (٥٩) كأنما هو فى أساسه اعتداء على الامتلاك ، وتفاوت عقاب الزنا فى شدته من أخف العقوبات إلى أقساها ، من عدم المبالاة عند القبائل البدائية إلى بقر بطون الزانيات وإخراج أمعائهن عند بعض قبائل الهنود فى كالفورنيا(٦٠) وبعد أن مرّت الجريمة بقرون طويلة من العقاب ، قرّت فى النفوس فضيلة الوفاء الزوجى عند الزوجة قراراً مكينا وولدت لها ضميرا فى فؤاد المرأة يرعاها ، حتى لقد أدهشت قبائلُ هنديةٌ كثيرةٌ غزاتهم بما لزوجاتهم من فضيلة الوفاء التى يستحيل عندهن التفريط فيها ؛ وتمنى كثير من الرحّالة أن يجىء يوم على النساء فى أوربا وأمريكا يساوين فيه من حيث الوفاء الزوجى زوجات الزولو والپاپوا(٦١) .

وكان الوفاء الزوجى أيسر على أهل « پاپوا » ، لأنهم كمعظم الشعوب البدائية لا يقيمون إلا قليلا من العوائق التى تعوق الزوج عن طلاق زوجته ، حتى أن الاتحاد الزوجى أوشك ألا يزيد بين الهنود الأمريكيين على عدد قليل من السنين ؛ ويقول فى ذلك « سكولكرافت Schoolcraft » : « إن نسبة كبيرة من الرجال

الكهول أو الشيوخ ، قد اتصلت بزوجات كثيرة حتى أن هؤلاء ليجهلون أبناءهم المنتشرين فى أرجاء إقليمهم »[٦٢] ؛ « إنهم يسخرون من الأوروبيين لاكتفاء الرجل منهم بزوجة واحدة مدى حياته ، وهم يرون أن « الروح الطيبة » قد زاوجت بين الزوجين ليكونا سعيدين ، فلا ينبغى أن يظلا معاً إلا إذا تلاءمت فيهما الاتجاهات والميول »[٦٣] ؛ لهذا ترى الرجال من قبيلة « تشروكى » Cherokees يبدلون الزوجة ثلاث مرات أو أربعاً كل عام ، وأما أهل « ساموا » فيبقون على زوجاتهم ثلاث أعوام لأنهم يميلون إلى المحافظة[٦٤] ؛ لكن لما جاءت الزراعة بما تقتضيه من حياة مستقرة ، امتد أمد الروابط الزوجية ، فى ظل النظام الأبوى للأسرة ، كان الطلاق عملية لا تتفق وقواعد الاقتصاد فى رأى الرجل ، لأن طلاق الزوجة معناه فى حقيقة الأمر تفريط فى أمة تعود على سيدها بالربح[٦٥] ولما أصبحت الأسرة هى نواة الإنتاج فى المجتمع ، تحرث الأرض وترعاها بالتعاون ، ازدادت ثراء كلما ازدادت نفراً وتماسكا ، على فرض المساواة فى سائر الظروف بينها وبين ما هو أصغر منها من الأسر ؛ وتبين للناس ما هو فى صالح المجتمع من أن الرابطة الزوجية ينبغى أن تدوم بين الزوجين حتى يفرغا من تربية أصغر الأبناء ؛ ولكنهما إذا ما بقيا معا حتى هذه السن ، لم يعد لديهما من نشاط الحياة ما يدفعهما إلى حب جديد . وتصبح حياة الزوجين كأنها نفس واحدة لما اشتركا فيه معا من عمل وضعاب ؛ ولم يعد الطلاق إلى اتساع نطاقه من جديد ، إلا بعد انتقال الإنسان إلى الصناعة فى المدن ، وما تبع ذلك من تخفض لعدد أفراد الأسرة وقلة فى خطرها .

ويمكن القول بصفة عامة إن الرجال خلال عصور التاريخ كلها أحبوا كثرة الأطفال ؛ ولذا جعلوا الأمومة مقدسة ؛ بينما النساء اللاتى يقاسين مرارة النسل ، قد اضطربت فى أنفسهن ثورة خفية على هذا التكليف الثقيل ، فاستخدمن ما لا عدد له من الوسائل ليتخففن من أعباء الأمومة ؛ فالرجال البدائيون

لا يأبهون عادة لعدد السكان أن يزيد إلى غير تحديد ، لأن الأبناء مربحون لهم فى ظروف الحياة السوية ، ولئن أسف الرجل على شىء فذاك أنه يستحيل عليه أن يستولد امرأته البنين بغير البنات ؛ أما المرأة فتقابل هذا من ناحيتها بالإجهاض ووأد الأطفال وضبط النسل — فحتى هذا الأخير قد كان يحدث آنا بعد آن فى الشعوب البدائية[٦٦] ؛ وإنه لما يثير الدهشة أن نرى شدة الشبه بين الدوافع التى تحرك المرأة « الهمجية » والدوافع التى تحرك المرأة « المتمدنه » إلى اتقاء الولادة ، وهى أن تفلت من عبء تربية الأطفال ، وتحتفظ لنفسها بقوام فيه فتوة الشباب ، وتتقى العار الذى يلحقها من أمومة لطفل جاءها من غير زوجها ، وتجتنب الموت ، وغير هذه من شتى الدوافع ؛ وأبسط الوسائل التى تتبعها المرأة لتحديد الأمومة أن ترفض الرجل إبان الرضاعة التى قد تطول مدى أعوام كثيرة ، ويحدث أحياناً — كما هى الحال عند هنود تشينى — أن تأبى المرأة حملا ثانياً إلا إذا بلغ طفلها الأول عامه العاشر ؛ وفى بريطانيا الجديدة لم تكن المرأة لتنسل الأطفال قبل مرور عامين أو أربعة أعوام بعد زواجها ؛ ويلاحظ أن قبيلة « جوايكورو » Guaycuros فى البرازيل كانت تتناقص تناقصاً مطرداً ، لأن نساءها لم يقبلن حمل الأطفال قبل أن يبلغن الثلاثين ؛ والإجهاض شائع بين أهل « پاپوا » فيقول نساءهم فى ذلك : « عبء الأطفال ثقيل فلقد سئمناهم ، لأنهم ينهكون قوانا » والنساء فى بعض قبائل « الماورى » Maori يستعملن أعشاباً أو يسببن فى أرحامهن اعوجاجاً ليتقين الحمل[٦٧] .

وإذا فشلت المرأة فى إجهاض نفسها ، فقد بقى لها أن تئد طفلها ، ومعظم الشعوب الفطرية تبيح قتل الطفل عند ولادته إذا جاء شائها أو مريضاً أو سفاحا ، أو إذا ماتت أمه عند ولادته ؛ وكأنما يجد الإنسان مبرراً مقبولا فى كل وسيلة تؤدى به إلى ضبط عدد السكان ضبطاً يتناسب مع مواد الرزق ، فترى كثيراً من القبائل التى تقتل الأطفال إذا ما ظنوا أنهم ولدوا فى ظروف لا يحالفها السعود ؛

فقبيلة « بُنْدى » Bondei تخنق المولود إذا نزل إلى الدنيا برأسه أولا ، وقبيلة « كامشادال » تقتل الطفل إذا ولد فى جو عاصف ، وقبائل مدغشقر تترك الطفل الوليد فى العراء حتى يموت أو تغرقه فى الماء أو تئده حيا إذاما أطل على العالم فى مارس أو إبريل ، أو يوم أربعاء أو جمعة أو فى الأسبوع الأخير من أى شهر ، وإذا ما ولدت المرأة توأمين فى بعض القبائل ، عُدَّ ذلك برهاناً على اقترافها الزنا ، لأنه يستحيل على رجل واحد أن يكون والد لطفلين فى آن واحد ، وعلى ذلك فأحد الأثنين أو هما معاً يقضى عليهما بالموت ؛ وأد الأطفال كان شائعا بين البدو بصفة خاصة لأنهم كانوا يسببون لهم إشكالا فى ترحالهم الطويل ؛ فقبيلة « بانجرانج » Bangarang فى فكتوريا كانت تقتل نصف أطفالها عند الولادة ؛ وقبيلة « اللنجوا » Lenguas فى إقليم شاكو من باراجواى لم تكن تسمح للأسرة الواحدة بأكثر من طفل واحد كل سبعة أعوام ، وتقتل مازاد على ذلك ، وقبيلة « أبيبون » Abipones حددت عددها على نحو ما فعل الفرنسيون ، وذلك بأن تنشئ كل أسرة ولداً واحداً وبنتاً واحدة ، وكان نسل غير ذلك يقتل فور ولادته وإذا حلّت ببعض القبائل مجاعة أو تهددتهم مجاعة ، قتلوا أطفالهم حديثى الولادة أو أكلوهم ، وكانت البنت عادة هى التى تتعرض للوأد ، وكانت أحياناً تعذّب حتى تموت بحجة أن ذلك يجعل روحها تعود إلى الحياة فى جسد صبى إذا ما عادت إلى الحياة من جديد(٦٨) ، وكان وأد الأطفال لا يشوبه فى أعينهم بشاعة ولا يستتبع تأنيباً من الضمير ، لأن الأم فيما يظهر لا تحسّ الحب الغريزى لأطفالها عند ولادتهم مباشرة .

أما إذا سمح للطفل بالحياة أياما قلائل ، فقد أمِنَ القتل ، لأنه سرعان ما تثور فى الوالدين عاطفة الأبوة أو الأمومة لما يريانه فيه من بساطة وضعف ، وفى معظم الحالات ، كان الطفل يلقى من الحب فى معاملته من أبويه البدائيين ما لا يلقاه الطفل على وجه العموم عند من هم أرقى فى المدنية من هؤلاء(٦٩) ؛ ولأن

اللبن أو غيره من ألوان الطعام الطرىّ لم يكن يتوفر لديهم ، كانت الأم تقوم على رضاعة طفلها من عامين إلى أربعة أعوام ، بل قد تمتد الرضاعة أحياناً إلى اثنى عشر عاما[٧٠] ، فيحدثنا رحّالة عن ولد أخذ فى التدخين قبل أن يُفْطَم عن الرضاعة[٧١] وكثيراً ما كان الصبى يقف لَعِبَه مع لداته ، أو يقف ما عسى أن يؤديه من عمل ، لترضعه أمه[٧٢] . والمرأة الزنجية تحمل رضيعها على ظهرها إبان عملها ، فإذا أرادت له الرضاعة قذفت له — أحيانا — بثديها عَبْرَ كتفها[٧٣] ؛ ولم تكن تربية الأباء لأبنائهم بسيئة النتائج على الرغم من إهمالهم إياهم إهمالا شديدا ذلك لأنهم كانوا يتركون الطفل فى سن مبكرة يلاقى نتائج بلاهته ووقاحته ومشاكسته ، فكان الطفل يزداد علماً كلما ازداد تجربة ؛ وفى المجتمع الفطرى يشتد الحب بين الآباء لبنيهم والأبناء لآبائهم[٧٤] .

والطفولة فى الجماعة البدائية تتعرض لكثير من الأخطار والأمراض ، ونسبة الوفاة فيهم عالية ؛ والشباب فى تلك الجماعة قصير الأمد ، لأن الزواج كان يبدأ فى سن مبكرة فتبدأ التبعات الزوجية ، وسرعان ما يضيع الفرد فى ثقال المهام التى يكلف بها من تزويد الجماعة بزادها والدفاع عنها ، فالنساء يُذْوِبهن حمل الأطفال والرجال يذويهم تزويد هؤلاء الأطفال بضرورات الحياة حتّى إذا ما فرغ الأبوان من تربية الطفل الأخير ، نفدت قواهما ، فلم يكن ثمة مجال لإبراز الشخص لفرديته ، لا فى أول الحياة ولا فى نهايتها ؛ فالفردية — كالحرية — ترف جاءت به المدنيّة إذ لم يحدث إلا فى فجر التاريخ أن تحرر من ربقة الجوع والنسل والقتال عددٌ من الرجال والنساء يكفى لخلق القيم الروحية للفراغ والثقافة والفن .

الفصل الثالث

الأخلاق الاجتماعية

طبيعة الفضيلة والرذيلة - الجشع - الخيانة - العنف - القتل - الانتحار - انخراط الفرد فى جماعة - الإيثار - الكرم - أوضاع السلوك - تحديد القبيلة للأخلاق - الأخلاق البدائية بالقياس إلى الأخلاق الحديثة - الدين والأخلاق

من بين واجبات الوالدين أن ينقلوا إلى الأبناء تشريع الأخلاق ، لأن الطفل أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان ؛ وإنه ليتلقى إنسانيته شيئاً فشيئاً كلما تلقى جانباً من التراث الخلقى والعقلى الذى خلّفه له الأسلاف ؛ والطفل من الوجهة البيولوجية سيّئ الإعداد للمدنية ، لأن غرائزه تهيئه للمواقف الرئيسية والتقليدية ولا تشتمل إلا على الاستجابة للمثيرات التى توافق الغابة أكثر من موافقتها للمدنية ؛ كل رذيلة كانت يوما ما فضيلة ضرورية فى تنازع البقاء ، ولم نسمِّها رذيلة إلا لأنها تلكأت فى وجودها بعد زوال الظروف التى كانت تستلزم وجودها - فليست الرذيلة - إذن - ضربا من السلوك الراقى ، بل هى فى العادة ارتداد بالإنسان إلى سلوكه القديم الذى حل مكانه سلوك جديد ؛ فمن الغايات التى ينشد تحقيقها التشريعُ الخلقى أن يوائم نزوات الطبيعة البشرية التى لم تتغير - أو التى تتغير ببطء - مع حاجات الحياة الاجتماعية وظروفها المتغيرة .

لبث الجشع وحب التملك والخيانة والقسوة والعنف أمورا نافعة للحيوان وللإنسان مدى أجيال بلغت من طولها حداً تعذر معه على كل ما لدينا من قوانين وتربية وأخلاق ودين أن تزيلها إزالة تامة ؛ ولا شك أن لبعضها - حتى فى يومنا هذا - قيمة فى حفظ البقاء ، فالحيوان يُتخم نفسه طعاماً لأنه لا يعلم متى

عساه أن يجد القوت مرة أخرى ، وهذا الارتياب فى ظروف المستقبل هو منشأ الجشع ؛ فالرجل من قبيلة « ياقوت » يأكل أربعين رطلاً من اللحم فى يوم واحد وكذلك تروى قصص كهذه — وإن تكن أقل منها بطولة — عن الإسكيمو والسكان الأصليين فى استراليا(٧٥) ، وإن الاطمئنان الاقتصادى الذى هومن نتائج المدنية لمن حداثة العهد بحيث يتعذر عليه أن يزيل هذا الجشع الطبيعى فى الإنسان ، الذى لا يزال يظهر فى حب التملك الذى لا يشبع ، حتى لتراه يدفع الرجل الحديث أو المرأة الحديثة إذ هما فى قلق من الحياة ، أن يَختزنا الذهب أو غيره من السلع التى يمكن تحويلها إلى طعام إذا ما طرأ طارئ مفاجئ ؛ وليس الجشع للشراب كالجشع للطعام لأن معظم الجماعات الإنسانية قد احتشدت حول ينابيع الماء ؛ ومع ذلك فشراب المسكرات يوشك أن يعم الإنسان جميعاً ، وهم لا يطلبونه عن جشع بقدر ما يطلبونه ليدفئوا فى أنفسهم برودة يحسونها ، أو ليمحوا من ذاكرتهم همًّا يشقيهم — وقد يطلبونه لمجرد أن ما تحت أيديهم من الماء لا يصلح شراباً .

والخيانة ليست عريقة القِدَم كالجشع ، ذلك لأن الجوع أسبق إلى الوجود من المِلْكية ؛ ولعل « الهمج » البدائيين فى أبسط صورهم أكثر الناس أمانة(٧٦) « فالكلمة يقولونها مقدسة » كما يقول « كولبن » Kolben عن قبيلة الهوتنتوت « وهم لا يصطنعون شيئاً مما تعرفه أوروبا من وسائل الفساد والخيانة »(٧٧) ؛ لكن هذه الأمانة الساذجة زالت بتقدم وسائل المواصلات التى ربطت أجزاء الأرض بعضها ببعض ، لأن وسائل أوروبا استطاعت بعدئذ أن تعلم هذا الفن الدقيق للهوتنتوت ؛ فالخيانة بصفة عامة تنشأ مع المدنية ؛ لأنه فى ظل المدنية يزداد المجال الذى يتطلب دهاء السياسة اتساعاً ، إذ تزداد الأشياء التى تغرى الإنسان بالسرقة ، وتربيتنا لأبنائنا تنشّئهم على المهارة فى ذلك ؛ فإذا ما تقدمت المِلْكية بين البدائيين جاءهم فى إثرها الكذب والسرقة(٧٨) .

وأما جرائم الافتئات والاعتداء فهي قديمة قِدَمَ الجشع ؛ فتقاتل الناس على الطعام والأرض والمرأة قد روّى الأرض بدماء البشر ، لم ينج من ذلك جيل واحد من الأجيال وغشّى نور المدنية الواهن المتقطع ببطانة من ظلام ؛ كان الإنسان البدائي قاسياً إذ كان حتْماً عليه أن يكون كذلك ؛ فقد علّمته الحياة أن تكون ذراعه على استعداد للضرب دائماً ، وأن يكون له قلب يستسيغ « القتل الطبيعي » وأسْوَدُ الصحائف التي تصادفك وأنت تقرأ علم الأجناس البشرية ، هي تلك التي تروى لك عن التعذيب الذي يسود الحياة البدائية ، وعن الفرح الذي ينتشي به كثير من البدائيين رجالا ونساء — فيما يظهر — إذا ما أنزلوا بأحد ألما(٧٩) ، وكثير من هذه القسوة كان من لوازم الحرب ، ففي حدود القبيلة الواحدة ، تجد أساليب التعامل أقل وحشية ، فيعامل بعضهم بعضاً — بل يعاملون عبيدهم — برقة لا تقل في شيء عما تعهده المدنية من ذلك(٨٠) لكن لما كان الناس مضطرين اضطراراً أن يقتلوا إبان القتال ، فقد علّمهم هذا أن يقتلوا كذلك أيام السلم ؛ وكم من البدائيين لا يرون وسيلة لفض النزاع إلا إن مات أحد المتنازعين ؛ وكثير من القبائل لا يرتاع أبناؤها إذا اغتال إنسان إنساناً — حتى إن كان القتيل من أبناء العشيرة نفسها — بمثل الجزع الذي كنا نحن المحدثين نقابله به ؛ فأهل « فويچي » Fuegians لا يعاقبون القاتل بأكثر من نفيه حتى ينسى زملاؤه جريمته ؛ وقبائل الكفير تعدُّ القاتل نجساً ، ويطالبونه بتسويد وجهه بالفحم ، ولكنه بعدئذ إن غسل جسده ومضمض فمه وصبغ جلده بلون بُنّى قَبِلوه في الجماعة من جديد ، وأما همج « فوتونا » Futuna فهم — مثلنا — يعدون القاتل بطلا(٨١) ؛ وفي بعض القبائل ترفض المرأة أن تتزوج من رجل لم يقتل أحداً في قتال ، سواء في ذلك أكان القتال سليم الأساس أم فاسده ؛ ومن هنا نشأت عادة اصطياد الرءوس التي لا تزال باقية في الفلبين حتى اليوم ؛ وعند قبيلة « دياك » Dyak يكون للرجل الذي يعود من مثل هذا الصيد البشري بأكبر عدد من الرءوس ،

أن يختار من يشاء من بنات القرية ، والبنات يشتهينه زوجا لأنهن يدركن أنهن قد يصبحن — بلقاء مثل هذا الزوج — أمهات لرجال شجعان أقوياء[٨٢](*)

حيث يغلو الطعام ترخص الحياة ، فأبناء الإسكيمو لامندوحة لهم عن قتل والديهم إذا ما أصبح هؤلاء من الشيخوخة بحيث لايقوون على شيء ولا يصلحون لشيء ، فالامتناع عن قتلهم فى مثل هذه الحالات يعتبر مجافاة لواجب النبوة[٨٣] ، وحياة الرجل البدائى رخيصة على نفسه لأنه يقتل نفسه فى اندفاع لا ينافسه فيه إلا اليابانيون ؛ وإذا ما أسيء إلى شخص فانتحر أو أنزل بنفسه الأذى ، فالمسيء لا بد أن يجرى مجراه فى ذلك .وإلا عُدّ منبوذاً من المجتمع[٨٤] ، وما أقدم الانتحار تخلصا من الدَّنَس والعار ؛ وكل شيء قد يكفى سبباً للانتحار ، فقد انتحر بعض الهنديات من شمالى أمريكا لأن أزواجهن قد استباحوا لأنفسهم لومهن ، وانتحر شاب من جزيرة « تروبرياند » لأن زوجته دَخَّنَتْ كل ما كان لديه من تبغ[٨٥] .

وأخذت المدنية على نفسها فيا أخذت أن تحول الجشع عند الإنسان إلى اقتصاد ، والاعتداء إلى حجاج ، والاغتيال إلى مقاضاة ، والانتحار إلى فلسفة ، وما كان أعظمه من تقدم للإنسان حين رضى القوي أن يأكل الضعيف بوساطة القانون ، وإن الجماعة لتفنى إذا ما سمحت لأبنائها أن يقف بعضهم من بعض نفس الموقف الذى يشجعهم أن يقفوه جماعةً إزاء غيرها من الجماعات ، فالتعاون الداخلى هو أول قانون للتنافس الخارجى ، وتنازع البقاء لا ينتهى بتعاون الأفراد بعضهم مع بعض ، إنما هو ينتقل إلى الجماعة بعد أن كان للفرد ، ولو تساوت الظروف فى جماعتين إلا فى أن إحداهما يستطيع أعضاؤها من أُسَر وأفراد أن يتحد بعضهم مع بعض ، فهى التى تستطيع أن تسبق الأخرى فى ميدان

---

(١) تكون هذه الفكرة نصف موضوع المسرحية التى ألفها سنج Synge وعنوانها : فتى الغرب Teh Playboy of th Western World

التنافس سبقا يتناسب مقدراه . مع مقدار ما بداخلها من تعاون ؛ ومن هنا كان لكل جماعة تشريع أخلاق تلقنه لأفرادها ، وتبنى لهم فى أفئدتهم ميولا اجتماعية تقال من الحرب الطبيعية التى هى من شأن الأحياء ، وإنما تفعل الجماعة ذلك لأن هؤلاء الأفراد هم حلفاؤها وأركانها المستورة ؛ وهى تؤيد طائفة من الخصال أو العادات فى الفرد من شأنها أن تعود بالنفع على الجماعة ، ولذا تسميها فضائل ؛ كما تنفّر النفوس من أضدادها بأن تسميها رذائل ؛ وبهذه الطريقة ينخرط الفرد — فى ظاهره إلى حد ما — فى سلك الجماعة ، والحيوان فيه يصبح مواطنا .

لم يكن — أو كاد ألا يكون — توليد العواطف الاجتماعية فى نفس « الهمجى » بأصعب من إثارة هذه العواطف اليوم فى قلب الإنسان الحديث ، فلئن كان تنازع الحياة قد شجع على قيام الشيوعية ، فقد عزز تنازع الملاك الشعوربالفردية ؛ وربما كان الإنسان البدائى أسرع من الإنسان المعاصر استعدداً للتعاون مع زملائه فقدكان أيسر عليه من الإنسان المعاصر أن يتماسك اجتماعياً مع زملائه لأن الأخطار والمصالح التى كانت تربط بالجماعة كانت أقوى منها الآن ، كما كانت أملاكه أقل من أن تجعله يتفرّد بمصالح من دون زملائه(٨٦) ؛ لقد كان الإنسان البدائى عنيفاً جشعاً ، لكنه كان كذلك رحيما كريما ، مستعداً لاقتسام ما معه حتى مع الغرباء ، ولتقديم الهدايا لأضيافه(٨٧) فكل قارئ يعرف كرم البدائيين كيف كان يدفعهم فى قبائل كثيرة إلى حد تقديم زوجة المضيف أو ابنته إلى نزيل بيته(٨٨) ورفض مثل هذه التحية أثناء الضيافة يعتبر عندهم إيذاء شديداً لشعورهم : لشعور المضيف وشعور المرأة فى آن معاً ، وإن ذلك لمن المشكلات التى يصادفها المبشرون ؛ والمعاملة التى يُعامَل بها الضيف إبان إقامته تتوقف على الطريقة التى عالج بها أمثال هذه التبعات فى أول قدومه(٨٩) ؛ ويظهر أن الإنسان البدائى قد كان يشعر نحو امرأته شعور الغيرة على ملكه لاشعور الغيرة الجنسية ، فلا يسوء إليه أن تكون زوجته قد «عرفت» رجالا غيره قبل زواجها منه ، ولايؤذيه أنها

الآن تضاجع ضيفه ، لكنه يثور بالغضب — باعتباره مالكاً لا باعتباره عاشقاً — إذا ما رآها تضاجع رجلا بغير استئذانه ؛ وبعض الأزواج فى أفريقيا يعيرون زوجاتهم إلى الغرباء لتسهيل أمورهم عند هؤلاء[٩٠]

إن قواعد المجاملة كانت من التعقد لدى معظم الشعوب الساذجة ، بمثل ماهى عليه لدى الأمم الراقية[٩١] فكلى جماعة لها طرائقها الرسمية فى الاستقبال والتوديع ، فإذا ما التقى شخصان فقد يتحاكان بالأنوف أويتشمم أحدهما الآخر ، أو يضرب كل منهما زميله ضربا رقيقا[٩٢] ولكن هؤلاء الناس — كما أسلفنا — يستحيل أن يقبّل أحد منهم أحداً ؛ وبعض القبائل الغليظة كانت أحسن أدبا من متوسط الإنسان الحديث ، فصيادو الرءوس البشرية من قبيلة « دياك » يقال عنهم إنهم « وديعون مسالمون » فى حياتهم المنزلية ؛ وهنود أمريكا الوسطى يعتبرون حديث الرجل الأبيض بصوت عال وسلوكه الغليظ من علامات سوء تربيته وثقافته البدائية[٩٣] .

إن كل الجماعات البشرية تقريبا تكاد تتفق فى عقيدة كل منها بأن سائر الجماعات أحط منها ؛ فالهنود الأمريكيون يعدون أنفسهم شعب الله المختار ، خلقه « الروح الأعظم » خاصة ليكون مثالا يرتفع إليه البشر ، وقبيلة من القبائل الهندية تطلق على نفسها « الناس الذين لا ناس سواهم » وأخرى تطلق على نفسها « الناس بين الناس » وقال « الكاريبيون » Caribs « نحن وحدنا الناس » ، وكان الاسكيمو يعتقدون أن الأوربيين إنما ارتحلوا إلى جرينلنده لينفذوا عنهم طرائق العيش الصحيحة والفضائل[٩٤] ونتيجة ذلك أن الإنسان البدائى لم يكن يدور فى خلده أن يعامل القبائل الأخرى ملتزما نفس القيود الخلقية التى يلتزمها فى معاملته لبنى قبيلته ، فهو صراحة يرى أن وظيفة الأخلاق هى تقوية جماعته وشد أزرها تجاه سائر الجماعات ، فالأوامر الخلقية والمحرّمات لا تنطبق إلا على أهل قبيلته ، أما الآخرون فما لم يكونوا ضيوفه ، فمباح له أن يذهب فى معاداتهم إلى الحد المستطاع[٩٥]

ليس التقدم الخلقى فى التاريخ متمثلا فى تحسّن التشريع الخلقى بمقدار ما هو متمثل فى توسيع الدائرة التى يُطَبَّقُ فيها ، فأخلاق الإنسان الحديث ليست بالضرورة أسمى من أخلاق البدائى ، ولو أن التشريعين الخلقيين قد يختلفان فيما بينهما اختلافا بينا من حيث المضمون والتنفيذ والأداء ، لكن الأخلاق الحديثه فى الأيام العادية تتسع نطاقا بحيث تشمل عدداً أكبر من الناس عن ذى قبل — ولو أن هذا التوسع قد أخذ يقل تدريجيا(*) ذلك أنه لما جعلت القبائل تحتشد فى وحدات أكبر تسمى دُوَلا ، فاضت قواعد الأخلاق عن حدود القبيلة ؛ ثم لمـــا اتصلت الدول بوسائل المواصلات أو بالخطر المشترك ، تسللت الأخلاق من دولة إلى دولة خلال الحدود ، وطفق فريق من الناس يطبق قواعده الخلقية على الأوروبيين جميعا ، ثم على الجنس الأبيض كله ، ثم أخيراً على البشر أجمعين ، وربما لم يخل عصر من العصور من أصحاب المثل العليا الذين تمنوا أن يحبوا الناس جميعا حبهم لجيرانهم ، وربما كانت أصواتهم دائما صيحات فى واد بلقع من قوميات وحروب ، لكن عدد هؤلاء الناس أو حتى نسبتهم العددية إلى غيرهم ، قد زادت اليوم على الأرجح ، ولئن خلت السياسة من الأخلاق ، فهنالك أخلاق فى التجارة الدولية لسبب بسيط هو أن هذه التجارة يستحيل قيامها بغير شىء من القيود والقانون والثقة ، فإن بدأت التجارة فى القرصنة ، فقد صعدت إلى قمة الأخلاق .

ذلك لأن الجماعات الإنسانية قد ارتضت أن تقيم تشريعاتها الخلقية على أساس من المنفعة الاقتصادية والسياسية الصريحة ، إذالفرد لم تهيئه طبيعته بالميول التى تميل به نحو إخضاع مصالحة الشخصيةلمصالح المجتمع ، أونحو طاعة القوانين المحرجة للصدور إذا لم يكن ثمة من الوسائل المنظورة ما يفرضها عليه بالقوة ؛

(*) ومع ذلك فالمدى الذى يطبق فى حدوده التشريع الخلقى قد أخذ يضيق منذ العصور الوسطى نتيجة لنشأة القوميات .

فلكى تقيم المجتمعات على الأفراد حارساً غير منظور ، ولكى تقوّى فيهم الدوافع الاجتماعية ضد الدوافع الفردية بما تثيره فيهم من آمال قوية ومخاوف قوية ، فإنها استخدمت الديانة وإن لم تخترعها ؛ ولقد عبر الجغرافى القديم « سترابو » عن أكثر الآراء تقدماً فى هـــذا الموضوع منذ تسعة عشر قرنا فقال :

إنك فى معاملتك لحشد من النساء ، على أقل تقدير ، أو معاملتك لأية مجموعة من الناس اجتمعت كما اتفق ، لا تستطيع بالفلسفة أن تؤثر فيهم ، إنك لا تستطيع أن تؤثر فيهم بالعقل أو أن تقنعهم إقناعا بضرورة الوقار والورع والإيمان كلا ، بل لا بد لهم من الخوف الدينى أيضاً . ولا يمكن إثارة هذا الخوف فى نفوسهم بغير الأساطير والأعاجيب ؛ فالصواعق والدروع والصولجانات والمشاعل ورماح الآلهة ، كل هذه من الأساطير ، وكذلك منها اللاهوت القديم من أوله إلى آخره ؛ لكن مؤسسى الدول حرصوا على هـــذه الأشياء باعتبارها عفاريت يُفزعون بها السُّذّج من الناس ؛ ولما كانت هذه طبيعة الأساطير (الميثولوجيا) ثم لما احتلت الأساطير مكانتها فى إطار الحياة المدنية والاجتماعية كما احتلت مكانتها كذلك فى تاريخ الوقائع الملموسة ، فقد تمسّك القدماء بنظمهم فى تربية أطفالهم وطبقوها حتى سن النضوج ، وآمنوا بأنهم يستطيعون بوساطة الشعر أن يهذبوا أية فترة من فترات الحياة عند الناشئ ؛ أما اليوم ، وبعد أن مرّ هذا الزمن الطويل ، أصبح التاريخ وأصبحت الفلسفة فى مقدمة ما يربّى به النشء ؛ مع أن الفلسفة لا تصلح إلا للقليل ، بينما الشعر أصلح منها للشعب بصفة عامة »[٩٦] .

الكن فسرعان ما تسبغ العقيدة الدينية على الأخلاق لوناً من التقديس ، لأن ما هو فوق الطبيعة يضيف أهمية يستحيل أن تكتسبها من تلقاء نفسها الأشياء التى نعرفها بالتجربة الحسية والتى نفهمها بردّها إلى أصولها ، فالخيال أيسرُ وسيلةً من العلم فى حكم الناس ؛ ولكن هل كانت هذه الفائدة الخلقية هى أصل العقيدة الدينية وأساسها ؟

الفصل الرابع

الدين

الملاحدة البدائيون

إذا عرَّفنا الدين بأنه عبادة القُوَى الكائنة فوق الطبيعة . فلا بد لنا منذ البداية أن نلاحظ أن بعض الشعوب — فيما يبدو — ليس لهم ديانة على الإطلاق فبعض قبائل الأقزام فى أفريقيا لم يكن لهم عقيدة أو شعائر دينية يقيمونها بحيث يراها المشاهدون ؛ ولم يكن لهم طوطم ولا أصنام ولا آلهة ؛ وكانوا يدفنون موتاهم بغير احتفال ، فإذا ما فرغوا من دفنهم لم يَبْدُ عليهم ما يدل على أنهم يهتمون لأمرهم بعد ذلك إطلاقاً ، بل أعوزتهم حتى الخرافة ، ذلك لو أخذنا بأقوال الرحَّالة فلم نظن بأقوالهم الإسراف الذى يعزّ على التصديق[٩٦أ] ؛ وأما أقزام « الكامرون » فلم يعترفوا إلا بآلهة الشر وحدها ، ولم يحاولوا قط إرضاء هؤلاء الآلهة على أساس أن المحاولة فى هذه السبيل عبث لا يجدى ؛ وقبيلة « فيدا » فى سيلان اعترفت باحتمال وجود الآلهة وخلود الروح ، لكنهم لم يجاوزوا ذلك الحدّ بحيث يؤدُّون الصلاة أو يقدمون القرابين ؛ وسأل أحدَهم سائلٌ عن الله فأجاب فى حيرة فيلسوف حديث : « أيكون على صخرة أم على تل من تلال النمل الأبيض أم على شجرة ؟ إنى لم أر قط إلهاً ! »[٩٦ب] ؛ وهنود أمريكا الشمالية تصوروا إلها لكنهم لم يعبدوه ، وظنوا — كما ظن أبيقور — أنه أبعد من أن يعنى بأمورهم[٩٦ جـ] ، وقال هندى من قبيلة « أبيبون » ما عساه أن يحير عالماً من علماء الميتافيزيقا ، إذ قال فى لهجة كونفوشية « إن آباءنا وأجدادنا كانت تشغلهم هذه الأرض وحدها ، لا يرجون شيئاً سوى أن يُنْبت لهم السهل كلأ ويفجّر لهم ماء لتَطْعَمَ جيادُهم

وتشرب ، إنهم لم يشغلوا أنفسهم أبداً بما يجرى فى السماء ، وبمن ذا عسى أن يكون خالق النجوم وحاكمها » ، ولما كان الإسكيمو يُسألون من ذا صنع السماوات والأرض ، كانوا يجيبون دائماً بقولهم « لسنا ندرى »[٩٦د] ، وسئل رجل من « الزولو » : « إذا رأيت الشمس تشرق وتغيب ، وإذا رأيت الشجر ينمو ، فهل تعرف من خالقها ومن حاكمها ؟ » أجاب فى بساطة بقوله « كلا ، فنحن نراها ، لكننا لانستطيع أن نعلم أنّى جاءت ، ويظهر أنها جاءت من تلقاء أنفسها »[٩٦هـ]

على أن هذه حالات نادرة الوقوع ، ولا يزال الاعتقاد القديم بأن الدين ظاهرة تعمُّ البشر جميعاً اعتقاداً سليما ؛ وهذه ، فى رأى الفيلسوف ، حقيقة من الحقائق التاريخية والنفسية ، فهو لا يكفيه أن يعلم عن الديانات كلها أنها مليئة باللغو الباطل ، لأنه معنىٌّ قبل ذلك بالمشكلة فى ذاتها ، أعنى مشكلة العقيدة الدينية من حيث قِدَم ظهورها ودوام وجودها ، فما أساس هذه التقوى التى لا يمحوها شىء من صدر الإنسان ؟ .

١ — مصادر الدين

الخوف — الدهشة — الأحلام — النفس — الروحانية

الخوف — كما قال لوكريشس — أول أمهات الآلهة ، وخصوصاً الخوف من الموت ، فقد كانت الحياة البدائية محاطة بمئات الأخطار ، وقلما جاءتها المنيّةُ عن طريق الشيخوخة الطبيعية ، فقبل أن تدب الشيخوخة فى الأجسام بزمن طويل ، كانت كثرة الناس تقضى بعامل من عوامل الاعتداء العنيف أو بمرض غريب يفتك بها فتكا ، ومن هنا لم يصدق الإنسان البدائى أن الموت ظاهرة طبيعية[٩٧] وعزاه إلى فعل الكائنات الخارقة للطبيعة ، ففى أساطير سكان بريطانيا الجديدة الأصليين ، جاء الموت نتيجة خطأ أخطأته الآلهة ، فقد قال الإله الخيّر

« كامينانا » إلى أخيه الأحمق « كورثوڤا » : « اهبط إلى الناس وقل لهم يسلخوا جلودهم حتى يتخلصوا من الموت ، ثم أنبئ الثعابين أن موتها منذ اليوم أمر محتوم » فخلط « كورثوڤا » بين شطرى الرسالة بحيث بلّغ سر الخلود للثعابين ، وقضاء الموت للإنسان(٩٨) ؛ وهكذا ظن كثير من القبائل أن الموت مرجعه إلى تقلص الجلد ، وأن الإنسان يخلد لو استطاع أن يبدّل بجلده جلداً آخر(٩٩) .

وتعاونت عدة عوامل على خلق العقيدة الدينية ، فمنها الخوف من الموت ، ومنها كذلك الدهشة لما يسبب الحوادث التى تأتى مصادفة أو الأحداث التى ليس فى مقدور الإنسان فهمها ، ومنها الأمل فى معونة الآلهة والشكر على ما يصيب الإنسان من حظ سعيد ، وكان أهم ما تعلقت به دهشتهم وما استوقف أنظارهم بسرِّه العجيب هما الجنس والأحلام ، ثم الأثر الغريب الذى تحدثه أجرام السماء فى الأرض والإنسان ؛ لقد بهت الإنسان البدائى لهذه الأعاجيب التى يراها فى نومه ، وفزع فزعا شديداً حين شهد فى رؤاه أشخاص أولئك الذين يعلم عنهم علم اليقين أنهم فارقوا الحياة ؛ لقد دفن موتاه بيديه ليحول دون عودتهم ؟ لقد دفن مع الموتى ألوان الطعام وسائر الحاجات، حتى لا يعود الميّت من جديد فيصبّ عليه لعنته ، بل كان أحيانا يترك للميّت الدار التى جاءه فيها الموت ، وينتقل هو إلى دار أخرى ، وفى بعض البلدان كان الإنسان البدائى يُخرج الجثة من الدار خلال ثقب فى الحائط ، لا من بابها ، ثم يدور بها حول الدار ثلاث دورات سريعة ، لكى تنسى الروح أين المدخل إلى تلك الدار فلا تعاودها أبدا(١٠٠) .

مثل هذه الأحداث التى كانت تصادف الإنسان البدائى فى حياته ، أقنعته بأن كل كائن حى له نَفْس أو حياة دفينة فى جوفه ، يمكن انفصالها عن الجسد إبان المرض والنوم والموت ؛ جاء فى كتاب من كتب « يوپانشاد » فى الهند القديمة : « لا يوقظنّ أحدٌ نائماً إيقاظاً مفاجئاً عنيفاً ؛ لأنه من أصعب الأمور علاجا أن تضل الروح فلا تعرف طريقها إلى جسدها »(١٠١) وليست الروح

بقاصرة على الإنسان وحده ، بل إن لكل شيء روحاً ، والعالم الخارجيّ ليس مواتاً ولا خلواً من الإحساس ، لكنه كائن حيّ دافق الحياة(١٠٢) ولو لم يكن الأمر كذلك — هكذا ظن الفلاسفة القدامى — لكان العالم مليئاً بالأحداث التي يستحيل تعليلها ، مثل حركة الشمس ، أو البرق الذي يصعق الأحياء ، أو تهامس الشجر ، وهكذا تصور الناس الأشياء والحوادث مشخصّة قبل أن يتصوروها جوامد أو مجردة ؛ وبعبارة أخرى سبقت الديانة الفلسفة ؛ وهذه الروحانية في النظر إلى الأشياء هي ما في الدين من شعر ، وما في الشعر من دين ؛ وقد نشاهدها في أبسط صورها ، في عينَي الكلب الدَّهِشتَيْن إذ يرقب بهما ورقة حملتها الريح أمامه ، فربما ظنّ إزاءها أن لها روحا تحركها من باطنها ، وهذا الشعور نفسه هو الذي نصادفه في أعلى درجاته عند الشاعر فيما ينظم من قصيد ؛ ففي رأي الإنسان البدائي — و رأي الشعراء في كل العصور — أن الجبال والأنهار والصخور والأشجار والنجوم والشمس والقمر والسماء ، كلها أشياء مقدسة لأنها العلامات الخارجية المرئيّة للنفوس الباطنية الخفية ؛ وكذلك الحال مع اليونان الأقدمين إذ جعلوا السماء هي الإله « أورانوس » ، والقمر هو الإله « سلين » ، والأرض هي الإلهة « جي » ، والبحر هو الإله « بوزيدن » ، وأما الإله « پان » ففي كل أرجاء الغابات في وقت واحد ؛ والغابات في رأي الجرمان الأقدمين كانت في أول أمرها عامرة بالجن والشياطين والسحرة والمَرَدة والأقزام وعرائس الجن وإنك لتلمس هذه الكائنات الجنيّة مبثوثة في موسيقى « فاجنر » وفي مسرحيات « إبْسِن » الشعرية ؛ والفلاح الساذج في إيرلندة لا يزال يؤمن بوجود الجنيات ، ويستحيل أن يُعترف بشاعر أو كاتب مسرحيّ على أنه من رجال النهضة الأدبية هناك إلا إذا أدخل الجنّيات في أدبه ، وإن في هذه النظرة الروحانية لحكمةً وجمالاً ، فمن الخير الذي يشرح الصدور أن تعامل الأشياء معاملتك للأحياء ؛

والنفس الحساسة — كما يقول أرهف الكتاب المعاصرين حساسية — ترى كأنما :

« الطبيعة قد أخذت تتبدّى فى هيئة مجموعات كبرى من كائنات حية مستقل بعضها عن بعض ، بعضها مرئىٌّ وبعضها خفىٌّ ، لكنها جميعاً من طبيعة العقل ، ثم هى جميعاً من طبيعة المادة ، وهى كذلك جميعاً تمزج فى أنفسها بين العقل والمادة فتكوّن بذلك سر الوجود العميق . . . إن العالم مملوء بالآلهة ! فمن كل كوكب ومن كل صخرة ينبثق وجودٌ يشيرنا بنوع من الإحساس الذى ندرك به كثرة ما هنالك من قُوًى شبيهة بقوى الآلهة ، فمنها القوى ومنها الضعيف ، ومنها الجليل ومنها الضئيل ، تتحرك كلها بين السماء والأرض لتحقق غاياتها التى كتمتها فى أجوافها سرًّا »(١٠٣)

٢ — المعبودات الدينية

الشمس — النجوم — الأرض — الجنس — الحيوان — الطوطمية — الانتقال إلى مرحلة الآلهة البشرية — عبادة الأشباح — عبادة الأسلاف

لما كان لكل شىء روح ، أو إله خفىٌّ ، إذن فالمعبودات الدينية لا تقع تحت الحصر ، وهى تقع فى ستة أقسام : ما هو سماوى ، وما هو أرضى ، وما هو جنسىٌّ ، وما هو حيوانىّ ، وما هو بشرىّ ، وما هو إلهىّ ؛ وبالطبع لن يتاح لنا قط أن نعلم أى الأشياء فى هذا العالم الفسيح كان أول معبود للإنسان ؛ وربما كان القمر بين المعبودات الأولى ؛ فكما أننا اليوم نتحدث فى أغانينا الشعبية عن « الرجل الذى يسكن القمر » كذلك صورت الأساطير الأولى القمر رجلا شجاعا أغوى النساء وسبّبَ لهن الحيض مرة كلما ظهر ؛ ولقد كان القمر إلها محببا للنساء ، عَبَدْنَه لأنه حاميهن بين الآلهة ؛ وكذلك اتُّخِذ القمر الشاحبُ مقياسا للزمن ، فهو فى ظنهم يهيمن على الجو ، ويُنَزِّل من السماء المطر والثلج ، حتى الضفادع تضرع للقمر بالدعاء لينزل لها المطر(١٠٤) .

ولسنا ندرى متى حلت الشمس محل القمر سيدة على دولة السماء ، عند الديانة البدائية ؛ وربما حدث ذلك حين حلت الزراعة محل الصيد ، فكان سير الشمس محدِّداً لفصول البَذْر وفصول الحصاد ، وأدرك الإنسان أن حرارة الشمس هى العلة الرئيسية فيما تدره عليه الأرض من خيرات ؛ عندئذ انقلبت الأرض فى أعين البدائيين إلهة تخصبها الأشعة الحارة ، وعبد الناس الشمس العظيمة لأنها بمثابة الوالد الذى نفخ الحياة فى كل شىء حى(١٠٥) ومن هذه البداية الساذجة هبطت عبادة الشمس إلى العقائد الوثنية عند الأقدمين ولم يكن كثير من الآلهة فيما بعد سوى تشخيص للشمس وتجسيد لها ؛ ألم يَقْضِ اليونان على أناكسجوراس بالنفى لأنه استباح لنفسه أن يذهب بالظن مذهبا مؤداه أن الشمس ليست إلها ، بل هى كرة من النار تقرب فى حجمها من « پلپونيز » ؟ وكذلك استَبْقَتْ العصور الوسطى بقيَّةً من عبادة الشمس فى الهالات التى كان الناس يصورونها حول رءوس القديسين(١٠٦) ، وإمبراطور اليابان فى أيامنا هذه معدود عند معظم شعبه بأنه تجسيد لإله الشمس(١٠٧) ، الحق أنك لا تكاد تجد خرافة من خرافات العصر القديم إلا ولها لون من الحياة القائمة بيننا اليوم ؛ إن المدنيَّة صنيعةُ أقلية من الناس أقاموا بناءها فى أناة واستمدوا جوهرها من حياة الترف ؛ أما سواد الناس وغمارهم فلا يكاد يتغير منهم شىء كلما مرت بهم ألف عام .

وكل نجم شأنه شأن الشمس والقمر ، يحتوى إلهاً وهو بذاته إله ، ويتحرك بأمر روح كامن فى جوفه ؛ وهذه الأرواح فى ظل المسيحية أصبحت ملائكة تَهدى سواء السبيل ، أو إن شئت فقل أصبحت لأفلاك السماء قادةً تسلك بها فى مسالكها ، حتى « كپلر » لم يبلغ من النظرة العلمية مبلغاً يحمله على إنكارها ؛ والسماء نفسها كانت إلهاً عظيما ، تقام لها العبادة فى تبتّل لأنها هى التى تُنْزِل الغيث أو تحبسه ؛ وكثير من القبائل البدائية يستعمل كلمة « الله » لتعنى « السماء ولفظ الله عند « اللوبارى » و « الدنكا » معناها المطر ، كذلك كانت السماء

عند المنغوليين هي الإله الأعظم ، وكذلك الحال في الصين ، وفي الهند الفيدية أيضاً ، معنى كلمة الله هو « السماء الوالدة » ، والله عند اليونان هو زيوس أو السماء « مرغمة السحاب » وهو « أهورا » عند الفرس ، أي السماء الزرقاء[١٠٨] .

ولا نزال في أيامنا هذه نضرع إلى « السماء » أن تقينا الشرور ، ومعظم الأساطير الأولى تدور حول محور واحد ، هو الخصب الذي نتج عن تزاوج الأرض والسماء .

لأن الأرض هي الأخرى كانت إلهاً ، وكل مظهر رئيسي من مظاهرها كان يقوم على أمره إله ؛ فللشجر أرواح كما لبني الإنسان سواء بسواء ، وقطعُ الشجرة معناه قتلٌ صريح ؛ وكان الهنود في أمريكا الشمالية أحياناً يعزون هزيمتهم وانحلالهم إلى أن البيض قد قطعوا الأشجار التي كانت أرواحها تقي « الحُمْرَ » من الأذى ؛ وفي جزر « مولقَّا » كانوا يعتبرون الأشجار أيام الإزهار حواملَ أجنّة ، فلا يجيزون إلى جوارها ارتفاع الصوت أو إشعال النار أو غير ذلك من عوامل الاضطراب حتى لا يفسدوا على الأشجار الحبليات سكونها ، وإلا لجاز أن تسقط ثمارها قبل نضجها كما تجهض المرأة إن ألم بها الفزع ؛ وكذلك في « أبُويْنا » Aboyna لا يؤذن بالأصوات العالية على مقربة من الأرز إذا ما ازهرت سنابله خشية أن يصيبه الإجهاض فينقلب أعواداً من القش العقيم[١٠٩] و« الغال » القدماء عبدوا أشجار غابات معينة كانت لديهم مقدسة ، وكذلك القساوسة « الدرديون » Druid في انجلترا اتّخذوا دِيْنَ أشجار البلوط ، الذي لا يزال يوحي إلينا بشعيرة من الشعائر المحببة إلى نفوسنا ؛ وأقدم عقيدة دينية في آسيا — مما تستطيع أن تتعقبه إلى أصوله التاريخية — هي تقديس الأشجار وينابيع الماء والأنهار والجبال[١٠١] فكثير من الجبال كان أماكن مقدسة ، اتخذتها الآلهة مقراً ترسل منه ما شاءت من صواعق ؛ وأما الزلازل فليست سوى آلهة ضجروا أو ضاقوا صدراً فهزوا أكتافهم ويعلل أهل « فيجى » الزلازل بأن إله الأرض يتقلب في نومه ؛ وإذا ما زلزلت

الأرض عند قبيلة « ساموا » أخذوا يقرضون الأرض بأسنانهم ويبتهلون إلى الإله « مافوى » Mafuie أن يسكن حشية أن تتمزق الأرض كلها إربا إربا[١١١] ؛ والأرض عند الناس فى شتى النواحى المعمورة تقريباً هى « الأم الكبرى » فاللغة الإنجليزية التى كثيراً ما تكون بمثابة الرواسب التى تجمعت فيها العقائد البدائية أو اللاشعورية ، تشير حتى اليوم بصلة القربى بين المادة والأمومة (مادة معناها Matter والأم معناها Mother)[١١٢] وليس « إشتر » «وسيبل» و « ديميتر » و « سيريز » و « أفروديت » و «فينس » و « فريا » إلا صوراً متأخرة نسبياً لإلهات الأرض الأوليات اللائى خلعن من خصوبتهن خصوبة على الأرض فأخرجت من جوفها الخيرات ؛ وما رواه الناس عن ولادة هؤلاء الإلهات وزواجهن وعن موتهن وعودتهن منتصرات إلى الحياة ، إن هو إلا رموز أو تعليل لظهور النبات ثم جفافه ، والتجديد والملحوظ الذى يطرأ على حياة النبات حيناً بعد حين ؛ وهذه الإلهات تدل بأنوثتهن على أن الإنسان البدائى قد ربط بين الزراعة والمرأة ؛ فلما أصبحت الزراعة هى الصورة السائدة فى الحياة الإنسانية ، كانت إلاهات النبات هى سيدة الإلاهات جميعاً ؛ ومعظم الأرباب فى العصر القديم كان من النساء ، ثم حل محلهن الآلهة الذكور ، حين ظهرت الأسرة الأبوية فوق الأرض ظافرة[١١٣]

وكما يرى العقل البدائى فيما يقول من شعر عميق سرًّا إلهيًّا فى نمو الشجرة ، كذلك يرى يداً إلهية فى حمل الجنين أو ولادته ؛ إن « الهمجى » لا يعرف شيئاً عن البويضة والجرثومة المنوية ، لكنه يرى الأعضاء الظاهرة أمام عينيه ، التى تشترك معاً فى هذه العملية فيؤلهها ، فهى كذلك تكمن فى جوفها الأرواح ولابد من عبادتها ، أليست هذه القُوى الخلاَّقة العجيبة فى سرِّها ، أعجب الكائنات جميعاً ؟ ففيها تظهر معجزة الخصوبة والنمو أوضح مما تظهر فى تربة الأرض نفسها ؛ وإذن فلابد أن تكون أقرب ما تُجَسِّدُ فيه الآلهة قُوَّتَها ؛ وتوشك الشعوب البدائية جميعاً أن تَعْبُدَ الجنس على صورة من الصور أو شعيرة من

الشعائر ؛ ولم يكن أدناها ، بل أعلاها مدنيّة ، هو الذى عبّر عن هذه العبادة تعبيراً كاملا ؛ وسنرى هذه العبادة فى مصر والهند وبابل وآشور واليونان والرومان ؛ كان الناس يجلون الوظيفة الجنسية والجانب الجنسى من آلهتهم البدائية إجلالا عظيماً[١١٤] لا لأنهم يرون فى ذلك شيئاً من الفاحشة بل لأنهم يرتبطون ارتباطاً وجدانياً بالخصوبة فى المرأة وفى الأرض ؛ ولذلك عبدوا بعض الحيوان كالعجل والثعبان لأن لهما — فيما يظهر — القوة الإلهية فى الإنسال ، أو قُلْ إنهما يرمزان لتلك القوة فلا شك أن الثعبان فى قصة عدْن رمز جنسىّ يمثل العلاقة الجنسية باعتبارها أساس الشر كله ، ويوحى بأن اليقظة الجنسية هى بداية الخير والشر ، وربما يشير كذلك إلى علاقة أصبحت مضرب الأمثال بين سذاجة العقل ونعيم الفردوس(*)

وتكاد لا تجد حيواناً فى الطبيعة كلها — من الجُعَل (الجعران) المصرى إلى الفيل عند الهندوس — لم يكن فى بلدما موضع عبادة باعتباره إلها : فهنود « أوچيبوا Ojibwa » أطلقوا اسم « طوطم » على حيوانهم الخاص الذى يعبدونه ، وعلى العشيرة التى تعبده ، وعلى كل عضو من تلك العشيرة ؛ ثم جاء علماء الأجناس البشرية فأخذوا هذه الكلمة وجعلوها اسما على مذهب « الطوطمة » الذى يدل دلالة غامضة على أية عبادة لشىء معين — وعادة يكون الشىء المعبود حيواناً أو نباتاً — تتخذه جماعة ما موضع عبادتها ؛ ولقد وجدنا أنواعاً مختلفة من الطواطم فى أصقاع من الأرض ليس بينها رابطة ظاهرة ، من قبائل الهنود فى شمالى أمريكا ، إلى أهل أفريقيا وقبيلة « دراڤيد » Daraviians فى الهند ، وقبائل استراليا[١١٥] ؛ ولقد أعان الطوطم باعتباره شعاراً دينياً . على توحيد القبيلة التى ظن أعضاؤها أنهم مرتبطون معاً برباطه ، أو هبطوا جميعاً من سلالته ؛ فقبيلة « إراكو » تعتقد — على نحو شبيه بما يذهب إليه دارون — أنهم سلالة التزاوج بين النساء وبين الدببة

(*) انظر الفصل الثانى عشر ، الفقرة السادسة ، من الجزء الخاص بالشرق الأدنى .

والذئاب والغزلان ، وأصبح الطوطم — باعتباره شعاراً أو رمزاً — علامة مفيدة تدل على ما بين البدائيين من قربى ، وتميز هم بعضهم من بعض ، ثم أخذ على مرّ الزمن يتطور فى صور علمانية فكان منه التمائم والشارات ، كهذا الذى تتخذه الأمم من شعارات لها كالأسد أو النسر ، أو الأيل الذى تتخذه الجمعيات التى تعمل على الإخاء بين الناس ، أو هذه الحيوانات الخرساء التى تصنعها الأحزاب السياسية عندنا اليوم ، لتمثيل رسوخ الفيلة أو صخب البغال ؛ وكانت الحمامة والسمكة والحَمَل ، فى رمزية العقيدة المسيحية إبان نشوئها ، بقايا القديم فى تمجيد الطواطم ؛ بل إن الخنزير الوضيع كان يوماً طوطما لليهود السابقين للتاريخ[١١٦] ؛ وفى معظم الحالات كان الطوطم محرماً لا يجوز لمسه ؛ ويجوز أكله فى بعض الظروف ، على أن يكون ذلك من قبيل الشعائر الدينية ، فهو بذلك يرمز إلى أكل الإنسان لله أكلا تعبُّدياً (*) ، وقبيلة « غالا » فى الحبشة تأكل السمكة التى تعبدها فى احتفال دينى رصين ، ويقول أبناؤها : « إننا نشعر بالروح تتحرك فينا إذ نحن نأكلها » ؛ وما كان أشد دهشة المبشرين الأطهار ، إذ هم يبشرون بالإنجيل لقبيلة « غالا » أن وجدوا بين هؤلاء السذّج شعيرة شديدة الشبه بالقُدّاس عند المسيحيين[١١٩]

ويجوز أن قد كان الخوف أساس الطوطمة ، كما هو أساس كثير من العبادات ، وذلك بأن يكون الإنسان قد عَبَدَ الحيوان لقوته ، فلم يَرَ بُدّاً من استرضائه ، فلما أن طهَّر الصيدُ الغابة من وحشها ، ومهد الطريق للطمأنينة التى تتوفر فى الحياة الزراعية ، قلّتْ عبادة الحيوان ولو أنها لم تزُلْ تمام الزوال ؛ وربما استمدت

(*) يعتقد فرويد بما له من خصوبة فى الخيال يتميز بها ، أن الطوطم هو صورة يرمز بها الإنسان إلى الأب ، الذى يهابه الأبناء ويمقتونه لشدة بأسه وقوته ، فيثورون عليه ويأكلونه (١١٧) ويرى دركهايم أن الطوطم رمز للعشيرة يهابه الفرد ويمقته (ومن هنا كان « مقدساً » و « نجسا » فى آن معاً) لشدة سلطانه عليه سلطاناً لا يغلب ولاستبداده استبداداً يحرج الصدر ، وأن الشعور الدينى فى أساسه الأول هو ما كان يشعر به الفرد إزاء أولى الأمر فى جماعته الذين بيدهم السلطة(١١٨)

الآلهة البشرية الأولى طبعها من الآلهة الحيوانية التي جاءت تلك الآلهة البشرية لها بديلا ؛ والانتقال من أولئك إلى هؤلاء واضح فى القصص المشهورة التى تروى لنا تحول الصورة الإلهية ، والتى تراها فى « أوفد » الشاعر ، وفى كل شاعر من قبيلة من تراهم فى لغات الأرض جميعاً ، فتصف لنا تلك القصص كيف كانت الآلهة ، أو كيف صارت حيوانية الصورة ، وبعدئذ ظلت صفات الحيوان لاحقة بالآلهة لا تبرحها ، كما تظل رائحة الاصطبل لاحقة بمكانه حتى بعد تحويله قصراً ريفياً منيفاً ؛ حتى فى « هومر » الذى كان قد بلغ من الرقى مبلغاً بعيداً ، ترى الإلهة « جلوكوبس أثينى » لها عينا بومة ، و « هيرى بوبس » لها عينا بقرة ؛ والآلهة أو الغيلان فى مصر وبابل ، بوجوهها الإنسانية وأجسادها الحيوانية تبين مرحلة الانتقال نفسها ، وتعترف بالحقيقة عينها ، وهى أن كثيراً من الآلهة البشرية كانت يوماً آلهة حيوانية[١٢٠] .

ومع ذلك فمعظم الآلهة البشرية قد كانوا — فيما يظهر — عند البداية رجالا من الموتى ضخموا بفعل الخيال ؛ فظهور الموتى فى الأحلام كان وحده كافياً للتمكين من عبادتهم ، لأن العبادة إن لم تكن وليدة الخوف ، فهى على الأقل زميلته ؛ وخصوصاً ممّن كانوا أقوياء إبان حياتهم ، فألقوا الخوف فى نفوس الناس ؛ هؤلاء يرجح جداً أن يُعْبَدُوا بعد موتهم[١٢١] ، ولذلك نجد الكلمة التى معناها « إله » عند كثير من الشعوب البدائية ، معناها فى الحقيقة « رجل ميت » ؛ وحتى اليوم ، ترى كلمة « Spirit » فى الإنجليزية وكلمة « Geist » فى الألمانية معناهما إما روح وإما شبح ؛ وكان اليونان يتبركون بموتاهم على نحو ما يتبرك المسيحيون بالقديسين[١٢٢] ؛ ولقد بلغت العقيدة فى استمرار حياة الموتى — وهى عقيدة تولّدت فى بدايتها من الأحلام — مبلغاً عظيما حتى جعل البدائيون أحياناً يرسلون الرسائل لموتاهم بمعنى الكلمة الحرفىّ الدقيق ؛ ففى قبيلة من القبائل ، إذا ما أراد الرئيس أن يبعث بخطاب لميت ، أسمعه لعبد ثم قطع رأس العبد ليؤدى الرسالة ، فإذا نسى

الرئيس شيئاً كان يريد ذكره فى الخطاب ، أرسل عبداً آخر بنفس الطريقة ليكون « حاشية » للخطاب الأول[١٢٣]

ثم تدرجت عبادة الأشباح حتى أصبحت عبادة للأسلاف ؛ فقد بات الناس يخافون موتاهم جميعاً ويعملون على استرضائهم خشية أن يُنزلوا لعناتهم على الأحياء فيجلبوا لهم الشقاء ؛ وكأنما كانت هذه العبادة للأسلاف مهيأة على نحو يجعلها ملائمة لتدعيم المجتمع من حيث سلطانه ودوامه ، وللتمكين من روح المحافظة على القديم والاحتفاظ بالنظام ، حتى لقد شاعت شيوعاً سريعاً فى كل أرجاء المعمورة فازدهرت فى مصر واليونان وروما ، ولا تزال قائمة ومستولية على النفوس بقوة فى اليابان والصين الآن ؛ وإن كثيراً من الشعوب ليعبدون أسلافهم دون أن يكون لديهم إله[١٢٤](*) ؛ ولقد عمل هذا الاتجاه على ربط أواصر الأسرة ربطاً وثيقاً ؛ على الرغم من كراهة الخلف لهذا النظام ؛ وكذلك كان لكثير من المجتمعات البدائية بمثابة إطار خفىّ ينتظم الأفراد فى مجموعة متماسكة ؛ وكما أن القهر انتهى إلى أن يكون ضميراً ، فكذلك الخوف تطور حتى أصبح حُبًّا ؛ فشعائر عبادة الناس لأسلافهم ، التى يرجح أنها كانت وليدة الخوف فى أول الأمر ، قد أثارت فى القلوب بعدئذ شعور الرهبة ، ثم تطورت أخيراً إلى ورع وتقوى ؛ وكذلك ترى الاتجاه فى الآلهـة أن يبدءوا فى صورة الغيلان المفترسة ثم ينتهون فى صورة الآباء الذين يحبون أبناءهم ؛ وهكذا يتحول الصنم المعبود على مرّ الزمن إلى مثل أعلى منشود ، كلما عملت زيادة الاطمئنان والأمن والشعور الخلقى لدى العابدين على الحدّ من وحشية آلهتهم كما تصوروها أولا ، وتحوير ملامحهم تحويراً يلائم الطور الجديد ؛ إن البطء فى سير المدنيّة ليتمثل فى تأخر المرحلة التى أحسّ فيها الناس بحب آلهتهم .

(*) بقايا عبادة الأسلاف لا تزال قائمة بيننا متمثلة فى عنايتنا بالقبور وزيارتها ، وفى قداسنا وصلاتنا من أجل الميت .

إن فكرة إله بشرى لم تظهر فى مراحل التطور الطويلة إلا أخيراً ؛ وقد برزت فى صورة واضحة بعد اجتيازها لمراحل كثيرة أخرجتها من تصور الإنسان لمحيط خضم أو لحشد كبير من الأرواح والأشباح تحيط بكل شىء وتعمر كل شىء ؛ ثم انتقل الإنسان من خوفه وعبادته لأرواح غامضة المعالم مبهمة الحدود ، إلى تمجيد القوى السماوية والنباتية والجنسية ، ثم إلى خشوعه للحيوان وعبادته للأسلاف ، والأرجح أن تكون فكرة الإنسان عن الله بأنه « أب » قد تفرعت عن عبادة الأسلاف ، لأن معناها فى الأصل هو أن الناس قد هبوا من الآلهة بأجسامهم ، لا بأرواحهم فقط[١٢٥] ولذا لا تجد فى اللاهوت البدائى حداً فاصلا متميزاً من حيث النوع بين الآلهة والناس ؛ فعنـد اليونان الأقدمين — مثلا — كان الأسلاف آلهة والآلهة أسلافا ؛ وتلت ذلك خطوة أخرى فى التطور ، حين ميَّز الناس من بين هؤلاء الأسلاف الخليط رجال ونساء بعينهم ، كان لهم امتياز خاص دون سائر الأسلاف ، فأسبغوا عليهم لونا أوضح من الربوبية الصريحة ؛ وبهذا أصبح أعلام الملوك آلهة حتى قبل موتهم أحياناً ؛ لكننا إذا ما بلغنا من التطور هذه المرحلة فقد بلغنا المدنيَّة التى دوَّنها التاريخ .

٣ — طرائق الدين

السحر — طقوس الزراعة — أعياد الإباحة — أساطير الإله المبعوث — السحر والخرافة — السحر والعلم — الكهنة

لما تصور الإنسان البدائى عالما من الأرواح يجهل طبيعتها وغاياتها ، فقد عمل على استرضائها واجتلابها فى صفه لمعونته ؛ ومن هنا كانت إضافته إلى الروحانية التى هى جوهر الديانة البدائية ، سحرا هو بمثابة الروح من شعائر العبادة البدائية ؛ فقد تصور البولينيزيون خضمًّا حقيقيا مليئا بقوة السحر وأطلقوا عليه اسم « مانا » وكان الساحر فى رأيهم إنما يُقَطِّر لهم قطرات ضئيلة من هذا المورد الذى لا ينتهى ،

والذى يستمد منه قدرته على السحر ؛ وكان ما يسمى « بالسحر التمثيلى » هو أول الطرائق التى كسب بها الإنسان معونة الأرواح أولا والآلهة ثانيا — وهو أن يقوم الإنسان بأداء أشباه الأفعال التى يريد من الآلهة أن يؤدوها له ، كأنه بذلك يغريهم بتقليده ، فمثلا إذا أراد الناس أن يستنزلوا المطر ، صبَّ الساحر ماء على الأرض ، والأفضل أن يصبه من أعلى الشجرة ؛ ويحكى عن قبيلة الكفير أنها حين تهدَّدها الجفافُ ، طلبوا إلى مبشِّر أن يذهب إلى الحقول ويفتح مظلته(١٢٦) ؛ وفى سومطره ، تصنع المرأة العقيم صورة طفل تضعها على حِجْرها راجية أن يجيئها بعد ذلك الجنين ؛ وفى « أرخبيل بابار » تصنع المرأة — إذا ما أرادت لنفسها الأمومة — عروسا من قطن أحمر ، وتقوم بحركات إرضاعها ، وتقول صيغة سحرية معلومة ؛ ثم تبعث إلى القرية بمن يُشيع أنها حملت ، فيجىء أصدقاؤها لتهنئتها ؛ الحق أنه لا يستطيع أن يرفض تحقيق هـذا الخيال إلا واقعٌ عنيد ؛ وفى قبيلة « دياك » فى بورنيو ، إذا أراد الساحر أن يخفف آلام امرأة تضع ، يقوم هو نفسه بحركات الوضع على سبيل التمثيل ، لعله بذلك يوحى بقوة سحره إلى الجنين أن يظهر ، وأحيانا يدحرج الساحر حجرا على بطنه ثم يسقطه على الأرض ، آملا أن يقلده الجنين المستعصى فتسهل ولادته ؛ وفى العصور الوسطى كانوا يسحرون الشخص بأن يغزو الدبابيس فى تمثال من الشمع يمثل صورته(١٢٧) وهنود بيرو يحرقون الناس ممثَّلين فى دُماهم ، ويطلقون على هذا اسم إحراق الروح(١٢٨) ، وليس سواد الناس فى العصر الحاضر بأرقى من هذا السحر البدائى فى تخريفهم

كانت طرائق الإيحاء بالتمثيل تُستخدم بصفة خاصة لإخصاب التربة ، فأرباب العلم فى زولو يَشْوون الأعضاء التناسلية للرجل إذا مات فى عنفوانه ، ثم يطحنونها ويسحقونها رماداً يذرّ فوق الحقول(١٢٩) ؛ وبعض الشعوب تختار للربيع ملكا وملكة من بين رجالها ونسائها ، وتزوجهما فى حفل علنى ، لعل التربة تصغى إلى الحفل ومغزاه فتسرع إلى إزهار النبات ؛ بل إنهم فى بعض

البلدان يضيفون إلى مثل ذلك الحفل أن يقوم العروسان فعلا بعملية التزاوج علناً ، حتى لا يتركوا للطبيعة — على الرغم من أنها ليست سوى طين بارد جامد — عذراً بأنها لم تفهم الواجب الذى طُلب إليها أداؤه ؛ وفى جاوة ، يتصل الفلاحون وزوجاتهم اتصالا جنسياً فى حقول الأرز ليضمنوا خصوبة إنتاجها(١٣٠) ذلك لأن البدائيين لم يفهموا نمو النبات بلغة النتروجين ، بل فهموه — بالطبع دون أن يعلموا أن للنبات ذكوراً وإناثاً — على نفس الأساس الذى كانوا يعللون به إثمار المرأة ؛ ثم أليس فى استعمالنا لكلمات مثل إثمار للطبيعة وللطبيعة وللمرأة معاً ، ما يذكّرنا بعقيدتهم تلك وما تنطوى عليه من شعر ؟

وتقام أعياد يختلط فيها الجنسان اختلاطاً بغير ضابط ، وهى فى معظم الحالات إنما تقام فى فصل البَذْر ، بمثابة أمْرٍ بوقْف القوانين الخلقية حيناً (وهى تذكر الناس بما كان فى علاقاتهم الجنسية فى أيامهم الماضية من حرية نسبية) والغاية من هذه الأعياد إخصاب زوجات مَنْ بهم عقم من الرجال من جهة ، وإيحاء للأرض فى فصل الربيع بأن تخرج عن تحفظها الذى لازمته أيام الشتاء ، لتتقبَّل ما بذروه فيها من بذور ، وتهيئ نفسها لإخراج نتاج طيب من القوت ، وتقام هذه الأعياد عند عدد كبير من الشعوب الفطرية ، وخصوصاً بين أهل كامرون فى الكنغو ، والكفير ، والهوتنتوت ، والبانتو وفى ذلك يقول « هـ . رولى » H. Rowley وهو من رجال الدين فى بانتو :

« إن أعياد الحصاد شبيهة فى خصائصها بأعياد « باخوس » (عند اليونان)... فإنه يستحيل على إنسان أن يشاهدها دون أن يأخذه الخجل . . . فهم لا يكتفون فى هذه الإباحة الجنسية الكاملة بضمِّ من تنصَّر حديثاً ، بل لا يكتفون بضمِّ من طال أمد تنصُّره ، لكنهم يُغرون أى زائر وقف ليشاهد حفلهم بالانغماس معهم فى إباحتهم ؛ عندئذ لا يحول الناس حائلٌ دون الانغماس فى الدعارة ، وهم لا ينظرون إلى الزنا نظرةً فيها أثر من معنى البشاعة ، بسبب الظروف

التى تحيط بهم حينئذ ، بل إنهم لا يسمحون لرجل حضر الاحتفال أن يضاجع زوجته »[١٣١] .

وتظهر أعياد كهذه فى عصور المدنيّة التى دوّنها التاريخ ، فاحتفالات « باخى » عند اليونان ، وأشباهها فى روما وفى فرنسا إبان العصور الوسطى وفى انجلترا وسائر الاحتفالات التهريجية التى نشاهدها فى عصرنا ، كل هذه من قبيل الأعياد الإباحية القديمة ؛

على أن شعائر الزراعة هذه تتخذ فى بعض البلاد هنا وهناك صورة أقل ظرفا مما ذكرنا — كما هى الحال عند البونيين Pawnees وعند هنود جواياكيل ؛ فرجلٌ يُضَحَّى به فى وقت البَذر حتى تَخْصُبَ الأرض بدمائه — وفيما بعد خَفَتْ الصورة بعض الشىء ، فاكتفوا بذبح الحيوان قربانا — ؛ حتى إذا ما حلَّ موسم الحصاد فَسَّروه بأنه بَعْثٌ للرجل الذى مات ضحيةً ، فكانوا يخلعون عليه قبل موته وبعده جلال الآلهة ؛ ومن هذا الأصل نشأت الأسطورة التى تَرْوى فى ألف صورة مختلفة كيف يموت الله فى سبيل شعبه ، ثم يعود إلى الحياة بعدئذ ظافرا[١٣٥] ؛ وعمل الشعر على زخرفة السحر حتى حوَّله ضربا من اللاهوت ؛ واختلطت الأساطير تُروى عن الشمس بشعائر الزراعة اختلاطا فيه تناسق وانسجام ، بحيث أصبحت الأسطورة التى تَرْوى عن موت الإله وعودة ولادته . لا يقتصر مدلولها على موت الشتاء وعودة الحياة إلى الأرض فى الربيع بل جاوزت ذلك إلى الانقلابين الآخرين : الصيفى والخريفى ، وما يعقب ذلك من قصر النهار وطوله ؛ ذلك لأن حلول الليل لم يكن إلا جزءا من هذه المأساة ؛ فإله الشمس يموت كل يوم مرة ويولد كل يوم مرة ؛ فكل غروب له بمثابة الاستشهاد على الصليب ، وكل شروق هو بعث له ونشور .

والظاهر أن التضحية بالإنسان — التى ذكرنا من شتى صنوفها مثلا واحدا — قد أخذ بها الإنسان فى كل الشعوب تقريباً ، فتظهر هاهنا يوما وهنالك يوما ؛

فقد وجدنا فى جزيرة كارولينا فى خليج المكسيك تمثالا كبيراً معدنياً أجوف لإله مكسيكى قديم ، فوجدنا فيه رفات كائنات بشرية ، لا شك أنها ماتت بالحرق قربانا لله[١٣٣] ، وكلنا يسمع عن « مُلُخْ » الذى كان الفينيقيون والقرطاجنيون ، وغيرهما من الشعوب السامية حينا بعد حين ، يقدمون له القرابين من بنى الإنسان ؛ ولقد شهد عصرنا الحاضر هذه العادة قائمة فى روديسيا[١٣٤] وربما كان منشأ هذه العادة أكل البدائيين للحوم البشر ، فظنوا أن الآلهة تستمرئ من الطعام ما يستمرئون ؛ ولما كانت العقيدة الدينية أبطأ تغيّرا من سائر العقائد ، ثم لما كانت الشعائر الدينية أبطأ تغيرا من العقائد نفسها ، فقد امتنع الإنسان عن أكله للحم الإنسان ، وبقى التقليد قائما بالنسبة للآلهة[١٣٥] ؛ ومع ذلك فقد تغيرت حتى هذه الشعائر الدينية بفضل تطور الأخلاق ، بحيث طفق الآلهة يقلدون عبادهم فى الزيادة من اصطناع الرقّة ، واستسلموا للوضع الجديد فقبلوا لحم الحيوان طعاماً بدل لحم الإنسان ، فَضُحِّى بغزال بدل التضحية بافجينيا (فى أساطير اليونان) كما ضُحِّى بكبش بدل التضحية بابن إبراهيم ؛ ومضى الزمان فى تقدمه ، فحرمت الآلهةُ حتى هذا الحيوان ، لأن الكهنة آثروا أنفسهم بالطعام الشهىّ ، وأخذوا يأكلون كل ما يمكن أكله من الضحية المقدمة ، ثم يَهَبون الآلهة على مذبح القربان أمعاء الضحية وعظامها[١٣٦] .

ولما كان الإنسان الأول يؤمن بأن قوة ما يأكله تنتقل إليه ، فقد كان من الطبيعي أن تَرِدَ على خاطره فكرة أكل الإله ؛ ففى كثير من الحالات كان يأكل لحم الإله البشرى ويشرب دمه ، ذلك الإله الذى عَبَدَه وسَمَّنَه استعدادا للتضحية به ؛ لكن الطعام كثرت موارده وضمن الإنسانُ اطّراده ، فانتهى ذلك إلى زيادة الرحمة فى فؤاده ، ولذلك استبدل بالتضحية الإلهية رموزاً على هيئتها ، واقتنع بأكلها ، ففى المكسيك القديمة ، كان يُصنع تمثالٌ لله من الغلال والحبوب والخضر ، يُعجن بدماء صبيان يضحّى بهم لهذه الغاية ، ثم يأكلونه على أنه بديل

دينيّ لأكل الله نفسه ؛ وأشباه هذه الاحتفالات الدينية وجدناها بكثرة فى القبائل البدائية ، وكانت العادة أن يطلب إلى الناس أن يصوموا عن الطعام فترة قبل أكل التمثال المقدس ، وكان الكاهن ساعتئذ يقول بعض العبارات السحرية ليحوّل بها التمثال المأكول إلى إله حقيقى[١٣٧] .

ولئن بدأ السحر بالخرافة فإنه ينتهى بالعلوم ، فألوفٌ من أغرب العقائد جاءت نتيجة للفكرة الروحانية القديمة ، ثم نشأ عنها صلوات وطقوس عجيبة ؛ فقبيلة « كوكى » Kukis كانت تلهب حماسة أبنائها فى القتال بزعمها لهم أن الأعداء القتلى سيكونون لهم عبيداً فى الحياة الآخرة ؛ ولكنك من ناحية أخرى ترى الرجل من قبيلة « بانتو » Bantu إذا قتل عدواً له ، حلق رأس نفسه ، وطلى نفسه بروث الماعز ، ليمنع روح الميت من العودة إليه والفتك به ؛ وتكاد الشعوب البدائية كلها تجمع على فِعْل اللعنات وشر « العين الحاسدة »[١٣٨] فلم يشك الاستراليون الأصليون فى أن اللعنة ينطق بها الساحر القويّ ، تقضى على حياة اللعين وإن يكن منه على بعد مائة ميل ؛ وبدأت العقيدة فى السحر فى أوائل مراحل التاريخ الإنسانى ، ولم تزُل عن الإنسان قط زوالا تاما ؛ وعبادة الأصنام وغيرها مما يكون له قوة سحرية كالتمائم ، أرسخ فى القِدَم من السحر نفسه وأثبت منه جذوراً فى النفوس ؛ ولما كانت التمائم تُحَدِّدُ لها مناطق القوة ، بمعنى أن يكون لكل تميمة أثر فى ناحية معينة دون غيرها ، فإنك ترى بعض الشعوب تُثْقِل أنفسها بأحمال منها لكى يكونوا على أهبة الاستعداد لكل ما عسى أن تفجأهم به الأيام[١٣٩] والأحجبة إن هى إلا صورة متأخرة فى الظهور ، ومثَلٌ من الأمثلة التى تعاصرنا ، من الأصنام أو ما إليها من ذوات القوة السحرية ، فنصف سكان أوروبا يلبسون المُدَلَّيات والتمائم ليستمدوا بواسطتها وقاية ومعونة من وراء الطبيعة ؛ إن تاريخ المدنيّة ليعلّمنا فى كل خطوة من خطوات سيره ، كم تبلغ قشرةُ الحضارة من الرقّة والوهن ، وكيف تقوم المدنية على شفا جُرُفٍ هارٍ فوق

قمة بركان لا يخمد سعيره ، من وحشية بدائية وخرافة وجهل مكبوت ؛ إن المدنيّة العصرية ليست سوى غطاء وُضِع وضعاً على قمة العصور الوسطى ، ولا تزال تلك العصور ولن تزال باقية .

ولا يسع الفيلسوف إلا أن يَقْبَل راضياً هذا الفقر من الإنسان إلى معونة مما فوق الطبيعة تبعث فى نفسه الطمأنينة ؛ ويجد لنفسه العزاء فى علمه بأن الأدب المسرحي والعلوم تنشأ عن السحر ، كما ينشأ الشعر عن مذهب الروحانية ؛ فقد بيَّن لنا « فريزر » Frazer — فى شيء من المبالغة لا نستغرب به من مبدع موهوب — أن أمجاد العلم تمتد بجذورها إلى سخافات السحر ؛ لأنه كلما أخفق الساحر فى سحره استفاد من إخفاقه هذا استكشافاً لقانون من قوانين الطبيعة ، يستعين بفعله على مساعدة القوى الطبيعية فى إحداث ما يريد أن يحدثه من ظواهر ؛ ثم أخذت الوسائل الطبيعية تسود وترجح كفتها شيئاً فشيئاً ، ولو أن الساحر كان دائماً يخفى هذه الوسائل الطبيعية ليحتفظ بمكانته عند الناس ، ما استطاع إلى إخفائها من سبيل ، بأن يعزو الظاهرة التى أحدثها للسحر الذى استمده من القوى الخارقة للطبيعة — وهذا شبيه جداً بأهل هـــذا العصر حين يعزون الشفاء الطبيعى لوَصَفات وعقاقير سحرية ؛ وعلى هذا النحو كان السحر هو الذى أنشأ لنا الطبيب والصيدلى ، وعالم المعادن ، وعالم الفلك[١٤٠] .

لكن الطريق أقصر بين الفلكي والساحر منها فى سائر ضروب العلماء ؛ ذلك لأنه لما تعددت طقوس الدين وتعقدت ، لم يَعُدْ الرجل العادىّ يقدر على استيعابها جميعاً والإلمام بها جميعاً ، ومن هنا نشأت طبقة خاصة أنفقت معظم وقتها فى مهامّ الدين ومحافله ؛ وأصبح الكاهن باعتباره ساحراً ، بما له من قدرة على الذهول الروحىّ وتلقّى الوحى وتوجيه الدعاء المستجاب ، أقرب صلة بإرادة الأرواح أو الآلهة ، بحيث يستطيع تحويل تلك الإرادة إلى ما فيه نفع الإنسان ؛ ولما كان هذا الضرب من العلم والمهارة هو فى رأى البدائيين أهم ضروب العلم والمهارة جميعاً ،

ثم لما تصوروا أن القوى الخارقة للطبيعة لها أثرها فى حياة الإنسان عند كل منعطف فى الطريق ، فقد أصبحت قوة رجال الدين مساوية لقوة الدولة ؛ وجعل الكاهن (أو القسيس) منذ أقدم العصور إلى أحدثها ينافس الجندىّ المقاتل فى سيادة الناس والإمساك بزمامهم ، حتى لقد راح الفريقان يتناوبان ذلك ، وحسبنا فى التمثيل لذلك أن نسوق مصر ، ودولة اليهود وأوروبا فى العصور الوسطى أمثلة .

إن الكاهن لم يخلق الدين خلقا ، لكن استخدمه لأغراضه فقط ، كما يستخدم السياسى ما للإنسان من دوافع فطرية وعادات ؛ فلم تنشأ العقيدة الدينية عن تلفيقات أو ألاعيب كهنوتية ، إنما نشأت عن فطرة الإنسان بما فيها من تساؤل لا ينقطع وخوف وقلق وأمل وشعور بالعزلة ؛ نعم إن الكاهن قد أضرّ الناس بإبقائه على الخرافة وباحتكاره لضروب معينة من المعرفة ، لكنه مع ذلك عمل على حصر الخرافة فى نطاق ضيق ، وكثيراً ما كان يحمل الناس على إهمال شأنها ، وهو الذى لقّن الناس بداية التعليم والتهذيب ، وكان بمثابة المستودع وأداة التوصيل بالنسبة للتراث الثقافى الإنسانى المتزايد ؛ وكان عزاء للضعيف فى استغلال القوىّ له استغلالا لم يكن عنه منصرف ولا محيص ؛ كما أصبح الفعل الفعال الذى أعان الدّين على تغذية الفنون ، وتدعيم بناء الأخلاق الإنسانية المترنّح بدعامة من القوة العليا ؛ فلو لم يجد الناس بينهم كاهنا لخلقوه لأنفسهم خلقا .

٤ – مهمة الدين الخلقية

الدين والحكومات – المحرمات الجنسية – تأخر الدين – التحول العلمانى

الدين دعامة الأخلاق بوسيلتين أساسيتين هما الأساطير والمحرمات ، فالأساطير هى التى تخلق العقيدة فيما وراء الطبيعة ، ثم يكون من شأن هذه العقيدة أن تضمن بقاء أنواع من السلوك يريد المجتمع (أو يريد الكهنة) بقاءها ؛ فما يرجوه الفرد فى السماء من ثواب وما يخشاه لديها من عقاب ، يضطره اضطرارا أن يذعن للقيود

التي يفرضها عليه سادته أو جماعته ؛ فالإنسان ليس بطبعه مطيعا رقيقاً طاهراً وليس شيء كالخوف من الآلهة - وذلك بعد القهر الذى خضع له الفرد قديما فأنشأ فى نفسه الضمير - أخضع الإنسانَ لهذه الفضائل التى لا تتفق وطبيعته إخضاعا مطّردا صامتا ؛ فأنظمة الملكية والزواج تتوقف إلى حدما على العقوبات الدينية وهى تميل إلى فقدان قوتها فى العصور التى يسود فيها الشك الدينى ، بل الحكومة نفسها التى هى أهم أداة اجتماعية اصطنعها الإنسان ، وأبعد أداة عن طبيعة الإنسان ، كثيرا ما استعانت بالتقوى وبالكاهن ، كما فعل أذكياء المراطقة مثل نابليون وموسولينى اللذين لم يلبثا أن كشفا عن هذه الحقيقة ؛ ومن هنا كان ثمة « ميل إلى قيام دولة دينية كلما نشأت الدساتير »(١٤١) ؛ فلئن كانت قوة الرئيس البدائى تستمد الزيادة من السحر والعرافة ، فإن حكومتنا(*) نفسها تستمد بعض القوة من اعترافها السنوى « بإله المهاجرين » .

وأطلق أهل « پولنيزيا » كلمة « تابو » (ومعناها التحريم) على ما يحرّمه الدين ؛ فلما تقدمت المجتمعات البدائية بعض الشيء ، اصطنعت هذه الحُرُمات الدينية مكانة هى التى أصبحت فى ظل المدنيّة مكانة القوانين ؛ وكانت صيغة التحريم عادةً سالبة : فبعض الأفعال وبعض الأشياء أُعلن عنها أنها « مقدسة » أو « نجسة » وكان اللفظان فى الواقع يعنيان نذيراً واحداً ، وهو أن تلك الأفعال أو الأشياء لا يجوز لمسها ؛ « فتابوت العهد » مثلا كان محرَّما ، ويُروى عن « عُزّى » أنه سقط صعقا عند لَمْسِه لمنعِه من السقوط(١٤٢) ؛ ويؤكد لنا « ديودورس » عن المصريين القدماء أنهم أكل بعضهم بعضا إبان المجاعة ، فذلك آثر عندهم من الاعتداء على تحريم أكل الحيوان الذى اتخذته القبيلة طوطما لها(١٤٣) ؛ وإنك لتجد فى معظم الجماعات البدائية عدداً كبيرا جدا من هذه المحرَّمات ، فكلمات معينة وأسماء معينة ما كان لها قط أن تُنْطق ، وأيام معينة

(*) يقصد الولايات المتحدة . (المعرب)

وفصول معينة كانت من المحرمات بمعنى أن القتل لم يكن يؤذن به خلالها ؛ وكل معرفة البدائيين بحقائق الغذاء ، وبعض جهلهم بتلك الحقائق ، كان سبيلها إليهم تحريمات معينة أقامها الناس على ألوان الطعام ، فهُمْ لم يلقنوا مبادئ الصحة عن طريق العلم أو عن طريق الطب العلْماني بقدر ما لُقّنوها عن طريق الدين .

وكانت المرأة أهم ما اتجه إليه التحريم عند البدائيين فآلاف الخرافات نشأت عن المرأة لتجعلها ، آنا بعد آن ، مُحَرّمة اللمس ، خطرةً ، « نجسة » ؛ إن منشئي الأساطير في أنحاء العالم لم يكونوا أزواجاً موفّقين ، لأنهم متفقون جميعاً على أن المرأة أساس الشر كله ، فلم يقتصر هذا الرأى على الديانتين اليهودية والمسيحية ، بل جاوزهما إلى مئات من الأساطير الوثنية ؛ وأدق التحريمات البدائية كان خاصاً بالمرأة إبان حيضها ، فكل مَنْ لمسها أو كل ما لمسها في هـــذه الفترة فقَدَ فضيلته إن كان إنساناً ، وضاعت فائدته إن كان غير ذلك ؛ فحرّم « الماكوزى » Macusi من أهل غيانة البريطانية على نسائهم أن يستحممن إبان حيضهن خشية أن يُسَمّمْن الماء ، كما حرموا عليهن الذهاب إلى الغابة في مثل هذه الفترات ، حتى لا تعضّهن الثعابين غراماً بهن(١٤٥) ؛ حتى الولادة كانت عندهم نجسة ، وكان على الأم بعدها أن تطهر نفسها في كثير جداً من الطقوس الدينية ؛ والعلاقة الجنسية حرام في معظم القبائل البدائية ، ليس فقط إبان فترات الحيض ، بل كذلك أثناء الحمل والرضاعة ، ولعل هذه التحريمات قد أنشأها النساء أنفسهن بما لهن من إدراك سليم وما يبغين لأنفسهن من وقاية وراحة ، لكن الأصول سرعان ما تُنْسى ، وتنظر المرأة فإذا هي « مشوبة » وإذا هي « نجسة » ؛ وانتهى بها الأمر إلى أن توافق الرجل على وجهة نظره ، وراحت تشعر بالعار في حيضها ، بل في حملها ؛ ومن التحريمات وأمثالها نشأ الحياء ونشأ الشعور بالخطيئة ، والنظر إلى العلاقة الجنسية على أنها نجاسة ، وكذلك نشأ التقشف وعزوبة الرهبان ونشأ إخضاع النساء .

ليس الدين أساس الأخلاق ، لكنه عون لها ، فقد يمكن تصور الأخلاق،

بغير دين ، وليس بالأمر النادر أن تتطور الأخلاق فى طريقها إلى التقدم بينا يبقى الدين لا يأبه لها ، أو يقاومها مقاومة عنيدة ؛ ففى الجماعات الأولى ، وفى بعض الجماعات المتأخرة ، كانت الأخلاق فيما يظهر على أتم استقلال عن الدين ، وفى مثل هذه الحالة لا يُعنى الدين بقواعد السلوك ، بل يُعنى بالسحر والطقوس وتقديم القرابين ، والرجل الطيب عندئذ هو من يؤدى محافل الدين أداء المطيع ، ويمدها بماله فى ولاء وإخلاص ؛ والدين بصفة عامة لا يَرْعى الخير المطلق (إذ ليس هناك خير مطلق) ، بل يرعى معايير السلوك التى وطدت نفسها بحكم الظروف الاقتصادية والاجتماعية ؛ وهو كالقانون يلتفت إلى الماضى ليستمد منه أحكامه ، وهو قمين أن يتخلف فى الطريق كلما تغيرت الظروف وتغيرت معها الأخلاق ؛ فقد تعلّم الإغريق مع الزمن أن يمقتوا مضاجعة المحارم ، مع أن أساطيرهم كانت ما تزال تمجد الآلهة الذين يفعلون ذلك ، والمسيحيون يصطنعون نظام الزوجة الواحدة بينما إنجيلهم يحلل تعدد الزوجات ؛ وامتنع الرق امتناعاً تاماً بينما المتدينون كانوا يدافعون عن قيامه بشواهد من الإنجيل لا تُنْقض ؛ وفى يومنا هذا نرى الكنيسة تقاتل قتال الأبطال لتقيم تشريعاً خلقياً قضت عليه الثورة الصناعية قضاء مبرماً لا شك فيه ؛ فالعوامل الأرضية هى التى تسود آخر الأمر ، والأخلاق تُوائم بين نفسها وبين المستحدثات الاقتصادية شيئاً فشيئاً ، ثم يتحرك الدين كارهاً فيوفّق بين نفسه وبين الأخلاق الجديدة(*) ؛ إن الوظيفة الخلقية للدين هى أن يحافظ على القيم القائمة ، أكثر مما يخلق قِيَماً جديدة .

ومن هنا كان من علامات المراحل العليا فى كل مدنية أن يحدث التجاذب بين الدين والمجتمع ؛ يبدأ الدين بمدَدٍ من السحر يقدمه للناس فى حيرتهم وارتباكهم ؛ ثم يصعد إلى قمة مجده بمَدَدٍ من وحدة الأخلاق والعقيدة يقدمها للناس فتجيء هذه

(*) مثال ذلك ضبط النسل الذى أحدثه الانقلاب الصناعى فى المدن ، ثم قبول الكنيسة لهذا الضبط فى خطوات بطيئة .

الوحدة مُعينةً أكبر العون للسياسة والفن ؛ ثم ينتهى بقتال يفنى فيه فناء المنتحر دفاعاً عن قضية الماضى الخاسرة ؛ ذلك لأنه كلما تقدمت المعرفة أو تغيرت تغيراً متصلا ، اصطدمت بالأساطير واللاهوت اللذيْن يتغيران تغيراً بطيئاً بطئاً لا يُحتمَل ؛ وعندئذ يشعر الناس برقابة رجال الدين على الفنون والآداب كأنها أغلال ثقيلة وحائل ذميم ، ويتخذ التاريخ الفكرى فى مثل هذه المرحلة صبغة « النزاع بين العلم والدين » ؛ والأنظمة التى تبدأ فى أيدى رجال الدين ، مثل القانون والعقاب ، والتربية والأخلاق ، والزواج والطلاق ، تميل نحو الإفلات من رقابة الدين لتصبح أنظمة دنيوية ، حتى ليعدها الدين أحياناً خارجة عليه ؛ والطبقات المستنيرة تطرّح وراء ظهورها اللاهوت القديم ، ثم — بعد شىء من التردد — تطرّح معه التشريع الخلقى ؛ عندئذ تصبح الفلسفة والأدب مناهضة لرجال الدين ، وترتفع حركة التحرير إلى عبادة العقل عبادة المتفانى ، تكبو فيما يشبه الشلل الذى تسبّبه خيبةُ الأمل إزاء كل عقيدة وكل فكرة ؛ ويتدهور السلوك الإنسانى إذا ما سُلِبَ دعائمَه الدينيةَ ، فينقلب ضرباً من الفوضى الأبيقورية ؛ بل إن الحياة نفسها ، وقد حرَمْتَها ما فيها من إيمان يبعث العزاء فى النفوس ، تصبح عبئاً ثقيلا للفقير الشاعر بفقره ، وللغنى الذى مَلّ غناه آن معاً ، وفى النهاية ينحدر المجتمع وتنحدر معه عقيدته الدينية نحو السقوط معاً فى ميتة واحدة كأنهما الجسد والروح ؛ على أنه سرعان ما تنشأ أسطورة أخرى بين الناس إذ هم ينوءون تحت هذا العبء الفادح ، أسطورة تصبّ الأمل الإنسانى فى قالب جديد ، وتمد الجهد الإنسانى بحماسة جديدة ، ثم تبنى مدنية جديدة بعد أن تنقضى قرون فى حالة من الفوضى .

الباب الخامس

العناصر العقلية فى المدنية

الفصل الأول

الآداب

اللغة — بطائنها الحيوانية — أصولها البشرية — تطورها — نتائجها —
التربية — التقليد — الكتابة — الشعر

كانت الكلمةُ بدايةَ الإنسان لأنه بالكلمة أصبح الإنسان إنساناً ؛ فلولا هذه الأصوات الغريبة التى نسميها أسماء كلية لانحصر الفكر فى الأشياء الجزئية أو الخبْرات الجزئية التى يذكرها الإنسان أو يدْركها عن طريق الحواس ، وخصوصاً حاسة النظر ؛ وأغلب الظن أنه لولا هذه الأسماء الكلية لما استطاع الفكر أن يدرك الأنواع باعتبارها متميزة عن الأشياء الجزئية ، ولا أن يدرك الصفات متميزة عن أشيائها التى تتصف بها ، ولا أن يدرك الأشياء مجردة عن صفاتها ؛ إنه لولا الكلمات التى هى أسماء لأنواع لاستطاع الإنسان أن يفكر فى هذا الإنسان وهذا وذاك ، ولكنه لم يكن ليستطيع أن يفكر فى « الإنسان » بصفة عامة ، لأن العين لاترى الإنسان العام ، بل ترى أفراداً من الإنسان فحسب ؛ العين لاترى الأنواع بل ترى الأشياء الجزئية ؛ ولقد بدأت الإنسانية حين جلس مِسْخٌ نصفه حيوان ونصفه إنسان ، جلس متربعاً فى كهف أو شجرة ، يشحذ رأسه شحذا ليخلق أول اسم من الأسماء الكلية ، أول رمز صوتى يدل على طائفة من أشياء متشابهة : كاسم منزل الذى ينطبق على المنازل كلها ، وإنسان الذى يدل على أفراد الإنسان جميعاً ، وضوء الذى معناه كل ضوء لمع على يابس أو ماء ؛ ومنذ ذلك الحين ،

انفتح أمام التطور العقلى للإنسان طريق جديد ليست له نهاية يقف عندها ؛ ذلك لأن الكلمات للفكر بمثابة الآلات للعمل ، والإنتاج يتوقف إلى حد كبير على تطور الآلات(١) .

ولما كان تصويرنا لأوائل الأشياء لا يزيد أبدا عن حدس وتخمين ، فلخيالنا أن يرسل لنفسه العنان فى تصور بداية الكلام ؛ يجوز أن تكون أول صورة بدت فيها اللغة – ويمكن تعريف اللغة بأنها اتصال عن طريق الرموز – صيحة حُبٍّ بين الحيوان والحيوان ؛ وإنك لترى فى صيحات النذير والفزع ، وفى مناداة الأم لصغارها ، وفى الزقزقة والنقنقة التى يعبر بها الحيوان عن فرحه بصوته أو باتصاله بعشيره من الجنس الآخر ، واجتماعه أفرادا ليتبادل الأصوات من شجرة إلى شجرة ، إنك لترى فى هذا كله الخطوات التمهيدية التى يجهد الحيوان نفسه فى اجتيازها لكى يصل الإنسان إلى الذروة العليا ، ذروة الكلام ؛ ولقد وُجِدَت فتاة حوشية تعيش مع الحيوان فى غابة بالقرب من شالون فى فرنسا ، فلم يكن لها من الكلام إلا صرخات ودمدمات كريهة الوقع على المسامع ؛ هذه الأصوات الحيَّة التى تنبعث فى الغابات قد لا تكون ذات معنى لآذاننا التى تحضَّرَتْ ، فنحن فى هذا كالكلب المتفلسف « ريكيه » Requet الذى يقول عن « السيد برْچريه » Bergeret « إن كل ما ينبعث به صوتى له معنى ، أما سيدى فيجرى من فمه هراء » ؛ ولاحَظَ « وِتْمَنْ » Whitman و « كريج Craig علاقة عجيبة بين أفعال الحمام وصيحاته ؛ واستطاع « ديبون » Dupont أن يميز اثنى عشر صوتا مختلفا يستعملها الدجاج والحمام ، وخمسة عشر صوتا تستعملها الكلاب ، واثنين وعشرين صوتا تستعملها الماشية ذوات القرون ؛ ووجد « جارْنَرْ » Garner أن القردة تمضى فى لغوها الذى لا ينتهى بعشرين صوتا على الأقل ، مضافا إليها عدد كبير من الإشارات ؛ ومن هذه اللغات المتواضعة نشأت ، بعد تطور قصير المراحل ، الثلاثمائة كلمة التى تكفى بعض القبائل البشرية المتواضعة(٢) .

ويظهر أن الإشارات كانت لها الأهمية الأولى ، وللكلام المنزلة الثانية فى تبادل الفكر فى العصور الأولى ؛ وإنك لتلاحظ أنه إذا ما أخفق الكلام فى الأداء ، وثبتْ الإشارات من جديد إلى الطليعة ؛ ففى القبائل الهندية فى أمريكا الشمالية ، التى تستعمل من اللهجات ما لا يقع تحت الحصر ، يجىء العروسان من قبيلتين مختلفتين فيتبادلان الفكر ويتفاهمان بالإشارات أكثر من الكلام ؛ ولقد عرف « لويس مورجان » Lewis Morgan عروسين ظلا يستخدمان إشارات صامتة مدى ثلاثة أعوام ؛ وكان التفهم بالإشارات من الأهمية فى بعض اللغات الهندية بحيث تعذر على أفراد قبيلة « أراپاهو » Arapaho — كما يتعذر على بعض الشعوب الحديثة — أن يتحدثوا فى الظلام[٣] ؛ وربما كانت أول الألفاظ الإنسانية صيحات تعبر عن العواطف كما هى الحال عند الحيوان ، ثم جاءت ألفاظ الإشارة مصاحبة للإشارة بالجسم لتدل على الاتجاه ، ثم تَلَتْ ذلك أصوات مُقَلِّدة جاءت فى أوانها المناسب لتعبر عن الأشياء والأفعال التى يمكن محاكاة أصواتها ، ولا تزال كل لغة من لغات الأرض تحتوى على فئات من هذه الألفاظ التى تحاكى بأصواتها الأشياء والأفعال ، على الرغم من آلاف السنين التى مضت مليئة ، بالتغيرات والتطورات التى طرأت على اللغة — مثل : زئير ، همس ، تمتمة ، قهقهة ، أنين ، زقزقة الخ(*) وعند قبيلة « تكونا » Tecuna فى البرازيل القديمة لفظ يقلد صوت المسمى تقليداً تاما يدلون به على الفعل « يعطس » وهو « هايتشو »[٥] وربما كانت هذه البدايات وأمثالها أساساً للكلمات الأوّلية فى كل لغة من اللغات ؛ وحصر « رينان » Renan الألفاظ العبرية فى خمسمائة كلمة

(*) مثل هذه المحاكاة اللفظية لا تزال ملجأ تلوذ به اللغات ما واجهها معنى جديد طارئ ، فالإنجليزى الذى أكل أول وجبة له فى الصين وأراد أن يستفسر عن نوع اللحم الذى كان يأكله سأل فى وقار وتحفظ تعهدهما فى الانجلوساكسون : « كواك ، كوالا ؟ » فهز الصينى له رأسه مجيباً فى مرح : « بو — وو »[٧] .

أصلية ، وحصر « سكيت » Skeat كل الألفاظ الأوربية تقريباً فى نحو أربعمائة كلمة أصلية(*)

ولا تحسبنّ لغات الشعوب الفطرية بدائية بالضرورة ، إذا أردنا بكلمة « بدائية » فى هذا السياق أى معنى من معانى البساطة فى التركيب ، نعم إن كثيراً منها بسيط فى ألفاظه وبنائه ، لكن بعضها معقد البناء كثير الكلمات مثل لغاتنا ، بل هو أرقى فى التكوين من اللغة الصينية(٧) ومع ذلك فتكاد اللغات البدائية كلها أن تحصر نفسها فى حدود الحسّىّ والجزئىّ ؛ وهى بصفة عامة فقيرة فى الأسماء الكلية والمجردة ؛ فسكان استراليا الأصليون يطلقون اسماً على ذيل الكلب واسماً آخر على ذيل البقرة ، ولكن ليس فى لغتهم كلمة تدل على « ذيل » بصفة عامة(٨) وأهل تسمانيا يطلقون على كل نوع من الشجر اسماً ، لكن ليس لديهم كلمة واحدة تدل على « الشجرة » بصفة عامة ؛ وكذلك هنود « تُشكْتُو » Choctaw يطلقون اسماً على السنديانة السوداء ، وآخر على السنديانة البيضاء ، وثالثاً على السنديانة الحمراء : لكنهم لا يعرفون كلمة واحدة تدل على السنديانة بصفة عامة ، ثم بالطبع ليس لديهم كلمة تدل على الشجرة عامة ؛ ولا شك أن أجيالاً من الناس تعاقبت قبل أن يستطيع الإنسان أن ينتهى من اسم العَلَم إلى الاسم الكلى ؛ وفى قبائل كثيرة لا تجد ألفاظاً تدل على الألوان مجردة عن الأشياء الملوّنة ، كلا ولا تجد عندها كلمات لتدل على مجردات مثل : نغمة ، جنس ، نوع ، مكان روح ، غريزة ، عقل ، كمية ، أمل خوف ، مادة ، شعور . . . الخ(٩) ، فمثل هذه الألفاظ المجردة تتكون وتتزايد — فيما يظهر — مع تقدم الفكر ، لأن بينها وبين الفكر علاقة السبب والمسبّب ؛ وهى بعد تكوينها تصبح أدوات تعين على دقة التفكير ، ورموزاً تدل على الحضارة ؛

ولما كانت الألفاظ تعود على الناس بكل هذه المزايا ، فقد حسبوها نعمة

(*) هنا يبين المؤلف ببعض الأمثلة كيف تتحد بعض الألفاظ الأوروبية فى أصولها .

إلهية وشيئاً مقدساً ، بحيث أصبحت مادة تصاغ منها صيغ السحر ، وهى تزداد فى أعين الناس تقديساً كلما ازدادت فراغاً من المعنى ؛ ولا تزال فى يومنا مقدسة إذا استخدمناها فى الأسرار الخفية ، حين تتحول « الكلمة » إلى « لحم » — مثلا إن الألفاظ لم تكن وسيلة التفكير الواضح فحسب ، بل كانت سبيلا لإصلاح التنظيم الاجتماعى كذلك ، لأنها ربطت بين الأجيال المتعاقبة ربطاً عقلياً وثيق العرى ، بأن هيأت لهم وسيلة لإصلاح للتربية من جهة ، ولنقل المعارف والفنون من جهة أخرى ؛ فبظهور ألفاظ اللغة ظهرت أداة جديدة تصل الأفراد بعضهم ببعض بحيث يمكن للمذهب الواحد أو العقيدة الواحدة أن تصُبَّ أفراد الشعب فى قالب واحد متجانس ؛ وفتحت طرقاً جديدة لنقل الآراء وتبادلها ، وزادت عمق الحياة زيادة عظيمة ، كما وسَّعَتْ نطاقها ومضمونها ، فهل تعرف اختراعاً آخر يساوى فى قوته ومجده هذا الاختراع ، اختراع الاسم الكلى ؟

وأعظم هذه المزايا التى لألفاظ اللغة — بعد توسيعها للفكر — هى التربية ؛ فالمدنيّة ثروة زاخرة تجمعت على الأيام من الفنون والحكمة وألوان السلوك والأخلاق ، ومن هذه الثروة الزاخرة يستمد الفرد فى تطوره غذاء لحياته العقلية ، ولولا أن هذا التراث البشرى يهبط إلى الأجيال جيلا بعد جيل ، لماتت المدنية موتاً مفاجئاً ، فهى مَدِينةٌ بحياتها إلى التربية .

التربية بدايات ضئيلة من الشعوب البدائية ، إذ التربية عندهم — كما هى عند الحيوان — هى قبل كل شىء نَقْلٌ لضروب المهارة وتدريب الناشئ تدريباً يصوغ له شخصيته ، فهى علاقة مفيدة سليمة بين العلم والتعلم فى تلقين طرائق العيش ؛ وهذا التعليم العملى المباشر شجع عند الطفل البدائى نمواً سريعاً ؛ ففى قبائل « أوماها » يكون الولد وهو فى سن العاشرة تقريباً قد تعلم معظم فنون أبيه ، مستعداً للحياة ؛ وفى قبائل « الألوت » Aleuts غالباً ما يؤسس الولد داراً لنفسه وهو فى العاشرة ، وأحياناً يختار زوجة وهو فى هذه السن ؛ وفى نيجريا يترك الأطفال وهم فى السادسة

أو الثامنة دُور آبائهم ليبنوا لأنفسهم أكواخاً ويزوّدوا أنفسهم بالقوت من الصيد والسِّماكة [١٠] ، والعادة أن ينتهى شوط التربية حين تبتدئ الحياة الجنسية ، ولما كان نضجهم يأتى مبكّراً فإن خمودهم يأتى كذلك مبكّراً ، فى ظروف الحياة عندهم ينضج الصبى فى الثانية عشرة من عمره ويشيخ فى الخامسة والعشرين[١١] ، وليس معنى ذلك أن « الهمجى » له عقلية الطفل ، بل معناه أنه لم يكن له حاجات الطفل الحديث ولا فُرَصُه ؛ وهو لم يتمتع بمثل ما يتمتع به الناشئ الحديث من مراهقة طويلة آمنة ، تسمح بنقل التراث الثقافى نقلا يكاد يكون كاملا ، وتتضمن تدريبه على ضروب أكثر ومرونة أكبر فى الاستجابة للبيئة التى بعدت من الصورة الفطرية والتى زادت فيها عوامل التغير .

كانت بيئة الإنسان الفطرى ثابتة نسبياً ، ولم تكن تتطلب القدرة العقلية ، بل تطلبت الشجاعة وتكامل الشخصية ؛ فكان الوالد البدائى يركّز اهتمامه فى بناء شخصية ولده كما تركّز التربية الحديثة اهتمامها فى تدريب القوة العقلية ؛ فقد كان يعنيه أن يبنى رجالا ، لا أن يكوّن العلماء ؛ ومن هنا كانت طقوس إدماج الناشئ فى القبيلة ، تلك الطقوس التى كانت فى الشعوب الفطرية تعلن بلوغ الناشئ سن النضج وتعترف له بعضوية الجماعة ؛ ترمى إلى اختبار شجاعته أكثر مما تقصد إلى قياس معرفته ؛ وكانت مهمتها أن تُعِدّ الشباب لمشاق الحرب وتبعات الزواج ؛ وهى فى الوقت نفسه فرصة تتاح للكبار أن يمرحوا ويفرحوا بإيقاع الأذى على الآخرين ؛ وبعض هذه الطقوس « يبلغ من البشاعة ومن إثارة النفس حدا تتعذر معه الرؤية وتصعب الرواية »[١٢] ؛ فى قبيلة « الكفير » — وهذا مثل معتدل — كان الصبيان الذين يطلبون عضوية القبيلة يُمتحنون بعمل شاق فى النهار وحرمان من النوم فى الليل ، حتى يسقطوا من الإعياء ؛ لكى يزداد القائمون بامتحانهم يقينا بصلابة هؤلاء الصبيين ، كانوا يضربونهم بالسّياط « على فترات قصيرة وبغير رحمة حتى يَنِزّ الدم من أجسادهم » . وكان ذلك

يؤدى إلى قتل نسبة كبيرة من الغلمان ؛ لكن الكبار — فيما نظن — كانوا ينظرون إلى الأم نظرة الفيلسوف ؛ وربما كانوا بفعلهم هذا يسبقون الانتخاب الطبيعي ويضيفون إلى عوامله عاملا جديدا[١٣] ؛ وكانت هذه الطقوس الممتحنة عادة علامة انتهاء المراهقة والاستعداد للزواج ؛ وكانت العروس تلح فى أن يثبت عريسها قدرته على تحمل الألم ؛ وكانت هذه الطقوس عند كثير من القبائل تدور حول عملية الختان ، فإذا تحرك الشباب أثناء إجرائها أو صرخ ، ضُربَ أهله ضربا ، ورفضتْه عروسه المنتظرة — التى وقفَتْ لتشهد العملية فى عناية وانتباه — على أساس أنها لا تريد أن تتزوج من فتاة[١٤] .

لم تكن التربية البدائية تنتفع بالكتابة إلا قليلا ، أو لم تكن تنتفع بها إطلاقا ، فليس يَدْهَشُ الإنسانُ الفطرى لشيء دهشته لاستطاعة الأوربيين أن يتصل أحدهم بالآخر — وبينهما مسافة بعيدة — بوساطة خطوط سوداء تُخَطُّ على قطعة من الورق[١٥] ؛ وقد تعلمت قبائل كثيرة الكتابة محاكاتها لمن جاءوا لاستغلالها من المتحضّرين ، لكن بعض القبائل — كما هى الحال فى شمالى أفريقيا — لبث أميا على الرغم من خمسة آلاف عام أخذت هذه القبائل تتصل خلالها بالأمم الكاتبة اتصالا متقطعاً ؛ أما القبائل الساذجة التى تعيش معظم حياتها عيشا معتزلا بالنسبة إلى سواها ، وتنعم بالسعادة التى تنجم عن جهل الإنسان بتاريخه الماضى ، فلا تحسّ بالحاجة إلى الكتابة إلا قليلا ، ولقد قويت ذاكراتهم بسبب انعدام المخطوطات التى تساعدهم على حفظ ما يريدون الاحتفاظ به ، فتراهم يحتفظون . ويَعُون ، ثم ينقلون ماحفظوه وما وَعَوْه إلى أبنائهم بتسميعهم إياه ؛ وإنما هم يحفظون ويعون ويُسَمِّعون كل ما يرونه هاما فى الاحتفاظ بحوادث تاريخهم وفى نقل تراثهم الثقافى ؛ ويجوز أن يكون الأدب قد بدأ حين بدأ تدوين هذا المحفوظ وتدوين الأغانى الشعبية ؛ ولاشك أن اختراع الكتابه قد صادف معارضة طويلة من قِبَل رجال الدين ، على اعتبار أنها فى الأرجح ستودى إلى هدم الأخلاق

وتدهور الإنسان ، فتروى أسطورة مصرية أنه لما كشف الإله تحوت للملك تحاموس عن فن الكتابة ، أبى الملك الطيب أن يتلقى هذا الفن لأنه يهدم المدنيّة هدما ؛ وقال فى ذلك : « إن الأطفال والشبان الذين كانوا حتى الآن يُرْغَمون على بذل جهدهم كله فى حفظ ما يتعلمونه ووعيه ، لن يبذلوا مثل هذا الجهد (إذا ما دخلت الكتابة) ولن يروا أنفسهم فى حاجة إلى تدريب ذاكراتهم »[١٦] .

وبطبيعة الحال ليس فى وسعنا أكثر من التخمين إذا أردنا أن نقول شيئاً عن أصل هذه اللعبة العجيبة ؛ فيجوز أنها كانت نتيجة تفرعت عَرَضاً عن صناعة الخزف كما سنرى فيما بعد ، وذلك بأن نشأت عن رغبة الناس فى إثبات « العلامات التجارية » على ما يصنعونه من آنية خزفية ؛ ويجوز أن تكون زيادة التجارة بين القبائل قد اقتضت اصطناع مجموعة من العلامات المكتوبة ، وأن تكون أولى صورها تصاوير غليظة اتفق عليها الناس لتدل على السلع التى يتبادلونها فى تجارتهم وعلى ما يقوم بينهم من حساب ؛ لأنه ما دامت التجارة قد وصلت قبائل يتكلمون لغات مختلفة ، بعضها ببعض ، فلابد من اتخاذ وسيلة للتدوين وللتفاهم يفهمها الطرفان المتعاملان معاً ؛ وفى وسعنا أن نفترض أن قد كانت الأرقام بين أول طائفة من الرموز المكتوبة ، وأنها فى معظم الحالات كانت تتخذ صورة خطوط متوازنة تمثل الأصابع ؛ ولانزال نستعمل كلمة « أرقام » (فى اللغة الإنجليزية) التى تدل على ذلك الأصل المخطوط ، حين نريد أن نقول « أعداد »(*) ؛ ثم لا تزال كلمات مثل كلمة « خمسة » فى اللغات الإنجليزية والألمانية واليونانية ، ترتدُّ إلى أصل لغوى معناه « يد »[١٧] ؛ وكذلك الأرقام الرومانية تشير بصورتها إلى أصابع اليد ، فالعلامة التى معناها خمسة « V » تصور يدا مفتوحة ، والعلامة التى معناها عشرة « X » تتركب من علامتين من علامات الخمسة تقابلتا عند زاويتيهما ؛

---

(١) كلمة figure فى الإنجليزية معناها « شكل مخطوط » أو « رقم » . (المعرب)

حروف الهجاء الإنجليزية	حروف الهيروغليفية المصرية	حروف أبي سمبل	الحروف على حجر مواب	الحروف الأيونية في اليونان القديمة
A		Δ	K	A A
B		B B	9	B
G			1	Γ Γ
D			◁	Δ
E		F E	∃	F E
F(W)			Y	
Z	Y		Z	
H		B	H	B
TH			⊗	⊗
I		I	Z	I
K			Y	K
L		Γ Λ	6	Γ
M		M	Y	M
N		N	4	N N N
X(SH)			≢	Ξ
O		○ ○ O	O	O ∩
P		Γ	7	Γ
S			h	
Q		Q	Φ	
R			4	P D
S	○ 0	ξ ξ	W	ξ ξ ξ ξ
T		T	X	T
Ü				Y
P-H				
KH				X
PS				Ψ Ψ
Ō				∩

حروف الهجاء الإنجليزية ومقابلاتها في أنواع الكتابة القديمة

وكانت الكتابة فى بدايتها — كما لا تزال عند أهل الصين واليابان — ضرباً من الرَّسْم أى كانت ضرباً من الفن ؛ فكما أن الإنسان كان يستخدم الإشارات حين كانت تتعذر عليه الكلمات ، فكذلك استخدم الصور لينقل أفكاره عَبْرَ المكان وخلال الزمان ؛ فكل كلمة وكل حرف مما نستعمله اليوم كان فيما سبق صورة ، كما هى الحال الآن فى العلامات التجارية وفى التعبير عن أبراج السماء ؛ والصور الصينية البدائية التى سبقت الكتابة كانت تسمى « كورروان » ومعناها الحرفىّ « صور للإشارات » ؛ وكانت القوائم الطوطمية كتابة تصويرية ، أو كانت — كما يقترح « ماسون » Mason رسماً تدونه القبائل لتعبر به عن نفسها ؛ فبعض القبائل كان يستعمل عصيًّا محزوزة لتذكّرهم بشىء أو ليبعثوا بها رسالة ؛ وبعضها الآخر — مثل « هنود ألجُونْكِوِن » Algouquin لم يكتف بحزّ العصىّ ، بل رسم عليها أشكالا تجعلها صوراً مصغرة للقوائم الطوطمية ؛ أو ربما العكس هو الصحيح ، أى أن هذه القوائم الطبيعية كانت صورة مكبرة للعصىّ المحزوزة ، وكان هنود بيرو يحتفظون بمدوّنات طويلة من الأعداد ومن الأفكار ، بأن يعقدوا حبالا مختلفة الألوان بالعُقَد والعُرَى ؛ وربما أُلقى شىء من الضوء على أصل هنود أمريكا الجنوبية إذا عرفنا أن هذه العادة نفسها سادت بين سكان الأرخبيل الشرقى وأهل پولنيزيا .

ولما أهاب « لاوتسى » Lao-Tse بقومه الصينيين أن يعودوا إلى الحياة الساذجة ، اقترح عليهم أن يرتدّوا إلى ما كانوا يصنعونه فى عصورهم البدائية من حبال معقودة[١٨] وتظهر صور من الكتابة أرقى مما ذكرنا بين الشعوب الفطرية آنا بعد آن ، فلقد وجدنا رموزا هيلوغريفية فى جزيرة « إيستر » فى البحار الجنوبية ؛ وكشفنا الغطاء فى إحدى جزر « كارولينا » عن مخطوط يتكون من واحد وخمسين رمزاً مقطعياً تصور أعداداً وأفكاراً[١٩] ، وإن الرواية لتروى كيف حاول رؤساء جزيرة إيستر وكهنتها أن يحتفظوا لأنفسهم بكل معرفة تتصل

بالكتابة ، وكيف كان الناس يحتشدون مرة فى كل عام ليسمعوا المدوّنات وهى تُقرأ عليهم ؛ فبديهى أن الكتابة كانت فى مراحلها الأولى شيئاً غامضاً مقدساً ، ولفظة « هيروغليف » معناها نقش مقدس ، ولسنا على يقين من أن هذه المخطوطات البولينزية لم يكن مصدرها إحدى المدنيّات التاريخية ؛ لأن الكتابة — على وجه العموم — علامة تدل على الحضارة ، وهى من أوثق المميزات التى تفرق بين أهل المدنيّة وأبناء العصور البدائية :

الأدب فى أول مراحله كلمات تقال أكثر منه حروفاً تكتب (على الرغم من أن الكلمة فى الإنجليزية تنتمى فى أصلها اللغوى إلى ما يدل على الكتابة) ؛ وهو ينشأ فى ترانيم دينية وطلاسم سحرية ، يتغنى بها الكهنة عادة ، وتنتقل بالرواية من ذاكرة إلى ذاكرة ؛ والكلمة التى معناها الشعر عند الرومان ، وهى « Carmina » تدل على الشعر وعلى السحر فى آن واحد ؛ والكلمة التى معناها نشيد عند اليونان ، وهى « Ode » معناها فى الأصل طلسم سحرىّ ، وكذلك قلْ فى الكلمتين الإنجليزيتين « Tune » و « Lay » والكلمة الألمانية « Lied » وأنغام الشعر وأوزانه ، التى ربما أَوْحَتى بها ما فى الطبيعة وحياة الجسد من اتساق ، قد تطورت تطوراً ظاهراً على أيدى السحرة الذين أرادوا أن يحتفظوا وينقلوا ثم يزيدوا من « التأثير السحرىّ لأشعارهم »(٢٠) ، ويعزو اليونان أول ما قيل من شعر فى البحر العُشارى إلى كهنة دلفى ، الذين ابتكروا هذا البحر ليستخدموه فى نظم نبوءاتهم(٢١) ، وبعدئذ أخذ الشاعر والخطيب والمؤرخ يتميز بعضهم من بعض شيئاً فشيئاً ، ويتجهون اتجاهاً دنيوياً فى فنونهم ، بعد أن اتحدوا جميعاً فى هذا الأصل الكهنوتى ، فأصبح الخطيب مُشيدا رسمياً بأعمال الملك أو مدافعاً عن الآلهة ، وبات المؤرخ مسجلا لأعمال الملك ، والشاعر مغنيّا لأناشيد كانت فى الأصل مقدسة ، ومعبراً وحافظاً لأساطير البطولة ، وموسيقيّاً صاغ أقاصيصه صياغة الألحان ليعلّم بها الشعب وملوكه جميعاً ؛ وهكذا كان لأهل فيجى وتاهيتى وكاالدونيا

الجديده خطباء ومؤرخون رسميون ، عليهم أن يخطبوا الناس فى المحافل العامة ، وأن يثيروا حماسة المقاتلين فى القبيلة بذكر أعمال أجدادهم والإشادة بمجد أمتهم التليد الذى لاتضارعها فية أمة أخرى ؛ وكان للصومال شعراء محترفون يطوفون من قرية إلى قرية ينشدون الأناشيد مثل الشعراء المنشدين والشعراء الطوافين الذين عرفتْهم العصور الوسطى ، ولم تكن أشعارهم التى يتغنون بها عن الحب إلا فى حالات نادرة ، وأما فى أكثر الحالات فقد كانت تقال عن البطولة البدنية أو حومة القتال أو علاقة الآباء بأبنائهم ، وهاك مثلا من الشعر مأخوذاً عن أحد الآثار القديمة فى جزيرة إيستَرْ وهو رثاء والد لابنته أبعدتها تصاريف الحروب عنه :

إن ركوب ابنتى لمتون البحار .

لم تُفسده عليها قط قبائل الأعداء

إن ركوب ابنتى لمتون البحار

لم يُفسده عليها التآمر من أهل هونيتى

فما فتئت ظافرة فى كل حروبها

هل اغرَوْها بشرب الماء المسموم

من الزجاجة الحجرية السوداء ؟ هذا مستحيل .

هل يمكن لأحزانى أن يقلّ سعيرها

بينما يفصلنى عن ابنتى خضمُّ البحار ؟

أواه يا ابنتى ، أواه يا ابنتى !

إنه لطريق مائى فسيح

ذلك الذى أمدّ بصرى خلاله تجاه الأفق

يا ابنتى ، أواه يا ابنتى !(٢٢)

الفصل الثانى

العـــلم

البدايات — الرياضة — الفلك — الطب — الجراحة

يرى هربرت سبنسر ذلك الإخصائى العظيم فى جمع الشواهد للوصول إلى النتائج ، أن العلم — كالأدب — بدأ بالكهنة ، واستمد أصوله من المشاهدات الفلكية التى كانت تحدد مواقيت المحافل الدينية ، ثم صينَ فى كنف المعابد ونُقِلَ عَبْر الأجيال باعتباره جزءاً من التراث الدينى(٢٣) ؛ ولسنا نستطيع الجزم برأى فى هـــذا ، لأن البدايات لا تمكّننا من معرفتها ، سواء فى العلم أو فى غيره ؛ وكل ما نستطيعه هو التخمين والظن ؛ فيجوز أن يكون العلم — شأنه فى ذلك شأن المدنيَّة بصفة عامة — قد بدأ مع الزراعة ؛ فالهندسة فى أولها كانت عبارة عن قياس الأرض المزروعة ؛ وربما أنشأ علمَ الفلك حسابُ المحصول والفصول الذى يستدعى مشاهدة النجوم وإنشاء التقويم ؛ ثم تقدم الفلك بالملاحة ، وطَوَّرَتْ التجارة علم الرياضة ، كما وضعت فنونُ الصناعة أُسس الطبيعة والكيمياء .

وربما كان العدُّ من أول ما شهد الإنسان من صور الكلام ، ولايزال العدُّ فى كثير من القبائل يتم على صورة تبعث على الابتسام ببساطتها ؛ فقد عَدَّ « التسمانيون » إلى العدد اثنين لم يجاوزوه : « پارْمَرى ، كالاباوا ، كارْديا » — يعنى : « واحد ، اثنين ، كثير » ؛ ثم ذهب أهل قبيلة « جوارانى Guaranis » فى البرازيل إلى أبعد من ذلك ، فقالوا : « واحد ، اثنين ، ثلاثة ، أربعة ، كثير » والهولنديون الجدد ليس لديهم كلمات للفظى ثلاثة أو أربعة ، بل هم يطلقون على ثلاثة كلمة « اثنين — واحد » وعلى أربعة كلمة « اثنين — اثنين » ؛ وأهل

« دامارا » لايقبلون أن يبادلوا غنمتين باربع عصيّ ، لكنهم يقبلون أن يبادلوا غنمة بعَصَوَيْن ، ثم يكررون العملية مرة أخرى ؛ ولقد كان العَدّ وسيلته الأصابع ، ومن هنا نشأ النظام العشرى ؛ ولما أدرك الإنسان فكرة العدد اثنى عشر ، والأغلب أن يكون أدرك ، بعد حين من الزمن ، فرح به لأنه كان مريحاً للنفس بقبوله القسمة على خمسة من الأعداد الستة الأولى ؛ وهنا وُلد النظام الاثنا عشرى فى الحساب ، وهو نظام لا يزال قائماً ، لا يريد لنفسه الزوال ، فى المقاييس الإنجليزية حتى اليوم ؛ فاثنا عشر شهراً تكوّن عاما ، واثنا عشر بنساً تكون شلناً ، و « الدستة » اثنا عشر ، و « الجروسة » اثنا عشر « دستة » والقدم اثنا عشر بوصة ؛ أما العدد ثلاث عشر ، فهو على عكس سالفه ، يأبى الانقسام ، ولذا أصبح بغيضاً عند الناس ، ومبعثاً للتشاؤم إلى الأبد ؛ ولما أضيفت أصابع القدمين إلى أصابع اليدين ، تكونت فكرة العشرين ؛ ولا يزال استعمال هذا العدد فى العدّ ظاهراً فى قول الفرنسيين « أربع عشرينات » ليدلوا على « ثمانين » ؛ وكذلك استخدمت أجزاء أخرى من البدن معايير للقياس ، فاليد كلها « للشبْر » والإبهام للبوصة (اللفظتان فى اللغة الفرنسية ينوب عنهما لفظة واحدة تؤدى المعنيين) والذراع حتى المرفق للذراع ؛ والذراع كلها لمقياس آخر (يسمى ذراع المندازة) والقدم للقدم ؛ وفى عصر متقدم ، أضيفت الحصوات إلى الأصابع لتعين على عملية العدّ ؛ ولا تزال الكلمة الإنجليزية للعدّ ، (Calculate) تشير بأصلها اللغوى إلى أصلٍ معناه « حجر صغير » مما يدل على صغر المسافة التى تفصل القدماء السذّج عن المحدثين ، ولقد تمنى « ثورو » Thoreau أن يحيا هذه البدائية الساذجة ، وأجاد التعبير عن حالة كثيراً ما تعاود الإنسان فقال : « إن الرجل الأمين لا يكاد يجد الحاجة إلى عدّ يجاوز به أصابع يديه ، وقد يضيف إليها أصابع قدميه فى حالات نادرة ؛ ثم يكدس ما بقى له بعد ذلك فى كتلة واحدة ؛ فرأيى هو أن نُجرى أمورنا على نسق الاثنين أو الثلاثة ، لا على نسق المائة أو الألف ، فبدل

المليون ، عُدَّ ستة فقط ، وسجل حسابك على ظفر إبهامك »[٢٠] .

وربما كانت بداية الفلك فى قياس الزمن بحركات الأجرام السماوية وكلمة « مقياس » نفسها (فى اللغة الإنجليزية measure) وكلمة شهر (month) — بل ربما كانت كلمة إنسان man أيضاً وهو الذى يقوم بالقياس — كل هذه الكلمات تَرْتَدُّ — بغير شك — إلى أصل لغوىٍّ معناه القمر (moon)[٢٦] ذلك لأن الناس قاسوا الزمن بدورات القمر قبل قياسه بالأعوام بزمن طويل ؛ فالشمس — مَثَلُها فى ذلك مَثَلُ الأب لم تستكشف إلا فى وقت متأخر نسبيا ؛ وحتى اليوم ترانا نحسب موعد عيد الربيع « Easter » بأوجه القمر ؛ وكان لأهل پولنيزيا تقويمٌ ، العامُ فيه ثلاثة عشر شهراً ينظمها القمر ، فلما رأوا أن سنتهم القمرية تختلف اختلافا بيِّنا عن مواكب الفصول ، أسقطوا شهراً قرباً ، وبذلك استعادوا التوازن بين سنتهم وبين الفصول[٢٧] ؛ لكن استخدام الأجرام السماوية على هذا النحو المتزن كان شذوذاً بالقياس إلى التخبط فى استخدامها للتنجيم ، فالتنجيم قد سبق علم الفلك ، وربما دام وجوده على الرغم من ظهور علم الفلك ؛ ذلك لأن النفوس الساذجة أكثر اهتماما بالكشف عما يخبئه لها الغيب منها بمعرفة الزمن ؛ فنشأت ألوف الخرافات عن تأثير النجوم فى خُلُق الإنسان ونصيبه المقدور ، ولا يزال كثير من هذه الخرافات مزدهراً فى يومنا هذا(*) وربما لم تكن هذه الخرافات خرافات بالمعنى الصحيح ، ويجوز أن تكون ضربا آخر من الخطأ فى التعليل ؛ وما العلم نفسه إلا الضرب الأول من ذلك الخطأ .

والإنسان البدائى لا يصوغ شيئاً من قوانين علم الطبيعة ، ويكتفى بممارستها من الوجهة العملية ؛ فلئن لم يكن فى مقدوره أن يقيس مسار المقذوف فى الفضاء ،

(*) فيما يلى اقتباس من إعلان أذاعته قاعة البلدية فى نيويورك عن برنامجها يوم ٥ مارس سنة ١٩٣٤ : (فلان سيكشف الطالع لمن أراد ؛ وهو المنجم لعلية القوم فى نيويورك ولأرباب المهن الممتازين ؛ والساعة تكلف عشرة ريالات) .

إلا أنه يستطيع أن يصوّب سهامه نحو الهدف فلا يخطئ ، ولئن لم يكن لديه رموز كيماوية ، إلا أنه يستطيع أن يميز بلمحة سريعة أى النباتات سام وأيها طعام ، بل يستطيع أن يستخدم الأعشاب استخداماً دقيقاً فى شفاء أمراض البدن ؛ والأرجح أن يكون أول من امتهن حرفه الطب هن من النساء ، لا لأنهن الممرضات الطبيعيات للرجال فحسب ، ولا لأنهن جعلن من فن التوليد — أكثر مما جعلن من مهمة الارتزاق — أقدم المهن جميعاً فحسب ؛ بل لأن اتصالهن بالأرض كان أوثق من اتصال الرجال بها ، فأتاح ذلك لهن علماء أوسع بالنبات ، ومكّنهن من التقدم بفن الطب ، وميّزنه عن التجارة بالسحر التى كان يقوم بها الكهنة ؛ فمنذ أقدم العصور حتى عصر يقع فى حدود ما تعيه ذاكرتنا ، كانت المرأة هى التى تباشر شفاء المرضى ؛ ولم يلجأ المريض عند البدائيين إلى طبيب يشفيه أو إلى ساحر إلا إذا أخفقت المرأة فى أداء هذه المهمة[٢٨] .

وإنه لما يثير الدهشة فى نفسك أن تعلم كم من الأمراض كان يشفيها هؤلاء البدائيون على الرغم من قصور علمهم بالأمراض[٢٩] ؛ فالمرض عند هؤلاء السُّذَّج — فيما بدا لهم — كان نتيجةً لحلول قوة غريبة عنه أو روح غريب فى بدنه — وهو تصور لا يختلف من حيث الجوهر عن النظرية التى تسود الطب الآن من تعليل المرض بدخول الجراثيم فى الجسم ؛ وأوسع طرق العلاج شيوعا بين البدائيين هو اصطناع رُقْيَة سحرية من شأنها أن تسترضى الروح الشريرة التى حلّتْ فى البدن العليل ، لعلها تنزاح عنه ؛ وإذا أردت أن تعرف مدى رسوخ هذه الطريقة فى أفئدة الناس بحيث لاتزول عنها أبداً ، فاقرأ قصة « خنزير جادارين » Gadarene Swine[٢٩أ] ، وحتى اليوم ترى الناس يعللون الصرع بحلول روح شرير فى البدن ؛ وبعض العقائد الدينية المعاصرة تنص على طرائق معينة لإخراج مثل هذه الروح الشرير من جسم العليل إذا أريد شفاؤه ؛ والكثرة الغالبة من الناس تعترف بالصلاة والدعوات على أنها تعين على الشفاء مع أقراص الدواء ؛ وربما

كان البدائيون يقيمون طريقتهم فى العلاج على نفس الأساس الذى يُقيم عليه أحدث الطب طريقته ، ألا وهو الشفاء بقوة الإيحاء ؛ غير أن أفاعيل أولئك الأطباء الأولين كانت أشد استلفاتاً للنظر بأساليبها المسرحية ، مما يصطنعه خلفاؤهم الذين ازدادوا عنهم حضارة ؛ فقد كانوا يحاولون طرد الروح الحالّ فى جسم المريض بتخويفه بما يلبسونه له من أقنعة مفزعة ، وما يغطون به أجسادهم من جلود الحيوان ، وبصياحهم وهذيانهم وتصفيقهم بالأيدى ، و « الشخشخة » بالصفائح وامتصاص الشيطان من الجسم المريض بوساطة أنبوبة مجوفة ؛ فكما كان يقول المثل السائر : « الطبيعة تشفى المريض ، والعلاج يسرُّ المريض » ، وأما قبائل « بورورو » Bororos البرازيلية فقد تقدمت بالعلم خطوة حين كانت تطلب إلى الوالد شرب الدواء ليشفى بذلك طفله المريض ، ولقد كان الطفل يشفى فى اطّراد كاد أن يكون شاملا كاملا[٣٠] .

وإلى جانب الأعشاب الطبّية نجد بين الأساليب الصيدلية الكثيرة التى كان يلجأ إليها الإنسان البدائى ، صنوفاً من المخدرات المنومة التى أريد بها أن تخفف الألم وتهوّن الجراحات ؛ فسموم مثل Curare الذى كثيراً ما يضعونه على أطراف سهامهم ؛ ومخدرات مثل نبات القنّب والأفيون والكافور ، هى أقدم تاريخاً من التاريخ ؛ حتى ليرجع أحد المخدّرات الشائعة بيننا اليوم إلى استخدام سكان بيرو لنبات الكوكا لهذه الغاية ؛ ويحدثنا « كارتييه » Cartier كيف كان أهل « إراكوا » يشفون مرض الإسقربوط بلحاء أشجار التنّوب والشوكران وأوراقها[٣١] وكذلك عرف الجراحون البدائيون طائفة مختلفة من الجراحات والأدوات ، فالولادة كانت تتم على نحو مُرْضٍ ، والكسور والجروح كانت تُضَمَّدُ وتُلْفُّ بمهارة[٣٢] ؛ وبوساطة مُدًى من الحجر الزجاجى الأسود ، أو من الصوّان المرهف ، أو أسنان السمك ، كانوا يستخرجون الدم من « الخُرّاجات » ويجففونها ، كما كانوا يشرّطون الأنسجة ؛ وقد مارس البدائيون « تَرْبَنَةَ »

الحجمة منذ أيام هنود بيرو الأقدمين إلى أهل ملبنزيا المحدثين ؛ وكان الملنيزيون ينجحون فى تسع حالات من كل عشر حالات بينما كانت الجراحة نفسها عام ١٧٨٦ تنتهى بالموت فى كل الحالات بغير استثناء فى مستشفى « أوتيل دييه » Hôtel Dieu فى باريس(٣٣)

إننا نبتسم لجهل البدائيين ، بينما نستسلم جادّين للأساليب الطبّية الكثيرة التكاليف فى أيامنا ؛ يقول « الدكتور أولفر وندل هولمز » Oliver Wendell Holms بعد حياة طويلة قضاها فى شفاء المرضى :

« لن يتردد الناس فى أداء شىء ، بل ليس هناك شىء لم يؤدوه فعلا ، فى سبيل استعادة العافية وإنقاذ الحياة ؛ فقد رضوا أن يُغرّقوا فى الماء نصف إغراق ، ويختنقوا بالغاز نصف اختناق ؛ ورضوا أن يدفنوا فى الأرض إلى أذقانهم ، وأن يوصموا بالحديد المُحمّى مثل عبيد قادس ؛ ورضوا أن يُقَصّبوا بالمُدى كأنهم سمك القُد ، وأن تثقب لحومهم بالإبَر ، وأن تُشعَل المشاعل على جلودهم ، ورضوا أن يجرعوا كل صنوف المقززات ، وأن يدفعوا لذلك كله أجراً كأنما سَلقُ الجسم وإحراقه ميزة ثمينة ، وكأنما « الفقافيق » نعمة ، ودُودُ العلَق ضرب من الترف »(٣٤) .

الفصل الثالث

الفن

معنى الجمال – معنى الفن – إحساس البدائى بالجمال – صبغ الجسم – دهان الوجه للتجمل – الوشم – الوصم – الثياب – الحلى – الخزف – التصوير – النحت – فن البناء – الرقص – الموسيقى – تلخيص للخطوات البدائية التى مهدت للمدنية .

بعد أن أنفق الفن من عمره خمسين ألف سنة ، لا يزال الناس يتنازعون على تحديد مصادره من غريزة الإنسان ، ومبادئه فى عصور التاريخ ، فما الجمال ؟ — لماذا نُفْتَنُ به ؟ لماذا نحاول أن نبدعه ؟ لما لم يكن هذا مجال المناقشة النفسية ، فسنكتفى بالردّ مختصراً وفى غير قطْعٍ باليقين ، بأن الجمال هو أية صفة تجعل شيئاً أو شكلا ممتعاً لمن يشهده ؛ ولم يكن الشىء — من حيث الأصل والبداية — يمتع الناظر إليه لأنه جميل ، لكن الأقرب إلى الصواب هو أن الرائى يسمى الشىء جميلا لأنه يمتعه ؛ وكل ما من شأنه أن يشبع رغبة عند الإنسان ، يبدو لعينيه جميلا ؛ وعلى ذلك فالطعام جميل لمن يتضور جوعاً ، بينما « تاييس » ليست عنده حينئذ بذات جمال ؛ وقد يكون الشىء الممتع هو المشاهِدُ نفسه ، وقد لا يكون — كلا الفرضين على درجة واحدة من قوة الاحتمال ؛ ففى أعماق قلوبنا لسنا نرى شيئاً أجمل من أشكالنا ، ويبدأ الفن من تمجيد الإنسان لجسمه الرائع ؛ أو قد يكون الشىء الممتع هو العشير من الجنس الآخر الذى يرغب فيه الرائى ، وعندئذ يصطبغ إحساسُنا بالجمال شدّةً وقوةَ إبداعٍ هما شدةُ الشهوة الجنسية وقوةُ إبداعها ؛ ثم يوسّع من هالة الجمال حتى تشمل كل شىء يمس الحبيب من بعيد أو قريب — فتشمل كل صورة جاءت شبيهة بصورتها ، وكل الألوان التى تزينها أو تسرّها أو تتحدث عنها ، وكل الحلىّ والثياب التى تلائمها ؛ وكل الأشكال

والحركات التى تذكّر بما لها من تناسق ورشاقة ؛ أو قد يكون الشكل الممتع هو صورة الذكر المطلوب ؛ ومن الجاذبية التى تجذب ضعف الإنسان نحو عبادة القوة يأتى إحساسنا بروعة الفخامة — فتطمئن نفوسنا فى حضرة القوة — وهو إحساس يخلق أرفع آيات الفن جميعاً ؛ وأخيراً قد تصبح الطبيعة نفسها — بمعونة منا — فخمة وجميلة فى آن معاً ، لا لأنها تشبه وتوحى برقة المرأة كلها وقوة الرجل كلها فحسب ، بل لأننا نخلع عليها مشاعرنا وما أصبناه من حظوظ ، وحبنا لأنفسنا ولغيرنا — فنحن نستمتع فيها بمدارج صبانا ، ونستمتع فيها بالعزلة الهادئة لأنها مهرب من عاصفة الحياة ؛ ونحيا معها فى تقلّب فصولها الذى يكاد أن يكون إنسانىّ المراحل : فيفاعة نضيرة ، ونضج متّقد ، وإثمار يانع ، ثم انحلال بارد ؛ ونرى فيها على نحو غامض أمًّا وهبتنا الحياة ، وستتقبلنا عند الموت .

الفن هو إبداع الجمال ، هو التعبير عن الفكر أو الشعور فى صورة تبدو جميلة أو فخمة ، فتثير فينا هزة هى هزة الفرح الفطرىّ التى تثيرها المرأة فى الرجل ، أو الرجل فى المرأة ؛ وقد يكون الفكر إدراكا لمعنى من معانى الحياة كائناً ما كان ، وقد يكون الشعور إثارة أو استرخاء لوتر مشدود من أوتار الحياة كائناً ما كان ؛ وقد تبعث الصورة الفنية فى أنفسنا لما فيها من تناسق دَوْرِىٍّ يسرّنا لأنه يتجاوب فى طبائعنا مع نوبات الأنفاس ، وثبضات الدم ؛ وتداول الشتاء والصيف على نحو يبعث على الإجلال ، وتعاقب الجزر والمد والليل والنهار ؛ أو قد تبعث الصورة الفنية فى أنفسنا الرضى لما فيها من تماثل هو بمثابة الوزن فى الشعر قد تجمد ، يمثّل القوة أمام أبصارنا ، ويصوّر لنا التناسب المنتظم فى النبات والحيوان ، وفى النساء والرجال ؛ أو قد تحدث الصورة الفنية فى أنفسنا الرضى لألوانها التى تضىء الروح بضيائها أو تعمق بالحياة من السطح إلى الغزير ؛ وأخيراً قد تبعث الصورة الفنية فى أنفسنا الرضى لما فيها من صدق ، إذ نرى فيها محاكاة واضحة ناصعة للطبيعة أو للواقع الخارجى ، حين تلقف لمحة من جمال النبات أو الحيوان كان

قمينا أن يزول ، أو تلمح معنى عابراً لظرف قائم لكنه وشيك الزوال ، ثم تعرضه ساكناً ثابتاً أمام حسٍّ يتلكأ فى استمتاعه بما يرى ، أو أمام عقل يحبُّ أن يتأمل على مهل ؛ من هذه المصادر الكثيرة يأتى ما فى الحياة من ألوان الكماليات السامية — الغناء والرقص ، الموسيقى والمسرحية ، الخزف والتصوير ، النحت والعمارة ، الأدب والفلسفة ؛ فما الفلسفة إن لم تكن فنا ؟ ما الفلسفة إن لم تكن محاولة أخرى تضاف إلى محاولات سائر الفنون فى أن تُفيض على فوضى ما يقع لنا فى دنيا التجربة « صورة لها معنى » ؟

فإذا كان الإحساس بالجمال ضعيفاً فى الجماعة البدائية فقد يكون ذلك بسبب انعدام الفارق الزمنى بين الشعور بالشهوة الجنسية وبين تحقيقها ، لأن ذلك لا يتيح الفرصة للخيال أن يضفى على موضوع الشهوة ألواناً من عنده ، تزيد من جماله زيادة كبيرة ؛ إن الإنسان البدائى قلما يفكر فى اختيار النساء على أساس ما نسميه نحن فهن بالجمال ، بل هو أدنى إلى التفكير فهن على أساس نفعى ، ويستحيل أن يدور فى خلده أن يرفض عروساً مفتولة العضلات بسبب قبحها ؛ فرئيس القبيلة من الهنود حين سئل أىّ زوجاته أروع جمالا ، اعتذر عن عدم الجواب لأنه لم يفكر قط فى هذا الموضوع ، وقال فى حكمة ناضجة تشبه حكمة فرانكلين : « قد تكون الوجوه أكثر جمالا أو أقل جمالا ، لكن النساء فى جوانبهن الأخرى لا يختلف بعض ن عن بعض فى شىء » ؛ وحتى إن كان للإنسان البدائى إحساس بالجمال ، فهو أحياناً يُفْلت منا فلا نراه ، لشدة اختلافه عن إحساسنا نحن بالجمال ؛ يقول « رتشارد » : « كل مَن أعرف من أجناس الزنوج ، يعدُّون المرأة جميلة إذا لم تكن نحيلة عند خصرها ، وإذا ما كان جذعها من الإبطين إلى الردفين ذا عَرْض واحد — حتى يقول عنها زنجى الساحل : إنها كالسُّلَّم » والآذان المطروقة كآذان الفيل ، والبطن المتثنّى هما من مفاتن المرأة عند الرجال فى إفريقيا ؛ وفى أرجاء أفريقيا كلها ، أجمل النساء هى المرأة السمينة ؛ فيقول « منجوپارك »

Mango Park عن نيجيريا : « يظهر أن لفظتى السُّمنة والجمال تكادان تكونان مترادفتين ؛ فالمرأة التى تزعم لنفسها ولو قليلا من جمال ، لابد أن تكون ممن يتعذر عليهن المشى إلا إذا سار إلى جانبها عَبْدان ، يسير كل منهما تحت ذراع ليكون لها دعامة ؛ والجمال الكامل تبلغه المرأة إن ساوت بوزنها حِمْل الجمل » ويقول « بريفو » Briffault : « إن معظم الهمج يؤثرون ما نظنه نحن من أقبح ما تتصف به المرأة ، وأعنى به الأثداء الطويلة المتدلية »[٣٥] ؛ ويقول « داروين » : « إنه من المعلوم لنا جميعاً أن العَجز عند كثيرات من نساء الهوتنتوب يبرز بروزاً عجيباً ولا يشك « سير أندرو سمث » أبداً فى أن هذه الخصيصة للعجيبة موضع إعجاب من الرجال ، فلقد رأى ذات يوم امرأة هى عندهم من ربات الجمال ، كانت من الضخامة فى أردافها بحيث إذا ما أجلسوها على أرض منبسطة استحال عليها الوقوف إلا إذا زحفت زحفاً حتى دنت من سفح مائل . . . ويروى لنا « برتن » Burton عن أهل الصومال أن الرجال إذا ما أرادوا اختيار الزوجات ، صفّوا النساء صفاً واختاروا من بينهن أكثرهن بروزاً فى العجز ؛ وليس أقبح فى عينى الزنجى من المرأة النحيلة »[٣٦]

لكن الرجل الطبيعى فى أرجح الظن — يقيس الجمال بمقياس نفسه هو أكثر مما يقيسه بمعيار شكل المرأة ، «فالأقربون — فى الفن— أولى بالمعروف» ؛ وقد لا يُصَدِّقُ النساء ما نزعمه لهن من أن الرجال البدائيين والمحدثين يأخذهم العُجْبُ بأنفسهم سواء بسواء ؛ فالذكر لا الأنثى فى الشعوب الساذجة — كما هى الحال فى الحيوان — هو الذى يتزيّن ويُنزل بجسده الجروح ، سعياً وراء الجمال ، فيقول « بُنْوِك » Bonwick : « إن التزيُّن فى استراليا يكاد يكون كله احتكاراً للرجل » وهكذا قُل فى مالنيزيا وغينا الجديدة وكالدونيا الجديدة وبريطانيا الجديدة ، وهانوفر الجديدة وهنود أمريكا الشمالية[٣٧] وفى بعض القبائل يستنفد تجميل الجسم وقتاً أكثر مما تستهلكه أية مهمة أخرى من

مهام النهار[٣٨] وواضح أن أول صورة للفن هي صبغ الجسم صبغة صناعية وهم يصبغون الجسم ليجذبوا النساء حيناً وليخيفوا الأعداء حيناً آخر ؛ والرجل من أهل أستراليا الوطنيين — كأحدث فاتنة من فاتنات أمريكا اليوم — كان دائماً يحمل معه مقداراً من الصبغة البيضاء والحمراء والصفراء ، ليُصلح من جماله حيناً بعد حين ، فإذا ما أوشكت أصباغه على النفاد ، قام برحلات بعيدة خطرة ليزوّد نفسه منها بمقدار جديد ، وهو يكتفي في الأيام العادية ببقع من اللون على خديه وكتفيه وصدره ، ولكن كان في مناسبات الأعياد ، يُحِسّ ما يُحِسّه العُرْيان من خجل إذا لم يصبغ جسده كله من أعلاه إلى أسفله[٣٩] .

في بعض القبائل يحتكر الرجال لأنفسهم حق صبغ الجسم ، وفي قبائل أخرى يحرّم على النساء المتزوجات أن يصبغن أعناقهن[٤٠] ؛ لكن ما لبث النساء أن ظفرن لأنفسهن بفن التجمل بالأصباغ ، وهو أقدم الفنون جميعاً ؛ فلما وقف « كابتن كوك » Captain Cook في زيلندة الجديدة حيناً ، لاحظ أن بحارته حين عادوا إليه من جولاتهم على الشاطئ ، كانوا حُمْرَ الأنوف أو صُفْرها بأصباغ صناعية ، ذلك لأن أنوفهم قد لصقت بها الأصباغ التي كانت الجميلات من أهل ذلك الإقليم قد طلين بها أجسادهن[٤١] ؛ ونساء « الفلاّتة » Fellatah في أفريقيا الوسطى ينفقن عدة ساعات كل يوم في تجميل أنفسهن : فهن يصبغن أصابع أيديهن وأرجلهن صبغة أرجوانية بأن يلففنها طوال الليل في أوراق الحناء ، ويصبغن أسنانهن بالأزرق والأصفر والأرجواني على هذا التوالي ؛ ويطلين شعرهن طلاء أزرق ، ويخططن جفونهن بالكحل[٤٢] وكل سيدة من قبيلة « بُنْجو » تحمل في حقيبة أدوات التجميل ، ملقطاً تنزع به الرموش والحواجب ، ومشابك شعر على هيئة الرماح ، وخواتم وأجراساً ، وأزراراً ومشابك[٤٣] .

لكن السُّذّج الأولين — مثل الإغريق أيام بركليز — ضاقوا صدراً لسرعة زوال هذه الأصباغ ، فابتكروا الوشم والوصم والثيابَ أدواتٍ للتزين أدوم بقاء ،

فني كثير من القبائل أسلم الرجال والنساء أنفسهم للإبرة الصابغة وتحملوا فى غير تململ حتى وشم الشفاه ؛ فني جريلنده تشم الأمهات بناتهن فى سن مبكرة ليمهدن لهن الزواج عاجلا(٤٤) ؛ لكن الوشم فى أغلب الحالات لم يكن له ما أراده الناس من وضوح وتأثير ؛ لذلك طفق عدد من القبائل فى كل قارة يَصِمُ الجسمَ بوصمات عميقة ليكونوا أجمل منظراً فى أعين زملائهم ، أو أبشع هيئة فى أعين أعدائهم ؛ فكما قال عنهم « ثيوفيل جوتييه » Théophil Gautier : « إنهم لما عزت عليهم الثياب ووسائل الزينة ، زينوا جلودهم »(٤٥) ، فكانوا يجرحون أجسامهم بحجر الصوّان أو بقواقع المحار ، ثم كثيراً مايضعون فى الجرح كرةً من الطين لتوسِّع من الوصمة ؛ فأهالى « مضيق تورس » كانوا يثخنون فى جسومهم وصمات ضخمة ، وقبائل « أبيوكوتا » Abeokuta كانوا يجعلون وصماتهم شبيهة بشكل الضب أو التمساح أو السلحفاة(٤٦) ، ويقول « جيورج » Georg : « لست تجد من أجزاء الجسم جزءاً لم يجمّلوه أو يزينوه أو يشوهوه أو يصبغوه أو يحرقوه أو يشموه أو يصلحوه أو يبسطوه أو يقبضوه ، مدفوعين إلى ذلك بالعجْب بأنفسهم والرغبة فى التجمل(٤٧) فقبيلة « بوتوكودو » Butocudos استمدت اسمها هذا من خابور يغرزونه فى الشفة السفلى وفى الأذنين حينما يكون الناشئ فى سنته الثامنة ، ثم ما ينفكون يستبدلون به خابوراً أكبر حتى تبلغ الفتحة اتساعاً طول قطره أربع بوصات(٤٨) ؛ والنساء الهوتنتوت يعملن على إطالة الشفرتين الصغيرتين حتى تبلغا طولا عظيما ، بحيث يتكون منها ما يسمّى بـ « فوطة الهوتنتوت » التى تلقى عند رجالهم إعجاباً عظيما(٤٩) ، وكانت أقراط الآذان وأقراط الأنوف ضرورات لاغنى عنها ؛ حتى لقد ذهب سكان « جيپسلنده » Gippsland إلى أن من يموت بغير قرط فى أنفه سيلاقى فى الآخرة عذاباً أليماً(٥٠) ؛ وكأنى بالسيدة العصرية تقول عن ذلك كله إنه وحشية فظيعة ، تقول هذا إذ هى تثقب أذنيها للأقراط ، وتصبغ شفتيها وخديها ، وتلقط شعرات حاجبيها ، وتقيم أهداب جفنيها ،

و « تُبَدّرُ » وجهها وعنقها وذراعيها وتضغط قدميها ؛ إن بحّارنا الموشوم ليتحدث عن « الهمج » الذين رآهم فى رحلاته حديث الرجل الرفيع يعطف على هؤلاء الأدْنين ؛ والطالب من أهل أوربا ، يفزعه ما يحدثه البدائيون فى أجسامهم من تشويه ، لكنه مع ذلك يُزْهى بما عليه هو من وصمات يعدّها علائم الشرف .

والغالب أن تكون الثياب فى بدايتها ضرباً من الزينة ، فهى عامل يعوق الاتصال الجنسي أو يشجع عليه ، أكثر منها وقاية نافعة من البرد أو ستراً للعورة(٥١) ؛ فقد كانت العادة عند قبيلة « كمبرى » Cimbri أن يزحفوا على الثلج بأجسام عارية(٥٢) ، ولما أشفق « دارونْ » على الفويچيين من عُرْيهم ، أعطى أحدهم قطعة من القماش الأحمر ليتقى بها البرد لكن الرجل مزقها أشرطة ، ووزعها على زملائه ، فاستعملوها للزينة ؛ فهم كما قال عنهم « كوك » إنهم منذ الأزل « قد رضوا لأنفسهم العُرى لكنهم ما زالوا يطمعون فى الجمال »(٥٣) ، وكذلك حدث أن مزّق نساء أورينوكو ما أعطاهن إياه الآباء الجزويت من ثياب ، ولبسنها أشرطة حول أعناقهن ، قائلات فى غير تردد « إنهن يستحين أن يلبسن الملابس »(٥٤) ويصف كاتب قديم أهل البرازيل الأصليين بأنهم عراة الأجسام عادة ، ثم يضيف إلى ذلك قوله : « وبعضهم الآن يلبس الثياب ، لكنهم لا يقدرونها كثيراً حتى إنهم ليرتدونها على سبيل البدْع أكثر مما يرتدونها التزاماً للاحتشام ، أو يلبسونها لأنهم مأمورون بذلك . . . وإنك لتشهد ذلك فيمن يخرجون أحياناً من ديارهم ، لا يرتدون من الثياب ما يغطى أجسامهم أبعد من سُرّة البطن ، أو هم يضيفون إلى ذلك طاقية على رءوسهم ، مخلّفين سائر الثياب فى دُورهم »(٥٥) ، فلما زادت الثياب على كونها أداة للزينة ، أصبحت علامة تدل على أن المرأة متزوجة ومخلصة لزوجها ، أو استُخْدمت لإبراز قوام المرأة وجمالها ؛ وفى معظم الحالات ، ترى النساء البدائيات يتطلبن من الثياب ماتتطلبه النساء فى العصور التى تَلَتْ ، وهو ألا تكون الغاية تغطية العُرْى ، بل أن تزيد من فتنة

أجسامهن أو توحى بها ؛ إن كل شيء فى تغيّر إلا المرأة والرجل .

وكلا الجنسين منذ البداية آثرا الزينة على الثياب ؛ فالتجارة البدائية قلما تعنى بالضرورات ، إنما هى تحصر نفسها عادة فى مواد الزينة واللعب(٥٦) ؛ والأحجار الكريمة هى من أقدم عناصر المدنيّة ؛ فلقد وُجدت أصداف القواقع والأسنان معقودة فى عقود للزينة ، وُجدت فى مقابر لبثت على وجه الدهر عشرين ألف عام »(٥٧) ثم من البدايات الساذجة ، سرعان ما تتطور أمثال هذه الحلىّ حتى تبلغ من ضخامة الحجم حدا بعيداً ، وتلعب فى الحياة دورا عظيما ؛ فنساء قبيلة « غالا » كن يلبس خواتم بلغ وزنها ستة أرطال للمرأة الواحدة ، وبعض نساء « الدّنكا » يحملن نصف قنطار من الزينة ؛ وحدث لجميلة من جميلات أفريقيا أن لبست خواتم نحاسية حميت فى حرارة الشمس بحيث اضطرت أن تستخدم خادما خاصاً يظللها أو يُروّح عليها ؛ وكانت ملكة « الوابونيا » Wabunias على نهر الكنغو تلبس حول عنقها إطارا نحاسيا يزن عشرين رطلا ؛ فكان لزاماً عليها أن ترقد حينا بعد حين لتستريح ؛ أما النساء الفقيرات اللائى لم يسعفهن الحظ إلا بمقدار خفيف من المعادن الكريمة ، فقد كن يحاكين فى دقة مشية أولئك اللائى يحملن من تلك الزينة البشعة حملا ثقيلا(٥٨) .

إذن فأول مصادر الفن قريب الشبه بزهو الحيوان الذكر بألوانه وريشه أيام التزاوج ؛ والدافع إليها هو الرغبة فى تجميل الجسم وتزيينه ؛ وكما أن حب الإنسان لنفسه وحبه لعشيره من الجنس الآخر ؛ إذا فاض عن القدر المطلوب ، صبّ فيضه من الحب على الطبيعة ، فكذلك الدوافع إلى التجميل ينتقل من العالم الخاص إلى الدنيا الخارجية ؛ فتحاول النفس أن تعبر عن نفسها فى أشياء موضوعية ؛ متخذة فى ذلك وسيلتى اللون والشكل ؛ ولذا فالفن يبدأ حقيقة حين يبدأ الناس فى تجميل الأشياء ؛ ولعل أول ما تعلق به فن التجميل هو الخزف ، فعجلة الخزّاف — مثل الكتابة ومثل الدولة — هى وليدة العصور التاريخية ؛ لكن البدائيين

ـ أو على الأصح النساء البدائيات ـ حتى قبل هذه العجلة التى يستعملها الخزّاف ، استطعن أن يرتفعن بهذه الصناعة القديمة إلى مرحلة الفن ، وأخرجن من الطين والماء وأصابعهن الماهرة صوراً لها اتساق يبعث على الدهشة ؛ وإن أردت شاهدا فانظر إلى الخزف الذى صنعته قبيلة « بارونجا » Baronga فى أفريقيا الجنوبية(٥٩) أو الذى صنعته قبيله « بُويبْلُو » من الهنود(٦٠) Pueblo Indians .

والخزّاف حين يزخرف سطح الآنية التى صنعها بزخارف ملونة ، إنما هو بذلك يخلق فن التصوير ، فالتصوير فى أيدى البدائيين لم يكن بعد قد أصبح فنا مستقلا ، بل كان وجوده متوقفاً على فن الخزف وصناعة التماثيل ؛ والفطريون إنما يصنعون ألوانهم من الطين ، وأهل « أندامان » Andamanes يصنعون الألوان بخلط المغرة (تراب حديدى) بالزيوت أو الشحوم(٦١) ؛ واستخدموا مثل هذه الألوان فى زخرفة الأسلحة والآلات والآنية والمبانى ، وكثير من القبائل الصائدة فى أفريقيا وأوقيانوسيا ، كانت تصوّر على جدران كهوفها أو على الصخور المجاورة لها ، تصاوير ناصعة لصنوف الحيوان التى أرادت صيدها(٦٢) .

ويجوز كذلك أن يكون الخزف وصناعته أصل النحت كما كان أصل التصوير ؛ فتبيّن للخزّاف أنه لا يستطيع فقط أن يصنع الأوانى النافعة ، بل فى مقدوره كذلك أن يصور الأشخاص فى تماثيل يستفاد منها تمائم للسحر ، ثم بعدئذ أراد أن يصنع هذه الأشياء لتكون جمالا فى ذاتها ؛ لقد نَحَتَ الإسكيمو قرون الوعل وعاج فيلة البحر تماثيل صغيرة للحيوان والإنسان(٦٣) ، وكذلك أراد البدائى أن يميز كوخه بعلامة ، أو يميّز عمود الطوطم أو قبرا من القبور بتمثال صغير يدل على معبوده أو على ميّته ؛ فكان أول ما نحت من ذلك وجهٌ على عمود ، ثم نحت رأسا ، ثم نحت العمود كله ؛ ومن هذا التميز لقبور الآباء بتماثيل تصور الموتى ، أصبح النحت فنا(٦٤) ؛ وعلى هذا النحو أقام سكان جزيرة إيستر القدامى تماثيل هائلة على قبور موتاهم ، كل تمثال من حجر واحد ، ولقد وجدنا عشرات من هذه

التماثيل يبلغ كثير منها عشرين قدماً فى ارتفاعه ، وبعضها تراه الآن سطيح الأرض مهشما ، كان ارتفاعه لا يقل عن ستين قدماً .

لكن كيف بدأ فن العمارة ؟ إننا لا نكاد نستطيع إطلاق هذا الاسم الضخم على بناء الكوخ البدائى ، لأن العمارة ليست مجرد بناء ، لكنها بناء جميل ؛ وإنما بدأت العمارة فناً حين فكّر رجل أو فكّرت امرأة لأول مرة أن تقيم بناء للمظهر وللنفع معاً : وربما اتجه الإنسان بهذه الرغبة فى خلع الجمال والفخامة على البناء ، إلى المقابر قبل أن يتّجه بها إلى الدّور ؛ وبينما تطور العمود التذكارى الذى أقيم عند المقبرة إلى فن التماثيل ، فقد تطور القبر نفسه إلى المعبد ، ذلك لأن الموتى عند البدائيين كانوا أهم وأقوى من الأحياء ، هذا فضلا عن أن الموتى مستقرون فى مكان واحد ، بينما الأحياء يتجولون هنا وهناك بحيث لا تنفعهم الدّور الدائمة .

ولقد وجدُ الإنسان لذة فى الإيقاع منذ زمان بعيد ، وربما كان ذلك قبل أن يفكر فى نحت الأشياء أو بناء المقابر بزمن طويل ؛ وأخذ يُطوّرُ صياح الحيوان وتغريده ؛ وقفزه ونَقْرَه ، حتى جعل منه غناء ورقصا ؛ وربما أنشد — مثل الحيوان — قبل أن يتعلّم الكلام(٥٦) ورقص حين أنشد الغناء ؛ والواقع أنك لن تجد فنا يميز البدائيين ويعبر عن نفوسهم كما يميزهم الرقص ويعبّر ، ولقد طوّرَه من سذاجة أوّلية إلى تركيب وتعقيد أين منهما رقص المتحضرين ؛ ونوّعَهُ صوراً شتى تُعَدُّ بالمئات ؛ فالأعياد الكبرى عند القبائل ، كانت تحتفل أولا بالرقص فى صورتيْه : الجمعى والفردى ؛ وكذلك كانت الحروب الكبرى تبدأ بخطوات وأناشيد عسكرية ؛ والمحافل الكبرى فى الدين كانت مزيجاً من غناء ومسرحية ورقص ؛ إن ما يبدو لنا ضرباً من اللعب ، قد كان على الأرجح أموراً جدية للإنسان الأول ؛ فهم حين كانوا يرقصون ، لم يريدوا بذلك أن يعبروا عن أنفسهم وكفى بل قصدوا إلى الإيحاء إلى الطبيعة وإلى الآلهة ، مثال ذلك استحثاث

الطبيعة على وفرة النسل كانوا يؤدونه أساساً بالتنويم الذى ينتج عن الرقص؛ ويرى « سبنسر » أن الرقص يرجع فى أصله إلى ترحيب ذى طقوس برئيس عاد من الحروب ظافراً ؛ أما « فرويد » فرأيه أن الرقص أصله التعبير الطبيعى عن الشهوة الحسية ، وفن الجماعة فى إثارة الرغبة الجنسية ؛ فلو كان لنا أن نقول — غير متجاوزين هذه الآراء من حيث ضيق النظر — بأن الرقص إنما نشأ من الطقوس المقدسة وألوان العربدة ، ثم جمعنا النظريات الثلاث التى أسلفنا ذكرها فى نظرية واحدة ؛ كان لنا بذلك فكرةٌ عن أصل الرقص هى أدق ما يمكننا الوصول إليه اليوم .

ولنا أن نقول بأنه عن الرقص نشأ العزف الموسيقى على الآلات كما نشأت المسرحية ؛ فالعزف الموسيقى — فيما يبدو — قد نشأ عن رغبة الإنسان فى توقيع الرقص توقيعاً له فواصل تحدده ، وتصاحبه أصوات تقوّيه ؛ وعن رغبته كذلك فى زيادة التهيج اللازم للشعور الوطنى أو الجنسى بفعل صرخات أو نغمات موزونة ؛ وكانت آلات العزف محدودة المدى والأداء ، ولكنها من حيث الأنواع لا تكاد تقع تحت الحصر ؛ فقد بذل الإنسان كل ما وهبته الطبيعة من نبوغ فى صناعة الأبواق بأنواعها والطبول والشخاشيخ والمصفقات والنايات وغيرها من آلات الموسيقى ، صنعها من قرون الحيوان وجلودها وأصدافها وعاجها ، ومن النحاس والخيزران والخشب ؛ ثم زخرف الإنسان هذه الآلات بالألوان والنقوش الدقيقة ؛ ومن وتر القوس قديما نشأت عشرات الآلات ، من القيثارة البدائية إلى الكمان والبيان الحديثين ؛ ونشأ بين القبائل منشدون محترفون كما نشأ بينهم الراقصون المحترفون ، وتطور السلّم الموسيقى من غموض وخفوت حتى أصبح على ما هو عليه الآن(٦٦) .

ومن الموسيقى والغناء والرقص مجتمعة ، خَلَقَ لنا « الهمجى » المسرحية والأوپرا ، ذلك لأن الرقص البدائى كان فى كثير من الأحيان يختص بالمحاكاة ،

فقد كان يحاكى حركات الحيوان والإنسان ولا يجاوز هذه المرحلة ، ثم انتقل إلى أداء يحاكى به الأفعال والحوادث ؛ فمثلا بعض القبائل الاسترالية كانت تقوم برقصة جنسية حول فجوة فى الأرض يوشّون حوافيها بالشجيرات ليمثلوا بها فرج المرأة وبعد أن يحركوا أجسامهم حركات نشوانة غَزِلَة، يطعنون برماحهم طعنات رمزية فى الفجوة ؛ وقبائل استراليا الشمالية الغربية ، كانت تمثل مسرحية الموت والبعث لا تختلف إلا فى درجة البساطة عن مسرحية اللغز فى القرون الوسطى والمسرحية العاطفية فى العصر الحديث ؛ فكنت ترى الراقصين يهبطون إلى الأرض فى حركة بطيئة ، ثم يغطون وجوههم بغصون يحملونها ، تمثيلا للموت ؛ حتى إذا ما أشار لهم الرئيس ، نهضوا نهوضا مباغتا وهم يرقصون ويغنون رقصا وغناء عنيفين يَدُلون بهما على فوزهم الذى أحرزوه ، ويعلنون بعث الروح(٦٧) وعلى هذا النحو أو ما يشبهه ، كانوا يقومون بمئات الأوضاع فى التمثيل الصامت ، ليصفوا بها أهم الأحداث فى تاريخ القبيلة ، أو أهم الأفعال فى حياة الفرد ؛ فلما اختفى التوقيع من هذا التمثيل ، تحول الرقص إلى مسرحية ، وبهذا وُلِدَتْ لنا صورةٌ من أعظم صور الفنون .

بهذه الوسائل خَلَقَ لنا البدائيون السابقون لعصر الحضارة صور الحضارة وأسسها ؛ فإذا ما نظرنا إلى الوراء نستعرض هذا الوصف الموجز للثقافة البدائية ، وجدنا هنالك كل عنصر من عناصر المدنية إلا عنصرين : هما الكتابة والدولة ، فكل أوضاع الحياة الاقتصادية وُضعت لنا أصولُها فى هـــذه المرحلة : الصيد والسماكة ، الرعى والزراعة ، النقل والبناء ، الصناعة والتجارة وشئون المال ؛ وكذلك كل الأنظمة السياسية البسيطة نبتت جذورها فى هـــذه المرحلة : العشيرة والأسرة ، القرية والجماعة والقبيلة ؛ وكذلك ترى الحرية والنظام — هذان المحوران المتضادان اللذان تدور حولهما المدنيّة كلها — قد تلاءما وتوافقا لأول مرة فى هذه المرحلة ، فبدأ حينئذ القانون وبدأت العدالة ؛ وقامت أسس الأخلاق :

تدريب الأطفال وتنظيم الجنسين : وتلقين الشرف والحشمة وقواعد السلوك والولاء ؛ وكذلك وضعت أسس الدين ، واستخدمت آماله ومخاوفه فى تأييد الأخلاق وتدعيم المجتمع ؛ وتطور الكلام إلى لغات معقدة ، وظهرت الجراحة وظهر الطب ، وبدت بوادر متواضعة للعلم والأدب والفن ؛ وفوق هذا كله كانت هذه المرحلة صورة لعهد تم فيه إبداع عجيب ، فنظام يُخلق من فوضى ، وطريق بعد طريق يُشق من حياة الحيوان لينتهى إلى الإنسان الحكيم ؛ فبغير هؤلاء « الهمج » وما أنفقوه من مائة ألف عام فى تجريب وتحسس ، لما كُتب للمدنية النهوض ؛ فنحن مدينون لهم بكل شىء تقريبا — كما يرث اليافع المحظوظ ، أو إن شئت فقل كذلك إنه اليافع المتحلل ، كما يرث هذا اليافع سبيله إلى الثقافة والأمن والدعة ، من أسلاف أميين ورّثوه ما ورّثوه بكدحهم الطويل .

الباب السادس

بدايات المدنية فيما قبل التاريخ

الفصل الأول

ثقافة العصر الحجرى القديم

الغاية من دراسة ما قبل التاريخ — فتنة الدراسة الأثرية

إننا فى حديثنا السابق ، لم نلتزم الدقّة فى الحديث ، فهذه الثقافات البدائية التى عرضناها كوسيلة لدراسة عناصر المدنيّة ، لم تكن بالضرورة الأصول التى تفرعت عنها مدنيّتنا ؛ فليس ما يمنع أن تكون بقايا متحلّلة لثقافات أعلى تدهورت حين تحركت زعامة البشر فى إثر الثلوج التى تنزاح عن صدر الأرض ، فانتقلت من المداريْن إلى المنطقة الشمالية المعتدلة ، ولقد حاولنا أن نفهم كيف تنشأ المدنيّة بصفة عامة وكيف يتم تشكيلها ؛ ولا يزال أمامنا أن نتعقب أصول مدنيّتنا الخاصة فيما قبل التاريخ(*) ، ونحب الآن أن نبحث بحثاً موجزاً — لأن مجال هذا البحث لا يمس أغراضنا إلا من هوامشها — فنتعقب الخطوات التى خطاها الإنسان قبل التاريخ ، ليمهد السبيل إلى المدنيّة التى عرفها التاريخ ؛ كيف أصبح إنسان الغابة أو إنسان الكهف هو المعمارىّ المصرى ، أو الفلكى البابلى ، أو النبى العبرى أو الحاكم الفارسىّ ، أو الشاعر اليونانى ،

(*) سنستعمل هذه العبارة « فيما قبل التاريخ » لندلّ بها على كل العصور السابقة المدوّنات التاريخية .

أو المهندس الرومانى ، أو القديس الهندى ، أو الفنان اليابانى ، أو الحكيم الصينى ؛ لا بد لنا أن نسلك سبيلنا من علم الأجناس البشرية - عن طريق علم الآثار - لننتهى إلى التاريخ .

إن الباحثين ليملأون بطاح الأرض كلها تبوبها بحثاً : طائفة تريد الذهب ، وطائفة تريد الفضة وثالثة تنشد الحديد ، ورابعة تسعى وراء الفحم ، وكثيرون إلى جانب هؤلاء يطلبون المعرفة ؛ فيالها من مهمة عجيبة هذه التى يضطلع بها مَن يستخرجون آلات العصر الحجرى من جوف الأرض عند ضفاف السوم ، ويدرسون بأعناق مشرئبة الصور الناصعة المرسومة على أسقف الكهوف من عهد ما قبل التاريخ ، ويخرجون جماجم قديمة من مدافنها عند « تشوكوتين » Chou Kou Tien ويكشفون عن المدائن الدفينـــة فى « موهنجودارو » Mohengo-daro أو « يقطان » Yucaton ، وينقلون الأنقاض فى سلال تحملها القوافل فى مقابر المصريين التى استنزل أصحابها اللعنة على نابشيها ، وينفضون التراب عن قصور « مينوس » و« بريام » ويزيلون الغطاء عن « برسوبوليس » ، ويحفرون الأرض فى إفريقيا حفراً ليجدوا بقية من قرطاجنة ، وينقذون من ثنايا الغابات معابد « أنجور » العظيمة ! لقد عثر فى فرنسا « چاك بوشيه دى پرت » فى سنة ١٨٣٩ على أول أثر من الصوّان مما خلّفه العصر الحجرى ؛ ولبث العالم يسخر منه تسعة أعوام كاملة ، لأنه كان فى رأى العالم عندئذ مخدوعاً ؛ وفى سنة ١٨٧٢ أزال « شليمان » - بماله الخاص ، ويوشك أن يكون قد اعتمد على يديه دون غيرهما فى ذلك - أزال التراب عن أحداث مدائن طروادة وإنها لكثيرة ؛ لكن العالم كله ابتسم له ابتسامة المرتاب ؛ ولعل التاريخ لم يشهد من قرونه قرناً اهتم أهله بالتاريخ كالقرن الذى تلا رحلة شمپوليون الشاب فى صحبة نابليون الشاب إلى مصر (عام ١٧٩٨) وعاد نابليون من رحلته خالى الوفاض ؛

أما شمپوليون فقد عاد وفى قبضته مصر بأسراها ، ماضيها وحاضرها ؛ ومنذ ذلك الحين ، أخذ كل جيل يستكشف مدنيات جديدة وثقافات جديدة ، ويرجع خطوة وراء خطوة بحدود معرفة الإنسان بتطوره ؛ فلن تجد جوانب كثيرة من حياة هـــذا النوع البشرى السافك للدماء ، أجمل من هذا الشغف الشريف بالاستطلاع ، هذه الرغبة القلقة المغامرة فى سبيل العلم .

الفصل الثانى

أهل العصر الحجرى القديم

بطانة چيولوچية – الأنماط البشرية فى ذلك العصر

كتب لنا الكُتّابُ عدداً ضخما من الكتب ليوسّعوا نطاق علمنا بالإنسان البدائى ، ويخفوا معالم جهلنا به ؛ ونحن نترك للعلوم الأخرى ذات الخيال المبدع مهمة وصف الناس فى العصرين الحجريين القديم والحديث ، ونكتفى هنا بما نحن متَعْنِيُّون به ، وهو تعقّب الإضافات التى أضافتها الثقافات الحجرية بعصريها القديم والحديث ، إلى حياتنا المعاصرة .

إن الصورة التى ينبغى أن نكوّنها لأنفسنا بطانةً للقصة التى نرويها ، هى صورة أرض تختلف اختلافاً بيّنا عن الأرض التى تحملنا اليوم فى حياتنا العابرة ؛ هى صورة أرض ربما كانت ترتجف بأنهار الثلج التى كانت تجتاحها حيناً بعد حين ، والتى جعلت من المنطقة المعتدلة اليوم منطقة منجمدة مدى آلاف السنين ، وكوّمَتْ جلاميد من الصخر مثل جبال الهملايا والألب والبرانس ، فى طريق هذا المحراث الثلجى الذى كان يشق الأرض فى سيره شقّا(*) .

فلو أخذنا بنظريات العلم المعاصر على سرعة تغيّرها ، قلنا إن الكائن الذى أصبح فيما بعد إنساناً حين تعلّم الكلام ، كان أحد الأنواع القادرة على الملاءمة بين نفسها وبين البيئة ، التى بقيت بعد هذه القرون المتجمدة بجليدها ؛ وبينما كان

(*) تحدد النظرية الچيولوچية القائمة الآن تاريخ عصر الجليد الأول بسنة ٥٠٠,٠٠٠ قبل الميلاد ، والمرحلة الأولى التى توسطت عصرين جليديين بسنة تقع بين ٤٧٥,٠٠٠ و ٤٠٠,٠٠٠ قبل الميلاد ، وعصر الجليد الثانى بسنة ٤٠٠,٠٠٠ قبل الميلاد . والمرحلة الثانية التى توسطت عصرين جليديين بسنة بين ٣٧٥,٠٠٠ و ١٧٥٠٠٠ قبل الميلاد ؛ والعصر الجليدى الثالث بسنة ١٧٥,٠٠٠ قبل الميلاد ، والمرحلة الثالثة التى توسطت عصرين جليديين بسنة تقع بين ١٥٠,٠٠٠ و ٥٠,٠٠٠ قبل الميلاد ؛ والعصر الجليدى الرابع (والأخير) بسنة تقع بين ٥٠,٠٠٠ و ٢٥,٠٠٠ قبل الميلاد(٢) ونحن الآن فى مرحلة أعقبت عصراً جليدياً لم يحسب تاريخ نهايته حسابا دقيقاً .

الجليد يتراجع فى المراحل التى تتوسط العصور الجليدية ، (بل قبل ذلك بكثير فيما نعلم) استكشف هذا المخلوق العجيب النار ، وطوّر فنّ نحت الصخر والعظم ليصنع أسلحة وآلات ، فمهد السبيل بذلك لقدوم المدنيّة .

ولقد وجدت بقايا كثيرة ترجع إلى هذا الإنسان السابق للتاريخ — ولو أن هذه المعلومات أصابها كثير من التعديل فيما بعد — ففى سنة ١٩٢٩ كشف صينى شاب عالم بالحفريات الحيوانية والنباتية ، وهو « و . س . پى » W. C. Pei فى كهف عند « تشو كو تين » — وهو يبعد عن « پيپين Peiping نحو سبعة وثلاثين ميلا — عن جمجمة ، وقد قال عنها علماءُ خبراءُ مثل « الأب بريل » Abbé Breuil و « ج . إلْيَتْ سمِثْ » G. Eliot Smith إنها جمجمة بشرية ووجدت آثار من النار بالقرب من الجمجمة ؛ كما وجدت أحجار استخدمت آلات بغير شك ؛ لكنهم وجدوا كذلك عظام حيوان ممزوجة بتلك الآثار ، أجمع الرأى على أنها ترجع إلى عصر البليستوسين الأول وهو عصر تاريخه مليون سنة مضت[٢] ؛ هذه الجمجمة التى وجدت عند « پيپين » هى بإجماع الآراء أقدم ما نعرف من القواقع البشرية ، والآلات التى وجدت معها هى أقدم مصنوعات فى التاريخ ؛ وكذلك وَجَدَ « دُوسُنْ » Dawson و « وُودْوُرْدْ » Woodward عند « پِلْتداون » فى مقاطعة سَسِكْس بإنجلترا ، سنة ١٩١١ قطعاً من العظم يمكن أن تكون بشرية ، وهى التى تعرف اليوم باسم « إنسان پِلْتداون » أو باسم « يوانثروپس » Eoanthropus (معناها إنسان الفجر) والتاريخ الذى يحددونه لها يتراوح على مسافة طويلة من الزمن ، من سنة مليون إلى ١٢٥٫٠٠٠ قبل الميلاد ؛ ومثل هذه التخمينات يدور أيضاً حول عظم الجمجمة وعظام الفخذ التى وجدت جاوه سنة ١٨٩١ وعظمة الفك التى وجدت قرب هيدلبرج سنة ١٩٠٧ ؛ وأقدم القواقع التى لا شك فى أنها بشرية وجدت فى « نياندرتال » بالقرب من دسلدورف بألمانيا سنة ١٨٥٧ ، وتاريخها فيما يظهر هو سنة ٤٠٫٠٠٠

قبل الميلاد ، وهى تشبه البقايا البشرية التى كُشف عنها فى بلجيكا وفرنسا واسبانيا بل وعلى شواطئ بحر جاليلى ؛ حتى لقد صوّر العلماء عصراً بأسره من « إنسان النياندرتال » ساد أوروبا منذ حوالى أربعين ألف عام قبل عصرنا هذا ؛ وكان هؤلاء الناس قصاراً ، لكن لهم جماجم سعة الواحدة منها ١٦٠٠ سنتيمتر مكعب أى أنها أكبر من جمجمة الرجل فى هذا العصر بمائتى سنتيمتر مكعب[٤]

ويظهر أن قد حل جنسٌ جديد اسمه « كرو — مانيون » Crô-Mangon حول سنة ٢٠٫٠٠٠ قبل الميلاد محل هؤلاء السكان الأقدمين لأوروبا ، كما تدلنا الآثار التى كُشف عنها (سنة ١٨٦٨) فى مغارة بهذا الاسم فى منطقة « دوردونى » فى فرنسا الجنوبية ؛ ولقد استخرجت بقايا كثيرة من هذا النمط ترجع إلى العصر نفسه ، من مواضع مختلفة فى فرنسا وسويسرا وألمانيا وويلز . وكلها تدل على قوم ذوى قوة عظيمة وقوام فارع يتراوح طوله من خمس أقدام وعشر بوصات إلى ست أقدام وأربع بوصات ولهم جماجم سعة الواحدة منها تختلف من ١٥٩ إلى ١٧١٥ سم مكعب[٥] ، وتعرف فصيلة « كرو — مانيون » كما تعرف فصيلة « نياندرتال » باسم « سكان الكهوف » ذلك لأن آثارهم وجدناها فى الكهوف ، لكن ليس هناك دليل واحد على أن الكهوف كانت كل ما لديهم من المساكن ؛ فقد يكون ذلك سخرية بنا من الزمن ، أعنى أن علماء الحفريات لم يجدوا من آثار هؤلاء الناس إلا آثار من سكنوا الكهوف ولاقوا فيها مناياهم ؛ والنظرية العلمية اليوم تذهب إلى أن هذه الفصيلة العظيمة إنما جاءت من آسيا الوسطى مارة بإفريقية . حتى بلغت أوروبا ، وأنها شقت طريقها فوق جسور من اليابس يقال إنها كانت عندئذ تربط إفريقية بإيطاليا وأسبانيا[٦] . وإن طريقة توزيع هذه القواقع البشرية لتميل بنا إلى الظن بأنهم لبثوا عشرات من السنين بل ربما لبثوا قروناً طوالا يقاتلون فصيلة « نياندرتال » قتالا عنيفاً لانتزاع أوروبا من أيديهم . وهكذا ترى أن النزاع بين ألمانيا وفرنسا ضارب بجذوره فى القدم ؛ ومهما يكن من

أمر فقد زال إنسان « نياندرتال » عن ظهر الأرض حيث عمرها إنسان « كرو — مانيون » الذى أصبح السلف الأساسى الذى عنه جاءت أوروبا الغربية الحديثة ، وهو الذى وضع أساس المدنية التى انتهت إلى أيدينا اليوم ؛

إن الآثار الثقافية لهذه الأنماط البشرية التى بقيت فى أوروبا من العصر الحجرى القديم تقع فى سبعة أقسام رئيسية تختلف باختلاف المواضع التى وجدنا فيها أقدم الآثار أو أهمها فى فرنسا . وكلها جميعاً إنما يتميز باستخدام آلات غير مصقولة ؛ والأقسام الثلاثة الأولى منها قد تم لها التكوين فى الفترة المضطربة التى توسطت العصرين الجليديين الثالث والرابع .

١ — الثقافة (أو الصناعة) السابقة للعهد الشيلى Pre-Chellean وهو عصر يقع تاريخه حول سنة ١٢٥٠٠٠ قبل الميلاد ومعظم الأحجار الصوّانية التى وجدناها فى هذه الطبقة الوطيئة من طبقات الأرض لا تدل دلالة قوية على أن أهل ذلك العصر قد صاغوها بصناعتهم والظاهر أنهم قد استخدموها كما صادفوها فى الطبيعة [ذلك إن كانوا قد استخدموها إطلاقا] لكن وجود أحجار كثيرة بينها لها مقبض يلائم قبضة اليد ، ولها حَدٌّ وَطَرَفٌ (إلى حدٍّ ما) يجعلنا نزعم هذا الشرف للإنسان السابق للعهد الشيلى ، شرف صناعة أول آلة استخدمها الأوربيون ، وهى المدية الحجرية .

٢ — الثقافة الشيلية ويقع تاريخها حول سنة ١٠٠٠٠٠ قبل الميلاد وقد تحسنت فيها هذه الآلة بإرهاف جانبيها إرهافا على شىء من الغلظة وبتدبيبها بحيث تتخذ شكل اللوزة ، ثم بتهيئتها تهيئة تكون أصلح لقبضة اليد البشرية .

٣ — الثقافة الأشولية Acheulean ويقع تاريخها حول ٧٥٠٠٠ قبل الميلاد ولقد تخلفت عنها آثار كثيرة فى أوربا وجرينلندة والولايات المتحدة والمكسيك وإفريقية والشرق الأدنى والهند والصين ؛ وهذه المرحلة لم تُصلح من المدية الحجرية إصلاحا يجعلها أكثر تناسقا وأحَدّ طرفا فحسب ، بل أنتجت إلى جانب ذلك

أنواعا كثيرة من الآلات الخاصة كالمطارق والسندانات والكاشطات والصفائح ورءوس السهام وسنان الرماح والمدى ، وفى هذه المرحلة تستطيع أن ترى صورة تدل على مرحلة نشيطة بالصناعة البشرية .

٤ — الثقافة الموستيرية mousterian ، وتوجد آثارها فى القارات كلها ، مرتبطة ارتباطاً يسترعى النظر ببقايا إنسان النياندرتال ، وذلك فى تاريخ يقع على نحو التقريب قبل الميلاد بأربعين ألفا من السنين ؛ والمدية الحجرية نادرة نسبيا بين هذه الآثار ، كأنما أصبحت عندئذ شيئا عفى عليه الزمان وحلّ محله شىء جديد ؛ أما هذه الآلات الجديدة فقوام الواحدة منها رقيقةٌ واحدة من الصخر ، أخف من المدية السابقة وزنا وأرهف حدًّا وأحسن شكلا ، صنعتها أيد طال بها العهد بقواعد الصناعة ؛ فإذا صعدت طبقة من الأرض فى طبقات العهد البليستوسينى فى جنوب فرنسا وجدت بقايا الثقافة التالية :

٥ — الثقافة الأورجناسية Aurignacian وتقع حول عام ٢٥٠٠٠ قبل الميلاد ، وهى أولى المراحل الصناعية بعد أعصر الجليد ، وأولى الثقافات المعروفة لإنسان « كرو — مانيون » ؛ وهاهنا فى هذه المرحلة أضيفت إلى آلات الحجر آلات من العظم — مشابك وسندانات وصاقلات الخ — وظهر الفن فى نقوش غليظة منحوتة على الصخر ، أو فى رسوم ساذجة بارزة ، أغلبها رسوم لنساء عاريات[٧] ؛ ثم جاءت فى مرحلة متقدمة من مراحل تطور إنسان « كرومانيون » ثقافة أخرى ، هى :

٦ — الثقافة « السُّولتْريه » Solutrean التى ظهرت حول سنة ٢٠٠٠٠ قبل الميلاد فى فرنسا وأسبانيا وتشيكوسلوفاكيا وبولنده ؛ وهنا أضيفت إلى أسلحة العهد الأورجناسىّ السالف وأدواته ، مُدًى وصفائح ومثاقب ومناشير ورماح وحراب ؛ وصُنِعَتْ كذلك إبَرٌ دقيقة حادة من العظم ، وقُدَّتْ آلات كثيرة من قرن الوعل ؛ وترى قرون الوعل منقوشة أحيانا برسوم جسوم حيوانية أرقى بكثير من

الفن فى العصر الأورجناسى السابق ، وأخيرا عند ما بلغ إنسان كرومانيون ذروة تطوره ، ظهرت :

٧ - الثقافة المجدلية Magdalenian التى ظهرت فى أرجاء أوروبا كلها حول سنة ١٦,٠٠٠ قبل الميلاد ، وهى تتميز فى الصناعة بمجموعة كبيرة منوعة من رقيق الآنية المصنوعة من العاج والعظم والقرن ، وهى تبلغ حدها الأقصى فى مشابك وإبر متواضعة لكنها تصل حد الكمال فى الإتقان ، وهــذه المرحلة هى التى تميزت فى الفن برسوم «أَلْتَاميرا» Altamira وهى أدق وأرق ما صنعه إنسان كرومانيون .

وضع إنسان ما قبل التاريخ ، فى هذه الثقافات التى شهدها العصر الحجرى القديم ، أسس الصناعات التى كُتِبَ لها أن تبقى جزءا من التراث الأوروبى حتى الثورة الصناعية ، وكان مما سَهَّل نقلها إلى المدنيَّة الكلاسيكية والمدنيَّة الحديثة انتشار صناعة العصر الحجرى القديم ؛ والجمجمة وتصاوير الكهوف التى وجدناها فى روسيا سنة ١٩٢١ ، والأحجار الصَّوَّانية التى كشف عنها فى مصر «دى مورجان» De morgan سنة ١٨٩٦ ، وآثار العصر الحجرى القديم التى وجدها «سِيتُنْ كار» Seton-Karr فى الصومال ؛ ومستودعات العصر الحجرى القديم فى منخفض الفيوم(*) وثقافة جليج ستيلْ فى جنوب أفريقيا ، كلها تدل على أن «القارة المظلمة» قد اجتازت نفس المراحل تقريبا التى أوجزناها فيما سلف عن أوروبا قبل التاريخ ، وذلك من حيث صناعة الرقائق الحجرية[٨] ؛ بل ربما كانت الآثار التى وجدناها فى تونس والجزائر ، مما يشبه آثار العصر الأورجناسى ، يؤيد النظرية القائلة بأن أفريقيا هى الأصــل فى تلك الثقافة ، أو هى الحد الذى وقف عنده إنسان «كرومانيون» ، وبالتالى الإنسان الأوروبى[٩] ولقد احتُفِرَتْ آلات من العصر الحجرى القديم فى سوريا والهند والصين وسيبريا وغيرها من أصقاع آسيا[١٠] كما

(*) واحة إلى الغرب من النيل الأوسط .

عثر عليها « أندرو » وسابقوه من الجزويت فى منغوليا[١١] ؛ وكذلك احتُفِرَتْ هياكل لإنسان النياندرتال وأحجار صَوَّانية كثيرة من العهدين « الموستيرى » و « الأورجناسىّ » فى فلسطين ، ولقد رأينا كيف كشف حديثا فى « پيپين » عن أقدم ما نعرفه من بقايا الإنسان وأدواته ، ووجدت آلات من العظم فى نبراسكا ، وأراد بعض العلماء الذين يتأثرون بالروح الوطنية أن يردّوها إلى عام ٥٠٠,٠٠٠ قبل الميلاد ؛ وكذلك وجدت رءوس سهام فى « أوكلاهوما » وفى المكسيك الجديدة ويؤكد لنا واجدوها أنها صنعت عام ٣٥٠,٠٠٠ قبل الميلاد ، وهكذا تراه جسرا عريضا ذلك الذى نقل عَبْرَه إنسانُ ما قبل التاريخ أسس المدنيَّة إلى زميله الإنسان الذى يظهر فى عصور التاريخ .

الفصل الثالث

الفنون فى العصر الحجرى القديم

الآلات - النار - التصوير - النحت

لو أننا فى هذا الموضع أوجزنا ذكر الآلات التى صنعها إنسان العصر الحجرى القديم ، لصوّرنا لأنفسنا صورة عن حياته أوضح مما لو تركنا لخيالنا الحبل على الغارب ؛ وطبيعى أن يكون أول الآلات حجراً فى قبضة الإنسان ، فكم من حيوان كان فى مستطاعه أن يعلّم الإنسان هذه الآلة ؛ وإذن فقد أصبحت المدية الحجرية المُدَبَّبَةُ فى أحد طرفيها ، والمستديرة فى طرفها الآخر لتلائم قبضة اليد ، أصبحت هذه المدية الحجرية للإنسان البدائى مطرقة وفأسا وإزميلا وكاشطة وسكينا ومنشارا ؛ إلى يومنا هذا ترى الكلمة (الإنجليزية) التى نستعملها لتدل على المطرقة : (hammer) معناها حجر من حيث أصلها اللغوى[٢] ثم حدث على مَرّ الأيام أن تنوعت هذه الآلات فى أشكالها حتى بَعُدَتْ عن أصلها المتجانس ، فثقبت الثقوب لتركيب مقبض ، وأُدْخلت الأسنان لتكون الآلة منشارا ، وغرزت فروع فى المدية الحجرية لتصبح مغرازا أو سهما أو حربة ؛ كما أصبح الحجر الكاشط الذى كان يتخذ شكل القوقعة ، مجرافا أو معزاقا ؛ وأما الحجر الخشن الملمس فقد جعلوه مِبْرَداً ، وجعلوا حجر المقلاع أداة للقتال بقيت قائمة حتى اجتاز بها الإنسان عصر المدنيّة الكلاسيكية ذاتها ؛ ولما ظفر إنسان عصر الحجرى القديم بالعظم والخشب والعاج إلى جانب الحجر ، صنع لنفسه مجموعة منوعة من الأسلحة والآلات : صنع الصاقلات والهاونات والفؤوس والصفائح والكاشطات والمثاقب والمصابيح والمدى والأزاميل والشواطير والحراب والسندانات ، وحافرات المعادن والخناجر وأشصاص السمك وحراب الصيد والخوابير والمغاريز والمشابك

وكثيراً غير هذه بغير شك[١٤] ؛ فكان يَعثُرُ فى كل يوم على عالَمٍ جديد ، وكان له من قدرته العقلية أحيانا ما يُطَوِّرُ به مكتشفات المصادفة إلى مخترعات مقصودة .

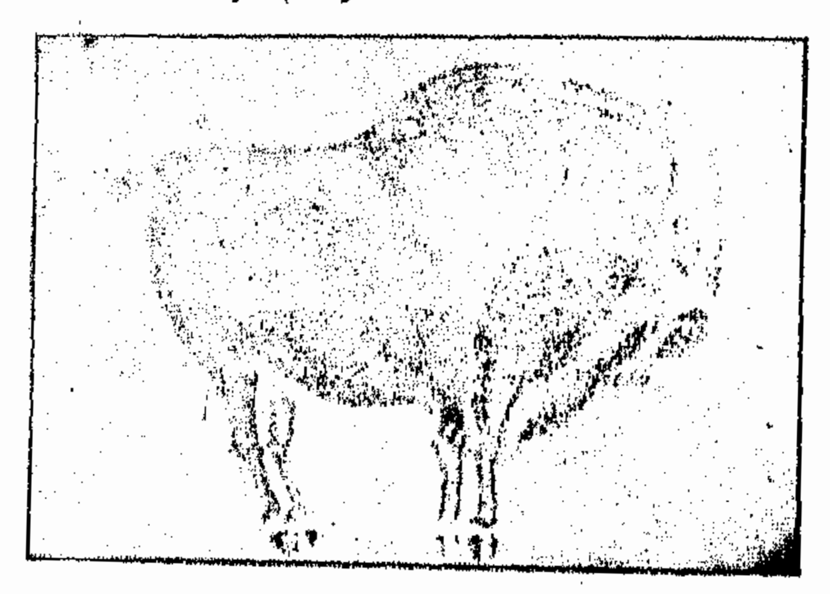
لكن آيته العظمى هى النار ، وفى ذلك أشار « دارون » إلى أن حمم البراكين الحار قد يكون هو الذى علّم الإنسان ما النار ؛ ويقول لنا « أسخيلوس »[*] إن « پروميثيوس » صنع النار بإشعاله حَطَبَةً فى فوهة بركان مشتعل على جزيرة « لمنوس »[١٥] ؛ وبين آثار إنسان النياندرتال قِطَعٌ من الفحم وقطع من العظم المحترق وإذن فالنار التى صنعها الإنسان تذهب فى القِدَم إلى أربعين ألف عام مضت[١٦] ؛ وقد أعدّ إنسان « كرو — مانيون » لنفسه آنية خاصة تمسك الشحم الذى كان يشعله ليستضىء بضوئه ، وإذن فالمصباح كذلك له من العمر هذا الزمن الطويل ، والراجح أن تكون النار هى التى مكّنت الإنسان من اتقاء البرد الناشىء عن الجليد الزاحف ؛ وهى التى أتاحت له النوم فى الليل آمنا من الحيوان الذى ارتعد لهذه الأعجوبة ارتعادا يَعْدِل عبادة الإنسان البدائى إياها ؛ وهى التى قهرت الظلام فكانت أول عامل من العوامل التى حدّت من الخوف ، والتقليل من خوف الإنسان أحد الخيوط الذهبية فى نسيج التاريخ الذى ليست كل خيوطه ذهبا ، وهى التى خلقت فن الطهى القديم الشريف ، فوسعت بذلك من نطاق الأطعمة الصالحة بحيث صلحت آلاف منها للأكل ولم تكن صالحة له من قبل ، وهى التى أدّتْ أخيرا إلى صهر المعادن والتحام بعضها فى بعض ، وهو الخطوة الوحيدة الحقيقية التى تقدّمها الإنسان فى فنون الصناعة من عهد إنسان « كرو — مانيون » إلى عصر الانقلاب الصناعى[١٧]

وإننا لنروى لك عجبا — وكأنما نرويه لنوضح قصيدة « جوتييه »[**] على

(*) أسخيلوس مسرحى يونانى قديم ، ومن أهم مسرحياته « پروميثيوس » الذى علم الإنسان سر النار ———— لآلهة لذلك ، إذ كان هذا السر من علم الآلهة وحدهم (المعرب)

(**) شاعر فرنسى عاش فى القرن التاسع عشر ؛ والقصيدة المشار إليها عنوانها « الفن » وهى مترجمة إلى العربية فى الجزء الثالث من قصة الأدب فى العالم ص ١٤٢ — ١٤٤ (المعرب)

الفن الجبار الذى يحيا بعد فناء الأباطرة وزوال الدول — إننا نروى لك عجبا إذ نقول إن أوضح آثار خلّفها لنا إنسان العصر الحجرى القديم هى قِطَعٌ من فنه ؛ فقد حدث منذ ستين عاما أن وقع « السنيور مارسلينو دى سوتولا » Marceleno de Soutuola على كهف واسع فى مزرعته فى « ألْتَاميرا » فى شمال إسبانيا ، وكان هذا الكهف قد لبث آلاف الأعوام مقفل الباب كأنه صومعة راهب ، أقفلته صخور سقطت عليه وأمدّتها الطبيعة بملاط من لدنها حين ربطت بعضها ببعض بأعمدة من رواسب ؛ ثم جاء الإنسان فضرب فى هذا الموضع ضرباته لينشئ لنفسه جديدا ، فإذا به يكشف بضرباته عن مدخل الكهف بطريق المصادفة ؛ ومرت بعدئذ ثلاثة أعوام ثم جاء « سوتولا » ليستطلع الكهف فلحظ على جدرانه علامات غريبة ؛ وذات يوم صحبته ابنته الصغيرة ، ولما لم تكن بذات طول يُلزمها الانحناء كما كانت الحال مع أبيها ، فقد صعّدت بصرها نحو السقف تشهد ما فيه ، فرأت تخطيطا غامضا لبَيْزُونٍ ضخم (البيزون هو ثور برّىٌّ)



صورة بيزون (ثور متوحش)
وجدت فى كهف من العصر الحجرى فى « ألتاميرا » باسبانيا

جميع الرسم ناصع الألوان ؛ فلما فُحص السقف وفُحصت الجدران فحصا دقيقا وجدت صور أخرى كثيرة ، وفى عام ١٨٨٠ نشر « سوتولا » تقريرا عن مشاهداته ، فقابله علماء الآثار بريبة هى من خصائصهم دائماً ؛ وتفضل عليه بعض هؤلاء العلماء بزيارة يفحص فيها تلك الرسوم ، وينتهى بها إلى الإعلان بأن الرسوم زائفة خطّتها يدٌ خادعة ؛ ودام هذا الشك — الذى ليس لأحد أن يعترض عليه مدى ثلاثين عاما ؛ ثم اكتُشِفت رسوم أخرى فى كهوف يُجمع الرأى على أنها من عهد ما قبل التاريخ (بما فيها من آلات صَوَّانية غير مصقولة وعظم وعاج مصقولين) فأيدت ما كان وصل إليه « سوتولا » من رأى ، لكن « سوتولا » عندئذ لم يكن على قيد الحياة ؛ وجاء الچيولوچيون إلى « ألْتاميرا » وأقروا بإجماعٍ أدرك الحقيقة بعد أوانها ، أقروا بإجمـاع أن الرواسب التى كانت تغطى بعض الرسوم إنما ترجع إلى العصر الحجرى الأول(١٨) ؛ والرأى السائد الآن هو أن رسوم « ألْتاميرا » — والجزء الأكبر من بواقى الفن التى بقيت لنا من عهد ما قبل التاريخ — ترجع إلى الثقافة المجدلية ؛ أى إلى عهد يقع نحو سنة ١٦,٠٠٠ قبل الميلاد(١٩) ؛ وكذلك وُجدت رسومٌ أحدث تاريخا من هذه بقليل ، لكنها ما زالت من بقايا العصر الحجرى القديم ، فى كهوف كثيرة فى فرنسا(*) .

وتمثّل الرسوم فى معظم الحالات صنوفا من الحيوان — أوعالا وماموث وجيادا وخنازير ودببة وغيرها ؛ وربما كانت هذه الصنوف عند إنسان ذلك العصر طعاما شهيا ، ولذلك كانت موضع عنايته فى صيده ؛ وأحيانا ترى صورة الحيوان مطعونا بالسهام ، ومن رأى « فريزر » و « ريناخ » Reinach أن أمثال هذه الصور قُصد بها أن تكون رسوما سحرية تأتى بالحيوان فى قبضة الفنان أو الصائد ، وبالتالى تأتى به إلى معدته(٢٠) ومن الجائز أنها رسوم لم يقصـد بها إلا

(*) مثل « كومبارل » و « ليزى يز » و « فون دى جون » وغيرها .

إلى الفن الخالص . دفع إليها الإبداع الفنى وما يصاحبه من لذة فنية خالصة ، ذلك لأن أغلظ الرسوم كان يكفى لتحقيق غايات السحر ، على حين ترى هذه الصور فى كثير من الحالات قد بلغت من الرقة والقوة والمهارة حداً يوحى إليك بما يحزنك ، وهو أن الفن — فى هذا الميدان على أقل تقدير — لم يتقدم كثيراً فى شوط التاريخ الإنسانى الطويل ؛ فهاهنا الحياة والحركة والفخامة قد عُبِّر عنها تعبيراً قوياً أخّاذا بخط واحد جرىء أو خطّين ؛ وهاهنا خطّ واحد يصور حيواناً حيًّا مهاجماً (أم هل تكون سائر الخطوط قد محاها الزمن ؟) تُرى هل تبقى صورة « العشاء الأخير » لـ « ليوناردو » Leonardo أو صورة الإدّعاء للرسام « إلجريكو » El Greco كما بقيت رسوم « كرو — مانيون » فتظهر خطوطها وألوانها بعد عشرين ألف عام ؟

إن التصوير فن مُتْرَفٌ ، لايظهر إلا بعد قرون طوال تنقضى فى تطور عقلى وفنى ؛ ولو أخذنا بالنظرية السائدة اليوم (ومن الخطر دائما أن تأخذ بالنظريات السائدة) فالتصوير قد تطور عن صناعة التماثيل ، التى بدأت بتماثيل كاملة ، ثم تطورت إلى تماثيل بارزة على لوحة منحوتة ، وعن هذه جاءت خطوة التصوير بالخطوط والألوان ؛ وإذن فالتصوير عبارة عن نحت نقص بُعْدٌ من أبعاده ؛ والخطوة الوسطى من فن ما قبل التاريخ تراها ممثلة خير تمثيل فى نحت بارز يدهشك بقوة وضوحه ، والنحت تمثالٌ لرجل رامٍ بسهم (أو بحربة) وهو منقوش على الصخور الأورجناسيّة « بلُوسيل » فى فرنسا ؛ وكَشَفَ « لوى بِجُوان » Louis Begouen فى كهف « بأرْبِيج » فى فرنسا — بين آثار مجدليّة أخرى عن كثير من المقابض المزخرفة صُنِعَتْ من قرون الأوعال ؛ وأحد هذه المقابض يدل على فن ناضج ممتاز ، كأنما كان الفن عندئذ قد اجتاز أجيالا من التدريب والتطور ؛ وكذلك ترى فى أرجاء البحر الأبيض المتوسط منذ عهد ما قبل التاريخ — فى مصر وكريت وإيطاليا وفرنسا وإسبانيا — صوراً لا عدد لها لنساء سمينات

قصيرات تدل إما على عبادة هؤلاء الناس للأمومة ، وإما على تصور الإفريقيين عندئذ للجمال ؛ واستُخرجت من الأرض فى تشكوسلوفاكيا تماثيل حجرية لحصان وحشىٍ ووعل وماموث ، وجدت بين آثار ترجع — على سبيل الشك — إلى سنة ٣٠٠٠٠ قبل الميلاد(٢٢) .

إن تفسيرنا لسَيْر التاريخ على أنه سَيْرٌ إلى الأمام ، لينهار من أساسه إذا شككنا فى أن هذه التماثيل وهذه النقوش البارزة وهذه الصور — على كثرة عددها — قد لا تكون إلا جزءاً صغيراً جداً من الفن الذى عَبَّرَ به الإنسان البدائى عن نفسه ، أو الذى زَيَّنَ به حياته ؛ إن ما بقى لنا كله فى كهوف ، حيث عَزَّ على عوامل المناخ أن تتسلَّلَ إليها فتفسدها ، ولكن ذلك لايقتضى أن إنسان ما قبل التاريخ لم يكن فنانا إلا حين سكن الكهوف ؛ فربما نحتوا فى كل مكان كما يفعل اليابانيون ، وربما أكثروا صناعة التماثيل مثل اليونان ، وربما لم يقتصروا فى تصويرهم على صخور الكهوف ، بل صوروا كذلك رسومهم على أقمشه وخشب وعلى كل شىء آخر — غير مستثنين أجسامهم ؛ ربما أبدعوا فى الفن آيات تفوق بكثير هذه القطع التى بقيت لنا ؛ ففى أحد الكهوف وجدنا أنبوبة مصنوعة من عظم الوعل وملآنة بمادة ملونة بجلد الإنسان(٢٣) ؛ وفى كهف آخر وجدنا لوحة مصور فنان مما يوضع عليه الألوان عند التصوير ، وجدناها لا تزال تحمل على سطحها طلاء مَغْرَة (تراب حديدى) أحمر ، على الرغم من مائتى قرن مضت عليه(٢٤) ؛ فالظاهر أن الفنون بلغت درجة عالية من التطور ، واتسع نطاقها بين الناس منذ ثمانية عشرة ألف عام ؛ فيجوز أن قد كان بين أهل العصر الحجرى القديم فنانون محترفون ، ويجوز أن قد كان بينهم كذلك همجٌ متأخرون يتضورون جوعا ويسكنون الكهوف الحقيرة ، حيث ينكرون الطبقات الغنية من التجار ، ويتآمرون على قتل المجامع العلمية ، ويصنعون بأيديهم أشياء وصلت إلينا فأصبحت تُحَفًا ؛

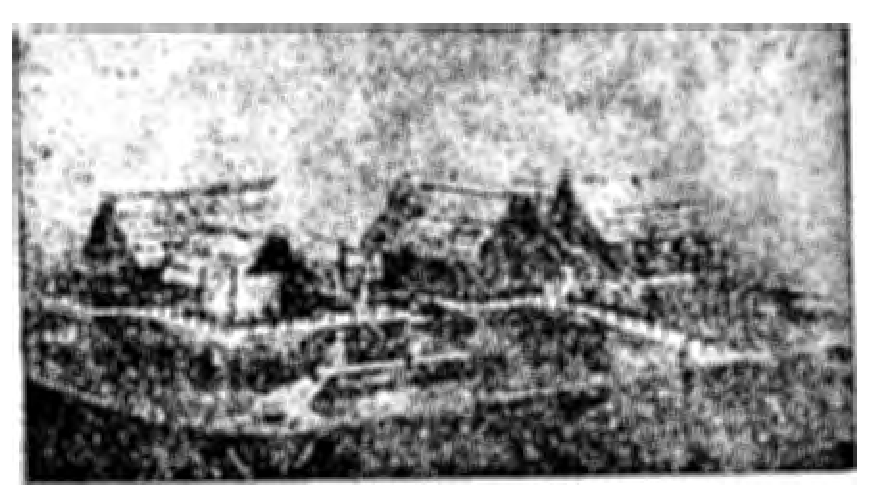
الفصل الرابع

ثقافة العصر الحجرى الحديث

فضلات المطبخ — سكان البحيرة — ظهور الزراعة — استئناس الحيوان — الأساليب الفنية — النسيج فى العصر الحجرى الحديث — صناعة الخزف — البناء — النقل — الدين — العلم — موجز لما تم فيما قبل التاريخ من تمهيد للمدنية

حدث فى فترات مختلفة من القرن الأخير أن وُجِدت أكداس هائلة مما يرجح أنه من فضلات ما قبل التاريخ ، وجدت فى فرنسا وساردينيا والبرتغال والبرازيل واليابان ومنشوريا ، ثم وُجدت فوق ذلك كله فى الدانمركه حيث أطلق عليها هذا الاسم العجيب « فضلات المطبخ » الذى أصبحت تعرف به أمثال هذه الأكداس من آثار القديم ؛ وتتألف أكداس الفضلات هذه من قواقع ، خصوصا قواقع المحار وبلح البحر وحلزون البحر ، ومن عظام كثير من الحيوانات البرية والبحرية ، ومن آلات وأسلحة صنعت من العظم والقرن والحجر غير المصقول ، ومن بقايا أرضية مثل الفحم والرماد والخزف المكسور ؛ وهذه الآثار التى لا تأخذ العين بجمالها — دلائل واضحةٌ على ثقافة تكونتْ فى تاريخ يقع حول سنة ثمانية آلاف قبل الميلاد ؛ وهو تاريخ أحدث من العصر الحجرى القديم بالمعنى الدقيق ، لكنه كذلك لا يبلغ من الحداثة أن يكون من العصر الحجرى الحديث ، لأنه لم يكن قد وصل بعد إلى عصر استخدام الحجر المصقول ؛ ولا نكاد نعلم شيئا عمّن خلّفوا لنا هذه الآثار ، سوى أن ذوقهم كان أصيلا إلى حد ما ؛ ويمكن اعتبار « فضلات المطبخ » — بالإضافة إلى ثقافة « مادزيل » Mas d'azil فى فرنسا ، وهى أقدم من الفضلات قليلا — ممثلة لعصر حجرى وسيط ، هو بمثابة مرحلة انتقال بين العصرين الحجريين القديم والحديث ؛

وفى عام ١٨٥٤ حيث كان الشتاء من الجفاف بدرجة خارقة للمألوف ، هبط مستوى الماء فى البحيرات السويسرية ، فكشف عن عصر آخر من عصور ما قبل التاريخ ؛ فوجدت أكوام فيما يقرب من مائتى موضع فى هذه البحيرات ؛ ووجد أن هذه الأكوام ظلت مكانها تحت الماء زمنا يتراوح بين ثلاثين قرنا وسبعين ؛ ولقد كانت تلك الأكوام مصفوفة



صورة أكملها المصور بخياله للمنازل التى بقيت آثارها تحت ماء البحيرات السويسرية من عصور ما قبل التاريخ

على نحو يبيِّن أن قد شيدت فوقها قُرًى صغيرة ، وربما شيدت هناك رغبة فى العزلة أو فى الدفاع ؛ وأن كل قرية كانت تتصل باليابس بجسر ضيق لم تزل آساس بعضها فى أماكنها ؛ وكانت قوائم المنازل نفسها ما تزال باقية هنا وهناك ، لم تُزِلْها الأمواه بفعلها الدءوب(*) وبين هذه الخرائب الباقية وجدت آلات من العظم والحجر المصقول الذى أصبح

(*) وجدت مساكن فى البحيرات شبيهة بهذه الدور ، فى فرنسا وإيطاليا وسكتلنده والروسيا وأمريكا الشمالية والهند وغيرها ؛ ولا تزال قرى كهذه موجودة فى بورنيو وسومطره وغينا الجديدة وغيرها(٢٦) والذى أطلق على فنزويلا اسم « البندقية الصغيرة » هو « ألونسو دى أوجدا » الذى استكشفها من الأوربيين (سنة ١٤٩٩) فوجد أن أهلها يعيشون فى مساكن على هيئة الأكوام فى بحيرة ماراسيبو(٢٧)

فى رأى علماء الآثار علامة مميزة للعصر الحجرى الجديد الذى ازدهر حول سنة ١٠,٠٠٠ قبل الميلاد فى آسيا، وحول سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد فى أوروبا[٢٨] : وشبيه بهذه الآثار ما تركه الجنس البشرى العجيب الذى نسميه باسم «بنّاة الجبال» من بقايا هائلة ضخمة فى وديان المسسبى وفروعه ؛ ولسنا ندرى عن ذلك الجنس من أجناس البشر إلا أنه فى هذه الجبال التى بنوها وتركوها على هيئة مذابح القربان أو على أشكال هندسية مختلفة أو على هيئة حيوانات الطوطم ، وُجدت أشياء صنعوها من حجر وقوقع وعظم ومعدن مطروق ، مما يضع هؤلاء الناس الملغزين فى خاتمة العصر الحجرى الجديد :

فلو حاولنا أن نلفّق صورة من هذه الأشتات الأثرية عن العصر الحجرى الجديد ، لرأينا فى الصورة على الفور خطوة جديدة خطاها الإنسان ، تثير فيك الدهشة عند رؤيتها ، ألا وهى الزراعة ؛ إنك تستطيع أن تقول إن التاريخ الإنسانى كله — بمعنى من معانيه — يدور حول انقلابين : الانقلاب الذى حدث فى العصر الحجرى الحديث فنقل الإنسان من الصيد إلى الزراعة ، والانقلاب الذى حدث أخيرا فنقله من الزراعة إلى الصناعة ؛ ولن تجد فيما شهد الإنسان من ضروب الانقــلاب ما هو حقيقى أساسىّ كهذين الانقلابين ؛ فالآثار تدلنا على أن « سكان البحيرة » كانوا يأكلون القمح والذرة والجويدار والشعير والشوفان ، فضلا عن مائة وعشرين نوعا من أنواع الفاكهة ، وأنواع كثيرة من البندق[٢٩] ؛ ولم نجد فى هذه الآثار محراثا ؛ ويجوز أن تكون علة ذلك هى أن سنان المحاريث كانت تصنع من خشب ، فيُدَقّ جذع شجرة إلى فرع بمسمار من حجر الصّوان ؛ لكن نقشا محفورا على الصخر من العصر الحجرى الحديث يدل دلالة لا يأتيها الشك على أنها صورة فلاح يسوق محراثا يَشُدُّه ثوران[٣٠] وهذا يحدد لنا اختراعا جاء بمثابة بداية لعصر جديدة من عصور التاريخ ؛ إن الأرض قبل أن تدخلها الزراعة كان فى مستطاعها أن تهيئ أسباب العيش لما يقرب من عشرين مليونا من

الأنفس البشرية (فى تقدير سير آرثر كيث غير الدقيق) ، وحياة هؤلاء الملايين العشرين كانت معرضة لموت سريع بسبب الصيد والحرب[٣١] ، أما بعد الزراعة فقد بدأ تكاثر الناس تكاثراً أيّدَ سيادة الإنسان على الأرض سيادة مكينة لا شك فيها .

وفى الوقت نفسه كان أهل العصر الحجرى الحديث يقيمون أساسا آخر من أسس الحضارة ، وهو استئناس الحيوان وتربيته ؛ ولاشك أن قد استغرق هذا العمل حينا طويلا من الدهر ، قد تكون بدايته أسبق تاريخا من العصر الحجرى الحديث ؛ فحب الإنسان بغريزته للاجتماع بغيره ربما كان عاملا مساعدا على اتصال الإنسان والحيوان ، كما لا نزال نرى علائم ذلك واضحة فى فرحة البدائيين بتدريب الوحوش المفترسة ، وفى ملء أكواخهم بالقردة والببغاوات وأمثالها من سائر الزملاء[٣٢] وأقدم العظام فى آثار العصر الحجرى الحديث (حوالى ٨٠٠٠ قبل الميلاد) هى عظام الكلب — الذى هو أقدم زملاء الجنس البشرى عهدا وأشرفها خلقا ؛ ثم جاءت بعد ذلك (حوالى ٦٠٠٠ قبل الميلاد) الماعز والخروف والخنزير والثور[٣٣] وأخيرا جاء الحصان الذى لم يكن عند أهل العصر الحجرى القديم إلا حيوانا يصاد ، إذا حكمنا من الرسوم التى فى الكهوف ؛ أما فى هـــذا العصر الحجرى الحديث فقد أخذه الناس إلى حيث يسكنون واستأنسوه وجعلوا منه عبداً محبباً إلى نفوسهم[٣٤] إذ استخدموه على شتى الصور لزيد من ثروة الإنسان وفراغه وقوته ؛ وهكذا أخذ هذا الإنسان الذى بسط سيادته على الأرض آخر الأمر ، فى الإكثار من موارد طعامه بتربية الحيوان إلى جانب صيده له ؛ وربما عرف الإنسان كذلك فى هذا العصر الحجرى الحديث نفسه — كيف يستخدم لبن البقرة طعاماً .

وأخذ المخترعون فى العصر الحجرى الجديد شيئاً فشيئاً يوسّعون ويحسنون آلاتهم وأسلحتهم ، فها هنا ترى بين مخلّفاتهم بَكَرات ورافعات ومُرْهِفات ومغازل

وملاقط وفؤوساً ومعازيق وسلالم وأزاميل ومغازل ومناسج ومناجل ومناشير وأشصاص السمك وقباقيب للانزلاق على الثلج وإبرا ومشابك صدْر ودبابيس(٣٥) ثم هاهنا فوق هذا كله ترى العجلة ، وهي مخترع آخر من مخترعات الإنسان الأساسية ، وضرورة متواضعة من ضرورات الصناعة والمدنيّة ؛ فهي في هذه المرحلة من العصر الحجري كانت قد تطورت إلى قرص وإلى أنواع أخرى من العجلات ذوات الأقطار ؛ وكذلك استعملوا كل صنوف الحجر في هذه المرحلة — حتى العصيّ منها كالحجر الزجاجي الأسود — فطحنوه وثقبوه وصقلوه ، واحتُفِرت الصّوانات على نطاق واسع ؛ فوجدت في أحد محافر العصر الحجري الحديث ، في مدينة براندُن بانجلترا ، ثمان حافرات من قرن الغزال ، ورؤيت على أسطحها المعفّرة بصمات العمّال الذين وضعوها هناك منذ عشرة آلاف من السنين ؛ وفي بلچيكا كشف عن هيكل عظمي لعامـــل من عمال المناجم في العصر الحجري الحديث ، سقط عليه حجر فأرداه ، كُشف عنه ولا تزال الحافرة في قبضة يده(٣٦) فعلى الرغم من مائة قرن تفصلنا عنه ، نحسّ كأنه واحد منا ونشاطره بخيالنا الضعيف فزعَه وآلامه ؛ فكم من آلاف السنين قضاها الإنسان وهو يمزّق أحشاء الأرض يستخرج الأسس المعدنية التي قامت عليها المدنيّة !

فلما أن صنع الإنسان الإبر والدبابيس ، بدأ ينسج ، أو إن شئت فقل إنه لما بدأ ينسج حرّكته الضرورة إلى صناعة الإبر والدبابيس ؛ ذلك أن الإنسان لم يعد يرضيه أن يدثّر نفسه بفراء الحيوان وجلوده ، فنسج صوف خرافه وألياف النبات أردية كانت هي أساس الثوب الذي يلبسه الهندوسيّ ، والشمْلة التي كان يلبسها اليوناني ، والثوب الذي يغطي أسفل الجسم الذي كان يرتديه المصري ، وسائر الصنوف الخلابة التي تراها في الثياب عند الإنسان ، ثم اصطنع الناس صبغة استخرجوها صنوفا من أخلاط عنصر النبات أو مستخرجات الأرض ، وصبغوا بها الثياب لتكون علامة ترف ينفرد بها الملوك ؛ والظاهر أن الإنسان

أول ما نسج جعل يضفر الخيوط على نحو ما يضفر القشّ بأنه يجدل خيطا مع خيط ؛ ثم انتقل بعد ذلك إلى ثقْب جلود الحيوان وربطها من هذه الثقوب بألياف غليظة تتخللها ، كالمشدّات التي كان يستعملها النساء حديثاً ، وكالأحذية التي نلبسها اليوم ؛ ثم أخذت الألياف تهذب تدريجاً حتى أصبحت خيطاً . وعندئذ أصبحت الحياكة من أهم الفنون عند المرأة ؛ فالمغازل التي بين آثار العصر الحجرى الحديث تكشف عن أصل من الأصول العظمى للصناعة الإنسانية بل إنك لتجد فى هذه الآثار حتى المرايا[٣٧] ، وإذن فقد أصبح كل شيء مُعَدّاً للمدنيّة .

ولم نجد آثاراً خزفية فى قبور الجزء الأول من العصر الحجرى العظيم ، وإنما ظهرت منه قِطَع قليلة فى آثار الثقافة المجدلية فى بلچيكا[٣٨] ؛ لكنه العصر الحجرى الحديث الذى خلّفَ لنا « فضلات المطبخ » هو الذى نجد فى آثاره خزفاً على شيء من التقدم فى الصناعة ؛ ونحن بالطبع لا نعلم كيف نشأت هذه الصناعة ؛ فيجوز أن قد لاحظ الإنسان البدائى أن الفجوة التى تصنعها قدمه فى الطين ، كانت تحتفظ فى جوفها بالماء دون أن يتسرب[٣٩] ؛ ويجوز أن قد شاءت المصادفة أن تلقّى قطعة من الطين إلى جانب نار موقدة فتجف ، فتوحى بجفافها هذا إلى الإنسان الأول بالفكرة التى أفرزت فى النهاية هذا المخترع ، وكشفت له عما يمكنه استغلاله من هذه المادة التى توجد بكثرة ، والتى تطاوع يده فى تشكيلها ، والتى يسهل تجفيفها فى النار أو الشمس ؛ ولا شك فى أن الإنسان قد لبث آلاف السنين يحفظ طعامه وشرابه فى آنية طبيعية كهذه ، إلى جانب كؤوس القَرْع وجوز الهند وقواقع البحر ؛ ثم صنع لنفسه أقداحاً ومغارف من الخشب أو الحجر ، كما صنع السلال والمقاطف من الحلْفاء والقش ، وهاهو ذا قد صنع لنفسه كذلك آنية أدوم بقاء من الطين المجفف وبه ابتدع مخترعا جديداً يُعَدّ من أعظم الصناعات التى عرفها الإنسان ، لكن إنسان العصر الحجرى

الجديد لم يعرف عجلة الخزّاف ، فيما تدل الآثار الباقية لنا ؛ إنما صنع بيديه هذا الطين أشكالا ذات جمال ونفع فى آن معاً ؛ وزخرف الآنية برسوم ساذجة[٤٠] وهكذا جعل صناعة الخزف منذ بدايتها تقريباً لا تقف عند حد كونها صناعة فحسب ، بل جعل منها فنًّا كذلك .

وهاهنا كذلك نجد العلامات الأولى لصناعة أخرى من كُبرى الصناعات الأولى : صناعة البناء ؛ فإنسان العصر الحجرى القديم لم يخلّف لنا أثراً كائناً ما كان لمسكن غير الكهوف ؛ حتى إذا ما بلغنا العصر الحجرى الحديث ، ألفينا بعض وسائل البناء مثل السلّم الخشبىّ والبكرة والرافعة والمفصلة[٤١] ؛ فقد كان « سكان البحيرة » نجارين مهرة يربطون أعمدة الخشب إلى أساس البناء بخوابير ثابتة من الخشب ؛ أو يصلونها وهى موضوعة رأساً لرأس ، أو يزيدونها قوة بدقّ عوارض تتطلب معها على الجوانب ؛ وكانت أرضيّة الغرفة عندهم من الطين ، وجدرانها من الغصون المجدولة مغطاة بطبقة من الطين ، والسقف من اللحاء والقش والحلْفاء والغاب ؛ ثم بمعونة البكرة والعجلة استطاع الإنسان أن ينقل مواد البناء من مكان إلى مكان ، وبدأ فى وضع آساس ضخمة من الحجر لقُراه ؛ وكذلك أصبح النقل صناعة من الصناعات ، فصُنِعت الزوارق التى لابد أن تكون قد ملأت البحيرات حركة ؛ ونُقِلت التجارة عبر الجبال وإلى القارات البعيدة[٤٢] ، وأخذت أوروبا تستورد من البلاد النائية أحجاراً نادرة كالعنبر والبَشْم والحجر الزجاجى الأسود[٤٣] وإنك لتجد فى أصقاع مختلفة من الأرض تشابها فى كلمات أو حروف أو أساطير أو خزف أو رسوم ، مما يدلك على ما كان بين جماعات البشر قبل التاريخ من اتصال ثقافى[٤٤]

ولو استثنيت الخزف ، وجدت أن العصر الحجرى الجديد لم يخلّف لنا فنا نستطيع مقارنته إلى ما كان عند إنسان العصر الحجرى القديم من تصوير وصناعة تماثيل ؛ فهنا وهناك بين مشاهد الحياة فى هذا العصر الحجرى الحديث ،

من إنجلترا إلى الصين ، ترى أكواما مستديرة من الحجر ، أو أعمدة قائمة أو آثاراً ضخمة من البناء لا نعرف الغاية من بنائها ، كالتى تراها فى « ستُونْهِنْج) أو « موربهان » ، والراجح أننا لن نعرف معنى هذه الآثار البنائية أو وظائفها ، وربما كانت بقايا مذابح للقرابين أو معابد(٤٥) ذلك لأن إنسان العصر الحجرى الجديد لابد أن قد كانت له ديانات وأساطير يصوّر بها ما يعتور الشمس كل يوم من مأساة ونصر ، وما تصيب التربة من موت وبعث ، كما يصور بها تأثير القمر تأثيراً عجيباً على الأرض ، إنه ليستحيل علينا أن نفهم عقائد الإنسان فى عصور التاريخ بغير افتراض أصول كهذه تمتد إلى ما قبل التاريخ(٤٦) ؛ ويجوز أن يكون ترتيب الأحجار فى هذه الأبنية نتيجة لاعتبارات فلكية ، ويدل على معرفتهم بالتقويم — كما يظن « شنيلر » Shneider(٤٧) ، وكان للناس فى ذلك العصر أيضاً بعض المعرفة العلمية ، لأن بعض الجماجم من العصر الحجرى الجديد وجدت بها آثار تَرْبَنَة ، وبعض الهياكل العظيمة فيها أعضاء يظهر أنها كُسِرَت ثم جُبِرَت(٤٨)

ليس فى وسعنا أن نقدر ما أدّاه الإنسان فيما قبل التاريخ تقديراً تاماً ، لأننا من جهة لا ينبغى أن ننساق وراء الخيال فى تصوير حياتهم بحيث نجاوز ما تبرره الشواهد ، ولكننا قد نشكّ من جهة أخرى أن الدهر قد محا آثاراً لو بقيت لضيَّقَتْ مسافة الخُلْف بين الإنسان الأول والإنسان الحديث ، ومع ذلك فما قد بقى لنا من أدلة على خطوات التقدم التى خطاها إنسان العصور الحجرية ، يكفى وحده لتقديره : فحسبنا ما تم فى العصر الحجرى القديم من صناعة الآلات واكتشاف النار وتقدم الفنون ، وحسبنا ما ظهر فى العصر الحجرى الحديث من زراعة وتربية حيوان ونسج وخزف وبناء ونقل وطب . وسيادة الإنسان على الأرض سيادة لم يَعُدْ منازَعاً فيها ، والتوسع فى عمرانها بأبناء الجنس البشرى ؛ هكذا وُضعت للمدنيَّة كل آساسها ؛ كل شىء قد تم إعداده للمدنيات التاريخية إلا المعادن (فيما نظن) والكتاب والدولة ؛ فهيأ للإنسان سبيلا لتسجيل أفكاره وأعماله ، بحيث يمكن نقلها كاملة آمنة من جيل إلى جيل ، تبدأ له المدنيَّة .

الفصل الخامس

مرحلة الانتقال إلى العصور التاريخية

١ – ظهور المعادن

النحاس – البرونز – الحديد

متى وكيف بدأ الإنسان استخدام المعادن؟ لسنا ندرى ، نقولها هنا مرة أخرى ، وكل ما نستطيعه هو أن نقول على سبيل الظن إنه بدأ بفعل المصادفة ، ونفترض أن قد كانت بداية ذلك فى نهاية العصر الحجرى الحديث ، ويؤيدنا فى ذلك عدم ظهوره فيما وجدناه من آثار العصور السابقة لذلك التاريخ ؛ فلو حددنا هـذا التاريخ بسنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد أو نحوها ، أبصرنا أمامنا صورة لعصر المعادن (والكتابة والمدنيّة) لا تمتد إلى أكثر من ستة آلاف عام ، نراها بمثابة الذيل الصغير الذى أعقب عصراً حجرياً امتد على وجه الدهر أربعين ألف عام على أقل تقدير ، أو أعقب عمراً طويلا عاشه الإنسان مداه مليون عام(*) ؛ ألا ما أحدث العهد الذى يدوّنه لنا التاريخ .

كان النحاس أول معدن يلين لاستخدام الإنسان فيما نعلم ؛ فنجده فى مسكن من « مساكن البحيرة » عند « روبنهاوزن » فى سويسره ، ويرجع ذلك إلى سنة ٦٠٠٠ قبل الميلاد تقريباً[٤٩] ونجده أيضاً فى أرض الجزيرة (بين دجلة والفرات) من عهد ما قبل التاريخ ، ويرجع إلى سنة ٤٥٠٠ قبل الميلاد تقريبا ؛ ثم نجده فى مقابر البدارى فى مصر ، ويرجع عهده إلى ما يقرب من سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد ، ونجده كذلك فى آثار « أور » التى ترجع إلى سنة ٣١٠٠ قبل الميلاد

(*) ذلك إذا وافقنا على أن « إنسان بكين » يرجع إلى بداية العصر البليستوسينى .

تقريباً ، وفى آثار « بناة الجبال » فى أمريكا الشمالية ، التى ترجع إلى عصر لانستطيع تحديده[٥٠] وليست نقع بداية عصر المعادن عند تاريخ اكتشافها ، بل يبدأ ذلك العصر بتحوير المعادن بوساطة النار والطَّرْق بحيث تلائم غايات الإنسان ؛ ويعتقد علماء المعادن أن أول استعدان للنحاس من مناجمه الحجرية جاء بفعل المصادفة حين أذابت نارٌ أوقدها الناس ليستدفئوا ، نحاساً كان لاصقاً بالأحجار التى أحاطوا بها النار ؛ ولقد لوحظت أمثال هذه المصادفة مرارا فى اجتماعات البدائيين حول نارهم فى عصرنا هذا ؛ ومن الجائز أن تكون هذه الحادثة العابرة هى التى أدت بالإنسان الأول فى نهاية الأمر — بعد تكرارها مرات كثيرة — ذلك الإنسان الذى لبث أمدا طويلا لايساوره القلق فى استعمال الحجر الأصم الصليب ، أن يجعل من هذه المادة المرنة عنصرا يتخذ منه آلاته وأسلحته ، لأنها أيسر من الحجر صياغة وأدوم بقاء[٥١] ، والأغلب أن يكون المعدن قد استعمل بادئ ذى بدء بالصورة التى قدمته عليها يد الطبيعة ، وإنها لَيَدٌ فيها سخاء وبها إهمال فى آن واحد ؛ فكان نقيا حينا ، مشوبا فى معظم الأحيان ثم حدث بعد ذلك بزمن طويل — وربما كان ذلك حول سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد — فى المنطقة التى تحيط بالطرف الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، أن وقع الناس على فن صهر المعادن واستخراجها من مناجمها ؛ ثم بدءوا فى صبِّها نحو سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد (كما تدل على ذلك النقوش البارزة فى مقبرة رخ — مارا فى مصر) ؛ فكانوا يصبّون النحاس المصهور فى إناء من الطين أو الرمل ، ثم يتركونه يبرد على صورة يريدونها ، مثل رأس الرمح أو الفأس[٥٢] ؛ فلما أن كشف الإنسان عن هذه العملية فى النحاس ، استخدمها فى مجموعة منوَّعة من المعادن الأخرى ؛ وبهذا توفر للإنسان من العناصر القوية ما استطاع به أن يبنى أعظم ما يعرف من ضروب الصناعة ، وتهيأ له الطريق إلى غزو الأرض والبحر والهواء ؛ ومن الجائز أن تكون كثرة النحاس فى شرق البحر الأبيض المتوسط

هي التي سبَّبَتْ قيام ثقافات جديدة قوية في الألف الرابع من السنين قبل الميلاد ، في « عيلام » و « ما بين النهرين » ومصر ، ثم امتدت من هاتيك الأصقاع إلى سائر أجزاء المعمورة فبدّلتها حالا بعد حال(٥٣) .

غير أن النحاس وحده ليِّنٌ ، فهو على الرغم من شدة صلاحيته للتشكيل مما ينفع في تحقيق طائفة من أغراضنا (ماذا كان يصنع عصرنا الكهربائي بغير نحاس ؟) إلا أنه أضعف من أن يحتمل مهام السلم والحرب التي تتطلب معدنا أقوى ؛ لهذا كان لابد من عنصر آخر يضاف إلى النحاس ليشدّ من صلابته ، ورغم أن الطبيعة قد أشارت إلى الإنسان بما عسى أن يضيفه إلى النحاس لهذه الغاية من مواد كثيرة الأنواع ، بل إن الطبيعة كثيراً ما قدمت له نحاسا تم بالفعل خلطه واشتدت صلابته بما فيه من قصدير وزنك ، مكوّنةً بذلك برونزا طبيعيا أو نحاسا أصفر ، على رغم هذه المعونة من الطبيعة ، فقد لبث الإنسان — فيما نظن — قرونا قبل أن يخطو الخطوة الثانية في هذا الصدد ؛ وأعني بها خلط معدن بمعدن خلطا مدبّرا مقصودا للحصول على مركبات أصلح لأغراضه ؛ وعلى كل حال فهذا الكشف قد اهتدى إليه الإنسان منذ خمسة آلاف عام على أقل تقدير لأننا وجدنا البرونز بين الآثار الكريتية التي ترجع إلى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، وفي الآثار المصرية التي ترجع إلى سنة ٢٨٠٠ قبل الميلاد ، وفي ثاني مدن طرواده سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد(٥٤) ؛ فلم يعد — إذن — في وسعنا أن نتحدث عن « عصر البرونز » بمعنى الكلمة الدقيق ، لأن هذا المعدن قد ظهر لشعوب مختلفة ، في عصور مختلفة ، وإذن فعبارة « عصر البرونز » ليس لها معنى زمني تؤديه(٥٥) أضف إلى ذلك أن بعض الثقافات الإنسانية قد عَبَرَ مرحلة البرونز لم يَخْطُها ، بل وثب رأسا من عصر الحجر إلى عصر الحديد ، كما هي الحال في ثقافات فنلنده وشمال روسيا وبولنزيا وأفريقيا الوسطى وجنوب الهند وشمال أمريكا واستراليا واليابان(٥٦) ؛ بل إن الثقافات التي ظهرت فيها مرحلة البزونز ، لم يحتل فيها هذا

المعدن إلا مكانة ثانوية ، باعتباره تَرَفاً يتمتع به الكهنة وعِلْيَةُ الناس والملوك ، على حين ظل غمار الشعب مرغما على الوقوف عند مرحلة الحجر لا يجاوزها[٥٧] وحتى عبارتا « العصر الحجرى القديم » و « العصر الحجرى الحديث » فهما نسبيتان إلى حد كبير ، وتصفان صورا من الحياة أكثر مما تحددان أزماناً وعصورا فإلى يومنا هذا يعيش كثير من الشعوب البدائية فى عصرنا الحجرى (مثل الإسكيمو وسكان جزاير پولنيزيا) لا يعرفون الحديد فى حياتهم إلا على أنه تَرَفٌ يجيئهم به الرحّالة المستكشفون من خارج ؛ فعندما أرسى « الكابتن كوك » سفنه فى زيلندة الجديدة سنة ١٧٧٨ ، اشترى بضعة خنازير بمسمار ثمنه ستة بنسات (قرشان ونصف قرش) ، ووصف رحّالة آخر سكان « جزيرة الكلب » بأنهم « فى حاجة نَهِمَةٍ للحديد ، حتى لتحدثهم أنفسهم أن ينتزعوا المسامير من السفن »[٥٨]

ولئن كان البرونز قوياً شديد الاحتمال ، إلا أن النحاس والقصدير اللازمين لصناعته لم يكونا من الكثرة فى الكمية أو فى أماكن وجودها بحيث يجد الإنسان حاجته من أجوده صنفاً لشئون الصناعة والحرب ؛ فكان لابد للحديد أن يظهر عاجلا أو آجلا ؛ وإنه لمن متناقضات التاريخ ألا يظهر الحديد — على وفرته — إلا بعد أن ظهر النحاس والبرونز ؛ وربما بدأ الناس استخدام الحديد بصناعة الأسلحة من حديد الشهُب ، كما قد صنع « بُنَاةُ الجبال » — فيما يظهر — وكما يفعل بعض البدائيين حتى يومنا هذا ؛ ويجوز أن يكون الناس قد عقّبوا على ذلك بإذابة المعدن من منجمه بوساطة النار ، ثم طرقوه إلى حديد مشغول ؛ ولقد وجدنا ما يشبه أن يكون حديداً شهابياً فى المقابر المصرية قبل عهد الأسرات المالكة ؛ وتذكر النقوشُ البابليةُ الحديدَ على أنه سلعة نادرة ثمينة فى عاصمة حمورابى (٢١٠٠ قبل الميلاد) ؛ وكشفنا عن مَسْبَك للحديد قد يرجع عهده إلى أربعة آلاف عام ، فى روديسيا الشمالية ، كما أن استنجام الحديد فى جنوب أفريقيا

ليس وليد العصور الحديثة ؛ وأقدم حديد مشغول مما نعرف ، مجموعةٌ من المُدَى وُجِدَتْ فى « جيرار » فى فلسطين ، حَدَّدَ « پترى » تاريخها بسنة ١٣٥٠ قبل الميلاد ؛ ثم ظهر الحديد بعد ذلك بقرن كامل فى مصر ، فى عهد الملك العظيم رمسيس الثانى ؛ وبعد ذلك بقرن آخر من الزمان ، ظهر فى جزر بحر إيجه ؛ وأما فى غرب أوروبا فقد ظهر فى « هولستات » Holistatt بالنمسا حوالى سنة ٩٠٠ قبل الميلاد ، كما ظهر فى صناعة مدينة « لاتين » La Tène فى سويسرا حول سنة ٥٠٠ قبل الميلاد ؛ وقد عرفته الهند حين أدخله فيها الإسكندر ، وعرفته أمريكا على يدى كولمبس ، كما عرفته أوشيانيا بفضل « كوك »[٥٩] ؛ وبهذه السرعة الوئيدة الخطى ، طفق الحديد ، قرناً بعد قرن ، يطوف بالعالم ليغزوه .

٢ — الكتابة

أصولها الخزفية الممكنة — « رموز البحر الأبيض المتوسط » — الكتابة الهيروغليفية — أحرف الهجاء

لكن أوسع خطوة خطاها الإنسان فى انتقاله إلى المدنيّة هى الكتابة ؛ فى قطع من الخزف هبطت إلينا من العصر الحجرى الثانى ، خطوطٌ مرسومة بالألوان فسّرها كثير من الباحثين على أنها رموز[٦٠] ؛ وقد يكون هذا موضعاً للشك ، لكنه من الجائز أن تكون الكتابة — بمعناها الواسع الذى يدل على رموز من رسوم تعبّر عن أفكار — قد بدأت بعلامات مطبوعة بالأظفار أو بالمسامير على الطين وهو ليّن ؛ بغية زخرفته أو تمييزه بعد أن تتم صناعته خزفاً ؛ ففى أقدم كتابة هيروغليفية فى « سومر » توحى صورة الطائر بأوجُه شبه بينها وبين الزخارف الطائرية الموجودة على أقدم الآثار الخزفية عند « سوزا » فى « عيلام » ، كذلك أقدم صورة للغلال مما استُخدم فى الكتابة التصويرية ؛ نقلَتْ رأساً من الزخارف الغلالية الهندسية الأشكال فى « سوزا » و « سومر » ؛

والأحرف المستقيمة الخطوط التي ظهرت بادئ الأمر في « سومر » حول سنة ٣٦٠٠ ق . م إن هي — فيما يظهر — إلا صورة مختصرة من الرموز والرسوم المصورة أو المطبوعة على الخزف البدائي في الجزء الأدنى من بلاد ما بين النهرين أو في « عيلام » (١٦٠) ؛ وإذن فالكتابة — شأنها شأن التصوير والنحت — قد تكون في نشأتها فناً خزفياً إذ بدأت ضرباً من ضروب النقش والرسم ؛ وبذلك تكون الطينة نفسها التي استحالت في يد الخزّاف آنية ، وفي يد النحات تماثيل ، وفي يد البنّاء آجُرًّا ، قد هيأت للكاتب مادته التي يخطّ عليها كتابته ؛ وطريق التطور من هذه البداية إلى الكتابة المسمارية في بلاد ما بين النهرين ، منطقيٌّ المراحل مفهوم التدرّج .

وأقدم الرموز التصويرية المعروفة لدينا هي تلك التي وجدها « فِلِنْدَرز پِتْرى » Flinders Petrie على قطع الفخار وآنيته وعلى قطع من الحجر ، مما كَشَفَ عنه في مقابر ما قبل التاريخ ، في مصر وإسبانيا والشرق الأدنى ، ولقد حَدَّدَ عمرها بسخائه المعهود في تقدير الأعمار ، بسبعة آلاف عام ؛ وهذه الرموز الكتابية التي وجدت في حوض البحر الأبيض المتوسط ، تبلغ ما يقرب من ثلاثمائةرمز ، معظمها متشابه في جميع الأرجاء ، مما يدل على علاقات تجارية قامت بين طرفي البحر الأبيض المتوسط في عهد يرجع في التاريخ إلى سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد ؛ ولم تكن هذه الرموز صوراً ، بل كان معظمها علامات تجارية — علامات تدل على الملْكية والكمية أو غير ذلك من معلومات يقتضيها التبادل التجاري ؛ فلئن كان هذا الأصل المتواضع مما يؤذى الطبقةالوسطى من الأغنياء، فإن لهم ما يعزّيهم في أن الأدب قد اشتقّ أصوله من « فواتير » الحساب ومن شحنات المراكب ؛ ولم تكن العلامات حروفاً ، لأن العلامة الواحدة كانت كلمة كاملة أو فكرة بأسرها ، ومع ذلك فمعظمها كان شديد الشبه بأحرف الهجاء الفينيقية ؛ ويستنتج « پتري » من ذلك أن « مجموعة كبيرة من الرموز قد استخدمت شيئاً فشيئاً في العصور الأولى لأغراض شتى ، فقد تبودلت مع التجارة ، وانتشرت من قطر إلى

قطز ... حتى كتب النصر لنحو ستة رموز ، فأصبحت ملكا مشاعاً لطائفة من هيئات التجارة ، بينما أخذت سائر الأشكال التى اقتصر استعمالها على قطر واحد دون بقية الأقطار ، تموت فى عزلتها شيئاً فشيئاً »[٦١] والنظرية القائلة بأن هذه العلامات الرمزية هى أصل الأحرف الهجائية ، جديرة بالاهتمام ، وهى نظرية امتاز الأستاذ « پترى » بأنه يعتنقها دون سائر العلماء[٦٢] .

ومهما يكن من أمر تطور هذه الرموزية التجارية الأولى ، فلقد سايرها جنبا إلى جنب ضرب من الكتابة كان فرعاً من الرسم والتصوير ، وكان يعبّر بالصور عن فكر متصل ، ولا تزال صخور بالقرب من البحيرة العليا (بحيرة سوپرير) تحمل آثاراً من الصور الغليظة التى استخدمها هنود أمريكا فى روايتهم لقصة عبورهم هـــذه البحيرة الجبارة رووها للخلف ، أو ربما رووها لزملائهم ، روايةً يعبّـرون فيها عن زهوهم بما صنعوا[٦٣] ؛ كذلك يظهر أن تطوراً كهذا نَقَلَ الرسم إلى كتابة فى أرجاء حوض البحر الأبيض المتوسط عند نهاية العصر الحجرى الحديث ؛ ويقيناً أنه ما جاءت سنة ٣٦٠٠ قبل الميلاد — وقـــد يكون قبل ذلك التاريخ بزمن طويل — حتى كانت « عيلام » و « سومر » ومصر قد طوّرتْ مجموعة من الصور التى يعبّـرون بها عن أفكارهم ، وأطلقوا عليها اسم « الكتابة الهيروغليفية » لأن معظم من قام بها كان من الكهنة[٦٤] وظهرت مجموعة أخرى من هذه الصور شبيهة بتلك ، فى كريت حول سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد ؛ وسنرى فيما بعد كيف استحالت هذه الكتابة الهيروغليفية التى تمثل كلُّ صورة منها فكرة ، كيف استحالت بخطأ الاستعمال ، ثم بما تناولها من تنســيق وتنظيم عرفى ، إلى مقاطع . أعنى إلى مجموعة من الرموز يدل كل منها على مقطع ؛ ثم كيف استخدمت العلامات آخر الأمر لا لتدل على المقطع كله ، بل على أول ما فيه من أصوات . وبهذا أصبحت حروفاً ؛ وربما كان تاريخ هذه الكتابة الهيروغليفية يرتد فى التاريخ إلى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد فى مصر ، وأما فى كريت فقد ظهرت

حول سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد[٦٥] ؛ إن الفينيقيين لم يخلقوا أحرف الهجاء ، ولكنهم اتخذوا منها سلعة للبيع والشراء ؛ فقد أخذوها - فيما نظن - من مصر وكريت[٦٦] وأدخلوها جزءاً جزءاً فى « صور » و « صيدا » و « بيبلوس» Byblos ، ثم أصدروها إلى كل مدينة من مدن البحر الأبيض المتوسط ؛ وهكذا كانوا سماسرة لأحرف الهجاء يأخذونها من أصحابها ليذيعوها ، ولم يكونوا مبدعيها حتى إذا ما كان عصر هومر ، كان اليونان يأخذون هذه الأحرف الفينيقية - أو قُلْ الأحرف التى اتحد فى خلقها الآراميون جميعاً - وكانوا يطلقون عليها الاسمين الساميَّيْن للحرفين الأوَّلين (وهما : ألفا ، بيتا ؛ وبالعبرية أليفْ ، بيت)[٦٧] .

فالظاهر أن الكتابة من نتائج التجارة ، وهى إحدى وسائل التجارة المسهِّلة لأمورها ، فهاهنا أيضا ترى الثقافة كم هى مدينةٌ للتجارة ؛ ذلك أنه لما اصطنع الكهنــة لأنفسهم مجموعة من رسوم يكتبون بها عباراتهم السحرية والطقوسية والطبّية ، اتحدت الطائفتان : الدنيوية والدينية ، وهما طائفتان متنازعتان عادة ، اتحدتا مؤقتاً لتتعاونا على إخراج أعظم ما أخرجته الإنسانية من مخترعاتها منذ عرف الإنسان الكلام ؛ نستطيع أن نقول إن تطور الكتابة هو الذى كان يخلق الحضارة خلقاً ، لأن الكتابة هيأت وسيلة تسجيل المعرفة ونقلها كما كانت وسيلة لازدهار العلم وازدهار الأدب ، وانتشار السلام والنظام بين القبائل المتنافرة ، لكنها متصلة على تنافرها ، لأن استخدام لغة واحدة أخضعتها جميعاً لدولة واحدة ؛ إن بداية ظهور الكتابة هى الحدُّ الذى يُعيِّن بداية التاريخ ، تلك البداية التى يتراجع عهدها كلما اتسعت معارف الإنسان بآثار الأولين .

٣ – المدنيّات المفقودة

بولينزيا – أطلانطس

ما دمنا الآن قد دنونا من تاريخ الأمم المتحضرة ، فلا بد لنا أن نلاحظ أننا سنكتفى من كل ثقافة نعرضها بجزء يسير نختاره منها ، وليس ذلك فحسب، بل قد لا نتناول بوصفنا إلاعدداً قليلا من المدنيّات التى يجوز أن تكون قد قامت قوائمها يوماً على الأرض ؛ فليس فى وسعنا أن نُصِمّ آذاننا فلا نسمع هذه الأساطير التى لم تنقطع روايتها طوال عصور التاريخ ، عن مدنيات كانت ذات يوم عظيمة عالية الثقافة ، ثم حلت بها كارثة من كوارث الطبيعة أو الحرب فحطمتها تحطيما لم يُبقِ منها ولم يَذَرْ ، فإن حفائرنا الحديثة فى مدنيّات كريت وسومر ويقطان تدل كلها على مدى احتمال الصدق فى هذه الأساطير

ففى المحيط الهادى آثار مدنيّة واحدة على الأقل من هذه المدنيّات الضائعة؛ فالتماثيل الضخمة فى جزيرة « إيستر » ، وما يرويه الرواة فى بولينزيا عن أمم قوية ومقاتلين أبطال كانوا ذات يوم يكتبون المجد لساموا وتاهيتى ؛ ثم ما لسكانها من قدرة فى الفن وحساسية فى الشعر ، كل ذلك يدل على مجد ذاهب ، يدل على شعب لا يبدأ اليوم نهوضــه ليأخذ فى الحضارة ، بل يتدهور من منزلة عالية كان ينزلها ، وفى قاع المحيط الأطلسى ، يمتد جزء مرتفع تحت الماء(*) من ايسلنده شمالا إلى القطب الجنوبى ، فينهض دليلا جديدا يؤيد هذه الأسطورة التى نقلها إلينا أفلاطون[٦٨] فى صورة جذابة خلابة الأسطورة التى تروى عن حضارة ازدهرت يوما على قارة محاطة بالماء بين أوروبا وآسيا ، ثم ضاعت بين عشية وضحاها حين ارتجّت الأرض ارتجاجا فابتلع اليمُّ تلك القارة فى جوفه ابتلاعا ؛ ويعتقد « شليمان »

(*) هنالك هضبة تحت سطح البحر بمسافة تتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف متر ، تمتد وسط المحيط الأطلسى من الشمال إلى الجنوب ، يحيط بها من الجانبين أعماق من الماء تتراوح من خمسة آلاف إلى ستة آلاف متر

ـ الذى بعث طروادة بعد موت ـ أن قارة أطلنطس كانت بمثابة حلقة اتصال بين ثقافتى أوروبا ويقطان ، وأن مصر كانت قد استمدت حضارتها من أطلنطس هذه(٦٩) ولعل أمريكا نفسها أن تكون هى أطلنطس وأنها كانت ذات حضارة قديمة متصلة بحضارات أفريقيا وأوربا فى العصر الحجرى الحديث ؛ ويجوز أن كل كشف جديد يقع عليه الإنسان اليوم ، هو كشف للمرة الثانية ، سبقه فى العصر السالف كشف أول .

لا شك أنه من الجائز — كما ظن أرسطو — أن يكون العالم قد شهد مدنيات كثيرة ، وصلت إلى كثير من المخترعات وأسباب الترف ثم أصابها الدمار وزالت من ذاكرات البشر ؛ ويقول « بيكُن* » عن التاريخ إنه حطام سفينة ، إذ ضاع من الماضى أكثر مما بقى ؛ وإننا لنجد العزاء عن هذا الضائع فى الرأى القائل بأنه كما أن ذاكرة الفرد لا بد أن تنسى الجزء الأعظم مما يصادفه فى خبرته من حوادث ، لكى يحتفظ الفرد بقوته العاقلة ، فكذلك الجنس البشرى كله لم يحتفظ فى تراثه إلا بأنصع وأقوى ما مرّ به من تجارب ثقافية — أم هل استمد هذا المحفوظ نصوعه فى الذاكرة وقوته لأنه وحده ما أجادت الذاكرة الاحتفاظ به ؟ — ومهما يكن من أمر تراثنا الذى نعيه ، فحتى لو لم يكن إلا عُشْر ما مرّ بالإنسان من تجارب ، فليس فى وسع إنسان أن يلمّ به كله ؛ وسنجد قصة الإنسان رغم ذلك كله مليئة مترعة بما يكفى .

٤ — مهود المدنيّة

آسيا الوسطى — أناو — خطوط الانتشار

إنه من المناسب أن نختم هذا الفصل الذى ملأناه بأسئلة لا يمكن الجواب عنها ، بهذا السؤال : « أين بدأت المدنية ؟ » — وهو كذلك سؤال يعزّ على الجواب ؛ فلو أخذنا بما يقوله الجيولوجيون الذين يعنون فى أبحاثهم عما قبل التاريخ بضباب أين منه شطحات الميتافيزيقا ؛ لو أخذنا بما يقولونه ، لكانت المناطق

القاحلة فى آسيا الوسطى ذات ماض فيه ماء وفيه اعتدال فى حرارة الجو ، وفيه ما يُزْهره من بحيرات عظيمة وأنهار كثيرة[٧٠] ، تراجعت عنها آخر الموجات الجليدية ، فجفّتْ شيئا فشيئا حتى لم يعد ما يسقط على ذلك الإقليم من مطر كافيا لقيام المدن والدول ؛ فأخذت المدائن تقفر من أهلها واحدة فى إثر واحدة ، حين هرب الناس غربا وشرقا وشمالا وجنوبا سعيا وراء الماء ؛ ولا تزال ترى أنقاض مدن مثـــل « باكترا » Bactrai غائصة فى الصحراء إلى نصفها — ولا بد أن تكون « باكترا » هذه قد ازدحمت بسكانها فى مساحتها التى يمتد قطر دائرتها اثنين وعشرين ميلا ؛ ولقد حدث فى عهد جدّ حديث — سنة ١٨٦٨ — أن اضطر عدد من أهل تركستان الغربية يقرب من ثمانين ألف نسمة ، أن يهاجر لأن الرمال الزاحفة قد غمرت موضعه من الأرض[٧١] وكثيرون يذهبون إلى أن هذه الأصقاع التى تسير اليوم فى طريقها إلى الفناء ، قد شهدت أول خطوة أساسية من خطوات التقدم ، فى هذا المزيج المؤلف من نظام وطعام وعرف وأخلاق وترف وثقافة ، والذى منه تتكون المدنيّة[٧٢] .

ولقد كشف « بمبلى » سنة ١٩٠٧ فى « أناو » جنوبى التركستان ، عن خزف وآثار أخرى تدل على ثقافة قديمة أرجعها إلى سنة ٩٠٠٠ قبل الميلاد ، وربما أسرف فى تقديره هذا فزاد أربعة آلاف[٧٣] ؛ وها هنا نجد زراعة القمح والشعير والذرة ، واستخدام النحاس واستئناس الحيوان ، وزخرفة الفخار بزخارف بينها من التشابه فى قواعد الرسم ما يدل على أنهم كانوا قد جمعوا التقاليد وبطانة فى الفنون لعدة قرون سلفت[٧٤] والظاهر أن ثقافة تركستان سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد كانت قد قطعت من الزمن أشواطا ؛ وربما كان بينهم إذ ذاك مؤرخون يضربون فى أعماق ما ضيهم عبثاً للبحث عن أصول المدنية ، وفلاسفة أخذوا يندبون بعبارة فصيحة ما أصاب الجنس البشرى إذ ذاك من تدهور كان يؤدى به إلى الموت .

ولو اهتدينا بالخيال حيث يعزّ علينا العلم الصحيح ، لقلنا إنه من هذا المركز

هاجر الناس — يلوذون فراراً مما أصاب أرضهم من جفاف فى المطر وجفاف فى تربة الأرض — فساروا فى اتجاهات ثلاثة ، يحملون معهم ما لهم من فن ومدنية ؛ فبلغت فنونهم — إن لم يبلغوا بفصيلتهم — أرض الصين ومنشوريا وأمريكا الشمالية من جهة الشرق ؛ وبلغت شمال الهند فى سيرها إلى الجنوب ؛ ثم أدركت فى طريقها نحو الغرب بلاد « عيلام » و « سومر » ومصر : بل إيطاليا وأسبانيا كذلك(٧٥) ؛ فقد وجدت فى « سوزا » وهى فى « عيلام » القديمة (فارس الحديثة) آثار تشبه فى نمطها آثار « أناو » شبهاً يكاد يبرر للخيال الذى يعيد قوته صورة الماضى ، أن يفترض أنه قد كان بين « سوزا » و « أناو » صلات ثقافية فى فجر المدنية (أى حول سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد)(٧٦) وكذلك يوجد شَبَه كهذا فى الفنون والمنتجات القديمة يوحى بوجود علاقة كهذه بين بلاد ما بين النهرين ومصر فيما قبل التاريخ ، وبوجود ارتباط يدل على اتصال مجرى المدنية .

ويستحيل علينا أن نعلم علم اليقين أى هذه الثقافات جاء أولا ، وليس ذلك بكبير الأهمية ، لأنها جميعاً كانت فى جوهرها أفراد أسرة واحدة ونمط واحد ، فلو كان لنا أن نخالف الرأى الشائع الذى اكتسب احتراما لقِدَمه ، بحيث نضع « عيلام » و « سومر » قبل مصر ، فلسنا نصدر فى ذلك عن عبث يريد مخالفة المعروف لذاتها ، لكننا نعتمد على الحقيقة التى تدل على أن عمر هذه المدنيات الأسيوية ، إذا قيس إلى مدنيات أفريقيا وأوروبا ، يمتد طولا كلما ازداد علمنا بتلك المدنيات عمقا ؛ فمجاريف علماء الآثار بعد أن قضت قرنا كاملا فى بحثها المظفّر على ضفاف النيل ، انتقلت فى سيرها عَبْرَ السويس إلى جزيرة العرب وإلى فلسطين وبين النهرين وفارس ، وهى كلما خَطَتْ فى طريقها هذا ، ازددنا ترجيحا مع تزايد المعرفة التى تعود علينا من أبحاثنا ، أن الدلتا الخصيبة للأنهار التى تجرى فى أرض الجزيرة (ما بين النهرين) هى التى شهدت أول مناظر المسرحية التاريخية للمدنية الإنسانية ، فيما نعلم .

المراجع *

1. Supplement to *Essai sur les moeurs*; quoted by Buckle, H. T., *History of Civilization*. i, 581.

الباب الأول

2. Robinson, J. H., art. Civilization, *Encyclopedia Britannica*, 14th ed.

الباب الثاني

1. Spengler O., *The Decline of the West; The Hour of Decision*.
2. Hayes, *Sociology*, 494.
3. Lippert, J., *Evolution of Culture*, 38.
4. Spencer, H., *Principles of Sociology*, 1, 60
5. Sumner and Keller, *Science of Society*, i, 51; Sumner, W. G., *Folkways*, 119-22; Renard, G., *Life and Work in Prehistoric Times*, 36; Mason O. T., *Origins of Invention*, 298.
6. Ibid., 316.
7. Sumner and Keller, i 132.
8. Roth, H. L., in Thomas, W. I., *Source Book for Social Origins*, 111.
9. Ibid.; Mason. O. T., 190: Lippert, 165.
10. Renard, 123.
11. Briffault, *The Mothers*, ii, 460.
12. Renard, 35.
13. Sutherland, G.A., ed, *A System of Diet and Dietetics*, 45.
14. Ibid. 33-4: Ratzel, F., *History of Mankind*, i, 90.
15. Sutherland, G.A., 43,45, Müller Lyer, F., *History of Social Development*, 70.
16. Ibid., 86.
17. Sumner, *Folkways*, 329: Ratzel, 129: Renard, 40-2; Westermarck, E., *Origin and Development of the Moral Ideas*, i, 568-62.
18. Sumner and Keller, ii, 1234.
19. Sumner, *Folkways*, 239.
20. Renard, 40-2
21. Sumner and Keller, ii, 1230.
22. Briffault, ii, 999.
23. Sumner and Keller, ii, 1234.
24. Cowan, A. R., *Master Clues in World History*, 10.
25. Renard, 39.
26. Mason, O.T., 25.
27. Briffault, I, 461-5.
28. Mason, O. T., 224 f.
29. Müller-Lyer *Social Development*, 102.
30. Ibid., 144-6.
30a. Ibid. 167; Ratzel 87.
31. Thomas, W. I., 113-7 Renard, 154-5, Müller, Lyer, 306 Sumner and Keller, i, 160-3.
32. Sumner, *Folkways*, 142.
33. Mason, O.T., 71.
34. Müller-Lyer, *Social Development*, 238-9, Renard, 158.
35. Sumner and Keller, i, 268-72.

(*) سنثبت اسم الكتاب كاملا عند أول وروده في هذه القائمة ثم نكتفي بعد ذلك بذكره مختصراً.

300, 320; Lubbock, Sir J., *Origin of Civilization* 373-5; Campbell, Bishop R., in New York *Times*, 1-11-33.

36. Bücher, K. Industrial Evolution, 57.

37. Kropotkin, Prince P., *Mutual* Aid, 90.

38. Mason, O. T., 27.

39. Sumner and Keller, i, 270-2.

40. Briffault, ii, 494-7.

41. Sumner and Keller, i 328 f.

42. Lippert, 39.

43. *A Naturalist's Voyage Around the World*, 242, in Briffault, ii, 494.

43a. Westermarck, *Moral Ideas in* 35-42.

44. Hobhouse, L. T., *Morals in Evolution*, 244-5; Cowan, A. R., *Guide to World History*, 22; Sumner and Keller, i, 58.

45. Hobhouse, 272.

الباب الثالث

1. Sumner and Keller, i, 16, 418, 418, 461; Westermarck, *Moral Ideas*, i, 195-8.
2. Sumner and Keller, i, 461.
3. Rivers, W. H. R, *Social Organization*, 166.
4. Briffault, ii, 394, 494; Ratzel, 183; Sumner and Keller, 470-3
5. Ibid., 463, 473
6. Ibid, 370, 358.
7. Renard, 149 Westermarck, *Moral Ideas*, ii, 836-9, Ratzel, 130, Hobhouse, 289, Sumner and Keller, i 18, 22, 366, 392, 394. 718.
8. Nietzche, *Genealogy of Morals*, 103.
9. American *Journal of Sociology*, March, 1905.
10. Oppenheimer, Franz, *The State*, 16.
11. In Ross. F. A. *Social Control*, 50.
12. In Sumner and Keller, i, 704
13. Ibid, 709.
14. Oowan. *Guide to World History*, 18 f.
15. Sumner and Keller, i, 486.
16. Spencer, *Sociology*, iii, 316.
17. Ibid, 66.
18. Melville, *Types*, 222, in Briffault, ii, 356.
19. Briffault, ibid.
20. Sumner and Keller, i, 687.
21. Lubbock, 330.
22. Hobhouse, 73-101, Kropotkin, *Mutual Aid*, 131: Thomas, W I., 301
23. Sumner and Keller, i, 682-7.
24. For examples cf. Westermarck *Moral Ideas*, i, 14-5, 20.
25. Lubbock, 363-7; Sumner and Keller, i, 454, Briffault, ii, 499; Maine, Sir H., *Anthropology and Modern Life* 221.
26. Sutherland, A. *Origin and Growth of the Moral Instincts*, i, 4-5.
27. Sumner and Keller, iii, 1498, Lippert, 75, 659.
28. Sumner and Keller, iii, 1501.
29. Ibid, 1500, Renard, 198, Briffault, ii, 518, 434.
30. Vinogradoff, Sir P., *Outlines of*

Historical Jurisprudence, i, 212, Briffault. i. 503, 513.
31. Sumner, *Folkways*, 364.
32. Briffault, i, 508-9, Sumner and Keller, 640, iii, 1949, Rivers, *Social Organization*' 12.
33. Moret and Davy, *From Trbie to Empire*, 40, Brilfanlt, i, 308 Müller-Lyer, *The Fa ily*, i 24-7, Sumner and Keller, iii, 1939.
34. White, E. M, *Woman in World History*, 35, Briffault, i, 309, Lippert. 221, Sumner aud Keller, iii, 1990.
35. Hobhouse. 170.
36. Müller-Lyer, *Family*, 118.
37. Ibid., 232,
38. Sumner and Keller, iii, 1738.
39. Lubbock, 5.
40. Müller-Lyer, *Evolution of Modern Marriage*, 112.
41. Briffault, i, 460, Renard, 101.
42. Briffanlt, i, 466, 478, 484, 509.
43 Ellis, H., *Man and Woman*, 316 Sumner, and Keller, i, 128.
44 Ibid., iii, 1763, 1813, Ratzel, 134, Westermarck, *Moral ideas* i, 235
45 Lubbock, 67.
46. Lubbock in Thomas, W. I, 108.
47. Westermarch. *Moral Ideas*, ii 4.0, 629,
48 Crawley, E., The Mystic Rose, in Thomas. W. I , 515-7, 525
49. Westermarck *Moral Ideas*, ii, 688-45, Sumner and Keller, iii, 1737.
50, Ibid., 1763.
51. Vinogradoff, i, 197, Müller-lyer *Social Development*, 208.

الباب الرابع

1. Darwin, C., *Descent of Man* 110.
2. Ellis. H., *Studies in the Psychology of Sex*, vi, 422.
3. Westermarck, E., *History of Human Marriage*, i, 32, 35
5. Sumner and Keller, iii, 1547 f. Further examples of sexual communism may be found in Briffault, i, 645, ii, 2 - 13, Lubbock, 68-9.
6 Muller-Lyer, *Family*, 55.
6a. *Encyclopedia Britannica*, xiii, 206.
7. Sumner and Keller, iii, 1548.
8. Briffault, ii, 81.
9. Lubbock, 69.
10 Lippert, 67.
11, Polo, Marco, *Travels*, 10.
12. Letourneau, *Marriage*, in Sumner and Keller, iii, 1531.
13. Westermarck, *Short History of Human Marriage*, 265, Müller-lyer, *Family*, 49, Sumner and Keller, iii, 1563, Briffault, i, 629 f.
14. ibid., 649.
15. Sumner and Keller, iii, 1665.
16. Examples in Briffault, i, 767n, Sumner and Keller iii, 1901, Lippert 679.
17. Examples in Briffault, i, 641 f, 663, Vinogradoff, i, 173. Vinogradoff, i, 173.
18. Westermark, *Moral Ideas*, i, 387.
19, Brillault, ii, 315, Hobhouse, 140.
20. Müller-Lyer, *Modern Marriage* 37

21. Spencer, *Sociology*, I, 722; Westermark, *Moral Ideas*. I, 388; Sumner *Folkways*, 265, 351, Sumner and Keller. i, 22, iii. 1863, Briffault, ii, 261, 267, 271.
22. Lowie. R.H., *Are We Civilized?*, 128.
23. Sumner and Keller, iii, 1534, 1540, Westermarck, *Moral Ideas*, i, 399.
24. Gen., xxix. Similar customs existed in Africa. India and Australia, cf. Muller-Eyer, *Modern Marriage*, 123,
25. Sumner and Keller, iii, 1625-6, Vinogradoff, 209, further examples in Lubbock, 91, Müller-Lyer, *Family*, 86, Westermarck, *Moral Ideas*, I, 435.
26. Briffault, i, 244f.
26a. Lippert, 295, Müller-Lyer, *Social Development*, 270.
27. Sumner and Keller, iii, 1631. Briffault interprets this wedding Custon as a reminiscence of the transition from matrilocal to patriarchal marriage-i, 240-50.
28. Hobhouse, 168.
29. Sumner and Keller, iii, 1629.
30. Briffault, ii, 244.
31. Müller-Lyer, *Modern Marriage*, 125.
32. Hobhouse 151, Westermarck, *Moral Ideas*. 1650. i, 388, Sumner and Keller, 1650.
33. Ibid., 1648.
34. Ibid., 1619. Herodotus (I, 196) reported a similar custom in the fifth century B. C., aud Burckhardt found it in Arabia in the nineteenth century (Müller-Lyer, *Modern Marriage*, 127).
35. Briffault, i, 219-21.
36. Lowie, *Are We Civilized ?*, 125.
3 . Briffavlt, ii, 215.
38. Sumner and Keller, iii, 1658.
39. In Lubbocb, 53.
40. Ibid., 45 7, Sumner and Keller, iii, 1608-8, Briffault, ii, 141-3.
41. Müller-Lyer, *Modern Marriage*, 51.
43. Briffault, ii, 70 f.
44. Briffault, ii, 2-13, 67, 70-2, Briffault has gathered into a ten-page footnote the evidence for the wide spread of premarital sexual freedom in the primitive world. Cf. also Lowie. *Are We Civilized ?* 123, and Sumner and Keller, iii, 1553-7.
45 Ibid., 1556, Briffault, ii, 65, Westermarck, 1, 441.
46 Lowie, 127.
47. Briffault, iii, 318, Müller-lyer, *Modern Marriage*, 32.
48. Briffault ii, 222-3, Westermarck, *Short History*, 13.
49. Sumner and Keller, iii 1682, Sumner, *Folkways*, 358.
50. Ibid., 361, Samner and Keller, iii, 1674.
51. Ibid, 1564, Briffault, iii, 344.
52. S & K, iii, 1682.
52a. For examples cf. Westenmarck. *Human Marriage*, i, 580-45, or Müller-Lyer *Modern Marriage*, 39-41.
53. Müller-Lyer, *Social Development*, 132-3, Sumner, *Folkways*, 439.
54. Briffault, iii, 260 f.
55. Ibid., 307, Ratzel, 93.

56. Sumner, *Folkways*, 450.
57. Reinach, *Orpheus*, 74.
58. cf. Briffault, ii, 112-7, Vinogradoff, 173.
59. S. & K., iii, 1528.
60. Ibid., 1771.
61. Ibid., 1677-8.
62. Ibid., 1831.
63. Quoted in Briffault, ii, 76.
64. Ibid., S & K, iii, 1831.
65. Müller-Lyer, *Family*, 102.
66. S & K, iii, 1890.
67. Ibid; Sumner, *Folkways*, 314, Briffault, ii, 71, Westermarck, *Moral Ideas*, ii, 413, E. A. Roût, "Sex Hygiene of the New Zealand Maori" in *The Medical Journal and Record*, Nov. 17, 1926, *The Birth Control Review*, April, 1932, p. 112.
68. Westermarck, *Moral Ideas*, ii, 394-401.
69. Lowie, *Are We Civilized?* 138.
70. Müller-Lyer, *Family*, 104.
71. S & K, i. 64.
72. Briffault, ii, 391.
73. Renard, 135.
74. Westermarck, *Moral Ideas*, ii, 383.
7 . Ibid, i, 290, Spencer, *Sociology*, i, 46.
76. Westermarck, *Moral Ideas*, i, 88, S & K, i, 336.
77. Kropotkin, 90.
78. Lowie, *Are We Civilized?*, 141.
79. Instances in Thomas, W. I., 108, White, E. M., 40, Briffault, i, 453, Ratzel, 135.
80. Westermarck, *Moral Ideas*, ii, 422, 678.
81. Hobhouse, 79, Briffault, ii, 353.
82. Ibid., 165.
83. Thomas, W. I., 164.
84. Examples in S & K, i, 641-3.
85. Briffault, ii, 143-4.
86. Ibid., 500-1, Kropotkin, 101, 105; Westermarck, *Moral Ideas*, ii, 539-40, Lowie, 141.
87. Hobhouse, 29; Spencer, *Sociology*, i, 69, Kropotkin, 90-1.
88. Müller-Lyer, *Modern Marriage*, 26; Briffault, i, 636.
89. Ibid., 740.
90. Müller-Lyer 31.
91. Lowie, 164.
92. Westermarck, *Moral Ideas*, i, 150-1, Sumner, *Folkways*, 460.
93. Ibid., 454.
94. Ibid., 13 S & K, i, 858.
95. Kropotkin, 112-3, Briffault, ii, 357, 490, S & K, i, 659, Westermarck, ii, 556.
96. Strabo, *Geography*, 1, 2, 8.
96a. S & K, ii, 1419.
96b. Ibid.
96c. Briffault, ii, 510.
96d. Lippert, 6.
96e. Briffault, ii, 508.
97. Williams, H. S, *History of Science*, i, 15.
98. Briffault, ii, 645.
99. Ibid., 657.
100. S & K, ii, 859; Lippert 115.
101. *Brihadaranyaka Upanishad*, iv., 3: Davids, T. W. Rhys, *Buddhist India*, 252; Deussen, Paul, *The Philosophy of the Upanishads*, 302.
102. Carpenter, Edward, *Pagan and Christian Creeds*, 80.
103. Powys, John Cowper, *The Meaning of Culture*, 180.
104. Briffault, ii 577, 588-92, 682.

105. Ibid., 147; Carpenter, 48.
106. Jung, C. G., *Psychology of the Unconscious*, 173.
107. Allen. G., *Evolution of the Ideas of God*, 237.
108. Briffault, ii, 508-9.
109. Frazer, Sir J. G., *The Golden Bough*, l-v ed., 112, 115.
110. De Morgan, Jacques, *Prehistoric Man* 249.
111. Frazer, *Golden Bough*, 165-7.
112. Jung, 173.
113. Briffault, iii, 117.
114. Ibid., ii, 592.
115. Ibid., 481.
116 Reinach, 19.
117. Freud, *S. Totem and Taboo.* For a criticism of the theory cf. Goldenweiser, A. A., *History, Psychology and Culture*, 201-8.
118. Durkheim, E., *Elementary Forms of the Religious Life.*
119. Briffault, ii, 468.
120. Reinach, *Orpheus*, 1909 ed., 76, 81; Trade, G., *Laws of Imitation* 273-5; Murray, G., *Aristophanes and the War Party*, 23, 37.
121. Spencer, *Sociology*, *i*, 406; Frazer, *Golden Bough* vii.
122. Reinach, 1909 ed., 80.
123. Ibid.
123. Allen, 30.
124. Examples in Lipprt, 103.
125. Smith, W. Robertson, *The Religion of the Semites*, 42.
126. Hoernle, R. F. A., *Studies in Contemporary Metaphysics*, 181
127. Reinach (1909). 111.
128. Frazer, *Golden Bough*, 13.
129. Frazer, *Adonis, Attis, Osiris*, 356.
130. Briffault, iii, 196.
131. Ibid., 199.
132. Frazer, *Golden Bough*, 337, 432; Allen, 246.
133. Georg. E., *The Adventure of Mankind*, 202.
134. S & K, ii, 1252.
135. Ibid.
136. Sumner, *Folkways*, 336-9, 553-5.
137. Ibid., 337; Frazer, *Golden Bough*, 489.
138. Westermarck, *Moral Ideas*, 273, 376, 563
139. Ratzel, 45.
140. Reinach, 1930 ed., 23
141. Ratzel, 183.
142. 2 Sam. *vi*, 4-7.
143. Diodorus Siculus, *Library of History*, 1, lxxxiv.
144. Briffault, ii, 366, 387.
145. Sumner, *Folkways*, 511.

الباب الخامس

1. Ratzel, 84; Müller-Lyer, *Social Development*, 50-3, 61.
2. Ibid., 46-9, 54; Renard, 57; Robinson, J. H., 735 710; France, A., *M. Bergeret a Paris.*
3. Lubbock, 327, 339, 342f.
4. Müller, Max, *Lectures on the Science of Language*, i, 360.
5. Tylor, E. B., *Anthropology*, 125,
6. Müller, *Science of Language* i, 365, 305n; ii 39.
7. Venkateswara, S. V., *Indian Culture through the Ages*, Vol. I., *Education and the Propagation of Culture*, 6; Ratzel, 31.
8. White J. A., *Michanisms, of Character Formation*, 63.
9. Lubbock, 353-4

10. Briffault, i, 106.
11. Ibid., 107; Russell, B., *Marriage and Morals*, 243.
12. S & K i, 654.
13. Briffault, ii, 190.
14. Ibid., 192-3.
15. Lubbock, 35.
16. Maspero, G., *Dawn of Civilization*, quoted in Mason, W. A., *History of the Art of Writing*, 39.
17. Lubbock, 299.
18. Masson, W.A., ch. ii; Lubbock, 85.
19. Masson, W. A., 146-54.
20. Briffault. i, 18.
21. Spencer, *Sociology*, iii, 218-26.
22. Mason, W. A., 149; further Examples in Lowie, 202.
23. Spencer, *Sociology*, iii, 247 f.
24. Tylor, *Primitive Culture*, i, 243-8, 261, 266, Lubbock, 299.
25. Thoreau, H. D., *Walden*.
26. Briffault, ii, 601.
27 Mason, O.T., in Thomas, *Source Book*, 866.
28. Briffault, 485.
29. Examples in Lowie, *Are We Civilized ?*, 250.
29a. Man., viii., 28.
30. Lowie, 250, S & K, ii, 979, Spencer, *Sociology* iii. 194, Garrison, F. H., *History of Medicine*, 22, 33, Harding, T. Swann, *Fads, Frauds and Physicians*, 148.
31. Garrison, 26.
32. Marett, H. R., *Hibbert Jounal*, Oct. 1918, Carpenter, *Pagan and Christian Creeds*, 167.
33. Lowie, 247.
34. In Garrison, 45.
35. Briffault, ii, 157-8, 162-3.
36. Darwin, *Descent of Man*, 660.
37. Briffault, ii, 176.
38. Spencer, i, 65, Ratzel, 95,
39. Grosse, E., *The Beginnings of Art*, 55-68, Pijoan, J., *History of Art*, i, 4.
40. Grosse, 58.
41. Renard, 91.
42. Lvbbock, 45.
43. Ratzel, 105.
44. Lubbock, 51; Grosse, 80.
45. *Source Book*, 565.
46. Grosse, 70, Lubbock, 46-50.
47. Georg, 104.
48. Grosse, 81.
49. Briffault. ii, 161.
50. Grosse, 88.
51. Ratzel, 95.
52. Müller-Lyer, *Social Development*, 142.
53. Grosse, 5[illegible].
54. Ibid.
55. Briffault, ii, 297.
56. Ratzel in Thomas, *Source Book*, 557.
57. Lowie, 80.
58. Sumner *Folkways*, 187.
59. *Enc. Brit.*, xviii, 873.
60. Mason, O. T., 15[illegible], 164.
61. Ibid., 25.
62. Pijoan, i, 12.
63. Ibid., 8.
64. Spencer, iii. 294-304, Ratzel, 47.
65. Renard, 56.
66. Pratt, W. S., *The History of Music*, 26-31.
67. Grosse, E., in Thomas, *Source Book*, 586.

الباب السادس

2. Osborn H. F., *Men of the Old Stone Age*, 28.
3. N. Y. *Times*, July 31, and Nov. 5, 1931.
4. Lull, *The Evolution of Man*, 26.
5. Sollas, W. J., *Ancient Hunters*, 438-42.
6. Keith, Sir A., N.Y. *Times*, Oct. 17, 1930.
7. De Morgan, J., *Prehistoric Man*, 57-8.
8. Pittard, Eugene, *Race and History*, 70.
9. Keith, *l. c.*
10. Pittard, 311, Childe, V. G., *The Most Ancient East*, 26.
11. Andrews, R. C., *On the Trail of Ancient Man*, 309-12.
12. Skeat. W. M., *An Etymological Dictionary of the English Language*, 252, Lippert, 166.
14. Osborn, 270-1.
15. Lippert, 133.
16. Lowie, *Are We Civilized ?*, 51.
17. Müller Lyer, *Social Development*, 99, Lippert, 130, S & K, i, 191.
18. Bulley. M., *Ancient and Medieval Art*, 14.
19. De Morgan, 197.
20. Spearing, H. G., *The childhood of Art*, 92, Bulley, 12
21. Osborn fig 166
22. N. Y. *Times*, Jan. 22, 1934
23. Bulley, 17
24. Spearing, 45
26. Renard, 86
27. Rickard, T.A., *Man and Metals*, i, 67.
28. De Morgan, x.
29. Ibid., 169; Renard, 27.
30. De Morgan, 172, fig. 94.
31. Pitkin, W.B., *A Short Introduction to the History of Human stupidity*, 53.
32. Carpenter, E., *Pagan and Christian Creeds*, 74; Lowie, 58, Ratzel in Thomas, *Source Book*, 93.
33. Lowie, 60.
34. Febure, L., *A Geographical Introduction to History*, 261.
35. Rickard, i, 81, Schneieer, H., *The History of World Civilization*, i, 20.
36. Breasted, J. H., *Ancient Times*, 29.
37. Renard, 102.
38. De Morgan, 187.
39. Mason, O. T., *Origins of Ivention* 154.
40. E .g. De Morgan, 226, fig. 135.
41. Renard, 79
42. Lowie, 114, De Morgan, 269.
43. Renard, 112, Rickard, i, 77.
44. Georg, 105.
45. De Morgan 235, 240, Renard, 27 Childe, V. G., *The Dawn of European Civilization*, 129-38, Georg, 89.
46. Schneider, H., i, 23-9.
47. Ibid., 30-1.
48. Garrison, *History of Medicine*, 28, Renard 190.
49. Ricard, i, 84.
50. Ibid., 109, 141.
51. Ibid., 114.
52. Ibid., 118.
53. Rostovtzeff, M., in Coomaras-

wamy, A. K., *History of Idian Indonesian Art*, 3.

54. *Cambridge Ancient History*, i, 103.
55. De Morgan, 126.
56. Rickard, i, 169-70; De Morgan, 91.
57. Rickard, i, 85-6.
58. Ibid., 86.
59. Ibid., 141-7; Renard, 29-30.
60. Mason, W. A. *History of Writing*, 313.
60a. CAH Cambridge Ancient History) i, 376.
61. Petrie, Sir W. F., *The Formation of the Alphabet*, in Mason, W. A., 329.
62. *Encyc. Brit*, i, 680.
63. Tylor, *Anthropology*, 168.
64. De Morgan, 257.
65. Breasted, *Ancient Times*, 42, Mason, W. A., 210, 321.
66. Ibid., 381.
67. *Encyc. Brit.*, i, 681.
68. Plato, *Timaeus*, 25, *Critias*, 113.
69. Georg, 228.
70. Childe *The most Ancient East*, 21-6.
71. Georg, 51.
72. Keith, Sir A., N. Y. *Times*, Oct. 12, 1930; Buxton, L. H. D., *The peoples of Asia*, 88.
73. CAH, i, 579.
74. Ibid., 86, 96-1, 362.
75. Keith, l. c., Briffault, ii 507, CAH, i, 362, Comaraswamy, *History*, 3.
76. CAH, i, 85-6.

فهـــرس الأعلام

(ا)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

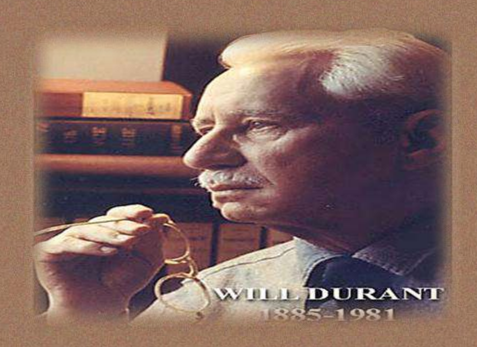
فهرست

صفحة

صفحة

لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد - حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفية من أفضل الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل في شئون البشر الدنيوية. ولقد علمتنا أن نقيم حكومة عادلة قادرة وأن نوفق بين جهود الساسة والفلاسفة الديموقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية. ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك والفن الكلاسيكي المحدث وانتصارات الموسيقى.واستمتعناأيما استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والفن والتكنولوجيا والحكم.لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل فإننا عليمان بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين يطمو نهر المعرفة ويتعاظم. غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ازددنا يقناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً كما كان يعاش في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة .

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً. وإننا لشاكر فإننا للقارئ الذي صاحبنا هذه لسنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها. لقد كنا على الدوام واعين بحضوره. والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع ...





قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

الشرق الأدنى

ترجمة
محمد بدران

الجزء الثاني من المجلد الأول

٢





تونس
بيروت



تمثال من الحجر الأصبل (الجرانيت) لرمسيس الثانى
[illegible] بايطاليا

الشرق الأدنى (١)
بحر الخزر
البحر الأبيض المتوسط
قبرص
أنطاكية
بيلوس
صيدا
صور
دمشق
جبل الكرمل
السامرة
غزة
أورشليم
مصر
إدوم
الفرات
نينوى
آشور
قلعة شرقاط
بلاد آشور
بغداد
كيش
بابل
بارسيبا
سيبار
أجاد
لارسا
أور
أريدو
عيلام
سوسة
ميديا
إكبتانا
برسوبوليس
الخليج الفارسي

(شكل ١)

الكتاب الأول

الشرق الأدنى

« وفى ذلك الوقت نادتنى الآلهة ، أنا حورابى ، الخادم الذى سرت من أعماله ، . . . والذى كان عوناً لشعبه فى الشدائد ، . . . والذى أتاه عليه الثروة والوفرة . . . ، أن أمنع الأقوياء أن يظلموا الضعفاء وأنشر النور فى الأرض ، وأرعى مصالح الخلق » .

قانون حورابى ـ المقدمة

جدول مسلسل لتاريخ الشرق الأدنى[1]

ق . م	مصر
١٨٠٠٠	ثقافة وادى النيل فى العصر الحجرى القديم
١٠٠٠٠	ثقافة وادى النيل فى العصر الحجرى الحديث
٥٠٠٠	ثقافة وادى النيل فى عصر البرنز
٤٢٤١	ظهور التقويم المصرى
٤٠٠٠	ثقافة البدارى
٣٥٠٠ – ٢٦٣١	ا – الدولة القديمة الملكية
٣٥٠٠ – ٣١٠٠	من الأسرة الأولى إلى الثالثة
٣١٠٠ – ٢٩٦٥	الأسرة الرابعة – الأهرام
٣٠٩٨ – ٣٠٧٥	خوفو (كيوبس حسب تسمية هيرودوت)
٣٠٦٧ – ٣٠١١	خفرع (خفرن)
٣٠١١ – ٢٩٨٨	منقورع (ميسرينس)
٢٩٦٥ – ٢٦٣١	الأسرتان الخامسة والسادسة
٢٧٣٨ – ٢٦٤٤	بيبى الثانى (أطول حكم عرف فى التاريخ)
٢٦٣١ – ٢٢١٢	عصر الإقطاع
٢٣٧٥ – ١٨٠٠	ب – الدولة الوسطى الملكية
٢٢١٢ – ٢٠٠٠	الأسرة الثانية عشرة
٢٢١٢ – ٢١٩٢	أمينمحيت الأول

ق . م	غرب آسية
٤٠٠٠٠	ثقافة العصر الحجرى القديم فى فلسطين
٩٠٠٠	ثقافة عصر البرنز فى التركستان
٤٥٠٠	الحضارة فى السوس وكيش
٣٨٠٠	الحضارة فى كريت (إقريطش)
٣٦٣٨	الأسرة الثالثة فى كش
٣٦٠٠	الحضارة فى سومر
٣٢٠٠	أسرة أكشاك فى سومر
٣١٠٠	أور – نينا الأول ملك لكش
٣٠٨٩	الأسرة الرابعة من ملوك كش
٢٩٠٣	الملك أورو كاجينا يصلح لكش
٢٨٩٧	لوجال – زجيزى يفتح لكش
٢٧٧٢ – ٢٨١٧	سرجون الأول (يوحد سومر وأكد)
٢٧٩٥ – ٢٧٣٩	نارام – سن ملك سومر وأكد
٢٦٠٠	جوديا ملك لكش
٢٤٧٤ – ٢٣٩٨	عصر أور الذهبى كتاب القوانين الأول
٢٣٥٧	العيلاميون ينهبون أور

---

(١) التواريخ كلها قبل الميلاد ، وما كان منها قبل عام ٦٦٣ ق . م فهو تقريبى ؛ والتواريخ المذكورة إلى جانب الحكام تبين تواريخ حكمهم لا تواريخ حياتهم .

ق . م	مصر
٢١٩٣ – ٢١٥٧	سنوسريت (سيزوستريس) الأول
٢٠٩٩ – ٢٠٦١	سنوسريت الثالث
٢٠٦١ – ٢٠١٣	أمنمحيت الثالث
١٨٠٠ – ١٦٠٠	سيطرة الهكسوس على مصر
١٥٨٠ – ١١٠٠	« – الإمبراطورية المصرية
١٥٨٠ – ١٣٢٢	الأسرة الثانية عشرة
١٥٤٥ – ١٥١٤	تحتمس الأول
١٥١٤ – ١٥٠١	تحتمس الثاني
١٥٠١ – ١٤٧٩	الملكة حتشبسوت
١٤٧٩ – ١٤٤٧	تحتمس الثالث
١٤١٢ – ١٣٧٦	منحوتب الثالث
١٤٠٠ – ١٣٦٠	عصر رسائل تل العمارنة وخروج غرب آسية على مصر
١٣٨٠ – ١٣٦٢	أمنحوتب الرابع (إخناتون)
١٣٦٠ – ١٣٥٠	توت عنخ آمون
١٣٤٦ – ١٢١٠	الأسرة التاسعة عشرة
١٣٤٦ – ١٣٢٢	حار محب
١٣٢١ – ١٣٠٠	سيتي الأول
١٣٠٠ – ١٢٣٣	رمسيس الثاني
١٢٣٣ – ١٢٢٣	مرنبتاح (منفتاح)
١٢١٤ – ١٢١٠	سيتي الثاني
١٢٠٥ – ١١٠٠	الأسرة العشرون ملوك يسمون باسم رمسيس
١٢٠٤ – ١١٧٢	رمسيس الثالث
١١٠٠ – ٩٤٧	الأسرة الحادية والعشرون
٩٤٧ – ٧٢٠	الملوك الوبيون ، الأسرة الثالثة والعشرون ملوك بوبسطة
٩٤٧ – ٩٢٥	شيشنق الأول
٩٢٥ – ٨٨٩	أسركون الأول

ق . م	غرب آسيه
٢١٦٩ – ١٩٢٦	الأسرة الأولى البابلية
٢١٢٣ – ٢٠٨١	حورابي ملك بابل
٢١١٧ – ٢٠٩٤	حورابي يفتح سومر وعيلام
١٩٢٦ – ١٧٠٣	الأسرة الثانية البابلية
١٩٠٠	ظهور الحضارة الحثية
١٨٠٠	الحضارة في فلسطين
١٧٤٦ – ١١٦٩	سيطرة الكاشيين على بابل
١٧١٦	نهضة دولة أشور في عهد شمشي أداد الثاني
١٦٥٠ – ١٢٢٠	استعباد اليهود في مصر
١٦٠٠ – ١٣٦٠	سيادة مصر على فلسطين وسوريا
١٥٥٠	حضارة ميتاني
١٤٦١	برا – برياش الأول ملك بابل
١٢٧٦	سلما نصر الأول يوحد دولة آشور
١٢٠٠	استيلاء اليهود على كنعان
١١١٥ – ١١٠٢	تغلث فلاسر الأول يوسع دولة آشور
١٠٢٥ – ١٠١٠	شاؤل ملك اليهود
١٠١٠ – ٩٧٤	داود ملك اليهود
١٠٠٠ – ٦٣٠	العصر الذهبي لفينيقية(١) وسوريا
٩٧٤ – ٩٣٧	سليمان ملك اليهود
٩٣٧	انقسام اليهود : دولتا يهوذا وإسرائيل
٨٨٤ – ٨٥٩	آشور ناصر بال الثاني ملك آشور
٨٥٩ – ٨٢٤	سلما نصر الثالث ملك آشور

(١) تكتب أحياناً فونيقية .

ق . م	مصر
٨٨٠ — ٨٥٠	أسركون الثانى
٨٥٠ — ٨٢٥	شيشنق الثانى
٨٢١ — ٧٦٩	شيشنق الثالث
٧٦٣ — ٧٢٥	شيشنق الرابع
٥٨٠ — ٨٤٥	الأسرة الثالثة والعشرون ملوك طيبة
٧٢٥ — ٦٦٣	الأسرة الرابعة والعشرون ملوك منف
٧٤٥ — ٦٦٣	الأسرة الخامسة والعشرون الملوك الإثيوبيون
٦٨٩ — ٦٦٣	طاهرقا
٦٨٥	انتعاش مصر التجارى
٦٧٤ — ٦٥٠	احتلال الأشوريين مصر
٦٦٣ — ٥٢٥	الأسرة السادسة والعشرون ملوك ساو (سايس أو صان الحجر)
٦٦٣ — ٦٠٩	أبسماتيك (ابسامتكس) الأول
٦٦٣ — ٥٢٥	انتعاش الفن المصرى فى عهد ملوك ساو
٦١٥	اليهود يبدءون فى النزوح إلى مصر
٦٠٩ — ٥٩٣	نسكو (نخاو) الثانى
٦٠٥	نخاو يبدأ بإدخال الحضارة الهلينية فى مصر
٥٩٣ — ٥٨٨	أبسماتيك الثانى
٥٦٩ — ٥٢٦	أحوس (أماسيز) الثانى
٥٦٨ — ٥٦٧	نبوخذناصر الثانى يغزو مصر
٥٦٠	ازدياد نفوذ اليونان فى مصر
٥٢٦ — ٥٢٥	أبسماتيك الثالث

ق . م	غرب آسية
٨١١ — ٨٠٨	سلما نصر (سميراميس) فى آشور
٧٨٥ — ٧٠٠	عصر أرمينية الذهبى (أورارتو)
٧٤٥ — ٧٢٧	تغلث فلاصر الثالث
٧٣٢ — ٧٢٢	استيلاء آشور على دمشق والسامرة
٧٢٢ — ٧٠٥	سرجون الثانى ملك آشور
٧٠٩	ديوسيز ملك الميديين
٧٠٥ — ٦٨١	سنحريب ملك آشور
٧٠٢	إشعيا الأول
٦٨٩	سنحريب ينهب بابل
٦٨١ — ٦٦٩	عصر هدون ملك آشور
٦٦٩ — ٦٢٦	آشور بانيبال (سردنابالس) ملك آشور
٦٦٠ — ٥٨٣	زردشت (زرثسترا) أوزروستر عند اليونان
٦٥٢	جيجيس ملك ليديا
٦٤٠ — ٥٨٤	سياخار ملك الميديين
٦٣٩	سقوط السوس وخاتمة عيلام
٦٣٩	هوشع ملك اليهود
٦٢٥	نبوبولاصر يعيد إلى بابل استقلالها
٦٢١	بدايات الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم
٦١٢	سقوط نينوى وخاتمة أشور
٦١٠ — ٥٦١	ألياطس ملك ليديا
٦٠٥ — ٥٦٢	نبوخذناصر الثانى ملك بابل
٦٠٠	إرميا فى أورشليم ، سك العملة فى ليديا
٥٩٧ — ٥٨٦	نبوخذناصر يستولى على أورشليم
٥٨٦ — ٥٣٨	أسر اليهود فى بابل
٥٨٠	حزقيال فى بابل
٥٧٠ — ٥٤٦	كروسس ملك ليديا

ق . م	مصر
٥٢٥	فتح الفرس لمصر
٤٨٥	ثورة مصر على الفرس
٤٨٤	إعادة فتح مصر على يد خشيرشا: (وهو اكزركس عند اليونان ويسميه اليبروفى أخشويرش)
٨٤٢	مصر تنضم إلى الفرس فى حربها مع اليونان
٤٥٥	إخفاق الحملة الأثينية الموجهة إلى مصر
٣٣٢	فتح اليونان مصر وتأسيس الإسكندرية
٢٨٣ — ٣٠	الملوك البطالمة
٣٠	مصر تصبح جزءاً من الدولة الرومانية

ق . م	غرب آسية
٥٥٥ — ٥٢٩	قورش الأول ملك الميديين والفرس
٥٤٦	قورش يستولى على سرديس
٥٤٠	إشعيا الثانى
٥٣٩	قورش يستولى على بابل ويلشيء الإمبراطورية الفارسية
٥٢٩ — ٥٢٢	قمبيز ملك الفرس
٥٢١ — ٤٨٥	دارا الأول ملك الفرس
٥٢٠	تشييد الهيكل الثانى فى أورشليم
٤٩٠	واقعة مراثون
٤٨٥ — ٤٦٤	خشيرشا الأول ملك الفرس
٤٨٠	واقعة سلاميس
٤٦٤ — ٤٢٣	أخشويرش (أردشير ارتكزركس) الأول ملك الفرس
٤٥٠	سفر أيوب ؟
٤٤٤	عزرا فى أورشليم
٤٢٣ — ٤٠٤	دارا الثانى ملك الفرس
٤٠٤ — ٣٥٦	أخشويرش الثانى ملك الفرس
٤٠١	هزيمة قورش الأصغر فى كونكسا
٣٥٩ — ٣٣٨	أوكس ملك الفرس
٣٣٨ — ٣٣٠	دارا الثالث ملك الفرس
٣٣٤	واقعة نهر غرانيقوس ودخول الإسكندر أورشليم
٣٣٣	واقعة إسوس
٣٣١	استيلاء الإسكندر على بابل
٣٣٠	واقعة أربيلا . الشرق الأدنى يصبح جزءاً من دولة الإسكندر

الباب السابع

سومر(*)

وجيه – فضل الشرق الأدنى على الحضارة الغربية

لقد انقضى منذ بداية التاريخ المكتوب حتى الآن ما لا يقل عن ستة آلاف عام ، وفى خلال نصف هذا العهد كان الشرق الأدنى مركز الشئون البشرية التى وصل إلينا علمها . وإذا ذكرنا هذا اللفظ المبهم فى هذا الكتاب فإنا نقصد به جميع بلاد أسية الجنوبية الغربية الممتدة جنوب الروسيا والبحر الأسود ، وغرب الهند وأفغانستان . وسنطلق هذا الاسم أيضاً – وإن خرجنا فى هذا على مقتضيات الدقة أكثر من ذى قبل – على مصر ، لأن هذه البلاد كانت شديدة الاتصال بذلك الجزء من العالم كما كانت مركزاً انتشرت منه الحضارة الشرقية . على هذا المسرح غير الدقيق التحديد الآهل بالسكان وبالثقافات المتباينة نشأت الزراعة والتجارة ، والخيل المستأنسة والمركبات ، وسكت النقود ، وكتبت خطابات الاعتماد ، ونشأت الحرف والصناعات ، والشرائع والحكومات ، وعلوم الرياضة والطب ، والحقن الشرجية ، وطرق صرف المياه ، والهندسة والفلك ، والتقويم والساعات ، وصورت دائرة البروج ، وعرفت الحروف الهجائية والكتابة ، واخترع الورق والحبر ، وألفت الكتب وشيدت المكتبات والمدارس ، ونشأت الآداب والموسيقى والنحت وهندسة البناء ، وصنع الخزف المطلى المصقول والأثاث الدقيق الجميل ، ونشأت عقيدة التوحيد ووحدة الزواج ، واستخدمت أدهان التجميل والحلى ، وعرف النرد والداما ، وفرضت ضريبة الدخل ، واستخدمت المرضعات ، وشربت الخمور – عرفت هذه الأشياء كلها واستمدت منها أوربا وأمريكا

(*) ويكتبها بعض المؤرخين السومر والبعض الآخر شومر . (المترجم)

ثقافتهما على مدى القرون عن طريق كريت واليونان والرومان ، وقصارى القول أن « الآريين » لم يشيدوا صرح الحضارة — بل أخذوها عن بابل ومصر ، وأن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاء لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه . وكانوا الوارث المدلل المتلاف لذخير من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين ، وجاءت إلى مدائنهم مع مغانم التجارة والحرب . فإذا درسنا الشرق الأدنى وعظمنا شأنه فإنا بذلك نعترف بما علينا من دين لمن شادوا بحق صرح الحضارة الأوربية والأمريكية ، وهو دين كان يجب أن يؤدى من زمن بعيد .

الفصل الأول

عيــلام

ثقافة السوس – دولاب الفخارى – عجلات المركبات

إذا نظر القارئ إلى مصور لبلاد إيران ومر بإصبعه على نهر دجلة – مبتدئاً من الخليج الفارسى حتى يصل إلى العمارة ، ثم اتجه به شرقاً مخترقاً حدود العراق إلى مدينة شوشان الحديثة ، إذا فعل هذا فقد حدد لنفسه موقع مدينة السوس القديمة – التى كانت فيما مضى مركز إقليم يسميه اليهود بلاد عيلام – أى الأرض العالية . فى هذا الصقع الضيق الذى تحميه من غربه المناقع ومن شرقه الجبال الحافة بهضبة إيران العظيمة ، أنشأ شعب من الشعوب لا نعرف أصله ولا الجنس الذى ينتمى إليه إحدى المدنيات الأولى المعروفة فى تاريخ العالم . وقد وجد علماء الآثار الفرنسيون فى هذا الإقليم منذ جيل مضى آثاراً بشرية يرجع عهدها إلى عشرين ألف عام ، كما وجدوا شواهد تدل على قيام ثقافة راقية يرجع عهدها إلى عام ٤٥٠٠ ق م (*)(١)

ويبدو أن أهل عيلام كانوا فى ذلك الوقت قد خرجوا توا من الحياة البدوية ، حياة صيد الحيوان والسمك ، ولكنهم كانت لهم وقتئذ أسلحة وأدوات من النحاس ، وكانوا يزرعون الحبوب ويؤنسون الحيوان ، وكانت لهم كتابة مقدسة ووثائق تجارية ، ومزايا وحلى ، وتجارة تمتد من مصر إلى الهند(٢) . ونجد بين أدوات الظران المسواة التى ترجع بنا إلى العصر الحجرى الجديد مزهريات كاملة الصنع رشيقة مستديرة عليها رسوم أنيقة من أشكال هندسية أو صور جميلة تمثل الحيوان والنبات ، نعد بعضها من أجمل ما صنعه الإنسان فى عهود التاريخ

(*) يعتقد الأستاذ برستد أن ده مرجان ومبل وغيرهما من العلماء قد بالغوا فى قدم هذه الثقافة وثقافة أور(٢) .

كله[٤] . ولسنا نجد فى تلك البلاد أقدم ما عرف من عجلات الخزاف وحسب بل نجد فيها أيضاً أقدم ما عرف من عجلات المركبات ، ذلك أنا لا نعثر مرة أخرى على هذه المركبة التى كان لها شأن متواضع ، ولكنه شأن حيوى فى نقل المدنية من مكان إلى مكان ، إلا بعد هذا الوقت فى بلاد بابل ، ثم بعد ذلك أيضاً فى مصر[٥] . ثم انتقل العيلاميون من هذه البدايات المعقدة إلى حياة السلطان والغزو ذات الأعباء الثقال ، فامتلكوا سومر وبابل ، ثم دارت عليهم الدائرة فاستولت عليهم هاتان الدولتان كلتاهما بعد الأخرى . وعاشت مدينة السوس ستة آلاف من السنين ، شهدت فى خلالها عظمة إمبراطوريات سومر ، وبابل ، ومصر ، وأشور ، وفارس ، واليونان ، ورومة ، وظلت ، باسم شوشان ، مدينة مزدهرة حتى القرن الرابع عشر الميلادى . ومرت بها فى خلال تاريخها الطويل فترات مختلفة نمت فيها ثروتها نموا عظيما . وحسبنا شاهداً على هذا وصف المؤرخين لما عثر عليه فيها أشور بانيبال حين استولى عليها ونهبها فى عام ٦٤٦ ق . م من ذهب وفضة وحجارة كريمة ، وجواهر ملكية ، وثياب ثمينة ، وأثاث فخم ، ومركبات ساقها الفاتحون وراءهم إلى نينوى ، ذكر المؤرخون هذه المغانم كلها ولم يحاولوا الانتقاص من شأنها أو الاستخفاف بها ، وهكذا بدأ التاريخ دورته المحزنة فبدلها فى وقت قصير من فنها المزدهر حرباً وخراباً

الفصل الثانى

السومريون

١ — تاريخهم

الكشف عن أرض سومر — جغرافيتها — أهلها وجنسيتهم — مظهرهم — الإرقان السومرى — الملوك — مصلح قديم — سرجون ملك أكاد — عصر أور الذهبى

إذا عدنا إلى خريطة الشرق الأدنى وتتبعنا المجرى المشترك المكون من نهرى دجلة والفرات من مصبه فى الخليج الفارسى إلى أن ينفصل المجريان (عند بلدة القرنة الحديثة)، ثم تتبعنا نهر الفرات متجهين إلى الغرب، وجدنا فى شماله وجنوبه المدن السومرية القديمة المطمورة وهى: إريدو (أبوشهرين الحديثة) وأور (المُقَيَّر الحديثة) وأروك (وهى المسماة إرك فى التوراة والمعروفة الآن باسم الوركاء) ولارْسا (المسماة فى التوراة باسم الاسار والمعروفة الآن باسم سنكرة) ولكش (سيرلا الحديثة) ونپور (نفر). تتبع بعدئذ نهر الفرات فى سيره نحو الشمال الغربى إلى بابل التى كانت فى يوم من الأيام أشهر بلاد الجزيرة (أرض ما بين النهرين) تجد إلى شرقها مباشرة بلدة كش مقر أقدم ثقافة عرفت فى هذا الإقليم، ثم سر مع النهر صعدا قرابة ستين ميلا حتى مقر أجاد قصبة مملكة أكّد فى الأيام الخالية. ولم يكن تاريخ أرض الجزيرة القديم من إحدى نواحيه إلا صراعاً قامت به الشعوب غير السامية التى تسكن بلاد سومر لتحتفظ باستقلالها أمام الهجرات السامية والزحف السامى من كش وأجاد وغيرهما من مراكز العمران الشمالية. وكانت هذه الأجناس المختلفة الأصول فى خلال هذا الصراع تتعاون دون أن تشعر بتعاونها — ولعلها كانت تتعاون على الرغم منها — لتقيم صرح

حضارة هي أول ما عرف في التاريخ من حضارة واسعة شاملة فذة ، وهي من أعظمها إبداعاً وإنشاء(*) .

وليس في وسعنا رغم ما قام به العلماء من بحوث أن نعرف إلى أية سلالة من السلالات البشرية ينتمي هؤلاء السومريون ، أو أي طريق سلكوه حتى دخلوا بلاد سومر . ومن يدري لعلهم جاءوا من آسية الوسطى ، أو من بلاد القفقاس أو من أرمينية واخترقوا أرض الجزيرة من الشمال متتبعين في سيرهم مجرى دجلة

(*) لقد كان كشف هذه الحضارة المنسية من أروع القصص الروائية وأكثرها غرابة في علم الآثار . لقد كان الرومان واليونان واليهود ، وهم الذين نسميهم القدماء جهلا منا بالمدى الواسع لأحقاب التاريخ ، لا يعرفون شيئاً عن سومر ، ولعل هيرودوت لم يصل إلى علمه شيء من هؤلاء الأقوام ، وإذا كان قد وصل إلى علمه شيء عنهم فقد أغفل أمرهم لأن عهدهم كان أبعد إليه من عهده هو إلينا . ولم يكن ما يعرفه بروسس ، وهو مؤرخ بابلي كتب حوالي ٢٥٠ ق . م عن سومر إلا مزيجاً من الخرافات والأساطير . فقد وصف في تاريخه جيلا من الجبابرة يقودهم واحد منهم يسمى أوانس خرج من الخليج الفارسي ، وأدخل في البلاد فنون الزراعة وطرق المعادن والكتابة . ثم يقول : « وقد ترك إلى بني الإنسان كل الأشياء التي تصلح أمور حياتهم ولم تخترع من ذلك الوقت شيء ما حتى الآن »(٦) . ولم تكشف بلاد سومر إلى العالم إلا بعد ألفي سنة مما كتبه عنها بروسس . فقد تبين هنكز في عام ١٨٥٠ أن كتابة مسمارية — تكتب بضغط قلم معدني ذي طرف دقيق على طين لين ، وتستخدم في لغات الشرق الأدنى السامية — أن كتابة من هذا النوع قد أخذت عن أقوام أقدم عهداً من الساميين الذين استعملوها فيما بعد كانوا يتكلمون لغة كثرة ألفاظها غير سامية . وقد أطلق أوبرت على الشعب الذي ظنه صاحب هذه الكتابة اسم الشعب « السومري »(٧) . وكشف رولنسن ومساعدوه في نفس الوقت تقريباً بين الخرائب البابلية ألواحاً نقشت عليها كلمات من هذه اللغة القديمة وبين سطورها ترجمتها إلى اللغة البابلية كما يفعل علماء الجامعات في هذه الأيام(٨) . وفي عام ١٨٥٤ أزاح عالمان إنجليزيان الثرى عن مواقع مدن أور ، وإريدو ، وأرك . وكشف العلماء الفرنسيون في أواخر القرن التاسع عشر من أنقاض لكش وعثروا بينها على ألواح نقش عليها تاريخ الملوك السومريين ، وفي أيامنا هذه كشف وولي الأستاذ بجامعة بنسلفانيا وكثيرون غيره من العلماء عن مدينة أور العتيقة حيث أنشأ السومريون كما يلوح حضارة لهم قبل عام ٤٥٠٠ ق . م . وهكذا تعاون العلماء من مختلف الأمم على كشف السر الغامض من تلك القصة العجيبة التي لا آخر لها . وأخذوا يتعقبون الحقائق التاريخية بلا ملل تعقب رجال الشرطة السرية اللصوص والمجرمين . على أننا مع هذا لم نعد بعد بداية البحث والتنقيب في بلاد سومر . ولسنا ندري ماذا يسفر عنه هذا البحث من حضارة ومن معلومات تاريخية ، بعد أن تحفر الأرض وتدرس المواد المستكشفة كما حفر العلماء أرض مصر ودرسوا آثارها في خلال المائة السنين الأخيرة .

والفرات — حيث توجد — كما فى أشور مثلا — شواهد دالة على ثقافتهم الأولى ؛ أو لعلهم قد سلكوا الطريق المائى من الخليج الفارسى — كما تروى الأساطير — أو من مصر أو غيرها من الأقطار ، ثم اتخذوا سبيلهم نحو الشمال متتبعين على مهل النهرين العظيمين ، أو لعلهم جاءوا من السوس حيث يوجد بين آثارها رأس من الأسفلت فيه خواص الجنس السومرى كلها . بل إن فى وسعنا أن نذهب إلى أبعد من هذا كله فنقول إنهم قد يكونون من أصل مغولى قديم موغل فى القدم . ذلك بأن فى لغتهم كثيراً من التراكيب الشبيهة بلسان المغول[٩] لكن علم هذا كله عند علام الغيوب .

وتدل آثارهم على أنهم كانوا قصار القامة ممتلئى الجسم ، لهم أنوف شم مصفحة ليست كأنوف الأجناس السامية ، وجباه منحدرة قليلا إلى الوراء ، وعيون مائلة إلى أسفل . وكان كثيرون منهم ملتحين ، وبعضهم حليقين ، وكثرتهم العظمى يحلقون شواربهم . وكانوا يتخذون ملابسهم من جلود الغنم ، ومن الصوف المغزول الرفيع ، وكانت النساء يسدلن من أكتافهن اليسرى مآزر على أجسامهن ، أما الرجال فكانوا يشدونها على أوساطهم ويتركون الجزء الأعلى من أجسامهم عارياً . ثم علت أثواب الرجال مع تقدم الحضارة شيئاً فشيئاً حتى غطت جسمهم كله إلى الرقبة . أما الخدم رجالا كانوا أو نساء فقد ظلوا يمشون عراة من الرأس إلى وسط الجسم إذا كانوا فى داخل البيوت . وكانوا فى العادة يلبسون قلانس على رءوسهم وأخفافاً فى أقدامهم ، ولكن نساء الموسرين منهم كن ينتعلن أحذية من الجلد اللين الرقيق غير ذات كعاب عالية ، وذات أربطة شبيهة بأربطة أحذيتنا فى هذه الأيام . وكانت الأساور والقلائد والخلاخيل والخواتم والأقراط زينة النساء السومريات التى يظهرن بها ثراء أزواجهن كما تظهره النساء الأمريكيات فى هذه الأيام[١٠] .

ولما تقدم العهد بمدنيتهم — حوالى ٢٣٠٠ ق . م حاول الشعراء والعلماء

السومريون أن يستعيدوا تاريخ بلادهم القديم ، فكتب الشعراء قصصاً عن بداية الخلق ، وعن جنة بدائية ، وعن طوفان مروع غمر هذه الجنة وخربها عقاباً لأهلها على ذنب ارتكبه أحد ملوكهم الأقدمين[١١] . وتناقل البابليون والعبرانيون قصة هذا الطوفان وأصبحت بعدئذ جزءاً من العقيدة المسيحية . وبينا كان الأستاذ وُلى ينقب فى خرائب أور عام ١٩٢٩ إذ كشف على عمق عظيم من سطح الأرض ، عن طبقة من الغرين سمكها ثمان أقدام ، رسبت — إذا أخذنا بقوله — على أثر فيضان مروع لنهر الفرات ظل عالقاً بأذهان الأجيال التالية ومعروفاً لديهم باسم الطوفان . وقد وجدت تحت هذه الطبقة بقايا حضارة قامت قبل هذا الطوفان ، وصفها الشعراء فيما بعد بأنها العصر الذهبى لتلك البلاد .

وحاول الكهنة المؤرخون فى هذه الأثناء أن يخلقوا ماضياً يتسع لنمو جميع عجائب الحضارة السومرية فوضعوا من عندهم قوائم بأسماء ملوكهم الأقدمين ، ورجعوا بالأسرة المالكة التى حكمت قبل الطوفان إلى ٤٣٢٫٠٠٠ عام[١٢] ، ورووا عن اثنين من هؤلاء الحكام وهما تموز وجلجميش من القصص المؤثرة ما جعل ثانيهما بطل أعظم ملحمة فى الأدب البابلى . أما تموز فقد انتقل إلى مجمع الآلهة البابليين وأصبح فيما بعد أدنيس اليونان . ولعل الكهنة قد تغالوا بعض الشىء فى قدم حضارتهم ، ولكن فى وسعنا أن نقدر عمر الثقافة السومرية تقديراً تقريبياً إذا لاحظنا أن خرائب نيبور تمد إلى عمق ست وستين قدماً ، وأن ما يمتد منها أسفل آثار سرجون ملك أكد يكاد يعدل ما يمتد فوق هذه الآثار إلى أعلى الطبقات الأرضية (أى إلى بداية القرن الأول من التاريخ الميلادى) .

وإذا حسبنا عمر نيبور على هذا الأساس رجع بنا إلى عام ٥٢٦٢ ق . م . ويلوح أن أسراً قوية من ملوك المدن مستمسكة بعروشها قد ازدهرت فى كش حوالى عام ٤٥٠٠ ق . م وفى أور حوالى ٣٥٠٠ ق . م وإنا لنجد فى التنافس الذى قام بين هذين المركزين الأولين من مراكز الحضارة القديمة أول دور من

أدوار النزاع بين السامية وغير السامية ، وهو النزاع الذى يكوّن فى تاريخ الشرق الأدنى مأساة دموية متصلة تبدأ من عهد عظمة كش السامية وتستمر خلال فتوح الملكين الساميين سرجون الأول وحورابى إلى استيلاء القائدين الآريين قورش والإسكندر على بابل فى القرنين السادس والرابع قبل الميلاد ، وإلى اصطراع الصليبيين والمسلمين لامتلاك قبر المسيح ، وإلى التسابق التجارى ، وتمتد إلى هذا اليوم الذى يحاول فيه البريطانيون جاهدين أن يسيطروا على الأقوام الساميين المنقسمين على أنفسهم فى الشرق الأدنى وينشروا السلام فى ربوعه .

وبعد عام ٣٠٠٠ ق .م. تروى السجلات المكونة من ألواح الطين التى كان الكهنة يحتفظون بها ، والتى وجدت فى خرائب أور ، قصة دقيقة دقة لا بأس بها عن قيام ملوك المدائن وتتويجهم وانتصارهم غير المنقطع وجنائزهم الفخمة فى مدن أور ولكش وأرك وما إليها . وما أكثر ما غالى المؤرخون فى هذا الوصف ، لأن كتابة التاريخ وتحيز المؤرخين من الأمور التى يرجع عهدها إلى أقدم الأزمان . وكان واحد من هؤلاء الملوك وهو أوروكاجينا ملك لكش ملكا مصلحاً ومستبداً مستنيراً ، أصدر المراسيم التى تحرم استغلال الأغنياء للفقراء واستغلال الكهنة لكافة الناس . وينص أحد هذه المراسيم على أن الكاهن الأكبر يجب « ألا يدخل بعد هذا اليوم حديقة الأم الفقيرة ويأخذ منها الخشب أو يستولى على ضريبة من الفاكهة » . وخفضت رسوم دفن الموتى إلى خمس ما كانت عليه ، وحرم على الكهنة وكبار الموظفين أن يقتسموا فيما بينهم ما يقربه الناس قرباناً للآلهة من أموال أو ماشية . وكان مما يباهى به الملك أنه « وهب شعبه الحرية » وما من شك فى أن الألواح التى سجلت فيها مراسيمه تكشف عن أقدم القوانين المعروفة فى التاريخ وأقلها ألفاظاً وأكثرها عدلا .

واختتمت هذه الفترة الواضحة من تاريخ أور كما تختتم فى العادة مثيلاتها من الفترات على يد رجل يدعى لوجال ـــزجيزى ، غزا لكش ، وأطاح بأور وكاجينا

ونهب المدينة وهي في أوج عزها ورخائها ، وهدم معابدها . وذبح أهلها في الطرقات ، وساق أمامه تماثيل الآلهة أسيرة ذليلة : ومن أقدم القصائد المعروفة في التاريخ قصيدة كتبت على لوح من الطين لعل عمرها يبلغ ٤٨٠٠ سنة يرثي فيها الشاعر السومري دِنجيرِدّامو انتهاب إلهة لكش ويقول فيها :

وا أسفاه ! إن نفسي لتذوب حسرة على المدينة وعلى الكنوز .

وا أسفاه ! إن نفسي لتذوب حسرة على مدينتي جرسو (لكش) وعلى الكنوز .

إن الأطفال في جرسو المقدسة لفي بؤس شديد

لقد استقر (الغازي) في الضريح الأفخم

وجاء بالملكة المعظمة من معبدها .

أي سيدة مدينتي المقفرة الموحشة متى تعودين ؟[١٥]

ولا حاجة بنا إلى الوقوف عند السفاح لوجال – زجيزي وغيره من الملوك السومريين ذوي الأسماء الطنانة الرنانة أمثال لوجال – شجنجور ، ولوجال – كيجوب – تدوده ، ونئيجي – دبتي ، ولوجال – أندرنوجنجا . . . . وفي هذه الأثناء كان شعب آخر من الجنس السامي قد أنشأ مملكة أكد بزعامة سرجون الأول ، واتخذ مقر حكمه في مدينة أجاد على مسيرة مائتي ميل أو نحوها من دول المدن السومرية من ناحية الشمال الغربي. وقد عثر في مدينة سومر على أثر ضخم مكون من حجر واحد يمثل سرجون ذا لحية كبيرة تخلع عليه كثيراً من المهابة ، وعليه من الثياب ما يدل على الكبرياء وعظيم السلطان. ولم يكن سرجون هذا من أبناء الملوك: فلم يعرف التاريخ له أباً ، ولم تكن والدته غير عاهر من عاهرات المعابد[١٦] : ولكن الأساطير السومرية اصطنعت لسيرة روتها على لسانه شبيهة في بدايتها بسيرة موسى ، فهو يقول : وحملت بي أمي الوضيعة الشأن ، وأخرجتني إلى العالم سراً ، ووضعتني في قارب من الأسل كالسلة ، وأغلقت عليّ

الباب بالفار »[١٧] . وأنجاه أحد العمال ، وأصبح فيما بعد ساقى الملك ، فقربه إليه وزاد نفوذه وسلطانه ، ثم خرج على سيده وخلعه وجلس على عرش أجاد ، وسمى نفسه « الملك صاحب السلطان العالمى » وإن لم يكن يحكم إلا قسما صغيراً من أرض الجزيرة . ويسميه المؤرخون سرجون « الأعظم » لأنه غزا مدناً كثيرة ، وغنم مغانم عظيمة ، وأهلك عدداً كبيراً من الخلائق . وكان من بين ضحاياه لوجال — زجيزى نفسه الذى نهب لكش وانتهك حرمة إلاهتها ، فقد هزمه سرجون وساقه مقيداً بالأغلال إلى نپور . وأخذ هذا الجندى الباسل يخضع البلاد شرقاً وغرباً ، شمالا وجنوباً فاستولى على عيلام وغسل أسلحته فى مياه الخليج الفارسى العظيم رمزاً لانتصاراته الباهرة ، ثم اجتاز غرب آسية ووصل إلى البحر المتوسط[١٨] وأسس أول إمبراطورية عرفها التاريخ ، وظل يحكمها خمسا وخمسين سنة ، وتجمعت حوله الأساطير فهيأت عقول الأجيال التالية لأن تجعل منه إلهاً . وانتهى حكمه ونار الثورة مشتعلة فى جميع أنحاء دولته .

وخلفه ثلاثة من أبنائه كل منهم بعد أخيه . وكان ثالثهم نارام — سين بنَّاء عظيما وإن لم يبق من أعماله كلها إلا لوحة تذكارية تسجل انتصاره على ملك خامل غير ذى شأن . وقد عثر ده مورجان على هذه اللوحة ذات النقش البارز فى مدينة السوس عام ١٨٩٧ ، وهى الآن من كنوز متحف اللوفر ، وتمثل نارام — سن رجلا مفتول العضلات ، مسلحاً بالقوس والسهام ، يطأ بقدميه فى خيلاء الملوك أجسام من ظفر بهم من أعدائه ويدل مظهره على أنه يتأهب لأن يرد بالموت العاجل على توسل أعدائه المنهزمين واسترحامهم . وصوَّر بين هؤلاء الأعداء أحد الضحايا وقد أصابه سهم اخترق عنقه فسقط على الأرض يحتضر ، وتطل هذا المنظر من خلفه جبال زجروس . وقد سجل انتصار نارام — سن على أحد التلال بكتابة مسمارية جميلة . وتدل هذه اللوحة على أن فن النحت قد توطدت وقتئذ قواعده وأصبحت له تقاليد مرعية طويلة الأمد .

على أن إحراق مدينة من المدن لا يكون فى جميع الأحوال من الكوارث الأبدية التى تبتلى بها ، بل كثيراً ما يكون نافعاً لها من الناحيتين العمرانية والصحية وهذه القاعدة تنطبق على لكش فى ذلك العهد ، فقد ازدهرت هذه



(شكل ٥) « جوديا الصغير »
تمثاله فى متحف اللوفر

المدينة من جديد قبل أن يحل القرن السادس والعشرون قبل الميلاد ، وذلك فى عهد ملك آخر مستنير يدعى جوديا تعد تماثيله القصيرة المكتنزة أشهر ما بقى من آثار فن النحت السومرى ، وفى متحف اللوفر تمثال له من حجر الديوريت يمثله فى موقف من مواقف التقوى ورأسه ملفوف بعصابة ثقيلة كالتى نشاهدها فى التماثيل المقامة فى مسرح الكلاوسيوم ، ويداه مطويتان فى حجره ، وكتفاه

وقدماه عارية وساقاه قصيرتان ضخمتان يغطيهما ثوب نصفي مطرز بطائفة كبيرة من الكتابة المقدسة . وتدل ملامحه القوية المتناسبة على أنه رجل مفكر ، عادل ، حازم ، دمث الأخلاق . وكان رعاياه يجلونه ، لا لأنه جندي محارب ، بل لأنه فيلسوف مفكر أشبه ما يكون بالإمبراطور ماركس أورليوس الروماني ، يختص بعنايته الشؤون الدينية والأدبية والأعمال النافعة الإنشائية ، شاد المعابد ، وشجع دراسة الآثار القديمة بالروح التي تدرسها بها البعثات التي كشفت عن تمثاله ، ويحد من سلطان الأقوياء رحمة بالضعفاء . ويفصح نقش من نقوشه التي عثر عليها عن سياسته التي من أجلها عبده رعاياه واتخذوه إلهاً لهم بعد موته : « في خلال سبع سنين كانت الخادمة نداً لمخدومتها ، وكان العبد يمشي بجوار سيده ، واستراح الضعيف في بلدي بجوار القوي »[١٩] .

وفي هذه الأثناء كانت « أور مدينة الكلدان » تنعم بعهد من أكثر عهودها الطوال رخاء وازدهاراً ، امتد من عام ٣٥٠٠ ق . م (وهو على ما يلوح عهد أقدم مقابرها) إلى عام ٧٠٠ ق . م . وأخضع أعظم ملوكها أور — أنجور جميع بلاد آسية الغربية ونشر فيها لواء السلام ، وأعلن في جميع الدولة السومرية أول كتاب شامل من كتب القانون في تاريخ العالم . وفي ذلك يقول : « لقد أقمت إلى أبد الدهر صرح العدالة المستنده إلى قوانين شمش الصالحة العادلة »[٢٠] . ولما زادت ثروة أور بفضل التجارة التي انصبت إليها صبا عن طريق نهر الفرات فعل فيها ما فعل بركليز بأثينة من بعده فشرع يجملها بإنشاء الهياكل ، وأقام فيها هي وغيرها من المدائن الخاضعة له أمثال لارسا وأوروك ونيور كثيراً من الأبنية . وواصل ابنه دنجي طوال حكمه الذي دام ثمانية وخمسين عاماً أعمال أبيه ، وحكم البلاد حكماً عادلا حكيما ، جعل رعاياه يتخذونه من بعد موته إلها : ويصفونه بأنه الإله الذي أعاد إليهم جنتهم القديمة .

لكن سرعان ما أخذ هذا المجد يزول ، فقد انقض على أور التي كانت تنعم

وقتئذ بالرخاء والفراغ والسلم أهلُ عيلام ذوو الروح الحربية من الشرق ، والعموريون الذين علا شأنهم وقتئذ من الغرب ، وأسروا ملكها ، ونهبوها ودمروها شر تدمير . وأنشأ شعراء أور القصائد التي يندبون فيها انتهاب تمثال إشتار أمهمَ الإلهة المحبوبة التي انتزعها من ضريحها الغزاة الآثمون . ومن الغريب أن هذه القصائد التي صيغت في صيغة المتكلم ، وأسلوبها مما لا تسر منه آذان الأدباء السوفسطائيين ، ولكننا على الرغم من هذا نحس من خلال الأربعة الآلاف من السنين التي تفصل بيننا وبين الشاعر السومري بما حل بالمدينة وأهلها من خراب وتدمير . يقول الشاعر :

لقد انتهك العدو حرمتي بيديه النجستين .
انتهكت يداه حرمتي وقضيَ عليَّ من شدة الفزع .
آه ، ما أتعس حظي ! إن هذا العدو لم يظهر لي شيئاً من الاحترام ،
بل جرّدني من ثيابي وألبسها زوجه هو ،
وانتزع مني حليي وزين بها أخته ،
وأنا (الآن) أسيرة في قصوره — فقد أخذ يبحث عني
في ضريحي — واحسرتاه . لقد كنت أرتجف من هول اليوم الذي أخرج فيه ؛
فقد أخذ يطاردني في هيكلي ، وقذف الرعب في قلبي ،
هناك بين جدران بيتي ، وكنت كالحمامة ترفرف ثم تحط
على رافدة ، أو كالبومة الصغيرة اختبأت في كهف .
وأخذ يطاردني في ضريحي كما يطارد الطير ،
طاردني من مدينتي كما يطارد الطير وأنا أتحسر وأنادي :
« إن هيكلي من خلفي ، ما أبعد المسافة بينه وبيني »[21] .

وهكذا ظلت بلاد سومر خاضعة لحكم العيلاميين والعموريين مائتي عام تبدو لأعيننا كأنها لحظة لا خطر لها .

ثم أقبل من الشمال حمورابي العظيم ملك بابل واستعاد من العيلاميين أوروك وإيسين ، وظل سا كناً ثلاثاً وعشرين سنة غزا بعدها بلاد عيلام ، وقبض على ملكها ، وبسط حكمه على عمور وأشور النائية ، وأنشأ إمبراطورية لم يعهد التاريخ من قبل لها مثيلا في قوتها ، وسن لها قانوناً عاماً نظم شئونها . وظل الساميون بعد ذلك الوقت قروناً كثيرة يحكمون ما بين النهرين حتى قامت دولة الفرس ، فلم نعد نسمع بعدئذ شيئاً عن السومريين إذ طويت صحفهم القليلة في كتاب التاريخ .

٢ — الحياة الاقتصادية

الزراعة — الصناعة — التجارة — طبقات الناس — العلوم

انقضى عهد السومريين ، ولكن حضارتهم لم يقض عليها ، فقد ظلت سومر وأكد تخرجان صناعا وشعراء وفنانين وحكماء ورجال دين ، وانتقلت حضارة المدن الجنوبية إلى الشمال على طول مجرى الفرات ودجلة حتى وصلت إلى بلاد بابل وأشور ، وكانت هي التراث الأول لحضارة الجزيرة .

وكان أساس هذه الثقافة هو تربة الأرض التي أخصبها فيضان النهرين السنوي ، وهو الفيضان الناشئ من سقوط الأمطار الشتوية . وكان هذا الفيضان ضاراً ونافعاً ، فقد هدى السومريين إلى أن يجروا ماءه جرياناً أميناً في قنوات للري تخترق البلاد طولا وعرضا ، وقد خلدوا أخطاره الأولى بالقصص التي تتحدث عن فيضان عظيم طغى على الأرض ثم انحسر عنها آخر الأمر ونجا الناس من شره[٢٣] . وكان نظام الري المحكم الذي يرجع عهده إلى ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد من أعظم الأعمال الإنشائية في الحضارة السومرية ، وما من شك في أنه كان أيضاً الأساس الذي قامت عليه . فقد أخرجت الحقول التي عنوا بريها وزرعها محصولات موفورة من الذرة والشعير والقمح والبلح والخضر الكثيرة

المختلفة الأنواع ، وظهر عندهم المحراث من أقدم العصور تجره الثيران كما كانت تجره فى بلادنا حتى الأمس القريب. وكان يتصل به أنبوبة مثقوبة لبذر البذور . وكانوا يدرسون المحاصيل بعربات كبيرة من الخشب ركبت فيها أسنان من الظران تفتت القش ليكون علفا للماشية ، وتفصل منه الحب ليكون طعاماً للناس(٢٤) .

والقد كانت هذه الثقافة ثقافة بدائية من نواح كثيرة . فقد كان السومريون يستخدمون النحاس والقصدير ، وكانوا يخلطونهما فى بعض الأحيان ليضعوا منهما البرنز ، وبلغ من أمرهم أنهم كانوا من حين إلى حين يصنعون من الحديد آلات كبيرة(٢٥) . ولكن المعادن مع هذا كانت نادرة الوجود قليلة الاستعمال ، وكانت كثرة الآلات السومرية تتخذ من الظران ، وبعضها ، كالمناجل التى يقطع بها الشعير ، يصنع من الطين ؛ أما الدقيق منها كالأبر والمثاقب فكان يصنع من العاج والعظام(٢٦) . وكانت صناعة النسيج واسعة الانتشار يشرف عليها مراقبون يعينهم الملك(٢٧) على أحدث طراز من الإشراف الحكومى على الصناعات عرف حتى الآن . وكانت البيوت تبنى من الغاب تعلوه لبنات من الطين والقش تعجن بالماء وتجفف فى الشمس . ولا يزال من اليسير العثور على منازل من هذا الطراز فى الأرض التى كانت من قبل بلاد سومر ، وكان لهذه الأكواخ أبواب من الخشب تدور فى أوقاب منحوتة فى الحجارة ، وكانت أرضها عادة من الطين ، وسقفها مقوسة تصنع من الغاب المثنى إلى أعلى ، أو مستوية مصنوعة من الغاب المغطى بالطين المبسوط فوق دعامات من الخشب . وكانت البقر والضأن والمعز والخنازير تجول فى المساكن فى رفقة الإنسان البدائية . وكان ماء الشرب يؤخذ من الآبار(٢٨) .

وأكثر ما كانت تنقل البضائع بطريق الماء وإذا كانت الحجارة نادرة الوجود فى بلاد سومر فقد كانت تنقل إليها من خارج البلاد عن طريق الخليج الفارسى أو من أعالى النهرين ، ثم تحمل فى القنوات إلى أرصفة المدن النهرية .

لكن النقل البرى أخذ ينمو وينتشر ، وشاهد ذلك ما كشفته بعثة أكسفورد فى كش من مركبات هى أقدم ما عرف من المركبات ذات العجلات فى تاريخ العالم[٢٩] ؛ وقد عثر فى أماكن متفرقة على أختام فستدل منها على وجود صلات تجارية بين سومر وبين مصر والهند[٣٠] . ولم تكن النقود قد عرفت فى ذلك الوقت ، ولهذا كانت التجارة تتبادل عادة بطريق المقايضة ، ولكن الذهب والفضة كانا يستعملان حتى فى ذلك الوقت البعيد لتقدير قيم البضائع ، وكانا يقبلان فى العادة بدلا من البضائع نفسها — إما على هيئة سبائك وحلقات ذات قيم محدودة وإما بكميات تقدر قيمتها حسب وزنها فى كل صفقة تجارية ، وكانت الطريقة الثانية أكثر الطريقتين استعمالا . وإن كثيراً من ألواح الطين التى وصلت إلينا وعليها بعض الكتابة السومرية لهى وثائق تجارية تكشف عن حياة تجارية جمة النشاط . ويتحدث لوح من هذه الألواح فى لغة تدل على الملل والسآمة عن « المدينة التى تعج بضوضاء الإنسان » . وكان لديهم عقود مكتوبة موثقة يشهد عليها الشهود ، ونظام للائتمان تقرض بمقتضاه البضائع والذهب والفضة ، تؤدى عنها فوائد عينية يختلف سعرها من ٢٥ ٪ إلى ٣٣ ٪ فى السنة[٣١] . ولما كان استقرار المجتمع يتناسب إلى حد ما تناسباً عكسياً مع سعر الفائدة فإن لنا أن نفترض أن التجارة السومرية كانت كتجارتنا يحيط بها جو من الارتياب والاضطراب الاقتصاديين والسياسيين .

وقد وجدت فى المقادير كميات كبيرة من الذهب والفضة منها ما هو حلى ومنها ما هو أوان وأسلحة وزخارف ، بل إن منها ما هو عدد وآلات . وكان أهل البلاد الأغنياء منهم والفقراء ينقسمون إلى طبقات ومراتب كثيرة ، وكانت تجارة الرقيق منتشرة بينهم وحقوق الملكية مقدسة لديهم[٣٢] . ونشأت بين الأغنياء والفقراء طبقة أفرادها من صغار رجال الأعمال وطلاب العلم والأطباء والكهنة وقد علا شأن الطب عندهم فكان لكل داء دواء خاص ، ولكنه ظل يختلط

بالدين ويعترف بأن المرض لا يمكن شفاؤه إلا إذا طردت الشياطين من أجسام المرضى ، لأن الأمراض إنما تنشأ من تقمصها هذه الأجسام . وكان لديهم تقويم ، لا نعرف متى نشأ ولا أين نشأ ، تقسم السنة بمقتضاه إلى اثنى عشر شهراً قمرياً يزيدونها شهراً فى كل ثلاثة أعوام أو أربعة حتى يتفق تقويمهم هذا مع فصول السنة ومع منازل الشمس . وكانت كل مدينة تسمى هذه الأشهر بأسماء خاصة(٣٣) .

٣ — نظام الحكم

الملوك — الخطط الحربية — أمراء الإقطاع — القانون

والحق أن كل مدينة كانت شديدة الحرص على استقلالها ، تعض عليه بالنواجذ ، وتستمتع بملك خاص بها تسميه پاتيسى أو الملك — الكاهن فتدل بهذه التسمية نفسها على أن نظام الحكم كان وثيق الاتصال بالدين ، وما وافى عام ١٨٠٠ ق . م حتى نمت التجارة نمواً جعل هذا الانفصال بين المدن أمراً مستحيلا ، فنشأت منها جميعاً « إمبراطوريات » استطاعت فيها شخصية قوية عظيمة أن تخضع المدن والملوك — الكهنة لسلطانها ، وأن تؤلف من هذه المدن وحدة سياسية واقتصادية . وكان هذا الملك الأعظم صاحب السلطان المطلق يحيط به جو من العنف والخوف شبيه بما كان يحيط الملوك فى عصر النهضة الأوربية . ذلك بأنه كان معرضاً فى كل وقت إلى أن يقضى عليه بنفس الوسائل التى قضى بها على أعداائه وارتقى بها عرشه . وكان يعيش فى قصر منيع له مدخلان ضيقان لا يتسع الواحد منهما لدخول أكثر من شخص واحد فى كل مرة . وكان عن يمين المدخل وشماله مخابئ يستطيع من فيها من الحراس السريين أن يفحصوا عن كل زائر أو ينقضوا عليه بالخناجر(٣٤) . بل إن هيكل الملك كان هو نفسه مكاناً سرياً مختفياً فى قصره يستطيع أن يؤدى فيه واجباته الدينية دون أن تراه الأعين ، أو أن يغفل أداءها دون أن يعرف الناس شيئاً عن هذا الإغفال .

وكان الملك يخرج إلى الحرب فى عربة على رأس جيش مؤلف من خليط من المقاتلين مسلحين بالقسى والسهام والحراب . وكانت الحرب تشن لأسباب صريحة هى السيطرة على طرق التجارة والاستحواذ على السلع التجارية ، فلم يكن يخطر لهم ببال أن يستروا هذا الغرض بستار من الألفاظ يخدعون بها أصحاب المثل العليا . من ذلك أن منشتوسو ملك أكد أعلن فى صراحة أنه يغزو بلاد عيلام ليستولى على ما فيها من مناجم الفضة ، وليحصل منها على حجر الديوريت لتصنع منه التماثيل التى تخلد ذكره فى الأعقاب — وتلك هى الحروب الوحيدة فى التاريخ التى تخوضها الجيوش لأغراض فنية . وكان المغلوبون يباعون ليكونوا عبيداً ، فإذا لم يكن فى بيعهم ربح ذبحوا ذبحاً فى ميدان القتال . وكان يحدث أحياناً أن يقدم عشر الأسرى قرباناً إلى الآلهة المتعطشة للدماء ، فيقتلوا بعد أن يوضعوا فى شباك لا يستطيعون الإفلات منها . وقد حدث فى هذه المدن ما حدث بعدئذ فى المدن الإيطالية فى عصر النهضة ، فكانت النزعة الانفصالية التى تسود المدن السومرية حافزاً قوياً للحياة والفن فيها ، ولكنها كانت كذلك باعثاً على العنف والنزاع الداخلى ، فأدى هذا إلى ضعف الدويلات جميعها وإلى سقوط بلاد سومر بأكملها(٣٥) .

وكان نظام الإقطاع وسيلة حفظ النظام الاجتماعى فى الإمبراطورية السومرية ، فقد كان عقب كل حرب يُقطع الزعماء البواسل مساحات واسعة من الأرض ويعفيها من الضرائب . وكان من واجب هؤلاء الزعماء أن يحافظوا على النظام فى إقطاعاتهم ، ويقدموا للملك حاجته من الجند والعتاد . وكانت موارد الحكومة تتكون من الضرائب التى تجبى عيناً وتختزن فى المخازن الملكية وتؤدى منها مرتبات موظفى الدولة وعمالها(٣٦) .

وكان يقوم إلى جانب هذا النظام الملكى الإقطاعى طائفة من القوانين تستند إلى سوابق كثيرة من عهد أور — أنجور ودنجى اللذين جمعا قوانين أور ودوناها ،

فكانت هي المعين الذي استمد منه حمورابي شريعته الذائعة الصيت . وكانت تلك الشرائع أبسط وأكثر بداية من الشرائع اللاحقة ، ولكنها كانت أيضاً أقل منها قسوة .

مثال ذلك أن الشرائع السامية تقضي بقتل الزوجة إذا زنت ، أما الشريعة السومرية فكل ما تجيزه أن تسمح للزوج بأن يتخذ له زوجة ثانية ، وأن ينزل الزوجة الأولى منزلة أقل من منزلتها السابقة(٢٧) . والقانون السومري يشمل العلاقات التجارية كما يشمل العلاقات الزوجية والجنسية بوجه عام ، وينظم شئون القروض والعقود ، والبيع والشراء ؛ والتبني والوصية بكافة أنواعها . وكانت المحاكم تعقد جلساتها في المعابد وكان معظم قضاتها من رجال الدين ، أما المحاكم العليا فكان يعيَّن لها قضاة فنيون مختصون . وخير ما في القانون كله هو النظام الذي وضعه لتجنب التقاضي ، ذلك أن كل نزاع كان يعرض أوّلا على محكِّم عام واجبه أن يسويه بطريقة ودية دون أن يلجأ المتنازعون إلى حكم القانون(٢٨) ، فها هي ذي مدنية بدائية يجدر بنا أن نتلقى منها درساً نصلح به مدنيتنا .

٤ — الدين والأخلاق

مجمع الآلهة السومرية – طعام الآلهة – الأساطير – التعاليم – صلاة سومرية – عاهرات المعابد – حقوق المرأة – أدهنة الشعر والوجه

نشر أور – أنجور في البلاد شرائعه باسم الإله الأعظم شمش ، ذلك أن الحكومة سرعان ما رأت ما في الالتجاء إلى الدين من فوائد سياسية . فلما أن أصبح الآلهة ذوي فائدة من هذه الناحية تضاعف عددهم مراراً حتى أصبح لكل مدينة ، ولكل ولاية ، ولكل نوع من النشاط البشري ، إله موح مدبر . وكانت عبادة الشمس قد تقادم عهدها حين نشأت بلاد سومر ، وكان مظهرها عبادة شمش « نور الآلهة » الذي كان يقضي الليل في الأعماق الشمالية حتى يفتح

له الفجر أبوابه فيصعد فى السماء كاللهب ويضرب بعربته فى أعماق القبة الزرقاء ، ولم تكن الشمس إلا عجلة فى مركبته النارية[٣٩] . وشيدت مدينة نپور المعابد العظيمة للإله إنليل ولصاحبته نهيل ، وأكثر ما كانت تعبد أوروك إلهة إنيني العذراء إلهة الأرض والمعروفة لدى أهل أكد الساميين باسم إستير ، والتى تشبه عند أهل الشرق الأدنى أفرديتى — دمتر الفاجرة الغمليجة عند الغربيين . وعبدت مدينتا كش ولكش أماً لهما حزينة هى الإلهة ننكرساج التى أحزنها شقاء البشر فأخذت تشفع لهم عند الآلهة الذين كانوا أشد منها قسوة[٤٠] ؛ وكان تنجرسو إله الرىّ و« ربّ الفيضانات» . وكان أبو أو تموز إله الزرع ؛ وكان سِنْ إله القمر ، وكانوا يمثلونه فى صورة إنسان يعلو رأسه هلال أشبه شىء بالهالات التى تحيط برءوس القديسين فى العصور الوسطى ، وكان الهواء كله فى زعمهم مملوءاً بالأرواح — منها ملائكة خيّرون لكل سومرى ملاك منهم يحميه ، ومنها أرواح خبيثة أو شياطين تعمل جاهدة لطرد الروح الخير الواقى وتقمص جسم الآدمى وروحه .

وكانت كثرة الآلهة تسكن المعابد حيث يقرب لها المؤمنون القرابين من مال وطعام وأزواج ، وتنص ألواح جوديا على الأشياء التى ترتاح لها الآلهة وتفضلها عن غيرها ، ومنها الثيران ، والمعز ، والضأن ، واليمـام ، والدجاج ، والبط ، والسمك ، والبلح ، والتين ، والخيار ، والزبد ، والزيت ، والكعك[٤١] . ولنا أن نستدل من هذا الثبت على أن الموسرين من أهل البلاد كانوا يتمتعون بالكثير من أصناف الطعام ، ويلوح أن الآلهة كانوا فى بادئ الأمر يفضلون لحم الآدميين ، فلما ارتقت أخلاق الناس لم يجدوا بداً من الاقتناع بلحم الحيوان .

وقد عثر فى الخرائب السومرية على لوحة نقشت عليها بعض الصلوات وجاءت فيها هذه النذر الدينية الغريبة : « إن الضأن فداء لحم الآدميين ، به افتدى الإنسان حياته »[٤٢] ، وأثرى الكهنة من هذه القرابين حتى أصبحوا أكثر الطبقات مالا وأعظمها قوة فى المدن السومرية ، وحتى كانوا هم الحكام

المتصرفين فى الشئون ، حتى ليصعب علينا أن نحكم إلى أى حد كان الپاتيسى كاهناً ، وإلى أى حد كان ملكا .

فلما أسرف الكهنة فى ابتزاز أموال الناس نهض اورو كاچينا كما نهض لوثر فيا بعد ، وأخذ يندد بنهمهم وجشعهم ، ويتهمهم بالرشوة فى توزيع العدالة ، وبأنهم يتخذون الضرائب وسيلة يبتزون بها الزراع والصيادين ثمرة كدهم . وأفلح وقتاً ما فى تطهير المحاكم من هؤلاء الموظفين المرتشين الفاسدين ، وسن قوانين لتنظيم الضرائب والرسوم التى تؤدى للمعابد ، وحمى الضعفاء من ضروب الابتزاز ، ووضع الشرائع التى تحول دون اغتصاب الأموال والأملاك[43] . لكن العالم كان قد عمر حتى شاخ ، وتأصلت فيه الأساليب القديمة التى غشّاها الزمان بشىء من التبجيل والتقديس .

واستعاد الكهنة سلطانهم بعد موت أورو — كاچينا كما استعادوا سلطانهم فى مصر بعد موت إخناتون ، ذلك أن الناس لا يترددون فى أن يؤدوا أغلى الأثمان لكى يعودوا إلى ما خطته لهم أساطيرهم ، وكانت جذور الأساطير الدينية حتى فى ذلك العهد السحيق قد أخذت تتأصل فى العقول ، ومن حقنا أن نفترض أن السومريين كانوا يؤمنون بالحياة الآخرة ، لأن الطعام والأدوات كانت تدفن مع الموتى فى القبور[44] ، ولكنهم كانوا يصورون الدار الآخرة ، كما صورها اليونان من بعدهم ، عالماً مظلماً تسكنه الأطياف التعسة ويهوى إليه الموتى أيا كان شأنهم من غير تمييز بينهم .

ولم تكن فكرة الجنة والنار والنعيم الدائم والعذاب الخالد ، قد استقرت بعد فى عقولهم ، ولم يكونوا يتقدمون بالصلاة والقربان طمعاً « فى الحياة الخالدة » ، بل كانوا يتقدمون بهما طمعاً فى النعم المادية الملموسة فى الحياة الدنيا[45] .. وتصف إحدى الأساطير المتأخرة كيف علمت إى إلهة الحكمة أداباً حكيم إريدو جميع العلوم ، ولم تخف عنه من أسرارها إلا سراً واحداً — هو سر الحياة الأبدية التى

لا تنتهي بالموت[٤٦] . وتقول أسطورة أخرى إن الآلهة خلقت الإنسان منعما سعيدا ، لكنه أذنب وارتكب الخطايا بإرادته الحرة ، فأرسل عليه طوفان عظيم عقاباً له على فعله ، فأهلك الناس كافة ولم ينج منه إلا رجل واحد هو تجتوج الحائك ، وإن تجتوج هذا خسر الحياة الخالدة والعاقية لأنه أكل فاكهة شجرة محرمة[٤٧] .

وكان الكهنة يعلمون الناس العلوم ويلقنونهم الأساطير ، وما من شك فى أنهم كانوا يتخذون من هذه الأساطير سبيلا إلى تعليم الناس ما يريدونه هم ، وإلى حكمهم والسيطرة عليهم . وكانت تلحق بمعظم الهياكل مدارس يعلم فيها الكهنة الأولاد والبنات الخط والحساب ، ويغرسون فى نفوسهم مبادئ الوطنية والصلاح ، ويعدون بعضهم للمهنة العليا مهنة الكتبة . ولقد بقيت لنا من أيامهم الألواح المدرسية وعليها جداول للضرائب والقسمة ، والجذور التربيعية والتكعيبية ، ومسائل الهندسة التطبيقية[٤٨] . ويستدل من أحد الألواح المحتوية على خلاصة لتاريخ الإنسان الطبيعى على أن ما كان يتلقاه أطفال ذلك العهد من هذا العلم لم يكن أسخف كثيراً مما يتلقاه أبناؤنا فى هذه الأيام . فقد جاء فى هذا اللوح : « إن الإنسان فى أول خلقه لم يكن يعرف شيئاً عن خبز يؤكل أو ثياب تلبس ، فكان الناس يمشون مكبين على وجوههم ، يقتلعون الأعشاب بأفواههم ليقتاتوا بها كما تقتات بها الأغنام ، ويشربون الماء من حفر فى الأرض[٤٩] .

ومن أعظم الشواهد الناطقة بما بلغه هذا الدين — وهو أول الأديان التى عرفها التاريخ — من نبل فى التعبير والتفكير ، ذلك الدعاء الذى يتضرع به الملك جوديا للإلهة « بو » راعية لكش ونصيرتها :

أى مليكتى ، أيتها الأم التى شيدت لكش
إن الذين تلحظينهم بعينيك ينالون العزة والسلطان ،
والعابد الذى تنظرين إليه تطول حياته ،
أنا ليس لى أم — فأنت أمى ،

وليس لى أب — فأنت أبى . . . . ؛
أى إلهتى بو ؟ إن عندك علم الخير ؛
وأنت التى وهبتنى أنفاس الحياة ،
وسأقيم فى كنفك أعظمك وأمجدك ،
وأحتمى بجاك يا أماه(٥٠) .

وكان يتصل بالهياكل عدد من النساء منهن خادمات ، ومنهن سرارى للآلهة أو لممثليهم الذين يقومون مقامهم على الأرض ؛ ولم تكن الفتاة السومرية ترى شيئاً من العار فى أن تخدم الهياكل على هذا النحو ، وكان أبوها يفخر بأن يهب جمالها ومفاتنها لتخفيف ما يعترى حياة الكهان المقدسة من ملل وسآمة ، وكان يحتفل بإدخال ابنته فى هذه الخدمة المقدسة ، ويقرّب القرابين فى هذا الاحتفال ، كما كان يقدم بائنة ابنته إلى المعبد الذى تدخله(٥١) .

وكان الزواج قد أصبح وقتئذ نظاماً معقداً تحوطه شرائع كثيرة . فكانت البنت إذا تزوجت تحتفظ لنفسها بما يقدمه أبوها من بائنة ؛ ومع أن زوجها كان يشترك معها فى القيام على هذه البائنة ، فقد كان لها وحدها أن تقرر من يرثها بعد وفاتها . وكان لها من الحقوق على أولادها ما لزوجها نفسه ، وإذا غاب زوجها ولم يكن لها ابن كبير يقيم معها كانت تدير هى المزارع كما تدير البيت . وكان لها أن تشتغل بالأعمال التجارية مستقلة عن زوجها ، وأن تحتفظ بعبيدها أو تطلق سراحهم . وكانت تسمو أحياناً إلى منزلة الملكة كما سمت شوب — آد وتحكم مدينتها حكماً رحيما رغداً قوياً(٥٢) ، غير أن الرجل كان هو السيد المسيطر فى الأزمات جميعها وكان من حقه فى بعض الظروف أن يقتل زوجته أو يبيعها أمة وفاء لما عليه من الديون . وكان الحكم الأخلاقى على الرجل يختلف عن الحكم الأخلاقى على المرأة حتى فى ذلك العهد السحيق ، وكان ذلك نتيجة لازمة لاختلافهما فى شئون الملكية والوراثة . فزنى الرجل كان يعد من النزوات التى يمكن الصفح عنها ،

أما زنى الزوجة فكان عقابه الإعدام ، فقد كان ينتظر منها أن تلد لزوجها وللدولة كثيراً من الأبناء ، فإذا كانت عاقراً جاز طلاقها لهذا السبب وحده ، أما إذا كرهت أن تقوم بواجبات الأمومة ، فكانت تقتل غرقاً . ولم يكن للأطفال شيء من الحقوق الشرعية ، وكان للآباء إذا تبرءوا منهم علناً أن يحملوا ولاة الأمور على نفيهم من المدينة(٥٣) .

غير أن نساء الطبقات العليا كن يحيين حياة مترفة ، وكان لهن من النعم ما يكاد يعدل بؤس أخواتهن الفقيرات ، شأنهن فى هذا شأن النساء فى جميع الحضارات ، فالأدهان والأصباغ والجواهر من أظهر العاديات فى المقابر السومرية وقد كشف الأستاذ ولى فى قبر الملكة شوب — آد عن مدهنة صغيرة من دهنج(*) أزرق مشرب بخضرة ، وعلى دبابيس من الذهب رءوسها من اللازورد ، كما عثر أيضاً على مثبنة عليها قشرة من الذهب المخرم . وقد وجدت فى هذه المثبنة التى لا يزيد حجمها على حجم الخنصر ملعقة صغيرة لعلها كانت تستخدم فى أخذ الصبغة الحمراء من المدهنة . وكان فيها أيضاً عصا معدنية يستعان بها على ملوسة الجلد ، وملقط لعله كان يستعمل لتزجيج الحاجبين أو لنزع ما ليس مرغوباً فيه من الشعر . وكانت خواتم الملكة مصنوعة من أسلاك الذهب وكان أحدها مطعماً بفصوص من اللازَوَرْد ، وكان عقدها من الذهب المنقوش واللازورد . وما أصدق المثل القائل إنه لا جديد تحت الشمس وإن الفرق بين المرأة الأولى والمرأة الأخيرة ليتسع له سم الخياط .

(*) الدهنج كجعفر كالزمرد ويسمى أيضاً الملخيت Malachite . (المترجم)

(٣ قصة الحضارة ، ج ٢ ، مجلد ١)

٥ — الآداب والفنون

الكتابة – الأدب – الهياكل والقصور – صناعة التماثيل – صناعة الفخار – الحلى – كلمة موجزة عن المدينة السومرية

الكتابة أروع ما خلفه السومريون ، ويبدو هذا الفن عندهم فناً عظيم الرقى ، صالحة للتعبير عن الأفكار المعقدة فى التجارة والشعر والدين . والنقوش الحجرية أقدم ما عثر عليه من النقوش ، ويرجع عهدها إلى عام ٣٦٠٠ ق . م[٥٤] ، وتبدأ الألواح الطينية فى الظهور حوالى ٣٢٠٠ ق . م . ويلوح أن السومريين قد بدءوا من ذلك الوقت يجدون فى هذا الكشف العظيم ما ترتاح له نفوسهم وما يفى بأغراضهم . ولقد كان من حسن حظنا أن سكان ما بين النهرين لم يكتبوا بالمداد السريع الزوال على الورق السريع العطب القصير الأجل ، بل كتبوا على الطين الطرى ونقشوا عليه ما يريدون نقشه بسن آلة حادة كالإسفين . وكانوا فى ذلك جد مهرة ، فاستطاع كتابهم بفضل هذه المادة اللينة أن يحتفظوا بالسجلات ، ويدونوا العقود والمشارطات ، ويكتبوا الوثائق الرسمية ، ويسجلوا الممتلكات والأحكام القضائية والبيوع ، ويخلقوا من هذه كلها حضارة لم يكن القلم فيها أقل قوة من السيف ، وكان الكاتب إذا أتم ما يريد كتابته جفف اللوح الطينى فى النار أو عرضه لحرارة الشمس فجعله بذلك مخطوطاً أبقى على الدهر من الورق ، ولا يفوقه فى طول عمره إلا الحجر وحده . وكانت نشأة هـــذه الكتابة المسمارية وتطورها أعظم ما للسومريين من فضل على الحضارة العالمية .

وتُقرأ الكتابة السومرية من اليمين إلى اليسار ، والبابليون فيما نعـــلم هم أول من كتب من اليسار إلى اليمين . ولعل الكتابة فى سطور كانت نوعاً من العلامات والصور التى جرى بها العرف والتى كانت تصور وتنقش على الأوانى الخزفية السومرية البدائية(*) . وأكبر الظن أن الصور الأصلية قد صغّرت وبسطت

(*) ارجع إلى ما قلناه عن الكتابة فى الجزء الأول .

خلال القرون الطوال وبسبب الرغبة فى سرعة كتابتها ، حتى أضحت شيئاً فشيئاً علامات تختلف فى شكلها اختلافاً تاماً عن الأشياء التى كانت تمثلها ، فصارت بهذا رموزاً للأصوات لا صوراً للأشياء . ولنضرب لهذا مثلا من اللغة العربية يوضح هذه الطريقة وهو صورة العين . فإذا افترضنا أن صوُرة العين قد صغُرت وبسطت وصورت حتى لم يعد معناها العين نفسها بل كان هو الصوت الخاص الذى تمثله مع حركتها (وهو الفتحة فى هذه الحال) والذى ينطق به مع حروف أخرى فى كلمات مختلفة كالعَسَل مثلا ، كان هذا شبيهاً بما حدث فى اللغة السومرية(*) . ولم يخط السومريون الخطوة التالية فى هذا التطور فيجعلوا الرسم ممثلا للحرف وحده دون الحركة فيفصلوا الحركة عنه حتى يمكن استخدام العلامة الدالة على العين فى ألفاظ مثل عنب وعُرقوب ومتَعْمل تختلف حركة العين فيها عن الفتحة . وظلت هذه الخطوة التى أحدثت انقلاباً عظيما فى طرق الكتابة حتى خطاها قدماء المصريين(**) .

ويغلب على الظن أن الانتقال من الكتابة إلى الأدب تطلب عدة مئات من السنين . فقد ظلت الكتابة قروناً عدة أداة تستخدم فى الأعمال التجارية لكتابة العقود والصكوك ، وقوائم البضائع التى تنقلها السفن ، والإيصالات ونحوها ، ولعلها كانت بالإضافة إلى هذا أداة لتسجيل الشئون الدينية ، ومحاولة للاحتفاظ بالطلاسم السحرية . والإجراءات المتبعة فى الاحتفالات والمراسم ، والأقاصيص المقدسة ، والصلوات والتراتيل ، حتى لا تبيد ولا يدخل عليها المسخ والتغيير . ومع هذا فلم يحل عام ٢٧٠٠ ق . م حتى كان عدد كبير من دور الكتب العظيمة قد أنشئ فى المدن السومرية . فقد كشف ده سرزاك فى مدينة تلو مثلا ،

(*) هذا المثل من وضعنا . وأما المؤلف فقد ضرب مثلا حرف b الإنجليزى ومركبته bee (النحلة) ، being كائن . كذلك عدلنا الكلام فى الفقرة التالية حتى يتفق مع المثل العربى . والمعنى رغم هذا التغيير واحد ويوضح ما يرمى إليه المؤلف ، ولسنا نعد هذا تصرفا فى الترجمة بل نراه واجبا ضروريا للترجمة الصحيحة . (المترجم)

وفى أنقاض عمائر معاصرة لعهد جوديا . مجموعة مؤلفة من ثلاثين ألف لوح موضوعة بعضها فوق بعض فى نظام أنيق منطقى دقيق[٥٦] . وبدأ المؤرخون السومريون من عام ٢٠٠٠ ق . م يكتبون ماضيهم ويسجلون حاضرهم ليخلفوه لمن يجىء بعدهم . ووصلت إلينا أجزاء من هذه السجلات ولكنها لم تصل إلينا فى صورتها الأصلية بل جاءتنا مقتبسة فى تواريخ المؤرخين البابليين ، على أن من بين ما بقى من هذه الكتب فى صورته الأصلية لوحاً عثر عليه فى نيبور كتب عليه الأصل السومرى البدائى لملحمة جلجميش التى سندرسها فيما بعد فى الصورة التى تطورت إليها عند البابليين[٥٧] . وتحتوى بعض الألواح المحطمة مراثىَ ذات قوة لا بأس بها فى أسلوب أدبى خليق بالتقدير . وفى هذه الألواح تبدأ خاصة التكرار اللفظى الذى تمتاز به أغانى الشرق الأدنى ، فترى ألفاظاً بعينها تتكرر فى بداية السطور ، كما ترى كثيراً من الجمل تكرر المعنى الذى ذكر فى جمل سابقة أو توضحه ؛ وفى هذه الآثار التى نجت من عوادى الأيام ترى النشأة الدينية للأديب فى الأغانى والمراثى التى يرددها الكهنة . فلم تكن القصائد الأولى إذن أراجيز ولا أناشيد غزلية بل كانت صلوات وأدعية دينية .

وما من شك فى أن قروناً طويلة من النماء والتطور فى سومر وفى غيرها من البلاد قد سبقت هذه البدايات الثقافية الظاهرة ؛ فهذه الثقافات لم يبتدعها السومريون فى هذه الحقبة بل نمت عندهم وتطورت . وكما يبدو فى الكتابة أن السومريين قد ابتدعوا الخط المسمارى ، كذلك يبدو فى العمارة أنهم ابتدعوا الأشكال الأساسية للمنازل والهياكل والأعمدة والقباب والعقود[٥٨]. ويخيَّل إلينا أن الفلاح السومرى كان فى أول الأمر ينشئ كوخه بأن يغرس الأعواد على هيئة مربع أو مستطيل أو دائرة ، ويثنى أعلاها حتى تجتمع ، ثم يربطها حتى يتكون منها قوس أو عقد أو قبة[٥٩] ؛ فكان ذلك هو البداية البسيطة أو المظهر الأول المعروف لهذه الأشكال الهندسية المعمارية . وقد عثر المنقبون فى

خرائب نيبور على مجرى مائى معقود أنشىء منذ خمسة آلاف من السنين ، وعثر فى مقابر أور الملكية على عقود يرجع تاريخها إلى عام ٣٥٠٠ ق . م ، وكانت المداخل المعقودة مألوفة فى أور منذ عام ٣٠٠٠[٦٠] ق . م . وكانت عقودها عقوداً حقاً أى أن أحجارها كانت صنجية الرص — كل حجر منها على هيئة إسفين يتجه طرفه الرفيع إلى أسفل محكم الوضع فى مكانه .

أما الأغنياء من أهل المدن فكانوا يشيدون قصوراً يقيمونها على رُبى تعلو عن أرض السهل قرابة أربعين قدماً فى بعض الأحيان ، وكانوا يجعلونها منيعة لا يمكن الوصول إليها إلا من طريق واحد ، وبذلك يستطيع كل عظيم سومرى أن يتخذ قصره حصناً له . وإذ كانت الحجارة نادرة الوجود فى تلك البلاد فقد كان أغلب هذه القصور يُبنى من الآجر ، وكانت الجدران الحمراء تغطى بحليات من الآجر نفسه ذات أشكال مختلفة — منها لوالب ، ومقرنصات ومثلثات ، ومنها معينات أو مشجرات ، وكانت الجدران الداخلية تغطى بالجص وتنقش نقشاً بسيطاً . وكانت الحجرات والمرافق تقام حول فناء يقى البيت وهج شمس البحر الأبيض وحرّها . ولهذا السبب عينه مضافاً إليه رغبة القوم فى الأمن من الأعداء كانت الحجرات تطل على هذا الفناء الداخلى بدل أن تطل على العالم الخارجى . أما النوافذ فكانت من الكماليات أو لعلهم كانوا فى غير حاجة إليها . وكانت المياه تؤخذ من الآبار ، وكان ثمة نظام واسع للمجارى وتصريف الفضلات من الأحياء المأهولة فى المدن . وكان أثاث البيوت قليلا بسيطاً ، ولكنه لم يكن يخلو من طابع الفن والذوق ، وكانت بعض الأسرّة تطعم بالمعادن أو بالعاج ، وكانت لبعض الكراسى السائدة أحياناً أرجل تنتهى بما يشبه مخالب السباع[٦١] على النحو الذى نشاهده فى كراسى المصريين الأقدمين .

أما الهياكل فكانت تستورد لها الحجارة من الأقطار النائية وكانت تزيَّن بأعمدة وأفاريز من النحاس مطعمة بمواد شبيهة بالحجارة الكريمة . وكان هيكل

ناناو فى أور طرازاً تحتذيه سائر هياكل أرض الجزيرة ، فكانت جدرانه مغطاة من الخارج بالقرميد الأزرق الشاحب ، أما من الداخل فكانت تكسوه ألواح من الأخشاب النادرة ، كخشب الأرز والسرو تطعم بالرخام والمرمر والعقيق الظفرى واليمانى والذهب وكان أعظم هيكل فى المدينة يقام عادة فوق ربوة ، يعلوه برج من ثلاث طبقات أو أربع أو سبع فى بعض الأحيان ، يحيط به سلم لولبي ذو بسطة عند كل مقلب . وكانت هذه الأبراج أعلى صروح فى المدائن السومرية ، ومساكن أعظم آلهتها ، وكان فى وسع الحكومة أن تجد فيها آخر حصن روحي وطبيعي يعصمها من الثوار أو الغزاة(*)(٦٢) .

وكانت الهياكل تزينها أحياناً تماثيل للآلهة وللحيوان وللأبطال من بنى الإنسان . وكانت هذه التماثيل ساذجة غير جميلة فى صناعتها تمثل القوة والعظمة ولكنها ينقصها الصقل والأناقة والدقة الفنية . ومعظم ما بقى منها يمثل الملك جوديا . وهى منحوتة من حجر الديوريت الصلب نحتاً واضح المعارف ولكنه مع ذلك فج ساذج . وقد عثر فى خرائب تنتمى إلى العهد السومرى الأول على تمثال صغير من النحاس على شكل ثور ، عدا عليه الدهر ولكنه لا يزال يفيض حيوية وهمة ثورية . وفى مدينة أور عثر المنقبون على رأس بقرة مصنوع من الفضة فى قبر الملكة شب ــ آد وهو آية فنية تشهد بما وصل إليه الفن من رقى عظيم ، وإن كان الدهر قد عدا عليها حتى لم يعد فى وسعنا أن نقدرها التقدير الذى هى خليقة به . وإن هذا الحكم ليؤيده ما بقى من النقوش المحفورة تأييداً

(*) وقد أوحت هذه الأبراج إلى المهندسين الأمريكيين بطراز جديد من المبانى الشاهقة . ولم يسع القائمين على أعمال التنظيم فى تلك البلاد إلا أن يرغموهم على الرجوع بالطبقات العليا من المبانى إلى الداخل حتى لا يحجبوا الضوء عن جيرانهم . وإذا ما مثل الإنسان لنفسه أبراج السومريين التى أقيمت من الآجر منذ ٥٠٠٠ عام وأبراج مدينة نيويورك المقامة من الآجر فى هذه الأيام إذا مثل الإنسان لنفسه هذه وتلك تضاءل الزمن أمامه حتى لم يعد أطول من طرفة عين .

لا يكاد يترك مجالا للشك فيه : كذلك تظهر خشونة الفن السومرى فى « لوحة الصقور » التى أقامها إينـا — توم ملك لكش ، واسطوانة إبنشار المصنوعة من الرخـام السماقى(٦٣) الصور المزلية (. وهى بلا شك هزلية) التى تمثل أور — نينا(٦٤) ، وبخاصـة فى « لوحة النصر » التى أقامها نارام — سين ، ولكنها مع ذلك تنم عن حيوية قوية فى الرسم والنحت لا تكاد تترك مجالا للشك فى وجود فن ناشئ سائر فى طريق الازدهار .



شكل (٦) لوحة نارام — سن
المحفوظة فى متحف اللوفر

أما صناعة الخزف فليس فى وسعنا أن نحكم عليها هذا الحكم السهل الذى أصدرناه على صناعة النحت . ولعل عوادى الزمن من أسباب الخطأ فى هذا الحكم ، فقد يكون ما بقى لنا من آثار هذه الصناعة أقلها شأناً . ولعل هؤلاء الناس كانت لديهم قطع منه لا تقل فى إتقانها عن الأوانى المنحوتة من المرمر التى عثر عليها فى إريدو(٦٥) ، ولكن معظم الخزف السومرى — وإن كانت عجلة الفخار قد استخدمت فيه — لا يعدو أن يكون آنية ساذجة من الفخار لا تسمو

إلى مستوى مزهريات عيلام . أما صناعة الذهب فقد بلغت مستوى رفيعاً كما يدل على ذلك ما وجد فى أقدم مقابر أور التى يرجع تاريخ معظمها إلى عام ٤٠٠٠ [٦٦] ق . م من أوانٍ من الذهب تنم عن ذوق راق ومصقولة أجمل صقل . وفى متحف اللوفر مزهرية من الفضة كجسم جوديا ولكنها مزينة بطائفة كبيرة من صور الحيوانات المنحوتة نحتاً جميلا [٦٧] . وأجمل ما وجد من هذه القطع الفنية غمد من الذهب وخنجر مطعم باللازورد عثر عليهما المنقبون فى أور [٦٨] . وإذا كان لنا أن نحكم على هذه الآية الفنية من صورها الشمسية (*) حق لنا أن نقول إن الفن يكاد يسمو فيها إلى ذروة الكمال . وقد كشف فى هذه الخرائب عن عدد كبير من الأختام الإسطوانية معظمها مصنوع من المعادن الثمينة أو الأحجار الكريمة ، وعليها نقوش منحوتة فيما لا يزيد على بوصة مربعة أو بوصتين . ويلوح أن السومريين كانوا يستخدمون هذه الأختام فيما نستخدم فيه نحن الإمضاءات ، وكلها تشهد بما بلغته الحياة والأخلاق فى تلك الأيام من رقى وتهذيب ينقض ما لدينا من فكرة ساذجة عن تقدم الإنسان المتواصل من ثقافات الأيام الخوالى المنحوسة إلى ثقافات هذه الأيام التى بلغت الحد الأقصى من الكمال !

ويمكن أن نلخص الحضارة السومرية تلخيصاً موجزاً فى هذا التناقض بين خزفها الفج الساذج وحليها التى أوفت على الغاية فى الجمال والإيمان . لقد كانت هذه الحضارة مزيجاً مركباً من بدايات خشنة وإتقان بارع فى بعض الأحيان . وفى تلك البلاد — على قدر ما وصل إليه علمنا فى الوقت الحاضر — نجد أول ما أسسه الإنسان من دول وإمبراطوريات ، وأول نظم الرى ، وأول استخدام للذهب والفضة فى تقويم السلع ، وأول العقود التجارية ، وأول نظام للائتمان ، وأول كتب القوانين ، وأول استخدام للكتابة فى نطاق واسع ، وأولى قصص الخلق والطوفان ، وأولى المدارس والمكتبات ، وأول الأدب والشعر ، وأول

(*) وأصل هذه التحفة محفوظ الآن فى متحف بغداد .

أصباغ التجميل والحلى ، وأول النحت والنقش البارز ، وأول القصور والهياكل ، وأول استعمال للمعادن فى الترصيع والتزيين . وهنا نجد فى البناء أول العقود والأقواس وأول القباب ، وهنا كذلك تظهر لأول مرة فى التاريخ المعروف بعض مساوئ الحضارة فى نطاق واسع : يظهر الرق والاستبداد وتسلط الكهنة وحروب الاستعمار . لقد كانت الحياة فى تلك البلاد متنوعة ، مهذبة ، موفورة النعم ، معقدة . وهنا بدأت الفوارق الطبيعية بين الناس تنتج حياة جديدة من الدعة والنعيم للأقوياء ، وحياة من الكدح والعمل المتواصل لسائر الناس . وفى تلك البلاد كانت بداية ما نشأ فى تاريخ العالم من اختلافات يخطئها الحصر .

الفصل الثالث

الانتقال إلى مصر

أثر السومريين فى أرض الجزيرة — بلاد
العرب القديمة — أثر بلاد الجزيرة فى مصر

على أننا إذا ما تحدثنا عن السومريين نكون جد قريبين من بداية التاريخ قرباً يصعب علينا معه أن نحكم حكماً دقيقاً أى الحضارات التي نمت فى بلاد الشرق الأدنى والتى يتصل بعضها ببعض أوثق اتصال — نقول أى هذه الحضارات كانت أسبق من أختها أو أيها أعقبت الأخرى ؟ . إن أقدم مدوّنات كتابية وصلت إلينا هى المدوّنات السومرية وإن كان هذا فى ذاته لا يقوم دليلا على أن الحضارة السومرية أولى الحضارات ، فقد يكون هذا الكشف وليد الظروف المحضة ، وقد يكون نتيجة عبث الموت والفناء بمخلفات الأقدمين . وقد عثر على تماثيل صغيرة وآثار أخرى شبيهة بآثار السومريين فى بلدتى أشور وسامراء وهما من البلاد التى شملتها فيا بعد دولة أشور . ولسنا نعرف أكانت هذه الثقافة القديمة مستمدة من بلاد سومر أم انتقلت إليها من مكان آخر عن طريق نهر دجلة ؟ . كذلك تشبه شرائع حمورابى شرائع أور — أنجور ودنجى ، ولكنا لا نستطيع أن نثبت أن الأولى تطورت عن الثانية ، وليست تطوراً لشريعة أخرى أقدم منهما عهداً ، وأن كلتا الشريعتين استمدت أصولها منها . وكل ما فى وسعنا أن نقوله هو أننا نرجح ، ولا نؤكد ، أن حضارة البابليين والأشوريين مستمدتان من سومر وأكد ، أو أن سومر وأكد لحقتا الحضارتين البابلية والأشورية بلقاحهما(٦٩) . ذلك أن آلهة بابل ونينوى وأساطيرهما الدينية ليست فى كثير من الأحوال إلا آلهة وأساطير سومرية طرأ عليها التحوير والتطور ، وأن

العلاقة التى بين اللغتين البابلية والأشورية وبين اللغة السومرية لتشبه العلاقة القائمة بين اللغتين الفرنسية والإيطالية من جهة واللغة اللاتينية من جهة أخرى.

ولقد لفت شوينفرت أنظار العلماء إلى تلك الحقيقة الطريفة العظيمة الخطر، وهى أن الشعير والذرة الرفيعة والقمح، وتأنيس الماشية والمعز والضأن، وإن ظهرت كلها فى مصر وبلاد ما بين النهرين من أقدم العهود المدونة، لا توجد فى حالتها البرية الطبيعية فى مصر بل فى بلاد آسية الغربية وبخاصة فى بلاد اليمن وبلاد العرب القديمة، وهو يستدل من هذا على أن الحضارة — وهى هنا زراعة الحبوب واستخدام الحيوانات المستأنسة — قد ظهرت فى العهود القديمة غير المدونة فى بلاد العرب، ثم انتشرت منها فى صورة «مثلث ثقافى» إلى ما بين النهرين (سومر، وبابل وأشور) وإلى مصر[٧٠]، ولكن ما وصل إلى علمنا عن تاريخ بلاد العرب القديمة حتى الآن ليبلغ من القلة حدا لا نستطيع معه إلا أن نقول: إن هـــذا مجرد فرض جائز الوقوع.

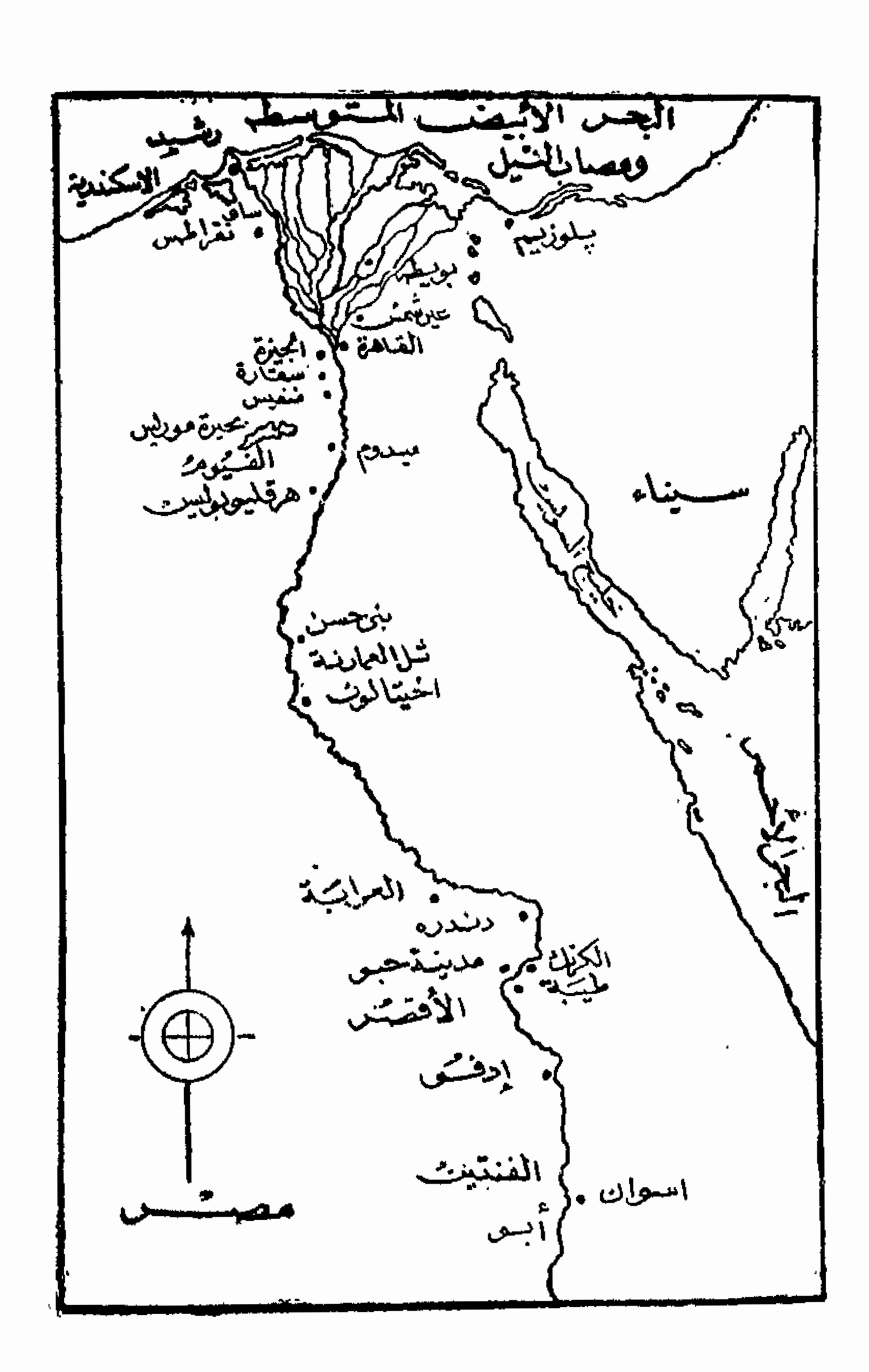
وأكثر من هذا احتمالا أن عناصر بعينها من الثقافة المصرية مستمدة من بلاد السومريين والبابليين. فنحن نعلم أن مصر وبلاد النهرين كانتا تتبادلان التجارة — وخاصة بطريق برزخ السويس — ولعلهما كانتا تتبادلانهما أيضاً بالطريق المائى طريق مصاب الأنهر المصرية القديمة فى البحر الأحمر[٧١]. وإن نظرة إلى الخريطة لتوضح لنا السبب فى أن مصر كانت طوال تاريخها المعروف تنتمى إلى آسية الغربية أكثر مما تنتمى إلى أفريقية. لقد كان من السهل أن تنتقل التجارة والثقافة إلى مصر من بلاد آسية بطريق البحر المتوسط. ولكنها لا تلبث أن تعترضها الصحراء التى تفصل هى وجنادل النيل بلاد مصر عن سائر بلاد أفريقية. ومن ثم كان من الطبيعى أن نجد فى الثقافة المصرية عناصر كثيرة من ثقافة ما بين النهرين.

وكلما رجعنا إلى الوراء فى درس اللغة المصرية القديمة زاد ما نجده فيها من

صلات بينها وبين لغات الشرق الأدنى السامية(٧٢) . ويبدو أن الكتابة التصويرية التي كان المصريون يستخدمونها قبل عصر الأسر الحاكمة قد انتقلت إلى مصر من بلاد السومريين(٧٣) . والخاتم الاسطواني — وأصله بلا شك من بلاد الجزيرة — يظهر في أقدم العهود المعروفة من تاريخ مصر ، ثم يستخفي ؛ وقد كان أسلوباً قديماً دخيلا استبدل به أسلوب وطني أصيل(٧٤) . وليست عجلة الفخار معروفة في مصر قبل عهد الأسرة الرابعة — أي بعد أن ظهرت في سومر بزمن طويل ، ولعلها جاءت إلى مصر من أرض النهرين مع العربات والعجلات(٧٥) ، ورءوس الصولج المصرية لا تفترق في شيء عن البابلية(٧٦) . ومن بين الآثار المصرية التي ترجع إلى عصر ما قبل الأسر والتي عثر عليها في جبل الأراك سكين من الظران جميل الصنع عليه نقوش بارزة هي بعينها نقوش أرض الجزيرة من حيث موضوعها وطرازها(٧٧) . ولعل صناعة النحاس قد نشأت في غربي آسية ثم انتقلت بعدئذ إلى مصر(٧٨) . وتشبه الهندسة المعمارية المصرية الأولى هندسة أرض الجزيرة في استخدام النقوش القليلة البروز لتزيين الجدران المتخذة من الآجر(٧٩) ، وفخار عهد ما قبل الأسر المصرية وتماثيله الصغيرة وموضوعات زينتها تشبه مثيلاتها في أرض الجزيرة في كثير من الأحوال أو شديدة الصلة بها بلا ريب(٨٠) . ومن بين الآثار المصرية الباقية من ذلك العهد تماثيل صغيرة لآلهة لا يخطئ الإنسان في أنها من أصل أسيوي . ولقد كان الفنانون في أور ينحتون التماثيل وينقشون النقوش التي يدل طرازها وما جرى عليه العرف في صنعها على قدم هذين الفنين في بلاد سومر ، وذلك في الوقت الذي يلوح فيه أن الحضارة المصرية لم تعْدُ بدايتها(*)(٨١) .

(*) حاول مؤرخ كبير هو إليوت اسمث أن يعارض هذه الآراء بقوله إن مصر وإن لم يورق فيها الشعير والذرة الرفيعة والقمح بأشكالها البرية الطبيعية ، كانت هي البلاد التي نجد فيها أقدم الشواهد الدالة على زراعة هذه النباتات . وهو يعتقد أن الزراعة والحضارة بوجه عام قد انتقلتا إلى بلاد سومر من مصر نفسها(٨٢) . وكذلك لا يؤمن الأستاذ برستد — أعظم علماء العاديات المصرية الأمريكيين — بأسبقية الحضارة السومرية للحضارة المصرية ؛ وهو يعتقد أن العجلات قديمة في مصر قدمها في بلاد السومريين إن لم تكن أقدم ، ويرفض رأي شوينفرت ، وحجته في ذلك الرفض أن الحبوب قد وجدت في أشكالها البرية في مرتفعات بلاد الحبشة .

ولا غضاضة على مصر فى أن تعترف بالسبق لبلاد سومر ؛ ذلك أنه مهما تكن الأصول التى استمدتها مصر من أرض دجلة والفرات فإن هذه الأصول سرعان ما نمت وأينعت وأثمرت حضارة مصرية خالصة فذة هى بلا ريب من أغنى الثقافات المعروفة فى التاريخ وأعلاها شأناً وأعظمها قوة ؛ وهى مع ذلك من أكثرها رشاقة وجمالا ، حضارة إذا قيست إليها السومرية لم تكن هـــذه إلا بداية فجة ، بل إن حضارتى اليونان والرومان لا تفضلانها فى شىء .



البحر الأبيض المتوسط
رشيد
ومصاب النيل
الإسكندرية
نقراطس
بلوزيم
عين شمس
القاهرة
الجيزة
سقارة
منفيس
بحيرة موريس
ميدوم
الفيوم
هرقليوبوليس
سيناء
البحر الأحمر
بني حسن
تل العمارنة
اخيتاتون
العرابة
دندره
الكرنك
طيبة
مدينة حبو
الأقصر
إدفو
الفنتين
اسوان
مصر

الباب الثامن

مصر

الفصل الأول

هبة النيل

١ — فى الوجه البحرى

الإسكندرية – النيل – الأهرام – أبو الهول

هذا مرفأ أمين أوفى على الغاية فى الأمان . فنى خارج حاجز المياه ترى الأمواج الصاخبة يعلو بعضها فوق بعض ، أما فى داخله فالبحر مرآة من اللجين . هناك ، على جزيرة فاروس الصغيرة ، فى عهد من عهود مصر الموغلة فى القدم ، شاد سُستراتس من الرخام الأبيض منارته العظيمة ورفعها خمسمائة قدم لتكون هادية لجميع الملاحين الضاربين فى مياه البحر المتوسط ، ولتكون إحدى عجائب العالم السبع .

ولقد عفت آثار هذه المنارة بفعل الأيام والمياه الغاضبة ، ولكن منارة جديدة قد حلت الآن محلها تهدى السفن التجارية بين الصخور إلى أرصفة ميناء الإسكندرية ، حيث أنشأ الإسكندر – ذلك الغلام السياسى العجيب – مدينته العظيمة التى اختلطت فيها الأجناس ، والتى ورثت فيما بعد ثقافة مصر وفلسطين واليونان ، وفى مرفأ الإسكندرية استقبل قيصر وهو غاضب مكتئب رأس بمبى مفصولا من جسده .

وإذا أطل المسافر من نافذة القطار وهو يخترق المدينة تحت عيناه فى بعض

أجزائها أزقة وطرقات غير مرصوفة ، وأمواجاً من الحرارة ترقص فى الهواء ، وعمالا عرايا إلى أوساطهم يكدحون فى مختلف الأعمال ، ونساء ذوات مآزر سود يحملن الأثقال ، وشيوخاً عليهم جلابيب بيض فاخرة وعمائم تكسوهم المهابة والوقار . وتقع العين من بعيد على ميادين فسيحة وقصور فخمة لا تقل جمالا عما شاده فيها البطالمة حين كانت الإسكندرية ماتقى العالم كله . ثم لا يلبث الإنسان أن يرى نفسه فجاءة فى الريف ويرى المدينة من ورائه تتراجع إلى أفق دال النهر الخصيبة ، وهى ذلك المثلث الأخضر الذى يبدو فى المصورات كجريد النخلة السامقة محمولا على جذع نهر النيل الرفيع .

وما من شك فى أن هذه الدال كانت فى يوم من الأيام خليجاً فى البحر ؛ طمره النهر الواسع طمراً بطيئاً لا تدركه العين بما ألقاه فيه من الغرين الذى حمله معه آلاف الأميال(*) . وفى هذا الركن الطينى الصغير الذى يكتنفه مصبا النهر العظيم يُخرج ستة ملايين من الفلاحين قطناً يصدرون منه إلى خارج بلادهم ما قيمته مائة ألف ريال فى كل عام . وفى ذلك الصقع من أصقاع العالم يجرى أعظم نهر من أنهار الأرض وأوسعها ذكراً ، تسطع الشمس على مياهه البرّاقة الهادئة وتكتنفه من جانبيه أشجار النخل الرفيعة السامقة والحشائش والحقول الناضرة . وليس وسع فى المسافر أن يرى الصحراء الغربية من مجرى النهر العظيم أو الوديان الجافة التى كانت من قبل روافد له . ولا تستطيع فى هذه المرحلة أن تدرك ضيق أرض مصر الشديد ، واعتمادها التام على نهر النيل ، وما يحيط بها على الجانبين من رمال سافية تناصبها العداء ؛

ويمر القطار الآن وسط السهل الرسوبى المغطى بعضه بالماء ، والذى تخترقه قنوات الرى فى كل مكان ، وينتشر فيه الفلاحون يجدُّون ويكدحون وليس عليهم

(*) يعتقد الجغرافيون القدماء أنفسهم (استرابون مثلا) أن أرض مصر كانت فيما مضى تغمرها مياه البحر المتوسط وأن صحاريها كانت فى قاع هذا البحر .

إلا القليل من الثياب ، والنهر يفيض فى كل عام ويبدأ فيضانه وقت الانقلاب الصيفى ويدوم نحو مائة يوم ؛ وماء الفيضان هو الذى أخصب للصحراء ، وأوجد مصر « هبة النيل » كما سماها هيرودوت ؛ ومن اليسير على الإنسان أن يدرك لماذا وجدت الحضارة فى هذا الوادى موطناً من أقدم مواطنها ، ذلك أننا لا نجد فى أى بلاد أخرى فى العالم نهراً مثل نهر النيل سخياً بمائه ، يعلو بقدر ، ويسهل التحكم فيه ؛ وليس فى وسع بلاد أخرى أن تضارع مصر فى هذا إلا أرض الجزيرة ، ولقد ظل زراع مصر آلاف السنين يرقبون فيض النيل بقلوب واجفة ، ولا يزال المنادون إلى يومنا هذا فى أيام الفيضان يعلنون أنباءه فى كل صباح فى شوارع القاهرة . وهكذا ينحدر الماضى إلى المستقبل انحدار هذا النهر الهادئ الدائم الجريان ماراً فى طريقه بالحاضر مرا خفيفاً . إن تقسيم الأيام إلى ماض وحاضر ومستقبل عمل من صنع المؤرخين ، أما الزمن فلا يعرف هذا التقسيم .

لكن لكل هبة ثمنها ، ومهما يكن تقدير الفلاح لقيمة هذا الفيض العظيم فقد أدرك أنه إن لم يسيطر عليه فإنه لا يروى الحقول فحسب بل إنه يرويها ويخربها . ومن أجل هذا احتفر منذ عهود ماقبل التاريخ تلك القنوات التى تخترق أرض مصر طولا وعرضاً وتتقاطع فيها تقاطع خيوط الشباك ، واحتبس فيها المياه الزائدة(*) حتى إذا ما انخفضت مياه النهر رفعها إلى الأرض فى دلاء معلقة فى قوائم طويلة وأنشد وهو يرفعها الأغانى التى استمع إليها النيل من خمسة آلاف من السنين . ذلك أن هؤلاء الفلاحين الذين نراهم الآن منقبضين لا يضحكون حتى فى أثناء غنائهم لا يختلفون فى شىء عن أجدادهم الذين عاشوا على ضفاف النهر طوال القرون الخمسين الماضية[٣] . وهذا الجهاز الذى يرفع به الماء ، والذى لا نزال نشاهده الآن ، قديم قدم الأهرام نفسها ، ولا يزال مليون من هؤلاء الفلاحين يتكلمون

(*) ليس الغرض من إنشاء القنوات الاحتفاظ بالمياه الزائدة بل الغرض منها إيصال الماء إلى الأرض البعيدة عن مجرى النهر . (المترجم)

اللغة المنقوشة على الآثار القديمة رغم انتشار اللغة العربية فى كافة أنحاء البلاد(*)(٤).

وفى أرض الوجه البحرى ، وعلى بعد خمسين ميلا إلى الجنوب الشرقى من الإسكندرية ، موقع مدينة نقراطيس القديمة التى كانت فى يوم من الأيام مدينة صناعية عظيمة يسكنها اليونان المحدثون ، وعلى بُعد ثلاثين ميلا إلى شرق هذه المدينة موقع ساو (سايس أوْ صا الحجر) التى بعثت فيها الحضارة القومية المصرية آخر مرة فى القرون التى سبقت الفتح الفارسى والفتح اليونانى . وعلى بعد مائة وتسعة وعشرين ميلا فى جنوب الإسكندرية الشرقى تقع مدينة القاهرة . والقاهرة مدينة جميلة ولكنها ليست مصرية خالصة ، فقد شادها الفاتحون المسلمون فى عام ٩٦٨ بعد الميلاد . ثم أقام الفرنسيون المرحون فى قلب الصحراء باريس أخرى دخيلة غير حقيقية ، على النائج أن يجتازها فى سيارة أو عربة تجرها الجياد ، إذا أراد أن يجتازها على مهل ، ليشاهد مصر القديمة عند الأهرام .

ولشد ما تبدو هذه الأهرام صغيرة الحجم حين ينظر الإنسان إليها من الطريق الطويل المؤدى إليها ، فهل قطعنا نحن هذه الرحلة الطويلة لنرى هذه الآثار الصغيرة ؟ لكنها لا تلبث أن يزداد حجمها كأن يداً قد رفعتها فى الهواء . ونصل إلى منحنى فى الطريق ، ونقبل فجأة على حافة الصحراء ، وتواجهنا الأهرام عارية منعزلة فى الرمال ، ضخمة شاهقة تسمو قممها فى سماء مصر الصافية . ونبصر عند سفوحها خليطاً من أجناس مختلفة — منهم رجال أشداء يركبون الحمير ذاهبين بها إلى أعمالهم ، ومنهم سيدات فى عربات نقل ، ومنهم شبان مرحون على ظهور الخيل ، وفتيات يجلسن فى غير اطمئنان على ظهور الجمال تلتمع ثيابهن الحريرية

(*) يقول المؤلف إنه استقى هذه المعلومات من كتاب إرمن **Erman** « الحياة فى مصر القديمة **Life in Ancient Egypt** » . ولكننا لم نجد هذا القول أو ما يقرب منه فى كتاب إيرمن . ولعله يقصد بالملايين من الفلاحين الذين يتكلمون اللغة المنقوشة على الآثار ، أقباط مصر ولكن الأقباط لا يتكلمون اللغة المصرية القديمة وليست اللغة القبطية هى بعينها لغة الآثار وإن احتوت بعض ألفاظ منها . وحتى هذه اللغة لا يتحدث بها الأقباط وإن درسها بعضهم . (المترجم)

فوق سيقانهن فى ضوء الشمس . ونرى فى كل مكان الأدلاء العرب على استعداد لمعونة القادمين وتأدية ما يلزمهم من خدمات ؛ ونقف حيث وقف قيصر ونابليون ، ونذكر أن خمسين قرناً تطل علينا ، نقف حيث جاء أبو التاريخ(*) قبل أن يجيء قيصر بأربعمائة عام ، واستمع إلى القصص التى دهش منها بركليز . ثم يسقط من الصورة عامل الزمن فيبدو لنا قيصر وهيرودوت ونحن أيضاً كأننا كلنا يعاصر قديمنا حديثنا ، ونقف ذاهلين أمام هـــذه المقادير التى كانت أقدم إلى قيصر وهيرودوت من اليونان بالنسبة إلينا .

وإلى جوار الأهرام يربض تمثال أبى الهول ، نصـــفه أسد ونصفه فيلسوف ، يقبض بمخالبه القوية على الرمال ؛ ويحدق بعينيه وهو ساكن لا يتحرك فى الزائرين العابرين وفى السهل الأزلى . إنه لتمثال ينتهى فيه جسم الأسد برأس إنسان ، له فكّان بارزان ، وعينان قاسيتان ، كأن المدنية التى صورته (٢٩٩٠ ق . م) لم تنسَ ما كان عليه الإنسان من وحشية فى سابق عهده . وكانت الرمال تغطيه فى الزمن القديم ، ولذلك لا يذكر هيرودوت كلمة واحدة عنه وهو الذى أبصر بعينيه أشياء كثيرة لا وجود لها تلك البلاد .

ألا ما أعظم ما كان يتمتع به أولئك المصريون الأقدمون من ثراء . وما أقوى سلطانهم وأعظم حذقهم فى طفولة التاريخ نفسها . لقد استطاعوا بثرائهم وقوتهم وحذقهم أن ينقلوا هذه الحجارة الضخمة ستمائة ميل أو أكثر وأن يرفعوها وهى تزن عدة أطنان إلى علو خمسمائة قدم ؛ وأن يطعموا المائة ألف من العمال الذين ظلوا يكدحون عشرين عاماً كاملة فى تشييد هذه الأهرام إذا لم يكونوا قد أدوا لهم أجورهم على عملهم هذا ! وقد احتفظ لنا هيرودوت بنقش وحده على هرم منها يسجل مقدار ما استهلكه العمال الذين شادوه من فجل وثوم وبصل ، كأن

(*) يقصد هيرودوت . (المترجم)

هذه أيضاً أشياء لا بد لها أن تخلد(*) . على أننا نغادر هذا المكان فى غير بهجة ، ذلك أنا نرى فى هذا الحرص الشديد على الضخامة شيئاً من النزعة الهمجية البدائية أو النزعة الهمجية الحديثة . إن ذاكرة من يشاهدها وخياله وقد تضخما بفعل التاريخ وتأثيره ، هما اللذان يخلعان العظمة على هذه الآثار . أما هى ذاتها فلا تعدو أن تكون دليلا على الغرور الباطل ، فهذه مقابر أراد بها الموتى حياة خالدة . ولعل الصور قد رفعت كثيراً من شأنها ، ذلك أن الصور الشمسية تستطيع أن تسجل كل شىء عدا الأقذار ، وأن تعظم من شأن أعمال الإنسان بما تحيطها به من مناظر الأرض والسماء . إن منظر غروب الشمس فى الجيزة لأعظم فى نظرنا من رؤية الأهرام .

٢ — مشرعة النهر

منف — روائع الملكة حتشبسوت — تمثالا ممنون — الأقصر والكرنك — عظمة الحضارة المصرية

يركب المسافر من القاهرة باخرة صغيرة تصعد فى النهر — أى تسير فيه جنوباً — سيراً بطيئاً يستمر ستة أيام تصل بعدها إلى الكرنك والأقصر ، وتمر على بعد ثلاثين ميلا إلى جنوب القاهرة بموقع منف أقدم العواصم المصرية ، فى هذه المدينة كان يحكم الملوك العظام ملوك الأسرتين الثالثة والرابعة ، وقد بلغ عامرها فى أيامهم مليونين من الأنفس ؛ والآن لا ترى العين فيها إلا صفاً من الأهرام الصغيرة وأيكة من النخل ؛ أما ما عدا هذا فهو صحراء لا آخر لها ، ورمال جرداء تغوص فيها الأقدام ، وتؤذى بوهجها الأعين وتسد مسام الجلد ، وتغطى كل شىء ، وتمتد من مراكش مخترقة طور سيناء وبلاد العرب والتركستان والتبت إلى

(*) يقول ديودور الصقلى (وهو كاتب يجب أن يقرأ على الدوام بحذر) : إن نقشا على الهرم الأكبر ينص على (أن ١٦٠٠ وزنة أى ٠٠٠و٠٠٠و١٦٠٠٠(٥) ريال قد أنفقت فى شراء الخضر والمسهلات للعمال .

بلاد المغول . وفى هذه المنطقة الرملية التى تخترق قارتين من أكبر قارات العالم قامت مراكز الحضارة فى الزمن القديم ، ثم عفت آثارها حين ارتد الجليد إلى الوراء فاشتدت الحرارة وقلت الأمطار . ويمتد بحذاء النيل من البحر المتوسط(*) إلى بلاد النوبة شريط ضيق من الأرض الخصبة يبلغ عرضه اثنى عشر ميلا على كلتا الضفتين انتزع من الصحراء : وهذا هو الخيط الذى كانت تتعلق به حياة مصر . ومع هذا فما أقصر ما تبدو حياة اليونان أو رومة بالقياس إلى السجل الحافل فى حياة مصر الذى يمتد من مينا إلى كليوبطرة !

وبعد أسبوع من بداية الرحلة تصل الباخرة النيلية إلى الأقصر ؛ وفى هذا المكان الذى تقوم فيه قرى صغيرة من حولها الرمال السافية شيدت أكبر العواصم المصرية وأغنى مدينة فى العالم القديم ، كانت معروفة عند اليونان باسم طيبة وعند أهلها القدامى باسم ويزى ، ونى . وعلى الضفة الشرقية لنهر النيل يقوم الآن الفندق المعروف بقصر الشتاء (ونتر پالاس) يتوهج سياجه بزهر الجهنمية . فإذا أطل المسافر على الضفة الغربية رأى الشمس تغرب من وراء مقابر الملوك فى بحر من الرمال ، ورأى السماء مزدانة بصفحات براقة ما بين أرجوانية وذهبية ، وتسطع فى الغرب من بعيد أعمدة هيكل الملكة حتشبسوت الفخم ، إذا نظر إليه القادم من بلاد الغرب ظنه بهو أعمدة شاده اليونان أو الرومان الأقدمون .

فإذا أصبح الصباح ركب السائح قارباً بطيئاً يعبر به النهر فوق ماء هادئ ساكن ، فلا يخطر بباله أن هذا النهر بعينه قد ظل يجرى على هذا المنوال قروناً يخطئها الحصر . فإذا عبر النهر إلى الضفة الغربية سار فى الصحراء ميلا بعد ميل فى طرق جبلية متربة . ماراً بقبور تاريخية قديمة حتى يصل إلى تلك الآية الفنية الرائعة ، وأعنى بها هيكل الملكة حتشبسوت العظيمة ، التى ترتفع عمده البيض

(*) لعله يقصد من القاهرة أما ما يقع شمالها حتى البحر المتوسط فهو دال النهر التى تمتد أرضها الزراعية أضعاف هذا القدر . (المترجم)

الساكنة فى وهج السماء الصافية . وهنا اعتزم الفنان أن يحيل الطبيعة وتلالها إلى جمال أعظم من جمالها ، فشاد فى مواجهة أجراف الحجر الأعبل هذه العمد التى لا تقل فخامة عن العمد التى أقامها إكتينوس لبركليز . وليس فى وسع من يشاهدها أن يخالجه شك فى أن اليونان قد أخذوا فنون عمارتهم من هذا الشعب المبدع المبتكر ، ولعلهم أخذوها منه عن طريق جزيرة كريت . وعلى جدران هذا المعبد نقوش قليلة البروز تنبض بالحياة والحركة والفكر ، وتقص قصة أولى نساء التاريخ العظيمات وللملكة ليست أقل ملكاته شأناً .

ويشاهد المرء فى طريقه وهو راجع تمثالين كبيرين يمثلان أوفر ملوك مصر نعمة ، وهو الملك أمنحوتب الثالث ، ويسميهما الرحالة اليونان خطأ « تمثالى ممنون » . ويبلغ ارتفاع الواحد منهما سبعين قدماً ؛ ويزن سبعمائة طن ، وهو منحوت من كتلة حجرية واحدة . وعلى قاعدة أحدهما نقش خطته يد السياح اليونان الذين زاروا هذه الآثار منذ ألفى عام . وهنا أيضاً تتضاءل الدهور تضاؤلا غريباً ويبدو هؤلاء اليونان فى حضرة هذين التمثالين العظيمين معاصرين لنا نحن . وعلى بعد ميل منهما جهة الشمال آثار حجرية من عهد رمسيس الثانى ، وهو شخصية من أروع الشخصيات فى التاريخ ، يبدو الإسكندر الأكبر إلى جانبها إنساناً لا قيمة له ولا خطر . لقد عاش هذا الملك تسعة وتسعين عاماً جلس منها على عرش مصر سبعة وستين ، وأنجب من الأبناء مائة وخمسين . وتراه هنا تمثالا كان ارتفاعه فى يوم من الأيام ستا وخمسين قدما ، أما الآن فيمتد على الأرض بين الرمال ستا وخمسين يسخر منه الغادون والرائحون . وقد حرص علماء نابليون على قياس كل جارحة فيه فقدروا طول أذنه بنصف قدم ، وعرض قدمه بخمس أقدام ، وقدروا وزنه بألف طن . وكان حقاً على نابليون أن يحييه بما حيا به الفيلسوف جوته فيما بعد إذ قال : « ها هو ذا الرجل ! » .

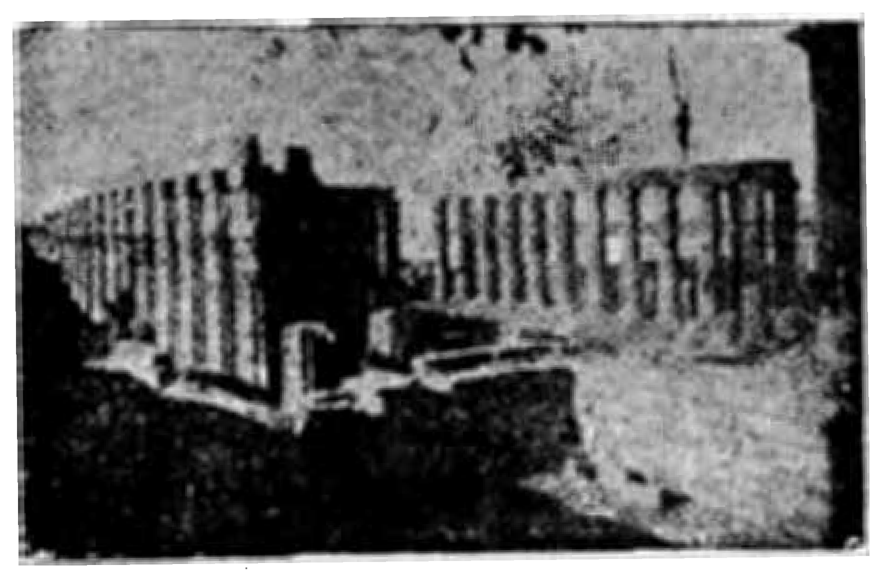
ومن حولنا فى هذا المكان على شاطئ النيل الغربى مدينة الموتى حيث

كشف علماء الآثار المصرية المنقبون فى كل ناحية من نواحيها قبراً لملك من الملوك . ولقد كان قبر توت عنخ آمون فى أثناء زيارتى مغلقاً ، مغلقاً حتى فى وجه من كانوا يظنون أن الذهب تفتح له جميع الأبواب .

أما قبر سيتى الأول فمفتوح ، وهنا فى الأرض الظليلة المائلة إلى البرودة يستطيع السائح أن يبصر سقفاً وطرقات منقوشة ، ويعجب بما كان للصناع فى ذلك العهد من مهارة ، وما كان فى البلاد من ثروة استطاعت بهما أن تنشئ أمثال هذه التوابيت الضخمة ، وأن تحيطها بهذا الفن الرائع . ولقد شاهد المنقبون فى أحد هذه المقابر آثار أقدام العبيد الذين حملوا جثة الملك المحنطة ليودعوها مقرها الأخير منذ ثلاثة آلاف عام(٦) .

هذا ما يشاهده السائح على الضفة الغربية . أما الضفة الشرقية فهى مزدانة بأحسن الآثار وأجملها : ففى الأقصر القائمة على هذه الضفة بدأ أمنحوتب العظيم يقيم صرحه الضخم مستعيناً بالمغانم التى أفاءتها على مصر فتوح تحتمس الثالث . ولكن المنية عاجلته قبل أن يتمه ، فوقف العمل مائة عام كاملة حتى جاء رمسيس الثانى وأتمه بما يليق بالملوك من أبهة . ولا يكاد المرء ينظر إلى هذا البناء حتى تغمره روح فن العمارة المصرية التى لا تقتصر مزاياه على السعة والقوة بل تجمع إليهما الجمال الرائع ودلائل الرجولة السامية . لقد كان فى هذا الصرح بهو عظيم فسيح الأرجاء تغطيه الرمال الآن ، ولكن أرضه فى الأيام الخالية كانت كلها من الرخام ، وتقوم على ثلاثة من جوانبه عمد فخمة لا تضارعها إلا عمد الكرنك وعدها . وفى كل جهة حجارة عليها نقوش قليلة البروز وتماثيل تنم عن العظمة حتى بعد أن عدت عليها عوادى الزمان . فليتمثل القارئ ثمانية أعواد طويلة من أعواد البردى — مهد الكتابة ولكنه هنا طراز من طرز الفن ؛ ومن تحت أزهارها التى لا تزال فى أكمامها خمسة أربطة قوية تشد هذه الأعواد فتجمع بين

الجمال والقوة ، وليتصور بعدئذ أن هذه الحزمة كلها من صخر أصم ، تلك هي العَمَد المقامة فى الأقصر على هيئة نبات البردى . وليتصور القارئ بهوا مشيداً كله من هذه العمد مرفوعة عليها دعامات ضخمة وأكتان ظليلة . ليتصورها



شكل (٧) البهو والعمد فى الهيكل العظيم فى الأقصر

القارئ بالصورة التى تركتها عليها عوادى ثلاثين قرنا ؛ ثم ليحكم بعدئذ على أقدار الرجال الذين استطاعوا فى ذلك العهد السحيق الذى كنا نسميه طفولة المدنية أن يفكروا فى هـذه الآثار العظيمة ثم يخرجوا أفكارهم إلى حيز الوجود .

ثم يجتاز السائح بين الأطلال القديمة والأقدار الحديثة طريقا غير معبد يؤدى إلى هياكل الكرنك آخر ما احتفظت به مصر من آثارها لتعرضها على زائريها . وقد اشترك فى تشييدها نحو خمسين من الفراعنة منذ أواخر الدولة القديمة إلى أيام البطالمة . وأخذت هذه الهياكل تنمو ويزداد عديدها جيلا بعد جيل حتى غطت هذه الصروح — وهى أعظم ما قرّبه فن العمارة قرباناً للآلهة — ما لا يقل عن ستين فداناً من الأرض . وثمة طريق تحفه من الجانبين تماثيل أبو الهول يؤدى من هذه

الهياكل إلى المكان الذى وقف فيه شمپليون واضع علم الآثار المصرية القديمة عام ١٨٢٨ وكتب :

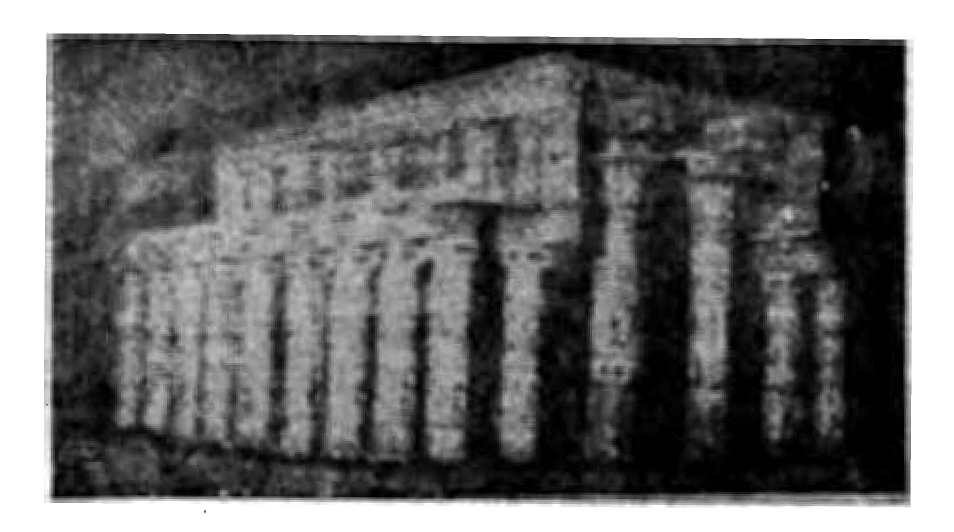
« وجئت آخر الأمر إلى القصر أو بعبارة أصح إلى مدينة الآثار — إلى الكرنك ؛ وفيها تبدت لى عظمة الفراعنة بأكملها وشاهدت كل ما تصوره الناس وما أخرجوه فى أكبر صوره . . . وما من شعب قديم أو حديث غير قدماء المصريين قد صور لنفسه فن العمارة بهذا السمو وهذه العظمة ، هذه الفخامة .

لقد كانوا يفكرون كما يفكر الجبابرة الذين تبلغ قامة الواحد منهم مائة من الأقدام[٧] .

وليس فى وسع الإنسان أن يفهم هذا البناء على حقيقته إلا إذا كانت لديه خرائط ورسوم . وكان ملماً بكل ما بلغه فن العمارة من رقى . فليتصور القارئ رقعة فسيحة مسورة مربعة الشكل ، طول ضلع من أضلاعها ثلث ميل ، كثيرة الأبهاء ، كانت تحتوى فى وقت من الأوقات ٨٦٠٠٠ تمثال[٨] . أهم ما فيها مجموعة من المبانى يتألف منها هيكل أمون وطوله ألف قدم فى ثلثمائة ، وبين كل بهو وبهو أبواب عظيمة ؛ وأعمدة النصر التى أقامها نابليون مصر تحتمس الثالث وقد تهشمت تيجانها ولكنها لا تزال تشهد بدقة النحت والتصوير ؛ ثم بهو الاحتفالات ذو العمد المخددة التى شادها هذا الملك الباسل نفسه والتى تستبق كل ما فى العمد الدُّورية المقامة فى بلاد اليونان من قوة وعظمة ، ثم هيكل پتاح الصغير ذو العمد التى لا تقل رشاقة عن أشجار النخيل الحية القائمة بجوارها ، ثم المتنزه العظيم الذى أنشأه تحتمس أيضاً والذى يضم طائفة من العمد العارية الضخمة . وأعظم من هذا كله البهو(*) الأكبر ذو السقف العظيم المقام على أعمدة ضخمة تبلغ عدتها مائة وأربعين ، متقاربة بعضها من بعض لتقى من فيها حر الشمس اللافح وتمثل فى أعلاها رءوس النخل منحوتة فى الحجارة ، وتحمل سقفاً من كتل

(*) فى متحف الفن بمدينة نيويورك نموذج لهذا البهو .

ضخمة من الحجارة منحوتة من الحجر الأعبل الصلب وممتدة من تاج عمود إلى تاج عمود . وبالقرب من هذه الردهة مسلتان رفيعتان كلتاهما من حجر واحد ، متماثلتان أتم تماثل ومتساويتان فى الجمال والرشاقة ، تقومان كأنهما



شكل (٨) صورة مستعادة للبهو ذى السقف المقام على العمد فى الكرنك

عمودان من النور بين حطام التماثيل والهياكل ، وتذيعان بما عليهما من النقوش رسالة الملكة الفخور حتشبسوت إلى العالم . وقد جاء فى هذا النقش أن « هاتين المسلتين قد صنعتا من الحجر الأعبل الصلد الذى جىء به من محاجر الجنوب ، وأن رأسيهما من الذهب الإبريز الذى اختير من أحسن ما حوته منه البلاد الأجنبية . ويمكن مشاهدتهما على النهر من بعيد ونورهما الساطع يشع فى الأرضين . وإذا ما لاح قرص الشمس بينهما بدا كأنه يبزغ حقاً فى أفق السماء . . . وأنتم يا من ترون هذين الأثرين بعد زمن طويل ويا من تتحدثون من بعدى عما فعلت ، ستقولون : إنا لا ندرى ، لا ندرى كيف أقاموا جبلا كله من الذهب . . . لقد أنفقت فى تذهيبهما ذهباً كنت أكيله كيلا كأنه أكياس الحب . . . ذلك أنى أعرف أن الكرنك أفق الأرض السماوى[٩] » .

أعظم بها من ملكة وأعظم بهم من ملوك ! أكبر الظن أن هذه الحضارة — أولى الحضارات العظيمة — كانت أجملها كلها ، وأكبر الظن أيضاً أننا لم نعدُ طور البداية فى الكشف عن عظمتها . وفى جوار بحيرة الكرنك المقدسة رجال يحفرون الأرض ويحملون التراب فى أسفاط صغيرة مزدوجة فى



شكل (٩) عمد تحمل سقف البهو الكبير فى الكرنك

عصا على الكتفين . وإلى جانبهم عالم من علماء الآثار المصرية مكب على نقوش هيروغليفية على حجرين أخرجا من الأرض توا ، وهو واحد من آلاف الرجال أمثال كارتر ، وبرستد ، ومسپيرو ، وبيترى ، وكاپار وويجال ، الذين عاشوا فى تلك البلاد عيشة البساطة والقناعة فى حرارة الشمس اللافحة والرمال السافية يحاولون أن يحلوا لنا طِلَّسْم أبى الهول ، وأن يختطفوا من بين أحضان الثرى الضنين

فنون مصر وآدابها وتاريخها وحكمتها ، والأرض والسماء تعاكسهم فى كل يوم ، والخرافات تلعنهم وتعوقهم ، والرطوبة وقوى النحات تغير فى كل يوم على الآثار التى يخرجونها من باطن الأرض ، وهذا النيل الذى يفيض على البلاد بالخصب والنماء يتسلل فى أيام فيضانه إلى خرائب الكرنك ، فيفك الأعمدة ويصدعها(*) ، ويترك عليها بعد أن ينحصر عنها طبقة من الأملاح تأكل الحجارة كما يأكل الجذام الأجسام .

والآن فلنستعرض مرة أخرى عظمة مصر ومجدها فى تاريخها وحضارتها قبل أن تتصدع آثارها وتنهار بين الرمال .

(*) فى ٣ أكتوبر سنة ١٨٩٩ تفكك أحد عشر عمود من عمد الكرنك بتأثير الماء وهوت إلى الأرض .

الفصل الثانى

البناءون العظام

١ — كشف مصر

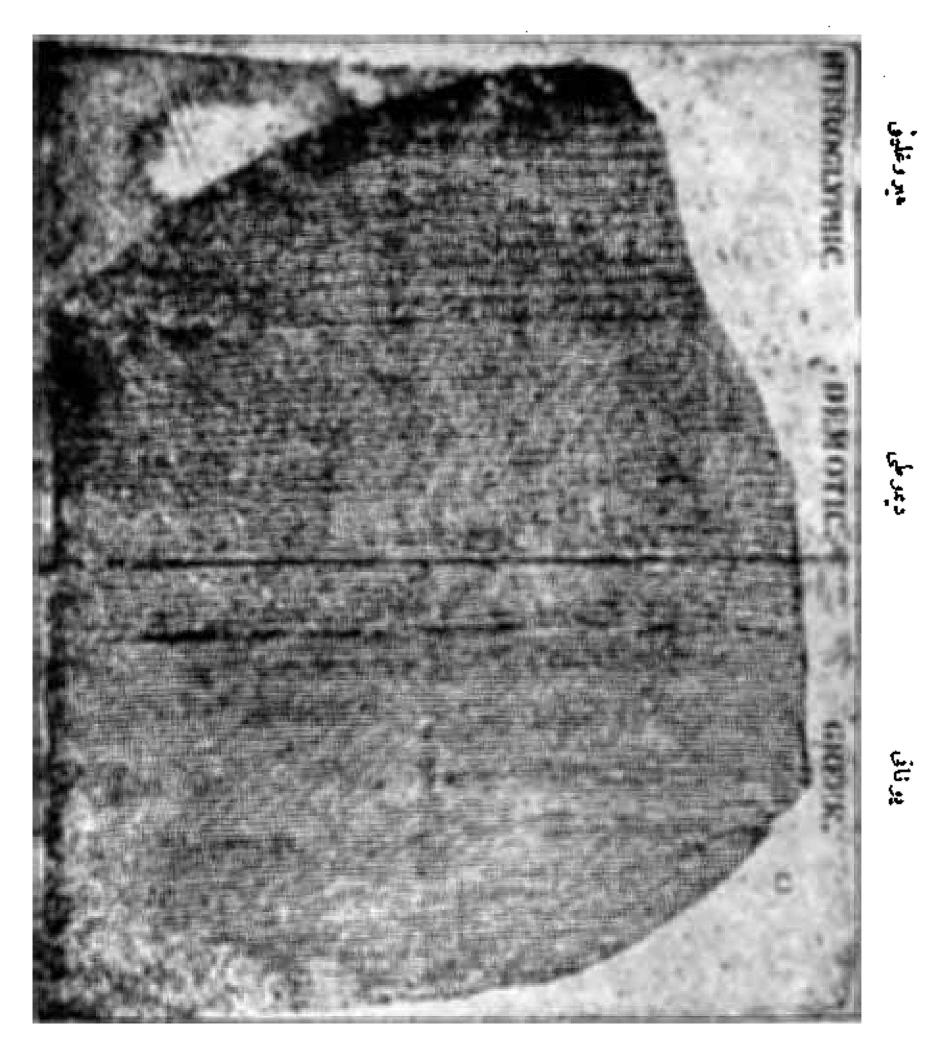
شمبليون وحجر رشيد

إن الكشف عن تاريخ مصر هو أروع فصل فى كتاب علم الآثار . لقد كان كل ما تعرفه العصور الوسطى عن مصر أنها مستعمرة رومانية وموطن من مواطن المسيحية ، وكان الناس فى زمن النهضة يظنون أن الحضارة بدأت فى بلاد اليونان وحتى عصر الاستنارة(*) لم يكن يعرف من مصر أبعد من الأهرام . وكان علم الآثار المصرية نتيجة ثانوية من نتائج حروب نابليون الاستعمارية . ذلك أن القائد القورسيقى العظيم ، لما قاد الحملة الفرنسية على مصر فى عام ١٧٩٨ ، اصطحب معه طائفة من الرسامين والمهندسين ليرتادوا الأرض ويرسموها ، وشملت هذه الحملة أيضاً بعض العلماء الذين كانوا يهتمون بمصر اهتماماً يظنه الناس سخيفاً فى تلك الأيام ، ويسعون لفهم التاريخ فهماً أوفى وأفضل مما كان يفهمه المؤرخون وقتئذ . وكانت هذه العصبة من الرجال هى التى كشفت للعالم الحديث عن هياكل الأقصر والكرنك : كما كان كتاب « وصف مصر » المحكم المفصل (١٨٠٩ — ١٨١٣) الذى أعدوه للمجمع العلمى الفرنسى أول خطوة هامة خطاها العلماء فى دراسة هذه الحضارة المنسية[١٠] .

على أن هؤلاء العلماء ظلوا سنين طوالا عاجزين عن قراءة النقوش الباقية على الآثار المصرية . وليس مابذله شمبليون أحد هؤلاء العلماء من جد وصبر أن

(*) يطلق هذا اللفظ على عصر الفلاسفة الفرنسيين فى القرن الثامن عشر . (المترجم)

حل رموز الكتابة الهيروغليفية إلا شاهداً من شواهد كثيرة على الروح العلمى الذى امتاز به علماء تلك الحملة . وعثر شمپليون آخر الأمر على مسلة مغطاة بهذه « الرموز المقدسة » مكتوبة باللغة المصرية ولكن فى أسفلها نقوشاً باللغة اليونانية عرف منها أن هذه الكتابة ذات صلة ببطليموس وكليوبطرة . وخطر له أن إحدى العبارات الهيروغليفية الكثيرة التكرار والتى يحيط بها الإطار الملكى



شكل (١٠) حجر رشيد
الأصل محفوظ فى المتحف البريطانى

(الخرطوش) هي اسم الملك والملكة ، فتهدته هذه الفكرة (في عام ١٨٢٢) إلى تمييز أحد عشر حرفاً من الحروف المصرية ؛ ولكن ذلك كان مجرد حدس ولم يكن يقيناً . وكان هذا الكشف أول دليل على أن مصر كانت لها حروف هجائية . ثم طبق هذه الحروف على رموز وجدها على حجر أسود عثر عليه جنود نابليون قرب مصب رشيد . وكان على « حجر رشيد » هذا(*) نقوش كتبت بثلاث لغات أولاها الهيروغليفية وثانيتها « الديموطية » — الكتابة المصرية الدارجة — والثالثة هي اليونانية . واستطاع شمپليون ، بفضل علمه باللغة اليونانية وبالأحد عشر حرفاً التي عرفها من المسلة الأولى وبعد جهد متواصل دام أكثر من عشرين عاماً ، أن يحل رموز هذا النقش كلها وأن يعرف الحروف الهجائية المصرية بأجمعها . وأن يمهد السبيل للكشف عن عالم عظيم مفقود . وكان هذا الكشف من أعظم الكشوف في تاريخ التاريخ(**)(١١) .

٢ — مصر في عصر ما قبل التاريخ

العصر الحجري القديم — العصر الحجري الحديث
عصر البداري — عصر ما قبل الأسر — جنس المصريين

إن المتطرفين في عصر من العصور هم أنفسهم الرجعيون في العصر الذي يليه ، ومصداقاً لهذه القاعدة نقول إنه لم يكن ينتظر من الرجال الذين أنشأوا علم الآثار المصرية أن يكونوا أول من يؤمن بأن ما في مصر من مخلفات العصر الحجري القديم ينتمي حقاً إلى ذلك العصر . ذلك أن العالم بعد الأربعين يظل طلعة نياما ولما أن كشفت أولى أدوات الظران في وادي النيل قال سير

(*) وهذا الحجر محفوظ الآن في المتحف البريطاني .

(**) وقد ساعد على هذا الكشف أكربلاد السياسي السويدي (١٨٠٢) وتومس ينج العالم الطبيعي الإنجليزي صاحب الكفايات المتعددة (١٨١٤) بحلهما بعض رموز حجر رشيد(١٢) .

فلندرز پيترى وهو الذى لا يتردد عادة فى قبول أكبر الأرقام فى تاريخ مصر ، إنها من صنع ما بعد الأسر . وعزا مسبيرو ، الذى لم يفسد علمه الغزير أسلوبه الممتع الجميل ، الفخار المصرى الباقى من العصر الحجرى الحديث إلى الدولة الوسطى . ولكن ده مورجان كشف فى عام ١٨٩٥ عن سلسلة متدرجة تكاد تكون متصلة الحلقات من حضارات تنتمى إلى العصر الحجرى القديم — تطابق فى أكثر نواحيها الحضارات المماثلة لها والتى جاءت فى أوربا بعدها بزمن طويل . وكان ما كشفه من مخلفات هذه الحضارات المصرية رءوس معاول يدوية ، ومطارد ، ورءوس سهام ، ومطارق عثر عليها على طول مجرى النيل[١٣] وتتدرج مخلفات العصر الحجرى القديم تدرجا غير ملحوظ إلى مخلفات العصر الحجرى الحديث على أعمال تدل على أنها تنتمى إلى العهد المحصور ما بين ١٠٫٠٠٠ ، ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد[١٤] . وترقى صناعة الأدوات الحجرية شيئاً فشيئاً ، وتزداد تهذيباً ، وتصل إلى درجة من الحدة والصقل ودقة الصنع لا تضارعها فيها أى ثقافة أخرى وصل إلينا علمها من ثقافات العصر الحجرى الحديث[١٥] وقبيل أواخر هذا العهد تظهر صناعة المعادن فى صور مزهريات ومشاقب ودبابيس من النحاس وحلى من الفضة والذهب[١٦] .

ثم يتدرج ذلك العصر إلى العصور التاريخية وتظهر الزراعة فى أثناء هذا التدرج . وكان أول ما كشف من آثار عصر الانتقال فى مصر ١٩٠١ حين عثر فى بلدة البدارى الصغيرة (وهى فى منتصف المسافة بين القاهرة والكرنك) على جثث بين أدوات تنتمى إلى عهد يرجع إلى ما قبل المسيح بنحو أربعين قرناً . ووجدت فى أمعاء هذه الجثث ، التى أبقى عليها جفاف الرمال وحرارتها ستة آلاف عام ، قشور من حب الشعير[١٧] غير المهضوم . ولما كان الشعير لا ينبت بريا فى مصر فقد استدل من وجودها على أن البداريين كانوا يعرفون زراعة الحبوب . وقد بدأ سكان وادى النيل من ذلك العهد السحيق أعمال الرى

وقطعوا الأدغال ، وجففوا المستنقعات ، وتغلبوا على تماسيح النهر وأفراسه ، ووضعوا أسس الحضارة على مهل .

وتوحى إلينا هذه البقايا وبقايا أخرى غيرها بشىء من العلم عن حياة المصريين قبل الأسر الأولى التى عاشت فى الأزمنة التاريخية . لقد كانت ثقافة ذلك العهد ثقافة وسطاً بين الصيد والزراعة ، بدأت منذ قليل باستبدال الأدوات المعدنية بالحجرية ؛ وكان الناس فى أيامها يصنعون القوارب ، ويطحنون الحَبّ ، وينسجون الكتان والبسط ، ويتحلون بالحلى ، ويتعطرون بالعطور ، لهم حلاقون وحيوانات مستأنسة ، وكانوا يحبون التصوير وبخاصة تصوير ما يصيدون من الحيوان[18] ، وكانوا يرسمون على خزفهم الساذج صوَر النساء الحزانى وصوَراً أخرى تمثل الحيوانات والآدميين ، وأشكالا هندسية ، وينحتون آلات غاية فى الدقة والأناقة يشهد بها سكين جبل الأراك ، وكانت لهم كتابة مصورة وأختام أسطوانية شبيهة بأختام السومريين[19] .

وما من أحد يعرف من أين جاء هؤلاء المصريون الأوّلون ، ويميل بعض العلماء الباحثين إلى الرأى القائل بأنهم مولدون من النوبيين والأحباش واللوبيين من جهة ، ومن المهاجرين الساميين والأرمن من جهة أخرى[20] ، فالأرض حتى فى هذا العهد السحيق لم تسكنها سُلالات نقية . ويرجح أن الغزاة أو المهاجرين الذين وفدوا من غرب آسية قد جاءوا معهم بثقافة أرقى من ثقافة أهل البلاد[21] ، وأن تزاوجهم مع هؤلاء الأهلين الأقوياء قد أنجب سلالة هجينة كانت مطلع حضارة جديدة كما هو الشأن فى جميع الحضارات . وأخذت هذه السلالات تمتزج امتزاجاً بطيئاً حتى تألف من امتزاجها فيما بين عام ٤٠٠٠ و ٣٠٠٠ ق . م شعب واحد هو الشعب الذى أوجد مصر التاريخية .

٣ — الدولة القديمة

الأقسام الإدارية — الشخصية التاريخية الأولى — كوبس — « خفرن »
الغرض من بناء الأهرام — فن المقابر — التحنيط

وقبل أن يحل عام ٤٠٠٠ ق . م كان هؤلاء الأقوام الذين يقيمون على ضفاف النيل قد أنشأوا لهم حكومة من نوع ما . فقد انقسم الأهلون المقيمون على شاطئ النهر أقساماً ينتسب سكان كل قسم منها إلى أصل واحد . وكان لهم شعار واحد ، ويخضعون لرئيس واحد ، ويعبدون إلها واحداً بمراسم وطقوس واحدة . وظلت هذه الوحدات الإقليمية قائمة طوال تاريخ مصر القديم ، وظل لحكامها نوع من السلطات يختلف قوة وضعفاً واستقلالا باختلاف قوة الملك الأعظم وضعفه . وإذ كان كل نظام مطرد النمو تجنح أجزاؤه لأن يعتمد بعضها على بعض فإن هذه الأقسام أخذت تنظم نفسها مدفوعة إلى هذا التنظيم بحاجات التجارة النامية وتكاليف الحرب المتزايدة حتى تكونت منها مملكتان واحدة فى الجنوب وأخرى فى الشمال ، ولعل هذا التقسيم كان صورة أخرى من النزاع القائم بين الإفريقيين أهل الجنوب والمهاجرين الأسيويين أهل الشمال .

وقد سوى هذا النزاع الذى زاد من أثر الاختلافات الجغرافية والعنصرية تسوية مؤقتة حين ضم مينا (مينيس) — وهو شخصية لا تزال يكتنفها بعض الغموض — القطرين تحت سلطانه الموحد ، وأعلن فى البلاد قانوناً عاماً أوحى إليه به الإله تحوت(٢٢) ، وأقام أولى الأسر المالكة التاريخية ، وشاد عاصمة جديدة لملكه فى منف (منفيس) و(علّم الناس) كما يقول مؤرخ يونانى قديم استخدام النضد والأسرة ... وأدخل فى البلاد وسائل النعيم والحياة المترفة(٢٣) .

ولم تكن أعظم شخصية حقيقية عرفها التاريخ شخصية ملك ، بل كانت شخصية فنّان وعالم ، وتلك هى شخصية إمحوتب الطبيب والمهندس ، وكثير

مستشارى الملك زوسر (حوالى ٣١٥٠ ق . م) وكان له على الطب المصرى من الفضل ما جعل الأجيال التالية تعبده وتتخذه إلها للعلم ومنشىء علومها وفنونها . ويلوح فى الوقت نفسه أنه هو الذى أوجد طائفة المهندسين التى أمدت الأسرة التالية بأعظم البنائين فى التاريخ .

وتقول الرواية المصرية إن أول بيت من الحجر قد أقيم بإشرافه ، وإنه هو الذى وضع تصميم أقدم بناء مصرى قائم إلى هذه الأيام وهو هرم سقارة المدرج ، وذلك الهرم بناء مدرج من الحجر ظل عدة قرون الطراز المتبع فى تشييد المقابر . ويلوح كذلك أنه هو الذى وضع تصميم هيكل زوسر الجنازى وأعمدته الجميلة الشبيهة بزهرة الأزورد (اللوطس)(*) وجدرانه المكسوة المقامة من حجر الجير[٢٤] . وفى هذه الآثار القديمة القائمة فى سقارة ، والتى تكاد تكون بداية الفن المصرى فى العهود التاريخية ، تجد الأعمدة الأسطوانية المنقوشة التى لا تقل جمالا عما شاده اليونان منها فيما بعد[٢٥] كما تجد فيها نقوشاً بارزة تفيض واقعية وحيوية[٢٦] ، وخزفاً أخضر ، وفخاراً ملوناً مطلياً بطبقة زجاجية — يضارع ما أنتجته إيطاليا فى العصور الوسطى[٢٧] . وتجد هناك أيضاً تمثالا قوياً من الحجر لزوسر نفسه عدا عليه الدهر فطمس بعض معالمه التفصيلية ، ولكنه يكشف عن وجه ذى نظرات حادة ثاقبة وعقل مفكر[٢٨] .

ولسنا نعلم حقيقة الأحوال التى جعلت الأسرة الرابعة أهم الأسر الحاكمة فى تاريخ مصر قبل الأسرة الثامنة عشرة ، فقد تكون الثروة المعدنية العظيمة التى استخرجت من أرض مصر فى عهد آخر ملك من ملوك الأسرة الثالثة ، وقد تكون ما أحرزه التجار المصريون من تفوق فى تجارة البحر المتوسط ، وقد تكون قسوة خوفو(**) أول ملوك هذا البيت الجديد . وقد ترك لنا هيردوت ما قاله له

(*) عن ابن البيطار .

(**) هو الذى يسميه هيرودوت كيوبس (حوالى ٣٠٩٨ - ٧٥ . . . ق . م) .



شكل (١١) رأس خفرع منحوت من حجر الديوريت

الكهنة المصريون عن منشئ أول هرم من أهرام الجيزة فقال :

« وهم يقولون لى الآن إن العدالة ظلت توزع بالقسطاس ، وإن الرخاء عم جميع أنحاء مصر إلى أيام حكم رمبستنس ، ثم حكم بعده كيوپس فارتكب كل أنواع الخبائث ، ذلك بأنه أغلق جميع الهياكل . . . وسخر المصريين لخدمته وحده . . . فعين طائفة منهم لقطع الأحجار من المحاجر فى جبال العرب ونقلها إلى النيل ، وأمر طائفة أخرى باستقبال الحجارة بعد أن تنقل فى النهر على سفن . . . وكان يعمل منهم مائة ألف فى كل نوبة ، وكل نوبة تعمل ثلاثة أشهر ، وظل هؤلاء يكدحون عشر سنين فى إنشاء الطريق الذى كانت تنقل عليه الحجارة ، وهو عمل أرى أنه لا يقل مشقة عن تشييد الهرم نفسه[٢٩] »

أما خفرع(*) خليفته على العرش ومنافسه فى البناء فلدينا عنه معلومات مستقاة من الآثار نفسها . وذلك أن تمثاله المصنوع من حجر الديوريت والمحفوظ فى متحف القاهرة يصوره لنا بالصورة التى يمثل بها خيالنا من أنشأ هذا الهرم الثانى وحكم مصر ستاً وخمسين سنة إن لم يكن بالصورة التى كان عليها فعلا . فعلى رأسه الباشق رمز السلطة الملكية ، ولو لم يكن هذا الباشق على رأسه لأدركنا من هيبته ومن كل جزء صغير من جسمه أنه ملك(**) ؛ فالتمثال يصوره إنساناً مزدهياً ، صريحاً ، جريئاً ، ثاقب النظرات أشم الأنف ، قوياً فى تحفظ وهدوء . ويتضح من صورته هذه أن الطبيعة قد عرفت من زمن طويل كيف تصوغ الرجال ، وأن الفن قد عرف كيف يصورهم(†) .

ولم بنى هؤلاء الرجال الأهرام ؟ لقد كان هدفهم الدين لا فن العمارة ، فقد كانت الأهرام مقابر نشأت وتدرجت من القبور البدائية . ذلك أن الملك كان

(*) وهو الذى يسميه هيرودوت خفرن (وقد حكم بين ٣٠٦٨ و٣٤١١ ق م) .

(**) يردد المؤلف فى هذا الوصف ما قاله مسپرو عن هذا التمثال . (المترجم)

(†) لعل اللفظ الأجنبى للهرم پيراميد مشتق من الكلمة المصرية پيرومس ومعناها ارتفاع لا من الكلمة اليونانية پير — ومعناها النار .

يعتقد كما يعتقد السوقة من شعبه أن فى كل جسم حى تستقر قرينة — كا — لا تموت حتما إذا لفظ الجسم آخر أنفاسه ، وأن هذه القرينة يُضمن بقاؤها بقاء كاملا إذا ما احتفظ بالجسم آمناً من الجوع والتمزيق والبلى . وكانت وسيلته للبقاء ومقاومة الموت هى الهرم لعلوه وضخامته وشكله وموقعه . وإذا نحن ضربنا صفحاً عن أركانه فقد كان شكله هو الشكل الطبيعى الذى تصير إليه طائفة متجانسة من المواد الصلبة إذا ما تركت تسقط على الأرض من غير أن يعوقها عائق ما . وإذا كان يقصد بها كذلك البقاء والخلود فقد وضعت الحجارة فى صبر لا يكاد يطيقه إنسان كأنما هى قد علت من تلقاء نفسها على جانب الطريق ، ولم تقتطع وتنقل من محاجر تبعد عن مكانها الحالى مئات الأميال . ويتكوَّن هرم خوفو من مليونين ونصف مليون من الكتل الحجرية التى يبلغ وزن بعضها مائة وخمسين طناً(٣٠) ومتوسط وزنها طنين ونصف طن ، وتبلغ مساحة قاعدته أكثر من نصف مليون قدم مربع ، ويعلو فى الهواء إلى ارتفاع ٤١١ قدماً . وحجارته مندمجة بعضها فى بعض ولم يترك بينها إلا موضع لبعض كتل ليكون طريقاً سرياً تنقل فيه جثة الملك . ويرشد الدليلُ السائح الذى يسير مرتجفاً على أربع إلى الكهف الذى احتوى جثة الملك على ارتفاع مائة خطوة من القاعدة فى قلب الهرم . وهناك فى مكان رطب مظلم ساكن فى أعماق ذلك الصرح لا يهتدى إليه إنسان استقرت فيما مضى من الأيام عظام الملك خوفو وزوجته ، ولا يزال تابوت الملك المنحوت من الرخام مستقراً فى مكانه ، ولكنه محطم وفارغ لأن تلك الحجارة على ضخامتها لم تنج الجثة من أيدى اللصوص كما لم تنجها جميع لعنات الآلهة .

ولما كانت القرينة فى رأى المصريين الأقدمين صورة مصغرة للجسم نفسه فقد كان لابد من أن يقدم لها الطعام والكساء وما يلزمها من الخدمات بعد موت الجسد . ومن أجل هذا كانت تعد فى بعض المقابر الملكية دورات مياه لتنتفع بها الروح بعد فراق الجسد ، وتحتوى بعض النصوص الجنازية فقرات تعبر عن قلق

كاتبها وخوفهم من أن تضطر القرينة إذا أعوزها الطعام إلى أن تطعم من فضلاتها[٣١] ، ومن الطبيعى أن يخطر بالبال أن عادات الدفن عند المصريين الأقدمين إذا ما تتبعناها إلى بدايتها قد تؤدى بنا إلى تلك العادة البدائية عادة دفن أسلحة المحارب وعدده مع جثته ، أو إلى نظام شبيه بما كان يتبعه الهنود وهو دفن زوجات الرجل وعبيده معه ، لكى يقوموا على خدمته وقضاء حاجاته بعد موته . وإذ كان فى اتباع هذه العادات كثير من المشقة على الأزواج والعبيد فقد عمد المصريون الأقدمون إلى استخدام الرسامين والمثالين لرسم الصور وحفر النقوش وصنع التماثيل الصغيرة التى تمثل الزوجات والعبيد . وقد جرت عاداتهم على أن ينقشوا عليها عبارات سحرية تبدل الصور والرسوم فتجعلها قادرة على أداء كل ما يحتاجه الميت من خدمات كأنها أجسام وأشياء حقيقية . ولعل أبناء الميت قد ركنوا إلى التكاسل والاقتصاد فى النفقات فجنحوا إلى إهمال الواجبات التى كان الدين يفرضها عليهم فى أول الأمر ومنها تقديم الطعام للميت حتى فى الحالات التى وقف فيها من ثروته ما يفى بهذه النفقات . ومن أجل هذا كانت الصور المتخذة بديلا من الحقائق احتياطاً قائماً على الحكمة وحسن التدبير ، فقد كان فى وسعها أن تمد قرينة الميت بالحقول الخصبة ، والثيران الثمينة ، والعدد الجم من الخدم والصناع النشطين بنفقة قليلة مغرية . ولما كشف المصريون عن هذا المبدإ أخذ الفنانون ينتجون الشىء الكثير من روائع الفن . ففى أحد القبور صورة لحقل يُحرث ، وفى قبر آخر ترى المحصول يحصد أو يدرس ، وفى غيرهما ترى الخبز يسوّى ، وفى رابع ترى الثور يلقح البقرة ، وفى غيره ترى العجل يولد ، وفى آخر ترى الماشية التى كبرت تذبح ، أو اللحم يقدم ساخناً فى الصحاف[٣٢] . ويمثل نقش جميل على حجر جيرى عثر عليه فى قبر الأمير راع حوتب الميت يستمتع بمختلف الأطعمة على مائدة مبسوطة أمامه[٣٣] . لعمرك إن الفن لم يفعل للإنسان فى عصر من العصور ما فعله لهؤلاء المصريين القدامى .

على أنهم لم يكتفوا بهذا بل رأوا أن يضمنوا للقرينة طول الأجل بدفن الجثة فى تابوت من أقسى الحجارة ، وبتحنيطها تحنيطاً كلفهم بلا شك أعظم الجهد والمشقة . وقد برعوا فى هذا الفن براعة أبهت على قطع من الشعر واللحم عالقة بالعظام الملكية . وما أجمل وأوضح ما وصف به هيرودوت فن التحنيط حين قال :

« أول ما يفعله المحنطون أن يخرجوا المخ من المنخرين بخطاف من الحديد ، فإذا ما انتزعوا جزءاً منه بهـــذه الطريقة أخرجوا ما بقى منه بإدخال بعض العقاقير فيه ، ثم فتحوا فتحة فى جنب الميت بحجر حاد وأخرجوا منها جميع أحشائه ، فإذا ما غسلوا البطن ونظفوه بنبيذ النخل رشوا عليه العطور المسحوقة ، ثم ملأوا البطن بالمر النقى وبعطر العشبة وغيره من العطور ، وأعادوه بالخياطة إلى ما كان عليه من قبل ، فإذا ما فعلوا هذا كله غمروه فى منقوع النظرون(*) وتركوه فيه سبعين يوماً ، وتركه أكثر من هذا الوقت مخالف للقانون . فإذا انقضت هذه الأيام السبعون غسلوا الجثة ولفوها كلها فى أحزمة من القماش المشمع ، وغطوا هذا القماش بطبقة من الصمغ الذى يستعمله المصريون عادة بدل الغراء . وبعد أن يتم هذا كله يسترد أهل الميت الجثة ويصنعون لها صندوقاً من الخشب على صورة إنسان ، فإذا ما أتموا صنعه وضعوا الجثة فيه ، وأحكموا إغلاقه ، وأودعوه لحداً وهو واقف مستند إلى جداره ؛ وبهذه الطريقة يعالجون الأجسام التى يريدون الاحتفاظ بها علاجاً يكلفهم أبهظ النفقات[٣٤] » .

ويقول أحد الأمثال المصرية المأثورة : « إن العالم كله يرهب الزمان ، ولكن الزمان نفسه يرهب الأهرام[٣٥] » ؛ غير أن هرم خوفو رغم هذا قد نقص من ارتفاعه عشرون قدماً ، وزال عنه كل غطائه الرخامى . ولعل الزمان لا يرهبه كل الرهبة بل يفعل به ما يفعل بغيره ، وكل ما فى الأمر أنه يبليه على مهل . وإلى

(*) سلكات الصوديوم والألومنيوم .

بجانب هذا الهرم الأكبر يقوم هرم خفرع ، وهو أصغر من الأول قليلا ، ولكن قمته لا يزال يكسوها غشاء من الحجر الأعبل (الجرانيت) الذى كان من قبل يغطيه كله ، وعلى مسافة من هذا الهرم الثانى يقوم هرم آخر متواضع هو هرم منقورع خليفة خفرع على عرش مصر(*) . وهذا الهرم لا يغطيه الحجر الأعبل بل تغطيه طبقة وضيعة من الآجر كأنها تعلن للعالم أن الدولة القديمة كانت تؤذن بالزوال حين كان الملك يشيد هذا الهرم ؛ ويصور ما وصل إلينا من تماثيل منقورع هذا الملك فى صورة رجل أكثر رقة وتهذيباً وأقل قوة من خفرع(**) . إن الحضارة كالحياة تُفنى ما بلغت به حد الكمال ، ولعل النعيم والترف حتى فى هذا العهد السحيق ، ولعل ما طرأ على العادات والأخلاق من تطور ورقّ ، لعل هذا كله قد جعل الناس يحبون السلم ويبغضون الحرب . وقام فجأة إنسان جديد ، اغتصب عرش منقورع وقضى على أسرة بُناة الأهرام .

٤ — الدولة الوسطى

عهد الإقطاع — الأسرة الثانية عشرة — سيطرة الهكسوس

لم يكن الملوك فى بلد من البلاد بالكثرة التى كانوا بها فى مصر القديمة ؛ والتاريخ يضمهم جميعاً فى أسر ، تشمل كل أسرة ملوكاً من بيت واحد أو ذرية واحدة ؛ ولكن عدد هذه الأسر نفسها يثقل الذاكرة التى لا تطيق كثرتها(†)،

(*) وهو الذى يسميه هيرودوت ميسرنيس (حكم من ٣٠١١–٢٩٨٥ق . م تقريبا)

(**) انظر تمثال منقورع وزوجته فى متحف الفن بنيويورك .

(†) وقد أراد المؤرخون أن يسهلوا الأمر على أنفسهم فجعلوا الأسر فى عصور هى (١) عصر الدولة القديمة وتشمل الأسر من الأولى إلى السادسة (٣٥٠٠ — ٢٦٣١ ق . م) وتليها فترة من الفوضى وتعقبها (٢) الدولة الوسطى وتشمل الأسر من الحادية عشرة إلى الرابعة عشرة (٢٣٧٥ — ١٨٠٠ ق . م) ثم تأتى بعدها فترة أخرى من الاضطراب والفوضى يليها (٣) عصر الإمبراطورية أو الدولة الحديثة ، وتشمل الأسر من الثامنة عشرة إلى العشرين (١٥٨٠ — ١١٠٠ ق . م) . وأعقبها عصر انقسمت فيه البلاد أقساما وكان لها عدة عواصم . ثم جاء (٤) عصر ساو (التى يسميها اليونان سايس والتى تسمى الآن صا الحجر)=

وحكم مصر ببى الثانى أحد هؤلاء الفراعنة أربعاً وتسعين سنة (٢٧٣٨ — ١٦٤٤ ق . م) وحكمه هذا أطول حكم فى التاريخ كله . فلما مات عمت الفوضى البلاد وأدت إلى الانحلال وخسر خلفه عرشه ، وحكم أمراء الإقطاع المقاطعات حكماً مستقلا . وهذا التعاقب بين السلطة المركزية وغير المركزية من الظواهر التاريخية تتوالى بانتظام ، كأن الناس يملّون الحرية المفرطة تارة والنظام المسرف تارة أخرى . وطغى على البلاد « عصر مظلم » سادته الفوضى أربعة قرون ، ثم قام بعدها رجل قوى الإرادة شبيه بشارلمان فى عصور أوربا المظلمة ، فقبض بيد من حديد على زمام الأمور ، وأعاد النظام إلى البلاد ، ونقل العاصمة من منف إلى طيبة ، وتسمى باسم أمينمحيت الأول ، وأسّس الأسرة الثانية عشرة . وفى عهد هذه الأسرة ازدهرت الفنون جميعها — مع جواز استثناء فن العمارة — وبلغت من الإتقان درجة لم تبلغها فيما نعرفه من تاريخ مصر قبل هذه الأسرة أو بعدها . ويتحدث إلينا أمينمحيت فى أحد النقوش القديمة بقوله :

كنت رجلا زرع البذور وأحب إله الحصاد ؛
وحيانى فى النيل وكل وديانه ؛
ولم يكن فى أيامى جائع ولا ظمآن ؛
وعاش الناس فى سلام بفضل ما عملت وتحدثوا عنى .

وكان جزاؤه أن ائتمر عليه مَن أعلى شأنهم ووضعهم فى المراكز السامية من الوزراء والمستشارين . وقضى أمينمحيت على هذه المؤامرة ، وبطش بالمتآمرين ، ولكنه خلف لابنه — كما فعل پولونيوس من بعده — ملفاً من الأوراق يحوى نصيحة مُرّة ، هى فى واقع أمرها قاعدة عجيبة للحكم المطلق ، ولكنها ثمن باهظ يبتاع به الملك عرشه :

— ويشمل الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٣ — ٥٢٥ ق م) . وكل التواريخ الواردة هنا ما عدا الأخير منها تواريخ تقريبية . ويجد علماء الآثار بعض التسلية فى تأخير هذه التواريخ أو تقديمها عدة قرون .

استمع إلى ماسأقوله لك ،
حتى تكون ملك الأرض ، . . ،
وتزيد فيها الخير
اقس على جميع من هم دونك —
فإن الناس لا يعنون إلا بمن يرهبهم ،
ولا تقترب منهم بمفردك ،
ولا تملأ قلبك بالمودة لأخ ،
ولا تعرف صديقا . . . ،
وإذا نمت فاحرس بنفسك قلبك .
لأن الإنسان لا صديق له فى أيام الشر[٣٦] .

ولقد أقام هذا الملك الصارم الذى يبدو لنا من خلال أربعة آلاف من السنين حاكماً رحيما ، نظاماً من الحكم والإدارة دام خمسمائة عام ، أثرت فيه البلاد مرة أخرى ، وعاد فيه الفن إلى سابق عهوده الزاخرة . واحتفر سنوسريت الأول قناة تصل النيل بالبحر الأحمر ، وصد الغزاة النوبيين وشاد الهياكل العظيمة فى عين شمس والعرابة والكرنك . ولقد نجت من عبث الدهر عشرة تماثيل ضخمة تمثله جالساً ، وهى الآن فى متحف القاهرة . وبدأ سنوسريت آخر هو سنوسريت الثالث يخضع فلسطين لحكم مصر ، وردّ النوبيين الذين لم يكونوا ينقطعون عن الإغارة على حدودها الجنوبية ، ووضع لوحة عند تلك الحدود كتب عليها أنه لم يضعها « رغبة فى أن تعبدوها ، بل طمعاً فى أن تحاربوا من أجلها »[٣٧] . وكان أمنمحيت الثالث إدارياً حازماً عنى بحفر الترع وتنظيم وسائل الرى ، وقضى (ولعله قد أسرف فى هذا القضاء) على أمراء الإقطاع ، وأحل محلهم موظفين معينين من قبل الملك ؛ وبعد ثلاثة عشر عاماً من موته عاد الاضطراب إلى مصر على أثر النزاع الذى قام بين المتنافسين المطالبين بالعرش ، وانقضى عهد الدولة الوسطى فى حال من الفوضى

والتفكك دامت مائتى عام . ثم غزا الهكسوس ، وهم بدو من آسية ، مصر المتقطعة الأوصال ، فأحرقوا مدنها وهدموا هياكلها وبددوا ما تجمع من ثروتها ، وقضـــوا على كثير من معالم فنونها ، وأخضعوا وادى النيل مدى قرنين لحكم « ملوك الرعاة »(*) . لقد كانت المدنيات القديمة جزائر صغرى فى بحار من الهمجية ، أو محلات رخية يحيط بها الجياع والحساد من الصيادين والرعاة ذوى النزعة الحربية . وكانت حصونها عرضة للتصدع والانهيار من حين إلى حين . بهذه الطريقة أغار الكاشيون على دولة بابل ، وهاجم الغاليون بلاد اليونان والرومان ، واجتاح الهون إيطاليا ، وهاجم المغول بيچنج .

لكن الفاتحين لم يلبثوا هم أيضاً أن سمنوا وأترفوا وفقدوا سلطانهم ، وجمع المصريون شملهم وشنوا حرباً عواناً يبغون بها تحرير بلادهم ، فطردوا الهكسوس ، وأسسوا الأسرة الثامنة عشرة التى بلغت البلاد فى أيامها درجة من القوة والمجد لم تبلغها قط من قبل .

٥ — الإمبراطورية

المملكة العظيمة — تحتمس الثالث — ذروة المجد

لعل هذا الفتح قد جدد شباب مصر بما أدخله فيها من دم جديد ، ولكنه كان إيذاناً بابتداء كفاح طويل مرير بين مصر وغربى آسية دام ألف عام . ذلك أن تحتمس الأول لم يعزز قوى الدولة الجديدة فحسب ولكنه غزا سوريا أيضاً بحجة أن مصر يجب أن تسيطر على غربى آسية لكى تمنع الاعتداء على أراضيها فيما بعد ، وأخضع كل البلاد الواقعة بين ساحل البحر وقرقيش فى الداخل ، ووضع فيها حاميات من عنده ، وفرض عليها الجزية ، ثم عاد إلى طيبة مثقلا بالغنائم ومكللا بالمجد الذى يكلل على الدوام هامة من يقتل بنى الإنسان . وفى آخر العام الثلاثين

(*) يعتقد كثيرون من المؤرخين أن ترجمة كلمة هكسوس بالرعاة ترجمة خاطئة وأنهم لم يكونوا رعاة بل « ملوك أقاليم » . (المترجم)

من حكمه رفع ابنته حتشبسوت إلى العرش لتكون شريكة له فى الملك . وحكم من بعده زوجها وأخوها لأبيها باسم تحتمس الثانى ، وأوصى وهو على فراش الموت أن يخلفه تحتمس الثالث ابن تحتمس الأول من إحدى سراريه[٣٨] . ولكن حتشبسوت نحّتْ هذا الشاب الذى علا نجمه فيما بعد ، واستأثرت دونه بالملك ، وأثبتت أنها لا تختلف عن الملوك فى شىء إلا فى أنها أنثى .

على أنها لم تعترف حتى بهذا الفرق . ذلك أن التقاليد المقدسة كانت تتطلب من كل ملك مصرى أن يكون ابن الإله العظيم أمون ، ومن أجل هذا أعدّت حتشبسوت العدة لأن تكون ذكراً وأن تكون مقدسة ، فاخترعت لها سيرة نصت على أن أمون نزل على أحَمَسى أم حتشبسوت فى فيض من العطر والنور ، فأحسنت هذه استقباله ، ولما خرج من عندها أعلن أن أحمسى ستلد ابنة تشع على الأرض كل ما يتصف به الإله من قوة وبسالة[٣٩] . وأرادت الملكة العظيمة بعدئذ أن ترضى أهواء شعبها ، ولعلها أرادت أيضاً أن تشبع رغبة كامنة فى صدرها ، فعملت على أن ترسم على الآثار فى صورة محارب ملتح من غير ثديين ؛ ومع أن النقوش الباقية من عهدها تتحدث عنها بضمير المؤنث ، فإنها تسميها « ابن الشمس » و « سيد القطرين » . وكانت حين تظهر أمام شعبها تلبس ملابس الرجال ، وتلتحى لحية مستعارة[٤٠] ؛

ولعلها كان من حقها أن تقرر بنفسها أتكون رجلا أم امرأة ، وذلك لأنها أضحت من خير الحكام الذين جلسوا على عرش مصر — وهم كثيرون — ومن أعظمهم نجاحاً . فلقد وطدت دعائم الأمن والنظام داخل البلاد من غير أن تسرف فى الاستبداد ، وحافظت على السلم خارج مصر من غير خسارة ، وأرسلت بعثة عظيمة إلى پونت (ويرجح أن پونت هذه هى شاطئ أفريقية الشرقى) ، وافتتحت سوقاً جديدة لتجارة مصر ، وجاءت بكثير من الطابات لشعبها . وعملت على تجميل الكرنك بأن أقامت فيها مسلتين كبيرتين جميلتين ، وشيدت فى الدير



شكل (١٢) هيكل الدير البحرى

البحرى الهيكل الفخم الذى اختطه أبوها ، وأصلحت بعض ما خربه ملوك الهكسوس من الهياكل القديمة ، وقالت فى أحد نقوشها تفخر بأعمالها : « لقد أصلحت ما كان من قبل مخربا ، وأكملت ما لم يكن قد تم تشييده حين كان الأسيويون فى وسط الأرض الشمالية يهدمون فيها ما كان قائماً قبلهم[٤١] » . ثم أنشأت لنفسها آخر الأمر قبراً سرياً مزخرفاً بجوار الجبال التى تطغى عليها الرمال على الضفة الغربية للنيل فى المكان الذى سمى فيما بعد « وادى مقابر الملوك » . وحذا خلفاؤها فى ذلك حذوها ، حتى كان عدد القبور المنحوتة فى التلال قرابة ستين قبراً ملكياً ، وحتى أخذت مدينة الموتى تنافس فى عدد سكانها طيبة مدينة الأحياء ، وكانت « الحافة الغربية » فى المدن المصرية القديمة مواطن الموتى من الطبقة العليا ؛ وكانوا إذا قالوا إن فلاناً « ذهب غرباً » قصدوا بقولهم أنه مات .

ودام حكم هذه الملكة اثنتين وعشرين سنة كان فيها حكماً سلميا حكيما . ثم خلفها تحتمس الثالث وكان حكمه مليئاً بالحروب ، فقد انتهزت بلاد سوريا فرصة موت حتشبسوت فثارت على مصر ، وظن أهلها أن تحتمس الثالث ، وهو شاب فى الثانية والعشرين من عمره ، لن يستطيع الاحتفاظ بالدولة التى أقامها أبوه . ولكن تحتمس لم يقعد عن العمل فسار على رأس جيشه فى السنة الأولى من حكمه عن طريق القنطرة وغزة بسرعة عشرين ميلا فى كل يوم ، والتحم بالقوات الثائرة عند هار مجدو (أى جبل مجدو) ، وهى بلدة صغيرة ذات موقع حربى منيع بين سلسلتى جبال لبنان على الطريق الممتد بين مصر ونهر الفرات ، وهى بعينها مجدن التى وقعت فيها عدة وقائع حربية من ذلك اليوم إلى أيام ألنبى . وفى نفس الممر الذى هزم فيه الإنجليز الأتراك فى عام ١٩١٨ أثناء الحرب العالمية الأولى هزم تحتمس الثالث السوريين وحلفاءهم قبل ذلك بثلاثة آلاف وثلثمائة وسبعة وتسعين عاماً . ثم سار تحتمس مظفراً مخترقاً غربى آسية يخضع أهلها ويفرض عليهم الضرائب ويجمع منهم الخراج : وعاد بعدئذ إلى طيبة منتصراً بعد ستة أشهر من بداية زحفه (*)(٤٢) .

وكانت هذه الحملة أولى حملات بلغت عدتها خمس عشرة أخضع فيها تحتمس الباسل بلاد البحر المتوسط الشرقى لحكم مصر . ولم يكن عمله عمل الفاتح فحسب ، بل إنه عمل أيضاً على تنظيم فتوحه ، فأقام فى جميع البلاد المفتوحة حاميات قوية وأنشأ فيها حكماً منظماً قديراً . وكان تحتمس أول رجل فى التاريخ أدرك ما للقوة البحرية من شأن عظيم ، فأنشأ أسطولا أخضع لسلطانه بلاد الشرق الأدنى . وكان ما ظفر به من الغنائم عماد الفن المصرى فى عهد الإمبراطورية ، كما كان الخراج الذى أخذ ينصب فى مصر من بلاد الشام منشأ حياة الدعة والنعيم التى تمتع بها شعبه ، فوجدت فى مصر طبقة جديدة من الفنانين غمرتها بروائع الفن . وفى وسعنا أن نتصور إلى حد ما ثروة الحكومة الإمبراطورية الجديدة إذا عرفنا

(*) تطلب هذا العمل نفسه من ألنبى ضعفى هذا الزمن ، وحاول نابليون أن يقوم بمثله فى عكا وأخفق .

أنَّ خزانة الدولة استطاعت فى يوم من الأيام أن تخرج منها ما زنته تسعة آلاف رطل من سبائك الذهب والفضة(٤٣) . وراجت التجارة فى طيبة رواجاً لم تعهده من قبل ، وناءت الهياكل بالقربان ، وارتفع صرح بهو الاحتفالات الملكية فى الكرنك ، وأنشئ فيها المتنزه العظيم بما يتفق مع عظمة الإله والملك . ثم عاد الملك من ميدان القتال ووجَّه عنايته للفن وإدارة شئون البلاد . ومن أجمل آثار ذلك العهد المزهريات البديعة النقش . وقال عنه وزيره ما كان أمناء سر نابليون المتعبون المنفيون يقولون عنه « إن جلالته كان يعرف كل ما يحدث ، فما من شىء كان يجهله ؛ فقد كان إله المعرفة فى كل شىء ؛ ولم تكن هناك مسألة لا نفصل فيها بنفسه(٤٣) » . وتوفى الملك بعد أن حكم اثنتين وثلاثين سنة (ويقول بعضهم إنها خمسا وأربعين) ، وبعد أن أتم لمصر زعامتها فى عالم البحر المتوسط ؛

وجاء من بعده فاتح آخر هو أمنحوتب الثانى فأخضع مرة أخرى بعض عشاق الحرية فى سوريا ، وعاد إلى طيبة وفى ركابه سبعة ملوك أسرى أحياء مطأطئى الرءوس فى مقدم السفينة الإمبراطورية . وقدم الملك ستة منهم قرباناً لأمون ضحى بهم بيده(٤٤) . ثم خلفه تحتمس آخر خامل الذكر ، جلس بعده على العرش فى عام ١٤١٢ أمنحوتب الثالث فحكم البلاد حكماً طويلا ارتفعت مصر فى خلاله إلى ذروة المجد بفضل ما تجمع فيها من الثروة خلال سيادتها التى دامت قرناً كاملا . وفى المتحف البريطانى تمثال نصفى لهذا الملك يمثله فى صورة رجل يجمع بين الرقة والقوة ، فى وسعه أن يقبض بيد من حديد على زمام الأمور فى إمبراطوريته التى ورثها ، وأن يعيش مع هذا فى جو من الدعة والنعيم لعل بترونيس أو آل مديشى كانوا يحسدونه عليه . ولولا ما كشف من مخلفات توت عنخ أمون لما صدقنا ما تقصه الروايات وما تدونه السجلات من ثراء أمنحوتب ومظاهر ترفه . وقد بلغت طيبة فى عهده من العظمة والفخامة ما بلغته أية مدينة أخرى فى عهود التاريخ كلها . فكانت شوارعها غاصة بالتجار ، وأسواقها مملوءة بالبضائع الواردة من جميع أنحاء العالم المعروف وقتئذ ، ومبانيها ، تفوق فى فخامتها جميع

مبانى العواصم القديمة والحديثة ،[٤٥] وقصورها الرائعة تستقبل الخراج من طائفة لا حصر لها من الولايات الخاصعة لسلطانها ، وهياكلها الضخمة وعلاة كلها بالذهب ،[٤٦] ومزينة بروائع الفنون على اختلاف أنواعها ، وبيوتها ذات الحدائق وقصورها الفخمة ومتنزهاتها المظللة وبحيراتها الصناعية التى كانت مسرحاً لكل ما هو جديد من الأزياء والأنماط ، كما كانت رومة فى عهد الإمبراطورية[٤٧] ، هذه هى عاصمة مصر فى أيام مجدها وفى أيام مليكها الذى بدأ من بعده اضمحلالها وسقوطها .

الفصل الثالث

حضارة مصر

١ — الزراعة

كان من وراء هؤلاء الملوك والملكات بيادق مجهولون ، ومن وراء تلك الهياكل والقصور والأهرام عمال المدن وزراع الحقول(*) . ويصفهم هيرودوت كما وجدهم حوالى عام ٤٥٠ ق . م وصفاً تسوده روح التفاؤل فيقول :

« إنهم يجنون ثمار الأرض بجهد أقل مما يبذله غيرهم من الشعوب » . . لأنهم لا يضطرون إلى تحطيم أخاديد الأرض بالمحراث أو إلى عزقها أو القيام بعمل كالذى يضطر غيرهم من الناس إلى القيام به لكى يجنوا من ورائه محصولا من الحَبّ ، ذلك بأن النهر إذا فاض من نفسه وأروى حقولهم ، ثم انحسر ماؤه عنها بعـــد إروائها ، زرع كل رجل أرضه وأطلق عليها خنازيره ؛ فإذا ما دفنت هذه الخنازير الحَبّ فى الأرض بأرجلها انتظر حتى يحين موعد الحصاد ، ثم . . . جمع المحصول[٤٩] » .

وكما كانت الخنازير تدوس الحب بأرجلها كذلك أُنِّست القردة ودربت على قطف الثمار من الأشجار[٥٠] ، وكان النيل الذى يروى الأرض يحمل لها فى أثناء فيضانه مقادير كبيرة من السمك يتركها فى المناقع الضحلة : وكانت الشبكة التى يصطاد بها السمك هى بعينها التى يحيط بها رأسه أثناء الليل ليتقى بها شر لدغ البعوض[٥١] . على أنه لم يكن هو الذى يفيد من سخاء النهر ، ذلك بأن كل فدان من الأرض كان ملكاً لفرعون لا يستطيع غيره من الناس أن ينتفعوا به إلا بإذن

(*) كان سكان مصر فى القرن الرابع قبل المسيح يقدرون بنحو سبعة ملايين نسمة .

منه . وكان على كل زارع أن يؤدى له ضريبة سنوية عينية تتراوح ما بين عُشر[٥٢] المحصول وخُمسه[٥٣] . وكان أمراء الإقطاع وغيرهم من الأثرياء يملكون مساحات واسعة من الأرض . وفى وسعنا أن نتصور ما كانت عليه أملاكهم من الاتساع إذا علمنا أن واحداً منهم كان يملك ألفاً وخمسمائة بقرة[٥٤] ، وكانت الحبوب والسمك واللحوم أهم الأطعمة . وقد عثر على بقية من نقش يحدد ما يسمح للتلميذ أن يأكله ويشربه ، وقد ذكر فيه ثلاثة وثلاثون نوعاً من لحم الحيوان والطير ، وثمانية وأربعون صنفاً من الشواء ، وأربعة وعشرون نوعاً من الشراب[٥٥] . وكان الأغنياء يبلعون طعامهم بالنبيذ والفقراء بشراب الشعير المخمر[٥٦] .

وكانت معيشة الفلاحين معيشة ضنكاً . فأما من كان منهم مزارعاً « حراً » فلم يكن يخضع إلا للوسيط والجابى ، وكان هذان الرجلان يعاملانه على أساس المبادئ الاقتصادية التى ثبتت تقاليدها على مدى الأيام ، فكانوا يأخذون من محصول الأرض « كل ما تتحمله وسائل النقل » . وإلى القارئ رأى أحد الكتبة الظرفاء فى حياة معاصريه من الرجال الذين كانوا يطعمون مصر القديمة :

« هلا استعدْتَ فى خيالك صورة الزارع حين يجبى منه عُشر حبّه ؟ لقد أتلفَتْ الديدان نصف القمح ، وأكلَتْ أفراس البحر ما بقى له منه ، وهاجمتْها فى الحقول جماعات كبيرة من الجرذان ، ونزلَتْ بها الصراصير ؛ والماشية النهمة ، والطيور الصغيرة تختلس منها الشىء الكثير ، وإذا غفل الفلاح لحظة عما يبقى له فى الأرض ، عدا عليه اللصوص . يضاف إلى هذا أن السيور التى تربط الحديد والمعزقة قد بليت ، وأن الثورين قد ماتا من جرّ المحراث . وفى هذه اللحظة يخرج الجابى من القارب عند المرسى ليطلب العشور ، ثم يأتى حُرّاس أبواب مخازن (الملك) بعصيّهم ، والزنوج بجريد النخل ، يصيحون : تعالوا الآن ، تعالوا ! فإذا لم يأتهم أحد طرحوا الزارع أرضاً ، وربطوه ، وجرّوه إلى القناة وألقوه فيها

مبتدئين برأسه ، وزوجته مربوطة معه ، ثم يسلك أطفاله فى السلاسل ، ويفرّ جيرانه من حوله لينقذوا حبوبهم(٥٧) » .

تلك بطبيعة الحال قطعة أدبية فيها كثير من المبالغة ، ولكن كاتبها كان فى وسعه أن يضيف إليها أن الفلاح كان معرضاً فى وقت إلى أن يسخّر فى العمل لخدمة الملك ، يطهر قنوات الرى ، وينشئ الطرق ، ويحرث الأراضى الملكية ، ويجرّ الحجارة الضخمة لإقامة المسلاّت وتشييد الأهرام والهياكل والقصور . وأكبر ظننا أن كثرة العاملين فى الحقول كانت قانعة راضية بفقرها صابرة عليه . وكان كثيرون منهم عبيداً من أسرى الحرب أو المدينين ؛ وكانت الغارات تنظم أحياناً للقبض على العبيد ، وكان يؤتى بالنساء والأطفال من خارج البلاد ليبعن فى البلاد لمن يؤدى فيهن أغلى الأثمان . وفى متحف ليدن نقش بارز قديم يصور موكباً طويلا من الأسرى الأسيويين يسيرون مكتئبين إلى أرض الأسر ، ويراهم الإنسان أحياء على هذا الحجر الناطق وأياديهم موثقة خلف ظهورهم أو رءوسهم ، أو موضوعة فى أصفاد قوية من الخشب ، وعلى وجوههم إمارات الحقد المنبعثة من اليأس .

٢ — الصناعة

المعدنون — الصناع — العمال — المهندسون —
النقل — البريد — التجارة وشئون المال — الكتبة

وازداد الفائض من الثروة شيئاً فشيئاً نتيجة عمل الزراع ، وادخر الطعام لمن يعملون فى التجارة والصناعة . وكانت مصر تستورد المعادن من بلاد العرب والنوبة لقلتها فيها . وكان بُعد مراكز التعدين مما لا يغرى الأهالى باستغلالها لحسابهم الخاص ، ولذلك ظلت صناعة التعدين قروناً كثيرة محتكرة للحكومة(٥٨) ، وكانت مناجم النحاس تغل مقادير قليلة منه(٥٩) ، أما الحديد فكان يستورد من بلاد الحثيين ، وكانت مناجم الذهب منتشرة على طول الضفة الشرقية للنيل وفى

بلاد النوبة ، كما كان يؤتى به من خزائن جميع الولايات الخاضعة لسلطان مصر . ويصف ديودور الصقلى (٥٦ ق . م) المعدنين المصريين وهم يتبعون بالمصباح والمعول عروق الذهب فى الأرض ، والأطفال وهم يحملون المعدن الخام ، والمهارس الحجرية وهى تطحنه ، والشيوخ والعجائز وهم يغسلونه . ولسنا نعرف بالضبط ما فى هذه الفقرة الشهيرة من تزييف مبعثه النعرة القومية العارمة :

« إن ملوك مصر يجمعون السجناء الذين أدانهم القضاء ، وأسرى الحرب وغيرهم ممن وجهت إليهم التهم الباطلة وزجوا فى السجون فى سورة من الغضب . وهؤلاء كلهم يرسلون إلى مناجم الذهب تارة وحدهم وتارة مع جميع أسرهم ، ليقتص منهم عن جرائم ارتكبها المجرمون منهم ، أو ليستخدموا فى الحصول على دخل كبير نتيجة كدهم . . . وإذ كان هؤلاء العمال عاجزين عن العناية بأجسامهم ، وليس لهم ثياب تستر عريهم ، فإن كل من يرى هؤلاء البائسين المنكودى الحظ تأخذه الرحمة بهم لفرط شقائهم . ذلك أنه لا يرى أحداً يرحم المرضى والمشوهين والعجزة والضعاف من النساء ، أو يخفف العمل عنهم . ولكن هؤلاء كلهم يُلزمون بالدأب على العمل حتى تخور قواهم ، فيموتوا فى ذل الأسر . ولهذا فإن هؤلاء البائسين المساكين يرون مستقبلهم أتعس من ماضيهم لقسوة العقاب الذى يوقع عليهم ، وهم من أجل ذلك يفضلون الموت على الحياة[٦٠] » .

وعرفت مصر فى عهد الأسرات الأولى كيف تصنع البرنز بمزج النحاس بالقصدير ، وصنعت منه فى أول الأمر أسلحة برنزية كالسيوف ، والخوذ ، والدروع ، ثم صنعت منه بعدئذ أدوات برنزية كالعجلات ، والمراسات ، والرافعات ، والبكرات ، وآلات رفع الأثقال ، والأوتاد ، والمخارط ، واللوالب ، والمثاقب التى تثقب أقسى أحجار الديوريت ، والمناشير التى تقطع ألواح الحجارة الضخمة لصنع التوابيت . وكان العمال المصريون يصنعون الآجر والأسمنت والمصيص ويطلون الفخار بطبقة زجاجية ، ويصنعون الزجاج وينقشو هو والفخار بمختلف

الألوان . وقد برعوا فى حفر الخشب يصنعون منه كل ما يصلح لصنعه من قوارب وعربات وكراسى ، وأسرة ، وتوابيت جميلة تكاد تغرى الأحياء بالموت ، واتخذوا من جلود الأنعام ملابس وكنانات ودروعا ومقاعد ؛ وقد صورت على جدران المقابر كل الفنون المتصلة بدبغ الجلود ، ولا يزال الأساكفة إلى الآن يستخدمون السكاكين المقوسة المصورة على تلك الجدران فى أيدى دابغى الجلود[٦١] . وصنع المصريون من نبات البردى الحبال والحصر والأخفاف والورق . وابتدعوا فن الطلاء بالميناء والورنيش ، واستخدموا الكيمياء فى الصناعة . ومن الصناع من كان يعمل فى نسج القماش من أدق الخيوط المعروفة فى تاريخ النسيج كله . وقد عثر المنقبون على نماذج من الكتان منسوجة من أربعة آلاف عام ، وعلى الرغم من عوادى الأيام فإن « خيوطها قد بلغت من الدقة حداً لا يستطيع الإنسان معه أن يميزها من خيوط الحرير إلا بمجهر . وإن أحسن ما أخرجته المناسج الآلية فى هذه الأيام ليعد خشناً غليظا إذا قيس إلى هذا النسيج الذى كان يصنعه المصريون الأقدمون بأنوالهم اليدوية[٦٢] . وفى هذا يقول بسكل : « إذا فاضلنا بين قدرة المصريين الفنية وقدرتنا نحن ، تبين لنا أننا كنا قبل اختراع الآلة البخارية لا نكاد نفوقهم فى شىء[٦٣] » .

وكانت الكثرة الغالبة من الصناع من الأحرار ، وقلتهم من الرقيق . وكان العاملون فى كل صناعة من الصناعات يؤلفون طبقة خاصة كما هى الحال فى الهند اليوم . وأن يطلب إلى الأبناء أن يتخذوا صناعات آبائهم[٦٤](*) . وقد جاءتهم الحروب بآلاف من الأسرى فكانوا عونا على إنشاء الضياع الواسعة وعلى رقى فن الهندسة . وقد أهدى رمسيس الثالث فى أثناء حكمه ١٣,٠٠٠ أسير إلى الهياكل[٦٦] . وكان النظام المألوف للصناع الأحرار أن تؤلف منهم فرق تتبع

(*) ويضيف د. دور إلى هذا قوله : « وإذا اشترك صانع فى الشئون العامة ضرب ضربا موجعا[٦٥] » .

رئيساً منهم أو مشرفاً عليهم يؤجر على عملها جملة ويؤدى هو لأفرادها أجورهم . وفى المتحف البريطانى لوحة طباشرية سجل فيها أحد رؤساء العمال أسماء ثلاثة وأربعين عاملا ودوّن أمام أسمائهم أيام غيابهم وأسباب هذا الغياب من «مرض» أو «تضحية للإله» أو مجرد «الكسل» . وكان الإضراب كثير الحدوث ، وقد حدث مرة أن تأخر صرف الأجور للعمال زمناً طويلا فحاصروا رئيسهم وأنذروه بقولهم له : «لقد ساقنا إلى هذا المكان الجوع والعطش ، وليست لنا ثياب ، وليس عندنا زيت ولا طعام ؛ فاكتب إلى سيدنا الملك فى هذا الأمر ، واكتب إلى الحاكم (حاكم المقاطعة) الذى يشرف على شئوننا حتى يعطيانا ما نقتات به[٦٧]» . وتروى إحدى القصص اليونانية المتواترة خبر فتنة صماء اندلع لهيبها فى مصر واستولى فيها العبيد على إحدى المديريات ، وظلت فى أيديهم زمناً طويلا كانت نتيجته أن الزمن ، الذى يجيز كل شىء ، أقرّ امتلاكهم إياها . لكن النقوش المصرية لا تذكر شيئاً قط عن الفتنة[٦٨] . ومن أغرب الأشياء أن حضارة كانت تستغل العمال هذا الاستغلال القاسى لم تعرف أو لم تسجل إلا عدداً ضئيلا من الثورات .

وكان فن الهندسة عند المصريين أرقى من كل ماعرفه منه اليونان أو الرومان ، أو عرفته أوربا قبل الانقلاب الصناعى ؛ ولم يتفوق عليهم فيه إلا عصرنا الحاضر ، وحتى فى هذا القول الأخير قد نكون مخطئين . مثال ذلك سنوسريت الثالث شاد(*) سوراً حول بحيرة موريس طوله سبعة وعشرون ميلا ليجمع فيها ماء منخفض الفيوم ، وأصلح بعمله هذا ٢٥٫٠٠٠ فدان كانت من قبل مناقع ، فأصبحت صالحة للزراعة ، هذا إلى أنه اتخذ من هذه البحيرة خزاناً واسعاً لماء الرى[٦٩] . واحتفرت قنوات عظيمة منها مايصل النيل بالبحر الأحمر ، واستخدمت الصناديق الغاطسة للحفر تحت الماء[٧٠] ، ونقلت المسلاّت التى تزن ألف طن من

(*) إذا قلنا شاد الملك فإنا نقصد بطبيعة الحال أنه قد شيد فى عهده .

أماكن قاصية . وإذا جاز لنا أن نصدق ما ينقله لنا هيرودوت ، أو نحكم على أعمال السابقين بما نشاهده من صورها فى النقوش الباردة التى خلفتها الأسرة الثامنة عشرة ، قلنا إن هذه الحجارة الضخمة كان يجرها آلاف من العبيد على عروق من الخشب مطلية بالشحم ، ثم ترفع إلى أماكنها فى البناء على طرق طويلة تبدأ من أماكن بعيدة[٧١] . ولقد كانت الآلات نادرة لأن الجهد العضلى كان رخيصاً ، وليس أدل على هذا الرخص من نقش بارز صور فيه ثمانمائة من المجدفين يدفعون سبعة وعشرين قارباً تجر وراءها صندلا للنقل يحمل مسلتين[٧٢] . هذا هو العصر الذهبى الذى يريد من ينادون بتحطيم الآلات أن يعودوا إليه . وكانت سفن يبلغ طول الواحدة منها مائة قدم وعرضها خمسين قدماً تمخر عباب النيل والبحر الأحمر ، ثم انتقلت آخر الأمر إلى البحر المتوسط ، أما فى البر فقد كانت البضائع ينقلها الحاملون ، ثم استخدمت فى نقلها الحمير ثم الخيل ، وأكبر الظن أن الهكسوس هم الذين جاءوا بالخيل إلى مصر . ولم يظهر الجمل فى مصر إلا فى عهد البطالمة[٧٣] . وكان الفقراء من أهل البلاد يتنقلون مشياً على الأقدام أو يستخدمون قواربهم البسيطة ، أما الأغنياء فكانوا يركبون رجازات(*) يحملها العبيد ثم صاروا فيما بعد يركبون عربات غير أنيقة الصنع يقع ثقلها كله أمام محور العجل[٧٤] .

وكان لدى المصريين بريد منتظم ؛ فقد جاء فى بردية قديمة : « أكتب إلىّ مع حامل الرسائل »[٧٥] . إلا أن وسائل الاتصال لم تكن مع ذلك ميسرة ، فقد كانت الطرق قليلة غير معبدة ما عدا الطريق الحربى الممتد من نهر الفرات ماراً بغزة[٧٦] . وكان التواء النيل — وهو أهم وسائل الانتقال وقتئذ — مما ضاعف البعد بين المدن المختلفة . وكانت التجارة الداخلية بدائية نسبياً ، يتم معظمها بطريق المقايضة فى أسواق القرى ، ونمت التجارة الخارجية نمواً بطيئاً ،

(*) الرجازة الهودج الصغير . (المترجم)

وعاقها ما كان يفرض عليها من قيود شديدة أشبه ما تكون بأحدث الحواجز الجمركية المفروضة على التجارة الخارجية فى هذه الأيام . ذلك أن ممالك الشرق الأدنى كانت قوية الإيمان بمبدأ « الحماية التجارية » لأن الضرائب الجمركية كانت مورداً للخزائن الملكية . على أن مصر مع هذا قد أثرت بما كانت تستورده من المواد الغفل وتصدره من المصنوعات . وكانت أسواق مصر غاصة بالتجار السوريين والكريتيين والقبرصيين ، كما كانت السفن الفينيقية تجرى فى النيل من مصبه فى الشمال إلى أرصفة طيبة الكثيرة الحركة فى الجنوب(٧٧) .

ولم تكن النقود قد بدأت تستعمل فى البيع والشراء ، ولذلك كان كل شىء ، حتى مرتبات أكبر الموظفين ، يؤدى سلعاً ، حبًّا أو خبزاً ، أو خميرة ، أو بيرة أو نحوها . وكانت الضرائب تجبى عيناً ، ولم تكن خزائن الملك غاصة بالنقد بل كانت مخازن تتكدس فيها آلاف السلع من منتجات الحقول وبضائع الحوانيت . ولما أخذت المعادن الثمينة تتدفق على مصر بعد فتوح تحتمس الثالث شرع التجار يؤدون ثمن ما يبتاعونه من البضائع حلقات أو سبائك من الذهب تقدر قيمتها بالوزن فى كل عملية تجارية ، ولم تضرب نقود ذات قيمة محددة تضمنها الدولة لتسهيل هذه العمليات . على أن نظام الائتمان قد نشأ بينهم وارتقى ، وكثيراً ما كانت التحاويل والصكوك المكتوبة تحل محل المقايضة أو الدفع فوراً ؛ وجد الكتبة فى كل مكان يعجلون الأعمال بوثائق المبادلة القانونية ، وأعمال المحاسبة والأعمال المالية .

وما من أحد زار متحف اللوفر إلا شاهد تمثال الكاتب المصرى الجالس مطوى الساقين ، وجسمه كله يكاد يكون عارياً ، ومن خلف أذنه قلم احتياطى غير القلم الذى يمسكه بيده ، وهو يدون مايقوم به ويسجل مايؤدى من العمل ، وما يسلم من البضائع ، وأثمانها وأكلافها ، ومكسبها وخسارتها . يحصى الماشية الذاهبة إلى المذبح . والحبوب وهى تكال للبيع ، ويكتب العقود والوصايا ، ويقدر ما يجب على سيده أن يؤديه من ضريبة الدخل . والحق أنه لا جديد تحت الشمس .

وهو رجل حريص مدنى بعمله نجد فيه نشيط نشاطاً آلياً ، أوتى قسطاً من الذكاء ولكنه ذكاء يقف عند الحد الذى يمنعه أن يكون خطراً ، حياته رتيبة مملة ، ولكنه يواسى نفسه بكتابة المقالات عما يكتنف حياة العامل اليدوى من صعاب ،



شكل (١٢) تمثال الكاتب
المحفوظ فى متحف اللوفر

وما يحيط بأولئك الذين طعامهم الورق ودماؤهم المداد من عزة وكرامة لا تقلان عن عزة الأمراء وكرامتهم .

٣ — نظام الحكم

الموظفون — الشرائع — الوزير — الملك

وكان الملك وأعيان الأقاليم يستعينون بهؤلاء الكتبة للمحافظة على النظام وسلطان القانون فى الدولة . وتصور بعض الألواح القديمة الكتبة يقومون بعملية الإحصاء ويحسبون ما دخل الخزانة من ضريبة الدخل . ويستعينون بالمقاييس النيلية التى تسجل ارتفاع ماء النهر على معرفة ماسيكون عليه موسم الحصاد ، فيقدّرون منه إيراد الحكومة فى العام المقبل ، ويخصصون لكل مصلحة من المصالح ما سيكون لها من نصيب فى هذا الإيراد ، وكان عليهم فوق ذلك أن يشرفوا على شئون الصناعة والتجارة . ولقد أفلحوا من بداية التاريخ تقريبا فى وضع نظام اقتصادى تشرف الدولة عليه(٧٨) .

وكانت القوانين المدنية والجنائية غاية فى الرقى ، كما كانت قوانين الملكية والميراث من أيام الأسرة الخامسة قوانين مفصلة دقيقة(٧٩) . وكان الناس جميعاً متساوين مساواة تامة أمام القانون كما هم متساوون أمامه فى هذه الأيام — أى متى كان الطرفان المتنازعان متساويين فى الموارد وفى النفوذ . وأقدم وثيقة قانونية فى العالم كله عريضة دعوى محفوظة الآن فى المتحف البريطانى تعرض على المحكمة قضية من قضايا الميراث المعقدة . وكان القضاة يطلبون أن يترافع فى القضايا ، وأن يرد على حجج المترافعين ، وأن يناقش أصحابها ويحاجون ، على ألا يكون ذلك كله خطباً تلقى بل مذكرات مكتوبة تقدم للقضاة — وهو نظام لا يقل فى شأنه عن نظام التقاضى المعقد فى هذه الأيام . وكان الحانث فى يمينه يعاقب بالإعدام(٨٠) . وكان للمصريين محاكم منظمة مختلفة الدرجات تبدأ من

مجالس الحكم المحلية فى المقاطعات وتنتهى بالمحاكم العليا فى منف أو طيبة أو عين شمس(٨١) . وكانوا يلجئون إلى التعذيب فى بعض الأحيان لحمل المجرم على الاعتراف بالحق(٨٢) . وكان الضرب بالعصا من أنواع العقاب الشائعة ، وكانوا يلجئون فى بعض الأحيان إلى عقاب المذنب بجدع أنفه أو صلم أذنه أو قطع يده أو لسانه(٨٣) ، أو نفيه إلى أقاليم المناجم ، أو إعدامه بالشنق أو بالخزق ، أو بقطع رأسه أو بإحراقه مصلوباً ، وكان أشد ضروب العقاب هو تحنيط المعاقب حياً ، أو إحاطته بطبقة من النطرون القارض تأكل جسمه آكلا بطيئاً(٨٤) ؛ وكان المجرمون من علية القوم يجتنبون عار الإعدام علناً بأن يُسمح لهم بقتل أنفسهم بأيديهم كما تفعل طبقة الساموراى فى اليابان(٨٥) . ولم يُعثر على شواهد يستدل منها على وجود نظام للشرطة ، وحتى الجيش العامل — وقد كان على الدوام صغير الحجم لأن فى عزلة مصر وموقعها بين الصحراء والبحر ما يرد عنها المغيرين — قلما كان يستخدم لحفظ النظام فى داخل البلاد .

ذلك أن الحياة والملكية والاطمئنان إلى سلطان القانون والحكومة تكاد تعتمد كل الاعتماد على هيبة الملك . وكانت المدارس والهياكل دعامة هذه الهيبة وليس فى العالم كله أمة غير مصر — إذا استثنينا الأمة الصينية — جرؤت على أن تعتمد كل هذا الاعتماد على العوامل النفسية لحفظ الأمن فى البلاد .

لقد كانت الحكومة المصرية من أحسن الحكومات نظاماً وكانت أطول حياة من أية حكومة أخرى فى التاريخ . وكان الوزير على رأس الإدارة كلها ، يشغل منصب رئيس الوزراء ، وقاضى القضاة ، ورئيس بيت المال ، وكان الملجأ الأخير للمتقاضين لا يعلو عليه فى هذا إلا الملك نفسه . وترى الوزير فى نقش على أحد القبور يخرج من بيته فى الصباح الباكر « ليستمع إلى مظالم الفقراء ، ويصغى » كما هو وارد فى النقش « إلى ما يقول الناس فى مطالبهم ، لا يميز فيها بين الحقير والعظيم »(٨٦) . وقد وصلت إلينا بردية مدهشة من عهد الإمبراطورية

تحتوى كما تقول هى نفسها على صورة الخطاب الذى كان يلقيه الملك حين يعيّن الوزير فى منصبه (ولربما كان هذا الخطاب قطعة أدبية من وضع كاتبها نفسه) :

« اجعل عينك على مكتب الوزير ، وراقب كل ما يحدث فيه . واعلم أنه هو الدعامة التى تستند إليها جميع البلاد . . . ليست الوزارة حلوة ، بل هى مرّة . واعلم أنها ليست إظهار الاحترام الشخصى للأمراء والمستشارين ، وليست وسيلة لاتخاذ الناس أيا كانوا عبيداً . انظر ، إذا جاءك مستنصف من مصر العليا أو السفلى ، فاحرص على أن يجرى القانون مجراه فى كل شىء ، وأن يتبع فى كل شىء العرف السائد فى بلده ، وأن (يعطى كل إنسان) حقه . . . واعلم أن المحاباة بغيضة إلى الإله . . . فانظر إلى من تعرفه نظرتك إلى من لا تعرفه وإلى المقربين إلى الملك نظرتك إلى البعيدين عن (بيته) . انظر ، إن الأمير الذى يفعل هذا سيبقى هنا فى هذا المكان . وليكن ما يخافه الناس من الأمير أنه يعدل فى حكمه . ارع القواعد المفروضة عليك »[٨٧].

وكان الملك نفسه هو المحكمة العليا ، يستطاع رفع كل قضية إليه فى أحوال معينة ، إذا لم يعبأ المدعى بما يتطلبه رفعها إليه من النفقات . وتمثل بعض النقوش القديمة « البيت الأعظم » الذى يجلس فيه للحكم والذى تتجمع فيه دواوين الحكومة . وقد اشتقت من اسم هذا البيت الأعظم الذى كان المصريون يطلقون عليه لفظ « پرو » والذى ترجمه اليهود إلى فرعوه ، اشتق من اسمه هذا لقب الملك نفسه . وفى هذا البيت كان الملك يضطلع بواجبه الشاق الرتيب من الأعمال التنفيذية ، التى كانت فى بعض الأحيان لا تقلّ فى كثرتها وفيما تتطلبه من جهود عن أعمال شندرا جويتا(*) أو لويس الرابع عشر أو نابليون[٨٨] . وكان الملك إذا سافر قابله أمراء الإقطاع عند حدود إقطاعاتهم ، وساوروا فى ركابه ، وأولوا له

(*) رأس أسرة الموريا التى حكمت الهند والأفغان بعد الإسكندر ، وسيرد تاريخه مفصلا عند الكلام على الهند . (المترجم)

الولائم ، وقدموا له من الهدايا ما يتناسب مع ما ينتظرونه منه . وقد جاء فى أحد النقوش أن نبيلاً من النبلاء أهدى أمنحوتب الثانى « عربات من الفضة والذهب وتماثيل من العاج والأبنوس ، وجواهر ، وأسلحة ، وتحفاً فنية » و٦٨٠ درعاً ، و١٤٠ خنجراً من البرنز ومزهريات كثيرة من المعادن الثمينة[٨٩] . وجازاه الملك على هذا بأن أخذ ابنه معه ليعيش فى قصره — وهذه طريقة ماكرة لاتخاذه رهينة يضمن بها ولاء هذا الشريف . وكان يتألف من أكبر رجال البلاط سناً مجلس شيوخ يسمى سارو ، أى مجلس العظماء ، مهمته أن يكون مجلساً استشارياً للملك[٩٠] . على أن هذه الاستشارة لم تكن فى الواقع ضرورية لأن الملك ومن ورائه الكهنة كان يدعى أنه من سلالة الآلهة وأن الآلهة نفسها قد وهبته السلطة والحكمة . وكان اتصاله بالآلهة على هذا النحو مصدر نفوذه وهيبته . ومن أجل هذا كانت تخلع عليه إذا خوطب صفات من الإجلال يدهش لها الإنسان أحياناً . من ذلك ما جاء فى قصة سنوحى إذ يحييه مواطن صالح بقوله : « أيها الملك الطويل العمر ، أرجو أن تهب الواحدة الذهبية (أى الإلهة حتحور) الحياة لأنفك »[٩١] .

وكان يقف على خدمة الملك — كما يليق بشخص هذه عظمته — عدد كبير من مختلف الأعوان ، منهم القوّاد ، وغاسلو الملابس ، وقصّارها ، وحراس خزائنها ، وغيرهم من ذوى المراتب الرفيعة « وكان عشرون من الموظفين يشتركون فى تزيينه ، منهم حلاّقون لا يُسمح لهم إلا بقص شعره وحلْق لحيته ، وآخرون لإلباسه قلنسوته وتاج رأسه ، ومدرمون يقصون أظافره ويدرمونها ، ومعطّرون يعطّرون جسمه ويكحلون جفون عينيه ، ويحمرون خدّيه وشفتيه بالصبغة الحمراء[٩٢] . وجاء فى نقش على أحد القبور أن صاحب القبر كان « المشرف على صندوق دهان الشعر والوجه ، المسيطر على الدهان ، حامل خُفّى الملك ، الذى يعنى بخفّيه العناية التى يرضاها القانون »[٩٣]. وكان الانحلال والضعف عاقبة هذا التنعم المفرط ، وكان الملك يلجأ فى بعض الأحيان إلى الترويح عن نفسه وإزالة ما يعتريه من ملل

وسآمة بحشد طائفة من الفتيات فى قاربه الملكى وليس عليهن من الثياب إلا نوع من الشباك ذات الثقوب الواسعة . وكان الترف الذى انغمس فيه أمنحوتب الثالث هو الذى مهد السبيل لثورة إخناتون .

٤ — القانون الأخلاقى

مضاجعة الملك لأقاربه - الحريم - الزواج - مركز المرأة - سلطان الأم فى مصر — القوانين الأخلاقية الخاصة بعلاقة الرجال والنساء

لقد كانت حكومة مصر شبيهة بحكومة نابليون حتى فى مضاجعة الملك لأقاربه ، وكثيراً ما كان الملك يتزوج أخته ، بل كان يحدث أحياناً أن يتزوج ابنته ، ليحتفظ بالدم الملكى نقياً خالصا من الشوائب . وليس من اليسير أن نحكم هل أضعفت هذه العادة قوة نسل الملوك أو لم تضعفه ؟ لكنا لا نشك فى أن مصر لم تكن تعتقد هذا بعد أن ظلت تسير عليه عدة آلاف من السنين ، وانتقلت عادة الزواج بالأخوات من الملوك إلى عامة الشعب حتى لقد وجد فى القرن الثانى بعد الميلاد أن ثلثى سكان أرسينوى يسيرون على هذه السُّنّة[٩٤] . وكان معنى لفظى أخ وأخت فى الشعر المصرى القديم كمعنى حبيب وحبيبة فى أيامنا هذه[٩٥] . وكان للملك فضلا عن أخواته عدد كبير من النساء من أسيرات الحروب وبعضهن من بنات الأعيان أو ممن أهداهن إليه الأقيال الأجانب . من ذلك أن أحد أمراء بلاد « نهرينا » أهدى إلى أمنحوتب الثالث ابنته الكبرى وثلثمائة من صفوة الفتيات[٩٦] . وقد حذا بعض النبلاء حذو الملوك فى هـــذا الإسراف وإن لم يبلغوا فيه مبلغهم ، فقد كان عليهم أن يوفقوا فى هـــذه الناحية بين مبادئهم الخلقية ومواردهم المالية .

أما عامة الشعب فكان شأنهم شأن ذوى الدخل المتوسط فى سائر الأمم ، يقنعون بزوجة واحدة . ويلوح أن الحياة العائلية كانت منظمة ، ذات مستوى

رفيع من الوجهة الأخلاقية ومن حيث سلطان الأبوين ، ولا تقل في هذا عنها في أرقى الحضارات في هذه الأيام . وكان الطلاق نادراً إلا في عهد الاضمحلال . وكان في مقدور الزوج أن يخرج زوجته من داره دون أن يعوضها بشيء إذا زنت ، أما إذا طلقها لغير هذا السبب فكان عليه أن يخصص لها جزءاً كبيراً من أملاك الأسرة .

كذلك كان الأزواج يبذلون قصارى جهدهم في الإخلاص لزوجاتهم — على قدر ما يستطيع الإنسان أن يحكم في هذه الأمور الخفية . ولم يكن مستواهم في هذا أقل منه في المدنيات اللاحقة ، وكان مركز المرأة عندهم أرقى من مركزها عند كثير من الأمم في هذه الأيام . وفي ذلك يقول ماكس ملر : « ليس ثمة شعب قديم أو حديث قد رفع منزلة المرأة مثل ما رفعها سكان وادي النيل »[٩٧] . فالنقوش تصور النساء يأكلن ويشربن بين الناس ، ويقضين ما يحتجنه من المهام في الشوارع من غير رقيب عليهن ولا سلاح بأيديهن ، ويمارسن الأعمال الصناعية والتجارية بكامل حريتهن . ولشد ما دهش الرحالة اليونان — وقد اعتادوا أن يضيقوا على نسائهم السليطات — من هذه الحرية ، وأخذوا يسخرون من الأزواج المصريين الذين تتحكم فيهم زوجاتهم . ويقول ديودور الصقلي — ولعله يهدف بقوله هذا إلى السخرية من المصريين — إن طاعة الزوج لزوجته في وادي النيل كانت من الشروط التي تنص عليها عقود الزواج[٩٨] . وهو شرط لا ضرورة للنص عليه في أمريكا ! وكان النساء يمتلكن ويورثن ، كما تشهد بذلك وثيقة من أقدم الوثائق في التاريخ ، وهي وصية من عهد الأسرة الثالثة توصي فيها السيدة نب — سنت بأراضيها لأبنائها[٩٩] . وقد ارتقت حتشبسوت وكليوبطرة عرش مصر وحكمتا وخربتا كما يحكم الملوك ويخربون .

على أننا نجد أحياناً نغمة ساخرة في الآداب المصرية . من ذلك ما كتبه رجل من رجال الأخلاق الأقدمين يحذر قراءه منهن .

احذر المرأة التي تأتيك من الخارج ، والتي لا يعرفها أهل مدينتها . فلا ترفع بصرك إليها إذا أتت ، ولا تعرفها ، فهي كالدُّردور في الماء العميق ، لا تستطيع أن تسبر غورها . وإن المرأة التي غاب زوجها لتكتب إليك في كل يوم ، وإذا لم يكن معها شاهد عليها قامت ونشرت حولك شباكها . وما أشنعها من جريمة إذا أصغى إليها الإنسان[١٠٠] ! » .

أما النغمة المصرية الخالصة فهي التي نسمعها في نصيحة بتاح حوتب لابنه والتي يقول فيها :

إذا كنت ناجحاً ، وأثثت بيتك ، وكنت تحب زوجة قلبك ، ماملأ بطنها واكس ظهرها . . . وأدخل السرور على قلبها طوال الوقت الذي تكون فيه لك ، ذلك أنها حرث نافع لمن يملكه . . . وإن عارضتها كان في ذلك خرابك[١٠١] .

وتحذر بردية بولاق الطفل تحذيراً يشهد بالحكمة البالغة فتقول :

ينبغي لك ألا تنسى أمك . . . فقد حملتك طويلا في حنايا صدرها وكنت فيها حملا ثقيلا ، وبعد أن أتممتَ شهورك ولدتك . ثم حملتك على كتفها ثلاث سنين طوالا وأرضعتك ثديها في فمك ، وغذتك ، ولم تشمئز من قذارتك . ولما دخلت المدرسة وتعلمت الكتابة كانت تقف في كل يوم إلى جانب معلمك ومعها الخبز والجعة جاءت بهما من البيت[١٠٢] .

ويرجح أن هذه المكانة السامية التي كانت للمرأة إنما نشأت من أن المجتمع المصري كان أميل إلى تغليب سلطان الزوجة على سلطان الزوج بعض الشيء . وشاهد ذلك أن المرأة لم تكن لها السيادة الكاملة في بيتها وكفى ، بل إن الأملاك الزراعية كلها كانت تنتقل إلى الإناث ، وفي ذلك يقول پتري : « لقد كان الزوج حتى في العهود المتأخرة ينزل لزوجته في عقد زواجه عن جميع أملاكه ومكاسبه المستقبلة[١٠٣] » ولم يكن سبب زواج الأخ بأخته أن وجودها معه قد ملأ بحبها قلبه ، بل كان سببه أن الرجال كانوا يبغون أن يستمتعوا بميراث الأسرة الذي كان ينحدر

من الأم إلى البنت ، ولا يريدون أن ينعم الغرباء بهذه الثروة[١٠٤] . على أن سلطان المرأة قد نقص قليلا على مر الزمن ، ولعل سبب هذا النقص هو أثر التقاليدالأبوية التى أدخلها الهكسوس ، وأثر انتقال البلاد من عزلتها الزراعية ومن حال السلم إلى طور الاستعمار والحرب . وزاد نفوذ اليونان فى أيام البطالمة زيادة أصبحت معها حرية الطلاق ، وهى التى كانت تطالب بها المرأة فى الأزمنة السابقة ، حقاً خالصاً للزوج لا ينازعه فيه منازع . بيد أنه حتى فى ذلك الوقت لم يقبل هذا التطور إلا الطبقات العليا من أهل البلاد ، أما عامة الشعب فقد ظلت مستمسكة بالتقاليد القديمة[١٠٥] . ولعل سيطرة المرأة على شئونها الخاصة هى التى جعلت قتل الأطفال أمراً نادر الحدث . ويرى ديودور الصقلى أن من خواص المصريين أن كل طفل يولد لهم يلقى حظه الكامل من التربية والرعاية ، ويقول إن القانون كان يقضى على الأب الذى يرتكب جريمة قتل طفله بأن يحتضن الطفل القتيل ثلاثة أيام وثلاث ليال كاملة[١٠٦] . وكانت الأسر كبيرة ، والأطفال تغص بهم الأكواخ والقصور على السواء ، وكان الأثرياء منهم يلاقون صعاباً جمة فى إحصاء نسلهم[١٠٧]

وحتى فى مسائل الخطبة كانت المرأة هى البادئة . وشاهد ذلك أن ما وصل إلينا من قصائد الغزل ورسائل الحب أغلبه موجه من المرأة إلى الرجل ، فهى التى تطلب تحديد مواعيد اللقاء ، وهى التى تتقدم بالخطبة إلى الرجل مباشرة ، وهى التى تعرض عليه الزواج صراحة[١٠٨] . وقد جاء فى إحدى هذه الرسائل : « أى صديقى الجميل ، إنى أرغب فى أن أكون ، بوصفى زوجتك ، صاحبة كل أملاكك[١٠٩] » . ومن ثم نرى أن الحياء — وهو أمر يختلف عن الوفاء — لم يكن من صفات المصريين البارزة ، فقد كانوا يتحدثون عن الشئون الجنسية بصراحة لم نعهدها فى التقاليد الأخلاقية المتأخرة عن عهدهم ، وكانوا يزينون هياكلهم بصور ونقوش قليلة البروز تظهر فيها أجزاء الجسم كلها واضحة أتم وضوح ، وكانوا يقدمون لموتاهم من الأدب الفاحش ما يسليهم فى قبورهم[١١٠] . لقد كان

الدم الذي يجرى فى عروق سكان وادى النيل دماً حاراً ، ومن أجل ذلك كانت البنات يصلحن للزواج فى سن العاشرة ، وكان اتصال الفتيان والفتيات قبل الزواج حراً ميسراً ؛ ويقال إن إحدى السرارى فى أيام البطالمة استطاعت أن تدخر من الأموال ما بنت به هرماً . وحتى اللواط لم يكن معدوماً فى مصر[١١١] . وكانت الفتيات الراقصات الشبيهات بأمثالهن فى اليابان يُقبَلن فى أرقى مجتمعات الرجال ليقدمن للمجتمعين ضروب التسلية والمتعة الجسمية ، وكن يرتدين ملابس شفافة أو يكتفين أحياناً بالتزين بالخلاخل والأساور والأقراط[١١٢] ولدينا شواهد على الفسوق الدينى فى نطاق ضيق . وكان من العادات المتبعة التى ظلت باقية إلى عهد الفتح الرومانى أن تختار أجمل بنات الأسر الشريفة فى طيبة وتنذر لأمون . فإذا أضحت لكبر سنها عاجزة عن رضاء الإله أخرجت من خدمتـــه بمظاهر التشريف والتعظيم ، وتزوجت ولقيت الترحيب والإجلال فى أرقى الأوساط[١١٣] . لقد كانت لهذه الحضارة آراؤها ونزواتها التى تختلف عن آرائنا نحن ونزواتنا .

٥ — العادات

الأخلاق الشخصية — الألعاب — المظهر الخارجى — الأصباغ والأدهان — الملابس — الحلى

إذا شئنا أن نستعيد فى مخيلتنا صورة من الأخلاق الشخصية للمصريين الأقدمين ، وجدنا أن ليس من السهل أن نفرق بين هذه الأخلاق كما نقرأ عنها فى آدابهم وبين ما كان يحدث فى الحياة الواقعية . فما أكثر ما نقرأ عنه من العواطف النبيلة فى كتاباتهم . من ذلك ما كتبه أحد الشعراء ينصح مواطنيه :

أطعم الخبز لمن لا حقل له .

واترك وراءك ذكراً طيباً يبقى أبد الدهر[١١٤] .

وكثيراً ما يســـدى بعض الكبار إلى أبنائهم نصائح حميدة ، ففى المتحف

البريطانى بردية تعرف باسم : « حكمة أمنحوتب » (حوالى ٩٥٠ ق ٠ م) وهى تُعِد أحد الطلاب لتولى منصب عام بطائفة من النواهى لا يبعد قط أن كان لها أثر فى واضع « أمثال سليمان » أو واضعيها :

لا تطمع فى ذراع من الأرض ،

ولا تعتد على حدود أرملة . . . ،

واحرث الحقل حتى تجد حاجاتك ،

وخذ خبزك من بيدرك ،

وإن قدحاً من الحب يعطيكه الله

لخير من خمسة آلاف تنالها بالعدوان . . . ،

وإن الفقر فى يد الله

لخير من الغنى فى المخازن ؛

وإن الرغيف والقلب مبتهج

لخير من الغنى مع الشقاء . . . (١١٥) » .

على أن ما تحويه هذه الآداب من دلائل التقوى والصلاح لم يحل دون المطامع البشرية . ولم يكن المصريون الأقدمون إلا خلقاً لهم ما لسائر الخلق من مطامح ٥ لقد وصف أفلاطون الأثينيين بأنهم محبون للمعرفة ، والمصريين بأنهم محبون للثروة . ولعل فى هذا الوصف كثيراً من المغالاة دفعته إليها النعرة الوطنية ، ولكننا لا نعدو الحقيقة إن قلنا إن المصريين هم أمريكيو العالم القديم . فهم قوم مولعون بضخامة الحجم ، يحبون المبانى الفخمة الكبيرة وهم مجدون نشطون جماعون للثروة ، عمليون حتى فى خرافاتهم الكثيرة عن الدار الآخرة . وهم أشد الأمم الماضية استمساكاً بالقديم ، لم تتبدل حالهم رغم ماطرأ عليهم من أحداث ، وظل فنانوهم يقلدون ما جرى به العرف القديم تقليداً كأنه أمر من أوامر الدين ، إذا نظرنا إلى آثارهم بدا لنا أنهم قوم واقعيون لا يعنون بالسخافات التى لا صلة لها

بالأمور الدينية . ولا يقدرون الحياة تقديراً أساسه العاطفة ، يقتلون وضميرهم مستريح لأنهم لم يفعلوا ما يخالف الطبيعة البشرية . ولقد كان الجندى المصرى يقطع يمين العدو المقتول أو عورته ويأتى بها إلى الكاتب المختص ليسجل له عمله هذا فى صحيفة حسناته[١١٦] . وفقد الناس فى عهد الأسر المتأخرة عاداتهم وصفاتهم الحربية لطول ما أخلدوا إلى الأمن فى الداخل وإلى السلام فيما عدا الحروب البعيدة عن ديارهم ؛ وكانت نتيجة هذا أن فئة قليلة من جنود الرومان استطاعت أن تسيطر على مصر كلها[١١٧] .

وإذ كان أكثر ما نعرفه عن المصريين مستمدا من الآثار التى كشفت مقابرهم أو النقوش التى على جدران هياكلهم ، فقد خدعتنا هذه المصادفة المحضة فبالغنا فيما كانوا يتصفون به من جد ووقار . والحق أن بعض ما خلفوه من تماثيل ونقوش ، ومن قصص هزلية عن آلهتهم[١١٨] : ليشهد بأنهم كانوا على جانب غير قليل من المرح والفكاهة ، وقد كان لهم كثير من الألعاب والمهاريات العامة والخاصة « كالداما » والنرد[١١٩] ، وكانوا يقدمون اللعب والدمى لأطفالهم كالبلى والكرة النطاطة والخذروف ، وكانوا يعقدون مباريات فى المصارعة والملاكمة وصراع الثيران[١٢٠] ، وكان خدمهم يمسحون لهم فى أعيادهم ونزهتهم أجسامهم بالزيوت ، وكانوا يضعون على رءوسهم أكاليل الزهر ويسقون الخمور وتقدم لهم الهدايا .

ونستطيع استناداً إلى ما لدينا من رسومهم الملونة وتماثيلهم أن نصورهم خلقاً أقوياء الأجسام ، مفتولى العضلات ، عريضى المناكب ، مستدقى الخصور ، ممتلئى الشفاه ، منبسطى الأقدام لاعتيادهم الحفاء . وهذه الرسوم والتماثيل تمثل الطبقات العليا نحيفة القوام ، طويلة فى هيبة ، ذات وجوه بيضاء وجباه متحدرة منتظمة ، وأنوف طويلة مصفحة ، وعيون نجل ، وكانت بشرتهم بيضاء وقت مولدهم (تشهد بأنهم من أصل أسيوى لا إفريقى) ، ولكنها سرعان ما تلفحها شمس مصر فتسمر[١٢١] ، وقد جرى

العرف بين الفنانين المصريين على أن يرسموا الرجال حمراً والنساء صفراوات ؛ ولربما كان هذان اللونان مجرد طرازين من الزينة للرجال والنساء . هذا شأن الطبقات العليا . أما الرجل من عامة الشعب فكان يمثل بالصورة التي نرآها في تمثال شيخ البلد ، قصير القامة ، ممتلئ الجسم ، كاسي القصب ، وذلك لطول كده وطعامه غير المتزن . وكانت ملامحه خشنة ، وكان أفطس الأنف أخشمه ، ذكياً ولكنه خشن الطباع . ولربما كان الشعب وحكامه من سلالتين مختلفتين ، شأنهم في هذا شأن كثير من الشعوب : فلعل الحكام كانوا من أصل أسيوى وعامة الشعب من أصل إفريقي . وكان شعرهم أسود ، أجعد في بعض الأحيان ، وقلما كان قَطَطاً . وكان النساء يقصصن شعورهن كأحسن ما يقصصنه في هذه الأيام ، وكان الرجال يحلقون لحاهم ويخفون شواربهم ويزينون أنفسهم بشعور مستعارة فخمة . وكثيراً ما كانوا يقصون شعر رأسهم ليسهل عليهم لبس هذه الشعور المستعارة . وحتى زوجة الملك نفسها كانت تقص شعرها كله ليسهل عليها لبس التاج والشعر الملكي المستعار (كما ترى هذا في صورة تى أم إخناتون) . وكان من المراسم التي لا يستطيع الملك الخروج عليها أن يلبس أكبر ضفيرة مستعارة(١٢٢) .

وكانوا يستعينون بفنون التجميل على إصلاح عيوب أجسامهم كل منهم حسب موارده . فكانوا يحمرون أوجههم وشفاههم ويلونون أظافرهم ، ويدهنون أعضاء أجسامهم بالزيت ، وحتى تماثيل المصريات كانت تكحل عيونها . وكان ذوو اليسار منهم يضعون في قبور موتاهم سبعة أنواع من الأدهان ونوعين من الصبغة الحمراء . وقد وجدت بين آثارهم كميات كبيرة من أدوات الزينة ، والمرايا ، والمواسي ، وأدوات تجعيد الشعر ، ودبابيسه ، والأمشاط ، وصناديق الأدهان ، والصحاف والملاعق — مصنوعة من الخشب ، أو العاج ، أو المرمر ، أو البرنز ، ذات أشكال جميلة تتفق والأغراض التي تستخدم فيها . ولا تزال بعض أصباغ للعيون باقية في أنابيبها إلى يومنا هذا ، وليس الكحل الذي تستعمله النساء في هذه الأيام لتزيين حواجبهن ووجوههن إلا صورة أخرى من الزيت الذي كان المصريون

يستخدمونه فى غابر الأيام ، وقد وصلت إلينا هذه العادة عن طريق العرب ، واشتق من اسمه العربى « الكحل » لفظ « الكحول » الذى نستخدمه الآن ، وكانت العطور على اختلاف أنواعها تستخدم لتعطير الجسم والثياب ، كما كانت المنازل تبخر بالبخور والمر[١٢٣] .

وسارت ملابسهم فى جميع مراحل التطور من عرى البدائيين إلى أفخم ملابس عصر الإمبراطورية ، ففى أول الأمر كان الأطفال ذكوراً وأناساً يظلون حتى الثالثة عشرة من عمرهم عراة الأجسام إلا من الأقراط والقلائد . غير أن البنات كن يظهرن شيئاً من الخفر الخليق بهن فيتمنطقن بمنطقة من الخرز فى أوساطهن[١٢٤] . وكان الخدم والزراع يقتصرون على قطعة من القماش تستر عوراتهم . فلما كان عهد الدولة القديمة كان الأحرار من الرجال والنساء يسيرون وأجسامهم عارية من فوق السرة ، مغطى ما تحتها إلى الركبة بإزار قصير ضيق من الكتان الأبيض[١٢٥] ؛ ولما كان الحياء وليد العادة لا الطبيعة فإن هذه الثياب البسيطة كانت ترضى ضمير هؤلاء القوم ، كما كان الإنجليز فى العصر الفكتورى يرتضون النقبة (الجونيلا) والخصار(*) أو ثياب السهرة التى يلبسها الرجال من الأمريكيين فى هذه الأيام . وما أصدق القول المأثور : « ليست فضائلنا إلا معانى تخلعها الأيام على الأفعال والعادات » ؛ وحتى القساوسة أنفسهم فى عصر الأسر المصرية الأولى كانوا يكتفون بستر عوراتهم كما تشاهد ذلك فى تمثال رنوفر[١٢٦] . فلما زادت الثروة كثرت الملابس ، فأضفت الدولة الوسطى إزاراً ثانياً فوق الإزار الأول وأكبر منه ، وأضافت الدولة الحديثة غطاء للصدر ودثاراً للكتفين كان يلبس من حين إلى حين . وكان سائقو المركبات وسائسو الخيل يرتدون حللا فخمة كاملة ويعدون فى الشوارع بحللهم هذه ليفسحوا الطريق لمركبات أسيادهم . ونبذت النساء المئزر الضيق فى عصور الرخاء المتأخرة واستبدلن به ثوباً فضفاضاً

(*) مشد الخصر (الكورسيه) .

ينزل من الكتفين ويربط بمشبك تحت الثدى الأيمن . وظهرت الأثواب المطرزة ذات الأهداب المختلفة التى لا يحصى عديدها ، وتسربت الأنماط والطراز الحديثة إلى البيوت تسرب الأفاعى لتفسد على أصحابها جنة العرى البدائية(١٢٧) .

وكان الرجال والنساء سواء فى الشغف بالحلى والزينة ، فكانوا يحلون بالجواهر أعناقهم وصدورهم ، وأذرعهم ، ومعاصمهم ، وأرساغهم ، ولما عم الرخاء البلاد وزاد ثراء أهلها بما جاءها من خراج أملاكها فى آسية ، ومن مكاسب تجارة بلاد البحر المتوسط ، أصبح التحلى بالجواهر مطلباً يهواه جميع المصريين ، ولم يعد ميزة للطبقات الموسرة ؛ فكان لكل كاتب وتاجر خاتمه المصنوع من الفضة أو الذهب ، ولكل رجل خاتم فى إصبعه ، ولكل امرأة قلادة تزينها . وكانت هذه القلائد من أنماط لا حصر لها كما يدل على ذلك ما نراه منها اليوم فى المتاحف ، فمنها ما لا يزيد طوله على بوصتين أو ثلاث بوصات ، ومنها ما يبلغ طوله خمس أقدام ؛ ومنها ما هو سميك ثقيل ، ومنها ما يضارع « أجمل مخرمات مدينة البندقية خفة ولينا(١٢٨) » . وأضحت الأقراط فى الأسرة الثامنة عشرة حلية لا غنى عنها . فكان لا بد لكل شخص أن تخرق أذنه لتحلى بقرط ، ولم تختص بالأقراط النساء والبنات ، بل كان يتحلى بها أيضاً الأولاد والرجال(١٢٩) . وكان الرجال والنساء على السواء يزينون أجسامهم بالأساور والخواتم والأنواط والقلائد من الخرز والحجارة الثمينة . وملاك القول أن نساء مصر القديمة لن يتعلمن منا شيئاً عن أدهان الشعر والوجه والجواهر لو أنهن بعثن بيننا فى هذه الأيام .

٦ — القراءة والكتابة والتعليم

التعليم — مدارس الحكومة — الورق والحبر — مراحل
تطور الكتابة — أشكال الكتابة المصرية

كان الكهنة يلقنون أبناء الأسر الغنية مبادئ العلوم فى مدارس ملحقة بالهياكل كما هى الحال فى أبرشيات طوائف الكاثوليك الرومان فى هذه الأيام(١٣٠)

ويطلق أحد الكهنة — وقد كان يشغل المنصب الذى يصح أن نسميه فى هذه الأيام وزير المعارف — على نفسه اسم « رئيس الاصطبل الملكى للتعليم[١٣١] » ، وقد عثر فى خرائب إحدى المدارس التى يبدو أنها كانت جزءاً من بناء الرمسيوم على عدد كبير من المحار لا تزال دروس المعلم القديم ظاهرة عليها . وكان عمل المدرس فى تلك الأيام هو تخريج الكتبة للقيام بأعمال الدولة ، وكان المدرسون يستحثون تلاميذهم على الإقبال على التعليم بتدبيج المقالات البليغة يشرحون فيها مزاياه . من ذلك ما جاء فى إحدى البرديات : « أفرغ قلبك للعلم وأحبه كما تحب أمك ، فلا شىء فى العالم يعدل العلم فى قيمته » . وتقول بردية أخرى : « ليس ثمة وظيفـــة إلا لها من يسيطر عليها . لكن العالم وحده هو الذى يحكم نفسه » . وكتب أحد المولعين بمطالعة الكتب يقول : « إن من سوء الحظ أن يكون الإنسان جندياً ، وإن حرث الأرض لعمل ممل ، أما السعادة فلا تكون إلا فى توجيه القلب إلى الكتب فى النهار والقراءة فى الليل[١٣٢] » :

وقد وصلت إلينا كراسات من عهد الدولة الحديثة وفيها إصلاح المدرسين لأخطاء التلاميذ يزين هوامشها ، وهذه الأخطاء تبلغ من الكثرة حداً يجد فيه تلميذ اليوم كثيراً من السلوى[١٣٣] . وكان الإملاء ونقل النصوص أهم طرق التعليم ، وكانت هذه الدروس تكتب على الشقف أو على رقائق من حجر الجير[١٣٤] . وكان أكثر ما يعلم هو الموضوعات التجارية ، وذلك لأن المصريين كانوا أول الأقوام النفعيين ، وأعظمهم استمساكاً بالنظرية النفعية ، وكانت الفضيلة أهم الموضوعات التى يكتب فيها المعلمون وكانت مشكلة النظام أهم المشاكل التعليمية فى تلك الأيام ، كما هى أهم مشاكله فى الوقت الحاضر . وقد جاء فى إحدى الكراسات : « لا تضع وقتك فى التمنى ، وإلا ساءت عاقبتك ؛ اقرأ بفمك الكتاب الذى بيدك ؛ وخذ النصيحة ممن هو أعلم منك » . ولعل هذه العبارة الأخيرة من أقدم ما عرف من الحكم فى أية لغة من اللغات . وكان

النظام صارماً يقوم على أبسط المبادئ . وقد جاءت تلك العبارة المنمقة اللفظ فى إحـــدى المخطوطات : « إن للشباب ظهراً ، وهو يلتفت للدرس إذا ضرب . . . لأن أذنى الشاب فى ظهره » . وكتب تلميذ إلى مدرس سابق يقول : « لقد ضربت ظهرى ، فوصل تعليمك إلى أذنى » ومما يدل على أن هذا التدريب الحيوانى لم يفلح على الدوام ما جاء فى إحدى البرديات التى يأسف فيها مدرس لأن تلاميذه السابقين لا يحبون الكتب بقدر ما يحبون الخمر(١٣٥) .

لكن عدداً كبيراً من طلبة الهياكل تخرجوا رغم هذا على أيدى الكهنة ودخلوا المدارس العليا الملحقة بمكاتب خزانة الدولة . وفى هذه المدارس ، وهى أقدم ما عرف من المدارس التى تعلم نظم الحكم ، كان الكتبة يدرسون نظم الإدارة العامة ، حتى إذا ما أتموا دراستهم قضوا مدة التمرين عند بعض الموظفين يعلمونهم بكثرة ما يعهدون إليهم من الأعمال . ولعل هذه الطريقة فى الحصول على الموظفين العموميين وتدريبهم أفضل من الطريقة التى نتبعها نحن فى هذه الأيام طريقة اختيار الموظفين على أساس أقوال الناس فيهم ، واستعدادهم للطاعة والخضوع ، وما يثار حولهم من دعاوة . وعلى هذا النمط أنشأت مصر وبابل فى عصر واحد تقريباً أقدم ما عرف من النظم المدرسية فى التاريخ(١٣٦) ، ولم يرق نظام التعليم العام للشبان فيما بعد إلى هذا المستوى الذى بلغه فى أيام المصريين الأقدمين إلا فى القرن التاسع عشر .

وكان يسمح للطالب فى الفرق الراقية أن يستعمل الورق — وهو من أهم السلع فى التجارة المصرية ومن أعظم النعم الخالدة التى أنعم بها المصريون على العالم وكانت طريقة صنعه أن تقطع سوق نبات البردى شرائح توضع متقاطعة بعضها فوق بعض ثم تضغط ويصنع منها الورق عماد المدنية(١٣٧) ، (وأعظمها سخفاً) . وحسبنا دليلا على حسن صنعه أن ما كتب عليه من المخطوطات منذ خمسة آلاف عام لا يزال حتى الآن باقياً متماسكاً سهل القراءة . وكانت الكتب تصنع

من الأوراق بضمها بعضها إلى بعض وإلصاق الطرف الأيمن من واحدة بالطرف الأيسر من التي تليها ، فتكون منها ملفات يبلغ طول الواحد منها أحياناً نحو أربعين ياردة ، وقلما كانت تزيد على هذا في الطول لأن مصر لم يكن فيها مؤرخون مولعون بالحشو واللغو . وكانوا يصنعون حبراً أسود لا يتلاشى بمزج الصناج والصمغ النباتي بالماء على لوحة من الخشب . أما القلم فكان قطعة بسيطة من الغاب يعالج طرفها ليكون كقلم الرسام[١٣٨] .

وبهذه الأدوات الحديثة الطراز كان المصريون يكتبون أقدم الآداب ، ويرجح أن لغتهم قد جاءت من آسية ، وشاهد ذلك أن أقدم نماذج منها بينها وبين اللغات السامية شبه كبير[١٣٩] . ويبدو أن أقدم الكتابات المصرية كانت تصويرية — تعبر عن الشيء برسم صورة له . فكانت كلمة بيت مثلاً (وهي في اللغة المصرية بر) يرمز لها بشكل مستطيل ذي فتحة في أحد طوليه . ولما كانت بعض المعاني مجردة إلى حد يصعب معه تصويرها تصويراً حرفياً فقد استعيض عن التصوير بوضع رموز للمعاني ، فكانت بعض الصور تتخذ بحكم العادة والعرف للتعبير عن الفكرة التي توحي بها لا عن الشيء المصور نفسه ، فكان مقدم الأسد يعبر عن السيادة (كما هو في تمثال أبي الهول) ، وكان الزنبور يعبر عن الملكية ، وفرخ الضفدع عن الآلاف . ثم تطورت هذه الطريقة تطوراً جديداً في هذا الطريق نفسه ، فأصبحت المعاني المجردة التي عجزوا في بادئ الأمر عن تصويرها يعبر عنها برسم صور لأشياء تشبه أسماؤها مصادفة الألفاظ التي تعبر عن هذه المعاني . من ذلك أن صورة المِزْهر لم تكن تعني المزهر نفسه فحسب بل كان معناها أيضاً طيِّب أو صالح لأن منطق اسم المزهر في اللغة المصرية — نِفر — شبيه بمنطق اللفظ الذي يعبر عن معنى طيب أو صالح — نُفر — . ونشأت من هذا الجناس اللفظي ، أي من الألفاظ المتفقة في اللفظ ، والمختلفة المعنى — تراكيب غاية في الغرابة . من ذلك أن فعل الكينونة كان يعبر عنه في لغة الكلام بلفظ **خوبيرو** . وقد عجز الكاتب

المصرى فى أول الأمر عن إيجاد صورة يمثل بها هذا المعنى الشديد التجريد ، حتى اهتدى أخيراً إلى تقطيع الكلمة إلى ثلاثة مقاطع خو – پى – رو . ثم عبّر عن هذه المقاطع الثلاثة بصورّ الغربال (الذى يعبر عنه فى لغة الكلام بلفظ خو) وبالحصيرة (پى) وبالفم (رو) . وسرعان ما جعل العرف والعادة ، اللذان يخلعان القدسية على كثير من السخافات ، هذا الخليط العجيب من الحروف يوحى بفكرة الكينونة . وعلى هذا النحو عرف الكاتب المصرى مقاطع الكلمة ، والصوة التى ترمز لكل مقطع ، ومجموعة الصور التى ترمز لكل لفظ ، فكان الكُتّاب يقطعون الكلمة الصعبة مقاطع ، ويبحثون عن الألفاظ المشابهة لهذه المقاطع نفسها فى النطق والمغايرة لها فى المعنى ، ويرسمون مجموعة الأشياء المادية التى توحى بها أصواتها ، حتى استطاعوا فى آخر الأمر أن يعبروا بالعلامات الهيروغليفية عن كل ما يريدون ، فلا يكاد يوجد معنى من المعانى لا يستطيعون التعبير عنه بعلامة أو بمجموعة من العلامات .

ولم يكن بين هذا وبين اختراع الحروف الهجائية إلا خطوة واحدة . لقد كانت العلامة الدالة على البيت تعنى أولا كلمة البيت – برْ . ثم أصبحت رمزاً للصوت برْ ، ثم لهذين الحرفين أيا كانت حركاتهما وفى أية كلمة جاءتا ، ثم اختصرت الصورة واستخدمت للدلالة على الباء أيا كانت حركتها وفى أية كلمة كانت . وإذ كانت الحركات لا تكتب عقب الحروف بل تهمل كلية فإن هـــذه الصورة أصبحت تمثل حرف الباء . وعلى هذا النمط عينه أصبحت العلامة الدالة على اليد (وتنطق باللغة المصرية دُتْ) تعنى دُ ، دَ ثم أصبحت هى حرف د ، وكذلك صارت العلامة الدالة على الفم (رُ ، رَ) ثم أصبحت حرف ر ، والعلامة الدالة على الثعبان هى حرف ز ، وعلامة البحيرة (شى) هى حرف ش – الخ . وكانت نتيجـــة هذا التطور أن وجدت حروف هجائية عدتها أربعة وعشرون حرفاً انتقلت مع التجارة المصرية الفينيقية إلى جميع البلاد الواقعة حول البحر

المتوسط ، ثم انشرت عن طريق اليونان وروما حتى صارت أثمن ما ورثته الحضارة من بلاد الشرق[١٤٠] . والكتابة الهيروغليفية قديمة قدم الأسر المصرية الأولى ، أما الحروف الهجائية فكان أول ظهورها فى النقوش التى خلفها المصريون فى مناجم سيناء ، ويرجعها بعض المؤرخين إلى عام ٢٥٠٠ ق . م وبعضهم إلى عام ١٥٠٠ ق . م[١٤١](*) .

ولم يتخذ المصريون لهم كتابة قائمة كلها على الحروف الهجائية وحدها لحكمة فى ذلك أو لغير حكمة ، بل ظلوا إلى آخر عهود حضارتهم يخلطون بين حروفهم وبين الصور الدالة على الرموز وعلى الأفكار وعلى مقــاطع الكلمات . ومن أجل هذا صعب على العلماء أن يقرأوا الكتابة المصرية ، ولكن من السهل علينا أن نتصور أن هذا الخلط بين الكتابة بالطريقة المعتادة وبطريقة الاختزال قد سهل عملية الكتابة للمصريين الذين كانوا يجدون فسحة من الوقت لتعلمها . وإذ كانت أصوات الكلمات الإنجليزية لا تعد مرشداً أميناً لهجائها ، فإن الشــاب الذى يريد أن يتعلم أساليب الهجاء الإنجليزية يجد فيها من الصعوبة ما كان يجده الكاتب المصرى فى حفظ الخمسمائة رمز هيروغليفى ، ومعانيها المقطعية ، واستعمالاتها حروفاً هجائية . ومن أجل هذا نشأ شكل سريع سهل من أشكال الكتابة استخدم فى الكتابات العادية ، واحتفظ بالطراز الأول منها ليستخدم فى « النقوش المقدسة » على الآثار . وإذ كان الكهنة وكتبة الهياكل هم أول من مسّخ الكتابة الهيروغليفية على هذا النحو فقد أطلق اليونان عليها اسم الكتابة الهيراطية (المقدسة) ، ولكنها سرعان ما عم استخدامها فى الوثائق العامة والتجارية والخصوصية . ثم نشأ على يد الشعب نفسه نمط آخر من الكتابة أكثر من النمط الثانى اختصاراً

(*) يعتقد سير تشارلس مارستن معتمدا على أبحاثه الحديثة فى فلسطين أن الحروف الهجائيه من اختراع الساميين ، ويعزوها إلى إبراهيم الخليل نفسه[١٤٢] ويذكر لهذا أسبابا وهمية إلى أبعد حدود الوهم .

وأقل منه عناية ؛ ولذلك سمي بالكتابة الديموطيـــة (الشعبية) . لكن المصريين كانوا يصرون على ألا ينقشوا على آثارهم إلا الرموز الهيروغليفية الفاخرة الجميلة — ولعلها أجمل نمط من الكتابة عرف حتى الآن .

٧ — الآداب

النصوص ودور الكتب — السندباد المصرى — قصة سنوحى — الروايات الخيالية — قطعة غرامية — أشعار الحب — التاريخ — ثورة فى الأدب

إن معظم ما بقي من آداب مصر القديمة مدون بالكتابة الهيراطية ، وهذا القدر الباقى قليل لا يغنى ؛ ولهذا فإننا لا نستطيع الحكم على الأدب المصرى القديم إلا من هذه البقايا القليلة ، وهو حكم أعمى للمصادفة فيه النصيب الأوفر . ولعل الزمان قد عدا على أعظم شاعر فى مصر ، ولم يبق إلا شعراء البلاط . وقد كان للمصريين دور كتب ومخزنة عليها ؛ فقد كتب على قبر موظف كبير فى الأسرة الرابعة أنه «كاتب دار الكتب[١٤٢]» . ولسنا نعرف أكانت هذه الدار البدائية مستودعاً للأدب ، أم أنها لم تكن إلا مخزناً مترباً للسجلات والوثائق العامة . وأقدم ما بقى من الأدب المصرى القديم هو «نصوص الأهرام» وهى موضوعات دينية ورعة منقوشة على جدران خمسة من أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة(*)[١٤٣] . وقد وصلت إلينا مكتبات يرجع تاريخها إلى عام ٢٠٠٠ ق . م وتحوى برديات مطوية ومحفوظة فى جرار معنونة ومصفوفة على رفوف[١٤٥] . وعثر فى إحدى هذه الجرار على أقدم صورة من صور السندباد البحرى ، أو لعلنا نكون أقرب إلى الحقيقة إذا أسميناها أقدم صورة من صور قصة رُبنسن كروزو :

(*) ووجدت طائفة أخرى من النقوش الجنازية من عصر متأخر عن هذا مكتوبة بالحبر على السطح الداخلى لبعض التوابيت الخشبية التى صنعت لتوضع فيها جثث بعض النبلاء وكبار الموظفين فى أيام الدولة الوسطى . وقد أطلق برستد وغيره من العلماء عليها كلها اسم «نصوص التوابيت [١٤٤]» .

وهذه القصة « قصة الملاح الذى حطمت سفينته » قطعة من ترجمة ذاتية لحياة ملاح تفيض حياة وشعوراً . ويقول هذا الملاح القديم فى أحد سطورها قولا يذكرنا بقول دانتى : « ما أعظم سرور من يقص ما وقع له حين ينجو من كارثة حلت به ! » . يقول هذا الملاح فى مطلع هذه القصة :

« سأقص عليك شيئاً حدث لى حين يممت شطر مناجم الملك ونزلت البحر فى سفينة طولها مائة وثمانون قدماً وعرضها ستون، وفيها مائة وعشرون من صفوة الملاحين المصريين ، خبيرين بمعالم الأرض ومعالم السماء ، وقلوبهم أشد بأساً . . . من قلوب الآساد ، يتنبأون بأعاصير البحر وعواصف البر قبل أن تثور .

وهبت علينا عاصفة ونحن لا نزال فى البحر . . . ودفعتنا الرياح حتى كنا نطير أمامها . . . وثارت موجة علوها ثمان أذرع . . .

ثم تحطمت السفينة ، ولم ينج أحد ممن كان فيها ، وألقت بى موجة من أمواج البحر فى جزيرة ، قضيت فيها ثلاثة أيام بمفردى لا رفيق لى إلا قلبى ؛ أنام تحت شجرة وأعانق الظلال ، ثم مددت قدمى أبحث عما أستطيع أن أضعه فى فمى ؛ فوجدت أشجار التين والكروم وجميع صنوف الكراث الجميل . . . وكان فيها سمك ودجاج ولم ينقصها شىء قط . . . وبعد أن صنعت لنفسى جهازاً أوقد به النار أشعلتها وقربت للآلهة قرباناً مشوياً(١٤٦) » .

وتروى قصة أخرى مغامرات سنوحى ، وهو موظف فرّ من مصر على أثر وفاة أمنمحيت الأول ، وأخذ يتنقل من بلد إلى بلد فى الشرق الأدنى ، وحظى فيها بضروب من النعيم والشرف ولكنه رغم هذا لم يطق صبراً على ما حلّ به من آلام الوحدة والحنين إلى وطنه . وبرح به الألم آخر الأمر حتى ترك ثروته وعاد إلى مصر وقاسى فى طريقه إليها كثيراً من الشدائد والأهوال . وقد جاء فيها :

« ألا أيها الإله ، أياً كنت ، يا من قدّرت علىّ هذا الفرار ، أعدْنى إلى البيت (أى الملك) . ولعلك تسمح لى أن أرى الموضع الذى يقيم فيه قلبى ،

وأى شىء أعظم من أن تدفن جثتى فى الأرض التى ولدت فيها ؟ أعنّى على أمرى ! وليصبنى الخير ، وليرحمنى الله ! » .

ثم نراه بعدئذ وقد عاد إلى وطنه ، متعباً ، يعلوه العثير من طول السفر فى الصحراء ، يخشى أن ينتهره الملك لطول غيابه عن بلد يراه أهله — كما يرى الناس بلادهم سائر الأزمان — البلد المتحضر الوحيد فى العالم . ولكن الملك يعفو عنه ويحسن استقباله ويحبوه بكل أنواع العطور والأدهان :

« وأقمت فى بيت أحد أبناء الملك ، حيث توجد أفخر ضروب الأثاث ، وكان فيه حمام . . . وزالت عن جسمى آثار السنين الطوال ؛ وقص شعرى ، ومشط ، وطرح فى الصحراء حمل (من الأقذار ؟) وأعطيت الملابس (القذرة) لروّاد الرمال . وجىء لى بأرق الملابس الكتانية وعطّر جسمى بأحسن الزيوت »[١٤٧] .

أما القصص القصيرة فكثيرة متنوعة فيما وصل إلينا من بقايا الأدب المصرى القديم . ومن هذه قصص عجيبة بديعة عن الأطياف والمعجزات والتلفيقات العجيبة التى تخلب الألباب والتى لا تقل فى سبكها وقربها من الحقائق عن قصص الشرطة السرية التى يصدقها رجال الحكم فى هذه الأيام . ومنها روايات غرامية مكتوبة بعبارات طنانة رنانة عن الأمراء والأميرات ، والملوك ، والملكات ، ومن بينها أقدم مثال معروف لقصة سندرلا ، وقدمها الصغيرة الجميلة ، وحـذاؤها الجوال ، وانتهاء القصة بزواجها من ابن الملك[١٤٨] . وفيها قصص خرافية على لسان الطير والحيوان تفصح عن نقائص الآدميين وشهواتهم وعواطفهم ، وتهدف فى حكمة وتعقل إلى معان خلقية سامية[١٤٩] ، كأنما هى منقولة عن خرافات إيزوب ولافنتين .

ومن القصص المصرية التى تمزج الحوادث الطبيعية المعقولة بخوارق الطبيعة ، والتى تعد نموذجاً لغيرها من القصص المصرية ، قصة أنوپو وبيتيو ، وهما أخوان صغير وكبير ظلا يعيشان عيشة راضية سعيدة فى مزرعة لهما حتى هامت زوجة

أنوبو يحب بيتيو ، فردها عن نفسه ، فانتقمت منه بأن وشت به إلى أخيه واتهمته بأنه أراد بها سوءاً . وجاءت الآلهة والتماسيح لتعين بيتيو على أنوبو ولكن بيتيو ينفر من بنى الإنسان ويضيق بهم ذرعاً ويبتر نفسه ليبرهن بذلك على براءته ، ويعتزل العالم إلى الغابات كما فعل تيمن الأثيني(*) فيما بعد ؛ ويعلق قلبه فى أعلى زهرة فى شجرة لا يستطيع الوصول إليها أحد ؛ وتشفق عليه الآلهة فى وحدته فتخلق له زوجة رائعة الجمال يشغف النيل بحبها لفرط جمالها ، ويختلس غديرة من شعرها . وتحمل مياه النهر هذه الغديرة فيعثر عليها الملك ، فيسكره عطرها ، ويأمر أتباعه بالبحث عن صاحبتها . ويعثر هؤلاء عليها ويأتونه بها ، ويتزوجها ، وتدب فى قلبه الغيرة من بيتيو فيرسل رجاله ليقطعوا الشجرة التى علق عليها بيتيو قلبه ، ويقطعها هؤلاء ولا تكاد الزهرة تلمس الأرض حتى يموت بيتيو(١٥٠) . ألا ما أقل الفرق بين أذواقنا وأذواق من سبقونا من الخلق !

وكانت معظم الآداب المصرية الأولى آداباً دينية ، وأقدم القصائد المصرية ترانيم نصوص الأهرام . وصيغتها هى أيضاً أقدم الصيغ المعروفة لنا ، وهى عبارة عن تكرار المعنى الواحد بعبارات مختلفة ، وقد أخذ الشعراء العبرانيون عن المصريين والبابليين هذه الطريقة وخلدوها فى المزامير(١٥١) . وفى عصر الانتقال من الدولة القديمة إلى الدولة الوسطى تصطبغ الآداب تدريجاً بالصبغة الدنيوية « الدنسة » . وفى قطعة من بردية قديمة لمحة خاطفة تشير إلى طائفة من الأدب الوجدانى بقيت لنا لأن كاتباً من كتبة الدولة القديمة قد منعه الكسل أن يتم محو ما على هذه البردية من كتابة فبقى عليها خمسة وعشرون سطراً تستطاع قراءتها ، وتروى قصة لقاء بين راع وإحدى الإلهات . وتقول هذه القصة « إن الإلهة التقت بالراعى وهو سائر فى طريقه إلى البركة ، وكانت قد خلعت ملابسها وأرخت شعرها » . ويروى الشاعر ما حدث بعدئذ رواية الحذر الحريص فيقول :

(*) انظر قصة تيمن الأثيني فى ترجمتنا العربية لكتاب « قصص من شيكسبير » .

« إليك ما حدث حين نزلت إلى المستنقع . . . رأيت فيه امرأة لم تكن صورتها كصورة الخلائق الفانين . وانتصب شعرى قائماً على أطرافه حين أبصرت غدائرها ، وذلك لفرط جمالها وبهائها . ولن أفعل قط ما قالته لى ، فقد تملكت الرهبة منها جسدى »(١٥٢) .

ولدينا من أغانى الحب الجميلة عدد كبير ، ولكن معظمها يتحدث عن غرام الإخوة والأخوات(*) ، ولهذا تسخر منه أذن السامع فى هذه الأيام وتصطك لسماعه . ومن هذه الأغانى مجموعة سميت « الأغانى الجميلة السارة التى غنتها أختك حبيبة قلبك ، التى تسير فى الحقول » .

ولدينا وثيقة من عهد الأسرة التاسعة عشرة أو العشرين تضرب نغمة حديثة على أوتار الحب القديمة جاء فيها :

إن غرام حبيبتى يقفز على شاطئ الغدير ؛
وفى الظلام تمساح رابض ؛
ولكننى أنزل إلى الماء وأواجه الأمواج .
ويشتد بأسى فوق الغدير
ويكون الماء هو والأرض تحت قدمى سواء ،
لأن حبها يملأ قلبى قوة .
فهى لى كتاب من الرقى والتعاويذ .
وإذا رأيت حبيبتى مقبلة ابتهج لمرآها قلبى
وفتحت ذراعى ومددتهما لأضمها إلى صدرى
وينشرح قلبى أبد الدهر . . . لأن حبيبتى قد أقبلت .

(*) يظن بعض المؤرخين أن لفظى الأخ والأخت اللذين يردان فى الأغانى الغزلية المصرية لا يقصد بهما دائماً أن الفتى والفتاة ابنا أب واحد أو أم واحدة ، بل قد يكونان لفظى إعزاز يطلق على المحب أو المحبوبة . (المترجم)

فإذا ما ضممتها كنت كمن فى أرض البخور ،
وكمن يحمل العطور ،
وإذا قبلتها انفرجت شفتاها
وسكرتُ من غير خمر ،
يا ليتنى كنت جاريتها الزنجية التى تقف بين يديها
حتى أرى لون أعضائها كلها(١٥٣) .

وقد قسمنا نحن هذه السطور من عندنا على غير قاعدة ، وليس فى وسعنا أن نستدل من الصورة الأصلية لهذه الوثيقة على أن ما عليها شعر أو نثر . لقد كان المصريون يعرفون أن النغمة الموسيقية والعاطفة القلبية هما جوهر الشعر وقوامه ، فإذا ما وجدت النغمة والعاطفة فلن تهمهم الصورة الخارجية قط . على أن العبارات فى بعض الأحيان كان لها وزن يقاس بالنبرات . وكان الشاعر فى بعض الأحيان يبدأ كل جملة أو مقطوعة بنفس الكلمة التى بدأ بها غيرها من الجمل أو المقطوعات السابقة ، وكان يعمد أحياناً إلى الجناس اللفظى فيأتى بالألفاظ المتشابهة فى أصواتها ذات المعانى المختلفة أو المتناقضة ، وتدل النصوص على أن تجنيس الأحرف فى أوائل الكلمات المتتابعة قديم قدم الأهرام نفسها(١٥٤) . وكان حسب المصريين هذه الصيغ المسيطة ، فقد كان فى مقدور شاعرهم أن يعبر بها عن كل لون من ألوان الحب العذرى الذى يظن نيتشه أنه من اختراع شعراء الفروسية الغزلين فى أوربا فى العصور الوسطى وتدل بردية هرسى على أن المرأة كانت تستطيع أن تعبر عن هذه العواطف كما يعبر عنها الرجل :

أنا أختك الأولى ،
وأنت لى كالروضة
التى زرعت فيها الأزهار
والأعشاب العطرة جميعها ؛

وأجريتُ فيها غديراً
لكى تضع فيها يدك
إذا ما هبت ريح الشمال باردة .
وهى المكان الجميل الذى نتنزه فيه
حين تكون يدى فى يدك .
يفكر عقلانا ويبتهج قلبانا
لأننا نسير معاً ؛
إن سماع صوتك ليسكرنى ،
وحياتى كلها فى سماعك ،
وإن رؤيتك
لأحب إلىّ من الطعام والشراب[١٥٥] .

وإذا نظرنا إلى هذه القطع الباقية فى مجموعها اعترتنا الدهشة من تباين موضوعاتها ، فهى تشمل رسائل رسمية ، ووثائق قانونية ، وقصصاً تاريخية ، وطلاسم سحرية ، وترنيمات مجهدة ، وكتباً دينية مليئة بعبارات التقى والورع ، وأغانى الحب والحرب ، وأقاصيص غرامية قصيرة ، ونصائح تحضّ على حُسن الخلُق ، ومقالات فلسفية ، وجملة القول أن فيها مثلا من كل شىء عدا الملاحم والتمثيليات ، وحتى هذه يستطيع الإنسان أن يقول مع بعض التجاوز إن فيها أمثلة منها . وإن قصة النصر الذى أحرزه رمسيس الثانى بجرأته المدهشة والتى نقشت شعراً على حجارة أبواب الأقصر العظيمة لهى ملحمة على الأقل فى طولها وفيما تبعثه فى نفس قارئها من ملل . ويتباهى رمسيس الرابع فى نقش آخر بأنه فى بعض الألعاب قد حمى أوزير من ست وأعاد الحياة إلى أوزير[١٥٦] . وليس لدينا من المعلومات ما نستطيع به أن نبسط القول فى معنى هذه الإشارة .

وكتابة التاريخ فى مصر قديمة قدم التاريخ نفسه ، بل إن ملوك عصر ما قبل

الأسر كانوا يحتفظون بسجلات تاريخية تفاخراً وإعجاباً بأنفسهم(١٥٧) . وكان المؤرخـــون الرسميون يصحبون الملوك فى حملاتهم ، ولكنهم لا يصورون هزائمهم ، بل يسجلون ، أو يخترعون من عندهم ، تفاصيل نصرهم ، لأن كتابة التاريخ كانت قد أضحت حتى فى ذلك العصر البعيد للزينة والتجمل . وأخذ العلماء المصريون من عام ٢٥٠٠ ق . م يكتبون قوائم بأسماء ملوكهم ، ويؤرخون السنين بحكمهم ، ويذكرون الحوادث الهامة فى كل حكم وفى كل عام . فلما تولى تحتمس الثالث الملك كانت هذه الوثائق قد أصبحت تواريخ بحق ، تفيض بالعواطف الوطنية(١٥٨) . وكان فلاسفة الدولة الوسطى يرون أن الإنسان والتاريخ نفسه قد تقادم بهما العهد وأضنتهما الشيخوخة ، وأخذوا يندبون ما انقضى من شباب جنسهم الفنى . وشكا عالم فى عهد سنوسريت الثانى أى حوالى ٢١٥٠ ق . م من أن كل ما يمكن أن يقال قد قيل من عهد بعيد ، ومن أن الأدب لم يبق له ما يقوله إلا التكرار . وقال فى أسى وحسرة : « ألا ليتنى أجد ألفاظاً لم يعرفها الناس ، وعبارات وأقوالا بلغة جديدة لم ينقض عهدها ، وليس فيها تلوكه الألسن أقوال لم تصبح تافهة مملة ، ولم يقلها آباؤنا من قبل »(١٥٩) .

ولقد أخفى تقادم العهد ما فى الأدب المصرى من تباين كما يخفى ما بين أفراد الشعوب غير المألوفة للإنسان من فروق . بيد أن الآداب المصرية فى خلال تطورها الطويل قد مرت بحركات ونزعات لا تقل فى تباينها عن الحركات والنزعات التى اضطرب بها تاريخ الآداب الأوربية . وتغيرت لغة الكلام فى مصر تغيراً تدريجياً على مر الزمان ، كما تغيرت لغة الكلام فى أوربا من بعد ، حتى أصبحت هذه اللغة فى آخر الأمر وكأنها لغة أخرى غير التى دونت بها كتب الدولة القديمة . وظل المؤلفون وقتاً ما يكتبون باللغة الأولى ، وظل العلماء يدرسونها فى المدارس والطلاب لا يجدون مندوحة من دراسة « الآداب القديمة » مستعينين بكتب النحو والمعاجم وبالتراجم التى « بين السطور » فى بعض الأحيان . فلما كان القرن الرابع عشر قبل الميلاد ثار

المؤلفون المصريون على هذا الخضوع المزرى للتقاليد ، وفعلوا مثل ما فعل دانتى وتشوسر من بعد ، فأقدموا على الكتابة بلغة الشعب ، ولقد كتبت ترنيمة إخناتون للشمس ، وهى الترنيمة الذائعة الصيت ، باللغة الدارجة .

وكان الأدب الجديد أدباً واقعياً ، فتياً ، مبهجاً . وكان يسر منشئيه أن يسخروا من الأدب القديم ويصفوا الحياة الجديدة . ثم فعل الزمن فعله بهذه اللغة الجديدة فأصبحت هى أيضاً لغة أدبية لها أصولها وقواعدها رقيقة دقيقة ، جامدة مقيدة فى ألفاظها وتعبيراتها بما جرى عليه العرف . واختلفت مرة أخرى لغة الكتابة عن لغة الكلام وانتشر التحذلق ، حتى كانت المدارس المصرية فى عصر ملوك ساو تقضى نصف وقتها فى دراسة « الآداب القديمة » آداب عهد إخناتون وترجمتها(١٦٠) . وحدث مثل هذا التطور فى اللغات القومية فى عهد اليونان والرومان والغرب ، ولا يزال يجرى فى مجراه فى هذه الأيام ، ذلك أن كل شىء يسير ولا يبقى جامداً لا يتغير إلا العلماء .

٨ — العلوم

منشأ العلوم المصرية — الرياضيات — علم الفلك والتقويم — التشريح ووظائف الأعضاء — الطب والجراحة والقوانين الصحية

كان معظم علماء مصر من الكهنة ، وذلك لأنهم بعيدون عن صخب الحياة وضجيجها ، يتمتعون بما فى الهياكل من راحة وطمأنينة ، فكانوا هم الذين وضعوا أسس العلوم المصرية رغم ما كان فى عقائدهم من خرافات . وهم يقولون فى أساطيرهم إن العلوم قد اخترعها من ١٨٫٠٠٠ سنة قبل الميلاد تحوت إله الحكمة المصرى فى خلال حكمه على ظهر الأرض البالغ ثلاثة آلاف من الأعوام ، وإن أقدم الكتب فى كل علم من العلوم كانت من بين العشرين ألف مجلد التى وضعها هذا الإله

العالم[١٦١] (*) . وليس لدينا من العلم ما نستطيع به أن نفصل القول فى نظرية نشأة العلوم فى مصر .

وحسبنا أن نقول إنا نجد العلوم الرياضية متقدمة أعظم تقدم منذ بداية تاريخ مصر المدوّن ، وشاهد ذلك أن تصميم الأهرام وتشييدها يتطلبان دقة فى القياس لا يستطاع الوصول إليها بغير معرفة واسعة العلوم الرياضية ، وقد أدى اعتماد الحياة فى مصر على ارتفاع النيل وانخفاضه إلى العناية بتسجيل هذا الارتفاع والانخفاض وإلى حسابهما حساباً دقيقاً . وكان المساحون والكتبة لا ينقطعون عن قياس الأراضى التى محا الفيضان معالم حدودها ، وما من شك فى أن القياس كان منشأ فن الهندسة ، وشاهد ذلك أن اسمه الأجنبى (gsometry) مشتق من كلمتين معناهما قياس الأرض[١٦٣] . والأقدمون كلهم تقريباً مجمعون على أن هذا العلم من وضع المصريين[١٦٤] ، وإن كان يوسفوس يظن أن إبراهيم قد جاء بالحساب من كلديا (أى من أرض الجزيرة) إلى مصر[١٦٥] ، وليس من المستحيل أن يكون الحساب وغيره من العلوم والفنون قد جاءت إلى مصر من « أور الكلدان » أو من غيرها من مراكز آسيا الغربية .

وكانت الأرقام سمجة متعبة — فقد كان رقم ١ يمثل له بشرطة ، ورقم ٢ بشرطتين ، و٣ بثلاث شرط ... و٩ بتسع شرط ، وتمثل العشرة بعلامة خاصة والعشرون باثنتين من هذه العلامات والثلاثون بثلاث منها ... والتسعون بتسع والمائة بعلامة أخرى جديدة والمائتين بعلامتين والثلثمائة بثلاث علامات ... والتسعمائة كفًّا بكف فوق رأسه كأنه يعبر عن دهشته من وجود مثل هذا العدد

(*) وهذا ما يؤكده لنا يمبلكس (حوالى ٣٠٠ ب . م) أما منيثون المؤرخ المصرى الذى عاش حوالى عام ٣٠٠ ق . م فيرى أن هذا التقدير لا ينصف الإله ، ويقدر عدد ما وضع تحوت من الكتب بستة وثلاثين ألف كتاب . وكان اليونان يعظمون تحوت ويسمونه هرمس ترسمجستس — هرمس (عطارد) المثلث العظمة[١٦٢] .

الكبير[١٦٦] . وكاد المصريون أن يصلوا إلى الطريقة العشرية في الأعداد ؛ وإن لم يعرفوا الصِّفْر أو يصلوا قط إلى فكرة التعبير عن جميع الأعداد بعشرة أرقام ، بل كانوا يعبرون عن رقم ٩٩٩ مثلا بسبع وعشرين علامة[١٦٧] . وكانوا يعرفون الكسور الاعتيادية ، ولكن بسط هذه الكسور كان رقم ١ على الدوام ؛ فكانوا إذا أرادوا كتابة $\frac{٣}{٤}$ كتبوها $\frac{١}{٢}$ + $\frac{١}{٤}$ (*) . وجداول الضرب والقسمة قديمة قِدم الأهرام ، وأقدم رسالة في الرياضة عرفت في التاريخ هي بردية أحمس التي يرجع تاريخها إلى ما بين عام ألفين وألف وسبعمائة قبل الميلاد ؛ ولكن هذه البردية نفسها تشير إلى كتابات رياضية أقدم منها بخمسمائة عام . وهي تحسب سعة مخزن للغلال أو مساحة حقل وتضرب لهذا الحساب أمثلة ، ثم تنتقل من هذا إلى معادلات جبرية من الدرجة الأولى[١٦٨] . ولم تقتصر الهندسة المصرية على قياس مساحات المربعات والدوائر والمكعبات ، بل كانت تقيس أيضاً أحكام الاسطوانات والكرات ، وقد وصلت إلى تقدير النسبة التقريبية بـ ١٦ر٣[١٦٩] . وما أعظم فخرنا إذا استطعنا في أربعة آلاف عام أن نتقدم في حساب هذه النسبة التقريبية من ١٦ر٣ إلى ١٤١٦ر٣ .

ولسنا نعرف شيئاً عما وصل إليه المصريون في علمي الطبيعة والكيمياء ، ولا نكاد نعرف شيئاً عما وصلوا إليه في علم الفلك . ويلوح أن راصدي النجوم في الهياكل كانوا يظنون الأرض صندوقاً مستطيلا تقوم في أركانه الجبال لتمسك السماء[١٧٠] . ولم يشيروا بشيء إلى الخسوف والكسوف ، وكانوا في هذا العلم بوجه عام أقل رقيا من معاصريهم في أرض النهرين ، ولكنهم مع هذا كانوا يعرفون منه ما يكفي للتنبؤ باليوم الذي يرتفع فيه النيل ، وأن يتجهوا بهياكلهم نحو الشرق في النقطة التي تشرق منها الشمس في صباح يوم الانقلاب الصيفي[١٧١] . ولربما كانوا

(*) لقد ظل الكتبة في التفاتيش الزراعية إلى عهد قريب يعبرون عن الـ $\frac{٣}{٤}$ فيما يسمونه صورة الفدان بقولهم $\frac{١}{٢}$ ، $\frac{١}{٤}$. (المترجم)

يعرفون أكثر مما عنوا بإذاعته بين شعب كانت خدماته عظيمة القيمة لحكامه . وكان الكهنة يرون أن دراساتهم الفلكية من العلوم السرية الخفية التي لا يحبون أن يكشفوا أسرارها للسوقة من الناس[١٧٢] . وظلوا قروناً طوالا متتالية يتبعون مواقع الكواكب وحركاتها حتى شملت سجلاتهم في هذه الناحية آلاف السنين . وكانوا يميزون الكواكب السيارة من النجوم الثوابت ، وذكروا في فهارسهم نجوماً من القدر الخامس (وهي لا تكاد ترى بالعين العادية) وسجلوا ما ظنوه أثر نجوم السماء في مصائر البشر . ومن هـذه الملاحظات أنشأوا التقويم الذي أصبح فيما بعد من أعظم ما أورثه المصريون بني الإنسان .

وبدأوا تقسيم السنة إلى ثلاثة فصول في كل واحد منها أربعة شهور ، أولها فصل ارتفاع النيل وفيضه وانحساره ، وثانيها فصل الزرع ، وثالثها فصل الحصاد . وكانت عدة كل شهر من شهورهم ثلاثين يوماً لأن هذا العدد هو أقرب الأعداد السهلة إلى طول الشهر القمري الذي يبلغ تسعة وعشرين يوماً ونصف يوم . وكان لفظ الشهر في لغتهم كما هو في اللغة الإنجليزية مشتقاً من رمزهم للقمر(*) . وكانوا يضيفون بعد آخر الشهر الثاني عشر خمسة أيام حتى تتفق السـنة في الحساب مع فيضان النهر ومع مواقع الشمس[١٧٤] . واختاروا لبدء السنة اليوم الذي يصل فيه النيل عادة إلى أقصى ارتفاعه والذي كانت فيه الشعرى العظيمة (وكانوا يسمونها سوثيس) تشرق مع الشمس في وقت واحد . ولما كان التقويم المصري يجعل السـنة ٣٦٥ يوماً بدل ٣٦٥¼ ، فإن الفرق بين شروق الشعرى وشروق الشمس وهو الذي كان في أول الأمر صـغيراً لا يكاد يدرك قد ازداد حتى

(*) لقد كانت الساعة المائية معروفة عند المصريين من زمن بعيد ، ومن أجل هـذا كانوا يعزون اختراعها إلى تحوت إلههم المتعدد الكفايات . وأقدم الساعات الموجودة لدينا يرجع عهدها إلى أيام تحتمس الثالث ، وهي الآن في متحف برلين . وتتكون من قضيب من الخشب مقسم ستة أقسام تمثل ست ساعات وفوقه قطعة مستعرضة وضعت بحيث يدل ظلها الواقع على القضيب على الساعة قبل الظهر أو بعده(١٧٣) .

بلغ يوماً كاملا فى كل أربع سنين . وبذلك كان التقويم المصرى يختلف عن التقويم السماوى الحقيقى بست ساعات فى كل عام . ولم يصحح المصريون قط هذا الخطأ ، حتى جاء فلكيو الإسكندرية اليونان فأصلحوه بأمر يوليوس قيصر (فى عام ٤٦ ق . م) وذلك بإضافة يوم بعد كل أربع سنين . وهذا هو ما يسمونه التقويم اليوليسى . ثم صحح التقويم تصحيحاً أدق فى عهد البابا جريجورى الثالث عشر (١٥٨٢) وذلك بحذف هذا اليوم الزائد (وهو اليوم التاسع والعشرون من فبراير) من السنين المتممة للمئات التى لا تقبل القسمة على ٤٠٠ ، وهذا هو « التقويم الجريجورى » الذى نستخدمه اليوم . وجملة القول أن تقويمنا فى جوهره من وضع الشرق الأدنى القديم[١٢٥](*) .

(*) لما كان شروق الشعرى منسوبا إلى الشمس يتأخر يوماً كاملا فى كل أربع سنين عما يتطلبه التقويم المصرى ليكون الشروقان متفقين على الدوام ، فإن هذا الخطأ يبلغ ٣٦٥ يوماً فى كل ١٤٦٠ عاماً . وحين تكمل هذه الدورة السوثية (كما كان المصريون الاقدمون يسمونها) يعود التقويم المكتوب والتقويم السماوى إلى الاتفاق . وإذ كنا نعرف من سنوريس المؤلف اللاتينى أن شروق الشعرى الشمسى (منسوباً إلى شروق الشمس) وقد اتفق فى عام ١٢٩ ق . م مع بداية سنة التقويم المصرى القديم ، فإن من حقنا أن نفترض أن هذا التوافق بعينه كان يحدث فى كل ١٤٦٠ سنة قبل ذلك التاريخ الأخير ، أى فى عام ١٣٢١ ق . م ، وفى عام ٢٧٨١ ق . م ، وفى عام ٤٢٤١ ق . م الخ الخ . ولما كان من الواضح أن التقويم المصرى قد وضع فى سنة كان فيها شروق الشعرى الشمسى (أى المنسوب إلى الشمس) قد وقع فى أول يوم من أول شهور السنة ، فإنا نستدل من هذا على أن ذلك التقويم قد بدأ العمل به فى سنة كانت فاتحة دورة سوثية . وقد ورد ذكر التقويم المصرى الأول مرة فى النصوص الدينية المنقوشة فى أهرام الأسرة الرابعة . ولما كان عهد تلك الأسرة يرجع بلا جدال إلى ما قبل عام ١٣٢١ ق . م ، فإن التقويم لا بد أن يكون قد وضع فى عام ٢٧٨١ ق . م أو فى عام ٤٢٤١ ق . م أو قبل هاتين السنتين . وكان الاعتقاد السائد أن أقدم العامين أى عام ٤٢٤١ ق . م هو أول ما حدد من الأعوام فى تاريخ العالم ، ولكن الأستاذ شارف **Scharf** يعارض فى هذا ، وليس ببعيد أن نضطر إلى الأخذ بالرأى الثانى وهو أن عام ٢٧٨١ أو عاما قريباً منه هو مولد التقويم المصرى القديم . فإن صح هذا وجب أن نصحح التواريخ السالفة الذكر والتى حددناها لحكم الأسرة الأولى وتشييد الأهرام العظيمة بحيث تكون أقرب إلينا بنحو ثلثمائة عام أو أربعمائة ولما كان هذا الموضوع لا يزال مثاراً للجدل فقد اعتمدنا فى هذا الكتاب على التواريخ الواردة فى كتاب التاريخ القديم لجامعة كبردج (**Cambridge Ancient History**)

ولم يتقدم المصريون فى دراسة جسد الإنسان تقدماً يستحق الذكر رغم ما أتاحه لهم فن التحنيط من فرص لهذه الدراسة . فقد كانوا يظنون أن الأوعية الدموية تحمل هواء وماء ونفايات من السوائل . وكانوا يعتقدون أن القلب والأمعاء مركز العقل . ولعلنا إذا عرفنا ما كانوا يقصدونه بهذه المصطلحات لا نجدهم يختلفون عنا كثيراً فى معتقداتنا الأكيدة التى لا نثبت عليها إلا قليلا . ولكنهم وصفوا بكثير من الدقة العظام الكبرى والأمعاء ، وعرفوا أن القلب هو القوة الدافعة فى الكائنات الحية ، وأنه مركز الدورة الدموية . وقد جاء فى بردية إيبرز[١٧٦] أن « أوعيته تتفرع إلى جميع أعضاء الجسد ، فسواء وضع الطبيب إصبعه على جبهة الإنسان ، أو على موخر الرأس ، أو على اليدين ... أو على القدمين فإنه يلتقى بالقلب فى كل مكان » . ولم يكن بين هذا وبين أقوال ليوناردو وهارفى إلا خطوة واحـــدة — ولكنها خطوة تطلبت ثلاثة آلاف عام .

أما أكبر مفخرة علمية للمصريين فهى علم الطب . وكان الكهنة هم البادئين به كما أن فيه من الشواهد ما يدل على أن هذه البداية قد نبتت من السحر. وشأن الطب فى هذا يكاد يكون شأن كل شىء آخر فى حياة مصر الثقافية . وكانت التمائم أكثر شيوعاً بين الناس من حبوب الدواء لعلاج الأمراض أو للوقاية منها . وكان المرض فى اعتقادهم هو تقمص الشياطين الجسم ، وعلاجه هو تلاوة العزائم ؛ فقد كان الزكام مثلا يعالج بمثل هذه العبارات السحرية : « اخرج أيها البرد يا ابن البرد ، يا من تهشم العظم ، وتتلف الجمجمة ، وتمرض مخارج الرأس السبعة . اخرج على الأرض . دفر . دفر . دفر ! »[١٧٧] — وأكبر الظن أن هذا علاج لا يقل فى مفعوله عن أى علاج نعرفه اليوم لهذا المرض القديم .

ثم نرتفع فى مصر من هذه الأعماق إلى الأطباء العظام والجراحين والإخصائيين الذين ساروا فى صناعة الطب على قانون أخلاقى ظل يتوارث جيلا بعد جيل حتى وصل إلى القَسَم الذائع الصيت قسم أبقراط[١٧٨] . وكان

من المصريين إخصائيون فى التوليد وفى أمراض النساء ، ومنهم من لم يكن يعالج إلا اضطرابات المعدة ، ومنهم أطباء العيون . وقد بلغ من شهرة هؤلاء أن قورش استدعى واحداً منهم إلى بلاد الفرس(١٧٩) . أولئك هم الإخصائيون ، أما غير الإخصائيين منهم فقد ترك لهم جمع الفتات بعد هؤلاء وعلاج الفقراء من الناس ؛ وكان من عملهم فوق هذا أن يحضروا أدهان الوجه ، وصبغات الشعر ، وتجميل الجلد ، وأعضاء الجسم ومبيدات البراغيث(١٨٠) .

وقد وصلت إلينا عدة برديات تبحث فى الشئون الطبية . وأعظمها قيمة بردية إدون اسمث ، وسميت كذلك نسبة إلى مستكشفها ؛ وهى ملف طوله خمس عشرة قدماً ، ويرجع تاريخها إلى عام ١٦٠٠ ق . م تقريباً وتعتمد على مراجع أقدم منها كثيراً . وحتى لو ضربنا صفحاً عن هذه المراجع الأولى لظلت هذه البردية نفسها أقدم وثيقة علمية معروفة فى التاريخ . وهى تصف ثمانى وأربعين حالة من حالات الجراحة التطبيقية تختلف عن كسر فى الجمجمة إلى إصابة النخاع الشوكى . وكل حالة من الحالات الواردة فيها مبحوثة بحثاً دقيقاً فى نظام منطقى ذى عناوين مرتبة من تشخيص ابتدائى مؤقت ، وفحص ، وبحث فى الأعراض المشتركة بين أمراض مختلفة ، وتشخيص العلة ، والاستدلال بأعراضها على عواقبها وطريقة علاجها ، ثم تعليقات على المصطلحات العلمية الواردة فيها وشروح لها . ويشير المؤلف فى وضوح لا نجد له مثيلا قبل القرن الثامن عشر الميلادى إلى أن المركز المسيطر على الطرفين السفليين من أطراف الجسم كائن فى المخ » . وتلك أول مرة يظهر فيها هذا اللفظ فى عالم الطب(١٨١) .

وكان المصريون يستمتعون بطائفة كبيرة من الأمراض المتنوعة ، وإن كانوا قد قضى عليهم أن يموتوا بها من غير أن يعرفوا أسماءها اليونانية . وتحدثنا برديات‍هم وأجسامهم المحنطة عن تدرن النخاع الشوكى وتصلب الشرايين ، والحصوات الصفراوية ، والجدرى وشلل الأطفال ، وفقر الدم ، والتهاب المفاصل ، والصرع

والنقرس ، والتهاب النتوء الحلمى ، والتهاب الزائدة الدودية ، وبعض الأمراض العجيبة . كالالتهاب الفقرى الأشوه ، وما يعترى نمو كراديس العظام الطويلة من نقص . وليست لدينا دلائل تثبت إصابتهم بالزهرى أو السرطان ، ولكن تقيح اللثة وتسوس الأسنان وهما اللذان لا أثر لهما فى أقدم الجثث المحنطة القديمة يظهران بكثرة فى الجثث المحنطة الباقية من العهود المتأخرة ؛ وذلك دليل على تقدم الحضارة فى هذه العهود . وكان ضمور عظم الإصبع الصغرى من أصابع القدم وانعدامها — وهى حالة كثيراً ما يعزى سببها إلى الأحذية الحديثة — من الحالات المنتشرة فى مصر القديمة ، حيث كان الأهلون على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم يسيرون كلهم تقريباً حفاة[١٨٣] .

وكان لدى الأطباء المصريين عدة وافية من القراباذينات (دساتير الأدوية) لمقاومة هذه الأمراض كلها . ففى بردية إيبرز ثبت بأسماء سبعمائة دواء لكل الأدواء المعروفة ، من عضة الأفعى إلى حمى النفاس ، وتصف بردية كاهون (ويرجع عهدها إلى حوالى عام ١٨٥٠ ق . م) أقماع اللبوس ولعلها كانت تستخدم لمنع الحمل[١٨٢] . وقد عثر فى قبر إحدى ملكات الأسرة الحادية عشرة على صندوق للأدوية يحتوى على مزهريات ، وملاعق ، وعقاقير جافة ، وجذور . وكانت الوصفات الطبية تتذبذب بين الطب والسحر . وكان مفعول الخليط فى رأيهم يتناسب مع اشمئزاز النفس منه . ومما تصفه تذاكر الأطباء دم العظاية (السحلية) وأذن الخنزير وأسنانه ، واللحم والدهن النتن ، ومخ السلحفاة ، وكتاب قديم مقلى فى الزيت ، ولبن النفساء ، وماء المرأة الطاهرة وبراز الرجال والحمير والكلاب والآساد والقطط والقمل — كل هذه واردة فى تذاكر الأطباء . وكان الصلع يعالج بتدليك الرأس بدهن الحيوان . وقد انتقلت بعض هذه الوسائل العلاجية من المصريين إلى اليونان ، ثم انتقلت من اليونان إلى الرومان ، ومن الرومان إلينا . ولا نزال إلى اليوم نتجرع فى ثقة واطمئنان كثيراً من الأدوية التى خلطها

وجهزها لنا المصريون على شاطئ النيل فى أقدم الأزمان(١٨٣) .

ولقد حاول المصريون أن يحافظوا على صحة أجسامهم باتباع الوسائل الصحية العامة(*) ، وبختان الذكور(١٨٥)(**) وبتعويد الناس أن يكثروا من استخدام الحقن الشرجية . ويقول ديودور الصقلى فى هذا المعنى :

وهم يتقون الأمراض بالمحافظة على صحة أجسامهم وذلك باستخدام المليِّنات وبالصوم وبالمقيئات ، كل يوم فى بعض الأحيان وكل ثلاثة أيام أو أربعة فى البعض الآخر ، وذلك لأنهم يقولون إن الجزء الأكبر مما يدخل فى الجسم من طعام يزيد على حاجته ، وإن الأمراض إنما تنشأ من هذا القدر الزائد(†)

ويعتقد بلنى أن المصريين قد تعلموا عادة استخدام الحقن الشرجية من الطائر المعروف « بأبى منجل » ، وهو طائر يقاوم الإمساك الناشئ من طبيعة ما يتناوله من الطعام بإدخال منقاره الطويل فى دبره واستخدامه كالمحقن(١٨٨) . ويروى هيرودوت أن المصريين كانوا « يظهرون أجسامهم مرة فى كل شهر ثلاثة أيام متوالية ، ويعملون على حفظ صحتهم بالمقيئات والحقن الشرجية ، لأنهم يظنون أن جميع ما يصيب الناس من الأمراض إنما ينشأ مما يأكلون من الطعام ، وهذا المؤرخ — وهو أول مؤرخ للحضارة — يصف المصريين بأنهم بعد اللوبيين أصح شعوب العالم أجساماً(١٨٩) .

(*) وقد كشفت أعمال الحفر عن طريقة كانت تتبع لجمع ماء المطر وتصريف الفضلات بأنابيب من النحاس .

(**) وفى أقدم القبور شواهد دالة على هذه العادة

(†) إن المثل الحديث الذى يقول إننا نعيش على ربع ما نأكل وإن الأطباء يعيشون على الثلاثة الأرباع الباقية لمن أقدم الأمثال .

٩ — الفن

العمارة — النحت فى الدولة القديمة والدولة الوسطى والإمبراطورية وفى عهد الملوك الساويين — النقوش القليلة البروز — التصوير — الفنون الصغرى — الموسيقى — الفنون

كان الفن أعظم عناصر هذه الحضارة ؛ فنحن نجد فى هذه البلاد ، وفى عهد يكاد يكون عهد بداية الحضارات ، فناً قوياً ناضجاً أرقى من فن أية دولة حديثة ، ولا يضارعه إلا فن اليونان . لقد كان ما امتازت به مصر فى أول عهودها من عزلة وسلم ، ثم ما تدفق فيها بعدئذ من مغانم الظلم والحرب فى عهد تحتمس الثالث ورمسيس الثانى ، مما أتاح لها الفرصة المواتية والوسائل الكافية لتشييد المبانى الضخمة ، ونحت التماثيل المتينة ، والبراعة فى عدة فنون أخرى صغيرة ، كادت تبلغ حد الكمال فى هذا العهد السحيق . وإن المرء ليقف حائراً مشدوهاً لا يكاد يصدق ما وضعه الباحثون من نظريات لتطور الرقى البشرى إلى منتجات الفن المصرى القديم .

وكانت العمارة(*) أفخم الفنون المصرية على الإطلاق ، وذلك لما تجمع فيها من روعة وضخامة وصلابة وجمال ومنفعة . وقد بدأ هذا الفن بداية متواضعة بتزيين المقابر ونقش الوجهة الخارجية لجدران المنازل . وكانت كثرة المساكن تبنى من الطين تتخللها فى بعض الأحيان أعمال بسيطة من الخشب (كالنوافذ الشبكية اليابانية أو الأبواب الجميلة الحفر) ، والسقف المقامة على جذوع النخل السهلة العلاج . وكان يحيط بالدار عادة سور يضم فناء ، تصعد منه درج إلى سطح البيت ، ومنه ينزل السكان إلى الحجرات . وكان للموسرين من الأهلين حدائق خاصة يعنون بتنسيقها ؛ وكان فى الحواضر حدائق عامة للفقراء ، ولا يكاد يخلو بيت من أزهار

(*) اقرأ فى القسمين الأول والثالث من الجزء الأول من هذا الفصل وصف العمارة فى أيام الدولة القديمة .

الزينة ، وكانت جدران المنزل تزيّن من الداخل بحُصر ملوّنة ، وتفرش أرضه بالطنافس ، إذا كان ربّ الدار ذا سعة . وكان السكان يفضلون الجلوس على هذه الطنافس عن الجلوس على الكراسى . وكان المصريون فى عهد الدولة القديمة يتناولون الطعام وهم جالسون مرتبعون وأمامهم موائد لا يزيد ارتفاعها على ست بوصات كما يفعل اليابانيون فى هذه الأيام ، وكانوا يأكلون بأيديهم على طريقة شيكسپير ، فلما كان عهد الإمبراطورية وقلّ ثمن العبيد أصبح أفراد الطبقات العليا يجلسون على كراسى عالية ذات وسائد ، ويقدّم لهم خدمهم أصناف الطعام صنفاً بعد صنف(١٩٠) .

وكانت أحجار البناء أغلى من أن تستخدم فى تشييد المنازل ، ولهذا كانت من مواد الترف الخاصة بالكهنة والملوك . وحتى النبلاء أنفسهم — وهم الطائفة الكثيرة الطموح — آثروا المعابد بأكبر قسط من الثروة وبأحسن مواد البناء ، ومن هذا فإن القصور التى كانت تطل على النيل والتى لم يكد يخلو ميل من واحد منها فى عهد أمنحوتب الثالث قد تهدمت كلها وعفت آثارها ، على حين أن أضرحة الآلهة ومقابر الموتى قد بقيت إلى أيامنا هذه . ولما جاءت الأسرة الثانية عشرة لم يعُد الهرم الطراز المحبب لمدافن الأموات ، ولهذا اختار ختوم حوتب (حوالى ١١٨٠ ق . م) لمدفنه عند بنى حسن شكلا أهدأ من أشكال الهرم وهو قبر ذو عمد فى أحضان الجبل ؛ وما كادت هذه الفكرة تثبت وتستقر حتى اتخذت آلاف الأشكال المختلفة بين التلال الممتدة على جانب النيل الغربى . وهكذا خرجت من رمال مصر ما بين عهد الأهرام والعهد الذى شيد فيه هيكل حتحور عند دندرة — أى فى خلال ثلاثة آلاف عام أو نحوها — ضروب من العمائر المختلفة لم تفقها قط عمائر أية حضارة من الحضارات الأخرى .

ففى الكرنك والأقصر أيكة من الأعمدة أقامها تحتمس الأول والثالث ، وأمنحوتب الثالث ، وسيتى الأول ، ورمسيس الثانى وغيرهم من الملوك ما بين

الأسرة الثانية عشرة والأسرة الثانية والعشرين ، وفى مدينة حبو (حوالى ١٣٠٠ ق . م) صرح متسع الأرجاء ، وإن كان لا يضارع الصروح السالفة الذكر فى فخامتها ، قامت عليه فيا بعد قرية عربية وظلت جاثمة على صدره عدة قرون ؛ وفى أبيدوس (العرابة) شُيِّد هيكل سيتى الأول الذى لم يبق منه إلا خرائب ضخمة قاتمة كئيبة ، وفى إلفنتين معبد صغير هو معبد ختوم (حوالى ١٤٠٠ ق . م) « اليونانى فى دقة بنائه ورشاقته »[١٩١] ؛ وفى الدير البحرى بهو الأعمدة الذى شادته الملكة حتشبسوت ، وبالقرب منه الرمسيوم وهى أيكة أخرى من العمد والتماثيل الضخام شادها المهندسون والعبيد الذين سخرهم رمسيس الثانى ، وفى جزيرة فيلة هيكل إيزيس الجميل (حوالى ٢٤٠ ق . م) المهجور الموحش فى هذه الأيام لأن خزان أسوان قد غمر قواعد عمده التى بلغت فى عمارتها حد الكمال — وهذه البقايا القليلة المتفرقة إن هى إلا نماذج من الآثار القديمة التى لا تزال تجمل وادى النيل وتنطق خرابها نفسها بما كان عليه الشعب الذى شادها من قوة وبسالة . ولعل فى هذه الصروح إفراطاً فى الأعمدة وتقاربها بعضها من بعض لاتقاء حر الشمس اللافح ، ولعل فيها بعداً عن التناسب هو من خصائص الشرق الأقصى ، وافتقاراً إلى الوحدة ، وهياماً همجياً بالضخامة كهيام أهل هذه الأيام . فإن كان ذلك كذلك فإن فيها أيضاً عظمة وسمواً وجلالا وقوة ؛ فيها الأقواس والعقود[١٩٢] وهى إن قلت فما ذلك إلا لقلة الحاجة إليها ، ولكنها من حيث المبادئ التى شيدت عليها تسير فى طريق الانتقال إلى المبادئ التى شيدت عليها العمد والأقواس فى بلاد اليونان والرومان وفى أوربا الحديثة ؛ وفيها نقوش للزينة لا يفوقها غيرها من النقوش فى تاريخ العالم كله[١٩٣] ؛ وفيها عمد على صورة أعواد البردى والأزورد (اللوطس) ، وعمد من الطراز الدُّورى(*) الأول[١٩٤] وعمد فى صورة نساء[١٩٥] ، وتيجان للعمد منها ما هو فى صورة حتحور

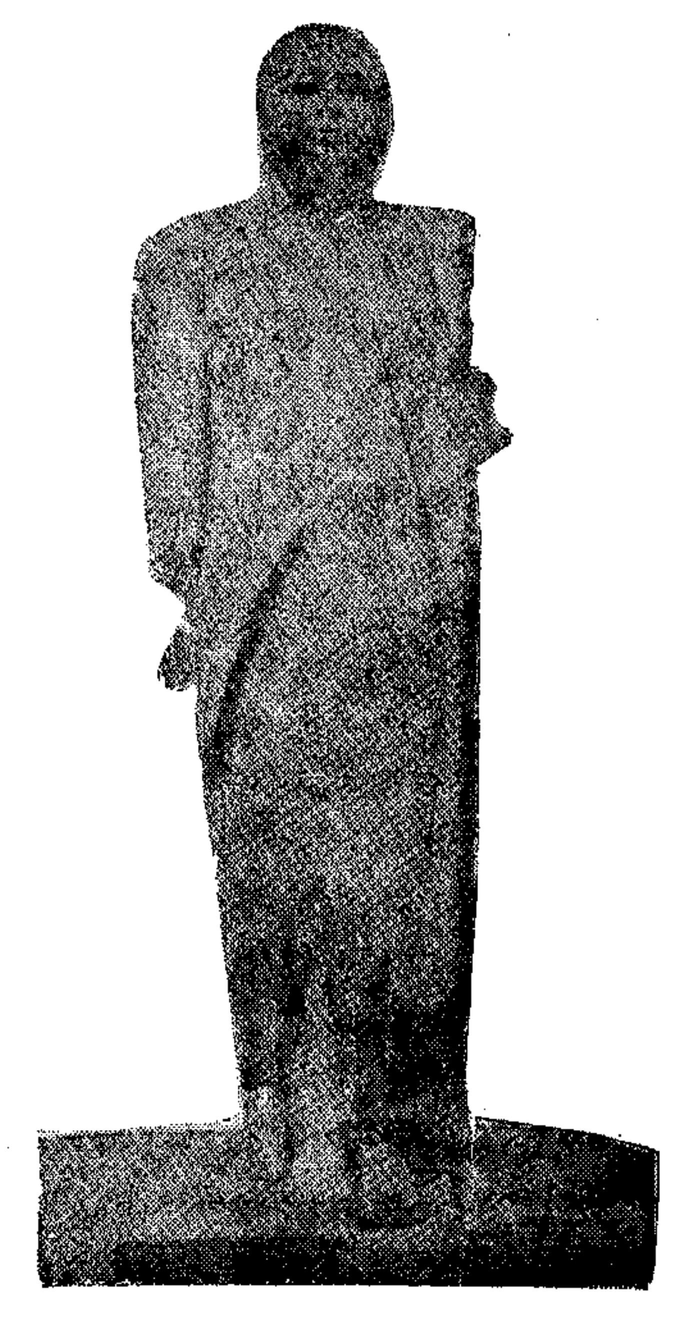
(*) نسبة إلى الفن الدورى اليونانى الذى يمتاز ببساطته وصلابته . (المترجم)

ومنها ما هو على صورة النخيل ؛ وفيها قصور ذات نوافذ قرب السقوف ؛ وفيها عتبات فخمة تمتاز بالقوة والثبات اللذين هما روح الجاذبية القوية فى فن العمارة . لعمرى إن المصريين لهم أعظم البنائين فى التاريخ كله بلا جدال .

ومن الناس من يضيف إلى هذا أنهم أيضاً أعظم المثالين ، فلقد أنشأوا فى بداية تاريخهم تمثال أبى الهول . ذلك التمثال الذى يرمز إلى الصفات الأبدية التى اتصف بها أحد الفراعنة الأقوياء ، ولعل هذا الفرعون هو خفرع . والتمثال لا ينم عن القوة فحسب ، بل يفصح كذلك عن الصفات الخلقية . ولقد حطمت طلقة من مدافع المماليك أنف التمثال وحلقت لحيته ، ولكن ملامحه القوية الضخمة تعبر أحسن تعبير وأقواه عما اتصف به ذلك الملك من قوة ومهابة وهدوء ونضوج ، وكلها صفات يجب ألا تفارق الملوك . ولقد علت هذه الملامح الساكنة ابتسامة خفيفة لم تفارقها منذ خمسة آلاف من السنين ، كأنما الفنان المجهول الذى صاغه أو الملك المجهول الذى يرمز التمثال له ، كان يفهم كل ما يريد الخلق أن يفهموه عن الخلق . والحق أنه هو « مونا ليزا » من الصخر الأصم .

وما من شىء فى تاريخ النحت أجمل من تمثال خفرع المصنوع من حجر الديوريت والذى يقوم فى متحف القاهرة . لقد كان هذا التمثال قديماً فى أيام بركستليز ، قدم بركستليز نفسه بالنسبة إلينا . ومع هذا فقد اجتاز حقبة من الزمان طولها خمسون قرناً ، ثم وصل إلينا ولم تكد تؤثر فيـه عوادى الدهر ولوائبه . لقد صنع هذا التمثال من أصلب الحجارة وأشدها استعصاء على الإنسان ، ولكنه ينقل إلينا أكمل ما يكون النقل قوة الملك (أو الفنان) البدنية ، وسلطانه وعناده وصلابة رأيه وبسالته وذكاءه . ويجلس بالقرب منه تمثال عابس متجهم لملك أقدم من صاحب التمثال الأول عهداً هو تمثال الملك زوسر المصنوع من حجر الجير . ومن بعده يكشف لك الدليل بعود الثقاب عن شفافية تمثال رائع من المرمر هو تمثال منقورع .

ويضارع تمثالا شـيخ البلد والكاتب تماثيل الملوك من ناحية الإبداع



شكل (١٤) تمثال «شيخ البلد» من الخشب
في متحف القاهرة

والإتقان الفنى الذى ليس بعده إتقان : ولقد وصل إلينا تمثال الكاتب فى عدة أشكال ، وكلها من عهود لا نعلمها علم اليقين ، ولكن أشهرها كلها تمثال الكاتب المتربع المحفوظ فى متحف اللوفر(*) . وليس تمثال شيخ البلد لشيخ بحق ولكنه تمثال مشرف على الفعلة بيده عصا السلطة ، يخطو إلى الأمام كأنه يلاحظ عماله أو يصدر إليهم أوامره ويبدو أن اسمه هو كعبيرو ولكن العمال المصريين الذين أخرجوه من قبره فى سقارة قد أدهشهم ما رأوه من تشابه بينه وبين شيخ البلد الذى يسكنونه ، فأوحت إليهم فكاهتهم بهذا اللقب الذى اشتهر به والذى لا يزال إلى اليوم ملازماً له . وهذا التمثال مصنوع من الخشب المعرض للبلى ولكن الزمان لم يقو على تشويه جسمه الملىء ، أو ساقيه الغليظتين ؛ وينم وسط جسمه على ما يتمتع به الملاك فى جميع الحضارات من سعة فى الرزق وقلة فى الكدح ، وينطق وجهه المستدير بقناعة الرجل الذى يعرف مكانته ويفخر بها . ويشعرنا رأسه الأصلع وثوبه المتهدل على واقعية الفن الذى كان فى ذلك الوقت قد بلغ من القدم درجة أجازت له أن يثور على التقاليد التى جعلت من الفن القديم مثلا أعلى يحتذى ، ولكن فيه أيضاً بساطة جميلة وإنسانية كاملة عبر عنها المثال بلا حقد ولا مرارة ، وعبر عنها فى يسر ورشاقة ، تمتاز بهما اليد الواثقة الصناع . وفى ذلك يقول مسبيرو « لو أن معرضاً أنشئ لروائع الفن فى العالم كله لاخترت هذا التمثال رمزا لعظمة الفن المصرى[١٩٦] — أو هل أصدق من هذا أن تختص بهذا الشرف تمثال خفرع ؟

هذه هى الروائع الفنية من تماثيل الدولة القديمة . ولكن هناك آيات فنية أخرى كثيرة أقل منها روعة ، منها تمثالا روع حوتب وزوجته الجالسان ، ومنها التمثال القوى للكاهن رنوفر ، ومنها تمثالا الملك فيوبس وولده المصبوبان من

(*) انظر وصفه السابق فى ص ٧٩ وتزين المتحف المصرى بالقاهرة ومتحف الدولة فى برلين تماثيل أخرى للكاتب .

النحاس ، ومنها رأس باشق من الذهب ، ومنها الصورتان الهزليتان لعاصر الخمر وللقزم كنمحوتب ، وكلها إلا واحـــداً منها فى المتحف المصرى بالقاهرة ، وكلها - بلااستثناء - صور ناطقة بأخلاق أصحابها . ولسنا ننكر أن القطع المبكرة منها خشنة غير مصقولة الصنع ، وأن التماثيل قد صنعت وأحسامها وعيونها متجهة إلى الأمام ، على حين أن الأيدى والأقدام قد رسمت من أحد الجانبين ، وذلك جرياً وراء عرف غريب متبع فى جميع ضروب الفن المصرى(*) ، وأن الجسم لم يلق من الفنان عناية كبيرة ، وأنه مثل فى معظم الأحيان فى صورة راسخة مقننة لا تتفق مع الواقع - فكانت أجسام تماثيل النساء كلها تصوّرهن فتيات فى شرخ الشباب وتماثيل الملوك تظهرهم كلهم أقوياء ، وأن للفردية وإن كانت قد بلغت فى فنهم درجة عالية قد احتفظ بها عادة فى الرءوس دون الأجسام . ولكن مهما يكن من الجمود والتماثل اللذين لحقا فنون النحت والتصوير والنقش البارز ، وما فرضه عليها الكهنة من قيود العرف ، ومن سلطان لهم شديد ، بالرغم من هذا كله فإن هذا النقص قد عوضه عمق فى التفكير ، وقوة ودقة فى التنفيذ ، وما تمتاز به الصناعة من طابع خاص واتجاه وصقل ، والحق أن فن النحت لم يكن فى بلد من البلاد أكثر حيوية مما كان فى مصر . إن تمثال الشيخ ليخرج على كل سلطان ، وإن المرأة التى تطحن الحَبّ لتقبل عليه بكل ما فى نفسها من أحاسيس وما فى جسمها من عضلات ، وإن الكاتب ليهمّ بالكتابة ، وإن آلاف الدمى الصغيرة التى وضعت فى المقابر لتقوم بالواجبات الضرورية للموتى قد صيغت كلها بحيث يبدو عليها من مظاهر النشاط والجد ما نكاد معه أن نعتقد - كما كان يعتقد المصريون الأتقياء - أن الموتى لا يمكن أن يشقوا ما دام هؤلاء الخدم من حولهم .

(*) هناك تماثيل كثيرة تشذ عن هذه القاعدة العامة منها تمثال شيخ البلد والكاتب ، وما من شك فى أن هذا العرف لم يكن ناشئاً عن عجز أو جهل بأصول الفن .

ولم تصل منتجات فن النحت المصرى بعد عهد الأسر الأولى إلى ما كانت عليه فى عهدها إلا بعد أن مضت عليها قرون كثيرة . وإذ كان معظم التماثيل إنما صنع للهياكل أو المقابر فقد كان الكهنة هم الذين يقررون إلى حد كبير الأنماط التى يلتزمها الفنان . ومن هذه السبيل تسربت إلى الفن النزعة الدينية المحافظة .



شكل (١٥) رأس من حجر الخرسان وجد فى مصنع المثال تحتمس فى تل العمارنة وهو الآن فى متحف الدولة ببرلين



شكل (١٦) رأس ملك لعله سنوسريت الثالث فى المتحف الفنى بنيويورك

فجثم على قلب الفن بسببها كابوس التقاليد ، وكان سبباً فى تدهوره . فلما أن تولى الحكم ملوك الأسرة الثانية عشرة الأقوياء عادت الروح الدنيوية غير الدينية إلى الظهور وأثبتت وجودها ، واستعاد الفن شيئاً من قوته القديمة ، وفاق الفنانون ما كان عليه أسلافهم الأولون من براعة . ويوحى رأس أمنمحيت الثالث المنحوت من حجر الديوريت[١٩٧] ببعث جديد للفن وبعث للأخلاق . ذلك أن الناظر إلى هذا الرأس يستشف منه صلابة هذا المليك القدير ، ويدرك أن الذى نحته فنان قدير أيضاً . وثمة تمثال ضخم لسنوسريت الثالث يزينه رأس ووجه لا تقل الفكرة التى أوحت به ، ولا القدرة التى أخرجته ، عما أوحت به وأخرجته

أية صورة أخرى فى تاريخ فن النحت كله ، وإن الجذع الباقى من تمثال سنوسريت الأول فى متحف القاهرة ليضارع جذع تمثال هرقول فى متحف اللوفر . وتكثر تماثيل الحيوانات فى كل عصر من عصور التاريخ المصرى ، وهى كلها تفيض بالحياة ، فهنا نجد فأراً يمضغ بندقة ، وهناك نرى قرداً يضرب على وتر ويكشف عن كل ما لديه من مهارة فى هذا الضرب ، أو قنفذاً ليس فى أشواكه كلها شوكة غير منتفشة . ثم جاء ملوك الهكسوس وانعدم الفن المصرى إلا قليلا مدى ثلاثة قرون .



شكل (١٧) الصقر الملكى والأفعى
نقش فى حجر الجير من الأسرة الأولى
فى متحف اللوفر



شكل (١٨) رأس تحتمس الثالث
فى متحف القاهرة

ويعث الفن بعثاً ثانياً على ضفاف النيل فى حكم حتشبسوت وتحتمس

وأمنحوتب ومن تسمى باسميهما من الملوك . ذلك أن الثروة أخذت تتدفق على مصر من سوريا ، وتحول مجراها إلى الهياكل وقصور الملوك ، وتقطرت منها لتغذى الفنون عن اختلاف أنواعها ، وقامت تماثيل تحتمس الثالث ورمسيس الثانى تناطح السماء ، وغصّت أركان الهياكل كلها بمختلف التماثيل ، وكثرت روائع الفن كثرة لم يسبق لها مثيل على أيدى هذا الشعب الذى تملكته نشوة بعثها فيه ما بلغه فى زعمه من سيادة على العالم بأسره . وإن التمثال النصفى لتلك الملكة العظيمة المنحوت من الحجر الأعبل والمحفوظ فى المتحف الفنى بنيويورك ، وتمثال تحتمس الثالث المصنوع من البازلت والمحفوظ فى متحف القاهرة ، وتماثيل أبى الهول المصنوعة فى عهد أمنحوتب الثالث والمحفوظة فى المتحف البريطانى ، وتمثال إخناتون الجالس المصنوع من حجر الجير والمحفوظ فى متحف اللوفر ، وتمثال رمسيس الثانى المنحوت من الحجر الأعبل والمحفوظ فى تورين ، وتمثال هذا الملك نفسه الجاثم وهو يقدم القربان للآلهة جثوماً لا يكاد يصدق الإنسان أنه يفعله ، والذى مثل الجثوم أكمل تمثيل(١٩٩) ، والبقرة المفكرة فى الدير البحرى التى يرى مسبيرو « أنها تضارع أروع آيات الفن اليونانى والرومانى المماثلة لها »(٢٠٠) وأسدىْ أمنحوتب الثالث اللذين قال عنهما رسكن إنهما أحسن ما خلفه القدماء على بكرة أبيهم من تماثيل لنحيوانات(٢٠١) ، والتماثيل الضخمة التى صنعها فى الصخر عند أبى سمبل مثالو رمسيس الثانى ، والآثار العجيبة الرائعة التى وجدت فى خرائب مَنْحتِ الفنان تحتمس فى تل العمارنة — والتى تشمل نموذجاً من الجبس لرأس إخناتون ينطق بما كان هذا العهد الملىء بالمآسى من نزعة شعرية وتصوفية — والتمثال النصفى الجميل المصنوع من حجر الجير لنفرتيتى زوجة الملك إخناتون ، ورأس هذه الملكة الجميلة المصنوع من حجر الخراسان وهو أجمل من التمثال النصفى السالف الذكر(٢٠٢) ، هذه الأمثلة المنتشرة فى بلاد العالم تصور للقارئ صورة من أعمال النحت الكثيرة الرائعة التى يفيض بها عصر

الإمبراطورية . ولم تفقد الفكاهة منزلتها بين هذه الروائع الفنية العظيمة ، فالمثالون المصريون يلهون بالتماثيل الهزلية المضحكة للإنسان والحيوان ، وحتى تماثيل الملوك فى عصر إخناتون محطم الأصنام قد جعلها الفنان المصرى تبتسم وتلعب(*) .



شكل (١٩) رمسيس الثانى يقرب قربانا
صورة تمثال فى متحف القاهرة

على أن جذوة النهضة الفنية لم تلبث أن خمدت بعد عهد رمسيس الثانى وظل الفن المصرى من بعده قروناً كثيرة يقنع بتكرار الأعمال والأشكال القديمة . وحاول الفن أن ينهض من كبوته فى عهد ملوك ساو ، وأن يعود إلى ما كان ينزع إليه كبار الفنانين فى عهد الدولة القديمة من إخلاص وبساطة فى التصوير . وقد عالج المثالون فى عهد هذه الدولة أقسى الحجارة كأحجار البازلت والسربنتين (الحية) والبريشيا والديوريت — ونحتوا منها تماثيل واقعية حية نذكر منها تمثال منتيوميحيت(٢٠٣) ورأسا أصلع من البازلت الأخضر لا يعرف صاحبه يطل الآن على جدران متحف الدولة فى برلين . ومما صنعوه من البرنز صورة جميلة للسيدة تكوسشت(٢٠٤) ، وقد أولعوا أيضاً بتصوير ملامح الناس والحيوان وحركاتهم على حقيقتها ، فنحتوا تماثيل مضحكة لحيوانات غريبة ،

(*) وإن المرء ليذكر بهذه المناسبة ما قاله سياسى مصرى بعد زيارته معارض أوربا « لقد انتهبتم بلادى » .

ولعبيد وآلهة ، وصنعوا من البرنز رأسى قطة وعنزة هما الآن من منهوبات برلين(٢٠٥) . ثم انقض الفرس بعدئذ على البلاد انقضاض الذئاب الكاسرة على الحملان الوديعة المسالمة ، ففتحوا مصر وخربوا الهياكل وكبتوا روح البلاد وقضوا على فنونها .



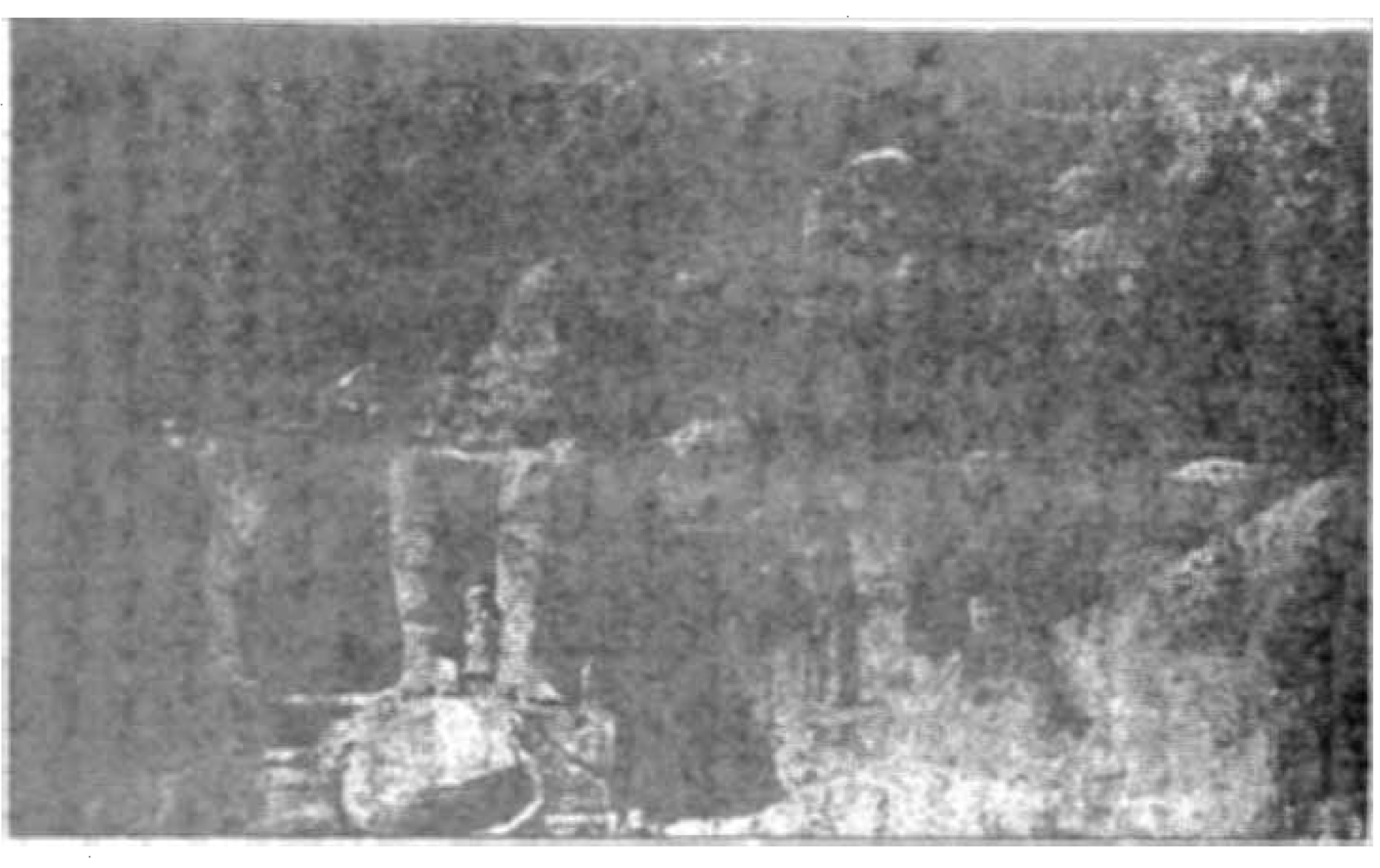
شكل (٢٠) تمثال من البرنز لتدوبشت فى متحف أثينة



شكل (٢١) تمثال منتيوميحيت الجالس فى متحف الدولة ببرلين

والعمارة والنحت(*) أهم الفنون المصرية ، ولكنا إذا أدخلنا الوفرة فى حسابنا كان علينا أن نضيف إليهما النقوش البارزة . فليس من شعوب العالم شعب جد فى حفر تاريخه وأساطيره كما جد فى ذلك قدماء المصريين . وإنا ليدهشنا لأول وهلة ما بين القصص المنقوشة على الحجارة الكريمة من تشابه ممل ، كما يدهشنا ازدحامها وكثرتها ، وما فيها من انعدام التماثل وعدم مراعاة قواعد المنظور ، أو المحاولات غير الموفقة التى بذلوها لمراعاتها بتمثيل الأشياء البعيدة فى المنظر فوق القريبة ؛ ونحن ندهش حين نرى طول قامة الملك وقصر قامة أعدائه . هذا فى النقش والتصوير ، وفى النحت يصعب علينا أن نألف رؤية عيون وصدور مرسومة كأنما ننظر إليها من الأمام على حين أن الأنوف والذقون والأقدام مرسومة كأنما ننظر إليها من أحد الجانبين — ولكننا فى مقابل هذا يَرُوعنا جمال الباشق والأفعى المنقوشين على قبر الملك ونيفيس(٢٠٦) ، ونقوش الملك زوسر الجيرية على هرم سقارة المدرج ، ونقوش الأمير هزيريه الخشبية التى استخرجت من قبره فى هذا الموضع نفسه(٢٠٧) . وصورة اللوبى الجريح المحفورة على قبر من قبور الأسرة الخامسة فى أبى صير(٢٠٨) . وهى دراسة دقيقة لعضلات الجسم المتوترة من شدة الألم . ولا يسعنا أخيراً إلا أن نتأمل فى أناة وهدوء النقوش الطويلة التى تقصّ علينا كيف اجتاح تحتمس الثالث ورمسيس الثانى فى حروبهما كل ما اعترض سبيلهما ، وندرك روعة النقوش التى حفرت لسيتى الأول فى العرابة وفى الكرنك ، ونتبين ما بلغته من كمال ، ونتابع بعظيم الشوق واللذة النقوش المحفورة على جدران معبد الملكة حتشبسوت فى الدير البحرى ، والتى يقصّ علينا ناقشوها قصة البعثة التى أرسلتها هذه الملكة إلى أرض بنت المجهولة (ولعلها بلاد السومال) . وفى هذه النقوش نرى السفن الطويلة منشورة الشراع تدفعها إلى

(*) سنقصر كلمة النحت فى هذا الكتاب على النحت المدور كالتماثيل ، أما ما كان محفوراً على شىء آخر صوراً كان أو كتابة فسنطلق عليه اسم النقوش — البارزة أو القليلة البروز .



شكل (٢٢) تماثيل ضخمة لرمسيس الثانى مع تماثيل الملكة نفر ترع
بالحجم الطبيعى فى معبد أبى سمبل

الجنوب بمجاذيفها المصفوفة ، وتمخر المياه المملوءة بحيوان الأخطبوط والحيوانات القشرية وغيرها من دواب البحر ، ونرى الأسطول يصل إلى شواطئ پنت ويرحب به شعب البلاد ومليكها ، وهم ذاهلون ولكنهم مفتتنون . ونرى الملاحين يأتون إلى السفن بآلاف من ضروب المأكولات الشهية ؛ ونقرأ فكاهة العامل البنّى فى قوله : — « إياك أن تزل قدماك أيها الواقف هنا ، كن على حذر ! » ثم نصحب السفائن الموقرة بأحمالها وهى عائدة نحو الشمال مملوءة (كما يقول النقش) بعجائب أرض پنت ، من ذهب ، وأخشاب مختلفة الأنواع ، وأدهان للعيون ، وقردة ، وكلاب ، وجلود نمورة . . . مما لم يُعد به أحد الملك من الملوك منذ بداية العالم . وتخترق السفن القناة العظيمة بين البحر الأحمر والنيل ، ونرى البعثة ترسو سفنها فى أحواض طيبة ، وتفرغ ما فيها من بضائع مختلفة عند قدمى الملكة . ثم نبصر آخر الأمر ، كأنما قد مضى على وضوها بعض الوقت ، كل هذه السلع



شكل (٢٢) الراقصة

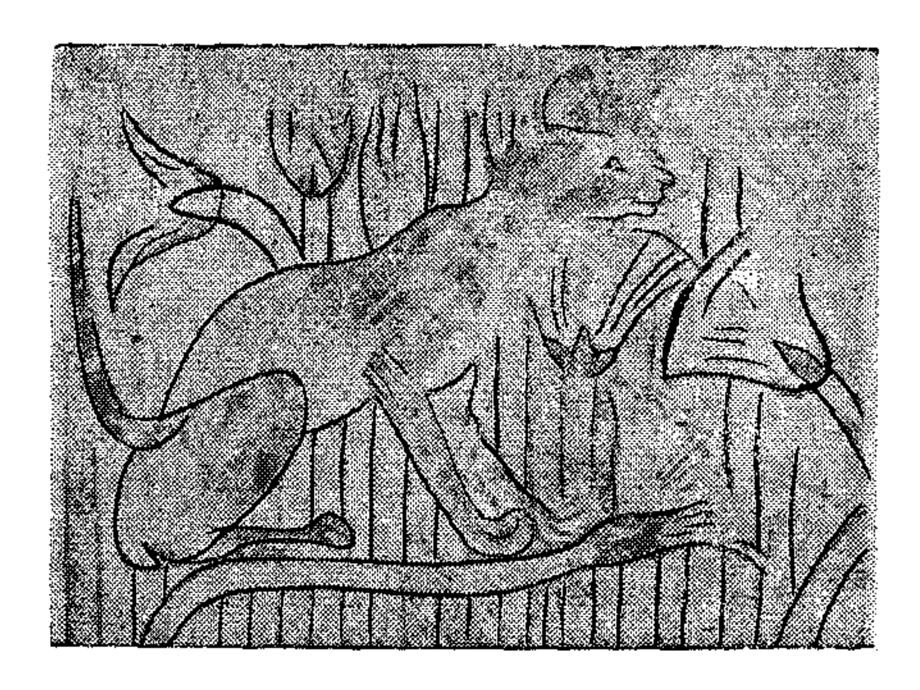
صورة فى متحف تورين بإيطاليا

المستوردة تزين مصر . فى كل ناحية حلى من ذهب وأبنوس وصناديق عطور وأدهان وأسنان فيلة وجلود حيوان ؛ والأشجار التى جيء بها من بنت وكأنها قد أينعت فى أرض مصر كما كانت فى بلادها الأصلية حتى كانت النيران تتفيأ ظلال أغصانها . إن هذا النقش بلا ريب لمن أعظم النقوش فى تاريخ الفن[٢٠٩](*) .

والنقش البارز هو همزة الوصل بين النحت والرسم بالألوان . على أن الرسم الملون لم يرق فى مصر إلى منزلة الفن المستقل إلا فى عهد البطالمة وبتأثير بلاد اليونان ، أما فيما عدا ذلك العهد فقد كان فناً ثانوياً تابعاً لفنون العمارة والنحت والنقش — وكان عمل الرسام هو ملء الخطوط الخارجية التى حفرتها عُدد غيره من الفنانين ؛ ولكنه كان رغم منزلته الثانوية واسع الانتشار يراه الإنسان أينما حل ، فقد كانت معظم التماثيل تدهن ، والسطوح كلها تلون . وإذ كان هذا الفن سريع التأثر بالزمن ينقصه ثبات فن النحت والبناء ، فإنا لا نكاد نجـــد الآن من الرسوم الملونة التى أخرجها رجال الدولة القديمة إلا صورة رائعة لست إوزات أخرجت من قبر فى ميدوم[٢١٠] ، ولكننا يحق لنا أن نستنتج من هذه الصورة وحدها أن هذا الفن أيضاً قد بلغ فى عصر الأسر الأولى مبلغاً يدنيه من الكمال . فإذا انتقلنا إلى عهد الدولة الوسطى وجدنا رسوماً بالألوان المائية(**) فى قبرى أمينى وخنوم حوتب ببنى حسن ، وهى تزين القبرين زينة جميلة تبعث فى الناظر إليها السرور والبهجة ، كما أن صورة « الظباء والزراع[٢١١] وصورة « القطة ترقب فريستها »[٢١٢] لتعدان من أروع الأمثلة لهذا الفن . وقد تنبه الفنان فى هاتين الصورتين أيضاً إلى العنصر الرئيسى فى التصوير ، وهو أن يجعل من

(*) ونرى نموذجاً منقولا عن هذا النقش فى الحجرة المصرية الثانية عشرة من حجرات متحف الفنون بمدينة نيويورك .

(**) وكانت الألوان التى ترسم بها هذه الصور تخلط بصفار البيض والغراء المخفف وبياض البيض .



شكل (٢٤) قطة ترقب فريستها
صورة ملونة على جدار قبر خنمحوتب فى بنى حسن

رسومه كائنات حية تتحرك وتعيش . فلما كان عصر الإمبراطورية غصت القبور بالرسوم الملونة ، وكان الفنان المصرى قد توصل إلى صنع كل لون من ألوان الطيف ، وتاقت نفسه إلى أن يظهر للناس حذقه فى استخدامها ، فأخذ يحاول تصوير الحياة النشيطة المنتعشة فى الحقول المشمسة على جدران المنازل والهياكل والقصور والمقابر وعلى سقوفها كلها ، فصور عليها طيوراً تطير فى الهواء ، وسمكا يسبح فى الماء ، وحيواناً يعيش فى الآجام ، وصورها كلها فى بيئاتها التى تعيش فيها . ونقش الأرض لتبدو كأنها برك شفافة ، وحاول أن يجعل السقف تضارع فى بهائها ورونقها كواكب السماء ، وأحاط هذه الصور كلها بأشكال هندسية وأخرى مركّبة من أوراق الشجر تتفاوت من أبسط الرسوم الهادئة إلى أعقدها وأكثرها فتنة(٢١٣) . « فصورة الفتاة الراقصة »(٢١٤) وفيها أكبر قسط من قوة

الابتداع وروح الفن ، و « صيد الطيور فى قارب »[٢١٥] ، والصورة المرسومة بالمغرة والتى تمثل الفتاة الجميلة الهيفاء العارية بين الموسيقيين فى قبر نحت بطيبة[٢١٦] ؛ كل هذه نماذج متفرقة من سكان القبور المصورين ؟ ونلاحظ فى هذه الرسوم كما لاحظنا فى النقوش البارزة أن الخطوط جميلة ، ولكن التركيب ضعيف ، وأن المشتركين فى عمل واحد يمثلون متفرقين[٢١٧] واحداً بعد واحد وهم الذين يجب أن يمثلوا مختلطين . ونرى الرسام هنا يفضل أن يضع أجزاء الصورة بعضها على بعض بدل أن يراعى فى وضعها قواعد المنظور ؛ على أن الجمود الناشئ عن المحافظة على القواعد الشكلية وعلى التقاليد فى فن النحت المصرى كان هو السائد فى ذلك الوقت ، ولذلك لا يكشف لنا هذا الفن عن الفكاهة الباعثة على البهجة ، أو عن الواقعية ، وهما الصفتان اللتان يمتاز بهما فن النحت فيما بعد ذلك العصر ، ولكن الصور كلها تسرى فيها مع ذلك جدة فى التفكير ، ويسر فى رسم الخطوط وفى التنفيذ ، وإخلاص لحياة الكائنات الحية وحركاتها ، وغزارة فى اللون والزينة تبعث فى النفوس البهجة ، وتجعل الصور متعة للعين والروح . وملاك القول أن فن الرسم المصرى — رغم ما فيه من عيوب — لم يسبقه فن مثله فى أية حضارة شرقية إلا فى عصر الأسر الوسطى فى بلاد الصين .

أما الفنون الصغرى فكانت أعظم الفنون فى مصر : ذلك أن الحذق والجد اللذين شيدا الكرنك والأهرام ، واللذين ملأ الهياكل بتماثيل الحجارة ، قد انصرفا أيضاً إلى تجميل المنازل من داخلها ، وتزيين الأجسام ، وابتكار جميع متع الحياة ونعمها . فالنساجون قد صنعوا الطنافس والقماش المزركش الذى يزين الجدران ، والوسائد الغنية بألوانها والرقيقة فى نسجها رقة لا يكاد يصدقها العقل ، وانتقلت الرسوم التى ابتدعوها منهم إلى سوريا ولا تزال منتشرة فيها إلى هذه الأيام . ولقد كشفت مخلفات توت عنخ أمون عما كان عليه أثاث قدماء المصريين من ترف عجيب ، وعما بلغته كل قطعة وكل جزء من قطعه من صقل بديع ، سواء فى ذلك

كراسيه المكسوة بالفضة والذهب البراقين ، والسرر ذات الرسوم الفخمة والصناعة الدقيقة ، وصناديق الجواهر وعلب العطور الدقيقة الصنع الجميلة النقش ،



شكل (٢٥) كرسي توت عنخ أمون
في متحف القاهرة

والمزهريات التي لا تضارعها إلا مزهريات الصين . وكانت موائدهم تحمل آنية ثمينة من الفضة والذهب والبرنز وكئوساً من البللور ، وجفاناً براقة من حجر الديوريت صقلت ورقت حتى كاد الضوء ينفذ من خلال جدرانها الحجرية . وإن ما اشتملت عليه مخلفات توت عنخ آمون من آنية المرمر ، وما عثر عليه المنقبون في خرائب بيت أمنحوتب الثالث في طيبة من أقداح على هيئة الإزورد (اللوطس) ومن طاسات الشراب ، ليدل على ما بلغته صناعة الخزف من مستوى رفيع . وآخر ما نذكره من هذا جواهر الدولة الوسطى والدولة الحديثة ، وقد كان لهذين العهدين من الحلل الثمينة الكثيرة ما لا يكاد يفوقه شيء في جمال الشكل ودقة الصنع . وتشمل المجاميع الباقية من تلك الأيام قلائد ، وتيجاناً ، وخواتم ، وأساور ، ومرايا ، وحليات للصدر ، وسلاسل ، ورصائع ، صيغت من الذهب والفضة والعقيق والفلسبار واللازورد والجمست ، وكل ما نعرفه من الحجارة الكريمة . وكان سراة المصريين كسراة اليابانيين يسرهم جمال ما يحيط بهم من التحف الصغيرة ، فكان كل مربع صغير من العاج في علب حليهم ينقش ويزين أجمل زينة وأدقها . لقد كانوا يلبسون أبسط الملابس ، ولكنهم كانوا ينعمون بأحسن عيشة ، وكانوا إذا فرغوا من عملهم اليومي يمتعون أنفسهم بنغمات الموسيقى الهادئة الشجية على العود(*) والقيثارة والصلاصل والناي . وكان للهياكل والقصور فرق من العازفين والمغنين ، وكان من موظفي قصر الملك « مشرف على الغناء » يقوم بتنظيم العازفين والموسيقيين الذين يسلون الملك . وليس لدينا ما يدل على وجود علامات موسيقية في مصر ، ولكن هذا قد يكون مجرد نقص فيما كشف من آثار المصريين . وكان استنفرو نفر ، وريمرى بتاح نابغتي الغناء في أيامهما ، وإنا لنستمع من خلال القرون الطويلة صوتهما

(*) وكان العود يصنع من عدد قليل من الأوتار تمتد على لوحة ضيقة رنانة . أما الصلاصل فكانت طائفة من الأقراص الصغيرة تهتز على أسلاك .

وهما يناديان بأنهما كانا « يجيبان كل رغبـة من رغبات الملك بغنائهما الشجي »(٢١٨)



شكل (٢٦) رأس نفرتيتي
في متحف الدولة ببرلين

ومن الأمور الشاذة غير المألوفة أن يبقى اسما هذين الفنانين ، وذلك لأن الفنانين الذين خلدوا بجهودهم ذكريات الأمراء والقساوسة والملوك أو ملاحمهم لم يكن لديهم من الوسائل ما ينقلون به ذكرهم إلى من يجيء بعدهم ، وإن كنا نسمع بإمحوتب مهندس عهد زوسر ، وهو رجل يكاد أن يكون اسمه أسطورة من الأساطير القديمة ، ونسمع عن إنيني الذى أعد رسوم المبانى العظيمة أمثال معبد الدير البحرى لتحتمس الأول ، وعن بويمر ، وحبوسنب ، وستموت الذين شادوا المبانى العظيمة للملكة حتشبسوت(*) ؛ وعن الفنان تحتمس الذى كشف فى بقايا مرسمه كثير من روائع الفن ، وعن بك المثال الفخور الذى يقول لنا إنه لولاه لعفى على اسم إخناتون الزمان(٢٢١) . وكان لأمنحوتب الثالث مهندس معمارى يسمى أيضاً أمنحوتب بن حابو ، وكان الملك يضع تحت تصرف هذا المهندس الموهوب ثروة يخطئها الحصر ، وذاع اسم هذا الفنان الشهير حتى عبدته مصر فيما بعد واتخذته إلها من آلهتها . لكن الفنانين على الرغم من هذا كانوا يعملون وهم فقراء مغمورون . ولم تكن لهم عند القساوسة والكبراء الذين يستخدمونهم مكانة أسمى من مكانة الصناع أو أرباب الحرف العاديين .

ولقد تعاون الدين المصرى مع الثروة المصرية على الإيحاء بالفن وإنمائه ، وتعاون مع غنى مصر وضياع إمبراطوريتها على إماتته . لقد كان الدين يقدم للفنانين الحوافز والأفكار ، ويوحى إليهم بروائع فنهم ، ولكنه فرض عليهم من العرف والقيود ما شده إلى الكنيسة بأقوى الروابط . فلما أن مات بين الفنانين الدين الخالص ، ماتت بموته الفنون التى كانت تعيش على هذا الدين . تلك هى المأساة التى لا تكاد تنجو من شرها أية مدنية — وهى أن روحها فى عقيدتها ، وأن هذه الروح قلما تبقى بعد فناء فلسفتها .

(*) لقد كان ستموت يلقى من مليكه من ضروب التعظيم ما أنطقه بقوله : « لقد كنت أعظم العظماء فى العالم كله » . وكانت هذه عقيدة شائعة ولكنها لم تكن دائماً ينطق بها .

١٠ — الفلسفة

« تعاليم بتاح حوتب » — « تحذيرات إيبوور » —
« محاورات كاره المجتمع » — أسفار الحكمة المصرية

لقد اعتاد مؤرخو الفلسفة أن يبدأوا قصتهم باليونان ، وإن الهنود الذين يعتقدون أنهم مخترعو الفلسفة ، والصينيين الذين يعتقدون أنهم بلغوا بها حد الكمال ، إن هؤلاء وأولئك يسخرون من ضيق عقولنا وتعصبنا . ولعلنا كلنا مخطئون فى ظننا ، لأننا نجد بين أقدم القطع المتناثرة التى خلفها لنا المصريون الأقدمون كتابات تمت بصلة بعيدة إلى الفلسفة الأخلاقية . ولقد كانت حكمة المصريين مضرب المثل عند اليونان الذين كانوا يعتقدون أنهم أطفال بالقياس إلى هذا الشعب القديم(٢٢٢) . وأقدم ما لدينا من المؤلفات الفلسفية « تعاليم بتاح حوتب » ، وتاريخه يرجع فيما يبدو لنا إلى عام ٢٨٠٠ ق . م أى إلى ما قبل كنفوشيوش وسقراط وبوذا بألفى عام وثلثمائة(٢٢٣) . وكان بتاح حوتب هذا حاكماً على منف وكبير وزراء الملك فى أيام الأسرة الخامسة . فلما اعتزل منصبه قرر أن يترك لولده كتاباً يحتوى على الحكمة الخالدة : ثم نقل بعض العلماء المصريين قبل عهد الأسرة الثامنة عشرة هذا الكتاب باعتباره من أمهات كتب القدماء . ويقول الوزير فى كتابه :

« أى مولاى الأمير ، إن الحياة تقترب من آخرها ، ولقد حل بى الضعف وعدت إلى مرحلة الطفولة الثانية ، والمسن يلاقى البؤس فى كل يوم من أيامه . فعيناه صغيرتان ، وأذناه لا تستمعان ، ونشاطه يقل ، وقلبه لا يعرف الراحة . . . فمر خادمك إذن أن يخلع سلطانى الواسع على ولدى ، واسمح لى أن أحدثه بألفاظ الذين يستمعون إلى رجال الأيام الغابرة ، أولئك الذين استمعوا إلى الآلهة فى يوم من الأيام . أتوسل إليك أن تسمح بأن يُفعل هذا » .

ويتفضل جلالة الملك فيأذن له ولكنه مع ذلك ينصحه بأن « يتحدث دون

أن يبعث الملل » فى نفس سامعيه ، وهى نصيحة ليست إلى الآن عديمة النفع للفلاسفة . فلما أذن له أخذ بتاح حوتب ينصح ولده بقوله :

« لا تزه بنفسك لأنك عالم ، بل تحدث إلى الجاهل كما تتحدث إلى الحكيم ، لأن الحذق لا حد له ، كما أن الصانع لا يبلغ حد الكمال فى حذق صناعته ؛ والكلام الجميل أندر من الزمرد الذى تعثر عليه بين الحصا . . . فعش إذن فى بيت اللطف يقبل عليك الناس طائعين ويقدموا لك الهدايا . . واحذر أن تخلق لنفسك الأعداء بأقوالك . . . ولا تتخط الحق ولا تكرر ما قاله إنسان غيرك ، أميراً كان أو فلاحاً ، ليفتح به قلوب الناس له ، لأن ذلك بغيض إلى النفس . . .

« وإذا أردت أن تكون حكيما ، فليولد لك ولد لتسر بذلك الإله . . . فإذا سار فى سبيله مقتدياً بك ، وإذا نظم أمورك على أحسن وجه ، فقدم له كل الخير . . . أما إذا كان عديم المبالاة ، وخالف قواعد السلوك الطيب ، وكان عنيفاً ؛ وإذا كان كل ما يخرج من فيه هو فحش القول ، فاضربه ، حتى يكون حديثه صالحاً . . . وفضيلة الابن من أثمن الأشياء للأب ، وحسن الأخلاق شيء لا ينسى قط . . .

« وحيثما ذهبت فاحذر الاتصال بالنساء . . . وإذا شئت أن تكون حكيما فمون بيتك وأحب زوجك التى بين ذراعيك . . . واعلم أن السكوت أنفع لك من كثرة الكلام . وفكر فى أنك قد يعارضك خبير ممن يتحدثون فى المجلس ، ولذلك كان من السخف أن تتكلم فى كل نوع من أنواع العمل . . .

« وإذا كنت ذا سلطان فاسع لأن تنال الشرف عن طريق العلم ورقة الطباع . . . واحذر أن تقاطع الناس ، وأن تجيب عن الأقوال بحرارة ، أبعد ذلك عنك ، وسيطر على نفسك »

ويختم بتاح حوتب نصائحه بهذه العبارة المليئة بالفخر والإعجاب :

« لن يمحى من هذه البلاد إلى أبد الدهر لفظ من الألفاظ المدونة هنا ، ولكنها ستتخذ نماذج وسيتحدث عنها الأمراء أحسن الحديث . . . إن كلماتى ستعلم الرجل كيف يتحدث » . . . أجل إنه سيصبح إنساناً حاذقاً فى الطاعة بارعاً فى الحديث ، وسيصيبه الحظ الحسن ، . . . وسيكون ظريفاً إلى آخر أيام حياته ، وسيكون راضياً على الدوام »(٢٢٤) .

ولكن هذه النغمة السارة المستبشرة لا تدوم فى التفكير المصرى ، بل تسرع إليها الشيخوخة فتداهمها وتحيلها إلى نكد وكآبة . ويأتى حكيم آخر هو إبوور فيندب ما فى البلاد من خلل واضطراب وعنف وقحط وانحلال يكتنف أخريات أيام الدولة القديمة ، ويتحدث عن المتشككين الذين « يقربون القرابين إذا عرفوا مكان الإله » ويعلق على ازدياد حوادث الانتحار ويقول كما قال شوبنهور من بعده : « ألا ليت الناس يقضى عليهم حتى لا يكون فى الأرض حمل ولا ولادة ، ألا ليت الأرض ينقطع منها الضجيج ويبطل منها النزاع » — وواضح من هذه الأقوال أن إبوور كان قد شاخ وملّ الحياة ، وهو يحلم فى آخر أيامه بملك — فيلسوف ينجى الناس من الفوضى والظلم :

« يبَرِّد لهيب (الحريق الاجتماعى ؟) ويقال إنه راعى الناس جميعاً قلبه خال من الشر ، فإذا كانت قطعانه قليلة العدد قضى يومه فى جمعها ، لأن قلوبها محمومة . ألا ليته قد تبين أخلاقهم منذ الجيل الأول ! إذن لقضى على الشر ، ولمد ذراعه لمقاومته ، ولسحق بذرته وما يخرج منها . . . أين هو اليوم ؟ هل هو نائم بالصدفة ؟ أنظروا إن قوته لا ترى(٢٢٥) » .

هذه هى أصوات الأنبياء فى العهد القديم ، وقد صيغت سطورها صياغة الأمثال والحكم ككتابات أنبياء اليهود ؛ ويقول برستد وقوله الحق « إن هذه التحذيرات هى أقدم ما ظهر فى العالم من المثل العليا الاجتماعية التى يطلق عليها

عند العبرانين اسم المسيحية(٢٣٦)(*) . وثمة ملف من أيام الدولة الوسطى يندد بما فى ذلك العهد من فساد بعبارات يكاد الإنسان يسمعها فى كل جيل :

لمن أتحدث اليوم ؟
الإخوة أشرار
وأصدقاء اليوم ليسوا أصدقاء حب .
لمن أتحدث اليوم ؟
القلوب قلوب لصوص
وكل رجل يغتصب ما عند جاره .
لمن أتحدث اليوم ؟
إن الرجل اللطيف يهلك
والصفيق الوجه يسير فى كل مكان
لمن أتحدث اليوم ؟
إذا ما أثار الإنسان الغضب بسوء مسلكه .
فإنه يدفع كل الناس إلى الضحك ، وإن كان إثمه خبيثاً . . .

ثم ينطلق هذا الشاعر المصرى الشبيه بالشاعر سونبرن الإنجليزى فى مدح الموت فيقول :

الموت أمامى اليوم
كشفاء الرجل المريض ،
كالخروج إلى حديقة بعد المرض .

* * *

الموت أمامى اليوم
كشذا المر ،

(*) العقيدة القائلة بأن رسولا سيرسل إلى الأرض ليطهرها مما فيها من فساد وظلم . (المترجم)

أو كالجلوس تحت الشراع فى يوم عاصف .
الموت أمامى اليوم
كرائحة أزهار الإزورد
كالجلوس على شواطئ السكر .
الموت أمامى اليوم
كتدفق السيل الجارف ،
كرجوع الرجل من سفينة حربية إلى بيته . . .
الموت أمامى اليوم
كاشتياق الرجل إلى رؤية موطنه
بعد أن قضى السنين فى الأسر(٢٢٧) .

وأشد من هذا كآبة قصيدة منقوشة على لوحة محفوظة فى متحف ليدن يرجع تاريخها إلى ٢٢٠٠ ق . م ، وهى تضرب على النغمة المألوفة نغمة تمتع بيومك :

لقد سمعت ألفاظ أمحوتب وهارديف
وهى ألفاظ ذائعة الصيت نطقا بها .
انظر إلى مكانيهما
إن جدرانهما قد جردت
ومواضعهما قد اندثرت ،
كأن لم تغن بالأمس .

* * *

إن أحداً لا يأتى من هناك
ليحدثنا عما حل بهما . . .
حتى يرضى قلوبنا ،
إلى أن يحين وقت ارتحالنا

إلى المكان الذى ذهبا إليه
شجع قلبك على نسيانه
واجعل من أسباب سرورك أن تسير وراء رغباتك
ما دمت حياً ترزق .
وضع المر على رأسك ،
والبس على جسمك نسج التيل اللطيف ،
وانعم بوسائل الترف العجيبة
أشياء الآلهة . الحقة

* * *

وزد فى مباهجك أكثر من ذى قبل ،
ولا تترك قلبك يذبل ،
وسر وراء رغباتك وما فيه الخير لك ،
وهيئ أمورك على ظهر الأرض
حسب ما يأمر به قلبك أنت ،
حتى يأتيك يوم النحيب .
حين لا يسمع ذوو القلوب الساكنة (الموتى) نحيبهم ،
وحين لا يصغى من فى القبور إلى حزنهم ،
واحتفل بيوم السرور
ولا تمل منه
انظر ، ليس ثمة من يأخذ أمتعته معه .
أجل ، ولا يعود ممن ذهبوا إلى هناك(٢٢٨)

ولعل هذا التشاؤم وذاك التشكك كانا نتيجة لتحطيم روح أمة أخضعها الغزاة الهكسوس وأذلوها ، وشأنهما فى مصر كشأن الرواقية والأبيقورية عند

اليونان المهزومين المستعبدين(*) » وهذه الكتابات تمثل فيما تمثل إحدى الفترات التي يغلب فيها التفكير زمناً ما على العقيدة ، والتي لا يعرف فيها الناس كيف يعيشون ولماذا يعيشون ، وهي فترات تتوسط عندنا اليوم عهدين تسود كليهما مبادئ خلقية غير التي تسود العهد الآخر . وتلك الفترات الوسطى لا تدوم ، لأن الأمل سرعان ما يتغلب على التفكير ، فتنحط القوة المفكرة إلى مكانها الوضيع المألوف ، ويرتفع منار الدين فيوحي إلى الناس بذلك الباعث الخيالي الذي لا غنى لهم عنه في حياتهم وأعمالهم . وليس لنا أن نظن أن هذه القصائد تعبر عن آراء طائفة كثيرة من المصريين ، بل ينبغي أن نعتقد أنه كان من وراء الأقلية الصغيرة النشيطة الحية التي كانت تفكر في مسائل الموت والحياة بعبارات دنيوية طبيعية ، نقول إنه كان من وراء هذه الأقلية ملايين من السذج ، رجالا كانوا أو نساء ، ظلوا أوفياء مخلصين لآلهتهم لا يشكون قط في أن الحق سوف يسود ، وأن ما يقاسونه على ظهر الأرض من آلام وأحزان سوف يعوضون عنه بسخاء يوم يستقرون في دار النعيم والسلام .

١١ — الدين

آلهة السماء — آلهة الشمس — آلهة الزرع — الآلهة الحيوانية — آلهة الملاقات الجنسية — الآلهة البشرية — أوزير — إيزيس وحورس — الآلهة الصغرى — الكهنة — عقيدة الخلود — « كتاب الموتى » — « الاعترافات السلبية » — السحر — الفساد .

لقد كان الدين في مصر من فوق كل شيء ومن أسفل منه . فنحن نراه فيها في كل مرحلة من مراحله وفي كل شكل من أشكاله . من الطواطم إلى علم اللاهوت . ونرى أثره في الأدب وفي نظام الحكم وفي الفن ، وفي كل شيء عدا الأخلاق . وليس هو مختلف الصور والأنواع فحسب ، بل هو أيضاً غزير موفور.

(*) ويقول أبوور إن الحرب الأهلية لا تأتي بإيراد(٢٢٩) .

ولسنا نجد فى بلد من البلاد — إذا استثنينا بلاد الرومان والهند — ما نجده من الآلهة الكثيرة فى مصر ، وليس فى وسعنا أن ندرس المصرى — بل ليس فى وسعنا أن ندرس الإنسان على الإطلاق — إلا إذا درسنا آلهته .

يقول المصرى إن بداية الخلق هى السماء ، وقد ظلت هى والنيل أكبر أربابه إلى آخر أيامه . ولم تكن الأجرام السماوية العجيبة ، فى اعتقاده ، مجرد أجرام ، بل كانت هى الصور الخارجية لأرواح عظيمة ، لآلهة ذوات إرادات — لم تكن متفقة على الدوام — توجه حركاتها المختلفة المعقدة[٢٣٦] ، وكانت السماء قبة تقف فى فضائها الواسع بقرة عظيمة هى الإلهة حتحور ، والأرض من تحت أقدامها ، وبطنها يكسوه جمال عشرة آلاف نجم ، وكانت للمصريين عقيدة أخرى (لأن الآلهة والأساطير كانت تختلف من إقليم إلى إقليم) تقول إن السماء هى الإله سيبو النائم فى لطف على الأرض ، وهى الإلهة نويت ، ومن تزاوج الربين المهولين ولدت كل الأشياء[٢٣٠] . ومن عقائدهم أن الأبراج والنجوم قد تكون آلهة ، من ذلك أن ساحو وسبديت (أى كوكبى الجبار والشعرى) كانا إلهين مهولين ، وأن ساحو كان يأكل الآلهة ثلاث مرات فى اليوم بانتظام . وكان يحدث فى بعض الأحيان أن إلها من هذه الآلهة المهولة يأكل القمر ، ولكن ذلك لن يدوم إلا قليلاً ، لأن دعاء الناس وغضب الآلهة الأخرى لا يلبثان أن يضطراً الخنزير النهم إلى أن يتقايأه مرة أخرى[٢٣١] . وعلى هـذا النحو كان عامة المصريين يفسرون خسوف القمر .

وكان القمر إلهاً ولعله كان أقدم ما عبد من الآلهة فى مصر ، ولكن الشمس فى الدين الرسمى كانت أعظم الآلهة . وكانت تعبد فى بعض الأحيان على أنها الإله الأعلى رع أو رى الأب اللامع الذى لقح الأم الأرض بأشعة الحرارة والضوء النافذة . وكانت تصور أحياناً على أنها عجل مقدس يولد مرة فى فجر كل يوم ، ويمخر عباب السماء فى قارب سماوى ثم ينحدر إلى الغرب فى كل مساء كما

ينحدر الشيخ المسن مترنحاً إلى قبره ، أو أن الشمس كانت هى الإله حورس مصوراً فى صورة باشق رشيق يطير فى عظمة وجلال فى السماوات يوماً بعد يوم كأنه يشرف من عليائه على مملكته . ولقد أصبح فيما بعد رمزاً متواتراً من الرموز الدينية والملكية . وكان رع أو الشمس هو الخالق على الدوام . ولما أشرق أول مرة ورأى الأرض صحراء جرداء غمرها بأشعته فبعث فيها النشاط فخرجت من عيونه كل الكائنات الحية من نبات وحيوان وإنسان — مختلطة بعضها ببعض . ولما كان أول من خُلق من الرجال والنساء أبناء رع الأدنين فقد كانوا مكملين سعداء . ولكن أبناءهم انحدروا شيئاً فشيئاً إلى طريق الضلال ، فخسروا ما كانوا عليه من سعادة وكمال . وغضب رع من أجل ذلك على خلقه ، فأهلك عدداً كبيراً من الجنس البشرى . على أن العلماء المصريين كانوا يشكون فى هذه العقائد الشعبية ويؤكدون (كما كان يؤكد بعض العلماء السومريين) أن الخلائق الأولين كانوا كالبهائم لا يستطيعون النطق بألفاظ مفهومة ، ولا يعرفون شيئاً من فنون الحياة[٢٢٢] . وقصارى القول أن هذه الأساطير كانت فى جملتها أساطير دالة على الذكاء تعبر فى تقوى وصلاح عن اعتراف الإنسان بفضل الأرض والشمس .

وكانت هذه الروح الدينية غزيرة خصبة بلغ من خصبها أن المصريين لم يعبدوا مصدر الحياة فحسب بل عبدوا مع هذا المصدر كل صورة من صور الحياة . فكانت بعض النباتات مقدسة لديهم ، فالنخلة التى تظلل الناس فى قلب الصحراء ، وعين الماء التى تسقيهم فى الواحة ، والغيضة التى يلتقون عندها ويستريحون ، والجميزة التى تترعرع ترعرعاً عجيباً فى الرمال ، كانت هذه عندهم ، لأسباب قوية لا يستطيع أحد أن ينكرها عليهم ، أشياء مقدسة . ولقد ظل المصرى الساذج إلى آخر أيام حضارته يقرب إليها قرابين الخيار والعنب والتين[٢٢٣] . ولم يكن هذا كل شىء بل إن الخضر الوضيعة قد وجدت لها من يعبدها ، حتى لقد أخذ تين Taine يلهو بالتدليل على أن البصل

الذى أغضب بوسويه Bossuet وأحفظه كان من المعبودات على ضفاف النيل(٢٣٤).

وكانت الآلهة من الحيوان أكثر ذيوعاً بين المصريين من آلهة النبات؛ وكانت هذه الآلهة من الكثرة بحيث غصت بها هياكلها كأنها معرض حيوانات صاخبة. وعبد المصريون فى هذه المقاطعة أو تلك وفى هذا الوقت أو ذاك العجل والتمساح والصقر والبقرة والإوزّة والعنزة والكبش والقط والكلب والدجاجة والخطاف وابن آوى والأفعى؛ وتركوا بعض هذه الدواب تجوس خلال الهياكل ولها من الحرية ما للبقرة المقدسة فى الهند حتى هذه الأيام(٢٣٥). ولما تحولت الآلهة إلى آدميين ظلت محتفظة بصورتها الحيوانية المزدوجة وبرموزها، فكان أمون يمثل بإوزّة أو بكبش، ورع يرمز له بصرصور أو عجل، وأوزير بعجل أو كبش، وسبك بتمساح، وحورس بصقر أو بازى، وحتحور ببقرة، وتحوت إله الحكمة بورباح(٢٣٦). وكانت النساء يقدمن أحياناً لهذه الآلهة ليكنّ زوجات لهنّ، وكان العجل — وهو الذى يتقمصه أوزير — صاحب هذا الشرف العظيم بنوع خاص. ويقول أفلوطرخس إن أجمل النساء فى منديس كنّ يقدّمن لمضاجعــة التيس المقدس(٢٣٧). وقد بقيت هذه الشعائر الدينية من بداية الأمر إلى نهايته عنصراً أساسياً قومياً فى الديانة المصرية. أما الآلهة من بنى الإنسان فقد جاءت إلى مصر فى وقت متأخر كثيراً، ولعلها جاءتها هدايا من غرب آسية(٢٣٨).

وكان المصريون يقدسون المعز والعجل تقديساً خاصاً ويعدونهما رمز القدرة الجنسية الخالقة. ولم يكونا مجرد رمزين لأوزير بل كانا تجسيداً له(٢٣٩). وكثيراً ما كان أوزير يرسم وأعضاؤه التناسلية كبيرة بارزة دلالة على قوته العظمى، وكان المصريون فى المواكب الدينية يحملون له نماذج بهذه الصورة، أو أخرى ذات ثلاثة قضبان. وكان النساء فى بعض المناسبات يحملن مثل هذه الصور الذكرية ويحركنها تحريكاً آلياً بالخيوط(٢٤٠). والعبادة الجنسية لا تظهر فقط فى الرسوم الكثيرة التى نراها فى نقوش الهياكل ذات قضبان منتصبة، بل إنا فضلا عن هذه

تراها كثيراً فى الرموز المصرية على هيئة صليب ذى مقبض كان يتخذ رمزاً للاتصال الجنسى وللحياة القوية(٢٤١) »

ثم صار الآلهة فى آخر الأمر بشراً — أو بعبارة أصح أصبح البشر آلهة . ولم يكن آلهة مصر من الآدميين إلا رجالا متفوقين أو نساء متفوقات خلقوا فى صور عظيمة باسلة ، ولكنهم خلقوا من عظام وعضلات ولحم ودم ؛ يجوعون ويأكلون ، ويظمأون ويشربون ؛ ويحبون ويتزوجون ، ويكرهون ويقتلون ، ويشيخون ويموتون(٢٤٢) ، شأنهم فى هذا شأن آلهة اليونان سواء بسواء . من ذلك أن أوزير إله النيل المبارك كان يحتفل بموته ولقبه فى كل عام ، وكان يرمز بموته وبعثه لانخفاض النيل وارتفاعه ، ولعلهما كانا يرمزان أيضاً لموات الأرض وحياتها وكان فى مقدور كل مصرى فى عهد الأسرة المتأخرة أن يقص كيف غضب ست (أوسيت) إله الجفاف الخبيث الذى أيبس الزرع بأنفاسه المحرقة ، كيف غضب هذا الإله الخبيث من أوزير (النيل) لأنه يزيد (بفيضه) من خصب الأرض ؛ فقتله وحكم بجفافه الجبار فى مملكة أوزير . (ويقصدون بهذا أن النهر لم يرتفع ماؤه فى سنة من السنين) ، وظل الأمر كذلك حتى قام حورس الباسل ابن إيزيس فغلب ست ونفاه من الأرض . وعاد أوزير بعدئذ إلى الحياة بفضل ما فى حب إيزيس من حرارة ، وحكم مصر حكماً صالحاً ، وحرم أكل لحم الآدميين ونشر لواء الحضارة ، ثم صعد إلى السماء ليحكم فيها ويكون إلهاً(٢٤٣) . وكانت هذه أسطورة ذات معنى عميق ، ذلك بأن التاريخ — كدين الشرق — ثنائى ، فهو سجل للنزاع بين الخلق والدمار ، وبين الخصب والجفاف ، وبين الشباب المتجدد والفناء ، بين الخير والشر ، بين الحياة والموت .

ومن أعمق الأساطير أيضاً أسطورة إيزيس الأم العظمى . ولم تكن إيزيس أخت أوزير وزوجته الوفية فحسب ، بل كانت من بعض الوجوه أجل منه قدراً ، لأنها قهرت الموت بالحب شأنها فى ذلك شأن النساء بوجه عام . كذلك

لم يكن فضلها مقصوراً على أرض النهر السوداء التي أخصبها مس أوزير (النيل) فأغنت مصر كلها بإنتاجها — لم يكن فضلها مقصوراً على هذه الأرض ، بل كان لها فضل أعظم من هذا وأنفع ، لقد كانت رمز القوة الخالقة الخفية التي أوجدت الأرض وكل ما عليها من الكائنات الحية ، وأوجدت ذلك الحنو الأموي الذي يحيط بالحياة الجديدة حتى يتم نموها مهما كلفها من جهد وعناء ، وكانت ترمز في مصر — كما ترمز كالي ، وإستير ، وسيبيل في آسية ، وكما ترالز ديمتر في بلاد اليونان ، وسيريز في رومة — كما ترمز هذه كلها إلى ما للعنصر النسوي من أسبقية وأفضلية واستقلال في الخلق ، وفي الميراث ، وإلى ما كان للمرأة أول الأمر من زعامة في حرث الأرض ، ذلك أن إيزيس (كما تقول الأسطورة) هي التي عثرت على القمح والشعير حين كانا ينموان نمواً برياً في أرض مصر ، وكشفت عنهما لأوزير[٢٤٤] . وكان المصريون يعبدونها عبادة قائمة على الحب والإخلاص ، فصوروا لها صوراً من الجواهر لأنها في اعتقادهم أم الإله . وكان كهنتها الحليقون ينشدون لها الأناشيد ويسبحون بحمدها في العشي والإبكار ، وكانت صورة قدسية لها تمثالها وهي ترضع في ربية طفلها الذي حملت فيه بمعجزة من المعجزات توضع في معبد ابنها المقدس حورس (إله الشمس) في منتصف فصل الشتاء من كل عام ، أي في الوقت الذي يتفق ومولد الشمس السنوي في أواخر شهر ديسمبر . ولقد كان لهذه الأساطير والرموز الشعرية الفلسفية أعمق الأثر في الطقوس المسيحية وفي الدين المسيحي ، حتى أن المسيحيين الأولين كانوا أحياناً يصلون أمام تمثال إيزيس الذي يصورها وهي ترضع طفلها حورس ، وكانوا يرون فيهما صورة أخرى للأسطورة القديمة النبيلة أسطورة المرأة (أي العنصر النسوي) الخالقة لكل شيء والتي تصبح آخر الأمر أم الإله[٢٤٥] .

وكانت هذه الآلهة — رع (أوأمون كما كان يسميه أهل الجنوب) وأوزير ، وإيزيس وحورس — أعظم أرباب مصر . ولما تقادم العهد امتزج رع

وأمون وإله آخر هو فتاح فأصبحت ثلاث صور أو مظاهر لإله واحد أعلى يجمعها هي الثلاثة[٢٤٦] . وكان للمصريين عدد لا يحصى من صغار الآلهة منها أنوبيس بن آوى ، وشو ، وتفنوت ، ونفثيس ، وكث ، وثت ؛ . . . ولكننا لا نريد أن نجعل من هذه الصحف متحفاً للآلهة الأموات . إن الملك نفسه كان إلهاً في مصر وكان على الدوام ابن أمون — رع لا يحكم مصر بحقه الإلهي فحسب بل يحكمها أيضاً بحق مولده الإلهي ، فهو إله رضي أن تكون الأرض موطنا له إلى حين .

وكان يرسم على رأسه الصقر رمز حورس وشعار القبيلة ، وتعلو جبهته الأفعى رمز الحكمة والحياة وواهبة القوى السحرية للتاج[٢٤٧] ، وكان الملك هو الرئيس الديني الأعلى يرأس المواكب والحفلات العظيمة التي تمجد أعياد الآلهة . وبفضل هذه الدعاوى ، دعاوى قدسية المولد وقدسية السلطان ، استطاع الملوك أن يحكموا حكمهم الطويل غير مستندين فيه إلا إلى قوات ضئيلة .

ومن أجل هذا كان الكهنة في مصر دعامة العرش كما كانوا هم الشرطة السرية القوامة على النظام الاجتماعي . وتطلب هذا الدين الكثير التعقيد أن تقوم عليه طبقة بارعة في فنون السحر والطقوس الدينية لا يمكن الاستغناء عن قدرتها وبراعتها في الوصول إلى الآلهة . وكان منصب الكاهن ينتقل في الواقع إن لم يكن بحكم القانون ، من الآب إلى الابن ، ومن ثم نشأت طبقة أصبحت على مر الزمن ، بفضل تقوى الشعب وكرم الملوك السياسي ، أعظم ثراء وأقوى سلطاناً من أمراء الإقطاع ومن الأسرة المالكة نفسها . وكان الكهنة يحصلون على طعامهم وشرابهم من القرابين التي تقدم للآلهة ، كما كانت لهم موارد عظيمة من إيراد أطيان الهياكل ، ومن صلواتهم وخدماتهم الدينية . وإذ كانوا معفين من الضرائب التي تجبى من سائر الناس ومن السخرة والخدمة العسكرية فقد كان لهم

من المكانة والسلطان ما تحسدهم عليه سائر الطبقات . والحق أنهم كانوا جديرين بقسط وافر من السلطان لأنهم هم الذين جمعوا علوم مصر واحتفظوا بها ، وهم الذين علموا الشعب وفرضوا على أنفسهم نظاماً دقيقاً قوامه القوة والغيرة . وقد وصفهم هيرودوت وصفاً يكاد يشعرنا بأنه كان يهابهم ويرهبهم قال :

« وهم أكثر الناس اهتماماً بعبادة الآلهة ، ولا يتحللون قط من المراسم الآتية : . . يلبسون ثياباً من نسيج الكتان نظيفة حديثة الغسل على الدوام . . ويختتنون حرصاً منهم على النظافة لأنهم يعتقدون أن النظافة أفضل من الجمال ، ويحلقون شعر أجسامهم بأجمعه مرة فى كل ثلاثة أيام ، حتى لا يجد القمل أو غيره من الأقذار مكاناً فى أجسامهم . . وهم يغتسلون بالماء البارد مرتين فى النهار ومرتين فى الليل(٣٤٨) » .

وكان أهم ما يميز هذا الدين توكيده فكرة الخلود . فالمصريون يعتقدون أنه إذا أمكن أن يحيا أوزير النيل ، ويحيا النبات كله ، بعد موتهما ، فإن فى مقدور الإنسان أيضاً أن يعود إلى الحياة بعد موته ، وكان بقاء أجسام الموتى سليمة بصورة تسترعى النظر فى أرض مصر الجافة مما ساعد على تثبيت هذه العقيدة التى ظلت مسيطرة على الديانة المصرية آلاف السنين ، والتى انتقلت منهم إلى الدين المسيحى(٣٤٩) . لقد كان المصريون يعتقدون أن الجسم تسكنه صورة أخرى مصغرة منه تسمى القرينة — الكا — كما تسكنه أيضاً روح تقيم فيه إقامة الطائر الذى يرفرف بين الأشجار . وهذه الثلاثة مجتمعة — الجسم والقرينة والروح — تبقى بعد ظاهرة الموت ، وكان فى استطاعتها أن تنجو منه وقتاً يطول أو يقصر بقدر ما يحتفظون بالجسم سليما من البلى ، ولكنهم إذا جاءوا إلى أوزير مبرئين من جميع الذنوب سمح لهم أن يعيشوا مخلدين فى « حقل الفيضان السعيد » أى فى الحقائق السماوية حيث توجد الوفرة والأمن على الدوام . وفى وسع الإنسان

أن يحكم على ما كان عليه من يعللون أنفسهم بهذه الآمال من فقر ونكد . إلا أن هذه الحقول الفردوسية لا يمكن الوصول إليها إلا باستخدام صاحب المِعبر الذى كان للمصريين كما كان شارون ، ولم يكن هذا الشيخ الطاعن فى السن يقبل فى قاربه إلا الرجال والنساء الذين لم يرتكبوا فى حياتهم ذنباً ما ، وكان أوزير يحاسب الموتى ويزن قلب كل من يريد الركوب فى كفة ميزان تقابله فى الكفة الأخرى ريشة ليتأكد بذلك من صدق قوله . والذين لا ينجحون فى هذا الاختبار فى النهاية يحكم عليهم بأن يبقوا أبد الدهر فى قبورهم يجوعون ويظمئون ، ويطعمون من التماسيح البشعة ، ولا يخرجون منها أبداً ليروا الشمس .

وكان الكهنة يقولون إن ثمة طرقاً ماهرة لاجتياز هذه الاختبارات ، وكانوا على استعداد لتعريف الناس بهذه الطرق نظير ثمن يؤدونه لهم . ومن هذه الطرق أن يهيأ القبر بما يحتاجه الميت لغذائه من الطعام والشراب ، وبمن يستطيع الاستعانة بهم من الخدم . ومن تلك الطرق أيضاً أن يملأ القبر بالطلاسم التى تحبها الآلهة : من أسماك ، ونسور ، وأفاعى ، وبما هو خير من هذه كلها وهو الجعران — والجعارين ضرب من الخنافس كانت فى رأيهم رمزاً لبعث الروح لأنها تتوالد كما كان يبدو لهم بعملية التلقيح . فإذا ما بارك الكاهن هذه الأشياء حسب الطقوس الصحيحة أخافت كل معتد على الميت وقضت على كل شر . وكان خيراً من هذه وتلك أن يشترى كتاب الموتى(*) ، وهو قراطيس ملفوفة أودع فيها

(*) ذلك اسم حديث أطلقه لپسيوس على نحو أثنى ملف من ورق البردى وجدت فى عدة قبور ، وتمتاز عن غيرها من الأوراق باحتوائها صيغاً لإرشاد الموتى . واسمها المصرى هو : الخروج (من الموت) بالنهار . ويرجع تاريخها إلى عهد الأهرام ، ولكن بعضها أقدم منها . ويعتقد المصريون الأقدمون أن هذه النصوص من تأليف تحوت إله الحكمة . وقد جاء فى الفصل الرابع والخمسين منها أن هذا الكتاب قد عثر عليه فى عين شمس وأنه كان « بخط الإله نفسه(٢٥٠) » ولقد عثر هوشع على ما يشبه هذا الكتاب بين اليهود (انظر الفصل الخامس من الباب الثانى عشر من هذا الكتاب) .

الكهنة أدعية وصلوات وصيغاً وتعاويذ من شأنها أن تهدئ من غضب أوزير ، بل أن تخدعه . فإذا ما وصلت روح الميت إلى أوزير بعد أن تجتاز العدد الكبير من الصعاب والأخطار ، خاطبت القاضي الأكبر بما يشبه هذه الأقوال :

أيا من يعجل سير جناح الزمان ،
يا من يسكن في كل خفايا الحياة ،
يا من يحصى كل كلمة أنطق بها —
انظر إنك تستحي مني ، وأنا ولدك ؛
وقلبك مفعم بالحزن والخجل ،
لأني ارتكبت في العالم من الذنوب ما يفعم القلب حزناً ،
وقد تماديت في شروري واعتدائي .
ألا فسالمني ، ألا فسالمني ،
وحطم الحواجز القائمة بينك وبيني !
ومُر بأن تمحى كل ذنوبي وتسقط
منسية عن يمينك وشمالك !
أجل ، امح كل شروري
وامح العار الذي يملأ قلبي
حتى تكون أنت وأنا من هذه اللحظة في سلام[٢٥١] .

ومن الطرق الأخرى أن تعلن الروح براءتها من الذنوب الكبرى في صورة « اعتراف سلبي » . وهذا الاعتراف من أقدم وأنبل ما عبر به الإنسان عن مبادئه الأخلاقية :

« سلام عليك ، أيها الإله الأعظم ، ربّ الصدق والعدالة ! لقد وقفت أمامك ، يا رب ؛ وجيء بي لكي أشاهد ما لديك من جمال . . . أحمل إليك

الصدق . . . إنى لم أظلم الناس . . . لم أظلم الفقراء . . . لم أفرض على رجل حرّ عملا أكثر مما فرضه هو على نفسه . . . لم أهمل ، ولم أرتكب ما تبغضه الآلهة . . . ولم أكن سبباً فى أن يسىء السيد معاملة عبده ، ولم أمت إنساناً من الجوع ، ولم أبك أحداً ولم أقتل إنساناً . . . ولم أخن أحداً . . . ولم أنقص شيئاً من مؤونة الهيكل ، ولم أتلف خبز الآلهة . . . ولم أرتكب عملا شهوانياً داخل أسوار المعبد المقدسة . . . ولم أكفر بالآلهة . . . ولم أغش فى الميزان . . . ولم أنتزع اللبن من أفواه الرضع . . . ولم أصطد بالشباك طيور الآلهة . . . أنا طاهر ، أنا طاهر ، أنا طاهر[٢٥٢] .

على أن الدين المصرى لم يكن فيه ما يقوله عن الأخلاق إلا الشىء القليل ؛ ذلك أن الكهنة قد صرفوا كل همهم إلى بيع الرقى ، وغمغمة العزائم ، وأداء المراسم والطقوس السحرية ، فلم يجدوا متسعاً من الوقت لتعليم الناس المبادئ الخلقية . بل إن كتاب قصة الموتى نفسه ليعلم المؤمنين أن الرقى التى باركها الكهنة تتغلب على جميع ما عساه أن يعترض روح الميت من صعاب فى طريقها إلى دار السلام ، وأهم ما يؤكده هذا الكتاب هو تلاوة الأدعية لا الحياة الطيبة الصالحة وقد جاء فى أحد هذه الملفات : « إذا ما عرف الميت هذا خرج فى النهار » أى حيى الحياة الخالدة . ووضعت صيغ التمائم والرقى وبيعت لتخلص الناس من كثير من الذنوب ؛ وتضمن للشيطان نفسية دخول الجنة . وكان من واجب المصرى التقى أن يتلو فى كل خطوة من خطواته صيغاً عجيبة يتقى بها الشر ويستنزل بها الخير . استمع مثلا إلى ما تقوله أم والهة تريد أن تبعد « الشياطين » عن طفلها :

« اخرج يا من تأتى فى الظلام ، وتدخل خلسة . . . هل أتيت لتقبل هذا الطفل ؟ لن أسمح لك بتقبيله . . . هل أتيت لتأخذه ؟ لن أسمح لك بأخذه منى لقد حصنته منك بعشب — إفيت الذى يؤلمك ، وبالبصل الذى يؤذيك ، وبالشهد الذى هو حلو المذاق للأحياء ومر فى فم الأموات ، وبالأجزاء الخبيثة من سماك الإبدو ، وبالسلسلة الفقرية من سمك النهر[٢٥٣] .

وكانت الآلهة نفسها تستخدم السحر والرقى ليؤذى بعضها بعضاً . وأدب مصر القديم نفسه يفيض بذكر السحرة — السحرة الذين يجففون البحيرات بكلمة ينطقون بها ، أو يجعلون الأطراف المقطوعة تقفز إلى أماكنها ، أو يحيون الموتى[٢٥٤] . وكان للملك سحرة يعينونه ويرشدونه ، وكان الاعتقاد السائد أن له هو نفسه قوة سحرية ينزل بها المطر ، أو يرفع بها الماء فى النهر[٢٥٥] . وكانت الحياة مملوءة بالطلاسم والعزائم ، والرجم بالغيب ، وكان لابد لكل باب من إله يخيف الأرواح الخبيثة ، أو يطرد ما عساه يقترب منه من أسباب الشؤم ، وكانوا يعتقدون اعتقاداً ثابتاً أن الأطفال الذين يولدون فى اليوم الثالث والعشرين من شهر توت سيموتون لا محالة وهم صغار ، وأن الذين يولدون فى اليوم العشرين من شهر شرياخ سيفقدون أبصارهم فى مستقبل أيامهم[٢٥٦] . ويقول هيرودوت إن كل يوم وكل شهر مخصص لإله من الآلهة ، وإن المصريين كانوا يعينون ما سوف يقع لكل شخص منهم فى حياته حسب اليوم الذى ولد فيه ، فيعرفون كيف يموت ، وماذا سيكون فى مستقبل أيامه[٢٥٧] . ونسى الناس على مر الزمن ما بين الدين والأخلاق من صلات فلم تكن الحياة الصالحة هى السبيل إلى السعادة الأبدية ، بل كانت السبيل إليها هى السحر والطقوس وإكرام الكهنة . وإلى القارئ ما يقوله فى هذا عالم كبير من علماء الآثار المصرية :

« ومن ثم تضاعفت الأخطار التى تكتنف الدار الآخرة ، وكان فى وسع الكاهن أن يمد الموتى فى كل موقف من المواقف الخطرة برقية قوية تنقذه منه لا محالة . وكان لديهم ، فضلا عن الرقى الكثيرة التى يستطيع بها الموتى أن يصلوا إلى الدار الآخرة ، رقى أخرى تمنع الميت أن يفقد فمه أو رأسه أو قلبه ، ورقى غيرها يستطيع بها أن يذكر اسمه ، وأن يتنفس ، ويأكل ويشرب ويتقى أكل فضلاته ، ومنها ما يمنع الماء الذى يشربه أن يستحيل لهباً ، ومنها ما يحيل الظلام نوراً ، ومنها مايرد عنه الأفاعى وغيرها من الهولات المعادية ، وما إلى ذلك . . »

وهكذا فوجئنا بانقطاع أسباب التدرج في نمو المبادئ الأخلاقية التي نستطيع تبينها في الشرق القديم أو على الأقل بوقف هذا النمو إلى حين ويرجع هذا إلى الأساليب البغيضة التي لجأت إليها طائفة فاسدة من الكهنة حريصة كل الحرص على الكسب من أهون سبيل »(٢٥٨) .

تلك كانت حال الدين في مصر حين ارتقى العرش إخناتون الشاعر المارق وأجج نار الثورة الدينية التي قضت على الإمبراطورية المصرية ،

الفصل الرابع

الملك المـــارق

أخلاق إخناتون — الدين الجديد — ترنيمة الشمس — التوحيد — العقيدة الجديدة — الفن الجديد — الارتكاس — نفرتيتى تفكك الإمبراطورية — موت إخناتون

فى عام ١٣٨٠ ق . م مات أمنحوتب الثالث الذى خلف تحتمس الثالث على عرش مصر ، بعد حياة حافلة بالعظمة والنعيم الدنيوى ، وخلفه ابنه أمنحوتب الرابع الذى شاءت الأقدار أن يعرف باسم إخناتون . ولدينا تمثال نصفى لهذا الملك واضح المعارف ، عثر عليه فى تل العمارنة ، ومنه نحكم بأنه كان شخصاً نحيل الجسم إلى أبعد حد لا يكاد يصدقه العقل ، ذا وجه نسائى فى رقته ، شاعرى أحاسيسه . وكانت له جفون كبيرة كجفون الحالمين الخياليين ، وجمجمة طويلة شوهاء ، وجسم نحيل ضعيف . وملاك القول أنه كان شاعراً شاءت الأقدار أن تجعل منه ملكاً .

ولم يكد يتولى الملك حتى ثار على دين آمون وعلى الأساليب التى يتبعها كهنته . فقد كان فى الهيكل العظيم بالكرنك طائفة كبيرة من النساء يتخذن سرارى لآمون فى الظاهر ، وليستمتع بهن الكهنة فى الحقيقة[٢٥٨] .

وكان الملك الشاب فى حياته الخاصة مثالا للطهر والأمانة ، فلم يرضه هذا العهر المقدس ، وكانت رائحة دم الكبش الذى يقدم قرباناً لآمون كريهة نتنة فى خياشيمه كما كان اتجار الكهنة فى السحر والرقى ، واستخدامهم نبوءات آمون للضغط على الأفكار باسم الدين ، ولنشر الفساد السياسى[٢٥٩] ، مما تعافه نفسه ، فثار على ذلك كله ثورة عنيفة ، وقال فى هذا : « إن أقوال الكهنة لأشد إثماً من

كل ما سمعت حتى السنة الرابعة (من حكمه) وهى أشد إثماً مما سمعه الملك أمنحوتب الثالث[٢٦٠] » ، وثارت روحه الفتية على الفساد الذى تدهور إليه دين شعبه ، وكره المال الحرام والمراسم المترفة التى كانت تملأ الهياكل ، وأحفظه ما كان لطائفة الكهنة المرتزقة من سيطرة على حياة الأمة . ثار الرجل على هذا كله ثورة الشعراء ، فلم يقبل تراضيا ولم يقنع بأنصاف الحلول ، وأعلن فى شجاعة أن هاتيك الآلهة وجميع ما فى الدين من احتفالات وطقوس كلها وثنية منحطة ، وأن ليس للعالم إلا إله واحد هو — أتون .

ورأى إخناتون — كما رأى أكبر فى الهند من بعده بثلاثين قرناً — أن الألوهية أكبر ما تكون فى الشمس مصدر الضوء وكل ما على الأرض من حياة .

ولسنا نعلم هل أخذ نظريته هذه عن بلاد الشام ، أو ابتدعها من عنده ، وهل كان أتون مجرد صورة أخرى لأدنيس . وأياً كان أصل هذا الإله فقد ملأ نفس الملك بهجة وسروراً ، فاستبدل باسمه الأول أمنحوتب المحتوى على أمون اسم إخناتون ومعناه « أتون راض » ، واستعان ببعض الترانيم القديمة ، وبعض قصائد فى التوحيد — نشرت فى أيام سلفه(*) — فألف أغانى حماسية فى مدح أتون ، أحسنها وأطولها جميعاً القصيدة الآتية . وهى أجمل ما بقى لدينا من الأدب المصرى القديم :

ما أجمل مطلعك فى أفق السماء !

أى أتون الحى ، مبدأ الحياة ،

فإذا ما أشرقت فى الأفق الشرقى

ملأت الأرض كلها بجمالك .

(*) فى أيام أمنحوتب الثالث نقش المهندسان سوتى وحور نشيداً توحيدياً للشمس على لوحة محفوظة الآن فى المتحف البريطانى[٢٦١] . وقد كانت العادة المتبعة فى مصر من زمن طويل أن يخاطب إله الشمس أمون — رع باسم أعظم الآلهة[٢٦٢] ، ولكنه لم يكن فى اعتقادهم إلا إله مصر وحدها .

إنك جميل ، عظيم براق ، عال فوق كل الرءوس ،
أشعتك تحيط بالأرض ، بل بكل ما صنعت ،
إنك أنت رِى ، وأنت تسوقها كلها أسرة ؛
وإنك لتربطها جميعاً برباط حبك .
ومهما بعدت فإن أشعتك تغمر الأرض ؛
ومهما علوت ، فإن آثار قدميك هى النهار ؛
وإذا ما غربت فى أفق السماء الغربى
خيم على الأرض ظلام كالموت ،
ونام الناس فى حجراتهم ،
وعصبت رءوسهم ،
وسدت خياشيمهم ،
ولم ير واحد منهم الآخر ،
وسُرق كل متاعهم ،
الذى تحت رءوسهم ،
ولم يعرفوا هم هذا ،
وخرج كل أسد من عرينه
ولدغت الأفاعى كلها . . .
وسكن العالم بأجمعه
لأن الذى صنعها يستريح فى أفق سمائه .
ما أبهى الأرض حين تشرق فى الأفق ،
حين تضىء يا أتون بالنهار
تدفع أمامك الظلام
وإذا ما أرسلت أشعتك

أضحت الأرض في أعياد يومية . . .
واستيقظ كل من عليها ووقفوا على أقدامهم
حين رفعتهم .
فإذا غسلوا أجسامهم ، لبسوا ملابسهم ،
ورفعوا أيديهم يمجدون طلوعك ،
وأخذوا في جميع أنحاء العالم يؤدون أعمالهم ،
واستراحت الأنعام كلها في مراعيها .
وازدهر الشجر والنبات ،
ورفرفت الطيور في مناقعها ،
وأجنحتها مرفوعة تسبح بحمدك .
ورقصت كل الأغنام وهي واقفة على أرجلها .
وطار كل ذي جناحين ،
كلها تحيا اذا ما أشرقت عليها ؛
وأقلعت السفائن صاعدة ونازلة ،
وتفتحت كل الطرق لأنك قد طلعت ،
وإن السمك في النهر ليقفز أمامك ،
وإن أشعتك لفي وسط البحر العظيم الأخضر ،
يا خالق الجرثومة في المرأة ،
ويا صانع النطفة في الرجل ،
ويا واهب الحياة للابن في جسم أمه ،
ويامن يهدئه فلا يبكي ،
يا من يغذيه وهو في الرحم ،
يا واهب الأنفاس ، يا من ينعش كل من يصنعه

وحين يخرج من الجسم . . . فى يوم مولده
تفتح أنت فاه لينطق ،
وتمده بحاجاته .

والفرخ حين يزقزق فى البيضة
تهبه النفس فيها لتحفظ له حياته
فإذا ما وصلت به
إلى النقطة التى عندها تُكسر البيضة .
خرج من البيضة ،
ليغرد بكل ما فيه من قوة
ويمشى على قدميه
ساعة يخرج منها .
ألا ما أكثر أعمالك
الخافية علينا !
أيها الإله الأوحد الذى ليس لغيره سلطان كسلطانه .
يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك
حين كنت وحيداً :
إن الناس والأنعام كبيرها وصغيرها ،
وكل ما على الأرض من دابة ،
وكل ما يمشى على قدمين
وكل ما هو فى العلا
ويطير بجناحيه ،
والبلاد الأجنبية من سوريا إلى كوش
وأرض مصر ؛
إنك تضع كل إنسان فى موضعه

وتمدهم بحاجاتهم ...
أنت موجد النيل فى العالم السفلى ،
وأنت تأتى به كما تحب
لتحفظ حياة الناس ...
ألا ما أعظم تدبيرك
يا رب الأبدية !
ن فى السماء نيلاً للغرباء
ولما يمشى على قدميه من أنعام كل البلاد ،
إن أشعتك تغذى كل الحدائق ،
فإذا ما أشرقت سرت فيها الحياة ،
أنت الذى تنميها ،
أنت موجد الفصول
لكى تخلق كل أعمالك :
خلقت الشتاء لتأتى إليها بالبرد ،
وخلقت الحرارة لكى تتذوقك .
وأنشأت السماء البعيدة ، وأشرقت فيها
لتبصر كل ما صنعت ،
أنت وحدك تسطع فى صورة أتون الحى .
تطلع ، وتسطع ، وتبتعد ، وتعود ،
إنك تصنع آلاف الأشكال
منك أنت وحدك ؛
من مدائن ، وبلاد ، وقبائل ؛
وطرق كبرى وأنهار ،

كل الأعين تراك أمامها ،
لأنك أنت أتون النهار فوق الأرض . . .

* * *

إنك فى قلبى
وما من أحد يعرفك
إلا ابنك إخناتون .
لقد جعلته حكيما
بتدبيرك وقوّتك ،
إن العالم فى يدك
بالصورة التى خلقته عليها ،
فإذا أشرقت دبت فيه الحياة
وإذا غربت مات ؛
لأنك أنت نفسك طول الحياة
والناس يستمدون الحياة منك ،
ما دامت عيونهم تتطلع إلى سناك
حتى تغيب .
فتقف كل الأعمال
حين تتوارى فى المغرب . . .

* * *

أنت أوجدت العالم ،
وأقمت كل ما فيه لابنك . . .
إخناتون ، ذى العمر المديد ؛
ولزوجه الملكية الكبرى محبوبته ،

سيدة القطرين
نفر — تفرو — أتون ، نفرتيتى ،
الباقية المزدهرة أبد الآبدين(٢٦٣) »

وليست هذه القصيدة من أولى قصائد التاريخ الكبرى فحسب ، بل هى فوق ذلك أول شرح بليغ لعقيدة التوحيد ، فقد قبلت قبل أن يجىء إشعيا بسبعمائة عام(*) كاملة . ولعل عقيدة التوحيد هذه كانت صدى لوحدة عالم البحر المتوسط تحت حكم مصر فى عهد تحتمس الثالث ، كما يقول برستد(٢٦٥) . ويرى إخناتون أن إلهه رب الأمم كلها ، بل إنه فى مديحه ليذكر قبل مصر غيرها من البلاد التى يوليها الإله عنايته . ألا ما أعظم الفرق بين هذا وبين العهد القديم عهد آلهة القبائل ! ثم انظر إلى ما فى القصيدة من مذهب حيوى : إن أتون لا يوجد فى الوقائع والانتصارات الحربية ، بل يوجد فى الأزهار والأشجار وفى جميع صور الحياة والنماء ، وأتون هو الفرحة التى تجعل الخراف الصغرى « ترقص فوق أرجلها » والطير « ترفرف فى مناقعها » .

وليس الإله إنساناً فى صورة البشر دون غيرها من الصور ، بل إن هذا الإله الحق هو خالق حرارة الشمس ومغذيها ، وليس ما فى الكرة المشرقة والآفلة من مجد ملتهب إلا رمزاً للقدرة الغائبة . على أن هذه الشمس نفسها تصبح فى نظر إخناتون « رب الحب » لما لها من قدرة شاملة مخصبة مباركة ، وهى فوق ذلك المرضع الحنون التى « تخلق فى المرأة الطفل — الرجل » والتى « تملأ قطرى مصر بالحب » . وهكذا يصبح أتون آخر الأمر رمزاً للأبوة الجزعة القلقة الرحيمة الرقيقة القلب ؛ ولم يكن كيهوه ، رب الجيوش ، بل كان رب الرحمة والسلام(٢٦٦) .

(*) ما بين هذه القصيدة وبين المزمور الرابع بعد المائة من تشابه يغفل عنه الناس لا يترك مجالا للشك فيما كان لمصر من أثر فى الشاعر العبرانى(٢٦٤) .

ومن مآسي التاريخ أن إخناتون ، بعد أن حقق حلمه العظيم حلم الوحدانية العامة التي سمت بالبشرية إلى الدرجات العلى ، لم يترك ما فى دينه الجديد من صفات نبيلة يسرى فى قلوب الناس ويستميلها إليه على مهل ، بل عجز عن أن يفكر فى الحقائق التى جاء بها تفكيراً يتناسب مع الواقع . لقد خال أن كل دين وكل عبادة عدا عقيدته وعبادته فحش وضلال لا يطاق . فأصدر أمره على حين غفلة بأن تمحى من جميع النقوش العامة أسماء الآلهة كلها إلا اسم أتون ، وشوه اسم أبيه بأن محا كلمة أمون من مئات الآثار ، وحرم كل دين غير دينه ، وأمر أن تغلق جميع الهياكل القديمة . وغادر طيبة لأنها مدينة نجسة ، وأنشأ له عاصمة جديدة جميلة فى أخناتون « مدينة أفق أتون » .

وما لبثت طيبة أن تدهورت بعد أن أخرجت منها دور الحكومة — وخسرت رواتب الموظفين ، وأضحت أخناتون حاضرة غنية أقيمت فيها المبانى الجديدة — ونهض الفن بعد أن تحرر من أغلال الكهنة والتقاليد . ولقد دشف سيرو وليم فلندرز بترى فى تل العمارنة — وهى قرية حديثة أنشئت فى موقع أخناتون القديمة — طواراً جميلا تزينه صور الطيور ، والسمك وغيرهما من الحيوانات ، رسمت كلها أدق رسم وأجمله[٢٦٧] . ولم يفرض إخناتون على الفن قيوداً بل كان ما فعله من هذا القبيل أن حرم على الفنانين أن يرسموا صوراً لأتون ، لأن الإله الحق فى اعتقاده لا صورة له ، وما أسمى هذه من عقيدة[٢٦٨] . ثم ترك الفن بعدئذ حراً طليقاً ، عدا شيئاً واحداً آخر ، وهو أنه طلب إلى فنانيه : بك ، وأوتا ، ونتموز ، أن يمثلوا الأشياء كما يرونها ، وأن يغفلوا العرف الذى جرى عليه الكهنة . وصدع هؤلاء بأمره ، وصوروه هو نفسه فى صورة شاب ذى وجه ظريف رقيق رقة تكاد تبلغ حد الوجل ، ورأس مستطيل مسرف فى الطول ، واسترشدوا فى تصويرهم بعقيدته الحيوية فى إلهه ، فصوروا كل الكائنات الحية نباتية كانت أو حيوانية فى تفصيل ينم عن حب وعطف عظيمين ، ودقة لا تسمو عليها دقة

فى أى مكان أو زمان(٢٦٩) . وكان من أثر هذا أن ازدهر الفن أعظم ازدهار لأن الفن فى جميع العصور يحس بآلام المسغبة والقتام

ولو أن إخناتون كان ذا عقل ناضج لأدرك أن ما يريده من خروج على تعدد الآلهة القديم المتأصل فى عادات الناس وحاجاتهم ، إلى وحدانية فطرية تخضع الخيال للعقل ، لأدرك أن هذا تغيير أكثر من أن يتم فى زمن قصير ، وإذن لسار فى عمله على مهل وخفف من حدة الانتقال بأن جعله على مراحل تدريجية . ولكنه كان شاعراً لا فيلسوفاً ، فاستمسك بالحقيقة المطلقة فتصدع بذلك جميع بناء مصر وانهار على أم رأسه .

ذلك أنه ضرب ضربة واحدة جرد بها طائفة غنية قوية من ثرائها فأغضبها عليه ، وحرم عبادة الآلهة التى جعلتها العقيدة والتقاليد عزيزة على الناس . ولما أن محا لفظ آمون من اسم أبيه خيل إلى الناس أن هـذا العمل زيغ وضـلال ، إذ لم يكن شىء أعز عليهم من تعظيم الموتى من أسلافهم . وما من شك فى أن إخناتون قد استخف بقوة الكهنة وعنادهم وتغالى فى قدرة الشعب على فهم الدين الفطرى . وقام الكهنة من وراء الستار يأتمرون ويتآمرون ، وظل الناس فى دورهم وعزلتهم يعبدون آلهتهم القديمة المتعددة . وزاد الطين بلة أن مئات الحرف التى لم تكن لها حياة إلا على حساب الهياكل أخذت تزمجر فى السر غضباً على الملك الزنديق ، بل إن وزراءه وقواده بين جدران قصوره كانوا يحقدون عليه ويتمنون موته . ألم يكن هو الرجل الذى ترك الدولة تنهار وتتقطع أوصالها بين يديه ؟ .

وكان الشاعر الفتى فى هذه الأثناء يعيش عيشة البساطة والاطمئنان . وكانت له سبع بنات ، ولكنه لم يكن له ولد ذكر . ومع أن القانون كان يجيز له أن

يطلب له وارثا ذكراً من زوجة ثانية ، فإنه لم يقدم على هذا الحل ، وآثر أن يظل وفياً لنفرتيتي . ولقد وصلت إلينا تحفة صغيرة من عهده تظهره يحتضن الملكة ، كما أجاز لمصوريه أن يرسموه في عربة يسير بها في الشوارع يلهو ويطرب مع زوجته وبناته . وكانت الملكة تجلس إلى جانبه في الاحتفالات وتمسك بيده . كما كانت بناته يلعبن إلى جانب عرشه . وكان يصف زوجته بأنها « سيدة سعادته » ويقول « إن الملك يبتهج قلبه حين يسمع صوتها » ؛ وكان في قسمه يقسم بهذه الصيغة : « بقدر ما تسعد وقلبي الملكة أطفالها[٢٧٠] . لقد كان حكم هذا الملك فترة من الحنو والعطف وسط ملحمة القوة والسلطان في تاريخ مصر .

وجاءت الرسائل المروعة من الشام(*) تنغص على الملك هذه السعادة الساذجة البريئة ، فقد غزا الحثيون وغيرهم من القبائل المجاورة لهم البلاد التابعة لمصر في الشرق الأدنى . وأخذ الحكام المعينون من قبل مصر يلحون في طلب النجدة العاجلة . وتردد إخناتون في الأمر ؛ ذلك أنه لم يكن على ثقة من أن حق الفتح يبرر إخضاع هذه الولايات لحكم مصر ؛ وكان يكره أن يرسل المصريين ليهلكوا في ميادين القتال البعيدة دفاعاً عن قضية لا يثق بعدالتها . ولما رأت الولايات أنها لا تطلب النجدة من ملك حاكم بل تطلبها من ولي صالح ، خلعت حكامها المصريين ، وامتنعت في غير جلبة عن أداء شيء من الخراج ، وأصبحت حرة مستقلة في جميع شؤونها . ولم يمض من الزمن إلا أقصره حتى خسرت مصر إمبراطوريتها الواسعة ، وانكمشت حتى عادت دولة صغيرة ضيقة الرقعة . وسرعان ما أقفرت الخزانة المصرية التي ظلت قرناً كاملا تعتمد أكثر ما تعتمد على ما يأتيها من

(*) في عام ١٨٩٣ عثر سير فلندرز بترى في تل العمارنة على أكثر من ثلثمائة وخمسين لوحة هي رسائل مكتوبة بالخط المسماري معظمها طلبات ملحة للنجدة موجهة إلى إخناتون من بلاد الشرق .

الجزية الخارجية ، ونقصت الضرائب المحلية إلى أقصى حد ، ووقف العمل فى مناجم الذهب ، وعمت الفوضى جميع فروع الإدارة الداخلية . وألفى إخناتون نفسه معدماً فقيراً لا صديق له ولا معين فى عالم كان يخيل إليه من قبل أنه كله ملك له . واندلع لهيب الثورة فى جميع الولايات التى كانت تابعة لمصر وقامت جميع القوى الداخلية فى وجهه تناوئه وترقب سقوطه .

ولم يكد يتم الثلاثين من عمره حتى توفى فى عام ١٣٦٢ ق . م محطم القلب بعد أن أدرك عجزه من أن يكون ملكاً ، وأيقن أن شعبه غير جدير به .

الفصل الخامس

اضمحلال مصر وسقوطها

توت عنخ أمون – جهود رمسيس الثاني – ثروة الكهنة – فقر الشعب – فتح مصر – خلاصة في فضل مصر على الحضارة

وبعد عامين من وفاته جلس على العرش توت عنخ أمون زوج ابنته وحبيب الكهنة . وما لبث أن بدل اسمه توت عنخ أتون الذي سماه به حموه . وأعاد عاصمة المُلك إلى طيبة ، وتصالح مع السلطات الكهنوتية ، وأعلن إلى الشعب المبتهج عودته إلى عبادة الآلهة القديمة . وأزيلت من جميع الآثار القديمة كلمتا أتون وإخناتون ، وحرَّم الكهنة على الشعب أن ينطقوا باسم الملك المارق . وكان الناس إذا تحدثوا عنه سمَّوه « المجرم الأكبر » . ونقشت على الآثار الأسماء التي محاها إخناتون ، وأعيدت أيام الأعياد التي ألغاها . وهكذا عاد كل شيء إلى ما كان عليه قبل .

وفيما عدا هذا حكم توت عنخ أمون حكماً لا ميزة له ولا فضل ، ولولا ما كشف في قبره من كنوز لا عهد للناس بها من قبل لما سمع العالم به . وجاء من بعده قائد باسل يدعى حارمحب سير جيوشه على طول الشاطئ وأعاد إلى مصر أملاكها الخارجية وسلمها الداخلية . وجنى سيتي الأول بحكمته ثمار عودة النظام والثروة ، وشيد بهو الأعمدة في الكرنك[٢٧٢] . وشرع في نحت هيكل عظيم في صخور أبي سنبل ، وخلد عظمته في الأعقاب بالنقوش الفخمة ، وكان له الحظ الأكبر في أن رقد آلاف السنين في قبر من أحسن قبور مصر زخرفاً وتنميقاً .

ثم ارتقى العرش رمسيس الثاني صاحب الشخصية الروائية العجيبة وآخر العظام . وقلما عرف التاريخ ملكاً أبهى منه منظراً ، فقد كان وسيما

شجاعاً ، أضاف إلى محاسنه إحساسه فى شبابه بهذه المحاسن ، ولم تكن جهوده الموفقة فى الحرب ليضارعها غير مغامراته فى الحب . وبعد أن نحى رمسيس عن العرش أخاً له ذا مطالب جاءت فى غير وقتها المناسب ، سير حملة إلى بلاد النوبة ليفتح ما فيها من مناجم الذهب ، ويملأ به خزانة مصر ، واستخدم ما جاء به هذه الحملة من أموال لإخضاع الولايات الأسيوية التى خرجت على مصر . وقضى ثلاث سنين فى إخضاع فلسطين ثم واصل زحفه والتقى عند قادش (١٢٨٨ ق م) بجيش عظيم جمعه الأحلاف الأسيويون . وبدل بشجاعته وبراعة قيادته ، هزيمة محدقة به نصراً مؤزراً . ولربما كان من نتائج هذه الحملات أن جىء إلى مصر بعدد كبير من اليهود عبيداً أو مهاجرين ، ويعتقد بعضهم أن رمسيس الثانى هو بعينه فرعون موسى الذى ورد ذكره فى سفر الخروج[٢٢٣] . وأمر أن تخلد انتصاراته بعبر قليل من المبالغة والتحيز على خمسين جداراً أو نحوها ، وكلف أحد الشعراء بأن يشيد بذكره فى ملحمة شعرية ، وكافأ نفسه على أعماله ببضع مئات من الزوجات ، وخلف بعد وفاته مائة وخمسين ابناً ليبرهن على رجولته بعدد هؤلاء الأبناء وبنسبة الذكور منهم إلى الإناث . وتزوج عدداً من بناته حتى يكون لهن أيضاً أبناء عظاء ، وكان أبناؤه ومن تناسل منهم من الكثرة بحيث تألفت منهم طبقة خاصة فى مصر بقيت على هذه الحال أربعة قرون ، وظل حكام مصر يختارون من هذه الطبقة أكثر من مائة عام .

والحق أنه كان جديراً بهذا كله ، فقد حكم مصر كما يلوح حكماً موفقاً ، ولقد أسرف فى البناء إسرافاً كان من نتائجه أن نصف ما بقى من العمائر المصرية يعزى إلى أيام حكمه . وأتم بناء البهو الرئيسى فى الكرنك ، وأضاف أبنية جديدة إلى معبد الأقصر ، وشاد ضريحه الكبير المعروف بالرمسيوم فى غرب النهر ، وأتم الهيكل العظيم المنقور فى الجبل عند أبى سنبل ، ونثر تماثيل له ضخمة فى طول البلاد وعرضها . وراجت التجارة فى عهده عن طريق

برزخ السويس والبحر المتوسط ، واحتفر ترعة أخرى توصل النيل بالبحر الأحمر ، ولكن الرمال السافية طمرتها بعد وفاته بزمن قليل . وأسلم رمسيس الروح فى عام ١٢٢٥ ق . م وهو فى التسعين من عمره ، بعد عهد يعد من أشهر العهود فى التاريخ .

ولم يكن فى البلاد كلها سلطة بشرية تعلو فوق سلطته إلا سلطة الكهنة . ثم قام النزاع فى مصر ، كما قام فى غيرها من البلاد خلال جميع العهود ، بين الدولة والدين . فقد كانت أسلاب كل حرب والجزء الأكبر من خراج البلاد المفتوحة تتدفق فى أثناء حكمه وحكم خلفائه الذين تولوا الملك بعده مباشرة فى خزائن الهياكل والكهنة . وبلغت هذه الثروة غايتها فى عهد رمسيس الثالث . فكان للمعابد من العبيد ١٠٧٫٠٠٠ وهم جزء من ثلاثين جزءاً من سكان مصر . وكان لها من أرض مصر ٧٥٠٫٠٠٠ فدان أى سبع أرض مصر الصالحة للزراعة ، وكانت تمتلك ٥٠٠٫٠٠٠ رأس من الماشية ، وتستحوذ على إيراد ١٦٩ مدينة من مدن مصر والشام . وكانت هذه الثروة الضخمة كلها معفاة من الضرائب(٢٧٤) . وأغدق رمسيس الثالث الكريم ، وإن شئت فقل الوهاب ، من الهدايا على كهنة أمون ما لم يسبق له فى كثرته مثيل . وكان من هذه الهدايا ٣٢٫٠٠٠ كيلوجرام من الذهب ، ومليون كيلو جرام من الفضة(٢٧٥) . وكان يهبهم كل سنة ١٨٥٫٠٠٠ كيس من الحبوب . ولما حان الوقت لأداء أجور العمال الذين تستخدمهم الدولة فى مرافقها وجد الخزانة مقفرة(٢٧٦) . وجاع الشعب واشتد جوعه يوماً بعد يوم لكى يتخم الآلهة .

وكان شأن هذه السياسة أن يصبح الملوك خدام الآلهة عاجلا كان ذلك أو آجلا . فلما أن جلس على العرش آخر الملوك الذين تسموا باسم رمسيس اغتصب المُلكَ الكاهن الأكبر للإله أمون ، وحكم حكماً كان له فيه السلطان الأعلى . وأمست الإمبراطورية المصرية حكومة دينية راكدة ازدهر فيها البناء

والتخريف ، واضمحل فيها كل ما عدا هذين من مقومات الحياة القومية . ووضعت الرقى لتصبغ كل قرار يصدره الكهنة بالصبغة المقدسة الإلهية . وامتص الآلهة كل ما فى مصر من مصادر الحياة حتى نضب معينها فى الوقت الذى كان فيه الغزاة الأجانب يعدّون العدة للانقضاض على كل هذه الثروة المتجمعة .

وثار نقع الفتنة فى جميع أطراف البلاد . وكان من أهم موارد مصر موقعها الهام على الطريق الرئيسى لتجارة البحر المتوسط ، كانت معادنها وثروتها قد جعلت لها السيادة على بلاد لوبيا فى الغرب وعلى بلاد فينيقية وسوريا وفلسطين فى الشمال والشرق . لكن أمماً جديدة فى بلاد أشور وبابل وفارس كانت آنئذ تتمرد وتشتد ويقوى سلطانها فى الطرف الآخر من طرفى هذا الطريق التجارى ، وكانت تدعم قوتها بالمخترعات والمغامرات وتجرؤ على منافسة المصريين الأتقياء الراضين عن أنفسهم فى ميادين التجارة والصناعة . وكان الفينيقيون وقتئذ يتمون صنع السفائن ذات الثلاثة الصفوف من المجاذيف لكى يصلوا بها إلى ما يبغون من كمال ، وأخذوا بفضل هذه السفائن ينتزعون من مصر السيطرة على البحر شيئاً فشيئاً . وكان الدوريون والآخيون قد استولوا على كريت وجزائر بحر إيجه (حوالى ١٤٠٠ ق . م) وكانوا ينشئون لهم إمبراطورية تجارية . وأخذت التجارة يقل سيرها شيئاً فشيئاً فى قوافل بطيئة فى طرق الشرق الأدنى الجبلية والصحراوية المعرضة لهجمات اللصوص ، وبدأت تنقل بوسيلة أقل من هذه كلفة على ظهر سفن تخترق البحر الأسود وبحر إيجه إلى طروادة وكريت وبلاد اليونان ، وأخيراً إلى قرطاجنة وإيطاليا وأسبانيا . وعلا نجم الأمم الواقعة على شواطئ البحر المتوسط الشمالية وازدهرت ، أما الأمم المقيمة على شواطئه الجنوبية فضعفت واضمحلت . وفقدت مصر تجارتها وذهبها وسلطانها وفنونها ، ثم فقدت آخر الأمر كبرياءها نفسه ، وزحفت على أرضها الأمم المنافسة لها واحدة بعد واحدة وعدت عليها واجتاحت أرضها وخربتها .

فانقض عليها اللوبيون من الغرب فى عام ٩٤٥ ق . م وعاثوا فيها فساداً يخربون ويدمرون ، وفى عام ٧٢٢ ق . م غزاها الأحباش من الجنوب وثأروا لعبوديتهم القديمة ؛ وفى عام ٦٧٤ اجتاحها الأشوريون من الشمال وأخضعوا لسلطانهم مصر التى كان يستبد بها الكهنة ، وألزموها بأداء الجزية لهم واستطاع أبسماتيك أمير شاو أن يرد الغزاة وقتاً ما ويضم أجزاء مصر كلها تحت زعامته . وحدثت فى أثناء حكمه وحكم خلفائه نهضة فى الفن ، وشرع مهندسو مصر ومثالوها وشعراؤها يجمعون ما كان لمدارسهم من تقاليد فى الفن والذوق ، ويعدونها ليلقوها فيما بعد تحت أقدام اليونان . لكن الفرس بقيادة قمبيز عبروا برزخ السويس فى عام ٥٢٥ ق . وقضوا مرة أخرى على استقلال مصر ، وفى عام ٣٣٢ ق . م اجتاحها الإسكندر من آسية وأخضعها لحكم مقدنية(*) . وأقبل قيصر فى عام ٤٨ ق م ليستولى على الإسكندرية عاصمة مصر الجديدة ، وليستولد كليوباترة ابناً ووارثاً كانا يأملان أملا لم يتحقق أن يتوجاه ملكاً تخضع لسلطانه أكبر الإمبراطوريات القديمة . وفى عام ٣٠ ق . م أمست ولاية تابعة لرومة واختفت من التاريخ القديم .

ونهضت البلاد مرة أخرى نهضة قصيرة الأجل حين عمر القديسون الصحراء وجرسيرل هيپاشيا لتلقى حتفها فى الشوارع (٤١٥ ب . م) ، وحين فتحها المسلمون (حوالى ٦٥٠ ب . م) وبنوا القاهرة من أنقاض منفيس وملأوها بالقلاع والقباب الزاهية الألوان . ولكن هذه الثقافة وتلك كانتا فى واقع الأمر ثقافتين أجنبيتين غير مصريتين ولم تلبثا أن زالتا .

. . . .

(*) وتاريخ الحضارة المصرية القديمة فى عهد البطالمة والقياصرة من الموضوعات التى سترد فى مجلد تال .

واليوم يوجد مكان يسمى مصر ، ولكن المصريين ليسوا سادته(*) ، فلقد حطمتهم الفتوح من زمن بعيد ، واندمجوا عن طريق اللغة والزواج فى الفاتحين العرب ، وأضحت مدنهم لا تعرف إلا المسلمين والإنجليز ، وأقدام السياح المتعبين ، الذين يأتون من أقاصى الأرض ليروا أهرامها فلا يجدوها إلا أكواماً من الحجارة . ولربما رجعت إلى مصر عظمتها إذا ما أثرت آسية مرة أخرى فأصبحت مصر مركز التجارة العالمية ومستودعها ؛ ولكن أحداً لا يستطيع أن يتنبأ بما سيكون وهو واثق مما يتنبأ به ، وكل ما نعلمه علم اليقين أن آثار مصر القديمة قد خرجت وتهدمت ؛ فالسائح أينما سار يجد خربات ضخمة ، وآثاراً وقبوراً تذكره بجهود عظيمة جبارة ، ومن حولها قفر ودمار ، ونضوب للدم القديم . ويحيط بهذا كله رمال سافية لا تنفك الرياح الحارة تحملها من كل جانب ، كأنها قد اعتزمت أن تغطى بها آخر الأمر كل شىء(**) .

لكن هذه الرمال لم تخرب من مصر القديمة إلا الجسد ، أما روحها فلا تزال باقية فيما ورثه الجنس البشرى من علم ومن ذكريات مجيدة .

وحسبنا أن نذكر من معالم حضارتها نهوضها بالزراعة والتعدين والصناعة والهندسة العملية ، وأنها فى أغلب الظن هى التى اخترعت الزجاج ، ونسيج

(*) كتب هذا قبل الثورة المباركة بنحو ثلاثين عاما وقد أصبح المصريون بفضل هذه الثورة وتأييدهم لها سادة فى بلادهم .

(**) آثرنا أن ننقل هذا الجزء كما كتبه المؤلف حرصاً منا على الأمانة فى النقل وإن كنا لا نوافقه على الكثير منه ، ورغبة فى أن يعرف المصريون كل ما يقال عنهم حقاً كان ذلك أو باطلا . وقل أن يوجد فى بلاد العالم شعب إلا وقد امتزج دمه بدم غيره من الشعوب . فسلمو مصر وأقباطها وإن اختلفوا فى الدين يؤلفون معاً أمة متجانسة ذات عادات وتقاليد وأمانى واحدة . ومن الخطأ أن يقال إن مدنهم لا تعرف إلا المسلمين والإنجليز . إنها تضم أبناء مصر من مسلمين وأقباط ، أما الإنجليز فإن الذى تعرفه عنهم أنهم احتلوا البلاد سبعين عاما ولكنهم ظلوا فيها قوماً أجانب غرباء عن أهلها حتى أخرجتهم من أرضها . وها هى ذى مصر قد عاد حكمها إلى أيدى أبنائها وأخذت تسير بخطى جبارة لاستعادة مجدها . (المترجم)

الكتان ، وأنها هى التى أحسنت صنع الملابس والحلى والأثاث والمساكن ، وأصلحت أحوال المجتمع وشئون الحياة ، وأن المصريين أول من أقام حكومة منظمة نشرت لواء السلام والأمن فى البلاد ، وأنهم أول من أنشأ نظام البريد والتعداد والتعليم الابتدائى والثانوى ، بل إنهم هم أول من أوجد نظام التعليم الفنى لإعداد الموظفين ورجال الإدارة .

وهم الذين ارتقوا بالكتابة ، ونهضوا بالآداب والعلوم والطب ، والمصريون على ما نعرف أول من وضع دستوراً واضحاً للضمير الفردى ، والضمير العام ، وهم أول من نادى بالعدالة الاجتماعية ، وبالاقتصار على زوجة واحدة ، وأول من دعا إلى التوحيد فى الدين ، وأول من كتب فى الفلسفة ، وأول من نهض بفن العمارة والنحت ، وارتقى بالفنون الصغرى إلى درجة من الإتقان والقوة لم يصل إليها (فيما نعرف) أحد من قبلهم ، وقلما باراهم فيها من جاء بعدهم . وهذا الفضل كله لم يذهب هباء حتى فى الوقت الذى كان خير ما فيه مطموراً تحت رمال الصحراء أو ملقى على الأرض بفعل الاضطرابات الأرضية(*) ، فقد انتقلت الحضارة المصرية على أيدى الفينيقيين والسوريين واليهود وأهل كريت واليونان والرومان ، حتى أضحت من التراث الثقافى للجنس البشرى . وإن ما قامت به مصر من الأعمال فى فجر التاريخ لا تزال آثاره أو ذكرياته مخلدة عند كل أمة وفى كل جيل ، « ولعل مصر » كما يقول فور « بفضل تماسكها ووحدتها ، وتنوع منتجاتها الفنية تنوعاً أساسه دقة التنسيق والتنظيم ، وبفضل ما بذلت من جهود جبارة دامت أطول العهود ، لعل مصر بهذا كله تعرض على العالم أعظم ما ظهر على الأرض من حضارات إلى يومنا هذا(٢٧٧) » . وأن من الخير لنا أن نعمل نحن لكى نبلغ ما بلغت .

(*) لقد دمر طيبة عن آخرها زلزال حدث فى عام ٢٧ ب . م .

الباب التاسع

بابل

الفصل الأول

من حمورابي إلى نبوخذ نصر

فضل بابل على المدنية الحديثة – أرض ما بين النهرين – حمورابي – عاصمة ملكه – سيطرة الكاشيين – رسائل تل العمارنة – فتح الأشوريين لبابل – نبوخذ نصر – بابل في أيام مجدها

الحضارة كالحياة صراع دائم مع الموت ، وكما أن الحياة لا يتسنى لها أن تحتفظ بنفسها إلا إذا خرجت عن صورها البالية القديمة واتخذت لها صوراً أخرى فتية جديدة ، فكذلك الحضارة تستطيع البقاء مزعزعة الأركان بتغيير موطنها ودمها ، ولقد انتقلت الحضارة من أور إلى بابل ويهوذا ، ومن بابل إلى نينوى ، ومن هذه كلها إلى پرسبوليس وسارديس وميليتس ومن هذه الثلاثة الأخيرة ومصر وكريت ، إلى بلاد اليونان وروما .

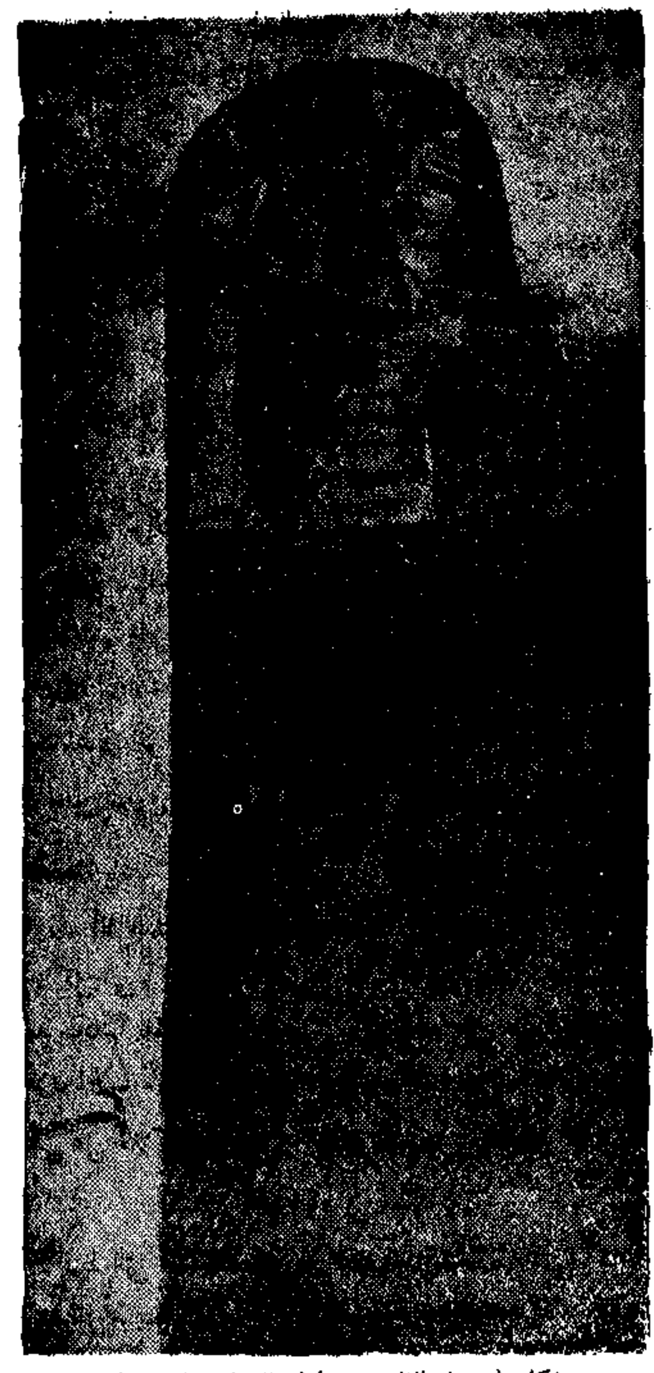
وما من أحد ينظر الآن إلى موقع مدينة بابل القديمة ثم يخطر بباله أن هذه البطاح الموحشة ذات الحر اللافح الممتدة على نهر الفرات كانت من قبل موطن حضارة غنية قوية كادت تكون هي الخالقة لعلم الفلك ، وكان لها فضل كبير في تقدم الطب ، وأنشأت علم اللغة ، وأعدت أول كتب القانون الكبرى ، وعلمت اليونان مبادئ الحساب ، وعلم الطبيعة والفلسفة ، وأمدت اليهود بالأساطير القديمة التي أورثوها العالم . ونقلت إلى العرب بعض المعارف العلمية والمعمارية التي

أيقظوا بها روح أوربا من سباتها فى العصر الوسيط . وإذا ما وقف الإنسان أمام دجلة والفرات الساكنين فإنه يتعذر عليه أن يعتقد أنهما النهران اللذان أرويا سومر وأكد وغذيا حدائق بابل المعلقة .

والحق أنهما إلى حد ما ليسا هما النهرين القديمين ، وذلك لأن النهرين القديمين قد اختطا لهما من زمن بعيد مجريين جديدين(٢) ، « وقطعا بمناجلهما البيض شطآناً أخرى » . وكان نهرا دجلة والفرات كما كان نهر النيل فى مصر طريقاً تجارياً عظيماً يمتد آلاف الأميال ، وكانا فى مجريهما الأدنيين يفيضان كما يفيض نهر النيل فى فصل الربيع ويساعدان الزراع على إخصاب الأرض ؛ ذلك أن المطر لا يسقط فى بلاد بابل إلا فى أشهر الشتاء ؛ أما فيما بين مايو ونوفبر فإنه لا يسقط أبداً ، ولولا فيضان النهرين لكانت أرضهما جرداء كما كان الجزء الشمالى من أرض الجزيرة فى الأيام القديمة وكما هو فى هذه الأيام . ولكن بلاد بابل قد أضحت بفضل ماء النهرين الغزير ، وكد الأهلين أجيالا طوالا ، جنة الساميين وحديقة بلاد آسية القديمة وهُريها(*) .

وكانت بابل من حيث تاريخها وجنس أهلها نتيجة امتزاج الأكديين والسومريين . فقد نشأ الجنس البابلى من تزاوج هاتين السلالتين ، وكانت الغلبة فى السلالة الجديدة للأصل السامى الأكدى ، فقد انتهت الحروب التى شبت بينهما بانتصار أكد وتأسيس مدينة بابل لتكون حاضرة أرض الجزيرة السفلى بأجمعها . وتطل علينا من بداية هذا التاريخ شخصية قوية هى شخصية حورابى (٢١٢٣ — ٢٠٨١ ق . م) الفاتح المشترع الذى دام حكمه ثلاثاً وأربعين سنة . وتصوره الأختام والنقوش البدائية بعض التصوير ، فنستطيع فى ضوئها أن نتخيله شاباً يفيض حماسة وعبقرية ، عاصفة هوجاء فى الحرب ، يقلم أظافر الفتن ويقطع أوصال

(*) مما جاء فى سفر التكوين أن الفرات واحد من أربعة أنهار تجرى فى الجنة (تكوين : ٢ ، ١٤) .



شكل (٢٧) الإله شمس ينزل بالقوانين على حمورابي

الأعداء ، ويسير فى شعاب الجبال الوعرة ، ولا يخسر فى حياته واقعة ؛ وحد الدويلات المتحاربة المنتشرة فى الوادى الأدنى ، ونشر لواء السلام على ربوعها وأقام فيها منار الأمن والنظام بفضل كتاب قوانينه التاريخى العظيم .

وقد كُشف قانون حمورابى فى أنقاض مدينة السوس فى عام ١٩٠٢ ، ووجد هذا القانون منقوشاً نقشاً جميلا على أسطوانة من حجر الديوريت نقلت من بابل إلى عيلام (حوالى عام ١١٠٠ ق . م) فيما نقل من مغانم الحرب (*) ، وقيل عن هذه الشرائع إنها منزلة من السماء . فترى الملك على أحد أوجه الاسطوانة يتلقى القوانين من شمش إله الشمس نفسه . وتقول مقدمة القوانين :

ولما أن عهد أنو الأعلى ملك الأنوناكى وبيل رب السماء والأرض الذى يقرر مصير العالم ، لما أن عهدا حكم بنى الإنسان كلهم إلى مردوك ؛ . . . ولما أن نطقا باسم بابل الأعلى ، وأذاعا شهرتها فى جميع أنحاء العالم ، وأقاما فى وسطه مملكة خالدة أبد الدهر قواعدها ثابتة ثبات السماء والأرض — فى ذلك الوقت نادانى أنو وبل ، أنا حمورابى الأمير الأعلى ، عابد الآلهة ، لكى أنشر العدالة فى العالم ، وأقضى على الأشرار والآثمين ؛ **وأمنع الأقوياء أن يظلموا الضعفاء . . . وأنشر النور فى الأرض وأرعى مصالح الخلق .** أنا حمورابى ، أنا الذى أختاره بل حاكماً ، والذى جاء بالخير والوفرة ، والذى أتم كل شىء لنيبور ودُريلو ، . . . والذى وهب الحياة لمدينة أرك ؛ والذى أمد سكانها بالماء الكثير ، . . . والذى جمل مدينة بارسيا ؛ . . . والذى خزن الحب لأوراش العظيم ؛ . . . والذى أعان شعبه فى وقت المحنة ؛ وأمن الناس على أملاكهم فى بابل ؛ حاكم الشعب ، **الخادم** الذى تسر أعماله أنونيت(٤) .

إن الألفاظ التى أكدناها نحن فى هذه العبارة لذات نغمة حديثة ؛ وإن المرء ليتردد قبل أن يصدق أن قائلها حاكم شرقى « مستبد » عاش فى عام ٢١٠٠

(*) وهى الآن فى متحف اللوفر .

ق . م ، أو أن يتوهم أن القوانين التي تمهد لها استمدت أصولها من قوانين سومرية مضى عليها الآن ستة آلاف عام . وهذا الأصل القديم مضافاً إلى الظروف التي كانت تسود بابل وقتئذ هو الذي جعل قانون حمورابي شريعة مركبة غير متجانسة . فهي تفتتح بتحية الآلهة ، ولكنها لا تحفل بها بعدئذ في ذلك التشريع الدستوري البعيد كل البعد عن الصبغة الدينية . وهي تمزج أرقى القوانين وأعظمها استنارة بأقصى العقوبات وأشدها وحشية ، وتضع قانون النفس بالنفس والتحكيم الإلهي(*) إلى جانب الإجراءات القضائية المحكمة والعمل الحصيف على الحد من استبداد الأزواج بزوجاتهم . على أن هذه القوانين البالغة عدتها ٢٨٥ قانوناً ، والتي رتبت ترتيباً يكاد يكون هو الترتيب العلمي الحديث ، فقسمت إلى قوانين خاصة بالأملاك المنقولة ، وبالأملاك العقارية ، وبالتجارة ، والصناعة ، وبالأسرة ، وبالأضرار الجسمية ، وبالعمل ، نقول إن هذه القوانين تكون في مجموعها شريعة أكثر رقياً وأكثر تمديناً من شريعة أشور التي وضعت بعد أكثر من ألف عام من ذلك الوقت ، وهي من وجوه عدة « لا تقل رقياً عن شريعة أية دولة أوربية حديثة(*) » ؛ وقل أن يجد الإنسان في تاريخ الشرائع كله ألفاظاً أرقى وأجمل من الألفاظ التي يختتم بها البابلي العظيم شريعته .

« إن الشرائع العادلة التي رفع منارها الملك الحكيم حمورابي والتي أقام بها في الأرض دعائم ثابتة وحكومة طاهرة صالحة . . أنا الحاكم الحفيظ الأمين عليها ، في قلبي حملت أهل أرض سومر وأكد . . . وبحكمتي قيدتهم ، حتى لا يظلم الأقوياء الضعفاء ، وحتى ينال العدالة اليتيم والأرملة . . . فليأت أي إنسان مظلوم له قضية أمام صورتي أنا ملك العدالة ، وليقرأ النقش الذي على أثري ، وليلق

(*) قانون النفس بالنفس معروف ، وقد ورد مفصلا في التوراة ، وأشارت إليه الآية القرآنية الكريمة : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس الخ » أما التحكيم الإلهي فقد كان من العادات الشائعة عند بعض الأمم وهو إثبات الجريمة على المتهم أو نفيها عنه بإلقائه في الماء أو في النار لينجو منهما إن كان بريئاً فإن لم ينج فهو مذنب . (المترجم)

باله إلى كلماتى الخطيرة ! ولعل أثرى هذا يكون هادياً له فى قضيته ، ولعله يفهم منه حالته ! ولعله يريح قلبه (فيناذى) : « حقاً أن حمورابى حاكم كالوالد الحق لشعبه ... لقد جاء بالرخاء إلى شعبه مدى الدهر كله ، وأقام فى الأرض حكومة طاهرة صالحة (*) . . .

ولعل الملك الذى يكون فى الأرض فيما بعد وفى المستقبل يرعى ألفاظ العدالة التى نقشتها على أثرى[٨] ! » .

ولم يكن هذا التشريع الجامع إلا عملا واحداً من أعمال حمورابى الكثيرة . فلقد أمر بحفر قناة كبيرة بين كش والخليج الفارسى أروّت مساحات واسعة من الأراضى ، ووقت المدن الجنوبية ما كان ينتابها بسبب فيضانات نهر دجلة المخربة . ولقد وصل إلينا من عهده نقش آخر يفخر فيه بأنه أجرى فى البلاد الماء (تلك المادة القيمة التى لا نقدّرها اليوم والتى كانت فى الأيام الماضية إحدى مواد الترف) ، ونشر الأمن والحكم الصالح بين كثير من القبائل . وإنا لنستمع من ثنايا هـذا النقش ومن بين عبارات الفخر (وهو خلة شريفة من خلال الشرقيين) صـوت الحاكم الماهر والسياسى القدير .

« لما وهب لى أنو وئليل (إلها آرك ونيبور) بلاد سومر وأكد لأحكمها ، ووضعا فى يدى هذا الصولجان ، حفرت قناة حمورابى — نخوش — نيشى (حمورابى المفيض — على — الشعب) التى تحمل الماء الغزير لأرض سومر وأكد . وحولت شاطئيها الممتدين على كلا الجانبين إلى أراضى زراعية ؛ وجمعت أكداساً من الحب ، وسيرت الماء الذى لا ينضب إلى الأرضين . . . وجمعت الأهلين المشتتين ، وهيأت لهم المرعى والماء ، وأمددتهم بالمراعى الموفورة وأسكنتهم مساكن آمنة[٩] .

(*) يبدو أن « شرائع موسى » تستمد من هذه الشرائع أو تستمد هذه وتلك من مصدر مشترك . وترجع عادة بصم العقد القانونى بخاتم رسمى إلى زمن حورابى[٧] .

وبلغ من حذق حورابى أن خلع على سلطانه خلعة من رضاء الآلهة بالرغم من أن قوانينه كانت تمتاز بصبغتها الدنيوية غير الدينية ؛ ومن ذلك أنه شاد المعابد كما شاد القلاع ، واسترضى الكهنة بأن أقام لمردوك وزوجته (إلهى البلد القوميين) فى مدينة بابل هيكلا ضخما ومخزناً واسعاً ليخزن فيه القمح للإلهين وللكهنة ؛ وكانت هاتان المدينتان وأمثالها فى واقع الأمر بمثابة مال يستثمر أبرع استثمار ، جنى منه ربحاً وفيراً هو الطاعة الممتزجة بالرهبة التى يقدمها إليه الشعب ؛ واستخدم ما حصل عليه من الضرائب فى تدعيم سلطان القانون والنظام ، واستخدم ما تبقى بعد ذلك فى تجميل عاصمة ملكه ، فأنشئت القصور والهياكل فى جميع نواحيها ، وأقيم جسر على نهر الفرات حتى تمتد المدينة على كلتا ضفتيه ، وأخذت السفن التى لا يقل بحارتها عن تسعين رجلا تمخر عباب النهر صاعدة فيه ونازلة ، وأضحت بابل قبل ميلاد المسيح بألفى عام من أغنى البلاد التى شهدها تاريخ العالم قديمه وحديثه(*) .

وكان البابليون ساميين فى مظهرهم سود الشعر سمر البشرة ، رجالهم ملتحون ، ويضعون على رءوسهم أحياناً شعراً مستعاراً ، وكانوا رجالا ونساء على السواء يطيلون شعور رءوسهم ، وحتى الرجال كانوا أحياناً يرسلون شعرهم فى ضفائر تنوس على أكتافهم ، وكثيراً ما كان رجالهم ونساؤهم يتعطرون ؛ وكان لباس الجنسين المألوف مئزراً من نسيج الكتان الأبيض يغطى الجسم حتى القدمين ، ويترك إحدى كتفى المرأة عارية ، ويزيد عليه الرجال دثاراً وعباءة . ولما زادت ثروة السكان تذوقوا حب الألوان ،

(*) « لقد وصلت بابل من حيث المقومات الأساسية للحضارة فى عصر حورابى بل فيما قبله إلى درجة من الحضارة المادية لم يصل إليها غيرها من مدن آسية إلى وقتنا هذا » . من كتاب كرستفر دوسن « بحوث فى الدين والحضارة » Enquiries into Religion and Culture المطبوع فى نيويورك سنة ١٩٣٣ ص ١٠٧ . ولعل من الصواب أن نستثنى من هذا التعميم عصر خشيار شاى (اكزركس) الأول فى فارس ، ومنج هوانج فى الصين ، وأكبر فى الهند .

فصبغوا أثوابهم باللون الأزرق فوق الأحمر . أو بالأحمر فوق الأزرق ، فى صورة خطوط أو دوائر أو مربعات أو نقط . ولم يكونوا كالسومريين حفاة الأقدام بل اتخذوا لهم أخفافاً ذات أشكال جسنة ، وكان الذكور فى عصر حورابى يتمتعون ، وكان النساء يتزين بالقلائد والأساور والتمائم ، ويحلين شعرهن المصفف بعقود من الخرز . وكان الرجال يمسكون فى أيديهم عصياً ذوات رءوس منحوتة منقوشة ، ويحملون فى مناطقهم الأختام الجميلة الشكل التى كانوا يبصمون بها رسائلهم ووثائقهم ؛ وكان كهنتهم يلبسون فوق رءوسهم قلانس طويلة مخروطية الشكل ليخفوا بها صفتهم الآدمية(١٠) .

وزادت الثروة فأنتجت فى بابل ما تنتجه فى سائر بلاد العالم . ذلك أن من السنن التاريخية التى تكاد تنطبق على جميع العصور أن الثراء الذى يخلق المدنية هو نفسه ينذر بانحلالها وسقوطها ؛ فالثراء يبعث الفن كما يبعث الخمول ، وهو يرقق أجسام الناس وطباعهم ، ويمهد لهم طريق الدعة والنعيم والترف ، ويغرى أصحاب السواعد القوية والبطون الجائعة بغزو البلاد ذات الثراء(*) . وكان على الحدود الشرقية لهذه الدولة الجديدة قبيلة قوية من أهل الجبال هى قبيلة الكاشيين تحسد البابليين على ما أوتوا من ثروة ونعيم . فلم يمض على موت حمورابى إلا ثمان سنين حتى اجتاح رجالها دولته ، وعاثوا فى أرضها فساداً يسلبون وينهبون ، ثم ارتدوا عنها ، ثم شنوا عليها الغارة تلو الغارة ، واستقروا آخر الأمر فيها فاتحين حاكمين ، وهذه هى الطريقة التى تنشأ بها عادة طبقة السراة فى البلاد . ولم يكن هؤلاء الفاتحون من نسل الساميين ، ولعلهم كانوا من نسل جماعة المهاجرين الأوربيين جاءوا إلى موطنهم الأول فى العصر الحجرى الحديث . ولم تكن غلبتهم على أهل بابل الساميين إلا حركة أخرى من حركات الهجوم والارتداد التى طالما حدثت فى غربى آسية . وظلت بلاد بابل بعد هذا الغزو عدة قرون

(*) وازن بين هذا وبين ما جاء فى مقدمة ابن خلدون فى هذا المعنى . (المترجم)

مسرحاً للاضطراب العنصري والفوضى السياسية اللذين وقفا في سبيل كل تقدم في العلوم والفنون[11] . ولدينا صورة واضحة من هذا الاضطراب الخانق في رسائل تل العمارنة التي يستغيث فيها أقيال بابل وسوريا بمصر التي كانوا يؤدون إليها خراجاً متواضعاً بعد انتصارات تحتمس الثالث ، ويتوسلون إليها أن تمد إليهم يدها لتعينهم على الثوار والغزاة . وفيها أيضاً يتجادلون في قيمة ما يتبادلونه من الهدايا مع أمنحوتب الثالث الذي يترفع عليهم ، ومع إخناتون الذي أهملهم وانهمك في غير شئون الحكم(*) .

وأخرج الكاشيون من أرض بابل بعد أن حكموها ما يقرب من ستة قرون اضطربت فيها أحوال البلاد ، وتمزقت كما اضطربت أحوال مصر وتمزقت في عهد الهكسوس . ودام الاضطراب بعد خروجهم أربعمائة عام أخرى حكم بابل في أثنائها حكام خاملون ليس في أسمائهم الطويلة اسم واحد جدير بالذكر(**) . ودام عهدهم حتى قامت دولة أشور في الشمال فبسطت سيادتها على بابل وأخضعتها لملوك نينوى . ولما ثارت بابل على هذا الحكم دمرها سنحريب تدميراً لم يكد يبقى منها على شيء . ولكن عسرهدون ، المستبد الرحيم أعاد إليها رخاءها وثقافتها . ولما قامت دولة الميديين(†) وضعف الأشوريون استعان نبوبولصر بالدولة الناشئة على تحرير

(*) رسائل تل العمارنة رسائل مملة في صيغتها ملئت كلها ملقاً ودهانا ، وجدلا وتوسلا وشكاية . استمع مثلا إلى ماكتبه بربورياش الثاني ملك كردنياش (في الجزيرة) إلى أمنحوتب الثالث في موضوع تبادل بعض الهدايا الملكية التي غبن فيها بربورياش فيما يظهر « منذ اليوم الذي توطدت فيه أواصر الصداقة بين أبي وأبيك ، تبادل الاثنان الهدايا القيمة ، ولم يأب أحدهما على الآخر أحسن ما يرغب فيه . أما الآن فإن أخي (أمنحوتب) قد أهداني (فقط) منحين من الذهب . إن عليك أن ترسل لي من الذهب بقدر ما أرسله أبوك ؛ فإن كان لابد أن يقل عنه ، فليكن نصف ماكان يرسله . ثم لم ترسل إلي إلا منحين من الذهب ؟ »[12] (المنح قدر من الذهب) .

(**) مردك — شبيك — زيري ، نتورا — تدين — سام ، أنليل — تدين — أبل ، مردك — شبيك زرماتي ، الخ ، وما من شك في أن أسماءنا الكاملة إذا وصلت كما وصلت هذه الأسماء تبدو مثلها متنافرة النغمات في آذاننا .

(†) تكتب أحياناً الماديين وهكذا وردت في التوراة . (المترجم)

بابل من حكم الأشوريين ، وأقام فيها أسرة حاكمة مستقلة . ولما مات خلفه في حكم الدولة البابلية الثانية ابنه نبوخذ نصر الثانى الذى يسميه كتاب دانيال[١٣] بالرجل الوغد حقداً عليه وانتقاماً منه . وفى وسع المرء أن يستشف من خطبة نبوخذ نصر الافتتاحية لمردُك كبير آلهة بابل مرامى الملك الشرقى وأخلاقه :

« إنى أحب طلعتك السامية كما أحب حياتى الثمينة ! إنى لم أختر لنفسى بيتاً فى المواطن كلها الواقعة خارج مدينة بابل ... ليت البيت الذى شدته يدوم إلى الأبد أيها الإله الرحيم . ولعلى أشبع بهائه وجلاله ، وأبلغ فيه الشيخوخة ، ويكثر ولدى ، وتأتى إلىّ فيه الجزية من ملوك الأرض كلها ومن بنى الإنسان أجمعين »[١٤] .

وعاش هذا الملك حتى كاد يبلغ السن التى يطمع فيها ، وكان أقوى ملوك الشرق الأدنى فى زمانه وأعظم المحاربين والبنائين والحكام السياسيين من ملوك بابل كلهم لا تستثنى منهم إلا حورابى نفسه ، هذا مع أنه كان أميا ، ومع أن عقله لم يكن يخلو من خبال . ولما تآمرت مصر مع أشور لكى تخضع الثانية بابل إلى حكمها مرة أخرى ، التقى نبوخذ نصر بالجيوش المصرية عند قرقيش (على نهر الفرات الأعلى) وكاد يبيدها عن آخرها . وسرعان ما وقعت فلسطين وسوريا فى قبضته ، وسيطر التجار البابليون على جميع مسالك التجارة التى كانت تعبر غربى آسية من الخليج الفارسى إلى البحر المتوسط .

وأنفق نبوخذ نصر ما كان يفرضه على هذه التجارة من مكوس وما كان يجبيه من خراج البلاد الخاضعة لحكمه ، وما كان يدخل خزائنه من الضرائب المفروضة على شعبه — أنفق هذا كله فى تجميل عاصمته وفى تخفيف نهم الكهنة : « أليست هذه بابل العظيمة التى بنيتها ؟ »[١٥] وقاوم ما كان عساه أن تنزع إليه نفسه من أن يكون فاتحاً عظيما فحسب . نعم إنه كان يخرج بين الفينة والفينة ليلقى على رعاياه درساً فى فضائل الطاعة والخضوع ، ولكنه كان يصرف جلّ وقته فى

قصبة ملكه حتى جعل بابل عاصمة الشرق الأدنى كله بلا منازع ، وأكبر عواصم العالم القديم وأعظمها أبهة وفخامة[١٦] . وكان نبوبولصر قد وضع الخطط لإعادة بناء المدينة ، فلما جاء نبوخذ نصر صرف سنى حكمه الطويل التى بلغت ثلاثاً وأربعين فى إتمام ما شرع فيه سلفه . وقد وصف هيرودوت بابل ، وكان قد زارها بعد قرن ونصف من ذلك الوقت ، بأنها « مقامة فى سهل فسيح يحيط بها سور طوله ستة وخمسون ميلا[١٧] ويبلغ عرضه حداً تستطيع معه عربة تجرها أربعة جياد أن تجرى فى أعلاه ، ويضم مساحة تقرب من مائتى ميل مربع »(*)[١٨] . وكان يجرى فى وسط المدينة نهر الفرات يحف بشاطئيه النخيل وتنتقل فيه المتاجر رائحة غادية بلا انقطاع ، ويصل شطريها جسر جميل(**)[١٩] . وكانت المبانى الكبيرة كلها تقريباً من الآجر ، وذلك لندرة الحجر فى أرض الجزيرة ، ولكن هذا الآجر كان يغطى فى كثير من الأحيان بالقرميد المنقوش البراق ذى اللون الأزرق أو الأصفر أو الأبيض المزيّن بصوَر الحيوان وغيره من الصور البارزة المصقولة اللامعة ، ولا تزال تلك الصور حتى هذه الأيام من أحسن ما أخرجته الصناعة من نوعها . وكل آجرة من الآجر الذى استخرج من موقع بابل القديم تحمل هذا النقش الذى يتباهى به الملك الفخور : « أنا نبوخذ نصر ملك بابل »[٢١] .

وكان أولَ مايشاهده القادم إلى المدينة — صرح شامخ كالجبل يعلوه برج عظيم مدرج من سبع طبقات ، جدرانه من القرميد المنقوش البرّاق ، يبلغ ارتفاعه ٦٥٠ قدماً ، فوقه ضريح يحتوى على مائدة كبيرة من الذهب المصمت

(*) وأكبر الظن أن هذه المساحة لم تكن تشمل مبانى بابل نفسها فحسب ، بل كانت تشمل أيضاً فى داخل هذا السور مساحة أخرى خلفها من الأراضى الزراعية يراد بها أن تمد العاصمة الكثيرة السكان بما يلزمها من الزاد فى أيام الحصار .

(**) وإذا كان لنا أن نصدق ما قاله ديودور الصقلى فإن نفقا عرضه خمس عشر قدما وارتفاعه اثنتا عشرة كان يمتد بين الشاطئين [٢٠] .

وعلى سرير مزخرف تنام عليه كل ليلة إحدى النساء فى انتظار مشيئة الله(٢٢) .
وأكبر الظن أن هذا الصرح الشامخ الذى كان أعلى من أهرام مصر ، وأعلى من جميع مبانى العالم فى كل العصور إلا أحدثها عهداً ، هو « برج بابل » الذى ورد ذكره فى القصص العبرى ، والذى أراد به أهل الأرض ممن لا يعرفون يهوه أن يظهروا به كبرياءهم ، فبلبل رب الجيوش ألسنتهم(*) . وكان فى أسفل الصرح هيكل عظيم لمردك رب بابل وحاميها . ومن أسفل هذا المعبد تمتد المدينة نفسها من حوله يخترقها عدد قليل من الطرق الواسعة النيرة ، وكثير من القنوات والشوارع الضيقة الملتوية التى كانت بلا ريب تعج بالأسواق والحركة التجارية وبالغادين والرائحين . وكان يمتد بين الهياكل القائمة فى المدينة طريق واسع مرصوف بالآجر المغطى بالأسفلت يعلوه بلاط من حجر الجير ، ومجمعات من الحجارة الحمراء تستطيع الآلهة أن تسير فيه دون أن تتلوث أقدامها . وكان على جانبى هذا الطريق الواسع جدران من القرميد الملوّن تبرز منهما تماثيل لمائة وعشرين أسداً مطلية بالألوان الزاهية تزمجر لترهب الكفرة فلا يقتربون من هذا الطريق . وكان فى أحد طرفيه مدخل فخم هو باب إستير ، ذو فتحتين من القرميد الزاهى المتألق ، تزينه نقوش تمثل أزهاراً وحيوانات جميلة الشكل زاهية اللون ، يخيل إلى الناظر أنها تسرى فيها الحياة(**) .

وكان على بعد سمائة ياردة من برج بابل وإلى شماله ربوة تسمى القصر ، شاد عليها نبوخذ نصر أروع بيت من بيوته . ويقوم فى وسط هذا البناء مسكنه الرئيسى ذو الجدران الجميلة المشيدة من الآجر الأصفر ، والأرض المفروشة بالحرسان الأبيض والمبرقش ، تزين سطوحها نقوش بارزة واضحة زرقاء

(*) ليس لفظ بابل مشتقا من البلبلة أو الاضطراب كما تقول بعض الأساطير بل معناه كما فى « بابلون » باب الإله(٢٣) .

(**) فى متحف الفن الأسيوى فى برلين نموذج لباب إستير بحجمه الطبيعى .

اللون ، مصقولة برّاقة ، وتحرس مدخله آساد ضخمة من حجر البازلت؛ وكان بالقرب من هذه الزهوة حدائق بابل المعلقة الذائعة الصيت التى كان يعدّها اليونان إحدى عجائب العالم السبع ، مقامة على أساطين مستديرة متتالية كل طبقة منها فوق طبقة ؛ وكان سبب إنشائها أن نبوخذ نصر تزوج بابنة سياخار (سيكسارس) ملك الميديين ، ولم تكن هذه الأميرة قد اعتادت شمس بابل الحارة وثراها ، فعاودها الحنين إلى خضرة بلادها الجبلية ودفعت الشهامة والمروءة نبوخذ نصر فأنشأ لها هذه الحدائق العجيبة ؛ وغطى سطحها الأعلى بطبقة من الغرين الخصيب يبلغ سمكها جملة أقدام ، لا تتسع للأزهار والنباتات المختلفة ولا تسمح بتغذيتها . وكانت المياه ترفع من نهر الفرات إلى أعلى طبقة فى الحديقة بآلات مائية مخبأة فى الأساطين تتناوب إدارتها طوائف من الرقيق[٢٤] . وفوق هذا السطح الأعلى الذى يرتفع عن الأرض خمساً وسبعين قدماً كان نساء القصر يمشين غير محجبات آمنات من أعين السوقة ، تحيط بهن النباتات الغريبة والأزهار العطرة ، ومن تحتهن فى السهول وفى الشوارع كان السوقة من رجال ونساء يحرثون وينسجون ويبنون ، ويحملون الأثقال ، ويلدون أبناء وبنات يخلفونهم فى عملهم بعد موتهم .

الفصل الثاني

الكادحون

الصيد – الحرث – الطعام – الصناعة – النقل –
أخطار التجارة – المرابون – الرقيق

كان بعض أجزاء البلاد لا يزال على حاله البرية الموحشة الخطرة ، فكانت الأفاعي تهيم في العشب الكثيف ، وكان ملوك بابل وأشور يلهون بصيد الآساد تجول في الغابات والتي تقف هادئة للمصورين ، ولكنها تفر إذا اقترب منها الصائدون : حقاً أن المدنية ليست إلا فترة عارضة موقوتة تتخلل وحشية الغابات .

وكانت أكثر الأراضي الزراعية يفلحها المستأجرون أو الرقيق وأقلها يحرثها ملاكها الفلاحون(٢٥) . وكانت كلها في العهود الأولى تفتتها معازق من الحجر كما كان يفعل المزارعون في العصر الحجري الحديث . وأقدم صورة لدينا تمثل المحراث في بابل هي الصورة المنقوشة على خاتم يرجع عهده إلى حوالي عام ١٤٠٠ ق . م ؛ ولعل هذه الآلة الكريمة النافعة كان وراءها في ذلك الوقت تاريخ طويل في أرض النهرين ، ومع هذا فإنها كانت من طراز حديث إلى حد ما . فقد كانت تجرها الثيران كما كان يفعل آباؤنا ، ولكنها كانت كمحراث السومريين ذات أنبوبة متصلة بها يخرج منها الحب إلى الأرض كمحاريث أبنائنا(٢٦) . ولم يكن أهل بابل يتركون الماء يفيض على الأرض كما كان يتركه أهل مصر ، بل كانت كل مزرعة تحميها من الفيضان جسور من التراب لا يزال باقياً إلى اليوم . وكان الماء الزائد على حاجة الأرض ينصرف إلى شبكة من المصارف أو يخزن في خزانات لها فتحات يخرج منهـــا إلى الحقول وقت الحاجة أو يرفع فوق الحواجز بشواديف . وقد امتاز حكم نبوخذ نصر بحفر عدد كبير من

قنوات الرى وبتخزين الزائد من الماء فى خزان كبير يبلغ محيطه مائة وأربعين ميلا ، تخرج منه قنوات تروى مساحات واسعة من الأرض[٢٧] . ولا تزال بقايا هذه القنوات فى أرض الجزيرة إلى اليوم . وكأنما أرادت الأقدار أن تربط الأحياء والأموات برباط آخر ، فأبقت إلى الآن على الشادوف البدائى فى وادى نهرى الفرات واللوار[٢٨] .

وكانت الأرض التى تروى على هذا النحو تنبت أنواعاً مختلفة من الحبوب والبقول ، كما كانت بها بساتين واسعة تنتج الفاكهة والنُّقل ، ولكن أكثر ما كانت تنتجه البلح . وكان البابليون يستثمرون ما أنعمت عليهم به الطبيعة من شمس ساطعة وأرض خصبة فى صنع الخبز وجمع العسل وعمل الكعك وغيره من أطايب الطعام . وكانوا يصنعون من مزيج العسل والدقيق كثيراً من أشهى الأطعمة . وكانوا يلقحون النخل بحمل الطلع من ذكورها إلى إناثها[٢٩] . وانتقل الكرم والزيتون من أرض الجزيرة إلى بلاد اليونان والرومان ، ثم انتقل منهما إلى غربى أوربا . أما الخوخ فقد انتقل إلى أوربا من بلاد الفرس القريبة من أرض الجزيرة ، وجاء لوكلس بشجر الكرز من شواطئ البحر الأسود إلى رومة ، وأصبح اللبن ، وهو الذى كان نادراً فى بلاد الشرق ، من الأطعمة الرئيسية فى بلاد الشرق الأدنى . وكان اللحم قليلا غالى الثمن ، ولكن السمك كان يصاد من المجارى المائية العظيمة ، ويصل إلى بطون أفقر الطبقات . فإذا أقبل المساء وخشى الفلاح أن يقلق باله التفكير فى الحياة والموت ، عمد إلى تهدئة هـذه الأفكار بالنبيذ المعصور من البلح أو بالجعة المتخذة من الحب .

وكان غير الفلاحين من الأهلين يحفرون الأرض ، ويعثرون فيها على الزيت ، ويستخرجون من باطنها النحاس والرصاص والحديد والفضة والذهب . ويصف لنا استرابون كيف كان ما يسميه « النفط والأسفلت السائل » يستخرج من

أرض الجزيرة كما يستخرج منها اليوم ، ويقولون إن الإسكندر حين سمع بأن السائل العجيب ماء يحترق أراد أن يتثبت من هذا القول الذي لم يكد يصدقه ، فطلى به جسد غلام وأوقد فيه النار بمشعل[٣٠] . وفي منتصف الألف السنة الأولى قبل ميلاد المسيح بدأ الأهلون يصنعون الآلات من البرنز ثم من الحديد ، وكانت لا تزال تصنع من الحجر في أيام حمورابي ، كما بدأت أيضاً صناعة صهر المعادن وسبكها . وكانوا ينسجون القطن والصوف ، وكانت الأقمشة تصبغ وتطرز بمهارة جعلتها من أثمن السلع التي تصدرها بابل إلى خارج بلادها ، والتي وصفها كتاب اليونان والرومان أحسن وصف وأثنوا عليها أجل الثناء[٣١] . كذلك نجد نول النسّاج وعجلة الفخراني في أقدم عهود التاريخ البابلي ، ويكاد النول والعجلة أن يكونا الآلتين الوحيدتين عند البابليين .

وكانت مبانيهم تقام من الطين المخلوط بالقش أو من اللبنات التي كانت توضع بعضها فوق بعض وهي طرية رطبة وتترك حتى تجف وتتماسك بفعل الشمس . ولما رأى القوم أن اللبنات إذا جففت في النار كانت أصلب وأبقى على الزمن منها إذا جففت في الشمس عمدوا إلى حرقها في قمائن ، ومن ثم انتشرت صناعة الآجر بفضل هذا التطور الطبيعي انتشاراً سريعاً . وكانت الصناعات والحرف كثيرة متباينة ، وكثر المهرة من الصناع ، وتألفت منهم من عهد حمورابي نقابات كانت تسمى (القبائل) يشترك فيها الصبيان والمعلمون[٣٢] .

وكانت تستخدم في النقل عربات تجري على عجل يجرها الحمير[٣٣] ، وأول ما ذكر الحصان في السجلات البابلية كان في عام ٢١٠٠ ق . م ، وورد ذكره باسم « الحمار القادم من الشرق » ، ويظهر أنه جاء من هضاب آسية الوسطى وأنه غزا بابل مع الكاشيين ، كما وصل إلى مصر مع الهكسوس[٣٤] . ولما استخدمت هذه الوسيلة من وسائل الانتقال والحمل انتشرت التجارة وامتدت من داخل البلاد إلى خارجها ، وأثرت بفضلها بابل وأصبحت مركز تجارة الشرق الأدنى ، وكان انتشارها سبباً في ارتباط أمم البحر المتوسط القديمة ارتباطاً

سجنت من ورائه الخير والشر على السواء . وسهل نبوخذ نصر التجارة بإصلاح الطرق الرئيسية ، وقال فى هذا يُذكِّر المؤرخين بأعماله :

لقد جعلت من الممرات الوعرة غير المطروقة طرقاً ممهدة صالحة[٣٥] » .
وكانت القوافل التجارية الكثيرة تحمل إلى أسواق بابل وحوانيتها غلات نصف العالم المعروف ، فكانت تأتيها من الهند مارة بكابول وهيرات وإكبتانا ، ومن مصر مارة بيلوزيم وفلسطين ، ومن آسية الصغرى عن طريق صور وصيدا وسارديس إلى قرقميش ، ثم تنحدر جنوباً مع نهر الفرات . وكان لهذه التجارة كلها أثر كبير فى عظمة مدينة بابل ، فأضحت فى أيام نبوخذ نصر سوقاً عظيمة تعج بالبضائع والتجار ، فخرج منها الأثرياء ينشدون الراحة فى مساكن أقاموها فى الضواحى . وجدير بالقارئ أن يلاحظ تلك النغمة الحديثة المكتوبة بها الرسالة التى بعث بها أحد سكان الضواحى إلى قورش ملك الفرس (حوالى عام ٥٣٩ ق . م) : « لقد بدت لى ضيعتنا أجمل ضياع العالم ، ذلك أنها كانت قريبة من بابل قرباً يمكننا من أن نستمتع بمزايا المدن العظمى ، وكان فى وسعنا مع هذا أن نعود إلى بيتنا وننجو مما فيها من تزاحم وقلق[٣٦] » .

ولم تفلح الحكومة فى إقامة نظام اقتصادى فى أرض الجزيرة كالذى أقامه الفراعنة فى مصر . فقد كانت التجارة تصادف كثيراً من الأخطار وتفرض عليها شتى الإتاوات . ولم يكن التجار يعرفون أى الأمرين يخشونه أشد من الآخر — أيخشون اللصوص الذين قد يهاجمونهم فى طريقهم ، أم يخشون المدن والإقطاعيات التى تفرض عليهم الإتاوات نظير السماح لهم باستخدام طرقها . وكان آمن لهم أن يسيروا كلما استطاعوا فى الطريق القومى العام ، طريق نهر الفرات نفسه ، وقد جعله نبوخذ نصر صالحاً للملاحة من مصبه فى الخليج الفارسى إلى ثبساكس[٣٧] وفتحت حروبه فى بلاد العرب وغلبته على صور بحار الهند والبحر المتوسط إلى التجارة البابلية ، ولكن التجار البابليين لم ينتهزوا هذه الفرص السانحة

لارتياد هذه البحار إلا ارتياداً جزئياً ، لأن التاجر كانت تكتنفه الأخطار في كل ساعة من ساعات النهار والليل أينما سار : في البحار الواسعة وفي ممرات الجبال وفيافي الصحراء . نعم إن السفائن كانت كبيرة تغالب الأمواج ، ولكن الحواجز والصخور كانت كثيرة في البحار ، ولم يكن فن الملاحة قد أصبح بعد علماً ذا قواعد وأصول ؛ هذا إلى أن لصوص البحار ، وسكان الشواطئ الطامعين قد يغيرون على السفن في أية ساعة ، وينهبون المتاجر ويأسرون بحارتها أو يقتلونهم[٣٨] وكان التجار يستعيضون عن هذه الخسائر بأن يقصروا أمانتهم على ما تفرضه عليهم الضرورات في كل حالة من الحالات .

لكن هذه الصعاب التجارية قد يسرها بعض التيسير ما كان في البلاد من نظام مالي راق محكم . نعم إن البابليين لم يسكوا النقود ، ولكنهم حتى قبل أيام حورابي كانوا يستخدمون في المقايضة — فضلا عن الشعير والقمح — سبائك الذهب والفضة وسيلة للتبادل ومعياراً لتقدير قيم الأشياء ، ولم تكن السبائك المعدنية مختومة أو مطبوعة بل كانت توزن في كل مرة ، وكانت أصغر وحدة في العملة هي الشاقل وهو نصف أوقية من الفضة تتراوح قيمته بين ريالين ونصف وخمسة ريالات من نقود هذه الأيام . وكانت ستون شاقلا تكون ميناً وستون ميناً تكون تالنتا وقيمته من ١٠،٠٠٠ إلى ٢٠،٠٠٠ ريال[٣٨] . وكانت القروض تتخذ صورة بضائع أو عملة ، وكانت فوائدها عالية تحددها الحكومة بعشرين في المائة سنوياً إذا كانت نقوداً ، وبثلاثة وثلاثين في المائة إن كانت بضاعة . على أن التجار كانوا يتجاوزون هذين السعرين الرسميين ، ويستأجرون مهرة الكتاب ليخادعوا الموكلين بتنفيذ القانون(*)[٣٩] . ولم يكن في البـــلاد مصارف مالية ،

(*) كما كان يحدث في هذه البلاد من عهد غير بعيد ، فقد كان المرابون يقرضون الفلاحين بفوائد تبلغ أحياناً ٢٥٪ في ثلاثة شهور وكانوا يحتالون على القانون بإضافة الفائدة إلى رأس المال ويدعون أن مجموعهما قرض حسن بلا فائدة ! (المترجم)

ولكن بعض الأسر القوية كانت تقوم طيلة أجيال متعددة بعملية إقراض النقود ، كما كانت تتجر العقارات وتموّل المشروعات الصناعية[٤٠] . وكان فى وسع من لهم أموال مودعة بين هؤلاء أن يؤدوا التزاماتهم بتحاويل مالية مكتوبة[٤١] . وكان الكهنة أيضاً يقرضون ، وأخص ما كانوا يقرضون له من الأغراض هو الزرع والحصاد . كانت الشرائع فى بعض الأحيان تنصر المدين على الدائن . من ذلك أنه إذا رهن فلاح مزرعته ، ولم يجن من كدحه محصولا بسبب العواصف أو الشرّق أو غيرهما من « أفعال الله » ، فإنه لا يؤدى فوق فوائد عن دَينه فى السنة التى يعجز فيها المحصول[٤٢] . ولكن القانون كان فى معظم الأحيان يحرص على حماية الملك وتجنيب صاحبه الخسائر ، وكان من المبادئ التى تقوم عليها الشرائع البابلية أن ليس من حق إنسان أن يقترض مالا إلا إذا رغب فى أن يكون مسئولاً مسئولية كاملة عن رده إلى صاحبه ، ومن أجل هذا كان فى وسع الدائن أن يقبض على عبد المدين أو ابنه يتخذه رهينة للدَّين الذى لم يؤده ، على ألا يبقى فى حوزته أكثر من ثلاث سنين . وكان الربا هو الكارثة التى رزئت بها بلاد بابل والثمن الذى أدته تجارتها ، كما تؤديه الآن تجارتنا نحن ، نظير ما كان يبعثه نظام الائتمان الواسع من نشاط تجارى عظيم[٤٣] .

لقد كانت حضارة البابليين حضارة تجارية فى جوهرها ، وأكثر ما وصل إلينا من وثائقهم ذو صبغة تجارية — تتصل بالبيوع ، والقروض ، والعقود ، والمشاركة ، والسمسرة ، والتبادل ، والوصايا والاتفاقات والسفاتج ، وما إليها .

ونجد فى هذه الألواح شواهد كثيرة تنطق بما كان عليه القوم من ثراء عظيم ، وبما كان يسرى فى نفوسهم من روح مادية استطاعت كما استطاعت فى حضارات أخرى غير حضارتهم أن توفق بين التقوى والشره . فنحن نرى فى آدابهم دلائل كثيرة على الحياة النشيطة الراضية المرضية . ولكننا نجد أيضاً فى كل ناحية من نواحيها ما يذكّرنا بما كان يسرى فى الثقافات جميعها من استرقاق . وأكثر ما تلذ

لنا قراءته من عقود البيع التي وصلت إلينا من عهد نبوخذ نصر ، العقود المتصلة بالعبيد[٤٤] . وكان مصدر هؤلاء العبيد أسرى الحروب ، والغارات التي يشنها البدو الرحّل على الولايات الأجنبية ، ونشاط العبيد أنفسهم في التناسل ، وكان ثمن الأرقّاء يختلف من عشرين ريالا إلى خمسة وستين للمرأة ، ومن خمسين ريالا إلى مائة ريال للرجل[٤٥] . وكان هؤلاء العبيد هم الذين يؤدون معظم الأعمال العضلية في المدن ، وتدخل في هذه الأعمال الخدمات الشخصية ،

وكانت الجوارى ملكاً خالصاً لمن يبتاعهن ، وكان ينتظر منهن أن يمهد له فراشه ويهيئن له طعامه ، وكان المعروف أنه سيستولدهن عدداً كبيراً من الأبناء ، فإذا رأت بعضهن أنهن يعاملن هذه المعاملة شعرن بمضض الإهمال والإهانة[٤٦] . وكان العبيد وكل ما ملكت يداه ملكاً لسيده : من حقه أن يبيعه أو يرهنه وفاء لدين ؛ ومن حقه أن يقتله إذا ظن أن موته أعوَد عليه بالفائدة من حياته . وإذا أبق العبد فإن القانون لا يبيح لأحد أن يحميه ، وكانت تقدّر جائزة لمن يقبض عليه . وكان من حق الدولة أن تجنده كما تجند الفلاح الحر للخدمة العسكرية أو تسخره للقيام ببعض الأعمال العامة كشق الطرق . وحفر القنوات . لكنه كان له على سيده أن يؤدى عنه أجر الطبيب ، وأن يقدم له كفايته من الطعام إذا مرض أو تعطل عن العمل أو بلغ من الشيخوخة . وكان من حقه أن يتزوج بحرّة ، فإذا رزق منها أبناء كانوا أحراراً ، فإذا مات من هذا شأنه كان نصف أملاكه من حق أسرته وكان سيده أحياناً يكل إليه عملا من الأعمال التجارية ، وكان من حقه في هذه الحال أن يحتفظ ببعض أرباح العمل وأن يبتاع بها حريته ، وكان سيده يعتقه أحياناً إذا أدى له خدمة ممتازة ، أو خدمه زمناً طويلا بأمانة وإخلاص . ولكن هذا النوع الأخير من الحرية لم ينله إلا القليلون من العبيد . أما كثرتهم فكانوا يقنعون من حياتهم بكثرة الأبناء ، صاروا أكثر عدداً من الأحرار . فكانت طبقة الأرقاء الكبيرة تتحرك كأنها نهر تحتي جيّاش يجرى تحت قواعد الدولة البابلية .

الفصل الثالث

القانون

قانون حمورابي – سلطة الملك – تحكيم الآلهة – القصاص – أنواع العقاب – قوانين الأجور والأثمان – رد البضائع المسروقة عن طريق الدولة

وطبيعي أن مجتمعاً كهذا لا تدور بخلده فكرة الدمقراطية ؛ ذلك أن نزعته الاقتصادية تتطلب أن تكون له حكومة ملكية مطلقة تسندها الثروة التجارية أو الامتيازات الإقطاعية ، ويحميها توزيع حكيم للعنف القانوني . وكان كبار الملاك ، ومن حل محلهم بالتدريج من التجار الأثرياء ، هم الذين أعانوا الدولة على الاحتفاظ بنظامها الاجتماعي ، كما كانوا هم الواسطة بين الشعب ومليكه . وكان الملك يورث عرشه لمن يختاره من أبنائه بلا تفريق بينهم ، ومن ثم كان كل واحد من هؤلاء الأبناء يعدّ نفسه ولياً للعهد ويجمع حوله عصبة تناصر ، وكثيراً ما كان يشن الحرب على إخوته إذا لم تحقق آماله[٤٧] . وكان يدير دولاب الحكومة فى نطاق هذه القواعد التعسفية عدد من كبار الموظفين الإداريين فى العاصمة وفى الأقاليم ، يعيّنهم الملك . وكان إلى جانبهم جمعيات إقليمية أو بلدية مؤلفة من أعيان البلاد أو شيوخها يسدون النصيحة إلى هؤلاء الحكام ، ويقفونهم عند حدودهم إذا تجاوزوها . وقد استطاع هؤلاء أن يحتفظوا للولايات بقسط موفور من الحكم المحلى حتى فى أيام سيطرة الأشوريين[٤٨] .

وكان كل موظف إدارى ، كما كان الملك نفسه فى معظم الأحوال ، يعترف بسلطان كتاب القانون العظيم الذى تحدد وضعه وصيغته فى عهد حمورابى ، ويسترشد به . وقد ظل هذا القانون العظيم محتفظاً بجوهره خمسة عشر قرناً كاملا رغم ما طرأ على أحوال البلاد من تغيير ، ورغم ما أدخل

عليه من تفاصيل ؛ وكان تطوره يهدف إلى استبدال العقوبات الدنيوية بما كان فيه من عقوبات دينية ، كما يهدف إلى استبدال الرحمة بالقسوة والغرامات المالية بالعقوبات البدنية . مثال ذلك أن محاكمة المتهمين كانت فى الأيام الأولى توكل إلى الآلهة . فإذا اتهم رجل بممارسة السحر ، أو اتهمت امرأة بالزنى ، طلب إليهما أن يقفزا على نهر الفرات ، وكانت الآلهة على الدوام فى جانب أقدر المتهمين على السباحة ، فإذا نجت المرأة من الغرق كانت نجاتها برهاناً على براءتها ، وإذا غرق « الساحر » آلت أملاكه إلى من اتهمه ، أما إذا نجا من الغرق فإنه يستولى على أملاك متهمه[٤٩] . وكان القضاة الأولون من الكهنة ، وظلت الهياكل[٥٠] مقر معظم المحاكم إلى آخر تاريخ البابليين ، لكن محاكم غير دينية لا تسأل عن أحكامها إلا أمام الحكومة أخذت من أيام حورابى نفسه تحل محل المراكز القضائية التى كان يرأسها الكهنة .

وقام العقاب فى أول الأمر على مبدأ قانون القصاص « النفس بالنفس والعين بالعين » . فإذا كسر إنسان لرجل شريف سناً ، أو فقأ له عيناً ، أو هشم له طرفاً من أطرافه ، حل به نفس الأذى الذى سببه لغيره[٥١] . وإذا انهار بيت وقتل من اشتراه حكم بالموت على مهندسه أو بانيه ، وإذا تسبب عن سقوطه موت ابن الشارى حكم بالموت على ابن البائع أو البانى ، وإذا ضرب إنسان بنتاً وماتت لم يحكم بالموت على الضارب بل حكم به على ابنته[٥٢] . ثم استبدل بهذه العقوبات النوعية شيئاً فشيئاً غرامات مالية ، وبدأ ذلك بأن أجيز أداء فدية مالية بدل العقوبة البدنية[٥٣] . ثم أصبحت الفدية بعدئذ العقوبة الوحيدة التى يجيزها القانون ، فكان جزاء فقء عين السوقى ستين شاقلا من الفضة ، فإذا فقئت عين عبد كان جزاء فقئها ثلاثين[٥٤] . ذلك أن العقوبة لم تكن باختلاف خطورة الجريمة وحسب ، بل كانت تختلف أيضاً باختلاف مركز الجانى والمجنى عليه . فإذا ارتكب أحد السراة جريمة كان عقابه أشد من عقاب السوقى إذا ارتكب الجريمة نفسها ، أما الجريمة التى ترتكب ضد أحد الأشراف فقد كانت غالية

الثمن . وإذا ضرب أحد السوقة آخر من طبقته غرم عشرة شواقل أو ما يقرب من خمسين ريالا ، فإذا ما ضرب شخصاً ذا لقب أو ذا مال غرم سبعة أضعاف هذا المبلغ[٥٥] . وإلى هذه العقوبات الرادعة كانت هناك عقوبات همجية هي بتر الأعضاء أو الإعدام : فإذا ضرب رجل أباه جوزى بقطع يده[٥٦] ؛ وإذا تسبب طبيب أثناء جراحة فى موت مريض أو فى فقد عين من عينيه قطعت أصابع الطبيب[٥٧] . وإذا استبدلت قابلة طفلا بآخر عن علم بفعلتها قطع ثدياها[٥٨] . وكانت جرائم كثيرة يعاقب عليها بالموت ، منها هتك العرض ، وخطف الأطفال ، وقطع الطرق ، والسطو ، والفسق بالأهل ، وتسبب المرأة فى قتل زوجها لتتزوج بغيره ، ودخول كاهنة خمارة أو فتحها إياها ، وإيواء عبد آبق ، والجبن فى ميدان القتال ، وسوء استعمال سلطة الوظيفة ، وإهمال الزوجة شئون بيتها أو سوء تدبيرها[٥٩] ، وغش الخمور[٦٠] ؛ بهذه الوسائل التى دامت آلاف السنين استقرت التقاليد والعادات التى أدت إلى حفظ النظام وضبط النفس . والتى أضحت فيما بعد عن غير قصد جزءاً من الأسس التى قامت عليها الحضارة .

وكانت الدولة تحدد أثمان السلع والأجور والأتعاب داخل نطاق بعض الحدود . فأجر الجرّاح مثلا كان يقرره القانون وحدّد قانون حمورابى أجور البنائين ، وضاربى الطوب ، والخياطين ، والبنائين بالحجارة ، والنجارين ، والبحارة ، والرعاة ، والفعلة[٦١] . وخص قانون الوراثة أبناء الرجل بتركته دون زوجته ، فجعلهم ورثته الطبيعيين الأقربين ؛ فإذا مات رجل عن زوجته كان لها الحق فى مهرها وفى هدية عرسها ، وظلت ربة البيت ما دامت على قيد الحياة . ولم يكن حق الميراث محصوراً فى الابن الأكبر بل كان الأبناء كلهم سواسية فى الميراث ، ومن ثم لم تلبث الثروات الكبرى أن تقسمت وتقسمت ، فامتنع بذلك تركزها فى أيد قلائل[٦٢] . وكان القانون يعد الملكية الفردية للعقار والمنقولات أمراً مسلماً به لا جدال فيه .

ولم نجد فى الوثائق ما يستدل منه على وجود المحامين فى بابل إلا إذا اعتبرنا من المحامين القسيسين الذين كانوا يعملون موثقين للعقود ، والكتبة الذين كانوا يكتبون كل ما يطلب إليهم كتابته من الوصية إلى الأرجوزة نظير أجر يتقاضونه ، وكان المدعى يترافع فى قضيته بنفسه دون أن يستعين بترف الاصطلاحات القانونية . ولم يكن الناس يشجعون على التقاضى ، فقد كانت أول مادة فى القانون تنص فى بساطة تكاد تكون غير « قانونية ! » . على أنه « إذا اتهم رجل آخر بجريمة (يعاقب عليها بالإعدام) ثم عجز عن إثباتها حكم على المدعى نفسه بالإعدام »[٦٣] . وثمة شواهد دالة على وجود الرشوة وإفساد الشهود[٦٤] ، وكانت فى مدينة بابل محكمة استئناف يحكم فيها « قضاة الملك » ، وكان فى وسع المتقاضين أن يرفعوا استئنافاً نهائياً إلى الملك نفسه . وليس فى شرائع بابل ما يفيد وجود حق للفرد قبل الدولة ، بل كان الفضل فى النص على هذا الحق فضل الأوربيين . غير أنه إذا لم يوفر القانون للأهلين الحماية السياسية فلا أقل من أنه قد وفر لهم فى المواد ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ الحماية الاقتصادية : « إذا ارتكب رجل جريمة السطو وقبض عليه ، حكم على ذلك الرجل بالإعدام » . فإذا لم يقبض عليه كان على المسروق منه أن يدلى ، فى مواجهة الإله ، ببيان مفصل عن خسائره ، وعلى المدينة التى ارتكبت السرقة فى داخل حدودها والحاكم الذى ارتكبت فى دائرة اختصاصه أن يعوضاه عن كل ما فقده . فإذا أدى السطو إلى خسارة فى الأرواح دفعت المدينة ودفع الحاكم مينا (٣٠٠ ريال) إلى ورثة القتيل » . فهل ثمة فى هذه الأيام مدينة بلغ صلاح الحكم فيها درجة تجرؤ معها على أن تعرض على من تقع عليه جريمة بسبب إهمالها مثل هذا التعويض ؟ وهل ارتقت الشرائع حقا عما كانت عليه أيام حمورابى ، أو أن كل الذى حدث لها أن تعقدت وتضخمت ؟

الفصل الرابع

آلهة بابل

الدين والدولة – واجبات الكهنة وسلطانهم – الآلهة الصغار – مردك – إشتار – القصص البابلية عن خلق العالم والطوفان – حب إشتار وتموز – نزول إشتار إلى الجحيم – موت تموز وبعثه – الطقوس الدينية والصلوات – تسابيح التوبة – الخطيئة – السحر – الخرافات

لم تكن سلطة الملك يقيّدها القانون وحده ولا الأعيان وحدهم ، بل كان يقيدها أيضاً الكهنة . ذلك أن الملك لم يكن من الوجهة القانونية إلا وكيلا لإله المدينة ، ومن أجل هذا كانت الضرائب تفرض باسم الإله ، وكانت تتخذ سبيلها إلى خزائن الهياكل إما مباشرة أو بشتى الأساليب والحيَل . ولم يكن الملك يُعَدّ ملكاً بحق فى أعين الشعب إلا إذا خلع عليه الكهنة سلطته الملكية ، و « أخذ بيد بل » ، واخترق شوارع المدينة فى موكب مهيب ممسكاً صورة مردك . وكان الملك فى هذه الاحتفالات يلبس زى الكاهن ، وكان هذا رمزاً إلى اتحاد الدين والدولة . ولعله كان أيضاً يرمز إلى أصل الملكية الكهنوتى . وكانت تحيط بعرشه جميع مظاهر خوارق الطبيعة ، ومن شأن هذه كلها أن تجعل الخروج عليه كفراً ليس كمثله كفر ، لا يجزى من يجرؤ عليه بضياع رقبته فحسب ، بل يجزى أيضاً بخسران روحه ، وحتى حمورابى العظيم نفسه تلقى قوانينه من الإله . ولقد ظلت بلاد بابل فى واقع الأمر دولة دينية « خاضعة لأمر الكهنة » على الدوام[٦٥] من أيام الباتسيين أو القساوسة – الملوك السومريين إلى يوم تتويج نبوخذ نصر .

وزادت ثروة الهياكل جيلا بعد جيل كلما اقتسم الأثرياء المذنبون أرباحهم مع الآلهة ، وكان الملوك يشعرون بشدة حاجتهم إلى غفران الآلهة ، فشادوا لهم الهياكل . وأمدوها بالأثاث والطعام والعبيد : ووقفوا عليها

مساحات واسعة من الأرض ، وحصوها بقسط من إيراد الدولة يؤدونه إليها في كل عام . فإذا غنم الجيش واقعة حربية كان أول سهم من الغنائم ومن الأسرى من نصيب الهياكل ، وإذا أصاب الملك مغنماً قدمت الهدايا العظيمة للآلهة . وكان يفرض على بعض الأراضي أن تؤدي للهياكل ضريبة سنوية من التمر والحب والفاكهة ، فإذا لم تؤدها نزعت الهياكل ملكيتها ، وانتقلت هذه الملكية للكهنة أنفسهم في أغلب الأحوال ، وكان الفقراء والأغنياء على السواء يخصصون للهياكل من مكاسبهم الدنيوية القدر الذي يظنون أنه يتفق ومصلحتهم الخاصة ، وبذلك تكدس في خزائن الهياكل الذهب ، والفضة ، والنحاس ، واللازورد ، والجواهر والأخشاب النفيسة .

وإذ لم يكن في مقدور الكهنة أن يستخدموا هذه الثروة كلها أو يستنفدوها فقد حولوها إلى رأس مال منتج أو مستثمر ، وأصبحوا بذلك أعظم القوامين على الشئون الزراعية والصناعية والمالية في الأمة بأسرها . ولم يكونوا يملكون مساحات واسعة من الأرض فحسب ، بل كانوا يملكون فوق ذلك عدداً عظيما من العبيد ، ويسيطرون على مئات من العمال ، يؤجرونهم لغيرهم من أصحاب الأعمال ، أو يسخرونهم لخدمة الهياكل بالعمل في حرف لا حصر لها ، تختلف ما بين عزف على الآلات الموسيقية إلى عصر الخمور[٦٦] . كذلك كان الكهنة أعظم تجار بابل ورجال المال فيها ، وكانوا يبيعون ما في حوانيت المعابد من سلع مختلفة ، ويسهمون بقسط موفور في تجارة البلاد . وقد عرف عنهم أنهم من أحكم الأهلين في استثمار الأموال ، ولهذا عهد إليهم الكثيرون استثمار أموالهم المدخرة لوثوقهم من أنهم سيحصلون منها على أرباح مضمونة وإن لم تكن موفورة . وكانوا يقرضون المال بشروط أرحم من الشروط التي يقرضه بها غيرهم من الأفراد ، وكانوا في بعض الأحيان يقرضون المرضى والفقراء بغير فائدة ، لا يطلبون إلا رؤوس أموالهم حين يبسم مردك للمقترض من جديد[٦٧] . وكانوا

إلى هذا كله يؤدون بعض الأعمال العامة ، فكانوا يعملون فى توثيق العقود ، ويشهدون عليها ، ويوقعونها بأسمائهم ، ويكتبون الوصايا ، ويستمعون إلى القضايا والمحاكمات ويفصلون فيها ، ويحفظون السجلات الرسمية ، ويسجلون الأعمال التجارية .

وكان الملك أحياناً يصادر بعض أموال الهياكل إذا واجه أزمة تتطلب المال الكثير . ولكن هذا كان عملا نادراً شديد الخطورة ، لأن الكهنة كانوا يصبون أشد اللعنات على كل من يمس أقل شيء من الأملاك الدينية بغير إذن منهم . هذا إلى أن نفوذهم لدى الأهلين كان أعظم من نفوذ الملك نفسه ، وكان فى وسعهم فى بعض الأحيان أن يخلعوه عن عرشه إذا أجمعوا أمرهم وسخّروا ذكاءهم وقواهم لهذه الغاية . يضاف إلى هذا أنهم يمتازون بالدوام والخلود ، ذلك أن الملك يموت أما الإله فمخلد ، ومن أجل هذا كان مجمع الكهنة الآمن من تقلبات الانتخاب ، وأخطار المرض ، والاغتيال والحرب ، هيئة دائمة فى مقدورها أن تضع الخطط الطويلة الأجل ، وهى ميزة لا تزال تتمتع بها الهيئات الدينية الكبرى إلى هذا اليوم . كل هذه ظروف جعلت للكهنة سلطاناً فوق كل سلطان . وكأن الأقدار قد شاءت أن تقوم بابل على جهود التجار ، وأن يستمتع بخيراتها الكهنة .

ترى ما هى تلك الآلهة التى كانت الشرطة الخفية للدولة البابلية ؟ لقد كانت هذه الآلهة كثيرة العدد ، لأن الأهلين كان لهم فى خلقها خيال واسع لا ينضب معينه ، ولم يكن ثمة حد للخدمات التى يمكن أن تؤديها لهم آلهتهم . وقد أحصى عدد الآلهة إحصاء رسمياً فى القرن التاسع قبل الميلاد فكانوا حوالى ٦٥,٠٠٥ [٦٨] . ذلك أن كل مدينة كان لها رب يحميها ، وكان يحدث فى بابل ودينها ما يحدث عندنا اليوم وفى ديننا نحن . فقد كان للمقاطعات والقرى آلهة صغرى تعبدها وتخلص لها ، وإن كانت تخضع رسمياً

للإله الأعظم : فقد أقيمت في لارسا الهياكل الكثيرة لشمش ، ولإشتار في أرِوك ، ولننار في أور — ذلك أن الآلهة السومرية لم ينقض عهدها بانقضاء عهد دولة السومريين . ولم يكن الآلهة بمنأى عن الأهلين ، فقد كان معظمهم يعيشون على الأرض في الهياكل ، يأكلون الطعام بشهية قوية ، ويزورون الصالحات من النساء في أثناء الليل فيستولدونهن أطفالا لم يكن أهل بابل العاملون المجدون يتوقعون أن يولدوا لهم(٦٩)

وأقدم الآلهة كلهم آلهة السماء وما فيها : أنو السماء الثابتة ، وشمش الشمس ، وننار القمر ، وبل أو بعل الأرض التي يعود كل البابليين إلى صدرها بعد مماتهم(٧٠) . وكان لكل أسرة آلهتها المنزلية تقام إليها الصلاة ، وتصب إليها الخمور في كل صباح ومساء ؛ وكان لكل فرد رب يحميه (أو ملَك يحرسه كما نقول نحن بلغة هــذه الأيام) ، يرد عنه الأذى والشرور ، وكان جن الخصب يحومون فوق الحقول ليباركوها . ولعل اليهود قد صاغوا ملائكتهم من هذا الحشد العظيم من الأرواح .

ولسنا نجد لدى البابليين شواهد على التوحيد كالتي ظهرت في عهد إخناتون وعهد إشعيا الثاني ، على أن قوتين من القوى قد قربتاهم من هذا التوحيد ، أولاهما اتساع رقعة دولتهم عقب الحروب ، وهذا الاتساع أخضع آلهتهم المحلية لسلطان إله واحد ، والقوة الثانية أن كثيراً من المدن كانت تخلع على إلهها الخاص المحبب لها السلطان الأعلى والقدرة على كل شيء . من ذلك قول نبو مثلا : « آمن بنبو ، ولا تؤمن بغيره من الآلهة(٧١) » . ولا يختلف هذا القول كثيراً عن الوصية الأولى من وصايا اليهود . وقل عدد الآلهة شيئاً فشيئاً بعد أن فسرت الآلهة الصغرى بأنها صور أو صفات للآلهة الكبرى . وعلى هذا النحو أصبح مردك إله بابل — وكان في بادئ الأمر من آلهة الشمس — كبير الآلهة البابلية(٧٢) . ومن ثم لقب بل — مردك أي مردك الإله ، وإليه وإلى إشتار كان البابليون يوجهون أحر صلواتهم وأبلغ دعواتهم .

وليست أهمية إشتار (وهى إستارتى عند اليونان وعشتورت عند اليهود) لدينا مقصورة على أنها شبيهة بإيزيس إلهة المصريين ، وعلى أنها النموذج الذى صاغ اليونان على مثاله إلهتهم أفروديتى والرومان ڤينوس ، بل إنها تهمنا فوق ذلك لأنها تبارك عادة من أغرب العادات البابلية . فقد كانت هى دمتر وأفروديتى معاً — أى أنها لم تكن إلهة جمال الجسم والحب فحسب ، بل كانت فوق هذا الإلهة الرحيمة التى تعطف على الأمومة الولود ، والموحية الخفية بخصب الأرض ، والعنصر الخلاق فى كل مكان ، ويستحيل علينا ، إذا نظرنا إلى صفات إشتار ووظائفها بمنظار هذه الأيام ، أن نجد بينها كثيراً من التناسق ، فقد كانت مثلا إلهة الحرب والحب ، وإلهة العاهرات والأمهات ، وكانت تسمى نفسها « الحظية الرحيمة »[٧٣] . وكانت تصور أحياناً فى صورة امرأة عارية تقدم ثدييها للرضاع[٧٤] ، ومع أن عبادها كثيراً ما يخاطبونها بقولهم « العذراء » و « العذراء المقدسة » و « الأم العذراء » ؛ فإن كل ما تعنيه هذه الأقوال أن حبها كان مبرءاً من دنس الزواج . وقد رفض جلجميش أن يتزوج بها حين عرضت عليه الزواج ، وحجته فى ذلك أنها لا يوثق بها ، ألم تحب فى يوم من الأيام أسداً وأغوته ، ثم قتلته[٧٥] ؟

وجلى أننا يجب أن نتغاضى عن قانوننا الأخلاقى إذا شئنا أن نفهم مقام هذه الإلهة على حقيقته . فليتأمل القارئ تلك الحماسة القوية التى يرفع بها البابليون إلى مقامها العظيم تسابيح الحمد التى لا يكاد يفوقها فى روعتها إلا تلك التسابيح التى كان الأتقياء من المسيحيين يرفعونها فيما مضى لمريم أم المسيح :

أتوسل إليك يا سيدة السيدات ، يا ربة الربات ، يا إشتار ، يا ملكة المدائن كلها ، ويا هادية كل الرجال .

أنت نور الدنيا ، أنت نور السماء ، يا ابنة سن العظيم (إله القمر) . . .

ألا ما أعظم قدرتك ، وما أعظم مقامك فوق الآلهة أجمعين .

أنت تحكمين وحكمك عدل :

وإليك تخضع قوانين الأرض وقوانين السماء .

وقوانين الهياكل والأضرحة ، وقوانين المساكن الخاصة والغرف الخفية .

أين المكان الذى لا يذكر فيه اسمك ، وأين البقعة التى لا تعرف فيها أوامرك ؟

إذا ذكر اسمك اهتزت لذكره الأرض والسموات ، وارتجفت له الآلهة

إنك تنظرين إلى المظلومين ، وتنصفين فى كل يوم المهانين المحقرين

إلى متى يا ملكة السماء والأرض ، إلى متى ؟

إلى متى يا راعية الرجال الشاحبى الوجوه تتمهلين ؟

إلى متى ، أيتها الملكة التى لا تكل قدماها ، والتى تسرع ركبتاها ؟

إلى متى يا سيدة الجيوش ، يا سيدة الوقائع الحربية ؟

يا عظيمة ، يا من تهابك كل أرواح السماء ويا من تخضعين كل الآلهة الغضاب ، ويا قوية فوق كل الحكام ، ويا من تمسكين بأعنة الملوك ؟

يا فاتحة أرحام جميع الأمهات ، ما أجل سناك !

يا نور السماء البراق ، يا نور العالم ، يا من تضيئين كل الأماكن التى يسكنها بنو الإنسان ، يا من تجمعين جيوش الأمم

يا إلهة الرجال ، ويا ربة النساء ، إن مشورتك فوق متناول العقول ،

حيث تتطلعين تعود الحياة إلى الموتى ، ويقوم المرضى ويمشون ، ويشفى عقل المريض إذا نظر إلى وجهك

إلى متى ، أيتها السيدة ، ينتصر على عدوى ؟

مرى ، فمتى أمرت ارتد الإله الغضوب

إن إشتار عظيمة ! إشتار ملكة ! سيدتى ، جليلة القدر ، سيدتى ملكة ، إنيني ، ابنة سين القوية . ليس لها مثيل(٣٦) » .

واتخذ البابليون هذه الآلهة شخصيات نسجوا حولها أساطيرهم التي وصل إلينا معظمها عن طريق اليهود ، وأضحت جزءاً من قصصنا الديني . وأول ما نذكره من قصصهم قصة الخلق . فقد كان في أول الأمر عماء « في الوقت الذي لم يكن فيه شيء عال يسمى السماء ، ولم يكن شيء وطيء يسمى الأرض ، جاء أبو المحيط ، وكان أبا الأشياء أول الأمر ، وتيامات الغماء ، التي ولدتها كلها ، وخلطا ماءهما معاً » ، وبدت الأشياء تنمو على مهل وتتخذ لها أشكالا ، ولكن تيامات الإلهة المهولة شرعت تبيد كل الآلهة الآخرين ، لتجعل نفسها — العماء — صاحبة المقام الأعلى . وأعقبت هذا ثورة عنيفة اضطرب منها كل نظام : ثم جاء إله آخر وهو مردك وقتل تيامات بدوائها هي ، وذلك بأن دفع في فمها ريحا عاصفة حين فتحته لتبتلعه . ثم طعنها برمحه في بطنها الذي انتفخ بما دخله من الريح ، فانفجرت إلهة العماء . وتقول القصة بعدئذ إن مردك « عاد إليه هدوؤه » فقسم تيامات الميتة قسمين مستطيلين ، كما يقسم الإنسان السمكة ليجففها ، « ورفع أحد النصفين إلى أعلى فكان هو السماء ، وبسط النصف الآخر تحت قدميه فكان الأرض »[٧٧] . هذا كل ما وصل إلى علمنا حتى الآن عن قصة الخلق عند البابليين . ولعل الشاعر القديم أراد أن يوحي إلينا بهذه القصة أننا لا نعرف عن بداية الخلق إلا أن النظام قد استبدل بالفوضى والعماء ، لأن هذا في آخر الأمر هو جوهر الفن والحضارة . على أننا يجب ألا يغرب عن بالنا أن هزيمة العماء ليست إلا أسطورة من الأساطير[*] .

ولما أن فتق مردك السماء والأرض ووضعهما في مكانيهما ، شرع يعجن الأرض بدمائه ويصنع الناس لخدمة الآلهة . وتختلف القصص البابلية في وصف الطريقة

(*) وكتبت قصة الخلق البابلية على سبعة ألواح (كل يوم من أيام الخلق على لوح) وقد وجدت في خرائب مكتبة أشور بانيبال في قويونجك (نينوى) في عام ١٨٥٤ . وهذه الألواح نسخة من قصة انحدرت إلى بابل وأشور من بلاد سومر[٧٨] .

والمؤلف يريد بقوله : « إن استبدال العماء بالفوضى أسطورة » أن الفوضى لاتزال تضرب أطنابها في الأرض وأنها لا تكاد تزول منها حتى تعود إليها . (المترجم)

الدقيقة التي تم بها صنع الإنسان ، ولكنها تتفق كلها بوجه عام في القول بأن الإله صنع الإنسان من قطعة من الطين ، وهي لا تصفه بأنه كان يعيش في بادئ الأمر في جنة بل تقول إنه كان يعيش عيشة حيوانية في جهل وبساطة حتى جاءه وحش مهول يدعى أونّس نصفه سمكة ونصفه فيلسوف ، وعلمه الفنون والعلوم وتخطيط المدن ومبادئ القانون ؛ ولما علمه إياها نزل إلى البحر وكتب كتاباً في تاريخ الحضارة(٧٩) . غير أن الآلهة لم تلبث أن غضبت على الناس الذين خلقتهم ، فأرسلت عليهم طوفاناً عارماً لتهلكهم وتمحو به سيئ أعمالهم وأشفق إى إله الحكمة على البشر واعتزم أن ينجي منهم على الأقل رجلا واحداً شمش — نيشتين وزوجته . « وظل الطوفان مهتاجاً ، وغص البحر بالخلق كأنهم سرء السمك » . ثم بكت الآلهة على حين غفلة وعضت بنان الندم على غفلتها وسوء تدبيرها وتساءلت « عمن سيقرب لها القربان المعتاد ؟ » ، ولكن شمش — نيشتين كان قد بنى فلكا ونجا من الطوفان وحط على جبل نزير ، وأرسل يمامة تستطلع ؛ ثم قرر أن يقرب القربان للآلهة ، وقبلت الآلهة قربانه وهي مندهشة شاكرة . « وشمت الآلهة الرائحة ، شمت الآلهة الرائحة الذكية ، واجتمعت كالذباب فوق القربان »(٨٠) .

وأجمل من هذه الذكرى الغامضة ، ذكرى الطوفان المخرب ، أسطورة إشتار وتموز . وكان تموز حسب نص القصة السومري أخا أصغر لإشتار ، أما في النص البابلي فهو أحياناً حبيبها وأحياناً ابنها . ويلوح أن كلا النصين قد سرى إلى أسطورة ڤينوس (الزهرة) وأدنيس ، وأسطورة دمتر وپرستون ، وإلى عشرات العشرات من القصص الأخرى التي تتحدث عن الموت والبعث . وتموز هذا ، ابن الإله العظيم إى ، راع يرعى غنمه تحت إريد الشجرة العظيمة (التي تغطي الأرض كلها بظلها) ، وبينا هو يرعاها إذ شغفت بحبه إشتار ، وهي دوماً ظمأى إلى الحب ، واختارته زوجاً لها في شبابها . ولكن خنزيراً برياً يطعن تموز طعنة

قاتلة فيهوى كما يهوى جميع الموتى إلى الجحيم المظلم تحت الأرض واسمه أرالو عند البابليين ، وكانت تحكمه إرشكيجال أخت إشتار التى كانت تغار منها وتحسدها ؛ وتحزن إشتار ويبرح بها الحزن ، فتعتزم النزول إلى أرالو لتعيد الحياة إلى تموز ، وذلك بأن تغسل جروحه فى مياه إحدى العيون الشافية . وسرعان ما تظهر عند باب الجحيم فى جمالها الرائع وتطلب أن يؤذن لها بالدخول . وتقص الألواح قصتها فى صورة واضحة قوية :

فلما سمعت إرشكيجال هذا
كانت كمن يقطع الطرفاء (ارتجفت ؟)
وكما يقطع الإنسان قصبة (اضطربت ؟)
« أى شىء حرك قلبها ، أى شىء (خفقت له) كبدها ؟
يا من هناك ، (هل) هذه (هل) هذه (تريد أن تقيم) معى ؟
وأن تتخذ من الطين طعاماً ، وأن تشرب (التراب) خمرا ؛
إنى أبكى الرجال الذين فارقوا أزاجهم ،
وأبكى النساء اللاتى انتزعن من أحضان أزواجهن ،
والصغار الذين (احتضروا قبل الأوان) ،
اذهب أيها الخازن ، وافتح لها الباب ،
وعاملها بمقتضى القرار القديم » .

وهذا القرار القديم يقضى بألا يدخل أرالو إلا العراة . وعلى هذا فإن الخازن يخلع عن إشتار ثوباً من ثيابها أو حلية من حليها عند كل باب يتحتم عليها أن تجتازه : فيخلع عنها أولا تاجها ، ثم قرطيها ، ثم عقدها ، ثم حلية صدرها ، ثم منطقتها ذات الجواهر الكثيرة ، ثم الزركشة البراقة التى فى يديها وقدميها ، ثم يخلع عنها آخر الأمر منطقة حقويها ، وتمانع إشتار فى رقة ثم تخضع :

فلما نزلت إشتار إلى الأرض التى لا يعود منها من يدخلها

أبصرتها إرشكجال وأغضبها مجيؤها ،
وألقت إشتار بنفسها عليها من غير تفكير ،
وفتحت أرشكجال فاها وتحدثت
إلى نمتار رسولها ...
« اذهب ، يا نمتار ، (واسجنها ؟) فى قصرى ،
وسلط عليها ستين مرضاً ،
مرض العيون على عينها ،
ومرض الجنب على جنبها ،
ومرض الأقدام على قدمها ،
ومرض القلوب على قلبها ،
ومرض الرأس على رأسها
على جميع جسدها » .

وبينما كانت إشتار حبيسة فى الجحيم بما أرسلته عليها أختها ، شعرت الأرض بأنها فقدت ما كان يوحى به إليها وجودها على ظهرها ، فنسيت جميع الفنون وطرائق الحب ، فلم يعد النبت يلقح النبت ، وذبلت الخضر ، ولم تشعر الحيوانات بحرارة ، وامتنع الرجال عن الحنين :

ولما نزلت السيدة إشتار إلى الأرض التى لا يعود منها من يدخلها
لم يعل الثور البقرة ، ولم يقرب الحمار الأتان
والفتاة فى الطريق لم يقترب منها رجل ؛
ونام الرجل فى حجرته
ونامت الفتاة وحدها .

وأخذ السكان يتناقصون ، وارتاعت الآلهة حين رأت نقص ما ترسله إليها الأرض من القرابين ، واستولى عليها الذعر فأمرت إرشكجال أن تطلق

سراح إشتار ، وتصدع إرشكجال بأمر الآلهة ، ولكن إشتار تأبى أن تعود إلى ظهر الأرض إلا إذا سمح لها أن تأخذ معها تموز . وتجاب إلى طلبها ، وتجتاز وهى ظافرة الأبواب السبعة ، وتتسلم منطقة حقويها ثم الزركشة البراقة التى كانت على يديها وقدميها ، ثم منطقتها ، ثم حلى صدرها ، وعقدها ، وقرطيها ، وتاجها . فلما ظهرت على الأرض نما النبات وأينع من جديد ، وامتلأت الأرض طعاماً ، وكاد كل حيوان يعمل للإكثار من نسله[٨١] ، وعاد الحب — وهو أقوى من الموت — إلى مكانه الحق سيد الآلهة والأناسى ؛ تلك قصة كل ما يراه فيها عالم اليوم أنها قصة رائعة خليقة بالإعجاب ، ترمز فى صورة جميلة ممتعة إلى موات التربة وعودتها إلى الحياة فى كل عام ، وإلى ما للحب من قدرة دونها كل قدرة ، وصفها لكريتس فى شعره القوى حين تحدث عن الزهرة (فينوس) . أما البابليون فكانت لهم تاريخاً مقدساً يؤمنون به أقوى إيمان ، ويحتفلون بذكرى وقائعه فى يوم يحزنون فيه وينتحبون ويبكون تموز الميت ، يتلوه يوم يبتهجون فيه ويمرحون وهو يوم بعثه[٨٢] .

بيد أن عقيدة الخلود لم يكن فيها ما تبتهج له نفس البابلى . ذلك أن دينه كان ديناً أرضياً عملياً ، فإذا صلى لم يكن يطلب فى صلاته ثواباً فى الجنة بل كان يطلب متسعاً فى الأرض[٨٣] ، ولم يكن يثق بآلهته بعد أن يوارى فى قبره . نعم إن نصاً من نصوصهم يصف مردك بأنه « الذى يحيى الموتى »[٨٤] ، وأن قصة الطوفان تقول إن من نجوا منه قد عاشا أبد الدهر . ولكن فكرة البابليين عن الحياة الآخرة كانت فى جملتها شبيهه بفكرة اليونان ، فكرة أموات — فيهم قديسون وأنذال ، وفيهم عباقرة وبلهاء ، يذهبون كلهم إلى مكان مظلم فى جوف الأرض ولا يرى الضوء من بعد ذلك أحد منهم . وكانت هناك جنة ولكنها اختصت بالآلهة ، أما أرالو التى يهبط إليها جميع الناس فكانت داراً للعقاب فى معظم الأحوال ، ولم تكن قط دار نعيم ، تقيد فيها أيدى الموتى وأرجلهم أبد الدهر ، وترتجف فيها أجسامهم من البرد ،

يجوعون فيها ويظمأون إلا إذا وضع أبناؤهم لهم الطعام فى قبورهم فى أوقات معينة[٨٥] . ومن كان منهم كثير الذنوب على ظهر الأرض لقى فيها أشد العذاب ؛ فسلط عليه الجذام يأكل جسمه أو غيره من الأمراض التى أعدها له ترجال وآلات سيد أرالو وسيدتها ليتطهر بها من ذنوبه .

وكانت أكثر أجسام الموتى تدفن فى قباب ، ومنها ما كان يحرق وهو قليل ، ثم تحفظ بقاياها فى قوارير[٨٦] ، ولم تكن الجثث تحنط ، ولكن نادبين محترفين كانوا يغسلون الجثة ، ويلبسونها ثياباً حسنة ، ويصبغون خديها ، ويسودون جفونها ، ويلبسونها خواتم فى أصابعها ، ويضعون معها بديلا من الملابس الداخلية التى تلبسها . وإذا كانت الجثة لامرأة وضعت معها قوارير العطور ، والأمشاط ، وأقلام الأدهان ، وكحل للعينين ، وذلك لكى تحتفظ بطيب رائحتها وجمال وجهها فى الدار الآخرة[٨٧] . وكانوا يعتقدون أن الميت إذا لم يدفن على خير وجه عذب الأحياء ، وإذا لم يدفن قط حامت روحه حول البالوعات والميازيب تطلب فيها الطعام ، وقد تصيب مدينة برمتها بالأوبئة الفتاكة[٨٨] . هذا كله خليط من الأفكار ليست كلها منطقية متماسكة تماسك الهندسة الإقليدية ، ولكن فيها ما يكفى لحفز البابلى الساذج على أن يقدم لآلهته وقساوسته كفايتهم من الطعام والشراب .

وكان الطعام والشراب أكثر ما يقرب من القرابين ، وذلك لأن ما يتبقى منهما لا يتلف حتما إذا لم يطعمه الآلهة . وكثيراً ما كان الضأن يضحى به على المذابح البابلية ، ولقد وصلت إلينا رقية بابلية هى سابقة عجيبة لكبش الفداء عند اليهود والمسيحيين : « الكبش فداء الإنسان ، الكبش الذى يفتدى به حياته »[٨٩] . وكان تقريب القربان من الطقوس المعقدة التى تتطلب خدمات كاهن خبير بشئونها . وكانت التقاليد المتوارثة تقرر كل عمل يعمل ، وكل لفظ يقال ، فإذا أقدم على هذا العمل شخص هاو غير إخصائى فيه ، ثم حاد قيد شعرة عن المراسم المقررة ، فقد يكون معنى هذا أن تأكل الآلهة

الطعام ولا تصغى للدعاء. وكان الدين عند البابليين يُعنى بالمراسم الصحيحة أكثر مما يعنى بالحياة الصالحة. فإذا شاء الإنسان أن يؤدى ما يجب عليه نحو الآلهة كان عليه أن يقرب القربان اللائق للهياكل، ويتلو الصلوات والأدعية المناسبة[٩٠]. أما فيما عدا هذا فقد كان فى وسعه أن يفقأ عين عدوه المهزوم ويقطع أيدى الأسرى وأرجلهم، ويشوى ما بقى من أجسامهم وهم أحياء[٩١]، دون أن يؤذى بذلك آلهة السماء.

وكان أهم ما يجب أن يعمله البابلى التقى المستمسك بدينه أن يشترك فى المواكب الطويلة المهيبة كالمواكب التى كان الكهنة ينقلون فيها صورة مردك من هيكل إلى هيكل، ويمثلون فيها مسرحية موته وبعثه المقدسة، أو أن يحضر هذه الاحتفالات وهو خاشع، وأن يطلى الأصنام بالزيوت العطرة(*)، ويحرق البخور بين يديها، ويلبسها أحسن الثياب وأغلاها، أو يزينها بالجواهر، وأن يقدم عرض ابنته العذراء فى احتفال إشتار العظيم، وأن يقدم الطعام والشراب للآلهة، وأن يكون كريماً مضيافاً للكهنة[٩٢].

أو لعلنا نظلمه كما سيظلمنا المستقبل بلا ريب حين يحكم علينا بالقليل الذى سوف تبقية المصادفات المحضة من آثارنا، وتنجيه من عبث الزمان. استمع مثلا إلى ما يقوله نبوخذ نصر الفخور مخاطباً مردك فى تذلل وخضوع:

إذا لم تكن أنت يا ربى فماذا يكون

للملك الذى تحبه وتنادى باسمه؟

وستبارك لقبه حسب مشيئتك،

وتهديه صراطاً مستقيما.

أنا الأمير الطائع لك،

باق كما صنعتنى يداك.

(*) ومن أجل هذا كان تموز يسمى بالمعطر[٩٣].

إنك أنت خالقى ،
وأنت الذى حكّمتنى فى جيوش العباد .
وبمقتضى رحمتك ، يا مولاى . . . .
بدّل قوتك الرهيبة حبًّا ورحمة ،
وابعث فى قلبى الاحترام لربوبيتك
وهبنى ما ترى فيه الخير لى(٩٤) .

هذا وإن الآداب الباقية لنا من عهد البابليين لتكثر فيها الترانيم التى تفيض بالتذلل الحار الذى يحاول السامى أن يسيطر به على كبريائه ويخفيه عن الأنظار . وأكثر هذه الترانيم فى صورة « أناشيد توبة » وهى تهيئنا لتلك المشاعر العاطفية والصور الرائعة التى نراها فى « مزامير » داود . ومن يدرى لعل هذه كانت مثالا احتذته تلك المزامير المتعددة النغمات :

أنا خادمك أضرع إليك وقلبى مفعم بالحسرات ،
إنك لتقبل الدعاء الحار الصادر ممن أثقلته الذنوب ،
إنك لتنظر إلى الرجل ، فيعيش ذلك الرجل . . .
فانظر إلىّ بعطف حق وتقبل دعائى . . . . . .

ثم يقول بعد ذلك وكأنه لا يعرف أذكر ذلك الإله أم أنثى :

متى يا إلهى ،
متى يا إلهتى ، يتجه وجهك إلىّ ؟
متى ، يا إلهى ، يا من أعرفه ، ولا أعرفه ، يهدأ غضب قلبك ؟
متى يا إلهتى : يا من أعرفها ولا أعرفها ، يهدأ قلبك الغضوب ؟
لقد فسد الإنسان ، وساء حكمه ؛
ومَن مِن الأحياء كلهم يعرف شيئاً ؟

إنهم لا يعرفون أخيراً يفعلون أم شراً ،
أى إلهى لا تنبذ خادمك ،
لقد ألقى فى الوحل فخذ بيده !
والذنب الذى أذنبت بدله رحمة !
والظلم الذى ارتكبته ، مر الريح أن تحمله !
واخلع عن ذنوبى الكثيرة كما يخلع المرء الثياب !
أى إلهى إن ذنوبى سبعة فى سبعة ؛ فاصفح عن ذنوبى !
أى إلهتى إن ذنوبى سبعة فى سبعة ؛ فاصفحى عن ذنوبى !
اصفحى عن ذنوبى تريني ذليلا أمامك
لعل قلبك يبتهج كما تبتهج الأم التى ولدت الأبناء ،
لعله يبتهج كما تبتهج الأم التى ولدت الأبناء ، والأب الذى أنجب(٩٥) !

وهذه الأناشيد والمزامير كان ينشدها الكهنة تارة ، والمصلون تارة ، وتارة ينشدها هؤلاء وأولئك معاً وهم يتمايلون ذات الشمال وذات اليمين ؛ ولعل أغرب ما فى هذه الترانيم والأناشيد أنها — ككل آداب بابل الدينية — كتبت باللغة السومرية القديمة . وكان شأن هذه اللغة فى الديانتين البابلية والآشورية كشأن اللغة اللاتينية فى الكنيسة الكاثوليكية لا تفترق عنها فى شىء . وكما أن الترنيمة الكاثوليكية قد تحتوى بين سطورها اللاتينية ترجمتها بإحدى اللغات الحديثة ، فكذلك نجد لبعض الترانيم التى وصلت إلينا من أرض الجزيرة ترجمة لها باللغة البابلية أو الأشورية بين سطور اللغة السومرية الأصلية « الفصحى » ، على النحو الذى نشاهده فى كتب بعض تلاميذ المدارس فى هذه الأيام . وكما إن صيغة الترانيم وطقوسها التى مهدت لمزامير اليهود وطقوس الكنيسة الكاثوليكية ، فإن موضوعاتها تنذر بالترانيم اليهودية والمسيحية الأولى ، وترانيم المتطهرة المحدثين ، تلك الترانيم المتشائمة التى يسرى فيها شعور بالذنب والخطيئة . ذلك أن الشعور بالذنب ، وإن لم

يكن له شأن كبير فى حياة البابليين ، تفيض به ترانيمهم ، وتسرى فيها كلها نغمة لا تزال باقية فى الطقوس السامية وما اشتق منها من ترانيم غير الساميين . وإلى القارئ مثلا من هذه الترانيم : « رب إن ذنوبى عظيمة ، وأفعالى السيئة كثيرة ! . . . إنى أرزخ تحت أثقال العذاب ، ولم يعد فى وسعى أن أرفع رأسى ، إنى أتوجه إلى إلهى الرحيم أناديه ، وأنا أتوجه وأتألم ! . . . رب لا ترد عنك خادمك ! »[٩٦] .

وكانت فكرة الخطيئة عند البابليين مما جعل هذه التصرفات تصدر عن إخلاص حق شديد . ذلك أن الخطيئة لم تكن مجرد حالة معنوية من حالات النفس ؛ بل كانت كالمرض تنشأ من سيطرة شيطان على الجسم فى مقدوره أن يهلكه . وكانت الصلاة عندهم بمثابة رقية تخرج العفريت الذى أقبل عليه من طوائف القوى السحرية التى كان الشرق القديم يعيش فيها ويخوض عبابها . وكان البابليون يعتقدون أن هذه الشياطين المعادية للناس تترصده فى كل مكان . فقد كانت تعيش فى شقوق عجيبة وتتسلل إلى البيوت من خلال أبوابها ، أو من فتحات مزالجها أو أوقابها ، وتنقض على فريستها فى صورة مرض أو جنة إذا ما ارتكب خطيئة أبعدت عنه إلى حين حماية الآلهة الخيرين . وكان للمردة ، والأقزام ، والمقعدين ، وللنساء بنوع خاص ، كان هؤلاء كلهم فى بعض الأحيان القدرة على إدخال الشياطين فى أجسام من لا يحبون، وذلك بنظرة من « عين حاسدة » . وكان من المستطاع اتقاء شر هؤلاء الشياطين إلى حد ما باستعمال التمائم والطلاسم وما إليها من الرقى والأحاجى وكانت صورة الآلهة إذا حملها الشخص معه تكفى فى الغالب لإخافة الشيطان وإبعاده . وكان من أقوى التمائم أثراً قلادة من حجارة صغيرة تسلك فى خيط أو سلك وتعلق فى العنق ، على أن يراعى فى الحجارة أن تكون من النوع الذى تربط الأقوال المأثورة بينه وبين الحظ الحسن ، وفى الخيط أن يكون أسود أو أبيض أو أحمر حسب الغرض الذى يريده منه صاحبه ؛ وكان

من أشد الخيوط أثراً الخيط الذى يغزل من عنزة لم يقربها تيس[٩٧] ، وكان من الحكمة أن يستعان فضلا عن هذه الوسائل بالرقى الحارة والطقوس السحرية لإخراج الشيطان من الجسم ، كرشه بالماء المحمول من أحد المجارى المقدسة كدجلة والفرات . وكان من المستطاع عمل صورة للشيطان ووضعها فى قارب ، وإلقاؤها فى الماء بعد أن تتلى عليها صيغة خاصة وإذا أمكن صنع القرب بحيث ينكفئ كان ذلك أفضل . وكان من المستطاع إقناع الشيطان بالرقية الصحيحة بترك ضحيته البشرية وتقمص جسم حيوان — كجسم طير أو خنزير أو حمل ، والأخير أكثرها شيوعاً[٩٨] .

وكانت أكثر الكتابات البابلية التى وجدت فى مكتبة أشور بانيبال هى الكتابات المحتوية على صيغ سحرية لطرد الشياطين واتقاء أذاها ، والتنبؤ بالغيب . ومن الألواح التى وجدت كتب فى التنجيم ، ومنها ما هو قوائم فى الفأل السماوى منه والأرضى ، وإلى جانبها إرشادات شديدة تهدى إلى طريقة قراءتها ؛ ومنها بحوث فى تفسير الأحلام لا تقل براعة وبعداً عن المعقول عن أرقى ما أخرجته بحوث علم النفس الحديث . ومنها إرشادات فى التنبؤ بالغيب ببحث أحشاء الحيوانات أو بملاحظة مكان نقطة من الزيت وشكلها إذا أسقطت فى إبريق ماء[٩٩] . وكان من أساليب التنبؤ الشائعة عند البابليين ملاحظة كبد الحيوان ، وقد أخذ ذلك عنهم من جاء بعدهم من الأمم القديمة ؛ ذلك أن الاعتقاد السائد عند هذه الأمم هو أن الكبد مركز العقل فى الحيوان والإنسان على السواء ؛ ولم يكن ملك يجرؤ على شن حرب أو الاشتباك فى واقعة ، ولم يكن بابلى يجرؤ على البت فى أمر من الأمور ، أو الإقدام على مشروع خطير ، إلا إذا استعان بكاهن أو عراف ليقرأ له طالعه بطريقة من الطرق الخفية السالفة الذكر .

وليس فى الحضارات كلها حضارة أغنى فى الخرافات من الحضارة البابلية ، فكل حالة من الحالات وفاة كانت او مولداً ، كان لها عند الشعبية

شرح وتأويل ، وكثيراً ما كان لها تفسير رسمى ودينى يصاغ فى عبارات سحرية أو خارجة على السنن الطبيعية . وكان فى كل حركة من حركات النهرين ، وكل منظر من مناظر النجوم ، وكل حلم ، وكل عمل غير مألوف يأتيه إنسان أو حيوان ، شاهد يكشف عن المستقبل البابلى الخبير العارف ببواطن الأمور . فمصير الملك يمكن التنبؤ به بملاحظة حركات كلب[١٠٠] ، كما نتنبأ نحن بطول الشتاء بالتجسس على المرموط[*] وقد تبدو خرافات البابليين سخيفة فى نظرنا ، لأنها تختلف فى ظاهرها عن خرافاتنا نحن ؛ والحق أنه لا تكاد توجد سخافة فى الماضى إلا وهى منتشرة فى مكان ما فى الوقت الحاضر . وما من شك فى أن تحت كل حضارة بحراً من السحر والتخريف والشعوذة ، ولعل هذه كلها ستظل باقية بعد أن يزول من العالم نتاج عقولنا وتفكيرنا ،

(*) المرموط حيوان من ذوات الأربع فى جرم الأرنب تقريباً ويشبهه فى هيئته إلا أن ذنبه أقصر من ذنب الأرنب . (المترجم)

الفصل الخامس

أخلاق البابليين

انفصال الدين عن الأخلاق – العهر المقدس – الحب الحر –
الزواج – الزنى – الطلاق – مركز المرأة – انحلال الأخلاق

لعل هذا الدين رغم ما فيه من عيوب ، قد رقق من طباع البابلي العادي وجعله إنساناً مؤدباً سلس القياد إلى حد ما ؛ وإلا فكيف تفسر إكرام الملوك للكهنة ؟ . ولكن يلوح أنه لم يكن له في تاريخ البلاد المتأخر أثر ما في الطبقات العليا من الشعب ، وذلك لأن « بابل العاهر » كما كان يراها ويصفها أعداؤها غير العدول كانت « مباءة للظلم » ، ومثلا سيئاً في الانحلال والترف للعالم القديم بأجمعه . وحتى الإسكندر نفسه وهو الذي لم يكن يتورع عن الشراب حتى الموت قد هاله ما رأى من أخلاق البابليين(١٠١) .

وأهم ما يلفت نظر المراقب الأجنبي في حياة البابليين تلك العادة التي تعرفها من وصف لها في إحدى صفحات هيرودوت الذائعة الصيت : « ينبغي لكل امرأة بابلية أن تجلس في هيكل الزهرة مرة في حياتها ، وأن تضاجع رجلا غريباً . ومنهن كثيرات يترفعن عن الاختلاط بسائر النساء ، لكبريائهن الناشئ من ثرائهن ، وهؤلاء يأتين في عربات مقفلة ويجلسن في الهيكل ومن حولهن عدد كبير من الحاشية والخدم . أما الكثرة الغالبة منهن فيتبعن الطريقة الآتية : تجلس الكثيرات منهن في هيكل الزهرة وعلى رءوسهن تيجان من الحبال ، بين الغاديات والرائحات اللاتي لا ينقطع دخولهن وخروجهن . وتخترق جميع النساء ممرات مستقيمة متجهة في كل الجهات ، ثم يمر فيها الغرباء ليختاروا من النساء من يرتضون . فإذا جلست امرأة هذه الجلسة كان عليها ألا تعود إلى منزلها حتى يلقي أحد الغرباء قطعة من الفضة

فى حجرها ويضاجعها فى خارج المعبد . وعلى من يلقى القطعة الفضية أن يقول : أضرع إلى الإلهة ميلتا أن ترعاك ، ذلك بأن الأشوريين يطلقون على الزهرة اسم ميلتا(*) ومهما يكن من صغر القطعة الفضية فإن المرأة لا يجوز لها أن ترفضها ، فهذا الرفض يحرمه القانون لما لها فى نظرهم من قداسة . وتسير المرأة وراء أول رجل يلقيها إليها ، وليس من حقها أن ترفضه أياً كان . فإذا ما ضاجعته وتحللت مما عليها من واجب للإلهة ، عادت إلى منزلها . ومهما بذلت لها من المال بعدئذ لم يكن فى وسعك أن تنالها . ومن كانت من النساء ذات جمال وتناسب فى الأعضاء ، لا تلبث أن تعود إلى دارها ، أما المشوهات فيبقين فى الهيكل زمناً طويلا ، وذلك لعجزهن عن الوفاء بما يفرضه عليهن القانون ، ومنهن من ينتظرن ثلاث سنين أو أربعا(١٠٢) » .

ترى ماذا كان منشأ هذه السنة العجيبة ؟ فهل كانت بقيَّة من بقايا الشيوعية الجنسية ، أى رخصة يمنح بها عريس المستقبل « حق الليلة الأولى » للمجتمع الممثل فى المواطن العارض غير المعروف(١٠٣) ؟ أو هل كان منشؤها خوف العريس من ارتكاب جريمة سفك الدماء التى تحرّمها الشرائع(١٠٤) ؟ أو هل كانت استعداداً ضمنياً للزوج شبيهاً بالسُّنَّة التى لا يزال يسير عليها بعض القبائل فى أستراليا إلى هذه الأيام(١٠٥) ؟ أو أنها لم تكن أكثر من قربان يقرّب للآلهة — فتقدّم لها باكورة الفاكهة(١٠٦) ؟ من يدرى ؟

ولم تكن هذه النساء عاهرات بطبيعة الحال . لكن عاهرات من أصناف مختلفة كن يسكن فى أرباض الهيكل ويمارسن حرفتهن فيها ، ومنهن من كن يجمعن من عملهن الأموال الطائلة ، وكانت عاهرات الهياكل كثيرات فى غربى آسية . تجدهن عند بنى إسرائيل(١٠٧) ، وفى فريجيا ، وفينيقية ، وسوريا

(*) لقد كان اليونان يطلقون اسم الأشوريين على الأشوريين والبابليين على السواء . وكانت « ميلتا » صورة أخرى من صور إشتار .

وغيرها من الأقطار . وكانت البنات فى ليديا وقبرص يحصلن على بائنة زواجهن بهذه الطريقة نفسها[١٠٨] ، وظلت « الدعارة المقدّسة » عادة متبعة فى بلاد بابل حتى ألغاها قسطنطين (حوالى عام ٣٢٥ ق . م)[١٠٩] . وكان جانبها عهر مدنى منتشر فى حانات الشراب التى يديرها النساء[١١٠] .

وكان يسمح للبابليين فى العادة بقسط كبير من العلاقات الجنسية قبل الزواج ، ولم يكن يضن على الرجال والنساء أن يتصلوا اتصالا غير مرخص به « بزيجات تجريبية » تنتهى متى شاء أحد الطرفين أن ينهيها ، ولكن المرأة فى هذه الحالات كان من واجبها أن تلبس زيتونة — من حجر أو طين محروق — دلالة على أنها محظية[١١١] . وتدل بعض الألواح على أن البابليين كانوا ينشدون القصائد الغزلية ويغنون الأغانى الغرامية ، ولكن هذه القصائد والأغانى لم يبق منها إلا سطر هنا وسطر هناك ، كانت تستهل به القصيدة أو الأغنية كقولهم : « إن حبيبى من نور » أو « إن قلبى ملىء بالمرح والغناء »[١١٢] ولدينا خطاب يرجع تاريخه إلى عام ٢١٠٠ ق . م ، وتشبه نغمته نغمة رسائل نابليون الأولى إلى جوزفين(*) : « إلى بيبيا . . . لعل شمش ومردك يهبانك صحة أبدية . . . . لقد أرسلت (أستفسر) عن صحتك ، فخبرنى كيف حالك ؟ لقد وصلت إلى بابل ، ولكنى لا أراك ، إنى فى أشد الحزن »[١١٣] .

وكان الآباء هم الذين يهيئون الزواج الشرعى لأبنائهم ، وكان الطرفان يقرّانه بتبادل الهدايا ، ولعل هذه العادة كانت أثراً من نظام قديم هو نظام الزواج بالبيع والشراء . فكان الخطيب يتقدم إلى والد العروس بهدية قيّمة ، ولكن الوالد كان ينتظر منه أن يهب ابنته بائنة أعظم قدراً من الهديّة[١١٤] ، حتى لقد كان يصعب على المرء أن يقول أيهما المشترى المرأة أم الرجل ؟ على أن بعض

(*) انظر ترجمة بعض هذه الرسائل (وخاصة الرسالة رقم ٢) فى الجزء الثانى من « أشهر الرسائل العالمية » المترجم .

الزيجات كانت بيعاً صريحاً ، من ذلك أن شمشتريز حصل على عشرة شواقل (٥٠ ريالا) ثمناً لابنته[١١٥] . وإذا جاز لنا أن نصدق أبا التاريخ « فإن من كانت لهم بنات فى سن الزواج يأتون بهن مرة فى كل عام إلى مكان يجتمع فيه حولهن عدد كبير من الرجال ، ثم يصفهن دلال عام ويبيعهن جميعاً واحدة فى إثر واحدة على أن يبدأ بأجملهن ، وبعد أن يقبض فيها ثمناً عالياً ينادى على من تليها فى الجمال . ولكنه لم يكن يبيعهن إلا بشرط أن يتزوجهن المشترون ... وهذه العادة المستحبة لم يعد لها الآن بقاء »[١١٦] .

ويلوح أن الزواج فى بابل ، رغم هذه الأساليب الغريبة لم يكن يقل إخلاصاً واقتصاراً على واحدة عنه فى العالم المسيحى فى هذه الأيام . وكانت الحرية المباحة للأفراد قبل الزواج يتبعها إرغام شديد على الاستمساك بالوفاء الزوجى بعده ، وكان القانون ينص على إغراق الزوج الزانية ومن زنت معه إلا إذا أشفق الزوج على زوجته فآثر أن يستبدل بهذه العقوبة إخراجها إلى الطريق عارية إلا من القليل الذى لا يكاد يستر شيئاً من جسمها[١١٧] . وقد بز حورابى قيصر من هذه الناحية فقال فى إحدى مواد قانونه : « إذا أشار الناس بإصبعهم إلى زوجة رجل لعلاقتها برجل غيره ، ولم تضبط وهى تضاجعه ، وجب أن تلقى بنفسها فى النهر حفظاً لشرف زوجها »[١١٨] . ولعل الذى كان يهدف إليه القانون بهذه العقوبة هو منع أحاديث الإفك . وكان فى وسع الرجل أن يطلق زوجته ، ولا يتطلب منه هذا أكثر من رد بائنتها إليها وقوله لها : لست زوجتى » ، أما إذا قالت هى له : « لست زوجى » ، فقد وجب قتلها غرقاً[١١٩] . وكان عقم الزوجة ، وزناها ، وعدم اتفاقها مع زوجها ، وسوء تدبيرها منزلها ، كانت هذه فى حكم القانون مما يجيز طلاقها[١٢٠] . وفى ذلك يقول القانون : « إذا لم تكن سيدة حريصة على أداء واجبها ، بل كانت دوارة غير مستقرة فى منزلها ، مهملة لشئون بيتها ، مستخفة بأطفالها ، وجب أن تلقى فى الماء[١٢١] ، وفى مقابل هذه

القسوة غير المعقولة المنصوص عليها فى القانون ، كان للمرأة من الوجهة العملية أن تفارق زوجها ، وإن لم يكن من حقها أن تطلقه ، إذا أثبتت قسوته عليها مع إخلاصها له ؛ وكان فى وسعها فى هذه الحال وأمثالها أن تعود إلى أهلها وأن تأخذ معها بائنتها وما عسى أن تكون قد حصلت عليه لنفسها بعدئذ من المتاع(١٢٢)، (ولم تستمتع نساء إنجلترا نفسها بهذه الحقوق إلا فى أواخر القرن التاسع عشر) . وإذا غاب الزوج عن زوجته فى عمل أو حرب زمناً ما ، ولم يترك لها ما تعيش منه ، كان لها أن تعيش مع رجل آخر ، دون أن يحول ذلك من الوجهة القانونية بينها وبين انضمامها مرة أخرى إلى زوجها بعد عودته من غيبته(١٢٣) .

وفى وسعنا أن نقول بوجه عام إن مركز المرأة فى بابل كان أقل منه فى مصر وفى رومة ، ولكنه مع ذلك لم يكن أقل من مركزها عند اليونان الأقدمين أو عند الأوربيين فى العصور الوسطى . وكان لا بد لها لكى تؤدى أعمالها الكثيرة — من ولادة الأبناء وتربيتهم ، ونقل الماء من النهر أو الآبار العامة ، وطحن الحبوب ، والطهو ، وغزل الخيوط ونسجها ، وتنظيف دارها — كان لا بد لها لكى تؤدى هذه الأعمال أن تكون حرة فى غدوّها ورواحها بين الناس لا تكاد تفترق من هذه الناحية عن الرجل فى شىء(١٢٤) . وكان من حقها أن تمتلك الثروة وتستمتع بدخلها ، وتتصرف فيها بالبيع والشراء ، وأن ترث وتُوَرِّث(١٢٥) . ومن النساء من كانت لهن حوانيت ، يتجرن فيها ، بل إن منهن من كنّ كاتبات ، وفى هذا دليل على أن البنات كن يتعلمن كالصبيان(١٢٦) ؛ غير أن التقاليد السامية التى تمنح أكبر ذكور الأسرة سلطة لا تكاد تقف عند حد كانت تحول دون ما عساه أن يكون باقياً فى أرض الجزيرة من أزمنة ما قبل التاريخ من نزعة لتغليب سلطان الأم . وكان من العادات المتبعة عند الطبقات العليا عادة — ولعلها هى التى أدت إلى تحجب النساء عند المسلمين والهنود — أن يكون للنساء جناح خاص أو أجنحة خاصة فى المنزل ، وكنّ إذا

خرجن صحبهن رقباء من الخصيان والخدم(١٣٧) ؛ أما الطبقات السفلى فلم تكن نساؤها أكثر من آلات لصنع الأطفال ، وإذا لم تكن لهن باثنات كانت مكانتهن لا تكاد تفترق عن مكانة الإماء(١٣٨) . وتشير عبادة إشتار إلى أن المرأة والأمومة كان لهما قسط من التبجيل فى بلاد بابل ، كما تشير عبادة مريم العذراء فى العصور الوسطى إلى ما كان لها من التبجيل وقتئذ ، ولكننا إذا أخذنا بقول هيرودوت إن البابليين إذا حوصروا « كانوا يخنقون زوجاتهم لكيلا يستهلكن ما عندهم من الطعام »(١٣٩) ، لا نرى أن البابليين كانت لديهم كثير من صفات الشهامة والفروسية التى كانت لدى الأوربيين فى تلك العصور .

لذلك ترانا نجد بعض العذر للمصريين إذا وصفوا البابليين بأنهم قوم لم يصلوا إلى درجة كبيرة فى الحضارة . والحق أننا لا نجد عندهم ما تشهد به آداب المصريين وفنونهم من رقة أخلاقهم ومشاعرهم . ولما أن وصلت هذه الرقة إلى البابليين وصلت إليهم تحت ستار الانحلال المخنث : فكان الشبان يصبغون شعرهم ويعقصونه ، ويعطرون أجسامهم ، ويحمرون خدودهم ، ويزينون أنفسهم بالعقود والأساور ، والأقراط ، والقلائد . ولما فتح الفرس بلادهم وقضوا بذلك على عزتهم النفسية ، تحرروا أيضاً من جميع القيود الخلقية ، وسرت عادات العاهرات إلى جميع الأوساط ؛ وأضحت نساء الأسر الكبيرة يرين أن إظهار محاسنهن أيا كانت ليستمتع بها أعظم استمتاع أكبر عدد مستطاع ، أصبحن لا يرين فى هذا شيئاً أكثر من مجاملة عادية(١٣٠) . وإذا جاز لنا أن نصدق هيرودوت فإن « كل رجل من عامة الشعب إذا عضه الفقر ، عرض بناته للدعارة طلباً للمال »(١٣١) . وكتب كونتس كورتيس عام ٤٢ ب . م يقول : « ليس ثمة أغرب من أخلاق هذه المدينة . فلسنا نجد فى أى مكان آخر ما نجده فيها من تهيئة كل شىء على خير وجه لإشباع الملذات الشهوانية »(١٣٢) . لقد فسدت الأخلاق وانحلت حين أثرت الهياكل ، وانهمك أهل بابل فى ملذاتهم فرضوا أن تخضع مدينتهم للكاشيين والأشوريين والفرس واليونان .

الفصل السادس

الكتاب والأدب

الكتابة المسمارية – حل رموزها – اللغة – الأدب – ملحمة جلجميش

ترى هل خُلدت هذه الحياة ، حياة الشهوات والتقوى والتجارة ، فى الأدب أو الفن تخليداً رائعاً نبيلا ؟ لعل هذا قد كان ، لأننا لا نستطيع أن نحكم على مدنية من شذرات متفرقة من حطام بابل قذف بها بحر الزمان . إن هذه الشذرات تتصل معظمها بشئون الصلاة والسحر والتجارة ، وليس ما خلفته من تراث أدبى بالشىء الكثير إذا قيس إلى ما تركته مصر وفلسطين ، وكانت فى هذه القلة شبيهة بأشور وفارس . ولسنا ندرى أكان هذا من أثر الظروف والمصادفات أم كان من أثر فقرها الثقافى . أما فضلها على العالم فنى ميدان التجارة وفى القانون .

لكن الكتبة رغم هذا لم يكونوا يقلون فى مدينة بابل التى كان يسكنها خليط من جميع الأجناس عنهم فى منف أو طيبة . ذلك أن فن الكتابة كان لا يزال فى بداية عهده فناً ينال به من يجيده مركزاً عظيما فى المجتمع ، فقد كان الطريق الموصل إلى المناصب الحكومية والكهنوتية ، ولم يكن صاحبه يغفل قط عن الإشادة بفضله فيما يرويه من أعماله ، وكان من عادة الكاتب أن ينقش ما يفيد هذا على خاتمه الأسطوانى(١٣٣) كما كان العلماء والمتعلمون فى العالم المسيحى من وقت قريب يذكرون مؤهلاتهم العلمية على بطاقاتهم . وكان البابليون يكتبون بالخط المسمارى على ألواح من الطين الرطب بقلم ذى طرف شبيه بالمنشور الثلاثى أو الإسفين . فإذا امتلأ اللوح كتابة جففوه أو حرقوه ، فكان بذلك مخطوطاً غريباً طويل البقاء . وإذا كان المكتوب رسالة نثر عليها التراب الناعم ، ووضعت فى مظروف

من الطين ، وبصمت بخاتم مرسلها الأسطوانى . وكانت الألواح الطينية المحفوظة فى جرار مصنفه ومرتبة على رفوف تملأ عدداً كبيراً من المكتبات فى هياكل الدولة البابلية وقصورها ، ولقد ضاعت هذه المكتبات ، ولكن واحدة من أعظمها وهى مكتبة بورسبا قد نسخت وحفظت فى مكتبة أشور بانيبال . وكانت ألواحها البالغ عددها ٣٠٫٠٠٠ لوح أهم مصدر استقينا منه معلوماتنا عن الحياة البابلية .

ولقد حيرت الكتابة البابلية العلماء فظلوا مئات السنين عاجزين عن حل رموزها ، وكان نجاحهم فى حلها آخر الأمر عملا من أجلّ الأعمال فى تاريخ العلم . وتفصيل ذلك أن جورج جروتفند أستاذ اللغة اليونانية فى جامعة جوتنجن أبلغ المجمع العلمى فى تلك المدينة عام ١٨٠٢ أنه ظل عدة سنين يواصل البحث فى بعض مخطوطات مسمارية وصلت إليه من بلاد الفرس القديمة ، وأنه استطاع آخر الأمر أن يتعرّف على ثمانية من الإثنين والأربعين حرفاً المستعملة فى هذه النقوش ، وأنه ميز ثلاثة من أسماء الملوك المدوّنة فيها . وبقيت الحال كذلك ، أو ما يقرب من ذلك ، حتى عام ١٨٣٥ حين استطاع هنرى رولنسن أحد موظفى السلك السامى البريطانيين فى إيران ، على غير علم منه بما توصل إليه جروتفند ، أن يقرأ ثلاثة أسماء هى هستسبس ، ودارا ، وحشيارشاى (اكزركس) فى نقش مكتوب بالخط الفارسى القديم وهو خط مسمارى مشتق من الكتابة البابلية ، وأمكنه بفضل هذه الأسماء أن يقرأ الوثيقة كلها فى آخر الأمر . لكن هذه الكتابة وإن كانت مشتقة من الكتابة البابلية لم تكن هى البابلية نفسها ، وقد بقى على رولنسن أن يعثر على حجر رشيد بابلى كما عثر شمپليون على حجر رشيد مصر ، أى على نص واحد باللغتين الفارسية القديمة والبابلية . وهذا ما عثر عليه فى مكان يعلو على سطح الأرض نحو ثلاثمائة قدم . وكان هذا النقش على صخرة يتعذر الوصول إليها عند بهستون فى جبال ميديا ، حيث أمر دارا الأول الحفارين أن يسجلوا حروبه وانتصاراته بثلاث لغات : الفارسية القديمة ، والأشورية ، والبابلية . وظل

رولنسن يوماً بعد يوم يرقى هذه الصخرة معرضاً بذلك حياته لأشد الأخطار ، وكثيراً ما كان يشد نفسه بحبل وهو ينسخ كل حرف من حروفها بعناية بالغة ، حتى لقد كان أحياناً يطبع النقش كله على عجينة لينة . **وبعد جهد دام اثنتى عشرة سنة كاملة** نجح فى ترجمة النصين البابلى والآشــورى (١٨٤٧) .

وأرادت الجمعية الأسيوية الملكية أن تتثبت مما وصل إليه رولنسن وغيره من العلماء فى هذه الوثيقة وفى غيرها من الوثائق فأرسلت إلى أربعة من علماء الآثار الأشورية أربع صور من وثيقة مسمارية لم تكن قد نشرت وقتئذ ، وطلبت إلى كل منهم على انفراد أن يترجمها مستقلا عن الثلاثة الآخرين دون أن يتصل بهم أو يراسلهم . فلما جاءت الردود وجدت كلها متفقة بعضها مع بعض اتفاقاً يكاد يكون تاماً . وبفضل هذا الكفاح العلمى المنقطع النظير اتسعت دائرة البحوث التاريخية بما دخل فيها من علم بهذه الحضارة(١٤٣) الجديدة .

واللغة البابلية القديمة لغة ساميّة نشأت من تطور لغتى سومر وأكّد ، وكانت تكتب بحروف سومرية الأصـــل ، ولكن مفرداتها اختلفت عنها على مر الأيام (كما اختلفت اللغة الفرنسية عن اللاتينية) ، حتى استلزم هذا الاختلاف بين اللغتين السومرية والبابلية وضع معاجم وقواعد فى النحو والصرف يستعين بها العلماء والكهنة من الشـــبان على تفهم اللغة السومرية « الفصحى » والكتابات السومرية الكهنوتية . ومن أجل هذا نرى نحو ربع الألواح التى عثر عليها المنقبون فى المكتبة الملكية بنينوى معاجم فى اللغات السومرية والبابلية والأشورية وكتباً فى نحوها وصرفها . وتقول الروايات التاريخية إن هذه المعاجم قد وضعت من عهد موغل فى القدم هو عهد سرجون ملك أكّد . ألا ما أقدم عهد الدراسات العلمية ! والعلامات فى اللغة البابلية كالعلامات فى اللغة السومرية لا تدل على حروف وإنما تدل على مقاطع . ذلك أن البابليين لم يضعوا لهم حروفاً هجائية مستقلة بل ظلوا

طوال عهدهم قانعين بطائفة من المقاطع يرمزون لها بنحو ثلثمائة علامة من العلامات ؛ وقد كان حفظ هذه الرموز المقطعية عن ظهر قلب ودراسة قواعد الحساب والتعاليم الدينية المنهج المقرر فى مدارس الهياكل ، حيث كان الكهنة يلقنون الشباب ما هو خليق بالدرس والمعرفة . وقد كشفت بعض أعمال الحفر عن حجرة دراسية قديمة وجدت على أرضها ألواح طينية لبنين وبنات كتبت فيها حِكم أخلاقية تحث على الفضيلة قبل مولد المسيح بنحو ألفى عام ، كأن كارثة مفاجئة نكاد نحن أن نحمد الله على وقوعها دهمت التلاميذ ، فقطعت عليهم درسهم ، وحفظت لنا ألواحهم ، ومصائب قوم عند قوم فوائد[135] .

وكان البابليون ، كالفينيقيين ، ينظرون إلى الكتابة على أنها مجرد وسيلة لتيسير الأعمال التجارية ، ولذلك لم يضيعوا كثيراً من طينهم فى كتابة الأدب . ونجد فى ألواحهم قصصاً منظومة على لسان الحيوان — وهى نوع من أنواع لا حصر لها من القصص الخرافية — كما نجد فيها ترانيم دقيقة الوزن ، مقسمة إلى سطور وإلى مقطوعات مفصول بعضها عن بعض[136] ، لكننا لا نجد من الشعر غير الدينى الذى يصف شئون الناس العادية إلا القليل الذى لا يستحق الذكر ، ونرى فى المراسم الدينية ما يبشر بنشأة المسرحيات ، وإن لم تصل إلى مسرحيات بالفعل ، ونجد عندهم قناطير مقنطرة من كتب التاريخ . ذلك أن المؤرخين الرسميين كانوا يسجلون تقى الملوك وفتوحهم ، ومايصيب كل هيكل من الهياكل من عوادى الدهر ، وما يقع فى كل مدينة من أحداث هامة ويقص علينا بروسس أشهر المؤرخين البابليين وأنبههم ذكراً ، فى اطمئنان العالم الواثق من علمه ، تفاصيل وافية عن خلق العالم وتاريخ الإنسان فى عهده الأول . ويقول إن الله قد اختار أول ملك من ملوك بابل ليتولى حكمها ، وإنه حكمها ستة وثلاثين ألف عام . كما يقدر فى دقة ، جديرة فى حد ذاتها بالثناء . وباعتدال ليس فيه ما فى تقدير غيره من إسراف ، الزمن الذى مضى من خلق الأرض إلى أيام الطوفان

الأعظم بستمائة وواحد وتسعين ألفاً ومائتين من السنين(١٧٣) .

ومن أروع الآثار الأدبية التي خلفتها أرض الجزيرة اثنا عشر لوحاً محطماً وجدت في مكتبة أشوربانيبال ، وهي الآن في المتحف البريطاني . وقد كتبت على هذه الألواح **ملحمة جلجميش** الذائعة الصيت ، وتتألف من طائفة من القصص غير الوثيقة الاتصال ضمت بعضها إلى بعض في عهود مختلفة يرجع بعضها إلى أيام السومريين أي إلى ما قبل المسيح بثلاثة آلاف عام . ومن هذه القصص النص البابلي لقصة الطوفان . وكان جلجميش بطل القصة السالفة الذكر حاكماً أسطوريا لأروك أو إرك وهو من نسل شمش — نيشتين الذي نجا من الطوفان ولم يمت قط . ويدخل جلجميش في القصة في صورة مركبة من صورتي أونيس وشمشون ، فهو طويل القامة ، ضخم الجسم ، مفتول العضلات ، جريء مقدام ، جميل يفتن الناس بجماله .

ثلثاه إله ،
وثلثه آدمي ،
لا يماثله أحد في صورة جسمه . . ،
يرى جميع الأشياء ، ولو كانت في أطراف العالم ،
كابد كل شيء ، وعرف كل شيء ،
واطلع على جميع الأسرار ،
واخترق ستار الحكمة الذي يحجب كل شيء ،
ورأى ما كان خافياً ،
وكشف الغطاء عما كان مغطى ،
وجاء بأخبار الأيام التي كانت قبل الطوفان ،
وسار في طريق بعيد طويل ،
كابد فيه المشاق والآلام ،

ثم كتب على لوح حجرى كل ما قام به من الأعمال(١٣٨) .

ويشكوه الآباء إلى إشتار قائلين إنه يخرج أبناءهم من دورهم ليكدحوا فى « بناء الأسوار بالنهار وبالليل » ؛ ويقول الأزواج إنه « لا يترك زوجة لزوجها ، ولا عذراء واحدة لأمها » ، وتذهب إشتار إلى أرورو عرَّابة جلجميش ترجوها أن تخلق ابناً آخر مساوياً لجلجميش وقادراً على أن يشغله فى نزاع بينهما ، حتى يستريح بال الأزواج فى أروك ويأمنوا شره . وتعجن أرورو قطعة من الطين ، وتبصق عليها ، وتصور منها إنجدو ، وهو رجل له بأس الخنزير ، ولبدة الأسد ، وسرعة الطير . ولا يعبأ إنجيدو هـذا بصحبة الآدميين ، بل يعتزلهم ويعيش مع الحيوانات ، « يرعى الأعشاب مع الظباء ، ويلعب مع مخلوقات البحار ، ويروى ظمأه مع وحوش الحقول » . ويحاول أحد الصيادين أن يقتنصه بالشباك والفخاخ ولكنه يعجز عن اقتناصه ، فيذهب الصياد إلى جلجميش ويرجوه أن يعيره كاهنة توقع إنجيدو فى شراك حبها . فيقول له جلجميش : « اذهب أيها الصياد ، وخذ لك كاهنة ، فإذا جاءت الوحوش إلى مورد الماء لتستقى فلتكشف عن جمالها ، فإذا رآها انفضت من حوله الوحوش » .

وينطلق الصياد والكاهنة ويلتقيان بإنجيدو

« ها هوذا ، أيتها المرأة !
فحلى أزرارك ،
أسفرى عن مفاتنك ،
حتى ينال كفايته منك !
لا تحجمى ، وأجيبيه إلى ما يشتهى !
فإذا رآك فسوف يقترب منك .
وافتحى ثوبك ، حتى يرقد عليك !
وأثيرى شهوته ، كما تفعل النساء ،

وإذن فسيصبح غريباً عن وحوشه البرية ؛
• هى التى درجت معه فوق السهوب ،
وسيلتصق صدره بصدرك .
وحلت الكاهنة أزرارها
وكشفت عن مفاتنها ،
حتى ينال كفايته منها ،
ولم تحجم ، وأخذت شهوته ،
وفتحت ثوبها لكى يرقد عليها •
وأثارت نشوته كما تفعل النساء ،
والتصق صدره بصدرها •
فنسى إنجيدو أين ولد(١٣٩) ؛

ويبقى إنجيدو مع الكاهنة ستة أيام وسبع ليال ، يعب فيها السعادة عباً ؛ حتى إذا مل هذه اللذة استيقظ فرأى أصـــدقاءه من الحيوانات قد فارقته فيغشى عليه من شدة الحزن ، فتزجره الكاهنة بقولها : « أنت يا من بلغت عظمة الآلهة ، كيف يطيب لك العيش بين وحوش الحقول ؟ تعال آخذك إلى أروك حيث يعيش جلجميش الذى لا يدانيه أحد فى جبروته » . ووقع إنجيدو فى شرك الكاهنة التى خدعته بثنائها عليه ، فسار وراءها إلى أروك وهو يقول : « أرينى المكان الذى فيه جلجميش ، أقاتله وأظهر له قوتى » ، فتسر بذلك الآلهة والأزواج ؛ ولكن جلجميش ينتصر عليه بقوته أول الأمر ثم بعطفه وشفقته عليه بعدئذ ، ويصبح الاثنان صديقين وفيين ؛ ويسيران جنباً إلى جنب يحميان أروك من عيلام ، ويعودان ظافرين بعد أن يقوما بأجل الأعمال . « وخلع جلجميش عدته الحربية ، ولبس ثيابه البيض ، وزين نفسه بالشارة الملكية ولبس التاج » . وسرعان ما تقع إشتار الشرهة فى حبه وترنو إليه بعينيها الكبيرتين ، وتقول :

« تعالى يا جلجميش ، وكن لى زوجاً ! وقدم لى حبك هديه ، ستكون أنت زوجى ، وأكون زوجتك ، وسأضعك فى عربة من اللازورد والذهب ، لها دواليب ذهبية مطعمة بالعقيق ، وستجرها لك آساد عظيمة ، وستدخل بيتنا ومن حولك البخور المنطلق من خشب السدر . . . وستحتضن قدميك كل الأراضى المجاورة للبحر وسيخر الملوك كلهم سجداً لك ويأتون بثمرات الجبال والسهول جزية يؤدونها لك عن يد » .

ويرفض جلجميش طلبها ويذكرها بما جنته على عشاقها الكثيرين ومنهم تموز ، وباشق ، وحصان ، وبستانى ، وأسد ، ويناديها قائلا : « إنك تحبيننى الآن ، ولكنك ستضربيننى بعد كما ضربت هؤلاء جميعاً » . وتطلب إشتار وهى غضبى إلى أنو الإله الأعظم أن يخلق ريما مفترساً يقتل جلجميش . ويرفض أنو طلبها ويزجرها بقوله : « ألا تستطيعين السكوت وقد أذكرك جلجميش بغدرك وفضائحك ؟ » وتنذره بأنها سوف تعطل كل ما فى الكون من غرائز الحب والشهوة ، حتى يهلك كل شىء حى . ويخضع أنو لإرادتها ، ويخلق الريم المفترس ، ولكن جلجميش يتغلب على هذا الوحش بمعونة إنجيدو ، وتصب إشتار على البطل لعنتها فيلقى إنجيدو بأحد أطراف الريم فى وجهها . ويبتهج لذلك جلجميش ويتيه عجباً ، ولكن إشتار تصرعه وهو فى عنوان مجده ، وذلك بأن تصيب إنجيدو بداء عضال .

ويحزن جلجميش ويبكى صديقه الذى كان أحب إليه من النساء ، ويفكر فى أسرار الموت ، وهل ثمة وسيلة للفرار من هذا المصير المحتوم ، إن رجلا واحداً قد نجا منه وهو شمش — نيشتيم فهو إذن يعرف سر الخلود . ويقرر جلجميش أن يذهب للبحث عن شمش — نيشتيم ، ولو اضطره هذا البحث إلى الطواف فى العالم كله . ويجتاز الطريق الموصل إليه جبلا يحرسه ماردان جباران يلمس رأساهما قبة السماء ويصل ثدياهما إلى الجحيم . ولكنهما يأذنان له بالمرور ، ويسير اثنى

عشر ميلا فى نفق مظلم ، يخرج بعده إلى شاطئ بحر عظيم ، ويرى من وراء مائه عرش سبيتو العذراء إلهة البحار . ويناديها أن تعينه على عبور الماء، ويقول : « إذا لم أفلح فى هذا ، فسألقى بنفسى على الأرض وأقضى نحبى » ؛ وتشفق عليه سبيتو وتسمح له أن يجتاز البحر فى أربعين يوماً كلها عواصف وزعازع حتى يصل إلى الجزيرة السعيدة التى يسكن فيها شمش — نبشتيم المخلد أبد الدهر . ويتوسل إليه جلجميش أن يفضى إليه بسر الخلود ويرد عليه شمش — نبشتيم بأن يقص عليه قصة الطوفان ، وكيف سمت الآلهة على ما سببته فى سورة جنونها من دمار ، وكيف أبقت عليه هو وزوجه فخلدتهما لأنهما أنجيا النوع الإنسانى من الفناء . ويقدم إلى جلجميش نبتة تجدد ثمارها شباب من يأكلها ؛ ويبدأ جلجميش رحلته الطويلة إلى بلده مغتبطاً سعيداً ولكنه يقف فى طريقه ليستحم ، وبينا هو يفعل هذا إذ تخرج إليه أفعى وتسرق النبتة(*) .

ويصل جلجميش إلى أروك يائساً حزيناً ، ويطوف بالهياكل هيكلا بعد هيكل يصلى ويدعو الآلهة أن ترد الحياة إلى إنجيدو ولو لم تطل حياته إلا ريثما يكلمه كلمة واحدة . ويظهر إنجيدو ويسأله جلجميش عن حال الموتى ، فيرد عليه إنجيدو بقوله : « لا أستطيع أن أجيبك لأنى لو فتحت الأرض أمامك ، ولو أخبرتك بما رأيت لقضيت من شدة الهول ، ولغشى عليك » . ولكن جلجميش رمز الفلسفة ، وهى تلك البلاهة الجريئة ، يصر على طلب الحقيقة ويقول : « سيقضى علىّ الرعب ، وسيغشى علىّ ، ولكن خبرنى عنه » ويصف له إنجيدو أهوال الجحيم ، وبهذه النغمة الحزينة تختتم الملحمة الناقصة(١٠٤) .

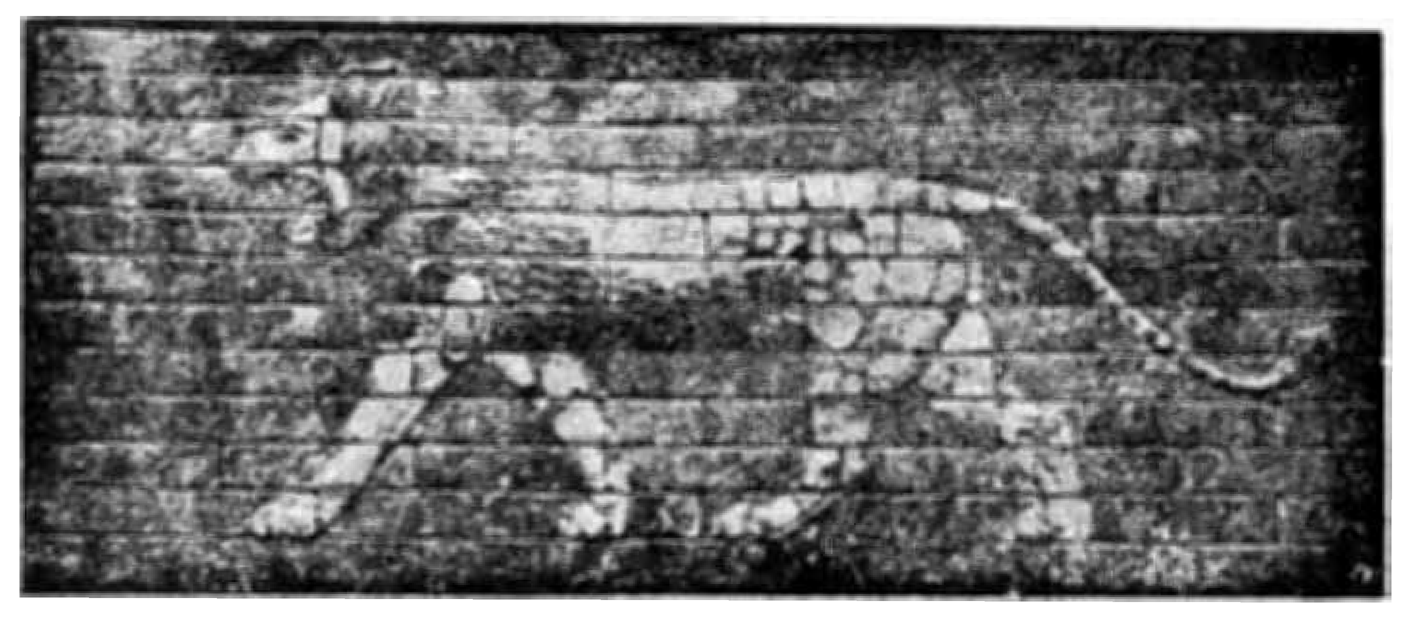
(*) كان كثيرون من الأقدمين يعبدون الأفعى ويتخذونها رمزاً للخلود ، وذلك لقدرتها الظاهرة على الفرار من الموت بتبديل جلدها .

الفصل السابع

الفنـــانون

الفنون الصغرى – الموسيقى – التصوير – النحت – النقش القليل البروز – العمارة

تكاد تكون قصة جلجميش المثل الوحيد الذى نستطيع أن نحكم به على أدب البابليين . أما الفنون الصغرى فإن ما أبقت عليه المصادفات من آثارها يدل أنهم أوتوا قسطاً موفوراً من الإحساس بالجمال ، وإن لم يؤتوا روح الإبداع العميقة ، وعلى أن هذا الإحساس لم يقض عليه كله انهماكُهم فى الأعمال التجارية ، وفى الملاذ الجسمية ، وفى تقواهم التى أرادوا أن يعوضوا بها هذه الناحية من حياتهم . وإن قطع القرميد التى طليت وصقلت بأعظم عناية ، والحجارة البراقة ، وأدوات البرنز الدقيقة الصنع ، والحديد ، والفضة ، والذهب ، والتطريز الجميل ، والسجاجيد الوثيرة ، والثياب ذات الصبغات الجميلة ، والأقمشة المزركشة المعلقة على الجدران ، والمناضد المرتكزة على القواعد والسرر والكراسى[141] ، إن هذه المخلفات كلها لتخلع على الحضارة البابلية ثوباً قشيباً من الجمال والرونق وإن لم تخلع عليها كثيراً من القيمة أو الجلال . والحلى التى عثر عليها كثيرة ، ولكنها تنقصها الدقة الفنية التى نشاهدها فى حلى المصريين الأقدمين ، وكان أكبر ما يقصد بها أن تعرض المعدن الأصفر أكثر مما تعرض الفن الجميل ، ويظن صانعوها أن من جمال الفن أن تصنع تماثيل كاملة من الذهب[142] . وكان لدى البابليين آلات طرب كثيرة — ناى ، وقانون ، وقيثار ، ومزامير القرب ، وطبول وقرون ، ومزامير من الغاب ، وأبواق ، وصنوج ودفوف . وكان لهم فرق موسيقية ومغنون يعزفون ويغنون فرادى ومجتمعين فى الهياكل والقصور وفى حفلات الأثرياء[143] .



شكل (٢٨) « أسد بابل » نقش ملون في متحف برلين

وكان التصوير بالألوان من الفنون الثانوية عند البابليين ، يستخدمونه فى تزيين الجدران والتماثيل ، ولم يحاولوا قط أن يجعلوا منه فناً مستقلا بذاته[١٤٤] . ولسنا نجد فى خرائب البابليين تلك النقوش الملونة التى تزدان بها قبور المصريين ، أو تلك المظلات التى تجمل قصور كريت ، كذلك لم يرق فن النحت عند البابليين ، ويلوح أن هذا الفن قد جمد وقضى عليه قبل أن يكتمل نموه ما ورثته بابل من القواعد التى جرى بها العرف عند السومريين ، وأرغمها الكهنة على اتباعها والجرى على سنها : فكل الوجوه المرسومة وجه واحد ، ولكن الملوك أجسام ممتلئة قوية العضلات ، والأسرى كلهم كأن تماثيلهم صبت فى قالب واحد ، ولم يبق من تماثيل البابليين إلا القليل ، ولم يكن ثمة ما يوجب هذه القلة . والنقوش القليلة البروز أحسن حالا من التماثيل ولكنها هى الأخرى فجة خشنة يتحكم فيها العرف والتقاليد ؛ وثمة فارق كبير بينها وبين نقوش المصريين القوية التى حفرها من قبلهم بألف عام . ولا تصل هذه النقوش إلى غايتها إلا حين تمثل الحيوانات وهى هادئة ساكنة مهيبة فى أرياضها الطبيعية ، أو مهتاجة أثارتها قسوة الإنسان[١٤٥] .

وليس فى وسعنا الآن أن نحكم حكماً عادلا على فن العمارة البابلى لأننا لا نكاد نجد شيئاً من مخلفات هذا الفن يرتفع فوق الرمال أكثر من بضع أقدام ، وليس بين آثارهم صور لعمائرهم منحوتة أو مرسومة ، يستدل منها بوضوح على أشكال القصور والهياكل وهندسة بنائها . وكانت البيوت تبنى من الطين ، أو من الآجر إن كانت للأغنياء منهم ، وقلما كانت لها نوافذ ؛ ولم تكن أبوابها تفتح على الشوارع الضيقة بل كانت تفتح على فناء داخلى مظلل من الشمس . وتصف الأخبار المتواترة بيوت الطبقات الراقية بأنها مكونة من ثلاث طبقات أو أربع[١٤٦] . أما الهياكل فكانت تقوم على قواعد فى مستوى سقف البيوت التى كانت تلك الهياكل تسيطر على حياة أهلها . وكان الهيكل فى الغالب بناء ضخماً من القرميد مشيداً كالبيوت حول فناء تقام فيه معظم الحفلات الدينية .

ويقوم إلى جوار المعبد فى أغلب الحالات برج عال يسمى بلغتهم زجورات (ومعناه « مكان عال ») يتكون من طبقات مكعبة الشكل بعضها فوق بعض ، وتتناقص كلما علت ، ويحيط بها سلم من خارجها . وكانت تستخدم إما فى الأغراض الدينية — فقد كانت مزاراً عالياً للإله صاحب الهيكل ، — وإما فى أغراض فلكية بأن تكون مرصداً يرقب منه الكهنة الكواكب التى تكشف عن كل شىء فى حياة الناس .

وكان الزاجورات العظيم الذى فى برسبا يسمى « مراحل الأفلاك السبعة » ، وكانت كل طبقة من طبقاته مخصصة لكوكب من الكواكب السبعة المعروفة عند البابليين ، وملوّنة بلون يرمز إلى هذا الكوكب . فكانت الطبقة السفلى سوداء اللون كلون زحل ، والتى تليها بيضاء كلون الزهرة ، والتى فوقها أرجوانية للمشترى ، والرابعة زرقاء لعطارد ، والخامسة قرمزية للمريخ ، والسادسة فضية للقمر ، والسابعة ذهبية للشمس . وكانت هذه الأفلاك والكواكب تشير إلى أيام الأسبوع السبعة مبتدئة من أعلاها[١٤٧] .

ولم يكن فى هذه المبانى — على قدر ما نستطيع أن نتبين من منظرها — شىء كثير عن الذوق الفنى ، فقد كانت كلها كتلا ضخمة من خطوط مستقيمة لا تتطاول إلى شىء أكثر من مجد الضخامة ، وقد نجد فى بقاع متفرقة بين الخرائب القديمة عقوداً وأقواساً ، وهى أشكال أخذت عن سومر ، واستخدمت فى غير عناية ومن غير علم بمصيرها . وكان ما فى المبانى من زينات فى داخلها وخارجها يكاد يقتصر على طلاء بعض أوجه الآجر ، بعد صقلها ، بالألوان الصفراء ، والزرقاء ، والبيضاء ، والحمراء ، وإقامة صُوَر من القرميد للحيوان والنبات فى مواضع قليلة من الجدران . وهذا « التزجيج » ، الذى لم يكن يقصد به تجميل البناء فحسب بل كان يقصد به أيضاً وقاية المبانى من الشمس والمطر ، قديم يرجع على الأقل إلى عهد نارام — سين ، وقد ظل شائعاً فى أرض النهرين إلى أيام

الفتح الإسلامى . ولهذا السبب أضحت صناعة الخزف أخص فنون الشرق الأدنى القديم ، وإن لم تنتج من الأوانى الخزفية ما هو جدير بالذكر . لكن فن العمارة البابلى ظل على الرغم من هذا العون فناً ثقيلا خالياً من الجمال والأناقة ، قضت عليه المواد التى استخدمت فيه ألا يرقى إلى ما فوق الدرجة الوسطى . وما أسرع ما كانت الهياكل تقوم من الطين الذى حوّله العمال المسخرون إلى لبنات وملاط ، ولم تكن ثمة حاجة إلى قرون طوال كى تمتلئ بها البلاد كما احتاجت المبانى الكبيرة الباقية فى مصر وفى أوربا العصور الوسطى ، ولكنها تهدمت بنفس السرعة التى شيدت بها أو بما يقرب منها ، ولم يمض عليها إلا خمسون عاماً حتى عادت كما بدأت تراباً(١٤٨) . وكان رخص اللبن والآجر فى حد ذاته سبباً فى فساد الهندسة البابلية . لقد كان يسهل أن تقام من هذه المواد المبانى الضخمة ، أما الجمال فكان من الصعب أن ينال باستخدامها . ذلك أن الآجر لا يعين على السموّ والجلال ، والسمو والجلال هما روح العمارة .

الفصل الثامن

علوم البابليين

الرياضة — الفلك — التقويم — الجغرافية — الطب

كان البابليون تجاراً ، ومن أجل هذا كان نجاحهم فى العلم أيسر من نجاحهم فى الفن . لقد أوجدت التجارة علوم الرياضة ، وتعاونت مع الدين على إيجاد الفلك . وكانت الأعمال المتعددة التى يقوم بها كهنة أرض الجزيرة ، من قضاء بين الناس ، وهيمنة على المصالح الحكومية ، وزراعة وصناعة ، وعرافة وخبرة بالنظر فى النجوم وفى أحشاء الحيوانات — كانت الأعمال التى يقوم بها هؤلاء الكهنة حافزاً لهم على أن يضعوا ، على غير علم منهم أسس العلوم التى كانت فى أيدى اليونان الملحدين سبباً فى إنزال الدين من مركز الزعامة والسيطرة على العالم .

وكانت علوم البابليين الرياضية تستند إلى تقسيم الدائرة إلى ٣٦٠ درجة ، وتقسيم السنة إلى ٣٦٠ يوماً . وعلى هذا الأساس وضعوا نظاماً ستينيا للعد والحساب بالسنين ، وهو النظام الذى نشأت منه فيما بعد النظم الاثنا عشرية ، التى تعدّ بالاثنى عشرات . وكانوا لا يستخدمون فى العد إلا ثلاثة أرقام — منها علامة للواحد تتكرر حتى تكون تسع علامات مماثلة الرقم ٩ ، وعلامة ثانية للرقم ١٠ تتكرر حتى تصل إلى ٥٠ ، وعلامة للرقم ١٠٠ ؛ وكان مما سهل لهم عملية العد والحساب أن وضعوا جداول لا تقتصر على ضرب الأعداد الصحيحة وقسمتها . بل تشمل أيضاً أنصاف الأعداد الرئيسية وأثلاثها ومربعاتها ومكعباتها . وتقدّم علم الهندسة حتى كان فى وسعهم أن يقدّروا المساحات المعقدة ومساحات الأشكال غير المنتظمة . وكانوا يقدّرون النسبة التقريبية (النسبة بين محيط الدائرة وقطرها) بثلاثة وهو عدد تقريبى لا يليق بأمة من الفلكيين .

وكان الفلك هو العلم الذى امتاز به البابليون ، وهو الذى اشتهروا به فى العالم القديم كله ، وهذا أيضاً كان السحر منشأ العلم فلم يدرس البابليون النجوم ليرسموا الخرائط التى تعين على مسير القوافل والسفن ، بل درسوها أكثر ما درسوها لتعينهم على التنبؤ بمستقبل الناس ومصائرهم ، وبذلك كانوا منجمين أكثر منهم فلكيين وكان كل كوكب من الكواكب إلها تهمه شئون الناس ولا غنى عنه فى تدبيرها . فكان المشترى مردك ، وعطارد نابو ، والمريخ نرجال ، والشمس شمش والقمر سن ، وزحل نيبب ، والزهرة إشتار . وكانت كل حركة من حركات كل نجم أو كوكب تدل على أن حادثاً وقع على الأرض أو تنبأ بوقوعه . فإذا كان القمر منخفضاً مثلا ، كان معنى ذلك أن أمة بعيدة ستخضع للملك ، وإذا كان هلالا كان معناه أن الملك سيظفر بأعدائه . وأضحت الجهود التى تبذل لاستخلاص العلم بالمستقبل من حركات النجوم شهوة من شهوات البابليين ، واستطاع بها الكهنة الخبيرون بالتنجيم أن يجنوا أطيب الثمرات من الملوك والشعب على السواء . وكان من هؤلاء الكهنة من هو مخلص لعلمه مؤمن به ، ينقب بغيرة وحماسة فى المجلدات التى تبحث فى التنجيم ، والتى وضعت ، حسب رواياتهم المأثورة ، فى عهد سرجون ملك أكّد . وكانوا يشكون من الدجالين الذين يسيرون بين الناس يقرءون لهم طالعهم أو يتنبئون بما سيكون عليه الجو بعد عام شأن تقاويمنا فى هذه الأيام ، كل هذا نظير أجور يتقاضونها وهم لم يدرسوا من التنجيم شيئاً(٤٩).

ونشأ علم الفلك نشأة بطيئة من هذه الأرصاد ومن خرائط النجوم التى كانت تهدف إلى التنجيم والتنبؤ بالغيب ، وقد استطاعوا منذ عام ٢٠٠٠ ق . م أن يسجلوا بالدقة شروق الزهرة وغروبها بالنسبة إلى الشمس ، وحددوا مواضع عدد نجوم ، وأخذوا يصورون السماء على مهل(٥٠) . فلما فتح الكاشيون بلاد بابل توقف هذا التقدم نحو ألف عام ، ثم واصلوه من جديد فى عهد نبوخذ نصر ، فصوّر العلماء الكهنة مسارات الشمس والقمر ، ولاحظوا اقترانهما كما لاحظوا

الخسوف والكسوف ، وعينوا مسارات الكواكب ، وكانوا أول من ميز النجوم الثوابت من الكواكب السيارة تمييزاً دقيقاً(١٥١)(*) ، وحددوا تاريخ الانقلابين الشتائي والصيفي ، وتاريخي الاعتدالين الربيعي والخريفي ، وساروا على النهج الذي سبقهم إليه السومريون فقسموا دائرة فلك البروج (أي مسار الأرض حول الشمس) إلى الأبراج الاثني عشر . وبعد أن قسموا الدائرة إلى ٣٦٠ درجة عادوا فقسموا الدرجة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية(١٥٢) . وكانوا يقدرون الزمن بالساعة المائية والمزولة ، وأكبر الظن أنهم لم يعملوا على ترقية هاتين الآلتين فحسب بل أنهم اخترعوهما اختراعاً(١٥٣) .

وقسموا السنة إلى اثني عشر شهراً قمرياً ، منها ستة في كل منها ثلاثون يوماً والستة الأخرى في كل منها تسعة وعشرون . ولما كان مجموع أيامها على هذا الحساب لا يبلغ إلا ٣٥٤ يوماً فإنهم كانوا يضيفون في بعض السنين شهراً آخر لكي يتفق تقويمهم مع الفصول . وقسموا الشهر إلى أربعة أسابيع تتفق مع أوجه القمر الأربعة . وحاولوا أن يتخذوا لهم تقويماً أسهل من هذا بأن قسموا الشهر إلى ستة أسابيع كل منها خمسة أيام ، ولكن ثبت بعدئذ أن أوجه القمر أقوى أثراً من رغبات الناس ، وبقي التقسيم الأول كما كان . ولم يكونوا يحسبون اليوم من منتصف الليـــلة إلى منتصف الليلة التي تليها ، بل كان عندهم من شروق القمر(**) إلى شروقه التالي(١٥٤) ، وقسموا هـــذه المدة إلى اثنتي عشرة ساعة ، في كل ساعة منها ثلاثون دقيقة ، وبذلك كان طول الدقيقة البابلية أربعة أضعاف ما قد يوحي إلينا اسمها . وإذن فتقسيم الشهر عندنا إلى أربعة أسابيع ، وتقسيم أوجه ساعاتنا

(*) كان البابليون يفرقون بين الكوكب والنجم « الثابت » برصد حركات الكوكب و « تجواله » . ويعرف علم الفلك الحديث الكوكب بأنه جرم سماوي يدور بانتظام حول الشمس .

(**) هكذا في الأصل ولعل المؤلف يريد من شروق الشمس إلى شروقها ، وذلك لأن شروق القمر يتأخر في كل ليلة عن سابقتها بنحو ٥٢ دقيقة ويجعل طول الساعة مختلفاً في كل ليلة عنه في الأخرى . (المترجم)

إلى اثنتى عشرة ساعة (لا إلى أربع وعشرين) وتقسيم الساعة إلى ستين دقيقة ، والدقيقة إلى ستين ثانية ، كل هذه آثار بابلية لا شك فيها باقية من أيامهم إلى عهدنا الحاضر(*)، وإن كان لا يخطر لنا على بال .

وكان اعتماد العلوم البابلية على الدين وارتباطها به أقوى أثراً فى ركود الطب منه فى ركود الفلك . على أن أساليب الكهنة الخفية لم تحل دون تقدم العلوم بقدر ما حال دونه تخريف الشعب . ذلك أن علاج المرضى قد خرج إلى حد ما عن اختصاص الكهنة وسيطرتهم من أيام حمورابى ، ونشأت مهنة منتظمة للأطباء ذات أجور وعقوبات يحددها القانون ، فكان المريض الذى يستدعى طبيباً لزيارته يعرف مقدما كم من المال يجب عليه أن يؤديه نظير هذا العلاج أو ذاك ونظير هذه الجراحة أو تلك ، وإذا كان هذا المريض من الطبقات الفقيرة نقص الأجر لكى يتناسب مع فقره(١٥٧) . وإذا أخطأ الطبيب أو أساء العمل كان عليه أن يؤدى للمريض تعويضاً . بل لقد بلغ الأمر فى بعض الحالات التى يكون فيها الخطأ شنيعاً أن تقطع أصابع الطبيب كما سبق القول ، حتى لا يمارس صناعته عقب هذا الخطأ مباشرة(١٥٨)

ولكن هذا العلم الذى تحرر من سلطان الدين تحرراً يكاد يكون تاماً كان عاجزاً بسبب حرص الشعب على التشخيص القائم على الخرافات والأوهام ، وعلى العلاج بالأساليب السحرية . ومن أجل هذا كان السحرة والعرافون أحب إلى الشعب

(*) وانتقل البابليون من رسم السماء إلى رسم الأرض . وأقدم ما نعرف من الخرائط هى التى خطط فيها الكهنة طرق إمبراطورية نبوخذ نصر ومدنها(١٥٥) . ولقد عثر المنقبون فى خرائب جاسور (التى تبعد عن بابل مائتى ميل شماليها) على لوح من الطين يرجع تاريخه إلى عام ١٦٠٠ ق . م ويحتوى ، فى مساحة لا تكاد تبلغ بوصة واحدة ، على خريطة لمقاطعة شط – أزلا ، وقد مثلت فيها الجبال بخطوط دائرية ، والمياه بخطوط مائلة ، والأنهار بخطوط متوازية . وكتبت عليها أسماء عدد من المدن ، وبين فى هامشها اتجاه الشمال والجنوب(١٥٦) .

من الأطباء ، وقد فرضوا على الناس ، بفضل نفوذهم عندهم ، طرقاً للعلاج أبعد ما تكون عن العقل . فكان منشأ المرض فى رأيهم تقمص الشيطان جسم المريض لذنب ارتكبه ، وكان أكثر ما يعالج به لهذا السبب تلاوة العزائم وأعمال السحر والصلوات ، فإذا ما استخدمت العقاقير الطبية ؛ فإنها لم تكن تستخدم لتطهير جسم المريض ، بل كان استخدامها لإرهاب الشيطان وإخراجه من الجسم . وكان أكثر الأدوية شيوعاً عقاراً مكوناً من خليط من العناصر التى تعافها النفس اختيرت لهذا السبب عن قصد ؛ ولعلهم كانوا يفترضون أن معدة المريض أقوى من معدة الشيطان الذى يتقمصه . وكانت العناصر المألوفة لديهم هى اللحم النيء ، ولحم الثعابين ، ونشارة الخشب الممزوجة بالنبيذ والزيت ، أو الطعام الفاسد ، ومسحوق العظام ، أو الشحم والأقذار ، ممزوجة ببول الحيوان أو الإنسان أو برازه[١٥٩] . وفى بعض الحالات كان يستبدل بهذا العلاج بالأقذار لبن وعسل وزبد وأعشاب عطرة يحاولون بها استرضاء الشيطان . فإذا لم يفلح مع المريض كل علاج ، حُمل فى بعض الحالات إلى السوق لكى يتمكن جيرانه من أن يشبعوا رغبتهم القديمة فيصفوا له العلاج الفعال الذى لا يخطئ[١٦١] .

على أن من واجبنا أن نقول إن الثمانمائة لوح التى بقيت لدينا لتحدثنا عن طب البابليين لا تحتوى على كل ما كان لديهم منه ، ولعلنا نظلمهم إذا حكمنا عليهم بما نجده فيها وحدها . ذلك أن استعادة الكل الضائع من جزء صغير عثر عليه منه من أشد الناس خطورة فى التاريخ ، وليست كتابة التاريخ إلا إعادة الكل من جزئه . وليس ببعيد ألا يكون العلاج بالسحر إلا استخداماً لقوة الإيحاء استخداماً ينطوى على كثير من الدقة ، ولعل هذه المركبات الكريهة كان يقصد

بها أن تكون مقيتات . ولعل البابليين حين يقولون إن المرض ينشأ من غزو الشـــياطين جسم المريض عقاباً له على ما يرتكبه من الذنوب ، لا يقصدون بقولهم هذا شيئاً أبعد من المعقول من قولنا نحن إن المرض ينشأ من غزو البكتريا لجسم المريض بسبب إهماله الإجرامى أو عدم نظافته أو نهمه . وقصارى القول أن من واجبنا ألا نكون واثقين كل الثقة من جهل أسلافنا .

الفصل التاسع

الفلاســفة

الدين والفلسفة – أيوب البابليين – كحيلث البابليين – رجل يقاوم الكهنة

إن الأمم تولد رواقية وتموت أبيقورية ، يقوم الدين إلى جانب مهدها (كما يقول المثل القديم) ، وتصحبها الفلسفة إلى قبرها . ففى بداية الثقافات كلها ترى عقيدة دينية قوية تخفى عن أعين القوم كنه الأشياء وترقق من طبائعهم ، وتبث فى قلوبهم من الشجاعة ما يستطيعون به أن يتحملوا الآلام ويقاسوا الصعاب وهم صابرون ، تقف الآلهة إلى جانبهم فى كل خطوة يخطونها ، ولا تتركهم يهلكون إلا حين يهلكون ، وحتى فى هذه الحال يحملهم إيمانهم القوى على الاعتقاد بأن خطاياهم هى التى أغضبت الآلهة فانتقموا منهم . ذلك أن ما يصيب الناس من شر لا يفقدهم إيمانهم ، بل يقويه فى قلوبهم ، فإذا جاء النصر ، وإذا نسوا الحرب لطول ما ألفوه من الأمن والسلام ، ازدادت ثروتهم ، واستبدلت الطبقات المسيطرة بحياة الجسم حياة الحواس والعقل ، وحلت اللذة والراحة محل الكدح والمتاعب ، وأضعف العلمُ الدين بينما يضعف التفكير والدعة ما فى الناس من رجولة وصبر على المكاره . وأخيراً يبدأ الناس يرتابون فى آلهتهم ، ويندبون مأساة المعرفة ، ويلجأون إلى كل لذة عاجلة زائلة يعتصمون بها من سوء مصيرهم . فهم فى البداية كأخيل وفى النهاية كأبيقور ؛ وبعد داود يأتى أيوب ، وبعد أيوب يأتى سفر الجامعة .

وإذ كنا لا نستدل على تفكير البابليين إلا من أيام ملوكهم المتأخرين ، فإنه من الطبيعى أن نجد هذا التفكير تسرى فيه حكمة الكلالة الصادرة من أفواه الفلاسفة المتعبين الذين يستمتعون بالملاذ كما يستمتع بها الإنجليز . فترى على أحد

الألواح مثلا بلطا — أرتوا يشكو من أنه التزم أوامر الآلهة أشد مما التزمها جميع الناس : ولكنه مع هذا أصابته طائفة من البلايا ، فقد أبويه ، وخسر ماله ، وحتى القليل الذى بقى له منه سرق فى الطريق . ويجيبه أصدقاؤه — كما يجيب أيوب أصدقاؤه — بأن ما حل به من البلاء ليس إلا عقاباً له على خطايا خافية عنه — وربما كان جزاء له على صلفه العاتى المنبعث من طول عهده بالرخاء ، وهو أشد ما يثير غضب الآلهة وحسدها ، ويؤكدون له أن الشر ليس إلا خيراً مقنعاً ، وأنه جزء من السنن الإلهية ينظر إليه المرء نظرة جد ضيقة بعقله الضعيف ، وهو غافل عن هذه السنن فى مجموعها ، وأنه إذا ما استمسك بإيمانه وشجاعته فإنه سيجزى فى آخر الأمر خير الجزاء ؛ وسينال ما هو خير من هذا وهو أن أعداءه سيلقون عقابهم : وينادى بلطا — أرتوا الآلهة يطلب إليها العون — ثم تختم القطعة الباقية من اللوح ختاماً مفاجئاً[٦٢] .

وتعرض قصيدة أخرى وجدت ضمن بقايا مجموعة الآداب البابلية التى خلفها أشور بانيبال هذه المشكلة بعينها عرضاً أدق حين يتحدث تابى — أتول — أنليل ، وهو كما يلوح أحد حكام نيبور ، عن نفسه فيقول فى وصف ما لاقاه من الصعاب(*) :

(طمس على مقلتى كأنما أغلقهما) بقفل ؛
(ووقر أذنى) كأذنى الشخص الأصم .
وكنت ملكاً فصرت عبداً ؛
وأساء رفاة (ى) معاملتى كأن بى جنة .
ابعث إلىّ العون ونجنى من الوهدة التى احتفرت (لى) ! . . .
بالنهار حسرات عميقة ، وبالليل بكاء ؛
وطول الشهر — صراخ ؛ وطول العام — شقاء . .

(*) الألفاظ الموضوعة بين قوسين ألفاظ ظنية .

ثم يواصل قوله فيخبرنا كيف كان طول حياته إنساناً تقياً ، وكيف كان آخر شخص فى العالم يصح أن يكون مصيره هذا المصير القاسى :

كأنى لم أخصص للإله نصيبه على الدوام ؛
ولم أبتهل إلى الآلهة وقت الطعام ،
ولم أعنُ بوجهى وآتى بخراجى ؛
وكأنى إنسان لم يكن التضرع والدعاء دائمين على لسانه .
لقد علمت بلدى الاحتفاظ باسم الإله ؛
وعوّدت شعبى أن يُعظم اسم الإلهة . . .
وكنت أظن أن هذه الأشياء مما يسرّ أى إله ؟

ولما أصابه المرض على الرغم من كل هذا التقى الشكلى ، أخذ يفكر فى استحالة الوقوف على تدبير الآلهة وفى تقلبات شئون البشر .

من ذا الذى يدرك إرادة آلهة السماء !
إن تصاريف الإله كلها غموض — فمن ذا الذى يدركها ؟ . . .
إن من كان بالأمس حياً أصبح اليوم ميتاً ،
وما هى إلا لحظة حتى تتقسمه الغموم ، ويتحطم قلبه فجأة ،
فهو يغنّى ويلعب لحظة ؛
وما هى إلا طرفة عين حتى يندب حظه كالمحزون . . .
لقد لفّنى الهم كأنه شبكة ،
تتطلع عيناى ولكنهما لا تبصران . . . ؛
وأذناى مفتوحتان ولكنهما لا تسمعان . . . ؛
وقد سقط الدنس على عورتى ،
وهاجم الغدد التى فى أحشائى . . .
وأظلم من الموت جسمى كله . . .

يطاردنى المطارد طوال النهار ؛
ولا يترك لى بالليل لحظة أتنفس فيها . .
لقد تفككت أطرافى ، فلم تعد تمشى مؤتلفة ،
وأقضى الليل بين أقذارى كما يقضيه الثور ؛
وأختلط ببرازى كما يختلط الضأن ه
ثم يعود فيجهر بإيمانه كما فعل أيوب فيقول :
ولكنى أرى اليوم الذى تجف فيه دموعى ،
اليوم الذى يدركنى فيه لطف الأرواح الواقية ،
ويومئذ تكون الآلهة رحيمة بى(١٦٣) .

ثم تنقلب الأحوال كلها سعادة وهناءة ، فيظهر أحد الأرواح الطيبة ، ويشفى تابى من جميع أمراضه ؛ وتهب عاصمة هوجاء فتطرد شياطين المرض كلها من جسمه . ويسبّح بحمد مردك ، ويقرب له القرابين النفسية ، ويهب بالناس جميعاً ألا يقنطوا من رحمة الآلهة(*) .

وليس بين هذا وبين ما ورد فى سفر أيوب إلا خطوة واحدة ، كذلك نرى فى الآداب البابلية أمثلة سابقة لا يمكن الخطأ فيها مما ورد فى سفر الجامعة من الكتاب المقدس . من ذلك ما ورد فى ملحمة جلجميش من نصح الإلهة سبيتو لهذا البطل بأن يكف عن شوقه إلى الحياة بعد الموت ، وأن يأكل ويشرب ، ويستمع على ظهر الأرض :

أى جلجميش . لم هذا الجرى فى جميع الجهات ؟
إن الحياة التى تسعى لها لن تجدها أبداً .
إن الآلهة حين خلقت بنى الإنسان قدّرت الموت على بنى الإنسان ؛

(*) وأكبر الظن أن هذه الأقوال ، التى نجد سوابق مثلها فى الأدب السومرى ، كان لها أثر فى واضع سفر أيوب(١٦٤) .

واحتفظت بالحياة فى أيديها .
أى جلجميش ، املأ بطنك ؛
وكن مرحاً بالنهار وبالليل ؛ . . . .
بالنهار وبالليل كن مبتهجاً راضياً !
وطهر ثيابك .
واغسل رأسك ؛ اغتسل بالماء !
وألق بالك إلى الصغير الذى يمسك بيدك ؛
واستمتع بالزوجة التى تضمها إلى صدرك[١٦٥](*) .

ونستمع فى لوحة أخرى إلى نغمة أشد من هـــذه حزناً تختتم بالكفر والتجديف . ذلك أن جبارو وهو عند البابليين كألقبيادس عند اليونان ، يسأل إنساناً يكبره أسئلة ملؤها الشك فيقول :

أيها العاقل الحكيم ، يا صاحب الذكاء ، تأوه من صميم قلبك !
إن قلب الإله بعيد بعد أطباق السماوات الداخلية ،
والحكمة صعبة ، والناس لا يفهمونها .
ويجيبه الشيخ متشائماً تشاؤم عاموس وإشعيا :
استمع ، يا صديقى ، وافهم أفكارى .
إن الناس يمجدون عمل الرجل العظيم الذى يبرع فى القتل ،
ويحقرون الرجل الفقير الذى لم يرتكب ذنباً .

(*) وازن بين هذه الأقوال وبين ما ورد فى الآيات السابعة والثامنة والتاسعة من الإصحاح التاسع من سفر الجامعة : ٧ — اذهب كل خبزك بفرح ، واشرب خمرك بقلب طيب ، لأن الله منذ زمان قد رضى عملك . ٨ — لتكن ثيابك فى كل حين بيضاء ولا يعوز رأسك الدهن . ٩ — التذ عيشاً مع المرأة التى أحببتها كل أيام حيوة باطلك التى أعطاك إياها تحت الشمس ، كل أيام باطلك لأن ذلك نصيبك فى الحيوة وفى تعبك الذى تتعبه تحت الشمس .

ويبررون أعمال الرجل الآثم الذى يقترف أشنع الأخطاء

ويردون الرجل العادل الذى يسعى لما يريده الله ،

وهم يسلطون القوى ليغتال طعام الضعيف ؛

ويقوون القوى ،

ويهلكون الرجل الضعيف ، ويطرده الرجل الغنى .

وينصح جبارو مع هذا أن يفعل ما تريده الآلهة . ولكن جبارو يقطع صلاته بها وبالكهنة الذين ينصرون على الدوام أكبر الناس ثراء .

إنهم لم ينقطعوا عن عرض الأكاذيب والأضاليل

يقولون باللفظ الشريف ما كان فى صالح الرجل الغنى .

هل نقصت ثروته ؟ إنهم يبادرون إلى معونته .

وهم يسيئون معاملة الضعيف كأنه لص ،

وهم يهلكونه فى خلجة عين ، ويطفئونه كما يطفئون اللهب(١٩٦) .

وليس لنا مع ذلك أن نبالغ فى شأن ما نجده عند البابليين من مزاج سوداوى ، وما من شك فى أن الناس كانوا يصغون فى رضى ومحبة إلى ما يقوله كهانهم ، ويزدحمون فى الهياكل يطلبون رضاء الآلهة ؛ لكن الذى يدهشنا بحق هو طول إيمانهم بدينهم الذى لا يعرض عليهم إلا القليل من أسباب المواساة والسلوى ؛ وهل ثمة شىء من هذين فى قول الكهنة أن لا شىء يمكن أن يعرف إلا بالوحى الإلهى ؛ وإن هذا الوحى لا يصل إلى الناس إلا عن طريقهم هم ؟ ويحدثنا الفصل الأخير من هذا الوحى عن هبوط الروح الميتة صالحة كانت أو طالحة إلى أرالو أى الجحيم لتبقى فيها أبد الدهر فى ظلام وعذاب مقيم . فلا عجب والحالة هذه إذا انصرف البابليون للقصف والمرح فى الوقت الذى جُن فيه نبوخذ نصر بعد أن ملك كل شىء ولم يدرك أى شىء ، وأمسى يرهب كل شىء .

الفصل العاشر

قبرية(*)

تحدثنا الروايات المتواترة كما يحدثنا سفر دانيال — الذى لم تؤيده أية وثيقة معروفة — أن نبوخد نصر بعد أن حكم زمناً طويلا ، حالفه فيه النصر والرخاء على الدوام ، وبعد أن جمّل مدينته بما شقه فيها من الطرق وما شاده من القصور ، وبعد أن بنى للآلهة أربعة وخمسين هيكلا ، بعد أن فعل هذا كله انتابته نوبة غريبة من الجنون ، فظن نفسه حيواناً ومشى على أربع ، واقتات بالكلأ(١٦٧) . ويختفى اسمه أربع سنين كاملة من التاريخ ومن سجلات بابل الحكومية(١٦٨) . ثم يعود فيظهر لحظة قصيرة ثم ينتقل إلى الدار الآخرة فى عام ٥٦٢ ق . م

ولا تكاد تمضى على وفاته ثلاثون عاماً حتى تتصدع إمبراطوريته وتتمزق شر ممزق . وحكم بعده نابونيدس وجلس على العرش سبعة عشر عاماً آثر فيها أعمال الحفر على مهام الحكم ، وصرف وقته وجهده فى التنقيب عن عاديات سومر وترك مملكته تتداعى(١٦٩) . فاضطربت أحوال الجيش ، وانهمك رجال الأعمال فى شئون المال العليا الدولية ، فنسوا حبهم لبلادهم ، وغفل الناس عن فنون الحرب لاشتغالهم بشئون التجارة وانغماسهم فى الملذات .

واغتصب الكهنة سلطان الملوك شيئاً فشيئاً ، وملأوا خزائنهم بالأموال التى أغرت الدول الأجنبية بغزو البلاد وفتحها . ولما أن وقف قورش وجيوش الفرس النظامية المدربة على أبواب بابل رضيت الطائفة المعادية للكهنة من البابليين أن تفتح له هذه الأبواب ، ورضيت بسيطرته المستنيرة(١٧٠) .

(*) القبرية العبارة المكتوبة على القبر Epitaph .   (المترجم)

وحكم الفرس بابل قرنين من الزمان كانت فى خلالها شطراً من أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ حتى ذلك الوقت ، ثم أقبل الإسكندر بجبروته وافتتح المدينة دون أن يجد منها أية مقاومة ، وظل يشرب الخمر فى قصر نبوخذ نصر حتى مات(١٧١) .

ولم تفد البشرية من الحضارة البابلية ما أفادته من حضارة المصريين ، ولم يكن فيها من التنوع والعمق ما فى حضارة الهند ، كما لم يكن فيها من الدقة والنضوج ما فى حضارة الصين . على أن بابل هى التى أنشأت ذلك القصص الساحر الجميل الذى أصبح بفضل براعة اليهود الأدبية الفنية جزءاً لا يتجزأ من قصص أوربا الدينى . ومن بابل لا من مصر جاء اليونان الجوالون إلى دويلات مدنهم بالقواعد الأساسية لعلوم الرياضة ، والفلك ، والطب ، والنحو ، وفقه اللغة ، وعلم الآثار ، والتاريخ ، والفلسفة . ومن دويلات المدن اليونانية انتقلت هذه العلوم إلى رومة ومنها إلى الأوربيين والأمريكيين ؛ وليست الأسماء التى وضعها اليونان للمعادن ، وأبراج النجوم ، والموازين ، والمقاييس ، وللآلات الموسيقية ، ولكثير من العقاقير ، ليست هذه كلها إلا تراجم لأسمائها البابلية ، بل إنها فى بعض الأحيان لا تعدو أن تكون بديلا لحروفها من الأحرف البابلية إلى اليونانية(١٧٢) . وبينما استمد فن العمارة اليونانية أشكاله وإلهامه من مصر وكريت ، فإن العمارة البابلية هى التى أوحت عن طريق الزجورات بقباب المساجد الإسلامية ، وبالمنارات والأبراج فى العصر الوسيط ، وبطراز المبانى المرتدة فى أمريكا فى هذه الأيام . وأضحت قوانين حورابى تراثاً للمجتمعات القديمة كلها لا يقل فى شأنه عما ورثه العالم من رومة من نظام الحكم وأساليبه . ولقد انتقلت حضارة أرض النهرين من مهدها وأضحت عنصراً من التراث الثقافى للجنس البشرى بفضل سلسلة طويلة من الأحداث التاريخية الخطيرة . فقد فتحت أشور بابل واستحوذت على تراث هذه المدينة القديمة ،

ونشرته فى جميع أنحاء إمبراطوريتها الواسعة ؛ وتلا ذلك أسر اليهود الطويل وما كان للحياة وللأفكار البابلية فيهم من أثر عظيم ، وأعقب هذا وذاك الفتحان الفارسى واليونانى اللذان فتحا جميع طرق التجارة والمواصلات بين بابل والمدن الناشئة فى أيونيا وآسية الصغرى واليونان ، فتحا لم يشهد العالم من قبل له نظيراً فى كماله وحريته .

إن شيئاً ما لا يضيع من العالم آخر الأمر ، بل إن كل حادثة تترك فيه أثرها خالداً إلى أبد الدهر ، خيراً كان ذلك الأثر أو شراً .

الباب العاشر

أشــــور

الفصل الأول

أخبارها

بداية تاريخها – مدنها – أصل سكانها – الفاتحون – سنحريب
وعصر هدون – « سردنابالوس »

فى أثناء الأحداث التاريخية السالفة الذكر ظهرت حضارة جديدة إلى شمال بابل وعلى بعد ثلثمائة ميل منها . واضطر أهل البلاد التى نشأت فيها هذه الحضارة أن يحيوا حياة عسكرية شاقة أرغمتهم عليها القبائل الجبلية التى كانت لا تنفك تهددهم من جميع الجهات . وما لبثوا أن غلبوا هؤلاء المهاجمين واستولوا على المدن التى كانت مهدهم الأول فى عيلام وسومر وأكد وبابل ؛ وتغلبوا على فينيقية ومصر ، وظلوا مائتى عام كاملة يسيطرون بقوّتهم الوحشية على بلاد الشرق الأدنى . وكان موقف سومر من بابل ، وموقف بابل من أشور كموقف كريت من بلاد اليونان وموقف بلاد اليونان من رمة ؛ فقد أنشأت المدينة الأولى حضارة ، وتعهدتها الثانية وأتمتها حتى بلغت ذروتها ، وورثتها الثالثة ، وأضافت إليها من عندها ، وحمتها ، وأسلمتها وهى تحتضر هدية منها إلى البرابرة الظافرين الذين كانوا يحيطون بها . ذلك أن البربرية تحيط على الدوام بالحضارة ، وتستقر فى وسطها ومن تحتها ، متحفزة لأن تهاجمها بقوة السلاح ، أو بالهجرة الجماعية ، أو بالتوالد غير المحدود . وما أشبه البربرية بالغابة المتلبدة فى البلاد الاستوائية تحاول أشجارها على الدوام

أن تقضى على معالم الإنسان المتحضر وتقاوم جهوده ، ولا تعترف قط بهزيمتها ، بل تظل قروناً طوالا صابرة تترقب حتى تتاح لها الفرصة لاستعادة ما فقدته من أرضين بفعل الإنسان المتحضر .

ونشأت الدولة الجديدة حول أربع مدائن ترويها مياه نهر دجلة وروافده ، وهي أشور ومحلها الآن قلعة شرغات ، وأربلا وهي إربل الحالية ، والكلخ وهي الآن نمرود ، ونينوى وهي قوير نجك ـ على الضفة المقابلة لمدينة موصل مدينة الزيت . وقد عثر المنقبون فى أطلال أشور على شظايا من السبج ـ الحجر الزجاجي الأسود ـ وعلى سكاكين وقطع من الفخار الأسود عليها رسوم هندسية توحي بأنها من أصل أسيوى[1] ، وكل هـذه من مخلفات عصر ما قبل التاريخ . وكشفت بعثة أثرية حديثة فى تبي جورا ، بالقرب من موقع نينوى عن بلدة يَرُدّ كاشفوها الفخورون تاريخها إلى عام ٣٧٠٠ ق . م رغم ما فيها من هياكل وقبور كثيرة ، وأختام اسطوانية متقنة النقش ، وأمشاط وحلى ، ورغم ما عثروا عليه فيها من نرد هو أقدم نرد عُرف فى التاريخ[2] . وتلك مسألة جديرة بتفكير المصلحين فى هذه الأيام . وخلع الإله أشور اسمه على مدينة من مدنها (ثم على القطر كله آخر الأمر) ؛ وفى هذه المدينة كان يسكن أقدم ملوك هذه الأمة ، وظلوا يقيمون بها حتى اضطروا بسبب تعرضها لحر الصحراء اللافح ولهجمات جيرانهم البابليين إلى إنشاء عاصمة ثانية لهم فى مكان أقل من العاصمة الأولى حرارة ؛ وكانت هذه العاصمة الثانية هى نينوى ؛ واسمها هي أيضاً مأخوذ من اسم إله من آلهتهم هو الإله نينا إشتار الأشوريين . وكان ثلثمائة ألف من الأهلين يسكنون فى نينوى أيام مجدها فى عهد أشور بانيبال كما كان ملوكها ـ ملوك الأرض عادة ـ يتلقون الجزية من جميع بلاد الشرق القريبة .

وكان الأهلون خليطاً من الساميين الذين وفدوا إليها من بلاد الجنوب المتحضرة (أمثال بابل وأكد) ، ومن قبائل غير سامية جاءت من الغرب

(ولعلهم من الحثيين أو من قبائل تمت بصلة إلى قبائل ميتانى) ، ومن الكرد سكان الجبال الآتين من القفقاس[٣] ، وأخذ هؤلاء كلهم لغتهم المشتركة وفنونهم من سومر ، ولكنهم صاغوها فيما بعد صياغة جديدة جعلتها لا تكاد تفترق فى شىء عن لغة أرض بابل وفنونها . بيد أن ظروفهم الخاصة باعدت بينهم وبين النعيم المخنث الذى انحدر إليه البابليون[٤] ؛ ولذلك ظلوا طوال عهدهم شعباً محارباً مفتول العضلات ، ثابت الجنان ، غزير الشعر ، كث اللحى ، معتدل القامة ، يبدو رجاله فى آثارهم عابسين ، ثقيلى الظل ، يطئون بأقدامهم الضخمة عالم البحر المتوسط الشرقى . وتاريخهم هو تاريخ الملوك والرقيق ، والحروب والفتوح ، والانتصارات الدموية والهزائم المفاجئة . واغتنم ملوكهم — الكهنة الأوائل — وكانوا أقيالا خاضعين لأهل الجنوب — سيطرة الكاشيين على بابل فاستقلوا عنها ، ولم يمض إلا القليل حتى ازدان أحدهم باللقب الذى ظل ملوك أشور يتباهون به طوال عهدهم وهو « الملك صاحب الحكم الشامل » . ويبرز أمامنا من بين هؤلاء الأقيال الخاملى الذكر أفراد تهدينا أعمالهم إلى معرفة السبيل التى سلكتها بلادهم فى نمائها وتطورها[*] .

فبينا كانت بلاد بابل تتخبط فى ظلمات حكم الكاشيين ضم سلما نصر الأول دويلات المدن الشمالية تحت حكمه ، واتخذ الكلخ عاصمة له . على أن أول الأسماء العظيمة فى تاريخ أشور هو اسم تغلث فلاصر الأول . كان هذا الملك صياداً ماهراً ، وإذا كان من الحكمة أن نصدق أقوال الملوك فإنه قد قتل وهو راجل مائة وعشرين أسدا ، وقتل وهو فى عربته ثمانمائة[٥] ، وجاء فى نقش خطه كاتب أكثر ملكية من الملك نفسه — أنه كان يصيد الأمم والحيوانات على

(*) وقد وجدت من عهد قريب فى خرائب مكتبة سرجون الثانى لوحة تحتوى ثبتا متصلا لا ثغرة فيه بأسماء الملوك الأشوريين من الأسرة الثالثة والعشرين إلى أشور نيرارى (٧٥٣ – ٧٤٦ ق . م[٤]) .

السواء . » وسرت فى بأسى الشديد على شعب قموه ، وفتحت مدائنهم ، وسقت منها الغنائم ، واستوليت على ما لاحصر له من بضائعهم وأملاكهم ، وحرقت مدنهم بالنار ، ودمرتها وخربتها . . . وخرج أهل ادتش من جبالهم واحتضنوا قدمى ، وفرضت عليهم الجزية[٦] » . وقد ساق هذا الملك جيوشه فى كل اتجاه ، فأخضع الحثيين والأرمن وأربعين أمة غيرهما ، واستولى على بابل ، وأرهب مصر فأرسلت له الهدايا وهى قلقة وجلة ، (وكان منها تمساح ألانه كثيراً وخفف من غضبه) . وبنى من الخراج الذى دخل خزائنه هياكل لآلهة الأشوريين وإلاهاتهم ، ولم تسأله هذه الآلهة عن مصدر هذه الثروة كلها كأنما كان همها كله أن تكون لها هياكل تقرب فيها القرابين . ثم خرجت بابل عليه ، وهزمت جيوشه ، ونهبت هياكله ، وعادت إلى بابل تحمل معها آلهته أسرى . ومات تغلث فلاصر خزيا وغما[٧] .

وكان حكمه رمزاً للتاريخ الأشورى كله وصورة مصغرة منه : حرب وجزية فرضهما على جيران أشور ثم فرضا على أشور نفسها . واستولى أشور ناصر بال على اثنتى عشرة دولة صغيرة ، وعاد من حروبه بمغانم كثيرة ، وسمل بيده عيون خمسين من الأسرى ، واستمتع بنسائه ، ومات ميتة شريفة[٩] . ومد سلما نصر الثالث هذه الفتوح حتى دمشق ، وحارب عدة وقائع تكبد فيها خسائر فادحة ، وقتل فى واقعة واحدة ستة عشر ألفاً من السوريين ، وشيد الهياكل ، وفرض الجزية على المغلوبين . ثم ثار عليه ابنه ثورة عنيفة وخلعه[٩] . وحكمت سمورامات أم الملك ثلاث سنين ، وكان حكمها هو الأساس التاريخى الراهن لأسطورة سميراميس اليونانية ، التى تجعل منها نصف إلهة ونصف ملكة ، وقائدة باسلة ، ومهندسة بارعة ، وحاكمة محنكة مدبرة . وتلك الأسطورة هى كل ما نعرفه عن هذه الملكة . وقد وصفها ديودور الصقلى وصفاً مفصلا بديعاً[١٠] . وجيّش تغلث فلاصر الثالث جيوشاً جديدة ، واستعاد أرمينية ، واجتاح سوريا

وبابل ، وأخضع لحكمه دمشق والسامرة ، وبابل . ومد ملك أشور من جبال القفقاس إلى مصر . ولما مل الحرب وجه همه إلى شئون الحكم ؛ فأثبت أنه إدارى عظيم ، وشاد كثيراً من الهياكل والقصور ، وساس إمبراطوريته الواسعة سياسة قوية حازمة ، وأسلم روحه وهو فى فراشه . وجلس على العرش سرجون الثانى ، وهو ضابط من ضباط الجيش ، على أثر انقلاب سياسى نابليونى ، وقاد جيوشه بنفسه ، وكان فى كل واقعة يتخذ لنفسه أشد المواقف خطورة[11] ، وهزم عيلام ومصر ، واسترد بابل . وخضع له اليهود والفلسطينيون بل واليونان سكان قبرص ، وحكم دولته حكماً صالحاً ، وناصر الفنون والآداب ، والصناعة والتجارة ؛ ومات فى واقعة نال فيها النصر على أعدائه ، ورد فيها عن أشور غارات الجحافل الكمرية المتوحشة التى كانت تهددها بالغزو .

وقضى ابنه سنحريب على الفتن التى ثار عجاجها فى الولايات المجاورة للخليج الفارسى ، وهاجم أورشليم ومصر دون أن يلقى نجاحاً[*] ، ونهب تسعا وثمانين مدينة ، وثمانمائة وعشرين قرية ، وغنم سبعة آلاف ومائتى جواد ، وأحد عشر ألف حمار وثمانين ألف ثور ، وثمانمائة ألف رأس من الغنم ، ومائتين وثمانية آلاف من الأسرى[11] وهى أرقام لم يستخف بها الكاتب الرسمى الذى كتب سيرته ثم غضب على بابل لنزعتها إلى الحرية فحاصرها ، واستولى عليها ، وأشعل فيها النار فدمرتها تدميراً ، ولم يكد يبقى على أحد من أهلها رجلا كان أو امرأة ، صغيراً كان أو كبيراً ، بل قتلهم عن آخرهم تقريباً ، حتى سدت جثثهم مسالك المدينة ، ونهبت المعابد حتى لم يبق فيها شاقل واحد ، وحطمت آلهة بابل صاحبة السلطان الأعظم القديم ، وسيقت أسيرة ذليلة إلى نينوى . وأصبح مردك الإله الأكبر

(*) وتعزو الرواية المصرية نجاة مصر إلى فعل جماعة من جرذان الحقول الفطنة قرضت كنائن الجيوش الأشورية المعسكرة أمام بلوزيوم ؛ وأوتار قسيهم ؛ وأربطة دروعهم ، فاستطاع المصريون بذلك أن يهزموا الأشوريين فى اليوم الثانى دون عناء كبير[12] .

خادماً ذليلا للرب أشور . ولم ير من بقي حيا من البابليين أنهم كانوا مبالغين في تقدير قوة مردك وعظمته ؛ بل قالوا لأنفسهم ما قاله الأسرى اليهود بعد مائة عام من ذلك الوقت ، قالوا إن إلههم قد شاء له تواضعه أن ينهزم ليعاقب بذلك شعبه . واستخدم سنحريب غنائم نصره وما انتهبه من البلاد المفتوحة في إعادة بناء نينوى ، وحول مجرى النهرين لحمايتها من الاعتداء ، وبذل في إصلاح الأرض البور من القوة والنشاط ما تبذله الدول التي تشكو عدم وجود فائض لديها من غلاتها الزراعية ، ثم قتله أبناؤه وهو يتلو الصلوات[١٤] .

وقام ابن له من غير القتلة وهو عسر هدن وانتزع العرش من إخوته السفاحين ، وغزا مصر ليعاقبها على ما قدمته من المعونة للثوار السوريين ، وضمها إلى أملاكه ، وأدهش غربي آسية بسيره المظفر من منف إلى نينوى ومن خلفه ما لا يحصى من المغانم ؛ وجعل أشور سيدة بلاد الشرق الأدنى بأجمعها ، وأفاء عليها من الرخاء ما لم يكن لها به عهد من قبل ، واسترضى البابليين بإطلاق آلهتهم الأسيرة وتكريمها وإعادة بناء عاصمتهم المخربة ، كما استرضى عيلام بتقديم الطعام إلى أهلها الجياع . وكان ما قدمه من الإغاثة على هذا النحو عملا لا يكاد يوجد له مثيل في التاريخ القديم كله ؛ ومات عسر هدن وهو سائر إلى مصر ليخمد فيها ثورة بعد أن حكم إمبراطوريته حكما لم تر له في تاريخها شبه الهمجي مثيلا في عدله ورحمته .

وجني خلفه أشور بانيبال (وهو الذي يسميه اليونان سردنا پالوس) ثمرة هذه الأعمال ، فوصلت أشور في خلال حكمه الطويل إلى ذروة مجدها وثروتها . ولكن بلاده بعد وفاته فقدت هذا العز ، فوهنت قوتها وفسدت أمورها لطول عهدها بالحروب المنقطعة التي خاضت غمارها أربعين عاماً ، وأدركها الفناء ، ولما يمض على موت أشور بانيبال عشر سنين . وقد احتفظ لنا أحد الكتاب بسجل سنوي لأعماله[١٥] ، وهو سجل ممل ينتقل فيه من حرب إلى حرب ، ومن حصار إلى حصار ، ثم إلى مدن جائعة وأسرى تسلخ جلودهم وهم أحياء . ويُنطق هـذا الكاتب نفسه

أشور بانيپال فيحدثنا عما خربه من بلاد عيلام ويقول : « لقد خربت من بلاد عيلام ما طوله مسير شهر وخمسة وعشرين يوماً . ونشرت هناك الملح والحسك (لأجدب الأرض) وسقت من المغانم إلى أشور أبناء الملوك ، وأخوات الملوك ، وأعضاء الأسرة المالكة فى عيلام صغيرهم وكبيرهم ، كما سقت منها كل من كان فيها من الولاة والحكام ، والأشراف والصناع ، وجميع أهلها الذكور والإناث كباراً كانوا أو صغاراً ، وما كان فيها من خيل وبغال وحمير وضأن وماشية تفوق فى كثرتها أسراب الجراد ، ونقلت إلى أشور تراب السوس ، ومدكتو ، وهلتماش وغيرها من مدائنهم . وأخضعت فى مدة شهر من الأيام بلاد عيلام بأجمعها ، وأخمدت فى حقولها صوت الآدميين ، ووقع أقدام الضأن والماشية ، وصراخ الفرح المنبعث من الأهلين ، وتركت هــذه الحقول مرتعاً للحمير والغزلان والحيوانات البرية على اختلاف أنواعها[١٦] » .

وجىء برأس ملك عيلام القتيل إلى أشور بانيپال وهو فى وليمة مع زوجته فى حديقة القصر ، فأمر بأن يرفع الرأس على عمود بين الضيوف ، وظل المرح يجرى فى مجراه ، وعلّق الرأس فيما بعد على باب نينوى ، وظل معلقاً عليه حتى تعفّن وتفتّت . أما دنانو القائد العيلامى فقد سلخ جلده حياً ، ثم ذبح كما يذبح الحمل ، وضرب عنق أخيه ، وقطع جسمه إرباً ، ووزع هدايا على أهل البلاد تذكاراً لهذا النصر المجيد[١٧] .

ولم يخطر قط ببال أشور بانيپال أنه ورجاله وحوش كاسرة أو أشد قسوة من الوحوش ، بل كانت جرائم التقتيل والتعذيب هذه فى نظرهم عمليات جراحية لا بد منها لمنع الثورات وتثبيت دعائم الأمن والنظام بين الشعوب المختلفة المشاكسة المنتشرة من حدود الحبشة إلى أرمينية ، ومن سوريا إلى ميديا ، والتى أخضعها أسلافه لحكم أشور . لقد كانت هذه الوحشية فى رأيه واجباً يفرضه عليه حرصه على أن يبقى التراث سليما . وكان يتباهى بما وطده فى ربوع إمبراطوريته من أمن

وسلام ، وبما ساد مدنها من نظام . والحق أن هذا التباهى لم يكن على غير أساس . على أن هذا الملك لم يكن مجرد ملك فاتح أسكره سفك الدماء ، وشاهد ذلك ما شاده من المبانى وما بذله فى تشجيع الفنون والآداب . فقد بعث الملك إلى جميع أنحاء دولته يدعو المثالين والمهندسين ليضعوا له رسوم الهياكل والقصور ويزينوها كما فعل بعض الحكام الرومان بعد أن استولت رومة على بلاد اليونان . وأمر عدداً كبيراً من الكتبة أن يجمعوا وينسخوا كل ما خلفه السومريون والبابليون من آداب ، ووضع ما نسخوه وما جمعوه كله فى مكتبته العظيمة فى نينوى ، وهناك وجدها علماء هذه الأيام سليمة أو تكاد بعد أن مرت عليها خمسة وعشرون قرناً من الزمان .

وكان مثل فردرك الأكبر يفخر بملكاته الأدبية كما يفخر بانتصاراته فى الحرب والصيد[١٨] . ويصفه ديودور الصقلى بأنه طاغية فاسق خنثى[١٩] ، ولكننا لا نجد فى جميع الوثائق التى وصلت إلينا على كثرتها ما يؤيد هذا القول . وكان أشـــور بانيبال إذا فرغ من تأليف ألواحه الأدبية خرج إلى الصيد فى اطمئنان الملوك وثقتهم بأنفسهم وليس معه من السلاح إلا سكين وحربة ، فقابل الآساد وجهاً لوجه . وإذا جاز لنا أن نصدق ما كتبه عنه معاصروه فإنه لم يكن يتردد قط فى أن يتولى قيادة الهجوم عليها بنفسه ، وكثيراً ما سدد الضربة القاضية بيده[٢٠] . فلا عجب والحالة هذه إذا افتتن به الشاعر بيرن Byron ونسج حول اسمه مسرحية نصفها أسطورى والنصف تاريخى ، صور فيها ما بلغته أشور فى أيامه من الثروة والمجد ، وما داهمها بعدئذ من خراب شامل ، وما حل بمليكها من قنوط .

الفصل الثانى

الحكومة الأشورية

النزعة الإستعمارية — الحروب الأشورية — الآلهة المحنقة — القانون
لذة الانتقام والتعذيب — الإدارة — عنف ملوك الشرق

إذا جاز لنا أن نأخذ بالمبدأ الاستعمارى القائل إن سيادة حكم القانون ، ونشر الأمن ، والتجارة ، والسلم فى العالم تبرر إخضاع كثير من الدول طوعاً أو كرهاً لسلطان حكومة واحدة ، إذا جاز لنا أن نأخذ بهذا المبدأ كان علينا أن نقر لأشور بذلك الفضل الكبير ، وهو أنها أقامت فى غربى آسية حكماً كفل لهذا الإقليم قسطاً من النظام والرخاء أكبر مما استمتع به هذا الجزء من الأرض فيما نعلم قبل ذلك العهد . ذلك أن حكومة أشور بانيبال التى كانت تضم تحت جناحيها بلاد أشور ، وبابل ، وأرمينية ، وميديا ، وفلسطين ، وسوريا ، وفينيقية ، وسومر ، وعيلام ، ومصر كانت بلا جدال أوسع نظام إدارى شهده عالم البحر المتوسط أو عالم الشرق الأدنى حتى ذلك العهد ؛ ولم يدان أشور بانيبال فيه إلا حورابى أو تحتمس الثالث ، ولم يضارعه قبل عهد الإسكندر إلا الفرس وحدهم . وكانت هذه الإمبراطورية تستمتع بقسط من الحرية ، فقد احتفظت مدنها الكبرى بحظ موفور من الحكم الذاتى المحلى ، كما احتفظت كل أمة فيها بدينها ، وقوانينها وحاكمها ، ما دامت لا تتوانى عن أداء الجزية المفروضة عليها[٢١] .

ومن شأن هذا النظام المفكك أن يؤدى كل تراخ فى سلطته المركزية إلى الثورات الشعبية أو فى القليل إلى بعض التراخى فى أداء الجزية ، وكان لا بد والحالة هذه من إعادة فتح البلاد المرة بعد المرة . وأراد تغلث فلاصر أن يتحاشى خطر

هذه الثورات المتكررة فوضع تلك السياسة التي تمتاز بها أشور على غيرها من الأمم وهي نقل أهل البلاد المفتوحة إلى بلاد أخرى بعيدة ، يمتزجون فيها بسكانها الأصليين امتزاجاً قد يفقدهم وحدتهم وكيانهم ، ويقلل الفرص السانحة لهم للعصيان . على أن هذه الخطة لم تمنع اندلاع لهيب الثورات ، فاضطرت أشور بسببها إلى أن تكون مستعدة على الدوام لامتشاق الحسام .

من أجل هذا كان الجيش أقوى دعامة للدولة وأهم مقوماتها ، وكانت أشور تعترف اعترافاً صريحاً بأن الحكم هو تأميم القوة ، ولذلك فإن ما لها من فضل على قضية التقدم إنما كان في فن الحرب . فهي التي نظمت فرق المركبات ، والفرسان ، والمشاة ، والمهندسين الذين يقوّضون الأبنية ؛ وقد وضع الأشوريون لهذه الفرق نظاماً يسهل معه تحريكها وتوجيهها من ناحية إلى أخرى في ميدان القتال . وكانت لهم آلات للحصار لا تقل في قوتها عما كان منها عند الرومان ، وكانوا يجيدون فهم الفنون الحربية الخاصة بتعبئة الجنود وحركاتهم[٣٢] . وكانت القاعدة الأساسية التي تقوم عليها حركاتهم العسكرية هي السرعة التي تمكنهم من مهاجمة كل قسم من أقسام الجيوش المعادية على انفراد — ألا ما أقدم هذا السر الذي أفاد منه نابليون أعظم الفائدة ! وتقدمت صناعة الحديد عندهم إلى حد أمكنهم أن يلبسوا الجنود حُللا حديدية سابغة كحلل فرسان العصور الوسطى . وحتى الرماة وحملة الرماح كانوا يلبسون على رءوسهم خوذاً من النحاس أو الحديد ، وأرباطاً محشوة حول الحقوين ، ومجنات ضخمة ونطاقات من الجلد المغطى بأسماط معدنية . وكانت أسلحتهم السهام والرماح ، والسيوف القصار ، والصوالج ، والهراوات المنتفخة الرءوس ، والمقاذيف والبلط الحربية . وكان أكابر القوم يحاربون في عربات في طليعة الجيش ، يقودهم في العادة مليكهم بنفسه وهو راكب في عربة ملكية ، ولم يكن القواد قد تعلموا أن يموتوا في فراشهم(*) .

(*) انظر قول العرب في هذا المعنى : وما مات منا سيد في فراشه . . . (المترجم)

وأدخل أشور بانيبال نظام استخدام الفرسان لمعاونة المركبات ، وكانت هذه البدعة ذات أثر حاسم فى كثير من الوقائع[٢٣] . وكانت أهم أدوات الحصار هى الكباش المسلحة مقدماتها بالحديد . وكانت أحياناً تعلق بالحبال فى محاول ، وتطوح إلى الوراء لتزيد بذلك قوتها ، وأحياناً أخرى كانت تجرى على عجلات . أما المحاصَرون فكانوا يحاربون من وراء الأسوار بالقذائف والمشاعل ، والغاز الملتهب ، والسلاسل التى يُراد بها عرقلة الكباش ، وأوعية من غازات نتنة تذهب بعقول الأعداء[٢٤] — وما أشبه اليوم مرة أخرى بالبارحة . وكانت العادة المألوفة أن تُدمَّر المدينة المغلوبة وتُحرق عن آخرها ؛ وكان المنتصرون يبالغون فى محو معالمها بتقطيع أشجارها[٢٥] . وكان الملوك يكسبون ولاء جنودهم بتقسيم جزء كبير من الغنائم بينهم . وكانوا يضمنون شجاعتهم باتباع العادة المألوفة فى الشرق الأدنى وهى اتخاذ جميع أسرى الحرب عبيداً أو قتلهم عن آخرهم . وكان الجنود يكافأون على كل رأس مقطوع يحملونه من ميدان القتال ، ولهذا كانت تعقب المعركة فى أغلب الأحيان مجزرة تقطع فيها رءوس الأعداء[٢٦] . وكثيراً ما كان الأسرى يقتلون عن آخرهم بعد الواقعة حتى لا يستهلكون الكثير من الطعام ، وحتى لا يكونوا خطراً على مؤخرة الجيش أو مصدر متاعب له . وكانت طريقة التخلص منهم أن يركعوا متجهين بظهورهم إلى من أسروهم ، ثم يضرب الآسرون رءوسهم بالهراوات ، أو يقطعونها بسيوفهم القصيرة . وكان الكتبة يقفون إلى جانبهم ليحصوا عدد من يأسرهم كل جندى ويقتلهم ، ويقسمون الفىء بينهم بنسبة قتلاهم ؛ وكان الملك إذا سمح له وقته يرأس هذه المجزرة . أما الأشراف المغلوبون فكانوا يلقون شيئاً من المعاملة الخاصة ، فكانت تصلم آذانهم ، وتجدع أنوفهم ، وتقطع أيديهم وأرجلهم ، أو يقذف بهم إلى الأرض من أبراج عالية ، أو تقطع رءوسهم ورءوس أبنائهم ، أو تسلخ جلودهم وهم أحياء ، أو تشوى أجسامهم فوق نار هادئة . ويلوح أن القوم لم يكونوا يشعرون بشىء من وخز

الضمير وهم يسرفون فى إتلاف الحياة البشرية بهذه الطرق الجهنمية . فلعل أن نسبة المواليد العالية تعوض عليهم هذا التقتيل ، أو أن هذه الوسيلة تقلل من تزاحم الأهلين على مورد العيش إلى أن يتناسلوا ويتكاثروا[٢٧] . ولعل ما أشيع من حُسن معاملة الإسكندر وقيصر للأسرى ورحمتهما بهم كانا من أسباب قضائهما على روح أعدائهما المعنوية وسرعة استيلائهما على بلاد البحر المتوسط .

وكانت القوة الثانية التى يعتمد عليها الملك هى قوة الدين ، ولكنه لم يكن ينال معونة الكهنة إلا بأغلى الأثمان . فقد كان إجماع القوم منعقداً على أن رأس الدولة من الوجهة الرسمية هو الإله آشور . وكانت الأوامر الرسمية تصدر باسمه ، وكل القوانين قرارات تمليها إرادته الإلهية ، وكل الضرائب تجمع لخزانته ، وكل الحروب تشن لتأتى له (أو لإله غيره أحياناً) بالمغانم والمجد . وكان الملك يحمل الناس على أن يصفوه بأنه إله ، وكان فى العادة هو الإله شمش (الشمس) مجسما . وقد أخذ الأشوريون دينهم عن سومر وبابل كما أخذوا عنهما علومهما وفنونهما ، وكانت هذه كلها تكيّف أحياناً كما يتفق مع مطالب الدولة العسكرية .

وأظهر ما كان هذا التكييف فى القانون ، فقد يمتاز بالقسوة العسكرية ، وكانت العقوبات تتراوح بين العرض على الجماهير ، والأشغال الشاقة ، والجلد بالسياط من عشرين إلى مائة جلدة ، وجدع الأنف وصلم الأذنين ، والإخصاء ، وقطع اللسان ، وسمل العينين ، والخزق ، وقطع الرأس[٢٨] . وتصف قوانين سرجون الثانى بعض المُتع الأخرى كشرب السم ، وحرق ابن المذنب أو ابنته حيّين على مذبح الإله[٢٩] . ولكننا لا نجد شواهد على أن هذه القوانين كانت نافذة فى الألف السنة الأولى قبل مولد المسيح . وكان الزنى ، وهتك العرض ، وبعض أنواع من السرقة تعدّ من الجرائم التى يعاقب عليها بالإعدام[٣٠] . وكانوا يلجأون أحياناً إلى طريقة تحكيم الآلهة ، فكان المتهم يلقى فى النهر وهو مقيّد القدمين فى بعض الأحيان ، ويترك الحكم عليه لمشيئة الماء . وكانت القوانين

الأشورية فى العادة أبعد عن الطابع الدنيوى ، وأكثر بداثية من قوانين حمورابى البابلية التى كانت على ما يبدو لنا أقدم منها عهداً(*) .

وكانت الحكومة المحلية فى بداية الأمر يقوم بها أمراء الإقطاع ، ثم آلت على توالى الزمن إلى ولاة الأقاليم ومديريها المعيّنين من قِبَل الملك . وأخذ الفُرْس عن الأشوريين هذا الضرب من الحكم الإمبراطورى ومنهم انتقل إلى رومة . وكان يعهد إلى الولاة جمع الضرائب وتنظيم العمال المسخرين فى الأعمال العامة ، كأعمال الرى ، التى لم يكن فى الإمكان تركها للجهود الفردية ؛ وأهم ما كان يطلب إليهم هو تجنيد العساكر ، وقيادتهم فى الحروب الملكية . وكان للملك جواسيس (أو رجال قلم المخابرات بلغة هذه الأيام) يراقبون هؤلاء الولاة وأعوانهم وينقلون إلى الملك أخبار الرعيّة .

وكانت الحكومة الأشورية بقضها وقضيضها أداة حرب قبـــل كل شىء . ذلك أن الحرب كثيراً ما كانت أنفع لها من السلم ، فقد كانت تثبت النظام ، وتقوى روح الوطنية ، وتزيد سلطان الملوك . وتأتى بالمغانم الكثيرة لتغنى بها العاصمة ، والعبيـــد لخدمتها . ومن ثم كان تاريخ الأشوريين يدور معظمه حول مدن تنهب ، وقرى وحقول تخرب . ولما أن قمع أشور بانيبال ثورة أخيه شمش — شم — أوكين واستولى على بابل بعد حصار طويل مرير :

«كان للمدينة منظر رهيب تتقزز منه نفوس الأشوريين أنفسهم ... فقد كان معظم من قضت عليهم الأوبئة والقحط ملقين فى الطرقات أو فى الميادين العامة ، فريسة للكلاب والخنازير . وحاول من كانت لهم بقية من القوة من الأهلين أو الجنود أن يفروا إلى الريف ، ولم يبق فى المدينة إلا من كان ضعيفاً لا يستطيع أن يجر قدميه إلى أبعد من أسوارها . وطارد أشور بانيبال هؤلاء

(*) وأقدم القوانين الآشورية التى بقيت إلى هذه الأيام قانون مؤلف من تسعين مادة مكتوبة على ثلاثة ألواح وجدت فى خرائب أشور ، ويرجع عهدها إلى حوالى عام ١٣٠٠ ق . م(٣١) .

المشردين ، ولما أن قبض عليهم كلهم تقريباً ، صب عليهم جام غضبه ونقمته ، فأمر بأن تقتلع ألسنة الجنود ، وأن يضربوا بعد ذلك بالمراوات حتى يموتوا . أما الأهالى فقد أمر بذبحهم أمام العجول المجنحة العظيمة ، التى شهدت منذ خمسين عاماً مجزرة أخرى شبيهة بهذه المجزرة فى عهد جده سنحريب . وظلت جيف هؤلاء الضحايا فى العراء زمناً طويلا تفترسها الوحوش القذرة والطيور[٣٢].

لقد كان هذا الإسراف فى العنف من أكبر أسباب ضعف الممالك الشرقية . ذلك أن الثورات المتكررة لم تكن مقصورة على أهل الولايات ، بل إن قصور الملوك وأسرهم كثيراً ما كانت تهب لتقلب بالعنف ذلك النظام الذى قام على العنف ، والذى يستند إلى العنف ، وكثيراً ما كان نقع الفتنة يثور بين المطالبين بالعرش فى أواخر أيام كل ملك ، أو حين وفاته ، فكان الملك المعمر يرى المؤامرات تحاك من حوله ، وكثيراً ما كان يُستعجل موته بقتله . وكانت أمم الشرق الأدنى توثر الثورات العنيفة على الانتخابات الفاسدة الزائفة ، وكانت الوسيلة التى يتبعونها لسحب ثقتهم من حاكمهم هى القضاء على حياته . وما من شك فى أن بعض حروب الأشوريين كانت أمراً محتوماً لا مفر منه . فقد كان البرابرة يحيطون بتخوم البلاد كلها ، فإذا ما جلس على العرش ملك ضعيف انقض السكوديون والكمريون أو غيرهم من الهمج على المدن الأشورية الغنية يقتلون وينهبون . ولعلنا نبالغ فى كثرة الحروب والثورات العنيفة التى تأججت نيرانها فى هذه الدول الشرقية ، لأن من نقشوا الآثار من الأقدمين ، ومن أرخوا تلك الحوادث من الكتاب المحدثين ، قد عنوا بالتسجيل المسرحى للوقائع الحربية ، وغفلوا عن انتصارات السلم . إن المؤرخين طالما تحيزوا إلى سفك الدماء ، ذلك بأنهم قد وجدوه ، أو ظنوا أن قراءهم سيجدونه ، أكثر لذة لهم من أعمال العقل الهادئة . ونحن نظن أن الحروب فى هذه الأيام أقل عدداً منها فى الأيام الحالية لأننا نحس بفترات السلم الصافية المتألقة ، على حين أن التاريخ لا يُحس ، كما يبدو لنا ، إلا بأزمات الحرب المحمومة .

الفصل الثالث

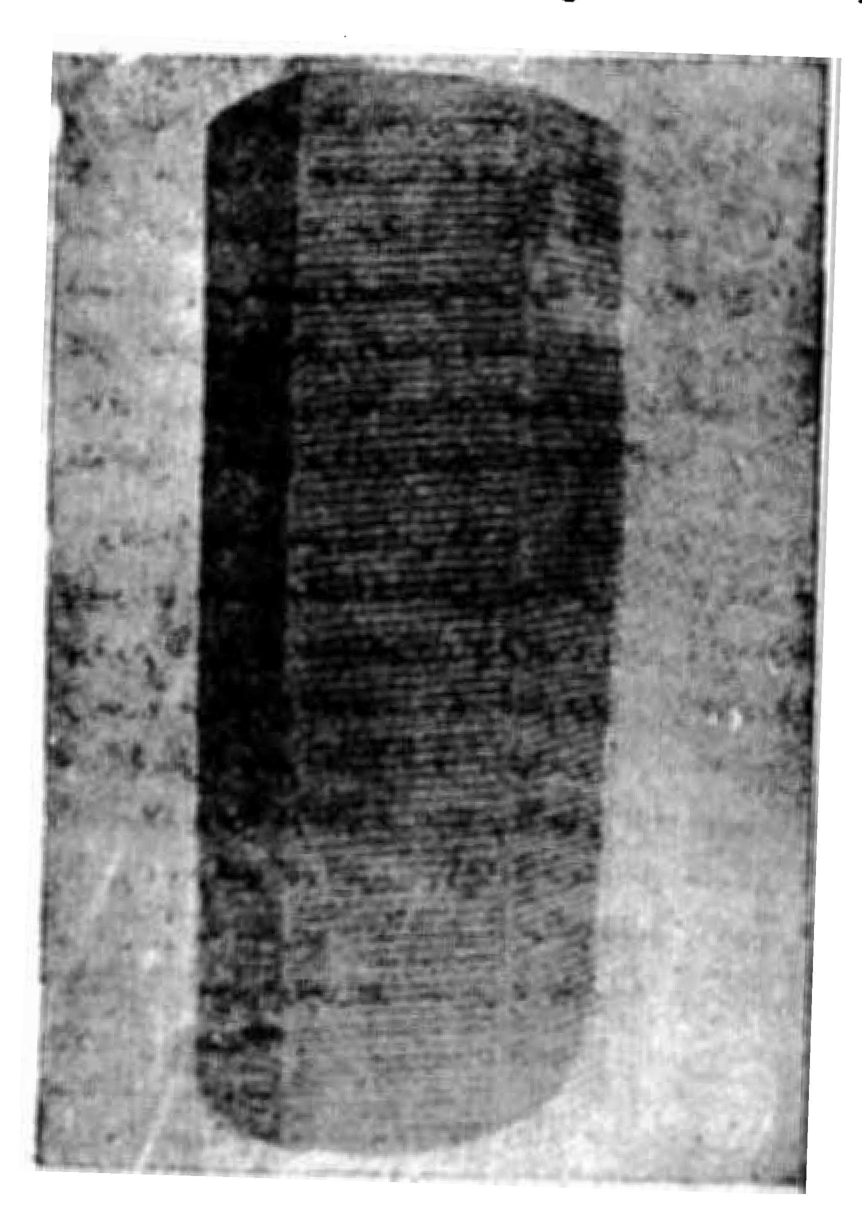
الحياة فى أشور

الصناعة والتجارة — الزواج والآداب العامة — الدين والعلم — الكتابة ودور الكتب — المثل الأعلى للرجل الكامل عند الأشوريين

لم تكن الحياة الاقتصادية عند الأشوريين تختلف كثيراً عنها عند البابليين، وذلك لأن هؤلاء وأولئك لم يكونوا فى كثير من الأحوال إلا أبناء الشمال وأبناء الجنوب من حضارة واحدة . وأهم ما كان بين البلدين من فروق أن المملكة الجنوبية كانت أكثر اشتغالا بالتجارة على حين أن الشمالية أكثر اشتغالا بالزراعة ، فكان أثرياء البابليين تجاراً فى الغالب ، أما أثرياء الأشوريين فكانوا عادة من كبار الملاك ، يشرفون بأنفسهم على ضياعهم الواسعة ، ويزدرون ازدراء الرومان من بعدهم أولئك الذين كانوا يكسبون المال بشراء البضائع رخيصة وبيعها غالية(٣٣). بيد أن النهرين نفسهما كانا يفيضان على أرض المملكتين ويغذيانها ، ونظام الجسور والقنوات بعينه كان يسيطر فيهما على ما زاد من مياه النهرين ، والشواديف ذاتها كانت ترفع المياه من المجارى المنخفضة لتروى الحقول التى تزرع نفس القمح والشعير والذرة الرفيعة والسمسم(*) . وكانت الصناعات التى تعتمد عليها حياة أهل المدن واحدة ، وكان للمملكتين نظام واحد للموازين والمكاييل والمقاييس تتبادل بمقتضاه البضائع . وامتلأت نينوى وغيرها من الحواضر بالحرف والصناعات بفضل ما جلبه لها ملوكها من ثراء عظيم ، وإن كان موقع هذه المدن

(*) ومن الغلات الأشورية غير ما ذكرنا هنا الزيتون ، والعنب ، والثوم ، والبصل ، والخس ، والجرجير ، والبنجر ، واللفت ، والفجل ، والخيار ، والبرسيم الحجازى ، والعرقسوس . وقلما كان غير الموسرين يأكلون اللحم(٣٤) ، فقد كانت هذه الأمة الحربية أمة نباتية بوجه عام ، إذا استثنينا من ذلك لحم السمك .

فى الطرف الشمالى من الإقليم قد حال بينها وبين أن تكون مراكز تجارية كبرى . وكانت المعادن تستخرج من أرض البلاد أو تستورد بكثرة من خارجها



شكل (٢٩) منشور سنحريب — فى متحف بغداد

وفى عام ٧٠٠ ق . م أو حواليه أصبح الحديد بدل البرنز المعدن الأساسى فى الصناعة والتسليح[٣٥] ، وكانت المعادن تصهر ، والزجاج يصنع ، والمنسوجات تصبغ(*) . والخزف يطلى ؛ وكانت البيوت فى نينوى تجهز وتؤثث كما كانت تجهز فى أوربا قبل الانقلاب الصناعى[٣٦] . وأنشئ فى عهد سنحريب مجرى مائى فوق قناطر ينقل الماء إلى نينوى من مكان يبعد عنها ثلاثين ميلا ؛ وقد كشفت منذ عهد قريب مائة قدم من هذا المجرى(**) فكانت أقدم مجرى مائى فوق قناطر عرف فى التاريخ . وكانت مصارف الأفراد الخاصة تمول بعض التجارة والصناعة وتتقاضى فوائد على قروضها تبلغ ٢٥٪ . وكانوا يتعاملون بالرصاص والنحاس والذهب والفضة ؛ وحوالى عام ٧٠٠ ق . م . سك سنحريب قطعاً من الفضة قيمة الواحدة منها نصف شاقل — وهذه القطع من أقدم ما عرف من المسكوكات الرسمية[٣٧] .

وكان الأهلون مقسمين إلى خمس طبقات : الأعيان ، ورجال الصناعة المنتظمون فى نقابات ، والطبقة الثالثة تشمل أرباب المهن والحرف والعمال غير المهرة وهم الأحرار من صناع المدن وزراع الريف ؛ وتشمل الرابعة الأقنان المرتبطين بأرض المزارع الكبرى ، كما كان أمثالهم مرتبطين بها فى أوربا فى العصور الوسطى ، وتضم الخامسة الأرقاء أسرى الحروب أو سجناء الديون ، وكان هؤلاء يلزمون بالإعلان عن مركزهم الاجتماعى بخرق آذانهم وحلق رءوسهم ، وهم الذين كانوا يقومون بالأعمال الوضيعة فى كل مكان . ونرى فى نقش من عهد سنحريب حراساً بأيديهم سياط يشرفون على هؤلاء الأرقاء المنتظمين صفين طويلين متوازيين يجرون قطعة ثقيلة من تمثال على نقالات من الخشب[٣٨] .

(*) ويحتوى لوح من عهد سنحريب (حوالى عام ٧٠٠ ق . م) على أقدم إشارة للقطن ، فقد ورد فيه : « الشجرة التى تثمر الصوف قطعوها واستخرجوا منها القطن الشعر[٣٥] » وأكبر الظن أنهم نقلوها من الهند .

(**) كشفت هذا المجرى البعثة العراقية التابعة للمعهد الشرقى بجامعة تشكاجو .

وكانت أشور تشجع الإكثار من النسل بقوانينها الأخلاقية وبما تسنه من الشرائع شأنها فى هذا شأن جميع الدول العسكرية ، فكان الإجهاض عندهم جريمة يعاقب عليها بالإعدام ، وكانت المرأة التى تجهض نفسها ، وحتى المرأة التى تموت وهى تحاول إجهاض نفسها ، تخزق بعد موتها[٣٩] . وكانت منزلة النساء فى أشور أقل منها فى بابل ، وإن كان منهن من بلغن منزلة سامية بالزواج والدسائس . وكانت تفرض عليهن عقوبات صارمة إذا ضربن أزواجهن ، ولم يكن يسمح للمتزوجات أن يخرجن إلى الطريق العام بغير الحجاب ، وكان يطلب إليهن أن يكن جد أمينات على أعراضهن — وإن كان يسمح لأزواجهن بأن يتخذوا لهم ما يشاءون من السرارى[٤٠] . وكان البغاء يُعد فى عرفهم أمراً لا بد منه وتنظمه القوانين[٤٠أ] . وكان للملك عدد من النساء يعشن معيشة العزلة ويقضين أوقاتهن فى الرقص والغناء والنزاع والتطريز والتآمر[٤١] . وإذا قتل الذى يزنى بامرأته الزانىَ وهو متلبس بجريمته عُد ذلك من حقه ؛ وقد بقيت هذه العادة بعد أن زالت كثير من الشرائع التى كانت تبيحها . أما فيما عدا هذا فقد كانت قوانين الزواج فى أشور مثلها فى بابل خلا أمراً واحداً وهو أن الزواج كان فى كثير من الأحيان شراء بسيطاً ، وأن الزوجة كثيراً ما كانت تعيش فى منزل أبيها ويزورها من حين إلى حين[٤٢] .

ونشهد فى كثير من نواحى الحياة الأشورية صرامة أبوية نراها طبيعية فى شعب يعيش فى فتوحه ، ويعيش على حدود الهمجية ، بكل ما يشمله هذا اللفظ من معان . وكما أن الرومان كانوا يتخذون آلاف الأسرى بعد انتصارهم فى الحروب عبيداً لهم يقضون فى الرق كل حياتهم ، ويرسلون آلافاً آخرين إلى الحلبة الكبرى لتنهشهم السباع الجياع ، كذلك يبدو أن الأشوريين كانوا يجدون متعة — أو تدريباً ضرورياً لأبنائهم — فى تعذيب الأسرى ، وسمل عيون الأبناء أمام آبائهم ، وسلخ جلود الناس أحياء ، وشى أجسامهم فى الأفران ، وربطهم

بالسلاسل فى الأقفاص ليستمتع العامة برؤيتهم ، ثم إرسال من يبقى منهم حيا إلى نطع الجلاد[43] . وفى هذا يحدثنا أشور بانيبال بقوله : « لقد سلخت جلود كل من خرج عليّ من الزعماء ، وغطيت بجلودهم العمود ، وسمرت بعضهم من وسطهم فى الجدران ، وأعدمت بعضهم خزقاً ، وصففت بعضهم حول العمود على الخوازيق . . . أما الزعماء والضباط الذين ثاروا فقد قطعت أطرافهم[44] » .

ويفخر أشور بانيبال بأنه « حرق بالنار ثلاثة آلاف أسير ، ولم يبق على واحد منهم حياً ليتخذه رهينة»[45]. ويقول نقش آخر من نقوشه « أما أولئك المحاربون الذين أذنبوا فى حق أشور وائتمروا بالشر عليّ : . . فقد انتزعت ألسنتهم من أفواههم المعادية وأهلكتهم ، ومن بقى منهم على قيد الحياة قدمتهم قرابين جنازية ، وأطعمت بأشـــلائهم المقطعة الكلاب والخنازير والذئاب . . . وبهذه الأعمال أدخلت السرور على قلوب الآلهة العظام »[46]. وأمر ملك آخر من ملوكهم الصُنّاع أن ينقشوا على الآجر هذه العبارات التى يرى أن من حقه على الخلف أن يعجبوا بها : « إن عجلاتى الحربية تُهلك الإنسان والحيوان . . . إن الآثار التى أشيّدها قد أقيمت من الجثث الآدمية التى قطعت منها الرءوس والأطراف ، ولقد قطعت أيدى كل من أسرتهم أحياء »[47] . وتصوّر النقوش التى كشفت فى نينوى الرجال يُخزّقون أو يسلخون أو تُقطع ألسنتهم ؛ ويصوّر نقش منها ملكاً من الملوك يفقأ أعين الأسرى برمح ، ورءوسهم مثبتة فى أماكنها بحبل يخترق شفاههم[48] . ولا يسعنا ونحن نقرأ هذه الصحف إلا أن نحمد الله على مركزنا المتواضع .

ويبدو أن الدّين لم يكن له أثر قط فى تخفيف هذا العنف وهذه الوحشية . ذلك أن الدّين لم يكن له من السلطان على الحكومة بقدر ما كان له فى بابل ، وأنه كان يكيّف نفسه حسب حاجات الملوك وأذواقهم . وكان أشور إلههم القومى من آلهة الشمس ، ذا روح حربية ، لا يشفق على أعدائه . وكان عُبّاده يعتقدون

أنه يغتبط برؤية الأسرى يقتلون أمام مزاره[٤٩] . وكان العمل الجوهرى الذى تؤديه الديانة الأشورية هو تدريب مواطن المستقبل على الطاعة التى تتطلبها منه وطنيته ، وأن تعلمه مداهنة الآلهة لكسب ودهم ورضاهم بضروب السحر والقرابين . ومن أجل هذا كان كل ما وصل إلينا من النصوص الدينية الأشورية لا يخرج عن الرقى والفأل والطيرة . ولدينا من هذين كشوف طويلة حددت فيها لكل حادثة نتائجها المحتومة ، ووصفت فيها الوسائل التى يجب اتباعها لتجنب هذه النتائج[٥٠] . وكانوا يصورون العالم على أنه ملىء بالشياطين التى يجب اتقاء شرها بالتمائم المعلقة فى الرقاب ، أو الرقى الطويلة التى تجب تلاوتها بدقة وعناية .

وذلك جو لا يزدهر فيه من العلوم إلا علم الحروب ، فقد كان الطب الأشورى هو الطب البابلى لم يزيدوا عليه شيئاً ، ولم يكن علم الفلك الأشورى إلا التنجيم البابلى ، فكان أهم غرض تدرس من أجله النجوم هو التنبؤ بالغيب[٥١] ولسنا نجد عندهم شواهد على البحوث الفلسفية ولم نعثر على ما يثبت أنهم حاولوا أن يفسروا العالم من غير طريق الدين . وقد وضع علماء اللغة الأشوريون قوائم بأسماء النباتات ، ولعلهم وضعوها ليستعينوا بها فى صناعة الطب ، وبذلك قدموا بعض العون لعلم النباتات ؛ ووضع غير هؤلاء من الكتبة قوائم تكاد تحتوى على كل ما كان على الأرض من أشياء ، وكان فيما حاولوه من تصنيفها بعض العون لعلماء التاريخ الطبيعى من اليونان . وأخذت اللغة الإنجليزية من هذه الكشوف ، عن طريق اللغة اليونانية فى الغالب ، الألفاظ الإنجليزية الآتية :

hangar, gypsum, camel, plinth, rose, ammonia, jasper, cane, cherry, Laudanum, maphtha, sesame, hyssop and myrrh [52] (*)

ومن واجبنا أن نقر للألواح التى تسجل أعمال الملوك الأشوريين بذلك الفضل

(*) ويقابلها فى العربية الحظيرة ، والجبس ، والجمل ، وسفل الحائط (السانت) ، والورد ، والنشادر ، واليشب ، والقصب ، والكرز ، وصبغة الأفيون (اللودنوم) والنفط ، والسمسم والحسب (الثغام) ، والمر .

العظيم وهي أنها أقدم ما بقي لدينا من الكتب في علم التاريخ ، رغم ما تتصف به من الملل والسآمة ، وما تسجله من الأعمال الوحشية الدموية . وكانت هذه الألواح في السنين الأولى مجرّد أخبار تروى ، كل ما تحتويه سجلات لانتصار الملوك ، لاتعترف لهم بأية هزيمة . ثم أصبحت فيا بعد وصفاً أدبياً منمقاً لما وقع من الأحداث الهامة في كل واحد منهم . وأهم ما يخلد ذكر أشور في تاريخ الحضارة هو مكتباتها ، فقد كانت مكتبة أشور بانيبال تحتوي ثلاثين ألف لوح من الطين مصنفة ومفهرسة ، وعلى كل واحد منها رقعة يسهل الاستدلال بها عليه . وكان على كثير منها تلك العبارة التي كانت من شارات الملك الخاصة : « فليحلّ غضب أشور وبايت . . . على كل من ينقل هذا اللوح من مكانه . . . وليمحو اسمه واسم أبنائه من على ظهر الأرض »[٥٣] . وكثير من هذه الألواح منسوخة من أخرى أقدم منها لم يبيّن تاريخها ، تكشف أعمال الحفر عنها في كل يوم . وقد أعلن أشور بانيبال أنه أنشأ مكتبته ليمنع الآداب البابلية أن يجرّ عليها النسيان ذيله .

ولكن الألواح التي يصح أن تسمى الآن أدباً لاتتجاوز عدداً قليلا منها ، أما معظمها فسجلات رسمية وأرصاد يقصد بها التنجيم والفأل والطيرة والتنبؤ بالمستقبل ، ووصفات طبية ، وتقارير ورقى سحرية ، وترانيم وصلوات وأنساب للملوك والآلهة[٥٤] . وأقل هذه الألواح مدعاة إلى الملل لوحان يعترف فيهما أشور بانيبال بحب الكتب والمعرفة ، وهو اعتراف يزري به في أعين مواطنيه ، والغريب أنه يكرر فيهما الاعتراف ويصرّ عليه إصراراً :

« أنا ، أشوربانيبال ، فهمت حكمة نابو[*] ووصلت إلى فهم جميع فنون كتابة الألواح . وعرفت كيف أضرب بالقوس وأركب الخيل والعربات ، وأمسك أعنتها . . وحباني مردك ، حكيم الآلهة ، بالعلم والفهم هدية منه ... ووهب لي

(*) إله الحكمة المقابل لتحوت ، وهرمس ، وعطارد في البلاد الأخرى

إنورت وشرجال الرجولة والقوّة ، والبأس الذى لا نظير له وعرفت صنعة أدابا الحكيم ، وما فى فن الكتبة كله من أسرار خفيّة ؛ وقرأت فى بناء الأرض والسموات وتدبرته ؛ وشهدت اجتماعات الكتبة وراقبت البشائر والنذر ؛ وشرحت السموات مع الكهنة العلماء ، وسمعت عمليات الضرب والقسمة المعقدة ، التى لا تتضح لأوّل وهلة . وكان من أسباب سرورى أن أكرّر الكتابات الجميلة الغامضة المدوّنة باللغة السومرية ، والكتابات الأكدية التى تصعب قراءتها . . . وامتطيت الأمهار ؛ ركبتها بحكمة حتى لا تجمح ، وشددت القوس ، وأطلقت السهم ، وتلك سمة المحارب ، ورميت الحراب المرتجفة كأنها رماح قصيرة . . . وأمسكت بالأعنة كسائق المركبات . . . ووجهت نامجى دروع الغاب ومجانه كما يفعل الرائد ، وعرفت العلوم التى يعرفها الكتبة على اختلاف أصنافهم حينما يحين وقت نضجهم ، وتعلمت فى الوقت نفسه ما يتفق مع السيطرة والسيادة ، وسرت فى طرائق الملكية »(٥٥) .

الفصل الرابع

الفن الأشورى

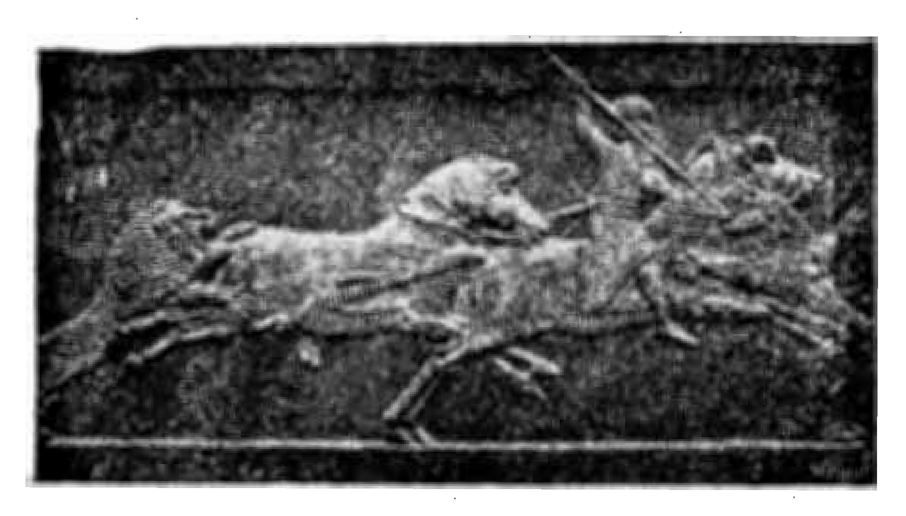
الفنون الصغرى — النقش المنخفض — التماثيل — البناء — صفحة من « سردنابلس »

بلغت أشور فى آخر عهدها ما بلغته معلمتها بابل فى الفنون ، وبزتها فى النقوش المنخفضة . فقد حفزت الثروة العظيمة التى تدفقت على أشور وكلخ ونينوى الفنانين والصناع الأشوريين إلى أن يخرجوا للأشراف ونساء الأشراف ، وللملوك وقصور الملوك ، وللكهنة والهياكل ، حلياً مختلفة الأشكال ، فصهروا المعادن وبرعوا فى تشكيلها وصناعتها كما نشاهد ذلك فى أبواب بلاوات العظيمة ،



شكل (٣٠) نقش أشورى يمثل مردك يقاتل تيامات
وجد فى كلخ ومحفوظ فى المتحف البريطانى

وفى الأثاث الفخم الجميل الشكل الدقيق الصنع المتخذ من أثمن الأخشاب ، والمقوى بالمعادن ، والمرصع بالذهب والفضة والبرنز والأحجار الكريمة[٥٦] . وكانت صناعة الفخار عندهم منحطة ، وفى الموسيقى لم يزيدوا على ما أخذوه منها عن البابليين ، ولكن التصوير بالطلاء الممزوج بالغراء وصفار البيض الزاهى الألوان أصبح من الفنون الأشورية الخاصة التى انتقلت إلى بلاد الفرس فبلغت فيها حد الكمال . وكان التصوير فى أشور كما كان على الدوام فى بلاد الشرق القديم فناً ثانوياً تابعاً للحرب يسير فى ركابها .



شكل (٣١) صيد الآساد

نقش على المرمر من نينوى — محفوظ فى المتحف البريطانى

وأخرج فن النقش المنخفض (القليل البروز) فى أيام المجد أيام سرجون الثانى وسنحريب وعسرهدن وأشور بانيپال وبتشجيع هؤلاء الملوك روائع هى الآن فى المتحف البريطانى . على أن من أجمل آياته تحفة يرجع عهدها إلى أشور بانيپال الثانى وهى من المرمر النقى وتمثل مردك إله الخير يهزم تيامات الخبيث إله الفوضى[٥٧] ، أما صور الآدميين المحفورة فهى جامدة خشنة وكلها متماثلة لا فرق بين الواحدة منها والأخرى ، كأنما قد وضع لها نموذج واحد كامل وفرض عليها أن تحاكيه



شكل (٣٢) اللبؤة المحتضرة فى نينوى — فى المتحف البريطانى

فى جميع العهود . ذلك أن للرجال جميعهم رءوساً ضخمة وشوارب غزيرة ، وبطوناً كبيرة ، وأعناقاً لا تكاد تراها العين . وحتى الآلهة نفسها قد صورت بهذه الصور الأشورية لا تستتر إلا قليلا . ولا تظهر حيوية الرجال فى صورهم إلا فى أحوال



شكل (٣٣) آشور المجنح
وجد فى قصر شور بانيپال الثانى فى كلخ – وهو الآن فى متحف نيويورك

جد نادرة ، منها قطعة المرمر المنقوشة التي تمثل الأرواح تتعبد أمام نخلة هندية (٥٨) .
وفي اللوحة الحجرية التي تمثل شمسي أداد السابع والتي عثر عليها في كلخ (٥٩) .
أما النقوش التي تثير إعجابنا بحق فهي نقوش الحيوانات ، وما من شك في أن الفن قديمه وحديثه لم ينجح في نحت الحيوانات نجاح الفن الأشوري . إن الألواح تكرر أمام الأعين مناظر مملة تمثل الحرب والصيد ، ولكن العين لا تمل قط من النظر إلى حركات الحيـــوانات القوية ونفورها الطبيعي ، وتصويرها البسيط الذي لا تكلف فيه كأنما الفنان الذي حرم عليه أن يصور سادته في حقيقتهم وفرديتهم قد وهب كل علمه وحذقه لتصوير الحيوانات .
وهو يصور منها أنواعاً جمة لا عديد لها — يصور آساداً ، وخيلا ، وحميراً ومعزاً ، وكلاباً ودببة ، وظباء ، وطيوراً ، وجنادب ، ويصورها في كل وضع من أوضاعها ، ما عدا سكونها . وما أكثر ما يمثلها وهي تعاني سكرات الموت ، ولكنه حتى في هذه الحال يجعلها مركز الحياة في صورته وفنه .

وهل هناك ما هو أروع من خيل سرجون الثاني في نقوش خراساباد (٦٠) ، أو اللبؤة الجريحة التي عثر عليها المنقبون في قصر سنخريب (٦١) في نينوى ، أو اللبؤة المحتضرة المنقوشة على حجر المرمر والتي استخرجت من قصر أشور بانيبال (٦٢) ، أو مناظر صيد أشور ناصربال الثاني وأشور بانيبال للآساد (٦٣) ؛ أو منظر اللبؤة المستريحة (٦٤) ، أو الأسد الذي أطلق من الشرك (٦٥) ، أو القطعة التي نقش عليها أسد ولبؤة يستظلان تحت الأشجار (٦٦) . كل هذه من أجمل روائع هذا الفن في العالم كله . ولسنا ننكر أن تمثيل الأشياء الطبيعية عن طريق الحفر كان عند الأشوريين فناً فجاً خشناً يجري على سنن جامدة محددة ، وأن أشكاله ثقيلة غير ظريفة ، وأن خطوطه قاسية عسرة ، وأن العضلات مبالغ فيها كثيراً ، وأن كل ما روعي فيها من قواعد المنظور لا يعدو وضع الشيء البعيد في النصف الأعلى من الصورة بنفس الأبعاد التي رسم بها ما هو أقرب منه إلى الرسم . وما وضع من

تحته فى الصورة ، على أن المثالين فى عهد سنحريب عرفوا كيف يعوضون هذه العيوب بما أخرجوه من صور واقعية قوية ، مصقولة حسب الأصول الفنية ، مثل فيها الفنانون حركاتها أوضح تمثيل ، وليس ثمة فيما نقش من الحيوانات شىء



شكل (٣٤) رأس عسر حدن — فى متحف برلين

يفوقها حتى اليوم . لقد كان فن النقش المنخفض للأشوريين ما كان فن النحت لليونان ، أو التصوير الزيتي للإيطاليين في أيام النهضة ، كان فناً محبباً إليهم ، يعبر تعبيراً فذاً عن مثلهم الأعلى القوى في الشكل وفي الصفات

هذا ما نقوله عن النقش عند الأشوريين ، أما النحت فكان أقل منه شأناً وأحط منزلة . ويخيل إلينا أن الحفارين في نينوى وفي كلخ كانوا يفضلون النقش عن التصوير المجسم ، ولذلك لم يصل إلينا من خرائب الأشوريين إلا القليل من التماثيل الكاملة . وليس فيما وصل إلينا منها ما هو ذو قيمة كبيرة . ترى تماثيل الحيوانات مليئة بالحياة والجلال ، كأنها لا تشعر بأنها أعظم من الإنسان قوّة فحسب بل تشعر فوق هذا بأنها أرقى منه خلُقاً — وحسبنا أن نذكر منها الثورين اللذين كانا يحرسان مدخل خراساباد(٦٧) ؛ وأما تماثيل الأناسي والأرباب فهي خشنة ثقيلة بدائية ، مزينة ولكنها لا فروق بينها ، منتصبة ولكنها ميتة . ولعل من الجائز أن نستثني من هذا الوصف تمثال أشور ناصر پال الثاني الضخم المحفوظ في المتحف البريطاني الآن . ذلك أن في وسع الناظر إليه أن يرى فيه من خلال خطوطه الثقيلة ملكاً في كل شــبر من جسمه ! يرى الصولجان الملكي وقد قبض عليه قبضة قوية ، والشفتين الغليظتين تنبئان عن قوة العزيمة ، والعينين القاسيتين اليقظتين ، ويرى عنقاً كعنق الثور ينذر الأعداء والمزورين في أخبار الضرائب بالشر المستطير ، ويرى قدمين ضخمتين متزنتين على ظهر الأرض أكمل اتزان .

على أننا يجب ألا نقسو في حكمنا على فن النحت الأشوري ؛ فأكبر الظن أن الأشوريين كانوا كلفين بالعضلات المفتولة والرقاب القصيرة ، وأنهم لو رأوا نحافة أجسامنا التي لا تكاد تشبه نحافة أجسام النساء ورشاقة هرميز الناعمة الشهوانية كما صورها پركستليز أو عِلّية أپلون لسخروا من هذا كله أشد السخرية . أما من حيث العمارة الأشورية فكيف نستطيع أن نقدر قيمتها إذا كان كل ما بقي منها أنقاضاً وخربات لا تكاد تعلو عما يحيط بها من رمال ، ولا تفيد في شيء إلا أن

تكون مشجباً يعلق عليه علماء الآثار البواسل ما « يستعيدونه » بخيالهم من أشكال تلك العمائر القديمة . لقد كان الأشوريون كالبابليين [الأقدمين والأمريكيين المحدثين لا ينشدون الجمال فى مبانيهم بل كانوا ينشدون العظمة والفخامة وينشدونهما فى ضخامة الأشكال . وجرى الأشوريون فى عمائرهم على سنن الفن فى أرض الجزيرة فاتخذوا اللبن مادة أساسية لمبانيهم ، ولكنهم اختطوا لأنفسهم طريقة خاصة بهم ، بأن اتخذوا واجهاتها من الحجارة أكثر مما فعل البابليون . وورث الأشوريون الأقواس والعقود من أهل الجنوب ، ولكنهم أدخلوا عليها كثيراً من التعديل . وأجروا بعض التجارب على إقامة العمد ، مهدوا بها السبيل للعمد التى فى شكل النساء وللتيجان « الأيونية » الاولية التى نشاهدها عند الفرس واليونان[٦٨] . ولقد أقاموا قصورهم على مساحات واسعة من الأرض ، وكانوا حكماء إذ لم يعلوا بها أكثر من طبقتين أو ثلاث طبقات[٦٩] . وكان القصر يتألف عادة من عدد الردهات والغرف تحيط بفناء هادئ ظليل . وكان يحرس مداخل القصور الملكية حيوانات مهولة من الحجارة ، وتصف حول جدران الردهة القريبة من مدخل القصر وتعلق عليها نقوش قليلة البروز وتماثيل تاريخية ، وكانت تبلط بألواح المرمر ، وتعلق على جدرانها أقمشة ثمينة مطرزة مزركشة ، أو تكسى بالأخشاب النادرة الغالية وتحف بها حليات جميلة . أما السقوف فكانت تقوى بكتل خشبية ضخمة ، تغطى فى بعض الأحيان برقائق من الفضة أو الذهب وتصور عليها من أسفلها بعض المناظر الطبيعية[٧٠] .

وكان أعظم المحاربين الستة من ملوك أشور هم أيضاً أعظم البنائين منهم ، فقد أعاد تغلث فلاصر الأول بناء هياكل أشور بالحجارة ، وقال عن واحد منها إنه « جعل داخله متلألئاً كقبة السماء ، وزين جدرانه حتى كانت فى لألاء النجوم المشرقة ، وجعله فخماً ذا سناء وبريق »[٧١] وكان الملوك الذين جاءوا من بعده أسخياء فيما وهبوه للمعابد، ولكنهم كانوا كسليمان يفضلون عليها قصورهم ،

فقد شاد أشور ناصربال الثانى فى كالخ قصراً عظيما من الآجر المبطن بالحجارة وزيّنه بالنقوش التى تمتدح التقوى والحروب . وقد كشف راسام عند بلاوات بالقرب من هذا الموضع عن بقايا بناء آخر عثر فيه على بابين كبيرين عظيمين من البرنز دقيقى الصنع[٧٢] . وخلد سرجون الثانى ذكره بأن أقام قصراً فسيحاً عند دور — شروكين (أى حصن سرجون) فى موضع خراساباد الحالية . وكان على جانبى مدخله أثوار مجنحة ، وعلى جدرانه نقوش وقرميد برّاق ، وكانت حجراته الواسعة ذات أثاث بديع النقش والصنع كما كانت تزينها تماثيل تبعث فى النفس الروعة والمهابة . وكان سرجون كلما انتصر فى واقعة جاء بالأسرى ليعملوا فى هذا الصرح العظيم ، وجاء بالرخام واللازورد ، والبرنز والفضة ، والذهب ليجمله بها . وشاد حوله طائفة من الهياكل ، وأقام من خلفه زجورات من سبع طبقات غطيت قمة أعلاها بالفضة والذهب وشاد سنحريب فى نينوى قصراً ملكياً سماه « المنقطع النظير » يفوق فى ضخامته كل القصور القديمة[٧٣] . وكانت جدرانه وأرضه تتلألأ فيها نفائس المعادن والأخشاب والحجارة ، وكانت قراميده تنافس فى بريقها آيتى النهار والليل ، وصب له صناع المعادن آساداً وأثواراً ضخمة من النحاس ، ونحت له المثالون أثوار مجنحة من حجر الجير والمرمر ، ونقشوا على جدرانه الأغانى الريفية . وواصل عسرهدن توسيع نينوى وإعادة ما تهدم من عمائرها ، وفاقت مبانيه مبانى من سبقوه جميعهم فى روعتها وفى أثاثها وأدواتها المترفة الثمينة . فقد كانت اثنتا عشرة ولاية تقدم إليه حاجته من المواد والرجال ، ونقل إلى بلاده آراء جديدة عن العمد والنقوش عرفها أثناء إقامته فى مصر ، ولما أتم بناء قصوره وهياكله ملأها بالتحف التى غنمها من جميع بلاد الشرق الأدنى وبما رآه فيها من روائع الفن[٧٤] .

وأسوأ ما يمكن أن يقال عن فن العمارة الأشورية أن قصر عسرهدن قد

انهار كله وأصبح أطلالا بعد ستين سنة من بنائه(٧٥) . ويحدثنا أشــور بانيبال أنه أعاد تشييده ، ويخيل إلينا ونحن نقرأ نقشه أن القرون التى تفصل ما بيننا وبين هــذا العصر قد انطوت ، وأننا نخترق بأبصارنا قلب ذلك الملك :

« وفى ذلك الوقت تقادم عهد الحرم ، مكان الراحة فى القصر . . . الذى شاده ســنحريب ليقيم فيه ، وذلك لطول ما استمتع فيه من بهجة وسرور ، وتداعت جدرانه . وإذ كنت أنا أشور بانيبال ، الملك العظيم ، الملك القادر ، ملك العالم ، ملك أشور ، . . . قد نشأت فى ذلك الحرم وحفظنى فيه أشور ، وسن ، وشمش ، ورامان ، وبل ، ونابر ، وإشتار ، . . . وأنا ولىّ للعهد ، وبسطوا علىّ حمايتهم الطيبة وملاذهم الرضى ؛ . . . ولم ينفكوا يبعثون إلى فيه أنباء سارة عن ظفرنا بأعدائنا ، وإذ كانت أحلامى وأنا على سريرى فى الليل أحلاماً سارة ، كما كانت خيالاتى فى الصباح مبهجة جميلة ، . . . فقد مزقت خربائه ، وأردت أن أوسع رقعته فمزقتها جميعاً . وشدت بناء مساحة أرضه خمسون تبكّى . وبنيت ربوة ولكننى وقفت خائفاً أمام مزارات أربابى الآلهة العظام ، فلم أعل بهذا البناء كثيراً . وفى شهر طيب : ويوم مُوات ، وضعت أساسه فوق تلك الربوة ، وأقمت البناء ؛ وصببت نبيذ السمسم ونبيذ العنب على قباه مؤنه ، كما صببتهما على جداره الطينى . ولكى أشيد هذا الحرم كان أهل بلادى ينقلون اللبنات فى عربات عيــلام التى غنمتها منهم بأمر الآلهة . وسخرت ملوك بلاد العرب الذين نقضوا الهدنة معى ، والذين أسرتهم فى الحرب بيدى وهم أحياء ، يحملون الأسفاط و (يابسون) قلانس الفعلة ليشيدوا ذلك الحرم . . . وكانوا يقضون نهارهم فى صــنع اللبنات ويرغمون على العمل فيه أثناء عزف الموسيقى . وشدت بناءه من قواعده حتى ســقفه وأنا مغتبط مسرور ، وأنشأت فيه من الحجرات أكثر مما

كان به قبلا ، وجعلت العمل فيه فخما ، ووضعت فوقه كتلا طويلة من أشجار الأرز التى تنمو على سرارا ولبنان ، وغطيت الأبواب المصنوعة من خشب اللبارو ذى الرائحة الذكية ، بطبقة من النحاس وعاقتها فى مداخله ... وزرعت حوله أيكة حوت جميع أنواع الأشجار ، والفاكهة ... على اختلاف أصنافها . . . ولما فرغت من أعمال بنائه قربت القرابين العظيمة للآلهة أربابى ، ودشنته وأنا مغتبط منشرح الصدر ، ودخلته تحت ظلة فخمة(٧٦) .

الفصل الخامس

خاتمة أشور

آخر أيام ملك — أسباب انحلال أشور — سقوط نينوى

بيد أن « الملك العظيم ، الملك القادر ، ملك العالم ، ملك أشور » أخذ فى آخر أيامه يندب سوء حظه . وآخر ما خلفه لنا من الألواح يثير مرة أخرى مسألتى سفر الجامعة وسفر أيوب :

« لقد فعلت الخير لله والناس ، للموتى والأحياء ؛ فلِمَ إذن أصابنى المرض وحلّ بى الشقاء ؟ إنى عاجز عن إخماد الفتن التى فى بلادى ، وعن حسم النزاع القائم فى أسرتى ، وإن الفضائح المزعجة لتضايقنى على الدوام ، وأمراض العقل والجسم تطأطئ من إشرافى ، وهأنذا أقضى آخر أيامى أصرخ من شدة الويل ، بائساً فى يوم إله المدينة ، يوم العيـــد . المنيّة تنشب فىّ أظفارها ، وتنحدر بى نحو آخرتى . أندب حظى ليلا ونهاراً ». وأنوح وأعول وأتوجع : « أى إلهى ! هب الرحمـــة لإنسان وإن كان عاقاً حتى يرى نورك ! »(٧٧)(*) .

(*) ويصور ديودور هذا الملك فى صورة من أحد يقضى عمره فى إشباع شهواته النسائية والفجور والفسق الخنث . ولسنا نعرف على أى شىء استند ديودور فى هذا الاتهام . ثم إنه يعزو إليه أنه هو واضع هذه العبارة التى على قبره :

إنك تعلم حق العلم أنك قد ولدت للفناء

فاطرب ، وابتهج فى الأعياد .

وإذا مت فلن يبقى لك بعدئذ ما يسرك ،

ومن أجل هذا فإنى ،

وقد حكمت من قبل نينوس المظومة ،

لست الآن إلا ترابا .

ولكن قد بقيت لى هذه الأشياء التى ابتهجت بها

فى حياتى — الطعام الذى أكلته ، واللهو الذى

استمتعت به ، وملاذ الحرب ومسراتها .

أما ما عدا هذا من الأشياء التى يراها الناس نعما فقد تركتها خلفى(٧٨)

ولعلنا لا نجد شيئاً من التناقض بين هذا المزاج وبين المزاج الذى تصوره نصوص هذا الكتاب ؛ فقد يكون أحدهما تمهيداً طبيعياً للآخر .

ولسنا نعرف كيف قضى أشور بانيبال نحبه . فأما القصة التى وضعها بيرُن فى قالب مسرحية ، والتى تقول إنه أشعل النار فى قصره فهلك وسط اللهب ، فإن مردها إلى اكتسياس[٧٩] وهو مؤرّخ مولع بإيراد كل ما هو غريب، وقد لاتكون إلا أسطورة من الأساطير . ومهما تكن ميتته فقد كانت نذيراً بما سيؤول إليه أمر بلاده ورمزاً لآخرتها ؛ لقد كانت هى الأخرى مقبلة على الفناء لأسباب بعضها من صنع يده . ذلك أن حياة أشور الاقتصادية كان جُلّ اعتمادها على ما يصل إليها من خارجها ، وقد أسرف ملوكها فى الجرى على هذه السياسة الحمقاء ، فكان مصدر حياة البلاد هو الفتوح الخارجية التى تأتيها بالمال الوفير من الغنائم والمتاجر . وتلك سياسة تعرضها للخراب فى أية لحظة إذا ما هزمت جيوشها فى واقعة حاسمة . وسرعان ما أخذت الصفات الجسمية والخلقية ، التى جعلت الجيوش الأشورية رهيبة لا تقهر فى ميدان القتال ، تضعف بتأثير الانتصارات التى نالها هؤلاء الجنود ؛ ذلك أن كل واقعة تنتصر فيها أشور كان يهلك فيها أقوى جنودها وأبسلهم ، فلا ينجو من القتل إلا الضعاف والمترددون والحذرون يعودون إلى بلادهم ليكثروا من نسلهم ، وتلك خطة مآلها إضعاف النسل ، ولعلها كانت من أسباب ارتقاء الحضارة لأنها انتزعت من البـــلاد أشد الناس وحشية ، ولكنها قوّضت الأساس الحيوى الذى شادت عليه أشور قوتها .

وكان اتساع فتوحها سبباً آخر من أسباب ضعفها . ولم يكن إفقار الحقول من زراعها لإطعام إله الحرب النهم هو السبب الوحيد فى هذا الضعف ، بل كان له سبب آخر وهو أن فتوحها جاءت إليها بالأسرى وبملايين من الأجانب المملقين الذين تناسلوا كما يتناسل المعدمون البائسون ، فلم يبقوا على شىء من الوحدة القومية فى الجسم والخُلُق . وكانوا لكثرتهم المطردة قوّة معادية تعمل على الضعف والانحلال بين الفاتحين أنفسهم . وأخذ هؤلاء الرجال القادمون من البلاد الأجنبية يزداد عديدهم فى الجيش نفسه بينما كان الغزاة أنصاف الهمج يهاجمون البلاد من جميع أطرافها ،

ويستنزفون مواردها فى سلسلة لا آخر لها من الحروب للدفاع عن تخومها غير الطبيعية .

ومات أشور بانيبال فى عام ٦٢٦ ق . م . ، وبعد أربعة عشر عاماً من موته اجتاح البلاد جيش من البابليين بقيادة نبوخذ نصر ومعه جيش من الميديين بقيادة سياخار وجحافل أخرى غير نظامية من السكوذيين أهل القفقاس ، وسرعان ما استولت هذه الجيوش على القلاع الشمالية بسهولة عجيبة . وخربت نينوى تخريباً لا يقل فى قسوته وشموله عما فعله ملوكها من قبل بالسوس وبابل ، فأشعلت النار فى المدينة ، وذُبح أهلها أو سيقوا أسرى ، ونُهب القصر الذى شاده أشور بانيبال من عهد قصير ثم دُمّر أشنع تدمير . وهكذا اختفت أشور من التاريخ ، ولم يبق منها إلا بعض أفانين الحرب وأسلحتها ، وتيجان لولبية لبعض عمدها النصف « الأيونية » ، وبعض النظم الإدارية لحكم الولايات انتقلت منها إلى الفُرْس ومقدونية وروما . وظل الشرق الأدنى بعض الوقت يذكر لها قسوتها فى توحيد نحو اثنتى عشرة دولة صغيرة تحت سلطانها ، وتحدَّث اليهود عن نينوى حديثاً ينطوى على الحقد والضغينة ووصفوها بأنها : « المدينة الدموية ، التى تفيض بالكذب واللصوصية »(٨٠) . وما هى إلا فترة قصيرة حتى نسى الناس أسماء ملوكها العظام ما عدا أعظمهم قوة وبطشاً ، وأصبحت قصورهم خربات دارسة تحت الرمال السافية . وبعد مائتى عام من الاستيلاء على نينوى وطئت جيوش أكسنوفون التى تبلغ عدتها عشرة آلاف مقاتل الأكوام التى كانت من قبل نينوى ، ولم يدر بخلدها قط أن هذه الأكوام بعينها هى موضع الحاضرة القديمة التى كانت تحكم نصف العالم . ولم تقع أعين هذه الجيوش على حجر واحد من حجارة الهياكل التى حاول جنود أشور الأتقياء أن يجملوا بها أعظم عواصمهم . وحتى أشور نفسه إلهها الخالد أمسى فى عداد الموتى .

ملحوظة : استعنا فى تحقيق أسماء الأماكن الواردة فى هذا الباب وفى البابين السابقين بالخرائط الجغرافية والتاريخية التى تفضلت بإعارتنا إياها المفوضية العراقية بالقاهرة ووزارة الخارجية العراقية . (المترجم)

الباب الحادى عشر

خليط من الأمم

الفصل الأول

الشعوب الهندوربية

مسرح الأجناس – الميتانيون – الحثيون – الأرمن – السكوذيون –
الفريجيون – الأمم المقدسة – الليديون – كروسس –
العملة – صولون وقورش

كان الشرق الأدنى فى عهد نبوخذ نصر يبدو للعين البعيدة الفاحصة كأنه بحر خضم يتلاطم فيه خليط من الآدميين ، يأتلفون ثم يتفرقون ، يَستعبدون ثم يُستعبدون ، يأكلون ويؤكلون ، ويَقتُلون ويُقتَلون إلى غير نهاية . وكان من وراء الإمبراطوريات الكبرى ومن حولها – مصر وبابل وأشور والفرس – يضطرب هذا الخليط من الشعوب نصف البدوية نصف المستقرة : الكمريين ، والقليقيين ، والكبدوكيين ، والبثونيين ، والأشكانيين ، والميزيين ، والميونيين ، والكريين ، والبمفيليين ، والبزيديين ، واللوكوانيين ، والفلسطينيين ، والعموريين ، والكنعانيين ، والإدميين ، والعمونيين ، والمؤابيين وعشرات العشرات من الشعوب الأخرى التى كان كل شعب منها يظن نفسه مركز الأرض ومحور التاريخ ، ويعجب من جهل المؤرخين وتحيزهم إذ لم يخصوه إلا بفقرة أو فقرتين فى كتبهم .

وكان هؤلاء البدو طوال تاريخ الشرق الأدنى خطرا يهدد الممالك التى كانت

أكثر منهم استقراراً ، والتى كانوا يحيطون بها من كل الجهات تقريباً . وكان الجدب يدفع بهم من حين إلى حين إلى هذه الأصقاع الغنية ، فتنشب بينها وبينهم الحرب ، أو يتطلب منها ذلك الاستعداد الدائم للحرب[١] . وكان الذى يحدث عادة أن تموت المملكة المستقلة وتحيا من بعدها القبيلة البدوية التى اجتاحت أراضيها فى آخر الأمر . والعالم ملىء بالأصقاع التى ازدهرت فيها الحضارة فى يوم من الأيام والتى عاد البدو يجوسون خلالها من جديد .

وفى بحر الأجناس المتلاطم أخذت بعض الدول الصغرى تتشكل ، ويكون لها نصيب صغير فى تراث الجنس البشرى ، وإن لم يزد نصيبها هذا على أن تكون ناقلة وموصلة . ويهمنا من هذه الشعوب الميتانيون ، وليس ذلك لأنهم أعداء مصر الأقدمون فى الشرق الأدنى ، بل لأنهم أول الشعوب الهندوربية التى عرفناها فى آسية ، ولأنهم أول عبدة الآلهة — مثرا ، وإندرا ، وفرونا — التى انتقلت منهم إلى فارس والهند ، فأعاننا بانتقالها على تتبع حركات الجنس الذى كان يطلق عليه من قبيل التيسير الجنس « الآرى »(*) .

وكان الحثيون من أقوى الشعوب الهندوربية القديمة ومن أكثرها حضارة ، وأكبر الظن أنهم جاءوا عن طريق البسفور والهلسبنت (الدردنيل) وبحر إيجه ، أو عن طريق القفقاس ، واستقروا طبقة عسكرية حاكمة تسيطر على الزراع سكان البلاد الأصليين فى شبه الجزيرة الجبلية الواقعة جنوبى البحر الأسود والمعروفة الآن باسم آسية الصغرى . ونراهم حوالى ١٨٠٠ ق . م مستقرين قرب منابع دجلة والفرات ، ثم نشروا بعدئذ جيوشهم وبسطوا نفوذهم فى سوريا ، وأقلقوا بال

(*) كان أول ظهور لفظ الآريين عند الحرى إحدى قبائل أمة الميتانى . وكان هذا اللفظ اسماً أطلقته على نفسها مجموعة الشعوب الضاربة بقرب شواطئ بحر قزوين أو التى كان أصلها من يضربون بالقرب من هذه الشواطئ . أما اليوم فإن هذا اللفظ يطلق بنوع خاص على الميتانيين والحثيين ، والميديين ، والفرس ، والهنود القدا — أى على الشعبة الشرقية من الشعوب الهندوربية التى عمرت شعبتها الغربية بلاد أوربا[٢] .

مصر القوية حيناً من الزمان . ولقد رأينا كيف اضطر رمسيس الثانى أن يعقد الصلح ، وأن يقر لملك الحثيين بأنه نده . واتخذ الحثيون عاصمتهم عند بوغاز كوى(*) وجعلوا أساس حضارتهم فى أول الأمر الحديد الذى استخرجوه من الجبال المتاخمة لأرمينية ، ثم الشرائع التى تأثرت كثيراً بشرائع حمورابى ، ثم ما طبعوا عليه من إدراك ساذج للجمال حفزهم إلى نحت تماثيل مجسمة ضخمة سمجة أو نقرها فى صخور الجبال(**) . وكانت لغتهم تنتمى فى أكثر ألفاظها إلى أسرة اللغات الهندوربية ، وقد حل رنزنى رموزها من عهد قريب بدراسة الاثنى عشر ألف لوح التى عثر عليها هيوجو ونكلر فى بوغاز كوى . وهى فى اشتقاقها وتصريفها شديدة الشبه باللغتين اللاتينية واليونانية ، ومن كلماتها البسيطة ما هو ظاهر القرابة للكلمات الإنجليزية(†) . وكان للحثيين خط تصويرى يكتبونه بطريقتهم الخاصة العجيبة . إذ كانوا يكتبون سطراً من الشمال إلى اليمين ، ثم يكتبون السطر الذى يليه من اليمين إلى الشمال ، ثم من الشمال إلى اليمين وهكذا دواليك . وأخذوا الخط المسمارى عن البابليين ، وعلموا أهل كريت صنع الألواح الطينية ليكتبوا عليها ، ويظهر

(*) فى شرق نهر هاليس ، وبالقرب منها على الضفة الأخرى من النهر تقع مدينة أنقرة عاصمة تركيا الحديثة ، وهى ابنة أنقورة التى كانت فى الأيام القديمة حاضرة فريجيا . وقد يكون مما يعيننا على رسم صورة ثقافية متناسبة الأبعاد أن ندرك أن الأتراك الذين نسميهم « مرعبين » يفخرون بقدم عاصمتهم ويرثون لحال أوربا التى يسيطر عليها البرابرة الكفرة . إن كل بقعة فى العالم لتعد بلا جدال مركزاً له .

(**) وقد كشفت البارون فون أوبنهايم عند تل حلف وغيره من الأماكن كثيراً من تحف الحثيين الفنية ، وجمعها فى متحفه ، وهو مصنع مهجور فى برلين . ويرجع كاشف هذه الآثار تاريخ معظمها إلى حوالى ١٢٠٠ ق . م ، ويرجع بعضها إلى الألف الرابع قبل الميلاد . وتحوى هذه المجموعة طائفة من الآساد منحوتة فى الحجر نحتاً ساذجاً ولكنه قوى ، وتماثيل لثالوث الآلهة الحثية — إله الشمس ، وإله الجو ، وهبات إشتار الحثيين . وأعظم ما يروعنا من هذه التماثيل تمثال لأبى الهول قبيح المنظر ، وضع أمامه وعاء من الحجر ليقرب فيه القربان .

(†) انظر مثلا فادار **Water** إذا **Eat** ، أو جا أنا **I** (وبلاتينية **Fgo**) توج **hee** ، فش **we** ، مو **me** ، كوش **who** (وباللاتينية **quis**) ، كوت **what** (باللاتينية **quid**) وغيرها(٣) .

أنهم اختلطوا بالعبرانيين الأقدمين اختلاطاً شديداً أكسب هؤلاء أنفهم الأقنى الشديد القنا . ومن ثم فإن من واجبنا أن نعد هذه الخاصة العبرية « آرية » حقة[٤] . ومن الألواح التي بقيت إلى هذه الأيام ما يحتوى على مفردات حثية وما يقابلها باللغتين السومرية والبابلية ، ومنها ما هو أوامر إدارية تكشف عن دولة عسكرية ملكية متماسكة ؛ ومنها حطام ألواح تبلغ عدتها مائتين تحوى على طائفة من القوانين من بينها قواعد لتحديد أثمان السلع[٥] . ولقد اختفى الحثيون من صفحة التاريخ اختفاء يكاد يشبه فى غرابته وغموضه ظهورهم فيها ، فقد اندثرت عواصمهم واحدة بعد واحدة — ولعل سبب اندثارها أن ميزتهم العظيمة التي فاقوا بها غيرهم من الشعوب ، وهى معرفة الحديد ، أضحت فى متناول منافسيهم وسقطت قرقيش آخر عواصمهم فى يد الأشوريين عام ٧١٧ ق . م .

وكان إلى شمال بلاد أشور أمة مستقرة إذا قيست إلى غيرها من الأمم ، يعرفها الأشوريون باسم أرارتو ، والعبرانيون باسم أرارات ، ومن جاء بعدهم من الأمم باسم الأرمن . واحتفظ الأرمن بحكومتهم المستقلة ، وعاداتهم وفنونهم الخاصة ، قروناً كثيرة تبدأ قبل فجر التاريخ المدون ، وتستمر إلى أن بسط الفرس سلطانهم على آسية الغربية بأجمعها . وأثروا فى أيام أرجستس الثانى أعظم ملوكهم (حوالى ٧٠٨ ق . م) من تعدين الحديد وبيعه فى بلاد آسية واليونان ، وبلغوا درجة عظيمة من الرخاء وسهولة العيش والحضارة والآداب العامة ، وشادوا المبانى العظيمة من الحجارة ، وصنعوا المزهريات والتماثيل الصغيرة الجميلة الدقيقة . ولكنهم أضاعوا ثروتهم فى الحروب الهجومية الكثيرة النفقات ، وفى صد غارات الأشوريين عن بلادهم . ثم بسط عليهم الفرس سلطانهم فى أيام قورش الفاتح .

وإلى شمال الأرمن ، وعلى ضفاف البحر الأسود ، كان يتجول السكوذيون وهم عشائر حربية تتألف من خليط من المغول والأوربيين ، جبابرة متوحشون ملتحون ، يقيمون فى عربات ، ويبقون نساءهم فى عزلة شديدة[٦] ، ويركبون

الخيل البرية عارية ، يحاربون ليعيشوا ، ويعيشون ليحاربوا ، ويشربون دماء أعاديهم ، ويتخذون جلود رؤوس هؤلاء الأعداء قطائل لهم[٧] ، أضعفوا أشور بغاراتهم الدائمة عليها ، واجتاحوا غربي آسية (حوالى عام ٦٣٠ — ٦١٠ ق . م) أخذوا يدمرون في طريقهم كل شيء ويقتلون كل إنسان ، وتقدموا إلى مدن دال النيل نفسها ، ثم فشا فيهم وباء غريب مجهول قضى على عدد كبير منهم ، وغلبهم آخر الأمر الميديون ، وردوهم على أعقابهم إلى مساكنهم في الشمال[٨](*) وإنا لنلمح في هذه القصة ومضة أخرى من المأساة التي تتكرر على الدوام في جميع العصور ، وهي ما تفعله القبائل الهمجية الرابضة وراء الأمم القديمة جميعها والمحيطة بها .

وظهرت في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد قوة جديدة في آسية الصغرى ، ورثت بقايا الحضارة الحثية ، وكانت حلقة اتصال بينها وبين ليديا وبلاد اليونان . وكانت الأساطير التي حاول بها الفريجيون أن يفسروا للمؤرخين المتشوفين قيام دولتهم قصة رمزية لقيام الأمم وسقوطها . فهم يقولون إن جورديوس أول ملوكهم كان فلاحاً بسيطاً لم يرث من أبويه إلا ثورين اثنين(**) ، وإن ابنه ميداس ثاني أولئك الملوك كان رجلا متلافاً أضعف الدولة بشراهته وإسرافه

(*) يحدثنا أبقراط أن « نساءهم ، طالما كن عذارى : يركبن الخيل ، ويصدن ، ويرمين بالحراب وهن على ظهور الخيل ، ويحاربن أعداءهن . ولا يسمحن بفض بكارتهن إلا إذا قتلن ثلاثة من هؤلاء الأعداء . . . والمرأة التي تتخذ لها زوجاً لا تقاتل قط بعد الزواج ، إلا إذا أرغمت على هذا العمل بالاشتراك في حملة عامة . وليس لهؤلاء النساء ثدي أيمن ، وذلك لأن أمهاتهن يأتين بأداة من البرنز متوهجة من شدة حرارتها تصنع لهذا الغرض خاصة ويكوينهن بها وهن في سن الرضاع في مكان ثديهن الأيمن ، فيقف بذلك نموه وتتحول كل قوته ونمائه إلى الكتف اليمنى والذراع اليمنى »[٩] .

(**) وأمر الهاتف زيوس الفريجيين أن يختاروا ملكاً عليهم أول رجل يدخل الهيكل في عربة ؛ وكان هذا الداخل هو جورديوس . ووهب الملك الجديد الإله عربته . وتنبأ هاتف جديد بأن من يفلح في حل العقدة المشكلة التي تربط النير بعريش العربة يحكم جميع بلاد آسية . فجاء الإسكندر — حسبما تروية القصة — وقطع العقدة الجوردية بضربة سيفه .

الذين مثّلهما الخلف بالأسطورة المأثورة التى تقول إنه طلب إلى الآلهة أن تهبه القدرة على تحويل كل ما يمسه إلى ذهب. وأجابت الآلهة طلبه فكان كل ما يمس جسمه يستحيل ذهبا حتى الطعام الذى تلمسه شفتاه . وأوشك الرجل أن يموت جوعاً ، لكن الآلهة سمحت له أن يطهّر نفسه من هذه النقمة بأن يغتسل فى پكتولس — وهو النهر الذى ظل بعدئذ يخرج حبّا من الذهب .

واتخذ الفريجيون طريقهم من آسية إلى أوربا ، وشادوا لهم عاصمة فى أنقورة ، وظلوا وقتاً ما ينازعون أشور ومصر السيادة على الشرق الأدنى ، واتخذوا لهم إلهة — أمًّا تدعى ما ، ثم عادوا فسموها سيبيل ، واشتقوا هذا الاسم من الجبال (سيبيلا) التى كانت تعيش فيها ، وعبدوها على أنها روح الأرض غير المزروعة ، ورمز جميع قوى الطبيعة المنتجة . وأخذوا عن أهل البلاد الأصليين طريقة خدمة الإلهة بالدعارة المقدسة ، ورضوا بأن يضموا إلى أساطيرهم الشعبية القصة التى تقول إن سيبيل أحبّت الإله الشاب أرتيس(*) وأرغمته على أن يخصى نفسه تكريماً لها . ومن ثم كان كهنة الأم العظيمة يضحون لها برجولتهم حين يدخلون فى خدمة هياكلها[11] . وقد سحرت هذه الخرافات الوحشية لب اليونان وتغلغلت فى أساطيرهم وأدبهم . وأدخل الرومان الإلهة سيبيل رسمياً فى دينهم ، وكانت بعض الطقوس الخليعة التى تحدث فى حفلات المساخر الرومانية مأخوذة عن الطقوس الوحشية التى كان الفريجيون يتبعونها فى احتفالهم بموت أرتيس الجميل وبعثه[12] .

وانتهى سلطان الفريجيين فى آسية الصغرى بقيام مملكة ليديا الجديدة التى أسسها الملك جيجيس واتخذ سرديس عاصمة لها . ثم حكمها أليتيس أربعين سنة بلغت فى خلالها درجة عظيمة من الرخاء والقوة ثم ورثها كروسس (٥٧٠ — ٥٤٦ ق . م) واستمتع بها أيما استمتاع ، ووسع رقعتها بما فتحه من أقاليم

(*) وتحدثنا الأساطير بأن أرتيس ولدته نانا الإلهة العذراء بمعجزة من المعجزات ، وبأنها حملت فيه بوضع رمانة بين ثدييها[10] .

جديدة شملت آسيا الصغرى جميعها تقريباً ، ثم أسلمها آخر الأمر إلى الفُرْس . واستطاع بفضل الرشى السخية التى كان يقدمها الساسة المحليين أن يخضع إلى ليديا الدويلات التى كانت تحيط بأملاكه واحدة بعد واحدة ، كما استطاع بضحاياه المنقطعة النظير والتى كان يقدمها قرباناً إلى الآلهة المحلية أن يهدئ من غضب شعوب تلك الدويلات ، وأن يقنعها بأنه حبيب آلهتهم . وامتاز كروسس عن غيره من الملوك بسك نقود ذهبية وفضية ذات شكل بديع تضربها الدولة وتضمن قيمتها الاسمية . وليست هذه هى أول المسكوكات الرسمية التاريخية كما اعتقد المؤرخون زمناً طويلا ، وليست هى بلا جدال بداية اختراع المسكوكات(*) ، ولكنها مع هذا كانت مثالا يحتذى ساعد انتشار التجارة فى بلاد البحر المتوسط . لقـد ظل الناس قروناً طوالا يستخدمون معادن مختلفة لتقدير قيم البضائع وتسهيل تبادلها ، ولكنها سواء كانت النحاس أو البرنز أو الحديد أو الفضة أو الذهب كانت فى أغلب البلاد تقدر قيمتها فى كل عمل تجارى حسب وزنها أو حسب غيره من الاعتبارات . لهذا كان استبدال عملة قومية معترف بها رسمياً بهذه الوسائل المتعبة إصلاحاً عظيم القيمة فى عالم التجارة ، فقد يسرت هذه الوسيلة الجديدة انتقال السلع ممن يحسنون إنتاجها إلى من هم فى أشد الحاجة إليها ، فزاد ذلك من ثروة العالم ، ومهد السبيل لقيام المدنيات التجارية كمدنيات الأيونيين واليونان ، حيث اسـتخدمت الثروة التى جاءت من طريق التجارة لتمويل الأعمال الأدبية والفنيـة .

ولم يصل إلينا شيء من الأدب الليدى ، كذلك لم يبق قط شيء من المزهريات الجميلة القيمة المصنوعة من الذهب والحديد والفضة والتى تقرب بها كروس للآلهة التى غلبها . وتدل المزهريات التى وجدت فى مقابر الليديين والتى

(*) وجدت مسكوكات أقدم من هذه عهداً عنـد موهنجو — دارو فى الهند (٢٩٠٠ ق . م) ، ولقد رأينا من قبل كيف سك سنحريب (حوالى عام ٧٠٠ ق . م) قطعاً من النقود قيمتها نصف شاقل .

يحتويها الآن متحف اللوفر على أن ما كان لمصر وبابل من زعامة على الفن في ليديا أيام كروسس قد أخذ يحل محله نفوذ اليونان المتزايد ؛ وكان لهذه المزهريات من دقة الصنع ما يعادل أمانتها وإخلاصها للطبيعة . ولما زار هيرودوت ليديا وجد أن عادات أهلها لا تكاد تمتاز عن عادات اليونان أهل بلاده ؛ ويقول إن ما كان باقياً لديهم من هذه العادات التي تميزهم عن اليونان هو أن بنات العامة منهم كن يكسبن بائناتهن من الدعارة[١٤] . وهذا المؤرخ الثرثار نفسه هو أهم ما نعتمد عليه من المراجع في القصة التي تروى عن كيفية سقوط كروسس . فهو يقص علينا كيف عرض كروسس ثروته على صولون ، ثم سأله عمن يراه أسعد الناس . وبعد أن ذكر صولون أسماء أشخاص ثلاثة كلهم من الموتى أبى أن يقول إن كروسس سعيد ، وحجته في هذا أنه لا يعرف أي المصائب قد يأتي بها الغد . وأخرج كروسس المشرع العظيم من عنده معتقداً أنه إنسان أبله . ثم أخذ بعدئذ يأتمر ببلاد الفرس ؛ وما لبث أن رأى جحافل قورش على أبوابه . وانتصر عليه الفرس بفضل ما كان لجمالهم من رائحة نتنة قوية — كما يقول هذا المؤرخ نفسه — لم تطقها جياد الليديين ؛ فجمحت ودحر الليديون ، وسقطت سرديس . وتقول الرواية القديمة إن كروسس أعد كومة كبيرة من الحطب ، واتخذ مكانه عليها ومن حوله أزواجه وبناته ومن بقي على قيد الحياة من أبناء بلاده ، ثم أمر خصيانه أن يحرقوهم جميعاً . وذكر في اللحظات الأخيرة من حياته قول صولون ، فأسف على جهله وقلة تبصره ، وأخذ يلوم الآلهة التي تقبلت جميع قرابينه وجازته عليها بالخراب والهلاك . وأشفق عليه قورش — إذا جاز لنا أن نأخذ برواية هيرودوت[١٥] — وأمر بالنار أن تطفأ ، وأخذ كروسس معه إلى فارس ، وجعله من أقرب مستشاريه ومن أكثرهم جدارة بثقته .

الفصل الثانى

الأقوام الساميون

قدم العرب — الفينيقون — تجارتهم العالمية — طوافهم حول أفريقية .
مستعمراتهم — صور وصيدا — آلهتهم — نشر الحروف
الهجائية — سوريا — عشتورت — موت أدنيس
وبعثه — التضحية بالأطفال

إذا حاولنا أن نقلل من اضطراب اللغات وتباينها فى الشرق الأدنى بقولنا إن معظم الشعوب التى كانت تسكن فى الأجزاء الشمالية من هذا الإقليم شعوب هندوربية وإن التى تقطن الأجزاء الوسطى والجنوبية منه والممتدة من أشور إلى جزيرة العرب شعوب سامية(*) ، إذا حاولنا هذا فإن من واجبنا فى الوقت نفسه أن نذكر أن الحقائق ليست واضحة المعالم إلى هذا الحد ، وأن الفوارق بين الأجناس ليست بهذه الصورة التى نرسمها للتفرقة بينها تيسيراً للبحث ، لسنا ننكر أن بلاد الشرق الأدنى تقسمها الجبال والصحارى إلى بيئات مختلفة منعزلة بعضها عن بعض بطبيعتها ، وأنها لذلك تختلف فى لغاتها وتقاليدها . ولكن التجارة قد عملت على مزج لغات هؤلاء الأقوام وعاداتهم وفنونهم فى طرقها الرئيسية (كالطريق الممتد على شواطئ النهرين الكبيرين من نينوى وقرقيش إلى الخليج الفارسى) ، هذا إلى أن هجرة الشعوب ونقل جماعات كبيرة منها قسراً لأغراض استعمارية قد مزجا الأجناس واللغات المختلفة مزجاً كان من آثاره أن صحب اختلافها فى الدم بعض التجانس فى الثقافة . ومن ثم فإننا إذا سمينا بعض الشعوب هندوربية فإنما نقصد بهذه التسمية أن هذه هى الصفة الغالبة عليها ؛ وإذا قلنا إن شعباً ما « سامياً » فإن

(*) لفظة سامية مشتقة من سام الذى يقال إنه أبو الشعوب السامية كلها .

كل ما نعنيه أن السامية غالبة فيه . ولكن الحقيقة أنه لا توجد سلالة صافية ولم توجد قط ثقافة لم تتأثر بثقافة جيرانها أو ثقافة أعدائها . ومن واجبنا أن ننظر إلى هذه الرقعة الواسعة على أنها بيئة تدفقت على أجناسها المختلفة طوائف من هذا الجنس أو ذاك ؛ فغلب عليها الجنس الهندوروبى تارة وغلب عليها السامى تارة أخرى ، ولكن غلبة هذا الجنس أو ذاك لم تثمر من الناحية الثقافية إلا اصطباغ هؤلاء الغالبين بالصفات الثقافية العامة فى مجموع هذه الأجناس . فقد كان بين حمورابى ودارا الأوّل مثلاً اختلاف كبير فى الدم واللدين ، وكان يفصل بينهما من القرون ما يكاد يفصل منها بيننا وبين المسيح ، ولكننا إذا درسنا هذين العاهلين العظيمين دراسة دقيقة ، أدركنا أن من وراء هذا الاختلاف قرابة جوهرية بعيدة القرار .

ومهد الجنس السامى ومرباه جزيرة العرب ؛ فمن هذا الصقع الجدب حيث ينمو « الإنسان شـديداً عنيفاً ، وحيث لا يكاد ينمو نبات على الإطلاق » ، تدفقت موجة فى إثر موجة فى هجرات متتابعة من خلائق أقوياء شديدى البأس لا يهابون الردى ، بعـد أن وجدوا أن الصحراء والواحات لا تكفيهم ، فكان لا بد لهم أن يفتتحوا بسواعدهم مكاناً خصباً ظليلا يعولهم ويقوم بأودهم . فأما من بقى منهم فى بلادهم فقد أوجدوا حضارة العرب والبدو ، وأنشئوا الأسرة الأبوية وما تتطلبه من طاعة وصرامة خلقية ، وتخلقوا بالجبرية وليدة البيئة الشاقة الضنينة ، والشجاعة العمياء التى تدفع أصحابها إلى وأد بناتهم وتقديمهن قرباناً للآلهة . على أن الدين لم يكن أمراً جدياً بين هؤلاء الأقوام حتى جاءهم محمد بالإسلام ؛ ولم يعنوا بالفنون وملاذ الحياة لأنهم كانوا يرونها خليقة بالنساء ومن أسباب الضعف والانحلال . وظلوا وقتاً ما يسيطرون على التجارة مع الشرق الأقصى ، تتكدس فى ثغورهم غلات جزائر الهند ، وتحمل قوافلهم تلك الغلات وتنقلها فى الطرق البرية غير الآمنة إلى فينيقية وبابل . وشادوا فى قلب جزيرتهم العريضة المدن والقصور

والهياكل ، ولكنهم لم يكونوا يشجعون الأجانب على المجيء إليها ورؤيتها . ولقد بقي هؤلاء الأقوام آلاف السنين يحيون حياتهم الخاصة بهم ، محافظين على عاداتهم وأخلاقهم ، متمسكين بآرائهم ، ولا يزالون إلى اليوم كما كانوا في أيام كيوپس وجوديا . ولقد شهدوا مئات الممالك تقوم وتفنى من حولهم ، ولا تزال أرضهم ملكاً لهم يعضون عليها بالنواجذ ، ويحمونها من أن تطأها الأقدام الدنسة أو تنظر إليها الأعين الغريبة .

والآن يحق للقارئ أن يسأل من هم أولئك الفينيقيون الذين تردد ذكرهم في هذه الصحف ، والذين مخرت سفنهم عباب البحار كلها فلم يكن يخلو ثغر من تجارهم يساومون فيه ويبيعون ويشترون ؟ إن المؤرخ ليستحي إذا سئل عن أصلهم فهو لا يرى بدا من الاعتراف بأنه لا يكاد يعرف شيئاً من التاريخ الباكر أو التاريخ المتأخر لهذا الشعب الذي نراه في كل مكان ، ولكنه يفلت منا إذا أردنا أن نمسك به لنخبُره وندرسه[١٥] : فلسنا نعرف من أين جاء الفينيقيون ، أو متى جاءوا ، ولسنا واثقين من أنهم ساميون(*) أما تاريخ قدومهم إلى شاطئ البحر المتوسط فليس في وسعنا أن نكذب ما قاله علماء صور لهيرودوت ، وهو أن أجدادهم قدموا إلى بلدهم هذا من شواطئ الخليج الفارسي ، وأنهم شادوا تلك المدينة في العهد الذي نسميه نحن القرن الثامن والعشرين قبل ميلاد المسيح[١٧] . بل إن اسمهم نفسه لمن المشاكل العسيرة الحل . فقد يكون معنى لفظ الفوانكس الذي اشتق منه اليونان هذا الاسم هو الصبغة الحمراء التي كان يبيعها تجار صور ، وقد يكون معناه النخلة التي تترعرع على الشواطئ الفينيقية(**) ، وكان ذلك الشاطئ ، وهو شريط ضيق من الأرض يبلغ طوله ١٠٠ ميل ولا يزيد عرضه على عشرة

(*) يقول أوتران إنهم كانوا فرعاً من فروع الأقوام الذين أنشئوا الحضارة الكريتية[١٦].

(**) يكتب هذا الاسم أحياناً بالواو بدل الياء فيقال فونيقية وفونيق ولعل هذا أصوب وإن لم يكن مؤكداً كل التأكيد ، ولكننا آثرنا اللفظ القديم المألوف لأنه لم يثبت خطؤه . (المترجم)

أميال ، محصوراً بين البحر من جهة وسوريا من الجهة الأخرى، وكان هو كل ما يطلق عليه اسم بلاد فينيقية . ولم ير أهله أن استيطان جبال لبنان القائمة فى شرق بلادهم أو إخضاع هذا الإقليم لحكمهم عملا خليقاً باهتمامهم ، بل كانوا يقنعون بأن يظل هذا الحاجز المبارك قائماً شرق بلادهم يحميهم من الأمم ذات النزعة الحربية التى كانوا يحملون بضائعها إلى خلجان البحار .

وقد اضطرتهم هذه الجبال إلى العيش على ظهر البحار ، وظلوا من عهد الأسرة السادسة المصرية إلى ما بعدها أنشط تجار العالم القديم ؛ ولما تحرروا من حكم مصر (حوالى ١٢٠٠ ق . م) أضحوا سادة البحر المتوسط ، ولم يكتفوا بنقل التجارة ، بل كانت لهم مصنوعات عدة من الزجاج والمعادن ، والمزهريات المنقوشة المطلية ، والأسلحة والحلىّ والجواهر . وقد احتكروا لأنفسهم صُنع الصبغة الأرجوانية التى استخرجوا مادتها من حيوان بحرى رخوى يكثر بالقرب من شواطئهم[١٨] ، ومن ثم اشتهرت نساء صور باستخدام الألوان الزاهية الجميلة التى كن يصبغن بها ما برعن فى تطريزه من الأقمشة . وكانوا ينقلون هذه المصنوعات والفائض الذى يمكن نقله من غلات الهند والشرق الأقصى — من حبوب ، وخمور ، ومنسوجات ، وحجارة كريمة — إلى موانى البحر المتوسط قريبة كانت منهم أو بعيدة عنهم ؛ وكانت سفنهم تعود من هذه الموانى مثقلة بالرصاص ، والذهب ، والحديد من شواطئ البحر الأسود الجنوبية ؛ وبالنحاس ، وخشب السرو ، والغلال من قبرص(*) ، وبالعاج من أفريقية ؛ والفضة من أسبانيا ؛ والقصدير من بريطانيا ؛ وبالعبيد من كل مكان : وكانوا تجاراً دهاة ؛ أغروا فى مرة من المرار أهل أسبانيا بأن يعطوهم نظير شحنة من الزيت مقداراً من الفضة لم تتسع له سفائنهم ؛ فما كان من الساميين الماكرين إلا أن استبدلوا الفضة بما

(*) إن الاسمين الإنجليزيين للنحاس والسرو Copper & Cypress مشتقان من لفظ قبرص .

كان فى مراسى سفنهم من حديد وحجارة وأقلعوا بها مغتبطين[١٩] . على أن هذا لم يكفهم ، فأسروا الأهلين وسخروهم فى العمل فى المناجم ساعات طوالاً نظير أجور لا تكاد تكفى لابتياع أقواتهم(*) . ذلك أن الفينيقيين ، ككل التجار الأقدمين ، لم يكونوا يفرّقون كثيراً فى أعمالهم ولا فى لغاتهم بين التجارة والغدر ، أو بينها وبين اللصوصية ، فكانوا يسرقون الضعيف ، ويبتزون مال الغبى ، أما من عدا هذين الصنفين فكانوا يراعون معهم ما يقضى به الشرف . وكانوا أحياناً يستولون على السفن فى عرض البحار ، ويصادرون ما فيها من بضاعة ، ويأسرون من فيها من الملاحين ؛ وكثيراً ما كانوا يخدعون الأهلين المشوقين إلى الاستطلاع فيغرونهم بزيارة سفنهم ثم يبحرون بهم ويبيعونهم عبيداً[٢١] . وكان لهم أكبر الفضل فى تسوىء سمعة التجار الساميين الأقدمين وبخاصة عند اليونان الأوّلين ، الذين كانوا يفعلون فعلهم(†) .

وكانت سفائنهم المنخفضة الضيقة البالغ طولها نحو سبعين قدماً طرازاً جديداً فى بناء السفن ؛ ذلك بأنهم لم يحتذوا فيها حذو السفن المصرية المنحنى مقدمها إلى الداخل ، بل جعلوه ينحنى إلى خارجها وينتهى بطرف رفيع يشق الريح أو الماء أو مراكب الأعداء . وكان للسفينة شراع واحد كبير مستطيل الشكل مرفوع على سارية مثبتة فى قاعها ، وكان هذا الشراع يساعد العبيد الذين كانوا يدفعونها بصفين من المجاذيف . وكان الجند يقفون على سطح السفينة فوق

(*) انظر ما يقوله جِبُن « لقد شاءت الأقدار أن تكون أسبانيا فى العالم القديم كما كانت بيرو والمكسيك فى العالم الحديث . فلقد كان كشف تلك البلاد الغربية الغنية (يريد أسبانيا) على يد الفينيقيين ، وظلم أهلها السذج وتسخيرهم للعمل فى مناجمهم لفائدة الأجانب القادمين إلى بلادهم ، كان هذا كله سابقة لا تفترق فى شىء عما فعلته أسبانيا نفسها بأمريكا فى العصر الوسيط »[٢٠] .

(†) وأطلق اليونان – وقد ظلوا خمسمائة عام لا ينقطعون عن القرصنة وشن الغارات – اسم فينق على كل من كان دأبه الختل والتلصص[٢٢] .

المجذفين يحرسونها وهم متأهبون للاتجار أو للحرب على السواء . وكانت هذه السفن الضعيفة لا تسترشد ببيت الإبرة ولا يزيد غاطسها فى الماء على خمس أقدام . ومن أجل ذلك كانت تخشى أن تبتعد عن شاطئ البحر ، وظلت زماناً طويلا لا تجرؤ على السفر بالليل ، ثم ارتقى فن الملاحة شيئاً فشيئاً حتى استطاع أدلاء السفائن الفينيقيون أن يسترشدوا بالنجم القطبى (أو النجم الفينيقى كما كان يسميه اليونان) ويتوغلوا فى المحيطات ، ويطوفوا آخر الأمر حول أفريقية ، فساروا أولا بإزاء الساحل الشرقى متجهين نحو الجنوب و « كشفوا » رأس الرجاء الصالح قبل أن يكشفه فاسكودا جاما بنحو ألفى عام . وفى ذلك الوقت يقول هيرودوت : « ولما أقبل الخريف ، نزلوا إلى البر ، وزرعوا الأرض ، وانتظروا الحصاد ، فلما أن حصدوا الحَب ، أقلعوا بسفائنهم مرة أخرى . ولما أن مرّت عليهم فى عملهم هذا سنتان وصلوا فى السنة الثالثة إلى مصر بعد أن طافوا بأعمدة هرقول (جبل طارق) »[٢٣] . ألا ما أعظم ما تقدّمنا عن أولئك الأقوام !

وأقاموا لهم حاميات فى نقط منيعة على ساحل البحر المتوسط ما زالت تكبر حتى أضحت مستعمرات أو مدناً غاصة بالسكان ، أقاموها فى قادز وقرطاجنة ، ومرسيلية ، ومالطة ، وصقلية ، وسردانية ، وقورسقة بل وفى إنجلترا البعيدة . واحتلوا قبرص ، وميلوس ، ورودس[٢٤] ، ونقلوا الفنون والعلوم من مصر ، وكريت ، والشرق الأدنى ، ونشروها فى اليونان ، وفى أفريقية ، وإيطاليا وأسبانيا ، وربطوا الشرق بالغرب بشبكة من الروابط التجارية والثقافية ، وشرعوا ينتشلون أوربا من براثن الهمجية .

وازدهرت المدن الفينيقية التى كانت تغذيها هذه التجارة الواسعة ، والتى كانت تحكمها طبقة من التجار الأثرياء حذقت فنون السياسة الخارجية والمالية ، وضنت بثروة البلاد أن تبدد فى الحروب الخارجية ؛ وأصبحت هذه المدن على مدى الأيام من أغنى مدن العالم وأقواها . ومن هذه المدن مدينة بيلوس التى كانت

تظن نفسها أقدم مدن العالم كلها ، وأنها أنشأها الإله إل فى بداية الزمان . وظلت هذه المدينة إلى آخر أيامها القصبة الدينية لفينيقية . وكان البردى من أهم سلعها التجارية فاشتق اليونان من اسمها اسم الكتاب فى لغتهم ببلوس — Biblo — ومن هذه الكلمة نفسها اشتقت كلمة Bible الإنجليزية اسماً للكتاب المقدس .

وكان إلى جنوبى ببلوس وعلى بُعد نحو خمسين ميلا منها مدينة صيدا ؛ ولم تكن فى بداية أمرها إلا حصناً من الحصون ، ولكنها نمت نمواً سريعاً فكانت قرية ، ثم بلدة ، ثم مدينة مزدهرة غنية ، أمدت خشيارشاى بأحسن المراكب فى أسطوله . ولما أن حاصرها الفرس فيما بعد واستولوا عليها أبت عليهم أنفتهم وعزة نفوسهم أن يسلموها طائعين إلى أعدائهم فأضرموا النار فى مبانيها ودمروها عن آخرها ، وهلك فى حريقها أربعون ألفاً من سكانها[٢٥] . ثم أعيد بناؤها بعدئذ حتى إذا جاءها الإسكندر وجدها مدينة مزدهرة ، وسار بعض تجارها المغامرين فى مؤخرة جيشه إلى بلاد الهند بقصد « الاتجار »[٢٦] .

وكانت أعظم المدن الفينيقية كلها مدينة صور — أى الصخرة — ؛ وقد أنشئت على جزيرة تبعد عدة أميال عن البر . وبدأت هى أيضاً حصناً ، ولكن ميناءها الأمين وسلامتها من الغزو سرعان ما جعلاها حاضرة البلاد الفينيقية كلها ، ومأوى الخليط من التجار والعبيد جاءوها من جميع بلاد البحر المتوسط . وما أن حل القرن التاسع قبل الميلاد حتى كانت صور مدينة غنية فى عهد ملكها حيرام صديق الملك سليمان ؛ وفى أيام زكريا (حوالى ٥٢٠ ق . م) كانت الفضة التى تجمعت فيها كأنها التراب ، وكان الذهب كأنه « وحل الطرقات »[٢٧] . ويقول عنها استرابون : « إن بيوتها من طبقات كثيرة ، بل إنها أكثر طبقات من بيوت رومة »[٢٨] ، وقد ظلت بفضل ثروتها وبسالة أهلها مستقلة إلى أيام الإسكندر . ورأى هذا الشاب المتغطرس فى هذا الاستقلال تحدياً لعظمته فأخضعها بأن بنى طريقاً لها فى البحر جعل منها شبه جزيرة . ثم قضى

عليها القضاء الأخير ازدهارُ مدينة الإسكندرية .

وكان للفينيقيين آلهة كثيرة شأنهم فى ذلك شأن كل أمة تشعر بالتيارات العالمية المعقدة . فكان لكل مدينة بعلها (أى سيدها) أو إلهها الخاص ، وهو فى اعتقاد أهلها جد ملوكها ، ومخصب أرضها ، فكانت الحبوب ، والخمور ، والتين والكتان كلها من عمل بعل المقدس . وكان بعل صور يسمى ماكرات ؛ وكان كهرقول — الذى قال اليونان إنه صورة أخرى منه — إله القوة والبطولة قام بأعمال شبيهة بأعمال منشهرزن . وكانت عشتورت (أستارتى) الاسم الفينيقى لإشتار . ومن خصائصها أنها كانت تُعبد فى بعض الأماكن على أنها إلهة الطهر ، وفى أماكن أخرى على أنها إلهة الفجور والحب الشهوانى ، وقد جعلها اليونان فى هذه الصفة الأخيرة صورة من إلهتهم أفروديت . وكما كانت إشتار — ميلتا تتقبل بكارى عابداتها من البنات فى بابل ، كذلك كانت النساء اللاتى يعبدن عشتورت فى ببلوس يقدمن لها غدائرهن أو يستسلمن لأول غريب يعرض عليهن حبه فى جوار الهياكل . وكما أحبَّت إشتار تموز ، كذلك أحبَّت عشتورت أدنى (أى الرب) ، وكان يحتفل فى ببلوس ، وبافوس (فى قبرص) كل عام بمقتله على أنياب خنزير برى بالنحيب وضرب الصدور . وكان من حسن حظ أدنى أنه يقوم من بين الأموات كلما فارق الحياة ، ويصعد إلى السماء على مشهد من عُبَّاده[٢٩] . وكان من آلهتهم أيضاً مولوخ (أى الملك) ، وهو الإله الرهيب ، وكان الفينيقيون يتقربون له بأطفالهم ويحرقونهم أحياء أمام ضريحه . وقد حدث فى قرطاجنة أثناء حصارها (٣٠٧ ق . م) أن أحرق على مذبح هذا الإله الغاضب مائتا غلام من أبناء أرقى أسرها[٣٠] .

ولكن الفينيقيين رغم هذا جديرون بأن تكون لهم مشكلة صغيرة فى محراب الأمم المتحضرة ، ذلك أن تجارهم فى أغلب الظن هم الذين علموا الأمم القديمة الحروف الهجائية المصرية ، وإن لم يكن الهيام بالأدب هو الذى وحد شعوب

البحر المتوسط بل كل سبب وحدتهم الشئون التجارية ومطالبها . ولسنا نجد خيراً من هذه المطالب مثالا يوضح ما بين التجارة والثقافة من رابطة منتجة مثمرة . كما أننا لا نعلم على اليقين أن الفينيقيين ، هم الذين أدخلوا هذه الحروف الهجائية إلى بلاد اليونان ، وإن كانت الرواية اليونانية تؤكد هذا بالإجماع (٣١) ؛ وليس ببعيد أن تكون كريت هي التي أمدت الفينيقيين واليونان(٣٢) كليهما بالحروف الهجائية ، ولكن المرجح أن الفينيقيين أخذوا الحروف الهجائية من حيث أخذوا البردى . وإنا لنجدهم فى عام ١١٠٠ ق.م يستوردون البردى من مصر (٣٣) . وكان هذا النبات ذا فائدة لا تقدر للأمة التى تعنى بحفظ السجلات الحسابية ونقلها من مكان إلى مكان . وذلك لما فيه من اليسر إذا ووزن بالألواح الطينية الثقيلة التى كانت تستخدم فى أرض الجزيرة . كذلك كانت الحروف الهجائية المصرية أرقى كثيراً من المقاطع السمجة المستخدمة فى غير مصر من بلاد الشرق الأدنى . وحسبنا أن نذكر عن هذه الحروف أن حيرام ملك صور وهب أحد عائلته فى عام ٩٦٠ ق . م كوباً من البرنز عليه نقش بالحروف الهجائية(٣٤) ، وأن ميشا ملك مؤاب أراد فى عام ٤٨٠ ق . م أن يخلد مجده فنقش على حجر فى متحف اللوفر الآن نقشاً بإحدى اللهجات السامية مكتوباً من اليمين إلى اليسار بحروف شبيهة بالحروف الفينيقية . وقد قلب اليونان اتجاه بعض الحروف لأنهم كانوا يكتبون من اليسار إلى اليمين ، ولكن حروفهم فى جوهرها هى الحروف التى علمهم إياها الفينيقيون ، والتى علموها هم أوربا . وهذه الرموز العجيبة هى بلا جدال أثمن ما ورثته الحضارة عن الأمم القديمة .

على أن أقدم ما كشف من كتابات بالحروف الهجائية لم يكشف فى فينيقية بل فى سيناء . فقد عثر سير وليم فلندرز پترى فى سراية الخادم — وهى قرية صغيرة فى موضع كان المصريون الأقدمون يستخرجون منه الفيروز — على نقوش بلغة عجيبة يرجع عهدها إلى تاريخ غير معروف على وجه التحقيق ، ولعله يرجع إلى

عام ٢٥٠٠ ق . م . ولم تحل رموز هذه النقوش بعد ، ولكن من الجلى أنها ليست مكتوبة بالخط الهيروغليفى ولا بالكتابة المسمارية المقطعية ، بل مكتوبة بحروف هجائية[٣٥]. كذلك وجد علماء الآثار الفرنسيون فى زاپونا بسوريا مكتبة كاملة من الألواح الطينية بعضها مكتوب بالهيروغليفية وبعضها بحروف هجائية سامية ، ولما كانت زاپونا قد دمرت حوالى عام ١٢٠٠ ق . م قبل أن تستكمل نموها ، فأكبر الظن أن هذه الألواح يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد[٣٦] ، وهى توحى إلينا مرة أخرى بما كانت عليه الحضارة من القدم فى القرون التى يحملنا فرط جهلنا على أن نعزو إليها بدايتها .

وكانت سوريا تمتد خلف فينيقية فى حجْر تلال لبنان ، وتتجمع فيها قبائلها تحت حكم تلك الحاضرة التى لا تزال تفخر على العالم بأنها أقدم مدنه ، والتى لا تزال تأوى السوريين المتعطشين إلى الحرية . وظل ملوك دمشق زمناً ما يسيطرون على اثنتى عشرة أمة صغيرة من حولهم ، وأفلحوا فى مقاومة ما كان يبذله الأشوريون من جهود لإخضاع سوريا لحكمهم . وكان أهل هذه المدينة من التجار الساميين الذين استطاعوا أن يجمعوا ثروة طائلة من تجارة القوافل التى كانت تجتاز جبال سوريا وسهولها . وكانوا يستخدمون فى أعمالهم الصناع والعبيد ، ولم يكن هؤلاء سعداء أو راضين . فنحن نسمع أن البنائين نظموا لهم اتحادات عظيمة ؛ وتحدثنا النقوش عن إضراب الخبازين فى مجنيزيا ؛ ونشعر من خلال القرون الطوال بما كان فى إحدى المدن السورية القديمة من نزاع ؛ وما كانت تضطرب به من حركة تجارية كبيرة[٣٧] وقد حذق هؤلاء الصناع تشكيل الفخار الجميل ونحت العاج والخشب ، وصقل الحجارة الكريمة ، ونسج الأقمشة ذات الألوان الزاهية لتتزين بها نساؤهم[٣٨] .

وكانت أزياء الأهلين فى دمشق وعاداتهم وأخلاقهم شديدة الشبه بنظائرها فى بابل، باريس الشرق القديم المتحكمة فى أذواقه . وكانت الدعارة الدينية منتشرة

فى البلاد ، فكان خصب التربة يرمز له فى سوريا كما كان يرمز له فى بلاد آسية الغربية كلها بأم عظيمة أو إلهة اتصالها الجنسى بعشيقها هو الذى يوحى إلى جميع جهود الطبيعة وعملياتها الإنتاجية . ولم تكن التضحية بالبكارة فى الهياكل عملاً يتقرب به إلى عشتورت وحسب ، بل كان فوق ذلك مشاركة لها فى التهتك الذى يرجى منه أن يوحى إلى الأرض إيحاء قوياً لا تستطيع مقاومته ، وأن يضمن تكاثر النبات والحيوان والإنسان(٣٩) . وكان عيد عشتورت السورية كعيد سيبيل فى فريجيا يحتفل به فى هيرابوليس حوالى الاعتدال الربيعى بحرارة تكاد تبلغ حد الجنون . فكانت نغمات الناى ودق الطبول تمتزج بعويل النساء على أرُنى سيد عشتورت الميت . وكان الكهنة الخصيان يرقصون رقصاً عاصفاً عجاجاً ويضربون أجسامهم بالسكاكين . وفى آخر الأمر كانت الحماسة تغلب الكثيرين من الرجال الذين لم يأتوا إلى الحفل إلا ليشاهدوه ، فيخلعون ثيابهم ويخصون أنفسهم ليهبوا أنفسهم طول حياتهم لخدمة الإلهة ، فإذا جن الليل جاء الكهنة إلى المكان بنور خفى مجهول ، وفتحوا قبر الإله الشاب ونادوا نداء الظافرين أن أدنى - الإله - قد قام بين الأموات ، ثم مسوا شفاه عُبَّاده ببلسم فى أيديهم وأسرُّوا إليهم وعدهم بأنهم هم أيضاً سيقومون من قبورهم فى يوم من الأيام(٤٠) .

ولم يكن آلهة سوريا الآخرون أقل تعطشاً للدماء من عشتورت . نعم إن الكهنة كانوا يعترفون بإله عام يضم فى شخصه جميع الآلهة ويسمونه إلى أو إلُو كإلوهيم اليهود ، ولكن الشعب لم يكن يلقى بالاً إلى هذا التجريد المعنوى المادى ، وكان معبوده بعلاً . وقد جرت عاداتهم على أن يوحدوا بين إله المدينة هذا وبين الشمس ، كما كانوا يوحدون بين عشتورت والقمر ، وكانوا إذا حزبهم أمر جلل يضحون بأطفالهم قرباناً له ، كما كان الفينيقيون يفعلون ، وكان الآباء يأتون إلى الحفل وقد أخذوا زينتهم كأنهم فى يوم عيد ، وكانت دقات الطبول

وأصوات المزامير تطغى على صراخ أطفالهم وهم يحترقون فى حجر الإله . على أنهم كانوا عادة يكتفون بتضحيات أقل من هذه وحشية ، فكان الكهنة يضربون أنفسهم حتى تلطخ المذبح دماؤهم ، أو تفتدى حياة الطفل بختانه ؛ أو يتزوج القساوسة من عليائهم فيقبلون مبلغاً من المال يقدمونه للإله بدل الغلفة . لقد كان من الواجب أن يسترضى الإله بطريقة ما حتى يرضى ، لأن عباده قد جعلوه صورة من أنفسهم ، وحلماً من أحلامهم ، ولم يكن يعنى بحياة البشر أو يأبه بعويل النساء[٤٧].

وكانت القبائل السامية الضاربة فى جنوبى سوريا ، والتى كانت تملأ الأرض باضطرابها ولغائها ، تمارس عادات شبيهه بهذه العادات نفسها ، ولا تختلف عنها إلا فى أسمائها وتفاصيلها . لقد حرم على اليهود أن « يجعلوا أطفالهم يمرون من خلال النار » ، ولكنهم كانوا رغم هذا يفعلون هذه الفعلة[٤٢] ، ولم يكن ابراهيم وهو يوشك أن يضحى بإسحق(*) أو أجمنون وهو يضحى بإفجينيا إلا متبعين سنة قديمة كان أصحابها يحاولون بها أن يسترضوا الآلهة بالدماء البشرية ، وقد ضحى ميشا ملك مؤاب بابنه الأكبر فحرقه بالنار ليفك عن مدينته الحصار ؛ ولما أجاب ربه دعاءه وقبل دماء ابنه ، ذبح سبعة آلاف من بنى إسرائيل شكراً لله على نعمته[٤٣] . وظل وادى نهر الأردن الذى يخترق هذا الإقليم مذ كان العموريون فى عهد السومريين يجوبون سهول أمرو (حوالى عام ٢٨٠٠ ق . م) إلى أيام اليهود حين صبوا جام غضبهم المقدس على الكنعانيين ، وحين استولى سرجون ملك أشـــور على السامرة ، ونبوخذ نصر على أورشليم (فى عام ٥٩٧ ق . م) ، نقول ظل وادى نهر الأردن ترويه دماء الضحايا البشرية التى تبتهج لها قلوب كثيرين من الأرباب . وليس من اليسير أن ندخل هؤلاء المؤابيين ، والكنعانيين ، والعموريين ، والإدميين ، والفلسطينيين ، والآراميين فى ســـجل البشرية الثقافى .

(*) الذى يؤمن به المسلمون أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق . (المترجم) .

لسنا ننكر أن الآراميين الكثيرى النسل قد انتشروا فى كل مكان ، وجعلوا لغتهم اللهجة العامية التى يتخاطب بها أهل الشرق الأدنى ، كما أن حروفهم الهجائية التى أخذوها عن المصريين أو الفينيقيين قد حلت محل كتابة أرض الجزيرة المسمارية المقطعية ، فكانت أولا واسطة التبادل التجارى ثم أضحت وسيلة نقل الآداب ، وأمست آخر الأمر لغة المسيح وحروف العرب الهجائية فى هذه الأيام(٤٤) . ولكن الدهر لا يحتفظ بأسماء هذه الشعوب لما قامت به هى نفسها من الأعمال الجليلة بقدر ما يحتفظ بها لأن أصحابها مثلوا دوراً ما على مسرح فلسطين الفاجع . وعلينا الآن أن ندرس شعباً آخر بتفصيل أوفى وأدق من دراستنا لجيرانه ، ونعنى به اليهود ، وهم قوم إذا نظرنا إلى قلة عددهم وضيق بلادهم لا نكاد نراهم جديرين بهذه الدراسة ، ولكنهم أورثوا العالم أدباً من أعظم آدابه ، ودينين من أقوى أديانه ، وعدداً عظيماً من أذكى رجاله وأعمقهم تفكيراً .

الباب الثاني عشر

اليهـــود

الفصل الأول

الأرض الموعودة

فلسطين – مناخها – عهد ما قبل التاريخ – شعب إبراهيم –
اليهود فى مصر – الخروج – فتح كنعان

وسع كاتب مثل بكل Buckle أو منتسكيو يريد أن يفسر تاريخ الأمة بالرجوع إلى موقع بلادها أن يجد ما يؤيد أقواله فى فلسطين . إن بلاداً يبلغ طولها من دان الشمال إلى بير سبع فى الجنوب نحو مائة وخمسين ميلا ، ويتراوح عرضها من مساكن الفلسطينيين فى الغرب ومساكن السوريين والآراميين والعمونيين ، والمؤابيين والإدميين فى الشرق بين خمسة وعشرين وثمانين ميلا – إن بلاداً ضيقة الرقعة إلى هذا الحد لا يتوقع الإنسان أن يكون لها شأن فى التاريخ ، أو أن تخلف وراءها أثراً أعظم مما خلفته بلاد بابل أو أشور أو فارس ، بل لعله أعظم مما خلفته مصر أو بلاد اليونان . ولكن كان من حسن حظ فلسطين أو من سوء حظها أن تقع بين عواصم النيل وعواصم دجلة والفرات . وهذا الموقع قد جاء إلى بلاد اليهود بالتجارة كما جاءها بالحرب ؛ وكم من مرة ضيق على اليهود فلم يجدوا مخرجاً من ضيقهم إلا بالانضمام إلى أحد الطرفين فى الصراع القائم بين الإمبراطوريات الكبرى ، أو بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون وكم من مرة اجتاح المصطرعون بلادهم ، وكان من وراء التوراة ، ومن وراء صراخ أصحاب المزامير والأنبياء وعويلهم وطلبهم الغوث من

ربّ السماء ، كان من وراء هذا كله موقع اليهود الذى تتهدده الأخطار ، بين شقى الرحى ، من فوقهم دول أرض الجزيرة ومن تحتهم مصر .

ويحدثنا تاريخ الأرض المناخى مرة أخرى أن صرح الحضارة صرح مزعزع ، وأن عدويها الألدّين - الهمجية والجدب - يترصدانها ليقضيا عليها . لقد كانت فلسطين فى يوم من الأيام « أرضاً تفيض لبناً وعسلا » كما تصفها كثير من الفقرات فى أسفار موسى الخمسة[1] ، وكان يوسفوس فى القرن الأول بعد المسيح لا يزال يقول عن فلسطين وأهلها إن بها من « الأمطار ما يكفى حاجة الزراعة ، وإنها جميلة ، وإن بها كثيراً من الأشجار ، وإنها مملوءة بفاكهة الخريف البرى منها والمزرع ... وإن هذه الأشجار لا ترويها الأنهار ريًّا طبيعياً ولكنها تنال ما تحتاج إليه من الرطوبة من ماء المطر الذى لا ينقطع عنها قط »[2] . وكانت أمطار الربيع التى تسقى الأرض تخزن الأيام الخالية فى صهاريج أو ترفع إلى سطح الأرض مرة أخرى من آبار كثيرة العدد ، وتوزع فى أنحاء البلاد فى شبكة من القنوات ؛ وكان ذلك هو الأساس المادى للحضارة اليهودية . وكانت الأرض التى تروى بهذه الطريقة تنتج الشعير والقمح والذرة ، وتجود فيها الكروم ، وتثمر أشجارها الزيتون والتين والبلح وغيرها من الفواكه على منحدرات الجبال جميعها ؛ فإذا داهمتها الحروب وخربت حقولها التى أخصبتها الصناعة ، أوجاءها فاتح فأخرج منها إلى بلاد نائية الأسر التى كانت تعنى بهذه الحقول ، زحفت الصحراء عليها فأفسدت فى بضع سنين ما أصلحته الأيدى العاملة فى أجيال . وليس لنا أن نحكم على جدب أرض فلسطين بما نشاهده فيها الآن من فياف مقفرة ، وواحات قليلة ضئيلة ، تواجه اليهود الذين عادوا الآن إلى تلك البلاد بعد ثمانية عشر قرناً من النفى والعذاب والتشريد .

والتاريخ فى فلسطين أقدم مما كان يظنه الأسقف أسشر Ussher ، فقد

كشفت بقايا نيندرتالية قرب بحر الجليل ، كما كشفت خمسة هياكل عظيمة نيندرتالية فى كهف قرب حيفا . وليس ببعيد أن تكون الثقافة المُستيرية التى ازدهرت فى أوربا حوالى ٤٠٫٠٠٠ قبل الميلاد قد امتدت إلى فلسطين. فقد كشفت فى أريحا(*) أرض حجرات ومواقد من مخلفات العصر الحجرى الحديد ، وهى ترجع بتاريخ هذا الإقليم إلى عصر برنزى متوسط (٢٠٠٠ — ١٦٠٠ ق . م) جمعت فيه مدن فلسطين وسوريا من الثروة ما أغرى مصر بفتحها . وكانت أريحا فى إبان القرن العشرين قبل الميلاد مدينة مسورة يحكمها ملوك يعترفون بسيادة مصر عليها . وقد وجدت فى قبور هؤلاء الملوك التى كشفتها بعثة جارستانج Garstang مئات من المزهريات والهدايا الجنازية وغيرها من الأدوات التى تدل على وجود حياة مستقرة فى تلك المدينة وقت سيطرة الهكسوس على مصر ، وعلى وجود حضارة لا بأس بها فى أيام حتشبسوت وتحتمس الثالث(٣) . ويبدو من هذا الكشف وأمثاله أن الأزمنة المختلفة التى تبدأ بها تواريخ الشعوب فى ظننا إن دلت على شىء فإنما تدل على جهلنا ؛ وتدل ألواح تل العمارنة على أن الحياة فى فلسطين وسوريا بالصورة التى تطالعنا فى بداية تاريخ اليهود ترجع إلى قرب دخولهم فى وادى النيل . ومن المرجح — وإن لم يكن من المؤكد — أن « الخبيرو » الذين تتحدث عنهم هذه الألواح كانوا عبرانيين(٤)(**) .

(*) Jecrico

(**) لقد أعادت الكشوف التى ذكرناها فى هذا الفصل كثيراً من الثقة إلى فصول سفر التكوين التى تقص تاريخ اليهود القديم . وإذا ما استثنينا من قصة اليهود ، كما تميط عنها الثام أسفار العهد القديم ، حوادث المعجزات وخوارق العادات وأشباهها ، رأينا أن هذه القصة قد صمدت للنقد والبحوث التاريخية . وكل عام يمر يكشف فيه من الوثائق والآثار ما يؤيد أقوال العهد القديم . من ذلك القطع الخزفيـة التى استخرجت من تل الدوير فى عام ١٩٣٥ تحمر من النقوش العبرية ما يؤيد أجزاء من قصة سفرى الملوك(٤) : وعلى هذا فإن من حقنا أن نقبل قصص التوراة مؤقتا حتى نجد ما ينقضها . انظر كتاب بترى « مصر وإسرائيل Egypt & Israel » طبعة لندن ١٩٢٥ ص ١٠٨ .

ويعتقد اليهود أن شعب إبراهيم (أو أبراهام) جاءوا من أور فى بلاد سومر[٥] واستقروا فى فلسطين (حوالى ٢٢٠٠ ق . م) أى قبل موسى بنحو ألف عام أو أكثر ، وأن انتصارهم على الكنعانيين لم يكن إلا استيلاء العبرانيين على الأرض التى وعدهم بها الله . والراجح أن أمرافل الذى يقول عنه سفر التكوين (١٤ : ١) إنه « ملك شنغار فى تلك الأيام » كان هو أمربال والدحورابى الذى كان يجلس قبله على عرش بابل[٦] . ولم تصل إلينا من مصادر معاصرة إشارات مباشرة إلى خروج بنى إسرائيل من مصر أو إلى هزيمة الكنعانيين[٧] . وكل ما وصلنا من إشارات غير مباشرة هو ما كتب على اللوحة التى أقامها منفتاح (حوالى ١٢٢٥ ق . م والتى وردت فيها هذه العبارة :

لقد غُلب الملوك وقالوا « سلاماً ! » .

وخربت تحينو .

وهدئت أرض الحثيين ،

وانتهبت كنعان ، وحلّت بها كل الشرور ، . . .

وخربت إسرائيل ، ولم يعد لأبنائها وجود ؛

وأضحت فلسطين أرملة لمصر .

وضمت كل البلاد . وهدئت ؛

وكل مَن كان ثائراً قيّده الملك منفتاح .

وليس فى هذه الأقوال ما يدل على أن منفتاح هو فرعون الذى خرج بنو إسرائيل من مصر فى عهده ؛ وكل ما تثبته أن الجيوش المصرية اجتاحت فلسطين مرة أخرى . ولسنا ندرى متى دخل اليهود مصر ، وهل دخلوها أحراراً أو عبيداً[٨](*) . ولربما كان من حتمنا أن نرجح أن من هاجروا منهم إلى مصر

(*) لعلهم جاءوا مصر فى أثر الهكسوس ، ولعل سيطرة هؤلاء الساميين على مصر قد أتاحت لهم بعض الحماية[٩] . ويرجع بترى تاريخ دخولهم مصر إلى عام ١٦٥٠ ق . م ، =

كانوا فى بداية الأمر قليلى العدد[11] ، وأن وجود الآلاف المؤلفة منهم فى مصر أيام موسى كان نتيجة لكثرة تناسلهم ، وأن شأنهم فى ذلك الوقت كان كشأنهم فى جميع العصور ، فقد كان « عددهم يتضاعف وينمو كلما زاد اضطهادهم وتعذيبهم »[12] . وإن قصة « استعباد اليهود فى مصر ، وتسخيرهم فى أعمال البناء الضخمة ، وتمردهم ، وهربهم — أو هجرتهم — إلى آسية لتحمل فى ثناياها أدلة كثيرة على صدقها ؛ وإن اختلط بها بطبيعة الحال كثير من الأقوال الغريبة وخوارق العادات



شكل (٣٥) شارع فى القدس الحديثة

كما يحدث عادة فى جميع الكتابات التاريخية فى الشرق القديم .

— وتاريخ خروجهم منها إلى عام ١٢٢٠ ق . م[10] ، وهو يعتمد فى ذلك على ما ورد فى التوراة من أن اليهود أقاموا فى أرض مصر أربعمائة وثلاثين عاما .

تنبيه : رأينا فى هذا الباب أن ننقل العبارات المقتبسة من الكتاب المقدس بنصها لا أن نترجمها من الأصل الإنجليزى . (المترجم)

وحتى قصة موسى نفسها يجب ألا نتعجل فنرفضها من غير بحث وتحقيق ، وإن كان العجيب حقاً أنه لم يرد له ذكر على لسان عاموس أو إشعيا ، وهما اللذان سبقت خطبتهما تأليف أسفار موسى الخمسة بنحو قرن من الزمان(*) .

ولما سار موسى باليهود إلى جبل سيناء ، لم يكن في سيره هذا إلا متبعاً نفس الطريق الذى كانت تسلكه البعثات المصرية التى تبحث عن الفيروز منذ ألف عام . وتبدو الآن قصة الأربعين عاماً التى تاهوا فيها فى الصحراء ، والتى كان يظن من قبل أنها قصة غير معقولة ، تبدو الآن من الأمور التى يقبلها العقل ، لأنها تصف مسير قوم من البدو الذين كانوا طوال عهدهم قوماً رحلا ، كما أن هزيمتهم للكنعانيين ليست إلا مثلا آخر لانقضاض جوع جياع على جماعة مستقرين آمنين . وقتل المهاجرون من الكنعانيين أكثر من استطاعوا قتلهم منهم وسبوا من بقى من نسائهم ، وجرت دماء القتلى أنهاراً ، وكان هذا القتل كما تقول نصوص الكتاب المقدس « فريضة الشريعة التى أمر بها الربُّ موسى » ،

(*) ينقل يوسفوس عن مانيثون – وهو مؤرخ مصرى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد – قوله إن سبب خروج بنى إسرائيل من مصر وهو رغبة المصريين فى أن يتقوا شر وباء فشا بين اليهود المستعبدين المملقين ، وقوله إن موسى نفسه كان كاهناً مصريا خرج للتبشير بين اليهود « المجذومين » ؛ وإنه علمهم قواعد النظافة على نسق القواعد المتبعة عند كهنة المصريين(١٣). ويفسر المؤرخون اليونان والرومان قصة الخروج هذا التفسير(١٤) ، ولكن نزعتهم المعادية للسامية تجعلنا قليلى الثقة بأقوالهم . وفى التوراة آية تؤيد قول وارد **Ward** إن الخروج لم يكن إلا إضراباً عن العمل . وهذه هى الآية المشار إليها : « فقال لهما ملك مصر لماذا يا موسى وهرون تبطلان الشعب من أعماله . إذهبا إلى أثقالكما(١٥) » .

وموسى اسم مصرى لا اسم يهودى ؛ ولعله اختصار لفظ حومس(١٦) . ويقول الأستاذ جارستانج عضو بعثة مارستن **Marston** التابعة لجامعة لفربول إنه كشف فى مقابر أريحا الملكية أدلة تثبت أن موسى قد أنجته (فى عام ١٥٢٧ ق . م بالتحقيق) الأميرة حتشبسوت (الملكة حتشبسوت فيما بعد) وأنه تربى فى بلاطها بين حاشيتها ، وأنه فر من مصر حين جلس على العرش عدوها تحتمس الثالث(١٧) . هو يعتقد كذلك أن الملفات التى وجدت فى هذه القبور تؤيد قصة سقوط أريحا (يشوع ٦) . ويرجع سقوطها إلى حوالى عام ١٤٠٠ ق . م كما يرجع الخروج إلى عام ١٤٤٧ ق . م(١٨) . ولما كانت هذه التواريخ لا تعتمد إلا على ما ورد منقوشا على الجملان والخزف ، فإن من واجبنا أن نأخذها بالشك المقرون بالاهتمام .

و « زكاة للرب »[١٩] . ولما استولوا على مدينتين من المدن قتلوا من أهلهما ١٢٫٠٠٠ رجل ؛ ولسنا نعرف فى تاريخ الحروب مثل هذا الإسراف فى القتل والاستمتاع به ، ومثل هذه السهولة فى تعداد القتلى إلا فى تاريخ الأشوريين ، ويقال لنا « إن الأرض استراحت من الحروب أحياناً »[٢٠] فقد كان موسى من رجال السياسة المتصفين بالصبر والأناة ، أما يشوع فلم يكن إلا جندياً فظاً ؛ وقد حكم موسى حكماً سلمياً لم تسفك فيه دماء ، وذلك بما كان يقضى به من أحاديث جرت بينه وبين الإله ، أما يشوع فقد أقام حكمه على قانون الطبيعة الثانى ، وهو أن أكثر الناس قتلا هو الذى يبقى حياً . وبهذه الطريقة الواقعية التى لا أثر فيها للعواطف استولى اليهود على الأرض الموعودة .

الفصل الثاني

سليمان في ذروة مجده

أصل اليهود – مظهرهم – لغتهم – نظامهم – القضاة والملوك –
شاؤل – داود – سليمان – ثروته – الهيكل –
نشأة المشكلة الاجتماعية في إسرائيل

كل ما نستطيع أن نقوله عن أصل اليهود من ناحية جنسهم هو ذلك القول الغامض ، وهو أنهم ساميون لا يتميزون تميزاً واضحاً ولا يختلفون اختلافاً كبيراً عن غيرهم من الساميين سكان آسية الغربية ، وأنهم لم يوجدوا تاريخهم ، بل إن تاريخهم هو الذي أوجدهم . وإنا لنراهم من بداية ظهورهم خليطاً من سلالات كثيرة – والحق أن وجود جنس « نقي » في الشرق الأوسط بين الآلاف من تياراته الجنسية التي تتلاطم فيه أمر يتطلب مستوى من الفضيلة لا يعقله عاقل . على أن اليهود كانوا أنقى أجناس الشرق الأدنى غير النقية ، لأنهم لم يتزوجوا بغيرهم من الأجناس إلا كارهين . ومن أجل هذا حافظوا على جنسهم ، واستمسكوا به استمساكاً عجيباً . فالأسرى العبرانيون الذين نرى صورهم في النقوش المصرية والأشورية يشبهون كل الشبه يهود هذه الأيام رغم تحامل الفنانين وتحيفهم . ففي هذه النقوش نرى الأنف الحني الطويل الأقني(*) ، والوجنتين البارزتين ، وشعر الرأس واللحية المتلوى ، وإن كنا لا نرى في الرسوم المصرية الهزلية الأجسام الضامرة القوية ، والأرواح الخبيثة العنيدة التي امتاز بها الساميون من عهد أتباع موسى « صلب الرقاب » إلى بدو هذه الأيام وتجارها الذين لا يسبر لهم غور . وكانوا في أيام فتوحهم الأولى يرتدون جلابيب بسيطة ، وقبعات وطيئة

(*) انظر ص ٣٠٢ من هذا الكتاب .

أو قلانس شبيهة بالعمائم ، ويحتذون أخفافاً سهلة الخلع . ولما أن زادت ثروتهم استبدلوا بالأخفاف أحذية من الجلد وارتدوا فوق الجلابيب قفاطين ذات أهداب . أما نساؤهم — وهن من أجمل نساء الأمم القديمة — فكن يصبغن خدودهن ويكتحلن ويتحلين بكل ما يجدن من الحلى ، ويلبسن أحسن الأزياء وأحدثها فى بابل ونينوى ودمشق وصور(٢١) .

وكانت اللغة العبرية أعظم اللغات الطنانة الرنانة على ظهر الأرض ، ألفاظها مليئة بالأنغام الموسيقية القوية رغم ما فيها من حروف حلقية . وقد وصفها رينان بقوله : إنها « كنانة مليئة بالسهام ، وأبواق نحاسية تدوى فى الهواء »(٢٢) . ولم تكن تختلف كثيراً عن لغة الفينيقيين أو المؤابيين . وكان اليهود يكتبون بحروف هجائية وثيقة الصلة بالحروف الفينيقية(٢٣) . ويعتقد بعض العلماء أنها أقدم ما عرف من الحروف(٢٣) . ولم يشغلوا أنفسهم بإضافة الحركات إلى الحروف ، بل تركوها للقارئ يستخرجها من معنى العبارة ، ولا تزال الحركات العبرية إلى اليـوم مجرد علامات تزدان بها الحروف .

ولم تتألف من الغزاة فى يوم من الأيام أمة موحدة متماسكة ، بل ظلوا زمناً طويلا يؤلفون اثنى عشر سبطاً مستقلين استقلالا واسعاً أو ضيقاً ، نظامهم وحكمهم لا يقومان على أساس الدولة ، بل على أساس الحكم الأبوى فى الأسرة . فكان شيوخ العشائر يجتمعون فى مجلس من الكبراء هو الحكم الفصل فى شئون القبيلة ، وهو الذى يتعاون مع زعماء القبائل الأخرى إذا ألجأتهم إلى هـذا التعاون الظروف القاهرة التى لا مفر من التعاون فيها . وكانت الأسرة هى الوحدة الاقتصادية التى يقوم عليها زرع الأرض ورعى قطعان الضأن وكانت مكانتها هذه مصدر قوتها ونفاذ كلمتها ، وسلطانها السياسى . وكان فى الأسرة قسط من الشيوعية يخفف بعض الشىء من صرامة النظام الأبوى ، وهو الذى أوحى إلى الشعب بذكريات كان الأنبياء يرجعون إليها وهم محزونون حين غلبت على البلاد النزعة الفردية .

وذلك أنه حين دخلت الصناعة مدن اليهود وجعلت الفرد هو الوحدة الاقتصادية فى الإنتاج ، ضعف سلطان الأسرة كما ضعف فى هذه الأيام ، واضمحل النظام الفطرى الذى كانت تقوم عليه الحياة اليهودية .

ولم يكن « القضاة » ، وهم الذين كانت القبائل جمعاء تطيعهم فى بعض الحالات ، موظفين عموميين ، بل كانوا زعماء عشائر أو رجال حرب — حتى إذا كانوا من الكهنة[٢٤] . « ولم يكن فى إسرائيل ملوك فى تلك الأيام ، بل كان كل إنسان يفعل ما يراه هو حقاً »[٢٥] ؛ غير أن هـذا النظام « الجفرسونى »[*] غير المعقول — إن صح أنه كان قائماً بالفعل — قد انهار أمام مطالب الحرب الملحة ، وكان خطر سيطرة الفلسطينيين على اليهود عاملا هاماً فى جمع الأسباط كلهم فى وحدة شاملة مؤقتة ، وحملهم على تعيين ملك ذى سلطان دائم عليهم ، وقد حذرهم النبى صمويل من بعض الأضرار التى تنجم عن خضوعهم لحكم رجل واحد فقال :

« وقال هذا يكون قضاء الملك الذى يحكم عليكم يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لمراكبه وفرسانه ، فيركضون أمام مراكبه ، ويجعل لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين فيحرثون حراثته ويحصدون حصاده ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه ، ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات ، ويأخذ حقولكم وكرمكم وزيوتكم أجودها ويعطيها لعبيده ، ويعشر زرعكم وكرومكم ويعطى لخصيانه وعبيده . ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملها لشـغله ، ويعشر غنمكم وأنتم تكونون له عبيداً ، فتصرخون فى ذلك اليوم من وجه ملككم الذى اخترتموه لأنفسكم ، فلا يستجيب لكم الرب فى ذلك اليوم . فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صمويل وقالوا لا بل يكون علينا ملك ، فنكون نحن

(*) أى الشبيه بالنظام الذى كان يدعو إليه تومس چفرسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة ١٧٤٨ — ١٨٢٦ . (المترجم)

أيضاً مثل سائر الشعوب ويقضى لنا ملكنا ويحارب حروبنا[٢٦] » .

وعلمهم ملكهم الأول شاول الخير والشر بأعماله ؛ فحارب حروبهم بشجاعة ، وعاش عيشة بسيطة من موارد مزرعته فى جلعاد ، وأخذ يطارد الشاب داود ليقتله ، وقُطع رأسه فى أثناء فراره من الفلسطينيين . وسرعان ما عرف اليهود من بداية الأمر أن حروب الوراثة من مستلزمات المَلَكية . وإذا لم تكن ملحمة شاول ويوناثان وداود الصغيرة قصة موضوعة من روائع الأدب(*) (لأننا لا نجد ذكراً لهذه الشخصيات فى غير التوراة) فإن مليكهم الأول هذا قد خلفه ، بعد فترة من الاضطرابات الدموية ، داود الشجاع قاتل جالوت ، وحبيب يوناثان وكثير من الفتيات الذى يرقص بكل قوته وهو نصف عار[٢٨] ، ويجيد الضرب على القيثار ، ويغنى أغانيه العجيبة بصوته الرخيم ملك اليهود القدير الذى ساسهم نحو أربعين عاماً . وقد استطاع الأدب فى ذلك العصر البعيد أن يرسم له صورة كاملة ، صورة واقعية فيها كل ما فى النفس الحية من عواطف وانفعالات متعارضة ، فهو قاس غليظ القلب كما كان الناس فى وقته وكما كانت قبيلته ، وكما كانت الصفات التى خلعها على إلهه ، ولكنه مع هذا كان مستعداً لأن يعفو عن أعدائه كما كان يعفو عنهم قيصر والمسيح ، يقتل الأسرى جملة كأنه ملك من ملوك الأشوريين ، ويأمر ابنه سليمان أن « يحدر بالدم إلى الهاوية » شيبة شمعى بن جيرا الذى لعنه منذ سنين كثيرة[٢٩] ، ويأخذ امرأة أورية الحثِّى بين نسائه فى غير حياء ، ويرسل أورية إلى الصف الأول فى ميدان القتال ليتخلص منه[٣٠] ويقبل زجر ناثان له فى ذلة ، ولكنه مع ذلك يحتفظ ببثشبع الجميلة ، ويعفو عن صمويل مرات تكاد تبلغ أربعمائة وتسعين ، ولا يسلبه إلا درعه حين كان فى مقدوره أن يسلبه حياته وينجى مفيبوشث(**) ويعينه ،

(*) كقصة شمشون الظريفة الذى حرق حاصلات الفلسطينيين بأن أطلق عليهم ثلاثمائة ثعلب ربطت المشاعل فى أذيالها ، والذى قتل ألف رجل بعظم من فك حمار[٢٧] .

(**) انظر صمويل الثانى ٤ : ٤ .

وهو الذى قد يكون من المطالبين بالعرش ، ويعفو عن ابنه العاق أبشالوم بعد أن قبض عليه فى ثورة مسلحة ، ويحزن أشد الحزن على موت ابنه هذا فى واقعة حربية حارب فيها جيوش أبيه : « يا ابنى أبشالوم ، يا ابنى أبشالوم ، يا ليتنى مت عوضاً عنك يا أبشالوم ابنى ، يا ابنى »[٣١] . ذلك وصف رجل حقيقى لا رجل خيالى ، اكتملت فيه عناصر الرجولة المختلفة ، ينطوى على جميع بقايا الهمجية ، وعلى كل مقومات الحضارة .

ولما ورث سليمان العرش قتل جميع منافسيه فى الملك ليستريح من متاعبهم ، ولكن عمله هذا لم يغضب يهوه الذى أحب الملك الشاب فوهبه حكمة لم يهبها أحداً من قبله ولا من بعده[٣٢] . ولعل سليمان خليق بما نال من شهرة ؛ ذلك أنه لم يكفه أن يستمتع فى حيـــاته بكل نعيم ولذة وأن يقوم بجميع ما يفرضه عليه المُلك من واجبات ، بل إنه علم شعبه فضل القانون والنظام(*) ، وما زال بهم حتى أقنعهم بنبذ الشقاق والحرب والالتفات إلى الصناعة والسلم . وكان عهد سليمان عهد سلام بحق(**) ففى حكمه الطويل أفادت أورشليم ، التى اتخذها داود عاصمة له ، من هذه السلم التى لم تألفها من قبل فزادت ثروتها وضاعفتها . وكانت المدينة(†) قد أقيمت فى بادئ الأمر حول بئر ، ثم حولت إلى حصن لأنها كانت على ربوة فوق السهل . وأصبحت فى أيام سليمان من أنشط الأسواق التجارية فى الشرق الأدنى وإن لم تكن على الطرق التجارية الكبرى . وحافظ سليمان على ما أنشأه داود من صلات ودية مع حيرام ملك صور ، وشجع التجار الفينيقيين على أن يسيروا قوافلهم التجارية داخل أرض فلسطين ، وازدهرت فى أيامه تجارة رابحة قوامها استبدال مصنوعات صور وصيدا بغلات إسرائيل الزراعية . وأنشأ أسطولا تجارياً فى البحر

(*) « وتكلم بثلاثة آلاف مثل ، وكانت نشائده ألفاً وخمساً »[٣٣] .

(**) اسمه مشتق من شالوم ومعناه السلم .

(†) سميت فى ألواح تل العمارنة باسم أور سلموا وأروو سالم .

الأحمر ، وأغرى حيرام على أن يستخدم هذا الطريق الجديد بدل طريق مصر في تجارته مع بلاد العرب وأفريقية[٣٤] . والراجح أن جزيرة العرب هي التي استخرج سليمان منها الذهب وحجارة « أوفير » الكريمة[٣٥] ، ومن بلاد العرب جاءت إليه ملكة « سبأ » تخطب وده ، ولعلها جاءت أيضاً لتطالب معونته[٣٦] . وكان « وزن الذهب الذي أتى سليمان في سنة واحدة ستمائة وستا وستين وزنة ذهباً »[٣٧] ومع أنه لا وجه للموازنة بين هذا القدر وبين موارد بابل أو نينوى أو صور فإنه جعل سليمان من أغنى ملوك زمانه(*) .

واستخدم بعض هذه الثروة في ملاذه الشخصية ، وأخص ما استخدمها فيه إشباع شهواته في جمع السراري — وإن كان المؤرخون ينقصون « زوجاته السبعمائة وسراريه الثلثمائة إلى ستين وثمانين على التوالي[٣٩] . ولعله أراد ببعض هذه الزيجات أن يوطد صلاته بمصر وفينيقية ، أو لعل الباعث له عليها هو نفس الباعث الذي حمل رمسيس الثاني على هذا العمل بعينه ، وهو رغبته في أن يترك وراءه طائفة من الأبناء لهم من القوة الجنسية العظيمة ما كان له هو . على أن سليمان قد استخدم معظم موارده في تقوية دعائم حكومته وتجميل عاصمته ، ومن أعماله فيها ترميم الحصن الذي أقيمت حوله . وقد أقام فيها كثيراً من الحصون ، ووضع حاميات في المواضع ذات الأهمية العسكرية في مملكته ، ليرهب بها الغازين والثائرين على السواء . وقسّم بلاده اثني عشر قسما إدارياً ، وتعمّد أن تكون

(*) انظر ما قلناه قبل في ص ٢٠٤ لمعرفة قيمة الوزنة في الشرق الأدنى . على أن هذه القيمة كانت تختلف من وقت إلى آخر ، ولكننا لا نكون مغالين إذا قلنا إن الوزنة في أيام سليمان كانت لها قيمة شرائية تعادل قيمة ١٠٠٠٠ ريال أمريكي من نقود هذه الأيام . وأكبر الظن أن الكاتب العبري كان وهو يكتب هذا أديبا ، لا مؤرخا يتوخى الحقائق الدقيقة ، ولذلك فإن من واجبنا ألا نأخذ أقواله على علاتها . وإذا شاء القارئ أن يعرف شيئاً عن تقلبات العملة اليهودية في تلك الأيام الخالية ، فليقرأ « دائرة المعارف اليهودية » في موضوعات « المسكوكات » و « الشاقل » . ولا تظهر النقود الحقيقية — لا الحلقات ، والسبائك الذهبية والفضية في فلسطين إلا حوالي عام ٦٥٠ ق . م[٣٨] .

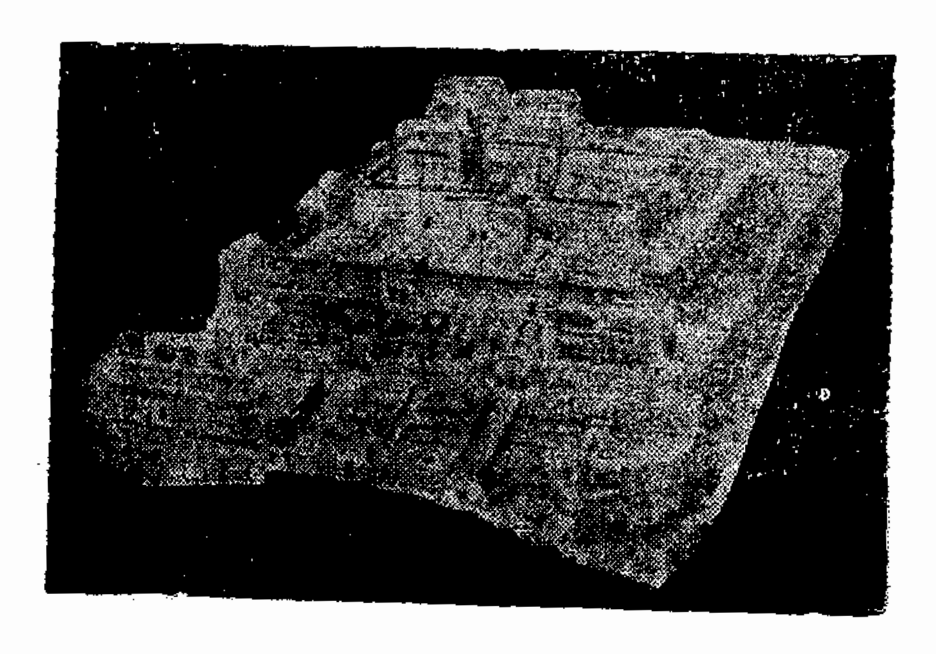
حدودها متفقة مع حدود منازل الأسباط الاثنى عشر ، وكان يرجو من وراء هذا أن يضعف النزعة الانفصالية بينهم ، وأن يؤلف منهم شعباً واحداً ؛ ولكنه أفلس فى هذا وأفلست بلاد اليهود معه . ومن الوسائل التى استخدمها لتمويل حكومته إعداد البعثات لاستخراج المعادن الثمينة ، ولاستيراد مواد الترف والسلع القيّمة النادرة ، ومن بينها « العاج والقردة والطواويس »[٤٠] — وهذه كان يمكن بيعها للأثرياء المحدَثين بأثمان غاليــة . وكان يفرض الإتاوات على جميع القوافل المارة بفلسطين . وقد فرض جزية الرؤوس على جميع رعاياه ، وطالب كل قسم من أقسام دولته ما عدا قسمه الخاص بقدر من المال ، وأعاد للدولة احتكارها القديم لتجارة الخيوط والخيل والمركبات[٤١] . ويؤكد لنا يوسيفوس أن سليمان جعل الفضة فى أورشليم كحجارة الشوارع فى كثرتها[٤٢] ، واعتزم أخيراً أن يزين المدينة بمعبد جديد ليهوه ، وبقصر جديد له هو نفسه .

وفى وسعنا أن نستشف ما كان فى الحياة اليهودية من اضطراب حين نذكر أن بلاد اليهود كلها حتى أورشليم نفسها لم يكن فيها قبل أيام سليمان هيكل كبير واحد على ما يظهر . وكان الأهلون يقرّبون القرابين ليهوه فى هياكل محلية أو فى هياكل ساذجة فوق التلال[٤٣] . ثم جمع سليمان ذوى الثراء من أهل المدن وأعلن إليهم عزمه على تشييد هيكل وخصه بكميات كبيرة من الذهب والفضة والشبّة والحديد والخشب والحجارة الكريمة من مخازنه الخاصة ، وأوحى إلى الناس فى رفق أن الهيكل يرحب بتبرعات المواطنين . وإذا جاز لنا أن نصدق أقوال ناقل الرواية فإنهم تبرعوا له بخمسة آلاف وزنة من الذهب ، وبضعفها من الفضة ، وبكل ما يحتاج إليه من الحديد والشبّة . « ومن وجد عنده حجارة أعطاها لخزينة بيت الرب »[٤٤] . واختير لتشييده مكان فوق ربوة ، وقامت جدران الهيكل كأنها امتداد للمنحدرات الصخرية(*) . وكان طرازه هو الطراز

(*) ليس ببعيد أن يكون مكان الهيكل هو المكان الذى يشغله الآن الحرم الشريف =

الذى أخذه الفينيقيون عن مصر ، وأضافوا إليه ما أخذوه عن الأشوريين والبابليين من ضروب التزيين . ولم يكن هذا الهيكل كنيسة بالمعنى الصحيح ، بل كان سياجاً مربعاً يضم عدة أجنحة . ولم يكن بناؤه الرئيسى كبير الحجم — فقد كان طوله حوالى مائة وأربع وعشرين قدماً ، وعرضه حوالى خمس وخمسين ، وارتفاعه اثنتين وخمسين ، أى أنه كان فى نصف طول البارثنون[٤٦] .

وكان العبرانيون الذين أقبلوا من جميع أنحاء البلاد اليهودية ليعملوا فى إقامة



شكل (٣٦) صورة مستعادة لهيكل سليمان

الهيكل ، وليتعبدوا بعدئذ فيه — كان هؤلاء العبرانيون يعتقدون أنه إحدى عجائب العالم . ومن حقهم علينا ألا نلومهم على هذا الاعتقاد ، لأنهم لم يروا هياكل طيبة وبابل ونينوى التى لا يعد هيكلهم إلى جانبها شيئاً مذكوراً ،

— فى المسجد الأقصى ، ولكن سائر أجزاء الهيكل لم يبق منها شىء على الإطلاق[٤٥] .

وكان فى صدر البناء الرئيسى « مدخل » كبير يبلغ ارتفاعه مائة وثمانين قدماً ، مرصع بالذهب . وكان الذهب فضلا عن هذا يغشى كثيراً من أجزاء الهيكل ـ إذا جاز لنا أن نصدق المصدر الوحيد الذى نعتمد عليه فى هذا الوصف ـ : على سقف البناء الرئيسى ، والعمد ، والأبواب والجدران ، والثريات ، والمصابيح ، ومقصات الفتائل ، والملاعق ، والمباخر ؛ وكان فيه « مائة حوض من الذهب » . وكانت الحجارة الكريمة ترصع أجزاء متفرقة منه ، كما كان ملكان مغطيان بصفائح الذهب يحرسان تابوت العهد[٤٧] . وشيدت الجدران من حجارة كبيرة مربعة ؛ أما السقف والأعمدة والأبواب فكانت من خشب الأرز والزيتون المنقوش . وجيء بمعظم مواد البناء من فينيقية ، وكان يقوم بمعظم الأعمال الفنية صناع من صيدا وصور[٤٨] . أما الأعمال التى لا تحتاج إلى شيء من المهارة فقد حشد لها ١٥٠,٠٠٠ عامل سخروا فيها تسخيراً بلا شفقة ولا رحمة ، كما كانت العادة المألوفة فى تلك الأيام[٤٩] .

« ومضت سبع سنين والعمل فى تشييد البناء قائم على قدم وساق ، ليكون مقرًّا فخما ليهوه مدى أربعة قرون . ثم واصل مهرة الصناع والفعلة العمل ثلاثة عشر عاماً أخرى ليشيدوا صرحاً أكبر من الهيكل يسكن فيه سليمان ونساؤه . وكان جناح واحد من أجنحته وهو ـ « بيت وعر لبنان » أربعة أضعاف مساحة الهيكل كله[٥٠] . وكانت جدران البناء الرئيسى فى القصر مقامة من كتل من الحجارة الضخمة طول الواحدة منها خمس عشرة قدماً ، وكانت تزينه التماثيل المنحوتة ، والنقوش المحفورة ، والصور المرسومة على الطراز الأشورى . وكان القصر يحتوى على أبهاء يستقبل فيها الملك كبار زائريه ، وعلى أجنحة للملك نفسه ، ومساكن للمحظوظات من زوجاته ، ومستودع للسلاح كان هو العماد الأخير لحكومته . على أن هذا الصرح الضخم لم يبق منه حجر واحد ، بل إن موضعه نفسه لا يعرفه أحد على وجه التحقيق[٥١] .

ولما فرغ سليمان من إقامة ملكه شرع يستمتع به ، وأخذت عنايته بالدين تقل على مر الأيام ، كما أخذ يتردد على حريمه أكثر مما يتردد على الهيكل . ولشد ما يلومه كُتَّاب أسفار التوراة على شهامته إذ أقام مذابح للآلهة الخارجية التى كانت تعبدها زوجاته الأجنبيات ، ولا تطاوعهم أنفسهم على أن يصفحوا عنه لعدله الفلسفى — أو لعله السياسى — بين مختلف الآلهة . وأعجب الشعب بحكمته ، ولكنه شعر بما فى حُكمه من مركزية شديدة . وكان بناء الهيكل والقصر قد كلف الناس كثيراً من الذهب والدماء . ولم يكن حبهم لهما أكثر من حب عمال مصر لأهرامها . هذا إلى أن الإنفاق على الهيكل والقصر كان يتطلب فرض ضرائب باهظة ، ولم نعهد قط أن حكومة من الحكومات استطاعت أن تجعل الضرائب من الواجبات المحببة إلى الشعب ؛ فلما مات سليمان كانت موارد إسرائيل قد نضبت . ونشأت فيها طائفة من العمال الصعاليك لا يجدون عملا دائماً يرتزقون منه ، فكان ما قاسوه من العذاب هو الذى حول دين يهوه الحربى إلى دين أنبيائهم الذى لا يكاد يفترق عن الاشتراكية فى كثير أو قليل .

الفصل الثالث

رب الجنود

عدد الآلهة — يهوه — عقيدة الإله الأعظم — خصائص الدين اليهودى — فكرة الخطيئة — القربان — الختان — الكهنوت — آلهة عجيبة

كان بناء الهيكل أهم الحادثات الكبرى فى ملحمة اليهود ، بعد نشر كتاب القانون ؛ ذلك أن هذا الهيكل لم يكن بيتاً ليهوه فحسب بل كان أيضاً مركزاً روحياً لليهود ، وعاصمة لملكهم ، ووسيلة لنقل تراثهم ، وذكرى لهم ، كأنه علم من نار يتراءى لهم طوال تجوالهم الطويل المدى على ظهر الأرض . ولقد كان له فوق ذلك شأن فى رفع الدين اليهودى من دين بدائى متعدد الآلهة إلى عقيدة راسخة غير متسامحة ، ولكنها مع ذلك إحدى العقائد المبدعة فى تاريخ البشر .

وكان اليهود فى ظهورهم على مسرح التاريخ بدواً رحلا يخافون شياطين الهواء ، ويعبدون الصخور والماشية والضأن وأرواح الكهوف والجبال[٥٢] . ولم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والحمل ؛ ذلك أن موسى لم يستطع منع قطيعه من عبادة العجل الذهبى لأن عبادة العجول كانت لا تزال حية فى ذاكرتهم منذ كانوا فى مصر ، وظلوا زمناً طويلا يتخذون هذا الحيوان القوى آكل العشب رمزاً لإلههم . وإنا لنقرأ فى سفر الخروج (الأصحاح ٣٢ الآيات ٢٥ — ٢٨) كيف أخذ اليهود يرقصون وهم عراة أمام العجل الذهبى ، وكيف أعدم موسى واللاويون ثلاثة آلاف منهم عقاباً لهم على عبادة هذا الوثن[*] . وفى تاريخ اليهود

(*) ونجد آثاراً أخرى من عبادة الحيوان بين اليهود الأقدمين فى سفر الملوك الأول فى الأصحاح الثانى عشر الآية الثامنة والعشرين ، وفى حزقيال ٨ : ١٠ ، وقد عبد أصحاب ملك إسرائيل الأبقار بعد سليمان بقرن واحد .

الباكر شواهد كثيرة تدل على أنهم عبدوا الأفعى . ومن هذه الشواهد صورة الأفعى التي وجدت في أقدم آثارهم[٥٤] ومنها الأفعى النحاسية التي صنعها موسى والتي عبدها اليهود في الهيكل إلى أيام حزقيا (حوالي ٧٢٠ ق . م)[٥٥] . وكانت الأفعى تبدو حيواناً مقدساً لليهود كما كانت تبدو لشعوب كثيرة عداهم ، وذلك لأنها رمز للذكورة المخصبة من جهة ؛ ولأنها من جهة أخرى تمثل الحكمة والدهاء والخلود – فضلا عن أنها تستطيع أن تجعل طرفيها يلتقيان[٥٦] .

وكان بعض اليهود يعظمون بَعْل ، الذي كان يرمز إليه بحجارة مخروطية قائمة كثيرة الشبه بلنجا إله الهندوس ، وذلك لأنه في رأيهم الجوهر الذكر في التناسل ، وزوج الأرض الذي يخصبها[٥٧] .

وكما أن آثار عبادة الآلهة الكثيرة البدائية قد بقيت في عبادة الملائكة والقديسين ، وفي الأصنام الصغيرة المتنقلة التي كانوا يتخذونها آلهة لبيوتهم[٥٨] ، كذلك ظلت المعتقدات السحرية التي كانت منتشرة في العبادات القديمة ، باقية عند اليهود إلى عهود متأخرة رغم احتجاج الأنبياء والكهنة . ويبدو أن الناس كانوا ينظرون إلى موسى وهرن على أنهما ساحران ، وأنهم كانوا يناصرون السحرة والعرّافين . وكان استطلاع المستقبل يحدث أحياناً برمى النرد (أريم وتميم) من صندوق (إيفود) – وهي طريقة لا تزال تستخدم لمعرفة ما يريده الآلهة . ومما يذكر بالحمد لكهنة اليهود أنهم قاوموا هذه العادات ، ودعوا الناس ألا يعتمدوا إلا على قوة سحرية واحدة هي قوة القربان والصلوات والتبرعات .

وما لبثت فكرة اتخاذ يهوه إله اليهود القومي الأوحد أن تبلورت وأكسبت الديانة اليهودية وحدة وبساطة كانتا سبباً في انتشالها من فوضى الشرك التي كانت تسود أرض الجزيرة . ويبدو أن اليهود الفاتحين عمدوا إلى أحد آلهة

كنعان(*) فصاغوه فى الصورة التى كانوا هم عليها ، وجعلوا منه إلها صارماً ، ذا نزعة حربية ، صعب المراس ، ثم جعلوا لهذه الصفات حدوداً تكاد تبعث الحب فى القلوب . ذلك أن هذا الإله لا يطالب الناس بأن يعتقدوا أنه عالم بكل شىء ، وشاهد ذلك أنه يطلب إلى اليهود أن يميزوا بيوتهم بأن يرشوها بدماء الكباش المضحاة لئلا يُهلك أبناءهم على علم منه مع من يهلكهم من أبناء المصريين(٦١) ، كذلك لا يرى أنه معصوم من الخطأ ، ويرى أن أشنع ما وقع فيه من الأخطاء هو خلق الإنسان ؛ ولذلك تراه يندم بعد فوات الفرصة على خلق آدم وعلى ارتضائه أن يكون شاؤل ملكا . وتراه من حين إلى حين شرهاً ، غضوباً ، متعطشاً للدماء ، متقلب الأطوار ، نزقاً نكداً : « أتراءف على من أتراءف ، وأرحم من أرحم »(٦٢) . وهو يرضى عما استخدمه يعقوب من ختل وخداع فى الانتقام من لابان(٦٣) ، وضميره لا يقل مرونة عن ضمير الأسقف الذى يندفع فى تيار السياسة . وهو كثير الكلام ، يحب إلقاء الخطب الطوال ؛ وهو حيى لا يسمح للناس أن يروا منه إلا ظهره(٦٤) . وقصارى القول أنه لم يكن للأمم القديمة إله آدمى فى كل شىء كإله اليهود هذا .

ويلوح أنه كان فى بداية الأمر إلها للرعد يسكن الجبال(٦٥) ، ويعبده الناس للسبب الذى كان جوركى الشاب يؤمن من أجله بالله إذا أرعدت السماء . وحوّل كاتبو أسفار موسى الخمسة ، وهم الذين كانوا يتخذون الدين أداة للسياسة ، إله الرعد هذا إلى إله للحرب ، فأصبح يهوه فى أيديهم القوية إلها للجيوش يدعو للفتح والاستعمار ، يحارب من أجل شعبه بنفس القوة التى كان يحارب بها آلهةُ الإلياذة . وفى ذلك يقول موسى : « الرب رجل حرب »(٦٦) . ويردد داود صدى هذا القول نفسه فيقول : « الذى يعلّم يدى القتال »(٦٧) . ويعيد يهوه أن

(*) من بين الآثار التى وجدت فى كنعان (عام ١٩٣١) قطع من الخزف من بقايا عصر البرنز (٣٠٠٠ ق . م) عليها اسم إله كنعانى يسمى ياه أو ياهو(٦٠) .

« يطرد الحويين والكنعانيين والحثيين » يطردهم : « قليلا ، قليلا »(٦٨) ، « ويزعج جميع الشعوب الذين تأتى عليهم ، وأعطيك جميع أعدائك مدبرين » ، ويقول إن الأرض التى فتحها اليهود ملك له وحده(٦٩) . وهو لا يقطع معهم ولا مع أعدائهم عهداً سخيفاً ؛ ويعرف أن الأرض ، حتى الأرض الموعودة نفسها ، لا تنال إلا بحد السيف ولا يحتفظ بها إلا بالسيف ؛ وهو إله حرب لأنه لا بد أن يكون إله حرب ؛ وتمرّ عدة قرون من الهزائم العسكرية والخضوع السياسى ، والتطور الأخلاقى ، حتى يستحيل هذا الإله إلى والد هلل وإلى المسيح . وهو فخور معجب بنفسه كالجندى ، يتقبل الثناء ويشتهيه ، ويحرص على أن يتباهى بقدرته على إغراق المصريين فى البحر: « فيعرف المصريون أنى أنا الرب حين أتمجد بفرعون ومركباته وفرسانه »(٧٠) . وهو يرتكب فى سبيل انتصار شعبه من ضروب الوحشية ما تشمئز منه نفوسنا اشمئزازاً لا يعادله إلا رضاء أخلاق ذلك العصر عنها ، ويأمر شعبه بأن يرتكبوا هم هذه الوحشية ؛ فهو يذبح أمماً بأكملها راضياً مسروراً من عمله رضاء جلفر Gulliver وهو يقاتل من أجل لليپت Liliput .

ولما بدأ اليهود يزنون مع بنات موآب ، قال لموسى : « خذ جميع رؤوس الشعب وعلّقهم للرب مقابل الشمس »(٧١) ، وتلك هى أخلاق أشور بانيپال وأشور ، وهو يعرض رحمته على الذين يحبونه ويتبعون أوامره ، ولكنه يفعل ما تفعله جراثيم الأوبئة الفتاكة : « أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى »(٧٢) ؛ وهو إله جبار يفكر فى إهلاك اليهود على بكرة أبيهم لأنهم عبدوا العجل الذهبى(*) ؛ ويضطر موسى إلى أن يراجعه حتى يتملك عواطفه . فيقول الرجل لربه : « ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك » ، « فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله

(*) نكرر هنا ما قلناه من قبل وهو أن ننقل أقوال المؤلف كما هى وأن ذلك لا يدل على أننا نؤمن بها . (المترجم)

بشعبه »(*) (٧٣) . ثم يريد يهوه أن يفنى اليهود أصلاً وفرعاً لأنهم عصوا موسى ، ولكن موسى يستثير فيه عواطفه الطيبة ، ويأمره أن يفكر فيما يقوله الناس عنه إذا سمعوا بفعلته(٧٤) ، وهو يختبر قومه اختباراً قاسياً فيطلب إلى إبراهيم تضحية يا لها من تضحية ؛ ويعلّم إبراهيمُ يهوه ، كما يعلمه موسى ، مبادئ الأخلاق السامية وينصحه ألا يهلك سدوم وعمورة ، إذا وُجد فيهما من الرجال خمسون ، أو أربعون ، أو ثلاثون ، أو عشرون ، أو عشرة صالحون(٧٥) . ولا يزال يغرى إلهه بالرحمة ، ويشرح له كيف يضطر الإنسان إلى أن يعيد تصوير أربابه لتتفق مع تطورات أخلاقه . وإن اللعنات التي يهدد بها يهوه شعبه المختار إذا ما عصاه لجديرة بأن تكون نماذج فى القدح والسب ، ولعلها هى التى أوحت إلى الذين حرقوا الكفرة فى محاكم التفتيش الأسبانية أو حكموا على اسپنوزا بالحرمان أن يفعلوا ما فعلوا :

« ملعوناً تكون فى المدينة وملعوناً تكون فى الحقل . . . ملعونة تكون ثمرة بطنك وثمرة أرضك . . . ملعوناً تكون فى دخولك وملعوناً تكون فى خروجك ، يرسل الرب عليك اللعن والاضطراب والزجر فى كل ما تمتد إليه يدك لتعلمه حتى تهلك وتفنى سريعاً من أجل سوء أفعالك إذ تركتنى ؛ يلصق بك الرب الوباء حتى يبيدك عن الأرض التى أنت داخل إليها لكى تمتلكها . يضربك الرب بالسل والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول فتتبعك حتى تفنيك . . . الخ يضربك الله بقرحة مصر وبالبواسير والجرب والحكة حتى لا تستطيع الشفاء ، يضربك الرب بجنون وعمى وحيرة قلب . . . أيضاً كل مرض وكل ضربة لم تكتب فى سفر الناموس هذا يسلطه الرب عليك حتى تهلك »(٧٦) .

ولم يكن يهوه الإله الوحيد الذى يعترف اليهود بوجوده ، أو يعترف هو نفسه بوجوده ، وشاهد ذلك أن كل ما يطلبه فى الوصية الأولى من الوصايا العشر

(*) هكذا تصور التوراة إله إسرائيل .

هو أن يقوم مقامه فوق مقام سائر الأرباب : وهو يقر بأنه « إله غيور » ، ويأمر أتباعه بهدم مذابحهم ، وتكسير أنصابهم[٧٧] وإبادتهم . وقلما كان اليهود قبل إشعيا يفكرون فى أن يهوه إله الأسباط جميعاً ، أو حتى إله العبرانيين جميعاً ، فقد كان للموآبيين إلههم شمّش ، وكان نعومى يظن أن لا ضير من أن يظل راعوث على ولائه له[٧٨] . وكان بلزبوب إله عكرون ، وملكوم إله عمون : ذلك أن النزعة الانفصالية التى كانت تتملك نفوس أولئك القوم من الناحيتين الاقتصادية والسياسية قد أدت بطبيعة الحال إلى ما تستطيع أن تسميه اســتقلالا دينياً . ويقول موسى فى أغنيته الشهيرة : « من مثلك بين الآلهة يا رب[٧٩] » ويقول سليمان : « إلهنا أعظم من جميع الآلهة » »

ولم يكن جميع اليهود ، اللهم إلا أعظمهم علماً ، يعدون تموز إلهاً حقاً فحسب ، بل إن عبادته فضلا عن هذا كانت فى وقت من الأوقات منتشرة فى بلاد اليهود حتى لقد شكا حزقيال من أن البكاء حزناً على تموز كان يسمع فى الهيكل[٨١] . لقد كان ما بين اليهود من فوارق وما كان لهم من استقلال كافيين لأن تبقى لطوائفهم آلهتهم الخاصة حتى فى زمن إرميا : « على عدد مدنك صارت آلهتك يا يهوذا » ، ثم يظهر النبى الحزين غضبه على بنى وطنه لأنهم يعبدون بعلا ومولك[٨٢] . فلما أن نشأت الوحدة السياسية فى أيام داود وسليمان ، وتركزت العبادة فى الهيكل بأورشليم ، أخذ الدين يردد أصداء التاريخ والسياسة ، وأمسى يهوه إله اليهود الأوحد . ولم يخط اليهود نحو التوحيد خطوة غير هذه الخطوة ، وهى أن لليهود إلهاً واحداً يعلو على آلهة غيرهم من البشر ، حتى كان زمن الأنبياء(*) . على أن الديانة العبرانية حتى فى هذه المرحلة اليهودية كانت أقرب

(*) لقد جهر إليشع فى القرن التاسع قبل الميلاد بوجود إله واحد : « هو ذا قد عرفت أنه ليس إله فى كل الأرض إلا فى إسرائيل[٨٣] » . وجدير بنا أن نذكر أن التوحيد حتى فى يومنا هذا إنما هو توحيد نسبى ناقص ، فكما كان اليهود يعبدون إلهاً قبلياً ، فإنا نحن أيضاً —

إلى التوحيد من كل دين آخر قبل عصر الأنبياء إذا استثنينا عبادة الشمس القصيرة الأجل فى عهد إخناتون . لقد كانت اليهودية تسمو كثيراً على غيرها من أديان ذلك الوقت فى عظمتها وسلطانها ، وفى وحدتها الفلسفية ؛ وفيما تنطوى عليه من حماسة أخلاقية ومن أثر فى نفوس أهلها ، وكانت تضارع فى عواطفها وشعريتها شرك البابليين واليونان إن لم تفقه من هاتين الناحيتين .

وهذا الدين القاسى المكتئب لم يتخذ له شيئاً من الطقوس المنمقة الاحتفالات المرحة التى كانت شائعة فى عبادة الآلهة المصرية والبابلية . وكان يغشى التفكير اليهودى بأجمعه شعور بضآلة شأن الإنسان أمام رب قادر يسير طوع أمره . وبقيت عبادة يهوه قروناً كثيرة ديناً قوامه الخوف لا الحب ، والرهبة لا الرغبة ، رغم ما بذله سليمان من جهود لكى يجمل باللون والنغم عبادة هذا الإله الرهيب . ولسنا ندرى ، إذا رجعنا بذاكرتنا إلى هذا الدين وأمثاله ، هل عادت الأديان على الإنسانية بالسلوى بقدر ما عادت عليها بالفزع . إن الأديان التى تبعث فى النفوس الأمل والحب لا تكون إلا متعة من منع الأمن والنظام ، ولم يكن الأمن والنظام من الصفات التى سادت طويلا بلاد اليهود . أما الحاجة إلى قذف الرعب فى قلوب الشعب ، أو الثائرين من الأ ب الخاضعين لسلطانه ، فقد جعلت معظم الأديان البدائية عبادات قوامها الخفاء والرعب .

ولقد كان تابوت العهد المحتوى على ملفات السنن ، والذى لم يكن يسمح لأحد بأن يمسه ، كان هذا التابوت رمزاً لطبيعة العقائد اليهودية . ولما مد عزّة الصالح يديه إلى التابوت ليمنعه أن يسقط على الأرض وأمسكه لحظة قصيرة « حمى غضب الرب على عزة وضربه الرب هناك لأجل أنه مد يده إلى التابوت فمات هناك أمام الله »(٨٤)

= نعبد إلها أوربيا — أو إلها إنجلزيا أو ألمانيا أو إيطاليا . ولا تمر بنا لحظة واحدة نتواضع فيها قليلا فنذكر أن الملايين الذين يسكنون الهند والصين واليابان — بله سكان الغابات المتفقهين فى دينهم — لا يعترفون بدين آبائنا نحن وأن يكون للعالم كله إله واحد حتى تربط الآلات الأرض وتؤلف بينها ، وتجعلها وحدة اقتصادية ، وتجمع الأمم كلها فى حكومة واحدة .

وكانت الخطيئة هي الفكرة الأساسية في الدين اليهودي . ولم ير العالم شعباً آخر أولع بالفضيلة ولع اليهود — إلا إذا استثنينا طائفة المتطهرين الذين يخيل إلينا أنهم خرجوا من بين أسفار العهد القديم دون أن تمسسهم الكثلكة الطويلة العهد بسوء ، ولما كانت الطبيعة البشرية ضعيفة و « السنن » معقدة صعبة فلم يكن ثمة مفر من الوقوع في الخطيئة ؛ وكثيراً ما كانت الروح اليهودية تتلبد بالغيوم لما ينجم عن الخطيئة من سيء العواقب ، كحبس المطر أو تدمير إسرائيل بقضها وقضيضها . ولم يكن في هذا الدين جحيم يخصص لعقاب المذنبين ، ولكن شيول أو « أرض الظلام » التي تحت الأرض لم تكن تقل هولا عن هذا الجحيم . وكان يأتي فيها الموتى جميعهم الطيب منهم والخبيث ، ولا يستثنى منهم إلا المقربون إلى الله كموسى وأخنوخ وإيليا . على أن اليهود قلما كانوا يشيرون إلى حياة أخرى بعد الموت ، ولم يرد في دينهم شيء عن الخلود ؛ وكان ثوابهم وعقابهم مقصورين على الحياة الدنيا . ولم تدر فكرة البعث في خلود اليهود إلا بعد أن فقدوا الرجاء في أن يكون لهم سلطان في هذه الأرض ، ولعلهم أخذوا هذه الفكرة عن الفرس ، أو لعلهم أخذوا شيئاً منها عن المصريين . ومن هذه الخاتمة الروحية ولدت المسيحية .

وكان يمكن اتقاء الخطيئة ونتائجها بالصلاة والتضحية ، وبدأت التضحية عند الساميين كما بدأت عند « الآريين » بالضحايا البشرية[٨٥] ثم حل الحيوان محل الإنسان فصار يضحى « بأولى ثمرات القطعان » وباكورة الطعام الذي تنتجه الحقول ؛ ثم انتهى الأمر أخيراً بالاكتفاء بالتسبيح والثناء على الله . وكان الاعتقاد السائد في أول الأمر ألا يؤكل لحم حيوان إلا إذا ذبحه كاهن وباركه ، وعُرِض وقتاً ما على الإله[٨٦] . وكانت عملية الختان نفسها من أعمال التضحية ، ولربما كانت ندية لتضحية أخرى أشد منها قسوة يكتفى فيها الإله بأخذ جزء

من كل ، وكان الحيض والولادة ، كالخطيئة ، يدنسان المرأة ويتطلبان تطهيراً ذا مراسم وتقاليد ، وتضحية وصلاة ، على يد الكهنة ، وكانت المحرمات تحيط بالمؤمنين من كل جهاتهم ، كما كانت الخطيئة كامنة في كل شهوة من الشهوات ، وكان لا بد من الهبات للتكفير عن هذه الخطايا ، وقلما كانت هناك خطيئة لا يمكن التكفير عنها بهذه الوسيلة .

ولم يكن أحد غير الكهنة يستطيع أن يقرب القرابين بالطريقة الصحيحة أو يفسر الطقوس أو الأسرار الدينية تفسيراً آمناً من الخطأ . وكان هؤلاء طبقة مغلقة لا يستطيع أحد أن ينتمي إليها إلا أبناء ليفي(*) . ولم يكن من حقهم أن يرثوا مالا(٨٧) ، ولكنهم كانوا معفين من الضرائب وفرضة الرؤوس وسائر الإتاوات على اختلاف أنواعها(٨٨) . وكانوا يأخذون العشور على نتاج الضأن ، وينتفعون بما يبقى في الهيكل من القرابين التي لم تستنفدها الآلهة(٨٩) . ونمت ثروة الكهنة بعد نفي اليهود بنمو المجتمع اليهودي الجديد ؛ وإذ كانت هذه الثروة المقدسة قد أحسن القيام عليها ، فقد جعلت كهنة الهيكل الثاني في دمشق ، كما كان أمثالهم في طيبة وبابل ، أقوى من الملوك أنفسهم .

على أن نمو سلطان الكهنة وانتشار التربية الدينية لم يكفيا لتكرير عقول العبرانيين من الخرافات والأوهام ومن عبادة الأوثان ؛ بل ظلت قلل التلال ، والحراجُ مأوى للآلهة الأجنبية ومشهداً للطقوس الخفية ، وظلت أقلية كبيرة من الشعب تسجد للحجارة المقدسة ، أو تعبد بعل وعشتروت ، أو تتنبأ بالغيب على الطريقة البابلية ، أو تقيم الأنصاب وتحرق لها البخور ، أو تركع أمام الحية النحاسية أو العجل الذهبي ، أو تملأ الهيكل بضجيج الحفلات الوثنية(٩١) ، أو ترغم أطفالها على أن « يجوزوا في النار» من قبيل التضحية(٩٢) ؛ بل إن بعض الملوك أنفسهم مثل سليمان وأهاب كانوا « يتملقون » الآلهة الأجانب ، وقام

(*) أحد أبناء يعقوب .

رجال صالحون كإليا واليشع ينادون بإبطال هذه العادات ، وإن لم يصبحوا بعد كهنة ، وحاولوا أن يهدوا الناس إلى طريق الحق باستقامتهم وحثهم على الاقتداء بهم . ونشأ من هذه الأحوال والبدايات ، ومن انتشار الفاقة واستغلال الأهلين فى إسرائيل ، عظماء الرجال فى الديانة اليهودية ، نشأت طائفة الأنبياء المتحمسين ، الذين ظهروا الدين اليهودى ، ورفعوا مقامه ، وهيأوه للغلبة على أديان العالم العربى .

الفصل الرابع

المتطرفون الأولون

حرب الطبقات – أصل الأنبياء – عاموس وأورشليم – إشعيا – تنديده بالأغنياء – عقيدة المسيح المنتظر – أثر الأنبياء

لما كان الفقر ينشأ من الغنى ، ولما كان الفقراء لا يعرفون أنهم فقراء إلى حين يبصرون الأغنياء بعيونهم ، فإن حرب الطبقات لم يندلع لهيبها فى إسرائيل إلا بعد أن رأى الناس بأعينهم ثروة سليمان الطائلة .

لقد تعجل سليمان ، كما تعجل بطرس الأكبر ولينين ، حينما أراد أن يحوّل البلاد من دولة زراعية إلى أخرى صناعية . وقد تطلبت هذه المشروعات الضخمة كثيراً من الكدح ، وفرضت على الشعب أبهظ الضرائب ؛ ولما أن تمّت بعد عشرين عاما من العمل المتواصل ، وُجدت فى أورشليم طبقة من العمال المتعطلين كانوا من عوامل الشقاق السياسى والفساد الاجتماعى فى فلسطين كما كان أمثالهم فى رومة فيما بعد . وكانت الأحياء القذرة تزداد شيئاً فشيئاً كلما نمت ثروة الأفراد وزاد ترف الحاشية ، وأصبح استغلال الشعب والربا عادة مألوفة بين أصحاب الضياع الكبرى والتجار والمرابين الذين أحاطوا بالهيكل حتى قال عاموس إن الملاّك « باعوا البارّ بالفضة والبائس لأجل نعلين »(٩٣) .

وكانت الثغرة الآخذة فى الاتساع بين ذوى الحاجة وذوى اليسار ، وكان النزاع الشديد بين المدن والريف وهو النزاع الذى يصحب على الدوام قيام المدنيات الصناعية ، من العوامل التى أدت إلى انقسام فلسطين بعد موت سليمان إلى مملكتين متعاديتين مملكة إفرايم(*) الشمالية وعاصمتها السامرة ، ومملكة يهوذا

(*) كثيراً ما كان أهل هذه المملكة يسمونها مملكة « إسرائيل » ، ولكننا فى هذا الكتاب سنطلق هذا اللفظ الأخير على اليهود جميعهم لا على هذه المملكة وحدها .

الجنوبية وعاصمتها أورشليم . وأخذ الضعف من ذلك الحين يدب بين اليهود لما سرى فى قلوبهم من أحقاد ، وما قام بينهم من نزاع كانت تشتعل بينهم بسببه نيران الحرب العوان . ولم يمض على موت سليمان إلا زمن قليل حتى استولى شيشنق ملك مصر على أورشليم ، وحتى سلّمت له كل ما جمعه سليمان من ذهب بالضرائب التى فرضها على الشعب فى أثناء حكمه الطويل .

وكان هـــذا الجو المشحون بعوامل التفكك السياسى ، والحرب الاقتصادية ، والانحلال الدينى ، هو الذى ظهر فيه الأنبياء . ولم يكن أولئك الذين أطلق عليهم هذا اللفظ العبرى (نبىّ) أول الأمر من طبقة عاموس وإشـــعيا الجديرة باحترامنا ؛ بل كان بعضهم من المتنبئين الذين يستطيعون قراءة قلوب الناس وماضيهم ويخبرونهم بمستقبلهم حسبما يتقاضون منهم من أجور . ومنهم متعصبون متهوّسون يستثيرون مشاعرهم بالأصوات الموســـيقية الغريبة أو المشروبات القوية ، أو الرقص الشبيه برقص الدراويش ، ينطقون فى أثناء غيبوبتهم بعبارات يراها أصحابهم وحياً أوحى إليهم : أى بثها فيهم روح غير روحهم(٩٤) . وقد سخر إرميا سخرية لاذعة من « كل رجـــل مجنون ومتنبىء »(٩٥) . وكان منهم من هو ناسك نكد كإيليا ؛ ومنهم كثيرون يعيشـــون فى مدارس أو أديرة مجاورة للهياكل ، ولكن معظمهم كانت له أملاك خاصة وزوجات(٩٦) . ومن هـــذا الحشد الكبير من النساك خرج أنبياء بنى إسرائيل وأصبحوا على مرّ الزمن نقدة لعصرهم وشعبهم ثابتين على نقدهم . عارفين بالتبعة الملقاة عليهم ؛ وسياسيين ممتازين يسوسون بلادهم فى الخفاء « أشـــد الناس معارضة للكهنة »(٩٧) . و « ألدهم عـــداء للسامية »(٩٨) ، وكانوا مزيجاً من العرّافين والاشتراكيين . ونخطىء أشد الخطأ إذا عددناهم أنبياء بالمعنى المألوف لهذا اللفظ ؛ لقد كانت نبوءاتهم ، إن صح أن نسميها نبوءات ، مزيجاً من الوعد والوعيد ، أو عبارات دالة على التقى والصلاح ، يحشرونها فى

أقوالهم حشراً[٩٩] ، أو إشارات إلى حوادث بعد وقوعها[١٠٠] ، ولم يكن الأنبياء أنفسهم يدّعون أنهم يعلمون من الغيب ما يستطيعون أن ينطقوا به ؛ بل كانوا أشبه الناس بالمعارضين البلغاء فى إحدى الحكومات الدستورية الحديثة ، وكانوا من بعض نواحيهم تلستويين[*] . ثائرين على الاستغلال الصناعى والخداع الكهنوتى ؛ خرجوا من أحضان الريف الساذج يصبون اللعنات على ثراء الحواضر الفاسدة .

وقد قال عاموس عن نفسه إنه لم يكن نبياً وإنما كان راعياً ريفياً ساذجاً ، فلما أن ترك قطيعه ليشهد بيت إل ، هاله ما شاهده فيه من تعقد الحياة تعقداً غير طبيعى ، ومن الفروق الواسعة بين الثروات ، ومن منافسة مريرة قاتلة ، وقسوة فى استغلال الناس . فلما رأى هذا « وقف بالباب » وأخذ يصب غضبه على ذوى الثراء المنغمسين فى الترف الذين لا يرعون فى الناس عهداً ولا ذمة .

« من أجل أنكم تدوسون المسكين ، وتأخذون منه هدية قمح ، بنيتم بيوتاً من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها ، وغرستم كروماً شهية ولا تشربون خمرها . . . ويل للمستريحين فى صهيون ، . . . أنتم . . . المضطجعون على أسرة من العاج والمتمددون على فرشهم والآكلون خرافاً من الغنم ، وعجولا من وسط الصيرة ، الهذرون مع صوت الرباب ، المخترعون لأنفسهم آلات الغناء كداود ، الشاربون من كؤوس الخمر ، والذين يدّهنون بأفضل الأدهان . . .

« كرهت أعيادكم . . . إنى إذا قدّمتم لى محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى ... أبعد عنى ضجة أغانيك ونغمة ربابك لا أسمع ، وليجر الحق كالمياه ، والبر كنهر دائم »[١٠١] .

تلك نغمة جديدة فى آداب العالم . نعم إن عاموس يثلم حد مثاليته ، بما ينطق به إلهه من وعيد كالتيار الجارف لا يستطيع القارئ لكثرته وشدته أن يحاجز نفسه

(*) أى أشبه بتولستوى الفيلسوف الروسى . (المترجم)

عن العطف فى بعض اللحظات على شاربى الخمر ومستمعى الموسيقى . ولكنا هنا نرى الضمير الاجتماعى لأول مرة فى آداب آسية يتخذ صورة محددة واضحة ويفيض على الدين بما يرفعه من دين حفلات وملق إلى دعوة للنبل وحث على مكارم الأخلاق ، وما من شك فى أن إنجيل المسيح يبدأ فى الحقيقة بظهور عاموس(*) .

ويبدو أن نبوءة من أشد نبوآته إيلاماً تحققت وهو لا يزال حيا : « هكذا قال الرب . كما ينزع الراعى من فم الأسد كراعين أو قطعة أذن ، هكذا ينتزع بنو إسرائيل الجالسون فى السامرة فى زاوية السرير وعلى دمقس الفراش . . . فتبيد بيوت العاج وتضمحل البيوت العظيمة »[١٠٢](**) ؛ وقام نبى آخر حوالى ذلك الوقت نفسه يهدد السامرة بالخراب فى عبارة من تلك العبارات الواضحة المأثورة التى صاغها المترجمون فى عهد الملك جيمس من كنوز التوراة ليرددها الناس فى حديثهم كل يوم . قال هوشع : « إن عجل السامرة يصير كسراء ، إنهم يزرعون الريح ويحصدون الزوبعة »[١٠٤] . وفى عام ٧٣٣ هددت إفرايم وحليفتها سوريا ، مملكة يهوذا الناشئة ، فاستغاثت هذه بأشور . فأغاثتها واستولت على دمشق ، وأخضعت سوريا وصور وفلسطين وأرغمتها على دفع الجزية ، وعرفت ما يبذله اليهود من جهود للحصول على معونة مصر ، فغزت البلاد يهوذا[١٠٥] ، وعجزت عن الاستيلاء على أورشلم ، ثم عادت جيوشها إلى نينوى مثقلة بالغنائم ومعها ٢٠٠,٠٠٠ من أسرى اليهود ليكونوا عبيداً للأشوريين[١٠٦]

(*) يجدر بالقارئ أن يرجع إلى كتاب « فجر الضمير » لبرستد ليوازن بين ما فيه وبين ما ورد فى هذه الأقوال فإن برستد يرجع بداية هذه الدعوة إلى المصريين الأقدمين . (المترجم)

(**) واضح أنه يشير هنا إلى الحجرة التى بنيت كلها من العاج فى قصر السامرة الذى كان يقيم فيه الملك أهاب مع ملكته إيزابل (حوالى ٨٧٥ — ٨٥٠ ق . م) وقد عثرت بعثة مكتبة هارفرد فى خرائب قصر يقال إنه قصر أهاب على عدد من قطع العاج[١٠٣] .

وفى أثناء حصار أورشليم أصبح النبى إشعيا من أعظم شخصيات التاريخ العبرى(*) . وكان إشعيا أوسع أفقاً من عاموس ، ولذلك كانت آراء أولهما أبقى أثراً فى السياسة من آراء الثانى . ولم يكن يشك فى أن يهوذا الصغيرة لا تستطيع الوقوف فى وجه أشور الجبارة ذات السلطان الواسع ولو أعانتها مصر البعيدة — تلك القصبة المرضوضة التى تدمى يد من يحاول أن يمسكها ليدفع بها عن نفسه — فأخذ يتوسل إلى الملك أهاز ثم إلى الملك حزقيا أن يظلا على الحياد فى الحرب القائمة بين أشور وأفرايم . ذلك أنه لم يكن يشك — كما لم يكن عاموس وهوشع يشكان — فى أن السامرة(١٠٨) لا بد ساقطة ، وأن المملكة الشمالية مقبلة على آخر أيامها . فلما أن حاصر الأشوريون أورشليم أشار إشعيا إلى حزقيا ألا يسلم المدينة . وبدا أن انسحاب جيوش سنحريب المفاجئ مبرر قوى لهذه النصيحة . ومن ذلك علا شأنه زمناً ما لدى الملك والشعب على السواء . وكان ينصح على الدوام بأن يعامل الناس بالعدل ، وأن يترك أمرهم بعد ذلك إلى يهوه ، فيستخدم أشور أداة له يؤدبهم بها ، ولكنه سيهلكها هى نفسها فى آخر الأمر . وكان من أقواله أن يهوه سيقضى على جميع الأمم المعروفة له ، وهو يقول فى بعض فصول سفره (من الأصحاح السادس عشر إلى الثالث والعشرين) إن موآب وسوريا وإثيوبيا ومصر سيكون مصيرها الدمار و «كلها يولول»(١٠٩) . وهذا التهديد بالخراب وهذه اللعنات المتكررة تفسد ما فى سفر إشعيا من جمال ، كما تفسد كل ما فى التوراة كلها من نبوءات ، ولولاها لكانت من أجمل ما كتب فى الأدب .

على أن تشهيره هذا إنما ينصبّ على ما يجب أن ينصبّ عليه — على الاستغلال الاقتصادى والشراهة ، فهو إذا تحدث عنهما سما فى حديثه إلى أرقى

(*) يتكون الكتاب الذى يحمل اسمه من مجموعة من «التنبؤات» (أى المواعظ) كتبها مؤلفان أو أكثر من مؤلفين عاشا فى الفترة المحصورة بين ٨١٠ ، ٣٠٠ ق . م(١٧٠) وتعزى الفصول من ١ إلى ٣٩ عادة إلى «إشعيا الأول» الذى نتحدث عنه فى هذه الصفحات .

ما وصل إليه الأدب فى أسفار العهد القديم ، فى فقرات تعد من أروع ما كتب من النثر فى أدب العالم كله :

« الرب يدخل فى المحاكمة مع شيوخ شعبه ورؤسائهم ، وأنتم قد أكلتم الكرم . سلبُ البائس فى بيوتكم . ما لكم تسحقون شعبى وتطحنون وجوه البائسين ؟ . . . ويل للذين يصلون بيتاً ببيت ، ويقرنون حقلا بحقل حتى لم يبق موضع . فصرتم تسكنون وحدكم فى وسط الأرض ! . . . ويل للذين يقضون أقضية البطل ، وللكتبة الذين يسجلون زوراً ليصدوا الضعفاء عن الحكم ، ويسلبوا حق بائسى شعبى لتكون الأرامل غنيمتهم ، وينهبوا الأيتام . وماذا تفعلون فى يوم العقاب حين تأتى التهلكة من بعيد ؟ إلى من تهربون للمعونة ؟ وأين تتركون مجدكم ؟»[١١٠].

وهو يزدرى أشد الازدراء من يتظاهرون فى العالم بالتقوى وهم يبتزون أموال الفقراء :

« لماذا لى كثرة ذبائحكم ؟ يقول الرب اتخمت من محرقات كباش وشحم مسمنات . . . رؤوس شهوركم وأعيادكم بغضتها نفسى . صارت علىّ ثقلا . مللت حملها . فحين تبسطون أيديكم أستر عينى عنكم . وإن كثرتم الصلاة لا أسمع . أيديكم ملآنة دماً . اغتسلوا تنقوا . أعزلوا شر أفعالكم من أمام عينى ، كفوا عن فعـــل الشر . تعلموا فعل الخير . اطلبوا الحق . أنصفوا المظلوم . اقضوا لليتيم . حاموا عن الأرملة »[١١١] .

وهو ممتلئ القلب حقداً ، ولكنه غير يائس من شعبه ؛ وكما أن عاموس قد ختم مواعظــه بنبوءة ، يحاول اليهود الآن تحقيقها وهى عودتهم إلى فلسطين[١١٢] ، كذلك يختم إشعيا مواعظه بترديد أمل اليهود فى ظهور من يقضى على ما بينهم من انقسام سياسى ، وخضوع للأجنبى ، وما هم فيه من بؤس وشقاء ، ومن يعيد إلى الأرض الإخاء والسلام :

« ها ! العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل » . . لأنه يولد لنا ولد ونعطى ابناً ، وتكون الرياسة على كتفه ، ويدعى اسمه عجيباً مشيراً ، إلهاً قديراً ، أباً أبدياً ، رئيس السلام . . . ويخرج قضيب من جذع يسى . . . ويحل عليه روح الرب ، روح الحكمة والفهم ، روح المشورة والقوة ، روح المعرفة ومخافة الرب ، . . يقضى بالعدل للمساكين ، ويحكم بالإنصاف لبائسى الأرض ، ويضرب الأرض بقضيب فمه ، ويميت المنافق بنفخة شفتيه ، ويكون البر منطقة متنيه ، والأمانة منطقة حقويه ، ويسكن الذئب مع الخروف ، ويربض النمر مع الجدى والعجل والشبل والمسمن معاً ، وصبى صغير يسوقها ، . . فيطبعون سيوفهم سككاً ، ورماحهم مناجل ولا ترفع أمة على أمة سيفاً ، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد »[١١٣] .

ذلك إلهام جد عجيب ؛ ولكنه إلهام لن يعبر عن مزاج اليهود حتى تمر بهم أجيال كثيرة . وكان كهنة الهياكل ينصتون بعطف مكظوم إلى هذه الدعوة النافعة التى تحث الناس على التقى والصلاح ؛ وكانت شيع من اليهود تتطلع إلى هؤلاء الأنبياء تتلقى عنهم هذه الدعوة الملهمة ، ولعل هذه الأقوال التى تدعوهم إلى نبذ الشهوات الجسمية كان لها بعض الأثر فى تقوية ما أوجدته الصحراء فى اليهود من نزعة إلى التزمت فى الدين ، غير أن حياة القصور والخيام ، والأسواق والحقول ، ظلت فى أغلب الأحيان تجرى على سنتها القديم ، فكانت الحرب تقضى على من تصطفى من كل جيل ، وظل الاسترقاق مصير الغريب ، وظل التاجر يطفف الكيل ويغش فى الميزان ، ثم يحاول التكفير عن ذنبه بالتضحية والصلاة[١١٤] .

وترك الأنبياء أعمق آثارهم فى يهودية ما بعد التقى ، ثم فى العالم كله عن طريق اليهودية والمسيحية . وفى أسفار عاموس وإشعيا نرى بداية المسيحية والاشتراكية والمعين الذى فاضت منه الدعوات إلى إقامة عالم مطهر من الشرور يطوف به طائف الفقر أو الحرب فيكدر ما فيه من أخوة وسلام .

وهذه الأسفار هى منشأ العقيدة اليهودية الأولى التى تقول بمجىء مسيح

يقبض على زمام الحكم ، ويعيد إلى اليهود سلطانهم الدنيوى ، ويجعل الصعاليك الملقين الحاكمين بأمرهم فى العالم كله وكان إشعيا وعاموس هما اللذان بدآ فى عصر الحروب يمجدان فضائل البساطة والرحمة والتعاون بين الناس والإخاء ، وهى الفضائل التى جعلها عيسى أساساً جوهرياً لدينه . وكانا أول من اضطلع بذلك العبء الثقيل عبء تحويل رب الجنود إلى إله حب ، وهما اللذان جندا يهوه واستعاناه على نشر المبادئ الإنسانية ، كما جنّد المسيح متطرفو الاشتراكيين فى القرن التاسع عشر ليستعيناه على نشر المبادئ الاشتراكية . وهما اللذان بثا فى عقول الألمان — بعد أن طبعت التوراة فى أوربا — الإيمان بمسيحية جديدة وأوقدا شعلة الإصلاح الدينى ، وكانت فضائلهم القوية غير المتسامحة هى التى أخرجت طائفة المتطهرين المسيحيين . وكانت فلسفتهم الأخلاقية تقوم على نظرية أجدر من غيرها بالتسجيل — وهى أن الطيب سوف يوفق وينجح ، وأن الخبيث سوف يصرع ، وقد تكون هذه نظرية مخادعة ، ولكن ما فيها من خداع — إن كان فيها خداع — هو خداع العقـــل النبيل . ولئن كان هؤلاء الأنبياء لا يتصوّرون الحرية أو يفكرون فيها ، فإنهم كانوا يحبون العـــدالة ويدعون إلى القضاء على ما كان يضعه الأسباط من قيود على الأخلاق الطيبة ، ولقد أقاموا أمام البائسين فى العالم أملاً فى التآخى كان تراثاً غالياً ، ظلوا يتوارثونه على مدى الأجيال(*) .

(*) يتبين القارئ من هذا الفصل أن دولة اليهود لم تمكث فى فلسطين فى الزمن القديم إلا فترة وجيزة ، فقد قامت فى عهد شاول وبلغت أوجها فى عهد خلفه داود ودبّ فيها الضعف فى عهد سليمان وانقسمت من بعده ثم زالت زوالا سريعاً من الوجود . ترى هل هذه الفترة الوجيزة تكفى لأن تجعل ليهود اليوم حقا فى الاستيلاء على فلسطين وإخراج أهلها منها بعد أن قاموا فيها أربعة وعشرين قرنا من الزمان ؟ هذا والله منطق غريب لو صح لكان من حق العرب أن يستولوا على أسبانيا وجزء كبير من فرنسا وصقلية وجنوبى إيطاليا وقد حكموا بعضها أكثر مما حكم يهود فلسطين . (المترجم)

الفصل الخامس

موت أورشليم وبعثها

مولد التوراة — تدمير أورشليم — الأسر البابلى — إرميا — حزقيال — إشعيا الثانى — تحرير اليهود — الهيكل الثانى .

كان أهم أثر للأنبياء فى معاصريهم هو كتابة التوراة . وكان سبب كتابتها أن الشعب شرع يرتد عن عبادة يهوه إلى عبادة الآلهة الأجنبية ، فأخذ الكهنة يتساءلون ألم يأن لهم أن يقفوا وقفة قوية يمنعون بها تدهور العقيدة القومية . ورأوا الأنبياء يعزون إلى يهوه ما يجيش فى صدورهم من عواطف يؤمنون بها ويعتقدونها ، فاعتزموا أن يبلغوا الناس رسالة من الله نفسه فى صورة سنن إلهية تبعث النشاط والقوة فى حياة الأمة الخلقية ، ويضمنون بها معونة الأنبياء ، وذلك بما تتضمنه من آرائهم القليلة التطرف . وسرعان ما ضموا إلى جانبهم الملك يوشيا . فلما كانت السنة الثامنة عشرة أو نحوها من حكمه أبلغ الكاهن خلقيا الملك أنه « وجد » فى سجلات الهيكل ملفاً عجيباً قضى فيه موسى نفسه فى جميع المشكلات التاريخية والخلقية التى كانت مثار الجدل العنيف بين الأنبياء والكهنة . وكان لهذا الكشف أثر عظيم فى نفس القوم ، فدعا يوشيا كبارهم إلى الهيكل وتلا عليهم فيه « سفر الشريعة » فى حضرة آلاف من الشعب (حسبما تقول الرواية) ، ثم أقسم ليطيعن من ذلك الوقت ما جاء فى هذا السفر « وأوقف كل الموجودين فى أورشليم وبنيامين فعمل سكان أورشليم حسب عهد الله »[١١٥] .

ولسنا نعلم علم اليقين ماذا كان « سفر الشريعة » هذا . فقد يكون سفر الخروج من الأصحاح العشرين إلى الثالث والعشرين ، وقد يكون سفر تثنية الاشتراع[١١٦] ؛ وليس ثمة ما يضطرنا إلى أن نفترض أنه قد وضع فى تلك

الساعة ؛ فكل ما فيه أنه يقنن ويسجل أوامر ومطالب ونصائح نطق بها خلال عدة قرون أنبياء بنى إسرائيل وكهنة المعبد . ومهما يكن مصدرها فإن الذين استمعوا لها وهى تقرأ عليهم ، أو سمعوا بها ولم يكونوا حاضرين وقت قراءتها ، قد تأثروا بها أشد الأثر . واغتنم الملك يوشيا هذه الفرصة السانحة فاستعان بهذه العواطف الجياشة على تحطيم مذابح الآلهة المنافسين ليهوه فى يهوذا ، وأخرج « من هيكل الرب جميع الآنية المصنوعة للبعل » ، « ولاشى كهنة الأصنام . . . والذين يوقدون للبعل ، للشمس والقمر والمنازل ولكل أجناد السماء » و « نَجَّس تُوفة . . . لكيلا يُعَبِّر أحد ابنه أو ابنته فى النار لِمُولَك . وحطم المذابح التى بناها سليمان لكموش ، وللمكوم ، ولعشتورت »(١١٧) .

ويبدو أن هذه الإصلاحات لم ترض يهوه فتحمله على أن يقدم المعونة لشعبه . نعم إن نينوى قد سقطت كما قال الأنبياء ، ولكن سقوطها لم يكن له من أثر إلا أن ترك يهوذا خاضعة لحكم مصر أولا ثم لحكم بابل فيما بعد . ولما أن حاول نخاو ملك مصر أن يمر بفلسطين فى زحفه على سوريا وقف يوشيا فى وجهه عند مجدو حيث كانت الواقعة القديمة المشهورة ظناً منه أن إلهه سيعينه على خصمه ، ولكنه هُزم وقُتل . وبعد بضع سنين من ذلك الوقت انتصر نبوخذ نصر على نخاو فى قرقميش واستولى على يهوذا وجعلها ولاية تابعة لبابل . وحاول حلفاء يوشيا ، بالوسائل الدبلوماسية السرية ، أن يلقوا عن كاهلهم نير بابل ، وأرادوا أن يستعينوا فى سعيهم هذا بمصر ، ولكن نبوخذ نصر علم بالأمر ، فزحف بجيوشه على فلسطين ، واستولى على أورشليم ، وأسر الملك يهوياقيم ، ورفع صدقيا على عرش يهوذا ، ثم عاد إلى بلاده ومعه عشرة آلاف أسير من اليهود » . ولكن صدقيا كان أيضاً محباً للحرية أو للسلطان فخرج على بابل ، فعاد إليه نبوخذ نصر معتزماً أن يحل المشكلة اليهودية حلاً نهائياً كما يظن ، فاستولى مرة أخرى على أورشليم وحرقها عن آخرها وهدم هيكل سليمان وقتل أبناء صدقيا أمام عينيه ،

ثم سمل عينيه هو نفسه وأسر جميع سكان المدينة تقريباً وساقهم أمامه إلى بابل(١١٨) . وقد خلد أحد شعراء اليهود فيما بعد ذكرى هذه القافلة البائسة فى أغنية من أروع أغانى العالم قال :

على أنهار بابل جلسنا وبكينا على ذكرى صهيون
وفى وسط الصفصاف علقنا أعوادنا
لأن مَن سبونا طلبوا إلينا أن نغنّيهم ، والذين عذبونا
أرادوا أن نطربهم ، ونادونا هلاّ أنشدتمونا أحد اناشيد صهيون ؟
وهل نستطيع أن ننشد نشيد الله فى بلد غريب ؟
ولئن نسيتك يا أورشليم فلتنس يمينى حذقها
، ليلتصق لسانى بسقف حلقى إن لم أذكرك يا أورشليم
وإن لم تكونى لدىَّ خيراً من أفراحى(١١٩) .

وفى هذه الأزمة كلها ظل إرميا أفصح الأنبياء وأشدهم حقداً على قومه يدافع عن بابل ويعلن فى الملأ أنها سوط عذاب فى يد الله ، ويتهم حكام يهوذا بأنهم بلهاء معاندون ، وينصحهم بأن يسلموا أمرهم كله إلى نبوخذ نصر ؛ حتى ليكاد من يقرأ أقواله فى تلك الأيام يظن أنه من صنائع بابل المأجورين ؛ انظر إلى قول إرميا على لسان ربه :

« إنى أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذى على وجه الأرض بقوتى العظيمة وبذراعى الممدودة وأعطيتها لمن حسن فى عينى ، والآن قد دفعت كل هذه الأراضى ليد نَبُوخَذ نصر مَلِك بابل عبدى . . . فتخدمه كل الشعوب . . . ويكون أن الأمة أو المملكة التى لا تخدم نبوخذ نصر ملك بابل ، والتى لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل إنى أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء — يقول الرب — حتى أفنيها بيده »(١٢٠) .

قد يكون هذا الرجل خائناً أو لا يكون ، أما من الناحية الأدبية فإن كتاب

نبوءاته التى يقال إنه تلقّاها عنه تلميذه باروخ ليعدّ من أبلغ ما كتب فى الآداب كلها ومن أعظمها قوة ؛ وذلك لما فيه من تصوير حى واضح وتأنيب شديد لا رحمة فيه ولا هوادة . وفيه فوق ذلك إخلاص يبدأ بسؤال الرجل نفسه ثم يختتم بارتياب شريف فى خطته وفى حياته كلها من بدايتها إلى نهايتها : « ويل لى يا أمى لأنك ولدتنى إنسان خصام وإنسان نزاع لكل الأرض ، لم اقرض ولا أقرضونى ، وكل واحد يلعننى ... ملعون اليوم الذى ولدت فيه »(١٢١) .

واشتعلت فى صدره نيران الغضب حين رأى ما عليه قومه وزعماؤهم من انحطاط فى الأخلاق وحمق فى السياسة . ورأى فرضاً عليه ان يدعو بنى إسرائيل إلى التوبة والندم . وخيل إلى إرميا أن كل ما يشهده من انحلال قومى ، وضعف سياسى ، وخضوع للأجنبى ، وقد أنزل له يهوه باليهود عقابا لهم ما ارتكبوا من الذنوب . « طوفوا فى شوارع أورشليم ، وانظروا ، واعرفوا ، وفتشوا فى ساحاتها ، هل تجدون إنساناً ، أو يوجد عامل بالعدل طالب الحق فأصفح عنها »(١٢٢) . لقد ساد الظلم فى كل مكان وعم الفسق والفجور : ولما أشبعتهم زنوا ، وفى بيت زانية تزاحموا ، صاروا حصنا ملعونة سائبة ، صهلوا كل واحد على امرأة صاحبه »(١٢٣) . ولما حاصر البابليون أورشليم أراد سراة المدينة أن يسترضوا يهوه فأطلقوا من كان عندهم من عبيد عبرانيين ، فلما أن رفع الحصار فترة قصيرة من الوقت ، وخيل إليهم أن الخطر قد زال ، قبض هؤلاء السراة على عبيدهم السابقين وأرغموهم على عبوديتهم القديمة . لقد كانت هذه فترة جمعت من تاريخ الإنسانية ما لم يستطع إرميا أن يقف أمامه صامتا ساكنا لا يبدى حراكا(١٢٤) ، فأخذ كغيره من الأنبياء يتوعد المنافقين الذين يجيئون إلى الهيكل متظاهرين بالتقى والصلاح يحملون بعض ما جمعوا من كدح الفقراء وطحن عظامهم ، ويذكرهم بأن الله لا يطلب إلى الناس أن يقربوا له القرابين بل يطلب إليهم أن يكونوا منصفين عادلين(١٢٥) . وهو يرى أن الكهنة والأنبياء لا يكادون يقلون فسادا

عن التجار ، وأنهم كالشعب نفسه في حاجة إلى أن تطهر أخلاقهم أو تصاغ من جديد ، وأن يختتنوا في أرواحهم كما يختتنون في أجسامهم كما يقول إرميا بعبارته العجيبة : « اختتنوا للرب وأنزعوا غُرّل قلوبكم(١٢٦) » .

وكان هذا النبي يخطب قومه … دا بما كان منتشراً بينهم من فساد بألفاظ من نار لا يعادلها في شدتها إلا خطب القديسين في جنيڤا واسكتلندة وإنجلترا في عهد الإصلاح الديني . فكان يسب اليهود أقذع سباب ويصورلهم وهو جذلان ما سيحل بمن لا يستمعون إليه من هلاك(١٢٧) . وكم من مرة تنبأ لهم بتخريب أورشليم وسبيهم على يد البابليين ، ورثى لما سيحيق بالمدينة (التي يسميها بنت صهيون) من قضاء محتوم بعبارات ما أشبهها بعبارات المسيح : « يا ليت رأسي ماء وعيني ينبوع دموع ، فأبكي ليلا ونهاراً قتلى بنت شعبي(١٢٨) » .

وخيل إلى الأمراء في حاشية صدقيا أن هذا كله غدر بالوطن وخيانة له وتفريق لآراء اليهود وأرواحهم في ساعة المحنة . ولكن إرميا لم يعبأ بأقوالهم وأخذ يسخر منهم فحمل نيراً خشبياً فوق عنقه ، وأخذ يقول إن يهوذا كلها يجب أن تخضع لنير البابليين ، وإن الخير لها أن يكون خضوعها هذا خضوعاً سلمياً بلا حرب ولا قتال . ولما انتزع منه ضانيا نيره صاح قائلا إن يهوه سيصب لكل يهودي نيرا من حديد . وحاول الكهنة أن يثنوه عن عمله هذا بوضع رأسه في الدهق ، ولكنه وهو في هذا الوضع ظل يشهر بهم ، فما كان منهم إلا أن يستدعوه إلى الهيكل وأرادوا أن يقتلوه ، غير أنه استطاع أن يفلت منهم بمعونة صديق له بين الكهنة . ثم قبض عليه الأمراء وربطوه في حبال وأنزلوه بها في بئر مملوءة بالوحل ، ولكن صدقيا خفف هذا العقاب بأن سجنه في فناء القصر ، وفيه وجده البابليون حين سقطت أورشليم في أيديهم . وأمر نبوخذ نصر رجاله أن يحسنوا معاملته ، وأن يعفوه من قرار النفي العام . وتقول إحدى الروايات الموثوق بها إنه كتب « مراثيه » في آخر أيامه(١٢٨) ! وهذه المراثي هي أبلغ أسفار العهد القديم بأجمعها

وفيها أخذ يندب نصره الكامل وما حل بأورشليم من دمار ، ورفع إلى السماء ذلك السؤال الذى سأله أيوب ولم يجد له جواباً :

كيف جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب ! كيف صارت كأرملة العظيمةُ فى الأمم ؟ السيدة فى البلدان صارت تحت الجزية ! . . أما إليكم يا جميع عابرى الطريق ، تطلعوا وانظروا إن كان حزن مثل حزنى . . . أنت يا رب أبرّ من آن أخاصمك ، لكن أكلمك من جهة أحكامك . لماذا تنجح طريق الأشرار ؟ اطمأن كل الغادرين غدراً »[١٢٩] .

وفى هذه الأثناء كان خطيب آخر فى بابل يحتمل عن إرميا عبء التنبؤ ، وهــذا الخطيب هو حزقيال . وكان حزقيال هذا رجلا من أسرة الكهنة سيقت إلى بابل فى أيام السبى الأول من أورشليم . وبدأ خطبه كما بدأها إشعيا الأول وإرميا منددا أشد التنديد بما شاع فى أورشليم من وثنية فى الدين وانحلال فى الأخلاق . وشبّه أورشليم بالزانية . وأخذ يُبدئ فى ذلك ويُعيد ، لأنها باعت عبادتها للآلهة الغرباء[١٣٠] ، وشبه السامرة وأورشليم بزانيتين توأمين . وكانت هذه الكلمة تجرى على لسانه كما كانت تجرى على ألسنة الكتّاب المسرحيين أيام عودة آل استيورت إلى عرش إنجلترا . ووضع ثبتاً طويلا بذنوب أورشليم ثم قضى عليها بالتخريب والسقوط فى أيدى الأعداء . وفعل ما فعله إشعيا ، فأدان الأمم كلها من غير تمييز بينها ، وشهر بخطأ موآب وصور ومصر وأشور وأنذرها بالهلاك والسقوط . وحتى أمة ماجوج العجيبة لم تنج من هذا التشهير[١٣١] . ولكنه لم يكن فى قلبه من الحقد عليها ما كان فى قلب إرميا ، فقد رق قلبه لها فى آخر الأمر وأعلن أن الله سينجى « بقية » من اليهود وتنبأ بأن المدينة ستبعث حية[١٣٢] . وأخذ يصف ما يراه بعين الخيال من بناء المعبد الجديد فيها ، وتصور قيام مدينة فاضلة للكهنة فيها الكلمة العليا والمقام الأعظم ، يقيم بها يهوه مع شعبه أبد الدهر .

وكان يرجو أن يُبقى بهذه الخاتمة السعيدة على نفسية بنى وطنه المنفيين ويؤخر اندماجهم فى الثقافة البابلية وفى الدم البابلى . فقد خيل إليه كما يخيل إلى غيره فى هذه الأيام أن هذا الاندماج سيقضى على وحدة اليهود وعلى كيانهم أيضاً ، ذلك أنهم قد أثروا وحسنت حالهم فى أرض الجزيرة الغنية ، حيث كانوا يتمتعون بقسط موفور من الحرية فى عاداتهم ، وسرعان ما زاد عديدهم ونمت ثروتهم ، وأيسروا فيما عاد به عليهم خضوعهم من هدوء ووفاق لم يتعودوهما من قبل . وأخذت طائفة منهم مطردة الزيادة تعبد الآلهة البابلية ، وتألف الأساليب الشهوانية الشائعة فى العاصمة القديمة ، حتى إذا كان الجيل الثانى من أبناء المنفيين كانت ذكرى أورشليم قد محيت أو كادت تمحى من أذهانهم .

وقد رأى المؤلف المجهول ، الذى أخذ على عاتقه أن يكمل سفر إشعيا ، أن يعيد ذلك الجيل المرتد إلى دين إسرائيل . وكان مما يمتاز به هذا المؤلف وهو يعمل على إعادتهم إلى دينهم القديم أن يرقى بهذا الدين إلى مستوى رفيع لم يرق إليه دين من الأديان التى ظهرت فى الشرق الأدنى حتى ذلك الوقت(*) ، فبينا كان بوذا فى الهند ينادى بقمع الشهوات ، وبينا كان كنفوشيوس فى الصين يصوغ الحكمة لشعبه ، كان « إشعيا الثانى » هذا يعلن لليهود المنفيين فى نثر جزل مشرق مبادئ التوحيد ، ويعرض عليهم إلها جديداً شفيقاً عليهم رحيما بهم ، يفوق فى شفقته ورحمته ما كان عليه يهوه الغضوب كما صوره إشعيا الأول نفسه . وشرع هذا النبى العظيم يعلن فى الناس رسالته بعبارات اختارها أحد الأناجيل المتأخرة ليستحث بها المسيح الشاب على أن يؤدى هو الآخر رسالته . ولم تكن هذه

(*) ولسنا نعرف شيئاً من تاريخ هذا الكاتب الذى اختار أن يتحدث على لسان إشعيا ، وهى طريقة أدبية كانت شائعة فى ذلك الوقت . وكل ما نستطيع أن نعزوه من أمره أنه كتب قبيل تحرير اليهود على يد قورش أو بعيد هذا التحرير . ويعزو دارسو التوراة إلى هذا الكاتب الأصحاحات من ٤٩ إلى ٥٥ كما يعزون إلى كاتب آخر مجهول أو كتاب مجهولين الأصحاحات من ٥٦ إلى ٦٦(١٣٢) .

الرسالة الجديدة هي صب اللعنات على الشعب لما ارتكب من الذنوب . بل كانت تهدف إلى بث الأمل في قلوبهم أيام استبعادهم . « روح السيد الرب عليّ لأن الرب مسحني لأبشر المساكين ، أرسلني لأعصب مكسوري القلب ، لأنادي بالمسبيين بالعتق وللمأسورين بالإطلاق[١٣٣] » ؛ فقد وجد هذا الكاتب أن يهوه ليس إله حرب وانتقام بل أباً محبًّا ؛ وملأه هذا الكشف الجديد سعادة ، وأوحى إليه أناشيد فخمة ، فأخذ يبشر بالإله الجديد منقذ شعبه .

« صوت صارخ في البريّة ، أعدوا طريق الرب ، قوموا في القفر سبيلا لإلهنا ، كل وطاء يرتفع ، وكل جبل وأكمة ينخفض ، ويصير المعوج مستقيما ، والعراقيب سهلا(*)... هو ذا الرب بقوة يأتي ، وذراعه تحكم له... كراع يرعى قطيعه ، بذراعه يجمع الحملان ، وفي حضنه يحملها ، ويقود المرضعات » .

ثم يبشر هذا النبي بالمسيح المنقذ ، ويرفع من شأن هذه البشرى حتى تصير من الآراء السائدة بين شعبه ، ويصف « الخادم » الذي سينجي إسرائيل بالتضحية الأليمة :

« محتقر ومخذول من الناس ، رجل أوجاع ومختبر الحزن ... محتقر فلم نعتد به . لكن أحزاننا حملها ، وأوجعنا تحمّلها ، ونحن حسبناه مصاباً مضروباً من الله ومذلولا . وهو مجروح لأجل معاصينا ، مسحوق لأجل آثامنا ، تأديب سلامنا عليه وبجبره شفينا ... والرب وضع عليه إثم جميعنا »(**)[١٣٤] .

ويتنبأ إشعيا الثاني بأن بلاد الفرس ستكون أداة هذا التحرير . وينادي بأن قورش رجل لا يُقهر وأنه سيفتح بابل وينقذ اليهود من الأسر فيعودون إلى أورشليم ويشيدون هيكلا جديداً ومدينة جديدة تكون جنة بحق . « الذئب والحمل يرعيان معاً ، والأسد يأكل التبن كالبقر ، أما الحية فالتراب طعامها ،

(*) لعله يشير بهذا القول إلى الطريق الممتد من بابل إلى أورشليم .

(**) لا ترى البحوث الحديثة أن لفظ « الخادم » هنا نبوءة بالمسيح[١٣٤] .

لا يُؤذون ولا يُهلكون ، في كل جبل قدسي يقول الرب »(١٣٥) . ولعل الذي أوحى إلى هذا النبي فكرة وجود إله واحد للكون كله هو نهضة الفرس وانتشار قوتهم ، وإخضاعهم دول الشرق الأدنى كلها ، وجمعها في وحدة إمبراطورية أوسع رقعة وأحسن حكما من أي نظام اجتماعي عرفه الناس من قبل . وهذا الإله لا يقول كما كان يقول يهوه :

« أنا الرب إلهك .. لن تكون لك آلهة غريبة أمامي » بل يقول الآن : « أنا الرب وليس آخر لا إله سواي »(١٣٦) . ويصف النبي الشاعر هذا الإله العالمي في فقرة من أروع فقرات التوراة :

« من كان بكفيه المياه ، وقاس السموات بالشبر ، وكال بالكيل تراب الأرض ، ووزن الجبال بالقبان ، والآكام بالميزان .. هوذا الأمم كنقطة من دلو وكغبار الميزان ... هوذا الجزائر يرفعها كدُقّة ... كل الأمم كلا شيء قدامه من العدم والباطل تحسب عنده . فيمن تشبهون الله ؟ وأي شبه تعادلون به ؟ ... الجالس على كرة الأرض وسكانها كالجندب ، الذي ينشر السموات كسرادق ويبسطها كخيمة للسكن . . . ارفعوا إلى العلاء عيونكم ، وانظروا مَن خلق هذه »(١٣٧) .

وكانت ساعة من أروع الساعات في تاريخ إسرائيل حين دخل قورش بابل فاتحاً عالمياً بعد طول انتظار ، وأباح لليهود أن يعودوا إلى أورشليم بكامل حريتهم . ولكنه خيب رجاء بعض الأنبياء وأظهر ما كان في طباعه من حضارة أرقى من حضارتهم ، إذ ترك بابل وشأنها ولم يمسّ أهلها بسوء ، وأظهر خضوعه لآلهتها ، وإن كان في الواقع خضوعاً مشكوكا فيه . كذلك أعاد قورش لليهود ما كان باقياً في خزائن الدولة البابلية من الذهب والفضة اللذين اغتصبهما نبوخذ نصر من الهيكل ، وأمر الجماعات التي كان اليهود المنفيون يعيشون بينها أن تعينهم بالمال الذي يحتاجونه في اثناء رحلتهم الطويلة إلى وطنهم . ولم يتحمس شباب اليهود

لهذا التحرير لأن الكثيرين منهم قد تأقلموا فى التربة البابلية وامتدت أصولهم فيها ، فترددوا طويلا فى ترك حقولهم الخصبة وتجارتهم الرائجة ليعودوا إلى القفار الخربة فى المدينة المقدسة . ومرت سنتان بعد مجىء قورش قبل أن تبدأ الفصيلة الأولى من اليهود المتحمسين رحلتها الطويلة التى دامت ثلاثة شهور إلى الأرض التى خرج منها آباؤها قبل ذلك الوقت بمائة عام(١٢٨)

ولم يجد هؤلاء العائدون ترحيباً كبيراً فى وطنهم القديم ، كما لا يجد العائدون إليه فى هذه الأيام . ذلك أن أقواماً آخرين من الساميين قد استقروا فى تلك البلاد ، وتملكوا الأرض بحق احتلالها والعمل فيها ، وأخذت هذه القبائل تنظر بعين المقت إلى أولئك الذين خالوهم مغيرين على بلادهم وحقوقهم ، ولولا تلك الدولة القوية الصديقة التى كانت تحمى اليهود العائدين لما استطاعوا أن يستقروا فى فلسطين . وأذن دارا الأول ملك الفرس للأمير زرّ بابل أن يعيد بناء الهيكل ، واستطاع هو وشيعته أن يتموا بناءه بعد اثنى عشرة سنة من عودة اليهود ، رغم قلة عدد أولئك المهاجرين وضآلة مواردهم ، ورغم ما كانوا يصادفونه من عقبات فى كل خطوة يخطونها بسبب هجمات الأهلين المعادين لهم وتآمرهم عليهم ، وعادت أورشليم كما كانت مدينة يهودية شيئاً فشيئاً ، وترددت فى الهيكل أصداء الأناشيد التى كانت تتغنى بها بقية منهم آلت على نفسها أن تعيد اليهودية إلى سابق قوتها .

الفصل السادس

أهل الكتاب

سفر الشريعة – تأليف الأسفار الخمسة – أساطير « التكوين » – الشريعة الموسوية – الوصايا العشر – فكرة الله – السبت – الأسرة اليهودية قيمة الشرائع الموسوية

لم يكن فى وسع اليهود بعد عودتهم أن يقيموا لهم دولة حربية ، ذلك أنهم لم يكن لهم من العدد ومن الثروة ما يمكنهم من إقامة هذه الدولة . ولما كانوا فى حاجة إلى نوع من الإدارة يعترفون فيه بسيادة الفرس عليهم ويهيئ لهم فى الوقت نفسه سبيل الوحدة القومية والنظام ، فقد شرع الكهنة فى وضع قواعد حكم دينى يقوم كما كان يقوم حكم يوشيا على المأثور من أقوال الكهنة وتقاليدهم ، وعلى أوامر الله . وفى عام ٤٤٤ ق . م دعا عزرا ، وهو كاهن عالم ، اليهود إلى اجتماع عام خطير ، وشرع يقرأ عليهم من مطلع النهار إلى منتصفه « سفر شريعة موسى » . وظل هو وزملاؤه اللاويون سبعة أيام كاملة يقرءون عليهم ما تحتويه ملفات هذا السفر . ولما فرغوا من قراءتها أقسم الكهنة والزعماء والشعب على أن يطيعوا هذه الشرائع ويتخذوها دستوراً لهم يتبعونه ومبادئ خلقية يسيرون على هديها ويطيعونها إلى أبد الآبدين(١٣٩) . وظلت هذه الشرائع من تلك الأيام النكدة إلى يومنا هذا المحور الذى تدور عليه حياة اليهود ، ولا يزال تقيدهم بها طوال تجوالهم ومحنهم من أهم الظواهر فى تاريخ العالم .

ترى ماذا كان « كتاب شريعة موسى » هذا ؟ لم يكن هذا الكتاب هو بعينه « كتاب العهد » الذى قرأه يوشيا من قبل ، لأن هذا العهد قد جاء فيه بصريح العبارة أنه قرئ على اليهود مرتين كاملتين فى يوم واحد ، على حين أن قراءة الكتاب الآخر قد احتاجت إلى أسبوع(١٤٠) كامل . وكل ما فى وسعنا

أن نفعله هو أن نحزر أن الكتاب الكبير كان يحتوى على جزء هام من أسفار العهد القديم الخمسة يسميها اليهود « تورة » ويسميها غيرهم البنتاتوش أو الأسفار الخمسة(*)(١٤١) .

كيف كتبت هذه الأسفار ؟ ومتى كتبت ؟ وأين كتبت ؟ ذلك سؤال برىء لا ضير منه ولكنه سؤال كتب فيه خمسون ألف مجلد ، ويجب أن نفرغ منه هنا فى فقرة واحدة نتركه بعدها من غير جواب :

إن العلماء مجمعون على أن أقدم ما كتب من أسفار التوراة هما القصتان المتشابهتان المنفصلة كلتاهما عن الأخرى فى سفر التكوين ، تتحدث إحداهما عن الخالق باسم « يهوه » على حين تتحدث الأخرى عنه باسم إلوهيم . ويعتقد هؤلاء العلماء أن القصص الخاصة بيهوه كتبت فى يهوذا ، وأن القصص الخاصة بإلوهيم(**) كتبت فى إفرايم ، وأن هذه وتلك قد امتزجتا فى قصة واحدة بعد سقوط السامرة . وفى هذه الشرائع عنصر ثالث يعرف بالتثنية

(*) التورة : لفظ عبرى معناه الهدى أو الإرشاد ، والبنتاتوش كلمة يونانية معناها الملفات الخمسة . (المترجم)

(**) وهى تفرقة كان أول من أشار إليها چان أستروك **Jean Astruc** فى عام ١٧٥٣ . ومن الفقرات التى تعزى إلى كاتب قصص يهوه فى سفر التكوين الفقرات المحصورة بين الآية الرابعة من الأصحاح الأول والرابعة والعشرين من الأصحاح الثالث وكذلك الأصحاحات ٤ ، ٦ - ٨ ، ١١ من ١ إلى ٩ ، والأصحاحين ١٢ ، ١٣ ، ١٨ - ١٩ ، ٢٤ ، ٢٧ الايات ١ - ٤٥ ، والأصحاحات ٣٢ ، ٤٣ - ٤٤ ؛ وفى سفر الخروج الأصحاحين ٤ - ٥ ، الآيات المحصورة بين الآية رقم ٢٠ فى الأصحاح الثامن إلى الآية رقم ٧ فى الأصحاح التاسع ، والأصحاحان ١٠ ، ١١ ، والآيات المحصورة بين الآية رقم ١٢ من الأصحاح الثالث والثلاثين إلى الآية رقم ٢٦ من الأصحاح الرابع والثلاثين ؛ وفى سفر العدد الآيات من ٢٩ إلى ٣٦ من الأصحاح الحادى عشر الخ ؛ أما الفقرات الإلوهية التى لا شك فيها فهى التى فى سفر التكوين فى الأصحاح الحادى عشر من ١٠ إلى ٣٢ ، وفى الأصحاح العشرين ١ - ١٧ ، والحادى والعشرين ٨ - ٣٢ والثانى والعشرين ١ - ١٤ والأصحاحات ٤٠ - ٤٢ ؛ و٤٥ وفى سفر الخروج الآيات من ٢٠ إلى ٢٤ من الأصحاح الثامن عشر والأصحاحات ٢٠ - ٢٢ ، والآيات من ٧ إلى ١١ فى الأصحاح الثالث والثلاثين ؛ وفى سفر العدد الأصحاحات ١٢ ؛ ٢٢ - ٢٤ الخ(١٤٢) .

أكبر الظن أن كاتبه أو كتابه غير كتاب الأسفار السالفة الذكر . وثمة عصر رابع يتألف من فصول أضافها الكهنة فيما بعد . والرأى الغالب أن هذه الفصول تكون الجزء الأكبر من « سفر الشريعة » الذى أذاعه عزرا[١٤٢] ، ويبدو أن هذه الأجزاء الأربعة قد اتخذت صورتها الحاضرة حوالى عام ٣٠٠ ق . م[١٤٣] .

وكانت أساطير الجزيرة هى المعين الغزير الذى أخذت منه قصص الخلق والغواية والطوفان التى يرجع عهدها فى تلك البلاد إلى ثلاثة آلاف سنة أو نحوها قبل الميلاد . ولقد رأينا صوراً قديمة من هذه القصص فيما مر بنا من صفحات هذا الكتاب ، ولعل اليهود قد أخذوا بعضها من الأدب البابلى فى أثناء أسرهم[١٤٤] . ولكن أرجح من هذا أنهم أخذوها قبل ذلك العهد بزمن طويل من مصادر سامية وسومرية قديمة كانت منتشرة فى جميع بلاد الشرق الأدنى .

وتقول القصص الفارسية وقصص التلمود الخاصة بالخلق إن الله خلق فى بادئ الأمر إنساناً مكوناً من ذكر وأنثى متصلين من الخلف كالتوأمين السميين ثم رأى فيما بعد أن يفصل أحدهما عن الآخر . وتحضرنا فى هذه المناسبة جملة غريبة وردت فى سفر التكوين (الآية الثانية من الأصحاح الخامس) :

« يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله ذكراً وأنثى ، خلقه وباركه ودعا اسمه آدم » ، ومعنى هذا أن أبانا الأول كان ذكراً وأنثى معاً — ويبدو أن أحداً من رجال الدين إذا استثنينا أرسطو فانيز لم يفطن إلى هذه العبارة(*) .

أما قصة الجنة فتظهر فى جميع القصص الشعبية فى العالم كله — فى مصر ، والهند ، والتبت ، وبابل ، وبلاد الفرس واليونان(**) وبوليتزيا والمكسيك

(*) قارن هذا « بمائدة » أفلاطون .

(**) قارن هذا بما كتبه الشاعر اليونانى هزيود (حوالى ٧٥٠ ق . م) فى العمل والأيام ، كان الناس يعيشون كالآلهة مبرئين من الرذائل والشهوات والتعب والنصب ، يقضون أيامهم هادئين مسرورين سعداء فى رفقة الكائنات الإلهية . . . وكانت الأرض فى تلك الأيام أجمل مما هى الآن ، وكانت تخرج من نفسها مقداراً عظيماً من الفاكهة المختلفة الأنواع ... وكان الرجال وهم فى سن المائة يعدون غلماناً لا أكثر »(١٤٦) .

وغيرها من البلاد(١٤٥) . وفى معظم هذه الجنان أشجار محرمة وفيها كذلك أفاع وهولات سلبت الناس الخلود أو نفثت السم فى الجنة(١٤٦) . وأكبر الظن أن الحية والتينة كانتا رمزين للشهوات الجنسية .

وتشير هذه القصة إلى أن الشهوة الجنسية والمعرفة تقضيان على الطُّهر والسعادة ، وأنهما مصدر كل الشرور . وترى هذه الفكرة بعينها فى آخر « العهد القديم » فى سفر الجامعة ، كما تراها هنا فى بدايته .

والمرأة فى معظم هذه القصص هى الأداة التى تتخذها الحية أو يتخذها الشيطان وسيلة لإيقاع الإنسان فى الشر — الجميل ، سواء كانت هذه المرأة هى حواء ، أو پندورا ، أو پوسى الواردة فى الأساطير الصينية . فقد جاء فى قصص شى چنج أن « كل الأشياء كانت فى بداية الأمر خاضعة للإنسان ، ولكن امرأة ألقت بنا فى ذل الاستعباد ، فشقاؤنا إذن لم يأتنا من السماء بل جاءت به المرأة ، لأنها هى التى أضاعت الجنس البشرى « آه ! ما أشقاك يا پوسى ! لقد أشعلت النار التى أحرقتنا والتى تزداد كل يوم ضراماً . . . لقد ضاع العالم ، وطغت الرذيلة على كل شىء » .

وقصة الطوفان أكثر انتشاراً من قصة الخلق نفسها ، فلا يكاد يوجد فى الأمم القديمة أمة لم تعرفها ، وقلما يوجد جبل فى آسية لم يرس عليه نوح أو شمش — نيشتم بعد أن أضناه التعب من ضربات المياه(١٤٧) . ولقد كانت هذه القصص فى العادة هى الوسيلة الشعبية أو الطريقة المجازية التى عبر بها القدماء عن قضاء فلسفى أو موقف أخلاقى لخصوا فيه بإيجاز تجارب طويلة مرت بالجنس البشرى — وهى أن الشهوة الجنسية والمعرفة تُنتجان من الآلام أكثر مما تنتجان من اللذة ، وأن الحياة البشرية تتعرض من حين إلى حين لأخطار الفيضانات أى لطغيان الأنهار العظيمة التى كان ماؤها سبباً فى قيام الحضارات القديمة . وإن الذين يسألون هل هذه القصص صحيحة أو غير صحيحة ليسألون فى الواقع أتفه الأسئلة

وأبعدها عن المقصود منها ، ذلك أن أهميتها ليست فيما تقصه من قصص ، بل فيما تعرضه من أحكام ، ومع ذلك فليس من العقل فى شىء ألا يستمتع الإنسان ببساطتها التى تخلب اللب وبقصصها الواضح وأحداثها السريعة .

وكانت الأسفار التى تليت على الشعب بأمر يوشيا وعزرا هى التى صيغت منها القوانين « الموسوية » التى قامت عليها الحياة اليهودية كلها فيما بعد . ويقول سارتن **Sarton** ، وهو المعروف بشدة حرصه فيما يكتب ، معلقاً على هذه الشرائع : « إن أهميتها فى تاريخ الأنظمة والقوانين تفوق كل تقدير(١٤٩) » . لقد كانت أكبر محاولة فى التاريخ لاتخاذ الدين قاعدة لسياسة الأمم وأداة لتنظيم كل صغيرة وكبيرة فى الحياة كلها . وفى ذلك يقول رينان **Renan** : « لقد صارت تلك الشريعة أضيق رداء شد على جسم الحياة الإنسانية(١٥٠) » ، فقد جعلت الطعام(*) ، والدواء ، والشئون الصحية الفردية ، وشئون الحيض والولادة ، والشئون الصحية العامة ، والانحراف الجنسى والشهوات البهيمية(١٥٢) ، كل هذه جعلتها من موضوعات الفروض والهداية الإلهية . وفيها نشهد مرة أخرى كيف أخذ الطبيب يفترق افتراقاً بطيئاً عن الكاهن(١٥٣) — ليصبح فيما بعد ألد أعدائه . فترى سفر اللاويين يحرص أشد الحرص على وضع القوانين الخاصة لعلاج الأمراض التناسلية ، ويعنى بها أشد العناية ، فينص على عزل المصابين وما يتطلبه علاجهم من تطهير وتبخير بل وحرق المنزل الذى فشا فيه المرض عن آخره إذا دعت الحال(١٥٤)(**) . وكان اليهود الأقدمون هم الذين وضعوا قواعد الوقاية من

(*) انظر الأصحاح الرابع عشر من سفر التثنية . ويعزو ريناخ **Reinach** ، وربرتسن سمث **Robertson Smith** وسير جيمس فريزر **Sir James Frazer** تحريم لحم الخنزير إلى عبادة أسلاف اليهود الطوطمية للخنزير (أو للخنزير البرى) لا إلى ما كان لديهم من معلومات صحية أو رغبتهم فى اتقاء الأمراض(١٥١) . على أن عبادة الخنزير البرى قد لا تكون إلا وسيلة لجأ إليها الكهنة للنهى عن أكل لحم الخنزير « لنجاسته » فى اعتقادهم . وإن ما فى الشريعة الموسوية من قواعد صحية حكيمة ليبرر الشك فيما فسر به ريناخ هذا التحريم .

(**) وظلت الطرق التى يشير بها سفر اللاويين (فى الأصحاحات ١٣ ، ١٤) لعلاج الجذام متبعة فى أوربا حتى آخر العصور الوسطى(١٥٥) .

المرض(١٥٦) . ولكن يلوح أنهم لم يكونوا يعرفون من الجراحة غير عملية الختان ، ولم تكن هذه السُّنة الدينية — الشائعة بين المصريين الأقدمين ، وبين الساميين المحدثين — مجرد تضحية لله وفريضة يفرضها الولاء للجنس(*) ، بل كانت فوق هـذا وقاية صحية من الأقذار التى تتعرض لها الأعضاء التناسلية(١٥٨) ولعل ما فى الشريعة من قواعد خاصة بالنظافة هو الذى أبقى على اليهود خلال تجوالهم الطويل وتشتتهم ومحنتهم .

أما ما بقى من شريعة موسى فيدور كله حول الوصايا العشر (سفر الخروج الآيات ١ — ١٧ من الأصحاح العشرين) التى قدّر لها أن رددها نصف سكان العالم(**) . وتضع الوصية الأولى أساس المجتمع الدينى الجديد ، وهو المجتمع الذى لا يقوم على أى شريعة مدنية بل على فكرة الله الملك القدوس الذى لا تدركه الأبصار ، والذى أنزل كل قانون ، وفرض كل عقوبة ، والذى سُمِّى شعبُه بعدئذ شعب إسرائيل ، أى المدافعين عن الله .

لقد ماتت الدولة العبرية ولكن الهيكل ظل باقياً ، وشرع كهنة يهوذا

(*) وذلك لأن هذه العادة تجعل من المستحيل على اليهودى أن يخفى عن الناس حقيقة أمره . ويقول برفولت **Briffault** : إن هذه السنة اليهودية لم تتخذ صورتها التى هى عليها الآن إلا فى عهد متأخر كثيراً هو عهد المكابيين (١٦٧ ق . م) . وفى ذلك الوقت كانت العملية تجرى بطريقة تجعل فى مقدور اليهوديات أن يتقين استهزاء غير اليهوديات منهن إذ كانت هذه العملية تعمل بحيث لا يدرك الإنسان أنها عملت ، ولهذا أمر الكهنة الوطنيون أن تزال الغلفة عن آخرها(١٥٧) » .

(**) كان من المألوف فى الأزمان القديمة أن تعزى كتب القوانين إلى الوحى الإلهى . لقد رأينا من قبل كيف كانت قوانين مصر القديمة تعزى إلى الإله تحوت ، وكيف أنزل شمش إله الشمس قانون حمورابى . كذلك أعطى أحد الأرباب الملك مينوس على جبل دكتا القوانين التى حكمت بمقتضاها جزيرة كريت . وكان اليونان يمثلون ديونيس الذى يسمونه أيضاً «المشترع» وأمامه منضدتان حجريتان نقشت عليهما القوانين . ويقول أتقياء الفرس إن زردشت كان فى يوم من الأيام يصلى على جبل عال فتبدى إليه أهورا — مزدا بين الرعود والبروق ، وأنزل عليه « كتاب القانون »(١٥٩) . وفى هـذا يقول ديودور الصقلى - لقد فعلوا كل هذا لأن الفكرة التى تسمو بالبشرية فكرة رائعة قدسية ؛ أو لأن السوقة تكون أكثر طاعة للقوانين إذا حولت أبصارها إلى ما يمتع به من تعزى إليهم من جلال وسلطان »(١٦٠) .

يحاولون كما يحاول بابوات رومة أن يعيدوا ما عجز الكهنة عن إنقاذه . ومن ثم كان وضوح الوصية الأولى وما فيها من تكرار ونصها على أن الكفر وذكر الله بما لا يليق يعاقب عليهما بالإعدام ولو كان للكافر أقرب أقرباء الإنسان(١٦١) . ذلك أن الكهنة الذين وضعوا القانون كانوا يعتقدون كما يعتقد رجال محاكم التفتيش الأتقياء أن الوحدة الدينية شرط أساسى لقيام النظام والتضامن الاجتماعيين ، وكان هذا التعصب الدينى منضما إلى الكبرياء الجنسى هو الذى أبقى على اليهود وأوقعهم فى كثير من المشاكل .

وسمّت الوصية الثانية بفكرة الله بقدر ما حطت من شأن الفن ، إذ حرّمت أن تصور له أية صورة منحوتة . وقد افترضت هذه الوصية وجود مستوى عقلى راق لدى اليهود ، لأنها نبذت كل الخرافات كما نبذت فكرة تجسد الإله ، وحاولت أن تصوّر الله منزهاً عن جميع الأشكال والصور بالرغم من الصورة البشرية المحضة التى ترسمها ليهوه أسفار موسى الخمسة ، هى تخص الدين بكل ما تنطوى عليه قلوب العبرانيين من إخلاص وولاء ، ولا تترك فيهما — فى الأيام القديمة — مكاناً للعلم والفن . وحتى علم الفلك نفسه قد أهمل أمره لكيلا يزداد عدد الآلهة الزائفين أو تعبد النجوم وتتخذ آلهة من دون الله . وكان فى هيكل سليمان قبل ذلك العهد عدد من الصور والتماثيل يكاد يجل عن الحصر(١٦٣) . أما الهيكل الجديد فلم يكن فيه شىء منها . ذلك أن التماثيل والصور القديمة قد نقلت من قبل إلى بابل ، ويبدو أنها لم تعد مع ما أعيد من آنية الفضة والذهب(١٦٤) . ومن أجل هذا لا نجد نحتاً ولا تصويراً ولا نقشاً بعد الأسر البابلى ، كما لا نجد إلا القليل منها قبل الأسر إذا استثنينا عهد سليمان الذى يكاد يكون عهداً أجنبياً عن العبرانيين . وكل ما كان الكهنة يجيزونه من الفنون فنّا العمارة والموسيقى ، وكانت الأغانى والمراسيم التى تقام فى الهيكل هى التى تخفف من أكدار حياة الشعب وشقائه ، فكانت فرقة موسيقية معها مختلف الآلات تنضم

إلى جوقة المغنين فى ترتيل المزامير ، فتبدو » صوتاً واحداً لتسبيح الرب وحمده » وتمجيد الهيكل(١٦٥) : « وداود وكل بيت إسرائيل يلعبون أمام الرب بكل أنواع الآلات من خشب السرو بالعيدان ، وبالرباب ، وبالدفوف ، وبالجنوك ، وبالصنوج(١٦٦) » .

وتنطق الوصية الثالثة بما كان يستمسك به اليهودى من تقى وتدين ، فهو لا يحرم عليه أن ينطق باسم الله عبثاً فحسب ، بل يحرم عليه أن ينطق باسم الله تحريماً مطلقاً ، فإذا ورد اسم يهوه فى صلاته وجب عليه أن يستبدل به اسم أدنيه — الرب . ولن نجد لهذه التقوى نظيراً إلا بين الهندوس .

وقدست الوصية الرابعة يوم الراحة الأسبوعي — السبت — وصار هذا التقديس سنة من أرسخ السنن البشرية . وهذه التسمية — ولعل هذه العادة نفسها — قد جاءتهم من البابليين . فقد كان هؤلاء يطلقون على الأيام « الحرم » أيام الصوم والدعاء اسم شبتو(١٦٧) . وكان لديهم فضلا عن هذه العطلة الأسبوعية أعياد أخرى عظيمة منها مراسم كنعانية قديمة للزرع والحصاد ، ومنها أعياد دورية للقمر والشمس : فكان مَزُّوث فى بادئ الأمر عيد بداية حصاد الشعير ، وشباوُوث الذى سمى فيها بعد بنتكست عيد ختام حصاد القمح ؛ وسكوث عيد الكروم ، وبساتْش أو عيد الفصح عيد بداية نتاج قطعان الضأن ؛ وكان رش — ها — شناه عيد رأس السنة . ولم تعدل هذه الأعياد لتخلد بها حوادث هامة فى تاريخ اليهود إلا بعد ذلك الوقت(١٦٨ ا) . وكانوا فى أول يوم من أيام عيد الفصح اليهودى يذبحون حملا أو جدياً ويأكلونه ويرشون دمه على الأبواب إشارة إلى أن هذا الدم هو نصيب الإله ، ثم ربط الكهنة فيما بعد هذه العادة بعادة قتل يهوه لأبناء المصريين البكر . وكان الحمل فى أول الأمر طوطما لإحدى القبائل الكنعانية وكان عيد الفصح عند الكنعانيين عيد تقريب حمل لأحد الآلهة

المحليين(*) . ونحن حين نقرأ الآن (فى الأصحاح الثانى عشر من سفر الخروج(**)) قصة هذا العيد ، ثم نرى اليهود فى هذه الأيام يحتفلون به على النحو الذى كانوا يحتفلون به قديماً ، ندرك قدم هذه العبادة وقوة استمساك هذا الشعب بطقوسه القديمة .

والوصية الخامسة تقدس الأسرة وتضعها من حيث بناء المجتمع فى منزلة لا تفوقها إلا منزلة الهيكل . وظلت المثل العليا التى طبع بها نظام الأسرة باقية فى أوربا طوال تاريخها المتوسط والحديث حتى جاء الانقلاب الصناعى وأدى إلى انحلالها . لقد كانت الأسرة العبرانية الأبوية نظاماً اقتصادياً وسياسياً ضخماً يتألف من أكبر رجل متزوج فيها ، ومن أزواجه ، وأبنائه غير المتزوجين ، وأبنائه المتزوجين ، وأزواجهم وأبنائهم ، ومن عبيدهم إن كان لهم عبيد . وكان الأساس الاقتصادى الذى تقوم عليه هذه الجماعة هو قدرتها على زراعة الأرض ؛ أما قيمتها السياسية فتنحصر فى أنها كانت تهيئ للبلد نظاماً اجتماعياً بلغ من القوة حداً تكاد الدولة أن تصبح معه لا ضرورة لها إلا فى زمن الحرب . وكان للأب على أفراد أسرته سلطان لا يكاد يُحد ؛ فكانت الأرض ملكاً له ، ولم يكن فى وسع أبنائه أن يبقوا على قيد الحياة إلا إذا أطاعوا أمره ، فقد كان هو الدولة ، وكان فى وسعه إن كان فقيراً أن يبيع ابنته قبل أن تبلغ الحلم لتكون جارية ؛ كما كان له الحق المطلق فى أن يزوجها بمن يشاء وإن كان فى بعض الأحيان ينزل عن بعض حقه فيطلب إليها أن ترضى بهذا الزواج[١٧٠] . وكانت الفكرة الشائعة أن الأولاد من نتاج الخصية اليمنى ، وأن البنات من نتاج الخصية اليسرى ، وكانت هذه فى اعتقادهم أصغر وأضعف من اليمنى[١٧١] . وكان الزواج فى أول الأمر

(*) وأصبح هذا الطوطم فيما بعد عيد الفصح فى الدين المسيحى ، وقيل إنه هو نفسه تخليد ذكرى موت المسيح .

(**) فى الأصل الإنجليزى الحادى عشر وهو خطأ مطبعى . (المترجم)

يستتبع انتقال الزوج إلى دار زوجته ، فقد كان عليه أن « يترك أباه وأمه وينضم إلى زوجته فى عشيرتها » ؛ لكن هذه العادة أخذت تزول شيئاً فشيئاً بعد تأسيس الملكية . وكانت أوامر يهوه إلى الزوجة هى : « ستكون رغبتك لزوجك ، وسيكون له الحكم عليك » .

ومع أن المرأة كانت من الوجهة الرسمية خاضعة للزوج ، فإنها كانت فى الواقع ذات كرامة وذات سلطان كبير ، واشتهرت فى تاريخ اليهود أسماء سيدات مثل سارة ، وراحيل ، ومريم ، وإستر ، وكانت دبورة إحدى قضاة إسرائيل(١٧٢) . وكانت النبية خلدة هى التى استشارها يوشيا فى أمر الكتاب الذى وجده الكهنة فى الهيكل(١٧٣) . وكانت الأم الولود تضمن لنفسها الطمأنينة والكرامة ، ذلك بأن هذه الأمة الصغيرة كانت تتوق إلى زيادة عددها ، لأنها تشعر كما تشعر اليوم فى فلسطين بما يتهددها من الخطر وسط الأقوام المحيطين بها . ومن أجل هذا كانت تعلى من شأن الأمومة ، وترى العزوبة خطيئة وجريمة ، وتجعل الزواج إجبارياً بعد سن العشرين ، لا تستثنى من ذلك الكهنة أنفسهم ، وتزدرى العذارى التى فى سن الزواج ، والنساء العاقرات ، وتنظر إلى الإجهاض وقتل الأطفال وغيرهما من وسائل تحديد النسل على أنها من أعمال الكفرة البغيضة التى تؤذى خياشيم الرب(١٧٤) : « فلما رأت راحيل أنها لم تلد ليعقوب غارت راحيل من أختها وقالت ليعقوب هب لى بنين وإلا فأنا أموت(١٧٥) » . وكانت الزوجة الكاملة هى التى لا تنقطع عن الكد فى بيتها وحوله ، ولا تفكر إلا فى زوجها وأطفالها . وفى الأصحاح الأخير من سفر الأمثال وصف للمرأة المثالية كما يراها الرجل :

« امرأة فاضلة من يجدها لأن ثمنها يفوق اللآلى ، بها يثق قلب زوجها فلا يحتاج إلى غنيمة ، تصنع له خيراً لا شراً كل أيام حياتها ، تطلب صوفا وكتاناً ، وتشتغل بيدين راضيتين ، هى كسفن التاجر تجلب طعامها من بعيد ،

وتقوم إذ الليل بعد ، وتعطى أكلا لأهل بيتها وفريضة لفتياتها ، تتأمل حقلا فتأخذه وبثمر يديها تغرس كرما ؛ تنطق حقويها بالقوة وتشدد ذراعيها ، تشعر أن تجارتها جيدة ، سراجها لا ينطفئ في الليل ، تمد يديها إلى المغزل وتمسك كفاها بالفلكة ، تبسط كفيها للفقير وتمد يديها إلى المسكين ؛ لا تخشى على بيتها من الثلج لأن كل أهل بيتها لابسون حللا ، تعمل لنفسها موشيات ، لبسها البز وأرجوان ، زوجها معروف في الأبواب حين يجلس بين مشايخ الأرض ، تصنع قمصاناً وتبيعها ، وتعرض مناطق على الكنعاني ؛ العز والبهاء لباسها ، وتضحك على الزمن الآتي ، تفتح فمها بالحكمة وفي لسانها سنة المعروف ، تراقب طرق أهل بيتها ولا تأكل خبز الكسل ، يقوم أولادها ويطوبونها ، ويقوم زوجها أيضاً فيمدحها ، بنات كثيرات عملن فضلا ، أما أنت ففقت عليهن جميعاً ، الحسن غش والجمال باطل ؛ أما المرأة المتقية الرب فهي تمدح ، أعطوها من ثمر يديها ، ولتمدحها أعمالها في الأبواب(*) » .

والوصية السادسة مبدأ مثالي صعب المنال . وذلك أننا لا نرى في كتاب ما ما نراه في أسفار العهد القديم من حديث التقتيل والتدمير ، ففصوله كلها ما بين وصف للمذابح وتناسل لتعويض آثارها . لقد كان النزاع بين الأسباط ، والانقسامات الحزبية ، وعادة الأخذ بالثأر المتوارثة ، كل هذه كانت لا تبقى على فترات السلم المتقطعة المملة إلا قليلا . ولم يكن أنبياء إسرائيل من دعاة السلم رغم ما جاء في بعض أقوالهم من تمجيد للمحاريث ومناجل التشذيب ، وكان الكهنة أنفسهم — إذا جاز لنا أن نحكم عليهم من خطبهم التي ينطقون بها بهوه —

(*) هذه هي المرأة المثالية في عين الرجل ؛ وإذا جاز لنا أن نصدق إشعيا (٣ : ١٦ — ٢٣) فإن نساء أورشليم كن في الواقع كنساء العالم كله يحببن الملابس الجميلة والزينة ويغرين الرجال بمطاردتهن : « من أجل أن بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الأعناق ، وغامزات بعيونهن ، وخاطرات في مشيهن ، ويخشخشن بأرجلهن » الخ ؛ ولعل المؤرخين كانوا يخدعوننا على الدوام فيما يقولونه عن النساء !

مولعين بالحروب ولعهم بالمواعظ . ولقد قتل ثمانية من ملوك إسرائيل التسعة عشر(١٧٧) وكانت العادة المتبعة أن تدمر المدن التي يستولون عليها في حروبهم ، وأن تقطع بحد السيف رقاب جميع الذكور من سكانها ، وأن تتلف الأرض حتى لا تصلح للزرع إلا بعد زمن طويل ، شأنهم في هذا شأن الناس في تلك الأيام(١٧٨) . ولعل أعداد القتلى الواردة في أقوالهم كان يبالغ فيها كثيراً . فليس من المعقول مثلاً أن « يقتل بنو إسرائيل من الآراميين(*) مائة ألف رجل في يوم واحد »(١٧٩) بغير آلات الحرب الحديثة . وكان اعتقادهم أنهم شعب الله المختار(١٨٠) سبباً في ازدياد الكبرياء الطبيعي في أمة تشعر بما لها من مواهب متفوقة ، كما كان سبباً في تقوية ما لديهم من نزعة إلى اعتزال غيرهم من الشعوب من الوجهتين العقلية والروحية ، وفي حرمانهم من أن ينظروا إلى الأمور نظرة أممية كان أبناؤهم جديرين بأن يصلوا إليها ، لكنهم مع ذلك بلغوا درجة عظيمة من الفضائل المتصلة بصفاتهم هم أنفسهم ، وكان منشأ عنفهم هو ما كانوا يتصفون به من حيوية عارمة جامحة ، وكانت عزلتهم ناشئة من تقواهم ، كما كان ميلهم إلى الخصام والتذمر ناشئاً من حساسيتهم القوية التي أمكنتهم من إنتاج أعظم آداب الشرق الأدنى ؛ وكان كبرياؤهم العنصري أقوى سند لشجاعتهم في خلال قرون التعذيب الطوال ، ذلك أن الناس يكونون كما تضطرهم الظروف أن يكونوا .

والوصية السابعة تعترف بأن الزواج هو الأساس الذي تقوم عليه الأسرة ، كما تعترف الخامسة بأن الأسرة هي أساس المجتمع ، وهي تضفي على الزواج كل ما يستطيع الدين أن يضفيه عليه من عون . ولا تذكر شيئاً عن العلاقات الجنسية قبل الزواج ، ولكن ثمة أنظمة أخرى تحتم على الفتاة أن تثبت أنها عذراء

(*) في الأصل الإنجليزي « من السوريين » ، ولكن الذي تذكره الآية أنهم من الآراميين . (المترجم)

فى يوم زواجها وإلا رجمت حتى تموت[١٨١] ولكن الزنى كان رغم هذا منتشراً بين اليهود ، ويلوح أن اللواط لم ينقطع بعد تدمير سدوم وعمورة[١٨٢] ولما كان القانون فيما يلوح لم يحرم الاتصال بالعاهرات الأجنبيات ، فإن السوريات والموآبيات والمديَنيات وغيرهم من « النساء العزبات » انتشرن فى الطرق العامة ، حيث كن يعشن فى مواخير وخيام ، ويجمعن بين الدعارة وبيع مختلف السلع الصغيرة . ولما كان سليمان لا يتشدد كثيراً فى هذه الأمور ، فإنه قد تساهل فى تطبيق القانون الذى كان يحرم على تلك النساء السكنى فى أورشـــليم ، وسرعان ما تضاعف عددهن حتى كان الهيكل نفسه فى أيام المكابيين ماخوراً للفسق والفجور كما وصفه مصلح غضوب[١٨٣] .

ويلوح أن الحب كان له عندهم نصيب ، فقد خدم يعقوب براحيل سبع سنين ، وكانت فى عينيه كأيام قليلة بسبب محبته لها «[١٨٤] ، ولكن الحب لم يكن له إلا شأن قليل فى اختيار الأزواج . وكان هذا الزواج قبل نفى بنى إسرائيل من الأمور المدنية المحضة ، يعقده أبوا الزوجين أو يعقده الخطيب وأبو العروس وفى أسفار العهد القديم شواهد على زواج السبايا ؛ ويجيز يهوه الزواج من سبايا الحروب[١٨٥] . ولما نقص عدد النساء أوصى الكبار « بنى بنيامين قائلين امضوا واكمنوا فى الكروم ، وانظروا ، فإذا خرجت بنات شيلوه ليدرن فى الرقص فاخرجوا أنتم من الكروم واخطفوا لأنفسكم كل واحد امرأته من بنات شيلوه واذهبوا إلى أرض بنيامين »[١٨٦] . ولكن هذه الخطة كانت من الخطط النادرة ، أما السُّنة المألوفة فكانت سنة الزواج بطريق الشراء ، فقد ابتاع يعقوب ليئة وراحيل بعمله . واشترى بوعز راعوث اللطيفة شراء سافرا . وكان من أشد ما ندم عليه النبى هوشع أنه ابتاع زوجته بخمسين شاقلا[١٨٧] . وكان الاسم الذى يطلقه العبرانيون على الزوجة وهو « بولة(*) » يعنى « المملوكة[١٨٨] » . وكان

(*) لعل هذا المعنى ذو صلة بكلمة « بولة » العربية بمعنى بنت الرجل . (المترجم)

والد الزوجة يعطيها فى مقابل ما يتقاضاه ثمناً لها بائنة — وهو نظام يفيد أعظم فائدة فى تضييق الثغرة الفاصلة بين نضج الأبناء الجنسى ونضجهم الاقتصادى فى حضارة المدن ، وهى ثغرة مفككة للمجتمع .

وإذا كان الرجل ثريا أبيح له أن يتزوج بأكثر من واحدة ؛ وإذا كانت الزوجة عاقراً ، مثل سارة ، أشارت على زوجها بأن يتخذ له خليلة . وكان الهدف الذى ترمى إليه هذه السنن هو تكثير النسل ، وكان طبيعيا لديهم أن تقدم راحيل وليئة خادماتهما إلى يعقوب بعد أن ولدتا له كل ما تستطيعان أن تلدا من الأبناء ، لكى يلدن له هن أيضاً أبناء(١٨٨) . ولم يكن يسمح للمرأة بأن تظل عقيما ؛ ومن أجل ذلك فإن الأخ إذا مات أخوه كان يحتم عليه أن يتزوج أرملته مهما كان عدد زوجاته ، فإذا لم يكن للميت أخ فرض هذا الواجب على أقرب الأحياء من أسرته(١٨٩) . ولما كانت الملكية الفردية أساس النظام الاقتصادى اليهودى فقد كان لكل من الرجل والمرأة معيار خلقى خاص . فللرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة ، أما المرأة فكانت تختص برجل واحد . وكان معنى الزنى عندهم اتصال رجل بامرأة ابتاعها رجل آخر بماله ، ومن أجل ذلك كان اتصاله بها اعتداء على قانون الملكية تعاقب عليه المرأة والرجل بالإعدام(١٩٠) . وكان الفسق محرماً على المرأة غير المتزوجة ، أما الرجل غير المتزوج فقد كان عمله هذا ذنباً يغتفر له(١٩١) . وكان الطلاق مباحاً للرجل ، ولكنه كان قبل أيام التلمود من اشق الأمور على المرأة(١٩٣) . ويلوح أن الزوج لم يسرف فى إساءة استعمال ماله من ميزة على المرأة فى هـــذه الناحية ، فهو يصور لنا أنه فى الجملة إنسان مخلص لزوجته وأبنائه ، غيور عليهم ، وكثيراً ما كان الزواج يثمر حبًّا وإن لم يكن الحب هو الذى يقرر الزواج . « وأخذ إسحق رفقة فصارت له زوجة وأحبها فتعزى إسحق بعد موت أمه»(١٩٤) . ولعل الحياة فى الأسرة لم تصل فى أى شعب آخر — إذا استثنينا شعوب الشرق الأدنى — إلى ذلك المستوى الراقى الذى وصلت إليه عند اليهود .

والوصية العاشرة تقدس الملكية الفردية(*) ، وكانت هى والدين والأسرة الأسس الثلاثة التى قام عليها المجتمع العبرى . وتكاد الملكية كلها تنحصر فى ملكية الأرض ، ذلك أن اليهود قبل أيام سليمان قلما كان لديهم شىء من الصناعات غير صناعتى الخزف والحديد . وحتى الزراعة نفسها لم ترق رقياً كبيراً ، وكانت الكثرة العظمى من الشعب منصرفة إلى تربية الضأن والماشية ، وزراعة الكروم والزيتون والتين . وكانت أغلب معيشتهم فى الخيام لا فى البيوت المبينة ، حتى لا يجدوا صعوبة فى انتجاع مراعى جديدة ، ولما نمت ثروتهم وزاد ما ينتجونه على حاجتهم بدءوا يتجرون ، وأخذت السلع اليهودية تروج فى دمشق وصور وصيدا وحول الهيكل نفسه بفضل ما اتصف به التجار اليهود من مهارة صبر على المشاق . وظلوا إلى ما قبل أيام الأسر لا يستخدمون نقودا ، وكان الذهب والفضة أساس التبادل عندهم وكانا يوزنان فى كل عملية تجارية . وقامت بينهم مصارف كثيرة العدد لتمويل التجارة والمشروعات الاقتصادية . ولم يكن غريباً أن يتخذ هؤلاء « المقرضون » ساحات الهيكل موضعاً لعملهم ، فقد كانت هذه عادة شائعة فى الشرق الأدنى ، ولا تزال باقية فى كثير من أقطاره إلى هذا اليوم[١٩٦] . وكان يهوه يطل من علياته مغتبطاً بسلطان رجال المال المتزايد ، ومن أقواله فى هذا المعنى : « فتقرض أمماً كثيرة وأنت لا تقترض[١٩٧] » وهى فلسفة كريمة جمعت لليهود ثروة طائلة ، وإن لم يبد فى ذلك القرن أنها من وحى الدين .

وكان اليهود يتخذون أسرى الحروب والمذنبين عبيداً لهم ، وشأنهم فى هذا شأن غيرهم من أمم الشرق الأدنى ؛ ويستخدمون مئات الآلاف منهم فى قطع الأخشاب ونقل مواد البناء للمنشئات العامة كهيكل سليمان وقصره . ولكن السيد

(*) لقد كانت الأرض من الوجهة النظرية ملكا ليهوه[١٩٥] .

لم يكن له على عبيده حق الحياة والموت ، كما كان من حق العبد أن يمتلك المال ويبتاع به حريته[١٩٨] . وكان يباح بيع الرجال المدينين ليكونوا خدماً أرقاء إذا عجزوا عن أداء ديونهم ، وكان فى وسعهم أن يبيعوا أبناءهم بدلا منهم . وقد بقيت هذه العادة إلى أيام المسيح[١٩٩] ، غير أن الصدقات السخية وما كان يقوم به الكهنة والأنبياء من حملات عنيفة على استغلال هؤلاء الأرقاء قد خففت فى بلاد اليهود من آثار هذه النظم التى كانت منتشرة فى بلاد الشرق الأدنى . وكان من القواعد الواردة فى شريعة موسى : « ألا يغبن أحدكم أخاه[٢٠٠] » ، كما أنها كانت تطلب إليهم أن يطلقوا سراح الأرقاء من العبرانيين وأن يلغوا ما عليهم من الديون كل سبع سنين[٢٠١] ولما تبين أن هذا الأمر أكثر مما يطيقه سادة هؤلاء الأرقاء جاء القانون بسنة العيد الخمسينى ، فكان كل العبيد والمدينين يعتقون كل خمسين سنة : « وتقدسون السنة الخمسين وتنادون بالعتق فى الأرض لجميع سكانها . تكون لهم يوبيلا وترجعون كل إلى مالكه وتعودون كل إلى عشيرته[٢٠٢] » ؟

وليس لدينا ما يدل على أن هذه الوصية الجميلة قد أطيعت ، وسواء كان ذلك أو لم يكن فإننا يجب أن نقر بالفضل للكهنة الذين لم يتركوا درساً فى الإحسان إلا علموه : « إن كان فيك فقير أحد من إخوتك . . فلا تقس قلبك ولا تقبض يدك عن أخيك الفقير ، بل افتح يدك له ، وأقرضه مقدار ما يحتاج إليه » ، « لا تأخذ منه رباً ولا مرابحة[٢٠٣] » ويجب أن تشمل عطلة السبت كل العاملين ، بل يجب أن تشمل الحيوانات نفسها فتترك ما عساه أن يكون على الأرض من النبات المقطوع والفاكهة الساقطة من الأشجار فى الحقول والبساتين يجمعها الفقراء لأنفسهم[٢٠٤] . ومع أن اليهود هم الذين كانوا مقصودين بهذه الصدقات فإن الفقير الذى عند الأبواب يجب أن يعامل هو

الآخر معاملة طيبة رحيمة ، وأن يؤوى الغريب ويطعم ويعامل معاملة كريمة . وكان اليهود يؤمرون فى كل حين بأن يذكروا أنهم هم أيضاً كانوا فى وقت من الأوقات لا مأوى لهم بل أنهم كانوا عبيداً أرقاء فى أرض غير أرضهم .

وكانت الوصية التاسعة تطلب أن يكون الشهود شرفاء أمناء إلى أقصى حد ، وبذلك جعلت الدين عماداً للشريعة اليهودية بقضها وقضيضها . لقد كان الشاهد يقسم اليمين فى حفل دينى ، ولم يكن يكتفى بأن يضع المقسم يده على عورة من يقسم له كما كانت العادة قديماً[٢٠٥] ، بل كان يطلب إليه الآن أن يشهد الله نفسه على صدقه ، وأن يُحكّمه فى أمره . وكان القانون ينص على أن يعاقب شاهد الزور بنفس العقاب الذى كان يراد توقيعه على المتهم بالاستناد إلى شهادته[٢٠٦] . لقد كانت شريعة إسرائيل كلها هى الشريعة الدينية وحدها ، وكان الكهنة هم القضاة والهياكل هى المحاكم ، وكان يحكم بالإعدام على من لا يخضعون لأحكام الكهنة[٢٠٧] . وكانت هناك حالات خاصة يترك الحكم فيها لله ، وذلك بأن يشرب المتهم ماء ساماً إذا كانت جريمته مشكوكاً فيها[٢٠٨] ، ولم تكن لديهم أداة لتنفيذ القانون سوى الأداة الدينية وحدها ؛ فكان تنفيذه يترك إلى ضمير المتهم وإلى سلطان الرأى العام ، وكانت بعض الجرائم الصغرى يكفر عنها بالاعتراف والفداء[٢٠٩]. وكانت جرائم القتل وخطف الآدميين ، وعبادة الأوثان ، والزنى ، وضرب أحد الوالدين أو سبهما ، وسرقة العبيد ، أو « مضاجعة بهيمة » ، يحكم فيها بالإعدام بأمر يهوه ، وأما قتل الخادم فلا يعاقب عليه بالإعدام[٢١٠] ؛ كذلك كان الإعدام عقاباً على السحر : « لا تدع ساحرة تعيش[٢١١] » . وكان يرضى يهوه أن يقوم الأفراد أنفسهم بتنفيذ القانون فى حالة القتل : « ولى الدم يقتل القاتل ، حين يصادفه يقتله[٢١٢] » . على أنهم كانوا يفردون بعض المدن يستطيع

المجرم أن يفر إليها ، فإذا فعل كان على ولى الدم أن يؤجل ثأره[٢١٣] ،

وفى وسعنا أن نقول بوجه عام إن المبدأ الذى كان يحوم عليه العقاب هو قانون القصاص : « وإن حصلت أذية تُعطى نفساً بنفس ، وعيناً بعين ، وسنا بسن ، ويداً بيد ، ورجلا برجل ، وكيا بكى ، وجرحاً بجرح ، ورضاً برض[٢١٤] » . وما من شك فى أن هذه المبادئ كانت مثلا عليا لم تتحقق كلها على الوجه الأكمل ، وإذا شئنا أن نقول كلمة عامة عن قانون اليهود الجنائى ، قلنا إن هذا الجزء من القانون لا يفضل قانون حمورابى ، وإن كان قد كُتب بعده بألف وخمسمائة سنة على الأقل . أما من حيث تنظيم القضاء نفسه فإن فيه رجوعاً كثيراً إلى الوراء ، لأنه يعود بهذا التنظيم إلى السيطرة الكهنوتية البدائية .

ويتضح لنا من الوصية العاشرة كيف كانوا ينظرون إلى المرأة على أنها جزء من متاع الرجل : « لا تشته امرأة قريبك ، ولا عبده ولا أمته ، ولا ثوره ولا حماره ، ولا شيئا مما لقريبك[٢١٥] » . ولكنها مع هذا كانت تحوى مبادئ قيمة عظيمة ، لو تقيد الناس بها لنجا العالم من نصف ما فيه من قلق واضطراب . ومن أعجب الأمور أن أفضل الوصايا كلها لم تكن بين هذه الوصايا العشر ، وإن كانت جزءاً من « الشريعة » الموسوية . ونقصد بذلك ما ورد فى الآية الثامنة عشرة من الأصحاح التاسع عشر من سفر اللاويين تائها بين « طائفة من القوانين المتكررة المختلفة الأنواع » ولا يزيد نصها على هذه العبارة : « تحب قريبك كنفسك » .

وقصارى القول أن الوصايا العشر شريعة سامية ، فيها من العيوب ما لا يزيد على عيوب العصر الذى وضعت فيه ، ولكن فيها من الفضائل ما لا يوجد فى غيرها من الشرائع . ومن واجبنا أن نذكر على الدوام أنها كانت قانوناً لا أكثر ، بل أن نذكر فوق هـذا أنها كانت : « طوبى كهنوتية[٢١٦] » ، ولم تكن وصفاً صادقاً للحياة اليهودية . وكانت ككل

القوانين تعظم فى عين أصحابها حين يخرقونها ، ويمتدحونها كلما اعتدوا عليها ، ولكن أثرها فى سلوك أصحابها لم يكن يقل عن أثر معظم الشرائع القضائية أو الأخلاقية . وكان من أهم آثارها التى جعلت لليهود فى خلال تجوالهم الذى بدأ عقب وضعها بزمن قليل ، والذى دام ألفى عام ، « وطناً يحملونه معهم » ، كما سماه هين Heine فيما بعد ، ودولة روحية لا تراها العين ولا تلمسها اليد ، وضمت شملهم رغم تشتتهم وأبقت لهم كبرياءهم رغم هزائمهم ، وأوصلتهم خـــلال القرون الطوال إلى وقتنا هذا وهم شعب قوى يبدو لنا أنه لن يبيد أبداً .

الفصل السابع

أدب التوراة وفلسفتها

التاريخ – القصص – الشعر – المزامير – نشيد الأنشاد – الأمثال – أيوب – فكرة الخلود – تشاؤم سفر الجامعة – مجيء الإسكندر

ليس العهد القديم شريعة فحسب ؛ بل هو فوق ذلك تاريخ ، وشعر ، وفلسفة من الطراز الأول . وإذا ما أنقصنا من قيمة الكتاب ما فيه من أساطير بدائية ، ومن أغلاط مبعثها صلاح الكاتبين وتقواهم ، وأقررنا أن ما فيه من أسفار تاريخية لا تبلغ من الدقة أو من القدم ما كان أجدادنا السابقون يفترضونه فيها ، إذا ما فعلنا هذا كله فإنا لا نجد فى الكتاب طائفة من أقدم الكتابات التاريخية فحسب ، بل نجد فيه كذلك طائفة من أجمل تلك الكتابات . ولربما كانت أسفار القضاة وصموئيل والملوك قد وضعت على عجل ، كما يعتقد بعض العلماء(٢١٧) ، فى أثناء السبى أو بعده بقليل ، ليجمع فيها واضعوها التقاليد القومية لشعب مشتت كسير ؛ ويحتفظوا بها على مدى القرون ؛ ولكن قصة شاؤل وداود وسليمان تفوق فى جمال مبناها وأسلوبها غيرها من الكتابات التاريخية فى الشرق الأدنى القديم . بل إن سفر التكوين نفسه – إذا استثنينا منه ما فيه من سلاسل الأنساب ، وقرأناه ونحن ندرك الهدف الذى ترمى إليه الأقاصيص – إن هذا السفر نفسه لهو قصة ممتعة عظيمة ، قصّت علينا من غير حواش ولا زينة فى بساطة ووضوح وقوة . ولسنا نجد فيها تاريخاً فحسب ، بل نجد فيها نوعاً من فلسفة التاريخ . ذلك أنها أول ما دوّن من الجهود التى بذلها الإنسان ليؤلف من الحوادث الماضية التى لا عداد لها وحدة متناسقة بالبحث عما يسرى فيها من وحدة فى الغرض ، ومن مغزى ، ومن تتابع العلة والمعلول على نحو ما ، ومن إيضاح لحاضر

الأشياء ومستقبلها . ولقد بقيت فكرةُ التاريخ — كما تصورها الأنبياء والكهنة واضعو أسفار موسى الخمسة — ألفَّ عام بعد اليونان والرومان . وأصبحت آراء عالمية يعتنقها المفكرون الأوربيون من بوئثنيوس **Boëthnius** إلى بوسويه **Bossuet**

والقصص الغرامية الساحرة الواردة فى التوراة وسط بين التاريخ والشعر ، وليس فى المنثور من الكتابة ما هو أدنى إلى الكمال من قصة راعوث ؛ ولا تقل عنها كثيراً قصة إسحق ورفقة ، ويعقوب وراحيل ، ويوسف وبنيامين ، وشمشون ودليلة ، وإستر ، ويهوديت ودانيال . ويبدأ الأدب الشعرى « بنشيد موسى » (سفر الخروج الفصل الخامس عشر) و « نشيد دبورة » (القضاة الفصل الخامس عشر) ويبلغ ذروته فى المزامير . وكانت ترانيم « التوبة » البابلية هى التى مهدت السبيل إلى هذه الأناشيد ، ولعل أناشيد اليهود قد أخذت منها مادتها كما أخذت عنها صورتها . ويخيل إلينا أن قصيدة إخناتون الشمس كانت ذات أثر فى المزمور الخامس والخمسين بعد المائة . وأكبر الظن أن المزامير ليست كلها من وضع داود وحده بل من وضع طائفة من الشعراء كتبوها بعد الأسر اليهودى بزمن طويل ، ويغلب أن يكون ذلك فى القرن الثالث قبل المسيح[٣١٨] . على أن هذا البحث التاريخى كله لا يعنينا كما لا يعنينا اشتقاق اسم شيكسبير أو المصادر التى استمد منها مسرحياته ، إنما الذى يعنينا هو أن المزامير تحتل المكان الأول فى شعر العالم الغنائى . ولم يكن يقصد بها أن يطالعها الإنسان فى جلسة واحدة ، أو أن يطالعها مطالعة الناقد المدقق ؛ بل إن أجمل ما فيها أنها تصف لحظات من نشوة التقى والهيام الروحى والإيمان القوى المحرك للعواطف . ولكنها يفسدها علينا ما فيها من لعنات مريرة ، و « تأوهات » وشكايات مملة ، وملق لا ينتهى ليهوه الذى يصب الدخان صباً من خياشيمه والنار من فمه (المزمور الثامن) ، ويتوعد الأشرار بالحرق فى نار الجحيم (المزمور التاسع) : يتقبل الملق ويهدد « بقطع جميع الشفاه الملقة » (المزمور الثانى عشر) . والمزامير مليئة بالحماسة

الحربية البعيدة كل البعد عن الروح المسيحية ، ولكنها مع ذلك تسرى فيها روح الحجيج المجاهدين . على أن من المزامير ما يفيض رحمة وحناناً وما يعد مثلا فى الخضوع والتذلل : « إننا تراب نحن ... الإنسان مثل العشب أيامه ، كزهر الحقـــل كذلك يزهر ، لأن ريحاً تعبر عليه فلا يكون ولا يعرفه موضعه بعد » (المزموران ٢٩ ، ١٠٣) . ونحس فى هذه الأناشيد بأوزان الشعر الشرقى القديم ونكاد نسمع فيها أصوات المرنمين وهم يردون على المنشدين . وليس فى الشعر كله ما يفوقه فى تشبيهاته وتصويره ؛ وليس ثمة ما يضارعه فى قوة تعبيراته ووضوحها . ولهذه القصائد فى نفوسنا من الأثر ما يفوق أثر أية أغنية من أغانى الحب ، فهى تحرك أقسى العواطف وأكثر النفوس شكا ، لأنها تعبر فى صورة عاطفية قوية عما فى العقل الناضج من شوق إلى نوع من الكمال يهب له كل جهوده . وتقابلنا فى أماكن متفرقة من الترجمة الإنجليزية التى صدرت فى عهد الملك جيمس عبارات بليغة جرت على لسان جميع الناطقين باللغة الإنجليزية كقولهم : **Out of the Mouths of babes** (من أفواه الأطفال والرُّضَّع فى المزمور الثامن) ، **The apple the eye** (حدقة العين فى المزمور السابع عشر) ، **Trust not in princes** لا تتكلوا على الرؤساء ؟ — المزمور السادس والأربعون بعد المائة) . وفى الأصل العبرانى تشبيهات واستعارات لم تفقها تشبيهات واستعارات فى أية لغة من اللغات . انظر إلى قوله فى المزمور التاسع عشر ، إن الشمس المشرقة : « مثل العروس الخارج من حجلته يبتهج مثل الجبار للسباق » . ولا يسعنا إلا أن نتصور ما لهذه الأناشيد من جلال وجمال فى لغتها الأصلية الطنانة الرنانة(*) .

وإذا ما وضعنا إلى جانب هذه المزامير « نشيد سليمان » لاح لنا ما فى الحياة

(*) ولو أننا طلب إلينا أن نختار من هذه المزامير أحسنها لوقع اختيارنا فى أكبر ظننا على المزامير رقم ٢٣٨ ، ، ٥١ ، ١٠٤ ، ١٣٧ ، ١٣٩ . وبين المزمور الأخير وبين نشيد هوتمان **Whitman** « النشوء والارتقاء » شبه عجيب(٢١٩) .

اليهودية من عنصر شهوانى دنيوى ، لعل كُتَّاب العهد القديم — وهم الذين يكادون كلهم أن يكونوا من الأنبياء والكهنة — قد أخفوه عنا ، كما يكشف سفر الجامعة عن تشكك لا نتبينه فيما عنى الكتاب باختياره ونشره من أدب اليهود الأقدمين : وفى هذه الكتابات الغرامية العجيبة مجال واسع للحدس والتخمين . فقد تكون مجموعة من الأغانى البابلية الأصل ، تشيد بذكر إشتار وتموز ، وقد تكون من وضع جماعة من شعراء الغزل العبرانيين تأثروا بالروح الهلينية التى دخلت إلى بلاد اليهود مع الإسكندر الأكبر (لأن فى هـذه الأغانى ألفاظاً مأخوذة من اللغة اليونانية) ، أو تكون زهرة يهودية ترعرعت فى الإسكندرية وقطفتها نفس محررة من ضفاف النيل (وذلك لأن العاشقين يخاطب أحدهما الآخر بقوله أخى أو أختى كما يفعـل المصريون الأقدمون) . ومهما يكن أصلها فإن وجودها فى التوراة سر خفى ولكنه سر ساحر جميل . ولسنا ندرى كيف غفل — أو تغافل — رجال الدين عما فى هذه الأغانى من عواطف شهوانية فأجازوا وضعها بين أقوال إشعيا والخطباء :

صرة المر حبيبى لى بين ثديى يبيت
طاقة فاغية حبيبى لى فى كروم عين جِدْى (Engadi)
ها أنت جميلة يا حبيبتى ، ها أنت جميلة ، عيناك حمامتان
ها أنت جميلٌ يا حبيبى وحلو وسريرنا أخضر ...
أنا نرجس شارون سوسنة الأودية . .
أسندونى بأقراص الزبيب ، أنعشونى بالتفاح فإنى مريضة حباً ،
أحلفكن يا بنات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقول ألا تيقظنَ
ولا تنبهنَ الحبيب حتى يشاء ..
حبيبى لى وأنا له الراعى بين السوسن

إلى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال ارجع وأشبه يا حبيبى الظبى
أو غُفر الأيائل على الجبال المشعَّبة . . .
تعال يا حبيبى لنخرج إلى الحقل ولنبت فى القرى
لنبكرنّ إلى الكروم لننظر هل أزهر الكرم ؟ هل تفتح القعال ؟ هل
نوّر الرمان ؟ هنالك أعطيك حبى[٢٢٠] .

هذا هو صوت الشباب ، أما الأمثال فصوت الشيوخ . إن الناس يتطلبون كل شىء من الحب والحياة ، وهم ينالون ما يتطلبون إلا قليلا ، ولكنهم يظنون أنهم لم ينالوا شيئاً ، وتلك هى المراحل الثلاث التى يتنقل فيها الإنسان المتشائم . وهكذا نرى هذا السليمان الأسطورى(*) يحذر الشباب من شر المرأة « لأنها طرحت كثيرين جرحى ، وكل قتلاها أقوياء . . . أما الزانى بامرأة فعديم العقل . . . ثلاثة عجيبة فوقى وأربعة لا أعرفها : طريق نسر فى السموات ، وطريق حية على صخر ، وطريق سفينة فى قلب البحر ، وطريق رجل بفتاة[٢٢١] » . وهو يتفق مع القديس بولس فى أن أفضل للإنسان أن يتزوج من أن يحترق ! « أفرح بامرأة شبابك ، الظبية المحبوبة ، والوعلة الزهية ، ليروك ثدياها فى كل وقت ، وبمحبتها اسكر دائماً . . . أكلة من البقول حيث تكون المحبة خير من ثور معلوف ومعه بغضة[٢٢] » . بحقك هل هذه ألفاظ من كانت له سبعمائة زوجة ؟

ويلى الكسلُ الدنس فى البعد عن الحكمة : « اذهب إلى النملة أيها الكسلان . . . إلى متى تنام أيها الكسلان ؟[٢٢٣] » .

« أرأيت رجلا مجتهداً فى عمله ؟ — أمام الملوك يقف[٢٢٤] » . ولكن

(*) لا يقصد الكاتب أن سليمان شخص أسطورى ، فقد تحدث عنه قبل حديث من يعتقد أنه شخصية تاريخية ، بل يقصد كما يقول هو نفسه أن الأمثال ليست من وضع سليمان وإن كان بعضها قد قالها هو نفسه هو كتبت فيما بعد . إن على هذه الأمثال مسحة من الأدب المصرى والفلسفة اليونانية ، ولعلها جمعت فى القرن الثالث أو الثانى قبل الميلاد ، ولعل جامعها يهودى متأغرق من أهل الإسكندرية .

هذا الفيلسوف لا يطيق الإسراف فى الطمع : « المستعجل إلى الغنى لا يبرأ » ، و « راحة الجهال[٢٢٥] تبيدهم » والعمل هو الحكمة ، أما الكلام فحمق وسخف : « فى كل تعب منفعة ، وكلام الشفتين إنما هو إلى الفقر » . . . « الجاهل يظهر كل عبطه ، والحكيم يسكنه أخيراً » « ذو المعرفة يبقى كلامه وذو الفهم وقور الروح ، بل الأحمق إذا سكت يحسب حكيما ومن ضم شفتيه فهيما[٢٢٦] » .

ومن النصائح التى لا ينفك ذلك الحكيم يرددها حكمة تكاد تنطبق ألفاظها على وصف سقراط للفضيلة والحكمة ، تفوح بعطر مدارس الإسكندرية حيث كان علم اللاهوت العبرى يمتزج بالفلسفة اليونانية لتخرج لنا من مزيجهما العقلية الأوربية : « الفطنة ينبوع حياة لصاحبها ، وتأديب الحمقى حماقة . . . طوبى للإنسان الذى يجد الحكمة وللرجل الذى ينال الفهم ، لأن تجارتها خير من تجارة الفضة ، وربحها خير من الذهب الخالص ، هى أثمن من اللآلئ وكل جواهرك لا تساويها ، فى يمينها طول أيامك وفى يسارها الغنى والمجد ، طرقها طرق نعم ، وكل مسالكها سلام[٢٢٧] » .

وسفر أيوب أسهل من سفر الأمثال ؛ ولعل ذلك السفر قد كتب فى أيام السبى ، ولعله يصف بطريق القياس الأسر البابلى[*] ويقول فيه كارليل وهو

(*) ويظن العلماء أن هذا السفر قد كتب فى القرن الخامس قبل الميلاد[٢٢٨] . ونصوصه أكثر تهويشا حتى من الكتب المقدسة فى أية أمة من الأمم القديمة . ويرفض جاسترو هذه النصوص كلها ما عدا الفصول ٣ — ٣١ ، ويرى أن ما بقى من الفصول تعديلات أدخلت عليها لتدعيمها ، وحتى الفصول التى يقبلها يظن أن فيها عبارات ليست منها قد أقحمت فيها إقحاما ، وأن بعض العبارات الأصلية قد أسيئت ترجمتها . من ذلك ما جاء فى الآية الخامسة من الفصل الثالث عشر : « هو ذا يقتلنى فهذا يعود إلى خلاصى » (الأصحاح ١٣ : ١٥) فهذه الآية تجب أن تترجم هكذا : « ولكنى لا أرتجف » أو « ولكنى لا أرجو شيئاً »[٢٢٩] [ونص الآيات كاملا هو : « هو ذا يقتلنى ، لا أنتظر شيئاً ، فقط أزكى طريقى قدامه ، فهذا يعود إلى خلاصى » (المترجم)]

ويرى كلن وغيره فى هذا السفر ما يشبه إحدى المآسى اليونانية التى كتبت على نمط مآسى يوربديز[٢٣٠] . والفصول المحصورة بين ٣ ، ٤١ مصوغة على أوازن الشعر العبرى .

من أشد الناس تحمساً له : « وأنا أقول عنه إنه من أعظم ما خط بالقلم . . . فهو كتاب نبيل ، وهو كتاب الناس أجمعين ! وهو أول وأقدم شرح لتلك المشكلة التي لا آخر لها — مشكلة مصير الإنسان وتصرف الله معه على ظهر هذه الأرض . . . واعتقادي أن لا شيء في التوراة أو في غير التوراة يضارعه في قيمته الأدبية[٢٣٠] » وقد قامت هذه المشكلة بسبب اهتمام العبرانيين بأمور هذه الدنيا . ذلك أنه لما كانت الجنة لا وجود لها في الديانة اليهودية القديمة[٢٣١] فقد كان من الواجب المحتم أن تنال الفضيلة ثوابها في هذا العالم ، وإلا لم يكن لها ثواب على الإطلاق . ولكنهم كثيراً ما كان يبدو لهم أن الأشرار ينجحون ويفوزون ، وأن أشد الآلام قد اختص بها خيار الناس ، فلم إذن كما يقول كاتب المزامير : « هؤلاء هم الأشرار يكثرون ثروة[٢٣٢] » ؟ ولِمَ يخفي الله نفسه ولا يعاقب الأشرار ويثيب الأخيار ؟[٢٣٣] ؛ وها هوذا مؤلف سفر أيوب يسأل هذه الأسئلة وهو أكثر ممن سبقه عزماً وثباتاً ولعله يعرض بطله أمام الناس رمزاً لعقيدته . ولقد كان بنو إسرائيل كلهم يعبدون يهوه (في فترات متقطعة) كما كان يعبده أيوب ؛ وكانت بابل تجحده وتكفر به ؛ ومع ذلك فقد ازدهرت بابل ، وتمرغ بنو إسرائيل في الوحل ، ولبسوا الخيش حين أسروا وشردوا . فماذا يقول الإنسان في هذا الإله ؟

وجاء في مقدمة هذا السفر ، لعل كاتباً أريباً قد دسها فيه ليمحو منه تلك الوصمة ، أن الشيطان قال ليهوه إن أيوب إنسان « كامل مستقيم » لأنه رجل محظوظ ؛ فهل يستمسك بتقواه إذا أصابه الضر ؟ فيسمح يهوه للشيطان بأن يصب ألواناً من المصائب على رأس أيوب . ويظل البطل وقتاً ما صابراً « صبر أيوب » ولكن صبره هـذا يفارقه في آخر الأمر ، ويفكر في الانتحار ، ويلوم ربه أشد اللوم لأنه نبذه وتخلى عنه . ويصر صوفر — وقد خرج ليستمتع بآلام صديقه — على أن الله عادل وأنه سيثيب الإنسان الصالح في هذه الدنيا نفسها ؛ ولكن أيوب يقطع عليه حديثه محتداً :

« إنكم أنتم شعب ومعكم تموت الحكمة ، غير أنه لى فهم مثلكم ، لست أنا دونكم ، ومن ليس عنده مثل هذه ! . . . خيام المُخَرِّبين مستريحة والذين يغيظون الله مطمئنون ، الذين يأتون بإلههم فى يدهم . . . هذا كله رأته عينى ، سمعته أذنى وفطنت به . . . أما أنتم فلفقو كذب أطباء بطالون كلكم . ليتكم تصمتون صمتاً ، يكون ذلك لكم حكمة[٢٣٤] » .

ثم يفكر فى قصر الحياة وطول الموت فيقول :

« الإنسان مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تعباً ، يخرج كالزهر ثم ينحسم ، ويبرح كالظل ولا يقف . . . . لأن للشجرة رجاء إن قطعت تخلف ولا تعدم خراعيبها . . . أما الرجل فيموت ويبلى ؛ الإنسان يسلم الروح فأين هو ؟ قد تنفد المياه من البحر ، والنهر ينشف ويجف ، والإنسان يضطجع ولا يقوم . . . إن مات رجل أفيحيا ! »[٢٣٥] .

ويظل الجدل قائماً بشدة ، ويزداد شك أيوب فى ربه ، حتى يدعوه خصيمه ، ويتمنى أن يملك خصمه هذا نفسه بكتاب يكتبه — على نمط فلسفة ليبنتز Leibnitz وأقواله فى العدالة الإلهية . وتوحى العبارة التى جاءت فى ختام هذا الفصل « تمت أقوال أيوب » — بأن هذا كان فى الأصل ختام حديث يمثل كما يمثل سفر الجامعة آراء أقلية جاحدة بين اليهود(*) . ولكن فيلسوفاً آخر — إليهو — يبدأ الكلام من هذه النقطة ويشرح فى مائة وخمس وستين آية عدالة الله فى خلقه . وأخيراً يُسمع صوت من بين السحاب يتحدث حديثاً هو أجل ما فى التوراة كلها .

(*) يقول رينان وهو الفيلسوف المتشكك : « إن المتشكك لا يكتب إلا قليلا ، ثم إن كتاباته نفسها كثيرة التعرض للضياع . ولما كانت مصاير اليهود مرتبطة كل الارتباط بالدين فقد كان لابد من التضحية بالقسم الدنيوى من أدبهم »[٢٣٦] . وإن فى تكرار هذه العبارة : « قال الجاهل فى قلبه ليس إله » فى المزمورين (١٤ : ١ ، ٥٣ : ١) ليدل على أن هؤلاء الجهال كانوا من الكثرة بين بنى إسرائيل بحيث يثيرون بعض المتاعب . ويلوح أن ثمة إشارة إلى هذه الأقلية فى صفنيا ١ : ١٢ .

فأجاب الرب أيوب من العاصفة وقال :

« من هذا الذى يظلم القضاء بكلام بلا معرفة . اشدد الآن حقويك كرجل فإنى أسألك فتعلمنى . أين كنت حين أسستُ الأرض . أخبر إن كان عندك فهم من وضع قياسها ، لأنك تعلم ؟ أو من مد عليها مطماراً ؟ على أى شىء قرت قواعدها ؟ أو من وضع حجر زاويتها ، عند ما ترنمت كواكب الصبح معاً وهتف جميع بنى الله ؟ ومن حجز البحر بمصاريع حين اندفق فخرج من الرحم ، إذ جعلت السحاب لباسه والضباب قماطه وضرمتُ عليه حدى ، وأقمت له مغاليق ومصاريع وقلت إلى هنا تأتى ولا تتعدى وهنا تتخم كبرياء لججك ؟ هل فى أيامك أمرت الصبح ؟ هل عرفت الفجر موضعه ؟ . . . هل انتهيت إلى ينابيع البحر أو فى مقصورة القمر تمشيت ؟ هل انكشفت لك أبواب الموت أو عاينت أبواب ظل الموت ؟ هل أدركت عرض الأرض ؟ أخبر إن عرفته كله ؟ . . . أدخلت إلى خزائن الثلج أم أبصرت مخازن البرد ! . . . هل تربط أنت عقد الثريا أو تفك رُبُط الجبار ؟ هل عرفت سنن السموات أو جعلت تسلطها على الأرض ؟ ... من وضع فى الضحاء حكمة أو من أظهر فى الشهب فطنة ؟

« هل يخاصم القـديرَ موبخهُ ، أم المحاج الله يجاوبه ؟ أسألك فتعلمنى[٢٣٧] » .

ويذل أيوب نفسه لهول ما يرى ؛ ويرضى يهوه بهذا فيعفو عنه ، ويقبل تضحيته ؛ وتتوعد أصدقاء أيوب لما نطقوا به من حجج واهية[٢٣٨] ، ويهب أيوبَ نفسَه أربعة عشر ألفاً من الغنم ، وستة آلاف من الإبل وألف فدان من الثيران ، وألف أتان ، وسبعة بنين ، وثلاث بنات ، وعاش بعد هذا مائة عام وأربعين سنة . وتلك خاتمة عرجاء ولكنها خاتمة سعيدة ؛ لأن أيوب يحصل على كل شىء إلا جواب أسئلته ؛ فالمشكلة تظل باقية ؛ وسوف تكون لها آثار بعيدة فى تفكير اليهود فيما بعد . ففى أيام دانيال (حوالى ١٦٧ ق . م) سكت يهود عن هذه المشكلة وعدوها من المشاكل التى شرحها

بعبارات تدركها العقول فى هذه الحياة الدنيوية ، ولا يستطاع الإجابة عنها — كما يقول دانيال وأخنوخ و (كانت Kant) إلا إذا آمن الإنسان بحياة بعد الممات ، ترفع فيها كل المظالم ، وتصحح كل الأخطاء ، يعاقب فيها المسىء ، ويثاب المحسن أجزل الثواب . وكانت هذه إحدى الأفكار المختلفة التى سرت فى المسيحية ، وكانت من أكبر الأسباب انتصارها على غيرها من الأديان المعاصرة لها .

ويجيب سفر الجامعة عن هذه المسألة جواباً متشائماً ، فيقول إن الهناءة والشقاء فى هذا العالم لا شأن لها بالفضيلة والرذيلة(*) .

« قد رأيت الكل فى أيام بُطْلى ، قد يكون بارٌّ يبيد فى برّه ، وقد يكون شرير يطول فى شره . . . ثم رجعت ورأيت كل المظالم التى تجرى تحت الشمس : فهو ذا دموع المظلومين ولا مقر لهم ، ومن يد ظالميهم قهر . . . إن رأيت ظلم الفقير ونزع الحق والعدل فى البلاد فلا ترتع من الأمر . . . لأن فوق العالى عالياً[٢٤١] .

وليست الفضيلة والرذيلة هما اللتين تقوم عليهما سعادة الإنسان وشقاؤه ، وإنما تقوم السعادة والشقاء على المصادفة العمياء : « فعدت ورأيت تحت الشمس أن السعى ليس للخفيف ، ولا الحرب للأقوياء ، ولا الخبز للحكماء ، ولا الغنى للفهماء ، ولا النعمة لذوى المعرفة ، لأن الوقت والفُرَص يلاقيانهم كافة[٢٤٢] » . وحتى الثروة نفسها لا بقاء لها ولا تسعد صاحبها طويلا : « من يحب الفضة لا يشبع من الفضة ، ومن يحب الثروة لا يشبع من دخل . هذا أيضاً باطل . . . نوم المشتغل حلو إن أكل قليلا أو كثيراً . ووفر الغنى لا يريحه حتى ينام[٢٤٣] » . ويذكر الكاتب أهله فيجمع مبادئ مالتس Maltus فى سطر واحد : « إذا كثرت الخيرات كثر الذين يأكلونها[٢٤٤] » . كذلك لا يخفف من آلامه ما يقال

(*) لا يعرف مؤلف هذا السفر ولا وقت تأليفه . ويرجعه سارتن إلى الفترة الواقعة ما بين عامى ٢٥٠ ، ١٦٨ ق . م[٢٣٩] . ويطلق المؤلف نفسه اسمين أدبيين مستعارين يخلط بينهما وهما « كحيلة » و « ابن داود ملك أورشليم » أى سليمان[٢٤٠] .

له عن ماض ذهبي أو مستقبل هنيء ، فهو يرى أن الأمور جميعها كانت فى ماضيها كما هى فى حاضرها وكما ستكون فى مستقبلها على الدوام : « لا تقل لماذا كانت الأيام الأولى خيراً من هذه ؟ لأنه ليس عن حكمة تسأل عن هذا[٢٤٥] » ، ومن واجب الإنسان أن يعنى باختيار مؤرخيه : « ما كان فهو ما يكون ، والذى صُنع فهو الذى يُصنع . فليس تحت الشمس جديد . إن وجد شيء يقال له انظر ، هذا جديد ، فهو منذ زمان كان فى الدهور التى قبلنا[٢٤٦] » . وهو يظن أن الرقى وهم باطل فالمدنيات القديمة قد نسيت وستنسى أيضاً المدنيات القائمة[٢٤٧] .

وهو يرى أن الحياة بوجه عام عمل محزن . وأن لا ضير من التخلص منها ، فهى حركة دائرية لا غاية لها ولا هدف ولا نتيجة باقية ، تنتهى حيث تبدأ ؛ وهى صراع عقيم باطل ليس فيه شيء محقق إلا الهزيمة :

« باطل الأباطيل قال الجامعة ؛ باطل الأباطيل الكل باطل . ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس ، دور يمضى ودور يجيء ، والأرض قائمة إلى الأبد ، والشمس تشرق ، والشمس تغرب ، وتسرع إلى موضعها حيث تشرق . الريح تذهب إلى الجنوب وتدور إلى الشمال ، تذهب دائرة دوراناً ، وإلى مداراتها ترجع الريح . كل الأنهار تجرى إلى البحر ، والبحر ليس بملآن . إلى المكان الذى جرت منه الأنهار ، إلى هناك تذهب راجعة . . . فغبطت أنا الأموات الذين قد ماتوا منذ زمان أكثر من الأحياء الذين هم عائشون بعد . وخير من كليهما الذى لم يولد بعد ، الذى لم ير العمل الردىء الذى عمل تحت الشمس . . . الصيت خير من الدهن الطيب ، ويوم الممات خير من يوم الولادة[٢٤٨] » .

وهو يقضى بعض الوقت يبحث عن حل للغز الحياة فى الانغماس فى الملذات . « فمدحت الفرح لأنه ليس للإنسان خير تحت الشمس إلا أن يأكل ويشرب ويفرح » . ولكن « هذا أيضاً باطل » . والصعوبة التى تواجهنا فى مسراتنا هى المرأة ، ويلوح أن الواعظ قد لاقى منها شراً لم يستطع نسيانه . « رجلا واحداً

بين ألف وجدت ، أما امرأة فبين كل أولئك لم أجد . . . فوجدت أمر من الموت المرأة التي هي شباك ، وقلبها أشراك ويداها قيود ، الصالح قدام الله ينجو منها[٢٥١] » . وهو يختم استطراده في دنيا الفلسفة الغامضة بالعودة إلى نصيحة سليمان و فنتير ، وعلى النصيحة التي لم يعمل بها كلاهما : « التذ عيشاً مع المرأة التي أحببتها كل أيام حياة باطلك التي أعطاك إياها تحت الشمس[٢٥٢] » .

وحتى الحكمة نفسها مسألة مشكوك فيها ، فهو يكيل لها المدح جزافاً ، ولكنه يظن أن العلم إذا لم يكن بالقدر القليل كان بالغ الخطورة ، فهو يقول في غير حذر ، « لعمل كتب كثيرة لا نهاية ، والدرس الكثير تعب للجسد[٢٥٣] » . وفي رأيه أنه قد يكون من الحكمة أن يسعى الإنسان للحكمة لو أن الله قد جعلها تثمر مالا أكثر مما تثمره فعلا : « الحكمة صالحة مثل الميراث بل أفضل لناظري الشمس »(*) . فإذا لم يصحبها المال كانت شركا يقضي على طلابها[٢٥٤] . (إن الحكمة شبيهة بيهوه الذي قال لموسى : « لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش(**)[٢٥٥] ») . . والحكيم يموت آخر الأمر كما يموت الأبله وكلاهما ينتهي إلى جيفة نتنة .

ووجهت قلبي للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السموات هو عناء ردىء جعلها الله لبني البشر ليعنوا فيه . رأيت كل الأعمال التي عملت تحت الشمس فإذا الكل باطل وقبض الريح . . . أنا ناجيت قلبي قائلا ها أنذا قد عظمت وازددت حكمة أكثر من كل من كان قبلي على أورشليم ، وقد رأى قلبي كثيراً من الحكمة والمعرفة ؛ ووجهت قلبي لمعرفة الحكمة ولمعرفة الحماقة والجهل :

(*) هذا هو النص في الترجمة العربية للكتاب المقدس ، ولكن معنى النص الإنجليزي الذي أورده المؤلف : « الحكمة صالحة مع الميراث » . (المترجم)

(**) " رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني " قرآن كريم .

فعرفت أن هذا أيضاً قبض الريح ، لأن فى كثرة الحكمة كثرة الغم ، والذى يزيد علما يزيد حزناً[٢٥٦] »

ولو أنه كان من مبادئ هذا الدين أن الرجل العادل يستطيع أن يتطلع إلى شيء من السعادة بعد الموت لكان فى مقدوره أن يتحمل سهام مصائب الدهر وقلبه عامر بالأمل والشجاعة ؛ ولكن كاتب سفر الجامعة « يحس » بأن هذا أيضاً وهم باطل ، فالإنسان حيوان يموت كما يموت غيره من الحيوانات :

« لأن ما يحدث لبنى البشر يحدث للبهيمة ، وحادثة واحدة لهم ، موت هذا كموت ذاك ، ونسمة واحدة للكل ، فليس للإنسان مزية على البهيمة لأن كليهما باطل . يذهب كلاهما إلى مكان واحد ؛ كان كلاهما من التراب وإلى التراب يعود كلاهما » . . فرأيت أنه لا شيء خير من أن يفرح الإنسان بأعماله لأن ذلك نصيبه ، لأنه من يأتى به ليرى ما سيكون بعده ؟ . . . كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك لأنه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة فى الهاوية التى أنت ذاهب إليها[٢٥٧] » .

ألا ما أغرب هذا تعليقاً على الحكمة التى يسبِّح بحمدها سفر الأمثال ! ولا شك فى أن هذه الأقوال إنما تعبر عن الحضارة التى بلغت آخر مراحلها ، فلقد نضب معين شباب إسرائيل فى الكفاح المرير الذى قام بينها وبين الإمبراطوريات المحيطة بها ، والتى لم ينقذها منها يهوه الذى كانت تعتقد على معونته ، فلما تأزمت أمورها وافتقرت وتشتتت رفعت إلى السماء فى آدابها هذا الصوت وهو أشد الأصوات مرارة لتعبر به عن أعمق الشكوك التى طافت فى يوم من الأيام بالنفس البشرية .

نعم إن أورشليم قد أعيد بناؤها ، ولكنها لم تعد لتكون حصناً لإله لا يقهر ، بل عادت لتكون مدينة تخضع للفرس حيناً ولليونان حيناً آخر . فقد وقف الإسكندر الشاب على أبوابها فى عام ٣٣٤ ق . م ، وطلب إلى تلك العاصمة أن

تستسلم له . وأبى الكاهن الأكبر فى أول الأمر أن يجيبه إلى ما طلب ، ولكنه صدع بالأمر فى صباح اليوم الثانى على أثر حلم رآه فى نومه ، فأمر الكهنة أن يرتدوا من ملابسهم أعظمها روعة وأشدها وقعاً فى النفوس ، كما أمر الأهلين أن يلبسوا ثياباً بيضاً لا شية فيها ، ثم سار على رأس الشعب إلى خارج أبواب المدينة فى هدوء وسلام ليعرضوا الصلح على الغازين . وانحنى الإسكندر تعظيما للكاهن الأكبر وأظهر إعجابه ببنى إسرائيل وبإلههم وتقبل منهم أورشليم[٢٥٨] .

على أن هذا لم يكن آخر حياة بلاد اليهود ، بل كان هو الفصل الأول من هذه المسرحية العجيبة التى تمتد فصولها المختلفة طوال أربعين قرناً من الزمان ، والتى تدور حوادث فصلها الثانى حول المسيح ، وحوادث الفصل الثالث حول أحاسوروس . واليوم يمثل من هذه المسرحية فصل آخر ولكنه ليس آخر فصولها . لقد خربت أورشليم وأعيد بناؤها ، ثم خربت وأعيد بناؤها من جديد .

الباب الثالث عشر

فارس

الفصل الأول

قيام دولة الميديين وسقوطها(*)

أصولهم — حكامهم — معاهدة سرديس الدموية — أخطاطهم

ترى من هم الميديون الذين كان لهم شأن أيما شأن في تحطيم دولة أشور. أما معرفة أصلهم فأمر معجز الدرك عزيز المطلب، ذلك أن التاريخ كتاب يجب أن يبدأه الإنسان من وسطه. وأول ما وصل إلينا من أخبارهم في لوحة تسجل حملة بعث بها شلما نصر الثالث إلى بلد يسمى پارسوا في جبال كردستان (٨٣٧ ق. م). ويلوح أنه كان في ذلك البلد سبعة وعشرون من الرؤساء — الملوك، يحكمون سبعاً وعشرين ولاية قليلة السكان يسمى أهلها أماداى أو ماداى أو ميديين. وهم أقوام من الجنس الهندوربي يرجح أنهم جاءوا من شواطئ بحر الخزر إلى غربي آسية قبل المسيح بنحو ألف عام، ويشيد الزند — أبستاق وهو كتاب الفرس المقدس بذكر هذا الموطن القديم ويصفه بأنه جنة من الجنان.

ذلك أن الأرض التي نقضي فيها شبابنا، وأيام هذا الشيب نفسه، جميلة على الدوام على شريطة ألا نضطر إلى الحياة من جديد في تلك الأرض أو في تلك الأيام.

(*) تسمى أحياناً دولة الماديين وقد ذكرت في التوراة بهذا الاسم. (المترجم)

ويلوح أن الميديين كانوا يضربون فى إقليم بخارى وسمرقند ، وأنهم توغلوا منه نحو الجنوب شيئاً فشيئاً ، حتى وصلوا آخر الأمر إلى بلاد فارس[1] ، فوجدوا النحاس والحديد والرصاص والذهب والفضة والرخام والحجارة الكريمة فى الجبال التى اتخذوها موطناً لهم جديداً[2] ، ولما كانوا قوماً أشداء بسطاء فى معيشتهم ، فقد أخذوا يفلحون أرض السهول وسفوح التلال وعاشوا منها عيشة رخيّة .

وفى إكباتانا(*) أى « ملتقى الطرق الكثيرة » الواقعة فى واد جميل المنظر أخصبته المياه الذائبة من الثلوج المغطية لقلل الجبال أنشأ ديوسيس أول ملوكهم عاصمته الأولى ، وزينها بقصر ملكى يشرف عليها ويغطى ثلثى ميل مربع من الأرض . ويقول هيرودوت فى فقرة من كتابه لم تجد ما يؤيدها : إن ديوسيس هذا قد وصل إلى ما وصل إليه من القوة بما اشتهر به من العدالة . فلما أن بلغ ما بلغ طغى وتجبر وأصدر أوامر تقضى « بأن لا يسمح لإنسان بالمثول بين يديه ، بل عليه أن يعرض أمره على يد رسله ، وأن يعد من سوء الأدب أن يضحك إنسان أو يبصق أمامه . وقد أراد بهذه المراسم التى فرضها حوله . . . أن يبدو لمن لا يرونه أنه من طبيعة غير طبيعتهم[3] » . واشتد ساعد الميديين فى أيامه بفضل حياتهم الطبيعية الاقتصادية ، وأصبحوا بتأثير عاداتهم وبيئتهم ذوى جلد وصبر على ضرورات الحروب ، فكانوا بزعامته خطراً يهدد أشور ، فأغارت هذه على بلاد ميديا مرة بعد مرة ، وظنت أنها قد هزمتها هزيمة منكرة لا تجرؤ معها على مناوأتها ولكنها وجدتها لا تمل الكفاح لنيل حريتها . واستطاع سياخار (سياكزارس) أعظم ملوك الميديين أن يحسم هذا النزاع بتدمير نينوى . وأوحى هذا النصر آمالا كباراً فاجتاحت جيوشه بلاد آسية الغربية حتى وصلت إلى أبواب سرديس ، ولم يرد هذه الجيوش عنها إلا كسوف الشمس . فقد ارتاع القائدان المتقاتلان لهذا الذى ظناه نذيراً لهما من السماء ، فوقعا معاهدة للصلح أبرماها بأن شرب كل

(*) والراجح أنها مدينة همذان الحالية .

منهما جرعة من دماء عدوه[٤] . ومات كيخسرو فى السنة التالية بعد أن وسع رقعة دولته فى خلال حكمه وحده فأصبحت إمبراطورية تشمل أشور وميديا وفارس بعد أن كانت ولاية خاضعة لسلطان غيرها : لكن هذه الإمبراطورية قضى عليها ولما يمض على وفاة هذا الملك جيل واحد .

وقد كانت هذه الدولة قصيرة الأجل ، فلم تستطع لهذا السبب أن تسهم فى الحضارة بقسط كبير ، إذا استثنينا ما قامت به من تمهيد السبيل إلى ثقافة بلاد الفرس . فقد أخذ الفرس عن الميديين لغتهم الآرية . وحروفهم الهجائية التى تبلغ عدتها ستة وثلاثين ، وهم الذين جعلوا الفرس يستبدلون فى الكتابة الرق والأقلام بألواح الطين[٥] ، ويستخدمون فى العمارة العمد على نطاق واسع . وعنهم أخذوا قانونهم الأخلاقى الذى يوصيهم بالاقتصاد وحسن التدبير ما أمكنهم فى وقت السلم ، وبالشجاعة التى لا حد لها فى زمن الحرب ؛ ودين زردشت وإلهيه أهورا — مزدا ، وأهرمان ، ونظام الأسرة الأبوى ، وتعدد الزوجات ، وطائفة من القوانين بينها وبين قوانينهم فى عهد إمبراطوريتهم المتأخر من التماثل ما جعل دانيال يجمع بينهما فى قوله المأثور عن « شريعة ميدى وفارس التى لا تنسخ »[٦] . أما أدبهم وفنهم فلم يبق منهما لا حرف ولا حجر .

على أن انحطاط الميديين كان أسرع من نهضتهم نفسها ؛ فقد أثبت استياجس ، الذى خلف أباه سياخار ، ما أثبته التاريخ من قبل ، وهو أن الملكية مغامرة لا تؤمن مغبتها ، وأن الذكاء المفرط والجنون يتقاربان كل القرب فى وراثة المُلك .

لقد ورث المُلك وهو مطمئن القلب هادئ البال ، وأخذ يستمتع بما ورث ، وحذت الأمة حذو مليكها فنسيت أخلاقها الجافة الشديدة وأساليب حياتها الخشنة الصارمة . ذلك أن الثروة قد أسرعت إليها إسراعاً لم يستطع أهلها معه أن يحسنوا استخدامها ، وأصبحت الطبقات العليا أسيرة الأنماط الحديثة والحياة المترفة ،

فلبس الرجال السراويل المطرزة الموشاة ، وتجملت النساء بالأصباغ والحلى ؛ بل إن الخيل نفسها كثيراً ما كانت تزين بالذهب(٧) . وبعد أن كان هؤلاء الرعاة البسطاء يجدون السرور كل السرور فى أن تحملهم مركبات بدائية ذات دواليب خشنة غليظة قطعت من سوق الأشجار(٨) ، أصبحوا الآن يركبون عربات فاخرة عظيمة الكلفة ينتقلون بها من وليمة إلى وليمة .

وبعد أن كان الملوك الأولون يفخرون بعدالتهم جاء استياجس فغضب يوماً على هرباجس فقدم له أشلاء ابنه بعد أن قطع رأسه وأرغمه على أن يأكل لحمه(٩) ، فأكله هرباجس وهو يقول إن كل ما يفعله المليك يسره ، ولكنه انتقم لنفسه بأن أعان قورش على خلع استياجس ؛ ذلك أن قورش الشاب النابه حاكم ولاية أنشان الفارسية التى كانت تابعة للميديين خرج على طاغية إكتابانا المخنث ، وابتهج الميديون أنفسهم بانتصاره على ذلك الطاغية وارتضوه ملكاً عليهم ، ولم يكد يرتفع من بينهم صوت واحد بالاحتجاج عليه ، وما هى إلا واقعة واحدة حتى انقلبت الآية فلم تعد ميديا سيدة فارس بل أصبحت فارس سيدة ميديا وأخذت تعد العدة لتكون سيدة عالم الشرق الأدنى كله .

الفصل الثانى

عظماء الملوك

قورش صاحب الشخصية الروائية - خططه السياسة المستنيرة -
قمبيز - دارا الأكبر - غزو بلاد اليونان

وكان قورش من الحكام الذين خُلِقوا ليكونوا حكاماً والذين يقول فيهم إمرسن إن الناس كلهم يبتهجون حين يتوّجون ». فلقد كان ملكا بحق فى روحه وأعماله ، قديراً فى الأعمال الإدارية والفتوح الخاطفة المسرحية ، كريماً فى معاملة المغلوبين ، محبوباً من أعدائه السابقين - فلا عجب والحالة هذه أن يتخذ منه اليونان موضوعاً لعدة روايات ، وأن يصفوه بأنه أكبر أبطال العالم قبل الإسكندر ».

ومما يؤسفنا أننا لا نستطيع أن نرسم له صورة موثوقاً بصحتها مما نقرره عنه فى هيرودوت أو أكسنوفون . ذلك بأن أول الرجلين قد خلط تاريخه بكثير من القصص الخرافية[١٠] ، وأن الثانى قد جعل القيروبيديا (سيرته) مقاله عن فنون الحرب تتخللها فى بعض المواضع محاضرات فى التربية والفلسفة ؛ ونرى أكسنوفون أحياناً يخلط بين قورش وسقراط . فإذا ما أخرجنا هذه الأقاصيص لم يبق لنا من شخصية قورش إلا أنه طيف خيال ممتع جذاب . وكل ما نستطيع أن نقوله عنه واثقين أنه كان وسيما بهى الطلعة - لأن الفرس اتخذوه نموذجاً لجمال الجسم حتى آخر أيام فنهم القديم[١١] ؛ وأنه أسس الأسرة الأكمينية أسرة « الملوك العظام » التى حكمت بلاد الفرس فى أزهى أيامها وأعظمها شهرة ، وأنه نظم قوات ميديا وفارس الحربية فجعل منها جيشاً قويا لا يقهر ، وأنه استولى على سرديس وبابل ، وقضى على حكم الساميين فى غربى آسية فلم تقم بعدئذ قائمة ، مدى

ألف عام كاملة ، وضم إلى الدولة الفارسية كل البلاد التي كانت من قبل تحت سلطان أشور ، وبابل ، ولبذيا ، وآسية الصغرى ، حتى أصبحت تلك الإمبراطورية أوسع المنظمات السياسية فى العالم القديم قبـــل الدولة الرومانية ، ومن أحسنها حكما فى جميع عصور التاريخ .

ويبدو — على ما نستطيع أن نصوره فيما يحيط به من سُدُم الأساطير والأوهام — أنه كان أحب الفاتحين إلى النفوس ، وأنه أقام دولته على قواعد من النبل وكريم السجايا ، وأن أعداءه كانوا يعرفون عنه لين الجانب فلم يحاربوه بتلك القوة المستيئسة التي يحارب بها الرجال حين لا يجدون بداً من أن يقتلوا أو يُقتلوا . ولقد مر بنا من قبل — على ما يرويه هيرودوت — كيف أنجى كروسس من الحطب المحرق الذى وضع عليه فى سرديس ، وكيف أكرمه وجعله من أعظم مستشاريه ، ومر بنا كذلك كرمه وحسن معاملته اليهود . وكانت أولى القواعد السياسية التي تقوم عليها دولته أن يترك الشعوب المختلفة التي تتألف منها حرية العبادة والعقيدة الدينية ، لأنه كان عليما كل العلم بالمبدإ الأول الذى يبنى عليه حكم الشعوب ، وهو أن الدين أقوى من الدولة ؛ ومن أجل ذلك لا نراه ينهب المدن ويخرب المعابد ، بل نراه يبدى كثيراً من الإكبار والمجاملة لآلهة الشعوب المغلوبة ، ويسهم بماله فى المحافظة على أضرحتها ؛ بل إن البابليين أنفسهم ، وهم الذين قاوموه طويلا ، قد التفوا حوله وتحمسوا له حين رأوه يحافظ على هياكلهم ويعظم آلهتهم ، وكان أينما سار فى فتوحه التي لم يسبقه إليها فاتح من قبله قرب القرابين إلى الآلهة المحلية فى تقى وورع . وكان كنابليون يعترف بالأديان كلها على السواء ، ويفوقه فيما يظهره من بشاشة وكياسة وهو يكرم جميع الآلهة .

وهو يشبه نابليون من ناحية أخرى ، وهى أنه مات ضحية الإسراف فى المطامع . ذلك أنه لما فرغ من فتح الشرق الأدنى بأجمعه وضمه إلى ملكه ،

أراد أن يحرر ميديا وفارس من غزو البدو الهمج الضاربين فى أواسط آسية ، ويلوح أنه أوغل فى حملاته حتى وصل إلى ضفاف نهر جيحون شمالا وإلى الهند شرقاً ، فلما وصل إلى ذروة مجده قتل فجأة وهو يحارب المسجيتة إحدى القبائل المجهولة التى كانت نازلة على السواحل الجنوبية لبحر الخزر ، فكان كالإسكندر افتتح إمبراطورية متسعة الرقعة ولكن المنية عاجلته قبل أن ينظمها ، لكن أخلاق قورش قد شابتها شائبة كبيرة ، تلك هى قسوته المفرطة فى بعض الأحيان .

وجاء بعده ابنه قمبيز وكان به شبه جنة فورث عن أبيه قوته وإن لم يرث عنه شيئاً من كرمه . وبدأ قمبيز حكمه بأن قتل أخاه سمرديس منافسه فى الملك ، ثم أغوته ثروة مصر الطائلة فزحف عليها ليمد حدود الإمبراطورية الفارسية إلى نهر النيل . وأفلح فيما كان يبتغيه ، ولكنه على ما يظهر أضاع فى سبيل ذلك رشده . ولم يكلفه الاستيلاء على منف كبير مشقة ، ولكن الجيش الذى أرسله للاستيلاء على واحة آمون هلك فى الصحراء ، كما أخفقت حملة سيرها إلى قرطاجنة لأن بحارة الأسطول الفارسى الفينيقيين أبوا أن يهاجموا مستعمرة فينيقية ، وجن جنون قمبيز ، فذهبت عنه حكمة أبيه ، وما كان يتصف به من رحمة وتسامح ، فأخذ يسخر من دين المصريين ، وطعن بخنجره العجل أبيس معبودهم وموضع إجلالهم وتقديسهم وهو يستهزئ به ، ولم يكفه هذا ، بل أخرج الجثث المحنطة من مدافنها ونبش قبور الملوك ولم يبال فى ذلك بما كان عليها من لعنات قديمة ، ودنس الهياكل وأمر بإحراق ما فيها من الأصنام ، ظناً منه أن عمله هذا سوف يشفى المصريين من خرافاتهم وأوهامهم ، فلما انتابه المرض — ويلوح أن مرضه كان نوبات صرع تشنجية — لم يبق لدى المصريين شك فى أن مرضه إنما هو عقاب حل به من قبل آلهتهم ، وأن دينهم لم يبق فيه بعدئذ ريبة لمرتاب . وكأن قمبيز أراد أن يبرهن مرة أخرى على مساوئ الملكية المطلقة ، ففعل ما فعله

نابليون فى بعض ساعات امتعاضه ، إذ أعدم ركسانا أخته وزوجته ، وقتل ابنه بركسسبيس بسهم من قوسه ، ودفن اثنى عشر من أعيان الفرس أحياء ، وقضى بإعدام كروسس ، ثم ندم على ما فعل ، وسر حين علم أن حكمه لم ينفذ ، ثم عاقب الموظفين الذين تأخروا عن تنفيذه[١٢] . وعلم وهو عائد إلى بلاده أن مغتصباً قد استولى على عرش فارس ، وأن ثورة صماء اندلع لهيبها طول البلاد وعرضها لتأييده . ومن هذه اللحظة يختفى قمبيز من التاريخ ، وفى بعض الروايات أنه انتحر[١٣] .

وكان المغتصب قد ادعى أنه سمرديس ، وأنه نجا بإحدى المعجزات من حسد أخيه قمبيز واعتزامه قتله . أما الحقيقة فإنه كان أحد رجال الدين المتعصبين من أتباع المذهب المجوسى القديم ، وكان يعمل جاهداً للقضاء على الزردشتية دين الدولة الفارسية الرسمى ثم شبت فى البلاد ثورة أخرى أطاحت بعرشه . وكان الذين نظموها سبعة من أشراف البلاد اختاروا بعدئذ واحداً منهم هو دارا ابن هشتسبس ورفعوه على العرش . وبهذه الوسيلة الدموية بدأ أعظم ملوك الفرس حكمه .

وكانت وراثة العرش فى الممالك الشرقية تقترن بالفتن فى القصور الملكية تقوم بين المتنازعين على أزمة الحكم ، كما تقترن بالثورات فى المستعمرات الخاضعة لحكمها ، فقد كانت هذه المستعمرات تنتهز فرصة ماينشأ عن الفتن الداخلية من فوضى واضطراب ، أو عن تولى الملك حاكم غير مجرب فتعمل لاسترداد حريتها . وكان اغتصاب الملك فى هذه المرة واغتيال « سمردس » فرصة ثمينة انتهزتها الولايات الخاضعة لفارس ، فخرج عليها حكام مصر وليديا ، وثارت عليها فى وقت واحد سوزانه ، وبابل ، وميديا ، وأشور ، وأرمينية ، وساكيا ، وغيرها من الولايات . ولكن دارا أخضعها جميعاً واستخدم فى إخضاعها منتهى القسوة ، من ذلك أنه لما استولى على مدينة بابل بعد حصار طويل أمر بصلب ثلاثة آلاف من أعيانها ليرهب بذلك بقية الأهلين ويرغمهم على طاعته ، ثم أتبع

ذلك بسلسلة من الوقائع الحربية السريعة « هدأ » بها الولايات الثائرة واحدة بعد واحدة .

ولما رأى أن هذه الإمبراطورية الواسعة قد تتقطع أوصالها إذا حلت بها أزمة من الأزمات ، خلع دروع الحرب ، وأصبح من أعظم الحكام الإداريين وأعلاهم كعباً فى التاريخ كله ، وأخذ يعيد تنظيم ملكه على نسق أصبح مثالا يحتذى فى جميع الإمبراطوريات القديمة إلى سقوط الدولة الرومانية . وبفضل هذا النظام نعمت بلاد غربى آسية بفترة من الطمأنينة والرخاء لم ينعم هذا الصقع المضطرب بمثلها من قبل .

وكان يرجو بعدئذ أن يحكم بلاده فى ظل السلام ، ولكن سنة الأقدار قد جرت على ألا تنقطع الحروب فى الإمبراطوريات ، ذلك بأن الشعوب المقهورة يجب أن يعاد قهرها من آن إلى آن ، وأن الغالبين يجب أن يحافظوا فى شعوبهم على فنون الحرب وعادات المعسكرات وميادين القتال ، وأن الأقدار التى لا تترك شيئاً على حاله قد تتمخض عن إمبراطورية جديدة تتحدى لإمبراطورية القديمة ؛ وتلك ظروف تحتم خلق الحروب إن لم تشتعل نارها من تلقاء نفسها ؛ ولا بد إذن من أن يعوّد كل جيل على احتمال مشاق القتال ، وأن يعلم بالمران كيف يستسيغ الموت فى سبيل الأوطان ‹

ولعل هذا كان من الأسباب التى حدت بدارا إلى أن يزحف بجيوشه إلى جنوبى الروسيا مجتازاً مضيق البسفور ونهر الدانوب إلى الفلجا ليؤدب السكوذيين الذين كانوا لا ينفكون يغيرون على أطراف الإمبراطورية الفارسية ، وأن يقودها مرة أخرى مخترقاً أفغانستان ، ويجتاز العشرات من سلاسل الجبال حتى يصل إلى وادى نهر السند ، وأن يضم بذلك إلى مملكته أقاليم واسعة الرقعة وآلاف الآلاف من الأنفس والكثير من الأموال . أما حملته على بلاد اليونان فيجب أن نبحث لها عن سبب أقوى من هذا . ويريد هيرودوت أن يحملنا على الاعتقاد بأنه خطا هذه الخطوة

التاريخية الموفقة لأن أتوسا إحدى زوجاته كايدته بها فى فراشه[١٤] . لكن أكرم من هذا أن نعتقد أن الملك أدرك ما قد تتمخض عنه دويلات المدن اليونانية ومستعمراتها من إمبراطورية أو من حلف يهدد سيادة الفرس على غربى آسية . فلما ثارت أيونا وتلقت العون من إسبارطة وأثينة رضى دارا أن يخوض غمار الحرب وهو كاره لها . والعالم كله يعرف قصة اجتيازه بحر إيجه ، وهزيمة جيشه فى سهل مراثون ، وعودته كسير القلب إلى فارس ، وهناك أخذ يستعد استعداداً عظيما ليحاول ضرب اليونان ضربة أخرى ، ولكنه أصيب فى هذه الأثناء بمرض مفاجئ أضعفه وقضى على حياته .

الفصل الثالث

الحياة الفارسية والصناعات

الإمبراطورية - الشعب - اللغة - الزراع -
الطرق الإمبراطورية - التجارة والشئون المالية

كانت الدولة الفارسية حين بلغت أعظم اتساعها فى أيام دارا تشمل عشرين ولاية أو « إمارة » (سترَبية) تضم مصر، وفلسطين، وسوريا، وفينيقية، وليديا، وفريجية، وأيونيا، وقبادوش، وقليقية، وأرمينية، وأشور، وقفقاسية، وبابل، وميديا، وفارس، والبلاد المعروفة فى هذه الأيام باسم أفغانستان، وبلوخستان، والقسم الممتد من الهند غرب نهر السند. وسيمدياناً، وبكتريا (بلخ)، وأقاليم المسجيتة وغيرهم من قبائل آسية الوسطى. ولم يسجل التاريخ قبل هذه الإمبراطورية أن حكومة واحدة حكمت مثل هذه الرقعة الواسعة من البلاد.

ولم تكن بلاد الفرس فى تلك الأيام، وهى البلاد التى قدر لها أن تحكم هذه الأربعين مليوناً من الأنفس مدى مائتى عام، هى بعينها البلاد المعروفة لنا الآن باسم بلاد فارس، والتى يسميها أهلها بلاد إيران، بل كانت هى الإقليم الأصغر المصاقب للخليج الفارسى مباشرة من جهة الشرق؛ والمعروفة لدى الفرس الأقدمين باسم پارش والفرس المحدثين باسم فارس أو فارستان[١٥]. وهذا الإقليم يكاد يكوّن كله صحراوات وجبالا، أنهاره قليلة؛ معرض للبرد القارس والحر الجاف اللافح(*)، ولذلك فإنه لم يكن فيه من الخيرات ما يكفى سكانه البالغ عددهم مليونين من الأنفس[١٧]. إلا إذا استعانوا بما قد يأتيهم من خارج بلادهم عن طريق

(*) يقول استرابون إن حرارة الصيف فى السوس تبلغ من الشدة درجة لا تستطيع معها الأفاعى والسحالى أن تعبر شوارع المدينة بالسرعة التى تكفى لنجاتها من الاحتراق بحرارة الشمس[١٦].

التجارة والفتح. وأهل البلاد الجبليون الأشداء ينتمون كما ينتمى الميديون إلى الجنس الهندوربى ، ولعلهم جاءوا إلى تلك البلاد من جنوبى الروسيا ؛ وتكشف لغتهم وديانتهم المبكرة عن صلة نسب وثيقة بينهم وبين الآريين الذين عبروا أفغانستان ، وأصبحوا الطبقة الحاكمة فى شمالى الهند. ولقد وصف دارا الأول نفسه فى نقش — رستم بأنه ، فارسى ابن فارسى ، آرى من سلالة آرية » . ويسمى الزردشتيون وطنهم الأول : إيريانا ڤيجو أى « موطن الآريين(**) » ، ويطلق استرابون لفظ أريانا على البلاد التى يطلق عليها الآن هذا اللفظ الذى لا يكاد يختلف عن اللفظ الأول وهو إيران[١٨] ؛

ويلوح أن الفرس كانوا أجمل شعوب الشرق الأدنى فى الزمن القديم . فالآثار الباقية من عهدهم تصورهم شعباً معتدل القامات ، قوى الأجسام ، قد وهبتهم حياة الجبال شدة وصلابة ، ولكن ثروتهم الطائلة رققت طباعهم ، وهم ذوو ملامح متناسبة متناسقة ، شم الأنوف لا يكادون يفترقون فى ذلك عن اليونان ، تبدو على وجوههم سمات النبل والروعة ، ولبس معظمهم الملابس الميدية ثم تحلوا فيما بعد بالحلى الميدية . وكانوا يعدون من سوء الأدب كشف أى جزء من أجزاء الجسم خلا الوجه ، ولذلك كان كل جسمهم مغطى من عمامة الرأس أو عصابته أو قلنسوته إلى خفَّى القدمين أو حذاءيهما فكان لباسهم سروالا مثلث الطيات ، وقيصاً أبيض من التيل ، ومئزراً من طبقتين ، ذا كمَّين يغطيان اليدين ، ومنطقة فى وسط الجسم . وكانت هذه الملابس تحفظ أجسامهم ، دفئة فى الشتاء ، حارة فى الصيف . أما الملك فكان يمتاز بلبس سروال مطرز قرمزى ، وحذاءين ذوى أزرار زعفرانية اللون . ولم تكن ملابس النساء تختلف عن ملابس الرجال إلا بفتحة عند الصدر ، وكان الرجال يطيلون لحاهم ويتركون شعر رأسهم منساباً فى غدائر ، ثم استبدلوا بها فيما بعد شعراً مستعاراً[١٩] . ولما زادت الثروة

(*) والاعتقاد السائد أن هذا الإقليم هو بعينه إقليم أران الواقع على نهر الأراكس .

فى عهد الإمبراطورية أكثر الأهلون رجالهم ونساؤهم من استعمال أدوات التجميل ، فاستعملوا الأدهان لتجميل الوجه ، والأصباغ الملوّنة لدهن الجفون ، لكى يزيدوا بذلك من سعة العينين وبريقهما فى الظاهر . ومن ثم نشأت عندهم طبقة خاصة من « المزينين » سماهم اليونان « الكزمتاى » كانوا خبراء فى فن التجميل ، وعملهم تجميل الأثرياء . وكان الفرس خبراء فى عمل الروائح العطرية ، وكان القدماء يعتقدون أنهم هم الذين اخترعوا أدهان التجميل . ولم يكن مليكهم يخرج إلى الحرب إلا ومعه علبة ثمينة من الزيوت العطرية ، يتعطر بها فى حالتى النصر والهزيمة[٢٠] .

وتكلم الفرس عدة لغات فى أثناء تاريخهم الطويل . فكانت الفارسية القديمة لغة البلاط وأعيان البلاد فى عهد دارا الأول ، وهذه اللغة وثيقة الارتباط باللغة السنسكريتية حتى ليبدو لنا جلياً أن اللغتين كانتا فى وقت من الأوقات لهجتين من لغة أقدم منهما عهداً ، وأنهما هما واللغة الإنجليزية فروع من أصل واحد(*) . وتطورت اللغة الفارسية القديمة وتفرعت إلى فرعين هما الزندية — لغة الزند — أبستاق ، والبهلوية وهى لغة هندية اشتقت منها اللغة الفارسية الحالية[٢٢] . ولما مارس الفرس الكتابة استخدموا فى نقوشهم الخط المسمارى واستخدموا الحروف الهجائية الآرامية لكتابة وثائقهم[٢٣] . وبسطوا مقاطع اللغة البابلية الثقيلة الصعبة ، فأنقصوها من ثلاثمائة رمز إلى ست وثلاثين

(*) وها هى ذى بعض أمثلة تثبت هذه الصلة .

الإنجليزية	الألمانية	اللاتينية	اليونانية	السنسكريتية	الفارسية القديمة
Pather	Vater	Pater	Pater	Piter	Pitar
Name	Nahme	Nomen	Anoma	Nama	Nama
Nephew	Netfe	Nopes	Anepsios	Nap	Napat
Bea --	Führen	Ferre	Perein	Bhr	Bar
Mothe	Mutter	Mater	Meter	Matar	Matar
Brother	Bruder	Frater	Phrater	Bhratar	Bratar
Stand[٢١]	Steben	Sto	Istemi	Stha	Çta

علامة ، تبدلت شيئاً فشيئاً من مقاطع إلى حروف حتى صارت حروفاً هجائية مسمارية[٢٤] . على أن الكتابة كانت تبدو للفرس لهوا خليقاً بالنساء لا يكادون يقتطعون له وقتاً من بين مشاغلهم الكثيرة فى الحب والحرب والصيد ، ولم ينزلوا من عليائهم فينشئوا أدباً .

وكان الرجل العادى أمّياً راضياً عن أمّيته ، يبذل جهده كله فى فلاحة الأرض . ومجدت الزند — أبستاق الأعمال الزراعية وعدتها أهم أعمال الجنس البشرى وأشرفها ، يبتهج لها أهورا — مزدا الإله الأعلى أكثر مما يبتهج بغيرها من الأعمال . وكانت بعض الأراضى يزرعها ملاكها المزارعون . وكان هؤلاء الملاك فى بعض الأحيان يؤلفون جماعات زراعية تعاونية مكونة من عدة أسر لتزرع مجتمعة مساحات واسعة من الأراضى[٢٥] والبعض يمتلكه الأشراف الإقطاعيون ويزرعه مستأجروه نظير جزء من غلته ؛ وبعضها الآخر يزرعه الأرقاء الأجانب (ولم يكونوا قط فرساً) . وكانوا يستخدمون محاريث من الخشب ذات أطراف من الحديد تجرها الثيران ؛ وكانوا يجرون الماء من الجبال إلى الحقول بطرق الرى الصناعية . وكان الشعير والقمح أهم محاصيل الأرض وأهم مواد الغذاء ، ولكنهم كانوا يأكلون كثيراً من اللحم ويتجرعون كثيراً من الخمر . وقد أخذ قورش بتقديم الخمر لجيوشه[٢٦] . ولم تكن مناقشة جدية فى الشئون السياسية تدور فى مجالس الفرس إلا وهم سكارى(*) — وإن كانوا يحرصون على أن يعيدوا النظر فى قراراتهم فى صباح اليوم التالى . وكان من مشروباتهم مشروب مسكر يسمى الهوما يقدمونه قرباناً محبباً لآلهتهم ؛ وكانوا يعتقدون أنه لا يبعث فى مدمنه الهياج والغضب ، بل يبعث فيه التقى والاستقامة[٢٨] .

(*) وفى ذلك يقول استرابون : « وهم يمضون فى أهم مناقشاتهم وهم يحتسون الخمر ، ويرون أن ما يصدرونه من قرارات وهم على هذه الحال أتقى مما يصدرونه منها وهم غير سكارى »[٢٧] .

ولم يكن للصناعة شأن فى فارس ؛ فقد رضيت أن تترك لأمم الشرق الأدنى ممارسة الحرف والصناعات اليدوية ، واكتفت بأن تحمل هذه الأمم إليها منتجاتها مع ما يأتيها من الخراج . أما فى شئون النقل والاتصال فكانت أكثر ابتكاراً منها فى شئون الصناعة . فقد أنشأ المهندسون إطاعة لأمر دارا الأول طرقاً عظيمة تربط حواضر الدولة بعضها ببعض . وكان طول إحدى هذه الطرق وهى الممتدة من السوس إلى سرديس ألفاً وخمسمائة ميل . وكان طولها يقدر تقديراً دقيقاً بالفراسخ (وكان الفرسخ ٣ر٤ ميل) ويقول هيرودوت : « إنه كان عند نهاية كل أربعة فراسخ محاط ملكية ونُزل فخمة ، وكان الطريق كله يخترق أقاليم آمنة عامرة بالسكان[٢٩] » . وكان فى كل محطة خيول بديلة متأهبة لمواصلة السير بالبريد ، ولهذا فإن البريد الملكى كان يجتاز المسافة من السوس إلى سرديس بالسرعة التى يجتازها بها الآن رتل من السيارات الحديثة ، أى فى أقل قليلا من أسبوع ، مع أن المسافر العادى فى تلك الأيام الغابرة ، كان يجتاز تلك المسافة فى تسعين يوماً . وكانوا يعبرون الأنهار الكبيرة فى قوارب ، ولكن المهندسين كانوا يستطيعون متى شاءوا أن يقيموا على الفرات أو على الدردنيل نفسه قناطر متينة تمر عليها مئات الفيلة الوجلة وهى آمنة . وكان ثمة طرق تصل فارس بالهند مجتازة ممرات جبال أفغانستان ، وقد جعلت هذه الطرق مدينة السوس مستودعاً وسطاً لثروة الشرق التى كانت حتى فى ذلك العهد البعيد ثروة عظيمة لا يكاد يصدقها العقل . وقد أنشئت هـــذه الطرق فى الأصل لأغراض حربية وحكومية ، وذلك لتيسير سيطرة الحكومة المركزية وأعمالها الإدارية ، ولكنها أفادت أيضاً فى تنشيط التجارة وانتقال العادات والأفكار ، كما أفادت فى تبادل خرافات الجنس البشرى وهى من مستلزماته التى لا غنى له عنها ، من ذلك أن الملائكة والشياطين قد انتقلت على هذه الطرق من الأساطير الفارسية إلى الأساطير اليهودية والمسيحية .

ولم تبلغ الملاحة في فارس ما بلغه النقل البرى من رقى عظيم . فلم يكن للفرس أسطول خاص بهم ، بل كانوا يكتفون باستئجار سفن الفينيقيين أو الاستيلاء عليها لاستخدامها في الأغراض الحربية ، وقد احتفر دارا الأول قناة عظيمة تصل فارس بالبحر المتوسط عن طريق البحر الأحمر والنيل ، ولكن إهمال خلفائه ترك هذا العمل العظيم تعبث به الرمال السافية .

وأصدر خشيارشاى أمره الملكى إلى قسم من قواته البحرية بأن يطوف حول أفريقية ، ولكنه لم يكد يجتاز أعمدة هرقول (مضيق جبل طارق الحالى) حتى عاد من رحلته يجلله الخزى والعار[٣٠] . وكانت الأعمال التجارية تترك في الغالب لغير أبناء البلاد — للبابليين والفينيقيين واليهود ؛ ذلك أن الفرس كانوا يحتقرون التجارة ويرون أن الأسواق بؤرة للكذب والخداع . وكانت الطبقات الموسرة تفخر باستطاعتها الحصول على معظم حاجاتها من حقولها وحوانيتها بغير واسطة ، دون أن تدنس أصابعها بأعمال البيع والشراء[٣١] . وكانت الأجور والقروض وفوائد الأموال تؤدى في بادئ الأمر سلعاً ، وأكثر ما كانت تؤدى به الماشية والحبوب ، ثم جاءتهم النقود من ليديا ، وسك دارا « الداريق » من الذهب والفضة وطبع عليه صورته(*) ، وكانت نسبة قيمة الدريق الذهبي إلى الدريق الفضى كنسبة ١٣٫٥ إلى ١ . وكان هذا بداية وضع نسبة بين النقدين في الوقت الحاضر[٣٣] .

(*) ليس لهذا اللفظ صلة ما باسم دارا ، بل إن لفظ دريق مشتق من كلمة زريق الفارسية وهى القطعة من الذهب . وكانت قيمة الدريق الذهبى الاسمية ٥ ريالات أمريكية . وكانت ثلاثة آلاف دريق ذهبى تعدل منا فارسيا[٣٢] .

الفصل الرابع

تجربة فى نظام الحكم

الملك – الأشراف – الجيش – القانون – عقاب وحشى – الحواضر – الولايات ، عمل جليل فى الإدارة

كانت حياة فارس حياة سياسية وحربية أكثر منها اقتصادية ؛ عماد ثروتها القوة لا الصناعة ؛ ومن أجل هذا كانت مزعزعة الكيان أشبه ما تكون بجزيرة حاكمة وسط بحر واسع خاضع لسلطانها خضوعاً غير قائم على أساس طبيعى . وكان النظام الإمبراطورى يمسك هذا الكيان المصطنع من أقدر الأنظمة ولا يكاد يوجد له شبيه ؛ فقد كان على رأسه الملك أوخشترا أى المحارب(*) ، وهو لقب يدل على منشأ الملكية العسكرى وصبغتها العسكرية . وإذ كان تحت سلطانه ملوك يأتمرون بأمره فقد كان الفرس يلقبونه « ملك الملوك » ولم يعترض العالم القديم على هذه الدعوة ، غير أن اليونان لم يكونوا يسمونه بأكثر من باسليوس أى الملك[٣٤] .

وكان له من الوجهة النظرية سلطة مطلقة ؛ فكانت كلمة تصدر من فمه تكفى لإعدام من يشاء من غير محاكمة ولا بيان للأسباب ، على الطريقة التى يتبعها أحد الحكام الطغاة فى هذه الأيام . وكان فى بعض الأحيان يمنح أمه أو كبيرة زوجاته حق القتل القائم على النزعات والأهواء[٣٥] . وقلما كان أحد من الأهلين ، ومن بينهم كبار الأعيان ، يجرؤ على انتقاد الملك أو لومه ، كما كان

(*) ولا يزال هذا اللفظ باقياً حتى الآن فى اسم ملك الفرس (الشاه) وكذلك لا يزال أصله باقيا فى لفظ سترب ، الذى يسمى به حكام الأقاليم فى فارس وفى لفظ كشاتريا أو الطبقة الحاكمة فى الهند .

الرأى العام ضعيفاً عاجزاً عجزاً مصدره الحيطة والحذر ، فكان كل ما يفعله الذى يرى الملك يقتل ابنه البرىء أمام عينيه رمياً بالسهام أن يثنى على مهارة الملك العظيمة فى الرماية ؛ وكان المذنبون الذين تلهب السياط أجسادهم بأمر الملك يشكرون له تفضله بأنه لم يغفل عن ذكرهم[٣٦] . ولو أن ملوك الفرس كان لهم من النشاط ما لقورش ودارا الأول لكان لهم أن يملكوا ويحكموا ؛ ولكن الملوك المتأخرين كانوا يعهدون بأكثر شئون الحكم إلى الأشراف الخاضعين لسلطانهم ، أو إلى خصيان قصورهم أما هم فكانوا يقضون أوقاتهم فى الحب أو لعب النرد أو الصيد[٣٧] . وكان القصر يموج بالخصيان يسرحون فيه ويمرحون ، يحرسون النساء ويعلمون الأمراء ، وقد استخدموا ما تخولهم هذه الأعمال من ميزة وسلطان فى حبك الدسائس وتدبير المؤامرات فى عهد كل ملك من الملوك (*). وكان من حق الملك أن يختار خلفه من بين أبنائه ، ولكن وراثة العرش كانت تقرر فى العادة بالاغتيال والثورة .

غير أن سلطة الملك كانت تقيدها من الوجهة العملية قوة الأعيان ، وكانوا هم الواسطة بين الشعب والعرش . وقد جرت العادة أن يكون لأسر الرجال الستة الذين تعرضوا مع دارا الأول لأخطار الثورة التى قامت على سمرديس الزائف ميزات استثنائية . وأن يستشاروا فى مهام الدولة الحيوية ، وكان كثير من الأشراف يحضرون إلى القصر ويؤلفون مجلساً يولى الملك مشورته فى أكثر الأحيان أعظم رعاية . وكان يربط معظم أفراد الطبقة الموسرة بالعرش أن الملك هو الذى يهبهم ضياعهم ؛ وكانوا فى مقابل هذا يمدونه بالرجال والعتاد إذا نفر إلى القتال . وكان لهؤلاء الأشراف فى إقطاعاتهم سلطان لا يكاد يحده شىء — فكانوا يجبون الضرائب ، ويسنون القوانين ، وينفذون أحكام القضاء ويحتفظون بقواهم المسلحة .

(*) كان خمسمائة من الغلمان الخصيان يرسلون من بابل فى كل عام ليكونوا « حفظة على النساء » فى القصور الإيرانية .

وكان الجيش العماد الحقيقي لسلطان الملك والحكومة الإمبراطورية ، ذلك أن الإمبراطوريات إنما تدوم ما دامت محتفظة بقدرتها على التقتيل .

وكان يفرض على كل رجل صحيح الجسم بين الخامسة عشرة والخمسين من عمره أن ينضم إلى القوات العسكرية كلما أعلنت الحرب[٤١] . وحدث مرة أن طلب والد ثلاثة أبناء أن يعفى واحد منهم من الخدمة العسكرية فما كان من الملك إلا أن أمر بقتلهم هم الثلاثة ؛ وأرسل والد آخر أربعة من أبنائه إلى ميدان القتال ، ثم رجا خشيارشاي أن يسمح ببقاء أخيهم الخامس ليشرف على ضيعة الأسرة فقطع جسم هذا الابن نصفين بأمر من الملك ، ووضع كل نصف على أحد جانبي الطريق الذى سيمر منه الجيش[٤٢] . وكان الجنود يسيرون إلى الحرب وسط دوى الموسيقى العسكرية وهتاف الجماهير التى تجاوزت سن التجنيد .

وكانت أهم فرق الجيش فرقة الحرس الملكي المؤلفة من ألفين من الفوارس وألفين من المشاة كلهم من الأشراف وكانت مهمتهم حراسة الملك .

وكان الجيش العامل كله بلا استثناء من الفرس والميديين ، وكان يؤخذ من هذه القوات الدائمة معظم الحاميات القائمة فى النقط العسكرية الهامة فى الإمبراطورية لترهيب من تحدثه نفسه بالخروج عليها .

أما القوات الحربية الكاملة فكانت تتألف من فرق تجند من جميع الأمم الخاضعة لسلطان الفرس ، وكانت كل فرقة تتكلم بلغتها ، وتقاتل بأسلحتها وتتبع أساليبها الحربية الخاصة ، ولم يكن عتادها وأتباعها أقل اختلافاً من أصولها : فهناك القسي والسهام ، والسيوف والحراب ، والخناجر والرماح ، والمقاليع والمدى ، والتروس والخوذ ، والجبات المتخذة من الجلد ، والزرد . وكانوا يركبون الجياد والفيلة ، ويصحبهم المنادون ، والكتبة ، والخصيان ، والعاهرات ، والسراري ، ومعهم العربات التى سلح كل جزء من عجلاتها بمناجل الصلب الكبيرة . وهذه الجحافل الجرارة التى بلغت عدتها فى حملة

خشيارشاى ٨٠٠,٠٠٠ر١ مقاتل لم تتألف منها قط وحدة كاملة ، ومن أجل ذلك فإن أول بادرة من بوادر الهزيمة كانت تحيلها إلى جموع من الغوغاء العديمة النظام . وكانت تهزم أعداءها بقوة عددها لا غير ، وبمقدرتها على استيعاب قتلاها ، فإذا ما لاقاها جيش حسن التنظيم يتكلم أفرادها لغة واحدة ويخضعون لنظام واحد حاقت بها الهزيمة ، وهذا هو السر فيما أصابها عند مرثون وبلاتية .

ولم يكن يوجد في هذه الدولة قانون غير إرادة الملك وقوة الجيش . ولم تكن فيها حقوق مقدسة تستطيع الوقوف أمام هاتين القوّتين ، كما أن التقاليد والسوابق لم تجد نفعاً إلا إذا كانت مستمدة من أمر ملكي سابق ، ذلك أن الفرس كانوا يفخرون بأن قوانينهم لا تبديل لها ، وأن الوعد أو المرسوم الملكي لا ينقض بحال من الأحوال ، فقد كان اعتقادهم أن قرارات الملك وأحكامه إنما يوحيها إليه الإله أهورا — مزدا نفسه .

وعلى هذا الأساس كان قانون المملكة مستمداً من الإرادة الإلهية ، وكان كل خروج على هذا القانون يعد خروجاً على إرادة الإله فكان الملك صاحب السلطة القضائية العليا ، ولكنه كان في العادة يعهد هذا العمل إلى أحد العلماء الشيوخ من أتباعه . ثم تأتي من بعده المحكمة العليا المؤلفة من سبعة قضاة ، ومن تحتها محاكم محلية منتشرة في أنحاء المملكة . وكان الكهنة هم الذين يضعون القوانين ، وظلوا زمناً طويلا ينظرون في المظالم ، ثم كان ينظر فيها في العهود المتأخرة رجال بل ونساء من غير رجال الدين ونسائه . وكانت الكفالة تقبل من المتهم في جميع القضايا إلا ما كان منها خطير الشأن ، وكانوا يتبعون في المحاكمات إجراءات منتظمة وكانت المحاكم تأمر أحياناً بمنح المكافآت كما كانت تأمر بتوقيع العقوبات ، وكانت وهي تنظر في الجرائم تقدر ما للمتهم من حسنات وما أداه من خدمات . ولكي يحولوا بين إطالة الإجراءات القضائية كانوا يحددون

زمناً معيناً تنتهي فيه كل قضية ، ويعرضون على الخصوم أن يختاروا لهم حَكَماً يحاول فض ما بينهم من نزاع بالطرق السلمية .

ولما تكاثرت السوابق القانونية وتعقدت القوانين نشأت طائفة من الناس يسمون « المتحدثين في القانون » كانوا يعرضون على المتخاصمين أن يفسروا لهم القانون ويساعدوهم على السير في قضاياهم[٤٣] وكان يطلب إلى المتقاضين أن يقسموا الأيمان ، وكانوا في بعض الأحيان يلجأون إلى الحكم الإلهي[٤٤] (فيفوّضون أمر المتهم إلى الآلهة تقضي له أو عليه بوسائلها الخاصة ، بأن تنجيه من النار أو الغرق إن كان بريئاً وتقضي عليه بهما إن كان مذنباً)(*) ، وكانوا يقاومون الرشوة بجعل عرضها أو قبولها جريمة كبرى يعاقب مرتكبها بالإعدام .

وكان مما عمله قمبيز لضمان نزاهة القضاء أن أمر بأن يسلخ جلد القاضي الظالم حيّاً وأن يستخدم هذا الجلد لتنجيد مقاعد القضاة ، ثم يعيّن ابن القاضي القتيل بدلا منه[٤٥] .

وكانت الجرائم الصغرى يعاقب عليها بالجلد — من خمس جلدات إلى مائتي جلدة — بسوط من سياط الخيل ، وكان عقاب من يسم كلب راع مائتي جلدة ، ومن يقتل آخر خطأ كان عقابه تسعين جلدة[٤٦] . وكانت الدولة تحصل على بعض المال اللازم للشئون القضائية من استبدال الغرامة بالجلد باحتساب كل ست روبيات للجلدة الواحدة[٤٧] . أما الجرائم التي هي أشد من هذه فكان يعاقب عليها بالوسم بالنار أو بتشويه الأعضاء أو بتر بعض الأطراف ، أو سمل العين أو السجن أو الإعدام . وكان نصُّ القانون يحرم على أي إنسان حتى الملك نفسه أن يحكم على إنسان بالقتل عقاباً على جريمة صغرى ، ولكنه يحل القتل عقاباً على خيانة الوطن ، أو هتك العرض ، أو اللواط ، أو القتل ، أو الاستمناء ، أو حرق الموتى ، أو دفنهم سراً ، أو الاعتداء على حرمة القصر الملكي ، أو الاتصال

(*) هذا الشرح نحن وضعناه لإيضاح معنى عبارة « الحكم الإلهي » . (المترجم)

بإحدى سراريه ، أو الجلوس مصادفة على عرشه . أو الإساءة إلى أحد أفراد البيت المالك(٤٨) .

وكان المذنب فى هذه الحالات يعدم إما بإرغامه على تجرع السم ، أو بخزقه أو صلبه . أو شنقه (وكان المجرم يشنق ورأسه عالة إلى أسفل) ، أو رجمه بالحجارة أو دفن الجسم إلى ما دون الرأس ، أو تهشيم رأسه بين حجرين كبيرين ، أو خنقه فى رماد ساخن ، أو بتوقيع ذلك العقاب الذى لا يصدقه العقل والمعروف باسم عقاب « الزورقين »(*) . وقد ورث الأتراك الذين أغاروا على البلاد فيما بعد بعض هذه العقوبات الهمجية ، وأورثوها العالم من بعدهم .

واستعان الملك هذه القوانين وهذا الجيش على حكم الولايات العشرين التابعة للدولة من عواصمه الكثيرة . وكانت العاصمة الأصلية بزارجاده ، ولكنه كان ينتقل منها أحياناً إلى برسبوليس ، وكانت إكباتانا (همدان) عاصمته الصيفية. أما معظم إقامته فكانت فى مدينة السوس عاصمة عيلام القديمة التى يجتمع فيها

(*) يقول أفلوطرخس إن الجندى مثرداتس قال ساخراً وهو يحتسى الخمر أن ليس الفضل فى قتل قورش الأصغر فى واقعة كوناكسا للملك ، بل الفضل فضـــله هو — فأمر أرت خشتر الثانى أن يعدم مثرداتس بطريقة القاربين — على النمط الآتى : يؤخذ قاربان صنعا بحيث ينطبق أحدهما على الآخر تمام الانطباق . ثم يوضع المذنب الذى يراد تعذيبه على ظهره فى أحدهما ، ويغطى بالقارب الثانى بحيث يترك رأسه ويداه وقدماه فى خارج القاربين ، أما سائر جســمه فيكون بينهما . ثم يقدم له الطعام فإذا أبى أن يطعمه أرغموه على ذلك بوخز عينيه . وبعد تناوله يسقونه مزيجاً من اللبن والعسل يصبونه فى فمه وعلى وجهه بأكمله . ويظل وجهه فى هذه الأثناء موجهاً نحو الشمس على الدوام ، فلا يلبث أن تغطيه عن آخره أسراب الذباب الذى يحط عليه . ولما كان وهو فى القارب يفعل ما لا بد أن يفعله كل من يأكلون ويشربون ، فإن الحشرات والديدان تتكاثر فى البراز والأقذار ، وتتسرب إلى أمعائه فيتآكل جسمه . فإذا اتضح لهم أن الرجل قد مات بلا ريب ، ورفع أعلى القاربين ، ظهر جسمه وقد تآكل لحمه ، وشوهدت هذه الحشرات الكريهة تنهشه ، كأنها قد توالدت فى أحشائه .. وبهذه الطريقة قضى مثرداتس فى آخر الأمر نحبه بعد عذاب دام سبعة عشر يوماً »(٥٠) .

ملحوظة : ورد اسم **Artaxerxes, Xerxes** بصيغ مختلفة فسمى أولها خشيرشا وأخشويرش وسمى الثانى أردشير وأرت خشتر أو ارتخشتر وأرتخشيرشا . ويسميه المسعودى أرطحشست ، ويقول البيرونى إن بهمن أردشير هو أخشويرش .

تاريخ الشرق القديم برمته ويرتبط أوله بآخره . وكان من مميزات هـــذه المدينة صعوبة الوصول إليها ، كما كان من عيوبها بعدها عن سائر عواصم الإمبراطورية ، أراد الإسكندر أن يستولى عليها كان لا بد له أن يختار لها طريقاً طوله ألفا ميل ؛ ولكنها كان عليها أن ترسل جيوشها ألفاً وخمسمائة ميل لتخضع الثورات التي تقوم في ليديا أو مصر . ولما أنشئت الطرق العظيمة في آخر الأمر كانت كل فائدتها أن مهدت السبل لليونان والرومان الذين غزوا بجيوشهم غربي آسية ، كما ساعدت غربي آسية على أن يغزو اليونان ورومة بعقائده الدينية .

وكانت الإمبراطورية مقسمة إلى ستربيات أو ولايات لتسهل بذلك إدارتها وجباية خراجها . وكان في كل ولاية نائب « لملك الملوك » قد يكون أحياناً أميراً خاضعاً لسلطانه ، ولكنه في العادة « سترب » (حاكم) يعينه الملك ويبقى في منصبه ما دام حائزاً لرضا البلاط الملكي .

وأراد دارا أن يضمن خضوع الوالي لسلطانه فبعث إلى كل ولاية بقائد من قواد جيشه ليشرف على ما فيها من قوى مسلحة مستقلا عن الوالي ؛ ولكي يضمن خضوع هذا وذاك عين لكل ولاية أميناً من قبله مستقلا عن الوالي والقائد جميعاً ، مهمته أن يبلغ عن مسلكهما . وزيادة في الاحتياط كان للملك إدارة للمخابرات السرية تعرف باسم « عيون الملك وآذانه » يفاجئ موظفوها الولايات ليفحصوا عن سـجلاتها وشئونها الإدارية المالية . وكان الوالي يعزل أحياناً بلا محاكمة ، وأحياناً يتخلص منه في هدوء ، وذلك بأن يسمه خدمه بأمر الملك نفسه . وكان تحت إمرة الوالي والأمين حشد من الكتبة يصرفون من شئون الحكم ما ليس في حاجة ماسة إلى القوة . وكان هؤلاء يستمرون في عملهم وإن تغيرت الإدارات ، بل وإن تغير الملوك ، فالملك يموت ولكن البيرقراطية الحكومية باقية مخلدة .

ولم يكن موظفو الولايات يتناولون رواتبهم من الملك ، بل كانوا يتناولونها

من أهل الولاية التي يحكمونها . وكانت هذه الرواتب عالية تكفى لأن يكون لهؤلاء الولاة قصور وحريم ، وبساتين للصيد كان الفرس يسمونها بذلك الاسم التاريخى المأثور وهو الفردوس أى « الجنة » . وكان على كل وال فضلا عن هذا أن يبعث إلى الملك فى كل عام قدراً معلوماً من المال والبضائع ضريبة مقررة على ولايته . فكانت الهند ترسل ٤٦٨٠ تالنتا (وزنة) ، وأشور وبابل ألفاً ، ومصر سبعمائة ، وولايات آسية الصغرى الأربع ترسل مجتمعة ١٧٦٠ الخ . فكان مجموع ما ترسله الولايات كلها ١٤٫٥٦٠ فى السنة ، قدرت قيمتها تقديراً يختلف من ١٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى إلى ٢١٨٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال ؛ وفوق هذا فقد كان ينتظر من كل ولاية أن تمد الملك بحاجته من السلع والمؤن : فقد كان على مصر مثلا أن تمده فى كل عام بما يحتاجه ١٢٠٫٠٠٠ رجل من الغلال ، وكان الميديون يمدونه بمائة ألف من الضأن ، والأرمن بثلاثين ألفاً من الأمهار ، والبابليون بخمسمائة من الغلمان الخصيان . وكانت هناك مصادر أخرى تستمد منها الخزانة المركزية الأموال الطائلة . وحسبنا دليلا على مقدار هذه الثروة أن الإسكندر حين استولى على عاصمة الفرس وجد فى الخزائن الملكية ١٨٠٫٠٠٠ تالنت (وزنة) تبلغ قيمتها بحساب هذه الأيام ٢٫٧٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى ، وذلك بعد مائة وخمسين عاما من إسراف الفرس وتبديدهم ، وبعد مائة حرب وثورة باهظة النفقات ، وبعد أن حمل دارا الثالث معه فى فراره ٨٠٠٠ تالنت[٥١] .

ومع هذا كله فقد كانت الإمبراطورية الفارسية على الرغم من نفقاتها الإدارية الطائلة أن تجمع تجربة فى نظام الحكم الإمبراطورى شهدتها بلاد البحر المتوسط قبل الإمبراطورية الرومانية التى قدر لها أن ترث قسطاً كبيراً من النظم السياسية والإدارية لتلك الإمبراطورية القديمة . وإذا كانت هذه الإمبراطورية قد شهدت ما كان عليه ملوكها المتأخرون من قسوة وبذخ ، وما كان فى بعض شرائعها من همجية ، وما كان ينوء به كاهل الأهلين من ضرائب فادحة ، فقد

كان يقابل هذه المساوئ ما كان يسود البلاد بفضل حكومتها من نظام وأمن أثرت في ظله الولايات على الرغم من هذه الأكلاف الباهظة ، وما كانت تستمتع به تلك الولايات من حرية لم تستمتع بها الولايات الخاضعة لأكثر الإمبراطوريات رقياً واستنارة . ذلك أن كل إقليم كان يحتفظ بلغته وشرائعه ، وعاداته ، وأخلاقه ، ودينه ، وعملته ، كما كان يحتفظ في بعض الأحيان بالأسرة الحاكمة من أهله . وكانت بعض الأمم التي تؤدي الجزية كبابل وفينيقية وفلسطين راضية كل الرضا بالوضع الذي وضعت فيه ، ظناً منها أنه لو وكل أمرها إلى قوادها وجباتها من أهلها لكانوا أكثر من حكامها الفرس قسوة وأشد بطشاً . وقد بلغت الإمبراطورية الفارسية في عهد دارا الأول من حيث النظام السياسي مبلغاً لم يصل إليه غيرها من الإمبراطوريات إذا استثنينا الإمبراطورية الرومانية في عهد تراجان ، وهدريان ، والأنطونيين .

الفصل الخامس

زردشت

رسالة النبي – الديانة الفارسية قبل زردشت – كتاب
الفرس المقدس – أهورا مزدا – الأرواح الطيبة
والخبيثة – كفاحها للاستيلاء على العالم

تروى الأقاصيص الفارسية أن نبياً عظيماً ظهر فى إيريانا — فيجو ، « موطن الآريين » القديم قبل ظهور المسيح بمئات السنين ، وكان شعبه يسميه زرثسترا . ولكن اليونان الذين لم يكونوا يطيقون هجاء « البرابرة » أسموه زوروسترز . وقد حملت به أمه حملا إلهياً قدسياً : ذلك أن الملاك الذى كان يرعاه تسرب إلى نبات الهَوْما ، وانتقل مع عصارته إلى جسم كاهن حين كان يقرب القرابين المقدسة . وفى ذلك الوقت نفسه دخل شعاع من أشعة العظمة السماوية إلى صدر فتاة راسخة النسب سامقة فى الشرف ، وتزوج الكاهن بالفتاة ، وامتزج الحبيسان الملاك والشعاع ، فنشأ زرثسترا من هذا المزيج[٥٣] . فلما ولد قهقه عالياً من أول يوم ولد فيه ، ففرت من حوله الأرواح الخبيثة التى تجتمع حول كل كائن ، وهى مضطربة وجلة[٥٤] . وأحب الوليد الحكمة والصلاح فاعتزل الناس وآثر أن يعيش فى برية جبلية ، وأن يكون طعامه الجبن وثمار الأرض . وأراد الشيطان أن يغريه ولكنه أخفق . وشق صدره بطعنة سيف وملئت أحشاؤه بالرصاص المنصهر ، فلم يشك أو يتململ بل ظل مستمسكاً بإيمانه بأهورا — مزدا (رب النور) الإله الأعظم ؛ وتجلى له أهورا - مزدا ووضع فى يديه الأبستاق أى كتاب العلم والحكمة ، وأمره أن يعظ الناس بما جاء فيه . وظل العالم كله زمناً طويلا يسخر منه ويضطهده ، حتى سمعه أخيراً أمير إيرانى

عظيم يدعى ڤشتسپا أو هستسبس ، فأعجبه ما سمع ، ووعده أن ينشر الدين الجديد بين شعبه ، وهكذا ولد الدين الزردشتى . وعمر زرثسترا نفسه طويلا ، حتى أحرقه وميض برق وصعد إلى السماء[٥٥] .

ولسنا نعرف ما فى هذه القصة من حق وما فيها من باطل . ولعل يوشع كيوشع بنى إسرائيل هو الذى كشف هذا النبى . ولكن اليونان صدقوا أن زرثسترا هذا كان شخصية تاريخية حقة وشرفوه بأن حددوا له تاريخاً يسبق تاريخهم بخمسة آلاف وخمسمائة عام[٥٦] . ويقرب پروسس البابلى هذا التاريخ إلى عام ٢٠٠٠ ق . م[٥٢] . أما من يؤمن بوجوده من المؤرخين المحدثين فيحددون تاريخه فيما بين القرن العاشر والقرن السادس قبل الميلاد[*][٥٨] . ولما ظهر بين أسلاف الميديين والفرس ، وجد بنى وطنه يعبدون الحيوانات كما يعبدون أسلافهم[٦٠] ، ويعبدون الأرض والشمس ، وأن لهم ديناً يتفق فى كثير من عناصره وآلهته مع دين الهندوس فى العهد الڤيدى .

وكان أكبر الآلهة فى الدين السابق للدين الزردشتى مترا إله الشمس ، وأنيتا إلهة الخصب والأرض ، وهوما الثور المقدس الذى مات ثم بُعث حياً ، ووهب الجنس البشرى دمه شراباً ليسبغ عليه نعمة الخلود . وكان الإيرانيون الأولون يعبدونه بشرب عصير الهوما المسكر وهى عشب ينمو على سفوح جبالهم[٦١] وهال زردشت ما رأى من هذه الآلهة البدائية ، وهذه الطقوس الخمرية ، فثار على « المجوس » أى الكهنة الذين كانوا يصلون لتلك الآلهة ويقربون لها القرابين ، وأعلن فى شجاعة لا تقل عن شجاعة معاصريه عاموس وإشعيا أن ليس فى العالم إلا إله واحد هو فى بلاده أهورا — مزدا إله النور والسماء ، وأن غيره من الآلهة ليست إلا مظاهر له وصفات من صفاته . ولعل دارا الأول حينما اعتنق الدين الجديد رأى فيـــه ديناً

(*) وإذا ثبت أن ڤشتسپا الذى نشر هـــذا الدين كان والد دارا الأول كان آخر هذه التواريخ فى ظننا أرجحها .

ملهماً لشعبه ، ودعامة لحكومته ، فشرع مذ تولى الملك يشن حرباً شعواء على العبادات القديمة وعلى الكهنة المجوس ، وجعل الزردشتية دين الدولة .

وكان الكتاب المقدس للدين الجديد هو مجموعة الكتب التي جمع فيها أصحاب النبي ومريدوه أقواله وأدعيته . وسمى أتباعه المتأخرون هذه الكتب الأبستا (الأبستاق) ، وهى المعروفة عند العالم الغربي باسم الزند — أبستا ، بناء على خطأ وقع فيه أحد العلماء المحدثين(*) . ومما يروع القارئ غير الفارسي في هذه الأيام أن يعرف أن المجلدات الضخمة الباقية — وإن كانت أقل كثيراً من كتاب التوراة — ليست إلا جزءاً صغيراً مما أوحاه إلى زرثسترا إلهه(**) .

(*) لقد أضاف أنكتيل — دوبرون (حوالي ١٧٧١ ب . م) زند إلى هذا اللفظ . وليست هذه إلا كلمة كان الفرس يضعونها قبله للدلالة على أن ما يليها ليس إلا ترجمة أو تفسيراً للأبستاق . أما لفظ أبستاق نفسه فأصله غير معروف على وجه التحقيق ، والراجح أنه مشتق من فيد وهو الأصل الآري الذي اشتق منه « فيدا » ومعناه المعرفة(٦٢) .

(**) وتروى الرواية الفارسية قصة أبستاق أخرى أكبر من هذه في واحد وعشرين كتاباً يسمى واحدها « النسك » وتقول إن هذه الكتب الأخيرة نفسها ليست إلا جزءاً صغيراً من الكتاب المقدس الأصلي ، وإن كتاباً من هذه الكتب وهو الونديداد قد بقي سليما . أما الكتب الأخرى فلم تبق منها إلا أجزاء مبعثرة في مؤلفات متأخرة كالدنكرد والبندهيش . ويروى مؤرخو العرب أن النص الكامل للكتاب الفارسي المقدس كان يشتمل على ١٢٫٠٠٠ جلد من جلود البقر . وتقول إحدى الروايات الدينية إن الأمير فشتسبا كتب من هذا الكتاب نسختين ، التهمت إحداهما النار حين أحرق الإسكندر القصر الملكي في برسوبوليس ، أما الأخرى فقد أخذها اليونان المنتصرون معهم إلى بلادهم ، فلما ترجموها كانت هي المصدر الذي أخذوا عنه كل معلوماتهم العلمية (كما يقول الثقات من الفرس) . فلما كان القرن الثالث بعد الميلاد أمر فلجيسس الخامس أحد ملوك البارثيين من الأسرة الأرساسية أن يجمع كل ما بقي من أجزاء الكتاب المتفرقة المكتوبة منه والباقية في صدور المؤمنين . فاتخذ الكتاب من ذلك الوقت صورته الباقية إلى هذا اليوم ، وكان قانون الزردشتية في القرن الرابع الميلادي ، وأساس الدين الرسمي للدولة الفارسية . ثم عبثت الأيدي مرة أخرى بهذا الكتاب لما فتح المسلمون بلاد الفرس في القرن السابع بعد الميلاد(٦٣) .

ويمكن تقسيم القطع الصغيرة الباقية من هذا الكتاب إلى خمسة أجزاء :

١ — اليزنا : وتتألف من خمسة وأربعين فصلا من الطقوس الدينية التي كان الكهنة الزردشتيون يترنمون بها ، ومن سبعة وعشرين فصلا (من الفصل الثامن والعشرين —

وهذا الجزء الباقي يبدو للأجنبي الضيق الفكر كأنه خليط مهوش من الأدعية والأناشيد ، والأقاصيص ، والوصفات ، والطقوس الدينية ، والقواعد الخلقية ، تجلوها في بعض المواضع لغة ذات روعة ، وإخلاص حار ، وسمو خلقي ، أو أغان تنم عن تقى وصلاح . وهي تشبه العهد القديم من الكتاب المقدس فيما تثيره في النفس من نشوة قوية . وفي وسع الدارس أن يجد في بعض أجزائها ما يجده في الرج — فدا من آلهة وآراء ، ومن كلمات وتراكيب في بعض الأحيان . وتبلغ هذه من الكثرة حداً جعل بعض علماء الهنود يعتقدون أن الأبستاق ليست وحياً من عند أهورا — مزدا ، بل هي مأخوذة من كتب الفدا . ويعثر الإنسان في مواضع أخرى منها على فقرات من أصل بابلي قديم ، كالفقرات التي تصف خلق الدنيا على ست مراحل (السموات ، فالماء ، فالأرض ، فالنبات ، فالحيوان ، فالإنسان) ، وتسلسل الناس جميعاً من أبوين أولين ، وإنشاء جنة على ظهر الأرض[٦٦] ، وغضب الخالق على خلقه ، واعتزامه أن يسلط عليهم طوفاناً يهلكهم جميعاً إلا قلة صغيرة منهم[٦٧] . لكن ما فيها من عناصر إيرانية خالصة يشتمل على كثير من الشواهد التي تكفي لصبغ الكتاب كله بالصبغة الفارسية العامة . فالفكرة السائدة فيه هي ثنائية العالم الذي يقوم عن مسرحه صراع يدوم اثني عشر ألف عام بين الإله أهورا — مزدا والشيطان أهرمان ؛ وأن أفضل الفضائل

= إلى الرابع والخمسين) وتسمى الجتها ، وتشتمل على أحاديث النبي وما أوحى إليه مصوغة في عبارات موزونة كما يظهر .

٢ — الوسپرد : ويشتمل على أربعة وعشرين فصلا أخرى من الطقوس الدينية .

٣ — الونديداد : ويشتمل على اثنين وعشرين فصلا أو فرجودا ، وهي تشرح فقه الزردشتيين وقوانينهم الأخلاقية ، وهي التي تتألف منها الآن شريعة البارسيين الكهنوتية (في الهند) .

٤ — اليشت : أي التسبيحات الغنائية ، وهي واحد وعشرون نشيداً في الثناء على الملائكة تتخللها أقاصيص تاريخية ونبوءة عن آخر العالم .

٥ — وآخرها الخرد أبستاق : أي الأبستاق الصغيرة وهي صلوات تتلى في مناسبات في الحياة مختلفة .

هما الطهر والأمانة وهما يؤديان إلى الحياة الخالدة ؛ وأن الموتى يجب ألا يدفنوا أو يحرقوا كما كان يفعل اليونان أو الهنود القذرون ، بل يجب أن تلقى أجسامهم إلى الكلاب أو الطيور الجارحة(٦٨) .

وكان إله زردشت فى بادئ الأمر هو : « دائرة السماوات كلها » نفسها ، فأهورا مزدا « يكتسى بقبة السماوات الصلبة يتخذها لباساً له ؛ ... وجسمه هو الضوء والمجد الأعلى ، وعيناه هما الشمس والقمر » . ولما أن انتقل الدين فى الأيام الأخيرة من الأنبياء إلى الساسة صور الإله الأعظم فى صورة ملك ضخم ذى جلال مهيب . وكان بوصفه خالق العالم وحاكمه يستعين بطائفة من الأرباب الصغار ، كانت تصور أولا كأنها أشكال وقوى من أشكال الطبيعة وقواها — كالنار ، والماء ، والشمس ، والقمر ، والريح ، والمطر . ولكن أكبر فخر لزردشت أن الصورة التى تصورها لإلهه هى أنه يسمو على كل شىء ، وأنه عبر عن هذه الفكرة بعبارات لا تقل جلالا عما جاء فى سفر أيوب :

هذا ما أسألك عنه فاصدقنى الخبر يا أهورا مزدا : منذا الذى رسم مسار الشموس والنجوم ؟ — ومنذا الذى يجعل القمر يتزايد ويتضاءل ؟ . . . ومنذا الذى رفع الأرض والسماء من تحتها وأمسك السماء أن تقع ؟ — منذا الذى حفظ المياه والنباتات — ومنذا الذى سخر للرياح والسحب سرعتها — ومنذا الذى أخرج العقل الخير يا أهورا مزدا ؟(٦٩) .

وليس المقصود «بالعقل الخير» عقلا إنسانيا ما ، بل المقصود به حكمة إلهية لا تكاد تفترق فى شىء عن « كلمة الله »(*) يستخدمها أهورا مزدا واسطة لخلق الكائنات . وكان لأهورا مزدا كما وصفه زردشت سبعة مظاهر أو سبع صفات

(*) يعتقد دارمستتر أن فكرة « العقل الطيب » إن هى إلا تطبيق — شبيه بتطبيق الأوربيين — لفكرة الكلمة الإلهية عند فيلون . وهو لهذا يرجع تاريخ اليزنا إلى القرن الأول قبل الميلاد(٧٠) .

هى : النور ، والعقل الطيب ، والحق ، والسلطان ، والتقوى ، والخير ، والخلود . ولما كان أتباعه قد اعتادوا أن يعبدوا أرباباً متعددة فقد فسروا هذه الصفات على أنها أشخاص (سموهم أميشا اسبنتا أو القديسين الخالدين) الذين خلقوا العالم ويسيطرون عليه بإشراف أهورا مزدا وإرشاده . وبذلك حدث فى هذا الدين ما حدث فى المسيحية فانقلبت الوحدانية الرائعة التى جاء بها مؤسسه شركا لدى عامة الشعب . وكان لديهم فضلا عن هذه الأرواح المقدسة كائنات أخرى هى الملائكة الحراس . وقد اختص كل رجل وكل امرأة وكل طفل — حسب أصول اللاهوت الفارسى — بواحد منها ، وكان الفارسى التقى يعتقد (ولعله كان فى هذا الاعتقاد متأثراً بعقيدة البابليين فى الشياطين) أنه يوجد إلى جانب هؤلاء الملائكة والقديسين الخالدين الذين يعينون الناس على التحلي بالفضيلة سبعة شياطين (ديو) أو أرواح خبيثة تحوم فى الهواء ، وتغوى الناس على الدوام بارتكاب الجرائم والخطايا ، وتشتبك أبد الدهر فى حرب مع أهورا — مزدا ومع كل مظهر من مظاهــر الحق والصلاح . وكان كبير هذه الزمرة من الشياطين أنكرا — مينيوما أو أهرمان أمير الظلمة وحاكم العالم السفلى . وهو الطراز الأسبق للشيطان الذى لا ينقطع عن فعل الشر ، والذى يلوح أن اليهود أخذوا فكرته عن الفرس ثم أخذتها عنهم المسيحية . مثال ذلك أن أهرمان هو الذى خلق الأفاعى ، والحشرات المؤذية ، والجراد ، والنمل ، والشتاء ، والظلمة ، والجريمة ، والخطيئة ، واللواط ، والحيض ، وغيرها من مصائب الحياة . وهذه الآثام التى أوجدها الشيطان هى التى خربت الجنة حيث وضع أهورا مزدا الجدين الأعلين للجنس البشرى[٧١] .

ويبدو أن زردشت كان يعد هذه الأرواح الخبيثة آلهة زائفة ، وأنها تجسيد خرافى من فعل العامة للقوى المعنوية المجردة التى تعترض رقى الإنسان ، ولكن أتباعه رأوا أنه أيسر لهم أن يتصوروها كائنات حية فجسدوها وجعلوا

لها صوراً ما زالوا يضاعفونها حتى بلغت جملة الشياطين فى الديانة الفارسية عدة ملايين(٧٢) .

ولقد كانت هذه العقائد وقت أن جاء بها زردشت قريبة كل القرب من عقيدة التوحيد ، بل إنها حتى بعد أن أقحموا فيها أهرمان والأرواح ظل فيها من التوحيد بقدرما فى المسيحية بإبليسها وشياطينها وملائكتها . والحق أن الإنسان ليسمع فى الديانة المسيحية الأولى أصداء كثيرة للاثنينية الفارسية ، لا تقل عما يسمع فيها من أصداء التزمت العبرانى ، أو الفلسفة اليونانية . ولعل الفكرة الزردشتية عن الإله كانت ترضى عقلا يهتم بدقائق الأشياء وتفاصيلها كعقل ماثيو آرنلد . ذلك أن أهورا مزدا ، كان جماع قوى العالم التى تعمل للحق ؛ والأخلاق الفاضلة لا تكون إلا بالتعاون مع هذه القوى . هذا إلى أن فى فكرة الثنائية بعض ما يبرر ما نراه فى العالم من تناقض والتواء وانحراف عن طريق الحق لم تفسره قط فكرة التوحيد . وإذا كان رجال الدين الزردشتيون يحاجون أحياناً ، كما يحاج متصوفة الهنود والفلاسفة المدرسيون ، بأن الشر لا وجود له فى حقيقة الأمر(٧٣) ، فإنهم فى الواقع يعرضون على الناس ديناً يصلح كل الصلاحية لأن يمثل لأوساط الناس ما يصادفهم فى الحياة من مشاكل خلقية تمثيلا يقربها إلى عقولهم وتنطبع فيها انطباع الرواية المسرحية ، وقد وعدوا أتباعهم بأن آخر فصل من هذه المسرحية سيكون خاتمة سعيدة — للرجل العادل . ذلك أن قوى الشر ستُغلب آخر الأمر ويكون مصيرها الفناء بعد أن يمر العالم بأربعة عهود طول كل منها ثلاثة آلاف عام يسيطر عليه فيها على التوالى أهورا مزدا وأهرمان . ويومئذ ينتصر الحق فى كل مكان ، وينعدم الشر فلا يكون له من بعد وجود . ثم ينضم الصالحون إلى أهورا مزدا فى الجنة ويسقط الخبيثون فى هوة من الظلمة فى خارجها يطعمون فيها أبد الدهر سُمًّا زعافاً(٧٤) .

الفصل السادس

الفلسفة الأخلاقية فى الديانة الزردشتية

الإنسان ميدان قتال – النار المخلدة – الجحيم والمطهر والجنة –
عبادة مثرا – المجوس – البارسيون

لما صوّر الزردشتيون العالم فى صورة ميدان يصطرع فيه الخير والشر ، أيقظوا بعملهم هذا فى خيال الشعب حافزاً قوياً مبعثه قوة خارجة عن القوى البشرية ، يحض على الأخلاق الفاضلة ويصونها . وكانوا يمثلون النفس البشرية ، كما يمثلون الكون ، فى صورة ميدان كفاح بين الأرواح الخيّرة والأرواح الشريرة ، وبذلك كان كل إنسان مقاتلا ، أراد ذلك أو لم يرده ، فى جيش الله أو فى جيش الشيطان ، وكان كل عمل يقوم به أو يغفله يرجح قضية أهورا مزدا أو قضية أهرمان . وتلك فلسفة فيها من المبادئ الأخلاقية ما يعجب به المرء أكثر مما يعجب بما فيها من مبادئ الدين – إذا سلمنا بأن الناس فى حاجة إلى قوة غير القوى الطبيعية تهديهم إلى طريق الخُلق الكريم . فهى فلسفة تضفى على الحياة الإنسانية من المعنى ومن الكرامة ما لا تضفيه عليه النظرة العالمية القائلة بأن الإنسان ليس إلا حشرة دنيئة لا حول لها ولا طول (كما كان يقول أهل العصور الوسطى) ، أو آلة تتحرك بنفسها كما يقول أهل هـذه الأيام . ذلك أن بنى الإنسان حسب تعاليم زردشت ليسوا مجرّد بيادق تتحرك بغير إرادتها فى هذه الحرب العالمية ؛ بل إن لهم إرادة حرة ، لأن أهورا مزدا ، كان يريدهم شخصيات تتمتع بكامل حقوقها ، وفى مقدورهم أن يختاروا طريق النور أو طريق الكذب . فقد كان أهرمان هو الكذبة المخلدة ، وكان كل كذاب خادماً له .

ونشأ من هذه الفكرة قانون أخلاقي مفصل رغم بساطته ، يدور كله حول القاعدة الذهبية وهي أن « الطبيعة لا تكون خيرة إلا إذا منعت صاحبها أن يفعل بغيره ما ليس خيراً له هو نفسه(*) »(٧٥) . وتقول الأبستاق إن على الإنسان واجبات ثلاثة : « أن يجعل العدو صديقاً ، وأن يجعل الخبيث طيباً ، وأن يجعل الجاهل عالماً »(٧٦) . وأعظم الفضائل عنده هي التقوى ، ويأتي بعدها مباشرة الشرف والأمانة عملا وقولا . وحرم أخذ الربا من الفرس ، ولكنه جعل الوفاء بالدين واجباً يكاد يكون مقدساً(٧٧) . ورأس الخطايا كلها (في الشريعة الأبستاقية كما هي في الشريعة الموسوية) هو الكفر . ولنا أن نحكم من العقوبات الصارمة التي كانت توقع على الملحدين بأن الإلحاد كان له وجود بين الفرس ، وكان المرتدون عن الدين يعاقبون بالإعدام من غير توان(٧٨) ولكن ما أمر به السيد من إكرام ورحمة لم يكن يطبق من الوجهة العاملية على الكفار . أي على الأجانب ، لأن هؤلاء كانوا صفاً منحطاً من الناس أضلهم أهورا - مزدا فلم يحبوا إلا بلادهم وحدها لكيلا يغزوا بلاد الفرس . ويقول هيرودوت إن الفرس : « يرون أنهم خير الناس جميعاً من جميع الوجوه » . وهم يعتقدون أن غيرهم من الأمم تدنو من الكمال بقدرما يقرب موقعها الجغرافي من بلاد فارس ، وأن « شر الناس أبعدهم عنها »(٧٩) . إن لهذه الألفاظ نغمة حديثة وإنها لتنطبق على جميع الأمم في هذه الأيام .

ولما كانت التقوى أعظم الفضائل على الإطلاق فإن أول ما يجب على الإنسان في هذه الحياة أن يعبد الله بالطهر والتضحية والصلاة . ولم تك فارس الزردشتية تسمح بإقامة الهياكل أو الأصنام ، بل كانوا ينشئون المذابح المقدسة على قمم الجبال ، وفي القصور ، أو في قلب المدن ، وكانوا يوقدون النار فوقها تكريماً لأهورا - مزدا

(*) لكن جاء في الآية السادسة من الفصل السادس والأربعين من كتاب يزنا . « خبيث من يسدي الخير للخبيث » إن الكتب الموحى بها قلما تتفق نصوصها .

أو لغيره من صغار الآلهة . وكانوا يتخذون النار نفسها إلهاً يعبدونه ويسمونها أتار ، ويعتقدون أنها ابن إله النور ؛ وكانت كل أسرة تجتمع حول موقدها ، تعمل على أن تظل نار بيتها متقدة لا تنطفئ أبداً ، لأن ذلك من الطقوس المقررة فى الدين . وكانت الشمس نار السموات الخالدة تعبد بوصفها أقصى ما يتمثل فيها أهورا — مزدا أو مثرا كما عبدها إخناتون فى مصر . وقد جاء فى كتابهم المقدس : « يجب أن تعظم شمس الصباح إلى وقت الظهيرة ، وشمس الظهيرة يجب أن تعظم إلى العصر ، وشمس العصر يجب أن تعظم حتى المساء . . . والذين لا يعظمون الشمس لا تحسب لهم أعمالهم الطيبة فى ذلك اليوم[٨٠] » ، وكانوا يقربون إلى الشمس ، وإلى النار ، وإلى أهورا — مزدا القرابين من الأزهار ، والخبز ، والفاكهة ، والعطور ، والثيران ، والضأن ، والجمال ، والخيل ، والحمير ، وذكور الوعول . وكانوا فى أقدم الأزمنة يقربون إليها الضحايا البشرية شأن غيرهم من الأمم[٨١] . ولم يكن ينال الآلهة من هذه القرابين إلا رائحتها ، أما ما يؤكل منها فقد كان يبقى للكهنة والمتعبدين ، لأن الآلهة — على حد قول الكهنة — ليست فى حاجة إلى أكثر من روح الضحية[٨٢] ، وظلت العادة الآرية القديمة عادة تقديم عصير الهوما المسكر قرباناً إلى الآلهة باقية بعد انتشار الدين الزردشتى بزمن طويل ، وإن كان زردشت نفسه جهر بسخطه على هذه العادة ، وإن لم يرد لها ذكر فى الأبستاق . . وكان الكهنة يحتسون بعض هذا العصير المقدس ويوزعون ما بقى منه على المؤمنين المجتمعين للصلاة[٨٣] . فإذا حال الفقر بين الناس وبين تقديم هذه القرابين الشهية ، استعاضوا عنها بالزلفى إلى الآلهة بالأدعية والصلوات ؛ وكان أهورا مزدا كما كان يهوه يحب الثناء عليه ويتقبله ، ومن ثم فقد وضع للمتقين من عباده طائفة رائعة من صفاته أضحت من الأوراد المحببة عند الفرس[٨٤] .

فإذا ما وهب الفارسى حياة التقى والصدق كان فى وسعه أن يلقى الموت فى

غير خوف ؛ ومهما يكن من الأغراض التي يهدف إليها الدين فإن هذا المطلب كان أحد مطالبه الخفية . وكان من العقائد المقررة أن أستواد إله الموت يعثر على كل إنسان أيا كان مقره ؛ فهو الباحث الواثق ، الذي لا يستطيع الإفلات منه آدمى ولو كان من أولئك الذين يغوصون فى باطن الأرض ، كما فعل أفرسياب التركى الذى شاد له تحت أطباق الثرى قصراً من الحديد يبلغ ارتفاعه قدر قامة الإنسان ألف مرة ، وأقام فيه مائة من الأعمدة ، تدور فى سمائه النجوم والقمر ، والشمس تغمره بأشعة النهار . وكان فى هذا القصر يفعل كل ما يحلو له ويحيا أسعد حياة . ولكنه لم يستطع رغم قوته وسحره أن يفر من أستواد . . . كذلك لم يستطع النجاة منه من حفر الأرض الواسعة المستديرة التى تمتد أطرافها إلى أبعد الحدود كما فعل دهاق إذ طاف بالأرض شرقاً وغرباً يبحث عن الخلود فلم يعثر عليه . ولم يفده بأسه وقوته فى النجاة من أستواد . . . ذلك أن أستواد المخاتل يأتى متخفيا إلى كل إنسان ، لا يعظم شخصاً ، ولا يتقبل الثناء ولا الارتشاء ، بل يهلك الناس بلا رحمة(٨٥) .

ولما كان من طبيعة الأديان أن ترهب وتنذر ، كما تأسو وتبشر ، فإن الفارسى رغم هذا كله لم يكن ينظر إلى الموت فى غير رهبة إلا إذا كان جندياً أميناً يدافع عن قضية أهورا — مزدا . فقد كان من وراء الموت ، وهو أشد الخفايا كلها رهبة ، جحيم ، وأعراف ، وجنة . وكان لا بد لأرواح الموتى بأجمعها أن تجتاز قنطرة تصفى فيها ، تجتازها الأرواح الطيبة فتصل فى جانبها الثانى إلى « مسكن الفناء » حيث تلقاها وترحب بها « فتاة عذراء ذات قوة وبهاء ، وصدر ناهد مليء » ، وهناك تعيش مع أهورا — مزدا سعيدة منعمة إلى أبد الدهر .

أما الروح الخبيثة فلا تستطيع أن تجتاز القنطرة فتتردى فى درك من الجحيم يتناسب عمقه مع ما اقترفت من ذنوب(٨٦) ، ولم يكن هذا الجحيم مجرد دار سفلى تذهب إليها كل الأرواح طيبة كانت أو خبيثة كما تصفها الأديان الأقدم عهداً

من الدين الزردشتى ، بل كانت هاوية مظلمة مرعبة تعذب فيها الأرواح المذنبة أبد الآبدين(٨٧) . فإذا كانت حسنات الإنسان ترجح على سيئاته قاسى عذاباً موقتاً يطهره من الذنوب ، وإذا كان قد ارتكب كثيراً من الخطايا ولكنه فعل بعض الخير ، لم يلبث فى العذاب إلا اثنى عشر ألف عام يرفع بعدها إلى السماء(٨٨) .

ويحدثنا الزردشتيون الصالحون بأن العالم يقترب من نهايته المحتومة ؛ ذلك بأن مولد زردشت كان بداية الحقبة العالمية التى طولها ثلاثة آلاف سنة ، وبعد أن يخرج من صلبه فى فترات مختلفة ثلاثة من النبيين ينشرون تعاليمه فى أطراف العالم ، يحلّ يوم الحساب الأخير ، وتقوم مملكة أهورا - مزدا ، ويهلك أهرمان هو وجميع قوى الشر هلاكاً لا قيام لها بعده . ويومئذ تبدأ الأرواح الطيبة جميعها حياة جديدة فى عالم خال من الشرور والظلام والآلام(٨٩) . فيُبعث الموتى ، وتعود الحياة إلى الأجسام ، وتتردد فيها الأنفاس . . . ويخلو العالم المادى كله الى أبد الدهر من الشيخوخة والموت والفساد والانحلال(٩٠) » .

وهنا أيضاً نستمع ، كما نستمع فى كتاب الموتى المصرى ، إلى التهديد بيوم الحساب الرهيب ، وهو تهديد يلوح أنه انتقل من فلسفة الحشر الفارسية إلى الفلسفة اليهودية أيام أن كانت للفرس السيادة على فلسطين — ألا ما أروعه من وصف خليق بأن يرهب الأطفال فيصدعوا بأوامر آبائهم !

ولما كان من أغراض الدين أن ييسر ذلك الواجب الصعب الضرورى ، واجب تذليل الصغار على يد الكبار ، فإن من حق الكهنة الزردشتيين أن نقرّ لهم بما كانوا عليه من مهارة فى وضع قواعد الدين . وإذا ما نظرنا إلى هذا الدين فى مجموعه ألفيناه ديناً رائعاً أقلّ وحشية ونزعة حربية ، وأقلّ وثنية وتخريفاً من الأديان المعاصرة له ، وكان خليقاً بألا يُقضى عليه هذا القضاء العاجل .

وأتى على هذا الدين حين من الدهر فى عهد دارا الأول كان فيه المظهر الروحى لأمة فى أوج عزها . لكن بنى الإنسان يولعون بالشعر أكثر من ولعهم

بالمنطق ، والناس يهلكون إذا خلت عقائدهم من بعض الأساطير . ومن أجل هذا ظلت عبادة مثرا وأنيتا - إله الشمس وإلهة الإنبات والخصب والتوالد والأنوثة - ظلت هذه العبادة قائمة إلى جانب دين أهورا - مزدا الرسمى تجد لها أتباعاً مخلصين ، وعاد اسماهما إلى الظهور من جديد فى النقوش الملكية أيام أرتخشتر الثانى ، وأخذ اسم مثرا بعدئذ يعظم ويقوى ، كما أخذ أهورا - مزدا يضمحل . وما أن وافت القرون الأولى من التاريخ الميلادى حتى انتشرت عبادة مثرا الإله الشاب ذى الوجه الوسيم - الذى تعلو وجهه هالة من نور ترمز إلى الوحدة القديمة بينه وبين الشمس - فى جميع أنحاء الدولة الرومانية ، وكان انتشارها هذا من أسباب الاحتفال بعيد الميلاد عند المسيحيين(*) . ولو أن زردشت كان من المخلدين لتوارى خجلا حين يرى تماثيل أنيتا أفروديتى الفرس ، تقام فى كثير من مدن الإمبراطورية الفارسية بعد بضعة قرون من وفاته[٩١] . وما من شك فى أنه كان يسوءه أن يجد صحفاً كثيرة من صحف وحيه قد خصها المجوس بطلاسم لشفاء المرضى والتنبؤ بالغيب والسحر[٩٢] . ذلك أن « الرجال العقلاء » أى كهنة المجوس قد غلبوا زردشت على أمره ، كما يغلب الكهنة فى آخر الأمر كل عات عاصياً كان أو زنديقاً ، وذلك بأن يضموه إلى دينهم أو يستوعبوه فيه ؛ فسلكوه أولا فى عداد المجوس ، ثم لم يلبثوا أن نسوا ذكره[٩٣] . وما لبث هؤلاء المجوس بزهدهم وتقشفهم ، واقتصارهم على زوجة واحدة ، ومراعاتهم لمئين من الطقوس المقدسة ، ومن تطهرهم بمئات الأساليب اتباعاً لأوامر الدين وطقوسه ، وبامتناعهم عن أكل اللحوم ، وبملبسهم البسيط الذى لا تكلف ولا تظاهر فيه ، ما لبث هؤلاء أن اشتهروا بالحكمة بين الشعوب الأجنبية ،

(*) كان عيد الميلاد فى بداية الأمر عيداً شمسياً يحتفل به وقت الانقلاب الشتائى (حوالى ٢٢ ديسمبر) ببداية طول النهار وبانتصار الشمس على أعدائها ، وأصبح فيما بعد عيداً لمثرا ، ثم صار من الأيام المقدسة عند المسيحيين .

ومنهم اليونان أنفسهم ، كما أصبح لهم على مواطنيهم سلطان لا تكاد تعرف له حدود . لقد أصبح ملوك الفرس أنفسهم من تلاميذهم ، لا يقدمون على أمر ذى بال إلا بعد استشارتهم فيه ، فقد كانت الطبقات العليا منهم حكماء ، والسفلى متنبئين وسحرة ، ينظرون فى النجوم ويفسرون الأحلام(٩٤) ، وهل ثمة شاهد على علو كعبهم أكبر من أن اللفظ الإنجليزى المقابل لكلمة « السحر Magic » مشتق من اسمهم . وأخذت العناصر الزردشتية فى الديانة الفارسية تتضاءل عاماً بعد عام ، نعم إنها انتعشت وقتاً ما أيام الأسرة الساسانية (٢٢٦ — ٦٥١ ب . م) ، ولكن الفتح الإسلامى وغزو التتار قضيا عليها القضاء الأخير . ولا يوجد أثر للديانة الزردشتية فى هذه الأيام إلا بين عشائر قليلة العدد فى ولاية فارس ، وبين البارسيين من الهنود الذين يبلغ عددهم تسعين ألفاً .

ولا تزال هذه الجماعة حفيظة على كتبها المقدسة ، تخلص لها وتدرسها ، وتعبد النار والتراب ، والأرض والماء ، وتقدسها ، وتعرض موتاها فى « أبراج الصمت » للطيور الجارحة كيلا تدنس العناصر المقدسة بدفنها فى الأرض أو حرقها فى الهواء . وهم قوم ذوو أخلاق سامية وآداب رفيعة ، وهم شاهد حى على فضل الدين الزردشتى وما له من أثر عظيم فى تهذيب بنى الإنسان وتمدينهم .

الفصل السابع

آداب الفرس وأخلاقهم

العنف والشرف – قانون النظافة – خطايا الجسد –
العذارى والأعزاب – الزواج – النساء – الأطفال –
آراء الفرس فى التربية والتعليم

إن الذى يدهشنا بحق هو ما بقى لدى الميديين والفرس من وحشية رغم دينهم هذا . انظر إلى ما كتبه دارا الأول أعظم ملوكهم فى نقش بهستون : « وقبض على فراڤارتش وجىء به إلىّ . فجدعت أنفه ، وصلمت أذنيه ، وقطعت لسانه ، وفقأت عينيه ، وأبقيته فى بلاطى مقيداً بالأغلال يراه كل الناس . ثم صلبته بعدئذ فى إكباتانا . . . وكان أهورا – مزدا أكبر معين لى ، فقد بطش جيشى برعاية أهورا – مزدا بالجيش الثائر . وقبضوا على سترنكخارا وجاءوا به إلىّ ، فجدعت أنفه ، وصلمت أذنيه ، وفقأت عينيه . وبقى مقيداً بالأغلال فى بلاطى يراه الناس جميعاً ، ثم صلبته[٩٥] » . وإن فى حوادث الإعدام التى يقصها أفلوطرخس فى سيرة أرتخشتر لصورة مروعة لما كانت عليه أخلاق ملوك الفرس فى العهد الأخير . لقد كان الخونة يقضى عليهم بلا شفقة ولا رحمة : فكانوا يصلبون هم وزعماؤهم ، ثم يباع أتباعهم بيع الرقيق ، وتنهب مدنهم ، ويخصى غلمانهم ، وتسبى بناتهم[٩٦] ويبعن . ولكن ليس من العدالة فى شىء أن يحكم الإنسان على شعب بأسره من سيرة ملوكه . ذلك أن الفضيلة لا ترويها الأخبار ، وأفاضل الناس لا تاريخ لهم ، شأنهم فى هذا شأن الأمم الهنيئة السعيدة . بل إن الملوك أنفسهم كانوا يبدون فى بعض المناسبات شيئاً من مكارم الأخلاق ، وكانوا يشتهرون بين اليونان الغادرين بوفائهم . فإذا عاهدوا أوفوا بعهدهم ، وكان من دواعى فخرهم

أنهم لا ينقضون كلمتهم(٩٧) . ومما يجب أن نذكره للفرس مقرونا بالثناء والتقدير ، أن من العسير علينا أن نجد فى تاريخهم فارسيا قد استؤجر ليحارب الفرس ، على حين أن أى إنسان كان يسعه أن يستأجر اليونان ليحاربوا اليونان(*) .

وخليق بنا أن نذكر أن أخلاقهم لم تبلغ من القسوة ذلك الحد الذى يتبادر إلى أذهاننا من قراءة تاريخهم الحافل بالدم والحديد . لقد كان الفرس يتحلون بالصراحة والكرم وحفظ الود وسخاء اليد(٩٩) ، يراعون آداب المجالس ويحرصون عليها حرصا لا يكاد يقل عن حرص الصينيين . وكانوا إذا تقابل منهم شخصان متساويان فى المرتبة تعانقا وقبل كل منهما الآخر فى شفتيه ، فإذا قابل الواحد منهم من هو أعلى منه منزلة انحنى له انحناءة كبيرة تشعر بالخضوع والاحترام ، وإذا التقى بمن هو أقل منه قدم له خده ليقبله ، فإذا قابل أحد السوقة اكتفى بإحناء رأسه(١٠٠) . وكانوا يستنكرون تناول شىء من الطعام أو الشراب على قارعة الطريق ، كما يسوءهم أن يبصق الإنسان أو يتمخط أمام الناس(١٠١) . وقد ظلوا إلى أيام خشيرشا مقتصدين فى مأكلهم ومشربهم ، لا يطعمون إلا وجبة واحدة فى اليوم ، ولا يشربون إلا الماء القراح(١٠٢) . وكانوا يعدون النظافة أكبر النعم لا تفضلها إلا الحياة نفسها وأن الأعمال الطيبة إذا صدرت عن أيد قذرة كانت لا قيمة لها ، « لأن الإنسان إذا لم يقض على الفساد (ولعله يريد « الجراثيم ») فإن الملائكة لا تسكن فى جسمه(١٠٣) » . وكانوا يفرضون أشد العقوبات على من يتسببون فى نشر الأمراض المعدية ، وكان الأهلون يجتمعون فى الأعياد وكلهم يرتدون الملابس البيضاء(١٠٤) . وكانت الشريعة الأبستاقية كالشريعتين البرهمية والموسوية مليئة بمراسم التطهير والحذر من القذارة ؛ وفى كتاب الزردشتيين المقدس فقرات طويلة مملة خصصت كلها بشرح القواعد

(*) لما حارب الفرس الإسكندر عند نهر غرانيقوس كانت فرق المشاة الفارسية كلها تقريباً من مرتزقة اليونان . وفى موقعة إسوس كان قلب الجيش الفارسى مؤلفاً من ثلاثين ألفاً من مرتزقة اليونان(٩٨) .

الواجب اتباعها لطهارة الجسد والروح[105] . وقد جاء فيها أن قلامة الأظفار، وقصاصات الشعر، وإخراج النفس من الفم كلها أقذار يجب على الفارسي العاقل أن يتجنبها إلا إذا كانت قد طهرت من قبل[106] .

كذلك كانت الشرائع الفارسية صارمة فى عقاب خطايا الجسد صرامة الشرائع اليهودية ، فكان الاستمناء باليد يعاقب عليه بالجلد ، وكان عقاب من يرتكب جريمة الزنى واللواط والسحاق من الرجال والنساء « أن يقتلوا لأنهم أحق بالقتل من الأفاعى الزاحفة والذئاب العاوية[107] » . لكن فى مقدورنا أن نستدل من الفقرة الآتية التى أوردها هيرودوت على وجود الخلف المعتاد بين القول والعمل : « يرى الفرس أن خطف النساء قوة واقتداراً عمل لا يأتيه إلا الأشرار ، ولكن اشتغال الإنسان بالثأر لهن إذا اختطفن من أعمال الحمقى ، أما إهمالهن إذا اختطفن فن أعمال الحكماء ؛ فغير خاف أنهن لو لم يكن راغبات لما اختطفن[108] » . ويقول فى موضع آخر إن الفرس « قد أخذوا عن اليونان اشتهاء الغلمان »[109] ، وإنا وإن كنا لا نستطيع أن نثق بكل ما يقوله هذا الراوية العظيم لنستشف ما يؤيد قوله هذا فى العبارات القاسية التى تشنع بها الأبستاق على اللواط . فهى تقول فى مواضع كثيرة إن هذا الذنب لا يغتفر وإنه « لا شىء يمحوه قط »[110] .

ولم يكن القانون يشجع البنات على أن يظللن عذارى ولا العزّاب على أن يبقوا بلا زواج ، ولكنه كان يبيح التسرى وتعدد الزوجات ، ذلك بأن المجتمعات الحربية فى حاجة ماسة إلى كثرة الأبناء . وفى ذلك تقول الأبستاق : « إن الرجل الذى له زوجة يفضل كثيراً من لا زوجة له ، والرجل الذى يعول أسرة يفضل كثيراً من لا أسرة له ، والذى له أبناء يفضل كثيراً من لا أبناء له ، والرجل ذو الثراء أفضل كثيراً ممن لا ثروة له[111] » ، وتلك كلها معايير للمركز الاجتماعى شائعة بين مختلف الأمم ، وكانت الأسرة لديهم أقدس النظم الاجتماعية .

وكان من الأسئلة التي ألقاها زردشت على أهورا ـ مزدا : « أي إلهي خالق العالم المادي ـ إلهي القدوس ! ما هو المكان الثاني الذي تحس الأرض فيه أنها أسعد ما تكون ؟ » . ويجيبه أهورا ـ مزدا عن سؤاله هذا بقوله : « إنه المكان الذي يشيد فيه أحد المؤمنين بيتاً في داخله كاهن ، وفيه ماشية ، وفيه زوجة ، وفيه أطفال ، وفيه أنعام طيبة ، والذي تكثر فيه الماشية بعدئذ من النتاج ، وتكثر فيه الزوجة من الأبناء ، وينمو فيه الطفل ، وتشتعل فيه النار ، وتزداد فيه جميع نعم الحياة[١١٢] »

وكان الحيوان ـ وخاصة الكلب ـ جزءاً أساسياً من الأسرة ، كما كان شأنه في الوصية الأخيرة التي أنزلت على موسى ، وكان واجباً مفروضاً على أقرب الأسر إلى أنثى الحيوان الحامل الضالة أن تعنى بها[١١٣] ، وفرضت أشد العقوبات على من يطعمون الكلاب طعاماً فاسداً ، أو طعاماً شديد الحرارة ، وكان عقاب من « يضرب كلبة عليها ثلاثة كلاب » أن يجلد أربعمائة وألف جلدة[١١٤] . وكانوا يعظمون الثور لما له من قدرة عظيمة على الإخصاب . كما كانوا يصلّون للبقرة ويقرّبون لها القربان[١١٥] .

وكان الآباء ينظمون شئون الزواج لمن يبلغ الحلُمُ من أبنائهم . وكان مجال الاختيار لديهم واسعاً ، فقد قيل لنا إن الأخ كان يتزوج أخته ؛ والأب ابنته ، والأم ولدها[١١٦] . وكان التسريّ من المتع التي اختص بها الأغنياء ، ولم يكن الأشراف يخرجون للحرب إلا ومعهم سراريهم[١١٧] . وكان عدد السراري في قصر الملك في العصور المتأخرة من تاريخ الإمبراطورية يتراوح بين ٣٢٩ ، ٣٦٠ ، فقد أصبحت العادة في تلك الأيام ألا يضاجع الملك امرأة مرتين إلا إذا كانت رائعة الجمال[١١٨] .

وكان للمرأة في بلاد الفرس مقام سام في أيام زردشت كما هي عادة القدماء ؛

فقد كانت تسير بين الناس بكامل حريتها سافرة الوجه ، وكانت تمتلك العقار وتصرف شئونه ، وكان فى وسعها أن تدير شئون زوجها باسمه أو بتوكيل منه . ثم انحطت منزلتها بعد دارا ، وخاصة بين الأغنياء ؛ فأما المرأة الفقيرة فقد احتفظت بحريتها فى التنقل لاضطرارها إلى العمل ، وأما غير الفقيرات فقد كانت العزلة المفروضة عليهن فى أيام حيضهن كلها تمتد حتى تشمل جميع حياتهن الاجتماعية ، وكان ذلك أساس نظام البردة عند المسلمين. ولم تكن نساء الطبقات العليا يجرؤن على الخروج من بيوتهن إلا فى هوادج مسجفة ، ولم يكن يسمح لهن بالاختلاط بالرجال علناً . وحرم على المتزوجات منهن أن يرين أحداً من الرجال ولو كانوا أقرب الناس إليهن كآبائهن أو إخوتهن . ولم تذكر النساء قط أو يرسمن فى النقوش أو التماثيل العامة فى بلاد الفرس القديمة . أما السرارى فكن أكثر من غيرهن حرية ، إذ كان يستعان بهن على تسلية ضيوف أسيادهن . وقد كان للنساء فى جميع الأوقات سلطان قوى فى بلاط الملوك حتى فى العهود الأخيرة ، وكن ينافسن الخصيان فى تدبير المؤامرات ، والملوك فى تمحيص وسائل التعذيب[119](*) .

وكان الأبناء كما كان الزواج من الشروط الأساسية للإجلال والإكبار . فالذكور منهم ذوو فائدة اقتصادية لآبائهم وحربية لملوكهم ، أما البنات فلم يكن يرغب فيهن ، لأنهن كن ينشأن لغير بيوتهن ، وليستفيد منهن غير آبائهن . ومن أقوال الفرس فى هذا المعنى : « إن الرجال لا يدعون الله أن يرزقهم بنات ، والملائكة لا تحسبهن من النعم التى أُنعم بها على بنى الإنسان »[120]

(*) كانت استاتيرا زوجة أرت خشتر الثانى مثلا صالحا للأزواج ، ولكن أمه باريستا قتلتها مسمومة غيرة منها وحسدا ، وشجعت الملك أن يتزوج ابنته أتوسا ، وحدث أن أخذت تلعب النرد معه وتراهنه على حياة أحد خصيانه ، فلما كسبت الرهان أمرت بسلخه حيا . وأمر أرت خشتر مرة بإعدام جندى كارى ، فما كان من باريستا إلا أن دبت أمره ، فاستبدلت بهذا الإعدام شده على عذراء عشرة أيام كاملة وسمل عينيه ، وصب مصهور الرصاص فى أذنيه حتى يموت »[119] .

(العذراء شىء من حديد يعذب به الإنسان لإقرار بأمر أو نحوه — المحيط)

وكان الملك فى كل عام يرسل الهدايا إلى الآباء الكثيرى الأبناء ، كأن هذه الهدايا ثمناً لدمائهم يدفع مقدما[١٢١] .

وكان الحمل سفاحا سواء ممن لم يتزوجن من البنات أو ممن تزوجن منهن يغتفر أحياناً إذا تجهض الحامل ، ذلك أن الإجهاض كان فى تقديرهم أشد جرما من سائر الجرائم ، وكان عقابه الإعدام[١٢٢] .

وقد ورد فى أحد الشروح القديمة المسماة بالبندهش وصف لجملة وسائل لمنع الحمل ، ولكنها تحذر الناس الالتجاء إليها .

ومما جاء فيها : « وفيما يختص بالتناسل قيل فى الكتاب المنزل إن المرأة إذا خرجت من الحيض تظل عشر ليال وعشرة أيام عرضة للحمل إذا اقترب منها الرجال »[١٢٣] .

وكان الوليد يبقى فى حضانة أمه حتى السنة الخامسة من عمره ثم يحتضنه أبوه حتى السابعة . وفى هذه السن يدخل المدرسة . وكان التعليم يقصر فى الغالب على أبناء الأغنياء ويتولاه الكهنة عادة . فكان التلاميذ يجتمعون فى الهيكل أو بيت الكاهن ؛ وكان من المبادئ المقررة ألا تقوم مدرسة بالقرب من السوق حتى لا يكون ما يسودها من كذب وسباب وغش سبباً فى إفساد الصغار[١٢٤] . وكانت الكتب الدراسية هى الأبستاق وشروحها ، وكانت المواد الدراسية تشمل الدين ، والطب أو القانون ؛ أما طريقة الدرس فكانت الحفظ عن ظهر قلب ، وتكرار الفقرات الطويلة غيباً[١٢٥] . أما أبناء الطبقات غير الموسرة فلم يكونوا يفسدون بتلقى ذلك النوع من التعليم ، بل كان تعليمهم مقصوراً على ثلاثة أشياء — ركوب الخيل ، والرمى بالقوس ، وقول الحق[١٢٦] . وكان التعليم العالى عند أبناء الأثرياء يمتد إلى السنة العشرين أو الرابعة والعشرين ، وكان منهم من يعد إعداداً خاصاً لتولى المناصب العامة أو حكم الولايات ؛ وكانوا كلهم بلا استثناء يدربون على القتال . وكانت حياة الطلاب فى هذه المدارس العليا

حياة شاقة . فكان التلاميذ يستيقظون مبكرين ، ويدربون على الجرى مسافات طوالا ، وعلى ركوب الخيل الجامحة وهى تركض بأقصى سرعتها ، والسباحة ، وصيد الحيوان ، ومطاردة اللصوص ، وفلاحة الأرض ، وغرس الأشجار ، والمشى مسافات طوالاً فى حر الشمس اللافح أو البرد القارس ؛ وكانوا يدربون على تحمل جميع تقلبات الجو القاسية ، وأن يعيشوا على الطعام الخشن البسيط ، وأن يعبروا الأنهار دون أن تبتل ملابسهم أو دروعهم(١٢٧) .

لقد كان هذا فى الحق تعليما ينشرح له صدر فردرك نتشة فى اللحظات التى يستطيع فيها نسيان ثقافة اليونان الأقدمين وما فيها من تنوع وبريق .

الفصل الثامن

العلوم والفنون

الطب – الفنون الصغرى – قبرا قورش ودارا –
قصور برسبوليس – نقش الرماة – قيمة الفن الفارسي

يلوح أن الفرس قد تعمدوا ألا يعلموا أبناءهم أى فن من الفنون عدا فن الحياة . فأما الأدب فقد كان فى رأيهم ترفاً قل أن يحتاجوا إليه ، وأما العلوم فقد كانت سلعاً يستطيعون أن يستوردها من بابل . نعم إنهم كانوا يستسيغون بعض الاستساغة الشعر والروايات الخيالية ، ولكنهم تركوا هذين الفنين للمستأجرين وذوى المنزلة الدنيا منهم ، وآثروا متعة الحديث الفكه على لذة السكون والوحدة فى البحث والقراءة .

وكان الشعر عنـــدهم يغنى أكثر مما يقرأ ، فلما مات المغنون مات الشعر معهم .

وكان الطب فى بادئ الأمر من أعمال الكهنة ، وكانوا يمارسونه على أساس أن الشيطان خلق ٩٩٩ر٩٩ مرضاً يجب أن تعالج بمزيج من السحر ومراعاة قواعد الصحة العامة . وكانوا يعتمدون فى علاج المرضى على الرقى أكثر من اعتمادهم على العقاقير ، وحجتهم فى هذا أن الرقى ، إن لم تشف من المرض ، لا تقتل المريض ، وهو ما لا يستطاع قوله عن العقاقير(١٢٨) إلا أن الطب مع ذلك قد نشأ بين غير رجال الدين حينما زادت ثروة الفرس زيادة مطردة ، حتى إذا كان عهد أرت خشتر الثانى تكونت فى البلاد نقابة للأطباء والجراحين وحدد القانون أجورهم – كما حددها قانون حمورابى – وفقاً لمنزلة المريض الاجتماعية(١٢٩) .

وقد نص القانون على أن يعالج الكهنة من غير أجر ، وكان يطلب إلى الطبيب الناشئ عند الفرس أن يبدأ حياته الطبية بعلاج الكفرة والأجانب ،

كما نفعل نحن فى هذه الأيام ، إذ يقضى الطبيب المقيم سنة أو سنتين فى المران على أجسام المهاجرين والفقراء . بذلك قضى ربُّ النور نفسه إذ قال :

« يا خالق الكون يا قدوس ، إذا شاء عبد من عباد الله أن يمارس فن العلاج ، فأى الناس يجب أن يجرّب فيهم حذقه ؟ أيجرّبه فى عباد أهورا — مزدا أم فى عبدة الشياطين ؟ . فأجاب أهورا — مزدا بقوله : يجب أن يجرب نفسه فى عبدة الشياطين لا فى عباد الله ؛ فإذا عالج بالمبضع عبداً من عبدة الشياطين فمات ؛ وإذا عالج بالمبضع عبداً ثانياً من عبدة الشياطين فمات ؛ وإذا عالج بالمبضع عبداً ثالثاً من عبدة الشياطين فمات ، كان غير صالح أبد الدهر ، ويجب أن يمتنع عن علاج أى عبد من عباد الله . . . وإذا عالج بالمبضع عبداً من عبدة الشياطين وشفى ؛ وإذا عالج بالمبضع عبداً ثانياً من عبدة الشياطين وشفى ، وإذا عالج بالمبضع عبداً ثالثاً من عبدة الشياطين وشفى ، كان صالحاً أبد الدهر ، وكان له إذا أراد أن يعالج عباد الله ، ويشفيهم من أمراضهم بالمبضع »[١٣٠] .

ولما كان الفرس قد وهبوا أنفسهم لإقامة صرح الإمبراطورية ، فإن وقتهم لم يتسع لغير الحرب والقتال ، ولذلك كان جل اعتمادهم فى الفنون على ما يأتيهم من البلاد الأجنبية ، شأنهم فى هذا شأن الرومان سواء بسواء . نعم إنهم كانوا يتذوقون جمال الأشياء ، ولكنهم كانوا يكلون إلى الفنانين الأجانب أو إلى من فى بلادهم من الفنانين أبناء الأجانب صنع هذه الأشياء ؛ ويحصلون من الولايات التابعة لهم على المال الذى يؤدون منه أجور أولئك الفنانين . وكانت لهم بيوت جميلة وحدائق غناء ، تستحيل فى بعض الأحيان بساتين للصيد ومسارح للحيوان ؛ وكان لهم أثاث قيم غالى الثمن : من نضد مصفحة برقائق الفضة والذهب أو مطعمة بها ، وسرر فرشت عليها أغطية جاءوا بها من غير بلادهم ، وطنافس لينة جمعت كل ألوان الأرض والسماء يفرشون بها أرض حجراتهم[١٣١] . وكانوا يشربون فى كؤوس من الذهب ،

ويزينون نضدهم ورفوفهم بمزهريات من صنع الأجانب(*) . وكانوا مولعين بالعزف والغناء وبأنغام الناى والقيثار والنقر على الطبول والدفوف .

وكانت الجواهر كثيرة لديهم من تيجان وأقراط ، إلى خلاخيل وأحذية مذهبة . وحتى الرجال أنفسهم كانوا يتباهون بحليهم يزينون بها أعناقهم وآذانهم وأذرعهم . وكانوا يستوردون اللؤلؤ ، والياقوت ، والزمرد ، واللازورد من خارج بلادهم . أما الفيروز فكانوا يستخرجونه من المناجم الفارسية ، وكان هو المادة التى تصنع منها الطبقة الموسرة أختامها . وكانت لهم حلى ذات أشكال رهيبة غريبة تمثل فى ظنهم ملامح الشياطين المعروفة لديهم . وكان ملكهم يجلس على عرش من ذهب تغطيه أكنان ذهبية مرفوعة على قوائم من الذهب(١٣٢) .

ولم يكن للفرس طراز فنى خاص إلا فى العمارة . فقد شادوا فى أيام قورش ، ودارا الأول وخشيارشاى الأول مقابر وقصوراً ، كشف علماء الآثار القليل منها ، وقد يستطيع المعول والمجراف — وهما المؤرخان اللذان لا ينقطعان عن البحث والتنقيب — أن يكشفا لنا فى المستقبل القريب ما يعلى من تقديرنا للفن الفارسى(**) . ولقد أبقى لنا الإسكندر بفضل ما أثر عنه من كريم الشيم قبر قورش فى بازارجادة ، فأصبح طريق القوافل فى هذه الأيام يمر بالطوار العارى الذى كان يقوم عليه من قبل قصر قورش وقصر ابنه المخبول . ولم يبق الآن من هذين القصرين غير عمد قليلة محطمة فى مواضع متفرقة ، أو كتف باب أو نافذة عليها نقوش تمثل ملامح قورش . وعلى مقربة من هذا الطوار فى السهل المجاور له يشاهد القبر وقد

(*) وقد عرضت إحدى هذه المزهريات فى المعرض الدولى للفن الفارسى الذى أقيم فى لندن عام ١٩٣١ . وكان عليها نقش يثبت أنها من مزهريات أرت خشتر الثانى(١٣٣) .

(**) تعمل الآن بعثة من بعثات معهد الشرق التابع لجامعة شكاجو فى التنقيب فى أنقاض برسبوليس بإشراف الدكتور چيمس . هـ . برستد . ولقد كشفت هذه البعثة فى عام ١٩٣١ عن طائفة من التماثيل لا يقل عددها عن كل ما كان معروفاً قبلها من التماثيل الفارسية (كتب هذا قبل وفاة الدكتور برستد) . (المترجم)

عدا عليه الزمان فى خلال القرون الأربعة والعشرين ، التى مرت به ؛ فهو الآن ضريح حجرى بسيط ، يونانى فى شكله وتحرج صانعه ، يرتفع إلى ما يقرب من خمس وثلاثين قدما فوق قاعدة مدرجة . وما من شك فى أن هذا الأثر كان أعلى مما هو الآن ، وأنه كانت له قاعدة تتناسب مع ضخامته . أما الآن فإنه يبدو عاريا عطلا من الزينـــة مهجورا ، توحى صورته بالجمال الذى لا يكاد يبقى منه أثر فيه ؛ وكل ما يبعثه فى النفس هو الأسى والحزن ، لأن الجماد أبقى على الزمان من سواه . وإلى أقصى الجنوب عند نقش رستم غير بعيد من برسپوليس يقوم قبر دارا الأول منحوتاً فى واجهة صخرة فى الجبل كأنه ضريح هندوسى ، وقد نقش مدخله ليمثل لمن يراه واجهة قصر لا قبر ، وأقيمت عند هذا المدخل أربعة عمد دقيقة حول باب غير شامخ . ومن فوق هذا الباب شخوص قائمة كأنها فوق سقف يمثل أهل البلاد الخاضعة للفرس تحمل منصة رسم عليها الملك كأنه يعبد أهورا — مزدا والقمر . والفكرة التى أوحت بهذا الرسم وطريقة تنفيذها تسرى فيهما روح البساطة والرقة الأرستقراطية .

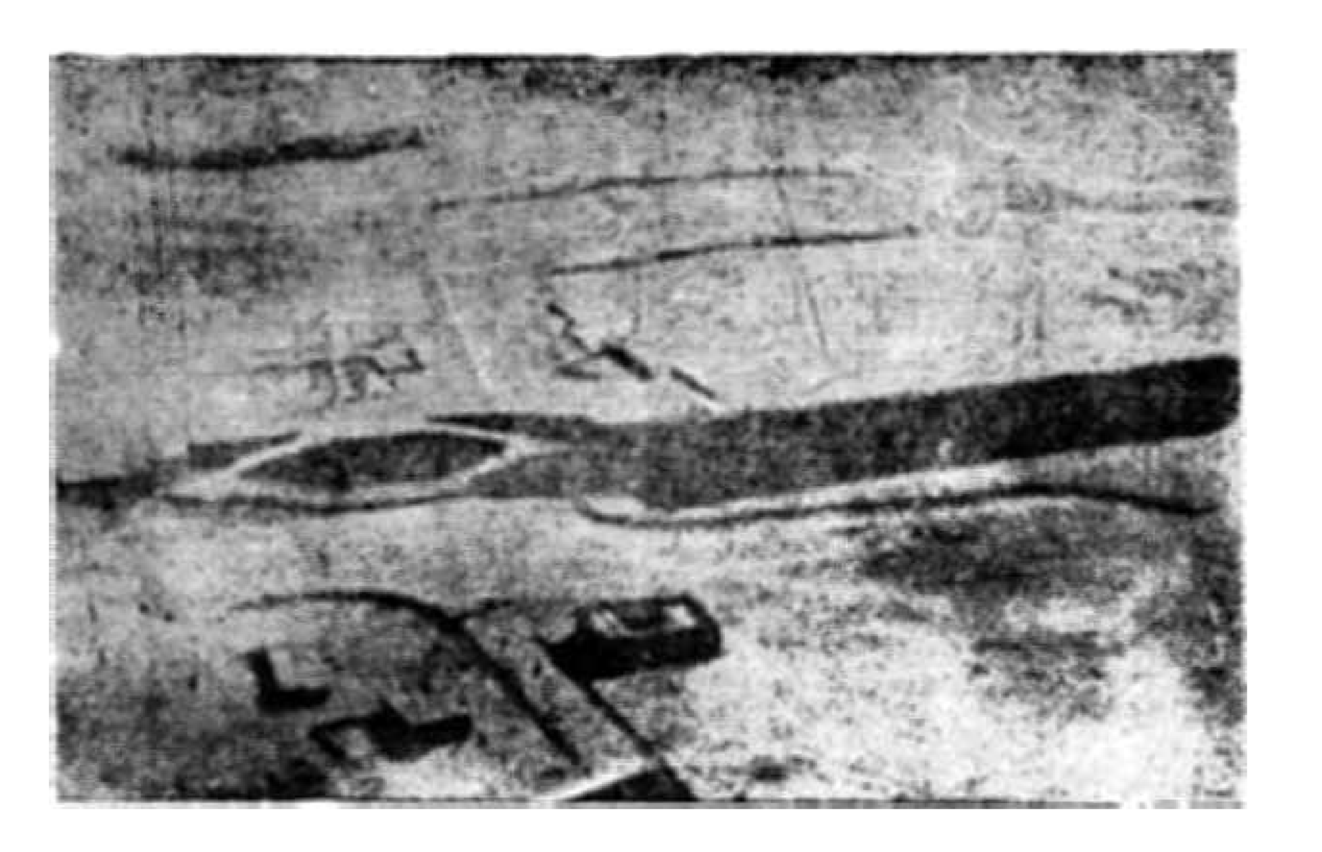
والمبانى الفارسية الأخرى التى نجت من الحروب والغارات والسرقات وفعل الجواء مدى ألفين من الأعوام ، هى خرائب القصور . فقد شاد ملوك الفرس الأولون فى إكباتانا مسكناً من خشب الأرز والسرو المصفح بالمعادن ، كان لا يزال قائماً فى أيام پوليبيوس (حوالى ١٥٠ ق . م) ، أما الآن فلم يبق له أثر . أما أروع الآثار الفارسية القديمة التى تنفرج عنها الأرض القابضة الكتوم يوماً بعد يوم فهى الدرج الحجرية والأرصفة والأعمدة التى كشفت فى برسپوليس . ذلك أن دارا ومن جاء بعده من ملوك الفرس قد أقاموا لهم فيها قصوراً يحاولون أن يرجئوا الوقت الذى تنسى فيه أسماؤهم . ولسنا نجد فى تاريخ العمائر كلها ما يشبه الدرج الخارجية العظيمة التى كان القادم من السهل يرقاها إلى الربوة التى شيدت عليها القصور .

وأكبر الظن أن الفرس أخذوا هذا الطراز عن الدرج التي كانت توصل إلى الزجورات ، أي أبراج أرض الجزيرة ، وتلتف حولها ، ولكنها كان لها مع ذلك خصائص لا يشاركها فيها غيرها من المباني . ذلك أنها كانت سهلة المرتقى واسعة يستطيع عشرة من ركاب الخيل أن يصعدوها جنباً إلى جنب[١٣٥](*) . وما من شك في أن هذه الدرج كانت مدخلا بديعاً إلى الطوار الفسيح الذي يعلو عن الأرض المجاورة له علواً يتراوح بين عشرين وخمسين قدماً ، والذي يبلغ طوله خمسمائة وألف قدم . وعرضه ألفاً ، والذي شيدت عليه القصور الملكية(**) . وكان عند ملتقى الدرج الصاعدة من الجانبين مدخل أمامي كبير نصبت على جانبيه تماثيل ثيران مجنحة ذات رءوس بشرية كأبشع ما خلفه الفن الأشوري . وكانت في الجهة اليمنى بعد هذا المدخل آية العمائر الفارسية على الإطلاق ، ونعني بها الجهل — منار أو الردهة العظمى التي شادها خشيارشاي الأول ، والتي كانت هي وغرفات الانتظار المتصلة بها تشغل رقعة من الأرض تربى مساحتها على مائة ألف قدم مربعة ، فهي أوسع — إذا كان للسعة قيمة — من معبد الكرنك الفسيح ومن أية كنيسة أوربية عدا كنيسة ميلان[١٣٨] .

وكانت هناك مجموعة أخرى من الدرج تؤدي إلى هذه الردهة الكبرى ، وتحف بها من كلا الجانبين جدر لزينتها قليلة الارتفاع ، وعلى جوانبها نقوش بارزة قليلا هي أجمل ما كشف من النقوش الفارسية القليلة البروز إلى هذا اليوم[١٣٩] . ولا يزال ثلاثة عشر عموداً من الاثنين والسبعين التي كانت قائمة في قصر خشيارشاي باقية إلى اليوم بين خربات القصر ، كأنها جذوع نخل في واحة مقفرة موحشة . وتعد هذه الأعمدة المبتورة من الأعمال البشرية القريبة من الكمال ، وهي أرفع من

(*) وصفها فرجسون بأنها « أروع مثل للدرج وجدت في أية بقعة من العالم »[١٣٦] .

(**) وكانت تجري تحت هذا الطوار سلسلة معقدة من القنوات لتصريف الماء يبلغ قطر الواحدة منها ست أقدام تحت الكثير منها الصخر الأصم[١٣٧] .



شكل (٢٧) خرائب برسبوليس

مثيلاتها فى مصر القديمة أو اليونان ، وتعلو فى الجو علواً لا تصل إليه معظم الأعمدة الأخرى ، إذ يبلغ ارتفاعها أربعا وستين قدماً ، وقد خطت فى جذوعها ستة وأربعون حزاً . وتشبه قواعدها أجراساً تغذيها أوراق أشجار مقلوبة الوضع ، ومعظم تيجانها فى صورة لفائف من الأزهار تكاد تشبه اللفائف « الأيونية » ، يعلوها صدرا ثورين أو حصانين مقرّنين يتصل عنقاهما من الخلف وترتكز عليهما عوارض السقف . ولسنا نشك فى أن هذه العوارض كانت من الخشب ، لأن أمثال هذه العمد المتباعدة السريعة العطب لا تقوى على تحمل الدعامات الحجرية الثقيلة . وكانت أكتاف الأبواب وكفافات النوافذ من حجارة سود مزخرفة برّاقة كالأبنوس . أما الجدران فكانت من الآجر يغطيها القرميد المصقول رسمت عليه صور زاهية تمثل حيوانات وأزهاراً . وكانت العمد والفصوص والدرج من حجر الجير الجميل أو الرخام الأزرق الصلد . وقام من خلف الجهل — منار ، أى من شرقيها « لابهو العمد المائة » . ولم يبق من هذا البهو سوى عمود واحد والحدود الخارجية لتصميمه العام . ولعل هـــذين القصرين كانا أجمل ما شاده الإنسان فى العالم القديم والحديث على السواء .

وأقام أرت خشتر الأول والثانى فى مدينة السوس قصرين لم يبق منهما إلا أساسهما : ذلك أنهما شيدا من الآجر المكسو بأجمل ما عرف من القرميد ذى الطلاء الزجاجى . وفى السوس عثر المنقبون على « نقش الرماة » وهم أكبر الظن « الخالدون » الأمناء حراس الملك . ويبدو للناظر إلى هؤلاء الرماة ذوى الطلعة المهيبة أنهم قد ازينوا لحضور حفلة فى القصر وليسوا خارجين لقتال أو حرب . فجلابيبهم تخطف الأبصار بألوانها الزاهية ، وشعورهم ولحاهم مجعدة تجعيداً عجيباً ، وهم ممسكون بأيديهم فى قوة وخيلاء رماحهم رمز مناصبهم الرسمية ، ولم يكن التصوير والنحت فى السوس وفى غيرها من العواصم فنين مستقلين ، بل كانا تابعين لفن العمارة ، كذلك كانت الكثرة الغالبة من التماثيل من صنع



شكل (٣٨) نقش « الرماة »
نقش ملون على القرميد وجد في السوس — محفوظ في متحف اللوفر

فنانين جىء بهم من آشــور وبابل وبلاد اليونان(١٤٠)

وفى وسع الإنسان أن يقول عن الفن الفارسى ما يستطيع أن يقوله عن الفنون كلها تقريباً ، وهو أن عناصره كلها مستعارة من خارج البلاد ، فقبر قورش استعير شكله الخارجى من ليديا ، وعمده الحجرية الرفيعة منقولة عن مثيلاتها من العمد الأشــورية مع شىء من التحسين ، وبهو الأعمدة الضخمة والنقوش القليلة البروز تشهد بأنها قد أوحت بها أبهاء مصر ونقوشها ، وتيجان الأعمدة التى على صورة الحيوان عدوى تسربت إليهم من نينوى وبابل . أما الذى جعل فن العمارة الفارسى فناً قائماً بذاته مختلفاً عن غيره من فنون العمارة فهو اجتماع هذه العناصر كلها والمواءمة بينها ، وهو الذوق الأرستقراطى الذى رقق العمد المصرية المهولة وكتل أرض الجزيرة الثقيلة فأحالها بريقاً ورشاقة ، وتناسباً وتناغماً ، يطالعنا فى برسپوليس .

وكان اليونان يستمعون إلى وصف هذه الأبهاء والقصور وهم أشد ما يكونون دهشة منها وإعجاباً بها ، لأن تجارهم المجدين العاملين وساستهم المطلعين كانوا يحدثونهم عن فنون الفرس وترفهم بما يثير عواطفهم ويحفزهم إلى منافستهم . وسرعان ما استبدلوا برءوس العمد المزدوجة وبالحيوانات ذوات الأعناق الجامدة المتصلبة القائمة فوق العمد الرشيقة ، نقول سرعان ما استبدلوا بها الفصوص الملساء التى نراها فى تيجان العمد الأيونية ، ثم قصروا سوقها ، وزادوها قوة لكى تتحمل أية عارضة ترتكز عليها سواء أكانت من الخشب أم من الحجر . والحق أنه لم يكن بين فنى العمارة فى برسپوليس وأثينة إلا خطوة واحدة ، فقد كان عالم الشرق الأدنى على بكرة أبيــه موشكا أن يستغرق فى سبات عميق كأنه الموت إلا أنه موت لا يدوم إلا ألف عام ، كان عالم الشرق يتأهب ليستودع اليونان تراثه القديم .

الفصل التاسع

الانحطاط

كيف تموت الأمم — خشيارشاي — فقرة عن التقتيل —
أرت خشتر الثاني — قورش الأصغر — دارا الصغير —
أسباب الانحطاط السياسية والحربية والخلقية —
الاسكندر — فتح فارس والزحف على الهند

لم تكد الإمبراطورية التي أقامها دارا تعمر إلا قرناً من الزمان ، ذلك أن قواها الطبيعية المادية والأدبية قد تصدعت على أثر الهزائم التي منيت بها في مراثون ، وسلاميس ، وبلاتية . وأهمل الأباطرة شئون الحرب ، وانغمسوا في الشهوات ، وتردت الأمة في مهاوى الجمود والفساد . ويكاد اضمحلال فارس أن يكون في جملته وتفاصيله صورة معجلة من سقوط رومة ؛ فقد اقترن فيــه عنف الأباطرة وإهمالهم بفساد أخلاق الشعب وانحلالها ، وحل بالفرس ما حل بالميديين قبلهم ، إذ استحال ما كانوا يتصفون به من تقشف وزهد منذ أجيال قليلة إلى استمتاع طليق ، وأصبح أكبر ما تهتم به الطبقات الأرستقراطية ملء بطونها بلذيذ المأكل والمشرب ؛ وشرع هؤلاء الرجال الذين فرضوا على أنفسهم من قبل ألا يتناولوا إلا وجبة واحدة من الطعام في اليوم يفسرون معنى الوجبة الواحدة بأنها وجبة تمتد من الظهر إلى غسق الليل ، فامتلأت مخازن مؤنهم بكل ما لذ وطاب ، وكثيراً ما كانوا يقدمون الذبائح كاملة لضيوفهم ، وملأوا بطونهم باللحوم السمينة النادرة ، وتفننوا في ابتكار أنواع المشهيات والحلوى(١٤٠ا) . وغصت بيوت الأثرياء بالخدم الفاسدين المفسدين ، وأصبح السكر رذيلة شائعة بين كل الطبقات(١٤٠ب) . وملاك القول أن قورش ودارا قد خلقا بلاد الفرس وأن خشيارشاي ورثها عنهما ثم جاء من خلفهم من الملوك فدمروها تدميراً .

وكان خشيارشاى الأول ملكاً اجتمعت فيه كل صفات الملوك — الجسمية — ؛ كان طويل القامة ، قوى الجسم ، يقر له له الملوك بأنه أجمل إنسان فى الإمبراطورية كلها[١٤١] . ولكن الرجل الوسيم غير المغتر لم يخلق بعد فى هذا العالم ، كما لم يخلق فيه بعد الرجل المغتر بقوته الذى لم تقده امرأة من أنفه . لقد كان خشيارشياى نهباً لسراريه ، وما كان أكثرهن ، وضرب أسوأ الأمثال لشعبه فى الفسق والفجور . ولقد كانت هزيمته فى سلاميس هزيمة طبيعية متوقعة ؛ ذلك أن كل ما كان له من أسباب العظمة هو حب التعاظم لا قدرته على مغالبة الخطوب ، والتحلى بصفات الملوك الحقة إذا دعا الداعى وتأزمت الأمور . وبعد أن قضى هذا الملك عشرين عاماً فى غمرة الدسائس الشهوانية ، والتراخى والإهمال فى شئون الحكم ، اغتاله أرتيان(*) أحد رجال حاشيته ، ثم وورى فى قبره باحتفال ملكى مهيب واغتباط شامل .

وليس فى التاريخ كله ما يماثل المجازر المروعة والدم المراق اللذين تطالعنا بهما سجلات الفرس الملكية إلا سجلات رومة بعد تيبريوس . لقد اغتال أرت خشتر الأول مغتالَ خشيارشاى ، وبعد أن حكم أرت خشتر حكماً طويلا خلفه خشيارشاى الثانى ، ثم اغتاله بعد بضعة أسابيع من حكمه أخ له غير شقيق يدعى سجديانوس ، ثم قتله دارا الثانى بعد ستة أشهر كما أمر بقتل تريتَتْشميس فأخذ بقتله فتنة أثار عجاجها فى البلاد ، ثم أمر بتقطيع زوجته إرباً ودفن أمه وإخوته وأخواته أحياء . وخلف دارا الثانى على العرش ابنه أرت خشتر الثانى ، واضطر هذا الملك أن يقاتل فى واقعة كونسكا أخاه قورش الأصغر قتالا مريراً ، لأن هذا الشاب حاول أن يغتصب الملك . وحكم أرت خشتر حكماً طويلا ، وقتل ابنه دارا لأنه ائتمر به ، ثم مات بائساً حزيناً إذ وجد أن ابناً آخر له يدعى أوكوس يأتمر به ليقتله . وحكم أوكوس عشرين سنة ثم مات مسموماً على يد

(*) يكتب أحياناً أردوان ويسميه اليونان أرتيانوس . (المترجم)

قائده بجواس ، وأجلس هذا القائد السفاح « صانع الملوك » ابناً لأكوس يسمى أرسيس على العرش ، واغتال أخا لأرسيس ليثبت بذلك مركز صيعته ، ثم اغتال أرسيس وأبناءه الصغار ، ورفع على العرش كودومانوس ، وهو صديق له مخنث مطواع ، وحكم كودومانوس ثمانى سنين ، يسمى باسم دارا الثالث ثم مات وهو يحارب الإسكندر فى واقعة إربل حين كانت بلاده تلفظ آخر أنفاسها . ولسنا نعرف فى دولة من الدول حتى الدول الدمقراطية فى هذه الأيام قائداً أقل كفاية وجدارة بقيادة الجيوش من هذا القائد .

إن الإمبراطوريات بطبيعة تكوينها سريعة الانحلال ، وإن الذين يرثونها تعوزهم جهود الذين ينشئونها ، ذلك فى الوقت الذى تهب فيه الشعوب الخاضعة لسلطانها وتستجمع قواها لتناضل فى سبيل ما فقدته من حريتها ؛ كذلك ليس من طبيعة الأشياء أن تبقى الأمم التى تختلف لغاتها وأديانها وأخلاقها وتقاليدها متحدة متماسكة زمنا طويلا . ذلك أن هذه الوحدة لا تقوم على أساس متماسك يحفظها من التصدع ، ولا بد من الالتجاء إلى القوة مرة بعد مرة للاحتفاظ بهذه الرابطة المصطنعة . ولم يعمل الفرس فى عهد إمبراطوريتهم الذى دام مائتى عام شيئا يخفف ما بين الشعوب الخاضعة لحكمهم من تباين ، أو يضعف من أثر القوى الطاردة التى تعمل على تفكك دولتهم ، بل قنعت هذه الإمبراطورية بأن تحكم خليطا من الأمم ، ولم تفكر فى يوم من الأيام فى أن تنشئ منها دولة حقيقية . لذلك أخذ الاحتفاظ بوحدة الإمبراطورية يزداد صعوبة عاماً بعد عام ، وكلما تراخى عزم الأباطرة قويت أطماع الولاة وزادوا جرأة ، وأخذوا يرهبون أو يبتاعون بالمال قواد الجيش وأمناء الإمبراطور الذين أرسلوا إلى الولايات ليشتركوا مع الولاة فى الحكم ويحدوا من سلطانهم . ثم أخذ الولاة يقودون جيوشهم ويزيدون موارد دهم كما يحلو لهم ، ويأتمرون بالملك المرة بعد المرة . وأوهنت الثورات والحروب المتكررة حيوية فارس الصغيرة ، ذلك أن الحروب قد قضت على زهرة شبابها القوى حتى لم يبق من

أبنائها إلا كل حذر محتاط . فلما أن جند هؤلاء لمواجهة الإسكندر تبين أنهم لا يكاد يوجد فيهم إلا كل منخوب القلب جبان . ولم يكن شيء من التحسين قد أدخل على تدريب الجنود أو على عتادهم الحربي ، ولم يكن قوادهم على علم بما يستجد من فنون القتال . فلما دارت رحى الحرب ارتكب هؤلاء القواد أشنع الأغلاط ، وكانت عساكرهم المختلة النظام ، والتي كان معظمها مسلحاً بالسهام ، أهدافاً صالحة لرماح المقدونيين الطويلة وفيالقهم المتراصة[١٤٢] لقد كان الإسكندر يلهو ويعبث ، ولكنه لم يكن يفعل ذلك إلا بعد أن يتم له النصر ، أما قواد الفرس فقد جاءوا معهم بسراريهم ، ولم يكن منهم من هو راغب في القتال ، ولم يكن في الجيش الفارسي جنود جديرون بهذا الاسم إلا مرتزقة اليونان :

ولقد تبين منذ اليوم الذي فر فيه خشيارشاي بعد هزيمته في سلاميس أن اليونان سيتحدون الدولة الفارسية في يوم من الأيام . ذلك أن فارس كانت تسيطر على أحد طرفي الطريق التجاري العظيم الذي يربط غربي آسية بالبحر المتوسط ، وأن بلاد اليونان تسيطر على طرفه الثاني ، وكان ما ركب في طباع الناس من أقدم الأزمنة من طمع وحرص على الكسب مما يجعل هذه الحال مثاراً للحرب بين الأمتين ، ولم يكن اليونان ينتظرون لبدء الهجوم إلا أن يقوم بينهم سيد منهم يضم شتاتهم ويؤلف بين قلوبهم

واجتاز الإسكندر مضيق الدردنيل دون أن يلقى مقاومة ، ومعه قوة من رجاله ، خالها الأسيويون ضئيلة ، إذ كانت مؤلفة من ثلاثين ألفاً من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان(*) ؛ وحاول جيش فارسي مؤلف من أربعين ألف مقاتل أن يصد جيش الإسكندر عند نهر غرانيقوس ، فخسر الفرس في الواقعة عشرين ألف مقاتل ، ولم يخسر الجيش اليوناني إلا ١١٥ رجلا[١٤٤] ، واتجه

(*) ويقول يوسفوس « إن كل من كان في آسية كان مقتنعاً بأن اليونان لن يجرؤوا على الاشتباك في حرب مع الفرس لكثرتهم[١٤٣] .

الإسكندر جنوباً وشرقاً ، يخضع بعض المدائن ، ويستسلم له البعض الآخر ؛ ودام على ذلك عاماً كاملا . وجمع دارا الثالث فى هذه الأثناء خليطاً من ٦٠٠,٠٠٠ رجل بين جندى ومغامر . وتطلّب عبورهم نهر الفرات على جسر من القوارب خمسة أيام ، كما تطلّب حمل أموال الملك ستمائة بغل وثلثمائة جمل[١٤٥] . ولما تقابل الجيشان عند إسوس ، لم يكن مع الإسكندر إلا ثلاثون ألفاً من رجاله ، ولكن دارا كان يتصف بكل ما تتطلبه تصاريف الأقدار من غباء ، فاختار للقتال ميدانا لا يتسع إلا لجزء صغير من جيشه أن يقاتل اليونان على حين يبقى سائره معطلا . فلما انتهت المجزرة وجد أن اليونان قد خسروا نحو ٤٥٠ رجلا ، وخسر الفرس ١١٠,٠٠٠ رجل ، قتل معظمهم وهم يفرون مذعورين . وطارد الإسكندر الجيوش المهزومة مطاردة طائشة عبر فى أثنائها مجرى مائياً على جسر من جثث الفرس[١٤٦] . وفر دارا من الميدان فرار الأنذال ، وترك فيه أمه وزوجة من أزواجه وابنتين وعربة وخيمة مترفة . وعامل الإسكندر السيدات الفارسيات بشهامة أدهشت المؤرخين اليونان ، واكتفى بأن تزوج إحدى ابنتى دارا . وإذا جاز لنا أن نصدق ما قاله كونتس كورتيس ، فإن أم دارا أحبت الإسكندر حباً لم تر معه بدًّا من أن تقضى على حياتها بالامتناع عن الطعام حين علمت بوفاته[١٤٧] .

وواصل الشاب الفاتح بعدئذ سيره فى بطء ، يخيل إلى الإنسان أنه بطء المستهتر ، يريد أن يبسط سلطانه على غربى آسية بأجمعه . غير أن بطأه هذا كان ناشئاً من رغبته فى ألا يتقدم قبل أن ينظم فتوحه ، ويؤمن مواصلاته . وخرج سكان مدينة بابل على بكرة أبيهم ، كما خرج أهل بيت المقدس من قبل للترحيب به ، وقدموا له مدينتهم وما فيها من ذهب ، فتقبل منهم ما عرضوه فى لطف وبشاشة ، وسرّهم بأن أمر بإصلاح هياكلهم التى هدمها خشيارشاى من قبل دون تدبر وروية . وأرسل إليه دارا يعرض عليه الصلح ، وكان مما عرضه أن يقدم للإسكندر

عشرة آلاف تالنت من الذهب(*) ، إذا رد إليه أمه وزوجته وابنتيه ، وأن يزوجه ابنته ، وأن يعترف له بالسيادة على جميع بلاد آسية الواقعة فى غرب الفرات ، وأنه لا يطلب إليه فى نظير هذا كله إلا أن يأمر الإسكندر بوقف القتال وأن يتخذه صديقاً له . وقال پارمنيو القائد الثانى لجيوش اليونان إنه لو كان الإسكندر لقبل هذه العروض الطيبة مسروراً فينجو بشرفه من شر هزيمة قد تكون ساحقة . فما كان جواب الإسكندر إلا أن قال إنه لو كان هو پرمنيو لقبل هذه العروض ، أما وهو الإسكندر فقد رد على دارا بأن عروضه لا معنى لها ، لأنه (أى الإسكندر) يمتلك بالفعل ما يعرضه عليه من بلاد آسية ، ولأن فى وسعه أن يتزوج ابنة الإمبراطور متى شاء . ووجد دارا أن لا أمل له فى عقد الصلح مع هذا المنطيق المستهتر ، فوجه همه على كره منه لجمع جيش آخر أكبر من جيشه الأول .

وكان الإسكندر فى أثناء ذلك قد استولى على صور ، وضم مصر إلى أملاكه ، ثم اخترق إمبراطوريته العظيمة متجهاً نحو حواضرها النائية . وبعد مسيرة عشرين يوماً بعد بابل وصل جيشه إلى مدينة السوس ، واستولى عليها دون أن يلقى مقاومة ، ثم تقدم إلى پرسپوليس بسرعة لم تمكن حراس الخزائن الملكية من إخفاء ما فيها من أموال . وفيها أتى الإسكندر عملا يعد وصمة عار فى حياته الحافلة بجلائل الأعمال ، أتاه رغم نصيحة پرمنيو ليكسب بذلك — كما يقول مؤرخوه — رضاء تييس إحدى سراريه(**) . ذلك أنه أحرق قصور پرسپوليس عن آخرها ، وأباح لجنوده نهب المدينة . فلما أن رفع روح جنوده المعنوية بما أباح لهم من السلب ، وبما أغدقه عليهم من العطايا ، اتجه نحو الشمال ليلقى دارا لآخر مرة .

وكان دارا قد جمع من الولايات الفارسية — وخاصة من ولاياته الشرقية —

(*) تقدر قيمتها على الأرجح بنحو ٦٠٬٠٠٠٬٠٠٠ ريال أمريكى من نقود هذه الأيام

(**) يتفق أبلوطرخس ، وكوكنتس كورتيس وديودور فيما يرونه من هذه القصة ، وهى لا تتعارض مع ما عرف عن الإسكندر من تهور واندفاع ، ولكن من واجبنا مع ذلك أن نقابل هذه الرواية بشىء من الشك .

جيشاً جديداً عدته ألف ألف مقاتل(١٤٨) — يتألف من فرس ، وميديين ، وبابليين ، وسوريين ، وأرمن ، وكبادوكيين ، وبلخيين ، وصغد ، وأرخزيان . وساكى ، وهنود . ولم يسلحهم بالقسى والسهام ، بل جهزهم بالحراب ، والرماح ، والدروع ، وأركبهم الخيل والفيلة والعربات ذات الدواليب التي ركبت فيها المناجل لكى يحصد بها أعداءه حصد الحنطة فى الحقول .

حشدت آسية العجوز هذه القوة الهائلة لتحاول بها مرة أخرى أن تدفع عن نفسها أوربا الناهضة الفتية . والتقى الإسكندر ومعه سبعة آلاف من الفرسان ، وأربعون ألفاً من المشاة بهذا الخليط المختل النظام غير المتجانس ، ودارت رحى القتال عند كواكميلا(*) . واستطاع بتفوق أسلحته وحسن قيادته وشجاعته أن يبدد شمله فى يوم واحد — واختار دارا مرة أخرى أن يفر من الميدان ، ولكن قواده ساءهم هذا الفرار المزرى للمرة الثانية ، فقتلوه غيلة فى خيمته . وأعدم الإسكندر من استطاع أن يقبض عليهم من قاتليه ، وأرسل جثة دارا مكرمة إلى برسبوليس فى موكب حافل ، وأمر أن تدفن كما تدفن أجسام الملوك الأكمينيين . وسرعان ما انضوى الشعب الفارسى تحت راية الإسكندر إعجاباً منه بكرم أخلاقه ونضرة شبابه . ونظم شئون فارس وجعلها ولاية من ولايات الدولة المقدونية وترك فيها حامية قوية لحراستها ، ثم واصل زحفه إلى الهند .

(*) وهى مدينة تبعد ستين ميلا عن إربل ، وقد سميت هذه الواقعة باسمها .

المراجع

الباب السابع

1. Cambridge Ancient History, i, 86, 361; Childe, *The Most Ancient East*, 126; Keith in N.Y. *Times*, April 3, 1932.
2. Breasted, J. H., *Oriental Institute*, 8.
3. Childe, 128, 146.
4. De Morgan, 208; CAH i, 362, 578
5. Moret, 199; CAH, i, 361 579.
6. Woolley, C L., *The Sumerians* 189.
7. Jastrow, Morris, *The Civilization of Babylonia and Assyria*, 101.
8. CAH, i, 127.
9. Pijoan, i, 104; Ball C. J, in Parmelee, M., *Oriental and Occidental Culture*, 18.
10. Childe, 160, 173; Maspero, G., *Dawn of Civilization*, 718-20.
11. CHA, i, 456.
12. Berosus in CAH, i, 150.
13. Maspero, *Stuggle of the Nations*, iv.
14. Woolley, 69; CAH, i, 387.
15. Ibid, 388.
16. Woolley, 73; CAH, i, 403.
17. Harper, R.F., ed., *Assyrian and Babylonian Literature*, 1.
18. CAH, i, 405.
19. Woolletly, 140; Maspero, *Dawn*, 637; CAH, i, 427.
20. Ibid, i, 435.
21. Ibid, i, 472.
23. Jastrow, 7; Maspero, *Dawn*, 564; Childe, *Ancient East*, 124; CAH, i, 463.
24. Woolley, 112-4.
25. Childe. 170.
26. Woolley, 17.
27. Delaporte, L., *Mesoostamia*, 112.
28. Woolley, 13; Delaporte, 172. CAH, i, 507: N.Y. *Times*, Aug. 2, 1932.
29. Childe, 141.
30. Ibid, 169; *Encyc Brit.*, ii, 845; Delaporte, 106.
31. Ibid., Woolley, 117-8, CAH, i, 427.
32. Woodlley 92, Delaporte, 101.
33. Woolley, 126. CAH, i, 461,
34. Maspero, *Dawn*, 709f.
35. Ibid., 606-7, 722, Woolley, 79, CAH, i, 540.
36. Maspero, *Dawn*. 721-3.
37. CAH. i, 461.
38. Woolley. 93.
39. Maspero, 655.
40. CAH, i, 443-4, 448.
41. Jastrow, 277.
42. Woolley, 126.
43. Jastrow, 130.
44. Woolley, 13.
45. Ibid., 120.
46. CAH, i, 400.
47. Langdon, S.. *Bobylonian Wisdom*, 18-21.
48. Woolley, 108-9.
49. Ibid., 13.
50. Jastrow, 466.

(+) سنثبت اسم الكتاب كاملا عند أول وروده فى هذا الثبت ثم نكتفى بعد ذلك بذكره مختصراً.

51. Woolley, 106.
52. CAH, i, 370-1; Woolley, 40, 43, 54
53. Ibid., 92, 101.
54. CAH, i, 376.
55. Maspero, *Dawn*, 723-8; CAH, i, 371-2.
56. Maspero, *Struggle*, iv.
57. CAH, I, 550; iii, 226.
58. Woolley, 87.
59. Delaporte' 172.
60. Woolley, 87, 191.
61. Maspero, *Dawn*, 709-18.
62. Jastrow, 106; Woolley, 40, 144; Maspero, 630.
63. Ibid., 601.
64. Schäfer, H., and Andrae, W., *Die Cunst des Alten Orients*, 469; Woolley 66.
65. CAH, i, 440.
66. Woolley, 46; N. Y. *Times*, April 18, 1934.
67. Schäfer, 482.
68. Ibid., 486.
69. Woolley, 188; CAH, i, 463.
70. Moret, 164; Childe, *Ancient East*, 216.
71. Hall, H.R., in *Encyc. Brit*, viii, 45.
72. Maspero, *Dawn*, 46; CAH, i, 255.
73. Ibid., 372.
74. Ibid., 255, 263, 581, De Morgan, 102, Hall, A.R., l.c.
75. Ibid., CAH, i, 579.
76. CAH, i, 263. 581.
77. CAH, i, 252, 581, Hall, l.c., 44-5.
78. De Morgan 10?.
79. Hall, l.c. CAH, i, 581.
80. Such objects are pictured for comparison in De Morgan, 102.
81. Woolley, 187, Hall, l.c., 45.
82. Smith, G. Elliot, *The Ancient Egyptians and the Crgin of Civilization*, xii.

الباب الثامن

1. Strabo, *Geography*, I, iii, 4.
2. Maspero, *Dawn*, 24.
3. Erman, A., *Life in Ancient Egypt*, 13, CAH, i, 317.
4. Erman, 29.
5. Diodorus Siculus, I,I xliv, 3. The face value of the talent in the time of Diodorus was $ 1,000 in gold, worth in prchasing power some $ 10,000 today.
6. *Encyc. Brili*, vii, 42.
7. In Capart, J., *Thebes*, 40.
8. The Harris Papyrus in Capart, 237.
9. Capart, 27, Breasted, J. H., *Ancient Records of Egypt*, ii, 131.
10. CAH, i, 116, ii, 110.
11. Breasted, *Ancient Times*, 97, 455, CAH, i, 117.
12. Ibid., 116.
13. De Morgan, 25, CAH, i, 33-6, Keith in N. Y. *Times*, Oct. 12, 1930, Morct, 117f.
14. Breasted in CAH, i, 86.
15. *Encyc. Brit.*, viii, 42, Moret, 119, De Morgan, 92.
16. Moret, 119, CAH, i, 270-1.
17. Smith.G.Elliot, *Human History*, 264, Childe, *Acient, East*, 38.
18. Pittard, 419, CAH, i, 270-1, Smith, G. Elliot *Ancient Egyptiants*, 50.
19. CAH, i, 872, 255, 263, De Morgan, 102.
20. Maspero, *Dawn*, 45, CAH, i, 244-6 251-6, Pittard, 413, Moret, 158, Smith *Ancient Egyptiants*, 24.
21. Maspero, *Passing of the Empires*, viii, De Morgan, 101.
22. Diodorus, I, xciv, 2. Diodorus adds, by way of comparison: "Among the Jews Moyses referred his laws to the god who is invoked as lao."

23. Ibid., I, xiv, 1.
24. *Encyc Brit.*, viii, 45.
25. Schäfer, 209.
26. Ibid., 247.
27. Ibid. 211.
28. Ibid., 228-9.
29. Herodotus, II, 124.
30. Capart, J., *Lectures on Egyptian Art*. 98.
31. CAH, i, 335.
32. Maspero, *Art in Egypt*. 15.
33. Schäfer, 248.
34. Herodotus, II, 86.
35. In Cotterill, *History of Art*, i, 10
36. Breated, J. H., *Development of Religion and Thought in Ancient Egypt*. 203.
37. CAH, i, 308.
38. Beasted, J.H., *History sf Egypt* 266-7.
39. Breasted, *Ancient Records*, ii, 78-121, Maspero, *The Struggle of the nations*, 236-7.
40. Ibid., 237-9, Breasted, *History*, 273, White, E. M., 49.
41. CAH, ii, 65.
42. Ibid., ch. iv.
43. Ibid., 79.
43a. Breasted, *History*. 320.
44. Weigall, A., *Life and Time of Akhnaton*, 8.
45. Erman, 20.
46. So a stele of Amenhotep III expresses it in Capatt, *Thebes*, 182.
47. Ibid, 182, 197.
48. Diodorus, I, xxxi, 8.
49. Herodotus, II, 14.
50. Eman, 199.
51. Herodotus, II, 95.
52. Maspero, *Dawn*, 330.
53. Genesis xlvii, 26.
54. Erman, 441.
55. Erman, A., *Literature of the Ancient Egyptians*, 187.
56. Maspero, *Dawn*, 65, Lippert, 197.
57. Maspero, *Dawn*, 331-2.
58. Moret, 357.
59. Rickard, T. A. i, 192-203, De Morgan, 114.
60. Diodorus, III, xii, tr. by Rickard, i, 209-10.
61. Erman, *Life* 45-6.
62. Breasted, *Ancient Times*, 64, Maspero, *Struggle* 739.
63. Müller-Lyer, *Social Development*, 105.
64. Diodorus, I, lxxiv, 6.
65. Ibid.
66. Hobhouse, *Morals in Evolution* 283.
67. Erman, *Life*, 124-5.
68. Maspero, *Struggle*, 441.
69. Diodorus, I, lii, Rickard, i, 183.
70. N. Y. *Times*, April 16, 1933.
71. Herodotus, II, 124, Wilkinson in Rawlinson's Herodotus, ii, 200n.
72. Capart, *Thebes*, 32.
73. Erman, *Life* 488-93, Borchardt and Ricke, *Egypt*. p. v.
74. CAH, ii, 423.
75. Erman, *Life*, 494.
76. Maspero, *Struggle*, 109.
77. Ibid., 285, 289, 407, 582, CAH, ii, 79.
78. Maspero, *Dawn*, 330, Schneider H, i, 86.
79. CAH, ii, 212.
80. Diodorus, I, lxxvii, 2.
81. Diodorus, I, lxxv, 3.
82. Summer, *Folkways*, 236.
83. Diodorus, I, lxxviii, 8.
84. Hobhouse, 108, Maspero, *Dawn*, 337, 479-80, Erman, *Life* 141.
85. Maspero, *Dawn* 337.
86. Capart, *Thebes*, 161.
87. Breasted, J. H., *Dawn of Conscience*, 208-10.
88. Erman, *Life*, 67; Diodorus, I, lxx.
89. Erman, *Life* 121.
90. Moret, 124.
91 Erman, *Literature*, 27.
92. Maspero, *Dawn*, 278.
93. Breasted, *History*, 75.
94 Erman, *Life*, 153, Summer, *Folkways*, 485.

95. Maspero, *Dawn*, 51.
96. Erman, *Life*, 76.
97. In Briffault, i, 384.
98. In White, E. M., 46.
99. Petrie, Sir W. F., *Egypt and Israel*, 28.
100. Hobhouse, 187.
101. Ibid., 187.
102. Ibid., 186; Erman, *Life*, 185.
103. Petrie, 23.
104. Frazer, *Adonis*, 397.
105. Briffault, i, 384.
106. Diodorus, I, lxxvii, 7; lxxv, 3
107. Maspero, *Sturggle*, 272.
108. Briffault, ii, 174.
109. Ibid., 383.
110. Maspero, *Struggle*, 503; Erman, *Life*, 155.
111. Ibid , Sanger, W. W., *History of Prostitution*, 40-1; Georg, 172.
112. Erman, *Life*, 247f.
113. Summer, *Folkways*, 541; Maspero, *Struggle*, 536.
114. Erman, *Life*, 387.
115. In Breasted, *Dawn of Cnscience* 324; cf. Proverbs, xv, 16-7. For further correspondence between the Egyptian and the Jewish authors cf. Breasted, 372-7.
116. Hobhouse, 247; Maspero, *Dawn* 269; *Struggle*, 228.
117. Strabo, XVII, t, 53.
118. Erman, *Literature*, xxxix; 47.
119. Maspero *Dawn*, 195 *Encyc. Brit.*, vii, 329.
120. Spearing, 230.
121. Maspero, *Dawn*, 47 8, 271.
122. CAH, ii, 422.
123. Breasted, *History*, 27, Erman, *Life*, 229f, Downing, Dr. O., *Cosmetics, Past and Present*, 1088f.
124. CAH, ii, 421.
125. Maspero, *Struggle*, 504, Eman, *Life* 212.
126. Schäfer, 235.
127. Summer, *Folkways*, 191, Maspero, *Struggle* 494, CAH, ii, 421.
128. Maspero, *Dawn*, 57, 491 f.
129 CAH, ii, 421.
130 Diodorus, I, lxvxi, Mencken, H. L., *Treatise on the Gods*, 117.
131. Spencer, *Sociology*, iii, 278.
132. Erman, *Life*, 328, 384.
133. Ibid , 256, Erman, *Literature*, xliii.
134. Ibid., 185.
135. Erman, *Life*, 256, 328.
136. Schneider, H., I. 94.
137. Erman, *Life*, 447 , Breasted; *History*, 97.
138. Erman, *Literature*, xxxvii, xlii.
139. Maspero, *Dawn*, 46.
140. Erman, *Life* 333f Breasted *Ancient Times*, 42, Maspero, *Dawn*, 221-3, De Morgan, 266.
141. Father Batin, address at Oriental Institute, Chicago, March 29, 1932, CAH, i, 189, Sprengling, M , *The Elphabet, possim.*
141a. N. Y. *Times*, Oct. 18, 1934.
142. Maspero, *Dawn*, 398.
143. CAH, i, 121, Erman, *Literature*, I, Breasted, *Development*, 178.
144. Breasted, J. H., *Oriental Institute*, 149f.
145. Erman, *Life*, 370.
146. Erman. *Literature*, 30-1
147. Ibid , 22-8.
148. Maspero, *Dawn*, 438.
149. Maspero, *Struggle*, 499.
150. Maspero, *Dawn*, 497.
151. Breasted, *Dawn of Conscience*, 71.
152. Erman, *Literature* 85-.
153. CAH, ii, 225.
154. Exs. in Erman, *Literature*, xxx-xxxiv.
155. Erman, *Life*, 386.
156. Schneider, H., i, 81.
157. Breasted, *Ancient Records*, i, 51
158. Schneider, H , i, 91-2.
159. Erman, *Literature*, 109.
160. Erman, *Literature*, xxv-vii, Maspero, *Struggle*, 494f.
161. Maspero, *Dawn*, 204.
162. Hall, M. P., *An Encyclopedia Outline of Masonic, Hermetic.*

Qabbalistic and Rosicrucian Symbolic Philosophy, 37

163 Sedgwick, W T, and Tyler. H W., *A Short History of Science*, 312.

164. Maspero, *Dawn*, 326.

165. Sedgwick and Tyler, 29.

166. Schneider, H., i, 85-6.

166. Schneider, H., i, 85-6.

167. CAH, ii, 216, *Encyc. Brit*, viii, 57.

168 Sedgwick and Tyler, 29.

169. Ibid., 89. Breasted, J. H., *Conquest of Civilization*, 88.

170 Williams, H. S., *History of Science*, i, 41

171. Ibid., i, 34.

172. Spencer, *Sociology*, iii, 251

173. Tabouis, G.R. *Nebuchadnezzar*, 318; Breasted, *Ancient Times*, 91.

174. Strabo, XVII. i. 46; Diodorus, I, I, 2.

175 Herodotus, II, 4; CAH, i, 248, Breasted, *History*, 14, 33; *Ancient Times*, 45; Erman, *Life* 10, Childe, *Ancient East*, 5; Williams, H.S., i, 38f, Maspero, *Dawn*, 16-7, 205-9, Moret, 134, Schneider, H., i, 86, Sedgwick and Tyler 34 Fraze *Adonis*, 280, 266-9, *Encyc. Brit.*, iv, 576, v, 654.

176. Ebers Papyrus, 99, 1f in Erman, *Life*, 357-8

177. Ibid, 353.

178. Garrison, 57.

179. Herodotus, II, 84; III, I.

180. Erman, *Life* 362.

181. Garrison, 55-9, Maspero, *Dawn*, 217, Breasted *Conquest of Civilization*, 88.

182. Smith, G. Elliot, *The Ancient Egyptians*, 57.

182a. Himes, Norman *Medical History of Contraception*, Chap. II, § 1. The suppositories contained chemicals identical with those now used in contraceptive jellies. The matter, however, is not beyond doubt.

183. Erman, *Life*. 360, Maspero, *Dawn*, 219-20, Harding. T. Swann, *Fads*, 325

184. Garrison, 53

185. Smith, G.E., *Ancient Egyptians*, 62, Diodorus, I, xxviii, 3.

186 Breasted, *Dawn of Conscience*, 353n.

187. Diodorus, I, lxxxii, 1-2.

188. Pliny, *Historia Naturalis*, VIII, in Tyrrell, Dr. C. A., *Royal Road to Health*, 57.

189. Herodotus, II, 77.

190. Erman, *Life*, 167-69, Capart, *Thebes*, figs. 4 and 107-9.

191. Maspero, *Art*, 132.

192. Pijoan, i, 101. Fregusson, Jas., *History of Architecture in All Countries*, i, 22. Breasted, *History*, 100.

193. E.g., Maspero, *Struggle*, 88.

194. At Beni-Hasan, Light. etc.

195. At Medinet-Habu.

196. Maspero *Art*. 84.

197. Schafer, *Tafel* VI, Breasted, *Dawn*, 218

198. Fry, R.E. *Chinese Art*, 13.

199. Schafer, 358, Capart, *Lectures*, fig. 176.

200. Maspero, *Art*, 174.

201, Schafer, 343, CAH, ii, 103.

202. Baikie, Jas., *Amarna Age*, 241, 256. All three are in the State Museum, at Berlin.

203. Cairo Museum, Maspero, *Art*, fig. 461, Schäfer, 433.

204. Athens Museum, Maspero, *Struggle*, 535.

205. Schäfer, 445.

206. Louvre, Schäfer 190

207. Cairo Museum Schäfer, 246-7.

208. Cairo Museum, Schäfer, 254.

209. Capart, *Thebes*. 173f.

210. Cairo Museum, Breasted, *History*, fig. 55, Maspero, *Art*, fig. 92.

211. Ibid., fig. 194.

212. Schäfer, *Tafel*. IX.

213. E.g., Schäfer, 305, 418.

214. Maspero, *Art*. fig. 287.

215. Schäfer, 367.
216. Ibid., *Tafel* XXI.
217. Maspero *Art.* 67.
218. Erman, *Life*, 448; CAH, ii, 422
219. CAH, ii, 105; Erman, 250-1.
220. Breasted, *Ancient Records*, ii, 147.
221. Spencer, *Sociology*, iii, 299.
222. Cf. Plato, *Timæus*, 22B,
223. Maspero, *Dawn*. 399.
224. Brown, B., *Widsom of the Egyptians*, 96-116; Breasted *Dawn*, 136f.
225. Ibid., 198.
226. Breasted, *Development*, 215.
227. Ibid., 188; *Dawn of Conscience* 168.
228. Breasted, *Development*, 182.
229. Maspero, *Dawn*, 639.
230. Ibid., 86.
231. Ibid., 95, 92.
232. Ibid., 156-8.
233. Ibid., 120-1.
234. Renard, 121
235. Capart, *Thebes*, 66; Maspero, *Dawn*, 119 *Struggle*, 536.
236. Maspero, *Dawn*, 102-3.
237. Briffault, iii, 187.
238. Hommel in Maspero, *Dawn*, 45.
239. Howard, Clifford, *Sex Worship*, 98.
240. Diodorus, I, lxxxviii, 1-3; Howard, C., 79; Tod, Lt-Col. Jas., *Annalsand Antiquities of Radjasthan*, 270, Briffault, iii, 205.
241. Carpenter, *Pagan and Christian Creeds* 183.
242. Maspero *Dawn*, 110-1.
243. Breasted, *Development*, 24-33, Frazer, *Adonis*, 269-75, 383.
244. Diodorus, I, xiv, 1.
245. Frazer, *Adonis*, 346 50, Maspero, *Dawn*, 131-2, Macrobius, *Saturnalia*, I, 18, in McCaCabe, Jos., *Story of Religious Controversy*, 169.
246. *Encyc. Brit*, 11th ed., ix, 52.
247. Moret, 5, Maspero, *Dawn*, 265,
248, Herodotus, ii, 37.
249. Breasted, *Dawn of Conscience*, 46, 83.
250. Breasted, *Development*, 293, Brown, B, *Wisdom of the Egyptians*, 178, Maspero, *Dawn* 199.
251. Translation by Robert Hillyer, in Van Doren, Mark, *Anthology of World Poetry*, 237.
52. In Maspero, *Dawn*, 189-90.
253. Breasted, *Development*, 291.
254 Erman, *Life* 358, exs in Erman, *Literature*, 89-43.
255, Maspero, *Dawn*, 282, Briffault, ii, 510.
256. Erman, *Life*, 352.
257. Herodotus, II, 82.
258. Breasted *Development*, 296, 308.
258a. Capart *Thebes*, 96.
259. Ibid., 76.
260. In Weigall, *Akhnarton*, 86.
261. Breasted, *Development*, 315.
262. E.g., Breasted, *Ancient Records*, ii, 369.
263. Breasted, *Development*, 324f.
264. The parallelisms are listed in Weigall, *Akhnaton*, 134-6, and in Breasted, *dawn of Conscience*, 182f.
265. Breasted, *Development*, 314.
266. Weigall, 102, 105.
267. Capart, *Lectures*, fig. 104.
268. Weigall, 103.
269. Petrie in Weigall, 178., Breasted *History*, 378.
270. Weigall, 116, Baikie, 284.
272. Baikie, 435.
273. CAH, ii. 154, Breasted, *History* 446.
274. Ibid., 491.
275. Capart, *Thebes*, 69.
276. Erman, *Life*, 129.
277. Weigall, A., *Life and times of Cleopatra*.
278. Faure, Elie, *History of Art*, i, p. xlvii.

الباب التاسع

1. Maspero, *Passing of the Empires*, 783.
2. CAH, i, 399.
3. The quotation are from Heraclitus, *Fragments*, and Mallock, W., *Lucretius on Life and Death*.
4. Harper, R. F., *Code of Hammurabi*, 3-7
5. Jastrow, M., *Civilization of Babylonia and Assyria*, 283.4.
6. Sumner, *Folkways*, 501.
7. CAH, iii, 250.
8. Harper, *Code*, 99-11.
9. CAH, i, 489; Maspero, *Struggle*, 43-4.
10. Maspero, *Dawn*, 759; Rawlinson, *Five Great Monarchies of the Ancient Eastern World*, iii, 22-3; McCabe, 141-2; Delaporte, 194-6.
11. CAH, ii, 429; id, 101.
12. Harper, *Assyrian and Babylonian Leterature*, 220.
13. Maspiro, *Passing*, 567.
14. Jastrow, 466.
15. Danil, iv, 30.
16. Rawlinson, it, 510.
17. Herodotus, I, 178. Strabo, to prove his moderation, says 44 XVI, i, 5).
18. Tabouis, 306.
19. Rawlinson, ii, 514; Herodotus I, 180.
20. Diodorus, II, x, 6; Strabo, XVI,
21. Tabouis, 307.
22. Herodotus, I, 181.
23. CAH, i, 503
24. Diodorus, II, x, 6; Strabo, XVI, i, 5; Maspero, *Passing*, 564, 782; CAH, i, 506-9; Rawlinson, ii, 517.
25. Maspero, *Dawn*, 761.
26. CAH, i, 541.
27. Berosus in Tabouis, 307.
28. Maspero, *Dawn*, 763-4; Delaporte, 107.
29. Maspero, *Dawn*, 556.
30. Strabo, XVI, I, 15. Attendants extinguished the flames with torrents of water.
31. Layard, A. H., *Nineveh and its Remains*, ii, 413.
32. *Code of Hammurabi*, sections 187-9; Delaporte, 113.
33. Lowie, *Are We Cifilized ?* 119; CAH, i, 501.
34. Lowie, 60, Maspero, *Dawn*, 760; CAH, i, 107, 501; ii, 227.
35. East India House Inscription in Tabouis, 287.
36. Xenophon, Cyropædia, V, iv, 33. The probable invention of this letter by Xenophon hardly lessens its pertinence.
37. Tabouts, 210.
38. Maspero, *Dawd*, 751-2
38a. Jastrow, 29n.
39. Ibid., 325; CAA, i, 515, Maspero *Dawn*, 749, 761, Delaporte, 118, 126, 231, Tabouis, 241.
40. Cf. e. g, Harper, *Assyrian and Babylonian Literature*, xlviii-lv.
41. *Encyc. Brit*, ii, 863.
42. *Code*, 48.
43. CAH, i, 526, Maspero, *Dawn*, 760, Delaporte, 110, Jastrow, 299.
44. Delaporte, 122, Maspero, *Dawn*, 720.
45. CAH, i, 520-1, Maspero, *Dawn*, 742-4, Jsstrow, 326.
46. Maspero, 735.
47. Ibid., 708.
48. Olmstead, A. T., *History of Assyria*, 525-8.
49. *Code*, 2, 132.
50. Delaprte, 134.
51. *Code*, 196.
52. 210.
53. 198.
54. Ibid.
55. 202-4
56. 195.
57. 218.

58. 194.
59. 143.
60. CAH, i, 517-8.
61 *Code*, 2261.
62. Jastrow, 305, 362; Maspero, *Dawn*, 748, CAH, i, 526
63. Harper, *Code*, p. II,
64. Jastrow, 488, CAH, i, 518.
65. CAH, iii, 237.
66. Maspero, *Dawn*, 679, 750, CAH, i, 535.
67. Delaporte, 133-4.
68. Maspero, 636.
69. CAH, i, 529-32.
70. Maspero, 645-6.
71. Ibid, 644.
72. Ibid. 644.
73. Briffault, iii 169.
74. CAH, i 208, 530.
75. Ibid, 500.
76. Briffault, iii, 88.
77. Daspero, 537.
78. Cf. Langdon, *Babyloian Wisdom*, 18-21,
79. Maspero, 546.
80. Ibid., 566-72.
81. Jastrow, 453-9, Frazer, *Adonis*, 6-7, Briffault, iii, 90, CAA, i, 461, iii, 282.
82. Briffaut, iii, 90, Harper, *Assyrian and Babylonian Literature*. liii.
83. Cf. e.g., Harper, 420-1.
84. Tabouis, 387.
85. Jastrow, 280, Maspero, 691-2.
86. Ibid., 687.
87. Ibid., 681-6.
88. Ibid., 689, Jastrow, 381, CAH, i, 531.
89. Jastrow, 249.
90. Maspero, 902.
91. Tabouis, 159, 165, 351.
92. Briffault, iii 94.
93. Woolley, 165.
94. CAH, iii, 216-7.
95. Harper, *Literature*, 433-9.
96. Maspero, 682.
97. Jastrow, 253-4, Maspero, 643, Harper, lix.
98. Jastrow; 2141-9.
99. Ibid., 267, Tabouis, 343-4, 374.
100. Williams, H. S., i, 74
101. Tabouis, 365,
102. Herodotus, I, 199, Strabo, XVI, i, 20.
103. "This view is now generally discredited."—Briffault, iii, 203.
104. So Farnell thinks — Sumner *Folkways*, 541. Frazer (Adonis, 50) rejects this interpretation.
105. Frazer, 53.
106. Briffault, iii, 203.
107. Amos ii, 7, Sumner and Keller, ii, 1273.
108. Frazer, 52, Lacroix, Paul, *History of Prostitution*, i, 21-4, 109.
109. Briffault iii, 220.
110. Jastrow, 309.
111. Maspero, 738-9.
112. Schneider, H., i. 155.
113. CAH, i, 547.
114. Ibid., 500-3, Hobhouse. 180, Maspero, 734.
115. Ibid.
116. Herodotus, i, 196. Several writers, however, described the custom as flourishing 400 years after Herodotus, cf. Rawlinson's *Herodotus*, i, 271
117. Maspero, 737.
118. Section 182.
119. Sumner, *Folkways* 378.
120. 141-2, Jastrow, 302-3.
121. 143.
122. CAH, i, 524, Maspero, 735-6, *Code*, 142.
123. *Encyc. Brit.*, ii, 863
124. Maspero, 789
125. Harper, *Literature*, xlviii, CAH. i, 520.
126. Woolley, 118, White, E. M., 71-5.
127. Maspero, 793.
128. Ibid., 735-8.
129. III, 159.
130. Layard, ii, 411, Sanger, 42.
131. Herodotus, I, 196.
132. V, I, in Tabouis, 366.
133. Delaporte, 199.

134. Jastrow. 31. 69-97; Mason. W. A.. 266; CAH. i. 124-5.
135. Jastrow. 275-6; Delaporte. 198; Schneider. H.. i. 181; Breasted. *Conquest of Civilization*. 152.
136. Schneider. i. 168
137. Maspero. 564; CAH. i. 150.
138. Leonard. W. E. *Gilgamesh*. 3.
139. Ibid.. 8.
140. Maspero 570f.
141. Delaporte. ix.
142. Jastrow. 415.
143. Pratt. *History of Music* 45; Rawlinson. iii. 20; Schneider. i. 168; Tabouis 354; CAH. i. 533.
144. Perrot and Chipiez *History of Art in Chaldea and Assyria* ii. 292.
145. Cf. "The Lion of Babylon" Jastrow Plate XVIII. a work of glazed tile from the reign of Nebuchadrezzar II.
146. Herodotus. I. 180.
147. Tabouis. 313.
148. Jastrow. 10; Maspero. 624-7.
149. Jastrow. 253. 261. 492; Maspero. 778-80; Strabo. XVI. i. 6; Rawlinson. ii. 580.
150. Sarton. Geo.. *Introduction to the History of Science*. 71.
151. Rawlinson. ii. 575; Schneider. i. 171-5; Lowie. 265; Sedgwick and Tyler 29; CAH. iii. 288f
152. Tabouis. 47. 317
153. Schneider. i. 171-5.
154. Maspero. 545.
155. Tabouis. 204. 356.
156. New Orleans *States*. Feb. 24, 1932.
157. *Code*. 215-7.
158. 218.
159. Maspero 780f; Jastrow. 250 f.
160. Ibid; Tabous. 294. 393.
161. Herodotus. I. 197; Strabo XVI. i. 20.
162. Schneider. i. 160.
163. Jastrow. 475-83; Landon. II. 35-6.
164. Ibid. 1.
165. Jastro. 461-3.
166. Tabouis. 254. 382.
167. Daniel. iv. 33.
168. Tabouis. 230. 264, 388.
169. Maspero *Passing* 626.
170. CAH. iii. 208. Jastrow. 184. believes that it was the priestly party which, disgusted with the heresies of Nabonidus, admitted Alexander.
171. Jastrow. 185; CAH. i. 568.

الباب العاشر

1. CAH. i. 468.
2. New York *Times*. Dec. 26. 1932.
3. CAH. ii. 429.
4. Olmstead. 16; CAH. i. 126.
4a. N. Y. *Times*. Feb. 24. 1933; Mar. 20. 1934.
5. CAH ii. 248.
6. Harper. *Literature*. 16-7.
7. Jastrow. 166-7; Maspero. *Struggle*, 663-4.
8. Ibid, 50-2; Maspero. *Passing*. 27. 50.
9. Ibid, 86. 94-5; CAH. iii. 25.
10. Diodorus. II. vi-xx; Maspero, *Struggle*, 617; CAH, iii, 27.
11. Maspero *Passing*. 243.
12. Olmstead, 309.
13. Maspero. *Passing*, 275-6.
14. Ibid. 315; CAH. iii. 79.
15. Harper. *Literature* 94-127.
16. Delaporte. 343-4.
17. Maspero, *Passing*. 412f.
18. Olmstead. 488. 494; CAH. iii. 88, 127; Jastrow. 182; Delaporte 223.
19. Diodorus. II. xxiii. 1-2.
20. Olmsterd. 519. 525-8. 531; Maspero. *Passing*, 401-2.
21. Rawlinson. ii, 235.
22. CAH. iii, 100.
23. Maspero. *Passing*, 7.
24. Ibid., 9-10.

25. Rawlinson, i, 474.
26. Ibid., 467.
27. Maspero, *Struggle*, 627-38.
28. EAH, iii, 104-7; Rawlinson, i, 477-9.
29. CAH, l c.
30. *Encyc Brit*, ii, 865.
31. Ibid., 868.
32. Maspero. *Passing*, 422-3.
33. Olmstead, 510, 531.
34. Ibid., 522-3, 558
35. CAH, iii, 186.
35a. Olmstead, 331.
36. Rawlinson, i' 405.
37. Olmstead. 537.
38. Ibid., 518; Maspero, *Passig*, 317-9; CAH, iii, 76, 96-7; Delaporte, 363; Rawlinson. i, 401-2.
39. CAH, iii, 107.
40. Ibid.; Delaporte, 285, 352.
40a. Olmstead, 624.
41. Maspero, *Passing*, 269.
42. Delaporte, 282; CAH, iii, 104-7.
43. Maspero, *Passing* 91, 262.
44. Olmstead, 87.
45. CAH, iii, 18.
46. Delaporte, viii
47. Faure, i, 90.
48. Maspero, 515-6.
49. CAH, iii, 90-1.
50. Ibid, 89-90.
51. Delaporte, 354.
52. CAH, iii, 102. 241, 249.
53. Breasted, *Ancient Times*, 161; Jastrow, 21.
54. Maspero, 461-3.
55. *Encyc. Brit*, ii, 851.
56. Rawlinson, i. 277; Delaporte, 338; Jastrow, 407; CAH, iii, 109.
57. Schäfer, 555; now in the British Museum.
58. Schäfer, 531.
59. Ibid, 546; in the British Museum.
60. Oriental Institute, Chicago.
61. British Museum.
62. Schäfer, *Tafel* XXXIV.
63. Ibid., 537, 558-9; Jastrow, f. p. 24.
64. Faure, i, 91; Br. Mus.
65. Rawlinson, i, 509.
66. Schäfer, 556.
67. E.g., Baikie, f. p. 213; and Pijoan, i, figs. 175-6.
68. Fergusson, *History of Architecture*, i, 85, 174-6, 205
69. Rawlinson, i, 299.
70. Layard, ii, 262f.
71. Jastrow, 374; translation slightly improved.
72. Br. Mus.
73. Rawlinson, i, 281.
74. CAH, iii, 16, 75-7; Maspero, *Passing*, 45; 260; Pijoan, i, 121, 111-8; Jastrow, 415; Schäfer, 542-3.
75. Maspero, *Passing* 460.
76. Harper, *Literature*, 125-6.
77. CAH, iii, 127.
78. Diodorus, ii, xxiii, 3.
79. Preserved in Diodorus, II, xxvii, 2. Cf. Maspero, *Passing*, 418.
80. Nahum, iii, 1.

الباب الحادي عشر

1. Cowan, A. R., *Master-cues in World-History*, 311; Petrie, *Egypt and Israel*, 26.
2. Breasted, *Conquest of Civilization*, 192n.
3. *Encyc. Brit.*, xi, 600-1.
4. Horzny, F, *ibid*, 603.
4a. New York *World-Telegram*, Mar. 16, 1935.
5. Ibid., 606. Certain archeologists (e. g., Hrozny) have been especially moved by the lenience of the Hittite code with sexual perversions.
6. CAH, iii, 200.
7. Herodotus, IV. 64.
8. Maspero *Passing*, 479f. Hippocrates, *Airs, Waters, Places*,

8. xvii-xxii.
9. Ibid., xvii.
10. Frazer, *Adonis*, 219f.
11. Ibid., Maspero, *Passing*. 333.
12. Frazer, 34, 219-24, Hall, M. P., *An Encyclopedic Outline of Masonic Philosophy*, 36
13. Herodotus, I, 93.
14. Ibid., I, 87.
15. Febvre, L., *Geographical Introduction to History*, 322.
16. Moret, 350.
17. Herodotus, II, 44.
18. Strabo, XVI, ii, 23.
19. Diodorus Siculus V, xxxv; Rickard, I, 276.
20. *Decline and Fall of the Roman Empeire*, ed. 1903, i, 296, in Rickard, i, 278.
21. Maspero, *Struggle*, 192f, 203, 585; Day, Clive, *A History of Commerce*, 12-14; Briffault, i, 463; Sedgwick and Tyler, 14.
22. Rickard, i, 283.
23. Herodotus, IV, 42.
24. Maspero, *Struggle*, 199, 740-1.
25. Arrian, II, xv.
26. Ibid, VI, 220
27. Zechariah, ix, 3.
28. XV, ii. 23.
29. Frazer, *Adonis*, 183-4; Maspero, *Struggle*, 174-9; Bebel, A., *Woman under Socialism*, 39; Briffault, iii, 220; Sanger, *The History of Prostitution*, 42.
30. Sedgwick and Tyler, 15; Doane, T. W., *Bible Myths*, 41.
31. E.g., Herodotus, V. 58.
32. Dussaud, in Venkateswara, 328.
33. CAH, i, 189.
34. Maspero, *Struggle*, 572f.
35. *Proceedings of the Oriental Institute*, Chicago, March 29, 1932.
36. New York *Times*, Aug. 8, 1930.
37. Ward, C. O., *The Ancient Lowly*, ii, 83, 85.
38. CAH, ii, 328-9.
39. Frazer, *Adonis*, 32-5.
40. Ibid., 225-7; Maspero *Struggle*, 154-9.
41. Ibid., 160-1.
42. Deut., xviii 10; 2 Kings, xxiii, 10 Sumner, *Folkways*, 554.
43. Frazer, 84; Maspero, *Passing*, 80; CAH iii, 372.
44. Mason, W. A., *History of the Art of Writing*, 306; Maspero, *Passing*, 35; Rivers, W. H., *Instinct and the Unconscious*, 132.

الباب الثانى عشر

1. Exod. iii, 8; Numb. xiv, 8; Deut. xxvi, 15, etc.
2. Quoted in Huntingdon, E., *The Pulse of Asia*, 368.
3. New York *Times*, Jan. 20, 1932, May 17, 1932
4. CAH, ii, 719n; *Encyc. Brit.* xiii, 42.
5. Gen. xi, 31.
6. Petrie, *Egypt and Israel*, 17.
7. CAH, ii, 356.
8. Breasted, *Dawn of Conscience*, 349.
9. Maspero, *Struggle*, 70-1, 442-3.
10. Exod. xii, 40, Petrie, 38.
11. Exod. i, Deut. x, 22.
12. Exod. i, 12.
13. Josephus, *Works*, ii, 466, *Contra Apion*, i.
14. Strabo, XVI, ii, 35, Tacitus, *Historiae*, V, iii, tr'n Murphy, London, 1930, 498.
15. Exod. v, 4-6, Ward, *Ancient Lowly*, ii, 76.
16. Schneider, i, 285.
17. United Press Dispatch from London, Jan. 25, 1932.
18. New York *Times*, April 18, 1932.
19. Numb. xxxi, 1-18, Deut. vii, 16, xx, 13-17, Joshua viii, 26,

x. 24f, xii.
20. Ibid., xi, 23; Judges v, 31.
21. CAH, iii, Maspero, *Passing*, 127; *Struggle*, 762; Buxtron, *Peoples of Asia*, 97.
22. Renan, *History of the People of Israel*, i, 86.
23. Schneider, i, 300; Mason, *Art of Writing*, 289.
23a. N. Y. *Times*, Oct. 18, 1934.
24. Maspero, *Struggle*, 684.
25. Judges xvii, 6.
26. I Sam. viii, 10-20; cf. Deut. xvii, 14-20.
27. Judges xiii-xvi; xv, 15.
28. 2 Sam. vi, 14.
29. I Kings ii, 9
30. 2 Sam. xi
31. 2 Sam. xviii, 33.
32. I Kings iii 12.
33. I Kings iv, 32.
34. I Kings ix, 26-8.
35. Ibid.
36. I Kings x.
37. Ibid., x, 11.
38. *Jewish Encyclopedia*, ix, 850; Graetz, H., *Popular History of the Jews*, i, 271.
39. Renan, ii, 100.
40. 2 Chron. ix, 21.
41. Maspero, *Struggle*, 737-40.
42. Josephus, *Antiquities*, VII, 7.
43. I Kins iii, 2
44. I Chron. xxix, 2-8.
45. CAH, iii, 347.
46. Ibid.
47. 2 Chron, iii, 4-7; iv, *passim*
48. 2 Chron. ii, 7-10, 16; I Kings v, 6
49. 2 Chron. ii, 17-18.
50. Cf. I Kings vi, I, with vii, 2.
51. Fergusson, *History of Architecture*, i, 209-11.
52. Shotwell, J., *The Religious Revolution of Today*, 30.
53. Josephus, VIII, 18.
54. CAH, iii, 428.
55. Numb. xxi, 8-9; 2 Kings xviii, 4.
56. Allen, G., *Evolution of the Idea of God*, 1921; Howard, C., *Sex Worship*, 154-5.
57. Smith, W. Robertson, *Religion of the Ancient Simeles*, 101.
58. Reinach, *History of Religions* (1930), 176-7.
59. Exod. vii.
60. New York *Times*, May 9, 1931.
61. Exod. xii, 7, 31.
62. Exod. xxxiii, 19.
63. Gen. xxxi, 11-12.
64. Exod. xxxiii, 23.
65. I Kings xx, 23
66. Exod. xv, 3.
67. 2 Sam. xxii, 35.
68. Exod. xxiii, 27-30
69. Lev. xxv, 23.
70. Exod. xiv, 18.
71. Numb. xxv, 4.
72. Exod. xx, 5-6.
73. Ibid., xxxii, 11 14.
74. Numb. xiv, 13-18
75. Gen. xviii.
76. Deut. xxviii, 16-28, 61. Cf. the formula of excommunication in the case of Spinoza, in Willis, *Benedict de Spinoza*, 34.
77. Exod. xx, 5; xxxiv, 14; xxiii, 24.
78. Ruth i, 15; Judges xi, 24
79. Exod. xv, 11; xviii, 11.
80. 2 Chron. ii, 5.
81. Ezek. viii, 14.
82. Jer. ii, 28; xxxii, 35.
83. 2 Kings ii, 15.
84. 2 Sam. vi, 7; 1 Chron. xiii, 10.
85. Sumner, *Folkways*, 554.
86. CAH, iii, 451f.
87. Numb. xviii, 23.
88. Ezra vii, 24.
90. Numb. xviii, 9f.
91. Isaiah xxviii, 7; Judges viii, 33; ix 27; 2 Kings xvii, 9-12, 16-17; xxiii, 10-18; Lamentations ii, 7.
92. Ezek. xvi, 21; xxiii, 37: Isaiah, lvii, 5.
93. Amos ii, 6.
94. CAH, iii, 458-9; Frazer, *Adonis*, 66.
95. Jer. xxix, 26.
96. Maspero, *Passing*, 783.
97. Applied by G. B. Shaw to Christ

in "The Revolutionist's Handbook," appended to *Man and Superman*.
98. CAH, vi, 188.
99. Like Isiah xl-lxvi.
100. CAH, iii, 462.
101. Amos v-vi.
102. Ibid., iii, 12, 15.
103. New York *Times*, Jan. 7, 1934.
104. Hosea viii, 6-7.
105. Kings xviii, 27; Isaiah xxxv, 12
106. Maspero, *Passing*, 290; CAH, iii, 390.
107. Sarton, 58.
108. Isaiah vii, 8.
109. Ibid., xvi,7.
110. III, 14-15; v, 8; x, 1f.
111. I, 11f.
112. Amos ix, 14-15.
113. Isaiah vii, 14; ix, 6'; xi, 1-6; ii, 4. The final passage is repeated in Micah iv, 3.
114. Hosea xii, 7.
115. 2 Kings xxii, 8; xxiii, 2; Chron. xxxiv, 15, 31-2.
116. Sarton, 63, CAH, iii, 482.
117. 2 Kings xxiii, 2, 4, 10, 13.
118. 2 Kings xxv, 7.
119. Psalm CXXXVII.
120. Jer. xxvii, 6-8.
121. XV, 10; xx, 14.
122. V, 1.
123. V, 6.
124. XXXIV, 8f.
125. VII, 22-3.
126. XXIII, 11, v, 31; iv, 4; ix, 26.
127. XVIII, 23.
128. IV, 20-31; v, 19; ix, 1.
128a. Arguments for doubting Jeremiah's authorship of *Lamentations* may be found in the *Jew. Encyc.*, vii, 598.
129. Lam. i, 12, iii, 38f; Jer. xii, 1
130. Ezek. xvi, xxiii,
131. Ibid., xxii, xxxviii, 2.
132. Ibid., xxxvi.
132a. CAH, vi, 183; *Enc. Brit.*, iii, 503.
133. Isaiah lxi, 1.
134. Ibid., xl, 3, 10-11; liii, 3 6.
134a. AH. iii, 498.
135. LXV, 25.
136. XLV, 5,
137. XL, 12, 15, 17, 18, 22, 26.
138. Ezra i,7-11; Maspero, *Struggle*, 638f; *Bassing*, 784.
139. Nehemiah x, 29.
140. 2 Kings xxii, 10; xxiii, 2; Nehem. viii, 18.
141. CAH, vi, 175.
142 *Enc. Brit.*, iii, 602.
142a. *Jew Encyc.*, v, 322.
143. Ibid.; Sarton, 108; Maspero, *Passing*, 131-2.
144. CAH, iii, 481.
145. Doane, *Bible Myths*, chapter i, *passim*.
146. Ibid., 10.
147. Ibid., ch. i.
148. Cf. Doane, 18-48.
149. Sarton, 63.
150. Renan, iv, 163.
151. Reinach (1930), 19; Frazer, Sir J. G., *The Golden Bough*, 472.
152. Exod. xxi-ii; Lev. xviii.
153. Spencer, *Sociology*, iii, 189.
154 Garrison, *History of Medicine*, 67.
155. Ibid.
156. Ibid.
157. Briffault, iii, 331.
158. Renan, i, 105.
159. Diodorus Siculus I, xciv, 1-2; Doane, 59-61.
160. Diodorus, Ibid.
161. Lev. xxiv, 11-16; Deut. vii, xiii, xvii, 2-5.
163. Petrie, *Egypt and Israel*, 60-1; CAH, iii, 427-8.
164. Ezra i, 7-11.
165. 2 Chron. v, 13.
166. 2 Sam. vi, 6.
167. *Enc. Brit.*, 11th ed., xv, 311; *Jew. Encyc.*, vii, 88.
168. Briffault, ii, 433; Sumner and Keller, ii, 1113.
168a. Reinach (1930), 195; *Jew. Encyc.* v. 377.
169. Gen. xxiv, 58; Judges i, 12.
170. Howard, 58.

172. Judges iv, 4.
173. 2 Kings xxii, 14.
174. Briffault, iii, 862; Howard, 49; Dubois,212; Sumner, *Folkways*, 316, 321.
175. Gen. xxx, 1.
176. Cf. Maspero, *Struggle*,733, 776; CHA, ii, 373.
177. Maspero, ibid.
178. Cf. 2 Kings iii, 18-19; Joshua vi, 21, 24.
179. 1 Kings xx, 29.
180. Deut. vii, 6; xiv, 2; 2 Sam.vii, 23, etc.
181. Sanger, *History of Prostitution*, 36.
182. Ibid., 35; Gen. xiv, 24-5.
183 Sanger, 37-9.
184. Gen. xxix, 20.
185. Deut. xxi, 10-14.
186. Judges xxi, 20-1.
187. Gen. xxxi. 15; Ruth iv, 10; Hobhouse, *Morals in Evolution*, 197f; Briffault, ii, 212; Lippert, 310.
187a. Westermarck, *Moral Ideas*, ii. 609; White, E. M., *Woman in World History*, 109f.
188. Gen. xxx.
189. Deut. xxv, 5.
190. Lev. xx, 10; Deut. xxii, 22.
191. Westermarck, i, 427.
193. Deut. xxiv, 1; Westermarck,ii, 649; Hobhouse, 197f.
194. Gen. xxiv, 67.
195. Lev. xxv, 23.
196. Renard, 160; CAA, i, 201.
197. Deut. xv, 6; xxviii, 12.
198. Sumner, *Folkways*, 276.
199. 2 Kings iv, 1; Matt. xviii, 25.
200. Lev. xxv, 14, 17.
201. Exod. xxi, 2; Deut. xv, 12-14.
202. Lev. xxv, 10.
203. Deut. xv, 7-8; Lev. xxv, 36.
204. Exod. xxi, 10; Deut. xxiv, 19-20.
205. Gen. xxiv, 2-4.
206. Graetz, i, 173.
207. Deut. xvii 8-12.
208. Numb. v, 27-9.
209. Ibid., 6-8.
210. Exod. xxi, 15-21; xxii, 19.
211. Exod. xxii, 18.
212. Numb. xxxv, 19.
213. Deut. xix.
214. Exod. xxi, 23-5; Lev. xxiv,9-20.
215. Exod. xx, 17.
216. Renan, ii, 307.
217. *Jew. Encyc*, vii, 381; Graetz. i, i, 224.
218. *Enc. Brit.*, iii, 504. The *Psalms* seem to have been collected in their present from ca. 150 B.C.—Ibid., xxii, 639.
219. In the poem entitled "Walt Whitman." sect. 44; *Leaves of Grass*, 84-5.
219. The *Jew Encyc.*, xi, 467, assigns its composition to 200-100 B.C.
220. Songs. of Solomon i' 13-16; ii, 15, 7, 16, 17; vii, 11, 12.
221. Prov. vii, 26; vi, 32; xxx, 18-19.
222. Ibid., v, 18-1-19; xv, 17.
223. Ibid., vi, 6, 9.
224. XXII, 29.
225. I, 32; xxviii, 20.
226. XIV, 23; xxviii, 11, xvii, 28.
227. XVI, 22; iii., 13-17.
228. *Enc. Brit*, iii, 504.
229. Jastrow, M., *Book of Job*, 121.
230. Kallen, H., *Book of Job as a Greek Tragedy*, Introduction.
230a. Carlyle,Thos.,*Complete Works*, Vol.i, *Heroes and Hero-Worship* p. 280, Lect. II.
231. Job vii, 9-10; xiv, 12.
232. Psalm LXXIII, 12.
233. Psalms XLII, XLIII, 23;LXXIV 22; LXXXIX, 46; CXV, 2.
234. Job xii, 2-3, 6; xiii, i, 4-5.
235. XXXI, 35.
236. Renan, v, 148; Jastrow,*Job*, 180
237. Job xxxviii, 1—xl, 2. It has been argued that these chapters are an independent "nature-poem," artificially attached to the *Book of Job*.
238. Job xlii, 7-8.
239. Sarton, 180.
240. Eccles i, 1.

241. Ibid., vii, 16; iv 1; v, 8.
242. IX, 11.
243. V, 10, 19
244. V, 11.
245. VII, 10.
246. I, 9-10.
247. I, 11.
249. I, 2-7, iv, 2-3; vii, 1.
250. VIII, 15; ii, 24; v, 18; ii, 1.
251. VII, 28, 26.
252. IX. 8.
253. XII, 12.
254. VII, 11, 16.
255. Exod. xxxiii, 20.
256. Eccles. I, 13-18.
257. III, 19, 22; xix 10; For the Talmudic interpretation of the final chapter of *Ecclesiastes*, cf. Jastrow, M., *A Gentle Cynic*, 1891.
258 Josephus, *Antiquities*, *XI*, 8; *Works*, i, 417. The account is questioned by some critics-cf. *Jew. Encyc.*, i, 342.

الباب الثالث عشر

1. Huart, C. *Ancient Persian and Iranian Civilization*, 25-6.
2. Maspero, *Passing*, 452
3. Herodotus, I, 99.
4. Ibid., i. 74.
5. Rawlinson, ii, 370.
6. Daniel vi, 8.
7. Rawlinson, ii, 316-7.
8. Huart, 27.
9. Herodotus, I, 119.
10. *Encyc Brit.*, xvii, 571.
11. Rawlinson, iii, 389.
12. Maspero. 668-71.
13. Rawlinson, iii, 395.
14. Herodotus, III, 184.
15. Sykes, Sir P., *Persia*, 6.
16. XV, iii, 10.
17. The population estimates are those of Rawlinson, iii 427, 241.
18. Strabo, XV, ii, 8; Rawlinson, ii, 306; iii, 164; Maspero, 452.
19. Dhalla, M. N., *Zoroastrian Civilization*, 211, 222, 259; Rawlinson, iii 202-4; Köhler, Carl, *History of Costume* 76-6.
20. Rawlinson, iii, 211, 248.
21. Adapted from Rawlinson, iii, 250-1.
22. Huart 22.
23. Schneider, i, 350.
24. Mason, W. A., 264.
25 Dhalla. 141-2.
26. Herodotus, I, 126.
27 Strabo, XV, iii, 20; Herodotus, I, 133.
28. Dhalla, 187-8.
29. Herodotus. V, 52.
30. CAH, iv, 200.
31. Dhalla, 218.
32. Ibid., 144, 257; Müller, Max, *India : What Can It Teach Us?*, 19.
33. Rawlinson, iii, 427.
34. CAH, iv, 185-6.
35. Rawlinson, iii, 245.
36. Ibid., 171-2.
37. Ibid., 228; Plutarch, *Life of Artaxerxes*, chs. 5-17.
38. Rawlinson, iii, 221.
39. Dhalla, 237.
40. Ibid., 89.
41. Rawlinson, iii, 241.
42. Herodotus, VII, 39. But perhaps Herodotus had been listening to old wives' tales.
43. Dhalla, 95-9.
44. Ibid., 106.
45. Herodotus, V, 25.
46. Darmesteter, J., *The Zend-Avesta* i, p. lxxxiiif.
47. Ibid.
48. Huart, 78; Darmesteter lxxxvii; Rawlinson, iii, 246.
49. Ibid, Sumner, *Folkways*, 236.
50. Plutarch, *Artaxerxes*, in *Lives*, iii, 464.
51. Rawlinson, iii, 427; Herodotus III, 95; Maspero, Passing, 690f;

CAH, iv, 198f.
53. Maspero, 572f.
54. Vendidad, XIX, vi, 45.
55. Darmesteter, i, xxxvii; *Encyc. Brit.*, xxiii, 987.
56. Dawson, M. M., *Ethical Religion of Zoroaster*, xiv.
57. Rawlinson, ii, 323.
58. Edouard Meyer dates Zarathustra about 1000 BC.; so also Duncker and Hummel (*Encyc Brit.*, xxiii, 987; Dawson, xv); A. V. W Jackson places him about 660-583 B.C. (Sarton, 61).
59. Briffault, iii, 191.
60. Dhalla, 72.
61. Schneider, i, 833; CAH, iv, 210f; Rawlinson, ii, 323.
62. *Encyc Brit.*, xxiii, 942-3; Rawlinson, ii, 322; Dhalla, 38f.
63. Ibid., 40-2; *Encyc Brit.*, xxiii, 942-3; Maspero, *Passing*, 575-6; Huart, xviii; CAH, iv, 207.
64. *Encyc Brit.*, l.c.
65. Darmesteter, xxvvii, Gour, Sir Hari Singh, *Spirit of Buddhism*, 12.
66. Vend. II. 4, 29, 41.
67. Ibid., 22-43.
68. Darmesteter, lxii-iv.
69. Yasna, xliv, 4.
70. Darmesteter, lv, lxv.
71. Dawson. 62f.
72. *Encyc. Brit.*, xxiii, 988.
73. Dawson, 46.
74. Maspero, *Passing*, 583-4; Schneider, i, 336; Lawlinson, ii, 340.
75. Dawson, 125.
76. *Shayast-Shayast*, XX, 6, in Dawson, 131.
77. Vend. IV, 1.
78. Ibid., XVI, iii, 18.
79. Herodotus, i, 134.
80. *Shayast-Shayast*, VII, 6, 7, 1, in Dawson, 36-7.
81. Westermarck, *Morals*, ii, 434; Herodotus, VII, 114; Rawlinson, iii, 350n.
82. Strabo, XV, iii, 13; Maspero, 592-4.
83. Reinach (1930), 73; Rawlinson, ii, 338.
84. The "Ormuzd" Yast, in Darmesteter, ii, 21.
85. Nask VIII, 58-73, in Darmesteter, i, 380-1.
86. Vend., XIX, v. 27-34; Vast 22; Yasna LI, 15; Maspero, 590
87. Yasna XLV, 7.
88. Dawson, 246-7.
89. Ibid., 250f.
90. Ibid., 250-3.
91. CAH, iv, 211
92. Cf., e.g., Darmesteter, i, pp; lxxii-iii.
93. CAH, iv, 209.
94. Dhalla, 201, 218; Maspero, 595.
95. Harper, *Literature*, 181.
96. Dhalla, 260-1.
97. Herodotus, IX, 109; Rawlinson, iii, 170.
98. Ibid., iii. 618, 524.
99. Ibid., 170.
100. Strabo. XV. iii, 20.
101. Dhalla. 221
102. Herodotus, I, 80; Xenophon, *Cyropaedia*, I, ii, 8; VIII, viii, 9; Strabo, XV, iii, 18; Rawlinson, iii. 236.
103. Dhalla, 155; Dawson, 36-7.
104. Dhalla, 119, 190-1.
105. E.g., Vend. IX.
106. Darmesteter, i, p. lxxviii.
107. Vend. VIII, 61 5.
108. I, 4.
109. I, 135.
110. Vend. VIII, v, 32; vi, 27.
111. Strabo, XV. iii, 17; Vend. IV, iii, 47.
112. Ibid., III, 1.
113. XV, ii, 20f.
114. XX, i, 4; XV, iv, 50 1.
115. XXI, 1, 1.
116. Maspero, 588. These cases were apparently confined to the Magi.
117. Herodotus, VII, 83; IX, 76; Rawlinson, iii. 238.
118. Esther, ii, 14; Rawlinson. iii, 219.
119. Dhalla, 74-6. 219; Rawlinson, iii, 222, 237.

119a. Plutarch, Artaxerxes, *Lives*, iii, 463-6.
120. Dhalla, 70-1.
121. Herodotus, I, 139; Dhalla, 219.
122. Vend. XV, 9-12; XVI, 1-2.
123. Bundahis, XVI, 1, 2, in Dawson, 156.
124. Venkateswara, 177, Dhalla, 225.
125. Ibid., 83-5; Dawson, 151.
126. Herodotus, I, 136.
127. Strabo, XV, iii, 18.
128. Darmesteter, i, p. lxxx.
129. Vend. VII, vii, 41f.
130. Ibid., 36-40.
131. Rawlinson, iii, 235.
132. N. Y. *Times*, Jan. 6, 1931.
133. Dhalla, 176, 195. 256; Rawlinson, iii, 234.
134. N. Y. *Times*, Jan 23, 1933.
135. Dhalla, 253-4.
136. Rawlinson, iii, 278.
137. N. Y. *Times*, July 28. 1932.
138. Fergusson, *History of Architecture*, i, 198-9, Rawlinson, iii, 298.
139. Breasted in N. Y. *Times*, March 9, 1932.
140. CAH, iv, 204.
140a. Dhalla, 260-1.
140b. Rawlinson, iii, 244, 400.
141. Maspero, 715.
142. Arrian, *Anabasis of Alexandr*, I, 15.
143. Josephus, *Antiquities*, XI viii, 3.
144. Arrian, I, 16.
145. Quintus Curtius, III, 17.
146. Arrian, II, 11, 18; Plutarch, *Life of Alexander*, ch. 20.
147. Quintus Curtius, X, 17, CAH, vi, 369.
148. Plutarch, *Alexander*, ch. 31; Arrian, III, 8.

فهرس الأعلام

(*) هذه العلامة تشير إلى هامش الصفحة .

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ق)

(م)

(ه)

(و)

(ى)

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٥٦١ / ١٩٧١

مطابع الدجوى
عابدين — القاهرة

فهـــرس

الـكتاب الأول

الشرق الأدنى

الموضوع | الصفحة

الباب الثامن — مصر

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الباب التاسع : بابل

الموضوع | الصفحة

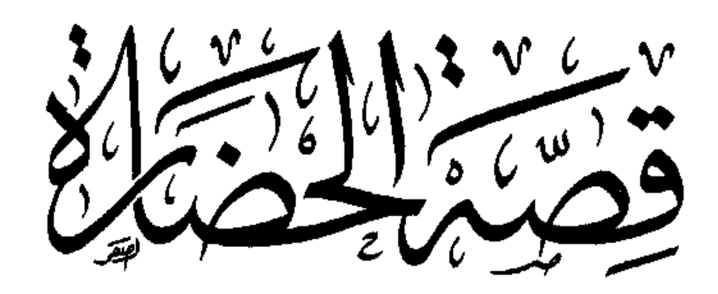
الباب الثانى عشر : اليهود

الباب الثالث عشر : فارس

الموضوع	الصفحة

فهرس الخرائط والصور

الصورة	الصفحة
أسد بابل	٢٤٥
منشور سنحريب	٢٨٩
نقش أشوري يمثل مردك يقاتل تيامات	٢٨٦
صيد الأساد	٢٨٧
اللبؤة المحتضرة	٢٨٨
الثور المجنح	٢٨٩
رأس عصر عدن	٢٩١
شارع في القدس الحديثة	٣٢٥
صورة مستعادة لهيكل سليمان	٣٣٥
خرائب برسيوليس	٤٥٠
نقش الرماة	٤٥٢



قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

الهند وجيرانها

ترجمة

الدكتور زكي نجيب محمود

الجزء الثالث من المجلد الأول



٣

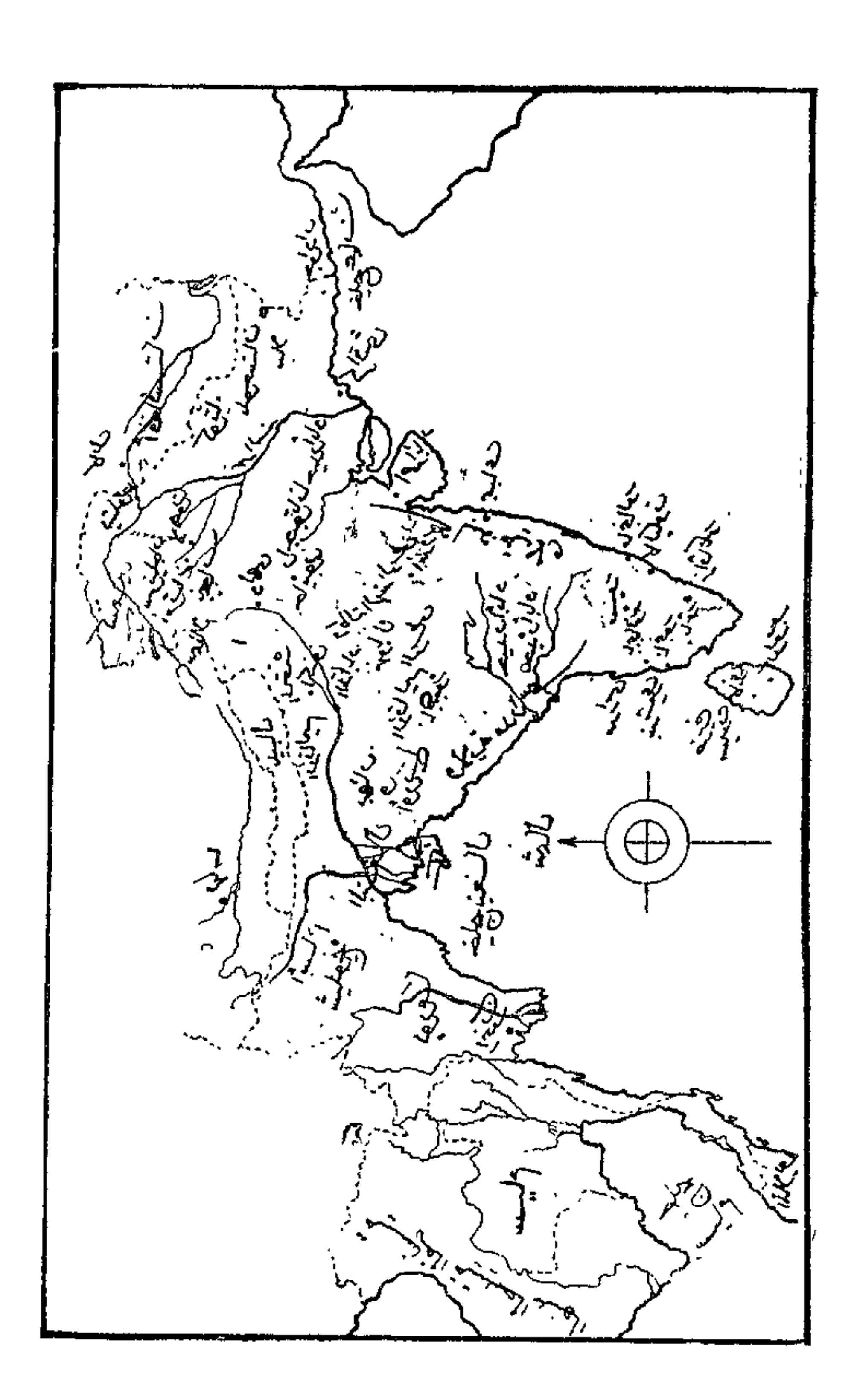


تونس



بيروت

فهرس الخرائط والصور



الكتاب الثاني

الهند وجيرانها

« أسمى الحقائق هي هذه : الله كائن فى الأشياء كلها ؛ إنها صوره الكثيرة ، ليس وراء هذه الكائنات إله آخر تبحث عنه ... إننا نريد عقيدة دينية تعمل على تكوين الإنسان ... اطرح هذه التصرفات المنهكة للقوى وكن قويا ... ومدى الخمسين عاما المقبلة ... لنمح كل ما عدا ذلك من آلهة من صفحات أذهاننا ؛ جنسنا البشرى هو الإله الوحيد اليقظان ، يداه فى كل مكان ، قدماه فى كل مكان ، أذناه فى كل مكان ؛ إنه يشمل كل شيء ... إن أولى العبادات كلها هى عبادة من حولنا ... ليس يعبد الله إلا من يخدم سائر الكائنات جميعا ».

ڤيڤيكاناندا(١)

قائمة تبين التاريخ الهندى بترتيبه الزمنى(*)

قبل الميلاد

السنة	الحدث
٤٠٠٠	ثقافة العصر الحجرى الحديث فى ميسور
٢٩٠٠	ثقافة «موهنجو دارو»
١٩٠٠	الغزو الآرى للهند
١٠٠٠ – ٥٠٠	تكوين الڤيدات
٨٠٠ – ٥٠٠	كتب يوپانشاد
٥٩٩ – ٥٢٧	ماهاڤيرا مؤسس العقيدة الجانتية
٥٦٣ – ٤٨٣	بوذا
٥٠٠	سوشروتا الطبيب
٥٠٠	كاپيلا وفلسفة «سانخيا»
٥٠٠	أول الأشعار الدينية السنسكريتية
٣٢٩	الغزو اليونانى للهند
٣٢٥	الإسكندر يغادر الهند
٣٢٢ – ١٨٥	أسرة موريا المالكة
٣٢٢ – ٢٩٨	تشاندرا جبتا موريا
٣٠٢ – ٢٩٨	المجسطى فى باتاليپترا
٢٧٣ – ٢٣٢	أشوكا

بعد الميلاد

السنة	الحدث
١٢٠	كانشكا، ملك كوشانه
١٢٠	شاراكا الطبيب
٣٢٠ – ٥٣٠	أسرة جپتا المالكة
٣٢٠ – ٣٣٠	شاندرا جپتا الأول
٣٣٠ – ٣٨٠	سامدرا جپتا
٣٨٠ – ٤١٣	فكراماديتيا
٣٩٩ – ٤١٤	فاهين فى الهند
١٠٠ – ٧٠٠	معابد أجانتا ورسومها
٤٠٠	كاليداسا، شاعر ومسرحى
٤٥٥ – ٥٠٠	غزو الهون للهند
٤٩٩	أريا بهاتا الرياضى
٥٠٥ – ٥٨٧	ڤاراها ميهيرا الفلكى
٥٩٨ – ٦٦٠	براهما جپتا الفلكى
٦٠٦ – ٦٤٨	الملك هارشا ڤاردانا
٦٠٨ – ٦٤٢	پولاكيشين الثانى ملك شالوكيان
٦٢٩ – ٦٤٥	يوان تشوانج فى الهند
٦٢٩ – ٥٠	سترونج – تسان جامپو ملك التبت
٦٣٠ – ٨٠٠	العصر الذهبى فى التبت
٦٣٩	سترونج – تسان جامپو يؤسس لهازا
٧١٢	غزو العرب للسند
٧٥٠	نشأة مملكة پالاڤا
٧٥٠ – ٧٨٠	بناء بوروبدور، جاوه معبد كايلاشا
٧٨٨ – ٨٢٠	شانكارا فيلسوف الڤدانتا

(*) التواريخ التى قبل سنة ١٦٠٠ ميلادية موضع الشك، والتواريخ التى قبل سنة ٣٢٩ قبل الميلاد رجم بالغيب.

بعد الميلاد

٨٠٠ — ١٣٠٠ العصر الذهبي في كامبوديا
٨٠٠ — ١٤٠٠ العصر الذهبي في راجبوتانا
٩٠٠ ظهور مملكة تشولا
٩٧٣ — ١٠٤٨ البيروني العالم العربي
٩٩٣ تأسيس دلهي
٩٩٧ — ١٠٣٠ السلطان محمود الغزنوي
١٠٠٨ محمود يغزو الهند
١٠٧٦ — ١١٢٦ فكراما ديتيا شالوكيا
١١١٤ بهاسكارا الرياضي
١١٥٠ بناء انجور وات
١١٨٦ الغزو التركي للهند
١٢٠٦ — ١٥٢٦ سلطنة دلهي
١٢٠٦ — ١٢١٠ السلطان قطب الدين أيبك
١٢٨٨ — ١٢٩٣ ماركو پولو في الهند
١٢٩٦ — ١٣١٥ السلطان علاء الدين
١٣٠٣ علاء الدين يستولي على شيتور
١٣٢٥ — ١٣٥١ السلطان محمود بن طغلك
١٣٣٦ تأسيس فيجا يانجار
١٣٣٦ — ١٤٠٥ تيمور لنك
١٣٥١ — ١٣٨٨ السلطان فيروز شاه
١٣٩٨ تيمور لنك يغزو الهند
١٤٤٠ — ١٥١٨ كابر الشاعر
١٤٦٩ — ١٥٣٨ بابا ناناك مؤسس السيخ
١٤٨٣ — ١٥٣٠ بابور يؤسس أسرة المغول المالكة
١٤٨٣ — ١٥٧٣ سرداس الشاعر
١٤٩٨ فاسكو دا جاما يصل إلى الهند
١٥٠٩ — ١٥٢٩ كرشنا ديفا رايا يحكم فيجا يانجار
١٥١٠ البرتغاليون يحتلون جوا
١٥٣٠ — ١٥٤٢ همايان
١٥٣٢ — ١٦٢٤ تولس داس الشاعر

بعد الميلاد

١٥٤٢ — ١٥٤٥ شرشاه
١٥٥٥ — ١٥٥٦ عودة همايان وموته
١٥٦٠ — ١٦٠٥ أكبر
١٥٦٥ سقوط فيجا يانجار في تاليكوتا
١٦٠٠ تأسيس شركة الهند الشرقية
١٦٠٥ — ١٦٢٧ جهانكير
١٦٢٨ — ١٦٥٨ شاه جيهان
١٦٣١ موت ممتاز محل
١٦٣٢ — ١٦٥٣ بناء تاج محل
١٦٥٨ — ١٧٠٧ أورانجزيب
١٦٧٤ الفرنسيون يؤسسون — بندشيري
١٦٧٤ — ١٦٨٠ راجا شيفاش
١٦٩٠ الإنجليز يؤسسون كلكتا
١٧٥٦ — ١٧٦٣ الحرب الإنجليزية الفرنسية في الهند
١٧٥٧ موقعة پلاسي
١٧٦٥ — ١٧٦٧ روبرت كلايف حاكم البنغال
١٧٧٢ — ١٧٧٤ وارن هيستنجز حاكم البنغال
١٧٨٨ — ١٧٩٥ محاكمة وارن هيستنجز
١٧٨٦ — ١٧٩٣ لورد كورنوالس حاكم البنغال
١٧٩٨ — ١٨٠٥ المركيز ولزلي حاكم البنغال
١٨٢٨ — ١٨٣٥ لورد وليم كافندش بنتنك حاكم الهند العام
١٨٢٨ رام موهون روى يؤسس « براهما — سوماج »
١٨٢٩ إلغاء دفن الزوجات مع أزواجهن

بعد الميلاد	
١٨٣٦ – ١٨٨٦	راما كرشنا
١٨٥٧	ثورة سيبوى
١٨٥٨	الهند تتبع التاج البريطانى
١٨٦١	مولد رابندرانات طاغور
١٨٦٣ – ١٩٠٢	ڤڤيكاناندا (ڤارندرانات دوت)
١٨٦٩	مولد موهنداس كارامشاند غاندى
١٨٧٥	دایاناندا يؤسس « آريا سوماج »

بعد الميلاد	
١٨٨٠ – ١٨٨٤	مركيز ريبون نائب الملك
١٨٨٥	تأسيس المؤتمر الهندى الوطنى
١٨٨٩ – ١٩٠٥	البارون كيرزن نائب الملك
١٩١٦ – ١٩٢١	البارون تشلمز فورد نائب الملك
١٩١٩	أمرتسار
١٩٢١ – ١٩٢٦	إيرل ردنج نائب الملك
١٩٢٦ – ١٩٣١	لورد إرون نائب الملك
١٩٣١	لورد ولنجدن نائب الملك

الباب الرابع عشر

أساس الهند

الفصل الأول

مكان المسرحية

إعادة كشف الهند – نظرة عجلى إلى الخريطة – المؤثرات المناخية

ليس ثمة ما يجلل طلب العلم في عصرنا بعار أكثر من حداثة معرفته بالهند ونقص هذه المعرفة ؛ فهاهنا شبه جزيرة فسيحة الأرجاء يبلغ اتساعها ما يقرب من مليوني ميل مربع ، فهي ثلثا الولايات المتحدة في مساحتها ، وهي أكثر من بريطانيا العظمى – صاحبة السيادة عليها[1] – عشرين مرة ، ويسكنها ثلاثمائة وعشرون مليوناً من الأنفس، وهو عدد أكبر من سكان أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية مجتمعتين، أو هو خُمْس سكان الأرض جميعاً، وفيها اتصال عجيب في مراحل تطورها وفي مدنيتها من « موهنچو – دارو » ، سنة ٢٩٠٠ قبل الميلاد أو قبل ذلك ، إلى غاندي ورامان وطاغور ؛ ولها من العقائد الدينية ما يمثل كل مراحل العقيدة من الوثنية البربرية إلى أدق عقيدة في وحدة الوجود وأكثرها روحانية، ولها من الفلاسفة من عزفوا مئات الأنغام على وتر التوحيد بادئين من أسفار « اليوبانشاد » في القرن الثامن قبل الميلاد ، إلى شانكارا في القرن الثامن بعد الميلاد ؛ ومنها العلماء الذين تقدموا بالفلك منذ ثلاثة آلاف عام والذين ظفروا بجوائز « نوبل » في عصرنا هذا ؛ ويسودها دستور ديمقراطي لا نستطيع أن نتعقبه إلى أصوله الأولى في القُرَى ، كما سادها في العواصم حكّام حكماء خيّرون مثل « أشوكا » و « أكبر » ؛ وأنشد لها من الشعراء من تغنَّى لهم بملاحم عظمى تكاد تعادل هومر في قِدَم العهد ، ومن

(١) صدر الكتاب في الأصل الإنجليزي سنة ١٩٣٥ .

يستوقف أسماع العالم اليوم ؛ ولها من رجال الفن من شيدوا لها المعابد الجبارة لآلهة الهندوس ، تراها منتشرة من التبت إلى سيلان ؛ ومن كامبوديا إلى جاوة أو مَن زخرفوا القصور الرائعة بالعشرات لملوك المغول وملكاتهم — تلك هى الهند التى يفتح لنا أبوابها البحثُ العلمى الدءوب ، كأنها قارة عقلية جديدة يفتحها البحث العلمى أمام العقل الغربى الذى كان بالأمس يظن أن المدنية نتاج أوروبى خالص لا يشاركها فيه بلد آخر(*) .

(*) منذ عهد المجسطى الذى وصف الهند لليونان حول سنة ٣٠٢ قبل الميلاد حتى القرن الثامن عشر ، ظلت الهند فى عينى أوروبا أعجوبة ولغزاً غامضاً ؛ فلقد صور ماركو پولو (١٢٥٤ — ١٣٢٣) حافتها الغربية تصويراً غامضاً ؛ وعثر كولمبس على أمريكا فى محاولته بلوغ الهند ، وأبحر ڤاسكودا جاما حول أفريقيا كشف الهند ؛ وانطلقت ألسنة التجار فى جشع تتحدث عن « ثروة جزائر الهند » أما العلماء فقد تركوا هذا المنجم وأوشكوا ألا يطرقوه ؛ ثم افتتح لهم الطريق مبشر هولندى ذهب إلى الهند ، هو « ابراهام روچر » بكتابه « باب مفتوح إلى الوثنية الخبيئة » (١٦٥١) ؛ وبرهن « دريدن » على يقظته للعالم حين كتب مسرحيته « أورنجزيب » (١٦٧٥) وبعدئذ جاء راهب نمساوى ، هو « فرا پاولينو دى س . بارتلوميو » فخطا بالموضوع خطوة بكتابين فى قواعد اللغة السنسكريتية ، ورسالة فى « النظام البرهمى » (١٧٩٢)(١) ؛ وفى سنة ١٧٨٩ بدأ « سير وليم چونز » سيرة حياته كعالم عظيم فى شئون الهند ، بترجمته لـ « شاكنتالا » وهى من تأليف « كاليداسا » وقد أعيدت هذه الترجمة إلى اللغة الألمانية سنة ١٧٩١ ، فكان لها أعمق الأثر على « هردر » و « جيته » بل وعلى الحركة الابتداعية كلها بفضل أبناء شليجل ؛ تلك الحركة التى تعلق رجاؤها بالشرق تلتمس عنده كل التصوف وكل الغموض الذى يظهر أن قد محاه من الغرب دخول العلم وموجة التنوير ؛ ولقد أدهش « چونز » دنيا العلم حين أعلن أن اللغة السنسكريتية متحدة فى أصولها مع لغات أوروبا ، ودليل ناهض على قرابتنا الجنسية بالهندوس أصحاب الڤيدا ؛ وتكاد هذه النتائج التى أعلنها تكون البداية الأولى لعلم اللغات وعلم أصول الأجناس البشرية الحديثين ؛ وفى سنة ١٨٠٥ كتب « كولبروك » مقالا « فى الڤيدات » كشف به لأوروبا أقدم ما جرى به الأدب الهندى ؛ وحول الوقت نفسه ترجم « أنكتيل دپرون » أسفار « يوپانشاد » عن ترجمة فارسية ، فاطلع عليها « شلنج » و « شوپنهور » وقال عنها الأخير إنها أعمق ما قرأ من فلسفة(٢) ؛ وكادت البوذية ألا يعرفها أحد باعتبارها فلسفة فكرية حتى نشر « برنوف » مقالته « فى اللغة الپالية » (١٨٢٦) — أى اللغة التى كتبت بها وثائق البوذية ؛ وبفضل « برنوف » فى فرنسا ، وتلميذه « ماكس مولر » فى انجلترا ، تحرك العلماء ومهدوا السبيل إلى ترجمة كاملة « للكتب المقدسة فى الشرق » وخطا « رايس ديڤدز » بالمهمة خطوة إلى الأمام حين خصص كل حياته لعرض الأدب البوذى وبفضل هذه المجهودات وبالرغم منها ، تبين لنا أننا لا نعرف عن الهند إلا ما يصح أن نسميه بداية المعرفة ؛ فألمانيا بأدبها يشبه فى ضآلته إلمام أوروبا بالآداب اليونانية والرومانية أيام شرلمان ؛ وترانا اليوم وقد بهرنا الكشف الجديد نسرف فى سخاء حين نقدر قيمة ما كشفنا عنه ، فيعتقد —

إن مسرح التاريخ مثلث كبير تضيق جوانبه تدريجاً من ثلوج الهملايا الدائمة إلى حرارة سيلان التي لم تبرد منذ الأزل ؛ وفى ركن من جهة اليسار تقع فارس التي تشبه الهند الڤيدية شبهاً قوياً فى أهلها ولغتها وآلهتها ، فإذا ما تتبعت الحدود الشمالية متجهاً نحو الشرق . وقعت على أفغانستان ، حيث ترى « قندهار » . وهى « جاندهار » قديماً ، وفيها التقى النحتُ اليونانى بالنحت الهندوسى(*) حيناً ثم افترقا بحيث لا يلتقيان إلى الأبد ؛ وإلى الشمال ترى « كابل » التى أغار منها المسلمون والمغول تلك الإغارات الدموية التى مكنتهم من الهند مدى ألف عام ؛ فإذا توغلت فى حدود الهند مسيرة يوم قصير وأنت راكب من « كابل » وصلت « بشاور » التى لا تزال على العهد القديم الذى ألفناه فى أهل الشمال ، وأعنى به الميل إلى غزو الجنوب ؛ والْحَظْ كم تقرب الروسيا من الهند عند جبال الپامير وممرات هندوكوش ، فهاهنا سترى كثيراً من المشكلات السياسية يثور ؛ وإلى الطرف الشمالى من الهند مباشرة يقع إقليم « كشمير » الذى يدل اسمه نفسه على مجد تليد ظفرت به صناعات النسيج فى الهند ، وجنوبها يقع الپنجاب ، ومعناها (أرض أنهار الخمسة) بمدينتيه العظيمتين « لاهور » و « شِمْلا » عاصمة الصيف عند سطح الهملايا ، ومعناها (بيت الثلج) .

ويجرى نهر السند خلال الجزء الغربى من پنجاب ، وهو نهر جبار طوله

= فيلسوف أوروبى أن « حكمة الهند أعمق ما عرف العالم من حكمة » وكتب كاتب قصصى عظيم يقول « إنى لم أصادف فى أوروبا أو أمريكا من الشعراء أو المفكرين أو الزعماء الشعبيين من يساوى ، بل لم أجد من يصح أن يقارن بما نراه فى الهند اليوم من هؤلاء وأولئك »(٣) .

(*) كلمة هندى سنعنى بها فى هذا الكتاب أهل الهند بصفة عامة ، وكذلك سنستخدم كلمة هندوسى أحياناً بهذا المعنى ، على سبيل التغيير ، متبعين فى ذلك ما جرى عليه الفرس واليونان ، ولكننا فى المواضع التى نخشى عندها الخلط ، سنستعمل كلمة هندوسى فى معناها الأدق الذى شاع فى العصور الأخيرة ، وذلك أن نعنى به فريقاً واحداً من سكان الهند يعتنق إحدى العقائد الدينية الوطنية (فهناك فى هذا الصدد الهندوسى من جهة والمسلم من جهة أخرى) .

ألف ميل ، واسمه مشتق اللفظة الإقليمية التى معناها « نهر » (وهى سندو) وقد حورها الفرس إلى كلمة « هندو » ثم أطلقوها على الهند الشمالية كلها كلمتهم « هندوستان » (أى بلاد الأنهار) ، ومن هذه الكلمة الفارسية « هندو » نحتت الإغريق الغزاة كلمة « الهند » وهى التى بقيت لنا إلى اليوم .

وينبع من البنجاب نهرا جمنة والكنج ، اللذان يجريان فى خطو وئيد ، إلى الجنوب الشرقى ؛ أما « جمنة » فيروى العاصمة الجديدة « دلهى » ويعكس على صفحته « تاج محل » عند « أجرا » ، وأما نهر الكنج فيزداد اتساعا كلما سار نحو « المدينة المقدسة » بنارس ، ويطهّر بمائه ألف عابد من عبّاده كل يوم ، ويخصب بمصباته الاثنى عشر إقليم البنغال والعاصمة البريطانية القديمة كلكتا ، فإذا ما ازددت إيغالا فى مسيرك ناحية الشرق ، ألفيتَ « بورما » بمعابدها الذهبية فى رانجون وطريقها المُشرِق إلى مندلاى ، وعدْ من مندلاى عابراً الهند إلى مطارها الشرقى فى كراتشى . تجدك قد قطعت فى الهواء طريقاً يكاد يقرب من المسافة التى تقطعها بالطائرة من نيويورك إلى لوس انجلس ، وإذ أنت فى طائرتك عائداً ، سترى جنوبى السند إقليم راچپوتانا ، وهو الإقليم الذى شهد مدن راچپوت المعروفة ببطولتها ، والمشهورة على الدهر ، وهى « جواليور » و« شيتور» و« جايور » و« آجمر » و « أورايبور» ؛ وإلى الجنوب والغرب ترى « مكان الرئاسة » أو إقليم بمباى ، الذى تموج مدائنه بأهلها : سورات ، أحمد أباد ، بمباى ، يونا ؛ وإلى الجنوب والشرق تقع دويلتان متقدمتان يحكمهما حكام وطنيون ، وهما حيدر أباد وميسور ، بعاصمتيهما الرائعتين المسماتين بهذين الاسمين ؛ وعلى الساحل الغربى تقع « جوا » ، وعلى الساحل الشرقى تقع « بندشيرى » ، حيث ترك الغزاة البريطانيون للبرتغاليين وللفرنسيين — على هذا التوالى — بضعة أميال مربعة على سبيل التعويض ؛ وعلى امتداد خليج البنغال تمتد « رئاسة مدراس » بمدينتها مدراس المعروفة بدقة الحكم فيها ، مركزاً لها ، وبمعابدها الفخمة فى اكتئاب عند « تانجور » و« ترتشيفوپُولى » و« مادُورا » و « رامشفارام » تزيّن حدودها

الجنوبية ؛ ثم يأتى « جسر آدم » ــ وهو خط من الجزائر الغائصة فى الماء ــ يأتى بعدئذ فيشير لنا داعياً أن نعبر عليه المضيق إلى سيلان حيث ازدهرت المدنية منذ ستة عشر قرناً ؛ وكل هذه الأرجاء لا تزيد عن جزء صغير من الهنـــد .

فلا ينبغى إذن أن ننظر إليها نظرتنا إلى أمة واحدة مثل مصر أو بابل أو انجلترا ، بل لا بد من اعتبارها قارة بأسرها فيها من كثرة السكان واختلاف اللغات ما فى القارة الأوروبية ، وتكاد تشبه القارة الأوروبية كذلك فى اختلاف أجوائها وآدابها وفلسفاتها وفنونها ؛ فالجزء الشمالى منها يتعرض للرياح الباردة التى تهب عليها من الهملايا ، كما يتعرض للضباب الذى يتكون حين تلتقى هذه الرياح الباردة بشمس الجنوب ، وفى البنجاب تكونت بفعل الأنهار سهول خصيبة عظيمة لا يدانيها فى خصوبتها بلد آخر(٤) . لكنك إذا ما توجهت جنوبى وديان تلك الأنهار ، وجدت الشمس تحكم حكم المستبد الذى لا يقف استبداده شىء ، ولهذا جفت السهول وتعرت ، وتحتاج فى زراعتها لكى تثمر ، لا إلى مجرد الفلاحة ، بل تحتاج من الجهود الشاقة إلى ما يكاد يدنو من العبودية المميتة(٥) ولذلك لا يقيم الإنجليز فى الهند أكثر من خمس سنوات فى المرة الواحدة ، فإذا رأيت مائة ألف انجليزى يحكمون من الهنود عدداً يكبر عددهم ثلاثة آلاف مرة فاعلم أن سبب ذلك هو أنهم لم يقيموا هناك مدة تكفى لصبغهم بصبغة الإقليم .

وتنتشر فى أرجاء البلاد هنا وهناك غابات بدائية لم تزل باقية تكوّن خُمس البلاد ، ترتع فيها النمور والفهود والذئاب والثعابين ؛ وفى الثلث الجنوبى من الهند يقع إقليم « دكن »(*) حيث تزداد حرارة الشمس جفافاً إلا إذا لطفتها نسائم تهب عليها من البحر ؛ لكن الحرارة هى العنصر الرئيسى السائد من

(*) كلمة « دكن » مشتقة من أصل لغوى معناه « اليمين » ومن ثم يكون لها معنى ثان هو « الجنوب » لأن جنوب الهند يكون على يمين المصلى الذى يواجه مشرق الشمس .

دلهى إلى سيلان ، تلك الحرارة التى أضعفت الأبدان ، وقصَّرت الشباب ، وأنتجت للناس هناك دياناتهم وفلسفتهم المسالمتين ؛ فليس يخفف عنك الحرارة إلا أن تجلس ساكناً ، لا تعمل شيئاً ، ولا ترغب فى شىء ؛ أو قد تأتى أشهر الصيف فتأتى رياحها الموسمية برطوبة منعشة ومطر مخصب من البحر ، فإذا امتنعت الرياح الموسمية عن هبوبها ، تضورت الهند بالجوع ، وطافت بها أحلام النرفانا .

الفصل الثانى

أقدم المدنيّات

الهند قبل التاريخ – موهنجو دارو – عصرها القديم

فى العهد الذى كان المؤرخون فيه يفترضون أن التاريخ قد بدأ سيره باليونان ، آمنت أوروبا إيماناً اغتبطت له ، بأن الهند قد كانت مباءة وحشيةً حتى هاجر إليها « الآريون » أبناء أعمام الأوروبيين . هاجروا من شطئان بحر قزوين ليحملوا معهم الفنون والعلوم إلى شبه جزيرة وحشية يكتنفها ظلام الليل ؛ لكن الأبحاث الحديثة قد أفسدت هذه الصورة الممتعة – كما ستغير أبحاث المستقبل من الصورة التى نرسمها على هـــذه الصفحات ؛ فنى الهند – كما فى سائر أقطار الأرض – بدايات المدنية دفينةٌ تحت الثرى ، ويستحيل على فؤوس البحث الأثرى كلها أن تستخرجها جميعاً ؛ فبقايا العصر الحجرى القديم تملأ خزانات كثيرة فى متاحف كلكتا ومدراس وبمباى ، كما وجدت أشياء من العصر الحجرى الحديث فى كل دولة تقريباً(٦) ؛ ومع ذلك فقد كانت هذه ثقافات لم تصبح بعد مدنية .

وفى سنة ١٩٢٤ ارتجت دنيا العلم الجديد مرة أخرى بأنباء جاءتها من الهند ، إذ أعلن « سير جون مارشال » أن أعوانه من الهنود – وبصفة خاصة « ر . د . بانرجى » – قد اكتشفوا عند « موهنجو – دارو » على الضفة الغربية من السند الأدنى – آثاراً من مدنية يبدو أنها أقدم عهداً من أية مدنية أخرى يعرفها المؤرخون ؛ فهنالك – كما فى « هارابا » على بعد بضع مئات من الأميال ناحية الشمال – أزيلت طبقة من الأرض عن أربع مدن أو خمس بعضها فوق بعض طبقات ، وفيها مئات من المنازل والدكاكين بنيت بالآجر بناء متيناً ، واصطفت على امتداد طرق واسعة حيناً وحارات ضيقة حيناً آخر ،

وترفع فى حالات كثيرة عدة طبقات ؛ ولنترك « سير جون » يحدثنا عن تقديره لعمر هذه الآثار .

« تؤيد هذه الكشوف قيام حياة مدنية بالغة الرقى فى السند (وهى إقليم فى « رئاسة بمباى » يقع فى أقصى الشمال) والبنجاب خلال الألف الرابعة والألف الثالثة من السنين قبل الميلاد ؛ ووجود آبار وحمامات ونظام دقيق للصرف فى كثير من المنازل ، يدل على حالة اجتماعية فى حياة أهل تلك المدن تساوى على الأقل ما وجدناه فى « سومر » ، وتفوق ما كان سائداً فى العصر نفسه فى بابل ومصر ... وحتى « أور » لا تضارع بمنازلها من حيث البناء ، منازل موهنجو — دارو » .

وبين الموجودات فى هذه الأماكن آنية منزلية وأدوات للزينة ، وخزف مطلى وبغير طلاء ، صاغه الإنسان بيده فى بعض الحالات وبالعجلة فى بعضها الآخر ؛ وتماثيل من الخزف ، وزهر اللعب وشطرنج ، ونقود اقدم من أى نقود وجدناها من قبل ؛ وأكثر من ألف خاتم معظمها محفور ومكتوب بكتابة تصويرية نجهلها ، وخزف مزخرف من الطراز الأول ، وحفر على الحجر أجود مما وجدناه فى سومر[8] وأسلحة وأدوات من النحاس ، ونموذج نحاسى لعربة ذات عجلتين (وهى أقدم ما لدينا من أمثلة للعربة ذات العجلات) وأساور وأقراط وعقود وغيرها من الحلى المصنوع من الذهب والفضة صناعة — كما يقول مارشال — « بلغت من دقة الإتقان ومهارة الصقل حداً يجعلها صالحة للعرض عند صائغ فى شارع بُنْد (شارع فى لندن مشهور بجودة معروضاته) فى يومنا هذا ، فذلك أقرب إلى المعقول من أن تستخرج من منزل مما قبل التاريخ يرجع إلى سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد »[9] .

ومن العجيب أن الطبقات الدنيا من هذه الآثار أرفع فى فنونها من الطبقات العليا — كأنما أقدم هذه الآثار عهداً يرجع إلى مدنية أقدم من مدنية زميلتها فى الطبقات العليا بمئات السنين ، وقد يكون بآلافها ، وبعض الآلات هناك

مصنوع من الحجر ، وبعضها من النحاس ، وبعضها من البرونز ، مما قد يدل على أن هذه الثقافة السندية قد نشأت فى مرحلة انتقال بين عصر الحجر ، وعصر البرونز من حيث المادة التى تصنع منها الآلات[١٠] .

وتنهض الدلائل على أن « موهنجو — دارو » كانت ذروتها حين شيد خوفو الهرم الأكبر ، وعلى أنها كانت تتصل مع سومو وبابل(*) بصلات تجارية ودينية وفنية ؛ وأنها ظلت قائمة أكثر من ثلاثة آلاف عام ، حتى كان القرن الثالث قبل الميلاد(**) ، ولسنا نستطيع الحزم برأى فيما إذا كانت

(*) هذه الصلات يدل عليها ما وجدناه من أختام متشابهة فى موهنجو — دارو وفى سومر (خصوصاً عند كيش) كما يدل عليها ظهور « الناجا » أى الثعبان ذى الغطاء ، بين الآثار القديمة فيما بين النهرين[١١] ، وفى سنة ١٩٣٢ كشف الدكتور هنرى فرانكفورت بين آثار وجدها فى قرية « بابلية عيلامية » وهى ما يسمى الآن « بتل أسمر » (بالقرب من بغداد) ؛ كشف عن أختام وخرزات خزفية هى فى رأيه (ويوافقه سير جون مارشال) قد جاءتها من موهنجو — دارو حول سنة ٢٠٠٠ الميلاد[١٢] .

(*) يعتقد « ماكدونل » أن هذه المدنية العجيبة قد استمدت أصولها من سومر[١٤] وأما « هول » فيرى أن السومريين قد نقلوا ثقافتهم عن الهند[١٥] ؛ ورأى « وولى » هو أن الثقافتين السومرية والهندوسية القديمة قد جاءتا معاً من أصل مشترك وثقافة مشتركة فى بلوخستان أو بالقرب منها[١٦] ؛ ولقد دهش الباحثون حين رأوا أن الأختام المتشابهة الموجودة فى بابل وفى الهند ترجع إلى أقدم مراحل الثقافة فى أرض الجزيرة (ما بين النهرين) ، أى إلى المرحلة السابقة لسومر ، لكنها ترجع إلى آخر مرحلة من مراحل المدنية السندية[١٧] — مما يدل على أسبقية الهند ، ويميل « تشايلد » إلى الأخذ بهذه النتيجة : « عند نهاية الألف الرابع من السنين قبل الميلاد ، تستطيع الثقافة المادية فى « أبيدوس » أو « موهنجو — دارو » أن تثبت للمقارنة مع مثيلتها فى أثينا أيام بركليز ، أو مع أية مدنية شئت من مدن القرون الوسطى . . . وإذا حكمنا بفن بناء المنازل وخراطة الأختام ورشاقة المصنوعات الخزفية ، وجدنا أن المدنية السندية كانت سابقة للبابلية فى بداية الألف الثالث من السنين (حوالى ٣٠٠٠ قبل الميلاد) غير أن ذلك كان مرحلة متأخرة فى الثقافة الهندية ، ومن الجائز أن قد كان لها زعامة لا تقل عن هذه فى الأزمنة السابقة لذلك العهد ؛ ألم تكن — إذن — المبتكرات والمكتشفات التى تميزها المدنية السومرية النمط ، نباتاً أنتجته تربة بابل نفسها وتعهدته فى مراحل تطوره ، بل كانت أثراً من آثار الإيحاء الهندى ؟ ولو صح ذلك ، فهل جاء السومريون أنفسهم من السند ، أو على الأقل من مناطق تقع تحت تأثيرها المباشر ؟[١٨] هذه الأسئلة المثيرة للخيال لا يمكن الإجابة عنها الآن ، لكنها تذكرنا بأن تاريخاً نكتبه للمدنية قد يبدأ — بسبب جهلنا البشرى — عند نقطة ربما كانت فى حقيقة أمرها مرحلة متأخرة فى مجرى التطور الثقافى .

« موهنچو - دارو » تمثل أقدم ما كشف عنه الإنسان من مدنيات ، كما يعتقد « مارشال » ؛ لكن إخراج ما تكنه الهند فى جوفها قد بدأ أمس القريب ؛ فالبحث الأثرى لم ينتقل من مصر عبر الجزيرة إلى الهند ، إلا فى حياتنا ؛ فلعلنا ننكت تربة الهند كما فعلنا بتربة مصر ، فربما نجد هناك مدنية أقدم من المدنية التى ازدهرت من غرين النيل(*) .

(*) كشفت الحفريات الحديثة بالقرب من « تشتالدرج » فى ميسور ، عن ست طبقات من آثار الثقافة القديمة ، بادئة من آلات العصر الحجرى والمصنوعات الخزفية المزخرفة بأشكال هندسية يرجع عهدها فى الغالب إلى سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد ، إلى آثار هى من حداثة العهد بحيث ترجع إلى سنة ١٢٠٠ بعد الميلاد(١٩) .

الفصل الثالث

الهنود الآريون

السكان الأصليون – المرأة – المجتمع القروى –
نظام الطبقات – المحاربون – الكهنة – التجارة –
الصناع – المنبوذون

على الرغم مما تدل عليه آثار السند وميسور من اتصال فى تسلسل التاريخ ، فإننا نشعر بأن بين ازدهار « موهنجو– دارو » وبين دخول الآريين ، فجوة فى علمنا ، أو ربما كان الأقرب إلى الصواب هو أن علمنا بالماضى فجوة شاءتها المصادفة فى جهلنا ؛ وتشتمل آثار السند على خاتم عجيب يتألف من رأسين من رءوس الثعابين ، وهو الرمز المميز لأقدم سكان الهند ممن عرف التاريخ – هؤلاء هم « الناجا » الذين كانوا يعبدون الثعبان ، والذين وجدهم الآريون الغزاة قابضين على المناطق الشمالية ، والذين لا تزال سلالتهم متلكئة على قيد الحياة فى التلال البعيدة[٢٠] . فإذا توغلتَ ناحية الجنوب ، وجدت الأرضَ التى كان يسكنها عندئذ قوم سود البشرة فطس الأنوف ، ويسمَّوْن « بالدراڤيديين » – ولا نعلم أصل الكلمة – وقد كانوا على شىء من المدنية حين هبط عليهم الآريون ، وبحَّارتهم المغامرون شقوا البحار حتى بلغوا سومر وبابل ، وعرَفتْ مدائنهم كثيراً من رقة العيش وأسباب الترف[٢١] ؛ فيجوز أن الآريين قد استمدوا من هؤلاء الناس نظام الجماعة القروية وملكية الأرض والضرائب ، ولا يزال « الدكن » إلى يومنا هذا مسكناً رئيسياً للدراڤيديين ومركزاً لعاداتهم ولغتهم وأدبهم وفنونهم .

ولم تكن غزوة الآريين لهذه القبائل المزدهرة ، وانتصارهم عليها ، إلا حلقة

من سلسلة متصلة : من الغزوات كانت تقع على فترات منتظمة بين الشمال والجنوب ، فينقض الشمال انقضاضاً عنيفاً على الجنوب المستقر الآمن ؛ وقد كان ذلك مجرى من المجارى الرئيسية التى سارت فيها حوادث التاريخ ، إذ أخذت المدنيات تعلو على سطحه وتهبط كأنها أدوار الفيضان يعلو عصراً بعد عصر ؛ فالآريون قد هبطوا على الدراڤيديين ، والآخيون والدوريون قد هبطوا على الكريتيين والإيجيين ، والجرمان قد هبطوا على الرومان ، واللمبارديون قد هبطوا على الإيطاليين ، والإنجليز قد هبطوا على العالم بأسره ؛ وسيظل الشمال إلى الأبد يمد العالم بالحاكمين والمقاتلين ، والجنوب بالفنانين والقديسين ؛ فالجنة إنما يرثها الجبناء .

فمن هؤلاء الآريون الذين كانوا يضربون فى الأرض ؟ أما هم أنفسهم فقد استعملوا كلمة « آرى » ليعنوا بها « الأشراف » (فى السنسكريتية آريا معناها شريف) ، لكن ربما كان هذا الاشتقاق المبنى على النزعة الوطنية أحد الأفكار البَعْدية التى تلقى شعاعاً من التهكم المر على علم اللغات(*) ، ومن المرجح جداً أن يكونوا قد جاءوا من تلك المنطقة القزوينية التى كان بنو أعمامهم من الفرس يسمونها « إيريانا ڤيجو » ومعناها « الوطن الآرى(**) » ، وفى نفس

(*) يرى « مونييه — ويمز » أن آرى » مشتقة من أصل سنسكريتى معناه يحرث(٢٣) ، ولك أن تقارن هذا الأصل (ri - ar) بكلمتين لاتينيتين (aratrum) ومعناها محراث ، (area) ومعناها سهل مكشوف ؛ وعلى هذا الأساس تكون كلمة « آرى » معناها فى الأصل فلاح لا شريف .

(**) نجد بعض الآلهة الڤيديين الصميمين مثل « إندرا » و « مترا » و « ڤارونا » مذكورين فى معاهدة عقدت بين الحيثيين الآريين والميتانيين فى بداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد(٢٤) ، وكذلك نرى أن أحد الطقوس الڤيدية الخالصة ، وهى شرب عصير « السوما » المقدس ، يظهر أيضاً عند الفرس فى احتفالهم بشرب عصير « الهوما » المقدس (مع ملاحظة أن حرف س فى اللغة السنسكريتية يقابل حرف الهاء فى الفارسية ، ومن هنا « سوما » أصبحت « هوما » كما أصبحت كلمة « السندو » « هندو » عند الفارسيين(٢٥) نستخلص من هذا إلى أن الميتانيين والحيثيين والكاسيين والسومريين والبكتريين والميديين والفرس والآريين ممن غزوا الهند كانوا كلهم فروعاً من أصل « هندى أوربى » انتشر فى الأرض من شواطئ بحر قزوين .

الوقت تقريباً الذى كان الكاسيُّون الآريون يكتسحون فيه بابل ، كان الآريون الفيديون قد أخذوا يدخلون الهند .

وكان هؤلاء الآريون أقرب إلى المهاجرين منهم إلى الفاتحين ، شأنهم فى ذلك شأن الجرمان فى غزوهم لإيطاليا ، ولكنهم جاءوا ومعهم أجسام قوية ، وشهيّة عارمة للطعام والشراب ، ووحشية لا تتردد فى الهجوم ، ومهارة وشجاعة فى الحروب ، وسرعان ما أدت بهم هذه الخصال كلها إلى السيادة على الهند الشمالية ؛ وكانوا يحاربون بالقسِىّ والسهام ، يقودهم مقاتلون مدرّعون فى عربات حربية ، أدواتهم فى القتال هى الفؤوس إن كانوا على مقربة من العدو ، والحراب يقذفون بها إن كانوا على مبعدة منه ؛ وكانوا من الأخلاق البدائية على درجة لا تسمح بالنفاق ، ولذلك أخضعوا الهند دون أن يدّعوا أنهم يرفعون مستواها ، وكل ما فى الأمر أنهم أرادوا أرضاً ومرعى لماشيتهم ، ولم يحيطوا حروبهم بدعوى الشرف القومى ، لكنهم قصدوا بالحرف صراحة إلى « رغبة فى مزيد من الأبقار[٢٦] » . وجعلوا خطوة فخطوة يزحفون شرقاً على امتداد نهرى السند والكنج ، حتى خضعت الهندوستان(*) كلها لسلطانهم .

ولما تحولوا من الحرب المسلحة إلى زراعة الأرض واستقرارها طفقت قبائلهم بالتدريج تأتلف لتكوّن دويلات ، كل منها يحكمها ملك يقيده مجلس من المقاتلين ؛ وكل قبيلة يقودها « راجا » أو رئيس يحدد قوته مجلس قَبَلِىّ ، وكل قبيلة تتألف من جماعات قروية مستقل بعضها عن بعض استقلالا نسبياً ، ويحكم الجماعة القروية مجلس من رءوس العائلات ؛ ويروى عن بوذا أنه قال فى سؤاله لمن كان له بمثابة القديس يوحنا : « هل سمعت » يا « أناندا » أن « الڤاچيين » يجتمعون عادة ليتشاوروا فى الأمر قبل الحسم فيه ، وأنهم يرتادون الاجتماعات العامة التى تعقدها قبائلهم ؟ ... فما دام الڤاچيون يا « أناندا »

(*) كلمة أطلقها الفرس القدماء على الهند شمالى نهر ناربادا .

يجتمعون هكذا عادة ، ويرتادون الاجتماعيات العامة التي تعقدها قبائلهم ، فتوقّع منهم ألا يصيبهم الخلال ، بل يصيبهم النجاح[٢٧] » .

والآريون — كسائر الشعوب — كانت لهم قواعد الزواج في حدود العشيرة وخارج حدودها معاً ، بمعنى أن يحرم الزواج خارج حدود جنسهم ، كما يحرم داخل حدود الأقوياء الأقربين ؛ ومن هذه القواعد استمد الهندوس أهم ما يميزهم من أنظمة اجتماعية ، وذلك أن الآريين عندما رأوا أنفسهم قلة عددية بالنسبة إلى من أخضعوهم ومن يعدونهم أحط منهم منزلة ، أيقنوا أنهم بغير تقييد التزاوج بينهم وبين هؤلاء ، فسرعان ما تضيع ذاتيتهم العنصرية . بحيث لا يمضي قرن واحد أو قرنان من الزمان حتى تهضمهم الأغلبية في ثناياها وتمتصهم في جسمها امتصاصاً ؛ وإذن فقد كان أول تقسيم للطبقات قائماً على أساس اللون لا على أساس الحالة الاجتماعية ؛ فتفرقَ الناس فريقين . فريق الأنوف الطويلة وفريق الأنوف العريضة ؛ وبذلك ميزوا بين الآريين من جهة ، و « الناجا » و « الدرافيديين » من جهة أخرى ، ولم تكن التفرقة عندئذ أكثر من تنظيم الزواج بحيث يحرم خارج حدود الجماعة[٢٨] ؛ وكاد نظام الطبقات ألا يكون له وجود في العهد الفيدي[٢٩] بهذه الصورة التي اتخذها فيما بعد ، حيث أسرف في تقسيم الناس على أساس الوراثة وعلى أساس العنصر وعلى أساس العمل الذي يزاولونه ؛ أما بين الآريين أنفسهم فقد كان الزواج حراً من القيود (ما عدا ذوي القربى الأقربين) ، ولم تكن المنزلة الاجتماعية تورث مع الولادة .

فلما انتقلت الهند الفيدية (٢٠٠٠ — ١٠٠٠ قبل الميلاد) إلى عصر « البطولة » (١٠٠٠ — ٥٠٠ قبل الميلاد) ، أو بعبارة أخرى لما انتقلت الهند من ظروف حياتها كما صورتها أسفار الفيدا ، إلى حياة جديدة ترى وصفها في « الماهابهاراتا » و « رامايانا » أصبحت أعمال الناس مقسمة بينهم بالنسبة إلى طبقاتهم ، بحيث يرث الولد عمل طبقته ، وتحددت الفوارق بين

الطبقات فى وضوح وجلاء ، فنى القمة كان « الكشاترية » أو المقاتلون الذين عدوها خطيئة من الخطايا أن يموت الرجل فى مخدعه[٣٠] ، حتى المحافل الدينية فى الأيام الأولى كان يؤديها الرؤساء أو الملوك على نحو ما كان يقوم قيصر بدور كبير الكهنة ، وكان البراهمة ، أى الكهنة ، لا يزيدون عن مجرد شهود فى الاحتفال بتقديم القرابين[٣١] ، فنى « رامايانا » ترى رجلا من طبقة « الكشاترية » يحتج احتجاجاً حنقاً على زواج « عروس شماء الأنف فريدة » من عنصر المقاتلين من كاهن براهمى ثرثار »[٣٢] ، وفى الأسفار « الجاتنية » ترى زعامة « الكشاترية » أمراً مسلماً به ، بل يذهب الأدب البوذى إلى حد أبعد ، فيسمى « البراهمة » « من أصل وضيع[٣٣] » . وهكذا ترى الأشياء يصيبها التغير حتى فى الهند .

لكن لما حلّتْ السلم محل الحرب ، وبالتالى ازدادت الديانة أهمية اجتماعية وتعقداً فى الطقوس ، لأنها أصبحت عندئذ عوناً إلى حد كبير للزراعة ، تقيها شر الكوارث الجوية التى لا يمكن إعداد العدة لها ، فقد تطلبت الديانة وسطاء فنيين بين الناس وآلهتهم ، ولهذا ازداد البراهمة عدداً وثروة وقوة ؛ فباعتبارهم للقائمين على تربية النشء ، والرواة لتاريخ أمتهم وآدابها وقوانينها ، استطاعوا أن يعيدوا خلق الماضى خلقاً جديداً ، وتشكيل المستقبل على صورتهم ، بحيث يصبُّون كل جيل صباً يزيد من تقديسه للكهنة ، فيبنون بهذا لطبقتهم مكانة ستمكنهم فى القرون المقبلة من احتلال المنزلة العليا فى المجتمع الهندوسى ؛ وقد بدأوا بالفعل أيام بوذا يتحدوْن سيادة طبقة « الكشاترية » ؛ وعدوُّهم طبقة أحط من طبقتهم ، على نحو ما كان يعدُّهم « الكشاترية » من قبل أدنى منهم منزلة[٣٤] ؛ وأحس بوذا أن لكل من وجهتى النظر ما يؤيده ؛ لكن « الكشاترية » مع ذلك لم تخف زعامتها الفكرية بالقياس إلى البراهمة ، حتى فى عهد بوذا نفسه ، بل إن الحركة البوذية نفسها ، التى أسسها شريف من

أشراف الكشاترية ، نافست البراهمـــة زعامتهم الدينية على الهند مدى ألف عام .

وتحت هذه الأقليات الحاكمة طبقات فى منازل أدنى ، فهناك طبقة « الفيزيا » أو التجار والأحرار الذين كادوا قبل بوذا ألا يكون لهم ما يميزهم طبقة قائمة بذاتها ؛ وهناك طبقة « الشودرا » أو الصناع الذين يشملون معظم السكان الأصليين ، وأخيراً هناك « البارْيا » أو المنبوذون ، وقوامهم قبائل وطنية لم ترتد عن ديانتها مثل قبيلة « شاندالا » ، وأسرى الحرب ، ورجال تحولوا إلى عبيد على سبيل العقاب[٣٥] ؛ ومن هذه الفئة التى كانت بادئ أمرها جماعة صغيرة لا تنتمى إلى طبقة من الطبقات ، تكونت طبقة « المنبوذين » فى الهند اليوم وعددها أربعون مليوناً .

الفصل الرابع

المجتمع الآرى الهندى

الرعاة – زراع الأرض – الصناع – التجار – العملة والديون –
الأخلاق – الزواج – المرأة

كيف كان هؤلاء الهنود الآريون يعيشون؟ بالحرب والسَّلب أول الأمر ، ثم بالرعى والزراعة والصناعة على نمط ريفى كالذى ساد أوروبا فى العصور الوسطى ، لأنه حتى قامت الثورة الصناعية التى تظلُّنا اليوم ، لبثت حياة الإنسان الرئيسية من حيث الاقتصاد والسياسة ، على صورة واحدة لا تكاد تتغير فى جوهرها منذ العصر الحجرى الحديث ؛ فكان الآريون الهنود يربون الماشية ويستخدمون البقرة دون أن ينزلوها من أنفسهم منزلة التقديس ، ويأكلون اللحم أينما استطاعوا إليه سبيلا ، بعد أن يهبوا جزءاً منه للكهنة أو للآلهة [٣٦] ؛ ونعلم أن بوذا بعد أن أوشك على الموت جوعاً بما التزمه فى شبابه من تقشف ، كاد يودى بحياته بعد أكلة كبيرة من لحم الخنزير [٣٧] ؛ وكذلك كانوا يزرعون الشعير لكن يظهر أنهم لم يكونوا يعلمون عن الأرز شيئاً فى العهد الڤيدى ؛ وكانت الحقول تقسمها الجماعة القروية بين عائلاتها ، على أن يقوم لكل معاً بريها ؛ ولم يكن يجوز بيع الأرض لأجنبى عن القرية ، ويمكن توريثها لأبناء الأسرة نفسها من نسل الذكور المباشر ، وكانت الكثرة الغالبة من الناس فلاحين يملكون أرضهم التى يفلحونها ، لأن الآريين كانوا يعدُّونه عاراً أن يعملوا لقاء أجر يتقاضونه ؛ ويؤكد لنا العالمون بحياتهم أنه لم يكن بينهم ملاك كبار ولا متسولون ، لم يكن بينهم أصحاب الملايين ولا المُعْدَمون [٣٨] .

وأما فى المدن فقد ازدهرت الصناعات اليدوية على أيدى صناع وناشئين فى الصناعة ، كل منهم مستقل بذاته ؛ ثم انتظمتهم قبل ميلاد المسيح بنصف

ألف من السنين ، نقابات قوية لصناع المعادن ، وصناع الخشب ، وصناع الحجر ، وصناع الجلود ، وصناع العاج ، وصناع السلال ، وطلاة المنازل والرسامين ، والخزافين والصباغين والسماكين والبحارة والصيادين وبائعى جلود الحيوان ، والجزارين وبائعى الحلوى والحلاقين والدلالين والزهارين والطهاة — إن مجرد النظر إلى هذه القائمة يبين لك كم كانت الحياة الهندية مليئة متعددة الجوانب ؛ وكانت النقابات تقضى فيما ينشب بين مختلف الطوائف العمالية من أمور ، بل كانت تقيم نفسها حكماً يفض النزاع بين الصناع وزوجاتهم ؛ وكانت أسعار السلع تحدَّد — كما نفعل نحن اليوم — لا وفق قانون العرض والطلب ، بل على أساس من غفلة الشارى ؛ ومع ذلك فقد كان فى قصر الملك « مثمِّن » رسمى — يشبه ما لدينا الآن من مكتب لتحديد الأسعار — واجباته أن يختبرَ السلع المعروضة للبيع ، ويملى الشروط على الصناع[٣٩] .

وتقدمت بينهم وسائل التجارة والسفر حتى بلغت مرحلة استخدام الجواد والعربة ذات العجلتين ، لكنها كانت تعانى من الصعاب ما كانت تعانيه القرون الوسطى ، وكانت القوافل تُستوقَفُ للضرائب عند كل حد يفصل دويلة عن زميلتها مهما صغرت هذه الدويلات ، كما كانت تتعرض لهجمات اللصوص فى الطريق عند كل منعطف ؛ وكان النقل بالنهر والبحر أكثر من ذلك رقياً ، فكنت ترى فى سنة ٨٦٠ قبل الميلاد أو نحوها ، سفناً تدفعها أشرعة متواضعة ومئات من المجاديف ، فى طريقها إلى بلاد الجزيرة وشبه جزيرة العرب ومصر ، تحمل إليها منتجات تتسم بطابع الهند مثل العطور والتوابل والقطن والحرير والشيلان والنسيج الموصلى واللؤلؤ والياقوت والأبنوس والأحجار الكريمة ونسيج الحرير الموشى بالفضة والذهب[٤٠] .

وكان مما وقف فى سبيل التجارة أساليب التبادل العقيمة التى اصطنعها الناس فى معاملاتهم — فقد كانت وسيلتهم بادئ الأمر تبادل سلعة بسلعة ، ثم

استخدموا الماشية عملة نقدية ، حتى لقد كانت العروس تشترى بالأبقار[٤١]، كهؤلاء اللاتى يقول عنهن هومر « عذارى يحملن أبقاراً » وبعد ذلك ظهرت عملة نحاسية ثقيلة ، لم يكن يضمن قيمتها إلا الأفراد بصفاتهم الشخصية ، ولم يكن للقوم مصارف ، ولذلك كان المال المخزون يخبأ فى المنازل أو يدفن فى الأرض او يودع عند صديق ؛ ومن هنا تطور نظام للإيداع فى عهد بوذا ؛ وذلك أن التجار فى المدن المختلفة كانوا ييسرون التجارة بأن يعطى كل منهم لزميله خطاباً يعترف فيه بما عليه له ؛ وكان فى المستطاع أن تستعير من هؤلاء — وهم أشباه أسرة روتشيلد — ديناً بربح مقداره ثمانية عشر فى كل مائة[٤٢] وكنت تسمع بين الناس حديثاً كثيراً عما بينهم من عهود مالية ؛ وفى ذلك العصر لم تكن العملة النقدية من ثقل الوزن بحيث تثبط المقامرين عن استخدامها فى قمارهم ، وكان « زهر » القمار قد وطد لنفسه مكانة فى المدنية ؛ فى حالات كثيرة كان الملك يُعدُّ قاعات للقمار لشعبه ، على غرار « موناكو » إن لم تكن على صورتها ؛ وكان جزء من المال المكسوب يذهب إلى الخزانة الملكية[٤٣] ؛ ولقد يبدو ذلك فى أعيننا نظاماً يصم أصحابه بوصمة العار ، لأننا لم نَعْتَدْ أن نرى أنظمة القمار عندنا تمد رجال الحكم بيننا بالمال بطريقة مباشرة .

وكانت أخلاقهم فى التجارة رفيعة المستوى ، ولو أن الملوك فى الهند الفيدية — كما كان أقرانهم فى اليونان الهرمونية — لم يترفعوا عن اغتصاب الماشية من جيرانهم[٤٤] ، لكن المؤرخ اليونانى الذى أرّخ لحملات الإسكندرية ، يصف الهنود بأنهم « يستوقفون النظر باستقامتهم ، وأنهم بلغوا من سداد الرأى حداً يجعل التجاءهم إلى القضاء نادراً ، كما بلغوا من الأمانة حداً يغنيهم عن الأقفال لأبوابهم وعن العهود المكتوبة تسجيلا لما اتفقوا عليه ، فهم صادقون إلى أبعد الحدود[٤٥] » ؛ نعم إن فى سِفْر « رج — فيدا » ذكراً للزواج المحرّم وللتضليل وللعهر وللإجهاض وللزنا[٤٦] ، كما أن هناك علامات تدل على الانحراف الجنسى الذى يجعل الرجال يتصلون بالرجال[٤٧] ، إلا أن الصورة

العامة التى نستمدها من أسفار الڤيدا ومن الملاحم ، تدل على مستوى رفيع فى العلاقات بين الجنسين وفى حياة الأسرة .

كان الزواج يتم باغتصاب العروس من أهلها أو بشرائها أو بالاتفاق المتبادل بين العروسين ، لكن هذا النوع الأخير كان ينظر إليه بعين النقد إلى حد ما ، فقد ظن نساؤهم أنه أشرف لهن أن يُشْتَرَيْن وأن يُدفع فيهن الأثمان ، وأنه مما يزيد قدر المرأة أن يسرقها الزوج من أهلها(٤٨) ؛ وكان تعدد الزوجات جائزاً ، ويشجعون عليه بين العِلْية ، لأنه مما يسجِّل للرجل بالفخر أن يعول زوجات كثيرات وأن ينقل إلى الخلف قوته(٤٩) ، وكذلك كان هناك تعدد الأزواج ؛ فقصة « دروپادى(٥٠) » التى تزوجت إخوة خمسة دفعة واحدة تدل على وقوع تعدد الأزواج للزوجة الواحدة — فى أيام الملاحم — حيناً بعد حين ، وكان الأزواج عادة إخوة ، وهى عادة بقيت فى جزيرة سيلان حتى سنة ١٨٥٩ ، ولا تزال متلكئة فى بعض قرى الجبال فى التبت(٥١) ، لكن التعدد كان فى العادة ميزة يتمتع بها الذكر دون الأنثى ، لأنه عند الآريين هو رب الأسرة يحكمها حكماً لا ينازعه فى سيادته منازع ، فكان له حق امتلاك زوجاته وأبنائه ، وله الحق فى ظروف معينة أن يبيعهم أو يرمى بهم فى عرض الطريق (٥٢) .

ومع ذلك فقد تمتعت المرأة بحرية فى العصر الڤيدى أكثر جداً مما تمتعت به منها فى العصور التالية ، فقد كان لها حينئذ رأى فى اختيار زوجها ، أكثر مما قد تدل عليه ظواهر المراسيم فى الزواج ؛ وكان لها حق الظهور بغير قيود فى الحفلات والرقص ، وكانت تشارك الرجل فى الطقوس الدينية التى تُقدَّم بها القرابين ؛ ولها حق الدرس ، بل ربما ذهبت فى ذلك إلى حد بعيد مثل « جارجى » التى اشتركت فى المجادلات الفلسفية(٥٣) ، وإذا تركها زوجها أرملة فلم يكن على زواجها من قيود(٥٤) ، أما فى عصر « البطولة » فيظهر أن المرأة قد فقدت بعض هذه الحرية ، فكانوا لا يشجعونها على المضى فى الأبحاث العقلية ،

على أساس أن المرأة إذا درست أسفار الفيدا كان ذلك دليلا على اضطراب المملكة»[٥٥]، وقلّ زواج المرأة بعد موت زوجها الأول ، وبدأت « البردة » – التى تعنى عزل المرأة – وزادت بين الناس عادة دفن الزوجة مع زوجها وهى عادة لم تكد تعرفها الأيام الفيدية[٥٦] ، وأصبحت المرأة المثالية هى التى جاءت على نموذج بطلة « رامايانا » – وهى « سيتا » الوفية التى تتبع زوجها وتطيعه فى خضوع مهما تطلّب منها ذلك من ضروب الوفاء والشجاعة حتّى آخر يوم من حياتها .

الفصل الخامس

ديانة أسفار الڤيدا

الديانة السابقة للڤيدا — آلهة الڤيدا — آلهة الأخلاق —
قصة الڤيدا عن الخلق — الخلود — الضحية بالجواد

الظاهر أن أقدم ديانة نعرفها عن الهند ، تلك الديانة التي وجدها الغزاة الآريون بين « الناجا » والتي لا تزال قائمة في الأجناس البشرية البدائية التي تراها هنا وهناك في ثنايا شبه الجزيرة العظيمة ، هي عبادة روحانية طوطمية لأرواح كثيرة تسكن الصخور والحيوان والأشجار ومجاري الماء والجبال والنجوم ؛ وكانت الثعابين والأفاعي مقدسات — إذ كانت آلهة تعبد ومثلا عليا تنشد في قواها الجنسية العارمة ؛ وكذلك شجرة « بوذي » المقدسة في عهد بوذا كانت تمثل تقديسهم لجلال الأشجار الصامت(٥٧)، وهو تقديس صوفي لكنه سليم ؛ وهناك من آلهة الهنود الأولين ما هبط مع الزمان إلى هنود العصور التاريخية ، مثل « ناجا » الإله الأفعوان ، و « هانومان » الإله القرد ، و « ناندس » الثور المقدس و « الياكشا » أو الإلهة من الأشجار(٥٨)؛ ولما كان بعض هذه الأرواح طيباً وبعضها خبيثاً ، فلا يستطيع حفظ الجسم من دخول الشياطين فيه وتعذيبه في حالات المرض أو الجنون ، تلك الشياطين التي تملأ الهواء ، إلا مهارةٌ عظيمة في أمور السحر ؛ ومن ثم نشأت مجموعة الرُّقَى في « ڤيدا أثارڤا » أي « سفر الإلمام بالسحر » ؛ فلابد للإنسان من صيغ سحرية يتلوها إذا أراد الأبناء أو أراد اجتناب الإجهاض ، أو إطالة العمر ، أو دفع الشر ، أو جلب النعاس ، أو إيقاع الأذى أو الارتباك بالأعداء(*)(٥٩) .

(*) راجع « ڤيد أثارڤا » الجزء السادس ص١٣٨ ، والسابع ص ٣٥ ، ص ٩٠ حيث تجد =

وأقدم آلهة ذكرتها «أسفار الفيدا» هي قوى الطبيعة نفسها وعناصرها : السماء والشمس والأرض والنار والضوء والريح والماء والجنس[٦٢] ؛ فكان "ديوس (وهو زيوس عند اليونان، وجوبتر عند الرومان) ، أول الأمر هو السماء نفسها ؛ وكذلك اللفظة السنسكريتية التي معناها مقدس ، كانت في أصلها تعني «اللامع» فقط ؛ ثم أدت هذه النزعة الشعرية التي أباحت لهم أن يخلقوا لأنفسهم كل هذا العدد من الآلهة ، إلى تشخيص هذه العناصر الطبيعية ؛ فمثلا جعلوا السماء أباً ، وأسموها «ڤارونا» ؛ وجعلوا الأرض أما ، وأطلقوا عليها اسم «بريثيڤي» . وكان النبات هو ثمرة التقائهما بوساطة المطر[٦٣] ، وكان المطر هو الإله «بارجانيا» ، والنار هي «آجني» ، والريح كانت «ڤايو» وأما إن كانت الريح مهلكة فهي «رودْرا» ، وكانت العاصفة هي «إندرا» والفجر «أوشاس» ومجرى المحراث في الحقل كان اسمه «سيتا» والشمس «سوريا» أو «مترا» أو «ڤشنو» ؛ والنبات المقدس المسمى «سوما» ، والذي كان عصيره مقدساً ومسكراً للآلهة والناس معاً ، كان هو نفسه إلها يقابل في الهند ما كان «ديونيسوس» عند اليونان، فهو الذي يوحي للإنسان — بمادته المنعشة — أن يفعل الإحسان ويهديه إلى الرأي الثاقب ، وإلى المرح ، بل يخلع على الإنسان حياة الخلود[٦٤] .

ولما كانت الأمة كالفرد تبدأ بالشعر وتنتهي بالنثر ، فقد تحول كل شيء لما أصبحت الأشياء في أعين الناس أشخاصاً ، إذ أصبحت صفات الأشياء أشياء قائمة بذاتها ، وباتت نعوتها بمثابة الأسماء ، والعبارات التي تجرى مجرى الحكمة أصبحت آلهة ؛ والشمس التي تهب الحياة انقلبت إلها جديداً اسمه «سلڤيتار واهب الحياة» وأما ضوؤها فإله آخر اسمه «ڤيڤاسڤات» أي الإله

— رقى «تشتمل بالكراهية» أو «لغة فيها وحشية لا يضبطها ضابط» تجرى على لسان نساء يحاولن إبعاد المنافسات لهن ، أو إنزال العقم بهن[٦٠] ، وفي أحد أسفار يوپانشاد ، وهو سفر «بريها دارانياكا» (٦ — ١٢) صيغ يراد بها أن تخطف امرأة بالعزيم ، وأخرى «لارتكاب الخطيئة بغير حمل»[٦١] .

الساطع ، والشمس الذى تولد الحى من الحى أصبحت إلها عظيما هو « پراجاپاتى » أى رب الأحياء جميعاً (*)(٦٥) .

ولبثت النار « وهى الإله أجنى » حينا من الدهر أهم آلهة الڤيدا جميعاً ، إذ كان هذا الإله هو الشعلة المقدسة التى ترفع القربان إلى السماء ، وكان هو البرق الذى يثب فى أرجاء الفضاء ، وكان للعالم حياته النارية وروحه المشتعلة ؛ غير أن « إندرا » الذى ينصرف فى الرعد والعاصفة كان أشيع الآلهة كلهم ذكراً بين الناس ، لأنه هو الذى يجلب للآرى الهندى الأمطار النفيسة التى بدت له عنصراً جوهرياً يكاد يزيد فى أهميته للحياة على الشمس ذاتها ، ولذا فقد جعلوه أعظم الآلهة مقاماً ، يلتمسون معونة رعوده وهم فى حومات القتال ، وصوروه — بدافع الحسد له — فى صورة البطل الجبار الذى يأكل العجول مئات مئات ، ويشرب الخمر بحيرات بحيرات(٦٦) ، وكان عدوه المحبب إلى نفسه هو « كرشنا » الذى لم يذكر فى أسفار الڤيدا إلا على أنه إله محلى لقبيلة « كرشنا » إذ لم يكن حينئذ قد تجاوز هذه المرحلة ؛ كذلك كان « ڤشنو » أى الشمس التى تجتاز الأرض بخطواتها الجبارة ، إلها ثانوياً ، كأنما هو لا يدرى أن المستقبل له ولـ « كرشنا » الذى يجسده ؛ وإذن فمن فوائد أسفار الڤيدا لنا أنها تعرض علينا الدين وهو فى طريق التكوين ، فنرى مولده ونموه وموت الآلهة والعقائد ، ونرى ذلك بادئين من النزعة الروحانية البدائية حتى نبلغ وحدة الوجود الفلسفية ؛ بادئين بالخرافة فى « ڤيدا أثارڤا » (أى سفر السحر) ومنتهين إلى الوحدانية الجليلة كما ذكرت فى أسفار « يوپانشاد » .

كان هؤلاء الآلهة بشراً فى صورة الجسم وفى الدافع المحرك للعمل ، بل

(*) كاد « پراجاپاتى » يصعد على أنه الإله الواحد ، حتى جاء اللاهوت فى العهد التالى فجعل براهما الذى يفنى فى نفسه كل شىء ، يبتلع پراجاپاتى فى جوفه .

كادت تكون بشراً فى جهلها كذلك ، فانظر أحدها وقد أحاطت به دعوات الداعى ، فجعل يفكر ماذا عسى أن يهب هذا المتوسل : « هذا ما سأصنعه — كلا ، لن أصنع هذا ، سأعطيه بقرة — أم هل أعطيه جواداً ؟ ترى هل تقرب إلى حقاً بشراب السوما ؟ » (٦٧) ؛ لكن بعض هؤلاء الآلهة قد صعد فى العصور الڤيدية المتأخرة إلى مستوى خلقى رفيع ، خذ مثلا « ڤارونا » الذى كان بادئ ذى بدء هو السماء المحيطة بالأرض ، أنفاسه هى ريح العواصف ، ورداؤه هو السماء ؛ هذا الإله قد تطور على أيدى عباده حتى أصبح أكثر آلهة الڤيدا علواً فى الأخلاق وقرباً من المثل الأعلى للآلهة ؛ أصبح يرقب العالم بعينه الكبرى ، التى هى الشمس ، يعاقب الشر ويكافئ الخير ، ويعفو عن ذنوب التائبين ؛ وبهذا كان « ڤارونا » حارساً على القانون الأبدى ومنفذاً له . ذلك القانون الذى يسمونه « ريتا » وهو الذى كان أول أمره قانوناً يقيم النجوم فى أفلاكها ويحفظها هناك فلا يضطرب مسيرها ، ثم تطور بالتدريج حتى أصبح قانون الحق إطلاقاً ، أصبح نغمة خلقية كونية لا مندوحة لكل إنسان عن مراعاتها إذا أراد أن يجتنب الضلال والدمار(٦٨) .

ولما كثر عدد الآلهة نشأت مشكلة ، هى : أى هؤلاء الآلهة خلق العالم ؟ فكانوا يعزون هذا الدور الأساسى تارة لـ « آجنى » وتارة لـ « إندرا » وطوراً لـ « سوما » وطوراً رابعاً لـ « پراچاپاتى » ، وفى أحد أسفار « يوپانشاد » يعزى خلق العالم إلى خالق أول قهار :

« حقاً إنه لم يشعر بالسرور ؛ فواحد وحده لا يشعر بالسرور ، فتطلب ثانيا ؛ كان فى الحق كبير الحجم حتى ليعدل جسمه رجلا وامرأة تعانقا ، ثم شاء لهذه الذات الواحدة أن تنشق نصفين ، فنشأ من ثم زوج وزوجة ، وعلى ذلك تكون النفس الواحدة كقطعة مبتورة . . . وهذا الفراغ تملؤه الزوجة ؛ وضاجع زوجته وبهذا أنسل البشر ؛ وسألت نفسها الزوجة قائلة : « كيف استطاع مضاجعتى بعد أن أخرجنى من نفسه ، فلأختف » واختفت فى صورة

البقرة ، وانقلب هو ثوراً ، فزاوجها ، وكان بازدواجهما أن تولدت الماشية ؛ فاتخذت لنفسها هيئة الفرس ، واتخذ لنفسه هيئة الجواد ، ثم أصبحت هى حمارة فأصبح هو حماراً ، وزاوجها حقاً ، وولدت لها ذوات الحافر ؛ وانقلبت عنزة فانقلب لها تيساً ، وانقلبت نعجة فانقلب لها كبشاً ، وزاوجها حقاً ، وولدت لها الماعز والخراف ؛ وهكذا حقاً كان خالق كل شىء ، مهما تنوعت الذكور والإناث ، حتى تبلغ فى التدرج أسفله إلى حيث النمال ؛ وقد أدرك هو حقيقة الأمر قائلا : « حقاً إنى أنا هذا الخلق نفسه ، لأنى أخرجته من نفسى ؛ من هنا نشأ الخلق »[٦٩] .

فى هذه الفقرة الفريدة نلمس بذرة مذهب وحدة الوجود وتناسخ الأرواح ، فالخالق وخلقه شىء واحد ، وكل الأشياء وكل الأحياء كائن واحد فكل صورة من الكائنات كانت ذات يوم[صورة أخرى ، ولا يميز هذه الصورة من تلك ويجعلهما حقيقتين إلا الحس المخدوع] وإلا تفريق الزمن بينهما ؛ هذه النظرة لم تكن قد ظهرت بعد فى أيام الفيدا جزءاً من العقيدة الشعبية ، وإن تكن قد لقيت صياغتها على هذا النحو فى « يوپانشاد » ؛ فالآرى الهندى — مثل زميله الآرى الفارسى — بدل أن يعتقد فى تناسخ الأرواح على صور متتابعة ، آمن بعقيدة أبسط ، إذ آمن بالخلود الشخصى ؛ فالروح بعد الموت تلاقى إما عذاباً أو نعيما ؛ فإما أن يلقيها « فارونا » فى هوة مظلمة سحيقة ، أو فى جهنم ذات السعير ، وإما أن يتلقاها « ياما » فيرفعها إلى الجنة حيث كل صنوف اللذائذ الأرضية قد كملت ودامت إلى أبد الآبدين[٧٠] وفى ذلك يقول سفر « كاثا » من أسفار يوپانشاد : « يفنى الفانى كما تفنى الغلال ، ويعود إلى الحياة فى ولادة جديدة كما تعود الغلال »[٧١] .

وليست تدلنا الشواهد على أن الديانة الفيدية فى أولى مراحلها كان لها معابد وأصنام[٧٢] . بل كانت مذابح القرابين تنصب من جديد لكل قربان يراد تقديمه ، كما هى الحال فى فارس الزرادشتية ، وكان يناط بالنار المقدسة أن

ترفع القربان الممنوح إلى السماء ؛ وفى هذه المرحلة تظهر آثار ضئيلة من التضحية بالإنسان ، كما ظهرت فى فاتحة المدنيات كلها تقريباً ، لكنها آثار قليلة يحوطها الشك ؛ وكذلك أشبهت الهند فارس فى أنها كانت تحرق الحصان أحياناً ليكون قرباناً تقدمه الآلهة[٧٤] وإن « أشفاميزا » — أو « تضحية الجواد » — لمن أغرب الطقوس جميعاً . إذ يخيل للناس فيها أن ملكة القبيلة زاوجت الحصان المقدس بعد ذبحه(*)[٧٥] على أن القربان المعتاد هو أن يسكب قليل من عصير « سوما » وأن يصب شيء من الزبد السائل فى النار[٧٧] ، وكانوا يحيطون القربان برقى السحر ، فلو قدمه مقدمه على النحو الأكمل جاءته بالجزاء المطلوب بغض النظر عما هو حقيق به من ثواب بالنسبة إلى خلقه الشخصى[٧٨] وكان الكهنة يتقاضون أجوراً عالية على مساعدة المتعبد فى أداء طقوس القربان التى أخذت تزداد مع مر الزمن تعقداً ، فإذا لم يكن فى وسع المتعبد أن يدفع للكاهن أجره ، رفض أن يتلو له الصيغ اللازمة ، فأجره لابد أن يسبق ما يدفع لله من أجر ؛ ولقد وضع رجال الدين قواعد تضبط مقدار ما يدفعه صاحب هذه العبادة ، — كم من الأبقار والجياد وكم من الذهب ؛ وقد كان الذهب بصفة خاصة عميق التأثير فى الكهنة والآلهة[٧٩] وفى « أوراق البراهمانا » التى كتبها البراهمة ، إرشادات للكاهن تدله على الطريقة التى يستطيع بها أن يقلب الصلاة أو القربان شراً على رءوس أصحابه إذا لم يؤجروه أجراً كافياً[٨٠] ، وكذلك سنوا قوانين أخرى تفصل دقائق المحافل والطقوس التى ينبغى أن تقام فى كل ظرف من ظروف الحياة تقريباً ، وهى عادة تتطلب معونة الكهنة فى أدائها ؛ وهكذا أصبح البراهمة شيئاً فشيئاً طبقة ممتازة ، تسيطر على الحياة الفكرية والروحية فى الهند سيطرة تهددت كل تفكير وكل تغيير بالمقاومة المميتة .

(*) Ponebatque in gremium regina genitalie victimae membrum

الفصل السادس

أسفار الڤيدا باعتبارها أدباً

السنسكريتية والإنجليزية – الكتابة – الڤيدات الأربعة
سفر رج – ترنيمة الخَلْق

إنه لما ينبغي أن يثير اهتمامنا الخاص ، هذه اللغة السنسكريتية التي كان يكتبها الآريون الهنود ، ذلك لأنها تعد من أقدم مجموعات اللغات « الأوروبية الهندية » التي تنتمي إليها لغتنا التي نتحدث بها ، فإننا نشعر للحظة من الزمن شعوراً عجيباً باتصال حلقات الثقافة عبر هذه الآماد الفسيحة من الزمان والمكان ، حين نلاحظ أوجه الشبه – في السنسكريتية واليونانية واللاتينية والإنجليزية – بين الألفاظ التي تدل على الأعداد ، وعلى أنواع الصلة في الأسرة ، وفي كلمات صغيرة كبيرة الدلالة في هذا الصدد ، وهي الكلمات التي أطلق عليها اسم « الفعل المزاوِج » ، ولعل هذا الاسم قد أطلق عليها في غفوة من رجال الأخلاق(*) .

وبعيد جداً أن يكون هذا اللسان القديم الذي قال عنه « سير وليم چونز » إنه « أكمل من لغة اليونان ، وأوسع من لغة الرومان ، وأدق من كلتيهما معاً [٨٣] » بعيداً جداً أن يكون هذا اللسان القديم هو ما كان يتحدث به الغزاة الآريون ؛ فلسنا ندري بأية لغة كان هؤلاء يتكلمون ، وكل ما يستطيعه في هذا الصدد هو أن نفرض فرضاً أنها كانت لغة قريبة الصلة باللهجة الفارسية القديمة التي كتبت بها « الأفستا » ، وأما السنسكريتية التي كتبت بها أسفار الڤيدا والملاحم فتحتوي بالفعل على علامات اللغة الأدبية الكلاسيكية التي

(*). هنا يذكر المؤلف هامشاً فيه أمثلة توضح هذا الشبه بين اللغات في ألفاظها ، مما يتعذر نقله في الترجمة . (المعرب)

لا يستخدمها إلا العلماء والكهنة ؛ بل إن كلمة « سنسكريتى » نفسها معناها المُعَدّة ، أو الخالصة ، أو الكاملة ، أو المقدسة ، ولم يكن الناس فى العصر الفيدى يستخدمون فى كلامهم لغة واحدة ، بل لغات ، لكل قبيلة لهجتها الآرية الخاصة[٨٤] ، فلم يكن للهند فى أى عصر من عصورها لغة واحدة .

ليس فى الفيدات إشارة واحدة تدل أن مؤلفيها عرفوا الكتابة ؛ ولم يحدث إلا فى القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد أن جاء التجار الهنود — والأرجح أن يكونوا من طائفة الدرافيديين — من آسيا الغربية بكتابة سامية قريبة الشبه بالكتابة الفينيقية ، وأطلق فيما بعد على هذه الكتابة اسم « الكتابة البراهمية » ؛ ومنها اشتقت كل أحرف الهجاء فى الهند[٨٥] .

ولقد لبثت الكتابة قروناً طويلة — فيما يظهر — لا تستخدم إلا لأغراض تجارية وإدارية ، دون أن يرد على أذهان الناس إلا خاطر جد ضئيل بأن يتخذوها وسيلة أدبية ؛ « وكان التجار — لا الكهنة — هم الذين ارتقوا بهذا الفن الأساسى » حتى القانون البوذى لم يدون — على الأرجح — قبل القرن الثالث السابق لميلاد المسيح ؛ وأقدم ما بقى لنا من كتابات الهند المحفورة على الجدران ، هى محفورات « آشوكا »[٧٨] ؛ وإنه ليتعذر علينا نحن الذين جعلت منا القرون المتعاقبة قوماً تعتمد عقولهم على رؤية عيونهم للمكتوب والمطبوع (حتى جاء هذا العهد الذى امتلأ به الهواء من حولنا ألفاظا وأنغاماً) يتعذر علينا أن نفهم كيف اطمأنت الهند — بعد أن عرفت الكتابة بزمن طويل — إلى استمساكها بالأساليب القديمة فى نقل التاريخ والأدب عن طريق الرواية والذاكرة ؛ فأسفار الفيدا والملاحم كانت أناشيد أخذت تنمو على تتابع الأجيال التى تناقلتها بالرواية جيلا بعد جيل ؛ ولم يقصد بها إلى الكتابة لتراها العيون ،

بل قصد بها إلى أن تكون أنغاماً تسمعها الآذان(*) ، ومن هذا الإهمال للكتابة نشأت ضآلة علمنا بالهند القديمة :

إذن فما هى أسفار الڤيدا التى نستمد منها جل علمنا بالهند فى مرحلتها البدائية ؟ إن كلمة « ڤيدا » معناها معرفة(**). وإذن فسفر الڤيدا معناه الحرفى كتاب المعرفة ؛ « والڤيدات » يطلقها الهندوس على كل تراثهم المقدس الذى ورثوه عن أولى مراحل تاريخهم ، وهى شبيهة بالإنجيل عندنا فى أنها تدل على أدب أكثر مما تتخذ لنفسها صورة الكتاب ؛ ولو حاولت تنظيم هذه المجموعة وتبويبها لأحدثت خلطاً فظيعاً ؛ ولم يبق لنا من الڤيدات الكثيرة التى شهدها الماضى إلا أربعة أسفار :

١ — سفر رج ، أو معرفة ترانيم الثناء .
٢ — سفر ساما ، أو معرفة الأنغام .
٣ — سفر ياچور ، أو معرفة الصيغ الخاصة بالقرابين .
٤ — سفر أتارڤا ، أو معرفة الرقى السحرية .

وكل واحد من هذه الڤيدات الأربعة ، ينقسم إلى أربعة أقسام :

١ — إلى « مانترا » أو الترانيم .
٢ — إلى « براهمانا » أو قواعد الطقوس والدعاء والرقى لهداية الكهنة فى مهمتهم .
٣ — إلى « أرانياكا » أو نصوص الغابة ؛ وهى خاصة بالقديسين الرهبان .
٤ — إلى « يوپانشاد » أو المحاورات السرية ، وهى تقصد إلى الفلاسفة(†)

(*) ربما استعاد الشعر سلطانه القديم على أهل هذا العصر ، إذا ما عادوا إلى إلقائه كلاماً — بدل قراءته فى صمت .

(**) ترى أشباه هذه الكلمة فى كلمة « أويدا » اليونانية و « ڤيديو » اللاتينية و « ويز » الألمانية و « وت » و « وزدم » الإنجليزيتين .

(†) ليس هذا التقسيم إلا نوعاً واحداً من أنواع التقسيم التى يمكن تطبيقها على مادة هذه الأسفار —

وليس بين أسفار الڤيدا إلا سفر واحد ينتمي إلى الأدب أكثر مما ينتمي إلى الدين أو الفلسفة أو السحر ؛ فسفر « رج » ضرب من الدواوين الدينية ، يتألف من ١٠٢٨ ترنيمة ، أو أنشودة من أناشيد الثناء يتوجه بها الناس إلى مختلف معبودات الآريين الهنود — الشمس والقمر والسماء والنجوم والريح والمطر والنار والفجر والأرض وغيرها(*) ومعظم الترانيم دعوات واقعية في سبيل القطعان والمحصول وطول العمر ؛ وقليل جداً منها هو ما يرتفع إلى مستوى الأدب ، وبينها عدد ضئيل يبلغ درجة «الأنشاد» في رشاقتها وجمالها(٩٢) بعضها شعر طبيعي ساذج ، كأنه الدهشة الفطرية يبديها الطفل إزاء ما يرى ، فترنيمة منها تعجب كيف يخرج اللبن الأبيض من أبقار حمراء ، وترنيمة أخرى تدهش لماذا لا تسقط الشمس على الأرض سقوطاً عمودياً حينما تبدأ في الانحدار ؛ وترنيمة ثالثة تتساءل : كيف أمكن « لمياه الأنهار كلها أن تثب فوارة إلى المحيط فلا تملؤه » . ومنها ترنيمة رثاء على أسلوب «ثاناتوپسيس» قيلت على جثمان زميل سقط صريعاً في ميدان القتال :

= وكان علماء الهندوس يضيفون عادة إلى الشروح « الموحى بها » في البراهمانا واليوپانشاد ، مجموعات كثيرة لشروح أقصر من تلك ، يصوغونها في عبارات موجزة ويطلقون عليها اسم « سترة » (ومعناها الحرفي خيوط) ، أضافوا هذه الشروح إلى الڤيدات ، فاكتسبت على مر الزمن احتراماً تقليدياً يجعلها من مصادر الدين ، على الرغم من أنها ليست منزلة من السماء ؛ وكثير من هذه الشروح موجز إلى حد يتعسر معه فهم معناه ، لكنها كانت تختصر العقيدة اختصاراً يسهل معه نقلها ، أو قل كانت وسيلة تعين على حفظ الطلاب لها في عصر كانوا يعتمدون فيه على ذاكرتهم أكثر من اعتمادهم على الكتابة .

وليس في وسع أحد أن يجزم برأي في إسناد هذه المجموعة الكبيرة من الشعر والأساطير والسحر والطقوس والفلسفة إلى مؤلفيها أو إلى أزمان تأليفها ؛ ويعتقد أتقياء الهندوس أن كل حكمة منها أوحي بها عند الآلهة ، وهم ينبئونك بأن الإله الأعظم براهما كتبها بيده على أوراق من الذهب (٨٩) ، وهي وجهة نظر لا تستطيع تفنيدها بغير عناء ، ويرجع أولو الرأي من الوطنيين أقدم هذه التراتيل إلى تواريخ تتراوح بين سنة ٦٠٠٠ ، وسنة ١٠٠٠ ق . م . حسب درجة الحماسة الوطنية عند القائلين(٩٠) ويرجح أنها جمعت ورتبت بين سنتي ١٠٠٠ ، ٥٠٠ ق . م .(٩١) .

(*) تتألف هذه الأناشيد من مقطوعات قوام الواحدة منها أربعة أبيات عادة ، ويتكون البيت =

هأنذا آخذ القوس من يد ميتة كانت تشدها .
لتكسب لنا ملكاً وقوة ومجداً ؛
فأنت هناك ، ونحن هاهنا ، أعزاء بأبنائنا الأبطال ،
سنهزم كل هجمة يوجهها لنا الأعداء ؛
اقترب من صدر الأرض ، أمنا ،
هذه الأرض الفسيحة الأرجاء العطوف بأبنائها ؛
هذه الشابة الناعمة كأنها الصوف المندوف تحت جنوب الأسخياء ؛
هأنذا أضرع إليها أن تصونك من أيدى الفناء ؛
انفرجى له أيتها الأرض ، ولا تضمى جسده ضما ثقيلا ؛
كونى له مثوى هينا ، ومجديه بعونك الشفوق ؛
فكما تدثر الأم بالثوب ابنها ،
كذلك دثرى هذا الرجل أيتها الأرض(٩٣).

وقصيدة أخرى (رج ، الجزء العاشر ص ١٠) عبارة عن حوار صريح بين الأبوين الأولين للبشر ، هذين التوأمين من أخ وأخته ، « ياما » و« يامى » ؛ فأما « يامى » فتأخذ فى إغراء أخيها أن يضاجعها على الرغم من تحريم مثل هذا الاتصال الجنسى بين أفراد الأسرة الواحدة ، زاعمة له أن كل ما تريده من الأمر هو استمرار الجنس البشرى ، فيقاومها « ياما » على أسس خلقية رفيعة ؛ وتحاول معه كل ضروب الإغراء ، وتفشل ، وأخيراً تصفه بالضعف ؛ والقصة كما هى بين أيدينا ليست كاملة ، ولو أنه فى مقدورنا أن نحكم كيف يكون تمامها من منطق السياق ؛ وأسمى أجزاء القصيدة قطعة هائلة هى « ترنيمة الخلق » وفيها ترى عقيدة وحدة الوجود مبسوطة بظلالها الرقيقة ، بل ترى ريبة التقى الورع ، فى هذا الكتاب الذى هو أقدم كتاب

= الواحد من خمسة مقاطع أو ثمانية أو أحد عشر أو اثنى عشر ، وليس فيه مراعاة للوزن إلا فى المقاطع الأربعة الأخيرة فيراعى فيها الوزن عادة .

ظهر بين أشد الشعوب تمسكاً بالدين :

لم يكن فى الوجود موجود ولا عدم ، فتلك السماء الوضاءة
لم تكن هناك ، كلا ولا كانت بردة السماء منشورة فى الأعالى ؛
فماذا كان لكل شيء غطاء ؟ ماذا كان موئلا ؟ ماذا كان مخبأ ؟
أكانت هى المياه بهوتها التى ليس لها قرار ؟
ولم يكن ثمة موت ، ومع ذلك فلم يكن هناك ما يوصف بالخلود .
ولم يكن فاصل بين النهار والليل
و « الواحد الأحد » لم يكن هناك سواه
ولم يوجد سواه منذ ذلك الحين حتى اليوم ؛
كانت هناك ظلمة ؛ وكان كل شيء فى البداية تحت ستار
من ظلام عميق — محيط بغير ضياء —
والجرثومة التى لم تزل كامنة فى اللحاء
برزت طبيعة واحدة من الحر الحرور
ثم أضيف إلى الطبيعة الحب ، وهو الينبوع الجديد
للعقل — نعم إن الشعراء فى أعماقهم يدركون
— إذ هم يتأملون — هذه الرابطة بين ما خلق
وما لم يخلق ؛ فهل جاءت هذه الشرارة من الأرض .
تتخلل كل شيء وتشمل كل شيء ، أم جاءت من السماء ؟
ثم بذرت الحبوب ، ونهضت جبابرة القوى —
فالطبيعة فى أسفل ، والقوة والإرادة أعلى —
من ذا يعلم السر الدفين ؟ من ذا أعلنه هاهنا ،
من أين ، من أين جاءت هذه الكائنات على اختلافها ؟
إن الآلهة أنفسها جاءت متأخرة فى مراحل الوجود —
من ذا يعلم أنى جاء هذا الوجود ؟

إن من صدر عنه هذا الخلق العظيم
سواء خلقه بإرادته ، أو صدر عنه وهو ساكن ،
إنه هو ربنا الأعلى فى السموات العلى ،
إنه هو يعلم السر — بل لعله لا يعلم من السر شيئاً (٩٤)

ولبث الأمر هكذا حتى أدركه مؤلفو أسفار « يوپانشاد » فتناولوا هذه المشكلات بالحل . وهذه الإشارات بالتوضيح ، فكان ما أخرجوه فى ذلك أدل نتاج على العقل الهندوسى ، بل لعله أعظم نتاج أخرجه ذلك العقل .

الفصل السابع

فلسفة أسفار يوپانشاد

مؤلفو هذه الأسفار – موضوعها – موازنة العقل بالبصيرة البديهية – آتمان – براهمان – من هما – وصف الله – الخلاص – تأثير أسفار يوپانشاد – ما يقوله إمرسن عن براهما

قال شوبنهور : « إنك لن تجد في الدنيا كلها دراسة تفيدك وتعلو بك أكثر مما تفيدك وتعلو بك دراسة أسفار يوپانشاد ؛ لقد كانت سلواي في حياتي – وستكون سلواي في موتي »(٩٥) فلو استثنيت النتف التي خلفها لنا « فتاح حوتب » (المصري) في الأخلاق ، كانت أسفار اليوپانشاد أقدم أثر فلسفي ونفسي موجود لدى البشر ، ففيها مجهود بذله الإنسان دقيق دءوب ، يدهشك بدقته وما اقتضاه من دأب ، محاولا أن يفهم العقل وأن يفهم العالم وما بينهما من علاقة ؛ إن أسفار اليوپانشاد قديمة قدم هومر ، ولكنها كذلك حديثة حداثة « كانت » .

والكلمة مؤلفة من مقطعين : « يوپا » ومعناها « بالقرب » و « شاد » ومعناها « يجلس » ؛ ومن « الجلوس بالقرب » من المعلم ، انتقل معنى الكلمة حتى أصبح يطلق على المذهب الغامض الملغز الذي كان يسره المعلم إلى خيرة تلاميذه وأحبهم إليه(٩٦) ؛ وفي الأسفار مائة وثمان محاورات مما جرى بين المعلم وتلاميذه . ألفها كثير من القديسين والحكماء بين عامي ٨٠٠ و ٥٠٠ قبل الميلاد(٩٧) ، وهي لا تحتوي على مذهب فلسفي متسق الأجزاء ، بل تحتوي على آراء وأفكار ودروس لرجال عدة ، كانت الفلسفة والدين عندهم مايزالان موضوعاً واحداً ؛ وقد حاول هؤلاء الرجال بهذه الآراء أن يفهموا الحقيقة البسيطة الجوهرية التي تكمن وراء كثرة الأشياء الظاهرة ، حتى إذا ما فهموها ، وحدوا أنفسهم بها توحيداً يحوطه إجلال الورع ، وهذه الأسفار كذلك

مليئة بالسخافات والمتناقضات ، وهى فى بعض مواضعها هنا وهناك تتسائف الاتجاه الذى سار فيه « هجل » فيما بعد بكل ما قاله من لغو الحديث[٩٨] ؛ وأحياناً تصادف فيها عبارات غريبة غرابة الصيغ التى يستعملها « توم سوير » فى معالجته للزوائد الجلدية عند مرضاه[٩٩] ، ولكنها أحياناً أخرى تعرض عليك ما قد تظنه أعمق ما ورد فى تاريخ الفلسفة من ضروب التفكير :

إننا نعلم أسماء مؤلفى هذه الأسفار[١٠٠] لكننا لا نعلم من حياتهم شيئاً إلا ما يكشفون لنا عنه حينا بعد حين فى ثنايا تعاليمهم ، وأبرز شخصيتين بين هؤلاء هما : « ياچناڤالكيا » الرجل و « جارجى » المرأة التى لها شرف الانخراط فى سلك أقدم الفلاسفة ؛ وقد كان « ياچناڤالكيا » أحد لساناً من زميلته ، ونظر إليه زملاؤه نظرهم إلى مجدد خطر ، ثم جاء الخلف فاتخذ مذهبه أساساً للعقيدة السليمة التى لا يأتيها الباطل[١٠١] ؛ وهو يحدثنا كيف حاول أن يترك زوجتيه ليكون حكيما راهباً ؛ وإننا لنلمس فى رجاء زوجته « ميترِيى » له أن يأذن لها بصحبته ، كم كان شغف الهند مدى قرون طوال بمتابعة التفكير فى الفلسفة والدين .

« وبعدئذ كان ياچناڤالكيا » على وشك أن يبدأ لونا جديداً من ألوان الحياة .

قال ياچناڤكيا : « ميترِيى ! انظرى ، فأنا على وشك الرحيل من هنا لأجوب أقطار الأرض ، فأصغيا إلى أنت و « كاتيايانى » أقل لكما قولا أخير » .

وهنا تكلمت ميترِيى : إذا ملئت لى هذه الأرض كلها الآن يا مولاى بالغنى ، أأكون بهذا كله بين الخالدين ؟ »

فأجابها ياچناڤالكيا : « كلا ! كلا ! يستحيل أن يكون الثراء طريق الخلود » .

وهنا تكلمت ميترِيى : « فماذا عساى أن أصنع بما لا يخلدنى ؟ اشرح لى يا مولاى كل ما تعلمه »[١٠٢] .

وموضوع أسفار اليوپانشاد هو كل السر فى هذا العالم الذى عز على الإنسان فهمه : « فمن أين جئنا ، وأين نقيم ، وإلى أين نحن ذاهبون ؟ أيا من يعرف « براهمان » نبئنا من ذا أمر بنا فإذا نحن هاهنا أحياء ... أهو الزمان أم الطبيعة أم الضرورة أم المصادفة أم عناصر الجو ، ذلك الذى كان سبباً فى وجودنا ، أم السبب هو من يسمى « پوروشا » — الروح الأعلى ؟[١٠٣] ؛ لقد ظفرت الهند بأكثر من نصيبها العادل من الرجال الذين لا يريدون من هذه الحياة « ما لا يعد بألوف الألوف » ، وإنما يريدون أن يجدوا الجواب عما يسألون » ؛ فتقرأ فى سفر « ميترى » من أسفار يوپانشاد عن ملك خلف ملكه وضرب فى الغابة متقشفاً زاهداً ، لعل عقله بذلك أن يصفو ليفهم ، فيجد حلا للغز هذا الوجود ؛ وبعد أن قضى الملك فى كفارته ألف يوم ، جاءه حكيم « عالم بالروح » ، فقال له الملك : « أنت ممن يعلمون طبيعة الروح الحقيقية ، فهلا أنبأتنا عنها ؟ » فقال الحكيم منذراً : « اختر لنفسك مآرب أخرى » لكن الملك يلح ، ويعبر فى فقرة — لا بد أن تكون قد لامست روح شوپنهور وهو يقرؤها — عن ضيقه بالحياة ، وخوفه من العودة إليها بعد موته ذلك الخوف الذى تمتد جذوره فى كل ما تضطرب به رءوس الهندوس من خواطر وأفكار ، وهاك هذه الفقرة :

« سيدى ، ما غناء إشباع الرغبات فى هذا الجسد النتن المتحلل ، الذى يتألف من عظم وجلد وعضل ونخاع ولحم ومنىّ ودم ومخاط ودموع ورشح أنفى وبراز وبول وفساء وصفراء وبلغم ؟ ما غناء إشباع الرغبات فى هذا الجسد الذى تملؤه الشهوة والغضب والجشع والوهم والخوف واليأس والحسد والنفور مما ينبغى الرغبة فيه والإقبال على ما يجب النفور منه ، والجوع والظمأ والعقم والموت والمرض والحزن وما إليها ؟ وكذلك نرى هذا العالم كله يتحلل بالفساد كما تتحلل هذه الحشرات الضئيلة وهذا البعوض وهذه الحشائش وهذه الأشجار التى تنمو ثم تذوى ... وإنى لأذكر من كوارث العالم جفاف المحيطات الكبرى وسقوط قمم الجبال وانحراف النجم القطبى رغم ثباته ... وطغيان البحر على

الأرض . . . فى هذا الضرب من تعاقب أوجه الوجود « ما غناء إشباع الرغبات ، ما دام بعد إشباع الإنسان لها . سيعود إلى هذه الأرض من جديد مرة بعد مرة[١٠٤] ؟ » .

وأول درس يعلمه حكماء اليوپانشاد لتلاميذهم المخلصين هو قصور العقل ، إذ كيف يستطيع هذا المخ الضعيف الذى تتعبه عملية حسابية صغيرة أن يطمع فى أن يدرك يوماً هذا العالم الفسيح المعقد ، الذى ليس مخ الإنسان إلا ذرة عابرة من ذراته ؟ وليس معنى ذلك أن العقل لا خير فيه ، بل إن له لمكانة متواضعة وهو يؤدى لنا أكبر النفع إذا ما عالج الأشياء المحسوسة وما بينها من علاقات ، أما إذا ما حاول فهم الحقيقة الخالدة ، اللانهائية ، أو الحقيقة فى ذاتها ، فما أعجزه من أداة ! فإزاء هذه الحقيقة الصامتة التى تكمن وراء الظواهر كلها دعامة لها ، والتى تتجلى أمام الإنسان فى وعيه ، لا بد لنا من عضو آخر ندرك به ونفهم ، غير هذه الحواس وهذا العقل « فلسنا ندرك « آتمان » (أى روح العالم) بالتحصيل ، لسنا نبلغه بالنبوغ وبالاطلاع الواسع على الكتب . . . فليطرح البرهمى العلم ليجعل من نفسه طفلا ... لا يبحثن البرهمى عن كلمات كثيرة ، لأنها ليست سوى عناء يشقى به اللسان[١٠٥] » ، فأعلى درجات الفهم — كما كان سپينوزا يقول — هو الإدراك المباشر . أو نفاذ الرأى إلى صميم الأمر بغير درجات وسطى ؛ إنه — كما كان الرأى عند برجسون — هو البصيرة ، التى هى بصر باطنى للعقل الذى أغلق — متعمداً — كل أبواب الحس الخارجى ما استطاع إلى ذلك من سبيل إن « براهمان » الواضح بذاته ، قد تخلل فتحات الحواس من داخل حتى لقد استدارت هذه الفتحات إلى الخارج ، ومن ثم كان الإنسان ينظر فى الخارج ، ولا ينظر إلى نفسه فى داخل نفسه ، أما الحكيم الذى يغلق عينيه ويلتمس لنفسه الخلود ، فيرى النفس فى دخيلته[١٠٦] » .

فإذا ما نظر الإنسان إلى طوية نفسه ولم يجد شيئاً على الإطلاق ، فذلك لايقوم حجة إلا على دقة استبطانه ، لأنه لايجوز لإنسان أن يتوقع مشاهدة

الأيدى فى نفسه إذا كان غارقاً فى الظواهر وفى الجزئيات ؛ فقبل أن يحس الإنسان هذه الحقيقة الباطنية ، ينبغى له أولا أن يطهر نفسه تطهيراً تاماً من أدران العمل والتفكير ، ومن كل ما يضطرب به الجسد والروح[١٠٧] يجب أن يصوم الإنسان أربعة عشر يوماً ، لا يشرب إلا الماء[١٠٨] ، وعندئذ يتضور العقل جوعاً — إذا صح هذا التعبير — فيخلد إلى سكينة وهدوء ، وتتطهر الحواس وتسكن ، وكذلك تهدأ الروح هدوءاً يمكنها من الشعور بنفسها وبهذا المحيط الخضم من الأرواح ، التى ليست هى إلا جزءاً منه ؛ وبعدئذ لا يعود الفرد موجوداً باعتباره فرداً ، ويظهر « الاتحاد » وتظهر « الحقيقة الذاتية » لأن الرائى لا يرى فى هذه الرؤية الداخلية النفس الفردية الجزئية ، فتلك النفس الجزئية إن هى إلا سلسلة من حالات مخية أو عقلية ؛ إن هى إلا الجسم منظوراً من الداخل ؛ إنما يبحث الباحث عن « أتمان »(*) نفس النفوس كلها ، وروح الأرواح كلها ، والمطلق الذى لا مادة له ولا صورة ، والذى ننغمس فيه بأنفسنا جميعاً إذا نسينا أنفسنا كل النسيان .

تلك إذن هى الخطوة الأولى فى « المذهب السرى » وهى أن جوهر النفس فينا ليس هو الجسم ، ولا هو العقل ، ولا هو الذات الفريدة ، ولكنه الوجود العميق الصامت الذى لا صورة له ، الكامن فى دخيلة أنفسنا ، هو « أتمان » ؛ وأما الخطوة الثانية فهى « براهمان »(**) وهو جوهر العالم الواحد الشامل الذى لا هو بالذكر ولا هو بالأنثى (†) غير المشخص فى صفاته ، المحتوى لكل شىء

(*) اشتقاق هذه الكلمة موضع شك ، فيظهر (من سفر رج القسم العاشر ص ١٦) أن معناها فى الأصل نفس ، ثم أصبح معناها الجوهر الحيوى ، ثم أصبح الروح[١٠٩] .

(**) براهمان معناها هنا روح العالم غير المشخصة ، ويجب تمييزها من لفظة براهما الذى هو أكثر منها تشخصاً ، وهو أحد الثالوث الإلهى (براهما وفشنو وشيفا) كما يجب تمييزها من « برهمى » الذى تدل على العضو فى طبقة الكهنة ، ومع ذلك فليس التمييز بين اللفظتين الأوليين بملحوظ دائماً فقد تجد براهما مستعملة بمعنى براهمان .

(†) المفكرون الهنود أقل الفلاسفة الدينيين تأثراً بالشخصية البشرية فى تصويرهم لله ؛ فهم حتى فى الأجزاء الأخيرة من سفر « رج » فى الفيدا ، يشيرون إلى الكائن الأعلى دون أن يذكروا =

والكامن فى كل شىء ، والذى لا تدركه الحواس ، هو « حقيقة الحقيقة » هو الروح الذى لم يولد ولا يتحلل ولا يموت »[١١٠]، إن « أتمان » الذى هو روح الأشياء كلها ، هو روح الأرواح كلها ، هو القوة الواحدة التى وراء جميع القوى وجميع الآلهة ، وتحت جميع القوى وجميع الآلهة ، وفوق جميع القوى وجميع الآلهة :

ثم سأله ڤيداجاداساكايلا قائلا : كم عدد الآلهة يا ياچناڤالكيا ؟

فأجابه : عددهم هو المذكور فى « الترنيمة للآلهة جميعاً » فهم ثلاثمائة وثلاثة ، وهم ثلاثة آلاف وثلاثة » .

نعم ، ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين يا ياچناڤالكيا ؟

عددهم ثلاثة وثلاثون

نعم ، ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين يا ياچناڤالكيا ؟

عددهم ستة .

نعم ، ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين يا ياچناڤالكيا ؟

هما اثنان .

نعم ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين يا ياچناڤالكيا ؟

إله ونصف إله .

نعم ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين يا ياچناڤالكيا ؟

إنه إله واحد[١١١] .

والخطوة الثالثة هى أهم الخطوات جميعاً : « أتمان » و « براهمان » إن هما إلا فى واحد بعينه ؛ إن الروح (اللافردية) أو القوة الكائنة فينا هى هى بعينها روح العالم غير المشخص ؛ إن أسفار يوپانشاد لا تدخر وسعاً فى تركيز هذا المذهب فى عقل طالب العقيدة ، فما تزال تكرره وتعيده لا تمل له تكراراً

ـ له جنساً ، فهم آناً يجعلونه مذكراً عاقلا وآناً يشيرون إليه بضمير غير العاقل ، ليدلوا بذلك على أنه فوق التفرقة الجنسية (الذكر والأنثى) .

وإعادة وإن قل ذلك السامعون ؛ فعلى الرغم من كل هذه الصور الكثيرة وهذه الأقنعة الكثيرة ، فإن ما هو داتى وموضوعى شىء واحد ؛ الإنسان فى حقيقته التى تتجرد من الفردية ، هو هو بعينه الله باعتباره جوهراً للكائنات جميعاً ، ويوضح ذلك معلم فى تشبيه مشهور :

— هات لى تينة من ذلك التين

— هذه هى يا مولاى

— اقسمها نصفين

— هأنذا قد قسمتها يا مولاى

— ماذا ترى هناك ؟

— أرى هذه الحُبَيْبات الدُّقاق يا مولاى

— تفضل فاقسم حُبَيْبَةً منها نصفين

— هأنذا قد قسمتها يا مولاى

— ماذا ترى هناك ؟

— لست أرى شيئاً على الإطلاق يا مولاى

— حقاً ياولدى العزيز ، إن هذا الجوهر الذى هو أدق الجواهر والذى لا تستطيع رؤيته — حقاً إنه من هذا الجوهر الذى هو أدق الجواهر قد نبتت هذه الشجرة العظيمة ، فصدقنى يا ولدى العزيز ، إن روح العالم هو هذا الجوهر الذى ليس فى دقته جوهر سواه — هذا هو الحق فى ذاته — هذا هو « أتمان » ؛ هذا هو أنت ياشاوتاكيتو

— هل لك أن تزيدنى بالأمر علماً يا مولاى ؟

— ليكن لك يا ولدى العزيز .

هذا التقابل بين « أتمان » و « براهمان » وما ينشأ عن تلاقيهما فى حقيقة

واحدة — الذى يكاد يكون تطبيقاً للتقابل الديالكتيكى عند هيجل — هو صميم أسفار اليوپانشاد ؛ وكثير غير هذا من الدروس تصادفه فى هذه الأسفار لكنها دروس فرعية بالقياس إلى ذلك ، فنى هذه المحادثات نرى عقيدة تناسخ الأرواح قد تم تكوينها(*) ، كما ترى الشوق إلى الخلاص من هذه الدورات التناسخية الفادحة ؛ فهذا هو « چاناكا » ملك «الڤيديها» يتوسل إلى « ياچناڤالكيا» أن ينبئه كيف يمكن التخلص من العودة إلى الولادة من جديد ؛ ويجيب « ياچناڤالكيا » بشرح « اليوجا » (أى رياضة النفس) فيقول : إذا اقتلع الإنسان بالتزهد كل شهوات نفسه ، لم يعد هذا الإنسان فرداً جزئياً قائماً بذاته ، وأمكنه أن يتحد فى نعيم أسمى مع روح العالم ، وبهذا الاتحاد يخلص من العودة إلى الولادة من جديد ؛ وهنا قال له الملك الذى غلبته حكمة الحكيم على أمره ، قال « أى سيدى الكريم ، إنى سأعطيك شعب الڤيديها وسأعطيك نفسى لنكون لك عبيداً »[١١٨] . وإنها لجنة صارمة تلك التى يعدها « ياچناڤالكيا » ذلك الملك المتبتل ، لأن الفرد هناك لن يشعر بفرديته[١١٩] ، بل كل ما سيتم هنالك هو امتصاص الفرد فى الوجود ، هو عودة الجزء إلى الاتحاد بالكل الذى انفصل عنه حيناً من الدهر ؛ « فكما تتلاشى الأنهار المتدفقة فى البحر ، وتفقد أسماءها وأشكالها ، فكذلك الرجل الحكيم إذا ما تحرر من اسمه وشكله ، يفنى فى الشخص القدسى الذى هو فوق الجميع »[١٢٠] .

مثل هذا الرأى فى الحياة والموت لن يصادف قبولا عند الغربىّ الذى تتغلغل الفردية فى عقيدته الدينية كما تتغلغل فى أنظمته السياسية والاقتصادية ؛ لكنه رأى اقتنع به الهندوسى الفيلسوف اقتناعاً يدهشك باستمراره واتصاله ؛ فستجد

(*) أول ما تظهر هذه العقيدة ، تظهر فى سفر ساتاپاتا من أسفار يوپانشاد حيث يكون تكرار الولادة والموت عقاباً تنزله الآلهة بالإنسان إذا عاش على الشر فى حياته ؛ ومعظم القبائل البدائية تعتقد أن روح الإنسان يمكن انتقالها إلى حيوان أو العكس ، وربما كانت هذه الفكرة — عند سكان الهند السابقين للعنصر الآرى — هى الأساس الذى بنيت عليه العقيدة فى التناسخ[١١٧] .

هذه الفلسفة التي وردت في اليوبانشاد – هذا اللاهوت التوحيدي ؛ هذا الخلود الصوفي المجرد عن التشخيص – سنجد مثل هذه الفلسفة سائدة في التفكير الهندي من بوذا إلى غاندي ، ومن ياجنافالكيا إلى طاغور ؛ فأسفار اليوبانشاد قد ظلت للهند إلى يومنا هذا بمنزلة العهد الجديد للأقطار المسيحية – مذهباً دينيا سامياً – يمارسه الناس أحياناً ، لكنهم يجاونه بصفة عامة ، بل إن هذه الفلسفة اللاهوتية الطموحة لتجد حتى في أوربا وأمريكا ملايين بعد ملايين من الأتباع ، من نساء مللن العزلة ورجال أرهقهم التعب ، إلى شوبنهور وإمرسن ، فمن ذا كان يظن أن الفيلسوف الأمريكي العظيم الذي دعا إلى الفردية سيجري قلمه بتعبير كامل للعقيدة الهندية بأن الفردية وهم من الأوهام ؟

براهما

إذا ظن القاتل المخضب بدماء قتيله أنه القاتل
أو إذا ظن القتيل أنه قتيل
فليس يدريان ما أصطنع من خفيّ الأساليب .
فأحفظها لديّ ، ثم أنشرها ، ثم أعيدها
البعيد والمنسيُّ هو إليّ قريب
والظل والضوء عندي سواء
والآلهة الخفية تظهر لي
وشهوة الإنسان بخيره أو بشره عندي سواء
إنهم يخطئون الحساب من يخرجونني من الحساب
إنهم إذا طيروني عن نفوسهم فأنا الجناحان
إنهم إن شكوا في وجودي فأنا الشك والشاك معاً
وأنا الترنيمة التي بها البراهمي يتغنى

الباب الخامس عشر

بوذا

الفصل الأول

الزنادقة

المتشككون — العدميون — السوفسطائيون — الملحدون — الماديون — ديانات بغير إله

إن أسفار اليوپانشاد نفسها تدل على أنه قد كان بين الناس متشككون حتى فى أيام اليوپانشاد ؛ فقد كان الحكماء أحياناً يسخرون من الكهنة ، مثال ذلك فى سفر « شاندوجيا » من أسفار اليوپانشاد ، تشبيه لرجال الدين المتشددين فى تمسكهم بالعقيدة إذ ذاك بموكب من الكلاب أمسك كل منها بذيل سابقه ، وهو يقول فى ورع : « أم ، دعونا نأكل ، أم ، دعونا نشرب[1] » ؛ وفى سفر « سواسانْڤِدْ » من أسفار اليوپانشاد تصريح بأنه لا إله ، ولا جنة ، ولا نار ، ولا تناسخ ، ولا عالم ؛ وأن أسفار الڤيدا واليوپانشاد ليست إلا تأليفاً من عند جماعة من الحمقى المغرورين ، وأن الأفكار أوهام والألفاظ كلها باطلة ، وأن من تخدعهم العبارات البراقة يتمسكون بالآلهة ، وبالمعابد ، و « بالقديسين » مع أنه لا فرق فى حقيقة الواقع بين « ڤشنو » (الإله) وبين كلب من الكلاب[2] ؛ وإن قصةً لتُروى عن « ڤيروكانا » الذى عاش اثنين وثلاثين عاماً تلميذاً للإله العظيم « براجاپاتى » نفسه ، وأنه تعلم علماً كثيراً عن « النفس التى خلصت من الشرور ، والتى لا تشيخ ، ولا تموت ، ولا تحزن ، ولا تجوع ، ولا تظمأ والتى لا ترغب إلا الحق » ، ثم عاد « ڤيروكانا » بغتة إلى الأرض وطفق يعلم

الناس هذا المذهب الآتى . الذى هو فضيحة الفضائح : «حياة الإنسان إنما تسعد هاهنا على الأرض . ونفس الإنسان لا بد من إشباع رغباتها ، فمن استطاع أن يُسعد نفسه على هذه الأرض ، وأن يشبع رغبات نفسه ، كسب الدارين معاً ، هذه الحياة الدنيا والحياة الآخرة[٣] » ، وإذن فقد يكون البراهميون الصالحون الذين صانوا تاريخ بلادهم ، قد خدعونا قليلا حين أفهمونا أن نزعة التصوف والتقوى بين الهندوس كانت عامة لم يشذ عنها أحد .

والحق أنه كلما كشف لنا البحث العلمي عن شخصيات لم تكن فى المنزلة العليا من احترام الناس ، ممن اشتغلوا بالفلسفة الهندية قبل بوذا ، ارتسمت لنا صورة تبين لنا إلى جانب القديسين السابحين فى تأملاتهم عن إلههم « براهما » ، طائفة من الأشخاص احتقرت الكهنة وشكت فى الآلهة ، وسميت — دون أن ترتاع لهذا الاسم — سميت بطائفة « اللاأدريين » و « العدميين » ؛ فتلا رفض « سانجايا » اللاأدرى أن يثبت أو أن ينفى الحياة بعد الموت ، وتشكك فى إمكان حصول الإنسان على العلم اليقينى ، وحصر الفلسفة فى محاولة استتباب السلام ؛ كذلك أبى « پوراناكاشيايا » أن يعترف بالفوارق الخلقية ، وعلّم الناس أن الروح عبد للمصادفة لا يملك لها دفعاً ؛ وذهب « ماسكارين جوسالا » إلى أن القدر قد خط فى لوحة كل شيء يصيبه الإنسان بغض النظر عما هو جدير به حقاً ؛ ورد « أجيتا كاسا كامبالين » الإنسان إلى عناصر هى التراب والماء والنار والهواء ، وقال « إن الحمقى وأرباب الحكمة يتشابهون إذا ما تحلل الجسد ، فكلاهما يزول وينعدم ولا يكون له وجود بعد الموت[٤] » ولقد صور لنا مؤلف « رامايانا » صورة نموذجية للمتشكك حين صور لنا « چابالى » الذى جعل يسخر من « راما » لأنه رفض مملكة ليفى بوعد تعهد بالوفاء به :

« چابالى وهو برهمى عالم وسوفسطائى مهر فى الكلام ، تشكك فى الإيمان وفى القانون والواجب ، وراح يحدث سيد أيوذيا الشاب قائلا :

أنى لك يا « راما » هذه الحكَم السخيفة التى ترين على قلبك وتكتنف عقلك .

هذه الحكم التى تضال السذج ومن لا يتعمقون التفكير من بنى الإنسان ..؟

أواه ، إنى لأبكى من أجل هؤلاء الفانين من الناس حين يخطئون فيكبّون على واجب باطل .

ويضحون بهذه المتعة الحبيبة إلى النفس حتى تنقضى حياتهم القاحلة .

وما ينفكون يقدمون العطايا للآلهة وللأسلاف ؛ ياله من ضياع للطعام ؟

لأنه لا الإله ولا السلف يأخذ منا هذا الذى نقدمه إليه فى ولاء وتقوى !

وهل إذا أكل الطعام آكل ، تغذى به ناس آخرون ؟

فهذا الطعام تقدمونه لبرهمى ، هل يمكن له إذن أن يشبع الآباء السالفين ؟

إن الكهنة بخبثهم قد صاغوا هذه الحكم ، وهم يقولون إذ هم ينظرون إلى أغراض أنانية :

« قدِّم قربانك وتب إلى الله ؛ واترك مالَكَ الدنيوى واخلص للصلاة ؟»

كلا ، يا « راما » ليس هناك حياة آخرة ، وكلها أباطيل

هذه الآمال وهذه العقائد عند الإنسان .

فابحث عن لذائذ الحاضر ، واطرد عن نفسك هذه الأوهام العابثة الواهية(٥) .

ولما شب بوذا رجلا ، وجد القيعان والشوارع بل وجد الغابات فى شمال الهند ، تتجاوب كلها بأصداء نزاع فلسفى ، كان فى جملته ينحو نحواً إلحادياً مادياً . وإنك لترى الأسفار الأخيرة من « يوپانشاد » ، كما ترى أقدم الأسفار البوذية ملأى بالإشارات إلى هؤلاء الزنادقة(٦) ؛ فقد كان هناك طائفة كبيرة من السوفسطائيين الجوالين — ويسمونهم پاريباچاكا أو المتجوالين — تنفق أحسن أيام السنة فى الرحلة من مكان إلى مكان ، باحثة لها عن تلاميذ أو معارضين فى البحث الفلسفى ؛ وبعضهم كان يعلم المنطق على أنه الفن الذى تستطيع به أن

تبرهن على أى شيء ، ولذلك أطلق عليهم بحق اسم « من يشققون الشعرة » أو « من يتلوون تلوى ثعابين الماء » ؛ وآخرون طفقوا يبرهنون على عدم وجود الله وعدم ضرورة اصطناع الفضيلة ؛ وكانت جموع كبيرة من الناس تحتشد لتسمع أمثال هذه المحاضرات والمناقشات ، وبنيت قاعات لهم خاصة ، وكان الأمراء أحياناً يكافئون الظافرين فى أمثال هذه الحلبات الفكرية[٧] ؛ حقا لقد كان عصراً يدهشك بحرية فكره ، وبألوان التجارب التى أجراها أهله فى عالم الفلسفة .

ولم يبق لنا كثير مما قاله هؤلاء المتشككة ، والفضل فى خلود ذكراهم يرجع كله تقريباً إلى ما هاجمهم به أعداؤهم[٨] ، وأقدم اسم بين تلك الطائفة هو « برهاسپاتى » لكن أقواله الهدامة قد فنيت كلها ، بحيث لم يبق لنا منها إلا قصيدة واحدة تحط من شأن الكهنة فى لغة لا يشوبها غموض الميتافيزيقا :

ليس للجنة وجود ، وليس هناك خلاص أخير ؛
فلا روح ، ولا آخرة ، ولا طقوس للطبقات ...
إن ڤيدا ذات الوجوه الثلاثة ، وأمر الإنسان لنفسه بلغات ثلاث ،
وهذه التوبة بكل ما فيها من تراب ورماد .
كل هذه وسائل عيش لقوم
خلوا من الذكاء والرجولة ...
كيف يمكن لهذا الجسد إذا ما أصبح تراباً ..
أن يعود إلى الظهور على الأرض ؟ وإذا كان فى وسع الشبح أن يمضى
إلى عوالم أخرى ، فلماذا لا يجذبه الحب الشديد
لمن يخلفهم وراءه ، فيرجعه إليهم ؟
إن هذه الطقوس الغالية التى تقام لمن يموتون
ليست إلا وسائل عيش دبّرها

دهاء الكهنة ــ لا أكثر من ذلك ...
فما دمت حياً ، أنفق حياتك مطمئن البال
مرح النفس ؛ ليفترض الإنسان مالا
من أصدقائه جميعاً ، ويطعم نفسه بالزبد المذاب(٩) .

وعلى أساس القواعد التي أذاعها « بريهاسپاتي » هذا ، نشأت مدرسة هندوسية مادية بأسرها ، أطلق عليها اسم واحد من رجالها ، وهو « شارفاكا » وكانت أتباع هذه المدرسة يضحكون من سخف الرأى القائل : إن أسفار الڤيدا قد احتوت على الحق كما أوحى به الله ؛ وقالوا فى حجاجهم إن الحق يستحيل معرفته إلا عن طريق الحواس ؛ وحتى العقل لا يجوز الركون إليه والثقة به ، لأن كل استدلال عقلى لا يعتمد فى صوابه على الملاحظة الدقيقة والتدليل الصحيح فحسب ، بل يعتمد كذلك على افتراض أن المستقبل سيجيء على غرار الماضى ؛ واليقين فى مثل هذا الافتراض مستحيل ، كما كان « هيوم » ليقول فى الموضوع عندئذ(١٠) ؛ قال فريق « الشارفاكا » إن ما لا تدركه الحواس ليس له وجود ؛ وإذن فالروح وهم من الأوهام ، والإله « آتمان » أبطولة من الأباطيل : إننا لا نصادف فى تجاربنا ولا فى تجارب السالفين ؛ إذ نستبطن أنفسنا ، أية علامة تدل على وجود قوى خارقة للطبيعة العالم ؛ كل الظواهر طبيعية ، ولا يردها إلى الشياطين أو الآلهة إلا السذج(١١) ؛ والمادة هى وحدها الحقيقة التى لا حقيقة سواها ؛ والجسم مجموعة من ذرات اجتمع بعضها ببعض(١٢) وما العقل إلا مادة تفكر ؛ والجسم ــ لا الروح ــ هو الذى يشعر ويرى ويسمع ويفكر(١٣) « من ذا الذى رأى روحاً موجودة فى استقلال عن الجسم ؟ » فليس هناك خلود ولا عودة إلى الحياة ؛ والدين كله تخليط وهذيان وسفسطة خادعة ، وافتراض وجود الله لا ينفع شيئاً فى شرح العالم أو فهمه ، وإذا اعتقد الناس بضرورة الدين ، فما ذاك إلا أنهم تعودوه ، ولذا فهم يحسون كأنما ضاع منهم ضائع ، ويشعرون كأنهم فى خلاء لا تطمئن

له النفوس ، حين تنمو معارفهم نمواً يهدم العقيدة الدينية[١٤] ؛ وكذلك الأخلاق أمر طبيعي ؛ فهي عرف اجتماعي ووسيلة لراحة العيش في المجتمع ، وليست بالأمر الصادر من الله ؛ والطبيعة لا تأبه لخير أو لشر ، لفضيلة أو رذيلة ، وهي تشرق بشمسها في غير تفرقة بين الأوغاد والقديسين ؛ فلو كان للطبيعة صفة أخلاقية إطلاقاً ، فهي منافاتها للأخلاق كما تعرفها حدود البشر ؛ ولا حاجة بالإنسان إلى إلجام غرائزه وشهواته ، لأن هذه هي الإرشادات التي رسمتها الطبيعة للناس ، الفضيلة غلطة من الغلطات ، وغاية الحياة هي أن تعيش ، والحكمة الوحيدة هي أن تعيش سعيداً[١٥] .

كانت هذه الفلسفة الثائرة التي أخذ بها فريق « الشارفاكا » ختاماً لأسفار الفيدا وأسفار اليوبانشاد ، وزعزعت سلطة البراهمة على العقل الهندي ، وتركت في المجتمع الهندوسي فراغاً كاد يضطر الناس اضطراراً أن يصطنعوا لأنفسهم ديناً جديداً ؛ لكن أنصار المذهب المادي هؤلاء كانوا قد أجادوا أداء مهمتهم إجادة جعلت الديانتين اللتين نشأتا لتحلا محل العقيدة الفيدية ، ديانتين ملحدتين ، أو عقيدتين تعبدتين بغير إله — ولو أن هذا القول قد يبدو للقارىء تناقضا — فكلتا الديانتين الجديدتين كانتا شعبتين من الحركة الهدامة ؛ وكلتاهما لم تكونا من إنشاء الكهنة البراهمة ، بل ابتدعهما فريق من « الكشاترية » أي طبقة المقاتلين ، ليردوا بهما فعل اللاهوت والطقوس الكهنوتية ، وبظهور هاتين الديانتين ، وهما الجانتية والبوذية ، بدأ التاريخ الهندي عصراً جديداً .

الفصل الثانى

ماهافيرا والجانتيُّون

البطل العظيم – العقدة الجانتية – تعدد الآلهة والشرك بالله –
التقشف – الخلاص بالانتحار – تاريخ الجانتية فى مراحلها الأخيرة

حول منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، وُلد صبى لرجل ثرى من أشراف قبيلة « لِشَّاڤى » فى ضاحية من ضواحى مدينة « ڤايشالى » فى الإقليم الذى يسمى الآن بإقليم « بهار »(*) . وكان أبواه على ثرائهما ينتميان إلى عقيدة تنظر إلى العودة إلى الحياة على أنها لعنة نزلت بمن يعود ، وتنظر إلى الانتحار على أنه ميزة ينعم بها المنتحر ؛ فلما أن بلغ وليدهما عامه الحادى والثلاثين ، أزهقا روحيهما بجوع متعمد ؛ فتأثر ابنهما الشاب تأثراً بلغ منه سويداء نفسه ، فاطرح العالم كله وأساليب العيش فيه ، وخلع عن جسده كل ثيابه ، وضرب فى أرجاء الإقليم الغربى من البنغال زاهداً متقشفاً ، ينشد تطهير نفسه من أدرانها كما يقصد أن يزداد بسر الوجود فهماً وعلماً ، وبعد أن قضى فى إنكار ذاته على هذا النحو ثلاثة عشر عاماً ، أعلنت جماعة من أتباعه أنه « جِنَا » (أى قاهر) ومعنى ذلك أنه معلم من عظماء المعلمين الذين يكتب لهم القدر – هكذا كانوا يعتقدون – أن يظهروا على فترات دورية ليهدوا شعب الهند سواء السبيل .

واختار هؤلاء الأتباع لزعيمهم اسما جديداً هو « ماهاڤيرا » أو « البطل العظيم » ، واتخـذوا لأنفسهم اسماً اشتقوه من اسم عقيدتهم فأطلقوا على أنفسهم اسم « الجانتيين » ونظم « ماهاڤيرا » طائفـة من رجاله يكونون

(*) يروى الرواة أن ماهاڤيرا عاش بين سنتى (٥٩٩ – ٥٢٧ ق . م .) . لكن جاكوبى يعتقد أن ٥٤٩ – ٤٧٧ ق . م . أقرب إلى الصواب(١٦) .

رهباناً عُزّاباً وطائفة من النساء يكنّ راهبات عانسات ؛ فلما أن جاءته منيته وهو فى الثانية والسبعين من عمره ، ترك وراءه أربعة عشر ألفاً من أشياع مذهبه .

وأخذت هذه العقيدة شيئاً فشيئاً تخرج من جوفها مذهباً من أعجب ما شهده تاريخ الديانات من مذاهب ؛ فقد بدأ هؤلاء الأتباع بمنطق واقعى ، إذ وصفوا المعرفة بأنها لا تتجاوز حدود النسبى الذى يقع فى الزمان ، فكانوا يعلمون الناس أن ليس ثمة حق إلا من وجهة نظر معينة ، ولو نظر إلى هذا الحق من وجهات نظر أخرى لكان الأرجح أن يكون باطلا ؛ وكان يلذ لهم دائماً أن يرووا قصة العميان الستة الذين وضعوا أيديهم على أجزاء مختلفة من جسم الفيل ، فمن وضع يده على أذنه ظن أن الفيل مروحة ضخمة للذرّ الغلال ، ومن وضع يده على ساقه قال إن الفيل عمود مستدير كبير[71] ، فالأحكام كلها — إذن — محدودة بحدود ومشروطة بشروط ، وأما الحقيقة المطلقة فلا تتكشف إلا لهؤلاء المخلصين للبشر الذين يظهرون على فترات منتظمة ، أو طائفة « الجنا » كما كانوا يسمونهم ؛ وليست تنفع أسفار الفيدا لسد هذا النقص ، لأنها لم تهبط من إله ، وأقل ما يقال فى التدليل على ذلك أن ليس هنالك إله ؛ وقد قال الجانتيون إنه ليس من الضرورى أن نفرض وجود خالق أو سبب أول ، فكل طفل يستطيع أن يفند مثل هذا الفرض بقوله إن الخالق الذى لم يُخْلَق أو السبب الذى لم يسبقه سبب ، لا يقل صعوبة عن الفهم عن افتراض عالم لم تسبقه أسباب ولم يخلقه خالق ؛ وإنه لأقرب إلى المنطق السليم أن نعتقد أن الكون كان موجوداً منذ الأزل ، وأن تغيراته وأطواره التى لا نهاية لها ترجع إلى قوى كامنة فى الطبيعة ، من أن تعزو هذا كله إلى صناعة إله[18] .

لكن مناخ الهند لا يساعد على عقيدة طبيعية تقوم بين الناس وتثبت ، فلما أفرغ الجانتيون السماء من إلهها ، لم يلبثوا أن عمّروها من جديد بطائفة من القديسين المؤلهين ممن روى أخبارهم تاريخ الجانتيين وأساطيرهم ؛ وراحوا

يعدونهم مخلصين لهم العبادة مقيمين لهم الشعائر ؛ لكنهم اعتبروا هؤلاء المؤلهين أنفسهم خاضعين للتناسخ والتحلل ، ولم يعدوهم خالقين للعالم أو سادة عليه يحكمونه بأى معنى من المعانى[١٩] ، وليس معنى ذلك أن الجانتيين كانوا يعتنقون مذهباً مادياً خالصاً ، لأنهم فرقوا بين العقل والمادة فى كل الكائنات ، ففى كل شىء ، حتى الأحجار والمعادن ، أرواح كامنة ، وكل روح تحيا حياتها بغير شائبة تلام عليها ، تصبح « باراماتمان » — أو روحاً سامية — وكانت تنجو بذلك من التقمص فى جسد آخر ، مدى حين ، على أنها تتقمص جسدها الجديد إذ ما نالت من الجزاء حقها الموفور ، ولا ينعم « بالخلاص » الكامل إلا أعلى الأرواح وأكملها ؛ ومن هؤلاء تتكون طائفة « الأرهات » — أى السادة المعظمين — الذين كانوا يعيشون ، مثل آلهة أبيقور ، فى مملكة بعيدة ظليلة ، وهم عاجزون عن التأثير فى شئون الناس ، لكنهم ينعمون بارتفاعهم عن كل احتمال يؤدى إلى عودتهم إلى الحياة[٢٠] .

والطريق المؤدية إلى الخلاص فى رأى الجانتيين ، هى توبة تقشفية ، واصطناع « أهِنْسا » موفورة كاملة ، « وأهسا » معناها الامتناع عن إيذاء أى كائن حى ؛ ولزام على كل متقشف جانتى أن يأخذ على نفسه عهوداً خمسة ، ألا يقتل كائناً حياً ، وألا يكذب ، وألا يأخذ ما لم يُعْطَه ، وأن يصون عفته وأن ينبذ استمتاعه بالأشياء الخارجية كلها ؛ وفى رأيهم أن اللذة الحسية خطيئة دائماً ؛ والمثل الأعلى هو أن تأبه للذة أو ألم وأن تستغنى استغناء تاماً عن الأشياء الخارجية كلها ؛ فالزراعة حرام على الجانتى لأنها تمزق التربة وتسحق الحشرات والديدان ؛ والجانتى الصالح يرفض أكل العسل لأنه حياة النحل ، ويصفى الماء قبل شرابه خشية أن يقتل ما عساه أن يكون كامناً فيه من كائنات ؛ ويغطى فمه حتى لا يستنشق مع الهواء أحياء عالقة فيقتلها ، ويحيط مصباحه بستار حتى يقى الحشرات لذع النار ، ويكنس الأرض أمامه وهو يمشى خوفاً من أن

تدوس قدمه الحافية على كائن حي فتُرْديه ؛ ولا يجوز للجانتي أبداً أن يذبح حيواناً أو يضحي به ، ولو كان « جانتيا » صميا أقام المستشفيات والمصحات — كما ترى في أحد أباد — للحيوانات إن هرمت أو أصابها أذى ؛ والحياة التي يجوز له أن يزهقها هي حياته دون غيرها ؛ فالعقيدة الجانتية تجيز الانتحار ولا تقيم في سبيله العقبات ، خصوصاً إذا تم بوسيلة الجوع ، لأن ذلك أبلغ انتصار تظفر به الروح على إرادة الحياة العمياء ؛ ولقد مات جانتيون كثيرون على هذا النحو ، وقادة المذهب يبارحون هذه الدنيا — حتى في عصرنا هذا — بتجويع أنفسهم حتى الموت[٢١] .

إن عقيدة دينية كهذه ، قائمة على أساس من الشك العميق في قيمة الحياة والإنكار الشديد لها ، كان يمكن أن تجد في الناس شيوعاً في بلد ما فتئت الحياة فيه عسيرة شاقة ؛ لكن هذا التطرف في الزهد قد حال دون إقبال الناس عليها حتى في الهند ؛ فمنذ ظهور المذهب الجانتي ، والجانتيون صفوة مختارة ؛ وعلى الرغم من أن « يوان شوانج » وجدهم عديدى النفر أقوياء الأثر في القرن السابع [٢٢]. فإنهم كانوا عنـــدئذ في أوج حياتهم التي سلخت سيرتها في هدوء ؛ وحدث سنة ٧٩ ميلادية أن انشقوا فريقين تفصلهما هوة سحيقة من اختلاف الرأى على موضوع العرى ؛ ومنذ ذلك الحين ، كان الجانتي إما أن يكون منتسباً إلى طائفة « شويتامبّارا » — أى طائفة ذوى الأردية البيض — وإما أن يكون منتسباً إلى طائفة « ديجامبارا » — أى المتزملين بالسماء ، أو ذوى الأجساد العارية ؛ وكلتا الطائفتين تلبس الثياب العادية كما يقضى المكان والزمان ، وقدّيسوهم وحـــدهم هم الذين يجوبون الطرقات عراة الأجسام ؛ وهذان المذهبان الفرعيان لها فروع ، فطائفة « ديجامبارا » لها أربعة فروع ، وطائفة « شويتامبارا » لها أربعة وثمانون فرعاً [٢٣] ، ويبلغ عدد أتباع الطائفتين معاً مليوناً وثلاثمائة ألف نسمة من عدد السكان الذين يبلغون ثلاثمائة وعشرين

مليوناً(٢٤) ، ولقد كان غاندى شديد التأثر بالمذهب الجانتى ، واصطنع « أهمسا » — ومعناها الامتناع عن إيذاء الكائنات الحية على اختلافها — أساساً لسياسته وحياته ، ورضى من الثياب بقطعة صغيرة من القماش تستر ردفيه ، ولم يكن يستحيل عليه أن يُزهق نفسه جوعاً ؛ ومن يدرى ؟ فلعل الجانتيين يسلكونه فى طائفة « الجنا » فيعدونه تجسّداً جديداً للروح العظمى التى تتقمص جسداً من لحم على فترات منتظمة من الدهر لتخلّص العالم .

الفصل الثالث

أسطورة بوذا

بطاقة البوذية — الولادة المعجزة — النشأة — أحزان
الحياة — الهرب — أعوام التقشف — الهداية —
رؤية النرفانا

إنه لمن العسير على أبصارنا أن ترى عبر ألفين وخمسمائة عام ماذا كانت الظروف الاقتصادية والسياسية والخلقية التي استدعت ظهور ديانتين تدعوان مثل ما تدعو إليه الجانتية والبوذية من تقشف وتشاؤم ؛ فمما لا شك فيه أن الهند كانت قد خطت خطوات فسيحة في سبيلها إلى الرقي المادي منذ استقر بها الحكم الآري : فبنيت مدائن عظيمة مثل « باتاليپُترا » و « ڤايشالي » ؛ وزادت الصناعة والتجارة من ثروة البلاد ؛ والثروة بدورها خلقت لطائفة من الناس فراغاً ، ثم طوّر الفراغ العلم والثقافة ؛ ومن الجائز أن تكون الثروة في الهند هي التي أشاعت فيها النزعة الأبيقورية المادية خلال القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ؛ ذلك لأن الدين لا يزدهر في حياة تزدهر بالثراء ، إذ الحواس في ظل الثراء تحرر نفسها من قيود الورع وتخلق من الفلسفات ما يبرر هذا التحرر ؛ وكما حدث في الصـــين أيام كونفوشيوس ، وفي اليونان أيام بروتاجوراس — ولن نذكر في الهند أيام بوذا — أن أدى الانحلال العقلي للديانة القديمة إلى شك وفوضى في الأخلاق ، فالجانتية والبوذية ، لو أنهما مترعتان في ثناياهما بلون من الإلحاد الكئيب ، الذي ساد ذلك العصر بعد أن زالت عن عينيه غشاوة الأحلام وأوهامها ؛ إلا أنهما في الوقت نفسه كانتا بمثابة رد فعل من جانب الدين في مقاومته لمذاهب اللذة التي أخذت بها طبقة من الناس

حررت نفسها ونعمت فى حياتها بالفراغ(*) .

وتصف الرواية الهندوسية والد بوذا — شُدُّ ذُوذانا — بأنه رجل غمس نفسه فى الحياة ، وهو من أبناء عشيرة «جواتاما» التى تنتسب إلى قبيلة « شاكيا » المُدلّة بنفسها : كان أميراً أو ملكاً على « كاپيلا ڤاستو » عند سفح الهملايا[٢٥] ؛ ولكننا فى حقيقة الأمر لا نعرف شيئاً عن بوذا معرفة اليقين ؛ فلو رأيتنا قد قصصنا عليك هاهنا القصص التى تجمعت حول اسمه ، فليس ذلك لأنها تاريخ نريد إثباته ، ولكننا نرويها لأنها جزء ضرورى من الأدب الهندى والديانة الأسيوية ، ويحدد العلماء مولد بوذا بعام يقرب من سنة ٥٦٣ ق . م ثم لا يستطيعون أن يضيفوا إلى ذلك شيئاً ، فتتناول الأساطير بقية قصته ، وتكشف لنا عن الغرائب التى قد تحدث حين تحمل الأمهات بأعلام الرجال ، فيذكر لنا سفر من أسفار « چاتاكا »(**) أنه فى ذلك الوقت :

« فى مدينة كاپيلاڤاستو » أعلن عن الاحتفال بالبدر ؛ وبدأت الملكة « مايا » قبل موعد البدر بسبعة أيام تقيم حفلاتها بالعيد دون أن تقدم فيها المسكرات ، مكتفية بما أغرقت به ولائمها من أكاليل الزهور والعطور ؛ وفى اليوم السابع — يوم اكتمال البدر — استيقظت مبكرة واستحمت فى ماء

(*) لاحظ كثيرون أن هذه الفترة تميزت بكثرة الأنجم اللوامع فى تاريخ العبقرية ؛ فـ « ماهاڤيرا » و « بوذا » فى الهند ؛ و « لاوتسى » و « كونفوشيوس » فى الصين ؛ و « إرميا » و « أشعيا الثانى » فى الأمة اليهودية ؛ وفلاسفة ما قبل سقراط فى اليونان ؛ وربما كان ذلك أيضاً عهد « زرادشت » فى فارس ؛ ومثل هذا التعاصر فى النبوغ يدل على تبادل المؤثرات بين هذه الثقافات القديمة بدرجة أكبر مما يمكننا أن نتعقبه اليوم على سبيل التحديد .

(**) وهى « قصص عن ولادة » بوذا كتبت حول القرن الخامس الميلادى وهناك كذلك أسطورة أخرى عنوانها « لا ليتا فستارا » التى ترجمها إلى الإنجليزية سير إدون آرنلد بعنوان « ضوء آسيا » .

وأحسنت للفقراء بأربعمائة ألف قطعة من النقد : ولما أخذت زخرفها وازّينت ، جلست تأكل طعامها من أطيب الطعام ، وقطعت على نفسها عهود « أبوساذا »(*) ، ثم دخلت مخدعها الرسمى المزدان ، واستلقت على سريرها ، فأخذها النعاس ورأت هذا الحلم :

رأت أربعة ملوك عظماء يرفعونها فى سريرها ويأخذونها إلى جبال الهملايا ويضعونها على هضبات مانوسيلا . . . ثم رأت ملكات هؤلاء الملوك الأربعة ، يأتين إليها فيأخذنها إلى بحيرة أنوتاتا ، ويغمسنها فى الماء ليزلن عنها الصبغة البشرية ، ويلبسنها أردية سماوية ويعطرنها بالعطور ويزيّنّها بالزهور القدسية ؛ ولم يكن على مبعدة منها أن رأت جبلا من فضة وعليه قصر من ذهب ؛ وهنالك أعددن لها سريراً إلهياً رأسه إلى الشرق ، وأرقدنها عليه ؛ وهاهنا انقلب « بوذيساتوا »(**) فيلا أبيض ، وكان على مقربة من المكان جبل من ذهب فلما أن بلغه هبط منه إلى جبل الفضة آتياً إليه من جهة الشمال ؛ وفى جبهته التى اشبهت حبلا من فضة ، كان يحمل زهراً أبيض من زهور اللوتس ؛ وبعدئذ نفخ فى الصور ودخل قصر الذهب ودار تجاه اليمين دورات ثلاثاً حول سرير أمه ، ثم ضرب جنبها الأيمن وظهر لها كأنه يدخل فى رحمها ؛ وبهذا تلقى . . . حياة جديدة .

واستيقظت الملكة فى اليوم التالى وروت حلمها للملك ؛ فدعا الملك إلى حضرته أربعة وستين من أعلام البراهمة ، وخلع عليهم خلع التكريم وأشبعهم طعاماً فاخراً وقدم إليهم الهدايا ؛ فلما أن رضيت نفوسهم بهذه اللذئذ كلها ،

(*) هى عهود تقال فى أربعه أيام مقدسة من كل شهر ، وهى أيام البدر والهلال واليوم الثامن بعد كل منهما .

(**) شخص أراد له القدر أن يكون بوذا ، ومعناها هنا « بوذا » نفسه ، ومعنى كلمة بوذا « المستنير » وهى بين كثير من الألقاب التى تخلع على « السيد » الذى كان اسمه الشخصى « سدذارتا » واسم عشيرته « جوتاما » ؛ وكذلك كان يسمى « شاكيا — مونى » ومعناها « حكيم جماعة شاكيا » كما كان يسمى أيضاً « تاذاجاتا » ومعناها « الرجل الذى ظفر بالحق » ؛ ومع ذلك فلم يطلق بوذا على نفسه لقباً من هذه الألقاب فيما نعلم(٢٧) .

أمر بالحلم أن تُقتَصّ عليهم قصته ، واستفسرهم مايكنه الغيب ، فقال البراهمة : لا يأخذنك الهم أيها الملك ، فقد حملت الملكة ، حملت ذكراً لا أنثى ، وسيكون لك ابن ؛ ولو سكن ذلك الولد بيتاً فسيكون ملكاً ، سيكون ملكاً على الدنيا بأسرها ، وأما إن ترك داره وخرج من أحضان العالم ، فسيصبح بوذا ، وسيكون فى هذا العالم رافع الغشاوة عن أعين الناس (غشاوة الجهل) :

وحملت الملكة « مايا » « بوذيستاتاوا » عشرة أشهر كأنه الزيت فى القدح ، ولما أن جاءها أوانها رغبت فى الذهاب إلى بيت أهلها ، ووجهت الخطاب إلى الملك « شدذوذانا » قائلة : « أريد أيها الملك أن أذهب إلى « ديفادادا » مدينة أسرتى » فوافق الملك وأمر بالطريق من « كابيلافاستو » إلى « ديفادادا » أن يمهد وأن يزين بأصص النبات ، وبالرايات والأعلام ، وأجلسها فى هودج من ذهب يحمله ألف من رجال البلاط ، وأرسلها إلى بيت أهلها فى حاشية كبيرة ؛ وبين البلدين حَرَج يملكه أهل المدينتين جميعاً ، هو حرج يمرح فيـه الناس ، يتألف من أشجار « الملح » ويسمى « حرجُ لُمبِينى » وكان الحرج إذ ذاك كتلة واحدة من الزهر الذى يغطى الأشجار من جذورها إلى رءوسها . . . فلما رأته الملكة رغبت فى أن تمرح فى الحرج . . . وذهبت إلى جذع شجرة كبيرة من أشجار « الملح » وأرادت أن تمسك بغصن من غصونها فانحنى الغصن حتى بات فى متناول يدها كأنه الطرف الأعلى من قصبة لينة ، ومدت يدها وتناولته ، وفى هذه اللحظة عينها اهتزت بالمخاض ، فأقامت لها الحاشية ستاراً يسترها ، وأبعدت عنها ، فوضعت وليدها وهى لم تزل واقفة ممسكة بغصن الشجرة فى يدها ؛ ولم ينزل « بوذيساتاوا » — كما ينزل سائر الأطفال من أجواف أمهاتهم — ملوثاً بالشوائب ؛ بل نزل « بوذيساتاوا » كما ينزل الواعظ من منبر وعظه ، نزل كأنه الرجل ينزل السلم ، ومد يديه وقدميه ، ووقف لا يلوثه القذر ولا تدنسه شائبة من الشوائب ، وقف مشرقاً بالضوء كأنه جوهرة موضوعة على ثوب بنارسى ، هكذا هبط من جوف أمه[٢٨] »

وفوق ذلك ينبغي أن تعلم أنه عند مولد بوذا ظهر فى السماء ضوء لامع ، وسمع الأصم ، ونطق الأبكم ، واستقام الأعرج على ساقيه ، وانحنت الآلهة من علياء سمائها لتمدّ له أيدى المعونة ، وأقبل الملوك من نائى البلاد يرحبون بمقدمه ، وتصور لنا الأساطير صورة زاهية لما أحاط نشأته من أسباب العز والترف ؛ وعاش عيش الأمير الهانئ فى ثلاثة قصور « كأنه إله » ، وكان أبوه يقيه ، مدفوعاً بحبه الأبوى ، شر الاتصال بما تعانيه الحياة البشرية من آلام وأحزان ؛ وكان يقوم على تسليته أربع آلاف راقصة ، ولما بلغ الرشد ، عرضت عليه خمسمائة سيدة ليختار إحداهن زوجة له ؛ ولما كان ينتمى إلى طبقة « الكشاترية » — أى « المقاتلين » أُحسن تدريبه فى الفنون العسكرية ، ولكنه إلى جانب ذلك جلس عند أقدام الحكماء حتى أتقن دراسة النظريات الفلسفية كلها التى كانت شائعة فى عصره [٢٩] ؛ وتزوج وأصبح والداً سعيداً بحياته ، وعاش فى ثراء وَدعة وطيب أحدوثة .

ويروى الرواة الصالحون أنه خرج من قصره ذات يوم إلى الطرقات حيث عامة الناس ، وهنالك رأى شيخاً كهلا ، وخرج يوماً ثانياً فرأى رجلا مريضاً ، وخرج يوماً ثالثاً فرأى ميتاً ... فاسمع له يروى القصة بنفسه — كما نقلها أتباعه فى الكتب المقدسة — يرويها فيحرك فى نفسك كامن الشعور .

« وبعدئذ أيها الرهبان جَرَت خواطرى على النحو الآتى — فيما كنت فيه من جلال عيش ورفاهية بالغة — قلت لنفسى : « إن رجلا جاهلا من سواد الناس ، ستنال منه الكهولة كما نالت من ذلك الشيخ ، وليس هو بالبعيد عن نطاق الشيخوخة ، يضطرب ويستحي وتعاف نفسه حين يبصر بشيخ كهل لأنه يتصور نفسه فى مثل حالته ؛ إننى كذلك قابل للشيخوخة ، ولست بعيداً عن نطاقها ؛ أفينبغى لى — وأنا القابل الشيخوخة — إذا ما رأيت شيخاً كهلا ، أن أضطرب وأستحي وأن تعاف نفسى ؟ » لم أر ذلك مما يليق ؛ ولما طاف برأسي هذا الخاطر ، ذهب عنى بغتة كل تيه بشبابى ...

وهكذا أيها الرهبان قبل أن أهتدى سواء السبيل ، لما وجدتنى ممن تجوز عليهم الولادة ، بحثت فى طبيعة هذه الولادة ماذا تكون ،ولما وجدنى ممن تجوز عليهم الشيخوخة بحثت فى طبيعة هذه الشيخوخة ماذا تكون ، وكذلك المرض ، وكذلك الحزن ، وكذلك الدنس ؛ ثم فكرت لنفسى : « ما دمت أنا نفسى ممن تجوز عليهم الولادة ، فماذا لو بحثت فى طبيعتها ... فلما رأيت ما فى طبيعة الولادة من تعس ، جعلت أبحث عمن لا يولد ، أبحث عن السكينة العليا ، سكينة النرفانا[٣٠] .

إن الموت هو أصل الديانات كلها ؛ ويجوز أنه لو لم يكن هنالك موت لما كان للآلهة عندنا وجود ، هذه النظرات كانت بداية « التنوير » عند بوذا ؛ وكما يرتد الإنسان عن دينه فى لحظة ، وكذلك حدثت لبوذا أن صمم فجأة أن يترك إباه[*] وزوجته وابنه الرضيع ، ليضرب فى الصحراء زاهداً ؛ ولما أسدل الليل ستاره ، تسلل إلى غرفة زوجته ، ونظر إلى ابنه « راهولا » نظرة أخيرة ؛ وتقول الأسفار المقدسة البوذية ، فى فقرة يقدسها أتباع « جوتاما » جميعاً ، إله فى هذه اللحظة عينها :

« كان مصباح يضىء بزيت عبق ، وكانت أم « راهولا » نائمة على سرير ملىء بأكداس الياسمين وغيره من ألوان الزهور ، واضعة راحتها على رأس ابنها ؛ فنظر « بوذيستاوا » — بوذا المنتمر — وقدماه عند الباب ، وقال لنفسه : « لو أزحت يد الملكة لآخذ ابنى ، فستستيقظ الملكة ، وسيكون ذلك حائلا دون فرارى ؛ إننى إذا ما أصبحت بوذا سأعود لأراه » ونزل من القصر[٣١] :

وفى ظلمة الصباح الباكر خلّفَ المدينة على ظهر جواده « كانثاكا » يصحبه سائق عربته « شونا » وقد تعلق يائساً بذيل الجواد ؛ وعندئذ تبدى له « مارا » أمير الشر ، وأغواه بمُلْك عريض ، لكن بوذا أبى عليه غوايته ، وظل راكباً جواده حتى صادفه نهر عريض فوثب من شاطئه إلى شاطئه بوثبة

(*) ماتت أمه فى ولادته .

واحدة جبارة وطافت بنفسه رغبة أن ينظر إلى بلده لكنه أبى على نفسه اللفتة لبرى ، ثم استدارت الأرض العظيمة حتى لا تصبح أمامه سبيل إلى النظر إلى الوراء(٣٢) .

ووقف عند مكان اسمه « بوروڤيلا » يقول : « قلت لنفسي إن هذا لمكان رائع ، وإن هذه لغاية جميلة ؛ فالنهر ينساب صافياً ، وأماكن الاستحمام تبعث فى النفس السرور ، وكل ما حولى مروج وقرى » . وهاهنا فى هذا الموضع أخضع نفسه لأشق أنواع التقشف ؛ ولبث ستة أعوام يحاول أساليب « اليوجا » — رياضة النفس — التى كانت قد ظهرت قبل ذاك فى ربوع الهند ؛ وعاش على الحبوب والكلأ ، ومضى عليه عهد اقتات فيه بالروث ، وانتهى به التدرج إلى أن جعل طعامه حبة من الأرز كل يوم ؛ ولبس ثياباً من الوبر وانتزع شعر رأسه ولحيته لينزل بنفسه العذاب لذات العذاب ؛ وكان ينفق الساعات الطوال واقفاً أو راقداً على الشوك ، وكان يترك التراب والقذر يتجمع على جسده حتى يشبه فى منظره شجرة عجوزاً ؛ وكثيراً ما كان يرتاد مكاناً تلقى فيه جثث الموتى مكشوفة ليأكلها الطير والوحش ؛ فينام بين هذه الجثث العفنة . ثم اسمع له مرة أخرى يروى لك قصته :

« قلت لنفسى : ماذا لو زممتُ الآن أسنانى ، وضغطت لسانى إلى لهاتى ؛ وألجمت عقلى وسحقته وأحرقته بعقلى (وهكذا فعلت) ونضج العرق من إبطى ... ثم قلت لنفسى : ماذا لو اصطنعت الآن غيبوبة شعورية يقف فيها التنفس ؟ وهكذا أوقفت النفس شهيقاً وزفيراً من أنفى وفمى ؛ ولما فعلت ذلك سمعت صوتاً عنيفاً للهواء يخرج من أذنىّ . . . وكما يحدث للرجل إذا ما أراد أن يهشم لإنسان رأسه بسن سيفه ، فكذلك رجّت الرياح العنيفة رأسى . . ثم قلت لنفسى : ماذا لو قللت من طعامى ، فلا آكل أكثر مما تسع راحتى من عصير الفول أو العدس أو البسلّى أو الحمص ... فضمر جسدى ضموراً شديداً ، وكان من أثر تقليل الطعام أن أصبحت العلامة التى أتركها على الأرض إذا ما جلست ، فى هيئة أثر الخف يتركه البعير على الرمال ؛ وكان من أثر

تقليل الطعام أن برزت عظام فقراتى إذا ما حنيتها أو فردتها حتى أشبهت صفاً من رءوس المغازل ؛ وكان من أثر تقليل الطعام أن أصبحت عينى تبرقان عميقتين وطيئتين فى محجرهما ، كما يبرق الماء عميقاً وطيئاً فى بئر عميقة ؛ وكان من أثر تقليل الطعام أن ذبل جلد رأسى كما تنشقق وتذوى القرعة المرة المفصولة عن فرعها وهى فجة ، بفعل الشمس والمطر ، ولما كنت أمد يدى لألمس جلدة بطنى ، كنت أجدنى فى حقيقة الأمر أمسك بفقرات ظهرى ؛ وكان من أثر تقليل الطعام أنى إذا إذا ما أردت برازاً وجدتنى أنبطح على الأرض سطيحاً ، وكان من أثر تقليل الطعام أنى إذا أردت راحة لجسمى وأخذت أدلكه بكفى ، كانت الشعرات الذاوية تساقط منه »(٣٣) .

لكن فكرة أشرقت على بوذا ذات يوم وهى أن تعذيب النفس ليس هو السبيل لما يريد ، وربما كان فى ذلك اليوم أشد جوعاً منه فى سائر الأيام ، أو ربما ثارت فى نفسه إذ ذاك ذكرى من ذكريات الجمال ، ذلك أنه لم يلحظ تنويراً جديداً يأتيه من هـذه الحياة القاسية بزهدها : « إننى بمثل هذه القسوة لا أرانى أبلغ العلم والبصيرة الساميتين على مستوى البشر ، وهما العلم والمعرفة اللتان تتصفان بالرفعة الحقيقية » ، بل الأمر على نقيض ذلك ، إن تعـذيبه لنفسه قد ولد فيه شعور الزهو بنفسه مما يفسد أى نوع من أنواع التقديس التى كان من الجائز أن تفيض من نفسه ، فأقلع عن زهده وذهب ليجلس تحت شجرة وارفة الظل(*) وجلس هناك جلسة مستقيمة لا حركة فيها ، مصمماً ألا يبرح ذلك المكان حتى يأتيه التنوير ، وسأل نفسه : مامصدر ما يعانيه الإنسان من أحزان وآلام وأمراض وشيخوخة وموت ؟ وهنا أشرقت عليه فجأة صورة للموت والولادة يتعاقبان فى مجرى الحياة تعاقباً لا ينتهى ؛ ورأى أن كل موت يزول أثره بولادة جديدة ؛ وكل سكينة وغبطة تقابلها شهوة جديدة وقلق جديد وخيبة أمل جديدة وحزن جديد وألم جديد : « وهكذا

(*) هى « شجرة بوذ » التى ستصبح فيما بعد معبودة عند البوذيين ، ولا تزال هناك تعرض على السائحين عند مرورهم بـ « بوذجايا » .

ركزت عقلي في حالة من نقاء وصفاء ... ركزته فى فناء الكائنات وعودتها إلى الحياة فى ولادة جديدة ؛ وبنظرة قدسية مطهرة إلهية ، رأيت الكائنات الحية تمضي ثم تعود فتولد دَنِيَّة أو سَنِيَّة ، خيرة أو شريرة ، سعيدة أو شقية ، حسب ما يكون لها من «كارما» وفق ذلك القانون الشامل الذى بمقتضاه سيتلقى كل فعل خيّر ثوابه ، وكل فعل شرير عقابه ، فى هذه الحياة ، أو فى حياة تالية تتقمص فيها الروح جسداً آخر .

إن رؤيته لهذا التعاقب السخيف سخفاً لا يخفى على الرائى ، هذا التعاقب بين الموت والولادة ، هى التى جعلته يزدرى الحياة البشرية ازدراء ؛ فقال لنفسه : إن الولادة أم الشرور جميعاً ، ومع ذلك فالولادة ماضية فى طريقها لا تقف فيه عند حد ، إنها ماضية إلى الأبد فى طريقها تعيد إلى مجرى الأحزان البشرية فيضه إن فرغ مما يملؤه ؛ فلو استطعنا وقف هذه الولادة . . . لماذا لا نقفها ؟(*) لأن قانون «كارما» يتطلب حالات جديدة من التقمص للروح ، لكى يتاح لها أن تكفر عما اقترفت من شرور فى حيواتها الماضيات ؛ وإذن فإن استطاع الإنسان أن يعيش حياة يسودها عدل كامل ، حياة يسودها صبر وشفقة لا يمتنعان إزاء الناس جميعاً ، لو استطاع أن يحوم بفكره حول ما هو أبدى خالد ، ولا يربط هواه بما يبدأ وينتهى — عندئذ يجوز أن يجنب نفسه العودة إلى الحياة ، وسيغيض معين الشر بالنسبة إليه ؛ لو استطاع الإنسان أن يخمد شهوات نفسه ، ساعياً وراء فعل الخير دون سواه ، عندئذ يجوز أن يمحو هذه الفردية التى هى أولى أوهام الإنسانية وأسوؤها أثراً ، وتتحد النفس آخر الأمر باللانهاية اللاواعية ؛ فيا لها من سكينة تحل بقلب طهر نفسه من شهواته الذاتية تطهيراً تاماً ؟ — وهل ترى قلباً ، لم يطهر نفسه على هذا النحو قد عرف إلى السكينة سبيلا ؟ إن السعادة مستحيلة ، فلا هى ممكنة فى هذه الحياة الدنيا كما يظن الوثنيون ، ولا هى ممكنة فى الحياة الآخرة كما يتوهم

(*) تتفرع فلسفة شوبنهور من هذه الأرومة عند هذه النقطة .

أنصار كثير من الديانات ؛ أما ما يمكن أن تظفر به فهو السكينة ، هو الهمود البارد الذى نصيبه إذا ما نفضنا عنا كل شهواتنا ، هو النرڤانا .

وهكذا بعد سنوات سبع قضاها متأملا ، أدرك « النبى المستنير » سبب ما يعانيه الناس من آلام فأخذ سمته نحو « المدينة المقدسة » مدينة بنارس ، وهناك فى روضة الغزلان عند « سارنات » طفق يبشر الناس بالنرڤانا .

الفصل الرابع

تعاليم بوذا(*)

صورة الزعيم – أساليبه – الحقائق السامية الأربع –
الطريق ذو الخمس شعب – قواعد الأخلاق الخمس –
بوذا والمسيح – لاأدرية بوذا ومناهضته لرجال الدين –
إلحاده – علم نفس بغير نفس – معنى النرفانا

كانت وسيلة بوذا فى نشر تعاليمه – شأنه فى ذلك شأن سائر المعلمين فى عصره – هى المحاورة والمحاضرة وضرب المثل. ولما لم يدر فى خلده قط – كما لم يدر فى خلد سقراط أو المسيح – أن يدون مذهبه، فقد لخصه فى «عبارات مركزة» أريد بها أن يسهل وعيها على الذاكرة، وهذه المحادثات – على الصورة التى احتفظ لنا بها الرواة من أتباعه – تصور تصويراً لاشعورياً أول شخصية واضحة الحدود والمعالم فى التاريخ الهندى: رجل قوى الإرادة، صادق الرواية، مزهو بنفسه، وديع المعاملة، رقيق الكلام، محسن إحساناً

(*) أقدم ما لدينا من وثائق تحتوى على تعاليم بوذا هى الـ «پتاكات»، ومعناها «سلاسل القانون»، التى أعدت لتعرض على المجلس البوذى الذى انعقد سنة ٢٤١ قبل الميلاد، وقد وافق هذا المجلس على أن ما فى هذه الوثائق هو تعاليم بوذا بغير تحريف، تلك التعاليم التى لبثت أربعة قرون يتناقلها بالرواية الشفوية جيل عن جيل، أى أنها لبثت كذلك منذ وفاة بوذا حتى انتهى بها الأمر إلى التدوين باللغة «الپاليه» حول سنة ٨٠ قبل الميلاد؛ وهذه «الپتاكات» تقع فى ثلاث مجموعات: «السوتا» أى الحكايات، و«الفنايا» أى التشريع، و«الأبيدوما» أى المذهب؛ أما أولى هذه المجموعات – أعنى پتاكة الحكايات – فتحوى على محاورات بوذا، التى يضعها «رايس داڤيدز» فى منزلة واحدة مع محاورات أفلاطون(٣٤) وإذا أردنا الدقة فى القول، وجب أن نقول إن هذه المدونات لا تحتوى بالضرورة على تعاليم بوذا نفسه، بل تحتوى على تعاليم المدارس البوذية، ويقول «سير تشارلز إليت»: على الرغم من أن هذه الحكايات أخذت تتزايد على مر القرون، فلست أرى ما يبرر الريبة بأن أقدم الطبقات فى هذا البناء المتراكم تحتوى على ما دونه صحابة الزعيم معتمدين على تذكرهم لما سمعوه منه.

لا ينتهى عند حد معلوم ؛ ولقد زعم لنفسه « الاستنارة » لكنه لم يَدَّعِ الوحى ، فما زعم قط للناس أن إلها كان يتكلم بلسانه ، وهو فى جدله مع خصومه أكثر صبراً أو مجاملة من أى معلم آخر ممن شهدت الإنسانية من أعلام المعلمين ؛ ويصوره لنا أتباعه — وربما كانوا يضيفون إليه ما ليس فيه لتكمل صورته — يصورونه لنا مصطنعاً لـ « أهمسا » على أتم درجاتها (والأهمسا هى الامتناع عن قتل الكائنات الحية على اختلافها) ؛ فيقولون عنه : « إن جوتاما الذى اعتزل الناس قد رفع نفسه عن الفتك بالحياة ، بأن كف عن قتل الأحياء ؛ لقد خلع عن نفسه الهراوة والسيف (مع أنه كان يوماً من طبقة الكشاترية — أى طبقة المقاتلين) وهو يزورُّ عن غلظة المعاملة ازوراراً ، ويمتلىء قلبه بالرحمة فهو رحيم شفوق بكل كائن تدب فيه الحياة . . وترفع عن النميمة ، أو رفع نفسه عن دناءة الغيبة ... هكذا كان يعيش رابطاً لما انحلت عراه ، مشجعاً لدوام الصداقة بين الأصدقاء ، مصلحاً ذات البين عند الخصوم ، محباً للسلام ، متحمساً للسلام ، متحدثاً بكلمات تهيىء للسلام[٣٦] » ؛ لقد كان مثل « لاوتسى » ومثل « المسيح » يود أن يرد السيئة بالحسنة ، والكراهية بالحب ؛ وإذا أُسىء إليه فى النقاش أو أُسىء التفاهم بينه وبين من يحاوره ، آثر الصمت « إذا أساء إلىَّ إنسان عن حمق ، فسأرد عليه بوقاية من حبى إياه حباً مخلصاً ، وكلما زادنى شراً ، زدته خيراً » ؛ فإذا جاء غر وأهانه ، استمع إليه بوذا وهو صامت ؛ حتى إذا ما فرغ الرجل من حديثه ، سأله بوذا : « إذا رفض إنسان يا بنى أن يقبل منحة تقدم إليه ، فمن يكون صاحبها ؟ » فيجيبه الرجل : « إن صاحبها عندئذ هو من قدمها » ، فيقول له بوذا : « إنى أرفض يا بنى قبول إهانتك ، وألتمس منك أن تحفظها لنفسك[٣٧] » إن بوذا — على خلاف الكثرة الغالبة من القديسين — كانت له روح الفكاهة ، لأنه أدرك أن البحث الميتافيزيقى بغير ضحكة يصاحبه ، هو من ضروب الكبرياء .

كانت طريقته فى التعليم فريدة لا يماثلها نظير ، ولو أنها مدينة بشىء «للجوالين» أو السوفسطائيين المتنقلين الذين عاصروه فى بلده ؛ فكان ينتقل من بلد إلى بلد ، وفى صحبته تلاميذه المقربون ، وفى إثره ما يقرب من ألف ومائتين من أتباعه المخلصين ، ولم يكن أبدا يهتم لغده ، فكان يكتفى بالزاد يقدمه له أحد المعجبين من سكان البلد الذى يحل فيه ؛ ولقد وصم ذات يوم أتباعه بالعار ، لأنه أكل فى منزل امرأة فاجرة(٣٨) ؛ كانت طريقته دائماً أن يقف السير عند مدخل قرية من القرى ، ويضرب خيامه فى حديقة أو غابة أو على ضفة نهر ، وكان يخصص ساعات العصر لتأملاته ، وساعات المساء للتعليم ، وكانت محادثاته تجرى فى صورة سقراطية من الأسئلة وضرب الأمثلة الخلقية والتلطف فى الحوار ، أو كان يسوق تعاليمه فى عبارات مقتضبة يرمى بها إلى تركيز آرائه تركيزاً يجعلها فى صورة من الإيجاز والترتيب بحيث تقر فى الأذهان وأحب « عباراته التعليمية المقتضبة » إلى نفسه هى « الحقائق السامية الأربع » التى بسط فيها رأيه بأن الحياة ضرب من الألم ، وأن الألم يرجع إلى الشهوة ، وأن الحكمة أساسها قمع الشهوات جميعاً :

١ – تلك – أيها الرهبان – هى الحقيقة السامية عن الألم : الولادة مؤلمة ، والمرض مؤلم ، والشيخوخة مؤلمة ، والحزن والبكاء والخيبة واليأس كلها مؤلم . . .

٢ – وتلك – أيها الرهبان – هى الحقيقة السامية عن سبب الألم : سببه الشهوة ، الشهوة التى تؤدى إلى الولادة من جديد ، والشهوة التى تمازجها اللذة والانغماس فيها ، الشهوة التى تسعى وراء اللذائذ تتسقطها هنا وهناك ، شهوة العاطفة ، وشهوة الحياة ، وشهوة العدم .

٣ – وتلك – أيها الرهبان – هى الحقيقة السامية عن وقف الألم :

أن نجتث هذه الشهوة من أصولها فلا تبقى لها بقية فى نفوسنا ، السبيل هى الانقطاع والعزلة والخلاص وفكاك أنفسنا مما يشغلها من شئون العيش .

٤ ــ وتلك ــ أيها الرهبان ــ هى الحقيقة السامية عن السبيل المؤدية إلى وقف الألم : إنها السبيل السامية ذات الشعب الثمان ، ألا وهى : سلامة الرأى ، وسلامة النية ، وسلامة القول ، وسلامة الفعل ، وسلامة العيش ، وسلامة الجهد ، وسلامة ما نعنى به ، وسلامة التركيز(٣٩) .

كانت عقيدة بوذا التى يؤمن بصدقها ، هى أن الألم أرجح كفة من اللذة الحياة الإنسانية ، وإذن فخير للإنسان ألا يولد ، وهو فى ذلك يقول إن ما سفح الناس من دموع لأغزر من كل ما تحتوى المحيطات العظيمة الأربعة من مياه(٤٠) ، فعنده أن كل لذة تحمل سمها فى طيها ، لمجرد أنها لذة عابرة قصيرة : « أذلك الذى يزول ولا يقيم هو الحزن أم السرور ؟ » ألقى هذا السؤال على أحد تلاميذه ، فأجابه هذا بقوله : « إنه الحزن يا مولاى »(٤١) إذن فأس الشرور هو « ظمأ » ــ وليس معناها الشهوة كائنة ما كانت ، بل الشهوة الأنانية ، الشهوة التى يوجهها صاحبها إلى صالح الجزء أكثر مما يريد بها صالح الكل ؛ وفوق الشهوات كلها الشهوة الجنسية ، لأنها تؤدى إلى التناسل الذى يطيل من سلسلة الحياة إلى ألم جديد بغير غاية مقصودة ؛ وقد استنتج أحد تلاميذه من ذلك أنه ــ أى بوذا ــ بهذا الرأى يجيز الانتحار لكن بوذا عنفه على استنتاجه ذاك ، قائلا : إن الانتحار لا خير فيه ، لأن روح المنتحر ــ بسبب ما يشوبها من أدران ــ ستعود فتولد من جديد فى أدوار أخرى من التقمص ؛ حتى يتسنى لها نسيان نفسها نسياناً تاماً .

ولما طلب تلاميذه منه أن يحدد معنى الحياة السليمة فى رأيه لكى يزيد الرأى وضوحاً ، صاغ لهم ، « قواعد خلقية خمسة » يهتدون بها ــ وهى بمثابة

الوصايا ولكنها بسيطة مختصرة ، غير أنها قد تكون «أشمل نطاقاً وأعسر التزاماً ، مما تقتضيه الوصايا العشر[٤٢](*) » .

وأما وصاياه الخمس فهى :

١ ــ لا يقتلن أحد كائناً حياً .

٢ ــ لا يأخذن أحد ما لم يُعْطَه .

٣ ــ لا يقولن أحد كذباً .

٤ ــ لا يشربن أحد مسكراً .

٥ ــ لا يقيمن أحد على دنس[٤٣] .

وترى بوذا فى مواضع أخرى يضيف إلى تعاليمه عناصر يتسلف بها تعاليم المسيح على نحو يدعو إلى العجب : « على الإنسان أن يتغلب على غضبه بالشفقة ، وأن يزيل الشر بالخير . . . إن النصر يولد المقت لأن المهزوم فى شقاء . . . إن الكراهية يستحيل عليها فى هذه الدنيا أن تزول بكراهية مثلها ، إنما تزول الكراهية بالحب[٤٤] » . وهو كالمسيح لم يكن يطمئن نفساً فى حضرة النساء ، وتردد كثيراً قبل أن يسمح لهن بالانضمام إلى الطائفة البوذية ؛ ولقد سأله تلميذه المقرب « أناندا » ذات يوم :

ــ « كيف ينبغى لنا يامولاى أن نسلك إزاء النساء ؟ » .

ــ « كما لو لم تكن قد رأيتهن يا أناندا »

ــ « لكن ماذا نصنع لو تحتمت علينا رؤيتهن ؟ »

ــ « لا تتحدث إليهن يا أناندا »

ــ « لكن إذا ما تحدثن إلينا يامولاى فماذا نصنع ؟ »

ــ « كن منهن على حذر تام يا أناندا » .

(*) يشير إلى الوصايا العشر التى جاءت بها الديانة اليهودية : لا تسرق ، لا تقتل الخ . (المعرب)

كانت فكرته عن الدين خلقية خالصة ؛ فكان كل ما يعنيه سلوك الناس وأما الطقوس وأما شعائر العبادة ، وما وراء الطبيعة واللاهوت ، فكلها عنده لا تستحق النظر ؛ وحدث ذات يوم أن هم برهمى بتطهير نفسه من خطاياها باستحمامه فى « جايا » ، فقال له بوذا : « استحم هنا ، نعم هاهنا ولا حاجة بك إلى السفر إلى جايا أيها البرهمىّ ؛ كن رحيما بالكائنات جميعاً ؛ فإذا أنت لم تنطق كذباً ، وإذا أنت لم تقتل روحاً ، وإذا أنت لم تأخذ ما لم يعط لك ، ولبثت آمناً فى حدود إنكارك لذاتك — فماذا تجنى من الذهاب إلى « جايا » ؟ إن كل ماء يكون لك عندئذ كأنه جايا »(٤٦) ؛ إنك لن تجد فى تاريخ الديانات من هو أغرب من بوذا يؤسس ديانة عالمية ، ومع ذلك يأبى أن يدخل فى نقاش عن الأبدية والخلود والله ؛ فاللانهائى أسطورة — كما يقول — وخرافة من خرافات الفلاسفة ، الذين ليس لديهم من التواضع ما يعترفون به بأن الذرة يستحيل عليها أن تفهم الكون ؛ وإنه ليبتسم(٤٧) ساخراً من المحاورة فى موضوع نهائية الكون أو لا نهائيته ؛ كأنما هو قد تسلف بنظره إذ ذاك ما يدور بين علماء الطبيعة والرياضيين اليوم من مناقشة حول الموضوع مناقشة ما أقربها من حديث الأساطير ؛ لقد رفض أن يبدى رأيا عما إذا كان للعالم بداية أو نهاية ، أو إذا كانت النفس هى هى البدن أو شيئاً متميزاً منه أو إذا كان فى الجنة ثواب للناس حتى أقدس القديسين من بينهم ؛ وهو يسمى هذه المشكلات « غاية التأمل النظرى وصحراءه وبهلوانه والتواءه وتعقيده »(٤٨) ويعتزم ألا يكون له شأن بأمثال هذه المسائل ، فهى لا تؤدى بالباحثين فيها إلا إلى الخصومة الحادة ، والكراهية الشخصية والحزن ، ويستحيل أن تؤدى بهم إلى حكمة أو سلام ، إن القدسية والرضى لا يكونان فى معرفة الكون والله ، وإنما يكونان فى العيش الذى ينكر فيه الإنسان ذاته ، ويبسط كفه للناس إحساناً(٤٩) ؛ ثم يضيف إلى ذلك تهكماً بشعاً فيقول إن الآلهة أنفسهم ، لو كان

لم وجود ، لما كان فى وسعهم أن يجيبوا عن أمثال هذه المسائل .

« حدث ذات مرة يا « كفاذا » أن طاف الشك بزميل من طائفة الزملاء هذه ، حول النقطة الآتية : « أين تمضى هذه العناصر الأربعة الكبرى : التراب والماء والنار والهواء ، بحيث لاتترك وراءها أثراً ؟ »وجعل ذلك الزميل يقدح زناد عقله حتى أخذته حالة من الوجد اتضحت له معها السبيل المؤدية إلى الله .

عندئذ يا « كفاذا » صعد هذا الزميل إلى مملكة الملوك الأربعة الكبار ، وخاطب آلهتهم قائلا : « أين يا أصدقائى تذهب العناصر الأربعة الكبرى — التراب والماء والنار والهواء — بحيث لا تترك وراءها أثراً ؟ » .

فلما أن فرغ من سؤاله هذا ، أجابه الآلهة فى سماء الملوك الأربعة الكبار : « إننا يا أخانا لا ندرى من ذلك شيئاً ، لكن هنالك الملوك الأربعة الكبار ، هم أقوى منا وأعظم ، سَلْهُمْ يجيبوك » .

[وعندئذ يا « كفاذا » ذهب ذلك الزميل إلى الملوك الأربعة وسأل نفس السؤال فأحيل بمثل ذلك الجواب إلى « الثلاثة والثلاثين » الذين أحالوه بدورهم إلى ملكهم « ساكا » الذى أحاله إلى آلهة « ياما » ، وهؤلاء أحالوه إلى ملكهم « سوياما » الذى أحاله إلى آلهة « توسيتا » ، وهؤلاء أحالوه إلى ملكهم « سانتوسيتا » ، الذى أحاله إلى آلهة « نمانا — رتى » ، وهؤلاء أحالوه إلى ملكهم « سونى ميتا » الذى أحاله إلى آلهة « پارانيميتا ڤاساڤاتى » ، وهؤلاء أحالوه إلى ملكهم « ڤاساڤاتى » الذى أحاله إلى آلهة العالم البرهمى » .

وبعدئذ « يا كفاذا » جعل ذلك الزميل يركِّز تفكيره فى نفسه تركيزاً استنفد كل ذرة من انتباهه ، وانتهى به ذلك التفكير المركَّز إلى شهوده بعقله الذى أمسك هكذا بزمامه ، طريقَ العالم البرهمى واضحاً ؛ فدنا من الآلهة التى تتألف منها حاشية براهما ، وقال : « أين يا أصدقائى تذهب العناصر الأربعة

الكبرى — التراب والماء والنار والهواء — بحيث لا تترك وراءها أثراً ؟ » .

« فلما فرغ من سؤاله أجابته الآلهة التي تؤلف حاشية براهما قائلة : « إننا يا أخانا لا ندرى من ذلك شيئاً ، ولكن هنالك براهما ، براهما العظيم ، الواحد العلى ، الواحد القدير ، الواحد البصير ، مَن بيده الأمر والتدبير فى جميع الشئون ، فهو ضابط كل شىء وخالق كل شىء وسيد كل شىء ... هو السابق للزمان ، وهو والد كل ما هو كائن وكل ما سيكون ! إنه أقوى منا وأعظم ، مسّكْهُ يجبك » .

« أين إذن هذا البراهما العظيم ؟ » .

« إننا يا أخانا لا ندرى أين يكون براهما ، ولا لماذا كان ولا من أين جاء ؛ ولكن يا أخانا إذا مابدت لنا بوادر مجيئه ، إذا ما أشرق الضوء وسطع المجد ، عندئذ سيتبدّى للناظرين ، لأن بادرة ظهور براهما هى إشراق الضوء وسطوع المجد » .

ولم يمض طويل وقت بعد ذلك يا « كفاذا » حتى تبدى براهما العظيم ، فدنا منه أخونا ذاك وسأله : « أين يا صديقى تذهب العناصر الأربعة الكبرى — التراب والماء والنار والهواء — بحيث لا تترك وراءها أثراً ؟ » ؛

فلما فرغ من سؤاله أجابه براهما العظيم : « أنا يا أخى براهما العظيم العلى القوى البصير ، بيدى الأمر والتدبير فى كل شىء ، وأنا ضابط كل شىء وخالق كل شىء وسيد كل شىء ، أعين لكل شىء مكانه ، أنا السابق للزمان والد كل ما هو كائن وكل ما سيكون ! »

عندئذ أجاب الأخ براهما قائلا : « أنا لم أسألك يا صديقى هل أنت حقاً كل هذا الذى ذكرت من صفات ، لكنى سألتك أين تذهب العناصر الأربعة الكبرى — التراب والماء والنار والهواء — بحيث لا تترك وراءها أثراً ؟ » .

فأجابه براهما نفس الجواب مرة أخرى يا «كفاذا» .

وأعاد أخونا سؤاله للمرة الثالثة إلى براهما .

فأخذ براهما العظيم — يا «كفاذا — أخانا ذاك ونحّاه جانباً وقال : «إن هذه الآلهة التي منها تتألف حاشية براهما ، تعتقد أني — يا أخي — أرى كل شيء وأعلم كل شيء وأتبين كل شيء ؛ ولهذا لم أجبك في حضرتهم ؛ لكنني ، أيها الأخ ، لست أدري أين تذهب هذه العناصر الأربعة الكبرى — التراب والماء والنار والهواء — بحيث لا تترك وراءها أثراً»(٥٠) .

فإذا ما قال لبوذا بعض تلاميذه ، أن البراهمة يزعمون الإلمام بحلول هذه المسائل ، أجابهم ساخراً : «هنالك يا إخواني بعض الرهبان وبعض البراهمة يتلوون مثل ثعابين الماء ، فإذا ما ألقيت عليهم سؤالا في هذا الموضوع أو ذاك ، عمدوا إلى غموض القول ، وإلى تلوى الثعابين(٥١) ؛ ولو بدتْ من بوذا حدّة إزاء أحد إطلاقاً ، فإنما كان حاداً تجاه كهنة عصره ، فهو يهزأ بدعواهم أن أسفار الفيدا من وحي الآلهة(٥٢) ، ويفضح البراهمة المعتزين بطبقتهم بقبوله في طائفته أعضاء الطوائف جميعاً بغير تفريق ؛ إنه لا يهاجم نظام الطبقات مهاجمة صريحة ، لكنه يقول لتلاميذه في وضوح وجلاء : «انتشروا في الأرض كلها وانشروا هذه العقيدة ؛ قولوا للناس إن الفقراء والمساكين ، والأغنياء والأعين ، كلهم سواء ، وكل الطبقات في رأى هذه العقيدة الدينية تتحد لتفعل فعل الأنهار تصب كلها في البحر»(٥٣) ، وهو يرفض الأخذ بفكرة التضحية في سبيل الآلهة ، ويفزع أشد الفزع لرؤية الحيوان يذبحونه ليقيموا أمثال هذه الطقوس(٥٤) ؛ ويرفض كل اعتقاد وكل عبادة لكائنات أعلى من هذه الطبيعة ، ويربأ بنفسه عن التعزيم والرُّقى والتقشف والدعاء(٥٥) ، ويقدّم للناس في هدوء وبغير محاجة ولجاج ديناً حرّاً أكمل الحرية من جمود الفكر ومن صناعة الكهنوت ، ويفتتح طريقاً للخلاص ، للكافرين والمؤمنين أن يسلكوه على السواء .

وقد يتحول هذا القديس أحياناً ، الذى هو أشهر من عرف الدهر من قديسى المندوس ، قد يتحول من اللاأدرية إلى إلحاد صريح[٥٦](*) ، إنه لا ينحرف عن جادّته لينكر وجود الله ، بل إنه حيناً بعد حين يذكر براهما كأنه حقيقة واقعة أكثر منه مثلا أعلى[٥٨] ثم هو لا يحرِّم عبادة الآلهة الشائعة بين الناس[٥٩] لكنه يسخر من فكرة إرسال الدعوات إلى « المجهول » ، وفى ذلك يقول : « إنه لمن الحمق أن تظن أن سواك يستطيع أن يكون سبباً فى سعادتك أو شقائك[٦٠] لأن السعادة والشقاء دائما نتيجة سلوكنا نحن وشهواتنا نحن ؛ وهو يأبى أن يبنى تشريعه الخلقى على عقوبات تفرضها « قوة وراء الطبيعة ، كائنة ما كانت تلك العقوبات ، ولا يجعل جزءاً من عقيدته جنة ولا مطهراً ولا جحيما[٦١] ؛ وهو أرهف حساسية للألم والقتل الذى ينزل بالكائنات الحية بحكم العملية البيولوجية فى الحياة ، من أن يفرض أن هذا القتل وذاك الألم قد أرادهما إله مشخص إرادة عن عمد وتدبير ؛ وهو يرى أن هذه الأغلاط فى نظام الكون ترجح ما فيه من آيات تدل على تدبير وتنسيق[٦٢] ؛ انه لا يرى على هذا المسرح الذى تمتزج فيه الفوضى والنظام ، والخير والشر ، مبدأ ينم عن الدوام ، ولا مركزاً لحقيقة أبدية خالدة[٦٣] ، وكل ما يراه فى الحياة دوامة تدور وحركة ما تنفك فى تغير ؛ إن الحقيقة الميتافيزيقية النهائية فى هذه الحياة هى التغير .

وكما أنه يقترح لاهوتاً بغير إله ، فكذلك يقدم لنا علم نفس بغير نفس ؛ فهو يرفض الروحانية فى شتى صورها حتى فى حالة الإنسان ؛ وهو يوافق هرقليطس وبرجسُنْ فى رأيهما عن العالم ، كما يوافق هيوم فى رأيه عن العقل ، فكل ما نعرفه هو إحساساتنا ، وإذن ، فإلى الحد الذى نستطيع أن نبلغه بعلمنا ، لا نرى سوى أن المادة كلها ضرب من القوة ، والعناصر كلها نوع من الحركة ،

(*) يقول سير تشارلز إليت إن البوذية « لا ترى العالم على أنه من خلق شخصية إلهية ، كلا ولا ترى القانون الأخلاقى على أنه من أمرها ؛ فكون الديانة تستطيع أن تقوم بغير هذه الأفكار أمر عظيم الخطر »[٥٧] .

الحياة تغيُّر ، هى مجرى دافق محايد من صيرورة وفناء ؛ إن « الروح » أسطورة من الأساطير ، فرضناها بغير مبرر يؤيدها ، لنريح بهذا الفرض أذهاننا الضعيفة ، فرضناها قائمة وراء سلسلة الحالات الشعورية المتعاقبة[٦٤] إن هذا « الرابط الذى يربط المدركات دون أن يكون واحداً منها » ، هذا « العقل » الذى ينسج خيوط إحساساتنا وإدراكاتنا فى نسيج من الفكر ، إنْ هو إلا شبح توهمناه ؛ وكل ما هو موجود حقاً هو الإحساسات نفسها والإدراكات نفسها ، تتكون بصورة آلية فى هيئة تذكرات وأفكار[٦٥] ؛ حتى هذه «الذات» النفسية ليست كائناً قائماً بذاته متميزاً من سلسلة الحالات العقلية ؛ ليست الذات سوى استمرار هذه الحالات ، وتذكر الحالات اللاحقة للحالات السابقة ، مضافاً إلى ذلك ما يتعوده الجسم العضوى من عادات عقلية وسلوكية ، وما يتكون لديه من ميول واتجاهات[٦٦] ؛ إن تعاقب هذه الحالات لا تسببه « إرادة » أسطورية تضاف إليها من أعلى ، بل تقرره الوراثة والعادة والبيئة والظروف[٦٧] فهذا العقل السائل الذى لا يعدو أن يكون مجموعة من حالات عقلية ، هذه النفس أو هذه الذات التى ليست إلا ميلا نحو سلوك معين أو هوى إلى اتجاه بذاته ، كونته الوراثة التى لا حول لها ولا قوة ، كما كونته كذلك الخبرة العابرة خلال تجارب الحياة ، أقول إن هذه النفس أو هذه الذات أو هذا العقل يستحيل أن ينطبق عليه معنى الخلود ، إذا فهمنا من هذا المعنى استمرار الفرد فى وجوده[٦٨] فليس القديس ، بل ليس بوذا نفسه بخالد بعد موته خلوداً يحفظه بشخصه[٦٩] .

ولكن إن كان ذلك كذلك ، فيكف يمكن أن يعود الحى إلى الحياة من جديد فى ولادة ثانية ؟ إذا لم يكن هناك روح ، فما الذى يتقمص أجساداً أخرى فى ولادات تالية ، ليلقى عذابه على خطاياه إذ هو حال فى صورة الجسد ؟ تلك هى أضعف الجوانب فى فلسفة بوذا ، فهو لا يحاول أبداً أن يزيل التناقض الكائن بين علم نفسه العقلى وبين قبوله لمذهب التقمص قبولا

أعمى ؛ إن هذا الإيمان بحقيقة التناسخ أو تقمص الروح فى أجساد متتالية له فى الهند قوة وشمول بحيث يعتنقه كل هندوسى على أنه بديهية أو فرض لا بد من التسليم بصحته ، ولا يكاد يكلف نفسه عناء التدليل عليه ؛ فتعاقب الأجيال هناك تعاقباً سريعاً متلاحقاً بسبب قصر الأعمار وكثرة النسل ، يوحى إلى الإنسان إيحاء لا يستطيع أن يفرّ منه ، بأن القوة الحيوية تنتقل من جسد إلى جسد — أو بأن الروح تحلّ بدناً بعد بدن ، إذا عبرنا عن الأمر بعبارة لاهوتية — ؛ ولقد طافت الفكرة برأس بوذا مع مَرّ الهواء فى أنفاسه ؛ فهذا الهواء يدخل شهيقاً ويخرج زفيراً هو الحقيقة الواحدة التى لم يشك فيها قط على ما يبدو(٧٠) ؛ إنه سلم تسليما بعجلة التناسخ فى دورانها وبقانون « كارما » وتفكيره كله إنما يدور حول سبيل الفرار من هذه العجلة الدوارة ، كيف يمكن للإنسان أن يحقق لنفسه النرڤانا فى هذه الحياة الدنيا ، والفناء التام فى الحياة الآخرة .

ولكن ما « النرڤانا » ؟ إنه من العسير أن تجد لهذا السؤال جواباً خاطئاً ، لأن الزعيم قد ترك الموضوع غامضاً ، فجاء أتباعه وفسروا الكلمة بكل ما يستطيع أن يقع تحت الشمس من ضروب التفسير ؛ فالكلمة فى السنسكريتية بصفة إجمالية معناها « منطفئ » كما ينطفئ المصباح أو تنطفئ النار ؛ أما الكتب البوذية المقدسة فتستعملها بمعان : (١) حالة من السعادة يبلغها الإنسان فى هذه الحياة باقتلاعه لكل شهواته الجسدية اقتلاعاً تاماً ؛ (٢) تحرير الفرد من عودته إلى الحياة ؛ (٣) انعدام شعور الفرد بفرديته ؛ (٤) اتحاد الفرد بالله ؛ (٥) فردوس من السعادة بعد الموت ؛ أما الكلمة فى تعاليم بوذا فمعناها فيما يظهر إخماد شهوات الفرد كلها ، وما يترتب على ذلك للذات من ثواب وأعنى به الفرار من العودة إلى الحياة(٧١) ؛ وأما فى الأدب البوذى ، فكثيراً ما تتخذ الكلمة معنى دنيوياً ، إذ يوصف القديس فى هذا الأدب مراراً بأنه اصطنع النرڤانا فى حياته الدنيا ، بجمعه لمقوماتها السبعة وهى : السيطرة على

النفس ، والبحث عن الحقيقة ، والنشاط ، والهدوء ، والغبطة ، والتركيز ، وعلو النفس[٧٣] ، تلك هي مكنونات الـ ڤانا ، لكنها تكاد لا تكون عواملها التي تسبب وجودها ، أما العامل المتسبب لوجودها ، والمصدر الذي تنبثق عنه النرڤانا ، فهو إخماد الشهوة الجسدية ، وعلى ذلك تتخذ كلمة « نرڤانا » في معظم النصوص معنى السكينة التي لا يشوبها ألم ، والتي يثاب بها المرء على إعدام نفسه إعداماً خلقياً[٧٤] ؛ يقول بوذا : « والآن فهذه هي الحقيقة السامية عن زوال الألم ، إنه في الحق فناء المرء حتى لا تعود له عاطفة تشتهي ، إنه اطراح هذا الظمأ اللاهث ، والتخلص منه والتحرر من ربقته ، ونبذه من نفوسنا نبذاً لا عودة له »[٧٥] وأعني به هذه الحمى التي تنتابنا من شهوتنا في البحث عن أنفسنا ؛ إن كلمة « نرڤانا » في تعاليم الأستاذ الزعيم تكاد دائماً ترادف في معناها كلمة نعيم[٧٦] وهو رضى النفس رضى هادئاً بحيث لا يعنيها بعدئذ أمر نفسها ؛ لكن النرڤانا الكاملة تقتضي العدم : وإذن فثواب التقوى في أسمى منازلها هو ألا يعود التقي إلى الحياة[٧٧] .

ويقول بوذا إننا في نهاية الأمر ندرك ما في الفردية النفسية والخلقية من سخف ؛ إن نفوسنا المضطرمة ليست في حقيقة الأمر كائنات وقوى مستقلا بعضها عن بعض ، لكنها موجات عابرة على مجرى الحياة الدافق ؛ إنها عُقَدٌ صغيرة تتكون وتتكشف في شبكة القدر حين تنشرها الريح ؛ فإذا ما نظرنا إلى أنفسنا نظرتنا إلى أجزاء من كل ، وإذا ما أصلحنا أنفسنا وشهواتنا إصلاحاً يقتضيه الكل ، عندئذ لا تعود أشخاصنا بما ينتابها من خيبة أمل أو هزيمة ، وما يعتورها من مختلف الآلام ومن موت لا مهرب منه ولا مفر ، لا تعود هذه الأشخاص تحزننا حزناً مريراً كما كانت تفعل بنا من قبل ؛ عندئذ تفنى هذه الأشخاص في خضم اللانهاية ؛ إننا إذا ما تعلمنا أن نستبدل بحبنا لأنفسنا حباً للناس جميعاً وللأحياء جميعاً ، عندئذ ننعم آخر الأمر بما ننشد من هدوء .

الفصل الخامس

بوذا فى أيامه الأخيرة

معجزاته – زيارته لبيت أبيه – الرهبان البوذيون – موته

ننتقل من هذه الفلسفة العالية إلى الأساطير الساذجة التى هى كل ما لدينا عن بوذا فى حياته الأخيرة وفى موته ؛ فعلى الرغم من ازدرائه للمعجزات ، إنتحل تلاميذه ألف حكاية عن الأعاجيب التى تمت على يديه ؛ فقد سار عبر نهر الكنج فى لمحة بفعل السحر ؛ وأسقط من يده شظية من الخشب كان يزيل بها ما بين أسنانه من فضلات الطعام ، فنبتت الشظية شجرة ؛ وعندما اختتم وعظه ذات يوم « اهتز العالم كله من أقصاه إلى أقصاه »(٨٠) ؛ ولما أطلق عليه عـــدوه « ديفاندااتا » فيلاً مفترساً ، « غلبه بوذا بالحب » حتى خضع الفيل له خضوعاً كاملا(٨١) ؛ وقد انتهى « سينارْت » وآخرون إلى نتيجة من أمثال هذه المُلَح ، وهى أن أسطورة بوذا قد تكونت على أساس من أساطير الشمس القديمة(٨٢) ومهما يكن من أمر ، فبوذا معناه عندنا الأفكار التى تنسب إليه فى الأدب البوذى ، ولا شك فى أن بوذا صاحب هذه الأفكار التى كان حقيقة تاريخية .

إن الكتب البوذية المقدسة تصور لنا بوذا فى صورة تشرح الصدور ؛ فقد التف حوله أتباع كثيرون ، وذاعت شهرته فى مدائن الجزء الشمالى من الهند ؛ ولما سمع أبوه أنه على مقربة من « كاپيلاڤاستو » أرسل إليه رسولا يدعوه لقضاء يوم فى مدرج طفولته ؛ وذهب بوذا إلى أبيه الذى كان قد حزن على أميره المفقود ، فسُرَّ أبوه لعودة القديس ساعة من الزمن ؛ وجاءته زوجته التى أخلصت له طوال غيابه عنها ، فجثت أمامه وأمسكت بعقبيه ، ووضعت قدميه حول رأسها ، وقدسته كما تقدس الله ؛ وقص عليه الملك « شُدْذوذانا » قصة حبها له حباً شديداً : « مولاى إن زوجتك حين علمت أنك تلبس رداء

أصفر (وهو ثوب الزاهدين) لبست هي الأخرى رداء أصفر ؛ ولما علمت أنك تأكل وجبة واحدة كل يوم ، أكلت هي الأخرى وجبة واحدة ؛ ولما علمت أنك أبيت النوم على سرير كبير ، نامت هي الأخرى على كنبة ضيقة ، ولما علمت أنك رفضت أكاليل الزهور ورفضت العطور ، رفضتها هي الأخرى » فباركها بوذا ومضى إلى سبيله(٨٣) .

ثم جاءه ابنه « راهولا » وعبر له عن حبه قائلا : « إن ظلك أيها الزاهد ليَسُرُّ النفس » ؛ وضمّه بوذا إلى طائفته الدينية ، ولو أن أم « راهولا » كانت تأمل أن ترى ابنها ملكاً ؛ لهذا نصبوا أميراً آخر ، وهو «ناندا » ولياً للعهد يتولى العرش حين يحين الحين : لكن « ناندا » ترك حفلة التنصيب — كأنه في غيبوبة — ، تركها قبل ختامها وغادر المملكة وقصد إلى بوذا ، طالباً إليه أن يضمه هو أيضاً إلى طائفته الدينية ، فلما سمع بذلك الملك « شدذوذانا » حزن والتمس عند بوذا مكرمة ، قائلا له : « لما طلق مولانا هذه الدنيا ، لم يكن ذلك هين الوقع على نفسي ، وكذلك حين غادرنا « ناندا » وقل ما هو أكثر من هذا عن فراق « راهولا » إن حب الوالد لولده يحز الجلد واللحم والمفاصل والنخاع ؛ فرجائي إليك يا مولاى ألا تدع أتباعك الأشراف يضمون إلى طائفتكم ابناً بغير استئذان أبيه وأمه » فوافق بوذا ، وجعل استئذان الوالدين شرطاً لازماً لانضمام العضو الجديد إلى طائفته(٨٤) .

ويظهر أن هذه العقيدة الدينية التي أرادت أن تستغنى عن الكهنوت ، كانت بالفعل قد كونت لنفسها طائفة من النساك الرهبان لا تقل خطراً عن كهنة الهندرس ؛ ولن يطول الأمد بعد موت بوذا حتى يحيطوا أنفسهم بكل أسباب المجد التي كان البراهمة يحيطون أنفسهم بها ، ولا عجب ، فأول المتحولين من البرهمية إلى البوذية ، إنما جاءوا من صفوف البراهمة أنفسهم ، ثم تحول إلى البوذية بعدئذ جماعة من أغنى الشباب في بنارس والمدن المجاورة لها ، واصطنع

هؤلاء الرهبان فى حياة بوذا قاعدة بسيطة ، فكانوا يحيون بعضهم بعضاً ، كما يحيون كل من يتحدثون إليهم بعبارة جميلة هى : « السلام على الكائنات جميعاً »(*) فلم يكن يجوز لهم أن يقتلوا كائناً حياً ، ولم يكن يجوز لهم أن يأخذوا شيئاً لم يعطوه ؛ وكان واجباً عليهم أن يجتنبوا الكذب والنميمة ، وأن يصلحوا ما بين الناس من خصومة ويشجعوهم على الوفاق ، وكان حتما عليهم أن يظهروا الرحمة دائماً بالناس جميعاً والحيوان جميعاً ، وأن يجتنبوا كل لذائذ الحس والجسد ، فيجتنبوا الموسيقى ورقصات « ناوتش » والملاهى والألعاب وأسباب الترف واللغو فى الحديث والنقاش والتنبؤ بالغيب ، ولم يكن يجوز لهم أن يزاولوا شيئاً من التجارة بكل صنوف البيع والشراء ، وفوق هذا كله ، وكان لابد لهم أن يصونوا عفتهم ، وأن يجانبوا النساء ويعيشوا فى طهر كامل(٨٥) ، ولقد توجهت إلى بوذا التماسات كثيرة ناعمة ، فاستجاب لها وأذن للنساء أن يدخلن طائفته راهبات ، لكنه لم يوافق أبداً من صميم نفسه على هذا القرار ، وفى ذلك قال : « إذا لم تأذن يا أناندا للنساء بالدخول فى طائفتنا ، دامت العقيدة الخالصة حيناً أطول ، فالتشريع الصالح كان ليقاوم الفناء — بغير دخول النساء — ألف عام ؛ أما وقد أذنا لهن بالانضمام إلينا ، فلن يدوم تشريعنا أكثر من خمسمائة عام »(٨٦) ، وكان فى ذلك على صواب ، فعلى الرغم من أن الطائفة العظيمة قد لبثت حتى عهدنا هذا ؛ إلا أنها قد أفسدت تعاليم الأستاذ منذ زمن طويل ، بما أدخلته عليها من سحر وتعدد للآلهة وخرافات لا تقع تحت الحصر .

ولما دنت حياته الطويلة من ختامها ، راح أتباعه يؤلهونه ، لم ينتظروا فى ذلك موته ، على الرغم من أنه كان دائماً يحفزهم على الشك فى صحة ما يقوله لهم ، حتى يفسح كل منهم مجال التفكير الحر أمام نفسه ؛ وورد فى محاورة من أواخر محاوراته :

(*) انظر أيضاً صيغة السلام الجميلة التى يستعملها اليهود والمسلمون] « السلام عليكم ؛ فالناس نهاية الأمر لا ينشدون السعادة ، ولكن ينشدون السلام .

وجاء « ساريپوتا » الوقور إلى حيث كان النبي المعظم ، وحياه وجلس إلى جانبه في احترام وقال :

« مولاى ، إن إيمانى بالنبي العظيم ليبلغ من القوة بحيث لا أظن أن أحداً فيما مضى أو فيما هو آت ، أو أن أحداً فيمن يعاصروننا ، سواء أكان من طائفة المتجولين أو طائفة البراهمة ، أعظم وأحكم من النبي العظيم . . . فيما يخص الحكمة العليا » .

فأجابه الأستاذ : « كلماتك عظيمة جريئة يا « ساريپوتا » الحق أنك بعبارتك هذه قد رُحت تنشد أغنية كما ينشد النشوان أغانيه ! وكأنى بك — إذن — قد عرفت كل الأنبياء المعظمين فيما مضى . . . وفهمت آراءهم بعقلك . فعلمت كيف كانوا يسلكون وفيم كانوا يفكرون . . . وأى ضروب التحرر قد بلغوا ؟ » .

« لا ياسيدى ، لم أبلغ من الأمر كل هذا » .

« وكأنى بك قد أدركت كل الأنبياء المعظمين الذين سيأتى بهم الزمان ... وفهمت كل آرائهم بعقلك ؟ » .

« لا يا مولاى ، لم أبلغ من الأمر هذا » .

« إذن فلا أقل يا « ساريپوتا » من أن تكون قد عرفتنى . . . وأن تكون قد تغلغلت في ضمير عقلى ؟ » . . .

« حتى ولا هذا يا مولاى » .

« إذن فها أنت ذا ترى يا « ساريپوتا » أنك لا تعلم أفئدة الأنبياء القادرين المتيقظين الذين ظهروا فيما مضى ، والذين سيظهرون في المستقبل ؛ فلماذا إذن تقول مثل هذه الكلمات العظيمة الجريئة ، لماذا تنطلق منشداً لأغنية النشوان ؟ »(٨٧)

وكذلك لقن « أناندا » أعظم دروسه وأشرفها :

« وإن كل من صار لنفسه — يا أناندا — مصباحاً يهدى ، وكل من صار لنفسه ملاذاً يُؤوِى ، سواء في حياتى أو بعد موتى ، فلن يلتمس لنفسه من غير

نفسه مأوى ، وسيستمسك بالحق مصباحاً .. فلا يطلب من غير نفسه ملاذاً — أمثال هؤلاء ... هم الذين سيبلغون أعلى الذُّرى ! لكن ينبغي أن يكون بهم شغف بالمعرفة »(٨٨) .

ومات بوذا عام ٤٨٣ قبل الميلاد ، وهو في عامه الثمانين ، وكانت آخر كلماته لرهبانه : « والآن أيها الرهبان ، ها أنذا أوجه إليكم الخطاب ؛ إن كل ما هو مركب مصيره إلى الفساد ، فجاهدوا جهاد المخلص الجادّ »(٨٩) .

الباب السادس عشر
من الإسكندر إلى أورانجزيب

الفصل الأول

تشاندرا جوبتا

الإسكندر فى الهند – تشاندرا جوبتا محرر بلاده – الشعب – جامعة تاكسيلا – القصر الملكى – يوم فى حياة ملك – مكياڤلى أسبق عهداً من مكياڤلى الحديث – الإدارة – القانون – الصحة العامة – النقل والطرق – الحكومة البلدية

فى سنة ٣٢٧ قبل الميلاد ، عبر اسكندر الأكبر جبال هندوكوش آتياً فى طريقه من فارس ، وهبط على بلاد الهند ، ولبث عاماً يجول بحملته بين دول الشمال الغربى من الهند ، التى كانت جزءاً من أغنى أجزاء الإمبراطورية الفارسية ، وأخذ يجمع منها المؤن لجنوده والذهب لخزانته ؛ وعبر السند فى الجزء الأول من سنة ٣٢٦ ق . م . وشق طريقه بالقتال بطيئاً ، متخللا « تاكسيلا » و « روالپندى » متجهاً نحو الجنوب والشرق ، والتقى بجيش الملك پورس حيث هزم من جيش المشاة ثلاثين ألفاً . ومن الفرسان أربعة آلاف ، ومن العربات الحربية ثلاثمائة ، ومن الفيلة مائتين ، وقتل اثنى عشر ألف رجل ؛ فلما أن أسلم « پورس » بعد أن قاتل حتى استنفد جهده ، أمره الإسكندر أن يقول على أى نحو يريده أن يعامله ، ذلك لأنه أعجب بشجاعته وقوامه وجمال قسماته ، فأجابه « پورس » ، « عاملنى يا اسكندر معاملة تليق بالملوك » فقال الإسكندر : وسأعاملك معاملة الملوك بالنسبة إلى نفسى ، وأما بالنسبة إليك أنت ، فتَمَنَّ بما تريد » ، لكن « پورس » أجاب بأن كل شىء يريده

متصمن فيما طلب أولا ؛ وأعجب الإسكندر بهذا الجواب إعجاباً شديداً ، ونصّب « پورس » ملكاً على الهند المفتوحة كلها ، باعتباره تابعاً خاضعاً لمقدونيا ، ولقد وجده بعدئذ حليفاً نشيطاً أميناً(١) ، وأراد الإسكندر أن يتقدم بجيوشه حتى يبلغ البحر من ناحية الشرق ، لكن جنوده احتجوا على ما أراد ، وكثر فى ذلك بينهم القول وازداد التجهم ، فخضع الإسكندر لمشيئتهم وقادهم خلال قبائل معادية له إشفاقاً على أوطانهم من اعتدائه ، مما اضطر جنود الإسكندر أن يحاربوا فى سيرهم عند كل قدم من الطريق ، أوكادوا — قادهم حذاء « هيداسب » وإلى جوار الساحل ؛ حتى اخترق بهم « جدروسيا » إلى بلوخستان ؛ فلما وصل « سوزا » بعد عشرين شهراً من عودته بعد فتوحه لم يعد جيشه أكثر من فلول منهوكة من الجيش الذى كان قد دخل به الهند قبل ذلك بثلاثة أعوام .

وبعد ذلك بسعبة أعوام كان كل أثر للسلطان المقدونى قد زال عن الهند زوالا تاماً(٢) ، وكان العامل الأول فى زوال ذلك السلطان ، رجل هو من أروع من يثير الخيال فى تاريخ الهند من رجال ؛ فهو وإن يكن أقل منزلة فى صفاته العسكرية من الإسكندر ، إلا أنه أعظم منه حاكماً ؛ ذلك هو « تشاندرا جوپتا » الشريف الشاب الذى ينتمى إلى طبقة الكشاترية المقاتلة ، وقد نفته من « مجاذا » أسرة « ناندا » الحاكمة التى كان هو من أبنائها ، وكان إلى جانبه ناصح مكيافيلى ماكر ، هو « كوتيلا تشاناكيا » الذى أعانه على تنظيم جيش صغير اكتسح به الحاميات المقدونية ، وأعلن الهند حرة من الغازى ثم تقدم إلى « پاتاليپوترا(*) » عاصمة مملكة « مجاذا » وأثار فيها ثورة واستولى على عرشها ، وأسس بها « أسرة موريان الحاكمة » التى حكمت الهندستان وأفغانستان مدى مائة وسبعة وثلاثين عاماً ، ولما استسلم « تشاندرا جوپتا » بشجاعته لحكمة « كوتيلا » التى لم يكبح جماحها ضمير ، سرعان ما أصبحت

(*) هى ما يسمى الآن « پاتنا » .

حكومته أقوى حكومة كان يعرفها العالم عندئذ ، حتى أنه لما جاء المجسطى سفيراً فى « باتاليبوترا » عن « سلوكَس نكتار » ملك سوريا ، أدهشه أن يرى هناك مدنية وصفها لليونان المدققين المتشككين الذين كانوا عندئذ لم يزالوا فى موضع قريب من أوج حضارتهم ، فقال إنها مدنية مساوية للمدنية اليونانية مساواة تامة(٣) .

وصف لنا هذا الإغريقى الحياة الهندية فى عصره وصفاً ممتعاً ، ربما مال فيه نحو التهاون فى الدقة ليكون فى صالح الهنود ؛ وأول ما استوقف نظره هناك هو ألاّ رقّ فى الهند(*) على خلاف ما عهده فى أمته ، وهو اختلاف يجعل الأولى أعلى من الثانية منزلة فى هذه الناحية ، وأنه على الرغم من انقسام السكان إلى طبقات حسب ما يؤدونه من أعمال ، فقد قبل الناس هذه الأقسام على أنها طبيعية ومقبولة ؛ ويقول السفير عنهم فى تقريره إنهم كانوا « يعيشون عيشاً سعيداً » لأنهم :

« فى سلوكهم يتصفون بالبساطة ، وهم كذلك مقتصدون فهم لا يشربون الخمر قط إلا فى الاحتفال بتقديم القرابين ... والدليل على بساطة قوانينهم ومواثيقهم هو أنهم قلما يلجأون إلى القانون ، فهم لا يتقدمون إلى محاكمهم بقضايا عن خرق العهود أو نهب الودائع ، بل هم لا يحتاجون إلى أختام أو شهود ، لكنهم يودعون أشياءهم على ثقة بعضهم ببعض . . . إنهم يقدرون الحق والفضيلة قدراً عظيما .. والجزء الأعظم من أرضهم يزرع بالرى ، ولذلك ينتج محصولين فى العام ... ولهذا كان من الثابت أن الهند لم تعرف المجاعة قط ، ولم يكن بها قحط عام فى موارد الطعام اللازم للتغذية(٥) .

وأقدم المدائن الألفين التى كانت فى الهند الشمالية فى عهد « تشاندراجوبتا » هى مدينة « تاكسيلا » التى تبعد عشرين ميلا — جهة الشمال الغربى — عن

(*) يقول « أريان » : « هذا شىء عظيم فى الهند ، أعنى أن يكون سكانها جميعاً أحراراً ، ليس بينهم عبد واحد من الرقيق »(٤) .

مدينة « روالپندى » الحديثة ، ويصفها « أريان » بأنها : « مدينة عظيمة مزدهرة » ؛ ويقول « سترابو » : « إنها كبيرة وبها أرقى القوانين » ، فقد كانت مدينة عسكرية ومدينة جامعية فى آن معاً ، إذ تقع من الوجهة العسكرية على الطريق الرئيسية المؤدية إلى آسيا الغربية ، وكان بها أشهر الجامعات الكثيرة التى كانت فى الهند إذ ذاك ، فكان يحج إليها الطلاب زرافات ، كما كانوا يحجون زرافات إلى باريس فى العصور الوسطى ، ففى وسع الطلاب أن يدرسوا بها ما شاءوا من فنون وعلوم على أيدى أساتذة أعلام ، وخصوصاً مدرستها للطب ، فقد ذاع اسمها فى العالم الشرقى كله مقروناً بالتقدير العظيم(*) .

ويصف الجسطى مدينة « پاليپوترا » عاصمة الملك « تشاندرا چوپتا » فيقول إنها تسعة أميال فى طولها وميلان تقريباً فى عرضها[١٠] وكان القصر الملكى بها من خشب ، لكن السفير الإغريقى وضعه فى منزلة أعلى من منزلة المساكن الملكية فى « سوزا » و « إكباتانا » ولا يفوقه إلا قصور « پرسوپوليس (أى مدينة الفرس) ؛ فأعمدته مطلية بالذهب ومزخرفة بنقوش من حياة الطير ومن ورق الشجر ، وهو من الداخل مؤثث تأثيثاً فاخراً ومزدان بالأحجار الكريمة والمعادن النفيسة[١١] ؛ وقد كان فى هذه الثقافة قسط من حب الشرقيين للتظاهر ، فمثلا ترى ذلك واضحاً فى استخدامهم لآنية من الذهب قطر الواحدة منها ست أقدام[١٢] ؛ لكن مؤرخاً إنجليزياً يبحث الآثار المادية والأدبية والتصويرية لتلك المدينة فيصل إلى نتيجة ، هى أنه « فى القرنين الرابع والثالث قبل المسيح لم يكن ما يتمتع به ملك موريا من أسباب الترف بكل

(*) كشفت حفريات سير چون مارشال فى تاكسيلا عن أحجار منحوتة نحتاً دقيقاً ، وعن تماثيل مصقولة صقلا بلغ الغاية ، وعن نقود ترجع إلى سنة ٦٠٠ ق . م . وعن مصنوعات زجاجية دقيقة الصناعة لم نفقها أية صناعة من نوعها فى الهند بعدئذ[٨] ، ويقول ڤنسنت سمث : « إنه من الواضح أنهم بلغوا من الحضارة حداً بعيداً ، وأن كل الفنون والصناعات التى تصاحب حياة مدنية غنية مثقفة ، كانت معروفة لهم[٩] » .

ضروبها ، والصناعات اليدوية الماهرة بكل أنواعها ، أقل مما كان يتمتع به أباطرة المغول بعد ذلك بثمانية عشر قرناً »[١٣] .

أقام «تشاندرا جوپتا » فى هذا القصر ، بعد أن استولى على العرش بالقوة ، مدى أربعة وعشرين عاماً ، فكان كأنما يعيش منه فى سجن مطلى بالذهب ؛ وكان يظهر للشعب حيناً بعد حين ، مرتدياً ثوباً من الموصلى الموشى بالأرجوان والذهب ، محمولا فى محفة ذهبية ، أو على فيل مطهم بأفخر الطهم ؛ وكان وقته مليئاً بأعمال مملكته المتزايدة ، إلا ساعات كان يقضيها فى الصيد أو فى غيره من أنواع التسلية ؛ فيومه ينقسم ستة عشر جزءاً طول الجزء منها تسعون دقيقة ، فكان يستيقظ فى الجزء الأول من يومه فيُعِدُّ نفسه بشىء من التأمل ، وفى الثانى يقرأ التقارير التى يرفعها إليه موظفوه ، ويصدر فيها تعليمات سرية وفى الثالث يجتمع بمستشاريه فى قاعة المقابلات الخاصة ؛ وفى الرابع يبحث فى أمور المالية والدفاع القومى ؛ وفى الخامس يصغى إلى شكاوى رعيته وقضاياها ؛ وفى السادس يستحم ويتناول غداءه ويقرأ شيئاً من كتب الدين ، وفى السابع يتقبل الضرائب والجزية ويضرب المواعيد الرسمية ؛ وفى الثامن يلتقى بمستشاريه مرة ثانية ويستمع إلى ما يقرره له الجواسيس الذين كان يرصدهم ، وبين هؤلاء عاهرات استخدمهن لهذه الغاية[١٤] ؛ وخصص الجزء التاسع من يومه للاستجمام والصلاة ، والعاشر والحادى عشر للشئون العسكرية ؛ والثانى عشر للتقارير السرية مرة أخرى ؛ والثالث لحمام المساء ووجبته ؛ والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر للنوم[١٥] ؛ ويجوز أن يكون المؤرخ قد صور لنا بهذه الصورة ما كان يمكن أن تجرى عليه حياة « تشاندرا جوپتا » من نظام ؛ أو هو يصور لنا بها ما أراد «كوتيلا » أن يتصوره الناس عن مليكه ؛ أكثر مما يصور لنا حقيقة ذلك الملك فى حياته ، فالحقيقة قلما تفلت من أجواف القصور .

كان زمام الحكم الحقيقى فى يد وزيره الماكر « كوتيلا » و « كوتيلا »

برهمي عرف القيمة السياسية للدين ، لكنه لم يتخذ من الدين هداية خلقية ؛ فهو شبيه بدكتاتوري هذا العصر ، في إيمانه بأن كل الوسائل لها مبررات ما دامت تنتهي إلى صالح الدولة ؛ وكان غادراً لا يزجره من نفسه ضمير ، إلا إزاء مليكه ؛ فقد خدم « تشاندرا جوپتا » في منفاه وفي هزيمته وفي مغامراته وفي دسائسه وفي اغتياله للناس وفي نصره ؛ واستطاع بفضل حكمته ودهائه أن يجعل ملك سيده أعظم ما عرفته الهند في تاريخها كله ، ولقد رأى « كوتيلا » — كما رأى من بعده مؤلف « الأمير »(*) — أنه من المفيد أن يدون للأجيال القادمة آراءه التي عالج بها الأمور العسكرية والسياسية ؛ وإن الرواية لتنسب إليه كتاب « أرذاشاسترا » وهو أقدم كتاب مما بقي لنا من الأدب السنسكريتي[16] ولكن نسوق لك مثلا من واقعيته الدقيقة ، نذكر لك ما ذكره من الوسائل التي تتبع في الاستيلاء على أحد الحصون ، وهي : « الدسائس والجواسيس واستمالة شعب الأعداء ، والحصار والهجوم »[17] — وفي هذه الدسائس اقتصاد حكيم للمجهود البدني .

لم تزعم الحكومة لنفسها اصطناع الأساليب الديمقراطية ؛ والأرجح أنها كانت حكومة لم تشهد الهند طوال تاريخها حكومة أكفأ منها[18] ؛ فلم يكن لدى « أكبر » — وهو أعظم المغول — « ما يماثلها كفاءة ، ومما يدعو إلى الشك أن يكون بين المدن اليونانية القديمة ما يفوقها نظاماً »[19] ؛ كانت تقوم صراحة على القوة العسكرية ؛ فكان « لشاندرا جوپتا » جيش قوامه — إذا أخذنا برأي الميسطي (الذي يجب أن يكون موضع ريبة كأي مراسل أجنبي آخر) — ستمائة ألف من المشاة ، وثلاثون ألفاً من الركبان ، وتسعة آلاف من الفيلة ، وعدد لم يحدد من العربات الحربية[20] ؛ وكان البراهمة والفلاحون يعفون من الخدمة العسكرية ، فيصف لنا « سترابو » هؤلاء الفلاحين وهم

(*) مؤلف كتاب « الأمير » هو مكياڤلي صاحب السياسة الوصولية المشهور . (المعرب)

يحرثون الأرض فى هدوء وأمن وسط حومات تضطرب بالقتال[٢١] .

وكانت سلطة الملك مطلقة من الوجهة النظرية ، أما من الوجهة العملية فكان يحدّها مجلس للشورى كان من شأنه التشريع ـ أحياناً فى حضور الملك وأحياناً فى غيابه ـ وتنظيم المالية القومية والشئون الخارجية ، وهو الذى كان يعين لكل المناصب الهامة فى الدولة رجالها ؛ ويشهد المجسطى بما كان لأعضاء ذلك المجلس من « خلق سام وحكمة عالية » كما يذكر ما كان لهم من نفوذ فعال[٢٢] .

كانت الحكومة مقسمة أقساماً لكل منها واجبات واضحة الحدود ، وموظفون يتدرجون فى درجاتهم تدرجاً أحسن تدبيره ؛ فتقوم هذه الأقسام بالإشراف على الدخل ، والجمارك ، والحـــدود ، وجوازات السفر ، والمواصلات ، والضرائب ، والمناجم ، والزراعة ، والماشية ، والتجارة ، والمخازن ، والملاحة ، والغابات ، والألعاب العامة ، والدعارة ، وسك النقود ـ لكل من هذه قسم خاص ؛ وكان للمشرف على قسم ضريبة الإنتاج حق رقابة بيع العقاقير والمسكرات ، وكان يقيّد عدد الحانات ومواضعها ، وكمية الخمور التى يجوز لها أن تبيعها ؛ وللمشرف على المناجم أن يؤجر مواقع الاستنجام لأفراد يدفعون للحكومة أجرا معلوما وجزءاً معينا من الربح ؛ وللإشراف على الزراعة نظام كهذا ، لأن الأرض كلها كانت ملكاً للدولة ؛ وللمشرف على الألعاب العامة الرقابة على قاعات القمار ، وأن يقدم الزهر (زهر اللعب) للاعبين ويتقاضاهم رسما على استخدامه ، كما كان يقتطع لخزانة الدولة خمسة فى كل مائة مما يدفعه اللاعبون ، وأما المشرف على الدعارة فكان من شأنه أن يراقب العاهرات ، ويضبط أجورهن ومصروفهن ، وكان يحدد لأعمالهن يومين من كل شهر ، ويأخذ منهن اثنتين للقصر الملكى ، تقومان هنالك للمتعة من جهة وللجاسوسية من جهة أخرى ، وفرضت الضرائب على كل مهنة وكل عمل وكل صناعة ! أضف إلى ذلك ما كان الأغنياء يحملون على دفعه من « تبرعات » للملك ، وكانت الحكومة تراقب الأسعار ، وتراجع الموازين والمقاييس حيناً بعد حين ؛ ثم كان للدولة مصانع خاصة بها تقوم

فيها الحكومة بصناعة بعض الأشياء ، كما كانت تبيع الخضر وتحتكر المناجم والملح والخشب والمنسوجات الدقيقة والجياد والفيلة(٢٣) .

وكان يقوم على القانون فى الريف رؤساء محليون فى القرى ، أو مجالس قروية قوام الواحد منها خمسة رجال ؛ وأما فى المدن والأقاليم والمناطق فيعهد بأمره إلى محاكم دنيا ومحاكم عليا ، وفى العاصمة يتولاه المجلس الملكى باعتباره محكمة عليا ، ويتولاه الملك نفسه على أنه محكمة استئناف ، لا نقض لحكمها ؛ وكانت العقوبات صارمة ، منها بتر الأعضاء والتعذيب والموت ، وهى تقوم عادة على مبدأ « العين بالعين والسن بالسن » أى مبدأ القصاص المتعادل ؛ لكن الحكومة لم تكن مجرد أداة للضغط على الشعب ، بل كانت كذلك تعنى بالصحة العامة ، فأقامت المستشفيات وملاجئ الفقراء ، وكانت توزع فى السنين العجاف ما قد يكون فى مخازن الدولة استعداداً لأمثال هذه الطوارئ ؛ وتضطر الأغنياء إلى المشاركة فى معاونة المعوزين ، وتنظم مشروعات عامة كبرى للعناية بالمتعطلين فى سنى الأزمات(٢٤) .

وأما قسم الملاحة فكان اختصاصه تنظيم النقل المائى ووقاية المسافرين فى الأنهار والبحار ؛ وكانت كذلك ترعى الجسور والموانى ، وتهيئ « معديات » حكومية تعمل جنباً إلى جنب مع « المعديات » الخاصة التى يملكها ويديرها أفراد(٢٥) — وهو نظام جميل يمكن الحكومة بدخولها فى المنافسة من الحد من إسراف الأفراد فى استغلال الجمهور ، كما تمكن المنافسة الحرة من الحد من إسراف الحكومة وبذخها ؛ وكان من واجب قسم المواصلات أن يشق الطرق ويعبدها ثم يقوم على صيانتها فى أرجاء الإمبراطورية ، من المدقات الضيقة التى تعد للعربات فى الريف ، إلى الطرق التجارية التى يبلغ عرض الواحد منها اثنين وثلاثين قدماً ، ثم إلى الطرق الملكية التى يبلغ عرضها أربعاً وستين قدماً ،

وكان طريق من هذه الطرق الملكية يمتد ألفاً ومائتين من الأميال ، من « باتاليبترا » إلى الحدود الشمالية الغربية[٢٦] — وهي مسافة تساوى نصف الطريق من هاتيك الطرق الرئيسية التي تعبر الولايات المتحدة من شرقها إلى غربها ؛ وعند كل ميل تقريباً من هذه الطرق — فيما يقول المجسطى — كانت تقوم أعمدة تشير إلى الاتجاهات وتبين المسافات إلى مختلف البلدان[٢٧] ، وكنت تجد على طول الطريق أشجاراً ظليلة وآباراً ومراكز للشركة وفنادق ، أعدوها على مسافات دورية من الطريق[٢٨] ؛ وكانت وسائل النقل هي العربات والمحفات والعربات تجرها الثيران ، ثم الجياد والجمال والفيلة والحمير والناس ؛ وكانت الفيلة من ألوان الترف التي تقتصر عادة على الملك وكبار رجال الدولة ، وكانت من غلو القيمة عندهم بحيث عدُّوا عفة المرأة ثمناً متواضعاً للواحد منها[*] ؛

وكان يتبع في حكومات المدن مثل هذا النظام بعينه من حيث تقسيم الإدارة إلى أقسام ، فالعاصمة « باتاليپترا » كان يحكمها مجلس مؤلف من ثلاثين عضواً ، ينقسمون ستة أقسام ، يقوم قسم منها على تنظيم الصناعة ، وآخر يراقب الأجانب فيعدّ لهم المساكن ويعين لهم من يقوم بخدمتهم ويراقب حركاتهم ، وقسم ثالث يسجل المواليد والوفيات ، ورابع يرخص للتجار مباشرة تجارتهم ، وينظم بيع المحصول ، ويراجع المقاييس والموازين ، وخامس يراقب بيع المصنوعات ، وقسم سادس يجمع ضريبة قدرها عشرة في كل مائة من المبيعات كلها ؛ وفي ذلك يقول « هافيل » : « وصفوة القول إن پاليپترا في القرن الرابع قبل الميلاد ، فيما يظهر ، قد كانت مدينة على أتم ما تكون المدن نظاماً ، وتقوم عليها إدارة تتمشى مع أحسن المبادئ في علم الاجتماع »[٢٨ أ] ؛ وكذلك يقول « ڤنسنت سمث » : « إن الكمال الذي بلغته هذه النظم التي

(*) « إن نساءهم اللاتي يحرصن كل الحرص على عفافهن ، ولا يغويهن بالفجور شيء كائنا ما كان ، كنّ إذا ما قدم لهن الرجل فيلا قبلت الواحدة منهن مضاجعة الواهب ؛ إذ ليس في عرف الهنود أنه مما يشين المرأة أن تسلم عرضها لقاء فيل ، بل إن المرأة عندهم لتراه مدعاة للفخار أن يكون جمالها مساوياً في قيمته لفيل » . (أريان)

أشرنا إليها ، ليثير العجب حتى إن اقتصرت فى ذكره على موجز مقتضب ؛ ثم تزداد عجباً — إذا ألممت بتفصيلات الإدارة — كيف أمكن لمثل هـــذا النظام أن تدَبَّر قواعده ، وأن يُنفَّذ تنفيذاً دقيقاً فى الهند فى سنة ٣٠٠ قبل الميلاد »(٢٨ب) .

والنقص الوحيد فى هذه الحكومة هو استبدادها ، وبالتالى اعتمادها اعتماداً متصلا على القوة وعلى الجواسيس ، فحاكمها « تشاندرا جوبتا » شأنه شأن كل حاكم مستبد آخر — كان قلقاً على عرشه ، لا ينقطع خوفه من الثورة والاغتيال ؛ فكان ينام كل ليلة فى مخدع يختلف عن مخدع الليلة السابقة ، ولم يخلُ قط من حراسة الحراس ؛ وتروى الرواية الهندية ، ويؤيدها المؤرخون الأوربيون ، أنه لمـــا أطبقت مجاعة طويلة على مملكة « تشاندرا جوبتا » (راجع المجسطى) حمله اليأس على النزول عن عرشه ، وعاش بعدئذ اثنى عشر عاماً زاهداً جانتياً ، ثم انتهى به الأمر أن فرض على نفسه الجوع حتى مات به ؛ يقول ڤولتير : « إنك لو وضعت كل الظروف موضع الاعتبار ، ألفيت حياة النوتى فى « جندوله » خيراً من حياة حاكم المدينة ، لكنى أعتقد أن الفرق بين حياتيهما أتفه من أن يستحق منا التدقيق فى أمره »(٢٩) .

الفصل الثانی

الملك الفيلسوف

أشوكا — مرسوم التسامح — أشوكا يرسل بعوثا دينية
فشله — نجاحه

كان الذى خَلَفَ « تشاندرا جوپتا » فى الحكم هو « بندوسارا » وهو رجل ذو نزعات عقلية لا تخفى ؛ فيقال إنه طلب إلى « أنتيخوس » ملك سوريا أن يبعث إليه بفيلسوف إغريقى ، وكتب إليه قائلا إنه على استعداد أن يدفع ثمناً عالياً لفيلسوف إغريقى من الطراز الصحيح[٣٠] ، ولكن « أنتيخوس » لم يستطع إلى إجابة الطلب سبيلا ، لأنه لم يجد فيلسوفاً يونانياً معروضاً للبيع ؛ ثم شاءت المصادفة أن تعوض « بندوسارا » خيراً . فجعلت له من ابنه فيلسوفاً ؛

وتولى « أشوكا ڤاردانا » العرش سنة ٢٧٣ ق . م . فوجد أنه يشمل بسلطانه إمبراطورية أوسع رقعة من أى قطر حكمه فى الهند حاكم من قبله : فهو يشمل أفغانستان وبلوخستان ، وكل الهند الحديثة إلا طرفها الجنوبى — وهو ما يسمى « بأرض تاميل » ولبث حيناً من الدهر يحكم على غرار جده « تشاندرا جوپتا » ، أى لبث يحكم بلاده فى قسوة ، لكنه يحكمها حكماً جيداً ، فيحدثنا « يوان تشوانج » الرحالة الصينى الذى أنفق أعواماً طوالا فى الهند إبان القرن السابع الميلادى ، بأن السجن الذى كان قائماً فى عهد « أشوكا » شمالى العاصمة ، لم يزل يذكره الناس فى الهند جيلا عن جيل باسم « جحيم أشوكا » ؛ إذ أنبأه المنبئون أن كل أنواع العذاب والتعذيب التى تشتمل عليها الجحيم الحقيقية ، قد استعملت فعلا فى ذلك السجن عقاباً للمجرمين ، بل إن الملك قد أضاف إلى تلك الأنواع التقليدية من عذاب الجحيم ، مرسوماً بأن كل من يدخل ذلك الجب المخيف ، لا يجوز له قط أن يخرج منه حياً ؛ ولكن حدث ذات يوم أن ألقى فى ذلك

السجن قديس بوذى بغير أن يكون هناك ما يبرر ذلك السجن ، فقذفوا به فى إناء كبير فيه ماء ساخن ، فأبى الماء أن يغلى بما فيه ، فأرسل السجان بالنبأ إلى « أشوكا » ، وجاء « أشوكا » ورأى وأخذه العجب ؛ ولما استدار الملك ليأخذ طريقه إلى خارج السجن ، ذكّره السجان بأمره ، قائلا إنه لا يجوز له أن يغادر السجن حياً ؛ فحزّت هذه الملاحظة فى نفس الملك بقوتها ، وأمر بالسجان أن يقذف فى إناء الماء الساخن .

ويقال إن « أشوكا » لما وصل إلى قصره ، نال من نفسه انقلاب عجيب ؛ وأمر من فوره أن يُهْدَم السجن وأن يخفف قانون العقوبات ؛ وفى نفس الوقت جاءه النبأ بأن جنوده قد ظفروا بانتصار باهر على قبيلة « كالنجا » الثائرة ، وأنهم قد فتكوا بآلاف من الثائرين ، وأسروا منهم عدداً كبيراً ؛ فجعل أشوكا عندئذ يعانى لذعات ضميره كلما طاف برأسه كل هذا « العنف والتقتيل وإبعاد الأسرى عن ذويهم » فأمر أن يطلق سراح الأسرى ، وردّ إلى قبيلة « كالنجا » أرضها ، وأرسل إلى أهلها اعتذاراً لم يسبق له فى التاريخ مثيل ، ولم يقلده من بعده إلا القليل ؛ وبعدئذ التحق بالطائفة البوذية ، ولبس مسوح الرهبان حيناً ، وأبطل الصيد وأكل اللحم ، واصطنع « السبيل الشريفة ذات الإرشادات الثمانية »[٢١] .

وإنه ليستحيل علينا الآن أن نقول كم من هذه الأنباء قد اختلقه الخيال اختلاقاً ، وكم منها تاريخ صحيح ؛ كما يستحيل علينا — والشقة بيننا وبين ذلك العهد بهذا البعد — أن نرى الدوافع التى حفزت الملك إلى ما فعل ؛ فيجوز أنه رأى البوذية تتسع انتشاراً ، وظن أن تعاليمها من تسامح وهدوء تصلح تشريعاً مفيداً لشعبه ، فتوفر على الدولة عدداً لا يحصى من رجال الشرطة ؛ وفى العام الحادى عشر من حكمه ، أخذ يصدر مرسومات هى أعجب ما عرفناه فى تاريخ الحكومات ؛ وأمر أن تنقش هذه المرسومات على الصخور وعلى الأعمدة

فى عبارة بسيطة وباللهجات التى يفهمها الناس ، حتى يتسنى لكل هندى يعرف القراءة أن يفهم فحواها ؛ ولقد عثرنا على « مرسومات الصخور » فى كل جزء من أجزاء الهند تقريباً ، ولا تزال عشرة أعمدة باقية فى مكانها ؛ وعرفنا أماكن عشرين أخرى ؛ وتقرأ هذه المرسومات فتجد أن الإمبراطور يوافق على العقيدة البوذية بحذافيرها ، ويطبقها فى شأن من شئون الناس هو آخر ما تتوقع لها أن تطبق فيه وأعنى السياسة ؛ وشبيه بهذا أن تعلن إمبراطورية حديثة فجأة أنها صممت منذ الآن فصاعدا ان تتبع المسيحية فى سياستها .

وعلى الرغم من أن هذه المرسومات بوذية العقيدة ، فهى لا تبدو لنا دينية خالصة ؛ فهى تفرض وجود حياة آخرة ، وبهذا ترى كيف أنه لم يلبث تشكك بوذا أن زال ليحل محله عند أتباعه إيمان ، لكنها إلى جانب ذلك لا تورد فى نصوصها عبارة تدل على العقيدة بإله مشخص ، بل لا تذكر الله فى نصوصها إطلاقاً(٣٢) ؛ كلا ، ولا هى تذكر كلمة واحدة عن بوذا فهذه المرسومات لا تعنى باللاهوت ؛ فرسوم « سارنات » يطالب الناس بالسير على مقتضى قواعد للدين ، ويضع عقوبات لمن يشقون عليها عصا الطاعة(٣٣) ، أما سائر المرسومات فهى لا تنى تذكر مرة بعد مرة ضرورة التسامح الدينى ؛ فعلى المرء أن يُحْسن إلى كهنة البراهمة كما يحسن إلى كهنة البوذيين سواء بسواء ؛ ولا ينبغى لأحد أن يسيء بالقول الى عقيدة من العقائد ؛ ويعلن الملك أن كل أفراد شعبه بمثابة أبنائه الذين يحنو عليهم ، فهو لن يفرق بينهم بسبب اختلافهم فى العقيدة(٣٤) ، فهذا هو « مرسوم الصخر » رقم ١٢ يتحدث بما يكاد أن يكون معاصراً لنا من حيث سداد رأيه :

« إن جلالة الملك المقدس الرحيم يقدم إجلاله للناس من شتى المذاهب ، سواء فى ذلك الزاهدون أو أصحاب الأسَر ، وهو يقدم إجلاله هذا بالهدايا وغيرها من مختلف ألوان التوقير .

على أن جلالة الملك المقدس لا تعنيه كثيراً هذه الهدايا وهذا التوقير الظاهر ، بقدر ما يعنيه أن ينمو فى كل هذه العقائد لبُّها وجوهرها ؛ ونمو هذا الجوهر وذلك اللب إنما يكون بطرائق شتى ، لكن أساسها جميعاً هو ضبط اللسان عن الكلام ، وأعنى بذلك ألا يبجل المرء عقيدته وألا يحط من شأن عقيدة غير عقيدته إلا بما يمليه العقل ؛ إن الحط من شأن العقائد الأخرى لا ينبغى أن يكون إلا لأسباب عقلية معينة ، ذلك لأن عقائد الناس على اختلافها جديرة بالاحترام لهذا السبب أو ذاك .

وبمثل هذا التصرف ، يرفع المرء من عقيدته ، وينفع فى الوقت نفسه سائر العقائد ؛ وبالتصرف المضاد لهذا ، يؤذى المرء عقيـــدته ويضر عقائد الناس . . . . إن انسجام الأفراد أمر عظيم » .

هذا إلى أن « مرسوم العمود الثانى » يلقى لنا ضوءاً أكثر على المقصود من « جوهر الموضوع » — وهى العبارة التى وردت فى المرسوم الذى ذكرناه الآن — إذ يقول : « إن قانون التقوى شىء جميل ، لكن مم يتكون قانون التقوى ؟ يتكون من هذه الأشياء : قليل من عدم التقوى ، وكثير من الأفعال الخيّرة ، والرحمة ، والإحسان ، والصدق ، والصفاء » ؛ ولكن يضرب « أشوكا » المثال لما يريد ، أمر موظفيه فى كل مكان أن ينظروا إلى الناس نظرتهم إلى أبنائهم ، وأن يعاملوهم بالصبر والحسنى ، فلا يعذبوهم ولا يسجنوهم بغير مبرر معقول ؛ وأمر موظفيه أن يقرأوا هذه الإرشادات قراءة دورية على الشعب[٣٥] .

فهل كان لهذه المرسومات الخلقية أثر كائناً ما كان فى إصلاح سلوك الناس ؟ يجوز أنها ساعدت على نشر فكرة « الأهِمْسا » — وهى عدم قتل الحيوان — كما شجعت على الامتناع عن أكل اللحم وشرب المسكرات بين الطبقات العليا من أهل الهند[٣٦] ؛ ويعتقد « أشوكا » اعتقاداً جازماً — شأنه فى ذلك شأن المصلحين — أن لوعظه المنقوش على الحجر أبلغ الأثر ؛ وهو يعلن فى « مرسوم الصخر » رقم ٤ ، أنه لمس بالفعل نتائج طيبة لمرسوماته ، وربما أعان ملخصه على توضيح أساس مذهبه :

أما وقد اصطنع صاحب الجلالة المقدسة الرحيمة أسباب التقوى فى حياته ، فقد سكتت أصداء طبول الحروب ليهتز الهواء بأصداء القانون ... لقد امتنع الناس اليوم ، بفضل قانون التقوى الذى سنه صاحب الجلالة المقدسة الرحيمة الملك ، عن ذبح الكائنات الحية ليقدموها فى قرابينهم ، أكثر من امتناعهم عن ذلك من قبل ، امتنعوا عن قتل الأحياء ، وسلكوا إزاء أقربائهم سلوكاً فاصلا ، وكذلك إزاء البراهمة ، وأصبحوا يستمعون لما يأمرهم به آباؤهم وأمهاتهم ومن هم أكبر منهم سناً ، على هذا النحو – وعلى غيره من الأنحاء الكثيرة – ازداد إقبال الناس فوق هذه الزيادة .

إن أبناء صاحب الجلالة المقدسة الرحيمة الملك ، وأحفاده وأحفاد أحفاده ، سيعملون على زيادة اصطناع الناس لقانون التقوى ، زيادة تطرد إلى يوم الدين » .

لكن الملك الصالح قد بالغ فى تقوى شعبة وولاء أبنائه ، أما هو نفسه فقد بذل مجهوداً عظيما فى سبيل الديانة الجديدة ، فجعل من نفسه رئيساً للطائفة البوذية ، وأجزل لها العطايا ، وشيد لها ثمانية وأربعين ألفاً من الأديرة لرجالها[٣٧] وبنى باسمها فى أرجاء مملكته كلها مستشفيات للإنسان والحيوان[٣٨] وأرسل مبشرين بالعقيدة البوذية إلى أجزاء الهند جميعاً وإلى جزيرة سيلان ، بل أرسل هاتيك البعوث إلى سوريا ومصر واليونان[٣٩] حيث يحتمل أن تكون قد هيأت الطريق هناك للأخلاق المسيحية[٤٠] ولم يمض بعد وفاته إلا زمن قصير حتى غادرت بعوث المبشرين بلاد الهند ليعظ رجالها بالتعاليم البوذية فى التبت والصين ومنغوليا واليابان ، وبالإضافة إلى هذا النشاط الدينى ، توجه « أشوكا » بحماسة نحو إدارة بلاده فى شئونها الدنيوية ، فكان يطيل من ساعات العمل فى يومه ، ولم تكن الحوائل لتحول بينه وبين معاونيه ، فلهؤلاء أن يتصلوا

به فى شئون الدولة فى أى ساعة شاءوا[٤١] .

ونقيصته البارزة هى الأنانية ، فمن العسير أن تكون متواضعاً ومصلحاً فى آن معاً ، إن احترامه لنفسه يسطع فى كل مرسوم من مراسيمه ، مما يجعله أخاً « لمرقص أورليوس »(*) فى شتى الوجوه ، ولم يستطع أن يدرك أن البراهما كانوا يمقتونه ، ويتربصـــون به الدوائر ليفتكوا به ، كما فتك كهنة طيبة بأخناتون قبل ذاك بألف عام ، ولم يقتصر مقته على البراهمة الذين اعتادوا ذبح الحيوان من أجل أنفسهم ومن أجل آلهتهم ، بل جاوزهم إلى ألوف مؤلفة من الصيادين والسماكين الذين كرهوا المراسيم التى فرضت كل هذه القيود القاسية على قتل الحيوان ، حتى الفلاحون أخذوا يجأرون بالشكوى من الأمر الصادر « بألا يحرق قش الغلال خشية أن تحترق معه الكائنات الحية الكامنة فيه »[٤٢] ، فنصف الشعب فى الإمبراطورية كان ينتظر موت « أشوكا » كما يرقب الإنسان تحقيق الأمل .

ويروى لنا « يوان تشوانج » أن رواة البوذيين يتناقلون النبأ بأن « أشوكا » فى أخريات أعوامه ، أكره على النزول عن عرشه ، على يدى حفيده الذى فعل ما فعله بمعونة رجال البلاط ؛ وحرم الملك كل سلطانه شيئاً فشيئاً ، ووقف تيار الهدايا التى كان يمنحها للطائفة البوذية ، بل إن ما كان يسمح به « لأشوكا » من أشياء ، حتى الطعام ، نقص مقداره ، حتى بلغت به الحال أن أصبح نصيبه من الطعام فى اليوم نصف ثمرة من ثمار « الأمالاكا » ؛ ونظر الملك إلى نصف الثمرة نظرة حزينة ، ثم أرسلها إلى إخوانه البوذيين قائلا إنها كل ما يملك مما يستطيع تقديمه إليهم[٤٣] ، لكن حقيقة الأمر هى أننا لاندرى شيئاً عن أعوامه الأخيرة ، بل لا ندرى فى أى سنة وافته منيته ؛ ولم يمض بعد موته إلا مدى جيل واحد ، حتى كانت إمبراطوريته — كإمبراطورية أخناتون — قد تقوض بنيانها ، وذلك أنه لما تبين أن نفوذ العرش فى مملكة « مجاذا » كانت تسنده

(*) حاكم رومانى حكيم . (المعرب)

بقوة الدفع القديمة أكثر مما تدعمه إدارة قائمة على قوة الحاكم ، فقد أخذت الدول التابعة له تعلن انسلاخها ، دولة في إثر دولة ، عن ملك الملوك في « پاتاليپترا » ، نعم إن سلالة « أشوكا » لبثت تحكم « مجازا » حتى القرن السابع الميلادى ، لكن أسرة « موريا » الحاكمة التي أنشأها « تشاندرا جوپتا » بلغت ختامها حين قتل الملك « برهادراذا » ، وإن ذلك لدليل على أن الدول لا تبنى على المثل العليا ، إنما ينهض بنيانها على طبائع الناس .

منى « أشوكا » بالفشل السياسي ، ولو أنه من ناحية أخرى قد أدى بمهمة من أعظم المهام في التاريخ ، ففي القرنين التاليين لموته ، انتشرت البوذية في أرجاء الهند ، وبدأت غزوها لآسيا غزواً لا تراق فيه الدماء ؛ فإذا رأيت إلى يومنا هذا وجه ، « جوتاما »(*) الهادئ يأمر الناس من « كاندى » في سيلان إلى « كاما كورا » في اليابان ، أن يعامل بعضهم بعضاً بالحسنى ، وأن يحبوا السلام ، فاعلم أنه مما أدى إلى ذلك أن حاكماً ، وإن شئت فقل قديساً ، كتب له يوماً أن يتربع على عرش الهند .

(*) هو بوذا . (المعرب)

الفصل الثالث

العصر الذهبي في الهند

عصر غزوات – ملوك كوشان – إمبراطورية جوبتا – رحلات
« فا – هين » – نهضة الأدب – قبائل الهون في الهند – هرشا
الكريم – رحلات يوانج تشوانج

منذ وفاة « أشوكا » إلى قيام إمبراطورية « جوبتا » – وهي مدة تكاد تبلغ ستمائة سنة – تقل النقوش والوثائق الهدية قلة تجعل تاريخ هذه الحقبة يضطرب بالغموض[٤٤] ؛ وليس هو بالضرورة عصراً مظلماً لقلة علمنا بتاريخه ، فقد ظلت به جامعات عظيمة مثل جامعات « تاكسيلا » قائمة تنشر العرفان ، كما أنه حدث في الجزء الشمالي الغربي من الهند إبان تلك الفترة أن ازدهرت حضارة في إثر غزوة الإسكندر ، بتأثير الفرس في فن العمارة ، واليونان في فن النحت ؛ ففي القرنين الأول والثاني قبل المسيح ، نزحت جموع من السوريين واليونان والسكيث إلى البنجاب ، ففتحوه وأقاموا فيه هذه الثقافة « اليونانية البكترية » التي ظلت هناك ما يقرب من ثلاثمائة عام : وفي القرن الأول مما تواضعنا فيما بيننا نحن الغربيين أن نسميه بالعصر المسيحي ، استولت قبيلة كوشان من قبائل أواسط آسيا ، وهي قبيلة تصلها وشائج القربى بالأتراك ، استولت هذه القبيلة على « كابل » ، واتخذتها عاصمة نشرت منها نفوذها في أرجاء الجزء الشمالي الغربي من الهند ومعظم آسيا الوسطى ؛ فتقدمت الفنون والعلوم في عهد أعظم ملوكها « كانشكا » ، فهاهنا أنتج النحت « اليوناني البوذي » مجموعة من أروع آياته ، كما أقيمت مباني جميلة في « پشاور » و « تاكسيلا » و « ماثورة » وكذلك تقدم « تشاراكا » بفن الطب ؛ ووضع « ناجارجونا » و « اشفاغوشا » الأسس التي قام عليها أحد المذاهب البوذية – هو مذهب

ماهايانا » ومعناها العربة الكبرى – الذى ساعد « جوتاما »(*) (على كسب الصين واليابان فى صف مذهبه ، وكان « كانشكا » متسامحاً مع كثير من الديانات ، وجرّب بنفسه كثيراً من الآلهة يعبدها ، حتى انتهى به الأمر أخيراً إلى اختيار البوذية الجديدة الأسطورية التى جعلت من بوذا إلها ، والتى ملأت أجواز السماء ببوذوات منتظرة وقديسين من أشباه بوذا ، ودعا إلى انعقاد مجلس عظيم من رجال اللاهوت البوذى ، ليصوغوا هذه العقيدة فيتسنى نشرها فى بلاده ، وأوشك أن يكون « أشوكا » آخر فى عمله على نشر العقيدة البوذية ، ودوّن هذا المجلس قواعد بلغ عددها ثلاثمائة ألفاً ، وهبط بالفلسفة البوذية إلى حاجات العاطفة عند النفس العادية ، ورفع بوذا نفسه إلى منزلة الآلهة .

وكان « تشاندرا جوبتا الأول » (وهو غير تشاندرا جوبتا موريا على الرغم من اتفاقهما فى الاسم والعدد الترتيبى) قد أنشأ حينئذ أسرة « جوبتا » الحاكمة فى مجاذا ، التى قوامها ملوك من أهل البلد أنفسهم ؛ وأتيح لخلفه فى الحكم ، وهو « سامُدْرا جوبتا » أن يحكم خمسين عاماً فيجعل من نفسه ملكاً فى طليعة ملوك الهند فى تاريخها الطويل ؛ وكان مما فعله أن نقل عاصمة الحكم من « باتاليبترا » إلى « أيوذيا » – التى هى الموطن القديم لـ « راما » – ذلك الشخص الأسطورى – ثم بعث بجيوشه الفاتحة ومحصّلى ضرائبه إلى بلاد البنغال وأسام ونبال والهند الجنوبية ، وأنفق ماتدفق عليه من أموال تلك الأقطار التابعة له ، فى النهوض بالأدب والعلم والدين والفنون ؛ بل برع هو نفسه ، فيما تخلل الحروب من فترات السلم ، فى الشعر والموسيقى ؛ وجاء بعده ابنه « ڤِكْرامادِتْيا » (ومعناها شمس القوة) فوسّع من رقعة هذه الفتوحات الحربية والغزوات العقلية وأيد أديب المسرحية « كالداسا » وجمع حوله فى عاصمته « يوچين » طائفة ممتازة من الشعراء والفلاسفة والفنانين والعلماء والباحثين

(*) هو بوذا .   (المعرب)

حتى لقد بلغت الهند من التقدم فى عهد هذين الملكين ذروة لم تكن قد جاوزتها منذ بوذا ، كما بلغت فى وحدتها السياسية مبلغاً لم تبلغ مثيله إلا فى عهد « أشوكا » وعهد « أكبر » .

ونستطيع أن نتتبع الخطوط الرئيسية فى مدنية « جوپتا » من الوصف الذى قدمه « فارهين » عن زيارته للهند فى مستهل القرن الخامس الميلادى ؛ وهو أحد البوذيين الكثيرين الذين جاءوا من الصين إلى الهند إبان هذا العصر الذهبى من تاريخها ؛ بل إن هؤلاء الحجاج الدينيين كانوا على الأرجح أقل عدداً من التجار والسفراء الذين طفقوا حينئذ — رغم مايحيط بالهند من حواجز الجبال — يفــدون إليها وقد اشتملها السلام ، يفدون إليها من الشرق والغرب ، بل يفدون إليها من روما النائية ؛ وكانوا فى وفودهم إليها يجتلبون معهم عاداتهم وأفكارهم ، فسرعان ما تكون هذه الأفكار وتلك العادات الواردة من خارج حافزاً للبلاد على التغيير فى أوضاعها ؛ جاءها « فا — هين » فألفى نفسه ، بعد أن تعرضت حياته للخطر أثناء مروره فى الجزء الغربى من الصين ، آمنا فى الهند أمناً لا يأتيه الخطر من أية ناحية من نواحيه ، فجعل يتنقل فى طول البلاد وعرضها ، دون أن يصادفه من يعتدى عليه بالإيذاء أو بالسرقة(٤٥) ؛ وهو يحدثنا فى يومياته كيف استغرق فى طريقه إلى الهند ستة أعوام ، ثم عاد إلى وطنه فى الصين عن طريق سيلان وجاوه فى ثلاثة أعوام(٤٦) .

وإنه ليصف وصفاً يعبر به عن إعجابه بما كان للشعب الهندى من ثروة وازدهار وفضيلة وسعادة ، ومن حرية دينية واجتماعية ، ولقد أدهشته المدن الكبرى بكثرتها وحجمها وعدد سكانها ، كما أدهشته المستشفيات المجانية وغيرها من مؤسسات الإحسان التى امتلأت بها أرجاء البلاد(*) ؛ وعجب

(*) سبقت هــذه المستشفيات أول مستشفى شهدته أوروبا بثلاثة قرون ، وأعنى به « ميزون دييه Maison Dieu » الذى بنى فى باريس فى القرن السابع الميلادى(٤٧) .

لمجدد الطلاب الذين يختلفون إلى الجامعات والأديرة ، وللقصور الملكية الهائلة بعظمتها وفخامتها[٤٨] ؛ وإنك لتقرأ وصفه فلا تجد فيــه إلا مدينة فاضلة (يوتوپيا) ، إذا استثنيت عاداتهم فى قطع الأيدى لبعض الآثمين .

« الناس كثيرون وسعداء ، فليس ثمة ما يلزمهم بتسجيل أفراد أسرهم ، ولا يضطرهم إلى المثول بين أيدى القضاة أو الاستماع إلى ما يسنّون من قوانين ؛ ولم يكن بينهم من يدفع شيئاً سوى زراع الأرض الملكية ، فهؤلاء يدفعون جزءاً من غلة الأرض ؛ ولمن شاء أن يسافر أو يقيم حيث شاء ؛ والملك يحكمهم لا يقتل منهم أحداً ولا ينزل بأحد منهم عقاباً ، ولا يطالب المجرمون بأكثر من غرامة . . . وحتى فى الحالات التى يتهم فيها الآثم بالثورة المتكررة التى يشق بها عصا الطاعة ، لم يكن يُحكم عليه بأكثر من قطع يده اليمنى . . . واذهب حيث شئت من أرجاء البلاد جميعاً فلن تجد أحداً يقتل كائناً حياً ، أو يأكل البصل أو الثوم ، إذا استثنيت قبيلة « شاندالا » ... إنهم فى تلك البلاد لا يربون الخنازير والطيور الداجنة ولا يبيعون الماشية حيّة ، فلست ترى فى أسواقهم دكاناً لقصّاب ولا حانوتاً لبيع المسكرات »[٤٩] .

ولم يكد « فا - هين » يلحظ أن البراهمة ، الذين كانوا من المغضوب عليهم لدى أسرة موريا الحاكمة منذ عهد « أشوكا » قد أخذوا يزدادون من جديد فى ثرائهم ونفوذهم ، فى ظل التسامح الذى أبداه ملوك أسرة « جوپتا » ، فأحيوا تقاليدهم الدينية والأدبية التى كانت قائمة قبل العهد البوذى ، وأنهم كانوا يُطورون اللغة السنسكريتية بحيث تصبح هى لغة التفاهم المشتركة بين العلماء فى أنحاء الهند كلها : فقد كتبت الملحمتان الهنديتان العظميان ، « ماهابهاراتا » و « رامايانا » فى صورتهما الحاضرة[٥٠] فى ظل هؤلاء الملوك وبرعايتهم ؛ وكذلك بلغ الفن البوذى فى عهد أسرتهم ذروة مجده فى النقوش الموجودة بكهوف « أجانتا » ، وفى رأى عالم هندى معاصر أن « مجرد هذه الأسماء : « كاليداسا » و « فاراهاميهرا » و « جناڤارمان » و « ڤاشوباندو » و « أرياباتا »

و« براهما جوبتا » يكفى ليجعل عصرهم ذاك أوج الثقافة الهندية »[٥١] ويقول « هافِل » : « فى وسع المؤرخ المحايد أن يقول فى غير إجحاف إن أعظم فوز ظفرت به الإدارة البريطانية للهند هو أن تعيد لتلك البلاد كل ما كانت قد بلغته فى القرن الخامس الميلادى »[٥٢] .

لكن هذا العصر الزاهر للثقافة القومية قد اعترضته موجة من غزوات الهون التى كانوا يجتاحون بها إذ ذاك آسيا وأوروبا ، فيدمرون حضارة الهند وحضارة روما على السواء حيناً من الدهر ؛ ففى الوقت الذى كان يجتاح فيه « أتيلا » ربوع أوربا ، كان « تورامانا » يستولى على « مالْوَا » كما كان « مهيراجولا » الفظيع يُطَوِّح بملوك أسرة « جوبتا » من فوق عرشهم ؛ وهكذا لبثت الهند قرناً كاملا تتدهور إلى عبودية وفوضى ؛ وبعدئذ جاء فرع من سلالة أسرة « جوبتا » ، هو فرع « هارشا — فاردانا » ، وعاد فاستولى من جديد على الهند الشمالية ، وابتنى عاصمة له فى « كانوج » فأتاح لتلك المملكة الفسيحة سلاماً وأمناً مدى اثنين وأربعين عاماً ، ازدهرت فيها مرة أخرى فنون البلاد وآدابها ؛ وتستطيع أن تصور لنفسك عاصمتهم تلك « كانوج » من حيث اتساعها وفخامتها وازدهارها ، إذا علمت هذه الحقيقة الآتية التى تعز على التصديق ، وهى أن المسلمين حين أتوا عليها بالتخريب(*) (سنة ١٠١٨ ميلادية) دمروا عشرة آلاف معبد[٥٣] ، ولم تكن حدائقها العامة الجميلة وأحواش السباحة المجانية فيها ، إلا جزءاً ضئيلا من حسنات الأسرة الجديدة ؛ وكان « هارشا » نفسه أحد هؤلاء الملوك القلائل الذين يخلعون على الملكية مظهراً — ولو إلى حين — بحيث تبدو أفضل ألوان الحكم على اختلافها ؛ فقد كان رجلا له سحره وله جوانب كثيرة من الثقافة ، فقرض شعراً وأنشأ مسرحيات لا تزال تقرأ فى الهند حتى يومنا هذا ، على أنه لم يسمح لهذه الصغائر أن تتدخل فى إدارته الحازمة لمملكته ، وفى ذلك يقول « يوان تشوانج » : « كان لا يعرف التعب ، ويرى اليوم أقصر من أن يسدّ له مطالبه ، حتى لقد نسى النوم فى إخلاصه لأعمال الخير التى كان يقوم بإنشائها »[٥٤] ولقد بدا فى ديانته عابداً

(*) هل كان ذلك « تخريبا » أم نشراً لدين جديد ؟ (المعرب)

لـ « شيفا » لكنه تحول بعدئذ إلى العقيدة البوذية ، وأصبح شبيهاً بـ « أشوكا » فى حسناته التى صدر فيها عن تقواه ؛ فحرم أكل الحيوان ، وأقام محطات ينزل بها المسافرون فى أرجاء ملكه جميعاً ، وأنشأ ألوف الأضرحة البوذية على ضفاف الكنج .

ويروى لنا « يوان تشوانج » - وهو أشهر البوذيين من أهل الصين - وقد زار الهند ، أن « هارشا » كان يعلن كل خمسة أعوام عن حفل عظيم لأعمال البر ، كان يدعو إليه كل رجال الديانات على اختلافها ، كما يدعو إليه كل الفقراء والمعوزين فى مملكته ، وكانت عادته فى هذا الاجتماع أن يحسن على ملأ من الناس بكل الفائض عن حاجته فى خزانة الدولة منذ الاحتفال الخمسىّ الماضى ؛ ولكم دهش « يوانج » لما رأى مقداراً كبيراً من الذهب والفضة والنقود والجواهر والأثواب الدقيقة النسج والغلالات الموشاة ، مكدساً أكواماً فى ميدان مكشوف يحيط به عشرات من الأروقة يضم كل منها ألف شخص ، وكانت الأيام الثلاثة الأولى تخصص للطقوس الدينية ، ثم يبدأ توزيع الصدقات فى اليوم الرابع (لو أخذنا بما يقوله هذا الحاج وإنه من العسير تصديقه) ، وكانوا فى ذلك الحفل يطعمون عشرة آلاف من الرهبان البوذيين ، ويقدمون لكل منهم لؤلؤة وثياباً وأزهاراً وعطوراً ومائة قطعة من الذهب ، وبعدئذ يعطون البراهمة من الصدقات ما يكاد يبلغ هذا المقدار ، ثم يعطون الجانتيين صدقاتهم ، ثم يعقّبون على ذلك بسائر العقائد الدينية وبعد ذلك يحسنون على الفقراء واليتامى الذين جاءوا من كل ركن من أركان المملكة من غير رجال الدين ، وكان التوزيع أحياناً يستغرق ثلاثة شهور أو أربعة ؛ وفى ختام الحفل يخلع « هارشا » عن نفسه أرديته الثمينة ومجوهراته ليضيفها إلى الصدقات[٥] .

وتدلنا مذكرات « يوان تشوانج » على أن الروح العقلى الذى ساد ذلك العصر كان روحاً من نشوة ذهنية ؛ وهو يرسم لنا بمذكراته صورة رائعة تنم عن شهرة الهند إذ ذاك فى سائر الأقطار ؛ فهذا الصينىّ الأرستقراطى يغادر حياته المترفة الهينة فى بلده النائى « تشانجان » ليعبر الصين الغربية التى لم تبلغ من الحضارة إلا مبلغاً ضئيلا ، ويمر بطشقند وسمرقند (التى كانت مدينة زاهرة إذ ذاك) ، ثم يتسلق الهملايا ليدخل الهند ، يقيم ثلاثة أعوام يدرس دراسة المتحمس فى جامعة الدير بمدينة « نالأندا » ؛ ولما كان « يوان تشوانج » ذائع الصيت باعتباره عالماً وباعتباره إنساناً له مكانته الاجتماعية ، فقد توجه إليه أمراء الهند بالدعوات ؛ وسمع « هارشا » أن « يوان » كان لدى بلاط « كومارا » ملك أسام ؛ فدعا « كومارا » إلى زيارة « كانوج » مستصحباً « يوان » ؛ فرفض « كوماوا » دعوته قائلا إن « هارشا » يستطيع أن يفصل رأسه لكنه لا يستطيع أن يأخذ منه ضيفه ؛ فأجابه « هارشا » قائلا : « إننى لا أقلقك إلا ساعياً فى سبيل رأسك » وجاءه « كومارا » وعندئذ أعجب « هارشا » بعلم « يوان » وأدبه ، وأمر بأعيان البوذيين فعقدوا اجتماعاً أنصتوا فيه إلى « يوان » وهو يعرض عليهم لمذهب « ماهايانا » ، « وعلّق « يوان » قائمة بآرائه على باب الرواق الذى أعد للاجتماع والنقاش ، وأضاف إلى تلك الآراء حاشية على طريقة ذلك العصر ، يقول فيها : « إذا وجد أحد من الحاضرين هنا غلطة فى تسلسل آرائى ، واستطاع تفنيد قول من أقوالى ، فله أن يبتر رأسى عن جسدى » ، ودامت المناقشة ثمانية عشر يوماً ، استطاع خلالها « يوان » (هكذا يقول يوان نفسه) أن يرد كل اعتراض ، وأن يصد كل الزنادقة (وهناك رواية أخرى تقول إن معارضيه ختموا الاجتماع بإشعال النار فى الرواق[٥٦]) ؛ وبعد مغامرات كثيرة التمس « يوان » طريقه عائداً إلى بلده « تشانجان » حيث عمل امبراطورها المستنير على صيانة الآثار البوذية فى معبد فاخر ، تلك الآثار البوذية التى أحضرها معه هذا الرحالة الورع ؛

الذى يشبه « ماركوپولو» فى رحلاته ؛ ثم عين له طائفة من العلماء يعاونونه على ترجمة المخطوطات التى اشتراها من الهند[٥٧] .

ومع ذلك كله ، فقد كان هذا المجد الذى ازدهر به حكم « هارشا » مصطنعاً زائلا ، لأنه كان يعتمد على ملك واحد بما له من قدرة وسخاء ، والملك يموت كما يموت البشر ؛ فلما مات ، اغتصب عرشه مغتصب وأبدى من الملكية وجهها الأقتم ، وجاءت فى إثره الفوضى ، ثم دامت ما يقرب من ألف عام عانت الهند خلالها عصورها الوسطى – كما حدث لأوروبا – واجتاحها البرابرة ، كما غزاها الغزاة ومزقوها وخربوها ، فما عرفت للسلم والاتحاد طعماً إلا حين أدركها « أكبر » العظيم .

الفصل الرابع

أبناء راچپوتانا

سامورای الهند – عصر الفروسية – سقوط شيتور

كانت ملحمة راچپوتانا بمثابة السراج الذى أضاء « العصر المظلم » أمداً قصيراً ؛ فنى ذاك العهد قام فى دويلات « موار » و « ماروار » و « عنبر » و « بيكانر » وكثير غيرها مما يرنّ بأسماء كهذه رنين النغمات ، قام فى هذه الدويلات شعب خليط ، هو نتيجة تزاوج الوطنيين بالسِّكِّيت والهون الغزاة ، وأقام مدينة إقطاعية تحت سلطان طائفة من الأمراء المقاتلين الذين جعلوا همهم فن الحياة أكثر مما جعلوه حياة الفن ، وقد بدأوا بالاعتراف بسلطة الأسرتين الحاكمتين « موريا » و « جوپتا » ، ثم انتهوا بعدئذ إلى الدفاع عن استقلالهم ، ثم الدفاع عن الهند بأسرها فى وجه الجموع المحتشدة من المسلمين الذين جاءوها زاحفين ؛ وكانت قبائل هؤلاء الأمراء تتميز بشهامة عسكرية وشجاعة لا نعهدهما عادة فى أهل الهند(*) ؛ فلو جاز لنا أن نأخذ بما يقوله عنهم مؤرخهم « تود » المعجب بهم ، فكل رجل من رجالهم كان « كشاترياً » جريئاً (الكشاترية هى طبقة المقاتلين) وكل امرأة من نسائهم كانت بطلة مقدامة ؛ بل إن اسم هذه القبائل ، وهو (اهل راچپوت) معناه « أبناء الملوك » ، فإن رأيتهم أحياناً يطلقون على بلادهم اسم « راچستان » فما ذاك إلا ليصفوها بأنها « مقر العصر الملكى » .

ولو نظرت إلى أنباء هذه الدويلات الباسلة لرأيت فيها كل ما جرينا على نسبته إلى « عصر الفروسية » من صفات الشجاعة والولاء والجمال والخصومات

(*) لكن راجع ما يقوله « أريان » عن الهند القديمة ، إذ يقول : « إن الهنود فى الحروب كانوا أشجع بكثير من سائر الأجناس التى كانت تسكن آسيا فى ذاك الوقت »(٥٨) .

وقتل بعضهم بالسم والاغتيال والحروب وخضوع المرأة وما إلى ذلك كله من عبث القول وتفخيم الوصف ؛ فيقول « تود » : « إن رؤساء راچپوت يتحلون بكل الفضائل التى عُرف بها الرجل من فرسان الغرب ، ثم هم يفوقونه بكثير فى قدراتهم العقلية(٥٩) » وكان لهم نساء جميلات لم يترددوا فى الموت من أجلهن ، وكانت المجاملة وحدها تحمل هؤلاء النساء على أن يصحبن أزواجهن إلى القبر مصطنعات طقوس قومهم فى هذا الشأن ؛ ومن هؤلاء النسوة فريق كان له حظ من التربية والتهذيب ، كما كان بين الراجات شعراء وعلماء ، حتى لقد شاع بينهم حينا من الدهر ضرب رقيق من ضروب التصوير بألوان الماء على النمط الفارسىّ الوسيط ، ولبثوا قروناً أربعة يزدادون فى ثرائهم حتى بلغوا منه حداً استطاعوا معه أن ينفقوا عشرين مليوناً من الريالات على تتويج ملك الموارين(٦٠) .

وكان موضع فخرهم هو نفسه مأساتهم ، وذلك أنهم كانوا يمارسون القتال على أنه أعلى ما تسمو إليه الفنون ، لأنه الفن الوحيد الذى يليق بالسيد من أهل راچپوت ولقد مكنتهم هذه الروح الحربية من الصمود للمسلمين فى بسالة يسجلها التاريخ(*) ، لكن هذه الروح الحربية نفسها جعلت دويلاتهم الصغيرة على حال من الانقسام والضعف الناشىء من مقاتلة بعضهم بعضاً ، بحيث لم تعد شجاعتهم كلها قادرة على صيانة كيانهم فى نهاية الأمر ؛ وتقرأ ما يقوله « تود » فى وصف سقوط شيتور — وهى إحدى عواصم الراچپوت — فتقرأ وصفاً لا يقل فى خياله الشعرى عن أية أسطورة من أساطير « أرثر » أو « شرلمان » . ولما كان هذا الوصف مستمداً من مصدر واحد ، وهو ما قاله المؤرخون الوطنيون الذين دفعهم إخلاصهم لوطنهم أن يحيدوا عن الصدق

(*) يقول الكونت كيسلرنج عن شيتور : « لن تجد على ظهر الأرض مكاناً شهد ما شهده هذا البلد من بطولة وفروسية وشهامة فى مواجهة الموت »(٦١) .

فيما رووا ، فلا شك أن هذه الأنباء العجيبة ، « أنباء راجيبتان » ، يجوز أن تكون ذات نزعة أسطورية تقرّبها من « موت أرثر »(*) أو « أنشودة رولان » وفى رواية هؤلاء المؤرخين أن الفاتح المسلم علاء الدين لم يطلب شيتور لذاتها ، بل سعياً للحصول على الأميرة « پودميني »(**) — « وهذا لقب تلقب به من كانت فاتنة بجمالها فتنة ليس بعدها مزيد » — وقد عرض الرئيس المسلم أن يرفع الحصار عن شيتور إذا قبل القائم بالحكم فيها نيابة عن الملك أن يسلم له الأميرة ، فلما رفض طلبه هذا ، عاد علاء الدين فعرض أن ينسحب إذا أتيح له أن يرى « پودميني » ، وأخيراً وافق على الرحيل إذا مكّن له من رؤية « پودميني » فى مرآة ، لكنهم أبوا عليه حتى هذا ، وبدل أن يجيبوا له رجاءه تضافرت نساء شيتور وانضممن إلى صفوف الدفاع عن مدينتهن ، فلما رأى أهل راجپوت زوجاتهم وبناتهم يمتن إلى جوارهم ، لبثوا يقاتلون حتى فنى آخر رجل من رجالهم ، حتى إذا ما دخل علاء الدين المدينة ، لم يجد داخل أبوابها أثراً واحداً من آثار الحياة البشرية ، فقد مات رجالها جميعاً فى ميدان القتال ، وأحرق زوجاتهم أنفسهن مصطنعات تلك الطقوس المخيفة التى كانت تعرف عندهم باسم « جوهور »(٦٢) .

(*) هاتان قصيدتان مشهورتان من نتاج العصور الوسطى فى أوروبا . (المعرب)

(**) هذه القصة لم ترد إلا فى المصادر الهندية ، وإنه لمن الخطأ الادعاء أن مثل هذا الباعث المنحرف كان من دوافع فتح بعض أقاليم الهند . (الإدارة الثقافية)

الفصل الخامس

الجنوب فى أوجه

ممالك الدكن – ڤيجايا ماجار – كرشنا رايا – مدينة
عظمى فى العصر الوسيط – القوانين – الفنون –
الدين – مأساة

كلما تقدم المسلمون فى الهند تراجعت الحضارة الهندية نحو الجنوب خطوة بعد خطوة ، حتى إذا ما دنت هذه العصور الوسطى من ختامها ، كانت الدكن قد باتت بين أرجاء الهند تنتج أسمى ما تنتجه الحضارة الهندية ؛ وكانت قبيلة « شاليوكا » قد استطاعت أن تكوّن نفسها مملكة مستقلة لبثت قائمة حيناً من الدهر ، تمتد عَبْرَ الهند الوسطى ، وكان لها من القوة والمجد فى عهد « پولاكشين الثانى » ما تمكنت به من أن تهزم « هارشا » وأن تجذب إليها « يوان تشوانج » وأن تظفر من « خسرو الثانى » ملك الفرس بسفارة محترمة ؛ وكذلك تمّت فى عهد « پولاكشين » وفى أرض مملكته أعظم التصاوير الهندية ، وأعنى بها نقوش أچانتا ؛ ثم أسقط « پولاكشين » عن عرشه ملكُ الفلاوين الذى لبث حيناً قصيراً أعظم قوة فى الهند الوسطى ؛ وأما فى أقصى الجنوب فقد أقام « الباندوايون » ملكاً فى عهد مبكر يقع فى القرن الأول الميلادى ، ويشتمل على «مدراس» و«تينڤلي» وبعض أجزاء «تراڤانكور» ؛ وقد جعلوا من « مادورا » بلداً من أجمل بلدان الهند فى العصر الوسيط وزينوها بمعبد شامخ وبمئات من الآثار المعمارية الفنية الصغرى ؛ ودار الزمن دورته فإذا هم كذلك يُثَلّ عروشهم على أيدى « الكوليين » أولا ثم على أيدى المسلمين بعد ذلك ؛ فأما « الكوليون » فقد بسطوا سلطانهم على الجزء الواقع بين « مادورا » و « مدراس » ومن ثم مدوا أرجاءه تجاه الغرب إلى « ميسور » ؛ ويمتد تاريخهم

إلى عهد بعيد فى القِدَم ، إذ ترى اسمهم مذكوراً فى مراسيم « أشوكا » لكننا لا ندرى عنهم شيئاً حتى القرن التاسع حين بدءوا شوطاً طويلا تملؤه الغزوات التى جاءتهم بأموال الجزية من الهند الجنوبية كلها بما فى ذلك جزيرة سيلان ؛ ثم اضمحل سلطانهم وانطووا تحت حكم أعظم الدويلات الجنوبية ، وهى دولة « ڤيجاياناجار »(*) .

إن « ڤيجاياناجار » — وهو اسم يطلق على مملكة وعلى عاصمتها معاً — مثَلٌ حزين يساق للمجد الذى يعفى عليه النسيان : وقد كانت فى أيام عزها تشتمل على الدويلات التى يحكمها الأهلون اليوم فى جنوبى شبه الجزيرة ، كما تشتمل على ميسور وعلى اتحاد مدراس بكل أجزائه ؛ وحسبك إذا أردت أن تتصور ما كان لها من سلطان وثراء ، أن تتذكر أن ملكها « كرشنارايا » زحف إلى موقعة تاليكوتا بجيش قوامه ٧٠٣,٠٠٠ من المشاة و ٣٢,٦٠٠ من الفرسان ، و ٥٥١ فيلا يصحبهم ما يقرب من مائة ألف من التجار والبغايا وغير هؤلاء وأولئك ممن كانوا يصحبون معسكرات الجند فى ذلك العصر إذا ما زحف الجيش فى غزواته[٦٣] وقد حدَّ من أوتقراطية الملك قدْرٌ من الاستقلال الذاتى تمتعت به القرى ، كما حدَّ منها كذلك ملوك كانوا يظهرون آناً بعد آن ، يتميزون من سواهم بعقولهم المستنيرة وقلوبهم الرحيمة .

ولك أن تقارن « كرشنارايا » الذى حكم « ڤيجاياناجار » بمعاصره هنرى

(*) فى هذه المجموعة المتباينة من الممالك التى نكاد ننسى ذكرها اليوم ، ترى تراثاً من الخلق الأدبى والفنى ، ومن الخلق المعمارى بصفة خاصة ؛ فقد كان لها مواسم فنية وقصور فاخرة وملوك أقوياء ؛ لكننا إزاء الهند برقعتها الفسيحة وبتاريخها الطويل ، لا يسعنا فى هذه الفقرة المردحمة بذكر الحوادث ، إلا أن نمر برجال كانوا يظنون فى عهودهم أنهم سادة الأرض كلها ، لا يسعنا إلا أن نمر برجال كهؤلاء دون أن نذكر أسماءهم ؛ خذ لذلك مثلا « فكرامادتيا » الذى حكم الشاليوكيين مدى نصف قرن (١٠٧٦ — ١١٢٦) فقد بلغ من التوفيق فى حروبه حداً جعله يفكر (مثل نيتشه) فى أن يضع للعالم تاريخاً زمنياً جديداً يقسم التاريخ كله إلى ما قبل حكمه وما بعد حكمه ؛ ومثل هذا الرجل قد أصبح اليوم حاشية تذكر فى هامش الكتاب .

الثامن مقارنة ستكشف لك عن تفوقه على هنرى الثامن الذى ما فتىء محباً للنساء لأنك سترى فيه ملكاً أنفق حياته فى العدل والرحمة ، وبسط كفه بالإحسان الغزير ، وتسامح إزاء الديانات الهندية ، وكان له شغف بالآداب والفنون فأيدها ، وكان كريماً مع من سقط فى يديه من أعدائه فعفا عنهم ولم يمس مدنهم بسوء ، وانصرف بجهده كله حتى الإفراط ، إلى شئون الحكم ، ولقد كتب مبشّر برتغالى — هو دومنجوزپيز سنة ١٥٢٢ — فوصفه بقوله :

« إنه بلغ أقصى ما يمكن للملك أن يبلغه من الهيبة والكمال وهو ذو مزاج مهيج وشديد المرح ، ومن صفاته أنه لا يألو جهداً فى تكريم الأجانب وفى الحفاوة بهم ... إنه حاكم عظيم ورجل يغلب على أخلاقه العدل ، ولكنه يثور بالغضب فجأة حيناً بعد حين . . . وهو بحكم منزلته من أسمى منزلة من سائر الحاكمين ، لما له من جيوش وسعة سلطان ، لكنه فيما يبدو لم يكن فى واقع الأمر يحظى بما كان ينبغى لرجل فى مثل مكانته أن يحظى به ؛ فهو من الشهامة والكمال فى كل شىء بمكان »(٦٤)(*) .

وربما كانت العاصمة التى تأسست سنة ١٣٣٦ أغنى مدينة عرفتها الهند حتى ذلك الزمان ؛ زارها « نيكولوكونتى » حول سنة ١٤٢٠ فقدر محيطها بستين ميلا ، ووصفها « پيز » فقال إنها « فى اتساع روما وتراها العين فترى جمالا خلاباً » ثم أضاف إلى ذلك قوله : « إن بها أحراشاً كثيرة من الشجر وقنوات مائية عدة » ذلك لأن مهندسيها قد أقاموا سداً ضخماً على نهر تنجابادرا وأنشأوا بذلك خزاناً ينتقل الماء منه إلى المدينة بقناة طولها خمسة عشر ميلا ، وقد كان الخزان منحوتاً فى صخر أصم مدى عدة أميال ؛ وقال « عبد الرزاق » الذى شهد المدينة سنة ١٤٤٣ إن فيها « ما لم تر مثيله فى أى جزء من أجزاء العالم عين ولا سمعت بمثيله أذن » واعتبرها « پيز » « أوفر بلاد الدنيا مؤونة .. ففيها من كل شىء وفرة » ويروى لنا أن عدد دورها قد أربى على مائة ألف ،

(*) كان بين هذه المقتنيات المتواضعة اثنتا عشرة ألف زوجة(٦٥) .

يسكنها نصف مليون من البشر ؛ وتراه يدهش لقصر من قصورها كانت فيه غرفة بقيت كلها من العاج ؛ « إنها من الثراء والجمال بحيث يكاد يستحيل أن تجد لها ضريباً في أي مكان آخر »(٦٦) .

ولما تزوج « فيروزشاه » سلطان دلهي من ابنة ملك « فيجاياناجار » في عاصمة هذا الأخير ، فرشت الطرقات لمسافة ستة أميال بالمخمل والحرير ورقائق الذهب وغير ذلك من المواد النفيسة(٦٧) ، لكن أذكر مع ذلك أن كل رحّالة كذاب .

وإذا ما نفذْتَ ببصر وراء هذا الستار من الغنى ، وجدت شعباً من عبيد وفَعَلَة يعيشون في مسغبة وخرافة ، ويخضعون لتشريع اصطنع القسوة الوحشية ليصون بين الناس ضرباً منشوداً من ضروب الأخلاق التجارية ، فكان العقاب يتراوح بين قطع الأيدي أو الأقدام وقذف المذنب إلى الفيلة وجذ رأسه ووضعه حياً على قضيب مدبب ينفذ خلال معدته ، أو تعليقه على مشبك من أسفل ذقنه وتركه هكذا حتى يموت(٦٨) ، وهذه العقوبة الأخيرة كانت تنزل بالمغتصب أو بالسارق الذي يمعن في سرقته ؛ وكان البغاء مسموحاً به ، تنظمه القوانين بحيث تجعل منه مورداً من موارد العرش ، ويقول « عبد الرزاق » إنه رأى « أمام دار السكة ديوان عميد المدينة الذي قيل عنه إنه يهيمن على اثنى عشر ألفاً من رجال الشرطة ، الذين تدفع لهم رواتبهم . . . مما يجيء من مواخير البغاء ، وإنه لما يعز على الوصف تصوير فخامة هذه الدور وجمال آهلاتها من الفاتنات بالقلوب ، وما لهن من فتنة الحديث وحلاوة الغزل(٦٩) » ، وقد كان للمرأة عندهم منزلة دنيا ، وكان عليها أن تقتل نفسها عند وفاة زوجها ؛ فكانوا يتركونها أحياناً تلقى بنفسها حية في القبر(٧٠) .

وازدهر الأدب في عصر « ملوك الرايا » — أي ملوك فيجاياناجار —

ازدهر مكتوباً بالسنسكريتية القديمة وبلهجة « تلوجو » التي ينطق بها أهل الجنوب ؛ وكان « كرشنارايا » نفسه شاعراً كما كان راعياً سيخياً للآداب ، وإنهم ليضعون أمير شعرائه « آلاساني پدانا » في الرعيل الأول من شعراء الهند كلها ؛ وكذلك ازدهر التصوير وفن العمارة ، فشيدت المعابد الضخمة ، وزينت في كل جزء من أجزائها تقريباً بالتماثيل والنقوش البارزة ؛ وكانت البوذية قد فقدت سلطانها على الناس ، وحل محلها ضرب من البراهمة التي تقدس « فشنو » قبل تقديسها لغيره من الآلهة ، وكانت البقرة عندهم مقدسة فلا تمتد إليها أيديهم بالذبح ، ولهم أن يقدموا قرابين من ضروب الماشية الأخرى ومن الطيور الداجنة ، كما كان لهم أن يأكلوا لحوم هذه الصنوف ، وبالجملة كان الدين قاسي الأحكام على حين كانت أخلاق التعامل بين الناس على شيء من التهذيب .

لكن هذا السلطان كله وهذا الترف قد انمحى بين عشية وضحاها ، وأخذ المسلمون الغزاة يشقون طريقهم رويداً رويداً صوب الجنوب ، وتحالف سلاطين « بيجاپور » و « أحمد ناجار » و « جولكوندا » و « بدار » فركزوا قواهم جميعاً ليخضعوا هذا المعقل الأخير الذي تحصن فيه ملوك الهند الوطنيون ، والتقت جيوشهم المتحالفة بجيش « رامارجا » الذي يبلغ عدده نصف المليون في موقعة « تاليكوتا » وكان الغلب للمغيرين بسبب كثرة عددهم ، ووقع « رامارجا » في الأسر وقطع رأسه من مرأى من أتباعه ، فدب الرعب في أنفس هؤلاء الأتباع ولاذوا بالفرار ، ولكن عدداً يقرب من مائة ألف منهم قتل في طريق الفرار حتى اصطبغت بدمائهم مجاري الماء ؛ وراح الجنود الفاتحون ينهبون العاصمة الغنية ، وكانت الغنائم من الكثرة بحيث « أصبح كل جندي بسيط من جنود الجيوش المتحالفة غنياً بما ظفر به من ذهب ومجوهرات ومتاع وخيام وسلاح وجياد ورقيق[٧١] » ودام النهب خمسة أشهر ، جعل الظافرون خلالها يفتكون بمن لا حول لهم من الأهالي في وحشية لا تفرق بين إنسان وإنسان ، وراحوا يفرغون المخازن والدكاكين ، ويقوضون المعابد

والقصور ، وبذلوا ما استطاعوا من جهد لإتلاف كل ما تحويه المدينة من تماثيل وتصاوير ؛ وبعدئذ جاسوا خلال الشوارع يحملون المشاعل الموقدة فيشعلون النار فى كل ما يصلح وقوداً للنار ، حتى إذا ما غادروا المدينة آخر الأمر ، كانت « ڤيجاياناجار » قد باتت خراباً بلقعاً كأنما زلازل زلزالها فما أبقى منها حجراً على حجر ؛ وهكذا كان الدمار فظيعاً لم يُبْق على شىء ، يصوّر أدق تصوير غزو المسلمين للهند ، ذلك الغزو الشنيع الذى كان قد بدأ قبل ذلك بألف عام ، وبلغ حينئذ ختام مراحله(*) .

(*) هذه صورة رسمها بالطبع كاتب لا ينظر إلى الموقف نظرة من يحسب حسابا لديانة جديدة تنشر ، فما هو فى رأيه فظاعة وبشاعة قد يكون فى حقيقته أشعة ضوء جديد ينفذ خلال الظلام فيقشعه . (المعرب)

الفصل السادس

الفتح الإسلامي (*)

إضعاف الهند – محمود الغزنوي – سلطنة دلهي –
انحرافاتها الثقافية ، سياستها الوحشية – عبرة التاريخ الهندي

لعل الفتح الإسلامي للهند أن يكون أكثر قصص التاريخ تلطخاً بالدماء (**)، وإن حكاية الفتح لما يبعث اليأس في النفوس لأن مغزاها الواضح هو أن المدنيّة مضطربة الخطى ، وأن مُركّبها الرقيق الذي قوامه النظام والحرية ، والثقافة والسلام ، قد يتحطم في لحظة على أيدي جماعة من الهمج تأتي من الخارج غازية(†) ؛ أو تتكاثر في الداخل متوالدة ، فهؤلاء هم الهندوسيون قد تركوا أنفسهم للانقسام والقتال الداخليين يفتّان في عضدهم ، واتخذوا لأنفسهم البوذية والجانتية ديناً ، فأخمد مثل هذا الدين جذوة الحياة في قلوبهم بحيث عجزوا عن الصمود لمشاقّها ؛ ولم يستطيعوا تنظيم قواهم لحماية حدودهم وعواصمهم وثروتهم وحريتهم من طوائف السّكّيت والهون والأفغان والأتراك الذين ما فتئوا يجوبون حول حدود البلاد يرقبون ضعف أهلها لينفذوا إلى جوفها ، فكأنما لبثت الهند أربعة قرون (من ٦٠٠ إلى ١٠٠٠ ميلادية) تغري الفاتحين بفتحها ، حتى جاءهم هذا الفتح حقيقة واقعة آخر الأمر .

وكانت أول هجمة للمسلمين إغارة عابرة منهم على « ملطان » التي تقع في الجزء الغربي من البنجاب (سنة ٦٦٤ م) ثم وقعت من المسلمين إغارات أخرى شبيهة بهذه كان فيها النجاح حليفهم مدى الثلاثة القرون التالية ، حتى انتهى بهم الأمر إلى توطيد سلطانهم في وادي نهر السند في نحو الوقت الذي

(*) في هذا الفصل تحامل ظاهر على الفتح الإسلامي للهند ، لكننا مضطرون إلى تركه كما هو ليتناوله المؤرخون بالرد ، وليقرأه القارئون قراءة النقد لا قراءة التسليم . (المعرب)

(**) إن المنهج العلمي الأمين يرفض مثل هذه الإطلاقات ، ويرفض استعمال أفعل التفضيل بهذه البساطة ، وإلقاء القول على عواهنه دون بينة حاسمة أكيدة . . . وليس من المنتظر أن يكون هناك حرب دون دماء ، وقد شهد التاريخ في أزمنة وأمكنة متعددة ، حتى في العصر الحديث سفك دماء أكثر مما سفك في الفتح الإسلامي للهند . . .

(†) إن حقائق التاريخ تعرف أن المسلمين حين فتحوا الهند لم يكونوا « جماعة من الهمج » ولو كانوا كذلك لما تركوا آثارهم الواضحة على حضارة الهند ، مما أوضحه كبار مثقفي الهنود من غير المسلمين مثل الزعيم نهرو في كتاباته التاريخية . (الإدارة الثقافية)

كان زملاؤهم فى الذين يقاتلون فى الغرب موقعة « تور » (٧٣٢ م) ليخلصوا منها إلى فرض سيادتهم على أوربا ، على أن الفتح الإسلامى الحقيق للهند لم يقع إلا بعد نهاية الأعوام الألف الأولى من التاريخ الميلادى .

فنى سنة ٩٩٧ تولى شيخ من شيوخ الأتراك يسمى محمود سلطنة دولة صغيرة ؛ تقع فى الجزء الشرقى من أفغانستان ، وهى دولة غزنة ؛ وأدرك محمود أن ملكه ناشىء وفقير ، ورأى الهند عبْرَ الحدود بلداً قديماً غنياً ، ونتيجة هاتين المقدمتين واضحة ؛ فزعم لنفسه حماسة دينية تدفعه إلى تحطيم الوثنية الهندوسية ، واجتاح الحدود بقوة من رجاله تشتعل حماسة بالتقوى التى تطمع فى الغنيمة ، والتقى بالهندوسيين آخذاً إياهم على غرة فى « بِهِمْناجار » فقتلهم ونهب مدائنهم وحطم معابدهم وحمل معهم كنوزاً تراكمت هناك على مر القرون ؛ حتى إذا ما عاد إلى غزنة ، أدهش سفراء الدول الأجنبية بما أطلعهم عليه من الجواهر واللآلىء غير المثقوبة والياقوت الذى يتلألأ كأنه الشرر ، أو كأنه النبيذ جمده الثلج ، والزمرد الذى أشبه غصون الريحان اليانعة ، والماس الذى ماثل حب الرمان حجماً ووزناً[٧٢] . وكان محمود كلما أقبل شتاء هبط على الهند وملأ خزائنه بالغنائم ، وأمتع رجاله بما أطلق لهم من حرية النهب والقتل ، حتى إذا ما جاء الربيع عاد إلى عاصمة بلاده أغنى مما كان ؛ وفى « ماثوره » (على جُمْنه) أخذ من المعبد تماثيله الذهبية التى كانت تزدان بالأحجار الكريمة وأفرغ خزائنه من مكنونها الذى كان يتألف من مقادير كبيرة من الذهب والفضة والجوهر ؛ وأعجبه فن العمارة فى ذلك الضريح العظيم ، ثم قدر أن بناء مثله يكلف مائة مليون دينار وعملا متصلا مدى قرنين ، فأمر به أن يغمس فى النفط ، وأن يترك طعاماً للنار حتى أتت عليه[٧٣] ، وبعد ذلك بستة أعوام أغار على مدينة غنية أخرى تقع فى شمال الهند ، وهى مدينة « سمنة » فقتل سكانها جميعاً وعددهم خمسون ألف نسمة ، وحمل كنوزها إلى غزنة ؛ ولعله فى نهاية أمره قد أصبح أغنى ملك عرفه التاريخ ؛ وكان أحياناً يبقى على سكان المدن المنهوبة ليأخذهم معه إلى وطنه فيبيعهم هناك رقيقاً ، لكن هؤلاء

الأسرى بلغوا من الكثرة حداً أدى بهم إلى البوار بعد بضعة أعوام ، بحيث يتعذر أن تجد من يدفع أكثر من شلنات قليلة ثمناً للعبد من هؤلاء ، وكان محمود كلما هم بعمل حربى هام ، جثا على ركبتيه مصلياً يدعو الله أن يبارك له فى جيشه ، وظل يحكم ثلث قرن : فلما جاءته منيته ، كان قد أثقلته السنون ودواعى الفخار ، فوصفه المؤرخون المسلمون بأنه أعظم ملوك عصره ، ومن أعظم الملوك فى كل العصور(٧٤) .

فلما رأى سائر الحكام المسلمين ما خلعه التوفيق من جلال على هذا اللص(*) العظيم ، حذوا حذوه ، ولم يستطع أحد منهم أن يبزه فى خطته ، ففى عام ١١٨٦ قامت قبيلة تركية من الأفغانستان ، وهى قبيلة الغوريين ، بغزو الهند والاستيلاء على دلهى ، وخربوا معابدها وصادروا أموالها ونزلوا بقصورها ليؤسسوا لأنفسهم بذلك سلطنة دلهى — وهى سلطنة استبدادية وفدت إلى البلاد من خارج ، وجثمت على شمال الهند ثلاثة قرون ، لم يخفف من عبثها إلا حوادث الاغتيال والثورة ؛ وكان أول هؤلاء السلاطين الأشرار هو « قطب الدين أيبك » الذى يعد نموذجاً سوياً لنوعه ـ فهو متهوس فى عصبية غليظ القلب لا يعرف الرحمة ؛ ويروى لنا عنه المؤرخ المسلم فيقول إن عطاياه « كانت توهب بمئات الألوف ، وقتلاه كانوا كذلك يعدون بمئات الألوف » ففى قصر واحد ظفر به هذا المحارب (الذى كان قد بيع عبداً) « وضع فى أغلال الرق خمسين ألف رجل واسودت بطاح الأرض بالهنود »(٧٥) ؛ وكان « بلبان » — وهو سلطان آخر — يعاقب الثائرين وقطاع الطرق برميهم تحت أقدام الفيلة ، أو ينزع عنهم جلودهم ، ثم يحشو هذه الجلود بالقش ويعلقها على أبواب دلهى ؛ ولما حاول بعض السكان المغوليين الذين كانوا قد استوطنوا دلهى واعتنقوا الإسلام ، أن يقوموا بثورة ، أمر السلطان علاء الدين (فاتح شيتور) بالذكور جميعاً — ويقع عددهم بين خمسة عشر ألفاً وثلاثين ألفاً

(*) إن شريعة الحرب تجيز إضعاف العدو مادياً ومعنوياً بكل سبيل ، وليس من الإنصاف تلوين الفتح الإسلامى للهند بأنه كان سلباً ونهباً مثلما ورد فى هذا الموضع ، إن وصف السلطان الغزنوى بهذا الوصف هو غبن لهذا الفاتح العظيم . (الإدارة الثقافية)

— فقتلوا فى يوم واحد ؛ وجاء السلطان محمود بن طغلق فقتل أباه وتولى العرش من بعده ، وقد أصبح فى عداد العلماء الأعلام والأدباء أصحاب الأسلوب الرشيق ، فدرس الرياضة والطبيعة والفلسفة اليونانية ، ولكنه مع ذلك بز أسلافه فى سفك الدماء وارتكاب الفظائع ، من ذلك أنه جعل من ابن أخ له ثار عليه طعاماً أرغم زوجة القتيل وأبناءه على أكله ؛ وأحدث فى البلاد تضخماً مالياً باستهتاره فجلب الدمار إلى البلاد ، وتركها خراباً بما أجراه فيها من نهب وقتل ، حتى لقد لاذ سكانها بالفرار إلى الغابات ، ولقد أوغل فى قتل الهنود حتى قال عنه مؤرخ مسلم : « إن أمام رواقه الملكى وأمام محكمته المدنية لم يَخْلُ المكان قط من أكداس الجثث ، حتى لقد مل الكناسون والجلادون ، وأتعبهم جَرّ الأجساد — أجساد الضحايا — لأعمال القتل فيهم زرافات »[٧٦] ؛ ولما أراد أن ينشىء عاصمة جديدة فى « دولة أباد » أخرج سكان دلهى من بلدهم لم يُبْقِ منهم أحداً ، وخلف المدينة قفراً يباباً ، وسمع أن رجلا أعمى قد ظل مقيما فى دلهى ، فأمر به أن يُجَرّ على الأرض من العاصمة القديمة إلى العاصمة الجديدة ، ولما بلغوا بالمسكين آخر رحلته لم يكن قد بقى من جسده إلا ساق واحدة[٧٧] وشكا السلطان من نفور الشعب منه وعدم اعترافهم بعدله الذى لم ينحرف عن جادة السبيل .

وظل يحكم الهند ربع قرن ثم وافته منيته وهو فى فراشه ، وتبعه « فيروز شاه » فغزا البنغال ، ووعد أن يكافئ كل من جاءه برأس هندى ، حتى لقد دفع فى ذلك مكافآت عن مائة وثمانين ألفاً من الرءوس ، وأغار على القرى الهندية طلباً للرقيق ، ومات وهو شيخ معمر ، بلغ من العمر ثمانين عاماً ، وجاء السلطان أحمد شاه ، فكان يقيم الحفلات ثلاثة أيام متوالية كلما بلغ القتلى فى حدود ملكه من الهنود العُزّل عشرين ألفاً فى يوم واحد[٧٨] .

وكثيراً ما كان هؤلاء الحكام رجالا ذوى قدرة ، كما كان أتباعهم يمتازون بسالة جريئة ونشاطاً ، وبغير هذا الفرض فيهم لا نستطيع أن نفهم كيف أتيح

لهم أن يصونوا ملكهم وسط شعب مُعَاد لهم ويفوقهم عدداً بنسبة كبيرة ، وكانوا جميعاً مسلحين بعقيدة حربية النزعة لكنها أسمى بكثير فى توحيدها الجاد من كل المذاهب الدينية الشائعة إذ ذاك فى الهند ؛ ولقد عملوا على طمس ما لعقيدتهم تلك من ظاهر جذاب ، بأن أرغموا الهنود على عدم القيام بشعائر دينهم علناً ، وبهذا مهدوا للهنود طريق الانغماس فى صميم الروح الهندية إلى أعماقها ؛ وكان لبعض هؤلاء الحكام المستبدين العطشى للطغيان ثقافة إلى جانب ما كان لهم من قدرة ، فرَعَوا الفنون وهيئوا سبل العيش لرجال الفن والصناعة — وهؤلاء عادة من أصل هندى — بأن استخدموهم فى بناء المساجد والأضرحة الفخمة ؛ وكذلك كان بعضهم علماء يمتعهم أن يحاوروا المؤرخين والشعراء ورجال العلوم ، ولقد صحب محموداً الغزنوى إلى الهند عالم من أعظم علماء آسيا وهو البيرونى ، وهناك كتب استعراضاً علمياً عن الهند قريب الشبه بكتاب « التاريخ الطبيعى » لمؤلفه (پلِنْى) . وكتاب « الكون » « الهمبولت » وكان للمسلمين مؤرخون يكادون يبلغون عدد ما كان لهم من قادة الجيش ، ولم يقلوا عنهم فى حبهم لسفك الدماء والحرب ؛ وأما السلاطين فقد ابتزوا من الشعب كل ما فى مستطاع الناس أن يدفعوه من مال على سبيل الجزية ، واصطنعوا فى ذلك الوسائل العتيقة فى فرض الضرائب ، كما لجأوا أيضاً إلى السرقة الصريحة ، لكنهم كانوا يقيمون فى الهند وينفقون غنائمهم تلك فى الهند ، فأعادوا إلى الحياة الاقتصادية فى الهند ما استلبوه منها ؛ ومهما يكن من أمر فقد كانت وسائلهم الإرهابية واستغلالهم للناس مما زاد من إضعاف البنية الهندية وإضعاف الروح المعنوية بين الهنود ، وهو إضعاف عمل عليه قبل ذلك مناخ البلاد المنهك للقوى وقلة ما يأكلونه من طعام ، وتمزق البلاد من الوجهة السياسية والنظرة المتشائمة التى توحى بها دياناتهم .

وقد رسم علاء الدين تخطيطاً واضحاً للسياسة التى جرى عليها السلاطين فى

معظم الأحيان . وذلك أنه طلب إلى مستشاريه أن يسنوا « قواعد وقوانين يكون من شأنها أن تسحق الهنود سحقاً ، وأن تسلبهم تلك الثروة وهاتيك الكنوز التي كانت تولد في نفوسهم البغضاء والثورة »(٨٠) ؛ فكانت الحكومة تستولى على نصف مجموع المحصول الزراعى ، بعد أن كان الحكام الوطنيون قبل ذلك يستولون من ذلك المحصول على سدسه فقط ؛ يقول مؤرخ مسلم : « لم يستطع هندى أن يرفع رأسه ، ولم تكن لترى فى دورهم أثراً لذهب أو لفضة ... بل لم تكن لترى هناك شيئاً مما يزيد عن ضرورات الحياة ... وكانوا يجبرون على دفع الضريبة باللطمات وتقييد الأقدام والشد بالأغلال والزج فى السجن » ، وكان علاء الدين إذا ما احتج أحد مستشاريه على سياسته هذه أجابه بقوله : « أيها الفقيه ، إنك متبحر فى العلم لكنك خلو من الخبرة ، أما أنا فلا علم عندى لكنى رجل محنك ؛ فكن على يقين أن الهنود لن يذلوا أو يطيعوا حتى تنزل بهم الفقر ، ولهذا أصدرت أمرى بألا يترك فى أيديهم إلا الضرورى لحفظ الحياة مما يجمعونه عاماً بعد عام من محصول الغلال واللبن والجبن ، وألا يسمح لهم قط بادخار الأموال والأملاك »(٨١) .

وفى هذا سر التاريخ السياسى للهند الحديثة ؛ فقد مزقها الانقسام حتى جثت أمام الغزاة ثم أفقرها هؤلاء الغزاة فأفقدوها قوة المقاومة ، فاستجارت من هذا البلاء بعزاء فى الحياة الآخرة ، ومن هنا راحوا يؤمنون بأن السيادة والعبودية كلاهما وهم زائل ، ويعتقدون بأن حرية البدن أو حرية الأمة لا تكادان تستحقان الجهاد فى مثل هـــذه الحياة القصيرة ، والعبرة المرّة التى نستخلصها من هذه المأساة هى أن اليقظة الساهرة أبداً هى ضمان دوام المدنية ؛ فالأمة ينبغى أن تحب السلام ، لكنها يجب أن تكون دواماً على أهبة الاستعداد للقتال .

الفصل السابع

أكبر العظيم (*)

تيمورلنك ، بابور – هيون ، أكبر ، حكومته – شخصيته – رعايته للفنون – تحمسه للفلسفة – حسن علاقته بالهندوسية والمسيحية – ديانته الجديدة – أكبر في أخريات أيامه

إن من طبيعة الحكومات أن يصيبها الانحلال ، لأن القوة – كما قال شلي – تسمم كل يد تمسها[٨٢] فقد أدى إسراف سلاطين دلهى إلى فقدانهم تأييد الهنود لهم ، بل فقدانهم تأييد أتباعهم من المسلمين كذلك ؛ حتى إذا ما أغارت على البلاد جيوش مغيرة جديدة من الشمال ، منى هؤلاء السلاطين بالهزيمة بغير عناء كما كانوا هم أنفسهم قد كسبوا الهند بغير عناء .

وأول من انتصر عليهم في ذلك هو « تيمورلنك » الذى كان قد اعتنق الإسلام ليتخذ منه سلاحاً ماضياً ، كما قد أعد لنفسه قائمة أنساب تردّه إلى « جنكيز خان » لكي يعينه ذلك على كسب طائفة المغول إلى جانبه ؛ فلما أن فرغ من استيلائه على عرش سمرقند ، ولم يزل يحسّ الرغبة في مزيد من الذهب ، أشرقت عليه فكرة مؤداها أن الهند لم تزل حينئذ مليئة بالكفار ، لكن قواده كانوا يعلمون بسالة المسلمين ، فلم يذهبوا معه في الرأى ، موضحين له أن الكفار الذين يمكن الوصول إليهم من سمرقند ، كانوا بالفعل تحت الحكم الإسلامى ، ثم أفتى له الفقهاء العلماء بالقرآن بآية تبعث الحماسة في الصدور وهى : « يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم »[٨٣] فما هو إلا أن عبر تيمور نهر السند (١٣٩٨) وقتل أو استعبد كل من وقعت عليهم يداه من السكان فلم يستطيعوا الفرار منه ، وهزم جيوش السلطان محمود طغلق

(*) فى الوقت الذى اشتط فيه المؤلف بتجنيه على المسلمين – فيما تقدم – بغير سند وحجة ، نراه هنا – وهو فى معرض الحديث عن « سلاطين دلهى » يقصر تقصيراً معيباً فى بيان آثارهم الإصلاحية ، ويكتفى بالإشارة العابرة إليهم وإلى أتباعهم ، دون أن يسعف القارئ بكلمة عن هؤلاء السلاطين وكيف قاموا ، وعن هؤلاء الأتباع المسلمين وكيف ظهروا !!!
(الإدارة الثقافية)

واحتل دلهى ، وذبح مائة ألف من الأسرى ذبحاً متعمداً ، وسلب من المدينة كل أموالها التى كانت الأسرة الأفغانية المالكة قد كدستها هناك ، وحملها معه إلى سمرقند ، مستصحبا كذلك عدداً كبيراً من النساء والعبيد ، تاركا وراءه الفوضى والمجاعة والوباء(٨٤) .

وعاد سلاطين دلهى فاعتلوا عرشهم ، واستغلوا الهند قرنا آخر من الزمان ، حتى جاءهم الفاتح الحقيقى ، وهو « بابور » الذى أسس أسرة المغول(*) العظيمة وهو يشبه الإسكندر كل الشبه فى شجاعته وجاذبيته ، ولما كان سليل تيمور وجنكيز خان معاً ، فقد ورث كل ما اتصف به هذان الحاكمان — اللذان ألهبا آسيا — من قدرة ، دون أن يرث ما كان لهما من غلظة القلب ؛ وكان يعانى من فيض نشاط جسده وعقله ، فطفق يقاتل ويخرج للصيد وللرحلة دون أن يروى بذلك غلته ، ولم يكن عليه عسيراً أن يقتل بمفرده خمسة أعداء فى خمس دقائق(٨٧) ، وحدث أن قطع فى يومين مائة وستين ميلا وهو راكب على ظهر جواده ، ثم واصل مجهوده ذاك فسبح نهر الكنج مرتين كأن الرحلة لم تكفه دليلا على نشاطه ؛ ولقد قال وهو فى أواخر سنيه إنه منذ عامه الحادى عشر لم يصم رمضان مرتين فى مكان واحد(٨٨) .

وله « ذكريات » يستهلها بقوله : « لما بلغت من العمر اثنى عشر عاماً أصبحت حاكماً على فرغانة »(٨٩) ولما بلغ الخامسة عشرة حاصر سمرقند واستولى عليها ، ثم ضاعت من يده لعجزه عن دفع رواتب جنده ؛ واعتلّت صحته حتى أوشك على الموت ، واعتصم بالجبال حيناً ، ثم عاد إلى المدينة فاستولى عليها بقوة قوامها مائتان وأربعون رجلا ، وعاد من جديد ففقدها بخيانة غادر ، فاختبأ فى غمرة من الفقر عامين ، حتى لقد فكر فى نفض يده

(*) « المغول » و « المنغول » اسمان على مسمى واحد ، والمغول فى حقيقة أمرهم أتراك ، فكن الهنود كانوا يسمون — ولا يزالون يسمون — المسلمين الشماليين (ما عدا الأفغان) بالمغول(٨٥) وكلمة « بابور » كنية منغولية معناها أسد ، أما الاسم الحقيقى لأول إطواطور مغولى سيطر على الهند فهو زهير الدين محمد(٨٦) .

من حياة الجهاد مكتفياً بحياة الفلاحة فى حقول الصين ؛ لكنه عاود نفسه فنظم جيشاً جديداً وأبدى من الشجاعة ما ألهب الشجاعة فى نفوس جنده واستولى على كابل وهو فى عامه الثانى والعشرين من عمره ، بعد أن أنزل الهزيمة الساحقة بجيش السلطان إبراهيم فى موقعة پانپات ، وقوامه مائة ألف جندى ، مع أن جيشه لم يزد على اثنى عشر ألفاً ، ومعهم عدد من حر الجياد ، وقتل الأسرى ألوفاً ألوفاً ، واستولى على دلهى ، وأسس بها أعظم وأكرم أسرة أجنبية مما حكم الهند من أجانب ؛ وأخيراً نعم بحياة وادعة أربعة أعوام ، كان يقرض فيها الشعر ويكتب ذكرياته ، ومات فى سن السابعة والأربعين بعد أن عاش قرناً كاملا إذا عدت السنون بما فيها من نشاط وتجربة .

وكان ابنه « هميون » من الضعف والتردد والإدمان فى الأفيون بحيث لم يستطع أن يتابع السير فى طريق أبيه « بابور » فهزمه « شرشاه » وهو من شيوخ الأفغان ، فى موقعتين دمويتين ، واستعاد حيناً من الدهر سلطة الأفغان فى الهند ؛ ولئن كان « شرشاه » قديراً على القتل فى أحسن صُوَرِه الإسلامية ، إلا أنه كذلك أعاد بناء دلهى فى ذوق معمارى جميل ، وأقام فى إدارة الحكم اصطلاحات مهدت السبيل للحكم المستنير الذى تم على يدى « أكبر » ؛ وبعد أن تولى الملك شاهان الشأن مدى عشرة أعوام ، نظم « هميون » قوة فى فارس ، بعد اثنى عشر عاماً قضاها فى صعاب وتجواب ، ثم عاد إلى الهند واستعاد العرش ، لكنه لم يلبث بعد ذلك إلا ثمانية أشهر ، إذ سقط من شرفة مكتبته فقضى نحبه .

وكانت زوجته قد أنجبت له أثناء نفيه وفقره ولداً أسماه (محمداً) تبركاً بهذا الاسم ، لكن الهند أطلقت عليه « أكبر » — ومعناها « البالغ فى عظمته حداً بعيداً » — ولم يدخروا من وسعهم شيئاً لتنشئته رجلا عظيما ، بل إن أسلافه قد تعاونوا على اتخاذ التدابير كلها ليبلغوا به قمة العظمة ، ففى عروقه تجرى دماء « بابور » و« تيمور » و« جنكيزخان » وأعد له المربون فى كثرة ، لكنه رفضهم جميعاً وأبى أن يتعلم القراءة ؛ وأخذ يُعِدّ نفسه بدل ذلك لتولى

الملك بالرياضة الخطرة التى ما فتئ يرتاضها ، فأصبح فارساً يتقن ركوب الخيل إلى حد الكمال ، وكان يلعب بالكرة والصولجان لعب الملوك ، ومهر فى فن سياسة الفيلة مهما بلغت من حدة الافتراس ، ولم يتردد قط فى ارتياد الغابة لصيد الأسد والنمور وفى تحمل المشاق مهما بلغ عناؤها ، وفى مواجهة المخاطر كلها بشخصه ؛ ولكى يكون تركيا أصيلا ، لم يضعف ضعف الإناث فيمج طعم الدماء البشرية ؛ من ذلك أنه لما كان فى عامه الرابع عشر ، دعى ليظفر بلقب « غازى » — ومعناها قاتل الكفار — بأن قدموا له أسيراً هندياً ليقتله ، فبتر رأس الرجل بتراً فى لمحة سريعة وبضربة واحدة من حسامه ؛ تلك كانت البدايات الوحشية لرجل كتب له أن يكون من أحكم وأرحم وأعلم من عرفهم تاريخ الدنيا من ملوك(*) .

لما بلغ الثامنة عشرة من عمره تسلم مقاليد الأمور من يد الوصى على عرشه ، وكانت رقعة ملكه تمتد فتشمل أكثر من ثُمْن مساحة الهند كلها — فهى شريط من الأرض يبلغ عرضه نحو ثلاثمائة ميل ، ويمتد من الحدود الشمالية الغربية عند ملطان إلى بنارس فى الجانب الشرقى ؛ وامتلاءً بما كان يمتلىء به جده من حماسة وجشع ، فشرع يوسع هذه الحدود ، واستطاع بسلسلة من الحروب التى لم تعرف الرحمة أن يبسط سلطانه على الهندستان كلها ، ما عدا مملكة راجبوت التى تخضع لأسرة موار ، فلما عاد إلى دلهى نزع عن نفسه السلاح ، وكرس جهده لإعادة تنظيم حكومة ملكه ، وكان سلطانه مطلقاً فهو الذى يعين الرجال للمناصب الهامة كلها ، حتى ما يقع منها فى الأقاليم النائية ، وكان معاونوه الأساسيون أربعة : رئيس الوزراء ويسمى « فقيراً » ، ووزير المالية ويسمى « وزيراً » أحياناً ، وأحياناً يسمى « ديوانا » ،

(*) عرف قيمة الكتب فى مرحلة متأخرة من حياته ، ولما لم يكن قد تعلم القراءة فقد كان ينصت لغيره ساعات وهو يقرأ له ، وكثيراً ما كانوا يقرءون له كتباً صعبة معقدة ، حتى أصبح فى نهاية الأمر عالماً لا يقرأ ، يحب الآداب والفنون ، ويؤيدهما بسخاء الملوك.

ووزئيس للقضاء ويسمى « بخشى » ورئيس للديانة الإسلامية ويسمى « صدراً » ؛ وكان كلما ازداد حكمه استقراراً ورسوخاً فى القلوب ، قل اعتماده على القوة الحربية ، مكتفياً بجيش دائم من خمسة وعشرين ألفاً ، فإذا ما نشبت حرب ، زادت هذه القوة المتواضعة بمن يُجندهم الحكام العسكريون فى الأقاليم — وهو نظام متصدع الأساس كان من عوامل سقوط الإمبراطورية المغولية فى حكم « أورنجزيب(*) » وفشت الرشوة والاختلاس بين هؤلاء الحكام ومعاونيهم ، حتى لقد أنفق « أكبر » كثيراً من وقته فى مقاومة هذا الفساد : واصطنع الإقتصاد الدقيق فى ضبط نفقات حاشيته وأهل أسرته ، فحدد أسعار الطعام وسائر الأشياء التى كانت تُشترَى لهم ، كما حدد الأجور التى تدفع لمن تستخدمهم الدولة فى شئونها ؛ ولما مات ، ترك فى خزينة الدولة ما يعادل بليون ريال ، وكانت إمبراطوريته أقوى دولة على وجه الأرض ط٢(٩٠) ؛

كانت القوانين والضرائب كلاهما قاسياً ، لكنهما كانا مع ذلك أقل قسوة منهما قبل ذلك العهد ، فقد كان مفروضاً على الفلاحين أن يعطوا الحكومة مقداراً من مجموع المحصول يتراوح بين السدس والثلث ، حتى لقد بلغت ضريبة الأراضى فى العام ما يساوى مائة مليون ريال ؛ وكان الإمبراطور يجمع فى شخصه السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ؛ وكان إذا ما جلس فى كرسى القضاء الأعلى ، أنفق الساعات الطوال ينصت إلى أقوال المتخاصمين فى القضايا الهامة ؛ وكان من قوانينه تحريم زواج الأطفال وتحريم إرغام الزوجة على قتل نفسها عند موت زوجها ، وأجاز زواج الأرامل ، ومنع استرقاق الأسرى وذبح الحيوان للقرابين ، وأطلق حرية العقيدة للديانات كلها ، وفتح المناصب

(*) كان الجيش معداً بخير سلاح عرفته الهند حتى ذلك الحين ، لكنه كان فى هذه الناحية أقل إعداداً من جيوش أوروبا إذ ذاك ، وفشل « أكبر » فى محاولته الحصول على بنادق خير من بنادق جيشه ، فتضافر سوء معدات القتال فى جيشه مع انحلال خلفه من بعده ، على تيسير الفتح الأوروبى الهند .

لذوى الكفاءة مهما يكن من أمر عقيدتهم أو جنسهم ، ومنع ضريبة الرؤوس التى كان الحكام الأفغان يفرضونها على الهندوسيين الذين يأبون الدخول فى الإسلام(٩١) ، وكان تشريعه فى بداية حكمه يبيح عقوبات من قبيل بتر الأعضاء ، أما فى نهاية عهده فربما بلغ التشريع فى بلاده من الرقى ما لم تبلغه أية حكومة أخرى فى القرن السادس عشر ، إن كل دولة تبدأ بالعنف ثم تأخذ فى طريق المدنية الذى ينتهى إلى الحرية (ذلك إن أمنت على نفسها الخطر) .

لكن قوة الحاكم كثيراً ما تكون ضعفاً فى حكومته ، فقد كان بناء الحكم قائماً إلى حد كبير على « أكبر » بما كان له صفات عقلية وخلقية ممتازة ؛ ولذلك كان من البديهى أن يتعرض كل ذلك للإنهيار بعد موته ؛ وبالطبع قد تحلّى بمعظم الفضائل ما دام قد استأجر معظم أقلام المؤرخين : فكان خير رياضى وخير فارس وخير محارب بالسيف ، ومن خير المهندسين فى فن العمارة ، وكان كذلك أجمل رجل فى البلاد كلها ، أما الواقع فإنه كان طويل الذراعين ، مقوس الساقين ، ضيق العينين كسائر المنغوليين ، رأسه يميل نحو اليسار ، وفى أنفه ثؤلول (زائدة جلدية(٩٢) ، لكنه كان يكتسب شكلا محترماً بنظافته ووقاره وهدوئه وعينيه اللامعتين اللتين كانتا تتلألآن (كما يقول أحد معاصريه) : « تلألأ البحر فى ضوء الشمس » أو كانتا تشتعلان على نحو ترتعد له فرائص المعتدى كما حدث لڤانداِم أمام نابليون ، كان ساذج الثياب يغطى رأسه بغطاء مزركش ، ويرتدى صدراً وسراويل ، ويرصع نفسه بالجواهر ، ويترك قدميه عاريتين ؛ وكان لا يميل كثيراً إلى أكل اللحم ، ثم امتنع عنه امتناعاً تاماً تقريباً فى أواخر سنيه قائلا « إنه لا يجمل بالإنسان أن يجعل من معدته مقبرة للحيوان » ومع ذلك فقد كان قوى الجسد قوى الإرادة ، وبرع فى كثير من أنواع الرياضة التى تحتاج إلى حركة ونشاط ، واستخف بستة وثلاثين ميلا يمشيها فى يوم واحد ، وكان يحب اللعب بالكرة والصولجان.

حباً حدا به أن يخترع كرة منيرة ليتمكن اللاعبون من القيام بلعبتهم هذه فى ظلمة الليل ؛ وورث من أسلافه فى أسرته ميولها الاندفاعية القوية ، وكان فى شبابه (مثله فى ذلك مثل معاصريه من المسيحيين) قادراً على مشكلاته بالاغتيال ؛ لكنه راض نفسه شيئاً فشيئاً على أن يجلس على بركان نفسه — على حد تعبير وودروولسن— وامتاز من عصره امتيازاً بعيد المدى فى ميله إلى العدل ، وهو صفة لا يتميز بها حكام الشرق دائماً ؛ يقول « فرشْتا » : « إن رحمته لم تعرف حدوداً بل إنه كثيراً ما ذهب فى هذه الفضيلة حتى جاوز بها حدود الحكمة(٩٣)» وكان كريماً ينفق الأموال الطائلة إحساناً ، أحبه الناس جميعاً ، وخصوصاً الطبقات الدنيا ، فيقول عنه مبشّرٌ جوويتىّ : « إنه كان يتقبل من أهل الطبقات الدنيا عطاياهم الحقيرة بوجه باسم ، فيتناولها بيديه ويضمها إلى صدره ، مع أنه لم يكن يفعل مثل ذلك مع أفخر الهدايا التى كان يقدمها له الأشراف » ، وقال عنه أحد معاصريه إنه كان مصاباً بالصرع ، وروى عنه كثيرون أن داء السوداء كثيراً ما كان يستولى عليه إلى درجة تسود معها نظرته إلى الحياة اسوداداً مخيفاً وكان يشرب الخمر ويأكل الأفيون فى اعتدال ، ولعله فعل ذلك ليُكْسِبَ واقع حياته المظلم شيئاً من البريق ، ولقد كان أبوه كما كان أبناؤه يشربون الخمر كما شربها ويأكلون الأفيون كما فعل ، لكنهم لم يكونوا يشبهونه فى ضبطه لنفسه(*) وكان له حريم يتناسب مع سعة ملكه ، فيروى لنا أحد الرواة « إن له فى « أجرا » وفى « فتحبور — سِكْرى » — هكذا يروون بصيغة الصدق — ألف فيل وثلاثون حصاناً وألف وأربعمائة غزال وثمانمائة خليلة » لكنه لم يكن له فيما يظهر شهوات حسيّة ولا ميول تدفعه إلى الانغماس فيها ، نعم إنه أكثر من زوجاته ، لكنه كان زواجاً سياسياً ، فكان يتودد إلى أمراء الراجبوت بزواج بناتهم ، وبهذا كسبهم فى تعضيد عرشه ،

(*) مات اثنان من أبنائه فى شبابهما بسبب الإدمان فى الخمر(٩٦) .

وأصبحت الأسرة الحاكمة المغولية منذ ذلك الحين نصف وطنية فيما يجرى فى عروقها من دماء ؛ ولقد أعلى رجلا من أسرة راجپوت حتى نصّبه قائداً أعلى لجيشه ، كما رفع أحد الراجات إلى منصب كبير وزرائه ؛ وكانت أمنيته التى يحلم بها أن يوحّد الهند(٩٤) .

لم يكن ذا عقل واقعى دقيق له برودة المنطق كما كان لقيصر أو نابليون بل كان ينزع بعاطفته نحو دراسة الميتافيزيقا ، ولو أنه خلع عن عرشه لكان من الجائز أن يصبح صوفياً معتزلا ؛ كان لا يكف عن التفكير ولا ينقطع عن اختراع الجديد واقتراح الإصلاح لما هو قائم(٩٥) ؛ وكان من عاداته مثل هارون الرشيد أن يمسّ بالليل متنكراً ، ثم يعود إلى مأواه وهو جياش الصدر برغبة الإصلاح ، واستطاع وسط هذه المناشط الكثيرة أن يفسح بعض الوقت لجمع مكتبة عظيمة تتألف كلها مخطوطات جميلة الخط والنقش ، دبجها له نساخون بارعون كانت لهم عنده منزلة الفنانين ، فهم فى عينه لا يقلون مكانة عن المصورين والمهندسين المعماريين الذين كانوا يزينون مُلكه ؛ وكان يزدرى الطباعة باعتبارها آلية لا تتجلى فيها شخصية الكاتب ، ولم يلبث أن استغنى عن العينات المختارة من الرسوم الأوروبية المطلوعة التى قدمها له أصدقاؤه من الجزويت ، ولم تزد مكتبته على أربعة وعشرين ألف كتاب ، لكن قيمتها بلغت ما يساوى ثلاثة ملايين وخمسمائة ألف ريال(٩٧) عند أولئك الذين حسبوا أن أمثال هذه الكنوز الروحية يمكن تقديرها بأرقام مادية ، وأجزل العطاء للشعراء بغير حساب ، وقرّب أحدهم من نفسه — هو بربال الهندى — تقريباً جعله ذا حظوة كبرى فى حاشية قصره ، وأخيراً نصّبه فى الجيش قائداً ، فكان من نتيجة ذلك أن قام « بربال » بحملة حربية أظهر فيها عجزاً شديداً ، وقتل فى جو أبعد ما يكون الجو عن خيال الشعراء(٩٨)(*) :

(*) كان « بربال » بغيضاً لدى المسلمين ، ولذا مرح هؤلاء لموته ، حتى لقد سجل أحدهم —

وأمر « أكبر » أعوانه من الأدباء أن يترجموا إلى الفارسية — وقد كانت لغة قصره — آيات الأدب والتاريخ والعلم فى الهند ، وراجع بنفسه ترجمة الملحمة الخالدة « ماهابهاراتا »[١٠٠] وازدهرت الفنون كلها فى ظله وبتشجيعه ، فشهدت الموسيقى الهندية والشعر الهندى فى عهده عصراً من أعظم عصورهما وبلغ التصوير — الفارسى منه والهندى — مرتبة تالية فى ارتفاعها للأوج بفضل تشجيعه[١٠١] وأشرف فى « أجرا » على بناء « الحصن » المشهور ، وأمر أن يبنى بداخله خمسمائة بناء ، عدّها معاصروه من أجمل ما تراه العين فى العالم كله ؛ لكن هذه المبانى قد تحطمت تحطيما على يدى « شاه جهان » الأرعن ، وليس فى مقدورنا أن نحكم عليها استنتاجاً من آثار العمارة الباقية من عهد « أكبر » مثل مقبرة « هميون » فى دلهى ، والآثار الباقية فى « فتحبور — سيكرى » حيث أقيم ضريح لصديق « أكبر » المحبوب ، الزاهد الشيخ سليم شستى ، وهو بناء من أجمل ما فى الهند من بناء .

ثم كان له اتجاه آخر أعمق من هذه الاتجاهات كلها ، وهو ميله إلى التأمل ، فهذا الإمبراطور أوشك أن يكون قادراً على كل شىء ، تحرق فؤاده شوقاً إلى أن يكون فيلسوفاً — كما يشتهى الفلاسفة أن يكونوا أباطرة ، ولا يستطيعون ، أن يسيغوا حمق القدر فى حرمانه إياهم ما هم جديرون به من عروش ، فبعد أن فتح « أكبر » العالم ، أحسّ شقاء نفسه لأنه لم يستطع فهماً لهذا العالم الذى فتحه وقد قال : « على الرغم من أنى أسُود هذا المُلك الفسيح ، وزمام الحكومة كلها فى يدى ، فلست مطمئن الفؤاد لهذه العقائد الكثيرة والمذاهب المختلفة من حولى ، مادامت العظمة الحقيقية كائنة فى تنفيذ إرادة الله ؛ فدع عنك هذه الأبهة الظاهرة المحيطة بى ، وقل لى كيف أطيب بالا ، فى مثل هذا اليأس ، إذا

= وهو المؤرخ بادونى — حادثه موته بنشوة وحشية فقال . « إن بربال الذى فر خوفاً من حياته ، قد قتل ودخل جهنم متخرطاً فى صف الكلاب »[٩٩]

ما حملت عبء الإمبراطورية ؟ إنى لأرقب ظهور رجل حصيف ذى مبدأ ليزيح عن ضميرى هذه المشكلات التى يتعذّر علىّ حلها ... إن الحديث فى الفلسفة يفتننى فتنة تصرفنى عن كل ما عداها ، وإنى لأنصرف عن سماعها رغم أنى حتى لا أهمل واجباتى التى تقتضيها أمور الساعة »[١٠٢] ويقول بادونى : «كان يحجّ إلى قصره طوائف العلماء من كل أمة ، والحكماء من كل ملة ومذهب ، وكانوا يظفرون لديه بشرف استماعه إليهم ؛ وإذا ما فرغوا من بحثهم وتقصّيهم اللذين كانا شغلهم الشاغل ومهمتهم الأولى ليلا ونهاراً تحدثوا فى مسائل عميقة فى العلم ، ونقط دقيقة فى الوحى ، وأعاجيب التاريخ وغرائب الطبيعة[١٠٣] ؛ ويقول «أكبر» : «إن سيادة الإنسان تعتمد على جوهرة العقل »[١٠٤] .

ولما كان فيلسوفاً فلا عجب أن يأخذه شغف شديد بالدين ؛ فقد أغرته قراءته الدقيقة للملحمة «ماهابهاراتا» ودراسته الوثيقة لشعراء الهنود وحكمائهم بدراسة العقائد الهندية ، ولبث حيناً ـ على الأقل ـ يؤمن بمذهب التناسخ ، وخيّب فيه ظن أتباعه من المسلمين حين ظهر على الملأ بعلامات دينية هندية على جبهته ؛ فقد كان له شغف بملاطفة أصحاب العقائد كلها ، لذلك تودد إلى الزرادشتيين بأن لبس ما يلبسونه من قميص ومنطقة مقدسين تحت ثيابه ، وانصاع للجانتيين حين طلبوا إليه أن يمتنع عن الصيد ؛ وأن يحرم قتل الحيوان فى أيام معلومة ، ولما سمع بالديانة الجديدة المسماة بالمسيحية ، التى جاءت إلى الهند مع بعثة «جوا» البرتغالية ، أرسل خطاباً إلى هؤلاء المبشرين التابعين لمذهب بولس ، يدعوهم أن يبعثوا له باثنين من علمائهم ، وحدث بعد ذلك أن قدِم جماعة من الجزويت مدينة دلهى ، وحبّبوه فى المسيح حتى أمر كتّابه أن يترجموا له العهد الجديد[١٠٥] وأباح لهؤلاء الجزويت كل حرية فى أن يُنَصِّروا من شاءوا بل عهد إليهم بتربية أحد أبنائه ؛ وفى الوقت الذى كان الكاثوليك يفتكون بالبروتستنت فى فرنسا ، والبروتستنت ـ فى عهد اليصابات ـ يفتكون بالكاثوليك فى إنجلترا ، ومحاكم التفتيش تقتل اليهود فى أسبانيا

وتسلبهم أملاكهم و « برونو » يقذف به فى النار فى إيطاليا ، كان « أكبر » يوجه الدعوة إلى ممثلى الديانات كلها فى إمبراطوريته ليعقدوا مؤتمراً ، وتعهد لهم بحفظ السلام بينهم وأصدر المراسيم بوجوب التسامح مع المذاهب كلها والعقائد كلها ، ولكى يقيم الدليل على حياده ، تزوج من نساء البراهمة ومن نساء البوذية ، ومن نساء المسلمين جميعاً .

وكان ألذ ما يمتعه بعد أن بردت فى نفسه جذوة الشباب المضطرمة ، المناقشات الحرة فى العقائد الدينية ، ولقد ترك تعاليم الإسلام الجامدة تركاً تاماً(*) حتى أغضب بحياده هذا فى الحكم رعيته من المسلمين ؛ يقول عنه . سانت [فرانسس زافير » فى شىء من المغالاة : « لقد حطم هذا الملك مذهب محمد ، وهاجمه هجوماً بحيث لم يبق له فضيلة واحـــدة ، ولم يعد فى هذه المدينة مسجد أو قرآن — هو كتاب شريعتهم — وأما ما كان هناك من مساجد فقد اتخذوا منها حظائر للخيل أو مخازن » ، ولم يؤمن الملك أقل إيمان بالوحى ، ولم يكن ليصدق شيئاً لا يقوم على صحته برهان من العلم والفلسفة ، وكثيراً ما كان يجمع طائفة من أصدقائه ومن رجال العقائد الدينية المختلفة ثم يأخذ فى مناقشة الدين معهم من مساء الخميس إلى ظهر الجمعة : فإذا ما اعترك فقهاء المسلمين مع قساوسة المسيحيين ، زجرهم قائلا إن الله ينبغى أن يعبد بالعقل لا بالتمسك بوحى مزعوم ، وكان مما قاله ، فجاء شبيهاً بروح كتاب « اليوپانشاد » ، بل ربما كان فى قوله هذا متأثراً « باليوپانشاد » و « كابر » : « كل إنسان يسمى الكائن الأسمى باسم يلائم وجهة نظره ، والواقع أن تسميتنا لما يستحيل علينا إدراكه ضرب من العبث » واقترح بعض المسلمين أن تُختَبر المسيحية إزاء الإسلام بمحنة النار ، وذلك أن يمسك شيخ من شيوخ المسلمين بالقرآن ، وأن يمسك قسيس بالإنجيل ، ثم يخوضان معاً فى النار ، فمن خرج منهما سالماً من الأذى ، اعترف له منادياً فى الأرض بصوت الحق ،

(١) إذا كان للؤلف أن يعجب ما شاء له الإعجاب بنشاط السلطان (أكبر) العقلى ومحاوراته ومحاولاته فى مجال العقيدة فليس من الإنصاف أن يصف ببساطة تعاليم الإسلام بالجمود . (الإدارة الثقافية)

وتصادف أن « أكبر » لم يكن يحب الشيخ المسلم الذى اقترحوه لهذه التجربة. فتحمس للاقتراح ، لكن الجزويت رفضوه لأنه إفك وخروج على الدين ، لا لأنه خطر على حياة من تقع عليه التجربة ، وجعل اللاهوتيون المتنافسون يجتنبون أمثال هذه الاجتماعات شيئاً فشيئاً ، حتى لم يعد يحضرها إلا « أكبر » نفسه مع أصدقائه من أصحاب النظرة العقلية[١٠٦] .

وضاق أكبر ذرعاً بالانقسامات الدينية فى مملكته . وأفزعه الاحتمال بأن تؤدى هذه الديانات المتنافسة إلى تمزيق المملكة بعد موته ، فاستقر رأيه آخر الأمر على أن يكوِّن منها ديانة جديدة ، تضم أهم تعاليم العقائد المختلفة فى صورة بسيطة ويحكى لنا المبشر الجزويتى هذا النبأ كما يأتى :

« عقد اجتماعاً دعا إليه كل رجال العلم البارزين والقواد العسكريين فى المدن المجاورة ، لم يستثن أحداً إلا الأب « ردُلْفو » الذى كان من العبث أن ترجو منه شيئاً غير مناصبة هذه الدعوة الدينية العداء ؛ فلما أن اجتمعوا جميعاً أمامه ، خطبهم بأسلوب سياسى ماهر ماكر قائلا :

« إنه لمن الشر فى إمبراطورية يحكمها رأس واحد أن ينقسم الأعضاء بعضهم على بعض وأن يتباينوا فى الرأى . . . ومن ثم نشأ فى البلاد أحزاب بمقدار ما فيها من عقائد دينية ، وإذن فلزام علينا أن ندمج هذه العقائد كلها فى دين واحد ، على نحو يجعلها كلها ممثلة فى هذا الواحد ، وتكون الفائدة الكبرى التى يجنيها كل من هذه الديانات ، أنه لن يخسر شيئاً من جوانبه الحسنة . ثم يكسب كل ما هو حسن فى سائر الديانات ، وبهذا وحده تمجد الله ونهيىء للناس سلامة وللإمبراطورية أمناً[١٠٧] » .

ووافق المجلس مرغماً ، فأصدر « أكبر » مرسوماً يعلن نفسه رئيساً دينياً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهذه الرئاسة الدينية هى أهم ما أثرت به المسيحية على الديانة الجديدة ؛ وكانت هذه العقيدة الجديدة توحيداً يمثل التقاليد الهندية فى التوحيد خير تمثيل ، مضافاً إليه قبس من عبادة

الشمس والنار مأخوذاً من العقيدة الزردشتية ، وفيه عنصر شبيه بالمذهب الجانتي في إيثاره للامتناع عن أكل اللحوم ، وعُدَّ ذبح الأبقار كبيرة من الكبائر ، فما أشد ما اغتبط لذلك الهندوس ، وما أقل ما اغتبط له المسلمون ؛ وصدر بعدئذ مرسوم يجعل الاقتصار على أكل النبات إلزاماً على الناس جميعاً مدى مائة يوم على الأقل كل عام ، ثم سار مع ميول الوطنيين خطوة أخرى فحرم الثوم والبصل ، وحرم تشييد المساجد وصيام رمضان والحج إلى مكة وغير ذلك من شعائر المسلمين ؛ ولما أراد المسلمون مناهضة هذه المراسيم ، نفي كثير منهم[١٠٨] ، وأقيم وسط «محكمة السلام» في « فتحبور – سيكْرى – » معبد للديانة المتحدة الجديدة (ولا يزال هذا المعبد قائماً) رمزاً للأمل الذي كان يضطرم في صدر الإمبراطور ، وهو أن يكون أهل البلاد جميعاً – بفضل العقيدة الجديدة – إخواناً يعبدون إلهاً لا يختلف من طائفة إلى طائفة .

ولم يكن النجاح حليف « الدين الإلهي » باعتباره دينا ووجد « أكبر » أن التقاليد أقوى من أن يهدمها بقوله إنه يجل عن الخطأ ؛ نعم إن بضعة آلاف من الناس التفّوا حول الدين الجديد ، كان معظمهم ممن يريدون من وراء ذلك اكتساب حظوة عند الدولة ، لكن الأغلبية العظمى ما زالت مستمسكة بآلهتها الموروثة ؛ وأما من الوجهة السياسية فقد كان لخطته الدينية بعض النتائج المعينة ؛ فلئن كان « أكبر » بوحيه الديني الجديد قد أبدى شيئاً من الأنانية ومن الإسراف ، فقد عوّض عن ذلك خير العوض بإلغائه لضريبة الرؤوس وضريبة الحج المفروضتين على الهندوس ، وبإطلاقه الحرية للعقائد الدينية كلها(*) ، وبإضعافه لروح التعصب الديني والجنسي وما يتبع ذلك من جمود الرأي وانقسام الطوائف ؛ ولقد كسب إلى جانبه بفضل دينه الجديد ولاء الهندوس ، حتى أولئك الذين لم يعتنقوا منهم تلك العقيدة الجديدة ، فاستطاع بذلك أن يحقق غايته الرئيسية إلى حد بعيد ، وأعني بها الوحدة السياسية للبلاد .

(*) إذا استثنينا اضطهاد الإسلام لفترة من الزمن (١٥٨٢ – ٥) .

لكن هذا « الدين الإلهى » كان مصدر كراهية شديدة له فى نفوس إخوانه فى الإسلام ، حتى لقد انتهى الأمر بهم مرة إلى شق عصا الطاعة علناً ، وإثارة الأمير « جهان كير » على أبيه بحيث أخذ يدبر له المكائد خفية ؛ وكان مما أثار القلق فى نفس الأمر أن « أكبر » قد ظل يحكم البلاد أربعين عاماً ، وأن بنيته لم تزل من القوة بحيث لا أمل فى موت قريب يصيبه ، لهذا حشد « جهان كير » جيشاً من ثلاثين ألف فارس ، وقتل « أبا الفضل » مؤرخ القصر وأحبّ الأصدقاء إلى نفس الملك ، ثم أعلن نفسه إمبراطوراً ، لكن « أكبر » حمل الأمير الشاب على التسليم ، وعفا عنه بعد يوم واحد ، غير أن خيانة الابن لأبيه عملت على قتل أمه وقتل صديقه ، وحطمت قوته النفسية ، وتركته فريسة هينة « للعدو الأعظم » حتى لقد تنكر له أبناؤه فى أواخر أيامه وبذلوا جهدهم كله فى النزاع على العرش ، ومات « أكبر » فلم يكن إلى جانبه إلا طائفة قليلة من أصدقائه المقربين — مات بمرض الديسنتاريا ، أو مات مسموماً بتدبير « جهان كير » على اختلاف الآراء فى ذلك ، وجاء الشيوخ لدينيون إلى فراش الموت يحاولون أن يردوه إلى الإسلام ، لكنهم منوا بالفشل ، وهكذا « قضى الملك دون أن يجد من يصلى على روحه بين أنصار أية عقيدة أو مذهب »[١٠٩] ولم يشيّع جنازته عدد كبير من الناس ، فكانت جنازته متواضعة ولبس أبناؤه ورجال حاشيته ثياب الحداد بمناسبة موته ، لكنهم خلعوها فى مساء اليوم نفسه ، فرحين بوراثتهم للملك من بعده فكان موته موتاً مريراً ، مع أنه أعدل وأحكم حاكم شهدته آسيا فى كل عصورها .

الفصل الثامن

تدهور المغول

بناة العظماء – جهان كير – شاه جهان – عظمته – سقوطه – أورنجزيب – تعصبه – موته – قدوم البريطانيين

عزّ على الأبناء الذين ظلوا يرقبون موته فى صبر نافذ أن يبقوا للإمبراطورية على وحدتها ، تلك الإمبراطورية التى خلقها نبوغه خلقاً ، فلماذا يحدث غالباً أن ينسل عظماء الرجال سلالة متوسطة القدرات والمواهب ؟ أيكون ذلك لأن البذور التى كانت قد أنتجت هؤلاء العظماء — أعنى امتزاج عناصر الأسلاف وممكنات البيئة الحيوية — إنما سارت مدفوعة بالمصادفة وحدها ، فمن الشطط أن نتوقع لها عودة إلى الظهور من جديد ؟ أم يكون ذلك لأن العبقرى يستنفد فى تفكيره وفى جهوده قوة كان يمكن أن يوجهها نحو رعاية أبنائه ، وذلك لا يبقى لورثته من بعده من دمه إلا أضعفه ؟ أم يكون ذلك لأن الأبناء ينحلون فى ظل النعمة واليسار ، فتحرمهم بحبوحة العيش فى سنهم الباكر الحوافز نحو الطموح والرقى ؟

على أن « جهان كير » لم يكن متوسط القدرات والمواهب بقدر ما كان منحلاً قادراً ؛ فقد ولد لأب تركى وأميرة هندية ، وانفتحت الفرص كلها التى تسنح لولى العهد ، فانغمس فى الخمر والدعارة ، وأطلق لنفسه العنان فى التمتع السّادىّ بالقسوة على الآخرين ، وقد كان هذا الميل مجبولا فى فطرة أسلافه « بابور » و « همايون » و « أكبر » لكنهم دسُّوه دساً فى دمائهم التتربة ، فكان يمتعه أن يرى الناس يُسْلَخون أحياء ، أو تنفُذُ فيهم « الخوازيق » أو يقذفون إلى الفيلة تمزقهم تمزيقاً : وهو يروى لنا فى « مذكراته » أن سائسه

وطائفة من الخدم قدموا ذات يوم إلى ساحة صيده ، وكانوا من عدم الحذر بحيث أدى ظهورهم هناك إلى فزع الطرائد التي كان يتربص لها في صيده ، حتى أفلتت منه تلك الطرائد ؛ فأمر بالسائس أن يقتل ، وبخدم السائس أن تخلخل رُكبُهم فيعيشوا أعمارهم كساحاً ؛ وهو يقول إنه بعد أن أشرف على تنفيذ أمره هذا « مضى صيده[110] » ، ولما تآمر عليه ابنه « خسرو » جاء بسبعمائة من أنصار الثائر وأنفذ فيهم « الخوازيق » وصفّهم صفاً على امتداد الشوارع في لاهور ، وهو يذكر لنا في نشوة من السرور كم انقضى على هؤلاء الرجال من زمن حتى فاضت أرواحهم[111] ، وكان له حريم من ستة آلاف امرأة يرعين له حياته الجنسية[112] لكنه فيما بعد انصرف إلى زوجة مفضلة ، هي « نورجهان »(*) ، التي ظفر بها بقتل زوجها ؛ وكان يسود حكومته عدل محايد لكنه قاس ؛ غير أنه إلى جانب ذلك قد أسرف في نفقاته إسرافاً أبهظ أمة كانت قد أصبحت أغنى أمم الأرض طرا بفضل ما أبداه « أكبر » في سياسته لها من حكمة ، وما أسداه عليها أمْن طال أمده أعواماً كثيرة .

ولما دنا عهد « جهان كير » من ختامه ، زاد الرجل انغماساً في خمره ، وأهمل واجباته الرسمية في الحكومة ، فكان من الطبيعي أن تنشأ المؤامرات لملء مكانه ، وحدث فعلا سنة ١٦٢٢ أن حاول ابنه « جهان » أن يعتلي العرش ، ثم لما فاضت روح « جهان كير » جاء « جهان » هذا مسرعاً من الدكن حيث كان مختفياً ، وأعلن نفسه إمبراطوراً ، وقتل كل إخوته ليضمن لنفسه راحة البال ؛ وقد ورث عن أبيه صفات الإسراف وضيق الصدر والقسوة ؛ فأخذت نفقات قصره والرواتب العالية التي كان يتقاضاها موظفوه الكثيرون تزداد نسبتها بالقياس إلى دخل الأمة التي كانت تنتجه لها صناعة مزدهرة وتجارة نافقة ؛ وبعد التسامح الديني الذي أبداه « أكبر » وعدم المبالاة التي

(*) معناها « نور العالم » وهي تسمى كذلك نور محل ومعناها « نور القصر » جهان جير معناها « فاتح العالم » وشاه جهان بالطبع معناها « ملك العالم » .

أظهرها « جهان كير » جاء « جهان » فعاد إلى العقيدة الإسلامية ، واضطهد المسيحيين ، وراح يحطم أضرحة الهندوس تحطيما واسع النطاق لا يعرف إلى الرحمة سبيلا .

وعوّض شاه جهان بعض نقائصه بسخائه لأصدقائه ، وكرمه للفقراء ، وبذوقه وتحمسه للفن مما حفزه إلى تزيين الهند بأجمل فن معمارى شهدته فى تاريخها السابق كله ، ثم بإخلاصه لزوجته « ممتاز محل » — ومعناها « زينة القصر » — ولقد تزوج منها وهو فى سن الحادية والعشرين ، بعد أن أنجب طفلين من خليلة أخرى ، وأنجبت « ممتاز » لزوجها الذى لم يعرف الكلل أربعة عشر طفلا فى ثمانية عشر عاماً ، ثم قضت نحبها فى سن التاسعة والثلاثين ، وهى تلد آخر هؤلاء الأبناء ، فأقام شاه « جهان » « تاج محل » وهو آية بلغت حد الكمال ، أقامه تخليداً لذكراها وذكرى خصوبتها ، ثم انتكس بعدئذ إلى دعارة مخجلة[١١٣] ، وهذا القبر الذى هو أجمل قبور الدنيا جميعاً ، إن هو إلا واحد من مائة آية فنية شيدها « جهان » ، خصوصاً ما شيده منها فى « أجرا » وفى « دلهى الجديدة » التى تمت تحت إشرافه ، وإن ما كلفته هذه القصور من مال ، وما غرقت فيه حاشية القصر من بذخ ، وما استنفده « عرش الطاووس » من أحجار كريمة(*) ليدل بعض الدلالة على ما فرض على الناس فى سبيل ذلك من ضريبة جاءت على الهند خراباً ، ومع ذلك كله ، ورغم ما شهدته الهند إبان عهد « شاه جهان » من مجاعة هى أسوأ ما مرّ بها فى تاريخها من مجاعات ، فقد كانت أعوامه الثلاثون التى قضاها فى الحكم بمثابة الأوج

(*) يتألف هذا العرش الذى تطلبت صناعته سبعة أعوام، من جواهر ومعادن ثمينة وأحجار كريمة ، ولا شىء غير هذه ، فقوائمه الأربع من ذهب ، ويحمل سقفه المطلى بالميناء اثنا عشر عموداً من الزمرد ، وعلى كل عمود طاووسان مغطيان بالجواهر ، وبين كل طاووسين شجرة يغطيها الماس والزمرد والياقوت واللآلئ ، وبلغ مجموع التكاليف أكثر من سبعة ملايين ريال ، ولقد استولى « نادرشاه » على هذا العرش ونقله إلى فارس (١٧٣٩) وهناك أخذت أجزاؤه تنتزع شيئاً فشيئاً لتسد نفقات الأسرة المالكة فى فارس[١١٤] .

فى ازدهار الهند وعلو مكانتها ، لقد كان هذا الملك الشامخ بأنفه حاكماً قديراً ، ولئن أهلك أنفساً كثيرة فى حروبه الخارجية ، فقد هيأ لبلاده جيلا كاملا من السلام ، كتب حاكم بريطانى عظيم لبمباى ، هو « مونتستيوارت إلفِنْستُون » يقول :

« إن من ينظر إلى الهند فى حالتها الراهنة قد يميل إلى الظن بأن الكتّاب الوطنيين إنما يسرفون فى وصف ثراء البلاد قديماً ؛ لكن المدن المهجورة والقصور الخاوية والقنوات المسدودة التى لا نزال نراها ، بما هنالك من خزانات كبرى وجسور فى وسط الغابات ، والطرق المتهدمة والآبار ومحطات القوافل التى كانت على امتداد الطرق الملكية ؛ كل ذلك يؤيد شهادة الرحالة المعاصرين بحيث يميل بنا إلى العقيدة بأن هؤلاء المؤرخين كانوا يقيمون أقوالهم على سند صحيح »(٨١٥)

كان « جهان » قد بدأ حكمه بقتل إخوته ، لكن فاته أن يقتل أبناءه كذلك فكُتب لأحد هؤلاء الأبناء أن يخلعه عن العرش وذلك هو « أورنجزيب » الذى أثار ثورة سنة ١٦٥٧ وجاء زاحفاً من الدكن ؛ فأمر الشاه — شأنه فى هذا شأن داود — أمر قواده أن يهزموا الجيش الثائر على أن يقتلوا ابنه إن وجدوا إلى إنقاذ حياته من سبيل ؛ لكن « أورنجزيب » غلب جميع الجيوش التى أرسلت لمحاربته ، وألقى القبض على أبيه وسجنه فى « حصن أجرا » حيث لبث الملك المخلوع تسعة أعوام يعانى مُرّ العذاب ، لم يزره ابنه فى سجنه قط ، ولم يكن فى جواره من يرعاه سوى ابنته المخلصة « جهانارا » ، وكان ينفق أيامه جالساً فى برج الياسمين » مرسلا بصره عَبْرَ « جمنة » إلى حيث ترقد زوجته الحبيبة « ممتاز » فى قبرها المزدان بالجواهر .

على أن هذا الابن الذى خلع أباه على هذا النحو القاسى ، من أعظم القديسين فى تاريخ الإسلام ، بل ربما كان أمير الأباطرة المغول جميعاً بما كان ينفرد به من صفات ؛ فشيوخ الدين الذين تولوا تنشئته صبغوه بدين صبغاً حتى لقد فكر هذا الأمير الشاب يوماً فى أن ينفض يده من الإمبراطورية

بل من العالم كله ، ليعتزل الدنيا راهباً متعبداً ؛ ولبث حياته كلها – رغم طغيانه ودهاء سياسته وتوهمه بأن الأخلاق لا تكون إلا فى مذهبه الدينى – لبث حياته كلها رغم ذلك مسلماً ورعاً ، يقيم الصلاة وينفق فيها وقتاً طويلا ، ويحفظ القرآن كله ، ويجاهد فى قتال الكفار ؛ وما أكثر ما قضى من ساعات يومه فى عبادته ، وما قضى من أيام حياته صائماً ؛ وكان فى معظم الأحيان يخلص فى أداء شعائر دينه إخلاصه فى الدعوة إليها ؛ نعم لقد كان فى السياسة بارداً يقدر عواقب الأمور تقديراً دقيقاً ، وله قدرة على الكذب الماهر فى سبيل بلاده وربه ؛ لكنه مع ذلك كان أقل المغول قسوة وألطفهم مزاجاً ؛ قل القتل فى عهده ، وكاد يستغنى عن اصطناع العقاب فى محاكمة المجرمين ؛ وكانت شخصيته متسقة الجوانب فتواضع فى عزة وصبر فى وجه المعتدى ، وهدوء نفس فى أوقات المحنة ؛ وامتنع عن كل ما يحرمه دينه من ألوان الطعام والشراب وأسباب الترف امتناعاً كان يرقبه فيه ضميره ؛ وعلى الرغم من براعته فى عزف الموسيقى ، أقلع عنها لأنها ضرب من اللذة الحسية والظاهر أنه نفــذ ما صمم عليه وهو ألا ينفق على نفسه إلا ما كسبت يداه بالعمل[١١٦] فكأنه كان بمثابة القديس أوغسطين أجلس على العرش .

كان « شاه جهان » قد خصص نصف دخله لترقية العمارة وغيرها من الفنون ، أما « أورنجزيب » فلم يعبأ بالفنون ، وهدم ما فيها من آثار « الكفر » مدفوعاً بتعصب دينى ساذج ، وظل خلال نصف القرن الذى حكم البلاد فيه ، يحارب فى سبيل محو الديانات كلها من الهند إلا ديانته ؛ وأمر عماله فى الأقاليم وغيرهم من أتباعه أن يقوضوا كل المعابد التى تتبع الهندوس أو المسيحيين ، وأن يحطموا الأصنام جميعاً ، وأن يغلقوا مدارس الهندوس بغير استثناء ، فكان من جراء ذلك أنه فى عام واحد (١٦٧٩ – ٨٠) هدم ستة وستين معبداً فى « عنبر » وحدها ، وثلاثة وستين معبداً فى « شيتور » ، ومائة وثلاثة وعشرين معبداً فى « أودايبور[١١٧] وأقام مسجداً إسلامياً[١١٨] فى مكان

معبد كان قائماً فى بنارس وكان موضع قدسية خاصة عند الهندوس ، بغية الإساءة المتعمدة إليهم ، وحرم إقامة الشعائر الهندوسية علناً ، وفرض ضريبة فادحة على كل هندى لم يعتنق الإسلام[١١٩] ، فكان من نتيجة هذا التعصب الدينى أن خربت ألوف المعابد التى كان يتمثل فى بنائها ، أو تحتوى داخل جدرانها فنون الهند مدى ألف عام ، فيستحيل علينا اليوم إذا ما أرسلنا الأبصار فى جنبات الهند ، أن نعلم شيئاً مما كان لها من جلال وجمال .

استطاع « أورنجزيب » أن يحوّل حفنة من جبناء الهندوسيين إلى الإسلام لكنه حطم أسرته وبلاده معاً ، وائن عده بعض المسلمين على أنه من القديسين ، فقد عده ملايين الشعب الهندى الذى أخرست ألسنتهم وأرعبت قلوبهم ، شيطاناً رجيما ، وفروا من جباة ضرائبه وتضرعوا إلى الله داعين له بالموت ، نعم بلغت الإمبراطورية المغولية فى الهند أثناء حكمه أوج رفعتها ، إذ امتدت رقعتها إلى بطاح الدكن ، لكنها كانت قوية لا تقيم أساسها على حب الشعب ، وكان لا بد لها أن تنهار عند أول لمسة معادية قوية ، حتّى لقد بدأ الإمبراطور نفسه فى أواخر سنيه يتبين أنه قد جلب الدمار إلى تراث آبائه بورعه الضيق الأفق ، وإن ما كتبه فى فراش موته من خطابات ، ليُعدّ وثائق تساق لمأساتها ، يقول فيها :

« لست أدرى من أنا ، ولا إلى أين يكون مصيرى ولا أعلم ماذا عساه أن يصيب هذا الآثم الملىء بالذنوب ... لقد انقضت أعوامى بغير غناء ، كان الله ماثلا فى قلبى ، لكن عينى المظلمتين لم يشهدا نوره . . ليس لى فى المستقبل رجاء ، لقد ذهبت عنى الحمى ، لكن لم يعد لى من الجسد إلا إهابه لقـــد كنت كبير الإثم ولست أدرى أى عذاب أنا ملاقيه . . . . . وعليك سلام الله[١٢٠] » .

وأمر قبل موته أن تكون جنازته بسيطة إلى حد الزهد ، وألا ينفق فى كفنه إلا الروبيات الأربع التى كسبها بحياكة الطواقى ، وأن يغطى نعشه بقطعة

من « الخيش » الساذج ؛ وترك للفقراء ثلاثمائة روبية كسبها بنسْخه صورةً من القرآن(١٢١)، ومات وعمره تسعة وثمانون عاماً ، بعد أن عُمِّر على الأرض أمداً أكثر جداً مما أراد له أهل الأرض أن يعيش .

ولم تمض بعد موته سبعة عشر عاماً حتى تحطمت إمبراطوريته إرباً إرباً ؛ وكان ما كسبه « أكبر » بحكمته من مناصرة الناس للحكومة ، قد أضاعه « جهان كير » بقسوته ، و « جهان » بإسرافه و « أورنجزيب» بتعصبه ؛ وكانت الأقلية المسلمة قد انهدمت قواها بحرارة الهند ، وفقدت النخوة العسكرية والقوة الجسدية التي كانت لها أيام شبابها ، ولم تأت إليها حملات جديدة من الشمال تشد أزر قواها المنهارة ، ثم حدث في الوقت نفسه أن بعثت جزيرة صغيرة نائية في الغرب بطائفة من تجارها لتحصد ما في الهند من كنوز ، ولم تلبث بعدئذ أن أرسلت مدافعها لتستولى على هذه الإمبراطورية الفسيحة الأرجاء ، التي تعاون فيها الهندوس والمسلمون على بنيان حضارة من حضارات التاريخ الكبرى .

الباب السابع عشر

حياة الشعب(*)

الفصل الأول

منتجو الثروة

البداية فى الغابة — الزراعة — التعدين — الصناعات اليدوية — التجارة — المـال — الضرائب — المجاعات — الفقر والغنى

لم تتلق تربة الهند بذور المدنية عن رضى ، فقد كان شطر عظيم منها تغطيه الغابات التى تسكنها وتذود عنها سباع ونمور وفيلة وثعابين وغيرها من الكائنات الفردية غير الاجتماعية التى تزدرى المدنية على مذهب روسو ؛ فقام صراع حيوى لانتزاع الأرض من هذه الأعداء ، ودام الصراع متخفيا وراء ستار الحركات الاقتصادية والسياسية جميعاً ؛ فقد كان « أكبر » يصيد النمور بالقرب من « مأثوره » ويمسك بالفيلة المتوحشة فى أماكن كثيرة تخلو منها اليوم خلو تاماً ؛ وقد كنت تصادف الأسد إبان العصور الفيدية أينما سرت فى الشمال الغربى من الهند أو فى أجزائها الوسطى ، أما اليوم فلا يكاد يوجد فى شبه الجزيرة كلها ؛ ولكن الثعبان وصنوف الحشرات لا تزال هناك ماضية فى حربها ؛ ففى سنة ١٩٢٦ فتكت الحيوانات المفترسة من الهنود بما يقرب من ألفين (من بين هؤلاء ٨٧٥ قتلتهم النمور الضارية فى أرجاء البلاد ، أما سم الأفاعى فقد أودى بعشرين ألفاً من الهنود ذلك العام[1] .

(*) ينطبق التحليل الآتى إلى حد كبير جداً على الهند بعد عصر الفيدا وقبل الحكم البريطانى ؛ وليذكر القارىء أن الهند اليوم فى تغير دائم ، وأن النظم والأخلاق وأساليب العيش التى كانت تميزها فيما مضى ، قد تكون فى طريقها إلى الزوال اليوم .

ولما خلصت الأرض على مر الزمن من الكواسر ، تحولت إلى حقول يزرع فيها الأرز والقطاني والذرة والخضر والفواكه ؛ فلقد رضيت الكثرة الغالبة من السكان خلال الشطر الأعظم من تاريخ الهند بعيش متواضع قوامه هذه الأغذية الطبيعيــة ، وكانوا يجففون اللحم والسمك والطيور لطائفتي المنبوذين والأغنياء(*)[٤] ، ولكي يجعلوا طعامهم أشهى – أو ربما أرادوا معونة أفروديت[٣] – زرعوا وأكلوا مقداراً غير مألوف في سائر البلاد من التوابل ، مثل البهار الهندي والزنجبيل والقرنفل والقرفة ، ولقد صادفت هذه التوابل تقديراً عظيماً عند الأوروبيين حتى لقد انطلقوا في البحار سعياً وراءها فوقعوا على نصف الكرة الأرضية الذي كان مجهولا ، مع أننا جميعاً نظن أن أمريكا قد كشفت لتكون للحب مسرحاً ، كانت الأرض في العصور الڤيدية ملكاً للشعب في الهند[٤] ومنذ أيام « شاندرا جوپتا موريا » أصبح العرف بين الملاك أن يطالبوا لأنفسهم بملكية الأرض كلها ، ثم يؤجرونها للزراع مقابل أجر وضريبة يدفعان كل عام[٦] وكان الري في العادة من واجبات الحكومة ، ولقد ظل أحد السدود التي شيدها « شاندرا جوپتا » حتى سنة ١٥٠ ميلادية ، ولا نزال نشاهد آثار القنوات القديمة في شتى أرجاء الهند ، كما نشاهد آثار البحيرة التي احتفرها احتفاراً « راج سنج » – راجپوت رانا في موار – لتكون خزاناً لمياه الري (١٦٦١) وأحاطها بحائط من المرمر طوله اثنا عشر ميلا[٧] .

والظاهر أن قد كان الهنود أول شعب استنجم الذهب[٨] فيحدثنا هيرودوت[٩] والمجسطي[١٠] عن « النمل الكبير الذي يحفر الأرض طلباً للذهب ، وهو أصغر قليلا في حجمه من الكلاب ؛ لكنه أكبر من الثعالب » وقد عاون هذا النمل عمال المناجم في إخراجهم للذهب ، وذلك حين يخدش

(*) كانت فيجايا نجار شذوذاً في القاعدة ، لأن أهلها كانوا يأكلون لحوم الطير والحيوان (ويحرمون منها البقرة والأبقار) كما يأكلون العسب والفئران والقطط[٤] .

الرمل فيظهر الذهب الدفين (*) ولقد كانت الهند مصدراً لكثير من الذهب لذى استخدم فى إمبراطورية فارس فى القرن الخامس قبل الميلاد ، كذلك استنجمت هناك الفضة والنحاس والرصاص والقصدير والزنك والحديد ــ وكان استنجام الحديد فى وقت باكر من التاريخ إذ كان فى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد[١١] ، وارتقت صناعة طرق الحديد وصبه فى الهند قبل ظهورها المعروف لنا فى أوربا بزمن طويل ؛ فمثلا أقام « فكرامادتيا » (حوالى سنة ٣٨٠ ميلادية) فى دلهى عموداً من حديد لا يزال محتفظاً ببريقه حتى اليوم ، بعد أن انقضى عليه خمسة عشر قرناً ؛ ولا يزال سر احتفاظه ببريقه من عوامل الصدأ والتآكل ، الذى يرجع إلى نوع المعدن ذاته أو إلى طريقة طرقه وصبه ، لا يزال ذلك لغزاً يحير علم المعادن الحديث[١٢] : وقد كان صهر الحديد فى أفران صغيرة توقد بالفحم من كبرى صناعات الهند قبل الغزو الأوربى لتلك البلاد[١٣] لكن هذه الصناعة الهندية لم تصمد لمقاومة مثيلتها فى أوربا ، لأن الثورة الصناعية فى أوربا علمتها كيف تؤدى هذه الصناعة بنفقات قليلة وعلى نطاق واسع ، ولم يعد الناس من جديد إلى استغلال الموارد المعدنية الغنية فى الهند واستكشافها إلا فى يومنا هذا[١٤] .

وظهرت زراعة القطن فى الهند فى عصر سابق لظهوره فى أى بلد آخر ، والأرجح أنه كان ينسج قماشاً فى « موهنجو دارو »[١٥] يقول هيرودوت نص هو أقدم ما بين أيدينا من مراجع عن القطن ، يقول فى جهل ممتع : « وهناك أشجار حوشية تثمر الصوف بدل الفاكهة ، وصوفها يفوق صوف الأغنام جودة وجمالا ؛ ويصنع الهنود ثيابهم من هذه الأشجار »[١٦] ، فلما شن الرومان حروبهم فى الشرق الأدنى ؛ عرفوا هذا « الصوف » الذى تثمره الأشجار[١٧] ؛ وروى لنا الرحالة العرب الذين زاروا الهند فى القرن التاسع بأنه « فى هذه البلاد يصنع الناس أثواباً يبلغون بها درجة من الكمال لا تصادف

(*) لسنا ندرى ما قصة هذا النمل ، لكن الأرجح عندنا أن المقصود حيوانات آكلة للنمل ، لا النمل ذاته .

لها مثيلا فى أى مكان آخر - فهى من الحياكة والغزل على درجة من الرقة تسمح لك أن تُنْفذ الثوب من خاتم متوسط الحجم »[١٨] ، ونقل العرب فى العصر الوسيط هذا الفن عن الهند ، ومن الكلمة العربية « قطن » أخذنا نحن كلمتنا الإنجليزية[١٩] وكلمة « موسلين » أطلقت بادئ ذى بدء على الغزل الرقيق الذى كان يصنع فى الموصل على غرار النماذج الهندية ، وكذلك كلمة « كالكو » (أى البَفْتة) أطلقت على مسماها لأن هذا الصنف من القماش جاءنا لأول مرة (١٦٣١) من مدينة كلكتا الواقعة على شواطىء الهند الجنوبية الغربية ؛ ويحدثنا « ماركوپولو » عن « جوچارات » فى سنة ١٢٩٣ ميلادية فيقول : « إنهم هنا يطرزون بالوشى على نحو من الدقة لا يبلغه أى بلد من بلاد العالم »[٢٠] وما تزال « شيلان » كشمير و « سجاجيد » الهند شاهدة حتى اليوم على براعة النسج الهندى من حيث حبك الديباجة وتصميم الزخارف[*] ، على أن النسج لا يعدو أن يكون واحداً من صناعات يدوية كثيرة فى الهند ، والنساجون إن هم إلا فئة واحدة من فئات الصناعة والتجارة التى أشرفت على تنظيم الصناعة فى الهند وإخضاعها لقواعد وأصول ، ونظرت أوربا إلى الهنود نظرتها إلى الخبراء فى كل ضروب الصناعة اليدوية تقريبا - صناعة الخشب وصناعة العاج وصناعة المعادن وتبييض القماش والصباغة والدبغ وصناعة الصابون ونفخ الزجاج والبارود والصواريخ النارية والأسمنت ؛ وغيرها[٢١] واستوردت الصين من الهند مناظير سنة ١٢٦٠ ميلادية ويصف لنا ، « برتييه » الرحالة الذى جاب الهند فى القرن السابع عشر يصف لنا الهند بأنها تطِنُّ بأصوات الصناعة طنيناً ؛ وكذلك رأى « فِيتْشى » سنة ١٥٨٥ أسطولا من مائة وثمانين مركباً تحمل متنوعات شتى من السلع على نهر جمنة .

(*) راجع السجادة الحمراء التى ترجع إلى القرن السابع عشر فى الهند ، والتى أهداها مستر ج . ب مورجن لمتحف الفن الماصمى (غرفة د ٣)

وازدهرت التجارة الداخلية ، حتى لقد كانت جوانب الطرقات ـ وما تزال ـ أسواقاً للبيع والشراء ؛ أما تجارة الهند الخارجية فهى من القدم مثل تاريخها[٢٢] فهناك آثار وجدناها فى سومر وفى مصر تدل على تبادل تجارى بين هذين القطرين والهند ، فى عهد ليس أحدث تاريخاً من سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد[٢٣] ؛ وازدهرت التجارة بين بابل والهند عن طريق الخليج الفارسى بين عامى ٧٠٠ ، ٤٨٠ قبل الميلاد ؛ ومن يدرى فلعل « العاج والقردة والطواويس » التى جاء بها سليمان ، إنما جاءت من المورد نفسه وعن نفس الطريق ؛ وأخذت سفن الهند تشق البحار إلى بورما والصين فى عهد « شاندرا جوپتا » وازدحمت أسواق الهند « الدراڤيدية » بالتجار اليونان الذين أطلق عليهم الهنود اسم « ياڤانا » (أى الأيونيين) ، وكان ذلك فى القرون التى سبقت والتى لحقت مولد المسيح[٢٤] ؛ وكذلك اعتمدت روما فى أيام ترفها المادى ، على الهند فى استيراد التوابل والعطور والدهون ، ودفعت أثماناً عالية فيما ابتاعته من الهند من حرير ووشى وموصلى وأثواب الذهب ، حتى لقد اتهم « پلنى » روما بالإسراف لأنها كانت تنفق كل عام خمسة ملايين دولار على ما تستورده من الهند من أسباب الترف ؛ وكانت روما تستعين كذلك بالفهود والنمور والفيلة التى تأتى بها من الهند، على إقامة ألعابها فى المصارعة ، وتأدية طقوس القرابين عند الكولوسيوم[٢٥] ؛ وما حاربت روما الحرب البارثية إلا ليظل لها طريق التجارة إلى الهند مفتوحاً ؛ ثم حدث فى القرن السابع أن استولى العرب على فارس ومصر ، ومنذ ذلك الحين أخذت التجارة بين أوروبا وآسيا تمر خلال أيدى المسلمين ، ومن ثم قامت الحروب الصليبية ، وظهر كولمبس ، وانتعشت التجارة الخارجية من جديد فى ظل المغول ؛ ولهذا ازدهرت بالغنى مدينة البندقية ومدينة جنوا وغيرهما من المدن الإيطالية ، بسبب قيامها بما تقوم به الموانى للتجارة الأوروبية مع الهند والشرق ؛ وإن النهضة الأوروبية لتدين للثروة التى جاءت بها هذه التجارة ، أكثر مما تدين للمخطوطات التى جاء بها اليونان إلى إيطاليا ؛ وكان

« لأكبر » إدارة بحرية تشرف على بناء السفن وتنظم حركة الملاحة فى المحيطات فاشتهرت موانى بنغال والسند ببناء السفن ، وبلغت تلك الموانى بهذه الصناعة حداً من الإتقان حدا بسلطان القسطنطينية أن يصنع سفنه هناك بدل صناعتها فى الإسكندرية ، لقلة النفقات هناك ؛ بل إن « شركة الهند الشرقية » ذاتها بنت كثيراً من سفنها فى موانى البنغال(٢٦) .

واستغرق تطور النقد الضرورى لتيسير هذه التجارة عدة قرون ؛ فنى أيام بوذا كانت قطع النقد مستطيلة الشكل غليظة الصنعة ، وكانت تصدرها سلطات اقتصادية وسياسية مختلفة ، ولم تصل إلى الهند مرحلة النقد الذى تضمن الحكومة قيمته إلا فى القرن الرابع قبل الميلاد ، بتأثير فارس واليونان(٢٧) فأصدر « شرشاه » قطعاً نقدية جميلة الشكل من النحاس والفضة والذهب ، جعل الروبية العملة الأساسية فى أرجاء المملكة(٢٨) .

وفى عهد « أكبر » و « جهان كير » كانت قطع النقود فى الهند أرقى من مثيلاتها فى أية دولة أوربية حديثة من حيث تصميم شكلها من الوجهة الفنية ، وصفاء معدنها(٢٩) ، وكما كانت الحال فى أوروبا فى العصور الوسطى ، كذلك كانت فى الهند فى تلك العصور ، من أن نمو الصناعة والتجارة قد عاقته هنا وهناك كراهة دينية للربا .

يقول المجسطى : « إن الهنود لا يقرضون مالهم بالربا ولا هم يعرفون كيف يقترضون ؛ وإنه لما يجافى الأوضاع المقررة عند الهندى أن يقترف الخطأ فى حق غيره أو أن يحتمل الإيذاء من غيره ، ولهذا تراهم لا يبرمون عقوداً ولا يطلبون الضمانات(٣٠) » :

فإذا ما عجز الهندى عن استغلال ما ادخره فى مشروعاته التى يقوم بها بنفسه ، آثر أن يخفيه أو أن يشترى به جواهر لكونها ثروة يسهل إخفاؤها(٣١) ، ولعل عجزهم هذا عن اصطناع نظام ييسر القروض كان مما عاون « الثورة الصناعية » أن تمهد سبيل السيطرة الأوروبية على آسيا ؛ ومع ذلك فعلى الرغم

من كراهة البراهمة للاقتراض ، أخذت عمليات الاقتراض تزداد شيئاً فشيئاً ، وكانت نسبة الربح تختلف باختلاف الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها المقترض من اثني عشرة إلى ستين في المائة ، وكان المتوسط في جملته عشرين في المائة[٣٢] ، ولم يكن الإفلاس يتخذ وسيلة لتصفية الديون ، وإذا مات مدين عن دين ، كان على أبنائه وأبناء أبنائه إلى الجيل السادس أن ينوبوا عنه في الوفاء بذلك الدين[٣٣] :

وفرضت ضرائب باهظة على الزراعة والتجارة تدعيما لأركان الحكومة ، وكان على الفلاح أن يتنازل من محصوله عن مقدار يتراوح بين سدسه ونصفه ، وكذلك فرضت ضرائب كثيرة على تبادل السلع وإنتاجها كما كانت الحال في أوروبا في عصورها الوسطى ، وفي أوربا في عصرنا القائم[٣٤] ، وجاء « أكبر » فرفع ضريبة الأراضي إلى ثلث المحصول ، لكنه لقاء ذلك ألغى كل صنوف الضرائب الأخرى[٣٥] ، ولئن كانت هذه الضريبة على الأرض باهظة ، إلا أن من حسناتها أنها كانت ترتفع مع ازدهار المحصول وتهبط مع الأزمات ، وإذا ما أصيبت البلاد بمجاعة ، فقد كان الفقراء — على الأقل — يموتون دون أن تفرض عليهم الضرائب ، ولم تخل البلاد من سني المجاعة حتى في أيام « أكبر » ذات الرخاء (١٥٩٥—٨) ، والظاهر أن مجاعة سنة ١٥٥٦ أدت بالناس إلى أكل اللحوم البشرية وإلى الخراب الشامل ، إذ كانت الطرق رديئة والمواصلات بطيئة الحركة ، فلم يكن يسيراً على فائض منطقة من المناطق أن يطعم أخرى مما أصيب بالقحط .

وكما هي الحال في كل أرجاء العالم ، كان في الهند إذ ذاك تفاوت واسع بين الفقر والغنى ، ولكنه لم يبلغ ما يبلغه اليوم في الهند أو أمريكا ، ففي أسفل السلّم كانت هناك أقلية صغيرة من العبيد ، ويتلوهم صعوداً فئة « الشودرا » الذين لم يكونوا عبيداً بقدر ما كانوا مأجورين على عملهم ، ولو أن منزلتهم الاجتماعية كأجراء ، كانت تورث ، كما هي الحال في سائر المنازل الاجتماعية

بين الهنود ؛ وكان الفقر الذى وصفه « الأب دِبْوَا » (١٨٢٠)[٣٦] نتيجة الخمسين عاماً من الفوضى السياسية ؛ ولو أن حالة الشعب فى ظل المغول كانت مزدهرة نسبيّاً[٣٧] ، فلئن كانت الأجور متواضعة تتراوح بين ما يساوى ثلاث سنتات (السنت عملة أمريكية تساوى أربع مليمات) وتسعاً كل يوم فى عهد « أكبر » إلا أن الأثمان كانت بخسة بما يقابل تلك الأجور القليلة ؛ ففى سنة ١٦٠٠ كانت الروبية (وهى تساوى فى المتوسط ٥ر٣٢ سنت (تشترى ١٩٤ رطلا من القمح أو ٢٨٧ رطلا من الشعير ؛ وأما فى سنة ١٩٠١ فلم تكن الروبية تشترى إلا ٢٩ رطلا من القمح أو ٤٤ رطلا من الشعير[٣٨] ؛ ولقد وصَفَ الحالة إنجليزى سكن الهند سنة ١٦١٦ فوصف « وفرة المواد كلها » بأنها « وفرة عظيمة جداً فى طول البلاد وعرضها » .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : « إن كل إنسان هناك فى مستطاعه أن يجد زاده من الخبز فى وفرة لا تعرف قحطا[٣٩] » . وقال إنجليزى آخر طاف بالهند فى القرن السابع عشر : « إن نفقاته كانت تبلغ فى المتوســـط أربع سنتات كل يوم[٤٠] » .

بلغت ثروة البلاد ذروتها فى عهد « شاندرا جوپتا موريا » و« شاه جهان » فقد ضربت الأمثال فى أرجاء العالم كله بثروة الهند فى ظل ملوك « جوپتا » ؛ وصور « يوان شوانج » مدينة هندية بقوله إنها جميلة تزينها الحدائق وأحواض الماء ، ومعاهد الآداب والفنون ، « وسكانها من ذوى اليسار وبينهم أسَرٌ على ثراء عظيم ؛ وتكثر بالمدينة الفاكهة والأزهار ... وللناس مظهر رقيق يلبسون أردية الحرير اللامعة ، وحديثهم ... واضح يوحى بالمعانى ، وهم منقسمون نصفين متعادلين ، نصف يتبع الأرثوذكسية فى الدين ، ونصف آخر يمقت هذه الرجعية الدينية »[٤١] ، ويقول « إلْفِنْستون » : « إن الممالك الهندية التى ثل المسلمون عروشها كانت من الثراء بحيث كلَّ المؤرخون عن ذكر ما غنمه الغزاة هناك من جواهر هائلة المقدار ونقود كثيرة »[٤٢] ، ووصف « نِكُولو كونتى » ضفاف الكنج (حوالى سنة ١٤٢٠) فقال إنها تمتلىء بصف من

المدن الزاهرة واحدة فى إثر أخرى ، وكلها حسن التخطيط غنى بالحدائق والبساتين والفضة والذهب والتجارة والصناعة(٤٣) ؛ وكانت خزينة «شاه جهان» مفعمة بما فيها حتى لقد احتفر تحت الأرض غرفتين قويتين ، سعة كل منهما ١٥٠,٠٠٠ قدما مكعبة ، وتكاد تمتلىء بالفضة والذهب(٤٤) ويقول « فنسنت سمث » : « إن الشواهد المعاصرة لذلك الزمن لتقطع باليقين الذى لا يعرف الشك أن سكان الحضر الذين كانوا يسكنون أهم المدن ، كانوا من ذوى اليسار »(٤٥) ، ووصف الرحالة مدينتى « أجرا » و « فتحبور سكرى » بأن كلا منهما أعظم من لندن وأعرض منها ثراء(٤٦) ؛ ولقد ألفى « أنكتيل دُوپرون » نفسه حين طاف بأقاليم « الماهاراتا » سنة ١٧٦٠ « وسط العصر الذهبى ببساطته وسعادته ... فقد كان الناس باسمين أقوياء فى صحة جيدة(٤٧) » ، وزار « كلايف » مرشد أباد سنة ١٧٥٩ فقال إن تلك العاصمة القديمة للبنغال تساوى لندن التى عرفها فى عصره مساحة وعدد سكان وثراء ، وفيها من القصور ما لا تقاس إليه قصور أوربا . ومن الأغنياء رجال لا يدنو منهم غنىٌّ فى لندن(٤٨) ، ويقول « كلايف » : كانت الهند قطراً لا ينفد ثراؤه»(٤٩) ، ولقد حاكمه مجلس النواب على الإسراف فى الأموال التى اغتصبها لنفسه ، فدافع كلايف عن نفسه فى براعة ، إذ جعل يصف الغنى الذى وجد نفسه محاطاً به فى الهند - فمدنٌ غنية تعرض عليه أى مبلغ أراد لينجيها من فوضى النهب ، وأغنياء يفتحون له أسرابا تكدس فيها الذهب والجواهر أكداساً أكداساً ليأخذ منها ما أراد ، ثم ختم دفاعه قائلا : « إننى فى هذه اللحظة أقف هاهنا دهشاً كيف قنعت بالقليل الذى أخذت »(٥٠) .

١٦٦١/

الفصل الثاني

تنظيم المجتمع

الملكية – القانون – تشريع مانو – تطور نظام
الطبقات – نشأة البراهمة – امتيازاتهم ونفوذهم –
واجباتهم – دفاع عن نظام الطبقات

لما كانت الطرق رديئة والمواصلات عسيرة ، كان غزو الهند أيسر من حكمها ؛ فلقد حتّمت طبيعة سطحها أن تظل هذه البلاد الشبيهة بأن تكون قارة بأسرها ، خليطاً من دويلات مستقل بعضها عن بعض ، حتى جاءتها السكك الحديدية فوصلت ما تفرق من أجزائها ؛ وفي مثل هذه الظروف لا يمكن لحكومة أن تضمن لنفسها البقاء إلا بجيش قوي ؛ ولما كان الجيش بحاجة إلى قائد مستبد الرأي ليحكمه بكلمة منه دون التأثر بفصاحة الكلام يقوله غيره في شئون السياسة ، فإن صورة الحكومة التي تكونت في الهند هي الملكية بطبيعة الحال ؛ ولقد تمتع الناس بقدر كبير من الحرية في ظل الأسرات الحاكمة الوطنية ، وذلك من جهة يرجع إلى الاستقلال الذاتي الذي كانت تتمتع به القرى في الريف ونقابات العمال في المدن ، كما يرجع من جهة أخرى إلى القيود التي فرضها الطبقة الارستقراطية البرهمية على سلطة الملك[٥١] ؛ وإنك لتجد في قوانين « مانو » تعبيراً عن الأفكار الرئيسية في الهند عن الملكية ، على الرغم من أن تلك القوانين أقرب إلى التشريع الخلقي منها إلى التشريع القانوني لأوضاع الحياة الجارية ؛ فعندهم أن الملكية ينبغي أن تكون قوية الشكيمة في حياد ، وأن ترعى مصالح الناس رعاية الوالد لولده[٥٢] ؛ غير أن الحكام المسلمين كانوا أقل مبالاة من أسلافهم الهنود بهذه المثل العليا وهذه القيود ، لأنهم كانوا أقلية فاتحة ، فأقامت حكمها صراحة على تفوقها العسكري ؛ فيقول مؤرخ مسلم في وضوح جميل : إن

الجيش هو عدة الحكومة وعتادها[٥٣] » ، وقد كان « أكبر » شذوذاً فى هؤلاء الحكام المسلمين ، لأنه اعتمد قبل كل شىء على رضى الشعب لازدهاره تحت حكومته المستبدة فى اعتدال ورحمة ؛ ولعل حكومته فى ظروفها كانت خير حكومة يمكن قيامها ؛ وأهم عيوبها — كما أسلفنا — هو اعتمادها على شخصية الملك ، لأن السلطة العليا المرتكزة فى يد الحاكم كانت خيراً فى عهد « أكبر » لكنها كانت شراً مستطيراً فى عهد « أورنجزيب » ؛ ولما كان الحكام الأفغان والمغول قد ارتفعوا إلى سلطانهم بالعنف ، فقد كانوا دائماً عرضة إلى الهبوط عن سلطانهم بالاغتيال ، وكادت الحروب التى تُشَنُّ ليحلّ ملك مكان آخر ، تكلف من النفقات ما تكلفه الانتخابات فى عصرنا الحديث ، ولو أن تلك الحروب لم تكن عقبة فى سبيل اطراد الحياة الاقتصادية كما هى الحال مع انتخاباتنا اليوم(*) .

لم يكن القانون فى ظل الحكام المسلمين إلا إرادة الإمبراطور أو السلطان ؛ أما فى ظل الملوك الهنود فقد كان مزيجاً مضطرباً من الأوامر الملكية ومن تقاليد القرى وقواعد الطبقات وكان الذى يتولى القضاء رئيس

(*) إن قصة اغتيال ناصر الدين لأبيه غياث الدين سلطان دلهى بالسم (١٥٠١) توضح الفكرة الإسلامية عن الاستيلاء على العرش بطريقة سلمية ، وها هو ذا « جهان كير » الذى لم يدخر وسعاً فى إنزال أبيه « أكبر » عن عرشه ، يقص القصة :

« وبعد ذلك ذهبت إلى البناء الذى يحتوى على أضرحة الحكام الخلجيين ، وكان بينهما قبر ناصر الدين الذى وصم وصمة العار إلى الأبد ، فكلنا يعرف أن هذا المنكود قد ارتقى إلى العرش باغتيال أبيه ، فجرّعه السم مرتين ، واستطاع أبوه فى كلتا الحالتين أن يطهر آثار السم بترياق كان يحمله على ذراعه ؛ وفى المرة الثالثة مزج الإبن قطرات السم بكوب من الشراب وقدمه إلى أبيه بنفسه ... ولما كان أبوه يعلم ما يبذله ابنه من جهود فى سبيل التخلص منه ، فقد نزع عن ذراعه التميمة وقذف بها أمامه ، ثم أدار وجهه فى خضوع وخشوع إلى عرش الخالق وقال : اللهم إنى قد بلغت من العمر ثمانين عاماً أنفقتها فى ازدهار وسعادة لم يتمتع بمثلهما ملك قبلى ؛ ولما كانت هذه آخر لحظات حياتى ، فأضرع إليك اللهم ألا تحول بين ناصر وبين قتلى ، وأن تعد موتى أمراً من أمرك فلا تنتقم لى منه » ؛ وبعد أن فاه بهذه الكلمات جرع ذلك الكوب من الشراب المسموم بجرعة واحدة وأسلم روحه إلى ربه .

ويضيف « جهان كير » الفاضل إلى ذلك قوله . « ولما ذهبت إلى قبره (أى قبر ناصر) ركلته عدة ركلات »[٥٤] .

الأسرة ، أو رئيس القرية ، أو شيوخ الطبقة ، أو محكمة النقابة ، أو مدير الإقليم أو وزير الملك أو الملك نفسه(٥٥) على أن المحاكمة كانت سريعة الإجراء سريعة الحكم ، ولم تعرف البلاد نظام المحاماة فى القضايا على أيدى رجال القانون إلا بعد قدوم البريطانيين(٥٦) وكان التعذيب مألوفاً فى عهود الأسرات الحاكمة كلها حتى ألغاه « فيروزشاه »(٥٧) والموت هو العقوبة فى عدد كبير جداً من الجرائم ، فقد كانوا يعاقبون به سرقة المنازل وإتلاف أملاك الملك الخاصة ، أو السرقة على النطاق الذى نراه اليوم يجعل من السارق عموداً من عمدان المجتمع وكانت سائر ألوان العقاب قاسية تشمل بين أنواعها بتر الأيدى والأقدام والأنوف والآذان وفقء الأعين وصب الرصاص المصهور فى الحلوق وتهشيم عظام الأيدى والأقدام بمطرقة خشبية وإحراق الجسم بالنار وإنفاذ المسامير فى الكفوف والأقدام والصدور ، وقطع أعصاب المفاصل ونشر الناس بمناشير الخشب ثم قطع جسومهم أجزاء وإنفاذ القضبان المسنونة فيهم وشيهم على النار أحياء وقذفهم تحت أقدام الفيلة لتدقهم دقاً حتى يموتوا أو رميهم فريسة للكلاب المتوحشة الجائعة(*)(٥٨) .

ولم يكن هناك تشريع قانونى واحد يشتمل الهند بأسرها ، فكان يحل محل القانون فى شئون الحياة اليومية ما يسمونه « ذارماشاسترا » أى النصوص العرفية التى تفصل ما للطبقات من نظم وواجبات ، والذى كتب هذه النصوص رجال من البراهمة ، كتبوها من وجهة نظر برهمية خالصة ، وأقدم هذه النصوص ما يسمى « بتشريع مانو » ، ومانو هذا هو السلف الأسطورى الذى تسلسلت عنه جماعة المانوية (أو مدرستها الفكرية) المؤلفة من براهمة بالقرب من دلهى ؛ وقد صورته هذه النصوص ابناً لله يتلقى القوانين من براهما نفسه(٥٩) وهذا التشريع مؤلف من ٢٦٨٥ بيتاً من الشعر ، كانوا يرجعونه إلى سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد . لكن الباحثين اليوم يردونه إلى القرون الأولى بعد ميلاد المسيح(٦٠)

(*) وتجد فى كتاب ديبوا ص ٦٥٩ أنواعاً من العقاب أدق من هذه فى إظهار روح الشر .

ولقد أريد بهذا التشريع بادئ الأمر أن يكون بمثابة الدليل أو الكتاب الصغير الذى يرشد براهمة المانوية هؤلاء إلى أوضاع السلوك الصحيح ، لكنه أخذ على التدريج يتطور فيصبح تشريعاً يحدّد قواعد السلوك للمجتمع الهندى كله ، وعلى الرغم من أن ملوك المسلمين لم يعترفوا به قط ، إلا أنه اكتسب كل ما للقانون من قوة داخل حدود نظام الطبقات ، وستتبين خصائص هذا التشريع إلى حدما خلال الصفحات الآتية بما أوردناه فيها من تحليل للمجتمع الهندى وأخلاقه ، لكنه على وجه العموم كان يتسم بمظهر خرافى من حيث قبوله لمبدأ المحاكمة بالمحنة(*) وتطبيقه تطبيقاً متزمتاً لقانون العين بالعين والسن بالسن ، وإشادته مرة بعد مرة بطبقة البراهمة فى فضائلها وحقوقها ونفوذها(٣٦) وكان من تأثير هذا الكتاب أن زاد زيادة عظيمة من سيطرة نظام الطبقات على المجتمع الهندى .

كان هذا النظام الطبقى قد ازداد تزمتاً وتعقيداً منذ العصر الفيدى ، لأن طبيعة النظم الاجتماعية من شأنها أن تزيد تلك النظم صلابة على مر الزمن ، ولأن اجتياح الهند — من جهة أخرى — بالشعوب الأجنبية والعقائد الخارجية قد زاد من صلابة نظام الطبقات ليقوم سداً قوياً يحول دون امتزاج دم المسلمين بدم الهنود ، فقد كان أساس الطبقات فى العصر الفيدى هو اللون ، ثم أصبح الأساس فى العصور الوسطى الهندية هو المولد ، وكان معنى التقسيم الطبقى شيئين ،

(*) « الأب ديبوا » صادق على الجملة ، على الرغم من عدم عطفه على الهنود ، وهو يصور لنا المحن التى كانوا ينزلونها بالمتهمين فى عصره (١٨٢٠) فيقول : « وهناك أنواع أخرى كثيرة للمحاكمة بالمحن ، منها أن يغلى الزيت ممزوجاً بروث البقرة وعلى المتهم أن يدس فيه ذراعه حتى المرفق ؛ ومنها محنة الثعبان ، وتفصيلها أن يوضع ثعبان من أخطر الثعابين سماً فى سلة مقفلة ، ويضعون فى السلة خاتماً أو قطعة من النقود ، وعلى المتهم أن يخرج هذه القطعة أو ذلك الخاتم وعيناه معصوبتان ؛ فإذا لم يُصَب جلده بحروق فى الحالة الأولى ، أو إذا لم يعضه الثعبان فى الحالة الثانية ، عد ذلك برهان براءته القاطع »(٦٢) .

معناه من جهة وراثة الوضع الاجتماعى ، ومعناه من جهة أخرى قبول كتاب « ذارما » — أى قبول ما تفرضه التقاليد على أفراد كل طبقة من التزامات وصنوف أعمال .

وعلى رأس الطبقات وأكبر المستفيدين من نظامها ، هم الثمانية الملايين من ذكور طبقة البراهمة(٦٤) ؛ وكانت طبقة البراهمة هذه قد أصابها الضعف حيناً من الزمن بسبب نهضة البوذية فى عهد « أشوكا » لكن البراهمة بما كان لهم من دأب وصبر يتصف بهما الكهنة على اختلاف أوطانهم ، مالوا للحوادث ، ثم استعادوا نفوذهم وسيادتهم فى ظل ملوك « جوبتا » وما نزال نرى وثائق منذ القرن الثانى بعد الميلاد بمنح عظيمة — خصوصاً إقطاعيات من الأرض — تُوهَبُ لطبقة البراهمة(٦٥)(*) وكانت هذه المنح — شأنها شأن أملاك البراهمة كلها معفاة من الضرائب حتى جاء البريطانيون(٦٦) فتشريع مانو يحذر الملك من فرض ضريبة على برهمى ، حتى إن نضبت كل موارد المال الأخرى ، لأن البرهمى إذا ما ثار غضبه يستطيع أن يسحق الملك وجيشه جميعاً بتلاوة لعنات ونصوص سحرية(٦٧) ؛ ولم يكن من عادة الهنود أن يوصوا بشىء قبل موتهم فيما يختص بميراثهم ، لأن من تقاليدهم أن أملاك الأسرة لا بد أن تظل ملكاً مشاعا للأسرة كلها وهى تنتقل انتقالا آليا من موتى الذكور فى الأسرة إلى أحيائهم(٦٨)(**) لكن الأوربيين بما يسودهم من نزعة نحو الفردية ، لم يكادوا يدخلون فى الهند نظام الوصايا ، حتى رحب به البراهمة ترحيباً عظيما ، ليتخذوا منه حيناً بعد حين وسيلة للاستيلاء على الأراضى لأغراض كهنوتية(٧٠) وكان أهم عنصر فى تقديم القرابين للآلهة هو الرسوم التى تدفع للكاهن المشرف على إقامة الطقوس الخاصة بذلك ، ورأس التقوى كلها هو السخاء فى دفع تلك الرسوم(٧١) وكذلك كان من موارد الكهنة الخصبة الإتيان بالمعجزات

(*) يعتقد « تود » أن بعض هذه الوثائق مزوّر تزويراً دفعت إليه التقوى الدينية(٦٦) .

(**) لكن جماعة الدرافيديين تنقل الإرث إلى طبقات إناثهم(٦٩) .

وغير ذلك من ألوف الخرافات : فلقاء رسم معين يستطيع البرهمى أن يجعل من العاقر ولوداً ، ونظير أجر معلوم ينبيء البرهمىّ بما خُطّ فى لوح القدر ؛ وكان البراهمة يستخدمون رجالا يطلبون إليهم أن يتظاهروا بالجنون وأن يعترفوا بأن هذا المس الذى أصابهم إنما جاءهم جزاء وفاقاً لما قتروا فى العطاء للكهنة ؛ وكان الرجل من البراهمة يُقصد فى كل حالات المرض أو المحاكمات أو حالات التشاؤم ببعض النذر السيئة أو الأحلام المزعجة أو البدء فى مشروع جديد ، كان الرجل من البراهمة يُقْصد فى كل تلك الحالات طلباً لمشورته ، وللمشير أجر مشورته(٧٢) .

وكان البراهمة يستمدون نفوذهم من احتكارهم للعلم ، فهم القائمون على صيانة التقاليد وهم الذين يدخلون على تلك التقاليد ما شاءوا من تعديل ، وهم الذين يتولون تربية النشء ، ويكتبون الأدب أو يقومون على نشر المكتوب منه ، وهم الخبراء بكتب الڤيدا التى هبط بها الوحى ولا يأتيها الباطل ، ولو أنصت رجل من طبقة « الشودرا » إلى تلاوة الكتب المقدسة ، امتلأت أذناه بالرصاص المصهور (هكذا تقول كتب القانون البرهمية) ، وإن تلاها هو انشقّ لسانه ، ولو حفظ شيئاً منها قُطع جسده نصفين(٧٣) . هذه النذُر وأمثالها — التى لم تُوَقّع فعلا إلا فى حالات نادرة — هى التى كان يلجأ إليها الكهنة ليصونوا لأنفسهم العلم فلا يشاركهم فيه مُعْتَد ؛ وهكذا أصبحت البرهمية مذهباً خاصاً بفئة معينة تحيط نفسها بسياج ، لا تأذن لأحد من غير أفرادها أن يسهم فى العلم به(٧٥) وينص تشريع مانو على أن يكون من حق البرهمى سيادته على سائر الكائنات(٧٦) على أن الفرد منهم لم يكن ليتمتع بكل ما للبراهمة من نفوذ وامتيازات حتى ينفق فى مرحلة الاستعداد أعواماً كثيرة ، وبعدئذ « يولد ولادة جديدة » وتُجْرى له طقوس الخيط الثلاثى(٧٧) ، فإذا ما تم له ذلك ، أصبح منذ هذه اللحظة كائناً مقدساً ، وأصبح شخصه وملكه مما لا يجوز عليه الاعتداء ؛ بل يذهب « مانو » فى ذلك بعيداً فيقرر أن « كل

حا هو كائن فى الوجود ملك البراهمة »(٧٨) ؛ وكان لا بد لصيانة الطبقة البرهمية من مِنَح عامة وخاصة ـ وهى لا توهب لهم على سبيل الإحسان ، بل من باب الواجب المقدس(٧٩) وكان السخاء فى العطاء للبرهمى من أسمى الواجبات الدينية ؛ ويستطيع البرهمى الذى لا يجد ترحيباً كريماً فى أحد المنازل أن يذهب عن صاحب البيت كل ما كان استحقه من جزاء عن حسناته السابقة جميعاً(٨٠)(*) ولو اقترف البرهمى كل جريمة ممكنة ، لما حَقّ عليه القتل ، فللملك أن ينفيه ، لكن لا بد له أن يأذن بالاحتفاظ بِملْكه(٨٣) ومن حاول أن يضرب برهميا ، كان لزاماً عليه أن يصلى عذاب النار مائة عام ، وأما من ضرب برهمياً بالفعل ، فقد حَقَّتْ عليه الجحيم ألف عام(٨٥) وإذا اعتدى رجل من الشودرا على عفاف زوجة رجل من البراهمة ، صودرت أملاكه وحكم عليه بالخصى(٨٦) وإذا قتل رجل من الشودرا زميلا له من الشودرا ، كان له أن يكفّر عن جريمته بعشر بقرات يهبها للبراهمة ، فإذا قتل أحداً من « القَيزيا » كانت كفارته للبراهمة مائة بقرة ، وإذا قتل أحداً من « الكشاترية » ارتفعت كفارته إلى ألف بقرة يعطيها للبراهمة ، أما إن قتل برهمياً فلا بد من قتله ، ذلك لأن جريمة القتل عندهم لم تكن إلا بقتل برهمى(٨٧) .

وكان على البرهمى فى مقابل هذه الامتيازات أعمال والتزامات كثيرة وفادحة ؛ فلم يكن يقوم بواجبات الكاهن العملية وكفى (**) ، لكنه كان إلى جانب ذلك يُعِدّ نفسه للمهن الكتابية والتربوية والأدبية ، وكان ينتظر منه

(*) يظهر أن بعض فئات البراهمة كان من حقهم بعض الأجور الإضافية يتقاضونها على هيئة متعة جنسية ، فبراهمة نامبوردى كانوا يتمتعون « بحق الليلة الأولى » عند كل عروس تزف فى منطقة نفوذهم ، وكهنة يوشتيمارْجيا فى بمباى ظلوا يحتفظون بهذا الحق حتى العصور الحديثة(٨١) ولو أخذنا بما يقوله (الأب دُيبوا) فإن كهنة معبد تيروباتى (فى جنوب الهند الشرقى) كانوا على استعداد لمعالجة العقم فى المرأة إذا ما قضت ليلة فى المعبد(٨٢) .

(**) لم يكن الكهنة كلهم من البراهمة ، وأخيراً لم يكن كثير من البراهمة كهنة ؛ ففى « الأقاليم المتحدة » تجد عدداً كبيراً منهم يشتغل بالطهى .

أن يدرس القانون وأن يحفظ كتب الڤيدا وكل واجب آخر من واجباته ، إنما يأتى بعد ذلك فى الأهمية[٨٩] ، ولو لم يستطع البرهمى سوى أن يتلو كتب الڤيدا ، فإنه بذلك وحده يصبح جديراً بطمأنينة النفس بغض النظر عما قام به غير ذلك من طقوس أو إنتاج[٩٠] ، أما إن حفظ عن ظهر قلب كتاب « رجْ ڤيدا » ، فإنه يستطيع بعد ذلك أن يحطم العالم تحطيما دون أن يُعَدّ ذلك منه اقترافاً لجريمة[٩١] ، وليس من حقه أن يتزوج من خارج طبقته ، فإن تزوج امرأة من طبقة الشودرا ، عُدّ أبناؤه من الطبقة الدنيا ، طبقة « الپاريا » ؛ وفى ذلك جاء فى كتاب مانو : إن الرجل الطيب العنصر بمولده إنما يفسد عنصره بصحبة الأدْنين ، أما من كان دنيا بمولده فيستحيل أن يسمو بصحبة الأعلين »[٩٢] ، وكان على البرهمى أن يستحم كل يوم ؛ وأن يعود فيستحم مرة أخرى إذا حلق له حلاق من الطبقة الدنيا ؛ وعليه أن يطهر المكان الذى أعده لنومه بروث البقر ، ولا بد له أن يراعى طقوساً دقيقة فى مباشرته لضرورات طبيعته[٩٣] ، ومحتوم عليه أن يمتنع عن أكل الحيوان بكافة أنواعه ، بما فى ذلك البيض ، وأن يمتنع كذلك عن أكل البصل والثوم ونبات الفُطْر ونبات الكُرّات ، ولم يكن يجوز له أى ضرب من ضروب الشراب غير الماء ، ويشترط أن يستخرجها وأن يحملها برهمى[٩٤] ، وتحرم عليه صنوف الدهون والعطور واللذة الحسية والجشع والغضب[٩٥] ، وإذا مس شيئاً نجساً ، أو لمس أجنبياً (حتى إن كان ذلك الأجنبى هو الحاكم العام للهند) كان لابد له من أن يطهر نفسه بالوضوء الذى تحدده الطقوس ، ولو اقترف إثماً ، كان لزاماً عليه أن يتقبل عقاباً أعنف مما يقع على مرتكب الإثم نفسه من طبقة دنيا ؛ فمثلا لو سرق رجل من طبقة الشودرا شيئاً ، حكم عليه أن يدفع غرامة قدرها ثمانية أمثال قيمة الشيء المسروق ، وإذا سرق رجل من طبقة « الڤيزيا » شيئاً دفع غرامة تساوى ستة عشر مِثْلا ، والرجل من « الكشاترية » يدفع اثنين وثلاثين مِثْلا ، وأما البرهمى فيدفع غرامة

قدرها أربعة وستين ميثلا ؛ وكان يستحيل على البرهمى أن يؤذى كائناً حياً(٩٧) .

وأخذت قوة الكهنة تزداد من جيل إلى جيل حتى أصبحوا أطول ما عرفه التاريخ من طبقات الأرستقراطية بقاءً على وجه الدهر ، وذلك لاعتدالهم فى مراعاة هذه القواعد من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأنهم وجدوا شعباً أثقلته فلاحة الأرض فأخضعته لتقلبات الجوالتى بدت لهم كأنها تقلبات أهواء شخصية ، فشغلهم ذلك كله عن النهوض بأنفسهم من الخرافة إلى نور العرفان ؛ فيستحيل أن نجد هذه الظواهر العجيبة فى أى مكان آخر غير الهند — وهى ظاهرة نموذجية تمثل بطء التغير فى الهند — وأعنى بها أن تظل طبقة عليا محتفظة بامتيازاتها وعلو مكانتها على مر العصور بكل ما شهدته من غزوات وأسَر حاكمة وحكومات مدى ٢٥٠٠ عام ؛ ولا ينافسهم طولَ البقاء إلا « الشاندالا » طريدة الطبقات ؛ أما فئة « الكشاترية » القديمة التى كان لها السلطان على الميدان الفكرى والسياسى فى عهد بوذا ، فقد توارت بعد عصر جوبتا ، وعلى الرغم من أن البراهمة اعترفوا بمحاربى « راچپوت » واعتبروهم بمثابة تطور طرأ على الطبقة المحاربة القديمة ، إلا أن الكشاترية — بعد سقوط راچپوتانا — لم يلبثوا أن دالت دولتهم ، وأخيراً لم يبق إلا طائفتان كبيرتان ، وهما طائفة البراهمة التى كانت طبقة الحكام فى الهند من الناحية الاجتماعية والفكرية ، ثم يأتى تحتهم ثلاث آلاف طبقة هى فى حقيقة الأمر عبارة عن النقابات الصناعية(*) .

ولو استثنيت نظام الزوجة الواحدة من حيث إساءة تطبيقه ، لجاز لك أن تقول إن نظام الطبقات أكثر النظم الاجتماعية سوء تطبيق ، ولولا ذلك لوجدت ما تقوله فى الدفاع عن هذا النظام ، فله حسنة التصفية الاجتماعية التى تصون ما تزعم أنه دم نقى من الشوائب ومن الانقراض اللذين ينتجان حتما عن تلك

(*) راجع الفصل التاسع ، فى قسمه الرابع لتلمّ بنظام الطبقات فى عصرنا .

قيود الامتزاج بالزواج : وكذلك لنظام الطبقات حسنة أخرى ، وهى تدعيمه لطائفة من عادات الطعام والنظافة التى كان يتحتم على كل إنسان أن يراعيها وأن يسمو إليها صوناً لكرامته ؛ وكذلك خلع ثوب النظام على ما بين الناس من تفاوت وفروق، لولاه لأصبحت فوضى بغير ضابط ، ووفر على الناس هذه الحمى التى تطغى عليهم فى عصرنا الحديث ، حمى الصعود فى سُلّم المجتمع والزيادة من كسب المال ، ونظم الحياة لكل إنسان بأن حدد له تشريعاً معيناً للسلوك فى طبقته ، كما أعطى أفراد الطبقة الواحدة وسائل تعينهم على الاتحاد فى العمل ضد كل استغلال أو استبداد ، ثم هيأ نظام الطبقات أيضاً مهرباً من الطغيان أو الدكتاتورية العسكرية اللذان لا محيص عن أحدهما بديلا للأرستقراطية وأتاح لبلد حرم الاستقرار السياسى بسبب ما قاساه من مئات الغزوات والثورات ، أتاح له نظاماً واستقراراً فى شئونه الاجتماعية والخلقية والثقافية ، لم ينافسه فيهما بلد آخر إلا الصين ، ولقد طرأ على الدولة مئات التغييرات الفوضوية ، لكن البراهمة احتفظوا باستقرار المجتمع بفضل نظام الطبقات ، وبهذا احتفظوا بالمدنيّة وازدادوا منها ونقلوها إلى الخلَف ، واحتملتهم الأمة صابرة ، بل احتملتهم فخورة بهم ، لأنه لم يغب عن إنسان واحد أنهم فى النهاية هم القوة الحاكمة التى ليس للهند عنها محيص .

الفصل الثالث

الأخلاق والزواج

« ذارما » – الأطفال – زواج الأطفال – فن الحب – الزنا – الحب الشعرى – الزواج – الأسرة – المرأة – حياتها العقلية – حقوقها – « البردة » – السوتى (أى موت الزوجة لموت زوجها) – الأرملة

إذا ما انقرض من الهند نظام الطبقات ، تحتم أن يطرأ على الحياة الخلقية فيها طور طويل الأمد تسوده الفوضى ، لأن التشريع الخلقى فى هذه البلاد قد ارتبط بنظام الطبقات ارتباطاً يكاد لا يكون له انفصام ، والأخلاق عندهم هى « ذارما » – أى أنها هى قواعد السلوك فى الحياة لكل إنسان كما تحددها له طبقته ؛ فلأن تكون هندوسىّ المذهب ، فليس معنى ذلك اعتناقك لعقيدة بقدر ما هو اتخاذك مكاناً معيناً فى نظام الطبقات ، وقبولك « الذارما » أى الواجبات التى تترتب على مكانك ذاك ، وفق ما تقضى به التقاليد والقوانين ؛ ولكل مكان من ذلك النظام التزاماته وقيوده وحقوقه ، ولا مندوحة للهندوسىّ الورع أن يسلك حياته ملتزماً تلك الالتزامات والقيود والحقوق ، واجداً فيها قناعة الراضى بالطريق الذى مُهِّد له لكى يسير فيه ، ولا يطوف بباله قط أن يجاوز حدود طبقته إلى طبقة أخرى ؛ جاء فى كتاب « بها جافاد جيتا[٩٨] » « خير لك أن تؤدى عملك المقسوم لك أداء سيئاً من أن تؤدى عملا مقسوماً لغيرك أداء حسناً » إذ « ذارما » للفرد من الناس هى بمثابة النمو الطبيعى للبذرة – تحقيق مرسوم الطريق لطبيعته كامنة فيها وقضاء مكتوب عليها[٩٩] ، ولقد بلغ هذا التصور للأخلاق من الرسوخ فى القِدم مبلغاً جعل من المتعذر على الهندوس جميعاً ومن المستحيل على الكثرة الغالبة منهم أن ينظروا إلى أنفسهم نظرة لا تجعلهم أعضاء طبقة معينة ، تهديهم وتقيدهم قوانينها ؛ وفى ذلك يقول

مؤرخ إنجليزى : « يستحيل تصور المجتمع الهندى بغير نظام الطبقات[١٠٠] » .

وإلى جانب « الذارما » الخاصة بكل طبقة على حدة ، نرى الهندوسيين يعترفون « بذارما » عامة ، أى التزامات تلتزم بها جميع الطبقات ، وتتضمن قبل كل شىء احتراماً للبراهمة وتقديساً للبقر[١٠١] ، ويأتى بعد ذلك فى الأهمية واجب النسل ، ففى تشريع « مانو » مايلى[١٠٢] : « بالنسل وحده يكمل الرجل ، فهو يكمل إذا ما أصبح ثلاثة — شخصه وزوجه وابنه » ، فليس الأبناء حسنة اقتصادية لآبائهم فحسب ، يعولونهم فى شيخوختهم بغير أدنى تردد فى هذا الواجب ، بل هم إلى جانب ذلك سيمضون فى عبادة الأسرة لأسلافها ، ويقدمون لأرواح هؤلاء الأسلاف طعاماً آناً بعد آن ؛ حتى لا تفنى أرواحهم إذا امتنع عنها الطعام[١٠٣]، وبناء على ذلك لم يعرف الهنود ضبط النسل ، وعُدَّ الإجهاض جريمة تساوى فى فداحتها جريمة قتل برهمى[١٠٤] ، نعم كان يحدث أحياناً أن تقضى الأمهات على الأجنة[١٠٥] ، لكن ذلك كان نادر الوقوع ، لأن الوالد كان يسره أن ينسل الأبناء ، ويفخر إذا كان له منهم عدد كبير ، وإن حنَان الشيوخ على الصِّغار بين الهنود لمن أجمل ظواهر المدنية الهندية[١٠٦] .

ولم يكد الطفل عندهم يشهد النور حتى كان يأخذ أبواه فى التفكير فى زواجه ، لأن الزواج — فى النظام الهندى — إجبارىٌّ للجميع ، والرجل الأعزب طريد الطبقات ، ليس له فى المجتمع مكانة ولا اعتبار ، وكذلك بالنسبة للفتاة إن طال بها الأمد عذراء بغير زواج ، فذلك عار أى عار[١٠٧] على أن الزواج لم يكن يترك لأهواء الفرد يختار من يشاء ، أو لدفعة الحب تدفع العاشق إلى زواج من يهوى ، بل كان الزواج عندهم أمراً حيوياً تهتم له الجماعة كلها والجنس كله ، فيستحيل أن يوكل أمره إلى العاطفة بما لها من قصر النظر بعواقب الأمور ، أو إلى المصادفة تجمع من شاءت[١٠٨] ، فلا بد أن يتولى الوالدان أمر زواج الوليد قبل أن تستولى عليه حمّى الرغبة

الجنسية فتقذف به إلى زواج مصيره – فى نظر الهنود – إلى خيبة الرجاء واليأس المرير : ولقد أطلق « مانو » اسم « زواج الجاندارفا » على الزيجات التى تتم باتفاق الزوجين ، ووصف أمثال هؤلاء وصفاً شائناً إذ وصفهم بأنهم وليدو الشهوة ؛ نعم إن التشريع يبيح مثل هذا الزواج ، لكن الزوجين عندئذ يوشكان ألا يجدا عند الناس شيئاً من الاحترام .

ولقد أدى النضوج المبكر بين الهنود ، الذى يجعل البنت فى سن الثانية عشرة مساوية لزميلتها فى أمريكا فى سن الرابعة عشرة ، أو الخامسة عشرة ، إلى خلق مشكلة عويصة فى النظام الاجتماعى والخلقى(*) فهل الأفضل أن يدبَّر الزواج بحيث يطابق سن النضوج الجنسى ، أم الأفضل أن يرجأ – كما فى أمريكا – حتى يبلغ الرجل نضوجه الاقتصادى ؟ والظاهر أن الحل الأول للمشكلة يؤدى إلى ضعف البنية فى أبناء الأمة(١١٠) ويزيد من عدد السكان زيادة سريعة لا تتمشى مع مقتضيات الظروف ، ويضحى بالمرأة تضحية تكاد تكون تامة فى سبيل النسل ؛ وأما الحل الثانى فيؤدى إلى مشكلة أخرى وهى التأخير الذى تأباه الطبيعة ، وإلى كبح الرغبة الجنسية كبحاً يؤدى إلى حبوطها ، كما يؤدى إلى الدعارة والأمراض السرية ؛ ولقد آثر الهنود لأنفسهم زواج الأطفال على اعتبار أنه أهون الشرين ، وحاولوا أن يخففوا من أخطاره بأن يجعلوا بين الزواج وبين إتمامه فترة تبقى فيها العروس مع والديها حتى يتم نضجها(١١١) ، هذا عندهم نظام اجتماعى قديم ، ومن قدمه جاءت قداسته ، وإنما نبتت جذوره بادئ ذى بدء من رغبة الناس فى منع التزاوج بين الطبقات تزاوجاً قد تسببه مجرد الجاذبية الجنسية العابرة(١١٢) ثم ازداد فى نفوس الناس

(*) يجب أن نضيف هنا أن غاندى ينكر أن يكون هذا التبكير فى النضوج قائماً على أساس جثمانى ، فهو يقول : « إنى أمقت وأكره زواج الأطفال ، ويهتز كيانى إن رأيت أرملة طفلة ، ولست أرى أمعن فى التخريف من خرافة تقول إن مناخ الهند يسبب التبكير فى النضوج الجنسى ؛ فالذى يسبب النضوج قبل أوانه هو الجو الفكرى والخلقى الذى يحيط بالأسرة فى حياتها »(١٠٩) .

قوة فيما بعد ، بسبب أن المسلمين الغزاة ، الذين لاتعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلا حتى لو لم يكونوا غزاة فاتحين ؛ كانت ديانتهم لا تحرم عليهم أن يسبوا النساء المتزوجات ليكنّ لهم إماء(١١٣) ، وأخيراً اتخذ النظام شكله الجامد الذى جعله تصميما عند الأبوين على وقاية ابنتهما من استثارة الذكور لحساسيتها الجنسية .

والدليل على أن هذه الحساسية عند البنت كانت مرهفة إلى حدما ، وعلى أن الذكر قد يعهد إليه أداء وظيفته البيولوجية لأقل مثير يثير شهوته ، ظاهر فى أدب العشق عند الهنود ، فكتاب «كاما سُوترا » ومعناها « مذهب الشهوة » هو أشهر كتاب من بين مجموعة كبرى كلها يعبر عن اشتغال عقولهم إلى حد ملحوظ بفنون العلاقة الجنسية فى صورتيها الجسدية والعقلية ؛ ويؤكد لنا مؤلف الكتاب أنه كتبه « وفق المبادئ التى جاءت فى الكتاب المقدس لفائدة العالم ؛ وكاتبه هو ڤاتسيايانا ، كتبه عندما كان يحيا حياة طالب دينى فى بنارس ، ولا يعنيه شىء فى الدنيا سوى التأمل فى ذات الله »(١١٤) ويقول هذا الناسك : « إن من يهمل فتاة ، ظناً منه أنها أكثر حياء من أن تكون موضع صلة جنسية ، تزدريه هذه الفتاة نفسها وتعده حيواناً يجهل طبيعة ما يدور فى عقل المرأة »(١١٥) ويصور لنا « ڤاتسيايانا » صورة جميلة لفتاة عاشقة(١١٦) لكنه يتجه بمعظم حكمته إلى تصوير فن الأبوين فى التخلص منها بالزواج ، وفن الزوج فى إشباع رغبات جسدها .

ولا يجوز لنا أن نفرض بأن الحساسية الجنسية عند الهنود قد انتهت بهم إلى إباحية أكثر من الحد المألوف عند غيرهم ؛ فقد أقام زواج الأطفال سداً فى وجه العلاقات الجنسية السابقة للزواج ؛ والعقوبات الدينية الصارمة التى كانوا ينذرون بوقوعها ليحملوا الزوجة على الوفاء لزوجها ، جعلت الزنا أصعب جداً وأندر جداً مما هو عليه فى أوربا أو أمريكا ؛ وكان الزنا فى الأعم الأغلب مقصوراً على المعابد ؛ ففى الأصقاع الجنوبية كانت رغبات الرجل الشهوانى

تشبعها له من كُنّ يطلق عليهن « خادمات الله » طائعات فى ذلك أوامر السماء ، وما خادمات الله — أو « دفاداس » كما يسمونهن — إلا العاهرات ؛ وفى كل معبد فى « تاميل » مجموعة من « النساء المقدسات » اللائى يستخدمهن المعبد أول الأمر فى الرقص والغناء أمام الأوثان ، ثم من الجائز أن يُستخدمن بعد ذلك فى إمتاع الكهنة البراهمة ؛ وبعض هؤلاء النسوة — فيما يظهر — قد قصرن حياتهن على عزلة المعابد وكُهّانها ، وبعضهن الآخر قد وسّع من نطاق خدماته بحيث يشمل كل من يدفع أجراً لمتعته ، على شريطة أن يدفعن لرجال الدين جزءاً من كسبهن عن هذا الطريق ، وكان كثير من زانيات المعابد — أو فتيات الرقص — يقمن بالرقص والغناء فى الحفلات العامة والاجتماعات الخاصة ، على نحو ما يفعل فتيات « الجيشا » فى اليابان ؛ وكان بعضهن يتعلم القراءة ، فيكنّ وسيلة أحاديث ثقافة فى المنازل حيث لا تجد الزوجة ما يشجعها على القراءة ، ولا يسمح لها بمخالطة الأضياف ، وهؤلاء الفتيات القارئات شبيهات بمن كنّ يُسمين hetairai عند اليونان : ويحدثنا نص مقدس أنه فى سنة ١٠٠٤ ميلادية كان فى معبد الملك الكولىّ « راجا راجا » فى تانجور أربعمائة امرأة من « خادمات الله » ؛ وأكسب الزمان هذه العادة صبغة الجلال ، فلم ير فيها أحد ما يتنافى مع الأخلاق ، حتى إن السيدات المحترمات كن آناً بعد آن يهبن ابنة إلى مهنة العُهر فى المعابد ، بنفس الروح التى يوهب بها الابن إلى الكهنوت[١١٧] ، ويصف « ديبوا » — فى أول القرن التاسع عشر — معابد الجنوب بأنها كانت فى بعض الحالات كانت « تتحول إلى بيوت للدعارة ولا شىء غير هذا ، وكانت عامة الناس تطلق على « خادمات الله » — بغض النظر عن مهمتهن فى بداية الأمر — اسم الزانيات ، ويستخدمونهنّ على هذا الأساس ؛ ولو أخذنا بقول هذا « الأب » الكهل ، الذى لم يكن أمامه ما يبرر أن يتعصب للهند فيما يكتب ، علمنا أن :

« واجباتهن الرسمية تتألف من الرقص والغناء داخل المعابد مرتين كل يوم ... وكذلك فى الاحتفالات العامة كلها ؛ وهن يؤدين الرقص أداء رشيقا إلى درجة مرضية ، على الرغم من أن طريقة الرقص تثير الشهوة وليس فى إشاراتهن شيء من الوقار ؛ وأما غناؤهن فيكاد كله يتألف من أشعار فاحشة تصف ما مرّ فى تاريخ آلهتهم من حوادث الإباحية الجنسية »(١١٨) .

فى هذه الظروف التى يسودها عُهْر المعابد وزواج الأطفال ، لم يبق أمام ما نسميه « بالحبّ الشعرى » إلا أضيق الفرص ، نعم إن التفانى المثالى الذى يبديه أحد الجنسين تجاه الآخر ، له آثاره الظاهرة فى الأدب الهندى – مثال ذلك ما نراه فى أشعار « شاندى داس » و « چاباديڤا » – لكنه فى الأغلب يُتَّخذ رمزاً للروح تسلم زمامها لله ؛ أما فى الحياة الواقعة ، فأكثر ما تظهر فيه هذه الروح هو تفانى الزوجة فى زوجها تفانياً كاملا ؛ وأحيانا ترى شعرهم الغزلى من الطراز الخيالى السامى كالذى يصوره شعراؤنا المحافظون على تقاليد الأخلاق المتزمتة من أمثال « تنسُنْ » و « لُنجِفِلُو » وأحيانا أخرى تراه من الطراز الجسدى الحسى كالذى نعرفه فى عصر اليصابات(١١٩) ؛ فهذا أديب منهم يوحّد بين الدين والحب ، ويرى الجانبين معاً متمثلين فى نشوة الدين وفى نشوة الحب ، وهذا أديب آخر يذكر قائمة من ثلاثمائة وستين عاطفة مختلفة تملأ قلب المحب ، ويَعُدّ الأشكال التى رسمتها أسنانه على جسد حبيبته ، أو يصف كيف أخذ يزين نهدىْ حبيبته برسوم أزهار من معجون الصندل العبق ؛ وكذلك يصف لنا مؤلف قصتى « نالا » و « دامايانتى » فى ملحمة « ماهابهاراتا » آهات المحبين الحزينة وشحوبهم كأحسن ما تراه عند الشعراء الجوالين فى فرنسا(١٢٠) .

لكن أمثال هذه الأهواء المتقلبة لم يُرْكن إليها إلا نادراً فى تقرير الزواج فى الهند ؛ ولقد أباح « مانو » ثمانية صنوف من الزواج ، كان أدناها فى القيمة الخلقية هو الزواج بالاغتصاب والزواج « بالحب » ؛ وأما الزواج بالشراء فهو

الصورة المقبولة على أنها الطريق المعقولة لتدبير الزواج بين رجل وامرأة ، فالمشرّع الهندى من رأيه أن صور الزواج التى تنبنى على أسس اقتصادية هى فى نهاية الأمر أسلم الصنوف عاقبة(١٢١) ، وفى أيام « دبْوا » كانت العبارة الهندية التى تعنى « يتزوج » ، والعبارة التى تعنى « يشترى زوجة » « عبارتين مترادفتين (١٢٢) »(*) :

وأحكم الزواج زواجٌ يدبره الوالدون مراعين فيه كل قواعد الزواج من داخل أو خارج ، فالشاب ينبغى أن يتزوج داخل طبقته الاجتماعية ، لكنه يختار زوجته من خارج مجموعته العائلية(١٢٣) ، وله أن يتزوج من زوجات كثيرات لكن واحدة منهن فقط يكون لها السيادة على الأخريات ، ويشترط فيها أن تكون من طبقته الاجتماعية ، على أن الأفضل — فى رأى مانو — أن يقتصر الزوج على زوجة واحدة(**)(١٢٤) وكان على الزوجة أن تحب زوجها فى تفان يصبر على المكاره ، وأما الزوج فلم يكن ينتظر منه أن يبدى لزوجته حباً شعرياً ، بل حماية أبوية(١٢٦) .

كانت الأسرة الهندية من الطراز الأبوى الصميم ، فالوالد هو السيد الكامل السيادة على الزوجة والأبناء والعبيد(١٢٧) وكانت المرأة مخلوقاً جميلا يُحَبّ ،

(*) يصف لنا سترابو (حوالى ٢٠ ميلادية) معتمداً على أرستوبولس « بعض العادات الجديدة غير المألوفة فى تاكسيلا فأولئك الذين يعجزون عن تزويج بناتهم بسبب الفقر يسوقونهن إلى ساحة السوق وهن فى عنفوان شبابهن ، فيسرن على صوت الأبواق والطبول (وهى الآلات نفسها التى كانوا يستخدمونها فى نداء المقاتلين إلى حومة القتال) وبهذا يجمعون حشداً من الناس ، فإذا ما أقبل رجل كائناً من كان أخذ الفتيات فى عرض ظهورهن حتى العواتق ، وبعدئذ كن يعرضن أجزاء من الأمامية ، فإذا أعجبت واحدة منهن رجلا ، ثم قبلت هى ذلك الرجل على شروط متفق عليها ، فإنه يتزوج منها »(١٢٨) .

(**) لو أخذنا برأى « تود » فمن المألوف فى أسرة راجبوت المالكة أن يختار الأمير مجموعة من الزوجات لكل يوم من أيام الأسبوع تختلف عن مجموعات سائر الأيام(١٢٩) .

لكنها أحط منزلة من الرجل ؛ تقول أسطورة هندية : إن « تواشترى » المبدع الإلهى ، حين أراد فى البداية أن يخلق المرأة وجد أن مواد الخلق قد نفدت كلها فى صياغة الرجل ، ولم يبق لديه من العناصر الصلبة بقية ، فإزاء هذه المشكلة طفق يصوغ المرأة من القصاصات والجذاذات التى تناثرت من عمليات الخلق السابقة ، يختار قصاصة من هنا وجذاذة من هناك :

« فأخذ استدارة القمر ، وتثنى الزواحف وتعلق المحلاق وارتعاش الكلأ ودقة قصبة الغاب وازدهار الزهور وخفة أوراق الشجر وانخراط خرطوم الفيل ونظرات الغزال وتجمع النحل فى خلاياه ، وبهجة أشعة الشمس المرحة وبكاء السحاب ، وتقلب الريح وجبن الأرنب وزهو الطاووس وطراوة صدر الببغاء ، وصلابة جلمود الصخر ، وحلاوة العسل ، وقسوة النمر ، ووهج النار الدافىء وبرودة الثلج وثرثرة أبى زريق ، وهديل الحمام ، ونفاق الكركى ووفاء الشكراقاكا ، ومزج كل هذه العناصر مزجاً صنع منه المرأة ثم وهبها للرجل »[١٣٦] لكن على الرغم من هذه العدة كلها ، لم يكن للمرأة فى الهند إلا أسوأ الحظوظ ؛ فمكانتها العالية التى بلغتها فى العصور الفيدية ، زالت عنها بتأثير نفوذ الكهنة وبفعل المثل الذى رسمه المسلمون ، فترى الروح العامة فى « تشريع مانو » موجهة ضدها فى عبارات تذكرنا بمرحلة أولى من مراحل اللاهوت المسيحى : « إن مصدر العار هو المرأة ، ومصدر العناء فى الجهاد هو المرأة ، ومصدر الوجود الدنيوى هو المرأة ، وإذاً فإياك والمرأة »[١٣٠] وفى فقرة أخرى نقرأ : « إن المرأة لا تقتصر قدرتها على تضليل الأحمق عن جادة السبيل فى هـــذه الحياة ، بل هى كذلك قادرة على تضليل الحكيم ، فهى تستطيع أن تمسك بزمامه وأن تخضعه لشهوته أو لغضبه »[١٣١] ولقد نص التشريع على أن المرأة طوال حياتها ينبغى أن تكون تحت إشراف الرجل فأبوها أولا وزوجها ثانياً وابنها ثالثاً[١٣٢] ، وكانت الزوجة تخاطب زوجها فى خشوع قائلةً له : « يا مولاى » و« يا سيدى » بل «يا إلهى» وهى تمشى خلفه

بمسافة إن مشيا على مرأى من الناس ، وقلما يوجه إليها هو كلمة واحدة[١٣٣] وينتظر من المرأة أن تبدى إخلاصها بخدماتها فى كل المواقف ، بإعدادها للطعام ، وبأكلها لما يتبقى بعد أكل زوجها وأولادها ، وبضمها لقدمى زوجها إذا حانت ساعة النوم[١٣٤] يقول مانو : « إن الزوجة الوفية ينبغى أن تخدم .... سيدها كما لو كان إلها ، وألا تأتى شيئاً من شأنه أن يؤلمه ، مهما تكن حالته حتى إن خلا من كل الفضائل »[١٣٥] أما الزوجة التى تعصى زوجها فمآلها أن تتقمص روحها جسدَ ابن آوى فى خلقها التالى[١٣٦] » .

ولم يكن نساء الهند يتلقين تعليما — كأخواتهن فى أوروبا وأمريكا قبل عصرنا هذا الحديث — إلا إن كنّ من سيدات الطبقة الراقية أو زانيات المعبد[١٣٧]. ففن القراءة كان فى عرفهم لا يليق بامرأة ؛ ذلك لأن سلطانها على الرجال لا يقوى به ، ثم هو يؤدى إلى نقص فتنتها ؛ يقول « طاغور » على لسان « شِتْرا » فى إحدى مسرحياته : « إن المرأة يسعدها أن تكون امرأة فقط — أن تلف نفسها حول قلوب الرجال بابتساماتها وتنهداتها وخدماتها وملاطفاتها ؛ فماذا يجدى عليها العلم وجليل الأعمال[١٣٨] » ؟ وليس من حقها أن تلم بكتب الفيدا[١٣٩] ، ففى الماهابهاراتا : « إذا درست المرأة كتب الفيدا كانت هذه علامة الفساد فى المملكة[١٤٠] »(*) ، ويروى المجسطى عن أيام « شاندراجوبتا » : « أن البراهمة يحولون بين زوجاتهم — ولهم زوجات كثيرات — وبين دراسة الفلسفة ؛ لأن النساء إن عرفن كيف ينظرن إلى اللذة والألم ، والحياة والموت ، نظرة فلسفية ، أصابهن مسٌّ من جنون ، أو أبَيْنَ بعد ذلك أن يظْلَلْنَ على خضوعهن[١٤١] » .

(*) لا يجوز لنا أن نقارن هذه الحالة بآرائنا فى أوربا وأمريكا اليوم ، بل ينبغى أن نوازنها بكراهة رجال الدين فى العصور الوسطى لقراءة عامة الناس الإنجيل ، ولتربية المرأة تربية عقلية .

ثلاثة أشخاص فى تشريع مانو لا يجوز لهم أن يملكوا شيئاً : الزوجة والابن والعبد ، فكل ما يكسبه هؤلاء يصبح ملكاً لسيد الأسرة(١٤٢) ؛ على أنه يجوز للزوجة أن تحتفظ بملكية المهر والهدايا التى جاءتها عند زواجها ، وكذلك يجوز لأم الأمير أن تحكم البلاد فى مكان ابنها حتى يبلغ الرشد(١٤٣) ؛ ومن حق الرجل أن يطلق زوجته لخيانتها الزوجية ، لكن الزوجة لا تستطيع أن تطلق زوجها لأى سبب من الأسباب(١٤٤) ، وفى مقدور الزوج إذا ما شربت زوجته الخمر أو إذا مرضت أو إذا شقت عليه عصا الطاعة أو كانت مسرفة أو شكسة ، أن يتزوج من غيرها فى أى وقت شاء (لا أن يطلقها) ؛ على أن فى « التشريع » فقرات توحى بالرفق المستنير فى معاملة المرأة : فلا يجوز ضربهن « حتى بزهرة » ولا يجوز مراقبتهن مراقبة تجاوز الحدود فى صرامتها ، لأن دهاء مكرهن عندئذ يجد سبيلا للشر ، وإذا أحببن جميل الثياب فمن الحكمة أن تشبع فيهن ما أحببن « لأن الزوجة إذا حرمت أنيق الثياب فلن تثير فى صدر زوجها ميلا إليها » على حين أنه « إذا زينت الزوجة زينة مبهجة ، اكتسب المنزل كله مسحة الجمال(١٤٥) » ، ويجب أن تخلى الطريق للمرأة كما تخليه للكهول الكهنة ، والواجب أن يطعم « الحاملات والعرائس والكواعب قبل سائر الأضياف(١٤٦) » ولئن فات المرأة أن تحكم باعتبارها زوجة ، فلها أن تحكم بوصفها أماً ، وإن كانت المرأة أمًّا لأطفال كثيرين ، استحقت عند الناس أعظم العطف والتقدير ؛ فحتى تشريع مانو الذى يؤيد سيطرة الوالد فى الأسرة ينص على أن « الأم أولى بالتوقير من ألف والد(١٤٧) » .

ولا شك أن دخول الأفكار الإسلامية كان عاملا على تدهور مكانة المرأة فى الهند بعد العصر الڤيدى ؛ فقد جاءت إليها عادة « البردة » (أى الستار) — وهى عزل النساء المتزوجات — مع الفرس والمسلمين ، ولذلك فهى أقوى جذوراً فى شمال البلاد منها فى الجنوب ؛ ولكى يحمى الأزواج الهود

زوجاتهم من المسلمين — وهذا عامل من عدة عوامل — فقد اصطنعوا نظام « البردة وتمسكوا به فى تزمت بلغ من شدته أن المرأة المحترمة لا تستطيع أن تبدى نفسها لغير زوجها وأبنائها ، ولا يمكنها الانتقال خارج دارها إلا مستورة بقناع سميك ؛ حتى الطبيب الذى يعالجها ويجس نبضها ، لا مندوحة له عن أداء واجبه ذاك خلال ستار[١٤٨] ؛ وإنه لمن الخروج على القواعد الخلقية فى بعض الأوساط أن تسأل عن زوجة غيرك أو أن تتحدث وأنت ضيفٌ إلى سيدات البيت الذى يضيفك »[١٤٩] .

كذلك عادة إحراق الأرامل على الكومة التى احترق فيها أزواجهن جاءت إلى الهند من خارج ، ويقول عنها « هيرودوت » إنها كانت عادة جارية بين السُّكَيْت القدماء وأهل تراقيا ؛ ولو كان لنا أن نصدقه فى روايته ، إذن لعلمنا أن زوجات الرجل من أهل تراقيا كن يقتتلن تسابقاً على امتياز القتل على قبر الزوج »[١٥٠] ، ولعل هذه الشعيرة قد هبطت إلى الهنود من عادة قديمة كادت تشمل شعوب العالم البدائية كلها ، وهى التضحية بواحدة أو أكثر من زوجات الأمير أو الغنىّ ، أو من خليلاته ، والتضحية معها بطائفة من عبيده ، وغير ذلك مما لابد من تقديمه قرباناً إثر وفاته ، وذلك ليُعنى هؤلاء بالميت فى الحياة الآخرة[١٥١] ؛ ويذكرها كتاب « أتار ڤاڤيدا » على أنها عادة قديمة ؛ أما « رجْ ڤيدا » فيذكر لنا أن هذه العادة فى العصر الڤيدى كانت قد خفّ شأنها حتى أصبحت محصورة فى مطالبة الأرملة بالرقاد على كومة الحطب التى أعدت لزوجها لحظة قبل إحراق جثته[١٥٢] .

ثم تعود قصيدة « ماهابهاراتا » فتصف هذه العادة الاجتماعية وصفاً يدل على عودتها كاملة بغير شعور من الناس بفداحة ما يفعلون ، وهى تذكر أمثلة

كثيرة لهذه العادة(*) ثم نضع للناس قاعدة عامة مؤداها أن الأرملة الطاهرة لاتحب أن تحيا بعد زوجها بل تراها تدخل النار فخورة بصنيعها(١٥٣) ، وكانوا فى هذه المناسبات يحرقون جسد الزوجة فى حفرة من الأرض ، أو يدفنونها حية ، كما كان يحدث بين قبيلة « تلوج » فى الجنوب(١٥٤) ، ويروى لنا سترابو أن عادة قتل الزوجة بعد موت زوجها كانت شائعة فى الهند أيام الإسكندر ، وأن قبيلة « كاثى » — وهى قبيلة تسكن البنجاب — اتخذت من هذه العادة قانوناً حتى لا تدس زوجة لزوجها السم فتقتله(١٥٥) ولا يذكر « مانو » عن هذه العادة شيئاً ، ولقد عارضها البراهمة أول الأمر ، لكنهم عادوا فقبلوها ، وأخيراً خلعوا عليها قداسة دينية تحميها من العبث ، وذلك بأن جعلوها مرتبطة بأبدية الرابطة الزوجية : فالمرأة إذا ما تزوجت رجلا كان عليها أن تظل زوجته إلى الأبد ؛ وستعود إلى الارتباط الزوجى به فى حيواته المقبلة(١٥٦) ، وهذه الملكية المطلقة من الزوج لزوجته ، اتخذت فى « راجستان » صورة ما يسمونه « جوهور » وهى عادة تقضى على الرجل من أهل راجبوت ، إذا ما أصابه نوع معين من الهزيمة ، أن يضحى بزوجاته قبل أن يتقدم هو إلى الموت فى ساحة القتال(١٥٧) ، وانتشرت العادة فى حكم المغول انتشاراً واسعاً على الرغم من كراهية المسلمين لها ، ولقد فشل ملوك المسلمين ، حتى « أكبر » بكل نفوذه ؛ فى زحزحة هذه العادة من النفوس ، وحاول « أكبر » ذات مرة أن يثنى عروساً هندية عن تقديم نفسها طعاماً للنار على كومة الحطب التى أحرقت خطيبها الميت ، وتوسل إليها البراهمة بما يؤيد رجاء الملك ، لكن العروس أصرت على التضحية فلما دنت منها ألسنة اللهب ، وكان « دانيال » — ابن « أكبر » — عندئذ ماضياً فى إقناعها بالعدول ، أجابته قائلة : « كفى » كفى » ؛ وحدث كذلك لأرملة أخرى أن رفضت مثل هذه التوسلات بالإقلاع عن التضحية بنفسها ، ووضعت إصبعها فى شعلة مصباح حتى التهمتها النار ،

(*) تسمى « سوتى » Suttee ومعناها « الزوجة المخلصة لزوجها » .

ولكونها أمسكت عن إظهار ألمها بأية علامة من علاماته ، فقد عبَّرت عن ازدرائها لأولئك الذين نصحوها بالإقلاع عن إحراق نفسها جرياً مع الطقوس(١٨٥) وفي « ڤيجاياناجار » كان قتل الزوجة هذا يتخذ صورةً جمعية ، فلا يكتفي فيه بقتل زوجة واحدة أو عدد قليل من زوجات الأمير أو القائد بعد موته ، بل كان لا بد لكل زوجاته أن يَتْبَعْنَهُ إلى الموت ؛ ويروى لنا « كونتي » إن (الرايا) أو الملك قد اختار ثلاثة آلاف من زوجاته البالغ عددهن اثني عشر ألفاً ، ليكنَّ مُقَرَّبات له « على شرط أن يحرقن أنفسهن مختارات عند موته ، وإن ذلك ليعد شرفاً عظيما لهن »(١٥٩) وإنه من العسير علينا أن نحكم إلى أي حد كانت الأرملة الهندية في عصور الهند الوسطى راضية النفس عن هذه العادة بقوة التأثير الديني والعقيدة ، وبقوة الرجاء في أن تعود إلى الاتحاد بزوجها في الحياة الآخرة .

وأخذت « السوتي » — قتل الزوجة بعد موت زوجها — تقل شيئاً فشيئاً كلما ازدادت الهند اتصالا بأوروبا ، ولو أن الأرملة لم تزل تعاني صعاباً كثيرة ؛ فما دام الزواج قد ربط المرأة بزوجها رباطاً أبدياً ، فإن زواجها مرة ثانية بعد موت زوجها كان يعد جريمة فادحة ، ومن نتائجه المحتومة أن يُحدث للزوج اضطراباً في حيواته المقبلة ؛ وعلى ذلك كان لا بد للأرملة وفق القانون البرهمي أن تظل بغير زواج وأن تحلق شعرها وتحيا حياتها (إذا لم تُؤْثر لنفسها القتل في نار زوجها) معنية بأطفالها ومشتغلة بأعمال البر والإحسان(١٦٠) ولم يكن يحكم على الأرملة بالفقر ، بل الأمر على عكس ذلك ، إذ كان لها الحق الأول في أملاك زوجها(١٦١) غير أن هذه القواعد لم تجد قبولا إلا عند النساء المحافظات على التقاليد من نساء الطبقتين العليا والوسطى — وهؤلاء نسبتهن ثلاثون في المائة من مجموع السكان — وأما المسلمون والسيخ والطبقات الدنيا فقد أهملوا تلك القواعد إهمالا تاماً(١٦٢) والرأي عند الهنود هو أن هذه العذرية الثانية التي تصطنعها الأرملة عندهم شبيهة بامتناع الراهبات في المسيحية عن الزواج

فنى كلتا الحالتين ترى طائفة من النساء يرفضن الزواج ويكرسن حياتهن لأعمال الإحسان(*) .

(*) عند النظر فى عادات الشعوب الأخرى ، يجب أن نذكر أنفسنا تذكيراً لا ينقطع بأن تقاليد الشعوب الأخرى لا يمكن الحكم عليها حكماً يقبله العقل ، ودق شريعا الخلق ، يقول تود . « فالباحث السطحى النظر ، الذى يطبق معياره هو على عادات الأمم كلها يرثى لحالة المرأة الهندية فى تدهورها رثاء يدفعه إليه عطف إنسانى مسعل ، لأنه سيجد تلك المرأة قليلة الرغبة فى مشاركته تلك العاطفة »(١٦٣) .

راجع الفصل التاسع « الثانى والعشرين فى الأصل » لتعلم ما طرأ فى عصرنا من تغيرات فى هذه العادات .

الفصل الرابع

آداب السلوك والعادات والأخلاق

الاحتشام الجنسى – الصحة – الملبس – المظهر – رقة الفن
عند الهنود – سيئات وحسنات – الألعاب – الأعياد – الموت

إن العقل الساذج قد يصعب عليه التصور بأن هؤلاء الناس الذين قبلوا نظما اجتماعية مثل زواج الأطفال وعُهْر المعابد وقتل الزوجة بعد موت زوجها ، هم كذلك غاية فى رقة الحاشية والاحتشام والمجاملة ؛ فلو غضت النظر عن عدد قليل من زانيات المعابد ، لوجدت البغاء نادراً فى الهند ، وألفيت العفة الجنسية مصونة إلى حد يستوقف النظر ؛ يقول « د بْوَا » الذى لا يعطف على الهنود فى كتابته : « لا بد من الاعتراف بأن آداب السلوك واحترام المعاملة الاجتماعية أوضح فى قواعدها وأكثر اتباعاً لدى طبقات الهنود كلها ، حتى أدنى هذه الطبقات منزلة ، منها عند أى شعب أوربى له ما للهنود من مكانة اجتماعية »(١٦٤) ؛ فالدور الرئيسى الذى يلعبه الجنس فى الحديث وفى النكات عند الغربيين ، لا تعرفه آداب السلوك بين الهنود ، فهذه الآداب تحرم تحريما قاطعاً كل علاقة علنية بين الرجال والنساء من شأنها أن تعبر عما بينهم من ارتفاع الكلفة ، وهى تعتبر التلاصق البدنى بين الجنسين فى الرقص شيئاً مرذولا قبيحاً(١٦٥) ؛ وتستطيع المرأة الهندية أن تذهب خارج دارها أنى شاءت دون أن تخشى من أحد اعتداء أو إساءة(١٦٦) ؛ بل إن الوضع فى عين الشرق على عكس ذلك ، إذ يرى الخطر فى ذلك واقعاً كله على الجنس الآخر ، فترى « مانو » يحذر الرجال : « إن المرأة نزاعة بطبعها دائماً أن تغرى الرجل ، ومن ثم كان واجباً على الرجل ألا يجلس فى عزلة مع امرأة حتى إن كانت من أقرب ذوات قرباه » ولا ينبغى لرجل أن ينظر إلى أعلى من عقبىْ فتاة عابرة(١٦٧) .

وتأتى النظافة فى منزلة بعد العبادة مباشرة ؛ فليست القواعد الصحية « بالخُلُق الأوحد » كما ظن أناتول فرانس ، بل هى عندهم جزء حيوى من العبادة ؛ ولقد سنّ « مانو » منذ عدة قرون تشريعاً يستلزم تهذيب البدن ، ففى تعليماته مثلا : « يجب على البرهمى أن يستحم فى الصباح الباكر وأن يزيّن جسده وينظف أسنانه ، ويغسل عينيه ويعبد الآلهة »(١٦٨) والمدارس الأهلية تجعل أولى المواد فى برامجها آداب السلوك الطيب والنظافة الشخصية ؛ فعلى الهندى ذى المكانة المحترمة أن يغسل جسده كل يوم وأن يغسل ثوبه الذى سيرتديه ، وإنه ، ليقشعر تقززاً إذا ما لبس الثوب — بغير غسل — أكثر من يوم واحد(١٦٩) ويقول سير « وليم هُيوبَرْ » : « إن الهنود يضربون المثل لنظافة الأجسام بين القبائل الآسيوية كلها ، بل لعلهم يضربونه بين أجناس العالم بأسره ، ولقد أصبح وضوء الهنود يجرى مجرى الأمثال(١٧٠)(*) .

وفيما يلى وصف عادات الأكل عند الهنود كما وصفها يوان شوانج منذ ألف وثلاثمائة عام :

« إنهم يندفعون إلى التطهر بدافع من أنفسهم ، لا يجبرهم عليه أحد ، فحتم عندهم أن يغتسل الآكل قبل وجبته ، ويستحيل أن تُقدَّم الفتات والبقايا لوجبة أخرى ؛ ولا تستعمل أوعية الطعام لأكثر من أكلة واحدة ، فما كان منها مصنوعاً من الخزف أو من الخشب يجب رميه بعد استعماله ، وأما ما كان منها مصنوعاً من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد ، وجب إعادة صقله ؛ ولا يلبث الهنود بعد فراغهم من طعامهم أن يلوكوا مساويكهم لتنظيف أسنانهم ، ولا يلمس أحد منهم أحداً إلا إذا اغتسلوا متوضئين »(١٧٢)

(*) قال هندى كبير — هو لاجبات راى — مخاطباً أوروبا : « قبل أن تعرف الشعوب الأوروبية شيئاً من قواعد الصحة بزمن طويل . وقبل أن تتبين فوائد فرجون الأسنان والاستحمام اليومى بزمن طويل ، كان الهنود بصفة عامة يتبعون العادتين ، فلم يكن فى منازل لندن أحواض للاستحمام حتى عشرين سنة مضت ، وكان فرجون الأسنان من أسباب الترف الكمالى(١٧١) .

فمن عادة البرهمى أن يغسل يديه وقدميه وأسنانه قبل كل وجبة وبعدها وهو يأكل بأصابعه من الطعام الذى يُقَدم على ورقة من أوراق الشجر اعتقاداً منه أنه مما يتنافى وقواعد النظافة أن يأكل مرتين من طبق واحد ، بسكين واحدة أو شوكة واحدة ، حتى إذا ما فرغ من طعامه ، غسل أسنانه سبع مرات[١٧٣] وفرجون أسنانه جديدة دائماً ، لأنها غصن شجرة يقطعه لتوه لأن الهندى يعتقد أنه مما يسىء إلى سمعته أن ينظف أسنانه بفرجون من شعر الحيوان ، أو أن يستعمل الفرجون الواحد مرتين[١٧٤] ، فما أكثر السبل التى يستطيع بها الناس أن يحتقروا بعضهم بعضا ؛ ولا ينفك الهندى يمضغ ورقة من أوراق نبات الفلفل التى تصبغ الأسنان صبغة قاتمة لا يرضاها لنفسه الأوروبى ، بل لا يرضاها الهندى نفسه ، لكن هذه المضغة مضافة إلى الأفيون الذى يأكله حيناً بعد حين ، يعوضانه عن امتناعه المألوف عن تدخين التبغ واحتساء المسكرات :

فى كتب القانون الهندى نصوص صريحة على ما ينبغى اتباعه من القواعد الصحية فى حيض المرأة[١٧٥] ، وفى تلبية نداء الطبيعة ؛ فلن تجد من القوانين ما هو أدق فى ذكر التفصيلات وأرْصَنُ فى طريقة التعبير ، من تلك التى تذكر طقوس التبرز عند البراهمة[١٧٦] فالبرهمى إذا ما انخرط فى سلك الكهنوت وجب ألا يستعمل فى هذه الطقوس إلا يده اليسرى ، ويجب أن يستخدم الماء فى تنظيف هذه الأجزاء ، وإنه ليعيد بيته نجساً إذا دخله الأوروبيون ، لأنهم يكتفون فى هذه العملية بالورق[١٧٧] ، وأما المنبوذون وكثيرون من طبقة الشوادرا فهم أقل من ذلك مراعاة للدقة ، وقد يزيلون هذه الضرورة الطبيعية فى أى مكان ، من جانب الطريق[١٧٨] ، ولذا فإن الأحياء التى تسكنها هذه الطوائف يُكتفى فيها من أجل الصحة العامة « بمجرور » مفتوح يشق فى وسط الطريق[١٧٩] .

وفى مناخ حار كمناخ تلك البلاد ، تكون الثياب نافلة ، فكنت ترى السائلين والأولياء الصالحين عراة الأجسام ، وبذلك العرى أكملوا درجات

السُّلم الاجتماعى ؛ ولقد تهددت إحدى طوائف الجنوب – كما فعلت قبيلة دوخوبور فى كندا – بالهجرة إلى مكان آخر لو اضطر أفرادها إلى لبس الثياب(١٨٠) ، وكانت العادة فى أواخر القرن الثامن عشر – على الأرجح – أن يسير الجنسان فى الهند الجنوبية (ولا يزال الناس على هذه الحال فى بالى) عراة فيما يعلو أوساطهم(١٨١) ، وكان الأطفال يكتسون فى الأغلب بخرزات وحاقات ؛ ومعظم الناس يمشون حفاة الأقدام ؛ وإن لبس الهندى الأصيل حذاء اتخذه من القماش ، لأنه لا يجوز تحت أى ظرف أن ينتعل حذاء من الجلد ؛ وعدد كبير من الرجال كان يكفيه من الثياب خرقة على ردْفيه ، فإذا أرادوا الزيادة من الغطاء لفوا أوساطهم بثوب ، وطرحوا طرفه المرسل على الكتف اليسرى ؛ وأما أهل راجپوت فكانوا يلبسون السراويل من كل لون وشكل ، وصداراً مخروماً بمنطقة فى أسفله ، ولفاعاً حول الرقبة ، وخُفّاً أو حذاء فى القدم ، وعمامة على الرأس ؛ جاءتهم هذه العمامة مع المسلمين ، ثم أخذها الهنود ، وجعلوا من عادتهم أن يلفُّوها لفاً متقناً حول رؤوسهم فى أشكال مختلفة تدل على طبقة لابسها ، لكنها فى جميع الحالات تتألف من قماش حريرى لا ينتهى طوله ، تظل تفكه بغير نهاية كأنه مسحور ، فقد يبلغ طول القماش فى العمامة الواحدة – إذا ما نشرته – سبعين قدماً(١٨٢) ؛ ونساؤهم يلبسن أثواباً فضفاضة من حرير يسمونها «سارى» أو يلبسن «خداراً» من نسيج البلاد ، يتلفعن به على أكتافهن ، ويربطنه عند الوسط ربطاً وثيقاً ، ثم يرسلنه على القدمين ، وهن يتركن أحياناً جزءاً من أجسادهن البرونزية عارياً تحت الثديين ؛ ومن عاداتهم كذلك أن يطلوا شعورهم بالزيت ليقيهم حرارة الشمس اللافحة ؛ أما الرجال فيفرقون شعورهم فى الوسط ، ثم يجمعون أطرافه فى حزمة خلف الأذن اليسرى ، وأما النساء فيضفرن بعض شعرهن حويّةً فوق الرأس ، ثم يرسلن بقية الشعر إرسالا ، وكثيراً ما يزينّه بالزهور ، أو يغطينه بلفاع ؛ فكان لرجالهم هندام لطيف ، ولفتياتهم جمال ، وجميعهم

ذوو قوام رائع[١٨٣] ، وكثيراً ما يكون الهندى من عامة الناس بقماشة ثوبه على ردفيه أكثر فى طلعته جلالا من دبلوماسى أوروبى كامل الثياب الرسمية .

ومن رأى « بيير لوتى » : « أنه مما لا يحتمل جدالا أن جمال الجنس الآرى يبلغ ذروة كماله ورقته فى الطبقة العليا فى الهند[١٨٤] » وكلا الجنسين ماهر فى استخدام الدهون للتجمل . ونساؤهم يشعرن كأنما هن عراة إذا كن بغير حلى ؛ وعندهم أن خاتماً يوضع فى جانب الأنف الأيسر يدل على الزواج ، وفى معظم الحالات ، تراهم يرسمون على الجبهة رمزاً يدل على العقيدة الدينية .

وإنه لمن العسير أن تنفذ خلال هذه الظواهر الخارجية لتصف أخلاق الهنود ، لأن كل شعب فيه خليط من فضائل ورذائل ، وترى الزائرين يختارون من هذه ما يروقهم بحيث يؤيدون وجهة نظرهم أو يزينون روايتهم بما يمتع : يقول « الأب دبوا » : « أظن أن أبشع رذائلهم هو الخيانة والخداع والغش ... وهى صفات شائعة بين الهنود جميعاً .... ويقيناً أنك لن تجد على الأرض شعباً يستخف بحلف اليمين أو شهادة الزور كما يستخفون[١٨٥] » . ويقول « وستر مارك » : « لقد قيل إن الكذب هو الرذيلة القومية عند الهنود »[١٨٦] ويقول ماكولى : « الهنود مخادعون متلونون[١٨٧] » فالكذب إذا اقترف بنية حسنة كان مغتفراً فى رأى « مانو » وفى مواضعات الحياة العملية ؛ فمثلا إن كان قول الصدق سيؤدى إلى موت كاهن ، فالكذب عندئذ له ما يبرره[١٨٨] لكن « يوان شوانج » يروى لنا فيقول « إنهم لا يعرفون الخداع ويرعون التزاماتهم التى أقسموا عليها ... وهم لا يعتدون على ما ليس لهم مستعمدين ، ويتنازلون عن حقوقهم أكثر مما تقتضى العدالة[١٨٩] » . ويقول « أبو الفضل » الذى لا يذهب بهواه مع الهنود ، يقول عن هنود القرن السادس عشر : « إنهم متدينون ، محببون إلى النفوس ، مرحون ، محبون للعدل ، زاهدون فى الحياة ، قادرون فى التجارة ، يدعون للصدق ، ويعترفون بالجميل ، ويتصفون بالوفاء

الذى لا حد له[١٩٠] » . ويقول عنهم «كير هاردى» الأمين : « إن أمانتهم مضرب الأمثال ، فهم يقترضون ويقرضون ، لا تلزمهم فى ذلك إلا كلمة غير مكتوبة ، ويكادون لا يعرفون عدم الوفاء للدين[١٩١] . ويقول قاض بريطانى فى الهند : « لقد عرضت أمامى مئات القضايا حيث كانت أملاك الفرد منهم وحريته وحياته متوقفة كلها على كذبة يقولها ، ومع ذلك يأبى على نفسه الكذب[١٩٢]. فكيف لنا أن نوفق بين هذه الشهادات المتضاربة؟ يجوز أن يكون التوفيق بينها غاية فى البساطة ، وهو أن بعض الهنود أمين وبعضهم خائن .

وكذلك قل إن الهنود غاية فى القسوة وغاية فى الرقة فى آن معاً ؛ فلقد استحدثت اللغة الانجليزية لفظة قصيرة قبيحة ، استعارتها من تلك الجمعية السرية العجيبة — التى تكاد تكون طبقة اجتماعية — جمعية « الغادرين » التى ارتكبت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر آلاف الجرائم الشنيعة ، وذلك — كما قالوا — بغية تقديم هؤلاء الضحايا قرابين للإلاهة «كالى»[١٩٢] ، وأما الكلمة التى استحدثتها اللغة الإنجليزية لتدل على هؤلاء الغادرين فهى **Jhugs** وقد كتب عنهم « فنسنت سمث » بلغة ليست غريبة عن عصرنا هذا ، فقـــال :

« هذه العصابات توشك ألا تخشى أحداً ، وتكاد تتمتع بحصانة تامة ... فلها دائما حُماةٌ أقوياء ، ولقد هبط الشعور الخلقى عند الناس هبوطا بحيث لا تشهد فيهم أثراً للجزع من هذه الجرائم المدبّرة التى يقترفها هؤلاء « الغادرون » . ذلك أن هذه الفئة المجرمة قد انخرطت فى مجرى أمور الحياة جزءاً منها لا يتجزأ ؛ وقبل أن يفتضح سر هذه الجمعية ، ... كان يستحيل عادة أن تظفر بدليل يثبت الجريمة على هؤلاء الغادرين ، حتى الذين اشتهروا منهم بين الناس[١٩٣] .

ورغم ذلك فالجرائم فى الهند قليلة نسبياً ، وحوادث الاعتداء نادرة ، فالعالم كله مُجْتمع على أن الهنود من الوداعة بما أوشك أن يكون جُبناً وضعفا[١٩٤] ،

فهم يجاوزون الحدود فى الزلف وحسن الطوية ، وقد طحنتهم رحى الغزو والحكومات المستبدة الأجنبية زمناً امتد وطال إلى حدٍّ أفقدهم القدرة على أن يكونوا من المقاتلين الأشداء ، إلا إذا فهمنا القتال بمعنى احتمال الألم ، عندئذ ترى لديهم من الشجاعة ما لا يشق لهم فيه غبار[١٩٥] ولعل أبشع سيئاتهم عدم المبالاة والكسل ، ولو أن هاتين الصفتين فى أعين الهنود ليستا من السيئات ، بل هما ضرورتان للمناخ ومواءمة أنفسهم لجوّ بلادهم ، مثل حلاوة الطبع ، التى تتصف بها الشعوب اللاتينية ، والحمى الاقتصادية التى جُنّ بها الأمريكيون والهنود حساسون ، عاطفيون ، وذوو أهواء وأصحاب خيال ؛ ولذلك تراهم أبرع فى الفن والشعر منهم فى الحكم والتنفيذ ، فلئن وجدتهم يستغلون بعضهم بعضاً استغلالا فيه من الشدة والعنف ما تلمسه فى المستغلين لسواهم فى أى بلد من بلاد العالم ، فقد كانوا كذلك يتصفون بسخاء لا يقف عند حد ، وهم أكرم أهل الأرض للضيف ، إذا ماغضضت النظر عن الشعوب الهمجية الأولى[١٩٦] فحتى أعداؤهم لا يسعهم إلا الاعتراف بحسن مجاملتهم[١٩٧] ، وهـذا هو إنجليزىّ سمح الأخلاق يلخص لنا تجاربه الطويلة فيعزو للطبقات العليا من أهل كلكتا « آداب السلوك المهذبة ووضوح التفكير وكماله وشعور التسامح والتمسك بالمبدأ ، مما يطبعهم بطابع السادة المهذبين فى أى بلد من بلاد العالم »[١٩٨].

والعبقرية الهندية فى عين الغريب عن البلاد تبدو حزينة سوداء ، لا شك فى أن الهنود لم يصادفهم فى الحياة كثير مما يبرر لهم المرح ، وتشير محاورات بوذا إلى أنواع كثيرة مختلفة فى اللعب ، بينها لعبة شديدة الشبه جداً بلعبة الشطرنج[١٩٩](*) ، لكن لا هذه الألعاب ولا التى أعقبتها تدل على فرح

(*) الشطرنج من القدم بحيث ترى نصف الشعوب القديمة تدعيه لنفسها لكن الرأى السائد بين الباحثين فى منشأ هـذه اللعبة هو أنها نشأت فى الهند ، ويقيننا أننا نجد هناك أقدم شبيه لها مما لا يحتمل الجدل (حوالى سـنة ٧٥٠ ميلادية) ، وكلمة شطرنج بالإنجليزية chess جاءت اشتقاقاً من الكلمة الفارسية شاه ومعناها ملك ، وكلمة « كش الملك » بالإنجليزية Checkmate =

ومرح كاللذين تراها فى ألعاب الغربيين ، وأدخل « أكبر » لعبة « البولو »(*) فى الهند فى القرن السادس عشر ، التى جاءت على الأرجح من بلاد فارس ثم شقت طريقها عَبْر التبت إلى الصين واليابان(٢٠٢) وكان يمنعه أن يلعب لعبة « باشيسى » (وهى تسمى اليوم پارشيسى) فى مربعات تحفر فى أرض فناء القصر فى « أجْرا » ، وكان يتخذ للعبة قطعاً حية من الإماء الجميلات(٢٠٣).

وكانت الأعياد الدينية الكثيرة تخلع لوناً زاهياً على حياة الشعب ، وأعظم هذه الأعياد « دورجا - بوجا » الذى يقام تكريماً للإلهة الكبرى أم الآلهات « كالى » ، فيأخذ الهنود فى الاحتفال والغناء عدة أسابيع قبل قدوم ذلك العيد ، ثم يأتى يوم الحفل العظيم ، فيسير موكب تحمل فيه كل أسرة تمثالا للإلهة ، ويتجه صوب الكنج حيث يلقون فى النهر بتلك التماثيل الصغيرة ، ثم يعود الجميع إلى ديارهم ليس على وجوههم شىء من علائم المسرح السابق .

= هى فى الأصل « شاه مات » أى « مات الملك » ويسميه العرب « شطرنج » ولقد أخذوا الكلمة واللعبة كلتيهما من الهند عن طريق العرب ، وكانت اللعبة فى الهند يطلق عليها اسم « شاطورنجا » ومعناها « الزوايا الأربع » - الفيلة والجياد والعربات الحربية والمشاة ؛ ولا يزال العرب يسمون القطعة التى هى بالإنجليزية **Bishop** بالفيل(٢٠٠) .

ويروى لنا الهنود أسطورة ممتعة يعللون بها نشأة اللعبة ، فتقول هذه الأسطورة إنه فى بداية القرن الخامس من التاريخ الميلادى ، أساء ملك هندى إلى أعوانه المحببين به من طبقتى البراهمة والكشاترية ، وذلك بأن أهمل مشورتهم ناسياً أن حب الشعب له أرسخ دعامة لعرشه ، فأخذ برهمى - يدعى سيسا - على نفسه أن يفتح عينى الملك الشاب باختراعه لعبة تكون فيها القطعة التى تمثل الملك - رغم سموها عما عداها فى الجلال والقيمة (كما هى الحال فى حروب الشرق) - إذا تركت وحدها تكاد تتجرد من كل حول وقوة ، ومن ثم جاءت لعبة الشطرنج ؛ ولقد أعجب الملك باللعبة إعجاباً دعاه إلى أن يطلب إلى سيسا أن يحدد لنفسه ما شاء من جزاء ، فطلب سيسا فى تواضع حفنة من أرز ، وإنما يحدد مقدارها بأن توضع حبة واحدة من الأرز فى المربع الأول من مربعات رقعة الشطرنج ، وعددها أربعة وستون ، ثم يضاعف فى كل مربع لاحق عدد حبات الأرز فى المربع السابق ، فوافق الملك من فوره ، لكنه سرعان ما دهش إذا رأى أن وعده ذاك يقتضى أن يدفع كل ما فى ملكه ، فانتهز « سيسا » هذه الفرصة السانحة ، وأشار إلى مولاه كيف يمكن للملك أن يضل عن جادة السبيل إذا ازدرى رأى مستشاريه(٢٠١) .

(*) وهى من كلمة فى التبت تنطق **Pulu** ، وجعلتها اللهجة الهندية البالتية **Polo** ومعناها كرة **Ball** راجع علاقة الكلمة باللاتينية **Pila** .

وأما الاحتفال « المقدّس » الذى كانوا يقيمونه تكريماً للإلهة « ڤاسانتى » فقد كان يصطبغ بشىء من المجون ، إذ يحملون - وهم مشاة فى صف - رموزاً للعلاقة الجنسية يهزونها هزات تمثل حركات العملية الجنسية[٢٠٥] وكان وقت الحصاد فى « شرتاناجپور » إيذاناً بإباحية خلقية « حيث يطّرح الرجال جانباً كل أوضاع التقاليد ، ويخلع النساء عن أنفسهن كل حياء ، ويترك للفتيات الحبل على الغارب يفعلن ما شئْن بغير قيود » ؛ وهنالك قبيلة تدعى « پارجانى » - وهى طبقة من الفلاحين تسكن تلال « راج محل » - تقيم احتفالا زراعياً كل عام ، يباح فيه لغير المتزوجات أن ينغمسن فى علاقات جنسية حرة من كل ضابط أو نظام[٢٠٦] .

ولا شك أن فى هذه الحفلات آثاراً من السحر الزراعى القديم الذى كان مراده أن يزيد الأسر والحقول خصوبة ؛ وأما حفلات الزواج التى تتمثل فيها أكبر حادثة فى حياة الهندى ، فقد كانت أكثر احتشاماً ، وكم من أب جلب على نفسه الخراب فى إعداد وليمة فاخرة بمناسبة زواج ابلته أو ابنه[٢٠٧] .

وفى ختام الحياة يقام حفل ختامى . هو الاحتفال بإحراق جثمان الميت ؛ فقد كانت الطريقة المألوفة فى أيام بوذا هى الطريقة الزرادشتية فى تعريض الجثة لسباع الطير ، إلا إن كان الميت من الأعلام البارزين ، فعندئذ تحرق جثته بعد موته ، على كومة من الحطب ، ثم يدفن رماده فى ضريح يحفظ ذكراه[٢٠٨] لكن هذه الطريقة فى إحراق الجثة عمت الناس جميعاً فيما بعد ، حتى لترى كل ليلة حطباً يجمع ويكوّم لإحراق الموتى ؛ وفى عصر « يوان شوانج » لم يكن من الحوادث النادرة أن يُقْبِل الكهول المتقدمون فى السن على الموت راضين ، فيطلبوا إلى أبنائهم أن يسبحوا فى زورق على نهر الكنج إلى منتصفه حيث يقذفون بأنفسهم فى نهر الخلاص[٢٠٩] . ومثل هذا الانتحار فى ظروف معينة قد صادف فى الشرق قبولا أكثر مما صادف فى الغرب ؛ فكان مباحاً فى عهد « أكبر » للكهول وللمرضى الذين لا رجاء

فى شفاههم ، ولأولئك الذين ابتغوا تقديم أنفسهم قرباناً للآلهة ؛ وإن بين الهنود آلافاً كان آخر عبادتهم أن يُجيعوا أنفسهم حتى الفناء ، أو أن يدفنوا أنفسهم فى الثلج ، أو يهيلوا على أنفسهم روث البقر ثم يشعلوا فيه النار ، أو أن يتركوا أنفسهم للتماسيح تلتهمهم عند مصب الكنج ؛ ولقد نشأ بين البراهمة نوع من « الهاراكيرى » (وهو اسم للانتحار عند اليابانيين يأتونه تخلصاً من عار) فينتحر المنتحر ليردّ عن نفسه أذى أو يحتج على إهانة ؛ وحدث أن فرض أحد ملوك راجبوت ضريبة على طبقة الكهنة ، فطعن عدد كبير من أغنى البراهمة أنفسهم انتحاراً بين يديه ، وهم يستنزلون عليه لعنة هى فى زعمهم أبشع اللعنات وأشدها أثراً - ألا وهى لعنة يستنزلها كاهن وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ؛ وتنص كتب التشريع البرهمى على أن من أراد أن ينتزع روحه بيده ، عليه صيام ثلاثة أيام ، وأما من حاول الانتحار وفشل فى إنجازه فعليه أن يؤدى أقسى ما عرفوه من كفّارة وتوبة[٢١٠]، ألا إن الحياة مسرح له مدخل واحد ومخارج عدة .

الباب الثامن عشر

فردوس الآلهة

لم تبلغ العقيدة الدينية من القوة أو الأهمية فى أى قطر من أقطار الأرض ما بلغته فى الهند ؛ فلئن أباح الهنود لحكومات أجنبية أن تقوم عليهم مرة بعد مرة ، فبعض السبب فى ذلك هو أنهم لم يأبهوا كثيراً من ذا عسى أن يحكمهم أو أن يستغلهم — فسواء أكان هؤلاء من بنى وطنهم أم من الأجانب — ذلك لأن الأمر الخطير فى رأيهم هو الدين ، لا السياسة ؛ الروح لا البدن ، هو الحيوات الآتية التى لا نهاية لعددها ، لا هذه الحياة العابرة ؛ وإن قوة الدين وتمكنها من أقوى الرجال بأساً لتظهر جلية فى اصطناع « أشوكا » حياة القديسين ، وفى إقبال « أكبر » على الديانة الهندية إقبالا كاد يكون تاماً ؛ وها نحن أولاء فى عصرنا هذا نرى أن من وحّد أجزاء الهند أمة واحدة رجل أقرب إلى القديسين منه إلى رجال السياسة .

الفصل الأول

الشطر الثانى من تاريخ البوذية

البوذية فى أوجها – البلاغان – « ماهايانا » – البوذية
والرواقية والمسيحية – تدهور البوذية – انتشارها فى سيلان
وبورما ، وتركستان ، وتبت ، وكمبوديا ، والصين ، واليابان

بلغت البوذية أوج رفعتها فى الهند بعد موت « أشوكا » بمائتى عام ؛ وقد كانت الفترة التى ارتفعت فيها البوذية من « أشوكا » إلى « هارشا » فترة صعود بمعان كثيرة ، صعود فى الدين والتعليم والفن : غير أن البوذية التى سادت لم تكن بوذية بوذا ؛ والأقرب إلى الصواب أن نقول فى وصفها إنها بوذية تلميذه الثائر « ضجاذا » الذى قال للرهبان عند سماعه بموت أستاذه : « كفى ياسادة ! كفّوا عن البكاء ، هذا يجدر بكم وهذا لا يجدر ، أما الآن فنى مقدورنا أن نصنع ما شاء لنا هوانا ، وأما ما لا يصادف من نفوسنا هوى ، فلن يلزمنا أحد على أدائه »(١) .

وأول ما أوحت لهم حريتهم أن يصنعوه هو أن ينشقوا أحزاباً ؛ فلم يمض على موت بوذا قرنان من الزمان ، حتى انقسم تراثه ثمانية عشر مذهباً متبايناً فأما أتباع البوذية فى جنوب الهند وجزيرة سيلان ، فقد استمسكوا حيناً بمذهب صاحب العقيدة فى بساطته وصفائه ؛ وقد أطلق على هذه الشعبة من مذهبه فيما بعد اسم « هنايانا » ومعناها « البلاغ الأصغر » ؛ فقد عبدوا بوذا باعتباره معلماً عظيما ، لا إلها ؛ وكان كتابهم المقدس هو النصوص المكتوبة باللغة « اليالية » التى تبسط العقيدة فى صورتها القديمة ؛ وأما فى الأرجاء الشمالية من الهند والتبت ومنغوليا والصين واليابان ، فالبوذية التى سادت هى التى يطلق عليها اسم « ماهايانا » ومعناها « البلاغ الأكبر » الذى رسم حدوده ونشر

دعوته « مجلس كانيشكا » ؛ فأعضاء هذا المجلس ، وهم من اللاهوتيين الموهوبين (من الوجهة السياسية) قد أعلنوا ألوهية بوذا وأحاطوه بالملائكة والقديسين ، واصطنعوا تقشف « اليوجا » الذى عُرف فى « باتانجالى » وأصدروا باللغة السنسكريتية مجموعة جديدة من المراسم المقدسة التى على الرغم من قبولها بعد حين قصير للشقشقة الميتافيزيقية والاسكولائية إلا أنها قد أعلنت وأيدت عقيدة دينية أقرب إلى نفوس الناس من الصورة السوداء المتشائمة المتزمتة التى عُرفت فى « شاكيا مونى » .

كان مذهب « ماهايانا » بوذية خففت من حدتها آلهة وطقوس وأساطير برهمية ، ولاءمت بين نفسها وبين حاجات قبائل التتار فى « كوش » والمغول فى التبت ، الذين بسط عليهم « كانشكا » سلطانه ، فقد صور ذلك المذهب جنة فيها بوذيون كثيرون ، كان أحبهم إلى عامة الناس « أميدا بوذا » المخلص ؛ وهذه الجنة وجهنم التى تقابلها كانتا ثواباً أو عقاباً لما يأتيه الناس على هذه الأرض من خير أو شر ، وهذان العاملان الوادعان كان لها أثر فى تحويل بعض جنود الملك من رقابة سلوك الناس إلى خدمات أخرى ؛ وأعظم القديسين فى هذا اللاهوت الجديد هى فئة « بوذا بساتوا » ومعناها « بوذا المستقبل » الذين امتنعوا باختيارهم عن القيام بالنرڤانا (ومعناها هنا التخلص من العودة إلى ولادة جديدة) التى كانت من حقهم وفى مقدورهم ، وذلك لكى يولدوا فى حياة بعد حياة ، فيساعدوا غيرهم من الناس فى هذه الدنيا فى الاهتداء إلى سواء السبيل(*) وهؤلاء القديسون — مثلهم مثل نظائرهم فى مسيحية البحر الأبيض المتوسط — سرعان ما ظفروا بحب الناس لهم حتى كان عبادهم والمعجبون بهم من رجال الفن يزحمون بهم وبتماثيلهم مدافن العظماء ؛ وازدهرت فى البوذية كما ازدهرت فى مسيحية العصور الوسطى — بل لعلها ظهرت فى

---

(١) فى كتاب من «البورانا » أسطورة نموذجية عن ملك كان جديراً بالجنة لكنه آثر البقاء فى جهنم ليواسى المذنبين ، وأبى أن يغادرها حتى أطلق سراح المغضوب عليهم جميعاً(٢) .

البوذية فى تاريخ أسبق(*) — قدسية الآثار الباقية من السلف ، واستخدام الماء المقدس ، والشموع ، والبخور والمسبحة ، والثياب الكهنوتية ، ولغة الكهنوت الميتة ، والرهبان والراهبات وقص الشعر والفردية مما تقتضيه حياة الأديرة والاعتراف والصيام أياماً معينة ، وتدشين القديسين والتطهير والصلاة والدعاء للموتى : ولقد أصبح كتاب « ماهايانا » بالقياس إلى « هنايانا » أى البوذية الأولى ماكانت الكاثوليكية بالنسبة إلى الرواقية والمسيحية الأولى ، فقد أخطأ بوذا — كما أخطأ لوثر — فى ظنه أن شعائر الطقوس الدينية العلمية يمكن أن تحل محلها المواعظ والدروس الأخلاقية ، وما أقرب الشبه بين نجاح البوذية حين امتلأت بالأساطير والمعجزات والاحتفالات والقديسين الذين يتوسطون بين الأرض والسماء بالنجاح الذى لقيته الكاثوليكية قديماً وحاضراً ، لما فيها من زخرف وتمثيل ، وانتصارها على المسيحية الأولى والبروتستنتية الحديثة فى بساطتها الخالية من كل زخرف .

وإيثار عامة الناس لتعدد الآلهة والمعجزات والأساطير ، هذا الإيثار نفسه الذى قضى على بوذية بوذا ، قضى كذلك فى نهاية الأمر على بوذية « البلاغ الأكبر » نفسها فى الهند ، ذلك لأن البوذية — ودعنا هاهنا نتحدث بحكمة المؤرخ التى تشرق بعد فوات الحوادث — إذا كانت لا تأخذ كل هذا الذى أخذته من الديانة الهندية ومن أساطيرها وطقوسها وآلهتها ، فما كان ليمضى طويل وقت قبل أن تنمحى الفوارق بين الديانتين ولا يبقى من مميزات الواحدة من الأخرى إلا قليل جد قليل ؛ وإذن تمتص إحداهما الأخرى شيئاً فشيئاً ؛ والتى يتاح لها أن تطغى على الأخرى هى التى تكون أعمق الديانتين جذوراً

(*) يقول برجسون : « كانت البوذية أسبق من الكنيسة الرومانية بخمسة قرون فى ابتكار واصطناع الحفلات والمراسم المشتركة بين الديانتين »(٣) وقد بين « إدمندز » بالتفصيل ما بين كتب البوذية المقدسة وإنجيل المسيحية من شبه عجيب(٤) ، ومع ذلك ، فعلمنا بنشأة هذه العادات والعقائد يبلغ من الإبهام حداً لا يجيز لنا أن نصل إلى نتائج إيجابية فيما يختص بأسبقية فريق ما. فريق.

وأقربهما إلى نفوس الناس وأكثرهما مالا وأعزهما سنداً سياسياً ؛ لهذا أخذت الخرافة — ولعلها أن تكون من جنسنا البشرى بمثابة دماء الحياة — أخذت تتدفق من العقيدة الأقدم إلى العقيدة الأحدث تدفقاً سريعاً ، حتى رأينا الظواهر الجنسية الانفعالية نفسها التي كانت من طقوس العقائد « الشاكتية » تلتمس لنفسها مكاناً فى طقوس البوذية ، واستعاد البراهمة فى صبر ودأب نفوذهم ورعاية السلطان لهم شيئاً فشيئاً ، وأخيراً جاء نجاح الفيلسوف الشاب « شانكارا » فى استعادة الكلمة العليا لكتب الڤيدا ، وجعلها أساساً للتفكير الهندى ، بمثابة الخاتمة لزعامة البوذيين العقلية فى الهند .

وجاءت الضربة القاضية من خارج ، وكانت البوذية نفسها هى التى هيأت لهذه الضربة سبيلها ، على وجه من الوجوه ، ذلك أن حسن السمعة التى كان يتمتع بها أتباع بوذا ، واسمهم « سانفا » ، قد اجتذب إلى تلك الفئة — بعد عهد أشوكا — صفوة أهل « مجازا » وبهذا قضى على خيرة دماء القوم أن تفنى فى طائفة من رجال الدين لا تتزوج ولا تجاهد فى الحياة ، فشكا بعض المحبين لوطنهم ، حتى فى أيام بوذا نفسه ، من أن الراهب « جوتاما » لا يسمح للآباء أن ينسلوا الأبناء ، ويؤدى بالأسَر إلى الانقراض[٥] ؛ وكان من نتائج انتشار البوذية ونظام الأديرة فى السنة الأولى من التاريخ المسيحى ، أن امتصت من الهند عصارة الرجولة ، وتآمر ذلك العامل مع عامل الانقسام فأدى العاملان إلى فتح أبواب الهند للغزو الخارجي بغير عناء ؛ ولما جاء العرب وأخذوا على أنفسهم أن ينشروا وحدانية بسيطة رواقية النزعة ، نظروا فى ازدراء إلى الرهبان البوذيين الكسالى الذين يفتحون أيديهم للرشوة ويتجرون بالمعجزات ، وحطموا الأديرة وقتلوا ألوف الرهبان ، ونفّروا كلَّ حريص على حياته من نظام الرهبنة فى الدير ، فأما من أفلتوا من يد القتل من هؤلاء الرهبان ، فقد عادوا واندمجوا فى الديانة الهندية التى كانت الأرومة الأولى

لهم ؛ وفتحت هذه الديانة القديمة الأصيلة صدرها تستقبل هؤلاء الزنادقة التائبين، وهكذا وقتلت البرهمية البوذية بضمة أخوية »(٦) ؛

ولا عجب فقد كانت البرهمية دائماً متسامحة ، تجادل البوذية وغيرها من مئات المذاهب إبان ارتفاعها وسقوطها ، بل قد تطيل معها الجدال ، لكنك لن تجد فى تاريخها كله مثلا واحداً للاضطهاد ؛ بل الأمر على نقيض ذلك ، إذ ترى البرهمية قد يسَّرت سبيل العودة لهؤلاء الخارجين عليها بأن اعترفت ببوذا إلها (اعتبرته مجسداً للإله ڤشنو) وأقلعت عن التضحية بالحيوان ، وقبلت فى صميم طقوسها مذهب البوذيين فى تقديس حياة الحيوان بأسره ، وهكذا أخذت البوذية تختفى فى هدوء وسلام من الهند ، إبان خمسة قرون كانت خلالها نهباً لعوامل التدهور البطىء(*) .

لكنها فى ذلك الوقت نفسه كانت تكسب لنفسها كل ما عدا الهند من العالم الأسيوى تقريباً ، فانتشرت أفكارها وأدبها وفنها فى سيلان وشبه جزيرة الملايو فى الجنوب ، وفى التبت وتركستان فى الشمال ، وفى بورما وسيام وكمبوديا والصين وكوريا واليابان فى الشرق ، وعلى هذا النحو امتصت كل هذه الأصقاع — ما عدا الشرق الأقصى — ما استطاعت امتصاصه وهضمه من المدنيَّة ، بنفس الطريقة التى امتصت بها أوروبا وروسيا الحضارة من الرهبان الرومانيين والبيزنطيين فى العصور الوسطى ؛ فمعظم هذه الأمم قد بلغ ذروة ثقافته بحافز من البوذية ، ولقد لبثت « أنورا ذاپورا » فى سيلان منذ عهد أشوكا حتى انحلال البوذية فى القرن التاسع ، إحدى المدن الكبرى فى العالم الشرقى ، وظل الناس هنالك ألفى عام يعبدون شجرة التين المقدسة عند

(*) عدد البوذيين اليوم فى الهند نفسها ثلاثة ملايين ، أى واحد فى المائة من السكان .

البوذيين ، وكان المعبد القائم على قمة جبال كاندى كعبة يحج إليها مائة وخمسون مليوناً من البوذيين فى آسيا(*) .

ولعل البوذية فى بورما أخلص ما بقى من ألوان البوذية من الشوائب الدخيلة وكثيراً ما يدنو رهبانها من المثل الأعلى الذى ضربه بوذا ؛ واستطاع أهل بورما البالغ عددهم ثلاثة عشر مليوناً من الأنفس أن يبلغوا بفضل تعاليم أولئك الرهبان مستوى من العيش أعلى مما فى الهند بدرجة ملحوظة[٧] ؛ وكشف « سفن هيدن » و « أورل شتاين » و « پيلوت » من جوف الرمال فى بلاد التركستان مئات من المخطوطات البوذية وغيرها من شواهد الثقافة التى ازدهرت هناك منذ عهد « كانشكا » حتى القرن الثالث عشر الميلادى .

وحدث فى القرن السابع من تاريخنا المسيحى أن أقام المحارب المتنوّر « سترونج — تسان جامپو » حكومة قادرة فى التبت وضم إليها نيپال ، وبنى مدينة « لهاسا » لتكون عاصمة له ، وهيأ لها طريق الغنى بجعلها محطاً وسطاً فى التجارة بين الصين والهند ، ودعا طائفة من الرهبان البوذيين من الهند لينشروا البوذية والتعليم فى شعبه ، وعندئذ ترك الحكم أربعة أعوام أنفقها فى تعلم القراءة والكتابة ؛ فكأنما كان فاتحة عهد ذهبى فى بلاد التبت ، فأقيمت آلاف الأديرة فى الجبال وعلى النجد الفسيح ، ونُشر كتابٌ تشريعيٌّ يضم الكتب البوذية ، ويقع فى ثلاثة وثلاثين وثمانمائة مجلد ، حفظت للعلم الحديث كثيراً من أحوال هذه الكتب التى كانت قد ضاعت أصولها الهندية منذ زمن طويل[٨] ، وهاهنا فى هذه الصومعة التى أغلقت أبوابها دون العالم بأسره ، راحت البوذية تتطور فى شبكة معقدة من الخرافات والرهبنة والكهنوت ، لا ينافسها فى ذلك سوى

(*) يحتوى كاندى على « ناب بوذا » المشهور — وطوله بوصتان ، وقطره بوصة — وهو محفوظ فى وعاء مرصع بالجواهر ، ومستور عن أعين الناس فى حرص شديد ، وله موسم يحملونه فيه فى موكب رصين يجتذب البوذيين من كل بقاع الشرق ، وعلى جدران المعبد تصاوير تمثل بوذا الوديع وهو يقتل الأشرار فى جهنم ؛ وهكذا تذكرنا حيوات العظماء كيف تتحول طبائعهم بعد موتهم تحولا ليس لهم يد فيه .

أوربا فى أوائل عصورها الوسطى : ولا يزال « دالاى لاما » (أى الكاهن الشامل لكل شىء) الذى اختفى فى دير بوتالا العظيم الذى يطل على مدينة لهاسا ، موضع عقيدة عند أهل التبت ، بما تنطوى عليه نفوسهم من السذاجة الطيبة ، بأنه تجسيد حى « لبوذا المستقبل » (بوذا المنتظر[٩]) ؛ وفى كمبوديا والهند الصينية تعاونت البوذية مع الديانة الهندية فى تخطيط الإطار الذى قامت عليه روائع الفن فى عصر هو من أغنى العصور فى تاريخ الفن الشرقى ؛ وهكذا ترى البوذية — مثل المسيحية — قد ظفرت بأعظم انتصاراتها خارج الأرض التى أنبتتها ، وإنما ظفرت بتلك الانتصارات دون أن تريق نقطة واحدة من دماء .

الفصل الثانى

الآلهة الجديدة

الديانة الهندية – براهما ، ڤشنو ، شيڤا – كرشنا – كالى
الآلهة الحيوانية – البقرة المقدسة – تعدد الآلهة والوحدانية

لم تكن الديانة الهندية التى حلت محل البوذية ديانة واحدة ، كلا ولا كانت مقتصرة على كونها عقيدة دينية ، بل كانت خليطاً من عقائد وطقوس لا يشترك القائمون بها فى أكثر من أربع صفات ؛ فهم يعترفون بنظام الطبقات وبزعامة البراهمة ، وهم يقدسون البقرة باعتبارها تمثل الألوهية على نحو تمتاز به من سواها ، وهم يقبلون قانون «كارما» وتناسخ الأرواح ، وهم يضيفون إلى آلهتهم الجديدة آلهة الڤيدات ؛ ولقد كان بعض هذه العقائد أسبق من عبادة الطبيعة التى جاءت بها الڤيدا ، كما ظلت قائمة بعد زوال تلك العبادة ، وأما بعضها الآخر فقد نشأ من أن البراهمة كانوا يغضون أبصارهم عن ضروب من الطقوس والآلهة والعقائد لم ينص عليها كتابهم المقدس، بل تناقضه روح الڤيدا مناقضة ليست باليسيرة ؛ فأتيحت الفرصة لتلك العقائد أن تنضج فى وعاء الفكر الدينى عند الهنود ، ومضت فى نضجها ذاك حتى فى الفترة العابرة التى ارتقت فيها البوذية إلى مكان السيادة العقلية فى البلاد ؛

كان آلهة العقيدة الهندية يتميزون بكثرة أعضائهم الجسدية التى يمثلون بها على نحو غامض قدرتهم الخارقة فى العلم والنشاط والقوة ؛ «فبراهما» الجديد كان له أربعة وجوه ، وكان لـ «كارتكيا» ستة وجوه ، ولـ «شيڤا» ثلاثة أعين ولـ «هندرا» ألف عين ، وكل إله عندهم تقريباً كان له أربع أذرعة[١٠] وعلى رأس هذه المجموعة الجديدة من الآلهة «براهما» الذى كان له من الشهامة ما أبعده عن الميل مع الهوى ، وهو سيد الآلهة المعترف له بتلك السيادة، على الرغم

من أنه مُهمَل في شعائر العبادة الفعلية إهمال الملك الدستورى فى أوربا الحديثة ؛ و« براهما » و« شيڤا » و« ڤشنو » هم الثلاثة الآلهة (لا الثالوث) الذين يسيطرون على الكون ، وأما « ڤشنو » فهو إله الحب الذى كثيراً ما [10] ، إنساناً ليتقدم بالعون إلى بنى الإنسان ؛ وأعظم من يتجسد فيه « ڤشنو » هو « كِرِشْنا » ، وهو فى صورته « الكرشنية » هذه ، قد ولد فى سجن وأتى بكثير من أعاجيب البطولة والغرام ، وشفى الصُّم والعمى ، وعاون المصابين بداء البرص ، وذاد عن الفقراء ، وبعث الموتى من قبورهم ؛ وكان له تلميذ محبب إلى نفسه ، وهو « أرْجونا » ، وأمام « أرجونا » تبدلت خِلقة « ڤشنو » حالا بعد حال ؛ ويزعم بعض الرواة أنه مات مطعوناً بسهم ، ويزعم آخرون أنه قُتل مصلوباً على شجرة ؛ وهبط إلى جهنم ثم صعد إلى السماء ، على أن يعود فى اليوم الآخر ليحاسب الناس أحياءهم وأمواتهم[11] .

الحياة ، بل الكون كله ، لها فى رأى الهندى ثلاثة وجوه رئيسية : الخلق ، والاحتفاظ بالمخلوق ، ثم الفناء ؛ ومن ثمّ كان للألوهية عنده ثلاث صور : براهما الخالق ، وڤشنو الحافظ . وشيڤا المدمِّر ؛ تلك هى « الأشكال الثلاثة » التى يقدسها الهنود أجمعين ما عدا الجانتيين منهم(*) ، والناس منقسمون بحبّهم طائفتين : إحداها تميل إلى ديانة ڤشنو ، والأخرى إلى ديانة شيڤا ؛ وكلتا العقيدتين بمثابة الجارتين المسالمتين ، بل قد تتقدم كلتاهما بالقرابين فى معبد واحد[13] ، والحكماء من البراهمة — تتبعهم الأكثرية العظمى من سواد الناس — تكرم الإلهين معاً بغير تمييز لأحدهما ، أما الڤشنيون الأتقياء فيرسمون

(*) فى تعداد سنة ١٩٢١ ، ينقسم الناس من حيث دياناتهم كما يلى :

الديانة الهندوسية ٢١٦,٢٦١,٠٠٠ ؛ والسيخ ٣,١٣٩,٠٠٠ ؛ والجانتيون ١,١٧٨,٠٠٠ والبوذية ١١,٥٧١,٠٠٠ (تقريبا كلهم من أهل بورما وسيلان) ؛ والزرادشتية (أو الفارسية) ١٠٢,٠٠٠ ؛ والمسلمون ٦٨,٧٣٥,٠٠٠ ، واليهود ٢٢,٠٠٠ ؛ والمسيحيون ٤,٧٥٤,٠٠٠ (أغلبهم أوروبيون)[12] .

على جباههم كل صباح بالطين الأحمر علامة فشنو ، وهى شوكة ذات أسنان ثلاث ، وأما الشيفيون المخلصون لعقيدتهم فيرسمون ثلاثة خطوط أفقية على جباههم برماد من روث البقر ، أو يلبسون « اللنجا » ــ رمز عضو الذكورة ــ ويربطونه إلى أذرعتهم أو يعلقونه حول أعناقهم[١٤] .

وعبادة « شيفا » هى من أقدم وأعمق وأبشع العناصر التى منها تتألف الديانة الهندية ؛ فيقدم لنا « سير چون مارشل » « دليلا لا يأتيه الباطل » على أن عقيدة « شيفا » كانت موجودة فى « مُوهِنْجُو . دارو » ، متخذة أحياناً صورة شيفا ذى الرؤوس الثلاثة ، وأحياناً أخرى صورة أعمدة حجرية صغيرة ، يزعم لنا أنها ترمز لعضو الذكورة على نحو ما ترمز له عندهم بدائلُها فى العصر الحديث ؛ وهو يخلص من ذلك إلى نتيجة هى أن « العقيدة الشيفية أقدم عقيدة حية فى العالم كله[١٥] »(*) .

واسم الإله ــ أعنى كلمة « شيفا » ــ لفظة أريد بها التخفيف من بشاعة الإله ، فالكلمة شيفا معناها الحرفى « العطوف » مع أن شيفا فى حقيقة الأمر إله القسوة والتدمير قبل كل شىء آخر ؛ هو تجسيد لتلك القوة الكونية التى تعمل واحدة بعد أخرى ، على تخريب جميع الصور التى تتبدى فيها حقيقة الكون ــ جميع الخلايا الحية وجميع الكائنات العضوية ، وكل الأنواع ، وكل الأفكار وكل ما أبدعته يد الإنسان ، وكل الكواكب ، وكل شىء ؛ ولم يسبق الهنود شعب قط فى شجاعتهم فى مواجهة الحقيقة التى هى عدم ثبات الأشياء على صورها ووقوف الطبيعة من كل شىء موقف الحياد ، مواجهة صريحة ؛ ولم يسبقهم شعب قط فى اعترافهم اعترافاً واضحاً بأن الشر يتوازن مع الخير ، والهدم

(*) ومع ذلك فلا تجد اسم « شيفا » ــ كما لا تجد اسم براهما نفسه ــ فى كتاب (رج ــ ڤيدا) ويذكر لنا « پَتَانجالى » النحوى صوراً شيفية ومريدين شيفيين حوالى سنة ١٥٠ قبل الميلاد[١٦] .

يساير الخلق خطوة خطوة ، وأن ولادة الأحياء بأسرها جريمة كبرى عقابها الموت ؛ فالهندى الذى تعذبه آلاف العوامل من عثرة الحظ والآلام ، يرى فى تلك الألوان من التعذيب أثراً ينم عن قوة نشيطة يمتعها — فيما يظهر — أن تحطم كل ما أنتجه براهما ، وهو القوة الخالقة الطبيعية ؛ إن «شيفا» ليطرب راقصاً إذا ما سمع نغمة العالم فأدرك منها عالماً لا ينى يتكون وينحل ويعود إلى التكون من جديد .

ولكن كما أن الموت عقوبة الولادة ، فكذلك الولادة تخيب لرجاء الموت ؛ فالإله نفسه الذى يرمز للتدمير ، يمثل كذلك للعقل الهندى تلك الدفعة الجارفة نحو التناسل الذى يتغلب على موت الفرد باستمرار الجنس ؛ وهذه الحيوية الخلاقة الناسلة (شاكتى) التى يبديها شيفا — أو الطبيعة — تتمثل فى بعض جهات الهند ، وخصوصاً فى البنغال ، فى صورة زوجة شيفا ، واسمها «كالى» (بارفاتى ، أو أوما أو درجا) وهى موضع عبادة فى عقيدة من لعقائد الكثيرة التى تأخذ بمذهب «الشاكتى» هذا ؛ ولقد كانت هذه العبادة — حتى القرن الماضى — وحشية الطقوس كثيراً ما تتضمن فى شعائرها تضحية بشرية ، ولكن الإلاهة اكتفت بعدئذ بضحايا الماعز[١٧] : وهذه الإلاهة صورتها عند عامة الناس شبح أسود بفم مفغور ولسان متدل ؛ تزدان بالأفاعى وترقص على جثة ميتة ، وأقراطها رجال موتى ، وعقدها سلسلة من جماجم ، ووجهها وثدياها تلطخها الدماء[١٨] ومن أيديها الأربعة يدان تحملان سيفاً ورأساً مبتوراً ، وأما اليدان الأخريان فممدودتان رحمة وحماية : لأن «كالى — پارفالى» هى كذلك إلاهة الأمومة كما أنها عروس الدمار والموت ؛ وفى وسعها أن تكون رقيقة الحاشية كما فى وسعها أن تكون قاسية ، وفى مقدورها أن تبسم كما فى مقدورها أن تقتل ؛ ولعلها كانت ذات يوم إلهة أما فى سومر ، ومن ثم جاءت إلى الهند قبل أن تتخذ هذا الجانب البشع من جانبيها[١٩] ولا شك أنها هى وزوجها قد اتخذا أبشع صورة ممكنة لكى يلقيا الرعب فى نفوس الرعاديد من

عبادهما فيحتشموا ، أو قد تكون هذه البشاعة كلها قد أريد بها أن يلقى الرعب في نفوس العباد فيجودوا بالعطاء للكهنة(*) .

تلك هي أعظم آلهة الهندوسيين ، لكننا لم نذكر إلا خمسة من ثلاثين مليوناً من الآلهة تزدحم بها مقبرة العظماء في الهند ؛ ولو أحصينا أسماء هاتيك الآلهة لاقتضى ذلك مائة مجلد ؛ وبعضها أقرب في طبيعته إلى الملائكة ، وبعضها هو ما قد نسميه نحن بالشياطين ، وطائفة منها أجرام سماوية مثل الشمس ، وطائفة منها تمائم مثل « لاكشمي » (الهة الحظ الحسن) ، وكثير منها هي حيوانات الحقل أو طيور السماء ؛ فالهندي لا يرى فارقاً بعيداً بين الحيوان والإنسان ، فللحيوان روح كما للإنسان ، والأرواح تمضي دواماً متنقلة من بني الإنسان إلى بني الحيوان ، ثم تعود إلى بني الإنسان مرة أخرى ؛ وكل هذه الصنوف الإلهية قد نسجت خيوطها في شبكة واحدة لا نهاية لحدودها ، هي « كارما » وتناسخ الأرواح ؛ فالفيل مثلا قد أصبح الإله « جانيشا » واعتبروه ابن شيفا[21] ، وفيه تتجسد طبيعة الإنسان الحيوانية ، وكانت صورته في الوقت نفسه تتخذ طلسما يقي حامله من الحظ السيء : كذلك كانت القردة والأفاعي مصدر رعب ، فكانت لذلك من طبيعة الآلهة ؛ فالأفعى التي تودي عضةُ واحدة منها إلى موت سريع ، واسمها « ناجا » كان لها عندهم قدسية خاصة ؛ وترى الناس في كثير من أجزاء الهند يقيمون كل عام حفلا دينياً تكريماً للأفاعي ، ويقدمون العطايا من اللبن والموز لأفاعي « الناجا » عند مداخل جحورها[22] ؛ كذلك أقيمت المعابد تمجيداً للأفاعي كما هي الحال في شرق ميسور ، وهناك في هذه المعابد تسكن جموع زاخرة من الزواحف ، ويقوم

(*) ومع ذلك فكهنة العقيدة الشيفية يندر أن يكونوا من البراهمة ، ومعظم البراهمة ينظرون نظرة ازدراء وأسف إلى المذهب « الشاكتي »[20] .

الكهنة على إطعامها والعنـــاية بها[٢٣] ؛ وللتماسيح والنمور والطواويس والببغاوات ، بل والفئران حقها من العبادة[٢٤] .

وأكثر الحيوان قدسية عند الهندى هى البقرة ، فترى تماثيل الثيرة مصنوعة من كل مادة وفى شتى الأحجام ، تراها فى المعابد والمنازل وميادين المدن ؛ وأما البقرة نفسها فأحب الكائنات الحية جميعاً إلى الهنود ، ولها مطلق الحرية فى ارتياد الطرقات كيف شاءت ، وروثها يستخدم وقوداً أو مادة مقدسة يتبركون بها ، وبولها خمر مقدس يطهر كل ما فى الجسم من نجاسة فى الظاهر والباطن ؛ ولا يجوز للهنـــدى تحت أى ظرف أن يأكل لحمها أو أن يصطنع من جلدها لباساً يرتديه — فلا يصنع منه غطاء للرأس ولا قفازاً ولا حذاء ؛ وإذا ماتت البقرة وجب دفنها بجلال الطقوس الدينية[٢٥] ،ولعل السياسة الحكيمة هى التى رسمت فيما مضى هذا التحريم احتفاظاً للزراعة بحيوان الجر حتى يسد حاجة السكان الذين يتكاثرون[٢٦] ، وقد بلغ عدد البقر اليوم ربع عدد السكان[٢٧] ووجهة نظر الهندى فى ذلك هى أنه ليس أبعد عن المعقول أن تشعر بالحب العميق للبقرة والمقت الشديد لفكرة أكلها ، من أن تُكنّ أمثال هذه المشاعر للحيوانات المستأنسة من قطط وكلاب ، لكن الذى يبعث على السخرية المرة فى الأمر هو عقيدة البراهمة بأن الأبقار لا يجوز ذبحها قط ، وأن الحشرات لا يحل إيذاؤها قط ، وأن الأرامل من النساء ينبغى أن يحرقن أحياء ؛ فحقيقة الأمر هى أن عبادة الحيوان قد ظهرت فى تاريخ الشعوب كلها ، فإن جاز للإنسان أن يؤله الحيوان إطلاقاً ، فللبقرة الرحيمة الهادئة حقها فى هذا التقديس ؛ ولا يجوز لنا أن نغلو فى كبريائنا حين تأخذنا الدهشة لهذه المعارض الحيوانية من آلهة الهنود ، فلنا كذلك إبليس عدن فى صورة الحية ، والثور الذهبى فى العهد القديم من الإنجيل ، والسمك المقدس فى سراديب الموتى ، وحَمَل الله الوديع .

إن سر تعدد الآلهة هو عجز العقل الساذج عن التفكير فيما ليس

مشخصاً ، فأيسر عليه أن يفهم الأشخاص من أن يعقل القُوَى ، وأن يفهم الإرادات من أن يتصور القوانين[٢٨] ، والظن عند الهندى هو أن حواسنا البشرية لا ترى من الحوادث التى تدركها سوى ظاهرها ، ويعتقد أن وراء هذه الظواهر كائنات روحية لا حصر لعددها ، يمكن إدراكها بالعقل لا بالحواس — على حد تعبير «كانْت» ؛ ولقد أدى تسامح البراهمة ذو المسحة الفلسفية ، إلى الزيادة من ذخيرة آلهتهم حتى ازدادت كثْرة على كثْرة ، وذلك أن الآلهة المحليين وآلهة القبائل المختلفة قد صادفت عند الهندى سهلا ومرحباً ، فقبِلها وفسَّرها بأنها جميعاً تصور جوانب من آلهته الأصلية ؛ فكل عقيدة يُسمح لها بالدخول عندهم إن كان فى مستطاعها أن تدفع الضريبة على ذلك ، حتى كاد كل إله آخر الأمر أن يكون صورة أو صفة أو تجسيداً لإله آخر ، ثم تناول العقل الهندى الرشيد كل هذه الآلهة فدمجها فى إله واحد ، وهكذا تحول تعدد الآلهة إلى عقيدة بوحدة الوجود ، أوشكت عندهم أن تكون توحيداً ، والتوحيد بدوره أوشك أن يكون عندهم واحدية فلسفية ، فكما يتوجه المسيحى الورع بالدعاء إلى العذراء ، أو إلى قديس من آلاف القديسين ، ومع ذلك لا يتحول عن توحيده لله ، بمعنى أنه لا يعترف إلا بإله واحد على أنه ذو الجلال الأسمى ، فكذلك الهندى يتوجه بالدعاء إلى «كالى» أو «راما» أو «كرشْنا» أو «جانيشا» دون أن يتطرق إلى ذهنه لحظة واحدة أن هذه آلهة لها السيادة العليا(*) فترى بعض الهنود يتخذ من «ڤشنو» إلها أعلى ، وبعضهم يتخذ من «شيڤا» إلها أعلى ، ويجعل ڤشنو أحد ملائكته ، وإذا وجدت بين الهنود أقلية تعبد «براهما» فما ذلك إلا لأنه مجرد عن التشخص ، ممتنع على الحواس ، بعيد عن الشر ، ولهذا السبب عينه ترى معظم الكنائس فى البلاد المسيحية قد أقيمت تكريماً لمارية أو لأحد القديسين ، وكان على المسيحية أن تنتظر حتى يجيئها ڤولتير فيقيم معبداً لله .

(*) فيما يلى عبارة مقتبسة من التقرير عن تعداد سنة ١٩١٠ ، المرفوع إلى الحكومة البريطانية فى الهند : «إن النتيجة العامة التى انتهيت إليها من البحث هى أن كثْرة الهنود الغالبة تعتقد عقيدة راسخة فى كائن واحد أعلى»[٢٩] .

الفصل الثالث

العقـــائد

كتب « بيورانا » – عودة الكون بالتناسخ مرة بعد مرة
تقمص الروح فى عدة أجساد – « كارما » – جوانبها
الفلسفية – الحياة باعتبارها شراً – الخلاص

ويمتزج بهذا اللاهوت المعقد ، مجموعة معقدة من الأساطير فيها التخريف وفيها عمق الفكرة فى آن معاً ، فلما كانت كتب الڤيدا قد دفنت فى اللغة التى كتبت بها ، ثم لما كانت فلسفة البراهمة الميتافيزيقية تجاوز حدود أفهام الناس ، فقد نهض « ڤياسا » وآخرون فى مدة تطاولت إلى ألف عام (من ٥٠٠ ق . م إلى ٥٠٠ ب . م) وأنشأوا كتب « پيورانا » – ومعناها القصص القديمة – أنشأوها شعراً فى أربعمائة ألف دوبيت (الدوبيت بيتان من الشعر) يعرضون فيها لعامة الناس حقيقة خلق العالم بصورتها الدقيقة ، وما يطرأ عليه من مراحل الكون والفساد المتعاقبة على فترات دورية ، ونَسَبَ الآلهة ، وتاريخ عصر البطولة ؛ وليست تدعى هذه الكتب لنفسها غالباً أدبياً ولا نظاماً منطقياً ، ولا اعتدالا فى تقدير الأشياء بالأعداد ، من ذلك مثلا أنها تذكر عن الحبيبين « إرڤاشى » و « پورورااڤاس » أنهما قضيا واحداً وستين ألف عام فى سرور وغبطة[٣٠] ؛ لكنها مع ذلك أصبحت للديانة الهندية إنجيلا ثانياً لوضوح لغتها وروعة قصصها وسلامة العقيدة التى تشرحها ، كما أصبحت تلك الكتب للديانة الهندية مستودعاً عظيما لخرافاتها وأساطيرها ، بل وفلسفتها ؛ فهاك على سبيل المثال قطعة من « ڤشنوپورانا » تعبر عن أقدم فكرة جالت برأس الهندى وما فتئت تعاوده على طول الزمن – وأعنى بها الفكرة القائلة بأن استقلال الأفراد فى ذوات منفصل بعضها عن بعض ، وهْمٌ ، وأن الحياة كلها حقيقة واحدة :

« جاء « رَبهو » بعد ألف عام .
إلى « نداغا » فى مدينته ليزيده علماً .
فرآه خارج المدينة .
فى نفس اللحظة التى كان الملك فيها على وشك الدخول بحشد كبير
من الأتباع ،
رآه واقفاً على مبعدة ، معتزلا بنفسه عن الزحام ،
ذاوى العنق من أثر الصيام ، وكان فى طريقه عائداً من الغابة ومعه
بعض الوقود والكلأ
لما رآه « ربهو » قصد إليه وحيّاه قائلا :
« أيها البرهمى ! فيم وقوفك هاهنا وحيداً ؟ »
فقال « نداغا » : « انظرْ إلى الحشد محيطاً بالملك
الذى يوشك أن يدخل المدينة ، هذا هو علة وقوفى وحيداً »
فقال « ربهو » : « أى هؤلاء يكون الملك ؟
ومن عسى أن يكون الآخرون ؟
أنبئنى فيبدو عليك أنك بالأمر عليم »
فقال « نداغا » : « إن من يركب الفيل الأحمر ، عالياً برأسه كأنه
قمة الجبل
هذا هو الملك ، والآخرون هم تابعوه » .
فقال « ربهو » : « إنك تشير إلى هذين ، إلى الملك والفيل
دون أن تميز بينهما بفاصل
قل لى أين أجد الفاصل بين هذا وذاك ؟
أريد أن أعلم أى هذين هو الملك ، وأيهما يكون الفيل ؟ »
فقال « نداغا » : الفيل أسفل ، والملك من فوقه ،

من ذا الذى لا يعلم علاقة الحامل بالمحمول ؟ »
فقال « ربهو » : « علمنى ذلك فقد أستطيع تعلمه » ،
ما هذا الذى تشير إليه بقولك « أسفل » وبقولك « فوقه » ؟
فوثب نداغا من فوره على المعلم وخاطبه قائلا :
« هأنذا أعلمك ما أردت أن تتعلمه منى ،
أنا « أعلى » مثل الملك وأنت « أسفل » مثل الفيل ،
وإنما أسوق لك هذا المثل لأعلمك »
فقال ربهو : « إذاكنت فى موضع الملك ، وأنا فى موضع الفيل
فما أزال أطلب منك أن تنبئنى : أيُّنا أنت أيُّنا أنا ؟ »
فما لبث نداغا أن جثا أمامه وأمسك بقدميه وقال :
حقاً إنك « ربهو » أستاذى ...
بجوابك هذا عرفت أنك أنت شيخى قد أتى »
فقال « ربهو » : « نعم ، جئت لأعلمك
لأنك فيما سبق أبديت استعداداً لخدمتى ،
أنا هو « ربهو » قد جئت إليك
وهذا الذى علمتك إياه اختصاراً —
وهو صميم الحقيقة العليا — يتلخص فى نفى الثنائية من الوجود »(*)
وبعد أن فرغ الشيخ « ربهو » من حديثه هذا مع نداغا ، مضى لسبيله
ومن ثم أدار نداغا فكره — مهتدياً بهذا لدرس الرمزى الذى تعلمه —
فركزه كله فى اللاثنائية

(*) وهم يسمون عدم الثنائية بكلمة **Advaitam** ، وتعتبر هذه الكلمة مركز الفلسفة الهندية كلها ، وسنعود إلى ذلك فى فصل تال .

ومنذ ذلك الحين أخذ ينظر فى الكائنات كلها فلا يجد فيها ما يفرّق
شيئاً منها عن نفسه
وبهذا شاهد براهما ، وحقق الخلاص الأعظم(٣١) .

فى كتب « پيورانا » هذه ، وفى أمثالها من آثار الهند فى عصورها الوسطى ، تقرأ نظرية عن الكون هى بعينها النظرية التى يقول بها العصر الحديث ؛ فليس هناك خلق بمعنى التكوين بعد العدم ، إنما هو كون يعقبه فساد أبد الدهر ، هو نماء يعقبه ذبول ، دورة بعد دورة ؛ كهذا الذى تراه متمثلا فى كل نبات فى العالم وكل حيوان ؛ والذى يحفظ مراحل هذه السيرة فلا تقف دورتها ، هو براهما - أو إن شئت فقل براجاپاتى كما يسمى الخالق فى هذه الكتب التى نحن الآن بصددها - براهما هو القوة الروحية التى تفعل ذلك ، ولسنا ندرى كيف بدأ العالم ، إن كانت للعالم بداية ؛ يجوز أن يكون براهما - كما تذهب كتب پيورانا - قد جعل بداية العالم بيضة ثم احتضنها حتى أفرخت ؛ ويجوز أن يكون هذا العالم غلطة عابرة من الصانع ، أو فكاهة رأى فيها قليلا من تسلية(٣٢) ؛ وكل دورة - أو كالپا كما يسمونها - فى تاريخ الكون منقسمة إلى عصور كبرى - ويسمون كل عصر منها ماهايوجا - طول الواحد منها ٤,٣٢٠,٠٠٠ عام ، ثم ينقسم كل « ماهايوجا » إلى أربعة « يوجات » - أى عصور - يطرأ على الجنس البشرى خلالها تدهور تدريجى ؛ ولقد مضت ثلاثة أعصر من « الماهايوجا » - أى العصر الأعظم - الحاضر ، بلغ مداها ٣,٨٨٨,٨٨٨ عام ونحن الآن نعيش فى العصر الرابع - ويسمونه « اليوجا الكالى » - ومعناها عصر الشقاء ؛ ومن هذه المرحلة انسلخ ٥٠٣٥ عام ، وبقى منها ٤٢٦,٩٦٥ عام ، وعندئذ يصيب العالم موت من ميتاته الدورية ، بعدها يبدأ براهما يوماً آخر من « أيام براهما » وما يومه إلا « كالپا » أى دورة طولها ٤,٣٢٠,٠٠٠,٠٠٠ عام ؛ وفى كل دورة « كالپية » من هذه الدورات يتطور الكون بفعل العوامل الطبيعية ماراً بالخطوات الطبيعية ، وبفعل العوامل

الطبيعية مارا بالخطوات الطبيعية يعود إلى الانحلال ، وفناء العالم كله لا يقل فى يقينه عن موت فأر ، وليس فناء العالم كله فى نظر الفيلسوف بأخطر من موت الفأر ، وليس هناك غاية نهائية يتحرك نحوها الكون ، أى ليس هناك « تقدم » بل كل ما هناك تكرار لا ينتهى[٣٣] » .

وحدث إبان هذه العصور صُغراها وكُبراها أن تحولت بلايين الأنفس من نوع إلى نوع ومن جسم إلى جسم ومن حياة إلى حياة فى دورات من التناسخ تبعث الملل لتكرارها ، فليس الفرد فرداً فى حقيقة أمره ، إنما هو حلقة فى سلسلة الحياة ، وصفحة واحدة من تاريخ نفس من الأنفس ، والنوع من الأحياء ليس فى حقيقة أمره نوعاً قائماً بذاته ، لأن الأنفس الحالّة فى هذه الزهور أو هذه البراغيث ربما كانت أمس ، أو ربما تكون غداً ، أرواحاً من أرواح البشر ، فالحياة كلها واحدة ، وإذن فالإنسان إن هو إلا إنسان إلى حدّ مّا ، لأنه كذلك حيوان ، ولا تزال عالقة به نتف وأصداء من حيواته الدنيا الماضية ، مما يجعله أقرب صلة بالحيوان منه إلى الحكيم من الناس ، إن الإنسان جزء من الطبيعة لا أكثر ، فليس هو من هذه الطبيعة مركزها ولا سيدها[٣٤] ، والحياة الواحدة فى الفرد ليست إلا فصلا واحداً من سيرة نفس واحدة ، وليست هى كل ما تتألف منه هذه النفس ، فكل صورة من صور الأحياء مصيرها التغير ، أما الحقيقة فدائمة وواحدة ، والأبدان الكثيرة التى تحل فيها النفس واحداً بعد واحد ، شبيهة بالأعوام أو بالأيام فى حياة الفرد الواحد ، وقد تعلو بالنفس نحو النماء حيناً أو قد تهبط بها نحو الذبول حيناً آخر ، فكيف يمكن لحياة الفرد الواحد ، وهى على هذه الحالة من القِصَر فى تيار الأجيال المتعاقبة العنيف الجارف ، كيف يمكن أن تشمل على كل ما للنفس الفردة من تاريخ ، أو أن تهيئ لها ما هى جديرة به من

عقاب أو ثواب على شرّها أو خيرها ؟ وإذا فرضنا للنفس خلوداً ، فكيف يجوز لحياة واحدة قصيرة أن تقرر مصيرها إلى الأبد(*) ؟

يقول الهندى إن الحياة لا يمكن فهمها إلا على افتراض أن كل مرحلة من مراحل وجود النفس تعانى العذاب أو تتمتع بالثواب ، جزاء وفاقاً لما وقع من النفس فى حياة ماضية من رذيلة أو فضيلة ؛ إذ يستحيل على فعل صغير أو كبير ، خيِّر أو شرير ، أن يمضى بغير أثر ؛ إن كل شىء لا بد له من أثر يظهر ذات يوم ، ذلك هو قانون « كارما » — ومعناها قانون الفعل — أو قانون السببية فى دنيا الروح ، وهو أسمى قوانين العالم وأبشعها ، فإذا أقام إنسانٌ العدلَ ، وكان رحيما دون أن يقترف خطيئة ، فيستحيل أن يجىء جزاؤه فى مرحلة واحدة فانية من مراحل الحياة ، بل يمتد نطاقه إلى حيوات أخرى يولد فيها ليكون ذا مكانة أعلى وحظ أوفر ، لو ظل على فضيلته الأولى ؛ أما إن عاش حياته عيش الرذيلة ، أعيدت ولادته فى حياة تالية منبوذاً أو ابن عِرْس أو كلباً (٣٥)(**) ، وقانون « كارما » هذا — مثل قانون القَدَر عند اليونان — هو فوق الآلهة والبشر معاً لأن الآلهة أنفسهم لا يستطيعون تغيير سننه التى يطَّرد فعلها ؛ أو إن شئت فقل ما قاله رجال اللاهوت ، وهو أن « كارما » وإرادة الآلهة أو فعلها ، شىء واحد بذاته(٣٨) ، لكن ليس « كارما » و « القَدَر » بشىء واحد ، لأن « القدر » يتضمن عجز الإنسان عن تقرير مصير نفسه ، أما « كارما » فتجعل الإنسان (إذا أخذنا كل حيواته جملة واحدة) خالق مصير نفسه ؛ ليست الجنة والجحيم بخاتمة ينتهى عندها فعل « كارما » وهو سلسلة الولادات والميتات ؛ نعم إن الروح بعد موت جسدها ، يجوز

(*) إذا سئل الهندى : لماذا لا نتذكر ما مر بنفوسنا وهى فى أبدانها السابقة ، أجاب بأننا كذلك لا نتذكر حوادث الطفولة الأولى ، فكما أننا لا نعلل مرحلة رشدنا إلا على أساس مرحلة الطفولة ، فكذلك لا يمكن تفسير موضعنا ونصيبنا من هذه الحياة الحاضرة إلا على أساس حيوات النفس الماضية .

(**) قد علل أحد الرهبان شهيته بأنه فى حياة سابقة لروحه كان فيلا ، ثم دبر « كارما » أن ينير شهيته لما غير بدنه(٣٦) ، ويعتقدون أن المرأة ذات الرائحة القوية كانت فيما مضى سمكة(٣٧).

أن ترسل إلى الجحيم لتلاقى عذابها على جرم بعينه ، أو أن ترسل إلى الجنة لتنعم بجزاء سريع على فضيلة بذاتها ، لكن يستحيل على روح أن يقيم فى الجحيم ، وقليل من الأرواح هى التى يُسمح لها بالإقامة فى الجنة إلى الأبد ؛ ذلك لأن الروح لا بد لها بعد فترة تقضيها فى الجنة أو الجحيم ، أن تعود إلى الأرض من جديد ، لتنفذ بحياة جديدة ما يقضى به عليها « كارما »(*)

كان هذا المذهب صادقاً من الوجهة البيولوجية إلى حد كبير ؛ فلا ريب فى أننا حقاً تجسيد جديد لأسلافنا ، وسنعود بدورنا فنتجسد من جديد فى أبنائنا ، وعيوب الآباء تهبط على الأبناء إلى حد ما (ولو أنها لا تهبط بالمقدار الذى يفرضه الجامدون الخيرون) حتى ولو بعد أجيال كثيرة ؛ فقد كان « كارما » أسطورة بارعة فى صرف الحيوان البشرى عن القتل والسرقة والمماطلة والتقتير فى العطايا ، فضلا عن أنها وسَّعت من نطاق الوحدة الخلقية والشعور بالواجب حتى شمل ذلك النطاق مراحل الحياة كلها ، ومهدت أمام التشريع الخلقى سبيل التطبيق على نطاق أوسع رقعة وأكثر منطقاً مما وجده فى أية حضارة

(*) يعتقد الهنود فى سبع سموات ، إحداها على الأرض ، وبقيتها ترتفع عن الأرض على تفاوت الدرجات بينها ؛ وهناك فى عقيدتهم إحدى وعشرون جحيما مقسمة سبعة أقسام ؛ وليس العقاب أبديا ، لكنه أنواع ؛ وإن الوصف الذى يصف به « الأب دبوا » جحيمات الهنود ، لينافس فى بشاعته جحيم دانتى ، وهو – مثله – يصور ما يضطرب به صدر الإنسانية من مخاوف كثيرة وخيال ينزع بالناس نحو إيقاع الأذى . « فن ألوان العذاب النار والحديد والثعابين والحشرات السامة والحيوانات الكاسرة وسباع الطير ، ومر الشراب والسم والروائح الكريهة ؛ واختصاراً ، تستخدم كل وسيلة ممكنة فى تعذيب المغضوب عليهم ؛ بعضهم ينفذ فى مناخيرهم حبل يظلون يساقون به إلى الأبد فوق نصال سكاكين غاية فى الإرهاف وبعضهم يحكم عليهم بالمرور خلال سم الخياط ، وبعضهم يوضعون بين صخرتين مستويتين تضمانهم ضما فتسحقانهم دون أن تقتلاهم ؛ وبعضهم تطلق عليهم طيور العقاب الجائعة فتظل تنقر عيونهم بغير انقطاع ؛ وملايين منهم يقضى عليهم بالسباحة الدائمة فى بركة مليئة ببول الكلاب أو مخاط الآدميين »(٤٠)، ويجوز أن تكون هذه العقائد قاصرة على أدنى طبقات الهنود وعلى المتزمتين من رجال اللاهوت ؛ ويسهل علينا التسامح إذا تذكرنا أن جهنمنا – على اختلافها عن جهنم الهنود – ليست منوعة العذاب فحسب ، بل هى أبدية فوق ذلك .

أخرى ، فالهنود الأخيار لا يقتلون الحشرات إذا وسعهم ذلك ، « وحتى أولئك الذين يتواضعون منهم فى طموحهم الخلقى يعاملون الحيوان معاملتهم لأخوة لهم أدنى شأناً ، لا معاملتهم لكائنات أحط نوعاً سلطهم الله عليها[٤١] » ، وقد فسرت « كارما » للهنود ــ من الوجهة الفلسفية ــ كثيراً من الحقائق التى كانت تكون بغيرها غامضة المعنى أو مجحفة إجحافاً يوغر الصـــدور ، فهذه الفوارق الأزلية التى تفرّق بين أقدار الناس والتى تخيب آمال الناس منذ الأزل فى المساواة والعـــدل ، وهذه الشرور فى صورها المختلفات التى تُسوّد وجه الأرض وتصبغ بحمرة الدماء مجرى التاريخ ؛ وهذه الآلام التى تدخل حياة الإنسان مع ولادته ثم تصاحبه حتى وفاته ؛ كل هذه وهذه وتلك بدت معقولة للهندى إذا ما اعتقد فى « كارما » ؛ ذلك لأن هذه الشرور وهذا الظلم وهذه الفوارق المتدرّجة من الخَبَل العقلى إلى النبوغ ، وهذه الدرجات من الفقر والغنى ، كل هذه نتيجة للحيوات الماضية وهى نتيجة لازمة تترتب على فعل قانون ، إن رأيته ظالماً مدى حياة واحدة أو لحظة واحدة ، فستراه أعدل ما تكون القوانين فى نهاية الأمر كله[*] ، فكارما إحدى الوسائل الكثيرة التى ابتكرها الإنسان لنفسه لتعينه على تحمل الشر صابراً ، وعلى مواجهة الحياة متفائلا ، فالمهمة التى اضطلعت بها معظم الديانات وحاولت أداءها هى أن تفسر الشر وأن تشرح للناس نظاماً كونياً يبرر لهم أن يقبلوا الشر جزءاً منه ، قبولا إلاّ يكن مليئاً بالبِشْر ، فحسبه أن يكون مصحوباً بسكينة الفؤاد ، ولما كانت مشكلة الحياة الحقيقية ليست هى آلامها ، لكنها الآلام التى تصادف من لا يستحقونها ، فإن ديانة الهند تخفف من هذه المأساة البشرية بأن تخلع

(*) الاعتقاد فى « كارما » وفى التناسخ هو أعظم عقبة من الوجهة النظرية تحول دون محو نظام الطبقات فى الهند ، لأن الهندى المتمسك بعقيدته يرى أن الفوارق الطبقية قد تقررت نتيجة لسلوك النفس فى حيواتها الماضية ، وأنها جزء من تدبير الله ، ومن الكفر أن تغير فيما دبر الله .

على الحزن والألم شيئاً من المعنى وقدراً من القيمة ؛ فللروح -بناء على اللاهوت الهندى - هذا العزاء على الأقل ، وهو أنها لا بد لها أن تتحمل نتائج فعلها وحدها دون أفعال سواها ، فما لم تضجر الروح من الوجود كله جملة واحدة ، فستجد نفسها راضية عن الشر باعتباره عقاباً عابراً موقتاً ، وسترقب تحقيق آمالها فى ثوابها على ما أتت من فضيلة .

لكن الهنود فى حقيقة الأمر يرتابون فى قيمة الوجود كله جملة واحدة ، ذلك أنه لما كانت البيئة ترهق قواهم إرهاقاً ، ولما كان الحاكم يذل قوميتهم إذلالا ، ويستغل مواردهم استغلالا ، فقد مالوا إلى النظر إلى الحياة على أنها عقوبة مرة أكثر منها فرصة سانحة أو ثواباً يرتجى ؛ فكتب الفيدا التى كتبها القوم وهم أشداء عند قدومهم من الشمال ، كانت فى تفاؤلها لا تقل عما يكتبه اليوم أديبنا « وِتْمَن » ؛ ومضت خمسمائة عام ، وظهر بوذا من هؤلاء القوم أنفسهم ، لكنه أنكر قيمة الحياة ؛ ثم مضت خمسة قرون أخرى ؛ وظهرت كتب « بورانا » فعبرت عن نظرة بلغت فى تشاؤمها حداً لم يبلغه متشائم فى الغرب ، إذا استثنينا لحظات شروداً من الشك الفلسفى(*) ؛ لقد تعذر على الشرق - حتى تناولته أطراف الثورة الصناعية - أن يفهم هذه الحماسة التى يقبل بها الغرب على الحياة ، ولم يجد إلا سذاجة وطفولة فى مشاغلنا التى لا تعرف الرحمة ، ومطامعنا التى لا تقنع ، ووسائلنا التى تحطم الأعصاب وتوفر العمل ؛

(*) أرجع شوبنهور - مثل بوذا - كل آلام الحياة والنسل ، وبشر بانتحار الجنس كله انتحاراً تكون وسيلته العقم نصطنعه اختياراً ؛ كذلك « هينى » لم يكد يكتب مقطوعة واحدة من شعره دون أن يتحدث فيها عن الموت ؛ واستطاع أن يكتب فى روح هندية هذين السطرين :

النعاس حلو ، لكن الموت أحلى ،
وأحلى من كل حلو ألا يولد الإنسان أبداً

وازدرى « كانت » تفاؤل ليبنتز ، وكتب متسائلا : « هل يمكن لأى إنسان سليم العقل عاش من أعوامه ما يكفى ليفهم ويتأمل فى قيمة الحياة البشرية ، هل يمكن لمثل هذا الإنسان أن يرضى أن تعاد عليه فصول الحياة فى روايتها الهزيلة ، لا أقول بنفس ظروفها التى شهدها هو فى حياته ، بل بأى ظروف يشاء ؟ »(٤٣) .

وتقدمنا وسرعة سيرنا ؛ لم يفهم الشرق من الغرب هذا الانغماس العميق فى سطوح الأشياء دون لبابها ، ولا هذا الرفض الماكر منه أن يواجه حقائق الوجود مواجهة صريحة ؛ لكن الغرب فى الوقت نفسه لم يستطع أن يسبر فى الشرق التقليدى أغوار هذا السكون الهامد ، ولا هذا « الركود » و« اليأس » ؛ ألا إن الحرارة لا تفهم البرودة .

« ياما » يوجه السؤال إلى « يودشترا » قائلا : « ما أعجب شيء فى العالم »؟ فيجيبه « يودشترا » : « أن يموت الإنسان فى إثر الإنسان ، وأن يرى الناس ذلك ثم يظلون فى سعيهم كأنهم من الخالدين »[٤٤] وجاء فى « الماهابهاراتا » : « العـــالم مصاب بكارثة الموت ، ومقيد فى نشاطه بالشيخوخة ، والليالى متتابعات ، تأتى ثم تمضى ، لا تتخلف أبداً ، فإذا ما أيقنت أن الموت يستحيل عليه الوقوف ، فماذا أرتجى من السير تحت غطاء من الحكمة »[٤٥] ، وتدعو « سيتا » فى « رامايانا » لما رأت أن ثوابها على وفائها رغم ما يصادفها من إغراء ومحنة هو الموت ولا شيء غير الموت ، تدعو قائلة :

لو كنت بوفائى لزوجى قد برهنت على أنى زوجة أمينة ،

فيا أمنا الأرض أريحى ابنتك « سيتا » من أعباء هذه الحياة[٤٦] .

وهكذا ترى الكلمة الأخيرة فى التفكير الدينى عند الهنود هى ما يسمونه « فكشا » ومعناها الخلاص — الخلاص أولا من الشهوة ، ثم الخلاص من الحياة ، والنرفانا هى هذا الخلاص أو ذاك ، لكنها لا تبلغ غاية أمدها إلا إذا تحقق الخلاصان معاً ، ولقد عبر الحكيم « بهارترى — هارى » عن الخلاص الأول فقال :

« إن كل شيء على الأرض يبرر الخوف ، والطريق الوحيدة للخلاص من الخوف هى فى إنكار الشهوات إنكاراً تاماً .. لقد مضى على عهد كانت تطول فيه أيامى حين كان سؤال الحسنة من الأغنياء يثخن فى قلبى ألم الجراح ، ثم بدت أيامى قصيرة كل القصر حين جعلت أسعى نحو تحقيق كل رغباتى وغاياتى

الدنيوية ، أما الآن فقد تفلسفت وجلست على حجر صلب فى كهف على سفح الجبل ، وترانى لا أنفك عن الضـــحك كلما فكرت فى حياتى الماضية »(٤٧) .

ويعبر غاندى عن الصورة الثانية من صورتى الخلاص فيقول :

« لست أريد عودة إلى ولادة جديدة »(٤٨) إن أسمى وآخر ما يتمناه الهندى هو أن ينجو من العودة إلى الحياة فى جسد آخر . وأن تزول عنه هذه الحمى التى تلتهب بها الذات كلما عاودتها الحياة فى بدن جديد وولاة جديدة ؛ وليس طريق الخلاص إيماناً ، كلا ولا نتاجا ، إنما طريق الخلاص إنكار للذات إنكاراً متصلا ، ونفاذ بالبصيرة إلى الكل الذى يبتلع فى جوفه الأجزاء ، حتى ينتهى الأمر بالنفس إلى الموت الذى يفنيها ولا يبقى منها ما يولد مرة أخرى ؛ وهكذا تتحول جحيم الفردية إلى سكينة الاتحاد مع سائر الوجود وفردوسه المقيم ؛ هكذا تتحول الفردية إلى فناء تام فى « براهما » الذى هو من العالم روحه أو قوته .

الفصل الرابع

غرائب الدين

الخرافات – التنجيم – عبادة العلاقة الجنسية –
الطقوس – الضحية – التطهير – المياه المقدسة

فى هذا الجو اللاهوتى المفعم بالخوف والألم ، ازدهرت الخرافة – وهى أول معونة ترسلها القوة الكامنة فوق الطبيعة لتعالج بها الأدواء الصغرى فى الحياة – ازدهاراً خصيباً ، حتى أصبحت القرابين ، والتمائم ، وإخراج الشياطين الحالة فى الأبدان ، والتنجيم ، والنبوءة بالغيب ، والتعزيم ، والنذور ، وقراءة الكف ، والعرافة ، وطائفة الكهان التى بلغت ٢,٧٢٨,٨١٢ ، و « فاتحو البخت » الذين يبلغون المليون ، ومروضو الثعابين بالسحر وعددهم مائة ألف ، و « الفقراء » وهم مليون ، ومن يمارسون « اليوجا » وغيرهم من الأولياء – أصبح ذلك كله جانباً واحداً من الصورة التاريخية التى تمثل الهند ؛ فقد كان للهنود منذ ألف ومائتى عام عدد كبير من الكتب التى تشرح أصول التصوف والسحر والعرافة وتذكر الصيغ السحرية التى تهيئ السبيل لتحقيق أية غاية شئت ؛ وأما البراهمة فقد نظروا نظرة ازدراء صامت إلى هذه الديانة التى يملؤها السحر ، واحتملوا وجودها لأنهم من جهة خشوا أن تكون الخرافة بين عامة الناس عاملا ضروريا لصيانة قوة البراهمة أنفسهم ، ولأنهم من جهة أخرى ربما ظنوا أن الخرافة يستحيل فناؤها ، فإن ماتت إحدى صورها ، فما ذاك إلا لكى تعود إلى الوجود فى صورة أخرى ، وأحس البراهمة أن أقل الحكمة يقتضى ألا تقاوم مثل هذه القوة التى فى وسعها أن تجسد نفسها فى كل هذه الصورة .

اعتقد الهندى الساذج – كما يعتقد كثيرون من الأمريكان المثقفين – فى

التنجيم ، وسلموا تسليما بأن كل نجمة لها تأثير خاص على أولئك الذين ولدوا وهي في أوجها[٥٠] ، فالنساء إبان الحيض كن – مثل أوفيليا – يتقين ضوء الشمس ، فذلك قد يسبب لهن الحمل[٥١] ، وجاء كتاب «كاوشيتاكي يوبانشاد» أن سر النجاح المادي هو تقديس الهلال كلما ظهر ، وكان العرافون والسحرة والمنبئون بالغيب ، إذا ما أجرتهم أجراً زهيداً ، يعلنون لك ماضي الحوادث ومقبلها بدراستهم للأكف أو للبراز ، أو للأحلام ، أو لعلامات في السماء ، أو للخروق التي أحدثتها الفئران في الثياب ، ويزعمون بترتيلهم لعبارات السحر التي لم يكن ترتيلها في مقدور أحد سواهم ، أنهم يخمدون الشياطين ويسحرون الثعابين ، ويستعبدون الطيور ، ويلزمون الآلهة أنفسهم بمعاونة من دفع لهم أجر ما يصنعون ، وكذلك كان السحرة نظير أجر معلوم سلطون الشيطان على العدو ، أو يطردونه من هذا الذي يؤجرهم ، كانوا ينزلون الموت المفاجىء على العدو أو يلحقوا به علة ليس لها شفاء ، حتى البراهمي إذا ما تثاءب ، جعل يفرقع بأصابعه ذات اليمين وذات الشمال حتى يطرد الأرواح الشريرة فلا يسمح لها بالدخول من فمه المفتوح(*) ، وكان الهندي في شتى عصوره – مثل كثيرين من الفلاحين الأوروبيين – يتحوط من عين الحسد ، فأعداؤه قد يستخدمون السحر في أية لحظة شاءوا لينزلوا به تعاسة الحظ أو ليقضوا على حياته ، ويستطيع الساحر فوق هذا كله أن يجدد الحيوية الجنسية أو أن يخلق الحب في أي إنسان لأي إنسان ، أو أن يهيء سبيل الولادة للعاقرات من النساء[٥٢] .

لم يكن يعدل رغبة الهنود في الأطفال شيء حتى النرفانا ، ومن ثم إلى حدما كانت رغبة الهندي الشديدة في القوة الجنسية ، وكان تقديسه الديني للرموز التي تشير إلى النسل والخصوبة ، فعبادة العلاقة الجنسية التي سادت

(*) وكذلك يتمم الأوروبيون الأتقياء بعبارات يستنزلون بها البركة عقب العطاس ، والأصل فيها صيانة الروح حتى لا تخرج بقوة الزفير .

معظم الأقطار فى هذا العصر أو ذاك ، قد لبثت قائمة فى الهند من العصور القديمة إلى القرن العشرين ؛ وكان إلهها هو شيفا ، ورمزها هو عضو التذكير ، وكتابها المقدس هو « أجزاء من التانْترا » (ومعناها كتب للنصوص) ؛ و« شاكتى » (ومعناها القوة التى تبعث النشاط) بالنسبة إلى شيفا هى — كما كانوا يتصورونها أحياناً — زوجته كالى ، وأحياناً أخرى يتصورون تلك القوة الباعثة شيفا على نشاطه الجنسى ، عنصراً تسوياً فى طبيعة شيفا نفسه ، وبهذا تكون طبيعته مشتملة على قوتى الذكورة والأنوثة فى آن معاً ؛ وهاتان القوتان يمثلهما الهنود بأوثان يطلقون عليها اسم « لنجا » أو « يونى » ، وهى تصور عضوى التناسل عند الرجل والمرأة[٥٣] وأينما سرت فى الهند ألفيت آثاراً لهذه العبادة للعلاقة الجنسية : تراها فى التماثيل الرمزية لأعضاء التناسل فى معبد نيبالز ، وغيره من المعابد فى بنارس ، وتراها فى أوثان « اللنجا » الهائلة التى تزيّن أو تحيط بمعابد شيفا فى الجنوب ، وتراها فى المواكب والاحتفالات التى يرمزون بها إلى العملية الجنسية ؛ ثم تراها فى تمائم ترمز إلى تلك العلاقة الجنسية أيضاً ، ويلبسونها على الذراع أو حول العنق ؛ بل قد تصادف أحجار « اللنجا » ملقاة فى عرض الطريق ، ومن عادة الهنود أن يكسروا على هاتيك الأحجار جوز الهند الذى ينوون تقديمه فى قرابينهم[٥٤] ، وهم يغسلون حجر « اللنجا » فى معبد « رامشفارام » كل يوم بماء الكنج ، ثم يباع ذلك فيما بعد للمتدينين[٥٥] كما كان يباع الماء المقدس فى أوروبا ، وطقوس هذه العبادة الجنسية فى العادة تكون بسيطة وملتزمة حدود الاحتشام ، فقوامها أن يصب على الحجر ماء مقدس أو زيت مقدس ، ويزين بأوراق الشجر[٥٦].

ولا ريب فى أن الطبقات الدنيا من الهنود تستمد بعض المتعة الداعرة من مواكب العلاقة الجنسية[٥٧] لكن الكثرة الغالبة من الناس — فيما يظهر — لا يجدون حافزاً إلى الفاحشة فى « اللنجا » أو « اليورى » أكثر مما يجد المسيحيون.

مثل هذا الحافز فى تأملهم للعذراء وهى ترضع طفلها ، إن العادة تزيل الفحش عن أى شىء ، والزمن يخلع القداسة على أى شىء ، ويظهر أن الناس قد نسوا الرمزية الجنسية فى هذه الأشياء منذ زمن طويل ، ولم تعد هذه الأوثان الآن إلا وسائل تقليدية مقدمة تمثل لهم قوة شيفا(٥٨) ، ولعل الفرق بين تصور الأوروبى وتصور الهندى للأمر منشؤه الفارق بين سن الزواج فى أوروبا وسن الزواج فى الهند ، فالزواج المبكر ينفس عن تلك الدوافع الطبيعية التى إن طال أمد كبحها ، دارت على نفسها وأنتجت إما دعارة وإما حباً عذرياً ، وعلى وجه الجملة تجد الأخلاق والعادات الخاصة بالعلاقات الجنسية فى الهند أعلى منها فى أوروبا وأمريكا ، وهى هناك أكثر منها هنا احتشاماً وعفة بدرجة كبيرة ، وعبادة شيفا هى من أكثر العبادات فى الهند تزمتاً وتقشفاً ، وأخلص عُبّاد « اللنجا » عقيدةً هم « اللنجايات » ، وهم يمثلون أشد مذاهب الهند تزمتاً وطهراً(٥٩) ، يقول غاندى : « جاءنا أضيافنا الغربيون آخر الأمر يفتحون أعيننا لجوانب الفحش التى فى طقوسنا ، بعد أن كنا نمارسها حتى عهدهم ممارسة بريئة ، لقد عرفتُ لأول مرة أن « شيفا لنجام » ترمز إلى فاحشة ، من كتاب لمبشّر مسيحى »(٦٠) .

إن استخدام الهنود « للّنجا » و« اليونى » ليس إلا صورة واحدة من ألوف الصور فى طقوسهم التى تبدو للعين العابرة الغريبة عن البلاد ، لا مجرد صورة للديانة الهندية ، بل جزءاً أساسياً من صميم لبابها ؛ ذلك لأن كل فعل من أفعال الحياة ، حتى الغسل ولبس الثياب ، له عندهم طقوسه الدينية ، وفى كل دار يسكنها متدينون ترى آلهة خاصة بأهل تلك الدار ، تمثل لهم أشياء معينة كما ترى أسلافاً يضعونها موضع التكريم كل يوم ، والواقع أن الديانة للهندى واجب يؤدى فى الدار أكثر مما يؤدى فى مراسم المعابد التى يحتفظون بها لأيام الأعياد ؛ ومع ذلك فالناس يمرحون مرحاً عظيما فى الأعياد الدينية الكثيرة التى تملأ السنة الكهنوتية ، فكانوا يسيرون مواكب عظيمة أو أفواجاً من

الحجاج ، قاصدين إلى الأضرحة القديمة ؛ ولم يكونوا ليفهموا ما يقال من عبارات الصلاة فى تلك المعابد ، لأنها كانت تقال بالسنسكريتية ، لكنهم كانوا يفهمون الأوثان ، فيزينونها بالحلى ويطلونها بالطلاء ويرصعونها بكريم الأحجار ، وكانوا أحياناً يعاملونها كأنها كائنات بشرية فيوقظونها ويغسلونها ويلبسونها الثياب ، ويطعمونها ويؤنبونها وينيمونها فى مخادعها عند خاتمة النهار[٦١] .

وأعظم الطقوس الجماعية هى تقديم القرابين ، وأعظم الطقوس الخاصة الفردية هى التطهير ، فالقربان عند الهندى ليس مجرد صورة خاوية ، لأنه يعتقد أنه إذا لم يقدمه للآلهة طعاماً تموت جوعاً [٦٢] ولما كان الإنسان فى مرحلة أكل اللحوم البشرية ، كانت القرابين فى الهند كما فى غيرها من بلاد العالم ضحية بشرية ؛ وكانت «كالى» تحب أن يكون قربانها رجالاً ، ثم فسر البراهمة هذا بأنها إنما تحب أن تأكل رجالاً من أهل الطبقات الدنيا وحدها[٦٣](*) فلما تقدمت الأخلاق أخذ الآلهة يكتفون بالحيوان قرباناً ، فكان الناس يضحون لهم بكثير منه : على أن الماعز كان ذا منزلة خاصة فى هذه الاحتفالات ثم جاءت البوذية والجانتية و «أهمسا» فحرمت التضحية بالحيوان فى بلاد الهندستان[٦٧] ثم عادت العادة مجراها القديم حين حلت الديانة الهندية محل البوذية ؛ ولبثت قائمة على نطاق يثير الدهشة باتساعه ، حتى يومنا هذا ؛ وإنه لمن حسنات البراهمة أنهم رفضوا أن يسهموا بنصيب فى أية تضحية فيها إراقة للدماء[٦٨] .

وأما طقوس التطهير فقد كانت تستغرق من حياة الهندى ساعات كثيرة ؛ لأن مخاوف النجاسة كانت من الكثرة فى الديانة الهندية كما هى فى قواعد

(*) يسجل التاريخ هذه القرابين البشرية حتى سنة ١٨٥٤[٦٤] وكان المعتقد سابقاً أن المخلصين لدينهم كانوا يقدمون أنفسهم قرابين ، مثل الذى يروى عن المتهوسين الدينيين الذين كانوا يلقون بأنفسهم تحت عجلات عربة «ججرنوت»[٦٥] ؛ لكن الرأى مجمع الآن على أن الحالات النادرة التى حدثت فيها التضحية بالنفس كانت على الأرجح من قبيل المصادفات[٦٦] .

الصحة الحديثة ؛ فما أكثر ما قد يصاب الهندى بما يردّه نجساً — إن أكل طعاماً حراماً ، وإن لمس قمامة أو مس إنساناً من طبقـــة الشودرا ، أو منبوذاً أو جثة أو امرأة فى فترة حيضها ، وغير ذلك مئات الحالات ؛ وبالطبع كانت المرأة نفسها ينجسها حيضها أو وضعها وليداً ؛ ولذا تطالب القانون البرهمى عزل المرأة فى مثل هذه الحالات ، واشترط تحوطات صحية معقدة[٦٩] وبعد كل هذه النجاسات — أو احتمال العدوى على حد تعبيرنا الحديث — كان من واجب الهندى أن يؤدى طقوساً تطهيرية معينة ؛ فأما الحالات الصغرى فتكفيها طقوس بسيطة كأن يرش من أصابته النجاسة بالماء المقدس[٧٠] وأما الحالات الكبرى فلا بد لها من طرائق معقدة تبلغ أقصى مداها فى بشاعة ما يسمونه « پانشاجافيا » وهو ضرب من التطهير كان يحكم به عقابا لمن انتهك قوانين الطبقات على خطورتها (مثال ذلك أن يغادر الهند) ويتألف ذلك التطهير من شُرْب مزيج فيه « خمسة عناصر » من البقرة المقدسة : اللبن ، والخثارة ، والسمن ، والبول ، والروث[٧١](*) .

وأقرب من ذلك قليلا إلى ذوقنا ما يوجبه عليهم دينهم من استحمام كل يوم ؛ فهاهنا كذلك ترى تدبيراً صحياً تمس إليه الحاجة مساً شديداً فى مناخ شبه استوائى ؛ وترى هذا التدبير الصحى مصبوباً فى قالب من الدين حتى يكون أقوى تأثيراً فى النفوس ؛ ولهذا بنيت بِرَكٌ وأحواض « مقدسة » ، وجعلت أنهاراً كثيرة أنهاراً مقدسة ، وقيل للقوم إنهم إذا استحموا فى هذه الأماكن تطهروا جسما وروحاً ؛ وقد كان ملايين الناس فى أيام الرحالة « يوان شوانج » يستحمون فى نهر الكنج كل صباح[٧٣] ، ومنذ ذلك العهد إلى يومنا لم تشهد تلك الأمواه شروقاً للشمس دون أن تسمع صلوات المستحمين الذين جاءوها

(*) السمن هو زبد مصفى ، ويقول « الأب دبوا » (١٨٢٠) عن البول « إنه فى نظرهم أفعل وسائل التطهير من أى ضرب من ضروب النجاسة ، فكثيراً ما شاهدت هنوداً ممن يؤمنون بالخرافة ، وهم يتبعون البقر إلى مرعاه ، ينتظرون اللحظة التى يستطيعون فيها الحصول على هذا السائل الثمين فى أوعية من نحاس أصفر ، ويسرعون به إلى دورهم وهو ما يزال دافئاً ، وكذلك شاهدتهم يرقبون أخذه فى حفنات أيديهم ، فيشربون بعضه ثم يمسحون وجوههم ورءوسهم ببقيته »[٧٢] .

سعياً وراء الطهر والخلاص ، يرفعون أذرعهم نحو السماء المقدسة ، ويصيحون في نغمة الصابرين : « أوم ، أوم ، أوم » وأصبحت بنارس هي المدينة المقدسة للهند ، إذا باتت كعبة لملايين الحجاج ، يؤمها الشيوخ من الرجال والعجائز من النساء ، جاءوا من كل أرجاء البلاد ليستحموا في النهر ، حتى يستقبلوا الموتى برآء من كل إثم أطهاراً من كل رجس ؛ إن الإنسان ليأخذه الخشوع ، بل يأخذه الفزع ، حين يتذكر أن أمثال هؤلاء الناس قد حجوا إلى بنارس مدى ألفي عام ، وغمسوا أنفسهم في مياهها وهم يرتعشون من لذعة البرد في فجر الشتاء ، وشموا بنفس متقززة لحم الموتى وهو يحترق ، فعلوا كل ذلك وهم يفوهون بنفس الدعوات التي كان يقينهم أن تجاب ، فعلوا ذلك قرناً بعد قرن ، وتوجهوا بالدعاء إلى نفس الآلهة التي لبثت على صمتها ، لكن عدم استجابة إله من الآلهة لا يحول دون تعلق القلوب به ؛ فلا تزال الهند تعتقد اليوم بنفس القوة التي كانت تعتقد بها في أي عصر مضى في الآلهة الذين لبثوا كل هذا الزمن ينظرون إلى فقرها وبؤسها فلا تأخذهم من أجلها رحمة .

الفصل الخامس

القديسون والزاهدون

أساليب التقديس – الزنادقة – التسامح – نظرة عامة فى ديانة الهنود

يظهر أن القديسين فى الهند أكثر منهم فى أى بلد آخر ، حتى ليشعر الزائر فى تلك البلاد أنهم نتاج طبيعى لها كالخشخاش والثعبان ، وللقداسة فى رأى المتدين الهندى ثلاث وسائل : الأولى طريق « جنانا – يوجا » أى طريق التأمل ، والثانية « كارما – يوجا » أىّ طريق العمل ، والثالثة « بهاكتى – يوجا » أى طريق الحب ؛ ولا يمانع للبرهمىّ فى أى من هذه الطرق الثلاث ، بما يقضى به قانون « الأَشْرامات » الأربع ، أى مراحل القداسة فعلى البرهمى الناشئ أن يبدأ الطريق بأن يكون « براهما شارى » يقسم على صيانته لعفته قبل زواجه ، وعلى أن يلتزم التقوى ويواصل الدرس ، وأن يكون صادقاً ، خدوماً « لشيخه » أى لأستاذه الذى يعلمه ، فإذا ما تزوج – ولا ينبغى أن يتأخر زواجه عن الثامنة عشرة من عمره – كان عليه أن يدخل المرحلة الثانية من الحياة البرهمية ، وهى مرحلة « جريها ستا » أى رب الأسرة ، التى ينسل فيها الأبناء ليعبدوه ويعنوا به وبأسلافه ؛ وفى المرحلة الثالثة (وقلما يمارسها الآن أحد) ينسحب الطامع فى القداسة مع زوجته ليعيش كـ « ڤانا پراستا » أى ساكن الغابات ، فيتقبل عُسْر الحياة مطمئناً راضياً ، ويحصر العلاقة الزوجية فى نسل الأطفال ، وأخيراً إذا أراد البرهمى أن يبلغ أعلى المراحل ، كان له فى شيخوخته أن يهجر حتى زوجته ، فيصبح « سانياسى » أى « الهاجر » للعالم ، مستغنياً عن كل أملاكه وكل أمواله وكل ما يربطه بغيره من علاقات ، فلا يحتفظ إلا بجلد وعل يغطى به جسده ، وعكازة يتوكأ عليها ، وقرعة ماء لظمئه ، ويجب عليه أن يلطخ جسده بالرماد كل يوم ، وأن يشرب « العناصر

الخمسة » مراراً متقاربة ، وأن يعيش معتمداً على صدقات المحسنين ، وتنص القاعدة البرهمية على أنه « لا بد أن ينظر إلى الناس جميعاً على أنهم سواسية ، فلا يتأثر بأى شىء مما يحدث ، وأن تكون له القدرة على النظر إلى الأشياء نظرة هادئة لا يعرف هدوءها معنى الاضطراب ، حتى إن بلغ الأمر حد الثورات التى تثل العروش ؛ وغايته الوحيدة ينبغى أن تكون حصوله على ذلك القدر من الحكمة ومن الروحانية الذى يمكّنه فى نهاية الأمر من الاتحاد بالربوبية العليا ، تلك الربوبية التى تفصلنا عنها شهواتنا العاطفية وبيئاتنا المادية(٧٤)(*) .

وإنك لتصادف أحياناً وسط هذا التدين صوتاً شكاكاً يرتفع كصرير النشاز فى نغمات الحياة الهندية التى تسودها استكانة التسليم؛ لا شك أن الشكاك كانوا كثيرين حينما كانت الهند غنية ، لأن الإنسانية تزداد تشككاً فى آلهتها ازدياداً يبلغ أقصاه فى حالات ازدهارها المادى ، وتزداد لها تعبداً ازدياداً يبلغ غاية مداه حين يعمها البؤس ، وقد أسلفنا القول فى فئة « شارفاكا » وغيرهم من زنادقة العصر البوذى ؛ وهنالك مؤلّف يسارى فى قِدَمه ذلك العصر ، وهو يسمى — على طريقة الهنود فى تطويل الأسماء — « شواسامْفيديُوپانشاد » الذى يبسّط اللاهوت فى أربع قضايا :

(١) أن ليس هناك عودة للروح إلى تجسد جديد ، ولا إله ولا جنة ولا نار ولا عالم .

(٢) وأن كل الكتب الدينية التقليدية من تأليف جماعة من الحمقى المغرورين .

(*) ويضيف إلى ذلك « دبوا » الذى يرتاب فى كل شىء إلا فيما يعتقد هو فيه : « أن أغلب هؤلاء الزاهدين ينظر إليهم على أنهم نصابون ، وذلك هو ما يراه فيهم أكثر مواطنيهم تنوراً »(٧٥) .

(٣) وأن ما يحكم الأشياء كلها هو « الطبيعة » التى تبدع ، و« الزمان » الذى يهدم ؛ وهما لا يأبهان بفضيلة أو برذيلة حين يقسمون بين الناس أنصبتهم من السعادة والشقاء .

(٤) وأن الناس تخدعهم حلاوة الكلام فيعتنقون الاعتقاد فى الآلهة والمعابد والكهنة ، مع أنه فى الواقع لا فرق بين ڤشنو وكلب(٦٧) ؛

وهناك قانون بوذى مكتوب باللغة الباليّة ، تراه يضم المتناقضات ، شأنه فى ذلك شأن أى كتاب مقدس يحمى مصالح الكهنوت ، وفى هذا القانون رسالة تستوقف النظر لعلها قديمة قدم المسيحية ، وتسمى « أسئلة الملك مِلِنْدا » وفيها المعلم البوذى « نجاسينا » يجيب إجابات جد مثيرة للأسئلة الدينية التى يوجهها إليه « الملك مناندر » الإغريقى الباكترىّ الذى حكم شمالى الهند فى مستهل القرن الأول قبل المسيح ؛ يقول « نجاسينا » إن الدين لا ينبغى أن يتخذ مجرد وسيلة فرار يلوذ بها المعذبون ، بل يجب أن يكون سعى الزاهد حتى يبلغ مرحلة القداسة والحكمة دون أن يزعم وجود جنة أو إله ، لأن هذا القديس يؤكد لنا أنه لا وجود لجنة أو إله(٧٧) .

وتهاجم ملحمة « المهابهاراتا » هؤلاء الشكاك والملاحدة الذين — كما تزعم لنا — ينكرون حقيقة الأرواح ويحتقرون الخلود ، وهى تقول إن أمثال هؤلاء الناس « يضربون فى فجاج الأرض كلها » ؛ وهى تنذرهم بعقابهم المقبل ، ضاربة لهم مثلا ابن آوى الذى يعلل وجوده ووجود نوعه بقوله إنه كان فى حياته الماضية « باحثاً عقلياً ، وناقداً لكتب الڤيدا ... مهيناً للكهنة معارضاً لهم ... كافراً بكل شىء شكاكاً فى كل شىء »(٧٨) ، ويشير « بهاجاڤاد — جيتا » إلى الزنادقة الذين ينكرون وجود الله ويصفون الدنيا بأنها « لا تزيد عن كونها منزلا للشهوات »(٧٦) وكثيراً ما كان البراهمة أنفسهم شكاكين لكنهم كانوا يذهبون فى الشك إلى غاية مداه بحيث لا يسمحون لأنفسهم أن يهاجموا عقيدة الناس ؛ وعلى الرغم من أن شعراء الهند بصفة عامة يتميزون بالورع الشديد

نرى بعضهم ، مثل « كابر » و « فيمانا » يدافعون عن نوع من العقيدة فى الله متحلل من كثير جداً من القيود ، فقد كتب « فيمانا » — وهو شاعر ظهر فى جنوبى الهند فى القرن السابع عشر — بروح السخرية من الرهبان الزاهدين ومن حجاج المعابد ، ونظام الطبقات ، يقول :

« عزلة الكلب ، تأمل الكركىّ ، ترتيل الحمار ، استحمام الضفدعة » ... كيف تكون أحسن حالا إذا لطخت جسمك بالرماد ؟ إنه ينبغى أن تركز فكرك فى الله وحده ، أما عن بقية ما تصنعه ، فالحمار فى وسعه أن يتمرغ فى الوسخ كما تفعل . . . إن كتب « الفيدا » أشبه ما تكون بالفاجرات اللائى يخدعن الرجال وليس لهن أغوار تُسْبر ، وأما علم الله الخبىء فهو شبيه بالزوجة الشريفة . . . أيمكن لتلطيخ الجسم بالرماد الأبيض أن يذهب برائحة وعاء الخمر ؟ أيمكن لحبل تلفه حول عنقك أن يجعل منك إنساناً آخر ؟ . . . لماذا نرى واجباً علينا أن نسىء إلى طبقة الپاريا إساءة لا تنقطع ؟ أليس المنبوذ مثلنا فى لحمه ودمه ؟ ومن أى طبقة عسى أن يكون الإله الذى يحلّ جسد الپاريا ؟ . . . إن من يقول « إنى لا أعلم شيئاً » هو أبلغ الناس حكمة »(٨٠) .

وإنه لمما يجدر ملاحظته فى هذا الصدد أن تذاع أقوال كهذه بغير مؤاخذة قائليها ، فى مجتمع تتحكم فى عقوله طبقة من الكهان ، فلو استثنينا كبح الحكم الأجنبى للهنود (بل ربما جاز أن نقول إنه بسبب وجود الحكام الأجانب الذين لم يكونوا يأبهون للعقائد الدينية الأهلية) فقد تمتعت الهند بقدر من حرية الفكر أعظم جداً مما تمتعت به أوروبا فى عصورها الوسطى ، وهى الفترة التى تقابلها مدنية الهند ، ولقد باشر البراهمة نفوذهم فى تدبر ورفق ، وكان اعتمادهم فى صيانة العقيدة الأصلية على الفقراء وما يتصفون به من جمود على القديم ، وكان هؤلاء الفقراء فى ذلك عند حسن ظن البراهمة بهم ، فإذا ما شاعت فى الناس ضروب من الزندقة أو الآلهة الغريبة شيوعاً يعد خطراً على العقيدة ، تسامح البراهمة إزاءها حتى يمتصوها امتصاصاً فى ذلك الغور

الفسيح الأبعاد الذى منه تتكون العقيدة الهندية ، فإذا أضفت إلى تلك العقيدة إلهاً أو حذفت منها إلهاً ، فلايكون لهذا أثر كبير ، ومن ثم قلت الحزازات المذهبية قلة نسبة فى المجتمع الهندى ، ولم تشتد بين الهندوس والمسلمين ، كذلك لم تسفح على أرض الهند دماء من أجل الدين ، اللهم إلا دماء سفحها الفاتحون(٨١) ، وجاء التعصب الدينى إلى البلاد مع الإسلام والمسيحية ، أما المسلمون فقد كانوا يبغون شراء الجنة بدم « الكفار » وأما البرتغاليون حين استولوا على « جوا » فقد أدخلوا فيها محاكم التفتيش(٨٢) .

وإذا بحثنا فى هذا الخليط من العقائد عن عناصر مشتركة تعرف بها الهنود فستجدها فيما يوشك أن يكون إجماعاً بين الهندوس على عبادة ڤشنو وشيڤا معاً ، وعلى تبجيل الڤيدات والبراهمة والبقرة ، وعلى اعتبار ملحمتى « ماهابهاراتا » و « رامايانا » لا مجرد ملحمتين أدبيتين ، بل اعتبارهما آيات مُنَزَّلة تأتى فى التقديس بعـــد الڤيدات(٨٣) ، وإنه لمما ينم عن مغزى : أن نرى آلهة الهند وتقاليدها الدينية اليوم مختلفة عما قررته كتب الڤيدا ، فإلى حد ما يمكن القول بأن الديانة الهندية تمثل انتصار الهند الدراڤيدية الأصلية على آرى العصر الڤيدى ؛ فقد كان من نتائج الغزو والنهب والفقر ، أن أوذيت الهند جسما وروحاً ، والتمست ملاذاً من الهزيمة الأرضية النكراء ، فى انتصارات سهلة ظفرت بها فى الأساطير والخيال ؛ فالبوذية رغمْ ما فيها من عناصر الشمم ، هى — كالرواقية — فلسفة للعبيد ؛ ولا يغير الموقف أن ينطق بها أمير ، لأنها ترمى إلى وجوب الزهد فى كل شهوة وفى كل كفاح حتى ولو كانت الشهوة وكان الكفاح من أجل الحرية الفردية أو الحرية القوميـــة ؛ مثلها الأعلى هو حالة جمود لا يعرف الرغبات ، وواضح أن حرارة الهند التى تنهك الأجسام ، هى التى نطقت بهذا اللسان الذى يعبر عن التعب تعبيراً يلتمس سنداً من العقل ؛ إن الديانة الهندية ما انفكت تفت فى عضد الهند ، بأن غلّت نفسها عن طريق

لنظام الطبقات بأغلال العبودية الدائمة للكهنوت : وتصورت آلهتها تصوراً لا تراعى فيه حدود الأخلاق ، واحتفظت خلال القرون بعادات وحشية مثل التضحية بأفراد من الإنسان وإحراق الأرملة عند وفاة زوجها ؛ تلك العادات التى كان كثير من الأمم قد نبذها منذ زمن طويل ؛ وصورت الحياة على أنها شر لا مفر منه . وعملت على تثبيط الهمة عند أتباعها وإشاعة الكآبة فى نفوسهم ؛ واستحالت الظواهر الدنيوية على يديها أوهاماً ، فمحت بذلك الفوارق بين الحرية والعبودية ، بين الخير والشر ، بين الإفساد والإصلاح ؛ ولقد قال فى ذلك هندى جرىء « إن الديانة الهندية . . . قد استحالت الآن إلى عبادة أوثان وطقوس تقليدية ، تعتبر الظواهر الشكلية كل شىء ، واللباب لا شىء »[٨٤] ولما كانت الأمة يمسك الكهنة بزمامها ، وينخر القديسون عظامها ، فإن الهند لترقب فى شغف لم يجد اللسان المعبر به : ترقب النهوض والإصلاح الدينى وحركة التنوير .

ومع ذلك فلا ينبغى أن نفكر فى الهند بغير أن تكون صورتنا التاريخية ماثلة أمام أعيننا ؛ فقد كان لنا كذلك فترة كانت لنا عصورنا الوسطى ، حيث آثرنا التصوف على العلم وحكومة الكهنة على حكومة الأغنياء ــ ولعلنا نعود إلى ذلك مرة أخرى ، إننا لا نستطيع أن نحكم على هؤلاء المتصوفة ، لأن أحكامنا فى الغرب مبنية على خبرة جسدية ونتائج مادية ، وهى فيما يظهر أمور لا تمس الموضوع الذى نحكم عليه ولا تتعمق الأشياء فى رأى القديس الهندى ؛ فماذا لو تبين أن الثروة والقوة والحرب والفتح كلها أوهام تجرى على السطح لا أكثر ، وليست جديرة بالتفكير عند العقل الناضج ؟ ماذا لو كان هذا العلم الذى يقيم نفسه على ذرات وعوامل وراثة كلها فروض ، وعلى كهارب وخلايا ، وغازات يتولد منها عباقرة مثل شكسبير ، وعناصر كيماوية يتمخض عنها المسيح ، ماذا لو كان كل هذا لا يزيد على عقيدة لا أكثر ، سبقتها عقائد ، بل إنها لعقيدة من أغرب العقائد ، وأبعدها عن التصديق

وأكثرها ميلا نحو التغير والزوال ؟ إن الشرق فى مقاومته لما هو فيه من ذل ومرض ، قد يغمس نفسه فى العلم والصناعة فى نفس اللحظة التى ينظر فيها أبناء الغرب إلى آلاتهم التى أفقرتهم وإلى علومهم التى أزالت عن أعينهم غلالة الخيال ، فينزلون بمدائنهم وآلاتهم الخراب بما يثيرونه من ثورات فوضوية أو حروب ، ثم هم قد يعودون بعد ذلك مهزومين مكلودين جائعين ، إلى الزراعة حيث يصوغون لأنفسهم إيماناً صوفياً جديداً يبث فيهم الشجاعة فى وجه الجوع والقسوة والظلم والموت : فإنك لن تجد بين المتفكهين من يتفكه كما يتفكه التاريخ .

الباب التاسع عشر

الحياة العقلية

الفصل الأول

العلم الهندى

أصوله الدينية – الفلكيون – التفكير الرياضى – الأعداد « العربية » – النظام العشرى – الجبر – الهندسة – الطبيعة – الكيمياء – علم وظائف الأعضاء – الطب الفيدى – الأطباء – الجراحون – البنج – التطعيم – التنويم

جهود الهند فى العلم قديمة جداً وحديثة جداً فى آن معاً ؛ فهى حديثة إذا نظرنا إلى العلم باعتباره بحثاً مستقلا دنيوياً ، وهى قديمة إذا نظرنا إليه باعتباره مشغلة فرعية من مشاغل الكهنة ، ولما كان الدين هو لب الحياة الهندية وصميمها ، فإن العلوم التى كان من شأنها أن تعاون الدين هى التى سبقت غيرها بالرعاية والنمو : فالفلك قد نشأ عن عبادة الأجرام السماوية ومشاهدة حركاتها لتحديد أيام الأعياد والقرابين ، ونشأ النحو وعلم اللغة عن الرغبة الملحّة بأن تكون كل صلاة وكل صيغة دينية ، صحيحة فى تركيبها وفى مخارج أصواتها ، على الرغم من أنها تقال أو تكتب بلغة ميتة[1] فقد كان علماء الهند كما كانت الحال فى عصورنا الوسطى – هم كهنتها ، بكل ما فى ذلك من خير ومن شر .

نشأ علم الفلك عن التنجيم نشأة غير مقصودة ، ثم أخذ رويداً رويداً ينفض عن نفسه الأغلال فى ظل اليونان ، وأقدم الرسائل الفلكية – وهى « السِّدْ ذانتا » حوالى ٤٢٥ قبل الميلاد – كانت قائمة على أساس العلم اليونانى[2] حتى لقد اعترف « ڤاراهاميرا » الذى أطلق على مؤلفه الموسوعى اسماً له مغزاه إذ أطلق

عليه « مجموعة كاملة للتنجيم الطبيعي » – اعترف صراحة باعتماده على اليونان ، وبحث « آرياباتا » – وهو أعظم الفلكيين والرياضيين الهنود – في قصائد منظومة موضوعات مثل المعادلات الرباعية والجيب (في حساب المثلثات) وقيمة النسبة التقريبية المستعملة في استخراج مساحة الدائرة . كما علل الكسوف والخسوف والاعتدالين والانقلابين (في حركة الأرض حول الشمس) وأعلن عن كروية الأرض ودورتها اليومية حول محورها ، وجاء ما يأتي فيما كتبه سابقاً لعلم النهضة الأوربية سبقاً جريئاً : « إن عالم النجوم ثابت ، والأرض في دورانها هي التي تحدث كل يوم ظهور الكواكب والنجوم من الشرق واختفاءها في الغرب[٤] » وجاء بعده خلفه المشهور « براهما جوبتا فنسّق المعلومات الفلكية في الهند ، ولو أنه عاق تقدم الفلك هناك برفضه لنظرية « آرياباتا » الخاصة بدوران الأرض ، هؤلاء الرجال وأتباعهم هم الذين لاءموا بين حاجات الهنود وبين التقسيم البابلي للسماء إلى أبراج ، وهم الذين قسموا العام اثني عشر شهراً ، كل شهر منها ثلاثون يوماً ، وكل يوم ثلاثون ساعة ، وكانوا يضيفون شهرا زائداً كل خمسة أعوام ، وحسبوا بدقة تستوقف النظر قطر القمر وخسوف القمر وكسوف الشمس ، وموضع القطبين ومواضع النجوم الرئيسية ودورانها[٥] ، وشرحوا نظرية الجاذبية – ولو أنهم لم يصلوا إلى قانونها – عندما كتبوا في « سدّذانتا » : « إن الأرض تجذب إليها كل شيء بما لها من قوة جاذبة[٦] » –

ولكي يحسبوا هذه العمليات المعقدة ، فكّر الهنود في حساب رياضي يفوق ما كان لليونان في كل شيء إلا الهندسة[٧] ، ولذا فإن من أهم ما ورثناه عن الشرق الأعداد « العربية » والنظام العشري ، وقد جاءنا كلاهما من الهند على أيدي العرب ، فإن ما يسمى خطأ بالأعداد « العربية » نراها منقوشة على « صخرة المراسيم » التي خلفها « أشوكا » (٢٥٦ ق . م) ، أي قبل استخدامها

فى الكتابات العربية بألف عام ؛ يقول « لابلاس » العظيم النابغ :

« إنها الهند هى التى علمتنا الطريقة العبقرية فى التعبير عن كافة الأعداد برموز عشرة ، لكل منها قيمة تستمد من مكانه فى العدد فضلا عن قيمته الذاتية المطلقة ؛ وإنها لفكرة عميقة هامة تبدو لنا اليوم من البساطة بحيث ننسى ما هى جديرة به من خطر ؛ لكن بساطتها هذه ، والسهولة العظيمة التى أدخلتها فى العمليات الحسابية كلها ، قد جعلنا من علم الحساب عندنا مخترعاً مفيداً هو فى الصف الأول بين سائر المخترعات النافعة ؛ وإننا لنزداد تقديراً لعظمة هذا الابتكار إذا ما تذكرنا أنه غاب عن عبقرية أرشميدس وأبولونيوس ، وهما من أعظم من أنجبت العصور القديمة من رجال »[٨].

وعرف « آرياباتا » و « براهما جوپتا » النظام العشرى قبل ظهوره فى كتابات العرب والسوريين بزمن طويل ؛ وأخذته الصين عن المبشرين البوذيين ويظهر أن محمداً بن موسى الخوارزمى — وهو أعظم رياضى فى عصره (مات حوالى ٨٥٠ بعد الميلاد) — قد أدخله فى بغداد ؛ أما الصفر فأقدم استخدام له معروف لنا فى آسيا وأوروبا[*] هو فى وثيقة عربية تاريخها ٨٧٣ م . أى قبل أول ظهور له — فيما نعلم — فى الهند بثلاثة أعوام ؛ لكن الرأى مجمع على أن العرب قد استعاروا الصفر أيضاً من الهند[٩] ، وهكذا ترى أكثر الأعداد تواضعاً وأكبرها نفعاً كان هدية من الهدايا الرقيقة التى قدمتها الهند لسائر البشر .

وتقدم الجبر عند الهنود وعند اليونان دون أن يأخذ فريق عن فريق فيما يظهر[**] لكن احتفاظنا باسمه العربى (الجبر كلمة عربية معناها ملاءمة

(*) كان الصفر مستعملا عند الماياويين فى أمريكا فى القرن الأول الميلادى[٨ أ] ، ويعزو الدكتور « ريرسند » للبابليين القدماء علماً بقيمة الأرقام المستمدة من مواضعها فى الأعداد (راجع مجلة السبت الأدبية ، الصادرة فى نيويورك فى ١٣ يوليو سنة ١٩٣٥ ص ١٥)

(**) أقدم عالم فى الجبر معروف لدينا هو « ديوفانتوس » اليونانى (سنة ٣٦٠ وهو أقدم من آرياباتا بقرن ، لكن « كاچورى » يعتقد بأنه أخذ الوحى من ال

التركيب) يدل على أن العلم به قد أتى إلى أوروبا الغربية من العرب — وهذا معناه أنه جاء إليها من الهند لا من اليونان[١١] ، وأبطال هذا الميدان من الهنود هم — كما فى علم الفلك — آريا بهاتا وبراهما جوبتا وبهاسكارا ؛ ويظهر أن أخيرهم (ولد سنة ١١٤ بعد الميلاد) قد ابتكر العلامة الجذرية وكثيراً غيرها من الرموز الجبرية[١٢] ، وهؤلاء الرجال هم الذين ابتكروا فكرة الكمية السلبية التى كان يستحيل الجبر بغيرها[١٣] ، وصاغوا القواعد التى يمكن بها إيجاد التباديل والتوافيق ، وحسبوا الجذر التربيعى للعـــدد ٢ ، وحلوا فى القرن الثامن الميلادى معادلات غير متعينة من الدرجة الثانية ، كانت تجهلها أوروبا حتى أيام « يولر » بعد ذلك بألف عام[١٤] ، ولقـــد صاغوا علمهم هذا فى قالب شعرى ، وخلعوا على مسائل الرياضة رشاقة تميز العصر الذهبى فى تاريخ الهند ، وهاك مثلين يوضحان الجبر فى صوره البسيطة عند الهنود .

« هناك خلية من النحل ، استقر خمسها على زهرة كادامبا ، وهبط ثلثها على زهرة سلندرة ، وطار ثلاثة أمثال الفرق بين هذين العددين إلى زهر الكوتاچا ، وظلت نحلة واحدة — وهى كل ما تبقى — حائمة فى الهواء ؛ فأنبئينى أيتها المرأة الفاتنة عدد النحل كله ... لقد اشتريت لك ياحبيبتى هذه الياقوتات الثمان ، والزمردات العشر ، واللؤلؤات المائة ، التى ترينها فى قرطك ، واشتريتها بأثمان متساوية ، وكان مجموع أثمان الأنواع الثلاثة من الأحجار الكريمة أقل من نصف المائة بثلاثة ، فأنبئينى ثمن كل منها أيتها المرأة المجدودة »[١٥] .

غير أن الهنود لم يكونوا على هذه الدرجة من التوفيق فى الهندسة ؛ ولو أن الكهنة استطاعوا فى قياس مذابح القرابين وبنائها أن يصوغوا النظرية الفيثاغورية (التى مؤداها أن المربع المنشأ على وتر المثلث القائم الزاوية يساوى مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين) قبل ميلاد المسيح ببضع مئات من السنين[١٦] وكذلك استطاع « اريابهاتا » — وقد يكون متأثراً باليونان فى ذلك —

ـ أن يحسب مساحة المثلث والمعيَّن والدائرة وأن يقدر قيمة النسبة التقريبية (فى حساب النسبة بين طول قطر الدائرة ومحيطها) بـ ٣,١٤١٦ ـ وهو رقم لم يعادله فى دقة الحساب رقم آخر حتى عهد «بيرباخ» (١٤٢٣ـ ٦١) فى أوروبا[١٧]؛ وكان «بهاسكارا» سباقاً إلى حساب التفاضل، إذ فكر فيه على نحو تقريبى، وأعد «أريابهاتا» قائمة بحساب الجيب، وجاء فى كتاب «سورياسيدْ ذانتا» مجموعة منسقة فى حساب المثلثات، كانت أرفع مستوى من كل ما عرفه اليونان فى هذا الباب[١٨].

ولدى الهنود مدرستان فكريتان لكل منهما نظرية فيزيائية شبيهة بما كان لليونان فى ذلك شبها يوحى بما كان بين البلدين من اتصال؛ فذهب «كاناد» مؤسسة الفلسفة الفايشيشيكية، إلى أن العالم مؤلف من ذرات يبلغ عدد أنواعها عدد العناصر المختلفة؛ وأما الجانتيون فقد ازدادوا شبهاً بديمقريطس فى مذهبهم بأن كافة الذرات من نوع واحد، تحدث آثاراً مختلفة بسبب الاختلاف فى طريقة تركيبها[١٩]؛ ويرى «كانادا» أن الضوء والحرارة ظاهرتان مختلفتان لعنصر واحد؛ ويذهب «يودايانا» إلى أن جميع الحرارة مصدرها الشمس؛ ويفسر «ڤاشاسپانى» ـ مثل «نيوتن» ـ الضوء بأنه مؤلف من ذرات صغيرة تنبعث من الأشياء وتطرق العين[٢٠]؛ وتجد فى رسائل الهنود التى ألفوها فى الموسيقى تحليلا وحسابا رياضياً للنغمات الموسيقية وأطوال موجاتها[*]، وكذلك صاغوا «قانون فيثاغورس» الذى مؤداه أن عدد التذبذبات، وبالتالى درجة ارتفاع النغمة، يتناسب تناسباً عكسياً مع طول الوتر فيما بين نقطة اتصاله ونقطة لمسه؛ وهنالك ما يدل على أن البحارة الهنود فى القرون الأولى

(*) مثال ذلك ما تراه فى رسالة «محيط الموسيقى» اشارام جاديفا (١٢١٠ ـ ٤٧)

بعد الميلاد ، قد استعملوا بوصلة صنعوها من سمكة حديدية تسبح فى إناء من الزيت وتشير إلى الشمال[٢١] .

وتقدمت الكيمياء بادئة طريقها من مصدرين : الطب والصناعة ؛ فقد أسلفنا بعض القول فى براعتهم الكيماوية فى صبّ الحديد فى الهند القديمة ، وفى الرقىّ الصناعى العظيم فى عصور « جوبتا » ، حينما كان يُنْظر إلى الهند — حتى من روما القيصرية — على أنها أمهر الأمم جميعاً فى صناعات كيماوية مثل الصباغة والدبغ وصناعة الصابون والزجاج والأسمنت ، وفى تاريخ بلغ من القِدَم القرن الثانى قبل الميلاد ، خصص « ناجارجونا » كتاباً بأكمله للبحث فى الزئبق ، فلما أن كان القرن السادس كان الهنود أسبق بشوط طويل من أوروبا فى الكيمياء الصناعية ، فكانوا أساتذة فى التكليس والتقطير والتصفية والتبخير واللحام وإنتاج الضوء بغير حرارة ، وخلط المساحيق المنوّمة والمخدرة ، وتحضير الأملاح المعدنية ، والمركّبات والمخلوطات من مختلف المعادن ، وبلغ طرق الصلب فى الهند القديمة حداً من الكمال لم تعرفه أوروبا إلا فى أيامنا هذه ، ويقال إن الملك يورَسْ ، قد اختار هدية نفيسة نادرة يقدمها للإسكندر ثلاثين رطلا من الصلب[٢٢] ، إذ آثرها على هدية من الذهب أو الفضة ، ونقل المسلمون كثيراً مما كان للهنود من علم الكيمياء والصناعة الكيماوية إلى الشرق الأدنى وأوروبا ، فمثلا نقل العرب عن الفرس ، وكان الفرس قد نقلوا بدورهم عن الهند سر صناعة السيوف « الدمشقية »[٢٣] .

وكان التشريح وعلم وظائف الأعضاء — مثل بعض جوانب الكيمياء — نتيجتين عرضيتين للطب الهندى ، ففى القرن السادس قبل الميلاد — رغم أنه عهد يغوص فى القِدَم ، كان الأطباء الهنود يعرفون خصائص الأربطة العضلية ورتق العظام والجهاز اللمفاوى ، والضفائر العصبية واللفائف والأنسجة

الدهنية والأوعية الدموية والأغشية المخاطية والمفصلية وأنواع من العضلات أكثر مما نستطيع أن نتبينه من جثة حديثة[٢٣] .

وقد زلّ أطباء الهند فى العصر السابق لميلاد المسيح فى نفس الخطأ الذى وقع فيه أرسطو حين تصور القلب مركز الشعور وأداته ، وظنوا أن الأعصاب تصعد من القلب وتهبط إليه ، لكنهم فهموا عمليات الهضم فهماً يستوقف النظر بدقته – أعنى الوظائف المختلفة للعصارات المعدية ، وتحول الكيموس إلى كيلوس ، ثم تحوّل الكيلوس إلى دم[٢٤] ، وسبق « أتريا » . « وايزمان » بألفين وأربعمائة عام حين ذهب (حوالى ٥٠٠ ق . م) إلى أن نطفة الوالد مستقلة عن جسمه ، وأنها تحتوى فى نفسها بنسبة مصغرة كل الكائن العضوى للوالد[٢٥] وكانوا يحبذون فحص الرجال للتحقق من توافر عناصر الرجولة فيهم قبل إقدامهم على الزواج ؛ وجاء فى تشريع « مانو » تحذيراً من عقد الزواج بين أشخاص مصابين بالسل أو الصرع أو البرص أو سوء الهضم المزمن أو البواسير أو شقشقة اللسان[٢٦] وكان مما فكّرت فيه مدارس الطب الهندية سنة ٥٠٠ قبل الميلاد ، ضبط النسل على آخر طراز يأخذ به رجال اللاهوت ، وهو يقوم على نظرية هى أن الحمل مستحيل فى مدى اثنى عشر يوماً من موعد الحيض[٢٧] ؛ ووصفوا تطور الجنين وصفاً فيه كثير جداً من الدقة ، وكان مما لوحظ فى هذا الصدد أن جنس الجنين لا يتعين إلا بعد مدة ، وزعموا أن جنس الجنين فى بعض الحالات يمكن التأثير فيه بفعل الطعام أو العقاقير[٢٨] .

وتبدأ مُدَوَّنات الطب الهندى بكتاب « أترافا – ڤيدا » ، ففى هذا الكتاب نجد قائمة بأمراض مقرونة بأعراضها ، لكنك تجدها محاطة بكثير جداً من السحر والتعزيم ؛ فقد نشأ الطب ذيلا للسحر ، فالقائم بالعلاج كان يدرس ويستخدم وسائل جثمانية لشفاء المريض ، على أساس أن هذه تساعده على نجاح ما يكتبه له من صيغ روحانية ؛ ثم أخذ على مرّ الزمن يزيد من اعتماده على

الوسائل الدنيوية ، ماضياً إلى جوار ذلك فى تعاويذه السحرية لتكون هذه معينة لتلك من الوجهة النفسية ، كما نفعل اليوم بتشجيعنا للمريض .

وفى ذيل كتاب « أترافا — ڤيدا » ملحق يسمى « أچور — ڤيدا » (ومعناها علم إطالة العمر) ، ويذهب هذا الطب الهندى القديم إلى أن المرض بسببه اضطراب فى واحد من العناصر الأربعة (الهواء والماء والبلغم والدم) وطرائق العلاج هى الأعشاب والتمائم السحرية ؛ ولا يزال كثير من طرائق الطب القديم فى وصف الأمراض وعلاجها مأخوذاً به فى الهند اليوم ، وإن ذلك ليصيبه من النجاح أحياناً ما يثير الغيرة فى صدور الأطباء الغربيين : وتجد فى كتاب « رج — ڤيدا » نحو ألف اسم من أسماء هذه الأعشاب ، وهو يحبذ الماء على أنه خير علاج لمعظم الأمراض ؛ على أن الأطباء والجراحين حتى فى العهد الڤيدى كانوا يتميزون بما يفرق بينهم وبين المعالجين بالسحر ، وكانوا يسكنون منازل تحيط بها حدائق يستنبتون فيها الأعشاب الطبية[٢٩] .

وأعظم اسمين فى الطب الهندى هما « سوشروتا » فى القرن الخامس قبل الميلاد و « شاراكا » فى القرن الثانى بعد الميلاد ؛ فقد كتب « سوشروتا » — وكان أستاذاً للطب فى جامعة بنارس — باللغة السنسكريتية مجموعة من أوصاف الأمراض وطرائق علاجها ، وكان قد ورث العلم بها من معلمه « ذانوانْتارى » فبحث فى كتابه بإطناب فى الجراحة والتوليد والطعام الصحى والاستحمام والعقاقير وتغذية الرُّضَّع والعناية بهم والتربية الطبية[٣٠] ، وأما « شاراكا » فقد أنشأ « سامهيتا » (ومعناها موسوعة) تشمل علم الطب ، وهى ما تزال مأخوذاً بها فى الهند[٣١] ؛ وبث فى أتباعه فكرة عن مهنتهم كادت تقرب من فكرة أبقراط ، « لا ينبغى أن تعالجوا مرضاكم ابتغاء منفعة لأنفسكم ، ولا إشباعاً لشهوة كائنة ما كانت من شهوات الكسب الدنيوية ، بل عالجوهم من أجل غاية واحدة هى التخفيف عن الإنسانية المعذبة ، بهذا تفوقون سائر الناس »[٣٢] ويتلو هذين الاسمين التماعاً فى تاريخ الطب الهندى اسم « ڤاجبهاتا »

(٦٢٥ ميلادية) الذى أعدّ موسوعة طبية نثرا ونظما ، ثم اسم « بهاڤاميشْرا » (١٥٥٠ ميلادية) الذى جاء فى كتابه الضخم عن التشريح ووظائف الأعضاء والطب ، ذكر الدورة الدموية قبل أن يذكرها « هارڤى » بمائة عام ، ووصف الزئبق علاجاً للمرض الجديد — مرض الزهرى — الذى كان قد دخل الهند منذ عهد قريب مع البرتغاليين ، جزءاً من التراث الذى خلّفته أوربا للهند[٣٣] .

وصف « سوشروتا » كثيراً من العمليات الجراحية — الماء فى العين ، والفتق وإخراج الحصاة من المثانة ، وبقْر الأمهات عن الأجنة وغير ذلك ، كما ذكر إحدى وعشرين ومائة أداة من أدوات الجراحة منها المشارط والمسابير والملاقط والقثاطير ومناظير القُبُل والدُّبُر[٣٤] ، وعلى الرغم من تحريم البراهمة لتشريح جثث الموتى ، جعل يدافع عن ضرورة ذلك فى تدريب الجراحين ؛ وكان أول من رقع أذناً جريحة بقطع من الجلد اقتطعها من أجزاء أخرى من الجسم ، وعنه وعن أتباعه من الهنود أخذ الطب الحديث عملية تقويم الأنف[٣٥] يقول « جارِسُن » : « لقد أجرى قدماء الهنود كل العمليات الجراحية الكبرى تقريباً ، ما عدا عملية ربط الشرايين »[٣٦] ، فقد بتروا الأطراف ، وأجروا الجراحات فى البطن ، وجبروا كسور العظام ، وأزالوا البواسير ، وقعَّدَ « سوشوترا » القواعد الدقيقة لإجراء الجراحة ، ويعدُّ اقتراحه بتعقيم الجرح بالتبخير أول ما نعرفه من جهود فى وسائل التطهير أثناء الجراحة[٣٧] ، ويذكر لنا « سوشوترا » و « شاراكا » كلاهما فوائد أنواع من الشراب الطبى فى تخدير الجسم عن الألم ، وحدث فى سنة ٩٢٧ ميلادية أن قام جراحان بتربنة الجمجمة لملك هندى ، فخدّروه عن الجراحة بفعل عقار يسمى « سامو هينى »(*)[٣٨]

(*) أقيمت المستشفيات فى سيلان منذ سنة ٤٢٧ قبل الميلاد ، وفى شمال الهند منذ ٢٢٦ قبل الميلاد[٣٩] .

وأوصى « سوشوترا » بأن تتبع فى تشخيص الأمراض التى أحصى منها ألفاً ومائة وعشرين ، طريقةُ النظر بالمنظار وطريقتا جس النبض والتسمع بالأذن[٤٠] وقد جاء وصف لجسِّ النبض فى رسالة تاريخها ١٣٠٠ بعد الميلاد[٤١] ؛ وكان تحليل البول طريقة مستحسنة فى تشخيص الأمراض ؛ حتى لقد اشتهر أطباء التبت بقدرتهم على شفاء أى مريض دون النظر فى أى شىء يتعلق به ما عدا بوله[٤٢] ، وكان العلاج الطبى فى الهند فى عهد يوان شوانج ، يبدأ بصيام مداه سبعة أيام ، وكثيراً ما كان يشفى المريض فى هذه الفترة ، فإذا بقى المرض لجأوا بعدئذ إلى استخدام العقاقير[٤٣] لكنهم لم يكونوا يسرفون فى استخدام العقاقير حتى فى أمثال هذه الحالات ، إذ كان معظم اعتمادهم على تدبير الطعام الملائم والاستحمام والحقن الشرجية والاستنشاق والحقن فى مجارى البول وإخراج الدم بدود العلق أو بالكؤوس[٤٤] ، وكان لأطباء الهنود شهرة خاصة فى تكوين ترياقات السموم ، ولا يزالون يفوقون الأطباء الأوربيين فى علاج عضة الثعبان[٤٥] ؛ وقد عرفت الهند التطعيم منذ سنة ٥٥٠ ميلادية ، مع أن أوروبا لم تعرفه إلا فى القرن الثامن عشر ، ذلك لو حكمنا من نصٍّ يعزى إلى (ذانْوانتارى) وهو طبيب من أقدم أطباء الهنود ، وهذا هو : « خذ السائل من البثور التى تراها على ضرع البقرة ... خذه على سنان المشرط ، ثم طعم به الأذرعة بين الأكتاف والمرافق ، حتى يظهر الدم ؛ عندئذ يختلط السائل بالدم فتنشأ عن اختلاطه حمى الجدرى »[٤٦] ويعتقد الأطباء الأوروبين المحدثون أن التفرقة بين الطبقات تفرقة تعزل بعضها عن بعضها ، منشؤها إيمان عند البراهمة بوجود عوامل خفية فى نقل الأمراض ؛ وكثير من قوانين الصحة التى أوصى بها « سوشوترا » و « مانو » تسلم تسليما — فيما يظهر — بما نسميه نحن المحدثون الذين نحب الأسماء الجديدة نطلقها على ما هو قديم ، أقول إنها تسلم بما نسميه نحن المحدثون بنظرية المرض عن طريق الجراثيم[٤٧] ؛ ويبدو لنا أن التنويم كوسيلة للعلاج قد نشأ عند

الهنود الذين كثيراً ما كانوا ينقلون مرضاهم إلى المعابد لمعالجتهم بالإيحاء التنويمي أو « نعاس المعبد » كما كان يحدث فى مصر واليونان[٤٨] والأطباء الإنجليز الذين أدخلوا طريقة العلاج بالتنويم فى إنجلترا — وهم « بريد » و « ازديل » و « إلْيوتْسُن » « لا شك فى أن ما أوحى لهم بآرائهم تلك ، وببعض خبرتهم ، هو اتصالهم بالهند »[٤٩] .

فالطب الهندى بصفة عامة قد تطور تطوراً سريعاً فى العهدين الڤيدى والبوذى ، ثم أعقب ذلك قرون سار فيها التقدم بخطوات الوئيد الحذر ، ولسنا ندرى كم يدين « أتريا » و « ذانوانتارى » و « سوشوترا » لليونان ، وكم تدين اليونان لهم ؛ يقول « جارسن » إنه فى أيام الاسكندر « كان لأطباء الهنود وجراحيهم شهرة — هم جديرون بها — بما يتميزون به من تفوق فى العلم ومهارة فى العمل » ، وحتى أرسطو نفسه — فى رأى طائفة من الباحثين — مدين لهم[٥٠] وكذلك قل فى الفرس والعرب ، فمن العسير أن تقطع برأى فى مدى ما أخذه الطب الهندى من بغداد ، ومن الطب البابلى فى الشرق الأدنى عن طريق بغداد ؛ فمن جهة ترى بعض طرائق العلاج مثل الأفيون والزئبق ، وبعض وسائل الكشف عن حقيقة المرض مثل جس النبض ، قد جاءت إلى الهند من فارس فيما يظهر ؛ لكنك من جهة أخرى ترى الفرس والعرب قد ترجموا إلى لغتهما فى القرن الثامن الميلادى موسوعتى « سوشوترا » و « شاراكا » اللتين كانتا قد مضى عليهما ألف عام[٥١] ولقد اعترف الخليفة العظيم هارون الرشيد بالتفوق العلمى والطبى للهنود ، واستدعى الأطباء الهنود لتنظيم المستشفيات ومدارس الطب فى بغداد[٥٢] ؛ وينتهى « لورد آمبتهل » إلى نتيجة هى أن أوروبا الوسيطة والحديثة مدينة بعلمها الطبى للعرب بطريق مباشر ، وللهند عن طريق العرب[٥٣] ؛ ولعل هذا العلم الذى هو أشرف العلوم وأبعدها عن اليقين ، قد نشأ فى بلاد مختلفة فى وقت واحد تقريباً ، ثم جعل يتطور بما كان بين الأمم المتعاصرة فى سومر ومصر والهند من صلات وتبادل فكرى .

الفصل الثانى

الفلسفة البرهمية ومذاهبها الستة

قدم الفلسفة الهندية — أهميتها — أعلامها — ألوانها — مذهب القدماء — مزاعم الفلسفة الهندية

إن تفوق الهند أوضح فى الفلسفة منه فى الطب ؛ ولو أن أصول الأشياء هاهنا أيضاً ، ينسدل عليها ستار يخفيها وكل نتيجة تصل إليها إن هى إلا ضرب من الفروض ؛ فبعض كتب « يوپانشاد » أقدم من كل ما بقى لنا من الفلسفة اليونانية ؛ ويظهر أن فيثاغورس وبارمنيدس وأفلاطون قد تأثروا بالميتافيزيقا الهندية ؛ أما آراء طاليس وأنكسمندر وأنكسمينس ، وهرقليطس ، وأناكسجوراس وأمباذقليس ، فهى لا تسبق فلسفة الهنود الدنيوية فحسب ، بل يطبعها طابع من الشك ومن البحث فى الطبيعة المادية ، يميل بنا إلى ردها إلى ما شئت من أصول ما عدا الهند ، ويعتقد « ڤكتوركوزان » أننا «مضطرون اضطراراً أن نلتمس فى هذا المهد الذى درجت فيه الإنسانية ، منشأ الفلسفة العليا »(٥٤) والأرجح عندنا أنه ليس بين المدنيات المعروفة لنا جميعاً ، مدنية واحدة كانت أصلا لكل عناصر المدنية .

لكنك لن تجد بين بلاد العالمين بلداً اشتدت فيه الرغبة فى الفلسفة شدتها فى الهند : فهى عند الهنود لا تقتصر على كونها حلية للإنسان أو تفكهة يسرّى بها عن نفسه ، بل هى جانب هام لا غنى لنا عنه فى تعلقنا بالحياة نفسها وفى معيشتنا لتلك الحياة ؛ وإنك لتجد حكماء الهند يتلقون من أمارات التكريم ما يتلقاه فى الغرب رجال المال والأعمال ؛ فأى أمة سوى الأمة الهندية قد فكرت فى الإحتفال بأعيادها بمناظرات يتنازل فيها زعماء المدارس الفلسفية المتنافسة بعضهم بعضاً ؟ فتقرأ فى اليوپانشاد كيف خصص ملك الڤيديهيين يوماً

لمناقشة فلسفية باعتبارها جزءاً من الاحتفال الديني ، بين «باچناڤالكيا» و« أسڤالا» و« أرتابهاجا » و « جارجي» ؛ ووعد الملك أن يثيب الظافر منهم — وكان عند وعده — بمكافأة قدرها ألف بقرة ومائة قطعة من الذهب(٥٦) ، وكان المألوف للمعلم الفيلسوف في الهند أن يتحدث أكثر مما يكتب ، فبدل أن يهاجم معارضيه عن طريق المطبعة المأمون الجانب ، كانوا يطالبونه بملاقاتهم في مناظرة حية ، وبالذهاب إلى مقارّ المدارس الأخرى ليضع نفسه هناك تحت تصرف أتباعها في جداله وسؤاله ، ولقد أنفق أعلام الفلاسفة ، مثل « شانكارا » شطراً عظيما من أعوامهم في أمثال تلك الرحلات الفكرية(٥٧) ، وكان الملوك أحياناً يسهمون في هذه المجادلات ، في تواضع يليق بالملك وهو في حضرة الفيلسوف — ذلك إن أخذنا بما يرويه لنا الفلاسفة أنفسهم عن ذلك ؛ وينزل الظافر في مناظرة هامة من تلك المناظرات ، منزلة عالية من البطولة في أعين الناس ، كهذه المنزلة التي يحتلها قائد عسكري عاد من انتصاراته الدامية في ميادين الحروب(٥٨) .

وترى في صورة راچپوتية من القرن الثامن عشر(٥٩) نموذجاً « لمدرسة فلسفية » هندية — فالمعلم جالس على حصير تحت شجرة ، وتلاميذه جالسون القرفصاء أمامه على نجيل الأرض ؛ وكنت تستطيع أن ترى مثل هذا المنظر أينما سرت في الهند ، لأن معلمي الفلسفة هناك كانوا في كثرة التجار في بابل ، ولن تجد في بلد آخر غير الهند عدداً من المدارس الفكرية بمقدار ما تجده منها هناك ؛ ففي إحدى محاورات بوذا ما يدلنا على أنه قد كان في الهند في عصره اثنان وستون رأياً في النفس يأخذ بها الفلاسفة المختلفون(٦٠) ، يقول « الكونت كسرلنج» : « إن هذه الأمة الفلسفية قبل كل شيء ، لديها من الألفاظ السنسكريتية التي تعبر بها عن الفكر الفلسفي والديني ، أكثر مما في اليونانية واللاتينية والجرمانية مجتمعة »(٦١) .

لما كان الفكر الهندى قد انتقل بالحديث الشفوى أكثر منه بالكتابة ، فأقدم صورة هبطت إلينا عن مذاهب المدارس المختلفة ، هى الحكم ويسمونها « سُتْرات » – ومعناها « خيوط » – يكتبها المعلم أو الطالب ، لا لتكون وسيلة لشرح رأيه لغيره ، بل لتعينه على وعيها فى ذاكرته ؛ وهذه « السترات » ترجع إلى عصور مختلفة ، فبعضها قديم يرجع تاريخه إلى سنة ٢٠٠ ميلادية ، وبعضها حديث يرجع إلى سنة ١٤٠٠ ؛ وهى جميعاً على كل حال أحدث جداً من التراث الفكرى الذى تلخصه ، والذى تناقلته العصور بالشفاه ، ذلك لأن نشأة هذه المدارس الفلسفية قديمة قدم بوذا ، بل لعل بعضها – مثل السانْخيا – كان قد ثبت أساسه عندما ولد بوذا(٦٢) .

يبوِّب الهنود مذاهبهم الفلسفية كلها فى صنفين : المذاهب الأستيكية التى تثبت ، والمذاهب الناستيكية التى تنفى(*) .

وقد فرغنا فيما مضى من دراسة المذاهب الناستيكية التى أخذ بها على وجه التخصيص أتباع « شارڤاكا » وأنصار بوذا والجانتيون ؛ والعجيب أن هذه المذاهب إنما سميت « ناستيكا » أى الكافرة الهدامة ، لا لأنها شكت أو أنكرت وجود الله (ولو أنهم فعلوا ذلك) بل لأنها شكت وأنكرت أو تجاهلت أحكام الڤيدات ؛ وكثير من مذاهب « آستيكا » شكت فى وجود الله كذلك أو أنكرت وجوده ، لكنها مع ذلك سميت بالمذاهب المؤمنة بأصول الدين ، لأنها سلمت بصواب الكتب المقدسة صواباً لا يأتيه الباطل ، كما قبلت نظام الطبقات ؛ ولم يفكر أحد فى تقييد الحرية الفكرية ، مهما بلغت من الإلحاد ، عند تلك المذاهب التى اعترفت بهذه الأسس الجوهرية التى تقوم عليها الجماعة الهندية الأصيلة ؛ ولما كان تفسير الكتب المقدسة يفسح مجالا واسعاً لاختلاف الرأى ، بحيث استطاع مهرة المفسرين أن يجدوا فى الڤيدات أى مذهب شاءوا ، فقد

(*) آستى معناها موجود ، وناستى معناها معدوم .

أصبح الشرط الوحيد في واقع الأمر . الذى لابد من تحققه إذا ما أراد الإنسان أن يكون ذا مكانة عقلية في نفوس الناس هو أن يعترف بالطبقات ؛ حتى لقد أصبح هذا النظام هو مصدر السلطان الحقيقي في البلاد ؛ معارضته تعد خيانة كبرى ، وقبوله يغفر عن كثير من السيئات ؛ وإذن فالواقع هو أن فلاسفة الهند تمتعوا بحرية أكبر جداً مما أتيح لزملائهم في أوروبا الوسطة حين سادت الفلسفة الاسكولائية (أى المدرسية) ، لكن ربما كان هؤلاء الهنود الملاسفة أقل حرية من مفكرى الدولة المسيحية في ظل البابوات المتنورين الذين سادوا أيام النهضة الأوروبية .

وآلت السيادة لستة من المذاهب « الأصيلة » — المؤمنة بأصول الفيدات — أو « الدارشانات » (ومعناها البراهين) ، حتى لقد أصبح لزاماً على كل مفكر هندى ممن يعترفون بسلطان البراهمة ، أن يعتنق هذا المذهب أو ذاك من تلك المذاهب الستة ، وهى كلها مجمعة على طائفة معينة من الآراء تعتبر ركائز التفكير الهندى : وهى أن الفيدات قد هبط بها الوحى ، وأن التدليل العقلى أقل جدارة بالركون إليه في هدايتنا إلى الحقيقة والصواب ، من إدراك الفرد وشعوره المباشرين إذا ما أعد الفرد إعداداً صحيحاً لاستقبال العوامل الروحية ، وأرهفت نفسه إرهافاً باصطناع الزهد والتزام الطاعة مدى أعوام لمن يقومون على تهذيب نفسه ؛ وأن الغاية من المعرفة ومن الفلسفة ليست هى السيطرة على العالم بقدر ما هى الخلاص منه ؛ وأن هدف الفكر هو التماس الحرية من الألم المصاحب لخيبة الشهوات في أن تجد إشباعها . وذلك التحرر من الشهوات نفسها ؛ تلك هى الفلسفات التى ينتهى إليها الناس إذا ما أتعب نفوسهم للطموح والكفاح والثراء و « التقدم » و « النجاح » .

١ — مذهب نيايا

منطق هنـــدى

أول المذاهب « البرهمية » بالترتيب المنطقى للتفكير الهندى (لأننا لاندرى فى يقين ترتيبه الزمنى ، وكل المذاهب فى أجزائها الجوهرية متعاصرة) مجموعة من النظريات المنطقية تمتد على ألفى عام ؛ فكلمة « نيايا » معناها تدليل ، أو طريقة لهداية العقل حتى ينتهى إلى نتيجة ، وأهم نصوصه هو النص المسمى « سوترا نيايا » الذى يعزى فى غير تأكيد الواثق إلى رجل يسمى « جوتاما » عاش فى زمن يختلف فيه المؤرخون ، وتتراوح تقديراتهم بين القرن الثالث قبل المسيح والقرن الأول بعده[٦٣] ، ويفصح جوتاما عن الغاية من مؤلفه فيقول ـ كما يقول كل مفكرى الهنود ـ إنها تحقيق النرفانا ، أو الخلاص من طغيان الشهوات ، وإنما تتحقق هذه الغاية فى مجال المنطق بالتفكير الواضح المتسق ؛ لكننا نشك فى أن غايته المباشرة كانت هداية الحائرين فى الصراع الذى كان يقوم بين المتناظرين من فلاسفة الهنود ؛ فهو يصوغ لهم مبادئ الحجاج ، ويعرض عليهم أحابيل النقاش ، ويحصر المغالطات الشائعة فى التفكير ؛ وتراه ـ كأنما هو أرسطو آخر ـ يلتمس بناء التدليل العقلى فى طريقة القياس ، ويجد عقدة كل تدليل فى الحد الأوسط من حدود القياس[*] وكذلك تراه ـ كأنما هو جيمس آخر أو ديوى آخر ، يعتبر المعرفة والفكر أداتين عمليتين ووسيلتين فعالتين يستخدمها الإنسان فى إشباع حاجاته وقضاء إرادته . ومقياس صحتهما هو قدرتهما على الوصول إلى فعل ناجح[٦٤] فهو

(*) يلاحظ أن القياس فى « نيايا » قوامه خمس قضايا : المطلوبة ، والعلة ، والمقدمة الكبرى ، والمقدمة الصغرى ، والنتيجة ، مثال ذلك . (١) سقراط فان ، (٢) لأنه إنسان ؛ (٣) وكل إنسان فان ؛ (٤) وسقراط فان ؛ (٥) وإذن فسقراط فان .

واقعى ، ولا شأن له قط بالفكرة السامية التى تزعم أن العالم ينعدم وجوده إذا لم يعد هناك من يدركه ، والظاهر أن أسلاف جوتاما فى مذهب نيايا كانوا ملاحدة ، وأما أتباعه فقد شغلوا أنفسهم بنظرية المعرفة[٦٥] وكانت مهمته أن يقدم للهنود دستوراً جديدا للبحث والتفكير ، وقاموساً غنياً بالألفاظ الفلسفية .

٢ — مذهب ڤايشيشيكا

ديمقريطس فى الهند

وكما أن جوتاما هو فى الهند بمثابة أرسطو ، فكذلك «كانادا» هناك بمثابة ديمقريطس ؛ وأن اسمه الذى معناه «آكل الذرات» ليدل بعض الدلالة على احتمال أن يكون شخصاً أسطورياً خلقه خيال المؤرخين ؛ ولم يتحدد بالدقة تاريخ صياغة هذا المذهب الفايشيشيكى ، فيقال إنه لم تتم صياغته قبل سنة ٣٠٠ قبل الميلاد ولا بعد سنة ٨٠٠ ميلادية ، واسمه مشتق من كلمة «فيشيشا» ومعناها «الجزئية» : فالعالم فى مذهب «كانادا» ملىء بطائفة من الأشياء ، لكنها جميعا لا تزيد عن كونها تركيبات مختلفة من الذرات ، صيغت فى هذا القالب أو ذاك ، وتتغير القوالب ، لكن الذرات يستحيل عليها الفناء ؛ ويذهب «كانادا» — على أتم شبه بديمقريطس فيما يذهب إليه — يذهب إلى أنه ليس فى العالم إلا «ذرات وفراغ» وأن الذرات لا تتحرك وفق إرادة إلهية عاقلة ، بل بدافع من قوة غير مشخصة ، هى القانون — أو «أدرشتا» ومعناها «الخفىّ» ولما كان الثائر فى تفكيره لا ينسل إلا خَلَفاً جامداً ، فكذلك كان الأنصار المتأخرون لمذهب فايشيشيكا يعجبون كيف يمكن لقوة عمياء أن تخلع على الكون نظاماً ووحدة ، فوضعوا عالماً من أنفس دقيقة جنباً إلى جنب مع عالم الذرات ، ثم جعلوا فوق العالمين إلهاً عاقلاً[٦٦] وهكذا ترى نظرية ليبنتز فى «التناسق الأزلى» موغلة فى القدم .

٣ — مذهب سانخيا

شهرته الذائعة — الميتافيزيقا — التطور — الإلحاد — المثالية — الروح — الجسد والعقل والنفس — غاية الفلسفة — تأثير سانخيا

يقول مؤرخ هندى عن هذا المذهب « إنه أبعد المذاهب الفلسفية التى أنتجتها الهند دلالة »(٦٧) ولقد وجد الأستاذ « جاربْ » الذى كرس شطراً كبيراً من حياته لدراسة سانخيا ، عزاء لنفسه إذ وجد أن مذهب « كاپيلا قد اشتمل لأول مرة فى تاريخ العالم استقلال العقل الإنسانى وحريته الكاملتين ، وثقته التامة بقدراته »(٦٨) وهو أقدم المذاهب الستة(٦٩) ولعله أقدم مذهب فلسفى(*) ولسنا ندرى شيئاً عن « كاپيلا » نفسه ، سوى أن الرواية الهندية تزعم — فى استهتار بدقة التواريخ كالذى تراه عند التلميذ الناشئ — تمجيداً له ، أنه مؤسس فلسفة سانخيا فى القرن السادس قبل الميلاد(٧١) .

يجمع « كاپيلا » فى شخصه الواقعية والاسكلائية ، وهو يبدأ كلامه بما يكاد يشبه أقوال الأطباء ، إذ يضع قاعدة فى أول حكمة يسوقها ، وهى « أن انعدام الألم انعداماً تاماً ... هو أكمل غاية ينشدها الإنسان » ، وهو يرفض الاكتفاء بمحاولة الإنسان اجتناب الألم بوسائل جسمانية ؛ ويدحض بشعوذة منطقية آراء الباحثين فى الموضوع واحداً واحداً ، ثم يأخذ بعد ذلك فى تكوين مذهبه الميتافيزيقى الخاص به ، فى سلسلة من « السوترات » المقتضبة الناهضة ؛ وهو يسرد فى سانخيا أنواع الحقائق وهى خمس وعشرون ومن هذا السَّرْد للأنواع جاءت كلمة سانخيا (لأن معناها السرد) وهو يسمى هذه الحقائق

(*) أقدم ما بقى لنا من مدوّناته ، وهو « سانخيا — كاريكا » الذى كتبه الشارح « إشفارا كرشنا » لا يرجع تاريخه إلا إلى القرن الخامس الميلادى ، و « سانخيا سوترا » الذى كان ينسب إلى « كاپيلا » لا يرجع تاريخه إلى ما قبل القرن الخامس عشر غير أن أصول المذهب يرجح أنها أسبق من البوذية نفسها(٧٠) « فالنصوص البوذية وماهابهاراتا(٧٠ أ) كثيراً ما تشيران إليه ، ويقول « ونترْنتز » إنه يرى آثاره فى فيثاغورس(٧٠ ب) .

« تانْوات » (أى الذلكات ، جمع ذلك) ومنها يتألف العالم فى رأى « كاپيلا وهو يرتب هذه الحقائق فى علاقة مركّبة ترتبط بعضها ببعض ، ويمكن توضيحها بالقائمة التالية :

(١) أ ــ العنصر (پراكريتى ، أى المنتج) وهو مبدأ فيزيقى عام ينتج بما له من قُوًى تطورية (واسمها جونات) .

(٢) أ ــ الذكاء (بوذى) وهو قوة الإدراك الحسى ، وهذا بدوره ينتج بما له من قوًى تطورية .

(٣) أ ــ العناصر الخمسة الدقاق ، أو القوى الحاسة للعالم الداخلى ، وهى :

(٤) ١ ــ البصر

(٥) ٢ ــ السمع

(٦) ٣ ــ الشم

(٧) ٤ ــ الذوق

(٨) ٥ ــ اللمس والحقائق المرقومة من (١) إلى (٨) تتعاون على إنتاج الحقائق المرقومة (١٠) إلى (٢٤)

(٩) ب ــ العقل (واسمه ماناس) وهو الإدراك الفكرى :

ج ــ أعضاء الحس الخمسة ، وهى التى تقابل الحقائق المرقوما (٤) إلى (٨)

(١٠) ١ ــ العين

(١١) ٢ ــ الأذن

(١٢) ٣ ــ الأنف

(١٣) ٤ ــ اللسان

(١٤) ٥ ــ الجلد

د ــ أعضاء الفعل الخمسة

(١٥) ١ ـ الحنجرة

(١٦) ٢ ـ اليدان

(١٧) ٣ ـ القدمان

(١٨) ٤ ـ أعضاء الإفراز

(١٩) ٥ ـ أعضاء النسل

هـ ـ عناصر العالم الخارجي الخمسة الغلاظ .

(٢٠) ١ ـ الأثير .

(٢١) ٢ ـ الهواء

(٢٢) ٣ ـ النار والضوء .

(٢٣) ٤ ـ الماء

(٢٤) ٥ ـ التراب

(٢٥) ب ـ الروح (بوروشا أي « الشخص ») وهو مبدأ نفسي عام وهو الذي يحرك ويحيي « پراكريتي » على الرغم من أنه عاجز عن فعل شيء بذاته ، وهو يستثير كل ما في « پراكريتي » من قوى تطورية لتباشر أوجه نشاطها .

وإن هذا ليبدو في أوله مذهباً مادياً خالصاً ، فعالم العقل والنفس ، مثل عالم الجسم والمادة ، عبارة ـ فيما يظهر ـ عن حركة تطورية تتأثر بالعوامل الطبيعية ، ومعنى ذلك أنه يسير في حركة مستمرة التكوين والفساد ، بادئاً من أدنى الدرجات ومنتهياً إلى أعلاها ، ثم يعود إلى أدناها من جديد ، كل ذلك والعالم هو هو من حيث عناصره في وحدتها واستمرارها ؛ فكأنما كان « كاپيلا » يشق الطريق أمام « لامارك » حين يقول إن حاجة الكائن العضوي (النفس) تولد الوظيفة (البصر والسمع والشم والذوق واللمس) ثم تنتج الوظيفة عضوها (العين والأذن والأنف واللسان والجلد) ؛ وليس في هذا

المذهب فجوة ، بل ليس فى أية فلسفة هندية تمييز بين اللاعضوى والعضوى من الكائنات ، أو بين عالم النبات وعالم الحيوان ، أو بين الحيوان وبين الإنسان ؛ فهذه كلها حلقات من سلسلة الحياة الواحدة ، أو قل إنها قضبان عجلة التطور والانحلال ، أى عجلة الولادة والموت ثم الولادة من جديد ؛ وإنما يتحدد مجرى التطور اعتباطاً بتأثير الخصائص أو القوى (الجونات) الثلاث الفاعلة فى « العنصر » : ألا وهى الطهر والفاعلية والجهل الأعمى ، وليست هذه القوى بذات هوى نحو التقدم مناهضة للانحلال ، بل إنها تنتج الواحد فى إثر الآخر على دورات لا تنتهى ، مثلها مثل ساحر عابث يظل يخرج أشياء لا تنتهى صنوفها من قبعة ، ثم يعيد وضعها فى القبعة ، ماضياً فى هذه العملية إلى الأبد : فالأمر كما يقول هربرت سبنسر فى عصر متأخر هو أن كل مرحلة من مراحل التطور تحتوى فى ذاتها ميلا إلى الانحلال باعتباره مكملا لها ونهاية لا محيص عنها .

وكان « كاپيلا » شبيها بلاپلاس حين لم ير ضرورة لفرض قوة إلهية يفسر بها الخلق أو التطور(٧٢) وليس من الغرابة فى شىء أن تجد ديانات أو فلسفات بغير إله فى هذه الأمة التى هى أكثر الأمم إمعاناً فى الدين والفلسفة : وإنك لتجد فى كثير من نصوص « سانخيا » إنكاراً صريحاً لوجود خالق مشخص ، والخالق عندهم شىء لا يمكن للعقل أن يتصوره لأن «الشىء لا يخرج من لا شىء»(٧٣) والخالق والمخلوق جانبان لشىء واحد (٧٤) ، وترى « كاپيلا » يكفيه اطمئناناً أن يكتب (كأنه عمانوئيل كانْت على وجه الدقة) بأن الخالق المشخص يستحيل أن يقيم عليه الدليل عقل بشرى ، لأن كل ما هو موجود — فى رأى هذا الشكاك الدقيق — لا يخرج على أحد فرضين ، فإما أن يكون مقيداً وإما أن يكون حراً ، ولا يمكن لله أن يكون هذا أو ذاك ولو كان الله كاملا لما مست به الحاجة إلى خلق العالم ، ثم لو كان ناقصاً لما كان إلها ؛ ولو كان الله خيراً وله قدرات إلهية ، لما أمكن قط أن يخلق عالماً على هذا النقص الذى نراه فى العالم

القائم ، الذى يغص بكثرة ما فيه من آلام ، ولا يأخذه التردد فى الموت[٧٥] ؛ وإنه لمما يفيدنا أن نرى كيف يناقش مفكرو الهنود هذه المسائل فى هدوء ، وقل أن يلجأوا فيها إلى اضطهاد أو إهانة ، فقد كانوا يرتفعون بالنقاش إلى مستوى لا يسمو إليه فى عصرنا الحاضر إلا ما يدور بين أنضج العلماء من جدل ؛ وإنما ضمن « كابيلا » الوقاية لنفسه من الأذى باعترافه بصحة الفيدات وهو يقول « إن الفيدات مرجع صحيح ما دام مؤلفها كان يعرف الحقيقة الثابتة »[٧٦] وبعد أن أرسل هذا القول إرسالا راح يفكر كما يشاء دون أن يأبه بالفيدات فى شىء .

لكنه ليس بالفيلسوف المادى ، بل عكس ذلك هو الصحيح ، لأنه مثالى وروحى على طريقته الخاصة به ، فهو يجعل إدراكنا الحسى مصدراً للعالم الواقع كله ، فما لدينا من أعضاء الحس ومن تفكير يخلع على العالم حقيقته وصورته ومغزاه ، ويستحيل عليه أن تكون له حقيقة أو صورة أو مغزى بالنسبة لنا إلا هذه ؛ أما ماذا يمكن للعالم أن يكون فى حقيقته بغض النظر عن حواسنا وأفكارنا فسؤال أخرق ليس له معنى ولا يمكن أن يكون له جواب[٧٧] ؛ ثم هو بعد أن يسرد قائمة بأربعة وعشرين عنصراً « تاتْوات » تنطوى — فى مذهبه الفلسفى — تحت حركة التطور الفيزيقى ، قلَب ماديته هذه التى بدأ بها ، وأضاف جانباً جديداً على أنه الحقيقة النهائية ، وهو أغرب العناصر كلها ، بل لعله أهمها ، وأعنى به « بوروشا » (أى الشخص) أو النفس ؛ وليست النفس على غرار ثلاثة وعشرين من العناصر الأخرى ، تأتى نتيجة للمادة (براكريتى) أو نتيجة للقوة الفيزيقية ، بل هى مبدأ نفسى قائم بذاته ، موجود فى كل الوجود ، أزلى أبدى ، عاجز عن الفعل بذاته لكنه رغم ذلك لا يُستغنى عنه فى أى فعل ؛ لأن « براكريتى » (المادة) يستحيل أن تتغير فى سيرها نحو الترقى ، والقُوى (وتسمى الجونات) يستحيل أن تفعل فعلها ، إلا عن طريق الوحى يأتيها من « بوروشا » ؛ وهكذا ترى ما هو فيزيقى تدب فيه الحركة والحياة والفاعلية بحيث يتطور ، بدافع هذا المبدأ النفسى أينما وجهت للنظر

فى جنبات الوجود(٧٨) وهاهنا يتحدث « كاپيلا » على غرار أرسطو فيقول : « هنالك فى الروح تأثير فعال (على پراكريتى أى العالم المتطور) سببه ما بينهما من تجاور ، على نحو ما يفعل الحجر المغطس (يجذب الحديد إليه) أعنى أن تجاور « پوروشا » و « پراكريتى » يتجبُرُ هذه الأخيرة على السير فى خطوات معلومة للإنتاج : وهذا اللون من التجاذب بين الجانبين يؤدى إلى الخلق ؛ وبغير هذا المعنى لا تكون الروح عاملا فعالا ولا يكون لها شأن بالخلق إطلاقاً »(٧٩)(*) .

والروح متعددة بمعنى أنها موجودة فى كل كائن عضوى ، لكنها متشابهة فى هذه الكائنات جميعاً ، ولذا فهى لا تكون عنصراً فى تكوين الشخصية الفردية ، فالفردية فيزيقية ، ونحن ما نحن لا بسبب ما فينا من روح ، بل بسبب الأصل الذى عنه نشأنا ، أعنى التطور والخبرة التى تطرأ على أجسامنا وعقولنا ، وفى « سانخيا » « يعتبر العقل جزءاً من الجسم كأى عضو آخر : فلئن كانت الروح المعتزلة بنفسها البعيدة عن التأثير بغيرها ، والتى تكمن فينا ، لئن كانت هذه الروح حرة ، فإن العقل والجسم مقيدان بقوانين و « جونات » (أى خصائص) العالم الفيزيقى(٨١) وإذن فليست الروح هى الفاعلة وهى المجبرة ، بل الفاعل المجبر هو اتحاد الجسم والعقل ؛ كلا ولا هى تتعرض للانحلال والتحول اللذين يصيبان الجسد والشخصية ، بل هى محصنة عن تيار الولادة والموت ؛ فيقول « كاپيلا » : « العقل يجوز عليه الفساد ، أما الروح فلا »(٨٢) والنفس الجزئية التى ترتبط بالمادة وبالجسم هى وحدها التى تولد وتموت وتعود إلى الولادة من جديد ، فى هذه الذبذبات التى لا تنتهى

(*) يقول أحد الشراح الهنود لفلسفة كاپيلا : « ليس لتطور پراكريتى من غاية سوى أن يهيىء مجالا لمتعة الروح »(٨٠) فيحور أن تكون خير طريقة فى النظر إلى العالم — كما يقترح «نيتشه» — هو أن نعده مشهداً فنياً مسرحياً .

ولا تنفك تتناول بالتغيير صور المادة التي منها يتألف تاريخ العالم الخارجي[٨٣]
وإذا استطاع « كاپيلا » أن يشك في كل شيء ، فإنه لم يشك قط في انتقال
الروح من جسد إلى جسد .

وهو كسائر المفكرين الهنود ينظر إلى الحياة على أنها خير مشكوك فيه إلى
حد كبير ، إن كانت خيراً على الإطلاق ، فقليلة هي أيام المرح ، وكثيرة هي
أيام الأسى ، والثروة شبيهة بنهر طافح بالماء ، والشباب شبيه بجسر متهدم
لذلك النهر الطافح بمائه ، والحياة شبيهة بشجرة على ذلك الجسر المتهدم »[٨٤]
والألم نتيجة لكون النفس والعقل الفرديين مقيدين بالمادة وفريستين لقوى
التطور العمياء ، فأين المفر من هذا الألم ؟ يجيب فيلسوفنا ألا فرار إلا بالفلسفة :
لا فرار إلا بإدراكنا أن كل هذه الآلام والأحزان ، وكل هذا الانقسام
وهذا الفوران بين الأنفس المكافحة ، إن هو إلا « مايا » أي وهم ، هو زينة
خادعة تصفها أمام عيوننا الحياة والزمن ؛ « والعبودية تنشأ من غلطة
عدم التمييز »[٨٥] — بين النفس التي تعاني الآلام وبين الروح الصامتة ، بين
السطح المضطرب وبين الأعماق التي تظل ممتنعة على كل اضطراب وتغير ؛
فلكي تسمو على هذه الآلام ، لا يقتضيك إلا أن تتبين أن جوهر الإنسان ،
وهو روحه ، يجاوز حدود الخير والشر والسرور والألم والولادة والموت ،
هذه الضروب من النشاط والكفاح ، وهذه الألوان من النجاح والهزيمة :
لا تغمنا إلا بمقدار ما يفوتنا أن ندرك أنها لا تؤثر في الروح ولا تصدر
عنها ، والإنسان المستنير إنما ينظر إليها كأنما ينصرها من خارج حدودها
فكأنه متفرج على الحياة ينظر إلى مسرحية تمثل ؛ فلتتبين الروح استقلالها
عن الأشياء ، وستظفر بالحرية من فورها ؛ فعملية إدراكها لهذه الحقيقة
كافية في حد ذاتها أن تهيء لها الفرار من سجن المكان والزمان والألم
والعودة إلى التجسيد من جديد[٨٦] ، يقول كاپيلا : « إن التحرر الذي يظفر به
الإنسان من إلمامه بالحقائق الخمسة والعشرين ، يعلمه العلم الذي لا علم سواه —
وهو أنني لست موجوداً ، ولا شيء يتعلق بي »[٨٧] ومعنى ذلك أن انفصال

الأفراد وهمٌ ، وكل الموجود هو هذا الزّبد المتطور المتحلل من مادة وعقل ، وأجسام ونفوس ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى هنالك الروح التي لا تتغير ولا تضطرب فى خلودها الساكن .

مثل هذه الفلسفة لايجدى فى إراحة الإنسان إذا ما وجد عسراً فى فصل نفسه عن بدنه المتألم وذكرياته المعذبة ، لكنها فلسفة — فيما يظهر — قد عبرت تعبيراً صادقاً عن الحالة النفسية التى سادت الهند فى تأملها الفلسفى ؛ وليس هناك من المذاهب الفلسفية الأخرى — إذا استثنينا ڤيدانتا — ما أثر فى العقل الهندى بمثل الأثر العميق الذى كان لهذه الفلسفة فيه ؛ وإنا لنلمس أثر «كاپيلا» فى مثالية بوذا المصطبغة بالإلحاد وبالبحث عن كيفية وصول الإنسان إلى معرفته بالعالم ، كما نلمس أثره فى فكرة بوذا عن النرفانا ؛ وكذلك نلمس أثر «كاپيلا» فى الماهابهاراتا وفى تشريع مانو ، وفى أشعار «البوراتا» وفى «التانترات» — وهى التى تُحَوِّرُ «بوروشا» و براكريتى» فتجعلهما مبدأى الذكورة والأنوثة اللذين جاءا بالخلق(٨٨) ، ثم نلمس أثره فوق هذا كله فى مذهب «اليوجا» الذى لا يزيد على كونه تفريعاً لسانخيا من الناحية العملية ، فهو يقوم على ما فى سانخيا من آراء ، ويستخدم ما فيها من عبارات ؛ وليس لكاپيلا أتباع مباشرون اليوم لأن العقل الهندى قد أسره «شانكارا» والڤيدانتا» لكن حكمة قديمة ما تزال ترفع صوتها فى الهند حيناً بعد حين ، ألا وهى «ليس فى ضروب العلم ما يوازى سانخيا من آراء ، وليس فى صنوف القوة ما يساوى اليوجا»(٨٩) .

٤ — مذهب اليوجا

القديسون — قدم عهد « اليوجا » — معناها ، مراحل الرياضة الروحية الثمان — غاية « اليوجا » — معجزات الآخذين « باليوجا » — إخلاص « اليوجا »

في مكان ساكن جميل
ألقى عصاه ليستقر ، ولم يكن المكان موغلا في الارتفاع
ولا كان موغلا في الانخفاض ؛ وهناك فليسكن ؛ متاعه
قماشة وجلد غزال وحشيشة « الكوشا » ؛
هناك ركز فكره تركيزاً في « الواحد »
ممسكاً بزمام قلبه وحواسه ، صامتاً ، هادئاً ،
هناك فليمارس « اليوجا » ليخلص إلى طهارة الروح ،
ويضبط جسمه فلا يتحرك
منه عنق ولا رأس ؛ ونظرته مستغرقة كلها
في طرف أنفه ، محجوباً عن كل ما حوله ،
هادئاً في روحه ، خالياً من الخوف ،
مفكراً في نذر « البراهما كاريا » الذي نذره على نفسه ؛
مخلصاً ، مفكراً « فيَّ » تائهاً في تفكيره « عني »(*) .

على سلّم المستحمين ، ترى « القديسين » جالسين هنا وهناك ، يحيط بهم هنود ينظرون إليهم نظرة الإجلال ، ومسلمون ينظرون في عدم اكتراث ، وسائحون يحدقونهم بالأبصار ؛ ويسمى هؤلاء القديسون باليوجيين ؛ وهم بمثابة

(*) راجع كتاب « بهاجافادجيتا » الذي ترجمه سير إدوِن آرنلد بعنوان « الأنشودة السماوية » وطبع في لندن سنة ١٩٢٥ ، الكتاب الرابع ص ٣٥ ؛ وبراهما كاريا هو نذر العفة الذي يتعهد به طالب الزهد ؛ والمقصود بكلمتي « فيَّ » و « عني » هو كرشنا .

المعبّر عن الديانة الهندية والفلسفة الهندية تعبيراً ليس بعد وضوحه وغرابته وضوح أو غرابة ؛ ثم تراهم كذلك فى عدد أقل ، فى الغابات وعلى جنبات الطرق ، لا يتحركون ويستغرقون فى تفكيرهم ، منهم الكهول ومنهم الشباب ، منهم من يلبس خرقة بالية على كتفيه ومنهم من يضع قماشاً على ردفيه ، ومنهم من لا يستره إلا تراب الرماد ينثره على جسده وخلال شعره المزركش ؛ تراهم جالسين القرفصاء وقد لفوا ساقاً على ساق ، لا يتحركون ، ويركزون أبصارهم فى أنوفهم أو سُرَرِهم ، بعضهم يحدقون فى الشمس ساعات متواليات بل أياماً متعاقبة ، فيفقدوا إبصارهم شيئاً فشيئاً ، وبعضهم يحيطون أنفسهم بألسنة حامية من اللهب فى قيظ النهار ، وبعضهم يمشون حفاة على جمرات النار ، أو يصبون الجمرات على رءوسهم ؛ وبعضهم يرقدون عرايا الأجساد مدى خمسة وثلاثين عاماً على أسرّة من حراب الحديد ، وبعضهم يدحرجون أجسامهم على الأرض آلاف الأميال حتى يصلوا مكاناً يحجون إليه ، وبعضهم يصفدون أنفسهم بالأغلال فى جذوع الشجر ، أو يزجون بأنفسهم فى أقفاص مغلقة حتى يأتيهم الموت ، وبعضهم يدفنون أنفسهم فى الأرض حتى الأعناق ويظلون على هذا النحو أعواماً طوالا ، أو طول الحياة ، وبعضهم يُنْفذون سلكاً خلال الأصداغ ، حتى يمر من الصدغين ، فيستحيل عليهم فتح الفكّيْن . وبهذا يحكمون على أنفسهم بالعيش على السوائل وحدها ، وبعضهم يحتفظون بأيديهم مقبوضة حتى تنفذ أظافرهم من ظهور أكفّهم ، وبعضهم يرفعون ذراعاً أو ساقاً حتى تذبل وتموت ، وكثير منهم يجلسون صامتين فى وضع واحد ، وربما ظلوا فى وضعهم أعواماً ، يأكلون أوراق الشجر وأنواع البندق التى يأتيهم بها الناس ؛ وهم فى ذلك كله يتعمدون قتل إحساسهم ويركزون كل تفكيرهم بغية أن يزدادوا علماً ، وأغلبهم يجتنبون هذه الطرائق التى تستوقف الأنظار ، ويبحثون عن الحقيقة فى سكينة ديارهم .

لقد كان لنا رجال كهؤلاء فى عصورنا الوسطى ، أما اليوم فإذا أردت أن تصادف أشباههم فى أوروبا وأمريكا فعليك أن تبحث فى زوايا البلاد وأركانها ؛ لكن الهند عرفت هؤلاء الناس مدى ألفين وخمسمائة عام — ويجوز أن يرجع عهدهم إلى ما قبل التاريخ ، حين كانوا للقبائل للهمجية — فيم نظن — بمثابة الأولياء ؛ وهذه الطريقة فى التأمل الزاهد التى تعرف باسم « يوجا » كانت موجودة أيام « الڤيدات »[٩٠] ؛ و« يوپانشاد » و« الماهابهاراتا » كلاهما اعترفتا بهذه الطريقة التى ازدهرت فى عصر بوذا[٩١] ؛ حتى الإسكندر قد استوقف انتباهه قدرة هؤلاء الناس على رياضة أنفسهم فى تحمل الألم صامتين ، فوقف يفكر فى أمرهم ، ثم دعا أحدهم أن يصحبه ليعيش معه ، لكن « اليوجى » رفض فى عزم وثبات — كما رفض « ديوجنيس » — قائلا إنه لا يريد شيئاً من الإسكندر ، مقتنعاً بخلاء وفاضه ؛ وكذلك ضحكت جماعة الزاهدين بأسرها سخرية من الرغبة الصبيانية التى جاشت فى صدر ذلك المقدونى أن يفتح العالم ، على حين أن مساحة لا تتجاوز أقداماً قليلة من الأرض — كما قالوا له — تكفى الإنسان كائناً من كان ، حياً كان أو ميتاً ، وحكيم آخر صحب الإسكندر إلى فارس ، وهو « كالانُس » (سنة ٣٢٦ ق . م) فمرض هناك ، واستأذن الإسكندر فى أن يموت ، قائلا إنه يؤثر الموت على المرض ؛ وصعد على كومة من حطب مشتعل ، هادئاً ، واحترق لم يبعث صوتاً ، وأدهش اليونان الذين لم يكونوا قد رأوا قط هذا الضرب من الشجاعة التى تقذف بالنفس فى الموت دون أن يكون فى الأمر عنصر الاغتيال الإجرامى[٩٢] ، ومضى بعد ذلك قرنان (حوالى ١٥٠ قبل الميلاد) وعندئذ جمع « پاتانجالى » أجزاء المذهب من أقوال وأفعال فى كتابه المشهور « قواعد اليوجا » الذى لا يزال يتخذ مرجعاً فى جماعات اليوجيين من بنارس إلى لوس أنجلس[٩٣] ؛ وقد ذكر يوان شوانج الذى زار البلاد فى القرن السابع الميلادى ، أن هذا المذهب كان عندئذ كثير

الأتباع [٩٤] ووصفه « ماركوبولو » حوالى سنة ١٢٩٦ وصفاً حياً [٩٥] ، وبعد كل هذه القرون ، لا نزال اليوم نرى المتطرفين من أتباعه ، وعددهم يتراوح من مليون إلى ثلاثة ملايين فى الهند [٩٦] يعذبون أنفسهم بغية أن يظفروا بسكينة المعرفة ؛ إن « اليوجا » لتعدُّ من أقوى الظواهر تأثيراً وأوقعها فى النفس فى تاريخ الإنسان بشتّى ظواهره .

وبعد ، فما هى « يوجا » ؟ معنى الكلمة الحرفى هو النير ، وليس المقصود أن يخضع الإنسان نفسه ؛ أى يدمجها فى الكائن الأسمى [٩٧] ، بمقدار ما يقصدون بالكلمة إخضاع الإنسان لنير النظام التقشفى المزهد الذى يلتزمه الطالب ليبلغ ما يريده لنفسه من طهارة الروح من كل أدران المادة وقيودها ، ويحقق ما يسمو على الطبيعة من ذكاء وقوة [٩٨] ؛ إن المادة هى أس الآلام والجهل ، ومن ثَم كانت غاية اليوجا أن تحرر النفس من كل ظواهر الحس وكل ارتباطات الجسد بشهواته ؛ فهى محاولة أن يبلغ الإنسان التنوير الأعلى والخلاص الأسمى فى حياة واحدة ، بأن يكفر فى وجود واحد عن كل الخطايا التى اقترفها فى تجسدات روحه الماضية كلها [٩٩] .

ومثل هذا التنوير لا يأتى بضربة واحدة ، بل يجب على المريد أن يخطو إلى غايته خطوة خطوة ؛ وليس فى الطريق مرحلة واحدة يمكن فهمها لأى انسان إذا لم يكن قد مر على المراحل السابقة كلها ، فلا سبيل إلى بلوغ اليوجا إلا بعد درس ورياضة للنفس طويلين صابرين ، ومراحل اليوجا ثمان :

١ — « ياما » أو موت الشهوة ، وها هنا ترضى النفس بقيود « أشما » و « براهما كاريا » وتمتنع عن كل سعى وراء مصالحها وتحرر نفسها من كل رغباتها وجهادها الماديين ، وتتمنى الخير للكائنات جميعاً [١٠٠] .

٢ — « نياما » وهى اتّباع أمين لبعض القواعد المبدئية للوصول إلى اليوجا ، كالنظافة والقناعة والتطهير والدراسة والتقوى .

٣ — « أسانا » ومعناها وضع معين للجسد ، والغرض منه إيقاف كل

إحساس ؛ وأفضل « أسانا » لهذه الغاية هي أن تضع القدم اليمنى على الفخذ اليسرى ، والقدم اليسرى على الفخذ اليمنى ، وأن يتصالب الذراعان وأن تمسك بالإصبعين الكبيرين في القدمين وأن تحنى الذقن على الصدر وتوجه النظر إلى طرف الأنف[١٠١] .

٤ — « پرانایاما » ومعناها تنظيم التنفس ، فهذه الرياضة قد تعين صاحبها على نسيان كل شيء ما عدا حركة التنفس ، وبهذا يفرغ عقله من شواغله استعداداً للخلاء القابل الذي يجب أن يسبق استغراق تفكيره في تأملاته ؛ وفي الوقت نفسه قد يتعلم الإنسان بهذه الرياضة طريقة الحياة على الحد الأدنى من الهواء ، فيستطيع أن يدفن نفسه في التراب أياماً كثيرة دون أن يختنق .

٥ — « پراتیاكارا » ومعناها التجريد ، وها هنا يسيطر العقل على جميع الحواس ويباعد بين نفسه وبين كل المُحَسَّات .

٦ — « ذارانا » أو التركيز ، وهو أن يملأ العقل والحواس بفكرة واحدة أو موضوع واحد بحيث يصرف النظر عن كل ما عداه(*) فتركز الانتباه في موضوع واحد كائناً ما كان مدة كافية من شأنه أن يحرر النفس من كل إحساس ، وكل تفكير في موضوع وكل شهوة أنانية ، وما دام العقل قد تجرد عن الأشياء فقد يصبح حراً بحيث يحس الجوهر الروحي للوجود على حقيقته(**) .

(*) راجع جيمز : إذا أحسست بشيء واحد دائماً ، كان ذلك بمثابة عدم إحساسك بشيء .

(**) يقارن « إلْيَيت » بهذه الفقرة — لكي يوضح هذه المرحلة — فقرة من شوبنهور ، كانت لا شك من وحي دراسته للفلسفة الهندية وهي : « إذا ما حدث لنا بسبب مفاجيء أو انحراف داخل ، أن ارتفعنا عن تيار الإرادة الذي لا ينتهي ، فإن الانتباه لا يعود منصباً على دوافع الإرادة ، بل يفهم الأشياء مستقلة عن علاقتها بالإرادة ، وبهذا يلاحظها بغير النظرة الذاتية ، أي يلاحظها من حيث هي في موضوعيتها الخالصة ، ويصرف الانتباه نفسه صرفاً تاماً للنظر إليها باعتبارها أفكاراً ، لا باعتبارها دوافع لإرادته ، عندئذ ترى السكينة التي طالما نشدناها ، والتي ما انفكت تملت منا حين كنا نتابع طريق إشباع الشهوات ، ترى هذه السكينة قد هبطت إلينا من تلقاء نفسها ، فنحسن بذلك حالا »[١٠٢] .

٧ ـ « ذيانا » أو التأمل ، وهو حالة تكاد تكون تنويماً مغناطيسياً تنتج عن « ذارانا » ، ويقول « پاتانجالى » إنها يمكن استحداثها من الدأب على تكرار المقطع المقدس « أوم » ؛ وأخيراً يصل الزاهد إلى المرحلة التالية التى تعد خاتمة المطاف فى سبيل اليوجا .

٨ ـ « ساماذى » أو تأمل الغيبوبة ؛ فهاهنا يمحى من الذهن كل تفكير ، فإذا ما فرغ العقل من مكنونه ، فقد الشعور بنفسه على أنه كائن مستقل بذاته[١٠٣] وينغمس فى مجموعة الوجود ، ويجمع كل الأشياء فى كائن واحد ، وهو تصورٌ إلهى مبارك ؛ ويستحيل وصف هذه الحالة بكلمات لمن لم يمارسها ، وليس فى وسع الذكاء الإنسانى أو التدليل المنطقى أن يجد لها صيغة تعبر عنها « فلا سبيل إلى معرفة اليوجا إلا عن طريق اليوجا »[١٠٤] .

ومع ذلك فليس ما ينشده « اليوجىُّ » هو الله أو الاتحاد بالله ؛ ففى فلسفة اليوجا ليس الله (واسمه إشڤارا) هو خالق الكون أو حافظه ؛ وليس هو من يثيب الناس أو يعاقبهم ؛ بل هو لايزيد على كونه فكرة من فكرات كثيرة مما يجوز لنفس أن تركز فيها تأملها وتتخذها وسيلة لمعرفة الحقيقة ، الغاية المنشودة فى صراحة هى فصل العقل عن الجسد ، هى إزاحة كل العوائق المادية عن الروح ، حتى يتسنى لها ـ فى مذهب اليوجا ـ أن تكسب إدراكاً وقدرة خارقتين للطبيعة[١٠٥] لأنه إذا نفضت عن الروح كل آثار خضوعها للجسد واشتباكها فيه ، فإنها لا تتحد مع براهمة وكفى ، بل تصبح براهما نفسه ؛ إذ أن براهما ليس إلا ذلك الأساس الروحى الخفىء ، ذلك الروح اللامادى الذى لا يتفرد بنفس ، والذى يبقى بعد أن تطرد بالرياضة كل أعلاق الحواس ؛ فإلى الحد الذى تستطيع عنده الروح أن تحرر نفسها من بيئتها وسجنها الماديين ، إلى هذا الحد تستطيع أن تكون براهما بحيث تمارس ذكاء برهميا وقوة برهمية : ؛ وهنا يظهر الأساس السحرى للدين من جديد ، حتى ليكاد يتهدد الدين نفسه بالخطر ـ وهو عبادة القوى التى هى أسمى من الإنسان .

كانت » اليوجا » فى أيام « اليوپانشاد » صوفية خالصة — أعنى محاولة تحقيق اتحاد الروح بالله ؛ وتروى الأساطير الهندية أنه فى سالف الأيام قد أتيح « لحكماء » سبعة (واسمهم ارشاء) أن يظفروا بالتوبة والتأمل بمعرفة تامة بكافة الأشياء(١٠٦) : ثم اختلطت « اليوجا » بالسحر حتى أفسدها فى العهود المتأخرة من تاريخ الهند ؛ وأخذت تشغل نفسها بالتفكير فى المعجزات أكثر مما تفكر فى سكينة المعرفة ؛ ويعتقد « اليوحى » أنه بوساطة « اليوجا » يستطيع أن يخدر أى جزء من أحزاء جسمه بتركيز فكره فيه ؛ وبذلك يجعله تحت سلطانه(١٠٧) فيمكنه إن أراد أن يخفى عن الأبصار ، أو أن يحول بين جسده وبين الحركة مهما كان الدافع إليها ، أو أن يمر فى أية لحظة شاء من أى جزء شاء من أجزاء الأرض جميعاً ، أو أن يحيا من العمر ما شاء أن يحيا ، أو أن يعرف الماضى والمستقبل كما يعرف أبعد النجوم(١٠٨) .

ولزاماً على المتشكك أن يعترف بأنه ليس فى هذه الأشياء كلها ما هو مستحيل ؛ ففى وسع المجانين أن يبتكروا من الفروض ما يستحيل على الفلاسفة أن يدحضوه ، وكثيراً ما يشترك الفلاسفة وإياهم فى مثل هذا الابتكار للفروض الغريبة ؛ فشدة النشوة والتخليط الذهنى يمكن إحداثهما بالصوم وتعذيب النفس ؛ والتركيز يمكن أن يميت شعور الإنسان بالألم فى موضع معين ، أو بصفة عامة ، وليس فى وسعنا أن نجزم بألوان الطاقة الكامنة والقدرات المدخرة فى العقل المجهول ؛ ومع ذلك فكثير من « اليوجيين » لا يزيدون على كونهم سائلين الناس مالا ، يتحملون هاتيك الكفّارات الأليمة طمعاً فى الذهب ، الذى يُتّهم الغربيون وحدهم بالطمع فيه ، أو هم يتحملونها سعياً وراء ما يسعى إليه الإنسان مدفوعاً بطبيعته الفطرية ، من لفت الأنظار واستثارة الإعجاب(*) ؛ إن الزهد هو ما يقابل الانغماس فى شهوات الحس ، أو هو

(*) يصفهم « دبوا » بما له من برود فى الحس ، بقوله إنهم « جماعه من المتشردين(١٠٩) وكلمة « فقير » التى تطلق أحياناً على أصحاب اليوجا ، كلمة عربية معناها فى الأصل « فقر من المال » وهى لا تنطبق انطباقاً صحيحاً إلا على أعضاء الجمعيات الإسلامية الدينية الذين يسلمون أنفسهم للزهد فى حطام الدنيا .

على أحسن تقدير محاولة التحكم فى زمام تلك الشهوات ؛ لكن هذه المحاولة نفسها تدنو من شهوة أخرى هى رغبة إيقاع الأذى ، مما يجعل الزاهد يكاد ينتشى من الغبطة كلما أنزل بنفسه الألم ؛ ولقد كان البراهمة من الحكمة بحيث حرموا على أنفسهم مثل هذه الرياضيات ، ووعظوا أتباعهم بأن ينشدوا القداسة فى أداء الواجبات المألوفة فى شئون الحياة ، أداءً يرضى ضمائرهم[١١٠].

٥ — پيرڤا — ميمانسا

انتقالنا من « اليوجا » إلى « پيرڤا — ميمانسا » هو انتقال من أشهر المذاهب الستة للفلسفة البرهمية إلى أقلها شهرة وأهمية ؛ وكما أن « اليوجا » أدخل فى السحر والتصوف منها فى الفلسفة ، فكذلك هذا المذهب أقرب إلى الدين منه إلى الفلسفة ، بل هو بمثابة رد الفعل من جانب المتمسكين بأصول الدين ليناهضوا به مذاهب الزندقة التى قال بها الفلاسفة ؛ فصاحب هذا المذهب ، وهو « چيمينى » يحتج على « كاپيلا » و « كانادا » فى إنكارهما لحجة الفيدات ، مع اعترافهما بهذه الكتب المقدسة ، ويقول « چيمينى » إن العقل الإنسانى أضعف من أن يحل مشكلات الميتافيزيقا واللاهوت ، فالعقل مستهتر يقدم نفسه لخدمة الأهواء كائنة ما كانت ، فهو لا يعطينا « علما » و « حقيقة » بل يكتفى بصبغ ميولنا الحسية وزهونا بصبغة المنطق ؛ إن الطريق إلى الحكمة والسلام لا يمتد فى المنطق والتواءاته الفارغة ، بل تراه فى التسليم المتواضع بما جاء عن طريق الوحى ونقله الخلف عن السلف ، وفى الأداء المتواضع للشعائر كما فصلتها الكتب المقدسة ، وهذه وجهة من النظر لا تعدم وجهاً للدفاع .

٦ – مذهب الأڤيدانتا

أصله – شانكارا – المنطق – نظرية المعرفة – « مايا » – علم النفس – اللاهوت – الله – الأخلاق – مشكلات المذهب – موت شانكارا

كلمة « ڤيدانتا » معناها في الأصل ختام الڤيدات – أعني اليوپانشاد ؛ أما اليوم فيطلقها الهنود على المذهب الفلسفي الذي حاول أن يدعم بالمنطق بناء الفكرة الأساسية التي وردت في كتب اليوپانشاد – تلك الفكرة التي تسود نغمتها جوانب الفكر الهندي بأسره – وهي أن الله (براهما) والروح (أتمان) شيء واحد ، وأقدم صورة وصلتنا لهذه الفلسفة التي هي أوسع الفلسفات الهندية شيوعاً ، هي كتاب « براهما – سوترا » لصاحبه « بدارايانا » (حوالى ٢٠٠ ق . م) وقوام الكتاب خمسمائة وخمسة وخمسون حكمة ، تعلن أولاها الغاية من الكتاب كله ، وهي : « لنفرغ الآن إلى الرغبة في معرفة براهما » ؛ وكادت تمضي بعد ذلك ألف عام ، حين كتب « جودايادا » تعليقاً على هذه « السوترات » (أي الحكم) ثم علم « جوڤندا » أسرار المذهب ، وهذا بدوره لقّنها لشانكارا ، الذي ألف أشهر ما كتب عن الڤيدانتا من شروح ، وكان بما ألف أعظم الفلاسفة الهنود جميعاً .

استطاع « شانكارا » في حياته القصيرة البالغة اثنين وثلاثين عاماً ، أن يحقق الاتحاد بين شخصيتي الحكيم والقديس ، بين صفتي الحكمة والرحمة ، وهو اتحاد يتصف به أسمى ما أنجبتهم الهند من صنوف الإنسان ؛ ولد بين جماعة نشيطة في البحث العقلي من براهمة ملبار ، وهم المعروفون باسم البراهمة نمبرديين ، وزهد في ترف الدنيا ، وانخرط في سلك « الساميياسيين » وهو لم يزل يافعاً ، يعبد الآلهة الهندية على اختلافها دون أن يزعم لنفسه القدرة على فهمها ، على الرغم من أنه كان مغموراً في موجة من التصوف تكشف له عن فكرة « براهما » الواحد الذي يضم الآلهة جميعاً ؛ وخيل إليه أن ما ورد في

كتب اليوپانشاد ، هو أعمق الدين وأعمق الفلسفة فى آن معاً ، فهو يستطيع أن يعفو عن عامة الناس فى عبادتهم لآلهة متعددة ، لكنه لا يجد ما يغفر به عن الإلحاد فى « سانخيا » أو عن لا أدرية « بوذا » ، سافر إلى الشمال ليمثل الجنوب فيه فاكتسب هناك شهرة فى جامعة بنارس ، حدت بالجامعة أن تخلع عليه أسمى ما عندها من أسباب التكريم ، وبعثت به مصحوباً بطائفة كبيرة من الأتباع ، ليذود عن البرهمية فى كل ساحات المناظرة فى الهند ؛ ولعله كتب وهو فى بنارس شرحه المشهور لليوپانشاد ، وألف « مهاجاڤاد — جيتا » الذى هاجم فيه بحماسة دينية ودقة اسكولائية طوائف الزنادقة فى الهند ، وأعاد للبرهمية زعامتها الفكرية التى سلبها إياها « بوذا » و « كاپيلا » .

يشيع فى هذه الأبحاث الجدلية كثير من الميتافيزيقا ، وفيها أقفار يباب من نصوص معروضة ، لكننا نغفر ذلك كله لرجل استطاع وهو فى سن الثلاثين أن يكون للهند « أكويناس » و « كانت » معاً ؛ فهو مثل « أكويناس » يسلم بكل ما للكتب المقدسة فى بلده من حجة على أنها وحى سماوى ثم يطوف باحثاً عن أدلة من خبرته ومن منطق العقل يؤيد بها كل تعاليم تلك الكتب المنزلة ؛ لكنه مع ذلك يختلف عن « أكويناس » فى أنه ينكر على العقل وحده قدرته على القيام بهذه المهمة ؛ بل هو على عكس ذلك ، يتساءل قائلا ألم نبالغ فى قوة العقل وما يقوم به ، وفى وضوحه وجدارته بالركون إليه ؟[111] فقد أصاب « چيمينى » حين قال إن العقل محام مستعد للبرهنة على كل ما نريد البرهنة عليه ؛ لأن العقل يستطيع أن يجد لكل حجة حجة تدحضها وتكون مساوية لها ؛ والنتيجة التى ينتهى إليها هى الشك يزعزع كل ما فى أخلاقنا من قوة ، ويزلزل كل ما فى حياتنا من قيم ؛ ويقول « شانكارا » : ليس المنطق هو الذى يعوزنا إنما تعوزنا البصيرة النافذة ؛ وهى ملكة (شبيهة بملكة الفنون) تدرك بها دفعة واحدة ما هو حيوى فى الأمر الذى نحن بصدده ، فنميزه مما ليس

بذى خطر ، وتفرق بها بين ما هو أبدى وما هو زمنى عابر ، ونخرج بها الكل من الجزء ؛ تلك هى أول ما يلزم للفلسفة من شروط ، والشرط الثانى هو أن نقبل إقبالا عن طواعية على الملاحظة والبحث والتفكير ؛ لا نبتغى من ذلك كله غاية وراء المعرفة لذاتها ، لا نريد من ورائه اختراعاً أوثراء أو قوة ؛ إنه بمثابة انسحاب الروح حتى لا تتعرض لكل ما يصاحب العمل من استثارة وميل مع الهوى واستمتاع بالثمرة ؛ وثالث الشروط هوأن يكتسب الفيلسوف ضبطاً لنفسه وصبراً وهدوءاً ، ولا بد له أن يروض نفسه على الحياة المترفعة عن الإغراء الجسدى والمشاغل المادية وأخيراً يجب أن تشتعل فى أعماق نفسه رغبة فى « الموكشا » ومعناها التحرر من الجهل ، والقضاء على كل الشعور بنفسه الفردية المنفصلة عن سواها ، والاندماج السعيد فى براهما الذى هو المعرفة الكاملة والاتحاد اللانهائى[١١٢] واختصاراً ، ليس الطالب بحاجة إلى منطق العقل بقدر ما هو بحاجة إلى تطهير الروح ورياضتها رياضة تزيد أغوارها عمقاً ؛ ولعل فى ذلك سر التربية الحقيقية فى شتى صورها .

أقام « شانكارا » أساس فلسفته عند نقطة عمقية دقيقة ، لم يستطع احد بعده أن يدركها إدراكاً واضحاً ، حتى قيض الله لها بعد ألف عام (عمانوئيل كانت » فكتب كتابه « نقد العقل الخالص » ، ذلك أنه ألقى على نفسه سؤالا هو : كيف تمكن المعرفة ؟ إن كل علمنا فيما يبدو آت من الحواس ، فهو لا يكشف عن الواقع الخارجى كما هو فى ذاته ، بل يكشف عن طريقة تشكيلنا لذلك الواقع بحواسنا — وربما بلغ التشكيل حد التغيير من الصورة الأصلية تغييراً أساسياً — وإذن فبالحس وحده يستحيل أن نعرف « الحقيقى » معرفة تامة ؛ وكل ما قد نعرفه عنه هو العلم به وهو فى ثوب المكان والزمان والسببية ، وقد يكون ذلك الثوب نسيجاً خلقته حواسنا وعقولنا ، فصوّرته أو طوّرته على نحو يتيح له أن يتصيد ثباتاً من هذا الواقع السيال المفلات ، وأن يمسك بهذه الصورة الثابتة عنه ، مع أننا إن استطعنا

أن نحدس بوجود ذلك الواقع الخارجي ، فيستحيل علينا أبداً أن نصف خصائصه الموضوعية كما تقع في ذاتها ؛ ذلك لأن أسلوبنا في الإدراك سيظل إلى الأبد ممتزجاً بالشيء المدرك امتزاجاً لا سبيل إلى عزل الواحد عن الآخر .

وليس هذا بالذاتية الجوفاء التي يقول بها من يريد أن يُغلَق على طويته دون أن يجد سبيلا لاتصاله بالعالم الخارجي ، والذي يظن أنه مستطيع أن يحطم العالم تحطيما إذا تركه واسترسل في النعاس ؛ إن العالم موجود ، لكنه « مايا » وليس معنى الكلمة أنه وهم ، بل هو ظواهر ، هو مظهر اشتراك عقل الإنسان في تكوينه ، وعجزنا عن إدراك الأشياء إلا في صورها التي تعرض علينا وهي في الزمان والمكان ، ثم عَجْزنا عن التفكير فيها إلا على أساس السببية والتغير ، إن هو إلا قصور فطري في طبائعنا ، هو « أفيديا » أو جهل مرتبط ارتباطاً شديداً بطريقة إدراكنا نفسها ، وعلى ذلك فهو جهل كتب على الجسد أن يصاب به ؛ إن « مايا » و « أفيديا » هما الجانبان الذاتي والموضوعي للوهم الأعظم الذي يحمل العقل على الظن بأنه يعرف حقيقة العالم ؛ إننا نرى كثرة في الأشياء وتياراً من التغير ، بسبب « مايا وأفيديا » أعني بسبب ما ورثناه منذ الولادة من جهل محتوم . وحقيقة الأمر هي أن ثمت كائنا واحداً ، وما التغير إلا « مجرد اسم » نطلقه على تغير صورة الأشياء في سطوحها الظاهرة ووراء « المايا » أي النقاب الذي يحجب عنا الحقيقة ، والذي قوامه تغير الأشياء ، تستطيع أن تنفذ إلى الحقيقة الكلية الواحدة ، براهما ، لا بطريق الحواس ولا بقوة العقل ، بل بالبصيرة النافذة والإدراك الفطري المباشر من روح مرنت على ذلك الضرب من الإدراك .

هذا القصور الطبيعي للحس والعقل ، الذي تسببه لها أعضاء الحس وصور التفكير العقلي ، يحول كذلك بيننا وبين إدراك الروح الواحد الصمد الذي يكمن وراء الأرواح والعقول الجزئية الفردية ؛ فنفوسنا المنعزل بعضها عن بعض ، والتي نراها بالإدراك الحسي والتفكير العقلي ، لا تقل بطلاناً عن خيالات الزمان والمكان ؛ إن الفروق بين الأفراد ، والتمييز بين الشخصيات

مرتبطان بالجسم والمادة ، وهما من خصائص عالم التغير الذى يشبه فى تغيره تصاوير الكاليدوسكوب وهذه النفوس التى لا تزيد على مجرد ظواهر زائلة ، ستمضى بانقضاء الظروف المادية التى هى جزء منها ، أما الحياة الكامنة وراءها والتى نحسها فى دخائلنا حين ننسى المكان والزمان والسببية والتغير هى جوهرنا الصميم وحقيقتنا الأصيلة ، تلك هى « أتمان » التى نشترك فيها مع سائر النفوس والأشياء ، والتى لا تتجزأ ولا يخلو منها مكان ، وهى وبراهما ، أى الله ، شىء واحد بعينه(١١٣) .

ولكن ما الله ؟ إنه كما أن النفس نفسان : الذات و« أتمان » ، والعالم عالمان : عالم الظواهر وعالم الحقائق فكذلك الرب ربان : إشفارا ، أى الخالق ، وهو الذى تعبده عامة الناس لما يتبدى لهم من مكان وزمان وسببية وتغير ، وبراهما أى الكائن الخالص ، وهو الذى يعبده المتدينون المتفلسفون الذين يبحثون — ويجدون — حقيقة واحدة عامة وراء الأشياء والنفوس المستقل بعضها عن بعض ، وتلك الحقيقة الوحدة لا تتغير وسط هذه التغيرات كلها ، ولا تتجزأ رغم هذه الانقسامات كلها . أبدية رغم تغير الأشياء فى صورها ورغم كل ما نشاهده من ولادة وموت ، فتعدد الآلهة — بل العقيدة فى وجود الله نفسها — نتيجة تتفرع عن عالم « المايا » و « الأڤيديا » ؛ وهى صور تعبدية تقابل صور الإدراك الحس والتفكير ، وهى ضرورية لحياتنا الخلقية على نحو ما يكون المكان والزمان والسببية عناصر ضرورية لحياتنا الفكرية ، لكن حقيقتها ليست مطلقة ، وليس لها صدق موضوعى فى واقع الوجود(١١٤) .

وليس وجود الله معضلة فى رأى شانكارا ، لأنه يُعَرِّف الله بالوجود ، ويجعل الكون الحقيقى كله والله شيئاً واحداً بعينه ، أما عن وجود إله مشخص يكون خالقاً ومُخلِّصاً ، فقد يكون هناك — فى رأيه — موضع للشك ، مثل هذا الإله فى مذهب هذا الفكر الذى سبق « كانت » فى تفكيره ، لا تمكن البرهنة عليه بالعقل ، وكل ما نستطيعه إزاءه هو أن نفرض وجوده فرضاً باعتباره ضرورة عملية(١١٥) . يهب الطمأنينة لعقولنا القاصرة والتشجيع

لأخلاقنا المتهافتة ؛ قد يجوز للفيلسوف أن يعبد الله فى أى معبد شاء ، ويركع أمام أى إله بغير تفريق ، لكنه سيجاوز هذه الصور العامية فى العقيدة الدينية ، التى تُغْتَفَر للعوام ، وسيشعر بما فى هذا التعدد من وهم خادع ، مدركاً ما بين الأشياء كلها من وحدة لا تعرف التعدد(*) ، إنه سيقدس الكون نفسه على أنه الكائن الأعلى — هذا الكائن الذى يعز على الوصف ، لا تحده الحدود ، ولا يحصره المكان أو الزمان ، ولا يخضع للسببية ، ولا يطرأ عليه التغير ؛ إنه مصدر الحقيقة كلها ومادتها(**) ، ويجوز لنا أن نصف براهما بأنه « شاعر بذاته » و« عاقل » بل و« سعيد » مادام براهما يشتمل على النفوس كلها ، ويمكن أن تتصف النفوس بأمثال هذه الصفات(١١٦) لكن إلى جانب ذلك أيضاً يمكن أن نصف براهما بسائر الصفات جميعاً ، مادام مشتملا على خصائص الأشياء كلها ، وبراهما فى جوهره محايد يرتفع عن كونه مشخصاً أو مذكراً أو مؤنثاً ، وهو يسمو على الخير والشر ، وهو فوق كل الفوارق الخلقية ، وكل أوجه الاختلاف بين الأشياء وكل الخصائص والصفات وكل الشهوات والغايات ؛ إن براهما هو السبب والمسبب معاً ، هو جوهر العالم الخفى الذى لا تحدده قيود الزمان .

وهدف الفلسفة هو أن تجد ذلك السر بحيث يذوب الواجد فيما وجد من سر ؛ ففى رأى شانكارا أن اندماج الإنسان بالله معناه أن يسمو على — أو يغوص إلى ما هو دون — انفصال النفس عن سائر النفوس ، وقِصَرِ أمدها فى الحياة ، وكل ما لها من مصالح وأغراض توافه ؛ وأن يصبح على غير شعور بالأجزاء

(*) ومن ثم كثيراً ما يطلق اسم « أدفينا » أى اللاثنائية على فلسفة الفيدانتا .

(**) شانكارا والفيدانتا لا يذهبان إلى وحدة الوجود بكل معنى الكلمة ؛ فالأشياء ليست براهما إذا نظرت إليها من جهة تمييزها بعضها من بعض ، وهى براهما فى جوهرها وحقيقتها الأساسية التى لا تعرف انقساماً أو تغيراً ، يقول شانكارا : « إن براهما لا يشبه العالم ، (ومع ذلك) ليس ثمت شىء ما عدا براهما ؛ وكل ما يبدو أنه موجود خارج حدوده يستحيل أن يكون له وجود (خارج عنه) اللهم إلا وجوداً وهمياً ، كالسراب الذى يبدو فى الصحراء ماء »(١١٥)

والأقسام والأشياء جميعاً، وأن يكون مندمجاً فى سكينة ، وفى اتحاد نرفانى خال من كل شهوة ، بذلك المحيط الكونى العظيم الذى لا تصطرع فيه الغايات ولا تتنافس النفوس ، وليس فيه أجزاء ولا تغير ولا مكان ولا زمان(*) ؛ ولكى يظفر الإنسان بهذه السكينة السعيدة (التى تسمى أناندا) فلا يكفى الإنسان أن ينكر العالم ، بل يجب إلى جانب ذلك أن ينكر ذاته ، لا ينبغى أن يأبه لأملاك أو أدوات للمتاع ، بل لا ينبغى أن يأبه حتى بخير أو شر ، يجب أن ينظر إلى الألم والموت نظرته إلى « مايا » ، أى حوادث تقع على سطح الجسم والمادة والزمان والتغير ؛ ولا يجوز له أن يفكر فيما يصيب شخصه من قضاء أو أن يفكر فيما له من خصائص ، فلحظة واحدة يعنى فيها بمصلحة ذاته أو يزهى فيها بنفسه ، كافية لهدم طريق الخلاص الذى يرجوه(١١٩) ، إن أعمال الخير لا تهيئ للإنسان خلاصاً ، لأن أعمال الخير إنما تكون ذات قيمة أو معنى فى عالم « المايا » وحده ، أى عالم المكان والزمان ؛ ولا يأتى بالخلاص إلا معرفة القديس ، وما الخلاص إلا فى إدراك الاتحاد بين النفس والكون ، « أتمان »

(*) راجع « بليك » فى قوله :

« سأغوص إلى حيث هلاك النفس والموت الأبدى
حتى لا يحين يوم الحساب فيجدنى قائماً غير منعدم
وعندئذ يمسكون بى ويناولوننى إلى « نفسى » من جديد »(١١٧) .

أو راجع قصيدة تنسن « الحكيم القديم » :

« لأكثر من مرة حين
جلست وحيداً ، أدير فى نفسى
كلمة هى رمز لنفسى
فككتُ عنى حدود « النفس » التى تقضى عليها بالفناء
وانقضت منى إلى « المجهول » كما تذوب السحابة
فى السماء ؛ ومسست أطرافى ، فكانت الأطراف
غريبة عنى ، لم تكن أطرافى — ومع ذلك فليس ثمة من شك ،
وكل ما هنالك وضوح جلىّ : وعن طريق فقدانى لنفسى —
كسبت حياة فسيحة الأرجاء تضارع هذه الحياة القائمة
إذا أشرقت فى جنباتها الشمس — لا تطمسها ظلال الألفاظ ،
التى إن هى إلا ظلال فى عالم من ظلال »(١١٨) .

و « براهما » ، أى الروح والله ، وامتصاص الجزء فى الكل(١٢٠) ؛ ويستحيل أن تقف دورة حلول الروح فى أجساد جديدة إلا إذا تم هذا الامتصاص ؛ لأنه عندئذ سيتبين أن الروح الجزئية والشخصية المفردة ، التى تصيبها عودة التجسد ، وهم ليس له وجود(١٢١) وأن الذى يعيد الولادة للنفس على سبيل العقاب أو الثواب هو « إشفارا » أى إله « مايا » ؛ ويقول شانكارا « إنه إذا ما عرفت وحدة أتمان وبراهما ، اختفت على الفور الروح الجزئية واختفى براهما باعتباره خالقاً (أى باعتباره إشفارا) »(١٢٢) وتنتمى « إشفارا » و « كارما » — كما تنتمى الأشياء والأنفس — إلى مذهب فيدانتا المعروف ، فى صورته المحوَّرة تحويراً يناسب حاجات الرجل من عامة الناس ؛ أما الجانب الخفى السرى من المذهب ، فيعتبر الروح وبراهما شيئاً واحداً ، لايتجزأ ولا يموت ولايتغير(١٢٣) وإنها لحكمة من شانكارا أن يحصر الجانب الخفى من مذهبه فى الفلاسفة وحدهم لأنه — كما رأى ڤولتير — كما أنه لا يمكن لمجتمع أن يعيش بغير قانون إلا مجتمع من فلاسفة ، فكذلك لا يستطيع أن يعيش فوق الخير والشر إلا مجتمع من الإنسان الأعلى ؛ ولقد توجه الناقدون بنقد ، هو أنه إذا كان الخير والشر جانبين من « مايا » أى من العالم الزائف ، إذن فلا يعود للفوارق الخلقية وجود ، وتصبح الشياطين والقديسون فى منزلة واحدة ، وهاهنا يجيب شانكارا فى ذكاء ، بأن هذه الفوارق الخلقية حقيقة داخل عالم المكان والزمان ، وهى ملزمة لهؤلاء الذين يعيشون فى هذه الدنيا ، وليس فيها إلزام على الروح التى دمجت نفسها ببراهما ، فمثل هذه الروح لا تقترف الإثم ، لأن الإثم يتضمن الشهوة وتحقيقها بالعمل ، والروح التى تحررت — بحكم تعريفها — لاتتحرك فى دنيا الشهوات والعمل ، (الذى يحقق لها شهواتها) ، إن من يُنْزل الأذى بغيره عامداً ، يعيش فى مستوى « مايا » ، ويخضع لما فيها من فوارق ومن أخلاق وقوانين ، فلا حُرٌّ إلا الفيلسوف ، ولا حرية إلا الحكمة(*)

(*) لسنا ندرى كم يكون إلحاح بارمنيدس فى أن « الكثرة » زائفة وأنه لا وجود إلا —

لقد كانت هذه الفلسفة أدق وأعمق مما ينتظر من صبي فى العقد الثالث من عمره ؛ ولم يكتف شانكارا أن يفصّل أجزاءها فيما كتب ، وأن يوفق فى الدفاع عنها فى نقاشه مع الناس ، لكنه كذلك عبّر عن أجزاء منها فى شعر هو من أرهف الشعر الهندى الدينى إحساساً ، ولما أن فرغ شانكارا من رد كل اعتراض وجّه إليه ، انتبذ صومعة فى الهملايا ، وتقول الرواية الهندية إنه مات فى سن الثانية والثلاثين[١٢٤] ، ونشأت عشر جماعات دينية تحمل اسمه ، واعتنق فلسفته كثير من الأتباع ، ثم ارتقوا بها ، وقد كتب أحد هؤلاء الأتباع — وبعضهم يقول : إن شانكارا نفسه هو الذى كتب — عرضاً شعبياً للفيدانتا ، وأسماه « موهامود جارا » ومعناها « مطرقة الحماقة » — عرض أسس المذهب عرضاً موجزاً فى وضوح وقوة :

« أيها الأحمق ، امح من نفسك هذا الظمأ للمال ، واقتلع من قلبك كل الشهوات ، واقنع نفساً بما تكسبه بما لك من « كارما » . . . لا يأخذنك زهو بمال أو أصدقاء أو شباب ، إن الزمن يقضى عليها جميعاً فى لحظة واحدة ، فإذا ما أسرعت وتركت كل هذا — وإنه لملىء بالأوهام — فادخل حيث براهما . . . إن الحياة رجراجة مثل قطرة الماء على ورقة اللوتس . . . إن الزمن لاه والحياة زائلة — ومع ذلك فأنفاس الأمل لا تنقطع ، إن الجسد قد أصابه التجعيد والشعر قد شاب ، والفم قد خلا من أسنانه ، والعصا ترتعش فى قبضة اليد ، ومع ذلك فالإنسان لا ينى متشبثاً بمواضع الرجاء . . . احتفظ باتزانك دائماً . . . إن فشنو وحده يسكن فيك وفىّ وفى الآخرين ؛ ومن العبث أن تغضب أو تثور انظر إلى نفس جزئية فى النفس الكلية الشاملة ، ولا تعد تفكر فيما بيننا من فوارق[١٢٥] » .

= « الواحد » مدينا لليوبانشاد ، أو كم يكون رأيه ذاك ذا فضل على مذهب شانكارا ؛ كما أننا لا نستطيع أن نؤكد وجود علاقة سببية أو إيجابية بين شانكارا وبين فلسفة عمانويل كانت التى تشبهها شبها يثير العجب .

الفصل الثالث

نتائج الفلسفة الهندية

الانهيار – ملخص – نقد – أثرها

جاءت الفتوح الإسلامية فختمت على عصر الفلسفة الهندية ، وأدت هجمات المسلمين – ثم هجمات المسيحيين فيما بعد – على الديانة القومية إلى انكماش هذه العقيدة القومية على نفسها دفاعاً عن نفسها ، فوحّدت أجزاءها وحرّمت كل جدل فى الدين ، وألجمت حركة الزندقة مع أنها مصدر التجديد ، بحيث لم يبق إلا اطّراد راكد فى التفكير ، ولما جاء القرن الثانى عشر ، وجد مذهب « الفيدانتا » – الذى حاول على يدى شانكارا أن يكون ديناً للفلاسفة – من يفسره من القديسين ، مثل « رامانوجا (حوالى ١٠٥٠) – تفسيراً لا يجعل فرقاً بينه وبين العبادة الأصلية القديمة لفشنو ، وراما ، وكرشْنا ؛ ولما حرم على الفلسفة أن تفكر فكراً جديداً ، لم يكْفها أن تنحدر إلى اسكولائية ، بل باتت عقيما ، وجعلت تتلقى العقائد من الكهنوت ، وراحت تتعب نفسها فى البرهنة عليها ، بحيث تبين ما بينها من مميزات للواحدة عن الأخرى دون أن تدل تلك المميزات على فروق حقيقية ، مصطنعة فى ذلك منطقاً بغير عقل[٢٦] .

ومع ذلك فالبراهمة قد استطاعوا فى عزلتهم التى أووا إليها وتحت درع واقية اتخذوها من إلغاز عبارتهم إلغازاً لا يفهمه أحد سواهم ، استطاعوا أن يصونوا المذاهب القديمة من العبث ، بأن صبوها فى « سُوتْرات » (أى حِكَم أو عبارات موجزة) غامضة ، وتعليقات ملغزة ، وبهذا نقلوا نتائج الفلسفة الهندية عبر الأجيال والقرون ؛ وقد كانت كل هاتيك المذاهب ، برهمية كانت أو غير برهميّة ، تعتبر ملكات العقل ضعيفة لا حول لها ، أو خادعة إزاء

حقيقة الكون التي يراها الإنسان أو يحسها رؤية وإحساساً مباشرين(*) .

وكل اتجاهاتنا العقلية التي ظهرت في القرن الثامن عشر ، إن هي في رأى الميتافيزيقي الهندى إلا محاولة سطحية عابثة لإخضاع الكون الذى يستحيل حساب دقائقه ، لتصورات سيدة رقيقة ممن يرتدن « الصالونات الأدبية » ؛ « في ظلام دامس يمضي أولئك الذين يعبدون الجهل ، وفي ظلام أشد دماسة يتخبط أولئك الذين يطمئنون نفساً بما لهم من علم »(١٢٩)؛ إن الفلسفة الهندية تبدأ حيث تنتهي الفلسفة الأوروبية — وهو البحث في طبيعة المعرفة وفي حدود العقل ؛ فهي لا تبدأ بمثل فيزيقا « طاليس » و « ديمقريطس » ولكن بمثل نظرية المعرفة عند « لُكْ » و « كانْت » والعقل عندها هو ذلك الذى ندركه إدراكاً مباشراً ، ولذا فهي تأبى أن تحلله إلى معلوم عرفناه بطريق غير مباشر ، أى عرفناه بالعقل ؛ وهي تسلّم بالعالم الخارجي ، لكنها لا تؤمن بأن حواسنا في مقدورها أن تعرفه على حقيقته الواقعة ؛ إن العلوم كلها جهل « رسميّ » وهو ينتمي إلى دنيا الظواهر « مايا » فهي تصوغ في ألفاظ وعبارات لا تنفكّ متغيرة الجانبَ العقلي من عالم ليس العقل فيه إلا جزءاً يسيراً — إن العقل في هذا العالم تيار واحد متنقل في بحر ليس له حدود ؛ بل إن الشخص نفسه الذى يقوم بالتدليل العقلي لا يزيد على ظاهرة « مايا » أى أنه وهم من الأوهام ؛ فماذا عسى أن يكون سوى التقاء موقت لطائفة من حوادث ، أو سوى عُقْدة عابرة في مسارات المادة والعقل خلال المكان والزمان ؟ — وماذا عسى أن تكون أفعاله وأفكاره سوى نتيجة لطائفة من القُوى التي سبقت بوجودها وجوده بعهد بعيد ؟ ليس ثمة من حقيقة إلا براهما ، ذلك المحيط الكونى الفسيح الذى

(*) « ليس هنالك قديس هندى واحد نظر إلى المعرفة المكسوبة بالعقل أو بالحواس بغير احتقار »(١٢٧) « إن حكماء الهنود لم يقعوا أبداً في الخطأ الذى يمثلنا أصدق تمثيل ، وهو أن نأخذ أى شيء مما يركبه العقل أخذاً جاداً بالمعنى الميتافيزيقي الكلمة ، فهذه التركيبات العقلية لا تزيد جوهراً على أى تركيب آخر مما تعرضه علينا « مايا » (أى عالم الظواهر) »(١٢٨) .

لا تكون صورة أى شىء الإيجابية موجة عابرة فيه ، أو إن شئت فقل لا تكون صورة الشىء إلا نقطة زبد على موجة من موجاته ؛ فليست الفضيلة هى ما فى أعمال الخير من بطولة صامتة ، كلا ولا هى نشوة من التقوى ينتشيها من يوصف بها ؛ بل هى مجرد الاعتراف بوحدة النفس مع كل نفس أخرى فى حقيقة واحدة هى براهما ؛ والحياة الخلقية إن هى إلا ضرب من الحياة يكون أساسه الشعور بما بين الأشياء كلها من اتحاد(*) ، « إن من يدرك كل الكائنات فى نفسه ، ويدرك نفسه فى كل الكائنات ، لن يصيبه شىء من القلق بعدئذ ، إذ كيف يمكن أن يصاحبه بعد ذلك وهم أو أسى ؟ »(١٣٠) .

إن ما حال دون أن توسع هذه الفلسفة نطاقها بحيث تؤثر فى المدنيات الأخرى ، هو بعض الخصائص المميزة لها ، التى لا يرى فيها الهندى من وجهة نظره شيئاً يعاب ، فمنهجها ، واصطلاحاتها الاسكولائية ، ومزاعمها القيدية تحول بينها وبين أن تجد إقبالا فى أمم لها مزاعم أخرى ، أو تثقفت بثقافات أكثر اتصالا بهذا العالم الذى تعيش فيه ؛ فمذهبها الخاص « بالمايا » — أى الظواهر — لا يبعث إلا قليلا على الحياة الخلقية وفعل الفضيلة ، وتشاؤمها هو بمثابة الاعتراف منها بأنها لم تفسر الشر ، على الرغم من نظرية « الكارما » التى تحتوى عليها ؛ وقد كان بعض تأثير هذه المذاهب الفلسفية ، أن تزيد فى حمل الناس على السكينة الهامدة فى وجه الشرور التى كان يمكن عقلا أن تصحح ، أو إزاء عمل كان كأنما يصبح منادياً لعله يجد من يؤديه ؛ ومع ذلك ففى هذه التأملات عمق ، إذا ما قارنته بالفلسفات التى تحض على النشاط ، والتى نشأت فى مناطق أبعث على الفاعلية ، أقول إن فى هذه الفلسفات عمقاً يصبغ الفلسفات الأخرى الباعثة على النشاط بلون التفاهة ؛ فيجوز أن تكون

(*) راجع سبينوزا : « إن أعظم الخير هو معرفة الاتحاد بين العقل وسائر الطبيعة »(١٣١) « فالحب » هو ما يلخص الفلسفة الهندية .

مذاهبنا الغربية التي وثقت وثوقاً شديداً بأن « المعرفة قوة » بمثابة أصوات شباب مضى ، كان فيه شهوة تُضَخِّم له قدرة الإنسان ومستطاعه ؛ حتى إذا ما أنهكت قوانا فى كفاحنا اليومى ضد الطبيعة التى لا تعبأ بنا ، والزمن الذى يناصبنا العداء ، ازددنا عندئذ رحابة صدر حين ننظر إلى الفلسفات الشرقية التى توصى بالاستسلام والسلام ؛ ومن ثم كان أثر الفكر الهندى على الثقافات الأخرى أشد ما يكون ، فى العهود التى تتعرض فيها تلك الثقافات لعوامل الضعف أو الانهيار ؛ فلما كانت اليونان تحرز نصراً بعد نصر ، لم تصرف إلا قليلا من سمعها لما يقوله فيثاغورس أو بارمنيدس ، ثم لما أخذت اليونان فى التدهور ، ذهب أفلاطون وذهب معه الكهنة الأورفيون مذهب تناسخ الأرواح ، وطفق زينون الشرق يبشر بما أو شك أن يكون استسلاماً للقضاء والقدر ، وتسليما للدهر وصروفه ، ولما كانت اليونان تحتضر ، ارتاد أنصار الأفلاطونية الجديدة والغنوسطيون (الذين يأخذون بإمكان معرفة الله) حياض الهند يعبون من أعماقها ؛ والظاهر أن ما أصاب أوروبا من فقر بسقوط روما وفتوح المسلمين للطرق الموصلة بين أوروبا والهند ، قد كان حجر عثرة مدى ألف عام ، يعرقل تبادل الأفكار بين الشرق والغرب تبادلا مباشراً ؛ لكن لم يكد البريطانيون يثبتون أقدامهم فى الهند حتى جعلت كتب اليوبانشاد تحرك الفكر الغربى بإعادة نشرها ، أو بترجمتها ، فتصور فخته مذهباً مثالياً على شبه شديد بمثالية شانكارا[١٣٢] وأوشك شوبنهور أن يدخل فى فلسفته مذاهب البوذية واليوپانشاد والڤيدانتا ، إدخالا يجعلها جزءاً من فلسفته لا يتجزأ ، وكانت اليوپانشاد فى رأى شلنج وهو فى شيخوخته أنضج ما وصل إليه الإنسان من حكمة ، أما نيتشه فقد خالط بسمارك واليونان أمداً أطول من أن يتيح له الفرصة للعناية بثقافة الهند ، ومع ذلك فقد اعتنق آخر الأمر فكرة آثرها على كل فكرة سواها ، وهى فكرة ظلت متشبثة بعقله لا تبرحه ، ألا وهى فكرة دورة الحياة دورة أبدية تظل فيها تعيد ما مضى من مراحل — وما تلك

الفكرة إلا صورة من مذهب عودة الروح إلى التقمص فى أجساد كثيرة .

إن أوروبا فى عصرنا هذا تزداد أخذاً من فلسفة الشرق(*) كما يزداد الشرق أخذاً من علوم الغرب ؛ ويجوز أن تنشب حرب عالمية أخرى فتفتح أبواب أوروبا (كما انفتحت اليونان عند تحطم إمبراطورية الإسكندرية ، وكما انفتحت روما عند سقوط الجمهورية الرومانية) بحيث تتدفق فيها فلسفات الشرق وعقائده ؛ فثورة الشرق على الغرب ثورة متزايدة ، وفقدان الأسواق الأسيوية التى كان من شأنها أن تقيم صناعة الغرب وازدهاره ، وضعف أوروبا لما يصيبها من فقر وانقسام وثورة ، كل ذلك قد يجعل من هذه القارة المنقسمة على بعضها غنيمة سهلة لديانة جديدة تجعل الناس يعقدون رجاءهم فى السماء ، ويفقدون الأمل فى الأرض ، ويجوز جداً أن يكون الهوى وحده هو الذى يجعل مثل هذا المصير مستحيلا فى رأى الناس فى أمريكا ، لأن السكينة والاستسلام ، لا تتلاءم مع الجو الكهربائى الذى نعيش فيه ، أو مع الحيوية التى تنشأ عن مصادر الثروة الغزيرة والأرض الفسيحة الأرجاء ؛ ولا شك فى أن مناخنا سيكون لنا فى نهاية الأمر درعاً واقية .

(*) راجع برجسون ، وكسلرنج ، والتطبيب بالعقيدة ، والفلسفة الدينية .

الباب العشرون

أدب الهنـــد

الفصل الأول

لغات الهند

السنسكريتية – اللهجات القومية – النحو

كما أن الفلسفة وكثيراً من الأدب فى أوروبا الوسيطة كانا يكتبان بلغة ميتة لا يفهمها الشعب ، فكذلك كانت الفلسفة والأدب الكلاسيكى فى الهند يكتبان بسنسكريتية كانت قد أهملت بين الناس كأداة للتفاهم منذ زمن طويل ، لكنها عاشت لتكون لغة للعلماء الذين لا تربطهم لغة مشتركة أخرى ، كأنها فى ذلك لغة « الإسبرانتو » (التى يحاولون صناعتها لتكون أداة تفاهم بين الشعوب المختلفة الآن) .

ولما كانت هذه اللغة الأدبية بعيدة عن الاتصال بحياة الأمة ، فقد أصبحت نموذجاً يحتذيه من أراد أن يكون اسكولائىّ التفكير أو مهذب اللسان ؛ وكانت الكلمات الجديدة تصاغ – لا بخلْق تلقائى يصدر من عامة الناس – بل تبعاً لحاجات المدارس فى بحوثها الفنية ؛ حتى انتهى الأمر بالسنسكريتية التى كتبت بها الفلسفة إلى فقدانها للبساطة القوية التى نلمسها فى الترانيم الفيدية ، وأصبحت أفعواناً صناعياً ترحف كلماتها على الصفحات زحفاً كأنها شرائط الدود(*) .

(*) خذ هذه الأمثلة لكلمات سنسكريتية رقمت من عدة أجزاء :

(citerapratisamkvamayastadakavapattau)
(upadanavisvamataitakakaruapattih) (1)

ولكن عامة الناس فى الوقت نفسه كانوا – فى شمال الهند حول القرن الخامس قبل الميلاد – قد حوروا السنسكريتية إلى براكريتية ، وما أشبه ذلك بإيطاليا حين غيرت اللاتينية إلى الإيطالية ؛ فأصبحت اللغة البراكريتية حيناً من الدهر لغة البوذية والجانتية . ولبثت كذلك حتى تطورت بدورها إلى البالية – وهى اللغة التى كتب بها أقدم ما هبط إلينا من الأدب البوذى(٢) ؛ فلما أن كان ختام القرن العاشر من تاريخنا المسيحى ، كان قد تولد عن هذه اللغات التى شهدتها « الهند الوسيطة » لهجات مختلفة كان أهمها اللغة « الهندية » ثم ولدت هذه بدورها فى القرن الثانى عشر اللغة الهندستانية التى باتت لغة النصف الشمالى من الهند ، وأخيراً جاء الغزاة المسلمون وملأوا الهندستانية بألفاظ فارسية فكونوا بذلك لهجة جديدة هى اللهجه الأردية ؛ وهذه كلها لغات « هندية جرمانية » انحصرت فى الهندستان : أما الدكن فقد احتفظت بلغاتها الدراڤيدية القديمة وهى : لغات « تامل » و « تلوجو » « كاناريس » و « ملايالام » وأصبحت لغة « تامل » من بينها هى الأداة الأدبية الرئيسة فى الجنوب ؛ ولما كان القرن التاسع عشر حلت البالية محل السنسكريتية لغة أدبية فى البنغال وكان الكاتب القصصى (« شاترجى » لهذه اللغة بمثابة « بوكاتشو » للإيطالية الحديثة) كما كان لها الشاعر طاغور بمثابة « بترارك » ؛ وإنك لترى مائة لغة فى الهند . حتى فى يومنا هذا ، على أن أدب الحركة الاستقلالية يستخدم لغة الفاتحين أداة للتعبير .

ولقد أخذت الهند منذ تاريخ عريق فى القدم تتعقب جذور الألفاظ وتاريخها وعلاقاتها وتركيبها ولم يظللها القرن الرابع قبل الميلاد حتى كانت قد اصطنعت لنفسها(*) علم النحو ، وأنجبت من يجوز أن يكون أعظم النحاة جميعاً ممن نعرف وهو پانينى ؛ وكانت دراسات پانينى ، وپاتانجالى (حوالى ١٥٠م) وبهارتريهارى (حوالى ٦٥٠) هى الأسس التى قام عليها علم اللغات ؛

(*) ولقد حدث للبابليين مثل هذا ، راجع الجزء الخاص ببابل من هذه السلسلة .

كما أن هذا العلم الشائق الذى يبحث فى ولادة الألفاظ اللغوية ، مدين بكل حياته تقريباً فى العصور الحديثة لإعادة كشف الغطاء عن السنسكريتية .

ولم تكن الكتابة — كما رأينا — شائعة فى الهند الفيدية ، فحوالى القرن الخامس قبل الميلاد ، اقتبست الكتابة الخاروشتية من أصول سامية ، وبدأنا نسمع عن كاتبين فى أدب الملاحم والأدب البوذى(٣) ؛ وكانت أوراق النخيل ولحاء الشجر يستخدمان أداة للكتابة ، كما كان القلم شبيهاً بمسمار من حديد ؛ وكانوا يدبغون لحاء الشجر دبغاً يجعله أصلب ديباجة ، ثم يحفرون عليه الأحرف بالقلم ، ويلطخون اللحاء بالحبر ، فيبقى فى فجوات الحروف المحفورة ثم تمحى بقيته(٤) . ولما جاء المسلمون أدخلوا معهم الورق (حوالى ١٠٠٠ ميلادية) لكن الورق لم يحل محل اللحاء تماماً إلا فى القرن السابع عشر ، وكانوا يُنْفِذون خيطاً سميكاً فى صفحات اللحاء لتربطها معاً على الترتيب المطلوب ، على أن تجمع الكتب المكونة من أمثال هذه الصفحات فى مكتبات أطلق الهنود عليها اسم « خزائن إلهة الكلام » ، وقد بقيت لنا مجموعات ضخمة من هذا الأدب الخشبي على الرغم مما تعاورها من تدميرات الزمن والحروب(*) .

(*) ليس هناك أثر للطباعة قبل القرن التاسع عشر — وقد يكون ذلك راجعاً — كما هى الحال أيضاً فى الصين وقد يرجع ذلك إلى أن تكاليف الحروف المفككة بحيث تلائم أنواع الكتابة الأهلية أكثر نفقة مما يحتمل أو قد يكون ذلك راجعاً إلى أنهم نظروا إلى الطباعة على أنها بديل مبتذل يخالف فن الخط ، وكان الإنجليز هم الذين جاءوا إلى الهنود بالصحف والكتب المطبوعة ، لكن الهنود أدخلوا تحسينات على ما تعلموه من الإنجليز فى هذا الصدد ، واليوم ترى فى الهند ١٥١٧ جريدة و ٣٦٢٧ مجلة ، وأكثر من ١٧٠٠٠ كتاب جديد تنشر فى المتوسط كل عام(٥) .

الفصل الثانى

التعليم

المدارس – الطرق – الجامعات – التعليم الإسلامى – إمبراطور يتحكم فى التعليم

لبثت الكتابة ضئيلة القدر جداً فى التعليم الهندى حتى القرن التاسع عشر ؛ ويجوز أن يكون مرجع ذلك إلى أن الكهنة لم يكن فى صالحهم أن يجعلوا النصوص المقدسة أو الإسكولائية سراً مكشوفاً للجميع(٦) ؛ أما التعليم فقد كان له نظام قائم تراه فى تاريخهم مهما أوغلت فى ماضيه(٧)، وكان يتولاه رجال الدين ويفسحون مجاله فى أول الأمر لأبناء البراهمة وحدهم ، ثم أخذوا على مرّ الزمن يوسّعون من نطاقه بحيث يشمل طبقة بعد طبقة ، حتى نراه اليوم لا يستثنى من الناس أحداً فيما عدا طبقة المنبوذين ، ولكل قرية هندية معلمها يُنْفَق عليه من الرصيد العام ، وكان فى البنغال وحدها – قبل مجىء البريطانيين – حوالى ثمانين ألفاً من المدارس الأهلية – مدرسة لكل أربعمائة نفس من السكان(٨) . وربما كانت نسبة التعليم فى ظل « أشوكا » أعلى منها اليوم فى الهند(٩) .

كان الأطفال يذهبون إلى مدرسة القرية من سبتمبر إلى فبراير ، ويدخلونها فى سن الخامسة ليتمّوها فى سن الثامنة(١٠) وكان التعليم ذا صبغة دينية غالبة ، كائناً ما كان موضوع الدراسة ، وكانت الطريقة المألوفة هى الحفظ عن ظهر قلب ، ولم يكن لأحد مفرٌّ من حفظ نصوص الفيدات ؛ ويشتمل منهج التعليم على القراءة والكتابة والحساب ، لكنها لم تكن الهدف الأساسى للتعليم ، وكان الخلق أجدر عندهم بالاعتبار من الذكاء ، والنظام هو جوهر التعليم فى المدارس ، نعم إننا لا نسمع فى تاريخهم شيئاً عن ضرب التلاميذ أو ما شابه ذلك من صارم الوسائل التأديبية ، لكننا نجد أكثر اهتمامهم منصباً قبل كل

شيء على تكوين عادات السلوك في الحياة بحيث تكون سليمة من المآخذ والشوائب[١١] ، وفي سن الثامنة ينتقل التلميذ إلى « شيخ » يتولاه بعناية أكثر مراعاة للقواعد ، و« الشيخ » هو معلم خاص أو رائد يعيش معه التلميذ ، ويحسن أن يظل في صحبته تلك حتى سن العشرين ، وكان يطلب إلى التلميذ أن يؤدي له بعض الخدمات ، منها أحياناً ما كان حقيراً ؛ كما يطالب بالتزام العفة والتواضع والنظافة والامتناع عن أكل اللحم في وجباته[١٢] ، وقوام التعليم « الشاستّرات الخمس » أي العلوم الخمسة وهي : النحو ، والفنون والصناعات ، والطب ، والمنطق ، والفلسفة ؛ وبعدئذ يطلق في الحياة مزوّداً بنصيح حكيم هو أن التعليم يأتي ربعه فقط من المعلم ، وربعه من الدراسة الخاصة ، وربعه من الزملاء ، وربعه من الحياة[١٣] .

وللطالب في نحو السادسة عشرة أن ينتقل من « شيخ » إلى إحدى الجامعات الكبرى التي كانت مفخرة الهند القديمة والوسيطة ؛ بنارس وتاكسيلا وڤداربها وأوچانتا ويوچين ونالاندا ؛ وكانت جامعة بنارس حصناً حصيناً للتعاليم البرهمية الأصيلة في أيام بوذا ، كما لا تزال كذلك إلى يومنا هذا ، وكانت جامعة تاكسيلا في عهد غزوة الإسكندر معروفة في آسيا كلها على أنها مقر الزعامة في البحث العلمي في الهند ، وأشهر ما اشتهرت به مدرسة الطب فيها ؛ واحتلت جامعة « يوجين » مكانة عالية في أسماع الناس بما فيها من علماء الفلك ، كما اشتهرت جامعة أچانتا بتعليم الفنون ؛ وإن واجهة أحد المباني الخربة في أچانتا لتدل بعض الدلالة على فخامة هذه الجامعات القديمة[١٤] وأنشئت جامعة « نالاندا » — وهي أشهر الجامعات بالمعاهد البوذية العالية — بعد موت منشئ العقيدة البوذية بزمن قصير وخصصت لها الدولة دخل مائة قرية لينفق عليها منه ، وكان بها عشرة آلاف طالب ، ومائة قاعة للمحاضرات ومكتبات ضخمة ، وست بناءات كبيرة للسكنى ، وارتفاعها أربعة طوابق

يقول يوانج شوانج أن مراصدها «كانت تنبهم معالمها فى ضباب الصباح ، وتعلو غرفاتها العليا على السحاب »[١٥] ، ولقد أحبَّ هذا الحاج الصينى الكهل رهبان « نالاند » العلماء وأحراشها الظليلة حباً جعله يقيم هناك خمسة أعوام ؛ وهو يروى لنا أن الكثرة الغالبة من أولئك الذين أرادوا الدخول فى حلقات المناقشة من النزلاء الأجانب « فى نالاندا » كانت تنسحب أمام ما تلاقيه من صعوبة المشكلات ؛ وكان يسمح بالدخول لأولئك الذين تعمقوا العلوم القديمة والحديثة ، لكن لم ينجح من كل عشرة أكثر من اثنين أو ثلاثة »[١٦] .

وكان الطلاب الذين يساعدهم الحظ فى الدخول يتعلمون مجاناً بما فى ذلك أيضاً المسكن والغذاء ، لكنهم لقاء ذلك كانوا يخضعون لنظام أوشك أن يكون كنظام الأديرة ، ولم يكن الطالب يسمح له بالتحدث إلى امرأة ، أو برؤية امرأة بل إن مجرد الرغبة فى النظر إلى امرأة كان يعد عندهم خطيئة كبرى على نحو ما جاء فى العهد الجديد من قول هو أشد ما فيه من أقوال ؛ وإذا اقترف طالب إثماً جنسياً ، كان عليه أن يلبس جلد حمار مدة عام كامل ، على أن يظل الذيل مرفوعاً إلى أعلا ، وأن يجوب الآثم الطرقات ، يطلب الصدقات ويعلن عن خطيئته ؛ وكان الطلبة جميعاً يطالبون كل صباح بالاستحمام فى أحواض السباحة العشرة الكبرى التابعة للجامعة ؛ ومدة الدراسة اثنا عشر عاماً ، ولو أن بعض الطلبة كان يقيم بالجامعة ثلاثين عاماً ، وبعضهم يقيم بها حتى المات[١٧] .

وجاء المسلمون فهدموا الأديرة (فى شمال الهند) كلها تقريباً . بوذيها وبرهميها على السواء ، وأحرقت جامعة « نالاندا » إحراقاً أتى عليها سنة ١١٩٧ وقتل كل رهبانها ، وإنه ليستحيل علينا أبد الدهر أن نقدر ما كان فى حياة الهند القديمة من خصوبة مسترشدين بما أتى عليه هؤلاء المسلمون المتعصبون ؛ ومع ذلك فلم يكن هؤلاء المخربون من الهمج بل كان لهم ذوق فى الجمال كما كان لهم براعة تشبه العصر الحديث فى استخدام التقوى لتحقيق ما يشاءون من

نهب وسلب ، فلما اعتلى المغول عرش الحكم ، جاءوا معهم بمستوًى عال — ولو أنه ضيق الأفق — من الثقافة ، فقد أحبوا الأدب حبهم للسيف ، وعرفوا كيف يمزجون حصاراً ظافراً بقصائد الشعر ؛ وكان التعليم عند المسلمين فردياً فى أغلبه فيستخدم أغنياء الآباء لأبنائهم المعلمين الخواص ؛ وكانت نظرتهم إلى التعليم نظرة أرستقراطية تجعله شيئاً للزينة — وقليلا ما اتخذوا التعليم وسيلة لغاية — يزدان به رجل الأعمال أو صاحب السلطان ، كما تجعله عنصراً من عناصر الثورة والخطر العام إذا ما لقّن لرجل قضى عليه بالفقر وضعة المنزلة ؛ ويمكننا أن نتبين طرائق المعلمين من خطاب هو من رسائل التاريخ العظمى — وهو ما أجاب به أورنجزيب — وهو ملك — على معلمه السابق ، وقد طلب إليه ذلك المعلم أن يخلع عليه منصباً وراتباً :

« ماذا تريد منى أيها المعلم ؟ أيمكن فى حدود العقل أن تطلب منى أن أجعلك أحد كبراء الأمراء فى حاشيتى ؟ دعنى أقلها لك قولة صريحة ، لو أنك علمتنى كما كان ينبغى لك أن تفعل ، لما كان ثمت أعدل من مثل هذا الطلب ؛ لأنى أعتقد بأن الناشئ الذى أحسنت تربيته وتعليمه ، مدين لأستاذه على الأقل بمقدار ما هو مدين لأبيه ؛ ولكن أين عساى أن أجد مثل هذا التعليم الجيد مما لقنتنى ، فقد علمتنى أولا أن الفرنجة جميعاً (هكذا يسمون الأوروبيين فيما يظهر) لم يكونوا إلا جزيرة صغيرة ، الله أعلم بضآلة قدرها ، وأن ملك البرتغال هو أعظم ملوكها ثم يتلوه ملك هولندة ، فملك انجلترة ، أما عن الملوك الآخرين كملك فرنسا وملك الأندلس ، فقد صورتهم لى مثل صغار الراجات عندنا ، قائلا لى إن ملوك الهندستان يبزونهم جميعاً ، وأنهم (ملوك الهندستان) . . . هم الأعلون بين الملوك وهم غزاة العالم وحاكموه ؛ وأن ملوك فارس وأزبك وكشغر والتتر وكاثى وبيجو والصين وماشينا يرتعشون خوفاً عند ذكر أسماء ملوك الهندستان ؛ ألا ما أجمل ذلك من علم بأقطار العالمين ! لقد كان أوجب عليك أن تعلمنى علماً دقيقاً بهذه الدول كلها ، بحيث أميز

بعضها من بعض ، وأفهم جيد الفهم ما هي عليه من قوة وأساليب حرب وعادات وديانات وحكومات ومصالح ؛ وكان أوجب عليك أن تطلعني على صحيح التاريخ حتى أعلم نشأة تلك الدول وتقدمها وانهيارها ، ومن ثم كنت أعلم كيف وبأى سبب من الأحداث والأخطاء حدثت تلك التطورات الكبرى والثورات العظمى فى الإمبراطوريات والممالك ؛ لقد كدت لا أعلم منك أسماء أجدادى ، بناة هذه الإمبراطورية الأعلام ، بَلْهَ أن تعلّمنى تاريخ حياتهم وما صنعوه حتى تم لهم مثل هذا الفتح العظيم ؛ كنت منكباً على تعليمى اللغة العربية قراءة وكتابة ، والحق أنى شاكر لك ما سببته لى من مضيعة لوقتى فى لغة تتطلب عشرة أعوام أو اثنى عشر عاماً لكى يجيدها الطالب ، كأنما ابن الملك يرى شرفاً له أن يكون عالماً نحوياً أو متضلعاً فى القانون وأن يتعلم لغات غير لغات جيرانه ، مع أنه يستطيع أن يحيا بغيرها خير حياة ، ذلك الذى يحرص على وقته الثمين لكثير من مهام الأمور ، وهذه الأمور هى التى كان ينبغى أن يتعلمها ؛ ودع عنك ابن الملك ، وقل لى أين تلك الروح التى تستعبد نفسها — بغير شيء من النفور ، بل بغير شيء من الشعور بالمهانة — فى دراسة كئيبة جافة طويلة مملة ، مثل هذه الدراسة لألفاظ اللغة »(١٨)

ويقول « برنيير » المعاصر : « هكذا كان أورنجزيب يمقت التحذلق فى التعليم الذى كان يصطنعه معلموه ، وبعض الدلائل فى بلاطه تدل على أنه ... أضاف إلى قوله ذاك قولا آخر(*) وهو :

« ألا تعلم أن الطفولة إذا أُحْكِمَ الإشراف عليها ، وهى كما تعلم حالة مصحوبة عادة بالذاكرة الجيدة ، فى مستطاعها أن تتلقى آلاف المبادئ السليمة

(*) لا نستطيع الجزم كم من العبارة المقتبسة الآتية (بل قد لا نستطيع ذلك أيضاً بالنسبة للعبارة السالفة) من كلام « برنييرة » ، وكم منها من كلام أورنجزيب ، وكل ما نعلمه عنها هو أن فيها علامات تدل على أنها نسخة وليست أصلا .

والتعاليم بحيث تنقش فيها نقشاً عميقاً ما بقى الإنسان حياً ، وتحفز عقل الإنسان دائماً إلى جليل الأعمال ؟ أليس يمكن تعلم القانون والصلاة والعلوم بلغتنا القومية كما نتعلمها بالعربية ؟ لقد أنبأت أبى « شاه جهان » أنك ستعلمنى الفلسفة نعم إنى أذكر جيداً أنك لبثت أعواماً طوالا تسلّينى بمشكلات فارغة عن أشياء لا ترضى العقل فى شىء على الإطلاق ، وليست هى بذات نفع فى المجتمع الإنسانى ، وهى أفكار خاوية ومجرد سبحات فى الخيال ، ليس فيها ما يميزها سوى أنها شديدة الصعوبة على الفهم ، شديدة السهولة فى النسيان ... إنى لا أزال أذكر أنك بعد أن أمتعتنى — ولست أذكر كم طال أمد تلك المتعة — بفلسفتك الدقيقة ، كان كل ما وعيته منها طائفة كبيرة من ألفاظ حوشية معقدة تصلح لإيقاع الربكة والحيرة والملل فى أحسن العقول ؛ ولعلها لم توجد إلا لتستر غرور أمثالك من الرجال وجهلهم ، هؤلاء الذين يحاولون إيهامنا بأنهم يعلمون كل شىء وأن وراء هذه الألفاظ الغامضة المبهمة تختفى أسرار عظيمة لا يستطيع فهمها سواهم ، فلو أنك أنضجتنى بتلك الفلسفة التى تهيئ العقل للاستدلال المنطقى ، وتعده شيئاً فشيئاً ، الإعداد الذى يجعله لا يرضى بشىء إلا الحجج القوية ؛ لو أنك زودتنى بتلك المبادئ السامية والمذاهب الرفيعة التى تعلو بالروح على نكبات الزمن وتركزها فى حالة نفسية لا يزعزعها شىء ولا يثيرها مثير ، وتجنبها الغرور بالنجاح فى الحياة والانهيار أمام المحن ؛ لو أنك حرصت على أن تمدنى بمعرفة أنفسنا ومعرفة المبادئ الأولى للأشياء ، وساعدتنى على تكوين فكرة طيبة فى عقلى عن عظمة الكون ، وعما فيه من نظام عجيب وحركة فى أجزائه ؛ أقول لو أنك غرزت فى نفسى هذا الضرب من الفلسفة ، لرأيت نفسى مديناً لك أكثر مما كان الإسكندر مديناً لأرسطو كثرة لا تدع مجالا المقارنة بين الحالتين ، ولأيقنت أن من واجبى أن أعوضك على نحو يختلف عما جزاه هو به ، ألم يكن واجباً عليك — بدل رياءك لى — أن تعلمنى شيئاً

عن ذلك الموضوع البالغ الأهمية للملك ، ألا وهو الواجبات المتبادلة بين الملك وشعبه ، ماذا يجب على الملك إزاء الرعية ، وماذا يجب على الرعية إزاء الملك ؟ ألم يكن ينبغى عليك أن تذكر أننى لا بد يوماً مضطر إلى استخدام السيف فى نزاعى مع إخوتى على حياتى وتاجى ؟ ... هل عنيت قط بأن تعلمنى كيف أحاصر مدينة أو أن أُجَيِّش جيشاً ؟ إننى مدين بهذه الأشياء لغيرك لا لك ، اذهب وعُدْ إلى القرية التى منها أتيت ، ولا تدع أحداً يَعْلَم من أنت ، ولا ماذا صار من أمرك »(١٩) .

الفصل الثالث

الملاحم

« الماهابهاراتا » – قصتها – قالبها – « البهاجافاد – جيتا » –
ميتافيزيقا الحرب – ثمن الحرية ؛ « الرامايانا » – ترنيمة الغابة –
اغتصاب سيتا – الملاحم الهندية والملاحم اليونانية

لم تكن المدارس والجامعات إلا جزءاً من النظام التعليمي فى الهند : فلما كانت الكتابة أقل قيمة هناك منها فى سائر المدنيات ، وكان التعلم الشفوى هو وسيلة الاحتفاظ بتاريخ الأمة وشعرها ، ووسيلة نشرها فى النفوس ، فقد نشرت الرواية الشفوية العلنية بين الناس أنفَس ما فى تراثهم الثقافى من أجزاء ؛ فكما قام رواة مجهولون بين اليونان بنقل الإلياذة والأوذيسية ، وتوسيعهما على مرّ الأجيال ، كذلك فعل الرواة فى الهند بنقل الملاحم من جيل إلى جيل ، ومن بلاط السلطان إلى عامة الشعب ، تلك الملاحم التى ركز فيها البراهمة أساطيرهم الشعبية .

وفى رأى عالم هندى أن « الماهابهاراتا » هى « أعظم آية من آيات الخيال التى أنتجتها آسيا »[20] وقال عنها سير تشارلز إليَت إنها : « قصيدة أعظم من الإلياذة »[21] ولا ارتياب فى صدق هذا الحكم الأخير بمعنى من معانيه ؛ بدأت الماهابهاراتا (حوالى سنة ٥٠٠ قبل الميلاد) قصيدة قصصية قصيرة ، لا يتجاوز طولها حداً معقولا ، ثم أخـــذت تضيف إلى نفسها فى كل قرن من القرون المتعاقبة حكايات ومقطوعات ، وامتصت فى جسمها قصيدة « بهاجافادجيتا » كما ضمت بعض أجزاء من قصة راما ، حتى بلغ طولها فى نهاية الأمر ١٠٧,٠٠٠ زوج من أبيات الشعر الثمانية المقاطع – أى ما يساوى الإلياذة والأوذيسية مجتمعتين سبع مرات ، واسم مؤلفها أسطورى ، إذ ينسبها الرواة

لمن يسمونه « ڤياسا » وهى كلمة معناها « المنظم »[٢٢] فقد كتبها مائة شاعر ، وصاغها ألف منشد ، ثم جاء البراهمة فى عهد ملوك جوپتا (حوالى ٤٠٠ ميلادية) فصبوا أفكارهم الدينية والخلقية فى هذا المؤلف الذى بدأ على أيدى أفراد طبقة الكشاترية ، وبهذا خلعوا على القصيدة تلك الصورة الجبارة التى نراها عليها اليوم :

لم يكن موضوع القصيدة الأساسى مقصوداً به الإرشاد الدينى بمعنى الكلمة الدقيق ، لأنها تقص قصة عنف ومقامرة وحروب ، فيقدم الجزء الأول من القصيدة « شاكونتالا » الجميلة (التى أريد لها أن تكون بطلة فى أشهر مسرحية هندية) وابنها القوى « بهارڤا » ؛ الذى من أصلابه جاءت قبائل « بهاراتا العظيم » (أى الماهابهاراتا) وقبائل كورو وپانداڤا التى تتألف من حروبهما الدموية سلسلة الحكاية ولو أنه كثيراً ما تخرج الحكاية عن موضوعها لتعرج على موضوعات أخرى ؛ فالملك « يوذسشيرا » — ملك الپنداڤين — يقامر بثروته حتى تضيع كلها ، ثم بجيشه وبمملكته وبإخوته وأخيراً بزوجته « دراوپادى » وكان فى هذه المقامرة يلاعب عدواً له من قبيلة كورو ، كان يلعب بزهرات مغشوشة ، وتم الاتفاق على أن يسترد الپانداڤيون مملكتهم بعد اثنى عشر عاماً يتحملون فيها النفى من أرض وطنهم وتمضى الاثنا عشر عاماً ، ويطالب الپانداڤيون أعداءهم الكوريين برد أرضهم ، ولكن لا جواب ، فتعلن الحرب بين الفريقين ، ويضيف كل فريق إلى نفسه حلفاء حتى تشتبك الهند الشمالية كلها تقريباً فى القتال(*) وتظل الحرب ناشبة ثمانية عشر يوماً ، وتملأ من الملحمة خمسة أجزاء ، وفيها يلاقى الكوريون جميعاً مناياهم ، كما يقتل معظم الپنداڤين فالبطل « بهيشما » وحده يقتل مائة ألف رجل فى عشرة أيام ، ويروى لنا الشاعر الإحصائى أن عدد من سقط فى القتال قد بلغ عدة مئات من ملايين الرجال[٢٣] ؛ وتسمع « جانذارى » —

(*) تدل إشارات فى الڤيدا إلى بعض شخصيات الماهابهاراتا ، على أن حرباً حقيقية عنيفة بين القبائل وقعت فى الألف الثانى من السنين قبل الميلاد .

الملكة زوجة ملك كورو الأعمى واسمه «ذريتا راشترا» — تسمعها وسط هذا المشهد الدامى المترع بمناظر الموت ، تصرخ جازعة عندما تبصر العقبان محومة فى لهفة الشره فوق جثة ابنها الأمير «دريوذان» :

ملكة طاهرة وامرأةٌ طاهرة ، فاضلةٌ أبداً خيِّرةٌ أبداً .

هى «جانذارا» التى وقفت وسط الميدان شامخة فى حزنها العميق

والميدان ملىء بالجماجم ، وجدائل الشعر انعقدت عليها الدماء ، وقد

اسود وجهه بأنهار من دم متجمد ؛

والميدان الأحمر ملىء بأطراف من لا يحصيهم العد من المقاتلين...

وعواء أبناء آوى الطويل المديد يرن فوق منبطح الأشلاء

والعُقاب والغراب الأسحم يرفرفان أجنحة كريهة سوداء

وسباع الطير تملأ السماء طاعمة من دماء المحاربين

وجماعات الوحش البغيضة تمزق الأجساد الملقاة شلوا شلوا

سيق الملك الكهل فى هذه الساحة ، ساحة الأشلاء والموت

ونساء كورو بخطوات مرتعشة خطون وسط أكداس القتلى

فدوّتْ فى أرجاء المكان صرخات عالية من جزع

عند ما رأين بين القتلى أبناءهن وآباءهن وإخوتهن وأزواجهن

عند ما رأين ذئاب الغابة تَطْعَمُ بما هيأ لها القدرُ من فرائس

عند ما رأين جَوَّابات الليل السود ساعيات فى ضوء النهار

ورنّت أرجاء الميدان المخيف بصرخات الألم وولولة الجزع .

فخارت منهن الأقدام الضعيفة ، وسقطن على الأرض

وفقد أولئك الراثيات كلَّ حس وكل حياة ، إذ هن فى إغماءه من

حزن مشترك »

ألا إن الإغماءة الشبيهة بالموت ، التى تعقب الحزن ، فيها لحظة قصيرة من راحة للمحزون »

ثم انبعثت من صدر « جانذارى » آهة عميقة من قلب مكروب ونظرت إلى بناتها المحزونات ، وخاطبت كرشنا قائلة :

« انظرى إلى بناتى اللاتى ليس لهن عزاء ، انظرى إليهن وهن ملكاتٌ أرامل لبيت كورو .

انظرى إليهن باكيات على أعزائهن الراحلين ، كما تبكى إناث النسور ما فقدت من نسور

انظرى كيف يُثير فى قلوبهن حُبٌّ المرأة كلَّ قسْمة من هاتيك القسمات البارزة الذاوية

انظرى كيف يتجَبَّن بخطوات قلقة وسط أجساد المقاتلين وقد أخمدها الموت

وكيف تضم الأمهات قتلى أبنائهن إذ هم فى نومهم لا يشعرون

وكيف تنثنى الأرامل على أزواجهن فيبكين فى حزن لا ينقطع

هكذا جاهدتْ الملكةُ « جانذارى » لتبلِّغ « كرِشْنا » حزين أفكارها ؛

وعندئذ — واحسرتاه — وقع بصرها الحائر على ابنها « دريوذان » فأكل صدرها غمٌّ مفاجىء ، وكأنما زاغت حواسُّها عن مقاصدها كأنها شجرة هزتهـــا العاصفة ، فسقطت لا تحس الأرض التى سقطت عليها ؛

ثم صَحَتْ فى أساها من جديد ، وأرسلت بصرها من جديد إلى حيث رقد ابنها مخضباً بدمائه يلتحف السماء

وضمت عزيزها دريوذان ، ضمته قريباً من صدرها
وإذ هى تضم جثمانه الهامد اهتز صدرها بنهنهة البكاء
وانهمرت دموعها كأنها مطر الصيف ، فغسلت بها رأسه النبيل
الذى لم يزل مزداناً بأكاليله ، لم يزل تكلله أزاهير المشكا ناصعة حمرائه
« لقد قال لى ابنى العزيز دريوذان حين ذهب إلى القتال ، قال :
« أماه ادعى لى بالغبطة والنصر إذا ما اعتليتُ عجلة المعمعة »
فأجبت : عزيزى دريوذان : « اللهم ـ يا بنىّ ـ اصرف عنه الأذى
ألا إن النصر آت دائماً فى ذيل الفضيلة »
ثم انصرف بقلبه كله إلى المعركة ، ومحا بشجاعته كلّ خطاياه
وهو الآن يسكن أقطار السماء حيث ينتصر المحارب الأمين
ولست الآن أبكى دريوذان ، فقد حارب أميراً وسقط أميراً
إنما أبكى زوجى الذى هدّه الحزن ، فمن يدرى ماذا هو ملاقيه
من نكبات ؟
« اسمع الصيحة الكريهة يبعثها أبناء آوى وانظر كيف يرقبه
الذئاب الفريسة ـ
راودت العذارى الفاتنات بما لهن من غناء وجمال أن يحرسنه فى رقدته
اسمع هاتيك العقبان البغيضة المخضبة بمناقيرها بالدماء ، تصفق بأجنحتها
على أجسام الموتى ـ
العذارى يُلَوِّحْنَ بمراوح الريش حول دريوذان فى مخدعه الملكى
انظر إلى أرملة دريوذان النبيلة ، الأم الفخور بابنها الباسل لاكشمان
إنها فى جلال الملكة شباباً وجمالا ، كأنها قُدّت من ذهب خالص
انتزعوها من أحضان زوجها الحلوة ، ومن ذراعى ابنها يطوقانها
كُتب عليها أن تقضى حياتها كاسفة حزينة ، رغم شبابها وفتنتها

ألا مزّق اللهم قلبي الصلب المتحجر ، واسحقه بهذا الألم المرير
هل تعيش « جانداری » لتشهد ابنها وحفيدها النبيلين مقتولين ؟

انظر مرة أخرى إلى أرملة ذريوذان ، كيف تحتضن رأسه الملطخ
بدمه الخاثر

انظر كيف تمسك به على سريره فى رفق بيدين رقيقتين رحيمتين
انظر كيف تدير بصرها من زوجها العزيز الراحل إلى ابنها الحبيب
فتخنق عبرات الأم فيها أنّةَ الأرملة وهى أنّةٌ مريرة .
وإن جسدها لذهبي رقيق كأنه من زهرة اللوتس
أواه يا زهرتي ، أواه يا ابنتى ، يا فخر « مهارات » ، وعز « كورو »
ألا إن صدقتْ كتب الفيدا ، « فدريوذان » الباسل حى فى السماء
ففيم بقاؤنا على هذا الحزن ، لا ننعم بحبه العزيز ؟
إن صدقت آيات « الشاستْرا » ، فابنى البطلُ مقيم فى السماء
ففيم بقاؤنا فى حزن ما دام واجبهما الأرضى قد تأدّى(١٣) .

فالموضوع موضوع حب وحرب ، لكن آلاف الإضافات زيدت عليه فى شتى مواضعه ؛ فالإله « كرشْنا » يوقف مجرى القتل حيناً بقصيدة منه يتحدث فيها عن شرف الحرب « وكرِشنا » و « بهشْما » وهو يُحتضر ، يؤجل موته قليلا حتى يدافع عن قوانين الطبقات والميراث والزواج والمنح وطقوس الجنائز ، ويشرح فلسفة كتب « السانخيا » و « يوپانشاد » ويروى طائفة من الأساطير والأحاديث المنقولة والخرافات ، ويأتى درساً مفصّلا على « يودشيرا » فى واجبات الملك ؛ وكذلك ترى أجزاء معفّرة جدباء فى سياق الملحمة تقص شيئاً عن الأنساب وعن جغرافية البلاد وعن اللاهوت والميتافيزيقا ، فتفصل بين ما فى الملحمة من رياض نضرة فيها أدب مسرحيٌّ وحركة ، وفى ملحمة

« الماهابهاراتا » حكايات جامحة الخيال ، وقصص خرافية ، وغرامية ، وتراجم للقديسين ، فيتعاون كل هذا على جعل الملحمة أقل قيمة فى صورتها الفنية ، وأخصب فكراً من الإلياذة أو الأوذيسية ؛ فهذه القصيدة التى كانت فى بادئ أمرها معبرة عن طبقة الكشاترية (المحاربين) من حيث تبجيلها للحركة والنشاط والبطولة والقتال ، قد أصبحت على أيدى البراهمة أداة لتعلم الناس قوانين « مانو » ومبادئ « اليوجا » وقواعد الأخلاق وجمال النرفانا ؛ وترى « القاعدة الذهبية » معبَّراً عنها فى صور كثيرة(*) وتكثر فى القصيدة الحِكَم الخلقية ذات الجمال وصدق النظر(**) وفيها قصص جميلة عن الوفاء الروحى (« نالا » و « دامايانتى » و « سافترى ») تصوِّر للنساء اللائى يستمعن لها ، المثل العليا البرهمية للزوجة الوفية الصابرة .

وفى غضون الرواية عن هذه المعركة الكبرى ، بُثَّت قصيدة هى أسمى قصيدة فلسفية يعرفها الشعر العالمى جميعاً ؛ وهى المسماة « بهاجافاد — جيتا » ومعناها : (أنشودة المولى) ، وهى بمثابة «العهد الجديد » فى الهند ، يبجلونها بعد كتب الفيدا نفسها ، ثم يستعملونها لحلف الأيمان فى المحاكم كما يستعمل الإنجيل أو القرآن(٢٨) ؛ ويقرر « ولهلم فون همبولت » أنها « أجمل أنشودة فلسفية موجودة فى أى لغة من اللغات المعروفة ، وربما كانت الأنشودة الوحيدة الصادقة فى معناها ... ويجوز أن تكون أعمق وأسمى ما يستطيع العالم كله أن يبديه من آيات »(٢٩) ؛ وقد هبطت إلينا (الجيتا » بغير اسم ناظمها أو تاريخ

(*) مثال ذلك « لا تصنع مع غيرك ما لو صُنع معك ألحق بك الألم »(٢٤) « حتى العدو إذا طلب النجدة ، فإن الرجل الخيِّر يكون على استعداد لنجدته »(٢٥) « اقهر الغضب بالتذلل ، واغلب الشر بالرحمة ، واعط البخلاء تنتصر عليهم ، وقابل الأكاذيب بالحق تمحها(٢٦) .

(**) مثال ذلك « كما تتلاقى قطعة الخشب بقطعة الخشب فى المحيط العظيم ثم تفترق عنها ، كذلك تتلاقى المخلوقات لتفترق »(٢٧) .

نظمها ، وهي ذلك تشاطر سائر ما للهند من آيات الإبداع في الجهل بأصحابها ، وعلة ذلك أن الهند لا تعنى بما هو فردي وجزئي ؛ وربما يرجع تاريخها إلى سنة ٤٠٠ قبل الميلاد(٣٠) أو ربما كانت أحدث من ذلك بحيث ترجع إلى سنة ٢٠٠ م(٣١) .

ومشهد القصيدة هو المعركة التي نشبت بين الكوريين والبانداقيين ؛ والموقف الذي قيلت فيه هو ما أبداه « أرجونا » المحارب البانداقي من رغبة من قتال ذوي قرباه في صفوف الأعداء قتالا مميتاً ؛ فاسمع «أرجونا » وهو يوجّه الخطاب إلى « المولى كرشْنا » الذي كان يحارب إلى جواره كأنه إله من آلهة هومر ، لترى كيف يعبر بخطابه عن فلسفة غاندي والمسيح :

« إن الأمر كما أراه هو أن هذا الحشد من ذوي قربانا
قد تجمع هاهنا ليسفك دماً مشتركاً بيننا ؛
ألا إن جسدي ليخور وَهَنَاً ، ولساني يجف في فمي ...
ليس هذا من الخير يا « كِشَاف » ، يستحيل أن ينشأ خير
من فريق يفتك كل منهما بالآخر ، انظر ،
إنني أمقت النصر والسيادة ، وأكره الثروة والترف
إن كان كسبهما عن هذا الطريق المحزن ، وا أسفاه ،
أي نصر يسرّ يا « جوڤندا » وأي الغنائم النفيسة ينفع ،
وأي سيادة تعوض ، وأي أمد من الحياة نفسها يحلو ،
إن كان شيء من هذا كله قد اشتريناه بمثل هذه الدماء ؟ ...
فإذا ما قتلنا
أقرباءنا وأصدقاءنا حباً في قوة دنيوية
فيالها من غلطة تنضح شراً ؛
إنه لخير في رأيي ، إذا ما ضرب أهلي ضربتهم ،
أن أواجههم أعزل من السلاح ، وأن أُعَرِّي لهم صدري ،

فيتلقى منهم الرماح والسهام ، ذلك فى رأيى خير من مبادلتهم ضربة بضربة »(٣٢) .

وهاهنا يأخذ «كرشنا » – الذى لم تحمله ربوبيته على الحد من نشوته بالمعركة – فى بسط وجهة نظره واثقاً من صحة ما يقول ثقة استمدها من كونه ابن فشنو ، وهى أن الكتب المنزلة ، والرأى عند خبرة الراسخين فى العلم ، هو أنه من الخير والعدل أن يقتل الإنسان ذوى قرباه فى حالة الحرب ؛ وأن واجب « أرجونا » هو أن يتبع قواعد طبقته الكشاترية ، وأن يقاتل ويقتل أعداءه بضمير خالص وإرادة طيبة ، لأنه على كل حال لايقتل إلا الجسد ، وأما الروح فباقية ؛ وهنا تراه يشرح ما جاء فى « سانخيا » عن « پوروشا » التى لا يأتيها العطب ، وما جاء فى « يوپانشاد » عن « أتمان » التى لا تفنى :

« أعلم أن الحياة لا تفنى ، فتظل تبثُّ حياةً فى الكون كله ؛
يستحيل على الحياة فى أى مكان ، وبأية وسيلة ،
أن يصيبها نقص بأى وجه من الوجوه ، ولا أن يصيبها خمود أو تغير
أما هذه الهياكل الجسدية العابرة ، التى تبث فيها الحياة
روحاً لا تموت ولا تنتهى ولا تحدها الحدود –
ففانية ؛ فدعها – أيها الأمير – تَمْضِ ، وامض فى قتالك !
إن من يقول : « انظر ، لقد قتلت إنساناً ! »
وإن من يظن لنفسه : « هاأنذا قد قُتِلْت »
فكلا هذين لايعلم شيئاً ؛ إن الحياة لا تَقْتُل
وإن الحياة لا تُقْتَل ، إن الروح لم تولد قط ، وان تفنى
إن الزمان لم يشهد لحظة خلت من الروح ، إن النهاية والبداية أحلام ،
إن الروح باقية إلى الأبد بغير مولد وبغير موت وبلا تغير

إن الموت لم يمسسها قط ، وإن خيل لنا أن وعاءها الجسدى قد مات »(٣٣)

ويمضى « كرشنا » فى إرشاد « أرجونا » فى الميتافيزيقا ، مازجاً فى تعليمه كتاب « سانخيا » بكتاب « فيدانتا » بحيث يحصل منها على مركب فريد يقبله أنصار مذهب « ڤايشنافيت » ؛ فهو يقول عن الأشياء كلها ، موحداً بين ذاته والكائن الأسمى ، يقول عن الأشياء كلها إنها :

« تتعلق بى

كما تتعلق مجموعة من الخرزات على خيط ؛
أنا من الماء طعمه العذب
وأنا من القمر فضته ومن الشمس ذهبها ؛
أنا موضع العبادة فى الڤيدا ، والهزة التى
تشق أجواز الأثير ، والقوة
التى تكمن فى نطفة الرجل ؛ أنا الرائحة الطيبة الحلوة
التى تعبق من الأرض البليلة ؟ وأنا من النار وهجها الاحمر
وأنا الهواء باعث الحياة ، يتحرك فى كل ما هو متحرك
أنا القدسية فيما هو مقدس من الأرواح ، أنا الجذر
الذى لا يذوى ، والذى انبثق منه كل ما هو كائن ،
أنا حكمة الحكيم ، وذكاء
العليم ، وعظمة العظيم ،
وفخامة الفخيم . . ؟
إن من بر الأشياء رؤية الحكيم ،
بر أن براهما بما له من كتب وقداسه ،
والبقرة ، والفيل ، والكلب النجس ،

والمنبوذ وهو يلتهم لحم الكلب ، كلها كائن واحد »[٣٤]

هذه قصيدة زاخرة بألوانها المتباينة ومتناقضاتها الميتافيزيقية والخلقية التي تصور أضداد الحياة وتعقيدها، وإنه ليأخذنا شيء من الدهشة أن نرى الإنسان متمسكاً بما يبدو لنا موقفاً أسمى من الوجهة الخلقية ، بينما الإله يدافع عن الحرب والقتل ، معتمداً على أساس متهافت وهو أن الحياة غير قابلة للقتل والفردية وهم لا حقيقة فيه ، ولعل ما اراد المؤلف أن يحققه بقصيدته هو أن ينقذ الروح الهندية من الهمود المميت الذي فرضته العقيدة البوذية ، وأن يوقظها لتحارب من أجل الهند ؛ فهي بمثابة ثورة رجل من الكشاترية أحس أن الدين يوهن أمته ، وارتأى في زهو أن هنالك أشياء كثيرة أنفس من السلام ؛ وقبل كل شيء كانت هذه القصيدة درساً او حفظته الهند لجاز أن يصون لها حريتها .

وأما ثانية الملاحم الهندية فهي أشهر الأسفار الهندية وأحبها إلى النفوس[٣٥] وهي أقرب إلى أفهام الغربيين من « الماهابهاراتا » ؛ وأعني بها « رامايانا » ، وهي أقصر من زميلتها الأولى ، إذ لا يزيد طولها على ألف صفحة قوام الصفحة منها ثمانية وأربعون سطراً ؛ وعلى الرغم من أنها كذلك أخذت تزداد بالإضافات من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن الثاني بعد الميلاد ، فان تلك الإضافات فيها أقل عدداً مما في زميلتها ، ولا تهوش الموضوع الأصلي كثيراً ، ويعزو الرواة هذه القصيدة إلى رجل يسمى « ڤالميكي » ، وهو كنظيره المؤلف المزعوم للملحمة الأخرى الأكبر منها، يظهر في الحكاية شخصية من شخصياتها ولكن الأرجح أن القصيدة من إنشاء عدد كبير من المنشدين العابرين ، أمثال أولئك الذين لا يزالون ينشدون هاتين الملحمتين ، وقد يظلون يتابعون إنشادهما تسعين ليلة متعاقبة ، على مستمعين مأخوذين بما فيها من سحر[٣٦] .

وكما أن « الماهابهاراتا » تشبه « الإلياذة » في كونها قصة حرب عظيمة

أنشبتها الآلهة والناس ، وكان بعض سببها استلاب أمة لامرأة جميلة من أمة أخرى ؛ فكذلك تشبه « رامايانا » « الأوذيسية » وتقص عما لاقاه أحد الأبطال من صعاب وأسفار ، وعن انتظار زوجته صابرة حتى يعود إليها فيلتئم شملهما من جديد(٣٧)، وترى فى فاتحة الملحمة صورة لعصر ذهبى ، كان فيه « دازا – راذا » يحكم مملكته « كوسالا » (وهى ما يسمى الآن أوذ) من عاصمته « أيوذيا » :

مزاداناً بما تزدان به الملوك من كرامة وبسالة ، وزاخراً بترانيم الفيدا المقدسة

أخذ « دازا – راذا » يحكم مُلكه فى أيام الماضى السعيد ...
إذ عاش الشعب التقىُّ مسالما ، كثير المال رفيعَ المقام(٣٨)
لا يأكل الحسدُ قلوبهم ، ولا يعرفون الكذب فيما ينطقون ؛
فالآباء بأسراتهم السعيدة يملكون ما لديهم من ماشية وغلة وذهب
ولم يكن للفقر المدقع والمجاعة فى « أيوذيا » مُقام .

وكان على مقربة من تلك البلاد مملكة أخرى سعيدة ، هى « فيديها » التى كان يحكمها الملك «جاناك» ، وقد كان هذا الملك « يسوق المحراث ويحرث الأرض » بنفسه ، فهو فى ذلك شبيه ببطل يسمى « سِنْسِنَاتَس » ؛ وحدث ذات يوم أنه لم يكد يلمس المحراث بيده ، حتى انبثقت من مجرى المحراث فى الأرض ابنة جميلة ، هى « سيتا » ، وما أسرع ما حان حين زواجها ، فعقد « جاناك » مباراة بين خطّابها ، فمن استطاع منهم أن يقوّم اعوجاج قوس « جاناك » الذى يقاتل به ، كانت العروس نصيبه ؛ وجاء إلى المباراة أكبر أبناء « دازا – راذا » وهو « راما » : « صدره كصدر الليث ، وذراعاه قويتان ، وعيناه ذهبيتان ، مهيب كفيل الغابة ، وقد عقد على ناصيته من شعره تاجاً »(٣٩) ولم يستطع أن يلوى القوس إلا « راما » فقدم إليه « جاناك » ابنته بالصيغة المعروفة فى مراسم الزواج فى الهند :

هذه سيتا ابنة چاناك وهى أعز عليه من الحياة
فلتقاسمك منذ الآن فضيلتك ، ولتكن أيها الأمير زوجتك الوفية
هى لك فى كل بلد ، تشاركك عزاً وبؤساً
فأعزّها فى سرّائك وضرائك ، واقبض على يدها بيدك
والزوجة الوفية لمولاها كالظل يتبع الجسد
وابنتى سيتا — زين النساء — تابعتك فى الموت والحياة(٤٠)

وهكذا يعود « راما » إلى بلده « أيوذيا » بعروسه الأميرة — : « جبين من عاج ، وشفة من المرجان ، وأسنان تسطع بلمعة اللآلئ » — وقد كسب حُب أهل كوسالا بتقواه ووداعته وسخائه ؛ وما هو إلا أن دخل الشرّ هذه الفردوس حين دخلتْها الزوجة الثانية « لدازا — راذا » وهى « كايكيى » ؛ وقد وعدها « دازا — راذا » أن يجيبها إلى طلبها كائناً مّا كان ؛ فحملتْها الغيرة من الزوجة الأولى التى أنجبت « راما » ولياً للعهد ، أن تطلب من « دازا — راذا » نفى « راما » من المملكة أربعة عشر عاماً ؛ فلم يسع « دازا — راذا » إلا أن يكون عند وعده ، مدفوعاً إلى ذلك بشرف لا يفهم معناه إلا شاعر لم يعرف شيئاً من السياسة ، ونفى ابنه الحبيب ، بقلب كسير ، ويعفو « راما » عن أبيه عفو الكريم ، ويأخذ الأهبة للرحيل إلى الغابة حيث يقيم وحيداً ، لكن « سيتا » تصر على الذهاب معه ، وكلامها فى هذا الموقف تكاد تحفظه عن ظهر قلب كل عروس هندية ، إذ قالت :

« العربة والخيل المطهمة والقصر المذهب ، كلها عبث فى حياة المرأة
فالزوجة الحبيبة المحبة تؤثر على كل ذلك ظِلّ زوجها ...
إن « سيتا » ستهيم فى الغابة ، فذلك عندها أسعدُ مقاماً من قصور أبيها
إنها لن تفكر لحظة فى بيتها أو فى أهلها ، ما دامت ناعمة فى حب زوجها . . .

وستجمع الثمار الحوشية من الغابة اليانعة العبقة

فطعام (يذوقه « راما » هو أحب طعام عند « سيتا »)[٤١]

حتى أخوه « لاكشمان » يستأذن فى الرحيل ليصحب « راما » فيقول :

« سنسلك طريقك المظلم وحيداً مع « سيتا » الوديعة ،

هلاّ أذنتَ لأخيك الوفىّ « لاكشمان » بحمايتها ليلا ونهاراً ،

هلاّ أذنت « للاكشمان » بقوسه ورمحه أن يجوب الغابات جميعاً

فيُسقط بفأسه أشجارها ، ويبنى لك الدار بيديه ؟ »[٤٢] .

وعند هذا الموضع تصبح الملحمة نشيداً من أنشاد الغابات ، إذ تقص كيف ارتحل « راما » و« سيتا » و « لاكشمان » إلى الغابات ، وكيف سافر معهم عامر « أيوذيا » جميعاً طوال اليوم الأول ، حزناً عليهم ؛ وكيف يتسلل المنفيّون من أصحابهم الودودين خلسة فى ظلمة الليل ، مخلّفين وراءهم كل نفائسهم وثيابهم الفاخرة ، وارتدوا لحاء الشجر ونسيجاً من كلأ ، وأخذوا يشقون لأنفسهم طريقاً فى أشجار الغابة بسيوفهم ، ويقتاتون بثمار الشجر وبندقها

« وطالما التفتت إلى « راما » حليلتَه ، فى غبطة وتساؤل تزدادان على مرّ الأيام

تسأل ما اسم هذه الشجرة وهذا الزاحف وتلك الزهرة وهاتيك الثمرة مما لم تره من قبل . .

والطواويس ترفّ حولهم مرحة ، والقردة تقفز على محنى الغصون . .

كان « راما » يثب فى النهر تظلله أشعة الصبح القرمزية

وأما « سيتا » فكانت تسعى إلى النهر فى رفق كما تسعى السوسنة إلى الجدول »[٤٣]

ويبنون كوخاً إلى جانب النهر ، ويروضون أنفسهم على حب حياتهم فى

الغابة لكن حدث أن كانت أميرة من الجنوب ، هي « سوربا — ناخا » تجوب الغابة فتلتقي « براما » وتغرم به ، وتضيق صدراً بالفضيلة التي يبديها لها ، وتستثير أخاها « راڤان » على المجيء ليختطف « سيتا » ، وينجح أخوها في خطفها والفرار بها إلى قلعته البعيدة ، ويحاول عبثاً أن يغويها بالضلال ، ولما لم يكن ثمة مستحيل على الآلهة والمؤلفين ، فقد حشد « راما » جيشاً جراراً ، فتح به مملكة « راڤان » وهزمه في القتال ، وأنقذ « سيتا » وبعدئذ (وكانت أعوام نفيه قد كملت) فر معها قافلا بها إلى بلده « أريوذا . حيث وجد أخاً له آخر وفيًّا ، فتنازل له مسروراً عن عرش كوسالا .

وللملحمة ذيل يرجح أنه أضيف إليها متأخراً ، وفيه يُروى أن « راما » آمن آخر الأمر بأقوال المتشككين الذين لم يصدقوا أن تكون « سيتا » قد أقامت تلك المدة الطويلة كلها في قصر راڤان بغير أن تقع في أحضانه آنا بعد آن ؛ وعلى الرغم من أنها اجتازت « محنة النار » لتدل على براءتها ، فقدت بعث بها إلى غابة بعيدة حيث تقيم في صومعة هناك ، مزوَّدة بالعوبة الوراثة المرة التي تقضي على كل جيل من الناس أن يورِّث خلفه تلك الخطايا والأغلاط التي ورثها هو من شيوخه في شبابه ؛ وتلتقي « سيتا » في الغابة بڤالميكي ، وتلد طفلين « لراما » ؛ وتمضي السنون ، ويصبح الولدان مُنْشِدين جوّالين ، يغنيان أمام «راما» المنكود الملحمة التي أنشأها عليه « ڤالميكي » مستمداً إياها من ذكريات « سيتا » ، فيدرك أن الولدين ابناه ، ويبعث برسالة إلى « سيتا » يرجوها الرجوع ؛ لكن « سيتا » كانت قد تحطم قلبها بما أثير حولها من ريَب ، فغاصت في الأرض التي كانت في بادئ الأمر أمها ؛ ويظل « راما » يحكم أعواماً طوالا في وحشة وأسى ، وتبلغ « أريوذا » في عهده الرحيم عصرها الذهبي من جديد ، ذلك الذي ذاقت طعمه في عهد « دازا — راذا » :

يروي شيوخ الحكماء إبان عهد راما السعيد

أن رعيته لم تعرف الموت قبل أوانه ولا الأمراض الفاتكة .
ولم تبك الأرامل حزناً على أزواجهن لأن هؤلاء لم يموتوا عن زوجاتهم
قبل اكتمال العمر
ولم تبك الأمهات هلعاً على الرضع ففقدنهن فى نعومة الأظفار
ولم يحاول اللصوص والغشاشون والخادعون المرِحُون بالكذب سرقة
أو غشاً أو خداعاً
وكل جار أحب جاره التقى ، وأحب الشعب مولاه
وآتت الأشجار أكلها كاملة كلما حانت فصولها
ولم تتوان الأرض عاماً عن إخراج غلتها فى غبطة المعترف بالجميل
وأمطرت السماء فى أوان المطر ، ولم تعصف قط بالبلاد عاصفة تأتى
على زرعها
فكان كل واد يانع باسم غنياً بمحصوله غنياً بمرعاه
وأخرج المِنْسَجُ السَّندان صناعتهما ، كما أخرجت الأرض الخصيبة
المحروثة نَبتَتَها
وعاشت الأمة فرحة بعمل أجدادها الأولين(٤٤)

ألا ما أمتعها من قصة ، يستطيع حتى المتشائم فى عصرنا الحديث أن يستمتع بها ، إذ كان من الحكمة بحيث يترك زمام نفسه آنا بعد آن لروعة الخيال ونعمة الغناء ؛ فهذه الأشعار التى ربما كانت أحط قدراً من ملحمتى هومر من الوجهة الأدبية — فى بنائها المنطقى وفخامة اللغة وعمق التصوير ، والصدق فى وصف الأشياء على حقائقها — تمتاز بدقة الشعور ، وبإعلائها من شأن المرأة والرجل إعلاء مثالياً ، وبتصوير الحياة تصويراً قوياً — وهو تصوير واقعى أحياناً ؛ فلئن كان « راما » و « سيتا » أسمى خلقاً من أن يكون شخصين حقيقيين ، فغيرهما من الأشخاص مثل « دروپادى » و « يوذشثيرا » و « ذريتا — راشترا » و « جاندارى » يكادون يكونون فى قوة الحياة التى تراها

فى « أخيل » و « هيلانة » و « يوليسيز » و « پنلوپ » ؛ ويستطيع الهندى أن يحتج فى حق قائلا إن الأجنبى لا يمكنه قط أن يحكم على هاتين الملحمتين ، بل لا يمكنه قط أن يفهمهما ؛ فهما للهندىّ ليستا مجرد قصتين بل هما فى رأيه بهو من أبهاء الصور ، يشاهد فيه أشخاصاً مثاليين يمكنه أن ينسج فى سلوكه على غرارهم ، هما مستودع تستقر فيه التقاليد ، كما تستقر فلسفة أمته ولاهوتها فهما — بوجه من الوجوه — كتب مقدسة يقرؤها الهندى على نحو ما يقرأ المسيحى « محاكاة المسيح » أو « تراجم القديسين » ؛ إذ يعتقد الهندى الورع أن « كرِشْنا » و « راما » صورتان مجسدتان للألوهية ، ولا يزال يتوجه إليهما بالصلاة ؛ وهو حين يقرأ أخبارهما فى هاتين الملحمتين ، يشعر بأنه يستمد من قراءته سمواً دينياً ، كما يستمد متعة أدبية وارتفاعاً خلقياً ؛ وهو يؤمن أن قراءته لـ « رامايانا » يطهره من أوزاره جميعاً ويجعله ينجب ولداً [٤٥] ، كما أنه يقبل النتيجة المزهوّة التى تنتهى إليها « الماهابهاراتا » قبولَ الإيمان الساذج ، وهى :

« إذا قرأ المرء « الماهابهاراتا » وآمن بتعاليمها ، تطهر من كل خطاياه ، وصعد إلى السماء بعد موته . . . فالبراهمة بالقياس إلى سائر الناس ، والزبد بالقياس إلى سائر ألوان الطعام . . . والمحيط بالقياس إلى بركة الماء ، والبقرة بالقياس إلى سائر ذوات الأربع — كل ذلك يصور « الماهابهاراتا » بالقياس إلى سائر كتب التاريخ ... إن من يصغى فى انتباه إلى أشعار « الماهابهاراتا » المزدوجة الأبيات ويؤمن بما فيها ، يتمتع بحياة طويلة وسمعة طيبة فى هذه الحياة الدنيا ، كما يتمتع فى الآخرة بمقام أبدى فى السماء »[٤٦] .

الفصل الرابع

المسرحية

الأصول – « عربة الطين » – خصائص المسرحية الهندية –
كاليداسا – قصة « شاكنتالا » – تقدير المسرحية الهندية

المسرحية فى الهند قديمة قدم الفيدات ، بوجه من الوجوه ، ذلك لأن بذورها الأولى موجودة فى كتب « يوپانشاد » ولا شك أن للمسرحية بداية أقدم من هذه الكتب المقدسة ، بداية أكثر فاعلية من ذلك – وأعنى بها الاحتفالات والمواكب الدينية التى كانت تقام للقرابين وأعياد الطقوس ؛ وكان للمسرحية مصدر ثالث غير هذين ، وهو الرقص – فلم يكن الرقص مجرد وسيلة لإخراج الطاقة المدخرة ، وأبعد من ذلك عن الحقيقة أن نقول إنه كان بديلا للعملية الجنسية ، لكنه كان شعيرة جدية يُقصد بها أن يحاكى ويوحى بالأعمال والحوادث الحيوية بالنسبة للقبيلة ؛ وربما التمسنا مصدراً رابعاً للمسرحية وهو تلاوة شعر الملاحم تلاوة علنية تدبُّ فيها الحياة ؛ فهذه العوامل كلها تعاونت على تكوين المسرح الهندى ، وطبعته بطابع دينى ظل عالقاً به خلال العصر القديم كله(*) من حيث بناء المسرحية ذاتها ، ومصادر موضوعاتها الفيدية والملحمية ، والمقدمة التى كانت تتلى دائماً قبل البدء فى التمثيل استنزالا للبركة .

وربما كان آخر البواعث التى حفزتهم على إنشاء المسرحية ، هو اتصال الهند باليونان اتصالا جاء نتيجة لغزو الإسكندر ؛ فليس لدينا شاهد يدل على وجود المسرحية قبل « أشوكا » ، كما أنه ليس بين أيدينا إلا دليل مشكوك فى قوته ، على أنها وجدت فى عهده ، وأقدم ما يبقى لنا من المسرحيات الهندية

(*) ونعنى به العصر الذى استخدم فيه الأدب اللغة السنسكريتية أداة للتعبير .

مخطوطات أوراق النخيل التى كُشف عنها حديثاً فى التركستان الصينية ، وبينها ثلاث مسرحيات ، تذكر إحداها أن اسم مؤلفها هو « أشفاغوشا » العالم اللاهوتى فى بلاط « كانِشْكا » ؛ لكن القالب الفنى لهذه المسرحية ، والشبه الذى بين شخصية « المضحك » فيها وبين النمط الذى عرفناه لمثل هذه الشخصية فى المسرح الهندى على مرّ العصور ، قد يدلان على أن المسرحية كانت قائمة بالفعل فى الهند قبل مولد « اشفاغوشا »(٤٧) ، وحدث فى سنة ١٩١٠ أن وجدت فى « ترافانكور » ثلاث عشرة مسرحية سنسكريتية ، تُنْسب فى شىء من الشك إلى « بهازا » (حوالى سنة ٣٥٠ ميلادية) وهو فى الأدب المسرحى سلفٌ ظفر بكثير من التكريم من «كاليداسا» فى مقدمة روايته «مالافيكا» توضيح جيد لنسبية الزمن والصفات ؛ أثبته (أى كاليداسا) فى تلك المقدمة عن غير وعى منه ، فتراه يسأل : « هل يليق بنا أن نهمل مؤلفات رجال مشهورين مثل « بهازا » و « ساوميلا » و « كافيپوتْرا » ؟ هل يمكن للنظارة أن يحسّوا بأقل احترام لما ينشئه شاعر حديث يسمى كاليداسا ؟ »(٤٨) .

وإلى عهد قريب كانت أقدم مسرحية هندية معروفة للباحثين العلميين هى « عربة الطين » ، وفى النص — الذى ليس تصديقه حتما علينا — ذكرٌ لاسم مؤلفها ، وهو رجل مغمور معروف باسم « الملك شودراكا » يوصف بأنه خبير بكتب الفيدا وبالرياضة وترويض الفيلة وفن الحب(٤٩) ومهما يكن من أمر فقد كان خبيراً بالمسرح ، ومسرحيته هذه أمتع ما جاءنا من الهند ، ليس فى ذلك سبيل إلى الشك فهى مزيج — يدل على براعة — من الغناء والفكاهة ، وفيها فقرات رائعة لها ما للشعر من حرارة وخصائص .

ولعل خلاصة موجزة لحوادثها أنفع فى توضيح مميزات المسرحية الهندية من مجلد بأسره يكتب فى شرحها والتعليق عليها ؛ ففى الفصل الأول نلتقى بـ « شارو — داتا » الذى كان ذات يوم من الأغنياء ، ثم أفقر لجوده

وسوء حظه ؛ ويلعب صديقه «مايترِيا» — وهو برهميّ فَدْمٌ — دور المضحك في المسرحية ؛ ويطلب «شارو» من «مايترِيا» أن يهب الآلهة قرباناً، لكن البرهميّ يرفض الطلب قائلا : «ما غناء القربان للآلهة التي عبدتها ما دمت لم تصنع لك شيئاً ؟» وفجأة دخلت امرأة هندية شابة ، من أسرة رفيعة ولها ثراء عريض، دخلت مندفعة في فناء دار «شارو» تلتمس فيه ملاذاً من رجل يتعقبها وإذا بهذا المتعقب أخو الملك ، واسمه «سامزثاناكا» وهو شرّير إلى درجة بلغت غاية لم تدع فيه أدنى مجال للخير ، حتى ليتعذر على الإنسان أن يصدق وجود مثل هذا الشر الخالص ، على نحو ما كان «شارو» خيراً خالصاً لا سبيل إلى دخول الشر في نفسه ؛ فيحمي «شارو» الفتاة اللائذة بداره ، ويطرد «سامزثاناكا» الذي يتوعده بالانتقام ، فيزدري منه هذا الوعيد وتطلب الفتاة — واسمها «ڤاسانتا — سينا» — من «شارو» أن يحفظ لها وعاء فيه جواهر كريمة تحت حراسته الآمنة ، خشية أن يسرقه منها الأعداء ، وخشية ألا تجد عذراً تتذرع به للعودة إلى زيارة منقذها ؛ فيجيبها إلى ما طلبت ، ويحفظ لها الوعاء ، ويحرسها حتى يبلغ بها إلى دارها الفخمة ،

ويأتي الفصل الثاني بمثابة فاصل هزلي ؛ فهذا مقامر هارب من مقامرين آخرين ، يلوذ بأحد المعابد ، فلما دخل هذان ، تخلص منهما بأن وقف وقفة التمثال كأنه وثن الضريح ، ويقرصه المتعقبان ليريا إن كان حقيقة وثناً من الحجر ، فلا يتحرك ؛ فيتخليان عن البحث ، ويتسليان بلعبة يلعبانها بالزهر (زهر القمار) بجوار المذبح ؛ ويبلغ اللعب من إثارته للنفس مبلغاً تعذر معه على التمثال أن يضبط زمام نفسه ، فوثب من على قاعدته ، واستأذن ليشترك في اللعب ؛ ويهزمه اللاعبان الآخران ، فيجد في ساقيه السريعتين وسيلة للفرار مرة أخرى ، وتنجيه «ڤاسانتا — سينا» التي عرفت رجلا كان فيما مضى خادماً عند «شارو — داتا» ؛

ونرى في الفصل الثالث «شارو» و «مايترِيا» عائدين من حفلة موسيقية

ويسطو على الدار لص فيسرق وعاء الجواهر الكريمة ، فلما كشف « شارو » عن السرقة ، أحسّ بالعار ، وبعث إلى « ڤاسانتا — سينا » آخر ما يملكه من عقود اللؤلؤ ، عوضاً لها .

ونرى فى الفصل الرابع « شارڤيلاكا » يقدم الوعاء المسروق إلى خادمة « ڤاسانتا — سينا » ابتغاء حُبِّها ؛ فلما عرفت أنه وعاء سيدتها ، ازدرت « شارڤيلاكا » لأنه لص ، فيجيبها فى مرارة نعرفها فى شوپنهاور ، قائلا :

إن المرأة — إذا ما بذلتَ لها المال — ابتسمتْ أو بكتْ
ما أردتَ لها الابتسام أو البكاء ؛ إنها تحمل الرجل
على الثقة فيها ، لكنها هى لا تثق فيه ،
إن النساء متقلبات الأهواء كموج
المحيط ؛ إن حبهن مقبِلات هَروب
كأنه شعاع من ضوء الشمس الغاربة فوق السحاب ،
إنهن يرتمين بميل شديد على الرجل
الذى يعطيهن مالا ، وما زلن يعتصرون ماله
اعتصارهن لعصارة النبات المليء ، ثم ينبذونه نبذا

لكن الخادمة تدحض كلامه هذا بعفوها عنه كما تدحضه « ڤاسانتا — سينا » بالإذن لها بالزواج .

وفى فاتحة الفصل الخامس تأتى « ڤاسانتا — سينا » إلى بيت « شارو » لكى تعيد له جواهره ، وتعيد كذلك وعاءها ؛ وبينما هى هناك ، عصفت عاصفة تصفها بالسنسكريتية وصفاً رائعاً (*) ، وتتفضّل عليها العاصفة بالزيادة من ثورة غضبها ، إذ اضطرتها بذلك — اضطراراً وجاء وفق ما تشاء وتهوى — أن تبيت ليلتها تحت سقف شارو .

(*) هذه حالة شاذة ، لأن العادة فى المسرحيات الهندية أن تتكلم النساء باللغة البراكريتية ، على أساس أنه لا يليق بسيدة أن تلمّ بلغة ميتة .

ونرى فى الفصل السادس « ڤاسانتا » وهى تغادر بيت « شارو » فى الصباح التالى ، وبدل أن تدخل العربة التى أعدها لها ، أخطأت فدخلت عربة يملكها « سامزثاناكا » الشرير ؛ وفى الفصل السابع حبكة فرعية ليست بذات أثر كبير على موضوع المسرحية ؛ ونرى « ڤاسانتا » فى الفصل الثامن ملقاة — لا فى قصرها كما توقعت — بل فى بيت عدوها ، بل توشك أن تكون فى أحضان ذلك العدو ؛ فلما عاودته بازدراء حبه إياها ، خنقها ودفنها ، ثم ذهب إلى المحكمة واتهم شارو بقتل « ڤاسانتا » بغية الحصول على أحجارها الكريمة .

وفى الفصل التاسع وصف للمحاكمة ، حيث يخون « مايتريا » سيده خيانة غير مقصودة ، وذلك بأن أسقط من جيبه جواهر « ڤاسانتا » ، فحكم على « شارو » بالموت ؛ ونراه فى الفصل العاشر فى طريقه إلى حيث ينفذ فيه الإعدام ، ويلتمس ابنه من الجلادين أن يضعوه مكان أبيه ، لكنهم يرفضون ؛ ثم تظهر « ڤاسانتا » فى اللحظة الأخيرة ، فقد شاهد « شارڤيلاكا » «سامزثاناكا» وهو يدفنها ، فأسرع إلى إخراج جسدها قبل فوات الأوان ، أعادها إلى الحياة ؛ وانقلب الوضع ، فقد أنقذت « ڤاسانتا » « شارو » من الموت ، واتهم « شارڤيلاكا » أخا الملك بتهمة القتل ، لكن « شارو » أبى أن يؤيد الاتهام ، فأطلق سراح « سامزثاناكا » وعاش الجميع عيشاً سعيداً(٥٠) .

لما كان الوقت فى الشرق ، حيث يكاد العمل كله يتم أداؤه بأيد بشرية ، أوسع منه فى الغرب ، حيث وسائل توفير الوقت كثيرة جداً كانت المسرحيات الهندية ضعف المسرحيات الأوروبية فى عصرنا هذا ؛ فيتراوح عدد الفصول من خمسة إلى عشرة ، وكل فصل منها ينقسم فى غير إزعاج للنظارة إلى مناظر بحيث يكون أساس الانقسام خروج شخصية ودخول أخرى ، وليس فى المسرحية الهندية وحدة للمكان ووحدة للزمان ، وليس فيها ما يحد سرحات الخيال ، والمناظر على المسرح قليلة ، لكن الثياب زاهية الألوان ، وأحيانا

يدخلون على المسرح حيوانات حية فتزيد من حركة المسرحية نشاطاً[٥١] وتبثُّ روحاً فيما هو صناعى بما هو طبيعى فترة من الزمن ، ويبدأ التمثيل بمقدمة يناقش فيها أحد الممثلين أو مدير المسرح موضوع الرواية ، والظاهر أن « جيته » أخذ عن « كاليداسا » فكرة المقدمة لرواية « فاوست » ، ثم تختم المقدمة بتقديم أول شخصية من الممثلين ، فيأتى هذا ويخوض فى قلب الموضوع والمصادفات لا عدد لها ، وكثيراً ما ترسم العوامل الخارقة للطبيعة خط السير للحوادث ؛ ولا تخلو مسرحية من قصة غرامية ؛ كما لابد لها من «مضحك » ؛ وليس فى الأدب المسرحى الهندى مأساة ، إذ لا مندوحة لهم عن اختتام الحوادث بخاتمة سعيدة ؛ وحتمٌ فى المسرحية أن ينتصر الحب الوفى دائماً ، وأن تكافأ الفضيلة دائماً ، وأقل ما يدعوهم إلى فعل ذلك أن يجىء بمثابة الموازنة مع الواقع ؛ وتخلو المسرحية الهندية من المناقشات الفلسفية التى كثيراً جداً ما تعترض مجرى الشعر الهندى ، فالمسرحية مثل الحياة ، لابد أن تُعلِّم بالفعل وحده ، وألا تلجأ أبداً فى ذلك إلى مجرد الكلام(*) ، ويتعاقب فى سياق المسرحية الشعر الغنائى والنثر ، حسب جلال الموضوع والشخصية والعمل ؛ والسنسكريتية هى لغة الحديث لأفراد الطبقات العالية فى الرواية ، والبراكريتية هى لغة النساء والطبقات الدنيا ؛ والفقرات الوصفية فى تلك المسرحيات بارعة ، وأما تصوير الشخصيات فضعيف ؛ والممثلون — وفيهم نساء — يجيدون أداء التمثيل ، فلا هم يتسرعون كما هى الحال فى الغرب ، ولا هم يسرفون فى البطء كما يفعل أهل الشرق الأقصى ؛ وتنتهى الرواية بخاتمة يتوجّه فيها بالدعاء إلى الإله المحبب عند المؤلف أو عند أهل الإقليم المحلى ، ليهيىء أسباب السعادة للبلاد .

(*) يقول الناقد المسرحى الهندى العظيم «دانانيجايا» (حوالى ١٠٠٠ ميلادية) وتحيتنا إلى الرجل الساذج ذى الذكاء المحدود الذى يقول إن المسرحيات — التى تبعث الغبطة فى النفوس — فائدتها الوحيدة هى اكتساب المعرفة ؛ لأنه بهذا القول قد أشاح بوجهه عما يبعث البهجة فى النفس »[٥٢].

وأشهر المسرحيات الهندية هي « شاكونتالا » لـ « كاليداسا » لم يزاحمها في ذلك مزاحم منذ ترجمها « سروليم جونز » وامتدحها « جيته » ؛ ومع ذلك فكل ما نعرفه لكاليداسا ثلاث مسرحيات ، مضافاً إليها الأساطير التي أدارتها حول اسمه ذاكرات المعجبين ، والظاهر أن قد كان أحد « الجواهر التسع » — من الشعراء والفنانين والفلاسفة — الذين قرّبهم الملك « ڤكراماديتيا » إليه (٣٨٠ — ٤١٣ ميلادية) في عاصمة چوپتا ، وهي « يوچين » .

تقع « شاكونتالا » في سبعة فصول ، بعضها نثر ، وبعضها شعر ينبض بالحياة ، فبعد مقدمة يدعو فيها مدير المسرح النظارة أن يتأملوا روائع الطبيعة ، تبدأ الرواية بمنظر طريق في غابة ، حيث يقيم راهب مع ابنة تبنّاها ، تسمى « شاكونتالا » وما هو إلا أن يضطرب سكون المكان بصوت عربة حربية ، يخرج منها راكبها وهو الملك « دشيانتا » فيُغرمُ « بشاكونتالا » في سرعة نعهدها في خيال الأدباء ، ويتزوج منها في الفصل الأول ، لكنه يُستدعى فجأة للعودة إلى عاصمته ؛ فيتركها واعداً إياها أن يعود إليها في أقرب فرصة ممكنة كما هو مألوف في مثل هذا الموقف ؛ وينبئ رجل زاهد فتاتنا الحزينة بأن الملك سيظل يذكرها ما دامت محتفظة بالخاتم الذي أعطاه لها ، لكنها تفقد الخاتم وهي تستحم ؛ ولما كانت على وشك أن تكون أماً ، فقد ارتحلت إلى قصر الملك ، لتعلم هناك أن الملك قد نسيها على غرار ما هو معهود في الرجال الذين نسخو معهم النساء ، وتحاول أن تذكّره بنفسها .

— شاكونتالا : ألا تذكر في عريشة الياسمين

ذات يوم حين صَبَبْتُ ماء المطر

الذي تجمع في كأس زهرة اللوتس

في تجويفة راحتك ؟

— الملك : امضي في قصتك إني أسمع .

ـــ شاكونتالا : وعندئذ فى تلك اللحظة عينها ، جاء نحونا يعدو طفلى الذى تبنَّيْتَه ، أعنى الغزال الصغير ، جاء بعينيه الطويلتين الناعستين ؛ فقبل أن تطفئ ظمأك .

مددت يدك بالماء لذلك المخلوق الصغير ، قائلا

« اشرب أنت أولا أيها الغزال الوديع »

لكن الغزال لم يشرب من أيد لم يألفها

وأسرعتُ أنا فمددت إليه ماء فى راحتى فشرب

فى ثقة لا يشوبها فزع ، فقلت أنت مبتسما :

« إن كل مخلوق يثق فى بنى جنسه

كلاكما وليد غابة حوشية واحدة

وكلاكما يثق فى زميله ، يعرف أين يجد أمانه »

ـــ الملك : ما أحلاك وما ألطفك وما أكذبك ! أمثال هؤلاء النساء يخدعن الحمقى . . .

إنك لتلحظ دهاء الإناث

فى شتى أنواع المخلوقات ، لكنها فى النساء أكثر منها فى غيرهن

إن أنثى الوقوق تترك بيضها للأقدام تفقسها لها

وتطير هى آمنة ظافرة(٥٢)

هكذا لقيت « شاكونتالا » الهون ، وتحطم رجاؤها ، فرفعتها معجزة إلى أجواز الفضاء حيث طارت إلى غابة أخرى فولدت هناك طفلها ، وهو « بهاراتا » العظيم الذى كُتِب على أبنائه من بعده أن يخوضوا معارك « الماهابهاراتا » وفى ذلك الحين ، وجد سمَّاكٌ خاتمها المفقود ، ورأى عليه اسم الملك ، فأحضره إلى « دشيانْتا » (الملك) ، وعندئذ عادت إليه ذاكرته « بشاكونتالا » ، وأخذ يبحث عنها فى كل مكان ، وطار بطائرة فوق قمم الهملايا ، وهبط بتوفيق من

السماء عجيب على الصومعة التى كانت « شاكونتالا » تلوى فى جوفها ، ورأى الصبى « بهاراتا » يلعب أمام الكوخ ، فحسد والديه قائلا :

« آه ، ما أسعده من أب وما أسعدها من أم
يحملان وليدهما ، فيصيبهما القذر
من جسده المعفّر ، إنه يكنْ آمناً مطمئنا
فى حِجْرِهما ، وهو الملاذ الذى يرنو إليه —
إن براعم أسنانه البيضاء تتبدى صغيرة
حين يفتح فمه باسماً لغير ما سبب ؛
وهو يلغو بأصوات حلوة لم تتشكل بعد كلاماً . . .
لكنها تذيب الفؤاد أكثر مما تذيبه الألفاظ كائنة ما كانت »(٥٤)

وتخرج « شاكونتالا » من كوخها ، فليتمس الملك عفوها ، وتعفو عنه ، فيتخذها ملكة له ، وتنتهى المسرحية بدعاء غريب لكنه يمثل النمط الهندى المألوف :

« ألا فليعش الملوك لسعادة رعاياهم دون سواها ،
اللهم أكرم « سارسفاتى » المقدسة — منبع
الكلام وإلاهة الفن المسرحى ،
أكرمها دوماً بما هو عظيم وحكيم !
اللهم يا إلهنا الأرجوانىّ الموجود بذاتك
يا من يملأ المكان كله بنشاط حيويته ،
أنقذ روحى من عودة مقبلة إلى جسد ! »(٥٥)

لم تتدهور المسرحية بعد « كاليداسا » لكنها لم تستطع بعدئذ أن تنتج رواية فى قوة « شاكونتالا » أو « عربة الطين » ؛ فقد كتب الملك « هارشا » ثلاث مسرحيات شغلت المسرح قروناً — ذلك لو أخذنا رواية تقليدية ربما

أوحى بها فى أول أمرها إيحاء ؛ وبعده بمائة عام ، كتب « بهافابهوتى » — وهو برهمىٌ من برار — ثلاث مسرحيات غرامية ، لا يفوقها جودة إلا مسرحيات « كاليداسا » فى تاريخ المسرح الهندى ؛ وكان أسلوبه — رغم ذلك — مزخرفاً غامضاً ، فكان لزاماً عليه أن يقنع بنظارة محدودة العدد ، وبالطبع قد ادعى أن تلك النظارة القليلة ترضيه ؛ وقد كتب يقول :

« ألا ما أقل ما يدريه أولئك الذين يقرعوننا باللوم ؛ إن مسرحياتى لم تكتب لتسليتهم ، فليس بعيداً أن يكون بين الناس شخص ، أو ربما يوجد شخص فى مقبل الأيام ، له ذوق شبيه بذوقى ، لأن الزمان مديد والعالم فسيح الأرجاء »(٥٦)

يستحيل علينا أن نضع الأدب المسرحى فى الهند ، فى منزلة واحدة مع مثيله فى اليونان أو فى إنجلترا أيام اليصابات ؛ لكنه يقارن مع المسرح فى الصين أو اليابان فيكون له التفوق ؛ كلا ولا يجوز لنا أن نبحث فى أدب الهند عما يطبع المسرح الحديث من ألوان الفن الدقيق ، فهذه الألوان عرض من أعراض الزمن ، أكثر منها حقيقة أبدية ، وربما زالت ، بل ربما تحولت إلى ضدها ؛ إن الكائنات الخوارق للطبيعة ، فى المسرحية الهندية غريبة على أذواقنا ، مثل « القدر » فى أدب « يوريبيديز » المتنور ؛ لكن هذا الجانب أيضاً عرض من أعراض التاريخ ؛ أما أوجه الضعف فى المسرحية الهندية (إذا جاز لأجنبى أن يذكرها فى تردد) فهى التكلف فى الصيغة اللفظية التى يشوّهها تكرار الحرف الواحد ليمثل الصوت المعبَّر عنه وتفسدها الألاعيب اللفظية ، وتصوير الأشخاص بلون واحد للشخص الواحد ، فإما أن يكون الشخص خيراً صرفاً ، أو أن يكون شراً صرفاً ، وحبكةُ الحوادث حبكةً لا يقبلها العقل ، مستندة إلى مصادفات لا يمكن تصديقها ؛ وإسرافٌ فى الوصف وفى النّقاش حول الفعل الذى يكاد يكون بحكم التعريف الوسيلة الفريدة التى تتميز بها المسرحية فى نقل ما تريد أن تنقله ؛ وأما حسنات المسرحية الهندية فما فيها من خيال

بديع ، وعاطفة رقيقة ، وشعر مرهف ، ونداء عاطفى لما فى الطبيعة من ألوان الجمال والفزع ، إنه لاسبيل إلى النزاع حول صور الفن القومية ، ذلك لأننا لا نستطيع أن نحكم عليها إلا من وجهة نظرنا بما لها من لون خاص ، ثم لانستطيع أن نراها غالباً إلا خلال منظار الترجمة ؛ ويكفينا أن نقول إن « جيته » وهو أقدر الأوربيين على التسامى فوق حدود الإقليم وحواجز القومية ، قد عَدّ قراءة « شاكونتالا » بين ما صادفه فى حياته من عميق التجارب ، وكتب عنها معترفاً بفضلها :

« أتريدنى أن أجمع لك فى اسم واحد زهرات العالم وهو فى ربيعه ناشىء ، وثماره وهو فى خريفه ينحدر إلى فناء

وأن أجمع كل ما عساه أن يسحر الروح ويهزها ويغذوها ويطعمها بل أن أجمع الأرض والسماء نفسيهما فى اسم واحد ؟

إذن لذكرت اسمك يا « شاكونتالا » وبذكره أذكر كل شىء دفعة واحدة »(٥٧) .

الفصل الخامس

النثر والشعر

اتجاهها فى الهند – الحكايات الخرافية – التاريخ – الحكايات – صغار الشعراء – نهضة الأدب باللغة الدارجة فى الحديث – شاندى داس – تولسى داس – شعراء الجنوب – كابر

النثر ظاهرة مستحدثة فى الأدب الهندى إلى حد كبير ، ويمكن اعتباره ضرباً من الفساد جاءه من الخارج بفعل الاتصال مع الأوروبيين ؛ فروح الهندى الشاعرة بطبعها ترى أنه لا بد لكل شىء جدير بالكتابة عنه أن يكون شعرىَّ المضمون ، يستثير فى الكاتب رغبة فى أن يخلع عليه صورة شعرية ؛ فما دام الهندى قد أحسَّ بأن الأدب تنبغى قراءته بصوت مرتفع ، وأدرك أن نتاجه الأدبى سينتشر فى الناس ويدوم بقاؤه – ذلك إن انتشر ودام – بالرواية الشفوية لا بالكتابة فقد آثر أن يصبَّ إنشاءه فى قالب موزون أو مضغوط فى صورة الحكمة ، بحيث تسهل تلاوته ويسهل حفظه فى الذاكرة ؛ ولهذا كان أدب الهند كله تقريباً أدباً منظوماً ؛ فالبحوث العلمية والطبية والقانونية والفنية أغلبها مكتوب بالوزن أو بالقافية أو بكليهما ، حتى قواعد النحو ومعانى القاموس قد صيغت فى قالب الشعر ، والحكايات الخرافية والتاريخ ، وهما فى الغرب يكتفيان بالنثر ، تراهما فى الهند قد اتخذا قالبا شعرياً مُنَغَّماً .

الأدب الهندى خصيب بالحكايات الخرافية بصفة خاصة ؛ والأرجح أن تكون الهند مصدراً لمعظم الحكايات الخرافية التى عبرت الحدود بين أقطار العالم كأنها عملة دولية(*) فالبوذية لقيت أوسع انتشارٍ لها حين كانت أساطير

(*) يقول « سير وليم چونز » إن الهنود ينسبون لأنفسهم ثلاثة ابتكارات : الشطرنج ، والنظام العشرى ، والتعليم بالحكايات الخرافية .

« جاتاكا » عن مولد بوذا ونشأته شائعة فى الناس ؛ وأشهر كتاب فى الهند هو المعروف باسم « پان كاتانترا » أى « العنوانات الخمسة » (حوالى ٥٠٠ ميلادية) وهو مصدر كثير من الحكايات الخرافية التى أمتعت أوروبا كما أمتعت آسيا ؛ وكتاب « هيتوپاديشا » أو « النصيحة الطيبة » فيه مختارات ومقتبسات من الحكايات الموجودة فى « پان كاتانترا » ، والعجيب أن كلا الكتابين ينزلان عند الهنود — إذا ما صنّفوا كتبهم — فى قسم « نيتى شاسترا » ومعناها إرشادات فى السياسة والأخلاق ، فكل حكاية تروى لكى تبرز عبرة خلقية ، ومبدأ من مبادئ السلوك أو الحُكْم ، وفى معظم الحالات يقال فى هذه القصص إنها من إنشاء برهمى ابتكرها ليعلّم بها أبناء ملك من الملوك ، وكثيراً ما تستخدم هذه الحكاياتُ أحطّ الحيوانات للتعبير عن ألطف معانى الفلسفة ؛ فحكاية القرد الذى حاول أن يدفئ نفسه بيراعة (وهى حشرة تضيء بالليل) وقتل الطائر الذى بَصَّرَه بخطئه فى ذلك ، تصويرٌ بديع دقيق لما يصيب العالِم الذى يتصدى لإرشاد الناس إلى مواضع الخطأ فى عقائدهم(*) .

ولم تنجح كتابة التاريخ هناك فى أن ترتفع عن مستوى سرد الحقائق عارية ، أو مستوى الخيال المزخرف ، ويجوز أن يكون الهنود قد أهملوا العناية بكتابة التاريخ بحيث ينافسون بها هيرودوت ، أو ثيوسيديد ، أو فلوطرخس ، أو تاسِيتَس أو جِيبُنْ ، أو ڤولتير ، إما لازدرائهم لحوادث المكان والزمان المتغيرة (وهو ما يسمونه مايا) وإما لإيثارهم النقل بالرواية الشفوية على المدوّنات المكتوبة ، فالتفصيلات الخاصة بتحديد الزمان أو المكان قليلة

(*) هنالك حرب حامية ناشبة فى ميدان البحث العلمى فى شئون الشرق ، فيما إذا كانت هذه الحكايات الخرافية قد جاءت إلى أوروبا من الهند ، أو العكس ؛ وإنا نترك هذا النزاع إلى أصحاب الفراغ ، ولعلها انتقلت إلى الهند وأوروبا كليهما من مصر عن طريق بلاد ما بين النهرين (العراق) وإقريطش (كريت) ؛ وعلى كل حال فتأثير كتاب « بان كاتانترا » على « ألف ليلة وليلة » لا ينازعه منازع(٥٨)

جداً فى وثائقهم ، حتى فى حالة الكتابة عن رجالهم المشهورين ، لدرجة أن علماء الهنود قد تفاوتوا فى تحديد تاريخ أعظم شعرائهم «كاليداسا» تفاوتاً تراوح بين فترة طولها ألف عام(٥٩) ؛ إن الهنود يعيشون — وما زالوا كذلك إلى يومنا هذا — فى عالم لا يكاد يتغير فيه شىء من عادات وأخلاق وعقائد ، حتى ليوشك الهندىّ ألا يفكر قط فى تقدم ، ويستحيل عليه أن يعنى بالآثار القديمة ؛ فقد كانت تكفيه الملاحم تاريخاً صحيح الرواية ، كما تكفيه الأساطير فى تراجم الأسلاف ؛ فلما كتب «أشفاغوشا» كتابه عن حياة بوذا (بوذا — شارتا) كان أقرب إلى الأساطير منه إلى التاريخ ، وكذلك لما كتب «بانا» بعد ذلك بخمسمائة عام كتابه عن حياة «هارشا» (هارشا — شارتا) كان أقرب إلى رسم صورة مثالية للملك العظيم منه إلى تقديم صورة يعتمد على صدقها؛ وتواريخ «راچپوتانا» القومية ليست فيما يظهر إلا تمرينات فى الوطنية ، والظاهر أنه لم يكن بين الهنود إلا كاتب واحد هو الذى أدرك عمل المؤرخ بمعناه الصحيح ؛ وهو «كالهانا» مؤلف كتاب «راچات آرانجينى» ومعناه «تيار الملوك» ، ولقد عبر عن نفسه بقوله : «ليس جديراً بالاحترام إلا الشاعر الشريف العقل الذى يجعل الكلمة منه كحكم القاضى — خالية من الحب والكراهية فى تسجيل الماضى» ويسميه «ونترنيتز» : «المؤرخ العظيم الوحيد الذى أنتجته الهند»(٦٠) .

أما المسلمون فقد كانوا أدق شعوراً بكتابة التاريخ ، وخلّفوا لنا مدوّنات نثرية تدعو إلى الإعجاب لما صنعوه فى الهند ، وقد أسلفنا ذكر «البيرونى» ودراسته البشرية وذكْر «مذكرات» «بابور» ، وكان يعاصر «أكبر» مؤرخ ممتاز هو «محمد قاسم فرِشْتا» وكتابه «تاريخ الهند» هو أصح دليل تستدل به على حوادث الفترة الإسلامية ؛ وأقل منه حياداً «أبو الفضل» كبير وزراء «أكبر» أو الرجل الذى كان يؤدى كل شئون السياسة فى البلاد ؛ وقد خلّف

لأجيال المستقبل وصفاً لأساليب مولاه فى إدارة البلاد ، وذلك فى كتابه « عين أكبر » أو « مؤسسات أكبر الاجتماعية » وروى لنا حياة مولاه رواية تدل على حبه له حبا تغفره له ، وأطلق على كتابه هذا اسم « أكبر ناما » وقد ردّ له الإمبراطور حبّه هذا حباً مثله ، ولما جاءت الأخبار بأن « جهان كير » قد قتل الوزير ، أخذ « أكبرَ » حزنٌ عميق وصاح قائلا :

« إذا أراد سالم (جهان كير) أن يكون حاكماً ، فقد كان يجوز له أن يقتلنى ويُبْقى على أبى الفضل »(٦١) .

وبين الحكايات الخرافية والتاريخ تقع مجموعة كبيرة فى منتصف الطريق من حكايات شعرية جمعها ناظمون دءوبون ، وأرادوا بها أن تكون متاعاً للروح الهندية المحبة للخيال ؛ ففى القرن الأول الميلادى ، نظم ناظم يدعى « جناذيا » مائة ألف زوج من الشعر أطلق عليها « برهانكاذا » أى « مسرح الخيال العظيم » ثم أنشأ «سوماديفا» بعد ذلك بألف عام «كاذا سارتزا جارا » أى « المحيط الجامع لأنهار القصص » ، وهى قصيدة تتدفق حتى يبلغ طولها ٢١,٥٠٠ زوج من الشعر ؛ وفى هذا القرن الحادى عشر نفسه ظهر قصّاص بارع مجهول الاسم ، وابتكر هيكلا يبنى على أعواده قصيدته « فتالا پانكا فنكاتيكا » ومعناها « القصص الخمس والعشرون عن الخفاش الجارح » ، وذلك بأن صور الملك « فكرا مادتيا » يتلقى كل عام ثمرة من أحد الزاهدين فى جوفها حجر نفيس ، ويسأل الملك كيف يمكنه أن يعبّر عن عرفانه بالجميل فيُطلب إليه أن يحضر « لليوجىّ » (الزاهد) جثة رجل يتدلى من المشنقة ، مع إنذاره بألا يتكلم إذا ما توجهت إليه الجثة بالخطاب ؛ لكن الجثة كان يسكنها خفاشٌ جارح أخذ يقص على الملك قصة ذهبت بلبّ الملك فلم يشعر بنفسه وهو يتعثر فى طريقه . وفى نهاية القصة توجه الخفاش بسؤال ، فأجابه الملك ناسياً ما أنذر به من التزام الصمت ؛ وحاول الملك خمساً وعشرين مرة أن يحضر الجثة للزاهد مع التزامه

الصمت إزاء ما يصدر له منها من حديث ، ومن هذه المرات أربع وعشرون مرة كان الملك فيها مأخوذاً بالقصة التي يرويها له الخفاش الجارح حتى ليسهو ويجيب عن السؤال الذي يوجّه إليه في الختام[٦٢] ؛ فيالها من مشنقة بارعة أنزل منها الكاتب أكثر من عشرين قصة .

لكنا في الوقت نفسه لا نقول إن الهند قد عَدِمتْ الشعراء الذين يفرضون الشعر بمعنى الكلمة كما نفهمه نحن ؛ فأبو الفضل يصف لنا « آلاف الشعراء » في بلاط « أكبر » ؛ وكان منهم مئات في صغرى العواصم ، ولا شك أن كل بيت كان يحتوى منهم على عشرات(*) . ومن أقدم الشعراء وأعظمهم « بهارتربهارى » وهو راهب ونحويٌّ وعاشق ، غذّى نفسه بألوان الغزل قبل أن يرتمي في أحضان الدين ، ولقد خلّف لنا مُدَوَّناً بها من كتابه المسمى « قرن من الحب » — وهو سلسلة من مائة قصيدة تتتابع على نحو ما تتتابع القصائد عند « هينى » ، ومما كتبه لإحدى معشوقاته : « ظنَنَّا معاً قبل اليوم أنك كنتِ إياى ، وكنتُ أنا إياكِ ؛ فكيف حدث الآن أن أصبحتِ أنتِ هو أنتِ ، وأنا هو أنا ؟ » ؛ ولم يكن يأبه لرجال النقد قائلا لهم : « إنه من العسير أن تُقْنِع خبيراً ، لكن « الخالق نفسه » لا يستطيع أن يُرى رجلا ليس له من المعرفة إلا نزر يسير »[٦٣] ؛ وفي كتاب « جيتا — جوفندا » لصاحبه « چاياديفا » ، — وعنوان الكتاب معناه « أنشودة قطيع البقر المقدس » — يتحول غَزَل الهنديّ إلى دين ، ويصبغ ذلك الغزل بصبغته الحب الجسدى

(*) في ذلك الحين اتجه الشعر إلى أن يكون أقل موضوعية منه في أيام الملاحم ، وازداد إقبالا على المزاوجة في نسيجه بين الدين والحب ؛ والوزن الذى كان مطلقاً في الملاحم ، يختلف في طول البيت الواحد ، ولا يتطلب اطراداً في المقاطع الأربعة أو الخمسة الأخيرة من البيت ، قد أصبح الآن أدق التزاماً للقاعدة أو أكثر تنوعاً في آن واحد ؛ ودخلت آلاف القواعد المعقدة في العروض ، التي تختفي في الترجمة : وكثرت أساليب الصناعة في صياغة العبارة وفي ألفاظها ، وظهرت القافية ، لا في نهاية البيت فحسب ، بل كثيراً ما التزموها في أواسط الأبيات كذلك ؛ وسنت قواعد صارمة لفن الشعر وازدادت الصورة دقة كلما هزل المعنى .

لـ « راذا » و « كرِشْنا » وهى قصيدة مليئة بالعاطفة الحية الجسدية ، لكن الهند تؤوّلها تأويلا مدفوعة فيه بالشعور الدينى : إذ تفسرها بأنها قصيدة صوفية رمزية تعبر عن عشق الروح لله – وهو تأويل يفهمه أولئك القديسون الذين لا يهتزون للعواطف البشرية ، والذين أنشأوا من عندهم مثل هـذه العنوانات التقية لـ « نشيد الأنشاد » .

وفى القرن الحادى عشر تسللت لهجات الحديث حتى احتلّتْ مكانها بدل اللغة الميتة ، لتكون أداة التعبير الأدبى ، كما فعلت فى أوروبا بعد ذلك بقرن ؛ وأول شاعر عظيم استخدم اللغة الحية التى يتحدث بها الناس فى نظمه هو « شاند بارْداى » الذى نظم باللغة الهندية (الجارية فى الحديث) قصيدة تاريخية طويلة تتألف من ستين جزءاً ، ولم يمنعه من متابعة عمله هذا إلا نداء الموت ، ونظم « سورداس » شاعر « أجرا » الضرير ، ٦٠٠٠٠ بيت من الشعر فى حياة « كرِشْنا » ومغامراته ، ولقد قيل إن هذا الإله نفسه قد عاونه على نظمها ؛ بل أصبح له كاتباً يكتب ما يمليه عليه الشاعر ، لكنه كان أسرع فى كتابته من الشاعر فى إملائه(٦٤) ، وفى ذلك الوقت حينه كان « شاندى داس » – وهو كاهن فقير – يهز البنغال هزاً بما ينشد لها من أغانٍ شبيهة بما أنشده دانتى ؛ يخاطب بها معشوقة ريفيـة على نحو ما خاطب دانتى فتاته « بياتْرِسْ » ، يصورها تصويراً مثالياً بعاطفة خيالية ، ويعلو بها حتى يجعلها رمزاً للألوهية . ويجعل حبه تمثيلا لرغبته فى الاندماج فى الله ؛ وهو فى الوقت نفسه كان الشاعر الذى شق الطريق لأول مرة للغة البنغالية فكانت بعدئذ أداة التعبير الأدبى « لقد لذت بمأمن عند قدميك يا حبيبتى ، وإذا لم أرك ، ظل عقلى فى قلق ... وليس فى وسعى نسيان رشاقتك وفتنتك – ومع ذلك ليس فى نفسى شهوة إليك » ؛ ولقد حكم عليه زملاؤه البراهمة بالطرد من طائفـة الكهنوت على أساس أنه كان يجلب العار لعامة الناس . فقبِل أن ينكر حبه لـ « رامى » فى

احتفال علنى ؛ لكنه وهو يباشر الطقوس الخاصة بذلك الإنكار ، رأى « رامى » بين الحشد المجتمع ، فعاد إلى نقض إنكاره ذاك ، وسار نحوهما وركع أمامها مُشَبِّكَ اليدين إعجاباً (٦٤) .

وأنبغ شعراء الأدب المكتوب باللهجة الهندية (المتداولة فى الحديث) هو « تُولْسى » الذى يوشك أن يكون معاصراً لشيكسبير ، وقد ألقاه أبواه فى العراء لأنه ولِدَ لهم تحت نجمة منحوسة ؛ فتبنّاه متصوف فى الغابة وعلمه أغانى « راما » الأسطورية ، وتزوج ، ومات ابنه ، فانسحب إلى الغابات حيث عاش عيش التوبة والتأمل ، وهناك وكذلك فى بنارس كتب ملحمته الدينية « راما شارِتا ــ ماناسا » ومعناها « بُحيرة من أعمال راما » أخذ فيها يقص قصة « راما » مرة أخرى ، وقدّمه للهند باعتباره الإله الأسمى الذى لا إله إلا هو ، يقول « تولْسى داس » : « ثمت إله واحد وهو راما خالق السماء والأرض ومخلص الإنسانية . . . ومن أجل عبّاده المخلصين ، جسَّد الله نفسه فى إنسان ، فبعد أن كان « راما » إلهاً صار مِلكاً من البشر ، ثم من أجل تطهيرنا عاش بيننا عيش رجل من عامة الناس »(٦٥) .

ولم يستطع إلا قليل من الأوروبيين قراءة ملحمته فى أصلها الهندى (المقصود هو الهندية التى كانت جارية فى الحديث) لأنه بات اليوم قديماً مهجوراً ، ولكن أحد هؤلاء القليلين الذين استطاعوا قراءة الأصل ، من رأيه أن تلك الملحمة تجعل « تولْسى داس » « أهم شخصية فى الأدب الهندى كله(٦٦) » ؛ وهذه القصيدة لأهل الهندستان بمثابة إنجيل شعبى فيه ما يرجع إليه الناس من لاهوت وأخلاق ؛ ويقول غاندى : « إننى أعد الـ « رامايانا » التى نظمها « تولْسى داس » أعظم كتاب فى الأدب الدينى كله(٦٧) » .

وكانت بلاد الدكن فى ذلك الوقت نفسه تنتج كذلك شعراً فنظم « توكارام »

باللغة الماهراتية ٤٦٠٠ نشيد ديني تراها متداولة على الألسن فى الهند اليوم تداول مزامير « داود » فى اليهودية أو المسيحية ؛ ولما ماتت زوجته الأولى تزوج ثانية من امرأة سليطة فأصبح فيلسوفاً ، وكتب يقول :

« ليس من العسير أن تظفر بالخلاص ، لأنك تجد الخلاص قريباً منك فى الحزمة التى تحملها على ظهرك »(٦٨) ؛ وفى القرن الثانى الميلادى أصبحت « مادورا » عاصمة الآداب « التامليّة » وأقيمت بها «سانجام» أى جمعية قوامها الشعراء والنقاد تحت رعاية ملوك « پانديا » فاستطاعت — مثل المجمع العلمى الفرنسى — أن تضبط تطور اللغة ، وأن تخلع الألقاب وتمنح الهدايا(٦٩) .

وأنشأ « تيروڤالاڤار » — وهو نساجٌ من المنبوذين — أثراً أدبياً أفكاره دينية وفلسفية ، أنشأه فى بحر من أعسر البحور « التامليّة » وأطلق عليه اسم « كورال » فضمنّه مثُلا عليا أخلاقية وسياسية ، ويؤكّد لنا الرواة أنه لما رأى أعضاء مجلس « سانجام » — وكلهم من البراهمة — مدى توفيق هذا المنبوذ فى قرض الشعر ، أغرقوا أنفسهم عن آخرهم(٧٠) ، لكننا لا نصدق هذه الرواية إن قيلت من أى مجمع علمى مهما يكن أمره .

وقد أرجأنا الحديث عن « كابر » — أعظم شاعر غنائى فى الهند الوسيطة ، أرجأناه لنختم به الحديث ، ولو أن مكانه الزمنى يأتى قبل ذلك ، « وكابر » نساجٌ ساذج من بنارس ، أعدّته الطبيعة للمهمة التى أراد القيام بها ، وهى توحيد الإسلام والهندوسية ، وذلك لأنه — كما يقال — من أب مسلم وأم من عذارى البراهمة(٧١) ؛ فلما أخذ عليه لُبّه « راماناند » الواعظ ، أخلص العبادة لـ « راما » ووسع من نطاق « راما » (كما كان تولسى داس ليفعل) حتى جعله إلهاً عالمياً ، وطفق يقرض شعراً بلغة الحديث الهندية ، بلغ الغاية فى الجمال ، ليشرح به عقيدة دينية لا يكون فيها معابد ، ولا مساجد ، ولا أوثان ،

ولا طبقات ، ولا ختان ، ثم لا يكون فيها من الآلهة إلا إله واحد(*) ، يقول عن نفسه إن كابر :

" ابن « رام » و « الله » ويقبل ما يقوله الشيوخ جميعاً ... يا إلهى ، سواء كنت « رام » أو « الله » (المقصود إله المسلمين) فأنا أحيا بقوة اسمك .... إن أوثان الآلهة كلها لا خير فيها ، إنها لا تنطق ، لست فى ذلك على شك ، لأنى ناديتها بصوت عال ... ماذا يجدى عليك أن تمضمض فاك ، أو أن تسبّح بمسبحتك ، أو أن تستحم فى مجارى الماء المقدسة ، وأن تركع فى المعابد ، إذا كنت تملأ قلبك بنية الخداع وأنت تتمتم بصلاتك ، أو تسير فى طريقك إلى أماكن الحج ؟ "(٧٢) .

جاء هذا القول منه صدمة قوية للبراهمة ، فلكى يدحضوه (هكذا تقول الرواية) أرسلوا إليه زانية تغويه ، لكنه حوّلها إلى عقيدته ، ولم يكن ذلك عسيراً عليه ، لأن عقيدته لم تكن مجموعة من قواعد جامدة ، بل كانت شعوراً دينياً عميقاً فحسب :

هنالك يا أخى عالم لا تحده الحدود
وهنالك « كائن » لا اسم له ، ولا يوصف بوصف ،
ولا يعلم عنه شيئاً إلا من استطاع أن يصل إلى سمائه ؛
وإنه لعلم يختلف عن كل ما يسمع وما يقال ؛
هنالك لا ترى صورة ، ولا جسداً ، ولا طولا ، ولا عرضاً
فكيف لى أن أنبئك مَن هو ؟
إن كابر يقول : « يستحيل أن نعبر عنه بألفاظ الشفاه ،
ويستحيل أن يكتب وصفه على الورق

(*) ترجم رابندرانات طاغور مائة نشيد من أناشيد كابر (طبعة نيويورك ١٩١٥) فبلغ بها ما نعهده فيه من كمال .

إن الأمر هنا كالأخرس الذى يذوق طعاماً حلواً ـ كيف يصف لك حلاوته ؟ »(٧٣) .

واعتنق «كابر» نظرية التناسخ التى ملأت الجو من حوله ، ولذلك أخذ يدعو الله ـ كما يفعل الهندوسى ـ ليخلصه من أغلال العودة إلى الولادة والعودة إلى الموت ، وكانت مبادئه الخلقية أبسط ما يمكن أن تصادف فى هذه الدنيا من مبادئ : عش عيشة العدل ، وابحث عن السعادة عند مرفقك

إنى ليضحكنى أن أسمع أن السمك فى الماء ظمآن

إنكم لا ترون « الحق » فى دياركم ، فتضربون من غابة إلى غابة هائمين على وجوهكم !

هاكم الحقيقة ! اذهبوا أين شئتم ، إلى بنارس أو إلى مأثوره

فإذا لم تجدوا أرواحكم ، فالعالم زائف فى أعينكم ...

إلى أى الشطئان أنت سابح يا قلبى ؟ ليس قبلك مسافر، كلا بل ليس أمامك طريق ...

ليس هنالك جسم ولا عقل ، فأين المكان الذى سيطفئ غلة روحك ؟

إنك لن تجد شيئاً فى الخلاء

تذرع بالقوة وادخل إلى باطن جسدك أنت ،

فقدمك هناك تكون على موطئ ثابت

فكر فى الأمر ملياً يا قلبى ! لا تغادر هذا الجسد إلى مكان آخر

إن «كابر» يقول : اطرد كل صنوف الخيال من نفسك ،

وثبّتْ قدميك فيما هو أنت(٧٤)

ويقول الرواة إنه بعد موته اعترك الهندوس والمسلمون على جسده ، وتنازعوا الرأى ، أيدفن ذلك الجسد أم يحرق ، وبينا هم فى تنازعهم ذاك ، رفع أحد الحاضرين الغطاء عن الجثة ، فإذا بهم لا يرون تحته إلا كومة من

من الزهر ، فأحرق الهندوس بعض ذلك الزهر فى بنارس ، ودهن المسلمون بقيته[٧٥]، وأخذت أناشيده تتناقلها الأفواه بين عامة الناس بعد موته ، ولقد أوحت تلك الأناشيد إلى « ناناك » — وهو من طبقة السيخ — فأنشأ مذهبه القوىّ ، ورفع آخرون « كابر » إلى مصاف الآلهة[٧٦] ؛ وإنك لتجد اليوم طائفتين صغيرتين متنافستين تتبعان مذهب هذا الشاعر وتعبد اسمه ؛ هذا الشاعر الذى حاول أن يوحد المسلمين والهندوس ؛ والطائفتان إحداهما من الهندوس والأخرى من المسلمين .

الباب الحادي والعشرون

الفن الهندي

الفصل الأول

الفنون الصغرى

الفن الهندي في عصره الزاهر — ميزاته الفذة — اتصاله بالصناعة — صناعة الخزف — المعادن — الخشب — العاج — الأحجار الكريمة — النسيج

إنا نقف إزاء الفن الهندي ، كما نقف إزاء كل جانب من جوانب المدنية الهندية ، وقفة الدهشة المتواضعة لما نرى من رسوخ في القِدم واستمرار بين المراحل المتعاقبة ؛ فليست كل الآثار التي وجدناها في « موهنجو — دارو » مما ينفع في الحياة العملية ، فبينها تماثيل من حجر الجير لرجال ذوي لحى (تشبه التماثيل السومرية شبهاً له دلالته) وتماثيل من الطين لنساء وحيوان ، وكذلك بينها خرزات وغيرها من أدوات الزينة المصنوعة من عقيق ، وحلىٌ من ذهب رقيق الصناعة مصقولها(١) ؛ وبين تلك الآثار أيضاً ختم(٢) نقش فيه بالبارز ثور ، رسم رسماً قوياً ثابت الحفْر ، على نحو يغري الرائي بالوثوب إلى نتيجة يؤمن بها ، وهي أن الفن لا يتقدم ، لكنه يغيّر صورته وكفى .

ومنذ ذلك الحين إلى يومنا هذا ، جعلت الهند خلال الخمسة الآلاف عام التي توسطت العهدين بما فيها من تغيرات ، جعلت تبرز مثلها الأعلى في الجمال كما تتصوره تصوراً يطبعها بميسم خاص ، في عشرات الفنون المختلفة ؛ لكن ما خلّفته لنا من تلك الفنون ، لا يقدم لنا صورة كاملة ، إذ ترى فيها جانباً

منقوصاً ، لا لأن الهند قد تراخت عن الإبداع الفنى فى أى عهد من عهودها ، بل لأن الحروب والنزوات المسلمين فى تحطيم الأوثان ، قد عملت على تحطيم ما ليس يقع تحت الحصر من آيات الفن فى العمارة والنحت ؛ ثم عمل الفقر على إهمال البقية الباقية من تلك الآيات ؛ وسنجد الأمر عسيراً علينا بادئ ذى بدء ، إذا ما أردنا أن نقدر هذا الفن ، فموسيقاهم غريبة على أسماعنا ، وسيبدو تصويرهم لأعيننا غامضاً ، وفنهم فى العمارة مضطرباً ، ونحتهم للتماثيل خشناً غليظاً ؛ فعلينا فى كل خطوة نخطوها أن نذكر أنفسنا بأن أذواقنا معرضة للخطأ فى أحكامها ، إذ هى نتيجة لتقاليدنا وبيئتنا المحلية المحدودة ؛ وإنا لنظلم أنفسنا ونظلم الأمم الأخرى ، إذا ما حكمنا عليهم أو على فنونهم بمعايير وغايات تتفق وطبيعة حياتنا ، لكنها غريبة بالقياس إلى الحياة عندهم .

فالفنان فى الهند لم يكن بعد قد تميز من الصانع ، إذا كان الفن صناعة والعمل اليدوى مهانة ؛ فكما كان الحال فى عصورنا الوسطى ، كذلك كانت فى الهند التى انقضى عهدها فى موقعة « پلاسى » ، وهى أن كل صانع مهر فى صناعته كان فناناً فى تلك الصناعة ، يخلع على نتاج مهارته وذوقه قالباً خاصاً وشخصية متميزة ؛ وحتى اليوم ، حيث حلّت المصانع محل الصناعات اليدوية ، وانحدر الصناع اليدويون إلى « أيد عاملة » ، لا تزال ترى فى المتاجر والدكاكين فى كل مدينة هندية ، صناعاً متربعين فى جلستهم على الأرض ، يطرقون المعادن أو يصوغون الحلى ، أو يرسمون الرسوم الزخرفية ، أو ينسجون الشيلان الدقيقة أو يوشّون الوشى الرقيق ، أو ينحتون فى العاج أو الخشب ، ومن الراجح ألا تكون بين الأمم كلها أمة أخرى كان لها ما للهند من تنوّع خصيب فى ألوان الفنون[٣] .

ومن العجيب أن صناعة الخزف لم تستطع أن ترتفع من مستوى الصناعة إلى مستوى الفنون فى الهند ؛ فقد فرضت قواعد الطبقات كثيراً من القيود على

إمكان استخدام الطبق الواحد عدة مرات(*) حتى لقد ضعف الحافز إلى تجميل هذه الآنية الفخارية الهزيلة المؤقتة، التي كانت يد الخزاف تسرع في إنتاجها(٤)؛ أما إن كان الإناء ليُصنع من معدن نفيس، عندئذ ينصرف إليه الفن بمجهوده بغير ندم على ذلك المجهود مهما بلغ، فانظر إلى الإناء الفضي الذي يُنْسَبُ إلى «تانجور» في معهد فكتوريا في مدراس، أو انظر إلى صفحة «بتيلْ» الذهبية التي تنسب إلى «كاندى»(٥)، أما النحاس الأصفر فقد صنعوا منه مجموعة منوعة لا تنتهي أصنافها من المصابيح والأوعية والأواني؛ وكانوا يحصلون على مزيج أسود من الزنك (يسمونه بدرى) ويستخدمونه عادة في صناعة الصناديق والأحواض و«الصواني»؛ كذلك كانوا يطعّمون معدناً بمعدن آخر، تطعيما بارزاً أو محفوراً، أو كانوا يطلون معدناً ما بطلاء من الفضة أو الذهب(٦).

وكان الخشب ينقش بحفر صور كثيرة جداً من النبات والحيوان، وأما العاج فيصوغونه ليمثل أي شيء بادئين بالآلهة فهابطين إلى زهرات اللعب، كما كانوا يطعّمون به الأبواب وغيرها من مصنوعات الخشب، ويصنعون منه آنية صغيرة لطيفة لحفظ الدهون والعطور؛ وكثرت عندهم أدوات الزينة يلبسها الأغنياء والفقراء إما للتزيين أو للادخار؛ وامتازت «جايبور» في طلي مسطحات الذهب بألوان الميناء، وعرف صائغوهم بحسن الذوق في صناعة المشابك والخرزات والعقود والمدى والأمشاط، فكانوا يزخرفونها بصور الأزهار أو الحيوان أو موضوعات الدين، فهنالك عقد برهمي نقشت في واسطته الصغيرة خمسون صورة من صور الآلهة(٧)، ونسجوا الأقمشة ببراعة فنية لم يبذهم فيها أحد من اللاحقين، فمنذ عهد قيصر إلى يومنا هذا، امتدح العالم كله دقة الصناعة في المنسوجات الهندية(**) فقد كانوا أحياناً يصبغون

(*) انظر القسم الرابع من الفصل الرابع من هذا الجزء.

(**) ربما كانت الهند أول بلد طبّع على المنسوجات زخارف بواسطة ضربها بقوالب كالأختام(٨)، ولو أن الهنود لم يطوّروا هذه الطريقة في بلادهم بحيث يستخدمونها في طباعة الكتب.

كل خيط من خيوط اللُّحمة أو السُّدى قبل وضعها فى المنسج ، فكان يقتضيهم ذلك مقاييس دقيقة متعبة قبل البدء فى العمل ؛ وكان الزخرف المرسوم يتبدّى شيئاً فشيئاً كلما مضى النسّاج فى نسجه ، بحيث يكون هذا الزخرف واحداً فى جانبى القماشة المنسوجة[٩] ، إن كل ثوب تم نسجه فى الهند – من « الخدّار » المنسوج من الغزل البلدى إلى الوشى المعقد الذى يتلألأ بالذهب ، ومن السراويل(*) الآخذة بالعين إلى الشيلان(**) الكشميرية التى تخاط أجزاؤها على نحو يخفى مواضع الحياكة – أقول إن كل ثوب نسجته الهند له جمال لا يصدر إلا عن فن بالغ فى القدم ، وكاد اليوم أن يكون غريزة فى فطرتهم .

(*) كلمة « بيچاما » الإفرنجية مأخوذة من كلمة تطابقها نطقاً فى الهندية معناها غطاء الساقين .

(**) تصنع هذه الشيلان الصوفية الدقيقة من قصاصات كثيرة ، يوصل بعضها ببعض فى مهارة حتى لتبدو قطعة واحدة من القماش[١٠] .

الفصل الثانى

الموسيق

حفلة موسيقية فى الهند – الموسيق والرقص – الموسيقيون – السلم والصور الموسيقية – الموضوعات – الموسيق والفلسفة

أتيح لسائح أمريكى أن يحضر حفلة موسيقية فى « مدراس » فوجد حشد السامعين يبلغ نحو مائتى هندوسى ، يظهر أن قد كانوا جميعاً من البراهمة ، يجلس بعضهم على مقاعد خشبية ، ويجلس بعضهم الآخر ، على الأرض المفروشة بالبُسُط ، وكانوا يسمعون فى إصغاء شديد لجوقة صغيرة لو قيست إليها حشود جوقاتنا لخيّل إليك أن جوقاتنا هذه المعربدة إنما أريد بها أن تُسْمع سكان القمر ، ولم تكن الآلات الموسيقية مألوفة لذلك السائح الأمريكى ، بحيث أشبهت فى عينيه التى تنظر إلى الأشياء من وجهة نظر إقليمية ، نباتاً غريباً شاذاً فى حديقة مهجورة ؛ فقد كان لديهم طبول كثيرة ذات أشكال وأحجام مختلفة ؛ ومزامير مزخرفة وأبواق ملتوية كأنها الثعابين ، ومجموعة منوّعة من ذوات الأوتار ؛ وكانت علامات الإتقان فى الصناعة بادية فى معظم تلك الآلات ، كما كان بعضها مرصعاً بالجواهر ؛ وكانت إحدى الطبول – وهى ما تسمى مريدانجا – شبيهة ببرميل صغير ، فى كل من طرفيها غشاء جلدى رقيق يمكن تغيير درجة صوته المبعوث بجذبه أو بإرخائه بواسطة مفاتيح صغيرة من الجلد ؛ وبين غشاوات الطبول غشاء أضافوا إليه شيئاً من مسحوق المنغنيز ومرق الأرز وعصير التمر الهندى لكى يحدث نغمة فذة غريبة فى نوعها ؛ ولم يستعمل الطبال إلا يديه . فأحياناً يخبط براحته ، وأحياناً بأصابعه ، وأحياناً ينقر بأطراف أنامله ؛ وكان عازف آخر يحمل « تمبورة » أو قيثارة لها أوتار أربعة طويلة جعلت تبعث نغماتها موصولة بغير انقطاع ، فكانت بمثابة البطانة

العميقة الهادئة لموضوع القطعة الموسيقية ؛ وبين الآلات آلة – اسمها ڤينا – كانت مرهفة الحساسية لدرجة تميزها من سواها فى ذلك ، كما كانت محددة الأصوات تحديداً واضحاً ؛ وكانت أوتارها مشدودة فوق عارضة رقيقة من المعدن ، فى إحدى طرفيها طبلة خشبية يغطيها غشاء من الجلد ، وفى طرفها الآخر قرعة جوفاء تردد الأصداء ؛ وكانت تلك الأوتار دائمة الذبذبة بواسطة مضرب فى يمين العازف ، بينما جعلت يسراه تغير فى النغمات بأصابع تتحرك فى براعة من وتر إلى وتر ؛ ولبث زائرانا ينصت فى خشوع ، ولم يفهم من كل ذلك شيئاً .

للموسيقى فى الهند تاريخ يمتد ثلاثة آلاف عام على أقل تقدير ؛ فالترانيم الڤيدية – مثلها مثل الشعر الهندى كله – إنما نظمت لتنشد ؛ ولم يكن فى الطقوس القديمة فرق بين الشعر والغناء ، والموسيقى والرقص ، فكل هذه عندها فن واحد ؛ وإن الرقص الهندى ليبدو لعين الغربىّ اللامعة بالشهوة ، شهوانياً فاجراً ، كما يبدو الرقص الغربىّ للهنود شهوانياً فاجراً ، كان هذا الرقص الهندى خلال الشطر الأعظم من التاريخ الهندى ، لوناً من ألوان العبادة ، وعرضاً لجمال الحركة والتوقيع تكريماً وإجلالا للآلهة ، ولم يحدث لراقصات المعبد أن يغادرن معابدهن زرافات ليمتعن أصحاب الدنيا وطلاّب الشهوة الجسدية إلا فى العصور الحديثة ، لم تكن هذه الراقصات للهندى مجرد عرض للجسد ، بل كانت فى وجه من وجوهها محاكاة للكون فى دوراته التوقيعية ومجرى التغير فى ظواهره ، وقد كان « شيڤا » نفسه إله الرقص ، ورقصة « شيڤا » كانت ترمز لحركة العالم نفسها(*) .

(*) لم يعرف الأوروبى والأمريكى رقصة الهند الدنيوية ، فى صورتها الأصيلة التى خلت من كل الشوائب الدخيلة ، والتى هى فن شانكارا ، الذى تدل فيه كل حركة جسدية وكل حركة باليدين والأصابع والأعين ، على معنى لطيف دقيق يفهمه المتفرج الموهوب ، كما تدل على رشاقة فى التثنى وعلى شعر جسدى محكم مما لا يعرفه الرقص الغربى ، مذ دعتنا الديموقراطية إلى العودة إلى أفريقيا المستمد منها الفنون .

وينتمي الموسيقيون والمنشدون والراقصون – كسائر أصحاب الفن في الهند – إلى أحط الطبقات ؛ فقد يحلو للبرهمي أن يغني في خلوته ، وأن يسرّي عن نفسه بنغمات يعزفها على « الڤينا » أو غيرها من ذوات الأوتار ؛ بل قد يعلّم غيره التمثيل أو الغناء أو الرقص ، لكنه يستحيل أن يفكر في التمثيل مأجوراً ، أو في النفخ في آلة موسيقية ، وكانت الحفلات الموسيقية العلنية – إلى عهد قريب – نادرة في الهند ، فكانت الموسيقى العلمانية إما غناء تلقائياً أو نشيداً جمعياً يقوم به الناس ، وإما عزفاً أمام جماعات صغيرة في بيوت العِلْيَة ، كما هي الحال فيما يعرف في أوربا بموسيقى الحجرات ؛ وكان لـ « أكبر » – الذي كان هو نفسه ماهراً في العزف الموسيقي – عدد كبير من الموسيقيين في بلاطه ، وأصاب أحد مغنّيه – واسمه تانْسن – شهرة وثروة ، ومات بالشراب وسنه أربعة وثلاثون عاماً(١١) ؛ ولم يكن ثمة هواة ، بل كان كل المشتغلين بالعزف محترفين لفنهم ، ولم تكن الموسيقى تُعلم على أنها لون من ألوان التهذيب الاجتماعي ، كلا ولا أرغم الأطفال على عزف بيتهوفن ، فمهمة الشعب لم تكن أن يعزف الناس عزفاً رديئاً ، بل أن يعرفوا كيف ينصتون إنصاتاً جيداً(١٢).

ذلك لأن الاستماع للموسيقى في الهند فن في ذاته ويتطلب تدريباً طويلا للأذن والروح ؛ وقد لا تكون الألفاظ نفسها مفهومة المعنى للغربيّ أكثر من ألفاظ المسرحيات الغنائية التي يشعر أن من واجبه التي تمليه عليه طبقته الاجتماعية ، أن يستمتع بها ؛ وهي تدور – كشأنها في سائر أنحاء العالم – حول موضوعي الدين والحب ؛ لكن الألفاظ قليلة الأهمية في الموسيقى الهندية ، وكثيراً ما يستبدل بها المنشد – كما يفعل الأديب عندنا في أرق ألوان الأدب – مقاطع لا تعني شيئاً ؛ والسلم الموسيقي عندهم ألطف مما هو عندنا وأدق ، إذ يضيف إلى سلمنا ذي الاثني عشرة نغمة ، عشر نغمات أخرى غاية في الدقة ، فبذلك يصبح سُلّمهم مؤلفاً من اثنين وعشرين « من أرباع النغمات » ؛ وعلى

الرغم من أن الموسيقى الهندية يمكن كتابتها بترقيم مأخوذ من الأحرف السنسكريتية إلا أن الأغلب ألا تكتب ولا تقرأ ، بل تنتقل من جيل الى جيل أو من المنشئ الموسيقى إلى من يأخذ عنه « بالأذن » وحدها ؛ وليست موسيقاهم مقسّمة الى أجزاء توقيعية تفصل الضربات بينها ، بل ترى النغم فيها ينساب انسياباً متصلا يؤذى أذن السامع الذى تعود سماع ضربات دورية فى الموسيقى ، وليس لموسيقاهم إيقاع ولا تناغم ، بل كل ما تعنى به هو النغم الواحد ، وربما جعلوا وراءه بطانة من نغمات صغيرة ، ولذا كانت فى هذه الناحية أبسط وأقل فى رقيها من الموسيقى الأوروبية ، ولو أنها أكثر منها تركيباً فى السلّم والدورات التوقيعية ؛ وأنغامها محدودة وغير محدودة فى آن واحد ، فهى من جهة مضطرة اضطراراً أن تستمد من هذا اللون أو ذاك فى معين تقليدى قوامه ستة وثلاثون لوناً ، لكن العازفين - فى الوقت نفسه - يستطيعون أن ينسجوا حول هذا الهيكل التقليدى نسيجاً لا نهاية لخيوطه ولا صلات تصل أجزاءه المنوعة تنوعاً شديداً ، وفى كل موضوع موسيقى - أو « راجا »(*) موسيقية كما يسمونه - خمس نغمات أو ست أو سبع ، يرجع الموسيقى إلى إحداها - يختارها ولا يغيرها - من حين إلى حين ؛ ولكل « راجا » اسم مشتق من الحالة النفسية التى تريد الإيحاء بها - « الفجر » ، « الربيع » ، « جمال المساء » ، « السُّكْر » الخ - وكل « راجا » مرتبطة بزمن معين من اليوم أو من العام ، وتذهب الأساطير الهندية إلى أن لهذه الراجات قوة روحانية ، حتى ليقال إن راقصة بنغالية أزالت قحطاً بغنائها إحدى الراجات وهى المسماة « منع مالار » - أى نغمة استنزال المطر (١٣) .

ولقد خلع الأسلاف على « الراجات » صبغة مقدسة فمن يعزفها وجب عليه أن يراعى حرماتها ، لأنها صور من الغناء أداها « شيفا » نفسه ، ويحكى أن

(*) إذا أردنا أن نكون أكثر دقة ، فهناك ست « راجات » أو موضوعات أساسية لكل منها خمس صور تسمى « راجينى » وكلمة « راجا » معناها لون وعاطفة وحالة نفسية ، وكلمة راجينى هى مؤنثها .

عازفاً اسمه « نارادا » أنشد تلك الراجات فى إهمال لشأنها ، فزجّ به « فشنو » فى نار الجحيم ، حيث شاهد رجالا ونساء يبكون على ما تكسّر من جوارحهم وقال له الإله إن هؤلاء الرجال والنساء هى الراجات والراجينات التى شوّهها ومزّقها عزفه المستهتر ، فلما شاهد « نارادا » ذلك — هكذا تروى الأسطورة — حاول أن يكون فى فنه أكثر إتقاناً ، إذ أخذته بعدئذ خشيةُ الخاشع (١٤) .

والعازف الهندى لا يلتزم « الراجا » التى اختارها لبرنامجه الموسيقى التزاماً يضيق من حريته تضييقاً خطيراً ، أكثر مما يلتزم المنشئ الموسيقى فى الغرب ، إذا ما أنشأنا « سوناتا » أو « سمفونية » ، موضوعَه الموسيقىَّ التزاماً يعرقله ؛ ففى كلتا الحالتين ، ما يفقده العازف من حرية ، يعوضه بما يتاح له من تماسك البناء واتزان الصورة ؛ فالموسيقى الهندى شبيه بالفيلسوف الهندى ، كلاهما يبدأ بالجزئى المحدود « ويرسل روحه إلى اللامحدود » ؛ إنه يظل يمعن فى وَشْى موضوعه وشياً دقيق الأجزاء ، حتى يتمكن فى نهاية الأمر ، بفعل تيار متموج من دورات التوقيع وتكرار النغمة ، بل بفعل اطراد الأنغام اطراداً رتيباً مملا ، أن يخلق نوعاً من « اليوجا » الموسيقية ، أعنى ضرباً من الذهول الذى يشل الإرادة ويطمس الفردية اللتين ننسبهما للمادة والمكان والزمان ، وبهذا ترتفع الروح إلى ما يوشك أن يكون اتحاداً صوفياً بشىء عميق الاتصال فى نفوسنا بجذوره أو قُلْ « بكائن » عميق عظيم ساكن ، أو بحقيقة سابقة لهذا العالم ومنبثة فى كل أجزائه ، تبتسم ساخرة من كافة الإرادات المكافحة ومن التغير والموت بشتى ما لها من صور .

والأرجح أننا لن نستسيغ الموسيقى الهندية ، ولن نفهمها ، إلا إذا استبدلنا بالكفاح كينونة ساكنة ، وبالترقى ثباتا ، وبالشهوة استسلاماً ، وبالحركة استقراراً ؛ وربما اصطنعنا لأنفسنا هذه الحالة إذا عادت أوروبا من جديد خاضعة ، وعادت آسيا مرة أخرى للسيادة ، لكن آسيا عندئذ ستمل السكينة والثبات والاستسلام والقرار .

الفصل الثالث

التصوير

ما قبل التاريخ – نقوش أجانتا – مصغرات راجپوت –
مدرسة المغول – المصورون – أصحاب النظريات

إننا نسمى الرجل إقليمياً ، إذا حكم على العالم على أساس الأنظمة السائدة فى الإقليم الذى يعيش فيه ، واعتبر كل ما لم يألفه من أوضاع ضرباً من الجاهلية فيقال عن الإمبراطور « جهان كير » وهو رجل ذواقة علاّمة فى الفنون — إنه حين أطْلِع على صورة أوروبية ، امتعض لها من فوره ، و « لم يستسغها لأنها مرسومة بالزيت »(١٥) ، وإنه ليسرنا أن نعلم أنه حتى الإمبراطور يجوز عليه أن يكون إقليمى النظرة ، وأنه كان من العسير على « جهان كير » أن يستمتع بالتصوير الزيتى الذى ترسمه أوروبا ، كما أنه من العسير علينا أن نتذوق دقائق التحف فى الهند :

ويتبين من الرسوم الحمراء التى نراها لبعض الحيوانات ولمطاردة وحيد القرن ، على جدران الكهوف فى سنجانپور » و « مرزاپور » أن قد كان للتصوير الهندى تاريخ طال أمده عدة آلاف من السنين ، وتكثر لوحات المصورين (التى يضعون عليها ألوانهم) بين آثار العهد الحجرى الجديد فى الهند ، مستعدة للاستعمال بما لايزال عليها من بقايا الألوان(١٦) ؛ وإننا نلحظ فجوات واسعة فى تسلسل تاريخ الفن فى الهند ، لأن معظم الآثار الفنية الأولى قد أتت عليها عوامل المناخ ، ثم فسد كثير مما تبقى بعد ذلك على أيد المسلمين « محطمى الأوثان » من محمود إلى أورنجزيب(١٧) ؛ ويشير الـ « ڤنايابتاكا » (حوالى ٣٠٠ قبل الميلاد) إلى قصر الملك « پازنادا » فيقول عنه إنه كان يحتوى على أبهاء للصور الفنية ؛ وكذلك يصف « فا — هين » و « يوان شوانج » أبنية

كثيرة فيقولان عنها بأنها اشتهرت بروعة ما عرض على جدرانها[١٨] ، لكنه لم يبق لنا أثر واحد من هذه الأبنية وتبين صورة من أقدم الصور فى التبت فناناً وهو يصور بوذا[١٩] فلم يشك المصورون فيما بعد ذلك التاريخ فى أن فن التصوير كان ثابت الأساس فى عهد بوذا .

وأقدم صورة هندية يمكن تحقيق تاريخها ، مجموعة من الزخارف الجدارية البوذية (حوالى ١٠٠ قبل الميلاد) وجدت على جدران كهف فى « سرجيا » فى المقاطعات الوسطى ، ومنذ ذلك الحين ، جعل فن التصوير الجدارى — وأعنى به تصويراً يرسم على معجون طرى قبل أن يجف — يتقدم خطوة فخطوة ، حتى بلغ على جدر كهف « أجانتا »(*) درجة من الكمال لم يجاوزها أحد بعد ، حتى « جيوتو » و « ليوناردو » ؛ وكانت تلك المعابد تنحت فى واجهة صخرية من سفح الجبل ؛ وحدث ذلك فى فترات مختلفة تقع بين القرن الأول الميلادى والقرن السابع ؛ ولبثت قروناً لا يعرفها التاريخ ولا تعيها ذاكرة الإنسان بعد انهيار البوذية ، فاكتنفتها أشجار الغابة حتى كادت تخفيها ، وسكنتها الخفافيش والأفاعى وغيرها من صنوف الحيوان ، وأتلفت صنوف الطير والحشرات التى تعد بالمئات ، تلك التصاوير بفضلاتها ؛ ثم حدث سنة ١٨١٩ أن عثر الأوروبيون على الآثار ، وأدهشهم أن يروا على الجدران تلك الصور التى تعد الآن بين آيات الفن فى العالم كله[٢٠] .

وأطلق على المعابد اسم الكهوف ؛ لأنها فى معظم الحالات منحوتة فى الجبال فمثلا كهف نمرة ١٦ عبارة عن حفرة طول كل جهة من جهاتها خمس وستون قدماً ، يدعمها عشرون عموداً ، وترى على طول القاعة الوسطى ست عشرة مقصورة من مقاصير الدير ، ولها شرفة ذات فتحة للباب تزخرف واجهتها ، وفى مؤخرتها جلود مقدسة ، وكل الحيطان مزدانة بالتصاوير الجدارية ؛ ومن

(*) بالقرب من قرية فاردابور ، فى الولاية المستقلة حيدر أباد .



صورة فى أجانتا

المعابد التسعة والعشرين ، ستة عشر كانت فى سنة ١٨٧٩ تحتوى على تصاوير ، فلما أن كانت سنة ١٩١٠ أتلف التعرض للجو تصاوير عشرة معابد منها ، ثم أصيبت الستة الباقية بخدوش بفعل محاولات غشوم فى سبيل تجديدها[٢١] ، وقد

كانت هذه التصاوير يوماً متلألئة بالأحمر والأخضر والأزرق والأرجوانى ؛ ولم يبق اليوم من هذه الألوان شيء ما عدا الأجزاء ذات الألوان الخافتة أو القاتمة ؛ وإن بعض الصور التى أفسدها الزمن والجهل ليبدو غليظاً خشناً فى أعيننا ، نحن الذين لا يستطيعون قراءة الأساطير البوذية بقلوب بوذية ، وبعضها الآخر فيه قوة ورشاقة فى آن معاً ، تنبئان عن مهارة الصناع الذين ضاعت أسماؤهم قبل أن تفنى آثارهم بزمن طويل .

وعلى الرغم من كل هذه النائبات ، لا يزال كهف رقم (١) غنياً بآياته الفنية فهاهنا ترى على أحد الجدران (ما يرجح أن يكون) صورة «بوذيساتاوا» ، أى قديس بوذى يستحق النرفانا ، لكنه آثر على النرفانا التى هو جدير بها أن يعاد إلى الحياة فى ولادات جديدة لكى يصلح الناس ؛ ولن تجد صورة تصور حزن التفكير البصير أعمق مما تصوره هذه الصورة[٢٢] ، وإن الإنسان لتأخذه الحيرة أى الصورتين ألطف وأعمق — هذه الصورة أو صورة ليوناردو التى رسمها يدرس بها موضوعاً شبيها بموضوع هذه الصورة ، وهو رأس المسيح(*) وعلى جدار آخر من نفس المعبد صورة لـ « شيفا » وزوجته «بارفاتى» وقد ازّينت بالحلى[٢٣] ، وعلى مقربة منها صورة لأربعة غزلان ، أشاع فيها الحساسية الرقيقة ذلك العطف البوذىّ على الحيوان ، وعلى السقف زخرف لا يزال ناصع الألوان بما فيه من زهور وطيور دقيقة الرسم[٢٤] ، وعلى أحد جدران الكهف رقم (١٧) تصوير رشيق — قد تلف الآن بعض التلف — للإله مصحوباً بحاشيته ، وهو هابط من السماء إلى الأرض ليتعهد شيئاً ما مما وقع فى حياة بوذا[٢٥] ، وعلى جدار آخر صورة تخطيطية ، لكنها زاهية الألوان ، لأميرة مع وصيفتها[٢٦] ؛ وترى مختلطاً بهذه الآيات الفنية حشداً متداخلا من التصاوير الجدارية يظهر فيها ضعف الصناعة وفيها وصف لنشأة بوذا وفراره وإغرائه[٢٧] .

(*) وهى بين تخطيطاته الابتدائية لصورة (العشاء الأخير) .

لكننا لا نستطيع أن نحكم على هذه الآثار الفنية فى صورتها الأصلية بما بقى منها اليوم ، ولا شك أن هناك مفاتيح طرائق تقدير قيمتها الفنية ، لا يمكن الكشف عنها لمن لا يحمل بين جنبيه روحاً بوذية ؛ ومع ذلك فحتى الغربى فى مستطاعه أن يُعجب بفخامة الموضوع ، وعظمة المدى صُممت الصورة على أساسه ، ووحدة التأليف ، ووضوح الخطوط وبساطتها وثباتها ، وبتفصيلات كثيرة بينها هذا الكمال العجيب الذى بلغوه فى رسم الأيدى التى هى آفة المصورين جميعاً ؛ وإن الخيال ليصوّر لنا هؤلاء الفنانين الكهنة(*) الذين كانوا يؤدون الصلاة فى هذه المقصورات وربما زينوا هذه الجدران والسقوف بفن التقىّ والورع ، بينما أوروبا دفينة فى ظلام أوائل عصورها الوسطى ؛ فهاهنا فى « أجانتا » أدْمِجَ الدينُ مختلف الفنون : فن العمارة والنحت والتصوير فى وحدة متسقة ، فأنتج أثراً من أعظم آثار الفن الهندى .

فلما أغلقت معابدهم أو خُرِّبت على أيدى الهون والمسلمين ، أدار الهنود مهارتهم التصويرية تجاه الفنون الصغرى ؛ فنشأت بين « الراجبوت » مدرسة من المصورين سجلوا فى تماثيل صغيرة قصص « الماهابهاراتا » و « رامايانا » وأعمال البطولة التى قام بها رؤساء « الراجپوتانا » ؛ وكثيراً ما كانت تكتفى تلك الآثار الفنية بمجرد تخطيط أوّلى للموضوع ، لكنها كانت دائماً تنبض بالحياة وتبلغ من جمال الزخرف حد الكمال ؛ وإنك لترى فى متحف الفنون الجميلة فى « بوستن » ، مثلا جميلا لهذا الأسلوب الفنى ، إذ تراه يرمز إلى إحدى « راجات » الموسيقى بنساء رشيقات وبرج شامخ وسماء دانية[٢٩] ، وكذلك ترى مثلا آخر فى معهد الفنون فى « دِتْروا » يمثل برشاقة فريدة فى بابها منظراً مأخوذاً من « جيتا جوفندا »[٣٠] ، وصور النساء فى هذه التصاوير الهندية وغيرها لم تكن تُرْسَمَ من نماذج بشرية إلا نادراً ؛ فكان على الفنان أن يتصورها بخياله ويستمدها من ذاكرته ، والأغلب أن يصور المصور بألوان

(*) هذه مجرد فرض ، فلسنا ندرى من رسم هذه التصاوير الجدارية

زاهية على سطح من ورق ، ويستخدم فى الرسم فراجين مصنوعة من أرق



صورة مغولية لدربار فى ظل أكبر فى مدينة أكبر أباد

الشعر ، يأخذونه من السنجاب أو الحجل أو الماعز أو النمس[٣١] ، واستطاع رسامهم أن يبلغ من رقة خطوطه وزخارفه حداً يمتع العين ، حتى إن كان المشاهد أجنبياً لم يمهر فى تقدير الفنون .

وقد أبدعت أجزاء أخرى من الهند آثاراً فنية شبيهة بهذه الآثار ، وبخاصة فى دولة «كانجرا»[٣٢] ، وتطوّر فرع من فروع هذه الدوحة الفنية عينها فى ظل المغول بمدينة دلهى ، ولما كان هذا الفن المتفرع ناشئاً عن فن الخط الفارسى وفن زخرفة المخطوطات ، فقد آل أمره إلى أن يكون تصويراً أرستقراطياً يقابل من حيث رقته وانحصاره فى دائرة ضيقة ، موسيقى الحجرات التى ازدهرت فى قصور الملوك ؛ ولقد جاهدت هذه المدرسة المغولية — كما جاهدت مدرسة راجپوت — لتحقق لنفسها رشاقة التخطيط ، كان المصورون أحياناً يستخدمون فرجوناً مؤلفاً من شعرة واحدة ، وتنافس مصورو هذه المدرسة أيضاً فى إجادة تصوير اليدين ؛ لكنهم بالقياس إلى المدرسة الفنية السالفة أكثروا من الألوان وقللوا من جوّ الألغاز والغموض ، وقلما مسُّوا بفنهم الدين أو الأساطير بل حصروا أنفسهم فى حدود هذه الدنيا ، فكانوا واقعيين بمقدار ما سمح لهم الحذر به من الواقعية ؛ وقد اتخذوا موضوعات لرسومهم رجالا ونساء من الأحياء ذوى المنزلة الرفيعة والمزاج الشامخ بأنفه ، فلم يكن أشخاصهم ممن يُعرفون فى الناس بِضعة نفوسهم ، وأخذ هؤلاء الأشراف يجلسون واحداً فى إثر واحد أمام المصور ، حتى امتلأت أبهاء الصور عند «جهان كير» — ذلك الملك الأنيق — بصور أعلام الحكام ورجال البلاط جميعاً منذ اعتلاء «أكبر» عرش البلاد ، وكان «أكبر» أول حاكم من أفراد أسرته المالكة شجع التصوير ، ولو أخذنا بما يقوله «أبو الفضل» فقد كان فى دلهى فى أواخر حكمه ، مائة أستاذ من محترفى هذا الفن ، وألف من هواته[٣٣] .

وكان من أثر رعاية « جهان كير » لفن التصوير أن تطور هذا الفن واتسع نطاقه من تصوير الأشخاص فحسب إلى تمثيل مناظر الصيد وغيرها من البطانات التي تؤخذ من الطبيعة لتكون مجالا لتصوير أشخاص من الناس على أساسها — على أن هذه الأشخاص مازالت لها السيادة في الصورة ؛ فهنالك صورة صغيرة تمثل الإمبراطور نفسه وقد أوشك أن تنال منه مخالب أسد واثب على مؤخرة الفيل الذي كان يركبه ، محاولا أن يمسك بجسده ، بينما ترى تابعاً من الأتباع يفر هارباً كما تقتضي النظرة الواقعية لحقيقة ما يحدث في الحياة[٣٤] ، وبلغ الفن في حكم « جهان » أعلى ذروته ؛ ثم أخذ بعدئذ في التدهور ؛ وكما حدث في التصوير الياباني حدث في الهند ، وهو أن شيوع القالب الفني في دائرة واسعة من الناس ، كان له نتيجتان في وقت واحد ، فقد زاد عدد المهتمين بالفن من جهة ، وقلل من دقة الذوق من جهة أخرى[٣٥] ، وأخيراً تمت مراحل التدهور حين جاء « أورنجزيب » فأعاد حكم الإسلام في مقاومة التصوير بغير هوادة .

وقد لقي المصورون في دلهي من الازدهار ما لم يعرفوا له مثيلا خلال عدة قرون ، وذلك بفضل الرعاية الكريمة التي أسداها إليهم ملوك المغول ؛ فجددت طائفة المصورين عندئذ شبابها ، وهي تلك الطائفة التي احتفظت بنفسها حية منذ العصر البوذي ؛ ونفض بعض أعضائها عن نفسه ذلك التخفي الذي كان يدعوهم إلى تكرار أسمائهم ، والذي يسود الكثرة الغالبة من آثار الفن الهندي ، بفعل الزمان الذي يبتلع الأسماء في جوف النسيان من جهة ، وإنكار الهنود لذاتيات الأفراد من جهة أخرى ، وكان من السبعة عشر فناناً الذين يعدون أعلاماً في حكم « أكبر » ثلاثة عشر هندوسياً[٣٦] ، وكان أقرب المصورين إلى الحظوة في بلاد المغولي العظيم هو « دازفانت» الذي لم يؤثر أصله الوضيع — إذ كان ابن حامل المحفات التي تنقل الراكبين — في نظرة الإمبراطور إليه أقل تأثير ؛ وكان هذا الشاب شاذ الأطوار ، فكنت تراه

مصراً آينما حل على رسم صوره ، برسمها على أية مادة أتيحت له ؛ واعترف « أكبر » بعبقريته ، وطلب إلى الأستاذ الذى يتلقى عنه هو نفسه فن الرسم ، أن يتعهد تعليمه ، حتى إذا ما شبَّ الغلام ، أصبح أعظم رجال الفن فى عصره ، لكنه وهو فى أوج شهرته طعن نفسه طعنة قاضية(٣٧) .

إنه حيثما وجدت ناساً يصنعون هذا الشيء أو ذاك ، وجدت إلى جانبهم ناساً آخرين يأخذون أنفسهم بشرح الطريقة التى يجب أن يتبعها أولئك فى صناعة ما يصنعون ؛ فالهنود الذين لم تكن فلسفتهم تعلى من شأن المنطق ، قد أحبوا المنطق مع ذلك ، وأغرموا بصياغة قواعد دقيقة لكل فن من الفنون ، كأدق ما تكون القواعد دقة ، وأشد ما تكون انطباقاً على حكم العقل ؛ ومن ثم وضعوا فى أوائل تاريخنا المسيحى « الساندانجا » أى « الأطراف الستة للتصوير الهندى » وهى شبيهة بما وضعه صينى (*) بعد ذلك ، وربما كان الصينى فى ذلك مقلداً ، وهو ستة قوانين لإتقان فن التصوير : (١) معرفة ظواهر الأشياء . (٢) صحة الإدراك الحسى والقياس البناء . (٣) فعل المشاعر فى القوالب الفنية . (٤) إدخال عنصر الرشاقة ، أو التمثيل الفنى . (٥) مشابهة الطبيعة . (٦) استخدام الفرجون والألوان استخداماً فنياً ؛ وظهر بعد ذلك تشريع جمالى مفصل . واسمه « شلبا — شاسترا » ؛ صيغت فيه قواعد كل فن وتقاليده صياغة تصلح ما مرّ الزمان ، وهم يزعمون لنا أن الفنان لا بد له من دراسة الفيدات دراسة متقنة « وأن يغتبط بعبادة الله ، ويخلص لزوجته ويجتنب غيرها من النساء ويحصل معرفة بمختلف العلوم تحصيلا تحدوه التقوى »(٣٨) .

ويسهل علينا بعض الشيء فهم التصوير الشرقى ؛ لو وضعنا نصب أعيننا

(*) هو « هزيه هو » — راجع ما جاء عنه فى الجزء الخاص بالصين من هذه السلسلة ؛ وتاريخ « الساندانجا » مجهول لأننا عرفناه من شرح كتبه لشارح فى القرن الثالث عشر .

أولا ، أنه لا يحاول تصوير الأشياء بل تصوير العواطف ، وأنه لا يحاول مطابقة الأصل بل يكتفي بالإيحاء به ، وأنه لا يعتمد على اللون بل على التخطيط وأن غايته أقرب إلى أن تكون إثارة عاطفة جمالية ودينية منها إلى أن تكون محاكاة للواقع ، وأنه مهتم بما في الناس والأشياء من « أنفس » أو « أرواح » أكثر من اهتمامه بصورتها المادية ، ومع ذلك فهما حاولنا ، فنوشك ألا نجد في التصوير الهندي ذلك الرقي الفني ، أو ذلك البعد في المدى والعمق في المعنى ، الذي يميز فن التصوير في الصين أو في اليابان ؛ وترى بعض الهنود يعللون لك تعليلا مغاليا في شطحته مع الخيال ، فيزعمون أن التصوير قد تدهور عندهم لأنه أيسر من أن يتقدم به المتقرب إلى الآلهة ، إذ ليس في إخراجه من العناء ما يشرف ذلك المتقرب[٣٩] ، ويجوز ألا تكون الصور بما تتصف به من سرعة التعرض للزوال والفناء ، مما يشبع في نفس الهندي ذلك التعطش الذي يحسه نحو تجسيد إلهه المختار تجسيداً يبقى على وجه الزمان ؛ فلما لاءمت البوذية بين نفسها وبين التصوير الفني للأشياء ، ولما كثرت وازدادت الأضرحة البرهمية ، أخذ النحت يحل محل التصوير شيئاً فشيئاً ، ليأخذ الحجر الدائم مكان اللون والتخطيط .

الفصل الرابع

النحت

النحت البدائى – النحت البوذى – جاندهارا –
جوبتا – تأثره بالمستعمرين – تقدير

ليس فى مقدورنا أن نتعقب مراحل النحت التاريخية فى الهند بادئين بالتماثيل الصغرى التى وجدت فى « موهنجو – دارو » ومنتهين بعصر « أشوكا » لكن يجوز لنا أن نشك فى أن هذه الفجوة التى تعترض تطور تلك المراحل ، ليست فجوة فى تقدم الفن نفسه بمقدار ما هى فجوة فى علمنا به ؛ وربما أفقرت الغزوات الآرية الهند حيناً من الدهر ، فانتكست بفعل الفقر من الحجر إلى الخشب فى صناعة تماثيلها ؛ أو ربما كان الآريون أكثر انصرافاً إلى الحروب من أن يجدوا الفرصة للعناية بالفنون ، فأقدم التماثيل الحجرية التى بقيت لنا فى الهند ، لا يرجع إلى عهد أقدم من « أشوكا » لكن هذه التماثيل تدل على مهارة بلغت من الرقى حداً رفيعاً لا يدع لنا مجالا للشك فى أن الفن كان قبل ذلك آخذاً فى نموه عدة قرون[40] ؛ وجاءت البوذية فوضعت حوائل معروفة تقوم فى وجه التصوير والنحت معاً ، وذلك بمقتها للأوثان وللتصاوير الدنيوية : إن بوذا يحرم « تصاوير الخيال فى رسم أشخاص الرجال والنساء »[41] وبحكم هذا التحريم الذى يوشك أن يكون صادراً من موسى لقى التصوير والنحت من الحوائل فى الهند مثل ما لقياه فى عهود اليهود ، ومثل ما سيلقيانه بعدئذ فى ظل الإسلام ، لكن هذا « التزمت » – فيما يظهر – أخذ يتراخى شيئاً فشيئاً كلما تهاونت البوذية فى تشددها وازدادت مشاطرة للروح الدرافيدية التى تميل إلى الرمز والأساطير ، فلما عاد فن النحت إلى الظهور من جديد (حوالى سنة ٢٥٠ قبل الميلاد) فى التماثيل الحجرية البارزة القائمة على « السور » الذى يحيط بأكمات

المدافن البوذية فى « بوذا — جايا » و « بهارهوت » كانت هذه التماثيل أقرب إلى



جذع شاب من سانكى

أن تكون جزءاً لا يتجزأ من التصميم المعمارى للبناء منها إلى أن تكون فناً مستقلا مقصوداً لذاته ؛ ولبث الجزء الأكبر من النحت الهندى حتى ختام مراحله التاريخية تابعاً لفن العمارة ، وكان طوال الوقت يؤثر النحت البارز على الحفر(*) ؛



ملك ناجا — واجهة بارزة فى أجانتا

التمثال الجالس لبراهما — القرن العاشر

وقد بلغ هذا النحت البارز ذروة رفيعة من الكمال فى المعابد الجانتيّة « مأثورة » ، وفى الأضرحة البوذية فى « أماراڤاتى » و « أجانتا » ؛ ويقول أحد الثقات الراسخين فى العلم إن السور المنحوت فى « أماراڤاتى » : « أرق زهرة فى النحت الهندى وأوغلها فى أسباب الترف »(٤٣) .

(*) لهذا التعميم استثناء ضخم بفسده ، هو التمثال النحاسى الكبير لبوذا ، الذى يبلغ ارتفاعه ثمانين قدماً ، والذى شهده « يوان شوانج » فى « پاتالى پوترا » ؛ وقد يكون هذا التمثال — بفضل « يوان » وغيره ممن حجوا إلى الهند من أهل الصين — أحد الأسلاف التى نتج عنها تماثيل بوذا العظيمة فى « نارا » و « كاماكورا » من بلاد اليابان .

فى ذلك الوقت عينه ، كان نمط آخر من أنماط النحت فى سبيله إلى الرقى فى إقليم « جاندهارا » الواقع فى شمال غربى الهند ؛ وذلك فى رعاية الملوك « الكوشيين » ، وهم أبناء أسرة يحيط بها الغموض ، انبثقت بغتة من الشمال — ومن الجائز أن يكون فى أصولها جذور هلينية — فظهر بظهورها ميل نحو إدخال القوالب الفنية اليونانية ، وكانت بوذية « ماهايانا » التى استولت على مجلس « كانِشْكا » هى التى شقت الطريق إلى ذلك الفن اليونانى ، بإلغائها تحريم التصوير والنحت ، فاستطاع بعض المعلمين اليونان أن يوجهوا النحت الهندى وجهة اصطنع فيها لفترة من الزمن وجهاً « هلينيا » طليقاً ، فتحول بوذا



بوذا سارنات — القرن الخامس

إلى ما يشبه أبولو ، وأخذ يطمح إلى بلوغ الأولمب ، وأصبحنا نرى الثياب تنساب أذيالها على آلهة الهندوس وقديسيهم على نحو ما ترى فى نحت « فيدياس »



شيفا ذات الوجوه الثلاثة ، أو تريمورتى فى الفانتا

كما نرى تماثيل تصور « بوذيساتاوا » التي وهو يصاحب « سيلبني » الطروب



پوذا أنورا ذابورا – في سيلان

الخمور(٤٣) ، ومثلوا مولاهم بوذا وتلاميذه تماثيل جمَّلوا أجسادها وكادوا يجعلونها مُخنَّثة الأجزاء ، إذ أخرجوها على غرار نماذج يونانية بشعة تمثل اليونان وهم فى مرحلة واقعية تميل بهم نحو الانهيار ؛ ومن ذلك تمثال بوذا الذى يتضور جوعاً ، فنى هـذا التمثال ترى كل ضلع وكل عصب من أضلاع جسده وأعصابه ، ثم تراهم ركبوا على هذا الجسد وجه امرأة ، ورُتب شعر الرأس على نحو ما يُرتَّبُ الشعر فى رءوس السيدات ، ولو أنهم جعلوا فى ذلك الوجه لحية الرجال(٤٤) ؛ وقد تأثر « يوان شوانج » لهذا الفن الذى يمزج بين اليونانية والبوذية والذى انتقل إلى الصين وكوريا واليابان(٤٥) بفضل « يوان شوانج » هذا وغيره ممن حجوا إلى الهند فيما بعد ؛ لكن هذا الفن لم يكن له إلا قليل أثر فى قوالب النحت وطرائقه فى الهند ذاتها ؛ فلما انقضى عهد مدرسة جاندهارا بعد بضعة قرون قضتها فى نشاط مزدهر ، عاد الفن الهندى من جديد إلى الحياة فى ظل حكام من الهندوس ، واستأنف التقاليد التى خلّفها الفنانون الوطنيون فى « بهارهوت » و « أماراڤاتى » و « ماثورة » ، ولم ينظر إلا بطرف عينه إلى آثار الفترة اليونانية القصيرة التى ظهرت فى جاندهارا .

وازدهر النحت — كما ازدهر كل شىء تقريباً فى الهند — تحت حكم أسرة جوبتا ؛ وكانت البوذية عندئذ قد نسيت عداوتها لتصوير الأشخاص ، ونهضت البرهمية وقد تجدد نشاطها ، فشجعت الرمزية وزخرفة الدين بكل أنواع الفنون ؛ فنرى فى متحف « ماثورة » تمثالا حجرياً لبوذا أتقنت صناعته ، بعينين تنمان عن تأمل عميق ، وشفتين حساستين ، وجسد بولغ فى رشاقته ، وقدمين قبيحتين مستقيمتى الخطوط ؛ وترى فى متحف « سارنات » تمثالا حجرياً آخر لبوذا فى جلسة القرفصاء التى كتب لها أن تسود النحت البوذى ، وفى هذا التمثال تصوير بارع لآثار التأمل الهادئ والرقة القلبية الصادرة عن ورع ؛ وفى « كارانشى » تمثال برنزى صغير لبراهما ، يشبه صورة « ڤولتير » شبهاً واضحاً(٤٦) .

واذهب حيث شئت فى أرجاء الهند ، تر فن النحت فى الألف عام التى



شيفا الراقصة ، فى جنوبى الهند - القرن الرابع عشر

سبقت قدوم المسلمين ، قد أنتج آيات روائع على الرغم من أن خضوعه لفن العمارة وللدين قد حدّد خطاه ، وإن يكن مصدر وحي له في الوقت عينه ، فالتمثال الجميل الذي يصور « فشنو » والذي جاء من سلطانپور[٤٧] وتمثال « پادماپانى » الذي أجيدت صناعته بأزميل الفنان[٤٨] وتمثال « شيفا » الضخم ذو الوجوه الثلاثة (الذي يسمى عادة تريمورتى (الذي نحت نحتاً عميقاً في كهوف « إلفانتا »[٤٩] والتمثال الحجرى الذي تكاد تحسبه من صنع « پراكسيتى » والذي يعبده الناس في « نوكاس » باعتباره الإلهة « روكمينى »[٥٠] و « شيفا » الراقص الرشيق — أو ناتاراجا — المصنوع من البرونز بأيدى الصناع الفنانين في تانجور[٥١] وتمثال الغزال الجميل المنحوت من الحجر ، وفي «ماما الاپورام»[٥٢] و « شيفا » الوسيم في « پرور »[٥٣]— هذه كلها شواهد على انتشار فن النحت في كل إقليم من أقاليم الهند .

واجتازت هذه البواعث نفسها وهذه الأساليب نفسها ، حدود الهند الأصلية حيث كان من أثرها أن نتجت آيات فنية في تركستان وكمبوديا وجاوه وسيلان وغيرها ؛ ويستطيع طالب الفن أن يجد أمثلة لذلك ، هذا الرأس الحجرى — ويظهر أنه رأس غلام — الذي احتفره من رمال خوتال « سير أورل شتاين » وصحبه[٥٤] ورأس بوذا الذي جاء من سيام[٥٥] وتمثاله « هاريهارا » في كمبوديا الذي يتميز بدقة تشبه دقة المصريين في تماثيلهم[٥٦] والتماثيل البرونزية الرائعة في جاوة[٥٧] ورأس «شيفا» الذي جاء من « پرامبانام » والذي يشبه الفن في جاندهارا[٥٨] ؛ وتمثال المرأة البالغ حداً بعيداً في جماله واسمه (پراجناپاراميتا) وهو الآن في متحف ليدن ؛ وتمثال « بوذيساتاوا » الذي بلغ ذروة الكمال وهو في متحف « جليبتوثك » في « كوبنهاجن »[٥٩] وتمثال بوذا الهادئ القوى[٦٠] وتمثال « أفالوكتشفارا » (ومعناها السيد الذي يصوب نظره إلى الناس مستصغراً مشفقاً) وهو تمثال أجيدت صناعته بالإزميل[٦١] وكلا هذين الأخيرين من المعبد العظيم في جاوه الذي يسمى « بوروبودور »

وكذلك تمثال بوذا الضخم الغليظ(٦٢) والعتبة المرمرية البديعة(٦٣) فى بناء «آنورا ذاپورا» فى سيلان ؛ هذه القائمة المملة ، التى ذكرنا فيها آثاراً فنية لابد أن تكون قد كلفت دماء كثير من الرجال فى عدة قرون من الزمان ، تدل بعض الدلالة على أثر العبقرية الهندية فى مستعمرات الهند الثقافية .

إنه ليتعذر علينا للوهلة الأولى أن نقدر هذا النحت ؛ فليس يستطيع أحد من الناس أن يطرح وراء ظهره بيئته الخاصة حين يرتحل فى غير بلاده إلا ذو العقل العميق المتواضع ؛ إنه لا مناص لنا من أن ننقلب هنوداً أو أبناء هذا البلد أو ذاك مما أخذ بزعامة الهند الثقافية ، لنفهم الرمزية الكامنة فى هذه التماثيل ، وندرك ما تدل عليه هذه الأذرع والسيقان الكثيرة من وظائف وقوى خارقة ، ونسيغ الواقعية البشعة التى تمثلها هذه التماثيل الشاطحة بخيالها ، المعبرة عن رأى الهندوس فى القوى الخارقة للحدود الطبيعية ، التى تبدع فى خلقها بما يجاوز حدود العقل ، وتخصب إخصاباً يجاوز حدود العقل ، وتخرب تخريباً يجاوز حدود العقل ، إنه ليروعنا أن نرى كل شخص فى قرى الهند نحيل الجسم ، بينما نرى كل شخص فى تماثيل الهند بديناً ، لأننا ننسى أن التماثيل تصور الآلهة قبل كل شىء ، والآلهة هم الذين يتلقون زبدة ما تثمره البلاد من خيرات ؛ وإن أنفسنا لتضطرب حين نعلم أن الهنود صبغوا تماثيلهم بالألوان ، ومن ثمّ ينكشف لنا الغطاء عن حقيقة نسهو عن إدراكها ، وهى أن اليونان فعلوا ذلك أيضاً ، وأن الجلال الذى فى آلهة فيديا يرجع بعضه إلى زوال الصبغة عن تماثيلهم زوالا جاء عرضاً ؛ وإنه كذلك ليسوءنا أن نرى قلة تماثيل النساء قلة نسبية فى معارض الفن الهندى ، ونرثى لإذلال النساء الذى قد تدل عليه هذه الظاهرة ، ولا نذكر أبداً أن مذهب العرى فى المرأة ليس أساساً لفن النحت يستحيل الاستغناء عن وجوده ، وأن أعمق جمال للمرأة قد يتبدى فى الأمومة أكثر مما يتبدى فى الشباب ، قد تدل عليه «ديميتر» أكثر

مما تدل عليه « أفروديت » ، أو قد ننسى أن النحات لم ينحت ما تتعلق به أحلامه بقدر ما نحت ما أذن به الكهنة ، وأن كل فن فى الهند كان يتبع الدين أكثر مما يتبع الفن نفسه ، إذ كان خادماً للاهوت أو قد نفسر بالجد ما لم يقصد به النحات إلى الجد ، وإنما قصد به تصويراً كاريكاتورياً أو فكاهة أو بشائع يخيف بها الأرواح الشريرة فيطردها ، فإذا ما رأينا أنفسنا نزور عنها فى امتعاض فقد أقمنا بذلك الدليل على تأديتها لما أريد لها أن تؤديه .

ومع ذلك فلم يبلغ فن النحت فى الهند كل ما بلغه أدبها من رشاقة ، أو ما بلغه فن العمارة فيها من فخامة ، أو ما بلغته فلسفتها من عمق ؛ فكان أول ما صوره النحت فى الهند هو مكنون عقائدها الدينية على خلطه واضطرابه ، ولئن بزّت الهند بفن النحت فيها نظائره فى الصين واليابان ، إلا أنها لم تبلغ قط مستوى التماثيل المصرية فى برود كمالها ، ولا مستوى التماثيل المرمرية اليونانية فى جمالها الحي المغرى ؟ وإذا أردنا أن نقف من النحت الهندى عند مجرد الفهم لما ينطوى عليه من مزاعم ، كان لا مندوحة لنا عن استعادة الشعور بالتقوى فى قلوبنا ، ذلك الشعور الذى ساد فى العصور الوسطى بجده وإيمانه ، والحق أننا نسرف فيما نطالب به فن النحت أو فن التصوير فى الهند ، فتراانا نحكم عليهما كما لو كانا فى تلك البلاد — كما هما فى بلادنا — فنين مستقلا أحدهما عن الآخر ، مع أن حقيقة الأمر هى أننا فصلناهما لتسهل دراستهما حسب ما جرت به التقاليد فى تقسيم الفنون أقساماً مختلفة الأسماء مختلفة المعايير ، فلو استطعنا أن ننظر إليهما كما هما فى رأى الهندى ، أى على اعتبار أنهما جزآن من عدة أجزاء يتألف منها فن العمارة عندهم ، الذى لا يفوقهم فيه شعب آخر ، كان ذلك منا بمثابة البداية المتواضعة التى قد تؤدى بنا إلى فهم الفن الهندى .

الفصل الخامس

فن العمارة

(١) العمارة الهندوسية

العهد السابق لأشوكا – العمارة فى عهد أشوكا – العمارة البوذية –
العمارة الجانتية – آيات العمارة فى الشمال – هدمها – الخط فى الجنوب
المعابد المقامة من حجر واحد – المعابد المقامة من أحجار عدة

لم يبق لنا شىء من العمارة الهندية قبل « أشوكا » فلدينا آثار من اللبن فى « موهنجو – دارو » ، لكن أبنية الهند فى العهدين الفيدى والبوذى كانت فيما يظهر من الخشب ، والأغلب أن « أشوكا » كان أول من استخدم الحجر لأغراض البناء[٦٤] وإننا لنصادف فى أدبهم ما يدل على أن قد كان لهم أبنية ذات سبعة طوابق[٦٥] كما قد كان لهم قصور فخمة ، لكن لم يبق من كل هذا أثر واحد ، ويصف المجسطى قصور الملوك من أسرة « شاندراجوبتا » فيقول إنها أعظم من أى شىء مما عساك أن تراه فى فارس ما عدا « فرسوبولس » (أى مدينة الفرس) التى اتخذت نموذجاً احتذاه هؤلاء الملوك الهنود فيما يظهر[٦٦] ولبث هذا التأثير الفارسى حتى عهد « أشوكا » ، لأنك تراه ظاهراً فى تصميم قصره ، إذ تجد هذا القصر مطابقاً « للقاعة ذات الأعمدة المائة » فى « فرسوبولس »[٦٧] كما ترى تأثير الفرس أيضاً ظاهراً فى عمود « أشوكا » البديع فى « لوريا » متوجا فى قمته العليا بتمثال الأسد .

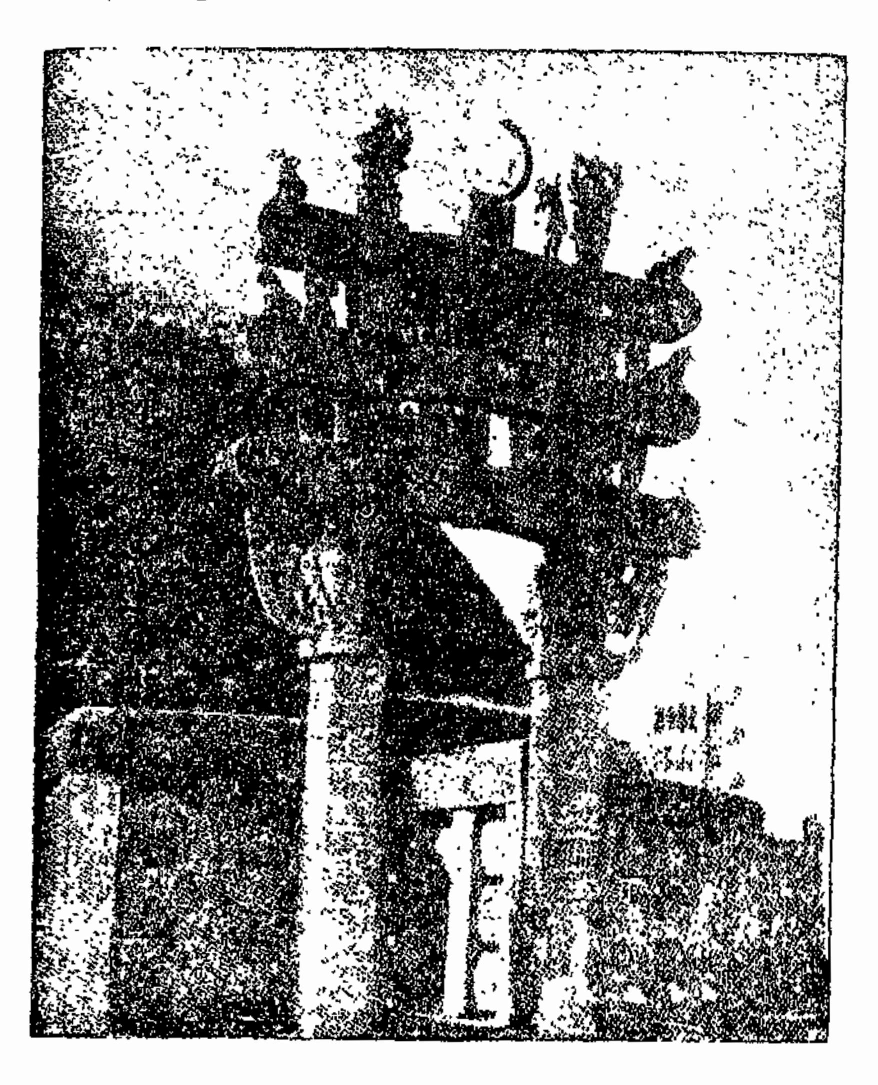
فلما تحول « أشوكا » إلى البوذية ، أخذت العمارة الهندية تلقى عن كاهلها هذا التأثير الأجنبى ، وتستمد روحها ورموزها من الديانة الجديدة ، ومرحلة الانتقال ظاهرة فى رأس عمود كبير ، هو كل ما بقى لنا الآن من عمود آخر

يرجع إلى عهد أشوكا » في « سارنات »(٦٨) فها هنا نشهد آية بلغت من الكمال



قمة عمود أشوكا ، على صورة الأسد

حداً يستوقف النظر حتى لقد قال عنه «سير جون مارشال» إنه يضارع «أي شيء من نوعه في العالم القديم» (٦٩) ، إذ ترى أربعة أسود قوية وقفت ظهراً لظهر حارسة ؛ وهي فارسية خالصة من حيث الصورة والملامح . لكنك ترى أسفل هذه الأسود إفريزاً نحتت فيه بعض الشخوص نحتاً جيداً ، من ذلك تمثال لحيوان قريب إلى نفوس الهنود وهو الفيل ، ورمز مطوع بطابعهم وهو

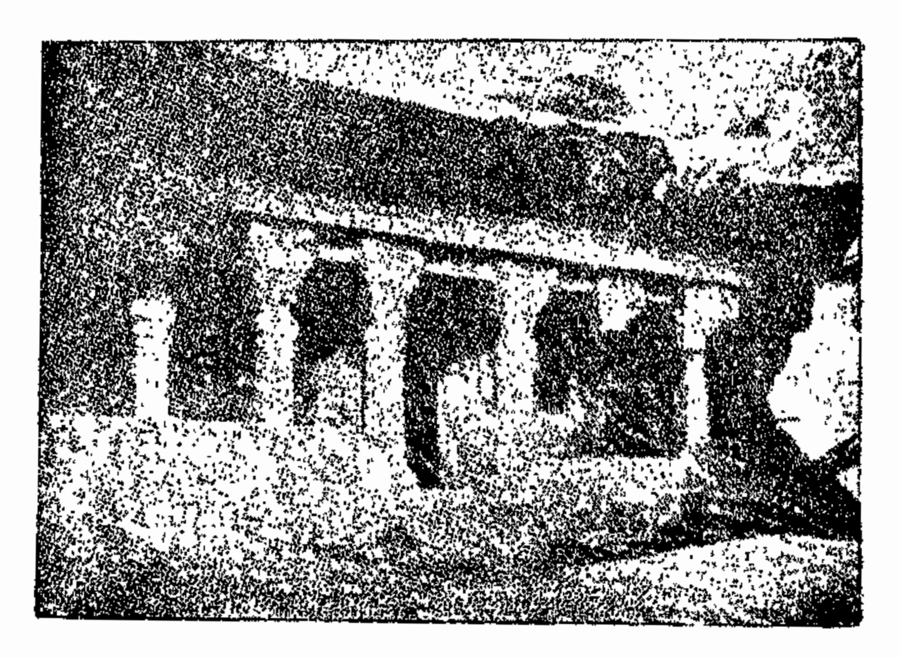


سانكي توب ، في البوابة الشمالية

« العجلة البوذية التي ترمز للقانون » ، ثم ترى تحت الإفريز صورة حجرية لزهرة كبيرة من زهرات اللوتس ، أخطأ الباحثون من قبل فظنوها رأس عمود على صورة جرس مما يدل على تأثير الفرس ، أما الآن فقد أجمع الرأى على أنها بين رموز الفن الهندى أقدمها وأوسعها انتشاراً وأخصها انطباعاً بالروح الهندية[٧٠] والزهرة قائمة عمودية ، وأوراقها منحنية إلى أسفل بحيث يظهر عضو التأنيث فى الزهرة ، الذى يحتوى على البذور ، وهم يمثلون به رحم العالم ، أو يصورون به عرش الله ، باعتباره من أجمل ما تبديه من الطبيعة من ظواهر ؛ وقد انتقلت زهرة اللوتس — أو سوسنة الماء — بما ترمز إليه ، مع البوذية ، حيث تغلغلت فى ثنايا الفن الصينى واليابانى ، وقد اصطنعوا فى عهد « أشوكا » صورة شبيهة بزهرة اللوتس فى بناء النوافذ والأبواب ، هى التى أصبحت « قوس حدوة الفرس » الذى نشاهده فى الأبهاء والقباب التى ترجع إلى « أشوكا » ، وهو فى بادئ أمره مستمد من تقويس السقوف المصنوعة من القش فى منازل البنغال ، والتى تشبه « العربة المُغَطَّاة » تلك السقوف التى كانت تسندها دعائم من قضبان الخيزران المثنى[٧١] .

ولم تخلّف لنا العمارة الدينية فى العصور البوذية إلا قليلا من المعابد المخربة وعدداً كبيراً من « أكمات المقابر » وما يحيط بها من « أسوار » ، وقد كانت « أكمة المقابر » فى الأيام الأولى مكاناً للدفن ، ثم أصبحت فى عهد البوذية ضريحاً تذكارياً يضم عادة آثار قديس بوذى ؛ وتتخذ « أكمة المقابر » فى معظم الأحيان صورة قبة من اللبن المجفف ، فى رأسها برج مدبب الطرف ، وحولها سور حجرى منحوت بالشخوص البارزة ، ومن أقدم هذه « الأكمات » أكمة فى « بهارهوت » غير أن الشخوص البارزة هناك غليظة الفن إلى درجة تجعلها بدائية الصناعة ، وأرقى ما بقى لنا من هذه الأسوار فى زخرفه هو السور الموجود

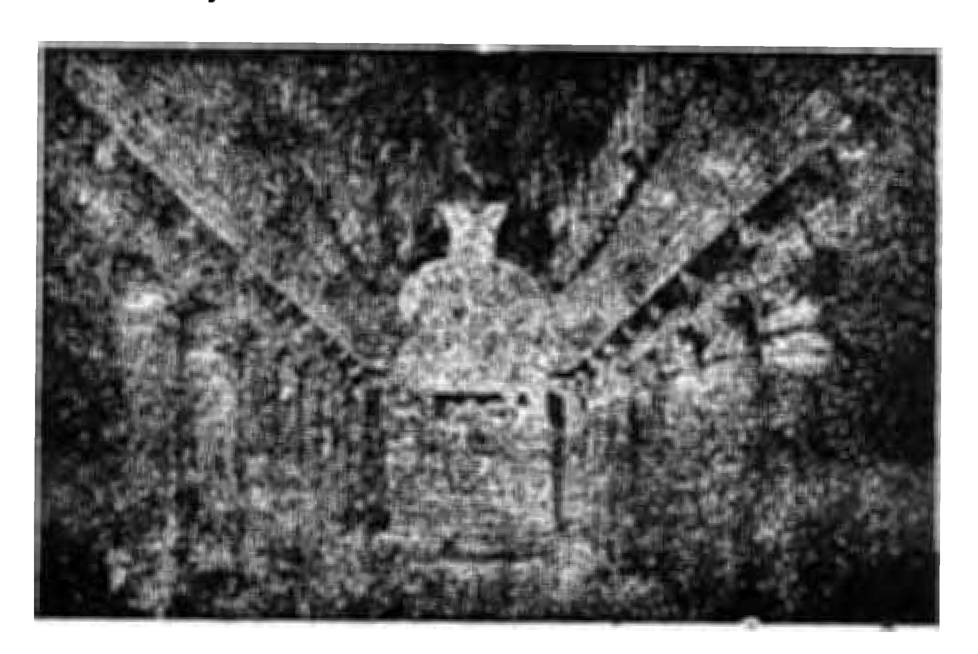
فى « أمارافاتى » ، ففيه ترى مسطحاً مساحته سبعة عشر ألفاً من الأقدام المربعة ، تغطيها شخوص صغيرة بارزة ، تدل على دقة فى الصناعة بلغت من الروعة حداً جعل « فرجسون » يشهد لهذا السور بأنه « على الأرجح أبدع أثر فى الهند كلها » ؛ وأجمل ما نعرفه من « أكمات المقابر » أكمة « سانكى » ، وهى واحدة من مجموعة فى « بهلسّا » من بلدان « بهوپال » ؛ والظاهر أن البوابات الحجرية تحاكى نماذج خشبية قديمة ، وهى التى رسمت الطريق للبوابات التى تراها عند مداخل المعابد فى الشرق الأقصى ؛ فكل قدم مربعة من الأعمدة أو تيجانها أو القطع المستعرضة أو الدعائم ، محفورة بما لا يقع تحت الحصر من صور النبات والحيوان وأشخاص الإنسان وصور الأرباب ؛ وترى على عمود من أعمدة البوابة الشرقية نحتاً رقيقاً يمثل رمز البوذية الدائم — وهو « شجرة بوذى » أى المكان الذى أشرقت فيه على صاحب العقيدة أنوار الحقيقة ؛ وعلى نفس البوابة كذلك تجد تمثالا لإلهة على هيئة قوس رشيق ،



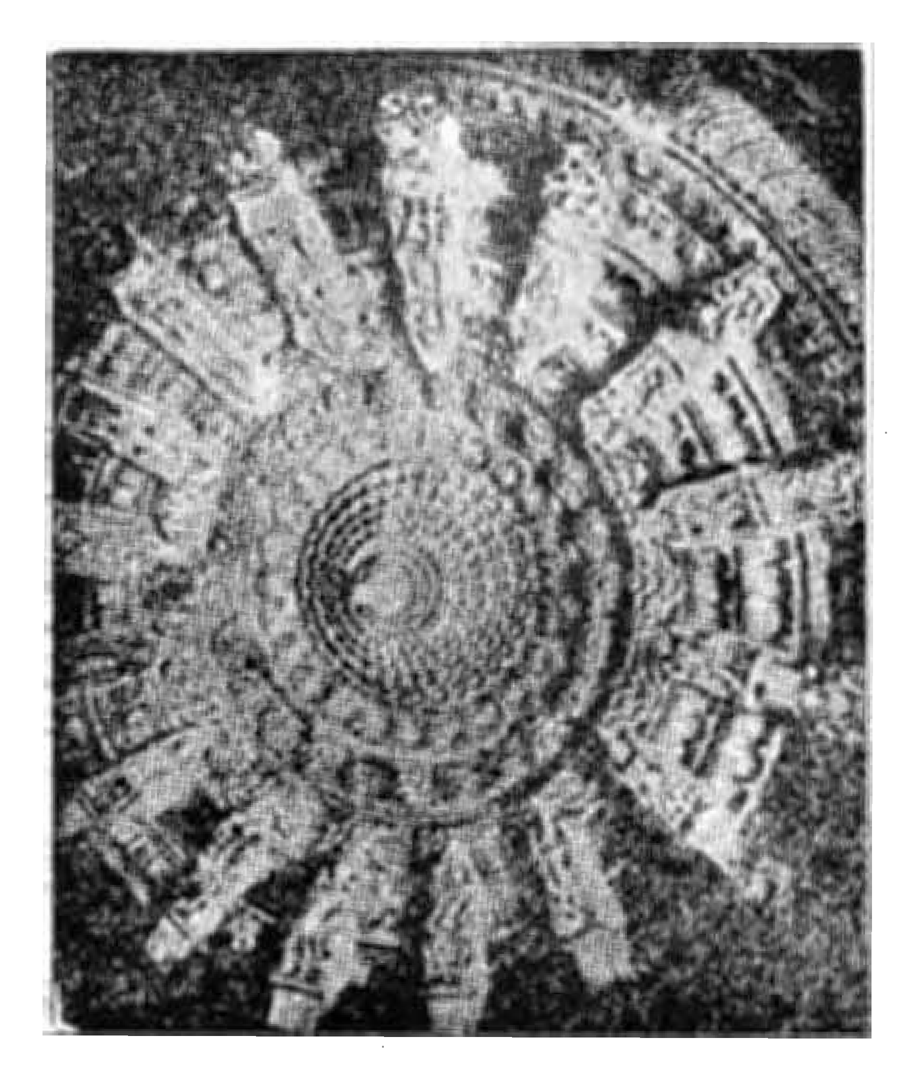
واجهة دير جوالتاس پورة ا — فى ناسك

وهى « ياكشى » ولها أطراف بدينة وشــفاه مليئة وخصر نحيل وثديان ممتلئان »

وبينما كان الموتى من القديسين يرقدون فى « الأكمات » كان أحياء الرهبان يحتفرون لأنفسهم فى صخور الجبل معابد يعتزلون فيها الدنيا ويعيشون فى تراخ وسلام، بمنجاة من عوامل الجو ومن لفحة الشمس ووهجها ؛ ونستطيع أن نتبين مدى قوة الحافز الدينى فى الهند إذا لحظنا أنه قد بقى لنا أكثر من ألف ومائتى معبد من هذه المعابد الكهفية ، بقى هذا العدد لنا من عدة ألوف بنيت فى القرون الأولى بعد ميلاد المسيح ، بعضها للجانتيين والبراهمة ، لكن معظمها للجماعات البوذية ، وفى معظم الحالات ترى مداخل هذه الأديرة (أو الفهارات كما يسمونها) بوابة ساذجة على هيئة حدوة الفرس أو قوس زهرة اللوتس ؛ وأحياناً — كما هى الحال فى « ناسيك » — يكون المدخل واجهة مزخرفة ، قوامها أعمدة قوية ورءوس حيوان وعَتَبٌ منجوت نحتاً تتطلب صبراً لا ينفد ،



بهو شايتيا من الداخل – كهف ٢٦ فى جانتا



القبة من الداخل في معبد تجاهبالا – في جبل آبو

وكثيراً ما كانوا يزينون المدخل بأعمدة وأستار حجرية وبوابات غاية فى جمال التصوير(٧٤) ، وأما الداخل ففيه « شايتيا » أى قاعة للاجتماع بأعمدة تفصل الوسط عن الجانبين ، وعلى كلا الجانبين حجيرات للرهبان ، وفى الطرف



معبد فيمالا صاح فى جبل أبو

الثانى من الداخل مذبح عليه بعض الآثار القديمة(*) ومن أقدم هذه المعابد الكهفية ، وقد يكون أجلها جميعاً ، معبد فى «كارل» الواقعة بين «پونا» و «بمباى» ، فى هذا المعبد أنتجت بوذية «هنايانا» أروع آياتها الفنية .

وأما كهوف «أجانتا» ففضلا عن كونها مخازن لأعظم الصور البوذية ، فهى كذلك تضارع «كارل» فى كونها أمثلة لذلك الفن المركب من جانبين : فنصفه عمارة ونصفه نحت ، وهو ما يميز معابد الهند ؛ ففى الكهفين رقم (١) ورقم (٢) قاعات فسيحة للاجتماع ، سقوفها — المنحوتة والمرسومة بزخارف رصينة لكنها رشيقة — قائمة على عمد منقوشة بخطوط محفورة ، مربعة عند أسفلها مستديرة عند قمتها ، مزخرفة برسوم من الزهر ومتوجة برءوس لها فخامتها(٧٥) ويتميز الكهف رقم (١٩) بواجهة أتقنت زخرفتها بتماثيل بديعة ورسوم بارزة مشتبكة الأجزاء(٧٦) ، وفى الكهف رقم (٢٦) تنهض أعمدة إلى إفريز متوج بتماثيل منحوتة فى دقة تفصيلية يستحيل أن تتم إلا إن توفرت لها الحماسة الدينية والفنية فى آن معاً(٧٧) ؛ فلا تكاد تجد ما يبرر لك أن تسلب «أجانتا» الحق فى أن تعدّ واحدة من أعظم ما خلف تاريخ الفن من آثار .

وأفخم المعابد البوذية الأخرى التى لا تزال قائمة فى الهند ، البرج العظيم فى «بوذ — جايا» ، وقيمته فى أقواسه المصطبغة بصبغة قوطية خالصة ، ومع ذلك فتاريخها يرجع — فيما يظهر — إلى القرن الأول الميلادى(٧٨) .

وأهم ما تتميز به العمارة البوذية على وجه الجملة هو أنها مفككة ، وجلالها فى تماثيلها قبل أن يكون فى بنائها ؛ ويجوز أن تكون روح التزمت الدينى العالقة بها هى التى جعلتها فى ظاهرها منفرة للعين عارية عما يجذب النظر ؛ وأما الجانتيون فقد توجهوا بعناية أكبر من عناية البوذيين ، إلى فن العمارة ، وكانت

(*) تطابق هذا الداخل مع داخل الكنائس المسيحية قد أوحى بإمكان أن يكون الفن الهندى أثر فى فن العمارة المسيحيا(٧٤) .

معابدهم خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر أجمل معابد الهند على الإطلاق



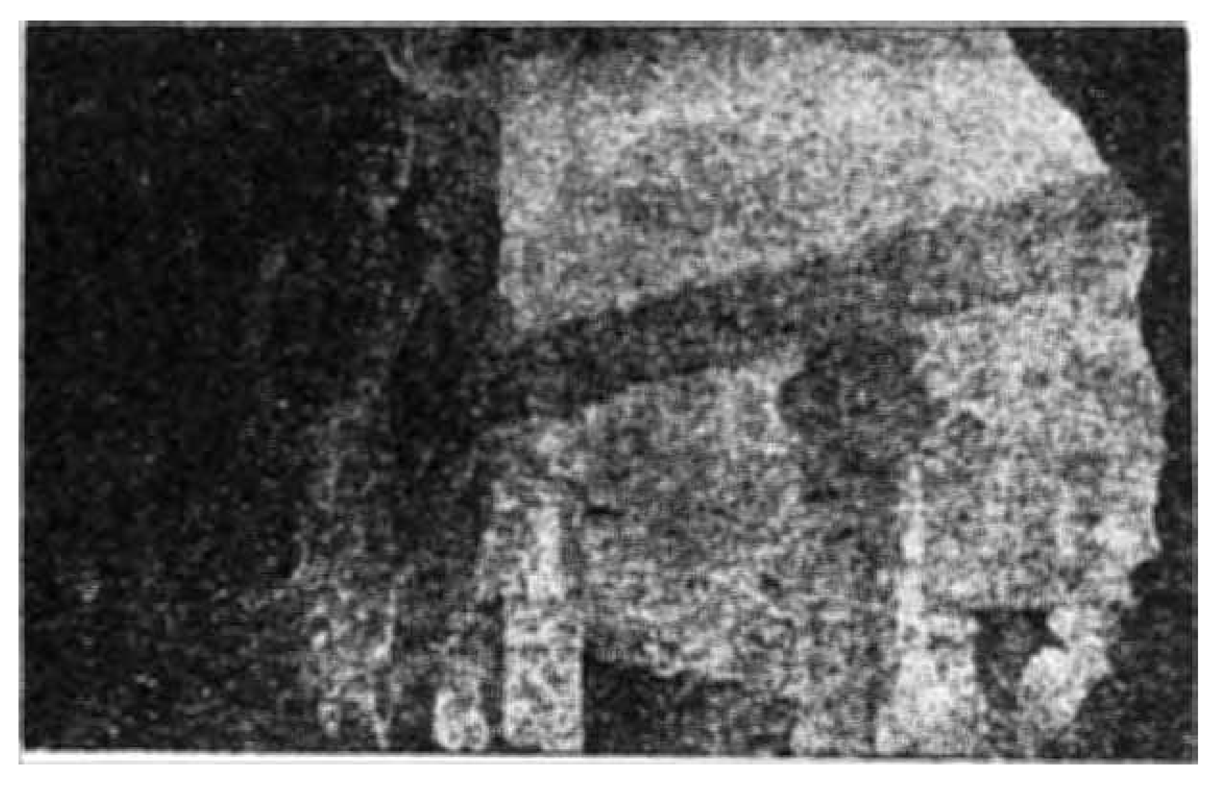
كهف ٥ ١٩ في آچانتا

وهم فى بادئ أمرهم لم يخلقوا لأنفسهم نمطاً فى العمارة خاصاً بهم ، واكتفوا فى البداية بمحاكاة الطريقة البوذية (مثال ذلك ما نراه فى إكوار) التى تحتفر المعابد فى صخور الجبل ، ثم بمحاكاة معابد فشنو وشيفا ، وهى على نمط يتميز بأنه يقوم على مجموعة من الجدر فوق نشز من الأرض ؛ هذه المعابد كانت بسيطة الظاهر ، لكنها كانت كثيرة التفصيلات غنية الفن من الباطن - ولعلها فى ذلك أن تكون رمزاً موفقاً للحياة المتواضعة ، وأخذ الناس يندفعون بروح التقوى فيضيفون إلى هذه المعابد تمثالا فى إثر تمثال مما يخلد أبطال الجانتية ، حتى لقد بلغ عددها فى « شاترونجايا » - حسب إحصاء فيرجسون - ستة آلاف وأربعمائة وتسعة وأربعين تمثالا(٧٩) .

وأما المعبد الجانىّ فى « أيهول » فيكاد يكون إغريقى النمط ، بصورته الرباعية الأضلاع ، وأعمدته الخارجية ، ومدخله ، والغرفة الداخلية ، أو إن شئت فقل الحجيرة التى تتوسطه من الداخل(٨٠) ؛ وقد أقام الجانتيون والفشناويون والشيفاريون فى « خاجوراهو » ما يقرب من ثمانية وعشرين معبد قريباً بعضها إلى بعض ، كأنما أرادوا بها أن يضربوا مثلا لروح التسامح الدينى فى الهند ؛ وبين تلك المعابد معبد « پارشوانات »(٨١) الذى يبلغ درجة الكمال ، وهو ينهض مخروطاً فوق مخروط حتى يبلغ ارتفاعاً هائلا ، ويؤوى فى جدرانه المحفورة مدينة حقيقية من القديسين الجانتيين ؛ وقد أقام الجانتيون على جبل « أبُو » وارتفاعه فوق صدر الصحراء أربع آلاف قدم ، معابد كثيرة منها اثنان باقيان ، هما معبد « ڤيالا » ومعبد « تجاه پالا » ، يعدّان أعظم ما أبدعته هذه الطائفة فى مجال الفنون ؛ فقبة الضريح « تجاه پالا » من الأشياء التى توقع فى نفس الرائى أثراً عميقاً يتضاءل أمامه كل ما يكتب عن الفنون بحيث يصبح تافهاً عاجزاً(٨٢) ؛ وأما معبد « ڤيالا » المبنى كله من المرمر الأبيض فمؤلف من خليط من أعمدة لا يطرد فيها نظام ، ترتبط بأقواس أبدعها الخيال

العجيب بمصاطب منحوتة نحتاً أميل إلى البساطة ، وفوق الأعمدة قبة من المرمر بولغ فى حفرها بالتماثيل الكثيرة لكن حفرها بلغ من الرقة حداً يروعك جلاله وأنت تستعرضه ؛ ويقول فيه « فيرجسون » : « إن النحت قد أتقنت تفصيلاته وأجيدت زخرفته ؛ حتى ليجوز لنا أن نقول إنه ليس فى العالم كله ما يفوقه فى ذلك ؛ إذ النقوش التى زخرف بها المعماريون مُصَلّى هنرى السابع فى وستمنستر أو فى أكسفورد ، تعتبر غليظة بغيضة إذا قورنت بنقوش ذلك المعبد[٨٣] .

ونستطيع أن نلحظ فى هذه المعابد الجانتيّة ومعاصراتها ، مرحلة الانتقال من صورة الضريح البوذى المستديرة إلى نمط البرج الذى ساد فى عصور الهند الوسطى فقاعة الاجتماع المحاطة بأعمدة من الداخل جاءوا بها إلى الخارج حيث تحولت إلى ممشى عند المدخل ، ثم تقع الحجيرة خلف هذا الممشى ، ويرتفع فوقها البرج المعقد المنحوت فى مستويات تقل مساحة كلما ازدادت ارتفاعاً ؛ وعلى هذا التصميم بنيت معابد الهندوس فى الشمال ، وأوقع مجموعة من هذه المعابد فى نفس الرائى ، هى المجموعة المسماة (بهوفانشوارا) فى إقليم « أوريسا » وأجمل معبد فى هذه المجموعة هو معبد « راجارانى » الذى أقيم للإله « فشنو » فى القرن الحادى عشر الميلادى وهو عبارة عن برج شامخ يتألف من أعمدة نصف دائرية ملاصق بعضها لبعض تغطيها التماثيل وتعلوها طبقات من الحجر تتناقص حجماً كلما ازددنا معها صعوداً ، وبهذا يكون البرج منحنياً إلى الداخل ومنتهياً بتاج دائرى كبير ومسلة ؛ وبالقرب منه يقع معبد « لنجاراجا » وهو أكبر من معبد « راجارانى » لكنه لا يبلغ فى الجمال مبلغه ، ومع ذلك فكل نقطة من مسطح البناء قد مرّت عليها يد النحات بإزميلها ، حتى لقد قدرت تكاليف النحت ثلاثة أمثال تكاليف البناء ذاته[٨٤] فالهندوسى لم يعبّر عن تقواه بضخامة معابده الجبارة وحدها ، بل أضاف إلى الضخامة تفصيلات فنية احتاجت فى إخراجها إلى صبر طويل ، فلم يكن عنده شىء يَضِنّ به على الإله مهما بلغت نفاسته ؛



«كهوف إلفانتا» بالقرب من بمباي

وإنه لمن البغيض إلى النفس أن نذكر قائمة آيات البناء الهندوسي في الشمال غير التي ذكرناها ، دون أن نذكر أوصافها التي تتميز بها ، وأن نمثلها بصورها الفوتوغرافية ؛ ومع ذلك فيستحيل على من يسجل المدنيّة الهندية أن يغض الطرف عن معابد « سوريا » في « كانارك » و « موزيرا » ، وعن برج « چاجانات پوري » ، وعن البوابة الجميلة في ڤادناجار »[٨٥] والمعبدين الضخمين « ساس - باهو » و « تلي - كار - مانديرا » في « جواليور »[٨٦] وقصر « راجا مان سنج » وهي أيضاً في « جواليور »[٨٧] « وبرج النصر » في شيتور[٨٨] ، ولا تستطيع العين أن تخطئ معابد الشيڤاويين في « خاجوراهو » ؛ وفي المدينة نفسها ترى القبة الكائنة عند دهليز المدخل في معبد « خانوارماث » ، وهي تدل دلالة جديدة على قوة الفتوة السارية في العمارة الهندية ، وعلى ما في النحت الهندي من غزارة تفصيلات وصبر في الصناعة[٨٩] ؛ وعلى الرغم من أن معبد شيڤا في « إلفانتا » لم يبق منه إلا أنقاض ، فهو دليل بأعمدته الضخمة المحفورة ، ورءوس الأعمدة التي على شكل نبات الفُطْر ، ونقوشه البارزة التي لا يفوقها شيء في بابها ، وتماثيله القوية[٩٠] هو بهذا كله دليل على عصر قويت فيه الروح القومية ، وازدادت المهارة الفنية على نحو لا يكاد يعلق منه بالذاكرة شيء ؛

إنه ليستحيل علينا إلى الأبد أن نقدر الفن الهندي حق قدره ، لأن الجهل والتعصب قد قضيا على أعظم آثاره ، ثم كادت تدمر البقية الباقية منه ؛ ففي « إلفانتا » أثبت البرتغاليون تقواهم بتحطيم التماثيل والنقوش البارزة على نحو من الهمجية لم يعرف حدوداً يقف عندها ؛ وتكاد لا تجد مكاناً في الشمال لم يقوض فيه المسلمون تلك الروائع الباهرة التي يجمع رأي الرواة على أنها كانت أرفع قدراً من آيات العهد الذي تلا عهدها ، مع أن هذه الأخيرة تثير فينا اليوم شعور العجب والإعجاب ؛ لقد أطاح المسلمون برءوس التماثيل ، ثم حطموها عضواً عضواً ، وعدلوا من الأعمدة الرشيقة التي كانت في معابد الجانتيين[٩١]

بحيث تصلح لمساجدهم ، ثم قلدوها إلى حد كبير فيما صنعوه لأنفسهم ؛ لقد تعاون الزمن والتعصب على عملية الهدم ، ذلك لأن الهندوس المتمسكين بأصول عقيدتهم هجروا وأهملوا المعابد التي دنستها أيدي الأجانب حين مسّتها(٩٢) .

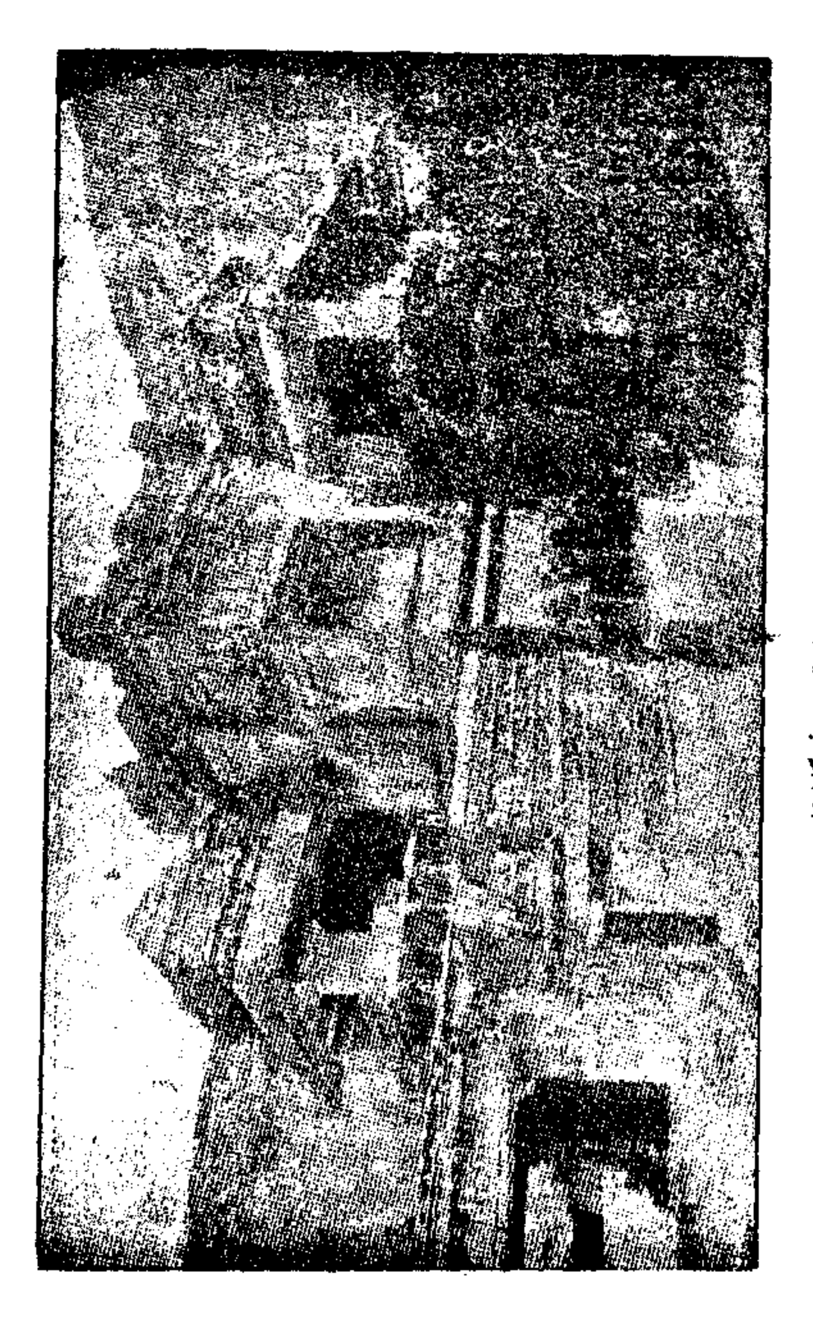
لكنه في مقدورنا أن نحدس كم بلغت العمارة الهندية في الشمال من عظمة مفقودة ، وذلك استدلالا من الأبنية القوية التي لاتزال قائمة في الجنوب ، حيث الحكم الإسلامي لم يتوغل إلا إلى حد ضئيل ، وحيث أدى إلف المسلمين لأوضاع في الهند إلى الحد* من كراهيتهم لأساليب الحياة عند الهندوس ؛ زد على ذلك أن العصر الزاهر لعمارة المعابد في الجنوب ، جاء في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، بعد أن راض « أكبر » المسلمين وعلمهم بعض الشيء كيف يقدرون الفن الهندي ؛ فنتج عن ذلك أن أصبح الجنوب غنياً بمعابده ، التي تسمو عادة على قريناتها التي ما زالت قائمة في الشمال ، وتزيد عليها ضخامة وروعة ؛ ولقد أحصى « فيرجسون » نحو ثلاثين معبداً « دراڤيديا » أي كائناً في الجنوب — كل معبد منها في رأيه لابد أن يكون قد كلف ما تكلفه كاتدرائية إنجليزية من النفقات(٩٣) ؛ واصطنع الجنوب أنماط الشمال بأن جعلوا أمام الدهليز (ويسمونه ماندا پام) (بوابة واسمها جوپورام) ودعموا الدهليز بأعمدة أسرفوا في كثرتها ، وراح هذا الجنوب يستخدم في غير تحفظ عشرات من الرموز ، من الصليب المعقوف « السواستكا »(*) ورمز الشمس وعجلة الحياة ، إلى شتى ضروب الحيوان المقدس ؛ فالثعبان رمز لعودة الروح بالتناسخ لما له من قدرة على تبديل جلده ؛ والثور هو المثل الأعلى المرموق باعتباره رمزاً للقوة التناسلية ، وعضو الذكورة يمثل تفوق « شيڤا » في التناسل ، وكثيراً ما كانوا يخلعون صورته على المعبد كله .

(*) « سواستكا » كلمة سنسكريتية ، مركبة من « سو » ومعناها طيب « وآستي » ومعناها حياة ؛ وهذا الرمز لم يزل يظهر في عصور التاريخ في صنوف من الشعوب مختلفة ، منها البدائي ومنها الحديث ، إذ يتخذه الناس عادة رمزاً للحياة الطيبة أو الحظ السعيد .

ويتألف تصميم البناء فى هذه المعابد الجنوبية من ثلاث عناصر : هي البوابة ، والدهليز ذو الأعمدة والبرج (ڤيانا) الذى يحتوى على قاعة الاجتماع السياسية أو الحجرة ؛ ولو استثنينا حالات قليلة مثل قصر (« تيرومالاناياك » فى « مادورا ») وجدنا كل العمارة فى جنوب الهند كهنوتية ، ذلك لأن الناس لم يُعْنِهم كثيراً أن يبنوا دوراً فخمة لأنفسهم فتوجهوا بفنهم إلى الكهنة والآلهة ؛ ولن نجد مثلاً أوضح من هذا نبين به كيف كانت الحكومة الحقيقية فى الهند كهنوتية بطبعها ؛ فلم يبق لنا إلا معابد من الأبنية الكثيرة التى أقامها الملوك الشالوكيون وشعبهم ؛ ولا يستطيع أن يصف التناسق الجميل الذى تراه فى ضريح « إتاجى » فى حيدر أباد(٩٤)(*) أو المعبد القائم فى « سمناثپور » فى إقليم « ميسور »(٩٦) الذى نقشت فى صخوره الضخمة الجبارة نقوش رقيقة كأنها الوشى ، أو معبد « هويشا ليشوارا » فى « هاليبيدا »(٧٩) وهى أيضاً فى إقليم « ميسور » — أقول لا يستطيع أن يصف التناسق البديع فى هذا كله ، سوى هندوسى ورع طلق اللسان ؛ ويقول « فيرجسون » عن هذا المعبد الأخير « إنه أحد الأبنية التى يتخذها المدافع عن العمارة الهندية حجة تؤيد دفاعه » ثم يضيف إلى ذلك قوله : إن فى هذا المعبد « ترى الفن فى مزج الخطوط الأفقية بالخطوط الرأسية ، وترى تصرف الفنان فى التخطيط وفى النور والظل ، مما يفوق بكثير أى أثر من آثار الفن القوطى ؛ فوقع هذا المعبد فى نفس الرائى هو بالضبط ماكان يصبو إليه مهندسو العمارة فى القرون الوسطى ، لكنهم لم يبلغوا منه قط هذه الدرجة من الكمال التى تراها فى هاليبيدا »(٩٨) .

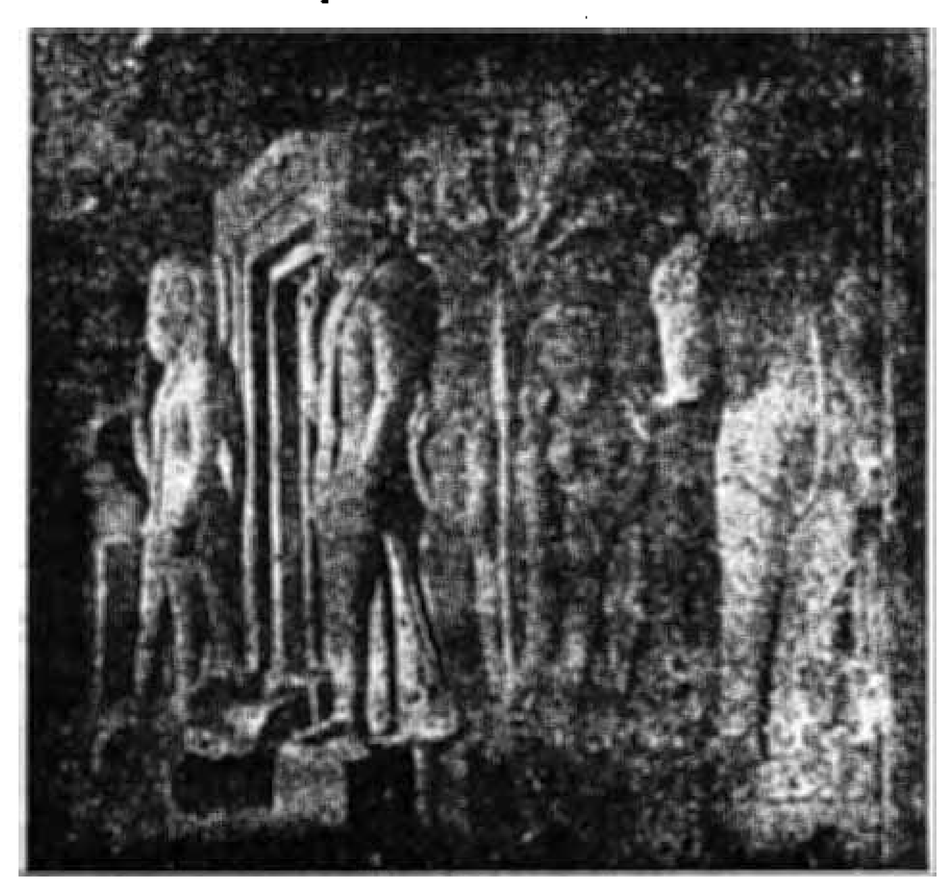
ولقد عجبنا لهذا الورع الدءوب الذى فى مستطاعه أن يحفر ألفاً وثمانمائة

(*) فهاهنا — كما يقول « مدوزتيلر » — « ترى النحت على بعض العُمُد والنقوش فى عتبات الأبواب وسقوفها ، يعز عن الوصف ، فيستحيل أن تجد زخرفة فى فضة أو ذهب أجمل من هذه النقوش ؛ ولسنا ندرى اليوم أبداً بأى الآلات أمكن لهذا الصخر الشديد الصلابة ، القدرة أن يصاغ ويصقل بحيث يكون كما هو الآن » (٩٥) .



المعبد المنحوت في الصخر في كايلاسا

قدم من إفريز فى معبد « هاليبيد » وأن يصور فيها ألنى فيل ، كل فيل منها يختلف عن كل ما عداه(٩٩) فماذا نقول فى الصبر والشجاعة اللذين استطاعا أن يضطلعا بحفر معبد بأسره من الحجر الأصم ؟ ومع ذلك فقد كان هذا عملا شائعاً لدى صنّاع الهنود ، فقد نحتوا فى « ممالابورام » على الساحل الشرقى بالقرب من « مدراس » عدة معابد (مما يسمى پادوجا) أجملها معبد « ذارما — راجا — راذا » ومعناها دير لأسمى الطوائف الدينية ، وفى « إلورا » — وهو مكان يحج إليه المتعبدون فى حيدر أباد — تنافس البوذيون والجانتيون والهندوس المتمسكون بعقيدتهم الأصلية ، فى احتفار معابد كبيرة ذات حجر واحد ،



الآلهة الحارسة بمعبد إلورا

من صخور الجبال؛ وأفخم هذه المعابد هو الضريح الهندوسي في «كايلاشا»[١٠٠] وقد أطلق عليه هذا الاسم نقلا عن اسم الجنة الأسطورية التي تتبع «شيفا» في جبال الهملايا؛ فها هنا ترى البنائين قد حفروا في غير كلل مائة قدم في جوف الصخر، ليفرغوا المكان حول الجلمود المطلوب – وكتلته مائتان وخمسون قدماً في الطول ومائة وستون قدماً في العرض – لتحويله إلى معبد؛ وبعدئذ حفروا الجدران فصيروها أعمدة قوية وتماثيل ونقشاً بارزاً، ثم نقروا جوف الحجر نقراً بالأزميل حتى أفرغوه، وأسرفوا في زخرفة ذلك الداخل بأعجب ألوان الفنون، وليكن النقش الجداري الثابت الخطوط، والذي يطلق عليه اسم «المحبين»[١٠١] مثلا لها، وأخيراً عمدوا إلى حفر سلسلة من المُصلَّيات والأديرة عميقة في الصخر على ثلاثة من جوانب المعبد المحفور[١٠٢]، كأن ما صنعوه لم يكف لاستنفاد كل ما يختلج في صدورهم من رغبة في البناء؛ وفي رأي بعض الهندوس[١٠٣] أن معبد «كايلاشا» يضارع أية آية من آيات الفن في تاريخه كله.

ومع ذلك فقد كان هذا البناء سخرة كما كانت الإهرامات من قبل، ولا بد أن يكون قد كلف طائفة كبيرة من الناس عرقهم ودماءهم، وأما الذي دأب بإرادته على هذه الأبنية دأباً لم يعرف الفتور، فالنقابات العالية، أو أصحاب السلطان، لأنهم نثروا في كل إقليم من أقاليم الهند الجنوبية أضرحة جبارة بلغت من كثرة العدد حداً يوقع الحيرة في نفس الدارس أو السائح، حتى لينسى الخصائص القروية التي تميز كل معبد على حدة، إزاء كثرتها وقوتها؛ ففي «باتاداكال» أهدت «الملكة لوكاما هاديفي» – إحدى زوجات «الملك الشلوكيّ فكراماديتيا الثاني» – أهدت إلى «شيفا» «معبد فيروپاكشا» الذي يعد من أسمى المعابد العظيمة في الهند[١٠٤]: وفي «تانجور» جنوبي «مدراس» اقتسم «الملك الكوليّ» «راجا راجا العظيم» – بعد أن فتح جنوبي الهند كله وجزيرة سيلان – اقتسم ما ظفر به من غنائم مع الآلهة «شيفا» بأن

أقام له معبداً جليلا صُمِّمَ بناؤه على أساس أن يمثل الرمز التناسلى للثالث الإله[١٠٥](*)؛ وبالقرب من « تريكبنوپولى » إلى الغرب من تانچور — أقام عُبّاد « ڤشنو » معبد « شيرى رانجام » على تل عال ، أخص خصائصه المميزة « مانداپام » (قاعة ذات أعمدة كثيرة) على هيئة « قاعة من ذوات الألف عمود » وكل عمود منها كتلة واحدة من الجرانيت ، حفر بالنقوش المعقدة ؛ وكان الصناع الهندوس لا يزالون ماضين فى عملهم ليتمموا بناء هذا المعبد ، حين جاءت رصاصات الفرنسيين والإنجليز الذين كانوا يقاتلون فى سبيل امتلاك الهند فَفَرّقَتْهم ، وانتهى بذلك عملهم[١٠٦]؛ وعلى مقربة من ذلك المكان — فى مادورا — أقام الشقيقان « موتو » و « تيرومالا ناياك » ضريحاً فسيحاً لشيڤا ، فيه قاعة أخرى بألف عمود وحوض مقدس ، وعشر بوابات ، منها أربع ترتفع ارتفاعاً هائلا ، وقد نحتت بعدد كبير متشابك من التماثيل ؛ وهذه الأجزاء مجتمعة تؤلف منظراً من أشد المناظر وقعاً فى النفس مما عساك أن تصادفه فى الهند ؛ ويحق لنا أن نحكم استدلالا من هذه النتف الباقية ما كانت عليه العمارة أيام ملوك « ڤيچاياناجار » من خصوبة فنية واتساع ؛ وأخيراً ترى فى « رامش ڤارام » وسط مجموعة الجزائر التى يتكون منها « جسر آدم » الواقع بين الهند وسيلان ، أقام براهمة الجنوب خلال خمسة قرون (١٢٠٠ — ١٧٦٩ ميلادية) معبداً زُخْرِف محيطه بأروع ما قد تصادفه من أبهاء أو ممّاشٍ — وطول هذا البهو أربعة آلاف قدم من العُمُد المزدوجة ، نحتت نحتاً غاية فى الجلال وأريد بها فى تصميمها أن تنوء بظل بارد ، وأن تمكن من مشاهدة مناظر رائعة للشمس والبحر ، للملايين الحجاج الذين يلتمسون سبلهم إليها من مدن بعيدة حتى يومنا هذا لكى يتقدموا بآمالهم وآلامهم خشّعاً أمام آلهة لا تعبأ مما لهم من آمال وآلام .

(*) قمة المعبد جلمود صخرى واحد مساحته خمس وعشرون قدماً ويزن حوالى ثمانين طناً ؛ ويقول الرواة الهندوس إنهم رفعوا الحجر إلى مكانه بسحبه على سفح مائل مسافة طولها أربعة أميال إلى أعلى : والأرجح أن تكون الصخرة قد فرضت على من قام بهذا وأمثاله بدل الآلات « التى تستعبد الإنسان » .

٢ — العمارة فى « المستعمرات »

سيلان — جاوه — كمبوديا — الخمارسة — دياتهم —
أنكور — سقوط الخمارسة — سيام — بورما

على أن الفن الهندى قد صحب الديانة الهندية فى عبورها للمضايق والحدود ، حتى بلغا معاً سيلان وجاوه وكمبوديا وسيام وبورما والتبت وخوتان وتركستان ومنغوليا والصين وكوريا واليابان ؛ فنى آسيا تخرج الطرق كلها من الهند »[١٠٧] فقد استقرت جماعات هندوسية جاءت من وادى الكنج ، فى جزيرة سيلان فى القرن الخامس قبل المسيح ؛ وبعد ذلك التاريخ بمائتى عام أرسل أشوكا بابنه وابنته ليحولا أهل تلك الجزيرة إلى البوذية ، وعلى الرغم من أن هذه الجزيرة الغاصّة بسكانها اضطرت إلى مقاومة الغزوات « التاميليّة » خمسة عشر قرناً ، فقد استطاعت أن تحتفظ بثقافة خصبة حتّى جاء البريطانيون واستولوا عليها سنة ١٨١٥ .

بدأ الفن السنغالى بما يسمى « داجوبات » — والداجوبا ضريح قديم ذو قبة يشبه « أكمة المدافن » عند بوذيى الشمال ، ثم تطورت « الداجوبات » حتى أصبحت معابد عظيمة تميز بآثارها العاصمة القديمة « أنوراذابورا » وقد كان مما أنتجه ذلك الفن عدد من تماثيل بوذا تعدّ بين أجمل التماثيل البوذية[١٠٨] كما أنتج « تشكيلة » كبيرة من التحف الفنية ، ثم بلغ ختامه موقتاً حين أقام آخر ملك عظيم حكم سيلان — وهو الملك « شرى راجا سنْغا » — « معبد السّن » فى « كاندى » ؛ وكان من أثر فقدان البلاد استقلالها أن دبّ الانحلال فى الطبقات العليا ، فاختفت من سيلان تلك الرعاية وذلك الذوق اللذان لا بد منهما ليكونا حافزين وضابطين للفنان فى عمله[١٠٩] .

والعجيب أن أعظم المعابد البوذية — وقد يزعم بعض الباحثين أنه أعظم

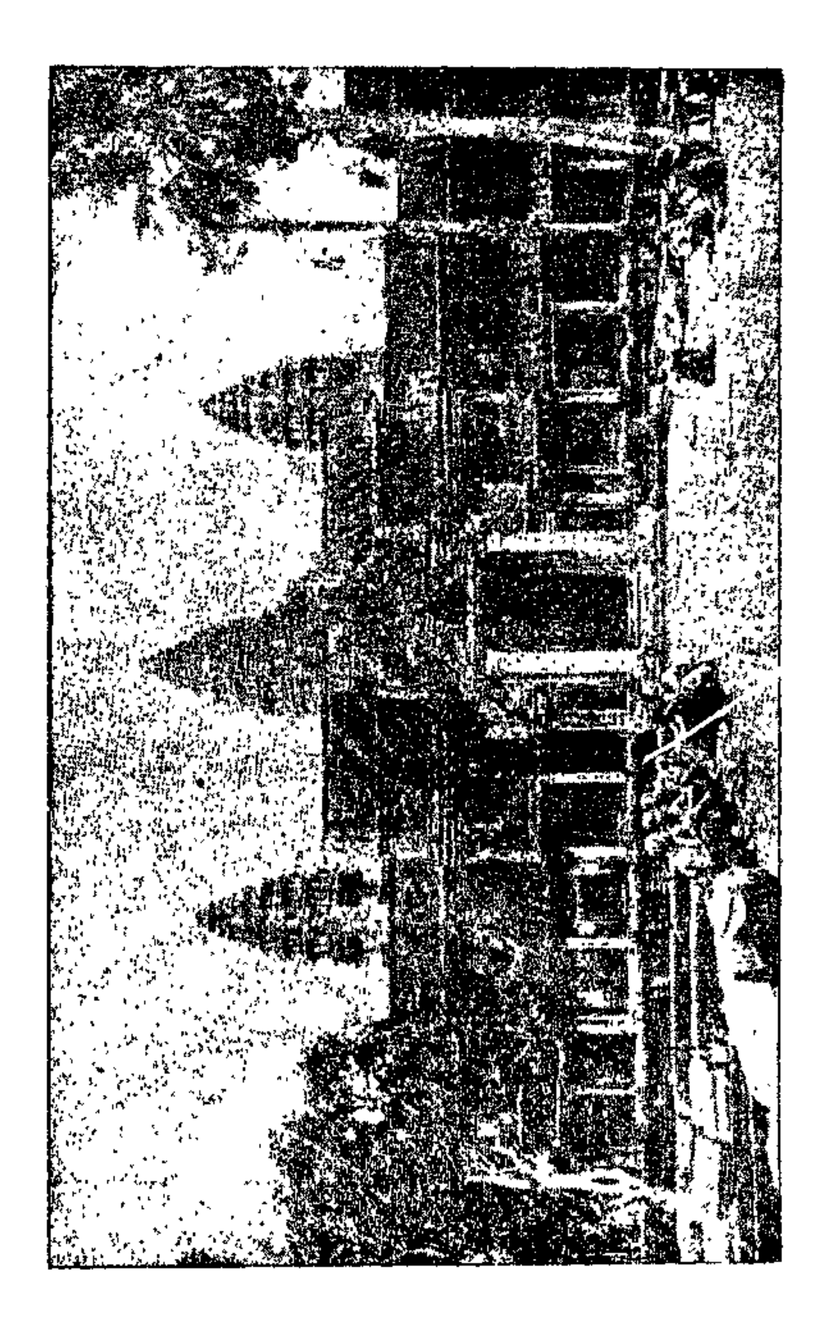
المعابد إطلاقاً في العالم كله(١١٠) — ليس في الهند بل تراه في جاوه ؛ ففي القرن الثامن فتحت أسرة « شايلندرا » السومطرية جزيرة جاوه ، وأقامت فيها البوذية ديانة رسمية ، وأعدت المال اللازم لبناء المعبد الضخم في « بوروبودور » (ومعناها بوذون كثيرون)(١١١) ، والمعبد في ذاته معتدل الحجم غريب التصميم فهو عبارة عن « أكمة للمدافن » صغيرة يعلوها ما يشبه القبة ، وتحيط بها اثنتان وسبعون أكيمة رُصّت حولها في دوائر متحدة المراكز ؛ ولو كان هذا كل شيء لما كانت « بورو بودور » شيئاً مذكوراً ؛ أما ما يخلع الجلال على البناء فقاعدته التي تبلغ مساحتها أربعمائة قدم مربعة ، فهي مصطبة عظيمة تتألف من سبع درجات تتدرج صغراً كلما علوت معها ، وفي كل درجة منها أركان للتماثيل ، حتى لقط عَنّ لمن قاموا بنحت التماثيل في «بوروبودور» أن يقيموا تمثال بوذا في هذا الركن أو ذاك أربعمائة وستاً وثلاثين مرة ، ولم يكفهم كل هذا ، فنحتوا في جوانب الدرّج ثلاثة أميال من النقوش البارزة يصورون بها ما ترويه الأساطير عن مولد صاحب القصيدة ونشأته وإشراق الحقيقة عليه ، وأظهروا في كل ذلك مهارة جعلت هذه النقوش البارزة من أبدع مثيلاتها في آسيا(١١٢) ؛ وبلغت العمارة الجاوية أوجها في هذا الضريح البوذي الجبار ، والمعابد البرهمية المجاورة في « پرامبانام » ، ثم انحدرت بعدئذ انحداراً سريعا ، فقد كانت جزيرة جاوه حيناً من الدهر قوة بحرية ، فارتفعت إلى الثروة والترف ، ورعَت في ظلها كثيراً من الشعراء ؛ لكن ما جاءت سنة ١٤٧٩ حتى أخذ المسلمون يعمرون هذا الفردوس الإستوائي ، ومنذ ذلك الحين لم تنتج فناً ذا خطر ، ثم وثب فيها الهولنديون سنة ١٥٩٥ ، وجعلوا يستولون عليها إقليما بعـــد إقليم مدى القرن التالي لذلك التاريخ ، حتى بسطوا عليها سلطانهم كاملا .

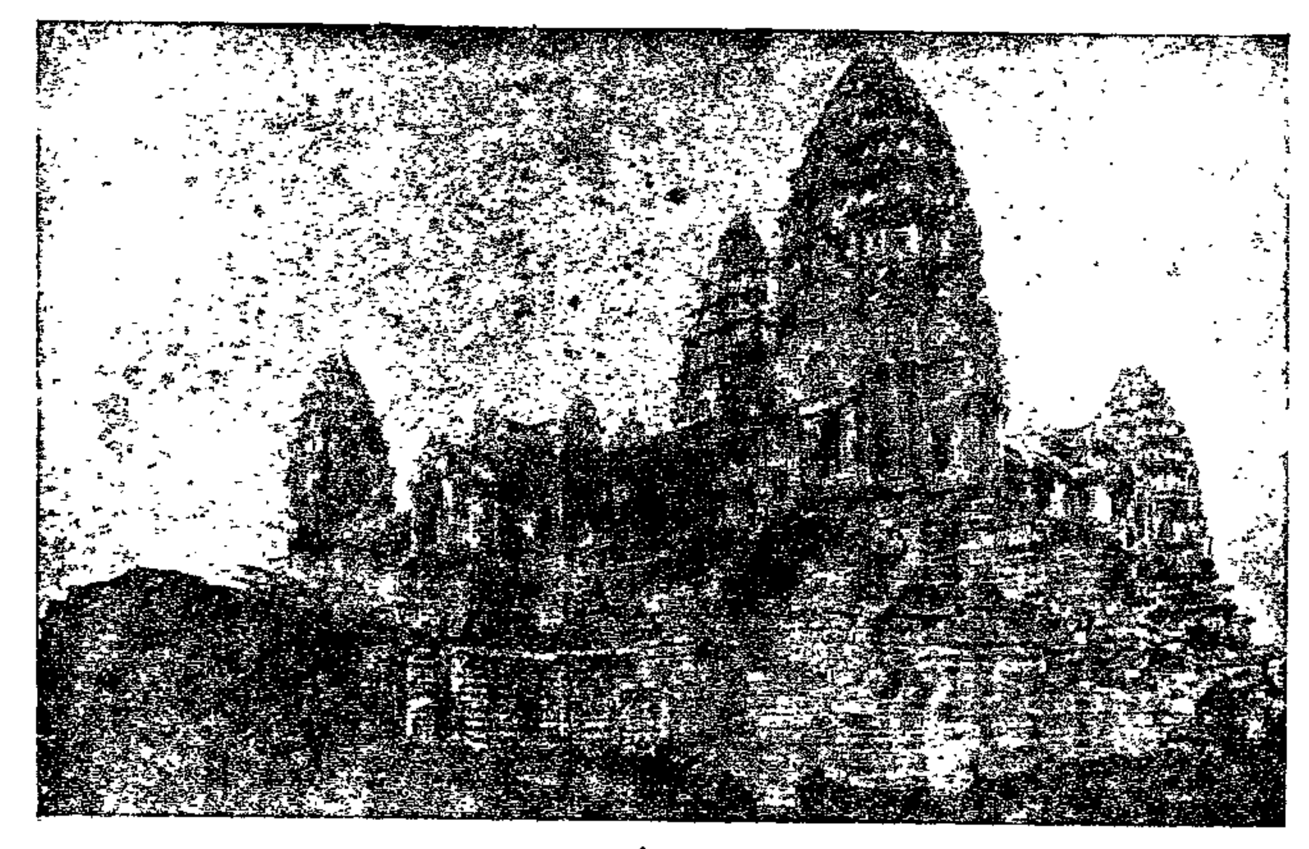
ولا يفوق معبد « بورو بودور » إلا معبد هندوكيّ واحد ، وهو أيضا ليس في الهند ، ولو أن هذا المعبد قد طمسته الغابة البعيدة التي اكتنفته بأشجارها

مدى قرون عدة ، حتى جاء مستكشف فرنسي سنة ١٨٥٨ ، وهو يشق لنفسه الطريق خلال الجزء الأعلى من وادى نهر ميكونج ، وعندئذ وقع بصره ، خلال الأشجار والغصون ، على منظر بدا له معجزة من المعجزات ، إذ رأى معبداً ضخما يبلغ فى تصميم بنائه حداً من الجلال لا يكاد يصدقه العقل ؛ رآه قائماً وسط الغابة ، تلتف حوله : وتكاد تخفيه أغصان الشجر وأوراقه ، وشهد فى ذلك اليوم معابد كثيرة كان بعضها قد غطته الأشجار فعلا أو شقته نصفين ؛ فالظاهر أن هذا المستكشف قد وصل فى آخر لحظة يمكن فيها أن يحول دون انتصار الأشجار الملتفة على هذه الآيات التى أبدعتها يد الإنسان ، ولم يؤمن أحد بصدق ما رواه هذا الرحالة « هنرى موهو » حتى ذهب إلى المكان غيره من الأوربيين وأيدوا روايته ؛ وبعدئذ هبطت بعثة علمية على ذلك المكان الذى قد كان يوماً صومعة مسكونة ، وقامت مدرسة بأسرها فى باريس ، هى « مدرسة الشرق الأقصى » كرست نفسها لرسم هذا البناء المستكشف ودراسته ؛ هذا هو « أنجوروات » الذى يعد اليوم أعجوبة من أعاجيب العالم(*) .

كان يسكن الهند الصينية ، أو كمبوديا ، فى نهاية التاريخ المسيحى ، قوم أغلبهم من الصينيين ، ومنهم فريق من أهل التبت ، وكان هؤلاء السكان فى جملتهم يسمون بالخمارسة (أو الكمبوجيين) ؛ فلما زار « تشيو — تا — كوان » — وكان يسفر لقبلاى خان — عاصمة « خامر » واسمها « انكورثوم » وجد حكومة قوية تحكم أمة جمعت ثراءها من أرزها وعرقها ، ويقول « تشيو » إن ملكهم كانت له خمس زوجات « إحداهن خاصة ، والأربع الأخريات يقابلن الجهات الرئيسية الأربع » كما كان له نحو أربعة آلاف حظية يحددن أوضاع إبرة البوصلة على تفصيل أدق[١١٤] ، وكانت البلاد تزخر بذهبها

(*) فى سنة ١٦٠٤ روى مبشر برتغالى عن صيادين أنهم رووا له عن خرائب فى الغابة ؛ وكذلك قال قسيس آخر قولا شبيهاً بهذا سنة ١٦٧٢ ، لكن هذه الروايات لم يلتفت إليها أحد[١١٣] .





الطرف الشمالي الشرقي من « أنجور وات » في الهند الصينية

وحليها ، والبحيرة مليئة بزوارق النزهة ، وشوارع العاصمة غاصة بالعربات والهوادج ذات الستائر ، والفيلة المطهمة ،وكان سكانها يقربون من المليون ، ومستشفياتهم كانت ملحقة بمعابدهم ، ولكل منها جماعتها الخاصة من ممرضات وأطباء(١١٥) .

ولئن كان السكان صينيين ، فقد كانت ثقافتهم هندية ، تقوم دياناتهم على أساس بدائي هو عبادة الثعبان « ناجا » الذى ترى رأسه المروحية أينما وجهت النظر فى الفن الكمبودى ، وبعدئذ دخل آلهة الهندوسيين الكبار ، الذين يكوّنون الثالوث الهندى وهم براهما ، وڤشنو ، وشيڤا ، دخلوا تلك البلاد عن طريق بورما ؛ وفى الوقت نفسه تقريباً جاء بوذا وارتبط عندهم بڤشنو وشيڤا ، وأصبح إلهاً مقرباً عند الخمارسة ، وتنبئنا النقوش عن الكميات الهائلة من الأرز والزبد والزيوت النادرة التى كان يقدمها الشعب كل يوم إلى القائمين بخدمة الآلهة(١١٦) .

وفى أواخر القرن التاسع ، أهدى الخمارسة إلى الإله شيڤا أقدم ما بقى لنا من معابدهم — معبد بايون — وهو الآن خراب منفر تكسوه إلى نصفه أنواع من النبات الذى يمسك بجذوره فى الجدران فلا يزول عنها ، وأما أحجاره التى وضعت بغير ملاط ، فقد تباعدت فى غضون الألف عام التى انقضت ، حتى نتج عن تباعدها مَطّ فى وجوه براهما وشيڤا ، على نحو جعلها تبدو مكشّرة عن أنيابها فى ابتسامة صفراء لا تليق بالآلهة ، ومن تماثيل هذين الإلهين تكاد تتكوّن الأبراج كلها ، وبعد ذلك بثلاثة قرون استخدم العبيد ومن جاء بهم الملوك من أسرى الحرب فى بناء « أنجوروات »(١١٧) وهى آية فنية تضارع أجمل الآثار المعمارية عند المصريين أو اليونان أو بناء الكاتدرائيات فى أوروبا ، ويحيط بهذا المعبد فندق كبير طوله اثنا عشر ميلا ، ويَعْبُرُ الخندق جسرٌ مرصوف تحرسه ثعابين الناجا المخيفة نحتت من الحجر ، وبعدئذ يجىء جدار مزخرف يحيط بالمعبد ، تتلوه أبهاء فسيحة على جدرانها نقوش

بارزة تقص من جديد حكايات « الماهابهاراتا » و « رامايانا» ثم بعدئذ يجيء البناء نفسه بما له من جلال ، ينهض على رقعة فسيحة ، درجة فوق درجة كأنه هرم مدرج ، حتى يصل إلى حرم الإله الذى يرتفع مائتى قدم ؛ وضخامة الحجم فى هذا المعبد لا تقلل من روعة الجمال ، بل تتعاون الضخامة مع الجمال فيتكون منهما جلال يروع النفس ، ويهز عقل المشاهد الغربىّ هزًّا حتى يتبين فى غموض ذلك المجد القديم الذى ظفرت به المدنية الشرقية يوماً ؛ فقد يستطيع المشاهد أن يرى بعين الخيال تلك العاصمة وقد زخرت بساكنيها ، وبحشد العبيد وهم ينحتون ثقال الأحجار ويجرونها ويرفعونها ، وطوائف الصناع وهم ينقشون النقوش البارزة وينحتون التماثيل فى أناة كأنما يستحيل أن يفلت الزمن من أيديهم قبل أن يفرغوا من عملهم ؛ وجماعة الكهنة وهم يخدعون الناس ويُسرّون عن نفوسهم و « زانيات المعبد » (وما زلن مرسومات على الجرانيت) وهن يغوين الناس ويسرِّين عن نفوس الكهنة ؛ وهل الطبقة العالية وهم يبنون القصور شبيهة ببناء « فنيان آكا » بما له من « شرفة شرفية » فسيحة ؛ ثم يرتفع فوق هؤلاء جميعاً ، بمجهود الناس جميعاً ، الملوك القساة الأقوياء .

كان الملوك بحاجة إلى كثرة من العبيد ، فلم يجدوا بدا من إثارة الحروب الكثيرة ، وكان النصر حليفهم غالباً ، حتى اقترب القرن الثالث عشر من ختامه — وكان ذلك « فى منتصف الطريق » من حياة دانتى — هزمت جيوش سيام هؤلاء الخمارسة ، ونهبوا مدنهم ، وتركوا معابدهم المتألقة وقصورهم الأنيقة خراباً بلقعاً ؛ وترى اليوم قلة من الزائرين يتخللون الأحجار التى تخلخل بنيانها ، ويشاهدون كيف دأبت الأشجار فى صبر لا ينفد على الضرب بجذورها ، أو النفاذ بغصونها فى ثنايا الصخور ، تنزعها بعضها عن بعض شيئاً فشيئاً ، لأن الأحجار ليس فيها ما فى الشجر من رغبة تعمل على تحقيقها فتنمو ؛ ويحدثنا « تشيو — تا — خوان » عن الكتب الكثيرة التى كتبها الناس فى « أنكور » لكنه لم يبق لنا من هذه المؤلفات صفحة واحدة ؛ لأنهم صنعوا

ما نصنعه نحن الآن ، وهو أنهم كتبوا أفكاراً سريعة الزوال على نسيج سريع الفناء ، ومات كل ما قد ظنوا به الخلود ؛ إن النقوش البارزة الرائعة تصور الرجال والنساء وقد لبسوا غلالات وشباكاً ليتقوا البعوض والزواحف الثعبانية الملمس ، أما الرجال والنساء فقد انحدروا إلى فناء ، لا يخلدون إلا على الصخور وأما البعوض والضّبَاب فما تزال باقية .

وعلى مقربة من تلك البلاد تقع سيام التي أخذ شعبها — ونصفه من التبت ونصفه الآخر من الصين - يطرد الخارسة الفاتحين شيئاً فشيئاً ، وارتقى بمدينة قائمة على أساس من الديانة الهندية والفن الهندى ، وبعد أن تغلبت سيام على « كمبوديا » بنى أهلها لأنفسهم عاصمة جديدة ، هى « أيوذيا » على نفس الموقع الذى كانت تقوم عليه مدينة الخمارسة القديمة ؛ ومن هذا المركز وسعوا من نطاق نفوذهم حتى إذا ما دنا التاريخ من عام ١٦٠٠ ، كانت إمبراطوريتهم تشمل جنوبى بورما وكمبوديا وشبه جزيرة الملايو ؛ ووصلت تجارتهم إلى الصين شرقاً وإلى أوروبا غرباً ، وقام فنانوهم بزخرفة المخطوطات ، والرسم على الخشب بدهان « اللُّك » وإحراق الخزف على نحو ما يفعل الصينيون ، والوشى على القماش الحريرى الجميل ، وكانوا أحياناً ينحتون تماثيل من الطراز الأول(*) ؛ ودار التاريخ دورته التى لا يصدر فيها عن هوى ، وإذا بأهل بورما يستولون على « أيوذيا » ويخربونها بكل ما فيها من فنون ؛ فابتنى السياميون فى عاصمتهم الجديدة « بنكوك » معبداً عظيما ، فيه إسراف فى الزخرفة ، لكنه على كل حال إسراف لا يخفى جمال تصميمه إخفاء تاماً

كان أهل بورما من أعظم من شهدت آسيا من بناة للعمارة ؛ فقد جاءوا

(*) مثال ذلك تمثال بوذا الحجرى المدهون باللك وهو فى متحف الفنون الجميلة فى بوسطن » .

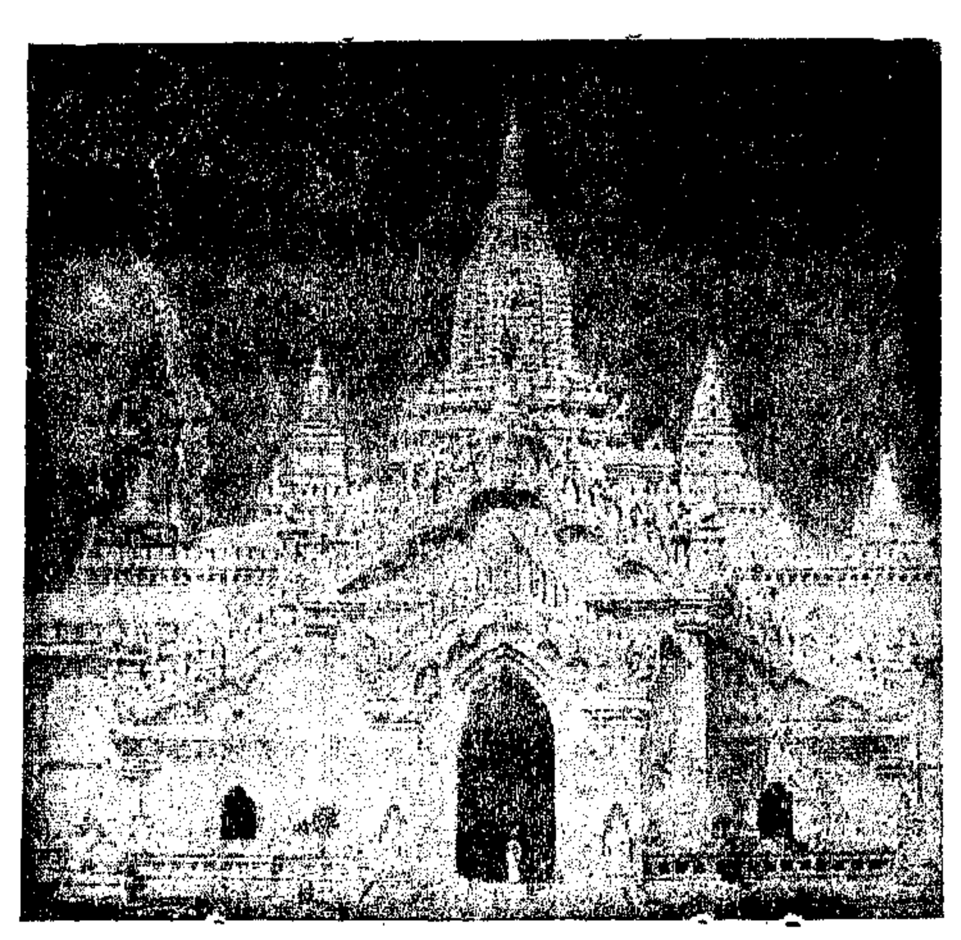
هابطين على هذه الحقول الخصبة من منغوليا والتبت ، فوقعوا تحت تأثير الهنود ، وأخذوا منذ القرن الخامس ينتجون الفنون فى كثرة غزيرة على الطراز البوذية والفشناوية والشيفاوية ، فينحتون التماثيل على غرار هذه الأنماط ، ويقيمون « أكمات المدافن » التى بلغوا بها ذروتهم فى معبد « أناندا » العظيم — وهو أحد المعابد فى عاصمتهم القديمة « پاجان » التى بلغ عدد معابدها خمسة آلاف ؛ لكن « پاجان » هذه وقعت فريسة لقبلاى خان فسلبها سلباً ، ولبثت الحكومة البورمية مدى خمسمائة عام تنتقل من عاصمة إلى عاصمة ؛ فكانت « مندلاى » حيناً من الدهر هى المركز الزاهر للحياة فى بورما ، ومستقر رجال الفن الذين أنتجوا الآيات الروائع فى نواح كثيرة ، من الوشى وصياغة الحلىّ إلى بناء القصر الملكى الذى نهض دليلا على مدى استطاعتهم الفنية فى المادة الهزيلة التى كانت تحت أيديهم ، وهى الخشب[119] ؛ وجاء الإنجليز إذ ساءهم ما عومل به مبشّروهم وتجارهم ، فضموا بورما إلى أملاكهم سنة ١٨٨٦ ، ونقلوا العاصمة إلى « رانجون » ، وهى مدينة تقع فى متناول البحرية الإمبراطورية ، لتؤدبها إذا وقع فيها شىء من العصيان ؛ فشيد البورميون فى « رانجون » ضريحاً يعدّ من أبدع ما لديهم من أضرحة ، وهو « شوى داجون » المشهور ، ذلك المعبد الذهبى الذى يحج إلى قمته الملايين فى إثر الملايين من بوذيى بورما كل عام ، ولم لا ؟ أليس يشتمل هذا المعبد على الشعرات نفسها التى كانت تغطى « شاكيا مونى » ؟

٣ — العمارة الإسلامية فى الهند

الطراز الأفغانى — الطراز المغولى — دلهى — أجرا — تاج محل

شهد الحكم المغولى آخر مراحل النصر التى بلغتها العمارة الهندية ؛ إذ برهن أتباع محمد على أنهم أساتذة فى فن البناء حيثما حلوا بقوة سلاحهم — غرناطة ، والقاهرة ، وأورشليم ، وبغداد ؛ فقد كان المنتظر من هؤلاء الرجال

الأشداء ، بعد أن يوطدوا ملكهم فى الهند على أركان ثابتة ، أن يقيموا على هذه الأرض التى فتحوها مساجد فى تأنق مسجد عمر فى بيت المقدس ، وفى ضخامة مسجد السلطان حسن فى القاهرة ، وفى رشاقة قصر الحمراء ؛ نعم إن الأسرة المالكة « الأفغانية » استخدمت رجال الفن الهنود ، واقتبست أسس الفن الهندوسى بل نقلت العمد من معابد الهنود وعدلت فيها بما يجعلها ملائمة لأغراضهم فى العمارة ، بحيث لم يكن كثير من المساجد سوى معابد هندية أعيد بناؤها لصلاة المسلمين(١١٩) ؛ لكن هذه المحاكاة الطبيعية سرعان



قصر أناندا فى باجان ببورما

ما تحولت إلى طراز يمثل النزعة الإسلامية تمثيلا يبلغ من الدقة حداً يثير فيك العجب أن ترى « تاج محل » فى الهند ، ولا تراه فى فارس أو شمالى إفريقيا أو إسبانيا ؛

والبناء الذى يمثل مرحلة التطور هو « منار قطب »(*) ؛ وهو جزء من مسجد بدئ فى بنائه فى دلهى القديمة بأمر من « قطب الدين أيبك » تخليداً لذكرى انتصارات هذا السلطان السفاك للدماء على الهنود ، ولقد انتزعت أجزاء سبعة وعشرين معبداً هنديا لتتخذ مادة لبناء هذا المسجد ومنارته(١٢٠) ؛ وها قد صمدت المنارة العظيمة لعوامل الجو سبعة قرون ـ ويبلغ ارتفاعها مائتين وخمسين قدماً ، وهى مبنية من الحجر الرملى الأحمر الجميل ، والنسب بين أجزائها هى غاية الكمال ، ويتوجها المرمر الأبيض فى طبقاتها العليا ـ ها هى ذى بعد سبعة قرون من فعل عوامل الجو ، لا تزال آية من آيات الهند فى دقة الصناعة وروعة الفن ؛ وعلى وجه الجملة كان سلاطين دلهى فى شغل بالقتل بحيث لم يبق لهم من وقتهم فراغ طويل ينفقونه فى فن العمارة ؛ وأكثر الأبنية التى خلفوها لنا مقابر أنشأوها لأنفسهم فى حياتهم تذكرهم بأنهم ـ رغم سلطانهم ـ ذائقو الموت كسائر الناس ؛ وخير مثال لهذه المقابر ، مقبرة « شرشاه » فى « ساسيرام » من بلدان « بيهار »(١٢١) فبناؤها شامخ صلب متين ، وهو يمثل آخر مراحل الفن الإسلامى القوى قبل أن تدب فيه الطراوة حين صبحت العمارة حلياً من الحجر على أيدى ملوك المغول .

وجاء « أكبر » بما له من قدرة على الحياد فى مشاعره بحيث يختار من كل ثقافة ما يراه صالحاً ، فشجع الميل السائد نحو دمج الطرز الإسلامية والهندوسية ، وقد تضافرت الأساليب الهندية والفارسية فى الآيات الفنية التى شيدها له فنانوه ، تضافراً جعل بينها اتساقاً رائعاً ، يرمز إلى الامتزاج الضعيف بين عقائد الهندوس وعقائد المسلمين ، كما أراد لها « أكبر » أن تمتزج ، فى

(*) وهى مئذنة مأخوذة من الكلمة العربية منارة ، أى مصباح أو منار السفن .

الديانة التي ركبها تركيباً من عناصر اختار بعضها من هذه وبعضها الآخر من تلك ؛ وأول أثر فني بقي لنا من حكمه ، هو القبر الذي شيده قريباً من دلهي لأبيه « هميون » ، وفيه يتمثل طراز من الفن خاص به - هو بسيط التخطيط ، معتدل الزخارف ، لكنه مع ذلك ينبئ برشاقة بنائه عما ستنتهي إليه الطريق في أبنية « شاه جهان » التي تفوقه جمالا ؛ وفي « فتح پورسيكرى » أقام له فنانوه مدينة امتزجت فيها قوة المغول الأوائل كلها برقة الأباطرة المتأخرين فهناك سُلم يؤدي صعوداً إلى بوابة رائعة بنيت من الحجر الرملي الأحمر ، وخلال قوسها الفخم يدخل الداخل إلى قاعة ملئت بآيات الفن الروائع ، والبناء الأساسي عبارة عن مسجد ، لكن أجمل أجزاء البناء ثلاث مقصورات أعدت لزوجات الإمبراطور المقربات إليه، والقبر المرمري الذي دفن فيه صديقه « سليم شيستى » الحكيم ؛ فها هنا بدأ رجال الفن في الهند يُظهرون تلك المهارة في وشي الحجر التي بلغت ذروتها في الستار الموجود في « تاج محل » .

ولم يسهم « جهان كير » في تاريخ العمارة عند شعبه إلا بقسط ضئيل . أما ابنه « شاه جهان » فقد كاد يجعل من اسمه اسما يضارع اسم « أكبر » في سطوعه لميله الشديد نحو البناء الجميل ؛ فأخذ ينثر ماله نثرا بغير حساب على رجال الفن عنده ، على نحو ما نثر « جهان كير » ماله بغير حساب على زوجاته ؛ وقد صنع ما صنعه ملوك أوروبا الشمالية ، في استدعائه لرجال الفن الإيطاليين الذين فاضوا عن حاجة بلادهم ، وجعلهم يعلّمون رجال النحت في بلاده كيف يطعمون المرمر بفسيفساء من الأحجار الكريمة ، ذلك الفن الذي أصبح أحد مميزات الزخرفة الهندية في عصره ؛ ولم يكن « جهان » مسرفاً في تدينه ، ومع ذلك فمسجدان من أجمل مساجد الهند بنيا في ظل رعايته ، وهما مسجد الجمعة في « دلهي » ومسجد اللؤلؤة في « أجرا » .

وبنى « جهان » في « دلهي» وفي « أجرا » « حصونا » - وهي مجموعات

من القصور الملكية يحيط بها حائط يحميها ؛ فقد دفعته الكراهية الشديدة أن يحطم في دلهي القصور القرمزية التي كانت « لأكبر » وأحل محلها أبنية تراها — في أسوإ جوانبها — ضرباً من المرمر المزخرف كأنه قطع من الحلوى ، لكنها — من أحسن جوانبها — أصفى جمال بلغته العمارة في أرجاء الأرض جميعاً ؛ فها هي ذي « قاعة الاجتماعات العامة » بأسفل حيطانها وقد زخرفت بفسيفساء من الزهر على أرضية من المرمر الأسود ، وأسقفها وعمدها وأقواسها المنحوتة في وشي حجري له جمال الشيء النحيل الهزيل ، لكنه جمال يعز على التصديق وهاهنا أيضاً « قاعة الاجتماعات الخاصة » التي صنع سقفها من الفضة والذهب وأعمدتها من مُخَرَّم المرمر ، وأقواسها على هيئة نصف الدائرة مدبباً في وسطه ، يتألف من أنصاف دوائر صغرى يتخذ كل منها صورة الزهرة ، وعرشها المسمى « عرش الطاووس » الذي بات أسطورة يتحدث بها العالم أجمعين ، وجداره الذي لا يزال يحمل في تطعيم بالحجر النفيس ، بيت الشاعر المسلم المليئة ألفاظه بروح الزهو ، ومعناه أن لو كان على الأرض فردوس فهي هاهنا :

ونعود فنستجمع في أذهاننا صورة خافتة « لكنوز الهند » في أيام المغول ، حين نسمع أعظم مؤرخي فن العمارة يصف لنا مقر الملك في دلهي ، فيقول إنه يشغل مساحة ضعف ما تشغله « الأسكوريال » الفسيحة بالقرب من مدريد ، ولقد كان ذلك القصر في زمانه ذاك ، وبالقياس إلى أضرابه « أفخم قصر في الشرق بل ربما كان أجمل قصر في العالم كله »(١٢٢)(*).

وحصن « أجرا » اليوم أنقاض(**)، وكل ما في وسعنا أن نحزر على سبيل

(*) كان « حصن دلهي » في بادئ أمره يشتمل على اثنين وخمسين قصراً ، لم يبق منها اليوم إلا اثنان وعشرون قصراً ، فقد احتمت بالحصن حامية بريطانية داهمها الخطر في ثورة «سپوى» وقوضت عدة قصور لتخلى مكاناً لعدتها ، كما وقع نهب كثير .

(**) كان خطأ يؤسف عليه من شاه جهان أن يجعل من هذه القصور الجميلة حصناً ، فلما حاصر البريطانيون « أجرا » (سنة ١٨٠٣) لم يكن لهم بد من توجيه مدافعهم إلى الحصن ، ورأى=

التخمين ما كان عليه بادئ أمره من جلال ؛ فهنا وسط الحدائق الكثيرة كان «مسجد اللؤلؤة» ومسجد الجوهرة وقاعتا الاجتماعات العامة والخاصة وقصر العرش وحمامات الملك وقاعة المرايا وقصور «جهان كير» و «شاه جهان» وقصر الياسمينة لـ «نور جهان» وبرج الياسمينة الذى كان يطل منه «شاه جهان» وهو أسير ، يطل منه عبر «الجمنة» على القبر الذى كان ابتناه لزوجته الحبيبة «ممتاز محل» .

ويعرف العالم كله ذلك القبر باسم تلك الزوجة المختصر وهو «تاج محل» وما أكثر مهندسى العمارة الذين يضعون هذا البناء فى منزلة تجعله أكمل بناء قائم على وجه الأرض فى يومنا هذا ؛ وقد وضع تصميمه ثلاثة من رجال الفنون : فارسى يدعى «أستاذ عيسى» ، وإيطالى يدعى «جيرونيمو فيرونيو» وفرنسى يسمى «أوستن دى بوردو» ؛ ولم يسهم فى فكرته هندى واحد ، فهو بناء لا هندوسى من أوله إلى آخره ، وهو إسلامىٌّ خالص ؛ حتى مهرة الصناع جيء ببعضهم من بغداد والآستانة وغيرهما من مراكز الملة الإسلامية[١٢٤] .

وقد لبث اثنان وعشرون ألفاً من العمال اثنين وعشرين عاماً مسخرين فى بناء «التاج» ، وعلى الرغم من أن المرمر جاء إلى «شاه جهان» هدية من «مهراجا جايبور» فقد كلف البناء وما حوله ما يساوى اليوم مائتين وثلاثين مليوناً من الريالات الأمريكية — وهو فى ذلك العهد مبلغ ضخم من المال[١٢٥](*)

= الهنود فقابل المدافع تلك «المحل الخاص» (أى قاعة الاجتماعات الخاصة) فاستسلموا ظناً منهم أن الجمال أنفس من النصر ؛ ولم يمض طويل وقت حتى جاء «وارن هيستنجز» فخلع أجزاء الحمام من القصر خلعاً ليقدم بها هدية للملك جورج الرابع ؛ وبيعت أجزاء أخرى من البناء بأمر من لورد «وليم بنتنك» إعانة لدخل الهند[١٢٣] .

(*) فكر (لورد وليم بنتنك» — وهو يعد من أرحم من حكموا الهند من البريطانيين — يوماً فى أن يبيع «التاج» بمائة وخمسين ألف ريال إلى مقاول هندى كان يعتقد أنه يستطيع استغلال مواد البناء على أحسن وجه[١٢٦] ، لكن منذ استولى على الحكم «لورد كيرزن» وحكومة البريطانيين فى الهند دائمة العناية الفائقة بآثار المغول .

والمدخل إلى البناء ملائم للغرض منه ملاءمة لا يضارعها إلا مدخل « القديس



تاج محل فى أجرا

بطرس » ؛ فإذا ما دخل الداخل خلال سور عال ذى أبراج صغيرة على قمته ، التقى بغتة « بالتاج » — وهو قائم على مصطبة من المرمر ، يحيط به على الجانبين إطار من المساجد الجميلة والمآذن الشامخة ، وفى الجانب الأمامى حدائق فسيحة فى وسطها بركة ينعكس القصر على مائها فيكون سحراً يرتعش مع رعشة الموج ؛ وكل جزء من البناء مصنوع من المرمر الأبيض والمعادن النفيسة أو الأحجار الكريمة ؛ وللبناء اثنا عشر ضلعاً ، فى أربعة منها بوابات ، وعند كل ركن من أركانه مئذنة نحيلة ، والسقف قوامه قبة ضخمة ذات برج مُدَبَّب ؛ والمدخل الرئيسى الذى كانت تحرسه فيما مضى أبواب من الفضة الخالصة ، متاهة للخيال بما فيه من وشى مرمرى ؛ ونقشت على الجدران آيات من القرآن ، كتبت بكريم الجواهر ، منها آية تدعو « المتقين » أن يدخلوا « جنة الفردوس » وأما الداخل فبسيط ، وربما تعاون اللصوص من أهل البلاد ومن الأوروبيين على السواء ، على سلب الجواهر التى كانت تزين القبر فى كثرة مسرفة ، والسور الذهبى المغطى بطبقة من الأحجار الكريمة الذى كان أول الأمر يحيط بالتابوتين الحجريين اللذين كان يرقد فيهما « جهان » وملكته ؛ فوضع « أورنجزيب » مكان السور الذهبى ستاراً ثُمانىّ الأضلاع من مرمر يكاد يشف عما وراءه ، والستار منقوش بزخرفة رقيقة من « الرخام ذى العروق » نقشاً هو من المعجزات ؛ حتى ليبدو لبعض الزائرين أن جمال هذا الستار لم يفُقْه جمال فى كل ما أنتجه الإنسان من آثار فنية صغيرة .

وليس هذا البناء أفخم الأبنية ، ولكنه أجملها جميعاً ؛ فإذا ما بعدت عنه قليلا بحيث تخفى عليك تفصيلاته الرقيقة ، لم يبهرك بعظمته ، لكنك تحسّ له فى نفسك نشوة ؛ ولا ينكشف لك كماله الذى لا يتناسب مع حجمه إلا إذا دنوت منه ونظرت إليه عن كثب ؛ إننا إذ نرى فى عصرنا هذا الذى يتميز بالسرعة ، أبنية ضخمة من ذوات الطوابق المائة يكمل بناؤها فى عام أو عامين ،

ثم نتذكر أن اثنين وعشرين ألفاً من العمال ظلوا يكدّون اثنين وعشرين عاماً في إقامة هذا القبر الصغير الذي لا يكاد يبلغ ارتفاعه مائة قدم ، فإننا نحسّ عندئذ بعض الإحساس ، الفرق بين الصناعة والفن ؛ فربما كانت قوة العزيمة الكامنة في تصور إقامة بناء مثل « تاج محل » أعظم وأعمق من قوة العزيمة التي نصف بها أمجد الفاتحين ؛ ولو كان الزمن بصيراً بما يفعل ، لأتى على كل شيء قبل أن ينال من « التاج » ليبقيه شاهداً على سمو النفس الإنسانية سمواً تمازجه الشوائب ، لعل هذا السمو فيها يكون عزاء لآخر من تشهد الأرض من بني الإنسان

٤ — العمارة الهندية والمدنيّة

انهيار الفن الهندي — الموازنة بين العمارة الهندوسية والعمارة الإسلامية — نظرة عامة إلى المدنية الهندية

على الرغم من الستار الذي تم على يدي « أورنجزيب » فقد كان هذا الرجل عثرة نكداء في حظ المغول والفن الهندي ، إذ حفزه التعصب الديني الضيق الأفق إلى أن ينصرف بكل نفسه إلى ديانة بعينها لا يسمح بغيرها إلى جانبها ، ولذا فلم تر عيناه إلا وثنية وغروراً ؛ وكان « شاه جهان » من قبل قد حرم إقامة المعابد الهندوسية[١٢٧] ؛ ولم يكتف « أورنجزيب » باستمرار ذلك التحريم بل أضاف إلى ذلك شحاً في إعانة العمارة الإسلامية ، حتى تضاءلت هي الأخرى تحت سلطانه ؛ فلما مات ، تبعه الفن الهندي إلى قبره فثوى معه .

إذا ما تأملنا العمارة الهندية باستعراضنا إياها استعراضاً موجزاً يعيد لنا سابق مراحلها ، ألفيناها تنطوي على موضوعين ، أحدهما فيه صلابة الرجولة والآخر فيه طراوة الأنوثة ، أحدهما هندوسي والآخر إسلامي ، وحول هذين المحورين تدور العمارة على اختلاف وجوهها كأنها السمفونية المختلفة النغمات ؛ ولما كانت أشهر السمفونيات تبدأ بضربات قوية كضربات المطرقة تثير الانتباه اليقظ في

الأسماع ، ثم سرعان ما يتلوها سيل متدفق من نغمات تبلغ من الرقة حدها الأقصى ، كذلك ترى فى العمارة الهندية بداية مهيبة تجلت فيها العبقرية الهندسية ، وهى آثار « بوذ – جايا » و « بهوفانشوارا » و « مادورا » و تانجور » ثم يتبعها الطراز المغولى بما فيه من رشاقة ونغم ، كالآثار التى فى « فتح بورسيكرى و « دلهى » و « أجرا » ، ويظل هذان المحوران يمتزجان فى اشتباك مخلوط حتى النهاية ؛ لقد قيل عن المغول إنهم شيدوا كما تشيِّد العمالقة ، ثم ختموا بناءهم بصناعة الصائغين الرقيقة ؛ لكن هذا القول أصح انطباقاً على العمارة الهندية بصفة عامة ؛ ذلك لأن الهندوس بنوا كما تبنى العمالقة ، ثم جاء المغول فختموا المطاف برقة الصائغين ، فالعمارة الهندوسية تستوقف انتباهنا بضخامتها ، والعمارة الإسلامية تستوقف أنظارنا بتفصيلاتها ؛ فللأولى جلال القوة ، وللثانية كمال الجمال ؛ كان للهندوس عاطفة وخصوبة ، وللمسلمين ذوق وكبح لجماح نفوسهم ، ملأ الهندوسيُّ مبانيه بكثرة زاخرة من التماثيل حتى ليتردد الإنسان أيضع تلك المبانى فى باب العمارة أم فى باب النحت ، وكره المسلم تشخيص الأجسام ، فحصر نفسه فى الزخرفة الزهرية والهندسية ، الهندوس هم للهند بمثابة رجال الفن فى العصور الوسطى ، الذين جمعوا فى أنفسهم فنى النحت والعمارة ، والمسلمون بمثابة الدخيلين فى عالم الفن الذين جاءوا فى عصر النهضة فأفاضوا ؛ وعلى وجه الجملة ، كان الطراز الهندوسى أرفع سماكاً بمقدار ما يسمو الجلال على الجمال ، وإذا ما عاودنا التفكير فى الموازنة بين الفنين ، بعد أن يزول عن أنفسنا وقع النظرة الأولى ، تبين لنا أن « حصن دلهى» و « تاج محل» بالقياس إلى « أنكور» و « بوروبودور » هما كالقصائد الوجدانية الجميلة بالقياس إلى المسرحيات العميقة – مثل بترارك بالقياس إلى دانتى ، أو كيتس بالقياس إلى شكسبير ، أو سافو بالقياس إلى سوفوكليز ، أحد الفنين تعبير

رشيق من وجهة نظر جزئية عن نفوس أفراد جادت حظوظهم ، وأما الآخر فتعبير قوى كامل عن روح جنس بأسره :

ومن ثم وجب علينا أن نختم هذا العرض الموجز بما بدأناه به ، وهو الاعتراف بأنه لا يستطيع أن يقدر فن الهند كل قدره ، أو أن يكتب عنه كتابة تعفو عن نقائصه ، إلا هندوسى ؛ فهذا الفن المقرب إلى نفوسهم ، الذى تملؤه الزخرفة إلى حد الإسراف ، وتشتبك أجزاؤه إلى حد التعقيد ، قد يبدو لعين الأوروبى الذى نشأ على قواعد يونانية أرستقراطية من الاعتدال والبساطة ، قريباً من الفن البدائى الهمجى ؛ لكن هذه الكلمة الأخيرة هى نفسها الصفة التى استعملها « جوته » صاحب النزعة الكلاسيكية ، حين ازورت نفسه عن كاتدرائية ستراسبورج ، والطراز القوطى ؛ فهى تعبر عن رد الفعل العقلى للوجدان ، والتدليل المنطقى للدين ؛ لا يستطيع أن يشعر بجلال المعابد الهندوسية إلا هندوسى مؤمن ، لأن هذه المعابد لم تشيد لتكون صورة معبرة عن الجمال وكفى ، بل شيدت لتكون حافزاً على التقوى ، وأساساً للإيمان ، ولا يستطيع أحد منا أن يفهم الهند إلا أهل عصورنا الوسطى — أمثال «جيوتو» و « دانتى » .

على هذا الأساس وحده ينبغى أن ننظر إلى المدنية الهندية — أعنى على أساس أنها تعبير عن نفوس شعب « وسيط » اعتبر الديانة أعمق من العلم ، ويكفيها لتكون أعمق منه ، أن سلم منذ البداية بالجهل البشرى الذى لازم الإنسان منذ الأزل ، وبغرور الإنسان قدرته ؛ فى هذه التقوى يكمن ضعف الهندوسى وتكمن قوته على السواء : فيه تكمن خرافته ووداعته ، ويكمن ميله إلى الانطواء على نفسه ونفاذ بصيرته ؛ ويكمن تأخره وعمقه ، ويكمن ضعفه فى القتال وبراعته فى الفنون ؛ ولا شك أن مناخ بلاده قد أثر فى عقيدته الدينية وتعاون كلاهما على إضعافه ؛ ولهذا استسلم فى يأس المؤمن ببطش القضاء ، للآريين والهون والمسلمين والأوروبيين ، ولقد عاقبه التاريخ على إهماله للعلم ؛

فلما أخذت مدافع « كلايف » المتفوقة على أسلحتهم ، تطيح بالجيش الأهلى فى موقعة « پلاسى » (١٧٥٧) كان فى قصفها إعلان بالثورة الصناعية ، وسنشهد فى عصرنا تلك الثورة ، وقد أصابت نجاحاً فى الهند كما وفقت فى تسجيل إرادتها وفرض طابعها على إنجلترا وأمريكا وألمانيا وروسيا واليابان ، فسيكون للهند كذلك رأسماليتها واشتراكيتها ، وسيكون فيها أصحاب الملايين وسكان الخرائب الوبيئة ؛ لقد أسدل ستار على المدنية والهندية القديمة ، إذ أخذت تلفظ أنفاسها الأخيرة حين جاءها البريطانيون .

الباب الثاني والعشرون

خاتمة مسيحية

الفصل الأول

قراصنة البحر فى نشوتهم

وصول الأوروبيين – الفتح البريطانى – ثورة سيبوى –
حسنات الحكم البريطانى وسيئاته

كانت تلك المدنيّة قد ماتت بالفعل من عدة وجوه ، حين كشف « كلايف » و « هيستنجز » كنوز الهند ؛ فحكم « أورنجزيب » الطويل الذى مزق أوصال البلاد ، وما تبعه من فوضى وحروب داخلية ، ترك الهند ثمرة دانية القطوف لمن أراد أن يغزوها من جديد ؛ قد كان هذا « قضاءها المحتوم » ولم يكن أمام القَدَر إزاءها سوى أن يختار الدولة الأوروبية من بين الدول العصرية الأساليب ، لتكون أداة لذلك الغزو ؛ فحاول الفرنسيون غزوها وأصيبوا بالفشل ، وضاعت الهند من أيديهم كما ضاعت كندا ، فى موقعتى « رُسْباخ » و « ووترلو » ثم حاول الإنجليز ذلك وانتهت محاولتهم بالنجاح .

لقد كان « ڤاسكو دا جاما » أرسى فُلْكه عام ١٤٩٨ فى مياه « كلكتا » بعد مرحلة دامت أحد عشر شهراً بدأت من لشبونة ؛ فأحسن لقاءه حاكم مليبار الهندى وسلّمه رسالة ودية إلى ملك البرتغال : « لقد زار مملكتى ڤاسكو دا جاما ، وهو شريف من أشراف أسرتكم ، فسررت بزيارته سروراً عظيما ؛ وإن فى مملكتى لوفرة من القرفة والقرنفل والفلفل والأحجار الكريمة ، وما أريده من بلادكم هو الذهب والفضة والمرجان والنسيج القرمزى » ،

فكان جواب صاحب الجلالة المسيحية مطالبة بالهند مستعمرة برتغالية لأسباب لم يكن فى مقدور الراجا أن يفهمها لجهله ؛ فلكى يوضح له الأمر ، أرسلت البرتغال أسطولا إلى الهند مزوداً بتعليمات لنشر المسيحية وإثارة الحروب ؛ وبعدئذ جاء الهولنديون فى القرن السابع عشر ، وطردوا البرتغاليين ، ثم جاء الفرنسيون والإنجليز فى القرن الثامن عشر وطردوا الهولنديين ، ونشبت بين الفريقين معارك حامية الوطيس لتقرر أى الفريقين يتولى إدخال المدنية إلى الهند وفرض الضرائب على أهلها .

وكانت « شركة الهند الشرقية » قد تأسست فى لندن عام ١٦٠٠ لتشترى منتجات الهند وجزر الهند الشرقية بأثمان بخسة وتبيعها بأثمان مرتفعة فى أوروبا(*) وقد أعلنت الشركة عام ١٦٨٦ عزمها على « إقامة مستعمرة إنجليزية واسعة فى الهند ، بحيث تكون متينة الدعائم فتدوم إلى الأبد(٣) ، وأنشأت مراكز تجارية فى مدراس وكلكتا وبمباى ، وحصنتها ، وجاءت إليها بجنود وخاضت معارك القتال ، ورشت وارتشت ، ومارست غير ذلك من مهام الحكومة ، ولم يتردد « كلايف » فى قبول « الهدايا » التى بلغت قيمتها أحياناً مائة وسبعين ألفاً من الريالات ، قدمها له الحكام الهنود المعتمدون على نيران مدافعه ، كما ظفر منهم — بالإضافة إلى تلك « الهدايا » — بجزية سنوية تعادل مائة وأربعين ألفاً من الريالات ، وعين الأمير جعفر حاكماً على البنغال لقاء مبلغ يعادل ستة ملايين ريال ؛ وراح يضرب كل أمير وطنى بالآخر ، ويضم أملاكهم إلى حظيرة « شركة الهند الشرقية » شيئاً فشيئاً ؛ وأدمن فى أكل الأفيون ، واتهمه البرلمان وبرأه ، وأزهق روحه بيده سنة ١٧٧٤(٤) ؛ أما « وارن هيستنجز » — وهو شجاع علامة قدير — فقد جمع من الأمراء الوطنيين مبلغاً كبيراً قدره ربع مليون ريال ضريبة عليهم دفعوها فى خزانة الشركة ؛

(*) كانت البضائع التى تشترى بما يساوى مليونى ريال فى الهند ، تباع بما يساوى عشرة ملايين ريال فى إنجلترا(١) حتى لقد ارتفع ثمن السهم من أسهم الشركة إلى ما يساوى ٣٢,٠٠٠ ريال(٢) .

وقبل الرشاوى لقاء وعد بألا يفرض ضريبة أكثر مما فرضه ، ثم عاد ففرض ضريبة ، واستولى للشركة على الأراضى التى لم تستطع دفعها ، واحتل « أوز » بجيشه ، ثم باعها لأحد الأمراء بمليونين ونصف مليون من الريالات[٥] ؛ وتسابق الهازم والمهزوم فى الرشوة ؛ وفرضت على أجزاء الهند التى خضعت لسلطان الشركة ضريبة أراضٍ بلغت خمسين فى كل مائة وحدة من وحدات الإنتاج بالإضافة إلى فروض أخرى كانت من الكثرة والقسوة بحيث فر ثلثا السكان ، وباع آخرون أبناءهم ليسدوا ما كانوا يطالَبون به من ضرائب متصاعدة[٦] ؛ يقول ماكولى : « جمعت فى كلكتا أموال طائلة فى وقت قصير ، ودفع بثلاثين مليوناً من الأنفس البشرية إلى أقصى حدود الشقاء ؛ نعم قد تعودوا من قبل أن يعيشوا فى جو من الطغيان ، إلا أن الطغيان لم يبلغ بهم كل هذا المدى »[٧] .

فما جاءت سنة ١٨٥٧ حتى كانت جرائم الشركة قد أفقرت الجزء الشمالى الشرقى من الهند إفقاراً أوغر صدور الأهالى فشقوا عصا الطاعة فى ثورة يائسة ؛ عندئذ تدخلت الحكومة البريطانية ، وقمعت « العصيان » وتولت هى الحكم ْ الأراضى التى سيطرت عليها ، واعتبرتها مستعمرة للتاج ، ودفعت عن ذلك تعويضاً سخياً للشركة ، وأضافت ثمن الشراء هذا إلى الدين العام ْ الهند[٨] ؛ لقد كان هذا فتحاً للبلاد صريحاً غاشماً ، وقد لا يجوز لنا أن نحكم عليه « بمعيار الوصايا الخلقية » التى يحفظها الناس غربى السويس إذ ربما كان الأجدر أن نفهم الموقف على أساس « دارون » و « نيتشه » : فشعب عجز عن حكم نفسه أو عجز عن استغلال موارده الطبيعية ، لا بد من وقوعه فريسة لأمم تعانى مما يستثيرها من دوافع الجشع وبسط النفوذ ؛

وعاد هذا الفتح ببعض المزايا على الهند ؛ فرجال أمثال « بِنْتِنْك » و « كاننج » و « منْرو » و « إلْفِنْستُون » و « ماكولى » أدخلوا فى إدارة الأجزاء البريطانية من الهند شيئاً من سخاء الحرية التى سادت إنجلترا عام ١٨٣٢ ؛

فقد استطاع « لورد وليم بنتينك » بمساعدة المصلحين من أهل البلاد ، وبحافز منهم ، أمثال « رام موهون روى » ، استطاع أن يلغى عادة دفن الزوجة حيّةً مع زوجها الميت وأن يحرم ما كانت تقوم به طائفة من خنق الأغنياء إرضاء للآلهة « كالى » ؛ ولئن حارب الإنجليز مائة وإحدى عشرة حرباً فى الهند مستخدمين فيها أموال الهند ورجالها(٩) ليتمموا فتح الهند ، فقد تمكنوا بعدئذ من نشر السلام على ربوع شبه الجزيرة كلها ، ومدوا الطرق الحديدية ، وأقاموا المصانع والمدارس ، وفتحوا الجامعات فى كلكتا ومدراس وبمباى ولاهور والله أباد ، ونقلوا من إنجلترا علومها وفنونها الصناعية إلى الهند ، وألهبت الشرق بروح الغرب الديمقراطية ، ولعبوا دوراً هاماً فى إطلاع للعالم على ما شهدته الهند فى ماضيها من ثروة ثقافية غزيرة ؛ وكان ثمن هذه الخيرات كلها طغياناً مالياً مكن لطائفة من الحكام المتتابعين أن يبتزوا ثروة الهند عاماً بعد عام قبل عودتهم إلى بلادهم الشمالية التى تثير فى الإنسان عوامل الفاعلية والنشاط ؛ وكأن ثمن هذه الخيرات طغياناً اقتصادياً قضى على الصناعات الهندية ، وقذف بملايين صناعها الفنيين إلى الأرض يزرعونها فلا تكفيهم طعاماً ؛ وكان ثمن هذه الخيرات كذلك سياسياً كان من أثره — وقد جاء بعد طغيان « أورنجزيب » للضيق الأفق بزمن قصير — أن يميت روح الشعب الهندى قرناً كاملا .

الفصل الثانى

قديسو العهد المتأخر

المسيحية فى الهند – « براهما – سوماج » – الإسلام –
راماكرشنا – ڤيڤيكاناندا

كان من الطبيعى الذى يلائم روح الهند ، أن تلتمس تلك البلاد وهى فى هذه الظروف عزاءها فى الدين ؛ ولقد رحبت بالمسيحية ترحيباً قلبياً خالصاً حيناً من الزمن ، إذ وجدت فيها كثيراً من المثل الخلقية العليا التى لبثت آلاف السنين تضعها من أنفسها مواضع التقديس ؛ وفى ذلك يقول « الأب دِبْوا » فى غير ممالأة « لقد كان من الجائز – فيما تبين من الظواهر – أن تضرب المسيحية بجذورها فى أهل الهند ، لولا أن أدرك هؤلاء الناس صفات الأوروبيين وأنواع سلوكهم »[١٠] فقد ظل المبشرون بالمسيحية فى الهند طوال القرن التاسع عشر يحاولون فى نفوس قلقة أن يُسمعوا الناس صوت المسيح ؛ فكان عليهم أن يرتفعوا به فوق أصوات المدافع التى كانت تزأر أثناء فتحها البلاد ، وراحوا يقيمون المدارس والمستشفيات ويمدّونها بالأدوات اللازمة ، وأخذوا يوزعون على الناس الدواء والصدقات ، مع ما ينشرونه بينهم من تعاليم الدين ، وكانوا أول من بذر فى المنبوذين بذور الإحساس بآدميتهم ؛ لكن التضاد الملحوظ بين تعاليم المسيحية ومسلك المسيحيين أثار فى نفوس الهنود تشككاً وسخرية ؛ فقالوا إن بَعْث « العزير » من عالم الموتى لا يستثير العجب ، لأن فى دياناتهم من المعجزات ما هو أشد من هذا استثارة للدهشة وجدارة بالاهتمام ؛ وكل رجل بينهم ممن يمارسون « اليوجا » يستطيع اليوم أن يفعل المعجزات ، على حين أن معجزات المسيحية قد ذهب عهدها – فيما يظهر – وانقضى[١١] وتمسك البراهمة بمبادئهم فى اعتزاز بها ؛

إذ كانوا يقابلون عقائد الغرب بطائفة من أفكارهم ، لما ما لتلك العقائد الغربية من دقة وعمق وبُعْد عن التصديق ، ولهذا ترى « سير تشارلز إلْيَتْ » يقول : « إن المسيحية قد تقدمت فى الهند تقدماً لا قيمة له لضآلته »[١٢] .

ومع ذلك فقد كان لشخصية المسيح الفاتنة من عمق الأثر فى الهند أكثر جداً مما يمكن قياسه بكون المسيحية لم تشتمل على أكثر من ستة فى كل مائة من السكان بعد زمن امتد ثلاثة قرون ؛ وأولى علائم هذا التأثير تظهر فى « بهاجاڤاد ـ جيتا »[١٣] ، وأما آخر ما ظهر لهذا التأثير من علامات فتراه فى غاندى وطاغور ؛ وأوضح مثل يدل على هذا التأثير هو الجمعية الإصلاحية التى تسمى « براهما ـ سوماج »(*) التى أسسها « رام موهون روى » سنة ١٨٢٨ ، ولن تجد أحداً تناول الدين بدراسة يحاسبه فيها ضميره أكثر مما فعل هذا الرجل ؛ فقد درس « روى » اللغة السنسكريتية ليقرأ كتب الڤيدا ، وتعلم اللغة الباليَّة ليقرأ كتاب البوذية « تريبيتاكا » ، وعرف الفارسية والعربية ليدرس الإسلام ويقرأ القرآن ، ودرس العبرية ليجيد فهم « العهد القديم » كما درس اليونانية ليفهم « العهد الجديد »[١٤] وبعد ذلك كله تعلَّم الإنجليزية وكتب بها كتابة بلغت من السلاسة والرشاقة حداً جعل « چرمى بنْثام » يتمنى لو استفاد « جيمز مل » بنسجه على منواله ؛ وفى سنة ١٨٢٠ نشر « روى » كتابه تعاليم المسيح ، وهو مرشد للسلام والسعادة ، وقال فيه : « لقد وجدت تعاليم المسيح أهدى لمبادئ الأخلاق ، وأكثر ملاءمة لما يتطلبه بنو الإنسان المتصفون بالعقل ، من أية ديانة أخرى مما وقع فى حدود علمى »[١٥] واقترح على بنى وطنه الذين جللتهم دياناتهم بالمخجلات ، اقترح عليهم ديانة جديدة تتخلص من تعدد الآلهة وتعدد الزوجات والطبقات وزواج الأطفال ودفن الزوجات الأحياء مع أزواجهن وعبادة الأوثان وألا يعبدوا إلا إلهاً واحداً ، هو براهما ؛ ولقد تمنى كما تمنى

(*) معناها الحرفى « جمعية براهما » واسمها الكامل هو « جمعية المؤمنين ببراهما الروح الأعلى »

عن قبله « أكبر » — أن تتحد الهند كلها فى عقيدة دينية بسيطة ، لكنه — مثل « أكبر » — لم يحسب حساب الخرافة وتأصلها فى قلوب الدهماء ؛ ولهذا فقد أصبحت « براهما — سوماج » اليوم — بعد مائة عام قضتها فى جهاد مفيد — بحيث لا ترى لها أثراً فى الحياة الهندية(*) .

والمسلمون هم أقوى الأقليات الدينية فى الهند وأكثرها إثارة للاهتمام ، وسنرجئ دراسة دينهم إلى جزء آخر من أجزاء هذا الكتاب ؛ وليس العجيب أن يفشل الإسلام فى اكتساب الهند إلى اعتناقه على الرغم من معاونة « أورنجزيب » له على ذلك معاونة متحمسة ، إنما المعجزة هى ألا يخضع الإسلام فى الهند للهندوسية ؛ فبقاء هذه الديانة الموحدة على بساطها وصلابتها ، وسط ألوان متشابكة من الديانات التى تذهب إلى تعدد الآلهة ، دليل يشهد على ما يتصف العقل الإسلامى من رجولة ، وحسبنا لكى نقدر عنف هذه المقاومة وجسامة هذا المجهود أن نذكر كيف تلاشت البوذية فى البرهمية ، فإله المسلمين له اليوم سبعون مليون من عُباده فى الهند .

لم يطمئن الهندى إلا قليلا إلى أية عقيدة دينية مما جاءه من خارج بلاده ، وأولئك الذين كان لهم أبلغ الأثر فى شعوره الدينى إبان القرن التاسع عشر هم

(*) لها اليوم من الأتباع نحو خمسة آلاف وخمسمائة(٢٦) ؛ نشأت جمعية إصلاحية أخرى ، اسمها « آريا . سوماج » (أى الجمعية الآرية) أسسها « سوامى ديانانذا » ، ودفعها فى طريق التقدم دفعاً يستحق الإعجاب « المرحوم لالاچپات راى » ، وقد أنكرت هذه الجمعية نظام الطبقات وتعدد الآلهة والخرافة والأوثان والمسيحية ، واستحثت الناس للعودة إلى ديانة الڤيدات بما لها من قواعد أبسط من تعاليم المسيحية والوثنية ؛ وأتباع هذه الجمعية الآن يبلغون نصف المليون(١٨) وانقلب الوضع ، فأثرت الهندوسية فى المسيحية تأثيراً يظهر فى « علم الكلام » — وهو مزيج من التصوف الهندى والأخلاق المسيحية ، نشأ فى الهند وارتقى على أيدى امرأتين أجنبيتين عن أهل البلاد هما : « مدام هلينا بلاڤاتسكى » (١٨٧٨) « ومسز آنى بزانت » (١٨٩٣) .

الذين بذروا بذور مذهبهم وعبادتهم فى عقائد الشعب القديمة ؛ فقد أصبح « راماكرشنا » — وهو برهمى فقير من البنغال — مسيحياً حيناً من الزمن ، وأحس جمال المسيحية(*) واعتنق الإسلام حيناً آخر ، وأدى صلاة المسلمين بما تقتضيه من خشونة وعنف ، لكن قلبه التقى سرعان ما عاد به إلى الهندوسية بل عاد به إلى عبادة « كالى » الفظيعة ، وجعل نفسه كاهناً من كهانها ، وصوّرها فى صورة الإلاهة الأم التى تفيض نفسها فيضاً بالرحمة والحب ؛ ونبذ أساليب العقل وبشّر بمذهب « بهاركتى — يوجا » وهو مذهب يدعو إلى الحب ورباطه ومن أقواله « إن معرفة الله يمكن تشبيهها برجل ، وأما حب الله فشبيه بامرأة ؛ إن المعرفة لا تستطيع الدخول إلا فى الحجرات الخارجية لله ، وليس يستطيع الدخول فى غوامض الله الباطنية إلا محب »[١٨].

ولم يُرِدْ « راماكرشنا » أن يعلّم نفسه على خلاف « رام موهون روى » ، فلم يتعلّم شيئاً من السنسكريتية أو الإنجليزية ، ولم يكتب شيئاً ، واجتنب النقاش العقلى ، ولما سأله منطقى منتفخ الأوداج بمنطقه : « ما المعرفة وما العارف وما المعروف ؟ » أجابه قائلا : « إنى يا صاح لا علم لى بهذه الدقائق من علم المتفيهقين ؛ إن كل ما أعرفه هو « إلاهتى الوالدة ، وأننى ابنها »[١٩] وكان يعلم أتباعه أن كل الديانات خير ، وكل منها طريق يؤدى إلى الله ، أو مرحلة من مراحل الطريق إلى الله ، تلائم عقل الباحث عن الله وقلبه ؛ ومن الحمق أن تتحول من دين إلى دين ، إذ كل ما يتطلبه الإنسان هو أن يمضى فى طريقه الذى بدأه ، وأن يتعمق عقيدته الخاصة إلى لبابها « إن كل الأنهار تتدفق فى المحيط ، فاندفق حتى تخلى الطريق لاندفاق الآخرين كذلك »[٢٠] ، وأفسح

(*) ظل إلى آخر حياته يعترف بربوبية المسيح ، لكنه أصر على أن « بوذا » وكرشنا » وغيرهما كانوا كذلك مجسدات للإله الواحد ، ولقد أكد لـ « ڤيڤ كاناندا » أنه هو نفسه تجسيد لـ « راما » و « كرشنا »[١٨أ] .

صدره رحباً لعقيدة الناس فى آلهة متعددة ، واستسلم متواضعاً لعقيدة الفلاسفة فى إله واحد ؛ أما عقيدته هو التى ينبض بها قلبه فهى أن الله روح تجسد فى الناس جميعاً ، وعبادة الله الحقيقية التى لا عبادة سواها ، هى خدمة الإنسانية خدمة صادرة عن حب .

ولقد اختاره كثيرون من رقاق النفوس « شيخا » لهم ، منهم الأغنياء والفقراء ، ومنهم البراهمة والمنبوذون ، وألفوا جمعية باسْمه وقاموا بحملة تبشيرية بمذهبه ؛ وألمع هؤلاء الأتباع شخصية هو شاب معتدٌّ بنفسه من طبقة الكشاترية واسمه « نارندرانات دوت » ، الذى تقدم إلى « راماكرشْنا » بادئ ذى بدء — وكان عقله عندئذ قد أفعم بآراء « سپنسر » و « داروِن » — على أنه ملحد لا يجد غير شقوة النفس فى إلحاده ، لكنه فى الوقت نفسه مزدرٍ للأساطير والخرافات التى لم يكن الدين فى رأيه إلا إياها ؛ فلما غلبته من « راما كرشْنا » طيبته الصابرة ، أصبح « نارِنْ » بين أتباع « الشيخ » أشدهم تحمساً ، وأعاد لنفسه تعريف الله بأنه « مجموعة الأرواح كلها »[٢١] وطالب الناس بأن يباشروا الدين ، لا عن طريق التقشف والتأمل الفارغين ، بل عن طريق خدمة الإنسانية خدمة تستنفد من أنفسهم كل تقواها .

« أرجئوا إلى الحياة الآخرة قراءة « الڤيدانتا » واصطناع التأمل ، واصرفوا هذا البدن الذى يحيا هاهنا إلى خدمة الآخرين . . . إن الحقيقة السامية التى لا حقيقة بعدها هى هذه : الله موجود فى الكائنات جميعاً ، فهذه الكائنات صوره الكثيرة ، وليس وراءها إله آخر يبحث الإنسان عنه ، ليس هناك سبيل إلى خدمة الله سوى خدمة سائر الكائنات »[٢٢] .

وغيَّر اسمه وجعله « ڤيڤِي كاناندا » وغادر الهند ليجمع مالا يعين المبشرين بمذهب « راماكرشْنا » على أداء رسالتهم ، حتى إذا ما كان عام ١٨٩٣ ، وجد نفسه ضالا معدماً فى مدينة شيكاغو ، فما هو إلا أن ظهر فى « برلمان الديانات »

فى « المهرجان العالمى » وخاطب الحاضرين على أنه يمثل العقيدة الهندوسية ، فاستولى على قلوب السامعين جميعاً بطلعته المهيبة ، ومذهبه الذى يوحد العقائد الدينية جميعاً ، وشريعته الخلقية البسيطة التى تجعل خدمة الإنسانية خير عبادة يتوجه بها الإنسان لله ؛ فأصبح الإلحاد ديانة شريفة بفعل السحر الذى نفثته بلاغته ، ووجد الشيوخ المتزمتون من رجال الدين ألا مناص من احترام هذا « الوثنى » الذى يعلن بألا إله غير أرواح الكائنات الحية ؛ ولما عاد إلى الهند جعل يبشر بنى وطنه بعقيدة دينية لم يشهد الهندوسيون ما يفوقها صلابة بين كل الديانات التى بشروا بها منذ العصر الفيدى .

« إن الديانة التى نريدها ديانة تقيم دعائم الإنسان ... فانفضوا عن أنفسهم هذه التصوفات التى تنهك قواكم ، وكونوا أقوياء ... لنمحُ من أذهاننا خلال الخمسين عاماً المقبلة ... كل الآلهة الذين لا طائل وراءهم بحيث لا نُبْقى أمام أعيننا إلا خدمة الإنسان ؛ فجنسنا البشرى هو الإله الوحيد اليقظان ، فيداه فى كل مكان وقدماه فى كل مكان ، إنه يشمل كل شىء ... إن أولى العبادات كلها هى عبادة مَنْ يحيطون بنا ... هؤلاء هم آلهتنا الذين لا آلهة لنا سواهم — أعنى أفراد الإنسان والحيوان ؛ وأول ما ينبغى لنا أن نعبده من هؤلاء الآلهة هم بنو وطننا[٢٣] » .

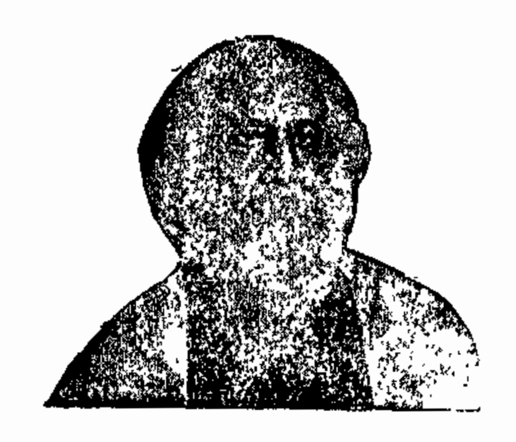
لم يكن بين هذه التعاليم وبين غاندى إلا خطوة واحدة .

الفصل الثالث

طاغور

العلم والفن – أسرة من النوابغ – نشأة رابندرانات – شعره – سياسته – مدرسته

ما زالت الهند رغم ما تعانيه من ظلم ومرارة عيش وفقر – تنتج العلم والأدب والفن ، فقد طبقت شهرة الأستاذ « چاجاس شاندرا بوز » الخافقين لأبحاثه فى الكهرباء وفسلجة النبات ، وكانت جائزة نوبل تاجاً يكلل جهود الأستاذ « شاندرا سيخارا رامان » فى فيزيقا الضوء ، وقامت فى عصرنا هذا مدرسة جديدة للتصوير فى البنغال تجمع بين خصوبة الألوان المتمثلة فى نقوش « أچانتا » الجدارية ، ورقة التخطيط البادية فى تحف « راچبوت » ؛ وإنا لنلمح فى صور « أبانندرات طاغور » شيئاً يسيراً من ذلك التصوف العارم والفن الرقيق اللذين أشهرا شعر عمّه فى أم الأرض جميعاً .



رابندرانات طاغور

إن أسرة طاغور لتعد بين أعظم ما شهد التاريخ من أسَر ؛ فقد كان « داڤندرات طاغور » (وبالبنغالية تاكور) أحد القائمين على تنظيم الجمعية الإصلاحية « براهما - سوماج » ثم أصبح فيما بعد رئيساً لها ؛ وهو رجل ذو ثراء وثقافة ووقار ، ولما بلغ شيخوخته ، كان للبنغال بمثابة الراعى الذى يميل برعيته عن جادّة الدين ؛ ومن نسله « أبانندرانات » و « چوجونندرانات » والفيلسوف « دويچندرانات » والشاعر « رابندرانات » وكل هؤلاء ينتسبون إلى طاغور ، والأخيران منهما ابناه .

نشأ « رابندرانات » فى جو من البحبوحة والتهذيب ، فكانت الموسيقى والشعر والحوار الرفيع الهواء الذى يتنفسه ، وكان روحاً رقيقاً منذ ولادته ، شبيهاً بـ « شيلى » الذى أبى أن يموت صغيراً كما أبى أن يشيخ ، وكان من الحنان بحيث تشجعت فئران السنجاب على ارتقاء ركبتيه ، واطمأنت الأطيار إلى الوقوف على راحتيه[٢٤] ، وكان دقيق الملاحظة ، متفتح النفس ، يحسُّ دوىّ ما تأتيه به تجارب الحياة بإحساس مرهف كإحساس المتصوفين ؛ فكان أحياناً يقف فى شرفته ساعات ، يلاحظ بفطرته الأدبية كل من يمرّ أمامه فى الطريق : قوامه وقسماته وحركاته التى تميزه وطريقة مشيته ، وأحياناً يجلس على كنبة فى غرفة داخلية ، ويظل نصف يومه صامتاً ، تمر فى رأسه الذكريات والأحلام ، وبدأ ينظم الشعر على لوح إردوازى ، مغتبطاً بكون الأخطاء يمكن محوها[٢٥] وسرعان ما وجد نفسه ينشد الأغانى المترعة بحبه للهند - حبه لجمال مناظرها ، وفتنة نسائها ، وعطفه على أهلها فى آلامهم ، وكان ينشئ لهذه الأناشيد موسيقاها بنفسه ، فأخذت الهند كلها تتغنى بها ، وكان الشاعر الشاب يهتز كيانه كلما سمعها على شفاه أهل الريف السذّج ، إذ هو فى طريقه مسافر خلال القرى النائية[٢٥أ] وهاك أغنية منها ، ترجمها عن البنغالية مؤلفها نفسه ، فمن سواه قد عبّر تعبيراً يمازجه تشكك العطوف ، عن لغو الغرام الذى لا يخلو من قدسية ؟

نبئني إن كان ذلك كله صدقاً ، ياحبيبي ، نبئني إن كان ذلك
كله صدقاً ،

أإذا لمعت هاتان العينان ببرقهما ، استجابت لها السحائب الدكناء في
صدرك بالعواصف ؟

أصحيح أن شفتي في حلاوة برعم الحب المتفتح ، حين يكون الحب
في أول وعيه ؟

أترى ذكريات ما مضى من أشهر الربيع ما تزال عالقةً في
جوارح بدني ؟

أصحيح أن الأرض — كأنها القيثارة — تهتز بالغناء كلما مسّتها قدماي ؟

أصحيح — إذن — أن الليل تدمع عيناه بقطرات الندى كلما
بدوتُ لناظريك ، وأن ضوء الصبح ينتشي فرحاً إذا ما لف
بدني بأشعته ؟

أصحيح ، أصحيح ، أن حبك لم يزل يخبط فريداً خلال العصور
ويتنقل من عالم إلى عالم باحثاً عني ؟

وأنك حين وجدتني آخر الأمر ، وجدتْ رغبتك الأزلية سكينتها
التامة في عذب حديثي وفي عينيّ وشفتيّ وشعري المسدول ؟

أصحيح — إذن — أن لغز اللانهاية مكتوب على جبيني هذا الصغير ؟

نبئني — يا حبيبي — إن كان ذلكَ كله صدقاً(٢٦) .

في هذه الأشعار حسنات كثيرة(*) — فيها وطنية حادة وهي رغم حدتها

(*) أهم دواوينه « جيتانجالي » (١٩١٣) و « شترا » (١٩١٤) و « مكتب البريد » (١٩١٤) و « البستاني » (١٩١٤) و « جمع الثمار » (١٩١٦) و « زهرات الدفل الحمراء » (١٩٢٥) كتاب الشاعر نفسه « ذكرياتي » (١٩١٧) أفضل مرشداً لفهمه من كتاب « إ . تومسون » الذي عنوانه : « ر . طاغور ، شاعر ومسرحي » (اكسفورد ١٩٢٦) .

هادئة ، وفيها فهم دقيق دقة التأنث للحب وللمرأة وللطبيعة وللرجل ، وفيها نفاذ بالعاطفة الحادة إلى صميم الفلاسفة الهنود بما لهم من بصيرة نافذة ، وفيها رقة عاطفة وعبارة تشبه رقة « تنيسُن » ولو كان فى أشعاره عيب ، فذلك جمالها الذى يطّرد فى كل أجزائها اطّراداً جاوز الحد المطلوب ، ورقّتها ومثاليّتها اللتان اطردتا كذلك اطراداً يحدث الملل ؛ فكل امرأة فى هٰذه الأشعار جميلة ، وكل رجل فيها مفتون بامرأة أو بالموت أو بالله ؛ والطبيعة بها — وإن تكن بشعة أحياناً — فهى دائماً جليلة ، يستحيل عليها الكآبة والقحط والفظاعة(*) ، ولعل قصة « شِتْرا » هى قصة « طاغور » ، فحبيبها « أرجونا » قد ملّها بعد عام لأنها جميلة جمالا كاملا لا يعتوره نقص ؛ ولا يعود الله إلى حبها إلا بعد أن تفقده جمالها وتكتسب قوة تمكنها من مزاولة أعباء الحياة الطبيعية — وحب الله لها رمز عميق يشير إلى الزواج السعيد[٢٨] ، ويعترف طاغور بأوجه النقص فى شعره اعترافاً يسحرك برقته :

إن شاعرك يا حبيبتى قد دارت فى رأسه يوماً ملحمة عظيمة

وا أسفاه ، لم أحرص عليها ، وصادفتْ خلخالك فتفرقت أجزاؤها

وتمزقت قصاصات من أغانٍ ، لبثت منثورة عند قدميك[٢٩] .

وعلى ذلك فقد أخذ يتغنى بالقصائد الوجدانية حتى نهايته ، واستمع له العالم كله بآذان طربة إلا النقاد ؛ ودهشت الهند بعض الشىء حين أنعم على شاعرها بجائزة نوبل (١٩١٣) لأن رجال النقد فى البنغال لم يكونوا قد رأوا فيه إلا أخطاءه ، واتخذ الأساتذة فى كلكتا من أشعاره أمثلة تساق للغة البنغالية فى أسلوبها الركيك[٣٠] وكرهه الشبان المتأججون بنار الوطنية لأن مهاجمته لما فى حياة الهند الخلقية من عيوب ، كانت أقوى دوياً من صيحته فى سبيل الحرية السياسية ، ولما أنعم عليه بلقب « سير » عدوا ذلك منه خيانة للهند ، ومع ذلك

(*) اقرأ مثلا بيته الرائع : « إذا ما رحلت عن هذه الدنيا ، فلتكن آخر كلمة أرحل بعدها هى أن ما شهدته فيها ليس بعد كماله كمال » (٢٧) .

فلم ينعم بشرف هذا اللقب طويلا ، ذلك لأنه حين أطلق الجنود البرنطانيون نيرانهم على اجتماع ديني في « امرتسار» نتيجة لسوء تفاهم محزن (سنة ١٩١٩) أعاد طاغور وسامه إلى نائب الملك مصحوباً بخطاب يوجه فيه استنكاراً مراً لما حدث ؛ واليوم تراه شخصية وحيدة نوعها، وقد يكون أعمق أهل الأرض جميعاً — في يومنا هذا — وقعاً في النفوس ، وهو مصلح كانت له الشجاعة التي مكنته من مهاجمة الآراء الاجتماعية الأساسية في الهند ، وأعنى بها نظام الطبقات والعقيدة في تناسخ الأرواح ، التي هي أعز عقائد الهنود على قلوبهم[٣١] وهو وطني يتحرق شوقاً إلى حرية الهند ، لكنه وجد في نفسه الجرأة فاحتج على الإسراف في النعرة القومية والسعي وراء المصالح الخاصة الذي يلعب دوره في الحركة القومية ، وهو مربٍّ مل الخطابة والسياسة ، وانكمش في صومعته في « شانتيني كيتان » يعلم بعض أبناء الجيل الجديد مذهبه في تحرير الفرد لنفسه تحريراً خلقيا ، وهو شاعر كسر قلبه موت زوجته في شبابها ، وأنقض ظهره ذل بلاده ؛ وهو فيلسوف « منقوع » في تعاليم الفيدانتا[٣٢] ؛ وهو متصوف يتذبذب — مثل شاندى داس — بين المرأة والله ، ومع ذلك تراه قد تجرد من عقيدة آبائه بعدى ما وصل إليه من علم ؛ وهو محب للطبيعة يقابل رسل الموت فيها بعزاء وحيد ، هو موهبته التي لا تبلى في إنشاد الغناء .

« آه ، أيها الشاعر ، إنه الغروب يدنو ، وشعرك يدب فيه المشيب
فهل تسمع — إذ أنت وحيد في تأملك — صوت الآخرة يناديك ؟ »
قال الشاعر : « إنه الغروب وهأنذا أصغى خشية أن يناديني من القرية
مناد رغم أننا في ساعة متأخرة .

إني أرقب لعلني واجد قلبين ضالين يلتقيان ، أو زوجين من أعين مشتاقة تحن إلى ألحان الموسيقى لتزيل الصمت وتتحدث نيابة عنها .

فمن ذا هناك ينسج لهم أغانى عواطفهم ، إذا أنا جلست على شاطئ الحياة وتأملت الموت والآخرة .

إن من التوافه أن يدب فى شعرى المشيب

أنا أبداً فى شباب أقوى الشباب ، وفى شيخوخة أكبر الشيوخ من أهل هذه القرية . . . .

كلهم بحاجة إلىّ وليس لدىّ الفراغ أنفقه فى التأمل فيما بعد الحياة .

أنا مع كل إنسان أسايره فى عمره ، فماذا يضيرنى إذا دب الشيب فى رأسى ؟ »(٣٣) .

الفصل الرابع

الشرق غرب

الهند المتغيرة – التغيرات الاقتصادية والاجتماعية – تدهور نظام الطبقات – الطبقات والنقابات – المنبوذون – ظهور المرأة

إذا استطاع رجل (مثل طاغور) لم يعرف الإنجليزية حتى أوشك على الخمسين من عمره ، أن يكتب الإنجليزية بعدئذ فى أسلوب جيد ، فتلك علامة تدل على السهولة التى يمكن بها ملء الفجوات التى تفصل ذلك الشرق وذلك الغرب اللذين حرم لقاءهما شاعر آخر ؛ وها هو ذا الغرب منذ مولد طاغور قد انتقل إلى الشرق بشتى الوسائل ، وهو آخذ هناك فى تغيير كل وجه من وجوه الحياة الشرقية ؛ فثلاثون ألف ميل من السكة الحديدية قد تشابكت فوق قفار الهند وجبالها ، وحملت وجوها غربيةً إلى كل قرية من قراها ؛ وأسلاك البرق والمطبعة قد جاءتا بأنباء العالم المتغير إلى كل من يريدها ، فأوحت إليه بإمكان تغير بلاده ؛ والمدارس الإنجليزية أخذت تعلّم التاريخ البريطانى من وجهة نظر أرادت أن تخلق من الطلاب مواطنين بريطانيين ، فغرست – غير عامدة – فى النفوس الأفكار الإنجليزية عن الديموقراطية والحرية ؛ فحتى الشرق ينهض اليوم برهاناً على هرقليطس(*) .

فلما رأت الهند أنها قد غاصت فى الفقر إبان القرن التاسع عشر بفعل تفوق المغازل الآلية البريطانية ، وقوة المدافع البريطانية بالنسبة إلى ما عند أهل البلاد ، فقد أخذت الآن توجه نظرها كارهة إلى تصنيع نفسها ، ولذلك ترى

(*) هرقليطس فيلسوف يونانى يذهب إلى أن العالم فى تغير مستمر لا يعرف الثبات على حال واحد لحظتين متتابعتين ؛ وقصْد الكاتب هنا هو أن الشرق معروف بجموده . لكنه اليوم يتغير . (المعرب)

الصناعات اليدوية فى طريق الاندثار ، بينما ترى المصانع الآلية فى سبيل النمو والتكاثر ؛ ففى « جامشيدپور » تستخدم « شركة تاتا للحديد والصلب » خمسة وأربعين ألفاً من العمال ، وهى تهدد زعامة الشركات الأمريكية فى إنتاج الصلب(٣٤) ؛ ويزداد إنتاج الفحم فى الهند ازدياداً سريعاً ؛ وربما لا يمضى جيل واحد حتى تلحق الصين والهند بأوروبا وأمريكا فى إخراج مواد الوقود والصناعة الرئيسية من جوف الأرض ؛ وقد لا تكتفى هذه الموارد الأهلية بسد حاجات الأهالى ، بل تجاوز ذلك إلى منافسة الغرب على أسواق العالم ؛ وعندئذ يباغَتُ الفاتحون لآسيا بضياع أسواقهم هناك وبهذا يهبط مستوى المعيشة عند أهل بلادهم هبوطاً شديداً ، بسبب منافسة العمال ذوى الأجور المنخفضة فى البلاد التى كانت فيما مضى طبعة متأخرة (أعنى بها البلاد الزراعية) ففى البنغال مصانع على نمط كان معروفاً فى أواسط العصر الفكتورى(*) تدفع أجوراً على الأسلوب العتيق مما يستدر الدمع فى أعين المحافظين فى البلاد الغربية(**) وقد حل أصحاب رؤوس الأموال الهنود محل نظائرهم البريطانيين فى كثير من هذه الصناعات ، وهم يستغلون بنى وطنهم بنفس الجشع الذى كان يستغلهم به الأوربيون الذين يحملون عبء الرجل الأبيض(†) .

ولم يتغير الأساس الاقتصادى فى المجتمع الهندى دون أن يترك ذلك التغير أثره فى النظم الاجتماعية وعادات الناس الخلقية ، فنظام الطبقات كان وليد

(*) يشير إلى عهد الملكة فكتوريا فى إنجلترا ، وهو على وجه التقريب القرن التاسع عشر . (المعرب)

(**) كان فى بمباى سنة ١٩٢٢ ثلاثة وثمانون مصنعاً من مصانع القطن يعمل فيها مائة وثمانون ألفاً من العمال ، بواقع أجر فى المتوسط ثلاثة وثلاثون سنتاً للعامل فى اليوم ؛ وبين الثلاثة والثلاثين مليوناً من الهنود المشتغلين بالصناعة ، ٥١ ./. نساء و١٤ ٪ أطفال دون الرابعة عشرة(٣٥) .

(†) « عبء الرجل الأبيض » عبارة قالها الشاعر الاستعمارى رديارد كبلنج ، يزعم فيها أن الرجل الأبيض مكلف بطبيعته بترقية السود . (المعرب)

مجتمع زراعى راكد لايتغير ، وهو إن ضمن النظام ، فلا يتيح طريق الصعود للعبقرى إذا ظهر فى طبقة دنيا ، ولا يفسح من مجال الطموح والأمل ، ولا يحفز الناس على الابتكار والمغامرة ؛ ولذا فقد قضى عليه بالفناء حين بلغت الثورة الصناعية شواطئ الهند ، فالآلات لا احترام عندها للأشخاص ، ففى معظم المصانع يعمل الناس جنباً إلى جنب بغير تمييز الطبقات والقطارات وعربات الترام تهيئ مكاناً للجالس أو للوقوف لكل من يدفع الأجر المطلوب ، والجمعيات التعاونية والأحزاب السياسية تضم كل المراتب فى صعيد واحد ؛ وفى زحمة المسرح أو الطريق فى المدينة ، تتدافع المناكب بين البرهمى والمنبوذ فتنشأ بينهما زمالة لم تكن متوقعة ؛ وقد أعلن أحد الراجات أن كل الطبقات والعقائد ستفتح لها أبواب قصره ؛ وأصبح رجل من فئة « الشودرا » حاكما مستنيراً لإقليم « بارودا » واستنكرت جمعية « براهما — سوماج » « نظام الطبقات ؛ وأيد « مؤتمر بنغال الإقليمى » التابع « للمؤتمر القومى » إلغاء الفوارق الطبقية كلها فوراً[٣٦]، وهكذا تعمل الآلات على رفع طبقة جديدة رويداً رويداً إلى الثراء والقوة ، وتسدل الستار على طبقة أرستقراطية هى أقدم الطبقات الأرستقراطية القائمة اليوم .

وبالفعل فقدت الألفاظ المستعملة فى التمييز بين الطبقات معانيها ؛ فكلمة « فاسيا » تراها فى الكتب اليوم ، لكنك لا ترى لها مداولا فى الحياة الواقعة ؛ حتى كلمة « شودرا » قد اختفت فى الشمال ، بينما ظلت فى الجنوب قائمة لكنها باتت لفظة تدل دلالة غامضة على كل من ليس ببرهمى[٣٧] ، والواقع أن الطبقات الدنيا فى سالف الأيام قد حل محلها ما يزيد على ثلاثة آلاف « طبقة » هى فى الحقيقة نقابات : ممولون وتجار وصناع ومزارعون ومعلمون ومهندسون وبائعون جوابون وجزارون وحلاقون وسماكون وممثلون ومستخرجو الفحم ، وغسالات وبائعات وحوذية وماسحو أحذية — هؤلاء تنظمهم طبقات مهنية

تختلف عن نقابات العمال فى أنه من المفهوم على نحو غامض أن الأبناء سيحترفون مهن آبائهم .

إن ما ينطوى عليه نظام الطبقات من مأساة عظمى هو أنه قد ضاعف على مرّ الأجيال من « المنبوذين » الذين ينخرون بعددهم المتزايد وثورة نفوسهم فى قوائم النظام الاجتماعى الذى هم صنيعته ؛ ويضم المنبوذون فى صفوفهم كل من فرض عليهم الرق بسبب الحرب أو عدم الوفاء بالدين ، ومن وُلدوا عن زواج بين براهمة وشودرات ، ومن تعست حظوظهم بحيث قضى القانون البرهمى على مهنهم بأنها مما يحط بقيمة الإنسان ، كالكناسين والجزارين والبهلوانات والحواة والجلادين[٣٨] ؛ ثم تضخم عددهم بسبب كثرة التناسل كثرة حمقاء تراها عند من لا يملك شيئاً يخاف على فقده ؛ وقد بلغ بهم فقرهم المدقع حداً جعل نظافة الجسم والملبس والطعام بمثابة الترف الذى يستحيل عليهم أن ينعموا به فيجتنبهم بنو وطنهم اجتناباً يمليه كل عقل سليم(*) ، ولذلك تقتضى قوانين الطبقات على « المنبوذ » ألا يقترب من عضو فى طبقة « الشودرا » بحيث تقل المسافة بينهما عن أربعة وعشرين قدماً ، أو أن يقترب من برهمى بحيث تقل المسافة بينهما عن أربعة وسبعين قدماً[٤٠] ، وإذا وقع ظل « منبوذ » (رجل من طبقة الپاريا) على رجل ينتمى إلى الطبقات الأخرى ، كان على هذا الأخير أن يزيل عن نفسه النجاسة بغسل طهور ؛ فكل ما يمسه المنبوذ ، يصيبه الدنس بمسه إياه(**) ، وفى كثير من أجزاء الهند لا يجوز

(*) « الذين يمتنعون امتناعاً تاماً عن أكل الطعام المستمد من الحيوان ، وترهف عندهم حاسة الشم إلى درجة أنهم يدركون على الفور من أنفاس الشخص أو من إفرازات جلده ، إذا كان ذلك الشخص قد أكل لحماً أو لم يأكل ، حتى وإن مضى على ذلك أربعة وعشرون ساعة »[٣٩] .

(**) حدث سنة ١٩١٣ أن سقط ابن هندوسى من كوهات فى عين ماء فمات غرقاً ولم يكن على مقربة منه إلا أمه وشخص « منبوذ » كان عابراً سبيله ، فعرض هذا على أم الطفل أن يغطس فى الماء لينقذه ، لكن الأم رفضت ذلك ، لأنها آثرت موت ابنها على تدنيس النبع[٤١] .

للمنبوذ أن يستقى ماء من الآبار العامة ، أو أن يدخل معابد البراهمة ، أو أن يرسل أبناءه إلى المدارس الهندوسية[٤٢] ، ولئن عملت سياسة البريطانيين إلى حد ما على إفقار طبقة المنبوذين ، فقد جاءتهم على الأقل بالمساواة مع غيرهم أمام القانون ، وبحق الدخول - على قدم المساواة مع سائر الطبقات - فى المدارس والكليات التى يقوم البريطانيون على إدارتها ؛ وكان للحركة القومية بتأثير غاندى ، فضـل كبير فى الحد من الحوائل التى كانت تسد الطريق أمام المنبوذين ، ويجوز ألا يأتى الجيل المقبل إلا وهم أحرار فى الظاهر حرية تمس القشـور .

وكذلك عمل دخول الصناعة والأفكار الغربية على زعزعة السيادة القديمة التى كان يتمتع بها الرجل فى الهند ، فالانقلاب الصناعى يعمل على تأجيل سن الزواج ، ويتطلب « حرية » المرأة ، وأعنى بذلك أن المرأة لا يمكن إغراؤها بالعمل فى المصنع إلا إذا اقتنعت بأن الدار سجن ، وأجاز لها القانون أن تدخر كسبها لنفسها ؛ ولقد ترتب على هذا التحرير كثير من الإصلاحات الحقيقية جاءت عرضاً ، فحرم زواج الأطفال رسمياً (سنة ١٩٢٩) برفع سن الزواج قانوناً إلى الرابعة عشرة للفتيات والثامنة عشرة للفتيان[٤٣] واختفت عادة « السُّوتى » (أى دفن الزوجة التى مات زوجها حية) ، ويزداد زواج الأرامل كل يوم(*) وتعدد الزوجات جائز قانوناً لكن لا يمارسه إلا قليلون[٤٥] وإن رجاء السائحين ليخيب حين يجدون أن راقصات المعبد أوشكن على الانقراض ، فالتقدم الأخلاقى فى الهند يسير بخطوات سريعة لا يضارعها فى سرعتها بلد آخر ؛ فالحياة الصناعية فى المدينة تخرج النساء من « البردة » حتى توشك ألا تجد ستاً فى كل مائة امرأة فى الهند يقبلن اليوم أن يعشن وراء حجاب[٤٦] ؛ وفى الهند عدد من الصحف الدورية النسوية النابضة بالحياة ، تناقش فيها

(*) تزوج سنة ١٩١٥ خمس عشرة أرملة ، وبلغ العدد سنة ١٩٢٥ (٢٢٦٣)[٤٤] .

أحدث المشكلات ، بل تكونت هناك جمعية لضبط النسل[٤٧] واجهت بشجاعة أعقد مشكلة من مشكلات الهند — ألا وهي التناسل المطلق من كل قيـــد ؛ والنساء في كثير من الأقاليم لهن حق التصويت ، ويتولين المناصب السياسية ، حتى لقد تولت امرأة رئاسة « المؤتمر القومي الهندي » مرتين ، وكثيرات منهن قد حصلن على درجات جامعية واشتغلن طبيبات أو محاميات أو معلمات[٤٨] ولا شك أنه لن يمضي طويل وقت حتى ينقلب الوضع ويصير زمام الحكم إلى أيدي النساء ؛ ألسنا على حق إذا زعمنا أن الإثم الذي تراه في النداء التالي الذي يشتعل بالحماسة ، والذي أصدره تابع من أتباع غاندي موجهاً إياه إلى نساء الهند ، أقول ألسنا على حق إذا زعمنا أن الإثم في هذا النداء يرجع إلى أحد المؤثرات الغربية الجامحة ؟

« انبذن « البردة » العتيقة ! اخرجن مسرعات من المطابخ ! اقذفن بالقدور والأواني مجلجلات في الأركان ! مزقن الغشاء الذي ينسدل على عيونكن ، وانظرن إلى العالم الجديد ! قُلْنَ لأزواجكن وإخوتكن يطهوا طعامهم لأنفسهم إن واجبات كثيرة في انتظاركن لأدائها حتى تصبح الهند أمة بين الأمم ! »[٤٩]

الفصل الخامس

الحركة القومية

الطلبة المستغربون – تحويل الشئون الدينية إلى أمور دنيوية – المؤتمر الهندى القومى

كان عدد الطلبة الهنود الذين يدرسون فى إنجلترا سنة ١٩٢٣ يزيد على لف ، وربما كان عدد من يدرسون فى أمريكا عندئذ مساوياً لذلك العدد ، ل ربما كان هذا العدد كذلك يدرس فى البلدان الأخرى ؛ فدهشوا للحقوق لتى يتمتع بها أحط المواطنين فى أوروبا الغربية وأمريكا ؛ ودرسوا الثورتين الفرنسية والأمريكية ، وقرأوا أدب الإصلاح والثورة ، وأمعنوا أنظارهم فى « قانون الحقوق و « إعلان حقوق الإنسان » و « إعلان الاستقلال » و« الدستور الأمريكى » فعادوا إلى أوطانهم ليكوّنوا مراكز إشعاع للآراء الديمقراطية وإنجيلا يبشر بالحرية ؛ وقد اكتسبت هذه الآراء قوة لا تغلب بسبب ما ظفر به الغرب من تقدم صناعى وعلمى ، ونصر الحلفاء فى الحرب ؟ فلم يلبث هؤلاء الطلاب أن أخذوا يصيحون بالدعوة إلى الحرية ؛ فقد تعلم الهنود حقوقهم فى الحرية فى مدارس إنجلترا وأمريكا .

ولم يقتصر المشارقة الذين تعلموا فى الغرب على التقاط المثل العليا السياسية إبان تعلمهم خارج بلادهم ، بل نفضوا عن أنفسهم كذلك الأفكار الدينية ؛ فهاتان العمليتان مرتبطتان معاً فى تراجم الأشخاص وتاريخ الأمم ، جاء هؤلاء الطلاب إلى أوروبا يعمر الدين قلوبهم الشابة ، يعتقدون فى « كرشنا » و« شيفا » و« فشنو » و« كالى » و« راما » ... ثم مسّوا العلم ، فإذا بعقائدهم القديمة قد تحطمت أشلاء كأنما نزلت بها نازلة ساحقة ، ولما تجرد هؤلاء الهنود المستغربون

عن عقيدتهم الدينية التي هي روح الهند ولبابها ، عادوا إلى وطنهم وقد زالت عن أعينهم الغشاوة التي كانت تزين القبيح ، وسادهم الحزن ، وسقط ألف إله أمام أعينهم من عمائهم صرعى(*)، فلم يكن بد من أن يتخيلوا « مدينة فاضلة » على الأرض لتملأ مكان الفردوس السماوى الذى تحطم ، وحلت الديمقراطية محل « النرڤانا » ، وأخذت الحرية مكان الله ، فما جرى فى أوربا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر أخذ يجرى شبيهه الآن فى الشرق .

ومع ذلك فالأفكار الجديدة أخذت تسير مجراها فى خطو وئيد، ففى سنة ١٨٥٥ اجتمعت طائفة قليلة من زعماء الهنود فى بمباى وأسسوا « المؤتمر الهندى القومى » لكن الظاهر أنهم لم يحلموا عندئذ حتى بمجرد الحكم الذاتى ، وبعدئذ حاول « لورد كيرزن » أن يقسم البنغال (ومعنى ذلك أن يصيب أقوى جماعة هندية وأشدها وعياً سياسياً بالتفكك والضعف) فأثارت محاولته تلك جماعة الوطنيين بحيث تقدموا خطوة نحو الثورة، وفى المؤتمر المنعقد سنة ١٩٠٥ طالب « تيلاك » فى صلابة لا تلين بـ « سواراج » وهذه كلمة اشتقها هو(**) من أصول سنسكريتية ، ومعناها الحكم الذاتى (والكلمة الهندية قريبة لفظاً من العبارة الإنجليزية Self-rule) ؛ وحدث فى نفس ذلك العام الملىء بالحوادث أن هزمت اليابان روسيا ، وبدأ الشرق الذى لبث قرناً كاملا يخشى صولة الغرب، بدأ يضع الخطة لتحرير آسيا ، وتزعّم «سَن ْ يات سِن ْ» الصين فجمع هؤلاء سيوفهم وارتموا فى أحضان اليابان ، أما الهند العزلاء من سلاحها ، فقد أسلمت قيادها لزعيم هو من أغرب من شهد التاريخ من رجال ، فضربوا للعالم مثلا لم يسبق له مثيل ، لثورة يقودها قديس ، تثور ثائرتها بغير مدفع

(*) هذا الكلام لا ينطبق على الجميع ، فبعضهم – على حد تعبير « كوما رازوامى » البابع « قد عاد من أوروبا إلى الهند » .

الفصل السادس

مهاتما غاندى

صورة قديس – الزاهد – المسيحى – تعليم غاندى فى إفريقيا – ثورة ١٩٢١ – « أنا الرجل » – أعوام السجن – « الهند الفتاة » – ثورة المغزل – أعمال غاندى

صوِّر لنفسك أقبح وأضأل وأضعف رجل فى آسيا ، له وجه وجسد كأنما صيغا من البرونز ، رأسه الأشيب حليق الشعر حتى الجذور ، عظمتا صدغيه بارزتان وعيناه البنيّتان تشعان طيبة قلب ، وفمه واسع يوشك أن يخلو من الأسنان ، وأكبر من فمه أذناه ، وأنفه ضخم ، نحيل الذراعين والساقين ، ادّثر بثوب على ردفيه ، صوِّر لنفسك هذا الرجل واقفاً أمام قاض إنجليزى فى الهند ، مُتَّهَماً بتحريض قومه على « عدم التعاون » ؛ أو صوِّره جالساً على بساط صغير فى غرفة عارية فى مقره المسمى « سايا جراها شرام » – ومعناها « مدرسة طلاب الحقيقة » – فى أحمد أباد ، وقد ربَّع ساقيه النحيلتين تحت جسمه على نحو ما يفعل « اليوجى » وبطن القدمين إلى أعلى ، ويداه لا تنفكان تعملان فى عجلة المغزل ووجهه تغضَّن بتقلصات تنمّ عن عبء التبعة الذى حمله ، وعقله نشيط الحركة مستعد بالجواب عن كل من يسأل سؤالا عن الحرية ؛ هذا النسَّاج العريان كان هو الزعيم الروحى والزعيم السياسى فى آن معاً لأمه من الهنود بلغ عددها ثلاثمائة وعشرين مليوناً من الأنفس ، وامتدت زعامته من ١٩٢٠ إلى ١٩٣٥(*) ، فإذا ما ظهر للناس ، التفت حوله جماعات حاشدة لتتبرك بلمس ثيابه أو تقبيل قدميه[٥١] .

(*) امتدت زعامة غاندى حتى وفاته سنة ١٩٤٨ ، وإنما وقف المؤلف عند عام ١٩٣٥ لأنه تاريخ إصدار هذا الكتاب فى أصله الإنجليزى . (المعرب)

كان ينفق كل يوم أربع ساعات فى غزل « الخضّار » الخشن راجياً أن يسوق بنفسه للناس مثلا يحتذونه فيستخدمون هذا القماش الساذج المغزول فى داخل البلاد ، بدل شرائهم منتجات المغازل البريطانية التى جاءت خراباً على صناعة النسيج فى الهند ؛ كان كل ما يملك ثلاثة أثواب غلاظ ، اثنان يتخذهما لباساً ، والثالث يتخذه فراشاً ، وقد كان بادئ أمره محامياً غنياً ، لكنه تنازل عن كل أملاكه للفقراء ، ثم تبعته فى ذلك زوجته بعد شىء من التردد نعهده فى الأمهات ؛ كان ينام على أرضية الغرفة عارية ، أو على تربة الأرض ، يعيش على البندق والموز والليمون والبرتقال والبلح والأرز ولبن الماعز(٥٢) ، وكثيراً ما كان يقضى الشهور متتابعات لا يأكل إلا اللبن والفاكهة ، ولم يذق طعم اللحم إلا مرة واحدة فى حياته ، وكان حيناً بعد حين يمتنع عن الطعام إطلاقاً بضعة أسابيع وهو يقول : « لو استطعت أن استغنى عن عينىّ ، استطعت كذلك أن أستغنى عن صيامى ، فما تفعله العينان للدنيا الخارجية يفعله الصوم للدنيا الباطنية »(٥٣) فقد كان يعتقد أنه كلما رق الدم صفا العقل وسقطت عنه النوازع التى تنحرف به عن جادة الطريق ، بحيث تبرز أمامه الجوانب الأساسية — بل قد تبرز أمامه روح العالم وصميمه — بعد أن تنفض عنها الأعراض (واسمها مايا) كما يبرز إفرست خلال السحاب .

وفى نفس الوقت الذى كان يصوم فيه عن الطعام ليشهد الروح الإلهية ، لم يفته أن يحتفظ بأصبع من أصابع قدمه على الأرض ، وكان ينصح أتباعه أن يحقنوا أنفسهم فى الشرج مرة كل يوم إبان الصوم ، حتى لا تتسمم أبدانهم بالإفرازات الحمضية التى يفرزها الجسد وهو يستهلك بعضه ، وقد يصاب الجسد بهذا السم فى نفس اللحظة التى يتاح فيها للإنسان أن يشهد الله(٥٤) .

ولما اقتتل المسلمون والهندوس ، وأخذوا يصرعون بعضهم بعضا مدفوعين بحماسة دينية ، ولم يصيخوا إلى دعوته إياهم للسلام ، صام ثلاثة أسابيع رجاء أن

يحرك العطف فى نفوسهم ، ولقد أدى به الصيام والحرمان الذى كان يفرضه على نفسه ، إلى ضعف وهزال ، بحيث لم يكن بد من اعتلائه مقعداً مرفوعاً كلما أراد توجيه الخطاب للحشود العظيمة التى كانت تجتمع لتسمعه ؛ ومدَّ زهده حتى شمل به نطاق العلاقة الجنسية ، وأراد – كما أراد تولستوى – أن يحصر عملية الجماع فلا يلجأ إليها إلا إذا قصد إلى التناسل ، وكان هو كذلك قد أنفق شبابه منغمساً فى شهوات بدنه ، حتى لقد جاءه نبأ موت أبيه وهو يحتضن إحدى الغانيات ، أما فى رجولته فقد عاد – والندم الشديد يأكل قلبه – إلى « براهما شاريا » التى لُقِّنَها فى صباه – وهى الامتناع التام عن كل شهوة جسدية ؛ وأقنع زوجته أن تعيش معه كما تعيش الأخت مع أخيها ، وهو يروى لنا أنه « منذ ذلك الوقت بطل بيننا كل نزاع »(٥٥) .

ولما تبين له أن حاجة الهند الأساسية هى ضبط النسل ، لم يصطنع فى سبيل ذلك وسائل الغرب ، بل اتبع طرائق « مالتوس » و « تولستوى » .

« أنكون على صواب إذا ما نسلنا الأطفال ونحن نعلم حقيقة الموقف ؟ إننا لا نفعل سوى أن نضاعف عدد العبيد والمقعدين ، إذا مضينا فى التكاثر بغير أن نتخذ إزاءه شيئاً من الحيطة . . لن يكون لنا حق النسل إلا إذا أصبحت الهند أمة حرة . . . ليس إلى الشك عندى من سبيل فى أن المتزوجين إذا أرادوا الخير بأمتهم وأرادوا للهند أن تصبح أمة من رجال ونساء أقوياء وسيمين ذوى أبدان جميلة التكوين ، كان واجبهم أن يكبحوا جماح أنفسهم ويقفوا النسل مؤقتاً(٥٦) .

وإلى جانب هذه العناصر فى تكوين شخصيته ، كان يتصف بخلال عجيبة الشبه بتلك الخلال التى يقال إنها كانت تميز « مؤسس المسيحية » ؛ إنه لم يتفَّوه باسم المسيح ، ولكنه مع ذلك كان يسلك فى حياته كما لو كان يأخذ بكل كلمة مما جاء فى « موعظة الجبل » ؛ فلم يعرف التاريخ منذ القديس فرنسيس

الأسيوى رجلا اتصفت حياته بمثل ما اتصفت به حياة غاندى من وداعة وبُعْد عن الهوى وسذاجة وعفو عن الأعداء ؛ وإنه لما يذكر حسنةً لمعارضيه ، لكنه حسنة أكبر بالنسبة له هو ، أن حسن معاملته لهم – ولم يكن ذلك محل مقاومة منهم – قد استثار فيهم معاملة حسنة له من جانبهم ؛ فلما أرسلته الحكومة إلى السجن ، فعلت ذلك مصحوباً بفيض من الاعتذارات ، ولم يبد هو قط شيئاً من حقد أو كراهية ؛ وقد هجم الغوغاء عليه ثلاث مرات ، وضربوه ضرباً كاد يودى بحياته لكنه لم يردّ العدوان بعدوان مثله أبداً ، ولما قبض على أحد المعتدين عليه ، أبى أن يتوجه إليه بالاتهام .

ولم يلبث بعد ذلك أن نشبت بين المسلمين والهندوس أفظع ما نشب بينهم من فتن ، وذلك حين ذبح مسلمو « موبلا » مئات من الهندوس العزّل ، وقدموا « غلفاتهم » لله قرباناً ، ثم حدث لهؤلاء المسلمين أنفسهم أن أصابتهم المجاعة ، فجمع لهم غاندى أموالا من أرجاء الهند كلها ، وقدم كل المال المجموع ، بغير نظر إلى السوابق ، وبغير أن يستقطع منه جزءاً لأحد ممن قاموا بجمعه ، قدّمه للعدو الجائع (٥٧) .

ولد « موهانداس كارام شاند غاندى » سنة ١٨٦٩ ، وتنتمى أسرته إلى طبقة « ڤاسيا » وإلى المذهب الجانىّ ومن مبادئها التى مارستها مبدأ « أهِمْسا » وهو ألا ينزل أحد الأذى بكائن حى ،وكان أبوه إدارياً قادراً ، لكنه كان من زنادقة المولين ، فقد فقدَ منصباً فى إثر منصب بسبب أمانته ، وأنفق ماله كله تقريباً فى سبيل الإحسان ، وترك ما تبقى منه لأسرته(٥٨) ولما كان « موهانداس » فى صباه أنكر الآلهة إذ أساء إلى نفسه أن يرى أعمال الدعارة ماثلة فى بعض آلهة الهندوس ، ولكى يعلن ازدراءه للدين ازدراء أبديا ، أكل اللحم ، لكن أكل اللحم أضرّ بصحته ، فعاد إلى حظيرة الدين .

ولما بلغ الثامنة خطب عروسه ، وفى الثانية عشرة تزوج منها وهى

« كاستوربائى » التى ظلت على وفائها له خلال مغامراته كلها وغناه وفقره وسجنه وما تعرض له من « براهما شاريا » (أى اعتزام العفة الجنسية) ؛ وفى سن الثامنة عشرة نجح فى امتحانات الدخول فى الجامعة ، وسافر إلى لندن ليدرس القانون ، ولما كان فى السنة الأولى هناك، قرأ ثمانين كتاباً عن المسيحية ؛ وقال عن « موعظة الجبل » « إنها غاصت إلى سويداء قلبى عند قراءتها للمرة الأولى »(٥٩) واعتبر مبدأها بأن يُرَدّ الشر بالخير وأن يحب الإنسان كل الناس حتى الأعداء ، أسمى ما يعبر عن المثل الأعلى الإنسانى ، وصمم على أن يؤثر الفشل بهذه المبادئ على النجاح بغيرها .

ولما عاد إلى الهند سنة ١٨٩١ مارس المحاماة حيناً فى بمباى ؛ فكان يرفض أن يتهم أحد من أجل دَيْنه ، ويحتفظ لنفسه دائماً بحق ترك القضية إذا ما وجد أنها تتنافى مع العدل ؛ وقد أدت به إحدى القضايا إلى السفر إلى جنوبى أفريقيا، فوجد بنى قومه هناك يلاقون من سوء المعاملة ما أنساه العودة إلى الهند ، واتجه بجهده كله — بغير أجر — إلى قضية بنى وطنه فى أفريقيا ليزيل عنهم ما كان يصفدهم هناك من أغلال ؛ ولبث عشرين عاماً يجاهد للوصول إلى هذه الغاية حتى سلمت له الحكومة بمطالبه ، وعندئذ فقط عاد إلى أرض الوطن .

وكان طريق سفره بحيث يخترق الهند ، فتبين للمرة الأولى فقر الناس فقراً مدقعاً ، وأفزعته الهياكل العظيمة التى شهدها تكدح فى الحقول ، والمنبوذون الوضيعون الذين كانوا يعملون أقذر الأعمال فى المدن ؛ وخيل أن ما يلاقيه بنو وطنه فى الخارج من ازدراء ، إن هو إلا إحدى نتائج فقرهم وذلهم فى أرض وطنهم ، ورغم ذلك فقد أخلص الولاء لإنجلترا بتأييدها إبان الحرب ، بل دافع عن وجوب انخراط الهنود فى سلك الجيش المحارب . إن كانوا ممن لم يقبلوا مبدأ الإقلاع عن العنف ، ولم يوافق — عندئذ — أولئك الذين ينادون بالاستقلال

وآمن بأن سوء الحكم البريطانى فى الهند كان شذوذاً فى القاعدة ، أما القاعدة فهى أن الحكم البريطانى بصفة عامة حكم جيد ، وأن سوء الحكومة البريطانية فى الهند لا يرجع إلا إلى عدم اتباعها لمبادئ الحكم السائدة فى الحكومة البريطانية فى بريطانيا نفسها ، وأنه لو أفهم الشعب البريطانى قضية الهنود ، تردد فى قبولهم على أساس الإخاء التام فى مجموعة الأجزاء الحرة من الإمبراطورية(٦٠) واعتقد أنه إذا ما وضعت الحرب أوزارها وحسبت بريطانيا ما ضحت به الهند فى سبيل الإمبراطورية من رجال ومال ، لما ترددت فى منحها حريتها .

لكن الحرب وضعت أوزارها ، وتحرك الشعب مطالباً « بالحكم الذاتى » ، فصدرت « قوانين رولتند » وقضت على حرية الكلام والنشر ، بإنشائها تشريعاً عاجزاً للإصلاح يسمى « مونتاجو ــ شلمز فورد » ثم جاءت مذبحة « أمرتسار » فأجهزت على البقية الباقية ، ونزلت الصدمة قوية على غاندى ، فقرر من فوره عملا حاسماً ، من ذلك أنه أعاد لنائب الملك الأوسمة التى كان قد ظفر بها من الحكومات البريطانية فى أوقات مختلفة ، ووجه الدعوة إلى الهند لتقف من الحكومة الهندية موقف العصيان المدنى ، واستجاب الشعب لدعوته ، لا بالمقاومة السلمية كما طلب إليهم ، بل بالعنف وإراقة الدماء ، ففى بمباى مثلا قتلوا ثلاثة وخمسين من « الفارسيين » المناهضين للحركة القومية(٦١) ، ولما كان غاندى يعتنق مذهب « الأهِمْسا » ــ أى الامتناع عن قتل الكائنات الحية بكافة أنواعها ــ فقد بعث للناس برسالة أخرى دعاهم فيها إلى إرجاء حملة العصيان المدنى ، على أساس أنها تتدهور فى طريقها إلى أن تكون حكم الغوغاء فقلما تجد فى التاريخ رجلا أبدى من الشجاعة أكثر مما أبداه غاندى فى الاستمساك بالمبدأ فى سلوكه ، مزدرياً ما تمليه الضرورة العملية للوصول إلى الغايات ، وغير آبه بحاوله من قلوب الناس منزلة عالية ، فدهشت الأمة

لقراره ، لأنها ظنت أنها كادت تبلغ غايتها ، ولم توافق غاندى على أن الوسائل قد يكون لها من الأهمية ما للغاية المنشودة ، ومن ثم هبطت سمعة المهاتما حتى بلغت أدنى درجات جزرها .

وفى هذه اللحظة نفسها (فى مارس سنة ١٩٢٢) قررت الحكومة القبض عليه ، فلما توجه إليه النائب العام بتهمة إثارة الناس بمنشوراته ، حتى اقترفوا ما اقترفوه من ألوان العنف فى ثورة ١٩٢١ ، أجابه غاندى بعبارة رفعته فوراً إلى ذروة الشرف ، إذ قال :

« أحب أن أؤيد ما ألقاه النائب العام العلامة على كتفى من لوم فيما يخص الحوادث التى وقعت فى بمباى ومدراس وشاورى شاورا ؛ لأننى إذا ما فكرت فى هذه الحوادث تفكيراً عميقاً ، وتدبرت أمرها ليلة بعد ليلة ، تبين لى أنه من المستحيل على أن أتخلى عن هـــذه الجرائم الشيطانية . . . إن النائب العام العلامة على حق لا شبهة فيه حين يقول إننى باعتبارى رجلا مسئولا ، وباعتبارى كذلك رجلا قد ظفر بقسط من التعليم لا بأس به . . . . . كان ينبغى على أن أعرف النتائج التى تترتب على كل فعل من أفعالى ؛ لقد كنت أعلم أننى ألعب بالنار ، وأقدمت على المغامرة ، ولو أطلق سراحى لأعدتُ من جديد ما فعلته ؛ إنى أحسست هذا الصباح أننى أفشل فى أداء واجبى إذا لم أقل ما أقوله هنا الآن .

أردت أن أجتنب العنف ، وما زلت أريد اجتناب العنف ، فاجتناب العنف هو المادة الأولى فى قائمة إيمانى ، وهو كذلك المادة الأخيرة من مواد عقيدتى ؛ لكن لم يكن لى بد من الاختيار ، فإما أن أخضع لنظام الحكم الذى هو فى رأيى قد ألحق ببلادى ضرراً يستحيل إصلاحه ، وإما أن أتعرض للخطر الناشئ عن ثورة بنى وطنى ثورة غاضبة هوجاء ينفجر بركانها إذا ما عرفوا حقيقة الأمر من بين شفتى ، إنى لأعلم أن بنى وطنى قد جاوزوا حدود المعقول أحياناً ، وإنى لآسف لهذا أسفاً شديداً ، ولذلك فأنا واقف ها هنا لأتقبل ، لا أخفَّ ما تفرضونه من عقوبة ، بل أقسى ما تنزلونه من عقاب ؛ إننى

لا أطلب الرحمة ، ولا أتوسل إليكم أن تخففوا عنى العقاب ، إننى هنا – إذن – لأرحب وأتقبل راضيا أقسى عقوبة يمكن معاقبتى بها على ما يعدّه القانون جريمة مقصودة ، وما يبدو لى أنه أسمى ما يجب على المواطن أداؤه(٦٢) .

وعبر القاضى عن عميق أسفه لاضطراره أن يزج فى السجن برجل يعدّه الملايين من بنى وطنه « وطنياً عظيما وقائداً عظيما » واعترف بأنه حتى أولئك الذين لا يأخذون بوجهة نظر غاندى ، ينظرون إليه نظرتهم إلى « رجل ذى مثل عليا وحياة شريفة بل إن حياته لتتصف بما تتصف به حياة القديسين »(٦٣) وحكم عليه بالسجن ست سنوات .

سُجن غاندى سجناً منفرداً لكنه لم يتألم ، وكتب يقول « لست أرى أحداً من المسجونين الآخرين ، ولو أننى فى الحق لا أدرى كيف يمكن أن يأتيهم الضرر من صحبتى لكنى أشعر بالسعادة ، إنى أحب العزلة بطبيعتى ، وأحب الهدوء ، ولدىّ الآن فرصة سانحة لأدرس موضوعات لم يكن لى بد من إهمالها فى العالم الخارجى(٦٤) وراح يعلم نفسه بما يزيد من ثورته فى كتابات « بيكن » و « كارلايل » و « رسكِن » و « إمرسن » و « ثورو » و « تولستوى » ، وسرّى عن نفسه كروبها مدى ساعات طوال بقراءته لـ « بن جونسُن » و « وولتر سكُت » وقرأ « بها جافاد جيتا » مراراً ، ودرس السنسكريتية والتاميلية والأردية ، حتى لا يقتصر على الكتابة للعلماء ، بل ليستطيع كذلك أن يتحدث إلى الجماهير ، ولقد أعدّ لنفسه برنامجاً مفصلا لدراساته خلال الستة الأعوام التى سيقضيها فى سجنه ، وكان أميناً فى تنفيذ ذلك البرنامج ، حتى تدخلت الحوادث فى تغيير مجراه ، « لقد كنت أجلس إلى كتبى بنشوة الشاب وهو فى الرابعة والعشرين ، ناسياً أنى قد بلغت من العمر أربعة وخمسين وأنى عليل »(٦٥) ؛

كان مرضه « بالمصران الأعور » طريق خلاصه من السجن ، كما كان الطب الغربي الذي طالما أنكره ، طريق نجاته من المرض ؛ وتجمع عند بوابات السجن حشد كبير لتحيته عند خروجه وقبّل كثيرون منهم ثوبه الغليظ وهو ماض في طريقه ؛ لكنه اجتنب السياسة وتوارى عن أنظار الشعب ، وعني بضعف بنيته ومرضه ، وأوى إلى مدرسته في أحمد أباد حيث أنفق أعواماً طوالا مع طلابه في عزلة هادئة ؛ ومع ذلك فقد أخذ يرسل من مكْمنه ذاك كل أسبوع بمقال افتتاحي تنشره له الجريدة التي كانت لسان حاله ، وهي جريدة « الهند الفتاة » وجعل يبسط في تلك المقالات فلسفته عن الثورة والحياة ؛ والتمس من أتباعه أن يجتنبوا أعمال العنف ، لا لأن العنف بمثابة الانتحار للهند فقط ، ما دامت الهند عزلاء من السلاح ، بل لأنه كذلك سيضع استبداداً مكان استبداد آخر ؛ وقال لهم : « إن التاريخ ليعلمنا أن أولئك الذين دفعتهم الدوافع الشريفة إلى اقتلاع أصحاب الجشع باستخدام القوة الغشوم ، أصبحوا بدورهم فريسة لنفس المرض الذي كان يصيب أعداءهم المهزومين . . : إن اهتمامي بحرية الهند سيزول لو رأيتها تصطنع لحريتها وسائل العنف ، لأن الثمرة التي تجنيها من تلك الوسائل لن تكون الحرية ، بل ستكون هي الاستعباد »[١٦]

وثاني العناصر في عقيدته هو رفضه القاطع للصناعة الحديثة ، ودعوته الى تشبه دعوة روسو في سبيل العودة إلى الحياة الساذجة ، حياة الزراعة والصناعة المنزلية في القرى ، فقد خيل لغاندي أن حبس الرجال والنساء في مصانع ، يعملون — بآلات يملكها سواهم — أجزاء من مصنوعات لن يتاح لهم قط أن يروها وهي كاملة ، طريقة ملتوية لشراء دمية الإنسان تحت هرم من سلع بالية ، في رأيه أن معظم ما تنتجه الآلات لا ضرورة له ؛ والعمل الذي يوفره استخدام الآلات في الصناعة يعود فيستهلك في صنعها وإصلاحها ، أو إن كان هناك عمل قد ادخرته الآلات فعلا ، فليس هو من صالح العمل نفسه ، بل من صالح رءوس الأموال ، فكأنما الأيدي العاملة تقذف بنفسها بسبب

إنتاجها فى حياة يسودها الذعر لما يملؤها من « تعطل ناشئ عن الأساليب العلمية فى الصناعة »[٦٧] ولذلك عمل على إحياء حركة « سواديشى » التى حمل لواءها « تيلاك » سنة ١٩٠٥ ، وأضيف مبدأ « الإنتاج الذاتى » إلى مبدأ « سواراج » أى « الحكم الذاتى » ، وجعل غاندى استخدام « الشاركا » — أى عجلة الغزل — مقياساً للتشيع الخاص للحركة القومية وطالب كل هندى ، حتى أغناهم ، بأن يلبس ثياباً من غزل البلاد ، وأن يقاطع المنسوجات البريطانية الآتية ، حتى يتسنى للدور فى الهند أن تطن من جديد فى فصل الشتاء الممل بصوت المغازل وهى تدور بعجلاتها[٦٨] :

لكن الناس لم يستجيبوا بأجمعهم لدعوته ، لأنه من العسر أن تقف التاريخ عن مجراه ، ومع ذلك فقد حاولت الهند على كل حال أن تستجيب لدعوته ، فكنت ترى الطلبة الهنود فى كل أرجاء الأرض كلها يرتدون « الخضار » ؛ ولم تعد سيدات الطبقة العالية يلبسن « السارى » من الحرير اليابانى ، بل استبدلن به ثياباً خشنة من نسيج أيديهن وجعلت العاهرات فى مواخيرهن والمجرمون فى سجونهم يغزلون ، وأقيمت المحافل الكبرى فى المدن كثيرة كما كان يحدث فى عهد « سافونا رولا » — حيث جاء الهنود الأغنياء والتجار بما كان فى دورهم أو فى مخازنهم من المنسوجات الواردة من الخارج ، فألقوا بها فى النار ، ففى بمباى وحدها ، أكلت ألسنة اللهب مائة وخمسين ألف ثوب من القماش[٦٩] .

ولئن فشلت هذه الحركة التى قصدت إلى نبذ الصناعة ؛ فقد هيأت للهند مدى عشرة أعوام رمزاً للثورة ، وعملت على تركيز ملايينها الصامتة فى اتحاد جديد من الوعى السياسى ، وارتابت الهند فى قيمة الوسيلة لكنها أكبرت الغاية المنشودة ؛ فإذا كانت قد تزعزعت ثقتها بغاندى السياسى فقد أحلت فى سويداء قلبها غاندى القديس ، وأصبحت الهند كلها لحظة من الزمن بمثابة الرجل الواحد وذلك باتحادها فى إكباره ، فكما يقول عنه طاغور :

« إنه وقف على أعتاب آلاف الأكواخ التى يسكنها الفقراء ولبس ثياباً

كثيابهم ، وتحدث إليهم بلغتهم ، ففيه تجسدت آخر الأمر حقيقة حية ، ولم يعد الأمر اقتباساً يستخرج من بطون الكتب : ولهذا السبب كان اسم « مهاتما » — وهو الاسم الذى أطلقه عليه الشعب — هو اسمه الحق ، فمن سواه قد شعر شعوره بأن الهنود أجمعين هم لحمه ودمه ؟ . . فلما جاء الحب وطرق باب الهند ، فتحت له الهند بابها على مصراعيه . . . لقد ازدهرت الهند لدعوة غاندى ازدهارا يؤدى بها إلى عظمة جديدة ، كما ازدهرت مرة سبقت فى الأيام السوالف ، حين أعلن بوذا صدق الإخاء والرحمة بين الكائنات الحية جميعاً »(٧٠) .

لقد كانت رسالة غاندى أن يوحّد الهند وقد أدى رسالته ؛ وهناك رسالات أخرى تنتظر رجالا آخرين .

الفصل السابع

كلمة وداع للهند

لسنا نستطيع أن نختم الحديث فى تاريخ الهند على نحو ما نختمه فى تاريخ مصر أو بابل أو أشور ، لأن تاريخ الهند لا يزال فى دور تكوينه ، ومدنيتها لا تزال فى طور إبداعها ، لقد دبت الحياة من جديد فى الهند من الوجهة الثقافية باتصالها بالغرب اتصالا عقلياً ، حتى لترى أدبها اليوم فى خصوبة شتى الآداب فى البلاد الأخرى ، وأما من الوجهة الروحية ، فهى ما تزال تكافح الخرافة والإسراف فى بضاعتها اللاهوتية ، ولكننا لا نستطيع التنبؤ بالسرعة التى تستطيع بها أحماض العلم الحديث أن تذيب آلهتهم التى تزيد عن حاجتهم ، ومن الوجهة السياسية شهدت الهند فى المائة السنة الأخيرة وحدة لم تشهد لها مثيلا فيما مضى إلا نادراً ، ويرجع ذلك إلى حد ما إلى توحيد الحكومة الأجنبية القائمة عليهم ، وإلى حد ما إلى توحيد اللغة الأجنبية التى يتكلمونها ، ولكنه يرجع فوق هذا وذلك إلى اتحادهم فى الطموح إلى الحرية طموحاً صهرهم فى وحدة متماسكة ، ومن الوجهة الاقتصادية تنتقل الهند الآن من حياة العصور الوسطى إلى حياة الصناعة الحديثة بما فى هذا الانتقال من حسنات وسيئات ، وستنمو ثروتها وتزداد تجارتها ، نمواً وازدياداً يؤهلانها بغير شك إلى أن تكون قبل نهاية هذا القرن بين دول العالم الكبرى .

وليس فى وسعنا أن نزعم أن هذه المدنيَّة قد أفادت مدنيتنا إفادة مباشرة ، كما استطعنا أن نتعقب بعض جوانب مدنيتنا إلى أصولها فى مصر أو الشرق الأدنى ، ذلك لأن مصر والشرق الأدنى كانا السَّلَفَيْن المباشرين لثقافتنا ، بينما تدفق تاريخ الهند والصين واليابان فى مجرى آخر ، وهو آخذ لتوه اليوم فى مس تيار

الحياة العربية والتأثير فيه ؛ إنه على الرغم من حيلولة حاجز الهملايا ، قد استطاعت الهند أن تبعث إلينا عَبْرَ تلك الجبال طائفة من ألوان التراث المشكوك فيه ، مثل النحو والمنطق والفلسفة والحكايات الخرافية والتنويم المغناطيسى والشطرنج ، وفوق هذا كله ، بعثت إلينا أرقامنا التى نستعملها فى الحساب ونظامنا العشرى ؛ لكن هذه ليست صفوة روحها ، وهى توافه إذا قيست إلى ما قد نتعلمه منها فى مقبل الأيام ؛ فبينا تعمل الاختراعات والصناعة والتجارة على ربط القارات بعضها ببعض ، أو بينا تعمل هذه العوامل على بث روح الشقاق بيننا وبين آسيا ، فسيتاح لنا فى أى من الحالتين أن ندرس مدنيتها عن كثب أكثر من ذى قبل ، وسنمتصُّ — حتى فى حالة قيام الخصومة بيننا — بعض أساليبها وأفكارها ؛ فربما علمتنا الهند مقابل ما لقيتْه على أيدينا من فتح وعنجهية واستغلال ، التسامح والوداعة اللذين يتصف بهما العقل الناضج ، والقناعة المطمئنة التى تتميز بها النفس إذا كفت عن الجشع فى جمع المال ، وهدوء الروح البصيرة بحقائق الوجود ، وحب الكائنات الحية جميعاً ، الذى من شأنه أن يبث فى الناس اتحاداً وسلاماً .

المراجع†

الباب الرابع عشر

1. In Rolland, R., *Prophets of the New India*, 895, 449-50.
1a. Winternitz, M., *A History of Indian Literature*, i, 8.
2. Ibid , 18-21.
3. Keyserling, Count H., *Travel Diary of philosopher*, 265.
4. Chirol, Sir Valentine, *India*, 4.
5. Dubois, Abbé J. A., *Hindu Manners, Customs and Ceremonies*, 95, 321.
6. Smith, Vincent, *Oxford History of India*, 2, Child, V. O. *The Most Ancient East*, 202; Pittard, *Reace and History* 388; Coomaraswamy, *History of Indian and Indonisian Art*, 6, Parmelec, M., *Oriental and Occidental Culture*, 23-4.
7. Marshall, Sir John, *The Prehistoric Civil zation of the Indus*, *Illustrated London News*, Jan. 7, 1928, 1.
8. Child, 209.
9. In Muthu, D. C., *The Antiquity of Hindu Midicine*, 2.
10. Sir John Marchall in *The Modern Review*, Calcutta, April 1932, 367.
11. Coomaraswamy in *Encyclopedia Britannica*, xii, 211-2.
12. New York *Times*, Aug. 2, 1932.
13. Macdonell, A. A., *India's Past*, 9.
14. Ibid.
15. Childe 211.
16. Woolley, 8.
17. Childe, 202.
18. Ibid, 220, 211.
19. New York *Times*. April 8, 1932.
20. Gour, *Spirit of Buddhism*, 524; Radhakrishnan, S., *India Philosophy*, 75.
21. Smith, *Oxford History*, 14.
22. Davids, T. W. Rhys. *Dialogues of the Buddha*, being vols. ii-iv of *Sacred Books of the Buddhists*, ii, 97, Venkateswara, 10.
23. Monier-Williams, Sir M. *Indian Wisdom*, 227.
24. Winternitz, 304.
25. Jastrow, 85.
26. Winternitz, 64.
27. Westermarck, *Moral Ideas*, i, 216, 222, Havell, E. B., *History of Aryan Rule in India*, 35, Dacids, *Buddhist India*, 51, *Dialogues of the Buddha*, iii, 79.
28. Buxton, *The people of Asia*, 121.
29. Davids, *Buddhist India*, 56, 62.

(†) سنثبت اسم الكتاب كاملا عند أول وروده في هذه القـــائمة ثم نكتفي بعد ذلك بذكره مختصراً

Smith, *Oxford History*, 37.

30. Sidhanta, N. K. *The Heroic Age of India*, 206; *Mahabharata* IX, v, 30.

31. Havell, 33.

32. Dutt, R. C., tr., *The Ramayana and Mahabharata*, Everyman Library, 189.

33. Davids, *Buddhist India*, 60,

34. Davids, *Dialogues*, ii, 114, 128.

35. Dutt. R. C. *The Civilization of India*, 21; Davids, *Buddhist India*. 55.

36. Macdonell. *India's Past*, 89.

37. Gray, R. M. and Parekh, M.C., *Mahatma Gandhi*, 37.

38. *Budhist India* , 46, 51, 101,2; Winternitz. 46.

39. *Buddhist India*, 90,96, 70, 101.

40. Ibid., 70. 98; Winternitz, 65; Havell, *History*, 129; Muthu, 11.

41. Winternitz, 212.

42. *Buddhist India*, 100-1.

43. Ibid., 72.

44. Dutt, *Ramayana*, 231.

45. Arrian. quoted in Sunderland, Jabez T., *India in Bondage*, 178. Strabo, XV, i, 53.

46. Winternitz, 66-7.

47. Venkateswara, 140.

48. Sidhanta, 149; Tagore in Keyserling, *The Book of marriage*, 108.

49. Sidhanta, 153.

50. Dutt, *Ramayana*, 192.

51. Smith, Oxford History. 7; Barnett, L. D., *Antiquities of India*,

52. Havell, *History*, 14; Barnett, 109.

53. Monier - Williams. 439; Winternitz, 66,

54. Lajpat Rai, L., *Unhappy India*, 151, 176.

55. *Mahabharata*, III, xxxiii, 82; Sidhanta, 160.

56. Sidhanta, 165, 168, Bernett 119, Briffault, i, 346.

57. Radhakrishnan, i, 119, Eliot, Sir Charles, *Hinduism* and *Buddhism* i, 6, *Buddhist India*, 226, Smith, 70, Das Gupta, Surendranath, *A History of Indian Philosophy*,25.

58. *Buddhist of India*, 220-4, Radhakrishnan, i, 483.

59. Ibid., 117.

60. Winternitz, 140.

61. Hume, R.E., *The Thirteen Principal Upanishads*, 169.

62. Das Gupta, 6.

63. Radhakrishnan, i, 76.

64 Eliot, i, 58, Macdonell, 82-3.

65. Eliot, i, 62, Winternitz 76.

66. Eliot, i, 59.

67. Radhakrishnan, i, 105.

68. Ibid., 78.

69. *Brihadaranyake Upanishad*, i, 4, Hume 81.

70 Radhakrishnan, i, 114-5.

71 *Katha Upanishad*, i, 8 Radhakrishnan, i. 250, Müller, Max, *Six Systems of Hindu Philosophy*, 191.

72. Eliot, i, xv; *Buddhist India*, 241 Radhakrishnan, i, 108.

73. Ibid., 107,Winternitz, 215, Gour, 5.

74. Frazer, R. W., *A Literary History of India*, 243.

75. Dutt, *Ramayana*, 318, Briffault, i, 346, iii, 188.

76. Ibid.

77. Macdonell, 24.

78. Winternitz, 208, Das Gupta 21.
79. Budhist India, 241.
80. Winternitz, 207.
81. Dutt, *Civilization of India*, 38.
82. Müller, Max, *Lectures on the Science of Language*, ii. 234-7, 276, Skeat, W. W., *Etymological Dictionary of the English Language*, 729f.
83. In Elphinstone, M., *History of India*, 161.
84. *Buddhist India*, 153. Winternitz 41-4.
85. Ibid , 31-2, Macdonell., 7, *Buddhist India*, 114.
86. Ibid. 120.
87. Müller, Max, *India What Can It Teach Us ?*, London, 1919, 206. Winternitz, 32.
89. mubios, 425.
90. Radhakrishnan i, 67, Eliot, i, 51.
91. Ibid., i, 53.
92. Winternitz, 69,79, Müller, *India*, 97, Macdonell, 35.
93. Tr. by Macdonell in Tiejens, Eunice, *Poetry of the Orient*, 248.
94. Tr. by Max Müller in Smith, *Oxford History*, 20.
95. In Müller, India, 254,
96. Winternitz, 243, Radhakrishman, i, 137 Deussen, Paul, *The Philosophy of the Upanishads* 13.
97. Eliot, i, 51, Radhakrishnan, i, 141.
98. Cf. e. g., a passage in Chatterji J. C., *Indian's Outlook on life*, 42.
99. E.g., *Chandogya Upanishad*, v, 2, Hume 229.
100. They are listed in Radhakrishnan, 143.
101. Eliot, i, 93.
102. Hume, 144.
103. *Shvetashvatara Upanishad*, i, 1, Radhakrishnan i, 150.
104. Hume, 422,
105. *Katha Upanishad*, ii, 23, *Brihadaranyaka Upanishad*, iii, 5, iv, 4, Radhakrishnan, 177.
106. *Katha Upan.*, iv, i, Radhakrishnan i, 145.
107. *Katha Upan.*, ii, 24.
108. *Chondogya Upan* , vi, 7.
109. Radhakrishnan, i, 151.
110. *Brih. Upan.*, ii, 2, iv, 4.
111. Ibid., iii, 9.
112. *Chand. Upan.*, vi, 12.
113. Radhakrishnan, i, 94, 96.
117. Radhakrishnan, i, 249-51; Macdonell, 48.
118. *Brih Upan.*, iv. 4.
119. Radhakrishnan. i, 289.
120. *Mundaka Upan.*, iii. 2. Radhakrishnan. i. 236.

الباب الخامس عشر

1. *Chand. Upan.*, i, 12; Radhakishnan. 1. 149.
2. Ibid., 278.
3. In Hume. 65.
4. Davids. *Dialogues of the Buddha*, ii, 78-5; Radhakrishnan, i. 274.
5. Dutt, *Ramayana*, 60-1.
6. Müller, *Six Systems*, 17; Radhak., i. 178.
7. Eliou i.xix : Müller, *Six Systems*, 23; Davids, *Buddhist India*, 141.

8. Radhak., i, 278.
9. Monier-Williams, 120-2.
10. Das Gupta, 78;Randhake.,i,270.
11. Ibid., 281.
12. Das Gupta, 79.
13. Monier-Williams, 120, Müller *Six Systems*, 100.
14. Radhak., i, 280.
15. Ibid., 281-2.
16. Ibid.,278,Smith, *Oxford History*, 50.
17. Radhak., i, 301.
18. Ibid., 329, Eliot, i, 106.
19. Ibid.,
20. Radhak, i, 331, 298.
21. Ibid, 327, Eliot, i, 110. 113,116, Smith, *Oxford History*, 68, Smith, Vincent, *Akbar*, 167,Dubios, 521.
22. Smith, *Oxford History*, 210.
23. Eliot., i. 112.
24. Ibid., 115.
25. Thomas E. J., *The Life of Buddha as Legend and History* 20.
26. Eliot, I, 244n.
27. Gour. introd., Davids *Dialogues*, ii, 117, Radhak., i, 347. 851; Eliot i, 183, 173.
28. Thomas, E. J., 31-3.
29. Eliot. I, 131; Venkateswara,169. Havell, *History*, 49.
30. Tomas, 50-1.
31. Ibid., 54.
32. Ibid., 55.
33. Ibid., 66.
34. Radhak., i. 343-5.
35. Eliot I, 129.
36. *Dialogues*. ii, 5.
37. Gour. 405.
38. *Dialogues*. iii, 102.
39. Thomas. 87.
40. Radhak., i, 368.
41. Eliot, i. 203.
42. Ibid , 250.
43. Dutt, *Civilization of India*. 44.
44. Radhak., i. 475.
45. *Dialogues*, ii. 154.
46. Radhak., i. 421.
47. *Dialogues*, ii. 35.
48. Ibid., 186.
49. Ibid., 254.
50. Ibid., 280-2.
51. Ibid., 37.
52. Radhak., i. 356; Gour, 10.
53. Radhak., i. 488. 475; *Dialogus*, ii. 123; Eliot, i. xxii.
54. Radhak., i, 354.
55. Ibid, 424;Gour, 10;Eliot, i. 247.
56. Gour, 542; Radhak., i. 465.
57. Eliot, i. xcv.
58. Gour, 280-4.
59. Eliot, i. xxii.
60. Gour, 392-4; Radhak., i. 355.
61. Thomas, 208.
62. Radhak, i, 456.
63. Ibid., 375.
64. Ibid, 369, 385, 392; *Buddhist India*, 188, 257; Thomas, 88.
65. Das Gupta, 240. Gour, 385.
66. Eliot, i. 161; *Dialogues* ii, 188.
67. Eliot, i 210. *Dialogues*, ii. 71.
68. Eliot, i. 227, Radhak., i. 389.
69. Thomas, 189.
70. Macdonell, 48. Radhak., 444. Eliot, i. xxi.
71. Gour, 312-4. 338.
73. *Dialogues*, ii. 190.
74. Eliot, i. 224. Müller,*Six Systems*, 273, Thomas, 187.
75. Radhak., i. 446.
76. Eliot, i, 224.
77. Ibid., i. 227. Thomas, 145.
80. *Dialogues*, ii. 55. iii.94. Watters. Thos. *On Yuan Chwang's Tra-*

vels in India, i, 374.
81. Thomas 134.
82. *Buddhis India*, 300, Radhak. i. 351.
83. Thomas. 100.
84. Ibid., 100-2.
85. *Dialogues*, ii, 1-26.
86. Eliot i, 160.
87. *Dialogues*. iii. 87.
88. Ibid., 108.
89. Thomas. 158.

الباب السادس عشر

1. Arrian, *Anabasis of Alexander*, V, 19, VI, 2.
2. Smith, *Oxford History*, 66.
3. Kohn. *History of Nationalism In the East*, 360.
4. Arrian. *Indica* , X.
5. In Dutt, *Civilization of India*.50.
6. Arrian, *Anabasis*, VI, 2.
7. Ibid., V, 8; Strabo, XV, i, 28.
8. *Enc. Brit.*, xii, 912.
9. Smith, *Oxford History*, 62.
10. Arrian, *Indica*, X.
11. Havell, 75.
12. Smith, *Oxford History*, 77.
13. Ibid., 114.
14. Ibid., 79.
15. Havell, *History*, 82-3.
16. It is of uncertian authenticity Sarton (147) accepts it as Katilya's but Macdonell (*India's Past*, 170) considers it the work of a later writer.
17. In Smith, *Oxford History*, 84.
18. Smith, *Akbar*, 396.
19. Smith, *Oxford History*, 76, 87.
20. Ibid., 311.
21. Strabo, XV, i, 40.
22. Havell, 82.
23. Barnett, 99-100. Havell, 82.
24. Ibid., 69, 80.
25. Ibid., 74.
26. Ibid., 71f; Barnett, 107.
27. Davids, *Buddhist India*, 264; Havell, ibid.
28. Strabo, XV, i, 51.
28a. Havell, 78.
28b. Smith *Oxford History* 87.
29. *Candide*.
30. Havell, 88.
31. Ibid., 91.2; Smith, *Oxford History*, 1, 1.
32. Smith, V., *Asoka*, 67 : Davids, *Buddhist India*, 297.
33. Smith *Asoka*, 92.
34. Ibid., 60.
35. Provincial Edict I Havell, 93.
36. Havell, 100. Smith. *Asoka*, 67.
37. Watters, ii, 91.
38. Muthu, 35.
39. Rock Fdict XIII.
40. Havell, 100, Smith, *Oxford History*.136. Melamed, S.M , *Spinoza and Buddha*. 302-3, 308.
41. Rock Edict VI.
42. Pillar Edict V.
43. Watters, 99.
44. Davids *Buddhist India*, 308; Smith, *Oxford History*, 126.
45. Ibid., 155.
46. Nag, Kalias, *Greater India*, 27.
47. Besant, Annie, *India* 15.
48. Smith, *Ox. H* , 145.
49. Tr. by James Legge, in Gowen. *Indian Literature*, 116.

50. Havell, 158.
51. Nag, 25.
52. Havell, E. B., *The Ancient and Medieval Architecture of India*, xxv.
53. Ibid., 207.
54. Watters, I, 344.
55. Havell, *History*, 204.
56. Watters, ii, 348-9, Havell, 203-4.
57. Fenollosa, E. F., *Epochs of Chinese and Japanese Aot* i, 85.
58. Arrian, *Anabasis*, V, 4.
59. Tod, Lt-Col. James, *Annals and Antiquities of Rajathan*, ii, 115.
60. Tod, i, 209.
61. Keyserling. *Travel Diary*, 184.
62. Tod, i, 244f.
63. Smith, *Ox. H.*, 311.
64. Ibid., 304.
65. Ibid., 309.
66. Ibid., 308, Havell, *History*, 402.
67. Smith, *Ox. H.*, 308-10.
68. Ibid , 312-13.
69. Ibid., 314.
70. Ibid., 309.
71. Swell, Robert, *A Forgotten Empire Vijayangar*, in Smith, *Ox. H.*, 306.
72. From an ancient Moslem chronicle, *Tabaket-i-Nasiri*, in Smith, *Ox.*, *H* , 192.
73. Havell, *History*, 286.
74. Elphinstone, Mountsuart, *History of India*, 333, 337-8.
75. *Tabakat-i-Nasiri*, in Smith, *Ox. H.*, 922-3.
76. Smith, 226, 232, 245.
77. Ibn Batuta, in Smith 240.
78. Smith, 303,
80. In Smith, 234.
81. Ibid.
82. *Queen Mab.*
83. Havell, *History*, 368.
84. Ibid , Smith, 252.
85. Elphinstone, 415, Smith *Akbar*, 10.
86. Smith, *Ox , H.*, 321.
87. Firishtah Muhammad Qasim, *History of Hindustan*, ii, 188.
88. Elphinstone, 430.
89. Babur, *Memoirs*, 1.
90. Smith, *Akbar*, 98 148, 358, Havell, *History*, 479.
91. Smith, *Akbar*, 226, 379, 383, Besant, 23.
92. Smith, *Akbar*, 333.
93. Firtshtah, 399.
94. Smith, *Akbar*, 333-6, 65,77,343, 115, 160, 109, Smith, *Ox.*, *H.*, 113, Besant, *India.*, 23.
95. Havell, *History*, 478.
96. Smith, *Akbar*, 408.
97. Ibid., 424-5.
98. Ibid., 235-7.
99. In Frazer *History of Indian Literature*, 358.
100. Havell, *History*, 499.
101. Brown, Percy, *Indian Painting*, 49, Smith, *Akbar*, 421-2.
102. Ibid , 350 Havell, *History*, 493-4.
103. Ibid , 494.
104. Ibid , 493.
105. Frazer, 357.
106. Smith, *Akbar*, 133, 167, 181, 257, 350, Havell, *History* 493, 510.
107. Smith, *Akbar*, 212.
108. Ibid., 216-21.
109. Smith, *Akbar*, 301, 328, 325.
110. Smith *Ox., H.*, 387.
111. Elphinstone, 540.
112. Lorenz, D.E., *Round the World Traveler*, 373.

113. Smith, *Ox. H.*, 395.
114. Ibid. 393.
115. Elphinstone, 586.
116. Ibid., 577; Smith, *Ox.* H., 445-7.
117. Ibid , 439.
118. Fergusson, Jas., *History of Indian and Eastern Architectur.* ii, 88.
119. Tod, i, 349.
120. Smith, *Ox.* H., 448.
121. Ibid., 446.

الباب السابع عشر

1. Smith, *Akbar*, 401; *Indian Year Book*, Bombay, 1929, 563; Minney, R J., *Shiva or The Future of India* , 50.
2. Havell, *History*, 160; Eliot, ii, 171: Dubois, 190.
3. Parmelee, 148n.
4. Smith, *Ox* His , 815.
5. Havell, 80, 261.
6. Strabo, XV, i, 40; Siddhanta, 180; Dubois, 57.
7. Barnett, 107; Havell, *Ancient and Medieval Architecture* 208; Tod, i, 862.
8. Sarkar, B. K., *Hindu Achievements in Exact Science*, 68.
9. III, 109.
10. In Strabo, XV, i, 44.
11. Sarkar, 68; Lajpat Rai, L., *Englands' Dept to India*, 167.
12. Havell, *Architecture*, 120; Ferguson, *India Architecture*, ii, 208.
13. Lajpat Rai. *Englaud's Dept*, ibid.
14. Moon, P. T., *Imperialism and World Politics*, 292.
15. Lajpat Rai, *England's Dept*, 121.
16. III, 107.
17. Sarton, 585.
18. Lajpat Rai, *England's Dept*, 123.
19. Ibid.
20. Polo, *Travels*, 307.
21. Murthu, 100.
22. Venkateswara, 11; Smith. *Ox.*
23. Lajpat Rai, *England's Dept.* 162-3.
24 Havell, *History*, 75, 130.
25. Ibid, 140.
26. Lajpat Rai, *England's Dept*, 165.
27. Barnett, 211-15.
28. Macdonell, 275-70.
29. Smith, *Akbar*, 157.
30. Fragment XXVII Bin McCrindle, J.W., *Ancient India as Described by megathenes and Arrian*, 73.
31. Monier-Williams, 263; Minney, 75.
32. Barnett, 130; Monier-Williams, 264.
33. Dubios, 657.
34. Sidhanta, 178: Havell, *History*, 234; Smith, *Ox.* H. 312
35. Besant, 28; Dutt, *Civilization of India*, 121.
36. Dubios, 81-7.
37. Lajpat, Rai, *England's Dept*, 12.
38. Smith, *Akbar*, 389-91.
39. Ibid., 393.
40. Ibid., 392.
41. Watters, i, 340.
42. Elphinstone, 329; of, Smith, *Ox.* H., 257.
43. Elphinstone, 477.
44. Smith *Ox.* H., 492.

45. Smith, *Akbar*, 395.
46. Ibid., 108.
47. Lajpat Rai, *Unhappy India* 315.
48. Minney, 72.
49. Lajpat Rai, *England's Debts*, 25.
50. Macaulay, T.B., Essay on Clive, in *Critical and Historical Essays*, i, 544.
51. Havell, *History*, 235, Havell, *Architecture*, xxvi, This liberty, of course, was at its minimum under Chandragupta Maurya.
52. Laws of Manu, vii, 15, 20-4, 218, in Monier-Williams, 256, 285.
53. Smith, *Ox*. H, 229.
54. Ibid., 266.
55. Barnett, 124, Dubois, 654, Smith, *Ox*. H., 109.
56. Dubois, 654.
57. Smith, *Ox*. H., 249.
58. Ibid., 249, 313, Barnett, 129.
59. Monier-Williams, 204-6.
60. Max Müller, *India*, 12.
62. Kubois, 722, cf. also 661 and 717.
63. Monier-Williams, 203, 283, 268.
64. Simon, Sir John, Chairman, *Repport of the India Statutory Commission*, i, 36.
65. Davids, *Buddhist India*, 150.
66. Tod, i, 479, Hallam. Henry. *Veiw of State of Europe during the Middle Ages*, ch. vii, p. 263.
66a. Barnett. 106, Dubois, 177.
67. Manu xix, 318, Monier-Williams 234.
68. Maine, *Ancient Law*, 165, Monier-Williams, 266.
69. Barnett, 112.
70. Lubbock, *Origin of Civilization* 379.
71. Winternitz, 147, Radhak., i, 356, Monier-Williams, 236.
72. Dubois, 590-2.
73. Barnett. 123, Davids, *Dialogues*, ii, 285.
75. Havell, *History*, 60.
76. Monier-Williams, 233.
77. Dubois, 98, 169.
78. Manu, i, 100, Monier-Williams, 237.
79. Dubois, 176.
80. Manu, iii, 100.
81. Barnett, 114.
82. Dubois, 598.
83. Manu, viii, 380-1.
85. Manu, xi, 206.
86. Barnett, 123.
87. Ibid., 121, Winternitz, 198.
88. Eliot, i, 37, Simon, i, 35.
89. Manu, iv, 147.
90. Ibid., ii, 87.
91. XI, 261.
92. IV. 27-8.
93. Dubois, 166, 237, 2,9.
94. Ibid., 187.
95. Manu. ii. 177-8.
96. VIII. 336-8.
97. II, 179.
98. Book xvii, Arnold. Sir Edwin, *The Song Celestial*, 107.
99. Tagore, R. *Sodhana*, 127.
100. Smith, *Ox*. H., 42.
101. Ibid., 34.
102. IX, 45.
103. Barnett, 117.
104. Sumner, *Folkways* 315.
105. Tod, I 602, Smith. *Ox.*, *H*. 690.
106. Wood, Ernest, *An Englishman Defends Mother India*, 103.
107. Dubois. 205, Havell E. B. *The Ideals of Indian Art*. 93.
108. Tagore in Keyserling. *The Book of Marriage*. 104. 108.
109. Hall. Josf ("Upton Close").

Eminent Asians 505.
110. Lajpat Rai, *Unhapy India*,186.
111. Dubois, 231, *Census of India*, 1921, i, 151, Mukerji, D. O., *A Son of Mother India Answers*, 19.
112. Bernett, 115.
113. Lajpat Rai, *Unhappy India*,169.
114. Roble, W. F., *The Art of Love* 18f, Macdonell, 174.
115. Roble, 36.
116. Ibid, 82.
117. Frazer, *Adonis*, 54-5, Curtiz,W. E., *Modern India*, 284-5.
118. Dubois, 585,
119. Cf, e'g., the "Fift Stanzas" of Bilhana, in Tietjens, 303-6.
120. Coomaraswamy, A. K., *Dance of Shiva*, 103, 108.
121. Monier-Williams, 244.
122. Dobois, 214.
123. Strabo, i, i, 62.
124. Manu, III, 12-15, ix, 45,85,101, Monier-Williams, 243
125. Tod, i, 284n.
126. Nivedita, Sister (Margaret E. Noble), *The Web of Indian Life*, 40.
127. Barnett, 109.
128 XV, 1, 62.
129. Havell, Ideals, 91.
130. In Bebel, *Woman Under Socialism*, 52.
131. In Tod, i, 604.
132. Barnett, 109.
133. Dubois, 339-40.
134. Manu, iv, 43, Barnett, 110.
135. Manu, v. 154-6.
136, Westermark, *Moral Ideas*, ii, 660.
137. Dubois, 337.
138. Tagore, R., *Chitra*, 45.
139. Manu, ix, 18.
140. III, 33, 82, Sidhanta, 160.
141. Frazer, R. W., 179.
142. VIII, 461.
143. Monier-Williams, 267, Tod. i,
144. Barnett. 116, Westermark, ii, 650.
145. Manu, ix, 2, 12, iii, 57, 60-3.
146. Tod. i, 604.
147. II, 145, Wood. 27.
148. Tod, i. 590n. Zimand. S., *Living India*. 124-5.
149. Dubois. 313.
150. Herodotus, IV. 71. V. 5.
151. *Enc. Brit.* xxi, 624.
152. *Rig. Veda.* x.18. Sidhanta 165n.
153. I. 125. xv. 33. xvi. 7. xii. 149 Sidhanta. 165.
154. Smith. *Ox. H.* 309.
155. XV, I 30, 62.
156. *Enc. Brit.* xxi. 625.
157. Tod. i. 604, Smith. *Ox.H.*, 233.
158. Coomaraswamy. *Dance of Shiva*. 91.
159. Smith. *Ox. H.* 303.
160. Manu. v. 162. ix. 47.65. Parmelee. 114.
161. Lajpat Rai. *Unhappy India*. 198
162. Ibid 193. 196.
163. Tod. i. 575.
164. Dubois, 331.
165. ibid. 78. 337. 355. 587. Sumner. *Folkways* 457.
166. Dubois 340. Coomoraswamy. *Dance*. 94.
167. Bebel. 52. Sumner. 467.
168. IV. 203.
169. Wood. 292, 195.
170. Lajpat Rai. *Unhappy India*.284.
171. Ibid. 280.
172. Watters. i. 152.

173. Dubois, 184, 248 ; Wood, 196.
174. Sumner, 457.
175. Dubois, 708-10.
176. The scatophilic student will find these matters plenty detailed by the Abbè Dubois, 237f.
177. Sumner, 457; Wood, 848.
178. Wood, 286.
179. Dubois, 825.
180. Ibid., 78.
181. Ibid.,341; Coomaraswamy, *History*; 210.
182. Dubois, 324.
183. Loti, Piere, *India*, 118; Parmelee, 138.
184. Loti, 210.
185. Dubois, 662.
186. Westermarck, i, 89.
187. Macaulay. *Essays*, i, 562.
188. Manu, viii, 103-4 ; Monier-Williams, 23-7
189. Watters, i, 171.
190. Müller, *India* 57.
191. Hardie, J. Keir, *India*, 60.
192. Mukerji, *A son*, 43.
193. Smith *Ox*. H., 666f.
194. Dubois, 120.
195. Examples of the latter quality will be found in Dubois, 660, or in almost any account of the recent revolts.
196. Frazer, R.W., 163; Dubois, 509.
197. Simon, i, 48.
198. Müller, *India*, 41.
199. Davids, *Dialogues*, ii, 9-11.
200. Skeat, *s v. Chess Enc. Brit.*, art, "Chess".
201. Dubois, 670.
202. *Enc. Brit.*, viii, 175.
203. Havell *History*, 477.
204. Nivedita, 11f.
205. Dubois, 595.
206. Briffault, iii, 198.
207. Gandhi, M.K., *His Own Story*, 45.
208. Davids, *Buddhist India*, 78.
209. Watters, i, 175.
210. Westermarck, i, 244-6.

الباب الثامن عشر

1. Davids, *Dialogues*, iii, 184.
2. Winternitz, 562.
3. Fergusson, i, 174.
4. Edmunds, A. J., *Buddhistic and Christian Gospels*, Philadelphia, 1908, 2v.
5. Havell, *History*, 101; Eliot i, 147.
6. Eliot, ii, 110.
7. Ibid., i, xciii; Simon, i, 79.
8. Sarton, 367, 428, Smith, *Ox*. H., 174; Fenollosa, ii, 213, i, 82, Nag, 84-5.
9. Fergusson, i, 292.
10. Monier-Williams, 429.
11. Dubois 626, Doane, *Bible Myths*, 278f Carpenter Edward, *Pagan and Christian Creeds*,24.
12. Indian Year Book. 1929. 21.
13. Eliot. ii, 227.
14. Lorenz, 835, Dubois. 112.
15. *Modern Review*, Calcuta, April, 1932, p. 367, Childe, *The Most Ancient East*, 209.
16. Rawlinson, *Five Great Monarchies* ii. 335n.
17. Eloit. ii. 288. Kohn. 380.
18. Eliot. ii. 287.
19. *Modern Review*, June. 1931.p.718.

20. Eliot, ii, 282.
21. Ibid., 145.
22. Dubois, 571, 641.
23. Ibid., Coomaraswamy, *History*, 68, 181.
24. Lorenz, 333.
25. Wood, 204, Dubois, 43, 182, 688-9.
26. Zinland, 132.
27. Wood, 208.
28. Eliot, i, 211.
29. Havell. *Architecture*, xxxv.
30. Winternitz, 529.
31. *Vishnupurana*, x. 16, in Otto, Rudolf, *Mysticism, East and West*, 55-6.
32. Dubois 545, Eliot, i, 46.
33. Monier-Williams, 178, 331, Dubois, 415, Eliot, i. lxviii, 46.
34. Eliot, i, lxvi, Fülop-Miller, R., *Lenin and Gandhi*, 248.
35. Manu, xii, 62, Monier-Williams 65, 276, Radhak., i, 250.
36. Watters, i, 281.
37. Dubois, 562.
38. Ibid. 248.
39. Eliot, i, lxxvii, Monier-Williams, 55, *Mahabharata*, XII, 2798, Manu. iv, 88-90, xii, 75-77, iv, 182, 260, vi, 37, ii, 244.
40. Dubois, 565.
41. Eliot, i, lxvi.
42. Quoted by Winternitz, 7.
43. Article on "The Fai ure of Every Philosophical Atten pt in Theodicy," 1791, in Radhak, i, 364.
44. From the *Mahabharata* reference lost.
45. In Brown, Brain, *Wisdom of the Hindus*, 32.
46. *Ramayana*, etc., 162.
47. Brown, B., *Hindus*, 222f.
48. Rolland, R., *Prophets of the New India*, 49,
50. Dubois, 379f.
51. Briffault, ii, 451.
52. Davids, *Buddhist India*, 216, Dubois, 149, 329. 382f.
53. Sumner, *Folkways*, 547 : Eliot, ii, 143, Dubois, 629, Monier-Williams, 522-3.
54. Dubois, 541, 631.
55. Murray's *India*, London, 1905, 434.
56. Eliot, ii, 173.
57. Dubois, 595.
58. Vivekananda in Wood, 166.
59. Havell, *Architecture*, 107 Eliot, ii, 225.
60. In Wood, 164.
61. Simon, i, 24 : Lorenz, 332, Eliot, ii, 173, Dubois, 296.
62. Monier-Williams, 430.
63. Dubois, 647.
64. Winternitz, 565, Smith, *Ox. H.*, 690.
66. *Enc. Brit.*, xiii, 175.
67. Smith, *Ox. H.*, 165, 315.
68. Dubois, 110.
69. Ibid., 180-1.
70. Eliot, iii, 422.
71. Dubois, 43; Wood, 205.
72. Dubois, 43.
73. Watters, i, 319.
74. Dubois, 500-9. 523f.
75. Ibid. 206.
76. Eliot, ii, 322.
77. Radhak , i. 345.
78. Ibid., 484.
79. Arnold. *The Song Celestial*. 94.
80. Brown B., *Hindus*. 218-20; Barnett. *The Heart of India* 112.
81. Elphinstone, 476. Loti. 34; Eliot. i, xxxvii. 40-1; Radhak., i. 27;

Dubois, 119n.

82. Kohn, 352.

83. Smith, *Ox. H.*, x.

84. Gour, 9.

الباب التاسع عشر

1. Spencer, *Sociology*, iii, 218.
3. Sarton, 378.
4. Ibid , 409, 426 ; Sedgwik and Tyler, 160.
5. Barnett, 188-90.
6. Muthu, 97.
7. De Morgan in Sorkar, 8.
8. Refe.ence lost.
8a. *Journal of the American Oriental Society*. Vol. 51, No. 1, p 51.
9. Sarton, 601.
10. Monier-Williams, 174; Sedgwick 159; Sarkar, 12.
11. Ibid.,
12. Muthu, 92 ; Sedgwick, 157f.
13. Ibid. ; Lowie, R. H., *are We Civilized?*, 269 ; Sarkar, 14.
14. Muthu. 92; Sarkar, 14-15.
15. Monier-Williams, 183-4.
16. Sedgwick, 157.
17. Sarkar, 17.
18. Sedgwick, 157; Muthu, 94;Sarkar, 2?-4
19. Muthu 97 ; Radhak., i, 317 - 8.
20. Sarkar, 36f.
21. Ibid., 37-8.
22. Muthu 104 ; Sarkar, 59 - 46
22a. Ibid . 45.
23. Garrison, 71 ; Sarkar, 56.
24 Sarkar, 57 9.
25. Ibid., 63.
26. Lajpat Rai *Unhappy India*, 163-4.
27. Sarkar, 63.
28. Ibid., 65.
29. Muthu, 14.
30. Sarton, 77; Garrison, 71.
31. Barnett, 220.
32. Muthu, 50.
33. Ibid., 39 ; Barnett, 221 ; Sarton, 480.
34. Sarton, 77 ; Garrison 72.
35. Muthu, 26; Macdonell, 180.
36. Garrison, 29.
37. Muthu, 26.
38. Ibid., 27.
39. Garrison, 70.
40. Ibid., 71.
41. Macdonell, 179.
42. Harding, T. Swann, *Fads, Frauds and Physicians*, 147.
43. Watters, i, 174, Venkateswara, 193.
44. Barnett, 224; Garrison, 71.
45. Ibid., Muthu, 33.
46. Garrison, 71, Lajpat Rai, *Unhappy India*, 286.
47. Eliot, i, lxxxix ; Lajpat Rai, 285.
48. Muthu, 44.
49. Garrison, 73.
50. Ibid., 72.
51. Macdonell, 180.
52. Havell, *History*, 255.
53 Lajpat Rai, 287.
54. Radhak, i, 55.
56. Müller, *Six Systems*, 11; Havell, *History*, 412.
57. Das Gupta, 409.
58. Havell, *History*, 208.
59. Coomaraswamy *Dance*, f.p. 130.
60. Davids. *Dialogues*, ii, 261 ; Müller *Six Systems*, 17 ; Radhak, i, 488.
61. Keyserling, *Travel Diary*, i, 106, ii, 157.

62. Müller, *Six Systems*. 219, 235; Rodkak., i, 57, 276, ii, 23; Das Gupta, 8.
63. Radhak., ii, 36, 43.
64. Ibid. 31, 137, 173; Müller. 427.
65. Radhak., i, 281, ii. 43, 184.
66. Gowen, *Indian Literature*, 127 Radhak, ii, 29, 197, 202, 237; Dutt, *Civilization of India*, 34; Müller, 438; Chatterji, J. C., *The Hindu Realism*, 20, 22.
67 Radhak., ii, 249.
68. Ibid
69. Gowen, 128.
70. Ibid, 30, Monier-Williams, 78, Müller, 84. 219f.
70a, E.g., XII, 13703.
70b. Radhak., ii, 249.
71. Macdonell, 93.
72. Müller, x.
73. Kapila, *The Aphorism of the Sankhya Philosophy*, Adu 10.
74. Gour, 23.
75. Eliot, ii, 301; Monier-William, 88.
76 Kapila, Aph. 98.
77. Monier. Williams, 84.
78. Müller, xi.
79. Kapila, Aph. 100; Monier-Williams, 88.
80. Kapila, p. 75. Aph. 67.
81. Radhak., i, 279.
82. In Browd, H., *Hindus*, 212.
83. Eliot, ii, 301.
84. Kapila in Brown, B. *Hindus*, 213.
85. Kapila, Aph. 56.
86. Ibid., Aphs, 83-4.
87. In Brown B., 211.
88. Monier-Williams, 90-1.
89. Ibid., 92.
90. *Rig-Veda x*, 136. 3; Radhak., i, 111.
91. Eliot, i, 303.
92. Arrian, *Anabasis*, VII, 3.
93. Some authorities, howeve, attribute the *Yoga-Sutra* to the fourth century A.D.—Radhak., ii, 340.
94. Watters, i, 148.
95. Polo, 300.
96. Lorenz, 356.
97. Chatterji, *India's Outlook on Life*, 61n; Radhak., i, 337.
98. Müller, *Six Systems*, 324-5. Coomaraswamy, *Dance*, 60, Radhak, ii, 344; Das Gupta, S., *Yoga as Philosophy and Religion, vii*, Parmelee, 64, Eliot, i, 303-4, Davids, *Buddhist India*, 242.
100. Chatterji, *India's Outlook*, 65.
101. Müller, *Six Systems*, 349
102 *The World as Will and Idea*, tr Haldane and Kemp, iii, 254; Eliot, i, 309.
103 Radhak, ii, 360.
104. Vysa in Radhak, ii, 362.
105. Eliot, i 306, Radhak., ii. 371, Müller, 308-10, 324-5.
106. Chatterji *Realism*, 6; Dubois 93.
107, Patanjali in Brown, B, *Hindus*, 183; Radhak., i, 366.
108. Das Gupta, *Yoga*, 157, Eliot, i, 319; Chatterji, *India's Outlook*, 40.
109. Dubois, 529, 601.
110 Eliot, ii, 295.
111. Radhak., ii, 494; Das Gupta, *History*, 494.
112. Radhak, i, 45-6.
113. Radhak., ii, 528-31, 555-87 Deussen, Paul, *System of the Vedanta*, 241-4; Macdonell, 47 Radhakrishnan, S., *The Hindu View of*

Life, 65-6; Otto, 3.
114. Eliot, I, xiii-iii, Deussen, *Vedanta*, 272, 456.
115. Radhak., ii, 544f.
115a. Guénon, Reno, *Manand His Becoming*, 269.
116. Deussen. 259.
117. Coomaraswamy, *Dance*. 113.
118. Müller *Six Systems*. 194.
119. Eliot. ii, 312, Deussen, 256, 300, 477; Radhak, ii, 633, 648.
120. Deussen 402-10, 457.
121. Eliot. ii. 40.
122. In Deussen, 106.
123. Ibid., 286.
124. Radhak,, ii, 448.
125. In Müller, *Six Systems*, 181.
126. Radhak. ii, 771.
127. Dickinson, G. Lowes, *An Essay on the Civilizationof India China and Japan*, 33.
128. Keyserling, *Travel Diary*, i, 267.
129. *Isavasya Upanishad*, in Brown, B., *Hindus*, 159.
130. Ibid.
131. *De Intellectus Emendatione*.
132. C.f. Otto. 219-23. Mellamed, S. M., in *Spinoza and Buddha*, has tried to trace the influence of Hindu pantheism upon the great Jew of Amesterdam.

الباب العشرون

1. Das Gupta, *Yoga*, 16 Radhak., ii 570
2. Macd-n-ll, 6; Win-e-n-itz, 46-7.
3 *Mahabharata* II, 5, Davids *Buddhist India*, 108, Rhys Davids dates the oldest extant Indian (bark) MS. about the beginning of the Christian era. (*Ibid.*, 124).
4. Ibid., 118.
5. Indian Year Book, 1929, 633.
6. Winternitz, 33, 35.
7. Lajpet Rai, *Unhappy India*, 18, 27.
8. Venkateswara, 88; Max Müller in Hardie, 6.
9. Smith, *Ox., H.*, 114.
10. Venkateswara, 83, Havell, *History*, 409.
11. Venkateswara, 85; 100, 239.
12. Ibid., 114, 84, Frazer, R.W., 161.
13. Venkateswara, 198.
14. Havell, *History*, Plate XLI.
15. Venkateswara. 231-2, Smith *Ox. H.*, Havell. *History*, 140, Muthu, 32, 74, *Modern Review*, March, 1915, 334.
16. Watters, ii, 164-5.
17. Venkateswara, 829, 140, 191,82; Muthu, 77.
18. Tod, i, 348n.
19. Ibid.,
20. *Ramayana* etc., 324.
21. Eliot. i, xc.
22. Tietjens, 246.
23. VI, 18, 50.
23a. *Ramayana*, etc., 303-7.
24 V., 1517, Monier-Williams, 448.
25 In Brown, B. *Hindus*, 41.
26. In Winternitz, 441.
27. In Brown, B., 27.
28. Eliot, ii, 200.
29. Radhak., i, 519, Winternitz, 17.
30. Proffessor Bhandakar in Radhak., i, 524.

31. Richard Garbe, *Ibid.*
32. Arnold, *The Song Celestial* 4-5.
33. Ibid., 9.
34. Ibid., 41, 31.
35. Macdonell, 91.
36. Gowen, 251; Müller *India*, 81.
37. Arthur Lillie, in *Rama and Homer* has tried to show that Homer borrowed both his subjects from the Indian epics; but there seems hardly any question that the latter are younger than the *Iliad* and the *Odyssey*.
38. Dutt, *Ramayana*, etc, 1-2.
39. Ibid., 77.
40. Ibid., 10.
41. Ibid., 84.
42. Ibid., 86.
43. Ibid., 47, 75
44. Ibid., 145.
45. Gowen, *Indian Literature*, 203.
46. Ibid, 219.
47. Macdonell, 97-106.
48. In Gowen, 361.
49. Ibid., 363.
50. Monier-Williams 476-94.
51. Gowen, 358 9.
52. Coomaraswamy, *Dance*, 88.
53. Kalidasa, *Shakuntala*, 101-3.
54. Ibid., 139-40.
55. Tr. by Monier-Williams, in Gowen, 317.
56. Frazer, R.W., 288.
57. Kalidasa, xiii.
58. Macdonell, in Tietjens, 24-5.
59. Macdonell in Tietjens, 24-5.
60. In Gowen, 407-8.
61. Ibid., 504.
62. Ibid., 437-42.
63. Tietjens, 301; Gowen, 411-18; Barnett, *Heart of India*, 121.
64. Frazer R.W., 365; Gowen, 487.
64 a Coomaraswamy, *Dance*, 105;
65. Barnett, *prophets*, 6n.
66. Sir George Grierson in Smith, *Akbar*, 420.
67. Macdonell, 226; Winternitz, 479; Gandhi, *His Own Story*, 71.
68. Barnett, *Heart*, 63.
69. Venkateswara, 246, 249; Havell, *History*, 237.
70. Frazer, R W., 318n.
71. Ibid., 346.
72. Eliot, ii 263; Gowen, 491; Dutt, 101.
73. Tr. by Tagore.
74. Kabir, *Songs of Kabir*, tr. by R. Tagore, 91-69.
75. Eliot, ii, 262.
76. Ibid., 265.

الباب الحادي والعشرون

1. Coomaraswamy, *History*, 4.
2. Ibid., Plate II, 2.
3. Ferguson, I, 4.
4. Smith. *Akbar*, 412.
5. Coomaraswamy, fig. 381.
6. Ibid., 134.
7. Ibid., figs, 368-78.
8. Ibid, 109.
9. Ibid., 187.
10. Ibid., 138.
11. Smith, *Akbar*, 422.
12. Coomaraswamy, *Dance*, 73.
13. Program of dances by Shankar, New York, 1939.
14. Coomaraswamy, *Dance*, 75, 79.
15. Brown, Percy, *Indian Painting*,

121.

16. Childe, *Ancient East*, 37; Brown P., 15, 111.
17. Havell, *Ideals*, 132; Brown, p., 17.
18. Ibid., 18.
19. Ibid., 20.
20. Eg., by Faure, *History of Art*, ii, 26; and Havell, *Architecture*, 150.
21. Brown, P., 29-30.
22. Havell, *Architecture*, Plate XLIV, Fisher, Otto. *Die Kunst Indians, Chinas and Japans*, 200.
23. Havell, *Architecture* 149.
24. Coomaraswamy, *History*, figs, 7, and 185.
25. Havell, *Architecture*, Pl. XLV.
26. Fischer, *Tafel* VI.
27. Ibid., 188 94.
29. Coomaraswamy, *Dance* PlXVIII.
30. Coomaraswamy, *History*, Fig.269.
31. Brown, P., 120.
32. Cf. a charming example in Fisher, 273.
33. Brown, P., 8, 47, 50, 100; Smith, *Ox.*, *H*, 128; Smith, *Akbar*, 248.50.
34. Brown, P., 85.
35. Ibid., 96.
36. Ibid., 89; Smith, *Akbar*, 429.
37. Ibid., 226.
38. Coomaraswamy, *Dance*, 26.
39. Havell, *Ideals*. 46.
40. Fenollosa, i, 80; Fergusson, i, 62; Smith, *Ox.*, *H.*, 111.
41. Gour, 530; Havell, *History*, 111.
42. Coomaraswamy, *History*, 70
43. Fenollosa, i, 4, 81; Thomas, E. J. 221; Coomaraswamy, *Dance*, 52; Eliot, i, xxxi; Smith. *Ox.*, *H.*, 67.
44. Fischer, 168; Central Museum, Lahore,
45. Fenollosa, i, 81.
46. Coomaraswamy, *History*, fig.168.
47. Ca. 950 A. D; Coomaraswamy, *History*, fig. 222; Lucknow Museum.
48. Ca. 1050. A D.; Coomaraswamy, *History*, fig. 223; Lucknow museum.
49. Ca. 750 A.D., Havell, *History*, f. p. 204.
50. Ca. 950 A D., Coomaraswomy, *History*, Pl. LXX.
51. Ca. 700, Havell, *History*, f. 244, a variant, in copper, from the 17th century, is in the British Museum.
52. Ca. 750, Coomarasway, *Dance*,
53 Ca. 1650, Coomaraswamy, *History*, fig. 248.
54. Fenollosa, i. 84.
55. Fischer, *Tafel* XVI, Coomaraswamy, *History* CVI, Coston Museum of Fine Arts.
56. Coomaraswamy, fig. 333.
57. Gangoly, O.C., *India Architecture*, xxxiv-viii.
58. Ibid., frontispiece.
59. Havell *Ideals* f. 168.
60. Metropolitan Museum of Art, New York City, Coomaraswamy, *History*, fig. 101.
61. Havell. *Ideals*, f. 34.
62. Ca. 100. A.D., Coomaraswamy, XCVIII.
63. Ibid., xcv.
64. Havell. *History*, 104, Fergusson, i, 51.
65. Davids, *Buddhist India*, 70.
66. Havell, *Architecture*, 2. Smith, *Ox.*, *H.*, 111, Eliot, iii, 450, Coomaraswamy, *History* 22.
67. Spooner, D.B., in Growen, 270.

68. Fischer, 144-5.
69. in Smith, *Ox.*, *H.*, 112.
70. Havell, *History*, 106, Coomaraswamy, *History*, 17.
71. Havell, *Architecture*, 55.
72. Fergusson, i, 119.
73. Coomaraswamy, *History*, Fig.54.
74. Ibid , fig. 31.
74a. Fergusson, i, 65, Coomaraswamy, 19.
75. Fischer, 186.
76. Ibid. *Tafel* IV.
77. Ibid., 175.
78. Havell *Architecture*, 98, and Pl. XXV.
79. Fergusson, ii, 26.
80. Havell, *Architecture*, Pl. XIV.
81. Fergusson, ii, frontispiece.
82. Coomaraswamy, LXVIII.
83. Fergusson, ii, 41 and Pl.XX.
84. Ibid., 101.
85. Fergusson, ii, Pl. XXIV.
86. Ibid , 138-9.
87. Coomaraswamy, *History*. fig. 252.
88. Havell, *History*, f. p. 344.
89. Havell, *Architecture*, Plates LXXIVVI.
90. Fischer, 214-5.
91. Loti, 186, Fergusson, ii, 7, 32, 87.
92. E.g., the temple at Baroli, Fergusson, ii, 138.
93. Fergusson, i. 352.
94. Ibid., Pl. XII, p. 424.
95. Ibid.
96. Gangoly Pl. LXXIV.
97. Coomaraswamy, *History*, fig. 211, Fischer, 251.
98. Fergusson, i, 448.
99. Macdonell, 83.
100. Coomraswamy, *History*, fig. 192, Fischer, 221.
101. Ibid., 222.
102. Havell, *Architecture*,, 195, Fergusson, i, 327, 342, 348.
103. E g , Mukerji D.G., *Visit India with Me*, New York 1929, 12.
104. Coomaraswamy, *History*, 95, Pl LII.
105. Fischer,248-9,Fergusson i,562-6.
106. Ibid, 508-72.
107. Dr. Coomaraswamy.
108. Coomaraswamy, *History*, XCVI.
109. Ibid., 169.
110 Gangoly, 29.
111. Coomaraswamy, *History* fig.349, Gangoly, xi.
112. Exs. in Gangoly, xii-xv.
113. Candee, Helen C., *Angkor the Magnificent*, 302.
114. Ibid., 186.
115. 181, 257, 294.
116. 258.
117. Fischer, 280.
118. Coomaraswamy, *History*, 178.
119. Havell, *History*, 327, 296, 376, *Architecture*, 207, Fergusson, ii, 87, 7.
120. Smith, *Ox.*, H., 223, Frazer, R. W., 363.
121. Smith, f. 329.
122. Fergusson, ii, 309.
123. Ibid., 308n.
124. Lorenz, 376.
125. Chirol *India*, 54.
126. Lorenz, 379.
127. Smith, *Ox.*, H., 421.

الباب الثاني والعشرون

1. Zimand, 31.
2. Smith, *Ox* H., 602.
3. In Zimand, 32.
4. Ibid ,31-4; Smith,605; Macaulay. i, 504, 580, Dutt, R. C., *The EconomicHistory, of India, in the Victorian Age*, 18-23, 92-8.
5. Macaulay, i, 568-70, 603.
6. Dutt, *Economic History*, 67, 76, 375. Macaulay, i, 529.
7. Ibid., 528.
8. Dutt, xiii, 399, 417.
9. Sunderland, 185,Lajpat, Rai, *Unhappy India*, 343.
10. Dubois, 300.
11. Ibid., 507.
12. Eliot, iii, 409.
13. Monier-Williams, 126.
14. Frazer, R.W., 397.
15. Ibid., 395.
16. Eliot, i, xlvi.
17. Rolland, *Prophets*, 119, Zimand, 35-6, Wood, 327, Eliot i, xlviii; Underwood, A.C. *Contemporary Thought of India*, 137f.
17a. Rolland, 61, 260.
18. Ibid., xxvi, Eliot, ii, 162.
19. Brown, B, *Hindus*, 269.
20. Rolland, 160, 243; Brown, B., 264-6.
21. Rallend, 427.
22. Ibid., 251, 293, 449-50.
23. Ibid., 395.
24. Tagore, R, *Gitanjali* NewYork, 1928, xvii;*My Reminiscences*, 15, 201, 215.
25. Thompson, E. J., *Robindranath Tagore*, 82.
26. Tagore, R., *The Gardener*, 74-5.
27. Tagore, *Gitanjali*, 88.
28. Tagore, *Chitra*, esp. pp. 57-8.
29. Tagore, *The Gardener*, 84.
30. Thompson, E. J., 43.
31. ibid., 94, 99, Fülop-Miller, 246; Underwood, A.C., 152.
32. Tagore, R., *Sadhana*, 25, 64.
33. *The Gardeuer*, 13-15.
34. Kohn, 105.
35. Zimand, 181, Lorewz., 407, Indian Year Book, 192,29.
36. "Close. Upton" (Josef Washington Hall), *The Revolt of Asia*, 285,Sunderladd,204, Underwood,. 153.
37. Smith, *Ox*. H., 35.
38. Simon, i, 97, Dubois, 73.
39. Ibid., 190.
40. Havell,*Bestory*, 165, Lorenz, 327.
41. Kohn, 426.
42. Simon, i, 88.
43. Lajpat Rai, *Unhappy India*, lviii, 19), Mukerji *A Son*, 27, Sunderland, 247, New York *Times*, Sept 24, 1929, Dec. 31, 1931.
44. Wood, 111, Sunderland, 248.
45. Indian Year Book, 28.
46. Wood, 117.
47. Kohn, 425.
48. Prof. Sudhindra Bose, in *The Nation* NewYork, June 16,1929.
49. New York *Times*, June 16. 1930.
50. Hall, J. W., 427, Fülop-Miller;.
51. Ibid. 171.
52. Ibid., 174-6.
53. Gandhi, M.K., *Young India*,128.
54. Ibid., 183.
55. Hall, 408.
56. Fülop-Miller, 202-3.

57. Gandhi, *Young India*, 21.
58. Rolland, *Mahatma Gandhi*, 7
59. Ibid., 40, Hall, 400.
60. Gray and Parekh, *Mahatma Gandhi*, 27, Parmelee, 302.
61. Simon, i, 249.
62. Fülop-Miller, 199, Rolland, *Gandhi*, 230, Kohn, 410-12.
63. Fülop-Miller, 117.
64. Ibid., 315.
65. Ibid., 186.
66. Gandhi, *Young India*, 869, 2.
67. Hall, 506, Fülop-Miller, 227.
68. Zimand, 220.
69. Fülop-Miller, 171-2.
70. Ibid., 207-162.

فهرس الأعلام

(ت)

(ج)

(ز)

(س)

(ش)

(ن)

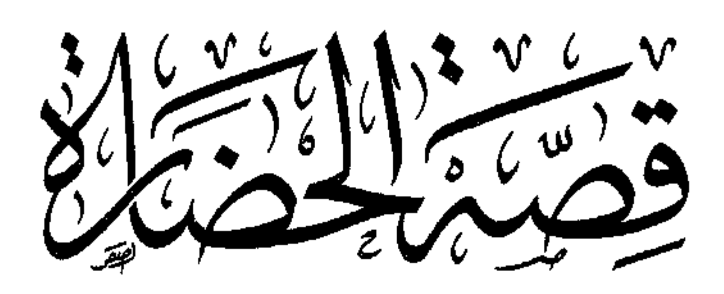
(هـ)

فهرس

الكتاب الثانى

الهند وجيرانها

الموضوع	الصفحة



ول وايريل ديورانت

الشرق الأقصى
الصين

ترجمة
محمد بدران

الجزء الرابع من المجلد الأول



تونس





بيروت

فهرس الخرائط والأشكال



الشرق الأقصى

الكتاب الثالث

الشرق الأقصى

الصــين

يعرف الإمبراطور كيف يحكم إذا كان الشعراء أحراراً فى قرض الشعر ، والناس أحراراً فى تمثيل المسرحيات ، والمؤرخون أحراراً فى قول الحق ، والوزراء أحراراً فى إســداء النصح ، والفقراء أحراراً فى التذمر من الضرائب ، والطلبة أحراراً فى تعلم العلم جهرة ، والعمال أحراراً فى مدح مهارتهم وفى السعى إلى العمل ، والشعب حراً فى أن يتحدث عن كل شىء ، والشيوخ أحراراً فى تخطئة كل شىء .

من خطبة ألقاها دوق چو بين يدى الملك لى – وانج
حوالى عام ٨٤٥ ق . م(١)

تاريخ مسلسل للحضارة الصينية(*)

قبل الميلاد	
٢٨٥٢ – ٢٢٠٥	حكام أسطوريون
٢٨٥٢ – ٢٧٣٧	فوشى
٢٧٣٧ – ٢٦٩٧	شن نونج
٢٦٩٧ – ٢٥٩٧	هوانج دى
٢٣٥٦ – ٢٢٥٥	ياو
٢٢٥٥ – ٢٢٠٥	شون
٢٢٠٥ – ١٧٦٦	أسرة شياه
٢٢٠٥ – ٢١٩٧	يو
١٨١٨ – ١٧٦٦	چيه جوا
١٧٦٦ – ١١٢٣	أسرة شانج (وين)
١٧٦٦ – ١٧٥٣	تانج
١١٩٨ – ١١٩٤	وويى – الإمبراطور الكافر
١١٥٤ – ١١٢٣	چوسين ، مثال الخبث
١١٢٢ – ٢٥٥	وو – وانج
١١٢٣	ون وانج (مؤلف كتاب التغيرات
١١١٥ – ١٠٧٨	تشنج وانج
١١١٥ – ١٠٧٩	چوجونج (مؤلف چو– لى ، أو شرائع چو)
٧٧٠ – ٢٥٥	عصر الإقطاع
٦٨٣ – ٦٤٠	جوانج چونج رئيس وزراء تشى
٦٠٤ – ٥١٧	لَو – دْزَه ؟-
٥٥١ – ٤٧٨	كنفوشيوس
٥٠١	كونفوشيوس كبير

قضاة چونج – دُو

قبل الميلاد	
٤٩٨	كنفوشيوس نائب المشرف على الأشغال العامة فى دوقية لو
٤٩٧	كنفوشيوس وزير الجرائم
٤٩٦	استقالة كنفوشيوس
٤٩٦ – ٤٨٣	عهد تجوال كنفوشيوس
٤٥٠	الفيلسوف مو دى
٤٠٣ – ٢٢١	عهد الولايات المتنازعة
٣٩٦	الفيلسوف يتج چو
٣٧٢ – ٢٨٩	الفيلسوف منشيس
٣٧٠ (وُلد)	الفيلسوف چونج– دزه
٣٥٠ (توفى)	الشاعر تشو ينج
٣٠٥ (وُلد)	الفيلسوف شون – دزه
٢٣٣ (توفى)	هان فى (من كتاب المقالات)
٢٣٠ – ٢٢٢	استيلاء شى هونج دى على الصين وتوحيد أجزائها
٢٥٥ – ٢٠٦	أسرة للشين
٢٢١ – ٢١١	شى هـونج – دى ، « الإمبراطور الأول »
٢٠٦ ق . م . – ب . م	أسرة هان
١٧٩ ق . م – ١٥٧ ق . م	ون – دى
١٤٥ ق . م (توفى)	المؤرخ زوماتشين
١٤٠ – ٨٧ ق . م	وو – دى (الإمبراطور المصلح)

(*) كل التواريخ التى قبل ٥٥١ ق . م تقريبية ، وكل التى قبل ١٨٠٠ ب . م غير موثوق بصحتها .

بعد الميلاد	
٢٥ —	وانج مانج ـ الإمبراطور الاشتراكي
٦٧	دخول البوذية في الصين
حوالي ١٠٠	أول صانع معروف للورق في الصين
٢٠٠ — ٤٠٠	غزو التتار الصين
٢٢١ — ٢٦٤	عهد الممالك الثلاث
٢٢١ — ٦١٨	الأسر الصغرى
٣٦٥ — ٤٢٧	الشاعر داو تشين
٣٦٤	النقاش كوكاى تشى
٤٩٠ — ٦٤٠	عصر النحت البوذي العظيم
٦١٨ — ٩٠٥	أسرة تانج
٦١٨ — ٦٢٧	جَوْدزو
٦٢٧ — ٦٥٠	تاى دزونج
٦٥١ — ٧١٦	الرسام لى سو ـ شن
٦٩٩ — ٧٥٩	الرسام وانج واى
ولد حوالي ٧٠٠	الرسام وو داو ـ دزه
٧٠٥ — ٧٦٢	الشاعر لى پو
٧١٢ — ٧٧٠	الشاعر تو فو
٧١٣ — ٧٥٦	شوان دزونج (منج هوانج)
٧٥٥	فتنة أن لو ـ شان
٧٦٨ — ٨٢٤	هانج يو (كاتب المقالات)
٧٧٠	أقدم ما عرف من المطبوعات على القوالب (الكلشيهات)
٧٢٢ — ٨٤٦	الشاعر بوچيو ـ ى
٨٦٨	أقدم كتاب مطبوع باق إلى الآن
٩٠٧ — ٩٦٠	خمس « أسر صغيرة »
٩٣٢ — ٩٥٣	طبع الكتب الصينية القديمة على القوالب
٩٥٠	ظهور أوراق النقد لأول مرة
٩٦٠ — ١١٢٧	أسرة سونج الشمالية
٩٦٠ — ٩٧٦	تاى دزو

بعد الميلاد	
٩٠٧	أول دائرة معارف صينية عظيمة
١٠٦٩ — ١٠٧٦	حكم وانج آن ـ شى رئيس الوزراء الاشتراكي
١٠٤٠ — ١١٠٦	لى لونج ـ مين ، الرسام
١٠٤١	بى شنج يصنع حروفا متنقلة
١١٠٠	جُوْ شى الرسام
١١٠١ — ١١٢٦	هواى دزونج الإمبراطور الفنان
١١٢٦	التتار ينهبون پيانلانج ؛ (كايفنج) عاصمة هواى دزونج ؛ نقل العاصمة إلى لينان (هانج تشاو)
١١٢٧ — ١١٧٩	أسرة زونج الجنوبية
١١٣٠ — ١٢٠٠	چوشى الفيلسوف
١١٦١	أول ما عرف من استخدام البارود في الحروب
١١٦٢ — ١٢٢٧	چنكيز خان
١٢١٢	چنكيز خان يغزو الصين
١٢٦٠ — ١٣٦٨	أسرة يوان (مغولية)
١٢٦٩ — ١٢٩٥	كوبلاى خان
١٢٦٩	ماركو پولو ، يغادر البندقية في رحلته إلى الصين
١٢٩٥	ماركو پولو ، يعود إلى البندقية
١٣٦٨ — ١٦٤٤	أسرة منج
١٣٦٨ — ١٣٩٩	تاى دزو
١٤٠٣ — ١٤٢٥	تشنج درو (يونج لو)
١٥١٧	البرتغاليون في كانتون
١٥٧١	استيلاء الأسبان على جزائر الفلپين

بعد الميلاد

١٥٧٣ — ١٦٢٠ شن دزونغ (وان لى)
١٦٣٧ التجار الإنجليز فى كانتون
١٦٤٤ — ١٩١٢ أسرة تشنغ (المانشو)
١٦٦٢ — ١٧٢٢ كانغ شى
١٧٣٦ — ١٧٩٦ تشين لونغ
١٧٩٥ تحريم تجارة الأفيون للمرة الأولى
١٨٠٠ تحريم تجارة الأفيون للمرة الثانية
١٨٢٣ — ١٩٠١ لى هنج — تشانج السياسى
١٨٣٤ — ١٩٠٨ تزوشى (الإمبراطورة الأرملة)
١٨٣٩ — ١٨٤٢ « حرب الأفيون » الأولى
١٨٥٠ — ١٨٦٤ فتنة تاى — پنج
١٨٥٦ — ١٨٦٠ « حرب الأفيون » الثانية
١٨٥٨ — ١٨٦٠ الروسيا تستولى على أراضى صينية شمال نهر عامور
١٨٦٠ فرنسا تستولى على الهند الصينية
١٨٦٦ — ١٩٢٥ صون يات — صن
١٨٧٥ — ١٩٠٨ كوانج شو
١٨٩٤ الحرب الصينية اليابانية
١٨٩٨ ألمانيا تستولى على كياو تشاو ، والولايات

بعد الميلاد

المتحدة تستولى على جزائر الفلبين
١٨٩٨ مراسيم كوانج شو الإصلاحية
١٩٠٠ ثورة الملاكمين (البكسر)
١٩٠٥ إلغاء نظام الامتحان لطالبى المناصب الحكومية
١٩١١ الثورة الطبية
١٩١٢ (يناير — مارس) صون يات — صن الرئيس المؤقت للجمهورية الصينية
١٩١٢ — ١٩١٦ الرئيس يوان شى — كاى
١٩١٤ اليابان تستولى على كياو تشاو
١٩١٥ « المطالب الواحدة والعشرون »
١٩٢٠ الپاى هوا (اللغة الدارجة) التى تستعمل فى المدارس الصينية ، ذروة « المد الجديد »
١٩٢٦ تسيانج كاى تشك وبردين ، يخضعان شمالى الصين
١٩٢٢ الحركة المقاومة للشيوعية
١٩٣١ اليابانيون يحتلون منشوريا

الباب الثالث والعشرون
عصر الفلاسفة

الفصل الأول
نشأة الفلسفة

١ — قدر الصينيين

لقد كانت دراسة بلاد الصين عملا من الأعمال المجيدة التي تمت في عصر الاستنارة(*) وقد قال فيهم ديدرو : « أولئك قوم يفوقون كل من عداهم من الأسيويين في قدم عهدهم ، وفي فنونهم ، وعقليتهم ، وحكمتهم وحسن سياستهم ، وفي تذوقهم للفلسفة ، بل إنهم في رأى بعض المؤلفين ليضارعون في هذه الأمور كلها أرقى الشعوب الأوربية وأعظمها استنارة »[1] . وقال فلتير Voltaire : « لقد دامت هذه الإمبراطورية أربعة آلاف عام دون أن يطرأ عليها تغير يذكر في القوانين ، أو العادات ، أو اللغة ، أو في أزياء الأهلين ... وإن نظام هذه الإمبراطورية لهو في الحق خير ما شهده العالم من نظم »[2]. وهذا الإجلال الذى ينظر به علماء ذلك الوقت إلى بلاد الصين قد حققته دراستنا لتلك البلاد عن كثب ، والذين خبروا تلك البلاد وعرفوها حق المعرفة قد بلغ إعجابهم بها غايته . انظر إلى ما قاله الكونت كيسرلنج Count Keyserling في خاتمة كتاب له يعد من أغزر الكتب علماً وأعظمها نفعاً وأبرعها تصويراً :

(*) يطلق الأوربيون هذا اللفظ (Enlightenment) على العصر الذى سادته النزعة الفلسفية الفرنسية في القرن الثامن عشر أيام فلتير ومعاصريه . (المترجم)

لقد أخرجت الصين القديمة أكمل صورة من صور الإنسانية . وكانت فيها صورة مألوفة عادية . . . وأنسأت أعلى ثقافة عامة عرفت فى العالم كله . . . وإن عظمة الصين لتتملكنى وتؤثر فىّ كل يوم أكثر من الذى قبله ... وإن عظماء تلك البلاد لأرقى ثقافة من عظماء بلادنا ... وإن أولئك السادة(*) لهم طراز سام من البشر ... وسموهم هذا هو الذى يأخذ بلبى ... إن تحية الصينى المثقف لتبلغ حد الكمال ! ... وليس ثمة من يجادل فى تفوق الصين فى كل شأن من شئون الحياة ... ولعل الرجل الصينى أعمق رجال العالم على بكرة أبيهم »(٣)

والصينيون لا يهتمون كثيراً بإنكار هذه الأقوال ، وقد ظلوا حتى هذا القرن (ما عدا نفراً قليلا فى الوقت الحاضر) مجمعين على أن أهل أوربا وأمريكا برابرة همج(٤) . وكان من عادة الصينيين قبل سنة ١٨٦٠ أن يترجموا لفظ « أجنبى » فى وثائقهم الرسمية باللفظ المقابل لهمجى أو بربرى ، وكان لا بد للبرابرة أن يشترطوا على الصينيين فى معاهدة رسمية إصلاح هذه الترجمة(**) . والصينيون كمعظم شعوب الأرض « يرون أنهم أعظم الأمم مدنية وأرقهم طباعا »(٧) . ولعلهم محقون فى زعمهم هذا رغم ما فى بلادهم من فساد وفوضى من الناحية السياسية ، ورغم تأخرهم فى العلوم ، وكدحهم فى المصانع ، ومدنهم الكريهة الرائحة ، وحقولهم الملأى بالأقذار ، وفيضان أنهارهم ، وما ينتاب بلادهم من القحط ، ورغم جمودهم وقسوتهم وفقرهم وخرافاتهم ، وقلة عنايتهم بتربية أبنائهم ، وحروبهم

(*) يقصد كبار الحكام الصينيين الذين أبعدوا عن وظائفهم فى تشنج – داو .

(**) بعث العالم الصينى الذى عاون الدكتور جيلز Dr. Giles فى ترجمة بعض مختارات من كتاب « جواهر الأدب الصينى Gems of Chinese Literature قصيدة وداع مشهورة فيها هذان البيتان الجميلان .

لقد أنار الأدب من عهد بعيد عقول أمة الأمم ؛
واليوم امتد نفوذها ليهدى موطناً بربريا

المدمرة ، ومذابحهم وهزائمهم المذلة . ذلك أن من وراء هذا المظهر المظلم الذى يبدو الآن لعين الغريب عن بلادهم مدنيةً من أقدم المدنيات القائمة فى العالم وأغناها : فمن ورائه تقاليد قديمة فى الشعر ، يرجع عهدها إلى عام ١٧٠٠ ق.م ، وسجل حافل بالفلسفة الواقعية المثالية العميقة غير المعجزة الدرك ، ومن ورائه براعة فى صناعة الخزف والنقش لا مثيل لها من نوعها ، وإتقان مع يسر لجميع الفنون الصغرى لا يضارعهم فيه إلا اليابانيون ، وأخلاق قويمة قوية لم نر لها نظيراً عند شعوب العالم فى أى وقت من الأوقات ، ونظام اجتماعى ضم عدداً من الخلائق أكثر مما ضمه أى نظام آخر عرف فى التاريخ كله ودام أحقاباً لم يدمها غيره من النظم ، ظل قائماً حتى قضت عليه الثورة ويكاد يكون هو المثل الأعلى للنظم الحكومية التى يدعو إليها الفلاسفة ؛ ومجتمع كان راقياً متمدنياً حين كانت بلاد اليونان مسكن البرابرة ؛ شهد قيام بابل وأشور ؛ وبلاد الفرس واليهود ، وأثينة ورومة والبندقية وأسبانيا ، ثم شهد سقوطها كلها ، وقد يبقى بعد أن تعود بلاد البلقان التى نسميها أوربا إلى ما كانت عليه من جهالة وهمجية . ترى أى سر عجيب أبقى هذا النظام الحكومى تلك القرون الطوال ، وحرك هذه اليد الفنية الصناع ، وأوحى إلى نفوس أولئك القوم ذينك العمق والاتزان ؟

٢ — الدولة الوسطى الزاهرة

وصف البلاد الجغرافى — الجنس الصينى — ما قبل التاريخ

إذا عددنا الروسيا بلاداً أسيوية — وقد كانت كذلك إلى أيام بطرس الأكبر وقد تعود أسيوية مرة أخرى — لم تكن أوربا إلا أنفاً مسنناً فى جسم آسية ، وامتداداً يشتغل بالصناعة من خلفه قارة زراعية كبيرة ، ومخالب أو نتوءات ممتدة من قارة جبارة مهولة . وتشرف الصين على تلك القارة المترامية الأطراف ، وهى لا تقل عن أوربا فى اتساع رقعتها وتعداد عامرها .

وقد كان يكتنفها فى معظم مراحل تاريخها أكبر المحيطات وأعلى الجبال، وصحراء من أوسع صحارى العالم.

لذلك استمتعت بلاد الصين بعزلة كانت هى السبب فى حظها النسبى من السلامة والدوام، والركود وعدم التغيير، وهو حظ كبير إذا قيس إلى حظ غيرها من الأمم. ومن أجل هذا فإن الصينيين لم يسموا بلادهم — الصين، بل سموها تيان — هوا — « تحت السماء » أو زهاى — « بين البحار الأربعة » — أو چونج — جوُو « الدولة الوسطى » أو چونج — هوا — جوو « الدولة الوسطى الزاهرة » أو الاسم الذى سماها به مرسوم الثورة چونج — هوا — مين — چوو — « مملكة الشعب الوسطى الزاهرة »[٨]. والحق أن الأزهار اليانعة كثيرة فيها، كما أن فيها كل المناظر الطبيعية المختلفة التى يمكن أن تهبها إياها الشمس الساطعة، والسحب السابحة، وشعاب الجبال الوعرة، والأنهار العظيمة، والأغوار العميقة، والشلالات الدافقة بين التلال العابسة. ويجرى فى قسمها الجنوبى الخصيب نهر يانج — دزه[*] الذى يبلغ طوله ثلاثة آلاف ميل، وفى الشمال ينحدر الهوانج هو، أو النهر الأصفر من سلاسل الجبال الغربية مخترقاً سهولا من اللويس، ويحمل معه الغرين ليصبه الآن فى خليج بتشيلى، وكان من قبل يصبه فى البحر الأصفر، ولعله سيعود فى الغد فيصبه فى هذا البحر مرة أخرى. على ضفاف هذين النهرين وعلى ضفتى نهر الراى وغيره من المجارى الواسعة، بدأت الحضارة الصينية تنتزع الأرض من الوحوش والآجام، وتصد عنها الهمج المحيطين بها، وتنظف الأرض من الحسك والطُّلَّيق، وتطهرها من الحشرات المهلكة والرواسب الأكالة القارضة كأملاح البوناسا وغيرها؛ وتجفف المناقع، وتقاوم الجفاف والفيضان، وما يطرأ على مجارى الأنهار

(*) هو الذى يسمى عادة يج — سى، ويبلغ اتساعه عند منتهاى ثلاثة أميال كامله.
(المترجم)

من تحوّل يعود على البلاد وسكانها بالخراب والهلاك ، وتجرى الماء فى صبر وحذر من أولئك الأعداء الأوداء فى آلاف القنوات ، وتقيم يوما بعد يوم خلال القرون الطوال أكواخاً وبيوتاً ومعابد ومدارس وقرًى ومدناً ودولاً . ألا ما أطول الآجال التى يكد الناس خلالها ليشيدوا صرح الحضارة التى يدمرونها فى سهولة وسرعة عجيبتين !

وليس فى الناس من يعرف من أين جاء الصينيون ، أو إلى أى جنس ينتسبون ، أو متى بدأت حضارتهم فى الزمن القديم . وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن بقايا «إنسان بيكين»(*) توحى بأن القردة البشرية جد قديمة فى بلاد الصين . وقد استنتج أندروز Andrews من بحوثه فى تلك البلاد أن منغوليا كان يعمرها من عشرين ألف سنة قبل الميلاد أجيال من الناس تشبه أدواتهم الأدوات « الأزيلية » التى كانت أوربا تستخدمها فى العصر الحجرى الأوسط ، وأن خلفاء هذه الأجيال انتشروا فى سيبيريا والصين حينما جفت منغوليا الجنوبية وأجدبت واستحالت إلى صحراء جوبى الحالية : وتدل كشوف أندرسن Anderson وغيره فى هونان ومنشوريا الجنوبية على أن ثقافة تنتسب إلى العصر الحجرى الحديث وجدت فى تلك البلاد متأخرة بألفى عام من مثيلتها فى عصر ماقبل التاريخ فى مصر وسومر . ويُشبه بعض ما وجد من الأدوات فى الرواسب الباقية من العصر الحجرى الحديث ، فى شكله وتسنينه ، المدى الحديدية التى يستخدمها سكان الصين الشمالية فى هذه الأيام لحصاد الذرة الصينية(**) ، وهذه الحقيقة على ضآلة شأنها ترجح القول بأن الثقافة الصينية قد دامت سبعة آلاف عام متواصلة غير منقطعة ، وهو عهد ما أطوله ، وقلّ أن يوجد له فى غير الصين نظير[15] .

(*) النطق الصحيح لهذا الإسم هو بيچنج وقد نستعمله أحياناً . (المترجم)

(**) المعروفة بالسرغو

على أن طول هذه العهود يجب ألا يغشى أبصارنا فنبالغ فى تجانس هذه الثقافة أو تجانس الشعب الصينى نفسه : فقد يلوح أن بعض فنونهم وصناعاتهم الأولى جاءتهم من بلاد النهرين والتركستان . من ذلك أن حزف هونان المنتمى إلى العصر الحجرى الحديث لايكاد يفترق فى شىء عن خزف أنو والسوس[١١] . والجنس « المغولى » الحاضر مزيج معقد اختلطت فيه السلالة البدائية مراراً وتكراراً بمئات السلالات الغازية أو المهاجرة من منغوليا وجنوبى الروسيا (السكوذيين ؟) ووسط آسية[١٢] .

فالصين من هذه الناحية كالهند يجب أن نشبهها بأوروبا بأ كملها لا بأمة واحدة من أممها ؛ فليست هى موطناً موحداً لأمة واحدة ، بل هى خليط من أجناس مختلفة الأصول متباينة اللغات غير متجانسة فى الأخلاق والفنون ؛ وكثيراً ما يعادى بعضها بعضاً فى العادات والمبادئ الخلقية والنظم الحكومية .

٣ — القرون العابرة المجهولة

قصة الخلق عند الصينيين – بداية الثقافة – الخمر
وعصى الأكل – الأباطرة الأفاضل – ملك كافر

تسمى الصين « جنة المؤرخين » ؛ ذلك أنها ظلت مئات وآلافاً من السنين ذات مؤرخين رسميين يسجلون كل مايقع فيها ، وكثيراً مما لايقع : على أننا لا نثق بأقوالهم عن العهود السابقة لعام ٧٧٦ ق . م ، ولكننا إذا ما استمعنا إلى هذه الأقوال رأيناهم يحدثوننا أحاديث مفصلة عن تاريخ الصين منذ عام ٣٠٠٠ ق . م ، ورأينا أكثرهم تقى وصلاحاً يصفون خلق العالم كما يفعل المطلعون على الغيب فى هذه الأيام . ومن أقوالهم فى هذا أن « پان كو » أول الخلائق استطاع أن يشكل الأرض حوالى عام ٢٫٢٢٩٫٠٠٠ ق . م بعد أن ظل يكدح فى عمله هذا ثمانية عشر ألف عام . وتجمعت أنفاسه التى كان يخرجها فى أثناء عمله فكانت رياحاً

وسحبا ، وأضحى صوته رعداً ، وصارت عروقه أنهاراً ، واستحال لحمه أرضاً ، وشعره نبتاً وشجراً ، وعظمه معادن ، وعرقه مطراً ؛ أما الحشرات التي كانت تعلق بجسمه فأصبحت آدميين[١٣] . وليس لدينا من الأدلة القاطعة ما ننقض به هذا العلم الكوني العجيب .

وتقول الأساطير الصينية إن الملوك الأولين حكم كل منهم ثمانية عشر ألف عام ، وإنهم جاهدوا أشق جهاد ليجعلوا من قمل « پان كو » خلائق متحضرين . وتقول لنا هذه الأساطير إن الناس « كانوا قبل هؤلاء الملوك السماويين كالوحوش الضارية يلبسون الجلود ويقتاتون باللحوم النيئة ، ويعرفون أمهاتهم ، ولكنهم لا يعرفون اباءهم » — ولا يرى استرندبرج Strindberg أن هذا الوصف الأخير مقصور على الأقدمين أو على الصينيين . ثم جاء من بعد هؤلاء الإمبراطور فوشي في عام ٢٨٥٢ ق . م بالتحديد ، فعلّم الناس بمعاونة زوجه المستنيرة الزواج ، والموسيقى والكتابة والتصوير ، وصيد السمك بالشباك ، وتأنيس الحيوان ، وإطعام دود القز للحصول منه على الحرير . وأوصى وهو على فراش الموت أن يخلفه سن نونج ، فأدخل هذا الإمبراطور في البلاد الزراعة ، واختراع المحراث الخشبي ، وأقام الأسواق وأوجد التجارة ، وأنشأ علم الطب بما عرفه من خواص النبات العلاجية ، هذا ما تقوله الأساطير التي تعلى الأشخاص أكثر مما تعلى الأفكار ، وتعزو إلى عدد قليل من الأفراد نتائج كدح الأجيال الطوال . ثم حكم إمبراطور محارب قوي يدعى هوانج ـــ دى لم يطل عهده أكثر من مائة عام ؛ فجاء إلى الصين بالمغنطيس والعجلات ، ووظف المؤرخين الرسميين ، وشاد أول أبنية من الآجر في الصين ، وأقام مرصداً لدراسة النجوم ، وأصلح التقويم ، وأعاد توزيع الأرض على الأهلين . وحكم يَوْ قرناً آخر ، وبلغ من صلاح حكمه أن كنفوشيوس ، حين كتب عنه بعد زمانه بثمانمائة وألف عام في عهد كان يبدو له بلا ريب عهداً « حديثاً » فاسداً ، أخذ يندب ما طرأ على الصين من ضعف

وانحلال . ويحدثنا الحكيم القديم — الذى لم يستطع رغم حكمته التورع عن « الكذبة الصالحة » يضيفها إلى القصة ليجعل لها مغزى خلقيا — يحدثنا هذا الحكيم القديم أن الناس أصبحوا أفاضل أتقياء بمجرد النظر إلى يَوْ ، وكان أول ما قدمه يَوْ من معونة للمصلحين أن وضع فى خارج باب قصره طبلاً يضربونه إذا أرادوا أن يدعوه لسماع شكواهم ، ولوحاً يكتبون عليه ما يشيرون به على الحكومة ، ويقول كتاب التاريخ الذائع الصيت :

« أما يَوْ الصالح فيقولون عنه إنه حكم چونج — جُوُ ومائة عام لأنه عاش مائة عام وعشرة وستة ؛ وكان رحيما خيِّرا كالسماء ، حكيما بصيراً كالآلهة ، وكان ضياؤه يبدو من بعيد كالسحابة اللامعة ، فإذا اقتربت منه كان كأنه الشمس الساطعة . وكان غنياً فى غير زهو ، عظيما فى غير ترف ، وكان يلبس قلنسوة صفراء ، ومئزراً قاتم اللون ، ويركب عربة حمراء تجرها جياد بيض . وكانت طنف أسقف بيته غير مشذبة ، وألواحه غير مسحجة ، ودعائمه الخشبية غير ذات أطراف مزينة .

وكان أغلب ما يقتات به الحساء أيا كان ما يصنع منه ، لا يهتم باختيار الحبوب التى يصنع منها خبزه ، وكان يشرب حساء العدس من صفحة مصنوعة من الطين ، ويتناوله بملعقة من الخشب . ولم يكن يتحلى بالجواهر ، ولم تكن ثيابه مطرزة ، بل كانت بسيطة لا يختلف بعضها عن بعض . ولم يكن يعنى بغير المألوف من الأشياء أو الغريب من الأحداث ، ولم يكن يقيم وزنا للأشياء النادرة الغريبة ، يستمع لأغانى الغزل ، عربته الرسمية خالية من أسباب الزينة ... يلبس فى الصيف رداء بسيطاً من القطن ، ويلف جسمه فى الشتاء بجلود الظباء . ومع هذا كله فقد كان أغنى مَن حكم چونج — جُوُو ، طوال عهدها كله ، وأرجحهم عقلا ، وأطولهم عمراً ، وأحبهم إلى قلوب الشعب[١٤] .

وكان شون آخر هؤلاء « الملوك الخمسة » مثالا فى البر البنوى ، كما كان هو البطل الذى جاهد لحماية البلاد من فيضانات نهر هوانج — هو ، والذى أصلح التقويم ، وضبط الموازين والمقاييس ، وكسب محبة الأجيال التى جاءت بعده من تلاميذ المدارس بتقصير طول السوط الذى كانوا يربون به . وتقول الروايات الصينية إن شون فى آخر أيامه رفع معه على العرش أقدر مساعديه ، وهو المهندس العظيم يو ، الذى تغلب على فيضان تسعة أنهار بشق تسعة جبال واحتفار تسع بحيرات ، ويقول الصينيون « لولا يو ، لكنا كلنا سمكا »[١٥] . وتقص الأساطير المقدسة أن خمر الأرز عصر فى أيامه وقدم للإمبراطور ، ولكن يو صبّه على الأرض وقال متنبئاً : « سيأتى اليوم الذى يخسر فيه أحد الناس بسبب هذا الشيء ملكا » ، ثم نفى من كشف هذا الشراب من البلاد وحرم على الناس شربه . فلما فعل هذا جعل الناس خمر الأرز شرابهم القومى ، فكان ذلك درساً علموه من جاء بعدهم من الخلائق .

وغيّر يو المبدأ الذى كان متبعاً من قبله فى وراثة الملك وهو أن يعين الإمبراطور قبل وفاته من يخلفه على العرش ، فجعل الملك وراثياً فى أسرته ، وأنشأ بذلك أسرة الشِّيتية (أى المتحضرة) ، فكان ذلك سبباً فى أن يتعاقب على حكم الصين العباقرة والبلهاء وذوو المواهب الوسطى . وقضى على هذه الأسرة إمبراطور ذو أطوار شاذة ، يدعى جية أراد أن يسلّى نفسه هو وزوجته فأمر ثلاثة آلاف من الصينيين أن يموتوا ميتة هنيئة بالقفز فى بحيرة من النبيذ .

وليس لدينا ما يحقق لنا صدق ما ينقله إلينا المؤرخون الصينيون الأقدمون من أخبار هذه الأسرة . وكل ما نستطيع أن نقوله أن علماء الفلك فى هذه الأيام قد حققوا تاريخ الكسوف الشمسى الذى ورد ذكره فى السجلات القديمة فقالوا إنه قد حدث فى عام ٢١٦٥ ق . م ، ولكن الثقاة الذين يعتد بآرائهم لا يؤمنون بحساب أولئك الفلكيين[١٦] . وقد وجدت على بعض العظام التى كشفت فى

هونان أسماء حكام تعزوهم الروايات الصينية إلى الأسرة الثانية أو أسرة شانج ؛ ويحاول المؤرخون أن يعزوا بعض الأوانى البرنزية الموغلة فى القدم إلى أيام تلك الأسرة . أما فيما عدا هذا فمرجعنا الوحيد هو القصص الذى يحوى من الطرافة واللذة أكثر مما يحوى من الحقيقة . وتقول الروايات القديمة إن وو — يى أحد أباطرة أسرة شانج كان كافراً يتحدى الآلهة ويسب روح السماء ، ويلعب الشطرنج مع ذلك الروح ، ويأمر أحد أفراد حاشيته أن يحرك القطع بدل الروح ، فإذا أخطأ سخر منه . ثم أهدى إليه كيسا من الجلد وملأه دما ، وأخذ يسلى نفسه بأن يصوب إليه سهامه . ويؤكد لنا المؤرخون — وفيهم من الفضيلة أكثر مما فى التاريخ نفسه — إن وو — يى أصابته صاعقة فأهلكته .

وكان چوسين آخر ملوك هذه الأسرة ومخترع عصى الطعام حبيثاً آثماً إلى حد لا يكاد يصدقه العقل ، فقضى بإثمه على أسرته . ويحكى عنه أنه قال : « لقد سمعت أن لقلب الإنسان سبع فتحات ، وأحب أن أتثبت من صدق هذا القول فى پى كان » — وزيره . وكانت تاكى زوجة چو مضرب المثل فى الفجور والقسوة ، فكانت تعقد فى بلاطها حفلات الرقص الخليع ، وكان الرجال والنساء يسرحون ويمرحون عارين فى حدائقها . فلما غضب الناس من هذه الفعال عمدت إلى كم أفواههم باختراع ضروب جديدة من التعذيب ، فكانت ترغم المذمرين على أن يمسكوا بأيديهم معادن محمية فى النار أو يمشوا على قضبان مطلية بالشحم ممتدة فوق حفرة مملوءة بالفحم المشتعل ، فإذا سقط الضحايا فى الحفرة طربت الملكة حين تراهم تشوى أجسادهم فى النار[١٧] .

وقضت على عهد چوسين مؤامرة دبرها الثوار فى داخل البلاد ، وغارة من ولاية چو الغربية ، ورفع المغيرون على العرش أسرة چو ، ودام حكمها أطول من حكم أية أسرة مالكة أخرى فى بلاد الصين . وكافأ الزعماء المنتصرون من أعانوهم من القواد والكبراء بأن جعلوهم حكاما يكادون يكونون مستقلين فى

الولايات الكثيرة التى قسمت إليها الدولة الجديدة . وعلى هذا النحو بدأ عهد الإقطاع الذى كان فيما بعد شديد الخطر على حكومة البلاد ، والذى كان رغم هذا باعثاً على النشاط الأدبى والفلسفى فى بلاد الصين . وتزاوج القادمون الجدد والسكان الأولون وامتزجوا جميعاً ، وكان امتزاجهم هذا تمهيداً بيولوجيا لأولى حضارات الشرق الأقصى فى الأزمنة التاريخية .

٤ — الحضارة الصينية الأولى

عصر الاقطاع فى الصين — وزير مدبر — النضال بين العادات والقوانين — الثقافة والفوضى — أغانى الحب فى «كتاب الأغانى»

لم تكن الولايات الإقطاعية ، التى وهبت الصين بعدئذ ما استمتعت به من نظام سياسى قرابة ألف عام ، من عمل الفاتحين ، بل نشأت من المجتمعات الزراعية التى قامت فى الأيام البدائية بامتصاص أقوياء الزراع ضعافهم ، أو باندماج الجماعات تحت رياسة زعيم واحد حتى يستطيعوا أن يدفعوا عن حقولهم من يغيرون عليها من الهمج المحيطين بهم . وبلغ عدد هذه الإمارات فى وقت من الأوقات سبع عشرة ولاية تتكون كل منها فى العادة من بلدة مسورة تحيط بها أرض زراعية ، ومن ضواح مسورة أصغر منها يتألف من مجموعها محيط دفاعى واحد[١٨]. ثم أخذت هذه الولايات يندمج بعضها فى بعض على مهل حتى نقص عددها إلى خمس وخمسين ولاية تشمل الإقليم الذى يعرف الآن بإقليم هونان وماجاوره من أقاليم شانسى ، وشَنْسى ، وشانتونج . وكان أهم هذه الولايات الخمس والخمسين ولاية تشى التى وضعت أساس الحكومة الصينية ، وولاية تشين التى أخضعت سائر الولايات لحكمها . وأنشأت منها إمبراطورية موحدة ، وخلعت على بلاد الصين اسمها المعروفة به فى جميع بلاد العالم إلا فيها هى نفسها .

وكان السياسى العبقرى الذى وضع لولاية تشى نظامها هو جوان چونج

مستشار الدوق هوان . وقد بدأ جوان حياته السياسية بمساعدة أخى هوان عليه فى نزاعهما من أجل السيطرة على تشى ، وكاد يقتل هوان فى إحدى الوقائع الحربية . ولكن هوان انتصر فى آخر الأمر وأسر جوان وعيّنه رئيس وزراء دولته . وزاد جوان من قوة سيده باستبدال الأسلحة والأدوات الحديدية بنظائرها المصنوعة من البرنز ، واحتكار الحكومة للحديد والملح ، أو بالسيطرة عليهما ، ثم فرض الضرائب على النقود والسمك والملح « لكى يساعد الفقراء ويكافئ الحكماء وذوى المواهب »[١٩] . وأصبحت تشى فى أيام وزارته الطويلة الأجل دولة حسنة النظام ذات عملة مستقرة ، ونظام إدارى محكم ، وثقافة زاهرة . وقد قال عنه كنفوشيوس — وهو الذى لم يكن يمتدح الساسة إلا بأوجز عبارة — «إن الناس لايزالون حتى اليوم يستمتعون بالنعم التى أسبغها عليهم ، ولولا جوان چونج لظللنا حتى اليوم ذوى شعر أشعث ، ولظلت ملابسنا تزرر جهة الشمال[*][٢٠]

وفى بلاط نبلاء الإقطاع نشأت طريقة التحية التى امتاز بها الصينيون المهذبون ، كما نشأت فيها شيئاً فشيئاً تقاليد من الأخلاق والاحتفالات ومراسم التكريم بلغت من الدقة حداً يكفيها لأن تحل محل الدين عند الطبقات العليا فى المجتمع . ثم وضعت أسس الشرائع وبدأ نزاع شديد بين حكم العادات التى نمت عند عامة الشعب وبين حكم القانون الذى وضعته الدولة . وأصدرت دوقيتا چنج وتشين (فى عامى ٥٣٥ ، ٥١٢ ق . م) كتباً فى القانون ملأت قلوب الفلاحين رعباً ، وتنبئوا بما سيحل بهما من عقاب سماوى شديد على هذه الجريمة الشنيعة . وحدث بالفعل أن دمرت النار عاصمة چنج بعد ذلك بقليل . وكان فى هذه الشرائع محاباة للطبقات العليا ، فقد أعفتها من كثير من الواجبات المفروضة على غيرها من الطبقات على شريطة أن يؤدب أفرادها أنفسهم . من ذلك أن القاتل منهم كان

(*) هذه هى الطريقة التى يريد بها كنفوشيوس أن يقول إنه لولا جوان لظل الصينيون همجاً ، فقد كان من عادات الهمج فى تلك الأيام أن يزرروا ملابسهم جهة الشمال[٢١] .

يسمح له بأن ينتحر ، وكان الكثيرون منهم ينتحرون بالفعل على النحو الذى أصبح فيما بعد عادة مألوفة بين طبقة السموراى فى اليابان . واحتج عامة الشعب على هذه التفرقة ، وقالوا إن فى مقدورهم هم أيضاً أن يؤدبوا أنفسهم ، وتمنوا أن يقوم بينهم وطنى مخلص شبيه بهرموديوس أو أرستجيتون(*) يحررهم من ظلم القوانين . ثم تراضت الفئتان آخر الأمر واتفقتا على حل سليم فضيقت دائرة القانون الوضعى حتى لم تعد تشمل إلا المسائل الكبرى أو المسائل القومية ، وظلت أحكام العرف والعادة هى الفيصل فيما دونها من الأمور . وإذ كانت الكثرة الغالبة من شئون البشر من المسائل الصغرى فقد ظل حكم العادة هو السائد بين كافة الطبقات .

واستمر تنظيم الولايات يجرى فى مجراه ، وجمعت قواعد هـذا النظام فى الچو — لى ، أو « دستور چو » وهو مجموعة من الشرائع تعزوها الروايات إلى چو جونج عم دوق چو الثانى وكبير وزرائه ، وهو بالطبع قول لا يقبله عقل لأن هذه الشرائع لا يمكن أن تكون من وضع رجل واحد .

والواقع أن الإنسان يلمح فيها روح كنفوشيوس ومنشيس ، ولهذا فأكبر الظن أنها وضعت فى آخر أيام أسرة چو لا فى أيامها الأولى . وقد ظلت مدى ألفى عام تمثـــل فـكرة الصينيين عن النظام الحكومى : وقوامه إمبراطور يحكم نيابة عن الخالق ، وأنه « ابن السماء » يستمد سلطانه مما يتصف به من الفضيلة والصلاح ؛ وأعيان ، بعضهم بحكم مولدهم وبعضهم بحكم تربيتهم وتدريبهم ، يصرفون أعمال الدولة ؛ وشعب يرى أن واجبه فلح الأرض ، يعيش فى أسر أبوية ، ويتمتع بالحقوق المدنية ولكنه لا رأى له فى تصريف الشئون العامة ؛ ومجلس من ستة وزراء كل واحد منهم على ناحية من النواحى الآتية وهى : حياة الإمبراطور وأعماله ، ورفاهية الشعب وزواج أفراده المبكر ، والمراسيم والتنبؤات الدينية ، والاستعداد للحرب والسير فيها ، وتوزيع العدالة بين السكان وتنظيم

(*) Harmodius و Aristogiton وطنيان أثينيان عاشا حوالى ٥٢٥ ق . م .(المترجم)

الأشغال العامة » . ويكاد هذا القانون يكون قانوناً مثالياً ، وأكبر الظن أنه نبت فى عقل فيلسوف أفلاطونى مجهول لم يتحمل أعباء الحكم ، لا من تجارب زعماء دنستهم السلطة الفعلية ويتعاملون مع خلائق حقيقيين .

ولما كان الشر المستطير قد يجد له مكاناً حتى فى أكمل الدساتير ، فقد كان تاريخ الصين السياسى هو التاريخ المألوف الذى يتناوبه الفساد الطويل وفترات الإصلاح القصيرة . ذلك أن الثروة حين زادت أدت إلى الإسراف والترف فأفسدا الطبقة العليا ، كما غصّ بلاط الأباطرة وغصت فيما بعد لويانج عاصمة الدولة بالموسيقيين والقتلة السفاحين والسرارى والفلاسفة . وقلما كانت تمضى عشر سنين دون أن يهاجم فيها الدولة الجديدة البرابرةُ الجياع الذين لم ينقطعوا يوما ما عن الضغط على حدودها[٢٣] ، حتى أضحت الحرب أولا ضرورة لا بد منها للدفاع ، ثم صارت بعد قليل حرب هجوم واعتداء ، وتدرجت من ألعاب يتسلى بها الأعيان إلى مسابقات فى التقتيل بين عامة الشعب ، يطاح فيها بعشرات الآلاف من الرؤوس ، فلم يمض إلا قرنان من الزمان أو أكثر منهما بقليل حتى قتل من الملوك ستة وثلاثون[٢٤] ، وعمت البلاد الفوضى ، ويئس الحكماء من إصلاح الأمور .

وظلت الحياة تتعثر فى طريقها متخطية هذه العقبات القديمة . فكان الفلاّح يزرع ويحصد لنفسه فى أحيان قليلة وللنبلاء الإقطاعيين فى أكثر الأحيان ، لأنه هو وأرضه كانا ملكا لهؤلاء النبلاء ، ولم يبدأ الفلاحون فى امتلاك الأرض إلا فى أواخر أيام هذه الأسرة . وكانت الدولة — وهى مجتمع مهلهل من النبلاء الإقطاعيين يعترفون بعض الاعتراف بسيادة واحد منهم — تجند العمال للأشغال العامة ، وتروى الحقول من قنوات كثيرة منبثة فى أنحاء البلاد ؛ وكان الموظفون العموميون يعلّمون الأهلين زرع الحقول وغرس الأشجار ، ويشرفون على صناعة الحرير بكافة أجزائها . وكان صيد السمك واستخراج الملح من باطن الأرض احتكاراً للحكومة فى كثير من الولايات[٢٥] . وكانت التجارة الداخلية

رائجة فى المدن فنشأت من رواجها طبقة وسطى صغيرة العدد تستمتع بنعم لا تكاد تفترق عن نعم الحياة الحديثة ، وكان أفرادها ينتعلون أحذية من الجلد ، ويرتدون ملابس من الحرير ، أو من نسيج آخر يغزلونه بأيديهم ، وينتقلون فى عربات مختلفه الأنواع ، أو فى قوارب تسير فى الأنهار ، ويسكنون بيوتاً حسنة البناء ، ويستخدمون الكراسى والنضد ، ويتناولون طعامهم فى صحاف وأوانى من الخزف المنقوش[٣٦] . وأكبر الظن أن مستوى حياتهم كان أرقى من مستوى حياة معاصريهم فى بلاد اليونان أيام صولون Solon أو فى روما أيام نوما Numa .

وسرت فى الحياة الذهنية فى الصين بين ظروف التفكك ومظاهر الفوضى السائدة فى البلاد حيوية تنقض ما يضعه المؤرخون من نظريات وقواعد عامة يريدون أن يأخذ بها الناس ؛ فقد وضعت فى هذا العهد المضطرب قواعد اللغة الصينية والأدب والفلسفة والفن . ونشأ من ائتلاف الحياة التى أصبحت آمنة بفضل التنظيم الاقتصادى والادخار مع الثقافة التى لم تكن قد وجدت بعد أو قيدت بالقيود والأحكام التى تفرضها عليها التقاليد والحكومة الإمبراطورية القوية السلطان ، نشأ من ائتلافهما ذلك الإطار الاجتماعى الذى احتوى أكثر العهود إبداعاً وإنشاء فى تاريخ الصين الذهنى . فكان فى كل قصر من قصور الأباطرة والأمراء وفى آلاف من المدن والقرى شعراء ينشدون القصائد ، وصناع يديرون عجلة الفخار أو يصبون الآنية الفخمة الجميلة ، وكتبة ينمقون على مهل حروف الكتابة الصينية وسوفسطائيون يعلمون الطلبة المجدين أساليب الجدل والمحاجة الذهنية ، وفلاسفة يتحسرون ويأسون لنقائص البشر وتدهور الدول .

وسندرس فى الفصول التالية حال الفن واللغة فى أكمل تطوراتهما وأخص خصائصهما ، ولكن الشعر والفلسفة من نتاج هذا العصر الذى نتحدث عنه بنوع خاص ، وهما يجعلانه أكثر عصور الفكر الصينى ازدهاراً . وقد ضاع معظم ما كتب من الشعر قبل كنفوشيوس ، وأكثر ما بقى منه هو ما اختاره هذا

الفيلسوف من نماذج كلها جد وصرامة ، جمعت فى الشى — چنج ، أى « كتاب الأغانى » وقيلت فى فترة تزيد على ألف عام تمتد من أيام الشعر القديم الذى قيل فى أيام أسرة شانج إلى الشعر ذى الصيغة الحديثة الذى قيل فى زمن معاصر لفيثاغورس . وتبلغ عدة هذه القصائد الباقية خمس قصائد وثلثمائة قصيدة ، وكلها موجزة إيجازاً يجعلها مستعصية على الترجمة ، ذات تصوير إيحائى ، تتحدث عن الدين ومتاعب الحرب وهموم الحب .

وإلى القارئ أمثلة من نواح الجنود الذين انتزعوا من بيوتهم فى غير الأوقات المناسبة ؛ ليلقى بهم فى مخالب المنايا لغير سبب تدركه عقولهم :

ألاما أعظم حرية الإوز البرى وهو يطير فى الفضاء
ثم يتمتع بالراحة فوق أغصان شجر اليو الملتف الكثيف !
أما نحن الدائمو الكدح فى خدمة الملك ،
فإنا لا نجد من الوقت ما نزرع فيه الذرة والأرز
ترى على أى شىء يعتمد آباؤنا ؟
حدثينى أيتها السماء النائية الزرقاء !
متى ينتهى هذا كله ؟ ..
وهل فى الأشجار أوراق لم تصبح بعد أرجوانية ؟
وهل بقى فى البلاد رجل لم ينتزع من بين ذراعى زوجته ؟
رحمة بنا نحن الجنود : —
ألسنا نحن أيضاً آدميين ؟[٢٧]

وفى القصائد كثير من أغانى الحب المختلفة النغم التى تضرب على أوتار القلوب ، وإن كان ذلك العصر يبدو لنا لفرط جهلنا عصر الهمجية الصينية وبداية تاريخها . ونحن نستمع فى إحدى هذه القصائد إلى صوت الشباب المتمرد إلى أبد الدهر

يهمس فى آذاننا من خلال القرون البائدة ، التى كانت تبدو عهوداً نموذجية لـكنفوشيوس ، وكأنما هى تقول أن لا شىء يماثل التمرد والعصيان فى قدم العهد :

أتوسل إليك يا حبيبى
أن تغادر قريتى الصغيرة
وألا تهشم أغصان صفصافى ؛
وليس ذلك لأن تهشيمها يحزننى
بل لأنى أخشى أن يثير تهشيمها غضب أبى .
والحب يناديني بعواطفه المقهورة : —
« إن أوامر الأب يجب أن تطاع »
أتوسل إليك يا حبيبى
ألا تتسلق جدار بيتى
أو تحطم أغصان توتى
وليس ذلك لأنى أخشى سقوطها
بل لأنى أخشى أن يثير سقوطها غضب أخى .
والحب يناديني بعواطفه المقهورة :—
« إن كلام الأخ يجب أن يطاع »
أتوسل إليك ياحبيبى ،
ألا تتسلل إلى الحديقة
ولا تحطم أشجار الصندل ؛
وليس هذا لأنى أعنى بهذه أو تلك
بل لأنى أرهب حديث المدينة ،
وإذا ما سار المحبون على هواهم

فماذا يقول عنهم جيرانهم ؟[٢٨]

وثمة قصيدة أخرى هى أقرب هذه القصائد إلى الكمال ، أو أحسنها ترجمة ، وهى تدل على أن العواطف البشرية قديمة موغلة فى القدم :

جلال الصباح يعلو فوق هامتى

وتحيط بى الأزهار الشاحبة بيضاء وأرجوانية وزرقاء وحمراء وأنا قلقة البال

وتحرك شىء بين الحشائش الذابلة

فظننت أن ما سمعته هو وقع أقدامه ،

وإذا جندب يصر ،

وتسلقت التل ساعة أن بزغ الهلال

فأبصرته مقبلا من الطريق الجنوبى

فاستراح واطرح عنه حمله[٢٩]

٥ — الفلاسفة قبل كنفوشيوس

« كتاب التغيرات » — « اليانج والين » — عصر الاستنارة الصينية
تنج شى سقراط الصين

يمتاز هذا العصر بفلسفته . وليس بعيب الجنس البشرى أن تشوفه كان فى كل عصر من العصور يسبق حكمته ، وأن مثله العليا كانت تخطو بأسرع من خطى مسلكه . وهاهو ذا يو — دزه فى عام ١٢٥٠ ق . م ينطق بتلك العبارة القصيرة التى تعد من جوامع الكلم ، والتى طالما رددها الناس من قبله ، ولكنها لم تبل جدتها بعد ؛ إذ لا يزال الناس فى حاجة إلى من يذكرهم بأن كل مجد مآله كرب وشقاء :

« من يطرح المجد ولا يعبأ به ينج من الأحزان »[٣٠]

ألا ما أسعد الإنسان الذى لا تاريخ له ! وقد ظلت بلاد الصين من ذلك العهد القديم إلى يومنا هذا تخرج فلاسفة .

فكما أن الهند أرقى بلاد العالم فى الأديان ، وعلم ما وراء الطبيعة ، فكذلك الصين أرقاها فى الفلسفة الإنسانية غير الدينية ، إذ لا يكاد يوجد فى الأدب الصينى كله كتاب ذو شأن فى علم ما وراء الطبيعة غير تلك الوثيقة العجيبة التى يبدأ بها تاريخ التفكير الصينى المدون ، وهى الوثيقة المعروفة باسم إى — چنج ، أو « كتاب التغيرات » . وتقول الرواية المأثورة إن هذا الكتاب قد كتبه ون وانج ، أحد مؤسسى أسرة چو فى سجنه ، وإن أبسط مبادئه مستمدة من فوشى الذى عاش قبله بزمن طويل . وهم يقولون لنا إن هذا الإمبراطور الأسطورى اخترع « الجوات » الثمانى أو التثاليث الرمزية التى ترى علوم ما وراء الطبيعة عند الصينيين أنها تنطبق على قوانين الطبيعة وعناصرها . وهم يقولون إن كل واحد من هذه التثاليث يتألف من ثلاثة خطوط بعضها متصل ويمثل عنصر الذكورة أو اليانج وبعضها منقطع ويمثل عنصر الأنوثة أو الين

وكذلك يمثل اليانج فى هذه الثنائية الرمزية العنصر الإيجابى الفعّال ، المنتج ، السماوى عنصر الضوء والحرارة والحياة ؛ على حين أن الين يمثل العنصر السلبى المنفعل ، الأرضى ، عنصر الظلمة والبرودة والموت . وقد حلّ ون يانج ذكره ، وأتعب عقول آلاف الملايين من الصينيين بمضاعفة عدد الشرط فى الخطوط المتصلة والمتقطعة ، فرفع بذلك عدد تباديلها وتوافيقها إلى أربعة وستين كل منها يقابل قانوناً من قوانين الطبيعة ، ويحتوى على جميع العلوم والتاريخ . والحكمة جميعاً تكمن فى هذه الأربع والستين شَيْپَنْجَة — أو الآراء الممثلة تمثيلا رمزيا فى التثليثات السالفة الذكر . والحقائق كلها يمكن ردها إلى تعارض واتحاد العاملين الأساسيين فى الكون وهما عنصرا الذكورة والأنوثة أى اليانج والين . وكان

الصينيون يتخذون كتاب التغيرات كتاباً يدرسون فيه طرق التنبؤ بالغيب ، ويعدّونه أعظم تراثهم الأدبى ، ويقولون إن كل من فهم ما فيه من توافيق يدرك جميع القوانين الطبيعية . وقد نشر كنفوشيوس هذا الكتاب بنفسه ، وجمّله بما علق عليه من الحواشى ، وكان يفضله عن كل ما عداه من كتب الصينيين ، ويتمنى أن يخلو لنفسه خمسين عاماً يقضيها فى دراسته[٣١] .

ولا يتفق هذا السِّفر العجيب مع روح الفلسفة الصينية ، وهى الروح الإيجابية العملية ، وإن كان يلائم غموض النفس الصينية . ونحن نجد فى الصين فلاسفة فى أبعد الأزمان التى وصل إلينا تاريخها ، ولكن كل ما حفظه التاريخ لهم قبل أيام لَوْ — دْزَه ، لايعدو أن يكون قطعة مبتورة من هنا وهناك ، أو مجرد اسم من الأسماء ، وقد شهد القرنان السادس والخامس فى بلاد الصين ، كما شهدا فى الهند وفارس وبلاد اليهود واليونان ، عاصفة قوية من العبقرية الفلسفية والأدبية ، بدأت كما بدأت فى بلاد اليونان بعصر من « الاستنارة » العقلية .

ولقد سبق هذه الاستنارة عهد من الحروب والفوضى فتح أمام المواهب غير ذات الأنساب العريقة مسلك للرقىّ ، وحفز أهل المدن إلى أن يطلبوا لأنفسهم معلمين يثقفون أذهانهم بالفنون العقلية . وسرعان ما كشف معلمو الشعب ما فى علوم الدين من إبهام وغموض ، وما فى الأداة الحكومية من نقص ، وعرفوا أن المقاييس الأخلاقية مقاييس نسبية ، وشرعوا يبحثون عن المُثُل العليا والكمال المطلق . وقد أُعدم الكثيرون من هؤلاء الباحثين على يد ولاة الأمور الذين وجدوا أن قتلهم أسهل من محاججتهم . وتقول إحدى الروايات الصينية إن كنفوشيوس نفسه ، وهو وزير الجريمة فى مقاطعة لو ، حكم بالإعدام على موظف صينى متمرد بحجة أنه « كان فى وسعه أن يجمع حوله طائفة كبيرة من الرجال ؛ وأن آراءه كانت تجد بسهولة من يستجيب لها من العامة ، وأن تجعل العناد صفة خليقة بالإكبار والإجلال ؛ وأن سفسطته كان فيها من المعارضة والمعاندة

ما يمكنها من الوقوف فى وجه الأحكام الحقة المعترف بها من الناس »[٣٢] .
ويصدق زوما — تشين هــذه القصة ، ولـكن بعض المؤرخين الصينيين يرفضونها[٣٣] ؛ ونحن نرجو ألا تـكون صحيحة .

وأشهر هؤلاء المتمردين العقليين هو تنج شى الذى أعدمه دوق چنج فى شباب كنفوشيوس ، ويقول كتاب ليه — دزه : إن تنج هذا كان « يعلم النظريات القائلة إن الحق والباطل أمران نسبيان ، ويؤيد هذه الآراء بحجج لا آخر لها »[٣٤] . واتهمه أعداؤه بأنه لم يكن يستنكف أن يثبت اليوم رأياً ويثبت عكسه فى غد ، إذا ما نال على عمله هذا ما يرتضيه من الأجر ؛ وكان يعرض خدماته على من لهم قضايا فى المحاكم ، ولا يرى ما يعوقه عن تقديمها لمن يطلبها من الناس . . ويروى عنه أحد أعدائه من المؤرخين الصينيين هذه القصة الطريفة :

غرق رجل موسر من الولاية التى كان يقيم فيها تنج فى نهر واى ، وأخرج رجل جثته من الماء ، وطلب إلى أسرة القتيل مبلغاً كبيراً من المال نظير إخراجها من النهر . وذهبت أسرة القتيل إلى تنج تستشيره فى الأمر ، فأجابها السوفسطائى بقوله : « تريثوا فلن تؤدى المال المطلوب أسرة غير أسرتكم » ، وعملت أسرة القتيل بهذه النصيحة . وقلق الرجل الذى كانت الجثة فى حوزته فجاء هو أيضاً إلى تنج شى يستنصحه . فنصحه السوفسطائى بما نصح به أهل القتيل إذ قال له : « تريث ؛ فإنهم لن يحصلوا على الجثة إلا منك »[٣٥]

ووضع تنج شى قانوناً للعقوبات تبيّن أنه أرقى مما تطبقه حكومة چنج . ولما ضاق رئيس الوزراء ذرعاً بالنشرات التى كان تنج يحمل فيها على سياسته حرم إلصاقها فى الأماكن العامة ، فما كان من تنج إلا أن عمد إلى توزيعها على الناس بنفسه ، فلما حرم الوزير توزيع النشرات أخذ تنج يهربها إلى القراء مخبوءة بين أشياء أخرى ، فلما أعيت الحكومة الحيل أمرت بقطع رأسه[٣٦] .

٦ — المعلم القديم

لو — دزه — «الدّو» — رجال الفكر فى الحكومة — سخف القوانين — مدينة فاضلة على غرار مدينة روسو وقانون أخلاقى على غرار القانون المسيحى — صورة الرجل الحكيم — التقاء لو — دزه وكنفوشيوس

كان لو — دزه، أعظم فلاسفة الصين قبل كنفوشيوس، أكثر حكمة من تنج شى؛ فقد كان يعرف حكمة الصمت، وما من شك فى أنه عمر طويلا وإن لم نكن واثقين من أنه عاش حقاً ويحدثنا المؤرخ الصينى زوماتشين أن لو — دزه عافت نفسه سفالة السياسيين، ومل عمله فى أمانة مكتبة چو الملكية، فاعتزم أن يغادر الصين ليبحث له عن ملجأ بعيد منعزل فى الريف. «فلما أن وصل إلى حدود البلاد قال له الحارس ين شى: إنك إذن تنشد العزلة، وأنا أرجوك أن تكتب لى كتاباً. فكتب له لو — دزه كتاباً من جزأين فى الدّو و الدّى يشتمل على خمسة آلاف كلمة. ولما أن أتمه اختفى ولم يعلم أحد أين مات»[٣٧].

لكن الروايات والأقاصيص، التى لا تخفى عليها خافية، تقول إنه عاش سبعة وثمانين عاما. ولم يبق لنا منه إلا اسمه وكتابه وقد لا يكون هذا أو ذاك له.

فأما لو — دزه، فوصف معناه «المعلم القديم» وأما اسمه الحقيقى فهو، كما تقول الرواية، لى — أى البرقوقة.

والكتاب الذى يعزى إليه مشكوك فيه شكًّا أثار كثيراً من الجدل العلمى حول أصله(*) ولكن الباحثين جميعاً متفقون على أن الدو — ده — چنج — أي «كتاب الطريقة والفضيلة» — هو أهم النصوص الخاصة بالفلسفة الدّوية التى

(*) ويرى الأستاذ چيلز Giles أنه كتاب مزور ألف بعد عام ٢٠٠ ب. م. وقد اختلسه مؤلفه من هان فى[٣٨] الناقد وكاتب المقالات. أما الدكتور لج Dr Legge فيرى أن تكرار الإشارة إلى لو (وتسميته لتوثان) فى أقوال چوانج — دزه وأقوال زوماتشين يدل على أن الصينيين ظلوا على الدوام يعتقدون صحة نسبة الدو — دى — چج إلى مؤلفه.

يقول العلماء الصينيون إنها وجدت قبل لو — دزه بزمن طويل ، والتي كان لها من بعده أنصار من الطراز الأول ، والتي صارت فيما بعد ديناً تعتنقه أقلية كبيرة من الصينيين من أيامه إلى وقتنا هذا ، وجملة القول أن مؤلف الدو — ده — چنج مسألة ذات أهمية ثانوية ، وأما الآراء التي احتواها الكتاب فمن أبدع ما كتب في تاريخ الفكر الإنساني .

ومعنى لفظ الدّو هو الطريقة : وهي أحياناً طريقة الطبيعة ، وأحياناً الطريقة الدّوية للحياة الحكيمة . أما المعنى الحرفي لهذا اللفظ فهو الطريق . وهو في الأصل طريقة للتفكير أو للامتناع عن التفكير ، وذلك لأن الدويين يرون أن التفكير أمر عارض سطحي لا خير فيه إلا للجدل والمحاجة ، يضر الحياة أكثر مما ينفعها . أما « الطريقة » فيمكن الوصول إليها بنبذ العقل وجميع مشاغله ، وبالالتجاء إلى حياة العزلة والتقشف والتأمل الهادئ في الطبيعة . وليس العلم في رأي صاحب الكتاب فضيلة ، بل إن السفلة قد زاد عددهم من يوم أن انتشر العلم . وليس العلم هو الحكمة ، ذلك أنه لا شيء أبعد عن الرجل الحكيم من « صاحب العقل » . وشر أنواع الحكومات التي يمكن تصورها حكومة الفلاسفة ؛ ذلك أنهم يقحمون النظريات في كل نظام طبيعي ؛ وأكبر دليل على عجزهم عن العمل هو قدرتهم على إلقاء الخطب والإكثار من الآراء ، وفي ذلك يقول الكتاب :

إن المهرة لا يجادلون ؛ وأصحاب الجدل عطل من المهارة ... وإذا ما نبذنا المعارف نجونا من المتاعب .. والحكيم يبقى الناس على الدوام بلا علم ولا شهوة ، وإذا وجد من لهم علم منعهم من الإقدام على العمل ... وإن الأقدمين الذين أظهروا براعتهم في العمل بما في الدو لم يفعلوا ما فعلوه لينيروا عقول الناس ، بل ليجعلوهم سذجاً جهلاء ... والصعوبة التي يواجهها الحكام إنما تنشأ من كثرة ما عند الناس من العلم ، ومن يحاول حكم دولة من الدول بعلمه وحكمته يشكل

بها ويفسد شئونها ، أما الذى لا يفعل هذا فهو نعمة لها وبركة[٤٠]

وإنما كان صاحب الفكر خطراً على الدولة لأنه لا يفكر إلا فى الأنظمة والقوانين ؛ فهو يرغب فى إقامة مجتمع على قواعد هندسية ، ولا يدرك أن أنظمته إنما تقضى على ما يتمتع به المجتمع من حرية حيوية ، وما فى أجزائه من نشاط وقوة . أما الرجل البسيط الذى يعرف من تجاربه ما فى العمل الذى يتصوره ويقوم به بكامل حريته من لذة ، وما ينتجه من ثمرة ، فهو أقل من العالم خطراً على الأمة إذا تولى تدبير أمورها ، لأنه لا يحتاج إلى من يدله على أن القانون شديد الخطر عليها ، وأنه قد يضرها أكثر مما ينفعها[٤١] . فهذا الرجل لا يضع للناس من الأنظمة إلا أقل قدر مستطاع ، وإذا تولى قيادة الأمة ابتعد بها عن جميع أفانين الخداع والتعقيد ، وقادها نحو البساطة العادية التى تسير فيها الحياة سيراً حكيما على النهج الطبيعى الحكيم الرتيب الخالى من التفكير ، وحتى الكتابة نفسها يهمل أمرها فى هذا النمط من الحكم لأنها أداة غير طبيعية تهدف إلى الشر . فإذا تحررت غرائز الناس الاقتصادية التلقائية التى تحركها شهوة الطعام والحب من القيود التى تفرضها الحكومات ، دفعت عجلة الحياة فى مسيرها الطبيعى الصحيح . وفى هذه الحال تقل المخترعات التى لا تفيد إلا فى زيادة ثراء الأغنياء وقوة الأقوياء ؛ وتمحى الكتب والقوانين والصناعات ولا تبقى إلا التجارة القروية .

«إن كثرة النواهى والمحرمات فى المملكة تزيد من فقر الأهلين . وكلما زاد عدد الأدوات التى تضاعف من كسبهم زاد نظام الدولة والعشيرة اضطراباً ، وكلما زاد ما يجيده الناس من أعمال الختل والحذق زاد عدد ما يلجئون إليه من حيل غريبة وكلما كثرت الشرائع والقوانين كثر عدد اللصوص وقطاع الطرق ؛ ولهذا قال أحد الحكماء : لن أفعل شيئاً ، فيتبدل الناس من تلقاء أنفسهم ، وسأولع بأن أبقى ساكناً فينصلح الناس من تلقاء أنفسهم ، ولن أشغل بالى بأمور الناس فيثرى الناس من تلقاء أنفسهم ؛ ولن أظهر شيئاً من المطامع فيصل الناس من

تلقاء أنفسهم إلى ما كانوا عليه من سذاجة بدائية ...

وسأنظم الدولة الصغيرة القليلة السكان بحيث إذا وجد فيها أفراد للواحد منهم من الكفايات ما لعشرة رجال أو مائة رجل فلن يكون لهؤلاء الأفراد عمل؛ وسأجعل الناس فيها، وإن نظروا إلى الموت على أنه شيء محزن يؤسف له، لا يخرجون منها (لينجوا بأنفسهم منه)؛ ومع أن لهم سفناً وعربات فإنهم لا يرون ما يدعو إلى ركوبها؛ ومع أن لهم ثياباً منتفخة وأسلحة حادة، فإنهم لا يجدون ما يدعو إلى لبس الأولى أو استخدام الثانية، وسأجعل الناس يعودون إلى استخدام الحبال المعقودة(*).

وسيرون أن طعامهم (الخشن) وملابسهم (البسيطة) جميلة، ومساكنهم (الحقيرة) أمكنة للراحة، وأساليبهم العادية المألوفة مصادر للذة والمتعة، وإذا كانت هناك دولة مجاورة قريبة منا نراها بأعيننا وتصل إلى آذاننا منها نقنقة الدجاج ونباح الكلاب، فإني لن أجعل للناس وإن طال عمرهم صلة بها إلى يوم مماتهم»[٤٢].

تُرى ما هي هذه الطبيعة التي يرغب لَوْ — دزه، في أن يتخذها مرشداً له وهادياً؟ إن هذا المعلم القديم يفرق بين الطبيعة والحضارة تفريقاً محدداً واضح المعالم، كما فعل روسو من بعده في عباراته الطنانة الرنانة التي يطلق عليها الناس اسم «التفكير الحديث»؛ فالطبيعة في نظره هي النشاط التلقائي، وانسياب الحوادث العادية المألوفة، وهي النظام العظيم الذي تتبعه الفصول وتتبعه السماء؛ وهي الدَّو أو الطريقة المثلة المجسمة في كل مجرى وكل صخرة وكل نجم؛ وهي قانون الأشياء العادل الذي لا يحفل بالأشخاص، ولكنه مع ذلك قانون معقول يجب أن يخضع له قانون السلوك إذا أراد الناس أن يعيشوا في حكمة وسلام. وقانون الأشياء هذا هو الدَّو أو طريقة السكون كما أن قانون السلوك هو الدَّو أو طريقة الحياة. ويرى

(*) طريقة في نقل الأفكار سابقة على الكتابة. ولفظ أجعل هنا بعيد بعض البعد عن الأسلوب الوذي.

لَوْ — دزه ، أن الدَّوين فى واقع الأمر دو واحد ، وأن الحياة فى تناغمها الأساسى السليم ليست إلا جزءاً من تناغم الـكون . وفى هذا الدَّو الـكونى تتوحد جميع قوانين الطبيعة وتـكون مادة الحقائق كلها التى يقول بها اسپنوزا ؛ وفيه تجد كل الصور الطبيعية على اختلاف أنواعها مكانها الصحيح ، وتجتمع كل المظاهر التى تبدو للعين مختلفة متناقضة ، وهو الحقيقة المطلقة التى تتجمع فيها كل الخصائص والمضلات لتتكون منها وحدة هيجل Hegel الشاملة »(٤٣)

ويقول لَوْ إن الطبيعة قد جعلت حياة الناس فى الأيام الخالية بسيطة آمنة ، فكان العالم كله هنيئاً سعيداً . ثم حصل الناس «المعرفة» ففقدوا الحياة بالمخترعات وخسروا كل طهارتهم الذهنية والخلقية ، وانتقلوا من الحقول إلى المدن ، وشرعوا يؤلفون الـكتب ، فنشأ من ذلك كل ما أصاب الناس من شقاء ، وجرت من أجل ذلك دموع الفلاسفة . فالعاقل إذن من يبتعد عن هذا التعقيد الحضرى وهذا التيه المفسد الموهن تيه القوانين والحضارة ، ويختفى بين أحضان الطبيعة ، بعيداً عن المدن والـكتب ، والموظفين المرتشين . والمصلحين المفترين . وسرّ الحـكمة كلها وسر القناعة الهادئة ، وهى وحدها التى يجد فيها الإنسان السعادة الأبدية ، هو الطاعة العمياء لقوانين الطبيعة ، ونبذ جميع أساليب الخداع وأفانين العقل ، وقبول جميع أوامر الطبيعة الصادرة من الغرائز ، والشعور فى ثقة واطمئنان ، والجرى على سنن الطبيعة الصامتة وتقليدها فى تواضع .

ولعلنا لا نجد فى الأدب كله فقرة أكثر انطباقاً على العقل والحـكمة من الفقرة الآتية :

إن كل ما فى الطبيعة من أشياء تعمل وهى صامتة ، وهى توجد وليس فى حوزتها شىء ، تؤدى واجبها دون أن تكون لها مطالب ، وكل الأشياء على السواء تعمل عملها ثم تراها تسكن وتخمد ، وإذا ما ترعرعت وازدهرت عاد كل منها

إلى أصله ، وعودة الأشياء إلى أصولها معناها راحتها وأداؤها ما قدر لها أن تؤديه . وعودتها هذه قانون أزلى ، ومعرفة هذا القانون هى الحكمة[٤٤] .

والجمود الذى هو نوع من التعطل الفلسفى وامتناع عن التدخل فى سير الأشياء الطبيعى هو ما يمتاز به الحكيم فى جميع مناحى الحياة ، فإذا كانت الدولة مضطربة مختلة النظام نخير ما يُفعل بها ألا يحاول الإنسان إصلاح أمورها ، بل أن يجمل حياته نفسها أداء منظما لواجبه ، وإذا ما لاقى الإنسان مقاومة فأحكم السبل ألا يكافح أو يقاتل أو يحارب بل أن يتروى فى سكون ، وأن يكسب ما يريد أن يكسبه ، إذا كان لا بد من الكسب ، بالخضوع والصبر ؛ ذلك أن المرء ينال من النصر بالسكون أكثر مما ينال بالعمل ، وفى هذا يحدثنا لو — دزه حديثا لا يكاد يختلف فى لهجته عن حديث المسيح !

« إذا لم تقاتل الناس فإن أحداً على ظهر الأرض لن يستطيع أن يقاتلك ... قابل الإساءة الإحسان . أنا خَيِّر للأخيار ، وخَيِّر أيضاً لغير الأخيار ؛ وبذلك يصير (الناس جميعاً) أخياراً ؛ وأنا مخلص للمخلصين ، ومخلص أيضاً لغير المخلصين ؛ وبذلك يصير (الناس جميعاً) مخلصين . . . وألين الأشياء فى العالم تصدم أصلبها وتتغلب عليها ... وليس فى العالم شىء ألين أو أضعف من الماء ، ولكن لا شىء أقوى من الماء فى مغالبة الأشياء الصلبة القوية[٤٥](*) .

وتبلغ هذه الآراء غايتها فى الصورة التى يتخيلها « لو » للرجل الحكيم . وقبل أن نرسم للقارئ هذه الصورة نقول إن من أخص خصائص المفكرين الصينيين أنهم لا يتحدثون عن القديسين ، بل يتحدثون عن الحكماء ، وأنهم

(*) ويضيف إلى ذلك فى شهادة طائشة . « إن الأنثى تغلب الذكر على الدوام بسكونها »[٤٦] .

لا يتحدثون عن الصلاح بقدر ما يتحدثون عن الحكمة . فليس الرجل المثالى فى نظر الصينيين هو التقى العابد ، بل هو صاحب العقل الناضج الهادئ ، الذى يعيش عيشة البساطة والسكون وإن كان خليقاً بأن يشغل مكاناً سامياً فى العالم . ذلك أن السكون هو بداية الحكمة ، والحكيم لا يتكلم حتى على الدوّ والحكمة ، لأن الحكمة لا تنقل إلا بالقدوة والتجربة لا بالألفاظ ؛ والذى يعرف (الطريقة) لا يتحدث عنها ؛ والذى يتحدث عنها لا يعرفها ؛ والذى (يعرفها) يقفل فاه ويسد أبواب خياشيمه »[٤٧] ، والحكيم شيمته التواضع ، لأن الإنسان متى بلغ الخمسين من عمره[*] فقد آن له أن يدرك أن المعرفة شيء نسبي ، وأن الحكمة شيء ضعيف سهل العطب ؛ وإذا عرف الحكيم أكثر مما يعرف غيره من الناس حاول أن يخفى ما يعرفه « فهو يحاول أن يقلل من سناه ولألائه ويوائم بين سناه وقتام (غيره)[٤٩] ؛ وهو يتفق مع السذج أكثر مما يتفق مع العلماء ، ولا يألم من غريزة المعارضة التى هى غريزة طبيعية فى الأحداث المبتدئين . وهو لا يعبأ بالثروة أو السلطان ، بل يُخضع شهواته إلى الحد الأدنى الذى يكاد يتفق مع العقيدة البوذية :

«ليس لشيء عندى قيمة ، وأشتهى أن يخضع قلبي خضوعاً تاماً ، وأن يفرغ حتى لا يبقى فيه شيء قط . . . يجب أن يبلغ الفراغ أقصى درجاته ، وأن يحاط السكون بقوة لا تمل ... ومن كانت هذه صفاته لا يمكن أن يعامل بجفاء أو فى غير كلفة . وهو أكبر من أن يتأثر بالمكاسب أو الأذى وبالنبل أو الانحطاط وهو أنبل إنسان تحت قبة السماء »[٥٠] .

(*) يعتقد الصينيون أن الحكيم تنضج قواه حوالى الخمسين من عمره ، وأنه يعيش فى هدوء منطوياً على حكمته مائة عام كاملة[٤٨] .

ولسنا نرى حاجة لبيان ما فى هذه الآراء من اتفاق مع آراء چان چاك روسو وحسبنا أن نقول إن الرجلين قد صُبَّا فى قالب واحد مهما يكن بُعد ما بينهما من الزمن ، وإن فلسفتهما من نوع الفلسفة التى تظهر وتختفى ثم تعود إلى الظهور فى فترات دورية ؛ ذلك بأن الناس فى كل جيل يملّون ما فى حياة المدن من كفاح وقسوة وتعقيد وتسابق ، فيكتبون عن مباهج الحياة الريفية الرتيبة كتابة تستند إلى الخيال أكثر مما تستند إلى العلم بحقائق الأمور . وما من شك فى أن المرء لا بد له من خبرة سابقة طويلة بحياة المدن إذا شاء أن يكتب شعراً عن حياة الريف « والطبيعة » لفظ طيِّع سهل على لسان كل باحث فى الأخلاق أو الدين ؛ وهو لا يوائم علم دارون ولا أخلاقية نتشة أكثر مما يوائم فلسفة « لو — دزه » والمسيح المتعقلة الحلوة .

ذلك أن الإنسان إذا ما سار على سنن الطبيعة أدى به هذا إلى قتل أعدائه وأكل لحومهم لا إلى ممارسة الفلسفة ، وقلَّ أن يكون وضيعاً ذليلاً ، وأقلّ من هذا أن يكون هادئاً ساكناً . بل إن فلح الأرض — وهو العمل الشاق المؤلم — لا يوائم قط ذلك الجنس من الناس الذى اعتاد الصيد والقتل ؛ ولهذا كانت الزراعة من الأعمال « غير الطبيعية » مثلها فى هذا كمثل الصناعة سواء بسواء .

على أن فى هذه الفلسفة رغم هذا كله شيئاً من السلوى وراحة البال . وأكبر ظننا أننا نحن أيضاً حين تبدأ نيران عواطفنا فى الخمود نرى فيها غيرَ قليل من الحكمة ؛ ونرى فيها السلم المريح الذى ينبعث من الجبال غير المزدحمة ومن الحقول الرحبة . إن الحياة تتأرجح بين فلتير وروسو ، وبين كنفوشيوس ولو — دزه ، وبين سقراط والمسيح .

وإذا ما استقرت كل فكرة زمناً ما فى عقولنا ، ودافعنا عنها دفاعاً ليس فيه شىء من البسالة أو من الحكمة ، مللنا نحن أيضاً تلك المعركة وتركنا إلى الشباب ما كان قد تجمّع لدينا من مُثل عُليا تتناقص عديدها . فإذا ما حدث هذا لجأنا إلى

الغابات مع چان چاك ومع لو — دزه وأمثالها ؛ وصادقنا الحيوان ؛ وتحدثنا ونحن أكبر رضاً واطمئناناً من مكيڤلى إلى عقول الزراع السذج ، وتركنا العالم ينضح بالشرور ، ولم نفكر قط فى إصلاحه . ولعلنا وقتئذ نحرق وراءنا كل كتاب فيه إلا كتاباً واحداً ، ولعلنا نجد خلاصة الحكمة كلها فى الدّو — دى — چنج .

وفى وسعنا أن نتصور ما كان لهذه الفلسفة فى نفس كنفوشيوس من أثر مؤلم محنق . فقد جاء هذا الفيلسوف فى سن الرابعة والثلاثين ، وهى السن التى لا يكتمل فيها نضوج الذهن ، إلى لويانج حاضرة چو ليستشير المعلم الكبير فى بعض أمور دقيقة ذات صلة بالتاريخ(*) ويقال إن لو — دزه أجابه إجابة فظة غامضة قصيرة :

« إن الذين تسأل عنهم قد استحالوا هم وعظامهم تراباً ، ولم يبق إلا ألفاظهم ، وإذا ما حانت ساعة الرجل العظيم قام من فوره وتولى القيادة ، أما قبل أن تحين هذه الساعة فإن العقبات تقام فى سبيل كل ما يحاوله . ولقد سمعت أن التاجر الموفق يحرص على إخفاء ثروته ، ويعمل عمل من لا يملك شيئاً من حطام الدنيا — وأن الرجل العظيم بسيط فى أخلاقه ومظهره رغم ما يقوم به من جلائل الأعمال ، فتخلص من كبريائك ومطامعك الكثيرة ، وتصنعك وآمالك المفرطة البعيدة . إن هذه كلها لا ترفع قط من أخلاقك . وهذا ما أشير به عليك »[٦١] .

ويقول المؤرخ الصينى الذى يروى هذه القصة إن كنفوشيوس أحسّ من فوره بسداد هذه النصيحة ، ولم ير فى هذه الألفاظ ما يسىء إليه ، بل إنه رأى فيها عكس هذا ، وقال لتلاميذه بعد أن عاد من عند الفيلسوف المحتضر :

« إنى أعرف كيف يطير الطير ، ويسبّح السمك ، ويجرى الحيوان ؛

(*) ويروى زوما تشين أعظم المؤرخين الصينيين هذه القصة ، ولكنها قد تكون حديث خرافة . وإنا ليدهشنا حقاً أن نجد لو — دزة فى أكثر مدن الصين حركة فى السابعة والثمانين من عمره .

ولكن الذى يجرى على الأرض يمكن اقتناصه ، والذى يسبح فى الماء يمكن صيده ، والذى يطير فى الجو يمكن إصابته بالسهام . غير أن هنالك تنيناً مهولاً — ولست أستطيع أن أقول كيف يركب الريح ويخترق بها السحاب ويعلو فى أجواز الفضاء . لقد قابلت اليوم لو — دزه ، ولست أستطيع أن أجد له مثيلا غير التنين »(٦٢) . ثم خرج المعلم الجديد ليؤدى رسالته ، وليكون أعظم فلاسفة التاريخ أثراً .

الفصل الثانى

كنفوشيوس

١ — الحكيم يبحث عن دولة

مولده وشبابه – زواجه وطلاق زوجته – تلاميذه وطرائقه – مظهره وأخلاقه – السيدة والنمر – تعريف الحكومة الصالحة – كنفوشيوس فى منصبه – سنو التحوال – سلوى الشيخوخة

ولد كونج — فو — دْزه أو كونج المعلم كما كان تلاميذ كونج — تشيو يسمونه فى عام ٥٥١ ق . م فى مدينة تشو—فو إحدى البلاد التى كانت تكوِّن وقتئذ مملكة لو ، والتى تكون الآن ولاية شان تونج .

وتصف الأقاصيص الصينية ، وهى التى لا تضارعها أقاصيص أخرى فى خصب خيالها ، كيف أعلنت الأشباح إلى أمه الشابة مولده غير الشرعى[٦٣] ، وكيف كانت الهولات التى تحرسها والأرواح الأناث تعطر لها الهواء وهى تلده فى أحد الكهوف . وتقول تلك الأقاصيص إنه كان له ظهر تنين ، وشفتا ثور ، وفم فى سعة البحر[٦٤] ، وإنه ولد من أسرة هى أقدم الأسر الباقية على قيد الحياة إلى الآن لأنه (كما يؤكد علماء الأنساب الصينيون) من نسل الإمبراطور العظيم هوانج — دى ، وإن له أحفاداً كثيرين ، وإن نسله لم ينقطع إلى وقتنا هذا ولقد بلغ عدد من تناسل منهم منذ مائة عام أحد عشر ألفاً من الذكور ، ولا تزال البلدة التى ولد فيها حتى هذا اليوم لا يعمرها إلى نسله — أو بعبارة أدق إلا نسل ابنه الوحيد ؛ ومن نسله وزير المالية فى الحكومة الصينية القائمة للآن فى نانكنج[٦٥](*).

(*) وتنطق أيضاً « نانچنج » . ويقصد بقوله إلى وقتنا هذا وقت أن كتب هذا الكتاب

وكان والد كونج فى السبعين من عمره حين ولد له ولده[٦٦] ، ومات حين بلغ ابنه سن الثالثة . وكان كنفوشيوس يعمل بعد الفراغ من المدرسة ليساعد على إعالة والدته ، ولعله قد تعود فى طفولته تلك الرزانة التى هى من خصائص كبار السن ، والتى لازمته فى كل خطوة خطاها طوال حياته . لكنه مع هذا وجد متسعاً من الوقت يحذق فيه الرماية والموسيقى ؛ وبلغ من شدة ولعه بالموسيقى أنه كان يستمع مرة إلى لحن مطرب ، فتأثر به تأثراً حمله على أن يمتنع عن أكل اللحوم ، وظل بعدئذ ثلاثة أشهر لا يذوق فيها اللحم أبداً[٦٧] . ولم يكن يتفق اتفاقاً تاماً مع نتشة فى أن ثمة شيئاً من التناقض بين الفلسفة والزواج ، ذلك أنه تزوج فى التاسعة عشرة من عمره ، ولكنه طلق زوجته وهو فى الثالثة والعشرين ، ويلوح أنه لم يتزوج بعدها أبداً .

ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره بدأ يشتغل بالتعليم ، واتخذ داره مدرسة له ، وكان يتقاضى من تلاميذه ما يستطيعون أداءه من الرسوم مهما كانت قليلة وكانت المواد التى يشملها برنامجه ثلاثاً : التاريخ والشعر وآداب اللياقة . ومن أقواله : « إن أخلاق الرجل تكونها القصائد وتنميها المراسم » (أى آداب الحفلات والمجاملات) « وتعطرها الموسيقى »[٦٨] .

وكان تعليمه كتعليم سقراط شفهياً لا يلجأ فيه إلى الكتابة ، ولهذا فإن أكثر ما نعرفه من أخباره قد وصل إلينا عن طريق أتباعه ومريديه ، وذلك مصدر لا يوثق به . وقد ترك إلى الفلاسفة مثلا قل أن يعبثوا به — وهو ألا يهاجموا قط غيرهم من المفكرين ، وألا يضيعوا وقتهم فى دحض حججهم . ولم يكن يعلم طريقة من طرائق المنطق الدقيق ، ولكنه كان يشحذ عقول تلاميذه بأن يعرض بأخطائهم فى رفق ويطلب إليهم شدة اليقظة العقلية . ومن أقواله فى هذا المعنى : « إذا لم يكن من عادة الشخص أن يقول : ماذا أرى فى هذا ؟ فإنى لا أستطيع أن أفعل له شيئاً »[٦٩] . « وإنى لا أفتح باب الحق لمن لا يحرص

على معرفته ، ولا أعين من لا يعنى بالإفصاح عما يكنه فى صدره . وإذا ما عرضت ركناً من موضوع ما على إنسان ، ولم يستطع بما عرضته عليه أن يعرف الثلاثة الأركان الباقية فإنى لا أعيد عليه درسى »[٧٠] ، ولم يكن يشك فى أن صنفين اثنين من الناس هما وحدهما اللذان يستطيعان أن يفيدا من تعاليمه وهما أحكم الحكماء وأغبى الأغبياء ، وأن لا أحد يستطيع أن يدرس الفلسفة الإنسانية بأمانة وإخلاص دون أن تصلح دراستها من خلقه وعقله . « وليس من السهل أن نجد إنساناً واصل الدرس ثلاث سنين دون أن يصبح إنساناً صالحاً »[٧١] .

ولم يكن له فى بادئ الأمر إلا عدد قليل من التلاميذ ، ولكن سرعان ما تواترت الإشاعات بأن وراء شفتى الثور والفم الواسع كالبحر قلباً رقيقاً وعقلا يفيض بالعلم والحكمة ، فالتف الناس حوله حتى استطاع فى آخر أيام حياته أن يفخر بأنه قد تخرج على يديه ثلاثة آلاف شاب غادروا منزله ليشغلوا مراكز خطيرة فى العالم .

وكان بعض الطلبة — وقد بلغ عددهم فى وقت من الأوقات سبعين طالبا — يعيشون معه كما يعيش الطلبة الهنود المبتدئون مع مدرسيهم (الجورو) ؛ ونشأت بين المدرس وتلاميذه صلات ود وثيقة دفعت هؤلاء التلاميذ فى بعض الأحيان إلى الاحتجاج على أستاذهم حين رأوه يعرض نفسه للخطر أو اسمه للمهانة . وكان رغم شدته عليهم يحب بعضهم أكثر مما يحب ابنه ، ولما مات هُوِى بكى عليه حتى قرحت دموعه مآقيه . وسأله دوق جاى يوماً من الأيام أى تلاميذه أحبهم إلى العلم فأجابه : « لقد كان أحبهم إلى العلم ين هوى ، لقد كان يحب أن يتعلم ... ولم أسمع بعد عن إنسان يحب أن يتعلم (كما كان يحب هوى) ... لم يقدم لى هوى معونة ، ولم أقل قط شيئاً لم يبتهج له . . . وكان إذا غضب كظم غيظه ؛ وإذا أخطأ مرة لم يعد إلى خطئه . ومما يؤسف له أنه كان قصير الأجل فمات وليس له فى هذا الوقت (نظير) »[٧٢] . وكان الطلبة الكسالى يتحاشون

لقاءه فإذا لقيهم قسا عليهم ، وذلك لأنه لم يكن يتورع عن أن يعلم الكسول بضربة من عكازته ويطرده من حضرته دون أن تأخذه به رأفة . ومن أقواله : « ما أشقى الرجل الذى يملأ بطنه بالطعام طوال اليوم ، دون أن يجهد عقله فى شيء . . . لا يتواضع فى شبابه التواضع الخليق بالأحداث ، ولا يفعل فى رجولته شيئاً خليقاً بأن يأخذه عنه غيره ، ثم يعيش إلى أرذل العمر — إن هذا الإنسان وباء »(٧٣) .

وما من شك فى أنه كان يبدو غريب المنظر وهو واقف فى حجرته أو فى الطريق العام ، يعلم مريديه التاريخ والشعر والآداب العامة والفلسفة ، ولا يقل استعداده وهو فى الطريق عن استعداده وهو فى حجرته . وتمثله الصور التى رسمها له المصورون الصينيون فى آخر سنى حياته رجلا ذا رأس أصلع لا تكاد تنمو عليه شعرة ، قد تجعد وتعقد لكثرة ما مر به من التجارب ، ووجه ينم عن الجد والرهبة ولا يُشعر قط بما يصدر عن الرجل فى بعض الأحيان من فكاهة ، وما ينطوى عليه قلبه من رقة ، وإحساس بالجمال مرهف يذكر المرء بأنه أمام إنسان من الآدميين رغم ما يتصف به من كمال لا يكاد يطاق ، وقد وصفه فى أيام كهولته الأولى مدرس له كان ممن يعلمونه الموسيقى فقال :

« لقد تبينت فى چونج — نى كثيراً من دلائل الحكمة ، فهو أجبه واسع العين ، لا يكاد يمترق فى هذين الوصفين عن هوانج — دى . وهو طويل الذراعين ذو ظهر شبيه بظهر السلحفاة ، ويبلغ طول قامته تسع أقدام (صينية) وست بوصات . . . وإذا تكلم أثنى على الملوك الأقدمين ، وهو يسلك سبيل التواضع والمجاملة ؛ وما من موضوع إلا سمع به ، قوى الذاكرة لا ينسى مايسمع ؛ ذو علم بالأشياء لا يكاد ينفد . ألسنا نجد فيه حكيما ناشئاً ؟ »(٧٤) .

وتعزو إليه الأقاصيص « تسعاً وأربعين صفة عجيبة من صفات الجسم يمتاز بها عن غيره من الناس » . ولما فرقت بعض الحوادث بينه وبين مريديه فى أثناء

تجواله ، عرفوا مكانه على الفور من قصة قصها عليهم أحد المسافرين ، قال إنه التقى برجل بشع الخلقة « ذى منظر كئيب شبيه بمنظر الكلب الضال » . ولما أعيد هذا القول على مسامع كنفوشيوس ضحك منه كثيراً ولم يزد على أن قال : « عظيم ! عظيم ! »(٧٥) .

وكان كنفوشيوس معلماً من الطراز القديم يعتقد أن التنائى عن تلاميذه وعدم الاختلاط بهم ضروريان لنجاح التعليم . وكان شديد المراعاة للمراسم ، وكانت قواعد الآداب والمجاملة طعامه وشرابه ، وكان يبذل ما فى وسعه للحد من قوة الغرائز الشهوات وكبح جماحها بعقيدته المتزمتة الصارمة . ويلوح أنه كان يزكى نفسه فى بعض الأحيان . ويروى عنه أنه قال عن نفسه يوماً من الأيام قالة فيها بعض التواضـــع : « قد يوجد فى كَفر من عشر أسر رجل فى مثل نبلى وإخلاصى ، ولـكنه لن يكون مولعاً بالعلم مثلى »(٧٦) . وقال مرة أخرى : « قد أكون فى الأدب مساوياً لغيرى من الناس ، ولـكن (خُلق) الرجل الأعلى الذى لا يختلف قوله عن فعله هو ما لم أصل إليه بعد »(٧٧) « لو وجد من الأمراء من يولينى عملا لقمت فى اثنى عشر شهراً بأعمال جليلة ، ولبلغت (الحـكومة) درجة الـكمال فى ثلاث سنين »(٧٨) . على أننا نستطيع أن نقول بوجه عام إنه كان متواضعاً فى عظمته . ويؤكد لنا تلاميذه أن « المعلم كان مبرأ من أربعة عيوب : كان لا يجادل وفى عقله حكم سابق مقرر ، ولا يتحكم فى الناس ويفرض عليهم عقائده ، ولم يكن عنيداً أو أنانيا »(٧٩) . وكان يصف نفسه بأنه « ناقل غير منشئ »(٨٠) . وكان يدعى أن كل ما يفعله هو أن ينقل إلى الناس ما تعلّمه من الإمبراطورين العظيمين يُو وشون . وكان شديد الرغبة فى حسن السمعة والمناصب الرفيعة ، ولـكنه لم يكن يقبل أن يتراضى على شىء مشين ليحصل عليهما أو يستبقيهما . وكم من مرة رفض منصباً رفيعاً عرضه عليه رجال بدا له أن حكومتهم ظالمة . وكان مما نصح به تلاميذه أن من واجب الإنسان أن يقول :

« لست أبالى مطلقاً إذا لم أشغل منصباً كبيراً ، وإنما الذى أعنى به أن أجعل نفسى خليقاً بذلك المنصب الكبير . وليس يهمنى قط أن الناس لا يعرفوننى؛ ولكننى أعمل على أن أكون خليقاً بأن يعرفنى الناس »[٨١] .

وكان من بين تلاميذه أبناء هانج هى ، أحد وزراء دوق لو ، وقد وصل كنفوشيوس عن طريقهم إلى بلاط ملوك چو فى لو — يانج ، ولكنه ظل بعيداً بعض البعد عن موظفى البلاط ، وآثر على الاقتراب منهم زيارة الحكيم لو — دزه وهو على فراش الموت كما سبق القول . فلما عاد إلى لو وجدها مضطربة ممزقة الأوصال بما قام فيها من نزاع وشقاق ، فانتقل منها إلى ولاية تشى المجاورة لها ومعه طائفة من تلاميذه مخترقين فى طريقهم إليها مسالك جبلية وعرة مهجورة . ولشد ما كانت دهشتهم حين أبصروا فى هذه القفار عجوزاً تبكى بجوار أحد القبور . فأرسل إليها كنفوشيوس تسه — لو ، يسألها عن سبب بكائها وحزنها ، فأجابته قائلة : « إن والد زوجى قد فتك به نمر فى هذا المكان ، ثم ثنى النمر بزوجى ، وها هو ذا ولدى قد لاقى المصير نفسه » . ولما سألها كنفوشيوس عن سبب إصرارها على الإقامة فى هذا المكان الخطر ، أجابته قائلة : « ليس فى هذا المكان حكومة ظالمة » . فالتفت كنفوشيوس إلى طلابه وقال لهم : « أى أبنائى اذكروا قولها هذا ؛ إن الحكومة الظالمة أشد وحشية من النمر »[٨٢] .

وسئل كنفوشيوس بين يدى دوق تشى ، وسرّ الدوق من جوابه حين سأله عن ماهية الحكومة الصالحة : « توجد الحكومة الصالحة حيث يكون الأمير أميراً ، والوزير وزيراً ، والأب أباً والابن ابناً » ، وعرض عليه الدوق نظير تأييده إياه خراج مدينة لن — شيو ، ولكن كنفوشيوس رفض الهبة وأجابه بأنه لم يفعل شيئاً يستحق عليه هذا الجزاء . وأراد الدوق أن يحتفظ به فى بلاطه وأن يجعله مستشاراً له ، ولكن جان ينج كبير وزرائه أقنعه بالعدول عن رأيه وقال له : « إن هؤلاء العلماء رجال غير عمليين لا يستطاع تقليدهم ؛ وهم متغطرسون مغرورون

بآرائهم ، لا يقنعون بما يعطى لهم من مراكز متواضعة ... وللسيد كونج هذا من الخصائص ما يبلغ الألف عدًّا .:. ولو أردنا أن نلم بكل ما يعرفه عن مراسم الصعود والنزول لتطلب منا ذلك أجيالا طوالا »[٨٤]. ولم يثمر هذا اللقاء ثمرة ما ، وعاد كنفوشيوس على أثره إلى لو وظل يعلم تلاميذه فيها خمسة عشر عاما أخرى قبل أن يستدعى ليتولى منصباً عاماً فى الدولة .

وواتته الفرصة حين عيّن فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد كبير القضاة فى مدينة چونج — دو . وتقول الرواية الصينية إن المدينة فى أيامه قد اجتاحتها موجة جارفة من الشرف والأمانة ، فكان إذا سقط شىء فى الطريق بقى حيث هو أو أعيد إلى صاحبه[٨٥] . ولما رقاه الدوق دنج دوق لو إلى منصب نائب وزير الأشغال العامة شرع فى مسح أرض الدولة وأدخل إصلاحات جمة فى الشئون الزراعية ، ويقال إنه لما رقى بعدئذ وزيراً للجرائم كان مجرد وجوده فى هذا المنصب كافياً لقطع دابر الجريمة . وفى ذلك تقول السجلات الصينية : « لقد استحت الخيانة واستحى الفساد أن يطلاَّ برأسيهما واختفيا ، وأصبح الوفاء والإخلاص شيمة الرجال ، كما أصبح العفاف ودماثة الخلق شيمة النساء . وجاء الأجانب زرافات من الولايات الأخرى ، وأصبح كنفوشيوس معبود الشعب »[٨٦]

إن فى هذا الإطراء من المبالغة ما يجعله موضع الشك ؛ وسواء كان خليقاً به أو لم يكن فإنه كان أرقى من أن يعمر طويلا . وما من شك فى أن المجرمين قد يأتمرون بالمعلم الكبير ويدبرون المكائد للإيقاع به . ويقول المؤرخ الصينى : إن الولايات القريبة من « لو » دبّ فيها دبيب الحسد وخشيت على نفسها من قوة « لو » الناهضة . ودبّر وزير ماكر من وزراء تشى مكيدة ليفوق بها بين دوق « لو » وكنفوشيوس ، فأشار على دوق تشى بأن يبعث إلى تنج بسرب من حسان « الفتيات المغنيات » وبمائة وعشرين جواداً تفوق الفتيات جمالا..

وأسرت البنات والخيل قلب الدوق فغفل عن نصيحة كنفوشيوس (وكان قد علمه أن المبدأ الأول من مبادئ الحكم الصالح هو القدوة الصالحة)، فأعرض عن وزرائه وأهمل شئون الدولة إهمالا معيبا. وقال تزه —لو لكنفوشيوس: «أيها المعلم لقد آن لك أن ترحل». واستقال كنفوشيوس من منصبه وهو كاره، وغادر لو، وبدأ عهدَ تجوال وتشرد دام ثلاثة عشر عاما. وقال فيما بعد «إنه لم ير قط إنسانا يحب الفضيلة بقدر مايحب الجمال»[٨٧]. والحق أن من أغلاط الطبيعة التي لاتغتفر لها أن الفضيلة والجمال كثيراً مايأتيان منفصلين لا مجتمعين.

وأصبح المعلم وعدد قليل من مريديه المخلصين مغضوبا عليهم في وطنهم، فأخذوا ينتقلون من إقليم إلى إقليم، يلقون في بعضها مجاملة وترحابا، ويتعرضون في بعضها الآخر لضروب من الحرمان والأذى. وهاجمهم الرعاع مرتين، وكادوا في يوم من الأيام يموتون جوعا، وبرّح بهم ألم الجوع حتى شرع تزه — لو نفسه يتذمر ويقول إن حالهم لا تليق «بالإنسان الراقي». وعرض دوق وي على كنفوشيوس أن يوليه رياسة حكومته، ولكن كنفوشيوس رفض هذا العرض، لأنه لم تعجبه مبادئ الدوق[٨٨].

وبينما كانت هذه الفئة الصغيرة في يوم من الأيام تجوس خلال تشي إذ التقت بشيخين عافت نفسهما مفاسد ذلك العهد، فاعتزلا الشئون العامة كما اعتزلها لو — دزه، وآثرا عليها الحياة الزراعية البعيدة عن جلبة الحياة العامة. وعرف أحد الشيخين كنفوشيوس، ولام تزه — لو، على سيره في ركابه، وقال له: «إن الاضطراب يجتاح البلاد اجتياح السيل الجارف، ومن ذا الذي يستطيع أن يبدل لكم هذه الحال؟ أليس خيراً لكم أن تتبعوا أولئك الذين يعتزلون العالم كله، بدل أن تتبعوا ذلك الذي يخرج من ولاية إلى ولاية؟»[٨٩] وفكر كنفوشيوس في هذا اليوم طويلا ولكنه لم يفقد رجاءه في أن تتيح له ولاية من الولايات فرصة يتزعم فيها حركة الإصلاح والسلم.

ولما بلغ كنفوشيوس التاسعة والستين من عمره جلس دوق جيه آخر الأمر على عرش لو وأرسل ثلاثة من موظفيه إلى الفيلسوف يحملون إليه ما يليق من الهدايا بمقامه العظيم، ويدعونه أن يعود إلى موطنه، وقضى كنفوشيوس الأعوام الخمسة الباقية من حياته يعيش معيشة بسيطة معززاً مكرماً، وكثيراً ما كان يتردد عليه زعماء لو يستنصحونه، ولكنه أحسن كل الإحسان بأن قضى معظم وقته في عزلة أدبية منصرفا إلى أنسب الأعمال وأحبها إليه وهو نشر روائع الكتب الصينية وكتابة تاريخ الصينيين. ولما سأل دوق شي تزه — لو عن أستاذه ولم يجبه هذا عن سؤاله، وبلغ ذلك الخبر مسامع كنفوشيوس، قال له: « لِمَ لم تجبه بأنه ليس إلا رجلا ينسيه حرصه على طلب العلم الطعام والشراب، وتنسيه لذة (طلبه) أحزانه، وبأنه لا يدرك أن الشيخوخة مقبلة عليه »[٩٠] وكان يسلى نفسه في وحدته بالشعر والفلسفة، ويسره أن غرائزه تتفق وتتئذ مع عقله، ومن أقواله في ذلك الوقت: « لقد كنت في الخامسة عشرة من عمري مكباً على العلم، وفي الثلاثين وقفت ثابتاً لا أتزعزع، وفي سن الأربعين زالت عني شكوكي، وفي الخمسين من عمري عرفت أوامر السماء، وفي الستين كانت أذني عضواً طيعاً لتلقي الحقيقة، وفي السبعين كان في وسعي أن أطيع ما يهواه قلبي دون أن يؤدي بي ذلك إلى تنكب طريق الصواب والعدل »[٩١].

ومات كنفوشيوس في الثانية والسبعين من عمره، وسمعه بعضهم يوماً من الأيام يغني في الصباح الباكر تلك الأغنية الحزينة:

سيدك الجبل الشاهق دكا،

وتتحطم الكتلة القوية،

ويذبل الرجل الحكيم كما يذبل النبات.

ولما أقبل عليه تلميذه تزه — كونج قال له: « لن يقوم في البلاد ملك

ذكي أريب ؛ وليس في الإمبراطورية رجل يستطيع أن يتخذني معلماً له . لقد تصرم أجلي وحان يومي »[٩٢] .

ثم أوى إلى فراشه ومات بعد سبعة أيام من ذلك اليوم . وواراه تلاميذه التراب باحتفال مهيب جدير بما تنطوي عليه قلوبهم من حب له وإجلال ، وأحاطوا قبره بأكواخ لهم أقاموا فيها ثلاث سنين يبكونه كما يبكي الأبناء آباءهم . وبعد أن مضت هذه المدة غادروا جميعاً أكواخهم إلا تزه — كونج ، وكان حبه إياه يفوق حبهم جميعاً ، فبقي بجوار قبر أستاذه ثلاث سنين أخرى واجماً حزيناً تتشعبه الهموم[٩٣] .

٣ — الكتب التسعة

وترك كنفوشيوس وراءه خمسة مجلدات يلوح أنه كتبها أو أعدها للنشر بيده هو نفسه ، ولذلك أصبحت تعرف في الصين باسم « **المجلدات الخمسة** » أو « **كتب القانون الخمسة** » . وكان أول ما كتبه منها هو **اللي — جي** أو سجل المراسم ، لاعتقاده أن هذه القواعد القديمة من آداب اللياقة من الأسس الدقيقة التي لابد منها لتكوين الأخلاق ونضجها ، واستقرار النظام الاجتماعي والسلام .

ثم كتب بعدئذ ذيولا وتعليقات على كتاب **إلاي — منج** أو كتاب **التغيرات** ، وكان يرى أن هذا الكتاب خير ما أهدته الصين إلى ذلك الميدان الغامض ميدان علم ما وراء الطبيعة الذي كان جد حريص على ألا يلج بابه في فلسفته . ثم اختار ورتب **الشي — جنج** أو **كتاب الأناشيد** ليشرح فيه كنه الحياة البشرية ومبادئ الأخلاق الفاضلة . وكتب بعد ذلك **التشو — تشو** أو **حوليات الربيع والخريف** ، وقد سجل فيه تسجيلا موجزاً خالياً من التنميق أهم ما وقع من الأحداث في « لو » موطنه الأصلي . وكان خامس أعماله

الأدبية وأعظمها نفعاً أنه أراد أن يوحى إلى تلاميذه أشرف العواطف وأنبل الصفات لجمع فى الشو–منج أى كتاب التاريخ أهم وأرق ما وجده فى حكم الملوك الأولين من الحوادث أو الأقاصيص التى تسمو بها الأخـلاق وتشرف الطباع ، وذلك حين كانت الصين إمبراطورية موحدة إلى حد ما ، وحين كان زعماؤها ، كما يظن كنفوشيوس ، أبطالا يعملون فى غير أنانية لتمدين الشعب ورفع مستواه .

ولم يكن وهو يعمل فى هذه الـكتب يرى ان وظيفته هى وظيفة المؤرخ بل كان فيها معلماً ومهذباً للشباب ، ومن أجل هذا اختار عن قصد من أحداث الماضى ما رآه ملهماً لتلاميذه لا مؤنساً لهم .

فإذا ما عمدنا إلى هذه المجلدات لنستقى منها تاريخاً علميا نزيهاً لبلاد الصين فإنا بهذا العمل نظلم كنفوشيوس أشد الظلم . فقد أضاف إلى الحوادث الواقعية خطباً وقصصاً من عنده ، صب فيها أكثر ما يستطيع من الحض على الأخلاق الـكريمة والإعجاب بالحـكمة . وإذا كان قد جعل ماضى بلاده مثلا أعلى بين ماضى الشعوب ، فإنه لم يفعل أكثر مما نفعله نحن(*) بماضينا الذى لا يعدل ماضى الصين فى قدمه . وإذا كان رؤساء جمهوريتنا الأولون قد أضحوا حكماء وقديسين ، ولما يمض عليهم أكثر من قرن أو قرنين من الزمان ، فإنهم سيكونون بلا شك فى نظر المؤرخ الذى يُحَدِّث عنهم بعد ألف عام من هذه الأيام مثلاً عليا للفضيلة والـكمال شأنهم فى هذا شأن يَوْ وشون .

ويضيف الصينيون إلى هـذه المجلدات الخمسة أربع شوات أو « كتب » (كتب الفلاسفة) يتكوّن منها كلها « التسعة الـكتب القديمة » . وأول هذه الـكتب وأهمها جميعاً كتاب لون يو أو الأحاديث والمحاورات المعروف عند

(*) يريد الأمريكيين (المترجم)

قراء اللغة الإنجليزية باسم « مجموعة الشذرات » أى شذرات كنفوشيوس ، كما سماه « لج Legge » فى إحدى نزواته . وليست تلك الكتب مما خطه قلم المعلم الكبير ولكنها تسجل فى إيجاز ووضوح منقطعى النظير آراءه وأقواله كما يذكرها أتباعه . وقد جمعت كلها بعد بضع عشرات من السنين من وفاته ، ولعل الذين جمعوها هم مريدو مريديه[٩٤] ، وهى أقل ما يرتاب فيه من آرائه الفاسفية . وأكثر ما فى الكتب الصينية القديمة طرافة وأعظمها تهذيباً ماجاء فى الفقرتين الرابعة والخامسة[*] من الشو الثانى ، وهو المؤلف المعروف عند الصينيين باسم الداشوه أو التعليم الأكبر ويعزو جوشى الفيلسوف والناشر الكنفوشى هاتين الفقرتين إلى كنفوشيوس نفسه كما يعزو باقى الرسالة إلى دزنج — تسان أحد أتباعه الصغار السن . أما كايا — كويه العالم الصينى الذى عاش فى القرن الأول بعد الميلاد فيعزوهما إلى كونج چى حفيد كنفوشيوس ؛ على حين أن علماء اليوم المتشككين يجمعون على أن مؤلفهما غير معروف[٩٥] . والعلماء كلهم متفقون على أن حفيده هذا هو مؤلف كتاب جونج يونج أو عقيدة الوسط وهو الكتاب الفلسفى الثالث من كتب الصين . وآخر هذه الشوءات هو كتاب منشيس الذى سنتحدث عنه توًا . وهذا الكتاب هو خاتمة الآداب الصينية القديمة وإن لم يكن خاتمة العهد القديم للفكر الصينى . وسنرى فيما بعد أنه خرج على فلسفة كنفوشيوس ، التى تعدّ آية فى الجمود والمحافظة على القديم ، متمردون عليها وكفرة بها ذوو مشارب وآراء متعددة متباينة .

(*) وهما اللتان نقلناهما فيما بعد فى صفحتى ٥٤ ، ٥٥ من هذا الكتاب . (المترجم)

٣ — لا أدرية كنفوشيوس

هنامة فى المنطق — الفلاسفة والصبيان — دستور الحكمة

فلنحاول أن نكون منصفين فى حكمنا على هذه العقيدة . ولنقر بأنها ستكون نظرتنا إلى الحياة حين يجاوز الواحد منا الخمسين من عمره ، ومبلغ علمنا أنها قد تكون أكثر انطباقاً على مقتضيات العقل والحكمة من شعر شبابنا . وإذا كنا نحن ضالين وشباناً فإنها هى الفلسفة التى يجب أن نقرن بها فلسفتنا نحن ، لكى ينشأ مما لدينا من أنصاف الحقائق شىء يمكن فهمه وإدراكه .

ولا يظن القارئ أنه سيجد فى لا أدرية كنفوشيوس نظاماً فلسفيا — أى بناء منسقاً من علوم المنطق ، وما وراء الطبيعة ، والأخلاق ، والسياسة ، تسرى فيه كله فكرة واحدة شاملة (فتحيله أشبه بقصور نبوخذ ناصر (بختنصر) التى نقش اسمه على كل حجر من حجارتها) .

لقد كان كنفوشيوس يعلّم أتباعه فن الاستدلال ، ولكنه لم يكن يعلمهم إياه بطريق القواعد أو القياس المنطقى ، بل بتسليط عقله القوى تسليطا دائما على آراء تلاميذه ؛ ولهذا فإنهم كانوا إذا غادروا مدرسته لا يعرفون شيئا عن المنطق ، ولكن كان فى وسعهم أن يفكروا تفكيراً واضحاً دقيقاً .

وكان أول الدروس ، التى يلقيها عليهم المعلم ، الوضوح والأمانة فى التفكير والتعبير ، وفى ذلك يقول : « كل ما يقصد من الكلام أن يكون مفهوما »[٩٦] — وهو درس لا تذكره الفلسفة فى جميع الأحوال . « فإذا عرفت شيئاً فتمسك بأنك تعرفه ؛ وإذا لم تعرفه فأقرّ بأنك لا تعرفه — وذلك فى حد ذاته معرفة »[٩٧] . وكان يرى أن غموض الأفكار ، وعدم الدقة فى التعبير ، وعدم الإخلاص فيه ، من الكوارث الوطنية القومية . فإذا كان الأمير الذى ليس أميراً بحق والذى لا يستمتع بسلطان الإمارة لا يسميه الناس أميراً ، وإذا كان

الأب الذى لا يتصف بصفات الأبوة لا يسميه الناس أبا ، وإذا كان الابن العاق لا يسميه الناس ابناً ، إذا كان هذا كله فإن الناس قد يجدون فى « تزه — لو » ما يحفزهم إلى إصلاح تلك العيوب التى طالما غطتها الألفاظ . ولهذا فإنه لما قال لكنفوشيوس : « إن أمير ويه فى انتظارك لكى تشترك معه فى حكم البلاد ، فما هو فى رأيك أول شىء ينبغى عمله ؟ أجابه كنفوشيوس جوابا دهش له الأمير والتلميذ : « إن الذى لا بد منه أن تصحح الأسماء »[٩٨] .

ولما كانت النزعة المسيطرة على كنفوشيوس هى تطبيق مبادئ الفلسفة على السلوك وعلى الحكم فقد كان يتجنب البحث فيما وراء الطبيعة ، ويحاول أن يصرف عقول أتباعه عن كل الأمور الغامضة أو الأمور السماوية . صحيح أن ذكر « السماء » والصلاة[٩٩] كان يرد على لسانه أحيانا ، وأنه كان ينصح أتباعه بألا يغفلوا عن الطقوس والمراسم التقليدية فى عبادة الأسلاف والقرابين القومية[١٠٠] ، ولكنه كان إذا وجه إليه سؤال فى أمور الدين أجاب إجابة سلبية جعلت شرّاح آرائه المحدثين يجمعون على أن يضموه إلى طائفة اللاأدريين[١٠١] . فلما أن سأله تزه — كونج ، مثلا : « هل لدى الأموات علم بشىء أو هل هم بغير علم ؟ » أبى أن يجيب جوابا صريحا[١٠٢] . ولما سأله كِىْ — لو ، عن « خدمة الأرواح » (أرواح الموتى) أجابه « إذا كنت عاجزاً عن خدمة الناس فكيف تستطيع أن تخدم أرواحهم ؟ » . وسأله كِىْ — لو : « هل أجرؤ على أن أسألك عن الموت ؟ » فأجابه : « إذا كنت لا تعرف الحياة ، فكيف يتسنى لك أن تعرف شيئا عن الموت »[١٠٣] . ولما سأله فارشي عن « ماهية الحكمة » قال له : « إذا حرصت على أداء واجبك نحو الناس ، وبعدت كل البعد عن الكائنات الروحية مع احترامك إياها أمكن أن تسمى هذه حكمة »[١٠٤] .

ويقول لنا تلاميذه إن « الموضوعات التى لم يكن المعلم يخوض فيها هى الأشياء

الغريبة غير المألوفة ، وأعمال القوة ، والاضطراب ، والكائنات الروحية »[١٠٥] وكان هذا التواضع الفلسفى يقلق بالهم ، وما من شك فى أنهم كانوا يتمنون أن يحل لهم معلمهم مشاكل السموات ويطلعهم على أسرارها . ويقص علينا صاحب كتاب — لياتزه وهو مغتبط قصة غلمان الشوارع الذين أخذوا يسخرون من كنفوشيوس حين أقر لهم بعجزه عن هذا السؤال السهل وهو : « هل الشمس أقرب إلى الأرض فى الصباح حين تبدو أكبر ما تكون ، أو فى منتصف النهار حين تشتد حرارتها ؟ »[١٠٦] . وكل ما كان كنفوشيوس يرضى أن يقره من البحوث فيما وراء الطبيعة هو البحث عما بين الظواهر المختلفة جميعها من وحدة ، وبذل الجهد لمعرفة ما يوجد من تناغم وانسجام بين قواعد السلوك الحسن واطراد النظم الطبيعية .

وقال مرة لأحد المقربين إليه : « أظنك يا تزه تعتقد أنى من أولئك الذين يحفظون أشياء كثيرة ويستبقونها فى ذاكرتهم ؟ » فأجابه تزه — كونج بقوله : « نعم أظن ذلك ولكنى قد أكون مخطئاً فى ظنى ! » فرد عليه الفيلسوف قائلا « لا ، إنى أبحث عن الوحدة ، الوحدة الشاملة »[١٠٧] وذلك بلا ريب هو جوهر الفلسفة .

وكانت الأخلاق مطلبه وهمه الأول ، وكان يرى أن الفوضى التى تسود عصره فوضى خلقية ، لعلها نشأت من ضعف الإيمان القديم وانتشار الشك السوفسطائى فى ماهية الصواب والخطأ . ولم يكن علاجها فى رأيه هو العودة إلى العقائد القديمة وإنما علاجها هو البحث الجدى عن معرفة أتم من المعرفة السابقة ، وتجديد أخلاقى قائم على تنظيم حياة الأسرة على أساس صالح قويم . والفقرتان الآتيتان المنقولتان عن كتاب *التعليم الأكبر* تعبران أصدق تعبير وأعمقه عن المنهج الفلسفى الكنفوشى .

« إن القدامى الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل فى أنحاء الإمبراطورية

قد بدءوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم ، ولما أرادوا أن يحسنوا تنظيم ولاياتهم بدءوا بتنظيم أسرهم ، ولما أرادوا تنظيم أسرهم بدءوا بتهذيب نفوسهم ؛ ولما أرادوا أن يهذبوا نفوسهم بدءوا بتطهير قلوبهم ، ولما أرادوا أن يطهروا قلوبهم عملوا أولا على أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم ؛ ولما أرادوا أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم بدءوا بتوسيع دائرة معارفهم إلى أبعد حد مستطاع ، وهذا التوسع فى المعارف لا يكون إلا بالبحث عن حقائق الأشياء .

فلما أن بحثوا عن حقائق الأشياء أصبح علمهم كاملا ، ولما كمل علمهم خلصت أفكارهم ، فلما خلصت أفكارهم تطهرت قلوبهم ، ولما تطهرت قلوبهم تهذبت نفوسهم ، ولما تهذبت نفوسهم انتظمت شئون أسرهم ، ولما انتظمت شئون أسرهم صلح حكم ولاياتهم ؛ ولما صلح حكم ولاياتهم أضحت الإمبراطورية كلها هادئة سعيدة(١٠٨) .

تلك هى مادة الفلسفة الكنفوشية ، وهذا هو طابعها ، وفى وسع الإنسان أن ينسى كل ما عدا هذه الألفاظ من أقوال المعلم وأتباعه ، وأن يحتفظ بهذه المعانى التى هى « جوهر الفلسفة وقوامها » وأكمل مرشد للحياة الإنسانية . ويقول كنفوشيوس : « إن العالم فى حرب لأن الدول التى يتألف منها فاسدة الحكم ؛ والسبب فى فساد حكمها أن الشرائع الوضعية مهما كثرت لا تستطيع أن تحل محل النظام الاجتماعى الطبيعى الذى تهيئه الأسرة . والأسرة مختلة عاجزة عن تهيئة هذا النظام الاجتماعى الطبيعى ، لأن الناس ينسون أنهم لا يستطيعون تنظيم أسرهم من غير أن يقوّموا نفوسهم ؛ وهم يعجزون عن أن يقوّموا نفوسهم لأنهم لم يطهروا قلوبهم أى أنهم لم يطهروا نفوسهم من الشهوات الفاسدة الدنيئة ؛ وقلوبهم غير طاهرة لأنهم غير مخلصين فى تفكيرهم ، لا يقدّرون الحقائق قدرها ويخفون طبائعهم بدل أن يكشفوا عنها ؛ وهم لا يخلصون فى تفكيرهم لأن أهواءهم تشوه الحقائق وتحدد لهم النتائج بدل أن يعملوا على توسيع دائرة معارفهم إلى أقصى حد مستطاع

ببحث طبائع الأشياء بحثاً منزهاً عن الأهواء : فليسع الناس إلى المعارف المنزهة عن الهوى يخلصوا فى تفكيرهم ؛ وليخلصوا فى تفكيرهم تتطهر قلوبهم من الشهوات الفاسدة ؛ ولتطهر قلوبهم على هذه الصورة تصلح نفوسهم ؛ ولتصلح نفوسهم تصلح من نفسها أحوال أسرهم ؛ وليس الذى تصلح به هذه الأسر هو المواعظ التى تحث على الفضيلة أو العقاب الشديد الرادع ، بل الذى يصلحها هو ، ما للقدوة الحسنة من قوة صامتة ؛ ولتنظم شئون الأسرة عن طريق المعرفة والإخلاص والقدوة الصالحة ، يتهيأ للبلاد من تلقاء نفسه نظام اجتماعى يتيسر معه قيام حكم صالح .

ولتحافظ الدولة على الهدوء فى أرضها والعدالة فى جميع أرجائها ، يسد السلام العالم بأجمعه ويسعد جميع من فيه — تلك نصيحة تدعو إلى الكمال المطلق وتنسى أن الإنسان حيوان مفترس ؛ ولكنها كالمسيحية تحدد لنا هدفاً نسعى لندركه ، وسلماً نرقاه لنصل به إلى هذا الهدف . وما من شك فى أن فى هذه النصوص قواعد فلسفية ذهبية .

٤ — طريقة الرجل الأعلى

صورة أخرى من صور الحكيم — عناصر الأخلاق — القاعدة الذهبية

وإذن فالحكمة تبدأ فى البيت ، وأساس المجتمع هو الفرد المنظم فى الأسرة المنتظمة ، وكان كنفوشيوس يتفق مع جوته فى أن الرقى الذاتى أساس الرقى الاجتماعى ؛ ولما سأله تزه — لو « ما الذى يكون الرجل الأعلى ؟ » أجابه بقوله « أن يثقف نفسه بعناية ممزوجة بالاحترام »[١٠٩] ، ونحن نراه فى مواضع متفرقة من محاوراته يرسم صورة الرجل المثالى كما يراه هو جزءاً جزءاً — والرجل المثالى فى اعتقاده هو الذى تجتمع فيه الفلسفة والقداسة فيتكون منهما الحكيم . والإنسان الكامل الأسمى فى رأى كنفوشيوس يتكون من فضائل ثلاث كان كل من سقراط ونتشة والمسيح يرى الكمال كل الكمال فى كل واحدة منها بمفردها ؛

وتلك هي الذكاء والشجاعة وحب الخير . وفى ذلك يقول : « الرجل الأعلى يخشى ألا يصل إلى الحقيقة ، وهو لا يخشى أن يصيبه الفقر ··· وهو واسع الفكر غير متشيع إلى فئة ... وهو يحرص على ألا يكون فيما يقوله شيء غير صحيح »(١١٠)

ولكنه ليس رجلا ذكيا وحسب ، وليس طالب علم ومحبا للمعرفة وكفى ، بل هو ذو خلق وذو ذكاء ؛ « فإذا غلبت فيه الصفات الجسمية على ثقافته وتهذيبه كان جلفا ، وإذا غلبت فيه الثقافة والتهذيب على الصفات الجسمية تمثلت فيه أخلاق الكتبة ؛ أما إذا تساوت فيه صفات الجسم والثقافة والتهذيب ، وامتزجت هذه بتلك ، كان لنا منه الرجل الكامل الفضيلة »(١١١) . فالذكاء هو الذهن الذى يضع قدميه على الأرض .

وقوام الأخلاق الصالحة هو الإخلاص ، « وليس الإخلاص الكامل وحده هو الذى يميز الرجل الأعلى »(١١٢) « إنه يعمل قبل أن يتكلم ، ثم يتكلم بعدئذ وفق ما عمل »(١١٣) « ولدينا فى فن الرماية ما يشبه طريقة الرجل الأعلى . ذلك أن الرامى إذا لم يصب مركز الهدف رجع إلى نفسه ليبحث فيها عن سبب عجزه »(١١٤) .

« إن الذى يبحث عنه الرجل الأعلى هو ما فى نفسه ؛ أما الرجل المنحط فيبحث عما فى غيره ... والرجل الأعلى يحزنه نقص كفايته ، ولا يحزنه ... ألا يعرفه الناس » ، ولكنه مع ذلك « يكره أن يفكر فى ألا يُذكر اسمه بعد موته »(١١٥) ؛ وهو متواضع فى حديثه ولكنه متفوق فى أعماله ... قل أن يتكلم ، فإذا تكلم لم يشك قط فى أنه سيصيب هدفه ... والشيء الوحيد الذى لا يدانى فيه الرجل الأعلى هو عمله الذى لا يستطيع غيره من الناس أن يراه »(١١٦) . وهو معتدل فى قوله وفعله « والرجل الأعلى يلتزم الطريق الوسط »(١١٧) فى كل شيء ؛ ذلك أن « الأشياء التى يتأثر بها الإنسان كثيرة لا حصر لها ؛ وإذا لم يكن

ما يحب وما يكره خاضعين للسنن والقواعد تبدلت طبيعته إلى طبيعة الأشياء التي تعرض له »[١١٨](*) « والرجل الأعلى يتحرك بحيث تكون حركاته في جميع الأجيال طريقاً عاما ؛ ويكون سلوكه بحيث تتخذه جميع الأجيال قانوناً عاما ، ويتكلم بحيث تكون ألفاظه في جميع الأجيال مقاييس عامة لقيم الألفاظ »[١٢٠](**) وهو يستمسك أشد الاستمساك بالقاعدة الذهبية التي نص عليها هنا صراحة قبل هِلِل بأربعة قرون وقبل المسيح بخمسة : « فقد سأل چونج — جونج المعلم عن الفضيلة الكاملة فكان جوابه :.. الفضيلة الكاملة ألا تفعل بغيرك ما لا تحب أن يُفعل بك »[١٢٢] . وهذا المبدأ يتكرر مراراً وهو دائما يتكرر في صيغة النفي ، وقد ذكر مرة في كلمة واحدة . ذلك أن تِزه — چونج سأله مرة : أليس ثمة كلمة واحدة يستطيع الإنسان أن يتخذها قاعدة يسير عليها طوال حياته ؟ فأجابه المعلم : أليست هذه الكلمة هي المبادلة ؟ »[١٢٣] ، ولكنه لم يكن يرغب فيما يرغب فيه لوتزه وهو أن يقابل الشر بالخير ، فلما أن سأله أحد تلاميذه : « ما قولك في المبدأ القائل بأن الإساءة يجب أن تجزى بالإحسان ؟ » أجاب بحدة لم يألفها تلاميذه منه : « وبأى شيء إذن تجزى الإحسان ؟ لتكن العدالة جزاء الإساءة ، وليكن الإحسان جزاء الإحسان »[١٢٤] .

وكان يرى أن القاعدة الأساسية التي تقوم عليها أخلاق الرجل الأعلى هي العطف الفياض على الناس جميعاً . والرجل الأعلى لا يغضبه أن يسمو غيره من الناس ، فإذا رأى أفاضل الناس فكر في أن يكون مثلهم ؛ وإذا رأى سفلة الناس عاد إلى نفسه يتقصى حقيقة أمره »[١٢٤ أ] . ذلك أنه قلما توجد أخطاء لا نشترك

(*) قارن هذا بما يقوله اسبنوزا : « إن عوامل خارجية عنا تدفعنا إلى طرق كثيرة مختلفة ، فنترنح ونضطرب اضطراب الأمواج تدفعها الرياح المختلفة المهاب ، ولا نعرف مصيرنا أو عاقبة أمرنا »[١١٩] .

(**) قارن هذا بقانون الأخلاق « القاطع الإلزامي » الذى يقول به كانت وهو « لتكن إرادتك بحيث يمكن أن تكون القاعدة التي تسير عليها في أعمالك قانوناً عاماً شاملا »[١٢١] .

فيها مع جيراننا . وهو لا يبالى أن يفترى عليه الناس أو يسلقوه بألسنة حداد [١٢٤ب]، مجامل بشوش لجميع الناس ، ولكنه لا يكيل المدح جزافا [١٢٥] ؛ لا يحقر من هم أقل منه ، ولا يسعى لكسب رضاء من هم أعلى منه [١٢٦] ، وهو جاد فى سلوكه وتصرفاته ، لأن الناس لا يوقرون من لا يلتزم الوقار فى تصرفاته معهم ؛ متريث فى أقواله ، حازم فى سلوكه ، يصدر فى أعماله عن قلبه ؛ غير متعجل بلسانه ولا مولع بالإجابات البارعة السكاتة ؛ وهو جاد لأن لديه عملا يحرص على أدائه — وهذا هو سر مهابته غير المسكتة [١٢٧] ؛ وهو بشوش لطيف حتى مع أقرب الناس إليه وألصقهم به ، ولكنه يصون نفسه عن التبذل مع الناس جميعاً حتى مع ابنه [١٢٨] . ويجمع كنفوشيوس صفات رَجُله الأعلى الكثير الشبه « برجل أرسطو ذى العقل الكبير » فى هذه العبارة .

« يضع الرجل الأعلى نصب عينيه تسعة أمور لا ينفك يقلبها فى فكره . فأما من حيث عيناه فهو يحرص على أن يرى بوضوح ... ؛ وأما من حيث وجهه فهو يحرص على أن يكون بشوشاً ظريفاً ؛ وأما من حيث سلوكه فهو يحرص على أن يكون وقوراً ؛ وفى حديثه يحرص على أن يكون مخلصا ؛ وفى تصريف شئون عمله يحرص على أن يبذل فيه عنايته ، وأن يبعث الاحترام فيمن معه ؛ وفى الأمور التى يشك فيها يحرص على أن يسأل غيره من الناس ؛ وإذا غضب فكر فيما قد يجره عليه غضبه من الصعاب ؛ وإذا لاحت له المكاسب فكر فى العدالة والاستقامة [١٢٩] .

٥ — سياسة كنفوشيوس

سيادة الشعب – الحكم بالقدوة – عدم تركز الثروة –
الموسيقى والأخلاق – الاشتراكية والثورة

ويعتقد كنفوشيوس أن هؤلاء وحدهم هم الذين يستطيعون أن يعيدوا بناء

الأسرة وأن ينقذوا الدولة . فالمجتمع يقوم على إطاعة الأبناء آباءهم ؛ والزوجة زوجها ؛ فإذا ذهبت هذه الطاعة حلت محلها الفوضى (١٣٠) .

وليس ثمة ما هو أسمى من قانون الطاعة هذا إلا شيء واحد وهو القانون الأخلاقى .

« فى وسع (الابن) وهو فى خدمة أبويه أن يجادلهما بلطف ؛ فإذا رأى أنهما لا يميلان إلى اتباع (نصيحته) زاد احترامه لهما ، من غير أن يتخلى عن (قصده) ؛ فإذا أمر الوالد ابنه أمراً خطأ وجب عليه أن يقاومه ، وعلى الوزير أن يقاوم أمر سيده الأعلى فى مثل هذه الحال » (١٣١) . وفى هذا القول يضع كنفوشيوس مبدأ من مبادئ منشيس التى تقرر حق الناس المقدس فى الثورة .

على أن كنفوشيوس لم يكن بالرجل الثورى النزعة ؛ ولعله ما كان يظن أن من ترفعهم الثورة لم يخلقوا من طينة غير طينة من تطيح بهم . ولكنه رغم هذه الميول كان جريئاً فيما كتبه فى **كتاب الأغانى** : « قبل أن تفقد ملوك أسرة (شانج) (قلوب) الشعب كانوا أحباء الله . فليكن فيما حل ببيت شانج نذير لكم ؛ إن الأمر العظيم لا يسهل دائما الاحتفاظ به » (١٣٢) . والشعب هو المصدر الفعلى الحقيقى للسلطة السياسية ، ذلك أن كل حكومة لا تحتفظ بثقة الشعب تسقط لا محالة عاجلا كان ذلك أو آجلا .

« وسأل تزه — كونج ، عن الحكم فقال له المعلم : « (لا بد للحكومة) من أن تحقق أموراً ثلاثة ، أن يكون لدى الناس كفايتهم من الطعام ، وكفايتهم من العتاد الحربى ، ومن الثقة بحكامهم » . فقال تزه — كونج : « فإذا لم يكن بد من الاستغناء عن أحد هذه الشروط ، فأى هذه الثلاثة يجب أن تتخلى عنه أولا ؟ » فأجاب المعلم : « العتاد الحربى » . وسأله تزه — كونج مرة أخرى ، وإذا كان لا بد من الاستغناء عن أحد الشرطين الباقيين فأيهما يجب أن تتخلى عنه ؟ » .

فأجاب المعلم : « فلنتخلّ عن الطعام ؛ ذلك أن الموت كان منذ الأزل قضاء محتوماً على البشر ، أما إذا لم يكن للناس ثقة (بحكامهم) فلا بقاء (للدولة) » .

ويرى كنفوشيوس أن المبدأ الأول الذى يقوم عليه الحكم هو نفس المبدإ الأول الذى تقوم عليه الأخلاق — ألا وهو الإخلاص . ولهذا كانت أداة الحكم الأولى هى القدوة الصالحة ؛ ومعنى هذا أن الحاكم يجب أن يكون المثل الأعلى فى السلوك الحسن ، حتى يحذو الناس حذوه ، فيعم السلوك الطيب جميع أفراد شعبه .

وسأل كىٔ كانج كنفوشيوس عن الحكومة قائلا : « ما قولك فى قتل مَن لا مبدأ لهم ولا ضمير لخير أصحاب المبادئ والضمائر ؟ » فأجابه كنفوشيوس : « وما حاجتك يا سيدى إلى القتل فى قيامك بأعباء الحكم ؟ لتكن نيتك الصريحة البينة فعل الخير يكن الناس أخياراً . إن العلاقة القائمة بين الأعلى والأدنى لشبيهة بالعلاقة بين الريح والكلأ ، فالكلأ يميل إذا هبت عليه الريح ... وما أشبه الذى ينهج فى حكمه نهج الفضيلة بالنجم القطبى الذى لا يتحول عن مكانه والذى تطوف النجوم كلها حوله ... »

وسأل كىٔ كانج كيف يحمل الناس على أن يجلّوا (حاكمهم) ، وأن يخلصوا له ، وأن يلتزموا جانب الفضيلة ؟ فأجابه المعلم : « فليرأسهم فى وقار — يحترموه ، وليكن عطوفاً عليهم رحيما بهم يخلصوا له . وليقدّم الصالحين ويعلّم العاجزين — يحرصوا على أن يكونوا فضلاء »[١٣٤] .

وإذا كانت القدوة الحسنة أولى وسائل الحكم ، فإن حسن الاختيار للمناصب وسيلته الثانية : « استعمل الصالحين المستقيمين ، وانبذ المعوجّين ، وبهذه الطريقة يستقيم المعوجّ »[١٣٥] .

وتقول عقيدة الوسط : « إن تصريف شئون الحكم إنما يقوم على

(استعمال من يصلح له من الناس) وما من سبيل إلى الحصول على هؤلاء الناس إلا أن تكون أخلاق (الحاكم) نفسه صالحة »[١٣٦].

وأى شىء لا تستطيع الوزارة المؤلفة من الرجال الأعلين أن تعمله فى جيل واحد لتطهير الدولة والارتفاع بالشعب إلى مستوى عال من الحضارة ؟[١٣٧] — إن أول ما يحرصون عليه ألا تكون لهم قدر المستطاع علاقات خارجية ، وأن يعملوا على أن يكتفوا بغلاتهم عن غلات غيرهم ، حتى لا تشن أمتهم الحرب على غيرها من الأمم للحصول على هذه الغلات ، ثم يقللوا من ترف بطانة الملوك ويعملوا على توزيع الثروة فى أوسع نطاق لأن « تركيز الثروة هو السبيل إلى تشتيت الشعب ، وتوزيعها هو السبيل إلى جمع شتاته »[١٣٨]، ثم يخففوا العقاب وينشروا التعليم العام لأن « التعليم إذا انتشر انعدمت الفروق بين الطبقات »[١٣٩]

ويشير كنفوشيوس بألا تدرس الموضوعات العليا لذوى المواهب الوسطى ، أما الموسيقى فيجب أن تعلم للناس أجمعين .

ومن أقواله فى هذا : « إذا أتقن الإنسان الموسيقى ، وقوم عقله وقلبه بمقتضاها وعلى هديها تطهر قلبه وصار قلباً طبيعياً ، سليما ، رقيقاً ، عامراً بالإخلاص والوفاء ، يغمره السرور والبهجة ... وخير الوسائل لإصلاح الأخلاق والعادات... أن توجه العناية إلى الموسيقى التى تعزف فى البلاد(*) ... والأخلاق الطيبة والموسيقى يجب ألا يهملهما الإنسان ... فالخير شديد الصلة بالموسيقى والاستقامة تلازم الأخلاق الطيبة على الدوام .

وعلى الحكومة أن تعنى أيضاً بغرس الأخلاق الطيبة ، ذلك أن الأخلاق إذا فسدت فسدت الأمة معها(**) . وآداب اللياقة هى التى تكون على الأقل

(*) قال دانيل أوكنل : « دعونى أكتب أغانى الأمة ، ولست أبالى بعد ذلك من يسن شرائعها » .

(**) قارن هذا بقول المرحوم شوقى :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن هو ذهبت أخلاقهم ذهبوا   (المترجم)

المظهر الخارجي لأخلاق الأمة وإن لم يدرك الناس هذا[١٤١] ، وهى تضفى على الحكيم لطف الرجل المهذب ؛ وما من شك فى أن المرء ابن عادته . أما من الوجهة السياسية « فآداب اللياقة حواجز تقوم بين الناس وبين الانغماس فى المفاسد » ، و « من ظن أن الحواجز القديمة لا نفع فيها فهدمها حلت به الكوارث الناشئة من طغيان المياه الجارفة »[١٤٢] .

ويكاد الإنسان يسمع هذا القول الصارم الذى نطق به المعلم الغاضب يتردد هذه الأيام فى جنبات « بهو الآداب القديمة » التى نقشت ألفاظها على حجارته ، والتى دنستها أوضار الثورة وحقرتها .

ومع هذا فقد كان لكنفوشيوس أيضاً أحلامه ومثله العليا فى الحكومات والدول . فقد كان يعطف فى بعض الأحيان على الذين إذا اقتنعوا بأن الأسرة الحاكمة فقدت « الأمر الأعلى » أى « أمر السماء » قوضوا أركان نظام من نظم الحكم لكى يقيموا على أنقاضه نظاماً خيراً منه . وقد اعتنق فى آخر الأمر المبادئ الاشتراكية وأطلق فيها لخياله العنان !

« إذا ساد المبدأ الأعظم (مبدأ التماثل الأعظم) أصبح العالم كله جمهورية واحدة ؛ واختار الناس لحكمهم ذوى المواهب والفضائل والكفايات(*) ؛ وأخذوا يتحدثون عن الحكومة المخلصة ، ويعملون على نشر لواء السلم الشاملة . وحينئذ لا يرى الناس أن آباءهم هم من ولدوهم دون غيرهم ، أو أن أبناءهم هم من ولدوا لهم ، بل تراهم يهيئون سبل العيش للمسنين حتى يستوفوا آجالهم ، ويهيئون العمل للكهول ، ووسائل النماء للصغار ، ويكفلون الحياة للأرامل من الرجال والنساء ، واليتامى وعديمى الأبناء ، ومن أقعدهم المرض عن العمل . هنالك يكون لكل إنسان حقه ، وهنالك تصان شخصية المرأة فلا يعتدى عليها .

(*) ما أشبه هذا بما يدعو إليه بعض الكتاب فى هذا الجيل — أمثال هـ . ج . ولز — من إنشاء حكومة عالمية (المترجم)

وينتج الناس الثروة ، لأنهم يكرهون أن تبدد وتضيع فى الأرض ، ولـكنهم يكرهون أن يستمتعوا بها دون غيرهم من الناس ، وهم يعملون لأنهم يكرهون البطالة ، ولـكنهم لا يهدفون فى عملهم إلى منفعتهم الشخصيه .

وبهذه الطريقة يقضى على الأنانية والمآرب الذاتية ، فلا تجد سبيلا إلى الظهور ، ولا يرى أثر للصوص والنشالين والخونة المـارقين ، فتبقى الأبواب الخارجية مفتحة غير مغلقة . هذا هو الوضع الذى أسميه التماثل الأعظم[١٤٣](*) .

٣ — أثر كنفوشيوس فى الأمة الصينية

العلماء الكنفوشيون — انتصارهم على القانونيين — عيوب الفلسفة الكنفوشية — جدة مبادئ كنفوشيوس

كان نجاح كنفوشيوس بعد موته ولـكنه كان نجاحاً كاملا . لقد كان يضرب فى فلسفته على نغمة سياسية عملية حببتها إلى قلوب الصينيين بعد أن زال بموته كل احتمال لإصراره على تحقيقها .

وإذا كان رجال الأدب فى كل زمان لا يرتضون أن يكونوا أدباء فحسب ، فإن أدباء القرون التى أعقبت موت كنفوشيوس استمسكوا أشد استمساك بمبادئه ، واتخذوها سبيلا إلى السلطان وتسنم المناصب العامة ، وأوجدوا طبقة من العلمـاء الـكنفوشيين أصبحت أقوى طائفة فى الإمبراطورية بأجمعها وانتشرت المدارس فى أنحاء البلاد لتعلم الناس فلسفة كنفوشيوس التى تلقاها الأساتذة عن تلاميذ المعلم الأكبر ، ونمـاها منشيس وهذبها آلاف مؤلفة من العلماء على مدى الأيام . وأضحت هذه المدارس المراكز الثقافية والعقلية فى الصين ، فأبقت شعلة الحضارة متقدة خلال القرون الطوال التى تدهورت فيها البلاد من

(*) ترى هل فيما وضعه الفلاسفة المحدثون مثل عليا للحكومات أرقى من هذا المثل
(المترجم)

الوجهة السياسية ، كما احتفظ رهبان العصور الوسطى بجذوة الثقافة القديمة وبقليل من النظام الاجتماعى فى العصور المظلمة التى تلت سقوط رومة .

وكانت فى البلاد طائفة أخرى هى طائفة « القانونيين » استطاعت أن تناهض وقتاً ما آراء كنفوشيوس فى عالم السياسية ، وأن تسير الدولة حسب مبادئها هى فى بعض الأحيان .

ومن أقوالهم فى الرد على كنفوشيوس أن نظام الحكم على المثل الذى يضربه الحاكمون ، وعلى الصلاح الذى تنطوى عليه قلوب المحكومين ، يعرّض الدولة لأشد الأخطار ، إذ ليس فى التاريخ أمثلة كثيرة تشهد بنجاح الحكومات التى تسترشد فى أعمالها بهذه المبادئ المثالية . وهم يقولون إن الحكم يجب أن يستند إلى القوانين لا إلى الحكام ، وإن الناس يجب أن يرغموا على إطاعة القوانين حتى تصبح إطاعتها طبيعة ثانية للمجتمع فيطيعوها راضين مختارين . ولم يبلغ الناس من الذكاء مبلغاً يمكنهم من أن يحسنوا حكم أنفسهم ، ولهذا فإنهم لا يصيبون الرخاء إلا تحت حكم جماعة من الأشراف ؛ وحتى التجار أنفسهم ، وإن أثروا ، لا يدل ثراؤهم على أنهم متفوّقون فى ذكائهم ، فهم يسعون وراء مصالحهم الخاصة ، وكثيراً ما يتعارض سعيهم هذا مع مصالح الدولة .

ويقول بعض القانونيين إنه قد يكون من الخير للدولة أن تجعل رءوس الأموال ملكاً عاماً للمجتمع ، وأن تحتكر هى التجارة ، وأن تمنع التلاعب بالأثمان وتركيز الثروة فى أيدى عدد قليل من الأفراد(١٤٤) .

هذه آراء ظهرت ثم اختفت ثم عادت إلى الظهور مرة بعد مرة فى تاريخ الحكومة الصينية .

ولكن فلسفة كنفوشيوس كُتب لها النصر آخر الأمر . وسنرى فيما بعد كيف سمى شى هوانج — دى ، صاحب الحول والطول ، يعاونه رئيس وزراء من

طائفة القانونيين ، للقضاء على نفوذ كنفوشيوس ، فأمر أن يحرق كل ما كان موجوداً وقتئذ من الكتابات الكنفوشية . ولكن تبين مرة أخرى أن قوة البيان أعظم من قوة السنان .

ولم يكن لعداء « الإمبراطور الأول » من نتيجة إلا أن يجعل الكتب التى أراد أن يعدمها كتباً مقدسة قيمة ، وأن يستشهد الناس فى سبيل المحافظة عليها . حتى إذا انقضى عهد شى هوانج — دى ، وعهد أسرته القصير الأجل ، وجلس على العرش إمبراطور أحكم منه ، أخرج الآداب الكنفوشية من مخابئها وعيّن العلماء الكنفوشيين فى مناصب الدولة ، وثبت حكم أسرة هان ، وقوى دعائمه ، بأن أدخل آراء كنفوشيوس وأساليبه الحكيمة فى برامج تعليم الشبان الصينيين وفى الحكومة . وقربت القرابين تكريماً لكنفوشيوس ، وأمر الإمبراطور أن تنقش نصوص الكتب القديمة على الحجارة ، وأصبحت الكنفوشية دين الدولة الرسمى . وناهض الكنفوشية فى بعض الأحيان نفوذُ الدّوية ، كما طغى عليها أحياناً أخرى سلطان البوذية ، حتى إذا كان عهد أسرة تنج أعادتها إلى مكانتها السابقة وأعلت من شأنها .

ولما جلس على العرش تاى دزونج الأعظم أمر أن يشاد هيكل لكنفوشيوس فى كل مدينة وقرية فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، وأن يقرّب له فيها القوابين العلماء والموظفون . وفى عهد أسرة دزونج نشأت مدرسة قوية للكنفوشية الجديدة أضافت شروحاً وتعليقات لا حصر لها على الكتب الكنفوشية القديمة ، وعملت على نشر فلسفة أستاذها الأكبر وما أضافته إليها من شروح مختلفة فى بلاد الشرق الأقصى ، وبعثت فى اليابان نهضة فلسفية قوية . وظلت مبادئ كنفوشيوس من مبدإ قيام أسرة هان إلى سقوط أسرة منشو — أى ما يقرب من ألفى عام — تسيطر على العقلية الصينية وتصوغها فى قالبها .

والفلسفة الكنفوشية أهم ما يواجه المؤرخ لبلاد الصين ؛ ذلك أن كتابات معلمها الأكبر ظلت جيلا بعد جيل النصوص المقررة فى مدارس الدولة الصينية ، يكاد كل صبى يتخرج فى تلك المدارس يحفظها عن ظهر قلب ، وتغلغلت النزعة المتحفظة القوية التى يمتاز بها الحكيم القديم فى قلوب الصينيين ، وسرت فى دمائهم ، وأكسبت أفراد الأمة الصينية كرامة وعمقاً فى التفكير لا نظير لهما فى غير تاريخهم أو فى غير بلادهم ، واستطاعت الصين بفضل هذه الفلسفة أن تحيا حياة اجتماعية متناسقة متآلفة ، وأن تبعث فى نفوس أبنائها إعجاباً شديداً بالعلم والحكمة ، وأن تنشر فى بلادها ثقافة مستقرة هادئة أكسبت الحضارة الصينية قوة أمكنتها من أن تنهض من كبوتها وتسترد قواها بعد الغزوات المتكررة التى اجتاحت بلادها ، وأن تشكل هى الغزاة على صورتها وتطبعهم بطابعها . ولسنا نجد فى غير المسيحية والبوذية(*) ما نجده فى الكنفوشية من جهود جبارة تحويل ما جبلت عليه الطبيعة البشرية من غلظة ووحشية إلى تأدب ورقة .

ولسنا نجد فى هذه الأيام — كما لم يجد الأقدمون فى الأيام الخالية — دواء يوصف للذين يقاسون الأمرين من جراء الاضطراب الناشئ من التربية التى تعنى بالعقل وتهمل كل ما عداه ، ومن انحطاط مستوى القانون الأخلاقى وتدهوره ، ومن ضعف الأخلاق الفردية والقومية ، لسنا نجد دواء لهذا كله خيراً من تلقين الشباب مبادئ الفلسفة الكنفوشية(**) .

لكن تلك الفلسفة لا تستطيع وحدها أن تكون غذاء كاملا للروح . لقد كانت فلسفة تصلح لأمة تكافح للخروج من غمرات الفوضى والضعف إلى النظام والقوة . ولكنها غل ثقيل يقيد البلد الذى ترغمه المنافسات الدولية على أن ينمو ويتطور .

(*) لقد كان حقاً على المؤلف أن يضم إليهما الإسلام ، وقد كان له من الأثر فى طباع العرب أعظم مما كان للكنفوشية والمسيحية والبوذية من أثر فى الأمم التى انتشرت بينها . (المترجم)

(**) أو مبادئ الإسلام . (المترجم)

ذلك أن قواعد الأدب واللياقة التي شكلت أخلاق الصينيين ونظامهم الاجتماعى أضحت قوة جارفة تسير كل حركة حيوية فى طريق مرسوم لا تتحول عنه ، وكانت الفلسفة الكنفوشية تصطبغ بصبغة جامدة متزمتة، وتقف فى سبيل الدوافع الطبيعية القوية المحركة للجنس البشرى ، وسمت فضائلها حتى بلغت حد العقم ؟ ولم يكن فيها قط مجال للهو والمجازفة كما لم يكن فيها إلا القليل من الصداقة والحب ، وقد أعانت على تحقير النساء وإذلالهن(١٤٥) ، كما أعان ما فيها من كمال بارد على تجميد الأمة الصينية وجعلها أمة متحفظة لا يضارع عداءها للرقى إلا حبها للسلام .

وليس من حقنا أن نعزو هذا كله إلى كنفوشيوس ، وأن نوجه إليه اللوم من أجله ، إذ ليس فى مقدور إنسان أيا كان شأنه أن يسيطر على تفكير عشرين قرناً من الزمان ، بل كل ما يحق لنا أن نطلبه إلى المفكر أن يضىء لنا بطريقته ، وبفضل تفكيره طوال حياته ، سبيل الفهم الصحيح . وقل أن نجد فى العالم من اضطلع بهذا الواجب كما اضطلع به كنفوشيوس . وإذا ما قرأنا تعاليمه ، وتبينا مايجب أن نمحوه من فلسفته بسبب تقدم المعارف فى العالم وتبدل أحواله ، وعرفنا قيمة ما يسديه إلينا من هداية فى عالمنا الحاضر نفسه ، إذا ما فعلنا هذا نسينا من فورنا ما يشوب فلسفته من تفاهة تارة ومن كمال لا تطيقه الطبيعة البشرية تارة أخرى ، واشتركنا مع كونج چى حفيده الصالح التقى فى هذا التسبيح الأعلى الذى كان بداية تأليه كنفوشيوس .

لقد نقل چونج — فى عقائد يُووشون كأنهما كانا من آبائه ، ونشر نظم وَن و وُو واتخذهما مثلين يحتذيهما وينسج على منوالهما . وكان فى صفاته الروحية قديساً أو ملاكاً يتناغم مع السماء . ولكنه لم ينس قط أنه مخلوق من طين وماء . وهو يشبه السماء والأرض فى أنه كان عماداً لكل شىء وعائلا لكل شىء ، يحجب نوره كل شىء ، وتغطى ظلاله كل شىء . وهو أشبه بالفصول الأربعة فى تتابعها وانتظام سيرها ، وأشبه بالشمس والقمر فى تتابع ضيائهما ...

فهو فى شموله واتساع آفاقه كالسماء ، وفى عمق تفكيره ونشاطه كالموة السحيقة والعين الجائشة الفوارة ، إذا رآه الناس وقروه وعظموه ، وإذا تكلم صدقوه ، وإذا فعل أعجبوا بفعله وأحبوه .

ولهذا ذاع صيته فى « المملكة الوسطى » وانتشر بين القبائل الهمجية ، فحيثما وصلت السفائن والمركبات ، وحيثما نفذت قوة الإنسان ، وفى كل مكان امتد على سطح الأرض وأظلته السماء وأضاءته الشمس وأناره القمر ، وفى كل بقعة مسها الصقيع وطلها الندى — يجله ويحبه كل من سرى فيه دم الحياة وترددت فى صدره أنفاسها ، حبا صادقاً لا تكلف فيه ولا رياء ؛ ولهذا قيل عنه إنه : « هو والسماء صنوان »(١٤٦) .

الفصل الثالث

اشتراكيون وفوضويون

لقد كانت المائتا عام التي أعقبت عصر كنفوشيوس أعوام جدل شديد وردّة عنيفة ، ذلك أنه لما كشف العلماء عن لذة الفلسفة وبهجتها قام رجال من أمثال هوِ ادزه ؛ وچونج سون لوبانج يتلاعبون بالمنطق ويخترعون القضايا المنطقية المتناقضة التي لا تقل في تباينها ودقتها عن قضايا زينون[١٤٧] . واحتشد الفلاسفة من جميع أنحاء البلاد في مدينة لويانج ، كما كانوا يحتشدون في نفس هذا القرن في مدينتي بنارس وأثينة ، وكانوا يستمتعون في عاصمة الصين بحرية القول والتفكير التي جعلت أثينة وقتئذ العاصمة الفكرية لبلاد البحر المتوسط . وغصت عاصمة البلاد بالفلاسفة المسمين تزونج — هنج — كيا أي « فلاسفة الجدل » ، الذين جاءوا من كافة أنحاء البلاد ليعلموا الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم فن إقناع أي إنسان بأي شيء أرادوا إقناعه به[١٤٨] . فجاء إلى لويانج منشيس الذي خلف كنفوشيوس في منصبه ، كما جاء إليها چونج — دزه أعظم أتباع لو — دزه ، وشِون — دزه القائل بأن الإنسان شرير بطبعه ، وموديّ نبي الحب العالمي .

١ — مودي الغيري

منطيق قديم — مسيحي — وداعية سلام

قال منشيس عدو مودي « لقد كان يحب الناس جميعاً ، وكان يود لو يستطيع أن يبلي جسمه كله من قمة رأسه إلى أخمص قدمه إذا كان في هذا خير لبني الإنسان[١٤٩] » ؛ وقد نشأ مودي في بلدة لو التي نشأ فيها كنفوشيوس ، وذاعت شهرته بعد وفاة الحكيم الأكبر بزمن قليل . وكان يعيب على كنفوشيوس أن تفكيره

خيا لى غير عملى ، وأراد أن يستبدل بهذا التفكير دعوة الناس جميعاً لأن يحب بعضهم بعضاً . وكان من أوائل المناطقة الصينيين ومن شر الجادلين المحاجين فى الصين ؛ وقد عرّف القضية المنطقية تعريفاً غاية فى البساطة فقال :

هذه هى التى أسميها قواعد الاستدلال الثلاث :

أين يجد الإنسان الأساس ؟ ابحث عنه فى دراسة تجارب أحكم الرجال الأقدمين .

كيف يلم الإنسان به إلماما عاما ؟ افحص عما فى تجارب الناس العقلية من حقائق واقعية .

كيف تطبقها ؟ ضعها فى قانون وسياسة حكومية ، وانظر هل تؤدى إلى خير الدولة ورفاهية الشعب أو لا تؤدى إليهما[١٥٠] .

وعلى هذا الأساس جد مودى فى البرهنة على أن الأشباح والأرواح حقائق واقعية ، لأن كثيرين من الناس قد شاهدوها ، وكان من أشد المعارضين لآراء كنفوشيوس المجردة غير المجسمة عن الله ، وكان من القائلين بشخصية الله . وكان يظن كما يظن بسكال أن الدين رهان مربح فى كلتا الحالين : فإذا كان آباؤنا الذين نقرب لهم القرابين يستمعون إلينا فقد عقدنا بهذه القرابين صفقة رابحة ، وإذا كانوا أمواتاً لا حياة لهم ولا يشعرون بما نقرب إليهم فإن القرابين تتيح لنا فرصة الاجتماع بأهلينا وجيرتنا ، لنستمتع جميعاً بما نقدمه للموتى من طعام وشراب[١٥١] .

وبهذه الطريقة عينها يثبت مودى أن الحب الشامل هو الحل الوحيد للمشكلة الاجتماعية ؛ فإذا ما عم الحب العالم أوجد فيه بلا ريب الدولة الفاضلة والسعادة الشاملة التى بها « يحب الناس كلهم بعضهم بعضاً ، ولا يفترس أقوياؤهم ضعفاءهم ، ولا تنهب كثرتهم قلتهم ، ولا يزدرى أغنياؤهم فقراءهم ، ولا يسفه عظماؤهم صغارهم ، ولا يخدع الماكرون منهم السذج »[١٥٢] . والأنانية فى رأيه مصدر كل شر

سواء كان هذا الشر رغبة الطفل فى التملك أو رغبة الإمبراطوريات فى الفتح والاستعمار . ويعجب مودى كيف يُدين الناس أجمعون من يسرق خنزيراً ويعاقبونه أشد العقاب ، أما الذى يغزو مملكة ويغتصبها من أهلها ، فإنه يعد فى أعين أمته بطلا من الأبطال ومثلا أعلى للأجيال المقبلة[١٥٣] . ثم ينتقل مودى من هذه المبادئ السلمية إلى توجيه أشد النقد إلى قيام الدولة حتى لتكاد عقيدته السياسية تقترب كل القرب من الفوضى ، وحتى أزعجت هذه العقيدة ولاة الأمور فى عصره[١٥٤] . ويؤكد لنا كتاب سيرته أن مهندس الدولة فى مملكة چو هَمّ بغزو دولة سونج ليجرب فى هذا الغزو سُلَّماً جديداً من سلالم الحصار اخترعه فى ذلك الوقت ؛ فما كان من مودى إلا أن أخذ يعظه ويشرح له عقيدة الحب والسلم العالميين حتى أقنعه بالعدول عن رأيه ، وحتى قال له المهندس : « لقد كنت قبل أن ألقاك معتزماً فتح بلاد سونج ، ولكنى بعد أن لقيتك لا أحب أن تكون لى ولو سلمت إلىّ من غير مقارمة ومن غير أن يكون ثمة سبب حق عادل يحملنى على فتحها » . فأجابه مودى بقوله : « إذا كان الأمر كذلك فكأنى قد أعطيتك الآن دوله سونج . فاستمسك بهذه الخطة العادلة أعطك ملك العالم كله »[١٥٥] .

وكان العلماء من أتباع كنفوشيوس والساسة أتباع لوينج يسخرون من هذه الأفكار السلمية ؛ ولكن مودى رغم هذه السخرية كان له أتباع ، وظلت آراؤه مدى قرنين كاملين عقيدة تدين بها شيعة تدعو إلى السلام ، وقام اثنان من مريديه وهما سونج بنج ، وجونج سون لونج بحملة قوية لنزع السلاح ، وجاهدا فى سبيل هذه الدعوة حق الجهاد[١٥٦] . وعارض هان — أعظم النقاد فى عصره هذه الحركة ، وكان ينظر إليها نظرة فى وسعنا أن نسميها نظرة نِتشية ، وكانت حجته فى معارضته أن الحرب ستظل هى الحكم بين الأمم حتى تنبت للناس بالفعل أجنحة الحب العام .

ولما أصدر شى هوانج — دى أمره الشهير « بإحراق الكتب » ألقيت

فى النار جميع الآداب الودية كما ألقيت فيها جميع الكتب الكنفوشية ؛ وقضى هذا الحريق على الدين الجديد وإن لم يقض على عقيدة المعلم الأكبر وكتاباته .

٢ — يانج — جو ، أنانى

جبرى أبيقورى — الدفاع عن الشر

وكانت عقيدة أخرى ، تختلف عن العقيدة السابقة كل الاختلاف ، قد أخذت تنتشر وتشتد الدعوة إليها بين الصينيين ، فقد قام رجل يدعى يانج — جو لا نعرف عنه شيئاً إلا ما قاله عنه شانتوه[١٥٩] ، وجهر بهذه الدعوة المتناقضة ، وهى أن الحياة ملأى بالآلام وأن اللذة هدفها الأعلى ، وكان ينكر وجود الله ، كما ينكر البعث ، ويقول إن الخلائق ليست إلا دمى لا حول لها ولا طول ، تحركها القوى الطبيعية العمياء التى أوجدتها ، والتى وهبتها أسلافها دون أن يكون لها فى ذلك خيار ، ورسمت لها أخلاقها ، فلا تستطيع أن تتحول عنها أو أن تبدلها غيرها[١٦٠] .

فأما الحكيم العاقل فيرضى بما قسم له دون أن يشكو أو يتذمر ، ولكنه لا يغتر بشىء من سخافات كنفوشيوس وودى ، وما يقولانه عن الفضيلة الفطرية والحب العالمى ، والسمعة الطيبة . ومن أقواله أن المبادئ الخلقية شراك ينصبه الماكرون للسذج البسطاء ، وأن الحب العالمى وهمٌ يتوهمه الأطفال الذين لا يعرفون كنه البغضاء العالمية التى هى سنّة الحياة ، وأن حسن الأحدوثة ألعوبة لا يستطيع الحمقى الذين ضحوا من أجلها أن يستمتعوا بعد وفاتهم بها ، وأن الأخيار يقاسون فى الحياة ما يقاسيه الأشرار ، بل إنه ليبدو أن الأشرار أكثر استمتاعاً بالحياة من الأخيار[١٦١] ، وأن أحكم الحكماء الأقدمين ليسوا هم رجال الأخلاق والحاكمين كما يقول كنفوشيوس بل هم عبدة الشهوات ، الذين كان من حظهم

إن استبقوا المشترعين والفلاسفة ، فاستمتعوا بكل لذة دفعتهم إليها غرائزهم . نعم إن الأشرار قد يخلفون وراءهم سمعة غير طيبة ، ولكن ذلك الأمر لا يقلق عظامهم . ثم يدعونا يانج — چو إلى أن نفكر فى مصير الأخيار والأشرار ، فيقول(*) :

إن الناس كلهم مجمعون على أن شون ، ويو ، وچو — جونج ، وكنفوشيوس كانوا خير الناس وأحقهم بالإعجاب ، وأن چياه ، وچو ، شرّهم جميعا .

ولكن شون قد اضطر إلى حرث الأرض فى جنوب نهر هو ، وإلى صنع آنية الفخار بجوار بحيرة لاى ، ولم يكن فى وسعه أن يستريح من عناء العمل لحظة قصيرة ، بل إنه لم يكن يستطيع أن يجد شيئاً من الطعام الشهى والملابس المدفئة ، ولم يكن فى قلب أبويه شىء من الحب له ، كما لم يكن يجد من إخوته وأخواته شيئاً من العطف عليه . . . فلما نزل له « ياو » آخر الأمر عن الملك ، كان قد تقدمت به السن ، وانحطت قواه العقلية ؛ وظهر أن ابنه شانج جو إنسان ناقص العقل عديم الكفاية ؛ فلم يجد بدًّا من أن ينزل عن الملك إلى يو . ومات بعدئذ ميتة محزنة . ولم يكن بين البشر كلهم إنسان قضى حياته كلها بائساً منغصا ، كما قضى هو حياته . . .

« وكان يو قد صرف كل جهوده فى فلح الأرض ، وولد له طفل ولكنه لم يستطع أن يربيه ؛ فكان يمر على باب داره ولا يدخلها ، وانحنى جسمه وانضمر وغلظ جلد يديه وقدميه وتحجر . فلما أن نزل له شون آخر الأمر عن العرش عاش فى بيت وطىء حقير ، وإن كان يلبس ميدعة وقلنسوة ظريفتين . ثم مات ميتة محزنة ، ولم يكن بين الآدميين كلهم من عاش معيشة نكدة حزينة كما عاش يو(*) . . .

« وكان كنفوشيوس يفهم أساليب الملوك والحكام الأقدمين ، ويستجيب

(*) فى وسع القارئ أن يعرف شيئاً عن شون ، ويو بالاطلاع على ص ١٧ من هذا الكتاب وعن چياه وچو (سن) بالاطلاع على صفحتى ١٧ ، ١٨ .

إلى دعوات أمراء عصره . ثم قطعت الشجرة التى يستظل بها فى سونج ، وأزيلت آثار أقدامه من ويه ، وحل به الضنك فى شانج وچو ، وحوصر فى شان ، وتشى ؛ ... وأذله يانج هو وأهانه ، ومات ميتة محزنة ، ولم يكن بين بنى الإنسان كلهم من عاش عيشة مضطربة صاخبة كما عاش كنفوشيوس .

« ولم يستمتع هؤلاء الحكماء الأربعة بالسرور يوما واحداً من أيام حياتهم ، وذاعت شهرتهم بعد موتهم ذيوعاً سوف يدوم عشرات الآلاف من الأجيال ، ولكن هذه الشهرة هى الشىء الذى لا يختاره قط من يعنى بالحقائق ويهتم بها . هل يحتفلون بذكراهم ؟ هذا ما لا يعرفونه . وهل يكافئونهم على أعمالهم ؟ — وهذا أيضاً لا يعرفونه وليست شهرتهم خيراً لهم مما هى لجذع شجرة أو مَدَرة .

أما (چياه) فقد ورث ثروة طائلة تجمعت مدى قرون طويلة؛ ونال شرف الجلوس على العرش الملكى ؛ وأوتى من الحكمة ما يكفيه لأن يتحدى كل من هم دونه مقاماً ؛ ومن القوة ما يكفى لأن يزعزع به أركان العالم كله . وكان يستمتع بكل ما تستطيع العين والأذن أن تستمتعا به من ضروب الملذات ؛ ولم يحجم قط عن فعل كل ما سولت له نفسه أن يفعله . ومات ميتة هنيئة ؛ ولم يكن بين الآدميين كلهم من عاش عيشة مترفة فاسدة كما عاش هو وورث چو (شِنْ) ثروة طائلة تجمعت فى مدى قرون طويلة ، ونال شرف الجلوس على العرش الملكى ؛ وكان له من القوة ما يستطيع به أن يفعل كل ما يريد ؛ ... وأباح لنفسه فى قصوره فعل كل ما يشتهيه ، وأطلق لشهواته العنان خلال الليالى الطوال ؛ ولم يكدر صفو سعادته قط بالتفكير فى آداب اللياقة أو العدالة ، حتى قضى نحبه كأبهج ما يقضى الناس نحبهم . ولم يكن فى الآدميين كلهم من كانت حياته داعرة فاجرة كما كانت حياة چو .

« وقد استمتع هذان الرجلان السافلان فى حياتهما بما شاءا من الملذات وأطلقا لشهواتهما العنان ، واشتهرا بعد وفاتهما بأنهما كانا من أشد الناس حمقاً

واستبداداً ، ولـكنهما استمتعا باللذة وهى حقيقة لا تستطيع أن تهبها حسن الأحدوثة . فإذا لامهم الناس فإنهم لا يعرفون ، وإذا أثنوا عليهم ظلوا بهذا الثناء جاهلين ، وسمعتهم (السيئة) لا تهمهم أكثر مما تهم جذع شجرة أو مدرة[١٦٢] » .

ألا ما أعظم الفرق بين هذه الفلسفة وبين فلسفة كنفوشيوس ! وهنا أيضاً نظن أن الزمان وهو رجعى كالرجعيين من الآدميين قد أبقى لنا آراء أجل المفكرين الصينيين وأعظمهم ، ثم عدا على الباقين كلهم تقريباً فطواهم فى غمرة الأرواح المنسية . ولعل الزمان محق فى فعله هذا ، ذلك أن الإنسانية نفسها ما كانت لتعمر طويلا لو كان فيها كثيرون ممن يفكرون كما يفكر يان چو . وكل ما نستطيع أن نرد به عليه هو أن المجتمع لا يمكن أن يقوم إذا لم يتعاون الفرد مع زملائه أخذاً وعطاء ؛ وإذا لم يتحملهم ويصبر على أذاهم ، ويتقيد بما فى المجتمع من قيود أخلاقية ، وأن الفرد الكامل العقل لا يمكن أن يوجد فى غير مجتمع ؛ وأن حياتنا نفسها إنما تعتمد على ما فيها من قيود . ومن المؤرخين من يرى فى انتشار هذه الفلسفة الأنانية ، بعض الأسباب التى أدت إلى ما أصاب المجتمع الصينى من انحلال فى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد[١٦٣] . فلا عجب والحالة هذه أن يرفع منشيس، چنسن (Dr. Johnson) زمانه عقيرته بالاحتجاج الشديد وبالتشهير بأبيقورية ينج چو وبمثالية مودى فيقول :

« إن أقوال ينج چو ومودى تملأ العالم ؛ وإذا سمعت الناس يتحدثون وجدتهم قد اعتنقوا آراء هذا أو آراء ذاك . فأما المبدأ الذى يدعو إليه ينج فهو هذا : « كل إنسان وشأنه » — وهو مبدأ لا يعترف بمطالب المَلك . أما مبدأ مو فهو هذا : « أحب الناس جميعاً بقدر واحد » — وهو مبدأ لا يعترف بما يحق للأب من حب خاص . ومن لا يعترف بحق الملك ولا بحق الأب فهو فى منزلة الحيوان الأعجم . فإذا لم يوضع لمبادئهما حد ، وإذا لم تَسُدْ مبادئ

كنفوشيوس فإنهما سيخدعان الناس بحديثهما المقلوب ، ويسدان فى وجوههم طريق الخير والصلاح .

« ولقد أزعجتنى تلك الأشياء وأرمضت قلبى ، فوقفت أدافع عن عقائد الحكماء والأقدمين ، وأعارض ينج ومو ، وأطارد أقوالها المنحطة ، حتى يتوارى هؤلاء المتحدثون الفاسدون فلا يجرءوا على الظهور . ولن يغير الحكماء من أقوالى هذه إذا ما عادوا إلى الظهور »[١٦٤] .

٣ — منشيس ، مستشار الأمراء

أم نموذجية — فيلسوف بين الملوك — هل الناس أخيار بالسليقة ؟ — الضريبة الفردية — منشيس والشيوعيون — باعث الكسب — حق الناس فى أن يثوروا

لقد شاءت الأقدار أن يكون منشيس أنبه الفلاسفة الصينيين ذكراً بعد كنفوشيوس ؛ وما أحفل تاريخ الصين بالفلاسفة .

وكان منشيس من سلالة أسرة مانج العريقة ، وكان اسمه فى بادئ الأمر مانج كو ، ثم صدر مرسوم إمبراطورى بتغييره إلى مانج — دزة أى مانج المعلم أو الفيلسوف . وقد بدل علماء أوربا الذين مرنوا على الأسماء اللاتينية هذا الاسم إلى منشيس كما بدلوا كونج — فو — دزه إلى كنفوشيوس .

ويكاد علمنا بأم منشيس يبلغ من الدقة علمنا به هو نفسه ؛ ذلك بأن المؤرخين الصينيين قد خلدوا ذكرها وجعلوها نموذجاً للأمهات بما قصوه عنها من القصص الكثيرة الممتعة . فهم يقولون إنها بدلت مسكنها ثلاث مرات من أجله ؛ بدلته أول مرة لأنهما كانا يسكنان بجوار مقبرة فبدأ الصبى يسلك مسلك دافنى الأموات ؛ وبدلته فى المرة الثانية لأنهما كانا يسكنان بجوار مذبح ، ولذلك بدأ الغلام يجيد محاكاة أصوات الحيوانات المذبوحة ؛ ثم بدلته فى المرة الثالثة

لأنهما كانا يسكنان بجوار سوق فشرع الصبي يسلك مسلك التجار ؛ ثم وجدت آخر الأمر داراً بقرب مدرسة فرضيت بها .

وكانت إذا أهمل الغلام دروسه تقطع خيط النَول ، فإذا سألها عن سبب هذا الإتلاف أجابت بأنها إنما تفعل ما يفعله هو نفسه بإهماله وعدم مثابرته على الدرس والتحصيل . وبذلك أصبح الصبي طالباً مجدًّا ؛ ثم تزوج وقاوم فى نفسه الميل إلى تطليق زوجته ، وافتتح مدرسة لتعليم الفلسفة جمع فيها حوله طائفة من الطلاب ذاع صيتهم فى الآفاق ؛ وبعث إليه الأمراء من كافة الأنحاء يدعونه ليناقشوه فى نظرياته عن الحكم . ولم يشأ فى أول الأمر أن يترك أمه المسنة ، ولكنها أقنعته بالذهاب بخطبة حببتها إلى جميع رجال الصين ، ولعل واحداً منهم هو الذى وضع هذه الخطبة :

« ليس من حق المرأة أن تفصل فى أمر بنفسها ، وذلك لأنها تخضع لقاعدة الطاعات الثلاث : فإذا كانت شابة وجب عليها أن تطيع أبويها ، وإذا تزوجت كان عليها أن تطيع زوجها ، وإذا ترملت وجب عليها أن تطيع ولدها . وأنت رجل كامل الرجولة ، وأنا الآن عجوز ، فافعل ما توحيه إليك عقيدتك بأنه حق واجب عليك أن تفعله ، وسأفعل أنا ما يوجبه علىّ القانون الذى أأتمر بأمره . فلِمَ إذن تشغل نفسك بى ؟ »[١٦٥] .

وأجاب منشيس ما طلب إليه لأن اللهفة على التعليم جزء من اللهفة على الحكم ، ترتبط كلتاهما أشد الارتباط بالأخرى . وكان منشيس كفلتير يفضل الملكية المطلقة على الدمقراطية ، وحجته فى هذا أن الدمقراطية تتطلب تعليم جميع الشعب كله إذا أريد نجاح الحكم ، أما النظام الملكى المطلق فكل ما يطلب فيه أن يثقِّف الفيلسوف رجلا واحداً — هو الملك — ويعلمه الحكمة لكى ينشئ الدولة الكاملة .

ومن أقواله فى هذا المعنى : « أصلح ما فى عقل الأمير من خطأ ، فإنك إن قوّمت الأمير استقرت شئون الدولة »(١٦٦) . وسافر أولا إلى تشى وحاول أن يقوّم أميرها شوان ، ورضى أن يكون له فيها منصب فخرى ، ولكنه رفض مرتب هذا المنصب . وسرعان ما وجد أن الأمير لا يعنى بالفلسفة ، فغادر تلك الإمارة إلى إمارة تانج الصغيرة ، ووجد فى حاكمها تلميذاً مخلصاً وإن يكن تلميذاً عاجزاً ضعيفاً . فعاد مرة أخرى إلى تشى ، وأثبت أنه قد زاد حكمة وفهماً لحقائق الأمور بأن قبل منصباً ذا مرتب كبير عرضه عليه الأمير شوان . ولما توفيت أمه فى هذه السنين الرغدة دفنها باحتفال عظيم وُجِّه اللوم من أجله إلى تلاميذه ، ولكنه برر لهم هـذا العمل بقوله إن كل ما يرمى إليه هو أن يظهر إخلاصه ووفاءه لوالدته .

وبعد بضع سنين من ذلك الوقت تورّط شوان فى حرب للفتح والتملك ، وساءه ما أشار به عليه منشيس من دعوة إلى السلام ، رأى أنها جاءت فى غير أوانها فأقاله من منصبه وسمع منشيس أن أمير سونج يريد أن يحكم حكم الفلاسفة فسافر إلى عاصمته ولكنه وجد أن ما سمعه كان مبالغاً فيه كثيراً ، وأن الأمراء الذين تردد عليهم كانت لهم أعذار كثيرة يبررون بها عدم استقامتهم واتباعهم النصح . فقد قال واحد منهم : « إن لدىّ ناحية من نواحى الضعف ، وهى أنى أحب البطولة والبسالة » . وقال آخر : « إن لدى ناحية من نواحى الضعف وهى أنى أحب الثروة »(١٦٧) .

واضطر منشيس آخر الأمر إلى أن يعتزل الحياة العامة ، وقضى أيام شيخوخته وضعفه فى تعليم الطلاب وتأليف كتاب وصف فيه أحاديثه مع ملوك زمانه . وليس فى وسعنا أن نقول إلى أى حد يمكن مقارنة هذه الأحاديث بأحاديث وولتر سفدج لاندر Walter Savage Lander(*) ؛ ولسنا واثقين من أن هذا

(*) أديب إنجليزى عاش بين سنتى (١٧٧٥ — ١٨٦٤) . (المترجم)

الكتاب من تأليف منشيس نفسه ، أو من تأليف تلاميذه ، أو أنه هو وتلاميذه قد اشتركوا فى وضعه ، أو أنه مدسوس عليه وعليهم[١٦٨] . وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن كتاب *منشيس* من أعظم الكتب الفلسفية الصينية القديمة وأجلّها قدراً .

وعقيدته عقيدة دنيوية خالصة لا تقلّ فى هذا عن عقيدة كنفوشيوس ، ولا يكاد يوجد فيها شىء عن المنطق أو فلسفة المعرفة أو ما وراء الطبيعة . لقد ترك الكنفوشيون هذا إلى اتباع لو — دزه ، ووجهوا همهم إلى البحوث الأخلاقية والسياسية . وكان الذى يهم منشيس هو أن يرسم طريقة للحياة الصالحة وتولى خيار الناس مقاليد الحكم . وكان مبدؤه الأساسى أن الناس أخيار بطبيعتهم[١٦٩] ، وأن ليس منشأ المشاكل الاجتماعية طبيعة الناس بل منشؤها فساد الحكومات ؛ ومن ثم يجب أن يصبح الفلاسفة ملوكا ، أو أن يصبح ملوك هذا العالم فلاسفة . انظر إلى ما يقوله فى هذا المعنى :

والآن ، إذا أردتم جلالتكم أن تنشئوا حكومة أعمالها صالحة ، فإن هذا سيبعث فى جميع موظفى مملكتكم الرغبة فى أن يكونوا فى بلاط جلالتكم ، وفى جميع الزراع الرغبة فى أن يفلحوا أرض جلالتكم ، وفى جميع التجار الرغبة فى أن يخزنوا بضائعهم فى أسواق جلالتكم ، وفى جميع الرحّالة الأغراب الرغبة فى أن يسافروا فى طرق جلالتكم ، وفى جميع من يشعرون فى أنحاء مملكتكم بأن ظلماً قد وقع عليهم من حكامهم الرغبة فى أن يأتوا ويشكوا إلى جلالتكم . وإذا ما اعتزموا أن يفعلوا هذا فمنذا الذى يستطيع أن يقف فى سبيلهم ؟ » .

فقال الملك : « إننى غبى وليس فى وسعى أن أرقى إلى هذا الحد »[١٧٠] .

والحاكم الصالح فى رأيه لا يشن الحرب على البلاد الخارجية بل يشنها على العدو المشترك — وهو الفقر ، لأن الفقر والجهل هما منشأ الجرائم واضطراب النظام ، وعقاب الناس على ما يرتكبونه من الجرائم لأنهم لا تتاح لهم فرص

العمل شَرَك دنيء ينصب للإيقاع بالناس[١٧١] . وواجب الحكومة أن توفر أسباب الرفاهية لرعاياها ، ولهذا ينبغى لها أن تضع الخطط الاقتصادية الكفيلة بتحقيق هذه الغاية[١٧٢] . فعليها أن تفرض أكثر الضرائب على الأرض نفسها لا على ما تغله أو ما يقام عليها من المنشآت[١٧٣] ، وعليها أن تلغى كل العوائد الجمركية وأن تجعل التعليم عاماً وإجبارياً ، لأن هذا أصلح أساس لنشر الحضاره وتقدمها ؛ « والقوانين الطيبة لا تعادل كسب الناس بالتعليم الطيب »[١٧٤] . « وليس الذى يفرق بين الإنسان والحيوان الأعجم بالشيء الكثير ، ولكن معظم الناس يطرحونه وراء ظهورهم ، ولا يحتفظ به إلا عظماء الرجال »[١٧٥] .

وفى وسعنا أن ندرك قدم المشاكل السياسية التى تواجه عصرنا المستنير ، وموقفنا منها ، وما نضعه لها من الحلول ، إذا عرفنا أن منشيس قد نبذه الأمراء المتطرفون ، وسخر منه الاشتراكيون والشيوعيون فى عصره لمحافظته واستمساكه بالقديم . ولما قال شوشنج جزار الجنوب الهمجى ينادى بإنشاء دكتاتورية الصماليك ، ويطالب بأن يكون الصناع على رأس الدولة ، « وأن يكون الفعلة هم الحكام » لما قام يدعو إلى هذا ، واعتنق دعوته كثيرون من « المتعلمين » ، كما اعتنق المتعلمون هذه الدعوة نفسها فى أيامنا الحاضرة ، وانضووا تحت لوائه ، رفض منشيس هذه الفكرة بازدراء ، وقال « إن الحكومة يجب أن يتولاها المتعلمون[١٧٦] » . ولكنه ندد أيضاً بالفكرة القائلة إن الكسب يجب أن يكون هو الباعث على العمل فى المجتمع الإنسانى ، وعاب على سونج كانج قوله إن الملوك يجب اكتسابهم لقضية السلام بإقناعهم — فى لغة هذه الأيام — بأن الحرب عمل غير مربح . وفى هذا يقول:

« إن غرضك شريف ، ولكن منطقك غير سليم . ذلك بأنك إذا اتخذت الكسب أساساً لحجتك واستطعت أن تقنع بها ملوك تشين وتشى ، وأعجب هؤلاء الملوك بفكرة الكسب فأمروا بوقف حركات جيوشهم ، فإن كل المتصلين

بهؤلاء الجيوش سيفرحون بوقف (القتال) ، وسيجدون أعظم السرور فى (السعى وراء الكسب) . فنرى الوزراء يخدمون الملك جرياً وراء الكسب الذى حبب إليهم ، والأبناء يخدمون آباءهم ، والإخوة الصغار يخدمون الكبار من إخوتهم ، لهذا السبب عينه ، ونتيجة هذا أن الملك والوزراء ، والأب والابن ، والأخ الأكبر والأصغر ينسون كلهم بواعث الخير والصلاح ، ويوجهون أعمالهم كلها نحو الكسب المحبب إليهم العزيز عليهم . ولم يوجد قط (مجتمع) كهذا إلا كان مآله الخراب »[١٧٧] .

وكان يعترف بحق الشعوب فى الثورة وينادى بهذا المبدأ فى حضرة الملوك . وكان يندد بالحرب ويراها جريمة ، ولشد ما صدم عقائد الأبطال فى أيامه حين كتب يقول : « من الناس من يقول إنى بارع فى تنظيم الجند ، وإنى ماهر فى إدارة المعارك . وأولئك هم كبار المجرمين »[١٧٨] .

وقال فى موضع آخر : « ليس ثمة حرب عادلة »[١٧٩] . وكان يندد بترف حاشية الملوك ، ويوجه أشد اللوم للملك الذى يطعم كلابه وخنازيره ويترك الناس يموتون جوعاً[١٨٠] . ولما قال أحد الملوك إنه لا يستطيع منع المجاعة أجابه منشيس بأنه ينبغى له أن يعتزل الملك[١٨١] . وكان يقول لتلاميذه : « إن الناس أهم عنصر (من عناصر الأمة) ؛ ... وإن الملك أقل هذه العناصر شأناً »[١٨٢] . وإن من حق الناس أن يخلعوا حكامهم ، بل إن من حقهم أن يقتلوهم فى بعض الأحايين .

« وسأل الملك شوان عن الوزراء العظام ... فأجابه منشيس : « إذا كان الملك يرتكب أغلاطاً شنيعة وجب عليهم أن يعارضوه ، فإذا لم يستمع إليهم بعد أن يفعلوا هذا مرة بعد مرة ، وجب عليهم أن يخلعوه ... » .

ثم واصل منشيس حديثه قائلا : « إذا فرض أن القاضى الأكبر الذى يحكم فى الجرائم قد عجز عن السيطرة على الموظفين (الخاضعين له) فماذا تفعل به ؟ » .

فأجابه الملك بقوله : « أفصله من منصبه » . ثم قال له منشيس : « وإذا لم يكن في داخل حدود (مملكتك) الأربعة حكومة صالحة فماذا تفعل ؟ » فتلفت الملك يمنة ويسرة وأخذ يتحدث عن أمور أخرى...

وسأله الملك شوان : « وهل من أجل ذلك أمر تانج بنفي چياه وضرب الملك « وُ» حاكم چو (سن) ؟ فأجاب منشيس : « هكذا تقول السجلات »

وسأله الملك : « وهل يحق للوزير أن يقتل مليكه ؟ » فأجابه منشيس : « إن الذي يخرج على ما أودع فيه من (طبيعة خيرة) يسمى لصا ؛ والذي يخرج على قواعد الاستقامة يسمى وغداً ؛ وليس كل من اللص والوغد في عرفنا إلا شخصاً لا قيمة له ؛ ولقد سمعت بتقطيع أوصال الشخص چو، ولكني لم أسمع بقتل ملك»[١٨٣].

تلك عقيدة ما أجرأها ، ولقد كانت عاملا كبيراً في تقرير المبدإ الذي يقره ملوك الصين وأهلها ، وهو أن الحاكم الذي يستثير عداوة الشعب يفقد « حقه الإلهي » في الحكم ، ومن حق الشعب أن يخلعه . فلا عجب والحالة هذه إذا غضب هونج وو ، مؤسس أسرة منج . حين قرأ هذا الحديث الذي دار بين منشيس والملك شوان ، وأمر أن يمحى اسم منشيس من مكانه في هيكل كنفوشيوس ، وكانت لوحة تذكارية قد وضعت له في هذا المعبد بأمر ملكي في عام ١٠٨٤ ، ولكن اللوحة أعيدت إلى مكانها ولما يمض عام واحد على إزالتها ، وظل منشيس من ذلك الوقت إلى ثورة عام ١٩١١ يعد بطلا من أبطال الصين وثاني اثنين ذاع صيتهما في جميع عهود تاريخها ، وكان لها أعظم الأثر في فلسفتها الصحيحة . وإليه وإلى چوشي(*) يرجع الفضل في احتفاظ كنفوشيوس بزعامته الفكرية في الصين أكثر من ألفي عام .

(*) انظر بحث الفلسفة في الفصل الأول من الباب الخامس عشر .

٤ — شون — دزه ، واقعى

النفس البشرية أمارة بالسوء — ضرورة القوانين

كان فى فلسفة منشيس كثير من نقط الضعف ، وكان يسر معاصريه أن يشهروا بهذه النقط بأعظم مايستطيعون من قوة . أحق أن الناس أخيار بطبيعتهم وأنهم لا ينحدرون إلى الشر إلا إذا فسدت النظم التى يعيشون فى كنفها ؟ أم الصحيح أن الطبيعة البشرية هى السبب فى شرور المجتمع ؟ لقد كان هذان الرأيان المتعارضان مثاراً لجدل عنيف ظل قائماً آلاف السنين بين المصلحين والمحافظين . فهل تستطيع التربية أن تنقص الجرائم ، وتزيد الفضائل ، وتأخذ بيد الناس إلى المثل العليا ، وتمكنهم من إقامة الدولة الفاضلة المثالية ؟ وهل يصلح الفلاسفة لحكم الدول أو أن فلسفتهم لا تؤدى إلا إلى زيادة ما يحاولون علاجه من فوضى واضطراب ؟

وكان أشد الناس نقداً لمنشيس وأصعبهم مراساً أحد الموظفين العموميين ، ويلوح أنه توفى فى عام ٢٣٥ ق . م وهو فى سن السبعين . ذلك هو شون — دزه الذى سبقت الإشارة إليه فى هذا الباب وكما كان منشيس يعتقد أن الناس جميعهم أخيار بطبيعتهم ، كان شون — دزه يرى أنهم جميعاً أشرار بفطرتهم ، وحتى شون ويو كانا متوحشين حين ولدا[١٨٤] . وقد وصلت إلينا قطعة من كتابات شون — دزه يبدو فيها أشبه الناس بالفيلسوف الإنجليزى هبز Hobbes إذ يقول :

« النفس البشرية أمارة بالسوء ، وما تعمله من خير متكلف مصطنع[*] . فهى قد غرس فيها من ساعة مولدها حب الكسب ؛ » اذ كانت أعمال الإنسان

(*) أى أن ما فى الإنسان من خير غير أصيل فيه بل أكسبته إياه تربيته والنظم التى يعيش فى كنفها .

إنما تقوم على هذا الحب فإن هذا يؤدى إلى انتشار المنازعات والسرقات. وليس إنكار الذات والاستسلام للغير من (طبيعة) الإنسان، بل إن من طبيعته التحاسد والتباغض، ولما كانت أعمال الناس لا بد أن تتفق مع طباعهم فإنهم لا يصدر عنهم إلا العنف والأذى، ولا نرى فيهم إخلاصاً أو وفاء.

ومن طبيعة الإنسان أيضاً إشباع الأذن والعين، وهذا يؤدى إلى حب الأصوات العذبة والمناظر الجميلة. ولما كانت أعمال الناس لا بد أن تتفق مع هذه وتلك، كان لا بد أن توجد الدعارة وسوء النظام، وأن تنعدم الاستقامة والاحتشام ومظاهرهما المختلفة المنسقة. ومن هذا يتضح أن السير وفق الطبيعة البشرية وإطاعة أحاسيسها، يؤديان حتماً إلى الخصام واللصوصية، وإلى مخالفة الواجبات التى تتفق مع الوضع الذى وجد فيه كل إنسان، وإلى الخلط بين كل المراتب والمميزات حتى تعم الهمجية. ولهذا كان لا بد من قيام سلطان المعلمين وسلطان الشرائع، والاهتداء بقواعد الاستقامة والاحتشام التى ينشأ عنها إنكار الذات، والخضوع للغير، ومراعاة قواعد السلوك المنظمة، مما يؤدى إلى قيام الدولة، ذات الحكومة الصالحة.. وقد أدرك الملوك الأقدمون الحكماء ماطبعت عليه النفس البشرية من شر، فوضعوا قواعد الاستقامة والآداب، وسنوا النظم والقوانين ليقوموا طبائع الناس ومشاعرهم ويصلحوهم.. حتى يسلكوا جميعاً سبيل الحكم الصالح الذى يتفق مع العقل»[١٨٥].

ووصل شون — دزه فى بحوثه إلى ماوصل إليه ترجنيف وهو أن الطبيعة ليست معبداً يضم الصالحين، بل هى مصنع يجتمع فيه الصالح والطالح؛ وهى تقدم المادة الغفل، التى يعمل فيها الذكاء فيصوغها ويشكلها. وكان يظن أن أولئك الناس الأشرار بطبعهم، إذا دربوا على الخير، قد يصلحون، بل إن فى وسعهم إذا أريد لهم ذلك أن يكونوا قديسين[١٨٦].

ولما كان شوِن — دزه شاعراً وحكيماً معاً فقد نظم فلسفة فرانسس بيكن في هذا الشعر الركيك :

إنكم تمجدون الطبيعة وتتفكرون فيها ،
فلِم لا تسخرونها وتنظمونها ؟
إنكم تطيعون الطبيعة وتسبحون بحمدها ،
فلِم لا تسيطرون على أساليبها وتستخدمونها ؟
إنكم تنظرون إلى الفصول نظرة الإجلال وتنتظرونها ،
فلِم لا تستجيبون إليها ببذل النشاط في أوانه ؟
إنكم تعتمدون على الأشياء الخارجة عنكم وتعجبون بها ،
فلِم لا تكشفون عن كفاياتكم ؟
وتوجهونها الوجهة الصالحة ؟(١٨٧) .

٥ — جونج — دزه ، مثالي

الرجوع إلى الطبيعة — المجتمع اللاحكومي — طريقة الطبيعة — حدود الذهن — تطور الإنسان — مُشكِل الأزرار — أثر الفلسفة الصينية في أوربا

على أن « الرجوع إلى الطبيعة » لم يكن من السهل أن يقاوم بهذه الطريقة ؛ بل قام في ذلك العصر من يدعو إليه كما قام من يدعو إليه في كل العصور . ومن المصادفات التي يمكننا أن نسميها مصادفات طبيعية أن كان الداعي إلى هذا الرجوع أبلغ كتاب عصره وأفصحهم لساناً . لقد كان جُوَنج — دزه مولعاً بالطبيعة يرى أنها سيدته التي تتحفى به على الدوام مهما كان بفيه أو كانت سنه ، ومن أجل هذا فاضت فلسفته بأحاسيس روسو الشعرية مضافاً إليها مُلَحُ فلتير المجانية . ومنذا الذي يستطيع أن يتصور أن منشيس ينسى نفسه بحيث يصف أحد الناس

بأن له : « جدرة(*) كإبريق من الفخار »(١٨٨) ، وقصارى القول أن چوَنج أديب وفيلسوف معاً .

ولد هذا الفيلسوف فى ولاية سونج ، وتقلد وقتاً ما منصباً صغيراً فى مدينة خِيُآن . وزار قصور الملوك التى زارها منشيس ، ولـكن كلا الرجلين لا يذكر فيما بقى لنا من كتاباته اسم الآخر . ولعل كليهما كان يحب صاحبه كما يحب المعاصرون بعضهم بعضاً . ويروى عنه أنه رفض منصباً كبيراً مرتين ، ولما عرض عليه دوق — وبه رياسة الوزارة رد على رسول الملك رداً مقتضباً يدل على ما يتراءى للـكاتب من أحلام فقال : « اذهب من هنا لساعتك ولا تدنسنى بوجودك ، لخير لى أن أسلى نفسى وأمتعها فى حفرة قذرة من أن أخضع للقواعد فى بلاط ملك من الملوك »(١٨٩) .

وبينما كان يصطاد السمك فى يوم من الايام إذ أقبل عليه رجلان من كبار الموظفين يحملان إليه رسالة من ملك خو يقول فيها : أريد أن أحملك عبء جميع ملـكى » ، فأجابه چوَنج ، كما يقول هو نفسه ، دون أن يرفع نظره عن صيده .

« لقد سمعت أن فى خو صدفة سلحفاة كأنها روح من الأرواح ، وقد ماتت سلحفاتها منـذ ثلاثة آلاف عام ، وأن الملك يحتفظ بهذه الصدفة فى معبد أسلافه ، وأنه يضعها فى سلة مغطاة بالقماش . فهل كان خيراً للسلحفاة أن تموت وتترك صدفتها تعظم على هذا النحو ؟ أو هل كان خيراً لها أن تظل حية تجر ذيلها من خلفها فى الوحل ؟ » فأجاب الموظفان الـكبيران : « لقد كان خيراً لها أن تعيش وتجر ذيلها من خلفها فى الوحل » ؛ فقال لهما چونج : « اذهبا فى سبيلـكما ، وسأظل أجر ذيلى ورائى فى الوحل »(١٩٠) .

(*) الجدرة تضخم الغدة الدرقية وهذا اللفظ من الألفاظ التى أقرها مجمع اللغة العربية . (المترجم)

وكان احترامه للحكومات يعدل احترام سلفه الروحى يو — دزه ، فكان يسره أن يشير إلى عدد مايتصف به الملوك والحكام من صفات اللصوص[١٩١].
ويقول إنه إذا أدى الإهمال بأحد الفلاسفة الحقيقيين ، إلى أن يرى نفسه يتولى شئون إحدى الدول ، فإن الخطة المثلى التى يجب عليه أن يسلكها هى ألا يفعل شيئاً ، وأن يترك الناس أحراراً يضعون مايشاءون من نظم حكمهم الذاتى . « لقد سمعت عن ترك العالم وشأنه ، والكف عن التدخل فى أمره ، ولم أسمع عن حكم العالم »[١٩٢] ولم يكن ثمة حكومات فى العصر الذهبى الذى سبق عهد أقدم الملوك .

ولم يكن يو وشون خليقين بما حبتهما الصين وحباها كنفوشيوس من تشريف وتعظيم ، بل كانا خليقين بأن يتهما بالقضاء على ما كانت الإنسانية تستمتع به من سعادة بدائية قبل إقامة نظم الحكم فى العالم : « لقد كان الناس فى عهد الفضيلة الكاملة يعيشون مجتمعين كما يعيش الطير والحيوان ، ولا يفترقون عنهما فى شىء ، تتألف منهم ومن جميع المخلوقات أسرة واحدة . وأنى لهم أن يعرفوا فيما بينهم ما يميز العظماء فيهم من غير العظماء ؟ »[١٩٣] .

ويرى چوانج أن من واجب الرجل العاقل أن يولى الادبار حين يشاهد اولى معالم الحكومة ، وأن يعيش أبعد مايستطيع عن الفلاسفة والملوك ، ينشد السلام والسكون فى الغابات (وذلك موضوع جد آلاف من المصورين الصينيين فى رسمه) وأن يترك كيانه كله يتبع الدَّو المقدس — قانون حياة الطبيعة ومجراها الذى لا تدركه العقول — من غير أن يعوقه عن ذلك تفكير أو تدبير ، لا يتكلم إلا قليلا لأن الكلام يضل بقدر ما يهدى ، ولأن الدو — طريقة الطبيعة وجوهرها — لا يمكن التعبير عنه بالألفاظ أو صياغته فى أفكار ، بل كل ما فى الأمر أنه يمكن الشعور به فى الدم . وهو يرفض أن يستعين بالآلات ويؤثر عليها الطرق القديمة المجهدة التى كان يجرى عليها بسطاء الرجال ، وذلك لأن الآلات تؤدى إلى التعقيد والفتنة وعدم المساواة بين الناس ؛ وليس فى مقدور أى إنسان

أن يعيش بين الآلات ويستمتع بالسلام[١٩٤]. وهو يأبى أن يكون له مِلكٌ خاص ولا يجد للذهب نفعاً له فى حياته ؛ ويفعل ما فعله تَيْمُن[*] الأثينى فيترك الذهب مخبوءا فى جوف التلال واللآلئ فى أعماق البحار . والذى يمتاز به من غيره أنه يفهم أن الأشياء جميعها تخص خزانة واحدة ، وأن الموت والحياة يجب أن ينظر إليهما نظرة واحدة »[١٩٥][**] ، — على أنهما نغمتان من أنغام الطبيعة المتناسقة ، أو موجتان فى بحر واحد .

وكان الأساس الذى يقوم عليه تفكير چونج عين الأساس الذى يقوم عليه تفكير لو — دزه شبه الأسطورى . وكان تفكير لو — دزه هذا يبدو لچونج أعمق كثيراً من تفكير كنفوشيوس ، وكان فى جوهره النظرة الصوفية لوحدة الكون غير الشخصية الشبيهة شبهاً عجيباً بنظرة بوذا وأتباع أپانيشاد ، حتى ليكاد المرء يعتقد أن فلسفة ما وراء الطبيعة الهندية قد تسربت إلى الصين قبل أربعمائة عام من ظهور البوذية فيها حسبما يسجله المؤرخون . نعم إن چونج فيلسوف لا أدرى ، جبرى ، من القائلين بالحتمية ومن المتشائمين ، ولكن هذا لا يمنعه أن يكون قديساً متشككا ، ورجلا أسكرته الذَّرِّية ؛ وهو يعبر عن تشككه هذا تعبيراً يميزه من غيره من أمثاله فى القصة الآتية :

قال شبه الظل يوماً ما للظل[†] « إنك تارة تتحرك وتارة تثبت فى مكانك ، تارة تجلس وتارة تقوم ، فلم هذا التذبذب فى القصد وعدم الاستقرار فيه ؟ » فأجابه الظل بقوله : « إن شيئاً أعتمد عليه هو الذى يجعلنى أفعل ما أفعله ،

(*) شخصية معروفة من شخصيات شيكسبير فى إحدى مسرحياته المسماة بهذا الاسم . اقرأ وصف هذه الشخصية فى كتابنا « قصص من شيكسبير » . (المترجم)

(**) ما أشبه هذا بقول حكيم المعرة :

وشبيه صوت النعى إذا قيس بصوت البشير فى كل ناد (المترجم)

(†) شبه الظل فى الخسوف هو جزء النصف المضاء بين الظل وبين الضوء . ولعل چونج يقصد بالظل فى قصته جنس الإنسان الذى يستنطقه العقل المستنير بعض الاستنارة . (المترجم)

ولـكن هذا الشيء نفسه يعتمد على شيء آخر يضطره إلى أن يفعل هو الآخر ما يفعله ... وأنى لى أن أعرف لم أفعل هذا الشيء ولا أفعل ذاك ؟ ... إن الجسم إذا بلى بلى العقل معه ؛ ألا ينبغى لنا أن نقول إن هذه حال يرثى لها كثيراً ؟ ... إن ما يحدث فى الأشياء كلها من تغيير — وجود ثم عدم — يسير (بلا انقطاع) ؛ ولـكننا لا نعرف منذا الذى يُسيِّر هذه الحركة فى طريقها على الدوام : وأنى لنا أن نعرف متى يبدأ الواحد منا ؟ وأنى لنا أن نعرف متى ينتهى ؟ إن كل ما فى وسعنا أن ننتظر هذه البداية والنهاية ، لا أكثر من هذا ولا أقل »[١٩٦] .

ويظن جونج أن هذه المشاكل إنما تنشأ من قصور تفكيرنا أكثر مما تنشأ من طبيعة الأشياء نفسها . فلا عجب والحالة هذه أن تنتهى الجهود التى تبذلها عقولنا الحبيسة لفهم العالم الأكبر الذى تكون هى جزيئات صغيرة منه ، لا عجب أن تنتهى هذه الجهود بالمتناقضات والقوانين المتعارضة . ولقد كانت هذه المحاولة التى ترمى إلى تفسير الـكل باصطلاحات الجزء إسرافاً فى التطاول والاعتداد بالنفس ، لا نجيزها إلا لما فيها من تسلية وفكاهة ؛ لأن الفكاهة ، كالفلسفة ، هى النظر إلى الـكل بمصطلحات الجزء ، وكلاهما لا يمكن وجوده بغير الآخر .

ويقول جونج — دزه إن العقل لا يفيد فى فهم الأشياء الغائية أو أى شىء عميق كنمو الطفل مثلا . « وليس الجدل إلا دليلا على عدم وضوح الرؤيا » ، وإذا أراد الإنسان أن يفهم الدّو « فعليه أن يكبت عليه أشد الـكبت »[١٩٧] إن من واجبنا أن ننسى نظرياتنا ونشعر بالحقائق ؛ وليس التعليم بنافع لنا فى هذا الفهم ، وأهم شيء فى هذا أن نلتقى بأنفسنا فى غمرات الطبيعة .

وما هو الدو الذى يراه الصوفى المحظوظ النادر الوجود ؟ إنه شىء لا يمكن التعبير عنه بالألفاظ ؛ وكل ما نستطيع أن نصفه به فى عبارات ضعيفة ملأى

بالمتناقضات هو قولنا إنه وحدة الأشياء كلها وانسيابها المادىّ من نشأتها إلى كمالها ، والقانون الذى يسيطر على هذا الانسياب .

« ولقد كان موجوداً ثابتاً منذ الأزل قبل أن توجد السماء والأرض »[١٩٨] وفى هذه الوحدة العالية تتلاشى كل المتناقضات ، وتزول كل الفروق ، وتتلاقى كل الأشياء المتعارضة ؛ وليس فيه ولا فى نظرته إلى الأشياء طيب أو خبيث ، ولا أبيض أو أسود ، ولا جميل أو قبيح[*] ، ولا عظيم أو حقير . وإذا عرف الإنسان أنّ العالم صغير كحبة الخردل ، وأن طرف الشعرة لا يقل فى الارتفاع عن قمة الجبل ، أمكن أن يقال عنه إنه يعرف النسبة بين الأشياء »[٢٠٠] . وفى هذا الشكل المبهم الغامض لا يدوم شكل من الأشكال ، وليس فيه صورة فذة لا تنتقل إلى صورة أخرى فى دورة التطور التى تسير على مهل :

« إن بذور (الأشياء) دقيقة ولا حصر لها . وهى تتكون على سطح الماء نسيجاً غشائيا . فإذا وصلت إلى حيث تلتقى الأرض والمياه اجتمعت وكونت (الحزاز الذى يكون) كساء الضفادع والحيوانات الصوفية . فإذا دبت فيها الحياة على التلال والمرتفعات صارت هى الطلح ؛ فإذا غذاها السماد أضحت نبات عش الغراب . ومن جذور عش الغراب ينشأ الدود ، ومن أوراقه ينشأ الفراش ثم يستحيل الفراش حشرة — وتعيش تحت موقد . ثم تتخذ الحشرة صورة اليرقة ، وبعد ألف عام تصبح اليرقة طائراً . . . ثم تتحد الينجشى مع خيزرانة فينشأ من اتحادهما الخنج — تنج ؛ ومنه ينشأ النمر ، ومن النمر ينشأ الحصان ، ومن الحصان ينشأ الإنسان . فالإنسان جزء من آلة (التطور) العظيمة ، التى تخرج منها جميع الأشياء ، والتى تدخل فيها بعد موتها »[٢٠١] .

لا ننكر أن هذه الأقوال ليس فيها من الوضوح ما فى نظرية دارون

(*) « كانت شى — شيه امرأة جميلة ، ولكن لما انعكست ملامحها فى الماء فرت منها الأسماك خائفة »[١٩٩] .

ولـكنها أيًا ما كان غموضها نظرية تطور .

« وفى هذه الدورة اللانهائية قد يستحيل الإنسان إلى صور آخرى غير صورته ؛ ذلك أن صورته الحالية ليست إلا مرحلة عابرة من مراحل الانتقال ، وقد لا تكون فى سجل الخلود حقيقة إلا فى ظاهر أمرها — أو جزءا من الفوارق الخداعة التى تُغَشِّى بها مايا جميع الـكائنات[٢٠١] .

« رأيت أنا چوانج — دزه مرة فى منامى أنى فراشة ترفرف بجناحيها فى هذا المكان وذاك ، أنى فراشة حقًا من جميع الوجوه . ولم أكن أدرك شيئًا أكثر من تتبعى لخيالاتى التى تشعرنى بأنى فراشة . أما ذاتيتى الإنسانية فلم أكن أدركها قط . ثم استيقظت على حين غفلة وهأنذا منطرح على الأرض رجلا كما كنت ، ولست أعرف الآن هل كنت فى ذلك الوقت رجلا يحلم بأنه فراشة ، أو أننى الآن فراشة تحلم بأنها رجل[٢٠٢] » .

وليس الموت فى رأيه إلا تغيراً فى الصورة ، وقد يكون تغيراً من حال إلى حال أحسن منها ؛ أو أنه كما قال إبسن Ibsen فيما بعد الصائغ الذى يصهرنا مرة أخرى فى أتون التغير والتطور :

« مرض تزه — لاى حتى أصبح طريح الفراش يلفظ آخر أنفاسـه ، ووقف من حوله زوجه وأبناؤه يبكون ، وذهب لى يسأل عنه فلما أقبل عليهم قال لهم : « اسكتوا وتنحوا عن الطريق ! ولا تقلقوه فى حركة تبدله » ... ثم اتكأ على الباب وتحدث إلى (الرجل المحتضر) . فقال له تزه — لاى : « إن صلة الإنسان بالين واليانج أقوى من صلته بأبويه . فإذا كانا يتعجلان موتى وأعصى أنا أمرهما ، فإنى أعد حينئذ عاقًا شرسًا . هنالك « كتلة (الطبيعة) العظمى » التى تجعلنى أحمل هذا الجسم ، وأكافح فى هذه الحياة ، وتهد قواى فى سن الشيخوخة ، ثم أستريح بالموت . وإذن فذلك الذى يعنى بمولدى هو الذى يعنى بوفاتى . فها هو ذا صاهر يصب المعادن . فإذا كان المعدن الذى يتأرجح

أثناء صبه ينادیه : « يجب أن أكون مویه (سيفاً قديماً مشهوراً) فإن الصاهر العظيم يعد هذا المعدن معدناً خبيثاً بلا ريب . وذلك أيضاً شأن الإنسان ، فإذا ما أصر على أن يكون إنساناً ولا شيء غير إنسان ، لأنه فى يوم من الأيام قد تشكل فى صورة الإنسان ، إذا فعل هذا فإن من بيده تصوير الأشياء وتشكيلها سيعده بلا ريب مخلوقاً خبيثاً . وإذن فلننظر إلى السماء والأرض نظرتنا إلى مصهر عظيم ، ولننظر إلى مبدل الأشياء نظرتنا إلى صاهر عظيم ؛ فهل لا نكون فى مكاننا الحق أينما ذهبنا ؟ إن السكون هو نومنا والهدوء هو يقظتنا »[٢٠٣] .

ولما تصرم أجل چونج نفسه أعد أتباعه له جنازة فخمة ، ولكنه نهاهم عن ذلك وقال لهم : « أليس موكب لجنازتى معداً إذا كانت السماء والأرض تابوتى وغطائى ، والشمس والقمر والنجوم شعائرى ، والخلائق كلها تشيعنى إلى قبرى؟ » ولما عارض أتباعه فى هذا ، وقالوا إنه إن لم يدفن أكلت طيور الهواء الجارحة لحمه ، رد عليهم چونج بقوله : « سأكون فوق الأرض طعاماً للحدأ ، وسأكون تحتها طعاماً لصراصير الطين والنمل ؛ فلم تحرمون بعضها طعامها لتقدموه للبعض الآخر ؟ »[٢٠٤]

وإذا كنا قد أطنبنا فى الكلام على فلاسفة الصين الأقدمين فإن بعض السبب فى هذا يرجع إلى أن مشكلات الحياة الإنسانية المعقدة العسيرة الحل ومصائرها تستغرق تفكير العقل الباحث ، وأن بعضه الآخر يرجع إلى أن علم فلاسفة الصين الأقدمين هو أثمن تراث خلفته تلك البلاد للعالم . ومن الدلائل القوية على قدر هذه الفلسفة أن ليبنتز Leibntiz صاحب العقل العالى الواسع، قام من زمن بعيد (فى عام ١٦٩٧) ، بعد أن درس الفلسفة الصينية ، ينادى بضرورة تطعيم فلسفة الشرق والغرب كلتيهما بالأخرى ، وعبر عن رأيه هذا بألفاظ ستظل محتفظة بقيمتها فى كل عصر ولكل جيل :

« إن الأحوال السائدة بيننا وما استشرى فى الأرض من فساد طويل

العهد تكاد كلها تحملنى على الاعتقاد بأن الواجب أن يرسل إلينا مبشرون صينيون ليعلمونا أساليب الأديان القومية وأهدافها ... ذلك بأنى أعتقد أنه لو عين رجل حكيم قاضيا ... ليحكم أى الشعوب أفضل أخلاقا من سواها ، لما تردد فى الحكم للصين بالأسبقية فى هذا المضمار »[٢٠٥] . وقد طلب ليبنتز إلى بطرس الأكبر أن ينشئ طريقاً برياً للصين ، ودعا إلى إنشاء جمعيات فى مسكو وبرلين « لارتياد الصين وتبادل المدنيتين الصينية والأوربية »[٢٠٦] . وفى عام ١٧٢١ بذل كرستيان ولف Christian Wolff[*] مجهوداً آخر فى هذه السبيل ، وذلك بما ألقاه من محاضرات فى جامعة هال Halle « عن فلسفة الصينيين العلمية » ، واتهمه ولاة الأمور بالإلحاد وفصلوه من منصبه ؛ فلما أن جلس فردرك الأكبر على عرش بروسيا دعاه إليها ورد إليه اعتباره[٢٠٧] .

وجاء عصر الاستنارة فى فرنسا فعنى بالفلسفة الصينية ، كما عنى بتنسيق الحدائق الفرنسية على نمط الحدائق الصينية ، وتزيين المنازل بالنقوش والأدوات الصينية . ويلوح أن الفلاسفة الاقتصاديين الطبيعيين (الفزيوقراطيين) قد تأثروا بآراء لو — دزه ، وچونج — دزه فى نظرية « التخلى » Laissez faire وترك الأمور تجرى فى مجراها ، وهى النظريه الاقتصادية التى يقولون بها ويدعون إليها[٢٠٨] . ولقد كان روسو يتحدث فى بعض الأحيان كما يتحدث المعلم القديم[**] وإنا لنتبين صلة وثيقة بينه وبين لو — دزه وچونج ، ولو أن كنفوشيوس

(*) فيلسوف وعالم رياضى ألمانى (١٦٧٩ — ١٧٥٤) .

(**) مثال ذلك . « أن الترف والفجور والإسترقاق كانت على الدوام سوط العذاب الذى يصب على الجهود الطموحة التى بذلناها لنخرج من الجهل السعيد الذى وضعتنا فيه الحكمة الأزلية » . ويرى الأستاذ إلبرت توميس Elbert Thomas (عضو مجلس الشيوخ الأمريكى الآن) الذى نقل هذه العبارة من كتاب « أحاديث عن تقدم العلوم والفنون » (Discourses on the Progress of Sciences and Arts) أن لفظ « الحكمة الأزلية » غير ترجمة « للدوية الأزلية » التى وردت على لسان لو — دزه[٢٠٩] .

ومنشيس قد وهبا ملكة الفكاهة لكانت الصلة وثيقة بينهما وبين فلتير . وفى هذا يقول فلتير نفسه : « لقد قرأت كتب كنفوشيوس بعناية ، واقتبست فقرات منها ، ولم أجد بها إلا أنقى للبادئ الخلقية التى لا تشوبها أقل شائبة من الشعوذة »[٢١٠] . وقد كتب جيته فى عام ١٧٧٠ يقول إنه اعتزم أن يقرأ كتب الصين الفلسفية القديمة ، ولما دوت مدافع نصف العالم فى ليبزج Leipzig بعد ثلاثة وأربعين عاماً من ذلك الوقت لم يلتفت إليها الحكيم الشيخ لأنه كان منهمكا فى دراسة الآداب الصينية[٢١١] .

ولعل هذه المقدمة القصيرة غير العميقة تحفز القارئ إلى متابعة دراسة الفلاسفة الصينيين أنفسهم كما درسهم جيته وفلتير وتولستوى .

الباب الرابع والعشرون

عصر الشعراء

الفصل الأول

بسمرك الصين

عهد الدول المتنازعة – انتحار تشوينج – شى هونج – دى يوحد الصين – السور الكبير – « إحراق الكتب » – إخفاق شى هونج – دى

أكبر الظن أن كنفوشيوس مات بائساً ، لأن الفلاسفة يحبون توحيد البلاد ، ولأن الأمة التى حاول أن يوحّدها تحت حكم أسرة قوية ظلت سادرة فى الفوضى والفساد والانقسام . ولما أن ظهر هذا الموحد العظيم فى آخر الأمر واستطاع بعبقريته الحربية والإدارية أن يؤلف من دويلات الصين دولة واحدة أمر بأن يحرق كل ما كان باقياً من كتب كنفوشيوس .

وفى وسعنا أن نحكم على الجو الذى كان يسود « عهد الدول المتنازعة » من قصة تشوينج ، وهو رجل بدأ نجمه يلمع فى سماء الشعر ، حتى سما إلى مركز عظيم فى وظائف الدولة ، ثم ألفى نفسه وقد طرد من منصبه على حين غفلة ، فاعتزل الحياة العامة ولجأ إلى الريف ، وأخذ يفكر فى الحياة والموت إلى جانب غدير هادئ ، وسأل متنبئاً من المتنبئين :

« هل ينبغى لى أن أواصل السير فى طريق الحق والوفاء ، أو أسير فى ركاب جيل فاسد ضال ؟ هل أعمل فى الحقول بالفأس والجرف أو أسعى للرق فى حاشية عظيم من العظماء ؟ هل أعرض نفسى للخطر بما أنطق به من صريح اللفظ أو أتذلل بالنغم الزائف للأثرياء والعظماء ؟ وهل أظل قانعاً راضياً بنشر الفضيلة

أو أمارس فن مصانعة النساء كى أنال النجاح ؟ هل أكون نقى السريرة ، طاهر اليد صالحاً مستقيما ، أو أكون معسول الكلام ، مذبذباً ، متزلفاً ، نهازاً للفرص ؟ »[١].

وتخلّص الرجل من هذه المشكلة العويصة بالانتحار غرقاً (حوالى ٣٥٠ قبل الميلاد) . ولا يزال الصينيون حتى يومنا هذا يحيون ذكراه فى كل عام ، ويحتفلون بهذه الذكرى فى يوم عيد القارب الكبير وهو اليوم الذى ظلوا يبحثون فيه عن جثته فى كل مجرى من المجارى المائية .

وكان الرجل الذى وحّد الصين من أصل وضيع هو أدنأ الأصول التى استطاع المؤرخون الصينيون أن يخترعوها . فهم يقولون لنا إن شى هونج — دى كان ابناً غير شرعى لملكة تشين (إحدى الولايات الغربية) من الوزير النبيل « لو » ، وهو الوزير الذى اعتاد أن يعلق فوق باب داره ألف قطعة من الذهب جائزة لمن يستطيع أن يصلح كلة واحدة من كتاباته[٢] (ولم يرث ابنه عنه هذا الذوق الأدبى الممتاز) .

ويقول زوماتشين إن شى اضطر والده إلى الانتحار واضطهد والدته ، وجلس على كرسى الإمارة وهو فى الثانية عشرة من عمره . ولما أن بلغ الخامسة والعشرين بدأ يفتح البلاد ويضم الدويلات التى كانت الصين منقسمة إليها من زمن بعيد ؛ فاستولى على دولة هان فى عام ٢٣٠ ق . م ، وعلى چو فى عام ٢٢٨ وعلى ويه فى عام ٢٢٥ ، وعلى تشو فى عام ٢٢٣ ، وعلى ين فى عام ٢٢٢ ؛ واستولى أخيراً على دولة تشى المهمة فى عام ٢٢١ ؛ وبهذا خضعت الصين لحكم رجل واحد لأول مرة منذ قرون طوال ، أو لعل ذلك كان لأول مرة فى التاريخ كله . ولقب الفاتح نفسه باسم شى هونج — دى ، ثم وجه همه إلى وضع دستور ثابت دائم لإمبراطوريته الجديدة .

أما أوصاف هذا الرجل الذى يعدّه المؤرخون الصينيون عدوّهم الألد ،

فكل ما خلقوه لنا منها هو قولهم إنه كان « رجلا كبير الأنف ، واسع العينين ، ذا صدر كصدر الطائر الجارح ، وصوت شبيه بصوت ابن آوى ، لايفعل الخير ، له قلب كقلب النمر أو الذئب »[٣] . وكان قوى الشكيمة عنيداً لا يحول عن رأيه ، ولا يعترف بالألوهية إلا لنفسه ، اجتمعت فيه عقائد نتشة وبسمرك ، وعقد العزم على أن يوحد بلاده بالدم والحديد . ولما وحد بلاد الصين وجلس على عرشها كان أول عمل قام به أن يحمى بلاده من الهمج البرابرة المجاورين لحدودها الشمالية ، وذلك بأن أتم الأسوار التى كانت مقامة من قبل عند حدودها ، ووصلها كلها بعضها ببعض . وقد وجد فى أعدائه المقيمين فى داخل البلاد مورداً سهلا يستمد منه حاجته من العمال لتشييد هذا البناء العظيم الذى يعد رمزاً لمجد الصين ودليلا على عظيم صبرها . ويبلغ طول السور العظيم ألف وخمسمائة ميل ، وتتخلله فى عدة أماكن منه أبواب ضخمة على النمط الأشورى ، وهو أضخم بناء أقامه الإنسان فى جميع عصور التاريخ ، ويقول عنه فلتير : « إن أهرام مصر إذا قيست إليه لم تكن إلا كتلاً حجرية من عبث الصبيان لا نفع فيها »[٤] . وقد احتاج تشييده إلى عشر سنين وإلى عدد لايحصى من الخلق ؛ ويقول الصينيون إنه « أهلك جيلا من الناس ، وأنقذ كثيراً من الأجيال» . على أنه لم يصدّ الهمج عن الصين كما يتبين لنا ذلك فيما بعد ، ولكنه عطل هجومهم عليها وقلل من حدته . وحال بين الهون وبين إغارتهم على أرض الصين زمناً ما ، فاتجهوا غرباً إلى أوربا ، ثم اجتاحوا بلاد إيطاليا ، وسقطت رومة فى أيديهم لأن الصين أقامت سورها العظيم .

ثم ترك شى هوانج — دى ، وهو مغتبط مسرور ، شؤون الحرب ووجّه عنايته ، كما وجهها نابليون من بعده ، إلى شؤون الإدارة ، ووضع القواعد العامة التى قامت عليها الدولة الصينية فى المستقبل . وعمل بمشورة لى — سيو ، المشترع الكبير ورئيس وزرائه ، فاعتزم ألا يقيم المجتمع الصينى على العادات المألوفة وعلى

الاستقلال المحلى للولايات ، بل اعتزم أن يقيمه على قواعد القانون الصريح وعلى الحكومة المركزية القوية . ولذلك قضى على قوة أمراء الإقطاع ، واستبدل بهم طائفة من كبار الموظفين تعينهم الوزارة القومية فى مناصبهم ، وأقام فى كل مركز من المراكز حامية عسكرية مستقلة عن الحاكم المدنى ، وسن للبلاد قوانين وأنظمة موحدة ، وبسّط الاحتفالات الرسمية ، وسك عملة للدولة ، وجزّأ معظم الضياع الإقطاعية ، ومهد السبيل لرخاء الصين بإنشاء الملكيات الزراعية ، ولوحدتها القوية بإنشاء الطرق الكبيرة الممتدة من هين — يانج عاصمة ملكه إلى جميع أطراف إمبراطوريته . وجمّل العاصمة بما أقامه فيها من القصور الكثيرة ، وأقنع أغنى أسر الدولة وأقواها سلطاناً البالغ عددها ١٢٫٠٠٠ أسرة بأن تعيش فى هذه العاصمة تحت إشرافه ورقابته . وكان يسير فى البلاد متخفياً ومن غير حرس ، يتفقد أحوالها ويتعرف ما فيها من خلل وفساد وسوء نظام ، ثم يصدر الأوامر الصريحة لإصلاح هذه العيوب ، وقد شجع العلم وقاوم الأدب[٥] .

ذلك أن رجال الأدب من شعراء ، ونقدة ، وفلاسفة بوجه عام ، وطلاب الفلسفة الكنفوشية بنوع خاص ، كانوا أعدى أعدائه . فقد كانوا يتبرمون بسيطرته القوية الشاملة ، وكانوا يرون أن إنشاء حكومة مركزية عليا سيقضى لا محالة على تباين أساليب التفكير والحياة وحريتهما .

وقد كان هذا التباين وتلك الحرية مصدر الانتعاش الأدبى طوال عهد الحروب والانقسامات أيام أسرة چو . فلما أقبل هؤلاء العلماء على شى هونج — دى يحتجون عليه لإغفاله الاحتفالات القديمة رد عليهم رداً جافاً وأمرهم ألا يتدخلوا فيما لا يعنيهم[٦] . وجاء وفد من كبار العلماء الرسميين يعرضون عليه أنهم قد أجمعوا رأيهم على أن يطلبوا إليه إعادة النظام الإقطاعى بتوزيع الضياع على أقاربه ؛ وأضافوا إلى ذلك قولهم : « لم يحدث قط فيما وصل إلى علمنا أن إنساناً لم يترسم خطوات أسلافه الأقدمين فى أمر من الأمور ودام عمله طويلا »[٧] . فرد عليهم

لى سيو رئيس الوزراء ، وكان وقتئذ يعمل على إصلاح الحروف الهجائية الصينية وبضعها فى الصورة التى تكاد تحتفظ بها إلى يومنا هذا ، رد عليهم بخطبة تاريخية لاترفع من شأن الآداب الصينية قال :

« إن الملوك الخمسة لم يفعل كل منهم ما فعله الآخر ، وإن الأسر المالكة الثلاث لم تحذ إحداها حذو الأخرى ؛ ... ذلك أن الأيام قد تبدلت . والآن قد قمتم جلالتكم لأول مرة بعمل جليل ، وأسستم مجداً سيدوم مدى عشرة آلاف جيل . لكن الحكام الأغبياء عاجزون عن فهم هذا العمل ... لقد كانت الصين فى الأيام الخالية مضطربة منقسمة على نفسها ، ولم يكن فى مقدور أحد أن يوحدها ؛ ومن أجل هذا ساد النبلاء جميعاً وقويت شوكتهم ؛ وهؤلاء النبلاء جميعاً تدور أحاديثهم كلها حول الأيام الخطية ليعيبوا هذه الأيام ... وهم يشجعون الناس على اختراع التهم الباطلة ، فإذا ترك لهم الحبل على الغارب ؛ فسينحط مقام الملك فى أعين الطبقات العليا ، وستنتشر الأحزاب والفرق بين الطبقات السفلى .

« ولهذا اقترح أن تحرق التواريخ الرسمية جميعها عدا « مذكرات تشين ، وأن يرغم الذين يحاولون إخفاء الشى — جنج ، والشو — جنج [**] ومحاورات المدارس المائة على أن يأتوا بها إلى ولاة الأمور لإحراقها [8] » .

وأعجب الإمبراطور إعجاباً شديداً بهذه الفكرة ، وأصدر الأمر بتنفيذ هذا الطلب ، وجيء بكتب المؤرخين من كل مكان وألقيت فى النار حتى يرفع عبء الماضى عن كاهل الحاضر ؛ وحتى يبدأ تاريخ الصين من عهد شى هونج — دى . ويلوح أن الكتب العلمية ومؤلفات منشيس قد نجت من النيران ، وأن كثيراً من الكتب المحرمة قد احتفظ بها فى دار الكتب الإمبراطورية حيث يستطيع الرجوع إليها الطلاب الذين يجيز لهم الإمبراطور هذا الاطلاع [9] . وإذ كانت

(**) انظر ص ٤٩ من هذا الكتاب .

الكتب فى تلك الأيام تكتب على شرائح من الخيزران يشد بعضها إلى بعض بمشابك متحركة ، وإذ كان المجلد الواحد لهذا السبب كبير الحجم ثقيل الوزن ، فإن العلماء الذين حاولوا إخفاء هذه الكتب قد لاقوا عناء كبيراً ، وكشف أمر بعضهم ، وتقول الروايات إن كثيرين منهم أرسلوا للعمل فى بناء السور الكبير ، وإن أربعمائة وستين منهم أعدموا[١٠] . ولكن بعض الأدباء حفظوا مؤلفات كنفوشيوس كلها عن ظهر قلب ، ولقنوها لحفاظ مثلهم ، فلما أن توفى الإمبراطور عادت هذه الكتب من فورها إلى الظهور والانتشار ، وإن كان كثير من الأغلاط قد تسرب فى أكبر الظن إلى نصوصها . وكل ما كان لهذا التحريم من أثر خالد أن خلع على الآداب المحرمة هالة من القداسة ، وأن جعل شى هونج — دى مبغضاً إلى المؤرخين الصينيين ، وظل الناس أجيالا طوالا يعبرون عن عقيدتهم فيه بتدنيس قبره[١١] .

وكان من أثر القضاء على الأسر القوية وعلى حرية الكتابة والخطابة أن أمسى شى فى شيوخته لا نصير له ولا معين . وحاول أعداؤه عدة مرار أن يغتالوه ، ولكنه كان يكشف أمرهم فى الوقت المناسب ويقتل بيده من يحاولون قتله . وكان يجلس على عرشه والسيف مسلول فوق ركبتيه ، ولا يسمح لأحد أن يعرف فى أية حجرة من حجرات قصوره الكثيرة ينام ليله[١٢] . وقد حاول كما حاول الإسكندر من بعده أن يقوى أسرته بما يذيعه فى الناس من أنه إله ، ولكنه أخفق فى غرضه هذا كما أخفق الإسكندر لأنه لم يستطع أن يقنع الناس بما بينه وبين الآلهة من شبه . وأصدر أمراً بأن يطلق عليه خلفاؤه « الإمبراطور الأول » وأن يضعوا هم لأسمائهم أرقاماً مسلسلة من بعده تنتهى بالإمبراطور المتمم لعشرة آلاف من نسله ، ولكن أسرته قضى عليها بموت ولده . وإذا جاز لنا أن نصدق أقوال المؤرخين الذين كانوا يبغضونه فإنه صار فى شيخوخته يؤمن بالخرافات ، وينفق الأموال الطائلة فى البحث عن إكسير الخلود . ولما

مات جيء بجسمه سرا إلى عاصمة ملكه ، وقد نقلته إليها قافلة تحمل السمك النتن حتى تختفى بذلك رائحته الكريهة ، ويقال إن بضعة آلاف من الفتيات قد دفن معه ليؤنسنه فى قبره ، وإن خلفه أراد أن يظهر اغتباطه بموته فنثر الأموال على قبره ، وأنفق الكثير منها فى تزيينه ، فنقشت على سقفه أبراج النجوم ، وصورت على أرضه خريطة للإمبراطورية بالزئبق فوق أرضية من البرنز ، وأقيمت فى القبة آلات تقتل من نفسها كل من يعتدى على حرمة القبر ، وأشعلت فيه شموع ضخمة لكى تضىء أعمال الإمبراطور الميت وأعمال ملكاته إلى أمد غير محدود . أما العمال الذى حملوا التابوت إلى القبر فقد دفنوا فيه أحياء مع حملهم خشية أن يكشفوا للناس عن الطريق السرى المؤدى إلى المدفن[١٤]

الفصل الثانى

تجارب فى الأشتراكية

الفوضى والفقر – أسرة هان – إصلاحات وودى – ضريبة الدخل – مشروعات وانج مانج الاقتصادية – القضاء عليها – غزو التتار

وأعقب موته عهد من الفوضى والاضطراب كما تعقب الفوضى والاضطراب موت الطغاة جميعهم تقريباً فى أحقاب التاريخ كلها . ذلك أن ليس فى وسع إنسان أيا كان أن يجمع السلطة كلها فى يده ويحسن التصرف فيها . وثار الشعب على ابنه وقتله بعد أن قتل هو لى سيو بقليل ، وقضى على أسرة تشين ، ولما يمض على وفاة مؤسسها أكثر من خمس سنين . وأقام الأمراء المتنافسون ممالك متنافسة متعادية وساد الاضطراب من جديد . ودامت هذه الحال حتى اغتصب العرش زعيم عسكرى مغامر مرتزق يدعى جو — دزو ، وأسس أسرة هان التى ظلت تحكم البلاد أربعمائة عام كاملة ، تخللتها فترات أنزلت فيها عن العرش ، وتبدلت فيها العاصمة مرة واحدة(*) . وأعاد ون — دى (١٧٩ — ١٥٧ ق . م) إلى الشعب حرية القول والكتابة ، وألغى المرسوم الذى حرم به شى هونج — دى انتقاد الحكومة ، وجرى على سياسة السلم ، وابتدع المادة الصينية المأثورة عادة هزيمة قائد جيش العدو بتقديم الهدايا إليه[١٥] .

وكان وو — دى أعظم الأباطرة من أسرة هان ؛ وقد حكم البلاد زهاء نصف قرن (١٤٠ — ٨٧ ق . م) وصد البرابرة المغيرين ، وبسط حكم الصين على

(*) كانت عاصمة أسرة « هان الغربية » مدينة لويانج ، وهى مدينة هونان فو الحالية وقد دام حكمها من ٢٠٦ ق . م إلى ٢٤ ب . م . أما أسرة « هان الشرقية » فقد حكمت من ٢٤ إلى ٢٢١ ب . م ، وكانت عاصمتها مدينة تشانجان وهى مدينة سيان فو الحالية . ولا يزال الصينيون إلى اليوم يسمون أنفسهم « أبناء هان » .

كوريا ومنشوريا وأنام ، والهند الصينية والتركستان ، وشملت الصين — لأول مرة في التاريخ جميع الأقاليم الشاسعة التي تعوّدنا أن نقرنها باسمها . وأخذ وو — دي يقوم بتجارب في الاشتراكية ، لجعل موارد الثروة الطبيعية ملكا للأمة ، وذلك لمنع الأفراد «أن يختصوا أنفسهم بثروة الجبال والبحار، ليجنوا من ورائها الأموال الطائلة ، ويخضعوا لهم الطبقات الدنيا »[١٦] . واحتكرت الدولة استخراج الملح والحديد وعصر الخمور وبيعها. وأراد وو — دي — كما يقول معاصره زومانشين — أن يقضي على سلطان الوسطاء والمضاربين « الذين يشترون البضائع نسيئه ، ويعقدون القروض، والذين يشترون ليكدسوا مايشترونه في المدن، والذين يخزنون كل أنواع السلع » ، فأنشأ نظاما قوميا للنقل والتبادل تشرف عليه الدولة ، وسعى للسيطرة على التجارة حتى يستطيع منع تقلب الأسعار الفجائي . فكان عمال الدولة هم الذين يتولون شئون نقل البضائع وتوصيلها إلى أصحابها في جميع أنحاء البلاد . وكانت الدولة نفسها تخزن ما زاد من السلع على حاجة الأهلين ، وتبيعها إذا أخذت أثمانها في الارتفاع فوق ما يجب ؛ كما كانت تشتريها إذا انخفضت الأسعار ، وبهذه الطريقة كان « أغنياء التجار وأصحاب المتاجر الكبيرة يمنعون من أن يجنوا الأرباح الطائلة ... وكانت الأسعار تنظم وتتوازن في جميع أنحاء الإمبراطورية »[١٧] . وكان دخل الأفراد كله يسجل في سجلات حكومية وتؤدى عنه ضريبة مقدارها خمسة في المائة . وكان الأمير يسك النقود المصنوعة من الفضة مخلوطة بالقصدير لتكثر في أيدى الناس فيسهل عليهم شراء البضائع واستهلاكها . وشرع يقيم المنشآت العامة العظيمة ليوجد بذلك عملا لملايين الناس الذين عجزت الصناعات الخاصة عن استيعابهم ، فأنشئت الجسور على أنهار الصين وحفرت قنوات لا حصر لها لربط الأنهار بعضها ببعض وإرواء الحقول[١٨] (*)

(*) ويقول جرانت في هذا : « لقد كان هذا انقلابا كاملا . ولو كان للإمبراطور أعوان من طرازه لاستطاع أن ينتفع بهذا ويخلق من الصين دولة ذات مجتمع من طراز جديد ... ولكن الإمبراطور لم يكن يرى إلا الضرورات الماسة العاجلة ، ويحيل إلينا أنه لم يكن =

وازدهر النظام الجديد وأفلح إلى حين، وراجت التجارة، وكثرت البضائع وتنوعت، وارتبطت الصين مع الأمم المجاورة لها ومع أمم الشرق الأدنى البعيدة عنها[٢٠] . وكثر سكان عاصمتها لو — يانج وزادت ثروتها وامتلأت خزائن الدولة بالأموال، وانتشر طلاب العلم فى كل مكان، وكثر الشعراء، وبدأ الخزف الصينى يتخذ منظراً جميلا جذاباً . وجمع فى المكتبة الإمبراطورية ١٣٣ر٣ مجلداً فى الأدب الصينى القديم، و ٧٠٥ر٢ فى الفلسفة ، و ٣٨٨ر١ فى الشعر ، و ٥٦٨ر٢ فى الرياضيات ، و ٨٦٨ فى الطب ، و ٧٩٠ فى فنون الحرب[٢١] . ولم يكن أحد يعين فى مناصب الدولة إلا إذا اجتاز امتحاناً تضعه لهذا الغرض، وكانت هذه الامتحانات عامة يتقدم إليها كل من شاء . والحق أن الصين لم يمر بها عهد من الرخاء كالذى مر فى تلك الأيام .

ولكن طائفة من الكوارث الطبيعية مضافاً إليها خبث بنى الإنسان قضت على هذه التجربة الجريئة . فقد تعاقبت على البلاد سنون من الفيضان والجدب ارتفعت على أثرها أسعار السلع ارتفاعاً لم تقو الحكومة على وقفه . وتضايق الناس من غلو أثمان الطعام والكساء فصاحوا يطالبون بالعودة إلى الأيام الحلوة الماضية ، التى أضحت فى اعتقادهم خير الأيام وأكثرها رخاء، وأشاروا بأن يغلى مخترع النظام الجديد فى الماء وهو حى ، ونادى رجال الأعمال بأن سيطرة الدولة قضت على الابتكار الفردى السليم وعلى التنافس الحر ، وأبوا أن يؤدوا ما يلزم لهذه التجارب من الضرائب الباهظة التى كانت الحكومة تفرضها عليهم[١٢] . ودخلت النساء بلاط الإمبراطور وبسطن نفوذهن السرى على كبار

= يمكن إلا فى استخدام الوسائل المختلفة المرتجلة يوما بعد يوم — ثم يتركها إذا ما حصل منها على ما يبتغيه ؛ وبدت له قديمة بالية . وكان يضحى برجاله الجدد إذا ما تراءى له أنهم بلغوا من النجاح حدا يكسبهم من السلطان ما يخشى منه على نفسه . ومن أجل هذا فإن قلق الطاغية وقصر نظر المشترعين أضاعا على الصين فرصة ثمينة قلما تعود لتجعل من بلادها دولة موحدة مندمجة منظمة »[١٩]

للوظفين ، وأصبحن عنصراً هاما فى موجة من الفساد انتشرت فى طول البلاد وعرضها بعد وفاة الإمبراطور [٢٣] . وأخذ المزيفون يقلدون العملة الجديدة ونجحوا فى تقليدها إلى حد اضطر الحكومة إلى سحبها من أيدى الناس ، وعادت الخطة القديمة خطة استغلال الضعفاء ، يسيطر عليها ويسيرها نظام جديد ، ومضى قرن من الزمان نسيت فيه إصلاحات وو دى أو أضحت مسبة له وعاراً .

وجلس على عرش الصين مصلح آخر فى بداية التاريخ المسيحى بعد أربعة وثمانين عاما من موت وودى ، وكان فى بادئ الأمر وصيا على العرش ثم أصبح فيا بعد إمبراطوراً . وكان هـذا الإمبراطور وانج مانج من أرق طراز وصل إليه الرجل الصينى الكامل المهذب ؛ وكان على غناء يعيش عيشة معتدلة بل عيشة مقتصدة ، ويوزع دخله على أقاربه وعلى الفقراء من أهل البلاد [*] . وقد قضى جل وقته يكافح لإعادة النظام إلى أحول البلاد الاقتصادية والسياسية ، ولكنه مع ذلك وجد فسحة من الوقت لا لمناصرة الأدب والعلم فحسب بل للاشتغال بهما بنفسه حتى أصبح من أكمل الناس ثقافة وتهذيباً ؛ ولما جلس على سرير الملك لم يحط نفسه بما يحيط به الملوك أنفسهم من الساسة ، بل جمع حوله رجالا من الأدباء والفلاسفة ، وإلى هؤلاء الرجال يعزو أعداؤه أسباب إخفاقه ، وإليهم يعزو أصدقاؤه أسباب نجاحه .

وروع وانج مانج فى بداية حكمه انتشارُ الرق فى ضياع الصين الكبيرة ، فلم يكن منه إلا أن ألغى الرق وألغى الضياع بتأميم الأرض الزراعية ، فقسمها قطعاً متساوية ووزعها على الزراع ، ثم حرم بيع الأرض وشراءها ليمنع بذلك عودة الأملاك الواسعة إلى ما كانت عليه من قبل [٢٥] . واحتفظ باحتكار الدولة للملح والحديد ، وأضاف إلى ذلك امتلاكها للمناجم وإشرافها على تجارة الخمور .

(*) إلا إذا صدقت الإشاعة التى انتشرت عقب وفاة الإمبراطور الغلام فى السنة الخامسة بعد الميلاد ، وهى أن أسرة وانج مانج قد سمته [٢٤] .

وحاول كما حاول وو دى أن يحمى الزراع والمستهلكين من جشع التجار بتحديد أثمان السلع . فكانت الدولة تشترى ما زاد على الحاجة من الحاصلات الزراعية وتبيعها إذا عزت وغلا ثمنها وكانت الحكومة تقدم القروض بفائدة منخفضة لكل مشروع إنتاجى (٣٦) .

لكن وانج لم يفكر فى خططه إلا من الناحية الاقتصادية ونسى طبائع الآدميين . فكان يعمل الساعات الطوال بالليل وبالنهار ليبتكر الخطط التى تزيد ثروة الأمة وأسباب سعادتها ، ولكنه أحزنه وأضرم قلبه أن وجد الاضطراب الاجتماعى ينتشر فى البلاد فى أثناء حكمه . فقد ظلت الكوارث الطبيعية كالفيضان والجدب تعطل مشروعاته الاقتصادية ، واجتمعت كل الطوائف التى قضت هذه المشروعات على مطامعها وأخذت تكيد له وتعمل لإسقاطه . فثار نقع الفتن فى البلاد يصلت سيفها الشعب فى الظاهر ، ولكن أكبر الظن أن القائمين بها كانوا يتلقون الأموال من مصادر عليا . وبينا كان وانج يكافح فيقلم أظفار هذه الفتن ، وقد ساءه كفر الشعب بفضله وجحوده بنعمته ، إذ أخذت الشعوب الخاضعة لسلطان الصين تشق عصا الطاعة ، كما أخذ برابرة الشيونج — نو يجتاحون الولايات الشمالية ، فأضعف ذلك كله من هيبة الإمبراطور

وتزعمت أسرة ليو الغنية ثورة عامة اندلع لهيبها فى البلاد ، واستولت على شانج — آن ، وقتلت وانج مانج ، وألغت جميع إصلاحاته ، وعاد كل شىء إلى ما كان عليه من قبل .

وجلس على العرش فى أواخر أيام أسرة هان جماعة من الأباطرة الضعاف خلف بعضهم بعضا ، وانتهى بهم عهد هذه الأسرة ؛ وأعقب ذلك عهد من الفوضى حكمت فى أثنائه أسر خاملة الذكر ، انقسمت البلاد فى أيامها إلى دويلات متعددة . وتدفق التتار على البلاد ولم يصدهم عنها السور الكبير ، واستولوا على مساحات واسعة من أجزائها الشمالية ، وكانت غارات هؤلاء التتار

سبباً فى اضطراب حياة الصين والقضاء على حضارتها النامية ، كما كانت غاراته الهون الذين يمتون إلى التتار بأواصر القرابة العنصرية سبباً فى اضطراب نظام الإمبراطورية الرومانية وإلقاء أوربا فى غمار الفوضى التى عمت أرجاءها نحو مائة عام كاملة . وفى وسعنا أن ندرك ما يمتاز به الصينيون من صلابة عنصرية ، ومن قوة فى الأخلاق والثقافة ، إذا عرفنا أن هذا الاضطراب كان أقصر آجلا وأقل عمقاً من الاضطراب الذى قضى على الدولة الرومانية . فلما أن انقضى عهد من الحروب والفوضى والامتزاج العنصرى بين المغيرين والأهلين ، أفاقت الحضارة الصينية من سباتها ، وانتعشت انتعاشاً رائعاً يبهر الأنظار .

ولعل دم التتار الجديد قد بعث القوة فى أمة كانت قد أدركتها الشيخوخة . وقبل الصينيون الغزاة الفاتحين بينهم وتزوجوا منهم ، وحضّروهم ، وارتقوا هم وإياهم إلى أسمى ما بلغوه من المجد فى تاريخهم الطويل .

الفصل الثالث

مجـد تانج

الأسرة المالكة الجديدة — خطة تاى دزونج فى تقليل الجرائم — عصر رخاء — « الإمبراطور النابه » رواية يانج — حوى — فى — ثورة آن لو — شان

تعزى نهضة الصين الـكبرى(*) فى العصر الذى سنتحدث عنه فى هذا الفصل إلى أسباب ثلاثة : وهى امتزاج هذين الشعبين ، والقوة الروحية التى انبعث من دخول البوذية فيها ، وعبقرية إمبراطور من أعظم أباطرتها وهو تاى دزونج الذى حكمها من عام ٦٢٧ إلى عام ٦٥٠ بعد الميلاد . جلس هذا الإمبراطور على عرش الصين وهو فى الحادية والعشرين من عمره بعد أن نزل عنه أبوه جو جودزو الثانى الذى أقام أسرة تانج قبل ذلك الوقت بتسع سنين . وقد بدأ حكمه بداية غير مبشرة بخير ، وذلك بقتل إخوته الذين كانوا يهددونه باغتصاب عرشه ، ثم أظهر كفايته العسكرية برد غارات القبائل الهمجية إلى مواطنها الأصلية ، وإخضاع الأقاليم المجاورة التى خرجت على حكم الصين بعد سقوط أسرة هان . ثم عافت نفسه الحرب فجاءة وعاد إلى شانجان عاصمة ملـكه وخصص جهوده كلها للأعمال السلمية ، فقرأ مؤلفات كنفوشيوس مرة بعد مرة ، وأمر بنشرها فى شكل بديع رائع ، وقال فى هذا : « إنك إذا استعملت بمرآة من الشبهان فقد تستطيع أن تعدل وضع قلنسوتك على رأسك ؛ وإذا اتخذت الماضى مرآة لك فقد تستطيع أن تتنبأ بقيام الإمبراطوريات وسقوطها » . ورفض كل أسباب الترف وأخرج من قصره الثلاثة الآلاف من السيدات اللاتى جىء بهن لتسليته .

(*) انظر كتاب السـير و . فلندر بيترى The Revolutions of Civilisation « دورات الحضارة » طبعة لندن .

ولما أشار عليه وزراؤه بوضع القوانين الصارمة لقمع الجرائم قال لهم : « إنى إذا أنقصت نفقات المعيشة ، وخففت أعباء الضرائب ، ولم أستمن إلا بالأمناء من الموظفين حتى يحصل الناس على كفايتهم من الكساء ، كان أثر هذه الأعمال فى منع السرقات أعظم من أثر أقسى أنواع العقاب »[٢٧] .

وزار الإمبراطور يوماً سجون شانجان فرأى فيها مائتين وتسعين سجيناً حكم عليهم بالإعدام . فلم يكن منه إلا أن أرسلهم ليحرثوا الأرض واكتفى منهم بأن يعدوه بشرفهم أن يعودوا إلى سجنهم . وكان أن عادوا جميعاً ، وبلغ من سرور تاى دزونج أن أمر بالإفراج عنهم كلهم ، وسنّ من ذلك الوقت قانوناً يقضى بألا يصادق أى إمبراطور على حكم بالإعدام إلا بعد أن يصوم ثلاثة أيام . وجمّل عاصمة ملكه حتى أقبل عليها السياح من الهند ومن أوربا ، وجاء إلى الصين عدد كبير من الرهبال البوذيين الهنود ، وكان البوذيون الصينيون أمثال يوان چوانج يسافرون بكامل حريتهم إلى بلاد الهند ليأخذوا دين الصين الجديد عن مصادره الأصلية . وجاء المبشرون إلى شانجان ليبشروا بالزردشتية والنسطورية المسيحية ، وكان الإمبراطور يرحب بهم كما كان يرحب بهم أكبر ، ويبسط عليهم حمايته ، ويطلق لهم كامل حريتهم ؛ ويعفى معابدهم من الضرائب ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه أوربا تعانى آلام الفاقة والجهالة والمنازعات الدينية . أما هو نفسه فقد بقى كنفوشيا بسيطا بعيداً عن التحيز والتحكم فى عقول رعاياه ، وقد قال عنه مؤرخ نابه إنه لما مات حزن الناس عليه حزناً لم يقف عند حد ، وبلغ من حزن المبعوثين الأجانب أنفسهم أن كانوا يثخنون أجسامهم بالجراح بالمدى والحراب ، وينثرون دماءهم التى أراقوها بأنفسهم طائفين على نعش الإمبراطور المتوفى »[٢٨] .

لقد مهد هذا الإمبراطور السبيل إلى أعظم عصور الصين خلقاً وإبداعاً ، فقد نعمت فى عهده بخمسين عاما من السلام النسبى واستقرار الحكم ، فشرعت

تصدر ما زاد على حاجتها من الأرز والقدرة والحرير والتوابل ، وتنفق مكاسبها في ضروب من الترف لم يسبق لها مثيل . فغصت بحيرتها بقوارب التنزه المنقوشة الزاهية الألوان ؛ واكتظت أنهارها وقنواتها بالسفن التجارية ، وكانت المراكب تخرج من موانيها تمخر عباب البحار إلى الثغور البعيدة على شواطئ المحيط الهندي والخليج الفارسي . ولم تعرف الصين قبل ذلك العهد مثل هـــذه الثروة الطائلة ؛ ولم تستمتع قط بما كانت تستمتع به وقتئذ من الطعام الوفير ، والمساكن المريحة ، والملابس الجميلة[٢٩] . وبينما كان الحرير يباع في أوربا بما يعادل وزنه ذهباً[٣٠] ، كان هو الكساء المألوف لنصف سكان المدن الصينية الكبرى ، وكانت الملابس المتخذة من الفراء في القرن الثامن في شانجان أكثر منها في نيويورك في القرن العشرين . وكان في إحدى القرى القريبة من العاصمة مصانع للحرير تستخدم مائة ألف عامل[٣١] . وصاح لي پو في إحدى الولائم : « ما أعظم هذا الكرم ، وما أكثر هذا الإسراف في المال ! أقداح من اليشم الأحمر ، وأطعمة شهية نادرة على موائد مرصعة بالجواهر الخضراء ؟ »[٣٢] وكانت التماثيل تنحت من الياقوت ، وأجسام الأثرياء من الموتى تدفن على فُرش من اللؤلؤ[٣٣] . وكأنما أولع هذا الجنس العظيم بالجمال فجاءة ، وأخذ يكرم بكل ما في وسعه من كان قادراً على خلق هذا الجمال . ومن أقوال أحد النقاد الصينيين في هذا : « ذلك عصر كان فيه كل رجل يحق شاعراً »[٣٤] . ورفع الأباطرة الشعراء والمصورين إلى أعلى المناصب . ويروى « سير جون مانڤيل »(*) Sir John Manville أن أحداً من الناس لم يكن يجرؤ على أن يخاطب الإمبراطور إلا « إن كان شاعراً مطرباً يغني وينطق بالفكاهات »[٣٥] . وأمر أباطرة المانشو في القرن الثامن عشر الميلادي أن يوضع سجل يحوي ماقاله شعراء تانج ، فكانت

(*) ذلك اسم مصطنع لطبيب فرنسي كتب في القرن الرابع عشر كتاباً في الأسفار معظمها خيالي ، ولا تخلو بعضها من فائدة ، ولكنها كلها فتانة رائعة .

النتيجة أن وصل هذا السجل إلى ثلاثين مجلداً تحتوى ٤٨,٩٠٠ قصيدة قالها ٢,٣٠٠ شاعر ، كانت هى التى أبقى عليها الدهر من هذه القصائد ومن أسماء أولئك الشعراء . وزاد ما فى دار الكتب الإمبراطورية حتى بلغ ٥٤,٠٠٠ مجلد ؛ وفى هذا يقول مردك Murdock : « ولا جدال فى أن الصين كانت فى ذلك الوقت أرقى البلاد حضارة ، فقد كانت وقتئذ أعظم الإمبراطوريات قوة ، وأكثرها استنارة ، وأعظمها رقيا ، وأحسنها حكما على ظهر الأرض »(٣٦) ، « وقد شهد ذلك العصر أرقى ما شهده العالم من الثقافات(*) » .

وكان زينة هذا العصر كله منج هوانج — أى « الإمبراطور النابه » — الذى حكم الصين نحو أربعين عاما تخللتها فترات قصيرة كان فيها بعيداً عن العرش (٧١٣ — ٧٥٦ ب . م) . وكان هذا الإمبراطور رجلا اجتمعت فيه كثير من المتناقضات البشرية ؛ فقد كان يقرض الشعر ويشن الحرب على البلاد النائية ، ومن أعماله أنه فرض الجزية على تركيا وفارس وسمرقند ، وألغى حكم الإعدام ، وأصلح إدارة السجون والمحاكم ، ولم يرحم من لا يبادر بأداء الضرائب ، وكان يتحمل راضياً مسروراً عنت الشعراء والفنانين والعلماء ؛ وأنشأ كلية لتعليم الموسيقى فى حديقة له تسمى « حديقة شجرة الكمثرى » ، وقد بدأ حكمه متقشفاً متزمتاً ، أغلق مصانع الحرير وحرم على نساء القصر التحلى بالجواهر أو الملابس المطرزة ، ثم اختتمه أبيقوريا يستمتع بكل فن وبكل وسيلة من وسائل الترف ، وضحى آخر الأمر بعرشه لينعم بيسمات يانج جوى — فى .

وكان حين التقى بها فى سن الستين ، أما هى فكانت فى السابعة والعشرين . وكانت قد قضت عشر سنين محظية لابنه الثامن عشر . وكانت بدينة ذات شعر

(*) من أقوال أرثر ويلى(٣٧) . راجع دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة الفصل الثامن عشر ص ٣٦١ تحت عنوان (أيام أسرة تانج) « لقد كانت الصين بلا جدال أعظم دول العالم وأكثرها حضارة » .

مستعار ، ولكن الإمبراطور أحبها لأنها كانت عنيدة ، ذات أطوار شاذة متغطرسة وقحة ، وتقبلت منه إعجابه بها بقبول حسن ، وعرفته بخمس أسر من أقاربها ، وسمحت له بأن يعين أبناء هذه الأسر فى وظائف مجزية سهلة فى بلاطه.

وكان منج يسمى هذه السيدة « الطاهرة العظيمة » ، وقد أخذ عنها فن الاستمتاع بضروب الترف والملاذ ، وانصرف ابن السماء عن الدولة وشئونها وعهد بالسلطة الحكومية كلها إلى يانج جو — چونج أخى السيدة الطاهرة ، وهو رجل فاسد عاجز ؛ وبينما كانت نذر الخراب والدمار تحيط به من فوقه ومن أسفل منه ، كان هو يواصل ليله بنهاره منهمكا فى ضروب اللهو والفساد.

وكان فى بلاط مانج رجل تتارى يسمى آن لو — شان يعشق هو الآخر يانج جوى — فىْ ، وقد كسب هذا الرجل ثقة الإمبراطور فرفعه إلى منصب حاكم إحدى الولايات الشمالية ، وأمره على زهرة جيوش الإمبراطورية . ولم يلبث آن — لو — شان أن أعلن نفسه إمبراطوراً على البلاد وزحف بجيوشه على شانجان . وتداعت حصون المدينة وكانت قد طال إهمالها ، وفر منج من عاصمة ملكه .

وتمرد الجنود الذين كانوا يحرسونه فى فراره ، وقتلوا يانج جو — چونج وجميع أفراد الأسر الخمس ، واختطفوا يانج جوى — فىْ من بين يدى الملك وقتلوها أمام عينيه . ونزل الإمبراطور عن عرشه بعد أن أذلته الشيخوخة والهزيمة ، وعاثت جحافل آن لوشان الهمجية فى المدينة فسادا ، وقتلت عدداً كبيراً من أهلها ولم تفرق بين كبير وصغير(*) . ويقال إن ستة وثلاثين مليوناً من الأنفس قد قضى عليهم فى هذه الفتنة الصماء[٣٩] . ولكن الفتنة أخفقت آخر الأمر فى الوصول

(*) وفى ذلك يقول آرثر ويل Arthur Waley : « لما هزم التتار منج هوانج ونهبوا شانجان بدت هذه الأحداث كأنما اجتياح الترك فرساى فى عهد لويس الرابع عشر »[٣٨] .

إلى أغراضها ، وقتل آن لو ـــ شان بيد ابنه نفسه ، وقتل هذا الابن بيد أحد القواد ، ثم قَتَل هذا القائدَ ابن له . وظلت نار الفتنة مشتعلة حتى أكلت وقودها وخمدت جذوتها فى عام ٦٧٢ ، وعاد منج هوانج محطماً كسير القلب إلى عاصمته الخربة . ومات فيها بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت . وفى هذه الفترة من المآسى والحادثات الروائية العجيبة ازدهر الشعر الصينى ازدهاراً لم يكن له نظير من قبل .

الفصل الرابع

الملاك المنسى

قصة لى پو — شبابه وبسالته وحبه — على القارب الإمبراطورى — إنجيل الكرم — الحرب — تجوال لى پو — السجن — « الشعر الخالد »

استقبل منج هوانج ذات يوم من أيام مجده ، رسلا من كوريا يحملون إليه رسائل خطيرة مكتوبة بلهجة لم يستطع أحد من وزرائه أن يفهمها . فصاح الإمبراطور غاضباً : « ماهذا ؟ ألا يوجد بين هذا العدد الجم من الحكام والعلماء والقواد رجل واحد ينجينا من هذه الورطة ؟ قسما إن لم أجد بعد ثلاثة أيام من يستطيع أن يحل رموز هذه الرسالة لأقصينكم جميعاً عن أعمالكم ! » .

وقضى الوزراء يوماً كاملاً يتشاورون ويتضجرون ، وهم يخشون أن تطيح منهم مناصبهم ورءوسهم . ثم تقدم الوزير هو چى — چانج إلى العرش وقال : « هل تأذن لأحد رعاياك أن يعلن لجلالتك أن فى بيتــه شاعراً جليل الشأن يدعى لى متبحراً فى أكثر من علم واحد ؟ مره أن يقرأ هذه الرسالة إذ ليس ثمة شىء يعجز عنه » . وأمر الإمبراطور أن يستدعى لى للمثول بين يديه من فوره . ولكن لى أبى أن يحضر بحجة أنه غير جدير بالاضطلاع بالواجب الذى طلب إليه أن يضطلع به ، لأن الحكام قد رفضوا مقاله حينما تقدم لآخر امتحان عقد لطالبى الالتحاق بالوظائف العامة . واسترضاه الإمبراطور بأن منحه لقب دكتور من الدرجة الأولى ، وخلع عليه حلة هذا اللقب . فجاء لى ووجد الذين امتحنوه بين الوزراء ، وأرغمهم على أن يخلعوا له نعليه ، ثم ترجم الوثيقة ، وقد جاء فيها أن كوريا تعتزم خوض غمار الحرب لاستعادة حريتها . ولما قرأ لى هذه الرسالة أملى عليها رداً مروعاً ، ينم عن علم غزير ، وقعه الإمبراطور من فوره ، وكاد

يصدق ما أسره إليه « هو » وهو أن لى ملاك طرد من السماء لأنه ارتكب فيها ذنباً عظيماً(٤٠)(*) . وأرسل الكوريون يعتذرون ، وأدوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وأرسل الإمبراطور بعض هذه الجزية إلى لى فوهب بعضها إلى صاحب الحانة لأنه كان يحب الخمر .

وكانت أم لى قد رأت فى منامها ليلة مولد الشاعر الكوكب الأبيض الكبير الذى يسميه الصينيون ثاى — بوچنج ويسميه أهل الغرب فينوس(**) . ولهذا سمى الطفل لى أى البرقوقة ولقب ثاى — بو أى النجم الأبيض . ولما بلغ العاشرة من عمره كان قد أتقن كتب كنفوشيوس ، كما كان فى مقدوره أن ينظم الشعر الخالد . وفى الثانية عشرة خرج إلى الجبال ليعيش فيها عيشة الفلاسفة ، وأقام فيها سنين طوالا ، حسنت فى خلالها صحته ، وعظمت قوته ، وتدرب على القتال بالسيف ، ثم أعلن إلى العالم مقدرته وكفايته فقال : إنى وإن لم يبلغ طول قامتى سبع أقدام (صينية) فإن لى من القوة ما أستطيع به ملاقاة عشرة آلاف رجل »(٤١) (وعشرة آلاف لفظ يعبر به الصينيون عن الكثرة) ثم أخذ يضرب فى الأرض يتلقى أقاصيص الحب من أفواه الكثيرين ، وقد غنى أغنية « لفتاة من وو » قال فيها :

نبيذ الكروم
وأقداح الذهب
وفتاة حسناء من وو —
فى سن الخامسة عشرة ، تقبل على ظهر مهر ،
ذات حاجبين قد خطا بقلم أزرق —
وحذائين من النسيج القرنفلى المشجر —

(*) وتلك قصة طريفة لعلها من وضع لى — بو .
(**) ويسميه العرب « الزهرة » .

لا تفصح عما فى نفسها —
ولكنها تغنى أغانى ساحرة .
وقد أخذت تطعم الطعام على المائدة ،
المرصعة بأصداف السلاحف .
ثم سكرت فى حجرى .
أى طفلتى الحبيبة ! ما أحلى العناق .
خلف الستائر المطرزة بأزهار السوسن(٤٢) !

ثم تزوج الشاعر ، ولكن مكاسبه كانت ضئيلة ، فغادرت زوجته بيته وأخذت معها أبناءه . ترى هل هذه الأسطر التى يبث فيها شوقه موجهة إليها ، أو إلى حبيبة أخرى لم يطل عهد الوداد بينهما ؟ —

أيتها الحسناء ، لقد كنت وأنت عندى أملأ البيت زهراً .
أما الآن أيتها الحسناء ، وقد رحلت — فلم يبق فيه إلا فراش خال .
لقد طوى عن الفراش الغطاء المزركش ؛ ولست بقادر على النوم .
وقد مضت على فراقك ثلاث سنين ؛ ولا يزال يعاودنى شذى العطر الذى خلفته وراءك .
إن عطرك يملأ الجو من حولى وسيدوم أبد الدهر ؛
ولكن أين أنت الآن يا حبيبتى ؟
إنى أتحسر — والأوراق الصفراء تسقط عن الغصن ،
أذرف الدمع — ويتلألأ رضاب الندى الأبيض على الكلأ الأخضر(٤٣) .

وأخذ يسلى نفسه باحتساء الخمر ، حتى أصبح أحد « الستة المتعطلين فى أيكة الخيزران » ، الذين يأخذون الحياة سهلة فى غير عجلة ، ويكسبون أقواتهم المزعزعة بأغانيهم وقصائدهم . وسمع لى الناس يثنون الثناء الجم على نبيذ نيو چونج فسافر

من فوره إلى تلك المدينة ، وكانت تبعد عن بلده ثلثمائة ميل[٤٤] .

والتقى فى تجواله بدوفو الذى صار فيا بعد منافسه على تاج الصين الشعرى ، وتبادل هو وإياه القصائد الغنائية ، وصارا يضربان فى البلاد معا كالأخوين ، ويناما تحت غطاء واحد ، حتى فرقت الشهرة بينهما . وأحبهما الناس جميعاً لأنهما كانا كالقديسين لا يؤذيان أحداً ويتحدثان إلى الملوك وإلى السوقة بنفس الأنفة والمودة اللتين يتحدثان بهما إلى الفقراء المساكين . ودخلا آخر الأمر مدينة شانجان وأحب « هو » الوزير الطروب شعر لى حبا حمله على أن يبيع ما عنده من الحلى الذهبية ليبتاع له الشراب ، ويصفه دوفو بقوله :

أما لى پو فقدم له ملء إبريق ،
يكتب لك مائة قصيدة
وهو يغفو فى حانة .
فى أحد شوارع مدينة شانجان ؛
وحتى إذا ناداه مولاه ،
فإنه لا يطأ بقدمه القارب الإمبراطورى .
بل يقول : « معذرة يا صاحب الجلالة .
أنا إله الخمر » .

لقد كانت أيامه هذه أيام طرب ومرح ؛ يعزه الإمبراطور ، ويغمره بالهدايا جزاء ما كان يتغنى به من مديح يانج جوى — فى الطاهرة . وأقام منج مرة مأدبة ملكية يوم عيد الفاونيا(*) فى فسطاط الصبار ، وأرسل فى طلب لى پو لينشد الشعر فى مديح حبيبته . وجاء لى ، ولكنه كان ثملا لا يستطيع قرض الشعر . فألقى خدم القصر ماء باردا على وجهه الوسيم ، وسرعان ما انطلق الشاعر

(*) نبات يسمى أيضاً عود الصليب . (المترجم)

يغنى ويصف ما بين الفاونيا وحبيبة يانج من تنافس فقال :

فى أثوابها جلال الغمام السابح ،
وفى وجهها سنا الزهرة الناضرة .
أيها الطيف السماوى يا من لا يكون إلا فى العلا
فوق قلة جبل الجواهر
أو فى قصر البلور المسحور حين يرتفع القمر فى السماء !
على أننى أشهد هاهنا فى روضة الأرض —
حيث يهب نسيم الربيع العليل على الأسوار ،
وتتلألأ نقاط الندى الكبيرة ...
لقد هُزم حنين الحب الذى لا آخر له
والذى حملته إلى القلب أجنحة الربيع(٤٥) .

ترى منذا الذى لا يسره أن يكون هو الذى تغنى فيه هذه الأغنية ؟ لكن الملكة أدخل فى روعها أن الشاعر قد عرض بها فى أغنيته تعريضاً خفياً ، فأخذت من هذه اللحظة تدس له عند الملك وتبعث الريبة فى قلبه . وما زالت به يفتله بين الذروة والغارب حتى أهدى لى — پو كيسا به نقود وصرفه . فأخذ الشاعر يهيم فى الطرقات مرة أخرى يسلى نفسه باحتساء الخمر ، « وانضم إلى الثمانية الخالدين أصحاب الكأس » ، الذين كان شرابهم على لسان الناس فى شانجان . وكان يرى رأى ليولنتج القائل إنه يحسن بالإنسان أن يسير وفى صحبته على الدوام خادمان يحمل أحدهما خمراً ويحمل الآخر مجرفا يستعين به على دفنه حيث يخر صريعاً « لأن شئون الناس » كما يقول ليو « ليست إلا طحالب فى نهر »(٤٦) . وكأنما أراد شعراء الصين أن يكفروا عن تزمت الفلسفة الصينية ، فأطلقوا لأنفسهم العنان . وفى ذلك يقول لى پو : « لقد أفرغنا مائة إبريق من الخمر لنغسل بها

أرواحنا ونطهرها من الأحزان التى لازمتنا طوال حياتنا »[٤٧] . وهو يترنم بينت الحان ترنم عمر الخيام :

إن المجرى الدافق يصب ماءه فى البحر ولا يعود قط .
ألا ترى فوق هذا البرج الشامخ
شبحا أبيض الشعر يكاد يذوب قلبه حسرة أمام مرآته البراقة ؟
لقد كانت هذه الغدائر فى الصباح شبيهة بالحرير الأسود ،
فلما أقبل المساء إذا هى كلها فى بياض الثلج .
هيا بنا ، ما دام ذلك فى مقدورنا ، نتذوق الملاذ القديمة ،
ولا نترك إبريق الخمر الذهبى
يقف بمفرده فى ضياء القمر ...
إنى لا أبغى سوى نشوة الخمر الطويلة ،
ولا أحب أن أصحو قط من هذه النشوة ...
هيا بنا أنا وأنتما نبتاع الخمر اليوم !
لم تقولان إنكما لا تملكان ثمنها ؟
فجوادى المرقط بالأزهار الجميلة ،
ومعطفى المصنوع من الفراء والذى يساوى ألف قطعة من الذهب
سأخرج عن هذين وآمر غلامى
أن يبتاع بهما الخمر اللذيذة
ولأنس معكما يا صاحبى
أحزان عشرة آلاف من الأعمار ![٤٩]

ترى ما هى هذه الأحزان ؟ أهى آلام من محب ازدرى حبه ؟ لا نظن هذا لأن شعراء الصين لا يكثرون من الشكوى من آلام الحب ، وإن كان

يملأ قلوبهم كما يملأ قلوبنا . وإنما الذى أذاقنى مرارة المآسى البشرية هو الحرب والفقى ، وهو آن لو شـان والاستيلاء على عاصمة البلاد ، وفرار الإمبراطور وموت يانج ، وعودة منج هوانج إلى قصوره المهجورة . وهو يقول فى حسرة : « ليس للحرب نهـاية ! » ثم يأسو النساء اللاتى قدمن أزواجهن ضحايا لإله الحرب فيقول :

هاهو ذا شهر ديسمبر ؛ وها هى ذى فتاة يورتشاو الحزينة !
لقد امتنع عليها الغناء ، وعز الابتسام ، وحاجباها أشعثان ،
وهى تقف بالباب ، تنتظر عابرى السبيل ،
وتذكر ذلك الذى اختطف سيفه وسار لحماية الحدود ،
ذلك الذى قاسى أشد الآلام فى البرد القارس وراء السور العظيم ،
ذلك الذى جندل فى ساحة الوغى ولن يعود أبداً ،

* * *

فى مشيتها الذهبية الحمراء التى تحتفظ فيها بالذكريات ،
قد بقى لها سهمان مراشان بريشتين بيضاوين ،
بين نسج العنكبوت وما تجمع من الغبار خلال السنين الطوال .
تلك أحلام الحب الجوفاء التى لا تستطيع العين أن تنظر إليها لما تسببه
للقلب من أحزان .
ثم تخرج السهمين وتحرقهما وتذرو رمادهما فى الرياح .
إن فى وسع الإنسان أن يقيم سداً يعترض به مجرى النهر الأصفر ،
ولكن منذ الذى يخفف أحزان القلب إذا تساقط الثلج ،
وهبت ريح الشمال ؟[49]

وفى وسعنا الآن أن نتخيله ينتقل من بلد إلى بلد ومن ولاية إلى ولاية على

الصورة التى وصفه بها دزو تشو بج — چى : « على ظهرك حقيبة ملأى بالـكتب ، تطوف ألف ميل أو أكثر ، وفى كمك خنجر وفى جيبك طائفة من القصائد »[٥٠] . وقد حبته رفيقته القديمة الطبيعة فى هذا التجوال الطويل بعزاء وسلوى وراحة تجل عن الوصف ؛ وفى وسعنا أن نرى من خلال أشعاره أرض بلاده ذات الأزهار ، ونشعر أن حضارة المدن قد أخذ عبثها الباهظ يثقل على الروح الصينية :

لِمَ أعيش بين الجبال الخضراء ؟
إنى أضحك من هذا السؤال ولا أجيب عنه ، إن روحى ساكنة صافية ؛
إنها تسكن سماء أخرى وأرضاً ليست ملـكا لإنسان .
إن أشجار الخوخ مزدهرة والماء ينساب من تحتها[٥١] .

ثم انظر إلى هذه الأبيات :

أبصرت ضياء القمر أمام مخدعى .
خلته الصقيع على الأرض .
ورفعت رأسى ونظرت إلى القمر الساطع فوق الجبل ،
وطأطأت رأسى وفـكرت فى موطنى البعيد[٥٢] .

ولما تقدمت به السن وابيض شعره امتلأ قلبه حناناً للأماكن التى قضى فيها أيام شبابه . وكم من مرة ، وهو يحيا فى العاصمة حياة اصطناعية ، حن قلبه للحياة البسيطة الطبيعية التى كان يحياها فى مسقط رأسه وبين أهله :

فى أرض وو أوراق التوت خضراء ،
نام دود الحرير مرات ثلاثا .
وأرض لوه الشرقية حيث تقيم أسرتى ،
لا أعرف من يزرع فيها حقولنا .
وليس فى وسعى أن أعود لأقوم فيها بأعمال الربيع .

ومع هذا فإنى لا أستطيع أن أعمل شيئاً ، بل أسير على ضفة النهر
إن ريح الجنوب إذا هبت أطارت روحى المشوقة إلى وطنى .
وحملتها معها إلى حانتنا المعهودة .
وهناك أرى شجرة خوخ على الجانب الشرقى من البيت ،
بأوراقها وأغصانها الكثيفة تموج فى الضباب الأزرق .
إنها هى الشجرة التى غرستها قبل أن أفارق الدار منذ سنوات ثلاث .
لقد نمت شجرة الخوخ الآن وطالت حتى بلغت سقف الحانة ،
فى أثناء تجوالى الطويل إلى غير أوبة .
أى بنيتى الجميلة يا بنج — يانج ، إنى أراك واقفة .
بجوار شجرة الخوخ ، تنتزعين منها غصناً مزهراً ،
تقطفين الأزهار ، ولكنى لست معك —
ودموع عينيك تفيض كأنها مجرى ماء !
وأنت يا ولدى الصغير پوسشين لقد نموت حتى بلغت كتفى أختك
وصرت تخرج معها تحت شجرة الخوخ ؛
ولكن منذا الذى يربت على ظهرك هناك ؟
إنى حين أفكر فى هذه الأمور تخوننى حواسى
ويقطع الألم الشديد فى كل يوم نياط قلبى .
وهأنذا أقطع قطعة من الحرير الأبيض وأكتب عليها هذه الرسالة
وأبعث بها إليك مصحوبة بحبى تجتاز الطريق الطويل إلى أعلى النهر(٥٣)

وكانت السنون الأخيرة من عمره سنى بؤس وشقاء ، لأنه لم ينزل قط من عليائه ليجمع المال ، ولم يجد فى أيام الفوضى والفتن ملكا يحنو عليه ويرد عنه غائلة الجوع والحرمان . ولما عرض عليه لى — لفج أمير يونج أن ينضم إلى حاشيته

قبل هذا راضياً مسروراً ؛ ولكن لى — لفج خرج على خليفة منج هوانج ، فلما قلمت أظفار فتنته ألقى لى پو نفسه بين جدران السجن محكوما عليه بالموت لأنه خان دولته .

ثم توسط له جوُو دزيئى القائد الذى أخمد ثورة آن لو شان ، وطلب أن تفتدى حياة لى پو بنزوله هو عن رتبته ولقبه . فخفف الإمبراطور عنه الحكم واستبدل به النفى مدى الحياة . ثم صدر عفو عام بعد ذلك بقليل ، وعاد الشاعر يتعثر إلى مسقط رأسه . ومرض وتوفى بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت ؛ وتقول الأقاصيص ، التى يعز عليها أن تموت نفس قل أن يوجد مثلها بين النفوس ميتة عادية ، إنه غرق فى أحد الأنهار ، بينما كان يحاول وهو ثمل جزلان أن يعانق صورة القمر .

وديوان شعره الرقيق الجميل المؤلف من ثلاثين مجلداً لا يترك مجالا للشك فى أنه حامل لواء شعراء الصين بلا منازع . وقد وصفه ناقد صينى بأنه « قمة تاى الشامخة المشرفة على مئات الجبال والتلال ؛ والشمس التى إذا طلعت خبا وميض ملايين من نجوم السماء »[٥٤] .

لقد مات منج هوانج ، وماتت يانج وعفا ذكرهما ولكن لى پو لا يزال يغنى :

لقد بنيت سفينتى من خشب الأفاويه وصنع سكانها من خشب المولان .

وجلس العازفون عند طرفها وبيدهم الناى من القاب المحلى بالجواهر والمزمار المرصع بالذهب .

ألا ما أعظم سرورى إذا كان إلى جانبى دن الخمر اللذيذة وغيد حسان يغنين

ونحن نطفو فوق ظهر الماء تدفعنا الأمواج ذات اليمين وذات الشمال !

إذن لـكنت أسعد من جنى الهواء الذى ركب على ظهر غرنيفه الأصفر ،
حراً كعريس البحر الذى تعقب النوارس[*] دون غرض يبتغيه ،
إنى الآن أهز الجبال الخمسة بضربات من وحى قلمى .
هأنذا قد فرغت من قصيدتى . فأنا أضحك وسرورى أوسع من البحر .
أيها الشعر الخالد ! إن ألحان شو بنج[**] لشبيهة فى روعتها بالشمس والقمر ،
أما قصور ملوك جو وأبراجهم فقد عفت آثارها من فوق التلال[**]

(*) المرلان ضرب من الخشب الثمين وعريس البحر مخلوق خرافى له جسم رجل وذيل سمك والنورس طائر مائى .   (المترجم)

(**) انظر ص ٩٦

الفصل الخامس

من خصائص الشعر الصينى

النظم الطليق — « التصوير » — كل قصيدة صورة
وكل صورة قصيدة . . — العاطفية — كمال الشكل

ليس فى وسعنا أن نحكم على الشعر الصينى بدراسة شعر لى وحده ، فإذا أراد الإنسان إن يُحس به (وهذا خير من الحكم عليه) وجب عليه أن يسلم نفسه فى غير استعجال للكثيرين من الشعراء الصينيين وأساليبهم الشعرية الفذة . ولا جدال فى أن بعض الصفات الدقيقة التى يتصف بها هذا الشعر تخفيها عنا ترجمته : فنحن لا نرى فى هذه الترجمة الرموز الصينية الجميلة ؛ التى يتكون كل منها من مقطع واحد ولكنه يعبر مع ذلك عن فكرة معقدة ولا نرى السطور تجرى من أعلى إلى أسفل ومن اليمين إلى اليسار ، ولا ندرك الوزن والقافية اللذين يتشبثان بقوة بالقواعد والسوابق القديمة ؛ ولا نستمع إلى النغمات — وما فيها من خفض ورفع — التى يترنم بها الشعر الصينى . وجملة القول أن نصف ما فى شعر الشرق الأقصى من جمال فنى يضيع حين يقرؤه من يجب أن نسميه « أجنبيا » عنه . إن خير القصائد الصينية فى لغتها الأصلية لصورة مصقولة ثمينة لا تقل فى صقلها وعظيم فنها عن المزهرية المنقوشة النادرة الجميلة ؛ ولكنه بالنسبة إلينا لا يكون إلا نتفاً من القريض الخداع « الطليق » من الوزن أو الشعر « التصويرى » قد أدركه بعض الإدراك ونقله نقلا ضعيفاً عقل جاد ولكنه عقل غريب عنه لا يمت إليه بصلة .

إن أهم ما نراه فى هذا الشعر هو إيجازه ؛ فنميل إلى الظن بأن هذه القصائد تافهة ، وإذا ما قرأناها شعرنا بأنا قد لا نجد فيها ما فى شعر ملتن وهوجو من

عظمة تارة وملالة تارة أخرى . ولـكن الصينيين يعتقدون أن الشعر كله يجب أن يكون قصيراً ؛ وأن القصيدة والطول لفظان متناقضان ، لأن الشعر فى نظرهم نشوة وقتية بنت ساعتها تموت إذا طالت ومدت حتى صارت ملحمة ، وأن رسالة الشاعر أن يرى الصورة ويرسمها بضربة ويسجل الفلسفة فى بضعة سطور وأن مثله الأعلى أن يجمع المعانى الـكثيرة فى أنغام قليلة . وإذ كانت الصور من جوهر الشعر ، وكانت الـكتابة الصينية فى جوهرها كتابة تصويرية ، كانت لغة الصين المـكتوبة لغة شعرية بطبيعتها تنقاد للـكتابة التصويرية ، وتنفر من المعنويات المجردة التى لا يمكن التحدث عنها كما يتحدث عن المرئيات . وإذ كانت المعنويات تـكثر كلما ارتقت الحضارة ، فقد أضحت اللغة الصينية فى صورتها المـكتوبة ، أشبه بشفرة سرية ذات إيحاء دقيق . وكذلك كان الشعر الصينى ، بالطريقة نفسها ، وقد يكون للسبب عينه ، يجمع بين الإيحاء والتركيز ، ويهدف بما يرسم من الصور إلى الـكشف عن شىء خفى عميق . فهو لا يجادل ولا يناقش ، بل يوحى ويوعز ، ويترك أكثر مما يقول ؛ وليس فى وسع أحد غير الشرقى أن يستجيب لـما يوعز به ويملأ الفراغ الذى يتركه . وفى هذا المعنى يقول الصينيون : « كان الأقدمون يرون أن أحسن الشعر ما كان معناه أبعد من لفظه ، وما اضطر قارئه أن يستخلص معناه لنفسه »[٥٦](*) . فالشعر الصينى كالأخلاق الصينية والفن الصينى ذو جمال رائع لا حد له تخفيه بساطة هادئة مستكنة ، فهو لا يعمد إلى الاستعارة والمجاز والتشبيه بل يعتمد على إظهار ما يريد أن يتحدث عنه ، ويشير من طرف خفى إلى ما يتضمنه ، ويتصل به ، وهو يتجنب المبالغات والانفعالات ويلجأ إلى العقل الناضج بما فيه من إيجاز فى القول وما يتقيد به من قيود . وقلما تراه فى صور روائية هائجة ، ولـكن فى مقدوره أن يعبر عن المشاعر القوية بأسلوبه الهادئ الرصين :

(*) انظر وصف مكولى للشعر فى مقاله عن ملتن . (المترجم)

الناس يقضون حياتهم متفرقين كالنجوم تتحرك ولكنها لا تلتقى أبداً.
أما هذه العين فما أسعدها، إذ ترى مصباحاً واحداً يبعث الضوء لى ولك!
ألا ما أقصر أيام الشباب!
وإن لسامنا لتدل الآن على أن حياتنا قد آذنت بالزوال.
بل إن نصف من نعرفهم قد انتقلوا الآن إلى عالم الأرواح.
ألا ما أشد وقع هذا على نفسى.

وقد يعترينا الملل فى بعض الأحيان مما فى هذه القصائد من التكلف العاطفى، وما تحويه من تحسر وتمن باطل بأن تقف عجلة الزمان دورتها حتى يبقى الرجال فتياناً وتحتفظ الدول بشبابها أبد الدهر. ونحن ندرك من هذا الشعر أن حضارة الصين كانت قد شاخت وانقضى عهد شبابها فى أيام منج هوانج، وأن الشعراء فى هذا العهد — كالفنانين فى الشرق بوجه عام — قد أولعوا بتكرار الموضوعات التليدة، وأنهم كانوا يسخِّرون قدرتهم الفنية للاحتفاظ بالصيغ سليمة مبرأة من العيوب. ولكننا رغم هذا كله لا نجد لهذا الشعر مثيلاً فى غير بلاد الصين، ولا نرى مايضارعه فى جمال التعبير وما فيه من رقة فى العواطف رغم اعتدالها، ومن بساطة واقتصاد فى التعبير عن أعمق الأفكار. ويقال لنا إن للشعر الذى كتب فى عهد أباطرة تانج أثراً عظيما فى تعليم كل شاب صينى، وإن الإنسان لايجد صينياً مفكراً لا يحفظ الكثير من ذلك الشعر عن ظهر قلب. فإذا صح هذا كان فى تاريخ لى پو ودوفو بعض ما نجيب به حين نسأل لمَ يكاد كل صينى متعلم يكون فناناً وفيلسوفاً؟

الفصل السادس

دوفو

دواتشين – پو – چوی – قصائد لشفاء الملاريا – دوفو
ولی پو – رؤيي الحرب – أيام الرخاء – الإملاق – الموت

لی پو عند الصينيين شبيه بكيتس عند الإنجليز ، ولـكن للصين غيره من المغنين ، لا يكاد يقلّ حبهم لهم عن حبهم للی پو ، فنهم داوتشين الشاعر الرواقي البسيط الذي اعتزل منصباً حكوميا ، لأنه على حد قوله لم يعد فی وسعه « أن يحنى فقرات ظهره نظير خمسة أرطال من الأرز فی كل يوم » أی أن يبتاع مرتبه بكرامته . واعتزل داوتشين الحياة العامة كما اعتزلها كثيرون من رجال الدولة اشمئزازاً من حياة الوظيفة ذات النزعة التجارية ، وذهب ليعيش فی الغابات ينشد فيها « طول السنين وعمق الخمور » ، ويجد فی مجاری الصين وجبالها من السلوى والبهجة ما صوره رساموها على الحرير فيما بعد :

أقطف الأقحوان تحت السياج الشرقي ،
ثم أسرح الطرف طويلا فی تلال الصيف البعيدة
وأملأ صدری من هواء الجبال النقي عند مطلع الفجر ،
وأرى الطيور تعود مثنى مثنى .
إن فی هذه الأشياء لمعانی عميقة ،
لـكننا إذا شئنا التعبير عنها خانتنا الألفاظ فجأة . . .
ألا ما أسخف أن يمضي المرء حياته كأوراق الشجر الساقطة المطمورة
فی تراب الطرقات !
ولقد قضيت ثلاث عشرة سنة من حياتی على هذا النحو . . .

وعشت زمناً طويلا حبيساً فى قفص ؛
وهأنذا قد عدت
إذ لا بد للإنسان أن يعود
ليحيا حياته الطبيعية[٥٧]

أما پو — چوى فقد سلك مسلكا آخر ، إذ اختار المنصب الرسمى والحياة فى العاصمة . وصار يرقى فى المناصب العامة حتى أمسى حاكم مدينة هانچ تشاو العظيمة ورئيس مجلس الحرب . لكنه رغم متاعب الحياة العامة عاش حتى بلغ الثانية والسبعين من العمر ، وأنشأ أربعة آلاف قصيدة ، وعب ملاذ الطبيعة فى فترات نفى فيها من بلده[٥٨] . وعرف السر الذى يستطيع به أن يجمع بين الوحدة والاختلاط بالجماهير ، وبين الراحة والحياة الناشطة . ولم يكن كثير الأصدقاء لأنه كما يقول عن نفسه كان رجلا وسطا غير ممتاز فى « الخط ، والتصوير ، والشطرنج ، والميسر ، وهى الوسائل التى تؤدى إلى اجتماع الرجال وإلى الضجة السارة »[٥٩] . وكان مولعاً بالتحدث إلى عامة الناس ، ويروى عنه أنه كان يقرأ قصائده لعجوز قروية ، فإذا عجزت عن فهم شىء منها بسطه لها . ومن ثم أصبح أقرب الشعراء الصينيين إلى قلوب الجماهير ، وكان شعره ينقش فى كل مكان على جدران المدارس والمعابد وقمرات السفن . ويروى أن فتاة من المغنيات قالت لربان سفينة كانت تطربه « ليس لك أن تظن أنى راقصة عادية ؛ وحسبك أن تعرف أن فى مقدورى أن أسمعك قصيدة الأستاذ پو : الغلطة الأبدية »[٦٠](*)

وآخر من نذكره من أولئك الشعراء هو دوفو الشاعر المحبوب العميق الذى يقول فيه ارثر ويلى Arthur Waley : « من عادة الذين يكتبون فى الأدب

(*) من أشهر الروايات الصينية الكبيرة التى يروى بها الكتاب الصينيون غرام منج هوانج بيانج جوى فى موتها فى أثناء الثورة وشقاء منج بعد عودته إلى العرش . وليست القصيدة خالدة إلى الحد اللذى توصف به ، وهى أطول من أن تتسع لها هذه الصفحات .

الصينى من الإنجليز أن يقولوا إن لى تاى — بو أشعر شعراء الصين ؛ أما الصينيون أنفسهم فيقولون إن دوفو هو حامل لواء الشعراء الصينى »(٦١)

ونحن نسمع به لأول مرة فى شانجان حيث أقبل ليؤدى امتحاناً ليتقلد إذا نجح فيه منصباً حكوميا ، ولكنه لم ينجح . على أن ذلك لم يفت فى عضده ، رغم أنه أخفق فى مادة الشعر ؛ وأعلن للجمهور أن قصائده علاج ناجع لحمى الملاريا ، ويبدو أنه جرب هذا العلاج بنفسه(٦٢) . وقرأ بنج هوانج بعض أشعاره ووضع له هو نفسه امتحاناً آخر ، وأنجحه فيه وعينه أمين أسرار القائد تسوًّا . وشجع هذا العمل دوفو وأنساه وقتاً ما زوجته وأبناءه فى قريتهم النائية ، فأقام فى العاصمة وتبادل هو ولى بو الأغانى . وأخذ يتردد على الحانات ويؤدى ثمن خمره شعراً . وقد كتب عن لى بو يقول :

أحب مولاى كما يحب الأخ الأصغر أخاه الأكبر ،

فنى الخريف وفى نشوة الخمر ننام تحت غطاء واحد ، وفى النهار نسير معاً يداً بيد .

فعل هذا فى أيام كان منج ليانج يحب جوى فى فأخذ دو يتغنى بهذا الحب كما يتغنى غيره من الشعراء ؛ فلما شبت نار الثورة وأغرقت الأحقاد والمطامع بلاد الصين فى بحر من الدماء حول شعره إلى موضوعات حزينة ، وأخذ يصوّر الناحية الإنسانية من الحرب :

فى الليلة الماضية صدر أمر حكومى

بتجنيد الفتيان الذين بلغوا الثامنة عشرة .

وأمروا أن يعاونوا على الدفاع عن العاصمة

أيتها الأم ! وأيها الأبناء ! لا تبكوا هذا البكاء !

إن هذه الدموع التى تذرفونها تضر بكم .

وحين تقف الدموع عن الجريان تبرز العظام

ووقتئذ لا ترحمكم الأرض ولا السماء .
وهل تعرفون أن فى شانتونج مائتى مقاطعة قد استحالت صحارى مجدبة ،
وأن آلافا من القرى والمزارع قد غطاها الحسك والشوك ؟
وأن الرجال يذبحون ذبح الكلاب ، والنساء يسقن كما يساق الدجاج ..
ولو أننى كنت أعرف ما هو مخبأ للأولاد من سوء المصير
لفضلت أن يكون أطفالى كلهم بنات ...
ذلك أن الأولاد لا يولدون إلا ليدفنوا تحت العشب الطويل .
ولا تزال عظام من قضت عليهم الحرب فى الماضى البعيد مدفونة بجوار
البحر الأزرق تراها وأنت مار .

فهى بيضاء رهيبة تراها العين فوق الرمال ، .
هنالك تجتمع أشباح الصغار وأشباح الكبار لتصيح جامات ،
وإذا هطل المطر وأقبل الخريف وهبت الريح الباردة ،
علت أصواتهم حتى علمتنى كيف تقتل المرء الأحزان ...

إن الطيور تتناغى فى أحلامها وهى تحلق فوق الماء
واليراعة تشع بضيائها فى غسق الليل .
فلم يقتل الإنسان أخاه الإنسان ليعيش ؟
إنى أتحسر خلال الليل فى غير طائل [٦٤]

وقضى الشاعر عامين خلال عهد الثورة يطوف بأنحاء الصين تقاسمه إملاقه زوجته وأبناؤه ، وقد بلغ من فقره أنه كان يستجدى الناس الخبز ، ومن ذلته أنه خررا كما يدعو بالخير للرجل الذى آوى أسرته وأطعمها حيناً من الزمان [٦٥] .
ثم أنجاه من بؤسه القائد الرحيم ين وو فعينه أميناً لسره ، وغفر له أهواءه وأطواره

الشاذة ، وأسكنه كوخاً على ضفة « مجرى غاسل الأزهار » ، ولم يطلب إليه أكثر من أن يقرض الشعر[*] . وعاش الرجل حينئذ سعيداً طروبا يتغنى بالأمطار والأزهار والقمر والجبال :

وماذا تجدى العبارة أو المقطوعة الشعرية الجميلة ؟
إن أمامى جبالا وغابات كثيفة سوداء فاحمة .
وإن نفسى لتحدثنى بأن أبيع تحفى وكتبى
وأعب من الطبيعة وهى صافية عند منبعها ...
فإذا قدمت على مكان بهذا الجمال
مشيت رويداً ، وتمنيت أن يغرق الجمال روحى
أحب أن ألمس ريش الطير .
وأنفخ فيه بقوة حتى أكشف عما تحته من الزغب .
وأحب أن أعد إبر النبات أيضاً ،
بل أحب أن أعد لقاحه الذهبى ،
ألا ما أحلى الجلوس على الكلأ ،

ولست بحاجة إلى الخمر حين أجلس عليه ، لأن الأزهار تسكرنى . . .
أحب الأشجار القديمة حبا يسرى فى عظامى ، وأحب أمواج البحر
التى فى زرقة اليشب[٦٥] .

وأحبه القائد الطيب القلب حبا أفسد على الشاعر راحته ، لأنه رفعه إلى منصب عال فى الدولة ، إذ جعله رقيباً فى شانجان ، ثم مات القائد فجأة ، وثارت الحرب حول الشاعر ، فأمسى وحيداً لا سند له إلا عبقريته ، وسرعان ما ألفى نفسه

(*) ويصور رسم صينى شهير « الشاعر دوفو فى الكوخ المغمى » . وتوجد هذه الصورة فى متحف الفن بنيويورك .

فقيراً معدما ، وأخذ أطفاله وقد أذهب عقلهم الجوع يسخرون منه لقلة حيلته ، وكان فى آخر أيامه شيخاً مهدماً بائساً وحيـداً ، « يؤذى العين منظره » ، وأطاحت الريح بسقف كوخه ، وسرق الأطفال قش فراشه ، وهو ينظر إليهم ولا يستطيع لضعفه أن يقاومهم(٦٧) ، وشر من هذا كله أنه فقد لذة الخمر ، ولم يعد فى وسعه أن يحل مشاكل الحياة كما يحلها لى پو .

ثم لجأ آخر الأمر إلى الدين ووجد سلواه فى البوذية ، وعاجلته الشيخوخة ولما يتجاوز التاسعة والخمسين من عمره ، فحج إلى جبل هون المقدس ليزور فيه معبداً ذائع الصيت ، وهناك عثر عليه حاكم من الحـكام قرأ شعره ، فآواه إلى منزله وأقام وليمة تكريماً له ، صفت فيها صحاف الشواء وكؤوس الخمر . ولم يكن ووفو قد رأى ذلك من عدة سنين فأكل أكل الجياع . ثم طلب إليه مضيفه أن ينشد الشعر ويغنى ، فحاول أن يجيبه إلى ما طلب ، ولـكنه خارت قواه وسقط على الأرض ومات فى اليوم الثانى(٦٨) .

الفصل السابع

النـــثر

وفرة الآداب الصينية — الروايات الغرامية — التاريخ
زوماتشين — المقالات — هان يو على عظام بوذا

ليس شعراء تانج إلا فئة من شعراء الصين ، وليس الشعر إلا جزءاً من الأدب الصينى ، وإنه ليصعب علينا أن ندرك حقية ما كان فى هذا العصر من وفرة فى الأدب ومن سعة انتشاره بين كافة طبقات الشعب . وكان عدم وجود قانون الملكية الأدبية عاملا من العوامل التى ساعدت على رخص أثمان المطبوعات ، ولذلك كان من الأمور العادية ، قبل دخول الأفكار الغربية فى البلاد ، أن يجد الإنسان مجموعات جديدة مجلدة من عشرين كتابا تباع الواحدة منها بريال أمريكى ، وأن يرى موسوعات مؤلفة من عشرين مجلداً تباع جديدة بأربعة ريالات ، وأن تباع جميع روائع الأدب الصينى القديم كلها بريالين[٦٩] . وأصعب مما سبق أن نقدر نحن قيمة هذا الأدب ، وذلك لأن الصينيين يضعون الشكل والأسلوب فوق المادة حين يحكمون على كتاب ما ، وليس فى وسع أية ترجمة مهما بلغت أن تظهر جمال الشكل أو روعة الأسلوب .

ليس من حقنا أن نلوم الصينيين حين يقولون إن آدابهم أرقى من أية آداب أخرى عدا الآداب اليونانية ، ولعلهم حين يستثنون آداب اليونان إنما يفعلون هذا من قبيل المجاملات المأثورة عن الشرقيين .

والصينيون لا يعدّون القصص فرعاً من فروع الأدب ، وهم فى هذا يختلفون عن الغربيين حيث يرفع القصص من شأن المؤلفين ويذيع أسماءهم فى سرعة وسهولة . ولذلك فإنا قلما نجد له ذكراً فى بلاد الصين قبل أن يدخلها المغول[٧٠]

بل إن أدباء الصين لا يزالون إلى هذا اليوم يعدون خير الروايات القصصية مجرد تسلية شعبية غير خليقة بأن تذكر فى تاريخ الآداب الصينية . لكن سكان المدن الصينية السذج لا يبالون بهذه الفروق ، ويتركون أغانى بو — جوى ولى بو فى غير تحرج ، ويفضلون عليها الروايات الغرامية التى لا حصر لها ، والتى يكتبها مؤلفون يخفون عن القراء أسماءهم ، وينشرونها باللهجات الشعبية التى تكتب بها المسرحيات . وهى تصور للصينيين فى وضوح ما فى ما ضيهم من أحداث روائية رائعة ؛ ذلك أن جميع الروايات الصينية الشهيرة ، إلا القليل النادر منها ، روايات تاريخية ، وقلّ أن يوجد فيها ما هو واقعى النزعة ، وأقلّ منه ما يحاول فيه مؤلفوه ذلك القرب من التحليل النفسانى أو الاجتماعى الذى يرق « بإخوة كرمزوف» The Brothers Karmazov و « الجبل المسحور » The Magic Mountain و « الحرب والسلم » War and Peace و « البائسون » Les Miserables إلى مستوى الأدب الرفيع .

ومن أقدم الروايات الصينية رواية شوى هو جوان أو « قصة حواشى الماء » التى ألفها رهط من الكتاب فى القرن الرابع(*) .

ومن أكبر هذه الروايات حجما رواية « هونج لومن » أو حلم الغرفة الحمراء (حوالى ١٦٥٠ م) وهى رواية فى أربعة وعشرين مجلداً ؛ ومن أحسنها كلها رواية لياو جاى جيئ أو قصص عجيبة (حوالى ١٦٦٠ م) وهى التى يجلها الصينيون لجمال أسلوبها وأناقة عبارتها . وأشهرها كلها رواية سان جوو-جى يان إى أو « رواية الممالك الثلاث » وهى رواية منمقة الأسلوب فى ألف صفحة ومائتين كتبها لو جوان — چونج (١٢٦٠ — ١٣٤١) فى وصف الحرب

(*) لقد ترجمت مسز پيرل بك Mrs. Pearl Buck هذه الرواية ترجمة جيدة وسمتها « كل الناس إخوة All Men are Brothers » وطبعت فى نيويورك سنة ١٩٣٣ .

والدسائس التى أعقبت سقوط أسرة هان(*) ، وكلها شبيهة بالروايات الطويلة التصويرية التى كانت منتشرة فى أوربا فى القرن الثامن عشر . وكثيراً ما تجمع هذه الروايات (إذ جاز لنا فى مثل هذه الموضوعات أن ننقل إلى القارئ ما يتحدث به الناس عنها) بين تصوير الأخلاق الفكه اللطيف الذى تراه فى رواية تم جونز Tom Jones وبين القصص الشائق الذى تراه فى جل بلاس Gil Blas . وهى أصلح ما تكون لأن يقرأها الشيوخ الطاعنون فى السن ليقطعوا بها أوقات فراغهم .

والتاريخ أجل الأدب شأناً فى الصين ، وهو كذلك أحبها إلى الصينيين ، وليس ثمة أمة ظهر فيها من المؤرخين عدد يوازى من ظهر منهم فى الصين ، وما من شك فى أنه ليس بين الأمم جميعها أمة كتبت فى التاريخ بقدرما كتبت الأمة الصينية . ذلك أن أقدم قصور الملوك كان لها كتابها الرسميون ، يسجلون أعمال الملوك وأحداث الأيام ؛ ولقد دام منصب مؤرخ البلاط إلى أيامنا هذه ، وأوجد فى الصين قدراً من الأدب التاريخى لا نرى له مثيلا فى طوله ولا فى ملله فى جميع بلاد العالم . وحسبنا أن نضرب بعض الأمثلة ليدرك القارئ طول هذه التواريخ . فمنها أربعة وعشرون كتاباً فى « تواريخ الأسر » وهو تاريخ رسمى نشر فى عام ١٧٤٧ فى ٢١٩ مجلداً ضخماً(٧١) . وأخذت كتابة التواريخ تخطو خطى سريعة فى الصين مبتدئة بالشو — جنج أو « كتاب التاريخ » الذى هذبه كنفوشيوس أحسن تهذيب ، وبالدزو — جوان وهو شرح لكتاب المعلم الكبير وإحياء له كتب بعد مائة عام من ذلك الوقت ، وبحوليات كتب الغاب التى وجدت فى قبر أحد ملوك ويه ، حتى أخرج فى القرن الثانى قبل ميلاد

(*) وترجمها ش . هـ . بروت تيلر C. H. Brewtt-Taylor فى جزأين وطبعت فى شنغهاى سنة ١٩٢٥ .

للسيح أعظم كتب التاريخ الصينية على الإطلاق ، وهو كتاب السجل التاريخى الذى جمعه زوما تشين وبذل فى جمعه جهوداً جبارة .

ذلك أنه لما خلف زوما أباه فى منصب منجم البلاط بدأ عمله بإصلاح التقويم ، ثم وجه جهوده للعمل الذى بدأه أبوه وهو رواية تاريخ الصين من عهد الأسرة الأولى الأسطورية إلى العصر الذى كان يعيش فيه . ولم يكن زوما مولعاً بجمال الأسلوب ، بل كل ما كان يهدف إليه أن يجعل سجله هذا كاملا . وقد قسم كتابه هذا خمسة أقسام هى : (١) حوليات الأباطرة ، (٢) الجداول التاريخية (٣) ثمانية فصول فى المراسم والموسيقى ، وموازين النغمات ، والتقويم ، والتنجيم ، والقرابين الإمبراطورية ؛ والمجارى المائية ، والاقتصاد السياسى (٤) حوليات أمراء الإقطاع ، (٥) تراجم عظماء الرجال . ويبلغ طول العهد الذى تؤرخ له هذه الكتب كلها نحو ثلاثة آلاف عام ، وقد سجلت فى ٥٢٦,٠٠٠ متر صينى نقشت بقلم مدبب على ألواح من الغاب فى صبر طويل[٧٢] .

ولما فرغ زوماتشين من وضع كتابه هذا الذى قضى فيه حياته كلها أرسله إلى الإمبراطور وإلى العالم ولم يضف إليه إلا هذه المقدمة المتواضعة :

« لقد وهنت الآن قوة خادمك الجسمية ، وضعف بصره وأظلمت عيناه ، ولم يبق من أسنانه إلا العدد القليل ، وضعفت ذاكرته حتى أصبح ينسى حوادث الساعة حين تدبر عنه ، ذلك أن قواه كلها قد استنفدها إخراج هذا الكتاب . وهو لهذا يرجو أن تصفح جلالتكم عن محاولته الجريئة التى تشفع لها نيته الخالصة ، وأن تتفضل فى لحظات الفراغ بإلقاء نظرة قدسية على هذا الكتاب حتى تعرف من أسباب قيام الأسر السابقة وسقوطها سر نجاح هذه الساعة وإخفاقها ، فإذا ما استخدمت هذه المعرفة لخير الإمبراطورية ، فإن خادمك يكون قد حقق غرضه ومطمعه فى الحياة ، وإن ثوت عظامه فى الينابيع الصفراء »[٧٣] .

ولسنا نجد فى صفحات كتاب زوما تشين شيئا من تألق تين Tsine ، ولا ثرثرة ساحرة أو قصصاً طريفة مكتوبة بأسلوب هيرودوت ، ولا تعاقباً للعلة والمعلول كما نجدهما فى توكيديد Thucydides ، ولا نظرة واسعة الآفاق فى لغة موسيقية كما نجد فى جِبُن Gibbon . ذلك أن التاريخ قلما يرتفع فى الصين من صناعة إلى فن .

وقد ظل المؤرخون الصينيون من أيام زوما تشين إلى أيام سميه زوما جوانج الذى حاول بعد أحد عشر قرناً أن يكتب مرة أخرى تاريخاً عاما للصين ، تقول ظل هؤلاء المؤرخون يكدحون ليدوّنوا فى صدق وإخلاص حوادث أسرة حاكمة أو ملك من أسرة . وكثيراً ما أضاعوا فى هذا العمل كل ما كان لهم من مال ، بل إنهم أضاعوا فيه أحياناً حياتهم نفسها ؛ وكانوا ينفقون جهودهم كلها فى سبيل الحقيقة لا يبغون عنها بديلا ، ولم يدخروا شيئا من هذه الجهود ينفقونه فى جمال الأسلوب ، ولعلهم كانوا فى عملهم هذا على حق ، ولعل التاريخ ينبغى أن يكون علماً لا فناً ، ولربما كانت حوادث الماضى يعتريها الغموض إذا وصلت إلينا فى زينة جِبُن أو فى مواعظ كارليل .

ولم تخل بلادنا نحن(*) أيضاً من مؤرخين ثقال ، وفى وسعنا أن ننافس أية أمة من الأمم فى عدد المجلدات التى خصصت لتسجيل — وجمع — أتفه الأشياء .

أما المقالة الصينية فهى أجمل من التاريخ الصينى وأعظم منه بهجة . ذلك أن الفن فيها غير محرم والفصاحة مطلقة العنان . وأوسع كُتاب المقالات شهرة هان يو العظيم الذى يقدر الصينيون كتبه أعظم تقدير ، ويجلونها إجلالا بلغ من قدره أنهم يطلبون إلى من يقرؤها أن يغسل يديه بماء الورد قبل أن يمسها .

وكان هان يو وضيع المولد ولكنه وصل إلى أرقى المراتب فى خدمة الدولة ، ولم يغضب عليه الإمبراطور إلا لأنه احتج احتجاجاً شديداً صريحاً على تسامحه

(*) يقصد أمريكا . (المترجم)

مع البوذية وما حباها من امتيازات . ذلك أن هان كان يعتقد أن الدين الجديد إن هو إلا خرافة هندية ، وقد آلمه أشد الألم ، وهو الكنفوشى الصميم ، أن يرضى الإمبراطور عن هذا الحلم الموهن الذى أسكر أهل بلاده . ومن أجل هذا رفع مذكرة إلى الإمبراطور (٨٠٣ ق . م) تقتبس منها هذه السطور لنقدم للقارئ مثلا من النثر الصينى ، وإن كانت الترجمة الأمينة قد هوشته :

لقد سمع خادمكم أن أوامر صدرت إلى جماعة الكهنة بأن يسيروا إلى فنج — شيانج ليتسلموا عظما من عظام بوذا ؛ وأن جلالتكم ستشرفون من برج عال على دخوله فى القصر الإمبراطورى ؛ وأن أوامر أخرى أرسلت إلى الهيا كل المختلفة تقضى بأن يحتفل بهذا الأثر الاحتفال الذى يليق به . وقد يكون خادمكم أبله ضعيف العقل ، ولكنه يدرك أن جلالتكم لاتفعلون هذا لتنالوا منه نفعاً ، بل تفعلونه مسايرة منكم لرغبة الشعب فى أن يحتفل بهذا المجون الباطل فى عاصمة البلاد ، فى الوقت الذى بلغ فيه الرخاء غايته ، وامتلأت جميع القلوب بهجة وانشراحاً . وإلا فكيف تجيز لكم سامى حكمتكم أن تؤمنوا كما يؤمن عامة الشعب بهذه العقائد السخيفة ؟ وعامة الشعب يا مولاى بطيئو الإدراك يسهل التغرير بهم ، فإذا رأوا جلالتكم تركعون خاشعين أمام قدمى بوذا صاحوا من فورهم : هاهو ذا ابن السماء مصدر الحكمة قوىّ الإيمان ببوذا ؛ فهل يحق لنا نحن عامة شعبه أن نضن عليه بأجسامنا .

« ثم يعقب هذا سفع النواصى وحرق الأصابع ؛ وتجمع الناس من كل صوب يمزقون ملابسهم ، وينثرون أموالهم ، ويقضون وقتهم كله من الصباح إلى المساء يحذون حذو جلالتكم . ونتيجة هذا أن تتملك الشعب كله ، صغاره وكباره ، هذه الحماسة نفسها فيهمل الناس ما يجب عليهم أن يفعلوه فى حياتهم . وتراهم يحجون إلى الهيا كل زرافات ، يقطعون أيديهم ويشوهون أجسامهم ، ليقدموها قرباناً إلى الإله ، إلا إذا حرمتم عليهم جلالتكم هذا العمل . وبهذا يقضى على

عاداتنا وتقاليدنا ، ونصبح مضغة فى أفواه الناس وهدفاً لسخريتهم على ظهر الأرض .

«ولهذا فإن خادمكم ، وقد تجلل بالعار من أفعال الرقباء(*) ، يضرع إلى جلالتكم أن تتركوا هذه العظام طعمه للنار والماء ، حتى يجتث هذا الشر من منابته فلا يعود أبداً ، وحتى يعرف الشعب أن حكمة جلالتكم أعلى من حكمة عامة الناس . وإذا كان للرب بوذا من القوة ما يستطيع به أن يثأر لنفسه من هذه الإهانة بالكوارث يصبها على رأس من كان سبباً فيها ، فليصب جام غضبه على شخص خادمكم ، وهو فى هذه اللحظة يُشهد السماء على أنه لن يحيد عن عقيدته(٧٤) » .

وبعد فإذا ما قام النزاع بين التحريف والفلسفة فأكبر الظن أن النصر سيكون حليف التخريف ، ذلك بأن العالم قد أوتى من العقل ما يجعله يفضل السعادة على الحكمة ، ومن أجل ذلك نفى هان إلى قرية فى هوانج — تونج حيث كان الناس لا يزالون همجا سذجا . ولم يشك من هذا النفى ، بل شرع يهذب الناس ويجعل من نفسه خير قدوة يقتدون بها عملا بتعاليم كنفوشيوس . وقد بلغ من نجاحه فى عمله هذا أن صورته لا تزال يكتب عليها فى هذه الأيام تلك الأسطورة « لقد كان ينشر الطهر حيثما سر »(٧٥) . ثم استدعى آخر الأمر إلى عاصمة البلاد ، وأدى للدولة خدمات جليلة ، ومات معززاً مكرماً أعظم الإعزاز والتكريم . وقد نصبت له لوحة تذكارية فى هيكل كنفوشيوس — وهو المكان الذى يحتفظ به عادة لأتباع المعلم العظيم أو لكبار شراحه — ؛ وذلك لأنه دافع عن العقائد الكنفوشية دفاعاً لم يبال فيه بما يتعرض له من الأخطار ، وقاوم عقيدة كانت من قبل صالحة نبيله ولكنها أصبحت الآن منحطة فاسدة .

(*) إذا أراد القارئ أن يعرف ما هى أعمال الرقباء فليرجع إلى الفصل السادس من الباب السادس والعشرين من هذا الكتاب . ويفهم من قول هان يو هذا أن أحداً منهم لم يحتج قط على رضاء الإمبراطور تى دزونج عن انتشار البوذية فى الصين .

الفصل الثامن

المسرح

منزلته الوضيعة فى الصين — منشؤه — المسرحية — النظارة — الممثلون — الموسيقى

ليس من السهل أن نقسم المسرحيات الصينية أقساما جامعة مانعة ، لأن الصينيين لا يقرون أن التمثيل أدب أو فن ، وليس للتمثيل فى الصين منزلة تتناسب مع ما يتمتع به من انتشار واسع بين طبقات الشعب ، وشأنه فى هذا شأن كثير من مقومات الحياة . من أجل ذلك لا نكاد نسمع بأسماء كتاب المسرحيات ، والممثلون ينظر إليهم على أنهم من طبقة منحطة ولو أنفقوا حياتهم كلها فى إعداد أنفسهم لهذا العمل والنبوغ فيه ، ولو بلغوا فيه أعظم ما يبلغه الإنسان من الشهرة وما من شك فى أن شيئاً من هذا كان من نصيب الممثلين فى جميع الحضارات وبخاصة فى العصور الوسطى ، حين كان التمثيل يكافح للخروج من دائرة التمثيل الدينى الصامت المضحك الذى نشأ منه وتفرع عنه .

وكان هذا بعينه منشأ المسرح الصينى ، فلقد كانت الطقوس الدينية فى عهد أسرة جو تشمل أنواعا من الرقص المصحوب بالخاصر . ويقال إن هذا الرقص قد حرم فيما بعد لأنه أصبح مدعاة للفساد الخلقى . ولعل هذا التحريم الذى فصل الرقص عن المراسم الدينية هو الذى نشأ منه التمثيل غير الدينى[٧٦] . وشجع منج هوانج قيام هذا النوع المستقل من التمثيل كما شجع كثيراً من الفنون الأخرى ، وذلك بأن جمع حوله طائفة من الممثلين والممثلات أطلق عليهم اسم : « فتيان حديقة الكمثرى » . غير أن المسرح لم يصبح نظاما قوميا معترفا به إلا فى عهد كو بلاى خان . ذلك أنه لما اختير كونج دوفو — وهو من سلالة كنفوشيوس — فى عام ١٠٣١ ليكون مبعوثاً صينياً إلى البلاط المغولى استقبل فيه باحتفال عظيم شمل فيما

شمل تمثيل إحدى المسرحيات . بيد أن الماجن فى هذه المسرحية كان يمثل كنفوشيوس ومن أجل هذا خرج كونج دو — فو غاضباً ؛ لـكنه لما عاد إلى الصين هو وغيره من الرحالة الذين طافوا بلاد المغول ، تحدثوا إلى أبناء وطنهم عن ضرب من التمثيل أرقى كثيراً من كل ما عرفته بلادهم منه . ولما أن فتح المغول الصين أدخلوا فيها القصة المقروءة والمسرحية ، ولا تزال أرقى المسرحيات الصينية فى هذه الأيام هى المسرحيات التى كتبت فى أثناء حكم المغول[٧٧] .

وتقدم فن التمثيل على مهل ، لأنه لم يلق معونة من رجال الدولة ولا من رجال الدين . وكان معظم العاملين فيه ممثلين جوالين ، يقيمون طواراً فى حقل خال من الزرع ، ويمثلون ما يشاءون أمام النظارة القرويين الواقفين فى العراء .

وكان الحكام الصينيون يستخدمون الممثلين أحياناً لإقامة حفلات تمثيلية خاصة فى أثناء المآدب ، كما كانت النقابات أحياناً تمثل بعض المسرحيات . وزاد عدد دور التمثيل فى أثناء القرن التاسع عشر الميلادى ، ولـكنها رغم هذه الزيادة لم يكن منها فى مدينة نانـكنج الـكبيرة أكثر من دارين[٧٦] ؛ وكانت المسرحية الصينية مزيجاً من التاريخ والشعر والموسيقى ، وكانت حبكتها عادة تدور حول حادثة تاريخية روائية ، وكان يحدث فى بعض الأحيان أن تمثل مشاهد من مسرحيات مختلفة فى ليلة واحدة ؛ ولم يكن لزمن التمثيل حد محدود . فتارة يكون قصيراً وتارة يدوم عدة أيام ، لـكنه فى أكثر الأحيان كان يمتد نحو ست ساعات أو سبع . وهو الزمن الذى تستغرقه أحسن المسرحيات الأمريكية فى هذه الأيام .

وكان يتخلل المسرحيات كثير من التفاخر والخطب الرنانة ، وكثير من العنف فى الأقوال والأعمال ، ولـكن واضع المسرحية كان يبذل غاية جهده ليجعل خاتمتها انتصاراً للفضيلة على الرذيلة ؛ ومن أجل ذلك أصبحت المسرحية الصينية أداة للتعليم والإصلاح الأخلاق ، تعلّم الشعب شيئاً من تاريخه ، وتغرس

فى نفوس أفراده الفضائل الكنفوشية — وأهمها كلها بر الأبناء بالآباء وكانت تعمل لذلك باطراد ودأب أفسدا عليها غايتها .

وقلما كان المسرح يزين بالمناظر أو الأثاث ، ولم يكن له مَخرج للممثلين ، فكان هؤلاء جميعا سواء منهم أصحاب الأدوار وغير أصحابها ، يجلسون على المسرح طوال وقت التمثيل ، ويقفون إذا ما جاء دورهم ؛ وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يقدم الخدم الشاى لهم وهم جالسون ؛ وكان غيرهم من الخدم يطوفون بين النظارة يبيعونهم الدخان والشاى والمرطبات ، ويقدمون لهم القطائل ليمسحوا بها وجوههم فى ليالى الصيف ؛ وكانوا يشربون ويأكلون ويتحدثون حتى تستلفت أنظارهم قطعة من التمثيل جميلة أو عالية الصوت ؛ وكثيراً ما كان الممثلون يضطرون إلى الصراخ بأعلى أصواتهم لكى يسمعهم النظارة ، وكانوا فى أغلب الأحيان يلبسون أقنعة على وجوههم حتى يسهل على النظارة فهم أدوارهم .

ولما حرم تشين لونج على النساء أن يظهرن على المسرح كان الرجال يمثلون أدوار النساء ، وقد مثلوها تمثيلا بلغ من إتقانه أن النساء حين سمح لهن فى أيامنا هذه بالظهور على المسرح من جديد كان لا بد لهن أن يعملن جاهدات على تقليد مقلديهن حتى يضمن النجاح . وكان لا بد للممثلين أن يتقنوا الرقص والألعاب البهلوانية ، لأن أدوارهم كثيراً ما كانت تتطلب منهم المهارة فى تحريك أعضائهم ، ولأن كل حركة من حركات التمثيل كانت تؤدى طبقاً لقواعد من الرشاقة معينة منسجمة مع النغمات الموسيقية التى تعزف فى خلال التمثيل ؛ وكانت حركات اليدين تستخدم رمزاً للكثير من الأعمال ، كما كانت تصحب الكثير من الأقوال ، وكان لا بد أن تكون هذه الحركات دقيقة متفقة مع العرف والتقاليد القديمة ؛ وكان فن تحريك اليدين والجسم عند بعض كبار الممثلين أشباه ماى لانج — فانج يؤلف نصف ما فى المسرحية من شعر .

وقصارى القول أن التمثيلية لم تكن كلها رواية مسرحية ، ولم تكن كلها

مسرحية غنائية ، ولم تكن فى أكثر أدوارها مرقصة ، بل كانت مزيجاً من هذا كله تكاد تشبه فى صفاتها مسرحيات العصور الوسطى فى أوربا ، ولكنها كاملة فى نوعها كمال الموسيقى البلستريناثية Palestrina أو الزجاج المصبوغ[٧٩] .

وقلما كانت الموسيقى فنا قائما بذاته عند الصينيين بل كانت تابعة للدين والمسرح ، وكانت الرواية التاريخية تعزو منشأها كما كانت تعزو منشأ كثير غيرها من الفنون إلى الإمبراطور الأسطورى فوشى . وقد احتوى اللى — چى أو « كتاب المراسم » الذى يرجع عهده إلى ما قبل كنفوشيوس عدة رسائل فى الموسيقى وأسماء عدة رسائل فيها ، كما احتوى الدزو — چوان الذى كتب بعد مائة عام من أيام كنفوشيوس وصفاً بليغاً للموسيقى التى كانت تصحب غناء قصائد ويه . وما أن حل عهد كوبج مو — دزه حتى كان السُّلَّم الموسيقى الصينى قد ثبت وتقادم عهده ، وحتى كانت البدع التى أخذت تتسرب إليه تقض مضاجع الهادئين المحافظين ، وحتى أخذ هذا الحكيم يضج بالشكوى من الأنغام الداعرة الشهوانية التى بدأت فى أيامه تحل محل أنغام الماضى المتفقة فى رأيه مع الفضائل وكرم الأخلاق[٨٠] .

ثم شرع النفوذ اليونانى البكترى والنفوذ المغولى يتسربان إلى الموسيقى الصينية حتى تركا آثارهما فى السلم الموسيقى الصينى المعروف ببساطته .

وقد عرف الصينيون تقسيم البعد الكلى فى الموسيقى إلى اثنى عشر نصفاً من أنصاف النغمات ؛ ولكنهم كانوا يؤثرون كتابة موسيقاهم فى سلم خماسى يطابق على وجه التقريب نغماتنا F.G.A.D.C وكانوا يطلقون على هذه النغمات الكاملة أسماء « الإمبراطور » و « رئيس الوزراء » و « الرعية » و « شئون الدولة » و «صورة الكون » . وكانوا يفهمون التوافق فى الألحان ، ولكنهم قلما كانوا يعنون به إلا إذا أرادوا ضبط آلاتهم الموسيقية . وكانت هذه الآلات تشمل من آلات النفخ الناى والبوق والمزمار والصفارة ، ومن الآلات الوترية

الكمان الأوسط والمزهر وغيرهما ، ومن آلات الدق الدفوف والطبول والأجراس والصنوج . وكانت لهم ألواح موسيقية من اليشب والعقيق[٨١] .
وكانت النغمات التى تنبعث من هذه الآلات عجيبة مزعجة لأذن المستمع الغربى ، كما تبدو ، فى ظننا ، أحسن الأغانى الغربية عجيبة مزعجة للمستمع الصينى . ولكن هذه النغمات هى التى أثرت فى نفس كنفوشيوس فامتنع عن أكل اللحم ، وأصبح رجلا نباتيا ، وهى التى جعلت كثيرا من مستمعيها يفرون من منازعات الحياة واختلاف الأفكار والإرادات ، وهو الفرار الذى لا يكون إلا نتيجة الاستسلام إلى الموسيقى الشجية .

ومن أقوال هان يو فى هذا : « لقد علم الحكماء الإنسان الموسيقى لكى يقشعوا ما فى نفسه من حزن وغم »[٨٢] وكانوا يؤمنون بقول نتشه : « لولا الموسيقى لكانت الحياة عبثاً لا خير فيه » .

الباب الخامس والعشرون

عصر الفنانين

الفصل الأول

النهضة في عهد أسرة سونج

١ — اشتراكية وانج آن — شي

أسرة سونج – رئيس وزراء متطرف – طريقته في علاج التعطل – تنظيم الصناعة – قوانين الأجور والأثمان – تأميم التجارة – مشروعات الدولة للتأمين من التعطل والفقر والشيخوخة – المناصب العامة بالامتحان – هزيمة وانج آن – شي

لم تفق أسرة تانج من هزيمتها على يد آن لو — شان وثورته . فقد عجز الأباطرة الذين خلفوا منج هوانج عن إعادة سلطان الإمبراطور إلى سابق عهده في أجزاء الإمبراطورية المختلفة ، ثم انقضى عهد تلك الأسرة بعد مائة عام من وهن الشيخوخة ، وجاءت بعدها خمس أسر لم يطل عهدها مجتمعة أكثر من ثلاث وخمسين سنة ، ولكنها بلا استثناء بلغت من الضعف ما بلغته من قصر الأجل . وكانت البلاد في حاجة إلى يد قوية قاسية لتعيد إليها النظام شأن الدول كلها في مثل هذه الأحوال . وهذا ما حدث فعلا ، فقد خرج جندي مقدام من غمار هذه الفوضى وأسس أسرة سونج واستولى على العرش وتسمى باسم تاي — دزو ، وأعاد الحكومة إلى ما كانت عليه من البيروقراطية في أيام كنفوشيوس ، كما أعاد طريقة تقلد المناصب الحكومية بالامتحانات العامة ، وحاول أن يحل مشاكل استغلال الفقراء بوضع نظام للإشراف على حياة الأمة الاقتصادية لا يكاد يختلف

عن النظام الاشتراكى فى شىء ، ومستعيناً فى هذا الحل بمستشار إمبراطورى خاص يشرف على هذه الشئون .

ويعد وانج آن — شى (١٠٢١ — ١٠٨٦) من الشخصيات الفذة التى تبعث الحياة والروح فى تاريخ الصين الطويل ؛ وقد خلد التاريخ ذكره رغم هذا الطول ، وإن شخصيته لتبدو لنا ناصعة فذة رغم ما بين بلادنا وبلاده من تناء .

ذلك أن من مساوئ هذا التنائى أن يجعل انفصالنا الطويل عن مسرح الحوادث الأجنبية يطمس معالم الاختلاف فى الأماكن وفى أحوال الناس ، ويخفى ما بين الشخصيات الشديدة الاختلاف من فروق ، ويخلع عليها كلها غشاوة من وحدة المظهر والصفات تجعلها كلها كامدة كليلة . لكن وانج شذّ عن هذه القاعدة ، فقد كان حتى فى رأى أعدائه — وإن كثرتهم فى حد ذاتها لدليل على جلال شأنه — رجلا يختلف عن سائر الرجال ، وهب حياته لإقامة نظام صالح لحكم البلاد ، وعمل مخلصاً لرفاهية شعبه ، غير مبال بما يصيبه فى سبيل هذا العمل من نصب أو أذى ، لا يدخر فى ذلك جهداً ، ولا يترك لنفسه من الوقت ما يعنى فيه بشخصه أو بملبسه ، ولا يقلّ عن كبار العلماء فى أيامه علماً وبراعة فى الأسلوب ، يحارب فى شجاعة جنونية الطائفة الجامدة المتحفظة الغنية صاحبة السلطان القوى فى أيامه . وتشاء المصادفات أن يكون الشخص العظيم الوحيد الذى يشبهه فى تاريخ بلاده هو سميه وانج مانج الذى عاش قبله بنحو ألف عام — أى أن مجرى التاريخ الصاحب المضطرب قد سار ألف عام كاملة منذ الوقت الذى أجريت فيه أول تجربة بارزة لتحقيق المبادئ الاشتراكية .

وما كاد وانج آن — شى يتولى أكبر منصب فى مقدور الإمبراطور أن يوليه إياه ، حتى وضع ذلك المبدأ العام وهو أن الحكومة يجب أن تكون مسئولة عن رفاهية جميع سكان البلاد . ومن أقواله فى هذا : « يجب أن تسيطر الدولة على جميع شئون التجارة والصناعة والزراعة وتصرفها بنفسها ، وأن يكون الهدف

الذى ترمى إليه من وراء ذلك غوث الطبقات العاملة ، وأن تحول بينها وبين أن يذلها الأغنياء ويطحنوها طحن الرحى »[1] . وقد بدأ عمله بإلغاء نظام السخرة الذى ظلت الحكومة الصينية تفرضه على الصينيين من أقدم العهود ، فكانت تأخذ الناس بمقتضاه من الحقول حين تكون أعمال الزرع أو الحصاد فى أشد الحاجة إليهم ؛ ومع هذا فإنه أقام أعمالا هندسية عظيمة لوقاية البلاد من غوائل الفيضان ...

ومن أعماله أنه أنقذ الزراع من المرابين الذين كانوا يستعبدونهم ، وأقرضهم أموالا بفوائد كانت تعد وقتئذ قليلة ليستعينوا بها على زرع أراضيهم ، وأمدّ الفلاحين بالبذور من غير ثمن ، ومنحهم من الأموال ما يعينهم على بناء مساكنهم على شريطة أن يردوا هذه الأموال إلى الدولة من غلات أراضيهم . وأنشأ لجانًا فى كل مركز من المراكز لتحديد أجور العمال وأثمان ضرورات الحياة . وأقدأمّم التجارة فكانت الحكومة تبتاع محصول كل إقليم من أقاليم البلاد ، وتخزن بعضه فى الإقليم ذاته اتقاء للطوارئ المحلية ، ثم تنقل ما بقى منه ليباع فى مستودعات أقامتها الدولة فى سائر أنحاء الإمبراطورية . ثم إنه وضع نظاما لميزانية الدولة ، فعيّن لجنة للميزانية تعرض عليه مقترحاتها وما تقدره من النفقات لكل مصلحة حكومية ، وكانت الحكومة تتمسك بهذه التقديرات فى إدارة أعمال الدولة ، فاقتصدت بذلك كثيراً مما كان يتسرب قبل من الأموال إلى الجيوب الواسعة الخلفية التى تعترض طريق كل درهم حكومى . يضاف إلى هذا كله أنه خصص معاشات للشيوخ والمتعطلين والفقراء ، وأصلح أساليب التعليم والامتحانات العامة ، وابتكر ضروبا من الاختبارات ليعرف بها مقدار ما يعلمه الطلاب من الحقائق لا من الألفاظ ، ويستبدل بعناية الناس بالأسلوب الأدبى عنايتهم بتطبيق مبادئ كنفوشيوس على الواجبات العامة والأعمال اليومية . وقلّل من اهتمام المعلمين بالشكليات وبالحفظ عن ظهر قلب ، وقد أتى على البلاد حين من الدهر

ألقى فيه « التلاميذ أنفسهم » ، كما يقول أحد المؤرخين الصينيين ، « فى مدارس القرى بكتب البلاغة وأخذوا يدرسون الكتب المبسطة فى التاريخ والجغرافية والاقتصاد السياسى »[٢] .

تُرى لم أخفقت هذه التجربة النبيلة ؟ لعل من الأسباب الأولى لإخفاقها أن فيها عناصر عملية أكثرمنها مثالية . وأولى هذه العناصر أنه وإن كان معظم الضرائب يجبى من الأغنياء — وذلك يتفق مع المبادئ الاشتراكية التى كان يسير عليها وانج آن — شى — ، فإن الدولة كانت تحصل على جزء من المال الذى كانت تحتاج إليه لمواجهة نفقاتها الكثيرة المتنوعة باستيلائها على جزء من محاصيل كل حقل من الحقول ، وسرعان ما انضم الفقراء إلى الأغنياء فى الشكوى من فدح الضرائب ، لأن الناس فى جميع الأوقات أكثر استعداداً للمطالبة بإلقاء الأعمال على كاهل الحكومة منهم لأداء ما يلزمها من الأموال للقيام بها .

يضاف إلى هذا أن وانج آن — شى أنقص الجيش العامل لأنه يستنزف جزءاً كبيراً من موارد البلاد ، ولكنه استعاض عنه بإصدار قانون عام يفرض على كل أسرة فيها من الذكور أكثر من فرد واحد أن تقدم من أبنائها جنديا فى وقت الحرب . وأهدى الرجل إلى كثير من الأسر خيلا وعلفاً لها ، ولكنه اشترط عليها أن تعنى بالخيل العناية الواجبة ، وأن تقدمها إلى الحكومة إذا احتاجت إليها فى الأعمال العسكرية . فلما أن تبين الناس أن الغزوات والثورات أخذت تزيد من مطالب الحكومة العسكرية فقدَ وانج آن — شى فى أسرع وقت مكانتة بين الشعب وحبه إياه . وفوق هذا كله فإنه قد وجد من العسير عليه أن يعثر على الرجال الإشراف الأمناء ليعهد إليهم بالأعمال التى شرع فى تنفيذها ، وما لبث الفساد أن استشرى فى جميع نواحى الإدارة البيروقراطية الضخمة ، ووجدت الصين نفسها — كما وجدت نفسها أمم أخرى كثيرة من

بعد — مرغمة على أن تختار بين اثنتين كلتاهما شر من الأخرى ، فإما الانتهاب الفردى وإما الفساد الحكومى .

وقام المحافظون بزعامة أخى وانج نفسه والمؤرخ زوما كوانج يندون بهذه التجربة الحكومية ويظهرون فسادها ؛ ويقولون إن الفساد والعجز المتأصلين فى الطبيعة البشرية يجعلان إشراف الحكومة على الصناعات مستحيلا ، وإن خير النظم الحكومية هو النظام الذى يدع الأمور تجرى فى مجراها ، والذى يعتمد على الدوافع الاقتصادية الطبيعية التى تحمل الناس على إنتاج السلع وأداء الخدمات . واستخدم الأغنياء الذين آذاهم ما فرض على أموالهم من ضرائب باهظة واحتكار الحكومة للتجارة ، استخدم هؤلاء ما لهم من ثروة وقوة فى العمل على الحط من شأن النظم التى وضعها وانج آن — شى ومقاومة تنفيذها ، والقضاء عليها . وزاد ضغط هذه المعارضة المنظمة أحسن تنظيم على الإمبراطور . وحدث أن تعاقبت على البلاد عدة سنين من الجدب وفيضان الأنهار ، اختتمت بظهور مذنب فى السماء ، فلم ير ابن السماء نفسه بدًّا من إقصاء وانج عن منصبه ، وإلغاء القوانين التى أثارت غضب الشعب ، ورفع أعداء وانج إلى مناصب الحكم ، وعادت الأمور مرة أخرى إلى ما كانت عليه من قبل[٣] .

٢ — إحياء العلوم

ازدياد عدد العلماء — الورق والحبر فى الصين — خطوات فى سبيل اختراع الطباعة — أقدم كتاب معروف — العملة الورقية — الحروف المتنقلة — مجموعات الرسائل ، ومعاجم اللغة والموسوعات

لقد كانت حياة الشعب الصينى فى هذه الأثناء تجرى فى مجراها المادى خلال جميع ضروب التجارب والنظم الإدارية ، لا تضطرب ولا تؤثر فيها الحادثات التى كانت لبعدها لا تصل إلى مسامعه ، إلا بعد أن تمر وتنقضى بزمان طويل . لقد زال حكم آل سونج فى شمالى البلاد ولكنه عاد من جديد فى جنوبيها

وانتقلت العاصمة من پيان ليانج (وهى الآن كايفنج) إلى لين — آن (هانج تشاو الآن).

وبدت مظاهر العز والنعمة فى العاصمة الجديدة كما كانت فى العاصمة القديمة، وأقبل التجار من كل فج يبتاعوا منتجات الصناعة الصينية والفن الصينى. وضرب الإمبراطور هوى دزونج نفسه (١١٠١ - ٢٥) لشعبه أروع الأمثال فى پيان — ليانج بأن كان فناناً قبل أن يكون حاكما، فكان فى الوقت الذى يهاجم فيه البرابرة عاصمة ملكه يشتغل برسم الصور الفنية. وقد أنشأ مجمعاً للفن بعث النشاط فى الفنون بما كان يعرض فيه من روائعها وما يغدقه على الفنانين من جوائز جعلت الفنون أكبر مفاخر أسرة سونج وأجدرها بتخليد ذكراها فى سجلات الحضارة الإنسانية.

وقد حوت المتاحف وقتئذ مجموعات موحية من النقوش الفنية على البرنز وأحجار اليشب ومن الصور الزيتية والمخطوطات؛ وأنشئت فى البلاد دور الكتب التى بقى بعضها بعد أن زالت أمجاد الحروب، وكانت كلتا العاصمتين الشمالية والجنوبية كعبة يحج إليها العلماء والفنانون.

وفى أيام هذه الأسرة دخلت الطباعة البلاد فأحدثت فى حياة الصين الأدبية ثورة كاملة وإن لم يدرك الناس مداها وقتئذ، وكان هذا الفن قد نما شيئاً فشيئاً فى خلال القرون الطوال حتى بلغ أوجه فى أيام تلك الأسرة، فأتم مرحلتيه الكبيرتين إذ صنعت الألواح المحفورة لتطبع عليها صفحات كاملة، وصُفت الحروف المفككة المفردة، من المعادن المجموعة فى قوالب. وكان هذا الاختراع الصينى الخالص[٤] أعظم اختراع فى تاريخ الجنس البشرى بعد الكتابة.

وكانت الخطوة الأولى فى هذا الاختراع العظيم هى كشف مادة تكون الكتابة عليها أسهل منها على الحرير أو الغاب اللذين قنع بهما الصينيون. ذلك أن الحرير غالى الثمن والغاب ثقيل، وقد احتاج مودى [illegible] إلى ثلاث

عربات نقل يحمل عليها معه الكتب المدونة على شرائح الغاب التي كانت أثمن ما يملك من متاع الدنيا .

وكان شي هوانج — دى يضطر إلى مراجعة مائة وعشرين رطلا من الوثائق الحكومية في كل يوم[٥] . فلما كان عام ١٠٥ ب . م أبلغ رجل يدعى تساوى لون الإمبراطور أنه اخترع مادة للكتابة عليها أقل من الغاب ثمناً وأخف منه وزناً مصنوعة من لحاء الشجر والقنب الهندى والخرق وشباك السمك . وعين الإمبراطور تساى لون هذا في منصب كبير، ومنحه لقباً رفيعاً ، ولكنه تورط مع الإمبراطورة في بعض الدسائس ، وافتضح أمره «فذهب إلى منزله ، واغتسل ومشط شعره ، ولبس أحسن ثيابه ، وتجرع السم »[٦] . وسرعان ما انتشرت الصناعة الجديدة انتشاراً واسع النطاق ؛ وشاهد ذلك أن أقدم ما لدينا من الورق هو ما وجده سير أورل اشتين Sir Aurel Stein في طنف من السور الكبير، وهو مجموعة من الوثائق الرسمية دونت فيها حوادث وقعت فيما بين عامى ٢١، ١٣٧ بعد الميلاد ، وأكبر الظن أنها كانت معاصرة لآخر الحوادث التي دونت عليها . ولهذا فإن عهدها يرجع إلى حوالى عام ١٥٠ م أى بعد خمسين عاماً لا أكثر من الوقت الذى أبلغ فيه تساى لون الإمبراطور نبأ اختراعه[٧] . وكان هذا الورق القديم يصنع من الخرق البالية دون غيرها من المواد ، فهو من هذه الناحية شبيه بما يصنع في هذه الأيام من ورق يحتاج فيه إلى طول البقاء . واستطاع الصينيون أن يرتقوا بصناعة الورق إلى أعلى درجة وذلك باستخدام مادة ماسكة من الغراء أو الجلاتين مخلوطة بعجينة نشوية ليقووا بها الألياف ، ويجعلوا الورق سريع الامتصاص للحبر . ولما أن أخذ العرب عن الصينيين هذه الصناعة في القرن الثامن الميلادى ، ثم أخذتها أوربا عن العرب في القرن الثالث عشر ، كانت قد بلغت غاية الكمال .

وكان اختراع الحبر أيضاً في بلاد الشرق . نعم إن المصريين قد صنعوا الورق

والحبر فى العهد الذى نستطيع أن نسميه أقدم العهود ، ولكن الصين هى التى أخذت عنها أوربا طريقة خلط الحبر بسناج المصابيح . ولقد كان « الحبر الهندى» صينى الأصل . وكذلك كان الحبر الأحمر المصنوع من كبريتور الزئبق شائع الاستعمال فى الصين من أيام أسرة هان . فلما ظهر الحبر الأسود فى القرن الرابع الميلادى أصبح استعمال الحبر الأحمر ميزة خاصة بالأباطرة . وكان اختراع الحبر الأسود من العوامل المشجعة على انتشار الطباعة ، لأنه كان أصلح المواد للاستعمال فى القوالب الخشبية ، ويمتاز بأن الكتابة به لا تكاد تمحى مطلقاً فلقد وجدت أكداس من الورق فى آسية الوسطى ظلت تحت الماء حتى عطنت ولكن ما عليها من الكتابة ظل واضحاً تستطاع قراءته[٩] .

وكان استخدام الأختام فى مهر الأوراق هو البداية غير المقصودة التى نشأت عنها الطباعة . ولا يزال اللفظ الصينى الذى يطلق على الطباعة هو نفسه الذى يطلق على الخاتم . وكانت الأختام الصينية تطبع فى بادئ الأمر على الطين كما كانت تطبع عليه فى بلاد الشرق الأدنى ، ثم أخذوا فى القرن الخامس الميلادى يُنَدُّونها بالحبر . وفى هذه الأثناء كانت أمهات الكتب الصينية القديمة تحفر على الحجر فى القرن الثانى بعد الميلاد . وسرعان ما نشأت بعدئذ عادة استخراج صور من هذه النقوش المحفورة بعد طلائها بالحبر . وفى القرن السادس نجد الدَّوِيين يستعملون أختاما من الخشب لطبع الرقى السحرية ، وبعد مائة عام من ذلك الوقت أخذ المبشرون البوذيون يجرون التجارب بقصد استخراج عدة نسخ مطبوعة باستخدام أختام وألواح وورق نضاح وطباعة على المنسوجات ، وقد أخذوا هذا النوع الأخير عن الهنود . وأقدم ما وصل إلينا من الطباعة على لوح محفور ألف ألف رقية سحرية طبعت فى اليابان حوالى عام ٧٧٠ م مكتوبة باللغة السنسكريتية وبحروف صينية ، فهى بذلك مثل طيب لتفاعل الحضارات فى بلاد آسية . وطبعت أشياء أخرى كثيرة من القوالب (الكلشيهات) فى أيام أسرة تانج ، ولكن يلوح

أنها قد تلفت أو فقدت فى أثناء الفوضى والقلاقل التى أعقبت عهد منج هوانج[١٠].

وحدث فى عام ١٩٠٧ أن استطاع سير أورل اشتين أن يقنع الكهنة الدويين فى بلاد التركستان بأن يسمحوا له بفحص « كهوف الألف بوذا » التى فى تون — هوانج. فلما تم له ذلك عثر فى حجرة منها — يلوح أنها قد سد مدخلها حوالى عام ١٠٣٥ ولم تفتح بعدئذ إلا فى عام ١٩٠٠ — على ١١٣٠ إضمامة من الأوراق تشتمل كل منها على نحو اثنى عشر ملفاً مخطوطاً أو أكثر من اثنى عشر، تتكون منها كلها مكتبة من خمسة عشر ألف كتاب، مكتوب على الورق، قد حفظت بعناية فبقيت فى حالة جيدة كأنها لم تكتب إلا قبل العثور عليها بيوم واحد. وهذه المخطوطات هى التى عثر من بينها على أقدم كتاب مطبوع فى العالم — كتاب « الحكم الماسية » — وهو ملف يختتم بالعبارة الآتية « طبعه فى (اليوم المقابل لليوم) الحادى عشر من شهر مايو سنة ٨٦٨ وانج — چيه، ليوزع بغير ثمن تخليداً لذكرى والديه وإجلالا لهما ». ووجدت بين هذه المخطوطات ثلاثة كتب أخرى مطبوعة، يدل واحد منها على تطور جديد فى شكل الكتب. ذلك أنه لم يكن ملفا ككتاب « الحكم الماسية » بل كان كتاباً صغيراً مطويا هو أول ما عرف من هذا النوع من الكتب التى لا يحصى عديدها.

وقد كان الباعث الأول على اختراع الطباعة فى بلاد الصين باعثاً دينياً، كما كانت الحالة فى أوربا فى العصور الوسطى المتأخرة، وكما هى الحال بين بعض الشعوب البدائية فى الوقت الحاضر. ذلك أن الأديان فى ذلك الزمن القديم كانت تسعى لنشر عقائدها من طريق العين ومن طريق الأذن معاً، ولجعل صلواتها ورقاها وأقاصيصها فى متناول كل إنسان. وتكاد أوراق اللعب تعادل هذه المطبوعات الدينية فى قدم العهد — فقد ظهرت هذه الأوراق فى الصين فى عام ٩٦٩ أو قبل ذلك العام بقليل، ثم انتقلت من الصين إلى أوربا فى أواخر القرن الرابع عشر[١٢].

وقد طبعت الكتب الأولى على قوالب خشبية ، وأول ما وصل إلينا من نبأ عن هذا العمل ما ورد فى رسالة صينية كتبت حوالى ٨٧٠ م فقد جاء فيها : « حدث وأنا فى سشوان أن لخصت فى حانوت وراق كتاباً مدرسياً مطبوعاً عن أصل خشبى »[١٣] . ويلوح أن فن الطباعة كان قد تقدم تقدما كبيراً فى الوقت الذى عثر فيه على هذا الخطاب . ومن الطريف أن نلاحظ أن هذا التقدم حدث أولا فى الولايات الغربية مثل سشوان والتركستان ، وهى الولايات التى دفعها فى تيار المدنية المبشرون البوذيون الذين جاءوا من الهند والذين كانت لهم من عهد بعيد ثقافة خاصة مستقلة عن ثقافة العواصم الشرقية . ثم دخلت طريقة الطبع بالقوالب إلى الولايات الشرقية فى أوائل القرن العاشر حين أقنع فنج — دو أحد رؤساء الوزارات الإمبراطور أن يخصص بعض المال لطبع أمهات الكتب الصينية القديمة . وتطلب القيام بهذا العمل عشرين عاما ، وكان مقدار ما طبع منها مائة وثلاثين مجلداً ، وذلك لأن المطبوع لم يكن مقصوراً على نصوص هذه الكتب بل شمل أيضاً أشهر شروحها . ولما أن تم طبع هذه الكتب انتشرت فى البلاد انتشاراً واسعاً كان سبباً فى إحياء المعارف القديمة وتقوية دعائم العقائد الكنفوشية فى عهد الملوك من أسرة سونج .

وكان صنع الأوراق النقدية من أقدم ما أخرجته الطباعة بالقوالب . وقد ظهرت هذه الأوراق أولا فى سشوان فى القرن العاشر الميلادى ثم أصبحت عملا هاما من أعمال الحكومة الصينية ؛ ولم يكد يمضى على اختراعها قرن من الزمان حتى أدت إلى تجارب فى التضخم المالى ، واتبعت بلاد الفرس فى عام ١٢٩٤ م هذه الطريقة الجديدة من طرق خلق الثروة . وقد وصف ماركو بولو فى عام ١٢٩٧ فى دهشة بالغة ما يظهره الصينيون من تقدير لهذه القصاصات من الورق . أما أوربا فلم تعرف النقود الورقية إلا فى عام ١٦٥٦ حين أصدرت أولى عملتها منها[١٤] .

كذلك كانت حروف الطباعة المنفصلة المتنقلة من اختراع الصينيين ، ولكن عدم وجود حروف هجائية محددة محصورة من جهة ، ووجود نحو ٤٠٠٠٠ من العلامات فى اللغة الصينية المكتوبة من جهة أخرى ، جعلا استعمال هذا الاختراع ترفاً يتعذر الانتفاع به فى بلاد الشرق الأقصى . وقد صنع بى شنج حروف الطباعة المنفصلة المتنقلة من الخزف فى عام ١٠٤١ م ، ولكن هذا الاختراع لم ينتفع به إلا قليلا . وفى عام ١٤٠٣ صنع أهل كوريا أول ما عرف فى التاريخ من حروف الطباعة المعدنية ؛ وكانت طريقة صنعها أن تحفر الحروف أولا على الخشب الصلب ، ثم تصنع لهذه النماذج قوالب من عجين الخزف تجفف فى الأفران ، ثم تصب فيها الحروف المعدنية بعدئذ . وسرعان ما استخدم تاى دزونج أعظم أباطرة كوريا هذا الاختراع لتستعين به الحكومة فى أعمالها ، وللاحتفاظ بالحضارة القائمة . ومن أقوال هذا المليك المستنير : « من شاء أن يحكم فعليه أن يكون ذا علم واسع بالقوانين وبالآداب القديمة ؛ ذلك بأنه إذا عرف هذه القوانين والآداب استطاع أن يكون عادلا مستقيما فى أعماله الخارجية وأمكنه أن يكون بينه وبين نفسه ذا خلق كريم ؛ وبهذا ينشر السلام والنظام فى البلاد . وإذ كانت بلادنا الشرقية تقع وراء البحار ، فإن الكتب التى تصلنا من بلاد الصين قليلة العدد ، وكثيراً ما تكون الكتب المطبوعة على القوالب ناقصة .

« هذا إلى أنه يتعذر طبع كل ما لدينا من الكتب كاملة . ولهذا آمر أن يصنع الحروف من البرنز ، وأن يطبع كل ما تستطيع يداى أن تصل إليه بلا استثناء حتى ينتقل ما تحتويه هذه الكتب إلى أحفادنا من بعدنا ، وتلك نعمة من أجل النعم التى تعود على البلاد إلى أبد الدهر . على أن نفقات هذا العمل الجليل لن تفرض ضرائب على الشعب ، بل سأتحملها أنا وأسرتى ومن يريد أن يُسهم فيها من الوزراء »[١٥]

وانتشرت حروف الطباعة المفردة المتنقلة من كوريا إلى اليابان ثم عادت بعدئذ إلى الصين ، ولكن يظهر أنها لم تعد إليها إلا بعد اختراع جوتنبرج Gutenberg الضئيل فى أوربا . واستمر الكوريون يستخدمون حروف الطباعة المتنقلة قرنين كاملين ثم عفا عليها الزمان . أما فى الصين فإن هذه الحروف لم تكن تستخدم إلا فى أوقات متفرقة ، حتى نقل التجار والمبشرون أساليب الطباعة الغربية إلى بلاد الشرق ، كمن يعيد هدية قديمة إلى مهديها . وظل الصينيون من أيام فنج دو إلى أيام لى هونج — چانج مستمسكين بطريق الطباعة على القوالب لأنهم كانوا يرونها أكثر الطرق ملاءمة للغتهم . واستطاعت المطابع الصينية رغم هذا القصور أن تغمر الشعب بما لا يحصى من الكتب ، فأصدرت فيما بين عامى ٩٩٤ ، ١٠٦٣ م مئات من المجلدات فى تواريخ الأسر الحاكمة ، كما أتمت فى عام ٩٧٢ إصدار قوانين الشريعة البوذية فى خمسة آلاف مجلد[١٦] . ذلك أن الكتاب وجدوا فى يدهم سلاحا لم يكن لهم به عهد من قبل ، وكثر عدد من يقرءون كتبهم فلم يعد مقصوراً على أعيان البلاد ، بل شمل الأعيان والطبقة الوسطى على السواء ، وشمل كذلك بعض أفراد الطبقة الدنيا نفسها . واصطبغ الأدب بصبغة أكثر دمقراطية وأكثر تباينا مما كان عليه من قبل . وجملة القول أن فن الطباعة بالقوالب كان من أسباب النهضة العلمية فى عهد أسرة سونج .

وكان من نتائج هذا الاختراع المجيد أن غمر البلاد فيض من الأدب لم يكن له مثيل من قبل ، وأن عمت البلاد نهضة فى الآداب الإنسانية شملت كل ما شملته النهضة فى إيطاليا وسبقتها بمائتى عام كاملة . وطبعت من الآثار الأدبية القديمة نحو مائة طبعة ، كما طبعت لها شروح وتعليقات تبلغ الألف عدّا . وأجاد المؤرخون العلماء دراسة الحياة الصينية فى الأيام الخالية ، ووضعوها بين أيدى ملايين القراء مطبوعة بحروف الطباعة الجديدة العجيبة . ونشرت مجموعات كبيرة من الأعمال الأدبية ، ووضعت معاجم لغوية واسعة ، وألفت موسوعات ضخمة

جبارة انتشرت فى طول البلاد وعرضها ، وكانت أولى ما صدر من الموسوعات ذات الشأن هى الموسوعة التى أصدرها ووشو (٩٤٧ — ١٠٠٢) ؛ وقدحالت الصعاب الناشئة من عدم وجود حروف هجائية سهلة دون إصدارها مرتبة ترتيباً هجائياً ، فاضطر إلى تقسيمها حسب الموضوعات . وكان أهم ما احتوته من المعلومات ما يتصل منها بالعالم المادى .

وفى عام ٩٧٧ أمر الإمبراطور تاى دزونج أحد أباطرة أسرة سونج أن تجمع موسوعة أخرى أوسع من الأولى ، بلغت مجلداتها اثنين وثمانين مجلداً ، معظمها مختارات من ١٫٦٩٠ كتاباً كانت موجودة قبل ذلك الوقت . ثم وضعت موسوعة أخرى فيما بعد فى عهد الإمبراطور يونج لو من أباطرة أسرة منج (١٤٠٣ — ١٤٢٥) ، وبلغت مجلداتها عشرة آلاف ، ولكن كثرة النفقات حالت دون طبعها . وحدث فى فتنة الملاكمين التى قامت فى عام ١٩٠٠ أن احترقت النسخة الوحيدة التى أورثها ذلك العهد الأجيال التالية فلم يبق منها إلا مائة وستون مجلداً[١٧] . إن التاريخ لم يشهد قبل تلك الأيام عهداً سيطر فيه العلماء على الحضارة كما سيطروا عليها فى ذلك العهد .

٣ — بعث الفلسفة

چو — شى — وانج يانج — منج — ما وراء الخير والشر

لم يكن هؤلاء العلماء كلهم من أتباع كنفوشيوس ، ذلك أن مدارس فكرية منافسة لمدرسته قد نشأت فى خلال القرون الخمسة عشر الخالية ، وحدثت فى الحياة العقلية لهذا الشعب الخصيب حركات قوية أثارت لديه أعنف الجدل حول هذه الآراء والآراء المناهضة لها . ولم تقف المبادئ البوذية التى تسربت إلى نفوس الصينيين عند عامة الشعب وطبقاته الوسطى ، بل وصلت إلى الفلاسفة أنفسهم ، فآثر معظمهم الآن طريقة العزلة والتأمل ، وبلغ من بعضهم أن احتقروا

كنفوشيوس لاحتقاره فلسفة ما وراء الطبيعة ، ونبذوا الطريقة التي كان يتبعها في معالجة مشاكل الحياة والعقل ، وعابوا عليها أنها طريقة خارجية فجة إلى حد كبير . وأضحت طريقة التأمل الذاتي هي الطريقة المستحبة في دراسة الكون والكشف عن خفاياه ، وظهرت لأول مرة نظرية فلسفة المعرفة بين الصينيين ، وصار الأباطرة يتخذون الفلسفة البوذية أو الدوِّية وسيلة يتحببون بها إلى الشعب أو يسيطرون بها عليه ، ولاح في وقت من الأوقات أن سلطان كنفوشيوس على العقلية الصينية قد انقضى عهده إلى غير رجعة .

لكن چوشي أنجاه من هذا المصير . وكما أن شنكارا قد طعم الفلسفة العقلية التي سادت الهند خلال القرن الثامن الميلادي بما كان للأپانيشاد أحياناً من فراسة وبُعد نظر ؛ وكما أن أكويناس Aquinas في أوربا قد مزج في القرن الثالث عشر مبادئ أرسطو والقديس بولس فأخرج منها الفلسفة الكلامية التي كانت لها الغلبة والسيادة خلال العصور الوسطى ، كذلك فعل چوشي في الصين في القرن الثاني عشر ، إذ أخذ حكم كنفوشيوس المتفرقة غير المتماسكة ، وأقام منها طريقة فلسفية بلغت من النظام حداً أرضى ذوق هذا العصر الذي ساد فيه العلماء ، وبلغت من القوة درجة جعلت أتباع كنفوشيوس يتزعمون الحياة السياسية والعقلية في الصين طوال سبعة قرون

وكان أهم ما ثار حوله الجدل الفلسفي في ذلك الوقت معنى فقرة في كتاب العلم العظيم يعزوها كل من چوشي ومعارضيه إلى كنفوشيوس(*) ، فكان المتجادلون يتساءلون : ما معنى هذا المطلب العجيب القائل بأن نظام الدول يجب أن يقوم على تنظيم أحوال الأسرة ، وأن يقوم تنظيم الأسرة على تهذيب الإنسان لنفسه ، وأن تهذيب النفس يقف على الإخلاص في التفكير ، وأن الإخلاص في

(*) أوردنا نص هذه الفقرة كاملا في ص ٥٥

التفكير ينشأ من « انتشار المعرفة إلى أبعد حد » وذلك عن طريق « البحث عن حقائق الأشياء ؟ » .

وكان جواب چوشى عن ذلك أن هـذه الفقرة تعنى بالضبط ما يفهم من ألفاظها ؛ تعنى أن الفلسفة والأخلاق وسياسة الحكم يجب أن تبدأ كلها بدراسة الحقائق دراسة متواضعة . وكان يقبل بلا معارضة أو مناقشة النزعة الإيجابية التى اتصف بها عقل المعلم الأكبر ؛ ومع أنه كان يجهد نفسه فى دراسة علم أصول الكائنات الحية دراسة أطول مما كان يرتضيه كنفوشيوس لو أنه كان حيا ، فقد أوصله هذا الدرس إلى أن يمزج الإلحاد بالتقوى مزجاً غريباً لعله كان يعجب حكيم شانتونج . وكان چوشى يعترف بوجود شىء من الاثنينية المتناقضة فى الحقائق الواقعية كما كان يعترف بها كتاب التغيرات الذى كانت له على الدوام السيطرة على علم ما وراء الطبيعة عند الصينيين ؛ فهو يرى أن اليانج واليِن — أى الفاعلية والإنفعالية ، أو الحركة والسكون — يمتزجان فى كل مكان امتزاج الذكورة والأنوثة ، ويؤثران فى العناصر الخمسة الأساسية : المـاء والنار والتراب والمعادن والخشب ليوجدا منها ظواهر الخلق ؛ وأن اللى والچى — أى القانون والمادة — وكلاهما عنصر خارجى ، يتعاونان معاً للتحكم فى جميع الأشياء وإكسابها صورها ولكن من فوق هذه الصور شىء يجمعها ويؤلف بينها ، وهو التاى چى — أى الحقيقة المطلقة أو قانون القوانين غير البشرى ، أو بناء العالم . وكان چوشى يقول : إن هـذه الحقيقة المطلقة هى التين أو السماء الذى تقول به الكنفوشية الصادقة . وكان يرى أن الله هو عملية عقلية فى الكون منزهة عن الشخصية أو الصور المحسوسة ، وأن « الطبيعة إن هى إلا القانون »[١٨]

ويقول چو إن قانون الكون السالف الذكر هو أيضاً قانون الأخـلاق والسياسة . فالأخلاق الفاضلة هى الانسجام مع قوانين الطبيعة ، وخير أنواع السياسة هو تطبيق قوانين الأخلاق على أعمال الدولة ، والطبيعة فى كل معانيها

تنتهى إلى الخير ، وطبيعة الناس خيرة ، واتباع سنن الطبيعة هو سر الحكمة والسلام . « وقد أبى جوا ماو شو أن يقتلع الأعشاب التى كانت أمام نافذة بيته وقال إن ما يدفعها إلى النماء هو بعينه الذى يدفعنى »[١٩] . ولربما ظن القارئ من هذه الأقوال أن چوشى كان يرى أن الغرائز هى الأحرى طيبة صالحة وأن على الإنسان أن يطلق لها العنان ولكنه لم ير هـذا بل كان يندد بها ويقول إنها هى المظهر الخارجى للمادة « چى » ويطالب بإخضاعها لحكم العقل والقانون « لى »[٢٠] . وقد يكون فى هذا شىء من التناقض ولكن الإنسان لا يستطيع أن يكون عالماً أخلاقيا ومنطقياً معاً .

لقد كان فى هـذه الفلسفة كثير من التناقض ، ولكن هذا التناقض رغم كثرته لم يثر ثائرة كبير معارضيها وهو وانج يانج — منبج صاحب الشخصية الظريفة الفذة . ذلك أن وانج لم يكن فيلسوفاً فحسب بل كان إلى جانب ذلك قديساً تملكته نزعة التأمل التى اتصفت بها البوذية المهايانية(*) ، وسرت عاداتها إلى أعماق نفسه . وقد بدا له أن غلطة چوشى الأساسية ليست فيما يقوله عن الأخلاق بل فى طريقته ، ولقد كان يرى أن البحث عن حقائق الأشياء يجب ألا يبدأ بدراسة العالم الخارجى بل بما هو أعمق من هذا العالم وأكثر منه إظهاراً للحقائق وهو دراسة النفس الداخلية كما يقول الهنود . ذلك أن العلوم الطبيعية فى بلاد العالم كلها إذا اجتمعت لا تستطيع أن تفسر حقيقة غصن خيزران أو حبة أرز ، وفى هذا يقول :

قلت لصديقى تشين فى السنين الخالية : « إذا كان لا بد للإنسان أن يبحث كل ما تحت قبة السماء لكى يكون حكيما أو إنساناً فاضلا ، فكيف يستطيع إنسان فى الوقت الحاضر أن يستحوذ على هـذه القدرة العظيمة ؟ » ثم أشرت إلى أعواد الخيزران التى أمام خيمتى وطلبت إليه أن يفحص عنها ويرى

(*) نسبة إلى مهايانا وهى ضرب من البوذية . (المترجم)

نتيجة فحصه . فواصل تشين نهاره بليله يبحث فى عناصر الخيزران ، وأضنى عقله وتفكيره بهذا البحث ثلاثة أيام كاملة ، حتى نضب معين جهوده العقلية وسئم العمل . وظننت فى بادئ الأمر أن منشأ عجزه أن جهوده وقواه لم تكن كافية لهذا العمل ، فأخذت أنا على عاتقى أن أقوم بهذا البحث ، وقضيت فيه ليلى ونهارى ولكننى عجزت عن فهم كنه الخيزران . وبعد أن واصلت العمل سبعة أيام انتابنى المرض أنا أيضاً من فرط ما أجهدت نفسى وفكرى ؛ فلما التقينا بعدئذ قال كلانا لصاحبه فى حسرة : « إنا لا نستطيع أن نكون حكيمين أو فاصلين »[٢١] .

ومن أجل هذا تخلى وانج يانج — منج عن بحث طبيعة الأشياء ، بل تخلى أيضاً عن دراسة أمهات الكتب القديمة ، فقد بدا له أن قراءة الإنسان قلبه وعقله وتأملهما فى عزلته يهيئان له من أسباب الحكمة أكثر مما تهيئه له دراسة جميع الكتب والأشياء المادية »[٢٢] . ولما نفى إلى برية جبلية يسكنها أقوام همج وتنتشر فيها الأفاعى السامة اتخذ له من المجرمين الذين فروا إلى هذه الأصقاع أصدقاء وأتباعاً ، وعلمهم الفلسفة وطهى لهم طعامهم وأنشد لهم الأناشيد . وفى ذات مرة ، بينما هو قائم بالحراسة فى منتصف الليل ، قفز من كوخه على حين غفلة وصاح قائلا : « لا شك فى أن طبيعتى وحدها كافية . ولقد أخطأت حين أخذت أبحث عن المبادئ فى الأشياء المادية وفى شئون الخلق » . ولم يكن رفاقه واثقين من أنهم يدركون ما يرمى إليه ؛ ولكنه لم يلبث أن أرشدهم إلى الغاية المثالية التى كان يرمى إليها فقال : « إن العقل نفسه لينطوى على القانون الطبيعى ، وهل فى الكون شىء يوجد مستقلا عن العقل ؟ وهل ثمة قانون لا صلة له بالعقل ؟ »[٢٣] ولم يستدل من هذا على أن الله من تصوير الخيال ، بل كان يعتقد أنه قوة أخلاقية غامضة ولكنها قادرة على كل شىء ، وأنها أعظم من أن تكون إنساناً وأنها قادرة على أن تحس بالعطف والغضب على الخلق[٢٤] .

ومن هذه البداية المثالية وصل إلى المبادئ الأخلاقية التي وصل إليها چوشي والقائلة إن الطبيعة هي الخير الأسمى ، وإن الفضيلة الكبرى إنما تكون بإطاعة قوانين الطبيعة والعمل بها كاملة[٢٥] . ولما قيل له إن في الطبيعة أفاعي كما فيها فلاسفة أجاب إجابة فيها أثر من فلسفة أكويناس واسپنوزا Spinoza ونتشة فقال إن « الخير » و « الشر » إن هما إلا رأيان مبتسران ولفظان تسمى بهما الأشياء حسب ما فيها من نفع أو أذى للفرد أو لبني الإنسان . وكان يعلم أتباعه أن الطبيعة نفسها فوق الخير والشر وأنها لا تعرف ما نطلقه نحن عليها من أسماء مبعثها الأنانية . وقد نقل عنه أحد تلاميذه ، أو لعله وضع من عنده ، حواراً كان في مقدوره أن يعنونه : ما وراء الخير والشر

ثم قال بعد ذلك بقليل : « إن منشأ هذه النظرة إلى الخير والشر في الجسم نفسه وأكبر الظن أنها نظرة خاطئة » . ولم أستطع فهم هذا فقال المعلم : « إن الغرض الذي تهدف إليه السماء من وراء عملية الخلق ليتمثل في الأزهار والحشائش،فهل لدينا طريقة نفرق بها بينهما فنقول إن هذه خير وتلك شر ؟ فإن كنت أنت أيها الطالب يسرك أن ترى الأزهار قلت إن الأزهار حسنة والحشائش رديئة ، أما إن كنت ترغب في أن تنتفع بالحشائش فإنك ترى فيها الخير كل الخير ؛ وهذا النوع من الخير أو الشر إنما ينشأ مما هو كامن في عقلك من حب هذا الشيء أو كرهه ، ومن هذا أعرف أنك مخطئ » .

فقلت له : « وفي هذه الحال لا يكون ثمة خير أو شر ، فهل هذا صحيح ؟ »

فأجاب المعلم : « إن الاطمئنان الناشئ من سيطرة القانون الطبيعي لهو حالة لا يفرق فيها بين الخير والشر ، على حين أن استثارة الطبيعة العاطفية هي الحالة التي يوجد فيها الخير والشر كلاهما . فإذا لم تثر تلك الطبيعة العاطفية لم يكن ثمة خير أو شر ، وهذا هو الذي يطلق عليه اسم الخير الأسمى ... »

فقات : « وإذن فالخير والشر لايوجدان قط فى الأشياء نفسها ؟ » فقال : « إنهما لا يوجدان إلا فى عقلك » .

لقد كان من الخير أن يضرب وانج وأن تضرب البوذية على هذه النغمة ، نغمة ما وراء الطبيعة المثالية ، فى أبهاء الكنفوشيين الصادقين والمتأنقين ؛ ونقول المتأنقين لأن هؤلاء العلماء كانوا مفتونين بعض الافتتان بحكمتهم ، وأنهم أضحوا يؤلفون فيما بينهم ببروقراطية ذهنية متعبة مملة معادية لكل روح مبدعة معرضة للخطإ ، وإن كانت نظرتهم إلى الطبيعة البشرية وإلى الأداة الحكومية أصدق ما تصورته الفلسفة من نظريات ، وأكثرها عدالة . وإذا كان أتباع چوشى قد كتب لهم النصر على معارضيهم فى آخر الأمر ، وإذا كانت اللوحة التذكارية التى نقش عليها اسمه قد حظيت بشرف وضعها فى البهو الذى وضعت فيه لوحة المعلم نفسه (كنفوشيوس) ، وإذا كان شرحه لأمهات الكتب الصينية قد أصبح هو القانون الذى يرجع إليه كل تفكير سليم مدى سبعمائة عام ، إذا كان هذا وذاك قد حدث فإن حدوثه كان نصراً مؤزراً للعقلية السليمة البسيطة غير المعقدة على التحذلق المزعج الذى كان يعمد إليه أصحاب العقول الميتافيزيقية . ولكن الأمة كالفرد قد تفرط فى الحساسية ، وقد تكون عاقلة رزينة فوق ما يجب ، وقد تسرف فى الاستمساك بالحق والصواب إسرافاً لا يطاق . ولقد كان انتصار چوشى والكنفوشية هذا الانتصار الكامل من الأسباب التى جعلت ثورة الصين ضرورة لا بد منها .

الفصل الثانى

البرنز واللَّكُّ واليَشْب

منزلة الفن فى الصين – المنسوجات – الأثاث – الحلى – المراوح – صنع اللك – قطع حجر اليشب – روائع فنية فى البرنز – النحت الصينى

طلب الحكمة والهيام بالجمال هما قطب العقل الصينى ، وفى استطاعتنا أن نُعرِّف بلاد الصين بأنها بلاد الفاسفة والخزف ، وإن لم يكن هذا التعريف جامعاً مانعاً . وكما أن طلب الحكمة لم يكن معناه فى بلاد الصين الجرى وراء أخيلة ميتافيزيقية لا علاقة لها بالحياة ، بل كان فلسفة إيجابية تهدف إلى ترقية الفرد والنظام الاجتماعى ، فكذلك لم يكن عشق الجمال إحساساً به كامناً فى النفس أو هواية خيالية للأشكال الفنية التى لا صلة لها بالشئون الإنسانية ، بل كان تزاوجاً أرضياً وثيقاً بين الجمال والمنفعة ، وتصميما عملياً لتزيين موضوعات الحياة اليومية وأدواتها .

ومن أجل ذلك ظلت الصين ، إلى الوقت الذى أخذت فيه تُخضع مثلها العليا لتأثير الغرب ، تأبى أن تعترف بوجود فرق ما بين الفنان والصانع أو بين هذا وبين العامل العادى . ولقد كانت الصناعات كلها إلا القليل منها من عمل الأيدى البشرية ، وكان كل ما تعمله الأيدى منها حِرَفاً متقنة ؛ وكانت الصناعة كما كان الفن تعبيراً عن شخصية الصانع بالشىء المصنوع ، ولذلك بزت الصين كل ما عداها من البلاد فى الذوق الفنى وفى كثرة ما لديها من الأدوات الجميلة التى تستخدمها فى حياتها اليومية ، وإن لم تمد أهلها عن طريق الصناعات الكبيرة بالسلع التى تنعم بها كثرة الناس فى البلاد الغربية . فقد كان الصينى المتوسط الثراء يتطلب أن يكون كل ما يحيط به ، من الحروف التى يكتب بها إلى

الصحاف التى يأكل فيها ، مما يشبع حاسة الجمال ، وأن يدل بشكله وصنعه على الحضارة الناضجة الذى هو رمز لها وقطعة منها .

وبلغت هذه الحركة التى ترمى إلى تجميل الجسم والمعبد والمسكن غايتها فى عهد أسرة سونج . لقد كانت هذه الحركة عنصراً من عناصر الحياة فى عصر أسرة تانج ، وكان من شأنها أن تستمر وتنتشر فى عهد الأسر التى أعقبتها ؛ ولكن عهد



شكل ١ — علبة الحلى من الك الأزرق

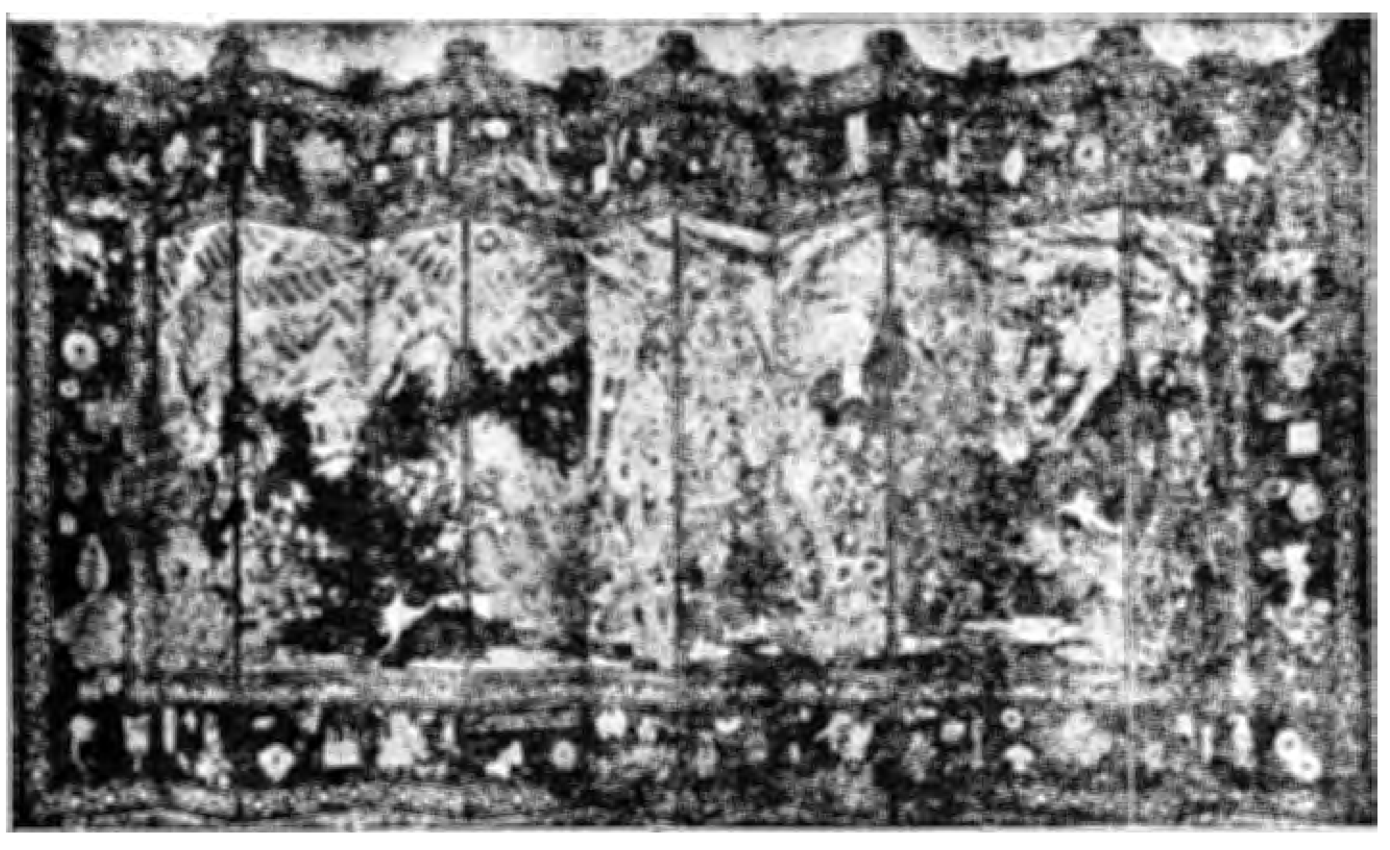
النظام والرخاء الطويل الذى عم البلاد بعد تلك الأسرة قد أمد الفنون كلها بحاجتها من الغذاء ، وخلع على الحياة الصينية جمالا وزينة لم تستمتع بمثلهما من قبل . وقد بلغ الصناع الصينيون فى صناعة النسيج والمعادن فى عهد أسرة سونج وما بعدها درجة من الإتقان والكمال لم يفقهم فيها أحد قبلهم ، وبزوا جميع منافسيهم فى كافة أنحاء العالم فى قطع اليشب وغيره من الأحجار الصلبة ، ولم يتفوق عليهم فى نحت الخشب والنقش على العاج إلا من أخذوا عنهم هذه الصناعة من اليابانيين[٢٧] . لقد كان أثاث المنازل يصنع على أشكال متعددة مختلفة ، فذة فى صورتها ولكنها غير مريحة لصاحبها ؛ وكان صناع الأثاث ، الذين تكفيهم صحفة من الأرز يوما كاملا ، يخرجون منه تحفة فنية صغيرة إثر تحفة .

وكان الفنان ذو اليد الصناع الذى يخرج هذه الروائع الفنية الدقيقة يزين بها داره يتخذها بديلا من الأثاث الغالى الثمن ومن أسباب المتعة المنزلية ، وكانت تبعث فى نفس مالكها بهجة لايدركها فى بلاد الغرب إلا الخبراء الإخصائيون .

أما الحلى فلم تكن موفورة العدد ولكنها كانت بديعة القطع ، وكان الرجال والنساء يبردون وجوههم بمراوح مزخرفة من الريش والخيزران ، أو الورق أو الحرير الملون ، بل إن المتسولين أنفسهم لم تكن تنقصهم المراوح الجميلة وهم يمارسون حرفتهم التليدة .

ونشأ فن الطلاء باللك فى الصين ، وبلغ ذروة الكمال فى اليابان . واللك فى بلاد الشرق الأقصى نتاج طبيعى لشجرة[*] أصلها من أشجار الصين ، ولكنها الآن تزرع بكثرة فى بلاد اليابان ، ويؤخذ عصيرها من جذعها وغصونها ، ثم

(*) اسمها العلمى Rius Vernicifere . واللك مشتقة من الأصل الفرنسى لكر ومعناه اللُّك ، والكلمة الفرنسية نفسها مشتقة من الكلمة اللاتينية Lac ومعناها اللَّبن . واللك التى اخترناها لترجمة كلمة Resin الإنجليزية معناها كما ورد فى القاموس : « شىء يسقط من شجر السمر وما رق من العلوك حتى يسيل » . (المترجم)



شكل ٢ — ستار كانج شى المطلى بالك

يصفى ويغلى ليزول منه ما لا حاجة لهم به من السوائل ، ويطلى به الخشب الرقيق كما يطلى به المعدن والخزف فى بعض الأحيان ، ثم يجفف بتعريضه للرطوبة[٢٨] . ويتكوّن الطلاء من طبقات تتراوح بين عشرين وثلاثين طبقة يبذل فى تجفيف كل واحدة منها وصقلها جهد عظيم وعناية بالغة ، وتختلف كل طبقة عن غيرها فى لونها وسمكها . وينقش الصينيون بعدئذ هـذه الطبقات بعد تمامها بآلة حادة على شكل (٧) بحيث يصل كل حز إلى الطبقة ذات اللون الذى يتطلبه الشكل المطلوب .

وقد نما هذا الفن على مهل وبدأ فى صورة كتابة على شرائح من الخيزران ؛ وكانت مادة اللك تستخدم فى عهد أسرة چو لتزيين الأوانى والسروج والعربات وما إليها . ثم استخدم فى القرن الثانى بعد الميلاد لطلاء الأبنية والآلات الموسيقية ؛ وفى عهد أسرة تانج أصدرت الصين كثيراً من الأدوات المطلية باللك إلى اليابان .

ولما تولت المُلك أسرة تانج كانت كل فروع صناعة اللك قد ازدهرت وتحددت أشكالها ، وكانت ترسل منتجاتها بحراً إلى الثغور النائية كثغور الهند وبلاد العرب . ولمـا ولى المُلك أباطرة أسرة منج خطا الفن خطوة أخرى فى طريق الـكمال ، وبلغ فى بعض نواحيه ذروته[٢٩] . فلمـا جلس على العرش الإمبراطوران المستنيران كانج – شى ، وتشين لونج من أباطرة المانشو صدرت الأوامر الإمبراطورية بتشييد المصانع والإنفاق عليها من مال الدولة ، فأخرجت من روائع الفن أمثال عرش تشين لونج[٣٠] والستر الذى أهداه كانج — شى إلى ليو بولد الأول إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية[٣١] . واحتفظ هذا الفن بتلك الدرجة الرفيعة حتى القرن التاسع عشر ، فكانت الحرب التى أوقد نارها التجار الأوربيون وما للمستوردين والعملاء الأوربيين من أذواق منحطة كانت هذه وتلك سبباً فى حبس معونة الأباطرة عنه فتدهور مستواه وانحطت رسومه ، وانتقلت زعامته إلى اليابان .

أما صناعة اليشب فهي قديمة قدم التاريخ الصيني نفسه ، وشاهد ذلك أن آثارها وجدت في أقدم القبور . وتعزو أقدم السجلات أول استخدامه « حجر سمع » إلى عام ٢٥٠٠ ق . م وذلك أن حجر اليشب كان يقطع على صورة سمكة أو نحوها تعلق في إسار ؛ فإذا ما أجيد قطع الحجر وتعليقه خرجت منه أنغام موسيقية واضحة جميلة تدوم مدى مدهشاً في طوله . والاسم الإنجليزي لهذا الحجر Jade مشتق من اللفظ الأسپاني Ijada (المأخوذ عن اللفظ اللاتيني Ilia) عن طريق اللفظ الفرنسي Jade ومعناه الحقو . ولما فتح الأسپان أمريكا وجد الفاتحون أهل المكسيك الأقدمين يأتون بهذا الحجر مسحوقاً ومعجوناً بالماء ليعالجوا به كثيراً من الأمراض الباطنية ، فلما عادوا إلى أوربا حملوا معهم هـذا العلاج هو والذهب الأمريكي إلى بلادهم . أما الاسم الصيني لهـذا الحجر فهو أليق به من الاسم الأوربي وأكثر مطابقة للمعقول . فلفظ چون الذى يطلق عليه معناه لين كالندا[٢٢] ، ويتركب حجر اليشب من معدني الجاديت والنفريت ، والأول يتكون من سليكات الألومنيوم والصوديوم ويتكون الثاني من الكلسيوم والمغنيزيوم . وكلا المعدنين صلب قاس يحتاج تهشيم البوصة المكعبة منه إلى ضغط خمسين طناً في بعض الأحيان وتتكسر القطع الكبيرة منه عادة بتعريضها إلى الحرارة الشديدة ثم إلى الماء البارد على التعاقب .

وفي وسع الإنسان أن يدرك حذق الفنان الصيني من قدرته على إظهار ألوان براقة خضراء وسمراء وسوداء وبيضاء من هذا الحجر العديم اللون بطبيعته ، ومن صبره الطويل ومثابرته ، حتى يخرج منه أشكالا مختلفة لا عداد لها ، حتى لا يكاد الإنسان يجد بين مجموعات اليشب التي في العالم كله قطعتين متماثلتين ، اللهم إلا أزرار الملابس .

وكان أول ما عثر عليه من مصنوعات يشبية في عهد أسرة شانج في صورة ضفدعة تستخدم قرباناً مقدساً[٢٣] ، وصنعت منه أدوات غاية في الجمال في أيام

كنفوشيوس[٣٤] . وبينا كان الناس فى غير الصين يتخذون من اليشب فؤوساً، ومدى وأوانى ، فإن الصينيين كانوا يعظمون هذا الحجر تعظيما حملهم على ألا يستخدموه إلا فى التحف الفنية الجميلة ، إذا استثنينا بعض القطع النادرة القليلة العدد . وكان عندهم أثمن من الفضة والذهب والحلى على اختلاف أنواعها[٣٥]. وكانوا يقدرون بعض مصنوعات اليشب الصغيرة كخواتم الإبهام التى يتحلى بها كبار الحكام الصينيين بما يقرب من خمسة آلاف ريال ، ويقدرون بعض القلائد اليشبية بمائة ألف ريال . وكان المعنيون بجمع القطع النادرة منه يقضون السنين الطوال فى البحث عن قطعة واحدة ، ويقال إن ما يوجد فى الصين من التحف اليشبية إذا جمعت فى مكان واحد تكونت منها مجموعة لا تماثلها مجموعة من أية تحف صنعت من مادة أخرى فى جميع أنحاء العالم[٣٦] .

ولا يكاد البرنز يقل قدماً عن اليشب فى الفن الصينى ، وهو يفوقه مقاماً وتقديراً عند الصينيين . وتروى الأقاصيص الصينية أن الإمبراطور يو ، أحد أباطرة الصين الأقدمين وبطل الطوفان الصينى ، تلقى المعادن التى بعثت بها إليه الولايات التسع الخاضعة لحكمه ، وهى الخراج المفروض عليها ، ثم صبها كلها وصنع منها ثلاثة قدور لكل منها تسع أرجل ، لها من القوة السحرية ما تستطيع به أن تدفع المؤثرات البغيضة ، وتجعل ما يوضع فيها من المواد يغلى بغير نار ، ويخرج منها كل ما لذ وطاب من الطعام والشراب .

ثم أصبحت هذه القدور الرمز المقدس للسلطة الإمبراطورية . وتوارثتها الأسر واحدة بعد واحدة ، فكانت كل منها تتلقاها بعناية فائقة من التى قبلها ، ولكنها اختفت بطريقة مجهولة غامضة بعد سقوط أسرة چو ، وهى حادثة كان لها أسوأ الأثر فى منزلة شى هوانج — دى . ثم أصبح صب البرونز ونقشه فناً من الفنون الجميلة الصينية ، وأخرجت منه البلاد مجموعات تطلب حصر أسمائها وتصنيفها اثنين وأربعين مجلداً[٣٧] . وكان يصنع منه أوانى للحفلات الدينية التى

تقيمها الحكومة أو يقيمها الأفراد فى منازلهم ، وقد أحال آلافاً من أنواع الأوانى المنزلية إلى تحف فنية . وليس فى العالم كله ما يضاهى مصنوعات الصين البرنزية إلا ما صنع منه فى إيطاليا فى عهد النهضة الأوربية ، ولعلها لا يضاهيها من هذه المصنوعات إلا « أبواب الجنة » التى وضع تصميمها غبرتى Ghiberti ليزين بها موضع التعميد فى فلورنس .

وأقدم ما لدينا من القطع البرنزية الصينية أوانى قربانية كشفت حديثاً فى هونان ؛ ويرجعها العلماء الصينيون إلى عهد أسرة شانج، ولكن الخبراء الأوربيين يرجعونها إلى عهد متأخر عن ذلك الوقت وإن كانوا لا يحددونه تحديداً مضبوطا . وأقدم الآثار المعروف تاريخها هى التى ترجع إلى عهد أسرة چو ومن أروعها كلها مجموعة آنية الحفلات المحفوظة فى المتحف الفنى بنيويورك .

وقد استولى شى هوانج — دى على معظم ما كان لدى أسرة چو من آنية برنزية لئلا يصهرها الأهلون ليتخذوا منها أسلحة . وصنع مما تجمع له من هذا المعدن اثنى عشر تمثالا ضخما يبلغ ارتفاع كل منها خمسين قدماً[٣٨] ، ولكن هذه التماثيل كلها لم تبق منها قدم واحدة . وقد صنعت فى عهد أسرة هان كثير من الآنية الجميلة طعمت أحياناً بالذهب .

وليس أدل على رقى هذا الفن فى الصين من أن الفنانين الذين دربوا فى تلك البلاد هم الذين صنعوا عدداً من التحف التى تعد من روائع الفن ، والتى زين بها هيكل هريو چى فى مدينة نارا اليابانية . وأجملها كلها ثلاثة تماثيل لأميدا — بوذا تصورها جالسة على أسرة فى صورة زهرة الأزورد[٣٩] ؛ وهى أجمل ما وجد من التحف فى تاريخ صناعة البرنز فى العالم أجمع(*) ووصل فن البرنز إلى ذروة مجده أيام أسرة سونج ، وإذا كانت التحف التى صنعت منه لم ترق إلى ذروة الكمال فإنها قد بلغت الغاية فى كثرة عددها وتباين أشكالها ؛ فقد صنعت منه قدور

(*) انظر الفصل السابع من الباب الثلاثين فى تاريخ اليابان .

ودنان خمر ، وآنية ، ومباخر ، وأسلحة ، ومرايا ، ونواقيس ، وطبول.



شكل ٣ تمثال من البرنز بلوان — ين من عصر سوى
محفوظة فى متحف نيويورك

ومزهريات ؛ وكانت الآنية المنقوشة والتماثيل الصغيرة تملأ الرفوف فى دور خبراء الفن وهواته ، وتجد لها مكانا فى كل بيت من بيوت الصينيين .

ومن أجمل النماذج الباقية من أيام أسرة سونج مبخرة فى صورة جاموس البحر ، وقد ركب عليها لو — دزه وهو هادئ مطمئن ليثبت بهذا قدرة الفلسفة على إخضاع الوحوش الكاسرة[٤٠] ، ولا يزيد سمك جدران المبخرة على سمك الورق ، وقد اكتسبت على مر الزمان قشرة أو طبقة خضراء مبرقشة خلعت عليها جمال القدم[*] ، ثم انحط هذا الفن انحطاطاً تدريجياً بطيئاً فى عهد أسرة منج ، فزاد حجم التحف وقلت جودتها ، وأصبح البرنز ، الذى كان مقصوراً على صنع آيات الفن فى عهد الإمبراطور يو ، فلزاً عاما تصنع منه الآنية العادية التى تستخدم فى الأغراض اليومية ، وتخلى عن مكانته الأولى للخزف .

ولم يكن النحت من الفنون الكبرى ، ولا من الفنون الجميلة ، عند الصينيين[٤١] . وسبب هذا أن تواضع الشرق الأقصى قد أبى عليه أن يتخذ الجسم البشرى نموذجاً من نماذج الجمال . ولهذا فإن الذين اتخذوا صناعة التماثيل البشريه حرفة لهم وجهوا قليلا من عنايتهم إلى تمثيل ما على الأجسام من ملابس ، واستخدموا تماثيل الرجال — وقلما استخدموا تماثيل النساء — لدراسة بعض أنواع الإحساسات أو لتصويرها ؛ ولكنهم لم يمجدوا الأجسام البشرية . ومن أجل ذلك تراهم فى الغالب قد قصروا تصوير الأناسى على تماثيل القديسين البوذيين والحكماء الدوّيين ، وأغفلوا تصوير الرياضيين والسرارى ممن كانوا وكنّ مصدر الإلهام للفنانين من اليونان .

(*) الكلمة الإنجليزية **Patina** أى القشرة مشتقة من كلمة لاتينية معناها طبق وتستعمل للدلالة على الطبقة التى تتكون من انحلال السطح المعدنى المتعرض لرطوبة الجو . ومن عادة هذه الأيام أن يكون من عوامل تقدير قيمة التحف البرنزية ما يغشاها من طبقة خضراء أو سوداء تكونت عليها من مر الزمان ، أو من الأحماض التى تستخدم فى تقليد الروائع الفنية القديمة .

وكان المثالون الصينيون يفضلون تمثيل الحيوانات على تمثيل الفلاسفة والحكماء أنفسهم .

وأقدم ما نعرفه من التماثيل الصينية التماثيل الإثنا عشر الضخمة المصنوعة من البرنز ، والتي أقامها شي هوانج — دى . وقد صهرها فيما بعد أحد الحكام من أسرة هان ليتخذ منها « فكة »[*] برنزية . وبقى من أيام أسرة هان عدد قليل من التماثيل البرنزية ، ولكن كل ما صنع منها فى ذلك العهد إلا قلة ضئيلة قضت عليه الحرب أو قضى عليه الإهمال الطويل الأمد . والتماثيل البشرية قليلة أيضاً فى هذه القلة الباقية ، والأثر الهام الوحيد الباقى من أيام أسرة هان نقش بارز من نقوش القبور ، عثر عليه فى شانتونج . وصوَر الآدميين قليلة نادرة فى هذا النقش أيضاً ، وأهم ما يشغل رقعته صور حيوانات بارزة رقيقة . وأقرب من هذا النقش إلى صناعة النحت التماثيل الجنازية الصغيرة المتخذة من الصلصال — وأكثرها يمثل حيوانات ومنها قلة تمثل خدماً أو زوجات — وكانت تدفن مع الموتى من الذكور عوضاً عن الأزواج والخدم الأحياء . وقد بقيت من هذا العهد تماثيل مستقلة لحيوانات منها تمثال رخامى لنمر كله عضلات يمثل اليقظة أدق تمثيل ، وكان يتولى حراسة معبد اسنيانج — فو[٤٢] ؛ ومنها الدببة المزمجرة التى تشتمل عليها الآن مجموعة جاردنر Gardner فى مدينة بسطن Boston ، ومنها الآساد المجنحة المصابة بتضخم الغدة الدرقية والتى وجدت فى مقابر نانكنج[٤٣] . وكل هذه الحيوانات والخيول المزهوة الممثلة فى نقوش القبور البارزة السالفة الذكر تشهد بما كان للفن اليونانى البكترى والفن الأشورى والسكوذى من أثر فى الفن الصينى ؛ وليس فيها شىء من مميزات الفن الصينى الخالص[٤٤] .

وفى هذه الأثناء كانت الصين قد بدأت تتأثر بشىء آخر هو أثر الدين

(*) لم نر فى فقه اللغة ما يمنعنا من استعمال هذا اللفظ بمعناه المعروف بالفك والانفكاك هو الفصل والتفكك عدم التماسك (المترجم)

والفن البوذيين ، وقد استوطن هذا الفن البوذى فى أول الأمر التركستان ، وأقام فيها صرح حضارة كشف اشتين Stein وبليوت Pelliot فى أنقاضها عن أطفان كثيرة من التماثيل المحطمة يضارع بعضها أكثر ما أخرجه الفن الهندى البوذى . واستعار الصينيون هذه الأشكال البوذية من غير تغيير كبير فيها ، وأخرجوا على غرارها تماثيل لبوذا تضارع فى جمالها ما صنع فى جندارا أو فى الهند . وأقدم هذه التماثيل ماوضع فى معابد يون كان الكهفية فى شانسى (حوالى ٤٩٠م) ، ومن أحسنها تماثيل مغارات لونج مِنْ هونان ، فقد أقيمت فى خارج هذه المغارات عدة تماثيل ضخمة أعجبها كلها تمثال بوذيستوا الجميل ، وأروعها بوذا « ڤيروشانا » (حوالى ٦٧٢ م) الذى تحطم جزء منه عند قاعدته ، ولكنه لايزال محتفظا بروعته الموحية الملهمة[٤٦] . وإلى شرق هذا الإقليم فى شانتونج وجد كثير من معابد الكهوف نقشت على جدرانها أساطير على الطريقة الهندية يظهر فى أماكن متفرقة منها تمثال قوى لبوذيستوا شبيه بالتمثال الذى فى كهف يون من ، (ويرجع تاريخه إلى حوالى عام ٦٠٠ م)[٤٧] . واحتفظت أسرة تانج بالتقاليد البوذية فى النحت ، وقد بلغ درجة الكمال فى تمثال بوذا الجالس (حوالى ٦٣٩ م) الذى عثر عليه فى ولاية شِنسى Shensi [*][٤٨] . وأخرجت الأسر التى جاءت من بعدها تماثيل ضخمة من الصلصال تمثل أتباعاً لبوذا الظريف لهم وجوه كالحة كوجوه رجال المال[**] ، كما أخرجت عدداً من التماثيل الجميلة تمثل كوان — ين إله مهايانا وهو يوشك أن يتحول من إله إلى إلهة[٤٩] .

وفقد فن النحت إلهامه الدينى بعد أسرة تانج ، واصطبغ بصبغة دنيوية تنحط أحياناً إلى صبغة شهوانية ، حتى شكا رجال الأخلاق فى ذلك لوقت ، كما شكا رجال الأخلاق فى إيطاليا فى عصر النهضة ، من أن الفنانين ينحتون

(*) هى عير ولاية شانسى المعروفة

(**) فى المتحف الفنى بنيويورك نماذج من هذا الطراز .

للقديسين تماثيل لا تقل رشاقة ورقة عن تماثيل النساء ، فوضع الكهنة البوذيون قواعد للتصوير تحرم تحديد شخصية صاحب الصورة أو إبراز معالم الجسم . ولربما كانت النزعة الأخلاقية القوية عند الصينيين هى التى عاقت تقدم فن النحت . ذلك أنه لما أن فقد الدافع الدينى أثره المحرك القوى فى الفن ، ولم يسمح لجاذبية الجمال الجثمانى بأن يكون لها شأن فيه ، اضمحل فن النحت فى بلاد الصين ، وقضى الدين على ما لم يعد فى مقدوره أن يكون له ملهماً . وما أن اقترب عهد أسرة تانج من نهايته حتى أخذ الابتكار فى فن النحت ينضب معينه . وليس لدينا من القطع الفنية الممتازة التى أخرجتها أسرة سونج إلا عدد قليل ؛ أما المغول فقد خصوا الحرب بجهودهم ؛ وأما أباطرة المنج فقد نبغ فى عهدهم بعض المثالين الذين أخرجوا تماثيل غريبة وأخرى ضخمة من الحجارة كالمولات التى تقف أمام مقابر أباطرة المنج . فلما ضيّق الدين الخناق على فن النحت لفظ أنفاسه الأخيرة ، وأخلى ميدان الفن الصينى للخزف والنقش .

الفصل الثالث

المعابد (البجودا) والقصور

العمارة الصينية – برج نانكنج الخزفى – بجودا بيبنج الينتسى – هيكل كنفوشيوس – هيكل السماء ومذبحه – قصور كوبلاى خان – بيت صينى – داخل البيت – لونه وشكله.

كذلك كانت العمارة من الفنون الصغرى فى بلاد الصين ، ولم يكد يترك من كان فيها من البنائين العظام أثراً لهم يخلد ذكراهم ؛ ويلوح أن الشعب لم يكن يجلهم إجلاله صناع الخزف الكبار . والعمائر الضخمة نادرة فى بلاد الصين حتى ما شيد منها تكريماً للآلهة ، وقلما نجد فيها مبانى قديمة ، وليس فيها إلا القليل من المعابد التى يرجع عهدها إلى ما قبل القرن السادس عشر .

وقد أصدر مهندسو أسرة سونج فى عام ١١٠٣ م ثمانية مجلدات موضحة بالرسوم الجميلة فى شرح أساليب العمارة ؛ ولكن الآيات الفنية التى صوروها كانت كلها من الخشب ولم تبق منها قطعة واحدة إلى اليوم . ويستدل من الرسوم المحفوظة فى المتحف الأهلى فى باريس ، والتى يقال إنها تمثل المساكن والهياكل فى أيام كنفوشيوس ، على أن فن العمارة الصينية قد قنع فى خلال تاريخه الطويل الذى دام ثلاثة وعشرين قرناً بما كان عليه فى تلك الأيام الخالية من أشكال وأحجام متواضعة[٥٠] .

ولعل إحساس الصينيين المرهف فى مسائل الفن والذوق هو الذى حدا بهم إلى نبذ ما عساه أن يبدو من العمائر خالياً من الاحتشام مفرطاً فى الضخامة ، أو لعل تفوقهم فى الذكاء قد حد بعض الشىء من مدى خيالهم . ومهما يكن سبب هذا القصور فإن فن العمارة الصينية قد أضر به كثيراً انعدام ثلاث قوى

لم يخل منها تاريخ أمة عظيمة من الأمم القديمة ، وتلك هي الأرستقراطية الوراثية وطبقة الكهنة القوية[٥١] والحكومة المركزية الكثيرة المال العظيمة السلطان[٥١] ذلك أن هذه القوى هي التي كانت في الأيام الخالية تبذل المال بسخاء لتشجيع الأعمال الفنية العظيمة ، من هياكل وقصور ومسارح ومظلات ومقابر منحوتة في الصخور . ولقد انفردت الصين من بين الأمم القديمة بأنها لم تبتل بهذه النظم الثلاثة .

غير أن العقيدة البوذية قد استحوذت وقتاً ما على روح الصينيين وعلى ما يكفي من ثروة البلاد لإقامة الهياكل العظيمة التي كشفت بقاياها أخيراً في التركستان[٥٢] . ولا تزال بعض الهياكل البوذية المتوسطة العظمة والفخامة باقية في أنحاء كثيرة من بلاد الصين ، ولكنها لم تسم إلى ما سمت إليه العمائر الدينية في بلاد الهند . ويصل الإنسان إلى هذه الهياكل بممرات طبيعية جميلة المنظر صاعدة بالتواء فوق منحدرات ذات أبواب منقوشة يسمونها البايلو ، ولعلها مأخوذة عن درابزين الأضرحة البوذية الهندية .

وتحرس مداخل هذه الهياكل في بعض الأحيان تماثيل بشعة وضعت لتخيف الشياطين الأجنبية فتبعدها عنها بطريقة ما . ومن أجمل الأضرحة البوذية الصينية كلها هيكل بوذا النائم بالقرب من القصر الصيفي المشيد خارج بيپنج . ويرى فرجسون Fergusson أنه « أجمل ما أخرجه فن العمارة في بلاد الصين »[٥٣] .

غير أكثر ما يميز الشرق الأقصى في فن العمارة عن سائر الأقطار هو الهياكل (الپجودات) التي تشرف على جميع المدن الصينية تقريباً[*] . وقد

(*) ولا تزال أصل هذه القصور ومنشأ اسمها الصيني « الپجودات » مثاراً للبحث والجدل العنيف . وقد يكون هذا الاسم مشتقاً من اللفظ الهندي الفارسي بت — كده أي « بيت الأصنام » ، وقد يكون شكلها صيني المنشأ كما يظن بعض المؤرخين ، أو قد يكون مشتقاً من السُّرج الذي كان يشرف على بعض الأضرحة الهندوكية[٥٥] .

اصطبغت هذه الصروح الجميلة ، كما اصطبغت العقائد البوذية التى ألهمت من شادوها ، ببعض الخرافات الدوِّية التى كانت منتشرة فى البلاد ، فكانت من أجل ذلك مراكز للاحتفالات الدينية وللتنبؤ بالغيب عن طريق دراسة الشقوق والعروق الأرضية . وكانت الجماعات المختلفة تشيد هذه الهياكل لاعتقادها أنها تقى الناس غوائل الأعاصير والفيضان ، وتسترضى الأرواح الشريرة ، وتجتذب الرخاء ورغد العيش . وكانت تتخذ عادة شكل أبراج ذات ثمانية أضلاع تشاد من الآجر وترتفع فوق قواعد من الحجارة خمس طبقات أو سبعاً أو تسعاً لأن الأعداد الزوجية فى اعتقادهم أعداد مشئومة[٥٦] . وأقدم البجودات التى لا تزال قائمة حتى الآن البجودة القائمة فى سونج إيو — سو ، والتى شيدت فى عام ٥٢٣م على جبل سونج شان المقدس فى هونان . ومن أجملها البجودة الصيفية ، وأروعها منظراً بجودة اليشب فى بيجنج و « بجودة المزادة » فى وو — واى — شان ، وأوسعها شهرة برج الخزف فى نانكنج (نانچنج) وقد شيد فى ١٤١٢ — ١٤٣١ ، ويمتاز بطبقة من الخزف فوق جدرانه المقامة من الآجر . وقد دمر هذا البرج فى ثورة تاييبنج التى استعرت فى عام ١٨٥٤ .



شكل ٤ — القصر الصيفى فى پيپنج

وأجمل الهياكل الصينية هى التى كانت مخصصة للديانة الرسمية فى پيچنج (پيكنج) . ومن هذه الهياكل هيكل كنفوشيوس ، ويحرسه پاى — لو ، فخم محفور أجمل حفر ، ولكن الهيكل نفسه يخلد الفلسفة أكثر مما يخلد الفن . وقد شيد فى القرن الثالث عشر الميلادى ثم أدخلت عليه عدة تعديلات وأعيد بناء بعض أجزائه عدة مرات . وقد وضعت « لوحة روح أقدس القديسين المعلم والألب كنفوشيرس » ، على قاعدة خشبية فى مشكاة مفتوحة فى الهيكل ، ونقشت العبارة الآتية فوق المذبح الرئيسى : « إلى المعلم الأعظم والمثال الذى تحتذيه عشرة آلاف جيل » . ويقوم بالقرب من سور پيچنج التتارى الجنوبى هيكل



شكل ٥ — هيكل السماء فى پيپنج

السماء ومذبح السماء . والمذبح مكوّن من سلسلة من الدرج والشرفات الرخامية التي كان لعددها الكبير ونظامها أثر سحرى فى نفوس الزائرين . والهيكل نفسه بجودة معدلة من ثلاث طبقات قائمة فوق ربوة من الرخام ومشيدة من الآجر والقرميد الخاليين من الرونق . وكان الإمبراطور فى الأيام الخالية يأتى إلى هذا المكان فى الساعة الثالثة من صباح يوم رأس السنة الصينية للصلاة والدعاء لأسرته بالتوفيق والفلاح ولشعبه بالرخاء ، ويقرب القربان للسماء التى يرجو أن تكون فى صفه لا فى صف أعدائه ، ولم تكن السماء ذكرا أو أنثى عندالصينيين بل كانت جمادا . وقد نزلت صاعقة من السماء على هذا المعبد فى عام ١٨٨٩ فأصابته بضرر بليغ (٥٧) .

وأجمل من هذه الأضرحة الخالية من الرونق والبهاء ، وأكثر منها جاذبية، القصور الملونة الضعيفة البناء التى كانت مساكن للأمراء وكبار الحكام فى بيچنج . ومن أجمل هذه المبانى البهو الأكبر ، وقد شاده عند قبر أباطرة منج عباقرة البنائين الذين جاد بهم عهد الإمبراطور تشنج دزو (١٤٠٣ — ٢٥) ، كما شادوا عددا من المساكن الملكية فى بقعة عرفت فيما بعد باسم «المدينة المحرمة » أقيمت فى الموضع الذى شاهد فيه ماركو پولو قصر كوبلاى خان قبل ذلك العهد بمائتى عام ، فدهش منه وأعجب به أيما إعجاب ، وتقوم آساد بشعة الخلقة على جانبى الدرزين الرخامى المؤدى إلى الشرفة الرخامية . وقد شيدت فى هذا المكان مبان رسمية ، بعضها غرف لعروش الأباطرة وأخرى للاستقبال أو للمآدب وغيرها من حاجات الأباطرة .

وانتشرت حولها البيوت الأنيقة التى كانت تسكنها فى الأيام الخالية أسر الأباطرة وأبناؤهم وأقاربهم وخدمهم وأتباعهم وخصيانهم وسراريهم . ولا تكاد هذه القصور تختلف بعضها عن بعض . ففيها كلها العمد الرفيعة ، والنوافذ المتشابكة الجميلة ، والطنف المنحوتة أو المسطورة ، والألوان الكثيرة الزاهية

والرفارف المقوسة المتجهة إلى أعلى المتصلة بالسقف المقرمدة الضخمة . وشبيه بهذه المتع المحرمة على غير هذه الطبقات من الأهلين القصر الصيفى الثانى الذى يبعد عن هذا المكان بضعة أميال ؛ ولعله أكثر رشاقة وتناسباً وتأنقاً فى النحت من البيوت التى كانت فى يوم ما مساكن للملوك فى بيجنج .

وإذا شئنا أن نذكر الخصائص العامة لفن العمارة الصينية فى عبارة موجزة قلنا : إن من أول مظاهرها السور المجرد من الجمال الذى يفصل المبنى الرئيسى عن الطريق العام . وهذه الأسوار تمتد فى الأحياء الفقير من بيت إلى بيت متصلة بعضها ببعض ، وتدل على أن الحياة فى هذه الأحياء كانت غير آمنة . ويحيط هذا السور بفناء تفتح فيه أبواب ونوافذ لبيت واحد أو لعدة بيوت . وبيوت الفقراء مساكن كئيبة مظلمة ، ذات مداخل ودهاليز ضيقة وسقف منخفضة ، وأرض من التراب . وفى كثير من الأسر تعيش الخنازير والكلاب والدجاج والرجال والنساء فى حجرة واحدة . وتعيش أفقر الأسر فى أكواخ من الطين والقش تغمرها مياه الأمطار وتصفر فيها الرياح ، وإذا كانت الأسر ذات يسار قليل غطت أرض الحجرات بالحصر أو رصفتها بالقرميد . أما الأثرياء فيزينون فناء المنزل الداخلى ببعض الشجيرات والأزهار والبرك ، أو يحيطون قصورهم بالحدائق يغرسون فيها مختلف الأشجار ، ويمرحون فيها ويلعبون . ولا نرى فى هذه الحدائق طرقات تزينها الورود ، وممرات غرست حولها الأزهار ، ومربعات أو دوائر أو مثمنات من الكلأ أو الزهر ؛ بل ترى بدلا منها مماشى ضيقة لا تثبت على حال ، تتلوى فى بعض الأحيان مخترقة أخاديد تمر بين الصخور فوق مجار مائية متعرجة بين أشجار اضطرت جذوعها أو أغصانها إلى أن تتخذ لها أشكالا غريبة ترضى عنها النفوس السوفسطائية . وترى فى أماكن متفرقة من هذه الحدائق جواسق جميلة تكاد تخفيها الغصون يستريح فيها الجائلون .

وليس البيت نفسه ذا روعة ولو كان قصراً للعظماء ، فهو لا يزيد على طبقة

واحدة ، وإذا احتاجت الأسرة إلى أن تزيد حجرات منزلها فإنها تفضل إقامة مبنى جديد على إضافة حجرات للمبنى القديم . ومن ثم فإن القصر العظيم قلما يكون بناء منضم الأجزاء ، بل يتكون من عدة مبان تمتد أهمها فى وصف واحد من مدخل القصر إلى السور وإلى جانبيها المبانى الثانوية التى تقل عن الأولى شأنا . وأكثر ما تبنى منه المنازل الخشب والآجر ، وقلما تعلو الحجارة إلى أكثر من الشرفات التى فوق الأساس .

وكان يقصر استعمال الآجر عادة على الجدران الخارجية ، أما السقف فتتخذ من لبنات رقيقة ، وأما الأعمدة المزينة والجدران الداخلية فتقام من الخشب . وكانت تعلو الجدران الزاهية الألوان طنف ذات نقوش . وليست الجدران ولا العمد هى التى تحمل السقف ، بل إن هذه السُّقف رغم ثقلها تستقر على قوائم تكون جزءا من الهيكل الخشبى للمنزل . والسُّقف أهم أجزاء الهيكل أو المنزل الصينى ، فهو يبنى من القرميد المصقول البراق — ذى اللون الأصفر إن كان يظلل رأس الإمبراطور ، وإلا فهو أخضر أو أرجوانى أو أحمر أو أزرق . وهو يبدو جميلا وسط ما يحيط به من المناظر الطبيعية ، بل إنه ليبدو كذلك حتى فى فوضى شوارع المدن ، ولربما كانت أعواد الخيزران التى تبرز أطرافها من أعلى الخيام هى التى أقيمت على غرارها فى بلاد الشرق الأقصى رفارف السطوح الرشيقة المنحنية إلى أعلى ، ولعل أقرب من هذا إلى الظن أن هذا الطراز الكثير الذيوع لم يكن منشؤه إلا رغبة البنائين الصينيين فى وقاية البناء كله من مياه الأمطار[٥٨] .

ذلك أن النوافذ ذات المصاريع كانت قليلة فى المبانى الصينية ، وكان يحل محلها الورق الكورى Korean[*] أو النوافذ ذات القوائم المتقاطعة المتشابكة ، وهذه لا تقى الحجرات من الأمطار .

(*) نسبة إلى كوريا Korea

ولا يقع مدخل البيت الرئيسى عند طرفه ذى السقف المرمى ، بل يقع عند واجهته الجنوبية . ويقوم فى داخل هذا الباب الكبير عادة ستار أو جدار يحجب نظر الزائر عن رؤية من فى داخل الدار ، ويقف فى طريق الأرواح الخبيثة التى لا تسير إلا فى خطوط مستقيمة ، وردهة الدار وحجراتها معتمة لأن ضوء النهار تحجبه النوافذ المتشابكة والطنف البارزة . وبهو المنزل وحجراته مظلمة لأن النوافذ المشبكة والطنف البارزة تحجب عنها ضوء النهار. وقلما تجد فى المنزل وسائل لتهوية الغرف ، وليس فيه من وسائل التدفئة إلا المجامر المتنقلة ، أو طبقات من الآجر تبنى فوق نار مُدْخنة . وليس لهذه المدافئ مداخن أو فتحات يخرج منها الدخان[٥٩] . والأغنياء والفقراء على السواء يقاسون آلام البرد ويأتون إلى فراشهم مدثرين بالثياب الثقيلة[٦٠] . وإذا التقى السائح بصينى سأله : « أأنت بردان ؟ فيجيبه هذا بقوله : بطبيعة الحال »[٦١] ، وقد تعلق فى سقف الدار فوانيس من الورق زاهية الألوان ، وتزين الجدران أحياناً بكتابات بخط جميل أو بنقوش من الحبر ، أو بسجف من الحرير مطرزة تطريزاً جميلا ومنقوش عليها مناظر ريفية . ويتخذ أثاث المنزل عادة من الخشب الثقيل المدهون باللون الأسود البرّاق والمنحوت نحتاً جميلا . أما القطع ذات الألوان الفاتحة فتطلى بالك البراق . والصينيون هم الأمة الشرقية الوحيدة التى يجلس أبناؤها(*) على كراسى ، وحتى هم يفضلون أن يجلسوا متكئين أو متربعين ؛ وهم يضعون ، على نضد خاص ، الأوانى التى تتخذ لتقديم القرابين لأسلافهم الأموات . وتقع فى مؤخرة الدار حجرات النساء ، وقد توجد فى حجرات مستقلة أو فى بناء منفصل عن سائر المنزل مكتبة أو مدرسة .

والأثر العام الذى تتركه العمائر الصينية فى ذهن المشاهد الأجنبى غير الفنى هو ما تتصف به من وهن سحرى يأخذ بالألباب ؛ واللون يطغى فيها على

(*) لعله يقصد بأبنائها جمهرة الشعب . (المترجم)

الشكل ، ومن واجب الجمال فيها أن يستغنى عن الضخامة والعظمة . والهيكل أو القصر الصينى لا يتطاول إلى الإشراف على الطبيعة بل يتعاون معها على أن يخلق من الكل انسجاماً كاملا يعتمد على تناسب أجزائه وتواضعها . والعمائر الصينية تعوزها الصفات التى تكسبها متانة وأمناً وطول بقاء ، كأن من شادرها يخشون أن تذهب الزلازل بجهودهم .

وإن من الصعب على الإنسان أن يعتقد أن هذه العمائر تنتمى إلى ذلك الفن الذى أقام آثار الكرنك وبرسيوليس ، والآثار التى شيدت على الأكروبول ؛ فليست هى عمائر بالمعنى الذى يفهمه الغربيون من هذا اللفظ ، بل هى حَفْر فى الخشب ، وطلاء للخزف ، ونَحت فى الحجر . وهى أكثر انسجاما مع الخزف واليشب من الصروح الضخمة الثقيلة التى أقامها فنا الهندسة والمعمار فى بلاد الهند وبلاد النهرين وروما . وإذا لم نتطلب إليها العظمة والصلابة التى ربما لم يعن بها من أنشئوها ، وإذا أخذناها على أنها أصداف تعبر عن أرق الأذواق فى أضعف أشكال المبانى وأقلها بقاء ، إذا فعلنا هذا وذاك كان لهذه العمائر مكانها بين أجمل طرز الفن الصينى الطبيعية التى تناسب أهل تلك البلاد وبين أجمل الأشكال التى ابتدعها الإنسان .

الفصل الرابع

التصوير

١ — أساتذة فن التصوير الصيني

جوو كاي — چيه «أعظم مصور ، وأعظم فكه ، وأعظم أبله» — صورة هان يو الصغيرة — المدرستان الإتماعة والابتداعية — وبج واي — وو داو دزه — هو درونج الإمبراطور الفنان — أساتذة عصر سونج

لقد أبطأ الغرب في دراسة فن التصوير الصيني ، وليس عليه في ذلك لوم ، لأن مناحي الفن وأساليبه في الشرق تكاد كلها تكون مغايرة لمناحيه وأساليبه في الغرب ؛ وأول ما نذكره من هذا الخلاف أن المصورين في بلاد الشرق الأقصى لم يكونوا يصورون على القماش ؛ وقد نجد من حين إلى حين مظلمات على الجدران ، وأكثر ما يوجد من هذا أثر من آثار النفوذ البوذي ؛ ونجد في بعض الأحيان رسوماً على الورق وهذه من آثار ما بعد العهد البوذي ؛ كل هذا نجده ولكنه قليل ، أما معظم الرسوم الصينية فهي على الحرير ؛ ولقد كان ضعف هذه المادة وقصر أجلها سبباً في تلف الروائع الفنية جميعها حتى لم يبق من تاريخ هذا الفن إلا ذكريات له وسجلات تصف جهود الفنانين ؛ يضاف إلى هذا أن الصور نفسها كانت رقيقة خفيفة ، وأن كثرتها قد استخدمت فيها الألوان المائية وينقصها ما نراه في الصور الزيتية الأوربية من تلوين يظهرها للعين وكأنها صور مجسمة نكاد نلمسها باليد . ولقد حاول الصينيون التصوير الزيتي ولكن يلوح أنهم تركوه لأنهم حسبوا هذه الطريقة من طرق التصوير خشنة ثقيلة لا تتفق وأغراضهم الدقيقة الرفيعة ؛ كذلك كان تصويرهم في أشكاله الأولى على الأقل ، فرعاً من فروع الكتابة أو الخط الجميل يستعملون فيه الفرشاة التي كانوا

يستعملونها فى الخط ، وكانوا يقتصرون فى كثير من روائعهم الفنية على الفرشاة والحبر (*)

وآخر ما نذكره من أوجه الخلاف أن أعظم ما أخرجوه من الصور الملونة قد أخفى من غير قصد عن أعين الرحالة الغربيين ، ذلك أن الصينيين لا يتباهون بعرض صورهم على الجدران العامة والخاصة بل يطوونها ويخبئونها بمنتهى العناية ، فإذا أرادوا أن يستمتعوا برؤيتها أخرجوها من مخبئها كما نخرج نحن كتاباً ونقرؤه . وكانت هذه الصور المطوية تلف متتابعة فى ملفات من الورق أو الحرير ثم « تقرأ » كما تقرأ المخطوطات . أما الصور الصغيرة فكانت تعلق على الجدران وقلما كانت توضع فى إطارات . وكانت عدة صور ترسم أحياناً على شاشة كبيرة ، وفى العهد الأخير من عهود أسرة سونج كان فن التصوير قد تفرع إلى ثلاثة عشر « فرعاً »[٦٣] واتخذ أشكالا لا حصر لها .

وقد ورد ذكر الفن الصينى بوصفه فناً ثابت الأساس ، قبل ميلاد المسيح بعدة قرون ، ولا يزال هذا الفن موطد الدعائم فى بلاد الصين إلى يومنا هذا رغم ما عاناه بسبب الحروب الكثيرة . وتقول الأقاصيص الصينية إن أول من صور بالألوان فى الصين امرأة تسمى لى وهى أخت الإمبراطور الصالح شوين . وقد ساء

(*) يرى الصينيون أن التصوير ضرب من الكتابة ، ويعدون الخط فنا من الفنون الجميلة ، وإن كان العالم يرى عكس هذا ويعتقد أن الكتابة كانت فى بادئ أمرها نوعاً من الرسم والتصوير . ومن أجل هذا ترى لوحات من الخط الجميل معلقة فى بيوت الصينيين واليابانيين ، ومن أجل ذلك أيضاً يجوب المولعون بالفن وراء الروائع الخطية كما يجوب جامعو التحف الفنية القارات فى هذه الأيام للحصول على صورة أومزهرية . وكان أشهر الخطاطين الصينيين وانج شى – چى (حوالى ٤٠٠ م) ، وكانت الحروف الصينية الجميلة التى كتبها بيده هى التى قطعت عليها الأحرف التى اتخذت قوالب للطباعة . ولما أراد الإمبراطور العظيم تاى دزونج أحد أباطرة أسرة تانج أن يحصل من بيان – دزاى على ملف بخط وانج شى – چى لم يجد سبيلا إلى الحصول عليه إلا بالسرقة ، ويقال إنه لما تم له هذا فقد بيان – دزاى شهوة الطعام ومات غما وكمدا .



شكل ٦ — صورة ملونة لثلاثة عشر إمبراطورا تعزى إلى ين لى ـ بن من مصورى القرن القرن السابع محفوظة فى متحف الفن بمدينة بسطن.

ذلك أحد الناقدين فقال : « مما يؤسف له أشد الأسف أن يكون هذا الفن القدسي من اختراع امرأة »[٦٤]

ولم يبق شيء من الصور التي رسمت في عهد أسرة چو . لكن الذي لاشك فيه أن الفن في عهد هذه الأسرة كان قد تقادم عهده ، ويدلنا على ذلك تقرير كتبه كنفوشيوس يقول فيه إنه : أعجب أشد الإعجاب بالمظلمات التي رآها في الهيكل العظيم المقام في لو — يانج[٦٥] .

أما في أيام أسرة هان فحسبنا دليلا على انتشار التصوير أن كاتباً من الكتاب قد شكا من أن بطلا يعجب به لم يُرسم له عدد كاف من الصور فقال : « إن الفنانين كثيرون فلم إذن لا يصوره أحد منهم ؟[٦٦] » ومن القصص التي تروى عن واحد من مهرة الفنانين في عهد الإمبراطور لي — يه — إي الأول أنه كان في استطاعته أن يرسم خطاً مستقيما لا ميل فيه طوله ألف قدم ؛ وأن يرسم خريطة مفصلة للصين على سطح لا يزيد على بوصة مربعة ، وأن في مقدوره أن يملأ فاه ماء ملوناً ثم يبصقه فيكون صورة ، وأن الصور التي كان يرسمها للعنقاء قد بلغت من الإتقان حداً جعل الناس إذا نظروا إليها يتساءلون قائلين لم لا تطير من أمامهم[٦٧] . ولدينا ما يشير إلى أن فن التصوير الصيني بلغ إحدى درجاته القصوى من الكمال في بداية التاريخ الميلادي ، ولكن الحروب محت كل دليل قاطع على هذا . ولقد تناوبت على الصين غلبة الفن والحرب في نزاعهما الأيدي القديم ، منذ العهد الذي نهب فيه لويانج المحاربون من إقليم تشين (حوالي عام ٢٤٩ ق . م) وأخذوا يحرقون كل ما لم يستطيعوا الانتفاع به ، إلى أيام ثورة الملاكمين (١٩٠٠ م) حين كان جنود تونج چو يستخدمون الصور المرسومة على الحرير في المجموعة الإمبراطورية لحزم ما يريدون حزمه من الأمتعة . فكانت روائع الفن يحل بها الدمار ولكن الفنانين لم يكونوا يتوانون عن الخلق والابتداع .

ولقد أحدثت البوذية انقلاباً فى شئون الدين والفن فى بلاد الصين لا يقل فى عمقه ومداه عن الانقلاب الذى أحدثته المسيحية فى ثقافة البحر المتوسط وفنونه . نعم إن الكنفوشية احتفظت بسلطانها السياسى فى البلاد ، ولكن البوذية امتزجت بالدوية وأصبحت السلطة المهيمنة على الفن ، وأنشأت بين الصينيين وبين البواعث والرموز والأساليب والأنماط الهندية صلات ذات أثر قوى .

وكان أعظم العباقرة من رجال مدرسة التصوير الصينية البوذية جوو — كاى — چيه ، وهو رجل بلغ من قوة شخصيته وصفاته الفذة أن اجتمعت حوله أقاصيص وأساطير كثيرة . منها أنه أحب فتاة تسكن منزلا يجاور منزله ، فلما عرض عليها أن تتزوج به أبت لجهلها بما كانت تخبئه له الأيام من شهرة عظيمة ، فما كان منه إلا أن رسم صورة لها على أحد الجدران وأنفذ شوكة فى قلبها ، فأشرفت الفتاة على الموت . ثم تقدم إليها مرة أخرى فرضيت به ، فرفع الشوكة عن صورتها فشفيت الفتاة من مرضها . ولما أراد البوذيون أن يجمعوا المال لتشييد هيكل فى نانكنج وعد أن يمدهم بمليون كاش(*) ، وسخرت الصين كلها من هذا الوعد ، لأن چوو قد بلغ من الفقر ما يبلغه الفنان .

فقال لهم : « اسمحوا لى أن أستخدم أحد الجدران » ، فلما وجد الجدار واستطاع أن ينفرد بنفسه عنده رسم عليه صورة القديس البوذى أو إيمالا — كيرتى . ولما أتم الصورة دعا الكهنة ، وأخذ يصف لهم طريقة جمع المال المطلوب فقال : « عليكم أن تطلبوا فى اليوم الأول مائة ألف كاش » ممن يريد أن يدخل ليرى الصورة ، « وأن تطلبوا فى اليوم الثانى خمسين ألفاً . أما فى اليوم الثالث فدعوا الزائرين أحراراً يتبرعون بما يشاءون » . ففعلوا ما أمرهم به وجمعوا بهذه الطريقة مليون « كاش »[٦٩] . ورسم جوو سلسلة طويلة من الصور البوذية كما رسم صوراً

(*) عملة صينية صغيرة قيمتها نحو ½ مليم . (المترجم)

أخرى غير بوذية . ولكننا لم يصلنا شيء من رسومه الموثوق بنسبتها إليه(*) . وكتب ثلاث رسائل فى التصوير بقيت بعض أجزائها إلى اليوم . ومن أقواله : إن أصعب التصوير تصوير الرجال ، ويلى الرجال فى الصعوبة تصوير المناظر الطبيعية ثم تأتى بعدها الخيل والآلهة(٧٢) . وكان يصر على أنه فنان وفيلسوف معاً . ولما رسم صورة للإمبراطور كتب تحتها : « ليس فى الطبيعة شيء عال لاينحط بعد قليل ... فالشمس إذا بلغت كبد السماء أخذت فى الانحدار ، والقمر إذا كمل وصار بدراً بدأ يتناقص . وتسنم المجد لا يقل صعوبة عن بناء جبل من حبات التراب ؛ أما التردى فى الهلاك فسهل كانسياب اللولب المشدود »(٧٣)(**) ، وكان معاصروه يعدونه أعظم رجال زمانه فى ثلاث نواح : فى التصوير وفى الفكاهة وفى البلاهة(٧٤) .

وازدهر التصوير فى بلاط الأباطرة من أسرة تانج ، ومن الأقوال المؤيدة لهذا قول دوفو : « إن المصورين ليبلغون من الكثرة عدد نجوم الصباح ، ولكن الفنانين منهم قليلون »(٧٥) .

وكتب جانج ين — يوان فى القرن التاسع عشر كتاباً سماه : **عظماء المصورين فى جميع العصور** وصف فيه أعمال ثلثمائة وسبعين فناناً ، ويقول فيه : إن الصورة التى يرسمها أحد أساتذة التصوير كانت تدرّ عليه وقتئذ نحو عشرين ألف أوقية من الفضة ، ولكنه يحذرنا فيما بعد من أن نقدر الفن بالمال ويقول : « إن الصور الجميلة أعظم قيمة من الذهب واليشب ، أما الصور الرديئة فلا تساوى الواحدة منها شقفة » .

(*) ويعزو له سدنة المتحف البريطانى ملفاً جميلا وإن يكن حائل اللون عليه خمسة رسوم تصور حياة نموذجية لأسرة من الأمراء(٧٠) ، ويحوى هيكل كنفوشيوس فى تشوفو نقشاً على حجر يقول ناقشه إنه حذا فيه حذو جوو . ويحوى معرض فرير Freer فى واشنجتن ؛ ··ن من كتابات تعزى إليه(٧١) .

(**) اقرأ هذا المعنى نفسه فى مقام بيكن « فى المنصب الرفيع » أو ترجمة هذا المقال فى الجزء الثانى من مقالات مختارة من اللغة الإنجليزية . (المترجم)

ولا نزال نعرف من المصورين فى عهد أسرة تانج أسماء مائتين وعشرين ، أما أعمالهم فلا يكاد يبقى منها شىء ، لأن ثوار التتار الذين نهبوا شانج — آن فى عام ٧٥٦ لم يكونوا يعنون بهذا الفن ؛ وفى وسعنا أن نلمح الجو الفنى الذى كان يمتزج بشعر ذلك الوقت فى قصة هان يو « أمير الأدب » الذائع الصيت .

وخلاصة هذه القصة أن هذا الأمير كسب من زميل له يقيم معه فى نزل رقعة صغيرة اشتملت فى أصغر مساحة مستطاعة على ثلاث وعشرين ومائة صورة من صور الآدميين ، وثلاث وثمانين من صور الجياد ، وثلاثين من صور الحيوانات الأخرى ، وصور لثلاث عربات ، وإحدى وخمسين ومائتى صورة لأشياء أخرى ويقول هو عنها : « لقد فكرت كثيراً فى أمر هذه الصورة لأنى لم أكن أصدق أنها من عمل رجل واحد ، فقد جمعت عدداً من المزايا المختلفة الأنواع ، ولم يكن فى وسعى أن أتخلى عنها مهما عرض علىّ من المال ثمناً لها . وفى العام الثانى غادرت المدينة وسافرت إلى هو — يانج ، وحدث أن كنت فى أحد الأيام أتحدث عن الفن إلى بعض الغرباء ، وأخرجت لهم الصورة ليروها ؛ وكان من بينها رجل يدعى چَوْ ، يشغل وظيفة رقيب(*) وكان ذا ثقافة عالية ؛ فلما وقعت عينه على الصورة دهش أيما دهشة لرؤيتها ثم قال بعد تفكير طويل : « إن هذه الصورة من عمل يدى رسمتها فى أيام شبابى ، وهى منقولة عن صورة فى معرض الفن الإمبراطورى ، ولقد فقدتها منذ عشرين عاما ، وأنا مسافر فى مقاطعة فوفين » ، فما كان من هان يو إلا أن أهدى الصورة الصغيرة إلى چَوْ .

ولقد نشأت فى فن التصوير الصينى مدرستان مختلفتان إحداهما فى الشمال والثانية فى الجنوب ، كما نشأت فى الديانة الصينية مدرستان هى المدرسة الكنفوشية والمدرسة الدَّوِّية — البوذية وكما نشأت فى الفلسفة مدرستان إحداهما بزعامة چوشى والثانية بزعامة وانج يانج منج ، تمثل الأولى ما يطلق عليه الغربيون العقلية

(*) انظر واجبات الرقيب فى الفصل السادس من الباب الحادى والعشرين .

الإتباعية ، وتمثل الثانية العقلية الابتداعية ، فكان الفنانون الشماليون يتمسكون بالتقاليد الصارمة ويتقدمون فى رسومهم بقيود العفة والوقار ؛ أما أهل الجنوب فكانوا يعنون فى تصويرهم بإبراز المشاعر والخيال . وعنيت المدرسة الشمالية أشد عناية بإبراز نماذج صحيحة متقنة من الأشكال التى تصورها وجعلها واضحة الخطوط والمعالم ، أما المدرسة الجنوبية فقد ثارت كما ثار منتمارتر Montmarter على هذه القيود، فكانت تحتقر هذه الواقعية البسيطة ولا تستخدم الأشياء إلا عناصر فى تجارب روحية ، أو نغمات فى مزاج موسيقى[٧٧] . ولقد وجد لى سو — شون وهو يصور فى بلاط منج هوانج بين زعازع السلطة السياسية وعُزلة النفى ما يكفى من الوقت لتوطيد دعائم المدرسة الشمالية . وصور هو نفسه بعض المناظر الصينية الطبيعية وبلغ فيها درجة من الواقعية تناقلتها فيما بعد كثير من الأقاصيص . من ذلك قول الإمبراطور إنه يستطيع أن يستمع فى الليل إلى خرير الماء الذى صوره لى على شاشة فى قصره ، وإن سمكة فى صورة أخرى له دبت فيها الحياة ووجدت بعد فى بركة — وليس لنا أن نلوم الصينيين على هذه الأقوال ، فإن لكل أمة أقوالا مثلها فى مدح مصوريها .

ونشأت المدرسة الجنوبية مما أدخل على الفن من تجديد ومن عبقرية وانج واى ، فلم يكن المنظر الطبيعى فى طرازه التأثيرى من طرز الفن أكثر من رمز لمزاج معين ، وكان وانج شاعراً ومصوراً معاً ، ولذلك عمل على ربط الفنين بعضهما ببعض ، وذلك بجعل الصورة تعبر عن قصيدة . وفيه قال الناس لأول مرة العبارة التى طالما لاكتها الألسن حتى ابتذلت ، والتى تنطبق كل الانطباق على الشعر والتصوير الصينيين كليهما وهى : « كل قصيدة صورة وكل صورة قصيدة » (وكان يحدث فى كثير من الأحيان أن تنقش القصيدة على الصورة وأن تكون القصيدة نفسها مخطوطاً فنياً جميلا) . ويروى المؤرخون أن تونج جى —

جانج قضى حياته كلها يبحث عن صورة أصلية من عمل وانج ويه(*) (٧٨) .

وأعظم المصورين فى عهد أسرة تانج ، وأعظم المصورين فى الشرق الأقصى كله بإجماع الآراء ، رجل علا فوق فروق مدرستى التصوير السالفتى الذكر ، وكان من الذين حافظوا على التقاليد البوذية فى الفن الصينى ، واسم هذا المصور وو دَوْ – دزه ؛ ولقد كان فى الحق خليقاً باسمه فإن معنى هذا الاسم هو وأستاذ الدو أو الطريقة ، ذلك أن جميع التأثرات والأفكار المجردة التى وجدها لو دزه وچوانج دزه أدق من أن تعبر عنها الألفاظ ، وقد بدت وكأنها تنساب انسياباً طبيعياً فى صورة خطوط وألوان يجرى بها قلمه ، ويصفه أحد المؤرخين الصينيين بقوله : « إنه كان شخصاً معدماً يتيماً ، ولكنه وهب فطرة إلهية ، فلم يكد يلبس قلنسوة البلوغ حتى كان من أساتذة الفن ، وحتى غمر لو – يانج بأعماله » . وتقول الروايات الصينية إنه كان مغرماً بالخمر وبأعمال القوة ، وإنه كان يعتقد – كما يعتقد الشاعر الإنجليزى بو Poe – أن الروح تخرج أحسن ثمارها تحت تأثير قليل من السكر (٨١) . وقد برز فى كل موضوع صوره ؛ فى الرجال والأرباب والشياطين ، وفى تصوير بوذا بأشكال مختلفة ، وفى رسم الطيور والوحوش والمبانى والمناظر الطبيعية – وكانت كلها تأتيه طائعة لفنه الخصيب ؛ وبرع فى الرسم على الحرير والورق والجدران الحديثة الطلاء فكانت هذه كلها عنده سواء . وقد أنشأ ثلثمائة مظلم لاهيا كل البوذية منها مظلم يحتوى على صورة ألف شخص لا تقل شهرته فى الصين عن شهرة « يوم الحساب » أو صورة « العشاء الأخير » فى أوربا . وكانت ثلاث وتسعون صورة من صوره فى معرض الصور الإمبراطورى فى القرن الثانى عشر بعد أربعمائة سنة من وفاته ، ولكنها لم يبق منها شىء فى مكان ما فى الوقت الحاضر . ويحدثنا الرواة أن الصور التى رسمها لبوذا « قد كشفت عن أسرار الحياة

(*) لم يبق إلا صور منسوخة منها : أهمها « مسقط ماء » محفوظة الآن فى معبد شاكوين فى كيوتو (٧٩) وملف (فى كل من المتحف البريطانى ومتحف فرير) كتب عليه : « منظر وانج جوان » (٨٠) .

والموت » وقد بلغ من تأثير صوره التى تمثل الحشر أن ارتاع من رؤيتها بعض القصابين والسماكين فنبذوا حرفتيهم المشينتين غير البوذيتين .

ولما رسم صورة تمثل رؤيى منج هوانج أيقن الإمبراطور أن وو قد رأى هو أيضاً رؤيى مثلها[٨٣] . ولما أرسل الملك وو ليرسم منظراً على ضفة نهر چيالنج فى ولاية سشوان هاله أن يعود الفنان دون أن يرسم خطاً واحداً ، فقال له وو : « لقد وعيته كله فى قلبى » ، ثم انفرد بنفسه فى حجرة من حجر القصر وأخرج ، كما يؤكد لنا المؤرخون ، مناظر تمثل ألف ميل (*) . ولما أراد القائد باى أن ترسم له صورة طلب إليه وو ألا يقف أمامه ليرسمه ، بل أن يلعب بالسيف ، فلما فعل أخرج المصور له صورة لم يسع معاصريه إلا أن يقولوا إنها قد أوحى إليه بها ولم تكن من عنده . وقد بلغ من شهرته أن أقبلت « شانج — آن » على بكرة أبيها لتشاهده وهو يختتم رسم بعض الصور البوذية فى هيكل شنج شان . ويقول مؤرخ صينى من مؤرخى القرن التاسع إنه لما أحاط به هذا الجمع الحاشد « رسم الهالات بسرعة عجيبة عنيفة بدا للناس معها كأن يده يحركها إعصار ، وصاح كل من رآه أن إلهاً من الآلهة كان يساعده »[٨٥] : ذلك أن الكسالى لا يفتئون يعزون العبقرية « لوحى » يوحى لمن ينتظر هذا الإيحاء .

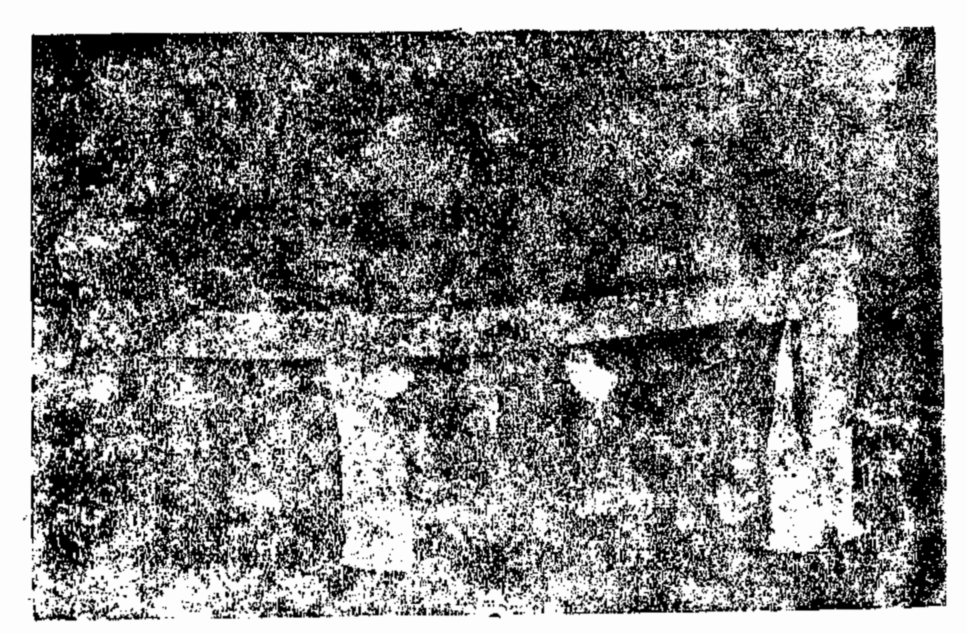
وتقول إحدى القصص الطريفة إنه لما طال الأجل بوو رسم منظراً طبيعياً كبيراً ، ودخل فى فم كهف مصور فى هذا المنظر ، ولم يره أحد بعد دخوله فيه[٨٦] .

ولا جدال فى أن الفن لم يصل قط إلى ما أوصله إليه هو من إتقان وإبداع .

وأصبح الفن فى عهد أسرة سونج شهوة عارمة عند الصينيين ، ذلك أنه بعد أن تحرر من سيطرة الموضوعات البوذية عليه غمر البلاد بما لا يحصى من الصور المختلفة ، ولم يكن الإمبراطور هواى دزونج نفسه أقل الثمانمائة الرسامين المشهورين فى أيامه .

(*) اقرأ رأى كروسى القائل بأن الفن هو الفكرة نفسها لا طريقة إخراجها[٨٤] .

ومن الكنوز المحفوظة بمتحف الآثار الجميلة ببسطن ملف صَوَّر فيه هذا الإمبراطور فى بساطة عجيبة ووضوح أعجب المراحلَ المختلفة التى تسير فيها عملية إعداد الحرير على يد النساء الصينيات[٨٧] . ومن أعماله أنه أنشأ متحفاً للفن جمع فيه أكبر مجموعة من الروائع الفنية عرفتها الصين من بعده[٨٨] ؛ وأنه رفع المجمع الفنى من فرع تابع للكلية الأدبية لا غير إلى معهد مستقل من الدرجة الأولى ، واستبدل الاختبار فى الفن ببعض الاختبارات الأدبية التى جرت العادة بأن يمتحن فيها طلاب المناصب السياسية ، ورفع رجالا إلى مناصب الوزراء لأنهم برعوا فى الفن بقدر ما رفع إليها غيرهم لأنهم برعوا فى السياسة[٨٩] . وسمع التتار بهذا كله فغزوا الصين وأنزلوا الإمبراطور عن عرشه ، ونهبوا المدينة وعاثوا فيها فساداً ، ودمروا كل الصور المحفوظة فى المتحف الإمبراطورى إلا القليل ، وكانت سجلات هذه الصور تملأ عشرين مجلداً[٩٠] . وساق الغزاة الإمبراطور الفنان أمامهم ومات فى ذل الأسر .



شكل ٧ — صناعة الحرير من تصوير الإمبراطور هواى دزو
فى متحف الفن الجميل بمدينة بسطن

وكان أجل من هذا الإمبراطور الفنان شأناً رجلان من غير الأسر المالكة هما جووشى ، ولى لونج — مين . «ويقول الناقدون والفنانون إن جووشى بز جميع معاصريه فى تصوير أشجار الصنوبر الباسقة ، والدوحات الضخمة، والمياه الدوامة ، والصخور النائتة ، والجروف الوعرة ، وقلل الجبال السامقة التى لا يحصى عديدها»(٩١)(*) . وكان لى لونج — مين فناناً وعالماً وموظفاً ناجحاً ورجلا سميذعا(**) يجله الصينيون ويرون فيه مثلا أعلى لما يجب أن يكون عليه الصينى المثقف . وقد بدأ أولا بالخط ثم انتقل منه إلى الرسم بالخطوط ثم بالألوان ، وقلما كان يستخدم فى هذا كله شيئاً غير المداد ؛ وكان يفخر بمحافظته الشديدة على تقاليد المدرسة الشمالية، ويبذل جهوده كلها فى ضبط الخطوط ودقتها . وقد برع فى رسم الخيل براعة بلغ منها أن اتهمه الناس حين ماتت ستة منها بأن الصورة التى رسمها لها قد سلبتها أرواحها ، وأن حذره كاهن بوذى من أنه سيصبح هو نفسه جواداً إذا دأب على العناية برسم الجياد بدقته المعهودة ، فما كان منه إلا أن قبل نصيحة الكاهن وصور خمسمائة لوهان(†) . وفى وسعنا أن ندرك شهرته إذا عرفنا أن معرض هواى دزونج الإمبراطورى حين نُهب كان يحتوى على مائة صورة وسبع صور من عمل لى لونج — مين وحده .

ونبغ فى عهد أسرة سونج عدد كبير من أساتذة الفن ، نذكر منهم مى فاى وهو عبقرى غريب الأطوار ، كان لا يُرى إلا هو يغسل يديه أو يغير ملابسه إذا لم يكن يشتغل بجمع أعمال رجال الفن القدماء ، أو يرسم صوراً لمناظر طبيعية

(*) فى معرض فرير الفنى بواشنجتن « منظر على المرتفعات — هو » يعزى إلى جو — شى وإن كان هذا مشكوكا فيه(٩٢) .

(**) السَّميْذع أو السميدع . السيد الكريم الشريف السخى الموطأ الأكناف والشجاع ، وقد اخترنا هذا اللفظ لترجمة كلمة Gentleman

(†) اللوهان هو الذى وصل إلى النرفانا أى الذى سمت نفسه إلى أرقى المراتب الروحية

« بطريقة التنقيط » أى بنقط من المداد يضعها دون أن يستعين بالخطوط الخارجية(*) . ومنهم أيضاً شيه جواى وقد رسم ملفاً طويلا يحتوى على مناظر متفرقة لنهر يانج ــ دزه(**) من منابعه الصغيرة ، ومجراه ، مخترقا اللويس والخوانق إلى مصبه الواسع الغاص بالسفن التجارية وبالقوارب الصغيرة (السمبان) ؛ وهذا الملف قد جعل بعض الفنانين[٩٣] يضعون صاحبه على رأس مصورى المناظر الطبيعية فى الشرق والغرب على السواء . ومن مشهورى المصورين فى هذا العهد مايوان : ويزدان متحف الفن الجيل فى بُسْطُنْ بمناظر طبيعية أنيقة ، ومناظر مصورة عن



شكل ٨ – منظر طبيعى ، جسر وصفصاف من تصوير مايوان فى القرن الثانى عشر محفوظ فى متحف الفن الجميل ببسطن

(*) فى الحجرة رقم ١١ فى المتحف الفنى بنيورك منظر طبيعى يقال إنه من تصوير « مى فاى » .

(**) Yang-tze وهو النهر الذى ينطق اسمه أحياناً يانج – تسى أويانج – تسى – كيانج

بعد[*]. ومنهم ليانج كاى الذى رسم صورة نخمة للشاعر الصينى لى پو ، وموتشى صاحب صورة النمر الرهيب ، والزرزور ، وصورة كوان ين الظريف المكتئب ، وفى وسعنا أن نذكر غير هؤلاء كثيرين من المصورين الصينيين الذين لم يألف الغرب سماع أسمائهم أو يعيها إذا سمعها لغرابتها ، ولكنهم فى واقع الأمر نماذج من تراث الشرق العقلى العظيم . وما أصدق ما قاله عنهم فنلوزا Fenollosa : « لقد كانت ثقافة أسرة سونج أنضج تعبير عن العبقرية الصينية »[٩٥] .

وإذا شئنا أن نقدر فن التصوير الصينى فى أيام مجد أسرتى تانج وسونج ، كنا كمن يحاولون من مؤرخى المستقبل أن يكتبوا عن عصر النهضة الإيطالية بعد أن فقدت جميع أعمال رفائيل وليوناردو دافنشى وميكل أنجلو . ويبدو أن فن التصوير الصينى قد كسر فى ذرعه وهد ركنه ما توالى عليه من غارات جحافل البرابرة الذين دمروا روائعه وعاقوا تقدمه قروناً عدة . ومع أنه قد نبغ فى عهد الأسر التى تربعت على عرش الصين بعد أسرتى تانج وسونج ، الصينية منها والأجنبية ، فنانون لهم رسوم بلغت مستوى عظيما من الظرف أو القوة ، فليس من هؤلاء الفنانين من يرقى إلى مستوى أولئك الرجال الذين عاشوا فى جنان بلاط منج هوانج أو هواى دزونج وخليق بنا إذا فكرنا فى الصينيين ألا نفكر فيهم على أنهم مجرد شعب سلطت عليه الفاقة ، وأضعفه فساد الحكم ، وفرقته التحزبات والانقسامات السياسية ، وأذلته الهزائم الحربية ، بل يجب أن نفكر فيهم أيضاً على أنهم أمة شهدت فى تاريخها الطويل عصوراً لا تقل فى مجدها عن عصور بركليز وأغسطس وآل ميديشى ، وأنها قد تشهد عصوراً أخرى مثلها فى مستقبل الأيام .

(*) ومن أروع الصور صورة « السيدة لنج — چاو واقفة بين الثلوج » . والصورة تمثل السيدة (وهى صوفية بوذية من نساء القرن الثامن) ساكنة غارقة فى التفكير كأنها سقراط واقف وسط الثلوج فى پلاتية . ويخيل إلينا أن الفنان يقول « إن العالم لا وجود له إلا إذا أدرك العقل وجوده ، وإن فى وسع العقل أن يتجاهله إلى حين » .

٢ — خصائص فن التصوير الصينى

نبذ فن المنظور – الواقعية – الخط أسمى من اللون –
الشكل إيقاع – التصوير بالإيحاء – العرف والقيود
أمانة الفن الصينى وإخلاصه

ترى ما هى الخصائص التى تميز فن التصوير الصينى فتجعله يختلف كل الاختلاف عما أنتجته أية مدرسة أخرى من مدارس التصوير فى التاريخ كله عدا تلاميذه فى اليابان ؟ إن أول ما نذكره من هذه الخصائص أن الصور الصينية ترسم على ملفات أو شاشات كبيرة ، ولكن هذه مسألة تتعلق بالشكل الخارجى ، وأهم منها وأعمق وأكثر صلة بالصفات الذاتية احتقار الصينيين للمنظور والظلال . فلما أن قبل مصوران أوربيان دعوة وجهها إليهم الإمبراطور كانج شى ليزينوا له قصوره رفض الإمبراطور ما عرضوه عليه من زينات لأنهم رسموا العمد البعيدة فى صورهم أقصر من القريبة . وقال لهم الصينيون فى هذا أن لاشىء يمكن أن يكون أكذب وأبعد عن الطبيعة من تمثيل المسافات حيث لاتوجد مسافات مطلقاً(٩٦) . ولم تستطع إحدى الفئتين أن تفهم آراء الأخرى ومبادئها لأن الأوربيين اعتادوا أن ينظروا إليه من أعلاه(٩٧) . وكذلك كان يخيل إلى الصينيين أن الظلال لا محل لها فى نمط من أنماط الفن لا يهدف فى زعمهم إلى محاكاة الحقيقة بل يهدف إلى إدخال السرور على النفس ، وتمثيل الأمزجة ، والإيحاء بالأفكار عن طريق الأشكال التامة الكاملة .

وكان الشكل كل شىء فى هذه الصور ، ولم تكن السبيل إلى إجادته غزارة اللون أو بهجته ، بل كانت فى انسجامه ودقة خطوطه . وكانت الألوان محرمة تحريماً باتاً فى الرسوم الأولى ، وظلت نادرة فى رسوم أساتذة الفن ؛ فقد كان هؤلاء يكتفون بالمداد والفرشاة ؛ ذلك أن اللون لم يكن فى رأيهم ذا صلة ما

بالشكل ، بل كان الشكل على حد قول شياه — هو هو الانسجام؛ وأول معانى الانسجام عند الصينيين هو أن يكون الرسم الصينى السجل المرئى لحركة منسجمة أو رقصة تمثلها اليد[٩٨] ؛ ومعناه كذلك أن الشكل البديع يكشف عن «انسجام الروح» وعن جوهر الحقيقة وحركتها المادئة[٩٩]. ومظهر الانسجام فى آخر الأمر هو الخط — غير مستخدم فى بيان حدود الأشياء ومحيطها الخارجى ، بل مستخدم فى بناء الأشكال التى تعبر عن النفس بطريق الإيحاء أو الرمز . وتكاد دقة الخطوط وجمالها يكونان وحدهما فى فن التصوير الصينى السبب الوحيد فى براعة التنفيذ المستقلة عن قوة الإدراك والشعور والخيال . ومن أجل هذا كان من واجب المصور أن يلاحظ ما يريد تصويره بصبر وعناية ، وأن يكون ذا شعور قوى مرهف ، وأن يضبط أحاسيسه أدق الضبط وأحكمه ، وأن يتبين غرضه واضحاً ، ثم ينقل بعد هذا على الحرير ما تمثله فى خياله ، نقلا لا يترك فيه مجالا للإصلاح أو التعديل ، وذلك بعدد قليل من الضربات المتواصلة السهلة . وقد وصل فن التصوير بالخطوط ذروة مجده فى الصين واليابان ، كما اقترب فن التلوين من ذروة مجده فى البندقية وفى الأراضى الوطيئة .

ولم يعن فن التصوير الصينى بالواقعية فى يوم من الأيام ، بل كان يهدف إلى الإيحاء أكثر مما يهدف إلى الوصف . أما « الحقيقة » فقد تركها للعلم ووهب نفسه للجمال . ولقد كان هذا النوع من التصوير فرعا لم ينبت فى غير بلاد الصين ، ثم ترعرع وازدهر بعض الازدهار تحت سماء صافية ، فأصبح كافيا لأن يستهوى نفوس أعظم أساتذة الفن ويملك عليهم تفكيرهم ، وأن يكون تناولهم لرقعة التصوير الفارغة وتقسيمها تقسيما يتناسب مع ما يريدون تصويره ، أن يكون هذا وذاك محكا تختبر به قدرتهم ومهارتهم . ومن الموضوعات التى كانت تعرض على طالبى الالتحاق بمجمع هواى دزونج للتصوير موضوع يوضح لنا مقدار توكيد الصينيين للإيحاء غير المباشر وعنايتهم به لا بالتصوير الصريح . ذلك أن المتسابقين

كان يعرض عليهم أن يشرحوا بالرسم بيتاً من أبيات الشعر هو . « وعاد حافر جواده مثقلا بعبير ما وطئه من الأزهار » . وكان المتسابق الذى أحرز قصب السبق فى هـذا المضمار فناناً رسم صورة فارس ومن حول كعوب جواده سرب من الفراش .

ولما كان الشكل كل شىء فإن من الممكن أن يكون للموضوع أى شىء . وقلما كان الرجال مركز الصورة أو جوهرها ؛ وإذا ما ظهروا فيها كانوا فى كل الأحوال تقريباً شيوخاً وكانوا كلهم متقاربين فى الشبه . وقلما كان المصور الصينى ينظر إلى العالم بعينى الشاب وإن لم يكن قط واضح التشاؤم فى تصويره ولقد رسم المصورون صوراً لبعض الأفراد ولكنها كلها صور لم تبلغ ما بلغه غيرها من الجودة والإتقان ؛ ذلك أن الفنان الصينى لم يكن يعنى بالأفراد ، وما من شك فى أنه كان يحب الأزهار والحيوانات أكثر مما يحب الرجال ، ولذلك أطلق لنفسه العنان فى تصويرها ؛ فترى هواى — دزونج وهو الذى كانت تأتمر بأمره إمبراطورية متسعة الأرجاء يهب نصف حياته لتصوير الطيور والأزهار . وكانت الأزهار والحيوانات كالأزورد والتنين تتخذ رموزاً غير مقصودة لذاتها فى بعض الأحيان ؛ لكنها فى الأغلب الأعم كانت ترسم لأن سر الحياة وسحرها يتمثلان فيها كاملين كما يتمثلان فى الإنسان نفسه ، وكان الحصان محبباً للفنانين الصينيين بنوع خاص ، ومن أجل هذا ترى فنانين كباراً مثل هان كان لا يكادون يعملون شيئاً غير رسم شكل فى إثر شكل لهذا المخلوق الذى هو جسم حى للتخطيط الفنى .

ولسنا ننكر أن التصوير فى الصين قد لاق الأمرين من جراء التقاليد الدينية أولا ومن القيود التى وضعها العلماء بعدئذ ، وأن تقليد الأساتذة القدامى والنسج على منوالهم كانا من العوامل المعوقة فى تدريب طلاب الفن ، وأن الفنان كان فى كثير من الأحوال يتقيد بعدد محدود من المسائل لا يسمح له أن يلجأ إلى

غيرها فى تشكيل مادته[١٠٠] . وفى وسع القارئ أن يدرك قوة العرف والتقاليد من قول أحد كبار النقاد الفنيين فى عهد آل سونج : « لقد كنت فى أيام شبابى أثنى على الأستاذ الذى أحب صوره ؛ فلما أن نضج عقلى أصبحت أثنى على نفسى لأنى أحببت ما اختاره الأساتذة لى لكى أحبه »[١٠١] ، وأنا ليدهشنا ما بقى فى هذا الفن من حيوية بالرغم من قيود العرف والقواعد التى وضعت له . وفى وسعنا أن نقول فى هؤلاء ما قاله هيوم عن كتاب عهد الاستنارة وهم الذين علا شأنهم رغم الرقابة المفروضة عليهم : « إن القيود التى عانى الفنانون ما عانوه منها قد أرغمتهم هى نفسها على أن يكونوا عظماء ممتازين » .

وما من شك فى أن الذى أنقذ المصورين الصينيين من وهدة الركود هو إخلاصهم فى إحساسهم بالطبيعة . وقد استمدوا هذا الإحساس من مبادئ الدوية ، وقوتها فى نفوسهم البوذية إذ علمتهم أن الإنسان والطبيعة شىء واحد فى مجرى الحياة وتغيرها ووحدتها . وكما أن الشعراء قد وجدوا فى الطبيعة ملجأ يهرعون إليه من صخب المدن وكفاحها ، وكما أن الفلاسفة كانوا يبحثون فيها عن نماذج للأخلاق وهادياً للحياة ، كذلك كان المصورون يطيلون التأمل بجوار المجارى المائية المنعزلة ويوغلون فى شعاب الجبال الشجراء ، لأنهم يشعرون أن الروح الأعلى الذى لا يعرفون له اسماً قد عبر عن نفسه فى هذه الأشياء الصامتة الخالدة تعبيراً أوضح مما عبر عنها فى حياة الناس وأفكارهم المضطربة المائجة[*] . ولقد اتخذ الصينيون الطبيعية الشديدة القسوة عليهم ، والتى تنفث الموت ببردها وفيضان أنهارها ، اتخذوها إلههم الأعلى ، ورضوا بذلك فى قوة وطمأنينة ، ولم يقبلوا أن يقدموا لها القرابين الدينية ، بل رضوا بأن تكون فوق هذا معبود فلسفتهم

(*) لم يكن تصوير المناظر الطبيعية يسمى فى الصين بأكثر من شأن — روى أى الجبال والمياه .

وأدبهم وفنهم . . وحسبنا شاهداً على قدم عهد الثقافة الصينية وعمقها أن الصينيين قد هاموا بحب الطبيعة قبل أن يهيم بها كلود لورين ، وروسو ، ووردسورث ، وشاتو بريان بألف عام كاملة ؛ وأنهم أنشأوا مدرسة من مصورى المناظر الطبيعية أضحت صورها فى جميع بلاد الشرق الأقصى أسمى ما عبرت به الإنسانية عن مشاعرها .

الفصل الخامس

الخزف الصينى

فن الخزف – صنع الخزف – تاريخه القديم – اللون الأخضر
الحائل – الطلاء بالميناء – براعة هاوشى چيو – تقاسيم
الطلاء – عصر كانج شى – عصر تشين لونج

إذا أخذنا نتحدث عن الفن الذى تمتاز به الصين عن سائر الأمم ، والذى لا يجادل أحد فى أنها هى حاملة لوائه فى العالم كله ، وجدنا فى أنفسنا نزعة قوية إلى اعتبار الخزف صناعة من الصناعات . ولما كانت كلمة « الصينى » إذا وردت على لساننا ارتبطت فى عقولنا بالمطبخ وأدواته . فإننا إذا ذكرنا الفاخورة تمثلنا من فورنا المكان الذى يصنع فيه « الصينى » ، وظننا هذا المكان مصنعاً ككل المصانع لا تثير منتجاته فى النفس روابط عليا سامية . أما الصينيون فقد كانت صناعة الخزف عندهم فناً من الفنون الكبرى ، تبتهج له نفوسهم العملية المولعة مع ذلك بالجمال ، لأنه يجمع بين النفع وبهاء المنظر .

فلقد أمدهم هذا الفن بآنية يستخدمونها فى شرابهم القومى الشهير — شراب الشاى — جميلة فى ملمسها ومنظرها ، وازدانت منازلهم بأشكال بلغت كلها من الجمال حدا تستطيع معه أفقر الأسر أن تعيش فى صحبة نوع من أنواع الكمال ، لقد كان فن الخزف هو فن النحت عند الصينيين .

ولفظ الفخار يطلق أولا على الصناعة التى تحيل الطين بعد حرقه إلى أدوات صالحة للاستعمال المنزل ، ويطلق كذلك على الفن الذى يجمل هذه الأدوات ، وعلى الأدوات التى تنتجها هذه الصناعة ؛ والخزف هو الفخار المزجج أى أنه هو الطين الممزوج بالمعادن والذى إذا عرض للنار ساح واستحال إلى مادة نصف

شفافة شبيهة بالزجاج(*) . وقد صنع الصينيون الخزف من مادتين الـكولين — وهو طين أبيض نقي مكون من فتات الفلسپار والحجر الأعبل (الجرانيت) ، ومن الپي — تن — دزى وهو كوارتز أبيض قابل للانصهار ، هو الذى يكسب الأوانى الخزفية ما فيها من الشفافية . وتسحق هذه المواد كلها وتخلط بالماء فتتكون منها عجينة تشكل باليد أو على عجلة ، ثم تعرض لدرجة حرارة مرتفعة تصهر العجينة وتحيلها إلى مادة زجاجية براقة صلبة . وكان يحدث فى بعض الأحيان ألا يقنع الخزاف بهذا النوع الأبيض البسيط ، فـكان يغطى « العجينة » أى الإناء قبل حرقه بطبقة من مسحوق الزجاج ، ثم يحرق فى أتون . وكان فى بعض الأحيان يضع هذه الطبقة الزجاجية على العجينة بعد حرقها قليلا ثم يعيد حرق الإناء بعدئذ . وكانت الطبقة الزجاجية تلون فى أغلب الأحيان ، ولـكن العجينة كثيراً ما كانت تنقش وتلون قبل أن تضاف إليها المادة الزجاجية الشفافة أو تلون الطبقة الزجاجية بعد حرقها ثم تثبت عليها بحرقها مرة ثانية . أما الميناء فقد كانت تصنع من الزجاج الملون يدق ويسحق ثم يحول إلى مادة سائلة يضعها الرسام على الآنية بفرشاته الرفيعة . وكان من الصينيين إخصائيون قضوا حياتهم فى التدرب على عملهم ؛ تخصص بعضهم فى رسم المناظر الطبيعية ، وغيرهم فى رسم القديسين والحـكماء المنقطعين للتأمل والتفكير بين الجبال ، أو الذين يمتطون ظهور حيوانات غريبة فوق أمواج البحار .

وصناعة الفخار عند الصينيين قديمة العهد قدم العصر الحجرى ، فقد عثر الأستاذ أندرسن على أوانى من الفخار فى هونان وكانسو « لا يمكن أن تكون أحدث عهداً من عام ٣٠٠٠ ق . م »(١٠٣) . وإن ما تتصف به تلك المزهريات

(*) لما أدخلت صناعة الخزف فى أوربا اشتق اسمها من البرسلانا أى صدفة الودع ، ولفظ پرسلانا نفسه مشتق من المشابهة المزعومة التى بين الصدفة وبين ظهر البرسلا أو الخنزير الصغير (١٠٢).

من جمال فائق في الشكل وفي الصقل ليدل دلالة قاطعة على أن هذه الصناعة قد أصبحت فنا من الفنون الجميلة قبل ذلك العهد بزمن طويل . وبعض القطع التي عثر عليها شبيهة بفخار أنو ، وتوحي بأن الحضارة الصينية مأخوذة عن حضارة البلاد الواقعة في غربها . وهنالك قطع من الأواني الفخارية الجنازية كشفت في هونان وتعزى إلى عهد اضمحلال أسرة شانج ولكنها أحط كثيراً من بقايا العصر الحجري الحديث السالفة الذكر .

ولم يعثر المنقبون بعد عصر هذه الأسرة على بقايا من الفخار ذات قيمة فنية قبل أيام أسرة هان ، ففي عهد هذه الأسرة عثروا على فخار وعثروا فوق ذلك على أول إناء من الزجاج عرف في الشرق الأقصى[*] ، وكان انتشار عادة شرب الشاي في عهد أباطرة تانج باعثاً قوياً على تقدم فن الخزف . وقد كشفت العبقرية ، أو المصادفة المحضة ، حوالي القرن التاسع أن من المستطاع صنع إناء مزجج لا من سطحه الخارجي فحسب (كالآنية المصنوعة في عهد أسرة هان وفي حضارات غير حضارة الصين قبل ذلك العهد) ، بل زجاجي كله من أوله إلى آخره — أي من خزف حقيق وقد كتب أحد الرحالة المسلمين المدعو سليمان إلى بني وطنه يقول : « إن في الصين طيناً رقيقاً جميلا يصنعون منه أواني شفافة كالزجاج ، يُرى من جدرانها ما في داخلها من الماء » . وقد كشفت أعمال التنقيب الحديثة في موضع إحدى المدن القديمة عند سر من رأى على نهر دجلة قطعاً من الخزف من صنع الصين . وظهر الخزف بعدئذ في السجلات المدونة خارج بلاد الصين حوالي عام ١١٧١ م حين أهدى صلاح الدين إلى سلطان دمشق إحدى وأربعين قطعة من الخزف[١٠٥]

(*) لقد صنع المصريون الأقدمون فخاراً مزججاً قبل المسيح بقرون عدة لا يمكن تحديدها ، وإن ما على أقدم الفخار الصيني من نقوش ليدل على أن الصين قد أخذت طريقة التزجيج عن بلاد الشرق الأدنى[١٠٤] .

وليس ثمة شاهد على أن صناعة الخزف بدأت فى أوربا قبل عام ١٤٧٠ م ، فقد ذكر فى ذلك العام على أنه فن جميل أخذه البنادقة عن العرب فى اثناء الحروب الصليبية[١٠٦] .

وكان عهد أسرة سونج هو العهد الذى بلغ فيه فن الخزف الصينى ذروة مجده . وخبراء هذا الفن يعزون إلى هذا العهد أقدم ما لدينا من الآنية الصينية وأحسنها ؛ بل إن صناع الخزف فى عهد أسرة منج ، وهم الذين جاءوا بعد هذا العصر ونبغ فيه بعضهم نبوغ فنانيه ، حتى هؤلاء كانوا إذا ذكروا خزف أسرة سونج ذكروه بالإجلال والإكبار ، وكان جامعو العاديات الصينية يحتفظون بما يعثرون عليه من خزف هذه الأسرة ويعدونه من الكنوز التى لا تقوم بمال وأنشئت فى القرن السادس الميلادى مصانع عظيمة فى چنج ده — چن حيث توجد الرواسب الغنية من المعادن التى تستخدم فى صنع الفخار وتلوينه ، واعترف البلاط الإمبراطورى بهذه المصانع رسمياً ، وبدأت تغمر الصين بفيض من الصحاف الخزفية والأقداح والجفان والمزهريات والطاسات والأباريق والقنينات والجرار والصناديق ورقع الشطرنج والمائلات(*) والخرائط . وحتى مشاجب القبعات كانت تصنع من الخزف المطلى بالميناء والمرصع بالذهب[١٠٧] ؛ وظهرت فى ذلك الوقت لأول مرة القطع ذات اللون الأخضر اليشبى(**) المعروفة بالسلادون(†) والتى أصبحت محاكاتها أهم ما يصبو إليه الفخرانى فى الوقت الحاضر ، كما أصبح اقتناؤها أهم ما يصبوا إليه جامع التحف(††) . وقد أرسل سلطان مصر فى عام ١٤٨٧ نماذج منها إلى لورنزو ده

(*) فى القاموس المائلة منارة المسرجة وقد استعرناها (الشمعدان) .

(**) الشبيه بخضرة اليشب .

(†) اسم أطلقه عليها الفرنسيون فى القرن السابع عشر وهو مأخوذ من اسم بطل رواية « الكوكب » L'Astrée تأليف دورفيه . وكان هذا البطل إذا مثلت الرواية يرتدى على الدوام ملابس خضرا[١٠٨] .

(††) وليس أصعب من محاكاتها عند الغربيين إلا اقتناؤها ، ذلك أن اليابانيين —

ميديشى ، وكان الفرس والأتراك يقدرونها لا لنعومة ملمسها وشدة بريقها فحسب ، بل لأنها فوق هذا تكشف عن وجود السم ، فقد كانوا يعتقدون أن تلك الآنية يتغير لونها إذا وضعت فيها مواد مسمومة[١٠٩] . وترى أسر الخبيرين المولعين بهذا الفن يتوارثون هذه القطع جيلا بعد جيل ؛ ويحتفظون بها احتفاظ الناس بأثمن الكنوز[١١٠] .

ولقد ظل الصناع فى عهد أسرة منج نحو ثلثمائة عام يبذلون أقصى ما يستطيعون من جهود ليحتفظوا بفن الخزف فى المستوى الرفيع الذى بلغه فى عهد أسرة سونج ، وليس فى مقدورنا أن نقول إنهم عجزوا عن بلوغ هذه الغاية . وكان فى چنج دَه — چن خمسمائة أتون لحرق الخزف ، وكان البلاط الإمبراطورى وحده يستخدم ٩٦٠٠٠ قطعة خزفية لتزيين حدائق القصور وموائدها وحجراتها[١١١] وظهرت فى أيام هذه الأسرة أول قطع جيدة من الميناء التى حرقت ألوانها بعد تزجيجها . وأتقن إلى أقصى حدود الإتقان صنع اللون الأصفر الواحد ؛ والخزف الأزرق والأبيض الذى يشبه فى رقته قشر البيض ، ولا يزال القدح الأزرق والأبيض المطعم بالفضة والمسمى باسم الإمبراطور واندلى (أو شن دزونج) يعد من آيات فن الخزف فى العالم كله إلى هذه الأيام .

وكان هاوشى — جى من أبرع صناع الخزف وأعظمهم خبرة فى أيام واندلى . وكان فى مقدوره أن يصنع أقداحاً للنبيذ لا يزيد وزن الواحد منها على جزء من ثمانية وأربعين جزءا من الأوقية ، ويروى أحد المؤرخين الصينيين أن هاوشى — جى زار فى يوم من الأيام بيت موظف كبير ، واستأذنه فى أن يفحص بعن وعاء من الخزف ذى ثلاث أرجل عتلكه هذا الكبير ويعد من أثمن ما صنع فى عهد أسرة سونج .

— قد جمعوا معظم قطع السلادون الصينية الذائعة الصيت ، وهم يأبون أن يبيعوها مهما عرض عليهم من الثمن . وقد عجز صانعو الخزف المتأخرون عن مجاراة صناع عهد أسرة سونج فى هذا المضمار .

وأخذ هاو يلمس الإناء بيديه برقة ولطف ، وهو ينقل ما عليه من الرسوم سرا على قطعة من الورق مخبأة فى كمه . ثم عاد لزيارة هذا الموظف بعد ستة أشهر من زيارته الأولى ، وقال له : «إنك يا صاحب السعادة تمتلك مبخرة ذات ثلاث أرجل من الدنج — ياو الأبيض(*) ، وها هى ذى مبخرة مثلها أمتلكها أنا » . وأخذ نانج الموظف الكبير يوازن بين هذه المبخرة ومبخرته ، ولكنه لم يستطع أن يتبين فرقاً ما بينهما . وبلغ من تشابههما أن قاعدة مبخرة الفنان وغطاءها قد واءما مبخرته كل المواءمة . وأقر هاو وهو يبتسم أن مبخرته تقليد لمبخرة العظيم ، ثم باعها نانج بستين قطعة من الفضة ، وباعها هذا بعدئذ بألف وخمسمائة(١١٢) .

وقد بلغت صناعة الخطوط الفاصلة بين الميناء أقصى حد من الإتقان فى عهد أسرة منج . ولم يكن منشأ هذا الفن فى بلاد الصين بل جاء إليها من بلاد الشرق الأدنى فى أيام الدولة البيزنطية ، وكان الصينيون يسمون مصنوعات هذا الفن فى بعض الأحيان جوى جود ياو ، أى آنية بلاد الشياطين(١١٣) . وهذا الفن يتكون من قطع شرائح من النحاس أو الفضة أو الذهب ، وتثبيتها على حدها فوق خطوط شكل رُسِم من قبل على جسم معدنى ، ثم ملء ما بين هذه الفوارق من فراغ بميناء من اللون المطلوب الملائم لها ، ثم تعريض الإناء بعدئذ للنار عدة مرات وذلك السطح الصلب بقطعة من حجر الخفاف وصقله بقطعة من فحم الخشب ، ثم تزليق أطراف الحواجز المعدنية الظاهرة . وأقدم ما عرف من منتجات هذا الفن فى الصين مرايا استوردتها نارا فى اليابان فى منتصف القرن الثامن عشر . وأقدم الأوانى المحددة التاريخ ترجع إلى أواخر العهد المغولى أو إلى أيام أسرة يوان ، وأحسنها كلها ما صنع فى أيام الإمبراطور چنج دى

(*) وهو الاسم الذى كان الصينيون يطلقونه على نوع من الخزف فى لون العاج كان يصنع فى عهد أسرة سونج .

من أباطرة المنشو العظماء فى القرن الثامن عشر الميلادى .

ودمرت المصانع التى كانت قائمة فى عهد أسرة چنج ده — چين فى أثناء الحروب التى قضت على أسرة منج ، ولم تعد إلى سابق عهدها إلا بعد أن جلس على العرش إمبراطور من أعظم أباطرة الصين استنارة وهو الإمبراطور كانج — شى ، وكان ملكا أصيلا جمع كل صفات الملوك كما جمعها معاصره لويس الرابع عشر . وقد أمر هذا الملك بإعادة بناء مصانع چنج ده — چين ، وسرعان ما أوقدت النار فى ثلاثة آلاف مصنع أخذت تعمل عملها المتواصل ، فأخرجت خزفا جميلا ظريفاً بلغ من الكثرة درجة لم تر الصين ولا غيرها من البلاد مثيلا لها من قبل . وكان صناع كانج شى يظنون أن آنيتهم أقل جودة مما صنع فى عهد أسرة منج ، ولكن الخبيرين بأصول الفن فى هذه الأيام لا يوافقونهم على رأيهم ، بل يرون أن الأشكال القديمة قد قلدت تقليداً بلغ أقصى درجات الكمال ، وأن أشكالا جديدة كثيرة العدد مختلفة الأنواع قد ابتكرت وارتقت رقيا عظيما .

وكان فى مقدور الفنانين فى عهد أباطرة المنشو أن يغطوا عجينة الخزف بطبقة زجاجية تختلف عنها فى سرعة انصهارها ، فأخرجوا بذلك أوانى ذات سطح مسنن ؛ ثم كان فى مقدورهم أن ينفخوا فقاعات من اللون على السطح الزجاجى فأخرجوا بذلك الصحاف الرفيعة المغطاة بدوائر صغيرة من الألوان . وأتقنوا كذلك فن التلوين بلون واحد وأخرجوا ظلالا من اللون الأحمر الخوخى ، والمرجانى ، والياقوتى ، والقرمزى ، ودم الثور (الأحمر القاتم) والوردى ؛ وأخرجوا من اللون الأخضر الخيارى ، والتفاحى ، والطاووسى ، والنباتى ، والسلادون (الأخضر الحائل) ؛ ومن اللون الأزرق « المزران » ، والسماوى ، والبنفسجى الفاتح ، والفيروزجى ؛ ومن اللونين الأصفر والأبيض ضروباً ملساء مخملية كل ما يستطيع الإنسان أن يصفها به أنها النعومة ذاتها تُرى رأى العين . وابتدعوا أنماطا مزخرفة يطلق عليها جامعو التحف الفرنسيون الأسر الوردية ؛ والخضراء ،

والسوداء، والصفراء(*). وقد أتقنوا ذلك الفن الشاق فن تعدد الألوان بتعريض الإناء فى التنور إلى تيارات متعاقبة من الهواء الصافى والمحمل بالسناج — الأول يُدخل فيه الأكسجين، والثانى يمتصه منه — بحيث يتحول الطلاء الزجاجى الأخضر إلى لهب متعدد الألوان. وكانوا يرسمون على بعض آنيتهم صور كبار الموظفين فى أثواب فضفاضة ذات ذيول طويلة، فابتدعوا بذلك طراز الآنية المعروفة « بالمندرين » (طراز كبار الموظفين). وكانوا يرسمون أزهار البرقوق باللون الأبيض فوق أرضية زرقاء (أو سوداء فى قليل من الأحيان)، وهم الذين ابتدعوا ما للمزهريات التى فى صورة الموسج من رقة ورشاقة.

وكان آخر ما مر به الخزف الصينى من عهود المجد فى عهد تشين لونج الرخى الطويل. ولم يقل الإنتاج فى ذلك العهد عما كان عليه فى العهود التى تقدمته، كما أن مهارة الصناع الممتازين لم تفقد شيئاً من عظمتها وتفوقها وإن لم تحظ ببعض الأشكال الجديدة بما كانت تحظى به مبتكرات عهد كانج شى من نجاح. وقد بلغت *الأسرة الوردية* فى هذا العهد أعلى درجات الكمال. فقد انتشرت فيها نصف أزهار الطبيعة وفاكهتها فوق أبهى الطبقات الزجاجية، كما كان ذوو الثراء المترفون يستخدمون الخزف الثمين الذى لا يزيد سمكه على سمك قشرة البيض غطاء لأضواء المصابيح[١١٤]. ثم شبت نار فتنة تاى — بنج ودامت خمسة عشر عاماً جرت فيها الدماء أنهاراً، ودمّرت خمس عشرة ولاية من الولايات الصينية، وهدمت ستمائة مدينة، وأهلكت عشرين مليوناً من الرجال والنساء. وأفقرت أسرة المنشو إفقاراً اضطرها إلى أن تحبس معونتها عن مصانع الخزف، فأغلقت هذه المصانع أبوابها؛ وتشتت صناعها فى أنحاء العالم المضطرب.

ولم يفق فن الخزف الصينى حتى الآن مما أصابه من الدمار فى أثناء هذه الفتنة

(*) وفى متحف الفن بمدينة نيويورك أنموذجان ممتازان من المجموعتين الأخيرتين.

الصماء ولعله لن يفيق منها أبداً . ذلك ان عوامل أخرى قد ضاعفت من آثار



شكل ٩ — مزهرية عليها نقش لشجرة الفضة
من عهد كانج — شي

الحرب المخربة ومن امتناع الرعاية الإمبراطورية ؛ منها أن نمو تجارة الصادرات قد أغرى الفنانين بأن يخرجوا قطعاً خزفية توائم ذوق المشترين الأوربيين . وإذا كان ذلك الذوق لا يبلغ من السمو ما بلغه ذوق أهل الصين فإن القطع المنحطة طردت القطع الثمينة من التداول ، كما تطرد العملة الرديئة العملة الطيبة حسب قانون جريشام(*) .

وما أن حل عام ١٨٤٠ حتى شرع مصنع إنجليزى أقيم فى مدينة كانتون يخرج أنواعاً منحطة من الخزف ويصدرها إلى أوربا ويسميها « الأوانى الصينية » . ثم قامت مصانع فى سيفر بفرنسا ، وما يسن فى ألمانيا وبورسلم فى إنجلترا تحاكى خزف الصينيين ، وقللت من نفقات الإنتاج باستخدام الآلات ، وأخذت تستحوذ عاماً بعد عام على تجارة الخزف الصينية الخارجية .

وكل ما بقى حتى الآن هو ذكرى ذلك الفن الذى خسره العالم خسارة كاملة لاتكاد تقل عن خسارته لزجاج العصور الوسطى الملون . ولقد عجز الخزافون الأوربيون رغم ما بذلوه من محاولات وجهود جبارة عن أن يبلغوا ما بلغه الخزافون الصينيون من الدقة والمهارة . وحسب الفنانين الصينيين فخراً أن الخبراء العالميين يضاعفون فى كل عقد من السنين أثمان ما بقى من روائع فن الخزف الصينى ، فتراهم يطلبون خمسمائة ريال ثمناً لقدح الشاى ، ويبيعون المزهرية التى فى صورة شجرة العوسج بثلاثة وعشرين ألف ريال ، وفى عام ١٧٦٧ وصل ثمن إناءين من الخزف بلون العقيق يعرفان « بكلبى فو » فى أحد المزادات إلى خمسة أضعاف ما وصل إليه ثمن صورة « الطفل يسوع » لجيدروتى ، وإلى ثلاثة أمثال ما وصل إليه ثمن صورة « الأسرة المقدسة » لرفائيل [115] . على أن كل من أحس بعينيه وأصابعه ، وبكل عصب من أعصاب جسمه ، جمال الخزف الصينى يغضب

(*) هو قانون النقد المشهور الذى يقول إنه إذا وجد فى بلد ما عملتان إحداهما جيدة والأخرى رديئة فإن العملة الرديئة لا تلبث أن تطرد العملة الجيدة . (المترجم)

بلا ريب من هذا التقدير الضئيل وبعده إهانة للفن الصينى وازدراء به وتدنيساً لقدسيته . ذلك أن دنيا الجمال ودنيا المال لاتلتقيان أبداً حتى فى الوقت الذى تباع فيه الأشياء الجميلة . وحسبنا تقديراً للخزف الصينى أن نقول إن هذا الخزف هو ذروة الحضارة الصينية ورمزها ، وإنه من أنبل ما صنعه الجنس البشرى ليبرر به وجوده على ظهر الأرض . »

الباب السادس والعشرون

الشعب والدولة

الفصل الأول

نبذة تاريخية

١ — ماركو بولو يزور كوبلاى خان

رحالة لا يصدقون — بندق فى الصين — جمال هانجتشان ورخاؤها — قصور
بيجنج — فتح المغول — جنكيز خان — كوبلاى خان — أخلاقه
وسياسته — ثراؤه — « ماركو الملايين »

فى عصر البندقية الذهبى حوالى عام ١٢٩٥ أقبل على المدينة رجلان طاعنتان فى السن ومعهما رجل كهل ، وقد أنهكهم التعب وأضنتهم الأسفار ، يحملون متاعهم على ظهورهم ، ويلبسون أسمالا بالية ، ويعلوهم العثير ، ثم طلبوا إلى أهل المدينة أن يأذنوا لهم بدخول موطنهم الذى غادروه كما زعموا منذ ستة وعشرين عاماً ، فلما تردد مواطنوهم فى الإذن لهم دخلوا المدينة على الرغم منهم . وقال ثلاثتهم إنهم جابوا بحاراً مفعمة بالأخطار ، وصعدوا فوق جبال وهضاب شامخة ، واجتازوا صحارى ملأى باللصوص وقطاع الطريق ، واخترقوا السور العظيم أربع مرات ، وأقاموا عشرين عاماً فى الخطا(*) ، وخدموا أعظم ملك فى العالم كله . وأخذوا يحدثون مواطنيهم عن إمبراطورية أوسع رقعة ، ومدن أكثر سكاناً ، وحاكما

(*) الاسم الذى يطلقه الروس على بلاد الصين وهو فى الأصل اسم قبيلة مغولية ، وقد حور الإنجليز هذا الاسم فجعلوه كاثاى Cathay . (المترجم)

أعظم ثروة ، من كل ما عرفته ومن عرفته قارة أوربا ؛ وعن حجارة تتخذ للتدفئة ، وورق يتعامل به الناس بدل الذهب ، وعن بندق الواحدة منه أكبر من رأس الإنسان ، وعن أمم تقف بكارة الفتيات فيها حجر عثرة في سبيل الزواج ، وأمم غيرها يقدم المضيف فيها لضيوفه أزواجه وبناته ليستمتعوا بهنّ وهنّ راضيات[1].

ولم يجد هؤلاء القادمون من أهل المدينة من يصدقهم ، وأطلقوا على أصغر الثلاثة وأكثرهم ثرثرة لقب « ماركو الملايين » لأن ما كان يرويه لهم من القصص كان مملوءاً بالأعداد الكبيرة العجيبة[2].

ولم يبتئس ماركو وأبوه وعمه من هذا المصير ، بل رضوا به مسرورين ، لأنهم جاءوا معهم بكثير من الأحجار الكريمة من حاضرة البلاد القاصية ، وأتت لهم هذه الأحجار بثروة رفعت منزلتهم في مدينتهم . ولما دارت رحى الحرب بين البندقية وجنوى في عام ١٢٩٨ عقد لواء إحدى السفن الحربية لماركو ، فلما أن استولى الأعداء على هذه السفينة وألقى هو في أحد سجون جنوى حيث مكث عاماً كاملا ، أخذ يسلي نفسه بأن يملي على أحد الكتبة أشهر كتاب في الأسفار في آداب العالم ؛ وقد قص فيه بأسلوب ساخر جميل خال من التكلف والتعقيد كيف غادر هو وأبوه نيقولو وعمه مافيو مدينة عكا ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، وكيف تسلقوا جبال لبنان واجتازوا أرض الجزيرة إلى الخليج الفارسي ، ثم اخترقوا بلاد فارس وخراسان وبلخ حتى وصلوا إلى هضبة البامير ، ثم انضموا إلى بعض القوافل وساروا معها سيراً بطيئاً إلى كاشغر وخوتان ، ثم اجتازوا صحراء جوبى إلى تنجوت ، ثم اخترقوا السور العظيم إلى شانجتو حيث استقبلهم الخان الأكبر بوصفهم رسلا أذلاء من الغرب الناشيء(*).

(*) شانجتو هي المدينة التي يسميها الشاعر الإنجليزي كولردج « زندو » ، ولم يرتد أحد من الرحالة بعد ماركوپولو (إلا واحد منهم نسيه الناس على مر الأجيال) أقاليم آسية الوسطى التي وصفها إلا في عام ١٨٣٨ .

ولم يكونوا يظنون أنهم سيقيمون فى الصين أكثر من عام أو عامين ، ولكنهم وجدوا فى تلك البلاد من الأعمال المجزية والفرص التجارية المربحة تحت حكم كوبلاى ما حملهم على البقاء فيها ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً . وأثرى ماركو بنوع خاص وارتقى فى مناصب الدولة حتى عين حاكما على هانجتشاو . ويصفها ماركو فى كتابه وصف المعجب بها الحافظ لعهدها ، فيقول إنها أرقى من بلاد أوربا بأجمعها فى جمال مبانيها وجسورها وفى عدد مستشفياتها العامة ورشاقة دورها ذات الحدائق ، وكثرة ما فيها من وسائل المتعة والفساد ، وجمال سراريها وسحرهن ، وقدرة حكامها على الاحتفاظ بالأمن العام والنظام ، ورقة أهلها وحسن أخلاقهن ، ويقول إن محيط المدينة يبلغ مائة ميل وإن :

« طرقاتها وقنواتها عريضة تتسع أولاها لمرور العربات وأخراها لمرور السفن محملة بالبضائع التى يحتاج إليها ساكنوها . والشائع على ألسنة الناس أن عدد ما فيها من الجسور على اختلاف أحجامها يبلغ اثنى عشر ألفا ، وأن الجسور الممتدة فوق القنوات الكبرى والمتصلة بالشوارع الرئيسية مقامة على عقود عالية وبمهارة فائقة تستطيع معها السفن أن تمر من تحتها مبسوطة الشراع ، كما تستطيع العربات والخيول أن تمر من فوقها لتدرج انحدارها من الشوارع إلى أعالى العقود ... وفى داخل المدينة عشرة ميادين رئيسية وأسواق عامة غير ما فيها من الحوانيت التى يخطئها الحصر ، والممتدة على جانبى شوارعها . . . ويبلغ طول كل ضلع من أضلاع هذه الميادين نصف ميل ، وأمام الميدان يمتد الشارع الرئيسى ويبلغ عرضه أربعين خطوة ، ويسير مستقيما من أحد طرفى المدينة إلى الطرف الآخر . وتجرى فى اتجاه مواز إلى اتجاه الشارع الرئيسى ... قناة كبيرة أقيمت على شاطئها المجاور للمدينة مخازن واسعة مشيدة من الحجارة يأوى إليها التجار القادمون من الهند وغيرها من الأقطار ، ومعهم بضائعهم ومتاعهم . وبهذه الطريقة يسهل عليهم الاتصال بالأسواق العامة . ويجتمع فى كل سوق من هذه الأسواق مدة ثلاثة أيام

فى كل أسبوع نحو أربعين أو خمسين ألف شخص ...

والشوارع كلها مرصوفة بالحجارة والآ.ر ... والشارع الرئيسى فى المدينة مرصوف منه على الجانبين مسافة قدرها عشر خطوات ، أما ما بينهما فمملوء بالحصباء الصغيرة ومن تحتها مصارف مقبية تجرى فيها مياه الأمطار تنقلها إلى القنوات المجاورة بحيث يبقى الشارع جافاً على الدوام . والمركبات لا ينقطع مرورها على هذه الحصباء جيئة وذهاباً . وهى طويلة الشكل مغطاة من أعلاها ، ولها ستائر ووسائد من الحرير وتتسع لستة أشخاص ، يستأجرها أهل المدينة رجالا كانوا أو نساء ممن يميلون إلى التنزه والاستمتاع بركوبها ...

ومن حول الأماكن فى جميع الجهات مسارح لصيد الحيوان على اختلاف أنواعه ... ولا يبعد البحر عن المدينة أكثر من خمسة عشر ميلا ، وتحمل إليها منه فى كل يوم عن طريق النهر كميات كبيرة من السمك ... وإذا رأى الإنسان هذا السمك حين يأتى إلى المدينة ظن أول وهلة أنه لن يباع كله فيها ، ولكنه لا تمضى على مجيئه إليها إلا ساعات قليلة حتى يباع عن آخره وذلك لكثرة من فيها من السكان ... والشوارع المتصلة بالسوق كثيرة العدد وفى الكثير منها حمامات باردة يشرف عليها خدم وخادمات . وقد اعتاد من يتردد عليها من رجال ونساء أن يستحموا فيها بالماء البارد منذ صغرهم لاعتقادهم أن الاستحمام بالماء البارد مفيد لأجسامهم . لكن هذه الحمامات قد أعدت بجوارها مع ذلك حجرات مجهزة بالماء الساخن ليستحم فيها الغرباء الذين لا يتحملون الماء البارد . ومن عادة الأهلين كلهم أن يغتسلوا فى كل يوم وخاصة قبل وجبات الطعام ...

وخصت فى شوارع أخرى من المدينة أحياء للعاهرات وهن يبلغن من الكثرة حداً لا أجرؤ على ذكره ... وهؤلاء النسوة يلبسن الملابس الجميلة ، ويتعطرن ، ويسكن فى بيوت جميلة الأثاث ، ويقوم على خدمتهن كثيرات من الخادمات .

وفى شوارع أخرى يقيم الأطباء والمنجمون ... وقد أنشئت على جانبى شارع المدينة الرئيسى بيوت وقصور رحبة ... وأهل المدينة كلهم رجالا كانوا أو نساء بيض الوجوه على جانب كبير من الجمال ، يرتدى معظمهم ملابس من الحرير ... والنساء ذوات جمال بارع ويعودن من صغرهن الرقة والنحافة ، وليس فى وسع من لم يشهد هؤلاء النسوة أن يتصور ما يتحلين به من حرير وجواهر[٣] .

وقد أعجب ماركوبولو بمدينة بيجنج (أو كمبلوك كما كانت تسمى وقتئذ) أكثر من إعجابه بهانجتشاو نفسها ، فهو إذ تحدث عنها عجزت ملايينه عن وصف ثروتها وتعداد عامرها . وكانت ضواحى المدينة الاثنتا عشرة أجمل منها نفسها ، ذلك بأن رجال الأعمال قد شادوا فى هذه الضواحى كثيراً من البيوت الجميلة[٤] وكان فى المدينة نفسها كثير من الفنادق وآلاف المتاجر الثابتة والمتنقلة . وكان الطعام فيها على اختلاف أنواعه موفوراً ، وكان يدخلها فى كل يوم ألف حمل من الحرير الخام لتصنع ملابس لأهلها . وقد كان للخان قصور فى هانجتشاو وشانجتو وغيرها من المدن ولكن أكبر قصوره كان فى بيجنج نفسها . وكان يحيط بهذا القصر سور من الرخام ويصعد إليه بدرج من الرخام أيضاً . وكان مبناه الرئيسى كبيراً « يتسع لأن تمد فيه موائد الطعام لجماعات كبيرة من الناس » . وقد أعجب ماركو بتنظيم الغرف ، وبنوافذها البراقة الدقيقة الشفافة ، وبما يغطى سقفها من قرميد مختلف الألوان ، ويقول إنه لم ير فى حياته مدينة فى مثل غناها ولا مَلِكاً فى عظمة ملكها[٥] .

وما من شك فى أن الشاب البندقى قد تعلم اللغة الصينية حتى استطاع أن يتحدث بها ويقرأها ، ولعله عرف من المؤرخين الرسميين كيف فتح كوبلاى وأسلافه المغول بلاد الصين . وكان سبب غزوات المغول أن ما أصاب الأقاليم الممتدة بإزاء حدود الصين الشمالية الغربية من جفاف قد أحالها صحراء جدباء

عاجزة عن الوفاء بحاجة أهلها الأقوياء ، فاندفع المغول (أى البواسل) إلى شن الغارات المستيئسة لامتلاك بلاد أخصب من بلادهم وأوفر منها أرزاقاً . وكان نجاحهم فى غاراتهم سبباً فى تقوية روحهم العسكرية ونزعتهم الحربية ، فلم يقفوا فى فتوحهم إلا بعد أن اكتسحت جحافلهم بلاد آسية كلها إلا القليل منها ، وأجزاء من أوربا . وتقول الروايات إن قائدهم الجبار جنكيزخان قد ولد وفى كفه جلطة من الدماء ، فلما بلغ الثالثة عشرة من عمره أخذ يؤلف بين قبائل المغول ويجمعها تحت لوائه . واتخذ الإرهاب وسيلة إلى هذا الجمع ، فكان يصلب الأسرى على حمير من الخشب ، أو يقطعهم إربا ، أو يقلى أجسامهم فى القدور ، أو يسلخ جلودهم وهم أحياء . ولما تلقى من إمبراطور الصين تنج دزونج رسالة يدعوه فيها للخضوع بصق فى اتجاه عرش التنين ، وبدأ من فوره حملته مجتازاً ألفاً ومائتين من الأميال فى قلب صحراء جوبى ؛ وهجم على ولايات الصين الغربية ، ودمر من مدائنها تسعين مدينة سواها بالأرض حتى يستطيع الفرسان أن يسيروا فوق الأراضى المخربة فى الظلام دون أن تعثر خيولهم . وظل « عاهل العالم » خمس سنين كاملة يخرب فى بلاد الصين الشمالية . ثم أزعجه اقتران كوكبين من الكواكب رأى فى اقترانهما نذير مشئوم ، فقفل راجعاً إلى قريته ، ولكنه مرض ومات فى الطريق .

وواصل خلفاؤه أو جوادى ، ومانجو ، وكوبلاى حملاته بقوة همجية ؛ وكان الصينيون قد أهملوا فنون الحرب ووجهوا همهم كله مدة قرون عدة إلى الثقافة ، فلم يثبتوا أمام الغزاة بل خروا صرعى يجللهم العار القومى والبطولة الفردية ، وثبت أحد حكام الصين فى جوينتج — فو وصمد للحصار حتى قتل المحاصرون كل من كان فى المدينة من الشيوخ والعاجزين وأكلوا لحومهم ، وهلك جميع القادرين على القتال ولم يبق لحراسة الأسوار إلا النساء ، ثم أشعل النار فى المدينة واحترق هو نفسه فى قصره . واجتاحت جيوش كوبلاى بلاد الصين حتى وقفت أمام

كنتون آخر ملجأ لجأت إليه أسرة سونج الحاكمة . فلما عجزت الجيوش الصينية عن المقاومة حمل لوشى يوفو القائد الصينى الإمبراطور الغلام على ظهره وألقى به وبنفسه فى البحر فماتا معاً . ويقال إن مائة ألف من الصينيين آثروا الموت غرقاً على التسليم للفاتح المغولى . وأمر كوبلاى أن يحتفل بجنازة الإمبراطور احتفالا رسمياً كبيراً ، وشرع يؤسس الأسرة اليوانية « الأصيلة » وهى الأسرة المغولية التى حكمت الصين أقل من مائة عام .

ولم يكن كوبلاى نفسه بربريا همجيا . وليس أهم ما يستثنى من هذا الوصف هو سياسته الغادرة لأن الغدر كان من الأخلاق الشائعة فى تلك الأيام ، بل أهم ما يستثنى منه هو ما عامل به ون تيان — شيانج ، وهو عالم وطنى أبى أن يعترف بحكومة كوبلاى وفاء منه لأسرة سونج . فألقاه كوبلاى فى السجن ومكث فيه ثلاث سنين ولكنه أبى أن يخضع وكتب فى سجنه تلك القطعة التى تعد من أشهر ما كتب فى الأدب الصينى كله :

إن سجنى لا يضيئه إلا الصيهد ولا تدخله نسمة من نسمات الربيع لتؤنسنى فى وحدتى وتخفف بعض ظلمته ... وكثيراً ما فكرت فى أن أقضى على نفسى من فرط ما أثر فى من الضباب والندى ، ولكن الموت ظل عامين كاملين يحوم حولى ولا يقضى علىّ ؛ وأضحت الأرض الرطبة المضرة بالصحة جنة الفردوس نفسها . ذلك بأنه كان يستقر بين جوانحى مالا تستطيع النائبات أن تغتصبه منى ، ولهذا بقيت مطمئن القلب ثابت الجنان أتطلع إلى السحب البيضاء فوق رأسى وأطوى قلبى على آلام لا حد لها كما لا حد للسماء .

واستدعاه كوبلاى آخر الأمر إلى المثول بين يديه وسأله الملك قائلا : « أى شىء تريد ؟ » فأجابه ون بقوله : « لقد عطف علىّ إمبراطور سونج فجعلنى وزيراً لجلالته ، وليس فى وسعى أن أخدم سيدين ، وكل ما أطلبه أن أموت ! » . وأجابه كوبلاى إلى ما طلب ؛ وبينما كان ون ينتظر أن يهوى سيف الجلاد على

عنقه انحنى فى خضوع واحترام نحو الجنوب كان الإمبراطور من آل سونج لا يزال يحكم فى نانكنج العاصمة الجنوبية[٧] .

ومع هـذا فقد أوتى كوبلاى من الحكمة ما جعله يعترف بتفوق الصينيين على المغول فى ميدان الحضارة ، ويعمل من أجل هذا على مزج عاداتهم بعادات أهل بلاده . وكان لا بد له أن يلغى نظام تقلد المناصب العامة بالامتحان ، وذلك لأنه لو اتبع هذا النظام لكان جميع الموظفين فى حكومته من الصينيين ، ثم قصر معظم الوظائف الكبرى على أتباعه من المغول وحاول وقتاً ما أن يدخل إلى البلاد الحروف الهجائية المغولية ، ولكنه قَبِل هو وأتباعه فى معظم شئونهم حضارة الصين ، وما لبثوا أن استحالوا بفضل هذه الحضارة أمة صينية . ومما يذكر له أنه أباح ما كان فى الصين من ديانات ، وشجع دخول الديانة المسيحية فى البلاد لأنه رأى فيها أداة صالحة لتهدئتها وبسط سلطانه عليها . وأعاد فتح القناة العظمى بين تينتسين وهنجتشاو ، وأصلح الطرق الكبرى ، وأنشأ نظاماً سريعاً للبريد فى أقاليم أوسع رقعة من البلاد التى خضعت لحكومة الصين مذ جلس على عرشها ، وأقام فى البلاد أهراء عامة عظيمة ليخزن فيها ما يفيض عن حاجتها من المحصولات الزراعية ليوزعها على الأهلين فى أيام القحط ، وألغى الضرائب عن جميع الزراع الذين أضر بمزروعاتهم الجفاف والعواصف والحشرات[*] ، وأوجد نظاماً تعين الدولة بمقتضاه الشيوخ من العلماء والأيتام والعجزة ، وكان سخياً فى تشجيع التعليم والآداب والفنون وبسط رعايته عليها . وقد عدل التقويم فى أيامه ، وافتتح المجمع العلمى الإمبراطورى[٩] ، وشاد عاصمة جديدة للبلاد فى پيكين كانت لروعتها وكثرة

(*) وقد كتب ماركوپولو فى ذلك يقول : « لا يكاد يمضى يوم واحد لا يوزع فيه الموظفون المختصون ملء عشرين ألف وعاء من الأرز والذرة والدخن . وقد كان لهذا الكرم العظيم المدهش الذى يعامل به الخان العظيم الفقراء من أهل البلاد أعظم الأثر فى نفوس الناس جميعاً فأحبوه وأجلوه » .

عاصرها موضع إعجاب من يزورها من الغرباء ، وشيدت القصور وازدهرت العمارة ازدهاراً لم تر الصين له مثيلا من قبل .

ويقول ماركوبولو : « وقد كان بولو حاضراً فى البلاد حين كان هذا كله يحدث فيها »[١٠] واتصل الشاب بالخان وتقرب إليه واستطاع بذلك أن يصف لنا ضروب تسليته وصفاً مفصلا ينم عن إعجابه الشديد به ؛ ويقول إنه كان للخان فضلا عن زوجاته الأربع اللاتى يسمين بالإمبراطورات عدد كبير من السرارى جىء بهن من أنجوت فى بلاد التتار لأن الإمبراطور كان يعجب بجمال نساء تلك البلاد . ويضيف ماركو إلى هذا قوله إن عدداً من الموظفين المشهود لهم بحسن الذوق كانوا يرسلون إلى هذا الإقليم ليجندوا لخدمة جلالة الإمبراطور مائة من الفتيات حسب الأوصاف التى كان هو نفسه يعنى بوصفها أشد العناية .

فإذا ما مثلن أمامه ، أمر أن تختبرهن اختباراً جديداً طائفة أخرى من الباحثين وأن يختار من بينهن ثلاثون أو أربعون فتاة يستبقين فى قصره ... ثم يعهد بكل واحدة منهن إلى إحدى كبار السيدات فى القصر لتتأكد من أنها ليس فيها شىء من العيوب التى تخفى عن الأعين وأنها تنام نوماً هادئاً ، ولا تغط فى أثناء نومها ، ولا تنبعث رائحة كريهة من أى جزء من أجزاء جسمها . فإذا ما نجحن فى هذا الاختبار الدقيق قسمن جماعات كل منها مؤلفة من خمس تقيم فى حجرة جلالته الداخلية ثلاثة أيام وثلاث ليال يؤدين فى خلالها كل مايطلب إليهن من خدمات ويفعل بهن ما يشاء : فإذا ما انقضت هذه الفترة حلت محل تلك الجماعة جماعة أخرى وهكذا دواليك حتى تأخذ كل جماعة دورها ثم تعود الجماعة الأولى إلى الخدمة من جديد[١١]

* * *

وبعد أن أقام ماركوبولو هو وأبوه وعمه عشرين سنة فى بلاد الصين اغتنم ثلاثتهم فرصة قيامهم بمهمة إلى الفرس ، أوفدهم بها الخان ، فعادوا إلى بلادهم بأقل

النفقات وأقل ما يمكن أن يتعرضوا له من الأخطار . وبعث معهم كوبلاى برسالة إلى البابا ، وحباهم بجميع ما كان معروفاً فى ذلك الوقت من التسهيلات للمسافرين، وقضوا فى طوافهم بحراً حول شبه جزيرة الملايو إلى الهند وفارس وفى رحلتهم البرية إلى طربزون على البحر الأسود وأخيراً فى رحلتهم البحرية إلى البندقية ثلاث سنين . ولما وصلوا إلى أوربا عرفوا أن الخان والبابا قد توفيا(*) . وعمر ماركو طويلا فلم يستسلم للموت حتى بلغ السبعين من عمره . فلما حضرته الوفاة طلب إليه أصدقاؤه أن ينجى نفسه من العذاب فى الدار الآخرة بمحو ما ورد فى كتابه من العبارات الواضحة البطلان ولكنه أفحمهم برده عليهم : « إنى لم أذكر فى كتابى نصف ما شاهدته » .

ولم يمض على وفاته إلا وقت قصير حتى أصبح من العادات المألوفة فى حفلات البندقية الساخرة أن يرتدى شخص ثياب المهرجين ليسر الناس فى تلك الاحتفالات بما ينطق به من المبالغات غير المعقولة ؛ وكان يطلق على هذا المهرج الماجن اسم « ماركو الملايين » :

٢ — أسرتا منج ومنج

سقوط المغول — أسرة منج — غزو المنشو — أسرة چنج
— ملك مستنير — شين لونج يأبى قبول الأفكار الغربية

ولم تعرف الصين بعدئذ مثل هذا العهد الزاهر إلا بعد أربعة قرون، فسرعان ما دب الاضمحلال فى أسرة يوان متأثرة بانهيار سلطان المغول فى أوربا وغرب آسيه وفى ذوبان المغول فى جسم الشعب الصينى نفسه ، إذا جاز أن نلجأ إلى هذه العبارة السهلة المتحذلقة لنعلل بها هذه الظاهرة التى تتكرر فى جميع الأوقات . وهناك أسباب أخرى لا تقل عن هذين السببين قوة وخطراً ، ذلك أن إمبراطورية

(*) لقد أثبت كوبلاى اعتناقه مبادئ الحضارة الأوربية بما أصيب به من داء النقرس .

كالصين مسمة الرقعة ، قليلة التماسك من الناحية الطبيعية ، تفصلها الجبال والصحراوات والبحار لا يمكن أن تخضع إلى ما شاء الله لحكومة واحدة . وقد كان المغول رجال حرب خيراً منهم رجال حكم وإدارة ، ولذلك اضطر خلفاء كوبلاى خان أن يعودوا إلى نظام الامتحان وإلى الانتفاع بكفاية الصين الإدارية ، ولم يحدث الفتح المغولى أثراً يذكر فى عادات الصينيين وأفكارهم إلا ما عسى أن يكون قد أدخله فى الأدب الصينى من الروايات والمسرحيات .

وتزوج الصينيون مرة أخرى من فاتحيهم ومدنوهم وغلبوهم على أمرهم . حتى إذا كان عام ١٣٦٨ تزعم أحد الكهنة البوذيين السابقين ثورة على هؤلاء الفاتحين ودخل بيكين منتصراً وأعلن نفسه أول إمبراطور من أسرة السنج (أى المتألقين) . وجلس على العرش فى الجيل التالى ملك قدير من ملوك هذه الأسرة ، واستمتعت الصين فى عهد يونج لو مرة أخرى بعهد جديد من عهود الرخاء ، وعادت إلى تشجيع الفنون ، بيد أن عهد الأسرة « المتألقة » انتهى مع ذلك بفترة من الفوضى والاضطراب والغزو الخارجى ؛ وبينا كانت البلاد منقسمة إلى أحزاب متنافرة متعادية اجتاحتها جحافل جديدة من الغزاة الفاتحين ، واقتحمت السور العظيم وحاصرت بيكين . تلك هى جحافل المنشو .

وكان المنشو شعباً تنجوسياً ظل قروناً كثيرة يعيش فى البلاد التى تعرف الآن باسم منشوكو (أى مملكة المنشو) ، ومدوا فتوحهم فى أول الأمر نحو الشمال حتى وصلوا إلى نهر عامور ، ثم اتجهوا نحو الجنوب وهجموا على عاصمة الصينيين . وجمع آخر أباطرة المنج أسرته حوله وشرب نخبهم ، وأمر زوجته أن تنتحر(*) ، ثم شنق نفسه بمنطقته بعد أن كتب آخر أوامره على طية ثوبه :

« نحن الفقراء فى الفضيلة ، ذوى الشخصية الحقيرة ، قد استحققنا غضب الله العلى القدير .

(*) وصدعت بما أمرت ، ونقول الروايات المأثورة إن الكثيرات من السرارى قد حذون حذوها .

« لقد غررنى وزرائى ؟ وإنى لأستحى آن ألقى فى الآخرة آبائى وأجدادى ، ولهذا فإنى أخلع بيدى تاجى عن رأسى ، وأنتظر وشعرى يغطى وجهى أن يقطع الثوار أشلائى ، لا تؤذوا أحداً من أبناء شعبى »[١٥] . ودفنه المنشو باحتفال يليق بكرامته وأسسوا أسرة الشنج (الطاهرة) التى حكمت الصين حتى عهدنا الثورى الحاضر .

وسرعان ما أصبحوا هم أيضاً صينيين واستمتعت البلاد تحت حكم كانج شى بعهد من الرخاء والسلم والاستنارة لم تعرف له مثيلا فى تاريخها كله . جلس هذا الإمبراطور على العرش وهو فى السابعة من عمره ، فلما بلغ الثالثة عشرة أمسك بيده زمام الأمور فى إمبراطورية لم تكن تشمل وقتئذ بلاد الصين وحدها بل كانت تشمل معها بلاد المغول ومنشوريا وكوريا والهند الصينية وأنام والتبت والتركستان . وما من شك فى أنها كانت أكبر إمبراطوريات ذلك العهد وأكثرها ثروة وسكاناً . وحكمها كانج شى بحكمة وعدل حسدها عليهما معاصراه أورنجزيب ولويس الرابع عشر . وكان الإمبراطور نفسه رجلا نشيطا قوى الجسم والعقل ، ينشد الصحة فى الحياة العنيفة خارج القصور ويعمل فى الوقت نفسه على أن يلم بعلوم تلك الأيام وفنونها . وكان يطوف فى أنحاء مملكته ويصلح ما فيها من العيوب حيثما وجدها ، ومن أعماله أنه عدل قانونها الجنائى . وكان يعيش عيشة بسيطة ليس فيها شىء من الإسراف أو الترف ويقتصد فى نفقات الدولة الإدارية ويفخر بالعمل على رفاهية شعبه[١٦] . وازدهرت الآداب والعلوم فى أيامه بفضل تشجيعه إياها ومناصرتها ؛ وعادفن الخزف إلى أعلى ما وصل إليه فى أيام مجده السابقة . وكان متسامحاً فى الأمور الدينية فأجاز كل العبادات ، ودرس اللغة اللاتينية على القساوسة اليسوعيين ، وصبر على الأساليب الغربية التى كان يتبعها التجار الأوربيون فى ثغور بلاده . ولما مات بعد حكمه الطويل الموفق (١٦٦١ — ١٧٢٢) كان آخر ما نطق به هو هذه الألفاظ : « إنى

لأخشى أن تتعرض الصين فى مئات أو آلاف السنين المقبلة إلى خطر الاصطدام مع مختلف الأمم الغربية التى تفد إلى هذه البلاد من وراء البحار[١٧] » .

وبرزت هذه المشاكل الناشئة من ازدياد التبادل التجارى والاتصال بين الصين وأوربا مرة أخرى فى عهد إمبراطور آخر قدير من أسرة المنشو هو شين لونج . وكان هذا الإمبراطوار شاعراً أنشأ ٣٤٫٠٠٠ قصيدة إحداها فى «الشاى» وصلت إلى مسامع ڤلتير فأرسل « تحياته إلى ملك الصين الفاتن »[١٨]؛ وصوره المصورون الفرنسيون وكتبوا تحت صورته باللغة الفرنسية أبياتاً من الشعر لا توفيه حقه من الثناء يقولون فيها :

« إنه يعمل جاهداً دون أن يخلد إلى الراحة للقيام بأعمال حكومته المختلفة التى يعجب الناس بها . وهذا الملك أعظم ملوك العالم وهو أيضاً أعلم الناس فى إمبراطوريته بفنون الأدب » .

وحكم الصين جيلين كاملين (١٧٣٧ — ١٧٩٦) ، ونزل عن الملك لما بلغ الخامسة والثمانين ، ولكنه ظل يشرف على حكومة البلاد حتى توفى (١٧٩٩). وحدثت فى آخر سنى حكمه حادثة كان من شأنها أن تذكر المفكرين من الصينيين بما أنذرهم به كانج — شى ، فقد أرسلت إنجلترا بعد أن أثارت غضب الإمبراطور باستيراد الأفيون إلى بلاد الصين بعثة برياسة لورد مكارتنى لتفاوض شين لونج فى عقد معاهدة تجارية بين البلدين . وأخذ المبعوثون الإنجليز يشرحون للإمبراطور المزايا التى تعود عليه من تبادل التجارة مع إنجلترا ، وأضافوا إلى أقوالهم أن المعاهدة التى يريدون عقدها سيفترض فيها مساواة ملك بريطانيا بإمبراطور الصين . فما كان من شين لونج إلا أن أملى هذا الجواب ليرسل إلى جورج الثالث :

« إن الأشياء العجيبة البديعة لاقيمة لها فى نظرى ؛ وليس لمصنوعات بلادكم فائدة لدى . هذا إذن هو ردى على ما تطلبون إلىَّ من تعيين ممثل لكم فى بلاطى

وهو طلب يتعارض مع عادات أسرتى ولا يعود عليكم إلا بالمتاعب . لقد شرحت لك آرائى مفصلة وأمرت مبعوثيك أن يغادروا البلاد فى سلام عائدين إلى بلادهم ، وخليق بك أيها الملك أن تحترم شعورى هذا ، وأن تكون فى المستقبل أكثر إخلاصاً وولاء مما كنت فى الماضى ، حتى يكون خضوعك الدائم لعرشى من أسباب استمتاع بلادك بالسلم والرخاء فى مستقبل الأيام »[١٩] .

بهذه العبارات القوية الفخورة حاولت الصين أن تدرأ عنها شر الانقلاب الصناعى . ولكننا سنعرف فى الفصول التالية كيف غزت الثورة الصناعية البلاد رغم هذا الاحتياط . ولندرس الآن قبل الكلام على هذه الثورة العناصر الاقتصادية والسياسية والخلقية التى تتألف منها تلك الحضارة الفذة المستنيرة الجديرة بالدرس ، والتى يبدو أن الثورة الصناعية ستقضى عليها القضاء الأخير .

الفصل الثانى

الصينيون ولغتهم(*)

تعداد السكان — مظهرهم الخارجى — ملبسهم — خصائص اللغة الصينية — خصائص الكتابة الصينية

إن أول عنصر من عنصر الصورة التى سنرسمها فى هذا الفصل هو عنصر العدد ؛ فالصينيون كثيرون ، وليس عددهم معروفاً بالضبط ، وكل مايقال عنه من قبيل الحدس والتخمين . ويظن بعض العلماء أن سكان الصين فى عام ٢٨٠ ق.م كانوا يبلغون حوالى ١٤٫٠٠٠٫٠٠٠ وأنهم وصلوا فى عام ٢٠٠ ق . م إلى ٢٨٫٠٠٠٫٠٠٠ وفى عام ٧٢٦ ق . م إلى ٤١٫٥٠٠٫٠٠٠ وفى عام ١٦٤٤ بعد الميلاد إلى ٨٩٫٠٠٠٫٠٠٠ وفى عام ١٧٤٣ إلى ١٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ وفى عام ١٩١٩ إلى ٣٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠[٢٠] . ويقول أحد الرحالة الأوربيين إنه أحصى فى الصين فى القرن الرابع عشر « مائتى مدينة كل واحدة منها أكبر من مدينة البندقية »[٢١] وإحصاء السكان فى الصين يحدث تنفيذاً لقانون يحتم على كل صاحب بيت أن ينقش اسم كل ساكن فيه على لوحة عند مدخله[٢٢] . ولسنا نعلم بطبيعة الحال مدى صحة هذه اللوحات ، ولا مدى صحة التقريرات التى يقال إنها توضع على أساسها ، وحسبنا أن نقول إن سكان الصين يبلغون الآن حوالى أربعمائة مليون من الأنفس.

ويختلف الصينيون فى أجسامهم ، فهم فى الجنوب أقصر قامة وأضعف أجساماً منهم فى الشمال ، غير أنهم بوجه عام أنشط أهل قارة آسية وأكثرهم حيوية ، ذوو بأس وصبر على الشدائد والآلام ، شديدو المقاومة للأمراض ، سريعو التأقلم فى كل مناخ ؛

(*) إن هذا الوصف الذى نصف به المجتمع الصينى لينطبق بنوع خاص على ذلك المجتمع فى القرن التاسع عشر . أما ما حدث فى هذا المجتمع من تطورات على أثر اتصاله بالأمم الغربية فسندرسه فى الفصول التالية . ويجب أن يؤخذ كل ما نورده من وصف له بالحذر والاحتياط لأنه ما من حضارة من الحضارات تكون مماثلة فى عهد طويل أو فى رقعة من الأرض واسعة .

وقد استطاعوا بفضل هذه الصفة أن يعيشوا ويثروا فى مناطق العالم كلها تقريباً . ولم يقو الأفيون ولا الزهرى ولا عدم الزواج بغيرهم من الشعوب على إضعاف صحتهم ؛ وإذا كان نظامهم الاجتماعى قد انهار فى الأيام الأخيرة فإن هذا الانهيار لم يكن نتيجة ضعف ظاهر فى قوامهم الجسمية أو العقلية .

ووجه الصينى ينم عن أنه أذكى خلق الله طراً ، وإن لم يكن هذا الوجه على الدوام جميلا جذاباً . ثم إن بعض الطبقات المعدمة تبدو فى أعين الغربيين بشعة شديدة القبح ، وإن لبعض المجرمين منهم نظرات خبيثة ما أجدر أصحابها بأن يكونوا ممثلين هزليين فى دور الخيالة ، ولكن كثرتهم العظمى ذات ملامح منتظمة متناسبة هادئة ، زادها هدوءاً عاملان أحدهما جثمانى وهو انخفاض الجفون وثانيهما اجتماعى وهو ما نعموا به من الحضارة التى دامت عدة قرون . وليس انحراف العينين كبيراً واضحاً إلى الحد الذى يتصوره المرء مما يقال أو يكتب عنهم ، وكثيراً ما تؤثر الشمس فى بشرتهم الصفراء فتخلع عليها لوناً أسمر جميلا . ونساء الزراع منهم لا يكدن ينقص عن الرجال قوة فى الأجسام ، كما أن نساء الطبقات العليا رقيقات الحاشية جميلات يبيضن وجوههن بالمساحيق ، ويحمرن شفاههن وخدودهن ، ويسودن حواجبهن ويزججنها حتى تكون أشبه بورقة الصفصاف أو الهلال[٢٣] .

وشعر الرأس خشن قوى عند الرجال والنساء ، خال من التجاعيد يعقصه النساء ويزينه عادة بالأزهار . ولقد أراد الرجال فى عهد آخر الأسر الحاكمة أن يسروا حكامهم فاتبعوا عادة المنشو وهى حلق شعر نصف الرأس الأعلى . ثم أرادوا أن يعوضوا هذا النقص فتركوا شعر النصف الخلفى وجمعوه فى غديرة طويلة أصبحت على مر الزمن أداة لتقويم المخطئ ومظهراً من مظاهر الكبرياء[٢٤] . ولحاهم لا تطول ، وكانوا يحلقونها على الدوام ، وقلما كان الواحد منهم يحلق لحيته بيده ، فقد كان من عادة الحلاقين أن يطوفوا بالناس ومعهم أدواتهم ، وكانوا طائفة موفورة الكسب .

وكانوا عادة يتركون رؤوسهم عارية؛ فإذا غطى الرجال رؤوسهم اتخذوا لهم في الشتاء قلانس من المخمل أو الفراء ذوات حافات منثنية إلى أعلى، وفي الصيف قلانس مخروطية الشكل مصنوعة من خيوط الخيزران المجدولة تعلو الواحدة منها إذا كان صاحبها ذا شأن، كرة ملونة وشريط حريري.

أما النساء فكن يضعن على رءوسهن، إذا مكنتهن من ذلك مواردهن، أشرطة من نسيج الحرير أو القطن مزينة بالبهرجان والحلي أو الأزهار الصناعية، وكانت الأحذية تتخذ عادة من الأقمشة المدفئة، ولما كانت أرض المنازل تصنع في كثير من الأحيان من القرميد البارد أو الطين فإن الصيني كان يحمل معه أينما سار طنفسة صغيرة يضعها تحت قدميه. وقد نبتت في بلاط الإمبراطور لي هو — چو (حوالى ٩٧٠ ب. م) عادة ربط أقدام البنات وهن في سن السابعة بأربطة ضيقة لكي تبقى صغيرة فتمشي السيدة الكبيرة تخطر خطراً يعجب به الرجال. وكان يعد من سوء الأدب أن يتحدث الناس عن قدم السيدة كما كان يعد من الإهانة الفاضحة أن ينظر الرجل إلى هذه القدم؛ بل إن الكلمة الصينية التي معناها القدم كان يحرم ذكرها في حضرة السيدات[٢٥].

وانتشرت هذه العادة بين جميع الطبقات والجماعات عدا المنشو والتتار وأصبحت من العادات الثابتة الجامدة، حتى لقد كان الكذب في حجم قدم العروس كافياً لإلغاء عقد الزواج[٢٦]. وحاول كانج شي أن يبطل هذه العادة ولكنه أخفق وظلت حتى أبطلتها الثورة فكان إبطالها أثراً من آثارها الصالحة.

وكانت ملابس الرجال هي السراويل والجلابيب، ويكاد لونها يكون على الدوام هو اللون الأزرق. وفي الشتاء كان السروال يغطى بالطماق ويضاعف عدد الجلابيب حتى يبلغ الثلاثة عشر في بعض الأحيان، وكانت كلها تبقى على الجسم ليلا ونهاراً طول فصل الشتاء، فإذا أقبل الربيع خلعت تدريجاً واحداً بعد واحد[٢٧]. وكان المئزر مختلف الطول فكان يصل حيناً إلى الحقوين وحيناً إلى

الركبتين وتارة إلى القدمين ، وكان يزرر إلى العنق ، وكان له كمّان كبيران يغنيان عن الجيوب ، والصينيون لا يقولون إن الرجل وضع شيئاً ما فى «جيبه» بل يقولون إنه وضعه فى «كمه». أما القمصان والملابس الداخلية فلسنا نخطئ كثيراً إذا قلنا إنها كانت غير معروفة . وكانت النساء فى الريف يلبسن سراويل كسراويل الرجال لأنهن قد اعتدن أن يعملن أعمال الرجال وأكثر من أعمال الرجال . أما فى المدن فكن يلبسن فوق السراويل نقباً(*) . وكان الحرير كثيرا فى المدن يستوى فى ذلك هو والقطن .

ولم تكن للنساء مناطق تضغط على خصرهن أو مشدات تمسك أثداءهن ، وبذلك كانت ملابس الصينيين بوجه عام أكثر انطباقاً على مقتضيات العقل وأكثر ملاءمة لصحة الجسم وراحته من ملابس الغربيين فى هذه الأيام . ولم يكن لأنماط الملابس سلطان قوى على المرأة الصينية كما لم تكن الملابس وسيلة لتباين الطبقات ورفع بعضها فوق بعض . ذلك بأن أهل المدن مهما اختلفت أقدارهم كانوا لا يختلفون فى ملابسهم ، كما أن هذه الملابس لا تكاد تختلف فى الأجيال المختلفة . نعم قد يختلف القماش الذى يصنع منه الثوب ، أما شكله فقد كان واحداً على الدوام ، ولم تكن طبقة من الطبقات تشك فى أن نمطاً من الأنماط سيبقى إلى أن يبلى الثوب .

ولغة الصينيين تختلف عن سائر لغات العالم أكثر مما تختلف ملابسهم عن ملابس سائر الناس . ذلك أنها ليست لها حروف ولا هجاء ولا نحو ، ولا تنقسم إلى أسماء وأفعال وحروف ، وإنا لنعجب كيف استطاعت هذه الأمة وهى أقدم أمم الأرض وأكثرها عدداً أن تعيش من غير هذه البلايا التى ابتلى بها شبان الأمم الغربية . ومن يدرى فلربما كان لهذه اللغة فى الأيام الخالية المنسية اشتقاق ونحو وصرف وإعراب وتثنية وجمع وأفعال ماضية وحاضرة ومستقبلة ، ولكننا لا نجد

(*) هى المعروفة بالجونلات .

أثراً لشيء من هذا فى أقدم ما عرفنا من عهود هذه اللغة ، فكل كلمة فيها قد تكون اسماً أو فعلا أو صفة أو ظرفاً بحسب سياقها وطريقة النطق بها . ولما كانت اللهجات الكلامية لا تحتوى على أكثر من ثلثمائة أو أربعمائة لفظ صوتى ذى مقطع واحد ، ولما كانت هذه المقاطع هى التى تستعمل للتعبير عن الأربعين ألف حرف المستخدمة فى اللغة الكتابية فإن لكل واحد من هذه الألفاظ الصوتية « نغمات » تختلف من أربع إلى تسع بحيث يختلف معناه باختلاف طريقة التغنى به .

وتوضح حركات الجسم وسياق الكلام هذه النغمات ، وتجعل كل صوت يؤدى أغراضاً متعددة ، فحرف الباء وحده مثلا قد يؤدى تسعة وستين معنى كما أن للفظ شي تسعة وخمسين ، وللفظ كو تسعة وعشرين[٣٠] . ولسنا نعرف لغة من اللغات قد بلغت ما بلغته اللغة الصينية من التعقيد والدقة والاختصار .

وكانت لغة الكتابة أكثر اختلافاً عن سائر لغات العالم من لغة الكلام . تشهد بذلك الأدوات التى استخرجت من هونان والتى يرجعها المؤرخون إلى عهد أسرة شانج وإن لم يكونوا واثقين من ذلك كل الثقة ، فقد وجدوا على هذه الأدوات كتابة برموز لا تختلف كثيراً عن الرموز المستعملة فى هذا الجيل . ولهذا فإننا إذا استثنينا عدداً قليلا من الأقباط الذين يتكلمون اللغة المصرية القديمة[*] فإن اللغة الصينية هى أقدم اللغات التى ينطق بها الناس فى هذه الأيام وأوسعها انتشاراً . وكان الصينيون فى بادئ الأمر يعقدون عقداً فى خيوط لينقلوا بها رسائلهم ، وأكبر الظن أن حاجة الكهنة إلى نقل الطلاسم السحرية وحاجة الفخرانيين إلى تمييز آنيتهم بعضها من بعض هى التى أدت إلى الرموز المصوَّرة[٣٢] .

(*) نعود هنا ما قلناه من قبل وهو أن أقباط مصر لا يتكلمون اللغة المصرية القديمة ، وإذا كان من إخواننا الأقباط من يعرفون اللغة القبطية فإنهم لا يستعملونها فى كلامهم . وليست اللغة القبطية هى اللغة المصرية القديمة وإن احتوت بعض ألفاظها . (المترجم)

وكانت هذه الرموز المصورة البدائية منشأ العلامات الستمائة ، وهى الرموز الأساسية فى الكتابة الصينية ؛ وقد سمى نحو مائتين وأربعة عشر رمزاً منها « أصولا » لأنها عناصر أساسية . وجميع حروف اللغة الدارجة ، والحروف المستعملة فى الوقت الحاضر ، رموز معقدة غاية التعقيد أثقل فيها العنصر التصويرى البدائى بزيادات كثيرة يقصد بها تحديد معنى اللفظ تحديداً واضحاً ، ويكون ذلك فى العادة ببيان ما يطرأ من تغيير على نغمته . ولم يكتف الصينيون بأن يجعلوا لكل كلمة ينطقون بها علامة بل إنهم يجعلون لكل فكرة أيضاً علامة خاصة ، فهذه علامة يرمز بها للحصان وهذه علامة أخرى يرمز بها « للحصان الأحمر الأسود ذى البطن الأبيض »(*) كما يرمز برمز آخر للحصان ذى البقعة البيضاء على جبهته(**) . ولا تزال بعض هذه الرموز بسيطة بساطة نسبية ، فالقوس فوق خط مستقيم (أى الشمس فوق الأفق) معناها « الصباح » . والشمس والقمر مجتمعين يمثلان « الضوء » ؛ والفم والطائر معاً معناها « الغناء » ، والمرأة تحت سقف معناها « السلام » ؛ والمرأة والفم والعلامة الدالة على « الالتواء » يتكون منها الرمز الذى منه « خَطِر » ؛ والرجل والمرأة مجتمعين يعنيان « شرشرة » ؛ والنزاع يعبر عنه بامرأة ذات فمين ؛ والزوجة يعبر عنها بالعلامات الدالة على امرأة ومكنسة وزوبعة(٣٣) .

وهذه لغة بدائية من بعض الوجوه استطاع أهلها بمحافظتهم الشديدة على القديم أن يبقوها حية فى هذه الأوقات « الحاضرة » . والصعوبات الكامنة فى هذه اللغة أوضح من مزاياها وفضائلها ، ويقال إن الصينى يحتاج إلى ما بين عشر سنين وخمسين سنة ليتعلم فيها جميع الأربعين ألف رمز التى تتكون منها

(*) فى اللغة العربية شىء من هذا أو ما يقرب منه فهذه المعانى يؤديها فى العربية لفظا الكميت والأبطن ، ولكن هذا لا يبلغ بالضبط مبلغه فى اللغة الصينية إذ يؤديها فيها رمز واحد (المترجم)

(**) وهذا المعنى يؤديه فى العربية لفظ أصقع . (المترجم)

لغته ، ولكننا إذا عرفنا أن هذه الرموز ليست حروفاً بل أفكاراً ، ثم فكرنا في طول الوقت الذى نحتاجه لكى نعرف أربعين ألف فكرة من الأفكار أو حتى أربعين ألف كلمة من الكلمات ، رأينا أن فى العبارات التى نستخدمها للمفاضلة بين اللغة الصينية وغيرها من اللغات ظلماً شديداً للصينيين ، وأن من واجبنا إذا كنا ننشد الإنصاف أن نقول إن الصينى يحتاج إلى خمسين عاماً ليعرف أربعين ألف فكرة . والواقع أن الصينى العادى يكفيه ثلاثة آلاف علامة أو أربعة آلاف ، وأن من السهل عليه أن يعرف هذا العدد بمعرفة « أصولها » السالفة الذكر . وأوضح ميزة لهذه اللغة — التى لا تعبر عن الأصوات بل عن الأفكار — هى أن الكوريين واليابانيين يسهل عليهم أن يقرؤوها كما يسهل على الصينيين ، وأنها تعد لغة كتابة دولية لبلاد الشرق الأقصى . يضاف إلى هذا أنها تجمع فى نظام واحد من نظم الكتابة بين جميع سكان الصين الذين تختلف لهجاتهم اختلافاً يجعل التفاهم بينهم يكاد يكون مستحيلا ، حتى أن الرمز الواحد يقرأ بأصوات مختلفة وكلمات مختلفة فى مختلف البيئات . وهذه الميزة تنطبق على مختلف الأزمنة انطباقها على مختلف الأمكنة ، ذلك بأن لغة الكتابة قد بقيت واحدة فى جوهرها على حين أن لغة الكلام قد تفرعت إلى ما ينيف على مائة من اللهجات . ومن أجل هذا كان فى وسع الصينى غير الأمى أن يقرأ الأدب الصينى الذى ظل يكتب بهذه الحروف نحو ألفى عام كاملة ، وإن كنا لا نعلم كيف كان الكتاب الأقدمون ينطقون بالألفاظ التى كتبوها أو يعبرون عن الأفكار التى ترمز لها هذه العلامات . ولقد كان هذا الإصرار الشديد على الاحتفاظ بالكتابة الموحدة القديمة بين هذا الفيض الدافق من اللهجات الكلامية المتباينة عاملاً قوياً على الاحتفاظ بالأفكار الصينية والثقافة الصينية إلى هذه الأيام كما كانت عاملاً قوياً فى تمسك الصينيين بعاداتهم وتقاليدهم القديمة . ذلك أن الأفكار القديمة قد رسخت فى البلاد ، وكانت هى القالب الذى صبت فيه عقول الشباب

وإن خصائص الحضارة الصينية لتتمثل فى هذه الظاهرة الفذة التى امتازت بها كتابتها على غيرها من البلاد : وحدتها بين مختلف اللهجات والتطورات، وتمسكها الشديد بالقديم واتصالها المنقطع النظير . ولقد كان هذا النظام الكتابى فى حد ذاته من أجل الأعمال العقلية واعلاها شأناً ، فقد صنف العالم بأجمعه — عالم الجماد والنشاط والأوصاف — إلى بضع مئات من الرموز التى جعلت « أصولا » ، ثم أضاف إلى هذه الأصول نحو خمسمائة وألف من العلامات المميزة فأضحت تمثل فى صورها الكاملة جميع مافى الحياة من أفكار وآداب . ومن واجبنا ألا نثق كل الثقة من أن الطرق المختلفة التى ندون بها نحن أفكارنا أرقى من هذه الطريقة البدائية ، فقد كان ليبنتز فى القرن السابع عشر وسير وُنَلْدُرْس فى هذه الأيام يحلمان بوضع طريقة من العلامات الكتابية مستقلة كل الاستقلال عن لغات الكلام ، بعيدة كل البعد عن الاختلافات القومية ، وعن اختلافات الزمان والمكان ، يستطاع بها من أجل هذا التعبير عن أفكار الشعوب المختلفة بطرق واحدة يفهمها الناس كلهم على السواء ، ولكن لغة الرموز هذه التى كان يحلم بها هذان العالمان قائمة فعلاً فى الشرق الأقصى توحد بين مائة من الأجيال وبين ربع سكان العالم . وإن النتيجة التى وصل إليها الشرقى لنتيجة منطقية رهيبة : إن سائر بلاد العالم يجب أن تتعلم طريقة الكتابة الصينية .

الفصل الثالث

الحياة العملية

١ — فى الحقول

فقر الزراع — الوسائل الاقتصادية — المحصولات — الشاى — الطعام — صبر أهل القرية

لقد كان خصب التربة هو الدعامة التى يقوم عليها آخر الأمر كل ما حوته تلك اللغة من آداب ، وكل ما اشتمل عليه التفكير الصينى من دقة وعمق ، وكل ما انطوت عليه الحياة الصينية من نعيم وترف . وبعبارة أصح لقد كانت هذه الدعامة هى جهود الصينيين أنفسهم ، لأن التربة الخصبة لا تخلق خلقاً بل تنشأ إنشاء . وما من شك فى أن سكان الصين الأولين قد ظلوا قروناً طوالا يكافحون الأدغال والغابات ، والوحوش والحشرات ، والجفاف والفيضان ، وأملاح التربة والصقيع ، حتى استطاعوا فى آخر الأمر أن يحولوا تلك البرارى الشاسعة الموحشة إلى حقول خصبة مثمرة ، وكان لا بد لهم أن يعودوا حيناً بعد حين إلى خوض هذه المعارك لكى يحتفظوا بما نالوا من نصر ، فإذا ما استمروا يقطعون أشجار الغابات مائة عام مثلا استحالت الأرض صحراء مجدبة(*)، وإذا أهملوا تقطيعها بضع سنين استحالت حراجاً وغابات كثيفة .

ولقد كان هذا الكفاح كفاحاً مريراً ينطوى على أخطار جسيمة ، وكان يزيد من مرارته أن البلاد كانت معرضة لهجمات البرابرة واستيلائهم على

(*) ذلك أن سفوح التلال والمنحدرات التى تقطع أشجارها لا تقوى على الاحتفاظ بما يسقط عليها من الأمطار فتجرف مياهها التربة العليا الخصبة وتجدب وتخلو من الدوائق التى تحول دون انسياب السيول على الوديان وإغراقها

محصولات الأرض المستصلحة ، ومن أجل هذا كان الزراع يتقون هذه الإغارة بأن يعيشوا فى جماعات صغيرة لا فى منازل متفرقة متباعدة ، وكانوا ينشئون حول قراهم أسواراً ، ويخرجون لزرع الأرض مجتمعين ، وكثيراً ما كانوا يقضون الليل ساهرين يحرسون الحقول .

وكانت طرق الزراعة عندهم ساذجة وإن لم تختلف كثيراً عن طرق الزراعة فى هذه الأيام . وكانوا فى بعض الأحيان يفلحون الأرض بالمحاريث ، وقد اتخذوها أولا من الأخشاب ثم من الحجارة ، واتخذوها بعدئذ من الحديد ، ولكنهم كانوا فى أكثر الأحيان يقلبون ما يمتلكون من قطع الأرض الصغيرة بالفأس يكدحون بها صابرين . وكانوا يستعينون على إخصاب التربة بكل ما يجدونه من المخصبات الطبيعية ، ولا يستنكفون أن يجمعوا لهذا الغرض فضلات الكلاب والآدميين . ولقد احتفروا من أقدم الأزمنة قنوات يجرون فيها مياه أنهارهم الكثيرة إلى مزارع الأرز أو حقول الذرة ، فشقوا ترعاً عميقة يبلغ طولها عدة أميال فى الصخور الصماء ليصلوا بها إلى مجرى مائى بعيد أو يحولوا مجراه حتى يصل إلى سهل جاف ، واستطاع الصينيون دون الاستعانة بالدورة الزراعية أو المخصبات الصناعية ، ومن غير حيوانات الجر فى كثير من الأحيان ، أن يزرعوا نصف أرضهم على الأقل زرعتين أو ثلاث زرعات فى العام ، وأن يستخرجوا منها من أنواع الغذاء أكثر مما استخرجه أى شعب آخر فى التاريخ(٢٤) .

وكانت أهم الحبوب التى زرعوها هى الأرز والذرة ويليها فى الأهمية القمح والشعير . وكانوا يتخذون من الأرز غذاء وخمراً ، ولكن الفلاح لم يدمن هذا الشراب فى يوم من الأيام . أما شرابه المحبب إليه ، ومحصوله الذى يلى الأرز فى أهميته ، فهو الشاى . وكان استعماله فى مبدإ الأمر مقصوراً على التداوى ، ثم زاد انتشاراً حتى صار فى عهد أسرة تانج من المحصولات التى تصدر إلى خارج البلاد ،

والتى يتغنى بها الشعراء فى أشعارهم . ولم يحلّ القرن الخامس عشر حتى كانت جميع بلاد الشرق الأقصى مغرمة بشراب الشاى تتغنى بمديحه ، وحتى أخذ المولعون به يعملون لاستنبات أنواع جديدة منه ، ويعقدون مجالس الشراب للحكم على خير ما يقدم منها للحاضرين[٣٥] . وكان من محصولاتهم الأخرى الخضر اللذيذة والمغذية كفول الصويا ، والتوابل المقوية كالثوم والبصل ، وعشرات المئات من أنواع الفاكهة[٣٦] ؛ وكانت اللحوم أقل المنتجات الريفية شأناً ؛ وكانت الثيران والجاموس تستخدم أحياناً فى حرث الأرض ، أما تربية الماشية للانتفاع بلحومها فكانت مقصورة على الخنازير والدجاج[٣٧] ، وكانت طائفة كبيرة من السكان تتخذ غذاءها من سمك البحر والمجارى المائية العذبة .

وكان أهم ما تتغذى به الطبقات الفقيرة هو الأرز الجاف، والمكرونة ، والشعرية ، وقليل من الخضر والسمك . أما الطبقات الوسطى فكانت تضيف إلى هذا لحم الخنازير والدجاج ، وتضيف إليه الغنية لحم البط ، وكانت أرقى المآدب التى تقام فى پيكين تحتوى على مائة صنف من أصناف البط[٣٨] . وكان ابن البقر نادراً وكذلك كان البيض قليلا وقلما كان يؤكل طازجاً . غير أن فول الصويا كان يمد الأهلين باللبن الصالح والجبن . وقد تطور فن الطهو فى الصين حتى أصبح من الفنون الجميلة ، وكان يستخدم فيه كل منتجات الأرض والماء وطيور الهواء ، فكانت الحشائش والأعشاب البحرية تقتلع من الأرض ، وأعشاش الطير تنهب لتعمل منها أنواع الحساء اللذيذ ، وكانت أطعمة لذيذة تتخذ من زعانف كلب البحر وأمعاء السمك والجراد والجنادب وصغار الديدان ودود القز ولحم الخيل والبغال والجرزان وثعابين الماء والقطط والكلاب[٣٩] . وكان الصينيون يحبون لذيذ المآكل، ولم يكن من غير المألوف أن تشتمل مائدة الرجل الغنى على أربعين صنفاً ، وأن يظل القوم حول موائد الطعام ثلاث ساعات أو أربعاً يأكلون فيها و شربون .

أما الرجل الفقير فلم يكن يصرف هذا الوقت كله فى طعامه الذى كان

يتناول منه وجبتين فى اليوم . ولم يكن الفلاح رغم كدحه المتواصل بمنجاة من الجوع طول أيام حياته ، إذا استثنينا بعض الحالات فى مختلف الأقاليم والأوقات. وكان فى وسع الأقوياء الماهرين منهم أن يستحوذوا على ضياع واسعة ، وأن يركزوا ثروة البلاد فى أيد قليلة . وكان يحدث فى بعض الأحيان ، كما حدث فى أيام الإمبراطور شى هوانج — دى ، أن يعاد توزيع الأرض على السكان ، غير أن ما بين الناس من فروق طبيعية سرعان ما كان يؤدى إلى تركيز الثروة مرة أخرى[41] . وكان معظم الزراع من ملاك الأراضى ، ولكن متوسط ما كان يملكه الفرد أخذ يتضاءل فى كل قرن عن الذى قبله نظراً لتزايد عدد السكان أسرع من ازدياد مساحة الأرض الصالحة للزراعة . فكانت نتيجة هذا هى الفقر الذى لا مثيل له إلا فى أفقر أقاليم الهند ! فقد كان دخل الأسرة المتوسطة لا يزيد على ٨٣ ريالا أمريكيا ، وكان كثيرون من الأفراد يعيشون بما يعادل ثلثى من الريال فى اليوم ، كما كان الملايين منهم يموتون من الجوع فى كل عام[42] . وقد ظلت الصين عشرين قرناً كاملا تعانى القحط بمعدل مرة فى كل عام[43] ، ويرجع بعض السبب فى هذا إلى أن الفلاح كان يستغل أسوأ استغلال ولا ينال من الطعام إلا ما يمسك الرمق ، ويرجع بعضه إلى ازدياد المواليد أسرع من تحسن الإنتاج الزراعى واتساع مساحة الأرض المنزرعة ، كما يرجع بعضه الآخر إلى سوء سبل الاتصال والنقل إلى حد يجعل السكان فى بعض الأقاليم يهلكون من الجوع بينما الطعام فى البعض الآخر يزيد على حاجة الأهلين . وآخر ما نذكره من هذه الأسباب أن الفيضان كان فى بعض الأحيان يتلف ما يتركه المالك والجابى للزارع فكثيراً ما كان نهر هوانج — هو ، الذى يسميه الناس « حزن الصين » ، يغير مجراه ويغرق ألفاً من القرى ويترك ألفاً أخرى صادية .

وكان الفلاحون يصبرون على هذه الكوارث ويتجرعون غصصها ، ومن أمثالهم المأثورة : « كل ما يحتاجه الإنسان فى هذه الحياة الفانية هو قبعة وحفنة

من الأرز »[٤٤] . وكانوا يكدحون ولكنهم لا يسرعون في عملهم ، فلم تكن ثمة آلة معقدة تدفعهم إلى العمل سراعاً ، أو تنهك أعصابهم بضجيجها وخطرها وسرعتها . ولم يكن لهم أيام راحة في آخر الأسبوع ولا أيام آحاد ، ولكن كانت لهم أيام إجازات وأعياد كعيد رأس السنة وعيد الفوانيس تتيح للعامل فرصة يستريح فيهما من عناء كدحه ؛ ويخفف فيهما بالمسرحيات والأساطير ما في سائر فصول السنة من اكتئاب . فإذا ما ولى الشتاء بزمهريره ووجهه الكالح ، ولانت تربة الأرض بما سقط عليهما من مطر الربيع بعد أن ذاب ما تراكم عليهما من ثلج الشتاء ، خرج الفلاحون مرة أخرى ليزرعوا حقولهم الضيقة ، ويغنوا في مرح وحبور أغاني الأمل التي تحدرت إليهم من ماضيهم السحيق .

٢ — في المتاجر

الحرف اليدوية — الحرير — المصانع — الطوائف — الحمالون — الطرق والقنوات — التجار — الائتمان والنقود — تجارب في العملة المتداولة — التضخم الناشئ من الطباعة

ازدهرت الصناعة في تلك الأيام ازدهاراً لم ير له مثيل في كافة أنحاء الأرض قبل القرن الثامن عشر . فمهما تتبعنا تاريخ الصين إلى ماضيه السحيق وجدنا الحرف اليدوية منتشرة في البيوت والتجارة رائجة في المدن .

وكانت أهم الصناعات الأساسية هي صناعة النسيج وتربية دود القز لاستخراج خيوط الحرير . وكانت كلتا الحرفتين تقوم بهما النساء في أكواخهن أو بالقرب منها . وكان غزل الحرير من الحرف القديمة في البلاد ، وترجع بدايتها في الصين إلى الألف السنة السابقة لميلاد المسيح(*)[٤٥] . وكان الصينيون يعلمون

(*) لقد كان اليونان والرومان الأقدمون يعرفون طريقة غزل الحرير المستخرج من شرانق ديدانه البرية ؛ أما صناعة تربية الدود وجمع الحرير ونسجه فقد جاء بها الرهبان النساطرة من الصين إلى أوربا حوالي عام ٥٢٢ م[٤٦] . وانتقلت هذه الصناعة في القرن الثاني عشر من القسطنطينية إلى صقلية ثم انتقلت إلى إنجلترا في القرن الخامس عشر .

الدود ورق التوت الحديث التقطيع ويحصلون من تربيته على نتائج عجيبة ، ولعل القارئ لا يصدق إذا قيل له إن رطلا من الديدان (أى ٧٠٠٫٠٠٠ دودة) يتغذى على هذا الورق كان يتضاعف إلى ٩٫٥٠٠ رطل فى اثنين وأربعين يوماً[٤٧] . وكانت الديدان الكبار توضع بعدئذ فى سدادات صغيرة من القش تنسج حولها شرانقها بما تفرزه من الحرير ، فإذا أتمت عملها أخذت الشرانق وألقيت فى ماء ساخن فخرج الحرير من القالب الذى لف عليه وعالجوه ونسجوه وصنعوا منه أنواعاً عدة من الثياب والأقمشة المزركشة والمطرزة والأنسجة المشجرة التى كانت تصنع منها ملابس الطبقات العليا فى العالم كله[*] ، أما من ينتجون الحرير وينسجونه فكانوا يتخذون ثيابهم من القطن .

وكانت هذه الصناعة المنزلية تكمل بحوانيت فى المدن حتى فى القرون السابقة لميلاد المسيح ، ولذلك وُجدت من بداية القرن الثالث قبل الميلاد جماعات من العمال فى المدن نظمت هى والمشرفون عليها فى طوائف من أرباب الحرف . وكان نمو هذه الصناعة فى الحوانيت سبباً فى ازدحام المدن بالسكان العاملين المجدين الذين جعلوا الصين فى أيام كوبلاى خان تضارع من الوجهة الصناعية أوربا فى القرن الثامن عشر بعد الميلاد . وقد كتب ماركوپولو فى ذلك يقول :

« لكل حرفة من الحرف مائة متجر يهيئ كل واحد منها العمل لعشرة أو خمسة عشر أو عشرين من الصناع ، وقد يصل هذا العدد فى بعض الصناعات إلى أربعين ... والسادة الأغنياء أصحاب الحوانيت لا يعملون بأيديهم بل يتظاهرون بالرقة والتسامى والتأنق فى حديثهم وحركاتهم »[٥٠] . وكانت هذه النقابات تعمل ما تعمله الصناعات المنظمة فى هذه الأيام ، فتحدد التنافس وتنظم

(*) لم يكن من غير المألوف عند المضيف إذا جاءه الضيوف أن يمر عليهم بنسيج رقيق من الحرير يعرضه عليهم[٤٨] كما يعرض عليهم غيره آنية من الخزف أو يبسط أمامهم ملفا من الصور أو من الخط الجميل .

الأجور وساعات العمل ، وكان الكثير منها يحدد الإنتاج ليحتفظ بمستوى أسعار منتجاته ، ولعل رضاها بأساليبها القديمة واطمئنانها إليها كانا من أسباب تأخر العلوم فى الصين ، ومقاومة الانقلاب الصناعى فى تلك البلاد ، مقاومة دامت حتى أخذت كل الحواجز والأنظمة فى هذه الأيام تنهار أمام طوفان الصناعة الأوربية الجارف .

وكانت النقابات فى الصين تضطلع بكثير من الواجبات التى عهد بها السكان الغربيون المتكبرون إلى الدولة . فكانت هذه النقابات تسن قوانينها بنفسها وتعدل فى تنفيذها . وقد قللت من الإضراب بما كانت تقوم به من تسوية النزاع بين العمال وأصحاب الأعمال بطرق التحكيم على يد لجان الوسطاء التى يمثل فيها كلا الطرفين بالتساوى . وكانت هذه النقابات بوجه عام هيئات صناعية تحكم نفسها وتنظم شئونها ، وكانت مخرجا يدعو إلى الإعجاب من التذبذب الحادث فى هذه الأيام بين مبدأى التخلى وترك الأمور تجرى فى مجراها من جهة وسيطرة الدولة على جميع الشئون من جهة أخرى .

ولم تكن النقابات مقصورة على التجار والصناع وعمالهم ، بل كانت هناك نقابات لطوائف أقل من هؤلاء شأناً كالحلاقين والحمالين والطباخين . بل إن المتسولين أنفسهم كانت لهم هيئة تفرض على أعضائها قوانين صارمة[٥١] . وكانت أقلية ضئيلة من عمال المدن من الأرقاء يستخدم معظمهم فى الأعمال المنزلية ويبقون تحت سلطان سادتهم عدة سنين أو طول الحياة ، وكان اليتامى والبنات يُعرضون للبيع فى أيام القحط ويباعون بعدد قليل من « الكاشات » ، وكان من حق الأب فى كل وقت أن يبيع بناته أو عبيده . على أن هذا الاسترقاق لم يبلغ فى يوم من الأيام ما بلغه فى بلاد اليونان أو الرومان ، وكانت كثرة العمال من أعضاء النقابات أو الوكلاء الأحرار — كما كانت كثرة الزراع من ملاّك

الأراضى ... يحكمون أنفسهم فى هيئات قروية مستقلة فى معظم شئونها عن إشراف الدولة[٥٢] .

وكانت منتجات العمل تنقل على ظهور الناس ، بل إن الناس أنفسهم كان معظمهم ينقلون فى الحدوج فوق أكتاف الحمالين المكدودة المتصلبة ، ولم يكن هؤلاء يشكون من عملهم أو يتضجرون منه(*)، وكانت الدلاء الثقيلة أو الحزم الضخمة تعلق فى طرفى قوائم خشبية تحمل على الكتفين ، وكانت عربات النقل تجرها الحمير أحياناً ولكنها فى أكثر الأحيان كان يجرها الرجال . ذلك أن عضلات الآدميين قد بلغت من الرخص حداً لا يشجع على رقى النقل الحيوانى أو الآلى ، كما كانت حال النقل البدائية غير حافزة على إصلاح الطرق وتعبيدها .

ولما أن أنشئ أول خط حديدى فى الصين بين شنغهاى وووسونج بفضل رؤوس الأموال الأجنبية ، احتج الصينيون على هذا العمل وقالوا إنه سيزعج الأرواح التى فى باطن الأرض ، واشتدت مقاومتهم حتى اضطرت الحكومة إلى شراء الخط الحديدى وإلقاء القاطرات والعربات فى البحر[٥٣] . وقد أنشئت فى أيام شى هوانج — دى وكوبلاى خان طرق عامة رصفت بالحجارة ولكنها لم يبق منها الآن إلا جوانبها . أما شوارع المدن فلم تكن سوى أزقة لا يزيد عرضها على ثمان أقدام صممت لكى تحجب الشمس ، وكانت القناطر كثيرة العدد جميلة فى بعض الأحيان ، ومن أمثلتها القنطرة الرخامية التى كانت عند القصر الصيفى ، وكان التجار والمسافرون يستخدمون الطرق المائية بقدر ما كانوا يستخدمون الطرق البرية ، وكان فى البلاد قنوات مائية يبلغ طولها ٢٥,٠٠٠ ميل ، تستخدم بدل السكك الحديدية ، ولم يكن فى الأعمال الهندسية الصينية ما يفوق القناة الكبرى التى تربط هانجتشاو بتيانتسين والتى يبلغ طولها ٦٥٠ ميلا ، والتى بدئ

(*) إن اللفظ الإنجليزى لهذه الكلمة وهو Cooli هندى الأصل ولعله مشتق من اللفظ التميل Kuli ومعناه الخادم المأجور .

فى حفرها سنة ٣٠٠ م وتم فى عهد كوبلاى خان ، لم يكن يفوقها إلا السور العظيم . وكانت القوارب المختلفة الأشكال والأحجام لا ينقطع غدوها ورواحها فى الأنهار ، ولم تكن تتخذ وسائل للنقل الرخيص فحسب بل كانت تتخذ كذلك مساكن للملايين من الأهلين الفقراء .

والصينيون تجار بطبعهم وهم يقضون عدة ساعات فى المساومات التجارية ، وكان الفلاسفة الصينيون والموظفون الصينيون متفقين على احتقار التجار ، وقد فرض عليهم أباطرة أسرة هان ضرائب فادحة وحرموا عليهم الانتقال بالعربات ولبس الحرير .

وكان أفراد الطبقات الراقية يطيلون أظافرهم ليدلوا بعملهم هذا على أنهم لا يقومون بأعمال جثمانية ، كما تطيل النساء الغربيات أظافر أيديهن لهذا الغرض عينه[٦٤] ؛ وقد جرت العادة أن يعد العلماء والمدرسون والموظفون من الطبقات الراقية ، وتليهم فى هذا طبقة الزراع ، ويأتى الصناع فى المرتبة الثالثة ، وكانت أوطأ الطبقات طبقة التجار لأن هذه الطبقة الأخيرة – على حد قول الصينيين — لا تجنى الأرباح إلا بتبادل منتجات غيرها من الناس .

لكن التجار مع ذلك أثروا ونقلوا غلات حقول الصين وسلع متاجرها إلى جميع أطراف آسية ، وصاروا فى آخر الأمر الدعامة المالية للحكومة الصينية . وكانت التجارة الداخلية تعرقلها الضرائب الفادحة ، وأما التجارة الخارجية فكانت معرضة لهجمات قُطاع الطريق فى البر والقراصنة فى البحر . ومع هذا فقد استطاع التجار الصينيون أن ينقلوا بضائعهم إلى الهند وفارس وبلاد النهرين وروما نفسها فى آخر الأمر بالطواف حول شبه جزيرة الملايو بحراً وبالسير فى طرق القوافل التى تخترق التركستان[٥٥] وكانت أشهر الصادرات هى الحرير والشاى والخوخ والمشمش والبارود وورق اللعب ، وكان العالم يرسل إلى الصين بدل هذه الغلات والبضائع الفِصْفِصَة(*) .

(*) هو المعروف بالإنجليزية باسم **Alfalfa** واللفظة الأسبانية منحرفة عن اللفظة العربية « الفِصْفِصة » وهو نبات ذو ثلاث أوراق .

والزجاج والجزر والفول السودانى والدخان والأفيون .

وكان من أسباب تيسير التبادل التجارى نظام الائتمان والنقود . فقد كان التجار يقرض بعضهم بعضاً بفوائد عالية تبلغ فى العادة نحو ٣٦٪، ونقول إنها عالية وإن لم تكن أعلى مما كانت فى بلاد اليونان والرومان[٥٦] . وكان من أسباب ارتفاع سعر الفائدة ما يتعرض له المرابون من أخطار شديدة ، فكانوا من أجل ذلك يتقاضون من الأرباح ما يتناسب مع هـذه الأخطار ، ولم يكن أحد يحبهم إلا فى مواسم الاستدانة . ومن الحكم الصينية المأثورة قولهم : « السارقون بالجملة ينشئون المصارف »[٥٧] . وأقدم ما عرف من النقود ما كان يتخذ من الأصداف البحرية والمدى والحرير .

ويرجع تاريخ أقدم عملة معدنية إلى القرن الخامس قبل الميلاد على الأقل[٥٨] وجعلت الحكومة الذهب العملة الرسمية فى عهد أسرة شين ، وكانت العملة الصغرى تصنع من خليط من النحاس والقصدير ، وما لبثت هذه أن طردت الذهب من التعامل(*) . ولما أخفقت التجربة التى قام بها وو دى والتى أراد بها أن يضرب عملة مصنوعة من الفضة والقصدير لكثرة ما زيف وقتئذ من النقود ، استعيض عنها بشرائح من الجلد يبلغ طول الواحدة منها قدماً ، وكانت هـذه الشرائح مقدمة لاستعمال النقود الورقية . ولما أن أضحى ما يستخرج من النحاس أقل من أن يفى بالأغراض التجارية لكثرة البضائع المتداولة ، أمر الإمبراطور شين دزونج فى عام ٨٠٧ أن تودع العملة النحاسية كلها فى خزائن الحكومة وأن يصدر بدلا منها شهادات مدينة أطلق عليها الصينيون اسم « النقود الطائرة » ، لأنهم كما يبدو تحملوا متاعبهم المالية بنفس الطمأنينة التى تحمل بها الأمريكيون

(*) لا يزال النحاس هو العملة السائدة فى الصين فى هذه الأيام وتصنع منه « الكاشة » وهى عملة قيمتها ١/١٠٠ أو ١/٢٠٠ من الريال الأمريكى كما يصنع منه التئيل وهو يساوى ألف « كاشة » .

متاعبهم فى عام ١٠٢٣ . ولم تستمر هذه الطريقة إلاريثما زالت الضائقة ؛ ولكن اختراع الطباعة بالقوالب أغرى الحكومة على أن تستخدم هذه الطريقة الجديدة فى عمل النقود ، فشرعت ولاية سشوان شبه المستقلة فى عام ٩٣٥ م والحكومة الوطنية فى شنجان عام ٩٧٠ تصدران النقود الورقية . وأسرفت الحكومة فى عهد أسرة سونج فى إصدار هذه النقود ، فنشأ من ذلك تضخم شديد قضى على كثير من الثروات[٥٩] .

ويقول ماركو بولو عن خزائن كوبلاى خان : « إن دار السك الإمبراطورية تقوم فى مدينة كمبوك (بيكين) ، وأنت إذا شاهدت الطريقة التى تصدر بها النقود قلت إن فن الكيمياء أتقن إتقاناً لا إتقان بعده ، وكنت صادقاً فيما تقول . ذلك أنه يصنع نقوده بالطريقة الآتية » ، ثم أخذ يستثير سخرية مواطنيه وتشككهم فيما يقول وعدم تصديقهم إياه فوصف الطريقة التى يؤخذ بها لحاء شجر التوت فتصنع منه قطع من الورق يقبلها الشعب ويعدها فى مقام الذهب[٦٠] . ذلك هو منشأ السيل الجارف من النقود الورقية الذى أخذ من ذلك الحين يدفع عجلة الحياة الاقتصادية فى العالم مسرعة تارة ويهدد هذه الحياة بالخراب تارة أخرى

٣ — المخترعات والعلوم

البارود — الألعاب النارية والحروب — ندرة المخترعات الصناعية — الجغرافية — الرياضيات — الطبيعة — « فنج شوى » — الفلك — الطب — تدبير الصحة

لقد كان الصينيون أقدر على الاختراع منهم على الانتفاع بما يخترعون . فقد اخترعوا البارود فى أيام أسرة تانج ، ولكنهم قصروا استعماله وقتئذ على الألعاب النارية ، وكانوا فى ذلك جد عقلاء ، ولم يستخدموه فى صنع القنابل اليدوية وفى الحروب إلا فى عهد أسرة سونج (عام ١١٦١ م) . وعرف العرب ملح البارود (نترات البوتاسا) — وهو أهم مركبات البارود — فى أثناء

اتجارهم مع الصين وسموه « الثلج الصينى » ونقلوا سر صناعة البارود إلى البلاد الغربية ، واستخدمه العرب فى إسپانيا فى الأغراض الحربية ، ولعل سير روچر بيكين أول من ذكره من الأوربيين قد عرفه من دراسته لعلوم العرب أو من اتصاله بده — روكى الرحالة الذى طاف فى أواسط آسية .

والبوصلة البحرية أقدم عهداً من البارود . وإذاجاز لنا أن نصدق ما يقوله عنها المؤرخون الصينيون فإن دوق چو قد اخترعها فى عهد الإمبراطور تشنج وانج (١١١٥ — ١٠٧٨ ق . م) ليهدى بها بعض السفراء الأجانب فىعودتهم إلى بلادهم . ويقول الرواة إن الدوق أهدى إلى السفارة خمس عربات جهزت كل منها « بإبرة تشير إلى الجنوب »[٦٢] . وأكبر الظن أن الصينيين الأقدمين كانوا يعرفون ما لحجر المغنطيس من خواص مغنطيسية ، ولكن استعماله كان مقصوراً على تحديد الاتجاهات فى بناء الهياكل . وقد ورد وصف الإبرة المغنطيسية فى السونج — شو وهو كتاب تاريخى مؤلف فى القرن الخامس الميلادى . ويقول المؤلف إن مخترعها هو الفلكى چانج هنج (المتوفىفىعام١٣٩م)، على أن هذا العالم لم يفعل أكثر من أن يكشف من جديد ما كانت الصين تعرفه قبل أيامه . وأقدم ما ورد عن الإبرة من حيث فائدتها للملاحين هو ما جاء فى كتاب أُلّف فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى وهو يعزو استخدامها فى هـذا الغرض إلى البحارة الأجانب — وأكبر الظن أنهم من العرب — الذين كانوا يسيرون سفنهم بين سومطره وكانتون[٦٣] . وأول إشارة معروفة لنا عن البوصلة فى أقوال الأوربيين هى ما ذكر عنها فى قصيدة لجنيو ده بروفن[٦٤] .

على أننا لانستطيع أن نصف الصينيين بأنهم من الأمم النشيطة فى ميدان الاختراعات الصناعية رغم اختراعهم البوصلة والبارود والطباعة والخزف . ولقد كانوا مخترعين فى الفنون ؛ وقد ارتقوا بها فى صورها التى ابتدعوها حتى بلغت درجة من الكمال لا نظير لها فى غير بلادهم أو فى غير تاريخهم ، ولكنهم ظلوا حتى

عام ١٩١٢ قانعين بالجرى على طرقهم الاقتصادية القديمة ، يحتقرون الأساليب والحيل التى تغنى عن العمل الشاق ، وتضاعف ثمار الجهود البشرية ، وتعطل نصف سكان العالم لتزيد من ثراء نصفه الآخر ، كأنهم فى احتقارهم هذا كانوا يتنبئون بما تجره هذه الاختراعات على البشر من شرور . وكان الصينيون من أوائل الأمم التى اتخذت الفحم وقوداً واستخرجوه من الأرض بكميات قليلة منذ عام ١٩٢٢ ق م(٦٥) ، ولكنهم لم يخترعوا آلات تريحهم من كدح استخراجه وتركوا معظم ما تخبئه أرضهم من الثروة المعدنية دون أن يستغلوها ، ومع أنهم عرفوا كيف يصنعون الزجاج فقد رضوا أن يستوردوه من الغرب ، ولم يصنعوا ساعات للجيب أو للحائط ، ولم يخترعوا المسامير المحواة بل إنهم لم يصنعوا من المسامير العادية إلا أغلظها(٦٦) . وقد ظلت حياة الصين الصناعية فى أهم نواحيها على حالها لم تتغير كثيراً خلال الألفى العام التى بين قيام أسرة هان وسقوط المنشو — شأنها فى هذا شأن الحياة الصناعية فى أوربا من أيام بركليز إلى عهد الانقلاب الصناعى .

كذلك كانت الصين تفضل سلطان التقاليد والعلماء على سلطان العلم والمال المثير للأعصاب ، ولذلك كانت الحضارة الصينية أفقر الحضارات العظمى فيما أفادته منها فنون الحياة المادية . فقد أخرجت هذه الحضارة كتباً من أرقى الكتب الدراسية فى الزراعة وفى تربية دود القز قبل ميلاد المسيح بقرنين كاملين ، وألفت رسالات قيمة فى علم تقويم البلدان(٦٧) . وقد خلف عالمها الرياضى المعمر چانج تسانج (المتوفى فى عام ١٥٢ ق . م) وراءه كتاباً فى الجبر والهندسة فيه أول إشارة معروفة للكميات السالبة . وقد حسب دزو تسو تشونج — چى القيمة الصحيحة للنسبة التقريبية إلى ثلاثة أرقام عشرية ، وحسن المغنطيس أو « الأداة التى تشير إلى الجنوب » وقد وردت إشارة عنه غير واضحة قيل فيها إنه كان يجرى التجارب على سفينة تتحرك بنفسها(٦٨) .

واخترع تشانج هنج آلة لتسجيل الزلازل (سيسمغرافا) في عام ١٣٢م(*). ولكن علم الطبيعة الصيني قد ضلت معظم أبحاثه في دياجير الفنج چوى السحرية واليانج والين من أبحاث ما وراء الطبيعة(**). وأكبر الظن أن علماء الرياضة الصينيين قد أخذوا الجبر عن علماء الهند، ولكنهم هم الذين أنشئوا علم الهندسة في بلادهم مدفوعين إلى هذا بحاجتهم إلى قياس الأرض[٧٠]. وكان في وسع الفلكيين في أيام كنفوشيوس أن يتنبئوا بالخسوف والكسوف تنبؤاً دقيقاً، وأن يضعوا أساس التقويم الصيني بتقسيم اليوم إلى اثنتي عشرة ساعة وتقسيم السنة إلى اثني عشر شهرا يبدأ كل منها بظهور الهلال، وكانوا يضيفون شهراً آخر في كل بضع سنين لكي يتفق التقويم القمري مع الفصول الشمسية[٧١]. وكانت حياة الصينيين على الأرض تتفق والحياة في السماء؛ وكانت أعياد السنة تحددها منازل الشمس والقمر، بل إن نظام المجتمع من الناحية الأخلاقية كان يقوم على منازل الكواكب السيارة والنجوم.

وكان الطب في الصين خليطاً من الحكمة التجريبية والخرافات الشعبية. وكانت بدايته فيما قبل التاريخ المدون، ونبغ فيه أطباء عظماء قبل عهد أبقراط بزمن طويل، وكانت الدولة من أيام أسرة چو تعقد امتحاناً سنوياً للذين يريدون الاشتغال بالمهن الطبية، وتحدد مرتبات الناجحين منهم في الامتحان حسب ما يظهرون من جدارة في الاختبارات. وقد أمر حاكم صيني في القرن الرابع

(*) وكانت الآلة التي اخترعها تتركب من ثمانية تنينات من النحاس قائمة على لوالب دقيقة حول وعاء نحم في وسطه ضفدعة فاغرة فاها. وكان كل تنين يمسك في فمه كرة من النحاس؛ فإذا حدث زلزال سقطت الكرة من أقرب التنينات إلى مركزها في فم الضفدعة. وحدث مرة أن سقطت الكرة من أحد التنينات وإن كان الناس لم يحسوا بهزة زلزال فسخروا من تشانج هج وقالوا إنه مشعوذ حتى جاءهم رسول وقال لهم إن زلزالا وقع في أحد الأقاليم النائية[٦٩].

(**) كان الفنج حي (الريح والماء) فنا واسع الانتشار في الصين الغرض منه التوفيق بين مواضع البيوت والقبور في الإقليم ومهاب الريح وتيارات الماء فيه.

قبل المسيح أن تشرح جثث أربعين من المجرمين المحكوم بإعدامهم ، وأن تدرس أجسامهم دراسة تشريحية ، ولـكن نتائج هذا التشريح وهذه الدراسة قد ضاعت وسط النقاش النظرى ، ولم تستمر عمليات التشريح فيما بعد . وكتب چانج چونج — تنج فى القرن الثانى عدة رسائل فى التغذية والحميات ظلت هى النصوص المعمول بها مدى ألف عام ، وكتب هوا — دو فى القرن الثالث كتاباً فى الجراحة ، وأشاع العمليات الجراحية باختراع نبيذ يخدر المريض تخديراً تاما . ومن سخافات التاريخ أن ضاعت أوصاف هذا المخدر فيما بعد ، ولم يعرف عنها شىء . وكتب وانج شو — هو فى عام ٣٠٠ بعد الميلاد رسالة ذائعة الصيت عن ضربات القلب[٧٢]

وفى أوائل القرن السادس كتب داو هونج — چنج وصفا شاملا لسبعمائة وثلاثين عقاراً مما كان يستخدم فى الأدوية الصينية ، وبعد مائة عام من ذلك الوقت كتب چاو يوان — فانج كتابا قيما فى أمراض النساء والأطفال ظل من المراجع الهامة زمناً طويلا . وكثرت دوائر المعارف الطبية فى أيام أباطرة أسرة تانج كما كثرت الرسائل الطبية المتخصصة التى تبحث كل منها فى موضوع واحد فى عهد الملوك من أسرة سونج[٧٣] . وأنشئت فى أيام هذه الأسرة كلية طبية ، وإن ظل طريق التعليم الطبى هو التمرين والممارسة . وكانت العقاقير الطبية كثيرة متنوعة حتى لقد كان أحد مخازن الأدوية منذ ثلثمائة عام يبيع منها بنحو ألف ريال فى اليوم الواحد[٧٤] . وكان الأطباء يطنبون ويتحذلقون فى تشخيص الأمراض ، فقد وصفوا من الحميات مثلا ألف نوع ، وميزوا من أنواع النبض أربعاً وعشرين حالة . واستخدموا اللقاح فى معالجة الجدرى ، وإن كانوا لم يستخدموا التطعيم للوقاية منه ، ولعلهم قد أخذوا هذا عن الهند ، ووصفوا الزئبق للعلاج من الزهرى . ويلوح أن هذا المرض الأخير قد ظهر فى الصين فى أواخر أيام أسرة منج وأنه انتشر انتشاراً مروعاً بين الأهلين ، وأنه بعد زواله قد خلف

وراءه حصانة نسبية تقيهم أشد عواقبه خطورة . غير أن الإجراءات الصحية العامة ، والأدوية الواقية ، والقوانين الصحية ، لم تتقدم تقدماً يذكر فى بلاد الصين ؛ كما كان نظام المجارى والمصارف نظاما بدائياً إذا كان قد وضع لها نظام على الإطلاق[٧٥] . وقد عجزت بعض المدن عن حل أول الواجبات المفروضة على كل مجتمع منظم — ضمان ماء الشرب النقى والتخلص من الفضلات .

وكان الصابون من مواد الترف التى لا يحصل عليها إلا الأثرياء الممتازون ، وإن كان القمل وغيره من الحشرات كثير الانتشار . وقد اعتاد الصينى الساذج أن يهرش جسمه ويخدشه وهو مطمئن هادئ هدوء الكنفوشيوسين . ولم يتقدم علم الطب تقدماً يستحق الذكر من أيام شى هوانج — دى إلى أيام الملكة الوالدة . ولعل فى وسعنا أن نقول هذا القول بعينه عن علم الطب فى أوربا من عهد أبقراط إلى عهد باستير . وغزا الطب الأوربى بلاد الصين فى صحبة المسيحية ، ولكن المرضى الصينيين من الطبقات الدنيا ظلوا إلى أيامنا هذه يقصرون الانتفاع به على الجراحة . أما فيما عداها فهم يفضلون أطباءهم وأعشابهم القديمة على الأطباء الأوربيين والعقاقير الأوربية .

الفصل الرابع

دين بلا كنيسة

الخرافات والتشكك – عبادة الطبيعة – عبادة السماء – عبادة الأسلاف – الكمفوشية – الدونة – إكسير الخلود – الوذية – التسامح الدينى والتصوف – الإسلام – المسيحية وأسباب إخفاقها فى الصين

لم يقم المجتمع الصينى على العلم بل قام على خليط فذ عجيب من الدين والأخلاق والفلسفة، ولم يشهد التاريخ شعباً من الشعوب أشد من الشعب الصينى استمساكا بالخرافات، أو أكثر منه تشككا أو أعظم منه تُقى، أو أكثر انصياعا لحكم العقل أو أقوى منه دنيوية. ولم توجد على ظهر الأرض أمة تماثل الأمة الصينية فى التحرر من سيطرة الكهنة، ولم يسعد قوم غير الهنود بآلهتهم، أو يشقوا بهم بمثل ما سعد بهم الصينيون أو شقوا. ولسنا نستطيع أن نفسر هذه المتناقضات إلا بأن نعزو لفلاسفة الصين نفوذاً لا نظير له فى التاريخ، وأن نقر بما فى فقر الصين من معين للأمانى الخيالية لا ينضب.

ولم يكن دين سكان الصين البدائيين يختلف بوجه عام عن دين عبدة الطبيعة، وأهم عناصره الخوف من الطبيعة وعبادة الأرواح الكامنة فى جميع نواحيها، وإجلال شعرى لما على الأرض من صور رهيبة ومافيها من قدرة عظيمة على الإنتاج والتوالد، وخشية السماء وعبادتها وإجلال ما فيها من شمس منعشة وأمطار مخصبة كانوا يعدونهما عنصراً من عناصر الوئام والارتباط بين ما على الأرض من حياة وما فى السماء من قوى خفية، فكانوا يعبدون الريح والرعد والأشجار والجبال الأفاعى؛ ولكن أعظم أعيادهم كانت تقام لمعجزة النماء، وكان

الشبان والفتيات فى أيام الربيع يرقصون ويتضاجعون فى الحقول ليضربوا المثل لأمهم الأرض فى الإخصاب والإنتاج . ولم يكن ثمة فرق كبير بين الملك والكاهن فى تلك الأيام ، وكان ملوك الصين الأولون ، كما ورد فى أقوال المؤرخين الذين أطنبوا فيما بعد فى وصفهم ، كهاناً سياسيين لا يقدمون على عمل من أعمال البطولة إلا بعد أن يمهدوا له بالأدعية والصلوات ويستعينوا عليه الآلهة[٧٦].

وكانت الأرض والسماء فى هذا الدين البدائى مرتبطتين إحداهما بالأخرى ، لأنهما شطران من وحدة كونية عظيمة ، وكانت صلة إحداهما بالأخرى أشبه ما تكون بصلة الرجل والمرأة وصلة السيد بالتابع واليانج بالين . وكان نظام السموات ومسلك الآدميين الخلق عمليتين متقاربتين متشابهتين لأنهما شطران من نظام عالمى لا غنى عنه يسمى دو — أى الطريقة السماوية ؛ وليست الأخلاق الطيبة فى اعتقادهم إلا نتيجة للتعاون القائم بين أجزاء هذا الكل شأنها فى هذا شأن القوانين التى تسير نجوم السماء .

وكان الإله الأكبر هو هذه السماء العظمى نفسها ، هذا النظام الأخلاقى ، هذا الترتيب القدسى ، الذى يشمل بين طياته الناس والجماد ويحدد العلاقات الحقة بين الأطفال وآبائهم ، والزوجات وأزواجهن ، وبين الأتباع وسادتهم ، والسادة والإمبراطور ، والإمبراطور والإله . لقد كان هذا تفكيراً عجيباً ولكنه تفكير نبيل يتأرجح بين التجسيد الشخصى حين يصلى الشعب لتين — السماء المعبودة — والتجريد حين يتحدث الفلاسفة عن جماع تلك القوى — الشديدة البعد عن قوة البشر فرادى أو مجتمعين — التى تسيطر على السموات والأرضين والأناسى . ولما تقدمت دراسة الفلسفة أضحت فكرة « السماء » الشيئية مقصورة على عامة الشعب ، أما فكرتها المجردة غير الشيئية فأضحت عقيدة الطبقات المتعلمة ودين الدولة الرسمى[٧٧] .

ومن هاتين البدايتين نشأ العنصران اللذان يتألف منهما دين الصين القومى وهما : عبادة الأسلاف المنتشرة بين جميع طبقات الأمة وعبادة السماء وعظماء الرجال التى تدعو إليها الكنفوشية . وكان الصينيون يقربون فى كل يوم قرباناً متواضعاً — ويكون فى العادة شيئاً من الطعام — للموتى ، ويرسلون الدعوات الصالحات إلى أرواحهم ؛ ذلك أن الزارع أو العامل الساذج كان يعتقد أن آباءه أو أسلافه يعيشون بعد موتهم فى مملكة غير محددة أو واضحة له ، وأن فى مقدورهم أن يسعدوه أو يشقوه . وكان الصينى المتعلم يقرب لأسلافه مثل هذا القربان ، ولكنه لم يكن ينظر إلى المراسم التى تصحبه على أنها عبادة ، بل كان ينظر إليها على أنها نوع من إحياء ذكراهم . ولقد كان من الخير لأرواح الموتى وللشعب الصينى بوجه عام أن يعظم هؤلاء الأموات ، وأن تخلد ذكراهم لأن فى تخليدها تعظيما للطرق القديمة التى كانوا يسيرون عليها وسداً لطريق البدع وإقراراً للسلام فى أنحاء الإمبراطورية . وما من شك فى أن هذا الدين كان يسبب للصينيين بعض المتاعب والمضايقات ؛ من ذلك أنه ملأ البلاد بما لا يحصى من القبور الضخمة التى لا يمكن انتهاك حرمتها ، فعاقت هذه القبور إنشاء الطرق الحديدية وفلح الأرض للزراعة ؛ ولكن هذه الصعاب كانت فى نظر الفيلسوف الصينى صعاباً تافهة لا يقام لها وزن أمام ما تسديه عبادة الأسلاف إلى المدنية الصينية من استقرار سياسى واطراد روحى . ذلك أن هذا النظام المتغلغل فى كيان الأمة الصينية قد أفاض عليها وحدة روحية زمانية رغم ما فيها من عوامل التفرق والانفصال التى تحول دون وحدتها المكانية وأهمها المسافات الشاسعة ، ومن فقرها فى وسائل النقل وسبل الاتصال . وبفضل هذه الوحدة الروحية ارتبطت الأجيال بعضها ببعض برباط قوى من وحدة التقاليد ، وبذلك كان للحياة الفردية نصيب مشرف موفور وخطر عظيم فى هذه العظمة التى لا يحدها وقت وفى ذلك المجال الممتد على مدى الزمان .

ومن عجب أن الدين الذى اعتنقه العلماء واتبعته الدولة قد وسع دائرة هذه العقائد الشعبية وضيق نطاقها فى آن واحد؛ ذلك أن إجلال الناس لكنفوشيوس قد أخذ يعظم جيلا بعد جيل حتى أصبح بفضل ما كان يصدره الأباطرة من مراسيم فى المكانة الثانية بعد السماء نفسها . فكانت كل مدرسة تكرمه بوضع لوحة تذكارية وكل مدينة تكرمه ببناء هيكل فيها ، وكان كبار الموظفين يحرقون البخور أو يقربون القرابين من حين إلى حين تكريماً لروحه أو إحياء لذكراه ، ويعدون هذه الذكرى أعظم دافع لفعل الخير بين جميع ذكريات الشعب الصينى التى يخطئها الحصر .

ولم تكن الطبقات الراقية المثقفة تعدّه إلها ؛ بل كان كثير من الصينيين يعدّونه بديلا من الإله ؛ ولربما كان من بين من يحضرون الصلوات التى تقام تكريماً له لا أدريون أو كفرة ملحدون ، ولكنهم — إذا ما عظموه وعظموا أسلافهم — كانوا يعدون فى المجتمع الذى يعيشون فيه أتقياء متدينين . وكان من الأصول المقررة فى الديانة الكنفوشية الاعتراف بالشانج — تى ، أى القوة العليا المسيطرة على العالم ، وكان الإمبراطور فى كل عام يقرّب القربان باحتفال عظيم على مذبح السماء لهذا المعبود المجرد . وقد خلا هذا الدين الرسمى من كل إشارة للخلود(٧٨) ، فلم تكن السماء مكاناً بل كانت إرادة الله أو نظام العالم .

لكن هذا الدين البسيط الذى يكاد ينطبق على مقتضيات العقل لم يرض أهل الصين فى وقت من الأوقات . ذلك بأن مبادئه لا تفسح المجال واسعاً أمام خيال الناس ، ولا تستجيب إلى آمالهم وأمانيهم ، ولا تشجع الخرافات التى تبعث البهجة فى حياتهم اليومية . ولقد كان الناس فى الصين كما كانوا فى سائر بلاد العالم يجملون الحقائق الواقعية العادية بخوارق الطبيعية الشعرية ، وكانوا يحسون بأن آلافاً من الأرواح الطيبة والخبيثة ترفرف من حولهم فى الهواء المحيط بهم وفى

الأرض التي تحت أقدامهم ، وكانوا يحرصون على أن يردوا عداوة هذه القوى الخفية أو يستميلوها بالأدعية وبالرقى السحرية . وكانوا يستأجرون المتنبئين ليكشفوا لهم عن مستقبلهم من سطور إلاى — چنج أو أصداف السلاحف أو حركات النجوم ، ويستأجرون السحرة ليوجهوا منازلهم نحو الريح والماء ، والعرّافين ليستنزلوا لهم نور الشمس وماء الأمطار(٧٩) . وكانوا يعرضون للموت من يولد لهم من الأطفال في أيام « النحس »(٨٠) . وكانت البنات المتوقدات حماسة وغيرة يقتلن أنفسهن في بعض الأحيان ليجلبن الخير أو الشر لآبائهن(٨١) . وكانت نفوس الصينيين عامة وفي الجنوب خاصة تنزع إلى التصوف ، وتشمئز من النزعة العقلية الجامدة التي تسود العقائد الكنفوشية ، وتتوّق إلى عقيدة تجد فيها ما يجده غيرها من الأمم من سلوى دائمة تحيي موات النفوس .

ومن أجل هذا عمد بعض الفقهاء الشعبيين إلى عقيدة لو دزه الغامضة فصاغوها تدريجاً في دين جديد . لقد كانت الدوية في رأى الأستاذ القديم وفي رأى چوانج — دزه طريقة للحياة تهدف إلى الحصول على السلام الشخصي على ظهر الأرض ؛ ويبدو أنهم لم يؤلهوا هذه الطريقة أو يتخذوها نوعاً من العبادة ، كما أنهم لم ينظروا إليها على أنها ثمن يؤدونه في هذه الدار ليشتروا به الحياة في الدار الآخرة(٨٢) . فلما كان القرن الثاني بعد الميلاد عدلت هذه العقائد على يد رجال ادعوا أنهم قد وصل إليهم عن طريق لو دزه نفسه إكسير يهب صاحبه الخلود . وكان هذا الإكسير في صورة شراب شاع بين الصينيين وأسرفوا فيه إسرافا يقال إنه أودى بحياة عدد غير قليل من الأباطرة الصينيين لكثرة إدمانهم إياه(٨٣) . وأشد من هذا غرابة أن معلماً من رجال الدين في سشوان (حوالى عام ١٤٨ بعد الميلاد) كان يعرض على الناس أن يشفيهم من أمراضهم كلها بطلسم بسيط يعطيهم إياه في نظير خمس حفنات من الأرز . وبدا لبعض الناس أنهم قد شفوا من أمراضهم بفضل هذه الأعمال السحرية ، وقيل للذين لم يثمر فيهم العلاج إن

إخفاقه كان نتيجة لضعف إيمانهم[٨٤] . وأقبل الناس على الدين الجديد زرافات ووحداناً ، وشادوا له الهياكل وأغدقوا المال على كهنته بسخاء عظيم ، ومزجوا به جزءاً من قصصهم الشعبي الخرافي الذي لا ينضب له معين . واتخذ الناس لودزه إلها يعبدونه ، وقالوا إن أمه حملت فيه حملا سماويا ، واعتقد المؤمنون الصالحون إنه وُلد كامل العقل طاعناً في السن لأنه أقام في بطن أمه ثمانين عاماً[٨٥] . ثم ملأوا الأرض بشياطين وآلهة جديدة ، وكانوا يخيفون الأولى بصواريخ نارية تنفجر في أفنية الهياكل ويبتهج بانفجارها من يجتمع حولها من الناس ، ويوقظون الثانية من سباتها بنواقيس ضخمة قوية الصوت لتستمع إلى دعوات عُبّادها ومطالبهم الملحة .

وظلت العقائد الدوية ألف عام عقيدة للملايين من الصينيين ، وآمن بها كثير من الأباطرة ، وحاك أتباعها كثيراً من الدسائس ، وكافحوا أشد الكفاح لينتزعوا من الكنفوشيين حقهم المقدس في فرض الضرائب وإنفاق حصيلتها . ثم قضى عليها آخر الأمر ، ولكن الذي قضى عليها لم يكن منطق كنفوشيوس وأتباعه بل قضى عليها دين جديد أقدر منها هي نفسها على إلهام رجل الشارع وبعث السلوى في نفسه .

وهذا الدين الجديد هو البوذية ، ولم تكن البوذية التي بدأت تنتقل من الهند إلى الصين في القرن الأول الميلادي هي العقيدة الجامدة المكتئبة التي نادى بها « المستنير » قبل دخولها إلى الصين بخمسمائة عام ، ولم تكن عقيدة قائمة على الزهد والتقشف ، بل كانت ديناً يدعو إلى الإيمان في غبطة وبهجة بآلهة تعين البشر على أعمالهم ، وجنة ذات أزهار ورياض . واتخذت على توالي الأيام صورة المركبة الكبرى أو الماهيانا التي وفق فقهاء الكتشكا بينها وبين الحاجات العاطفية لسكان الصين السذّج ؛ وغمرت الصين بآلهة جدد لا يفترقون كثيراً عن الآدميين أمثال أميتبها حاكم الجنة ، وكوان — ين إله الرحمة وإلهتها فيما

بعد ، وأضافت إلى مجمع آلهة الصين عدداً من اللوهان والأرباط — وهم ثمانية عشر من أتباع بوذا الأولين — المتأهبين فى كل حين لأن يهبوا الناس بعض ما لهم من فضائل لكى يساعدوا بنى الإنسان الحيارى المعذبين.

ولما ألفت الصين نفسها بعد سقوط أسرة هان مقطعة الأوصال من جراء ما سادها من فوضى سياسية ، وخيل إلى أهلها أن حياتها نفسها قد قضى عليها اضطراب حبل الأمن وتوالى الحروب ، ولت الأمة المعذبة وجهها شطر البوذية كما ولى العالم الرومانى وجهه فى ذلك الوقت نفسه شطر المسيحية وفتحت الدوية ذراعيها لاحتضان الدين الجديد وامتزجت به على مر الزمان فى نفوس الصينيين امتزاجا تاما ؛ وأخذ الأباطرة يضطهدون البوذية والفلاسفة يشكون مما فيها من خرافات ، وأخذ الساسة يأسفون لأن طائفة من خير أبناء الصين قد انزوت فى الأديرة وعقمت فأضحت لا تفيد منها البلاد شيئاً . لكن الحكومة وجدت آخر الأمر أن الدين أقوى من الدولة ؛ فتصالح الأباطرة مع الآلهة الجدد ؛ وأجيز للكهنة أن يجمعوا الزكاة ويشيدوا الهياكل ، ورضيت طبقتا الموظفين والعلماء على الرغم منهما أن تبقى الكنفوشية ديناً أرستقراطيا لها . واستولى الدين الجديد على كثير من المزارات القديمة وأقام رهبانه وهياكله إلى جانب رهبان الدوية وهياكلها على تاى — شان جبلها المقدس ، وحث الناس على أن يحجوا إلى هذه الهياكل مراراً كثيرة إظهاراً لورعهم وتقواهم ، وكان له أثر عظيم فى إزدهار فنون التصوير والنحت والعمارة والآداب ، وتقدم الطباعة ، ورقى كثير من طباع الصينيين ، ثم اضمحل كما اضمحلت الدوية ، فدب الفساد فى نفوس كهنة الديانة الجديدة ، وتغلغل فى عقائدها على مر الأيام كثير من الأرباب المشئومين والخرافات الشعبية المؤذية ، وقضى على ما كان لها من سلطان سياسى لم يكن كبيراً فى يوم من الأيام — نهضةُ الكنفوشية على يد چوشى . والآن قد هجرت هياكلها ، ونصب معين مواردها ، وأضحت وليس لها عُبّاد إلا كهنتها الفقراء المعدمون.(٨٦)

بيد أنها مع ذلك قد نفذت إلى قرار النفس الصينية ، ولا تزال حتى الآن عنصراً هاماً من العناصر المعقدة غير الرسمية فى دين الصينى الساذج . ذلك أن الأديان فى الصين ليست محدودة مانعة كما هى فى أوربا وأمريكا ، ولم تدفع البلاد فى يوم من الأيام إلى الحروب الدينية . فأنصار كل دين فى تلك البلاد متسامحون عادة مع أهل كل دين آخر ، وليس هذا التسامح مقصوراً على شئون الدولة السياسية بل تراه أيضاً فى العقائد نفسها ؛ فالصينى العادى من عبدة مظاهر الطبيعة ودوِّى وبوذى وكنفوشى فى وقت واحد . ذلك أنه فيلسوف متواضع ، يعرف ألا شىء فى هذا العالم محقق مؤكد ، ويقول فى نفسه لعل رجال الدين على حق ولعل هناك جنة كما يقولون ، وخير ما يفعله الإنسان أن يتقبل كل هذه العقائد ؛ ويستأجر كثيراً من الكهنة من ديانات مختلفة ليتلوا الصلوات على قبره . على أن المواطن الصينى لا يعبأ كثيراً بالآلهة ما دام الحظ يبسم له ؛ فهو يعظم أسلافه ولكنه يترك هيا كل الدوية والبوذية فى رعاية الكهنة وعدد قليل من النساء .

ولم يعرف التاريخ نفساً أشد دنيوية من نفسه ، فأكبر ما يهتم به الصينى أن يعيش بخير فى هذه الحياة الدنيا ، وإذا صلى فإنه لا يطلب فى صلاته أن ينال نعيم الجنة بل يطلب الخير لنفسه فى هذا العالم الأرضى[٨٧] . وإذا لم يستجب إلهه لدعائه فقد يطلق فيه لسانه بالسباب ثم يقذفه آخر الأمر فى النهر . ومن الأمثال الصينية المأثورة : «ليس من صانعى التماثيل والصور من يعبد الآلهة ، فهم يعرفون من أية مادة تصنع[٨٨] » .

ومن أجل هذا لم يقبل الصينى العادى بحماسة على الإسلام أو المسيحية ، فذانك الدينان يمنيانه بجنة قد وعدته إياها البوذية من قبلهما ؛ ولكن الذى يريده بحق هو دين يضمن له السعادة فى هذه الأرض . وإذا قيل إن فى الصين مسلمين فجوابنا أن معظم الخمسة عشر مليوناً من المسلمين فى الصين ليسوا فى

الحقيقة صينيين ؛ بل هم من أصول أجنبية أو أبناء أجانب[٨٩] . وقد دخلت المسيحية الصين على يد النساطرة ، وكان ذلك حوالى عام ٦٣٦ م . وأظهر الإمبراطور تاى دزونج شيئاً من العطف عليها ، وحمى الداعين لها من الاضطهاد ، وبلغ من اغتباط نساطرة الصين بهذا التسامح أن أقاموا فى عام ٧٨١ نصباً تذكارياً سجلوا عليه تقديرهم لهذا التسامح المستنير ، ورجاءهم أن تعم المسيحية فى القريب العاجل جميع أنحاء البلاد[٩٠] .

ومن ذلك الحين ظل المبشرون اليسوعيون ذوو الغيرة الدينية والعلم الغزير ، وظل المبشرون البروتستنت تؤيدهم الأموال الأمريكية التى لا ينضب لها معين ، ظل هؤلاء وأولئك يبذلون أقصى جهودهم ليحققوا آمال النساطرة فماذا كانت النتيجة ؟ إن عدد المسيحيين فى الصين فى هذه الأيام لا يتجاوز ثلاثة ملايين أى أن واحداً فى المائة من سكان الصين قد اعتنق المسيحية فى ألف عام كاملة[*] .

(*) لقد فاتت المسيحية فرصة أتيحت لها فى القرن الثامن عشر حين قام النزاع بين اليسوعيين وغيرهم من المذاهب الكاثوليكية الرومانية فى الصين ذلك أن اليسوعيين كانوا حرياً على براعتهم السياسية قد وجدوا وسيلة للتوفيق بين العنصرين الأساسيين فى الديانات الصينية — عبادة الأسلاف وإجلال السماء — وبين العقائد المسيحية من غير أن يقوضوا دعائم النظم الدينية المتأصلة فى الصين أو يعرضوا للخطر كيان الصين الأخلاقى . لكن رهبان الدمنيكيين والفرنسيسيين لم يرضهم إلا أن يفسروا الدين المسيحى على أصوله الدقيقة ، وأخذوا يشهرون بكل ما فى العقائد الدينية الصينية من مبادئ ومراسم ويقولون إنها من فعل الشيطان . وكان الإمبراطور كانج — شى رجلا مستنيراً شديد العطف على المسيحيه ، عهد إلى اليسوعيين أن يعلموا أبناءه وعرض هو نفسه أن يعتنق المسيحية ببعض الشروط ؛ فلما أن أيدت الكنيسة المسيحية فى الصين رسمياً موقف الدمنيكيين والفرنسيسيين الجامد الشديد قبض يده عن معونة المسيحية ، ولم يكتف خلفاؤه بأن يقفوا منها هذا الموقف السلبى بل قرروا أن يقاوموها مقاومة فعالة . وكانت مطامع الغربيين فى الأيام الأخيرة ونزعتهم الاستعمارية من العوامل التى أضعفت قدرة المبشرين المسيحيين على الإقناع ، وزادت الحركة المضادة للمسيحية التى يقوم بها الثوار الصينيون قوة على قوتها .

الفصل الخامس

حكم الأخلاق

ما للأخلاق من مكانة سامية في المجتمع الصيني – الأسرة – الأطفال – العفة – الدعارة – العلاقات الجنسية قبل الزواج – الزواج والحب – الاقتصار على زوجة واحدة وتعدد الزوجات – التسرى – الطلاق – إمبراطورة صينية – الحكم الأبوى للذكور – خضوع النساء للرجال – الخلق الصيني

لقد تغلبت الكنفوشية وعبادة الأسلاف على كثير من الديانات المنافسة لها، وقاومتا هجمات كثير من أعدائهما، وخرجتا ظافرتين من صراع دام عشرين قرناً، لأن الصينيين يشعرون بأنهما لا غنى عنهما للاحتفاظ بالتقاليد القوية السامية التي أقامت الصين عليها حياتها. وكما كانت هاتان الديانتان هما الضمانتين الدينيتين لهذه الحياة، فكذلك كانت الأسرة هي الوسيلة الكبرى لدوام هذا التراث الأخلاقي. فقد ظل الأبناء يتوارثون عن الآباء قانون البلاد الأخلاقي جيلاً بعد جيل حتى أصبح هذا القانون هو الحكومة الخفية للمجتمع الصيني، وكان قانوناً قوياً ثابت الدعائم بلغ من قوته وثباته أن أمكن المجتمع الصيني من أن يحتفظ بنظامه رغم ما انتاب الدولة غير المستقرة من نوائب وما اجتاحها من أعاصير سياسية. وفي ذلك يقول ڤلتير: «إن خير ما يعرفه الصينيون، وأكثر ما يغرسونه في نفوس أبنائهم، وما بلغ به ذروة الكمال، هو قانونهم الأخلاقي»[٩٢] ويقول كنفوشيوس في هذا المعنى نفسه: «إذا قام البيت على أساس سليم أمن العالم وسلم»[٩٣].

وكان الصينيون يفترضون أن الغرض الذي يهدف إليه القانون الأخلاقي هو أن يحول فوضى العلاقات الجنسية إلى نظام ثابت مقرر يهدف إلى تنشئة الأبناء. فالطفل هو علة وجود الأسرة، ويرى الصينيون أن أطفال الأسرة مهما كثروا

لا يمكن أن يزيدوا على الحد الواجب المعقول . ذلك أن الأمة معرضة على الدوام لهجمات الغزاة فهى فى حاجة إلى من يحميها ، وأن الأرض خصبة غنية يجد ملايين الناس فيها كفايتهم ؛ وإذا فرض أن اشتد تنازع البقاء بين الناس فى الأسرة الكبيرة والبيئات المزدحمة فإن هذا التنازع نفسه سيقضى على أضعفهم ويحتفظ بأقدرهم على الحياة ، فيتضاعف عددهم ليكونوا دعامة قوية للأمة ومصدرا لعزة آبائهم وكرامتهم ، يرعون قبور أسلافهم الرعاية الدينية الواجبة. ولقد صاغت عبادة الأسلاف من الأجيال المتعاقبة سلسلة قوية لا آخر لها ، كثيرة الحلقات تربط الأجيال بعضها ببعض وتضاعف قوتها . فكان على الزوج أن يلد أبناء ليقربوا له القربان بعد وفاته وليواظبوا فى الوقت نفسه على تقريب القربان لأسلافه . وفى ذلك يقول منشيس : « ثلاثة أشياء لا يليق صدورها من الآباء ، وشرها كلها ألا يكون لهم أبناء »(٩٤) .

وكان الآباء يدعون فى صلواتهم أن يرزقوا أبناء ؛ وكان من أشد أسباب المذلة الدائمة للأمهات ألا يكون لهن أبناء ذكور لأن هؤلاء أقدر من البنات على العمل فى الحقول وأثبت منهن جنانا فى ميدان القتال ؛ وكان من الشرائع المتبعة فى البلاد — ولعل هذا الاعتقاد قد روعى فى وضعها — ألا يسمح لغير الذكور بتقريب القربان إلى الآباء والأسلاف . وكانت البنات تعد عبئاً على الآباء لأنهم يربونهن ويصبرون على تربيتهن ولا ينالهم من ذلك إلا أن يبعثوا بهن متى كبرن إلى بيوت أزواجهن ليعملن فيها ويلدن أبناء يكدون لأسر غير أسرهم. وإذا ولد للأسرة بنات أكثر من حاجتها وصادفت الأسرة الصعاب فى إعالتهن تركتهن فى الحقول ليقضى عليهن صقيع الليل أو الحيوانات الضارية(٩٥) دون أن تشعر بشىء من وخز الضمير. وكان من بقى على قيد الحياة من الأبناء والبنات بعد أخطار الطفولة وأمراضها ينشئون بحنان عظيم ؛ وكانت القدوة الحسنة تحل فى تربيتهم محل الضرب واللكم ، وكان الأقارب يتبادلون الأبناء فى بعض الأحيان حتى لا يتلفهم

حب الآباء وحنانهم[٩٦] . وكان الأطفال يتركون فى المنزل فى الجناح الخاص بالنساء ، وقلما كانوا يختلطون بالكبار من الذكور حتى يبلغوا السابعة من العمر ، وبعدها يرسل الأولاد إلى المدارس إذا كانت موارد الأسرة تكفى لتعليمهم ويفصلون عن البنات فصلا تاماً ، حتى إذا بلغوا العاشرة لم يسمح لهم بأن يختاروا لهم رفقاء من غير الرجال والمحاظى . ولكن انتشار اللواط جعل هذا الاختيار صوريا[٩٧] .

وكانت العفة تعد من الفضائل السامية ، وكان الآباء يحرصون عليها أشد الحرص فى بناتهم ، وقد نجحوا فى غرس هذه الفضيلة فى البنات نجاحاً منقطع النظير ، يدل عليه أن البنات الصينيات كن فى بعض الأحيان يقتلن أنفسهن إذا اعتقدن أن شرفهن قد تلوث بأن مسهن رجل مصادفة[٩٨] . غير أنهم لم يبذلوا أى مجهود يرمى إلى أن يحتفظ الرجل غير المتزوج بعفته ، بل كان يعد من الأمور العادية المشروعة أن يتردد على المواخير ، وكان الزنا عند الرجال من الشهوات المألوفة الواسعة الانتشار، يستمتع به الرجل كما يشتهى من غير أن يناله من ورائه أى عار إلا ما ينال المفرط فى أية عادة من العادات[٩٩](*) .

وكان إعداد النساء لإشباع هذه الشهوات من النظم المقررة فى الصين من زمن بعيد . من ذلك أن الوزير الشهير جوان چونج وزير ولاية تشى أعد مقرا للقوادات تؤخذ فيه من التجار القادمين من الولايات الأخرى مكاسبهم قبل أن يعودوا إلى أوطانهم[١٠١] .

ويقول ماركو پولو إنه شاهد فى عاصمة كوبلاى خان من العاهرات ما لا يحصى عددهن وما لا يتصور العقل جمالهن . وهؤلاء البغايا مرخص لهن

(١) وكان الرحال فى بعض الأحيان يعدون أنفسهم جهرة لقضاء الليل فى بيت من بيوت الدعارة بالصورة الخليعة والباهات والأغانى[١٠٠] . ومن واجبنا أن نقول إن هذه العادات الجنسية الشاذة آخذة فى الزوال فى هذه الأيام .

بمزاولة مهنتهن ، وتنظم الدولة أمورهن وتراقبهن من الوجهة الطبية ، وتقدم أجلهن دون أجر إلى أعضاء السفارات الأجنبية[١٠٢] .

ونشأت فيما بعد طائفة خاصة من الفاتنات يعرفن « بالبنات المغنيات » مهنتهن أن يتحدثن حديثاً مهذباً إلى الشبان إذا أرادوا أو يستخدمن فى بيوت الأزواج لتسلية الضيوف . وكثيراً ما تكون هؤلاء الفتيات من البارعات فى الأدب والفلسفة وممن يجدن الموسيقى والرقص [١٠٣] .

وقد كان الرجال يستمتعون بحرية واسعة فى صلاتهم بالنساء قبل الزواج ، كما كانت صلات النساء المحترمات بالرجال قبل زواجهن مقيدة بأشد القيود ، وكان من نتائج هذه الحرية الواسعة من جهة وهذا التقييد الشديد من جهة أخرى أن الفرصة لم تتح كثيراً لنشأة الحب العاطفى السامى . على أنه قد ظهرت كتابات تصف هذا الحب العاطفى فى عهد أسرة تانج ؛ وفى وسعنا أن نرى شواهد دالة على وجود هذه العاطفة منذ القرن السادس قبل الميلاد فى قصة واى شنج . فقد تواعد هو وفتاة أن يلتقيا تحت قنطرة ، وظل هو ينتظرها هناك بلا جدوى وإن كان الماء قد علا فوق رأسه وأغرقه[١٠٤] . وما من شك فى أن واى شنج كان أعرف بحقائق الأمور مما يبدو فى هذه القصة . ولكن الشاعر الذى نظمها يظن هو وأمثاله من الشعراء أنه قد لا يعرف ، وفى هذا الظن ما فيه من الدلالة . وقصارى القول أن الحب بوصفه عاطفة رقيقة وهياماً بالمحبوب وتعلقاً به كان بين الرجال بعضهم بعضاً أقوى منه بين الرجال والنساء ؛ والصينيون فى هذا أشبه الناس باليونان[١٠٥] .

ولم يكن للزواج صلة بالحب . ولما كان الغرض من الزواج هو ربط زوجين أصحاء بعضهما ببعض لكى تنشأ من ارتباطهما أسرة كبيرة ، فإن هذه الرابطة لم يكن يصح فى اعتقاد الصينيين أن تترك لحكم العواطف القائم على غير أساس من العقل . ومن أجل هذا كان الآباء يحرصون على فصل الذكور عن

الإناث حتى يبحثوا لهم زوجات لأبنائهم أو أزواج لبناتهم . وكانوا يعدون امتناع الرجل عن الزواج عيباً خلقياً ، كما كانت العزوبة جريمة فى حق الأسلاف وفى حق الدولة وفى حق الجنس لا تغتفر حتى لرجال الدين . وكان الصينيون فى أيامهم الأولى يعيّنون موظفاً خاصا عمله أن يتأكد من أن كل إنسان فى الثلاثين من عمره متزوج وأن كل امرأة قد تزوجت قبل العشرين[١٠٦] . وكان الآباء ينظمون خطبة أبنائهم وبناتهم بمعونة وسطاء محترفين (ماى — رن = وسطاء)، وكانوا يفعلون هذا عقب بلوغهم الحُلُم وقبله أحيانا وقبل أن يولدوا فى بعض الأحيان[١٠٧] . وكان ثمة قيود تفرض على الزواج بين الأقارب وأخرى على الزواج من غير الأقارب تحد من هذا الاختيار ، منها : أن الزوج يجب أن يكون من أسرة معروفة من زمن بعيد للأب الذى يبحث عن زوج لابنه أو بنته ولكنها بعيدة النسب عنه بعداً يجعلها خارج دائرة عشيرته . وهذا القول نفسه يصدق على الزوجة . وكانت طريقة الخطبة أن يرسل والد الخطيب هدية قيمة إلى والد الفتاة، ولكن الفتاة كان ينتظر منها هى الأخرى أن تأتى معها ببائنة قيمة إلى زوجها تكون فى الغالب على شكل متاع أو بضاعة كما كانت الأسرتان تتبادلان فى العادة كثيراً من الهدايا ذات الشأن وقت الزواج . وكانت البنت تظل فى عزلة شديدة عن خطيبها حتى تزف إليه ، فلم يكن زوجها المرتقب يستطيع رؤيتها إلا إذا احتال على ذلك احتيالا — ولقد كان هذا الاحتيال مستطاعاً فى بعض الأحيان —، ولكنه فى كثير من الحالات كان يراها أول مرة حين يرفع النقاب عن وجهها فى حفلة الزفاف وكانت هذه الحفلة من الطقوس الرمزية المعقدة ، أهم ما فيها أن يحتسى العريس من الخمر ما يكفى لأن يزيل ما عساه أن ينتابه من حياء يعد فى عرف الصينيين جريمة لا تغتفر[١٠٨] . أما البنت فكانت تدرب على أن تكون حيّية ومطيعة فى وقت واحد . وكانت الزوجة تعيش بعد الزواج مع زوجها فى بيت أبيه أو بالقرب منه ، حيث تكدح كدحاً فى خدمة زوجها وأمه حتى يحين

الوقت الذى يحررها فيه الموت من هذا الاسترقاق ، ويتركها على استعداد لأن تفرضه هى نفسها على زوجات أبنائها .

وكان الفقراء يكتفون بزوجة واحدة ، ولكن حرص الصينيين على إنجاب أبناء أقوياء كان من القوة بحيث يجعلهم يسمحون عادة للقادرين منهم بأن يتخذوا لهم سرارى أو « زوجات فى الدرجة الثانية » . أما تعدد الزوجات فكان فى نظرهم وسيلة لتحسين النسل ؛ وحجتهم فى هذا أن من يستطيعون القيام بنفقاته منهم هم فى العادة أكثر أهل العشيرة قدرة على إنجاب الأبناء . وكانت الزوجة الأولى إذا ظلت عاقراً تحث زوجها على أن يتخذ له زوجة ثانية ؛ وكثيراً ما كانت هى نفسها تتبنى ابن إحدى الحظايا . وكثيراً ما كان يحدث أن الزوجات اللاتى يرغبن فى أن يحتفظن بأزواجهن داخل بيوتهن يطلبن إليهم أن يتزوجوا بالحظايا اللاتى يؤثرونهن بالعناية وبالصلات الجنسية ، وأن يأتوا بهن إلى منازلهم ويتخذونهم فيها زوجات من الدرجة الثانية[١٠٩] .

ومن أجل ذلك ترى القصص والأخبار الصينية تثنى على زوجة الإمبراطور جوانج — تشو أطيب الثناء لأنها قالت : « لم أكف قط عن إرسال الرسل إلى المدن المجاورة للبحث عن النساء الجميلات لأجعلهن خليلات لمولاى »[١١٠] وكانت الأسر يتنافس بعضها بعضاً فى أن ينلن شرف الحظوة بإرسال إحدى بناتها إلى حريم الإمبراطور . وكان من حق الإمبراطور أن يتخذ له ثلاثة آلاف من الخصيان ليحرسوا له حريمه وليعنوا ببعض الشئون الأخرى فى بلاطه ، وكان هؤلاء الخصيان يخصيهم آباؤهم وهم فى سن الثامنة ليضمنوا لهم الحصول على رزقهم[١١١] .

ولم تكن الزوجات الثانيات فى جنة الذكور هذه يفترقن كثيراً عن الإماء ، كما لم تكن الزوجات الأوليات إلا رئيسات هيئة لإنتاج الأبناء والبنات ، تعتمد مكانتهن فى الأسرة اعتماداً يكاد يكون تاما على عدد من يلدن من الأبناء وعلى

جنسهن . وإذ كانت الزوجة قد نشئت على الرضا بسيادة زوجها عليها فقد كان في وسعها أن تنعم بقسط متواضع من السعادة بالاندماج ببطء ويُسر في النظام الرتيب الذى هيئت له والذى ينتظره الناس كلهم منها . وإذا كانت النفس البشرية كما نعلم جميعاً سريعة القبول لما تنشأ عليه فإن الرجل والمرأة المرتبطين برباط الزوجية فى تلك البلاد كانا يعيشان كما يبدو لنا عيشة راضية سعيدة لا تقل فى ذلك عن عيشة الزواج التى تعقب الحب الروائى فى البلاد الغربية . وكان فى وسع الرجل أن يطلق الزوجة لأى سبب كان ، لعقمها أو لثرثرتها[١١٢] ، ولم يكن من حقها هى أن تطلِّق زوجها ، بل كان لها أن تغادر داره وتعود إلى دار أبويها وإن كان هذا لا يحدث إلا فى القليل النادر . على أن الطلاق كان مع ذلك قليلا ، ويرجع بعض السبب فى هذا إلى ما كان ينتظر المطلقة من مصير أسوأ من أن تستطيع التفكير فيه ، وبعضه إلى أن الصينيين فلاسفة بطبيعتهم يرون الألم أمراً طبيعيا وأنه من مقتضيات النظام العام .

وأكبر الظن أن الأم قبل أيام كنفوشيوس كانت محور الأسرة لأنها مصدر وجودها وسلطانها . وكان الناس فى أول عهودهم كما سبق القول « يعرفون أمهاتهم ولا يعرفون آباءهم » ، ولا يزال اللفظ الدال على اسم أسرة مكوناً من الأصل الذى اشتق منه لفظ « امرأة »[١١٣] ، واللفظ الصينى المقابل لكلمة الزوجة معناه « المساوى » ، وكانت الزوجة تحتفظ باسمها بعد زواجها . وكانت النساء حتى القرن الثالث بعد الميلاد يشغلن فى البلاد مناصب إدارية وتنفيذية رفيعة ، وقد وصل بعضهن إلى أن يكن حاكمات للبلاد[١١٤] ؛ ولم تكن « الإمبراطورة الأم » حين قبضت بيدها على شئون الدولة إلا متتبعة لخطى الإمبراطورة « لو » التى حكمت الصين حكما صارماً دام من عام ١٩٥ إلى عام ١٨٠ ق . م . وكانت « لو » قاسية لا تلين قناتها ، قتلت منافسيها وأعداءها أو قضت عليهم بالسم ، وكانت تغتبط بتقتيلهم وتسميمهم اغتباط آل ميديتشى ، وكانت تختار الملوك وتخلعهم عن

عرشهم ، وتصلم آذان محظيات زوجها وتفقأ عيونهم ثم تلقيهن فى المراحيض[١١٥]،
وكان التعليم منتشراً بين نساء الطبقات العليا فى الأيام القديمة وإن كان عدد من
يعرفون القراءة والكتابة من الصينيين فى أيام المنشو لايكاد يبلغ واحداً فى كل
عشرة آلاف . وكانت كثيرات من النساء يقرضن الشعر ، ولقد أتمت پان چاو
أخت المؤرخ پان كو الموهوبة (حوالى عام ١٠٠ م) تاريخه بعد وفاته ونالت
حظوة كبيرة عند الإمبراطور[١١٧] .

ولعل قيام نظام الأقطاع فى الصين قد قلل من منزلة المرأة السياسية
والاقتصادية فى تلك البلاد ؛ وجاء معه بنمط صارم من الأسرة الأبوية . ذلك أن
الأبناء الذكور هم وزوجاتهم وأطفالهم كانوا يعيشون فى العادة مع أكبر رجال
الأسرة . ومع أن الأسرة كلها كانت تمتلك أرضها امتلاكا مشتركا فإنها كانت
تعترف للأب بالسلطان الكامل على الأسرة وعلى أملاكها . فلما أن حل
عهد كنفوشيوس كاد سلطان الأب يكون سلطاناً مطلقاً فى جميع الأمور ،
فكان فى وسعه أن يبيع زوجته وأبناءه ليكونوا عبيداً ، وإن لم يفعل هذا إلا إذا
ألجأته إليه الضرورة القصوى ؛ وكان يستطيع إذا شاء أن يقتل أبناءه لا يحول
بينه وبين هذا إلا حكم الرأى العام[١١٨] . وكان يتناول طعامه بمفرده لا يدعو
زوجته ولا أبناءه إلى المائدة معه إلا فى أوقات قليلة نادرة ، وإذا مات كان ينتظر
من أرملته ألا تتزوج بعده ، وكان يطلب إليها فى بداية الأمر أن تحرق نفسها
تكريماً له ؛ وظلت حوادث من هذا النوع تقع فى الصين إلى أواخر القرن
التاسع عشر بعد الميلاد[١١٩] . وكان الصينى يجامل زوجته كما يجامل كل إنسان
سواها ، ولكنه كان فى حياته بعيداً كل البعد عن زوجته وأبنائه كأنه من طبقة
غير طبقتهم . وكان النساء يعشن فى أقسام خاصة من المنزل ، وقلما كن يختلطن فيه
بالرجال، وكانت الحياة الاجتماعية كلها مقصورة على الرجال إلا إذا كانت النساء من
الطبقات التى يسمح لأفرادها بالاختلاط بالرجال كالمغنيات والمحدثات ومن إليهن .

وكان الرجل لا يفكر فى زوجته إلا بوصفها أم أبنائه ولا يكرمها لجمالها أو لثقافتها بل لخصوبتها وجدّها وطاعتها ؛ يشهد بذلك ما كتبته السيدة پان هو — پان إحدى بنات الطبقة العليا فى رسالة ذائعة الصيت بعبارات غاية فى التواضع والخضوع تصف فيها المكانة الحقة للمرأة :

نشغل نحن النساء آخر مكان فى الجنس البشرى ، ونحن أضعف قسم من بنى الإنسان ، ويجب أن يكون من نصيبنا أحقر الأعمال ... وما أعدل ما يقوله فى حقنا كتاب قوانين الجنسين وأصدقه : « إذا كان للمرأة زوج يرتضيه قلبها وجب أن تبقى معه طيلة حياتها ؛ وإذا كان للمرأة زوج لا يرتضيه قلبها وجب أن تبقى معه أيضاً طيلة حياتها »[١٢٠] .

ويغنى فوشوان قائلا :

ألا ما أتعس حظ المرأة !

ليس فى العالم كله شىء أقل قيمة منها .

إن الأولاد يقفون متكئين على الأبواب ،

كأنهم آلهة سقطوا من السماء ،

تتحدى قلوبهم البحار الأربعة ،

والرياح والتراب آلاف الأميال ؛

أما البنت فإن أحداً لا يسر بمولدها ،

ولا تدخر الأسرة من ورائها شيئاً ،

وإذا كبرت اختبأت فى حجرتها ،

تخشى أن تنظر إلى وجه إنسان ،

ولا يبكيها أحد إذا اختفت من منزلها —

على حين غفلة كما تختفى السحب بعد هطول الأمطار ،

وهى تطأطئ رأسها وتجمل وجهها .

وتعض بأسنانها على شفتيها ،
وتنحنى وتركع سواراً يخطئها الحصر[١٥١] .

قد يكون فى هذه المقتبسات ظلم للبيت الصينى ؛ نعم قد كان فيه خضوع ومذلة ، وكثيراً ما قام فيه النزاع بين الرجل والمرأة وبين بعض الأطفال ، ولكن كان فى البيت أيضاً كثير من الحب والحنان ، وكثير من التعاون والتآزر فى الأعمال المنزلية ، مما يجعل البيت مكاناً طبيعياً ومستقراً صالحاً للأسرة . وكانت المرأة رغم خضوعها للرجل من الناحية الاقتصادية تستمتع بكامل حقها فى استخدام لسانها ، وكان فى وسعها أن تؤنب الرجل حتى يرهبها أو يفر من وجهها كأحسن ما تستطيعه المرأة الغربية فى هذه الأيام . هذا وجدير بنا أن نقول إن الأسرة ذات النظام الأبوى ليس فى مقدورها أن تكون أسرة دمقراطية ، وهى أشد من ذلك عجزاً عن أن يكون جميع أفرادها متساوين فى الحقوق ، وذلك لأن الدولة كانت تترك للأسرة مهمة القيام على النظام الاجتماعى ، ولأن المنزل كان مربى للأطفال ومدرسة ومصنعاً وحكومة فى وقت واحد . ولم يتراخ نظام الأسرة فى أمريكا إلا بعد أن ضعف شأن المنزل فى المدينة ، وقلّت أهميته بانتقال واجبات الأسرة إلى المدرسة والمصنع والدولة .

ولقد أثنى كثير من الرحالة أجمل ثناء على الخلق الذى كان ثمرة هذه النظم المنزلية . فإذا صرفنا النظر عن الحالات الشاذة الكثيرة التى تضعف كل حكم عام يمكن أن يصدره الإنسان على أى نظام اجتماعى ، استطعنا أن نقول إن المنزل الصينى العادى كان مثلا يحتذى فى طاعة الأبناء للآباء ، وإخلاصهم ووفائهم لهم ، وفى احترام الصغار للكبار وعنايتهم بهم عن رضاً واختيار (*) وكان الصينى يقبل الحكم

(*) توضح الأقاصيص الصينية هذه الصفات توضيحاً فكهاً بما ترويه فى قصة هكوبجا اللى كانت أمه تضربه بالسوط كل يوم ولكنه لا يبكى أبداً . لكنه بكى فى يوم من الأيام فى أثناء ضربه ، ولما سئل عن سبب اضطرابه هذا الاضطراب الغير المألوف قال إنه يبكى لأن أمه بعد أن كبرت وضعفت عجزت عن أن تسبب له الأذى بضرباتها(١٢٢) .

الأخلاقية التي جاءت في اللى — شى أو كتاب الحفلات ، ويعمل بما فيها من آداب اللياقة رغم مشقتها ، وينظم كل ناحية من نواحي حياته حسب ما فيها من قواعد المجاملة العاطفية التي أكسبت أخلاقه من الرقة والسهولة والاتزان والكرامة ما لم يبله أمثاله من الغربيين — فقد يظهر الحمال الذي ينقل الأقذار في الطرقات من الأدب وحسن التربية واحترام النفس أكثر مما يظهره التاجر الأجنبي الذي باعه الأفيون . ولقد تعلم الصيني فن التراضي والمصالحة واستطاع بذلك أن يستل ضغينة عدوه المغلوب . ولقد كان في بعض الأحيان عنيفاً في قوله ، وكان على الدوام ثرثاراً ، وكثيراً ما تراه قذراً أو ثملا يدمن القمار ويلتهم الطعام التهاماً(*) ، ويميل إلى ابتزاز الأموال العامة وإلى سؤال الناس في غير إلحاف[١٢٤] ، يعبد إله المال عبادة وثنية مسرفة في صراحتها[١٢٥] ، ويجري وراء الذهب جري الأمريكي كما نراه في صوره الساخرة ، يستطيع أحياناً أن يكون قاسياً فظاً غليظ القلب ، إذا توالت عليه المظالم ثار أحياناً وأقدم على ضروب من السلب والتقتيل في جماعات كبيرة . ولكنه في جميع أحواله تقريباً رجل مسالم رحيم ، كثير الاستعداد لمساعدة جيرانه ، يحتقر المجرمين والمحاربين ، مقتصد مجد مثابر على عمله وإن كان لا يعجل فيه ، بسيط في أسلوب حياته لا يحب التظاهر والتصنع ، شريف إلى حد كبير في معاملاته التجارية والمالية . وكان من عادته الصبر على النوائب ، يستقبل النعم والنقم على السواء بحكمة ووداعة ، ويتحمل الحرمان والعذاب دون أن يفقد سلطانه على نفسه ، ويصبر عليهما صبر من يرى أن كل شيء مقدّر عليه في الأزل ، ولا يعطف قط على من يتأفف منهما على مسمع من الناس ، يحزن حزناً صادقاً طويلا على من يموت من أقاربه ، وإذا عجز عن الفرار من الموت بجميع ما لديه من الوسائل واجهه وهو صابر صبر الفلاسفة ؛ وكان

(*) كان الباعة الجوالون يقفون على جوانب الطرق في كثير من المدن وبيد كل منهم طبق ونرد وفنجان على استعداد لإشباع رغبة المقامر العابر[١٢٥] .

مرهف الشعور بالجمال بقدر ما كان قليل الشعور بالألم ، وكان يزين مدائنه بالنقوش الملونة ويتنعم فى حياته بأرق أنواع الفن .

وإذا شئنا أن نفهم هذه الحضارة حق الفهم كان علينا أن ننسى ، ولو إلى حين ، ما تردت فيه البلاد من فوضى وعجز بسبب ضعفها فى الداخل ، واحتكاكها بمدافع الغرب وآلاته الضخمة القوية ، وأن نراها فى فترة من فترات عزها ومجدها فى عهد أمراء چو أو فى عهد منج هوانج أو هواى دزونج أو كانج — شى . ذلك أن الصينى فى تلك الأيام أيام حب الجمال كان يمثل بلا ريب أرق المدنيات وأنضج الثقافات اللتين شهدتهما آسية أو إن شئت فقل أية قارة من القارات .

الفصل السادس

حكومة يثنى عليها ڤلتير[١٢٦]

الفرد المغمور — الحكم الذاتى — القرية والإقليم — تراخى القانون — صرامة العقاب — الإمبراطور — الرقيب — المجالس الإدارية — الإعداد للمناصب العامه — الترشيح بالتعليم — نظام الامتحانات — عيوبه — وفضائله

إن أكثر ما يروعنا فى هذه الحضارة هو نظام حكومتها . وإذا كانت الدولة المثالية هى التى تجمع بين الدمقراطية والأرستقراطية فإن الصينيين قد أنشأوا هذه الدولة منذ ألف عام أو تزيد ؛ وإذا كانت خير الحكومات هى أقلها حكما ، فقد كانت حكومة الصين خير حكومات العالم على الإطلاق . ولم يشهد التاريخ قط حكومة كان لها رعايا أكثر من رعايا الحكومة الصينية أو كانت فى حكمها أطول عهداً وأقل سيطرة من تلك الحكومة .

لسنا نقصد بهذا أن النزعة الفردية أو الحرية الفردية كان لها شأن عظيم فى بلاد الصين ؛ ذلك أن فكرة الفردية كانت ضعيفة فى تلك البلاد وأن الفرد كان مغموراً فى الجماعات التى ينتمى إليها . فقد كان أولا عضواً من أعضاء أسرة ، ووحدة عابرة فى موكب الحياة بين أسلافه وأخلافه ؛ وكانت القوانين والعادات تحمله تبعة أعمال غيره من أفراد أسرته كما يحملون هم تبعة أعماله ؛ وكان فضلا عن هذا ينتمى عادة إلى جمعية سرية ، وإذا كان من سكان الحواضر فإنه ينتمى إلى نقابة من نقابات الحرف .

وهذه كلها أمور تحد من حقه فى أن يفعل ما يشاء . وكان يحيط به فضلا عن هذا طائفة من العادات القديمة ويهدده رأى عام قوى بالطرد من البلاد إذا خرج على أخلاق الجماعة أو تقاليدها خروجاً خطيراً . وكانت قوة هذه النظم

الشعبية التى نشأت بطبيعتها من حاجات الناس وتعاونهم الاختيارى هى التى أمكنت الصين من أن تحتفظ بنظامها واستقرارها رغم ما يشوب القانون والدولة من لين وضعف .

ولكن الصينيين ظلوا أحراراً من الناحيتين السياسية والاقتصادية فى داخل هذا الإطار من نظم الحكمَ الذاتى التى أقاموها بأنفسهم لأنفسهم .

لقد كانت المسافات الشاسعة التى تفصل كل مدينة عن الأخرى ، وتفصل المدن كلها عن عاصمة الإمبراطورية ، والجبال الشامخة والصحارى الواسعة والمجارى التى تتعذر فيها الملاحة أو لاتقوم عليها القناطر ، وانعدام وسائل النقل والاتصال السريع ، وصعوبة تموين جيش كبير يكفى لفرض سلطان الحكومات المركزية على شعب تبلغ عدته أربعمائة مليون من الأنفس — كانت هذه كلها عوامل تضطر الدولة لأن تترك لكل إقليم من أقاليمها استقلالا ذاتيا يكاد يكون كاملا من كل الوجوه .

وكانت وحدة الإدارة المحلية هى القرية ، يحكمها حكما متراخياً رؤساء العشائر بإشراف « زعيم » منهم ترشحه الحكومة . وكانت كل طائفة من القرى مجتمعة حول بلدة كبيرة تؤلف « بينا » أى مقاطعة بلغت عدتها فى الصين نحو ألف وثلثمائة . ويتألف من كل بينين أو أكثر تحكمهما معاً مدينة « فو » ومن كل فوين أو ثلاثة « داو » أى دائرة ، ومن كل داوين أو أكثر « سَنج » أى إقليم . وكانت الإمبراطورية فى عهد المنشو تتألف من ثمانية عشر من هذه الأقاليم . وكانت الدولة تعين من قبلها موظفاً فى كل بين يدير شئونه ، ويجبى ضرائبه ، ويفصل فى قضاياه ، وتعين موظفاً آخر فى كل فو وآخر فى كل داو ؛ كما تعين قاضياً ، وخازناً لبيت المال ، وحاكما ، ونائباً للإمبراطور أحياناً فى كل إقليم[١٢٧] . ولكن هؤلاء الموظفين كانوا يقنعون أحياناً بجباية الضرائب والفروض الأخرى

والفصل فى المنازعات التى يعجز المحكمون عن تسويتها بالحسنى ، ويتركون حفظ النظام لسلطان العادة وللأسرة والعشيرة والنقابة الطائفية . وكان كل إقليم ولاية شبه مستقلة لا تتدخل الحكومة الإمبراطورية فى أعمالها ، ولا تفرض عليها شرائعها طالما كانت تدفع حصتها من الضرائب وتحافظ على الأمن والنظام فى داخل حدودها . وكان انعدام وسائل الاتصال السهلة مما جعل الحكومة المركزية فكرة معنوية أكثر منها حقيقة واقعية . ومما جعل عواطف الأهلين الوطنية تنصرف فى دوائرهم وأقاليمهم ، ولا تتسع إلا فى القليل النادر حتى تشمل الإمبراطورية بوجه عام .

وفى هذا البناء غير المحكم كان القانون ضعيفاً ، بغيضاً ، متبايناً . وكان الناس يفضلون أن تحكمهم عاداتهم وتقاليدهم ، وأن يسووا نزاعهم بالتراضى خارج دور القضاء . وكانوا يعبرون عن آرائهم فى التقاضى بمثل هذه الحكم والأمثال القصيرة القوية : « قاض برغوثاً يعضك » و « اكسب قضيتك تخسر مالك » . وكانت تمر عدة سنين على كثير من المدن التى تبلغ عدة أهلها آلافاً مؤلفة لا ترفع فيها قضية واحدة إلى المحاكم[١٢٨] . وكانت قوانين البلاد قد جمعت فى عهد أباطرة تانج ولكنها كلها اقتصرت تقريباً على الجرائم ولم تبذل محاولات جدية لوضع قانون مدنى . وكانت المحاكمات بسيطة سهلة لأن المحامى لم يكن يسمح له بمناقشة الخصم داخل المحكمة ، وإن كان فى استطاعة كتاب مرخصين من الدولة أن يعدوا فى بعض الأحيان تقارير بالنيابة عن المتقاضين ويتلوها على القاضى[١٢٩] . ولم يكن هناك نظام للمحلفين ، ولم يكن فى نصوص القوانين ما يحمى الفرد من أن يقبض عليه موظفو الدولة على حين غفلة ويعتقلوه . وكانت تؤخذ بصمات أصابع المتهمين[١٣٠] ، ويلجأ أحياناً إلى تعذيبهم لكى يقروا بجرائمهم ، ولم يكن هذا التعذيب الجسمى ليزيد إلا قليلا على ما يتبع الآن لهذا الغرض عينه فى أكثر المدن رقياً . وكان العقاب صارماً ، وإن لم يكن أشد وحشية مما كان فى معظم

بلاد القارة الأسيوية ؛ وكان أوله قص الشعر ويليه الضرب ثم النفى من البلاد ثم الإعدام . وإذا كان المتهم ذا فضائل غير معهودة ، أو كان من طبقة راقية ، سمح له أن ينتحر[١٣١] . وكانت العقوبات تخفف أحياناً تخفيفاً كريماً ، وكان حكم الإعدام لا يصدر فى الأوقات العادية إلا من الإمبراطور نفسه . وكان الناس جميعاً من الناحية النظرية سواسية أمام القانون ، شأنهم فى هذا كشأننا نحن فى هذه الأيام . ولكن هذه القوانين لم تمنع السطو فى الطرق العامة أو الارتشاء فى وظائف الدولة ودور القضاء ، غير أنها كان لها قسط متواضع فى معاونة الأسرة والعادات الموروثة على أن تهب الصين درجة من النظام الاجتماعى والأمن والاطمئنان الشخصى لم تضارعها فيها أمة أخرى قبل القرن العشرين[١٣٢] .

وكان الإمبراطور يشرف على هذه الملايين الكثيرة من فوق عرشه المزعزع ، وكان يحكم من الوجهة النظرية بحقه المقدس ؛ فقد كان هو « ابن السماء » وممثل الكائن الأعلى(*) فى هذه الأرض . وبفضل سلطانه الإلهى هذا كانت له السيطرة على الفصول ، وكان يأمر الناس أن يوفقوا بين أعمالهم وبين النظام السماوى المسيطر على العالم ، وكانت كلمته هى القانون وأحكامه هى القضاء الذى لا مرد له . وكان المدبر لشئون الدولة ورئيس ديانتها ، يعين جميع موظفيها ، ويمتحن المتسابقين لأعلى مناصبها ، ويختار من يخلفه على العرش . لكن سلطانه كان يحده من الوجهة العملية القانون والعادات المرعية ، فكان ينتظر منه أن يحكم من غير أن يخرج على النظم التى انحدرت من الماضى المقدس . وكان معرضاً فى أى وقت لأن يعزَّر على يد رجل ذى مقام كبير يسمى بالرقيب ؛ وكان فى واقع الأمر محوطاً بحلقة قوية من المستشارين والمبعوثين من مصلحته أن يعمل بمشورتهم ، وإذا ظلم أو فسد حكمه خسر بحكم العادات المرعية وباتفاق أهل الدولة « تفويض السماء » ، وأمكن

(*) ومن أجل هـذا كانت مملكته تسمى أحياناً تيان - شان أى التى « تحكمها السماء » : وقد ترجم الأوروبيون هذه العبارة « بالمملكة السماوية » وسموا الصينيين حذلقة باسم « السماويين » .

خلعه بالقوة من غير أن يعد ذلك خروجاً على الدين أو الأخلاق .

وكان الرقيب رئيس مجلس مهمته التفتيش على جميع الموظفين في أثناء قيامهم بواجباتهم ، ولم يكن الإمبراطور نفسه بمنجاة من إشرافه . وقد حدث مراراً في تاريخ الصين أن عزر الرقيب الإمبراطور نفسه . من ذلك أن الرقيب سونج أشار على الإمبراطور چياه تشنج (١٧٩٦ — ١٧٢١) بالاحترام اللائق بمقامه المظيم طبعاً ، أن يراعى جانب الاعتدال في صلاته بالممثلين وبتعاطى المسكرات فما كان من چياه تشنج إلا أن استدعى سونج للمثول أمامه وسأله وهو غاضب أى عقاب يليق أن يوقع على من كان موظفاً وقحاً مثله ، فأجابه سونج : « الموت بتقطيع جسمه إرباً » ولما أمره الإمبراطور باختيار عقاب أخف من هذا أجابه بقوله : « إذن فليُقطع رأسى » فطلب إليه مرة أخرى أن يختار عقاباً أخف فاختار أن يقتل خنقاً . وأعجب الإمبراطور بشجاعته وخشى وجوده بالقرب منه فعينه حاكما على إقليم إيلى[١٣٤] .

وأضحت الحكومة المركزية على مرّ الزمن أداة إدارية شديدة التعقيد . وكان أقرب الهيئات إلى العرش المجلس الأعلى ، ويتكون من أربعة « وزراء كبار » يرأسهم في العادة أمير من أمراء الأسرة المالكة . وكان يجتمع بحكم العادة في كل يوم في ساعات الصباح المبكرة لينظر في شئون الدولة السياسية . وكان يعلو عليه في المنزلة ، ولكن يقل عنه في السلطان ، هيئة أخرى من المستشارين يسمون « بالديوان الداخلى » . وكان يشرف على الأعمال الإدارية « ستة مجالس » للشئون المدنية ، والدخل ، والاحتفالات ، والحرب ، والعقوبات ، والأشغال العامة ؛ وكان ثمة إدارة للمستعمرات تصرف شئون الأقاليم النائية مثل منغوليا ، وسنكيانج ، والتبت ، ولكنها لم تكن لها إدارة للشئون الخارجية لأن الصين لم تكن تعترف بأن في العالم دولة مساوية لها ، ومن أجل ذلك لم تنشئ في

بلادها هيئة للاتصال بها غير ما وضعته من النظم لاستقبال البعوث التى تحمل لها الخراج .

وكان أكبر أسباب ضعف الحكومة قلة مواردها، وضعف وسائل الدفاع عن أراضيها، ورفضها كل اتصال بالعالم الخارجي يعود عليها بالنفع. لقد فرضت الضرائب على أراضيها ، واحتكرت بيع الملح ، وعطلت نماء التجارة بما فرضته بعد عام ١٨٢١ من عوائد على انتقال البضائع على طرق البلاد الرئيسية ، ولكن فقر السكان ، وما كانت تعانيه من الصعاب فى جباية الضرائب والمكوس ، وما يتصف به الجباة من الخيانة ، كل هذا قد ترك خزانة الدولة عاجزة عن الوفاء بحاجات القوى البحرية والبرية التى كان فى وسعها لولا هذا العجز أن تنقذ البلاد من مذلة الغزو والهزيمة(*) . ولعل أهم أسباب هزائمها هو فساد موظفى حكومتها ؛ ذلك أن ما كان يتصف به موظفوها من جدارة وأمانة قد ضعف فى خلال القرن التاسع عشر ، فأضحت البلاد تعوزها الزعامة الرشيدة فى الوقت الذى كان فيه نصف ثروة العالم ونصف قواه يتجمعان لسلب استقلالها ، وانتهاب مواردها ، والقضاء على أنظمتها .

بيد أن أولئك الموظفين كانوا يختارون بوسيلة لا مثيل لها فى دقتها ، وتعد فى جملتها أجدر وسائل الاختيار بالإعجاب والتقدير ، وخير ما وصل إليه العالم من الوسائل لاختيار الخدام العموميين . لقد كانت وسيلة جديرة بإعجاب أفلاطون ، ولا تزال رغم عجزها وتخلى الصين عنها تقرب الصين إلى قلوب الفلاسفة . وكانت

(*) بلغ متوسط دخل الخزانة الإمبراطورية فى أواخر القرن الماضى نحو ٧٥ مليوناً من الدولارات الأمريكية فى العام ، ويضاف إليها من الإيرادات التى تجمع للأغراض المحلية ١٧٥ مليوناً أخرى(١٣٦) ، وإذا وازنا بين هذه الإيرادات التى لا غنى عنها لاستتباب الأمن والنظام وبين الـ ١٥٠ مليوناً من الدولارات التى فرضتها اليابان على الصين غرامة حربية فى عام ١٨٩٤ والغرامة التى فرضها عليها الحلفاء بعد حرب الملاكين لم تكن مسألة انهيار الصين فى نظرنا أكثر من مسألة حسابية .

هذه الطريقة من الناحية النظرية توفق أحسن التوفيق بين المبادئ الأرستقراطية والدمقراطية : فهى تمنح الناس جميعاً فرصة متكافئة لإعداد أنفسهم للمناصب العامة ، ولكنها لا تفتح أبواب المناصب إلا لمن أعدوا أنفسهم لها. ولقد أنتجت خير النتائج من الوجهة العملية مدى ألف عام .

وكانت بداية الطريقة فى مدارس القرى — وهى معاهد خاصة ساذجة لا تزيد قليلا على حجرة واحدة فى كوخ صغير — يقوم فيها معلم واحد بتعليم أبناء سراة القرية تعليما أولياً ينفق عليه بما يؤديه هؤلاء الأبناء من أجر ضئيل . أما النصف الفقير من السكان فقد ظل أبناؤه أميين(١٣٧) . ولم تكن الدولة هى التى تنفق على تلك المدارس ، ولم يكن الكهنة هم الذين يديرونها ، ذلك أن التعليم قد بقى فى الصين ، كما بقى الزواج فيها ، مستقلا عن الدين لا صلة بينهما سوى أن الكنفوشية كانت عقيدة المعلمين . وكانت أوقات الدراسة طويلة كما كان النظام صارما فى هذه المدارس المتواضعة . فكان الأطفال يأتون إلى المعلم فى مطلع الشمس ويدرسون معه حتى الساعة العاشرة . ثم يفطرون ويواصلون الدرس حتى الساعة الخامسة ، ثم ينصرفون بقية النهار . وكانت العطلات قليلة العدد قصيرة الأجل ، وكانت الدراسة تعطل بعد الظهر فى فصل الصيف ، ولكن هذا الفراغ الذى كان يصرف فى العمل فى الحقول كان يعوض بفصول مسائية فى ليالى الشتاء . وكان أهم ما يتعلمه الأطفال كتابات كنفوشيوس وشعر تانج ؛ وكانت أداة المعلم عصا من الخيزران . وكانت طريقة التعليم الحفظ عن ظهر قلب ؛ فكان الأطفال الصغار يواصلون حفظ فلسفة المعلم كونج ، ويناقشون فيها مدرسهم ، حتى ترسخ كل كلمة من كلماته فى ذاكرتهم ، وحتى يستقر بعضها فى قلوبهم . وكانت الصين تأمل أن يتمكن جميع أبنائها ، ومنهم الزراع أنفسهم ، بهذه الطريقة القاسية الخالية من اللذة أن يصبحوا فلاسفة وسادة مهذبين ،

وكان الصبي يخرج من المدرسة ذا علم قليل وإدراك كبير ، جاهلا بالحقائق ناضج العقل (*) .

وكان هذا التعليم هو الأساس الذي أقامت عليه الصين - في عهد أسرة هان على سبيل التجربة وفي عهد أسرة تانج بصفة نهائية — نظام تولي المناصب العامة بالامتحان . ومن أقوال الصينيين في هذا : إن من أضر الأمور بالشعب أن يتعلم حكامه طرق الحكم بالحكم نفسه ، وإن من واجبهم كلما استطاعوا أن يتعلموا طرق الحكم قبل أن يحكموا ، ومن أضر الأمور بالشعب أن يحال بينه وبين تولي المناصب العامة وأن يصبح الحكم امتيازاً تتوارثه فئة قليلة من أبناء الأمة ؛ ولكن من الخير للشعب أن تقصر المناصب على من أعدوا لها بفضل مواهبهم وتدريبهم . وكان الحل الذي عرضته الصين لمشكلة الحكم القديمة المستعصية هي أن نتيح لكل الرجال دمقراطيا فرصاً متكافئة لأن يدربوا هذا التدريب ، وأن تقصر الوظائف أرستقراطيا على من يثبتون بأنهم أليق الناس لأن يتولوها . ومن أجل هذا كانت تعقد في أوقات معينة امتحانات عامة في كل مركز من المراكز يتقدم إليها كل من شاء من الذكور متى كانوا في سن معينة .

وكان المتقدم إلى الامتحان يمتحن في قوة تذكره وفهمه لكتابات كنفوشيوس وفي مقدار ما يعرف من الشعر الصيني ومن تاريخ الصين ، وفي قدرته على أن يكتب أبحاثاً في السياسة والأخلاق كتابة تدل على الفهم والذكاء . وكان في وسع من يخفق في الامتحان أن يعيد الدرس ويتقدم إليه مرة أخرى ، ومن نجح مُنح درجة شيو دزاي التي تؤهله لأن يكون عضواً في طبقة الأدباء ولأن يعيّن في

(*) وكان في وسع الأطفال بعد أن يتموا الدراسة في هذه المدارس أن يلتحقوا بإحدى كليات الدولة القليلة العدد الفقيرة في أدواتها واستعدادها . ولكنهم كانوا في أكثر الأحيان يتلقون العلم على مدرسين خصوصيين أو يواصلون الدرس في منازلهم في عدد قليل من الكتب الثمينة وكان الموسرون في بعض الأحيان يعينون الفقراء من الطلاب على مواصلة الدرس في هذه الكليات على أن يكون ما يتفق عليهم قرضاً يؤدونه مع فوائده حين يعينون في منصب من المناصب ويستطيعون أن « يبتزوا » الأموال من الناس .

المناصب الصغرى فى الحكومة الإقليمية ؛ وأهم من هذا أن يكون من حقه أن يتقدم إما مباشرة أو بعد استعداد جديد لامتحان آخر يعقد فى الأقاليم كل ثلاث سنوات شبيه بالأول ولكنه أصعب منه . ومن أخفق فيه جاز أن يتقدم إليه مرة أخرى . وكان يفعل ذلك كثيرون من المتقدمين فكان يجتازه فى بعض الأحيان رجال جاوزوا الثمانين وظلوا طول حياتهم يدرسون ، وكثيراً ما مات الناس وهم يتأهبون لدخول هذه الامتحانات . وكان الذين ينجحون يُختارون للوظائف الحكومية الصغرى ، كما كان من حقهم أن يتقدموا للامتحان النهائى الشديد الذى يعقد فى پيكين . وكان فى تلك المدينة ردهة للامتحان العام تحتوى على عشرة آلاف حجرة انفرادية يقضى فيها المتسابقون ثلاثة أيام متفرقة فى عزلة تامة ، ومعهم طعامهم وفراشهم ، يكتبون مقالات أو رسائل فى موضوعات تعلن لهم بعد دخولها . وكانت هذه الغرف خالية من وسائل التدفئة والراحة ، رديئة الإضاءة غير صحية لأن الروح لا الجسم — فى رأيهم — هى التى يجب أن تكون موضع الاهتمام ! وكان من الموضوعات المألوفة فى هذه الامتحانات أن ينشئ المتقدم قصيدة فى : « صوت المجاديف والتلال الخضراء والماء » ، وأن يكتب مقالا عن الفقرة الآتية من كتابات كنفوشيوس . قال دزانج دزى : « من يك ذا كفاية ويسأل من لا كفاية له ؛ ومن يك ذا علم كثير ويسأل من لا يعلم إلا القليل ؛ ومن يملك ثم يتظاهر بأنه لا يملك ؛ ومن يمتلئ ثم يبد أنه فارغ » . ولم يكن فى أى امتحان من هذه الامتحانات كلمة واحدة عن العلوم أو الأعمال التجارية أو الصناعية ، لأنها لم تكن تهدف إلى تبين علم الرجل بل كانت ترمى إلى معرفة ما له من حكم صادق وخُلُق قويم وكان كبار موظفى الدولة يُختارون من الناجحين فى هذا الامتحان النهائى .

وتبين على مر الزمن ما تنطوى عليه هذه الطريقة من عيوب . فقد وجد الغش سبيله إلى الحكم على الامتحان ، وإن كان الغش فى الامتحان أو فى

تقديره يعاقب عليه أحياناً بالإعدام . وأصبح شراء الوظائف بالمال كثيراً متفشياً في القرن التاسع عشر[١٣٨] ، من ذلك أن موظفاً صغيراً باع عشرين ألف شهادة مزورة قبل أن يكشف أمره[١٣٩] . ومنها أن صورة المقالة التي تكتب في الامتحان أصبحت صورة عادية معروفة يعد المتسابقون أنفسهم لها إعداداً آليا .

كذلك كان منهج الدراسة ينزع إلى الهبوط بالثقافة إلى الصور الشكلية دون اللباب ، ويحول دون الرقي الفكري لأن الأفكار التي كانت تتداول في هذه المقالات قد تحددت وتعينت خلال مئات السنين . وكان من آثارها أن أصبح الخريجون طبقة ديوانية (بيروقراطية) ذات عقلية رسمية متعجرفة بطبيعتها ، أنانية ، مستبدة في بعض الأحيان ، وفاسدة في كثير من الأحوال ؛ لا يستطيع الشعب مع ذلك أن يعزلها أو يشرف على أعمالها ، إلا إذا لجأ بعد يأسه إلى الطريقة الخطرة طريقة الإضراب عن طاعتها أومقاطعتها وعدم التعامل معها . وقصارى القول أن هذا النظام كان ينطوي على كل العيوب التي يمكن أن ينطوي عليها أي نظام حكومي يبتدعه ويسيره بنو الإنسان ؛ فعيوبه هي عيوب القائمين عليه لا عيوب النظام نفسه ، وليس ثمة نظام آخر لم يكن فيه من العيوب ما في هذا النظام(*) .

أما مزاياه فهي كثيرة : فهو بريء من طريقة الترشيح وما يؤثر فيها من تيارات خفية ؛ وليس فيه مجال للمساعي الدنيئة والنفاق والخداع في تصوير النتائج ، ولا تدور فيه المعارك الصورية بين الأحزاب ، ولا يتأثر بالانتخابات الفاسدة ذات الجلبة والضجيج ، ولا يتيح الفرصة لتسنم المركز الرفيع عن طريق الشهرة الزائفة . لقد كانت الحكومة القائمة على هذا النظام حكومة دمقراطية بأحسن ما لهذا اللفظ من معان ، لأنها تتيح للناس جميعاً فرصاً متكافئة للتنافس على الزعامة وعلى المناصب الرفيعة . وكانت أرستقراطية في أحسن صورها ، لأنها

(*) يقول الدكتور لا ثورت : « قل أن توجد مجموعة كبيرة من بني الإنسان عاشت في رخاء وعاشت قانعة كما عاش الصينيون تحت سيطرة أداتهم الحكومية حين كان يشرف عليها أقدر ملوكهم » . وكان هذا الرأي أيضاً رأي العالم الكبتن برنكلي[١٤٠]

حكومة يتولاها أقدر الرجال الذين اختيروا اختياراً دمقراطياً من بين جميع طبقات الشعب ومن كل جيل . وبفضل هذه الطريقة وجهت عقول الأمة ومطامعها وجهة الدرس والتحصيل ، وكان أبطالها الذين تقتدى بهم هم رجال العلم والثقافة لا سادة المال (*) .

ولقد كان جديراً بالإعجاب أن يجرب مجتمع من المجتمعات أن يحكمه من الناحيتين الاجتماعية والسياسية رجال أعدوا للحكم بتعلم الفلسفة والعلوم الإنسانية ولذلك كان من شر المآسى أن تنقضّ قوى التطور والتاريخ القاسية التى لا ترحم ولا تلين على ذلك النظام الفذ وعلى جميع معالم الحضارة التى كان هو أهم عناصرها فتدمرها تدميرا .

(*) يقول السير ربرت هارت : « يعبد الصينيون المواهب العقلية ، ويبتهجون بالآداب ويقيمون فى كل نوادى صغيرة للتعلم والدرس ولمناقشة مقالاتهم وأشعارهم »

الباب السابع والعشرون

الثورة والتجديد

الفصل الأول

الخطر الأبيض

النزاع بين آسية وأوربا – البرتغاليون – الأسبان – الهولنديون – الإنجليز – تجارة الأفيون – حروب الأفيون – فتنة تنج تاى – منح – حرب اليابان – محاولة تمزيق الصين – « الباب المفتوح » – الإمبراطورة الوالدة – إصلاحات كوانج شو – عزله – الملاكون – الغرامة الحربية

اتخذت هذه القوى شكل الانقلاب الصناعى . فقد نشطت أوربا وتجدد شبابها على أثر كشف القوى الآلية واستخدامها فى صنع الآلات ومضاعفة الإنتاج . وما لبثت أوربا أن وجدت نفسها قادرة على إنتاج سلع أرخص من التى تنتجها أية أمة أو قارة ، ظلت تعتمد على الصناعات والحرف اليدوية ، وعجزت أوربا عن تصريف منتجات آلاتها بين سكانها لأنها كانت تؤدى لعمالها أجوراً أقل بعض الشىء من القيمة الكاملة لجهودهم ، واضطرت من أجل ذلك إلى البحث عن أسواق خارجية لتصرف فيها ما زاد من منتجاتها على حاجتها ، فكان لا بد لها أن تستعمر ودفعها الاستعمار إلى الحروب . وأصبح القرن التاسع عشر ، بحكم الظروف القائمة فيه وبدافع الاختراعات الكثيرة التى تعاقبت فى خلاله ، لا ينقطع فيه النزاع بين ما كان فى آسية من حضارة قديمة ناضجة منهوكة ، وما قام فى أوربا الصناعية من حضارة فتية ، قوية منهومة .

وكان الانقلاب التجارى الذى حدث فى أيام كولمب هو الذى أفسح الطريق ومهد السبيل للانقلاب الصناعى ، فقد كشف الرحالة عن أراضى قديمة ، وفتحوا ثغوراً جديدة ، ونقلوا إلى الثقافات القديمة منتجات الغرب وأفكاره . وكان البرتغاليون المغامرون فى أوائل القرن السادس عشر قد استولوا على جزائر ملقا ، وكانوا من قبل قد ثبتوا أقدامهم فى بلاد الهند ، ثم طافوا حول شبه جزيرة الملايو ، ووصلوا بسفائنهم الجميلة ومدافعهم الرهيبة إلى كانتون (١٥١٧) .

وكان أولئك القادمون خلقاً متوحشين لا يخضعون لقانون ، ويعدون كل الشعوب الشرقية فريسة مشروعة مباحة لهم ، ولم يكونوا يفترقون إلا قليلا عن القراصنة ... إن كان بين هؤلاء وبينهم فرق على الإطلاق[١] . . ، وعاملهم الصينيون معاملة القراصنة فألقوا بممثليهم فى السجون ، ورفضوا ما عرضوه عليهم من تجارة حرة ، وكثيراً ما طهّر الصينيون الغضاب الحانقون الأحياء التى استقر فيها البرتغاليون بذبح ساكنيها . ولكن البرتغاليين أعانوا الصينيين على قتال غيرهم من القراصنة ، فكان جزاؤهم على هذه المعونة أن منحتهم بيكين حق الإقامة فى مكاو وحكمها كأنها ملك لهم ، فشادوا فى تلك المدينة مصانع كبيرة لصنع الأفيون ، وأجازت لهم أن يستخدموا فى هذه المصانع الرجال والنساء والأطفال . ودرت عليهم هذه الصناعة أرباحاً عظيمة يكفى لمعرفة مقدارها أن نقول إن مصنعاً واحداً كان يعود على الحكومة البرتغالية التى أنشئت فى هذا الإقليم بربح مقداره ١٫٥٦٠٫٠٠٠ دولار فى كل عام[٢] .

ثم جاء الأسبان وفتحوا جزائر الفلبين فى عام ١٥٧١ واستقروا فى جزيرة فرموزا الصينية ؛ وأعقبهم الهولنديون ، وفى عام ١٦٣٧ أقبلت خمس سفن إنجليزية وصعدت فى النهر إلى كانتون ، وأسكتت بمدافعها القوية المدافع التى قاومتها ، وأنزلت فى المدينة بضائعها[٣] . وعلّم البرتغاليون الصينيين شراء الدخان وشربه ، ثم بدأ فى مستهل القرن الثامن عشر استيراد الأفيون من الهند إلى الصين . وحرمت

الحكومة الصينية على الشعب تعاطى الأفيون ، ولكن عادة تعاطيه انتشرت انتشار النار فى الهشيم حتى بلغ ما استورد منه إلى الصين فى عام ١٧٩٥ أربعة آلاف صندوق(*) . وحرمت الحكومة استيراده فى تلك السنة وكررت هذا التحريم فى عام ١٨٠٠ ولجأت إلى المستوردين وإلى الأهلين على السواء تبين لهم ما لهذا المخدر القوى من أثر فى إضعاف حيوية الأمة . ولكن تجارة الأفيون لم تنقطع رغم هذا التحريم ، ولم تكن رغبة الصينيين فى شرائه أقل من رغبة الأوربيين فى بيعه ، ولم يجد الموظفون حرجاً فى تناول الرشاوى التى كانت تقدم إليهم ليتغاضوا عن أوامر التحريم بل كانوا يتقبلونها شاكرين .

وأصدرت حكومة بيكين فى عام ١٨٣٨ أمراً بالتشديد فى تنفيذ قرار تحريم استيراد الأفيون ، وجاء موظف قوى يدعى لن تزه — شو فأمر من فى كانتون من المستوردين الأجانب أن يسلموا ما فى مخازنهم منه . فلما أبوا حاصر الأحياء الأجنبية وأرغمهم على أن يسلموه عشرين ألف صندوق من هذا المخدر ، ثم أقام فى كانتون شبه حفلة أفيونية أتلف فيها هذه الكمية كلها . وعلى أثر هذا انسحب البريطانيون إلى هنج كنج وبدأت « حرب الأفيون » الأولى . وقال الإنجليز إن الحرب لم تكن حرب أفيون ، بل كان سببها أنهم غضبوا لما أظهرته الحكومة الصينية من قحة وغطرسة فى استقبالها ممثليهم أو برفضها استقبالهم ، وما وضعته أمامهم من عقبات فى صورة ضرائب باهظة ومحاكم فاسدة مرتشية أقامتها القوانين والعادات الصينية تعطل بها تجارة منظمة مشروعة . وأطلقوا المدافع على المدن الصينية التى كان فى وسعهم أن يصلوا إليها من الشاطئ ، وأرغموا الصين على طلب الصلح باستيلائهم على مصب القناة الكبيرة عند شنكيانج . ولم تذكر معاهدة نانكنج شيئاً عن الأفيون ، وتخلت الصين بمقتضاها عن هنج كنج إلى

(*) يمكن تقدير ثمن هذه الكمية إذا ذكرنا أن قطعة من الأفيون يتسع لها جيب صديرية الرجل يبلغ ثمنها ثلاثين دولاراً .

البريطانيين ، وأرغمت الصين على تخفيض الضرائب إلى ٥ ٪ ، وفتحت للتجارة الأجنبية خمسة « ثغور معاهدات » (كانتون ، وأموى ، وفوتشو ، وتنجبو ، وشنغهاى) ، وفرضت على الصين غرامة حربية لتغطية نفقات الحرب وما أتلفته من أفيون ، واشترطت أن يحاكم الرعايا البريطانيون فى الصين ، إذا اتهموا بمخالفة قوانين البلاد ، أمام محاكم بريطانية[٥] . وطلبت عدة دول أخرى منها الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا أن تطبق هذه « الامتيازات الأجنبية » على تجارها ورعاياها المقيمين فى الصين وأجيبت إلى طلبها .

وكانت هذه الحرب بداية انحلال النظام القديم . ذلك أن الحكومة خذلت أشد الخذلان فى نزاعها مع الأوربيين ، فقد سخرت منهم أولا ، ثم تحدتهم بعدئذ ، ثم خضعت لهم آخر الأمر ، ولم تفد الألفاظ الظريفة المعسولة فى إخفاء الحقائق عن الوطنيين المتعلمين أو الأجانب المتربصين .

وسرعان ما ضعف سلطان الحكومة فى كل مكان تسربت إليه أخبار هزيمتها ، وما لبثت القوى التى كانت من قبل صامتة خاضعة — والتى كانت تظل صامتة خاضعة لولا هذه الهزيمة — ما لبثت هذه القوى أن ثارت علناً على حكومة بيكين . من ذلك أن وطنيا متحمساً يدعى هونج سيو — شوان ، بعد أن تعلم طرفاً من البروتستنتية وتراءت له بعض الخيالات الوهمية ، اعتقد فى عام ١٨٤٣ أن الله قد اختاره ليطهر الصين من عبادة الأوثان ويحولها إلى المسيحية . وبعد أن بدأ هونج عمله بهذه الدعوة المتواضعة تزعم آخر الأمر حركة ترمى إلى القضاء على أسرة المنشو الحاكمة وإيجاد أسرة جديدة هى أسرة التاى بنج أى السلم العظيم ، وحارب أتباعه حرب الأبطال البواسل يحدوهم التعصب الدينى من جهة والرغبة فى إصلاح الصين على غرار الدول الأوربية من جهة أخرى ، وحطموا الأصنام ، وقتلوا المخالفين من الصينيين ، وأتلفوا كثيراً من دور الكتب والمجامع العلمية القديمة ومصانع الخزف القائمة فى چنج ده — چن ، واستولوا على نانكنج وظلت فى

أيديهم اثنتى عشرة سنة (١٨٥٣ — ٦٥) ، وزحفوا على پيكين وزعيمهم من خلفهم فى مأمن من الأعداء منغمس فى ترفه وملذاته ؛ ولـكنهم هزموا وتشتتوا لعجز قادتهم ، وارتدوا إلى أحضان إخوانهم مئات الملايين الصينيين(٦) .

وبينا كانت فتنة تاى — پنج الصماء تمزق الصين وتقطع أوصالها اضطرت الحكومة إلى مواجهة أوربا مرة أخرى فى « حرب الأفيون » الثانية (١٨٥٦ — ١٨٦٠) . وكان سببها أن بريطانيا العظمى ، تعاونها فرنسا والولايات المتحدة معاونة تقوى تارة وتضعف تارة أخرى ، طالبت إلى الصين أن تجعل تجارة الأفيون تجارة مشروعة (وكانت هذه التجارة قد ظلت قائمة بين الحربين رغم ما صدر من الأوامر بتحريمها) ، وأن تسمح لها بالدخول فى مدن جديدة غير التى كانت قد سمح لها بدخولها ، وأن يستقبل الرسل الغربيون بما يليق بهم من التكريم فى بلاط پيكين . فلما رفض الصينيون هذه المطالب استولى البريطانيون والفرنسيون على كانتون ، وأرسلوا حاكمها مقيداً بالأغلال إلى الهند ، واقتحموا حصون تيِنتسين وزحفوا على العاصمة ، ودمروا القصر الصيفى انتقاماً لما نال مبعوثى الحلفاء من تعذيب وقتل على يد الصينيين فى پيكين . وأملى الغزاة الظافرون على المهزومين معاهدة فتحت لهم بمقتضى شروطها ثغور جديدة كما فتح نهر چنج — دزه للتجارة الأجنبية ، وحددت طريقة لاستقبال الوزراء الأمريكيين والأوربيين فى الصين على قدم المساواة مع الوزراء الصينيين ، ووضعت الضمانات القوية لسلامة المبشرين والتجار الأجانب والسماح لهم بممارسة نشاطهم فى جميع أجزاء الصين ، وأخرجت البعثات التبشيرية من اختصاص المحاكم والموظفين . وزادت فى امتيازات أبناء الأمم الغربية وتحررهم من الخضوع لقوانين البلاد ، وأعطت بريطانيا قطعة من الأرض مقابلة لهنج كنج ؛ وجعلت استيراد الأفيون عملا مشروعاً ، وفرضت على الصين غرامة حربية لينفق منها على إخضاعها لسلطان الغربيين وتدريبها على أساليبهم .

وشجعت الأمم الأوربية انتصاراتُها السهلة فأخذت تقتطع من الصين قطعة بعد قطعة ، فاستولت الروسيا على الأراضى التى تقع فى شمال نهر عامور وشرق نهر الأوسورى (١٨٦٠) ، وانتقم الفرنسيون لموت أحد المبشرين بالاستيلاء على الهند الصينية (١٨٨٥) ، وانقضت اليابان على جارتها ومصدر حضارتها وأثارت عليها حرباً فجائية (١٨٩٤) ، وهزمتها بعد عام واستولت على فرموزا وحررت كوريا من الصين لتستولى عليها هى فيما بعد (١٩١٠) ، وفرضت على الصين غرامة حربية تبلغ ١٧,٠٠٠,٠٠٠ دولار لما سببته لها من متاعب جمة[٧] . ومنعت الروسيا اليابان أن تستولى على شبه جزيرة لياتنج على أن تؤدى الصين إلى اليابان غرامة إضافية ، فلما انقضت ثلاث سنين من ذلك الوقت استولت الروسيا نفسها على شبه الجزيرة وأقامت فيها عدة حصون منيعة . وكان مقتل اثنين من المبشرين على يد الصينيين سبباً فى استيلاء ألمانيا على شبه جزيرة شانتنج (١٨٩٨) ، ثم قُسمت الدولة الصينية التى كانت تحكمها من قبل حكومة قوية إلى « مناطق نفوذ » تستمتع فيها هذه الدولة الأوربية أو تلك بامتيازات فى التعدين أو التجارة لا تشاركها فيها غيرها من الدول . وخشيت اليابان أن تقسم الصين تقسيما حقيقياً بين الدول الغربية ، وأدركت شدة حاجتها إلى الصين فى مستقبل الأيام ، فانضمت إلى أمريكا وطالبت الدولتان بسياسة « الباب المفتوح » ، أى بحق الدول جميعاً فى الاتجار مع الصين على قدم المساواة رغم اعترافها بما للدول فى الصين من « مناطق نفوذ » ، على أن تكون الضرائب الجمركية ونفقات النقل واحدة لجميع الدول على السواء . وأرادت الولايات المتحدة أن تضع نفسها فى مركز يمكنها من أن تساوم على هذه المسائل ، فوضعت يدها على جزائر الفلبين (١٨٩٨) وأعلنت بعملها هذا عزمها على أن تشترك فى النزاع القائم من أجل الاتجار مع الصين .

وفى هذه الأثناء كان فصل آخر من الرواية يمثل وراء جدران القصر الإمبراطورى فى پيكين . ذلك أنه لما دخل الحلفاء عاصمة الصين ظافرين فى

نهاية « حرب الأفيون » الثانية (١٨٦٠) فر الإمبراطور الشاب شيان فنج إلى جيهول حيث توفى بعد عام واحد من ذلك الوقت وترك العرش لابنه البالغ من العمر خمس سنين ، فما كان من زوجة الإمبراطور الثانية أم ذلك الغلام إلا أن استولت على مقاليد الحكم وتسمت باسم تزه شى — وعرفها العالم باسم الإمبراطورة الوالدة — وحكمت الصين حكما طيبا صارما مجرداً من الرحمة دام جيلا كاملا . وكانت هذه السيدة فى شبابها قد حكمت البلاد بقوة جمالها ؛ أما الآن فقد حكمتها بقوة إرادتها . ولما مات ولدها عند بلوغه سن الرشد (١٨٧٥) لم تعبأ الإمبراطورة بالسوابق ولم تأبه بالمعارضين وأجلست على العرش غلاماً قاصراً — جوانج تشو — واستبقت مقاليد الحكم فى يدها . وحافظت هذه الإمبراطورة الجريئة على السلام فى بلاد الصين نحو ثلاثين عاماً مستعينة على ذلك برجال من دهاقين السياسة أمثال لى هونج — چانج ، وأرغمت الدول الجشعة على أن تحسب للصين بعض الحساب . فلما أن انقضت اليابان على الصين فجاءة ، وأسرعت الدول الأوربية إلى تقطيع أوصال البلاد تقطيعاً جديداً بعد انتصار اليابانيين عليها ، قامت فى عاصمة الصين حركة قوية تطالب بأن تحذو حذو اليابان التى أخذت بأساليب الدول الغربية — أى أن تجيش جيشاً قويا ، وأن تنشئ المصانع وتمهد الطرق ، وأن تحاول الحصول على الثروة الصناعية التى مولت بها اليابان وأوربا حروبهما الظافرة . وقاومت الإمبراطورة ومستشاروها هذه الحركة بكل ما لديهم من قوة ، ولكن جوانج شو انضم إليها سراً ، وكان قد أذن له أن يتربع على العرش وأن يكون إمبراطوراً بحق . فلم تشعر الإمبراطورة ومستشاروها إلا وقد أصدر جوانج إلى الشعب الصينى (فى عام ١٨٩٨) من غير أن يستشير « بوذا العجوز » (وهو الاسم الذى كانت حاشية الإمبراطورة تطلقه عليها) عدة مراسيم عجيبة لو أن البلاد قبلتها وعملت بها لسارت سيراً حثيثاً سلميا فى طريق الأخذ بأساليب الغرب ونظمه ، ولحال أخذها بها دون سقوط الأسرة المالكة وتدهور الأمة فى هاوية الفوضى والشقاء .

فقد أمر الإمبراطور الشاب بإقامة نظام جديد للتعليم ، وإنشاء مدارس لا يقتصر التعليم فيها على كتب كنفوشيوس وأتباعه القدماء ، بل تدرس فيها أيضاً الثقافة الغربية فى العلوم والآداب والفنون الصناعية ؛ وشجع على إنشاء الطرق وإصلاح الجيش والبحرية ، وكان يهدف بهذا إلى الاستعداد لمواجهة « الأزمة » المقبلة على حد قوله هو « لأننا محوطون من كل ناحية بجيران أقوياء يريدون بختلهم أن يظفروا بنا ، ويحاولون بتألبهم علينا أن يغلبونا على أمرنا »[٨] . وهال الإمبراطورة الوالدة أن يصدر الإمبراطور هذه المراسيم التى رأت فيها تطرفاً لا تحمد مغبته ، فسجنت چوانج شو فى أحد القصور الإمبراطورية ، ونقضت مراسيمه ، وقبضت بيدها مرة أخرى على أزمة الحكم فى الصين .

وبدأ فى ذلك الوقت رد فعل عنيف ومعارضة قوية لجميع الأفكار الغربية اتخذتهما الإمبراطورة الداهية عوناً لها على الوصول إلى أغراضها . وكان بعض العصاة قد أقاموا فى البلاد جماعة تعرف باسم أى هو — چوان ؛ أى قبضات التوافق الصالحة . ويطلق عليهم المؤرخون اسم « الملاكمين » (البكسر) . وكانت هذه الجماعة تهدف فى الأصل إلى خلع الإمبراطورة والأسرة المالكة . ولكن الإمبراطورة أفلحت فى إقناع زعمائها بأن يوجهوا هذه الحركة وقوتها لمقاومة الغزاة الأجانب بدل أن يوجهوها لمقاومتها هى . وقبل الملاكمون أن يصدعوا بأمرها ونادوا بإخراج جميع الأجانب من بلاد الصين ، وجرفهم تيار الوطنية العارمة فشرعوا يذبحون المسيحيين بلا تفريق بين الطيب منهم والخبيث فى كثير من أنحاء الصين (١٩٠٠) . فما كان من الجيوش المتحالفة إلا أن زحفت مرة أخرى على پيكين ، وكان زحفها فى هذه المرة لحماية مواطنيها الذين استولى عليهم الرعب فاختبئوا فى أركان دور السفارات الأجنبية . وفرت الإمبراطورة وحاشيتها إلى شيانفو ، وانقضت جيوش إنجلترا وفرنسا وروسيا وألمانيا واليابان والولايات المتحدة على المدينة ، وأعملت فيها السلب والنهب ،

وقتلت كثيراً من الصينيين انتقاماً منهم لمواطنيها ، وخربت كثيراً من الممتلكات القيّمة أو نهبتها(*) . وفرض الحلفاء على عدوهم المهول المغلوب غرامة حربية مقدارها ٣٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار يجمعها الأوربيون من المكوس المفروضة على الواردات الصينية وعلى احتكار الملح . على أن جزءاً كبيراً من هذه الغرامة قد رفعته فيا بعد الولايات المتحدة ؛ وبريطانيا العظمى ، والروسيا ، واليابان ، عن الصين . وكانت هذه الدول تشترط عليها عادة أن تنفق الأموال التي نزلت عنها على تعليم الطلبة الصينيين في جامعات الدول التي كانت هذه الأموال من حقها . وكان هذا منها عملا كريماً كان له من الأثر في تحطيم الصين القديمة أقوى مما كان لأي عمل آخر بمفرده في الصراع التاريخي المرير بين الشرق والغرب .

(*) ويقول الكپتن درنكلى فى ذلك . « مما يقشعر منه بدن كل شخص أبيض أن يعلم أن أربعين من النساء المبشرات وخمسة وعشرين من الأطفال ذبحهم الملاكون ، ولكن خمسمائة وستماً وثلاثين من نساء الطبقات العليا فى الصين قد انتحروا فى تونجشاو وحدها مفضلين هذا الانتحار على الحياة بعد ما لاقوا من عار ومذلة ، مع أن الصينيين لم يبدوا أية مقاومة فى هذه المدينة ولم يقع فيها قتال ما » .

الفصل الثانى

حضارة تموت

طلبة الغرامة الحربية – تشربهم بالحضارة الغربية – أثرهم فى تفكك الوحدة الصينية – عمل المبشرين – صون يات – صن المسيحى – مغامراته فى شبابه – التقاؤه بلى هونج – چانج – تدبيره للثورة – نجاحهما – يوآن شىء – كاى – موت صون يات – صن – الفوضى والنهب – الشيوعية – « الشمال يهدأ » – جيانج كاى – شك – اليابان فى منشوريا – شنغهاى

وغادر « طلبة الغرامة » وآلاف غيرهم من الطلبة بلاد الصين ليرتادوا حضارة الغزاة الفاتحين . فذهب كثيرون منهم إلى إنجلترا ، وذهب أكثر من هؤلاء إلى ألمانيا ، وأكثر من هؤلاء وأولئك إلى أمريكا ، وأكثر منهم جميعاً إلى اليابان . وتخرج فى جامعات أمريكا وحدها مئات منهم فى كل عام ، وكانوا يأتون إلى هذه الجامعات وهم صغار السن سريعو التأثر قبل أن تنضج عقولهم ، فيدركوا ما تنطوى عليه حضارتهم القومية من عمق ومالها من قيمة ، وارتووا وهم شاكرون معجبون من معين التربية الجديدة التى قدمت لهم ، ومن علوم الغرب وأساليبه وأفكاره ، وأدهشهم ماشاهدوه حولهم من وسائل الراحة والحياة النشيطة القوية ، ومن حرية الأفراد فى بلاد الغرب ، وما تستمتع به الشعوب من حقوق . ودرسوا الفلسفة الغربية وفقدوا إيمانهم بدين آبائهم ، وسرهم أن يكونوا مصلحين متطرفين يشجعهم فى ذلك من لقنوهم علومهم وحضارتهم ، كما تشجعهم بيئتهم الجديدة على نبذ جميع العناصر التى تتكون منها حضارة بلادهم . ورجع إلى الصين فى كل عام آلاف من هؤلاء الشبان الذين انتزعوا من بيئتهم فى حداثة سنهم وهم حانقون على تأخر بلادهم المادى وخطوها البطىء فى سبيل الحضارة الغربية وبذروا فى كل مدينة دخلوها بذور البحث والثورة على القديم .

وأعانتهم على غرضهم سلسلة من الحوادث والظروف ، منها أن التجار والمبشرين الذين غزوا الصين من الغرب قد ظلوا قرابة جيلين مراكز للعدوى الغربية أرادوا هم ذلك أو لم يريدوه ، فقد كان طراز معيشتهم وأساليب متعتهم وراحتهم مما بعث فى نفوس من حولهم من شباب الصين رغبة قوية فى أن ينالوا حظا من هذه الحضارة الراقية . وكان هؤلاء التجار والمبشرون رغم قلتهم قد قوضوا بنشاطهم العقيدة الدينية التى كانت دعامة القانون الأخلاق القديم ؛ وأثاروا شبان البلاد على شيوخها بدعوتهم إلى نبذ عبادة الآباء ؛ ومع أنهم كانوا يدعون إلى دين عيسى المسالم الوديع فقد كانوا إذا تأزمت الأمور تحميهم مدافع ترهب الشرق بضخامتها وقوتها وتخضعه لسيطرة الأوربيين . لقد كانت المسيحية فى أول نشأتها ثورة المظلومين على الظالمين ، وها هى ذى قد عادت فى يد معتنقيها من شباب الصين عاملا من عوامل الثورة .

وكان زعيم الثورة ممن اعتنقوا المسيحية . ذلك أن أحد المستأجرين من الزراع القاطنين قرب كانتون قد ولد له فى عام ١٨٦٦ ولد مشاغب سماه العالم فيما بعد — فى سخرية غير مقصودة — صون يات — صن ؛ أى الشمس جنية السكينة[١٠] . واعتنق صون المسيحية وقوى إيمانه بها فاندفع يحطم أصنام الآلهة فى معبد قريته . وكان لهذا الغلام أخ له أكبر منه سنا هاجر من قبل إلى جزائر هاواى ، فجاء بأخيه الأصغر إلى هنولولو وأدخله مدرسة يديرها راهب من أتباع الكنيسة الإنجليزية ويسير التعليم فيها بالأساليب الغربية البحتة[١١] . ولما عاد صون إلى الصين التحق بالكلية الحربية البريطانية فكان أول من تخرج فيها من الصينيين .

وكانت هذه الدراسات من أكبر الأسباب التى أفقدت الرجل كل ما كان فى قلبه من العقائد الدينية ، كما كانت الإهانات وضروب الإذلال التى يلقاها هو وأبناء وطنه فى الجمارك التى يسيطر عليها الأوربيون وفى الأحياء الأجنبية من

ثغور المعاهدات مما أوغر صدره وجعله يفكر فى الثورة . وكان عجز الحكومة الفاسدة الرجعية عن أن تقى الصين العظيمة مذلة الهزيمة على يد اليابان الصغيرة ، وتجزئة البلاد بين الدول الأوربية لأغراضها التجارية ، مما أشعره بالمذلة وملأ قلبه حقداً وضغينة على تلك الحكومة ، فاعتقد أن أول خطوة يجب عليه أن يخطوها فى سبيل تحرير الصين هى أن يقضى على أسرة المنشو .

وكانت أولى حركاته شاهداً حقا على ثقته بنفسه ، ومثاليته ، وبساطته . ذلك أنه ركب سفينة تجارية دفع أجرها من ماله الخاص وسار بها مدى ألف وستمائة ميل نحو الشمال ليعرض على لى هونج — چانج نائب الملكة الوالدة مشروعاته التى تهدف إلى إصلاح أحوال البلاد واستعادة عزها وكرامتها . فلما رفض هذا الحاكم مقابلته بدأ حياة كلها مغامرات وتجوال لجمع المال الذى يؤجج به نار الثورة الصينية ، ولقى معونة من كثير من النقابات التجارية والجمعيات السرية القوية التى كان قادتها يحسدون الطبقة الحاكمة الأرستقراطية ، ويتوقون إلى إقامة نظام للحكم يكون فيه للطبقات الحديثة من أرباب المصانع والمتاجر شأن يتناسب وثروتهم المتزايدة : ثم غادر الصين وأبحر إلى أمريكا وأوربا يجمع المال القليل من ملايين الغسالين وآلاف التجار الصينيين . فلما جاء إلى لندن اعتقلته المفوضية الصينية دون سند قانونى أوشكت أن ترسله سراً إلى الصين مكبلا بالأغلال بحجة أنه خائن لحكومته ، ولم ينجه إلا مبشر ممن علموه فى صباه ، فنبه الحكومة البريطانية وتدخلت هذه فى الأمر وأنقذته . وظل خمسة عشر عاماً أخرى يتنقل من مدينة إلى مدينة فى جميع أنحاء العالم ، وجمع فى تجواله مليونين ونصف مليون من الدولارات ليموّل بها الثورة ، ويلوح أنه لم ينفق شيئاً من هذا المال على نفسه . ثم جاءته على حين غفلة فى أثناء تجواله رسالة تنبئه أن قوات الثورة استولت على الجزء الجنوبى من بلاد الصين ، وأنها بسبيل الاستيلاء على شمالها ، وأنها اختارته رئيساً مؤقتاً للجمهورية الصينية . وبعد بضعة أسابيع من

ذلك الوقت رست السفينة التى أقلته فى هنج كنج التى لقى فى ثغرها المذلة منذ عشرين عاماً على يد الموظفين البريطانيين .

وكانت الإمبراطورة الوالدة قد قضت نحبها فى عام ١٩٠٨ بعد أن دبرت موت الإمبراطور السجين جوانج شو قبل موتها بيوم واحد ، وخلفها على العرش بويسى ابن أخى جوانج ، وهو الآن إمبراطور منشوكو(*) . وأدخلت الحكومة الصينية فى أواخر حكم الإمبراطورة الوالدة وأوائل حكم خليفتها الطفل كثيراً من ضروب الإصلاح التى تهدف إلى تجديد البلاد وصبغها بالصبغة الغربية الحديثة ؛ فمدت الطرق الحديدية مستعينة فى الغالب برءوس الأموال الأجنبية وبخبرة الأجانب وإشرافهم ، وألغى نظام الامتحان للتعيين فى المناصب الحكومية ، وأنشئ نظام جديد للتعليم ، ودعيت جمعية وطنية لتجتمع فى عام ١٩١٠ ، ووضع مشروع يستغرق تنفيذه تسع سنين يهدف إلى إقامة حكومة ملكية دستورية ، وينتهى بتعميم حق الانتخاب بعد أن يتدرج خطوة خطوة مع انتشار التعليم العام فى البلاد . وجاء فى المرسوم الذى أعلن به هذا المنهج ما يأتى : « كل تسرع فى إدخال هذه الإصلاحات سيؤدى فى النهاية إلى ضياع كل ما بذل فيها من جهود »[١٣] . ولكن الثورة لم تكن لتوقف تيارها هذه النوبة التى جهرت بها الأسرة المريضة وهى على فراش الموت ، وألفى الإمبراطور الشاب نفسه تحيط به الثورة من كل جوانبه ، وقد تخلى عنه الجيش فلم يجد من يدافع عنه ، فلم ير بداً من أن يعلن تخليه عن العرش ، وأصدر نائب الإمبراطور الأمير چون مرسوماً هو أعجب ما صدر من المراسيم فى تاريخ الصين كله :

إن الشعب فى جميع أنحاء الإمبراطورية يتجه الآن بعقله نحو الجمهورية ...

(*) لقد كتب هذا الفصل قبل الحرب الأوربية الأخيرة ، وكانت اليابان قد غزت الصين ، واجتاحت جيوشها منشوريا ، وأقامت فيها دولة تأتمر بأمرها هى دولة منشوكو ، وأجلست هذا الإمبراطور على عرشها . ولكن الحرب الأخيرة بدلت هذا كله (المترجم)

إن إرادة الله واضحة ورغبات الشعب غير خافية . فكيف أستطيع أن أعارض رغبات الملايين الكثيرة للاحتفاظ بمجد أسرة واحدة وكرامتها ؟ ومن أجل ذلك فإني أنا والإمبراطور نرى أن تكون الحكومة في الصين جمهورية دستورية إجابة لرغبات الشعب في داخل الإمبراطورية كلها ، وعملا بآراء الحكماء الأقدمين الذين كانوا يرون أن العرش تراث عام[١٤] .

وكانت الثورة كريمة كل الكرم في معاملتها ليو — پي ؛ فقد أمنته على حياته ومنحته قصراً مريحاً ومرتباً سنويا يقوم بشئونه ، وخليلة يسكن إليها . لقد جاء المنشو إلى الصين آساد وخرجوا منها حملانا .

وكان مولد الثورة هادئاً سلميا ، ولكن حياتها كانت حياة عاصفة مليئة بالأحداث . فقد كان ليوان شي — كاى وهو سياسي من الطراز القديم جيش قادر على مقاومة الثورة . وطلب أن يكون ثمن تأييده إياها أن يتولى رياسة الجمهورية ، وأجابه صون يات — صن إلى ما طلب واعتزل الحياة العامة في كرم وعزة نفس ، وكان قد بدأ منذ قليل يستمتع بمنصبه الجديد . وأخذ يوان يمد العدة لأن يجعل نفسه إمبراطوراً وينشئ أسرة حاكمة جديدة مستعيناً في عمله هذا بجماعات مالية قوية أجنبية ووطنية ؛ وحجته في هذا أن الإمبراطورية هي السبيل الوحيدة لمنع تدهور الصين وتفككها . واتهمه صون يات — صن بالخيانة وأهاب بأتباعه أن يجددوا عهد الثورة ، ولكن يوان مرض ومات قبل أن يصل الأمر إلى امتشاق الحسام .

ولم تعرف الصين النظام والوحدة من ذلك الحين . فقد تبين أن صون يات — صن رجل أحلام يسبح في بيداء الخيال ، وأنه خطيب مفوه ولكنه سياسي عاجز عن تولى زمام الحكم وقيادة الأمة إلى بر السلام ، فكان ينتقل من خطة إلى خطة ومن نظرية إلى أخرى ، أغضب من عاونوه من الطبقات الوسطى بما أظهره من ميل إلى الشيوعية ، وانتهى أمره بالانزواء في كانتون ليعلم شبابها ويبث فيهم روحه ،

ويحكم أهلها فى بعض الأحيان(*). وحرمت الصين من حكومة تعترف بها جميع أجزائها، ومن ملكية كانت رمز وحدتها، ونبذت عادة الطاعة والخضوع لتقاليدها وشرائعها؛ وهى من بداية أمرها ضعيفة النزعة الوطنية التى تربط النفس بالوطن كله لا بالإقليم الذى تعيش فيه، فشبت فيها نار حرب متقطعة بين الجنوب والشمال تارة، وبين طائفة وطائفة تارة أخرى، ثم بين السراة والجياع، وبين الشيوخ والشبان. وقام المغامرون يجيشون الجيوش، ويفرضون سلطانهم على الولايات النائية، يجبون منها الضرائب ويزرعون الأفيون[١٥]، ويخرجون بجنودهم من حين إلى حين ليضموا ضحايا جدداً إلى رعاياهم المساكين. واضطربت أحوال الصناعة والتجارة واضمحلت لكثرة ما كان يفرضها عليها قائد منتصر بعد قائد. وأخذ اللصوص وقطاع الطريق يفرضون الإتاوات، وينهبون ويقتلون، لأنهم لا يجدون قوة منظمة تقف فى وجههم وتضرب على أيديهم. ووجد الناس فى التلصص والجندية وقاية لهم من الهلاك جوعاً، وكثيراً ما كان هذا القائد أو ذاك المنسر من اللصوص يداهم أسرة مقتصدة فيسلبها ما ادخرته طول حياتها من المال أو ما جمعته من المتاع. وحسبنا تصويراً لهذه الحال أن عدد قطاع الطريق فى ولاية هونان وحدها قد بلغ فى عام ١٩٣١ — ٤٠٠,٠٠٠[١٦] أو يزيدون.

وبينما كانت هذه الفوضى ضاربة أطنابها فى البلاد أرسلت الروسيا فى عام ١٩٢٢ اثنين من أقدر ساستها هما كرخان وچف ليضما الصين إلى نطاق الثورة الشيوعية. ومهد كرخان لعمله هذا بنزول الروسيا عمالها من امتيازات فى الصين، وبتوقيع معاهدة تعترف فيها بشرعية حكومة الثورة وبمركزها الدولى. ولم يجد چف الداهية صعوبة ما فى أن يستميل صون يات — صن إلى الشيوعية لأن جميع السلطات الأخرى كانت قد نبذته، ولم يمض إلا وقت قصير حتى تكون جيش وطنى جديد ودرب بمعونة سبعين من الضابط السوفيت. وزحف هذا

(*) ومات پيكين عام ١٩٢٥ فى أحسن الفرص التى أتيحت لأعدائه المحافظين.

الجيش من كانتون إلى الشمال تحت إمرة چيانج كاى — شك أمين سر صون يات — صن السابق ، ويقوده عمليا المستشار الروسى برودين ، يخضع بلدة فى إثر بلدة حتى استقر أخيراً فى پيكين(*) . ولكن المنتصرين انقسموا على أنفسهم فى ساعة النصر فخرج چيان كاى — شك على الحركة الشيوعية وأقام دكتاتورية عسكرية إجابة لرغبات رجال الأعمال والمال(**) .

إن الأمم كالأفراد من العسير عليها ألا تفيد من مصائب جيرانها . ومصداق ذلك أن اليابان ، التى كان يبغى صون يات — صن أن تكون صديقة الصين وحليفتها على الأمم الغربية ، والتى شجعت الثورة الصينية بنجاحها السريع فى السير على النظم الأوربية فى الصناعة والسياسة والحرب ، نقول إن اليابان وجدت فى الفوضى التى تردت فيها معلمتها القديمة فرصة سانحة لحل المشكلة التى أثارها نجاحها هى وتقدمها السريع . ذلك أن اليابان لم يكن فى وسعها أن تحد من عدد سكانها دون أن تعرض سلامتها للخطر الشديد بعجزها عن صد من تحدثه نفسه بالإغارة عليها ؛ ولم يكن فى وسعها كذلك أن تمون سكانها المتزايدين إلا إذا زادت مواردها بتشجيع الصناعة والتجارة ؛ وليس فى وسعها أن تشجع الصناعة والتجارة من غير أن تستورد الحديد والفحم وغيرهما من المواد الأولية التى لا تجدها فى بلادها ، وليس فى وسعها كذلك أن تنمى تجارتها وأن تفيد منها أكبر فائدة دون أن يكون لها نصيب موفور فى السوق العظيمة الوحيدة التى لا تزال خارجة عن نطاق الاستعمار الأوربى الذى شمل الكرة الأرضية كلها . وكانت الصين

(*) وتغير اسم تلك المدينة من ذلك الوقت فسميت پيپنج أى الشمال المهدأ بدل پيكنج (العاصمة الشمالية) ، واتخذت الحكومة الوطنية مقرها فى نانكنج « العاصمة الجنوبية » لتكون قريبة من مواردها المالية فى شنغهاى .

(**) أما الحوادث التى تلت هذا فلا تزال ماثلة فى الأذهان ، فقد اندلعت نار الحرب العالمية الثانية ، وهزمت اليابان ، وزحف الشيوعيون بجيوشهم على الجنوب تعاونهم روسيا السوفيتية وانتصروا على چيان كاى — شك ، وهزموا جيوش الحكومة الوطنية ، وأصبحت الصين كلها تقريبا دولة شيوعية . (المترجم)

مشهورة بكثرة ما فيها من الحديد والفحم ، ويرجى منها أن تكون فى المستقبل أعظم الأسواق العالمية . وهى إلى ذلك أقرب الأسواق إلى اليابان . وهل فى العالم أمة يبدو لها أن فى مقدورها أن تختار بين العودة إلى الزراعة والفاقة والمذلة ، وبين التقدم فى الصناعة والفتح والاستعمار ، ثم تستطيع أن تقاوم الميل الشديد إلى اختطاف جزء من الصين الضعيفة المقطعة الأوصال فى الوقت الذى كانت فيه النسور الأوربية يقطع بعضها أشلاء بعض فى ميدان فرنسا(*) ؟

من أجل هذا أعلنت اليابان الحرب على ألمانيا فى بداية الحرب العالمية الأولى ، وانقضت على إقليم چياو چو وهو الإقليم الذى كانت ألمانيا قد استأجرته من الصين قبل ذلك الوقت بستة عشر عاما ، ثم قدمت إلى حكومة يوان شى كاى « واحداً وعشرين مطلبا » لو أجابتها الصين لأصبحت مستعمرة سياسية واقتصادية لليابان ، ولولا احتجاج الولايات المتحدة ومقاطعة الصينيين بزعامة طلابها الغضاب للبضائع اليابانية لنفذت هذه المطالب قوة واقتداراً . ذلك أن الطلاب انطلقوا فى شوارع المدن الصينية يبكون أو يقتلون أنفسهم لأنهم يستحون أن يرى الناس وجوههم بعد هذا الإذلال الذى حاق ببلادهم[١٧] .

وكان اليابانيون يستمعون وهم ساخرون إلى غضب أوربا واحتجاجها وهى التى ظلت تنخر فى عظام الصين خمسين سنة أو تزيد . وارتدت اليابان دون أن تصل إلى أهدافها ولكنها ظلت تتحين فرصة أخرى تحقق فيها أطماعها . ولاحت لها هذه الفرصة حين كانت أوربا وأمريكا تتردّيان فى عواقب خططهما الصناعية الاستعمارية التى كانت تعتمد على الأسواق الأجنبية لاستيعاب « الفائض » من محصولاتها التى لا يستطيع منتجوها أن يبتاعوها . وزحفت اليابان على منشوريا وأقامت پو يى إمبراطور الصين السابق رئيساً لجمهورية منشوكو التى أنشأتها فى ربوعها ثم نصبته بعدئذ إمبراطوراً عليها . ثم عقدت مع الدولة الجديدة حلفاً

(*) يشير المؤلف بهذا القول إلى الحرب العالمية الأولى (المترجم)

سياسيا ، ثم تغلغلت فيها اقتصاديا ، وسيطرت عليها عسكريا ، وجعلت لنفسها بهذه الوسائل فيها مركزاً ممتازاً يمكنها من استغلال موارد منشوريا الطبيعية ، واستخدام أهلها ، وفتح أسواقها للتجارة اليابانية . وانضمت الدول الأوربية التى كانت قد اتفقت فيما بينهما على وقف غارات التلصص زمنا ما بعد أن جمعت كل ماتستطيع أن تجمعه من الأسلاب ، انضمت هذه الدول إلى أمريكا ، ووجهت احتجاجا ضعيفا إلى اليابان على هذا النهب الصريح ؛ ولكنها كانت فى هذه المرة كما هى عادتها فى جميع الأحوال على استعداد لأن تعد النصر مبرراً للغاية .

كانت آخر مذلة لحقت بأوربا وأمريكا هى ما أقدمت عليه اليابان فى شنغهاى . ذلك أن اليابان ثار ثائرها لما أصاب تجارتها من جراء المقاطعة الصينية ، فأنزلت جيوشها المنتصرة فى أغنى ثغور الصين ، واحتلت حى چاپاى ودمرته ، وأنذرت الحكومة الصينية بأن توقف أعمال جمعيات المقاطعة . ودافع الصينيون عن أنفسهم دفاع الأبطال ، وقاوم جيش الطريق التاسع عشر القادم من كانتون قوى اليابان التى كانت تفوقه عدة ونظاما ، ووقف وحده تقريبا فى وجهها شهرين كاملين . ثم عرضت حكومة نانكنج على اليابان أن تتراضى وإياها على حل وسط ، وانسحبت اليابان من شنغهاى ، وعادت الصين تضمد جراحها ، فاعتزمت أن تضع لنفسها أساس حضارة جديدة أقوى من حضارتها السابقة وأمتن منها دعامة تستطيع أن تدفع بها العالم النهم وترد مطامعه .

الفصل الثالث

بداية عهد جديد

التغيير في القرية — وفى المدينة — المصانع — التجارة — اتحادات العمال — الأجور — الحكومة الجديدة — القومية واتباع الأساليب الغربية — إنزال كنفوشيوس عن عرشه — مناهضة الدين — المبادئ الخلقية الجديدة — التحول فى نظام الزواج — تحديد النسل — التعليم المشترك بين الذكور والإناث — « التيار الجديد » فى الأدب والفلسفة — لغة الأدب الجديدة — هوشى — عناصر التدمير — عناصر التجديد

كان كل شيء فى الماضى يتغير ما عدا الشرق ، أما الآن فليس شيء فى الشرق لا يتغير ، وأصحت أشد الأمم استمساكا بالقديم أكثرها تطرفا بعد الروسيا ، وأخذت تدمر عامدة عادات ونظما كانت تعدها من قبل حرما آمنا غير قابل للتعديل . فليس الأمر الآن مقصوراً على القضاء على أسرة حاكمة كما حدث فى عام ١٦٤٤ بل هو اقتلاع جذور حضارة قديمة .

وقد جرت العادة أن يكون آخر التغيير وأقله فى القرية ، لأن اعتدال القرية وبطء سيرها لا يشجعان على التجديد ، والجيل الجديد نفسه لا بد له أن يزرع أولا ثم يحصد ما زرعه فيما بعد . وأما الآن فإن سبعة آلاف ميل من الخطوط الحديدية تخترق الريف الصينى ، ولا تزال تربط القرى الشرقية بالمدن الساحلية وتحمل كل جديد من سلع الغرب إلى الملايين من بيوت الزراع ، رغم ما أصابها من الدمار فى خلال الفوضى وسوء الإدارة اللذين داما عشرات السنين ، ورغم ما تحملته من الأعباء الباهظة بسبب حاجات الحرب ومطالبها الملحة . فى هذه القرى يرى السائح كثيراً من الواردات الأجنبية مثل الكيروسين ، ومصابيح الكيروسين ، وعيدان الثقاب ، ولفافات التبغ ؛ بل يرى فيها القمح الأمريكى نفسه . ولعل القارئ يظن أن وجود هذه البضائع والسلع فى داخل البلاد أمر عادى غير جدير بالذكر ؛ والحق أن

نقلها إليها من أصعب الأمور لأن البلاد لا تزال جد فقيرة فى وسائل النقل ، حتى أن نقل البضائع بين الأقاليم الداخلية والمقاطعات الساحلية يتطلب من النفقات أكثر مما يتطلبه نقلها إلى ثغور الصين من أستراليا أو الولايات المتحدة . ولقد تبين لأهل البلاد أن نمو الحضارة من الناحية الاقتصادية موقوف على سهولة سبل النقل ووسائل الاتصال . من أجل ذلك أنشئت طرق برية يبلغ طولها نحو عشرين ألف ميل تسير عليها ستة آلاف مركبة حافلة سيراً غير منتظم مملوءة على الدوام بالركاب . فإذا ما ارتبطت هذه القرى التى يخطئها الحصر بالسيارات السريعة فإن ذلك يحدث فى الصين أعظم تغيير شهدته فى تاريخها الطويل وهو القضاء حتى على القحط الذى طالما هددها وأفنى الكثيرين من أهلها .

هذا فى القرى أما فى الحواضر فإن انتصار الأساليب الغربية يسير بخطى أسرع وأيسر ، فالحرف اليدوية أخذت فى الزوال بتأثير منافسة السلع الرخيصة السهلة النقل المستوردة من خارج البلاد . وقد تعطل لهذا السبب آلاف من الصناع ، ولكن المصانع الآلية التى أنشئت على طول السواحل بمعونة رءوس الأموال الأجنبية والوطنية تبتلعهم ابتلاعا سريعا . وقد سكت صوت الأنوال اليدوية فى المدن وإن كانت لا تزال تدور فى الريف ، وغمر القطن والمنسوجات القطنية أسواق البلاد ، وشيدت مصانع النسيج لتجعل من فقراء الصين عبيداً مسخرين للآلات ، وأقيمت فى هانجتشاو أفران لصهر المعادن لا تقل ضخامة وروعة عن مثيلاتها فى البلاد الغربية ، ووضعت مشروعات هائلة لإنشاء مخابز ومصانع لحفظ الطعام ولصنع الأسمنت والورق والصابون والشمع وتكرير السكر ، وهى تعمل رويداً رويداً على تحويل العامل الصينى اليدوى إلى صانع ومشرف على الآلات . لكن الصناعات الجديدة يعوق نموها السريع تردد أصحاب رءوس الأموال فى أن يستثمروها فى بلاد لا تنقطع فيها الثورات ، ويلاقون فيها صعابا جمة من جراء نقص وسائل النقل وكثرة نفقاتها وقلة المواد فى داخل

البلاد ، ومن جراء تمسك الصينيين بتلك العادة الجميلة عادة الولاء للأسرة قبل الولاء لكل ما عداها من الجماعات ، والتي تجعل كل مكتب من مكاتب الموظفين وكل مصنع ممشناً للأقارب والعاجزين عن أداء عمل من الأعمال[١٩] . والتجارة يعوقها فضلا عن هذا ما يفرض عليها من الضرائب في داخل البلاد ومن الرسوم الجمركية والرشا وضروب الاغتصاب ، وإن كانت مع ذلك تنمو أسرع من نمو الصناعة وتضطلع بدور خطير في تحوّل الصين الاقتصادي[*] .

وقد قضت الصناعات الجديدة على نقابات أرباب الحرف القديمة وأحدثت كثيراً من الاضطراب والفوضى بين العمال وأرباب الأعمال . ذلك أن هذه النقابات كانت تعيش بفضل ما تبذله من الجهود لتحديد أجور العمال وأثمان البضائع بالتوفيق بين الملاك والمنتجين الذين لم يكن لمنتجاتهم ما ينافسها في التجارة المحلية . فلما أن اتسع نطاق التجارة بزيادة وسائل النقل ، وجاءت البضائع من البلاد البعيدة تنافس في جميع المدن بضائع النقابات المصنوعة باليد ، تبين لها أن ليس في استطاعتها أن تشرف على الأسعار أو تحدد الأجور من غير أن تخضع في ذلك إلى أوامر المتنافسين الأجانب وإلى رءوس الأموال الأجنبية . ومن أجل هذا تفككت النقابات وتقسمت إلى غرف تجارية من جهة وإلى اتحادات للعمال من جهة أخرى . فالغرف تعنى بالنظام والولاء لأصحاب الأعمال وبالحرية الاقتصادية ، والعمال يعنون بأجورهم المنخفضة التي تكاد تميتهم جوعا . وقد كثر الإضراب والمقاطعة ولكن هذين قد أفلحا في إرغام أرباب الأعمال من الأجانب على التسليم للحكومة الصينية ببعض الامتيازات أكثر مما أفلحا في رفع

(*) كانت بريطانيا العظمى في وقت من الأوقات هي المسيطرة على تجارة الواردات ، أما الآن فإن لها فيها نحو ١٤ ٪ وللولايات المتحدة ١٧ ٪ ولليابان ٢٧ ٪ ، ولا يزال مركز اليابان في هذه التجارة يقوى عاماً بعد عام . وقد تضاعفت تجارة الصين فيما بين ١٩١٠ ، ١٩٣٠ فبلغت ٦٠٠ ٪ وتقدر قيمتها بما يقرب من نصف بليون من الدولارات . غير أن الحرب العالمية الأخيرة وهزيمة اليابان قد بدلتا من مركزها في هذه التجارة .

أجور العمال . وقد قدرت مصلحة الشئون الاجتماعية التابعة لبلدية شنغهاى الصينية متوسط الأجر الأسبوعى لعمال مصانع النسيج بين ١٫٧٣ ، ٢٫٧٦ دولار للرجل ، وما بين ١٫١٠ ، ٢٫٧٨ دولار للمرأة . وكان متوسط الأجور الأسبوعية للرجال فى المطاحن والمصانع ١٫٩٦ دولار وفى مصانع الأسمنت ١٫٧٢ دولار ، وفى مصانع الزجاج ١٫٨٤ ، وفى مصانع الكبريت ٢٫١١ ؛ وكان متوسط أجر العمال المهرة فى المصانع الكهربائية ٣٫١٠ وفى مصانع الآلات ٣٫٢٤ وبين عمال المطابع ٤٫٥٥[٢٣] .

وما من شك فى أن الزيادة الكبيرة فى أجور عمال المطابع إنما ترجع إلى حسن تنظيمهم وإلى الصعوبة التى يعانيها أصحاب المطابع فى استبدال غيرهم بهم إذا توقفوا عن العمل فجأة . وتألفت أولى اتحادات العمال فى عام ١٩١٩ وزاد عددها وقوتها حتى طلبت فى أيام برودين أن تتولى هى حكم الصين ؛ ولكن چيانج كاى — شك كبح جماحها من غير رحمة بعد نزاعه مع الروسيا ، وقد سنت لمقاومتها فى هذه الأيام قوانين غاية فى الصرامة ، ولكن عددها مع ذلك أخذ فى الازدياد بسرعة لأنها الملجأ الوحيد للعمال من عنت النظام الصناعى الذى لم يعمل حتى الآن أكثر من أن يبدأ بوضع التشريع الخاص بالعمال ، ولم يبدأ قط فى تنفيذه[٢٤] . وإن ما يعانيه صعاليك المدن فى هذه الأيام من فقر مدقع وكدح يدوم اثنتى عشرة ساعة فى اليوم بأجور لا تكاد تمسك الروح بالجسم ، يهددهم الموت جوعاً إذا لم يجدوا عملا فى يوم من الأيام ، إن ما يعانيه هؤلاء الصعاليك فى هذه الأيام لأسوأ مما كان يعانيه فقراء القرى فى الأيام الخالية حيث لم يكن يسمح للفقراء أن يروا الأغنياء ، وحيث كانوا يرضون بما قسم لهم منذ الأزل .

ولعله كان من المستطاع تجنب هذه الشرور لو أن تبدل الأحوال فى شرق الصين لم يتم بغير ما تم به من السرعة ولم يبلغ ما بلغه من الكمال . إذن لكان فى مقدور كبار الموظفين الصينيين ، وإن فقدوا ما كان لهم من حيوية وتلوثت أيديهم بالرشوة ، أن يكبحوا جماح القوى الصناعية الجديدة حتى تتأهب الصين

لقبولها من غير أن تقع فى براثن الفوضى والعبودية ؛ وإذن لنشأت من نمو الصناعة عاماً بعد عام طبقة جديدة من السكان لعلها كانت تستطيع أن تخطو بسلام إلى ميدان السلطة السياسية ، كما خطا الصناع إليها فى إنجلترا وحلوا محل كبار ملاك الأراضى الزراعية .

ولكن الحكومة الجديدة ألفت نفسها بلا جيش ، ولا زعماء مجرّبين ، ولا مال ؛ ووجد الكومنتانج ، أى حزب الشعب الذى أنشئ لتحرير الأمة ، أن لا بد له أن يقف موقف العاجز وهو يرى الأمة تخضع لرءوس الأموال الأجنبية والوطنية . وكان هذا الحزب قد ولد فى مهاد الدمقراطية ونشأ فى أحضان الشيوعية ، ثم أضحى جل اعتماده على مصارف شنغهاى المالية ، فترك الدمقراطية وانحاز إلى الدكتاتورية وحاول أن يقضى على اتحادات الصناع(*) . ذلك أن الحزب يعتمد على الجيش ، ولا بد للجيش من مال ، والمال لا يأتى إلا من القروض ؛ وإلى أن يكون للجيش من القوة ما يمكنه من إخضاع الصين فإن الحكومة ستظل عاجزة عن فرض الضرائب على الصين ، وإلى أن تستطيع الحكومة فرض الضرائب على الصين ستظل تتلقى النصح والإرشاد من حيث تتلقى المال . على إنها مع هذا كله قد أنجزت الشىء الكثير ؛ فقد أعادت إلى الصين إشرافها التام على التعريفة الجمركية وعلى صناعاتها — داخل نطاق قوة المال العالمية — وأنشأت ودرّبت وجهزت جيشاً قد يستخدم فى يوم من الأيام لقتال غير الصينيين ؛ ووسعت رقعة الأقاليم التى تعترف بسلطة الحكومة ، وقللت فى هذه الرقعة من قوة قطاع الطرق الذين كانوا يجثمون على أنفاس الأمة ويكادون يقضون على حياتها الاقتصادية . وهى تسير فى هذا سيراً بطيئاً لأن إشعال نار الثورة مستطاع فى يوم وليلة ولكن إقامة حكومة ثابتة يحتاج إلى جيل

(*) وقد أعدم فى عام ١٩١٧ وحدها آلاف مؤلفة من العمال لانضمامهم إلى هذه الاتحادات .

وليس تفكك الصين وانفصام عرى وحدتها إلا مظهراً مما فى النفس الصينية من انقسام ونتيجة لازمة له . إن أقوى ما فى الصين من مشاعر فى هذه الأيام هو شعور الكراهية للأجانب ، وأقوى التيارات التى تجتاح الصين هو تيار محاكاة الأجانب . والصين تعترف أن الغرب لا يستحق أن تتملقه وتحاكيه ؛ ولكن الصين يضطرها روح الأيام ودوافعها القوية إلى تملق الغرب ومحاكاته لأن الأمم فى هذا العصر لا بد لها أن تختار بين التصنيع والاسترقاق ولا ثالث لهما . ومن أجل هذا نرى الصينيين فى المدن الشرقية يهجرون الحقول إلى المصانع ، والثياب الفضفاضة إلى السراويل الضيقة ، ونغمات الماضى البسيطة الشجية إلى موسيقى الغرب المعقدة ، ويتخلون عن ذوقهم الجميل فى الثياب والأثاث والفن ، ويزينون جدرانهم بالصور الأوربية ، ويشيدون دور الحكومة ومكاتب الأعمال على أقبح الطرز الأمريكية . وقد تخلت نساء الصين عن عادة ضغط أقدامهن من الأمام إلى الخلف وأخذن يضغطنها من اليمين إلى اليسار على آخر طراز غربى(*) ، وأخذ فلاسفتها يتخلون عن مبادئ كنفوشيوس المعتدلة القنوعة الظريفة ويهرعون إلى مبادئ موسكو ولندن وبرلين وباريس ونيويورك الشرسة الخصيمة ، ويتلقونها بنفس الحماسة التى كان الأوربيون يتلقون بها مبادئ النهضة فى أواخر العصر الوسيط .

لقد ثلّ عرش كنفوشيوس وكان فى الطريقة التى ثل بها شىء من سمات عصر النهضة وعصر الاستنارة ؛ ولقد كان نبذا لأرسطو الصين والآلهة التى عبدها الشعب من أقدم الأزمنة . وأتى على الدولة حين من الدهر اضطهدت فيه البوذية وطوائف الرهبان فى الأديرة ، ذلك أن ثوار الصين كانوا كثوار فرنسا ملاحدة لا يخفون عن الناس إلحادهم ، ويجهرون بعدائهم للدين ، ولا يعبدون غير

(*) تعمد بعض الصينيات فى هذه الأيام إلى وضع وسادات فى أحذيتهن ليخفين عن الناس أن أقدامهن قد ضغطت فى صغرهن(٢٦) .

العقل . ولعل الكنفوشية كانت تترك الناس أحراراً فى عقائدهم الدينية لأنها تفترض أن الآلهة ستبقى ما بقى الفقر ؛ أما الثورة فكانت تظن أن فى وسعها أن تقضى على الفقر ولذلك لم تر حاجة إلى الآلهة ؛ وكانت الكنفوشية ترى أن الزراعة والأسرة هما نظام الحياة العملية والاجتماعية الطبيعية ولذلك شادتْ صرحاً للأخلاق يهدف إلى حفظ النظام وإشاعة القناعة فى نطاق دائرة البيت والحقل ؛ أما الثورة فوجْهتها الصناعة وهى فى حاجة إلى أخلاق جديدة تتفق مع الحياة الفردية فى الحواضر . وقد بقيت الكنفوشية لأن الوصول إلى المناصب السياسية والمهن العلمية كان يتطلب معرفة مبادئها والأخذ بها ؛ أما الآن فنَظام الامتحانات قد انقضى عهده وحلت العلوم الطبيعية فى المدارس محل الفلسفة الأخلاقية والسياسية ؛ وأصبح الرجل لا يصاغ للحكم بل يصاغ للصناعة ؛ وكانت الكنفوشية محافظة تكبح بحذر الشيوخ مُثُل الشباب العليا ؛ أما الثورة فروحها من أنفاس الشباب ولا تقبل أن يفرض عليها شيء من هذه القيود ، وهى تسخر من الشيوخ إذا رفعوا عقيرتهم محذرين : « إن الذين يظنون أن الجسور القديمة عديمة النفع ويحطمونها تحطيما سيصيبهم الدمار ويغرقهم تيار المياه الجارف »(*)[٢٧] .

وقضت الثورة بطبيعة الحال على دين البلاد الرسمى ولم تعد تقرّب القرابين الآن من مذبح السماء إلى التِّيان الصامت المجرد . وتجيز الحكومة عبادة الأسلاف ولكن هذه العبادة آخذة هى الأخرى فى الانقراض ، وينزع الرجال إلى تركها شيئاً فشيئاً للنساء وقد كانوا يظنونهن من قبل غير خليقات بهذه الطقوس المقدسة . ولقد تلقى نصف زعماء الثورة تعليمهم فى المدارس المسيحية ، ولكن الثورة رغم انتماء چيانج كاى شك إلى الطائفة المسيحية النظامية (Methodism) لا تميل إلى دين يؤمن بخوارق الطبيعة وتصبغ كتبها المدرسية بالصبغة الإلحادية[٢٩] . أما

(*) انظر ص ٦٣ . وتحاول الآن حركة « الحياة الجديدة » التى يتزعمها چيانج كاى — شك أن تعيد الكنفوشية وقد نجحت فى ذلك بعض النجاح .

الدين الجديد الذى يحاول أن يسد الفراغ العاطفى الناشئ من فراق الآلهة فهو دين الوطنية ، كما أن الدين الجديد فى الروسيا هو الشيوعية . ولكن هذه العقيدة فى الوقت الحاضر لا ترضى كافة الناس ، ولهذا ترى الكثيرين من صعاليك المدن يعمدون إلى العرافين والمتنبئين والوسطاء ليجدوا عندهم ملجأ من كدح الحياة اليومية الرتيب الذى لا لذة فيه ولا طرافة . ولا يزال القرويون يجدون بعض ما يسليهم عن فقرهم ويفرج عنهم كربهم فى سكون المزارات القديمة . والقانون الأخلاقى القديم الذى كان الناس منذ جيل واحد يظنونه قانوناً سرمدياً لا يتبدل آخذ فى التفكك والانحلال بسرعة تتضاعف ثم تتضاعف على مدى الأيام بعد أن فقد حماية الحكومة والدين والحياة الاقتصادية . وأهم ما طرأ على الصين من تبدل فى هذه الأيام ، إذا استثنينا ما أحدثه فيها الغزو الصناعى ، هو تحطيم نظام الأسرة القديمة لتحل محله نزعة فردية تترك كل إنسان حراً يواجه العالم بمفرده ، وقد استبدل الولاء للدولة من الوجهة النظرية بالولاء للأسرة . وإذ كان هذا الولاء الجديد لم ينتقل الآن من طور الأقوال والنظريات إلى طور الأعمال فإن المجتمع الجديد يعوزه الأساس الخلقى الذى يستند إليه . إن الزراعة يلائمها نظام الأسرة لأن الأرض ، قبل انتشار الآلات ، كانت تستغل أحسن استغلال على أيدى جماعة من الناس تربطهم رابطة الدين والسلطة الأبوية . أما الصناعة فتمزق الأسرة لأنها تعطى العمل والجزاء عليه للأفراد لا للجماعات ، ولا تعطيهم هذا الجزاء دائماً فى مكان معين ، ولا تعترف بأن للضعفاء حقاً فى مال الأقوياء ، ولا يجد التعاون والتراحم الطبيعيين القائمين بين الأسرة سنداً من التنافس المرير الذى هو من طبيعة الصناعة والتجارة ؛ وترى الجديد الذى ينفر على الدوام من سلطان الشيوخ يهرع عن عمد إلى المدينة وفردية المصنع ، ولعل سلطان الأب القوى فى الزمن الماضى قد عجل بالانقلاب لأن الرجعية هى التى يرجع إليها على الدوام إسراف المتطرفين . وهكذا انتزعت الصين نفسها من ماضيها واستأصلت

جدوره ، وما من أحد يدرى هل تستطيع أن تمد لها جذوراً جديدة فى وقت يمكنها من أن تنجى بها حياتها الثقافية .

وكذلك أخذت أساليب الزواج القديم تزول بزوال سلطان الاسرة . نعم إن معظم الزيجات لاتزال ينظمها الآباء ، ولكن الزواج بالاختيار الحر بين الفتيان والفتيات آخذ فى الانتشار فى الحواضر ؛ فالشاب لا يكتفى الآن بأن يرى نفسه حرًّا فى أن يتزوج من يشاء ، بل هو يجرى تجارب فى الزواج قد يرتاع لها أبناء الغرب أنفسهم ، وهذا القول نفسه ينطبق على الفتيات كما ينطبق على الفتيان . لقد كان نتشه يرى أن آسية على حق فيما تعامل به النساء ، ويرى أن إخضاعهن لرجال هو العاصم الوحيد من سيطرتهن عليهم سيطرة لاتقف عند حد ، ولكن آسية قد اختارت أساليب أوربا لا أساليب نتشه فى معاملة النساء . وتعدد الزوجات آخذ فى النقصان لأن الزوجة الجديدة تعارض فيه وتعارض فى التسرى . والطلاق قليل غير عادى ، ولكن السبيل إليه أوسع مما كانت فى الأيام الماضية[*] . والتعليم المشترك هو القاعدة المتبعة فى الجامعات ، واختلاط الجنسين اختلاطا حرًّا أمر عادى فى المدن ، وقد سنت النساء لهن قوانينهن الخاصة بهن وأنشأن مدارسهن الطبية ، بل سرن إلى أبعد من هذا فأنشأن مصرفا ماليًا خاصا بهن[٣١] . واللائى انضممن إلى الحزب من النساء منحن حق الانتخاب ، وقد وجدت لهن وظائف فى أرقى لجان الحزب والحكومة على السواء[٣٢] . ولقد نبذن عادة قتل الأطفال

(*) تجيز الثورة الطلاق إذا طلبه الطرفان ، ولكن إذا كان الزوج أقل من ثلاثين سنة أو الزوجة أقل من خمس وعشرين فإن الطلاق يتطلب رضاء الأبوين . ولا تزال الأسباب القديمة التى كانت تجيز للزوج أن يطلق زوجته معمولا بها — وهذه الأسباب هى العقم ، والخيانة الزوجية ، وإهمال الواجب ، والثرثرة ، والسرقة ، والغيرة ، والأمراض الخطيرة ؛ ولكن هذه الأسباب لا يعمل بها إذا كانت الزوجة قد حزنت ثلاث سنين على والدى زوجها ، أو لم تكن لها أسرة تعود إليها ، وكانت وفية لزوجها فى أثناء ارتفاعه من الفقر إلى الغنى[٣٠] .

وأخذن يزاولن عادة تحديد النسل(*)، ولم يزد عدد السكان زيادة ملحوظة منذ قيام الثورة ولعل تيار السكان الصينيين الجارف قد أخذ الآن يتراجع[٣٣] .

ومع هذا فإن خمسين ألف صيني جديد يولدون فى كل يوم[٣٤]. وسيكونون فى مستقبل أيامهم جُدداً من كل الوجوه ، جدداً فى تفصيل ملابسهم وترجيل شعرهم ، جدداً فى تعليمهم وعاداتهم وأخلاقهم ودينهم وفلسفتهم ، لقد اختفى ذيل ملابسهم الطويل واختفى معه ما كان فى الأيام الخالية من ظرف ورقة ، وخشنت أحقاد الثورة روح الأهلين ، وأضحى من أصعب الأمور على المتطرفين أن يجاملوا المحافظين[٣٥] . وها هو ذا تيار الصناعة السريع يبدل ما كان يتصف به الشعب الصينى القديم من تواكل وعدم مبالاة إلى صفات أخرى أكثر دلالة على طبيعتهم . إن هذه الوجوه البليدة لتخفى تحتها نفوسا نشيطة سريعة الاهتياج ، وإن النزعة السلمية التى أشربتها نفوس الصينيين بعد حروب دامت عدة قرون لآخذة فى الزوال من طول تفكيرهم فى هزائمهم القومية وتقطيع أوصال بلادهم ؛ والمدارس تعد الآن كل طالب لأن يكون جندياً ، وعاد القوم مرة أخرى يرون القائد بطلا .

وتبدل نظام التعليم من أوله إلى آخره فألقت المدارس بكنفوشيوس من النافذة وأحلت العلوم الطبيعية والرياضية محله ، وإن لم يكن من الضرورى أن تتخلى عنه لتحل العلوم محله لأن تعاليم كنفشيوس لا تتعارض مطلقاً مع روح العلم . ولكن التاريخ كله لحمته وسداه يتكون فى جميع مراحله من غلبة الإحساسات النفسية على العقائد المنطقية . فدراسة الرياضيات والميكانيكا واسعة الانتشار لأنهما يعينان على صناعة الآلات ، والآلات تعين على جمع الثروة وعلى صناعة المدافع ، والمدافع قد تحفظ الحرية . ودراسة الطب فى الصين آخذة فى

(*) إن الإعلانات الصريحة عن وسائل موانع الحمل فى مخازن الأدوية الصينية لمما يوحى إلى الغرب بوسيلة يلجأ إليها لينجو بها من « الخطر الأصفر » .

الانتشار ، والفضل فى انتشارها راجع معظمه إلى هبات المحسن ركفلر (*) . وقد تضاعف عدد المدارس الجديدة والمدارس العليا والكليات بسرعة فائقة على الرغم من فقر البلاد ، والصين الحديثة تأمل ألا يمضى إلا القليل من الوقت حتى يستطيع كل طفل أن يتعلم من غير أجر وأن يسودها النظام الدمقراطى بفضل انتشار التعليم .

وقد حدث فى الأدب الصينى والفلسفة الصينية انقلاب شبيه بما حدث فى عهد النهضة . ذلك أن دخول الكتب الغربية كان له من الأثر المنتج ما كان للمخطوطات اليونانية من أثر فى عقول الإيطاليين ؛ وكما أن إيطاليا فى إبان نهضتها قد هجرت اللغة اللاتينية لتكتب بالإيطالية فكذلك فعلت الصين بزعامة هوشى إذ حولت اللهجة الأرستقراطية القديمة إلى لغة أدبية هى المعروفة بالپاى هوا ، وأقدم هوشى على عمل خطير جازف فيه بمصيره الأدبى فكتب بهذه « اللغة البسيطة » تاريخ الفلسفة الصينية فى عام ١٩١٩ ؛ وكانت شجاعته سبباً فى فوزه العظيم ، فاتخذت خمسمائة صحيفة دورية الپاى هوا لغة لها ، ولم يمض إلا وقت قليل حتى كانت لغة الكتابة الرسمية فى المدارس . وقامت فى الوقت نفسه « حركة الحروف الألف » لإنقاص رموز الكتابة الصينية من ٠٠٠ر٤٠ رمز وهو العدد الذى كان يستخدمه العلماء فى كتاباتهم إلى ٣٠٠ر١ تكفى للاستعمال العادى . وبهذه الطريقة أخذت لهجة المدرين تذيع بسرعة فى الأقاليم الصينية ، وقد لا ينتهى هذا القرن حتى تكون للصين كلها لغة واحدة وحتى تقترب من الوحدة الثقافية .

والأدب الصينى آخذ فى الانتشار مدفوعا بهذه اللغة الشعبية وبحماسة الأهلين ، وقد أضحى عدد الروايات والقصائد والتمثيليات لا يقل عن عدد الصينيين أنفسهم ، وانتشرت الصحف والمجلات فى كل مكان ، وأخذ الصينيون يترجمون آداب الغرب

(*) فى عام ١٩٣٢ فتحت كلية طب الاتحاد للطلاب والطالبات بفضل الهبة التى قدمها جون . و . ركفلر الصغير والبالغ مقدارها خمسة ملايين من الدولارات ، وتنفق اللجنة الطبية الصينية التى تمدها بالمال مؤسسة ركفلر على تسعة عشر مستشفى وثلاث مدارس للطب وتهب فى كل عام خمسا وستين جائزة تعليمية(٣٦) .

بالجملة ، كما أخذت أشرطة الخيالة الأمريكية ، يشرحها مترجم صيني يقف إلى جانب الشاشة البيضاء ، تبعث البهجة فى نفوس الصينيين العلماء منهم والسذج . وكذلك عادت الفلسفة إلى عظماء الفلاسفة الأقدمين الملحدين ، وأخذت تعيد دراستهم وتفسيرهم على نمط جديد بعزيمة واندفاع لا يقلان عن عزيمة أوربا ونشاطها فى القرن السادس عشر ، وكما أن إيطاليا بعد أن تحررت من القيود الكنسية قد راعتها العقلية اليونانية اللادينية وأثارت إعجابها ، كذلك أخذت الصين الجديدة تستمع بشغف ليس كمثله شغف إلى أقوال مفكرى الغرب أمثال جون ديوى وبرتراند رسل وأمثالهم من العلماء المستقلين فى تفكيرهم استقلالا تاما عن جميع الأديان ، والذين يعظمون التجارب ويعتقدون أنها وحدها هى المنطق الواجب الاتباع ، والذين تتفق فلسفتهم لهذا السبب مع مزاج أمة تحاول أن تجمع الإصلاح الدينى ، وإحياء العلوم والاستنارة والنهضة والثورة فى جيل واحد(*) .

وإذا ما امتدح أحدنا الآن ما لآسية من « قيم روحية » سخر منه هوشى وقال إنه يجد فى إصلاح نظم الصناعة والحكم إصلاحا يعين على استئصال العوز من البلاد قيما أخلاقية أعظم من كل ما فى «حكمة الشرق » ، وهو يلقب كنفوشيوس « بالشيخ الطاعن فى السن » ويقول إن التفكير الصينى ليظهر على حقيقته إذا ما وضعت مدارس الملحدين التى كانت قائمة فى القرن الخامس والرابع والثالث قبل الميلاد فى مكانها الصحيح من تاريخ الصين[٣٨] .

بيد أنه وهو فى وسط هذا « التيار الجديد » الجارف وهذه الحركة الفكرية الجديدة التى كان من أنشط زعمائها قد أوتى من الحكمة ما جعله يدرك ما للشيوخ أنفسهم من قيمة ، وقد صاغ مشكلة بلاده أكمل صياغة فى الفقرة الآتية :

(*) لقد ضعف فى الأيام الأخيرة هذا الميل الشديد إلى تقليد المثل الغربية فى الأمور العقلية بتأثير حركة الحياة الجديدة التى يتزعمها جيانج كاى — شك . وأخذت الصين واليابان تخترعان لهما أشرطة خيالية خاصة بهما ؛ وعاد الاستمساك بالقديم يحل تدريجاً محل التطرف ، كما أخذت الصين تميل إلى الانضمام إلى اليابان فى الثورة على أفكار أوربا وأمريكا وأساليبهما .

« إن الجنس البشرى بأجمعه لتصيبه أكبر خسارة إذا ما استبدلت الحضارة الجديدة بالحضارة القديمة استبدالا سريعاً مفاجئاً يمحوها من الوجود بدل أن تمتصها البلاد امتصاصاً بطيئاً وتمثلها كما يمثل الغذاء الصالح . وعلى هذا فإن المشكلة التى تواجهنا يمكن أن تصاغ على النحو الآتى . كيف نستطيع أن نهضم الحضارة الجديدة ونمثلها بحيث نجعلها متجانسة مؤتلفة مع الحضارة التى أنشأناها نحن فى أيامنا الحالية ؟ »[٣٠] .

ويخيل إلى كل من يشهد ظواهر الأمور الخارجية السائدة فى الصين الآن أنها لن تستطيع حل هذه المشكلة . ذلك أن الإنسان إذا ما فكر فيما يخيم على الحقول الصينية من وحشة ، وما حاق بها من خراب ، وما يتناوبها من جدب تارة وفيضان جارف تارة أخرى ، وما أصاب أشجارها من تقطيع وتدمير ، وفيما أصيب به زراعها من إنهاك وخمول ، وفى الموت الذى يحصد أطفالها حصداً ، وفى عمالها الذين يكدحون فى المصانع كالعبيد كدحاً يضعفهم ويهد قواهم ، وفى مدنها القذرة التى تتفشى فيها الأمراض ، وتفرض على بيوتها أفدح الضرائب ، وفى الرشوة المنتشرة فى تجارتها ، وفى صناعاتها التى يسيطر الأجانب عليها ، وفى فساد حكومتها ، وضعف وسائل الدفاع عن بلادها ، وفى أهلها الذين تفرقوا شيعاً وأحزاباً وامتلأت قلوبهم غلا وحقداً ، إذا ما فكر فى هذا كله هاله الأمر فلا يدرى هل تستطيع الصين أن تستعيد عظمتها الماضية ، وهل فى مقدورها أن تمتص مرة أخرى فاتحيها وتمثلهم فى جسمها الضخم ، وتحيا من جديد حياتها النشيطة المبدعة ؟ ولكنا إذا نظرنا إليها نظرة تدقيق وإمعان رأينا من تحت هذه المظاهر السطحية عوامل النقاهة والتجديد فأراضيها الواسعة الرقعة المختلفة الأنواع غنية بمعادنها الكفيلة بأن تجعلها بلداً صناعياً عظيما ، وقد لا يكون فيها من الثروة المعدنية ما قدره رختوفن ، ولكن فيها بلا ريب أكثر مما كشفت عنه البحوث التجريبية فى هذه الأيام . وإذا ما تسربت الصناعة إلى داخل البلاد فستكشف عن خامات ومواد للوقود لا يتصور الناس

الآن أنها توجد فيها ، كما لم يكن أحد يتصور منذ قرن واحد ما فى أمريكا من ثروة معدنية ومن وقود . أما عن قواها المعنوية فإن هذه الأمة التى مرت عليها ثلاثة آلاف عام سمت فيها إلى المجد تارة وتردت فى مهاوى الشقاء تارة أخرى ، وتوالت عليها فترات موت وبعث ، إن هذه الأمة لتظهر فيها اليوم كل دلائل الحيوية المادية والمعنوية التى تتبينها فى أكثر عهودها إبداعا وإنتاجا . وليس فى العالم كله شعب أكثر من هذا الشعب نشاطا وذكاء ، وليس فيه شعب يماثله فى قدرته على التكيف حسب ما يواجهه من الظروف ، وفى مقاومته للأمراض ، وفى انتعاشه بعد الكوارث والآلام ، شعب علّمه تاريخه الطويل الصبر على الأرزاء والخروج منها سالما على مر الأيام . وليس فى الخيال أن يتصور ما يخبئه المستقبل لحضارة تمتزج فيها الموارد المادية والطاقة البشرية والعقلية لهذا الشعب والوسائل والأدوات الفنية التى أوجدتها الصناعة الحديثة .

وأكبر الظن أن الصين ستنتج من الثروة ما لم تنتجه قارة من القارات حتى أمريكا نفسها ، وأن الصين ستتزعم العالم فى نعيم الحياة وفنها كما تزعمته مراراً فى الزمن القديم فى التنعم وفى فنون الحياة .

ذلك أن الهزائم الحربية واستبداد الأموال الأجنبية مهما قست لا تستطيع أن تكبت إلى مدى طويل روح أمة غنية فى مواردها وفى حيويتها ، بل سيخسر المغير عليها ماله وينفد صبره قبل أن تستنفد البلاد قدرتها على التكاثر ؛ ولن يمضى قرن واحد من الزمان حتى تكون الصين قد امتصت فاتحيها وهضمتهم وحضرتهم بحضارتها ، وتعلمت جميع الفنون التى سيطلق عليها إلى وقت قصير اسم الصناعة الحديثة . وسوف توحّد الطرق وسبل الاتصال أجزاءها ، وتمدها أساليب الاقتصاد والادخار بحاجتها من المال ، وستعيد إليها الحكومة القوية السلم والنظام . ويقيننا أن الفوضى مهما اشتدت ليست إلا أمراً عارضاً مصيره إلى الزوال ، ثم بتوازن

الاضطراب آخر الأمر مع الطغيان ويتعادلان ، وحينئذ تُكتسح العوائق القديمة وتنمو البلاد نماءً حُرًّا جديداً . إن الثورة كالموت هى اكتساح الأقذار ، وبتر الذى لا نفع فيه ؛ وهى لا تقوم إلا إذا كان فى البلد الذى تقوم به أشياء كثيرة فى دور الاحتضار . ولقد ماتت الصين مراراً من قبل ، ثم عادت وولدت من جديد .

(انتهى)

المراجع[†]

الباب الثالث والعشرون

1. I am Indebted for this quotation from the *Book of Rites* to Upton Close. Cf. Gowen and Hall, *Outline History of China*, 60; Hirth, F., *Ancient History of China*, 155.

1a. Reichwein, A., China and Europe: *Intellectual and Artistic Contacts in the Eighteenth century*, 92.

2. Ibid., 89f; Voltaire, Works, New York, 1927, xiii, 19.

3. Keyserling, *Creative Understanding*, 122, 203; *Travel Diary*, ii, 67, 58, 50, 57, 48, 68.

4. Lippert, 91; Keyserling, Travel Diary, ii, 58.

5. Smith, A.H., *Chinese Characteristics*, 98.

6. Giles, H., *Gems of Chinese Literature Prose*, 119.

7. Williams, S. Wells, *Middle Kingdom*, i, 5; Brinkley, Capt. F., *China: Its History, Arts and Literature*, x, 3.

8. Ibid., 2; Hall, J. W., *Eminent Asians*, 41.

10, Pittard, 897: Buxton, 158; Granet, *Chinese Civilization*, New York, 1930, 68; Latourette, K.S., *The Chinese: Their History and culture*, 35-6; New York *Times*, Feb, 15. 1933,

11. Lowie, 182; Fergusson, J., *History of Indian and Eastren Architecture*, ii, 468; Legendre, A. F., *Modern Chinese Civilization*, 234; Granet, 64.

12. Ibid., 215, 280.

13. Gowen and Hall, 26-7.

14. Coufucuis (?) *Book of History*, rendered and compiled by W. G. Old, 20-1.

15. Giles, *Gems*, 72.

16. Hirth, 40.

17. Ibid., 53-7.

18. Willhelm. R., *Short History of Chinese Civilization*, 124; Cranet, 86.

19. Ibid., 87.

20. Confucius, *Analects*, XIV, xviii, 2, in Legge, Jas, *Chinese Classics, Vol, I: Life and Teachings of Confucius*.

21. Legge, 213n

22. Airth, 107-8, Latourette, 1, 57, Gowen and Hall, 64; Schneider, H., ii, 796-8.

23. Cranen, 78.

23. Cranet, 78.

24. Ibid., 32-3; Hu Shih, *Development of the Logical Method in Ancient China*, 22, Latourette, ii, 52.

25. Ibid, 58-9; Granet, 87-8; Hirth,

(†) سنثبت اسم الكتاب كاملا عند أول وروده في هذه القائمة ثم نكتفي بعد ذلك بذكره مختصراً

110.
26. Giles, H.A., *History of Chinese Literature*, 5
27. *Book of Odes*, I, x,8, and xii, 10, in Hu Shih, Pt. I, p. 4.
28. Cranmer - Byng, L., *The Book of Odes*, 51.
29. Tr. by Helen Waddell in Van Dorren, *Anthology of World Poetry*, 1.
30. In Yang Chu's *Garden of Pleasure*, 64.
31. Fenollosa E.F., *Epochs of Chinese and Japanese Art*, 14, Hirth, 59-62; Hu Shih, 28f; Suzuki, D. T., *Brief History of Early Chinese Philosophy*, 14; Murdoch, Jas., *History of Japan*, iii, 108.
32. Hu Snih, 12
33. Legge, 76n.
34. In Hu Shih, 12.
35. Ibid., 13.
36. Ibid., 12.
37. Giles, *History*, 57; Legge, Jas., *The Text of Taosim*, i, 4-5.
38. Gilse, *History*, 57, Giles *Gems*, 55.
39. Legge, *Texts of Taoism*, i, 41.
40. II, lxxxi, 3, I, lxv, 1-2.
41. In Suzuki, 81.
42. II, lvii, 2-3, lxxx, Parentheticapassages, in this and other quotations, are usually explanatory interpolations, nearly always of the translatior.
43. Yang Chu, 16, 19, Schlender, ii, 810; Hu Shih, 14, Wilelm, *Short History*, 247.
44. I, xvi 1-2.
45. I, xliii, 1; xlix, 2: lxi, 2, lxiii, 1, lxxviii, I, lxxxi, 1, Giles, *History*, 73.
46. II, lxi, 2.
47. II, lvi, 1-2.
48. Granet, 55.
49. II, lvi, 2.
50. I, xvi, I, II, lvi, 3, Parmelee, 43.
51. Legge, *Texts of Taoism*, 34, *Life and Teachings of Confucius*, 64.
61. Legge, *Texts*, 84.
62. Ibid.
63. Szuma Ch'ien in Legge, *Life*, 58n.
64. Ibid.
65. Legge, *Life*, 55-8, Wilhelm, R., *Soul af China*, 104.
66. Hirth, 229.
67. *Analects*, VII, xiii.
68. VIII, viii.
69. XV, xv.
70. VII, viii.
71. VII, xii,
72. VI, ii, XI, iii.
73. XVII, xvii, XIV, xivi.
74. Legge, *Life*, 65.
75. Ibid., 79.
76. V, xxvii.
77. VII. xxxii.
78. XIII, x.
79. IX, iv.
80. VII, i.
81. IV, xiv.
82. Legge, *Life*, 67.
83. XII, xi
84. Legge, *Life*, 68.
85. Ibid., 72.
86. Ibid., 75.
87. IX, xvii.
88. Legg, 83.
89. Ibid. 82.
90. XV, xviii.
91. II, iv.
92. Legge, 82.
93. Mencius. *Works of*, tr. by Legge, III, 1, iv, 13.

94. Wilhelm, *Short History*, 148, Legge, *Life*, 16.
95. Ibid., 267, 27, Hu Shih, 4.
96. XV, 40.
97. II, xvii.
98. XIII. iii,
99. III, xiii, 2.
100. IX, xv.
101. Legge, *Life*, 101, Giles, *History*, 83, Suzuki, 20.
102. Legge, 101.
103. XI, xi.
104. VI, 20.
105. VII. 20.
106. Giles, *History*, 69.
107. XV. ii.
108. *Great Learning*, I,4-5. in Legge, *Life*, 266. I have ventured to change "illustrate illustrious vitrue" in Legge's translation, to "illustrate the highest virtue", and the words "own selves" have been substitiitued for "Persons," since "the cultivation of the person" has now a misleading connotation.
109. XIV, xiv.
110. XV, xxxi, II, xiv, XIII, iii, 7.
111. VI, xvi.
112. *Doctrine of the Mean*, XII, 4, in Legee.
113. *Analects*, II, xii.
114. *Doctrine of the Mean*, XIV, 5.
115. XV, xviii-xx.
116. XIV, xxix, XI, xiii, 3, *D. of M.*, XXXIII, 2.
117. Ibid., XI, 8.
118. *Li-chi*, XVII, i, 11-2.
119. Spinoza, *Ethics*, Bk. III, ProP. 59.
120. *D. of M.*, XXIX, tr. by Suzuki, 64.
121. Suzuki, 68.
122. *Analects*, XII, ii, V, xvi.
123. XV, xxiii,
124. XIV, xxxvi, 1-2.
124a. IV, xvii.
124b. XII, vi.
125. XIII, xxiii.
126. *D. of M.*, XIV, 3.
127. IV, xxiv, V, iii, 2, XVII, vi, XV, xxi.
128. V, xvi, XVI, iii, 5.
129. XVI. 10.
130. I. ii, 2, Legge, *Life*, 106.
131. IV, xviii, *Li-Chi*, XII, i. 15, Brown, B., *Story of Confucius*, 183.
132. *Great Learning*, X, 5.
133. *Analects*, XII, vii.
134. XII, xix, II, ii, xx.
135. XII, xxiii, 3.
136. *D. of M.*, XX, 4.
137. *Analects*, XIII, x-xii.
138. *Great Learning*. X, 9.
139. *Analects*, XII, xix, XV, xxxviii,
140. *Li chi*, XVII, i, 28, iii. 23, Brown, *Story of Confucius*, 181.
141. *Analects*, XX, iii, 3.
142 *Li-Chi*, XXVII, 33, XXIII, 7-8.
143. Ibid., VII, I, 2-8, quoted in Dowson, *Ethics of Confucius*, 299, from Chen Heang-chang. *The Economic Principles of Confucius and School.*
144. Latourette, i, 80-1.
145. Legge, *Life*, 106.
146. *D. of M.*, XXX-XXXI.
147. Hu Shih 109, f.
148. Hirth, 807.
149. Mencus, VII, i, 26, in Hu Shih, 58.
150. Hu Shih, 72.
151. Ibid., 57, 75, Latourette, i, 78.

152. In Hirth. 281.
153. Hu Shih, 69-70.
154. Thomas. E. D., *Chinese political Thought*, 29-30.
155. Hu Shih, 58.
156. Mencius, Introd., 111.
157. Withelm *Short History*, 150, Hu Shih 110.
158. Hu Shih, 62.
159. Mencius. Introd., 98.
160. Yang Chu, 10, 51, Latourette, i, 80.
161. Mencius, Introd., 95, Yang Chu, 57.
162. Mencius, Introd., 96-8.
163. Hirth, 27-9.
164. Mencius, III, ii, 9.
165. Mencius, Intrd., 14-18.
166. Ibid., 42.
167. Ibid., I, ii 3, II, 5: pp. 156, 162.
168. Ibid., 12.
169. VI, 1, 2.
170. I, i, 7.
171. III, i, 3.
172. I. i, 3.
173. II, i, 5.
174. Thomas, E.D., 87, Williams, S. Wells, i, 670.
175. IV, ii, 19.
176. Mencius, Introd., 30-1.
177. VI, ii, 4.
178. VII, ii, 4.
179. Quoted in Thomas, E. D., 87.
180. I, i, 8.
181. II, ii, 4.
182. VII, ii, 14.
183. V, ii, 9, I, ii, 6-8.
184. Mencius., Introd., 84.
185. Ibid., 79-80.
186. Ibid., 86.
187. In Hu Shih, 152.
188. Legge, Texts of Taoism, V, 6.
189. Ibid., Introd., 87.
190. XVII, 11.
191. I Thomas, E. D., 100.
192. XI, 1.
193. XVI, 2, IX, 2.
194. XII, 11.
195. XII, 2.
196. II, 2, XX, 7, Giles, *Gems*, 32.
197. II, 7, XXII, 5.
198. VI, 7.
199. In Suzuki, 86.
200. XVII, 4, Hu Shih, 146.
201. XVIII, 6.
202. II, 11, tr. by Giles, *History* 62
203. VI, 10, tr. by Suzuki, 181-2.
204. In Giles, *History*, 68.
205. In Reichwein 791.
206. Ibid.
207. Ibid., 84.
208. Wilheim, *Soul of China*, 233.
209. Thomas, E.D., 25.
210. Voltaire, *Works*, iv, 82.
211. Reichwein, 181, Hirth, xii.

الباب الرابع والعشرون

1. Giles, *Gems*, 33.
2. Granet, 87, Gowen and Hall, 84, Giles, *History*, 78.
3. Granet, 41.
4. Voltaire, *Works*, iv. 82.
5. Granet, 87, 97-8, 101-3, Boulger, D. C., *History of China*, i, 69-70 Wilhelm, *Short History*, 157.
6. Boulger, i, 71.
7. Granet, 88.

8 Ibid.
9. Ibid., 103; Schneider ii, 790; Wilhelm, *Short History*, 160-1; Lautourette i, 96.
10. Gowen and Hall, 84f, Giles, *History*, 78.
11. Hall J. W., *Emin nt Asians*, 6.
12. Boulger, i, 64.
13. Ibid., 62, Latourette, i, 99.
14. Granet; 38-40, Boulger i, 77. Giles inG(owen) & H (all), 92.
15. Boulger, i, 106, Granet, 44.
16. Szuma Ch'ien in Granet, 113.
17. Ibid.
18. Granet, 112-3.
19. Ibid., 118.
20. Fenollosa, i, 77.
21. Walley, Arther *Introduction to the Study of chinese Painting*, 27, G.H. 102.
22. Granet, 113-5.
23. Wilhelm, *Short History*, 186, 194.
24. Lautourette, i, 121.
25. Ibid., 120-2.
26. Ibid., 122.
27. G & H, 118.
28. Ibid., 117-21.
29. Fenollosa, i, 117.
30. Voltaire, *Works*, xiii, 26.
31. Tu Fu, *Poems*, tr. by Edna W. Under-wood, xli
32. Li-Po, *Works*, done into English Verse by Shigeyoshi Obata, 91.
33. Tu Fu, xlvii.
34. In Li-Po. 1.
35. In Tu Fu, xii.
36. Murdoch, *History of Japan*, i, 146.
37. Waley. *Chinese Panining*, 142.
38. Ibid., 97.
39. William, *Short History*, 224.
40. Williams, S. Wells, i, 696f.
41. Li-Po, 20.
42. Ibid., 95.
43. Ibid., 30.
44. Williams, S. Wells, i, 697.
45. Li-Po, 31.
46. G & H, 115.
47. Li-Po, 100.
48. Ibid., 84.
49. 138.
50. 191.
51. 71.
52. 55.
53. Ibid., ii.
54. Ibid.,
55. Ibid., 25.
56. Giles, *History*, 50.
57. Translations by Arthur Waley Amy Lowell and Florence Ayscough, in Van Deren, *Anthology*, 18-20.
58. Waley, Arthur, 170 *ChinesePoems*, 106-8.
59. Ibid, 126.
60. Ibid., 168.
61. In Van Doren, 24.
62. Giles, *History*, 156; Ayscogh, Florence, *Tu Fu: The Autobiography of a Chinese Poet.*, 105.
63. Ibid., 75.
64. Tu Fu, *Poems*, 118, 184, 154.
65. Ibid., 95,
66. 30, 7, 132.
67. 137.
68. 72, 133, and introd.
69. Williams, S. Wells, i, 602,
70. Giles, *History*, 276.
71. Ibid., 102.
72. Ibid.
73. Thomas, E. D, 5.
74. Giles. *History*, 224.
75. Ibid., 160.
76. G & H. 156.
77. Wilhelm, *Short History*, 256; Giles,

History, 268.

78. William, S. Wells, i, 870; Latourette, ii, 220.

79. Ibid.,

80. William, 141.

81. Pratt, *History of Music*, 82-5.

82. Giles, *Gems*, 117.

الباب الخامس والعشرون

1. G & H, 142.
2. Ibid., 141.
3. Ibid., 140-3; Latourette, I, 252-7; Wilhelm, 237-8; Murdoch, iii, 106; Fenollosa, ii, ii, 33, 57.
4. G & H, 133, quoting Walter T. Swingle, Librarian of the U.S. Dept. of Agriculture.
5. Carter, *Invention of printing* 2.
6. Ibid., 3.
7. Ibid., 96.
8. Sarton, 869.
9. Carter; 26.
10. Ibid., 145; Sarton, 512.
11. Carter, 41.
12. Ibid., 43, 183.
13. G & H, 183.
14. Carter, 250.
15. Ibid., 178, 171.
16. Ibid. 177-8; Sarton, 663.
17. Ibid.; G & H, 164; Giles, *History* 296.
18. Chu Hsi, *Philosophy of Human Nature*, 75; Bryan, J. J, *Literature of Japan*, 122; Latourtte, I, 262-3; Williams, S. Wells, i, 683; Wilhelm, *Short History*, 249-50, Aston, W.G., *History of Japanese Literature*, 226-7.
19. Chu Hsi, 68.
20. Wilhelm, 2249-50.
21. Wang Yang-ming, *Pihilosophy* tr. by Fredk, G. Henke, 117-8.
22. Armstrong, R.C., *Light from the East: Studies in Japanese Confucianism*, 121, Brinkley, Cadt. F., *Japan: Its History, Arts and Literature*, iv, 126.
23. Wang Yang-Ming, 8, 12, 50, 59.
24. Brinkely, *Japan*, iv, 126.
25. Wang Yang-Ming, 106, 52.
26. Ibid., 115-6.
27. Hobson, R. L., *Chinese Art*, 14.
28. *Encyc, Brit.*, xiii, 576.
29. Cf. the imperial marriage table in Hobson, R.L., Pl. LXXXIII.
30. Ibid., XCI.
31. Illustrated in *Encyc, Brit.*, xiii, f. p. 576.
32. Ferguson. J. C, *Outlines of Chinese Art*, 67.
33. Hobson, R. L., LXXXVIII.
34. Ibid., LXXVII, 1.
35. Lorenz, *Round the World Traveler*, 197.
36. *Encyc, Brit.*, xii, 864.
37. Fry. R.E., *Chinese Art*, 81, Granet, 37, *Encyc, Brit.*, iv, 245.
38. *Chinese Art*, 33.
39. Fischer, Otto, 374.
40. *Encyc, Brit.*, Pl. XIV, f. p. 246, collection of Mr. Warren E. Cox.
41. *Chinese Art*, 47.
42. Faure, *History, of Art*, ii, 55.
43. *Encyc. Brit.*, v, f. p. 581.
44. Siren, O, in *Encyc, Brit.*, v. 581, *Chinese Art*, 48.
45. Stein, Sir Aurel, *Innermost Asia*,

Vol. i, Plates VIII, XI, XIX and XXIV.

46. *Encyc. Brit.*, v. f. p. 586, Plate X, 2, Fischer, 866.

47. *Encyc. Brit.*, v. f. p. 584, Pl. VI, 4§

48. Ibid., f. p. 585, Pl. VIII, 2.

49. Ibid., f. p. 586. Pl. XI '2 and 3.

40. Fergusson, Jas., *History of Indian and Eastern Architecture*, ii, 454.

51. Fergusson, Jas., in William, S. Wells, i. 727.

52. Cf the decorative design reproduced in Stein air, A., *Innermost Asia*, Vol. iii, Pl. XXV, and the patiently carved and ornamental cetling shown in Pelliot, Vol. iv Pl CCXXV.

53. Fergusson, op. cit., ii, 464.

54. Coomarswamy, *History*, 152.

55. Williams, S. Wells, i, 744.

56. Lorenz, 203.

57. Cook's, *Guide to Peking*, 28, 30.

58. Fergusson, ii, 481.

59. Legendre, 79.

60. Ibid., 166.

61. Smith, *Chinese Characteristics*, 134.

62. Waley, *Chinese Painting*, 69-70.

63. Siren Osvald, *Chinese Paintings in American Collections*, i, 36.

64. Giles, H. A., *Introduction to the History of Chinese Pictorial Art*, 2.

65. Wilhelm, *Short History*, 38.

66. Giles, *Pictorial Art*, 3.

67. Ibid., Waley, *Chinese Painting*, 32.

68. Fenollosa, ii, p. xxx.

69. Wally, *Chinese Painting*, 45.

70. *Encyc. Brit.*, art. on "Chinese Painting." Pl. II, 6.

71. Fischer, 825-31.

72. Waley, 49.

73. Ibid., 51.

74. Giles, *Pictorial Art*, 21

75. Tu Fu, 97, cf. 175 and 187.

76. Giles, *Pictorial Art*, 79.

77. Wilhelm, 244.

78. Waley, 183.

79. Fenollosa, i, f. p. 120, Fischer, 490.

80. Ibid. 424.

81. Giles, 47-8.

82. Ibid., 50, Binyon, Li, *Fligh of the Dragon*, 43.

83. Giles, 47.

84. Croce, Bene tt : *Esthetic*, 50.

85. in Waley, 119.

86. Binyon, 111.

87. Siren, i, Plates 5-8 *Encys. Brit.*, Chinese Painting," Pl. II, 4.

88. Ftaollosa, ii, 27.

89. Waley, 177.

90. G & H, 146.

91. A Chinese writer in Giles, *Pictorial Art*, 115.

92. Fischer, 492.

93. E. g., Fenollosa, ii, 42.

95. Ibid, 62.

96. Gulland, W. G., *Chinese Porcelain*, i, 16

97. *Chinese Art*, 11.

98. Ibid., 2.

99. Hsieh Ho in Coomaraswamy, *Dance of Siva*, 43.

100. Binyon, 65-8, *China Art*, 47.

101. In Okakura-Kakuso, *The Book of Tea*, 108

102. Gulland, i, 3.

103. *Encyc Brit.*, xviii, 361.

104. Ibid., Legendre, 233.

105. *Encyc.Brit.*, xviii,'362,Carter,93,

106. Ibid., I c.
107. Brinkly, *China*, ix, 299.
108. Ibid., 62.
109. Ibtd., 87, Gulland, 139.
110. Brinkley, 75.
111. G & H, 165.
112. Brinkley, *China*, ix, 256.
113. *Encync. Brit.*, viii, 419.
114. Brinkley, *China* in, 210, 215.
115. Ibid., 376, 554, *Encyc.*, *Brit.*, art. "Ceramtcsl'.

الباب السادس والعشرون

1. polo, Travels, 78, 188.
2. Ibid., v-vii, a perfect introduction, to which the persint account is much indebted.
3. Polo, 232-4.
4. 152.
5. 129.
6. G & H, 135f.
7. Giles, *History*, 248-9.
8. Polo, 172.
9. Giles, 147.
10. Polo, 158.
11. Ibid., 126.
12. 149.
13. P.xxiv of Komroff's introduction.
14. G & H. 172.
15. Ibid.
16. Latourette, i,330, Wilheim, *Short History*, 260, G & H, 195, Giles, *History*, 291, Gulland, W. G., ii, 288.
17. G & H, 209.
18. Ibid., 227.
19. Quoled in Parmelec, 218, and in Bisland, Eizabeth *Three Wise Men of the East*, 125.
20. Wilhelm, 204, Latourette, i, 208, G & H. 286, Brinkley, *China*, x. 4.
21. Latourette, i 289.
22. Brinkley, l.c., 12.
23. Williams, S. Wells, i, 770.
24. Ibid., 762.
25. Wilhelm in Keyserling, *Book of Marriage*, 183, Waley, *Chinese Painting*, 165.
26. Legendre, 23.
27 Ibid., 75, Park, No Yong, *Making a New China*, 122.
28. Smith, *Chinese, Characteristics*, 127.
29. Polo, 286.
30. Pitkin. *Short Introduction*, 182.
32. Wilhelm, *Short History*, 64.
33. Mason, *Art of Writing*, 154-76.
34. Legendre, 76. 113.
35. Okakura, 8, 36.
36. Granet. 144-5.
37. Legendre, 114.
38. Wilhelm, *Soul of China*, 339.
40. Smith, *Characeristics*, 21, Park, No Yong, 123, Legendre, 86, Williams, S. Wells, i, 775 - 80.
41. Latourrette, i, 225.
42. Park, 121, Smith, *Characteristics*, 19.
43. Eudy, Sherwood, *Challenge of the East*, 81.
44. Giles, *Gems*. 285.
45. Murdoch, iii, 267.
46. Sarton, 452.
47. NationalGeographical Magazine, April. 1932, p. 511.
48. Sumner and Keller, iii, 2096.

49. Wilhelm, *Short History*, 134, Wilhelm, *Soul of China*, 381-2, G & H, 59.
50. Polo, 236.
51. Peffer, N., *China: the Collapse of a Civilization*, 25-32, Parmelee, 101, Legendre, 57.
52. Williams, S. Wells, i, 413, Wilhelm, *Short History*, 11.
53. Park, 86, G & H, 290.
54. Park, 67.
55. Latourette, ii, 206, G & H, 2-8.
56. Renard, 161.
57. Park, 92.
58. Summer, *Folkways*, 153, Latourette, i, 63.
59. Ibid., 262.
60. Polo, 159, Carter, 77.
61. Carter, 92.
62. Hirth, 1261.
63. Ibid.,
64. Darter, 93.
65. Polo, 170n.
66. Legendre, 107-10.
67. Sarton, 371, 676, Schneider, ii, 860.
68. Sarton, 183, 410.
69. Waley, *Chinese Painting*, 30.
70. Schneider, ii, 837.
71. Voltaire, *Works*, iv, 82, Hirth, 119, Wilhelm, *Soul*, 306.
72. Garrison, 73, Schneider, ii, 859, Sarton, 810, 825, 342.
73. Ibid., 436, 481, Garrison, 78.
74. Latourette, 813, Garrison, 75.
75. Williams, S. Wells, 785, Legendre, 56.
76. Wilhelm *Short History*, 79, 81; Smith, *Characteristics*, 290, 297; Spengler, O., *Decline of the West*, ii, 286, Granet, 168, Latourette, ii, 168-5.
77. Smith, *Characteristics*, 892, Suzuki, 47, 112, 189, Wilhelm, *Short History*, 69.
78. Hirth, 81.
79. Ibid., 118, Smith, 164, 331.
80. Garent, 321.
81. Wilhelm, *Soul*, 125.
82. Legge, *Texts of Taoism*, i, 41.
83. Suzuki, 72, Wilhelm, *Short History*, 248.
84. Waley, *Chinese Planting*, 28.
85. Potter, Chas, F. *History of Religion*, 198.
86. Wilhelm, *Soul*, 357, Murnoch, iii, 104, Waley, 38-4, 79, Sarton, 470, Latourette, i, 171, 214, ii, 164-5, G & H, 104, Schneider, ii, 803.
87. Smith, *Characteristics*, 89, Latourette, ii, 129, Parmelee, 81
88. Smith, 304, Legendre, 191.
89. Wilhelm, *Short History*, 234, Lorenz, 202.
90. G & H, 118, 527.
91. Fenollosa, ii, 149.
92. Voltaire. *Works*, xiii, 29.
93. Quoted by Wilhelm in Keyserling *Book of Marriage*, 137.
94. Mencius, IV, I, 26.
95. Latourette, ii, 197, Garnet, 321, Williams, S. Wells, i, 836, Legendre, 26.
96. WilhelM, in Keyeserling, 137, Wilhelm, *Soul*, 22, Wilhelm, *Short History*, 104, Smith. 213,
97. Granet, 345, Williams, S. Wells, i, 836, Westermarck, *Moral Ideas*, i, 462, Ellis, H., *Studies in the Psychology of Sex*, vol, ii, *Sexual Inversion*, 61.
98. Briffault, III, 346.

99. Ibid., Wilhelm in Keyserling, 126.
100. Williams, S. Wells, i, 834.
101. Brinkley, *China*, x, 101.
102. Polo. 134, 152, 235.
103. Parmelee, 182; Brifault, ii, 333.
104. Li-Po, 152.
105. Waley, 170 *Chinese Poems*, 19; Keyserling, *Travel Diary*, ii, 97.
106. Hirih, 116.
107. Williams, S. Wells, 785.
108. Ibid., 787-90.
109. Wilhelm, in Keyserling, *Book of Marriage*, 134.
110. Briffault, ii, 263.
111. Williams, S. Wells i, 407-8.
112. Park, 133.
113. Wilhelm, *Short History*, 59; Wilhelm, in Keyserling, 128; Briffautt, i, 362f.
114. Thomas, E.D, 134; Briffault, i. 368.
115. Granet, 43.
116. Briffauli, ii, ii, 331.
117. Granmer-Byng, *The Book of Odes* 11; Oils, *History*, 108, 274,
118. Smith, 194, Sumner and Keller, iii, 1754, Legendre, 18.
119. *Li-Chi*, IX, iii, 7; Smith, 215; Sumner and Keller, ii, 1844.
120. In Briffault, ii, 331.
121. Waley, 170 *Chinese Poems*, 94.
122. Armstrong, 56.
123. Williams, S. Wells, i. 825.
124. Westermark, *Moral Ideas*, i. 89, Keyserling, *Travel Diary*, ii, 65, Smith, 192, Legender, 122.
125. Wilhelm, *Soul*, 309.
126. Voltaire, *Works*, xiii, 19.
127. Brinkley, *China*, x, 37, 44, 49.
128. Smith, 225.
129. Thomas, E. D., 236, Williams, S. Wells, i, 504, Latourette, ii, 46.
130. Garrison, 75.
131. Williams, i, 391-2, Latorette, ii, 46.
132. Williams, ii, 512, Hirth, 125, Wilhelm, *Soul*, 19.
133. Brinkely, i.c., 3.
134. Ibid., 78.
136. Ibid., 92.
137. Williams, i, 544.
138. Legendre, 158, Hall, J. W., *Eminent Asians*, 35.
139. Williams, i, 569.
140. Latourette ii, 21; Brinkley, *China*, x, 86.

الباب السابع والعشرون

1. Latourette, i, 313.
2. Lorenz, 248.
3. Latourette, i, 314.
4. Lorenz, 248, O & H, 233.
5. Norton, H. K., *China and the Powers*, 55, Latourette. i, 367, Poffer, 57,
6. Latourette, i, 376, Norton, 56.
7. Park, 149.
8. Peffer, 88f, Latourette, i, 418.
9. O & H, 306.
10. Hall, *Eminent Asians*, 17, Peffer, 151.
11. Latourette, i, 411.

12. Hall, 33.
13. Peffer, 98
14. G & H, 314.
15. N.Y. *Times*, Feb, 11, 1934.
16. Eddy, *Challenge of the East*, 78.
18. Park, 86.
19. Latourette, ii, 93-6.
20. Eddy, 74.
21. Park, 89.
22. Eddy, 89.
23. Peffer, 241.
24. Peffer, 251.
25. *Modern Review*, Calcutta, May 1, 1931.
26. Peffer, 185.
27. Latourette, ii, 174.
29. Ibid., 176.
30. Parmelee 94.
31. Park, 135, Lorenz, 192.
32. Wu, Chao-chu, *The Nationalist Program for China*, 28.
33. Legendre, 240.
34. Park, 114.
35. Close, Upton, *Revolt of Asia*, 245.
36. Lorenz, 250.
38. Hu Shih, 8.
39. Ibid., 7

فهرس الأعـــلام

* هذه العلامة تدل على أن الاسم فى هامش الصفحة
إذا لم يذكر لفظ قبل الميلاد مع التاريخ فمعنى هذا أنه بعد الميلاد

(أ)

(ب)

(ت)

(ح)

(خ)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

فهرس

الشرق الأقصى

١ – الصين

الموضوع الصفحة

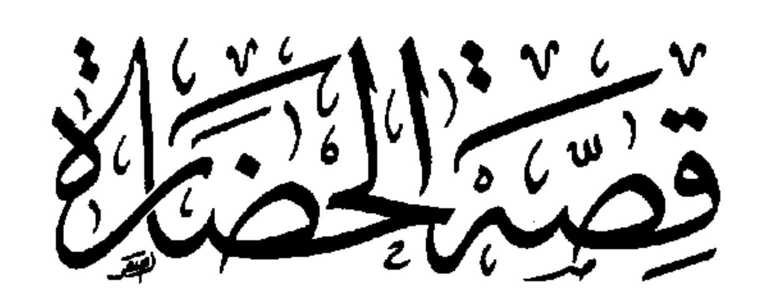
الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الباب السادس والعشرون : الشعب والدولة



ول وايريل ديورانت

الشرق الأقصى
اليابان

ترجمة
الدكتور زكي نجيب محمود

الجزء الخامس من المجلد الأول







تونس بيروت

اليابان

إن « ياماتو العظمى » (أى اليابان) قطر مقدس ؛ إن بلادنا وحدها دون سائر البلدان هى التى كان « السلف الأقدس » أول من وضع أساسها ؛ إنها وحدها هى التى تعاورتها بعد إلهة الشمس سلسلة طويلة من سلالتها ؛ إنك لن تجد من هـذا القبيل شيئاً فى الأقطار الأجنبية ؛ ومن ثم سميت بالأرض المقدسة .

تشيكافوزا كيتاباتاكا ، ١٣٣٤ ، فى مردخ

تاريخ اليابان ، الجزء الأول ، ص ٧١٥

الترتيب التاريخى للمدنية اليابانية(*)

١ — بطانة تاريخية

١ — اليابان البدائية

قبل الميلاد

حوالى ٦٦٠ دخول المغول

حوالى ٦٦٠ — ٥٨٥ جيمو ، الإمبراطور

٤١٢ — ٥٣ م إنيكو الإمبراطور

٥٢٢ م البوذية تدخل اليابان

٥٩٢-٦٢١ شوتوكوتايشى ، وصى على العرش

٥٩٣-٦٢٨ سويكو الإمبراطورة

٦٤٥ الإصلاح المعظم

٤ — اليابان الجديدة

٢ — اليابان الإمبراطورية

٦٦٨-٧١ تنشى تينو الامبراطور

٦٩٠-٧٠٢ جيتو الإمبراطور

٦٩٧-٧٠٧ مومو الإمبراطور

٧٠٢ تشريع تايهو

٧١٠-٩٤ عصر هيجو ، نارا هى العاصمة

٧٢٤-٥٦ شومو الإمبراطور

٧٤٩-٥٩ ، ٧٦٥ — ٧٠ ، كوكن الإمبراطور

٧٩٤-١١٩٢ عصر هيا ، كيوتو هى العاصمة

٨٧٧-٩٤٩ يوزى الإمبراطور

٨٩٨-٩٣٠ دايجو الإمبراطور

قبل الميلاد

٩٠١ — ٢٢ عصر إنجى

٣ — اليابان فى العصر الإقطاعى

١١٨٦-٩٩ يوريتومو

١٢٠٣-١٩ ميناموتو سانيتومو

١٢٠٠-١٣٣٣ باكوفوفى كاما كورا

١١٩٩-١٣٣٣ وصاية هوجو

١٢٢٢-٨٢ نشيرن مؤسس مذهب اللوتس

١٢٩١ قبلاى خان يغزو اليابان

١٣١٨-٣٩ جودايجو الإمبراطور

١٣٣٥-١٥٧٣ سيادة أشيكاجا

١٣٨٧-٩٥ يوشيمتسوا

١٤٣٦-٨٠ يوشيماسا

١٥٧٣-٨٢ نوبوناجا

١٥٨١-٩٨ هيديوشى

١٥٩٢ هيديوشى يفشل فى غزو كوريا

١٥٩٧ هيديوشى يطرد الكهنة

١٦٠٠ موقعة سكيجاهارا

١٦٠٣-١٨٦٧ سيادة توكوجاوا

١٦٠٣-١٦ أيياسو

١٦٠٥ حصار أوساكا

١٦١٤ مرسوم إيياسو المناهض للمسيحية

١٦٠٥-٢٣ هيديتادا

١٦٢٣-٥١ أيميتسو

(*) تواريخ الملوك تحدد مولدهم وموتهم ، فكثير منهم تنازل عن العرش أو قتل أو طرد من العرش .

بعد الميلاد

١٦٥٧ حريق طوكيو الكبير

١٦٨٠–١٧٠٩ تسونا يوشى

١٦٨٨–١٧٠٣ عصر جنروكو

١٧٠٩–١٢ أيينوبو

١٧١٦–٤٥ يوشيمونى

١٧٢١ يوشيمونى يشرع القانون الياباني

١٧٨٧–١٨٣٦ أيينارى

١٨٥٣–٨ أييسادا

١٨٥٨–٦٦ أييموش

١٨٦٦–٨ كيكى

٢ — الأدب

٨٤٥ — ٩٠٣ سوجادارا ميشيزانى : القديس الراعى للآداب .

١ — الشعر

٦٦٥ — ٧٣١ تاهيتو

٧٣٧ (تاريخ موته) هيتومارو

٧٢٤ — ٥٦ أكاهيتو

٧٥٠ المانيوشو

٨٨٣ — ٩٤٦ تسورايا كى

٩٠٥ الكوكنشو

١١١٨ — ٩٠ سايجيوهوشى

١٢٣٤ الهياكو — نن — إشو

١٦٤٣ — ٩٤ ماتسوراباشو

١٧٠٣ — ٧٥ السيدة كاجانو — شيو

٢ — المسرحية

١٣٥٠ — ١٦٥٠ المسرحيات الغنائية

١٦٥٣ — ١٧٢٤ شيكاماتسومنزايمن

بعد الميلاد

٣ — القصة

٩٨٧–١٠٣١ السيدة موراساكى نو — شيكيبوا

١٠٠١–٤ قصة جنجى مونو جاتارى

١٧٦١–١٨١٦ سانتوكودن

١٧٦٧–١٨٤٨ كيوكوى باكن

١٨٣١ (موته) جيبنشا إيكو

٤ — التاريخ والبحث العلمى

٧١٢ الكوجيكى

٧٢٠ النيهونجى

١٣٣٤ جنتو شوتوكى تأليف كتياباتاكى

١٦٢٢–١٧٠٤ متسوكونى

١٦٣٠ هياشى رازان يؤسس جامعة طوكيو

١٦٥٧–١٧٢٥ أراى هاكوسيكى

١٦٩٧–١٧٦٩ مابوتى

١٧٣٠–١٨٠١ موتو — أورى نوريناجا

٥ — المقالة

حوالى ١٠٠٠ السيدة سى شوناجون

١١٥٤–١٢١٦ كامونو — شومى

٦ — الفلسفة

١٥٦٠–١٦١٩ فوجيوارا سيجوا

١٥٨٣–١٦٥٧ هياشى رازان

١٦٠٨–٤٨ ناكاى توجو

١٦٣٠–١٧١٤ كايبارا إكن

١٦١٩–٩١ كومازاوا بانزان

بعد الميلاد

١٦٢٧-١٧٠٥ إيتوجنساى

١٦٦٦-١٧٢٨ أوجيوسوراى

١٦٧٠-١٧٣٦ إيتوتوجاى

٣ — الفن

١ — فن العمارة

حوالى ٦١٦ معابد هوريوجى

حوالى ١٤٠٠ قصور يوشيمتسو

١٥٤٣-٩٠ كانوييتوكو

حوالى ١٦٣٠ مدفن أيياسو

٢ — النحت

٧٤٧ النارا دايبوتسو

٧٧٤ -٨٣٥ كوبو دايشى

١١٨٠-١٢٢٠ أونكى

١٢٥٢ الكاماكورا دايبوتسو

١٥٩٤-١٦٣٤ هيدارى جنجارى

٣ — الخزف

حوالى ١٢٢٩ شيروزيمون

حوالى ١٦٥٠ كاكيمون

حوالى ١٦٥٥ ننسى

١٦٦٣-١٧٤٣ كنزان

حوالى ١٦٦٤ جوتوساجيرو

١٨٥٥ (موته) زنجوروهوزن

٤ — التصوير

حوالى ٩٥٠ كوزى نو — كانادكا

حوالى ١٠١٠ ناكايوشى

حوالى ١٠١٧ ييشين سوزو

١٠٥٣-١١٤٠ توباسوجو

١١٤٦-١٢٠٥ فوجيواراتاكانوبو

حوالى ١٢٥٠ كيون (؟)

حوالى ١٢٥٠ توزاجن — نو — كوى

بعد الميلاد

١٣٥١-١٤٢٧ شودنسو

بعد الميلاد

حوالى ١٤٠٠ شوبون

١٤٢٠-١٥٠٦ شيشوشيو

١٤٩٠ (موته) كانوماسا نوبو

١٤٧٦-١٥٥٩ كانوموتونوبو

حوالى ١٦٠٠ كويتسو

١٥٧٨-١٦٥٠ إداساماتابى

١٦٠٢-٧٤ نوتانيوكا

١٦١٨-٩٤ هيشيكاوا مورونوبو

١٦٦١-١٧١٦ كورين

١٧١٨-٧٠ هارونوبو

١٧٣٣-٩٥ مارويابى أوكيو

١٧٤٢-١٨١٤ كيوناجا

١٧٤٧-١٨٢١ مورى كوزن

١٧٥٣-١٨٠٦ أوتامارو

حوالى ١٧٩٠ شاراكو

١٧٦٠-١٨٤٩ هوكوساى

١٧٩٧-١٨٥٨ هيروشيجى

٤ — اليابان الجديدة

١٨٥٣ الأميرال برى يدخل خليج أوراجا

١٨٥٤ الزيارة الثانية للأميرال برى

١٨٥٤ معاهدة كاناجاوا

١٨٦٢ مسألة رتشارد سن

١٨٦٣ ضرب كاجوشيما

١٨٦٣ «إيتو» و «إينوبه» يزوران أوربا

١٨٦٨ عودة القوة الإمبراطورية

١٨٦٨-١٩١٢ ميجى الإمبراطور

١٨٧٠ طوكيو تصبح العاصمة الإمبراطورية

١٨٧١ زوال العهد الإقطاعى

بعد الميلاد	
١٨٧٢	أول خط حديدي في اليابان
١٨٧٧	ثورة ساتسوما
١٨٨٩	الدستور الجديد
١٨٩٤	الحرب مع الصين
١٨٩٥	ضم فرموزا
١٩٠٢–٢٢	التحالف الإنجليزي الياباني
١٩٠٤	الحرب مع الروسيا
١٩١٠	ضم كوريا
١٩١٢	نهاية عصر ميجي
١٩١٢–٢٥	تايشو الإمبراطور

بعد الميلاد	
١٩١٤	القبض على تسنجاتو
١٩١٥	الأوامر الواحدة والعشرون
١٩١٧	اتفاق لا لسنج – إشيي
١٩٢٢	مؤتمر وشنطن
١٩٢٤	تحديد هجرة اليابانيين إلى أمريكا
١٩٢٥	هيروهيتو الإمبراطور
١٩٣١	فتح منشوريا
١٩٣٢	الهجوم في شنغهاي
١٩٣٥	الإنذار بإلغاء اتفاق وشنطن سنة ١٩٣٦

الباب الثامن والعشرون

بناة اليابان

تاريخ اليابان مسرحية لم تكمل بعد ، قد تم منها ثلاثة فصول ، أما فصلها الأول — بغض النظر عن القرون البدائية الأسطورية — فهو اليابان البوذية الكلاسيكية (٥٢٢ — ١٦٠٣ ميلادية) التى دخلتها المدنية فجأة على أيدى الصين وكوريا ، والتى هذبها الدين وصقلها ، فخلقت آيات الأدب اليابانى والفن اليابانى فى العصر الذى يدونه التاريخ ؛ أما الفصل الثانى من المسرحية فهو اليابان الإقطاعية الآمنة التى تنسب إلى توكوجادا شوجونانى (١٦٠٣—١٨٦٨) والتى اعتزلت العالم وحصرت نفسها فى نفسها ، لا تريد لنفسها شيئاً من اتساع الرقعة ولا تنشد تبادلا تجارياً مع الخارج ، قانعة بالزراعة منصرفة إلى الفن والفلسفة ؛ والفصل الثالث واليابان الحديثة ، التى كشف عنها الستار أسطول أمريكى سنة ١٨٥٣ ، والتى اضطرتها العوامل الداخلية والخارجية اضطراراً أن تضرب بسهم فى التجارة والصناعة ، وأن تبحث عن خامات من الخارج وأسواق فى الخارج ، وتقاتل قتالا مستميتا فى سبيل التوسع ، محاكية فى ذلك بلاد الغرب فى نزعتها الاستعمارية وطرائقها فى هذا السبيل ، مهددة بذلك سيادة الجنس الأبيض وسلام العالم ؛ وإن سوابق التاريخ كلها لتدل على أن الفصل التالى من المسرحية سيكون قتالا(*) .

لقد درس اليابانيون مدنيتنا دراسة فاحصة لكى يتشربوا معاييرها ثم يفوقوها ، فقد يكون من الحكمة أن تدرس مدنيتهم فى صبر يشبه صبرهم فى دراسة مدنيتنا ، حتى إذا ما تأزم الأمر على نحو يضطرنا إما إلى حرب أو تفاهم معهم ، كان فى مقدورنا أن نصل معهم إلى تفاهم .

(*) صدر هذا الكتاب قبل الحرب الأخيرة ، وقد جاءت الحرب مصداقاً لما تنبأ به المؤلف. (المعرب)

الفصل الأول

أبناء الآلهة

كيف خلقت اليابان — أثر الزلازل

فى البداية كانت الآلهة ، هكذا يقول أقدم ما دون عن اليابان من تاريخ[١] وكانت الآلهة تولد ذكراً وأنثى ، ثم تموت ، حتى صدر الأمر فى النهاية من شيوخ الآلهة إلى اثنين منها ، هما « إيزاناجى » و « إيزانامى » . وهما أخ وأخت من الآلهة ، أن يخلقا اليابان ، فوقفا على جسر السماء العائم ، وقذفا فى المحيط برمح مرصع بالجوهر ، ثم رفعاه إلى السماء فتقطرت من الرمح قطرات أصبحت هى « الجزر المقدسة » ؛ وشهدت الآلهة ما تصنعه الضفادع فى الماء ، فتعلمت منها سر اتصال الذكر بالأنثى ، ومن ثم التقى « ايزاناجى » و « إيزانامى » التقاء الزوجين وأنسلا الجنس اليابانى ، وولدت « أماتيراسو » — إلاهة الشمس — من عين « إيزاناجى » اليسرى وكذلك من حفيدها « ننيجى » نشأت سلسلة متصلة مقدسة حلقاتهاهم كل أباطرة «دى نيبون» (أى اليابان العظمى) فمنذ ذلك اليوم حتى يومنا هذا ، لم تشهد اليابان إلا هذه الأسرة الحاكمة الإمبراطورية(*)

كان الرمح المرصع بالجوهر قد قطر أربعة آلاف ومائتين وثلاثاً وعشرين قطرة ، لأن هذا هو عدد الجزائر التى يتألف منها أرخبيل الجزر الذى هو اليابان(**) : من هذه الجزر ستمائة مأهولة ، لكن ليس بينها إلا خمس لها حجم

(*) إذا اعترض معترض على هذه القصة بقوله إنها مستحيلة الحدوث ، فقد يرد على اعتراضه بما قاله « موتو — أورى » منذ زمن طويل ، وهو أعمق النقاد اليابانيين أثراً ، إذ قال إن تناقض القصة نفسه هو دليل صدق روايتها إذ من ذا تسوغ له نفسه أن يلغى عقله إلغاء يتيح له أن ينتحل قصة قد بلغت كل هذا الحد الظاهر من تفاهة واستحالة على التصديق ؟ » [٢] .

(**) كلمة اليابان قد تكون تحريفاً للفظة تستعمل فى الملايو ومعناها جزر وهى =

جدير بالاعتبار ؛ أما أكبرها فهى « هوندو » أو « هونشو » ويبلغ طولها ١١٣٠ ميلا ومتوسط عرضها هو ٧٣ ميلا ، ومساحتها واحد وثمانون ألف ميل مربع ، وهى تعادل نصف مساحة الجزر كلها ، ويشبه موقعها — كما يشبه تاريخها الحديث — موقع انجلترا وتاريخها : فقد حمتها البحار المحيطة بها من الغزوات ، وحملتها سواحلها الطويلة التى يبلغ مداها ثلاثة عشر ألف ميل على أن تكون أمة بحرية ، فكأنما قضى عليها المؤثر الجغرافى والضرورة التجارية أن تبسط لنفسها سيادة واسعة على البحار ؛ وتلتقى الرياح والتيارات البحرية الدافئة الآتية من الجنوب ، بالهواء البارد الهابط من قمم الجبال ، فينتج عن ذلك فى اليابان مناخ إنجليزى تملؤه الأمطار ، وتكثر فيه الأيام الغائمة بالسحب[٤] ، ومن ثم تمتلىء أنهارها القصيرة السريعة الانحدار ، ويزدهر فيها النبات وتزدان المناظر ، فهاهنا — إذا ما بعدت عن المدن والمساكن العتيقة القذرة — ترى نصف البلاد جنة عدن فى ازدهارها ، وليست جبالها أكداساً مركومة من الصخر والقذر ، بل هى ذوات أشكال فنية ، تكاد تبلغ فى تخطيطها حد الكمال ، كما هى الحال فى فيوجى[*] .

ولا شك أن هذه الجزر قد ولدتها الزلازل لا القطرات التى انتثرت من الرياح[٦] ؛ فليس على الأرض مكان — وربما جاز أن نستثنى أمريكا الجنوبية — قد عانى كل ما عانته اليابان من اضطراب أرضها ، فحدث سنة ٥٩٩ أن اهتزت

= « ياباج » أو « يابون » ؛ وهذه اللفظة الأخيرة هى ما تقابل فى اليابانية كلمة « نيبون » ثم هذه بدورها هى تحريف الكلمة الصينية التى معناها « المكان الذى تشرق منه الشمس » وهى « جب — پن » ؛ وينعت اليابانيون كلمة « نيبون » عادة بكلمة « داى » ومعناها العظمى[٣] .

(*) « فيوجى سان » (أو قد يسمى حديثاً فيوجى ياما) هو معبود الفنانين والكهنة ، ويكاد يكون فى شكله مخروطاً مندرج السفوح تدرجاً سهلا ، وترتفع قمته ١٢٣٦٥ قدماً ، يصعدها ألوف من الحجاج كل عام ؛ وكانت آخر مرة ثار فيها بركان فيوجى فى سنة ١٧٠٧[٥] .

الأرض وابتلعت قرى بأكملها فى فمها الضاحك ، وهوت الشهب ولمعت المذنَّبات وابيضت الشوارع بالثلج فى منتصف يوليو ، وأعقب ذلك قحط ومجاعة ، وقضى من اليابانيين ألف الألوف ، وكذلك حدث سنة ١٧٠٣ أن قضى زلزال على اثنين وثلاثين ألفاً فى طوكيو وحدها ، وعادت العاصمة سنة ١٨٨٥ فتقوض بنيانها من جديد ، وانفرجت الأرض عن فجوات واسعة ابتلعت فى جوفها ألوفاً ، وجعلوا يحملون جثث الموتى فى عربات النقل ليقذفوا بها بعيداً جماعات جماعات ؛ وفى زلزال ١٩٢٣ أتت موجة المد وألسنة النار على مائة ألف نفس فى طوكيو ، وسبعة وثلاثين ألف نفس فى يوكاهاما وما يجاورها ، وأما كاما كورا — التى طالما أحسنت ابوذا — فكادت تندك من أساسها[٧] ، مع أن التمثال النحيل الذى كان قائماً هناك للقديس الهندى (يقصد بوذا) قد لبث وسط هذا الخراب الشامل قائماً كما هو ، لم يصبه سوى ارتجاج ، كأنما أراد بقيامه ذاك سليما من الأذى أن يضرب مثلا يوضح للناس أهم درس يلقيه التاريخ — وهو أن الآلهة يمكن لها أن تصمت فى مختلف اللغات ؛ ولبث الناس فى حيرة تملكتهم حيناً ، كيف ينزل هذا الخراب كله بأرض خلقتها الآلهة وتحكمها الآلهة ؛ وأخيراً فسروا هذا الاضطراب بأن سمكة ضخمة تحت الأرض انزعجت فى نعاسها فاهتزت[٨] ويظهر أن لم يطرأ ببال أحد إذ ذاك أن يغادر تلك المدينة التى تعرض ساكنها لأكبر الخطر ؛ ففى اليوم التالى لاهتزاز الأرض بزلزالها العظيم الأخير ، استخدم صبية المدارس قطعاً من مادة الطلاء المتناثرة أقلاماً ، والأحجار الارتوازية المنثورة من بيوتهم المحطمة ألواحاً[٩] واحتملت الأمة صابرة هذه الضربات من يد القدر وخرجت من هذا الدمار المتكرر نشيطة نشاطاً لا سبيل إلى الحد منه ومقدامة على نحو ما يكون المتفائل إقداما .

الفصل الثانى

اليابان البدائية

قومياتها الجنسية – مدنيتها الباكرة – الدين « شنتو » – البوذية – بدايات الفن – « الإصلاح العظيم »

لقد ضاعت الأصول اليابانية — كما ضاع غيرها من أصول الامم — فى خليط عام من النظريات ، فيظهر أن الجنس اليابانى مزيج من عناصر ثلاثة : عنصر بدائى أبيض جاء عن طريق « الأينوين » الذين وفدوا إلى اليابان من منطقة نهر أمور فى العصر الحجرى الأخير ؛ وعنصر أصفر مغولى جاء من كوريا أو عبر خلالها فى نحو القرن السابع قبل المسيح ؛ وعنصر قاتم من الملايو وأندونسيا تسرب إلى البلاد من جزر الجنوب : ففى اليابان — كما فى أى بلد آخر — شهدت البلاد خليطاً من عناصر مختلفة قبل أن تشهد — بمئات السنين — قيام نمط جنسى جديد يتكلم بلغة جديدة وينشىء مدنية جديدة ، وكون عملية المزج بين هذه الأجناس لم تبلغ تمامها بعد ، تراه ظاهراً فى الفوارق التى بين الارستقراطى الطويل النحيل طويل الرأس ، وبين الرجال من الشعب فى قصره وبدانته ورأسه العريض .

وتصف الروايات التاريخية الصينية التى ترجع إلى القرن الرابع ، تصف اليابانين بأنهم «أقزام» ، ثم تضيف إلى ذلك أنهم «لايعرفون الثيرة ولاالوحوش الكاسرة ؛ وهم يَشِمُون وجوههم بزخارف تختلف شكلا باختلاف المنزلة الاجتماعية ، ويلبسون رداء مصنوعاً من قطعة واحدة ، ولديهم حراب وقِسِيٌّ ورماح فى أطرافها حجر أو حديد ، وهم لا يلبسون أحذية ، ومن خصائصهم طاعة القانون وتعدد الزوجات ويدمنون الشراب وهم طوال الأعمار .

ونساءهم يطلين أجسامهن بالأحمر والقرمزى »[١١] . وتروى هذه المدوّنات عنهم « أن ليس يقع بينهم سرقة ، وقلما يشكو أحد منهم أحداً إلى القضاء »[١٢] ، ولم تكد المدنية تبدأ عندهم ، وقد صور « لافكاديو هيرن » — مدفوعاً بصدق نظره وبحبه لذلك العصر القديم — صوره فردوساً لا يشوبها استغلال أو فقر ؛ ووصف « فنلوزا » طبقة الفلاحين إذ ذاك بأنها مكونة من سادة عسكريين مستقل بعضهم عن البعض[١٣] ؛ وجاءت الصناعات اليدوية إلى اليابان من كوريا فى القرن الثالث الميلادى ، وسرعان ما انتظمتها نقابات[١٤] ، ودون هؤلاء الصناع اليدويين ، كانت تقع طبقة كبيرة من العبيد ، جُمع أفرادها من المسجونين وأسرى الحروب[١٥] ، وكان النظام الاجتماعى إقطاعياً إلى حد ما وقبلياً إلى حد ما ، فكان بعض الفلاحين يزرعون الأرض عبيداً للسادة أصحاب الأرض ، ولكل قبيلة رئيس يكاد يكون ملكاً عليها[١٦] ، وكانت الحكومة بدائية فى تفككها وضعفها .

كانت العاطفة الدينية عند اليابانيين الأولين تجد ما يشبعها فى العقيدة بأن لكل كائن روحاً ، وفى الطوطمية ، وفى عبادة الأسلاف وعبادة العلاقة الجنسية[١٧] ؛ فعندهم أن الأرواح سارية فى كل شىء — فى كواكب السماء ونجومها ، فى نباتات الحقل وحشراته ، والأشجار والحيوان والإنسان[١٨] ، ويعتقدون أن عدداً لا يحصى من الآلهة يحوم فوق الدار وساكنيها ويرقص مع ضوء المصباح ووهجه إذا رقص[١٩] ، والاتصال بالآلهة يكون عندهم بإحراق عظام غزال أو قوقعة سلحفاة ، وبفحص العلامات والخطوط التى تحدثها النار ، فحصاً تستمد فيه المعونة من الخبراء ؛ وتذكر لنا المدونات القديمة الصينية أنه بهذه الطريقة « كان اليابانيون يستوثقون من طيب الحظوظ وخبيثها ، ومن ملاءمة الظروف لقيامهم برحلات برية وبحرية أو عدم ملاءمتها »[٢٠] . كانوا يخافون الموتى ويعبدونهم ، لأن غضبهم قد ينزل بالعالم شراً مستطيراً ؛ فلكى يسترضوا هؤلاء الموتى ، كان لزاماً عليهم أن يضعوا لهم النفائس فى

قبورهم — كأن يضعوا سيفاً إذا كان الميت رجلا ، ومرآة إذا كانت امرأة ، وكانوا يؤدون الصلاة ويقدمون فاخر الطعام أمام صور أسلافهم فى كل يوم[٢١] وكانوا يلجأون إلى التضحية البشرية آناً بعد آن توسلا لإيقاف مطر غزير ، أو ضماناً لثبات بناء أو جدار ، وكان يحدث أحياناً أن يدفن الأتباع مع سيدهم الذى مات ليدافعوا عنه فى أولى مراحل حياته الآخرة[٢٢] .

ومن عبادة الأسلاف نشأت أقدم ديانة قائمة فى اليابان ، وهى « شنتو » أى « طريق الآلهة » ولها صور ثلاث : العقيدة المنزلية التى تتجه بالعبادة إلى أسلاف القبيلة ، وعقيدة الدولة التى تتجه بالعبادة إلى الحاكمين الأسلاف وهم الآلهة الذين أسسوا للدولة بناءها ؛ فكانوا يخاطبون السلف المقدس الأول الذى عنه جاءت سلسلة الأباطرة ، ضارعين سبع مرات كل عام ، فيتوجه إليه الإمبراطور نفسه بالدعاء ، أو من ينوب عن الإمبراطور ؛ ثم كانوا يؤدون له صلاة خاصة إذا ما همت الأمة بالاضطلاع بمشروع تراه استثنائياً فى قداسته ، مثل الاستيلاء على شانتونج (سنة ١٩١٤)[٢٣] ؛ ولم تكن ديانة « شنتو » بحاجة إلى تفصيل مذهبى أو طقوس معقدة أو تشريع خلقى ، ولم تكن لها طبقة من الكهنة خاصة بها ، كلا ولا تذهب إلى ما يبعث العزاء فى نفوس الناس من خلود الروح ونعيم الفردوس ؛ فكان كل ما تطالب به معتنقيها أن يحجوا آناً بعد آن لأسلافهم وأن يقدموا لهم ضراعة الخاشعين ، ويفعلوا كذلك لإمبراطورهم ولماضى أمتهم ؛ وقد حلت لهم عقيدة أخرى محل هذه العقيدة حيناً ، لأنها مسرفة التواضع فى جزائها التى تعد به ، وفى أوامرها التى تلزم بها الناس .

وفى سنة ٥٢٢ جاءت البوذية — وكانت قد دخلت الصين قبل ذاك بخمسمائة عام — إلى اليابان خلال القارة الآسيوية ، فأخذت تغزو أرجاءها غزواً

سريعاً ، وقد تآمر عاملان فكتبا لها النصر ، وهما : الحاجات الدينية عند الشعب ، والحاجات السياسية عند الدولة ، لأنه لم تكن بوذية بوذا هي التي جاءت إلى اليابان ، بما عرفت به تلك البوذية من لا أدرية وتشاؤم وتزمت وشوق إلى النعيم الناشئ عن انمحاء الفرد في الكل ، بل جاءتها بوذية « ماهايانا » بآلهتها الوديعة من أمثال « أميدا » « وكوانون » ، وباحتفالاتها الدينية البهيجة ، واعترافها ببوذيين منتظرين يخلصون البشر ، وبخلود الروح الإنسانية ، ثم ما هو خير من ذلك ، جاءت هذه البوذية تبث في النفوس بأسلوب لا يقاوم لفرط رقته ، كل فضائل الورع والسـلام والطاعة التي يمكن أن تصوغ الناس صـياغة تجعلهم أكثر انصياعاً للحكومة ؛ وراحت تفسح للمظلومين من الأمل والعزاء ما يجعلهم راضين قانعين بشظف عيشهم ؛ وتخفف من وطأة الحياة الكادحة وما فيها من برود يشبه برود النثر وفتور العمل المكرور المعاد ، بما تبثه في تلك الحياة من شعر متمثلة في الأساطير والصلاة ، ومن مسرحية تتمثل في الاحتفالات البهيجة ، وهيأت للناس سبيل الوحدة في الشعور والعقيدة ، وهما شيئان طالما رحب بهما الساسة ، لأنهم أصل النظام الاجتماعي ، ودعامة القوة القومية .

ولسنا ندري أكانت هي السياسة أم الورع ، هو الذي كتب النصر للبوذية في اليابان ، فلما مات الإمبراطور « يومى » سنة ٥٨٦ ميلادية : تنازعت وراثة العرش من بعده أسرتان متنافستان ، تنازعاً استخدمت فيه السلاح ، واعتنقت كلتاهما العقيدة الدينية الجديدة اعتناقاً سياسياً ، واستطاع الأمير « شوتوكوتايشي » — الذي يقال عنه إنه ولد وفي يده تميمة مقدسة — أن ينتهي بالحزب البوذي إلى النصر ، ثم أقام على العرش « الإمبراطورة سويكو » . ولبث تسعة وعشرين عاماً (٥٩٢ — ٦٢١) يحكم الجزر المقدسة أميراً امبراطورياً ووصياً على العرش وراح يغدق العطاء لمعابد البوذيين ، ويشجع رجال الدين البوذي ويعينهم ،

ويدخل الأخلاق البوذية فى صلب القوانين القومية ، حتى لقد أصبح بوجه عام للبوذية اليابانية ما كان « أشوكا » لها فى الهند » وامتدت رعايته إلى الفنون والعلوم ، واستقدم الفنانين ومهرة الصناع من كوريا والصين ، وكتب التاريخ ، ورسم التصاوير . وأشرف على بناء معبد « هوريوجى » ، وهو أقدم آية بقيت لنا فى تاريخ الفن اليابانى .

لكن على الرغم مما تركه هذا الرجل الناشر لأسباب الحضارة من مختلف الآثار ، وعلى الرغم من كافة الفضائل التى راحت البوذية تبثها فى النفوس أو تبشر بها ، فقد طغت على اليابان أزمة أخرى عنيفة ، ولم يكن قد مضى على موت « شوتوكو » جيل واحد ؛ ذلك أن ارستقراطياً طموحاً ، هو « كاماتارى » قد دبر مع « الأمير تاكا » ثورة فى القصر ، كانت بداية واضحة لتغير مجرى التاريخ السياسى فى « نيپون » (اليابان) حتى ليشير إليها المؤرخون من أبناء البلاد فى حماسة وطنية فيصفونها بقولهم « الإصلاح العظيم » (سنة ٦٤٥) ؛ فقد قتل ولى العهد ، وأجلس على العرش ملك كهل لم يكن إلا صورة ، وكان الأمر فى يد « كاماتارى » باعتباره رئيساً للوزراء ، فطفق بمعونة « الأمير تاكا » — حين كان لم يزل ولياً للعهد ، ثم حين أصبح هو الإمبراطور تنشى » — يعيد بناء الحكومة اليابانية بحيث جعلها سلطة إمبراطورية أوتوقراطية ؛ وارتفع الحاكم من مجرد كونه زعيما لكبرى القبائل ، إلى سلطة شاملة تسيطر على كل موظف فى اليابان ، فهو الذى يعين كل الحكام ، وتدفع له الضرائب كلها مباشرة ، وأعلن أن البلاد كلها ملك يمينه ؛ وبهذا سارت اليابان بخطوات سريعة من ارتباط بين القبائل مخلخل العرى ورؤساء قبائل يشبهون أطراف الإقطاع ، إلى دولة ملكية وثيقة العرى فيما يربط بين أجزائها .

الفصل الثالث

العصر الإمبراطورى

الأباطرة — الأرستقراطية ، تأثير الصين . عصر كيوتو الذهبى — التدهور

منذ ذلك الوقت فصاعدا ، جعل الإمبراطور يتمتع بألقاب ضخمة ، فكان يسمى أحياناً « تنشى » أو « شمس السماء » على أن اسمه كان غالباً « تنو » أى « الملك السماوى » ونادراً ما كان يطلق عليه « ميكادو » أى « الباب المجيد » ؛ وكان من امتيازه أن يطلق عليه اسم جديد بعد موته ، يعرف فى التاريخ باسم خاص يختلف كل الاختلاف عن الاسم الذى أطلق إبان الحياة ؛ ولكى يضمن اتصال النسل الإمبراطورى ، كان للإمبراطور الحق فى أى عدد شاء من الزوجات أو الرفيقات ، ولم يكن حتما أن يهبط الملك إلى أكبر الأبناء ، بل تؤول ولاية العرش من بعده إلى من كان فى رأيه هو ، أو فى رأى أبطال العصر أقرب أبنائه إلى أن يكون أقواهم ، أو أضعفهم على العرش [فيختار أقواهم إن كان الذى يختار هو الملك ، ويختار أضعفهم إن كان الذى يختارهم أعلام العصر ذوو المصالح الشخصية] وكان الأباطرة فى بواكير العصر الكيوتى يميلون إلى الورع ، حتى لقد تنازل بعضهم عن العرش ليجعلوا من أنفسهم رهباناً بوذيين ، وحرّم أحدهم السّماكة على أنها إساءة إلى بوذا(٥) ؛ لكنك نجد بينهم « يوزى » يشذ عن هذا المجرى ، ويتعب الناس بنشاطه ، فجاء مثلا يوضح كيف تكون الأخطار التى يستهدف لها الملك إذا نشط ؛ فكان يأمر الناس أن يصعدوا الأشجار ثم يرميهم بقوسه ونشابه ، ويمسك بالعذارى فى الطرقات ، ويوثق قيدهن بأوتار قيثارة ويقذف بهن فى البرك ، وكان مما يمتع جلالته أن يركب جائساً خلال العاصمة فيلهب الناس بسوطه ليدفعهم إلى العمل ، لكن رعيته خلعته عن العرش آخر الأمر بثورة أعلنت فيها

العصيان السياسي الذى هو بمثابة الخروج على حدود التقوى وهو شيء نادر الوقوع فى تاريخ اليابان[٢٦] ؛ وحدث سنة ٧٩٤ أن انتقلت مراكز الحكومة من « نارا » إلى « ناجاوكا » ثم لم تلبث بعدئذأن انتقلت إلى كيوتو (أى عاصمة السلام) فظلت هى العاصمة خلال أربعة القرون (٧٩٤ — ١١٩٢) التى يجمع معظم المؤرخين على أنها كانت فى اليابان عصرها الذهبي ، فلما أن كانت سنة ١١٩٠ بلغ سكان كيوتو نصف المليون ، وهو ما لم تبلغه أية مدينة أوروبية فى العصر ما عدا القسطنطينية وقرطبة[٢٧] ، وقد خصص جزء من المدينة لأكواخ الناس وحظائر لماشيتهم ، والظاهر أن قد نعم هؤلاء الناس بعيشهم رغم فقرهم المدقــع ؛ ثم خصص آخر — جعلوه معزولا بما تقتضيه الحكمة لحدائق العلية والأسرة الإمبراطورية وقصورهم ؛ وكان يطلق على حاشية الإمبراطور بحق « سكان ما فوق السحب »[٢٨] لأن تقدم الحضارة وارتفاع الأساليب الفنية كان من نتائجها فى اليابان — كما هى الحال فى غيرها — ازدياد الفوارق الاجتماعية ؛ وبهذا زالت المساواة التقريبية التى كانت تسود الناس فى باكورة الأيام ، وحل محلها تفاوت لا مندوحة عن وقوعه إذا ما قُسّمت الثروة المتزايدة بين الناس على قدراتهم المختلفــة وشخصياتهم وامتيازاتهم المتباينــة ؛ ونشأت أسرات كبيرة ، مثل الـ « فوجيوا را » والـ « تايْرا » والـ « ميناموتو » والـ « سوجا وارا » ، وهى أسرات كانت تقيم الأباطرة وتخلعهم ، ويحارب بعضها بعضاً على النحو العنيف الذى شهدته أيام النهضة الإيطالية ؛ ولقد قرَّب « سوجاوارا متشيزانى » نفسه من قلوب اليابانيين لرعايته للأدب ، وهو الآن معبود لديهم بوصفه إلهاً للآداب ، وتعطل المدارس تكريماً له فى الخامس والعشرين من كل شهر ؛ وكذلك امتاز الشاب « ميناموتو سانيتومو » بإنشائه فى الصباح السابق لاغتياله هذه المقطوعة الشعرية الساذجة ، التى تمثل الأسلوب اليابانى فى أنصع صوره :

إذا لم أعد إليك ثانياً
يا شجرة البرقوق التي تجاور داري
فلا تنسي أنت موعد الربيع
وازدهري ما وسعك الازدهار

ولبثت اليابان في عهد « دايجو » المتنوّر (٨٩٨ — ٩٣٠) وهو أعظم الأباطرة الذين أقامتهم على الحكم قبيلة فوجيوارا ، لبثت في عهده تتشرب — بل بدأت تنافس — ثقافة الصين وأسباب ترفها ، التي كانت عندئذ في أعلى ذرى ازدهارها في عهد « تانج » ؛ ولما كانت اليابان قد استمدت عقيدتها الدينية من « المملكة الوسطى » فقد طفقت تستمد من المعين نفســه لباسها وألعابها وطهيها وكتابتها وشعرها وأساليب حكومتها وموسيقاها وفنونها وبساتينها وعمارتها ، بل خُطِّطت عاصمتاها الجميلتان « نارا » و « كيوتو » على غرار « شانجان » ؛ فقد استوردت اليابان ثقافة الصين منذ ألف عام ، كما تستورد ثقافة أوربا وأمريكا في عصرنا هــذا ، وهي في هذا تتعجل أولاً ثم تتمهل لتنتقي وتختار ثانياً ؛ لكنها تحتفظ بروحها الخاصة وشخصــيتها الخاصة غيرة عليهما ، ولا تدخر في وسعها جهداً في سبيل مداومة الأساليب الجديدة إلى الأغراض القومية القديمة .

ودخلت اليابان في عهدها « الأنجي » (٩٠١ — ٩٢٢) الذي يعتبر ذروة العصر الذهبي(*) مدفوعة إلى ذلك الصعود بحافز من جارتها العظيمة ، وبوقاية

(*) يقول نولوزا المتحمس : « هذا العهد الذي يسمى بالعهد « الأنجي » هو بغير شك أعلى ذروة بلغتها الحضارة اليابانية ، كما كان عهد « منج هوانج » ذروة الحضارة في الصين ، فلن تبلغ الصين أو اليابان بعد الآن ما كانتا بلغتاه إذ ذاك ثراء وفخامة وخصوبة في ذرى العبقرية الحرة ... فمن حيث الثقافة العامة وترف الحياة الذي تناول العقل والروح معاً ، لم يشهد العالم مثيلاً لتلك الفخامة ، لا نقول في اليابان وحدها ، بل في الدنيا بأسرها »(٣١)

حكومة منظمة مستتبة ؛ فتراكمت الثروة واتجه إنفاقها نحو أسباب حياة مترفة رقيقة تشيع فيها الثقافة بحيث لا يكاد يضارعها فى ذلك مثيل حتى جاءت عصور أسرة مديتشى و « صالونات » « التنوير الفرنسى (*) .

وأصبحت « كيوتو » هى بمثابة باريس وفرساى فى فرنسا ، رقيقة فى شعرها وثيابها ، رشيقة فى أخلاقها وفنونها ، تضع للأمة كلها معايير المعرفة والذوق ، وانفتحت « الشهية » عند الناس على اختلاف صورها وإلى آخر حدودها وآمادها ، فابتكر الطهاة صنوفاً جديدة من شهىّ الطعام ، وكدسوا الآكال تكديساً ليشبعوا أصحاب النهم وأرباب الذوق فى الطعام على حد سواء ، وغُض الطرف عن جرائم الزنا على أساس أنها من أتفه خطايا الإنسان(٣٢) ، وتزمّل كل سيد أو سيدة بالحرير ونفيس الثياب ، وكنت ترى مختلف الألوان متناسقة على كل كمّ تلبسها ذراع ، وازدانت حياة المعابد والقصور بالموسيقى والرقص كما أشاع الرقص والموسيقى وروح الرشاقة فى بيوت العِليْة التى كانت تحاط بروائع المناظر الطبيعية من الخارج ، وتزدان صقلا من الداخل بما فيه من آيات البرونز واللؤلؤ والعاج والذهب والخشب الذى حفر حفراً بلغ الغاية القصوى من دقة الحفر(٣٣) ؛ لقــد ازدهر الأدب إذ ذاك وانحلّت الأخلاق .

أمثال هذه العصور التى تتلألأ بجوانب الرقة ، يغلب ألا تدوم طويلا ، لأنها ترتكز ارتكازاً مقلقلا على ثروة متراكمة يمكن فى أية لحظة أن تذروها عوامل تذبذب التجارة ، وقلق الطبقات المستغَلّة وتقلبات الحروب ؛ وقد أدى إسراف القصر آخر الأمر إلى إفلاس الدولة وارتفعت الثقافة بحيث رجحت كفتها بالقياس إلى القدرة العلمية ، فانتهى ذلك إلى ملء المناصب الإدارية بمتشاعرين عاجزين ، وأخذ الفساد يتكاثر تحت أنوفهم المعطَّرة دون أن يستوقف انتباههم ، ثم أصبحت المناصب آخر الأمر تباع لمن يدفع فى شرائها أغلى ثمن(٣٤) وازدادت الجرائم بين الفقراء بقدر ما ازدات أسباب

(*) عهد التنوير فى فرنسا هو القرن الثامن عشر . (المعرب)

الترف بين الأغنياء ، وانبث وباء اللصوص والقراصنة فى الطرقات والبحار ، فكانوا ينقضُّون على كل فريسة تقع فى أيديهم ، لا فرق عندهم بين الإمبراطور والشعب ، ويسطون على جباة الضرائب فيسلبونهم ما كانوا يحملونه إلى القصر من أموال ، ونظمت عصابات من اللصوص فى الأقاليم ، بل وفى العاصمة نفسها ، وكان يتاح لأخطر مجرم فى اليابان — كما هى الحال عندنا — أن يعيش فى رفاهية علنية ؛ لأنه كان من القوة بحيث يتعذر على أولى الأمر أن يقبضوا عليه أو يسيئوا إليه (٣٥) ، وأهمل الناس عاداتهم وفضائلهم الحربية ، وتراخوا فى نظامهم العسكرى والأهبة للدفاع ، بحيث باتت الحكومة مفتوحة الصدر لكل ضربة يسددها إليها من شاء من القراصنة القساة ؛ وراحت الأسر الكبيرة تجيِّش لنفسها جيوشها ، فبدأت بذلك عهداً من حروب أهلية ، ولبثت تناضل بعضها بعضاً نضالا تسوده الفوضى ، كل منها يحاول أن يظفر لنفسه بحق تعيين الإمبراطور ، وأما الإمبراطور نفسه فكان يزداد كل يوم ضعفاً على ضعف ، فى الوقت الذى كان رؤساء القبائل فيه يوشكون أن يعودوا إلى سابق عهدهم من حيث استقلال كل منهم بسلطته ؛ وهكذا أخذ التاريخ مرة أخرى يتذبذب على نحو ما كان يتذبذب قديماً ؛ بين حكومة قوية مركزية من ناحية ، ونظام إقطاعى لا مركزى من ناحية أخرى .

الفصل الرابع

الطغـــاة

« الشواجنة » – سلطان عسكرى فى كاماكورا – وصاية هوجو
على العرش – غزوة قبلاى خان – سيادة أشيكاجا – القراصنة الثلاثة

كان من شأن هذه الظروف القائمة أن سنحت الفرصة لظهور فئة من الطغاة العسكريين الذين قبضوا بأيديهم على زمام الأمور كلها ، فى كثير من أجزاء الجزر اليابانية ؛ ولم يعترفوا بالإمبراطور إلا على أنه ظاهرة مقدسة فى اليابان يحتفظ بها بأقل ما يمكن من النفقات ، وجعل الفلاحون الذين لم تعد تحميهم من عصابات اللصوص جيوش الإمبراطور ولا رجال شرطته ، يدفعون الضرائب لهؤلاء « الشواجنة » أى القادة بدل دفعها للإمبراطور ، لأن « الشواجنة » وحدهم هم الذين كانوا يستطيعون حمايتهم من اعتداء اللصوص[٣٦] . وهكذا ساد النظام الإقطاعى فى اليابان لنفس الأسباب التى كان قد ساد بسببها فى أوربا ، وأعنى أن مصادر السلطان فى الإقطاعات ازدادت نفوذاً بمقدار ما فشلت الحكومة المركزية النائية فى حفظ الأمن والنظام .

وحدث فى سنة ١١٩٢ أن جمع « يوريتومو » – وهو أحد رجال قبيلة ميناموتو – حوله جيشاً من الجند والعبيد ، وأقام لنفسه سلطة مستقلة ، اتخذت لنفسها اسما هو اسم المكان الذى قامت فيه ، وهو « باكوفوكاماكورد » وكلمة « باكوفو » معناها منصب عسكرى ، وإذن فهى تدل صراحة على نوع الحكومة الجديدة ؛ ومات « يوريتومو » العظيم فجأة فى عام ١١٩٨[*]

(*) يروى أعداء « يوريتومو » قصة موته فيقولون إنه كان يركب جواداً إذ رأى شبح أخيه الذى كان قد قتله ، اضطرب الجواد وراكبه معاً لرؤية الشبح ، وتعثر الجواد وسقط راكبه ، ومات « يوريتومو » بعد ذلك ببضعة أشهر ، وسنه ثلاثة وخمسون عاماً[٣٧] .

وأعقبه فى الحكم أبناؤه الضعفاء ، وذلك — كما يقول المثل اليابانى — لأن « الرجل العظيم لا ذرية له »(٢٨) فأقامت أسرة منافسة وصاية لنفسها على العرش عام ١١٩٩ ويسمى العهد باسم « وصاية هوجو » ، ولبثت تلك الأسرة مدى مائة وأربعة وثلاثين عاماً تحكم « الشواجنة » الذين كانوا بدورهم يحكمون الأباطرة ؛ فكانت هذه الحكومة الثلاثية فرصة سانحة لقبلاى خان يحاول فيها غزو اليابان ؛ فقد وصفها له الكوريون الدُّهاة الذين كانوا يخشون بأسها ، فقالوا إنها من الثراء بحيث تستحق المجهود ؛ فأمر قبلاى بناة سفنه أن يشيدوا له أسطولا بلغ من الضخامة حداً جعل شعراء الصين يصورون التلال باكية ترثى ما سُلِبَ من غاباتها(٣٩) ؛ ويقول اليابانيون حين يروون حوداث الماضى رواية الفخور ببطولته — إن السفن بلغت سبعين ألفاً ، لكن المؤرخين الذين لا يتأججون بمثل هذه الحاسة الوطنية يكفيهم من العدد ثلاثة آلاف وخمسمائة سفينة ومائة ألف محارب ؛ وتبدّى هذا الأسطول الجبار على مبعدة من شواطئ اليابان فى أواخر سنة ١٢٩١ فخرج سكان الجزر الأبطال ليلاقوه فى أسطول لهم بنوه على عجل ، وهو أسطول ضئيل بالقياس إلى الأسطول المهاجم ؛ لكن حدث لهذه الأرمادا ، ما حدث للأرمادا التى كانت أصغر منها ، وإن تكن أشهر(*) ، وهو أن هبت « ريح عظيمة » لا تزال مذكورة لما أسدته للناس من جميل ، هبت فحطمت سفائن « الخان » الجبار ، إذ رطمتها على جوانب الصخور ، وأغرقت من بحارته سبعين ألفاً ، وأبقت على بقيتهم ليعيشوا حياة الرقيق فى بلاد اليابان .

ودارت الدوائر على أسرة « هوجو » عام ١٣٣٣ ، إذا أصابتهم السيطرة هم أيضاً بسمومها ، وانتهى الأمر إلى انتقال الحكم الوراثى من أيدى الأبالسة والعباقرة إلى أيدى الجبناء والحمقى ؛ وكان آخر هذه السلالة رجل يدعى « تاكا

(*) نقصد الأرماد الأسبانية سنة ١٥٨٨ التى كانت تتألف حين وصلت إلى بحر المانش ، من مائة وعشرين سفينه فيها أربعة وعشرون ألف محارب(٣٨) .

توكى » يحب الكلاب حباً شديداً ، فيقبلها بدل الضرائب ، حتى لقد جمع منها عدداً يتراوح بين أربعة وخمسة آلاف ، وأعد لها حظائر زينها بالذهب والفضة وأطعمها بالسمك والطيور ، وهيأ لها العربات المزخرفة تحملها للتنزه ؛ فوجد الإمبراطور القائم على العرش إذ ذاك ، وهو « جو دايجو » أن انحلال حماته فرصة سانحة يستعيد فيها سلطانه الإمبراطورى ، وأيدته قبيلتا « ميناموتو » و « أشيكاجا » وقادتا له جيوشه حتى ظفرتا له بالنصر على « أسرة الوصاية » بعد سلسلة من هزائم ، ومن ثم أوى « تاكا توكى » ومعه ثمانمائة وسبعون من عبيده وقادته ، إلى معبد ، وجرع كأساً أخيرة من « الساقى » ثم أنزل بنفسه « الهاراكيرى » (أى أنه انتحر) ؛ ولقد أخرج أحد الحاضرين أمعاء المنتحر بيديه قائلا : « إن هذه لتضفى على الخمر طعماً لذيذاً »[٤٠] .

وانقلب « أشيكاجاتاكاوجى » على الإمبراطور بعد أن كان هو الذى أعانه على استعادة سلطته ؛ وقاتل الجيوش التى جاءت لإخضاعه قتالا موفقاً من حيث خطته العسكرية ومؤامرات الخيانة ؛ وأزال « جودايجو » عن العرش ليضع مكانه إمبراطوراً صورياً هو «كوجون » ، وأقام فى كيوتو تلك الحكومة لعسكرية المعروفة باسمه « أشيكاجا » والتى ظلت تحكم اليابان مدى مائتين وخمسين عاماً سادتها الفوضى والحرب الأهلية التى لم تنقطع ؛ ولا بد لنا أن نعترف هنا بأن جزءاً من تلك الفوضى كان يرجع إلى الجانب السامى من طغاة « أشيكاجا » — وهو حبهم للفن ورعايتهم له ؛ فهاهو ذا « يوشيمتسو » قد مل الكفاح فأدار يديه نحو التصوير ، حتى أصبح يعد من مصورى عصره الأفذاذ ، وارتبط « يوشيمازا » بصلات الود مع كثير من المصورين ، وأعان بالمال كثيراً من الفنون ، وأصبح فى عالم الفن ذواقة دقيقاً ، حتى ليعد هواة الآثار الفنية اليوم القطع التى كان قد اختارها هو وأتباعه خير ما يستحق الاقتناء[٤١] لكن مهام الحكم الإدارى قد أهملت إذ ذاك ، ولم يعد حفظ

الأمن والسلام فى مقدور القادة العسكريين (أى الشواجنة) الأغنياء ولا فى مقدور الأباطرة الذين حل بهم الإفلاس .

فكان من شأن هذه الفوضى نفسها وما أصاب الحياة من انحلال ، ومطالبة الأمة بقادة يبثون لها النظام ، أن ظهر القراصنة الثلاثة المعروفون فى التاريخ اليابانى ؛ وتقول الرواية إن هؤلاء الثلاثة — وهم « نوبوناجا » و « هيديوشى » و « أيياسو » — اعتزموا أن يتعاونوا معاً فى شبابهم على إعادة الوحدة لوطنهم ، وحلف كل منهم يميناً على أن يطيع طاعة الأتباع مَنْ يفوز من زميليه الآخرين بموافقة الإمبراطور على توليه حكومة اليابان[٤٢] ؛ وحاول « نوبوناجا » بادئ ذى بدء ، لكنه مُنِى بالفشل ، وحاول بعده « هيديوشى » لكنه مات حين أوشك على النجاح ؛ وكان « أيياسو » يراقب فرصته ، فجاءته آخر الأمر وحاول بعد زميليه ، وأسس الحكومة العسكرية المعروفة باسم « توكوجاوا » . وبهذا افتتح عهداً هو من أطول عهود السلام ، وعصراً هو من أخصب عصور الفن ، فى تاريخ الإنسانية كلها .

الفصل الخامس

« وجه القردة » العظيم

ظهور هيديوشى – الهجوم على كوريا – الاشتباك مع المسيحية

كانت الملكة اليصابات و « أكبر » (فى الهند) معاصرين لـ « هيديوشى » العظيم – هكذا قد يحلو لليابانيين أن يذكروا هذه الحقيقة على سبيل التنويه بفضل عظيمهم – كان « هيديوشى » ابن فلاح ، يعرفه أصدقاؤه ، وتعرفه رعيته حين أصبح فيما بعد حاكماً ، باسم « سارو من كانجا » – ومعناها « وجه القردة » لأنه لم يكن ينافسه فى دمامة الوجه أحدحتى ولا كونفوشيوس ؛ وكان والداه قد عجزا عن إخضاعه للنظام فبعثا به إلى مدرسة فى دير ؛ لكن «هيديوشى» سخر من كهنة البوذية سخرية شديدة ،وأثار فى الدير ضجة وثورة ؛ بحيث انتهى أمره إلى الطرد من مدرسته ، فألحق صبياً فى كثير من الحرف ،وطرد من عمله سبعاً وثلاثين مرة[٤٣] ؛ وجعل من نفسه قاطعاً للطريق ، لكنه عاد فرأى أنه يستطيع أن يسلب وهو مع القانون أكثر مما يسلبه وهو خارج على القانون ؛ ثم التحق بخدمة « الساموراى » (أى حملة السيف) وأنقذ حياة مولاه ، وسمح له بعدئذ أن يحمل سيفاً ؛ وانضم إلى أتباع « نوبوناجا » وعاونه بتفكيره وببسالته ، حتى إذا ما مات « نوبوناجا » تولى هو قيادة الثائرين الخوارج على القانون ، الذين شنوا حملتهم ليغزوا أرض وطنهم ، فما انقضت ثلاثة أعوام حتى كان « هيديوشى » قد أصبح حاكماً على نصف الإمبراطورية وظفر بإعجاب الإمبراطور العاجز ، وأحس فى نفسه من القوة ما يتيح له أن يهضم فى جوفه كوريا والصين ؛ وفى ذلك قال متواضعاً يخاطب

« ابن السماء » : « لقد اعتزمت أن أطوى الصين كلها تحت سلطانى ، بمعونة الجنود الكوريين وبتأييد من نفوذك الساطع ؛ فإذا ما تم لى ذلك ، ستصبح الأقطار الثلاثة (الصين وكوريا واليابان) قطراً واحداً ؛ وسيتم لى ذلك فى يسر كأنما أطوى حصيرة لأحملها تحت ذراعى »[٤٤] لكنه حاول جهده بغير جدوى ، لأن رجلا شيطانياً من الكوريين اخترع قارباً حربياً من المعدن — ولولا سبقه فى الزمن لقلنا إنه سرق منا الـ « مونيتور » والـ « ميرماك » — وبهذا القارب راح يحطم سفن « هيديوشى » المثقلة بجنوده ؛ سفينة بعد سفينة ، وكان « هيديوشى » قد أنفذها بجنده إلى كوريا (١٥٩٢) ، لقد أغرقت فى يوم واحد اثنان وسبعون مركباً ، وانقلب البحر بحراً من دماء ، ورست أربع وثمانون سفينة أخرى على الشاطئ حيث فر منها اليابانيون وخلفوها وراءهم ، فأحرقها الظافرون حتى لم يذروا منها شيئاً ؛ وبعد أن تبادل الفريقان نصراً وهزيمة دون أن يكون فيها ما يفصل بالنصر ، أرجأ الفاتحون فتح كوريا والصين حتى القرن العشرين ؛ وقال ملك كوريا عن « هيديوشى » إنه حاول « أن يعبر المحيط فى صدَفة من أصداف المحار »[٤٥] .

وإلى أن يحين ذلك الحين ، استقر « هيديوشى » ليستمتع بهذه « الوصاية التى أسسها لنفسه ، وليدير فيها عجلة الحكم ، وجمع لمتعته ثلاثمائة غانية ، لكنه وهب مبلغاً كبيراً من المال لزوجته الريفية التى كان قد طلّقها منذ زمن طويل وبحث عن أحد سادته القدماء ، وأعاد له المال الذى كان قد سرقه منه أيام أن كان يعمل معه صبياً ، وأضاف إلى المال قيمة الربح طوال هذه المدة ؛ ولم يجرؤ أن يطلب من الإمبراطور أن يوافق له على تلقيب نفسه بلقب « شوجن » (أى حاكم عسكرى) لكن معاصريه عوضوه عن ذلك بلقب آخر أطلقوه عليه ، وهو « تايكو » أى « الحاكم العظيم » ، وهى كلمة غامرت فى رحلة من تلك الرحلات « الأوذيسيّة » التى تتعقب آثارها فى علم اللغات ، حتى

دخلت فى ختام رحلتها إلى لغتنا نحن وأصبحت كلمة من كلماتنا ، وهى كلمة Tycoon : ووصف مبشر دينى « هيديوشى » ، فقال : « إنه ماكر ماهر إلى درجة تجاوز كل معقول ، فقد نزع عن الشعب سلاحه بحيلة لطيفة ، وهى أنه أمر الناس أن يجمعوا كل ما عندهم من أسلحة معدنية ليصنع من مادتها تمثالا ضخماً — وهو تمثال « دايبوتسو » أى « بوذا العظيم » الذى يقوم فى كيوتو — والظاهر أنه لم يكن يعتنق عقيدة دينية ، لكنه لم يكن أسمى من أن يستغل الدين من أجل غاياته فى طموحه أو سياسته » .

ودخلت المسيحية اليابان سنة ١٥٤٩ متمثلة فى شخص رجل هو فى طليعة طائفة الجزويت ومن خيرتهم ، وأعنى به « القديس فرانسس اكسافير » ولم يكد يكون جمعية صغيرة حتى أخذت تزداد ازدياداً سريعاً ، بحيث لم يمض جيل واحد بعد قدومه إلا وقد بلغ عدد أعضاء الجزويت سبعين ، وعدد من تحولوا إلى المسيحية فى الإمبراطورية اليابانية مائة وخمسين ألفاً[٤٧] ؛ وكانوا من الكثرة فى ناجازاكى بحيث جعلوا ذلك الميناء التجارى مدينة مسيحية ، وحملوا حاكمها المحلى « أومورا » على اتخاذ التدابير المباشرة فى نشر العقيدة الجديدة[٤٨] ؛ يقول « لافكاديوهيرن » : « إن البوذية فى إقليم ناجازاكى قد طمست طمساً تاماً فكهنتها أصابهم الاضطهاد والتشريد »[٤٩] ؛ ففزع « هيديوشى » لهذا الفتح الروحانى للبلاد ، وارتاب فى أن تكون وراءه أهداف سياسية ، فأرسل رسولا إلى نائب رئيس الجزويت فى اليابان ، مزوداً بخمسة أسئلة عاجلة :

١ — لماذا وبأى حق أرغم هو (نائب رئيس الجزويت) وأعضاء طائفته الدينية رعية « هيديوشى » على اعتناق المسيحية ؟

٢ — لماذا حرضوا أتباعهم وأشياعهم على هدم المعابد ؟

٣ — لماذا اضطهدوا كهنة البوذية ؟

٤ — لماذا أكلوا هم وبعض البرتقاليين حيوانات نافعة للإنسان مثل العجول والأبقار ؟

٥ — لماذا سمح لتجار من بنى جلدته أن يشتروا أفراداً من اليابانيين يتخذونهم عبيداً فى جزر الهند الشرقية ؟ (٥٠)

ولما لم يقنع « هيديوشى » بالإجابات ، أصدر سنة ١٥٨٧ الأمر الآتى :

بما أننا قد علمنا من مستشارينا الأمناء أن طائفة دينية أجنبية قد جاءت إلى مملكتنا ، حيث جعلت تبشر بقانون يتنافى وقانون اليابان ، بل ذهبت بها الجرأة إلى تحطيم المعابد التى شيدت باسم (آلهتنا القومية) « كامى » و « هوتوكى » وعلى الرغم من أن هذه الفتنة تستحق أقسى ألوان العقاب ، فإننا مع ذلك راغبون فى مقابلة أعضائها بالرحمة ، لذلك نأمرهم بمغادرة اليابان خلال عشرين يوماً ، وعلى من يعصى تقع عقوبة الموت ؛ ولن يصيب أحداً منهم أثناء هذه المهلة ضرر أو أذى ، أما إذا بلغ ذلك الأمر ختامه فإننا نأمر بأن يقبض على من يوجد منهم فى بلادنا وأن يعاقب على أنه من أخطر المجرمين(٥١) .

وفى وسط هذه المفازع كلها وجد القرصان الأكبر من وقته فراغاً ينفقه فى تشجيع رجال الفن ، وأن يُسْهِم فى مسرحيات « لا » وفى تأييد « ركيو » فى جعل الاحتفال بالشاى حافزاً على تشجيع صناعة الخزف اليابانى ، وحِلْية هامة تزدان بها الحياة فى اليابان ؛ ومات سنة ١٥٩٨ بعد أن استوعد « أيياسو » وعداً ببناء عاصمة جديدة فى « ييدو » ، (وهى الآن طوكيو) ، وفى الاعتراف بابن هيديوشى — وهو هيديورى — وارثاً له على وصاية العرش فى اليابان .

الفصل السادس

الشوجن (أى الحاكم العسكرى) العظيم

أيياسو فى منصب السلطان - فلسفته - أيياسو والمسيحية -
موت أيياسو - طائفة الحكام العسكريين من توكوجاوا

مات « هيديوشى » فأعلن « أيياسو » أنه حين حلف اليمين له ، لم يشهد على يمينه قطرات من دمه يستقطرها من أصابعه أو من فمه ، كما يقضى بذلك تشريع « ساموراى » أى حملة السيف بل استقطر دمه ساعة حلف اليمين من خدش وراء أذنه ومن ثم كان يمينه غير ملزم بالوفاء[٥٢] ، والتقى بجماعة من قادته كانوا ينافسونه السلطان ، التقى بهم عند سكيجاهارا ، فعصف بهم عصفاً فى موقعة انتثر على أرضها أربعون ألفاً من القتلى ، وأبقى على «هيديورى» حتى بلغ سن الرشد فأصبح بذلك خطراً عليه ، وعندئذ أوحى له بالتسليم صيانة لحياته ؛ ولما قرّعوه على موقفه ذاك ، حاصر قلعة أوساكا الجبارة حيث كان هيديورى محصناً ، واستولى عليها فى الوقت الذى كان الفتى فيه يزهق روح نفسه ، ومكّن لنفسه من السلطان كاملا بأن قتل أبناء «هيديورى» جميعاً الشرعيين منهم وغير الشرعيين ، وبعدئذ نظم « أيياسو » الأمن فى مهارة وقسوة كما نظم القتال ، وحكم اليابان حكماً بلغ من صلاحيته أن رضيت اليابان بأن تحكم بأبنائه وعلى مبادئه مدى ثمانية أجيال .

كان رجلا له أفكاره الخاصة ، وكان يتخذ لنفسه من قواعد الأخلاق ما تقتضيه ظروف الساعة ؛ فلما جاءته سيدة من أكرم السيدات تشكو إليه أن أحد رجاله قد قتل زوجها لكى يظفر بها ، أمر « أيياسو » ذلك الرجل أن يخرج أمعاء نفسه بيده ، وبعدئذ اتخذ من السيدة خليلة له[٥٣] وهو شبيه بسقراط

فى جعل الحكمة الفضيلة التى لا فضيلة سواها ، ورسم الطرق المؤدية إليها فى ذلك الكتاب العجيب الذى أسماه « التراث » أو العهد العقلى الذى خلّفه لأسرته عند موته :

« الحياة شبيهة برحلة طويلة يحمل فيها الراحل حملا ثقيلا ، فاجعل خطاك وئيدة ثابتة ، حتى لا تتعثر ، واقنع نفسك بأن النقص والتعب هما نسيج الحياة الطبيعى عند من تفنى حياته ، ولن يكون فى حياتك ما يمد لك فى سبيل السخط أو اليأس فإذا ما نزَتْ فى قلبك نزوات الطموح ، فتذكر أيام الشقاء البالغ حده الأقصى ، التى اجتزتها فى ماضى حياتك ؛ فالصبر هو أس السكينة والطمأنينة إلى الأبد ؛ أنظر إلى السخط نظرتك إلى عدوك ؛ فإذا اقتصر علمك على كيف تَهزِم ، ولم تعلم كيف تنهزم ، فالويل لك ، ويا سوء سبيلك فى الحياة الدنيا ؛ فاكشف عن الخطأ فى نفسك قبل أن تكشف عنه فى سواك »[٥٤] .

أما وقد ظفر لنفسه بالسلطان بقوة السلاح ، فقد قرر أن اليابان لم تعد بها حاجة إلى مواصلة الحروب ، وكرَّس نفسه للنهوض بما يقيم السلام من وسائل وفضائل ، ولكى يباعد بين « الساموراى » (أى حملة السيف) وبين عاداتهم العسكرية ، شجعهم على دراسة الأدب والفلسفة والخلق الفنى ، وهكذا ازدهرت الثقافة فى اليابان فى ظل حكمه الذى نشره فى ربوع البلاد ؛ وتدهورت الروح العسكرية ، وقد كتب يقول : « إن الشعب هو أساس الإمبراطورية »[٥٥]. واستثار فى قلوب خلفه الرحمة والرأفة « بالأرمل والأرملة واليتيم ومن لا أنيس له » لكنه لم يتصف بالميول الديموقراطية ، حتى لقد ذهب إلى أن أفدح الجرائم جميعاً هو العصيان ، « فالزميل » الذى يخرج على صفوف الزملاء من طبقته ، لا بد من الفتك به فور ساعته ، ولا مندوحة من قتل أسرة الثائر بأسرها[٥٦] ، ومن رأيه أن النظام الإقطاعى هو أفضل

نظام يمكن وضعه لبنى الإنسان كما هم فى حقيقة طبائعهم ، لأنه يهئ اتزاناً معقولا بين السلطة المركزية والسلطة المحلية ، كما يقيم نظاماً طبيعياً وراثياً تتسق به الجوانب الاجتماعية والاقتصادية ، وهو كذلك يضمن استمرار المجتمع دون أن يتعرض لسلطان الحاكم المستبد ، ولا بد لنا من الإعتراف هنا بأن « أيياسو » قد نظم فى بلاده أكمل صورة عرفها الإنسان لحكومة تقوم على نظام الإقطاع(٥٧) .

وهو — ككل سياسى آخر — قد فكر فى الدين على أنه أداة للنظام الاجتماعى قبل أن يكون أى شىء آخر ، وأحزنه أن يرى أن اختلاف الناس فى عقائدهم الدينية قد قضى على نصف هذا الخير الاجتماعى بما أحدثته العقائد المتعادية من فوضى ؛ وقد كانت العقيدة التقليدية للشعب اليابانى — وهى خليط مضطرب من الشنتوية والبوذية — كانت هذه العقيدة التقليدية من وجهة نظره السياسية الخالصة ، رباطاً بالغ القيمة يربط الجنس اليابانى فى وحدة زوجية ونظام خلقى وولاء وطنى ، وهو على الرغم من أنه نظر إلى المسيحية بادئ ذى بدء بعين التسامح وبأفق عقلى فسيح كاللذين عرفا عن « أكبر » فى (الهند) وأبى أن يفرض عليها ما كان يفرضه عليها « هيديوتشى » من أوامر يعلن بها غضبه منها ، إلا أنه عاد فضاق بها صدراً لتعصبها ، ولاتهامها القاسى للديانة القومية بأنها وثنية ، وما أحدثته بتعصبها الجامح من شحناء لم تقتصر على أن تكون بين المعتنقين المسيحية وبقية أفراد الأمة ، بل امتدت فدبت بين معتنقى الديانة الجديدة أنفسهم(*) ؛ ثم ثار فى صدره السخط آخر الأمر

(*) حدث سنة ١٥٩٦ أن أرغمت الزوارب اليابانية سفينة أسبانية على الرسو فى ميناء يابانية ، وساقتها عمداً إلى موضع صخرى فانحطمت نصفين ، ثم استولى الحاكم المحلى على ما بها على أساس أن القانون اليابانى يبيح لأولى الأمر أن يضعوا أيديهم على كل السفن التى تلجأ مضطرة إلى شواطئ اليابان ، فثارت ثائرة الربان « لا نديكوا » واحتج عند وزير « هيديوشى » وهو « ماسودا » — وكان وزيراً للأشغال — فسأله « ماسودا » كيف أمكن للكنيسة المسيحية أن تظفر بكل ما ظفرت به من أقطار فتخضعها لرجل واحد ، ولما كان « لانديكو » بحاراً قبل أن يكون سياسياً ، أجاب : « إن ملوكنا إذا ما أرادوا فتح قطر من الأقطار بدأوا بإرسال المبشرين الدينيين يدعون الناس إلى الدخول فى ديانتنا ، حتى إذا ما وفقوا إلى شىء من النجاح ، أرسلت الجنود لتنضم إلى من اعتنقوا المسيحية من أهل البلاد ، وبعدئذ لا يجد ملوكنا كبير عناء فى إتمام ما بقى »(٥٩) .

لما عرف أن المبشرين بالمسيحية كانوا أحياناً يُستخدمون طلائع للفاتحين وأنهم كانوا فى أجزاء متناثرة من أرض الوطن يتآمرون على الدولة اليابانية[٥٨] ؛ فأمر سنة ١٦١٤ بتحريم العبادة المسيحية أو التبشير بتعاليمها فى اليابان ، وطالب المعتنقين لهذه الديانة من الأهالى إما أن يغادروا البلاد وإما أن يرتدوا عن عقيدتهم الجديدة ، واستطاع قساوسة كثيرون أن ينجوا بأنفسهم من طائلة هذا القانون ، وألقى القبض على طائفة منهم ، ولكن لم يُعدم أحد منهم فى حياة « أيياسو » ، فلما قضى نحبه ، صبَّ سادة الحكومة غضبهم على المسيحيين ، وأعقب ذلك موجةٌ وحشية من الاضطهاد الدينى ، كان من أثرها أن امحت المسيحية من بلاد اليابان محواً تاماً تقريباً ، ولما كان عام ١٦٣٨ تجمعت البقية الباقية من المسيحيين ، وبلغ عددها سبعة وثلاثين ألفاً ، فى شبه جزيرة « شيمابارا » وحصنتها ووقفت وقفة أخيرة دفاعاً عن حرية العبادة ؛ فأرسل لها « أيمتسو » — حفيد أيياسو — قوة كبيرة مسلحة لإخضاعها ، وبعد حصار دام ثلاثة أشهر سقطت الحامية فى أيدى اليابانيين ، وذبح المعتصمون بها ذبحاً فى الشوارع ، لم يبق منهم على قيد الحياة إلا مائة وخمسة أشخاص .

مات « أيياسو » فى نفس العام الذى مات فيه شيكسبير ؛ وخلَّف هذا الحاكم العسكرى القوى سلطانه إلى ابنه « هيديناما » مصحوباً بنصح بسيط وهو : « ارْعَ أبناء الشعب ، وحاول أن تكون فاضلا ، ولا تهمل أبداً فى حماية البلاد » ؛ وكذلك قدم النصح إلى الأشراف الذين وقفوا إلى جانب سريره ساعة احتضاره ، فكان نصحاً على أحسن ما تجرى به التقاليد كما عُرفت عند « كونفوشيوس » و « منشيوس إذ قال قال لهم : « لقد بلغ ابنى الآن سن الرشد ، ولست أشعر بأى قلق على مستقبل الدولة ولكن إذا ما اقترف خلفى خطأً فادحاً فى إدارة حكومته ، فتولوا أنتم زمام الأمور بأيديكم ، فليست البلاد ملكاً

لرجل واحد ، لكنها وطن للأمة بأسرها ، وإذا ما أضاع حفدتي سلطانهم بسبب أخطائهم ، فلن آسف على ضياعه منهم »[٦٠] .

لكن حفدته ملكوا زمام أنفسهم على نحو أحسن جدا مما كان ينتظر أ عادة من ملوك عصرهم أن يفعلوا خلال أمد طويل من الزمن ؛ أما « هيديتادا » فقد كان رجلا متوسط القدرة لا يصدر عنه الأذى ؛ ثم جاء « أييمتسو » مثلا لصورة أقوى من صور أفراد هذه الأسرة ، فاستطاع بشدته أن يحبط حركة نهضت لإعادة النفوذ الحقيقي إلى الأباطرة الذين كانوا لم يزالوا يملكون ولكنهم لم يكونوا يحكمون ؛ وأغدق « تسونايوشي » إغداقاً في رعايته لرجال الأدب ، ورعايته للمدرستين المتنافستين العظيمتين في عالم التصوير . وهما « كانو » و « توسا » اللتان زَيَّنتا عصر « جنروكو » (١٦٨٨ — ١٧٠٣) ؛ وجاء « يوشيموني » فجنّد نفسه للغاية التي ما انفكت الإنسانية تهدف لها حيناً بعد حين ، وهي محو الفقر ، وكان ذلك في نفس الوقت الذي كانت ميزانية حكومته تعاني فيه عجزاً جاوز المألوف ؛ فاستقرض من طبقة التجار قرضاً طائلا ، وهاجم إسراف الأغنياء ، وخفض نفقات حكومته خفضاً نزع به نحو جانب الزهد الرواقي ، الذي ذهب به إلى حد إخراجه سيدات القصر الخمسين اللائي كن أجمل السيدات ، واكتفى في ثيابه بلبس القطن ، وفي نومه بحصير مما يرقد عليه الفلاحون وفي طعامه بأبسط ألوان الطعام ؛ ووضع صندوقاً أمام قصر المحكمة العليا ليضع فيه الشاكون شكاواهم ، ودعا الناس إلى نقد السياسة الحكومية أو موظفي الحكومة على أي نحو شاءوا ؛ فلما قدم رجل يدعى « ياماشيتا » عريضة اتهام لاذع يهاجم بها الحكومة من أساسها ، أمر « يوشيموني » بالاتهام فقرئ على مسمع من الملأ ، وكافأ كاتبها على صراحته بأجزل العطاء[٦١] .

ولقد قرظ « لافكاديوهيرن » حكمه في ذلك العهد فقال : « إن عصر « تركوجاوا » كان أسعد العصور التي شهدتها الأمة في حياتها الطويلة »[٦٢]

ويميل التاريخ إلى الأخذ بهذا الرأى نفسه ولو على سبيل الترجيح ، لأن التاريخ لن يبلغ فى علمه بالماضى مبلغ اليقين ؛ فكيف يستطيع الإنسان إذا نظر إلى اليابان اليوم ، أن يتصور أن هذه الجزر التى تضطرب أعصابها اليوم اضطراباً كانت منذ قرن واحد مضى يسكنها شعب فقير لكنه قانع ، ويتمتع بعصر طويل من السلام فى ظل حكومة تقوم عليها طبقة عسكرية ، ويتجه بمجهوده — فى عزلته الهادئة — نحو أسمى غايات الأدب والفن ؟!

الباب التاسع والعشرون

الأسس السياسية والخلقية

محاولات لدراسة الموضوع

إذا أقدمنا الآن على تصوير اليابان التي أسدل عليها الستار عام ١٨٥٣ ، فلنذكر أنه من العسير علينا أن نفهم — كما قد يكون كذلك من العسير أن نحارب — شعباً يبعد عنا خمسة آلاف ميل ، ويختلف عنا لوناً ولغة وحكومة وديانة وخلقاً وعادات وشخصية واهدافا وأدباً وفناً ، ولقد كان « هيرن » أوثق صلة باليابان من أي كاتب غربي آخر في عصره ، ومع ذلك فقد ذكر « الصعوبة الشديدة في إدراك وفهم ما يكمن تحت السطح الظاهر من الحياة اليابانيـــة »[1] ، وكتب أديب ياباني بارع مقالة يذكر فيها الغرب بأن : « ما تعلمه عنا قائم على ما جاءك من ترجمة هزيلة لأدبنا ، إن لم يكن قائما على الحكايات المشكوك في صحتها مما يرويه لك عنا الرحالة العابرون ... فما أكثر ما يروعنا نحن الأسيويين هذا النسيج العجيب الذي يمزج الحقائق بالأوهام حين تتحدثون عنا أيها الغربيون ؟ فنراكم تصوروننا كأنما نعيش في عالم كله عطر من زهرة اللوتس ، أو نعيش على طعام من الفئران والصراصير »[2] فلن تجد فيما يلي — إذن — أكثر من محاولات — قائمة على معرفة مباشرة موجزة أشد إيجاز — لدراسة الحضارة اليابانية ، والخلق الياباني : وينبغي لكل باحث أن يصحح هذه المحاولات بما يقع له من خبرة شخصية طويلة ، فالدرس الأول الذي تلقيه علينا الفلسفة هو أننا قد نكون جميعاً مخطئين .

الفصل الأول

طبقة الساموراى (أى حملة السيف)

الإمبراطور الذى لا حول له — سلطة « الشوجن » (أى الحاكم العسكرى) — سيف « الساموراى » — قانون « الساموراى » « هاراكيرى » — « الرونانات » السبعة والأربعون — حكم قضى بتخفيفه

يقوم على رأس الأمة — من الوجهة النظرية — الإمبراطور المقدس ، وكان البيت الحاكم حقيقة — وأعنى به الحكم العسكرى الوراثى — يسمح للإمبراطور وحاشيته بمبلغ يعادل خمسة وعشرين ألف ريال كل عام ، مقابل الاحتفاظ بالأسطورة النافعة التى تؤثر فى النفوس أثراً عميقاً ، أسطورة اطراد الحكم فى بيت واحد(*) ، وكان كثيرون من رجال الحاشية يزاولون حرفاً يدوية منزلية ليكسبوا نفقات عيشهم : فبعضهم يضع المظلات ، وبعضهم يصنع الملاعق الخشبية أو لاقطات الفضلات من بين الأسنان أو ورق اللعب ؛ وجعل الحكام العسكريون من أسرة « توجوواكا » من مبادئهم ألا يتركوا للإمبراطور ذرة من السلطان ، وأن يعزلوه عن الشعب ، وأن يحيطوه بالنساء ويفتُّوا من عضده بالتخنث والتعطل ، ونزلت الأسرة الإمبراطورية عن سلطانها فى كفاح ، وقنعت بأن ترسم للعلية ألوان البدع فى الثياب [٢] .

أما « الشوجن » (أى الحاكم العسكرى) فقد كان حينئذ ينعم بثروة اليابان التى أخذت تتزايد ، واصطنع لنفسه امتيازات هى عادة من حق الإمبراطور فإذا سار فى الطريق محمولا فى عربته التى يجرها ثور ، ومحمولا فى محفته ، أمرت الشرطة كل المنازل على طول الطريق أن تقفل أبوابها والمصاريع الخشبية فى نوافذها العليا ، وأن تطفأ كل النيران وأن تحبس الكلاب

(*) ربما كان هذا المبلغ مساوياً لربع مليون ريال بقيمة العملة الامريكية الجارية .

والقطط كلها داخل الدور ، وأن يسجد الناس على جانبي الطريق ، رءوسهم على أيديهم وأيديهم على الأرض[٤] ، وكان « للشوجن » حاشية كبيرة ، منها أربعة مضحكين وثماني سيدات مثقفات واجبهن أن يسلينه في غير التزام لقواعد الاحتشام[٥]، وكان إلى جانبه مجلس وزراء استشاري قوامه اثنا عشر عضوا : كبير الوزراء ، وخمسة وزراء ، ثم ستة من الشيوخ يكونون مجلساً أصغر ؛ وكان هناك — كما كان في الصين — مجلس للرقابة مهمته أن يشرف على المناصب الإدارية كلها ، وأن يراقب أمراء الإقطاع ؛ مع أن هؤلاء الأمراء — (أو « الدايميو » كما يسمونهم ومعناها « أصحاب الأسماء العظمى ») لم يكونوا يعترفون من الوجهة الصورية إلا بالإمبراطور ، هو الذي يولونه ولاءهم ، بل استطاع بعضهم — مثل أسرة شيمادزو التي كانت تحكم إقليم ساتسوما — أن ينجحوا في الحد من سلطة الشوجن ، حتى انتهى بهم الأمر إلى طرده من الحكم

وكان يتلو أمراء الإقطاع طبقة السادة (بارونات) ثم يتلو هؤلاء طبقة المشرفين على الأراضي ؛ وكذلك كان يحيط بالأمراء ألوف من فئة « الساموراي » — والساموراي هم حراس يحملون السيف ؛ فالقاعدة الرئيسية في المجتمع الإقطاعي الياباني هي أن كل رجل من السادة هو جندي ، والعكس صحيح ، أي أن كل جندي هو كذلك من السادة[٦] فهاهنا يقع أكبر اختلاف بين اليابان وبين الصين المسالمة التي ظنت أن شرط الرجل من السادة هو أن يكون عالماً لا أن يكون محارباً ؛ وعلى الرغم من أن حملة السيف هؤلاء كانوا يحبون قراءة القصص التي تغذي فيهم انتفاخ الأوداج ، مثل القصة الصينية التي عنوانها « قصة الممالك الثلاثة » ، بل كانوا إلى حد ما يصوغون حياتهم على نموذج تلك القصص ، إلا أنهم كانوا يزدردون العلم للعلم ، وكانوا يسمون ، العالم الأديب بالسكران الذي يفوح برائحة الكتب[٧] ، وكان لهم امتيازات كثيرة ، فهم معفون من الضرائب ، ولهم الحق في مقدار من الأرز يعطيهم

إياه السيد الذى يخدمونه ، ولم يكن يطلب إليهم أن يعملوا شيئاً إلا أن يموتوا فى سبيل وطنهم إذا ما دعت إلى ذلك الظروف ؛ وكانوا يحتقرون الحب ويعدونه لعبة رشيقة ، ويؤثرون علاقة الصداقة على نمط إغريقى : والميسر والعربدة كانا جزءاً متمما لعيشهم ولكى يحافظوا على مران سيوفهم ، كانوا يدفعون المال للجلاد فى مقابل أن يسمح لهم بجز رقاب المحكوم عليهم بالإعدام[٨] فسيف رجل من فئة « الساموراى » هو بمثابة روحه - على حد تعبير « أيياسو » وكثيراً جداً ما كان يجد الفرصة التى تدعوه إلى استعمال سيفه ، على الرغم من المدة الطويلة التى نعمت فيها اليابان بالسلام ؛ فله الحق — إذا أخذنا بما يقوله « أيياسو »[٩] — أن يقضى فوراً على أى إنسان من الطبقات الدنيا إذا ما أساء إليه ؛ وإذا كان سيفه جديداً وأراد أن يجربه ، فيجوز أن يجربه فى سائل كما يجوز أن يجربه فى كلب[١٠] وفى ذلك يقول « لُنجفورد » : « إن سيافاً مشهوراً قد اقتنى سيفاً جديداً ، فوقف إلى جانب « ينهون باشى » (وهذا اسم جسر فى وسط مدينة يدو) ينتظر فرصة لاختبار مضاء سيفه ، فجاء فلاح بدين ساعياً فى الطريق ، مرحاً بفعل الخمر ، فقابله السياف بضربة يسمونها « ناشى وارى » (ومعناها شق الكمثرى) وأصابت الضربة مرادها إذ شقت الرجل نصفين ، من قمة رأسه إلى مفرق فخذيه ، فمضى الفلاح فى طريقه غير عالم بما نزل به ، حتى اصطدم بحمال فسقط نصفين مشطورين على أدق صورة »[١١] فما أتفه الفرق بين « الواحد » و « الكثير » هذا الموضوع الذى دوخ الفلاسفة فى فهمه .

لكن هؤلاء السيافين كانت لهم لطائف أخرى غير هذه المهمة المرحة التى كانوا يحولون بها الفناء خلوداً ؛ فقد التزموا أوضاعاً صارمة اشترطوها للرجل الشريف — ويطلق على مجموعة هذه الأوضاع اسم « بوشيدو »(*) —

(*) صاغ هذه الكلمة إنازو نيتوبى .

ومعناها « طرائق الفروسية » وجوهر فكرتها فيه تعريف لما ترمى إليه من فضيلة : « هى القدرة على اختيار سلوكك فى الحياة وفق ما يمليه العقل دون تردد ، وأن تموت حين يجب عليك أن تموت ، وأن تضرب حيث ينبغى لك أن تضرب »[١٢] وكانوا يحاكمون بمقتضى تشريعهم هذا ، وهو أقسى من القانون السائد بين عامة الناس[١٣] وكانوا يزدرون كل الأعمال والمكاسب المادية ، ويأبون أن يقرضوا المال أو يقترضوه أو يحسبوه ، وقلما أخلفوا وعودهم ، وكانوا لا يترددون فى المخاطرة بحياتهم عوناً لكل من استنجدهم المعونة ؛ وأخذوا على أنفسهم أن يحيوا حياة خشنة مقترة فلا يأكلون فى اليوم إلا وجبة واحدة ، وكانوا يروضون أنفسهم على أكل ما صادفهم من طعام كائناً ما كان ؛ وكانوا يحتملون الآلام على اختلافها صامتين ، ويكبحون فى أنفسهم كل ما قد يدل على انفعالاتهم الداخلية ، وعلموا نساءهم كيف يتهللن بشراً إذا ما نمى إليهن أن أزواجهن قد قضوا نحبهم فى ساحات القتال[١٤] ولم يكونوا يلتزمون طاعة إلا طاعة الولاء لرؤسائهم ، فطاعة الرؤساء جزء من تشريعهم الذى وضع تلك الطاعة فوق حب الآباء لأبنائهم أو الأبناء لآبائهم ، ومن مألوف الأمور عند « الساموراى » (أى هؤلاء السيافين) أن يخرج الرجل منهم أمعاء نفسه إذا ما مات سيده لكى يخدمه ويحميه فى الحياة الآخرة ؛ فلما كان « الشوجن » (أى الحاكم العسكرى) الذى يدعى « أيمتسو » يحتضر سنة ١٦٥١ ، ذكر كبير وزرائه « هتو » بواجبه فى أداء الـ « جِنْشى » (أى اللحاق بسيد بعد موته فقتل « هتو » نفسه دون أن ينبس ببنت شفة ، ونسج على منواله كثير من الأتباع[١٥] ولما صعد « الإمبراطور ميسو هيتو » إلى أسلافه سنة ١٩١٢ انتحر الجنرال « نوجى » وزوجته ولاء منهما للإمبراطور[١٦] فلست ترى من التقاليد عند سائر الشعوب بما فى ذلك تقاليد روما التى كانت تخرج جنوداً من الطراز الأول ، ما بث شجاعة أبسل ، أو زهداً أصرم ،

أو ضبطاً للنفس أقوى مما كانت تقتضيه تقاليد هؤلاء « السيافين » من أعضاء تلك الفئة التي تعرف عندهم باسم « ساموراى » ؟

وآخر القوانين فى تشريع « بوشيلو » (أى تشريع طائفة السيافين) هو قانون « هاراكيرى » — ومعناها الانتحار بإخراج الأمعاء ؛ ولا تكاد الظروف التى تقتضى من السياف أن ينتحر على هذا الوجه تقع تحت حصر فقد كان الأمر من كثرة الوقوع بحيث لا يكاد يستوقف النظر ؛ فإذا حكم بالموت على رجل من ذوى المكانة الاجتماعية ، سمح له — إذا أراد الإمبراطور أن يدل على تقديره له — بأن يبقر بطنه بنفسه من اليسار إلى اليمين ، ثم يشقها إلى أسفل ، مستخدماً فى ذلك سيفه الصغير الذى كان الواحد منهم لا ينفك مصطحباً له من أجل هذه الغاية ؛ وإذا هزم أحدهم فى القتال ، أو اضطر إلى الاستسلام لعدوه ، كان الاحتمال بأن يبقر بطنه بيده معادلا تماماً لاحتمال أن يأبى على نفسه ذلك (فكلمة « هاراكيرى » معناها شق البطن ، وهى كلمة سوقية قلما ينطق بها اليابانى ، إذ هم يفضلون كلمة « سپيوكو ») فقد حدث أن خضعت اليابان سنة ١٨٩٥ لضغط الدول الأوربية فى إخلاء «لياوتنج» فارتكب أربعون رجلا من العسكريين « هاراكيرى » احتجاجاً ؛ كذلك حدث فى حرب سنة ١٩٠٥ أن أزهق عدد كبير من الضباط والجنود اليابانيين نفوسهم على هذا النحو ، فذلك عندهم خير من الوقوع فى أسر الروس ، وإذا لقى الرجل من « الساموراى » (السيافين) إساءة من سيده ، فإنه — إن كان سيافاً أصيلا — يهلك حياة نفسه عند باب ذلك السيد ؛ وكان فن « السپيوكو » (أى بقر البطن انتحاراً) — وهو ذو أوضاع دقيقة بمثابة الطقوس الدينية . فى طليعة ما يلقن للشاب من فئة « الساموراى » ، وآخر علامات المودة التى يبديها الصديق لصديقه أن يقف إلى جانبه ليجز له رأسه فيفصلها عن جسده ، بعد أن يكون ذلك الصديق قد بقر بطن نفسه بيده[١٢] ؛ من هذا التدريب وما أحاط به من

تقاليد نشأ ما يتصف به الجندى اليابانى من عدم الخوف من الموت(*) .

كذلك كان يسمح بالاغتيال — كما كان يسمح بالانتحار — فى ظروف معينة أن يحل محل القانون ؛ فاليابان فى نظامها الإقطاعى كانت تقتر فى الإنفاق على رجال الشرطة ، بوسائل كثيرة منها أن تجيز لابن القتيل أو أخيه أن يثأر لنفسه بدل الالتجاء إلى القانون ؛ ولقد أدى هذا الاعتراف بحق الثأر — إلى جانب إيحائه بنصف القصص والمسرحيات فى الأدب اليابانى — إلى الحيلولة دون كثير من الجرائم ؛ ومع ذلك فالرجل من فئة « الساموراى » (أى السيافين) كان يحس عادة أن واجبه يقتضيه ارتكاب (الهاراكيرى) بعد استخدامه لحقه فى الثأر بنفسه من عدوه ؛ مثال ذلك ما فعله « الرونانات » الأربعون المشهورون وهم فئة من السيافين لم يكونوا أعضاء رسميين فى تلك الطائفة (حين ثأروا من « كوتسوكى » لما ارتكبه من قتل اغتيالى ، فعلوا ذلك وهم يصطنعون له غاية الرقة ويقدمون له المعاذير ، ثم انسحبوا فى وقار إلى ضيعات عينها لهم « الحاكم العسكرى » وقتلوا أنفسهم قتلا التزموا فيه غاية الثبات (كان ذلك سنة ١٧٠٣) ، وأعاد الكهنة رأس « كوتسوكى » إلى رئيس حاشيته ، فأخذ منهم الرأس وأعطاهم هذا الإيصال البسيط :

مذكرة :

١ رأس واحد .

(*) كانت الـ « هاراكيرى » محرمة على النساء والسوقة ، لكن كان يسمح للنساء أن يرتكبن ما يسمى « جيجاكى » — ومعناها أن يؤذن لهن — احتجاجاً على ما يصيبهن من إساءة — أن يحتزمن من رقابهن بالخناجر ، وأن يقطعن الشرايين بضربة واحدة ؛ فكانت كل امرأة لها مكانة اجتماعية تلقى تدريباً فى عملية جز الرقبة ، ويعلمونها كيف تربط ساقيها قبل قتلها نفسها ، خشية أن تقع الأبصار على جثتها وهى فى وضع لا يتفق مع ما تقتضيه العفة(١٨) .

٢ — حزمة ورقية واحدة .
تسلمت الشيئين المذكورين أعلاه .

(توقيع) سايارا موجوباى
سايتو كوناى

ولعل هذه الحادثة أن تكون أشهر حادثة فى تاريخ اليابان كله وأصدقها تمثيلا لليابانيين ، وهى من أدل الحادثات تصويراً للخلق اليابانى إذا أردت أن تفهمه ؛ والذين اقترفوا ذلك الفعل ، ما يزالون — فى أعين الشعب — أبطالا وقديسين ؛ وإلى يومنا هذا ما يزال الأتقياء يزخرفون قبور أولئك النفر ، ولا ينقطع البخور عن مثواهم[١٩] .

ولما دنا عهد وصاية « أيياسو » على العرش من ختامه ، نهض شقيقان ، هما « ساكون » و « نايكى » ، وعمر الأول منهما إذ ذاك أربعة وعشرون ، وعمر الثانى سبعة عشر ، وحاولا أن يقتلاه لما أنزله بأبيهما من مظالم — فى رأيهما — فوقعا فى قبضة الحراس ساعة دخولهما فى المعسكر ، وحكم عليهما بالموت ؛ لكن « أيياسو » تأثر بما أبدياه من شجاعة ، وخفف عنهما حكم الإعدام بحيث أصبح أن يتركا ليقتلا نفسيهما على الطريقة المألوفة فى إخراج المرء لأمعاء نفسه ؛ ثم قضى كذلك — مراعاة لعادات عصره — أن يشمل هذا القرار الرحيم أخاهما الأصغر « هاشيارو » وقد كان فى الثامنة من عمره ؛ وقد خلف الطبيب الذى كلف بملاحظة هؤلاء الصبية فى قتل أنفسهم ، وصفاً لما رأى ، فيما يلى :

لما أجلسوا جميعاً فى صف ليرحلوا عن هذا العالم رحلة لا أوبة بعدها ، التفت « ساكون » إلى الأخ الأصغر قائلا : « اذهب أنت أولا ، لأنى أود أن أستيقن من أنك تؤدى الأمر على وضعه الصحيح » فلما أجاب الصغير بأنه لم يشهد قط عملية الـ « سِپُولكو » من قبل فإنه يجب أن يرى أخويه وهما يؤديانها ، حتى يستطيع بعدئذ أن يحذو حذوهما ، فابتسم أخواه الأكبران

وعيناهما تلمعان ، وقالا : « لقد أصبت أيها الأخ الصغير ، ويحق لك الآن أن تفخر بأنك ابن أبيك » ، ولما وضعاه بينهما ، طعن « ساكون » خنجره فى الجانب الأيسر من بطنه وقال : « انظر ، أخى ، أتفهم الآن ؟ والذى ينبغى أن تراعيه هو ألا تضرب الخنجر عميقاً حتى لا يطرحك على الأرض ، بل كن أميل بجسدك إلى الأمام ، واجعل ركبتيك فى وضع ثابت » . وفعل « نايكى » ما فعله « ساكون » وقال للصبى : « افتح عينيك خشية أن تبدو كالمرأة وهى تحتضر ، وإذا أحسست أن شيئاً فى جوفك يعوق إخراج خنجرك ، وأن قواك تخور ، فاجمع شجاعتك وضاعف جهدك فى شد خنجرك جانباً لتقطع به البطن قطعاً أفقياً » فنظر الصبى إلى أخيه عن يمينه وإلى أخيه عن يساره ، حتى إذا ما رآهما قد أسلما الروح ، خلع ثيابه هادئاً عن نصف جسده ، واحتذى حذو ما يراه عن يمينه وعن يساره »[٢٠] .

الفصل الثانى

القانون

التشريع الأول – المسئولية الجمعية – العقاب

كان التشريع القانونى فى اليابان مكملا عنيفاً لما كان يتم بالاغتيال وبالثأر وقد استمد ذلك التشريع بعض أصوله من تقاليد الشعب القديمة ، كما استمد بعضها الآخر من التشريعات الصينية فى القرن السابع ، ذلك أن القانون قد صحب الدين فى هجرة الثقافة من الصين إلى اليابان[٢١] ، وبدأ « تنشى تينو » صياغة مجموعة من القوانين ، كملت وأذيعت فى عهد الإمبراطور اليافع « مومو» عام ٧٠٢ ، لكن هذا التشريع وغيره من تشريعات العصر الإمبراطورى ، أهملت فى العصر الإقطاعى ، إذ جعل كل حاكم إقطاعى يسن لنفسه ما شاء من تشريع مستقلا عن سائر المقاطعات . ولم يعترف الرجل من طبقة « السيافين » بقانون إلا ما يريده وما يأمر به مولاه[٢٢] .

وكانت العادة فى اليابان حتى سنة ١٧٢١ أن تكون الأسرة كلها مسئولة عن كل فرد من أفرادها ، فتضمن حسن سلوكه ؛ وكذلك كانت الأسرة الواحدة — فى معظم الأقاليم — توضع فى مجموعة من خمس أسرات ، تكون كل منها مسئولة عن سائر أفراد المجموعة ، فالرجل إذا حكم عليه بالصلب أو بالحرق ، قضى كذلك بالموت على أبنائه الكبار ، وبالنفى على أبنائه الصغار عندما يبلغون الرشد[٢٣] ، وكان نظام المحنة متبعاً فى التحقيق على نحو ما كان متبعاً فى العصور الوسطى ، ولبث التعذيب شائعاً — فى صوره الخفيفة — حتى هذا العصر الحديث واصطنع اليابانيون من وسائل التعذيب إزاء المسيحيين ، ناسجين على منوال محاكم التفتيش نسجاً فيه انتقام لما أنزله المسيحيون أنفسهم

بأنفسهم فى تلك المحاكم ، لكنهم كثيراً ما كانوا أدق فى وسائلهم التعذيبية . فيربطون الرجل بحبال فى وضع وثيق . يزيد المربوط ألماً كلما مرت به لحظات الزمن لحظة بعد لحظة[٢٤] ، وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى الضرب بالسياط لأتفه الأخطاء ، وكان الإعدام لديهم عقوبة على كثير جداً من أنواع الجرائم ، وجاء الإمبراطور شومو (٧٢٤ — ٥٦) فألغى عقوبة الإعدام وجعل الرحمة أساس حكمه ، لكن الإجرام زادت نسبته بعد موته ، حتى لم يقتصر الإمبراطور « كوشين » (٧٧٠ — ٨١) على إرجاع عقوبة الإعدام بل أضاف إلى ذلك أنه أمر بأن يضرب اللصوص بالسياط علناً حتى يلفظوا الروح[٢٥] ، وكانوا ينفذون الإعدام بالخنق وجز الرأس والصلب وقطع الجسد أربعة أرباع والحرق أو الغلى فى الزيت[٢٦] ، وكان « أيياسو » قد ألغى العادة التى تقضى بأن يمزق المتهم نصفين بشده بين ثورين ، كما ألغى العادة التى تقضى بأن يربط المتهم فى عمود وسط الملأ ، ثم يطلب من كل مار أن يأخذ نصيبه فى تقطيع جسده بمنشار ينشره من كتفه فأسفل[٢٧] ، وكان من رأى « أيياسو » أن كثرة الالتجاء إلى العقوبات الصارمة لا تدل على إجرام الشعب بمقدار ما تدل على فساد الموظفين وعجزهم[٢٨] ، وكم ساء « يوشيمونى » أن يجد سجون عصره بغير استعدادات صحية ، وأن بين المسجونين فئة بدأت محاكماتها منذ ست عشرة سنة ولم تنته بعد ، حتى لقد نسيت الاتهامات الموجهة إليهم ، ومات الشهود[٢٩] ، وأخذ هذا الحاكم العسكرى الذى كان أكثر هذه الطائفة استنارة فى إصلاح السجون ، وعمل على السرعة فى الإجراءات القضائية ، وألغى المسئولية الأسرية ، وواصل العمل المضنى بغية أن يصوغ أول تشريع موحد للقانون الإقطاعى فى اليابان (١٧٢٩) .

الفصل الثالث

العمـــال

نظام الطبقات – تجربة فى تأميم الأراضى – تحديد الدولة للأجور – مجاعة – الصناعات اليدوية – الصناع والنقابات

انقسمت الجماعة فى العصر الإمبراطورى ثمانى طبقات ، ثم زالت بعض الفوارق فى العهد الإقطاعى بحيث أصبحت تلك الطبقات أربعاً : الساموراى (أى السيافون) والصناع والفلاحون والتجار – والطبقة الأخيرة هى كذلك أخيرة فى الترتيب الاجتماعى ، ويأتى تحت هذه الطبقات جمع غفير من العبيد فتبلغ نسبتهم ما يقرب من خمسة فى كل مائة من السكان ، وقوامهم المجرمون وأسرى الحرب والأطفال المخطوفون الذين باعهم خاطفوهم ، وكذلك الأطفال الذين باعهم آباؤهم عبيداً فى الأسواق(*)(٣٠) ويأتى دون هؤلاء العبيد أنفسهم فى المنزلة الاجتماعية ، طبقة من المنبوذين يسمونهم « إيتا » ، يعدهم بوذيو اليابان منبوذين نجسين لأنهم يشتغلون بالجزارة أو بالدباغة أو بحمل القمامة(٣٢) .

والأكثرية العظمى من السكان (الذين بلغ عددهم فى أيام يوشيمونى عدداً يقرب من ثلاثين مليوناً) كانت تتألف من صغار ملاك الأراضى الذين يزرعون أرضهم زراعة مركزة ، وهى مساحة تبلغ ثمن التربة اليابانية الجبلية التى تسمح للمحراث أن يشق جوفها(**) ، وحدث فى عصر « نارا » أن أممت الدولة الأراضى الزراعية ، وأجرتها للفلاحين مدى ست سنوات ، أو مدى حياة الفلاح على أكثر تقدير ؛ لكن الحكومة سرعان ما تبينت أن الناس

(*) حرم هذا على الآباء سنة ١٦٩٩(٣١)

(**) الأجزاء القليلة الصالحة للزراعة كانت – ولا تزال – تسمد بالفضلات البشرية .

لم يعنهم أن يصلحوا الأرض أو أن يحرصوا عليها حرصاً حقيقياً ما دام من الجائز أن تؤول إلى سواهم بعد حين قصير ، وانتهت التجربة بالعودة إلى الملكية الخاصة ، مع مد الحكومة الفلاحين بالمال فى فصل الربيع ليتمكن الفلاحون من سد نفقات البذر والحصاد[٣٣]، ومع هذه المعونة المالية لم تكن حياة الفلاح على درجة من اليسر تحلل قواه ، فلا تزيد مزرعته على شريحة ضئيلة من الأرض ، لأن الميل المربع – حتى فى ذلك العهد الإقطاعى – كان مورد رزق لألفى رجل[٣٤] وكان على الفلاح أن يسخر فى عمل للدولة مدى ثلاثين يوماً كل عام ، كان من الجائز خلالها أن يلاقى حتفه بطعنة رمح عقاباً له على لحظة واحدة تراخى فيها عن العمل(*)[٣٥] وكانت تقتضيه الحكومة ستة فى المائة من محصوله ضريبة وغيرها من القروض ، كان ذلك فى القرن السابع ، أما فى القرن الثانى عشر ، فكانت تقتضيه سبعة فى المائة ، وأربعين فى المائة فى القرن التاسع عشر[٣٧] ، وكانت آلاته الزراعية غاية فى بساطتها ، وثيابه هلاهيل خفيفة فى الشتاء ، وهو فى العادة لا يلبس شيئاً قط فى الصيف ، وكل أساسه فى المنزل قدر للأرز وقليل من الأقداح وبضعة ملاعق خشبية ، وداره من الضآلة بحيث يكفى نصف أسبوع لبنائها[٣٨] ذلك لأن الزلازل تحطم له كوخه حيناً بعد حين ، أو تقضى عليه المجاعة ، وإذا عمل أجيراً عند رجل آخر ، حددت له الحكومة – فى عهد توكوجاوا – ما يستحق من أجر[٣٩] لكن تحديد الحكومة للأجور لم يمنع هبوطها هبوطاً فظيعاً ؛ وتجد فى كتاب لـ « هوكوكى » وهو من أشهر كتب الأدب اليابانى – وصفاً لطائفة من الكوارث

(*) كان يسمح لهم خلال شهرى يوليو وأغسطس أن يقيلوا فى الظهيرة من منتصف النهار إلى الساعة الرابعة ؛ وكانت الدولة تقوم على إطعام العمال المرضى ، وعليها كذلك أن تعد الأكفان لمن يموت إبان السخرة[٣٦] .

اجتمعت كلها فى الثمانية الأعوام – ما بين ١١٧٧ و ١١٨٥ – فزلزال ومجاعة وحريق كاد يأتى على كيوتو كلها(*) ووصفه لما شاهده بعينه من مجاعة سنة ١١٨١ يعد مثلا من أجمل ما فى النثر اليابانى :

« حدث فى أرجاء البلاد جميعاً أن غادر الناس أراضيهم بحثاً عن سواها ، أو نسوا ديارهم وذهبوا إلى التلال يتخذون فى شعابها مسكناً ؛ ولهجت الألسنة بكل ضروب الدعاء ، وأدى الناس كل ألوان الشعائر الدينية التى لم تكن مألوفة فى الأيام العادية ، إذ أعادوها من جديد ، كل ذلك فعلوه بغير ما جدوى ... وأبدى سكان العاصمة استعدادهم لتضحية كل ما يملكون من نفائس من شتى الضروب ، نفيساً فى إثر نفيس (من أجل القوت) لكن لم يأبه لتلك النفائس أحد عندئذ . . . واحتشد السائلون الإحسان جماعات على جوانب الطريق ، وامتلأت آذاننا بأصوات أنينهم الباكى . . . كان الناس جميعاً يموتون من جوع ، وكلما تقدمت بنا الأيام ازددنا يأساً حتى لقد أشبهنا ما تروى عنه القصة من سمك البركة ؛ وانتهى الأمر حتى بأولئك الذين توحى سيماهم بالاحترام ، والذين يرتدون القبعات ويغطون الأقدام ، انتهى الأمر حتى بأولئك الناس إلى الإلحاف فى سؤال الإحسان من باب إلى باب ، وكان يحدث أحياناً أن يأخذك العجب كيف يستطيع هؤلاء الذين بلغت بهم تعاسة الحال كل هذا الحد أن يمشوا على أقدامهم ، وإذ بك تراهم يسقطون أمام عينيك إعياء ، فمات عدد لا يحصى من المجاعة ، وكانوا يلفظون أرواحهم بجوار أسوار الحدائق أو إلى جوانب الطرقات ؛ ولما كانت أجسادهم لا تجد من يزيلها من أماكنها ، فقد امتلأ الهواء بالرائحة النتنة ؛ حتى إذا ما أخذ التغير يطرأ

(*) أبشع ما شهدته اليابان فى تاريخها من حرائق – وهى فى تاريخها كثيرة – هى تلك التى محت ييدو (طوكيو) محواً تاماً سنة ١٦٥٧ ، وقضت على مائة ألف نفس بشرية .

يطرأ على أجسادهم ، نشأت مشاهد لا تستطيع العين أن تراها ... ومن لم يكن له كسب يشترى به القوت ، هدم داره ليبيع أجزاءها فى السوق ، وقيل إن الحمل يحمله الرجل بكل طاقته ، لم يكن ثمنه ليكفى سد رمقه يوماً واحداً ، والعجب أنك كنت ترى فى هذا الحطام من أخشاب المنازل ، الذى كانوا يبيعونه وقوداً للنار ، قطعاً مزدانة فى بعض أجزائها بالألوان أو بالفضة أو بطلاء الذهب .. وشىء آخر يستثير فى النفس أشد أحزانها ، وهو أنه إذا كان ثمة رجل وامرأة يربط بينهما رباط الحب الشديد ، فالذى كان منهما أقوى حباً من الآخر ، وأعمق ولاء ، يموت قبل زميله ؛ وعلة ذلك أن الواحد منهما يؤثر غيره على نفسه ، فالذى يشتد حبه يقدم لمحبوبه — رجلا كان أو امرأة — أى شىء يطلبه منه ، فكان الوالدون بطبيعة الحال يموتون قبل أبنائهم ؛ كذلك كنت ترى الرضع أحياناً عالقين بأثداء أمهاتهم ، لا يعرفون أن هؤلاء الأمهات قد فاضت أرواحهن ... وبلغ عدد الموتى فى كيوتو الوسطى خلال الشهرين الرابع والخامس وحدهما ٤٢٫٣٠٠ من الأنفس البشرية »[٤٠] .

قارن هذه الفترة الفظيعة التى تخللت مجرى الزراعة ، بالصورة التى يقدمها لنا « كيمفر » ساطعة عن الصناعات اليدوية فى اليابان كما رآها فى كيوتو سنة ١٦٩١ .

« كيوتو هى المستودع العظيم الذى تخزن فيه كل المنسوجات والسلع اليابانية ، وهى المركز التجارى الرئيسى فى الإمبراطورية ؛ فتكاد لا تجد فى هذه العاصمة الكبرى منزلا واحداً لا يصنع فيه شىء أو يباع شىء ؛ فالناس هاهنا يصفّون النحاس ويسكون النقود ويطبعون الكتب ويطرزون افخر المنسوجات بزهور الذهب والفضة ؛ وهاهنا كذلك تصنع أحسن صنوف الصبغة وأندرها ، وأروع النقوش فناً ، وكل ضروب الآلات الموسيقية والصور والخزانات اليابانية ، وشتى الأشياء التى تصاغ من الذهب وغيره من المعادن ، وخصوصاً

الصلب ؛ مثال ذلك السيوف ذوات النصل القوى وغيرها من الأسلحة ؛ كل ذلك يصنع هاهنا صناعة بلغت غاية الكمال ، كما تصنع أفخر الأردية على خير طراز ، وكل صنوف اللعب ونماذج الحيوان التى تحرك رؤوسها من تلقاء نفسها وأشياء أخرى أكثر عدداً من أن يحصرها العدد فى هذا المكان ؛ واختصاراً لست تستطيع أن تفكر فى شىء مما لا تراه يصنع فى كيوتو — وليس هنالك شىء مما يستورد من خارج البلاد — مهما بلغت دقة صناعته — مما لا تجد بين صناع العاصمة من يأخذ على نفسه أن يحاكيه ... إنه ليس فى المنازل التى تقع فى الشوارع الرئيسية إلا قلة لا تعرض شيئاً للبيع ، ولم يسعنى إلا العجب أنى لهؤلاء الناس الزبائن لشراء هذه المقادير الهائلة من البضائع ؟ »[٤١] .

لقد استوردت اليابان قبل ذلك بزمن طويل كل فنون الصين وصناعاتها ؛ وكما ترى اليابان اليوم قد بدأت تفوق معلميها من أهل الغرب فى الاقتصاد والمقدرة على الإنتاج الآلى[٤٢] ، فكذلك حدث فى أثناء حكومة توكوجاوا العسكرية ، إذ أخذ صناعها ينافسون ، بل وأحياناً يفوقون زملاءهم من أهل الصين وكورية الذين علموهم الصناعة ؛ وكانت معظم الصناعة تقوم بها الأسرة فى الدار — كما كانت الحال فى أوربا فى عصرها الوسيط — وكانت الأسرة تورث صناعتها ومهارتها من الوالد إلى ولده ، وكثيرا ما أطلق على الأسرة اسم الصناعة التى كانت تقوم بها ؛ وكذلك — كما كانت الحالة أيضاً فى أوربا فى عصرها الوسيط — تألفت نقابات كبرى ، لم يكن قوامها الصفوف الدنيا من الصناع بقدر ما كان قوامها السادة الذين كانوا يستغلون الصناع استغلالا لا يعرف الرحمة ، وحددوا حق الالتحاق بهذه النقابات للأعضاء الجدد بقيود أسرفوا فى ضيقها[٤٣] ؛ وكانت نقابة الصيارفة من أقوى النقابات ، الصيارفة الذين كانوا يقبلون الودائع والتحويلات المالية « والكمبيالات » ويقرضون القائمين على التجارة والصناعة والحكومة ؛ وما جاءت سنة ١٦٣٦

حتى كانوا يؤدون كل العمليات المالية الكبرى [٤٤] وأصبح التجار الأغنياء والممولون من أعلام أهل المدن ، وأخذوا ينظرون بعين الحسد إلى السلطة السياسية التى كانت مقصورة على السادة الإقطاعيين الذين أثاروا فى صدورهم الشحناء باحتقارهم السعى وراء الذهب ؛ وأخذت الثروة التجارية تزداد شيئاً فشيئاً خلال عصر « توكوجاوا » حتى استطاعت آخر الأمر أن تتآزر مع المواهب الأمريكية والمدافع الأوروبية على تحطيم القشرة المتحجرة فوق اليابان القديمة .

الفصل الرابع

الشعب

قوام أجسادهم – معاجين الزينة – الثياب – الطعام – آداب المعاملة – « سيك » – احتفال الشاى – احتفال الزهور – حب الطبيعة – الحدائق – المنازل

إن الشعب الذى يحتل أعلى مكانة فى العالم السياسى المعاصر يتألف من أفراد قصار القامة ، إذ يبلغ متوسط قامة الرجل منهم خمسة أقدام وثلاث بوصات ونصف البوصة ، ويبلغ متوسط قامة المرأة أربعة أقدام وعشر بوصات ونصف البوصة ؛ وقد جاءنا وصف لرجل هو من أعظم جنودهم ، أعنى « تامورامارو » ، بأنه « رجل جميل القوام إلى حد بعيد ... طوله خمس أقدام وخمس بوصات »(٤٥) ويذهب بعض علماء التغذية إلى أن هذا القصر فى القامة يرجع إلى قلة الجير فى الغذاء اليابانى ، وهذه القلة بدورها راجعة إلى قلة اللبن ؛ وقلة اللبن سببها ارتفاع أثمان أراضى الرعى فى مثل هذه البلاد الغاصة بأهلها(٤٦) ، لكننا لا ينبغى أن نعد هذه النظرية أكثر من فرض بعيد الاحتمال – شأنها فى ذلك شأن كل ما يقال فى العلم الذى يحلل غذاء الإنسان ؛ ويبدو على النساء هناك ضعف وهزال ، فالظاهر أن ما لهن من نشاط – وهن فى ذلك كالرجال فى نشاطهم هناك – يرجع إلى قوة الجهاز العصبى أكثر مما يرجع إلى القوة البدنية ؛ ولست ترى علائم النشاط بادية إلا إذا دعت إليه ضرورات الحياة ؛ ولهن جمال هو جمال التعبير الذى تنطق به وجوههن ، وجمال المشية ، وجمال القسمات ؛ فهذه الرشاقة اللطيفة التى تراها فيهن مثل جميل لما قد أدى إليه الفن فى بلادهن .

ومعاجين الزينة شائعة فى اليابان وقديمة العهد فيها ؛ كما هى الحال فى

سائر الأقطار . فترى الرجل منهم — حتى فى العصر القديم الذى بسط فيه « كيوتو » زعامته على البلاد — ترى الرجل منهم إذا ما كان ذا منزلة اجتماعية ، يُحَمِّرُ وجنتيه ، ويضع المساحيق على وجهه ، ويعطر ثيابه ، ويحمل معه مرآة من ذهب(٤٧) ، وكذلك لبث نساؤهم قروناً طوالا لا ترى وجوههن إلا مغطاة بالمساحيق ، وفى ذلك تقول « السيدة سى شرناجون » فى كتابها : « صور على الوسادة » (حوالى ٩٩٤ ميلادية) مصطنعة الحشمة فى قولها : « حَنَيْتُ رأسى فأخفيت وجهى بكمى ، مخاطرة فى ذلك بما قد يحدثه الكم من إزالة المسحوق عن وجهى فيبدو مُبَقَّعاً » (٤٨) فقد كان سيدات البدع يحَمِّرْن خدودهن ويطلين أظفارهن . ويُذَهِّبْنَ أحياناً سيقانهن السفلى ، فزينة المرأة فى القرن السابع عشر لم تكمل بأقل من ستة عشر صنفا ، وهى فى القرن الثامن عشر قد بلغت العشرين صنفاً ؛ وعرف النساء خمسة عشر طرازاً لتصفيف الشعر الأمامى ، واثنى عشر طرازاً للشعر الخلفى ، وكن يحلقن حواجبهن ، ويرسمن مكانها أهلّةً أو غيرها من الرسوم ؛ أو كن يضعن بدل الحواجب نقطتين سوداوين صغيرتين فى أعلى الجبهة ، لكى يحدثن بهما تناسقاً مع الأسنان التى كن يُسَوِّدْنها صناعة ، وكان تصفيف الشعر للمرأة عملا يستغرق ساعتين إلى ست ساعات إن كان القائم بالتصفيف خبيراً بفنه ؛ وكان معظم الرجال فى عصر « هاين » يحلقون مقدمات رءوسهم ، ويجمعون ما تبقى من الشعر ضفيرة يمدونها وسط ذلك الجزء الأمامى الحليق ، ليقسموه بها نصفين ، وكانت اللحى ضرورة للرجال ، رغم قلة شعراتها ؛ ومن لم يكن لهم لحى بطبيعتهم ، كانوا يضعون على وجوههم لحى صناعية ، وكان يقدم للضيف فى بيوت العليّة ملقط يسوّى به لحيته(٤٩)

كانت الثياب اليابانية فى عصر « نارا » تقتفى أثر الثياب الصينية فصدار وسراويل يغطيها ثوب محبوك على الجسم ، فلما جاء عصر « كيوتو » وسع اليابانيون من ذلك الثوب بعض الشىء وزادوا من أجزائه ، فالرجال والنساء

كانوا يلبسون أثواباً بعضها فوق بعض يتراوح عددها من ثوبين إلى عشرين . وتختلف ألوان تلك الثياب باختلاف مكانة اللابس ، وكانت تبدو أطرافها عند الكم متعددة الألوان كأنها الطيف فى تداخل ألوانه ؛ وجاء عهد كانت أكمام السيدة تتدلى إلى ما دون ركبتها ، وفى طرفها جرس يُتَنْتِنُ وهى تسير ، وإذا كانت الطرقات مبتلة بالمطر أو بالثلج ، كن يمشين على قباقيب من الخشب محمولة على كعوب خشبية يرتفع حول بوصة عن الأرض ، وفى عصر « توكوجاورا » بلغ الإسراف فى الثياب حداً جعل « السيافين » لا يعبأون بتقاليد الناس ، ويحاولون الحد من هذا الإسراف بقوانين صارمة ، فحرقت السراويل المبطنة بالحرير والموشاة كما حرقت الجوارب التى كانت تزخرف على ذلك النحو ، وحرمت اللحى ، وصنوف معينة من تصفيف الشعر ، جاءت أيام كان رجال الشرطة فيها يؤمرون بالقبض على كل من يرونه فى الطريق مرتدياً ثوباً فاخراً ، وكان الناس يطيعون هذه القوانين أحياناً ، لكنهم فى معظم الأحيان كانوا يحتالون على التخلص منها بما عرف عن الإنسان من حماقة فطرية[٥٠] .

لكن هذا الشغف الشديد بتعدد الأردية قد خفت حدته على مر الزمن ، وأصبح اليابانيون من أكثر شعوب الأرض بساطة واحتشاماً وحسن ذوق .

ولم يكن اليابانيون ليأخذوا عن سواهم من الشعوب شيئاً فيما يخص عادات النظافة ، فالثياب تغير ثلاث مرات فى اليوم الواحد عند من يستطيع إلى ذلك سبيلا ، والناس جميعاً فقيرهم وغنيهم يستحمون كل يوم[٥١][*] .

وأما فى القرى ، فكان الناس يستحمون فى طسوت خارج منازلهم فى

(*) كان فى طوكيو سنة ١٩٠٥ ألف ومائة حمام شعبى ، يستحم فيها كل يوم نصف مليون رجل ، لقاء أجر قيمته سنت وربع سنت[٥٢] .

الصيف ، ويثرثر الجار مع جاره إذ هما يستحمان ثرثرة لا تنقطع[٥٢] ، وكانوا يستحمون فى الشتاء بماء ساخن مبلغ حرارته مائة وعشر درجات ، فيكون لهم ذلك وسيلة تدفئة من البرد ، وكان غذاؤهم بسيطاً وصحياً قبل أن تطغى عليهم موجة الترف ؛ ووصف الصينيون اليابانيين فى الزمن القديم فقالوا عنهم إنهم « شعب طويل العمر ، حتى ليكثر فيه الأفراد الذين يبلغون فى أعمارهم مائة عام » .

وكان الطعام الرئيسى عند الشعب هو الأرز ، يضيفون إليه السمك والخضر ونبات البحر والفاكهة واللحم ، كل بنسبة ثرائه ، وكان اللحم لونا من الطعام نادراً إلا بين الطبقة العالية وطبقة الجنود ، وكان العامل اليابانى يفضل هذا الطعام الذى يتألف من أرز وسمك ولا لحم ، يتمتع برئتين سليمتين وعضلات قوية ، فيستطيع الجرى من خمسين ميلا إلى ثمانين فى أربع وعشرين ساعة دون أن يشكو إعياء . فإذا ما أضاف اللحم إلى غذائه ، فقد قدرته هذه على الجرى السريع[*] وحاول الأباطرة فى عصر كيوتو محاولة دينية قصدوا بها أن يؤيدوا قوانين التغذية كما تأخذ بها البوذية ، فحرموا ذبح الحيوان وأكله ، ولكن لما رأى الناس أن الكهنة أنفسهم كانوا يخرجون على تلك القوانين خفية ، أخذوا يدخلون اللحم لوناً شهياً من الطعام ، ويسرفون فى أكله كلما مكنتهم من ذلك قدرتهم المالية[٥٧] .

فاليابانيون — كالصينيين والفرنسيين — يعدون إجادة الطهى علامة جوهرية للحضارة ، حتى لقد أخذ الطهاة — كأنهم فى ذلك فنانون أو فلاسفة — ينقسمون مدارس يناهض بعضها بعضاً بما تبدع كل منها من « وصفات » ؛

(*) لكنا نلاحظ من جهة أخرى أن اليابانيين الذين لم يكونوا يعملون بأجسادهم ، وكانوا يعيشون على كميات كبيرة من الأرز ، كانوا يتعرضون لاضطرابات فى الهضم[٥٦] .

وأصبحت آداب المائدة عندهم من الأهمية بحيث عادلت أهمية الدين على أقل تقدير ، إذ كان لهم قواعد دقيقة تنظم ترتيب القضمات ومقاديرها ، كما تنظم وضع الجسم فى كل مرحلة من مراحل الوجبة ، ولم يكن يجوز للسيدات أن تحدثن صوتاً فى الطعام أو الشراب ، أما الرجال فقد كانت تقتضيهم الأوضاع أن يدلوا على تقديرهم لكرم المضيف بجشئات عدة يظهرون بها عرفانهم بالجميل(٥٨) ، وكان الآكلون يجلسون على عقب واحد أو على العقبين فوق حصير ، إزاء مائدة لا تعلو عن الأرض أكثر من بضع بوصات ، أو قد يوضع الطعام على الحصير بغير حاجة إلى مائدة على الإطلاق ، والعادة أن تبدأ الوجبة بشراب ساخن من عصير الأرز ، ألم يعلن الشاعر « تاهيتو » فى زمن بالغ فى القدم مبلغ القرن السابع ، بأن شراب « الساكى » هو الحل الوحيد اللى تفض به مشكلات الحياة جميعاً ؟

إن ماكان ينشده السبعة الحكماء
أولئك الرجال الذين قدم بهم الزمان
هو — بغير شك — شراب « الساكى »
فبدل أن تجلس ساكتاً
مفكراً ، جاداً ، صنماً
فخير ألف مرة أن تشرب « الساكى »
وأن تسكر به حتى تصيح صياحاً عالياً
فما دام الواقع الحق
هو أن الموت لاحق بنا جميعاً
فلنمرح
ما دمنا على قيد الحياة
إن اللؤلؤة التى تتألق ببريقها فى الليل

أقل قيمة للإنسان من نشوة قلبه
التى تأتيه إذا ما شرب « الساكى »[٥٩]

لكن الشاى كان أكثر قدسية عند العلية من « الساكى » . فهذا النبات العجيب الذى نتغلب به على ما يفقده الماء من طعمه بعد الغلى ، جاء إلى اليابان قادماً من الصين سنة ٨٠٥ ، لكنه إذ ذاك لم يصب نجاحاً ، ثم جاءها مرة أخرى سنة ١١٩١ حيث استقر بها وأقام ، فقد اجتنبه الناس أول الأمر باعتباره سما لا ينبغى أن يقربوه ؛ ولكن لما تبين للرجل من طائفة « السيافين » أن قليلا من أقداح الشاى سرعان ما يرد إلى رأسه اتزانه بعد ما أصابه من دوار بسبب الإفراط فى شراب « الساكى » ليلة البارحة ، أخذ أهل اليابان يتبينون فائدة الشاى ، ولقد أضاف ارتفاع ثمنه إلى سحره سحراً جديداً ، فكان الناس يتهادون به ثمين الهدايا ، بأن يتبادلوا الآنية الخزفية المليئة به ، حتى لقد كان يُقَدَّمُ للمقاتلين جزاء ما أبلوا فى أفعالهم الحربية الباسلة ، فكان الذى يجود من هؤلاء بحيث يظفر بمنحـــة من الشاى ، يجمع حوله الأصدقاء ليشاركوه هذا الشراب الملكى ، ولقد جعل اليابانيون من شرب الشاى احتفالا رشيقاً معقد الأوضاع ، إذ وضع « ركيو » لذلك ست قواعد لا يجوز الخروج عليها ، فارتفع شرب الشاى بفضل هذه القواعد الست إلى منزلة الطقوس الدينية ، فمن قواعد « ركيو » هذا أن الدعوة التى توجه إلى الأضياف ليدخلوا قاعة الشاى ، يجب أن تكون بالتصفيق بخشبتين معينتين كما يجب أن يظل إناء الوضوء مليئاً بالماء الصافى ، وإذا ما أحس ضيف من الأضياف بخطأ أو بنقص فى أثاث المكان ، وجب عليه أن يغادر من فوره دون أن يحدث بذلك ضجة ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولا يجوز أن يخوض الحاضرون فى حديث تافه ، بل يجب عليهم ألا يطرقوا بالحديث إلا أموراً عالية جادة ، ولا يجوز لأحد أن يفوه بكلمة واحدة مما يدل على غرور أو رياء ، ثم لا يصح أن يستغرق الأمر أكثر من أربع ساعات ،

ولم يكن يستعمل إبريق الشاى فى مثل هذه المحافل التى يطلق عليها « شا- نو- يو » (ومعناها ماء ساخن للشاى) ؛ بل كان يوضع مسحوق الشاى فى فنجان ممتاز فى نوعه ، ثم يصب فيه الماء الساخن ، ثم يدور الفنجان بين الأضياف واحداً بعد واحد ، كل منهم يمسح حافته مسحاً رقيقاً بمنشفة صغيرة ، حتى إذا ما شرب آخر الشاربين آخر جرعة من الفنجان ، أدير الفنجان بين الحاضرين من جديد ليفحصوه من الوجهة الفنية[٦٠] ، وعلى هذا النحو كان احتفال الشاى حافزاً للخزافين على إنتاج أقداح وآنية بالغة الجمال ، كما كان هذا الاحتفال عاملا على صياغة آداب اليابانيين فى صورتها الهادئة الفاتنة التى يراعى فيها تبادل الاحترام(*) .

كذلك أصبحت الزهور موضع قدسية فى اليابان ؛ فكانت موضع تقدير من « ركيو » هذا الذى صاغ طقوس محافل الشاى ، فكانت الزهور عنده تلقى من العناية ما تلقاه أقداح الشاى ، ولما سمع أن « هيديوشى » آت لزيارته ليرى مجموعته المشهورة من زهور الأقحوان ، أتى « ركيو » على كل الزهور فى بستانه إلا واحدة ، لعل هذه الواحدة تسطع فى عينى هذا « السياف » المخيف سطوعاً يدرك منه أنها فذة فى عالم الزهور(**)[٦٢] ؛ وأخذ فن تنسيق الزهور يتقدم خطوة بعد خطوة مع « شرعة الشاى » فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، حتى إذا ما جاء القرن السابع عشر ، أصبح موضعاً للاهتمام فى حد ذاته ، ونشأت طائفة « أساتذة الزهور » تعلم الرجال والنساء

(*) محصول الشاى هو الآن بالطبع أحد منتجات اليابان الهامة . ويظهر أن الشركة الهولندية الشرقية هى التى جاءت إلى أوربا بأول ما عرفته من الشاى سنة ١٦١٠ ، وقد باعته حينئذ بواقع أربعمائة ريال تقريباً للرطل الواحد ، وقد قال « جوناس هانواى » سنة ١٧٥٦ إن الرجال فى أوربا يفقدون من طول قامتهم والنساء فيها يفقدون من جمالهن ، بفعل شرب الشاى ، وكان دعاة الإصلاح يحاربون هذه العادة بوصفهم إياها بالهمجية القذرة[٦١] .

(**) هذا « الحاكم العظيم » وهذا « العلم فى عالم الشاى » قد تحابا كما يتحاب الرجلان المبقريان ، وقد اتهم أولهما الثانى بتهمة الخيانة ، لكنه بدوره اتهم بإفساد ابنة الثانى (ركيو) وأخيراً انتحر « ركيو » على طريقة هاراكيرى[٦٣] .

كيف ينبتون الزهور فى البستان وكيف ينسقونها فى دورهم ، فكان هؤلاء الأساتذة يقولون إنه لا يكفى أن تعجب بالزهور نفسها ، بل يجب أن تدرب نفسك على رؤية الجمال فى ورقة الزهور وفى غصنها وفى عودها كما ترى الجمال فى الزهرة نفسها ، وأن تدرب نفسك على رؤية الجمال فى زهرة واحدة كما تراه فى ألف زهرة ، وأن ترص الزهر رصاً لايقوم على أساس اللون وحده ، بل كذلك مع أساس طريقة ضمها فى طاقات وصفها(٦٤) ؛ وهكذا أصبح الشاى والزهور والشعر والرقص من لوازم الأنوثة بين بنات العلية فى اليابان .

الزهور عند اليابانيين بمثابة الدين ، فهم يعبدونها عبادة تشيع فيها روح التضحية بالقرابين ، ويلتقى فيها أفراد الشعب جميعاً ؛ وهم يرقبون فى كل فصل من فصول العام ما يلائمه من زهور ؛ فإذا ما أزهرت شجرة الكريز مدى أسبوع أو أسبوعين فى أوائل شهر إبريل ، يخيل إليك أن أهل اليابان جميعاً قد تركوا أعمالهم ليحدجوا فيها بأبصارهم ؛ بل إنهم ليحجون إلى الأماكن التى تزخر بهذه المعجزة ويكمل فيها إزهار هذا الضرب من الشجر(*) ؛ فهم لا يزرعون شجرة الكريز لثمارها ، بل لأزهارها — وزهرتها رمز للمحارب المخلص الذى يستعد للموت فى سبيل وطنه فى اللحظة التى تصل فيها حياته أوج شبابها(٦٥) ؛ وقد يحدث أن يطلب المجرمون المساقون إلى الإعدام زهرة من زهرات الكريز وهم فى طريقهم إلى الموت(٦٦) ، وتروى لنا « السيدة تشيو » فى قصيدة لها مشهورة ، أن فتاة قصدت بئراً تستخرج منه الماء ، فلما وجدت الدلو والحبل ملتفاً عليهما أغصان النبات اللبلابى ، قصدت مكاناً آخر تحصل منه على الماء ، مؤثرة ذلك على قطع أسلاك النبات(٦٧) ، ويقول «تسورايوكى» « إنه ليستحيل عليك أن تفهم قلب الإنسان ، لكن الزهور فى قريتى ما تزال كسابق عهدها تنفث عبقها(٦٨) » ، هذه العبارة الساذجة هى من أعظم الشعر

(*) هم كذلك يحجون إلى حيث يشاهدون أوراق الأسفندان تتحول إلى السقوط .

اليابانى ، لأنها تعبر عن خصيصة عميقة لجنس بشرى بأسره : تعبر عنها تعبيراً كاملا يتعذر أن تحذف منه شيئاً ، كما تعبر عن نتيجة صادقة من نتائج الفلسفة ، إنك لن تجد بين أمم العالم أمة أحبت الطبيعة بمثل ما أحبها اليابانيون ولن تجد الناس فى أى جزء من أجزاء الأرض غير اليابان يتقبلون راضين تقلبات الطبيعة كما تتبدى فى الأرض والسماء والبحر ، ولن تجد بلداً آخر غير اليابان عنى فيه الناس بزراعة البساتين ، أو بتغذية النبات إبان نموه ، أو خصوه برعايتهم فى دورهم ، إن اليابان لم تنتظر حتى يجيئها « روسو » أو « وردزورث » لينبئها أن الجبال شوامخ أو أن البحيرات قد يكون لها روعة الجمال ، فتكاد لا تجد فى اليابان منزلا بغير أصيص للزهور ، كما توشك ألا تجد قصيدة واحدة فى الأدب اليابانى تخلو من وصف مشاهد الطبيعة فى ثنايا سطورها ؛ فكما أن « أوسكار وايلد » كان من رأيه أن انجلترا لا ينبغى لها أن تحارب فرنسا لأن الفرنسيين يكتبون نثراً يبلغ فى فنه حد الكمال ، فكذلك نقول أن أمريكا يجب أن تنشد السلام إلى آخر جهدها مع أمة تتعطش للجمال فى عاطفة جارفة تكاد تبلغ فى حدّتها قوة نهمها إزاء السلطان .

إن فن غرس الحدائق قد جاءها من الصين جنباً إلى جنب مع البوذية والشاى ؛ لكن هاهنا ترى اليابانيين مرة أخرى يحولون بقوة إبداعهم ما قد تشربوه من غيرهم عن طريق المحاكاة ، فتراهم يستملحون جمال الشىء إذا خلا من الاتساق . ويستجملون الأشكال المبتكرة التى لم يقتلها التكرار ، فتجىء للرائى بمثابة المفاجأة ، وهم يقصرون الأشجار والشجيرات بأن يحصروا جذورها فى أُصُص ، وتدفعهم فى ذلك فكاهة شيطانية وصبٌّ عارم إلى أن يروضوا تلك الأشجار بحيث يصوغونها فى أشكال يجوز لنا ، إذا ما رأيناها تكوّن سور البستان — أن نقول عنها إنها تمثل أشجار اليابان التى عصفت بها عواصف تلك البلاد فلوت أفنانها ، وتراهم يبحثون فى فوهات براكينهم وفى أوعر شطئانهم لعلهم واجدون صخوراً امتزجت بالمعادن بفعل

النيران الداخلية ، أو صاغها حجّارون صابرون فى أشكال غريبة ملتوية الأجزاء ، وهم يحتفرون البحيرات الصغيرة ، ويشقون النهيرات الفوارة بمائها ، ويصلون ضفافها بجسور تبدو للرائى كأنما جاءت نمواً طبيعياً فى أشجار الغابات ، وهم يدقون خلال هــذه التكوينات المختلفة كلها مماش ينقشونها نقشاً دقيقاً ، فتؤدى بك تارة إلى جديد يفجؤك ، وطوراً إلى ركن هادئ بليل الهواء .

وحيث تسعفهم فسحة الأرض وكثرة المال تراهم أميل إلى أن يجعلوا بيوتهم جزءاً من حدائقهم ، منهم إلى أن يجعلوا حدائقهم جزءاً من بيوتهم ، ومنازلهم هزيلة البنيان لكنها جميلة ؛ فلئن جعلت الزلازل الأبنية العالية خطراً داهماً ، فقد عرف النجار وقاطع الخشب كيف يربط ألواح الخشب وشرائحه وعمده فيجعل منها مسكناً تبلغ بساطته حد التقشف . لكن يبلغ جماله حد الكمال بحيث تراه فى فن عمارته نسيج وحده ، إنك لا ترى فى مثل هذا المسكن ستائر أو أرائك أو أسرة أو مناضد أو مقاعد ، ولا ترى دلائل بارزة تدل على ثروة الساكن ورفاهيته ، لا ترى متحفاً للصور ولا التماثيل ولا التحف ؛ لكنك ترى فى ركن من الحديقة غصناً مزهراً ، وعلى الحائط صورة من الحرير أو الورق ، أو ترى قطعة من الخط الزخرفى ، وتجد على الأرض المغطاة بالحصير وسادة وضع أمامها كرسى مما تسند عليه الكتب للقراءة ، وعلى أحد جانبيها خزانة كتب وعلى جانبها الآخر مسندة ، وهم يخفون الحشايا والأغطية فى خزانة خشبية ، ليخرجوها وينشروها على الأرض إذا حان وقت النوم ، فى مثل هذه الأحياء المتواضعة ، أو فى كوخ الفلاح المزيل كانت تسكن الأسرة اليابانية ، وتبقى على الحياة وعلى المدنية فى « الجزر المقدسة » خلال ما تعاور البلاد من زعازع الحروب والثورات ومن فساد سياسى وكفاح فى سبيل الدين :

الفصل الخامس

الأسرة

الأب المستبد — منزلة المرأة — الأبناء —
الأخلاق الجنسية — الـ « جيشا » — الحب

الأسرة هي المصدر الحقيقي للنظام الاجتماعي ، ولئن كان هذا صحيحاً بالنسبة للغرب ، فهو أصح بالنسبة للشرق ، وجمع السلطة كلها في يد الأب في اليابان — كما هي الحال في سائر أنحاء الشرق — لا يدل على انحطاط في درجة الرقي الاجتماعي ، بل يدل على إيثارهم للحكومة الأسرية على الحكومة السياسة ، فليس للفرد من الأهمية في الشرق بمقدار ما له من الأهمية في الغرب ، وذلك لأن الدولة في الشرق كانت أضعف منها في الغرب ؛ ولذا تطلبت الدولة أن يكون إلى جانبها أسرة قوية النظام شديدة الطاعة لتقوم مقام السلطة المركزية التي تشمل بسلطانها شتى نواحي الحياة كبيرها وصغيرها على السواء ؛ وقد فهمت الحرية في الشرق بالنسبة للأسرة لا بالنسبة للفرد ، ذلك لأنه لما كانت الأسرة هي وحدة الإنتاج في عالم الاقتصاد كما كانت وحدة النظام الاجتماعي ، كان النجاح أو الفشل ، بل الحياة أو الموت ، لا يخص الفرد الواحد بل يصيب الأسرة كلها ؛ فكانت سلطة الوالد استبدادية ، لكنها رغم استبدادها كانت تشوبها الرأفة التي لا يعقبها شيء من الضرر ؛ وذلك بكونها تبدت للناس أمراً طبيعياً وضرورياً وإنسانياً ؛ فقد كان من حقه أن يطرد من الأسرة زوج ابنته أو زوجة ابنه بينما يحتفظ بحفدته في صحبته ؛ بل كان من حقه أن يقتل ابنه أو ابنته إذا اتهم أحدهما بالدعارة أو غيرها من الجرائم الخطيرة ، وأن يبيع أبناءه أو بناته في سوق النخاسة

أو سوق الدعارة(*) وفى مستطاعه أن يطلق زوجته بكلمة واحدة[٧٠] فإذا ما كان الرجل من عامة الشعب ، كان الأغلب أن يقتصر على زوجة واحدة ، أما إذا كان من أبناء الطبقة العليا فقد كان من حقه أن يحيط نفسه بالخليلات ؛ ولم يكن أحد ليهتم بما يقترفه من خيانة زوجية آناً بعد آن[٧١] ؛ ولما دخلت المسيحية بلاد اليابان ، شكا الكتاب من أهل البلاد مما أحدثته من اضطراب فى هدوء الحياة العائلية ، بتعاليمها التى تجعل اتخاذ الخليلات واقتراف الزنا من الخطايا[٧٢] .

وكانت منزلة المرأة فى اليابان — كما هى الحال فى الصين — أعلى فى مراحل المدنية الأولى منها فى المراحل المتأخرة ، ، فترى ست نساء بين حكام البلاد إبان العهد الإمبراطورى ، ولعبت المرأة فى كيوتو دوراً هاماً ، بل لعبت الدور الأول فى حياة الأمة الاجتماعية والأدبية ؛ وفى ذلك العهد الذهبى للثقافة اليابانية — لو جاز لنا أن نجازف بالرأى فى مثل هذه النواحى الغامضة — سبق الزوجات أزواجهن فى عالم الزنا ، بحيث كن يبعن العفة بقول جميل يقال[٧٣] وتصف لنا « السيدة سى شوناجون » شاباً على وشك أن يرسل رسالة غرامية لخليلته ، فقطعها ليغازل فتاة عابرة ؛ ثم تضيف تلك الكاتبة المحبوبة البارعة فى أدب المقالة ، قولها : « ولست أدرى إن كان الرسول الذى حمل رسالة هذا المحب معطرة بقطرات الندى انتثرت من الزهور العبقة ، قد تردد فى تقديمها إلى الحبيبة ، إذ وجدها هى بدورها تستضيف عشيقاً »[٧٤] ؛ ثم انتشرت نظرية أهل الصين فى إخضاع المرأة للرجل ، حين انتشر النظام الإقطاعى الحربى ، وحين تناوب البلاد تهاون وشدة جعلا يتعاقبان على نحو طبيعى يسجله التاريخ ؛ فأصبح المجتمع يسوده الذكور ، وأذعن النساء « للطاعات الثلاث » — الوالد والزوج والابن ؛ — وأوشك الناس ألا يضيعوا جهدهم فى تعليم النساء ، اللهم إلا تعليمهن آداب الأوضاع الاجتماعية ؛ وطولب النساء بالأمانة الزوجية يتهددهن فى ذلك عقاب الإعدام ؛ فإذا وجد

(*) لم يكن يقع هذا إلا فى أحط الطبقات وعند الضرورة القصوى (٦٩)

الزوج زوجته متلبسة بجريمة الزنا ، كان من حقه ان يقتلها مع عشيقها نوراً ؛ وقد أضاف « ايياسو » بدقته إلى هذا الحق شرطاً ، فقال إن الزوج إذا قتل المرأة فى مثل هذه الحال وأخلى سبيل الرجل ، حق عليه هو نفسه عقاب الموت(٧٦) ؛ وقد نصح الفيلسوف « إكن » للزوج أن يطلق زوجته إذا ما أسرفت فى حديثها من حيث ارتفاع الصوت ، أو طول الكلام ؛ أما إذا حدث أن كان الزوج منحل الخلق وحشى الطبع ، فينبغى للزوجة — فى رأى « إكن » — أن تضاعف له الرحمة والدعة ؛ وفى ظل هذا التدريب الشديد المتصل ، أصبحت المرأة اليابانية أنشط الزوجات وأخلصهن وأكثرهن طاعة ؛ وإن الرحالة الذين أخذهم العجب لهذا النظام الذى أنتج مثل هذه النتائج الحميدة ، ليتساءلون إن كان من الحكمة أن ندخله فى بلاد الغرب (٧٧) .

ولم تكن كثرة النسل تجد تشجيعاً فى اليابان « السامورية »(*) على خلاف ما نراه فى أقدم عادات المجتمع الشرقى وأكثرها قدسية ؛ وذلك لأنه لما تكاثر السكان أحست الجزر الصغيرة أنها قد ازدحمت بأهليها ، وأصبح من عوامل السمعة الحسنة للرجل من طائفة « السيافين » ألا يتزوج قبل سن الثلاثين ، وألا ينجب من الأطفال أكثر من اثنين(٧٨) ؛ ومع ذلك فقد كان ينتظر من كل رجل أن يتزوج وأن ينسل الأبناء ، فإذا تبين العقم فى زوجته ، كان من حقه طلاقها ؛ وإن نسلت له بنات ولا أبناء ، نصحوه بأن يتبنى ولداً حتى لا يضيع اسمه وتتبدد أملاكه ، لأن البنات ليس من حقهن أن يرثن شيئاً(٧٩) .كان الأطفال يربون على أساس الفضائل الصينية ، وفى جو من الأدب الذى يبث إخلاص البنوة ، لأن انتظام الدولة وأمنها كانا يعتمدان على هذه الطاعة التى تبعث فى الأبناء والتى تكون معيناً للنظام فى الأسرة ، وقد أمرت

(*) الساموراى « السياف » ، واليابان الساموريه ، هى اليابان فى العهد الذى ساد فيه السيافون .   (المعرب)

الإمبراطورة « كوكن » — فى القرن الثامن — كل أسرة يابانية أن تحصل لنفسها على نسخة من متن الطاعة المفروضة على الأبناء للآباء » ؛ وكان يطلب إلى كل تلميذ فى مدارس الأقاليم أو فى الجامعات أن يتقن دراسة هذا الكتاب إتقانا تاماً ؛ ولو استثنيت طائفة السيافين الذين كانت واجبات الطاعة عندهم مفروضة أولا لسادتهم ؛ إذا استثنيت هؤلاء ، وجدت طاعة الأبناء لآبائهم هى الفضيلة الأساسية العليا عند اليابانيين ؛ بل إن علاقة اليابانى بالإمبراطور ، كانت علاقة الحب والطاعة من ولد إلى والده ؛ ولبثت هذه هى الفضيلة الرئيسية فى التشريع الخلقى كله تقريباً عند عامة الناس فى اليابان ، حتى جاءهم الغرب بأفكاره الثورية التى تنادى بحرية الأفراد ؛ وكان يستحيل على الجزر اليابانية أن تتحول إلى المسيحية ، بسبب ما ورد فى الإنجيل من أمر للرجل بأن يترك أباه وأمه ليلصق بزوجته[٨٠].

لم تكن الفضائل الأخرى — فيما عدا الطاعة والولاء — لتحتل بينهم مثل المكانة التى تحتلها فى أوربا المعاصرة ؛ فالعفة كانت فضيلة مرغوباً فيها ، حتى لقد قتل بعض نساء الطبقة العليا أنفسهن حين تعرضت بكارتهن للخطر[٨١] ، لكن كبوة واحدة لم يكن معناها عندهم القضاء على المرأة قضاء كاملا ؛ وأشهر القصص اليابانية ، وهى قصة « جنچى مونوجانارى » هى عبارة عن ملحمة تروى قصة غواية فى الطبقة العليا ؛ وأشهر مقالات فى الأدب اليابانى وهى المجموعة فى كتاب « صور على الوسادة » لكاتبته « السيدة سى شوناجون » تراها فى بعض المواضع كأنما أريد بها أن تكون رسالة فى الأوضاع الصحيحة التى ينبغى مراعاتها عند اقتراف الخطيئة[٨٢] ، فقد نظر القوم إلى شهوات الجسد نظرتهم إلى أمر طبيعى كما ينظرون إلى الجوع والظمأ ؛ فترى آلاف الرجال — وكثير منهم أزواج محترمون — يحتشدون ليلا فى « يوشى وارا » ، (أى حى الزهر) فى طوكيو ؛ فنى ذلك الحى منازل خرجت على النظام ، يسكنها خمسة عشر ألف امرأة زانية رخص لهن بالزنا ومهرن فيه ، تراهن فى الليل

جالسات وراء « شيش » نوافذهن ، فاخرات الثياب يضاوات بما وضعنه على أجسادهن من مساحيق ، مستعدات للغناء والرقص والدعارة لمن ليس له امرأة عشيرة من الرجال ، أو لمن ساءت عشيرته منهم [٨٣] .

وأعلى هؤلاء الزانيات ثقافة هن فتيات « الجيشــا » الذى يدل اسمهن هذا على أنهن بارعات فى فنهن (فكلمة جيشا مكونة من مقطعين : « جى » ومعناها بارع فى الأداء الفنى ، و « شا » ومعناها شخص) وهن شبيهات بطائفة « الغوانى » فى اليونان ، فى أنهن قد أثرن فى الأدب كما أثرن فى عالم الحب ، ومزجن فوضاهن الخلقية بالشــعر ، لكن حدث أن أمر الحاكم العسكرى « أينارى » (١٧٨٧ — ١٨٣٦) عام ١٧٩١ بتحريم الاستحمام الذى يخلط الجنسين معاً ، لأنه أحياناً يؤدى إلى الخروج على قواعد الأخلاق[٨٤] ، ثم أصدر أمراً شديداً سنة ١٨٢٢ يقاوم به فتيات « الجيشا » وقد وصف الواحدة منهن بأنها « مغنية تلبس فاخر الثياب ، وتعرض نفسها مأجورة لتسلية رواد المطاعم ، بالرقص والغناء فى ظاهر الأمر ، لكنها فى الحقيقة تمارس شيئاً يختلف عن هذين كل الاختلاف »[٨٥] ؛ ومنذ ذلك التاريخ عُدّ هؤلاء النساء بين « الزانيات اللاتى لا يقعن تحت الحصر » بحيث كن فى عهد « كيمفر » يملأن حوانيت الشاى فى القرى ، كما يملأن الفنادق أينما وجدتها على طول الطريق[٨٦] ومع ذلك فقد لبثت الحفلات والعائلات تدعو فتيات « الجيشا » ليقمن بالتسلية فى الاجتماعات ؛ وفتحت مدارس تتلقى فيها فتيات « الجيشا » الناشئات على أيدى « الجيشا » القديمات مختلف أوضاع الفن ؛ وكان يحدث أحياناً أن يجتمع المعلمات والمتعلمات معاً فى حفلات الشاى ، ليقمن بعرض الجانب المحتشم من ألون ما يعرفنه من فنون ؛ والآباء الذين يتعــذر عليهم أحياناً أن يعولوا بناتهم ، كانوا يوافقون بمحض اختيارهم على تدريب بناتهم فى فنون « الجيشا » لعل ذلك يكون مورد كسب لهن ؛ وما أكثر القصص اليابانية التى تروى عن بنات أسلمن أنفسهن لهذه الحرفة إنقاذاً لأسراتهن من أنياب الجوع[٨٧].



فتيات حيفا

إن هذه العادات — مهما بلغت من غرابة تفزع لها فزعاً — لا تختلف فى جوهرها عن عادات الغرب ونظمه الاجتماعية ، اللهم إلا فى الصراحة والتهذيب ولطف الأداء ؛ وإنه ليقال لنا على سبيل التأكيد أن الأغلبية الكبرى من فتيان اليابان ، لم تزل عفيفة كعذراوات الغرب سواء بسواء[٨٨] ؛ فعلى الرغم من هذه النظم الصريحة ، ترى اليابانيين يحيون حياة لا بأس بها من حيث النظام والاحتشام ؛ وعلى الرغم من أنهم كثيراً ما كانوا يأبون الجرى مع دوافع الحب فى عقد الزواج الدائم مدى الحياة ، فقد كان فى وسعهم أن يظهروا أرق العواطف إلى نحو ما يميلون إليه من أشياء ، فما أكثر الأمثلة التى نصادفها فى حوادث التاريخ ، وفى الوقائع الخيالية التى وردت فى الأدب اليابانى ، التى تدل على أن الشبان والشابات قد قتلوا أنفسهم آملين أن يتمتعوا فى الآخرة الأبدية بالاتصال الذى حرمه عليهم آباؤهم على هذه الأرض[٨٩] ؛ وليس الحب هو الموضوع الرئيسى فى الشعر اليابانى ؛ لكنك مع ذلك تسمع نغماته هنا وهناك بسيطة مخلصة عميقة على نحو لا يضارعها فيه أدب آخر :

آه ، تحولت الأمواج البيض على مدى البصر ،
مما أراه طافياً على بحر « أيسى »
زهراتٍ
أجمعها طاقةً
أقدمها هدية لحبيبتى[٩٠]

ثم اسمع « تسورايوكى » العظيم يحكى قصة حبه المرفوض فى أربعة أسطر ، مزج فيها الطبيعة بشعوره مزجاً يميز الأدب اليابانى :

أتقول ألا شىء وشيك الزوال
مثلَ زهرة الكريز ؟ ... لكنى أذكر لحظة
ذبلت فيها زهرة الحياة بكلمة واحدة
ولم تعد تتحرك من الريح هبّةٌ[٩١]

الفصل السادس

القديســـون

الدين فى اليابان — تحول البوذية — الكهنة — الشداك

إن شعور الولاء الذى يعلن عن نفسه فى الوطنية وفى الحب وفى حب الوالدين وحب الأبناء وحب الخليل وحب الوطن ، هو نفسه الشعور الذى لا بد أن يلتمس فى الكون باعتباره كلا واحداً ، قوة رئيسية يتوجه إليها بالولاء ، ويستمد منها شيئاً من القيمة والمعنى اللذين يكونان أوسع نطاقاً من حدود الشخص الواحد ، وأدوم بقاء من حدود عمر واحد ؛ ولئن كان اليابانيون على درجة من الاعتدال فى تدينهم — فهم ليسوا كالهندوس فى عمق إيمانهم الدينى وشدة انغماسهم فى ذلك الدين ، كلا ولا هم يشبهون قديسى الكاثوليكية فى العصور الوسطى فى حدة عاطفتهم الدينية وتهوسهم فى عقيدتهم حتى بلغوا فى ذلك حد تعذيب أنفسهم ، وقل ذلك عن رجال الإصلاح الدينى المتنازعين ، لم يكن اليابانيون مثل هؤلاء ولا هؤلاء ، ومع ذلك فقد أخلصوا إخلاصاً ظاهراً للتقوى وللصلاة وللفلسفة التى تنتهى بهم إلى التفاؤل ، حتى لقد تميزوا بذلك من بنى عمومتهم المتشككين الذين كان يفصلهم عنهم البحر الأصفر .

لقد جاءت البوذية من لدن مؤسسها سحابة قاتمة من التشاؤم ، تدعو الناس إلى الموت ، لكنها لم تلبث تحت سماء اليابان أن تحولت إلى عقيدة قوامها آلهة وافية ، وإلى محافل دينية تبعث الغبطة فى النفوس ، وأعياد مرحة وحجيج إلى روائع الطبيعة على غرار ما كان يتمناه روسو ، وجنة موعودة تسرى عن الصدور كروبها ؛ نعم إن البوذية آمنت بالجحيم كما آمنت بالجنة — بل آمنت

بوجود عدد من الجحيمات يبلغ مائة وثمانية وعشرين ، أعدت لشتى الغايات ومختلف الأعداء وآمنت بعالم للشياطين ، كما آمنت بعالم للقديسين ، كذلك آمنت بوجود شيطان مشخص (يسمونه أونى) له قرون وأنف أنطس ومخالب وأنياب ، ويسكن فى مكان مظلم يقع فى الشمال الشرقى ، وأنه آناً بعد آن يغرى النساء بالذهاب إليه هناك ليمتعنه ، كما يغرى الرجال ليستمد منهم فى غذائه مادة البروتين[٩٢] ؛ ولكن إلى جانب هذا كله كانت عقيدة البوذية اليابانية أن هناك « بوذين » كثيرين على استعداد أن يخلعوا على بنى الإنسان جزءاً من الرحمة التى جمعوها مقداراً على مقدار بسبب عودتهم إلى الحياة مرة بعد مرة ، وفى كل مرة يقضون حياتهم فى فضيلة ، وكانت هنالك كذلك عقيدة فى آلهة رحيمة ؛ مثل « مولاتنا كوانون » ومثل « جيزو » الذى يشبه المسيح ؛ وفى أمثال هؤلاء تجد الرحمة الإلهية بأدق معانيها ؛ وكانت العبادة يؤدَّى بعضها صلاةً عند مذابح المنازل أو عند أضرحة المعابد ، على أن معظم عبادتهم كان يتخذ صورة المواكب المرحة ؛ كانت الديانة فيها تخلى المكان الأول لمظاهر الغبطة والفرح ، وكانت التقوى تنبدى علائمها فى لبس النساء للأثواب الجميلة ، وفى انغماس الرجال فى ألوان المتع ؛ ويستطيع العابد الجادّ فى عبادته أن يطهر روحه بالصلاة مدى ربع ساعة تحت شلال دافق فى قلب الشتاء ؛ أو بالأخذ فى رحلات ينتقل فيها من ضريح إلى ضريح من أضرحة مذهبة ليشبع روحه أثناء هذه الرحلات بجمال أرض الوطن ؛ ذلك لأن اليابانى يستطيع أن يختار لنفسه مذهباً من عدة مذاهب فى البوذية : فله أن يحقق وجود نفسه وأن يلتمس سعادة نفسه عن طريق شعائر « زِنْ » (أى التأمل) الهادئة ؛ وله أن يتبع « نيشيرين » المتأجج فيأخذ عنه مذهب اللوتس ويظل فى صيام وصلاة حتى يظهر له بوذا بشخصه ، وله أن يختار لطمأنينة نفسه مذهب الأرض الطاهرة ؛ بحيث لا يجد الخلاص إلا فى الإيمان ؛ وله أن يختار لنفسه سبيلها فى حج صبور إلى حيث دير « كوياسان » وهناك يبلغ الجنة بأن

يدفن فى أرض تقدست بفضل ما فيها من عظام « كوبودايشى » — ذلك العظيم فى علمه وفى تدينه وفى فنه، وهو الذى أسس فى القرن التاسع مذهب « شنجون » أى مذهب « الكلمة الصادقة » .

وعلى وجه الجملة فالبوذية اليابانية هى من أمتع ما اعتقدت فيه الإنسانية من أساطير ، ولقد غزت اليابان مُسالمةً ، ولم يتعذر عليها وأن تخلى من نفسها مكاناً فى لاهوتها وفى عداد آلهتها، لمذاهب « شنتو » وآلهتها فاندمج بوذا عندهم بـ « أماتيراسو » وخصص مكان متواضع فى المعابد البوذية لضريح « شنتو » وكان الكهنة البوذية الذين ظهروا فى القرون الأولى رجالا فيهم الولاء وفيهم العلم وفيهم الرحمة ، وكان لهم أثر عميق فى تقدم الآداب والفنون فى اليابان ، حتى لقد كان منهم رسامين أو نحاتين من الطراز الأول ، كما كان بعضهم علماء ، أخذوا على أنفسهم ترجمة الأدب البوذى والصينى ، فكانت ترجماتهم تلك حافزاً قوياً على التقدم الثقافى فى اليابان على أن هذا النجاح كان سبباً فى إفساد الكهنة فى العصور المتأخرة ، إذ أصبح منهم كثيرون آميل إلى الكسل والجشع (لاحظ فى هذا الصدد الصور الرمزية التى كثيراً ما يصورهم بها اليابانيون الذين يحترفون مهنة النقش على العاج أو الخشب) ، و بعُدَ بعض أولئك الكهنة عن بوذا بعداً فسيحاً بحيث راحوا ينظمون لأنفسهم جيوشاً ينشئون بها سلطة سياسية أو يحافظون بها على مثل هذه السلطة السياسية إن كانت قائمة(٩٣) ؛ ولما كان الكهنة يهيئون للناس ضرورة هى أولى ضرورات الحياة — وأعنى بها تهيئة الأمل الذى يسرّى عن النفوس . فقد ازدهرت صناعتهم حتى فى الوقت الذى تدهورت فيه صناعات الآخرين ؛ وأخذت ثروتهم تزداد قرناً بعد قرن ، بينما لبث الشعب فقيراً على حاله(٩٤) ؛وقد أكد الكهنة للعباد المؤمنين بأن الرجل فى سن الأربعين يمكنه أن يشترى عقداً آخر من السنين يضيفه إلى حياته إذا هو دفع رسوماً لأربعين معبداً تدعو له بذلك ، ويمكن للرجل فى سن الخمسين أن يشترى عشر سنين أخرى إذا دفع الرسوم لخمسين

معبداً تدعو له ، وفى سن الستين يستأجر ستين معبداً — وهكذا حتى يموت بسبب ما قد يكون فى تقواه من نقص[٩٥](*) ، وكان الرهبان فى عهد « توكوجاوا » يشربون الخمر إلى درجة الإسراف ويحيطون أنفسهم بالغانيات صراحة ، ويمارسون اللواط(**) ، ويبيعون أحسن مناصب الدين إلى من يدفع فيها أغلى الأثمان[٩٦] .

ويظهر أن البوذية قد فقدت سلطانها على الأمة خلال القرن الثامن عشر ؛ واتجه الحكام العسكريون نحو الكونفوشية ، ونهض «مابوشى» و « موتوأورى » فتزعما حركة تدعو إلى إحياء عقيدة « شنتو » ؛ وحاول علماء من أمثال « إشيكاوا » و « أراى هاكوسيكى » أن ينقدوا الدين نقداً عقلياً ؛ فقال « إشيكاوا » فى جرأة بأن الأصول الدينية التى تتناقلها الأجيال عن طريق الرواية الشفوية يستحيل أن تبلغ من اليقين مبلغ المدوّنات المكتوبة ؛ وأن الكتابة لم تدخل اليابان إلا بعد ألف عام تقريباً من الأصل المزعوم للجزر اليابانية وأهليها من أن هذه الجزر وهؤلاء الأهلين قد نشأوا من قطرات الرمح التى أمسك بها الآلهة ، أو من أصلاب هؤلاء الآلهة ؛ وأن ادعاء الأسرة الإمبراطورية بأنها من أصل إلهى ، إن هو إلا حيلة سياسية ، وأنه إذا لم يكن أسلاف البشر بشراً مثلهم فالأرجح أن يكونوا حيواناً ، فذلك أقرب إلى التصديق من أن يكونوا آلهة[٩٩] ؛ وهكذا بدأت المدنية فى اليابان القديمة — كما بدأت فى بلاد كثيرة غيرها — بالدين ، وها هى ذى تدنو من ختامها بالفلسفة .

(*) يقول مردوخ : « كان الرهبان فى دير كيوتو » و « نارا » العظيمين يبلغون ذروة مجدهم المادى فى الأوقات التى كان يتضور الشعب فيها جوعاً ، أو يموت بعشرات الآلاف من الوباء ، لأن المؤمنين بالدين يسخون فى هداياهم وعطاياهم أعظم سخاء فى أمثال هذه الأوقات »[٩٦].

(**) فى سنة ١٤٥٤ ... كان الصبية يباعون غالباً الكهنة ، فكان هؤلاء الكهنة يحلقون لهم حواجبهم ويزينون وجوههم بالمساحيق ويلبسونهم أردية النساء ، ويستعملونهم أسفل ضروب الاستعمال ، لأنه منذ عهد « يوشيمتسو » الذى ضرب مثلا سيئاً فى هذا الصدد وفى كثير غيره من الأمور ، والواط يزداد شيوعاً ، خصوصاً فى الأديرة ، ولو أنه لم يكن قاصراً على الأديرة وحدها »[٩٧] .

الفصل السابع

المفكرون

كونفوشيوس يصل اليابان – ناقد الدين – ديانة العلماء – كايبارا إكن – فى التربية – فى ألوان المتعة – المدارس المتنافسة – سبينوزا يابانى – إيتوجنساى – إيتوتوجاى – أوجيو سوارى – حرب العلماء – مايوشى – موتو أورى

جاءت الفلسفة – كما جاء الدين – إلى اليابان قادمة من الصين ؛ وكما أن البوذية قد انتهت إلى « نيبون » بعد دخولها فى « مملكة الشعب الوسطى الزاهرة » بستمائة عام ؛ فكذلك بلغت الفلسفة مرحلتها الواعية فى اليابان – متخذة صورة المذهب الكنفوشيوسى – بما يقرب من أربعمائة عام بعد أن أفاضت الصين على الكونفوشيوسية حياة جديدة ؛ ففى نحو منتصف القرن السادس عشر ، ظهر رجل من سلالة الأسرة اليابانية المشهورة ، وهو : « فيوچيواراسيجوا » ولم يُرْضه العلم الذى حصله باعتباره راهباً ؛ وكان قد سمع بحكماء عظماء فى الصين ، فقرر أن يرتحل إلى هناك طالباً للعلم ؛ ولما كان الاتصال بالصين محرماً فى سنة ١٥٥٢ ، فقد دبر الكاهن الشاب خطة يعبر بها مياه البحر فى سفينة كانت تشتغل بالتهريب ؛ وحدث أن كان يرقب هذه السفينة فى نُزُل فى الميناء ، فسمع إذذاك طالباً يقرأ بصوت عال باللغة اليابانية كتاباً صينياً عن كونفوشيوس ، فكم كانت غبطة « سيجوا » حين علم أن الكتاب من تأليف « شوهسى » تعليقاً على « العلم الواسع » ؛ فهمس لنفسه قائلا : « هذا هو ما كنت أسعى إليه منذ طويل » ؛ ولبث يبحث بحثاً لا يفتر حتى حصل على نسخة من هذا الكتاب كما حصل على نسخ من سائر ما أنتجته الفلسفة الكونفوشيوسية ، وانغمس فى تتبع ما فى هذه الكتب من مجادلات ،

حتى نسى رحلته إلى الصين ؛ ولم تمض بضعة أعوام حتى جمع حوله طائفة من طلبة العلم الناشئين ، الذين نظروا إلى فلاسفة الصين نظرتهم إلى وحى أوحى به إليهم عن عالم جديد طريف يسوده الفكر الدنيوى ؛ وسمع « أيياسو » بما قد انتهت إليه تلك الدراسات ، فطلب من « سِجوا » أن يأتيه ليعرض عليه مضمون هذه المؤلفات الخالدة التى تنسب إلى كونفوشيوس ؛ لكن الكاهن المعتد بنفسه آثر البقاء فى مكانه الهادئ الذى يدرس فيه ، وأرسل بدلا عنه أحد تلاميذه النابهين ؛ ورغم عكوفه هذا ، أخذ الشباب الممتاز فى عصره بفاعلية العقل ، يحج إليه ويطرق بابه ، واستوقفت محاضراته الأسماع إلى حد جعل الرهبان البوذيين فى كيوتو يرفعون عقائرهم بالشكوى ، قائلين إنها لثورة أن يقوم كاهن أصيل لم يزل فى سلك الكهنوت ، فيلقى محاضرات عامة أو يعلم الشعب(١٠٠) ، غير أن الأمر حُلَّتْ عقدته بموت « سجوا » موتاً مفاجئاً (سنة ١٦١٩) .

وسرعان ما كسب تلميذه الذى أرسله إلى « أيياسو » شهرة فاقت شهرته ، وأصبح له من التأثير ما بزَّ به تأثير أستاذه ؛ وكان تلميذه هذا هو « هاياشى رازان » الذى مال إليه الحكام العسكريون الأولون من أسرة « توكوجاوا » ، فجعلوه مستشارهم وطلبوا إليه أن يصوغ لهم الكلمات التى يتوجهون بها إلى الشعب ؛ وضرب « أيمتسو » مثلا لطائفة النبلاء ، إذ جعل يختلف إلى محاضرات « هاياشى » فى سنة ١٦٣٠ ؛ وسرعان ما ملأ هذا الشاب الكونفوشيوسى صدور سامعيه حماسة للفلسفة الصينية ، حتى لم يعد عسيراً عليه أن يجتذبهم من البوذية والمسيحية على السواء ، ويضمهم إلى العقيدة الخلقية البسيطة التى أشاعها حكيم « شانتونج » فى أرجاء الشرق الأقصى ؛ فقد أنبأهم أن اللاهوت المسيحى خليط من أوهام خلقها الخيال ولا تعقلها العقول ، كما أنبأهم أن البوذية مذهب يفت فى عضد الأمة اليابانية ويتهدد نسيجها بالوهن وروحها المعنوية بالضعف ؛ يقول لهم « رازان » . « إن كهنتكم يذهبون إلى أن

هذه الحياة الدنيا فانية زائلة ؛ ثم تعملون أنتم على أن ينسى الناس علاقاتهم الاجتماعية ، وبهذا تقتلون فى الناس روح الواجب والفعل الصواب ؛ ثم تقولون إن طريق الإنسان محفوف بالخطايا ؛ فاهجر أباك وأمك وأبناءك ومولاك ، وابحث عن الخلاص ، وهأنذا أقول لكم إنى قد تعمقت الدراسة ، فلم أجد قط للإنسان طريقاً سوى ولائه لمولاه وطاعة الإبن لآبائه »[١٠١] ؛ وكان « هاياشى » ينعم فى شيخوخته بشهرة هادئة ، حين شبت النار الكبرى فى طوكيو سنة ١٦٥٧ ، فشملته بين من قضت عليهم من أنفس بلغت مائة ألف ؛ وكان تلاميذه قد أسرعوا إليه ينذرونه بالخطر الداهم ، لكنه لم يفعل سوى أن هز رأسه وعاد بنظره إلى الكتاب ؛ فلما دنت منه ألسنة اللهب ، أمر بمحفة يحمل فيها ، وحملوه وهو لم يزل يقرأ فى كتابه ؛ وقضى ليلته تلك — كما قضاها غيره ممن لا يحصيهم العدد — قضاها فى العراء تحت نجوم السماء ؛ ومات بعد ذلك بثلاثة أيام متأثراً بالبرد الذى أصابه أثناء الحريق .

وعوضت الطبيعة اليابان عن موته ، بأن هيأت لها فى العام الثانى لموته رجلا من أشد أنصار الكونفوشيوسية حماسة ؛ وذلك هو « موروكيوسو » الذى اختار لنفسه « إله العلم » إلهاً يرعاه ؛ فنى صدر شبابه قضى ليلة بأسرها أمام ضريح « متشيزان » يؤدى الصلاة ؛ ثم وهب نفسه للعلم بعزم الشباب ، وكانت عزيمته شديدة الشبه بعزيمة معاصره سبينوزا(*) .

سأنهض من نومى كل صباح فى الساعة السادسة ، وآوى إلى مخدعى كل مساء فى الساعة الثانية عشرة

ولن أجلس بغير عمل إلا إذا حال دون ذلك أضياف أو مرض أو غير ذلك من ظروف قاهرة ...

لن أنطق بباطل

(*) راجع فاتحة كتاب سبينوزا « فى الإصلاح العقل » .

سأجتنب الألفاظ التي لا تغني شيئاً ، حتى إن كنت أوجه الحديث
إلى من هم دوني

سأكون معتدلا في طعامي وشرابي

وإذا اشتعلتْ فيّ الشهوات ، سأقضي عليها فوراً ، دون أن أعينها قط
على التزايد

ن تشتت الفكر يفسد قيمة القراءة ، فسأقاوم جهدي كل ما يصرفني
عن حصر انتباهي ، وسأقاوم في نفسي العجلة الزائدة .

سأسعى إلى تثقيف نفسي بنفسي ، ولن أسمح للرغبة في الشهرة أو في
الكسب أن تحدث في عقلي اضطراباً .

إني سأنقش هذه القواعد في صفحة قلبي ، وسأحاول أن أتبعها .

وإني لأشهد الآلهة على ما أقول(١٠٢)

ومع ذلك فلم يكن « كيوسو » ليدعو الناس إلى عزلة العلماء التي نعهدها في رجال العصور الوسطى ، بل كان له من رحابة الأفق ما كان « لجيته » ؛ فوجّه نفسه وجهة تساير العالم في مجراه :

إن اعتزال الناس أحد الطرق ، وإنه لطريقة جميلة ، لكن الرجل الأعلى يسره أن يزور الأصدقاء ؛ إن الرجل ليصقل نفسه صقلا باتصاله بالناس ؛ وإن من أراد تحصيل العلم ، لا مندوحة له عن الصقل عن هذا الطريق ؛ أما إن اعتزل كل شيء وكل إنسان ، فإنما هو بذلك يجاوز جادة الصواب ... إن طريق الحكماء ليس منفصلا عن طريق الحياة اليومية . فعلى الرغم من أن البوذيين يستحبون أنفسهم من العلاقات الإنسانية ، فيبترون الرابطة بين المتبوع وتابعه ، وبين الوالد وولده ، فهم عاجزون عن بتر علاقة الحب من أنفسهم . . . . إنها أنانية أن تسعى وراء السعادة في العالم الآخر . لا تظنوا أن الله بعيد عنكم ، بل ابحثوا عنه في قلوبكم ، لأن القلب هو مقر الإله(١٠٣).

وأروع من يستوقف النظر من هؤلاء الكونفوشيوسين اليابانيين القدامى رجل لا يسلكونه عادة فى عداد الفلاسفة ، لأن مثل « جيته » ومثل « إمرسن » كانت له القدرة على صياغة حكمته فى عبارة رشيقة ، فأحس الأدب غيرة عليه ، وطالب به عضواً فى جماعة الأدباء ، وذلك هو « كايبارا إكِنْ » الذى كان ابن طبيب مثل أرسطو ، ثم خرج عن دائرة الطب إلى فلسفة تجريبية تتصف بالدقة والحذر ، فعلى الرغم من مشاركته فى الحياة العامة بسيرة مليئة بالعمل ، بما فى ذلك كثير من المناصب شغلها ، فقد وجد من وقته فراغاً يستعين به على أن يكون أعظم علماء عصره ؛ وبلغت كتبه عدداً يربى على المائة ، فكتبت له الشهرة فى أرجاء اليابان جميعاً ؛ وذلك لأنه لم يكتب كتبه تلك باللغة الصينية (كما كانت عادة زملائه الفلاسفة) بل كتبها باليابانية السهلة التى يستطيع كل من عرف القراءة أن يفهمها ؛ وعلى الرغم من علمه وشهرته ، فقد كان له — إلى جانب الغرور الذى تراه عند كل كاتب — تواضعٌ كالذى تراه عند كل حكيم ، ويروى الرواة أن مسافراً على سفينة كانت تشق طريقها بحذاء الساحل اليابانى ، تعهد لزملائه فى السفر أن يحاضرهم فى الأخلاق الكونفوشيوسية ؛ فأنصت له الجميع بادئ ذى بدء بما عرف عن اليابانيين من حب استطلاع وشغف بالزيادة من العلم ؛ ولكن ماكاد يمضى المتكلم فى حديثه قليلا ، حتى وجد السامعون أن كلامه بعث الملل إذ لم يكن للرجل أنف حساسٌ يهديه إلى التمييز بين الحقيقة الحية والحقيقة الميتة ، فانصرفوا عنه بعد وقت وجيز ، ولم يبق منهم إلا سامع واحد ، راح هذا السامع الواحد يتتبع البحث بتركيز عجيب فى انتباهه ، حتى سأله المحاضر حين فرغ من محاضرته ، ما اسمه ، فأجابه بصوت هادئ إن اسمه « كايبارا إكن » ؛ فخجل الخطيب إذ علم أنه لبث ساعة أو يزيد ، يحاول أن يلقن الكونفوشيوسية لرجل هو ألمع أعلام المذهب الكونفوشيوسى فى عصره [١٠٤] .

كانت فلسفة « إكن » خالية من اللاهوت خلو فلسفة « ك أونج » منه إذ

حصر نفسه فى حدود هذه الدنيا ما دام لا سبيل إلى معرفة سواها ؛ « إن حتى الناس يؤدون صلواتهم لآلهة مشكوك فى وجودها ، طلباً لسعادة أنفسهم فى الوقت الذى تراهم فيه يقترفون الموبقات[١٠٥] » ؛ وحاول أن تكون فلسفته عاملا على توحيد خبرة الحياة وحكمة العقل ، وتوحيد الشهوات والخلق المستقيم ، فقد كان من رأيه أن الأمر الأهم الذى يدعو قبل غيره إلى التفكير ؛ هو كيف نجعل من الشخصية الإنسانية وحدة متكاملة ، فذلك أجدى علينا من التفكير فى كيفية توحيد المعرفة ، وتراه يتحدث بلسان يدهشك أن تلمح فيه نغمة الزمن الذى نعيش فيه الآن .

« ليس الغرض من التعلم هو مجرد التوسع فى المعرفة ، بل الغرض هو تكوين الشخصية ؛ غاية التعلم أن نخلق من أنفسنا رجالا صادقين قبل أن نكون رجالا عالمين ... إن دراسة الأخلاق التى كانت تُعَدّ عماد التعليم فى مدارس العهد القديم تكاد لا تجد مكاناً فى مدارسنا اليوم ، لكثرة ما يطلب إلى التلاميذ دراسته من مواد ؛ لم يعد الناس يرون فى صالحهم أن ينفقوا مجهودهم فى الإصغاء إلى تعاليم الأعلين من رجال الحكمة القدماء ونتج عن ذلك أن ضحينا على المذبح الذى يسمونه « حق الفرد » بعلاقات الود بين السيد وخادمه ، والرئيس ومرءوسيه ، والكبير والصغير . السبب الحقيقى الذى حدا بالناس ألا يقدروا تعاليم الحكماء هو أن العلماء يحاولون أن يتظاهروا بعلمهم فذلك عندهم أولى من أن يعيشوا على غرار ما جاء فى تعاليم الحكماء »[١٠٦] .

ويظهر أن شباب عصره قد توجه إليه باللوم على جموده ، لأننا نراه يلقى فى وجوههم درساً لا بد لكل جيل قوى من الناس أن يعود إلى دراسته :

« قد تظنون يا أبنائى أن كلمات رجل كهل تدعو إلى السأم ومع ذلك فإذا ما لقنكم أبوكم درساً ، فلا تزوروا عنه ، بل اصـــغوا إلى ما يقول ؛ قد

تظنون أن تقاليد أسرتكم أمر سخيف ، ومع ذلك فلا تحطموها ، لأنها تجسيد لحكمة آبائكم »[٧٠١] .

ولعله كان يستحق اللوم على أهم كتبه وعنوانه « أونا ديكاكو » ومعناه « الحكمة العظمى للنساء » لأن هذا الكتاب كان له تأثير رجعي قوى على مركز المرأة فى اليابان ، لكنه لم يكن واعظاً متجهماً يحاول أن يتلمس الخطيئة فى كل ما يجلب المتعة ، فقد أدرك أن من مهام المربى أن يعلمنا كيف نستمتع بالبيئة التى نعيش فيها ، كما يعلمنا أن نفهم تلك البيئة وأن نتحكم فيها (إذا استطعنا) :

« لا تدعوا يوماً واحداً يفر من أيديكم بغير متعة . . . لا تسمحوا لحماقة الآخرين أن تنال من أنفسكم تعذيباً . . تذكروا أن الدنيا لم تخل من الحمق منذ أول خلقها . . . فلا ينبغى إذن أن نغم أنفسنا ، أو أن نضيع أسباب متعتنا ، حتى إن حدث لأبنائنا وأشقائنا وأقربائنا أن يكونوا أثرين فيتجاهلوا خير مجهوداتنا فى سبيل إسعادهم . . . إن « ساكى » (نوع من الخمر) هو هبة السماء الرائعة ، فهى توسع القلب إذا ما شربناها بمقادير قليلة ، وهى كذلك تنعش الروح إذا ما ناله الهم ، وتفرق الهموم وتصلح الصحة ، وبذلك تعين الإنسان وأصدقاءه أيضاً على التمتع بأسباب اللذة ، غير أن من يسرف فى شرابها يفقد احترامه ، وينزلق لسانه بالثرثرة ، وينطق بكلمات مسيئة كأنه مجنون . . . اشربوا « الساكى » بالمقدار الكافى لإنعاش نفوسكم ثم لا زيادة ، وبذلك يمكنكم أن تتمتعوا برؤية الزهر وهو يتفتح من أكمامه ، إن من الحمق أن تسرف فى الشراب فتفسد على نفسك هذه الهبة العظيمة التى وهبتها لك السماء »[٧٠٨]

ولقد وجد — كما وجد غيره من سائر الفلاسفة — أن الطبيعة هى آخر موئل يلوذ به ليلتمس سعادته :

« لو أننا جعلنا قلوبنا معين النعيم ، وأعيننا وآذاننا أبوابه ، ثم اجتنبنا سافل الشهوات إذن لتكاثر نعيمنا ، لأننا عندئذ نصبح سادة الجبال والماء والقمر

والزهور ؛ ولا يكون بنا حاجة إلى سؤال أحد يهبنا هذه الأشياء ؛ كلا ولا بنا أن ندفع سناً (مليا) واحداً لنظفر بها ، لأن هذه الأشياء لا يملكها إنسان بعينه إن أولئك الذين يستطيعون أن يستمتعوا بجمال السماء من فوقهم ، وجمال الأرض من تحتهم ، ليس بهم حاجة إلى أن يغبطوا الأغنياء على رفاهية عيشهم ، لأنهم عندئذ يكونون أغنى من أغنى الناس ؛ إن مشاهد الطبيعة فى تغير دائم ، فلست تجد صباحين أو مساءين على أتم تشابه ... فنى لحظة ما قد يحس الإنسان كأن جمال الدنيا بأسره قد انمحى ؛ لكن ما هو إلا أن يأخذ الثلج فى السقوط ، وينهض الإنسان من نومه فى الصباح التالى ، ليجد القرية والجبال قد تحولت إلى فضة ، وتدب الحياة فى الأشجار التى كانت عارية ، إذ يعود إليها بأزهارها ... إن الشتاء يشبه نعاس الليل ، الذى يجدد لنا القوة والنشاط .

إننى أحب الزهر ، فأنهض من نومى مبكراً
وأحب القمر ، فآوى إلى مخدعى متأخراً ...
إن الناس يجيئون ويروحون كأنهم مجارى الماء العابرة
أما القمر فباق على طول العصور[١٠٩]

لقد كان تأثير الكونفوشيوسية على التفكير الفلسفى فى اليابان أشد منه فى الصين نفسها ، لأنه قضى هناك على كل مقاومة من فريق الثائرين من جهة ، كما قضى على المثاليين المتصوفين من جهة أخرى ؛ إن مدرسة « شوشى » التى كان من رجالها « سيجوا » و « رازان » و « إكن » ، التى سميت بهذا الاسم نسبة إلى « شوهسى » لأنها اتبعت طريقته فى تفسير الكتب الصينية التى تحتوى على المتون ، تفسيراً توخى فيه التزام الأصل وعدم الحرية فى التصرف ، ولقد نهضت مدرسة أخرى ظلت تقاومها حيناً ، هى مدرسة « أويومى » التى كان على رأسها « وانج يانج منج »[*] الذى عرفه « نيبون » باسم « أويومى »

(*) راجع ما جاء عنه فى هذا الجزء الخاص بالمدينة فى الصين من هذه السلسلة .

ففلاسفة اليابان الذين كانوا ينتمون إلى مدرسة «أويومى» اقتفوا أثر «وانج» فى استدلال الصواب والخطأ الأخلاقيين من ضمير الفرد ، أكثر مما عمدوا فى ذلك إلى تقاليد المجتمع وتعاليم الحكماء الأقدمين ، يقول «ناكاى توجو» (١٦٠٨ — ٤٨) : «لقد لبثت أعواماً طوالا أومن إيماناً قوياً فى «شوشى» حتى شاءت رحمة الله أن ترد إلى اليابان لأول مرة مؤلفات «أيومى» ، ولولا ما استقيته من تعاليمها ، لظلت حياتى فارغة جدباء »[١١٠] ، وعلى ذلك أخذ «ناكاى» على نفسه أن يبشر بوحدانية مثالية ، تذهب إلى أن العالم وحدة من «كى» و«رى» — أى وحدة من الأشياء الجزئية (أو الأعراض) والعقل أو القانون ؛ والله ، وهذه الوحدة شيء واحد ؛ فعالم الأشياء جسده والقانون الكونى روحه[١١١] ، فقد جرى «ناكاى» مجرى «سبينوزا» و«وانج يانج منج» والفلاسفة المدرسين فى أوربا » فى قبوله لهذا القانون الكونى بشيء من الحب العقلى ، واعتبر الخير والشر لفظتين بشريتين ، ووجهة نظر ذاتية لا تعبر عن حقائق موضوعية ، وهو كذلك يشبه «سبينوزا» شبهاً عجيباً فى أنه رأى معنى من معانى الخلود فى الوحدة التأملية التى تدمج روح الفرد فى قانون العالم أى عقل العالم الذى لا يخضع لقيود الزمان :

«إن عقل الإنسان هو عقل العالم الذى يخضع فى سيره لمنطق العقل ، لكن هناك عقلا آخر يسمى بالضمير ، وهذا هو الجانب الذى لا ينتمى إلى عالم الأشياء بل هو لا نهائى وأبدى ، لأنه لما كان الضمير فينا هو نفسه العقل الإلهى أو الكونى ، كان بغير بداية أو نهاية ، فإذا ما سلكنا فى أفعالنا مهتدين بهذا الجانب من العقل ، أى بالضمير كنا بمثابة التجسيد اللانهائى والأبدى ، وكانت لنا حياة خالدة إلى الأبد »[١١٢] .

كان «ناكاى» رجلا له إخلاص القديسين ، لكن فلسفته لم تصادف هوى لا عند الشعب ولا عند الحكومة ، فقد ارتعدت حكومة الحكام

العسكريين للفكرة القائلة بأن كل إنسان له حق الحكم بنفسه فيما يعتبر صواباً وما يعتبر خطأ ، فلما نهض رجل آخر ، هو « كومازاوا بانزان » يبشر بمذهب « أويومى » ثم تجاوز حدود الميتافيزيقا وأوغل فى السياسة ، بحيث انتقد جهل « السيافين » وخواء حياتهم ، صدر أمر بالقبض عليه ، وكان « كومازاوا » يدرك أهمية العقبين فى الإنسان ، باعتبارهما عضوين ينفعان الفلاسفة بصفة خاصة فى الفرار ، فهرب إلى الجبال ، حيث قضى معظم ما بقى له من سنين فى غمرة الغابات[١١٣] ، وفى سنة ١٧٩٥ صدر مرسوم بحرم المضى فى تعليم فلسفة « أويومى » ، وكان العقل اليابانى من الاستسلام بحيث توارت تعاليم « أويومى » منذ ذلك الحين ، فاندست فى عبارات كونفوشيوسية ، أو دخلت عنصراً متواضعاً فى القانون العسكرى ، مما يدل على ما قد يبديه مجرى التاريخ من متناقضات ، إذا حولت العقيدة البوذية المسالمة إلى تعاليم توحى للمقاتلين المتحمسين للوطن بالقتال .

ولما تقدم البحث العلمى فى اليابان ، بحيث صار فى مقدور العلماء أن يتصلوا بكونفوشيوس فى أصوله إلا فى شروح الشارحين استطاع رجال من أمثال « إيتوچنسى » و « أوجيوسوراى » أن يؤسسوا المدرسة الكلاسيكية للفكر اليابانى ، التى أصرت على أن تتخطى الشارحين جميعاً ، فتصل بـ « ك أونج » العظيم اتصالا مباشراً ، ولم تكن أسرة « إيتوچنسى » لتتفق معه فى تقديره لكونفوشيوس ووصمته بأنه يسبح من دراساته فى عالم نظرى مجرد ، وتنبأت له بأنه سيموت فقيراً وأنبأته : « بأن البحث العلمى من خصائص أهل الصين ، أما فى اليابان فليس البحث العلمى بذى غناء ، لأنك حتى إن برعت فيه ، فلن تجد من تبيع له بضاعتك ، وخير لك ألف مرة أن تكون طبيباً وتكسب المال » لكن الطالب الناشئ أصغى إلى قول أسرته دون أن يستمع له ، ونسى منزلة أسرته وثراءها ، واطرح كل طموح مادى جانباً ، وتنازل عن بيته وأملاكه إلى أخيه الأصغر ، والتمس مكاناً معزولا يعيش فيه ليتابع

دراساته بغير اضطراب وكان ولاسيا حتى لقد ظنه الناس أحياناً أميراً ، لكنه ارتدى ثوب فلاح وتوارى عن أعين الناس ، يقول مؤرخ يابانى :

إن « چنسى » كان فقيراً معدماً ، بلغ من الفقر حداً أعجزه فى نهاية العام أن يصنع كعك الأرز الذى يصنعه الناس فى بداية العام الجديد ؛ لكنه كان ثابت الجنان إزاء فقره هذا ؛ ولقد جاءته زوجته وجثت على ركبتيها أمامه وقالت : « سأؤدى واجبات الدار مهما تكن الظروف لكن ثمت شيئاً لا يحتمل ، ذلك أن ولدنا « چنسو » لايفهم معنى ما نحن فيه من فقر ، وهو يغبط أبناء الجار على ما يأكلونه من كعك الأرز ، وإننى أؤنبه على ذلك ، لكن قلبى ينفطر له حتى ليكاد ينشق نصفين » لكن چنسى مضى منكباً على كتبه دون أن يجيبها بكلمة ، ثم خلع خاتمه العقيق وناولها إياه ، كأنما يقول لها : بيعى هذا واشترى بضعة كعكات من الأرز »[١٠٤] .

أنشأ « چنسى » فى كيوتو مدرسة خاصة ، وأخذ يحاضر هناك مدى أربعين عاماً ، وأهم ما قام به أنه درب عدداً يقرب من ثلاثة آلاف طالب فى الفلسفة وكان يتحدث آناً بعد آن فى الميتافيزيقا ، ويصف الكون بأنه كائن عضوى حى ، تتغلب فيه الحياة على الموت دائماً ، لكنه كان مثل كونفوشيوس يتحيز تحيزاً شديداً لما هو نافع على هذه الأرض .

« إن ما لاينفع فى حكم الدولة ، أو فى تيسير العلاقات بين أفراد الإنسان ، لاغناء فيه ... لا بد للتعلم أن يكون مصحوباً بالفاعلية والحياة ؛ ولا ينبغى أن يقتصر على مجرد النظريات الميتة أو التأمل ... إن من يعرف الطريق يلتمسها فى حياته اليومية ... إنك إذا حاولت أن تلتمس الطريق بعيداً عن العلاقات الإنسانية ، فأنت بمثابة من يحاول أن يمسك الريح ... إن الطريق المألوفة ممتازة بحسنها ، ولن نجد فى العالم ما يفوقها حسناً »[١١٥] .

وبعد موت « چنسى » مضى ولده « إيتو توجاى » فى مواصلة مدرسته وعمله ؛ وكان « توجاى » يهزأ بالشهرة ويقول « هل يسعك أن تسمى من ينسى اسمه بمجرد موته إلا بأحـــد اسمين ، فإما حيوان وإما رماد ؟ ولكن ألا يخطئ الإنسان إذا ما اشتدت رغبته فى تأليف الكتب وإنشاء العبارات لكى يلقى اسمه إعجاباً ولا ينساه الناس ؟ »(١١٦) وهو نفسه كتب مائتين واثنين وأربعين كتاباً ، ومع ذلك عاش حياة متواضعة تملؤها الحكمة ؛ ويشكو النقاد من أن هذه الكتب كانت كلها قوية فيما أسماه « موليير » بالفضائل التى تجلب النعاس ولكن تلاميذ « توجاى » يقولون إنه كتب مائتين واثنين وأربعين كتاباً دون أن يقول كلمة واحدة عن أى فلسوف آخر ، ولما مات وضعوا على قبره هذا « الشاهد » الذى نغطبه عليه :

إنه لم يتحدث فى أخطاء الآخرين ...
ولم يهتم بشىء إلا بالكتب
وكانت حياته خلواً من الحوادث(١١٧)

على أن أعظم رجل من أتباع كونفوشيوس المتأخرين، هو« أوجيوسوراى » فعلى حد قوله هو « منذ عهد جمو — أول أباطرة اليابان — لم يظهر من يوازينى إلا نفر قليل » وهو على نقيض « توجاى » فى أنه كان يحب النقاش ، وكان يعبر عن رأيه بقوة عن الفلاسفة الأحياء منهم والأموات ؛ فلما سأله سائل شاب : « ماذا تحب غير القراءة ؟ » أجاب « ليس أحبَّ إلىَّ من أكل الفول المحروق ونقد عظماء اليابان » ويقول «ناميكاوا تنچين » : « إن سوراى رجل جد عظيم ، لكنه يظن أنه يعلم كل مايمكن علمه . وهذه عادة سيئة »(١١٨) ، وكان فى مستطاع « أوجيو » أن يكون متواضعاً إذا ما أراد ذلك ، ومن رأيه أن اليابانيين جميعاً — ويذكر نفسه بينهم صراحة — قوم همج ، وليس يعرف المدنية غير أهل الصين ، وأنه « إذا كان هناك شىء لا بد من قوله ، فقد قاله

بالفعل الملوك القدامى أو كونفوشيوس»[١١٩]، وثارت فى وجهه فئة « السيافين » وفئة العلماء ، لكن الحاكم العسكرى المصلح « يوشيمونى » أعجبته فيه شجاعته ودافع عنه ضد السوقة العقلية ، وقد أقام « سوراى » منبره فى «يلدو» وراح يضحك ويسخر من « چنسى » الذى كان قد أعلن أن الإنسان خير بطبعه ، فما أشبهه فى ذلك بـ « هسون تسى » حين عارض النزعة العاطفية فى « موتى » أو بـ « هُبز » حين فند « روسو » قبل أن يأتى « روسو » إلى عالم الوجود ، وقال : « سوراى » إن الإنسان — على نقيض ما ظنه « چنسى » — شرير بطبعه ، يختطف كل ما تقع عليه يداه ، ولا يجعل منه مواطناً مقبولا إلا الأخلاق والقوانين الموضوعتين ، والتربية التى لا تلين فى معاملته :

« تثور فى الإنسان شهواته بمجرد ولادته ، فإذا عجزنا عن تحقيق تلك الشهوات فى أنفسنا — وهى شهوات لا حد لها — ينشأ النزاع ، فإذا ما نشأ نزاع أعقبته الفوضى ، ولما كان الملوك القدامى يكرهون الفوضى ، فقد وضعوا أسس اللياقة والاستقامة فى السلوك ، واستطاعوا بهما أن يلجموا شهوات الناس ... فليست الأخلاق سوى الوسائل الضرورية لضبط رعايا الإمبراطورية فهى لم تنشأ مع الفطرة ولا مع نزوات القلب الإنسانى لكنها من تدبير طائفة معينة من الحكماء امتــازت بذكائها ، ثم خلعت عليها الدولة مسحة السلطان[١٢٠] .

وكأنما أرادت الأيام أن تثبت تشاؤم « سوراى » ، فهبط الفكر اليابانى فى القرن الذى تلاه ، هبط حتى عن الحد المتواضع الذى كان قد ارتفع إليه بفضل محاكاته لكونفوشيوس ، وضاع أباديد فى حرب أراقت المداد بين وثنيى الصين ومؤمنى اليابان ، وفى هذه الحرب التى شنها الأقدمون على المحدثين ، كتب النصر للمحدثين ، لأنهم جعلوا الأسلاف موضع إعجابهم ، فتفوقوا فى ذلك على أعدائهم وكانت الطائفة التى تناصر الصين من العلماء « واسمها كانجا كوشا » تسمى بلادهم اليابان — وهى وطنها — قطراً همجياً ،

واحتجت بأن الحكمة كل الحكمة مقرها فى الصين ، وقنعت بترجمة الأدب والفلسفة الصينيين والتعليق عليهما ، أما العلماء الذين يناصرون اليابان (واسم جماعتهم واجاكوشا) فقد هاجموا هذا الموقف من معارضيهم لأنه موقف يؤدى إلى إشاعة الجهل ونبذ الروح الوطنية ، ودعوا أمتهم أن تستدبر الصين ، وأن تجدد قواها بالأخذ عن تراثها هى من شعر وتاريخ ، وهاجم «مايوشى» أهل الصين قائلا إنهم قوم أشرار بفطرتهم ، ومجد اليابانيين لأنهم خيرون بطبعهم ، وعزا فقر اليابان القديمة فى الأدب والفلسفة إلى أن اليابانيين لم يكونوا بحاجة إلى إرشاد فى الفضيلة ولا فى العقل(*) .

وحدث لطبيب شاب اسمه « موتو أورى نوريناجا » أن زار « مايوشى » فتأثر به إلى حد جعله ينفق أربعة وثلاثين عاماً فى كتابة أربعة وأربعين مجلداً ، بشرح فيها الـ « جوجيكى » ومعناها « مدونات الحوادث القديمة » — وهى المستودع الأصيل لأساطير اليابان ، وخصوصاً أساطير « شنتو » ، فجاء هذا الشرح وعنوانه « كوجيكى دن » ، هجمة عنيفة على كل ما هو صينى فى اليابان أو خارج اليابان ، واستمسك استمساكاً شديداً بالصحة الحرفية لما ترويه القصص البدائية عن الأصل الإلهى الذى نشأت عنه الجزر اليابانية ، والأباطرة والشعب ، وشجع هذا الكتاب طبقة المثقفين فى اليابان — رغم أنف الأوصياء على العرش عندئذ من أفراد أسرة توكوجاوا — شجعهم على الرجوع إلى لغة بلادهم وطرائق العيش فيها وتقاليدها ، ومعنى ذلك كله أن يعيدوا عقيدة « شنتو » بدلا من البوذية ، وأن يردوا للأباطرة سيادتهم على طبقة

(*) العبارة الآتية مقتبسة من تعاليم « مايوشى » كما بسطها « سير أ . ساتو » : « لما كانت ميول الناس فى العصور الخالية مستقيمة . لم يكن من الضرورى أن يتخذوا تشريعاً خلقياً معقداً ... لم يكن من الضرورى فى تلك الأيام أن يكون للناس مذهب فى الصواب والخطأ ، أما أهل الصين ، فلأنهم أشرار بفطرتهم ... كانوا خيرين فى الظاهر وحده وكانت أفعالهم الشريرة من الفداحة بحيث وقعت الجماعة فى حالة من الفوضى ؛ ولأن اليابانيين كانوا على استقامة فى الخلق ، فقد استغنوا عن التعلم(١٢١) .

الحكام العسكريين ، فقد كتب « موتو أورى » يقول : « كانت اليابان هى التى ولدت إلهة الشمس « آماتيراسو » ، وتدل هذه الحقيقة على سيادتها على سائر الأقطار جميعاً »[١٢٢] ، واستأنف تلميذه « هيراتا » — بعد موت موتو أورى — سبيل المحاجة فى الموضوع فقال :

« إنه لمما يدعو إلى الأسف الشديد ، أن يسود كل هذا الجهل بالشواهد التى تدل على المذهبين الأساسيين ، وهما أن اليابان بلد الآلهة ، وأهلها سلالة الآلهة فبين الشعب اليابانى وبين الصينيين والهنود والروس والهولنديين والساميين والكمبوديين وسائر أمم العالم ، خلاف فى النوع ، ولا يقتصر الأمر على اختلاف فى الدرجة ، فلم يكن مجرد الغرور بالنفس هو الذى جعل أهل هذه البلاد يسمونها أرض الآلهة ؛ فالآلهة الذين خلقوا كل بلاد الدنيا ينتمون جميعاً بغير استثناء إلى العصر الإلهى ، وجميعهم ولدوا فى اليابان ، فاليابان هى موطنهم الأول ، والعالم كله يعترف بصدق هـــذا النبأ ، فالكوريون هم أول من أتيح له أن يعرف هذه الحقيقة ثم انتشرت منهم تدريجاً حتى عمّت المعمورة بأسرها ، وآمن بها الناس أجمعون ... فلئن كانت البلاد الأخرى قد نشأت طبعاً بفعل قوة الآلهة الخالقة ، إلا أنها لم تكن وليدة « إيزاناجى » و « إيزانامى » ، ولا كانت المنشأ الذى ولدت فيه إلهة الشمس ، وهذا هو علة انحطاطهم عنا »[١٢٣] .

هؤلاء هم الناس ، وتلك هى الآراء ، التى كونت حركة « سونوچواى » ومرماها أن « تسمو بالإمبراطور ، وأن تطرد الأجانب الهمج » ؛ فكنت هذه الحركة إبان القرن التاسع عشر للشعر اليابانى أن يطيح بسلطة الحكام العسكريين ؛ وأن يعيد السلطان والسيادة « للبيت الإلهى » ، ثم أخذت هذه الحركة تلعب دوراً نشيطاً فى القرن العشرين ، إذ أخذت تغذى تلك الوطنية المستقلة التى لن تطمئن وترضى إلا إذا بسط « ابن السماء » سلطانه على ملايين الناس فى بلاد الشرق التى تعود ، إلى بعثها ، متكاثرة بخصوبة نسلها .

الباب الثلاثون

الفكر والفن فى اليابان القديمة

الفصل الأول

اللغة والتعليم

اللغة – الكتابة – التعليم

كان اليابانيون قد استعاروا طرائق الكتابة وأساليب التعليم من أولئك الصينيين الذين جعلوا يتهمونهم بالهمجية كما رأيت ؛ لكن اللغة كانت يابانية خالصة ، وأرجح الظن أنها كانت لغة منغولية قريبة الشبه باللغة الكورية ، لكنها لم تكن مشتقة من اللغة الكورية أو غيرها مما نعرف من لغات ، اشتقاقاً يقوم على صحته البرهان القاطع واللغة اليابانية تختلف عن اللغة الصينية بنوع خاص فى كثرة مقاطعها واتصال أجزائها رغم بساطتها ؛ فليس فيها أحرف حلقية ولا أحرف تخرج مع هواء التنفس ولا سواكن فى أواخر الكلمات (ما عدا حرف ن) وتكاد كل حروف المد فيها أن تكون منغّمة طويلة ، ونحوها كذلك طبيعى وسهل ، فقد استغنت فى الأسماء عن التمييز العددى بين المفرد والجمع ، كما استغنت عن التمييز الجنسى بين المذكر والمؤنث ؛ كذلك استغنت فى الصفات عن درجات التفضيل ، وفى الأمثال استغنت عن التصاريف التى تدل على ضمير من قام بالفعل ؛ وضمائر المتكلم والمخاطب والغائب فيها قليلة العدد ، وليس فيها أسماء للوصل على الإطلاق ؛ لكنها من جهة أخرى تحتوى على تصاريف تتغير بها الصفات والأفعال تبعاً للنفى ولصيغة

الفعل فى حالة الأمر مثلا أو غيره ، وهم يستعملون بدل أحرف الجر التى تسبق الكلمات المجرورة ، أحرفاً تأتى بعد الكلمات لتحدد المقطع الأخير من الكلمة ، وفى ذلك ما فيه من مشقة وعناء ، وحلت عندهم عبارات تكريمية معقدة ، مثل « خادمك المطيع » و « سعادتكم » محل ضمائر المتكلم والمخاطب.

وقد استغنت اللغة — فيما يظهر — حتى عن الكتابة ، إلى أن جاءها الكوريون والصينيون بهذا الفن فى القرون الأولى بعد ميلاد المسيح ، ومنذ ذلك الحين ، اكتفى اليابانيون مدى مئات من السنين بطريقة الكتابة التى شاعت فى « المملكة الوسطى » ليبعدوا بها عن كلامهم الذى يشبه فى جماله لغة الإيطاليين ؛ ولما كان حتما عليهم أن يستخدموا حرفاً كاملا من حروف الخط الصينى ليدل على كل مقطع من كل كلمة يابانية ، فقد أصبحت الكتابة اليابانية فى عصر « نارا » أعسر ضروب الكتابة التى عرفها الإنسان تقريباً ، ثم حدث فى القرن التاسع أن سن قانون يعمل على الاقتصاد فى هذا الاتجاه ، بأن يحدد كثيراً من الإشكالات اللغوية ، فأراح هذا القانون أهل اليابان بما قدمه إليهم من صور الكتابة المبسطة ، إذ قدم إليهم صورتين كل منهما يستعمل حرفاً صينياً — بعد اختصاره فى صورة خطية منحنية — ليمثل مقطعاً من المقاطع السبعة والأربعين التى منها يتألف الكلام المنطوق عند اليابانيين ؛ وهذه الأشكال التى تمثل السبعة والأربعين مقطعاً ، حلت عندهم محل أحرف الهجاء(*) ولما كان شطر كبير من الأدب اليابانى مكتوباً بالصينية ، ومعظم بقيته ليس مكتوباً بالكتابة المقطعية الشائعة ، بل هو مزيج من الأحرف الصينية وأحرف الهجاء اليابانية ، كان من المتعذر إلا على القليلين من العلماء العربيين أن يتمكنوا من الأدب اليابانى فى أصوله ؛ فنتج عن ذلك أن أصبح علمنا بالأدب اليابانى

(*) بسط الخط الكاتاكانى هذه الرموز المقطعية فجعلها خطوطاً مستقيمة كالتى تراها فى بعض حروف الطباعة وفى كتابة الإعلانات ، وفى اللافتات المضاءة فى اليابان الحديثة(٢) .

لا يتجاوز قطعاً متناثرة من هنا وهناك ، ولذا فهو علم يخدعنا عن الأصل ، ويستحيل أن يكون حكمنا على ذلك الأدب ذا قيمة كبيرة ، ولما وجد اليسوعيون أن حوائل اللغة تقف فى وجوههم سدوداً منيعة ، قرروا أن لغة تلك الجزر قد صاغها الشيطان ليمنع نشر تعاليم الكتاب المقدس (الإنجيل) فى بلاد اليابان(*) (٢) .

لبثت الكتابة أمداً طويلا بمثابة الترف يستمتع به أبناء الطبقات الرفيعة ، ولم يبذل أى مجهود إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى سبيل نشرها بين طبقات الشعب ؛ فنى عصر « كيوتو » أقام الأغنياء مدارس لأبنائهم ، كما أنشأ الإمبراطوران « تنشى » و « مومو » فى بداية القرن الثامن فى كيوتو ، أول جامعة يابانية ؛ ثم نشأت مجموعة من المدارس الإقليمية شيئاً فشيئاً ، تحت رقابة الحكومة ، كان من حق متخرجيها أن يلتحقوا بالجامعة ، ثم كان من حق من يخرج فى الجامعة بعد اجتياز الامتحان المطلوب ، أن يشغل مناصب الدولة ؛ لكن جاءت الحرب الأهلية فى الشطر الأول من العهد الإقطاعى ، فأوقفت هذا التقدم فى ميدان التعليم ، وأهملت اليابان فنون العقل حتى أسعفتها الحكومة العسكرية التى قامت عليها أسرة « توكوجاوا » بأن أعادت السلام وشجعت العلم والأدب ، وقد عدها « أيياسو » سبة فظيعة أن يجد تسعين فى كل مائة من طائفة « السيافين » لا يعرفون القراءة أو الكتابة(٥) وفى سنة ١٦٣٠ ، أنشأ

(*) جاءت الطباعة — كما جاءت الكتابة — من الصين ، باعتبارها جزءاً من التراث البوذى ؛ وأقدم ما بقى لنا من أمثلة الطباعة فى العالم ، طلاسم بوذية طبعت بأحرف ثابتة بأمر الإمبراطورة « شوتوكوا » فى سنة ٧٧ ميلادية(٣) ثم جاءت الأحرف الممكن تحريكها من كوريا حول عام ١٥٩٦ ، لكن كثرة النفقات التى يقتضيها طبع لغة لم تزل مؤلفة من آلاف الأحرف ، حال دون انتشار استعمال تلك الأحرف المتحركة ، حتى كانت النهضة (سنة ١٨٥٨) التى فتحت الأبواب للنفوذ الأوروبى وإلى يومنا هذا ، ترى الجريدة اليابانية تتطلب مجموعة من بضعة آلاف من الأحرف(٤) ورغم هذه الصعاب ، فإن الطباعة اليابانية من أجمل ضروب الطباعة فى عصرنا هذا .

« هياشى رازان » فى « ييدو » مدرسة تخرج المعلمين فى إداردة البلاد وفى الفلسفة الكونفوشيوسية ، ولقد تطورت هذه المدرسة فيا بعد.وأصبحت هى جامعة طوكيو ؛ وكذلك أسس «كومازاوا » سنة ١٦٦٦ فى « شيزوتانى» أول كلية فى الأقاليم ، وأجازت الحكومة للمعلمين أن يلبسوا السيوف ، فينافسوا طائفة « السيافين » فى منزلتهم الاجتماعية ، وبهذا شجعت طلاب العلم والباحثين والكهنة أن يقيموا مدارس خاصة فى المنازل والمعابد لتعلم الناس تعليما أوليا ؛ وبلغ هذا الضرب من المدارس ثمانمائة سنة ١٧٥٠ ، يتعلم فيها ما يقرب من أربعين ألفاً من الطلاب ، وكانت كل هذه المعاهد من أجل أبناء « السيافين » أما التجار والفلاحون ، فكان لا بد لهم أن يقنعوا بمحاضرات عامة ، ولم يكن يتعلم عن النساء على نحو منظم إلا الفتيات ؛ ولم يتسع التعليم بحيث يشمل الجميع إلا حين مست الضرورة ودعت الحاجة بتأثير الحياة الصناعية [٦] وهى فى ذلك شبيهة بأوربا .

الفصل الثانى

الشـعر

الـ « مانيوشو » — الـ « كوكنشو » — مميزات الشعر اليابانى — أمثلة — لعبة الشعر — مقامرو الـ « هوكا »

أقدم ما وصل إلينا من الأدب اليابانى هو الشعر ، وأقدم الشعر اليابانى هو خير شعر اليابان إطلاقاً فى رأى أصحاب العلم من أهل اليابان أنفسهم ؛ ومن أقدم وأشهر الكتب اليابانية ، كتاب الـ « مانيوشيو » ومعناها « كتاب العشرة الآلاف ورقة » ، وهو عشرون مجلداً ، جمع فيها ناشران الكتاب أربعة آلاف وخمسمائة قصيدة ، نظمها الشعراء خلال الأربعة القرون السالفة ، وفيها تجد على الأخص شعر « هيتومارو » وشعر « أكاهيتو » وهما الشاعران الرئيسيان اللذان ازدهر فيها الشعر فى عصر « نارا » ومن شعر « هيتومارو » هذه الأسطر الموجزة التالية التى كتبها يرثى بها حبيبته حين ماتت وتصاعد الدخان من جثمانها المحترق إلى شعاب التلال :

أواه ؟ أهذه السحابة هى حبيبتى ؟

هذه السحابة التى تجوب فى الوهد العميق

الذى يتخلل جبل هاتسوزو المنعزل ؟

ولقد حاول الإمبراطور « دايجو » محاولة أخرى ليحفظ الشعر اليابانى من أيدى الفناء ، فجمع ألفاً ومائة قصيدة نُظمت خلال القرن والنصف قرن الماضيين ؛ فجمعها فى ديوان مشترك أطلق عليه اسم « كوكنشو » ومعناها « قصائد قديمة وحديثة وكان مساعده الأيمن فى هذا العمل « تسورايوكى » الشاعر الظالم الذى كتب مقدمة للديوان ، هى لنا أمتع من المقطوعات التى جاء

لنا بها من ربة الشعر عندهم ، التى توجز القول إيجازاً — قال فى تلك المقدمة :

« الشعر فى اليابان كالبذرة ، تنبت من قلب الإنسان فتورق من اللغة أوراقاً لا حصر لعددها . . . فنى هذا العالم الملىء بالأشياء ، ترى الإنسان مجاهداً فى سبيل ألفاظ يعبر بها عن الانطباع الذى تركته المرئيات والمسموعات فى قلبه ... وهكذا حدث لقلب الإنسان أن يجد التعبير المنشود فى ألفاظ تمتعه وجدها فى جمال الزهر ، وفى إعجابه بتغريد الطير ، وفى حسن استقباله للضباب الذى يغسل بنداه سهول الأرض ، كما وجدها فى حزنه الذى شاطر به العطف على ندى الصباح السريع الزوال ... لقد اهتز الشعراء إلى قرض الشعر كلما رأوا البطاح بيضاء برذاذ الثلج الذى يتناثر من زهرات الكريز الساقطة فى أصباح الربيع ، أو سمعوا فى أمسيات الخريف حفيف الأوراق وهى تتساقط أو كلما رأوا مشاهد الأيام المؤلمة البشعة تنعكس أمام أعينهم على مرآة الحوادث عاماً بعد عام ... أو كلما أخذتهم الرعدة حينما رأوا قطرة الندى الزائلة ترتعش على الكلأ المزدان بلألائه »[٨] .

لقد أجاد « تسورايوكى » التعبير عن الموضوع الذى لم يفتأ الشعر اليابانى يتناوله — وهو ما تبديه الطبيعة من أوجه وحالات ، ومن ازدهار وذبول ، الطبيعةُ فى تلك الجزر التى جعلتها البراكين مشهداً للروائع ، وجعلها المطر الغزير دائمة الإيناع ، وإن الشعراء فى اليابان ليمرحون فيما لم تلكه الألسن من جوانب الحقول والغابات والبحر — فصغار السمك تنثر الرذاذ وهى تتقلب فى مجارى الجبال ، والضفادع تقفز فجأة من البرك الساكنة ، الشطئان تخلو من المد والجزر والتلال تقطعها كِسَف الضباب الذى سكن بلا حراك ، وقطرة المطر تأوى كأنها الجواهر المكنونة فى ثنية نجم من أنجم الكلأ ، وكثيراً ما يمزج شعراء اليابان فى شعرهم بين أغانى الحب وأشعار عبادتهم للطبيعة النامية ، أو تراهم يرثون رثاء مراً لما يرونه فى الازدهار والحب والحياة من قصر الأمد ، والعجيب أن هذه الأمة التى تموج بالمقاتلين ، قلما تتغنى فى شعرها بالقتال ، بل تراهم لا يبثون الحماسة فى القلوب إلا بترانيم يترنمون بها

حيناً بعد حين ، وكانت الكثرة الغالبة من القصائد قصيرة بعد عهد « نارا » فهذه مجموعة « كوكنشو » التي تحتوى ألفاً ومائة قصيدة ، لا تجد إلا خمساً منها فقط صيغت فى صورة الـ « تانكا » — وهى صورة تكون فيها القصيدة مؤلفة من خمسة أبيات ، أولها من خمسة مقاطع وثانيها من سبع ، وثالثها من خمس ، ورابعها من سبع ، وخامسها من سبع كذلك وليس فى هذه القصائد قافية ، ذلك لأن ألفاظ اللغة اليابانية كلها تقريباً تنتهى بحرف مد ، فلا تترك مجال الاختيار أمام الشاعر من الاتساع بحيث ينتقى مختلف القوافى ، وكذلك ليس فى شعرهم تفعيلات ولا نغم ولا مقدار معين من الكلمات فى البيت الواحد ، لكنك تجد فيه كثيراً من ألاعيب اللغة ، فتراهم مثلا يضيفون مقاطع فى أوائل الكلمات لا يكون لها معنى سوى ما تضيفه إلى الكلام من تنغيم ، ويستهلون قصائدهم بأبيات تعمل على تكملة الصورة أكثر مما تؤدى إلى تمام الفكرة ، ويربطون العبارات بألفاظ تحمل معنيين على نحو يثير فى القارئ الدهشة والانتباه ، ولقد خلع الزمن ثوباً من الجلال على أمثال هذه الألاعيب اللفظية عند اليابانيين ، كما هى الحال فى توافق اللفظ والمعنى وفى القافية عند الإنجليز ، وأشعارهم محببة لدى طبقات الشعب ، ومع ذلك فلا يؤدى ذلك بالشاعر إلى السوقية فى شعره ، بل الأمر على نقيض ذلك ، إذ تميل هذه القصائد الكلاسيكية إلى الارستقراطية فى فكرها ولفظها ، فلأنها ولدت فى جو تشيع فيه أبهة القصور ، تراها مصوغة صياغة روعى فيها الإحكام على نحو يكاد يجعل منها تعبيراً عن الأنفة والكبرياء ، وهذه القصائد تنشد كمال اللفظ والصياغة أكثر مما تبحث عن جدة المعنى ، وهى تكسب العاطفة أكثر مما تعبر عنها ، وهى فى كبريائها أرفع من أن تطنب القول وتطيل ، فلن تجد أرباب القلم فى أى بلد من بلاد الأرض سوى اليابان ، لهم ما لأدباء اليابان من تحفظ فى القول يعترفون به اعترافاً صريحاً ، فكأنما أراد شعراء اليابان أن يكفروا بتواضعهم فى القول عما زل فيه مؤرخوها من تهويل فى الفخر بأنفسهم ،

فيقول اليابانيون إنك إذا كتبت ثلاث صفحات عن الرياح الغربية ، زللت في ثرثرة السوقة ، فالفنان الأصيل لا ينبغي له أن يفكر القارئ ، بل واجبه أن يغريه حتى يستثير فيه نشاط التفكير لنفسه ، فلابد للفنان أن يبحث وأن يجد صورة حسية جديدة تثير في القارئ كل الأفكار وكل المشاعر التي يصر الشعر الغربي على بسطها في تفصيلاتها ، فكل قصيدة عند الياباني لا بد أن تكون سجلا هادئاً لوحي اللحظة التي كتبت فيها .

وعلى ذلك فإننا نضل سواء السبيل لو أننا بحثنا في هذه الدواوين أو في مجموعة المختارات التي تسمى « هيا كونن إشو » ومعناها « أشعار متفرقة لمائة شاعر » والتي هي شبيهة بالديوان الذي يجمع مختارات من الشعر الإنجليزي ويطلق عليه « الكنز الذهبي » — أقول إننا نضل سواء السبيل لو أننا بحثنا في هذه المجموعات عن قصيدة فيها حماسة أو عن ملحمة فيها حروب ، أو عن مطولات غنائية ، فهؤلاء الشعراء إنما أرادوا أن يخلدوا أنفسهم بسطر واحد يقول الواحد منهم ، فهاهو ذا « سايجيوهوشي » قد فقد أعز أصدقائه ، وانقلب راهباً ووجد في أضرحة « إيسي » ما كانت تنشده نفسه المتصوفة من عزاء ، فراح يقرض الشعر في عزيزه الفقيد ، لكنه لم يكتب قصيدة مثل « أدونيس » أو حتى « ليسيداس » (وهما قصيدتان من الشعر الإنجليزي) بل اكتفى بهذه الأسطر البسيطة :

ما هذا الذي
يسكن هاهنا
لست أدري
لكن قلبي ملء بنشوة الرضى
والدموع تنهمر من عيني[٩]

ولما فقدت « السيدة كاجا نوشيو » زوجها لم تكتب فيه سوى هذه السطور :

إن كل ما يبدو من أشياء

ليست سوى

حلم يطوف بحالم

إنى لأنام ... وإنى لأستيقظ ...

فما أفسح السرير بغير زوج فى جوارى[١٠]

وبعدئذ فقدت ابنها ، فأضافت إلى القصيدة بيتين آخرين :

كم طاف اليوم

هذا الباسل الذى يقتنص اليعاسيب[١١]

وبات نظم المقطوعات الشعرية (ويسمونها تانكات) لعبة أرستقراطية شاعت فى الدوائر الإمبراطورية فى « نارا » و « كيوتو » حتى ليستطيع الناظم أن يشترى عفة المرأة بواحد وثلاثين مقطعاً من الشعر يجيد صياغتها ، كما كانت عفة المرأة تباع فى الهند القديمة بفيل[١٢] ، وكان من المألوف أن يحيى الإمبراطور ضيوفه بكلمات يعطيها لهم مما يصلح لصياغة الشعر[١٣] ، ونرى فى أدب ذلك العصر إشارات ترد هنا وهناك ، تدل على أن جماعة من الناس يتطارحون الشعر أو ينشدونه وهم سائرون فى الطريق[١٤] وكان الإمبراطور — فى أوج العصر الهيوى — ينظم مباريات فى الشعر يشترك فيها ما يقرب من ألف وخمسمائة شاعر يتنافسون أمام محكمين من العلماء ، ليحكموا أيهم أفحل فى صياغة الموجزات الشعرية ، بل أنشئ فى سنة ٩٥١ مكتب خاص للشعر ، يشرف على تنظيم هذه المباريات ، والقصائد الرابحة فى كل مباراة تحفظ فى دار المحفوظات .

وجاء القرن السادس عشر ، فأحس الشعر اليابانى عندئذ أنه يسرف فى طول القصائد ، وصمم على تقصير « التانكات » — وكانت « التانكا »

فى الأصل تكملة يضيفها شخص إلى قصيدة بدأها شخص آخر — فأصبحت بعد التقصير ما يسمونه « هوكو » أى « العبارة الواحدة » تتألف من ثلاثة أسطر تتكون أولها من خمسة مقاطع ، وثانيها من سبعة ، وثالثها من خمسة ، أى أن مجموعة المقاطع تكون سبعة عشر مقطعاً ، وكان نظم القصائد من نوع « الهوكو » هو البدْع الشائع فى عصر « جنروكو » (١٦٨٨ — ١٧٠٤) ، ثم بات البدع عندهم شغفاً بلغ حد الهوس ، ذلك لأن الشعب اليابانى شبيه بالشعب الأمريكى فى شدة حساسيته العاطفية العقلية التى تسبب سرعة التقلب فى الأنماط الفكرية ، وكنت ترى الرجال والنساء ، والتجار والجند ، والصناع والفلاحين ، يهملون شئون الحياة اليومية ليشتغلوا بصياغة شعرية موجزة من نوع « الهوكو » يصوغونها فى لحظة حين يُطلب إليهم ذلك ، ولما كان اليابانيون مولعين بالمقامرة فقد راحوا يراهنون بمبالغ جسيمة من المال فى مباريات تقام لنظم قصائد « الهوكو » حتى لقد خصَّص بعض المغامرين فى ميدان الأعمال أنفسهم لإقامة أمثال هذه المباريات يجعلونها مرتزقاً لهم ، فكانوا يحشدون كل يوم آلاف الناس المعجبين بهذا الضرب من التنافس ، ولذلك اضطرت الحكومة آخر الأمر أن تقاوم هذه الحلبات الشعرية ، وأن تمنع هذا الفن المأجور الجديد[١٥] ، وأنبغُ من أجاد الشعر من نوع الهوكو هو « ماتسوراباشو » (١٦٤٣ — ٩٤) الذى كان مولده — فى رأى يونى نوجشى — « أعظم حادثة فى تاريخ اليابان »[١٦] ، وكان « باشو » هـــذا سيافاً ناشئاً ، مات مولاه وأستاذه ، فكان لموته أعمق الأثر فى نفسه بحيث اعتزل حياة القصر ، وزهد فى لذائذ الجسد جميعاً ، وراح يضرب فى فجاج الأرض على غير هدى ، متفكراً ، معلماً ، وعبر عن فلسفته الهادئة فى نتف من شعر الطبيعة الذى ينزل من ذوّاقة الأدب فى اليابان منزلة رفيعة لأنه يضرب أروع الأمثلة للكلام كيف يوحى بالمعانى رغم إيجازه الشديد ، ومن قوله :

البركة القديمة
وصوت الضفدعة وهى تثب فى الماء

ومن قوله أيضاً :

ساق من حشيش حَطَّ عليه
اليعسوب محاولا أن يضيئه[١٧] ؟

الفصل الثالث

النـــثر

(١) القصص

السيدة موراساكي – قصة جنجي – امتيازها – القصص اليابانى فى
العصر المتأخر – كاتب فكه

لقد كانت القصائد اليابانية أشد إيجازاً من أن تصادف إعجاباً عند العقل الغربى ، فلنا أن نعزى أنفسنا بالقصة اليابانية ، إذ قد تبلغ روائع القصص عندهم عشرين جزءاً ، بل قد تبلغ أحياناً ثلاثين[١٨] ، وأرفع هذه القصص مكانة هى قصة « جنچى مونوجاتارى » (ومعناها الحرفى والصحيح هو ثرثرة تدور حول جنچى ») فهذه القصة فى إحدى طبعاتها تملأ أربعة آلاف ومائتين وأربعاً وثلاثين صفحة[١٩] ، وألفت هذه القصة الممتعة حوالى سنة ١٠٠١ ميلادية ، ألفتها « السيدة موراساكى نوشيكيبو » وهى من قبيلة فوچيوارا العريقة ، وقد تزوجت من رجل من هذه القبيلة عينها ، لكنه مات عنها فخلفها أرملة بعد الزواج بأربعة أعوام ، فجعلت تُسَرِّى عن نفسها بتأليف قصة تاريخية فى أربعة وخمسين جزءاً ، وبعد أن استنفدت كل ما كان لديها من ورق ، سرقت أوراق « السُّتْرات » البوذية المقدسة من معابدها ، واستخدمتها ورقاً لمخطوط قصتها[٢٠] ، فحتى الورق كان يوماً ضرباً من الترف .

وبطل القصة ابن لإمبراطور أنجبه من أقرب محظياته إلى نفسه ، وهى « اكيريتسوبو » ، وهى من روعة الجمال بحيث أثارت الغيرة فى صدور سائر المحظيات جميعاً ، وجعل هؤلاء يغظنها حتى قضين على حياتها غيظاً ، فاقرأ كيف تصف الكاتبة « موراساكى » الإمبراطور بأنه لا يجد فى موتها مايعزيه ،

ولعل الكاتبة فى هذا قد أسرفت فى تقديرها لمدى استطاعة الرجل أن يخلص فى حبه ، قالت :

« وكرت الأعوام ، لكن الإمبراطور لم ينس فقيدته ، وعلى الرغم من كثرة النساء اللائى جيء بهن له فى القصر لعلهن يثرن اهتمامه ، فقد أغضى عنهن جميعاً ، مؤمناً بأن العالم كله ليس فيه امرأة واحدة تشبه فقيدته ... ولم ينفك يشكو من القدر الذى لم يسمح لهما معاً بأن يفيا بالعهد الذى كانا يكررانه كلما أصبح صباح أو أمسى مساء ، وهو أن تكون حياتهما كحياة الطائرين التوأمين اللذين يشتركان فى جناح واحد ، أو كحياة الشجرتين التوأمتين اللتين تشتركان فى غصن واحد »[٢١] .

وكبر « جنچى » وأصبح أميراً فاتناً ، له من وسامة الشكل أكثر مما له من استقامة الأخلاق ، فجعل يتنقل من غانية إلى غانية تنقل « توم چونز » إلا أنه قد بذ فى تنقله ذلك البطل المعروف فى أنه لم يفرق بين ذكر وأنثى ، فهو يمثل فكرة المرأة عن الرجل — كله عاطفة وكله إغراء ، دائم التفكير ودائم الحب لهذه المرأة أو لتلك ؛ وكان « جنچى » أحياناً « إذا ما ألمت به الملمات ، يعود إلى بيت زوجته »[٢٢] ؛

وترى الكاتبة « السيدة موراساكى » تقص لنا مغامرته بالتفصيل على نحو تحس فيه بفرحها برواية قصته ، ملتمسة له ولنفسها العذر التماساً رقيقاً :

« إن الأمير الشاب كان يعدُّ مهملا لواجبه إهمالا لا شك فيه ، إذا لم يكن قد أسرف فى « فلتاته » الكثيرة ، وإن كل إنسان لا يسعه إلا أن يعد سلوكه هذا طبيعياً لا غبار عليه ، حتى لو كان سلوكاً يعاب على عامة الناس ... إننى فى الحقيقة لأكره أن أقص بالتفصيل أموراً قد تحوط هو نفسه كل الاحتياط فى إخفائها ، لكنى سأقص هذه التفصيلات ، لأننى أعلم أنك لو وجدتنى قد حذفت شيئاً ، فستقول : لماذا ؟ ألأن المفروض فيه أنه ابن إمبراطور ،

اضطرت إلى ستر سلوكه بستار جميل ، وذلك بحذف كل نقائصه ، وستقول إن ما أكتبه ليس تاريخاً ، والقصة ملفقة أريد بها التأثير على الأجيال التالية تأثيراً يخدعهم عن الحقيقة ، والقصة كما هى ستجعلنى فى أعين الناس ناقلة لأنباء الدعارة ، لكنى لا حيلة فى ذلك » [٢٣] .

ويمرض « جنجى » خلال مغامراته الغرامية ، فيندم على مغامراته تلك ، ويزور ديراً ليرتد إلى حظيرة التقوى على يدى كاهن ، لكنه فى الدير يلتقى بأميرة جميلة (يأبى تواضع الكاتبة إلا أن تسميها باسمها هى ، موراساكى) فتشغله تلك الأميرة حتى ليتعذر عليه أن يتابع الكاهن وهو ينحو إليه باللوم على خطاياه :

« بدأ الكاهن يقص القصص عن زوال هذه الحياة الدنيا وعن الجزاء فى الحياة الآخرة ، ولقد ارتاع جنجى حين تمثل له فداحة خطاياه التى اقترفها ، إنه لعذاب أليم أن يعلم أن هذه الخطايا ستظل واخزة لضميره ما بقى حيا فى هذه الدنيا ، فما بالك بحياة أخرى ستتلو هذه ، فياله من عقاب شديد ذلك الذى ينتظره فى مستقبله ! وكلما قال الكاهن شيئاً من هذا ، أخذ جنجى يفكر فى تعاسته ، ألا ما أجملها فكرة أن يرتد راهباً وأن يقيم فى مكان كهذا ! ... لكن سرعان ما استدارت أفكاره ناحية الوجه الجميل الذى كان قد رآه ذلك الأصيل واشتاق أن يعرف عن تلك المرأة شيئاً فسأل الكاهن : من ذا يسكن معك ها هنا [٢٤] ؟ » .

وتعاون الكاتبة المؤلفة بطلها جنجى على موت زوجته فى الولادة ، بحيث أتيح له أن يخلى مكان الصدارة فى بيته لأميرته الجديدة « موراساكى » (*) .

(*) إن كانت هذه السطور ليأسف أن يحول قصر الحياة بينه وبين المضى فى قراءة هذه القصة لكنه اضطر أن يكتفى بالجزء الأول من الأجزاء الأربعة التى نقل فيها « أرثر ويلى » قصة موراساكى نقلا دقيقاً .

وربما كان جمال الترجمة لهذا الكتاب هو الذى أضفى عليه هذه الروعة التى يمتاز بها من سائر الآيات الأدبية اليابانية التى ترجمت إلى الإنجليزية ، ويجوز أن يكون مترجمه — وهو مستر ويلى — قد فاق الأصل بترجمته كما هى الحال مع فتزوجرولد (فى ترجمته لرباعيات الخيام) ، فإذا ما تناسينا تشريعنا الخلق برهة — أثناء قراءة هذا الكتاب — وسايرنا حوادث هذه القصة التى تجعل الرجال والنساء « يتلاقحون كما يتلاقح الذباب فى الهواء » — على حد تعبير وردزورث فى ولهلم مايستر — لوجدنا فى « قصة جنجى » أروع لمحة فى مستطاعنا اليوم ، مما يتيح لنا رؤية ألوان الجمال المخبوء فى الأدب اليابانى ، فإن كاتبته « موراساكى قد كتبته بأسلوب طبيعى سلس ، سرعان ما يجعل موضوعها مادة حديثه مع أصدقائه ، فالرجال والنساء والأطفال بصفة خاصة ، الذين يحيون على صفحات قصتها الطويلة ينبضون جميعاً بالحياة الصحيحة ، والعالم الذى تصفه مصطبغ بصبغة الحياة الحقيقية التى نعيشها ونراها(*) ، على الرغم من أنها كادت تحصر نفسها فى القصور الإمبراطورية والدور الفخمة ، إن الحياة التى تصفها هى حياة العلية التى لا تهتم كثيراً بما تتكلفه الحياة وما يتكلفه الحب من نفقات ، لكنها فى حدود تلك الحياة ، تراها تؤدى الوصف أداء طبيعياً دون أن تضطر

(*) إن السيدة الكاتبة لتدخل بقصتها حتى فى البيوت العادية دخول الفاهمة لدقائقها ، وهى تجعل « أوكانو كامى » — وذلك حوالى سنة ١٠٠٠ — تعبر عن الرأى الحديث الذى يطالب للمرأة بحق التعليم : « وهناك كذلك الزوجة النشيطة التى — على الرغم من مظهرها — تلف شعرها وراء أذنها ، وتكرس نفسها تكريساً تاما لدقائق حياتنا المنزلية ، والزوج فى غدواته وروحاته حول العالم ، لا بد أن يرى وأن يسمع أشياء كثيرة لا يستطيع أن يتحدث فيها لمن لا يعرفهم ، لكنه يغتبط إذ يتحدث فيها إلى زوجته الحبيبة التى يمكنها أن تصغى إلى ما يقوله لها إصغاء المشاطرة لشعوره الفاهمة لعقله ، والتى يمكنها أن تضحك معه إذا ضحك ، وتبكى إذا بكى ، وكذلك كثيراً ما يحدث من أحداث السياسة ما يغمه غماً أو يمتعه متعة كبرى وعندئذ تراه ينفرد فى جلسته مشتاقاً أن يتحدث فى الأمر إلى صديق ، فلا تزيد زوجته على قولها له : « ماذا بك » ثم لا تأبه له ، فيكون انصرافها هذا عنه أكبر ما يسوء إليه »(٢٥) .

إلى الاستعانة فى قصتها بشواذ الشخصيات والحوادث لتثير بها اهتمام القارئ؛ فالأمر هو كما جاء فى العبارة التالية على لسان «أومانو كامى» عن بعض الرسامين الواقعيين ، معبرة عن رأى الكاتبة «السيدة موراساكى» :

«إن التلال والأنهار كما هى فى صورها المألوفة التى تراها الأعين ، والمنازل كما تقع عليها أينما سرت ، بكل ما لهذه وتلك من جمال حقيقى فى التناسق والشكل — لو أنك رسمت مناظر كهذه رسما هادئاً ، أو بينت ما يكمن وراء حاجز حبيب إلى قلبك ، معزول عن العالم مستتر عن الأبصار ، أو رسمت أشجاراً كثيفة على تل وطىء لا يشمخ بأنفه ، أقول لو رسمت هذا كله بالعناية اللازمة من حيث سلامة التكوين والتناسب والحياة — لكانت أمثال هذه الرسوم مما يتطلب أدق الحذق من أنبغ الأعلام ، وهى هى التى توقع الفنان العادى فى ألوف الأخطاء»[٣٦] .

ولا أحسب الأدب اليابانى بعدئذ قد أنتج فى القصة ما يوازى فى روعته قصة «جنچى» أو ما يساوى هذه القصة فى مبلغ تأثيرها على تطور اللغة تطوراً أدبياً[٣٧] ؛ نعم إن القرن الثامن عشر قد بلغ فى أدب القصة أوجاً ثانياً ، ووفق كثيرون من أدباء القصة فى التفوق على «السيدة موراساكى» لكنهم تفوقوا عليها فى طول ما رووا من حكايات أو فى مدى ما أباحوه لأنفسهم من تصوير للدعارة[٣٨] ، من ذلك مثلا كتاب «القصص التهذيبى» الذى نشره «سانتو كيُودِنْ» سنة ١٧٩١ ، لكنه كان بعيداً عن الغاية التى زعمها لنفسه — غاية التهذيب — بعداً حدا بأولى الأمر أن ينفذوا القانون الذى يحرم الفحش ، فيحكموا على الكاتب بأن تغل يداه خمسين يوماً وهو فى داره ، وكان «سانتو» هذا يتاجر فى أكياس الطباق والأدوية «البلدية» وتزوج من عاهرة ، وكسب الشهرة أول ما كسبها بكتاب أخرجه عن بيوت الدعارة فى لوكيو ، وبعدئذ أخذ يهذب من أخلاق قلمه شيئاً فشيئاً ، لكنه لم يقتلع بهذا التهذيب

من جمهور القراء ما تعودوه من إقبال على شراء كتبه إقبالا عظيما ، ولما وجد كل هذا التشجيع ، خرج على كل السوابق المعروفة فى تاريخ القصص اليابانى فطالب الناشرين بدفع شىء من المال ثمناً لكتبه ، إذ يظهر أن سابقيه من المؤلفين كانوا يكتفون من الأجر بدعوة يدعونها على عشاء ، وقد كان معظم كتاب القصة من الداعرين الفقراء ، الذين أنزلهم المجتمع مع الممثلين منزلة هى أدنى ما تكون المنزلة امتهانا[٢٩] ، وظهر قصصى آخر هو «كيوكونى باكين» (١٧٦٧ — ١٨٤٨) كان أقدر فناً فى قصصه من «كيودن» لكنه أقل استثارة لاهتمام قرائه ، وهو يماثل «سكُتْ» وديماس» فى صبه للتاريخ فى قالب قصصى يفيض بالحياة ، ولقد بلغ إعجاب قرائه به فى نهاية الأمر مبلغاً جعله يمط إحدى قصصه فى مائة جزء ، وكان « هوكوساى » يوضح قصص «باكين» بالرسوم ، ولبثا فى العمل زميلين حتى نشب بينهما الخلاف — وما داما من أبناء عبقر فلا بد من خلاف — ثم افترقا .

وأمرَحُ هؤلاء القصاصين جميعاً هو «چيپنشا إيكو» (مات سنة ١٨٣١) وهو فى اليابان يعادل «لى‌ساج» و «دكنز» ؛ «بدأ «إيكو» حياته الراشدة بثلاث زيجات ، فشل منها اثنتان بسبب أن حَمَوَيْه فى كلتا الحالين لم يفهما شذوذ مسلكه الناشئ عن اشتغاله بالأدب ؛ فقد رضى بالفقر متفكهاً ، لم يكن فى بيته أثاث . فعلق على جدرانه العارية صوراً للأثاث الذى كان يشتريه لو استطاع ، وفى أيام المواسم الدينية كان يضحى للآلهة بصور فيها رسوم لخير ما يمكن تقديمه من قرابين وقدم له الناس حوضاً للاستحمام — رغبة منهم فى التخلص من قذارته — فحمله على رأسه مقلوباً ، وراح يوقع به من اعترض طريقه من المارة معلقاً بالنكات فى بداهة سريعة على كل من وقع ؛ ولما جاءه الناشر فى زيارة إلى داره ، دعاه أن يستحم ؛ وقبل الناشر الدعوة ، فلبس صاحبنا ثياب الناشر أثناء استحمامه وزار كل من أراد زيارته فى ذلك اليوم

— وكان رأس السنة الجديدة — وهو فى تلك الثياب الفاخرة ، وآيته الأدبية هى قصة « هيزاكورياج » التى نشرها فى اثنى عشر جزءاً فى الفترة التى تمتد من ١٨٠٢ إلى ١٨٢٢ ، وهى تحكى قصة تهز قارئها هزا بالضحك ، على نحو ما تراه فى قصة « مجموعة مذكرات نادى پكْوك » (للكاتب الإنجليزى دكنز) ؛ ويقول « آستن » عن هذه القصة إنها أفكه وأمتع كتاب فى اللغة اليابانية كلها[٣٠] ، ولما كان « إيكو » فى فراش موته ، التمس من تلاميذه أن يضعوا على جثمانه قبل حرقه — وكان إحراق الموتى مألوفاً فى اليابان عندئذ — بضعة لفائف أعطاها إياهم فى وقار وجد ، ولما كان يوم جنازته ، وفرغ المصلون من تلاوة الدعوات ، وأشعل الحطب الذى أعد لإحراق جثمانه ، تبين أن تلك اللفائف كانت تحتوى على مفرقعات نارية أخذت تطقطق أثناء حرق الجثة طقطقة كلها مرح ونشوة ؛ وهكذا وفى « إيكو » بالعهد الذى قطعه على نفسه وهو شاب ، بأن يجعل حياته كلها مفاجآت حتى بعد موته .

(٢) التاريخ

المؤرخون — آرى ها كوسيكى

لن تجد فى كتابة التاريخ عند اليابانيين ما يمتعك بمثل ما يمتعك فى أدبهم القصصى ، على الرغم من أنه يتعذر عليك أن تفرق عندهم بين التاريخ والقصة ، وأقدم كتاب باق فى الأدب اليابانى هو « كوچيكى » ومعناها « ثبت بالآثار القديمة » وهو مكتوب بالأحرف الصينية بقلم « ياسومارو » سنة ٧١٢ ، وفى هذا الكتاب كثيراً ما تحل الأساطير محل الحقائق ، حتى ليحتاج القارئ أن يمعن فى إخلاصه للعقيدة الشنتوية لكى يقبل هذه الأساطير على أنها تاريخ[٣١] ثم رأت الحكومة بعد « الإصلاح العظيم » فى سنة ٦٤٥ أن الحكمة تقتضى أن تروى قصة الماضى رواية جديدة ، فظهر تاريخ جديد حول سنة ٧٢٠

عنوانه « ينهونچى » ومعناها « نيبون » وهو مكتوب باللغة الصينية ، ويزدان بفقرات سرقها الكاتب سرقة جريئة من الأدب الصينى ، وأحياناً أجراها على ألسنة أشخاص من اليابانيين القدماء ، دون أن يأبه مطلقاً للترتيب الزمنى للحوادث ؛ ومع ذلك فقد جاء الكتاب محاولة أكثر جداً فى روايته للحقائق من كتاب « كوچيكى » وكان هو بمثابة الأساس للكثرة الغالبة مما كتب بعدئذ من كتب فى التاريخ اليابانى القديم ، فمنذ ذلك الحين كتبت عدة كتب فى تاريخ اليابان كل منها يبزّ سابقه فى روحه الوطنية ، وقد كتب « كيتاباتاكى » كتاباً أسماه « چنتوشوتوكى » — ومعناها تاريخ التسلسل الحقيقى للملوك الإلهيين — وضعه على أساس هذه العقيدة المتواضعة الآتية ، التى أصبحت اليوم أمراً مألوفاً .

« إن ياماتو العظمى (أى اليابان) بلد إلهى ، فالسلف الإلهى لم يضع أساساً لبلد من بلاد الأرض سوى بلدنا ، وهو دون سائر البلاد قد لقى الرعاية من آلهة الشمس بحيث ولَّت على أموره سلسلة طويلة من أبنائها ، ولن تجد لمثل هذا شبيهاً فى البلاد الأخرى ، ومن ثم سميت اليابان بالأرض الإلهية »[٣٢] .

وطبع هذا الكتاب أول ما طبع سنة ١٦٤٩ ، فكان بداية للحركة التى قصدت إلى استعادة الإيمان القديم والدولة القديمة ، وهما الجانبان اللذان بلغا أقصى حدودهما فى المناقشات الحامية التى أقامها « موتو — مورى » وشاءت الأيام أن يكون « متسو — كونى » — وهو حفيد « أيياسو » نفسه — هو الذى يتصدى لكتابة كتابه الذى أسماه « داى نيهونشى (ومعناها « التاريخ الأكبر لليابان » ١٨٥١) فأخرج به صورة من مائتين وأربعين جزءاً صور بها الماضى الذى ساد فيه الأباطرة وساد النظام الإقطاعى ، فكان هذا الكتاب بعدئذ من العوامل التى هيأت اليابانيين لخلع حكومة توكوجاوا العسكرية من مراكز السلطان .

وقد يكون « آراى هاكوسيكى » أعلم المؤرخين اليابانيين وأبعدهم عن الميل إلى الهوى ، فعلمه هو الذى ساد الحياة العقلية فى « بيدو » فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، وقد سخر « آراى » من اللاهوت الذى كان يأخذ به مبشرو المسيحية الأرثوذكسية ووصفه بأنه « ممعن فى صبيانيته »[٣٣] ، لكن جرأته قد حدت به كذلك أن يهزأ ببعض الأساطير التى ظنها أهل وطنه تاريخاً[٣٤] ، وكتابه العظيم « هانكامپو » — وهو تاريخ « لدايمو » يتألف من ثلاثين جزءاً — يعد من أعاجيب الروائع الأدبية ، لأنه — فيما يظهر — قد تم تأليفه فى أشهر قلائل ، على الرغم مما لا بد أن يكون قد اقتضاه من كثرة البحث[٣٥] ، وقد استمد آرى بعض علمه وطائفة من أحكامه من دراسته للفلاسفة الصينيين ، ويقال إنه لما جعل يحاضر فى الآداب الكونفوشيوسية ، كان الحاكم العسكرى « أينوبو » يستمع إليه فى إقبال وإجلال حتى لم يكن ليذب البعوض عن رأسه فى الصيف ، وكان فى الشتاء ينحو بوجهه جانباً إذا أراد أن يمسح الرشح عن أنفه احتراماً للمحاضر[٣٦] ، وكتب « آراى » ترجمة لحياته فصور أباه تصويراً جليلا رسم به المواطن اليابانى فى خير صورة له وأبسطها .

« إننى أعود بذاكرتى إلى أول لحظة بدأت عندها أتعمق الأمور إلى صميمها ، فأجد حياته الرتيبة اليومية لم تكن تختلف فى يوم عنها فى يوم آخر ، فما كان يفوته قط أن يستيقظ قبل شروق الشمس بساعة ، ثم يستحم بماء بارد ، ويصفف شعره بنفسه ، وإذا اشتد برد الشتاء تعرض عليه امرأته — وهى أمى — أن تعد له ماء ساخناً ، لكنه لم يكن يرضى بذلك ، لأنه لم يكن يريد أن يتعب الخدم ، فلما زاد عمره على السبعين ، وتقدمت أمى كذلك فى سنها ؛ وكان البرد يشتد إلى درجة لا يحتملانها ، كانا يستحضران فى غرفتهما موقداً ويناما وأقدامهما ممدودة تجاهه ، وكان يوضع إبريق من الماء الساخن إلى جانب

المدفأة ، فيشرب منه أبي عند استيقاظه ، وكلاهما كان يقدس بوذا ، فكان أبي لايفوته قط — بعد أن يصفف شعره ويسوى ثيابه — أن يبدى علائم خشوعه لبوذا . . . وبعد أن يرتدى رداءه ، كان يجلس هادئاً فى انتظار تباشير الصباح ، وعندئذ يخرج إلى عمله الرسمى . . . إن أحداً لم يره قط وعلامات الغضب على وجهه ، ولست أذكر أبداً أنى رأيته يوماً — حتى إن ضحك — يستسلم للمرح الصاخب ، وأقل من ذلك حدوثاً أن تراه يسفل إلى الألفاظ الجارحة إذا ما شاءت له الظروف أن يؤنب أحداً ، وكان فى سمره لا يتكلم ما أمكنه السكوت ، كان رصيناً فى سلوكه ، فما رأيته قط جازعاً أو مضطرباً أو قلقاً . . . يحافظ على نظافة الغرفة التى كان يشغلها عادة ، ويعلق على الجدار صورة قديمة ، ويضع فى أصيص بعض زهرات من زهور الموسم ، وقد ينفق يومه ناظراً إليها ، كان قليل الرسم للصور يرسمها باللون الأسود على ورق أبيض ، لأنه لم يكن محباً للألوان الزاهية ، وإذا جادت صحته لم يطلب إلى الخادم أن يعينه فى شىء قط ، لأنه كان يعد كل شىء لنفسه بنفسه[٣٧] » .

(٣) المقالة

« السيدة سى شوناجون » — « كامونو — شومى »

كان « آرامى » كاتباً للمقالة كما كان مؤرخاً ، وله نتاج عظيم فى هذا اللون من الأدب (أدب المقالة) الذى ربما كان أمتع ضروب الأدب اليابانى جميعاً ، على أن الزعامة فى أدب المقالة — كما هى الحال فى القصة — كانت لامرأة ، فكتاب « صُوَرعلى الوسادة »(ماكورازوشى »الذى كتبته«السيدة سى شوناجون» يوضع عادة فى أعلى مراتب هذا الأدب ، كما أنه أول ما كتب فيه ، والسيدة الكاتبة قد نشأت فى نفس البلاط ونفس الجيل اللذين نشأت فيهما « السيدة

موراساكى » واختارت لقلمها الحياة المترفة الداعرة من حولها ، فراحت تصف تلك الحياة فى صور عابرة ، يستحيل علينا أن نلم بروعتها فى لغتها الأصلية إلا على سبيل التخمين ، مهتدين بما نراه باقياً فى الترجمة الإنجليزية لتلك الصور من آثار جمالها الفاتن ؛ والكاتبة من طائفة « فيوجيورا » وصعدت حتى أصبحت وصيفة الإمبراطورة ؛ فلما قضت الإمبراطورة نحبها ، توارت « السيدة سى » : فمن قائل إنها أوت إلى دير ، ومن قائل إنها انطوت فى ثنايا الفقر ؛ لكن كتابها ليس فيه ما يدل على صدق هذا القول أو ذاك ، وهى تنظر إلى الإباحية الخلقية فى عصرها ، بالعين المتساهلة التى عرف بها ذلك العصر ، ثم هى لا تنزل رجال الدين الماديين منزلة عالية من نفسها :

« إن الواعظ الدينى لا بد أن يكون وسيم المحيا ، إذ يسهل عليك عندئذ أن تحدج بعينيك فى وجهه ، وبغير ذلك يستحيل الانتفاع بحديثه ، لأن عينيك ستحومان هنا وهناك ، ويفوتك أن تصغى إلى قوله ؛ وإذن فالواعظون الدميمون تقع عليهم تبعة كبرى ... ولو كان رجال الوعظ يحيون فى عصر أنسب لهم من عصرنا ، لسرنى أن أحكم عليهم حكماً أقرب إلى صالحهم من حكمى عليهم الآن ؛ لكن الأمر كما أراه فى الواقع ، يدعونى إلى القول بأن خطاياهم أشنع فحشاً من أن تحتمل منا مجرد التفكير »[٣٨] .

ثم تضيف الكاتبة إلى ذلك قوائم صغيرة بما تحب وما تكره :

فالأشياء التى تبعث فى نفسها النشوة :

أن أعود إلى البيت من رحلة وقد امتلأت العربات حتى فاضت ،

أن يكون حول العربة عدد كبير من المشاة الذين يخفرون الثيرة والعربات تسرع فى السير ؛

زورق نهرى يسبح على الماء ،

الأسنان زينت بالسواد على نحو جميل ...
والأشياء التى تثير فى نفسها الكراهية :
غرفة مات فيها طفل
مدفأة انطفأت نارها
حوزى يكرهه ثور عربته
ولادة سلسلة متصلة من البنات فى بيت عالم ...

ومن الأشياء الممقوتة :

الناس الذين إذا قصصت عليهم قصة قاطعوك بقولهم : إننا نعرفها ثم يقولون القصة على صورة تختلف كل الاختلاف عما كنت تنوى أن تقوله ...

والرجل الذى تصادفه امرأة ، ويكون بينهما ود ، فيثنى على امرأة أخرى يعرفها ...

والضيف الذى يقص عليك قصة طويلة وأنت عجلان ...
شخير رجل تحب أن تخفيه ، والرجل ينام فى مكان لا شأن له به .. البراغيث(٣٩) .

وليس ينافس هذه السيدة فى مكان الصدارة من أدب المقالة فى اليابان ، إلا « كامو نو - شومى » ، الذى حُرِمَ خلافة أبيه فى حراسة الضريح الشنتوى « لكاموز » فى مدينة كيوتو ، فاعتنق البوذية حتى أصبح راهباً من رهبانها ؛ ولما بلغ من عمره عامه الخمسين ، اعتكف فى حديقة فى الجبل ، حيث انصرف إلى حياة التأمل ، وهناك كتب كتاباً يودع به الحياة الصاخبة ، وأسمى كتابه « هوجوكى » (١٢١٢) ومعناها « مدوّن الأقدام العشر المربعة » فبعد أن بيّن الصعاب والمضايقات التى يلاقيها الإنسان فى حياة المدنية ، ووصف

مجاعة سنة ١١٨١[*] أخذ يروى لنا كيف أقام لنفسه كوخاً مساحته عشرة أقدام مربعة وارتفاعه سبع أقدام ، واستقر فيه راضى النفس بفلسفة لا يعكر هدوءها شيء وزمالة هادئة لما يحيط به من كائنات الطبيعة ؛ ولا يسع الأمريكي الذى يقرؤه إلا أن يسمع فيه صوتاً شبيهاً بصوت « ثورو » وإن يكن صادراً من اليابان فى القرن الثالث عشر ؛ فالظاهر أن كل جيل لا بد له من كاتب يدعو إلى معاشرة الطبيعة بمثل كتاب « بيركة وولد ن » ..

(*) أسلفنا وصفها فى الفصل الثالث من الباب الثانى .

الفصل الرابع

المسرحية

المسرحيات « الغنائية » — خصائصها — المسرح الشعبى —
شيكسبير اليابان — خلاصة الرأى

وآخر ألوان الأدب ، وأعسرها فهماً علينا ، هى المسرحية اليابانية ؛ فما دمنا قد نشأنا فى جو من تقاليد المسرح الإنجليزى الذى يبدأ من رواية هنرى الرابع وينتهى برواية « مارية اسكتلندة » فكيف يمكن أن نعد آذاننا إعداداً يتقبل المسرحيات الغنائية اليابانية بما فيها من إطناب وحركات صامتة بالنسبة إلينا ؟ إنه لا بدلنا من نسيان شيكسبير والعودة إلى « إفريمان » بل والعودة إلى ما هو أبعد من ذلك فى الماضى ، إلى الأصول الدينية للمسرحية اليونانية والمسرحية الأوروبية الحديثة ؛ عندئذ نجد ما يعيننا على متابعة تطور التمثيل الصامت الشنتوى القديم ، والرقص الكهنوتى المسمى «كاجورا» ، حتى أصبح هذه الصورة التمثيلية الناطقة بالحوار ، التى تتألف منها المسرحية الغنائية عند اليابانيين ؛ ففى نحو القرن الرابع عشر أضاف الكهنة البوذيون أناشيد جوقية إلى التمثيل الطقوسى الصامت ، ثم أضافوا إلى ذلك شخصيات فردية ، ودبروا حبكه للمسرحية بحيث تفسح المجال أمام هذه الشخصيات فتفعل الأفعال كما تقول الكلام ، ومن ثم ولدت المسرحية[٤٠] ؛

كانت هذه المسرحيات — مثل المسرحيات اليونانية — تُؤدّى فى ثُلاثيات وكانوا يمثلون فى الفترات التى بين الفصول أحياناً ، ما يطلقون عليه « كيوجن » أى المهازل (أو التهريج) قاصدين بذلك أن يخففوا ويلطفوا من حدة العاطفة والفكر ؛ أما الجزء الأول الثلاثى المسرحى فقد كانوا يخصصونه لاسترضاء

الآلهة ، فكاد لا يزيد على تمثيل ديني صامت ؛ وأما الجزء الثاني فكان يؤدي بعدة مسرحية كاملة ، ويبتغون به طرد الأرواح الشريرة بتخويفها ؛ وأما الجزء الثالث فكان ألطف جواً ، يراد به تصوير جانب رائع من جوانب الطبيعة ، أو وجه ممتع من وجوه الحياة اليابانية[٤١] ؛ وكانت أسطر المسرحية تصاغ عادة في صورة الشعر المرسل ، بحيث يتألف البيت الواحد من اثني عشر مقطعاً ؛ وكان الممثلون ذوي منزلة اجتماعية حتى بين العلية ؛ فلا تزال بين أيدينا وثيقة تثبت أن « نوبونجا » و « هيديوشي » و « أيياسو » قد اشتركوا جميعاً كممثلين في إحدى المسرحيات الغنائية حول سنة ١٨٥٠ [٤٢] ، وكان كل ممثل يلبس قناعاً منحوتاً من الخشب نحتاً فنياً دقيقاً يجعل هذه الأقنعة تحفة عند هواة الآثار الفنية في عصرنا هذا ، وكانت مناظر المسرح قليلة ، إذ كانوا يعتمدون على الخيال القوي عند النظارة في خلق البطانة التي يتم الفعل المسرحي في جوها ؛ وأما الحكايات التي تمثل فمن أبسط الحكايات تأليفاً ، ولم يكن مجرى الرواية هو نقطة الاهتمام ؛ ومن أشيع تلك الروايات رواية تحكي عن « سياف » أصابه الفقر ، طرق بابه راهب جوال أراد الدفء ، فقطع له السياف أعز نباتاته ليوقد له بها ناراً ؛ وعندئذ تبين أن الراهب لم يكن إلا الوصي على العرش ، فأجزل العطاء للفارس ، وكما أننا في الغرب لا نفتأ نختلف إلى المسرح مرة بعد مرة لنسمع مسرحية غنائية ، روايتها قديمة ، وربما كانت رواية سخيفة أيضاً ، فكذلك ترى أهل اليابان ، — حتى يومنا هذا — يبكون كلما شهدوا هذه الرواية التي يتكرر تمثيلها بغير انقطاع[٤٣] ، ذلك لأن براعة التمثيل تعيد لهذه الرواية في كل مرة قوتها ومغزاها ؛ ولو قصد إلى المسرح متفرج متعجل عملي المقاييس ، فإنه قد يجد في أمثال هذه الأغاني التي صبت في قالب تمثيلي ، تسلية أكثر مما يجد فيها عظمة تأخذ عليه نفسه ، لكن اسمع ما يقوله فيها شاعر ياباني : « كم في المسرحية الغنائية من عناصر

المأساة وعناصر الجمال ، ولطالما طاف برأسي خاطر ، هو أننا نؤدى خدمة جليلة لا شك فيها ، إذا نحن أحسنا تقديم مسرحيتنا الغنائية فى الغرب ، ولو فعلنا لنتج عن ذلك احتجاج شديد ضد المسرح الغربى ، إن ذلك لو تم كان بمثابة الإيحاء باتجاه جديد »[٤٤] — ومع ذلك فاليابان نفسها لم تنتج من هذا الضرب المسرحى شيئاً منذ القرن السابع عشر على الرغم من أنها تقوم بتمثيلها اليوم وتقبل عليها إقبالا شديداً .

إن تاريخ المسرحية فى معظم البلاد عبارة عن تحول تدريجى من سيادة الجوقة إلى سيادة دور يقوم به فرد من الأفراد — وعند هذه النقطة تنتهى مراحل التطور فى الكثرة الغالبة من الحالات التى يتم فيها هذا الانتقال ، ولما تقدم الفن المسرحى فى اليابان من حيث تقاليده وروعته ، خلق شخصيات محببة إلى الناس صارت هى القوة السائدة فى المسرحية ، وأخيراً قل شأن التمثيل الصامت والموضوعات الدينية ، وباتت المسرحية حرباً بين أفراد تملؤهم قوة الحياة وقوة الخيال ، وهكذا ظهر المسرح الشعبى فى اليابان الذى يطلق عليه « كابوكى شيباى » وأول مسرح من هذا القبيل الشعبى ظهر حول عام ١٦٠٠ أنشأته راهبة ملت جدران الدير ، فأقامت مسرحاً فى أوساكا وجعلت ترتزق بالرقص على ذلك المسرح[٤٥] ، وكان ظهور المرأة على المسرح — كما هى الحال فى انجلترا وفرنسا بمثابة الثورة واقتراف إثم محرم ، ولما كانت الطبقات العليا قد اجتنبت هذه المحرمات (اللهم إلا فى خفاء يؤمنها من الخطر) فقد أوشك الممثلون أن يصبحوا طبقة منبوذة ، ليس لهم حافز اجتماعى يدفعهم إلى صيانة مهنتهم من الدعارة والفساد ، واضطر الرجال أن يقوموا بأدوار النساء ، وذهبوا فى إتقان تقليد النساء إلى حد لم يستطيعوا عنده أن يخدعوا النظارة فحسب ، بل خدعوا أنفسهم كذلك حتى لقد ظل كثير من هؤلاء الرجال الذين كانوا يمثلون أدوار النساء ، ظلوا نساء خارج المسرح[٤٦] وكان من عادة الممثلين أن يصبغوا وجوهم بألوان زاهية ، وربما يرجع ذلك

إلى خفوت الأضواء على المسرح ؛ كذلك كانوا يلبسون أردية ذات رسوم فاخرة لكي يدلوا بها على عظمة أدوارهم ، ثم لكي يرفعوا من قدر تلك الأدوار ؛ وغالباً ما كان يجلس خلف المسرح أو حوله أفراد أو جوقات ، تلقى الكلام المراد إلقاؤه ، وكان هؤلاء أحياناً هم الذين ينطقون بالكلام بينما يقصر الممثلون أنفسهم على الحركات المناسبة صامتين ؛ وأما النظارة فقد كانت تجلس على الأرضية المفروشة بالبُسُط ، أو فى مقصورات على الجانبين(٤٧) ؛

وأشهر الأسماء التى تصادفك فى المسرحية الشعبية فى اليابان هو « شيكاماتسو مُنْزاءمون » (١٦٥٣ — ١٧٢٤) الذى يقرنه مواطنوه بشيكسبير وأما النقاد الإنجليز ، فتراهم يمقتون هذه المقارنة ، فيتهمون « شيكاماتسو » بالعنف والإسراف والمبالغة فى قوة اللفظ وبعد حبكاته عن الواقع ، إلا أنهم يعترفون له « بشىء من القوة والفخامة البدائيتين(٤٨) ، والظاهر أن التشابه تام ، فتلك المسرحيات الأجنبية بالنسبة لنا ، تبدو لنا مجرد مسرحيات غنائية لأنه إما أن يكون معناها أو تكون دقائقها اللغوية خافية علينا ، وقد يكون هذا نفسه هو وقع شيكسبير على رجل لا يستطيع أن يقدر جمال لغته أو يتابعه فى أفكاره ، وربما كان « شيكاماتسو » قد غالى فى جعل العشاق فى مسرحياته ينتحرون على المسرح اليكون انتحارهم بمثابة الذروة التى تعلو إليها حوادث القصة على نحو ما نرى فى رواية « روميو وجولييت » لكن قد يكون له فى ذلك هذا العذر ، وهو أن الانتحار فى الحياة اليابانية أوشك أن يكون من الشيوع بمثل ما كان على المسرح .

إن المؤرخ الأجنبي عن البلاد ، لا يسعه فى هذه الأمور إلا أن يسجل ، لا أن يصدر حكمه ، فالتمثيل اليابانى فى عينى مشاهد عابر يبدو أقل فى درجة الرقى والنضوج من التمثيل الأوربى ، ولكنه أكثر منه قوة ورفعاً لأفئدة

المشاهدين ؛ إن المسرحيات اليابانية قد تكون أكثر تمشياً في سذاجتها مع سواد الشعب ، لكنها أقل تعرضاً لعوامل الضعف التى تنشأ عن الصبغة العقلية السطحية ، من زميلاتها فى فرنسا وانجلترا وأمريكا اليوم ؛ والعكس صحيح ، وهو أن الشعر اليابانى يبدو لنا خفيفاً ميتاً ، مبالغاً فى رقته الأرستقراطية نحن الذين تعودت أذواقنا المقطوعات الغنائية التى تكاد تبلغ فى طولها طول الملاحم (مثل قصيدة Maud) كما تعودت أذواقنا الملاحم التى يبلغ الملل من قراءتها حداً لا أشك معه فى أن هومر نفسه إذا اضطر أن يقرأ الإلياذة مجتمعة لترنح رأسه من نعاس ؛ وأما القصة اليابانية فالظاهر أنها عاطفية تثير حب التطلع فى نفس القارئ ، ومع ذلك فيخيل إلينا أن آيتين من آيات القصة الإنجليزية — هما قصة « توم چونز » وقصة « أوراق پكوِك » — يقابلان تمام التقابل قصتى « جنجى مونوجانارى » و « هيزا كوريج » فى الأدب اليابانى ؛ ويجوز أن تكون « السيدة موراساكى » أنبغ من « فيلدنج » العظيم نفسه فى دقتها ورشاقتها وسعة فهمها ؛ إن كل ما هو بعيد عن أنفسنا غامض علينا ، يكون مملولا سخيفاً بالنسبة لنا ، وستظل الأشياء فى اليابان غامضة علينا حتى نستطيع أن ننسى نسياناً تاماً تراثنا الغربى ، لنتشرب تراث اليابان تشرباً كاملا .

الفصل الخامس

فن الدقائق الصغيرة

تقليد مبدع – الموسيقى والرقص – « إنرو » و « نتسوكى » – هيدارى چنجارو – لاكيه

جاءت القوالب الخارجية للفن اليابانى من الصين ، مثلها فى ذلك مثل كل ظاهرة بادية من ظواهر الحياة اليابانية ؛ أما القوة والروح الداخليان ، فمثلهما مثل كل ما هو حيوى من أمور اليابان ، فى صدورهما عن الشعب نفسه ؛ نعم إن الموجة الفكرية والهجرة اللتين جاءتا إلى اليابان بالبوذية فى القرن السابع ، قد جاءتاها كذلك من الصين وكوريا بصور الفن وبالدوافع النفسية المرتبطة بتلك العقيدة ، التى ليست آصل فى الصين وكوريا منها فى اليابان ، بل إنه لمن الحق أيضاً أن العناصر الثقافية لم تدخل إلى اليابان من الصين والهند وحدهما ، بل جاءتها كذلك من أشور واليونان — فالملامح التى تراها فى بوذا كاما كورا مثلا أقرب إلى الملامح « اليونانية البكتيرية » منها إلى الملامح اليابانية ؛ لكن هذه الحوافز وإن تكن قد جاءت إلى اليابان من الخارج ، إلا أنها استُخدمت هناك فى إبداع ما هو جديد ؛ فسرعان ما تعلم شعب اليابان أن يفرق بين الجمال والقبح ؛ وكثيراً ما كان أغنياء تلك البلاد يؤثرون تحف الفن على الأرض أو الذهب(*) ، وكان رجال الفن فيها يعملون بإخلاص لفنهم أنساهم نفوسهم ، وهؤلاء الفنانون ، على الرغم من أنهم كانوا يجتازون

(*) قام قواد الجيش أيام « هيديوشى » بحملات حربية مظفرة ، والظاهر أنهم اكتفوا فى مكافأتهم على ذلك الظفر — أحياناً — لا بالضياع ولا بالمال ، بل بالتحف النادرة من الفخار والخزف(٤٩) .

دوراً طويلا عنيفاً من التدريب الفنى ، قلّ أن تقاضوا على فنهم أجراً أكثر مما كان يتقاضاه الصناع من أجور ؛ وإن شاءت لهم الأيام مرة أن يجيئهم شىء من ثراء ، راحوا يبددونه فى إسراف مستهتر ، ثم لم يلبثوا بعدئذ أن يعودوا إلى فقرهم الطبيعى الذى ترتاح إليه نفوسهم(٥٠) ، أما من حيث النشاط والذوق والمهارة ، فلم يكن يدانيهم إلا أرباب الفن من أهل مصر القديمة واليونان والصين فى عصورها الوسطى .

إن حياة الشعب نفسها كانت تتخللها علائم الفن — تراها فى نظافة بيوتهم وجمال ملابسهم ، وظرف حليهم ، وإقبالهم إقبالا فطرياً على الغناء والرقص ؛ ذلك لأن الموسيقى — كالحياة — جاءت إلى اليابان من الآلهة نفسها ؛ ألم تُغَنِّ « إيزانامى » فى جوقات جمعية عند خلق الأرض ؟ ونقرأ عنهم أن الإمبراطور « إنكيو » عزف على آلة موسيقية بعد ذلك بألف عام ، وقامت الإمبراطورة ترقص لعزفه ، وكان ذلك فى مأدبه إمبراطورية سنة ٤١٩ ، أقيمت احتفالا بافتتاح قصر جديد ؛ ولما مات « إنيكو » أرسل أحد ملوك كوريا ثمانين موسيقاراً ليعزفوا فى جنازته ، فعلم هؤلاء العازفون أهلَ اليابان آلات موسيقية جديدة وأنغاماً جديدة — بعضها من كوريا ، وبعضها من الصين ، وبعض ثالث من الهند — ولما نُصب الـ«دايبوتسو» فى معبد «تودايجى» فى نارا (٧٥٢) عزفت موسيقى الأساتذة من الصين فى احتفال التنصيب ؛ ولا يزال « بيت المال » الإمبراطورى فى نارا يعرض علينا الآلات التى استخدمت فى تلك الأيام السوالف ، وكان الغناء والإلقاء ، وموسيقى القصر وموسيقى الرقص فى الأديرة ، هى الضروب الرفيعة الموقرة من الموسيقى ، أما الأنغام الشعبية فكانوا يعزفونها على آلة يسمونها « بيوا » «أى قيثارة » أو على آلة يطلقون عليها « ساميزانه » و (وهى آلة ذات ثلاثة أوتار)(٥١) ، ولم يكن لليابانيين نوابغ فى التأليف الموسيقى ، ولا كان لهم كتب فى الموسيقى ، وتآليفهم الموسيقية الساذجة

التى كانوا يعزفونها فى خمسة أنغام على السلم الهارمونى الصغير ، لم يكن فيها اتساق فى النغم ، ولا كان عندهم تمييز بين ما هو صغير وما هو كبير من مفاتيح الموسيقى ، ومع ذلك فكل يابانى تقريباً كان يستطيع العزف على آلة من الآلات العشرين التى جاءتهم من القارة الأسيوية ؛ ويقول اليابانيون إن أية واحدة من هذه الآلات لو أتقن العزف عليها ، استطاعت أن ترقص الغبار العالق بسقف المكان[٥٢] والرقص نفسه شاع بينهم « شيوعاً لا نظير له فى أى بلد آخر »[٥٣] — ولم يكونوا يرقصون على سبيل إتمام مقتضيات الغرام بين عشيقين ، بمقدار ما كانوا يرقصون تنسكا فى العبادة أو فى الحفلات الجمعية ؛ فكان يحدث أحياناً أن يخرج أهل قرية بأسرهم ، فى أبهى حللهم ، ليحتفلوا بإحدى المناسبات السعيدة احتفالا راقصاً يشترك فيه الناس جميعاً ؛ وكانت الراقصات المحترفات يجتذبن حشوداً من الجماهير بمهارتهن فى الرقص ؛ وكنت تجد الرجال والنساء على السواء — حتى فى أرفع الطبقات — ينفقون من وقتهم زمناً طويلا فى هذا الفن ؛ فتقول « السيدة موراساكى » فى قصتها عن « جنجى » إنه حين رقص رقصة « موجات البحر الأزرق » مع صديقته « تونو — شوچو » تحركت العواطف فى صدور المشاهدين جميعاً ؟ « فلم يشهد أولئك المشاهدون قط فى حياتهم أقداماً تطأ الأرض بهذه الرشاقة كلها ، ولا شاهدوا رؤوساً قامت على أعناقها بهذا الجلال كله ... كانت هذه الرقصة من عمق التأثير فى النفوس ومن جمـــال الحركات ، بحيث اغرورقت عينا الإمبراطور فى ختامها ، وأجهش الأمراء والسادة كلهم بالبكاء »[٥٤] وقد كان كل من تسعفه ظروفه المالية ، يزين نفسه زينة ، لا يكتفى فيها بالوشى الجميل والدمقس المصور بالرسوم ، بل يضيف إلى ذلك تحفاً رقيقة هى من الخصائص المميزة لليابان القديمة ، بل توشك أن تكون تعريفاً يحدد معناها ؛ فكان النساء ينكمشن ليغازلن الرجال من وراء مرواح فتانة الجمال ، بينما الرجال يسيرون فى خيلاء بما حملوا من سيوف نقشت نقشاً نفيساً ، وما علقوا فى

مناطقهم من صناديق (يسمون الواحد منها « إنْرُو ») تدلت من أوساطهم بخيط سميك ، وكان الصندوق منها يتألف عادة من عيون نقشت فى العاج أو الخشب نقشاً دقيقاً ، يضعون فيها التبغ والنقود وأدوات الكتابة وغير ذلك مما يلزم استعماله أحياناً ، ولكى يمتنع سقوط الخيط منزلقاً تحت المنطقة ، كانوا يربطونه فى الجانب الآخر من المنطقة بوصلة صغيرة يسمونها « نتسوكا » (وهى كلمة مكونة من جزئين : « نى » ومعناها طرف ، و « تسوكا » ومعناها يربط) وكانت تلك الوصلة تعهد إلى فنان يرسم على سطحها المتغضن رسما مسرفاً فى الرقة والنفاسة ، رسما لآلهة أو شياطين أو فلاسفة أو حور أو طيور أو زواحف أو سمك أو حشر أو زهر أو أوراق شجر أو مناظر من حياة الناس ، وها هنا وجدت روح الفكاهة الشيطانية التى يتفوق فيها الفن اليابانى على سائر الفنون تفوقاً فسيحاً ، وجدت متنفساً طليقاً ، وإن يكن متواضعاً ، فلن يتكشف لك ما فى هذه التحف الفنية من لطف بالغ ودلالة كبرى ، إلا بعد فحص دقيق لها ، غير أن لمحة سريعة تنظر بها إلى صورة مصغرة لامرأة بدينة أو كاهن سمين أو قرد خفيف الحركات أو حشرات لطيفة ، مما كانوا ينقشونه على مساحة لا تبلغ بوصة واحدة مكعبة من العاج أو الخشب ، لتكفيك للتأكد مما كان للشعب اليابانى من خصال فنية فذة تنبض بحرارة العاطفة(*) .

وكان أشهر من حفر الخشب من اليابانيين هو « هيدارى چنجارو » (هيدارى معناها مبتور اليد اليسرى) ، فتنبئنا الأساطير كيف فقد ذراعا وكسب اسما ، وذلك أن ظافراً فى القتال طالب مولى « چنجارو » بحياة ابنته ، فنحت « چنجاروا » رأساً مبتوراً يمثل رأس مولاه تمثيلا بلغ من الصدق حداً جعل ذلك الظافر يأمر ببتر الذراع اليسرى لهذا الفنان عقاباً له على قتل

(*) مؤلف هذا الكتاب مدين لمستر « أدولف كروش » فى شيكاغو بالإذن له بفحص مجموعته الجميلة من هذه التحف : « النتسوكا » و « الإنرو » .

ابنة مولاه [٥٥] ؛ « چنجارو » هو الذى نحت بإزميله الفينة والقطة النائمة التى نراها فى ضريح « أيياسو » فى نِكُو » ، وهو الذى نحت كذلك « باب السفير الإمبراطورى » فى معبد « نيشى — هنجوان » فى كيوتو ؛ وقد قص الفنان على الجانب الداخلى من ذلك الباب قصة الحكم الصينى الذى طهر أذنه مما أصابها من دنس باستماعها لاقتراح عُرض عليه بقبول عرش بلاده ، وكيف نجمع قطيع الماشية فى تجهم ، يقاتل ذلك الحكيم لأنه أصاب ماء النهر بالنجاسة حين أراد تطهير أذنه الدنسة[٥٦] ؛ على أن « چنجارو » لم يكسب شهرته هذه إلا أنه أبرز فنان فى وضوح شخصيته ، من بين طائفة الفنانين الذى ذهب الزمان بأسمائهم ، والذين زينوا ألوف المبانى بالخشب المنقوش أو المدهون نقشاً أو دهناً جميلا ؛ ولقد لقيت شجرة « اللاكيه » فى جزر اليابان منزلة تتناسب مع شغف أولئك الناس بالفنون ، فكانوا يروونها فى عناية عظيمة ؛ وكان رجال الفن أحياناً يكسون نقوشهم التى نحتوها فى الخشب بطبقات من « اللاكيه » وأحياناً أخرى يسرفون فى فرض العناء على أنفسهم بأن يصبوا تمثالا من الطين ، ثم يجعلونه أجوف ، ثم يضعون فى جوفه عدة طبقات من « اللاكيه » كل طبقة تكون أسمك من سابقتها[٥٧] وهكذا رفع الفنان اليابانى مادة الخشب إلى منزلة المرمر ، وملأ الأضرحة والمقابر والقصور بأجمل ما تعرفه فى القارة الأسيوية من الزخارف الخشبية .

الفصل السادس

فن العمارة

المعابد — القصور — ضريح — أيباسو — المنازل

وفى عام ٥٩٤ أمرت الإمبراطورة « سويكو » أن تقام المعابد البوذية فى طول البلاد وعرضها ، إما اعتقاداً منها بما فى الدعوة البوذية من حق ، أو التماساً لما عسى أن يترتب عليها من نفع ؛ وعهد بتنفيذ هذا الأمر إلى الأمير « شوتوكو » فاستدعى من كوريا كهنة ومعماريين وناحتي الخشب وصائغي البرونز وصانعي النماذج من الطين وبنائين ومُذَهِّبين وصانعي القرميد ونساجين وغير هؤلاء من مهرة الصناع (٥٨) وقد كان فى استدعاء هذه الحملة الثقافية بداية تقريبية للفن فى اليابان ؛ ذلك لأن « شنتو » لم يكن يرضى عن زخرفة البناء ، ولم يكن يسمح بتشويه صور الآلهة فى تماثيل منحوتة ؛ أما مذ جاءت تلك البعثة الثقافية ، فقد امتلأت أرجاء البلاد بالأضرحة والتماثيل البوذية ؛ وكانت المعابد فى جوهرها شبيهة بمعابد الصين . غير أنها كانت أغنى من معابد الصين زخرفاً وأرق نحتاً ؛ وترى فى معابد اليابان ماتراه فى معابد الصين ، من بوابات فخمة على طول المرتقى أو المدخل الذى يؤدى إلى الحرم المقدس ؛ وتزدان الجدران الخشبية بناصع الألوان ، وترتكز السقوف القرميدية — التى تسطع فى ضوء الشمس — على عمد ضخمة ، ويفصل الضريح الأوسط من الأشجار المحيطة به أبنية صغرى كسلسلة من الأبراج مثلا أو معبد من الطراز المعروف باسم « باجودا » وأعظم ما أبدعه أولئك الفنانون الأجانب هو مجموعة المعابد التى فى « هوريوجى » والتى أشرف على بنائها الأمير « شوتوكو » ، وهى قائمة على مقربة من « نارا » وتم بناؤها عام ٦١٦ ؛

وإنه لما يذكر حسنة من حسنات الخشب باعتباره أدوم مواد البناء بقاء ، أن أحد هذه الأبنية الخشبية قد ظل قائماً رغم ما تعاوره من زلازل لا تحصى عدداً فكان أطول عمراً من مائة ألف معبد من المعابد التى شيدت بالحجر ، وكذلك مما يذكر على سبيل الفخر للبنائين الذين أقاموا تلك المعابد أن اليابان لم تشهد فيما بعد بناء واحداً يفوق هذا الضريح العريق فى القدم من حيث جلال البساطة ، وربما كانت المعابد المقامة فى « نارا » نفسها موازية فى جمالها لهذا الضريح ، وهى أحدث منه بقليل ، وخصوصاً « القاعة الذهبية » التى فى معبد « توديجى » والتى بلغ التناسب فى أجزائها حد الكمال . . ويقول « رالف آدمز كرام » إن « نارا » تحتوى على أنفس آيات الفن المعمارى فى آسيا »(٥٩) .

وبلغت العمارة فى اليابان أوجها الثانى فى عهد حكومة « أشيكاجا » العسكرية ، فقد صمم « يوشيمتسو » أن يجعل من كيوتو أجمل عاصمة على وجه



معبد كيوميزو

الأرض ، فشيد للآلهة معبداً من طراز « يا جودا » بلغ ارتفاعه ٣٦٠ قدماً ، وشيد لأمه « قصر التاكاكورا » الذى بلغت تكاليف باب واحد من أبوابه عشرين ألف قطعة من الذهب (ما يساوى مائة وخمسين ألف ريال) ثم شيد لنفسه « قصر الزهرة » الذى بلغت تكاليفه ما يساوى خمسة ملايين من الريالات ، وكذلك أقام لمجـد الشعب كله « البهو الذهبي » فى « كنكا كوجى »(٦٠) ، وأراد « هيديوشى » أيضاً أن ينافس « قبلاخان » فبنى فى « مرموياما » قصر النعيم ولم يكد يمضى على بنائه بضع سنين ، حتى شاءت أهواؤه المتقلبة أن يهدمه ، ونستطيع أن نحكم بما كان لذلك القصر من فخامة ، من « بوابة اليوم كله » التى أخذت منه ليزينوا بها معبد « نيشى بنجوا » وإنما أطلق على البوابة هذا الاسم لأن المعجبين بها يقولون إنك قد تظل يوماً كاملا تدقق النظر فى نقشها دون أن تأتى على كل ما فيها من روعة ، وكان « كانوييتوكو »

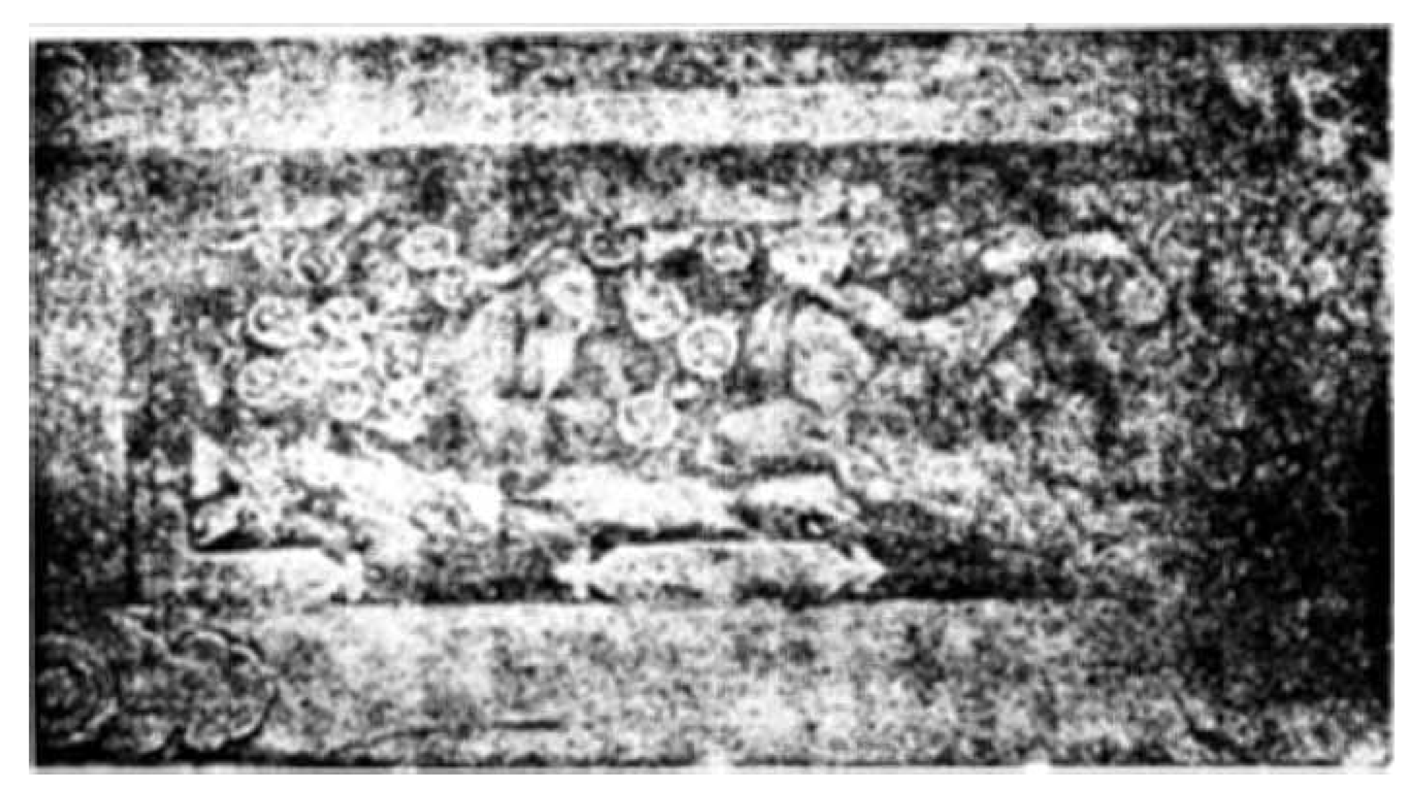


بوابة « يو — مى — مون »

لـ « هيديوشى » بمثابة « استينوس » أو « فيدياس » ، لكنه زخرف له مبانيه بما هو أقرب إلى فخامة البندقية منه إلى الاعتدال اليونانى ، فما شهدت اليابان قط ، بل ما شهدت آسيا قط قبل ذاك مثل هذا الزخرف الفاخر ، وكذلك حدث فى عهد « هيديوشى » أن بدئ فى « حصن أوساكا » المتجهم ، حتى تشكلت صورة البناء ، وأريد بذلك الحصن أن يشرف على موقع هو فى اليابان بمثابة « بتسبرج » ، وأن يكون مقبرة لولده .

وأما أيياسو ، فقد كان أميل إلى الفلسفة والأدب منه إلى الفنون ، لكن حفيده « أيميتسو » — الذى اكتفى بكوخ من الخشب يتخذ منه قصراً لنفســه — راح ينفق بسخاء من ثروة اليابان وفنها ، ليبنى حول رفات « أيياسو » فى « نكو » أجمل بناء تذكارى شيد من أجل فرد واحد فى أرجاء الشرق الأقصى ، فى هذه البقعة التى تبعد عن طوكيو تسعين ميلا ، وعلى قمة تل هادئ تبلغها بطريق مظلل مزدان بالقباب الفخمة ، فى هذه البقعة بنى مهندسو العمارة الذين استخدمهم الحاكم العسكرى ، سلسلة من المداخل الفسيحة المدرجة ، بنوا تلك المداخل بادئ ذى بدء ، ثم عقبوا عليها ببوابة مزخرفة لكنها رائعة ، وهى المعروفة باسم « يو — مى — مون » ، ثم أقاموا على مجرى مائى جسراً مقدساً حرام لمسه ، ثم سلسلة من المقابر والمعابد أقاموها بالخشب المبطن « باللاكيه » وهى تمتاز بجمال الأنوثة وضعفها ، فالنقوش فاخرة إلى حد الإسراف والبناء نفسه ضعيف ، وترى لون الطلاء الأحمر فاقعاً حولك حيثما أدرت البصر ، كأنه مسحوق الزينة الأحمر على شفاه امرأة بالغت فيه ، تراه فاقعاً وسط أخضر الأشجار الباهتة ، ومع ذلك فلنا أن نقول إن بلداً يزدهر بالازهار كل ربيع ، قد يكون أحوج إلى ألوان ساطعة للتعبير عن مشاعره ، من بلد أقل اضطراماً فى عاطفته يقنعه ويرضيه ما هو أقل من ذلك سطوعاً .

وليس فى وسعنا أن نقول إن هذه العمارة جبارة ، لأن شيطان الزلازل قد



قردة ، نكوكو ،

شاء لليابان أن تبنى على نطاق متواضع وألا تركم الحجارة بعضها فوق بعض حتى تعلو إلى السماء ، بحيث تتقوض حطاماً حين تعبس الإرض عبوساً يغضن جلدها ؛ ومن ثم تراهم يبنون بيوتهم من الخشب ، وندر أن يرتفع البيت عن طابق واحد أو طابقين ؛ ولم يجعل أهل المدن سقوفهم من القرميد — إذا استطاعوا إلى نفقاته سبيلا — إلا بعد أن عانوا من الحرائق المتكررة ، وبعد أن أمرت الحكومة بذلك أمراً جعلت تتشدد فى تنفيذه ، عندئذ فقط اضطر أهل المدن أن يغطوا بالقرميد أكواخهم أو قصورهم الخشبية

ولما تعذر على أبناء العلية أن يشمخوا بقصورهم إلى السحاب ، راحوا ينشرونها على أرض فسيحة ، على الرغم من الأمر الإمبراطورى الذى يحدد مساحة الدار الواحدة بمائتين وأربعين ياردة مربعة ؛ ويندر أن يكون القصر بناء واحداً ، بل كان القصر فى العادة يتألف من بناء رئيسى متصل بوساطة مماش مسقوفة بأبنية فرعية تعد لمختلف فروع الأسرة ؛ ولم يكن من عاداتهم أن يخصصوا غرفة للطعام وغرفة للجلوس وغرفة للنوم ، فالغرفة الواحدة تستخدم لكل الأغراض ؛ فإذا شاءوا طعاماً فما هى إلا لحظة واحدة حتى ترى المائدة قد مدت على أرضية الغرفة المغطاة بالحصير ، وإن أرادوا نوماً ، فما عليهم إلا أن يمدوا فراش النوم المطوية ، فيخرجوها من مخبئها وينشروها على الأرض مدة الليل ؛ والجدران قوامها أجزاء تتداخل ، أو تزال من مواضعها ، وبذلك يمكنهم فصل الحجرات بعضها عن بعض أو فتحها بعض على بعض ، بل إن الحائط الخارجى نفسه — بما فيه من شبابيك ونوافذ ، يمكن طيه بسهولة ليمكنوا الأشعة الشمس من الدخول كاملة ، ولنسيم المساء البارد من التغلغل فى ديارها ؛ وهم يضمون فى منازلهم أستاراً جميلة من فلقات الخيزران ، فتكسبهم تلك الأستار ظلا وستراً فى آن معاً ؛ والنوافذ هناك من علامات الترف ، إذ ترى بيوت الفقراء ذات فتحات كثيرة تُترك على حالها فى الصيف ليدخل الضوء ، حتى إذا ما جاء الشتاء سدوها بصنف من الورق

المشمع ليتقوا برد الشتاء ، إن نظرة إلى فن العمارة فى اليابان تدلك على أن تلك العمارة ولدت فى بلاد حارة ، ثم نقلت فى غير حذر إلى جزائر تمتد بأعناقها شمالا حتى تصل إلى كامشتكا التى ترتعش من شدة البرد وهـــذه المنازل البسيطة الرقيقة إذا ما شهدتها فى المدن الجنوبية ألفيت لها أسلوباً معمارياً . وجمالا خاصاً يميزها ، وهى هناك مساكن ملائمة لشعب كان يوماً من أبناء الشمس الذين تملؤهم نشوة المرح .

الفصل السابع

المعادن والتماثيل

السيوف - المرايا - ثالوث هوريوجي - التماثيل الكبيرة - الدين والنحت

كان سيف الرجل من طائفة « السيافين » أصلب عوداً من مسكنه ؛ لأن صناع المعادن فى اليابان بذلوا جهدهم كله فى صناعة أسياف تفوق أسياف دمشق وطليطلة[٦١] فقد كانوا يصنعونها من المضاء بحيث تكفى ضربة واحدة منها لشق الرجل من كتفه إلى فخذه ؛ وكذلك كانوا يزخرفونها بالمقابض والمدلّيات التى يسرفون فى تزيينها ، أو فى ترصيعها بالجواهر ، إسرافاً لم يجعلها دائماً صالحة للنقل ؛ ومن صناع المعادن من كانوا يختصون بصناعة المرايا من



الهالة البرونزية فى « أميدا » بمدينة « هوريوجى »

البرونز ، يصقلونها صقلا أثار خيال أصحاب الأساطير بحيث راحوا يروون أساطيرهم إعجاباً بما بلغته تلك المرايا من كمال ؛ من ذلك مثلا أن فلاحاً اشترى مرآة لأول مرة ، ونظر إليها فظن أنه يرى فيها وجه أبيه الميت ، فأخفاها على أنها كنز ثمين ؛ لكنه كان يتسلل إليها فارتابت زوجته فى أمره ، وأخرجت المرآة يوماً من مكمنها ، فما كان أشد فزعها حين رأت امرأة فى مثل سنها ، ورجحت أن تكون تلك المرأة خليلة زوجها(٦٢)، ومن هؤلاء الصناع من افتنّ فى صناعة الأجراس الضخمة ، مثل ذلك الجرس العظيم فى نارا (٧٣٢ ميلادية) الذى تبلغ زنته تسعة وأربعين طناً ، وكانوا يستخرجون من تلك الأجراس أنغامها الحلوة — أحلى من الأصوات التى تنبعث من مصفقاتنا المعدنية فى الغرب — بطرقها بلسان من خارجها ، يهزونه بوساطة عمود خشبى متأرجح .



« تمثال أميدا - بوذا » فى هوريوجى

وكان النحاتون أميل إلى استخدام الخشب أو المعدن منهم إلى استخدام الحجر ، لفقر بلادهم فى الجرانيت والمرمر ؛ ومع ذلك ، فعلى الرغم من صعوبات المادة كلها ؛ استطاعوا أن يفوقوا معلميهم من أهل الصين وكوريا ، فى هذا الفن الذى هو أوضح فن فى تحديد معالمه — فسائر الفنون كلها تحاول فى خفاء أن تحاكى ما يفعله النحات صابراً حين يزيل ما لا يجوز بقاؤه من مادته ، وأقدم آية فى فن النحت اليابانى تقريباً وربما كانت كذلك أعظم آيات اليابان فى ذلك الفن — هى « ثالوث هوريوجى » البرونزى —

وقوامه بوذا جالساً على برعم من براعم اللوتس بين بوذيْن منتظَرَيْن ، أمام ستار وهالة من البرونز ، لا يفوقهما جمالا إلا الوشى الحجرى الذى نراه على ستار « أورنجزيب » فى « تاج محل » ؛ ولسنا ندرى من ذا أبدعت يداه هذه المعابد فأقامها ، وتلك التماثيل فنحتها ؛ ولنا أن نقول إنها من إرشاد معلمين كوريين ، أو أنها اقتفت نماذج من الصين ؛ أو أنها تعزى إلى حوافز من الهند ، بل لنا أن نقول إنها متأثرة بمؤثرات يونانية جاءتها من أيونيا البعيدة عبر ألف من السنين ؛ لكن الذى لا نشك فيه هو أن هذا الثالوث آية من أبدع آيات الفن فى تاريخه كله(*) .

ويجوز أن يكون قصر قامة اليابانيين ، بحيث توشك أجسامهم أن تنوء بحمل مطامحهم وقدراتهم الروحية ، هو الذى جعلهم يلتمسون المتعة فى إقامة التماثيل الضخمة ؛ وقد وفقوا فى هذا الفن المحفوف بمواضع الزلل ، أكثر مما وفق المصريون أنفسهم ؛ فلما فشا الجدرى فى اليابان سنة ٧٤٧ ، كلف الإمبراطور « شومو » «كيميارو » أن يصوغ تمثالا ضخماً لبوذا استرضاء للآلهة ؛ فاستخدم « كيميارو » لهذه الغاية أربعمائة وسبعة وثلاثين طناً من البرونز ، ومائتين وثمانية وثمانين رطلا من الذهب ، ومائة وخمسة وستين رطلا من الزئبق ، وسبعة أطنان من الشمع النباتى ، وعدة أطنان من الفحم ؛ وقد تطلب هذا العمل عامين ، واقتضى سبع محاولات ؛ فصب الرأس فى قالب واحد ، أما البدن فكان مؤلفاً من رقائق معدنية كثيرة لصق بعضها ببعض ،

(*) قد يكون لـ « شوتوكا تايشى » العظيم ، الذى كان من رجال السياسة والفن على السواء ، صلة بهذا الأثر الفنى الجليل . لأننا نعلم أنه أمسك بالأزميل ونحت تماثيل كثيرة من الخشب(٦٣) ؛ كذلك كان « كوبو دايشى » (حوالى ٨٢٦) نحاتاً ومصوراً معاً ، وعالماً وقديساً فى آن واحد ؛ ولقد صوره لنا « هوكوساى » ممسكا بخمس فراجين دفعة واحدة ، اثنين بيديه واثنين بقدميه وخاصة بفمه (٦٤) لكى يدلنا بذلك على تنوع براعته ؛ ورسم « أونكى » (١١٨٠ — ١٢٢٠) تماثيل نصفية دقيقة التعبير عن شخصياتها ، رسمها لنفسه ولكثير من الكهنة ، ونحت أشكالا جميلة مفزعة ليوم الحساب فى الجحيم ، ولهؤلاء الآلهة الغضاب الذين كان عليهم أن يطردوا بوجوههم القبيحة كل الأرواح الشريرة ، ولقد تعاون معه أبوه « كوكى » وابنه « جوكى » وتلميذه « جركاكو » لإعلاء اليابان فى فن النحت فى الخشب .



تمثال لبوذا فى اليابان

ثم غطيت بغشاء سميك من الذهب ؛ وإن الأجنبي عن اليابان ليعجب لتمثال بوذا « وايبوستو » القائم فى « كاماكورا » ، أكثر مما يعجب لذلك التمثال الكئيب العابس فى « نارا » وتمثال « وايبوستو » هذا مصبوب من البرونز تم صنعه سنة ١٢٥٢ على يدى « أونو جريتمون » ولعل ما يجعل حجم هذا التمثال مناسباً للغاية منه ، كونه جالساً على مرتفع فى الفضاء المكشوف ، محوطاً بمنظر جميل من الشجر ، فضلا عن أن الفنان هنا قد عبر ببساطة تدعو إلى العجب ، عن روح بوذا فى تأمله وسكينته ؛ وكان هذا التمثال بادئ الأمر قائماً فى معبد — كما هى الحال اليوم فى التمثال القائم فى « نارا » — لكن حدث فى سنة ١٤٩٥ أن اجتاحت المكان موجة من البحر ، فاكتسحت المعبد والمدينة جميعاً ، تاركة فيلسوفنا البرونزى هادئاً وسط هذا الخراب الشامل ، وما ملأ الأرض حوله من عـــذاب وموت ، كذلك شيد « هيديوشى » تمثالا ضخماً فى كيوتو ، ولبث خمسون ألف رجل يعملون مدى خمسة أعوام فى إقامة هذا التمثال لبوذا ؛ بل كان الحاكم العظيم نفسه يتلفع أحياناً بثوب عامل بسيط ، ويعاون العاملين فى إقامة التمثال معاونة كبرى ؛ لكنه لم يكد يتم بناؤه ، حتى زلزلت الأرض سنة ١٥٩٦ فألقت به على الأرض هشيما ، ونثرت حطام جزئه الداخلى الذى كان مفروضاً أن يكون حرماً وموئلا ، نثرتها حول رأسه ؛ ويروى فى اليابان أن « هيديوشى » رمى الصنم المحطم بسهم قائلا فى ازدراء : « لقد أقمتك هاهنا باهظ النفقات ، فلم تستطع حتى حماية معبدك »(٦٥) .

فى هذا المدى الذى يتفاوت فيه الحجم : من أمثال هذه التماثيل الضخمة إلى المدليات (النتسوكا) الصغيرة ، تناول النحت اليابانى كل ضروب الأشكال فى شتى ضروب الأحجام : فأحياناً ترى سادة هذا الفن — مثل « تاكامور » فى يومنا هذا — ينفقون أعواماً من العمل المتصل فى صناعة تماثيل لا تكاد

تبلغ قدماً واحدة فى طولها ؛ وكان يمتعهم أن يصوروا بماثيلهم تلك كهولا فى الثمانين التوَت أبدانهم ؛ أو شرهين يمرحون فى الشره ، أوكهنة متفلسفين ؛



تمثال بوذا اعظيم فى كاما كورا

وإنه لمن الخير أن يرى روح الفكاهة فى عملهم قد شجعتهم على المضى فى فنهم، لأن معظم الكسب الذى كانت تدره صناعتهم ، كان يستولى عليه مستخدموهم الدهاة ؛ وكانوا فى تماثيلهم الكبيرة مقيدين بتقاليد خاصة بموضوع التمثال ،

أو بطريقة أدائه ، مما يفرضه عليهم الكهنة ؛ فالكهنة إنما أرادوا من هؤلاء النحاتين أن يصوروا لهم آلهة لا نساء فاجرات ، أرادوا أن يوحوا إلى الناس بالتقوى ، أو أن يحيطوا فضائلهم بعوامل الخوف لا أن يستثيروا فى الناس إحساسهم بالغبطة والجمال ، ولما كان النحاتون مرتبطين يداً وروحاً بالدين فقد تدهور فن النحت حين بردت حرارة الإيمان وذهبت قوته ؛ وكما حدث فى مصر من قبل ، رأينا أنه لما غاض معين التقوى ، بقيت صلابة التقاليد فى الفن دليلا على برودة الموت .

الفصل الثامن

الخزف

الدافع من الصين . خزافو هيزن - الخزف والشاى - كيف استحضر « جوتو سايجيرو » فن الخزف الرقيق من هيزن إلى كاجا - القرن التاسع عشر

إنه ليس من العدل التام بالنسبة إلى اليابان ، أن نتحدث عن استجلابها لمدنيتها من كوريا والصين ، إلا بالمعنى الذى نقصده من مثل هذا الكلام حين نقول عن شمالى غربى أوربا إنه أخذ مدنيته عن اليونان وروما ؛ هذا إلى أنه يجوز لنا أن نعد شعوب الشرق الأقصى كلها وحدة بشرية وثقافية ، وكل جزء من أجزاء هذه الوحدة - شأنها فى ذلك شأن أقاليم القطر الواحد - قد أنتج فنه وثقافته فى مكانه الخاص وزمانه الخاص ، بحيث جاءت تلك الثقافة وذلك الفن يشبهان ويعتمدان على ما أنتجته بقية الأجزاء من ثقافة وفن ؛ وعلى هذا نرى الخزف اليابانى جزءاً من الفن الخزفى فى الشرق الأقصى ، ووجهاً من وجوهه ؛ وهو فى أساسه شبيه بالخزف الصينى ، إلا أنه مطبوع بطابع يميزه من الرقة والرشاقة اللتين تميزان الفن اليابانى كله ؛ وقد كان الخزف اليابانى - حتى قدوم الصناع الكوريين فى القرن السابع - مجرد صناعة خالية من لمسة الفن ، أعنى أنه كان لا يعدو أن تصب المادة صباً على نحو غليظ لتكون آنية للاستعمال اليومى ؛ والأرجح أنه لم يكن فى الشرق الأقصى قبل القرن الثامن خزف مصقول ، وأكثر من هذا ترجيحاً أنه لم يكن به نوع الخزف المسمى « بورسلان »[٦٦] ثم أصبحت الصناعة فناً ، وكان أكبر العوامل على هذا التطور دخول الشاى فى القرن الثالث عشر ؛ فقد صحب الشاى عند دخوله البلاد أقداح صينية لشربه من طراز « صنج » فأثارت الإعجاب عند أهل اليابان ؛ حتى غامر خزاف يابانى سنة ١٢٢٣ ، وهو «كاتوشيروزيمون»

د افر إلى الصين ، ودرس هناك فن الخزف مدى ســتة أعوام ، وعاد بعدها ليقيم مصنعاً له فى سيتو ، وتفوق بضاعته على كل ما سبقه فى بلاده من هذه الصناعة ، حتى أصبحت « منتجات سيتو » علماً على كل صناعة خزفية فى اليابان كلها ، وذلك شبيه بما حدث فى اللغة الإنجليزية فى القرن السابع عشر ، حين أطلقت كلمة « منتجات صينية » على الخزف البورسلانى ، وقد كتب الحاكم العسكرى « يوريتومو » الثراء لذلك الخزاف « شيروزيمون » حين ابتدع بدعاً جديداً ، وهو أن يكافئ الخدمات الصغرى بهدايا من أباريق الشاى التى « صنعها شيروزيمون » هذا بعد أن يملأها بهذه الأعجوبة الجديدة ، وهى مسحوق الشاى ، وما بقى لنا اليوم من آثار هذه المنتجات — ويطلق عليها اسم « توشيرو — ياكى »(*) — يكاد يغلو عن أى ثمن مهما علا ، وترى تلك الآثار باقية ملفوفة فى الحرير الموشى الثمين ، ومصونة فى صناديق من خشب « اللاكيه » الجميل ، وإذا حدثك محدث عن أصحابها ، حدثك عنهم بأنفاس متقطعة على أنهم سادة خبراء الفن(٦٧) .

وبعد ذلك بثلاثمائة عام ، أغرت الصين يابانياً آخر بالرحلة إليها ، وهو « شونزوى » ليدرس مخازفها المشهورة ، ولما عاد إلى بلاده ، أنشأ مصنعاً فى « أريتا » فى إقليم « هيزن » ، وكان مما قام فى وجهه من صعاب ، أنه لم يجد فى تربة بلاده المواد المعدنية التى تعين على صناعة الخزف الرقيق ، كالتى توجد فى تربة الصين ؛ وقد قيل عن منتجاته إن عنصراً من أهم عناصرها مستمد من عظام صُنّاعه ، ومهما يكن من أمر ، فمنتجات « شونزوى » ذات اللون الأزرق الإسلامى (كذا ؟) قد بلغت من الروعة حداً أغرى خزافى الصين فى القرن الثامن عشر أن يبذلوا وسعهم فى تقليدها وتصديرها مُزَوَّدة باسمه ، والعينات الباقية من صناعته ، تقدر اليوم بما يقدر به أندر الصور

(*) « توشيرو » اسم آخر كان يطلق على « شيرزيمون » و « ياكى » معناها منتجات .

الفنية التي رسمتها ريشة الصفوة من أعلام الفن فى اليابان(٦٨) ، وحدث حوالى سنة ١٩٠٥ ، أن كشف رجل من كوريا – هو « ريزامپي » – فى «إزومى – ياما» الواقعة فى إقليم « أريتا » عن رواسب غريزة من حجر البورسلان ، فأصبحت « هيزن » منذ ذلك الحين مركزاً لصناعة الخزف فى اليابان ، وكذلك كان « كاكيمون » المشهورة ممن قاموا بهذه الصناعة فى « أريتا » إذ تعلم فن الطلاء بالميناء من ربان سفينة صينية ، وبعدئذ احترف هذه الصناعة حتى كاد اسمه يصبح كلمة معناها البورسلان الذى طلى بالميناء طلاء رقيق الزخارف ، وراح التجار الهولنديون يرسلون إلى أوربا مقادير هائلة من مصنوعات هيزن ، كانوا يعبئونها فى السفن من ميناء « أريتا » عند « عمارى » ، فأرسلوا من ذلك ٤٤ر٩٤٣ قطعة إلى هولندا وحدها عام ١٦٦٤ ، فأثارت « المنتجات العمارية » الباهرة هزة فى أوروبا ، وأوحت إلى « إيبرجت دى قيصر » أن يفتتح عهداً ذهبياً من صناعة الخزف الهولندية بمصانعه فى « دلفت » .

هذا إلى أن ظهور الاحتفال بشرب الشاى ، قد حفز على تطور جديد فى اليابان ، وذلك أنه فى عام ١٥٧٨ كلَّف « نوبوجانا » – بإشارة من « ركْيُو » سيد الشاى – أسرة كورية من المشتغلين بصناعة الخزف فى كيوتو ، أن تصنع له مقداراً كبيراً من أقداح الشاى وغيرها من الأدوات المستعملة فى عمله وشربه ، ومضت أعوام قلائل بعد ذلك ، ثم أهدى « هيديوشى » تلك الأسرة خاتماً ذهبياً وجعل مصنوعاتها وتعرف باسم « راكو – ياكى » شرطاً يكاد يكون لازماً لتمام الاحتفال بشرب الشاى ، وعاد قادة جيش هيديوشى من حملتهم الفاشلة على كوريا ، عادوا ومعهم عدد كبير من الأسرى ، كان بينهم كثير من رجال الفن ، اختيروا قصداً ، وهو اختيار لا نألفه فى رجال الحروب ، وفى سنة ١٥٩٦ أحضر « شيمازويو شيهيرو » إلى « ساتسوما » مائة من مهرة الكوريين ، بينهم سبعة عشر خزَّافاً ، فكان لهؤلاء الرجال وأخلافهم الفضلُ

فى نشر سمعة « ساتسوما » فى أرجاء العالم كله مقرونة بتلك المصنوعات الخزفية المصقولة الزاهرة الألوان ، والتى نطلق عليها اليوم اسم مدينة إيطالية ، إذ نسميها « فاينس » وكان علم أعلام هذا الفرع من فن الخزف هو خزف كيوتو ، واسمه « نينسى » ، ولم يكتف هذا الرجل بابتكاره لطلى خزف « فاينس » بالميناء ، بل أضاف إلى ذلك رشاقة فى مصنوعاته واعتدالا سليم الذوق يعلو بقيمتها ، مما جعلها نفيسة فى أعين هواة هذا الفن منذ ذلك اليوم ، حتى إن اسمه ليزوّر أكثر مما يزور أى اسم آخر من رجال الفن فى اليابان(٦٩) ، وقد كان من أثر صناعته ، أن أقبل الناس على خزف « فاينس » المزخرف ، إقبالا بلغ فى العاصمة حد الجنون ، وفى بعض الأحياء فى كيوتو كنت ترى منزلا من كل منزلين قد انقلب تحفة خزفية(٧٠) وهناك خزاف آخر ، لا يفوقه شهرة إلا « نينسى » ، وهو « كينزان » الذى كان شقيقاً أكبر للمصور « كورين » :

وهنالك قصة تروى عن كيفية إحضار « جوتوسايجيرو » لفن البورسلان من « هيزن » إلى « كاجا » ، ومن تلك القصة نتبين طرفاً من أعاجيب الخيال التى كثيراً ما نراها كامنة وراء فن الخزف فى نشأته وتطوره ، وذلك أن طبقة من رواسب الحجر الخزفى الجميل قد استُكشفت قريباً من قرية « كوتانى » ، فصمم الحاكم الإقطاعى فى ذلك الإقليم على إنشاء صناعة البورسلان فى إقليمه ، وأرسل جوتو إلى هيزن لدراسة طرائق صناعته فى الأفران وزخرفته بالرسوم ، لكن جوتو لم يجد طريقه ميسَّراً إذ وجد القائمين على صناعة الخزف يكتمون أسرار صناعتهم كتماناً شديداً ، وأخيراً تنكر خادماً ، وقبل عملا وضيعاً فى منزل خزاف وبعد أن قضى فى خدمته ثلاثة أعوام ، أذن له سيده بالدخول فى مصنع الخزف ، وهناك لبث جوتو يعمل أربعة أعوام أخرى ؛ وبعدئذ هجر الزوجة التى كان تزوج بها فى هيزن والأطفال الذين أنجبتهم له تلك الزوجة ، وفر إلى كاجا ، حيث أحاط مولاه علماً كاملا بالطرائق التى تعلمها ، ومنذ ذلك الحين (١٦٦٤) أصبح خزافو « كوتانى » أعلاماً فى هذا

الفن ، وباتت « كوتانى » — ياكا » (أى مصنوعات كوتانى) تنافس خيرة منتجات اليابان فى هذا الباب[٧١] .

واحتفظت مصانع « هيزن » لمنتجات الخزف بزعامتها إبان القرن الثامن عشر كله ؛ وكان ذلك يرجع إلى حد كبير إلى العناية الكريمة التى أولاها الحاكم الإقطاعى « هيرادو » عمال مصانعه ، ولبثت مصنوعات الخزف الأزرق المسماة « منشاواكى » والتى كانت تنتمى لـ « هيرادو » ، لبثت قرناً كاملا (١٧٥٠ — ١٨٤٣) فى طليعة البورسلان اليابانى ، ثم نَقَلَ « زنجورو هوزن » الزعامة فى القرن التاسع عشر إلى كيوتو ، بتقليد بارع لمصنوعات « منشاواكى » ، كثيراً ما بز فيه النموذج المحتذى ، بحيث كان يستحيل أحياناً أن تفرق بين الأصل والتقلد ، وفى الربع الأخير من ذلك القرن ، هذبت اليابان من صناعة الطلى بالميناء ، فطوّرتها من الحالة البدائية التى كانت عليها منذ قدومها من الصين وتزعمت العالم كله فى هذا الميدان من ميادين الصناعة الخزفية[٧٢] وتدهورت فروع أخرى من تلك الصناعة فى الفترة عينها ، لأن ازدياد الطلب فى أوروبا للخزف اليابانى ، أدى إلى نمط فيه إسراف فى الزخرف ، لا يسيغه الذوق اليابانى فكان من أثر هذا الطلب للخزف اليابانى من خارج البلاد ، أثر فى تعويد العمال عادات جديدة فى صناعتهم تأثرت بها مهارتهم ، وضعفت تقاليد ذلك الفن ، وجاءت الصناعة الآلية فكانت هاهنا — كما كانت فى كل مكان آخر — وبالا ؛ فحل الإنتاج الكبير محل الجودة ، كما حل الاستهلاك الكبير محل الذوق الذى يميز الطيب من الخبيث ، ومن يدرى ؟ فلعله بعد أن يفرغ الاختراع الآلى فى الصناعة من شوطه الخصيب ، وبعد أن تنتشر فى الناس نعمة الفراغ وطريقة استعماله استعمالا فيه خلق وإبداع ، بفضل ما يطرأ على المجتمع من تنظيم وخبرة ، ستتحول هذه النقمه إلى نعمة ، بحيث تنشر الصناعة فى أكثرية الناس ألوان الترف ، فقد يعود العامل فيصبح فناناً كما كان — بعد أن يستكمل ساعات عمله القليلة أمام الآلة — وقد يحول الإنتاج الآلى إلى عمل يعبر فيه عن شخصيته وفنه إذا ما أحبه حباً صادراً من صميم نفسه وفرديته .

الفصل التاسع

التصوير

مشكلات الموضوع . الطريقة والمادة — القوانب الفنية والمثل العليا — الأصول الكورية والوحي البوذي — مدرسة توسا . العودة إلى الصين — سشيو — مدرسة كانو — كوينسو — وكورين — المدرسة الواقعية

لئن كانت سائر الموضوعات التي مسسناها بالحديث على هذه الصفحات مما لا ينبغي فيه الحديث لغير المتخصصين ، فذلك أصدق بالنسبة للتصوير اليابانى ؛ وإذا نحن اشتملناه هاهنا بكلامنا جنباً إلى جنب مع غيره من الموضوعات التي تمس خفايا النفس ، حيث تخشى الملائكة أن تدوس بأقدامها فى غير احتفال ، فإنما نشتمله بالكلام آملين أن يستطيع القارئ خلال هذه الغلالة التي نقدمها له من نسيج الأخطاء ، أن يلمح قبساً يهديه إلى لب الحضارة اليابانية فى تمام خصائصها وجودة عنصرها ، فآيات التصوير اليابانى نتاج فترة من الزمن طولها ألف ومائتا عام ، تتقسمها كثرة متشابكة الخيوط من مختلف المدارس ؛ وقد طرأ على تلك الآيات الفساد أو الضياع على مر الزمن وتكاد كلها تكون خبيئة بين المجموعات الخاصة فى اليابان(*) .

وأما الآيات القليلة المعروضة لأعين الباحثين من الأجانب ، فمختلفة فى قالبها وطريقتها وأسلوبها ومادتها ، عن الصور الغربية اختلافاً يستحيل معه إصدار حكم سليم عليها من عقل غربى .

فالصور اليابانية — قبل كل شيء تشبه نماذجها فى الصين من حيث

(*) أظن أن خير مجموعات « مدرسة كانو » — وهى مجموعة مستر بيبو فى طوكيو ، قد أصابها زلزال سنة ١٩٢٣ بما يقرب من التلف الكامل .

إنها رُسمت أول ما رسمت بنفس الفرجون الذى كان يستخدم للكتابة ؛ والكلمة التى معناها كتابة ، والأخرى التى معناها تصوير ، هما فى الأصل كلمة واحدة — كما هى الحال أيضاً عند اليونان ، فالتصوير كان عبارة عن فن خطى ؛ وهذه الحقيقة الأساسية قد تفرع عنها نصف خصائص التصوير فى الشرق الأقصى ، بادئاً من المادة المستعملة فى التصوير ، ومنتهياً إلى إخضاع اللون للتخطيط ، فالمواد المستعملة بسيطة : مداد أو ألوان مائية ، وفرجون وورق نشاف أو حرير نشاف ، وأما العمل نفسه فعسير : فالفنان لا يعمل وهو واقف ، بل يعمل جاثيا على ركبتيه ، منحنياً على قطعة الحرير أو قطعة الورق المنشورة على الأرض ؛ ولا بد له من ضبط يده فى التخطيط بالفرجون ، حتى يستطيع أن يخط إحدى وسبعين درجة أو أسلوباً من درجات التخطيط أو أساليبه (٧٣) ؛ وكانت الرسوم ترسم على الجدران فى القرون الأولى ، أيام أن كانت البوذية مسيطرة على الفن فى اليابان ، على نحو ما كانت ترسم الصور الجدارية فى « أجانتا » أو « تركستان » ؛ غير أن كل ما بقى لدينا تقريباً من أعمال فنية واسعة الشهرة إما أن تكون من نوع الـ « ماكيمونو » (أى اللفائف) أو نوع الـ « كاكيمونو » (أى التعاليق) أو من نوع الستائر ولم تكن هذه الصورة ترسم لتعرض فى متاحف الفن عرضاً يخلو من استساغة المشاهدين لفنها — إذ ليس فى اليابان متاحف للفن — إنما كانت ترسم لتكون متعة لناظرى مقتنيها وأنظار أصدقائه ؛ أو كانت تُرسم لتكون جزءاً من زينة زخرفية فى معبد أو قصر أو منزل ؛ وكان من النادر جداً أن تصور تلك الرسوم أشخاصاً معينين ، إذ كان معظمها يصور لمحات من الطبيعة ، أو مشاهد من النشاط العسكرى ، أو قبسات فكهة أو تهكمية تصور ما يشاهده الفنان من طرائق العيش عند الحيوان أو بنى الإنسان نساء ورجالا .

كانت صورهم أقرب إلى أن تكون قصائد تعبر عن وجدان الفنان ، منها إلى أن تكون رسما لأشياء ؛ كما كانت أدنى شبهاً بالفلسفة منها بالتصوير

للفوتوغرافى ؛ فلم يحاول الفنان اليابانى أن يلتزم الواقع فى تصويره ، وقلما أراد أن يقلد برسمه الصورة الخارجية للشىء المرسوم ، فقد نفض يديه ، فى ازدراء من ظلال الأشياء ، على اعتبار أنها لا تتصل بجواهر الأشياء ، مؤثراً لنفسه أن يصور « فى الهواء الطلق » بمعنى أنه لا يتقيد بتجسيم الشىء بوساطة تأثير النور والظل ، وهو يبتسم ساخراً بالغربيين فى إصرارهم على أن يخضعوا الأشياء البعيدة لقواعد النظر فى رؤيته للأشياء على أبعاد ، بحيث تصغر تبعاً لذلك أو تكبر ، يقول « هوكاساى » — فى تسامح فلسفى — « إن التصوير اليابانى يمثل القالب واللون بغض النظر عن التجسيم . أما طرائق الأوربيين فتهدف إلى التجسيم والإيهام »[٧٤] أراد الفنان اليابانى أن ينقل شعوراً أكثر مما ينقل شيئاً ، أراد أن يوحى أكثر مما يعرض الشىء بأكمله كما هو ، فنى رأيه لا يلزم أن تبين من عناصر المنظر المرسوم أكثر من عدد قليل ، فالأمر هنا فى التصوير كالأمر فى الشعر اليابانى الذى لا يسمح بالزيادة فى القول عن مجرد القدر الذى يكفى لإثارة وجدان التقدير الفنى فى السامع بحيث يعمل خياله إعمالا يكمل به النتيجة الجمالية المراد بلوغها ، وكان المصور شاعراً ، يقدر إيقاع التخطيط ، ويقدر موسيقى القوالب ، أكثر جداً مما يقدر أشكال الأشياء وطرائق بنائها التى تختار اختياراً كما اتفق ، وهو كالشاعر يعتقد أنه لو أخلص لمشاعره ، فحسبه هذا القدر من الواقعية .

ويحتمل أن تكون كوريا هى التى جاءت بفن التصوير للإمبراطورية القلقة التى تم لها عندئذ غزوها ، وأغلب الظن أن بعض رجال الفن من كوريا هم الذين رسموا الصور الجدارية ذات الانسياب فى خطوطها والازدهار فى ألوانها التى تراها فى « معبد هوريوجى » ، لأنك لا تجد شيئاً فى تاريخ اليابان فيما قبل القرن السابع ، تفسر به مثل هذا الإنتاج القومى المفاجئ الذى بلغ فيه كمال الفن روعة لا يعيبها خطأ ، ثم جاءها الحافز الثانى من الصين

مباشرة ، حين ذهب إليها الكاهنان اليابانيان « كوبودايشى » و « دنجيودايشى » ليدرس فيها فن التصوير ، فلما عاد « كوبودايشى » (سنة ٨٠٦) إلى اليابان ، كرس نفسه للتصوير وللنحت وللأدب والعبادة فى آن معاً ، وبعض الآيات التى تعد من أقدم الآيات الفنية ، هى من نتاج فرجونه المتعدد المواهب ، وكانت البوذية أيضاً مصدر وحى للفنان فى اليابان كما كانت مصدر وحى له فى الصين ، فممارسة الحالة التأملية البوذية المعروفة باسم «زن» قد اتجهت ناحية الإبداع فى ناحيتى اللون والشكل ، بقوة تكاد تقرب من القوة التى اتجهت بها نحو الفلسفة والشعر ، وكثرت مناظر « اميدا بوذا » فى الفن اليابانى كثرة مناظر البشرى بمولد المسيح ومناظر صَلْبه على الجدران اللوحات التى ترجع إلى عهد النهضة الأوروبية ، والكاهن « ييشين سوزو » (مات سنة ١٠١٧) هو لليابان بمثابة « فرا انجليكو » و « إلى جريكو » لذلك العصر ، فتصويره لصعود « أميدا » وهبوطه جعله أعظم مصور دينى فى تاريخ اليابان ، وكان عندئذ « كوسى نو — كا نوكا » (حوالى ٩٥٠) قد بدأ فى جعل التصوير اليابانى علمانىَّ الصبغة ، وهاهنا بدأت الطيور والزهور والحيوان تنافس الآلهة والأولياء على لوحات التصوير .

غير أن فرجون « كوسى » كان ما يزال يتحرك على أساس القواعد الصينية ويفكر بعقول أهل الفن فى الصين ، ولم تبدأ اليابان فى قرونها الخمسة التى اعتزلت بنفسها فيها وأخذت خلالها تصور مناظرها هى ، وموضوعاتها هى ، بطريقتها الخاصة ، إلا حين وقفت علاقات الاتصال بين اليابان والصين فى القرن التاسع ، ونشأت مدرسة قومية لفن التصوير حوالى سنة ١١٥٠ ، تحت رعاية الدوائر الإمبراطورية والأرستقراطية فى كيوتو ، وأعلنت تلك المدرسة سخطها على ما يرد إلى البلاد من الخارج ، من حوافز وأساليب فى عالم الفن ، وأخذت على نفسها أن تزخرف منازل العاصمة الفاخرة ، برسوم زهور اليابان ومناظرها الطبيعية ، وكان لهذه المدرسة عدة أسماء ، كما كان لها عدة أعلام بارزين ، فيطلق عليها « ياماتو — ريو » أو الأسلوب

الياباني و « واجا — ريو » ومعناها كذلك الأسلوب الياباني ، و « كاسوجا » باسم مؤسسها المشهور ، وأخيراً يطلق عليها « مدرسة توسا » باسم أهم ممثل لها في القرن الثالث عشر ، وهو « توسا جون — نو — كومى » ، ومنذ ذلك الحين ، ظل اسم « توسا » يطلق على كل رجال الفن الذين ينتمون إلى تلك المدرسة ، وهى مدرسة جديدة بوصفها بالصفة القومية لأنك لا تجد فى الفن الصينى ما يقابل مما أنتجته فراجين أتباع هذه المدرسة من حيث القوة والثبات والتنوع والفكاهة ، مما تراه فى اللوحات التى تقص قصصاً عن الحب والحرب ؛ فحوالى سنة ١٠١٠ رسم « تاكايوشى » بالألوان رسوماً فخمة تصور حكاية « جنجى » وما فيها من غواية ، وسرّى « توبا سوچو » عن نفسه برسم صور تهكمية نابضة بالحياة ، يسخر فيها من أوغاد عصره وكهنته ، تحت ستار من القردة والضفادع ، ولما وجد « فوچيوارا تاكانوبو » قرب نهاية القرن الثانى عشر ، أن حَسَبَه الشريف لا يغنيه شيئاً مذكوراً فى إشباع حاجته من الطعام والشراب ، استدار للفرجون يكسب به عيشه ، ورسم صوراً عظيمة لـ « يورنيومو » وغيره ، لا تشبه فى شىء قط ما أنتجته الصين حتى ذلك الحين ، وصور ابنه « فوچيوارا نوبوزانى » ستاً وثلاثين صورة للشعراء ، محتملا ما فى ذلك العمل من صبر ، وفى القرن الثالث عشر ، رسم ابن « كاسوجا » وهو « كيون » — أو غيره . تلك اللوحات الحية التى تعد من أروع ما أنتجه العالم كله فى فن التصوير .

لكن هذه المصادر القومية التى كانت تبعث الوحى ، راحت تجف شيئاً فشيئاً ، بحيث تتحول إلى أوضاع تقليدية فى الأشكال والأساليب ، وعاد الفن اليابانى من جديد فالتمس غذاءه عند المدارس الجديدة التى كانت ناهضة فى الصين أيام « نهضة صنج » ، ولبث اليابانيون حيناً مدفوعين إلى تقليد الصين بغير ضابط ، واتفق الفنانون اليابانيون الذين لم يشهدوا « المملكة الوسطى »

قط ، أنفقوا أعمارهم فى رسم أشخاص ومناظر من الصين ، فرسم « شو دنو » ست عشرة صورة لأولياء بوذيين ، هى الآن بين الكنوز المعروضة فى « متحف فرير » للفن فى وشنطن ، وأما « شوبون » فقد شاءت له ظروفه أن يولد وأن ينشأ فى الصين ، فلما جاء ليقضى حياته فى اليابان ، استطاع أن يصور مناظر طبيعية صينية مستعيناً فى ذلك بذاكرته وبخياله معاً .

وكانت هذه الفترة الثانية من فترات التصوير اليابانى ، هى الفترة التى أنجبت أعظم شخصية ظهرت فى تاريخ التصوير كله ، وهو « سشيو » الذى كان كاهناً من طائفة « زن » فى « سوكوكوجى » وهى مدرسة من المدارس الفنية الكثيرة التى أقامها « يوسيمتسوا » الحاكم العسكرى من أسرة « أشيكاجا » ؛ فقد استطاع « سشيو » هذا وهو لم يزل فى يفاعته أن يدهش بنى بلده برسومه ، وتروى عنه أسطورة لم تدر كيف تعبّر عن إجلالها لفنه ، تروى أنه ربط ذات يوم إلى عمود لسوء سلوكه ، فرسم بأصابع قدميه جرذاناً بلغ شبهها بالجرذان الحية حداً جعل الحياة تدب فيها فتأتى لتقرض الوثاق الذى شد به[٧٥] ، ولما اشتد به الشوق إلى الاتصال بسادة الفن فى الصين حينئذ اتصالا مباشراً ، حصل على أوراق اعتماد رسمية من رؤسائه الدينيين ومن الحاكم العسكرى ، ثم عبر البحر ، لكن رجاءه خاب حين وجد التصوير الصينى فى طريقه إلى التدهور ، ثم عزى نفسه بما وجده فى تلك المملكة العظيمة من تنوع فى الحياة والثقافة ، وعاد إلى وطنه مملوءاً بآلاف الأفكار الجديدة التى توحى إليه بما ينبغى أن يفعله ، وتروى الرواية أن رجال الفن ورجال الطبقة العليا من أهل الصين ، صحبوه إلى السفينة التى أعادته إلى بلاده ، وأمطروه بورقات بيض ملتمسين منه أن يرسم فيها رسوماً تخطيطية بسطية — إن لم يجُدْ عليهم بأكثر من ذلك — ثم يرسلها إليهم ، ومن ثم — هكذا تقول هذه الرواية — سمى باسمه الرمزى « سشيو » الذى معناه « سفينة الثلج »[٧٦] لأن الورقات البيض

تساقطت عليه كما يتساقط الثلج) والظاهر أنه لما بلغ اليابان استقبله الناس هناك استقبالهم لأمير ، ومنحه الحاكم العسكرى « يوشيماسا » منحاً كثيرة ، لكنه رفض هذه المنح كلها - لو أخذنا بما نقرؤه عن الأمر - وعاد فأوى إلى أبراشيته الريفية فى « شوشو » وهناك راح ينثر الفن نثراً ، واحدة فى إثر واحدة ، كأنما ينتج فى كل لحظة نتاجاً تافهاً عابراً أوحتِ به ظروف اللحظة الراهنة ، حتى كاد يخلّد بصوره كل جوانب الصين فى مناظرها وحياتها ؛ فقلما رأت الصين مثل هذا التنوع كله فى موضوعات التصوير عند الفنان الواحد - ولم تر اليابان مثل ذلك قط فى تاريخها - كلا ولا رأت مثل هذه القوة فى التصور والتصوير معاً ، وفى ثبات الخطوط ، ولما بلغ الشيخوخة ، دقّ رجال الفن فى اليابان طريقاً إلى بابه وكرموه فجعلوه - حتى قبل موته - فناناً فى طليعة الركب ؛ وإن الصورة بريشة « سشيو » لتقدر اليوم عند هواة الصور من اليابانيين ، بمثل مايقدر به هواة الأوروبيين صورة بريشة ليوناردو ؛ وتروى أسطورة من تلك الأساطير التى تحول الأفكار الغريبة إلى حكايات لطيفة ، أن رجلا كان يملك صورة من رسم « سشيو » ثم اشتعلت النار بمنزله بحيث كان يستحيل عليه النجاة ، فبقر بطنه بقراً بسيفه ودسّ فى معدته قماشة الصورة النفيسة - ووجدت الصورة بعدئذ سليمة من التلف داخل جثمانه الذى كانت النار قد أكلته إلى نصفه(٧٧) .

واستمر ازدياد التأثير الصينى فى كثير من رجال الفن الذين كانوا فى كنف أمراء الإقطاع من الأسرتين العسكريتين : «أشيكاجا» و«توكوجاوا» ؛ وكان لكل أمير فى حاشيته مصوره الرسمى الذى نيط به أن يدرب مئات الفنانين الناشئين الذين قد تدعو الحاجة المباغتة إلى استخدامهم فى زخرفة أحد القصور ؛ إذ كانت المعابد عندئذ تُنسى ، لأن الفن كان فى طريق التحول إلى المجال الدنيوى كلما ازدادت البلاد ثراء ؛ ولما دنا القرن الخامس عشر من ختامه ، أنشأ « كانوماسانوبو » فى كيوتو تحت رعاية « أشيكاجا » مدرسة

للفنانين العلمانيين ، أطلق عليها الجزء الأول من اسمه ، وجعلها تتجه بجهدها كله نحو الاحتفاظ بكل شدة بالتقاليد الكلاسيكية الصينية فى الفن اليابانى ؛ وبلغ ابنه « كانو موتونوبو » فى هذا الاتجاه مبلغاً جعله علماً لا يمتاز عليه إلا « سشيو » وحده ؛ وإن قصة لتروى عنه فتبين بياناً واضحاً كيف أن تركيز الانتباه والثبات على غاية واحدة هما اللذان يكونان العبقرية ؛ تقول عنه القصة إنه قد طُلِب إليه أن يصور عدداً من طيور الكركى ، فشوهد مساء بعد مساء يمشى مشية الكركى ؛ واتضح أنه كان فى كل ليلة يقلد الكركى الذى كان مصمماً على تصويره فى اليوم التالى ؛ فيظهر أن الإنسان لا بد له من الذهاب إلى مخدعه والغاية المنشودة نصب عينيه ، حتى يستيقظ فى الصباح مشهوراً ، وظهر حفيد لـ « موتونوبو » — هو « كانوييتوكو » فطوَّر على يديه تحت رعاية هيديوشى ، نمطاً فنياً أبعد ما يكون عن الكلاسيكية المتزمتة التى اصطنعها أسلافه ، على الرغم من أنه كان فرعاً من أسرة « كانو » ، وجاء « تانيو » فنقل مركز المدرسة من كيوتو إلى ييدو ، وعمل فى كنف أفراد أسرة « توكوجاوا » وعاون فى زخرفة مقبرة « أيياسو » فى « نكو » وبالرغم من كل هذه المحاولات نحو مواءمة الفن لظروف العصر ، فقد استنفدت أسرة « كانو » دوافعها إلى الفن على مر الزمن ، وأدارت اليابان وجهها نحو أعلام آخرين يبدءون لها فى تاريخ فنها شوطاً جديداً .

وهكذا ظهرت طائفة أخرى من رجال التصوير سنة ١٦٦٠ ، وأطلق عليها اسم علَمَيها الزعيمين ، إذ سميت « مدرسة كويتسو — كورين » ، وكان من طبيعة التذبذب الذى يطرأ على الفلسفات وأنماط الفن ، أن تنظر هذه المدرسة الجديدة إلى الأوضاع والموضوعات الصينية التى عنى بها « سشيو » و « كانو » نظرتها إلى الشىء الرجعى الذى أبلاه الزمان ؛ وتلفت الفنانون الجدد يبحثون عن مناظر فى بلادهم نفسها ، واستوحوا بلادهم الإلهام الفنى والموضوعات التى يديرون فيها فنهم ذاك ؛ وكان « كويتسو » رجلا بلغ به



قردة وطيور رسمها سشو فى القرن الخامس عشر

تنوع المواهب حداً يذكّرنا بما قاله «كارلايل» غيرةً من سواه من العظماء ، إذ قال إنه لا يعرف عظيما واحداً لم يكن ليستطيع أن يكون عظيما فى أى مجال شاء ؛ ذلك أن «كويتْسو» هذا كان ممتازاً فى الخط وممتازاً فى التصوير ، وممتازاً فى الرسم على المعادن و«اللاكيه» والخشب ؛ وهو شبيه بـ «وليم مورس» فى قيامه بحركة إحيائية فى سبيل الطباعة الجميلة ، وأشرف على قرية قام فيها صُنَّاعُه بمختلف ألوان الفن تحت إرشاده[٧٨] ولم ينافسه الزعامة فى التصوير فى عهد «توكوجاوا» إلا «كورين» ذلك المصور البارع للأشجار والأزهار ، الذى يحدثنا عنه معاصروه فيقولون إنه كان يستطيع بجرة واحدة من فرجونه أن يطبع ورقة من أوراق السوسن على قماشة الحرير فتحيا[٧٩] ولست تجد مصوراً سواه تمثلت فيه الروح اليابانية الخالصة كاملة كما تمثلت فيه ؛ أو أظهر الروح اليابانية كما أظهرها هو إظهاراً جعله بمثابة النمط لليابان كلها فى سلامة ذوقه ودقة فنه(*) .

وآخر مدارس التصوير اليابانية التى يسجلها التاريخ ، بمعنى كلمة التصوير الدقيق ، مدرسة أسسها «مارويامى أوكيو» فى كيوتو فى القرن الثامن عشر ؛ وكان «أوكيو» هذا رجلا من الشعب ، حركت نوازع الفن فى نفسه معرفته اليسيرة بالتصوير الأوروبى ، فصمم أن يهجر الأساوب القديم بما فيه من نزعة مثالية ونزعة تأثرية قد نفدت منهما عصارة الحياة ، وأن يحاول وصفاً واقعياً لمشاهدة بسيطة يختارها من الحياة اليومية الجارية ؛ وأغرم غراماً خاصاً برسم الحيوان ، واحتفظ بصنوف كثيرة من أنواع الحيوان تعيش حوله ليتخذ منها موضوعات لفنه ؛ وقد حدث مرة أن رسم خنزيراً متوحشاً وأطلع الصيادين

(*) ظفر متحف الفن المعروف باسم متروبولتان فى نيويورك ، بصورة من صور «كورين» يقول عنها «ليدو» إنها : «من أعظم آيات نوعها التى سمح لها بالخروج من اليابان[٨٠]» .

على صورته فخاب رجاؤه حين ظن هؤلاء الصيادون أن الخنزير المرسوم يصور خنزيراً ميتاً ، فلبث يحاول ثم يحاول ، حتى رسم صورة لخنزير قال عنها الصيادون إن الخنزير الذى تصوره ليس ميتاً ، ولكنه نعسان[٨١] ، ولما



ستار متموج ، رسم كورين

كانت الطبقة العالية فى كيوتو مفلسة ، اضطر « أوكيو » أن يبيع صوره لأبناء الطبقة الوسطى ، ولعل هذه الضرورة الاقتصادية هى التى ألزمته إلى حد كبير أن يختار لفنه موضوعات شعبية ، لدرجة أنه جعل يصور بعض غانيات

كيوتو ، وصعق لذلك فنانو الجيل السابق لجيله ، ولكنه مضى فى طريقه خارجاً على التقاليد ؛ وجاء « مورى سوزان » فتقبل زعامة « أوكيو » فى التزام الطبيعة فى الفن ، وقصد إلى حيث تسكن الحيوانات فعاش بينها لكى يتاح له الإخلاص فى تصويرها ، حتى أصبح أعظم مصور يابانى فى رسم القردة والغزلان ؛ فلما مات « أوكيو » (١٧٩٥) كان الواقعيون قد كسبوا السيادة التامة على فن التصوير ، واستطاعت مدرسة شعبية خالصة أن تستوقف الأنظار ، لا فى اليابان وحدها ، بل فى أرجاء العالم كله .

الفصل العاشر

الصور المحفورة

مدرسة « يوكيويى » - مؤسسوها - أعلامها - هوكوسا - هيروشيجا

إنها لأضحوكة أخرى من أضاحيك التاريخ أن يكون الفن اليابانى أقربه إلى الغرب علماً وأعمق فيه تأثيراً ، عن طريق جانب من جوانبه ، هو أقل تلك الجوانب منزلة فى اليابان نفسها ؛ فقد تحول فيما يقرب من منتصف القرن الثامن عشر ، فن الحفر الذى كان قد وفد على اليابان فى ثنايا التعاليم البوذية وملحقاتها قبل ذلك بخمسمائة عام ، تحول فأصبح أداة لتوضيح الكتب وحياة الناس بالرسوم ، ذلك أن الموضوعات القديمة والطرائق القديمة كانت قد فقدت رونق الجدة ففقدت بذلك اهتمام الناس بها ، إذ أترع هؤلاء الناس بصور القديسين البوذيين والفلاسفة الصينيين ، والحيوانات التى استغرقت فى التأمل ، والزهور التى ترمز للطهر والبراءة ؛ ونهضت طبقات جديدة من الناس فاحتلت مكان الصدارة ، وافتقدت فى الفن تصويراً لشئون حياتهم ، وراحت تخلق من رجال الفن من يُقبل راضياً على إشباع تلك الرغبات ؛ فلما كان التصوير يتطلب فراغاً ونفقات ، ولا ينتج إلا صورة واحدة فى المرة الواحدة ، عمل الفنانون الجدد على اصطناع فن الحفر لتحقيق غاياتهم ، فحفروا الصور فى الخشب ، وبذلك تمكنوا من إصدار عدد رخيص من الصورة الواحدة بمقدار ما يطالب سوادُ الشارين فى السوق ، وكانت هذه الرسوم المحفورة تلوَّن باليد أول الأمر حتى إذا جاء عام ١٧٤٠ صنعت ثلاثة « كليشيهات » للصورة الواحدة : واحدة لا لون فيها ، وثانية لوِّن جانب منها باللون الأحمر الوردى ، وثالثة لونت فى بعض أجزائها باللون الأخضر ، ثم كانت الأوراق المراد طبعها توضع على « الكليشيهات » بالتناوب ، وأخيراً فى

سنة ١٧٦٤ صنع « هارونوبو » أول كليشيهات متعددة الألوان ، فهد بذلك الطريق إلى تلك الرسوم الناصعة التى رسمها « هوكوساى » و « هيروشيجى » . والتى جاءت للأوروبيين الذين ملوا الثقافة القائمة وتحرقوا ظمأ لكل ما هو جديد . جاءت تلك الرسوم للأوروبيين حافزاً وموحياً ، وهكذا ولدت مدرسة « يوكيوى » التى جعلت موضوعها « صور الحياة العابرة » :



ثعالب ، رسم هيروشيجى

ولم يكن مصوروها أول من جعل الإنسان العارى من الألقاب موضوعاً للفن ، فقد سبق لـ « إواسا ماتابى » فى أوائل القرن السابع عشر أن أدهش فئة « السيافين » بتصويره على ستار سداسىّ الجوانب رجالا ونساء وأطفالا فى

أوضاع الحياة اليومية بغير تحفظ ، وقد وقع اختيار الحكومة اليابانية سنة ١٩٠٠ على هذا الستار « واسمه هيكونى بيوبو » لعرضه فى باريس ، وأمّنت على سلامته أثناء الرحلة بثلاثين ألف ين (وهو ما يعادل خمسة عشر ألف ريال)(٨٢) وفى سنة ١٦٦٠ صنع « هيشيكاوا موررونوبو » مصور الزخارف على الأقمشة فى مدينة كيوتو ، أول رسوم بالكليشيهات ، صنعها أول الأمر لتطبع فى الكتب توضيحاً لمادتها ، ثم صنعها ليستخدمها فى طبع رسوم وبيعها للشعب كما تباع البطاقات المصورة عندنا اليوم ؛ وحوالى سـنة ١٦٨٧ ، انتقل « توروكوچوموتو» مصور المناظر فى مسارح «أوساكا» انتقل إلى « يدو » وعلّم مدرسة « يوكيوى » (التى كانت محصورة فى العاصمة وحدها) كيف يمكنها أن تستفيد من الوجهة المالية ، إذا هى اتجهت نحو تصوير الرسوم المحفورة لمشاهير الممثلين فى ذلك العصر ، وبعدئذ انتقل الفنانون الجدد من المسرح إلى مواخير الدعارة فى « يوشيوارا » فخلعوا بفنهم مسحة من الخلود على على كثيرات من ربات الجمال الزائل وهكذا دخلت الأثداء العارية والأطراف المتلألئة — بعد أن خلعت عذارها — حرم فن التصـوير اليابانى الذى كان لا يدخله من قبل إلا موضوعات الدين والفلسفة .

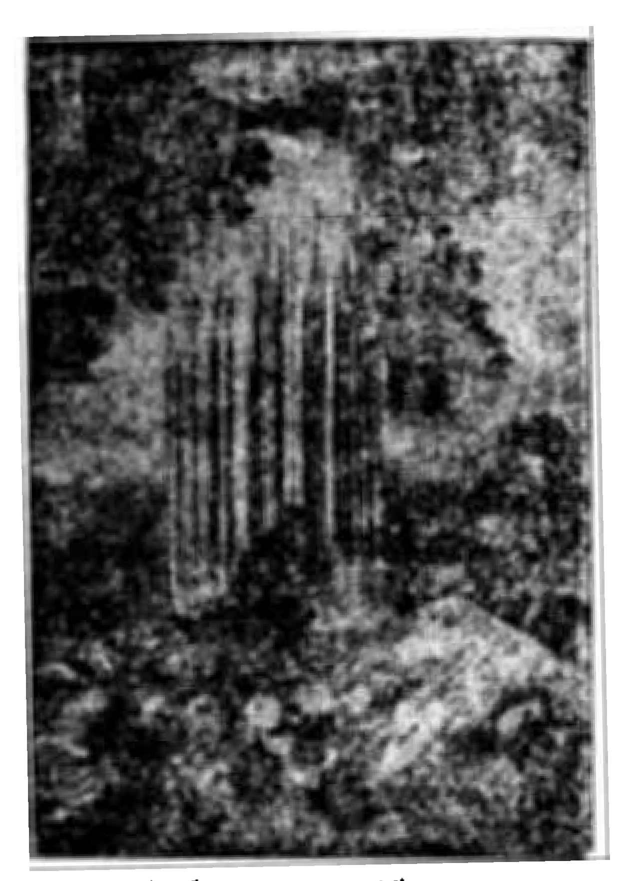
وظهر أعلام هذا الفن الذى تقدم وتطور ، حول منتصف القرن الثامن عشر ؛ فقد صنع «هارونوبو » رسوماً تحتوى على اثنى عشر لوناً ، بل خمسة عشر لوناً ، مستخدماً فى ذلك كليشيهات بعدد الألوان ، ولما أحس لذعة الضمير لرداءة ما صوره فى سابق عهده للمسرح ، راح يعوض عن ذلك برسوم تتجلى فيها الرقة اليابانية ، يعرض فيها ألوان الشباب المرح فى عالمه الشيق وبلغ « كيوناجا » أوج الفن فى هذه المدرسة وجعل يستخدم اللون والخطوط متداخلا بعضه فى بعض ، فى رسمه لسيدات من الطبقة العالية مستقيمات القامة ، دون أن تؤثر تلك الاستقامة فى مرونة البدن ؛ وأما « شاراكو» فالظاهر أنه لم

ينفق أكثر من عامين فى حياته لتصميم الرسوم المحفورة ، لكنه فى هذا الأمد القصير استطاع أن يرقى إلى طليعة العاملين فى هذا الفن ، بفضل صوره عن « الأولياء (الرونين) الأربعة والسبعين » ، ورسومه التى أفحشت فى سخريتها بـ «نجوم» المسرح الهاويات من سمائها ؛ وصور «أوتامارو » الذى عرف بالخصوبة فى نبوغه وتنوع قدرته ، كل ضروب الأحياء من الحشرات إلى الفاجرات ، فقد قضى نصف حياته العاملة فى الـ « يوشيوارا » وأرهق نفسه متعةً وعملا ، وزج فى السجن عاماً (١٨٠٤) لرسمه « هيديوشى » محاطاً بأربع غانيات من خليلاته(٨٣) ، وكأنما مل « أوتامارو » تصويره لغمار الناس فى أوضاع الحياة العادية ، فأخذ يصور سيداته الرقيقات المهذبات فى رشاقة تكاد تقول عنها إنها رشاقة روحانية ، صورهن برءوس مائلة قليلا ، وعيون مستطيلة منحرفة ، ووجوه طويلة ، وقدود عجيبة لفّتها ثياب مناسبه كثيرة الطبقات ؛ ثم فسد فى الذوق فأفسد هذا النمط الفنى بحيث جعله متكلفاً ممقوتاً ، فانحدرت مدرسة « يوكيوبى » إلى ما يدنو من الفساد والتدهور ، لولا أن قام بها زعيماها المشهوران فدا من حياتها نصف قرن آخر

أما أحدهما فهو « هوكوساى » الذى نعت نفسه « بالرجل الكهل الذى جُنّ بالتصوير » ، وقد امتد به العمر إلى ما يقرب من تسعين عاماً ، ومع ذلك كتب يرثى لبطء سيره نحو الكمال وقصر أمد الحياة ، فقال :

« لقد تولانى جنون عجيب منذ السادسة من عمرى برسم كل ما يصادفنى من الأشياء كائناً ما كان ، فلما بلغت الخمسين كنت قد نشرت عدداً من آثارى مختلفة أنواعها ، لكن لم أطمئن إلى أى منها اطمئناناً تاماً ، ولم يبدأ عملى الحق إلا حين بلغت السبعين ، وهأنذا الآن فى الخامسة والسبعين ، وقد استيقظ فى نفسى حب الطبيعة بمعناها الصحيح ، ولذا ترانى آمل أن أظفر عند الثمانين بقوة من إدراك البصيرة يظل ينمو معى حتى أبلغ التسعين ، فإذا ما بلغت

المائة كان لى — فى أغلب الظن — أن أقرر تقرير الواثق بأن إدراك بصيرتى قد أصبح إدراكاً فنياً خالصاً ، ولو وهبنى الله أن أعيش حتى العاشرة بعد المائة كان رجائى عندئذ أن يشعّ من كل خط أسطره بل من كل نقطة أخطها فهمٌ جوهرى صحيح بالطبيعة .:. وإنى لأطلب من أولئك الذين سيمتد بهم العمر



مساقط يورو ، رسم هوكوساى

ما يمتد بى أن يروا إن كنت ممن يفون بما يعدون أو لم أكن ، لقد كتبت هذا وأنا فى سن الخامسة والسبعين ، أنا الذى كان اسمه « هوكوساى » وأصبح الآن يدعى « الرجل الكهل الذى جُنّ بالتصوير »(٨٤)

وكان شأنه شأن سائر رجال الفن من مدرسة « يوكيوبى » من حيث إنه

نشأ من طبقة العمال ، فهو ابن لصانع كان يصنع المرايا ، وألحقوه بفنان يدعى « شنسو » ليأخذ عنه الفن ، لكنه لم يلبث أن طرد لإصالته وعاد إلى أسرته ليعيش فقيراً شقياً مدى حياته الطويلة ، ولم يستطع أن يعيش بتصويره ، فراح يجول فى المدينة بائعاً للطعام وكراسات التقويم ، وحدث أن احترقت داره ، فلم يزد على إنشاده هذه العبارة من الشعر :

لقد احترقت الدار .

فما كان أجمل الزهور وهى تهوى(٨٥) ! .

وجاءه الموت وهو فى التاسعة والثمانين ، واستسلم له كارهاً وهو يقول : « لو وهبتنى الآلهة عشرة أعوام أخرى فقط لأمكننى أن أكون فناناً عظيما بحق(٨٦) .

وخلف وراءه خمسمائة مجلد تحتوى على ثلاثين ألف صورة كلها مخمور بروح الفن اللاشعورى حين يتناول الطبيعة فى شتى صورها ؛ فقد رسم — محباً لما رسم مكرراً له فى أوضاع مختلفة — رسم الجبال والصخور والأنهار والجسور ومساقط الماء والبحر ، وحدث بعد أن فرغ من نشره لكتاب « ست وثلاثين صورة من مناظر فيوجى » أن قفل راجعاً ليجلس عند سفح الجبل المقدس من جديد ، : كما فعل الكاهن البوذى المفتون الذى تروى عنه الأساطير(*) ، وهناك رسم « مائة منظر من فيوجى » ، ونشر سلسلة أسماها « أخيلة الشعراء » عاد فيها إلى الموضوعات الرفيعة التى كان يتناولها الفن اليابانى من قبل ، وكان من بين هذه المجموعة منظر يصور « لى پو » العظيم بجانب الوادى الصخرى ومسقط الماء يطلق عليهما « لو » .

وفى سنة ١٨١٢ نشر الجزء الأول من مجموعة قوامها خمسة عشر جزءاً ،

(*) الكاهن الذى يروى عنه أنه أبعد من اليابان نفياً ، فجعل يعبر البحر بموكبه كل يوم لينظر إلى « الجبل المقدس » .

أسماها « مانجو » - وهى سلسلة من صور واقعية تشتمل على الأخص تفصيلات الحياة اليومية الجارية تلذع بما فيها من فكاهة ، وتفحش بما تحتوى عليه من تشهير مُقنَّع ، وقد كان ينثر هذه الصور نثراً دون عناية أو مجهود ، فيخرج منها اثنتى عشرة كل يوم حتى صور بها كل ركن من أركان الحياة الشعبية فى اليابان ، ولم تكن الأمة قد شهدت قط من قبل مثل هذه الخصوبة ولا مثل هذا التصور العقلى السريع النافذ ، ولا القدرة على التنفيذ بكل هذه الحيوية الجامحة ، وكما أن رجال النقد فى أمريكا قد قللوا فى حسابهم من شأن « وِتْمان » فكذلك قلل رجال النقد ودوائر الفن فى اليابان من شأن « هوكوساى » فلم يروا إلا فورة فرجونه وسوقية عقله التى تتبدى آناً بعد آن ، لكن جيرانه لما مات - جيرانه الذين لم يكونوا يعلمون أن « وِسْلرْ » قد أخذه التواضع لحظة فوضعه فى أعلى منزلة من منال الفن التى لم يحتلها أحد سواه منذ « ڤلاسكويز » - أقول إنه لما مات دهش جيرانه حين رأوا كل تلك الجنازة الطويلة تنبعث من ذلك المنزل المتواضع .

وآخر شخصية برزت من مدرسة « يوكيوئى » هو « هيروشيجى » (١٧٩٦ - ١٨٥٨) الذى يقل شهرة عن « هوكوساى » فى البلاد الغربية ، لكنه أكثر منه احتراماً فى الشرق ، وتنسب إليه مائة ألف صورة حفرية متميزة الخصائص ، وكلها يصور المناظر الطبيعية فى بلاده تصويراً فيه من الإخلاص ما ليس فى رسوم « هوكوساى » ، وفيه فنٌّ أنزل « هيروشيجى » منزلة قد تجعله أعظم من صوَّر المناظر الطبيعية من أهل اليابان ؛ فقد كان « هوكوساى » إذا وقف إزاء الطبيعة لا يرسم المنظر كما يبدو ، بل يرسم خيالا شاطحاً يوحى إليه بالمنظر الذى يراه ، أما « هيروشيجى » فقد أحب الطبيعة نفسها بشتى صورها ، ورسمها بدرجة من الإخلاص تمكن الرحالة الذى يمرّ بالأجزاء التى رسمها أن يتبين الأشياء والسفوح التى أوحت إليه بصوره تلك ،

وفى وقت يقع حوالى سنة ١٨٣٠ أخذ طريقه فى السكة الرئيسية التى تمتد من طوكيو إلى كيوتو ، فكان فى رحلته شاعراً بأدق معنى الشاعرية حين لم يقصد توآ إلى غايته المقصودة ، بل سمح لنفسه أن تنشغل بالمناظر التى استثارتها وهو فى الطريق ؛ فلما فرغت رحلته جمع انطباعاته بتلك المناظر فى مجموعة له مشهورة اسمها « المحطات الثلاثة والخمسون على الطريق العام » (١٨٣٤) ، وقد أجب رسم المطر والليل فى كل صورهما المشبعة بروح الغموض ، ولم يفقْه فى ذلك إلا « وِسلرْ » الذى جرى على غراره فى رسمه لمناظر المساء[٨٨] ، وكذلك أحب « هيروشيجى » « فيوچى » كما أحبها « هوكوساى » ورسم لجبالها « المناظر الستة والثلاثين » غير أنه أحب معها مسقط رأسه « طوكيو » ، ورسم « مائة منظر من مناظر ييدو » قبيل موته ، ولئن لم يعمَّر ما عُمِّره « هوكوساى » إلا أنه أسلم شعلة الفن وهو مطمئن لما صنع :

إنى أترك فرجونى فى « أزوما »

وأتابع رحلتى « إلى الغرب المقدس »

لكى أشاهد المناظر المشهورة هناك (*)[٨٩]

(*) يوجد فى متحف بوسطن مجموعة رائعة من الرسوم المحفورة التى « رسمها هيروشيجى »

الفصل الحادى عشر

فن اليابان وحضارتها

مراجعة – موازنات – تقدير – خاتمة اليابان القديمة

كانت الرسوم الحفرية فى اليابان آخر مرحلة تقريباً من مراحل تلك المدنية اللطيفة الرقيقة التى اندك بناؤها تحت ضغط الصناعة الغربية ، كما أن تشاؤم العقل الغربى ومرارة نظرته إلى العالم اليوم ، قد يكونان آخر مظهر من مظاهر مدنية أراد لها القضاء أن تموت تحت وطأة الصناعة الشرقية ؛ ولما كانت اليابان فى عصورها الوسطى التى امتدت حتى عام ١٨٥٣ غير ذات أذى لنا ، كان فى مستطاعنا أن نقدر جمالها تقديراً فيه العطف والرعاية ؛ وإنه لمن العسير علينا أن نرى فى اليابان بعد أن أقامت المصانع التى تنافس مصانعنا ، وأقيمت بها المدافع التى تهدد سلامنا ، من العسير علينا أن نرى فى مثل هذه اليابان ذلك السحر الذى يفتننا حين ننظر إلى مختارات ماضيها الجميلة ؛ وقد ننظر أحياناً نظرة عقلية هادئة ، فندرك أن تلك اليابان القديمة شهدت كثيراً من العسف ، وأن الفلاحين كانوا يعيشون فى فقر ، والعمال يقيمون على ضيم ، وأن النساء كن إماء يُبَعْن وقت الشدة لمتعة من شاء أن يستمتع ، وأن الحياة كانت رخيصة وأنه فى النهاية لم يكن ثمت قانون يحمى الرجل من سواد الشعب إلا سيف « السياف » ؛ لكن الأمر فى أوربا كان على هذه الحال نفسها : كان الرجال يصطنعون القسوة وكانت المرأة خاضعة للرجل ، وكان الفلاحون يعيشون فى فقر ، والعمال يقيمون على ضيم ، وكانت الحياة عسيرة والفكر الحر مجلباً للخطر ، ولم يكن فى النهاية من قانون سوى إرادة سيد الإقطاع أو الملك .

وكما أننا قد نشعر بالحب لأوربا القديمة التى شهدت كل هذا ، لأنها وسط

ما يخمرها من فقر واستغلال وتعصب ، استطاع أهلها أن يبنوا الكنائس بناء يعنون فيه بنحت كل حجر من أحجاره نحتاً جميلا ؛ وراحوا يضحون بأنفسهم ليكسبوا لخلفهم حق التفكير ، أوكانوا يقاتلون في سبيل العدالة حتى خلقوا بقتلهم تلك الحريات المدنية التي هي أنفس جزء من تراثنا وأكثره تعرضاً للزوال ؛ فكذلك كان وراء صليل سيوف السيافين (في اليابان) ما يستحق التمجيد من شجاعة لا تزال تبث في اليابان قوة فوق ما يتناسب مع عدد أهلها أو كمية تراثها ، وكذلك نستطيع أن نتبين وراء الرهبان الكسالى شاعرية البوذية ، وقدرتها التي لا تنفذ على الإيحاء بالشعر والفن ؛ ونستطيع كذلك أن نستشف وراء الصفحة القوية التي تنم عن القسوة ، والوقاحة الظاهرة التي يعامل بها القوى الضعيف ؛ نستطيع أن نستشف وراء هذا كله أرق ضروب الأخلاق ، وأبهج ألوان المحافل ، وإخلاصاً لجمال الطبيعة في كل صورها لا يدانيه إخلاص ، ثم نستطيع أن نرى وراء استعباد المرأة ، جمالها ورقتها ورشاقتها التي لا تنافسها فيها امرأة أخرى ؛ ووسط مظاهر الاستبداد الذي يظلل الأسرة ، ترن في آذاننا أصوات السعادة تنبعث من الأطفال وهم يلعبون في جنة الشرق .

إن شعر اليابان الذي يضبط فيه الشاعر نفسه ضبطاً يؤديه إلى الاقتضاب ، والذي تستحيل ترجمته ، لا يحرك اليوم مشاعرنا تحريكاً قويا ؛ ومع ذلك فهذا الشعر نفسه — فضلا عن الشعر الصيني — هو الذي أوحى لنا « بالشعر المرسل » و« التصوير الشعري » اللذين نعهدهما في شعرنا اليوم ؛ ولم تعرف اليابان إلا قليلا من الفلاسفة ، وكذلك يندر جداً في مؤرخيها أن تجد روح الحياد الرفيع الذي يصادفك عند قوم لا يكتبون الكتب لتكون ملحقاً لقوتهم العسكرية أو السياسية ؛ لكن هذه أشياء تعد من الصغائر في حياة اليابان ، لأنها أنفقت جهدها كله في اتجاه حكيم ، وهو أن تخلق صور الجمال أكثر مما تتعقب الحق ، وكانت الأرض التي عاش عليها اليابانيون أشد غدراً من أن تقوم عليها عمارة

شامخة ، ومع ذلك فالدُّور التي كانت تبنيها تلك البلاد هي « أجمل ما خططه العالم من دُور إذا نظرنا إليها من وجهة نظر جمالية »[٩٠] ولم ينافسها في العصور الحديثة بلد آخر في رشاقة تحفها الصغيرة وجمالها — كثياب النساء والمراوح والشمسيات ، والفناجين ولعب الأطفال ، والمدليّات والعُقَد الحريرية المزخرفة ؛ وروعة الطلاء « باللاكيه » والنحت الرائع في الخشب ، ولم يبلغ أي شعب حديث ما بلغه الشعب الياباني من ضبط الزخارف ورقتها ، أو من شيوع الذوق المرهف الأصيل ، نعم إن الخزف (البورسلان) الياباني لاينزل في التقدير — حتى في نظر اليابانيين أنفسهم — منزلة الخزف الذي كان يصنع في « صنج » و « منج » (في الصين) لكنه إن كانت الصين وحدها قد بزّتها في تلك الصناعة ، فإن عمل الخزاف الياباني ما يزال يعلو على مثيله من نتاج الأوربيين المحدثين ؛ ولئن كان التصوير الياباني تعوزه قوة التصوير الصيني وعمقه ، ثم لئن كانت الرسوم الحفرية اليابانية قد تسوء حتى تبلغ أن تكون مجرد رسوم للإعلان ، وهي في أجود حالاتها لا تزيد على كونها إثباتاً سريعاً لتوافه كانت قمينة أن تزول وشيكاً ، فأضيف إليها شيء مما يميز الفن الياباني من تمام الرشاقة وكمال التخطيط ، فإن التصوير الياباني — لا التصوير الصيني — وإن الرسوم الحفرية اليابانية لا ألوانها المائية ، هي التي أحدثت الثورة في فن التصوير إبان القرن التاسع عشر ، وهي التي كانت حافزاً لإجراء مئات التجارب الفنية البديعة الطريفة ؛ ولما أعيد التبادل التجاري بعد سنة ١٨٦٠ بين أوروبا واليابان كانت تلك الرسوم الحفرية التي تدفقت إلى أوروبا في ذيل التجارة ، هي التي أثرت أعمق الأثر في « مونيه » و « مانيه » و « ديجا » و « وِسْلَرْ » فهؤلاء قد أقاموا إلى الأبد عن « الصلصة البنية اللون » التي لازمت التصوير الأوروبي كله تقريباً من « ليوناردو » إلى « مِليتْ » وملأوا رقعات التصوير في أوروبا بصور الشمس ، واستحثوا المصور الفنان أن يكون أقرب إلى الشاعر منه إلى الفوتوغرافي ؛ يقول « وِسْلَرْ » في اعتداد جعل

الناس جميعاً إلا معاصريه يكبرونه » لقد تمت بالفعل قصة الجمال ، لأنه تبدى منحوتاً فى المرمر الذى تراه فى البارثنون ، ولأنه مُوَشًّى على هيئة الطير فى المروحات التى رسمها « هوكوساى » على سفح فيوچى ياما »[١٩] .

وإنا لنرجو ألا يكون هذا القول صواباً ، لكنه كان هو الصواب فى رأى اليابان القديمة وإن لم تصرح به ؛ وماتت اليابان القديمة بعد « هوكوساى » بأربعة أعوام ، ذلك لأنها عاشت حياة وادعة رخية فى عزلتها البعيدة ، فنسيت أن الأمة لا بد أن تساير العالم إذا أرادت ألا يستعبدها المستعبدون ، فبينما كانت اليابان فى شغل من نحتها للمدليات وزخرفتها للمروحات بالزهر ، كانت أوروبا تنشىء علماً لم يكد يعلم الشرق عنه شيئاً ، وأخيراً تمكن ذلك العلم الذى قام بناؤه على مر الأعوام فى المعامل التى يبدو فى ظاهرها أنها فى عزلة بعيدة عن مصطخب الحياة الجارية ، تمكن آخر الأمر من تزويد أوروبا بالصناعات الآلية التى أتاحت لها أن تصنع لوازم العيش بثمن أرخص مما تصنعها به آسيا على أيدى مهرة صناعها الذين كانوا يصنعونها بأيديهم ، وإن تكن تلك المصنوعات الآلية أقل جمالا من زميلاتها اليدوية ، فقد كان لا بد لتلك السلع الرخيصة — عاجلا أو آجلا — أن تكتسح أسواق آسيا ، فتنزل الخراب الاقتصادى وتغير من الحياة السياسية ، فى بلاد كانت تمرح مطمئنة فى مرحلة الصناعة اليدوية ، وأسوأ من ذلك شراً أن العلم قد صنع المفرقعات والمدمرات والمدافع ، التى تستطيع أن تكون أشد فتكاً من سيف أشجع « السيافين » فماذا تجدى شجاعة الفارس أمام فزع القنبلة التى لا يُعرف اسم راميها ؟

ولن تجد فى التاريخ الحديث أروع ولا أعجب من الطريقة التى استيقظت بها اليابان من نعاسها استيقاظاً جازعاً على صوت مدفع الغرب ، فوثبت تتعلم الدرس ، وأصلحت صنع ما تعلمت صنعه ، وأفسحت صدرها للعلم والصناعة والحرب ، ثم هزمت كل منافسيها فى ميدان الحرب وميدان التجارة معاً وبانت خلال جيلين أكثر أمم العالم المعاصر تحفزاً للعدوان .

الباب الحادي والثلاثون

اليابان الجديدة

الفصل الأول

الثورة السياسية

تدهور الحكم العسكري – أمريكا تطرق الباب – عودة السلطة الإمبراطورية
تغريب اليابان – التجديد السياسي – الدستور الجديد – القانون – الجيش
الحرب مع الروسيا – نتائجها السياسية

يندر أن يأتي الموت إلى مدينة من خارجها ، بل لا بد للانحلال الداخلي أن يفت في نسيج المجتمع أولا قبل أن يتاح للمؤثرات أو الهجمات الخارجية أن تغير جوهر بنائها ، أو أن تقضي عليها قضاء أخيراً ؛ فقلما يكون للأسرة الحاكمة تلك الحيوية الدءوب والمرونة السريعة التشكل، اللتان يتطلبهما استمرار السيادة ، فمؤسس الأسرة المالكة يستنفد نصف القوة الكامنة في أصلاب أسرته ثم يترك لغير الممتازين من خلفه عبئاً لا يستطيع حمله إلا العباقرة ؛ فأسرة « توكوجاوا » بعد « أيياسو » حكمت البلاد حكماً لا بأس به ، لكننا لو استثنينا منها « يوشيموني » لما وجدنا بين أفرادها شخصيات بارزة تستوقف النظر ؛ فما انقضت بعد موت « أيياسو » ثمانية أجيال حتى راح أمراء الإقطاع يزعزعون قوائم تلك الأسر العسكرية بثوراتهم التي ما فتئت تنهض حيناً بعد حين ؛ فكانوا يسوِّفون في دفع الضرائب أو يمتنعون عن دفعها ؛ وعجزت خزانة « يدو » – بالرغم من التدابير الاقتصادية العنيفة التي اتخذت – عن تمويل الدفاع القومي أو صيانة الأمن في البلاد[1] . وقد مر على البلاد أكثر من

قرنين حيث ساد السلام فتطرّت خشونة « السيافين » وضعف احتمال الشعب لكاره الحروب وتضحياتها ؛ وحلّت فى الناس نزعات أبيقورية (ترمى إلى التمتع) محل البساطة الرواقية التى كانت سائدة فى عهد هيديوشى ؛ فلما أن دعيت البلاد فجأة لحماية سيادتها ، وجدت نفسها منزوعة السلاح بمعناه المادى والخلقى جميعاً ؛ وانحل العقل اليابانى بفعل اعتزالها الاتصال بالأجانب ، وأخذ الناس يسمعون بتطلع قلق عن ازدياد الثروة وتغير المدنية فى أوربا وأمريكا ؛ وراح هؤلاء الناس يدرسون ما جاء بكتابى « مابوشى » و « موتو — أورى » وشاع بينهم فى الخفاء أن الحكام العسكريين مغتصبون للحكم ، وقد فككوا باغتصابهم ذلك استمرار سيادة الإمبراطورية ، ولم يستطع الشعب أن يوفق بين الأصل الإلهى للإمبراطور ، وبين فقره المدقع الذى فرضته عليه أسرة « توكوجاوا » ؛ وجعل الدعاة إلى قلب نظام الحكم العسكرى القائم ، يخرجون من مكامنهم فى « يوشيوارا » وغيرها ويغمرون البلاد بنشراتهم التى تحرض الناس على ذلك الانقلاب ، وإرجاع الإمبراطور للحكم .

ونزلت النازلة على رأس هذه الحكومة المرتبكة الفقيرة ، حين شاع النبأ سنة ١٨٥٣ بأن أسطولا أمريكياً قد تجاهل الأوامر اليابانية التى تحرم دخول خليج أوراجا ، ودخل ذلك الخليج ، وأن قائده يلح فى مقابلة صاحب السلطة العليا فى اليابان ، والحقيقة أن « الكومودور پرى » كان يقود أربع سفن حربية فيها خمسمائة وستون رجلا ، وبدل أن يعرض هذه القوة المتواضعة عرضاً فيه معنى التهديد ، أرسل مذكرة ودية إلى الحاكم العسكرى « أييوشى » يؤكد له أن الحكومة الأمريكية لا تطلب أكثر من فتح بضعة موان يابانية فى وجه التجارة الأمريكية ، واتخاذ بعض الإجراءات لحماية البحارة الأمريكيين الذين قد تتحطم بهم سفائنهم على الشواطئ اليابانية ، ولم يلبث « پرى » أن اضطر إلى العودة إلى قاعدته فى المياه الصينية بسبب « ثورة تاى — ينج » ؛ لكنه عاد إلى اليابان من جديد سنة ١٨٥٤ مسلحاً بقوة بحرية أكبر ، ومزوداً

بمختلف الهدايا الغربية — عطور وساعات ومدافئ وشراب الوسكى . . . يقدمها للإمبراطور والإمبراطورات وأمراء البيت المالك ؛ غير أن الحاكم لعسكرى الجديد « أييسادا » تعمد ألا يرسل هذه الهدايا إلى أفراد الأسرة المالكة ، ووافق على توقيعه لمعاهدة « كاناجاوا » التى اعترفت بكل ما طلبه الأمريكان ؛ وهنا أثنى « پرى » على حسن لقاء أهل الجزر اليابانية ، وأعلن مدفوعاً بقصر نظره أنه « لو جاء اليابانيون إلى الولايات المتحدة ، وجدوا المياه الصالحة للملاحة فى البلاد مفتوحة أمامهم ، وأنه ستفتح لهم أبواب مناجم الذهب نفسها فى كليفورنيا »(٢) وهكذا فتحت الموانى اليابانية الكبرى للتجارة الخارجية بمقتضى هذه المعاهدة وما تلاها من معاهدات ؛ وحددت الضرائب الجمركية وفصلت مقاديرها وأنواعها ؛ ووافق اليابانيون على أن يحاكم المتهمون من الأوربيين والأمريكيين فى اليابان أمام محاكمهم القنصلية ؛ واشترطت شروط اتفق فيها على أن يوقف اضطهاد المسيحية فى الإمبراطورية اليابانية ، ووافقت الولايات المتحدة فى الوقت نفسه أن تبيع لليابان كل ما تحتاج إليه من أسلحة وسفن حربية ، وأن تعيرها الضباط والصناع لعل هذه الأمة المسالمة مسالمة صبيانية أن تتعلم على أيديهم فنون القتال(٣) .

وعانى الشعب اليابانى أقسى عناء مما فرضته هذه المعاهدات عليه من فروض الذل ، ولو أنه عاد فنظر إليها على أنها أدوات محايدة جاءته لتعمل على تطوره ، وتقرير مصيره ؛ وود بعض اليابانيين أن يقاتل الأجانب مهما تكلف فى سبيل ذلك ، وأن يطردهم ويعيد للبلاد نظامها الزراعى الإقطاعى الذى يكفيها مؤونة الاعتماد على غيرها ؛ لكن بعضهم الآخر كان من رأيه أن تقليد الغرب أجدى من طرده من بلادهم ؛ فالوسيلة الوحيدة التى تستطيع بها اليابان أن تتجنب الهزائم المتكررة والخضوع الاقتصادى الذى يشبه ما كانت أوربا تفرضه عندئذ على الصين ؛ هى أن تتعلم اليابان بأسرع طريقة ممكنة أساليب الصناعة الغربية ، وفن الحرب الحديثة ؛ وهنا نهض الزعماء

الداعون إلى تغريب البلاد، واستعملوا اللباقة البالغة فى استخدام سادة الإقطاع أعواناً لهم فى قلب الحكم العسكرى، وإعادة الإمبراطور، وبعدئذ استخدموا السلطة الإمبراطورية فى قلب نظام الإقطاع وإدخال الصناعة الغربية فى البلاد، وهكذا حدث سنة ١٨٦٧ أن حمل أمرا الإقطاع «كيكى» — آخر الحكام العسكريين — على النزول عن سلطته، وقد قال «كيكى»: «إن معظم أعمال الإدارة الحكومية معيبة، وإنى لأعترف خجلا بأن الأمور فى وضعها الراهن يرجع نقصها إلى ما أتصف به أنا من نقص وعجز، وهاهو ذا اتصالنا بالأجانب يزداد يوماً بعد يوم؛ فما لم تتولّ إدارة البلاد سلطة مركزية موحدة، انهار بناء الدولة انهياراً من أساسه»(٤)؛ وعلى هذا القول أجاب الإمبراطور «ميجى» فى اقتضاب قائلا: «قد قبلنا ما عرضه توكوجاوا كيكى من إعادة السلطة الإدارية إلى البلاط الإمبراطورى، وفى اليوم الأول من يناير سنة ١٨٦٨ بدأ العهد الجديد «عهد ميجى» بداية رسمية.

وروجعت الديانة الشنتوية القديمة، وقام أولو الأمر بدعاية قوية فى الشعب حتى أقنعوه بأن الإمبراطور العائد إلى عرشه إلهىُّ النسب والحكمة، وأن ما يصدره من مراسيم تجب طاعته كما تجب طاعة أوامر الآلهة.

فلما أن توفرت هذه القوة الجديدة لأنصار التغريب تمتْ على أيديهم معجزة أو ما يوشك أن يكون معجزة فى تحول البلاد تحولا سريعاً؛ فقد شق «إتوا» و«إنوبى» طريقهما إلى أوربا رغم كل ما صادفهما من صعاب وعقبات، ودَرَسا أنظمتها وصناعاتها، ودهشا لطرقها الحديدية وسفنها البخارية، وأسلاكها البرقية وسفنها الحربية، ثم عادا إلى بلادهما تشتعل فى صدريهما الحماسة الوطنية نحو تحويل اليابان إلى صورة أوربية، فدُعِى رجال من الإنجليز للإشراف على بناء السكك الحديدية وإقامة الأسلاك البرقية وتكوين الأسطول، كذلك دُعِى رجال من الفرنسيين ليعيدوا صياغة القوانين ويدربوا

الجيش ، وكلف رجال من الألمان بتنظيم شئون الطب والصحة العامة ، واستخدم الأمريكان فى وضع نظام للتعليم العام ، ولكى يتم لهم الأمر من جميع نواحيه جاءوا برجال من إيطاليا ليعلموا اليابانيين النحت والتصوير(٥) ، وقد كان يحدث بعض الحركات الرجعية أحياناً ، وكانت تصل هذه الحركات إلى حد إراقة الدماء ، بل كانت الروح اليابانية كلها تثور آناً بعد آن على هذا التحول المصطنع الذى رج أوضاع الحياة كلها ، لكن الآلة شقت طريقها آخر الأمر ، ودخلت اليابان بلداً جديداً فى نطاق الانقلاب الصناعى .

ورفعت هذه الثورة بالطبع (وهى الثورة الوحيدة الحقيقية فى التاريخ الحديث) ، طبقة جديدة من الرجال إلى منازل الثروة والقوة الاقتصادية ، — منهم الصناع والتجار والممولون — وقد كان هؤلاء فى اليابان القديمة يوضعون فى أسفل درجات السلّم الاجتماعى ؛ وجعلت هذه الطبقة (البرجوازية) الصاعدة تستخدم فى هدوء ما أتيح لها من مال وقوة نفوذ فى تحطيم النظام الإقطاعى أولا ، ثم عقبت على ذلك بالحد من سلطة العرش العائدة بحيث جعلت منها سلطة وهمية ؛ ففى عام ١٨٧١ حملت الحكومة أشراف الإقطاع على النزول عن امتيازاتهم القديمة ، وعوضتهم عن أراضيهم بسندات أصدرتها الحكومة(*) .

ولما كانت الطبقة الأرستقراطية القديمة قد ارتبطت هكذا بروابط المصلحة المادية مع المجتمع الجديد ، فقد بذلت خدماتها للحكومة عن ولاء ورضى ، ومكنتها من تحويل البلاد من عصرها الوسيط إلى عصرها الحديث دون أن تسفك الدماء فى هذا السبيل ، وكان « إيتو هيرو بومى » قد عاد لتوه من زيارته الثانية لأوربا ؛ فجرى فى بلاده على غرار ما رآه فى ألمانيا ، إذ أنشأ بها طبقة عالية جديدة مؤلفة من خمس درجات :

(*) كان هذا الإجراء يقابل فى جوهره إلغاء النظام الإقطاعى وما يتبعه من عبودية فى فرنسا سنة ١٧٨٩ وفى روسيا سنة ١٨٦٢ ، وفى الولايات المتحدة سنة ١٨٦٣ .

أمير ؛ فاركيز ، فكونت ، ففيكونت ، فبارون .

لكن هؤلاء جميعاً لم يكونوا هم الأعداء الإقطاعيين للنظام الصناعي الجديد بل كانوا لهذا النظام أعوانه المأجورين .

جاهد « إيتو » في تواضعه جهاداً لم يعرف الكلل ، ليحقق لبلاده ضرباً من الحكومة لا تعيبه العيوب التي بدت في عينيه عيوباً ناشئة من الإفراط في الديموقراطية ، على ألا يحد ذلك من تجنيد أصحاب النبوغ وتشجيعهم مهما تكن طبقتهم الاجتماعية لكي يحققوا للبلاد رقياً اقتصادياً سريعاً ؛ وتمكنت اليابان في ظل زعامته أن تعلن أول دستور لها سنة ١٨٨٩ ؛ فكان الإمبراطور في قمة البناء التشريعي ، إذ كان من الوجهة الدستورية رأس الحكومة الأعلى ، ومالكاً للأرض كلها ، وقائداً للجيش والأسطول المسئولين أمامه وحده ، وهو الذي يُكسب الإمبراطورية وحدتها واستمرارها وقوتها وسمعتها المستمدة من سمعة مليكها ، وقد شاءت إرادته الكريمة أن يفوض لقوته التشريعية إنشاء مجلسين نيابيين يظلان قائمين ما شاء هو لهما أن يقوما — مجلس الأشراف ، ومجلس النواب ، غير أنه هو الذي يعين وزراء الدولة ، الذين يسألون أمامه وحده لا أمام مجلس البرلمان ، وكان تحت هؤلاء طبقة من الناخبين عددها يقرب من أربعمائة وستين ألفاً حصروا في هذه الدائرة الضيقة باشتراط مؤهلات كثيرة في الناخب من حيث مقدار ما يملكه ؛ ثم ارتفع عدد الناخبين بفعل حركات تحريرية متعاقبة حتى بلغ ثلاثة عشر مليوناً في سنة ١٩٢٨ ، ولكن فساد الحكومة كان يساير التوسع في الديمقراطية خطوة خطوة(٦) .

وساير هذا التقدم السياسيّ نظام تشريعي جديد (١٨٨١) قائم إلى حد كبير على تشريع نابليون ، وهو يحقق خطوة تقدمية جريئة بالنسبة لتشريع العصور الوسطى التي ساد فيها نظام الإقطاع ؛ فمنحت للناس حقوقهم المدنية منحاً سخياً — إذ منحت لهم حرية الكلام وحرية الصحافة وحرية الاجتماع

وحرية العبادة وعدم انتهاك الرسائل والبيوت ، والحصانة من القبض والعقاب إلا بإجراء قانوني(*) ، وحرم التعذيب والمحنة وفكت عن جماعة الـ « إيتا » قيودهم الطبقية ، وسوّى بين الطبقات كلها أمام القانون من الوجهة النظرية ، وأصلحت السجون ، ودفعت الأجور للمسجونين على عملهم ، حتى إذا ما أطلق سراح المسجون أعطى مبلغاً من المال متواضعاً يبدأ به حياة جديدة فى زراعة أو تجارة ؛ وعلى رغم ما أتاحه هذا التشريع للناس من حرية ، فقد ظلت الجرائم قليلة الحدوث[1] .

ولو اعتبرنا رضى الناس بالقانون عن طواعية علامة على مدنيتهم ، عددنا اليابان فى طليعة الأمم الحديثة حضارة (إذا استثنينا عدداً قليلا من حوادث الاغتيال) .

ولعل أهم ما يميز الدستور الجديد هو إعفاء الجيش والأسطول من كل رئاسة إلا رئاسة الإمبراطور ، فإن اليابان لم تنس قط ما وقع لها من ذل فى عام ١٨٥٣ ، ولذا صممت على إنشاء قوة عسكرية تمكنها من السيطرة على تقرير مصيرها بنفسها ، وتجعلها فى النهاية سيدة الشرق كله ، فلم يكفها أن تعمم التجنيد ، بل جعلت من كل مدرسة فى البلاد معسكراً للتدريب الحربى ، وثدياً يُرضع النشء بلبان الحماسة الوطنية ، وكان لهؤلاء الناس استعداد عجيب للنظام والطاعة ، سرعان ما انتهى بقوتهم العسكرية إلى درجة أتاحت لليابان أن تخاطب « الأجانب الهمج » مخاطبة الند للند ، كما أتاحت لها احتمال ابتلاعها للصين جزءاً جزءاً ، وهو أمل طاف برأس أوربا ، لكنه لم يتحقق لها ، وحدث عام ١٨٩٤ أن أرسلت الصين حملة عسكرية لإخماد ثورة فى كوريا ، وأن لبثت تعيد وتكرر القول بأن كوريا دولة تابعة لسلطة الصين ، فلم يعجب اليابان هذا كله ، وأعلنت الحرب على معلمتها القديمة ، وأدهشت العالم بسرعة

(*) أدت حتى الحرب التى اقتضتها مغامرة منشوريا إلى التضييق من هذه الحقوق تضييقاً شديداً .

نتصارها إذ أرغمت الصين إرغاماً على الاعتراف باستقلال كوريا ، وعلى لتنازل لها عن « فرموزا » و « بورت آرثر » (على رأس شبه جزيرة لياوتنج) وعلى دفع تعويض مالى قدره مائتا مليون من التيلات ، وقد أبدت ألمانيا وفرنسا الروسيا فى « نصحها » لليابان بالانسحاب من « بورت آرثر » مقابل زيادة فى تعويضها المالى قدرها ثلاثون مليوناً من التيلات (والزيادة تدفعها الصين) وخضعت اليابان لما طلب إليها ، لكنها احتفظت بذكرى هذه المعاكسة على مضض ، وراحت ترقب فرصة الانتقام .

ومنذ تلك الساعة أخذت اليابان تعد نفسها إعداداً جادا لا يعرف اللهو ، تعد نفسها للصراع مع الروسيا صراعاً كان لا بد من وقوعه نتيجة اتساع الإمبراطوريتين فى آمالها الاستعمارية ، ونجحت اليابان فى إثارة مخاوف إنجلترا من احتمال التوغل الروسى فى الهند فأبرمت مع سيدة البحار تحالفاً (١٩٠٢ — ١٩٢٢) ، تعهدت به كل من الدولتين أن تساعد الأخرى إذا ما اشتبكت فى قتال مع دولة ثالثة ودخلت دولة أخرى فى القتال ، وقلما وقّع السلسة الإنجليز على ما يقيد حريتهم كل هذا التقييد الذى فرضته عليهم تلك المعاهدة ، فلما بدأت الحرب مع الروسيا سنة ١٩٠٤ أقرض الممولون الإنجليز والأمريكان أموالا طائلة لليابان ، لتعينها على كسب النصر من القيصر[٨] ، واستولى « نوجى » على « بورت آرثر » وزحف بجيشه نحو الشمال قبل فوات الفرصة لإخماد مذبحة « مكدن » — وهى أفظع ما شهد التاريخ من مواقع دامية ، قبل أن يشهد حربنا العالمية (الأولى) التى لا يضارعها مضارع ، والظاهر أن ألمانيا وفرنسا فكرتا فى مساعدة الروسيا بالسياسة أو بالسلاح ، لكن الرئيس روزفلت صرح عندئذ بأنه إذا حدث شىء كهذا ، فلن يتردد فى الوقوف إلى جانب اليابان[٩] ، وفى ذلك الوقت ، أقلع أسطول روسى قوامه تسع وعشرون سفينة ، وشق طريقه جريئاً حول رأس الرجاء الصالح ، مرتحلا

بذلك رحلة لم يسبق لأسطول حديث أن ارتحل مثلها طولا ، وذلك لكى يقابل اليابان فى مياهها وجهاً لوجه ، غير أن الأميرال « توجو » استعان لأول مرة فى تاريخ الأساطيل البحرية باللاسلكى ، وظل على علم متصل بسير الأسطول الروسى ، ثم وثب عليه وثبة قوية فى مضيق تسوشيما فى السابع والعشرين من شهر مايو سنة ١٩٠٥ وأبرق « توجو » لقادته جميعاً رسالة تصور نفسية اليابان كلها . إذ قال : « إن نهوض الإمبراطورية أو سقوطها يتوقف على هذه المعركة »[١٠] فقتل من اليابانيين فيها ١١٦ ، وجرح منهم ٥٣٨ ، وأما الروس فقتل منهم أربعة آلاف ، وأسر سبعة آلاف ، وأغرقت أو أسرت كل سفنهم إلا ثلاثاً .

كانت « موقعة بحر اليابان » نقطة تحول فى مجرى التاريخ الحديث ، فهى لم تقتصر على إيقاف التوسع الروسى فى الأراضى الصينية ، بل أوقفت كذلك سيطرة أوربا على الشرق ، وبدأت ذلك البعث الذى اشتمل آسيا ، والذى يبشر بأن يكون محور الحركات السياسية كلها فى هذا القرن الحاضر ، ذلك أن آسيا كلها قد دبت فيها الحماسة حين رأت الإمبراطورية الجزرية الصغيرة تهزم أكثر دول أوربا عمراناً بأهلها ، فدبرت الصين خطة لثورتها ، وبدأت تحلم بحريتها ، أما اليابان ، فلم يَطُف ببالها أن توسع من نطاق الحرية ، بل فكرت فى الزيادة من سلطانها ، فانتزعت من الروسيا اعترافاً بأن لليابان المكانة العليا فى كوريا ، ثم ما جاءت سنة ١٩١٠ حتى أعلنت اليابان نهائياً ضم كوريا إليها رسمياً ، وهى تلك المملكة القديمة التى بلغت من المدنية يوماً شأواً عظيما ، فلما مات الإمبراطور « ميجى » عام ١٩١٢ ، بعد حياة طويلة طيبة أنفقها حاكما وفناناً وشاعراً استطاع أن يحمل معه إلى الآلهة الذين أنسلوا اليابان رسالة بأن الأمة التى خلقوها ، والتى كانت فى بداية حكمه لعبة فى يد الغرب الفاجر ، قد باتت اليوم رفيعة المكانة فى الشرق ، وقطعت شوطاً بعيداً فى طريقها نحو أن تكون محوراً للتاريخ كله .

الفصل الثانى

الانقلاب الصناعى

حركة التصنيع – المصانع – الأجور – الإضرابات –
الفقر – وجهة نظر اليابان

لم تلبث اليابان نصف قرن إلا وقد غيرت كل وجه من أوجه حياتها ، فتحرر الفلاح رغم فقره ، وأصبح فى مستطاعه أن يملك جزءا متواضعاً من الأرض يدفعه ضريبة سنوية أو أجراً سنوياً للدولة ، ولم يكن من حق أحد من سادة الإقطاع أن يقف فى سبيله لو أراد أن يترك الزراعة ليلتمس وسيلة رزقه فى المدن ، ذلك لأن مدناً عظمى قامت عندئذ على طول الساحل ، منها « طوكيو » (التى معناها العاصمة الشرقية) بقصورها الملكية والارستقراطية وحدائقها الفسيحة وحماماتها المزدحمة وعدد سكانها الذى لم يفقها فيه إلا لندن ونيويورك ، ومنها « أوساكا » التى كانت فى سابق عهدها قرية لاسماكة وحصناً ، فأصبحت اليوم جواً مظلماً من الأكواخ الحقيرة والمصانع وناطحات السحاب ، وهى مركز الصناعات فى اليابان ، ومنها « يوكوهاما » و « كوبى » اللتين ترسلان من مرفأيهما الهائلين المعدين بكل ضروب الآلات الحديثة ، تلك الصناعات إلى مئات الموانى ، محملة على ثانى أسطول تجارى فى العالم(*) .

واستعانت البلاد فى وثبتها من نظام الإقطاع إلى النظام الرأسمالى باستخدامها لكل وسيلة ممكنة استخداماً لم يسبق له نظير ، فاستدعت الخبراء الأجانب اللذين وجدوا من مساعديهم اليابانيين طاعة المتحرق لمعرفة إرشاداتهم ؛ ولم

(*) يدل الإحصاء الرسمى الأخير على أن سكان يوكوهاما ستمائة وعشرون ألفاً ، وسكان كوبى سبعمائة وسبعة وثمانون ألفاً ، وأوساكا ٢،١١٤،٨٠٤ ، وطوكيو العظمى ٥،٣١١،٠٠٠

تمض خمسة عشر عاماً ، حتى تقدم المتعلمون الأذكياء فيما تعلموه تقدماً أتاح لليابان أن تدفع للإخصائيين الأجانب آخر أجورهم وأن ترسلهم إلى أوطانهم بكل إجلال ، واقتفت اليابان أثر ألمانيا ، فاستولت الحكومة على البريد والسكك الحديدية والتلغراف والتليفون ؛ لكنها في الوقت نفسه عرضت قروضاً سخية لمن يريد أن ينهض لنفسه بصناعة ما ، وجعلت تحمى تلك الصناعات الخاصة بالضرائب الجمركية العالية ، من منافسة المصانع الأجنبية في سائر الأقطار ؛ واستعانت البلاد بالتعويض المالي الذي أخذته من الصين بعد حرب سنة ١٨٩٤ على تمويل حركة التصنيع في اليابان وتشجيع الصناعات على نحو ما استعانت ألمانيا بالتعويض الفرنسي سنة ١٨٧١ على استحثاث حركة التصنيع في أرضها ؛ وشبهت اليابان ألمانيا قبل ذلك بجيل واحد ، في قدرتها على البدء بآلات حديثة مقرونة بطاعة من العمال كالتي سادت في عصور الإقطاع ، على حين كانت الدول الأخرى المنافسة لها ، تعاني من آلات قديمة وعمال ثائرين ، وكانت مصادر القوة في اليابان رخيصة والأجور قليلة ، كما كان العمال يخضعون لرؤسائهم خضوع الولاء ؛ لهذا تأخرت عندهم قوانين تنظيم المصانع ، وفرضت على العمال فرضاً لا عنف فيه[١٢] وفي سنة ١٩٣٣ كنت ترى مغازل «أوساكا» الجديدة لا تحتاج إلى أكثر من فتاة واحدة لكل خمس وعشرين آلة ، بينما كانت مغازل لانكشير القديمة تتطلب رجلا لكل ست آلات[١٣] .

وتضاعف عدد المصانع ما بين ١٩٠٨ و ١٩١٨ ؛ ثم تضاعف مرة أخرى بين ١٩١٨ و ١٩٢٤ ، حتى إذا ما كانت ١٩٣١ زادت المصانع نصف عددها[١٤] بينما كانت الصناعة في الغرب عندئذ تخوض أغوار أزمة عميقة ؛ وفي سنة ١٩٣٢ كانت لليابان الصدارة الأولى في تصدير المنسوجات بحيث أرسلت بليوني ياردة من الخمسة بلايين ونصف البليون من ياردات المنسوجات القطنية التي استهلكها العالم في ذلك العام[١٥] ؛ وفي سنة ١٩٢١

تنازلت عن معيار الذهب ، وسمحت لعملتها الـ « ين » أن تهبط إلى أربعين في المائة من قيمتها السابقة في التجارة الدولية ، وبذلك استطاعت أن ترفع مبيعاتها في الخارج خمسين في المائة عما كانت بين عامى ١٩٣٢ و ١٩٣٣(١٦)؛ وازدهرت التجارة الداخلية كما ازدهرت التجارة الخارجية ، وأتيح لأسرات تجارية كبرى ، مثل أسرتى « متسوى » و « متسوبيشى » أن تكدسا ثروة طائلة جعلت رجال الجيش يتحالفون مع طبقات العمال فى حركة ترمى إلى جعل الحكومة تتولى بنفسها ، أو تفرض رقابتها على الصناعة والتجارة(*) .

وبينما كان التقدم التجارى يخلق طبقة وسطى جديدة من الأغنياء ، كان العمال الذين ينتجون بأيديهم يتحملون عبء الأثمان المنخفضة التى جعلتها اليابان أداة تهزم بها منافساتها فى الأسواق العالمية ؛ فكان متوسط أجر العامل سنة ١٩٣١—١٧ر١ من الريال كل يوم ، ومتوسط أجر العاملة ٤٨ سنتاً فى اليوم وكان واحد وخمسون فى كل مائة من العمال نساء ، كما كان اثنتا عشر فى كل مائة ممن تقل سنهم عن ستة عشر عاما(١٩)(**) وكانت الإضرابات كثيرة الوقوع

(*) لم ترق حركة النقل على اليابس بمثل ما ارتقت الحركة البحرية لأن السلسلة الفقرية الجبلية التى تمتد على طول البلاد ، جعلت التجارة تؤثر البحر ؛ لهذا ظلت الطرق رديئة بالقياس إلى الطرق فى الغرب ، ولم تبدأ السيارات تتهدد اليابان إلا منذ أمد قريب ؛ ومن الملاحظ الآن أن العربات التى يجرها الإنسان ، والتى جرى العرف على إرجاع تاريخها إلى ابتكار مبشر أمريكى فى أوائل العقد الثامن من القرن الماضى(١٧) قد أخذت فى الزوال اليوم أمام السيارات الأمريكية واليابانية ، ورصفت طرق طولها مائتا ألف ميل ؛ وفى طوكيو طريق مشقوق تحت الأرض يمكن مقارنته بنظائره فى أوربا وأمريكا مقارنة ترجح كفته على تلك النظراء ؛ ومدت أول سكة حديدية فى اليابان سنة ١٨٧٢ على مسافة بلغ طولها ثمانية عشر ميلا ، فلما كان عام ١٩٣٢ بلغت السكة الحدية فى تلك الجزر الضيقة ١٣٧٣٤ من الأميال ؛ ويقطع القطار السريع الجديد المسافة بين مدينة « دايرين » (بالقرب من بورت آرثر) وبين « هسنكنج » (وكانت تسمى شانجشون) عاصمة منشوريا ، وهى مسافة تبلغ سبعمائة كيلو متر ، وبواقع مائة وعشرين كيلو مترا فى الساعة (أى نحو خمسة وسبعين ميلا(١٨) .

(**) يرجع انخفاض أجور النساء إلى عوامل ، من بينها القلقلة ذات التكاليف الباهظة التى تسببها العاملات اللائى جرين على ترك الصناعة إذا ما توفر لديهن مهر الزواج .

والشيوعية تزداد اتساعاً ، حتى هبت على البلاد روح الحرب سنة ١٩٣١ ؛ فنفخت فى الناس وطنية دعتهم إلى التعاون والتماسك ؛ وحرم القانون « الآراء الخطيرة » وفرضت قيود شديدة على نقابات العمال التى لم تبلغ قط مبلغ القوة فى اليابان[٢٠] واتسعت رقعة المساكن الفقيرة فى أوساكا وكوبى وطوكيو ، فقد كانت الأسرة ذات الخمسة الأعضاء فى طوكيو تسكن من تلك المنازل الفقيرة غرفة تبلغ فى المتوسط من ثمانى أقدام إلى عشرة أقدام مربعة — وهى مساحة لا تزيد إلا قليلا عن المساحة التى يشغلها سرير لشخصين ؛ وكان يسكن فى أمثال هذه المساكن فى مدينة كوبى عشرون ألفاً من المتسولين والمجرمين والشائهين والبغايا ؛ كانوا يسكنون فى قذارة بلغت حداً جعل الوباء يتفشى فيهم مرة كل عام ؛ وزادت نسبة الوفيات فى الأطفال أربعة أمثال ما كانت عليه فى بقية اليابان[٢١] ونهض شيوعيون مثل « كاتاياما » واشتراكيون مسيحيون مثل « كاجاوا » يقاومون بالعنف أو باللين تلك الحالة السيئة حتى استيقظت الحكومة آخر الأمر ، وقامت بحركة تطهيرية لتلك المساكن الفقيرة ، لم يشهد التاريخ أعظم منها .

وقد كتب « لافكاديو هيرن » منذ جيل ، يعبر عن رأيه الناقم على النظام الحديث فى اليابان ، فقال :

« إن التاريخ لم يشهد قط فيما مضى أمثال هذه الألوان من البؤس التى تجد مجالها فى ظل النظام الجديد ؛ وتستطيع أن تكوّن لنفسك صورة تقريبية عن هذا البؤس ، إذا عرفت أن عدد الفقراء فى طوكيو الذين يعجزون عن دفع ضريبة المسكن ، يربو على خمسين ألفاً ، ومع ذلك فهذه الضريبة لا تزيد قيمتها على عشرين « سنّاً » وهو ما يقابل عشرين « سنتاً » بالعملة الأمريكية ولم يكن فى أى جزء من أجزاء اليابان مثل هذا العوز قبل أن تتراكم الثروة فى أيدى نفر قليل — إلا إذا استثنينا بالطبع الأعقاب المؤقتة التى تلحق عهود الحرب[٢٢] .

ولا شك أن « تراكم الثروة فى أيدى نفر قليل » عامّ فى العالم كله ، والظاهر

أنه عامل مصاحب للمدنية لا يتخلف ؛ ويقول المموّلون اليابانيون ، إن أجور العمال هناك ليست أقل مما ينبغي إذا روعى عدم كفايتهم في العمل نسبياً ، وإذا روعى إلى جانب ذلك رخص العيش في اليابان[٢٣] ، والرأى في اليابان هو أن الأجور المنخفضة شرط لازم لانخفاض الأسعار ، وانخفاض الأسعار شرط لازم للسيطرة على الأسواق الخارجية ، والأسواق الخارجية شرط لازم لصناعة تعتمد على حديد وفحم يستوردان من الخارج ؛ والصناعة شرط لازم لسد حاجات شعب يتزايد عدده في جزء لا تصلح الزراعة إلا في اثني عشر في كل مائة جزء من أجزاء أرضها ، وهي كذلك ضرورية لاكتساب الثروة وإعداد السلاح اللذين بغيرهما لا تستطيع اليابان أن تحمي نفسها ضد عدوان الغرب .

الفصل الثالث

الانقلاب الثقافى

التغيير فى الشباب — وفى آداب السلوك — الخلق اليابانى — الأخلاق والزواج فى مرحلة انتقال — الدين — العلم — الطب فى اليابان — الفن والذوق — اللغة والتعليم — القصص الطبيعى — صورة جديدة من الشعر

إنا لنسأل هل تغير الشعب نفسه نتيجة للانقلاب الصناعى ؟ إن العين لتلمح بعض ألوان التجديد ، فالبدلة الأوروبية المقبضة ذات الشعبتين ، قد سيطرت على معظم سكان المدن ولَفَّتْ أبدانهم ، غير أن النساء مازلن يرتدين ثياباً فضفاضة زاهية الألوان ، يربطها عند الوسط شريط مزخرف يلتئم طرفاه بعقدة عريضة عند الظهر(*) وكلما أصلحت الطرق حلت الأحذية محل القباقيب الخشبية ، غير أن نسبة كبيرة من الجنسين ما تزال تمشى بأقدام حافية سليمة من التشويه ، وإذا نظرت خلال المدن الكبرى ألفيت كل ضروب التشكيلات والتركيبات التى تجمع بين الثياب الوطنية والثياب الغربية ، كأنما أرادوا بذلك أن يرمزوا إلى تحول استُعْجِلَت خطواته فابتُسر ابتساراً .

ولا تزال آداب المعاملة عندهم نموذجاً « للتشريفات » الدبلوماسية ، ولو أن الرجال ما برحوا عند عادتهم القديمة فى تقدمهم على النساء إذا مادخلوا غرفة أو خرجوا منها ، أو مشوا فى الطريق ، واللغة عندهم نسيج وحدها فى احتشامها فقلَّ أن يداخلها فحش فى اللفظ ، وتراهم يكسون بغطاء ظاهرى من التواضع احتراماً للنفس يبلغ حد التوحش ، وآداب السلوك قد تبلغ من رقتها حداً يلطف من حدة العداوة مهما بلغت من استيلائها على النفوس :

(*) النساء المشتغلات بالتعليم أو السآمة يرتدين ثياباً مفصلة على الطراز الغربى ؛ على أن الرجال والنساء معاً يتحجبون بعد ساعات العمل فى ثيابهم التقليدية .

والخلق اليابانى ـ شأنه شأن الخلق الإنسانى فى كل بقاع الأرض ـ مؤلف من أشتات متناقضة لأن الحياة تضعنا فى ظروف مختلفة كل حين ، وتتطلب منا أن نأخذها بالشدة حيناً والرقة حيناً ، وباليسر حيناً وبالصرامة حيناً ، وبالصبر حيناً والشجاعة حيناً ، وبالتواضع حيناً والكبرياء حيناً ، لهــذا لا ينبغى لنا أن نأخذ على أهل اليابان جمعهم بين العاطفية والواقعية ، وبين رقة الإحساس وصرامة الجد فى الحياة ، وبين طلاقة التعبير والكتمان ، وبين سرعة التأثر وكبح الجماح ؛ إنهم يغلب عليهم المرح والفكاهة وحب المتعة ، ويميلون إلى الانتحار الذى يروع المتفرج بمنظره ، وهم رقاق القلب ـ نحو الحيوان غالباً ونحو المرأة أحياناً ـ لكنهم قساة فى بعض الأحيان على الحيوان والرجال(*) ، وإن اليابانى الصادق فى يابانيته ليتصف بكل صفات الجندى المحارب ـ الاعتداء والشجاعة والاستعداد لملاقاة الموت استعداداً لا يضارعه فيه مضارع ؛ ومع ذلك كله تراه فى كثير من الأحيان يحمل بين جنبيه روح الفنان ـ فهو مرهف الحس سهل التأثر رقيق نشيط محب للاطلاع والبحث ذو ولاء وصبر ، وله قابلية شديدة لاستيعاب التفصيلات ، وهو ذو دهاء وحيلة ككل ذى جسد ضئيل ، وذكاؤه وقاد ، تراه لا يبرع فى الخلق الفكرى ، لكنه قادر على الفهم السريع والاقتباس والمهارة العلمية ؛ ولقد اجتمعت فى اليابانى روح الرجل الفرنسى وغروره وشجاعة البريطانى وضيق أفقه ، وحرارة الإيطالى واستعداده للفنون ، ونشاط الأمريكى وميله للتجارة ، وحساسية اليهودى ودهاؤه :

ثم جاء اتصالهم بالغرب وصراعهم معه ، فغيروا حياة اليابان الاخلاقية

(*) حدث فى الاضطراب الذى أعقب زلزال سنة ١٩٢٣ ، ان سكان يوكاهاما من اليابانيين ـ بينما كانت تمدهم سفن النجدة الأمريكية بالقوت ـ استغلوا الشعب وذبحوا مئات (وقيل آلافاً) من دعاة التغيير ومن الكوريين العزل فى الطرقات(٤٢) والظاهر أن وطنياً متحمساً قد أثار اليابانيين باعلانه أن الكوريين (الذين كانوا عدداً ضئيلا) يدبرون قلب الحكومة وقتل الإمبراطور .

وطرائق السلوك فيها ، غير أن أمانتهم التقليدية(*) لاتزال قائمة بينهم إلى حد كبير ، وإن يكن التوسع فى حقوق الانتخاب وحدّة التنافس التى تلازم التجارة الحديثة ، قد أدخلا فى اليابان نصيبها النسبي من الرشوة التى هى من خصائص الحكم الديمقراطى ، والقسوة التى تتصف بها الحياة الصناعية ، وخفة اليد فى عالَم المال؛ نعم إن «خُلُق الفرسان» (ويسمونه بوشيدو) لا يزال باقياً هنا وهناك بين طبقات الجنود العليا ، ولذا فهو بمثابة الضابط الارستقراطى الخفيف للجموح الشيطانى الذى استولى على عالمى التجارة والسياسة ؛ والاغتيال كثير الوقوع على الرغم مما تتصف به عامة الناس من طاعة القانون والصبر على أحكامه — والاغتيال هناك لايقع خلاصاً من استبدادية رجعية ، بل يقع عادة لتشجيع روح الوطنية التى لاتبالى الاعتداء ؛ من ذلك أن «جمعية الأفعوان الأسود» التى يرأسها «توياما» الذى يبدو فى مظهر المنبوذ ، قد كرست نفسها أكثر من أربعين عاماً لبث سياسة غزو كوريا ومنشوريا بين أصحاب المناصب الحكومية فى اليابان(**) وقد اتخذت الاغتيال أداة للوصول إلى هذا الغرض ، ومنها اكتسب الاغتيال مهمة شعبية ظل يقوم بها فى تحريك العالم السياسى فى اليابان(٢٦) .

لقد شارك الشرق الأقصى بلاد الغرب فى الاضطراب الخلقى الذى يصحب كل تغير عميق يتناول الأساس الاقتصادى للحياة ؛ وازدادت الحرب التى ما فتئت قائمة بين الأجيال المتعاقبة ، بين الشباب الطافح بحماسته ، وبين الشيوخ

(*) يقول لافكاديو هيرن : (لقد عشت فى أقاليم لم تعرف السرقة مدى مئات من السنين — حيث ظلت السجون التى ابتناها «ميجى» حديثاً ، خالية لا نفع فيها»(٢٥) .

(**) «الأفعوان الأسود» هو الاسم الذى تطلقه الصين على نهر أمور الذى يفصل منشوريا عن سيبريا ، واليابانيون ينظرون إلى الاغتيال نظرتهم إلى نوع من العقاب الشريف الذى يجىء متقدم محل النفى .

المفرطين فى حرصهم ، ازدادت تلك الحروب حدة نتيجة لنمو الصناعة التى تعمل على إبراز شخصية الفرد ، ونتيجة لإضعاف الإيمان الدينى ؛ فالانتقال من الريف إلى المدينة ، وإحلال الفرد محل الأسرة باعتباره الوحدة القضائية المسئولة ، للمجتمع الاقتصادى والسياسى ، قد قوض أركان السلطة الأبوية ، وأخضع عادات القرون الطويلة وأخلاقها للحكم المتسرع الذى يحكم به المراهق على أمثال هذه الأمور ؛ وكنت ترى الشباب فى المدن الكبرى يثورون على نظام الزواج تحت إشراف الأبوين ، وترى العروسين لا يجريان على مألوف العادات من حيث السكنى فى بيت والد العريس ، بل هما أميل إلى إنشاء بيت مستقل أو « شقة » مستقلة ؛ هذا إلى أن سرعة تصنيع النساء قد حتّم انحلال الروابط التى كانت تربطهن بالدار واعتمادهن فى العيش على الرجال ؛ والطلاق فى اليابان قد كثر حتى شابه الحال فى أمريكا ، بل هو هناك أخف عاقبة منه فى أمريكا ، لأن الرجل قد يستطيع الطلاق بمجرد توقيعه على دفتر للتسجيل ، ودفعه رسوماً تبلغ ما يساوى عشر « سنتات »(٢٧) ولئن حرم القانون نظام الخليلات ، إلا أنه لا يزال قائماً فعلا يتمتع به كل من تمكنه حالته المالية من تجاهل القانون(٢٨) .

والآلة هى عدو رجل الدين فى اليابان كما هى فى سائر أنحاء العالم ، ولما استوردت اليابان من انجلترا أوضاعها الصناعية الفنية ، استوردت معها « سبنسر » و « ستيورت مِل » ، وبهذا أسدل الستار فجأة على سيادة المذهب الكنفوشيوسى فى الفلسفة اليابانية ، ولقد قال تشمبرلين سنة ١٩٠٥ : « إن الجيل الموجود الآن فى المدارس يتشكل على صورة فولتيرية واضحة المعالم»(٢٩) ومن نتيجة هذا الاتجاه نفسه أن ازدهر العلم بارتباطه الحديث بالآلة ، واكتسب فى اليابان قلوب أعظم الباحثين فى عصرنا هذا ، بحيث انصرفوا إليه مخلصين

على نحو ما نعهده فى اليابانيين من الولاء فيما يخلصون له(*) ؛ فالطب فى اليابان — على الرغم من اعتماده فى معظم مراحله على الصين وكوريا — قد تقدم تقدماً سريعاً حين احتذى مثـل الأوروبيين واندفع بحافزهم ، وخصوصاً الألمان ؛ وإذا أردت أن تعلم مدى السرعة التى انتقلت بها اليابان من مرحلة التتلمذ إلى مرحلة الأستاذية التى أخذت تعلم فيها العالم أجمع ، فانظر إلى ما عمله « تاكامين » فى استكشافه للأدرنالين وفى دراسته للفيتامينات ؛ وما أداه « كيتاساتو » فى مرض التتنوس وفقر الدم ، وفى تقدم التلقيح ضد الدفتريا ثم ما عمله ألمعهم جميعاً وأشهرهم جميعاً ، وهو « نجوشى » فى مرض الزهرى ومرض الحمى الصفراء .

ولد « هيديونجوشى » سنة ١٨٧٦ فى إحدى الجزر الصغرى ، من أسرة بلغ بها الفقر حداً جعل أباه يترك أسرته حين علم أن طفلا ثانياً فى طريقه إلى الحياة ؛ وأهمل الوليد هذا إهمالا جعله يسقط فى مدفأة فاحترقت يده اليسرى حتى شاهت ، وأوذيت يده اليمنى إيذاء كاد يفقد نفعها فكان أن اجتنبه التلاميذ فى المدرسة لما فى جسده من وصمات وتشويه ، وراح الناشئ يفكر فى الانتحار ، لكن جراحاً قدم إلى القرية حينئذ ، وعالج له يده اليمنى علاجاً ناجحاً ، واعترف «نجوشى» للجراح بالجميل اعترافاً جعله يقرر لتوه أن يكرس نفسه للطب ؛ ومن أقواله عن نفسه « سأكون نابليون ينقذ البشرية لا نابليون يفتك بها » « إنى أستطيع الآن أن أعيش معتمداً على نعاس أربع ساعات فى الليل »[٣٠] وكان « نجوشى » مفلساً . فاشتغل فى صيدلية حتى حمل صاحبها

(*) كان العلم فى اليابان قبل ١٨٥٣ مستورداً معظمه من نتاج الوطن الأصلى نفسه فالتقويم اليابانى الذى كان فيما سبق معتمداً على أوجه القمر ، قد أعيد حسابه بحيث يساير السنة الشمسية ، على يدى كاهن كورى حوالى سنة ٦٠٤ ميلادية ، ثم أدخلت تعديلات من الصين سنة ٦٠٨ ميلادية ؛ واصطنعت اليابان — ولا تزال — طريقة أهل الصين فى حساب الحوادث بردها إلى اسم الإمبراطور الذى وقعت فى أيامه ، وسنة توليه الحكم ؛ وفى سنة ١٨٧٢ أخذت اليابان بالتقويم الجريجورى .

على رصد مبلغ من المال يتعلم به الطب ؛ وبعد أن تخرج فى الطب من الجامعة . ذهب إلى الولايات المتحدة وعرض خدماته على الهيئة الطبية فى الجيش فى وشنطن مقابل نفقاته ؛ وهيأت له مؤسسة روكفلر للأبحاث الطبية معملا ، وشرع « نجوشى » يعمل وحده لا يشاركه أحد على الإطلاق فى إجراء التجارب والقيام بالبحث العلمى مما انتهى إلى أطيب الثمرات ؛ فهو الذى أنتج أول عينة خالصة من جراثيم الزهرى ، وكشف عن أثر الزهرى فى الشلل العام وفى الشلل البطىء الذى يصيب حركة العضلات ، وأخيراً استطاع فى سنة ١٩١٨ أن يعزل طفيلىّ الحمى الصفراء ؛ فلما كسب الشهرة والثروة المؤقته ، عاد إلى اليابان ، وكرّم أمه العجوز ، وجثا على ركبتيه أمام الصيدلى الذى أنفق على دراسته الطبيعية اعترافاً له بالجميل ، ثم ذهب إلى أفريقيا ليدرس الحمى الصفراء التى كانت تفتك بساحل الذهب من أوله إلى آخره ، فأصابته هذه الحمى ومات سنة ١٩٢٨ ، ومما يزيدنا حسرة على موته أنه لم يكن قد بلغ من العمر أكثر من اثنين وخمسين عاماً .

كان التقدم العلمى فى اليابان — كما كان كذلك فى الغرب — مصحوباً بانحلال فى الفنون التقليدية ؛ فتقويض الطبقة الأرستقراطية القديمة قد قوض عشاً كان يترعرع فيه حسن الذوق ، وراحت الأجيال بعدئذ تتخذ لنفسها ما شاء لها هواها من معايير الجمال ، بحيث يستقل كل جيل فى معياره الذوق عما سلفه ؛ وتدفقت الأموال من البلاد الخارجية سعياً وراء المنتجات الوطنية ، فأدى ذلك إلى الإنتاج السريع الذى يعنى بالكم وحده ، وانحطت مستويات الرسوم اليابانية تبعاً لذلك ، فلما عاد الشارون إلى طلب المصنوعات القديمة ، انقلب الصناع جماعة من المزورين ، وأصبحت صناعة الآثار القديمة فى اليابان — كما هى الحال فى الصين — أروج الصناعات فى الفنون الحديثة ؛ ولعل جانب الصناعة الخزفية المعروف باسم cloisouné أن يكون الفرع الوحيد من فروع تلك الصناعة ، الذى تقدم فى اليابان منذ قدوم الغرب إلى

البلاد ؛ فالانتقال المضطرب من الصناعة اليدوية إلى الصناعة الآلية ، وهجمة الأذواق والأساليب الأجنبية على أهل البلاد متسترة برداء من الظفر والثروة ، قد أدى إلى زعزعة الحس الجمالي عند اليابانيين وإضعاف ذوقهم بحيث لم يعد على ما كان عليه من ثبات ؛ وهاهي ذي اليابان قد اختارت السيف اتجاهاً ، فلعلها قد كُتب لها أن تعيد تاريخ الرومان — بأن تقلد في الفن ، وتسود في الإدارة والحرب(*) .

لقد لبثت الحياة العقلية في الإمبراطورية الحديثة جيلا اتجهت خلاله نحو محاكاة الأساليب الغربية ، فتكاثرت الكلمات الأوروبية في لغة القوم ، ونظمت الصحف على الطريقة ، وأنشئت مجموعة من المدارس العامة على غرار المدارس النموذجية الأمريكية ؛ إذ صممت اليابان تصميم الأبطال على أن تجعل من نفسها أمة تكون أسبق أمم الأرض جميعاً في إزالة الأمية ، وقد نجحت فيما أرادت ، ففي سنة ١٩٢٥ كان يختلف إلى المدارس من أبناء البلاد ٩٩ر٤ في المئة[٣١] وفي سنة ١٩٢٧ كان في مستطاع ٩٣ في كل مائة من أهل البلاد جميعاً أن يقرأوا[٣٢] ؛ فقد أقبل الطلاب على الحركة العرفانية العلمانية الجديدة إقبالا فيه حرارة الإيمان الديني ، حتى لقد أفسد مئات منهم صحة أبدانهم بسبب حماستهم في كسب المعرفة[٣٣] واضطرت الحكومة اضطراراً أن تتخذ الوسائل الفعالة لتشجيع الرياضة البدنية والألعاب بكافة صنوفها ، القومي منها والمستعار من البلاد الخارجية ؛ وخرج التعليم من كنفه الديني واصطبغ بصبغة علمانية أكثر مما اصطبغ به التعليم في معظم الأقطار الأوربية ؛ وأعينت خمس جامعات إمبراطورية ، وقامت إحدى وأربعون جامعة أخرى — قد تقل في نزعتها الإمبراطورية عن تلك الخمس — وضمت بين جدرانها آلاف الطلاب المتحمسين ؛ وفي سنة ١٩٣١ كانت الجامعة الإمبراطورية في طوكيو تشتمل على ٨٠٦٤ طالباً ، وجامعة كيوتو تشتمل على ٥٥٥٢ طالباً[٣٤] .

(*) أخذت اليابان اليوم حتى الوطنية ، فأدت بها إلى إحياء الحوافز والأساليب القومية .

وأما الأدب اليابانى فى الربع الأخير من القرن (التاسع عشر) فقد أفنى نفسه فى سلسلة من ألوان المحاكاة ؛ وتوالت على الطبقة المثقفة موجات الحرية الإنجليزية والواقعية الروسية والفردية النيتشية والبراجماسية الأمريكية ، فاكتسحتها واحدة بعد واحدة ، حتى عادت روح الوطنية فأكدت نفسها ، وبدأ الكتاب اليابانيون يكشفون عن مادتهم القومية فيعبرون عنها بأساليبهم القومية ؛ وقد ظهرت فتاة شابة تدعى « إيشى يو » فافتتحت حركة فى كتابة القصة تنحو منحى المذهب الطبيعى قبل موتها سنة ١٨٩٦ وهى فى عامها الرابع والعشرين ، وذلك بتقديمها صورة ناصعة عن تعاسة النساء وذلهن فى اليابان[٣٥] ، وفى سنة ١٩٠٦ دفع الشاعر « توسون » هذه الحركة إلى أوجها بقصة طويلة عنوانها « هاكاى » أى عدم الوفاء بالعهد ، قصّ فيها بنثر شعرى قصة معلم وعد أباه ألا يفضح عن نفسه حقيقتها وهى أنه من طبقة « إتيا » أى الطبقة التى انحدرت من أسلاف عبيد ، وبهذا أتيح له بما كان له من قدرة وما ظفر به من تعليم أن يحتل مكانة عالية ، فأحب فتاة مهذبة من ذوات المكانة الاجتماعية ؛ وبعدئذ فار فورة صدق اعترف فيها بأصله ، وتنازل عن حبيبته ومكانته ، وغادر اليابان لغير عودة ، فكانت هذه القصة عاملا قوياً فى تحريك النفوس تحريكاً انتهى آخر الأمر بإسدال الستار على العوائق التى لبثت طوال التاريخ مفروضة على طبقة « إيتا » .

وكانت صورتا الشعر الموجز المعروفتان باسم « تانكا » و « بوكا » آخر صور الثقافة اليابانية استسلاماً للمؤثرات الغربية ، إذ لبثتا أربعين عاماً بعد عودة الإمبراطور إلى عرشه الفعلى ، هما الصورتين المنشودتين لقرض الشعر اليابانى ، وفنى الروح الشعرى فى آيات معجزات من البراعة والصناعة ، حتى كان عام ١٨٩٧ ؛ ظهر معلم شاب ، هو « توسون » فى « سنداى » وباع لأحد الناشرين ديواناً من الشعر بخمسة عشرة ريالا ، فجاء هذا الديوان بقصائده الطويلة ثورة تكاد تبلغ فى عنفها مبلغ أية ثورة أخرى مما زعزع نسيج الدولة ؛ وكان الشعب قد ملّ الأقوال القصيرة الرشيقة ، فأقبل على هذا

الديوان (ذى القصائد الطويلة) إقبال الشاكر ، وسبَّبَ بإقباله هــذا ثراء للناشر ؛ وسار بعض الشعراء الآخرين فى إثر توسون ، وانتهى الأمر بصورتى الشعر الموجز الـ « تانكا » والـ « بوكا » أن أسلمتا زمام السيطرة بعد أن ظلتا ممسكتين به ألف عام(٣٦) .

وعلى الرغم من ظهور هذه الصور الشعرية الجديدة ، فقد ظلت « المباراة الإمبراطورية فى قرض الشعر » قائمة كما كانت ؛ فالإمبراطور يعلن فى كل عام موضوعاً ، ثم يسوق مثالا بنشــيد يمليه فى ذلك الموضوع ؛ وتقتفى الإمبراطورة أثره ، وبعدئذ يرسل خمسة وعشرون ألف شاعر يابانى من كافة الأشكال والطبقات ، يرسل هؤلاء قصائدهم إلى « مكتب الشعر » فى القصر الإمبراطورى ؛ وتشكل لها هيئة تحكيم من أعلى أعلام البلاد ؛ حتى إذا ما انتهى التحكيم إلى القصائد العشر الأولى ، قرئت على الإمبراطور والإمبراطورة ، وطبعت فى الصحف اليابانية فى العدد الذى يصدر فى اليوم الأول من العام(٣٧) ، فياله من تقليد بديع خليق أن يدير النفس لحظة عن دنيا التجارة والحروب ، وهو يدل على أن الأدب اليابانى ما زال جزءاً حيوياً فى حياة أمة هى أكثر الأمم حيوية فى العالم المعاصر .

الفصل الرابع

الإمبراطورية الجديدة

الأسس المزعزعة للمدنية الجديدة – أسباب النزعة الاستعمارية اليابانية – الطلبات الواحدة والعشرون – مؤتمر وشنطن – قانون الهجرة الصادر سنة ١٩٢٤ – غزو منشوريا – المملكة الجديدة – اليابان والروسيا اليابان وأوربا – هل لا بد لأمريكا من محاربة اليابان ؟

لقد أقامت اليابان الجديدة بناءها على أسس مزعزعة على الرغم من نموها السريع فى الثراء والقوة ؛ فقد عدد سكانها من ثلاثة ملايين أيام (شوتوكو تايشى) حتى بلغ سبعة عشر مليوناً فى حكم (هيديوشى) ثم بلغ ثلاثين مليوناً فى عهد (يوشيمونى) وزاد على خمسة وخمسين مليوناً فى آخر عهد (ميجى) (١٩١٢)(*) .

وإذن فقد تضاعف السكان فى مدى قرن واحد ، وضاقت الجزر التى تكتنفها الجبال ، والتى تقل فيها الأراضى الصالحة للزراعة ، بملايينها المتزايدة ؛ فسكان تلك الجزر الذين يبلغون نصف سكان الولايات المتحدة ، لا يجدون مما يقيم حياتهم أكثر من جزء من عشرين جزءاً بالنسبة لثروة الولايات المتحدة[٣٨] وإذن فلا سبيل أمامها سوى المصانع ، ومع ذلك تراها فقيرة فقراً يبعث على الأسى ، فى مواد الوقود وفى المعادن التى لا غنى للصناعة عنها ، نعم إن القوة

(*) بلغ عدد سكان الإمبراطورية اليابانية سنة ١٩٣٤ ثمانين مليوناً (والإمبراطورية اليابانية تعنى اليابان وكوريا وفورموزا وبعض الممتلكات الصغيرة الأخرى) ولو نجحت اليابان فى استمالة سكان منشوريا إلى الحكم اليابانى فستتحكم فى دنيا الصناعة والحرب على مائة وعشرة من الملايين ؛ ولما كان سكان اليابان وحدها يزيدون بنسبة مليون كل عام ، ثم لما كان سكان الولايات المتحدة يقتربون مسرعين من حد الجمود لا زيادة بعده ، فربما جاء اليوم قريباً حيث تصطدم الدولتان بعدد من السكان قريب من التعادل .

الكهربائية المتولدة عن تدفق الماء كانت كافية فى المجارى التى تسيل من الجبال إلى البحر ، لكن استغلال هذا المصدر أكمل استغلال لا يضيف إلى القوة المستعملة بالفعل إلا مقدار ثلثها[٣٩] ولا يمكن الاعتماد عليها لسد حاجات المستقبل المتزايدة ؛ ووجدت طبقات من الفحم هنا وهناك ممتدة فى عروق تكاد تعز على متناول الإنسان ، وجدت فى جزر « كيوشو » و « هوكاديو » ، كما أمكن الحصول على البترول من « سخالين » ، أما الحديد — وهو من الصناعة لبها وصميمها — فيكاد لا يكون له أثر فى التربة اليابانية[٤٠]، وبعد هذا كله ، فإن مستوى المعيشة المنخفض الذى فرض على سواد الناس فرضاً بحكم صعوبة الحصول على المواد والوقود وارتفاع تكاليفها ، جعل الاستهلاك يزداد تأخراً بالنسبة إلى تقدم الإنتاج ؛ فالمصانع التى كانت آلاتها تزداد حُسناً كل عام . راحت تصب فيضاً من السلع يزيد على حاجة أهل البلاد ولا يمكن شراؤه فيها ، ويصرخ صرخات عالية مطالباً لنفسه بأسواق فى الخارج .

من مثل هذه الظروف تنشأ الرغبة فى الاستعمار ، وأعنى بكلمة الاستعمار ذلك المجهود الذى يبذله النظام الاقتصادى فى بلد من البلاد — مستعيناً فى ذلك بالحكومة التى هى أداته فى تحقيق أغراضه — يبذله نحو بسط سيادته على مناطق أجنبية يعتقد أنها تمده بما تحتاج إليه من وقود وأسواق ومواد خامة وأرباح ؛ فأين عسى أن تجد اليابان هذه الفرصة وتلك المواد ؟ إنها لا تستطيع أن تتجه بأبصارها نحو الهند الصينية أو الهند أو استراليا أو الفلبين ، لأن هذه البلاد قد سبقت الدول الغربية إلى الاستيلاء عليها ، وفرضت فيها من الحواجز الجمركية ما يناصر سادتها البيض على أهل اليابان ؛ وواضح أن الصين قد وضعها الله على أبواب اليابان مقدراً لها أن تكون سوقاً للسلع اليابانية ، كما أن منشوريا — منشوريا الغنية بفحمها وحديدها ، والغنية بقمحها الذى لا تستطيع الجزر اليابانية أن تستنبته فى بلادها على نحو يفيدها ، والغنية برجالها الذين

يصلحون للصناعة والضريبة والحرب — منشوريا هذه قد كتب عليها كذلك أن تكون تابعة لليابان ؛ وبأى حق ؟ بنفس الحق الذى استولت به انجلترا على الهند واستراليا ، واستولت فرنسا به على الهند الصينية ، واستولت به ألمانيا على شانتونج ، والروسيا على بورت آرثر ، وأمريكا على الفلبين — وهو حق الحاجة التى يشعر بها القوى ؛ وعلى كل حال فليس للناس حاجة فى نهاية الأمر إلى التماس المعاذير ، وإنما كل ما يتطلبونه هو القوة والفرصة السانحة اللتان تمكنانك من فعل ما تريد ؛ فالنجاح فى رأى أتباع المذهب الداروينى ، يبرر كل الوسائل التى تحققه

وجاءت الفرصة تفتح لليابان صدرها رحيباً — جاءت أولا فى الحرب العالمية الأولى ، ثم جاءت بعد ذلك فى انهيار الحياة الاقتصادية فى أوربا وأمريكا ؛ فلم يقتصر أثر الحرب على مجرد الزيادة من إنتاج اليابان (كما حدث فى أمريكا) زيادة تطلبتها سوق عظمى خارجية ناشئة بسبب قيام الحرب — وأعنى بتلك السوق قارة أوربا التى كانت مشتبكة فى القتال ؛ بل إن تلك الحرب قد أدت كذلك إلى إضعاف أوربا واستنفاد قواها ، وتركت اليابان وشكة أن تكون بغير شريك فى العالم الشرقى ؛ فبسبب هذا كله غزت شانتونج سنة ١٩١٤ ، وبعد ذلك بعام واحد تقدمت إلى الصين « بالمطالب الواحدة والعشرين » التى لو تمكنت من فرضها على الصين ، لأصبحت الصين مستعمرة هائلة تابعة لليابان الضئيلة .

فالمجموعة الأولى من المطالب أرادت من الصين أن تعترف بسيادة اليابان على شانتونج ؛ وطالبت اليابان بالمجموعة الثانية منها بامتيازات صناعية معينة ، وبالاعتراف بحقوق خاصة تتمتع بها اليابان فى منشوريا ومنغوليا الشرقية ؛ وعرضت المجموعة الثالثة من تلك المطالب أن تكون أكبر شركات التعدين فى أرض الصين شركة مشتركة بين الصين واليابان ؛ وطالبت المجموعة الرابعة

(وهى موجهة ضد رجاء أمريكا فى أن تكون لها محطة للفحم بالقرب من فوشو) « بألا تتنازل الصين عن أية جزيرة أو ميناء أو مرسى على طول الساحل لدولة ثالثة » ، واقترحت المجموعة الخامسة اقتراحاً متواضعاً وهو أن تستخدم الصين منذ ذلك الحين فصاعدا مستشارين يابانيين فى شئونها السياسية والاقتصادية والحربية ، وأن تكون إدارة الشرطة فى المدن الصينية الكبرى فى يد مشتركة بين الصينيين واليابانيين ، وأن تشترى الصين نصف ذخائرها على الأقل من اليابان ، وأن يكون لليابان كل الحرية فى مد السكك الحديدية وحفر المناجم وبناء الموانى فى منطقة فوكين[٤١] .

واحتجت الولايات المتحدة بأن بعض هذه « المطالب » فيه اعتداء على سلامة الأراضى الصينية ، وعلى مبدأ « الباب المفتوح » فألفت اليابان المجموعة الخامسة من تلك المطالب ، وعدّلت بقيتها ، ثم قدمتها للصين مقرونة بإنذار نهائى فى اليوم السابع من شهر مايو سنة ١٩١٥ ، فقبلتها الصين فى اليوم التالى لتقديمها ، وتبع ذلك مقاطعة من الصين للبضائع اليابانية ، لكن اليابان مضت فى طريقها قدماً ، على زعم يؤيد التاريخ صحته ، وهو أن المقاطعة التجارية لا بد منتهية عاجلا أو آجلا إلى فشل ، لأن التجارة تميل بطبيعتها إلى أن تتبع أقل التكاليف ؛ وفى سنة ١٩١٧ بسط « الفيكونت إشياى » فى لباقة ، موقف اليابان للشعب الأمريكى ، حتى حمل الوزير « لانسنج » على توقيع اتفاق يعترف بأن « لليابان مصالح خاصة فى الصين ، خصوصاً فى الأجزاء المتاخمة لممتلكاتها » ، وفى مؤتمر وشنطن سنة ١٩٢٢ أرغم الوزير « هيوز » اليابانيين على الاعتراف بمبدأ « الباب المفتوح » فى الصين ، وبأن تقتنع اليابان بأسطول يبلغ ستين فى المائة من حجم الأسطول الإنجليزى أو الأمريكى[*] ووافقت

(*) وضعت نسبة الأساطيل الإنجليزية والأمريكية واليابانية على أساس ٥ ، ٥ ، ٣ وباعتبار امتداد السواحل أو الممتلكات التى تتطلب من انجلترا أو من أمريكا دفاعاً ، إذا قيست إلى صغر حجم اليابان وحماية أرضها حماية طبيعية .

اليابان فى نهاية المؤتمر على أن تعيد إلى الصين ذلك الجزء من شانتونج (تسنجتاو) الذى كانت أخذته من ألمانيا إبان الحرب ، ثم مات الحلف الإنجليزى اليابانى موتاً هادئاً ، وراحت أمريكا تحلم فى فراشها الدافئ بسلام لا تزعجه الحروب أبد الآبدين .

لكن السياسة الأمريكية اصطدمت بفشل من أبشع ما شهدته فى تاريخها ، بسبب تلك الثقة الصبيانية فى مستقبل ناعم ، ذلك أن الرئيس « تيودور روزفلت » لما رأى سكان الساحل الممتـد على المحيط الهادى قد أزعجتهم هجرات اليابانيين المتواصلة إلى كاليفورنيا ، أخذ فى سنة ١٩٠٧ يفاوض الحكومة اليابانية مستعيناً بسلامة إدراكه التى كانت تكمن فى ثنايا حياته الصاخبة التى قرّبته إلى قلوب الشعب ، واتفق معها « اتفاق السيد الكريم مع السيد الكريم » بحيث وعدت اليابان أن تمنع هجرة عمالها إلى الولايات المتحدة ، لكن ارتفاع نسبة المواليد بين أولئك اليابانيين الذين كانوا قد سمح لهم فعلا بالدخول ، لم تزل تزعج الولايات الغربية من أمريكا ، حتى إن كثيراً من تلك الولايات أصدر القوانين التى تحرم على الأجانب امتلاك الأراضى ، ولما قرر « الكونجرس الأمريكى » سنة ١٩٢٤ أن يحدد الهجرة إلى البلاد ، أبى أن يطبق على الأجناس الأسيوية مبدأ النسبة المخفضة التى سمح بها للشعوب الأوروبية(*) بل حرم هجرة الأسيويين تحريماً قاطعاً ، وقد كان من المستطاع أن نصل إلى نفس النتيجة تقريباً لو طبقنا النسبة الجديدة على كل الأجناس بغير تمييز ولا تعيين ، واحتج الوزير « هيوز » قائلا : « إن هذا التشريع لا فائدة منه إطلاقاً حتى بالنسبة للغاية التى سُنّ من أجل تحقيقها »[٣]، لكن المتحمسين فسروا الإنذار الذى وجهه السفير اليابانى بشأن « النتائج الخطيرة التى قد تترتب على هذا القانون » فسروه بأنه تهديد ، واستولت عليهم حمى البغضاء فأصدروا « قانون الهجرة » .

(*) يقرر ذلك المبدأ أن يكون عدد المهاجرين من أى قطر مساوياً فى نسبته إلى مجموع العدد المسموح بهجرته طول العام ، لنفس النسبة التى بين عدد سكان الولايات المتحدة من أبناء ذلك القطر سنة ١٨٩٠ وبين مجموع عدد سكان الولايات المتحدة فى تلك السنة .

واشتعلت النار اشـــتعالا فى اليابان كلها لهذا الذى بدا فى عينها إهانة مقصودة ؛ وعقدت الاجتماعات وألقيت الخطب ، وانتحر وطنىٌّ متحمس على طريقة (هاراكيرى) أمام دار (الفيكونت إنوبى) ليعبر بانتحاره ذلك عن شعور القوم جميعاً بالعار ؛ أما زعماء اليابان ، فكانوا يعلمون أن بلادهم قد أضعفها زلزال سنة ١٩٢٣ ، فصمتوا وتربصوا ينتظرون الفرصة السانحة ، فلو سارت الأمور سيراً طبيعياً ، فسيفتُّ الضعف كذلك بأمريكا وأوربا ، وعندئذ ستنتهز اليابان فرصتها ، وتثأر لنفسها ولو بعد حين .

فلما أعقبت أعظم الحروب جميعاً أزمةٌ اقتصاديةٌ هى أعظم الأزمات جميعاً ، وجدت اليابان فرصتها التى طال انتظارها لها ، لكى تثبت أركان سيادتها فى الشرق الأقصى ؛ إذ أعلنت أن السلطات الصينية قد أساءت إلى تجار اليابان فى منشوريا ، هذا إلى شعور خفى عندها بأن سككها الحديدية وسائر مُستغَلاتها الاقتصادية هناك تهددها المنافسة الصينية ، فأمرت جيشها فى سبتمبر سنة ١٩٤١ أن يتقدم فى منشوريا ، بادئة فى ذلك بالعدوان ، أما الصين فكانت فى حالة من الفوضى بسبب الثورة وبسبب حركة انفصالية بين أقاليمها وبسبب ارتشاء ساستها ، فلم تستطع أن تجمع كلمتها فى مناهضة اليابان إلا على صورة واحدة ، وهى أن تعود من جديد إلى مقاطعة البضائع اليابانية ، فلما تذرعت اليابان بحجة الدعاية الصينية لمقاطعة التجارة اليابانية ، وغزت شنغهاى (١٩٣٢) لم ينهض من الصينيين لمقاومة هذا الغزو إلا قلة ضئيلة ؛ ووجهت الولايات المتحدة اعتراضات فى هذا الصدد ، ووافقتها عليها الدول الأوربية (من حيث المبدأ) موافقة باعثها الحذر ، لكنها كانت فى شغل من مصالحها التجارية الفردية بحيث لم تستطع أن تجمع كلمتها جميعاً على إجراء حاسم إزاء هذه الإزالة السريعة لسيادة الرجل الأبيض على الشرق الأقصى ، تلك السيادة التى لم تدم إلا قليلا ؛ وعينت عصبة الأمم لجنة برئاسة) إيرل ليتُن) فقامت ببحث يظهر

فيه الإحكام والحياد ، ثم قدمت تقريرها ؛ غير أن اليابان انسحبت من العصبة على نفس الأساس الذى دعا الولايات المتحدة سنة ١٩٣٥ إلى رفضها الاشتراك فى (هيئة العدل الدولية) — وهو أنها لا تريد أن تحاكم أمام هيئة قضاتها هم أعداؤها ؛ وكانت مقاطعة البضائع اليابانية فى الصين قد خفضت واردات اليابان إلى الصين بنسبة أربعة وسبعين فى المائة بين شهر أغسطس سنة ١٩٣٢ وشهر مايو سنة ١٩٣٣ ؛ لكن التجارة اليابانية فى الوقت نفسه كانت تطرد التجارة الصينية من الفلبين وولايات الملايو والبحار الجنوبية ؛ ولم تحل سنة ١٩٣٤ حتى استطاع ساسة اليابان — بمعونة ساسة الصين — أن يحملوا الصين على إقرار تعريفة جمركية فى صالح المنتجات اليابانية ضد منتجات الدول الغربية [٤٣] .

وفى مارس سنة ١٩٣٢ عينت السلطات اليابانية (هنرى پوبى) وارث عرش مانشو فى الصين ، رئيساً لحكومة دولة منشوكو الجديدة ، ثم نصبته بعد عامين ملكاً باسم (كانج ته) وكان ذوو المناصب فى تلك الحكومة إما من اليابانيين أو من أهل الصين الموالين لليابان ، وقد كان خلف كل موظف صينى مستشار يابانى[٤٤] ؛ فبينما كانت خطة (الباب المفتوح) معترفاً بها من الوجهة الفنية ، التمست اليابان سبلها نحو وضع التجارة والموارد المنشوكية تحت سلطانها[٤٥] ؛ ولئن تعذر على اليابانيين أن يمضوا فى هجرتهم من بلادهم إلى تلك الدولة ، فقد تدفقت رءوس الأموال اليابانية إليها تدفقاً غزيراً ، ومدت الخطوط الحديدية لأغراض تجارية وعسكرية ، وأصلحت الطرق بخطوات سريعة ، وبدأت المفاوضات لشراء (السكة الحديدية الشرقية الصينية) من السوفييت ، ولم يكتف الجيش اليابانى الظافر القادر بتنظيم الدولة الجديدة ، بل جعل يملى سياسة حكومتها فى طوكيو ، وغزا إقليم (چهول) بالنيابة عن الملك (پوبى) ، ثم تقدم حتى كاد يبلغ (پيپنج) ، لكنه تقهقر تقهقراً مشرفاً ، لينتظر الفرصة السانحة .

وإلى أن تحين تلك الفرصة المرتقبة ، راح ممثلو اليابان فى تانكنج يبذلون جهدهم المالى كله ليكسبوا من الحكومة الصينية رضاها عن زعامة اليابان فى كل جانب من جوانب حياة الصين الاقتصادية والسياسية ؛ فإذا ما كسبت الصين بالغزو أو بالقروض المالية ، باتت اليابان على استعداد لمواجهة عدوتها القديمة : التى كانت فيما مضى إمبراطورية الروس أجمعين ، وأصبحت اليوم تعرف باسم « اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية » ؛ وإن الجيش اليابانى ليستطيع أن يضرب ضربته فى أى موضع على طول طريق القوافل فى منغوليا فيخترق « كالجان » و « أورجا » ؛ أو عبر الحدود المنشوكية فيتوغل فى « شيتا » أو فى أى موضع آخر من مئات المواضع الضعيفة التى يتثنى عندها الخط الحديدى حول الدولة الجديدة ؛ ذلك الخط الذى يخترق سيبريا ، والذى لا يزال فى معظم أجزائه فى الشرق الأقصى خطاً مفرداً ، أقول إن الجيش اليابانى يستطيع أن يضرب ضربته فى أى موضع من تلك المواضع فيقطع الرباط الحيوى الذى يربط الصين وڤلاديڤستك وما وراء بيكال ، بعاصمة الروس ، فأخذت الروسيا تعد نفسها لهذا الصراع المحتوم إعداداً فيه روح البطولة وحرارة التحمس ؛ فبذلت مجهوداً فى استغلال مناجم الفحم وإقامة مصانع الصلب فى مدينتى « كوزنتسك » و « ماجنيتو جورسك » ، بحيث يمكن تحويل تلك المناجم والمصانع إلى معامل هائلة للذخيرة ، وأعدت فى الوقت نفسه طائفة كبيرة من الغواصات فى « ڤلاديڤستك » ليلاقى الأسطول اليابانى ، كما أعدت مئات من قاذفات القنابل التى جعلت أعينها مفتوحة ترقب مراكز الإنتاج والمواصلات فى اليابان ، وتلحظ مدنها المنشأة من خشب دماره ميسور .

ووقفت الدول الغربية خلف هذه الطليعة المنذرة بالشر ، وقفت واجلة خائبة الرجاء : فأمريكا يأكلها الغضب لفقدانها أسواق الصين ؛ وفرنسا تتساءل : ترى كم يتاح لها أن تظل مسيطرة على الهند الصينية ، وانجلترا قلقة

على استراليا والهند ، ومضطربة بسبب منافسة اليابان لها ، لا فى الصين وحدها بل فى كل أرجاء ملكها فى الشرق ؛ ومع ذلك ففرنسا آثرت أن تعين اليابان معونة مالية على مُناصبتها العدوان ، وبريطانيا الحذرة رأت أن تنتظر فى صبر لم يسبق له مثيل ، راجية أن يفتك كل من منافستيها العظيمتين فى التجارة الأسيوية بالأخرى ، فتتركا العالم لانجلترا وحدها من جديد ؛ وأخذ تضارب المصالح يشتد حدة يوماً بعد يوم ، ويدنو رويداً رويداً من الصراع المكشوف ؛ وأصرت اليابان على أن تحفظ الشركات الأجنبية التى تبيع لها البترل ، بمخزون من البترول على أرض يابانية يكفى حاجة الجزر نصف عام فى حالة الطوارئ ؛ وأغلقت مانشوكو أبوابها فى وجه البترول اليابانى ، واستطاعت اليابان — رغم احتجاجات الأمريكيين ورغم معارضة رئيس جمهورية أورجواى — استطاعت أن تأخذ تصريحاً من الهيئة التشريعية فى أوراجواى ، بأن تقيم على نهر پلات ميناء حرة ، تدخلها السلع اليابانية بغير ضريبة جمركية ، أو تصنع فيها البضائع اليابانية ؛ ومن هذا المركز الحربى ، ستنفذ اليابان إلى قلب أمريكا اللاتينية من حيث التجارة والمال ، ستنفذ بخطوات لم يسبق لها مثيل فى السرعة منذ عَمِلَ الغزو الألمانى السريع لأمريكا الجنوبية على نشوب الحرب العظمى ، وعلى اشتراك أمريكا فيها ؛ ولئن أخذت ذكريات تلك الحرب فى الزوال ، فإن العدة لتتخذ من جديد لحرب جديدة(*) .

أليس لأمريكا بد من محاربة اليابان ؟ إن نظامنا الاقتصادى يسخو فى العطاء لأصحاب رءوس الأموال ، فيعطيهم قسطاً كبيراً من الثروة التى يتعاون على خلقها العلم والإدارة والأيدى العاملة ، فلا يبقى إلا قدراً أقل مما ينبغى أن يبقيه لسواد المنتجين ، حتى يتاح لهم أن يشتروا السلع التى أنتجوها ؛ وبهذا يفيض قدرٌ زائد من السلع ، يصرخ مطالباً بغزو الأسواق الخارجية ،

(*) وقعت تلك الحرب الجديدة فعلا سنة ١٩٣٩ (المعرب) .

وإلا اضطرب مجرى الإنتاج فى داخل البـــلاد (أو اضطر أصحاب تلك السلع أن يزيدوا من القدرة الاستهلاكية بين أفراد الشعب) ، ولئن كان هذا القول صحيحاً بالنسبة لنظامنا الاقتصادى (يقصد النظام الأمريكى) فهو أصح بالنسبة لليابان ، فهى مضطرة كذلك إلى غزو أسواق خارجية ، لا لكى تحتفظ بثروتها فحسب ، بل لتضمن كذلك الوقود والمواد الخامة التى لا غنى عنها لقيام صناعتها ، ويشاء التاريخ الساخر أن تكون هذه اليابان التى أيقظتها أمريكا من حياتها الزراعية الساكنة سنة ١٨٥٣ و دفعتها فى حياة الصناعةوالتجارة ، هى نفسها التى تواجه اليوم كل قوتها وكل دهائها لكسب الأسواق الأسيوية بانخفاض أسعار السلع الأمريكية ولفرض رقابتها على تلك الأسواق بالغزو الحربى وبالأساليب الدبلوماسية ، تلك الأسواق التى كانت هى بعينها ما علقت أمريكا رجاءها عليها لأنها أوسع مخرج يمكن تهيئته لفيض البضائع الأمريكية ، وقد عهدنا فى التاريخ أنه إذا تنافست دولتان على أسواق بعينها ، فإن الدولة الخاسرة فى مجال المنافسة الاقتصادية — إذا ماكانت أقوى من زميلتها ثروة وعدة حربية — هى التى تعلن الحرب على الأخرى .

ولا شك أن حرباً كهذه لو نشبت بين أمريكا واليابان ، كانت خاتمة مُرة لما أسدته أمريكا من يد فى فتح أعين اليابان ، لكن شئون الدول ينتابها مَدٌّ لو أفلت زمامه من أيدى القابضين على الأمور ، قبل أن يستجمع قوته ، فإنه لا بد مكتسح الأمة التى يطفو بأرضها ، إلى مأزق من الظروف لا يدع أمامها مجالا للاختيار إلا بين طريقين فإما الذل وإما القتال ، ويميل مَنْ قد تجاوزوا سن الجندية ، إلى إيثار الحرب على الخشوع ، وليس يقلل من خطر نشوب قتال بيننا وبين اليابان ، الاحتمالُ القوى بأن تنشب حرب بينها وبين روسيا ، لأنه لو عادت هاتان الأمتان إلى تحدى إحداهما الأخرى ، فقد لا نجد بدا من التدخل فى الأمر على أساس المبدأ القديم ، ذلك المبدأ الذى نهضت لتأييده

أمثلة كثيرة فى عصرنا بحيث نستخلص منها الحكمة السديدة ، وهى أنه خير لنا أن نعاون على الفتك بمنافس تعرض فعلا لهجمة من عدوه ، من أن ننتظر حتى يكسب نصراً يزيد فى قوته زيادة خطرة ؛ أما إذا أردنا ألا ننساق فى هذا الطريق ، فكل ما نتطلبه هو أن نتذكر أنه مهما بلغت شدة الحاجة باليابان إلى أسواق الشرق ؛ فهذه الأسواق أبعد جداً من أن تكون شرطاً لازماً لازدهار تجارتنا ؛ وأننا إذا كسبنا تلك الأسواق إما بحرب باهظة النفقات فى بحا بعيدة ، أو بتنافس يدعونا إلى الهبوط بمستوى حياة شعبنا ، فذلك كسب أجوف ؛ وقد يكون نعمة لبلادنا أن يضطر تجارنا إلى البحث عن أسواق لسلعهم داخل حدود بلادنا ؛ وعندئذ فقد يتبين لنا أن سعادتنا لا تعتمد على غزونا لأسواق وراء البحار ، بل إن سعادتنا فى نشر ثمرات الاختراع والصناعة ومنتجاتها نشراً يتيح لأهل بلادنا – وإنهم لكثيرون – أن يكونوا سوقاً تكفى لبيع مصنوعاتنا – حتى إذا بلغت المصنوعات أعلى درجات الإنتاج ؛ لأن مساحة قدرها ٣٫٧٣٨٫٠٠٠ ميلا مربعاً تكفى لاستنفاد ذلك الإنتاج .

أما وقد علـَّمنا اليابان أساليب الصناعة والحرب ، فلا بد لنا أن نصبر على القضاء الذى جعلها مؤقتاً سيدة الشرق اقتصادياً وحربياً ، فليس بنا حاجة إلى الحقد على « أبناء الشمس » إذا ما حانت ساعة قوتهم ومجدهم ، ولا إلى حسدهم على إمبراطوريتهم المتهافتة أو ثروتهم التى قد تتعرض للزوال ؛ إن العالم فيه من سعة الرحب ما يكفينا ويكفيهم معاً ؛ ولو شئنا ، لوجدنا فى البحار آفاقا لا تزال بعيدة بيننا وبينهم ؛ بحيث تهيئ لنا السلام(*) .

(*) لم يتحقق أمل الكاتب وقامت الحرب بين الدولتين على ما هو معروف. (المعرب)

خاتمـــة

تراثنا الشرق

لقد مررنا مسرعين ، على نحو لم نكن نودُّه ، خلال أربع آلاف عام من أعوام التاريخ ، فررنا بذلك على أغنى الحضارات التي شهدتها أكبر القارات ؛ ويستحيل أن نكون قد فهمنا هذه الحضارات أو أن نكون قد وفيناها حقها العادل ؛ إذ كيف يستطيع عقل واحد في حياة واحدة أن يستوعب أو يقدر تراث جنس بأسره ؟ إن النظم الاجتماعية والعادات والفنون والأخلاق عند شعب من الشعوب تصور عملية الانتخاب الطبيعي الذي تقوم به تجارب لا حصر لعددها ، يظل فيها ذلك الشعب يخطئ لكي يهتدي بالخطأ إلى الصواب كما تصور حكمة الأجيال التي تعاقبت في ذلك الشعب فتكدست تراثاً غزيراً حتى بات من العسير صياغتها في عبارات تضم أطرافها ؛ فلا الفيلسوف بذكائه ولا الطالب الصغير بعقله يستطيع أن يحيط بمثل ذلك التراث إحاطة الفاهم لأسراره ؛ دع عنك أن يحكم عليه حكماً عادلا ؛ إن أوربا وأمريكا هما طفل مدلل وحفيد أنجبتاهما آسيا ، ولم يُقَدَّر لها قط أن يتبينا غزارة الثروة التي جاءتهما قبل بداية تاريخهما القديم ، لكننا إذا عمدنا الآن إلى تلخيص تلك الفنون وأساليب العيش التي استمدها الغرب من الشرق ، أو التي ظهرت لأول مرة في الشرق — حسب ما يدلنا علمنا المحدود المتداول — فسنجد أننا نرسم بذلك التلخيص — عن غير قصد منا — رسما تخطيطاً لسير المدنية .

إن أول عوامل المدنية هو العمل — الزراعة والصناعة والنقل والتجارة ؛

ونحن نصادف في مصر وآسيا أقدم ما نعلمه من حضارة زراعية(*) إذ نصادف أقدم نظم الري ؛ كما نصادف أول(†) إنتاج لتلك المشروبات المنبهة التي لانظن أن الحضارة الحديثة كان يمكن أن تقوم بغيرها — وهي الجعة والنبيذ والشاي ؛ لقد تقدمت الصناعات اليدوية والأعمال الهندسية في مصر قبل عهد موسى ، تقدمها في أوربا قبل ڤولتير ؛ والبناء بالقراميد يرجع تاريخه إلى عهد سرجون الأول على أقل تقدير ؛ وأول ظهور عجلة الخزّاف وعجلة العربة كان في « عيلام » ، وأول ظهور التيل والزجاج كان في مصر ، وأول ظهور الحرير والبارود كان في الصين ؛ وخرج الحصان من آسيا الوسطى إلى ما بين النهرين ومصر وأوروبا ؛ وأبحرت السفن الفينيقية حول أفريقيا قبل عصر بركليز ، وجاءت « البوصلة » من الصين فأحدثت في أوروبا ثورة تجارية ، وكانت سومر أول من ترك لنا عقوداً تجارية ؛ وأول نظام للقروض وأول استعمال للذهب والفضة معيارين للقيمة ؛ والصين هي أول من قام بمعجزة قبول الورق مكان الفضة والذهب .

وثاني عناصر المدنية هو الحكومة — أعني تنظيم الحياة والمجتمع ووقايتهما بفضل القبيلة والأسرة والقانون والدولة ؛ ففي الهند تظهر الجماعة القروية ، كما تظهر « دولة المدينة » في سومر وأشور ؛ ومصر قد أحصت سكانها وفرضت ضريبة على الدخل وحافظت على الأمن الداخلي مدى قرون طويلة دون أن تستخدم من وسائل العنف إلا حدها الأدنى ؛ وها هما « أور — إنجور » « وحمورابي » قد سنّا تشريعين عظيمين من تشريعات القانون ؛ و « دارا »

(*) يجوز أن تكون الزراعة وإخضاع الحيوان لخدمة الإنسان قديمين في أوربا ، فيرجعان فيها إلى العصر الحجري الجديد كما يرجعان إلى مثل هذا العصر في آسيا . لكن الأرجح أن ثقافة أوربا في العصر الحجري الجديد في أوربا كانت أحدث عهداً من ثقافتي ذلك العصر نفسه في أفريقيا وآسيا (راجع الجزء الأول من سلسلة أجزاء هذا الكتاب ، الخاص بنشأة الحضارة) .

(†) في هذه العبارات وما يتلوها من عبارات ، قد حذفنا كلمة « فيما نعلم » على أن تكون مفهومة القارئ .

قد نظم بجيشه الإمبراطورى ورُسُله إمبراطورية من خير ما شهد تاريخ الحكومات فى حسن الإدارة .

وثالث عناصر المدنية هو الأخلاق — العادات وآداب السلوك ، والضمير والإحسان ؛ فالأخلاق قانون ينشأ فى باطن النفس ، ويولّد فيها آخر الأمر تمييزاً بين الصواب والخطأ ، وينظم ما يجيش فى الإنسان من شهوات فيخضعها للطريق السوى ؛ وبغير ذلك القانون تنحل الجماعة أفراداً وتسقط فريسة لدولة أخرى يكون فيها التماسك الاجتماعى ؛ ومن القصور الملكية القديمة فى مصر وما بين النهرين وفارس، عرف العالم آداب المعاملة الرقيقة ؛ بل إن الشرق الأقصى ليمكنه اليوم أن يعلم آداب المعاملة وكرامة النفس للغرب الغليظ القلق ، وظهر فى مصر نظام الزواج بزوجة واحدة للزوج الواحد ، وهناك أخذ ذلك النظام يكافح ليثبت أقدامه ويديم بقاءه إزاء المنافسة التى لاقاها من نظام تعدد الزوجات للزوج أو الأزواج للزوجة الذى ظهر فى آسيا ، وهو نظام ظالم لكنه عامل على تحسين النوع البشرى ، وكذلك كانت مصر أول دولة بعثت صرختها مطالبة بإقامة العدل الاجتماعى ، كما كانت الدولة اليهودية أول من دعا الناس إلى الإخاء البشرى ، وأول من صاغ للإنسانية قانون الأخلاق الذى يشعر الإنسان بنسبته لأسرة البشرية جمعاء .

ورابع عناصر المدنية هو الدين — أى الانتفاع بعقائد الإنسان فى القوى الخارقة للطبيعة للتخفيف من الآلام والسمو بالشخصية الإنسانية وتقوية الغرائز الاجتماعية والنظام الاجتماعى ، فقد استمدت أوروبا أعز أساطيرها وتقاليدها من سومر وبابل والدولة اليهودية ، وفى تربة الشرق نبتت قصص الخلْق والطوفان وسقوط الإنسان وخلاصه ، ومن آلهات أمهات كثيرات جاءتنا فى النهاية « أجمل زهرة من زهرات الشعر » وأعنى بها مارية أم الله — كما وصفها هينى = ومن فلسطين برزت الوحدانية وانبعثت أرق أغانى الحب والثناء فى الأدب ، كما خرج منها أقوى وأعزل وأفقر شخصية شهدها التاريخ .

وخامس عناصر المدنية هو العلم — وهو النظر الصافى والتسجيل الصادق والاختبار المحايد وجمع المعرفة شيئاً فشيئاً ، بحيث تكون من الصدق الموضوعى بما يمكننا من التنبوء بمجرى الطبيعة فى المستقبل وضبطه ، فنرى مصر قد طوّرت الحساب والهندسة وأنشأت التقويم ، كما نرى الكهنة المصريين قد مارسوا الطب وكشفوا عن الأمراض وقاموا بشتى صنوف العمليات الجراحية وسبقوا أبقراط فى إخلاصه لفنه ، ودرست بابل النجوم ورسمت مواضع البروج وقسمت لنا الشهر أربعة أسابيع وآلة قياس الزمن اثنتى عشرة ساعة والساعة ستين دقيقة والدقيقة ستين ثانية ، وعلمتنا الهند بواسطة العرب أعدادها البسيطة وكسورها العشرية السحرية كما علّمت أوربا دقائق التنويم المغناطيسى وفن التطعيم .

وسادس عناصر المدنية هو الفلسفة = وهى محاولة الإنسان أن يفهم شيئاً عن الوجود فى مجموعه ، ولو أن الإنسان حين يأخذه التواضع حيناً بعد حين يتبين الحقيقة وهى أن فهم الوجود فى مجموعه مستحيل إلا على اللانهاية ، هى بحث جرىء يائس عن العلل الأولى للأشياء ومغزاها النهائى ، وعن معنى الحق والجمال والفضيلة والعدالة والإنسان الأمثل والدولة المثلى ، وهذا كله يظهر فى الشرق قبل ظهوره فى أوربا بقليل : فنرى المصريين والبابليين يتأملون طبيعة الإنسان وقضائه المرسوم ، واليهود يكتبون تعليقات خالدة عن الحياة والموت ، بينما كانت أوربا تتخبط فى طور الهمجية ، كذلك نرى الهنود يتناولون المنطق ونظرية المعرفة فى نفس الوقت الذى عاش فيه بارمنيدس وزينون الأيلى على أقل تقدير ، وكتب الـ « يوبانشاد » تخوض فى الميتافيزيقا ، وبوذا يذيع علم نفس يشبه ما جاء به علم النفس الحديث القريب العهد ، مع أنه عاش قبل أن يولد سقراط ببضعة قرون ، وإذا كانت الهند قد أغرقت الفلسفة فى الدين ، ولم توفق إلى استخلاص التفكير السليم من أوهام الأمل ، فإن الصين قد صممت جادة أن تجعل تفكيرها دنيوياً ، وأنجبت — قبل أن

يولد سقراط أيضاً - مفكراً كانت له حكمة رزينة لا تكاد تغير منها شيئاً إذا أردت أن تجعلها هادياً للناس فى عصرنا هذا ، ومصدر وحى لأولئك الذين يودون مخلصين أن يسوسوا الدول سياسة شريفة .

وسابع عناصر المدنية هو الأدب — وهو نقل اللغة على تتابع الأجيال ، وتربية النشء وترقية الكتابة وإبداع الشعر والمسرحية والحافز على القصة وتدوين ذكريات الماضى ؛ وأقدم ما نعرف من مدارس هو ما كان منها فى مصر وبلاد النهرين ، بل إن أقدم المدارس الحكومية كانت مصرية كذلك ، والأرجح أن تكون الكتابة قد جاءتنا من آسيا ، كما جاءت أحرف الهجاء والورق والمداد من مصر ، ثم جاءت الطباعة فى الصين ، ويظهر أن البابليين قد جمعوا أقدم مجموعة من قواعد النحو وقواميس الألفاظ وأول ما جمع من مكتبات ، والاحتمال قوى فى أن تكون جامعات الهند قد سبقت أكاديمية أفلاطون ، وصقل الآشوريون أنباء الأساطير فجعلوا منها تاريخاً ، ثم نفخ المصريون فى التاريخ فجعلوه ملحمة ، وقدم الشرق الأقصى إلى العالم تلك الصور الرقيقة من الشعر التى تركز كل روعتها فى نظرات صادقة لطيفة يصوغونها فى صور خيالية ترتسم فى أذهانهم بشاعتها ، وكان « نابونيدوس » و « أشوربانيبال » من رجال البحث الأثرى — وهما اللذان استكشف الباحثون الأثريون آثارهما ، وترجع طائفة من الحكايات القديمة الخرافية التى تمتع أطفالنا إلى الهند القديمة .

وثامن عناصر المدنية هو الفن — وهو تجميل الحياة بالألوان والأنغام والصور التى تشرح الصدور ، والفن فى أبسط ظواهره يكون فى تجميل البدن ، فنرى ثياباً رشيقة ومجوهرات فاخرة ودهوناً للزينة الداعرة ، نجد كل ذلك فى العصور الأولى من حضارة المصريين والسومريين والهنود ، وإن المقابر المصرية لتملؤها قطع الأثاث الجميلة والخزف الرشيق والنحت الرائع فى العاج والخشب ، ولا شك فى أن اليونان قد تعلموا شيئاً من مهارتهم فى النحت والعمارة والتصوير والنقش البارز ، لا من آسيا وإقريطش فحسب ،

بل كذلك من الآيات الروائع التي كانت لم تزل فى أيامهم تسطع على مرآة النيل ، فمن مصر وبلاد النهرين أخذت اليونان نماذج عمدها الدورية والأيونية ؛ ومن تلك البلاد نفسها جاءنا إلى جانب العمد « البواكى » والدهاليز والقباب ؛ وساهمت أبراجُ الشرق الأدنى القديم بنصيب فى تشكيل العمارة الأمريكية اليوم ، وكان للتصوير الصينى والرسوم الحفرية اليابانية أثرهما فى تغيير بعض قواعد الفن فى أوربا فى القرن التاسع عشر ، وكذلك وضع « البورسلان » الصينى أمام أعين الأوربيين نموذجاً جديداً للكمال تحتذيه ، والجلال الحزين الذى تسمعه فى الأغنية الجريجورية ، يرجع عصراً بعد عصر حتى يبلغ أصله الأول فى الأغانى الباكية التى كان ينشدها اليهود المشردون إذ هم يجتمعون خاشعين فى معابدهم المتناثرة هنا وهناك .

تلك هى بعض عناصر المدنية ، وجزء من التراث الذى خلفه الشرق للغرب .

ومع ذلك كله فقد وجد العالم القديم (من التاريخ الأوربى) مجال الإضافة إلى هذا التراث الفنى فسيحاً ، فستبنى إقريطش حضارة تكاد تبلغ فى قِدمها مبلغ الحضارة المصرية وستكون حلقة اتصال تربط بين ثقافات آسيا وإفريقيا واليونان ، وسترقى اليونان بالفن بحيث لا تنشد الحجم بل الكمال ، وستزاوج بين رقة الأنوثة التى تتمثل فى الصورة النهائية والصقل الختامى للقطعة الفنية وبين قوة الذكورة التى تتمثل فى عمارة مصر وتماثيلها ، فتمهد السبيل بذلك إلى جو يظهر فيه أعظم عصر شهده تاريخ الفن ، وستُدخل فى نواحى الأدب كلها تلك الخصوبة المبدعة التى يتصف بها العقل الحر ، فتضيف ملاحم ملتوية الشعاب ومآسى عميقة الأغوار ، وملاهىَ ضاحكة وتواريخ تأخذ بالخيال ، ستضيف كل ذلك إلى ذخيرة الآداب الأوروبية ، وستنظم الجامعات وتقيم حرية الفكر الدنيوى فترة ناصعة تتخلل فترات يضطهد فيها الفكر المستقل ، وستفوق كل سوابقها فى الرقى بالرياضة والفلك وعلم الطبيعة التى خلفتها لها مصر والشرق ، وستبتكر علوم الحياة ابتكاراً ، وتنشئ نظر الإنسان إلى الكون نظرة طبيعية ، وستأخذ بيد الفلسفة حتى تصل بها إلى مرحلة الوعى

والنظام وسنبحث بحثاً عقلياً خالصاً فى كل مشكلات حياتنا ؛ ستحرر الطبقات المتعلمة من سلطان رجال الدين ومن الخرافة ، وتحاول إقامة الأخلاق على أساس لا يعتمد فى شىء على معونة ما فوق الطبيعة ؛ وستنظر إلى الإنسان باعتباره مواطناً لا باعتباره « رعية » وتهبه حريته السياسية وحقوقه المدنية ، وتطلق له من الحرية العقلية والخلقية ما لم يسبق له نظير ، ستخلق الديمقراطية خلقاً وتنشئ الفرد إنشاء . وستستأنف روما السير فى هذه الثقافة فتنشرها فى أرجاء الدول القائمة فى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، وتحميها مدى خمسمائة عام من هجمات البرابرة ، ثم تنقلها خلال الأدب الرومانى واللغات اللاتينية إلى أوربا الحديثة ؛ وسترفع المرأة إلى مراكز القوة والمجد والتحرير العقلى ، التى ربما لم تكن قد ظفرت بها من قبل ؛ وتقدم إلى أوروبا تقويماً جديداً وتعلمها مبادئ النظام السياسى والأمن الاجتماعى ، وتقيم حقوق الفرد على أساس ثابت من القوانين التى عملت على تماسك القارة الأوروبية خلال قرون من الفقر والفوضى والخرافة .

وفى الوقت نفسه سيعود الشرق الأدنى ومصر إلى الازدهار مرة أخرى بحافز من التجارة والفكر اليونانيين والرومانيين ، وستحيي قرطاجنة كل ما كان لصيدا وصور من ثروة ورفاهية ؛ وسيجتمع « التلمود » فى أيدى يهود مشتتين لكنهم ذوو ولاء ؛ وسيزدهر العلم والفلسفة فى الإسكندرية ، وسيتولد من امتزاج الثقافتين الأوروبية والشرقية دين أريد به أن يمحو الحضارة اليونانية والرومانية إلى حد ما ، وأن يُبقى عليها ويضيف إليها إلى حد ما ؛ إن كل العوامل كانت مهيأة لتنتج الفترات التى كانت بمثابة الذُرى للعصور القديمة (الأوروبية) ، وهى أثينا فى عهد بركليز ، وروما فى عهد أوغسطس ، وأورشليم فى عصر « هيرود » ؛ وكان المسرح معدّاً لمسرحية مثلثة الجوانب ، قوامها أفلاطون وقيصر والمسيح .

كلمة عن المؤلف

ولد «ول ديورَنْت» فى «نورث آدمز» من أعمال «ماساشوست» سنة ١٨٨٥؛ وتلقى تعليمه فى مدارس «نورث آدمز» هذه ومدارس «كيرنى» من أعمال «نيوچيرسى» ، وهى مدارس تتبع الكنيسة الكاثوليكية فى ذينك الإقليمين ؛ وتلقاه كذلك فى كلية القديس بطرس (اليسوعية) فى مدينة جيرسى وفى جامعة كولمبيا بنيويورك ؛ ولبث صيفاً يشتغل مراسلا ناشئاً «لجريدة نيويورك» وكان ذلك عام ١٩٠٧ ؛ لكنه وجد هذا العمل شديد الوطأة على نفسه فلم يحتمل المضى فيه ، فاكتفى بتدريس اللاتينية والفرنسية والإنجليزية وغيرها من المواد فى كلية «سيتن هول» فى سوث أورانج من أعمال نيوچيرسى (١٩٠٧ — ١١) ، وهناك التحق بإحدى حلقات الدرس سنة ١٩٠٩ لكنه عاد فتركها سنة ١٩١١ لأسباب ذكرها فى كتابه «مرحلة التحول» وانتقل من تلك الحلقة الدراسية إلى الدوائر المتطرفة فى نيويورك ، وهناك اشتغل بالتدريس فى «مدرسة فرر» (١٩١١ — ١٣) فكانت تلك الفترة بمثابة تجربة فى التربية الحرة ؛ وفى سنة ١٩١٢ طاف بأرجاء أوروبا على نفقة أولدن فريمان» الذى صادقه وتعهد أن يوسع من آفاقه ؛ وفى سنة ١٩١٣ ركز اهتمامه فى الدراسة ليحصل على الدرجة الجامعية من جامعة كولمبيا ، تخصص فى علم الحياة متتلمذاً على «مررجَنْ» و «كالكِنْز» ؛ وفى الفلسفة متتلمذاً على «وودبردج» و «ديوى» ؛ ونال درجة الدكتوراه من تلك الجامعة سنة ١٩١٧ ، وأخذ يعلم الفلسفة فى جامعة كولمبيا عاماً واحداً ؛ ثم بدأ فى سنة ١٩١٤ — فى الكنيسة المسيحية الكائنة فى شارع أربعة عشر وفى طريق الثانى بنيويورك — بدأ يلقى هناك تلك المحاضرات فى الفلسفة والأدب التى أعدته لإخراج كتابيه «قصة الفلسفة» و «قصة الحضارة» ؛ فقد كان

معظم المستمعين إليه فى تلك المحاضرات من العمال والعاملات الذين كانوا يتطلبون وضوحاً تاماً وعلاقة تربط ما يقال بالحوادث الجارية ، كانوا يتطلبون ذلك فى كل المواد التاريخية التى تعتبر جديدة بالدرس ، وفى سنة ١٩٢١ نظم « مدرسة ليبيرتمبل » التى أصبحت تجربة من أنجح التجارب التى أجريت فى تربية الكبار فى العصر الحديث ، ثم تركها سنة ١٩٢٧ ليكرس نفسه لكتاب « قصة الحضارة » وطاف بأوروبا مرة أخرى سنة ١٩٢٧ ، وطوف بالعالم سنة ١٩٣٠ ليدرس مصر والشرق الأدنى والهند والصين واليابان ، وعاد فطوف بالعالم من جديد سنة ١٩٣٢ ليزور اليابان ومنشوريا وسيبريا والروسيا ، وهو يرجو لنفسه فى الخمسة الأعوام المقبلة (التى تلت إخراج هذا الجزء من قصة الحضارة) أن ينفق عاماً فى اليونان وإيطاليا ليأخذ أهبته للجزء الثانى من « قصة الحضارة » .



المراجع†

الباب الثامن والعشرون

1. The *Kojiki* (681-711), in Murdoch, i, 59f, and Gowen, H.H., *Outine History of Japan*, 37f.
2. Murdoch, iii, 483.
3. Gowen, *Japan*, 13: Chamberlain, B.H., *Things Japanese*, 249.
4. Gowen, 25, reports three days of rain or snow in the average week.
5. Gowen, 17, 12 ; Chamberlain, B. H., 195; Redesdale, Lord, *Tales of Old Japan*, 2.
6. Chamberlain, B. H., 127.
7. Gowen, 99 ; Murdoch, iii, 211, 895-7; Chamberlain, 130.
8. Ibid , 128.
9. Hearn, Lafcadio, Japan : *An interpretation*, 455.
11. Gowen, 61 ; Murdoch, i, 88.
12. Ibid.
13. Hearn, 449 ; Fenollosa, ii, 159.
14. Fenollosa, i, 64 ; Murdoch, i, 98-9.
15. Gowen, 64.
16. Murdoch, i. 49, 97.
17. Armstrong, 5, 18.
18. Ibid., 2.
19. Hearn, 53.
20. Murdoch, i, 39.
21. Brinkley, Capt. F., *Japan : Its History, Arts and Literature* v, 118 Hearn, 45, 51.
22. Gowen, 67.
23. Ibid., 65.
25. Ibid., 118.
26. Murdoch, i, 240-1.
27. Ibid , i, 377-8; Gowen, 116.
28. Murasaki, Lady, *Tale of Genji*, 27.
29. Tetjens, 156 ; tr. Curtis Hidden Page, Some authors attribute the poem to Michizane (Gowen, 119).
30. Close, Upton. *Challenge: Behind the Face of Japan*, 28 ; Gowen, 105 ; Latourette, i, 226.
31. Fenollosa, i, 149.
32. Brinkley *Japan* iv, 148.
33. Fenollosa, 153
34. Murdoch, i, 279.
35. Brinkley, i, 230.
36. Murdoch, i, 228 30.
37. Gowen, 147.
38. Murdoch, ii, 711.
38a. Close, *Challenge*, 54.
39. Gowen, 156.
40. Ibid., 161 - 2 ; Murdoch, i, 545 ; Brinkley, ii, 190.
41. Ibid , ii, 108 ; vii, 17.
42. Close, 33.
43. Ibid., 34.
44. Murdoch, ii, 305.
45. Ibid., ii, 311.

(†) سنثبت اسم الكتاب كاملا عند أول وروده فى هذه القائمة ثم نكتفى بعد ذلك بذكره مختصرا

46. Froez in Murdoch, ii, 369.
47. Gowen, 191.
48. Murdoch, ii, 89, 90, 238; Hearn, 366; Gowen, 191.
49. Hearn, 365.
50. Murdoch, ii, 241.
51. Ibid., 243.
52. Close, 44.
53. Brinkely, ii, 219.
54. Armstrong, 85.
55. Close, 56.
56. Ibid., 57-8.
57. Aston, 218-9; Bryan, 117.
58. Murdoch, ii, 4021.
59. Ibid., ii, 205.
60. Brinkley, ii, 205.
61. Murdoch, iii, 316-30.
62. Hearn, 390

الباب التاسع والعشرون

1. Hearn, 3.
2. Okakura, 10, 8.
3. Brinkley, iv, 6-7, 134; Murdoch iii, 171.
4. Brinkley, ii, 115; iv, 172.
5. Ibid., iv, 86.
6. Chamberlain, B. H., 416.
7. Nitobe, Inazo, *Bushido, the Soul of Japan*, 18.
8. Brinkley, iv, 147, 217; Redesdale, 40.
9. Secretion45 of Iyeyasu's "Legacy" in Hearn, 193; Murdoch, iii, 40.
10. Ibid.,
11. J. H. Longford, in Murdoch, iii, 40n. Longford adds, *Se non èveroè bentravato.*
12. Nitobe, 23.
13. Brinkley, iv, 56.
14. Ibid., 142, 109.
15. Hearn, 313; Gowen, 251.
16. Ibid., 364.
17. Murdoch, iii, 221; Aston, 231; Chamberlain, *Things Japanese*, 220-1; Hearn, 318.
18. Close, 69; Nitobe, 141.
19. Redesdale, 13, 16-7, 272; Aston, 230; Murdoch, iii, 235,
20. Nitobe, 121.
21. Murdoch, i, 188-9.
22. Brinkley, *Japan*, iv, 53; Hearn 328.
23. Brinkley, iv, 55, 92; Close, 59.
24. Brinkley, iv, 61.
25. Ibid., 63.
26. Hearn, 195.
27. Close, 58.
28. Hearn, 378.
29. Murdoch, iii, 336; Brinkley, iv, 67.
30. Hearn, 260, 255; Murdoch, i, 172; Brinkley, i, 238, 241; iv 111.
31. Gowen, 97.
32. Chamberlain, 150; Redesdale, 16; Armstrong, 19.
33. Brinkley, i, 133.
34. Murdoch, i, 17.
35. Brinkley, v, 195; ii, 118.
36. Gowen, 98.
37. Brinkley, ii, 118; v, 1; Murdoch, i, 603.
39. Close, 341.
40. In Aston, 149-50.
41. *History, of Japan*, iii, 21, in Mordoch, iii, 171.
42. Cf. Close, 369.
43. Murdoch, iii, 445-60.

44. *Encyc. Brit.*, viii, 910.
45. Gowen, 115.
46. Sansum. W. D., M. D., *Normal Diet*, 76.
47. Brinkley, i, 209, 213.
48. Shonagon, LadySei, *Sketch Book*, 29.
49. Brinkley, iv, 176-81 ; ii, 92, 104 ; Hearn, 257 ; Holland, Clive, *Things Seen in Japan*, 172.
50. Brinkley, i, 139, 209-10 : iv, 130, 175, 186.
51. Brinkley, ix, 176.
52. Chamberlain, 60.
53. Ibid.
54. Murdoch, i, 40.
55. Brinkley, iv, 164.
56. Ibid.
57. Ibid., i, 146 ; ii, 106.
58. Ibid., ii, 111-2.
59. Gateby, E. V., *Cloud Men of Yamato*, 35-6.
60. Brinkley, ii, 258-66.
61. Okakura, 16.
62. Gowen, 213.
63. Ibid.
64. Okakura, 139 ; Brinkley, iii, 9.
65. Walsh, Clara, *Master-Singers of Japan*, 108.
66. Gowen, 23.
67. Binyon, 30.
68. Gatenby, 25.
69. Hearn. 85.
70. Ibid., 75, 80-1, 89 ; Murdoch, iii, 75.
71. Aston, 282 : Hearn, 78 : Redesdale, 92 ;Brinkley, i, 149.
72. Armstrong, 55.
73. Brinkley i, 188.
74. Shonagon, 50.
76. Brinkley, iv, 142 ; Close, 62 ; Chamberlain, 504.
77. Ibid . 501 ; Keyserlinb, *Travel, Diary*, ii, 171.
78. Close' 61.
79. Hearn, 68, 83.
80. Genesis, ii, 24 ; Chamberlain, 166.
81. Nitobe, 141.
82. Cf., e.g., the pasage quoted in Bryan, 88.
83. Redesdale, 37 ; Ficke, A. D., *Chats on Japanese Prints*, 210; Chamberlain, 525 ; Keyserling, *Traval Diary*, ii, 200.
84. Brinkley, iv, 116.
85. Ibid , 120.
86. Murdoch. iii, 216.
87. Brinkley, ii, 49.
88. Redesdale, 54,
89. Brinkley, v, 257.
90. By Prince Aki, 740 A.D., in Gatenby, 33.
91. Tr. by Curtis Hidden Page, in Tietjens, 144.
92. Brinkley, v. 207 ; Murdoch, iii, 112.
93. Ibid., ii, 18-9.
94. Ibid., ii, 18 ; Brinkley, i, 181.
95. Ibid., i, 182.
96. Murdoch, i, 489.
97. Ibid., 603.
98. Ibid., 605 ; Armstrong, 171.
99. Brinkley, v, 254.
100. Murdoch, iii, 101, 113.
101. Ibid., 115-9.
107. Armstrong, 66f.
108. Ibid., 76 78, Aston, 263-4.
104. Ekken, Kaibara, *Way of Contentment*, tr. by K. Hoshino, 71.
105. Ibid., 90.
106. 24, 17.
107. 24.
108. 33, 39, 43.

109. 35, 44, 59, 61, 49, 54. I have ventured to print the last two lines as poetry, though the text gives then as prose.
110. Murdoch, iii, 127.
111. Armstrong, 133.
112. Ibid.
113. Murdoch, iii, 129f.
114. In Armstrong, 222.
115. Ibid., 236f 226.
116. 263-4.
117. 261.
118. 241f.
119. 265 ; Murdoch, iii, 481.
120. Ibid., iii, 343-4.
121. Ibid., 474.
122. Ibid , 476f, 485 ; Aston, 319-32.
123. Murdoch, iii, 491-2.

الباب الثلاثون

1. Close, 28.
2. Bryan, 13-15 : Aston, 56-7; Gowen, 126.
3. Carter, 35.
4. Ibid , 178.
5. Close, 77.
6. Brinkley, i, 229 ; iv, 136.
7. Gatenby, 27.
8. Bryan, 64, 74.
9. Aston, 263.
10. Tr. by Curtis Hidden Page, in Tietjens, 162.
11. Tietjens, 163.
12. Murdoch, ii. 515.
13. Murasaki, Lady, 239.
14. Ibid., 149, 235 ; Shonagon, 51.
15. Murdoch, iii, 326,
16. Noguchi, Yone. *Spirit of Japanese, Poetry*, 11.
17. Gatenby, 97-102 ; Tietjens, 159.
18. Holland, 157.
19. Murdoch, iii, 470.
20. Gowen, 128.
21. Murasaki, 33, 29.
22. Ibid., 75.
23. 98, 134.
24. 144.
25. 46.
26. 50.,
27. Bryan, 65 ; Gowen, 128.
28. Holland, 137 ; Aston, 56.
29. Ibid., 346-8. 391.
30. Ibid., 269-71.
31. Ibid., 392.
32. Murdoch, i, 571.
33. Aston, 255.
34. Brinkley, v, 112.
35. Aston, 249.
36. Gowen, 268.
37. Murdoch, iii, 240.
38. Aston, 116.
39. Ibid., 114f. I have changed the order of the last five items.
40. Aston, 197-9 ; Bryan. 100.
41. Redesdale, 84.
42. Close, 65.
43. Okakura, 132.
44. Noguchi, 11.
45. Bryan, 136.
46. Brinkley, iv, 110.
47. ibid., vi, 113 5.
48. Aston, 279.
49. Okakura, 112 ; Brinkley, viii, 79.
50. Brinkley, vii, 319.
51. *Encyc, Brit.*, vii, 960.
52. Brinkley, i, 219 ; iv, 166 ; Chamberlain, 340-2.
53. Brinkley, iv, 78.

54. Muraski, 212.
55. Chamberlain, 84.
56. Brinkley, vii, 157.
57. Ibid., vii, 84.
58. Fenollosa, i, 56.
59. Gowen 105.
60. Murdoch, i, 503.
61, Ledoux, L.V., *Art of Japan*, 62.
62. Armstrong, 9.
63. Brinkley, vii, 77.
64. Gowen, 124.
65. Ibid., 213.,
66. Brinkley, viii, 11.
67. Ibid., 265.
68. 25.
69. 180.
70. 185.
71. 236.
72. Brinkley, vii, 839.
73. Ibid., 9.
74. Brinyen 53.
75. Ibid , 20.
76. Fenollusa, ii, 81.
77. Okakura, 113.
77. *Encyc, Brit.*, vii, 964.
79. Ledoux, 26.
80. Ibid., 28.
81. Gowen,284.
82. Fenollosa, ii, 183. It should be added that in the opinion of some critics Matabei is a mythical personage.
83. Ficke, 282-94.
84. Gowen, 285 ; Ficke, 363.
85. Noguchi, 27.
86. Ficke, 368.
87. Gowen, 284.
88. Fenollosa, ii, 204.
89. Gowen, 28[illegible].
90. Dickinson, G. Lewes, 65.
91. *Ten O'clock, Sub fine.*

الباب الحادي والثلاثون

1. Merdoch, iii, 456 ; Gowen, 287.
2. Ibid., 298-9.
3. 300.
4. 312.
5. Brinkley, iv, 217.
6. Ibid., 81, 256.
7. Close, 325.
8. Ibid., 165.
9. Gowen, 349.
10. Close, 149.
12. Gowen, 376.
13. Close, 372.
14. *Word Almanac*, 1935, p. 667.
15. Close, 395.
16. *Almanac*, 668 ; Close, 391 N.Y. *Times*, April 15, 1934.
17. Gowen, 341.
18. Close, 289.
19. Eddy, 119. Park, 250 ; Holland, 148-52 ; Barnes, Jos., ed., *Empire in the East*, 70.
20. Eddy, 124f.
21. Ibid., 118., 136.
22. Hearn, 488.
23. Barnes, 69 ; Close, 373. The Maurette Report, of June 1, 1934, to the InternationalLabor Office, accepts this explanation of the low wage-level in Japan.
24. Close, 344.
25. Hearn 17.
26. Close, 134-42.
27. Chamberlain, 314 ; Close, 302.
28. Ibid., 198.

29. Chamberlain, 447.
30. Close, 177f.
31. Eddy, 127.
32. *Almanac*, 669.
33. Brinkley, v, 83.
34. *Almanac*, 669.
35. Tsurumi, Y., *Present-day Japan*, 68.
36. Walsh, 116 ; Bryan 40, 194.
37. Tsurumi, 59.
38. Gowen, 416.
39. Barnes, 61.
40. Ibid., 48-50. 197.
41. Gowen, 369-70.
42. Ibid., 402.
43. Barnes, 75 ; Close, 377.
44. *Almanac*, 974.
45. Barnes, 62.

فهرس الأعلام

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(و)

فهرست

صفحة

صفحة